الحرب الكبرى

تحت ذريعة الحضارة

روبرت فيسك



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الحرب الكبرى

تحت ذريعة الحضارة

٩ / ٤ / ٢٠١١م

روبرت فيسك

الحرب الكبرى
تحت ذريعة الحضارة

ترجمة: عاطف المولى وآخرون

تدقيق لغوي: صالح الأشمر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

المحتويات

الجزء الثالث

إلى البرية

كلمة شكر

في كتاب بهذا الحجم ـ يغطّي سنوات عديدة من العمل الصحفي ـ يُعتبر القرار حول مَن يجب شكرهم صعب التقدير. مع ذلك، قرّرت أنه يجب الإعراب عن الشكر للذين ساعدوني بشكل مباشر في ما ورد في هذا الكتاب خلال السنوات الخمس عشرة الماضية ـ وهذه هي غالبية الأسماء المدوّنة هنا بمن في ذلك، على سبيل المثال، ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، والسيد حسن نصرالله، زعيم حزب الله اللبناني، وميخائيل كلاشينكوف، مخترع أشهر سلاح أوتوماتيكي عالمي ـ وأقلّية ساهمت مساعدتها في التقارير الأخيرة لهذا الكتاب قبل اتّخاذ القرار النهائي بتأليفه. وجوبهت أيضاً بواقع أن أسماء الذين ساعدوني مباشرة في كتاب «الحرب الكبرى من أجل الحضارة» تضمّنت الجيّد والسيّئ والقبيح. فهل بمقدوري مثلاً وضع والد انتحاري بمصفّ ناشط إنساني غربي، أو بطل عراقي خضع للتعذيب نتيجة مقاومته لطموحات صدّام حسين النووية في المنزلة نفسها مع رجل أعطى صديقته الحامل البريئة قنبلة لنقلها إلى طائرة مدنية؟ وهل يجب وضع الراحلة مارغريت حسن التي اغتيلت بشكل بشع في العراق في الصفحة نفسها مع وزير داخلية جزائري مُبيد للبشر؟

ويُعتبر أُسامة بن لادن المثل الأكثر تطرّفاً لهذه المشكلة. فخلال المقابلتين الأخيرتين معه علم أنني كنت أكتب هذا الكتاب وتحدّث بوضوح وفق تلك المعرفة. فهل يجدر تكريم رجل اعتُبر مسؤولاً عن أكبر جريمة دولية ضدّ الإنسانية في الغرب بمقدّمة؟ الواقع أن تعليقاته وأفكاره كانت مهمّة بالنسبة إلى أجزاء من الكتاب، لذا رأيت أن أسجّل له ذلك؛ إلّا أنّ اسمه لا يظهر في لائحة الأسماء اللاحقة.

بالتالي، أورد في ما يلي بالتسلسل الأبجدي أسماء الذين يجب شكرهم لدعمهم وحماستهم وصراحتهم خلال الخمس عشرة سنة الماضية وقبلها. ولإرشاد القارئ، أوردت أسماء بعضهم مع ذكر ألقابهم أو موقعهم المميّز في المساعدة. وسوف يدرك آخرون أنني أوجّه إليهم الشكر بصفة شخصيّة:

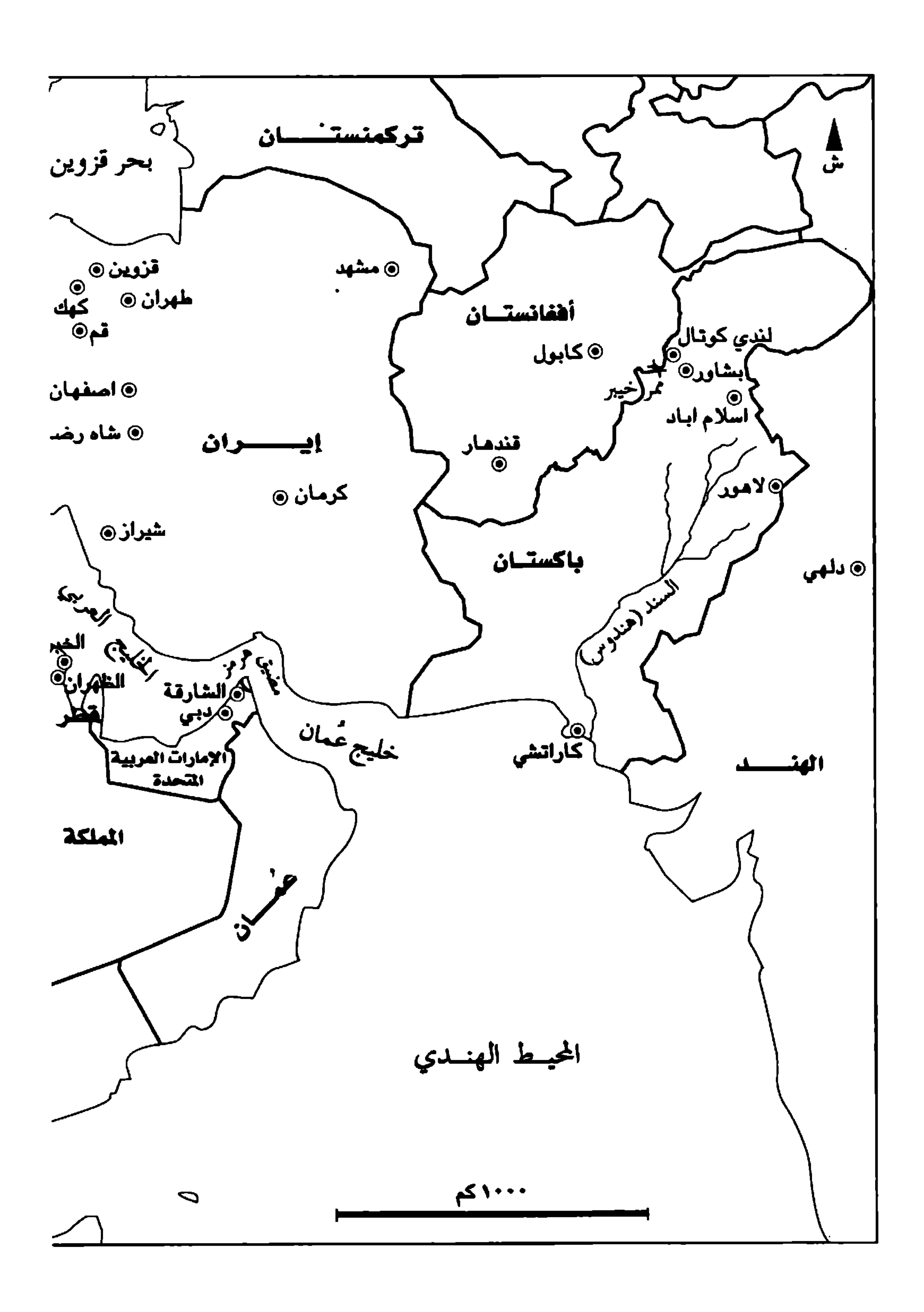
جون أبلت، من المجلس التمثيلي الأرمني في أميركا. ريم أبو العبّاس. أستريد أغاجانيان، ناجية من المجزرة الأرمنية عام ١٩١٥. شوجا أحمد أفند، جندي إيراني عام ١٩٨٤. روبرت. أ. ألغاروتي، مدير اتصالات في وحدة الأنظمة الصاروخية في شركة «بوينغ أُتونَتِكس» Boeing Autonetics. الدكتور جواد العلي، طبيب أطفال في البصرة. دوروثي أندرسون، للدلالة على ملاحظات اللورد روبرت عام ١٩٠٥ حول أفغانستان. نمر عون، جريح ناجٍ من احتلال فلسطين عام ١٩٤٨. الراحل ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية. حنان عشراوي، من السلطة الفلسطينية. تيم أوستن، النائب السابق لرئيس تحرير الشؤون الدولية في التايمز. الراحل

شهبور بختيار، آخر رئيس وزراء للشاه. بيتر بلاكيان، من جامعة «كولغَيت» Colgate. صديق برماكد، مخرج سينمائي أفغاني. الدكتور أنطوني بارتر، بالنسبة إلى رسائل والده حول العراق والأرمن في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. زاووي بنامادي من «ألجيري أكتواليتي» Algérie Actualité. زكا بربريان، ناجٍ من مجزرة الأرمن. شاميم باتيا. محمد بويعلي، شقيق قائد الثوار مصطفى بويعلي. الأخضر الإبراهيمي. روس كامبل، بالنسبة إلى المخطوطات حول تقارير «سكوتسمان» Scotsman في نهاية الانتداب البريطاني لفلسطين. بيار كاكيت. الملازم ساندي كافيناغ من الفرقة الثالثة، وحدة المظليين عام ١٩٥٦. مصطفى سيريك، إمام من البوسنة. هيلين سركسيان بالنسبة إلى مذكّرات والدها الأرمني. كونور أوكليري، من صحيفة الأيريش تايمز. طوني كلينتون، من النيوزويك. باتريك كوكبرن، من الإندبندنت. الجندي الاحتياطي تيم كوروين، قائد طائرة شينوك في كردستان عام ١٩٩١. الراحل فُريد كوني، موظف إغاثة أميركي. جيانيك دامي، من الصليب الأحمر الدولي في الكويت عام ١٩٩١. نورمان ديفيس، بالنسبة إلى تحليله لمراجع هتلر حول المحرقة (الهولوكست) الأرمنيّة. الدكتور جون دي كورسي إيرلند، بالنسبة إلى مذكّراته حول الأيتام الأرمن. الدكتور نديم دمشقيه، دبلوماسي لبناني سابق. ليونارد دويل، رئيس تحرير سابق للإندبندنت. إيمون دانفي، من الإذاعة الإيرلندية. إيان. ر. إدغار، من جامعة درهام. القاضي دايفيد أ. و. إدوارد، بشأن نسخته المتعلّقة بمحاضرة جايمس برايس عام ١٩٢٢، حول الحرب الكبرى وأرمينيا. إيزابيل إلسين. صائب عريقات، من السلطة الفلسطينية. جوان فرشخ. بيل وبيغي فيسك، والداي الراحلان. اللواء الأميركي جاي غارنر، قائد القوّات الأميركية في كردستان عام ١٩٩١. سمير غطّاس، مدير مكتب الأسوشيتدبرس في بيروت حالياً. بسّام وسنيّة غُصين، اللذان قُتلت ابنتهما في القصف على ليبيا. الدكتور ستيفن غولدلي، من مكتب الشؤون الخارجية الخاصّ بعقوبات الأمم المتحدة. تيري غوردي، من مجموعة «بوينغ» Boeing للدفاع وشؤون الفضاء (وحدة الأنظمة الصاروخية والفضائية). بن غرينبرغ، مستوطن يهودي في الضفّة الغربية. الدكتورة سلمى حدّاد، طبيبة أطفال في بغداد. دنيس هاليداي، رئيس برنامج الأمم المتحدة للنفط مقابل الغذاء، ١٩٩٧. مولانا سامي الحقّ، من مدرسة الحقّ الدينية في باكستان. أميرة هاس، من هآرتس. الراحلة مارغريت حسن، من منظمة «كَير» Care في العراق. الدكتور ميرسي هيتلي. فيليب هيفينيك، من اليونيسيف، بغداد، ١٩٧٧. محمّد حسنين هيكل، صحفي ومؤلّف مصري. غافين هويت من البي بي سي BBC. سو هيكاي، من تلفزيون السي بي سي CBC الكندي سابقاً، لندن. نزار هنداوي، بالنسبة إلى محاولته غير المقنعة لتفسير سبب إعطائه صديقته الحامل قنبلة لنقلها على متن طائرة العال. مارجوري هوسيبيان. شفيق الحوت وزوجته بيان. جوستين هاغلير، من الإندبندنت. جون هيرست، نائب رئيس لوكهيد مارتن. العاهل الأردني الراحل الملك حسين. عليا الحُسيني، حفيدة الحاجّ أمين الحُسيني مفتي القدس الأسبق. نادين العيسى، بالنسبة إلى نسختها حول Paice & Martin Palestine Police Report (وشكر أيضاً لبيتر ميتكالف). عبّاس جحا، الذي فقد العديد من أفراد عائلته بهجوم المروحية الإسرائيلية في لبنان عام ١٩٩٦. ميخائيل كلاشينكوف، مخترع بندقية AK-47 السوفياتية. ميريني كالوستيان، ناجية من مجازر الأرمن عام ١٩١٥. الراحل واصف كمال، المساعد السابق للحاجّ أمين الحُسيني إبّان ألمانيا النازية. آل كمحي، مدير لوكهيد للاتصالات عام ١٩٩٧. مروان كنفاني، من السلطة الفلسطينية. كيفورك كارابويادجيان، مدير بيت المسنّين الأرمن في بيروت. فيكتوريا كاراكاشيان، ناجية من الفارّين الأرمن في

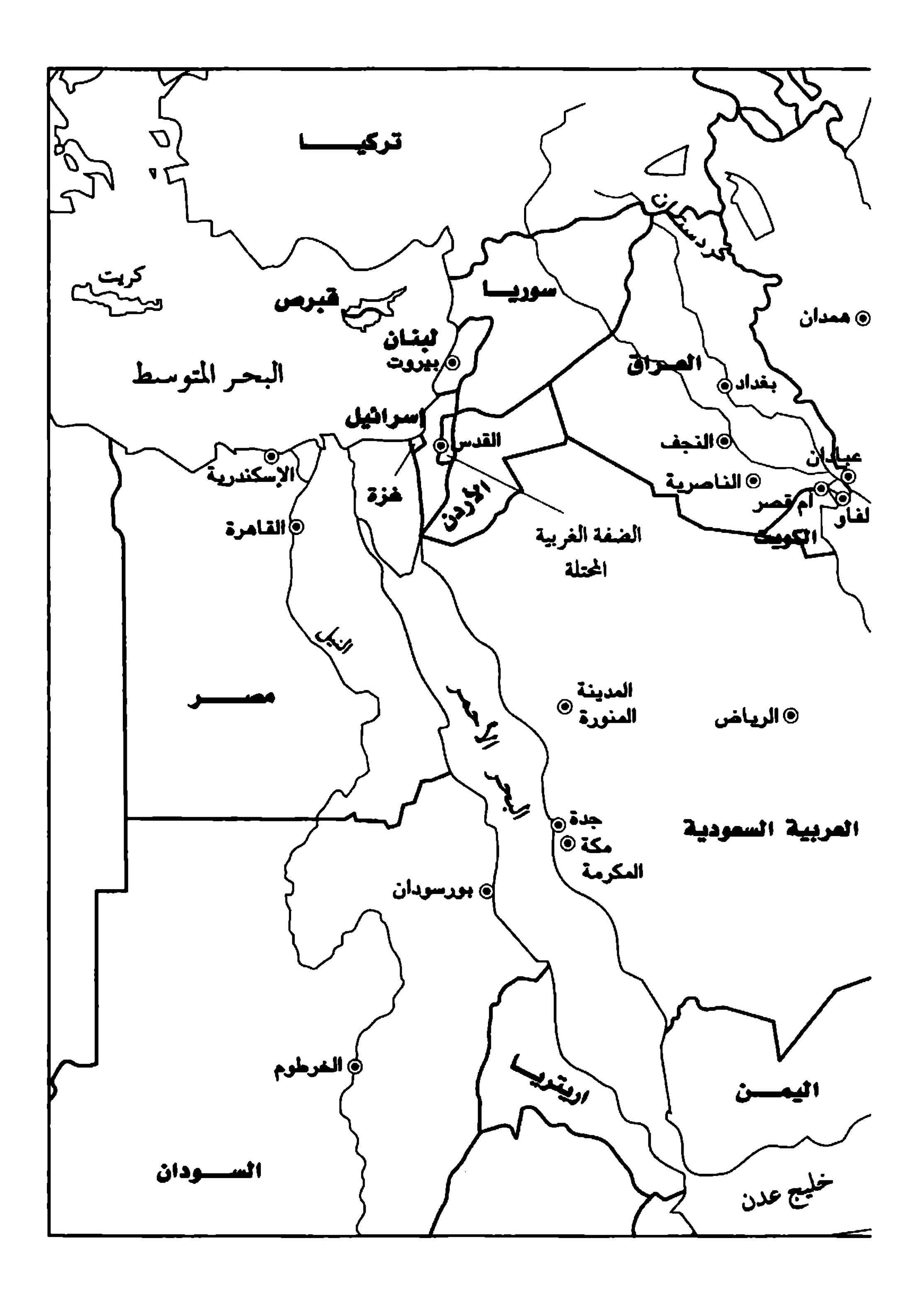
الإسكندرونة. جمال خاشقجي، مساعد السفير السعودي في لندن. هاروتيان كبدجيان، ناجٍ من المجزرة الأرمنية. أندرو كيفوركيان، من أجل مساعدته القيّمة في الحصول على معلومات المجزرة الأرمنية، وشقيقه الراحل آرام بالنسبة إلى المذكّرات حول زيارته لمنزل أجداده في تركيا. زينب كاظم، بالنسبة إلى رسالتها حول التشيّع. الشيخ جواد مهدي الخالصي، لمساعدته التاريخية حول الحكم البريطاني للعراق. هيلين كينسلّا، مديرة الشؤون الدولية في الإندبندنت بالنسبة إلى بحثها الدؤوب. زينة كرم، من الأسوشيتدبرس. جوزف ليبوويتز. جورج لوينسكي، من السي بي سي سابقاً، لندن. ميخائيل ليندفال، ضابط اليونيفيل في جنوب لبنان. الدكتور ديفيد لوينشتين، من جامعة مديسون، وسكنسون. السيدة هيلدا مادوك، بالنسبة إلى المعلومات حول والدها المجنّد تشارلز ديكنز عام ١٩١٧. الدكتورة غريس ماغنير، من قسم الدراسات الإسبانية، كلّية ترينتي Trinity College، دبلن، بالنسبة إلى بحثها حول الأندلس. الراحل علي محمود، مدير مكتب الأسوشيتدبرس في البحرين. الجنرال منصور، قائد جهاز المخابرات العسكري السوري في القامشلي. لارا مالرو، من صحيفة الأيريش تايمز. نبيلة مغالي، من الأسوشيتدبرس سابقاً في البحرين. آلف مانديز. جيرهارد ميرتنز، تاجر سلاح ألماني. بيتر ميتكالف. عبد الرحمن المزيني شريف، وزير الداخلية الجزائري الأسبق. توفيق وفيليبا ميشلاوي من مراسل الشرق الأوسط Middle East Reporter في بيروت. الجنرال السابق (المتقاعد) محمّد عبد المنعم، من صحيفة الأهرام. جودي مورغان، من منظمة «كَير» Care في العراق. هارفي موريس، من رويترز، والإندبندنت وحالياً من الفايننشال تايمز. فتحي داود موفاك، مصوّر عسكري عراقي في الحرب العراقية ـ الإيرانية. الرائد مصطفى مراد، من الجيش المصري عام ١٩٥٦. أنيس نقّاش، بالنسبة إلى مذكّراته حول الثورة الإيرانية، وزوجته بتول في ما يتعلّق بالترجمات المرتبطة بشعر الحرب الإيرانية. الحاجّ محمد نصر، والد الانتحاري الفلسطيني من جنين. السيّد حسن نصرالله، زعيم حزب الله اللبناني. سهيل ناطور، من الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين. غيوم نيكولز، بالنسبة إلى لفت انتباهي إلى خطبة جورج لويد عام ١٩٣٦ حول فلسطين. نوّاف عبيد، الذي كانت أطروحته في هارفرد حول أهداف الوهّابيين السعوديين قيّمة جدّاً. محمّد مهران عثمان، مقاتل مصري أعمى، عام ١٩٥٦. الراحل سربوهي بابازيان، ناجٍ من المجزرة الأرمنية. المخرج السينمائي نلومز بازيرا. الراحل عبد العزيز الرنتيسي، من حماس. زميلي فيل ريفيس، من الإندبندنت والعامل حالياً في الإذاعة الوطنية العامّة. الحاخام والتر روتشيلد، بالنسبة إلى معلوماته حول السكك الحديدية اللبنانية. مارتن روبنشتاين، الذي لفت انتباهي إلى مرجع حول المجزرة الأرمنية «الطريق إلى أندرو». مُجتبى صفوي، أسير حرب إيراني سابق. حيدر الصافي، من بغداد. المفكّر الفلسطيني المشهور الراحل إدوار سعيد وشقيقته الكاتبة جين مقدسي لمساعدتهما واقتراحاتهما طيلة سنوات عديدة. محمّد سلام، مدير الأسوشيتدبرس السابق في بغداد. الدكتور كمال الصليبي، المدير السابق لمركز دراسات «إنترفَيث» Interfaith في عمّان. محمّد سلمان، وزير إعلام سوري أسبق. فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري. عبد الهادي صيّاح، صديق مصطفى بويعلي. مارتن سكانال، بالنسبة إلى سماحه بالاستشهاد بكتاب كينيث وايتهيد «العراق الذي لا شفاء له» Iraq the Irremediable. كليف سيمبل. الدكتور حسين الشهرستاني، كبير مستشاري صدّام حسين في الشؤون النوويّة. دون شيريدان. المجنّد أندرو شوميكر، من وحدة المشاة المدرّعة الأميركية الرابعة والعشرين في حرب الخليج عام ١٩٩١. المؤرّخ الإسرائيلي آفي شليم. أميرة الصلح. هانز فون

سبونيك، الذي خلف هاليدي في مكتب الأمم المتحدة للخدمات الإنسانية في بغداد عام ١٩٩٩. إيفا شتيرن، من نيويورك من أجل بحثها الدؤوب عن الحقيقة حول مجزرة صبرا وشاتيلا. فرجين سفازليان، من أجل نسختها حول أغاني الناجين من المجزرة الأرمنية. المحامي محمّد الطاهري، محامٍ جزائري في حقوق الإنسان. المونسنيور هنري تيسيه، أسقف الجزائر. ألكس تومسون، من الـ «آي تي في» ITV. الدكتور حسن الترابي، من الخرطوم. ديريك تورنبول، من «فيكّس» Vickess. كارستين تفيت، من الإذاعة النرويجية. كريستوفر ج. والكر، لمعلوماته حول كل الأمور الأرمنية. جهاد الوزير. غاري وليمسون، من مجموعة بوينغ Boeing للدفاع والفضاء. الراحل كريستوفر مونتي وودهاوس، عميل سابق في منظمة Special Operations Executive في اليونان وعميل بريطاني في إيران. ديدي زوكر، عضو في الكنيست الإسرائيلي. ويجب عليّ أيضاً تقديم الشكر إلى سيمون كلنر، رئيس تحرير الإندبندنت الذي شجّعني على كتابة هذا الكتاب في الفترة ما بين وجودي في العراق ولبنان ولتغاضيه عن غيابي الطويل عن الصحيفة ولسماحه لي بالاقتباس من مقالاتي في الصحيفة طيلة ستة عشر عاماً. كما أشكر صحيفة التايمز اللندنية التي عملت لديها مراسلاً في الشرق الأوسط بين ١٩٧٦ و١٩٨٨، وصحيفة الأيريش تايمز ومركز London Review of Books وصحيفة «النايشِن» The Nation في نيويورك لسماحهما لي باقتباس مقالات لي ظهرت في صحفهم، وتلفزيون السي بي سي CBC الكندي في تورنتو فيما يتعلّق بتسجيلاتي منذ الاحتلال السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٨٠ والحرب العراقية الإيرانية. والشكر أيضاً لمراقب المكتبة الملكية المكلّف بالأرشيف الوطني لمستندات الحكومة البريطانية (Kew). وشكر خاصّ إلى لويز هاينز، رئيس التحرير في «فْراوث إستَيت» Frowth Estate لاهتمامها الأكاديمي الواسع في إثراء هذا الكتاب طيلة ستة عشر عاماً، وإلى ستيف كوكس، رئيس التحرير الأكثر مثابرة في العالم. وأخيراً، أقدّم تقديري للدكتورة فيكتوريا فونتين التي دوّنت التواريخ والمراجع وقامت بتنظيم أرشيف لمستنداتي وملاحظاتي وتقاريري بصبر. وحتماً، هناك العديد من الذين أدين لهم بالشكر ولكن لا يمكن ذكرهم حفاظاً على سلامتهم المعرّضة للخطر من أعدائهم أو من حكوماتهم. ومن هؤلاء أشخاص عاملون ومتقاعدون في القوّات المسلّحة المصرية، والفرنسية، والإيرانية، والعراقية (بمن فيهم نائب رئيس أركان القوّات الجويّة واثنان من طيّاريه)، والأردنية والإسرائيلية، واللبنانية، والفلسطينية، والسورية، والتركية، والبريطانية، والأميركية. وبالطبع أضيف التحذير المعتاد للكاتب: لا أحد ممّن وردت أسماؤهم أعلاه مسؤول عن أي أخطاء أو وجهات نظر معبّر عنها في «الحرب الكبرى من أجل الحضارة».

فهرس الخرائط



تركمنستان
بحر قزوين
ش
قزوين
مشهد
طهران
كهك
قم
أفغانستان
كابول
لندي كوتال
بشاور
ممر خيبر
اسلام اباد
اصفهان
شاه رضا
إيران
قندهار
كرمان
لاهور
شيراز
باكستان
دلهي
السند (هندوس)
الخليج العربي
الخبر
الظهران
مضيق هرمز
الشارقة
دبي
قطر
خليج عُمان
كاراتشي
الهند
الإمارات العربية المتحدة
المملكة
عُمان
المحيط الهندي
١٠٠٠كم



تركيا
كريت
قبرص
سوريا
لبنان
بيروت
البحر المتوسط
العراق
همدان
بغداد
إسرائيل
القدس
النجف
الإسكندرية
غزة
الأردن
الناصرية
عبادان
أم قصر
الفاو
الكويت
القاهرة
الضفة الغربية المحتلة
النيل
مصر
المدينة المنورة
الرياض
البحر الأحمر
جدة
مكة المكرمة
العربية السعودية
بورسودان
الخرطوم
اريتريا
اليمن
السودان
خليج عدن

مقدّمة

عندما كنتُ صبيّاً صغيراً، كان أبي يأخذني معه كل سنة لزيارة ميادين المعارك التي شهدَت الحرب العالمية الأولى، ذلك النزاع الذي سمّاه «هـ.ج. ويلز» (H.G.Wells) «الحرب التي ستُنهي كل الحروب». كنا ننطلق كل صيف في سيّارتنا «الأوستن» الإنكليزية، ونجوب الطرق في ميادين تلك المعارك بحفرها وعفرِها: من معركة «صوم، Somme»، ومعركة «إيبر، Ypres»، إلى معركة «ڤردان، Verdun». وعندما ناهزتُ الرابعة عشرة من العمر، أصبح بوسعي أن أسرد أسماء مواقع الهجوم كافّة: من «باپوم، Bapaume»، وتلّة ٦٠، والغاب العالي، إلى «پاسشاندال، Passchendaele»... لقد رأيتُ جميع المقابر، وتجوّلت عبر جميع الخنادق التي كساها العشب، ولمستُ الخُوَذَ الصَّدِئة التي خلّفها الجنود البريطانيون، ومدافع الهاون الألمانية المتآكلة في المتاحف البالية. كان والديَ جندياً في تلك «الحرب الكبرى»، مقاتلاً في خنادق فرنسا، بسبب رصاصة أُطلقت في مدينة لم يسمع بها أبداً تُسمّى «سراييفو». وعندما مات منذ ثلاث عشرة سنة عن عمر الثالثة والتسعين، ورثت منه الأوسمة والمداليات التي نالها في خدمته العسكرية. وتصوّر إحداها نسراً مجنّحاً، وعلى وجهها حُفرت الكلمات التالية: «الحرب الكبرى من أجل الحضارة»، (The Great War for Civilization).

لقد أمضيتُ قسماً كبيراً من حياتي في الحروب، نظراً إلى الانشغال العميق الذي أبداه والدي بهذا الأمر، وصبر والدتي عليه. والمفروض أن تكون كل الحروب قد خيضت «من أجل الحضارة». ففي أفغانستان، لاحظتُ أن الروس كانوا يحاربون من أجل «واجبهم الدولي» في نزاع ضدّ «الإرهاب الدولي»، بينما كان خصومهم الأفغان يحاربون طبعاً ضدّ «الاعتداء الشيوعي» ولوجه الله. لقد كتبتُ تقاريري من الصفوف الأولى في جبهة الحرب، عندما كان الإيرانيون يواجهون ما سمّوه «الحرب المفروضة عليهم» من صدّام حسين ـ الذي أطلق على غزوه إيران عام ١٩٨٠، لقب «الحرب الخاطفة»، ((Whirluind War). وقد رأيتُ الإسرائيليين يغزون لبنان مرّتين، ثم يعاودون غزو الضفّة الغربية الفلسطينية، في سبيل ما زعموا أنه «تطهير الأرض من الإرهاب». وقد شهدتُ أيضاً حرب العسكريين الجزائريين ضدّ الإسلاميين للسبب الظاهريّ ذاته؛ وهم يعذّبون أسراهم ويعدمونهم، على غرار ما يفعل أعداؤهم. وفي عام ١٩٩٠، غزا صدّام الكويت، وأرسل الأميركيون جيوشهم إلى الخليج من أجل تحرير تلك الإمارة، وفرض «النظام العالمي الجديد».

وبعد حروب عام ١٩٩١، دوّنت مراراً في دفتر ملاحظاتي تلك الكلمات: «النظام العالمي الجديد» تتبعها علامة استفهام. وفي البوسنة، وجدتُ الصرب يحاربون من أجل ما سمّوه «الحضارة الصربية»، بينما حارب

أعداؤهم المسلمون وماتوا من أجل حلم راودهم بشأن إمكان التعايش في الإطار المتعدّد الثقافات، وفي سبيل إنقاذ أرواحهم.

وعلى رأس جبل في أفغانستان، جلستُ قبالة أسامة بن لادن في خيمته، عندما تلفّظ بأول تهديد مباشر ضدّ الولايات المتحدة الأميركية، بينما كنت «أخربش» كلماته في دفتر ملاحظاتي على ضوء قنديل الكاز. لقد تكلّم معي بن لادن عن «الله» و«الشرّ». وكنت مسافراً بالطائرة عبر المحيط الأطلسي بتاريخ ١١ أيلول/سبتمبر، عام ٢٠٠١، عندما دارت طائرتي لتعود إلى «إيرلندا»، بسبب الهجوم الذي تعرَّضت له الولايات المتحدة الأميركية. وهكذا صرت في أفغانستان في غضون أقلّ من ثلاثة أشهر، هارباً مع فلول طالبان على الطريق العامّ غربيّ قندهار، بينما كان الأميركيون يقصفون بالقنابل بلداً سبق أن دمَّرته الحرب. وبعد سنة من الهجوم على أميركا، وجدتني في الجمعية العامّة للأمم المتحدة، عندما تكلّم جورج بوش عن أسلحة الدمار الشامل الوهميّة لدى صدّام، بينما كان يُعدّ العدّة لغزو العراق. وقد مرَّت الصواريخ الأولى من ذلك الغزو فوق رأسي في بغداد.

إنّ النتائج المادّية المباشرة لكلّ تلك النزاعات ستبقى، بل يجب أن تبقى، في ذاكرتي حتى دنوّ أجَلي. ولستُ بحاجة إلى أن أطالع في جبال من تقارير المراسلين، لأتذكّر الجنود الإيرانيين وهم في قطارهم شمال طهران. كما أني لا أحتاج إلى أيّ من قُصاصات الجرائد لديّ لأستعيد ذكرى ذلك الأب الذي كان يحمل بين ذراعيه ما يشبه رغيفاً ممسوحاً من الخبز، والذي تبيّن أنه نصف طفل مسحوق، بفعل وابل القنابل الأميركية التي أُلقيت على العراق في هجوم عام ٢٠٠٣. ناهيك بالمقبرة الجماعية خارج «الناصرية»، حيث صادفتُ بقايا ساق بشرية في داخلها قضيب من الفولاذ، مع وجود قرص بلاستيكي طبّي لا يزال مربوطاً بأرومة العظم، مما يدلّ على أن القتلة في نظام صدّام انتزعوا ضحيتهم من قلب المستشفى حيث كانت ترقد لاستكمال تبديل وركها، وجرُّوها إلى مكان إعدامها في الصحراء.

لا تنتابني كوابيس بخصوص هذه الأمور؛ لكنّني أتذكّر، وأتذكّر. وتعاودني صورة ذلك الرأس المقطوع من جسد لاجيء ألباني في «كوسوفو»، إثر غارة جوّية أميركية حدثت قبل أربع سنوات. كان رأساً ملتحياً واقفاً وسط حقل أخضر، تحت نور الشمس الساطع؛ وكأنه قُطع على يد سيّاف من القرون الوسطى. وكذلك جثّة ذلك الفلّاح «الكوسوفي» المقتول على يد الصرب، والذي فُتح قبره بواسطة الأمم المتحدة، فبرز أمامنا من الظلمات منتفخاً، وحزامه مشدود بقوّة حول معدته، وحجمه يناهز ضعف حجم الشخص العادي. وذلك الجندي العراقي في منطقة «الفاو» خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، الملتفّ المتغضّن كطفل قابعٍ في حُفرة مدفعه بجانبي، وقد فحَّمه الموت، بينما يلمع على إصبعه الثالث من يده اليسرى خاتم زواج ذهبيّ يتيم، يتوهّج بالنور والحبّ لامرأة لا تعرف أنها أمست أرملة. هناك جنود ومدنيُّون بعشرات الآلاف ماتوا، لأن الموت خُطّط ولفّق لهم، بينما نُبذت الأخلاقيات على الرفّ لتسمح لنا بالكلام عن «البيئات الغنية بالأهداف»، وعن «الأضرار الفرعية» ـ تلك المحاولة الأكثر طفولية للتنصُّل من جريمة القتل ـ وتقديم التقارير عن مهرجانات الانتصار، وهدم التماثيل، وأهمّية السلام.

إنّ الحكومات تحبّ أن يكون الأمر كذلك. وإنّ المسؤولين يريدون لمواطنيهم أن يروا الحرب وكأنهم ينظرون إلى مسرحية تحصل بين الأضداد، بين الخير والشر، «بينهم» و«بيننا»، بين النصر والهزيمة. ولكن الحرب ليست فعلاً بين النصر والهزيمة، ولكن بين الموت وفرض الموت على الآخرين؛ إنها تمثل الإخفاق الكامل للروح الإنسانية. وإني أعرف رئيس تحرير ملَّ وضجر من كثرة ترديدي لذلك، ولكن كم من رؤساء التحرير لديهم خبرة مباشرة في الحرب؟

ومن باب السخرية، كان فيلم «المراسل الأجنبي» (Foreign Correspondent) لألفرد هيتشكوك، الذي شاهدته عن عمر الثانية عشرة، حافزي لامتهان الصحافة. وهو فيلم قديم، غير ملوَّن، من إنتاج ١٩٤٠، فيه صرير الوطنية والفكاهة السوداء؛ مثَّل فيه «جويل ماك كْريا» دور مراسل أميركي يسمّى «جان جونز» ـ الذي أُعيدت تسميته «هنتلي هافرستوك» بواسطة رئيس التحرير في نيويورك ـ ذلك الشخص الذي أُرسل عام ١٩٣٩ من أجل تغطية الحرب التي أوشكت أن تقع في أوروبا. فكان شاهداً على عملية قتل، وطارد الجواسيس الألمان في هولّندا، وكشف الغطاء عن عميل ألمانيا في لندن، وأُسقطت طائرته بواسطة سفينة حربية ألمانية؛ ولكنه عاش ليتقصّى أخبار العالم. كما أنه فاز بأجمل امرأة في الفيلم المذكور، كإكرامية إضافية له لاضطلاعه بمثل هذه المهنة المثيرة. وينتهي هذا الفيلم بالهجوم الخاطف على لندن، وصوت المذيع بالراديو يقدِّم «هافرستوك» على الهواء صارخاً وسط عويل صفّارات الإنذار المنبئة بحصول غارة جوّية: «لدينا الليلة ضيف من جنود الصحافة... إنه جندي من الجيش الصغير المؤلّف من مؤرّخين يكتبون التاريخ عند فوّهة المدفع».

لم أنظر إلى الوراء أبداً في حياتي. كنتُ أقرأ جريدة «الدايلي تلغراف» الخاصّة بوالدي من أوّلها إلى آخرها، ولاسيّما التقارير الأجنبية، وأنا مضطجع على أرض الغرفة قرب النار، بينما كانت والدتي ترجوني أن أشرب «الكاكاو» وأخلد إلى النوم. وفي المدرسة، كنت أدرس «التايمز» كل يوم بعد الظهر. كنت أنقّب في كامل خطاب «خروتشيف» الذي يشجب الحكم الإرهابي لستالين. فزت بجائزة المدرسة عن «القضايا الراهنة»، ولم يستطع أحد أن يؤثر عليّ لتغيير قراري بأن أكون مراسلاً أجنبياً (Foreign Correspondent). وعندما كان يقترح والدي عليّ دراسة المحاماة أو الطبّ، كنت أخرج من الغرفة. وقد استشار والدي أحد أصدقائه بخصوص ماذا يجب أفعل، فبادرني ذلك الصديق بقوله: تخيّل أنك في قاعة المحكمة، هل تحبّ إذ ذاك أن تكون المحامي أو المراسل الجالس على مقعد الصحافة؟». قلت إني أريد أن أكون المراسل، وقد نقل الصديق ذلك إلى والدي قائلاً: «يريد روبرت أن يكون صحافياً». لقد أردت فعلاً أن أكون «جندياً من جنود الصحافة».

التحقت ببعض الجرائد مثل «نيوكاستل إيفنغ كرونيكل»، (New Castle Evening Chronicle)، و«الصنداي أكسبرس»، (Sunday Express)، حيث طاردت بعض القساوسة الذين كانوا يهربون مع ممثّلات ناشئات، ونُجيمات. وبعد ثلاث سنوات، رجوت جريدة التايمز أن تعيّنني لديها، ففعلت.. وأرسلتني إلى إيرلندا الشمالية لتغطية النزاع الصغير الشديد الذي نشب في أعقاب الحكم الاستعماري البريطاني. وبعد خمس سنوات، أصبحت

أحد «جنود» الصحافة، ومراسلاً أجنبياً. وفي شهر نيسان/أبريل من عام ١٩٧٦، كنت على شاطىء «بورتو كونو» في البرتغال، أقضي إجازة بعيداً عن العاصمة لشبونة، حيث كنت أغطّي تبعات الثورة البرتغالية ـ فنادتني مديرة مكتب البريد معلنة أن هناك رسالة يجدر أن أتسلّمها. كانت رسالة من رئيس تحرير القسم الأجنبي في جريدة التايمز، «لويس هيرين»؛ يقول فيها: «لديّ أنباء جيّدة لك. لقد طلب مراسلنا «پول مارتن» نقله من الشرق الأوسط، نزولاً عند رغبة زوجته؛ وأنا لا ألومها. فعرضت عليه الوظيفة الصحافية الثانية في باريس، وأنا أعرض عليك وظيفة الشرق الأوسط، أعلمْني إذا كنتَ تريدها... فقد تكون فرصة رائعة لك، حافلة بالقصص الجيّدة، وكثير من السفر ونور الشمس...». وفي فيلم «هيتشكوك» المذكور، طلب رئيس التحرير من «هافرستوك» الحضور إلى مكتبه، قبل إرساله إلى «الحرب الأوروبية»، قائلاً: هل تحبّ أن تغطّي أكبر قصّة في العالم اليوم؟». لكنّ رسالة «هيرين» لم تكن بمثل تلك الإثارة، إنما عنت الشيء ذاته.

كان عمري ٢٩ سنة عندما عُرضت عليّ الوظيفة الصحافية للتايمز في الشرق الأوسط ـ وإني أتمنّى لو أعرف كيف شعر الملك فيصل الأول عندما عُرض عليه حكم العراق، وكيف كان ردّ فعل أخيه عبد الله عندما عرض عليه «ونستون تشرشل» حكم شرقيّ الأردنّ. لقد كان «لويس هيرين» ذاته ذا أسلوب «تشرشلي»، عنيداً، فصيحاً، ومحبًّا للنبيذ الممتاز؛ فضلاً عن كونه سابقاً مراسلاً في الشرق الأوسط. ولكن، لو كانت القصص جيّدة صحافياً، فلا بدّ أن تكون أيضاً رهيبة، ولا بدّ أن يكون السفر مشوّشاً، ونور الشمس كحدّ السيف القاطع. فنحن معشر الصحافيين، ليس لنا حماية الملوك، أو ادّعاؤهم الكمال. ولكنني أستطيع الآن أن أكون أحد الجنود في جيش المؤرّخين الذين يكتبون التاريخ بجانب فوّهة المدفع. كم كنتُ بريئاً، وكم كنت ساذجاً. لكنّ البراءة إذا دامت، تحمي استقامة الصحافي وأمانته. وعليك أن تجاهد في سبيل الإيمان بذلك.

لم أكن مقاتلاً مثل والدي، بل ذهبت إلى الحرب شاهداً ومتفرّجاً عليها، وشديد الاغتياظ، ولكنني لم أكن أبداً من الرجال، الغاضبين، أو المتحمّسين لها، أو المخبولين بالذين أشعلوها. إني أبجّل المراسلين القُدامى الذين غطّوا الحرب العالمية الثانية وتبعاتها: مثل «هوارد ك. سميث» الذي هرب من ألمانيا النازية على آخر قطار غادر برلين قبل أن يعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٤١؛ و«جايمس كاميرون» صاحب التقرير الأيقوني الصادر عام ١٩٤٦ حول التجارب الذرّية البيكينية (Bikini) الذي ربّما كان أفضل مقال أدبي فلسفي نُشر في جريدة.

إن مهنة المراسل في الشرق الأوسط هي مهنة مُذلّة نوعاً ما في ظلّ ظروف مماثلة. فلو قرّر الجنود الذين كنت ألاحظهم إخلاءَ ساحة القتال، لأُطلقت النار على كثير منهم بتهمة الفرار، أو أُحيلوا إلى المجلس العسكري للمحاكمة على الأقلّ. أمّا المدنيُّون الذين كنتُ أعيش بينهم وأعمل، فقد أُلزموا البقاء في أماكنهم تحت القصف، ونتيجة لذلك هلك القسم الأعظم منهم بفعل القنابل والغارات الجوّية. كما أنهم لا يُمنحون تأشيرات سَفر بصفتهم مواطنين في بلدان منبوذة. ولكن إذا أردتُ أنا أن أترك عملي، وإذا أرهقتني رؤية الفظائع التي شاهدتها، أستطيع أن أحزم حقيبتي وأذهب بالطائرة إلى بلادي، بدرجة سياحية، وبيدي كأس من الشمبانيا، على افتراض دائم بأني

لم أمت، خلافاً لحالة الكثيرين من زملائي. ولهذا السبب أنقبض عندما ينبري أحدهم للثرثرة النفسيّة عن الخبرات الشديدة لدى مَن يغطّون أخبار الحروب، وعن ضرورة بذل الإرشاد النفسيّ لنا، نحن الكتبة الصحافيين المحظوظين براوتبنا، كي نتصالح مع ما رأينا وسمعنا. ولكن، ليس هناك من إرشاد ورعاية للفقراء والجموع الحاشدة الذين تُركوا لمصيرهم كي يعانوا من غاز العراق، وصواريخ إيران، وقسوة الميليشيات الصربيّة، والغزو الإسرائيلي الوحشي للبنان عام ١٩٨٢، والموت المبرمج على الحاسوب للعراقيين أثناء غزو الأميركيين لبلادهم عام ٢٠٠٣.

أنا لا أحبّ وصف المراسل بأنه «مراسل حرب». إن التاريخ لا الصحافة، هو الذي حكم بالحرب على الشرق الأوسط. فوصف المراسل بمراسل حرب وصفٌ تفوح منه رائحة رومانسية خاطئة، وفيه نفحات غزيرة من سِمات المراسلين الفيكتوريين الذي يراقبون المعارك من رؤوس التلال بصحبة سيّدات محصّنات ضدّ المعاناة، حيث لا يُنظر إلّا لِماماً إلى قصف المدافع عن بعد.

لكنّ الحرب خبرة فذّة قويّة بالنسبة إلى الصحافي؛ تشمل كثيراً من التناقضات، وتُعتبر فرصة له كي يختبر الإثارة الوحيدة التي لا تزال مجّانية. وإذا كنتَ قد شهدت ذلك في الأفلام السينمائية، فلماذا لا تختبره في الواقع؟ أخشى أن بعض زملائي ماتوا بهذا الأسلوب، فقد توجّهوا إلى الحرب على افتراض أنها أمر هوليودي، وأن البطل لا يموت، وأنك لن تموت كالآخرين، وأنهم كلّهم سيكونون مثل «هنتلي هافرستوكس» سبّاقين إلى اقتناص الأخبار والفوز بأجمل فتاة. ولكن يمكن أيضاً أن تموت. ففي عام واحد خلال حرب البوسنة، مات ثلاثون من زملائي. وهناك معركة مثل معركة «صوم» تنتظر جميع الصحافيين الأبرياء.

عندما انطلقت لتدوين هذا الكتاب، أردته أن يكون عرضاً للأحداث بحسب تسلسلها الزمني في الشرق الأوسط على مدى ثلاثة عقود. فهكذا كتبت كتابي السابق «ويلات وطن»(*). وهو تقرير بصيغة المتكلّم حول الحرب الأهليّة اللبنانية والغزوتين الإسرائيليتين للبنان. ولكنني نقّبتُ خلال الأوراق المتكدّسة في مكتبتي التي تشمل أكثر من ٣٥٠٠٠٠ وثيقة وملفّ ودفتر ملاحظات، كتبتُ بعضها بقلمي تحت وطأة القصف وأثبت بعضها الآخر موظفو الاتصالات العرب التعبون على أوراق التلغرافات، ومنها ما ضُرب أيضاً على آلات الفاكس التي كنا نستخدمها قبل اختراع «الإنترنت». وبعد هذا الطواف بين تلك الأوراق الوثائقية، أدركت أن هذا الكتاب لن يكون مجرّد تقارير شاهد عيان مرتّبة بحسب تسلسلها الزمني.

(*) Pity the Nation: Lebanon at war (Oxford University Press, 2001); US new edition entitled Pity the Nation: The Abduction of Lebanon (New York, Nation Books, 2002).

وبوسع القرّاء الكرام المهتمّين بشأن الحرب الأهلية اللبنانية، والغزو الإسرائيلي للبنان عامي ١٩٧٨ و١٩٨٢، ومذبحة قانا، وغير ذلك من المآسي التي حصلت في لبنان، أن يعودوا لمراجعة هذا الكتاب. فأنا لم أحاول معاودة كتابة قصّة لبنان هنا. وعنوان الكتاب المترجم إلى العربية هو: «ويلات وطن» (الطبعة السابعة عشرة منه، طبعة جديدة ومزيدة بفصلين صدرت عام ٢٠٠٥ عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر).

لقد قرأ والدي، الجندي الهرم من أيام الحرب العالمية الأولى، تقريري عن لبنان. ولم يعش ليقرأ هذا الكتاب. لكنه كان دائماً ينظر إلى الماضي ليفهم الحاضر. ليت العالم لم يذهب إلى الحرب عام ١٩١٤؛ وليتنا لم نكن بالغي الأنانية في عقد السلام. لقد وعدنا، نحن المنتصرين، العرب بالاستقلال، وساندنا اليهود ليحظوا بوطن لهم في فلسطين. ولا بدّ من الوفاء بالوعود. ولكن، لم يتمّ الوفاء ببعض تلك الوعود ـ فظنّ اليهود طبعاً أن وطنهم سيشمل كلّ فلسطين ـ وحُكم على ملايين العرب واليهود في الشرق الأوسط أن يتعايشوا اليوم مع عواقب تلك الوعود.

يشعر المرء أحياناً في الشرق الأوسط أنه ليس هناك أمر في التاريخ بدون نهاية محدّدة، أو مفترق، بحيث نقف لحظة ونقول: «كفى، كفى ـ لنتوقفْ، ولنتحرَّرْ». أعتقد أني أفهم اليوم ذلك الاعوجاج الزمني. لقد وِلِد أبي في القرن الذي سبق القرن الماضي؛ بينما ولدت أنا في النصف الأول من القرن الماضي. وها أنذا في عام ١٩٨٠، أشهد الجيش السوفياتي يغزو أفغانستان، وأربض عام ١٩٨٢ في الخطوط الإيرانية الأمامية مقابل جيوش صدّام، وأراقب في عام ٢٠٠٣ طلائع الجنود الأميركيين من فصيلة المشاة الثالثة تقطع الجسر الكبير فوق نهر دجلة. ولكنّ معركة «صوم، Somme» جرت قبل ولادتي بثلاثين سنة. نزل «بيل فيسك» إلى خنادق فرنسا بعد ثلاث سنوات من الإبادة الجماعيّة للأرمن، قبل ٢٨ سنة من ولادتي. لقد وِلِدتُ بعد ستّ سنوات من «معركة بريطانيا»، وبعد انتحار هتلر بأكثر من سنة. وشاهدت الطائرات تعود إلى بريطانيا من كوريا، وأتذكّر ملاحظة والدتي عام ١٩٥٦ بأني محظوظ، لأني لو كنت أكبر سنّاً لكنت في عداد المجنّدين الإلزاميين الذين غزوا قناة السويس.

أشعر بكلّ ذلك شخصيّاً، لأنّي شهدت أحداثاً عبر الزمن لا يمكن أن نعرِّفها إلّا بأنها عجرفة السلطة (Arrogance of Power). كان الإيرانيون يلقّبون الولايات المتحدة الأميركية بأنها «مركز الاستكبار العالمي»، وكنتُ أضحك من ذلك، لكني بدأت أفهم ماذا يعني هذا القول. فبعد النصر الذي أحرزه الحلفاء عام ١٩١٨، وعند انتهاء حرب والدي، قسّم المنتصرون البلاد التي كانت تحت حكم أعدائهم السابقين. وخلال ١٧ شهراً فحسب، أوجدوا حدود «إيرلندا الشمالية»، ويوغوسلافيا، ومعظم الشرق الأوسط. وقد صرفتُ كامل أيامي المهنية ـ في بلفاست، وسراييفو، وبيروت، وبغداد ـ أشاهد الناس يحترقون، ضمن تلك الحدود. لقد غزت أميركا العراق، لا من أجل أسلحة الدمار الشامل عند صدّام حسين، تلك التي دُمّرت منذ زمن طويل، بل من أجل تغيير خريطة الشرق الأوسط، على غرار ما فعل الجيل الذي كان أبي في عداده، منذ أكثر من ثمانين سنة. فقد أسهمت الحرب، التي كان أحد جنودها، في إحداث أول إبادة جماعية في ذلك القرن، ذهب ضحيّتها مليون ونصف مليون نسمة من الأرمن، ممهِّدة بذلك للإبادة الجماعية التالية لليهود في أوروبا.

إن هذا الكتاب يتمحور حول التعذيب والإعدامات. وربّما فتح عملنا في الصحافة باب الزنزانة عَرَضاً واتفاقاً. وربّما استطعنا أحياناً أن نُنقذ روحاً من حبل المشنقة. إنما تجمّع لدينا عبر السنين سيل من الرسائل المتزايدة، الموجّهة إليّ وإلى رئيس تحرير جريدة الإندبندنت، يعرض فيها القرّاء أفكارهم ويأسهم، ويتساءلون كيف

يمكنهم أن يُسمِعوا صوتهم، عندما لا تعود الحكومات الديمقراطية تمثل المواطنين الذين انتخبوها. فهؤلاء القرّاء يسألون كيف يقون أولادهم من السمّ الذي يقطر من قسوة هذا العصر؟ وكيف أستطيع أن أساعدهم؟ فقد كتبت إليّ امرأة بريطانية تعيش في ألمانيا، بعدما نشرت جريدة الإندبندنت مقالاً طويلاً لي حول اغتصاب نساء مسلمات في غاكو بالبوسنة، أنّ تلك النساء لم يحصلن على عناية طبّية دولية، أو مساعدة نفسيّة، أو لفتة لطف وإحسان بعد سنتين من الاعتداء عليهنّ.

وبناءً على ذلك، أفترض أننا كصحافيين نحاول ـ أو يجب أن نحاول ـ في آخر المطاف، أن نكون أول شهود غير متحيِّزين على التاريخ. وإذا كان هناك من سبب لوجودنا، فيجب على الأقلّ أن نكون قادرين على أن نقدّم تقارير عن التاريخ كما يحدث فعلاً، بحيث لا يستطيع أحد أن يقول: «لم نعرف ـ لم يخبرنا أحد بذلك». وقد ناقشت الصحافية الإسرائيلية اللامعة «أميرة هاس» هذا الأمر معي منذ أكثر من سنتين في صحيفة «هآرتس»؛ تلك الصحافية التي بزَّت بتقاريرها أيّة كتابات أخرى لمراسلين غير إسرائيليين. لقد أصررتُ في مناقشتي معها على أن رسالتنا كصحافيين تُهيب بنا أن نكتب الصفحات الأولى من التاريخ، لكنها قاطعتني بقولها: «لا يا روبرت، أنت مخطىء، إن عملنا هو أن نراقب مراكز النفوذ والقوّة». وأعتقد في نهاية هذا الأمر، أن هذا هو أفضل تعريف للصحافة سمعته في حياتي. علينا أن نتحدَّى السلطة ـ كل سلطة وكل نفوذ ـ وبخاصّة عندما تجرّنا الحكومات وأهل السياسة إلى الحرب، عندما يقرّر هؤلاء القتل، ويفرضونه على الآخرين.

ولكن هل نستطيع كصحافيين أن نؤدّي هذا المهمّة؟ ـ إن هذا الكتاب لن يعطينا جواباً عن هذا السؤال. لقد كانت حياتي كصحافي مغامرة كبرى؛ ولا تزال. ولكن عندما نظرت إلى هذه الصفحات بعد شهور من كتابتها، وجدت فيها أوصافاً للألم، والظلم، والرعب؛ إنها خطايا الآباء التي يصاب بها الأبناء. كما أنها تدور حول الإبادات الجماعيّة. لقد كنت أدعو يائساً إلى ضرورة أن يحمل كل مراسل كتاب تاريخ في جيبه الخلفي. وفي عام ١٩٩٢ كنت في سراييفو، فمرَّت قذيفة صربيّة من فوق رأسي في لحظة خاطفة؛ لقد كنت واقفاً في المكان الذي وقف فيه «غافريلو پرينسيپ» (Gavrilo Princip) وأطلق النار، فأشعل شرارة الحرب العالميّة الأولى، التي جرَّت والدي إلى خنادق الحرب. وبالطبع، كانت الطلقات تترى في سراييفو عام ١٩٩٢. وكان التاريخ عبارة عن قاعة كبرى يتردّد فيها الصدى. وكان ذلك العام هو التاريخ الذي مات فيه والدي. وها أنذا أضع بين يَدي القارىء قصّة جيله وجيلي.

بيروت، حزيران/يونيو، ٢٠٠٥

الجزء الأول

الحرب الخاطفة

الفصل الأول

«راود أحد إخواننا حلم...»

جمعوا بين حبّ مسعور للوطن ولامبالاة حمقاء بالحياة،حياتهم وحياة الآخرين. إنهم ماكرون، مجرَّدون من الضمير الأخلاقي، مُلهمون.

«ستيفان فيشَر» في فيلم ألفرد هيتشكوك،

«المراسل الأجنبي» (Foreign Correspondent) (١٩٤٠)

عرفتُ أن الأمر سيكون كذلك. كنتُ بتاريخ ١٩ آذار/مارس ١٩٩٧ خارج فندق «سبينجهار» في جلال آباد؛ ذلك الفندق المتميِّز بمرجاته المشذَّبة ووروده الزهرية، عندما تقدم مني رجل أفغاني يحمل رشاشاً من نوع «كلاشينكوف»، ودعاني للسفر معه في سيارته خارج المدينة. لم تعد الطريق إلى «كابول» ذلك المساء طريقاً بمعنى الكلمة، بل صارت ركاماً من الحجارة ومجموعة من الحُفَر فوق مياه هادرة لنهرٍ عظيم. كما كانت سلسلة كبرى من الجبال تشمخ فوقنا. وكان الأفغاني يبتسم لي من وقت إلى آخر، ولكنه لم يتكلم. وكنتُ أعلم ما تعنيه ابتسامته: ثِقْ بي. ولكني لم أثق به؛ بل بادلته فتح الفم للتبسُّم الاصطناعي الذي ينمّ عن صداقة زائفة. فإذا لم أرَ شخصاً ـ عربياً لا أفغانياً ـ أعرفه، أبقى حذراً، وأراقب الطريق خوفاً من وجود أفخاخ، أو مراكز تفتيش ومراقبة، أو وجود مسلَّحين لا مبرّر ظاهراً لوجودهم، وحتى من داخل السيارة، كنتُ أسمع صوت تدفّق مياه النهر عبر الأخاديد والصخور السمراء حيث الماء ضحل، ومن فوق الأجراف الصخرية الشاهقة. وكان السائق الذي طلب أن أثق به ماهراً في قيادة السيارة حول جلاميد الصخور. وقد أُعجبت بخفة رجله العارية على مغيِّر السرعة، وهو يعليها ويخفضها، وكأنه يحفِّز حصاناً بلطف ليتسلق ويقفز من فوق صخرة.

غطّى الغبار الأبيض الغزير زجاج السيارة؛ وعندما قشعته المسَّاحات، تبدَّى أمامنا القفر القاتم القاسي الرتيب. فقلتُ لنفسي، لا بد أن وضع الدرب كان هكذا، عندما قاد اللواء «وليم ألفينستون» جيشه البريطاني إلى الكارثة منذ حوالى ١٥٠ سنة. لقد أباد الأفغان أحد كبار الجيوش في الإمبراطورية البريطانية على هذا الجزء من الطريق بالذات؛ وفي القرى الواقعة فوقي، هناك أناس مسنُّون لا يزالون يتذكرون قصص آباء أجدادهم عما رأوه من موت آلاف الإنكليز. ومما يزعمونه أن صخور «غرانداماك» اسودَّت بفعل دماء الموتى من الإنكليز. لقد كان العام ١٨٤٢ معْلماً للهزائم الكبرى في الجيش البريطاني. ولا عجب في مثل هذه الحال، أننا نفضل أن ننسى

«الحرب الأفغانية الأولى»؛ لكن الأفغان لا ينسون. فمن سائق السيارة جاءت صيحة «فارانجيانو»، وهو يكشّر ويشير إلى الممرّ الضيّق في الطريق، «أجانب». «أنجريزي»، أي إنكليز. «تجانغ»، أي حرب. نعم لقد فهمت المقصود بتلك الإشارة. فقلت له باللغة العربية: «إيرلندا، أنا من إيرلندا». وكانت كذبة حتى لو فهمها. لقد درست في إيرلندا لكنني أحمل في جيبي جوازاً صغيراً أسود بريطانياً، يطلب فيه وزير الدولة الأول للشؤون الخارجية والكومنولث لدى صاحبة الجلالة ممن يعنيهم الأمر باسم صاحبة الجلالة، أن يسمحوا لي بالمرور بحرية ودون عائق في هذه الرحلة الخطرة. وقد سبق أن نظر إلى جوازي هذا في مطار جلال آباد منذ يومين جندي مراهق «طالباني» لا يعدو الرابعة عشرة من عمره، وهو يحمله مقلوباً، فطقطق بلسانه، وهز رأسه رافضاً.

حلّ ظلام الغَسَق ونحن نتسلّق الجبال، ونتجاوز بسيارتنا الشاحنات، وأرتال الجمال، ونرى الضواري تحملق في أضواء سيارتنا في إطار الظلام الدامس. سرنا بسرعة قرب تلك الضواري؛ وكنت أرى تكاثف لهاثها يتطاير طائفاً فوق الطريق. كانت قوائمها الضخمة تتفادى الحجارة والصخور بعناية فائقة، وكانت عيونها عندما تجابه الضوء تبدو كعيون لُعَب الأطفال. وبعد ساعتين وقفنا إلى جانب تلّة صخرية، ولم تمرّ دقائق قليلة حتى بدت لنا شاحنة صغيرة قادمة نحونا من علٍ، وهي تتواثب على طريق الجبل الوعرة.

تقدّم من سيارتنا شخص عربي بلباس أفغاني؛ فعرفته فوراً، لأني رأيته سابقاً في آخر اجتماع لنا في قرية متهدّمة. وقال: «آسف يا سيد روبرت؛ ولكن عليّ أن أزعجك بأول تفتيش»، بينما كانت يداه تنقّبان في جراب آلة التصوير والجرائد. وهكذا انطلقنا معه صعوداً في الطريق التي بناها أسامة بن لادن خلال أيام جهاده ضد الجيش الروسي في أوائل الثمانينيّات. استغرقت الرحلة ساعتين، وكانت طويلة على طريق زلقة مرعبة عبر الوهاد الشديدة الانحدار تحت المطر والبَرَد، وتغشية زجاج السيارة بينما كنّا نصعد هذا الجبل البارد. ولكنّ صاحبي هوّن الأمر عليّ بقوله: «عندما تؤمن بالجهاد، كل شيء يصبح سهلاً»؛ بينما كان يغالب مقود السيارة، وكانت الحجارة تفرّ من بين العجلات، وتنزل عبر الضباب إلى الهاوية تحتنا. ومن وقت إلى آخر، كنا نرى أضواء تغمزنا من بعيد في الظلام: «إنهم إخواننا الذين يبلغوننا أنهم يروننا»، كما قال صاحبي.

وبعد ساعة، صاحوا بنا: «قفوا، قفوا»، فجمدت مكابح السيارة، وكدت أصطدم بزجاجها. وطالعنا رجلان مسلّحان، يغطي أحدهما وجهه بوشاح كوفيّة، وينظر إلينا من خلال نظّارة، وهو يمسك بقاذف صواريخ محمول فوق الكتف. بادرنا صاحب النظّارة بالاعتذار: «عفواً، عفواً»، وألقى بقاذف صاروخه جانباً؛ وسحب من جيب سترته الحربية مكشافاً معدنياً مرَّ به متقطع الومض على جسمي، بغية القيام بتفتيش ثانٍ. وتابعنا طريقنا بعدما ساءت أحوالها، وصارت سيارة «الجيب» تنزلق بنا خلفياً وتضعنا على شفير الجرف والهاوية، بينما تتأرجح الأضواء الأمامية للسيارة على الجانبين. وعلّق سائقي على هذا الوضع بقوله: «سيارة تويوتا جيدة من أجل الجهاد»؛ فلم أجد بدّاً من الموافقة على ذلك، مع الانتباه إلى أن ذلك قد يصلح كشعار دعاية لو وافقت شركة «تويوتا» عليه.

ولمّا طلع علينا ضوء القمر أبصرت غماماً تحتنا على المنحدرات الشديدة الانحدار، وغماماً فوقنا يتحلّق حول رؤوس الجبال، بينما كانت الأنوار الأمامية لسيارتنا تلمع على الشلالات المتجمّدة، وعلى سطوح البرك المكسوّة بالجليد. لقد عرف بن لادن كيف يبني طرقه أيام الحرب؛ فقد غاص كثير من شاحنات الذخيرة والدبابات أثناء صعودها من هنا، خلال النضال الجبّار ضد الجيش الروسي. واليوم، جاء الرجل الذي قاد حرب العصابات تلك ـ ذاك الذي كان المقاتل العربي الأول ضد موسكو ـ عائداً إلى هذه الجبال التي عهدها. وقد صادفنا المزيد من مراكز التدقيق والمراقبة، وتلقّي الأوامر الصارخة بالتوقف. وقد فحصني رجل طويل جداً، بلباس المعركة وبكل دقّة، فجسّ كتفي وجسمي، وساقيّ، ونظر في وجهي. فقلت له: «السلام عليكم» بالعربية، فلم يرد، خلافاً لكل عربي صادفته، بل بقي على برودته. لقد دعاني أسامة بن لادن إلى زيارته في أفغانستان، لكنّ هذا الرجل محارب ليس لديه ذرّة من اللياقة. إنه آلة تدقق في شأن آلة أخرى.

ولكن لم تكن الحال هكذا دائماً بشأن زيارة بن لادن. ففي الواقع، قابلت بن لادن لأول مرة بمنتهى اليُسر. ففي شهر كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٩٣ كنتُ أغطّي أعمال قمة إسلامية في الخرطوم عاصمة السودان، عندما تقدم مني صحافي سعودي صديق هو جمال خاشقجي في بهو فندقي. كان خاشقجي طويل القامة، يرتدي دشداشة بيضاء سابغة. جاءني ومشى بي إلى خارج الفندق؛ وقال لي: «هناك شخص أعتقد أنّ عليك أن تقابله». كان خاشقجي مؤمناً صادقاً في إيمانه ـ والويل لمن يعتبر نظّارته المدوّرة وحسّ الفكاهة عنده دليلاً على تراخيه الروحي ـ وقد أدركت فوراً مَن يعني. ومن المعلوم أنه زار بن لادن في أفغانستان خلال حربه مع الجيش الروسي. بادرني خاشقجي بقوله: «لم يقابل صاحبنا حتى اليوم أيّ مراسل أجنبي؛ ستكون المقابلة مثيرة للاهتمام». وكان خاشقجي يمارس بذلك قليلاً من علم النفس التطبيقي. لقد أراد أن يعرف كيف يستجيب بن لادن لشخصٍ من غير المؤمنين؛ ووددتُ أنا أيضاً أن أعرف ذلك.

كانت قصة بن لادن تعليمية كما كانت ملحمية. فعندما غزا الجيش الروسي أفغانستان عام ١٩٧٩، شجّعت أميركا العائلة المالكة السعودية على دعم الأفغان بفرقة عسكرية عرْبية، على أن يكون من المفضّل أن يقودها أحد الأمراء السعوديين، بصيغة حرب عصابات ضد الروس. ومن شأن هذا التدبير أن يعيد ترسيخ التقليد المشرّف للمحارب الخليجي العربي، الذي يضحّي بحياته من أجل الدفاع عن «الأمّة» الإسلامية. ولكنّ الأمراء السعوديين رفضوا ذلك؛ فحلّ محلّهم بن لادن وقد تملّكه الغضب من إذلال الأفغان المسلمين على يد السوفيات؛ فاستعمل المال والمعدّات من شركة البناء التي يملكها، وانطلق في مضمار جهاده الشخصي.

وعلى مدى السنين التي تلت ذلك، انتزع بن لادن السعودي، صاحب المليارات، وذو الأصل اليمني المتواضع إعجاب الكثيرين من السعوديين ومن العرب الآخرين من الخليج إلى البحر الأبيض المتوسط، الذين نسجوا له أسطورة الصبيّ العربي ابن المدرسة. ومنذ أن مجّد البريطانيون «لورنس العرب»، لم يُصَوَّر أيّ مغامر آخر بهذه البطولة وبهذا النفوذ. فقد اتجه مصريون، وسعوديون، ويمنيون، وكويتيون، وجزائريون، وسوريون،

وفلسطينيون إلى مدينة بشاور الباكستانية الحدودية، ليقاتلوا إلى جانب بن لادن. ولكن بعدما طرد المجاهدون الأفغان وفرقة بن لادن العسكرية السوفيات من أفغانستان انقلب الأفغانيون بعضهم على بعض كالذئاب يغذّيهم السمّ العشائري. فعاد بن لادن إلى العربية السعودية، مشمئزّاً من إفساد الإسلام، وتفسيخ «الأمّة» إلى سُنّة وشيعة.

وبعد هجر بن لادن العربية السعودية إلى جمهورية إسلامية أخرى، هي السودان، شاهدنا في رحلتنا شمالي الخرطوم منظر صحراء بيضاء وأهراماً فرعونية جاثمة، قديمة مستكشفة، إنما أصغر من أهرام «خوفو»، و«خفرع»، و«منقرع» في الجيزة بمصر. وبالرغم من أننا كنا في شهر كانون الأول/ديسمبر، كان هناك نسيم بالغ الحر يجول في الصحراء. وعندما تعب الخاشقجي من هواء المكيّف في السيارة وفتح نافذتها، نزع الهواء غطاء رأسه ورماه. وعلّق الخاشقجي على الوضع بقوله: «بن لادن محبوب هنا»، وكأنه يطري مضيفه على طعام. ثم قال: «إنه رجل أعمال اقتصادية هنا وصاحب شركة بناء، والحكومة تحبّه كذلك. إنه يساعد الفقراء». وفي الواقع، إني أفهم ذلك تماماً. فقد كان النبيّ محمّد يتيماً في أول عمره، وكان الفقراء هاجسه في القرن السادس، وكان الكرم تجاه الفقراء من المميّزات الجذّابة في الإسلام، كما كان الكرم من مميّزات الحياة العربية بعامة. إن انتقال بن لادن من كونه محارباً جهادياً إلى فاعل خير كريم للناس بعامّة، يؤشّر على أنه يتبع خطى الرسول. فقد أكمل الآن بناء طريق من الخرطوم وبورسودان إلى البلدة الصحراوية الصغيرة المسماة المطيق في شمال السودان، مستخدماً الجرّارات الجرّافة ذاتها التي استعملها لشق طرق المجاهدين في أفغانستان؛ مع العلم أن كثيراً منهم ما زالوا عمّالاً عنده. لكن دوائر الحكومة الأميركية لم تكن راضية عن كرم بن لادن وأعمال الخير التي يقوم بها. فقد اتهمت السودان «برعاية الإرهاب الدولي»، كما اتهمت بن لادن نفسه بإقامة «معسكرات تدريب للإرهابيين» في صحراء السودان.

وعندما وصلت مع الخاشقجي إلى قرية المطيق كان بن لادن هناك بكل بهائه، بثوبه المذهّبةُ أطرافه، جالساً في ظلّ خيمة أمام حشد من القرويين المعجبين به، وبحراسة المجاهدين العرب الذين حاربوا معه في أفغانستان. أولئك الملتحون الصامتون، غير المسلّحين، الموجودون على مقربة من الرجل الذي اختارهم، ودرّبهم، ثم أرسلهم لمناهضة الجيش السوفياتي، كانوا يراقبون بوقار القرويين السودانيين المصطفّين لشكر رجل الأعمال السعودي الذي يكاد يكمل الطريق التي تصل منازلهم المتواضعة بالخرطوم، لأول مرة في التاريخ.

كان انطباعي الأول أنه رجل خجول. فقد كان يتفادى النظر إلى زعماء القرية، عندما يخاطبونه؛ وهو بثوبه الأسمر الطويل، وعينيه الضيّقتين، وعظام خدّيه البارزة. كان يبدو منزعجاً من تلقّي عرفان الجميل، ولا يبتسم ابتسامة عريضة عندما يرقص الأولاد «بالجلباب» القصير أمامه، وعندما ينبري الخطباء للثناء على حكمته. وقد خاطبه أحد الشيوخ الملتحين بقوله: «انتظرنا دون جدوى إقامة هذه الطريق من قبل الثورات المتعاقبة في السودان، حتى تملّكنا اليأس من الجميع؛ ثم جاء أسامة بن لادن». ولاحظت كيف طأطأ بن لادن رأسه، ونظر إلى الرجل الملتحي محترماً العمر الذي بلغه؛ لكنه كان غير سعيد بأن يجلس مرتاحاً أمام شيخ أكبر سناً منه. كما كان أيضاً غير سعيد لرؤية شخص من بلاد الغرب، واقفاً على مقربة منه. ولذلك كان ينظر إليّ من وقت إلى آخر، بانقباض وبحذر شديد.

طوّقه الخاشقجي بذراعيه؛ فقبّله بن لادن على الخدّين، قبلة مسلم لمسلم، اعترافاً بالخطر المشترك الذي قاسياه معاً في أفغانستان. وكان بن لادن يفكّر في السبب الذي دعا الخاشقجي إلى اصطحاب هذا الأجنبي. وكان يلتفت إليّ من فوق كتفه بينما الخاشقجي يتكلم، ويؤمىء برأسه من وقت إلى آخر. قال الخاشقجي: «يا روبرت، أودّ أن أقدّمك للشيخ أسامة»، رافعاً صوته عبر أغاني الأطفال. كان بن لادن رجلاً طويلاً، ولا بد أن يكون قد شعر بتلك الأفضلية، وهو يصافح المراسل الأجنبي. السلام عليكم. كانت يداه ثابتتين، غير قويتين، أجل، لكنه بدا كرجل جَبَليّ. عيناه تفحصان وجهك. كان نحيفاً، وذا أصابع طويلة. وكانت لديه ابتسامة غير لطيفة لكنها ليست شرّيرة. وبناء على دعوته، انتقلنا إلى آخر الخيمة لنتكلم، متفادين صراخ الأطفال.

وبلفتةٍ نحو الماضي، وعلى أساس ما نعلم اليوم من ارتسام صورة بهيمية رهيبة لهذا الرجل في الذاكرة الجماعية للعالم، كنتُ أفتش عن مفتاح، أو عن بيّنة مهما كانت صغيرة، توحي بأنه يمكن أن يقوم بعمل يغيّر وجه العالم إلى الأبد ـ أو تسمح بخاصة لرئيس أميركي بأن يقنع شعبه بأن العالم تغيّر إلى الأبد. ولا شك في أن نفيه الرسمي «للإرهاب» لا يدلّ على شيء من ذلك. لكنّ الصحافة المصرية كانت تدّعي أن بن لادن جلب معه مئات من المقاتلين العرب إلى السودان، بينما كانت السفارات الغربية في الخرطوم تروّج أن بعض العرب «الأفغان» الذين أرسلهم هذا المقاول السعودي إلى السودان، مشغولون الآن بالتدرُّب، استعداداً للانخراط في حروب جهاد، في الجزائر، وتونس، ومصر، وكان بن لادن واعياً لهذا الأمر، إذ وصف ذلك «بالهراء الذي تتناقله السفارات ووسائل الإعلام»، وأردف: «أنا مهندس بناء، وخبير زراعي. ولو كان لديّ مخيّمات تدريب هنا في السودان، لما تمكنت من القيام بعملي هذا».

ولا شك في أن «عمله» كان بمنتهى الطموح: ليس في ما يتعلق بهذه القرية فحسب، بل بطريق عامة واسعة جديدة تمتد من الخرطوم إلى بور سودان؛ وتمتدّ على مسافة ١٢٠٠ كيلومتر فوق الطريق القديمة، بعد اختصارها بأسلوب بن لادن إلى ٨٠٠ كيلومتر، أي سفر يوم واحد فقط. لقد حوّل بن لادن معدّات الحرب إلى معدّات بناء في دولة منبوذة من قِبل العربية السعودية، لأنها دعمت صدّام حسين بعد غزوه للكويت عام ١٩٩٠، فضلاً عن نبذها من قِبل الولايات المتحدة الأميركية. وكنتُ أتساءل لماذا لم يفعل الشيء نفسه في قفار أفغانستان؛ لكنه رفض بادىء ذي بدء أن يتكلم عن حربه في أفغانستان، وبقي جالساً في أقصى الخيمة يفرك أسنانه بمسواك. ومن ثمّ عاد إلى الكلام عن تلك الحرب التي ساعد في سوقها إلى النصر لصالح الأفغان المدعومين ضد الروس من قبل الأميركيين والسعوديين والباكستانيين. لقد أراد أن يتكلم. وكان يعتقد أنه سيُستجوب بشأن «الإرهاب»، لكنه أدرك أنه يُسأل عن أفغانستان، وبالرغم من كل الحذر والشك اللذين أبداهما بشأن هذا المراسل الغريب، رغب بن لادن في أن يشرح كيف أن خبرته هناك غيّرت حياته.

قال: «إن ما عشتُه هناك خلال سنتين يعادل عيش مئة سنة في مكان آخر. وعندما بدأ غزو أفغانستان استشطتُ غضباً، وهُرعت إلى هناك فوراً فوصلت خلال أيام قبل نهاية عام ١٩٧٩؛ وثابرت على العودة إلى هناك

مدة تسع سنوات. لقد شعرتُ بالإهانة بسبب الجور الذي لحق بشعب أفغانستان. وأدركتُ أن الناس الذين يكتسبون نفوذاً في العالم يستعملون نفوذهم وقوتهم تحت أسماء مختلفة، ليفسدوا الآخرين ويفرضوا آراءهم عليهم. نعم لقد قاتلت هناك، لكنّ إخواني المسلمين بذلوا جهداً أكبر في القتال. لقد مات كثير منهم، وبقيتُ أنا حياً». ويؤرّخون للغزو الروسي بكانون الثاني/يناير ١٩٨٠، لكن القوات السوفياتية الخاصةْ دخلت كابول قبل عيد الميلاد الغربي عام ١٩٧٩، عندما قامت ـ أو قام أتباعها الأفغان ـ بقتل حافظ الله أمين، الذي احتلّ منصب رئيس الجمهورية، وتنصيب بابراك كارمال دُميتهم في كابول مكانه. لقد تحرك أسامة بن لادن بسرعة.

وقد استعان بن لادن بمهندسه العراقي محمد سعد الذي كان يبني الطريقْ السريع إلى بور سودان، لتفجير أنفاق كبرى في جبال «زازاي» بمقاطعة «بختيا» من أجل إقامة مستشفيات لحرب العصابات ومستودعات للأسلحة؛ ثم أنشأ طريقاً ترابية للمجاهدين عبر أفغانستان، لا تبعد عن كابول سوى ٢٥ كيلومتراً، وهذا عمل فذّ من أعمال الهندسة، لا يستطيع الروس أبداً أن يهدموه. ولكن ما هي الدروس التي استخلصها بن لادن من حربه ضد الروس؟ لقد جُرح خمس مرّات، واستُشهد خمسمئة من مقاتليه في معارك مع السوفيات ـ وقبورهم شاهدة على ذلك داخل الحدود الأفغانية عند «تورخام» ـ ولكن، حتى بن لادن نفسه ليس خالداً، أليس كذلك؟

قال بن لادن: «لم أخفْ أبداً من الموت، لأننا كمسلمين نعتقد أننا ندخل الجنة عندما نموت». وهنا توقف عن فرك أسنانه بالمسواك، وانحنى إلى الأمام، وهو يتكلم ببطء واستمرار، ومرفقاه على ركبتيه: «إن الله تعالى يُنزل علينا «السكينة» قبل المعركة. فقد حدث مرة أن كنت لا أبعد عن الروس أكثر من ثلاثين متراً، بينما كانوا يحاولون القبض عليّ. لقد كنتُ آنذاك تحت القصف، ولكني كنتُ هادئاً في قلبي إلى درجة أني استغرقت في النوم. وهذه «السكينة» منصوص عليها في كتبنا الأولى. لقد رأيت قذيفة مدفع هاون من عيار ١٢٠ ملّيمتراً تسقط أمامي دون أن تنفجر، كما أسقط الروس أربع قنابل أخرى من طائرة لهم على مركز قيادتنا، لكنها لم تنفجر. لقد تغلّبنا على الاتحاد السوفياتي. وهرب الروس... وقد كان الزمن الذي أمضيته في أفغانستان أهمّ خبرة مرّت في حياتي».

ولكن ماذا عن العرب المجاهدين الذين استقدمهم إلى أفغانستان ـ أعضاء حرب العصابات الذين شجّعتهم وسلّحتهم أيضاً الولايات المتحدة الأميركية ليقاتلوا الروس، والذين تجاهلهم أسيادهم حالما وضعت الحرب أوزارها؟ كان بن لادن مستعداً للإجابة عن هذا السؤال، فقال: «لم أرَ شخصياً، ولم يرَ إخواني أية بيّنة على عونٍ أميركي. وعندما انتصر مجاهدونا وطردوا الروس من أفغانستان، دبّ الخلاف، فعدت إلى بناء الطرق في «الطائف» و«أبها». جلبت معي المعدّات التي استخدمتها لبناء الأنفاق والطرق للمجاهدين في أفغانستان. أجل، ساعدت بعض رفقائي للقدوم إلى هنا بعد الحرب». سألت عن عددهم، فهز بن لادن رأسه وامتنع عن الإجابة. «لكنهم يعملون معي هنا الآن، ويبنون هذه الطريق إلى بور سودان».

وقبل شهر، كنتُ مكلّفاً تغطية حرب البوسنة، فأخبرته أن المقاتلين البوسنيين المسلمين في بلدة «ترافنيك»

ذكروا اسم بن لادن لي. فأثار ذلك اهتمامه. وكلما رأيت بن لادن، كان يبدو شغِفاً بأن يسمع ما يقوله عنه العلماء والمحاربون المسلمون، لا معتقدات أعدائه. قال: «لديّ الشعور ذاته بخصوص البوسنة، لكن الوضع في البوسنة مختلف عنه في أفغانستان. فقد ذهب عدد من المجاهدين ليقاتلوا في البوسنة والهرسك، لكنّ الكرواتيين لم يسمحوا لهم بالمرور عبر كرواتيا كما فعل الباكستانيون مع أفغانستان». ولكن أليس انحطاطاً أن ننتقل من الجهاد في سبيل الإسلام ولوجه الله في أفغانستان إلى بناء الطرق في السودان؟! وهكذا صار بن لادن أكثر تمحيصاً في استعمال كلماته. واستأنف حديثه قائلاً: «إنهم يحبون عملي هنا، وأنا أحبه أيضاً. إنه مشروع جليل ننجزه للناس هنا، إذ إنه يساعد المسلمين ويحسّن نوعية حياتهم».

في تلك الآونة، لاحظت أن رجالاً آخرين من السودانيين، لا من رفاق بن لادن السابقين، قد تحلّقوا حولنا ليستمعوا إلى محادثتنا. وبالطبع أدرك بن لادن وجودهم قبلي. فسألته: ما رأيك في الحرب الجارية في الجزائر؟ فانبرى رجل يلبس بدلة خضراء، يسمّي نفسه محمد موسى ـ ويدّعي أنه نيجيري، مع أنه رجل أمن تابع للحكومة السودانية ـ وربّت على ذراعي قائلاً: «لقد سألت بما فيه أكثر من الكفاية. فهل لنا بصورة»؟ تردد بن لادن ـ لأنه قلّما يفعل ذلك ـ وأحسست أنه متردّد بين الحذر وحبّ الظهور. وفي النهاية، وقف على الطريق الجديدة بثوبه المذهبة أطرافه، وابتسم ابتسامة باهتة إزاء آلة التصوير التي تخصّني، لآخذ صورتين؛ ثم رفع يده اليسرى مثل رئيس جمهورية يقول للصحافة أن وقتها انتهى؛ وانصرف بن لادن ليتفقّد شؤون الطريق التي يبنيها.

ولكن ما كانت طبيعة «الجمهورية الإسلامية» الأخيرة التي تستحوذ على مخيّلة بن لادن؟ كان له بيت في الخرطوم ـ وشقّة صغيرة في جدّة حتى جرّده السعوديون من مواطنيته السعودية ـ وكان يعيش في السودان مع زوجاته الأربع، وإحداهنّ في سنّ المراهقة. وكانت شركته ـ وهي غير شركة أبناء عمّه الكبرى ـ تتلقى نظير عملها بالعملة السودانية، التي كانت تُستخدم لشراء السمسم، والذرة، وبزور دوّار الشمس للتصدير. لم يكن الربح هاجس بن لادن وأول أولوياته. فهل كان كذلك بالنسبة إلى السودان؟

بالتأكيد، كان السودان يعتز أيضاً بقوة إسلامية كبرى مهدِّدة للغرب، تتمثّل بحسن عبد الله الترابي، العدو «لظلم» الغرب، و«أحد الشياطين» بحسب وصف الجرائد المصرية. لقد كان بمثابة «آية الله» الخاص بالخرطوم، والعالم المجتهد القائد للجبهة الإسلامية القومية التي دعمت حكومة اللواء عمر البشير. وفي الواقع، يفتخر قصر «البشير» بالدرج ذاته الذي شهد مصرع اللواء شارلز غوردون عام ١٨٨٥ على يد أتباع المهدي محمد أحمد بن عبد الله الذي كان يطالب على غرار بن لادن بالعودة إلى «النقاء» الإسلامي. ولكن عندما ذهبتُ للتحادث مع الترابي في مكتبه الإنكليزي القديم، ربض كطائر على كرسي، جاثماً جزئياً على رجله اليسرى القابعة تحته، وثوبه الأبيض مزيَّن بوشاح صغير مخطّط، ويحرّك إحدى يديه أمام لحية سوداء تخالطها خطوط من الشيب. إنه الرجل الذي نظّم «المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي» الذي جئتُ مبدئياً لتغطية أعماله؛ وفي مركز المؤتمرات الواسع في الخرطوم، وجدتُ تجمّعاً لكل نوع من المتعادين، من الإسلاميين، والمسيحيين، والوطنيين والأصوليين؛ وقد ارتبطوا كلهم بدعوة الترابي إلى الاعتدال. وفيهم: الشيعة، والسنّة، والعرب، وغير العرب، وحركة فتح التي

يتزعمها ياسر عرفات، وكل خصومه العرب: حماس، وحزب الله، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وجبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية ـ بكاملها؛ فضلاً عن: ممثلين لحزب الشعب الباكستاني، وحزب النهضة في تونس، والأفغان من جميع الاتجاهات، وموفد من قبل محمد عيديد من الصومال الذي لم يستطع أن يحضر بسبب ملاحقته من قبل الجيش الأميركي في مقاديشو.

إنهم يمثلون كل تناقض موجود في العالم العربي ويجتمعون في مدينة تتميز بهندسة معمارية استعمارية بريطانية ـ بدور من طبقتين منخفضة السقوف، يُعرِّش عليها نبات «بوغينفيلية»، ومكاتب حكومية حارّة، ومكاتب مزرية للشرطة ـ بجانب الشعارات الثورية التي عفّى عليها الدهر. هنا تلتقي مياه النيل الأزرق والنيل الأبيض، وهنا همزة الوصل الدائمة بين العالم العربي وإفريقيا الاستوائية. وهنا شهد السودان ١٣ سنة من الحكم الوطني ـ المهدية ـ و٦٠ سنة من الحكم الذي سيطر عليه البريطانيون من القاهرة، و٤٠ سنة من الاستقلال المشاكس. كل ذلك أعطى هذا البلد هويّة واهنة، مرهقة، وغير مبتوتة. فهل هذا بلد إسلامي؟ إذ حكمه بعد الاستقلال حزب «الأمّة» بزعامة ابن المهدي وأحفاده، أم أنه سيبقى بلداً اشتراكياً إلى الأبد، إذ استولت على حكمه أنظمة عسكرية منذ عام ١٩٦٩؟

كان الترابي يحاول أن يكون وسيطاً بين عرفات الذي وقّع اتفاق «أوسلو» مع إسرائيل ومناهضيه في العالم العربي ـ أي الجميع تقريباً ـ وبالتالي أن يحمل واشنطن بأسلوب غير رهيف، على شطب السودان من قائمة «الدول الإرهابية»، عن طريق إقناع حماس والجهاد الإسلامي بدعم عرفات. قال الترابي بإصرار: «أنا شخصياً أعرف عرفات معرفة جيدة؛ إنه صديق حميم لي. كان إسلامياً كما هو معلوم، ثم انتقل تدريجاً إلى «النادي» العربي... لقد كلّمني قبل توقيع «الاتفاق مع إسرائيل». وجاء إلى هنا، إلى السودان. وها أنا الآن أعرض قضيته على الآخرين ـ لا كمسألة صحيحة، بل كأمر ضروري ملحّ. ماذا يستطيع أن يفعل؟ لقد نفد المال لديه؛ وانحلّ جيشه؛ وهناك اللاجئون، وعشرة آلاف سجين في زنزانات إسرائيل. فلو حصل على بلديّة لكانت أفضل من لا شيء».

ولكن، إذا تحوّلت فلسطين إلى بلديّة، فأين العرب الآخرون من هذا؟! لا شك في أن هناك حاجة إلى قائد لا يتكلم بلغة الاستسلام، إلى قائد محارب، أثبت أنه يستطيع أن يهزم قوة عظمى. ألم يعتقد المهدي أنه كذلك؟ ألم يحثّ المهدي مقاتليه ليلة الهجوم على الخرطوم، أن يتقدموا ويقارعوا اللواء «غوردون» حتى لو فني ثلثاهم؟ ـ ولكن السودان، ككل بلد عربي آخر تقريباً، أعاد تنظيم نفسه لمصلحة قادته، وصار عاصمة الفضائل، كما تقول اللافتات في الشوارع، في ذلك الشهر، شهر كانون الأول/ ديسمبر. واستبدل بالقِيَم أحياناً تعبير الفضائل، مما لا يعني الشيء ذاته.

ولكن لم يكن السودان كما يبدو، فالحركة في محطات القطارات تحت الشمس اللاهبة، لا توحي بالتحضير لـ «جمهورية إسلامية». ولا توحي بذلك أيضاً زمر الجنود الناعسين الجالسين بلباسهم الأخضر في ظل محطة

مهشّمة، بينما تنتظر قطعتان من المدفعية الثقيلة الشحن إلى موقع الحرب الأهلية في الجنوب على قطار يكاد يبلى. لقد ناصرت بريطانيا طويلاً انفصال الجنوب المسيحي من السودان، حيث لا تشيع اللغة العربية والدين الإسلامي، حتى الاستقلال، عندما قررت لندن فجأة أن سلامة السودان بكامل أراضيه أهم من انفصال الجنوب عنه. لكن الأقلية الجنوبية في السودان تمرَّدت، وصار تمرّدها مدار الحياة السودانية الحالية.

وعلى المسؤولين في الخرطوم أن يفسّروا يوماً ما شأن قائمة طويلة من فظائع الحرب الأهلية التي نُمِيَتْ إلى الأمم المتحدة عام ١٩٩٣، وصدر عنها تقرير في العام التالي. وتكلم فيها شهود عيان عن حوادث اغتصاب، ونهب، وقتل، في منطقة بحر الغزال الجنوبية، فضلاً عن استمرار خطف الآلاف من الأولاد الجنوبيين في شوارع العاصمة. وبحسب الوثائق الميسورة، ارتكبت أكثر الفظائع الحديثة في شهر تموز/يوليو السابق عندما قام الجيش السوداني بسوق قطار يحمل رجالاً من الميليشيات المستأجرة محلياً، إلى أرض واقعة تحت سيطرة جيش التحرير الشعبي السوداني. وكان ذلك بإمرة ضابط دعته الصحف باسم النقيب «جينات»، قائد المخيّم التابع لقوة الدفاع الشعبية في بلدة «موجلاد» في جنوبي «قردفان»، وعضو المجلس الحكومي السوداني في مدينة «وو» (Wo) الجنوبية. وهناك ترك الحبل على غاربه لهذه الميليشيات لتفتك بقرى قبائل «الدنكا» على طول خط القطار، وتهدم كل قرية على مدى عشرة أميال على جانبي الخط. فقتلوا الرجال، واغتصبوا النساء، وسرقوا آلاف رؤوس الماشية. وشملت البيّنات المجموعة من رجال القبائل الذين هربوا دون عائلاتهم تفاصيل عن مجزرة حفلة زواج مسيحي، ذهب ضحيتها ٣٠٠ شخص قرب نهر «لول». كما ادّعت الوثائق التي حصلت عليها الأمم المتحدة أن جنود الحكومة، مع الميليشيات القبَلية الموالية لها، قتلوا أعداداً كبيرة من أفراد قبائل «الدنكا» في المخيم الذي لجأوا إليه في «ميران» خلال شهر شباط/فبراير الماضي.

فإذن لم يكن هذا بلداً معروفاً بعدالته، أو بحقوق الإنسان، أو بالحرية. وفي الواقع، تمّ تشجيع الموفدين إلى القمة الإسلامية بأن يعبّروا بحرية عما يجول بخاطرهم. وكان مصطفى سيريك، إمام البوسنة، فصيحاً صريحاً في تِبيان إبادة شعبه على يد جيرانه الصرب، وفي إدانته لقوى حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في بلده. لقد التقيته في سراييفو منذ سنة، عندما اتّهم الغرب بفرض حظر تسلّح على القوى البوسنية، لسبب أوحد هو كونهم مسلمين؛ وبقي تهكّمه في أحسن حالاته في الخرطوم أيضاً. قال لي: «لقد أرسلتم جنوداً إنكليزاً، ونحن نشكركم على ذلك؛ ولكنكم لن تعطونا أسلحة كي ندافع عن أنفسنا ضد «الشتنيك» أي الصرب، لأنكم تعتبرون أن ذلك يوسّع نطاق الحرب، ويعرِّض للخطر الجنود الإنكليز الذين أرسلتموهم إلينا». كان سيريك من أولئك الرجال الذين يُشعرون الآخرين بحاجتهم إلى التواضع.

وهكذا حتى مؤتمر القمة في السودان جاء رمزاً لإذلال المسلمين، والعرب، ولجميع الإسلاميين والقوميين الثوريين وغيرهم ممَّن هيمنوا على الشرق الأوسط «الحديث». وقد انفرد بي مندوبو حزب الله جانباً، وأسرُّوا إليّ بهشاشة الحكم القائم. وقال لي أحدهم: «لقد دُعينا إلى عشاء على مركب مع الترابي. وطاف بنا المركب على النيل صعوداً ونزولاً لفترة، وكنا نلاحظ وجود حرّاس حكوميين يراقبوننا على الضفّتين كلتيهما. وفجأة، انطلقت

عبارات نارية من أحد الأعراس؛ وكنا نستطيع سماع موسيقى العرس. لكنّ الترابي كان خائفاً جداً إلى درجة أنه هرول من مقعده، وانطرح أرضاً لعدة دقائق. إننا في مكان غير مستقر». وكذلك الأمر بالنسبة إلى مظهر حرية التعبير، فلم تكن هذه الحرية لترفع ستار العزلة الذي أقامته الولايات المتحدة وحلفاؤها للسودان، أو لتحمي الضيوف المرموقين.

وبعد شهرين من مقابلتي بن لادن اقتحم مسلّحون بيته في الخرطوم، وحاولوا اغتياله. واشتبهت الحكومة السودانية بأن محاولي القتل كانوا مأجورين لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وبات من الواضح أن هذا المكان لم يعد صالحاً لمهديّ آخر زمان. وقد جرّدته السعودية من مواطنيّته في آخر العام. وطلب السعوديون والأميركيون تسليم الفارّ بن لادن. ولكنّ السودان فضّلت الخضوع عن طريق تسليم فارٍّ آخر إلى فرنسا؛ ألا وهو «إيليك راميريز سانشيز» المعروف باسم «ابن آوى: كارلوس»، الذي احتجز أحد عشر وزيراً في مؤتمر «أوبيك» في فيينا عام ١٩٧٥، ونظم هجوماً على السفارة الفرنسية في لاهاي. لكن كارلوس كان ثورياً شائخاً، بديناً مدمناً على الشراب، متعفناً بحيث تمكن «خيانته»، بينما كان بن لادن من طينة أخرى. وقد ألقي باللوم على أتباعه واتهموا بأنهم فجّروا قنابل في الرياض في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٩٥، ثم في الثكنات الأميركية في الخُبَر خلال السنة التالية، مما أدّى إلى مقتل ٢٤ أميركياً وهنديين. وفي عام ١٩٩٦، سُمح له بأن يغادر إلى البلد الذي يختاره ـ وكان ذلك الملجأ الذي اكتشف فيه الكثير عن دينه وإيمانه.

وهكذا كان أن رنَّ التلفون في مكتبي ببيروت أثناء أمسية حارَّة في أواخر حزيران/يونيو من عام ١٩٩٦، وقال المتحدث بلغة إنكليزية ذات نبرة عربية: «يا سيد روبرت، إن الصديق الذي قابلته في السودان يريد أن يراك». ظننتُ أولاً أنه الخاشقجي، مع أني تعرفت عليه عام ١٩٩٠، قبل أن أذهب إلى الخرطوم بوقت طويل. فأردف: «لا. لا. يا روبرت، أقصد الرجل الذي عقدتَ مقابلة معه. هل تفهم؟ ـ نعم، فهمت. ولكن أين سأقابله؟ ـ حيث هو الآن. وكنت أعلم أن بن لادن عاد إلى أفغانستان، بحسب الشائعات، ولكني لم أتأكد من ذلك. إذن كيف سأصل إليه؟ كان الجواب: «إذهب إلى جلال أباد سيتصلون بك». وأخذت رقم المتكلم، فإذا به من لندن.

كانت السفارة الأفغانية الوحيدة التي تعطيني سِمة سفر. ولم أكن على عجلة من أمري. وقلت في نفسي: لو أراد كل «بن لادنات» العالم إجراء مقابلات معهم، لما امتثلت جريدة «الإندبندنت» لإرادتهم. لكنها مغامرة صحافية. هناك ألف مراسل يريدون أن يجروا مقابلة مع أسامة بن لادن. ولكني فكرت في أن من الأفضل أن لا أسارع إلى تلبية الطلب خلال ساعات، حفاظاً على احترام الذات. وكان لديّ أيضاً شاغل أكثر إلحاحاً. فمع أن الأجهزة السرّية للشرق الأوسط ولباكستان خدمت وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) في مساعدة المجاهدين ضد الروس، فكثير منها اليوم صار في حرب مع منظمة بن لادن، الذي يحمّلونه مسؤولية عصيان بعض الفئات الإسلامية في بلادهم. فمصر، والجزائر، وتونس، والعربية السعودية، كلها اشتبهت بأن يكون بن لادن له يد في أعمال التمرّد التي حصلت فيها على التوالي. وماذا لو كانت الدعوة حيلة مدبَّرة بحيث تقود الشرطة المصرية أو أجهزة المخابرات الباكستانية الموجودة في كل مكان والمسمّاة منظمة الخدمات المشتركة (ISI)، على غير علم

مني، إلى ملجأ بن لادن؟ أو لو كانت ستغري هذا المراسل وتقوده إلى حتفه، ثم تتهم الإسلاميين بمقتله؟ وكم من المراسلين سيتجرأون بعد ذلك على مقابلة بن لادن؟ خابرت الوسيط في لندن، وسألته: «هل يمكن أن يقابلني في فندقي؟».

خابرني موظف الاستقبال في فندق «شيراتون بلغرافيا» قائلاً: «هناك شخص في بهو الفندق يريد مقابلتك». و«البلغرافيا» هو أصغر فندق «شيراتون» في العالم. ولو لم تتوافق أسعاره مع لقبه، فقد كان البهو فيه ذلك المساء كعادته رخامي البلاط، وخشبي التزيين، وحكراً على شاربات الشاي من السيدات المتقدّمات في السن، ورجال الأعمال بالمعاطف القصيرة وشعورهم البيضاء تلامس حافّة الياقة، والنساء الأنيقات بالجوارب السود. وعندما وصلت إلى البهو لاحظت رجلاً واقفاً عند الباب، ضخم اللحية، مرتدياً ثوباً أبيض وخُفّاً من البلاستيك، على قدمين حافيتين؛ يحاول أن لا يلفت إليه النظر. فهل هذا هو رسول بن لادن؟

نعم إنه هو. كان الرجل مشرفاً على جماعة لندن من «لجنة النصح والإصلاح». وهي جماعة سعودية مستوحاة من بن لادن، تصدر بانتظام بيانات طويلة متعبة ضد العائلة المالكة السعودية. جلس الرجل في بهو الفندق يشرح الطبيعة الخيّرة الشريفة لأسامة بن لادن. ولم يكن هناك ما يدل على أن لهذا الرجل شخصية عنيفة. وفي الواقع، عبّر لي بعد سنتين عن ضيقه وقطيعته مع بن لادن، عندما أعلن هذا الحرب على الأميركيين، و«الصليبيين»، واليهود. ولكن في عام ١٩٩٦، لم يكن البطل السعودي للحرب الأفغانية ليقوم بأي مبادرة خاطئة. قال الرجل: «إنه رجل مخلص، يا سيد روبرت؛ وهو يريد أن يتحدث إليك. فلا تخف من أي شيء». وهذا هو ما كنتُ أودّ سماعه، ولو كنت أعتقد بأمر آخر. فقلت له: «سأنزل في فندق «سبينجهار» في جلال أباد».

كان خط الطيران الملائم إلى شرق أفغانستان يبدأ من الهند، لكن رحلة الخطوط الجوية الأفغانية «أريانا» الرقم (FG315) القادمة من نيودلهي لم تكن تحمل مجلّات للقراءة أثناء الطيران. وكانت النسوة من ركاب الطائرة محجّبات بالكامل بالبرقع، وكان طاقم الطائرة مؤلفاً في معظمه من الملتحين، وكانت علبة الثمر الصيني المسمّى «الليتشي» المعدَّة للعصير ملطخة بالطين. مشى رئيس المضيفين إلى مقعدي، وجثم في الممر إلى جانبي، وهمس في أذني: «سنطير على ارتفاع ٣١٠٠٠ قدم»؛ وكأنه يُفضي إليّ بسرّ حربي. وعندما اقتربنا من مهبط الطائرات في جلال أباد، دار القبطان بالطائرة ١٨٠ درجة، ممّا رفع ضغط دمنا، ثم نزل بطائرته على أول إنش من المهبط الضيّق المعبَّد بمادة «التارماك» التي تشبه الإسفلت ـ ليعطي نفسه مجالاً كافياً لإيقاف الطائرة النفاثة قبل قدم واحدة من نهاية المدرج. وإذ أخذتُ بنظر الاعتبار الرادار السوفياتي الصدىء، وإمكان خراب طائرة «أنطوفوف»، أدركتُ حينئذٍ قلّة توافر وسائل الأمان والراحة لدى هبوط الطائرات في جلال أباد، بحيث لا تشبه مثيلاتها في مطار «هيثرو» ومطار «كنيدي».

وعندما مشيت بجهدٍ حاملاً حقائبي، لاحظت أن مبنى المهبط خالٍ، وأن آثار طلقات الرصاص لا تزال ماثلة عليه. لم يكن هناك موظفو هجرة أو جمارك، أو أي شخص بيده ختم، سوى ستة شبّان من الأفغان، يحمل أربعة

منهم رشّاشات. نظروا إليَّ بمزيج من الإعياء والاشتباه. ولم تنفعني كثرة التفوّه «بالسلام عليكم» في استخلاص أي فرح وابتهاج منهم جميعاً، سوى دمدمة بلغة «البوشتو»، ولسان حالهم يقول: ماذا يفعل هذا الغريب الذي لا يعتمر شيئاً على رأسه هنا في أفغانستان، وبيده آلة تصوير جديدة في كيسها، وجرابه الذي يحوي قمصاناً وقصاصات جرائد؟ قلت: «تاكسي». فأشاحوا بوجوههم عني، ناظرين إلى الطائرة الملوّنة بالأزرق والأبيض التي حطّت تحت الخطر في البلد، وكأنها تحمل السر الذي أحضرني إلى هنا.

أتيحت لي فرصة مرافقة أحد عمال الإغاثة الفرنسيين؛ وكأنهم في كل مكان. وكانت جلال أباد مدينة سمراء غبراء، بيوتها من الطين والخشب، وشوارعها ترابية غير مرصوفة بالبلاط أو بغيره، وجدرانها بلون المُغْرة تفوح منها رائحة الفحم وروث الخيل. كان فيها الحمير والأحصنة الفحول، وعربات الدولابين على النمط الهندي، والدرّاجات الفيكتورية، وواجهات المحلّات المكسوّة بألواح الخشب؛ إنها «مدينة دودج» (Dodge City) التي انتقلت إلى شبه القارة. لم يكن للخرطوم شيء من هذا. ويُروى أن اثنين من رجال حرب العصابات التابعين للمهندس حكمتيار، دخلا صالون حلاقة في الوقت ذاته خلال الشهر الماضي، وقبل أن يقرّرا مَن منهما هو الأول في الصف للفوز بقصة شعره العادية قتلا المزيِّن وشخصين آخرين بإطلاق النار. مع العلم أن ثلث جميع الأطفال الموجودين في مستشفيات جلال أباد كانوا ضحايا إطلاق رصاص ابتهاج في الأعراس. إنها مدينة حان وقت تطبيق الانضباط الإسلامي عليها.

ومن الوكالات والهيئات التي كانت هناك: وكالة سايف (SAVE)، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وأطبّاء بلا حدود، و«ماديرا»، واللجنة الدولية للصليب الأحمر، ووحدة الطوارىء الميدانية، و«ساندي جول للأيتام»، واللجنة السويدية للأفغان، والمفوضية العليا لشؤون اللاجئين، ووكالة ألمانية زراعية. وكانت تلك بعض المكاتب المشار إليها باللافتات بعيداً عن الطريق العامة الواسعة المؤدية إلى كابول. وبعد سبع سنوات على مغادرة آخر الجنود السوفيات أفغانستان، وأربع سنوات على إطاحة حكومة الرئيس محمد نجيب الله الشيوعية، انقضّ المجاهدون الأفغان المنتصرون في الحرب بعضهم على بعض يتقاتلون في كابول. ما هي القضية إذن؟ ـ أكان إرسال هذه الوكالات إلى كابول لتلطيف شعورنا بالذنب جرّاء إهمالنا الشعب الأفغاني، حالما استنفد أغراضه بإخراج الروس من بلاده؟ ـ لم يكن للأمم المتحدة من قوة عسكرية سوى جنديين يراقبان الفوضى الحاصلة في أفغانستان: أحدهما سويدي والآخر إيرلندي؛ وكلاهما مقيمان في فندق سبينجهار.

وفندق سبينجهار هذا من بقايا الطراز الأفغاني الهيبي (Hippy trail)، ذو سقف عالٍ، ويعود إلى الخمسينيّات من القرن العشرين، وتحيط به حدائق الورود وأشجار النخيل الباسقة، وينعم حتى في فصل الشتاء بدفء الرياح التي تأتي من وادي الهندوس. ولكن، في عذاب حرّ الصيف عام ١٩٩٦ ـ واليوم في منتصف شهر تموز/يوليو ـ يهدر مكيّف الهواء ويلعب معي لعبة (Catch 22): أفتحه لكي أبرّد غرفتي المزدوجة في أعلى الدرج، فيقلق راحتي ضجيج محرّكه الذي يشبه زئير النمر، ويجعل نومي مستحيلاً. ولذلك أغلقه. وحالما أدير رأسي ناحية الكتاب الوحيد الموجود قرب سريري: «قصص صريحة من الراج» (Raj)، يسيل العرق على ذراعي، ويلصق أصابعي على صفحات الكتاب.

ثم أسمع خشخشة أو صوتاً خشناً يأتيني من مكيّف الهواء الساكت. فأنهض وأرى على بُعد خمس أقدام من وجهي عظاءة برأس تنّين، تنظر إليّ من خلال ألواح المكيّف الباردة. وعندما أرفع يدي، يختفي الرأس لحظة، ثم يعود بشكل وجه مسلّح مصغّر لديناصور من نوع «برونتوصوروس» الكبير، متبوع بجذع مطاطي، بادياً بلون أخضر أغبر في أشعّة بعد الظهر الخافتة، مع قدمين ماصّتين تقبضان على المخارج البلاستيكية لمكيّف الهواء. وهو يتحرّك نخعاً، كما هي الحال في الأفلام الصامتة. أرى وجهه لحظة، ثم يستدير بسرعة فائقة ويرخي نصف جسمه المطاطي الذي يعلو ويهبط بالتنفس خارج الآلة. وبعد هنيهة أخرى يبدو نصف قدمه الكبيرة معلقاً بالستارة فوق سريري، فيتأرجح ويعود فينظر إليّ من فوق كتفه التي تبدو كقلعة حربية. فأتساءل ماذا يفعل هذا المخلوق هنا؟ ثم يعود ويختفي وراء الأغطية.

وبالطبع، أفتح مكيّف الهواء، وأغرق الغرفة بالهواء المثلج؛ وأتراجع إلى آخر السرير، وأراقب حركاته عند أعلى قضيب الستارة. إني خائف من هذا الحيوان، وهو خائف مني. ثم أدرك بعد نصف ساعة أن البرغيين اللامعين على قضيب الستارة هما عيناه اللتان تبدوان كخرزتين. وهكذا يستغرق كل منا في مراقبة الآخر ـ فهل هناك من يراقبني؟ ـ واستيقظ في الصباح التالي، منهوكاً، منقوعاً بالعرق. وأسأل موظف الاستقبال، الصبي الذي يرتدي قميصاً طويلاً و«باكولاً» (Pakul) تقليدياً، فيجيب بأنه لم يتصل بي أحد. إن بن لادن له أصدقاء في جلال أباد، وقادة قبليّون يعرفونه، ويحمونه، حتى إن الرجل الذي قابلته في لندن قال: «إن عليّ إعلام المهندس محمود أني وصلت إلى أفغانستان لرؤية الشيخ أسامة».

وتبيّن أن المهندس محمود يعمل مع «وحدة مكافحة المخدّرات» في شارع خلفي من جلال أباد. وليس من المستغرب أن يسعى بن لادن إلى استئصال استعمال المخدّرات. ففي عام ١٩٩٦، كانت أفغانستان أكبر مصدّر للأفيون غير المشروع، بإنتاج يبلغ ٢٢٠٠ طنّ متري (= ١٠٠٠ كيلوغرام) من الأفيون ـ حوالى ٨٠٪ من الهيروين المتداول في أوروبا الغربية. والأفغانيون أيضاً غير معصومين عن المخدرات. فبوسعك أن تراهم في سوق جلال أباد، شباباً بأذرع سوداء ذاوية، وعيون غائرة، ومدمنين عادوا من مخيمات اللاجئين في باكستان، كشهود على الفساد الذي زرعه الهيروين. ويرى أحد موظفي المعونة من الغربيين أنه ربما يتّعظ الأفغان عندما يشاهدون آثار الخشخاش الذي يزرعونه. فإذا كانوا مسلمين حقاً، عليهم أن يتوقفوا عن زرعه. فهل يفعلون؟ أردف بابتسامة متجهّمة.

ربما لن يفعلوا. فإقليم «ننجرهار» الشرقي ينتج ٨٠٪ من زراعة الخشخاش في البلاد ـ ليصدّر ٦٤٪ من هيروين أوروبا الغربية ـ وقد نُقلت مختبراته من باكستان إلى قطاع حدودي داخل أفغانستان، لإنتاج مئات الكيلوغرامات من الهيروين يومياً. مع العلم أن هذه المنشآت مجهزة بمدافع مضادة للطائرات، وبعربات مدرّعة لمجابهة أيّ هجوم يقع عليها. ويدّعي موظفو الحكومة المحلية في جلال أباد أنهم أتلفوا ٠٠٠ ٣٠ هكتار من حقول الأفيون والحشيش خلال السنتين الماضيتين. ولكن جهودهم مهما كانت شجاعة إزاء النفوذ العسكري لمنتجي المخدرات، فهي مساعٍ ميئوس منها، على غرار محاولات العالم لإيجاد حل لسوء استعمال المخدرات.

وفي مكتب المهندس محمود، تبدو المشكلة سهلة. فهناك خريطة على الجدار تبيّن في إقليم «نانجرهار» إشارات ترمز إلى موقع عند الحدود الشرقية، حيث حقول الأفيون ومختبراته التي يكافحها محمود برجال «كومندوس» مسلّحين أيضاً. وهو يقول: «نحن نتلف حقول الحشيش، ونلزم المزارعين بحراثة الأرض؛ كما نأخذ جرّاراتنا لفلاحة حقول الخشخاش. نصطحب أسلحتنا وصواريخنا، ولا يستطيع المزارعون أن يفعلوا شيئاً لوقف ذلك. والآن دعا مجلس الشورى عندنا العلماء أي الشيوخ لتوعية الناس بمضارّ إنتاج المخدرات، مستشهدين بآيات من القرآن الكريم لدعم كلامهم. ولأول مرة، استطعنا إتلاف حقول الحشيش، دون استعمال القوة». وقد تشجع محمود ورجاله العشرة واشتد عزمهم لمساعدة الأمم المتحدة ودعمها لمشروعهم. وفي السوق المفتوحة في جلال أباد، كان المزارعون يتلقّون ١٤٠ دولاراً أميركياً لقاء ٧ كلغ من الحشيش، و٢٥٠ دولاراً أميركيا لقاء ٧ كلغ من الأفيون ـ أي ما يناهز السعر ذاته الذي قد يتلقونه إذا زرعوا حبوباً. ولذلك أمدّت الأمم المتحدة ببزور القمح أولئك المزارعين الذين تحوّلوا عن إنتاج المخدرات، على أساس أنهم سيحققون الربح ذاته في أسواق جلال أباد.

وقبل عدة شهور، زار المهندس محمود واشنطن. وهنا تتبدّى الجغرافيا الغريبة التي تمسّ اتصالات بن لادن. قال محمود: «أخذتني السلطات الأميركية للوقاية من المخدرات إلى مركز قيادتها. وقد لا تتصوّر ضخامتها، إنها تعادل نصف مدينة جلال أباد. وعندما دخلتها وجدتها فخمة، وفيها وفرة من الحواسيب. لديهم كل المال هنا ـ ولكن ليس لديهم أيّ منّا، نحن الذين نكافح إنتاج المخدرات». كان رجال المهندس محمود المتقدمون في وظيفتهم، يتلقون شهرياً أقل من خمسين دولاراً. وقد قال مساعده الأول شمس الحق أن وحدة مكافحة المخدرات اشترت ٤٠٠٠ كلغ من بذار الذرة ووزعته على المزارعين، في الشهر الماضي. ولكن المنظمات غير الحكومية الغربية الموجودة في جلال أباد، ليس لديها وقت لتهتم بكل هذه الأمور. وقد ذهب الحاج قادر حاكم جلال أباد إلى المسؤولين عن مكافحة المخدّرات في إسلام أباد وقال لهم: «لقد أتلفت ٠٠٠ ٢٠ هكتار من حقول الأفيون، وعليكم أن تساعدوني، فالناس تنتظر مساعدتكم». ولكن القضية كانت أكثر تعقيداً من ذلك، فالمزارعون الذين لم يسبق لهم أن زرعوا الخشخاش أقبلوا على زراعته، كي يحصلوا على بذار الذرة المجّاني، تعويضاً لهم عن إتلاف ما زرعوه. وقد ساور الشك موظفي المعونة، إذ شعروا بأن المزارعين يداورون منتوجاتهم الزراعية بين القمح والمخدرات في كل موسم، فيبيعون الأفيون للحصول على مزيد من المال، ومن أجل الأسلحة التي نُقلت مؤخراً في صناديق عبر محطة القطارات الباكستانية المسماة «لاندي كوتال»، على متن قطار البخار في بشاور إلى الحدود الأفغانية.

لقد أصبحت زراعة الخشخاش عملاً تجارياً؛ واستقدم زبائن «بارونات» المخدرات مستشارين فنيين، يزورون «نانجرهار»، ليقدموا نصائحهم بخصوص المحصول والمنتوج؛ وصاروا يدفعون مقدّماً؛ ويهتمون بصحّة عمالهم، فيعطونهم أقنعة ليلبسوها في مصانع الأفيون. ويُروى أنهم قدّموا لهم أيضاً تأمينات صحية. إنها الرأسمالية على مستوى غير قانوني، لا يرحم. وعندما سألت موظفاً أوروبياً من موظفي الأمم المتحدة: «كيف يستطيع العالم أن

ينافس بهذا الشأن»؛ أخذ نفساً عميقاً وصاح «اجعلوا المخدرات قانونية؛ إن ذلك يؤذن بنهاية «بارونات» المخدرات؛ إنهم سيفلسون ويقتل بعضهم بعضاً. ولكن العالم لن يقبل بهذا الحل. ولذلك سنستمر نجاهد في حربنا الخاسرة».

وقد هزّ المهندس محمود كتفيه استهجاناً عندما أبلغته ذلك. ماذا يستطيع أن يفعل؟ وأثرت معه موضوع «الشيخ أسامة» للمرة الثالثة. وكررت أن الشيخ يريد أن يراني، ولم أكن ساعياً إليه. وقد جئت إلى جلال أباد بناء على طلبه. إنه يفتش عني. فقال المهندس محمود بمنطق تخريبي: «ولماذا تطلب مني أن أجده لك؟». ولم تكن المشكلة مشكلة لغة بيني وبينه، لأنه يتكلم الإنكليزية بشكل ممتاز. لقد كان ذلك مزيجاً من الفهم والاشتباه. فقلت إن شخصاً لا أريد أن أسمّيه ـ ذلك الشخص في لندن ـ اقترح عليّ أن أتصل بمحمود، لعلّه يخبر الشيخ أنني موجود في فندق «سبينجهار». فنظر إليّ محمود مشفقاً، وقال: «ماذا أستطيع أن أفعل؟».

أرسلت رسالة عن طريق جندي الأمم المتحدة السويدي، وهو الشخص الوحيد الذي يتخاطب بالراديو إلى الشخص الوحيد الذي أثق به في العالم، قائلاً: «لم يحصل أيّ اتصال حتى الآن. أرجوك أن تتصل بوسيط بن لادن في لندن». وفي اليوم التالي وردتني رسالة بالراديو بما معناه: «بلّغ روبرت أن يوضح أنه ليس هنا برغبته؛ بل يستجيب لدعوة صديقنا. وعليه أن يشرح للمهندس أنه قبل الدعوة ليس إلّا . . . وليوضحْ تماماً أنه مدعوّ، ولم يأتِ من تلقاء ذاته. هذا هو أسرع تدبير. وإلّا عليه أن ينتظر». فعدتُ إلى المهندس محمود؛ وكان في أحسن حال. وفي الواقع، وجد المسألة هزلية، ومثيرة للدعابة إلى حدٍّ كبير، فأنا أنتظر الشيخ. وكان الأمر بنظره وهمياً، مضحكاً، وغريباً. شربنا الكثير من فناجين الشاي. وكلما وصل زائر ما ـ مثل موظف في دائرة مكافحة المخدّرات، أو في الحكومة المحلّية، أو حتى درويش يلتمس مساعدة ابنه المسجون بتهمة تعاطي مخدرات ـ يُسلُّونه بقصة الإنكليزي الكاشف الرأس، الذي يعتقد أنه دُعي إلى جلال أباد، وهو ما زال منتظراً ومنتظراً في فندق «سبينْجهار».

عدتُ إلى «سبينجهار» في قيظ الظهيرة، وجلستُ قرب المرجة أمام ذلك المبنى. وتذكرت أني اختبأت في الفندق ذاته منذ ١٦ سنة، عندما أرسل ليونيد بريجنيف الجيش السوفياتي إلى أفغانستان، إذ سافرت حينئذٍ خلسة إلى جلال أباد، وراقبت صفوف المدرَّعات الروسية تمرّ بصريرها أمام البوابات. وسمعت رعد طائراتهم الطوَّافة فوق المبنى، وشعرتُ باهتزاز النوافذ لدى إطلاقها الصواريخ على سلسلة جبال «تورا بورا» إلى الشمال، لكني الآن أرى الفراشات تحوم وتلهو حول مجموعات الورود الزهرية، والبستانيين يلقون أدوات البستنة، ويمدّون على العشب سجّادات الصلاة. إنه منظر أشبه بالجنة. شربت الشاي على مرجة العشب، وتمتعتُ بالنظر إلى غروب الشمس ـ الذي تمَّ بسرعة، وأنا أنظر إليه بالعين المجرَّدة، وراء سُعف النخيل فوقي. وكان ذلك في الخامس من شهر تموز/يوليو، أحد أكثر الأيام حرّاً في السنة. ثم ذهبتُ إلى غرفتي ونمتُ.

«طق، طق، طق»؛ كأنَّ أحدهم يهوي على رأسي بمعول الثلج. منذ طفولتي كرهت هذه اللحظات: سحب

الشراشف، والطرق الملحاح على باب غرفة النوم، وصراخ الموقظ يدعوني إلى النهوض. ولكنّ هذا مختلف. «طق، طق، طق، طق، طق، طق». جلست، فسمعت طقطقة مفاتيح سيارة على شباك غرفتي، وصوتاً يهمس بإلحاح: «مستر روبرت، مستر روبرت»؛ ـ نعم، نعم، أنا هنا ـ «أرجوك أن تنزل، هناك شخص يريد أن يراك». لا شك أنه تسلّق سلّم الحريق العتيق ليصل إلى شبّاك غرفتي. لبست ثيابي، وأخذت معطفي ـ وكان لدي شعور بأننا سنسافر في الليل ـ وكدتُ أنسى آلة التصوير «نيكون» القديمة. مشيتُ بمنتهى الهدوء أمام مكتب الاستقبال، وخرجت إلى الحرّ عند أوائل بعد الظهر.

كان الرجل مرتدياً ثوباً أفغانياً قذراً أغبر، وطاقية صغيرة مدوَّرة من القطن، لكنه كان عربياً. ألقى عليّ السلام رسمياً، وهو يمسك يديّ بيديه الاثنتين، وابتسم. قال إن اسمه محمد، وكان دليلي. فسألته: «كي نرى الشيخ؟»، فابتسم ولم ينبس ببنت شفة. وكنت لا أزال قلقاً من إمكان نصب فخٍّ لي. لكن اسم الدليل محمّد، أليس كذلك. وأمامنا مشوار مسائي. وكنت أستطيع أن أسمع ما سيقوله الشهود العيان: نعم سيدي، رأينا الصحافي الإنكليزي، يقابل شخصاً خارج الفندق. لم يحصل أي نزاع. لقد غادر حرّاً بإرادته؛ وخرج من باب الفندق.

تبعتُ محمّداً على الفور عبر غبار الشارع الرئيسي في جلال أباد، حتى صرنا على مقربة من مجموعة مسلحين في شاحنة صغيرة واقفة في خرائب قاعدة قديمة للجيش السوفياتي؛ فيها عربات مدرّعة معطوبة، وعلى إحدى بواباتها المتهدمة نجمة حمراء صدئة. كان على ظهر الشاحنة ثلاثة رجال بطاقيّات أفغانية. أحدهم يحمل رشّاش «كلاشينكوف»، وآخر يتشبّث بقاذف قنابل يدوية مع ستة صواريخ مربوطة بشريط لاصق. أما الثالث، فكان يحتضن مدفعاً رشاشاً كاملاً، مع مِنصب وذخيرة. قال السائق بهدوء: «يا سيد روبرت هؤلاء هم حرّاسنا». كما لو كان من الطبيعي في الدنيا أن تسافر في مجاهل منطقة «نانجرهار» في أفغانستان في حرٍّ قائظ بعد الظهر، مع ثلاثة ملتحين من أفراد حرب العصابات. وكان هناك جهاز إرسال مزدوج بالراديو يهسهس ويطقطق على كتف رفيق السائق، بينما كانت شاحنة أخرى تسير وراءنا.

وقبل انطلاقنا، قفز محمد من الشاحنة مع السائق، وانتحيا ناحية ظليلة ليصلّيا. وبقيا حوالى خمس دقائق راكعين، باتجاه ممرّ كابول، وبعيداً من ورائه نحو الكعبة في مكة. انطلقت سيّارتنا على طريق محفَّرة، ثم انعطفنا إلى طريق ترابية قرب قناة ريّ. وكانت الأسلحة على طرف الشاحنة الخلفي تتقافز على الأرض، وعيون الحرس ترمقنا من خلال كوفيّاتهم الملوّنة. سافرنا ساعات على هذا النحو، ومررنا بقرى بدت بيوتها الطينية شبه مدمَّرة، وبوديان وبصخور سوداء شامخة؛ إنها رحلة على سطح القمر.

وعبر هذا الحرّ الأغبر، بدت لنا أشباح حرب مخيفة. حرب اللهاث الأمبريالي الأخير للحكم الشيوعي، بسواتره وحواجزه ومراكز إطلاق النار، ومواقع المدفعية، وسائر الأسلحة، وبقايا الدبابات المحروقة التي يكسوها العشب والغبار. ومن لهيب بعد الظهر برزت لنا بلدة كاملة، مبنية على شكل قلاع من الطين، وقد اخترق جدرانها رصاص المدافع والقنابل. وكان هناك أولاد عراة يلعبون بين الخرائب. وعندما وصلنا إلى الجهة الثانية من بلدة

الأشباح خرج بنا السائق عن الطريق؛ واتجه بالسيارة عبر الطين الصَّفحي والصخور الصلبة، بحيث صارت الحجارة تفرقع تحت عجلات سيارتنا، بينما كنا نطوف كيلومترات من الحقول المغطاة بالغبار الأصفر. قال محمد: «هذه هدية من الروس. لقد زرعوا هذه الناحية بآلاف الألغام؛ ولذلك لا يعمل أحد هنا؛ ولذلك مررنا من هنا».

وقد توقفنا مرة، وكانت الشمس تميل إلى الغروب، لكي يأتي المسلحون ببعض ثمار البطّيخ من أحد الحقول ويعودوا مسرعين إلى الشاحنتين حيث كسروا البطيخ، وسال عصيره بين أصابعهم. وعند الغسق، وصلنا إلى سلسلة من القرى الضيّقة، حيث رأينا رجالاً مسنّين يوقدون الحطب قرب الطريق، بينما تلفّ النساء رؤوسهن بالبراقع الأفغانية، ويقفن في الأزقة. وكان هناك عدد أكبر من رجال العصابات، الملتحين، يلقون نظرات عريضة على محمد وعلى السائق. وحلَّ الليل قبل أن نصل إلى بستان، وجدنا فيه أسرَّة مغطّاة بحرامات الجيش، مراكمة مع أربطتها وقطع النسيج المتين الذي يوضع تحتها. كما طالعنا فيه من الظلمة رجال مسلّحون، كلّهم باللباس الأفغاني، والطاقيّات الصوفية المسطّحة الناعمة، ويحمل بعضهم رشّاشات، وبعضهم الآخر مدافع. إنهم المجاهدون العرب، العرب «الأفغان» المشجوبون من قِبل الرؤساء والملوك في نصف العالم العربي، ومن قِبل الولايات المتحدة أيضاً. وسيعرفهم العالم عمَّا قريب، باسم «القاعدة».

لقد قدموا من مصر، والجزائر، والعربية السعودية، والأردن، وسوريا، والكويت. كان اثنان منهم يضعان نظارات؛ قال أحدهما إنه طبيب. صافحني قليل منهم مصافحة رزينة وسلَّموا عليّ باللغة العربية. علمتُ أن هؤلاء يفدون بن لادن بحياتهم؛ ويعتقدون أنهم أنقياء في عالم فاسد، وأنهم متأثرون بأحلام اقتنعوا بأنها من السماء. وأومأ محمد إليّ بأن أتبعه، فسرنا بمحاذاة نهر واجتزنا مجرى مائيّاً حتى خرقنا الظلام الحافل بالحشرات، وبلغنا قنديل كاز يطشّ طشيشاً، يجلس قربه رجل طويل ملتحٍ بأثواب سعودية. وقف بن لادن وبجانبه إبناه المراهقان عمر وسعد، وقال: «أهلاً بك في أفغانستان».

كان عمره آنذاك أربعين سنة، لكنه بدا أكبر سناً مما قدّرته عندما رأيته في الصحراء السودانية في أواخر عام ١٩٩٣. مشى نحوي كالطود بين أصحابه، طويلاً، نحيفاً، مع بعض التجاعيد المستجدّة حول عينيه الضيّقتين. كان أكثر نحولاً، وطالت لحيته، لكنها أصبحت موشّحة بالشيب. وكان يلبس صدرية سوداء فوق ثوبه الأبيض، وكوفيّة مخطّطة بالأحمر على رأسه، وقد بدا مرهقاً. سأل عن صحتي فأخبرته أني جئت من مكان بعيد، فغمغم: «وأنا كذلك». لاحظت عليه شيئاً من الانعزال أو التباعد لم أعهده فيه من قبل؛ كما لو كان يفحص غضبه وطبيعة استيائه. وعندما ابتسم، اتجه بنظره نحو ابنه عمر، البالغ من العمر ١٦ سنة ـ بعينين مستديرتين، وحاجبين أسودين مع كوفيّته ـ ومن ثم حدّق إلى الخارج حيث الظلام الدامس الحار، وحيث كان رجاله المسلحون يخفرون الحقول. وقد تجمّع آخرون ليستمعوا إلى محادثتنا. فجلسنا على حصير من قش، وجيء بكأس من الشاي فوضِع بجانبي.

منذ عشرة أيام تماماً، هدمت قنبلة وضعت في شاحنة جزءاً من المجمّع السكني لقوة الطيران الأميركي في الخُبَر بالظهران. وكنا نتكلم في ظل موت ١٩ جندياً أميركياً، قُتلوا هناك. وقد زار وزير الخارجية الأميركي «وارن كريستوفر» ذلك الخراب، ووعد متنبّئاً بأن أميركا «لن يهزَّها العنف»، وأن الجُناة ستتمّ ملاحقتهم. وقد تنبّأ الملك فهد، ملك العربية السعودية، بإمكان حدوث عنف عندما وصلت القوات الأميركية «لتدافع» عن مملكته عام ١٩٩٠. ولهذا السبب استحصل من الرئيس جورج بوش بتاريخ ٦ آب/أغسطس على وعد بأن تغادر جميع الفرق العسكرية الأميركية المملكة، عندما يزول التهديد العراقي. ولكن وجود الأميركيين استمرّ، مدّعين أن بقاء نظام صدّام ـ الذي اختار بوش أن لا يدمّره ـ يمثل خطراً على الخليج.

عرف بن لادن ماذا يريد أن يقول: «منذ فترة ليست ببعيدة نصحتُ الأميركيين بأن يسحبوا قوّاتهم من السعودية. والآن ننصح حكومتي بريطانيا وفرنسا بأن تُخرجا قوّاتهما. لأن ما حصل في الرياض والخُبَر يدلّ على أن من قاموا بذلك يفهمون فهماً عميقاً كيف يختارون أهدافهم. إنهم يضربون عدوّهم الرئيسي، أي الأميركيين. لم يقتلوا أيّ أعداء ثانويين، ولا إخوانهم في الجيش، أو رجال الشرطة في العربية السعودية... إني أقدّم هذا النصح إلى حكومة بريطانيا. يجب أن يغادر الأميركيون العربية السعودية والخليج. إن الشرور التي تحيق بالشرق الأوسط نشأت من محاولة أميركا الاستيلاء على المنطقة، ومن دعمها إسرائيل.

كان بن لادن يتكلم ببطء وبدقّة، بينما كان رجل مصري يدوّن الملاحظات في دفتر كبير بجانب ضوء القنديل، كما لو أنه كاتب من القرون الوسطى. وأردف بن لادن قائلاً: «وهذا لا يعني أننا أعلنّا الحرب على الغرب وشعبه. ولكن ضد النظام الأميركي الراهن، الذي هو ضد كل أميركي». فقاطعته بقولي: «لقد انتخب الأميركيون حكومتهم، خلافاً لأنظمة الحكم العربية؛ ويقولون إن حكومتهم تمثلهم». فأهمل الشيخ تعليقي؛ وحسناً فعل. ففي السنوات القادمة، ستجلب حربه الموت لآلاف من المدنيين الأميركيين. قال: «إن انفجار الخُبَر لم يأتِ كردّ فعل مباشر على الاحتلال الأميركي ولكن كعاقبة للسلوك الأميركي إزاء المسلمين، ودعمه لليهود في إسرائيل، والمجازر التي ارتكبت في فلسطين ولبنان ـ في صبرا وشاتيلا وقانا ـ ومؤتمر شرم الشيخ».

لقد فكر بن لادن في هذا الأمر مليّاً. إن القتل الوحشي لعدد يناهز ١٧٠٠ شخص فلسطيني بواسطة ميليشيات «الكتائب اللبنانية» المتحالفة مع إسرائيل عام ١٩٨٢، وإقدام إسرائيل على قتل ١٠٦ مدنيين لبنانيين في مخيم للأمم المتحدة في قانا جنوب لبنان، قبل أقل من ثلاثة أشهر من هذا الاجتماع مع بن لادن، هي بيِّنات ثبوتية على وحشية إسرائيل في نظر ملايين الغربيين، ناهيك بالعرب. لقد اعتبر العرب مؤتمر شرم الشيخ المعقود «ضد الإرهاب» على الساحل المصري برعاية الرئيس كلينتون، إذلالاً لهم. لقد أدان فيه كلينتون إرهاب «حماس» و«حزب الله» اللبناني، دون إدانة العنف الإسرائيلي. ولذلك ضُربت القنابل في الخُبَر، من أجل فلسطينيّ صبرا وشاتيلا، ومن أجل قانا ومن أجل النفاق الذي أبداه كلينتون. كانت هذه رسالة بن لادن. فلا يكفي إخراج

الأميركيين من الخليج، ولا بد أن يُثأر للأخطاء التاريخية التي تُرتكب بحق العرب والمسلمين. لقد كان نصحه للأميركيين تهديداً مخيفاً رهيباً، سيتحقق في الأعوام القادمة.

ولكنّ ما أراد بن لادن أن يتكلم عنه كان بخصوص العربية السعودية. فمنذ آخر اجتماع لنا في السودان، قال إن الوضع في المملكة يتدهور. فالعلماء والقادة الدينيُّون أعلنوا في المساجد أن وجود الجيش الأميركي في البلاد ليس أمراً مقبولاً؛ وقد اتخذت الحكومة تدابير زجرية بحق هؤلاء العلماء، «بناء على نصيحة الأميركيين». بدأ النظام السعودي تطبيق الشريعة الإسلامية. وتحت هذه الراية طفق كل الناس في العربية السعودية يساعدون العائلة السعودية على توطيد نفوذها. ثم بعد اكتشاف النفط، حظي النظام السعودي بدعم آخر، هو المال لجعل الناس أغنياء، وتقديم الخدمات إليهم والحياة التي أرادوها والتي تجعلهم راضين».

كان بن لادن يفرك أسنانه بالمسواك الخشبي المعروف، ولكن التاريخ الذي يسرده شكّل أساساً لكل ملاحظاته. وعدت العائلة المالكة السعودية بالشريعة الإسلامية، بينما سمحت في الوقت ذاته للولايات المتحدة «بتحديث العربية السعودية، وباستنزاف الاقتصاد». لقد لام النظام السعودي لصرفه ٢٥ ملياراً لدعم صدّام حسين في حرب إيران والعراق، ثم ٦٠ ملياراً لدعم الجيوش الغربية عام ١٩٩١ ضد العراق، و«شراء المعدَّات والتجهيزات الحربية التي لا تلزم ولا تفيد البلد، وشراء الطائرات بالدين»، فضلاً عن إحداث البطالة والضرائب العالية، وإفلاس الاقتصاد في الوقت ذاته. ولكن عام ١٩٩٠ كان التاريخ المحوري، عندما غزا صدام حسين الكويت، و«دخلت القوات الأميركية العربية السعودية بلاد الحرمين الشريفين، فاحتجّ العلماء وطلاب الشريعة ضد تدخّل القوات الأميركية. لقد كانوا يساندون الأمم التي كانت تحارب المسلمين؛ وساعدوا اليمنيين الجنوبيين الشيوعيين ضد اليمنيين المسلمين؛ وهم يساعدون نظام عرفات في محاربته لحماس».

وكان نسيم الليل إذ ذاك يهبُّ عبر الأشجار السود، ويحرِّك أثواب المقاتلين العرب الملتفّين حولنا. بسط بن لادن يده اليمنى واستعمل أصابعه ليورد أخطاء المملكة. وقال: «في الوقت ذاته، نشبت الأزمة المالية، وعلى كل الناس الآن أن يعانوا منها. فقد وجد التجار أن اتفاقياتهم أُلغيت؛ والحكومة مدينة لهم بمبلغ ٣٤٠ مليار ريال سعودي، وهو مقدار هائل يساوي ٣٠٪ من الدخل القومي داخل المملكة. وارتفعت الأسعار، وأُلزم الناس بأن يدفعوا أكثر فأكثر للكهرباء، والماء، والوقود. أما المزارعون السعوديون فلم يتلقوا أية دفعة مالية منذ عام ١٩٩٢ ـ ومَنْ حصل منهم على منحة، فقد نالها من المصارف كقرض من الحكومة. والتعليم العام يتدهور، بحيث يرسل الناس أولادهم إلى المدارس الخاصة الباهظة التكاليف».

وتوقف بن لادن لحظة ليرى هل أصغيت إلى الدرس الذي ألقاه في التاريخ. وهو درس نبيه ومخيف بشكل غير اعتيادي. واستأنف قائلاً: «يتذكر الناس اليوم ما قاله العلماء، ويدركون أن أميركا هي السبب الجوهري لنشوء مشاكلهم... والشخص العادي يعرف أن بلده هو أكبر منتج للنفط في العالم كله، لكنه في الوقت نفسه بلد يعاني من الضرائب وسوء الخدمات. إن الناس يفهمون آلاف خُطب العلماء في المساجد، مدركين أن بلدنا أصبح

مستعمرة أميركية. وهم يعملون بتصميم وفي كل عمل من أعمالهم لإخراج الأميركيين من العربية السعودية. إن ما حدث في الرياض والخُبَر هو برهان واضح على الغضب العظيم الذي يكنّه الشعب السعودي لأميركا. إن السعوديين اليوم يعرفون تماماً أن عدوهم الحقيقي هو أميركا». إن بن لادن يجتهد ليوحي بأن حجته دامغة. فقلب نظام الحكم في السعودية، وطرد القوات الأميركية من المملكة يمثلان الهدف ذاته، في نظره. إنه يدّعي أن القيادة الدينية الحقيقية للسعودية ـ بمن فيها هو نفسه ـ هي القوة الموحية للسعوديين؛ وأن السعوديين أنفسهم سيخرجون الأميركيين من ديارهم، وأن السعوديين ـ الذين ما زالوا حتى اليوم شعباً غنياً راضياً مرضياً ـ قد يجابهون الولايات المتحدة الأميركية ـ فهل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟

كان الهواء حافلاً بالحشرات. وكنتُ أكتب في دفتري بيدي اليمنى، وأدفعها عن وجهي وثيابي بيدي اليسرى. لقد كانت حشرات كبيرة لها أجنحة واسعة، تصفع قميصي وصفحات دفتري. ولاحظت أنها كانت تصدم ثوب بن لادن وحتى وجهه، كما لو كانت مستثارة بالغضب المنبعث من هذا الرجل. كان يتوقف أحياناً عن الكلام لفترة تدوم حتى ستين ثانية ـ وكان الرجل العربي الوحيد الذي رأيته يفعل ذلك ـ حتى يفكر في ما سيقول. فمعظم العرب يتفوهون بأول ما يخطر على بالهم، عندما يطرح عليهم المراسلون السؤال، لئلا يُظنّ أنهم جاهلون إن لم يفعلوا ذلك. كان بن لادن مختلفاً. كان يدقّ ناقوس الخطر، ولديه قناعة ذاتية تامة بما يقول ويفعل. وهي صفة خَطِرة تقود الرجال إلى الحرب. وقد لمستها في السنوات التالية لدى الرئيس جورج بوش وطوني بلير ـ ولكن لم أشعر بخطرها أبداً لدى أسامة بن لادن المصمِّم وصادق العزيمة.

كان لحسابات بن لادن ناحية قاتمة. «فإذا انفجر كيلو واحد من متفجرات (TNT) في بلد لم يسمع فيه أحد بتفجير خلال مئة سنة، فهذه بيّنة واضحة على مدى غضب الناس ضد الأميركيين، وعلى قدرتهم على الاستمرار في المقاومة ضد الاحتلال الأميركي». هل صحَّت نبوءتي، وهل فكَّرت ملياً في التشبيه الاستعاري المخيف الذي استعمله بن لادن بخصوص متفجرات (TNT)؟ وهل هناك بلد لم يعرف الحرب داخل حدوده لأكثر من مئة سنة، يمكن أن يضرب «ببيِّنات» عن غضب الناس ٢٥٠٠ مرَّة، أكثر مما يمكن أن يتصور؟ ـ لكنني كنت أحسب معادلات مُمِلَّة.

سألني بن لادن سؤالاً ـ يعتبر عادياً لدى كل فلسطيني يعيش تحت الاحتلال: ألم يقاوم الأوروبيون الاحتلال، خلال الحرب العالمية الثانية؟ فقلت له: «لا يقبل أي أوروبي هذه الحجة بشأن العربية السعودية ـ لأن النازيين قتلوا ملايين الأوروبيين، بينما لم يقتل الأميركيون سعودياً واحداً. فهذه المقارنة مجحفة وخاطئة». فلم يوافق بن لادن، وقال: «نحن المسلمين لدينا شعور قوي يربطنا بعضنا البعض، ويجعلنا كالبنيان المرصوص... نحن نشعر مع إخواننا في فلسطين وفي لبنان... وعندما يقتل ٦٠ يهودياً داخل فلسطين ـ وكان يتحدث عن القنابل البشرية الفلسطينية التي تفجرت في الشهر الماضي ـ يلتئم شمل كل العالم خلال أسبوع لإدانة هذا العمل، بينما لم يثر موت ٦٠٠,٠٠٠ طفل عراقي رد الفعل ذاته». وكانت تلك أول إشارة من بن لادن إلى العراق وإلى عقوبات الأمم المتحدة التي ستفضي إلى موت أكثر من نصف مليون طفل، بحسب تقدير موظفي الأمم المتحدة

ذاتها. وأردف بن لادن قائلاً: «إن قتل أولئك الأطفال العراقيين هو «حرب صليبية» ضد المسلمين. ونحن كمسلمين لا نحب النظام العراقي، ولكننا نعتقد أن الشعب العراقي وأطفاله هم إخوتنا، ونحن نهتم بمستقبلهم». وكانت تلك أول مرة أسمع فيها من بن لادن عبارة «الحرب الصليبية».

ولم تكن تلك أول ولا آخر مرة ينأى بن لادن فيها عن دكتاتورية صدّام حسين. وحسناً فعل. فقد غزت الولايات المتحدة الأميركية العراق، بعد خمس سنوات من هذا التاريخ، غزواً يبرِّره جزئياً دعم ذلك النظام من قبل شخص يمقت ذلك النظام. ولكن لم تكن تلك الكلمات الوحيدة التي أطلقها بن لادن تلك الليلة، والتي تستحق مزيداً من اهتمامي. ومن محطّاتها أنه وضع يده على صدره وقال: «أعتقد أن الأميركيين سيغادرون العربية السعودية عاجلاً أم آجلاً، وأن الحرب التي أعلنتها أميركا على الشعب السعودي تعني أنها حرب ضد كل المسلمين في كل مكان. وستستمر المقاومة ضد أميركا، وتنتشر في أماكن عديدة في البلدان الإسلامية. إن قادتنا الذين نثق بهم، أي علماءنا، قد أفتونا أن علينا إخراج الأميركيين من بلادنا».

إلى الشرق من مخيّم بن لادن، هبّت عاصفة رعدية لبعض الوقت، وكنا نستطيع أن نرى البرق البرتقالي الساطع فوق الجبال عند حدود باكستان. ولكن بن لادن ظنّ أنها نيران مدافع، استمراراً للمعارك التي دارت بين مجموعات المجاهدين، تلك المعارك التي آذت روحيته، بعد انتهاء الحرب ضد السوفيات. بدأ يشعر بالضيق. فقطع حديثه ليصلّي. ثم قدّم بعض الرجال المسلّحين طعام العشاء على حصير من القش؛ وشمل أطباقاً من لبن الزبادي والجبن وخبز «نان» الأفغاني، ووفرة من الشاي. جلس بن لادن بين ابنيه صامتاً، وعيناه على طعامه. وكان يطرح عليّ أسئلة من وقت إلى آخر. ماذا قد يكون رد فعل حكومة العمال البريطانية على طلبه سحب القوات البريطانية من العربية السعودية؟ وهل كان قائد حزب العمال، طوني بلير، مهماً؟ ـ لا أستطيع، بكل أسف، أن أتذكر جوابي. وأنبأنا بن لادن أن زوجاته الثلاث سيلتحقن به قريباً في أفغانستان، وبإمكاني أن أرى الخِيَم التي سيُقمن فيها، إذا شئتُ، خارج جلال أباد؛ إنها لا تعدو كونها خيماً متواضعة للعائلة. وقد طلب من أحد المصريين وكان يحمل رشّاشاً أن يريني مكان التخييم في اليوم التالي.

ثم أشار إليّ وقال فجأة: «إني مندهش من تصرّف الحكومة البريطانية. لقد أرسلوا إليّ رسالة عبر سفارتهم في الخرطوم، يقولون فيها إنهم لن يستقبلوني في المملكة المتحدة. ولكني لم أطلب المجيء إلى بريطانيا. فلماذا أرسلوا تلك الرسالة التي تقول: «إذا جئتَ إلى بريطانيا، فلن يُقبل دخولك إليها»؟ فقد أعطت الرسالة فرصة لصحافة العربية السعودية كي تدّعي أنني طلبت اللجوء السياسي إلى بريطانيا ـ مع أن ذلك غير صحيح. لقد صدَّقت بن لادن، كانت أفغانستان البلد الوحيد الباقي له، بعد إقامة خمس سنوات ونصف السنة في السودان. فوافقني على ذلك قائلاً: «آمن بلد لي هو أفغانستان». وكررت أنا: إنها المكان الأوحد الذي يستطيع فيه أن يدير حملة ضد الحكومة السعودية. فضحك بن لادن وبعض مقاتليه العرب، وقال: «هناك أمكنة أخرى». فسألت: هل قصدت طاجكستان؟ أو «أوزباكستان؟ أو كازاخستان؟ قال: «هناك عدة أمكنة، لنا فيها أصدقاء وإخوان حميمون، نجد فيها ملاذاً وأماناً».

أخبرت بن لادن بأنه صار ملاحقاً مطارداً. فقال: «إن الخطر جزء لا يتجزأ من حياتي». ثم عاود الرجوع إلى الوراء تاريخياً بقوله: «هل تعلم أننا صرفنا عشر سنوات ونحن نحارب الروس وجهاز مخابراتهم (KGB)..... وعندما كنا نقوم بذلك في أفغانستان، جاءنا ١٠ ٠٠٠ سعودي ليقاتلوا على مدى عشر سنوات. وكانت هناك ثلاث رحلات أسبوعية بالطائرة من جدَّة إلى إسلام أباد، وعلى كل رحلة سعوديون قادمون للمشاركة في القتال...». ولكني بادرته دون رأفة: «ألم يدعم الأميركيون المجاهدين ضد السوفيات؟ فأجاب بن لادن فوراً: «لم نكن أبداً على علاقة صداقة مع الأميركيين، لعلمنا أنهم يناصرون اليهود في فلسطين، وأنهم أعداؤنا. لقد دفع السعوديون ثمن معظم الأسلحة المستقدمة إلى أفغانستان، بطلب من الأميركيين، لأن تركي الفيصل [رئيس الاستخبارات الخارجية السعودية] كان هو ووكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) يعملان معاً.

أصبح بن لادن الآن يقظاً، قلقاً؛ وكأن لديه شيئاً يبغي أن يقوله: «دعني أقل لك هذا. استقبلت في الأسبوع الماضي مبعوثاً من السفارة السعودية في إسلام أباد. نعم، لقد جاء إلى هنا ليراني. إن حكومة العربية السعودية تريد طبعاً أن تعطي الناس هنا انطباعاً بأنه يجب تسليمي لها. ولكن الحقيقة هي أنهم يريدون أن يفاوضوني، ويطلبوا مني العودة إلى العربية السعودية. فأجبتهم أنني مستعد للتكلم معهم تحت شرط واحد، هو أن يكون الشيخ سليمان العودة حاضراً. لقد سجنوه لأنه تكلم ضد النظام. وليست هناك إمكانية للتفاوض دون إطلاق سراحه، ولم أسمع منهم جواباً حتى الآن».

هل كان هذا البوح سبباً في توتّر أعصاب بن لادن؟ ـ لقد بدأ يتكلم مع رجاله حول الأمن والحالة «الأمنية»، وينظر تكراراً إلى لمع البرق في السماء، وقد أصبح صوت الرعد كصوت إطلاق النار من المدافع. حاولت أن أطرح سؤالاً آخر: «ما نوع الدولة الإسلامية التي يريد بن لادن أن يراها؟ هل تقطع فيها أيدي ورؤوس السارقين والمجرمين بحسب شريعة الدولة، كما يحصل اليوم في العربية السعودية؟ فجاءني جواب غير مرضٍ: «إن الإسلام دين كامل لكل تفصيل في الحياة. إذا كان الشخص مسلماً حقيقياً وارتكب جريمة، فإنه يسعد بعقابه العادل. هذه ليست قسوة. إن مصدرها الله تعالى عبر نبيِّه محمّد، صلّى الله عليه وسلّم».

لقد كان أسامة بن لادن منشقّاً، ولم يكن معتدلاً أبداً. استأذنته في أخذ صورة فوتوغرافية له؛ وبينما كان يناقش ذلك مع رفاقه، كتبتُ في دفتري «خربشة» الكلمات التي سأستخدمها في الفقرة الأخيرة من تقريري حول هذا الاجتماع. يعتقد أسامة بن لادن أنه يمثل أعظم الأعداء هولاً للنظام السعودي وللوجود الأميركي في الخليج. وربما كان كلاهما مُحقّاً في اعتباره كذلك». وبهذا كنت أقلّل من تقديره، فالرجل أكبر من ذلك.

ردّ بالإيجاب بشأن أخذ صورة له. فتحت آلة التصوير وسمحت لحرّاسه المسلحين بأن يراقبوني وأنا أضع الشريط الجديد في ملف الكاميرا. وطلبت منهم إحضار قنديل الكاز لأستعمله بدلاً من وميض الكاميرا للمحافظة على شكل الوجه. وساعدتُ الكاتب المصري كي يدني الضوء لمسافة ٣ إنشات فقط من الوجه حتى يسطع الضوء

على وجهه تماماً ويظلل تقاسيمه. ثم، دون إنذار، رفع بن لادن رأسه ولاحت على وجهه ابتسامة باهتة، مع الاقتناع الذاتي، وشبح الخُيَلاء الذي يقلقني. نادى ابنيه عمر وسعد فجلسا إلى جانبه، وأخذت مزيداً من الصور؛ وتحوّل بن لادن إلى الأب المعتزّ، ربّ العائلة، العربي في بيته.

ثم عاوده قلقه. وصار الرعد متواصلاً الآن، ممزوجاً بدمدمة رشاشات. فقال بن لادن مستحثاً: «يجب عليَّ أن أذهب»؛ فلا بد له من أن يعود إلى صمود أفغانستان. وعندما صافح مودِّعاً، كان ينظر إلى حرّاسه بغية الانطلاق. وانبرى سائقي ومحمد، والرجلان المسلحان اللذان رافقاني إلى هذا المخيم الرطب المليء بالحشرات، ليعيدوني إلى فندق «سبينجهار» في رحلة ستكون حافلة بالتهديدات والمخاطر. مررنا بسيارتنا على الجسور فوق الأنهار وتقاطعات الطرق، وتعرضنا لحواجز تفتيش نصبتها الزمر الأفغانية التي كانت تتقاتل للسيطرة على كابول. ومِنْ هؤلاء مَنْ انتصب على الطريق أمام سيارتنا، صارخاً فينا ومصوّباً رشاشه إلى زجاج السيارة، بينما رفيقه ينسلّ من الظلام للتدقيق في هويّة سائقنا، والسماح لنا بمتابعة سيرنا. وقد علَّق محمد على ذلك بقوله: «إن أفغانستان مكان صعب».

وسيكون الأمر عسيراً على عائلة بن لادن أيضاً. وفي الصباح التالي، جاء المصري إلى فندق «سبينجهار»، وأخذني إلى موقع التخييم لعائلات العرب «الأفغان». وكان فعلاً غير حصين، تحيط به بعض أسلاك من الشريط الشائك ويمتد أمامه الريف. أما خِيَم عائلة بن لادن فقد نُصبت متقاربة، وكان الحر فيها لا يحتمل، وحُفرت خلفها ثلاثة مراحيض. قال المصري: «سيعيشون هنا معنا؛ مع العلم أنهنّ سيدات تعودنَ على العيشة المريحة». لكنّ مخاوفه تركزت على ثلاثة رجال أمن مصريين مسلَّحين، كانوا يمرون بسيارتهم قرب المخيم بشاحنة صغيرة خضراء. قال: نحن نعلم من هم ولدينا رقم سيارتهم لقد توقفوا منذ أيام عند ابني وسألوه: «أين بن لادن»؟ نحن نعلم أن اسمك عبد الله. وماذا جاء أبوك يفعل في أفغانستان؟».

وقد حاول شخص آخر من رجال العرب التشكيك في ما أكده بن لادن من أن هناك عدة بلدان إسلامية أخرى يجد فيها بن لادن ملاذاً له؛ فقال بكل أدب: «ليس له من بلد آخر. وعندما كان في السودان، أراد السعوديون أن يقبضوا عليه بمساعدة يمنيين. ونحن نعلم أن الحكومة الفرنسية حاولت إقناع السودانيين بتسليمه، كما سلّموهم رجل أميركا الجنوبية (كارلوس المذكور آنفاً). وكان الأميركيون يضغطون على الفرنسيين ليتسلموا بن لادن في السودان. كما أن هناك جماعة من العرب تلقوا مالاً من السعوديين، فأطلقوا النار على بن لادن، لكن حراسه ردوا بالمثل وجرحوا اثنين من المعتدين. وهم الناس أنفسهم الذين حاولوا اغتيال الترابي». سمع المصري هذا الكلام، وقال: «نعم، إن هذا البلد خَطِر جداً. والأميركيون يحاولون أن يقطعوا الطريق على مجيء العرب إلى أفغانستان. إني أفضّل الجبال، لأنها آمن. إن هذا المكان يشبه بيروت».

لم أغبْ عن أفغانستان المسكينة سوى تسعة أشهر؛ حتى عدت لأجدها متغيرة وأكثر تعاسة، تحكمها ثُلّة ورعة قاسية لا يُعقل تصورها، حتى من قبل بن لادن. جاءني اتصال هاتفي مرة ثانية إلى بيروت، ودعوة للقاء

«صديقنا» عن طريق جلال أباد. وكانت الرحلة هذه المرة خليطاً من الهزل ومن غير المعقولية. لم تعد هناك رحلات من دلهي؛ لذلك سافرت أولاً إلى إمارة دبيّ. وهناك دلّني موظف السفر الهندي على مكتب «سفريّات البساط السحري»(*)، الذي يديره شخص لبناني، طلب مني الحضور عند الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي إلى المطار القديم الذي يكتنفه الحر في إمارة الشارقة، إلى حيث أبعدت الخطوط الجوية الأفغانية «أريانا». والشارقة تستضيف مجموعة من الخطوط الجوية المنبوذة التي تطير من الخليج إلى كازاخستان، وأوكرانيا، وطاجكستان، وبعض المدن الإيرانية غير المعروفة. وكانت طائرتي إلى جلال أباد «البوينغ ٧٢٧» القديمة ذاتها التي كسروا رتبتها إلى طائرة شحن.

كان طاقم الطائرة كله من الأفغان الكثيفي اللحى ـ إذ إن «طالبان» استولت على أفغانستان وأمرت الرجال بعدم حلاقة ذقونهم ـ أولئك الذين بذلوا أقصى جهدهم لتأمين راحتي في مقعد وحيد وضيع في مقدمة الطائرة، دون سترة نجاة، مع مرحاض يعجّ بالبراز، ومن ورائي تنبعث رائحة نتنة من بضائع محامل الكريات المعدنية والأنسجة. وعند الانطلاق، تدفق من المرحاض مدّ من سائل ذي رائحة كريهة على مدى ممر الطائرة حتى وسطها. وبعد هذا الانطلاق المضطرب، أكد لي أحد أفراد الطاقم حُسْن الوضع بقوله: «لا تهتم، إنك في أيدٍ أمينة، ثم قدّمني إلى رجل عملاق له لحية يخالطها الشيب، يصرّ على أسنانه، ويلوي يديه على خرقة رطبة، قائلاً: «هذا هو باشمهندس الصيانة في هذه الرحلة. وبعدما صرنا في طيراننا فوق جبال «سبينجهار» شمّ المهندس رائحة المرحاض، فدخل إليه وأصلح شأنه. وحالما وصلنا إلى مهبط الطائرات القديم في جلال أباد، بدأت أتطلع إلى متابعة رحلتي براً إلى البيت.

كان موظف الهجرة اليافع، الذي يحمل سلاح «الكلاشينكوف» أمياً إلى درجة أنه لم يستطع كتابة اسمه إلّا برسم مربع ودائرة في جوازي الذي حمله مقلوباً. وقد أخذني رجال طاقم الطائرة معهم إلى جلال أباد، التي ما زالت مدينة الغبار الحدودية التي أعهدها منذ مجيئي السابق إليها في تموز/يوليو الماضي؛ لكنها اليوم فقدت نصف سكانها وأصبحت دون نساء تقريباً، لكني كنت ألمحهنّ أحياناً مكفّنات بحجابهنّ، وهنّ يقدنَ الأطفال الصغار. أما «جامعة نانْجَرْهار»، فقد أغلقت أبوابها، وكسا الحشيش طرقاتها، ونقط الماء تتساقط من أبنية المنامة فيها. وقد أخبرني موظف البريد «أن حزب طالبان صرَّح بأنه سيفتح الجامعة هذا الأسبوع. ولكن ما الفائدة؟ لقد هجرها معظم المعلمين. أما النساء فلا تعليم لهنّ. ها قد عدنا إلى عام الصفر».

ليس الأمر سيئاً إلى هذا الحد طبعاً. فقد انقطع إطلاق النار في جلال أباد. وجمع حزب طالبان الأسلحة ـ إلّا قبل أيام عندما حصل انفجار ماحق كدت أذهب ضحيته ـ هناك الآن نوع من القانون الذي فُرض على هذا المجتمع القبلي الغاضب. وقد سُمح للعاملين في المجال الإنساني أن يتجولوا في المدينة ليلاً ـ مما حدا بعضهم

(*) كلما كانت الرحلة خطرة، جاء اسم الخطوط الجوية المسافرة إلى هناك خيالياً؛ فالرحلة المباشرة الوحيدة من بيروت إلى بيرجَل العراق، تؤمنها شركة أخرى أسمها، كما قد تتصور، «الخطوط الجوية لبساط الريح».

على القول إنهم يستطيعون أن يتعاطوا مع طالبان، وأن لا حق لهم يسمح بتدخّلهم في «الثقافة المحلية التقليدية». كما زال النهب والسلب. ومهما ارتفعت الأسعار، فعلى الأقل هناك خُضَر ولحم في السوق.

وقد قهر حزب طالبان أخيراً ١٢ من ١٥ من ميليشيات المجاهدين الأفغان القابلة للرشوة، ما عدا في الزاوية الشمالية ـ الشرقية من البلاد، وفرضوا شرعيتهم المتصلِّبة على الناس. كان الطالبانيون فرقة سنيّة وهّابية طُهريّة، جاء تأويلهم للشريعة الإسلامية شديد القسوة، على غرار تأويل الأساقفة المسيحيين الأوائل. وارتبط بسلوكهم قطع الرؤوس والأيدي وكره النساء، ومعاداة كل أنواع التمتع بالحياة. وتُروى نادرة عن تخبئة جهاز تلفزيون في حديقة فندق «سبينجهار» خوفاً عليه من التدمير. لأن أجهزة التلفزيون صارت مثل أشرطة الفيديو والسارقين معلقة على الأشجار. وقد قال لي البستاني: «ماذا تتوقع؟ جاء الطالبانيون من مخيمات لاجئين. وهم يمنحوننا ما لديهم، لا غير». وأدركت آنذاك أن القوانين الجديدة لأفغانستان، الوحشية والغريبة عن عاداتنا وعادات المثقفين الأفغان، لم تكن يقظة دينية بقدر ما كانت استمراراً لحياة عاشوها في المخيمات الكبيرة القذرة، التي جُمع فيها عدة ملايين من الأفغان على حدود بلادهم، عندما غزاها السوفيات منذ ١٦ سنة.

إن مسلحي طالبان نشأوا كلاجئين في مخيمات موبوءة في باكستان؛ قضوا من بدء حياتهم ١٦ سنة في فقر مدقع، محرومين تماماً من التعليم والترويح عن النفس؛ ففرضوا على الناس قصاصاً مهلكاً، وأخضعوا أمهاتهم وأخواتهم، بينما كان الرجال يناهضون المعتدين الأجانب على الجانب الآخر من الحدود. ولم يكن لديهم من انفراج سوى هاجس القراءة في القرآن الكريم ـ الدال على النهج القويم الوحيد في الحياة، دون غيره. ولم يأتِ الطالبان لإعادة بناء بلدهم، بل لمعاودة نسج حياة المخيمات التي عاشوها على نطاق أوسع.

ولذلك لم يأبهوا في حكمهم للتعليم، أو للتلفزيون. وأجبروا النساء على التزام بيوتهنّ في خيمهنّ بمنطقة بشاور. وعندما غادرت أخيراً من المطار كان هناك موظف هجرة، ربما لا يزيد عمره على ١٥ سنة، يضع كحلاً حول عينيه، على شاكلة المحاربين الجزائريين في أفغانستان الذين كانوا يقتدون بالنبي (ص) الذين عاشوا في القرنين السادس والسابع الميلاديين. توقف الموظف وامتنع عن ختم جوازي، لأني لا أحمل سِمة خروج؛ مع العلم أنه لم يكن في جلال أباد آنذاك تدابير من هذا النوع؛ فضلاً عن أني ارتكبت مخالفة أخطر لأني كنت حليق الذقن. أشار الولد إلى ذقني، وهزَّ رأسه لائماً، ثم وجّهني باحتقار نحو الطائرة القديمة الجاثمة على مدرج المطار.

وعلى المرجة أمام فندق «سبينجهار» اقترب مني ولدان، أحدهما يبلغ الرابعة عشرة من عمره، ومعه كدسة من دفاتر التمارين. وفي أحد تلك الدفاتر، اختبار في قواعد اللغة الإنكليزية مكتوب باليد، يطلب من التلميذ أن يملأ الفراغ بالكلمة المناسبة. فكتبت بلطف الكلمة الناقصة، وصحّحت تهجئة إحدى الكلمات، وتساءلت: هل هذا هو التعليم الجديد للأفغان الفقراء؟ ولكن على الأقل، يتعلم الصبيان لغة أجنبية في مدرستهم التي يُرثى لها. أما الولد الآخر فكان لديه كتاب في قواعد اللغة الفارسية؛ ولا بد أنه يروي حياة النبي محمد (ص). ولكن لم يكن هناك

تلميذات. وبعد ظهر أحد أيام ذلك الانتظار الموحشة، كنتُ جالساً في مدخل الفندق أشرب الشاي، إذ تقدمت امرأة تلبس حجاباً أزرق باهتاً من نوع «البرقع»، من المدخل وهي تدمدم وانعطفت لتدخل الحديقة، ثم استدارت نحوي. كانت تنتحب بنشيج يعلو وينخفض مثل طير النورس، مع بكاء وعويل. ويبدو أنها أرادت أن يسمع الأجنبي احتجاجها الكئيب.

فهل اهتممنا بهذا الأمر وأوليناه رعايتنا؟ في الوقت ذاته كان موظفون من مشروع خط النفط الآسيوي في كاليفورنيا (UNOCAL) يتفاوضون مع طالبان لأخذ حقوق هذا الخط لنقل الغاز من تركمنستان إلى باكستان عبر أفغانستان، في أيلول/سبتمبر ١٩٩٦؛ كما أعلنت وزارة الدولة الأميركية أنها قد تقيم علاقات دبلوماسية مع طالبان، ثم سحبت تصريحها فيما بعد. وكان من أولئك المفاوضين «زلماي خليل زاد» الذي عُيّن بعد خمس سنوات من قِبل الرئيس جورج و. بوش مبعوثاً خاصاً إلى أفغانستان المحرَّرة؛ وكان منهم أيضاً الزعيم البشتوني حميد قرضاي. ولا عجب إذن أن يقف الأفغان موقفاً متشككاً من الولايات المتحدة الأميركية. وكان حلفاء أميركا يدعمون أصلاً بن لادن ضد الروس. ثم جعل الأميركيون بن لادن عدوهم الأول على رؤوس الأشهاد ـ وقد يتعذر على دولاب الحظ في البنتاغون أن يبقيه في تلك الرتبة؛ نظراً لاكتشاف أمثاله باستمرار. والآن يجري التودد لطالبان. ولكن حتى متى؟ وهل يعقل أن شخصية عربية مثل بن لادن الذي لديه طموح أبعد من طالبان يمكن أن يحافظ على نزاهة نفيه في أفغانستان إلى جانب رجال يقمعون شعبهم؟ وهل يحمي طالبان بن لادن أكثر مما حمته جمهورية السودان الإسلامية التي أخفقت في ذلك؟

وعلى سفح الجبل استمرت الآلة تفتش الآلة. وفي ضوء القمر البارد الذي يلفّه الضباب، كنتُ أستطيع أن أرى شفتيّ الرجل الطويل المشدودتين وخدّيه الغائرين. وعلى سفح هذا الجبل المتجمد، فتح الحقيبة المدرسية التي أحملها دائماً في البلدان الصعبة، ومرّر أصابعه على جوازي، وبطاقاتي الصحافية، ودفاتري، وكومة الجرائد اللبنانية والخليجية التي أصطحبها. كما سحب آلة التصوير «نيكون» من كيسها؛ ففتحها، ودقّق في آليّتها، ومحتواها وفي كل علبة كرتون حاوية لأفلام التصوير. ثم أعاد كل هذه الأشياء إلى الكيس، مع الكاميرا المغلقة. قلت: «شكراً»، لكنه لم يردّ؛ بل نظر إلى السائق، وأومأ إليه برأسه كي يسير؛ فسرنا على طريق الجليد. صرنا الآن على علوّ ٥٠٠٠ قدم. وما زالت الأضواء تُسلَّط علينا حتى وصلنا إلى منعطف وراء صخرة مدوَّرة كبرى، ومن هناك رأينا في ضوء القمر وادياً صغيراً. وكان هناك عشب وأشجار وساقية من الماء غير المتجمد، تتلوّى في ذلك الوادي، ومجموعة من الخيم تحت شفير عالٍ. واقترب منا شخصان وتبادلنا السلام الرسمي بالأيدي الذي يفصح دائماً عن طلب الثقة. ودعاني أحد الجزائريين الذي يتكلم الفرنسية بطلاقة وأحد المصريين إلى الطواف في الوادي الصغير.

غسلنا أيدينا في مسيل الماء، وسرنا على الحشيش نحو فجوة سوداء في الجرف الصخري فوقنا. ولمّا كانت عيناي قد تعوّدتا على الضوء، كنتُ أستطيع أن أبصر شكلاً مستطيلاً في سفح الجبل، ملجأً صخرياً من الغارات الجوية حفره رجال بن لادن. في قلب الجبل على ارتفاع ستة أمتار، خلال الحرب الروسية. وقال لي الرجل

المصري: «لقد كان هذا الملجأ مستشفى ننقل إليه الجرحى من المجاهدين، بحيث يبقون بمنجى من الغارات الجوية». سرت في هذا الكهف المصنوع بيد الإنسان، بينما الرجل الجزائري يحمل مشعلاً، حتى صرت أسمع الجلبة الصادرة عن وقع أقدامي من أعماق النفق. وعندما خرجنا منه، كان نور القمر باهراً، يغرق الوادي بتألُّقه، في فردوس صغير آخر، حافل بالأشجار والمياه، وقمم الجبال.

أُخِذْتُ إلى خيمة حربية مصنوعة من قماش مشمّع بلون «الكاكي»، ومربوطة إلى أوتاد حديدية؛ ندخل إليها من شُقّة قماش مقلوبة؛ وهي مفروشة بأفرشة مبقَّعة. وكان فيها إبريق شاي كبير؛ فجلست فيها مع المصري والجزائري، وثلاثة رجال آخرين دخلوا الخيمة حاملين رشاشات «كلاشينكوف». انتظرنا حوالى نصف ساعة، أقرّ الجزائري خلالها بعد استجوابي له أنه كان عضواً في «المقاومة الإسلامية للنظام الجزائري العسكري». تكلمتُ معه عن زياراتي إلى الجزائر، وعن قدرة الإسلاميين على الاستمرار في القتال ضمن منطقة الجبال والريف، ومجابهة عسكر الحكومة، مثلما كانت جبهة التحرير الوطني الجزائرية (FLN) تناهض الجيش الفرنسي في أعوام ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ من أجل الاستقلال. فسُرَّ الجزائري من هذه المقارنة التي كانت مقصودة من قبلي ـ ولكني لم أذكر شكي في أنه قد يكون منتمياً إلى الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) التي اعتبرتها الحكومة مسؤولة عن مذابح قطع الأعناق وتقطيع الأوصال التي لطَّخت الأعوام الأربعة الأخيرة من تاريخ الجزائر.

سمعت فجأة أصواتاً خارج الخيمة، مثل صوت تسجيل قديم لشريط سينمائي. ثم انخطف باب الخيمة ودخل بن لادن لابساً عمامة وأثواباً خضراء، وقفتُ مع نصف انحناءة تحت سطح الخيمة المنخفض، وتصافحنا، خافضين رأسينا للسلام المتبادل، كما كان يفعل الباشاوات (أيام الأتراك العثمانيين) ولنتبادل النظر وجهاً لوجه. بدا متعباً كالعادة، ولاحظت أنه عرج قليلاً عندما دخل الخيمة. وظهرت لحيته أكثر شيباً، ووجهه أكثر نحولاً مما كان عليه، كما أتذكر. لكنه جاء متهللاً مبتسماً، حتى كأنَّه مرح جَذِل؛ فوضع رشّاشه إلى يساره على الفراش، وطلب لي مزيداً من الشاي بإصرار. مال قليلاً إلى الأرض؛ ثم التفت إليّ مع ابتسامة أرحب، وأرحم، فظننتها إذ ذاك أكثر إقلاقاً.

بدأ كلامه بمناداتي والتطلّع حوله إلى الرجال الآخرين المرتدين ثياب الميدان مع طاقيّات سمراء ليّنة، ممَّن ازدحموا في الخيمة، قائلاً: «يا سيد روبرت، حلم أحدنا أنك جئت إلينا يوماً على صهوة جواد، ملتحياً، مع كونك شخصاً لا يؤمن بالروحانيات، ومرتدياً ثوباً مثلنا؛ مما يعني أنك مسلم».

كان ذلك رهيباً مروِّعاً؛ لا بل كانت تلك اللحظة الأكثر إخافة في حياتي. أدركت بلمحة المعنى الذي قصده بن لادن بكل كلمة من كلامه: الحلم، الحصان، اللحية، الروحانيات، الثوب، المسلم. كان الرجال الآخرون حولنا يومئون كلهم برؤوسهم، وينظرون إليّ، بعضهم يبتسمون، بينما الآخرون يحدِّقون بوجوم في هذا الإنكليزي الذي ظهر في حلم «أحد الإخوان». لقد ارتعبت فعلاً. فتلك مصيدة ودعوة في الوقت ذاته، ولحظة خطرة وسط أكثر الناس خطراً في العالم. لم يكن باستطاعتي رفض «الحلم» لئلا أوحي بأن بن لادن يكذب؛ ولم يكن بإمكاني

أن أقبل معناه دون أن أدفع نفسي إلى الكذب، ودون أن أوحي بما يقصد مني ـ أن أقبل هذا الحلم كنبوءة، وكتعليمات إلهية ـ وأن أسعى إلى تحقيقه. فكون هذا الرجل ـ وهؤلاء الرجال ـ يثقون بي كأجنبي، آتي إليهم دون تحيُّز، وأن يعتبروني شريفاً، فهذا أمر. ولكن التصوّر القاضي بأن أنضم إليهم في جهادهم، وأن أصبح واحداً منهم، كان أمراً آخر تجاوز كل احتمال. وكانت العصبة كلها بانتظار الرد.

هل أتخيل ذلك؟ هل هذا مجرد أسلوب بلاغي مسهب للتعبير عن احترام تقليدي لزائر؟ ألا يكون هذا مجرّد محاولة ـ مألوفة في الشرق الأوسط ـ لكسب مهتدٍ جديد إلى الإيمان؟ وبصراحة: هل كان يحاول أن يجنّدني معه؟ خشيت ذلك فعلاً. وفهمت فوراً ما قد يعني.

فلا شك في أن أسلمة شخص غربي أبيض من إنكلترا، وصحافي في جريدة معتبرة ـ وليست أسلمة إنكليزي من أصل عربي أو آسيوي ـ تُعتبر صيداً ثميناً. وقد لا يكون موضع شُبهة، فيصبح موظفاً في الحكومة، أو يلتحق بالجيش، أو يتعلم قيادة الطائرات ـ بعد عدة سنوات. كان علي أن أخرج من هذا المأزق بسرعة؛ وكنتُ أفكر في مخرج فكري لائق، وأعمل بجهد وذهني يتوقّد.

بدأت بقولي: «يا شيخ أسامة»، حتى قبل أن أقرر كلماتي التالية، «أنا لست مسلماً». فحصل صمت في الخيمة. «أنا صحافي»، ولا أحد يفنّد ذلك. «وشغل الصحافي هو أن يقول الحقيقة»، ولا أحد يريد أن يجادل في ذلك، «وهذا ما أنوي أن أفعله في حياتي ـ أن أقول الحقيقة». كان بن لادن يراقبني كالصقر. فهم أني أتجنّب العرض. وصار دوره الآن أمام رجاله أن ينسحب، ويغطي انسحابه بلباقة ورشاقة. قال: «إذا كنتَ تقول الحقيقة فأنت مسلم؛ وهذا يعني أنك مسلم فاضل». فوافق الرجال الملتحون والمرتدون ثياب الميدان على هذه الحصافة. وابتسم بن لادن. وأُنقذت، فتنفست الصعداء: لا اتفاق.

وربما أراد بن لادن أن يقلّل من شأن هذا الأمر، ليستر الإحراج الذي سبّبته هذه الخيبة البسيطة، فانبرى يلاحظ محفظتي المدرسية قرب الكاميرا، والجرائد اللبنانية التي تكاد تظهر فيها. فأمسك بالجرائد وقرر قراءتها فوراً. وأمامنا جميعاً، مشى متثاقلاً عبر الخيمة، والجرائد في يده، إلى حيث كان قنديل الكاز يهسّ في الزاوية. وجلس هناك حوالى نصف ساعة يقرأ بنفسه في تلك الجرائد العربية، مهملاً إيّانا جميعاً، وطالباً أحياناً من المصري أن يقرأ مقالاً، أو كاشفاً أحياناً لأحد المسلحين عن شيء في جريدة. فتساءلت: هل هذا هو الرجل الذي يمثل مركز «الإرهاب العالمي»؟ إن الاستماع إلى الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية، وقراءة الافتتاحيات في «النيويورك تايمز» و«الواشنطن بوست»، ليجعلا المرء يعتقد أن بن لادن يدير «شبكة الإرهاب» من غرفة محصّنة تحت الأرض تعجّ بالحواسيب والخطط الحربية الرقمية، بنقرة على زر ليأمر أتباعه بأن يهاجموا هدفاً غربياً آخر. ولكن هذا الرجل يبدو منقطعاً عن العالم الخارجي. أليس لديه راديو أو تلفزيون؟ لماذا لم يعلم ـ كما أخبرني بعدما قرأ الجرائد ـ أن وزير خارجية إيران، علي أكبر ولايتي، زار العربية السعودية، بلده هو، لأول مرة منذ أكثر من ثلاث سنوات.

وعندما عاد إلى مقعده في زاوية الخيمة، تصرف كرجل أعمال. فحذّر الأميركيين من هجوم ضارٍ جديد على قواتها في السعودية، قائلاً: «نحن لا نزال في بداية العمل الحربي ضدهم؛ ولكننا أزلنا الحاجز النفسي المانع من محاربة الأميركيين... هذه هي المرة الأولى منذ ١٤ قرناً التي تحتل فيها الحرمين الشريفين قوات غير مسلمة...». وهكذا، أصرّ على أن الأميركيين جاءوا إلى الخليج من أجل النفط، ولذلك ركبوا متن التاريخ الحديث في المنطقة.

«لقد أراد بريجنيف أن يصل إلى مضيق هرمز عبر أفغانستان لهذا السبب، ولكن بكرم الله تعالى والجهاد لم يهزم في أفغانستان فحسب، بل انتهى هنا. لقد حملنا أسلحتنا على أكتافنا في هذه الأصقاع لعشر سنوات، ونحن مستعدون مع أبناء العالم الإسلامي لحمل الأسلحة طوال ما بقي من عمرنا. ولكن بالرغم من ذلك، فالنفط ليس القوة الدافعة المباشرة التي تهيب بالأميركيين إلى احتلال المنطقة ـ فقد حصلوا على النفط بأسعار متهاودة قبل غزوهم. بل هناك أسباب أخرى؛ أولها الحلف الأميركي ـ الصهيوني، الحافل بالجزع من قوة الإسلام ونفوذه وسلطته، ومن الأراضي المقدسة في مكة والمدينة. إنهم يخافون من يقظة إسلامية أو بعث إسلامي يغرق إسرائيل. إننا مؤمنون بأننا سنقضي على اليهود في فلسطين. ونحن مقتنعون بأننا سننتصر بعون الله على القوات الأميركية. إنها مسألة عدد ووقت لا غير. أما ادّعاؤهم بأنهم يحمون الجزيرة العربية من العراق، فهو غير صحيح ـ إن قضية صدّام كلّها حيلة».

لقد طرأ هنا شيء جديد مطلق العنان. إن إدانة إسرائيل أمر مألوف لدى أيّ قومي عربي. ناهيك برجل يعتقد أنه يقوم بجهاد إسلامي. ولكن بن لادن الآن يجمع بين أميركا وإسرائيل، كما لو كانتا بلداً واحداً، حسبما قال: «بالنسبة إلينا، لا فرق بين الحكومة الأميركية والحكومة الإسرائيلية، أو بين الجندي الأميركي والجندي الإسرائيلي». ـ كما أنه كان يتكلم عن اليهود بالأفضلية على الجنود الإسرائيليين، كأهدافٍ له. فكم سيمضي من الوقت قبل أن يضيف إلى قائمته «الأمم الصليبية»؟ لم ينسب إلى نفسه تفجير القنابل في الرياض والخُبَر، لكنه مدح الرجال الأربعة المتهمين بتدبير الأمر، وأقرّ بأنه قابل اثنين منهم وقال: «إني أبدي احترامي الكبير لأولئك الذين قاموا بتلك التفجيرات؛ واعتبر أنه عمل عظيم وشرف كبير لم تتسنَّ لي المشاركة فيه». لكن بن لادن كان أيضاً متلهّفاً ليرينا الدعم الذي تتلقاه قضيته المتنامية، ولا سيما في باكستان. وقد أظهر لنا قُصاصات جرائد تسجّل خطب الشيوخ الذين أدانوا وجود أميركا في العربية السعودية، ثم دفع بصورتين فوتوغرافيتين ملونتين كبيرتين إلى يدي تمثلان كتابات مرشوشة على جدران كراتشي.

تقول إحداها بالطلاء الأحمر: «أيتها القوات الأميركية، اخرجي من الخليج ـ العلماء المحاربون المتحدون». وتورد أخرى بالطلاء البنّي: «أميركا هي أكبر عدو للعالم الإسلامي». كما ناولني بن لادن لافتة كبيرة، كأنها كتبت باليد ذاتها المشبعة عداء لأميركا، أطلقها «المولويّون» أي العلماء الدينيون في مدينة لاهور. أما بالنسبة إلى طالبان، ونظامهم الجديد الساحق، فلم يكن لدى بن لادن من خيار إزاءه سوى أن يتخذ اتجاهاً عملياً بقوله: «كل

البلاد الإسلامية هي بلادي؛ نحن نعتقد أن طالبان مخلصون في فرض قانون الشريعة الإسلامية. لقد رأينا الوضع قبل مجيئهم وبعده، ولاحظنا فرقاً كبيراً وتحسناً ملحوظاً».

ولكن عندما عاد إلى نضاله الأكثر أهمية ـ ضد الولايات المتحدة الأميركية ـ بدا بن لادن رابط الجأش. وعندما تكلم عن هذا تريّث أتباعه الموجودون في الخيمة على كل كلمة من كلماته، كما لو كان المسيح. أنبأنا بأنه أرسل رسائل بالفاكس إلى الملك فهد وجميع الوزارات الحكومية في العربية السعودية، يبلغهم فيها عقد نيّته على الاستمرار في النضال المقدس ضد الولايات المتحدة الأميركية؛ حتى إنه ادّعى أن بعض أعضاء العائلة المالكة السعودية ساندوه، مع ضباط في قوى الأمن. ولكن إعلان الحرب بالفاكس تجديد وغرابة في أطوار نظرة بن لادن إلى السياسة الأميركية. وعند نقطة معينة، كان جدّياً في التعليق على زيادة الضرائب في أميركا بأنها قد تدفع بعض الولايات إلى الانفصال عن الاتحاد. وهي فكرة قد تجذب انتباه بعض حكام الولايات، ولو لم تكن واقعية.

ولكنّ هذا لم يكن سوى التهاء عن تهديد أخطر، إذ قال: «نعتقد أن نضالنا ضد أميركا سيكون أبسط من كفاحنا ضد الاتحاد السوفياتي. وسأقول لك شيئاً للمرة الأولى: إن بعض مجاهدينا الذين حاربوا في أفغانستان اشتركوا في عمليات ضد الأميركيين في الصومال، وفوجئوا بانهيار المعنويات القتالية الأميركية. نحن نعتبر أميركا نمراً من ورق». وكان ذلك خطأً استراتيجياً له بعض الشأن. إن تراجع أميركا عن مهمة بناء الدولة في الصومال في عهد الرئيس كلينتون لن يتكرر إذا وصل إلى الحكم رئيس جمهوري، ولا سيّما إذا هوجمت الولايات المتحدة. وإذا كان صحيحاً أن فقدان الإرادة ذاته قد يعود إلى ثنايا السياسة الحربية الأميركية ـ كما قد يحصل في العراق ـ فإن واشنطن، مهما ظنّ بن لادن، ستكون خصماً أخطر من موسكو. لكنه أصرّ على ذلك. وسأذكر دائماً كلمات بن لادن الأخيرة التي تلفّظ بها أمامي تلك الليلة على الجبل الأجرد: «يا سيد روبرت، من هذا الجبل الذي تجلس عليه، غلبنا الجيش الروسي، ودمَّرنا الاتحاد السوفياتي. وإني أدعو الله كي يسمح لنا بأن نحوّل الولايات المتحدة إلى ظلّ لذاتها».

جلست صامتاً أفكّر في هذه الكلمات، بينما كان بن لادن يبحث مسألة عودتي إلى جلال أباد مع الحرّاس. وكان مهتماً بإمكان أن تعترض حواجز طالبان على إرساله لأجنبي ليلاً، بالرغم من إخلاصهم. لذلك اقترحوا عليّ أن أمضي الليلة معهم في مخيّم بن لادن. وسمح لي بأن آخذ ثلاث صور له في ضوء مصابيح سيارة تويوتا. جلس أمامي دون حراك، كجلمود صخر. وفي الصور التي ظهّرتها في بيروت بعد ثلاثة أيام بدا كشبح بالأرجواني والأصفر. ودّعني مصافحاً مع إيماءة، بكل بساطة، واختفى من الخيمة؛ وبقيتُ مضطجعاً على الفراش ملتحفاً بسترتي لأدفأ. كما وضع بعض الرجال أسلحتهم جانباً وناموا أيضاً معي، بينما بقي آخرون مدججين بالرشاشات وقاذفات الصواريخ، يقومون بدوريات حراسة على التلال المنخفضة حول المخيم.

وفي السنوات القادمة، سأتساءل: مَن كان أولئك الرجال؟ هل كان محمد عطا منهم في الخيمة؟ أو عبد

العزيز العمري؟ أو أي شخص آخر من التسعة عشر رجلاً الذين سنعرف أسماءهم بعد أربع سنوات؟ لا أستطيع أن أتذكر وجوههم الآن، إذ كانوا متلفّعين بكوفيّاتهم.

بقيتُ صاحياً بسبب الإنهاك والبرد. «ظل لنفسه». تلك كانت العبارة التي تتردد في ذهني. ماذا كان بن لادن وهؤلاء الرجال القساة الذين كرّسوا أنفسهم للجهاد يخبّئون لنا؟ أتذكّر الساعات القليلة التالية مثل مقطع فيلم توقفه لتتأمّل فيه. أفقت على البرد مع وجود جليد في شعري؛ ونزلنا من أعلى الجبل بسيارة «التويوتا»، مع أحد المسلحين الجزائريين في الخلف، وهو ينبئني أنه لو كنّا في الجزائر لقطع رقبتي، لكن أوامر بن لادن تلزمه بأن يحميني؛ ولذلك يمكن أن يدفع حياته ثمناً للحفاظ على حياتي. ثم أوقف الرجال الثلاثة الجالسون في الخلف مع السائق سيارة الجيب ليؤدوا صلاة الفجر، عند المصب العريض لنهر كابول، حيث مدّوا الحصير وسجدوا، بينما كادت الشمس تبزغ وتشرق على الجبال. وكنتُ أرى من الجهة الشرقية الشمالية البعيدة مرتفعات «هندوكوش» تلمع بلون أبيض باهت تحت السماء الباهتة الزرقة، وتكاد تلامس حدود الصين التي تمرّغ أنفها في حطام من الأرض سيشهد مزيداً من الآلام في السنوات القادمة. هكذا كان العالم قبل مجيء الإنسان: تلال، وصخور، وماء، وأشجار معمّرة، وجبال عتيقة.

وأتذكر أننا عندما كنا عائدين مع رجال بن لادن، مررنا بثكنات عسكرية خزن فيها طالبان الأسلحة التي غنموها. وبعد عدة دقائق فقط سمعنا انفجاراً هائلاً للقنابل، والصواريخ المضادة للدبابات، وصواريخ «ستينجر»، والألغام وسائر المتفجرات. لقد كان بمثابة هزة أرضية ارتجّ بسببها صف الأشجار خارج فندق «سبينجهار»، حيث نثر علينا الانفجار قطعاً صغيرة من المعدن، وصفحات ممزقة من أدلّة أميركية تعطي تعليمات من أجل توجيه الصواريخ إلى الطائرات. قُتل في هذا الحادث العَرَضي تسعون شخصاً قُطّعوا إرَباً ـ فهل رمى أحد الطالبان عقب سيجارة، وهي من المتع الفريدة النادرة لهم، على الذخيرة؟ وما عتّم الجزائري أن جاءني والدموع في عينيه ليقول إن أفضل صديق له قد قضى في الانفجار. وهكذا رأينا أن رجال بن لادن يبكون أيضاً.

ولكنني أذكر أكثر من أي شيء آخر الدقائق الأولى التي أعقبت مغادرتنا لمخيم بن لادن. كان الظلام لا يزال مرخياً سدوله، لكني رأيت ضوءاً كبيراً على الجبال لجهة الشمال. ظننت أولاً أنه صادر عن المصابيح الأمامية لسيارة أخرى، كإشارة أمنية من حراس المخيم إلى سيارتنا المغادرة. لكن الضوء بقي هناك لدقائق كثيرة، فاعتقدت أن هناك شيئاً يحترق فوق الجبال ويترك جمراً قليل الإضاءة. وكان الرجال في سيارتنا يراقبونه أيضاً. فصاح أحدهم: «إنه المذنّب «هالي». لكنه كان مخطئاً، إذ إنه مذنب مكتشف حديثاً يسمّى «هايل ـ باب» (Hale-Bopp). أصبح يحلّق فوقنا الآن مندفعاً، وتاركاً وراءه ذيلاً ذهبياً؛ إنه قوة عظمى تنطلق بسرعة ٧٠ ٠٠٠ كيلومتر في الساعة عبر السماوات.

وهكذا أوقفنا سيارتنا، وخرجنا لمراقبة تلك الكرة الملتهبة، وهي تتأجج عبر الظلام فوقنا، وسط رهبتنا جميعاً، رجال القاعدة وأنا، إزاء هذا الظهور الرائع المذهل للطاقة الكونية، التي لم تُرَ منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة.

كان الجزائري واقفاً بجانبي، ونحن نمدُّ أعناقنا إلى السماء، فقال: «هل تعلم يا سيد روبرت ماذا يقولون عندما يظهر مذنّب من هذا النوع؟ إنه يعني أن حرباً كبيرة ستنشب». وهكذا راقبنا أجيج النار في موكب النجوم عبر القبة السماوية فوقنا.

الفصل الثاني

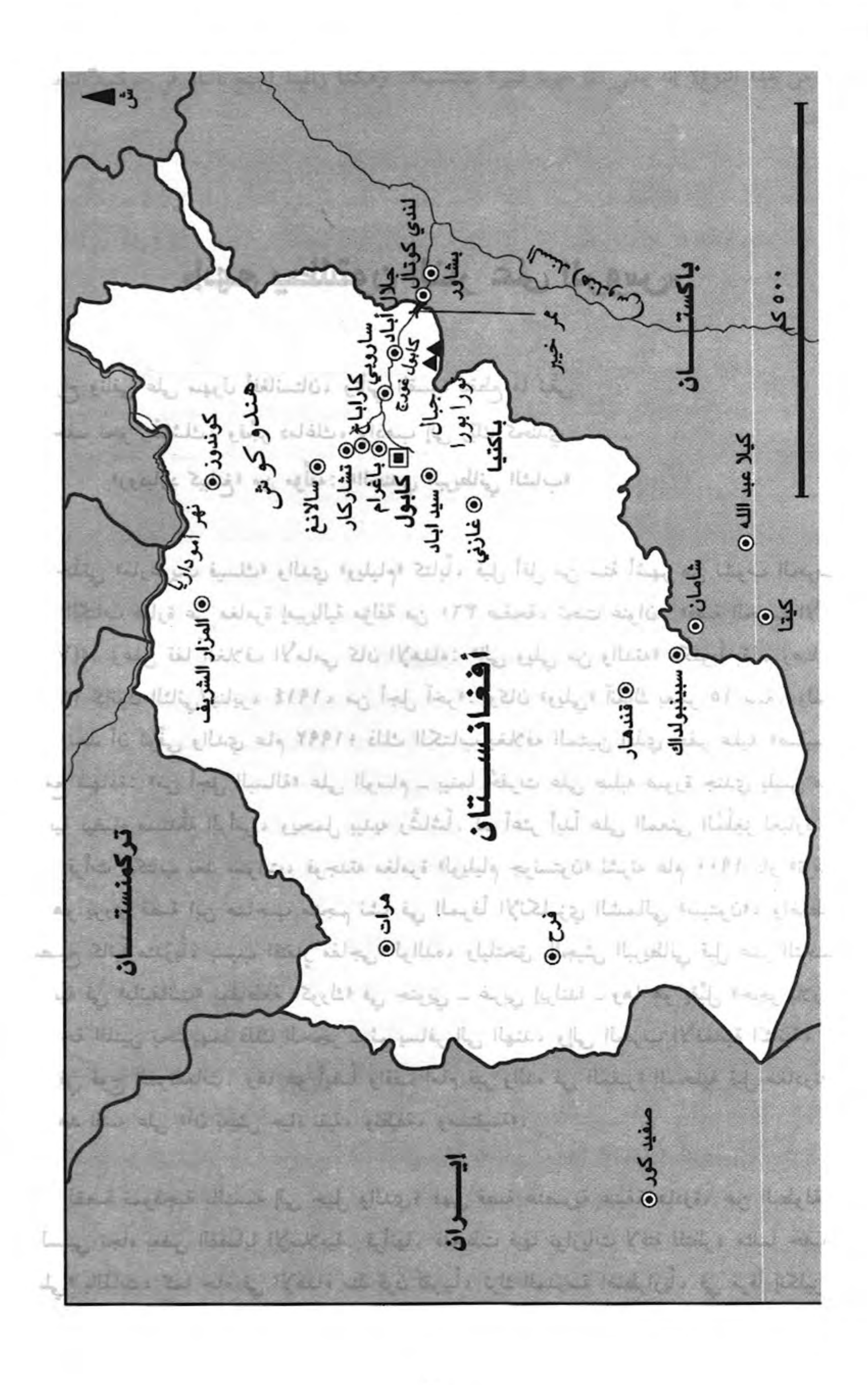
«إنهم يطلقون النار على الروس»

عندما تُجرح وتُلقى على سهول أفغانستان، وتأتي القسوة لتقطع ما تبقّى
منك، ازحف نحو رشّاشك، وفجّر دماغك، واذهب إلى ربّك كجندي

«روديارد كيلنغ» من مؤلّفه: «الجندي البريطاني الشاب»

أعطت جدّتي «مارغريت فيسك» والدي «ويليام» كتاباً، قبل أقل من ستة أشهر من نشوب الحرب العالمية الأولى. كان الكتاب عبارة عن مغامرة إمبريالية مؤلفة من ٣٦٠ صفحة، تحت عنوان: «قصة الحرب الأفغانية: توم غراهام (V.C.)». وعلى قفا الغلاف الأمامي كان الإهداء: «إلى ويلي من والدته» مكتوباً بقلم رصاص غليظ، ومؤرخاً في ٢٤ كانون الثاني/يناير، ١٩١٤، من أجل آخر». وكان «ويلي» آنذاك بعمر ١٥ سنة. ولم أرث هذا الكتاب، إلّا بعد أن توفّي والدي عام ١٩٩٢؛ ذلك الكتاب بغلافه المتين الذي حُفر عليه «صليب فكتوريا البريطاني» مع شهادة: «من أجل البسالة» على الوسام ـ بينما حُفرت على صلبه صورة جندي يلبس سترة حمراء وقبعة استوائية بيضاء مستدقّة الرأس، ويحمل بيديه رشّاشاً. لم أعثر أبداً على المعنى المُلْغِز لعبارة: «من أجل آخر»؛ لكنني قرأت الكتاب بعد سنوات، فوجدته مغامرة «لويليام جونستون» نشرته عام ١٩٠٠ دار «توماس نلسون وأولاده». وهو يروي قصة ابن صاحب منجم نشأ في المرفأ الإنكليزي الشمالي «سيتون»، واضطر إلى ترك المدرسة ليصبح كاتباً متدرّباً، بسبب افتقارٍ مفاجىء لوالده، وليلتحق بالجيش البريطاني قبل عمر التجنيد. فألحق بوحدة بريطانية في «باتيفانت» بمقاطعة «كورك» في جنوبي ـ غربي إيرلندا ـ وها هو يقبّل «حجر بلارني» ليعطيه القوة والفصاحة اللتين يحتويهما ذلك الحجر ـ ثم يسافر إلى الهند، وإلى الحرب الأفغانية الثانية، حيث يعيَّن ملازماً ثانياً في فوج المرتفعات. وها هو أيضاً واقف أمام قبر والده في المقبرة المحلية قبل مغادرته للالتحاق بالجيش، يعاهد نفسه على «أن يعيش حياة نقية، ونظيفة، ومستقيمة».

إن هذه القصة نموذجية بالنسبة إلى جيل والدي؛ فهي قصة عنصرية عنيفة هادرة، عن البطولة الإنكليزية والموقف السلبي تجاه بعض القضايا الإسلامية. قرأتها، فلحظت فيها توازيات لافتة للنظر، مثلما حصل لوالدي. فوالدي «ويلي» بالذات، كما جاء في الإهداء منذ قرن تقريباً، ترك المدرسة اضطرارياً، في مرفأ إنكليزي شمالي، لأن والده «إدوارد» لم يعد قادراً على أن يعيله. فصار أيضاً كاتباً متدرّباً، في «بيركنهيد». وفي الملاحظات القليلة


ش
تركمنستان
نهر أموداريا
كوندوز
هندو كوش
المزار الشريف
سالانغ
تشاركار
كاراباغ
باغرام
كابول
ساروبي
جلال أباد
لندي كوتال
بشاور
ممر خيبر
جبال تورا بورا
سيد اباد
غازني
باكتيا
أفغانستان
هرات
فرح
قندهار
سبينبولداك
شامان
كيتا
كيلا عبد الله
باكستان
إيران
٥٠٠ كم

التي كتبها قبل موته، يستعيد بعض ذكرياته، فيذكر أنه التحق بالجيش البريطاني قبل سن التجنيد، وسافر إلى ثكنات «فولوود» في «برستون» للالتحاق بمدفعية الميدان الملكية بتاريخ ١٥ آب/أغسطس عام ١٩١٤، بعد أحد عشر يوماً من بدء الحرب العالمية الأولى، وبعد ستة أشهر تماماً من إهداء والدته ذلك الكتاب إليه: «توم غراهام». وبعد تطوعه في الجيش بعامين، أُرسل «بيل فيسك» كذلك إلى كتيبة من فوج «شيشاير» في «كورك» بإيرلندا، قبل تمرُّد الفصح عام ١٩١٦؛ حتى أنني وجدت في محفوظاتي صورة باهتة لوالدي، وهو يقبّل «حجر بلارني» المذكور. وبعد سنتين، عُيِّن والدي ملازماً ثانياً في فوج الملك في «ليفربول». فهل كان يتعقب واعياً خطوات الحياة الخيالية التي اتبعها «توم غراهام»؟

أمّا ما تبقّى من الرواية فكان قصة مثيرة للانزعاج بخصوص التحيّز ضد لون البشرة، ورُهاب الأجانب خوفاً وكرهاً، والضغينة ضد المسلمين في الحرب الأفغانية الثانية. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، تركزت الخصومة بين الإنكليز والروس طبعاً على أفغانستان، التي كانت حدودها غير المرسَّمة عبارة عن الخطوط الأمامية بين روسيا الإمبريالية والحكم الهندي ـ البريطاني. وكان الأفغان الضحايا الأساسيين في هذه «اللعبة الكبرى»، بحسب ما سمّى الدبلوماسيون البريطانيون بغير حق النزاعات المتتالية التي حصلت في أفغانستان، والخصائص الطفولية للحسد المتبادل بين روسيا وبريطانيا. فالبلاد الأفغانية كانت عبارة عن صندوق من الصحارى المحصورة، والجبال الشامخة، والوديان المخضوضرة الداكنة، التي كانت نقطة التقاء على مدى قرون بين الشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، والشرق الأقصى ـ كما كانت ميداناً للمعارك(*). ويعتبر قرار الملك الأفغاني «شير علي خان»، الولد الثالث لملك أفغانستان الأول «دوست محمد»، القاضي باستقبال البعثة الروسية في كابول، بعد معاودة اعتلائه العرش عام ١٨٦٨، الباعث المباشر للحرب الأفغانية الثانية، كما يسمّيها البريطانيون.

أما الحرب الأفغانية الأولى فقد أدَّت إلى إبادة الجيش البريطاني في ممر كابول عام ١٨٤٢، في الصدع الأرضي ذاته الذي سرنا فيه بسيارتنا ليلاً، خلال زيارتي لأسامة بن لادن عام ١٩٩٧. وبموجب معاهدة «غاندماك» (Gandmak)، عام ١٨٧٩، وافق شير علي بن يعقوب خان على إقامة سفارة بريطانية دائمة في كابول؛ لكن المبعوث البريطاني ورجاله اغتيلوا في مجمعهم الدبلوماسي، فأُرسل الجيش البريطاني من جديد إلى أفغانستان.

(*) حطّم الإسكندر الكبير القبائل الأفغانية في طريقه إلى الهند. ثم توالى على حكم تلك الأراضي «الكوشان»، والساسانيّون الفرس، و«الهيفتاليّون» (Hephtalites)، والجيوش الإسلامية التي قاومتها في البداية بشراسة القبائل الهندية. وفي عام ١٢١٩، جاء غزو «جنكيز خان» الذي استشاط غضباً لموت حفيده خارج مدينة «باميان» المحاصرة ـ حيث تمكن مشاهدة نصبين عملاقين لبوذا يناهز عمرهما ٦٠٠ سنة، محفورين في الجرف الصخري ـ فأمر جيشه المغولي بإعدام كل رجل، وامرأة، وولد. كما أن إمبراطوريات أخرى وسّعت نطاق أراضيها إلى ما نسمّيه اليوم أفغانستان. وعند نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، احتلّها تيمورلنك (تيمور تعني الأحنف أي المشوّه القدم)، وتلا التيموريين في الحكم مغول الهند، والصفويون الفرس. وكان هناك عصيان دوري من قبل القبائل الأفغانية؛ لكن مجمل البلاد التي يمكن تحديدها بأفغانستان، برز كيانها عام ١٧٤٧، عندما قام «أحمد شاه دوراني» زعيم قبيلة بشتونية صغيرة، فشكّل كونفيدرالية غزت بعدها شمالي الهند. ولكن أفغانستان لم تظهر كأمة واحدة في كيان سياسي إلّا تحت حكم «دوست محمد» بين الأعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩.

وفي الرواية المذكورة، يذهب توم غراهام مع الجيش البريطاني. وفي بازار بشاور ـ في باكستان اليوم، ثم في الهند ـ يصادف غراهام رجالاً من قبائل باثان (Pathan)، «وهي مجموعة رديئة... تضمّ معظم المتعصّبين الذين يلبسون قلنسوة مشدودة على الجمجمة، تعطي لابسها مظهراً شيطانياً». وخلال أيام بدأ غراهام يحارب رجال القبائل ذاتهم في «بيوار كوتال»، غارزاً حربته في صدر أفغاني «عملاق داكن اللون، تسطع عيناه بالبغضاء». وفي وادي «قُرُم»، كان غراهام ورفاقه المألوفون يحاربون رجال القبائل «المغتاظين، المغرمين بحب السلب والنهب». وعندما وافق اللواء السير «فردريك روبرتس» ـ الذي أصبح فيما بعد لورد قندهار ـ على مقابلة زعيم قبيلة محلية، وصل ذلك الرجل مع «زمرة من الأوغاد، مثلما يمكن أن يتصور المرء». ويدوّن المؤلف أنه كلما وقع الجنود البريطانيون في قبضة الأفغان «كانوا يمثّلون بأجسامهم بشكل مروِّع، ويُخزونهم، على أيدي عفاريت بمظهر بشري». وعندما سيق زعيم الأفغان المسؤول عن اغتيال المبعوث البريطاني إلى الإعدام، سرت «رعشة من الرضا» في صفوف رفاق غراهام، بينما كان المحكوم عليه يواجه المشنقة.

وهكذا وُصف الأفغان في تلك الرواية بأنهم «مجموعة رديئة»، «متعصبون» «أوغاد»، «عفاريت بمظهر بشري»، ولحوم للحراب البريطانية ـ أو (Toasting Forks)، كما سمّاهم نص الرواية ببهجة وانشراح. وقد يسوء الأمر، ويأمر ضابط المدفعية البريطاني رجاله بإطلاق النار على رجال القبائل المتراصّين بتعابير «تفرّق الذباب». وهكذا يصبح نص الرواية ليس عنصرياً فحسب، بل مضاداً للمسلمين أيضاً؛ إذ يتكلم المؤلف بلهجة الأساقفة قائلاً: «قد لا يعرف القرّاء من الأولاد أن الهدف الوحيد لكل أفغاني منخرط في الحرب بين عامي ١٨٧٨ و١٨٨٠، كان تقطيع كل هرطوقي يصادفه. وكلما زاد في تقطيع الجندي الإنكليزي، ارتفعت مكانته في الجنة». وبعدما جُرح توم غراهام في كابول، وصف طبيب الجيش المولود في إيرلندا الأفغان بأنهم «القتلة الأوغاد، والعبيد السود».

وعندما هُزم البريطانيون في معركة «مايواند»، في صحراء قاحلة غربي قندهار، أمر ضابط رجاله «بإعداد حرابهم وانتظار العبيد». ولم يذكر الكتاب أنه كانت هناك أيضاً امرأة أفغانية شابة تدعى «ملالي» ـ رأت بدء تراجع الأفغان ـ فمزقت حجابها ونزعته عن رأسها، وقادت هجوماً ضد أعدائها، فصرعها رصاص البريطانيين. وذلك طبعاً، جزء من التاريخ الأفغاني، لا التاريخ البريطاني. وعندما ادّعى البريطانيون أخيراً في قندهار أنهم انتصروا، فاز غراهام بصليب فكتوريا.

من تعابير «الأنذال أو الأوغاد»، إلى «الذباب» إلى «العبيد»، الواقعة في مئة صفحة، يسهل على القارىء أن يرى كيف أن البريطونيين (Britons) «الأنقياء، النظيفي اليد، المستقيمين» الذين شكّلوا العالم الذي عاش فيه أبي، نظروا إلى أعدائهم كبهائم. ومع أنه ورد ذكر «جرأة» رجال القبائل عدة مرات ـ و«شجاعتهم» مرة واحدة ـ فلم تكن هناك محاولة لتفسير وتعليل أفعالهم. فقد وصفوا بأنهم أشرار، حافلون بالبغضاء، ومتلهفون لإثبات إسلامهم بتقطيع أعدائهم البريطانيين. لكن فكرة أن الأفغان لا يريدون الغزاة الأجانب الذين يحتلون بلادهم، غير واردة في الرواية.

وحتى لو لم تكن الأوصاف البريطانية بهذا التحيّز ضد أفغانستان، فإنها بسَّطت النظرة إلى الأفغان إلى حدٍّ بالغ، فاستعملها «جونستون» لهذا الغرض في روايته. لكنّ هناك تقريراً عن الحياة في كابول بين عامي ١٨٣٦ و١٨٣٨، كتبه المقدَّم السير «ألكسندر بورنز» من شركة الهند الشرقية ـ ونشره قبل مجزرة الجيش البريطاني عام ١٨٤٨ بسنة واحدة. وهو يعطي صورة حسَّاسة لكرم زعماء القبائل، ويبرهن على الاهتمام الحقيقي في عادات الأفغان وحياتهم الاجتماعية. ولكن عند نهاية القرن، اختارت «جريدة الهند الإمبريالية» أن تصف حيوانات أفغانستان قبل وصفها للناس الأفغانيين بأنهم «جميلون ورياضيون... متعودون على سفك الدماء منذ نعومة أظفارهم... غادرون ومندفعون للأخذ بالثأر... جاهلون لكل شيء يتعلق بديانتهم، ويتجاوز أكثر العقائد بساطة...».

بين البريطانيين الشباب الذين رافقوا الجيش البريطاني إلى كابول عام ١٨٧٩، كان هناك بريطوني حقيقي هذه المرة، يبلغ التاسعة والعشرين من عمره؛ وهو موظف في القطاع العام يسمّى «هنري مورتيمور دوراند»، الذي عُيِّن أمين سر سياسياً للّواء «روبرتس». وقد هاله بيان اللواء إلى شعب كابول الذي يصرّح فيه بأن قتل دبلوماسيي البعثة البريطانية «جريمة غادرة وجبانة، جلبت عاراً لا يمحى على شعب أفغانستان». ويزيد على ذلك قوله: «إن اتباع يعقوب خان لن يفلتوا من عقابهم الذي سيبقى ماثلاً في الأذهان... وإن جميع الأشخاص الذين تثبت علاقتهم بالاغتيال سينالون ما يستحقون». وكانت تلك صيغة فكتورية قديمة من التحذير الذي سيوجهه رئيس جمهورية أميركي إلى الأفغان بعد ١٢٢ سنة.

كان «دوراند» إنسانياً ونبيهاً، فواجه «روبرتس» بشأن بيانه مفكراً: «يبدو لي أن البيان مخطىء في اللهجة والمحتوى، بحيث صمَّمت أن أبذل جهدي لأخلعه... تلك اللغة المتكلفة الطنَّانة، وذلك التصنُّع في الوعظ الأخلاقي التاريخي للأفغان، الذين بدأت مشاكلنا معهم بظلمنا المقيت لهم؛ كل ذلك جعل الورقة بنظري خطرة على سمعة اللواء». وعلى الأثر، حسَّن «روبرتس» النص، ولكن ليس إلى الدرجة التي ترضي «دوراند»؛ بل قلَّل الاعتراض عليه.

ولكن «دوراند» أرسل رسالة إلى أخته «إيلا سايكس» كاتبة سيرة حياته، يذكر فيها قسوة الأفغان، حسبما جاء في رواية «توم غراهام»، قال: «خلال العمليات التي دارت في وادي شاردة» بتاريخ ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٨٧٩، أُمِرَت سَرِيّتا خيّالة من فرقة الرِّماحين التاسعة بأن تهاجم قوة كبرى من الأفغان بهدف إنقاذ أسلحتنا. ولكن الهجوم خاب، ووجد بعض قتلانا فيما بعد، وقد مثّل بهم بسكاكين الأفغان... لقد رأيت كل ذلك...». وقد كتب «دوراند» ذلك بعد ١٦ سنة من حصول ذلك الحادث. ولكنه كان واعياً أن الأفغان ليسوا «عفاريت بمظهر بشري»، كما يصورهم الخيال الشعبي. وفي عام ١٨٩٣، يصور «دوراند» قائد الجيش الأفغاني «غلام حيدر» بأنه محب للبحث والتحقيق وكريم:

> «تكلمنا اليوم عن حجم لندن، وكيفية إمدادها بالطعام... وعن التحيُّز الديني، والبغض بين السنة والشيعة، وعصر الإصلاح والتحقيق، وروايات المسلمين والمسيحيين حول حياة المسيح ووفاته، والأرمادا الأسبانية، ونابوليون وحروبه، مما يعرف عنه غلام حيدر الكثير فضلاً عن عادات الصوماليين، وصيد النمر...».

وقد أُرسل «دوراند» ليتفاوض مع ملك الأفغان عبد الرحمن ـ ابن عم «شير علي» ـ حول حدود بلاده الجنوبية، وترسيم حدٍ متفق عليه بين الهند البريطانية وأفغانستان. وكان «إدوارد» أخو «دوراند» قد سبق له أن ساعد في تحديد حدّ البلاد الشمالي مع الروس ـ مع العلم أن الروس أثناء ذلك أرسلوا قوة من «القوزاق» لمهاجمة الجنود الأفغان على نهر «كوشك» ـ فوجد «دوراند» الملك غير ودود إلى حدٍّ كبير مع جيرانه الشماليين. وبحسب مذكرات «دوراند»، أعلن عبد الرحمن ما يلي:

«إذا لم تجرّني إلى العداوة، فأنا صديقك طول حياتي. ولماذا؟ لأن الروس يريدون أن يهاجموا الهند. وأنتم لا تريدون أن تهاجموا تركمنستان الروسية. ولذلك يريد الروس أن يعبروا بلادي، وأنتم لا تريدون ذلك. يقول الناس إني سأنضم إليهم وأهاجمكم، فإذا فعلت ذلك وانتصروا، هل يغادرون بلادي؟ ـ أبداً عليّ أن أكون عبدهم، وأنا أكرههم».

وبعد ٨٦ سنة من الحكم، عرف الروس معنى ذلك.

لقد رأيت أولئك الروس، واقفين بجانب دباباتهم (T-72). قرب مدارج مطار كابول، لابسين سترات مبطّنة بالصوف تحت وجوه بيض متوردة، مع قبعات من الفرو الأغبر، عليها النجمة الحمراء والمطرقة والمنجل، شعار الاتحاد السوفياتي. وكان لهاثهم المتكاثف يملأ الهواء أمام أفواههم. وعلى الشاحنات المتوقفة إلى جانب الطريق المؤدية إلى المدينة، كانوا يلبسون خوذ الفولاذ المألوفة في وثائق الحرب العالمية الثانية، البادية كبراميل مع متدلّيات على الأذنين، ويحملون رشاشات بأيدٍ محميّة بالقفّازات، ويفتشون الأفغان دائبين بعيون متضيّقة. وكانوا يدخنون بشراهة وسرعة، بحيث تتكون فوقهم سحب من دخان وضباب عند كل نقطة مراقبة. هؤلاء هم أحفاد رجال «ستالينغراد» و«كورسك»، وأبطال «روستوف» و«لينينغراد» و«برلين». وكانت على أسفلت المطار سبعون دبابة على الأقل من تلك الدبابات القديمة، يكسوها الثلج بكثافة، كالسكّر المتجمد على كعكٍ من المعدن، كافية بحيث تستطيع أن تلجم أي «إرهابي» أفغاني.

غزا السوفيات أفغانستان ليلة عيد الميلاد عام ١٩٧٩. وعندما وصلتُ بعد أسبوعين كانت مدرّعاتهم متمترسة نزولاً من نهر «أمو داريا» الذي صار حداً لهذه الأرض المغمورة بالصقيع، ذلك النهر الذي اتفق «إدوارد» أخو «دوراند» مع الروس على جعله الحد الفاصل بين البلدين. وباستثناء بعض المدن المعزولة، سحق الجيش السوفياتي كل مقاومة. وتمّ التخييم العسكري الروسي على طول الطرق الواقعة جنوبي وشرقي كابول، بحماية عشرات الدبابات والمدفعية الثقيلة، وبذلك سيطروا على الشرايين الموصلة بين المقاطعات المتمردة في جنوبي شرقي أفغانستان. وقد سمّى بريجنيف ذلك الغزو «تدخلاً» ومساعدة سلمية للحكومة الاشتراكية الشعبية التي ألّفها الرئيس الأفغاني بابراك كارمال الذي تسلّم السلطة حديثاً.

وعندما التقيت موظف الاتصالات بالراديو السويدي القديم من معارف القاهرة، «هانز غونر إيرلاندسن» الذي

كان عبارة عن حزمة من الشعر الأشقر فوق عينين زرقاوين نافذتين، ونظارة كبيرة، قال: لم أرَ في كل حياتي هذا العدد الغفير من الدبابات؛ ولا أريد أبداً أن يحصل ذلك أيضاً على مدى حياتي؛ إنه أمر يتجاوز الخيال».

لقد قدم آنذاك إلى أفغانستان خمس فرق عسكرية: الفرقة ١٠٥ المنقولة جواً والمتمركزة في كابول؛ والفرقة ٦٦ ذات الرشاشات الآلية في «هرات»؛ والفرقة ٣٥٧ ذات الرشاشات الآلية في «قندهار»؛ والفرقة ذات الرشاشات الآلية في المناطق الشمالية الثلاث «بادكشان»، و«تاخار»، و«سامنغان»؛ والفرقة ٣٠٦ الآلية في كابول، مع جنود المظلات السوفيات. وبلغ عدد الجنود السوفيات إذ ذاك ٠٠٠ ٦٠ جندي وأكثرهم يشقّون خنادق على جانب الطرق الرئيسية. وكان ذلك غزواً على نطاق واسع، يبرهن على الإرادة العسكرية لقوة عظمى، إرادة بريجنيف المتصلّب ـ الذي كان «القومسيير» أي المفوّض السياسي في الجبهة الأوكرانية، والذي توفي بعد ثلاث سنوات ـ والذي يشدّ الآن عزمه القديم القاصر لآخر مرة.

كان لمغامرة روسيا الإمبريالية الأخيرة هذه كل العتوّ المهول الذي اتصفت به حروب بريطانيا في أفغانستان. ففي الأسبوع الفائت وحده، قامت طائرات الشحن السوفياتية من طراز «أنطونوف ـ ٢٢»، بحوالى ٤٠٠٠ رحلة مستقلة إلى العاصمة. وكانت أسراب طائرات «ميغ ـ ٢٥» تتسابق على مدارج مطار كابول لتصعّد في نور الشمس الأبيض باتجاه الجبال الشرقية؛ ويتبع ذلك انفجارات كبرى عن بعد في هذا المشهد، وكأنها طرقات أبواب الزنازين، تحت أقدمنا. وتمركز الجنود السوفيات في أعالي ممرّ كابول. وكنت آنذاك مراسلاً لجريدة «التايمز» اللندنية، التي عمل فيها في القرن التاسع عشر «وليام هوارد رسل»، مراسلاً حربياً في الحرب الإنكليزية ـ الروسية في القرم؛ والتي نال فيها شرفاً. لقد صرنا كلنا مثل «توم غراهام»، الآن.

أعتقد أن هذا الإحساس ألمَّ بمعظمنا خلال ذلك الشتاء الجليدي اللامع. وكنت إذ ذاك منهكاً. عشت في بيروت، حيث امتصت الحرب الأهلية أول جيش إسرائيلي وثاني جيش. وقبل ذلك بثلاثة أسابيع، كنتُ قد غادرت إيران ما بعد الثورة، حيث خسرت أميركا «شرطيَّها الخاص في الخليج»، الشاه محمد بهلوي، لصالح أقوى القادة الإسلاميين، آية الله روح الله الخميني. وبعد تسعة أشهر، سأكون هارباً لإنقاذ حياتي تحت القصف مع جيش صدّام حسين العراقي الذي غزا الجمهورية الإسلامية. وكانت أميركا قد خسرت إيران، وعلى شفا خسارة أفغانستان ـ أو على الأقل تشهد المطالبة المحزنة لتلك البلاد باستقلالها الوطني تذوب في أحضان الكرملين. أو هكذا رأينا الوضع في ذلك الزمان. لقد أراد الروس بلوغ مرفأ مياه دافئة، كما خشي من ذلك اللواء «روبرتس» عام ١٨٧٨. فلو استطاع الروس بلوغ شاطىء الخليج ـ مع العلم أن قندهار تبعد عن عُمان ٦٥٠ كيلومتراً ـ واجتياح بلوشستان الإيرانية أو الباكستانية، لأصبحت القوات السوفياتية لا تبعد سوى ٣٠٠ كيلومتر عن شبه الجزيرة العربية. كانت تلك على الأقل الكلمة المتعارف عليها، ومنبعاً لألف افتتاحية في الصحف: الروس قادمون. ولم يكن ظاهراً آنذاك أن الاتحاد السوفياتي كان في طور النزاع، وأن الحكومة السوفياتية أخذت على عاتقها هذه الحملة غير الاعتيادية، لخوفها من أن ينهار حليف شيوعي في أفغانستان، وأن يمتد ذلك الانهيار متسلسلاً إلى الجمهوريات الإسلامية السوفياتية. ولكني سأرى خلال أيام صدق ظن الكرملين.

وفي الواقع، قدم معظم الجنود السوفيات إلى أفغانستان من تلك الجمهوريات الإسلامية ذاتها في أواسط آسيا السوفياتية، التي اهتم بريجنيف بولائها. وفي كابول، كان الجنود السوفيات القادمون من تركمنستان يتحدثون بسهولة مع القواد الأفغان. أما صفات علوّ عظم الخد لدى بعض الجنود، فتدلّ على أنهم مستقدمون من منطقة منغوليا. وفي كابول والقرى المحيطة بها مباشرة، لم تظهر عداوة نحو الغزاة السوفيات في وضح النهار؛ ولذلك نُقلت وحدات روسية عديدة إلى الريف المكسوّ بالثلج، وسُحب جنود أفغان لحماية العاصمة. ولكن في الليل، أُرجع السوفيات إلى كابول، وتحدثت تقارير غير مثبتة عن سقوط عشرة قتلى في صفوف الروس، منهم اثنان ضربا حتى الموت بالهراوات. وفي جلال أباد، الواقعة على بعد ٦٥ كيلومتراً من حدود باكستان، كانت هناك انفجارات ليلية مدوِّية، تدل على استمرار المجابهة بين رجال القبائل الأفغان والجنود الروس.

وعلى مدى الشهرين التاليين كنّا، نحن الصحافيين القلائل الذين بقوا في أفغانستان، شهوداً على بداية مأساة مخيفة، ستدوم أكثر من ربع قرن؛ وتزهق أرواح مليون ونصف مليون نسمة على الأقل. إنها الحرب التي ستتوسع وتضرب في نهاية الشوط أميركا، وليس روسيا. كيف كان لنا أن نعرف ذلك؟ كيف كان لنا أن نخمِّن أنه بينما كانت تتطور ثورة إسلامية في إيران، كانت هناك أيضاً قوة روحية كبرى تتنامى هنا في أحضان الثلج أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٨٠؟ وكذلك، كانت البيِّنات الثبوتية هناك، لمَنْ اختار أن يسعى في أثرها، ومَنْ أدرك أن رواية التاريخ التي خلعها علينا أسيادنا ـ سواء أكانوا من موسكو أو من واشنطن ـ جاءت أساساً قصيرة المدى، خاطئة، وفي آخر الأمر مخيِّبة للذات. ربما كنّا سُذَّجاً، قليلي الاستعداد لمجابهة مثل تلك الأحداث على مثل ذلك النطاق الواسع. مَنْ كان باستطاعته أن يعي في مثل ذلك الوقت القصير مغازي هذه القصة الإمبريالية في جوهرها، هذه المغامرة الأخيرة في «اللعبة الكبرى» (Great Game)؟ كنا شباباً بمعظمنا، نتدافع في أفغانستان خلال ذلك الشهر، كانون الثاني/يناير. كنتُ إذ ذاك في الخامسة والثلاثين من عمري، وكان أكثر زملائي أكثر حداثة مني، والصحافة ليست علماً غير محدَّد فحسب، بل هي مهمة مرهقة، تنطوي على المقدار ذاته من البيروقراطية ومن جمع الوقائع. أمضيتُ عيد الميلاد في إيرلندا، وعدتُ إلى حرب بيروت في الثالث من كانون الثاني/يناير، كي أستعدّ لمتابعة العمل الذي أنيط بي في تغطية تطورات الثورة المستمرة في إيران. ولكن الغزو السوفياتي لأفغانستان لا يقارن بأيّ حَدَث آخر.

وبالنسبة إلى الصحافي، لا شيء يغلب تلك اللحظة التي تغريه فيها قصة كبرى، إذ يكون التاريخ قيد الصنع، ويدعوه رئيس التحرير إلى أن ينتهز تلك الفرصة. أتذكّر يوماً قائظاً في بيروت، عندما خطف مسلحون طائرة ركّاب نفّاثة، تابعة لشركة «لوفتهانزا» إلى دُبَي. أخبرتُ مرجعي في لندن، أني أستطيع أن أنتقل إلى هناك خلال أربع ساعات؛ وتسلّمت الرد: إذهب حالاً. لكن ذلك كان مسرحية على نطاق أكبر بكثير، بل ملحمة لو كنّا هناك لنرويها. كان الجيش الروسي آنذاك ينهال على أفغانستان؛ وكان زملائي من بيوتهم ومكاتبهم في لندن، ونيويورك، ودلهي، وموسكو، يحاولون أن يجدوا سبيلاً يوصلهم إلى هناك. وكانت بيروت قريبة نسبياً، لكنها لا تزال تبعد ٣٠٠٠ كيلومتر غربي كابول. وكانت خبرة سوريالية أن تنتقل بالسيارة في بيروت الغربية تحت القصف، ذاهباً إلى

مكتب طيران الشرق الأوسط، للحصول على تذكرة سفر على طائرة من طائراتها التي لا يتجاوز عددها ١٢ طائرة بوينغ ٧٠٧، وثلاث طائرات جمبو. وبحسب قواعد السفر القديمة، كانت أفغانستان تعطي سِمات سفر للرعايا البريطانيين عند الوصول. ولكن، علينا الآن أن نأخذ باعتبارنا أنها أصبحت تدور في فلك الاتحاد السوفياتي، وربما طرأ تغيير على تلك الأنظمة ـ الباقية من أيام كانت فيها كابول ترعى طريق الحشيش السياحية إلى الهند.

كان «ريتشارد ويغ»، مراسلنا في الهند، موجوداً في العاصمة الباكستانية إسلام أباد، كما كان «مايكل بنيون» في موسكو. أما أنا فقد دبَّرت لي الخطوط الجوية اللبنانية خطة توصلني إلى أفغانستان. وكانت خطة بارعة أبلغتُها لندن بواسطة آلات التلكس القديمة في مكتب الصحافة المتحدة في بيروت، التي أخطأت في التهجئة بانتظام، بقولي: «اقترح عليّ أصدقاء في طيران الشرق الأوسط أن أجرِّب ما يلي: أن أشتري تذكرة وحيدة إلى كابول، وأسافر على متن الخطوط الجوية الأفغانية، أريانا، برحلة تنتهي في كابول. وهذا يعني أنه إذا رُفضتُ، يُحتمل أن أحظى بحوالى ١٢ ساعة في المدينة... لأن رحلتي تنتهي في أفغانستان، ولا يستطيعون إرجاعي إلى طائرتي... وفي أسوأ الحالات، أُرفض، وأشتري تذكرة سفر إلى باكستان ثم أتوجه إلى بشاور... راجياً الإجابة بأسرع ما يمكن، ليستطيع موظفو طيران الشرق الأوسط تدبير التذكرة صباح الجمعة، غداً». فأجابت لندن خلال ساعة: «انطلق بخطة تذكرة وحيدة إلى كابول». وكنتُ في مكتب طيران الشرق الأوسط عندما أرسلت جريدة «التايمز» تنبئني نقلاً عن زميلي «بنيون»: «أن سفارات أفغانستان حول العالم، تلقت تعليمات لإصدار سِمات سفر: مما يسهّل الأمر».

لقد كان ذلك مدهشاً. إن الروس يريدوننا هناك. فدعمهم الأخوي لحكومة كارمال الجديدة تلزمه دعاية ـ إزراءً بالنظام السابق الذي يفترض أنه كان شنيعاً ـ فقد جاء الروس لتحرير أفغانستان. كانت تلك القصة التي دبَّرها الكرملين، كما ظهر ذلك بجلاء. وبالإضافة إلى عملي في جريدة «التايمز»، بقيتُ لعدة سنوات أعدّ تقارير لهيئة الإذاعة الكندية (CBC). أحببتُ الراديو، وأكبرت في تلك الهيئة الحرية التي منحتها للصحافيين، والسماح لي بالذهاب إلى ساحة المعركة والمسجّل في يدي «لأنقل الواقع كما هو»، ولأصف سفك الدماء، ونتانة الحروب، واشمئزازي منها ومن الصراع البشري. خابرتني «سو هيكي» بالتلكس من الإذاعة الكندية بقولها: «حظاً سعيداً؛ افتحْ عينيك أيضاً بقفا رأسك». وكنتُ قد وعدتها بوشاح حريري أفغاني ـ فالرشوة قائمة على قدم وساق في الصحافة الإذاعية ـ سألتها: «كيف نقول بالروسية: ساعدوني لأستسلم للسفارة البريطانية». فأجابت: «بروموغ» بالروسية تعني المساعدة؛ ولكن، يجب أن لا تكون هناك مشكلات بالنسبة إليك، وداعاً».

كان لشركة «أريانا» رحلة من فرانكفورت إلى كابول صباح الأحد باكراً؛ ثم ألغيت؛ ثم أعيدت برمجتها؛ ثم ألغيت أيضاً. فقد تطير من روما، أو من جنيف، لا بل من استانبول. وعندما وصلت إلى تركيا على طيران الشرق الأوسط، كان الثلج متراكماً حول المطار، وقد سجلوا كلمة «متأخرة» أمام رحلة كابول. لم تكن هناك محروقات برسم التدفئة في استانبول؛ ولذلك ربضت في سترتي على مقعد بلاستيكي مكسور، مع كل الكتب والقصاصات التي انتزعتها من ملفاتي في بيروت. وكانت أسناني تصطك، وكنتُ أضع قفّازي بعدما أقلب الصفحات. إننا، معشر الصحافيين، نقوم عادة بحشو رؤوسنا بالتاريخ قبل إقلاع الطائرة التالية، بما فيه من مواقيت ورؤساء

جمهوريات؛ فعين تهتم بالحرب الأفغانية الثالثة، والأخرى ترتب حركة تسجيل الركاب للسفر. أخرجت خريطة أفغانستان التي بدت زرقاء وصفراء إلى جهة الغرب حيث الصحارى تسجن قندهار، وبنّية في الوسط حيث الجبال تتدافع نحو كابول، مع خدش كبير أرجواني وأبيض للجهة الشمالية الشرقية، حيث تفصل هندوكوش بين باكستان، والهند، والصين، والاتحاد السوفياتي.

وأخيراً تمّ ترسيم الحدود بين الهند البريطانية وأفغانستان عبر المناطق القبلية عام ١٨٩٣، من ممرّ خيبر إلى الجنوب الغربي من بلدة «شامان» الصحراوية (الآن في باكستان)، وهي نقطة كثيرة الجفاف والغبار تقع عند قاعدة صحراء كبرى من الرمال والجبال الغبراء، على بعد مئة كيلومتر من قندهار. رسمت تلك «الخطوط عبر الرمال» بواسطة «السير موتيمور دوراند»، واعترفت بها القوى الدولية الكبرى. ولكن ذلك الترسيم لم يعنِ شيئاً بالنسبة إلى الناس الساكنين على ضفتي تلك الحدود، الذين لم يؤخذ رأيهم في الأمر. أما «الباثانيون» القاطنون في الجنوب الغربي من أفغانستان فقد وجدوا أن الحدود تمر عبر أراضيهم وتقطعها، لتحمي بريطانيا من روسيا، وروسيا من بريطانيا؛ لا لتيسّر معيشة القبائل الأفغانية وتحافظ على هوّيتها. فهؤلاء لا يعتبرون أنفسهم لا أفغاناً ولا هنوداً ـ ولا باكستانيين فيما بعد ـ إنما «بشتونيين» يتكلمون الباثانية، ويعيشون فيما يسمونه «بشتونستان»، التي تقع على جانبي الخط الذي عرف فيما بعد بخط «دوراند».

خلّفت نهاية الحرب العالمية الأولى، التي بقيت فيها أفغانستان محايدة، حكماً بريطانياً متداعياً إلى الجنوب، وأمة سوفياتية قوية وطموحة إلى الشمال. وقد قام الملك «أمان الله» بتمرد صغير ضد البريطانيين عام ١٩١٩ عرف منذ ذلك الوقت باسم «الحرب الأفغانية الثالثة» ـ تلك الحرب التي انتصر فيها البريطانيون عسكرياً، بينما فاز فيها الأفغان سياسياً؛ فأصبحوا يسيطرون على شؤونهم الخارجية، ويتمتعون باستقلال حقيقي عن بريطانيا. ولكن ذلك لم يضمن لهم الاستقرار(*).

أما تاريخ أفغانستان التالي، فقد اصطبغ بالإصلاح والتقهقر. وفي مجموعة قصاصات الجرائد التي بحوزتي، تقرير من «الغارديان» حول صرف السوفيات لمبلغ ٣٥٠ مليون جنيه استرليني من أجل بناء نفق طريق «سالانغ» عبر الجبال شمالي كابول. فقد استغرق بناؤه عشر سنوات، وكلّف ٢٠٠ مليون جنيه استرليني لكل ميل. ويسأل

(*) تأثر الملك «أمان الله» بالثورات العلمانية التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، وشاه رضا في بلاد الفرس؛ فأسس سلسلة من الإصلاحات القيّمة ـ جمعية وطنية منتخبة، وحكم ملكي دستوري، وتعليم علماني ـ مما سرّ «الغرب» الحديث، وأخاف السلطات الإسلامية التي رأت في ذلك زوال نهاية نفوذها الإقطاعي، لا بل نفوذها الدائم منذ القرون الوسطى. فحصل تمرد «أمان الله»؛ ثم نفي إلى إيطاليا. ولكن قريبه «محمد نذير خان» لم يرتكب الأخطاء ذاتها، بل تماثل مع الإسلاميين التقليديين، وأنشأ جيشاً قوياً جديداً ـ وهي سابقة خطرة في بلاد غير متحدة ـ فاغتيل عام ١٩٣٣، وخلفه ابنه ظاهر. وتلت ذلك فترة «ديمقراطية» ـ جرت فيها انتخابات حرّة، وتمتعت فيها الصحافة بحرية نسبية ـ ولكن حصل انقلاب عام ١٩٧٣ جلب «محمد داوود» إلى الحكم. وتوجه «داوود» إلى الاتحاد السوفياتي طالباً المساعدة الاقتصادية، وأصدر عدة قوانين ليبرالية، مما حبّذه الغرب ـ منها ما شجع على رفع الحجاب للمرأة اختيارياً ـ ولكن هذا الرفض الفعلي لخط «دوراند»، حمل دولة باكستان الجديدة على إغلاق حدودها مع أفغانستان، مع العلم أنها الدولة التي ورثت الحكم البريطاني الحدودي. وهكذا، صارت أفغانستان الآن أكثر تبعية للاتحاد السوفياتي.

الكاتب: «لماذا يصرفون ٣٥٠ مليون جنيه استرليني على طريق قليلة الاستخدام في جبال هندوكوش؟ ـ من المؤكد أنهم لم يبنوها من أجل الشاحنات المحمَّلة بالزبيب التي تعبرها بمشقة كل يوم. لقد بنيت طريق «سالانغ»... لتمكُّن القوافل الروسية القادمة من المدن وقواعد الجيش في أوزباكستان... من أن تعبر إلى ممرّ خيبر وإلى باكستان...»

إنها أمّة من الفلاحين المعتمدين على تقاليدهم القبلية والدينية؛ بينما يؤمّن لها المبادرة السياسية الماركسيون. إن الانقلاب العنيف الذي أطاح بمحمد داوود عام ١٩٧٨، أدّى إلى سلسلة من الأنظمة الماركسية الأكثر قسوة التي قادها نور محمد طرقي، وحافظ الله أمين، ومناوئهما حزب «بارشام»، وحزب «خلق» أي الشعب الذين أعدموا خصومهم. وحدث العصيان في مناطق من الريف وفي الجيش الذي زاد تمرّده، وبدأ يتفسخ. فمات طرقي بمرض «غير معلن» ـ ولا شك في أنه قتل على يد رجال أمين ـ ثم أطلقت النار في كانون الأول/ديسمبر على أمين ذاته، فمات. وسلَّمت وحدة من الجيش الأفغاني أسلحتها إلى المتمردين في «ورداك»؛ وبدا أن أمين نفسه هو الذي طلب التدخل العسكري السوفياتي لينقذ حكومته. وبدأت القوى السوفياتية الخاصة تصل إلى القواعد الجوية الأفغانية بتاريخ ١٧ كانون الأول/ديسمبر، بعد خمسة أيام من اتخاذ بريجنيف القرار بالغزو؛ وربما قُتل أمين خطأ، عندما رأى حرّاسه الجنود السوفيات حول قصره.

وبعد ربع قرن، قابلتُ في موسكو ضابطاً من رجال المخابرات السوفياتية سابقاً، ممَّن وصلوا إلى كابول مع القوات السوفياتية قبل الغزو الروسي. قال: «حاول أطباؤنا الضباط إنقاذ أمين بعدما أصيب؛ ولن أقول لك أكثر من هذا». ومن المؤكد أن الضابط السوفياتي الذي قام بالانقلاب، اللواء «فكتور بايوتين»، انتحر على الأثر. إنما أعلن في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر أن أمين أُعدم لزيادة القمع الذي قام به. وأُجلس مكانه بابراك كارمال المحامي الاشتراكي من حزب «بارشام»، الذي كان لاجئاً في موسكو. مع العلم أنه كان نائباً لرئيس مجلس الوزراء ـ مع أمين ـ في حكومة طرقي، واليوم هو «حصان طروادة»، الذي يتسلح الروس به لإعلان التحرّر من طغيان أمين.

كانت الحرارة تحت الصفر في مطار «أتاتورك» في استانبول، وبدا الجليد على سطح النوافذ الداخلية. هرعتُ إلى مكتب استقبال المسافرين، فوجدته خالياً. إنما كان هناك منشور من منظمة السياحة الأفغانية يقول على القفا: «قل أفغانستان»، وفكر في البلد الودود بصداقته. قل «أريانا» فإذا بك تفكر في الطريقة الأكثر ودّاً التي توصلك إلى هناك». ولكن يبدو أن تلك المنظمة السياحية لم تسلم من عمليات التطهير. فقد شطب بالقلم العريض على الصفحة الأولى اسم رئيس الجمهورية محمد داوود. وأضيفت كلمة «ديمقراطية» ـ وهي كلمة لا بد من ذكرها لدى كل نظام غير ديمقراطي ـ إلى اسم البلد؛ وطمست كل إشارة إلى العائلة المالكة السابقة. وقد اختفى موظفو السياحة المحليون الذي خدموا أيام داوود وآل مصيرهم إلى مثل مصير الورقة ذاتها.

ولكن طائرة أريانا الجديدة (DC-10) وصلت إلى مطار استانبول قبل الفجر، وعليها الطاقم الأفغاني الذي درّبته شركة «ماكدونيل ـ دوغلاس الأميركية» على قيادة الطائرة. وكانت الرحلة إلى طهران باردة متقلقلة. في آخر

توقف لنا قبل الوصول إلى كابول، تناول الطاقم فطور الصباح على مقاعد الدرجة الأولى قبل خدمة المسافرين، باعتبارها الطريقة الأكثر وداً في بلوغ أفغانستان. وفي مطار «مهراباد» في طهران، دخل الطائرة ثلاثة من حرّاس الثورة الإيرانية، واقتادوا شخصين في منتصف العمر خارج الطائرة، مطأطئي الرأس، خوفاً. ولم يشأ طاقم الطائرة الافصاح عن هويّتهما. وعند الفجر قامت بنا الطائرة إلى كابول.

لبست أفغانستان حلَّة ثلجية، وبدت وهادها متكتّلة بالأبيض والأسود. ومن علو ١٠ ٠٠٠ قدم في طائرتي، كنتُ أستطيع أن أرى المروحيّات السوفياتية تدور في زوايا الممرات الجبلية جنوبي كابول، كحباحب تجرّ وراءها أثراً ضارباً إلى السمرة. لقد أصبح المطار قاعدة حربية، وصارت شوارع العاصمة موقفاً للمدرعات السوفياتية؛ ولم يكن أولئك مجرد جنود إلزاميين. فمركبات المشاة المقاتلة (ASU 85)، تختص بالفرق العسكرية العليا للاتحاد السوفياتي. وكان معظم الجنود يحملون الطراز الجديد من رشاش كلاشينكوف (AKS 74). شمالي المدينة؛ وكانت الفرقة ١٠٥ المحمولة جواً قد حفرت فعلاً خنادق ـ طولها أميال ـ عبر النجد أي السهل الواسع المرتفع الواقع عند سفح الجبال. وعن بعد، كان أولئك الجنود يبدون وكأنهم واقفون على طول الخطوط الأمامية في الجبهة الغربية في الصور البنّية الداكنة القديمة التي التقطها والدي منذ ٦٢ سنة. وكأن قوادهم كانوا يأملون أن يكون ذلك وجه التشابه الوحيد بين الحملتين العسكريتين.

وعندما أوقف الروس سيارة الأجرة التي كنتُ فيها، حدَّقوا في جوازي، وقطّبوا ما بين حواجبهم، ولسان حالهم يقول: «ماذا يفعل هذا الرجل الإنكليزي في كابول»؟ ولم تكن هناك حيرة مماثلة في فندق «أنتركونتيننتال» على التلّة فوق المدينة؛ بل كان موظفو الاستقبال الأفغان في أحسن حال، تعلو وجوههم البسمات، وينقلون أبصارهم خفية نحو رجال الشرطة الأفغان، المرتدين ثياباً عادية، والمستلقين على أرائك المدفأة، لإعلام الضيوف متى يجدر أن يخفضوا أصواتهم. وكان رجال «خدمات إعلام الدولة» يراقبوننا بشدة، ويعجزون لحسن الحظ عن التكلم بالإنكليزية. كما كان هناك أيضاً مشرب أنيق دافىء مملوء بزجاجات الفودكا البولونية والجعة التشيكية بجانب نافذة تسلّق إليها الثلج المتراكم. لكن غرف المنامة كانت دافئة، وشرفاتها بهجة للجاسوس. ومن غرفتي ذات الرقم ١٢٧، كنتُ أستطيع أن أمدّ نظري على كابول كلها، إلى قلعة «بالا حصار» ـ حيث دارت آخر معركة في رواية «توم غراهام الخيالية ـ وإلى المطار. وكان بإمكاني أن أحصي عدد الطائرات السوفياتية النفاثة التي تقلع تحت شمس بعد الظهر، والانفجارات التي تتردد أصداؤها نازلة إلينا من جبال هندوكوش، وعدد الطائرات العائدة لتنزلق على مدارج المطار.

لا أسافر أثناء الحروب إلّا مع مَنْ أثق به. والمراسلون الذين يجزعون تفوتهم الفرصة الثانية. وقد قام «كونور أوكليري» مراسل «التايمز الإيرلندية» بتدبير شأنه ليمرّ من ممرّ خيبر عبر جلال آباد. وكان في مكتب الاتصالات عن بعد في المدينة، يراقب بعين نافذة، عندما لَحَم مشغِّل آلة التلكس الحرف (W) على جذعها المعدني داخل الآلة.

وقد وصل «غافين هيويت»، مراسل هيئة الإذاعة البريطانية، والبالغ من العمر ٢٩ سنة، يرافقه «ستيف موريس» و«مايك ڤايني»؛ وهم يشكلون أذكى طاقم اشتغلتُ معه، مع آلة تصوير معطوبة ـ كانت تلك أيام الأفلام الحقيقية بألوانها الزاهية، التي طغت عليها الآن تكنولوجية التسجيل بالفيديو ـ بالإضافة إلى «جيوف هايل». وكانت أيضاً أيام المجموعات المهنية الحقيقية عندما يرافق المراسلَ إلى الميدان مسؤول عن الصوت «موريس» في هذه الحال ـ ومحرر للفيلم، «هايل». وقد وجد «هيويت» بدهائه سيارة أخرى قديمة منهوكة صفراء من نوع «بيجو»، مموَّهة بالأزهار والزينات الاصطناعية على زجاجها الأمامي والخلفي، ظناً منا أنه من الأفضل لنا أن نتوارى خلفها عند مرور سيارتنا على حواجز التفتيش العسكري السوفياتي والأفغاني. ولكن سائقها، السيد صمد علي، كان مستعداً لمخالفة كل القوانين وإخراجنا من كابول لقاء مئة دولار أميركي.

وهكذا خرجنا بسيارتنا «البيجو» العجوز لمراقبة غزو أفغانستان صباح ٩ كانون الثاني/يناير عام ١٩٨٠، ذلك الصباح الأبيض المشرق. توجهنا شرقاً نحو ممرّ كابول، في عمق ذلك الصدع عند أقدام جبال «سبينجهار». كان الجيش السوفياتي يتقدم نزولاً نحو جلال أباد، وقد شققنا طريقنا عبر دباباته ومدرعاته، التي كانت تنفخ حرَّها، وتترك وراءها دخاناً أسود من عادماتها على الثلج. وعلى جانب الطريق، كان الرجال الأفغانيون مشدودي الوجوه بسبب البرد، يراقبون كل جزء من أجزاء المركبات التي تمر أمامهم. كانوا ينظرون دون انفعال، بينما كانت الريح تلاعب أوشحتهم وأثوابهم البرتقالية والخضراء؛ وكان الثلج يتناثر على الطريق وينساق نحو أقدامهم. كما كانت الحرارة ٢ تحت الصفر؛ ولكنهم آثروا مع ذلك أن يخرجوا ليروا قوافل الجيش السوفياتي تهمهم على الطريق الكبرى شرقي ممرّ خيبر.

وكان أفراد الطواقم الروسية يرتدون قبعات الفرو المتدلية على جبهاتهم، وينظرون من علٍ إلى الأفغان ويبتسمون من وقت إلى آخر، بينما كانت ناقلاتهم تخوض وترشّ ركام الثلج والوحل الذي يكسو الطريق. وبعد أن سرنا حوالى كيلومتر، بدا لنا عناصر الشرطة العسكرية السوفياتية راكبين في سيارات جيب مكسوّة بقماش الأشرعة، يلوّحون بأيديهم في قوافل تعجّ بالمزيد من الدبابات والدروع المحمولة على شاحنات، وتتسابق على طريق جلال أباد. لقد كانوا في عجلة من أمرهم. فقادة الجيش في كابول كانوا يريدون أن تتمركز هذه المساعدة العسكرية على حدود باكستان ـ على طول خط دوراند ـ بالسرعة الممكنة، لحفظ أمن البلاد، وإعلام موسكو بأن الجيش الروسي يسيطر الآن على الوضع. سرنا بسيارتنا حوالى ١٦ كيلومتراً، ونحن في ضيق من أمرنا بين تلك الدبابات والشاحنات وسيارات الجيب؛ والجنود الروس يراقبوننا من تحت الفراء والخوذ التي يرتدونها؛ بينما الهواء يذرو الثلج علينا. وعند كل كيلومتر من الطريق الواسعة المزدوجة الاتجاه، كان الجيش الأفغاني يقف متأهباً على جانب الطريق؛ وعلى بعد ٨ كيلومترات من كابول، مرَّت القوافل بنقطة تفتيش روسية، حيث كان جنديان سوفياتيان يقفان على كل جانب من الطريق، وهما يرتديان سترات منبسطة خضراء داكنة.

وكنا كلما تقدمنا نشعر بأننا في وضع أكثر أمناً؛ كما كنا ندرك أننا نتوجه نحو الخطر، إذ علمنا أن الروس

تعرضوا لهجوم حول جلال أباد. ولكن حالما قطعنا حاجز الشرطة المشتبه بنا في ضواحي كابول ـ صرنا بحسب تصور صاحبنا «هيويت» الطفولي، نتجوّل سياحياً في المدينة ـ فقد حيَّانا مركز الشرطة التالي بلامبالاة عبر تلك القوافل الضخمة. وما دمنا قد حصلنا على إذن بمغادرة كابول، فقد حصلنا كذلك على إذن بأن نسير على هذه الطريق. وهكذا ظن الجنود السوفيات والأفغان الواقفون على جانبيّ الطريق، طبعاً. فمن كان سيبطل ذلك الإذن؟ ـ شكرنا الله تعالى؛ وكان همّنا الأكبر السرعة التي اضطررنا لأن نسير بها. كان الروس يتحركون بسرعة، حتى أن شاحناتهم التي كانت تحمل الدبابات، كانت تسير بسرعة ٨٠ كيلومتراً في الساعة عبر طقس يشبه عاصفة ثلجية؛ بحيث ألزموا السيارات المدنية بالسير على خط واحد، وعند نقطة من تلك النقاط قاربوا أن يسحقوا سيارتنا الصغيرة بين شاحنة ودبابة.

وسرت طوال الصباح شائعات عن معركة جديدة في جلال أباد بين الروس ورجال القبائل الأفغان. وكانت قواتهم المدرعة تتجه نحو مدينة «هرات»، قرب الحدود الإيرانية، ثم رجوعاً نحو «سالانغ»، حيث جرى اشتباك مع إحدى القوافل. هذا التحرك السوفياتي وما يمثله ضد «العناصر المناوئة للثورة» في أفغانستان بدأ يستغرق إتمامه وقتاً أطول، مما كان يعتقد. ويبدو صحيحاً الاعتراض الأميركي بأن ٨٥٠٠٠ سوفياتي دخلوا حتى الآن من طشقند وموسكو، وقد يصل عددهم إلى مئة ألف جندي.

كنَّا نسجل التاريخ، ونحن قابعون في سيارة السيد صمد علي. كان «ستيف» و«جيوف» جالسين على المقعد الخلفي، و«مايك» «محشوراً» بينهما، بينما كان «غافين» يحضن الكاميرا بين ركبتيه، وكنتُ أراقب الجنود الروس على شاحناتهم. وحين نلاحظ أنهم لا ينظرون إلينا، كنتُ أصرخ بهم «هيَّا، عليكم بالصور»؛ فينبري معي «غافين» ـ وهو في النهاية رئيس هذه العملية ـ لنتطاول، ونزيح الأزهار والخضار البلاستيكية المموّهة، بينما يدفع «مايك» الكاميرا من الخلف بين أعناقنا، ويبدأ بأخذ الصور عبر زجاج السيارة. كل صورة لها قيمتها. لقد كانت تلك أكبر عملية حربية سوفياتية منذ الحرب العالمية الثانية، ولن يُعرض فيلم «مايك» عبر العالم فحسب، بل سيبقى مخزوناً في المحفوظات إلى الأبد. هناك الثلج الأغبر، والدروع السوفياتية الخضراء، والصور الظلّية السوداء للأفغان حول الطريق. تلك كانت الألوان والصور التي ترسم بداية هذا الغزو. وعندما تحين نظرة عجلى من جندي روسي، أو تحديق من شرطي عسكري، كنتُ مع «غافين» نصيح: «إلى تحت»، فيخفض «مايك» آلة التصوير إلى ما بين ساقيه، ونعيد ساتر التمويه الاصطناعي على زجاج السيارة. وكان «غافين» يذكّرنا دائماً بأن لا نكون جشعين في أخذ الصور. ووافقنا كلنا على ذلك. فكلما حافظنا على رباطة جأشنا، ولم نبالغ في الوثوق بوضعنا، حتى لو خسرنا صورة جميلة لنصوِّر فيما بعد أخرى، فزنا بالقصة.

أوقفنا سيارتنا فوق قرية «ساروبي». إن مناظر أفغانستان تأخذ بمجامع القلوب حقاً. هنا، أذابت الشمس الثلج عن العشب الجبلي الأخضر اللطيف، وكان ممكناً أن يمتدّ نظرنا إلى مسافة تزيد على ٥٠ كيلومتراً شرقي ممرّ خيبر، إلى ضواحي جلال أباد السابحة في الضباب. أما النزول إلى «وادي الهندوس» فكان أشبه بالخروج من عاصفة ثلجية والدخول في حمّام الصونا. مُدَّ يدك من نافذة السيارة، فتشعر فعلاً بالهواء الذي تزداد حرارته. كان

«غافين»، يثب على أصابع قدميه، وهو واقف إلى جانب الطريق، ينظر إلى روعة المشهد عبر قمم الجبال وسلاسلها، حتى إننا كنّا نستطيع أن نرى الثلوج البيضاء ـ الأرجوانية على قمة جبال «الپامير». لقد كنّا قريبين جداً من الصين؛ وقد شعرنا بأننا كشباب، نقف على قمة العالم.

ولم تكن مأساة هذه الملحمة قد استحوذت علينا بعد. فكيف كان لي أن أتصور أنني سأقف من جديد على هذه البقعة ذاتها من الطريق حيث صلّى رجال بن لادن المسلحون تحت مسيرة المذنّب الناري. وكيف كان لي أن أعرف، وأنا أقف مع «كافين» على جانب تلك التلة، أن بن لادن نفسه، البالغ من العمر ٢٢ سنة، لم يكن يبعد عنّا في تلك اللحظة سوى أميال قليلة، في سلسلة الجبال ذاتها، وهو يحثّ مقاتليه العرب الشباب، للانضمام إلى إخوانهم المسلمين في حربهم ضد الروس؟

كنّا في منتصف الطريق الضيقة الشديدة الانحدار عبر ممر كابول، عندما تصدَّت لنا سيارة سلّطت علينا أضواءها الأمامية وانزلقت لتقف، ويخبرنا سائقها بعمامته وذقنه غير المحلوقة، أن هناك «مشكلة» تحت في الممر، رافعاً يديه ليدلّ على أنه لا يعرف، وأنه يخاف. ثم انطلق خلفنا بسرعة. ومن المعروف في جبال أفغانستان، أن مثل هذا الإنذار يؤخذ على محمل الجدّ. وكلنا عرفنا ما حدث لجيش اللواء «ألفينستون» في هذا الممر عام ١٨٤٢. ولذلك كنّا ننظر إلى الصخور فوقنا حيث ينتهي خط الثلج ويبدأ الجُرْف الشديد الانحدار الذي يمكن أن يحمي الكمين، ونحن نازلون بسيارتنا نسير بحذر شديد. سرنا هكذا مسافة ١٥ كيلومتراً دون أن نلتقي سيارة أخرى حتى وصلنا إلى قرية «ساروبي»، حيث وجدنا مجموعة من الحافلات (الباصات) القديمة البالية وسيارة أجرة في موقف قرب حانوت حلاقة. كما كان هناك أيضاً جندي أفغاني واقفاً في عرض الطريق ليحذرنا بتعابير غير واضحة كذلك من كمين أمامنا؛ فالطريق مقطوعة، كما قال. ولذلك ظللنا على جانب الطريق وفوقنا تسمو الجبال، وتحتنا في منحدر الوادي نهر كابول يحمل الثلج الذائب والسيل الجارف، ونحن نشرب الشاي الساخن الحلو حتى لاحت لنا عند المنعطف دبابتان روسيتان متبوعتان بشاحنتين محمَّلتين بالجنود الأفغان.

انسلّت الدبابتان جنوباً، تاركتين آثار جنازيرهما على إسفلت الطريق؛ بينما يتطلع موظفو الإشارات اللاسلكية إلى الأمام. أما الجنود، فكان كل منهم يحمل رشاش كلاشينكوف، ويلقي هتافين دون أن يتلقى استجابة، خلال عبور «ساروبي». تبعناهم نزولاً في الممر، وخرجنا من حدّ الثلج حيث تتدنى الحرارة تحت الصفر ويسود الجليد إلى السهول الحارة حيث الغبار وبساتين البرتقال على جانبي الطريق. وفجأة، اندفعت عرض الطريق شاحنة محملة بالجنود، وسمعنا طلقات نارية من أعالي الجرف الجبلي. ورأينا الجنود يتسلّقون الصخور ويختفون وراءها، ويذكّروننا بصور من أيام الحروب الإمبريالية التي جرت في ممر خيبر. لكننا تابعنا سيرنا وراء الدبابات الروسية، ووصلنا إلى نقطة تفتيش عند المنعطف، ورأينا موقع الكمين.

قُطعت الأشجار على جانبي الطريق لمسافة ٤٠ كيلومتراً. وكان هناك جنود الآن. وقد جاءت من جلال آباد ناقلتان مدرعتان روسيتان للجنود الذين نظفوا الطريق. وعلمنا أن رجال القبائل أطلقوا النار من الأشجار، عندما

توقفت أولى السيارات المدنية عند الحاجز الذي كان يسدّ الطريق قبل الفجر؛ وقتلوا شخصين وجرحوا تسعة آخرين، أحدهما أصيب في ظهره وصدره. وكان ركام الزجاج لا يزال منثوراً على الطريق؛ ولكن لا يعلم أحد هل كان أولئك الرجال من قطّاع الطرق أم أنهم ظنوا أنها سيارات عسكرية روسية في الظلام. ولكن كان هناك رجل عجوز إلى جانب الطريق يعتقد أن ناصبي الكمين كانوا من «المجاهدين». فنظر «غافين» إليّ نظرة تساؤل؛ فقد كانت تلك المرة الأولى التي سمعنا فيها ذلك التعبير.

وكان ذلك تذكيراً بأن السلطات الأفغانية المدعومة سوفياتياً لم تستطع حتى أن تؤمّن الطريق الرئيسية إلى باكستان، مع أنه كان لا يزال مسموحاً للجيش الأفغاني بأن يمثل دوراً هاماً في العمليات؛ كما لاحظنا. وقد كان جميع الجنود الذين دققوا في أوراقنا عبر الممر، والمتحصنين في القلعة بجوار الممر، من الأفغان. كما أن بعض الدبابات المتمركزة في الجبال خارج جلال أباد كانت أيضاً أفغانية؛ وكان الجيش الأفغاني وحده هو الذي يقوم بالدوريات في المدينة نهاراً. ولم يكن يُرى أيّ جندي روسي على طول الطريق المحفوفة بالأشجار، والأسواق الظليلة في هذه البلدة الجميلة، حيث كانت عربات النقل التي تجرها الأحصنة تقعقع على الطرقات الترابية، وتذكرنا بأيام الاستعمار؛ وحيث كان أولاد الفلاحين حُفاة، يحثّون الحمير المحمّلة بالحبوب والمتوجهة نحو السوق. ولكن المشهد كان خادعاً، وكانت جلال أباد مؤشراً هاماً على ما كان يحدث في البلدات الأخرى النائية في أفغانستان.

فبالرغم من الهدوء السارّ الذي يخيّم على المكان، كان رجال قبيلة «باثان» بالآلاف، يطلقون النار ليلاً على الجنود الأفغان في الريف خارج جلال أباد. وفي الأيام الستة الماضية، كانت الانفجارات تدوّي في المدينة ليلاً، وقد فجّرت قنبلتان كبيرتان مرتين الشبكة الكهربائية والمحوّلات التي تنقل الكهرباء إلى جلال أباد، بحيث بقي سكانها دون كهرباء لمدة خمسة أيام. وزيد وقت منع التجول من الساعة الثامنة مساء إلى الرابعة صباحاً، عندما كان الجيش السوفياتي يجول ليلاً بمدرعاته الثقيلة في المدينة. وصار الآن هناك ١٤٠٠ جندي روسي مع دبابات (T-54) ومركبات جرّارة متمركزة في ثكنات الجيش الأفغاني القديمة على بعد خمسة كيلومترات شرقي جلال أباد على طريق باكستان. فإذا لم يكن باستطاعة الأفغاني أن يحفظ السلام، فالروس مستعدون للقيام بذلك في الأرياف.

عدنا بسيارتنا إلى كابول قبل حلول الظلام؛ وحاولنا زيارة المستشفى العسكري الذي بناه الروس. وكنّا نستطيع أن نرى من خلال السياج الحديدي جنوداً يحملون أذرعهم بعصابات معلقة برقابهم، وآخرون يمشون مستعينين بعكّازات. ورأينا أعظم من ذلك في زاوية من مطار كابول، حيث جثمت طائرة «إيروفلوت»، وبجانبها سيارة إسعاف روسية، وهي تتهيأ للشحن. وقد أطلق الروس على الطائرة التي تنقل موتاهم من أفغانستان لقب «الخُزامى السوداء». وتكبّد الروس خلال ثماني سنوات ٢٦٣ ١٤ قتيلاً ومفقوداً من المقاتلين، و٩٨٥ ٤٩ جريحاً نقلوهم إلى وطنهم.

وفي الأعوام التي تلت، كنتُ أتذكر مع «غافين» الرحلات التي قمنا بها إلى خارج كابول عام ١٩٨٠، كمغامرات كبرى. كنّا أشبه بفرقة من الصيادين، نخرج وراء التقاط الصور في أيام مثيرة. وقد اتخذنا هُري الحبوب الكبير الذي بناه الروس خارج كابول كرمز لهدايا الاتحاد السوفياتي إلى العالم. فقد كان يمثل بنظرنا جزءاً من مليون من الهدايا التي قدمها الاتحاد السوفياتي إلى العالم. وبحسب قول «غافين» بعد عشرين سنة: «إن الهري صورة نموذجية: وكلما كان متقوّضاً كانت صورنا أصدق فنياً. لقد كانت هناك براءة في ذلك العالم».

وأثناء سفري مع جماعة التصوير، كنتُ أشعر بملكيتي للفيلم الذي يصورونه كتقرير عما يحدث؛ وكنتُ متلهفاً مثل «غافين» لأن يحظوا يومياً بنبأ مثير أو سبق صحفي لهيئة الإذاعة البريطانية. كما أن «غافين» كان من جهته حريصاً على أن تخرج تقاريري إلى جريدة «التايمز» بسلام يومياً من كابول. وكان حماسنا لأن يساعد أحدنا الآخر يمثل أكثر من رفقة صحفية. فقد كان «غافين» المراسل التلفزيوني الوحيد الذي وصل إلى أفغانستان، وكان ما يرسله من أفلام مثيرة يشكل إدراك العالم للغزو السوفياتي. وكان «وليام ريس موغ» ـ رئيس تحرير «التايمز»، و«إيفان بارنز» محرر الشؤون الخارجية يشاهدان كل تقارير «غافين»، مع العلم أنها كانت تستغرق ٤٨ ساعة لتظهر على الشاشة. لم يكن في كابول جهاز تلقيم للأقمار الصناعية؛ ولم يكن يسمح لنا باستقدام صحون لها. ولذلك كان «جيوف هايل» يحمل بيديه علب الفيلم من لندن، مسافراً من كابول وعائداً إليها كل يومين مما يجعل سفره بطول ٥٠٠ ١٣ كيلومتر ثلاث مرات أسبوعياً على الأقل. وكان «غافين» يشعر بأن محرري «التايمز» يقرأون تقاريري يومياً، وينتظرون أن يحصلوا منه على الصور المرافقة لها، لأنهم يعرفون أننا نسافر معاً. لقد كنّا طفيليين يتوكأ بعضنا على بعض.

كانت نسخة التقرير الذي أكتبه بانتظام لجريدة «التايمز» أقل كلفة، لكنها متساوية مع غيرها من حيث بذل الجهد المضني. فقد كان موظفو فندق أنتركونتيننتال قد أبلغوا بواسطة شرطة أمن الدولة الأفغانية بأن لا يسمحوا للصحافيين بإرسال تقاريرهم من جهاز التلكس الموجود في الفندق. وهكذا اضطررت إلى أن أبعث برسائل إلى «إيفان بارنز» محرر الشؤون الخارجية التي أنتمي إليها، وإلى «لويس هيرين»، موضحاً كيف سأرسل تقاريري الصحفية إلى لندن. وكانت مكاتبنا في نيويورك وواشنطن تحاول الاتصال بي بالتلفون؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى زميلي «بنيون» الموجود في موسكو. ولكني لم أتلقَّ خلال جميع الأسابيع التي قضيتها في كابول أية مخابرة هاتفية، من أيٍّ كان. وكنتُ أعوّض عن ذلك بأن أستفيق عند الساعة الرابعة صباحاً كل يوم، وأضرب على الآلة الطابعة خمس نسخ من قصتي اليومية التي كنت أكتبها لجريدة «التايمز»؛ أرسل منها نسخة لوكالة «رويتر» للأنباء التي كانت ترسل أحد مراسليها الهنود إلى نيودلهي كل يوم تقريباً، وأخرى إلى مراسل «رويتر» الباكستاني الذي كان يطير بانتظام إلى «بشاور» و«إسلام أباد». ومن هناك، كانوا يرسلونها إلى لندن، لأن جريدتنا مشتركة بخدمات الوكالة. أما النسخة الثالثة فكانت تعطى لأي شخص يسافر إلى «الاتحاد السوفياتي»، أملاً في أن يتصل «ببنيون» في موسكو. لكن النسخة الرابعة كانت تذهب إلى «جيوف» الذي كان يسافر إلى لندن بانتظام. كما ذكرنا أعلاه.

إنما كانت النسخة الخامسة تقتضي عملية ملتوية ـ تعجبت ولا أزال اليوم أتعجب كيف نجحت ـ إذ كنتُ أرسلها بواسطة سائق باكستاني يتخبَّط يومياً بسيارة باص خشبي من كابول إلى جلال أباد، إلى «بشاور» في باكستان، حيث كان موظفو الفندق مستعدين لإرسال التقرير إلى لندن بالتلكس. وقد قمت بهذا الترتيب بعد وصولي إلى كابول بثلاثة أيام. فقد لاحظت مرور باص «بشاور» على طريق جنوبي العاصمة، وعلمت أنه يغادر كابول كل صباح عند الساعة السادسة والنصف. لقد أعجبت بعليٍّ السائق المرح المنتمي إلى قبيلة «الباثان»، بوشاحه الأخضر، وطاقيته المدورة، وابتسامته التي تفترُّ عن أسنان بيضاء، ولغته الإنكليزية التي كانت كافية «ليفهم دعابتي وتهكمي. فقد كان مستعداً ليحمل تقريري إلى باب فندق «أنتركونتيننتال» في «بشاور»، ما دام فيه نقد للروس، على أن أدفع النفقات له وللموظفين، وعلى أن أسدِّد رسوم التلكس فيما بعد. وكان يقول: «ثق بي».

وأثناء كل حياتي التي قضيتها في الشرق الأوسط، كنتُ أثق بالناس، كلما طلبوا مني ذلك. وكان علي يقبض خمسين دولاراً أميركياً يومياً، ليوصل رسالتي المطبوعة على الآلة إلى «بشاور»؛ وكان موظفو الإرسال يتقاضون أربعين دولاراً لإيصال التقرير بالتلكس إلى لندن. وكان هذا الخط مؤمناً باستمرار حتى في أيام التراكمات الثلجية بواسطة الباص القديم الذي كان يسوقه علي، ويجتاز به نقط التفتيش الروسية. وكنتُ أنا أيضاً أركب معه حتى جلال أباد. وقد تلقى الجيش الأفغاني تعليمات تقضي بإيقاف الصحافيين الذين يتجولون بالسيارات؛ ولكن لم يخطر على بالهم أن يدققوا بشأن سيارة الباص. وهكذا كنتُ أجلس على الدرج وأتسكع مع علي، ونحن نهتزّ نازلين ممر كابول، وشاعرين بدفء الريف، ونحن نهبط إلى وادي «الإندوس». وكنتُ أقيم عادة في فندق «سبينجهار» في جلال أباد، وأقضي الصباح أتجول في القرى الريفية وأنا أسوق دراجة نارية مغطَّاة بالقماش، لأتنسّم أخبار قتال البارحة بين الروس والمجاهدين، ثم أركب في باص علي الراجع إلى كابول، بعد الظهر. لم يفقد علي أيّ تقرير من تلك التقارير؛ وقد وصلتني من «التايمز» برقية تثبت ذلك. وكان الصحافيون الذين يهرّبون تقاريرهم يسمّون ناقلها بالحمامة. وكان علي أحسن حمامة صادفتها جريدة «التايمز»، وكان «باصه» أحسن وسيلة نقل وانتقال. وكنتُ مرة جالساً إلى مشرب فندق الكونتيننتال في كابول، فأخبرني مراسل جريدة «الدايلي مايل» بأنه تلقى برقية من رؤساء تحرير جريدته في لندن تقول له بغضب ما معناه: «وكيف يدبِّر» فيسك إرسال تقاريره؟». وعلى الأثر، أعطيت علي مئة دولار أميركي عند موعد الدفع التالي.

وبالتدرّج البطيء، وسَّعتُ مع «غافين» دائرة عملياتنا. فهناك على بعد متي كيلومتر من غربي كابول موقع هام لمدينة «غازني» التي عمَّرت أكثر من مئة سنة، والمتحلقة حول قلعة تركية ذات شرفات لإطلاق النار، تلك التي دمَّرها البريطانيون في الحرب الأفغانية الأولى، مع المستوطنة الواقعة على طريق قندهار التي دمَّرها الغزاة العرب عام ٨٦٩، ثم جنكيز خان عام ١٢٢١. وقد علمنا أن الجيش السوفياتي لم يصل بعد إلى غَزَنة. ولذلك سرنا على الطريق الجنوبية وراء الطوق المسلّح الذي كان يلفّ كابول، وحيَّانا وجه أوروبي تحت قبعة قوزاقية دون أن يبتسم، عندما قطعنا آخر نقطة تفتيش روسية. وكنتُ مع «غافين» نستخدم التمويه بالأزهار المذكور آنفاً، ونزيحه إذا عبرت أمامنا دبابة سوفياتية، ليستطيع «مايك» أن يصوِّر عدة أقدام من الفيلم. وعند قرية «سيد أباد» الصغيرة،

الواقعة على بعد ٧٠ كيلومتراً نزولاً، كانت هناك مكامن لمزيد من الدبابات قد حُفرت على جانب الطريق، ومدافعها موجهة نحو الغرب، فوق أكواخ السكان المتواضعة المصنوعة من القصب والطين. وكان هناك أيضاً جسر يحرسه أربعة جنود شاكُو الحراب، يلي ذلك طريق فارغة غير محميَّة من الجليد والثلج المتناثر تمتد نحو مقاطعات پاكتيا وغازني.

وعندما وصلنا أنا وجماعة «غافين» إلى تلك المدينة القديمة، بسيارة السيد صمد علي الپيجو، بدت لنا كمشهد من القرون الوسطى، بأسوارها ومتاريسها العالية منتصبة إزاء قمم جبال «صفيد كور» المكسوة بالثلوج الكثيفة، وتحت السماء الزرقاء الشاحبة التي غيَّرت كل المعالم المنظورة. وفي الواقع، لم يكن من روس هناك بل سلسلة من شاحنات الجيش الأفغاني التي تنزل كل نصف ساعة تقريباً من الشمال إلى ثكنات غازني، وقد رفعت الشعارات الحمراء الأفغانية دفعاً لهجوم رجال القبائل المتمردين عليها. وكان سائقوها يرتدون ثياباً خَلِقة، وينظرون مليّاً من سياراتهم. والجيش موالٍ مبدئياً لرئيس البلاد وحلفائه السوفيات، ومسيطر نظرياً على الأرياف. وقد شعرنا منذ دخولنا غازني أن هناك وقفاً لإطلاق النار غير رسمي قائم بين الجنود المحليين ورجال قبائل «الباثان». أما الجنود الأفغان فكانوا يلبسون معاطف وسترات من جلد الغنم ـ وغازني مشهورة بصنع سترات «البوستن» (Pustin) المطرزة ـ وكانوا يتجولون في الشوارع الضيِّقة الموحلة، مفتشين عن مؤن يعودون بها إلى ثكناتهم المتداعية ذات الأبراج.

ومنذ ألف سنة، كان محمود الغزنوي يبسط حكمه على معظم أفغانستان، وشمالي غربي الهند المنكوب، حيث أسس إمبراطورية إسلامية ثبّتت النفوذ الإسلامي السنِّي عبر آلاف الأميال المربعة. وصارت غازني إحدى كبريات المدن الفارسية ونبغ فيها أربعمئة شاعر مقيم، بمن فيهم الفردوسي. ولكن المدينة اليوم تبدو متباينة مع ماضيها المجيد. فقد تهاوت بعض شرفات قلاعها الحصينة، وشق الجليد جدرانها العالية بفعل تدني الحرارة تحت الصفر. ولما كانت منعزلة عن العالم الخارجي، فقد كان سكانها مرتابين بالأجانب. وما يفسِّرُ هذا الهاجس الخطير، الذي بلغ الذروة، ورود الأخبار عن وصول الغزو الروسي إلى مدينتهم.

ولم نكد نوقف سيارتنا، حتى تقدم منّا رجل طويل بشاربين أغبرين، قائلاً: «هل أنتم روس؟» وتجمع حول سيارتنا جماعة من «الباثان» بعمامات زرق وبيض. فأخبرناهم أننا إنكليز، فافترَّت ثغور بعضهم عن ابتسامات ودودة على الأثر. وكنتُ مع «غافين» قد طورنا ابتسامات خاصة لمثل هذه المناسبات، ابتسامات عريضة دافئة من الفرح، ونحن نخفي شاغلنا الأسود الحقيقي؛ نرحب بهم ونبدي إعجابنا ببلادهم ورؤيتهم، وكرههم للروس. ولكننا كنّا نعلم كلنا أن الوضع هشّ، وقد ينقلب وبالاً علينا. ولم تكد تمضي عدة شهور على مصرع مجموعة من عمال البناء المدنيين الروس وزوجاتهم بالسكاكين، أولئك الذين جاءوا ليزوروا مسجد بلدة هرات الملون سطحه بالأزرق. وهو معبد قديم من أيام زردشت. وقد سُلخ جلد بعض الروس وهم أحياء. وكانت جريدة «التايمز» قد نشرت البارحة، دون أن أعلم بذلك، صورة لرجلين معصوبي الأعين واقعين في أيدي المتمردين الأفغان، وكانا معلّمين يدرّسان في مدرسة ثانوية موقوفين في مدينة «فرح» على بعد ٣٠٠ كيلومتر غربي قندهار، وكان الرجل الواقف إلى اليمين قد أعدم بحجة أنه شيوعي.

احتاج سائقنا إلى زيت لسيارته البيجو، فخرج إليه رجل مسنّ من دكان تعمّه الفوضى والقذارة وفرشت أرضه بالإسمنت، حاملاً علبة من زيت المحرّكات. وكانت العربات والأحصنة والحمير تنزلق قربنا مترنّحة تحت أكياس الحبوب التي تحملها وهمهم أحدهم: «خار» أي «حمار»، فتلاشت الابتسامات من الوجوه. وتبيّن أنه تعبير يدلّ على الاشمئزاز والحقد عندما يقال للأجانب. فأخبرنا السيد صمد علي يائساً: «إنهم يقولون عنكم أنكم حمير. وهم لا يستطيعون أن يتبيّنوا الإنكليز من الروس وهم لا يريدون الأجانب هنا. فعليكم أن تذهبوا». وفي هذه الأثناء تجمّع حولنا عدد أكبر من «الباثان»، واصطفوا على مرتفع من الأرض بجانب الشارع. لم يكن في أيديهم سلاح، ماخلا سكينين طويلين معلّقين بالحزام. وتقدم منّا رجل متوسط العمر وقال بإلحاح: «غادروا حالاً؛ ولا تتوقفوا أبداً ولو اضطررتم إلى دهسهم. أنتم أجانب، وسيعتقدون أنكم روس، ويقتلونكم؛ ثم يكتشفون فيما بعد من أنتم». غادرنا غازني بسرعة. فهل كنا فعلاً في خطر؟ وبعد مضي ٢١ عاماً، سأواجه مجموعة من الأفغان الغاضبين مثلهم، وسأكتشف معنى إثارة حنقهم وضراوتهم، تقريباً على حساب حياتي.

إن تخويف الغرباء أمر، ومحاربة جيش مجهَّز أمر آخر. وقد لاحظنا فوق الطريق في أعالي التلال وفي ثنايا الثلج سلسلة من المتاريس المعدنية مع رؤوس مواسير المدافع بارزة منها. لقد سيطر الروس فعلاً على الطريق، ولو لم يكونوا إلى جانبها. وقد أُنزلت الدبابات السوفياتية بالمظلات في الجبال شمالي كابول؛ وكذلك القول عن المدفعية خارج غازني، فقد أُلقيت من الهواء. أزحنا زهور التمويه ونظفنا زجاج السيارة من أجل زميلنا «مايك» كي يستطيع أخذ الصور الواضحة بكاميرته. لقد صرنا خبراء في هذا الشأن. ورأى «غافين» أنه لا بد للروس من أن يكتشفوا هذه الحيلة، ويفترضوا أن جميع الأفلام الحديثة تُنتج بهذه الصورة، وأن جيلاً جديداً من الأفلام السوفياتية ستعتمد هذه الطريقة.

لقد كان هناك المزيد من تصوير الأفلام في أفغانستان. وحتى قبل قدومنا، حاولت حكومة «كارمال» أن تستعيد بعض الدعم الشعبي بإفراجها عن المسجونين السياسيين المنتمين إلى «أمين». ولكن عندما فُتح سجن كابول جاء الآلاف من الرجال والنساء لاستقبال أحبائهم، وشرعوا يرمون الجنود الروس بالحجارة حول الأسوار. ولا شك في أن النظام السابق كان مكروهاً من الجمهور، وقد أبلغنا موظفو «كابول» ذلك دون إبطاء. وهذا هو سبب منحنا تأشيرات السفر للقدوم إلى أفغانستان. وفي «بشاور»، زعم المتمردون أن الجيش الأفغاني سيحارب الروس الغزاة، لكن الفرقتين الأفغانيتين السابعة والثامنة المجهزتين بالدبابات السوفياتية، لم تطلقا النار أبداً على المدرعات الروسية. وقد دبّر ذلك مستشاروهم الروس.

ولكن لم تمضِ أربعة أيام، حتى أخفقت دعاية الحكومة. فقد تجمع آلاف الأفغان ـ من أقارب المسجونين، وكثير منهم بالعباءات والعمامات ـ أمام سجن «بوليشاركي»، وهو قلعة سامقة، محفوفة بالشريط الشائك، مقسمة إلى كتل، وفيها زنزانات تعذيب، ليحضروا إطلاق سراح ١١٨ سجيناً سياسياً. ولكن ثار غضبهم للإفراج عن هذا العدد الضئيل، وخرقوا خط دفاع للجيش الأفغاني، وكسروا البوابة الحديدية وفتحوها، ركضنا معهم إلى داخل

السجن، بعدما طرحوا قربي جندياً روسياً، وهو يحدِّق مشلولاً بمشهد الرجال والنساء المرتديات البرقع الكامل، يصيحون: «الله أكبر» في الساحة الخارجية، ويتسلقون بوابات الحديد للقسم الرئيسي من السجن. تعجبت و«غافين» من هذا الوضع. فقد كان ذلك احتجاجاً دينياً مثلما كان اعتراضاً سياسياً. وعلى ظهر الثكنات، كان ضابط روسي يحمل كلاشينكوفاً، ويصوبه إلى الجمهور، ويصيح أنه لم يبق في السجن سوى ثمانية أشخاص. وكان معنا «كونور أوكليري» من جريدة «التايمز» الإيرلندية بمعطفه الروسي الكبير. وهو مقيم في موسكو ويتكلم الروسية. فقال، وهو يتصنّع الابتسام كالعادة، : «سنرى إن كان كلامه صحيحاً».

توقف الجمهور عندما حوَّل الضابط ماسورة رشاشه إليهم؛ ثم لم يلتفتوا إليه، واندفعوا عبر البوابة الحديدية الثانية التي كسروها أيضاً. ولكثرة عددهم، خفض الجندي سلاحه. وطفق مئات من أقارب السجناء يحطّمون نوافذ قسم الزنازين بالصخور، وأبواب البناية الأولى بأنابيب الفولاذ. وفجأة، جاؤوا بثلاثة من السجناء المحرَّرين إلى شمس الشتاء؛ وهم رجال متوسطو العمر يرتدون أسمالاً بالية، نحفاء منبهرون وسريعو العطب يرفُّون برموشهم أمام الثلج والجدران المكسوة بالجليد. وجاءني شاب في السجن، بينما كان الجمهور يثقب سطح الإسمنت لزنزانة ثانية، قائلاً بالإنكليزية «نريد أن يذهب الروس؛ وأن نجد أفغانستان محرَّرة، وأن يُطلق سراح أقاربنا، إن أخي وأبي موجودان هنا في مكان ما». أقحمت نفسي مع سواد الناس في قسم الزنازين؛ وكان هناك فعلاً أكثر من ثمانية سجناء. وقد افترشوا الحرامات على الأرض الحجرية، كوقاء وحيد لهم ضد البرد. وكانت رائحة الزنازين عفنة آسنة لعدم تهويتها. وكان هناك سجناء آخرون يلوِّحون بأيديهم عبر قضبان النوافذ، صارخين مستنجدين بالجمهور للإفراج عنهم. وقد وفِّق أحدهم ممن يلبسون سروالاً فضفاضاً، إلى فتح ثغرة في السطح المعدني لقسم الزنزانات، وانزلق منها إلى الداخل، داعياً رفاقه إلى أن يقتدوا به. أما أنا فتسلقت إلى نافذة عند آخر ذلك القسم، وواجهت عشرين رجلاً على الأقل، جالسين على الأرض بين السلاسل والقش، وعيونهم ذاهلة من الرعب، ومن الارتياح. أشار إليّ أحدهم؛ وكان نحيلاً جداً إلى درجة أحسست معها بعظامه. وكان خداه غائرين ومزرقّين، وأسنانه مفقودة، والندوب ظاهرة على صدره المكشوف. كل هذا حدث، بينما الجنود الروس والحراس الأفغان واقفون يراقبون، وهم عاجزون أن يسيطروا على هذه الآلاف من الرجال والنساء، ومدركون أن أيّ إهراق للدم سيضر بنظام «كارمال» ضرراً فادحاً لا يعوَّض. وقد أساء بعض أفراد الجمهور معاملة الجنود الروس وصاح فيّ أحدهم الذي قال إنه من «باكيتا»: «إن الروس يفجّرون القنابل ويقتلون الناس في جنوبي أفغانستان».

ولكن الظاهرة الجديرة بالملاحظة حول هذا الاقتحام للسجن كانت الأناشيد الإسلامية التي تغنَّى بها الحشد. وصاح بعضهم مطالبين بثورة إسلامية، الأمر الذي كان الروس يخشونه في أفغانستان وفي جمهورياتهم الإسلامية. وكان كثير من الشباب الذين كانوا يفتشون عن أقربائهم، قد جاؤوا من المناطق الريفية الواقعة جنوبي كابول، حيث كان التمرد القبلي يزداد منذ ١٤ شهراً، على الأقل. وبالإجمال، أطلقت الحكومة أكثر من ألفي سجين سياسي خلال الأسابيع الثلاثة السابقة ـ وكان ذلك أول عمل قام به بابراك كارمال كرئيس للبلاد ـ ولكن ذلك

القرار كان له أثر غير مقصود، بتذكير الناس بآلاف السجناء السياسيين الآخرين الذين لم يطلق سراحهم، وغيرهم من النزلاء الذين أعدموا في أيام حكم أمين.

ولم يتمكن الجنود السوفيات من تشكيل خط دفاع، وهم يخفضون أسلحتهم الرشاشة، داخل بوابة «البوليشاركي» إلّا بعد الظهر، في محاولة منهم لمنع الحشد من المغادرة. عندئذٍ، لفّ «كونور» معطفه حوله، ووضع يديه في جيبيه، كنموذج لتصرف لواء في (KGB)، ومشى مباشرة إلى أقرب ضابط في صف الجنود قائلاً بالروسية: «دوس فيدانيا». فانتبه لذلك الضابط وأحد الجنود وتركونا نخرج من السجن(*).

وفي ذلك اليوم عقد بابراك كارمال أول مؤتمر صحفي كئيب له، كرئيسٍ جديد للبلاد. وهو ابن ضابط بشتوني عالي الرتبة، قوي البنية الجسدية، له أنف بارز، وعظام خدين نافرة، وشعر أغبر، وتصرفات تشبه تصرفات «القبضاي» الذي يخرج الأفراد غير المرغوب فيهم من نادٍ ليلي. فشجب حكم سلفه الاشتراكي، واتهمه بالإجرام وأكّد أن بلاده ليست من زبائن الاتحاد السوفياتي. وكان ذلك طبعاً، صعب التصديق، نظراً لأن الباب الرئيسي لقصر «شلستون» ـ حيث جرى ذلك الأداء ـ كان بحراسة جندي سوفياتي يحمل النجمة الحمراء على قبّعته، ولوجود مدرَّعة سوفياتية في فناء القصر، وطاقم جنود سوفيات يديرون مدفعاً مضاداً للطائرات في أحضان الثلج على بعد حوالى مئة متر من المبنى. فقول كارمال: «إن الشيء الوحيد الساطع أكثر من نور الشمس هو الصداقة الشريفة مع الاتحاد السوفياتي»، بدا تصريحاً متفائلاً جداً، بل نظرة أولمبية إلى العالم، قد يدركها الدكتور «فاوست».

ولا بد أن يكون الموظفون الأفغان الذين تحلّقوا حول كارمال متمنين لو كان هناك أحد الشياطين، مثل «مفيستو فيليس» ليلطف لهجة المؤتمر الصحافي للرئيس، ولا سيما عندما تدهور نحو الغضب والصراخ. وكانت أسئلة الصحافيين الأجانب المطروحة على كارمال أكثر إثارة للاهتمام من أجوبته؛ ولكن نقط التركيز في تصريحات رجل موسكو الجديد شملت ما معناه: «لم يُقتل أو يُجرح أيّ جندي روسي منذ بداية التدخل السوفياتي العسكري؛ وإن الفرقة المحدودة التي أرسلت إلى أفغانستان، قد ضخّمتها الصحافة الغربية الإمبريالية، وادّعت أن الاتحاد السوفياتي يدعم النظام الوحشي الذي مثله حافظ الله أمين؛ مع أن الاتحاد السوفياتي لا يتدخل في الشؤون الداخلية لأي بلد. وأخيراً إن الجنود السوفيات سيغادرون أفغانستان حالما تزال السياسة العدوانية التي تتبعها الولايات المتحدة الأميركية، وتسايرها في ذلك قيادة بكين، وبعض الدول العربية والإسلامية.

وقد لا تبدو النكهة الكاملة للمؤتمر الصحفي إلّا ببعض الاستشهادات. فقد أراد مراسل (ITN) «مارتن لويس» أن يستعلم عن انتخاب كارمال للرئاسة بعد حصول الانقلاب على سلفه.

(*) ولما كان كل سجن في الواقع لا يفقد غايته الأساسية، شهد سجن «بوليشاركي» أول إعدام قانوني بعد حكم طالبان في أفغانستان في شهر نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٤. وقد وقّع على حكم الإعدام على «قاطع الطريق» هذا رئيس البلاد «البشتوني» المناصر للأميركيين «حميد قرضاي».

لويس: هل لكم أن تخبرونا عن ظروف انتخابكم للرئاسة؛ وهل كان الانتخاب ديمقراطياً؛ ولماذا ساعدك الجنود الروس للوصول إلى الحكم؟

كارمال: أيها الممثل للإمبريالية البريطانية؛ لقد غزت الإمبريالية أفغانستان بوقاحة، ثلاث مرّات. وبوسعك أن تحصل على جواب صحيح تستحقّه من شعب أفغانستان.

وقد تلت ذلك الجواب فورة تصفيق من قِبل الموظفين الأفغان والمراسلين السوفيات. ولكن كارمال عاد فيما بعد وأخبر لويس أنه انتخب رئيساً من قبل الحزب الديمقراطي الشعبي في أفغانستان خلال حكم أمين(*). وبالطبع، لم نتوقع أقلّ من ذلك من قبل كارمال وتأكيده ـ المتهوّر كما يقول البعض ـ أن «عدم الانحياز الحقيقي لأفغانستان يمكن أن يتحقق بمساعدة الاتحاد السوفياتي المادية والمعنوية»؛ مما يعكس وجهة نظر موسكو.

هذا الرجل الجديد، كان مناهضاً شرساً ضمن هيئة الحزب الديمقراطي الشعبي (PDP) لنور محمد تراقي، الرئيس الذي اغتيل، وألصق كارمال اغتياله بوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وقد خبر هيويت غافين مباشرة تلقي غضب الدكتاتور الجديد. فقد علّق غافين باعتدال قائلاً: «لا يبدو أن هناك الكثير من الدعم لك وللروس في أفغانستان». وعندئذٍ، أخذ كارمال نفساً وجأر بأول رد هادر خطر بباله: «أيها المراسل لهيئة الإذاعة البريطانية ـ تلك الدعاية الأكثر كذباً في العالم». وكان ذلك كل شيء. فكادت القاعة تنهار من التصفيق الشديد من قبل الموظفين الكبار المتحلّقين حول كارمال، والضحك المستمر من قبل الصحافيين. فقلت لغافين: ليس بابراك بذلك الشخص السيِّيء...»؛ فأجابني مع تكشيرة جانبية: «انتظر يا فيسك». وكان على حق. فجواب كارمال غير المعقول جال حول العالم خلال ساعات، مثبتاً أن الرجل الجديد لموسكو كان مستخدماً آخر ذا رسالة وحيدة.

وكان ذلك مؤشراً واضحاً على أن بقاءنا في أفغانستان لن يدوم. وتأكدت من ذلك بعد ثلاثة أيام، عندما جاء ثلاثة عناصر من الشرطة السرية «خاد» إلى مكتب الاستقبال في فندق «أنتركونتيننتال» لمقابلتي. كانوا كلهم يلبسون سترات جلد ـ كما هو مطلوب في البلدان التابعة للاتحاد السوفياتي ـ دون ابتسام. وانبرى منهم رجل صغير الحجم، له شارب رفيع وصوت خشن، يحمل قصاصة ورق، قائلاً: «جئنا إليك من أجل هذه». أخذت الورقة منه، فإذا بها عبارة عن برقية عليها ختم مكتب البريد والبرق. وبدأت أقرأ، وأنا أبلع ريقي، كالمجرم الذي يواجهونه بالإثباتات: «مستعجل، بوب فيسك، نزيل فندق أنتركونتيننتال، كابول، إمكان الحصول على دقيقتين عن آخر الأخبار عن استفحال التحرك العسكري السوفياتي في أفغانستان لنهار الأحد صباحاً، هذا الأسبوع، مع محبتي: «سوهيكي». أخذت نفساً وصرخت: «يا يسوع المسيح». كيف يمكن أن ترسل «سو» إلي من مكتب (CBC) في لندن مثل هذه البرقية؟ لقد مضت أيام وأنا أرسل أشرطة إلى هيئة الإذاعة الكندية، أصف فيها جو

(*) عاد لويس فيما بعد إلى إذاعة الأخبار المسائية لهيئة (ITN) في لندن؛ كما أنه تورط أيضاً في سلسلة من الكتب حول الكلاب والقطط، لقتل الوقت، مفضلاً ذلك على نقل المؤتمرات الصحفية لكارمال.

الخوف والخطر في أفغانستان، وها هي «سو» ترسل إليّ برقية مفتوحة تطلب فيها تفصيلات عن الانتشار العسكري السوفياتي في بلد يشرف عليه الشيوعيون المناصرون لموسكو. إن ذلك جزء من المشكلة القديمة ذاتها. فهناك جدار من عدم التصديق بين المراسلين ومكاتبهم البعيدة في لندن أو نيويورك؛ إنه الافتتان بالبرقية السريعة الخاصة الآتية من منطقة الحرب. فهناك اعتقاد لاشعوري بأن الشريط أو الفيلم هو جزء من إنتاج هوليودي، وأن الجيش الروسي يقدم لنا أداء، وأن «الخاد» الموصوف في تقارير الأخبار بأنه شرطة سرية رهيبة، ليس مفزعاً إلى تلك الدرجة، وأنه يقدم لنا مزيداً من الاستثارة لقصصنا عن الحرب.

كان الرجل الصغير الحجم من شرطة «الخاد» ينظر إليّ وعلى وجهه ملامح الاستثارة. وهو من القلائل الذين يستطيعون تكلم الإنكليزية بشكل مقبول. ها هو يقبض على جاسوس غربي بإثبات غير قابل للجدل، طلب معلومات عن الجيش السوفياتي. وسألني: «ماذا يعني ذلك؟»، فقلت لنفسي: «أجل ماذا عنى ذلك». لقد كنت بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير. فانفجرت ضاحكاً بشكل عاصف في ردهة الفندق، ما أثار انتباه موظفي الاستقبال الذين أرادوا معرفة الطرفة القابعة وراء هذا الانفجار. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أحد رجال الشرطة. هدّأت ضحكي تدريجاً، وهززت رأسي بسأم قائلاً: «تريد هذه السيدة أن تستعلم للإذاعة الكندية في برنامج صباح الإثنين، عن التوسع العسكري السوفياتي: وقد علمنا من الرئيس كارمال أنه ليس هناك سوى فرقة سوفياتية محدودة جاءت إلى أفغانستان. وهذه السيدة تجهل ذلك. وعليّ أن أوضح هذه القضية وأقول الحقيقة. وآسف لأنكم انزعجتم من تلك البرقية السخيفة، وأنا أفهم لماذا انزعجتم منها». وضحكت من جديد، حتى أن الشرطي الصغير ضحك أيضاً بارتباك. أرجعت إليه البرقية المُدنية إليّ، فطلب مني الاحتفاظ بها؛ وهزّ إصبعه في وجهي قائلاً: «نحن نعلم أنك تعلم». فأبديت أسفي، وتساءلت ماذا كان يعلم؟ ولكن شباب «الخاد» كانوا قد أداروا ظهورهم وابتعدوا. شكراً لك يا «سو». وبعد أسابيع تناولت طعام العشاء معها، ودفعت هي الحساب.

لقد كان من الممكن قلب الاحتلال السوفياتي إلى مسرحية ذات بعد واحد فيها غزاة روس متوحشون، ورجال عصابات أفغان جريئون، عكس ما جاء في رواية «توم غراهام» عن الحرب الأفغانية الثانية. أضف إلى ذلك: سلسلة من حكام دكتاتوريين مناصرين للسوفيات، سادوا في أفغانستان بقسوة، وبرياء اشتراكي وخطط اقتصادية مخادعة، وكذلك بالتحالفات القبلية. «فالباثان» و«الهزارة» ـ الذين كانوا من الشيعة ـ و«الطاجيك» و«الجيلزاي» (Ghilzais) و«الدورانيون»، و«الأوزبيك»، كلهم كان يمكن التلاعب بهم من قبل الحكومة في كابول. فهي التي تعطي نفوذاً لزعيم مستعدٍ لضبط بلدته بالنيابة عن السلطات الشيوعية، كما تستطيع أن تحجب المال والدعم عن غيره. ولم تُؤَمِّن المطاوعة السياسية بالسجن والتعذيب والإعدام؛ بل كانت الحكومات الشيوعية ذاتها، تراعي القبائل في أعماق الصحاري والوديان، وتداهن المجتمعات الريفية ثم تفرض عليها نظاماً تعليمياً حديثاً، يتعلم فيه الصبيان والبنات جنباً إلى جنب، وليس على النساء لبس الحجاب، بل تُعلّم فيه العلوم والآداب بجانب التعاليم الإسلامية. وبعد ٢١ سنة، يأتي رئيس أميركي فيتفاخر بأن هذه التدابير مشمولة بأهدافه من أجل أفغانستان.

ولا أزال أتذكر رحلة قمت بها خارج جلال أباد في تلك الأيام الأولى من الغزو السوفياتي. كنتُ قد سمعت عن مدرسة أُحرقت في قرية على بعد ٢٥ كيلومتراً من المدينة. فانطلقت بسيارة أجرة ذات عادم ينفث الدخان، مصنوعة في روسيا. فوجدت أن الحادثة وقعت، ولكن على أسوأ مما كنتُ أتصور، فبجانب المدرسة المتلفة، كانت قطعة لحم سوداء تتدلى من شجرة، وتتأرجح في الهواء. سألت عنها، فأخبرنا رجل من تلك القرية، بعدما ألحّ على سائقي أن يخرجني من القرية، أنها كل ما تبقى من مدير المدرسة؛ كما أنهم شنقوا وأحرقوا زوجته المعلمة في المدرسة؛ وكانت خطيئتهما أنهما نفّذا تعليمات الحكومة بتعليم الصبيان والبنات في الصف نفسه. وماذا عن أولئك الباكستانيين، والمصريين، والسعوديين، الذين كانوا يدعمون «الإرهابيين»، بحسب قول كارمال؛ حتى أنني سمعت في جلال أباد أنهم شاهدوا عرباً في الريف خارج المدينة؛ مع أننا كنا لا نصدق تلك الأقاويل في ذلك الوقت، نظراً لسذاجتنا. فكيف يكون المصريون والسعوديون قد جاؤوا إلى هنا؟ ولماذا السعوديون؟ وعندما سمعت من زملائي ـ ولا سيما الصحافيين الأميركيين ـ أنهم يلقبونهم «بالمقاتلين من أجل الحرية»، شعرت بأن هناك شيئاً من الضلال في هذا الأمر. إنهم رجال عصابات، نعم، وحتى مقاتلون. أما أنهم محاربون من أجل الحرية؟ فأيّة حرية كانوا عازمين على أن يخلعوها على أفغانستان؟

ولا شك في شجاعتهم. وخلال ثلاثة أسابيع من الغزو السوفياتي، اتضحت علامات تدل على معارضة سياسية إسلامية موحَّدة، ضد حكومة كارمال ومسانديه الروس. وكان الدبلوماسيون القلائل الذين لبثوا في كابول، يسمُّون ذلك: «الرسائل الليلية». وكانت تلك التصريحات والبيانات مطبوعة على ورق رخيص، وملقاة في باحة السفارات، وعلى سياجات القنصليات، خلال ساعات منع التجول. وكانت متوَّجة عادة بآيات من القرآن الكريم. وأحدثها الآن ـ في منتصف كانون الثاني/يناير ١٩٨٠ ـ ادَّعت أنها صادرة عن «المحاربين المسلمين المتحدين في أفغانستان»، وعليها شعار «الجبهة الإسلامية الأفغانية»؛ وهي واحدة من أربع جماعات، كانت تقاتل في جنوب البلاد.

ومن صفحات القرآن الكريم المفتوحة، ظهرت ثلاثة شؤون: فقد شجبت الرسالة النظام القائم لارتكابه «جرائم غير إنسانية»، وأدانت الجنود السوفيات في البلاد «لمعاملتهم الأفغانيين كأرقَّاء». «فالمسلمون» بحسب قولها، «لن يتوقفوا عن القتال أو حرب العصابات حتى الرمق الأخير... إن الجنود الروس المغرورين والعدوانيين ليست لديهم أية فكرة عن حقوق شعب أفغانستان، وكرامته الإنسانية». وقد تنبأت الرسالة بموت كارمال وثلاثة من وزرائه؛ وأشارت إلى كارمال باسم «كارغال» التي تعني بالفارسية «لص الشغل». وأول رجل أدين كان عبد الله صواري، عضو اللجنة التنفيذية الدائمة، الذي كان في أيام طرقي رئيس الشرطة السرية؛ والذي يعتبر إلى حدٍ كبير مسؤولاً عن الأمر بتعذيب آلاف من معارضي طرقي. كما شملت لائحة الموت «شاه جان موز دوريار»، وزير الداخلية الأسبق، الذي هو اليوم وزير النقل.

وقد تضمّنت الرسالة أيضاً مزاعم محدَّدة بأن الجيش السوفياتي «كان يرتكب أعمالاً لا يتحملها شعبنا،

بالإضافة إلى أنه خطف نساء وفتيات يعملن في فرن بمنطقة «درلمان» من ضواحي كابول، وأعادهن في الصباح التالي. وحدث أمر مشابه لذلك في ضاحية «خير خانه»؛ وهو عدوان ضد الكرامة الإسلامية». وعندما استقصيت هذه الادّعاءات، قال لي عمال فرن «درلمان» إن النساء العاملات عادة في ذلك الفرن رفضن العمل من أجل الجنود السوفيات، وبالتالي أخذهنّ الروس ليخبزن في فرن آخر، وليس لديهم فكرة عن كيفية معاملتهنّ هناك. ولم يبوحوا بأكثر من ذلك خوفاً. وأضاف كاتبو الرسالة قولهم إن المسلمين سيطيحون بكارمال في آخر الأمر، ولن يعترفوا بالاتفاقات الأجنبية التي عقدتها حكومة كارمال(*). ثم طلبوا يائسين، وربما بشكل محزن، أن تذاع تصريحاتهم من هيئة الإذاعة البريطانية عند الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة «دون رقابة».

ومع ذلك، فقد جازفنا بالخروج جميعاً «أنا وغافين، وستيف، وجيوف، ومايك» مع السيد صمد علي المخلص. وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق صاعدين إلى «ممرّ سالانغ»، على بعد ١٣٠ كيلومتراً شمالي كابول، بتاريخ ١٢ كانون الثاني/يناير، رأينا سيارة تنزلق على الجليد، وأحد رجال المظلات من الفرقة ١٠٥ المنقولة جواً يركض نزولاً على الطريق ملوّحاً برشّاشه الآلي إلينا وصارخاً بالروسية. لقد أصيب بجرح في يده اليمنى، وكان الدم ينزّ من ثقب الرصاصة عبر الرباط المؤقت ويلطّخ كُمّ بذلة الميدان التي كان يلبسها. لقد كان في سن المراهقة، بشعر أشقر وعينين زرقاوين، ووجه ينمّ عن الخوف. ومن الواضح أنه لم يتعرّض سابقاً لإطلاق النار. وكانت بجانبنا شاحنة نقل للجيش السوفياتي، وقد تمزّقت مؤخّرتها إلى أشلاء، بفعل لغم؛ وهي منغرزة في الخندق. وفي أعلى الطريق شاحنتان من حاملات الدروع، وضابط من ضباط المظلات يركض نحونا لإسعاف رفيقه.

سألني بالإنكليزية: «من أنتم؟». وكان ذا شعر أسود معصوب، ومرتدياً سترة متغضّنة، مع زرَدة عليها المطرقة والمنجل فوق حزامه. أخبرناه أننا مراسلون؛ لكنه كان مشغولاً بألم جرحه. ضغط على زرّ التأمين في رشاشه، ورفع يده بصعوبة ليفحصنا، ثم أشار إلى رأس جبل مغطى بالثلج فوقنا، حيث كانت تحوم مروحية عسكرية روسية، وقال: «إنهم يطلقون النار على الروس». لقد كانت له شكوكه. فلا أحد يعلم كم روسياً أصاب رجال العصابات؛ مع أن قرويّاً رأيناه على بعد ميل جنوباً أكد زعمه بأن مواطنيه قتلوا المئات.

لكن الكمين كان دقيق التخطيط. فقد انفجر اللغم في الوقت ذاته الذي انفجرت فيه عبوّة أخرى تحت جسر على الطريق الرئيسية. وهكذا، فإن نصف القافلة الروسية الذاهبة إلى كابول من الحدود انعزل في الثلج على علو ٧٠٠٠ قدم، لمدة ٢٤ ساعة. وقد أجرى المهندسون الروس إصلاحات مؤقتة. وكنا نراقب الشاحنات الروسية نازلة من الجبال منزلقة على الثلج الذائب والوحل بعدد يساوي: ١٥٦ مركبة مدرَّعة، وناقلات جنود بثمانية

(*) أعاد الروس كارمال بالطائرة إلى موسكو عام ١٩٨٦، ونصّبوا محله محمد نجيب الله، رئيس «الخاد» أي الشرطة السرية. ثم أطاح به المجاهدون، فالتجأ إلى مكاتب الأمم المتحدة في كابول عام ١٩٩٢، بعد ثلاث سنوات من الانسحاب السوفياتي. وفي عام ١٩٩٦، سحبه رجال طالبان، فخصوه وشنقوه مع أخيه على شجرة، بعدما وضعوا في فمه وجيوبه عملة أفغانية. وكان هذا هو المصير الذي كان ينتظر كارمال الذي مات بالسرطان بعد سنوات في موسكو.

دواليب، و٣٠٠ شاحنة محملة بالنفط، والذخيرة، والطعام، والخيم. وكان السائقون يبدون متعبين. ومن سخرية القدر، أن الروس أنفسهم كانوا قد بنوا هذه الطريق وعبَّدوها عبر ممر يعلو ٩٠٠ ١١ قدم، كرمز للتعاون المشترك بين الاتحاد السوفياتي وأفغانستان ـ وللقوافل السوفياتية العسكرية التي تتوافد الآن جنوباً تحت طائلة الهجمات اليومية. وفي تلك الليلة، أعلنت وزارة الخارجية الأميركية في مبالغتها مقتل ١٢٠٠ جندي روسي؛ بينما كان تقدير القروي المتعطش إلى الدماء البالغ مئات القتلى، أقرب إلى الحقيقة. إنها «فرقة عسكرية محدودة» حقاً.

أعلنت حكومة كارمال حداد يوم من أجل الذين قتلهم «السفَّاح أمين»؛ حتى أن السفارة البريطانية خفضت العلم إلى منتصف السارية. ولكن لم يحضر للصلاة على أرواح الشهداء في مسجد «پوليكيشتي» الأصفر سوى مئات قليلة من الناس، أكثرهم من الموظفين. وقد قام جندي يحمل بندقية في رأسها حربة، بلفت نظر أربعة من الشباب الذين وصلوا إلى المسجد في شمالي كابول بضرورة التوقيع على الدفتر، لأن ذلك من واجبات الحزب. أما باقي كابول فقد حافظت على النمط المرتبك لحياتها الجديدة. وقد فتحت الأسواق كالعادة، وتابع البائعون في الشوارع اتجارهم بالحلوى والزيوت بجانب نهر كابول المغطى بالجليد. وفي المدينة القديمة، رجم الحشد طاقم تلفزيون غربي بالحجارة، ظناً منه بأنهم روس.

وكنتُ مع «غافين» قد طلبت من السيد صمد علي أن يأخذنا يوماً إلى حديقة الحيوانات. وحالما اجتزنا بوابتها قرأنا عنواناً صدئاً «النسور»، فإذا بها أسوأ طيور على الأرض، ذات هياكل عظمية بارزة، ولكنها ليست عجفاء. وبعد فجوة الخنازير، انتقلنا إلى أقفاص الدببة القطبية، ولكنها كانت خالية وأبوابها مفتوحة، ومما أزعجنا جماعة صامتة من الرجال المتعمِّمين الذين تبعونا إلى حديقة حمار الوحش المخطط، ظانّين كما يبدو أننا روس. وربما كانت حديقة الحيوان تلك الوحيدة في العالم حيث يشكل الناس خطراً أكثر من الحيوانات. وقد استأنفنا المشاهدة، حتى أننا فتّشنا عن قاطرة أفغانستان البخارية الكبرى الوحيدة الباقية من أوائل القرن العشرين، تلك التي اشتراها الملك «أمان الله» من صانعها في ألمانيا. فوجدناها صدئة ومهجورة قرب قصر متهدم، ومكابسها كلها متجمدة، يحرسها رجال شرطة حاولوا انتزاع كاميراتنا عندما أردنا أن نأخذ صورة لتلك القاطرة. وهو تصرف غير معقول، نظراً لعدم وجود أية خطوط للسكة الحديدية في أفغانستان.

وربما كان على سبيل التعويض أن يعمد سائقو الشاحنات في أفغانستان إلى جعل سياراتهم الشاحنة روائع من الفن الشعبي. فكل إنش مربع من جسم السيارة مكسوّ بالصور الزيتية والتصاميم الملونة. ولهذا الفن الأفغاني القائم على تصاوير الشاحنات تاريخ خاص بدأ عام ١٩٤٥، عندما أضيفت الألواح المعدنية إلى الهياكل الخشبية للشاحنات التي تسير مسافات طويلة. فانقلبت تلك الألواح إلى لوحات تصوير على يد الفنانين في كابول ثم في قندهار. وكان أصحاب الشاحنات يدفعون مبالغ طائلة لهؤلاء الرسّامين ـ فكلما كان التصوير دقيقاً، زاد في شرف صاحب السيارة. وكانت الصور الفنية تنقل عن بطاقات الأعياد، والروزنامات، والهزليات، والمساجد. وكان بالإمكان رؤية صورة طرزان بجانب حصان الإمام علي، مع صور ببغاوات، وجبال، ومروحيات، وزهور. ومنها الرسوم البادية على ألواح ثلاثية على شاحنات ماركة «بيدفورد». وقد سأل أحد الكتاب الفرنسيين صاحب شاحنة عن سبب هذا التصوير والرسم. فكان الجواب: «إنه بمثابة حديقة، والطريق التي نقطعها طويلة».

ولم يجد كارمال بداً من تهدئة المجاهدين، ساعياً وراء وقف لإطلاق النار في المناطق الريفية، عن طريق سلسلة من اجتماعات سرية عقدت بين وسطاء الحكومة وزعماء القبائل في مدينة «بشاور» الواقعة على الحدود الباكستانية. وقد صدر تصريح عن هيئة الحزب الديمقراطي الشعبي (PDP) يعلن أنها ستبدأ بمفاوضات حيِّة مع «. . . التقدميين الديمقراطيين الوطنيين والأوساط الإسلامية والمنظمات». ورافقت هذا الأسلوب الجديد، الكائد والمحكوم عليه بالفشل، جهود يائسة من قبل الحكومة لإقناع نفسها بأنها تكتسب شرعية دوليّة. فقد نقلت جرائد كابول أخباراً غير مفاجئة عن ردود فعل مؤيدة للنظام الجديد من قبل سوريا، وكمبوديا، والهند، فضلاً عن الاتحاد السوفياتي، وحلفائه من دول أوروبا الشرقية. وفي رسالة طويلة موجهة إلى آية الله الخميني، الذي أثارت ثورته الإسلامية في إيران مخاوف الاتحاد السوفياتي في العام الفائت، انتقد كارمال رد الفعل الإيراني المناوىء لانقلابه ـ إذ إنه أدين من قبل الرؤساء الروحيين الإيرانيين ـ وحاول أن يؤكد للخميني أن قتل رجال القبائل المسلمين في أفغانستان قد انتهى بقلب حكم أمين. وقال في رسالته: «إن حكومتي لن تسمح لأي كان باستعمال أرضنا ضد الثورة الإسلامية في إيران، وضد مصلحة الشعب الإيراني الشقيق. ونحن نتوقع من إخواننا الإيرانيين أن يحذوا حذونا باتخاذ موقف مماثل».

وغنيّ عن البيان أن إيران لم تكن آنذاك مستعدة للموافقة. فقد أعلن وزير الخارجية في طهران، بعد أيام من الغزو السوفياتي: «إن أفغانستان بلد مسلم. . . وإن التدخل العسكري لحكومة الاتحاد السوفياتي في بلد إخواننا في الدين وجيراننا يعتبر عملاً عدائياً. . . ضد كل المسلمين في العالم». وخلال شهور كانت إيران تخطط لإقامة برنامج للمساعدة العسكرية إلى المتمردين ـ مع علمها أن الولايات المتحدة الأميركية كانت ترسل مساعدة إلى رجال حرب العصابات ـ وفي تموز/يوليو، أخبرني صادق قطب زاده، وزير خارجية إيران، أنه يأمل أن تعمد بلاده إلى تقديم أسلحة إلى المتمردين؛ إذا لم يسحب الاتحاد السوفياتي جيشه. «وفي الواقع، قُدِّم اقتراح بهذا الشأن إلى المجلس الثوري»، بحسب قول الوزير، «. . . وبالضبط، كما كنا ضد التدخل العسكري في فيتنام، فإن لدينا التفكير نفسه إزاء التدخل السوفياتي في أفغانستان. ويدّعي الاتحاد السوفياتي أنه جاء إلى أفغانستان بطلب من حكومة تلك البلاد؛ كما جاء الأميركيون إلى فيتنام بطلب من حكومتها أيضاً». ولكن في تلك المرحلة، كان لدى كارمال مشاكل أكثر إلحاحاً من إيران.

وكاد كارمال يفقد الأمل في تأمين ولاء الجيش له. وقد سمعنا أن ٦٠٪ فقط من الجيش يأتمرون بأمره. ولذا عمد إلى استثارة حسهم الوطني؛ ووعدهم بالاهتمام «بحاجاتهم المادية»، قائلاً: «هؤلاء الضباط الأبطال، وطلاب المدرسة الحربية الوطنيون، والجنود، مدعوون اليوم، إلى الدفاع عن الحرية والشرف وأمن المواطنين. . . فليعقدوا الآمال حول المستقبل الزاهر». وقد عنى «بالحاجات المادية» الدفع المتأخر. ويدل هذا النداء بحد ذاته على ضعف الحالة المعنوية للجيش. وحالما حاول كارمال تهدئة الجنود، انصرف إلى الاهتمام بالإسلاميين الذين طالما عارضوا الأنظمة الشيوعية؛ فأعلن أنه سيغير العلم الأفغاني ويعيد إدخال اللون الأخضر، اللون الإسلامي، عليه الذي أزيل بتهوّر من العلم الوطني أيام «طرقي»، وأثار حفيظة رجال الدين. وفي الوقت ذاته، كان لدى كارمال

قدرة فريدة على مناهضة كل مبادرة سياسية جديدة، بتدبير مضاد غير مقبول شعبياً. فقد حذَّر من أن حكومته ستعامل «الإرهابيين، ورجال العصابات، والمجرمين، وقطاع الطرق... بالصرامة الثورية».

وبدلاً من «إرهابيين» إقرأ «رجال حرب العصابات» ـ أو كما وصفهم الرئيس رونالد ريغان: «المحاربين من أجل الحرية». «الإرهابيون، الإرهابيون، الإرهابيون». صارت هذه الكلمة بلاء في الشرق الأوسط، والعالم الإسلامي بكامله، ونقطة توقف، بل حائط لإنهاء أية مباحثة أو مناقشة حول الظلم، نصبه الروس والأميركيون، والإسرائيليون، والسعوديون، والأتراك من أجل أن يكمّوا أفواهنا. فمَنْ يتجرّأ على أن ينبس ببنت شفة تأييداً للإرهابيين؟ وما هي القضية التي تستوجب الإرهاب؟. وبناء على ذلك، يكون أعداؤنا دائماً «إرهابيين». وتجدر الإشارة إلى أن الحكومات في القرن السابع عشر كانت تستخدم تعابير «هراطقة»، بالأسلوب ذاته لإنهاء كل حوار، وفرض الطاعة. وكانت سياسة كارمال بسيطة: كل من ليس معنا فهو ضدّنا. لقد استمعت إلى هذه المعادلة الخطرة لعقود زمنية، يطلقها الرأسماليون والشيوعيون، ورؤساء الدول ورؤساء الوزراء، والضباط الكبار وضباط المخابرات والاستخبارات، وبالطبع رؤساء تحرير الصحف.

وفي أفغانستان، لم تكن هناك مثل تلك التراجعات الشكلية. كنتُ في غرفتي الدافئة المريحة بفندق «أنتركونتيننتال»، أبسطُ خريطة أفغانستان، وأتساءل، ما هي الرحلة التي يجدر أن أقوم بها عبر هذا النجد الجليدي قبل أن يطردنا الروس من هنا؟ تصوّرت أنه يمكن تقدير مدى الغزو الروسي عند الحدود السوفياتية. فاذا بلغتُ نهر «آموداريا»، أُصبح قريباً من الحدود مع الاتحاد السوفياتي، وأتمكن إذ ذاك من أن أراقب القوافل الكبرى وهي تدخل هذا البلد. لففت طاقية أفغانية ليّنة، ووشاحاً أسمر أخضر الأطراف، اشتريتهما من السوق، وأخذت معي ما يكفي من الدولارات لدفع أجرة إقامتي في فندق «مزار» لعدة ليالٍ، وانطلقت قُبيل الفجر إلى محطة الباصات في مركز مدينة كابول، حيث البرد والحشد.

كان الأفغان الذين ينتظرون باص «مزار» ودودين معي. فعندما قلت إنني إنكليزي ابتسموا، وصافحني بعضهم. ورمقني بعضهم الآخر بنظرة ارتياب، مثل رجال الشرطة السرية الذين قابلوني في فندق «أنتركونتيننتال». كانت هناك نساء يلبسن حجاب البرقع، ويجلسن صامتات في مؤخرة الباص الخشبي. خفضت طاقيتي على جبيني، ورميت وشاحي على كتفي؛ وأخذت مقعداً لجهة اليمين وأنا أغصّ بدخان السجاير، لأن تفتيش الجنود يحصل عادة لجهة اليسار، ونجحتُ. وهدر الباص صامداً نحو «سالانغ»، عند بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس على سهول الثلج المكشوفة. وكنتُ قد سلكت هذه الطريق مع «غافين» مرات عديدة. ولذلك بدت أليفة صديقة، بالرغم من مخاطرها. فمن جهة اليمين، كانت هناك القاعدة الكبرى السوفياتية شمالي مطار كابول، ونقطة التفتيش والتدقيق الأفغانية خارج «تشاركار»، حيث أرانا الجندي الروسي الجرح في يده. ولكن الجنود الأفغان كانوا يشعرون بالبرد؛ ولذلك تقاعسوا عن الصعود إلى الباص وملاحظة المسافرين. وعندما قام الجنود السوفيات بتفتيش متعجّل، تجمّعت في مقعدي، وتدثّرت بوشاحي حول وجهي. وبعد ثلاث ساعات، توقف الباص إلى جانب الطريق، على مقربة من نفق «سالانغ». وكانت هناك مركبات روسية مدرَّعة على بعد أمتار منّا، مع مجموعة من

الجنود بعيونهم الزرق، وشعورهم البنّية يحدِّقون حولهم من تحت قبّعات الفرو التي يلبسونها. وهنا ساءت الأحوال.

٭

فقد اقترب ضابط سوفياتي من الجهة اليمنى من الباص، والتقت عيناه بعينيّ. ثم أشار إليّ أيضاً رجل أفغاني دقيق الشاربين من داخل الباص. وتقدم إلى قرب مقعدي، ورفع إصبعه مشيراً إلى وجهي بشكل مباشر. لقد خُدِعتُ. هذه هي الكلمة التي جالت بخاطري. وقد رأيت هذا المشهد في عدة أفلام. فلا شك في أنه المُخْبِر؛ ولا بد أنه كان يعمل مع الشرطة السرية الأفغانية، ورآني أستقلّ الباص، فانتظر حتى وصلنا إلى نقطة التفتيش هذه المحروسة تماماً، ليفشي أمري. وكذلك انبرى شاب آخر، فنزل من الباص، ومشى بمحاذاة الجهة اليمنى من الباص، ثم أشار إليّ أيضاً من خلال النافذة. لقد خُدعتُ أيضاً. وكنا على بعد مئة ميل من كابول. فلو اجتزتُ هذا الحاجز الأخير، لكنتُ قد مررت بالنفق، وبلغت بلدة «مزار».

أومأ إليّ الضابط الروسي بأن أغادر الباص. ولاحظتُ على طيَّة صدر سترته شارة «لينين»؛ ويبدو فيها لينين وهو يحدِّق بنظرات ثابتة في حلم «بولشفيكي» بعيد، لا سبيل لي إليه. طلب مني جوازي دون اكتراث؛ فانتابني الشعور ذاته الذي ألمَّ بي عندما تلقيت برقية «سو هيكي» الفاضحة والمثبتة لدوري الغادر في أفغانستان. وكانت أغلفة الجوازات البريطانية في أعوام الثمانينيات سوداء، يعلوها شعار النبل المذهَّب للمملكة المتحدة. وهو يومض تحت أنظار هذا الضابط الذي درسه عن كثب. وتوقعت منه أن يسألني عن معنى «الله وحقي» أو غير ذلك من الشعارات؛ لكنه نفضه مفتوحاً، وتفقَّد وجه هذا الرجل الإنكليزي الأشعث الذي يلبس نظّارة على الصفحة الثالثة، ثم انتقل إلى النظر في طبيعة «مهنته» فوجد كلمة «ممثِّل» (Representative) بدلاً من كلمة «صحافي» لأن «صحافي» لا تساعد ضمن الشرق الأوسط في الحصول على تأشيرات للسفر؛ فوضع إصبعه عليها، وهو الذي لا يفقه من الكتابة اللاتينية أكثر مما أفقه من الأبجدية السيريلية السلافية، وسأل بإنكليزيته المتعبة: «ماذا تمثل؟». فأجبت معترفاً: «جريدة». «آه أنت مراسل جريدة». وابتسم لي ابتسامة عريضة عارفة. وقادوني باتجاه كوخ صغير للتواصل عبر الثلج، برز منه قائد مظلّي نصف عارٍ يلبس ما يستره؛ إنه النقيب «فيكتور» من «طشقند». لم يبدِ هذا الضابط أيّ عداء لي عندما علم أني صحافي، وتحلّق حولي رجاله، متشوقين ليتحدثوا بإنكليزيتهم المتعثرة، وإنما السليمة. وسمعت نخراً من محرِّك سيارة الباص التي جئت بها، ورأيتها تغادر دوني باتجاه النفق، بينما ترقبني عين المُخْبِر الذي غدر بي متشفيةً من زجاج تلك السيارة الخلفي.

كان هناك جندي من مدينة «طالين» في «أستونيا». وإذا كان قد نجا من أخطار أفغانستان، فإني أعتقد أنه صار اليوم معتزاً بمواطنيته في الاتحاد الأوروبي، يزهو بجوازه لدى دوائر الهجرة البريطانية، وقد وصف تكراراً الأخطار التي تحدق بالجبال، بعدما صار المتمردون يطلقون النار يومياً على الجنود السوفيات. كما أراد النقيب «فيكتور» أن يعرف لماذا اخترت أن أكون صحافياً. ولكن الظاهرة البارزة لدى هؤلاء الجنود كانت انبهارهم بموسيقى «البوب» الشعبية. وقد تدخل الملازم «نيقولاي» من «طشقند» ليسأل: «هل صحيح أن «بول ماك كارتني»

قد قبض عليه في طوكيو؟ ولماذا؟» فسألته: «أين سمعت موسيقى فرقة «البيتلز؟»؛ فجاءني الجواب من جوقة رجلين آخرين: «من إذاعة صوت أميركا».

لقد بدأتُ الآن بالابتسام؛ لا للودّ الذي أبداه لي الروس ـ إذ إن كلاً منهم درس جوازي، وصاروا ينادونني «روبرت»؛ كما لو كنتُ رفيق سلاح لهم، بدلاً من اعتباري مواطناً في دولة عدوة قوية ـ بل لأن هؤلاء الجنود السوفيات الذين يبدون اهتمامهم بالموسيقى الغربية، لا يمثلون الشجعان الذين حاربوا في ستالينغراد. لقد ظهروا كأي جنود غربيين: سُذَّجاً، ومنشرحين أمام الأجانب، ومبدين للثقة بي، ولا سيما في هذه الأصقاع الأفغانية، لأنني زميل أوروبي. وبدوا معتذرين بصدق عن عدم قدرتهم على السماح لي بمواصلة رحلتي؛ لكنهم أوقفوا باصاً عائداً إلى كابول من أجل اصطحابي. ولكني رفضت اقتراح النقيب «فيكتور»، لأن الركاب رأوني أتحدث مع الروس؛ وقد يظنون أنني روسي. وقد لا أصل حياً إلى كابول؛ مهما أكّدت لهم أنني بريطاني.

ولذلك، أوقف الملازم «نيقولاي» شاحنة روسية مارّة في آخر القافلة، ووضعني على متنها. وقال لي: «دوس فيدانيا، بمعنى «وداعاً، بالروسية، وسلّمْ لي بمحبة على ليندا ماك كارتني». وهكذا وجدتني مسافراً عبر جبال «الهندوكوش»، مع قافلة سوفياتية عسكرية ذات الرقم ٥٨، من طشقند إلى كابول. إن هذا أمر لا يصدَّق. فلم يستطع أيّ صحافي غربي أن يتكلم مع الجنود السوفيات الذين يغزون أفغانستان، ناهيك بالركوب معهم في قافلة عسكرية. وها أنا الآن جالس بقرب جندي روسي مدجَّج بالسلاح، بينما يسوق هو شاحنته المحمَّلة بالطعام والذخيرة إلى كابول؛ مما يسمح لي بمراقبة هذا الانتشار العسكري من مكاني على مركبة عسكرية سوفياتية. وكان ذلك أفضل من ذهابي إلى بلدة «مزار».

وبينما كنا ننزل من النفق المذكور، أخرج السائق الروسي من جرابه الموضوع خلف مقعده، تفاحة وقدَّمها إليّ. وقال: «من فضلك، أنظر إلى أعالي التلال... بحثاً عن المسلحين». فأدركت حينئذٍ بين مصدِّق ومكذِّب، أنه يطلب مني المساعدة في ذلك؛ بينما يجاهد هو بمقود سيارته التي تنزلق على الجليد. وكانت التفاحة مكافأة لي على ذلك. وبدأنا نتأخر عن القافلة تدريجاً؛ بينما جذب رشاشه من الوراء، ووضعه بيني وبينه على المقعد. وأضاف: «أخبرني إذا رأيت أحداً». ففعلت بحسب طلبه، من أجل سلامته وسلامتي. وكانت كلمة «كاما» محفورة على اللوحة الواقعة تحت الزجاج أمامه؛ فعرفت أن هذه الشاحنة صنعت بمعونة أميركية عند نهر كاما في الاتحاد السوفياتي، وتأملت في ما يجول بخاطر الرئيس «كارتر»، إذا علم كيف تستعمل مثل تلك التكنولوجيا. وكان السائق قد ألصق بطاقات عيد الميلاد على سيارته.

وعندما وصلنا إلى أسفل الممر، التقينا من جديد قافلتنا. وتقدّم من جهتي ضابط طويل، بعينين ذكيتين زرقاوين مائلتين إلى الشحوب بشكل غير اعتيادي، وبسروال «كاكي»، وحذاء عسكري غليظ، وقال لي: «أنت إنكليزي»، وشفعها بابتسامة متابعاً: «أنا الرائد يوري. تعال معي إلى الأمام». فشققنا طريقنا ببطء وصعوبة عبر الثلج والوحل إلى مقدمة القافلة حيث كانت دبابة تناور في الاتجاه المعاكس من الممر. قال: «إنها دبابة T-62)»، مشيراً إلى ما تحت ماسورتها؛ ورأيت من المناسب أن لا أخبره أنني أفقه هذا التصنيف.

وعليّ أن أقرّ واعترف بأن الرائد «يوري» كان جندياً محترفاً، يعجب به رجاله ـ وقد طلب منهم جميعاً أن يصافحوني ـ وفي الأزمة التي سنمرّ بها قريباً، تصرّف برباطة جأش وبفعالية. وقد كان دائماً لائقاً مع الجنود الأفغان الشكسين الذين كان شخصياً لا يثق بهم. وعندما جاء خمسة منهم إلى جانب القافلة يشتكون من أن الجنود الروس يلوّحون لهم برشاشاتهم، تكلّم معهم الرائد «يوري» كندٍّ لهم، دون قفّاز، مصافحاً كلّاً منهم باليد حتى تألّقوا أنساً ومتعة. ولكنه كان أيضاً محازباً مخلصاً.

سألني عن رأيي في السيدة تاتشر. فأجبته بأن الناس في بريطانيا لهم نظرات مختلفة إلى رئيسة الوزراء ـ وامتنعت عن إبداء رأيي الخاص ـ وأنه يُسمح لهم بأن يتمسّكوا بآرائهم بحرّية. وقلت إن الرئيس كارتر ليس سيئاً كما تصفه صحافة موسكو؛ فأصغى إليّ بصمت. ولكني تساءلت متعجباً عن رأيه بالرئيس بريجنيف. وكنت أعلم ماذا سيقول؛ كما كان هو يعلم، إذ هزّ رأسه مبتسماً وقال ببطء: «إن الرفيق بريجنيف رجل طيّب جدّاً». وكان الرائد «يوري» حسن الاطّلاع، على كتابات تولستوي، ومقدِّراً للموسيقي «شوستاكوفيتش» ولاسيما سيمفونيته عن «ستالينغراد». ولكن عندما سألته عن «ألكسندر سولجنيستين»، هزّ رأسه، وربَّت على قِراب مسدّسه، قائلاً: «هذا لسولجنيستين».

حشرت نفسي في شاحنة الرائد «يوري»، وهو جالس بيني وبين السائق؛ وانطلقنا إلى كابول. تساءل عن إنكلترا كبلد أفضل من أفغانستان، فقد كان لا يريد أن يكون هنا، كما اعترف، بل في بيته بكازاخستان مع زوجته وابنته البالغة من العمر تسعة أعوام؛ وسيعود مع القافلة العائدة خلال ثلاثة أيام. وقد قضى في الجيش ١٣ سنة من أصل ٣٠ سنة، ولم يستطع أن يوفّر ما يكفي لابتياع سيارة، والسفر إلى الخارج، لأنه كان ضابطاً. كانت هذه طريقته في إبلاغي أن الحياة في الاتحاد السوفياتي كانت شاقّة، وأن حياته لم تكن ميسَّرة، وقد لا يكون الرفيق بريجنيف ذلك الرجل الطيّب. ألم يكن هو الذي أرسله إلى هنا، أولاً؟ وعندما كنت أطرح عليه أسئلة لا يقدر أن يجيبني عنها، كان يبتسم بموافقة صامتة على ما كان يريد أن يكون قادراً على البوح به.

في غمار هذا الجيش الكبير، يشعر المرء بإحساس كاذب بالراحة والدَّعة؛ حتى أن عيني الرائد «يوري» الشاحبتين كانتا تتفحَّصان حقول الثلج حولنا، وتنمَّان عن ثقة خطرة بالنفس. لقد كان الأفغان يطلقون النار على الروس. ولكن، مَن كان يستطيع أن يوقف هذا الجيش المدرَّع الجرَّار الذي يزحف عبر الثلج والجبال في أفغانستان؟ وعندما توقفنا عند نقطة تفتيش أفغانية، لا يتكلم مَنْ فيها الروسية، استدعى الرائد «يوري» أحد ضباطه الطاجيك، وطلب منه أن يترجم، ففعل وأشار الرائد إليه قائلاً: «إنه مسلم». نعم فهمت. لقد كان هناك مسلمون في الاتحاد السوفياتي، بل كثير منهم، وكان ذلك يمثل جزئياً بالتأكيد كنه هذا الغزو كله.

كان الثلج يُغشّي زجاج شاحنتنا الأمامي، ويطغى على قدرة المسَّاحات على إزالته؛ لكننا كنا نرى من خلال النوافذ الجانبية حقول الثلج المترامية الأطراف أميالاً وأميالاً. وكان الوقت إذ ذاك عند منتصف بعد الظهر، وكنا نكدح بسرعة لا تتجاوز ٢٥ ميلاً في الساعة، سرعة أبطأ الشاحنات؛ نتلوَّى على الطريق حاملين المؤن،

والأغطية، والذخيرة الثقيلة، مع الدبابات والناقلات، مما يصل مجموعه إلى ١٤٧ شاحنة؛ محبوسين على الطريق العام المعبَّدة، المكسوّة بطبقة من الجليد، مما يجعل كل جندي سوفياتي هدفاً «للإرهابيين» في أفغانستان. أو هكذا بدا الأمر لرجال هذه القافلة ولي.

ومع ذلك فقد فاجأنا صوت بعض الطلقات حولنا. وكنا إذ ذاك شمالي «تشاركار». وقد مرَّت هذه الطلقات بين شاحنتنا والشاحنة التي تتقدم القافلة، محدثة انفجارات صغيرة تئز في البساتين المتجلدة الواقعة على يسارنا. فصرخ الرائد «يوري»: «إلى الخارج»، آمراً جنوده بالدفاع عن أنفسهم على الثلج، لا في محبس السيارات. أما أنا فارتميت في الأوحال والقذارات إلى جانب الطريق. وكان الجنود الروس يقفزون من شاحناتهم. وحصل مزيد من إطلاق النار. وكان هناك صراخ إلى الأمام على بعد منّا في الضباب وبَرد الثلج. كما تصاعد عن يميننا عمود من الدخان الأزرق. واستمرّ الرصاص يمرّ فوق رؤوسنا، واخترقت إحدى الرصاصات مقدمة الشاحنة أمام السائق. وكان الجنود السوفيات منبطحين حولي على ركام الثلج الذي تذروه الرياح. وأفضى الرائد «يوري» بشيء إلى مَنْ قربه من الرجال، فانطلقت سلسلة من ردَّات الفعل بواسطة رشاشات الكلاشينكوف. فهل كان الجنود يستطيعون رؤية مَن كانوا يطلقون النار عليه؟

خيَّم الصمت على هذا المنظر. وتحرّكت أشكال بشرية عن بعد على يسارنا، قرب شجرة يابسة. وكان «يوري» ينظر إلى البستان قائلاً بالإنكليزية: «إنهم يطلقون النار من هناك». ورمقني بنظرة فاحصة. لم يعد هناك متسع للحديث البسيط. أصغيت إلى طقطقة الراديوات، وصراخ الضباط يقاطع بعضهم بعضاً، ورأيت تلفّتات الجنود في الثلج. وكان الرائد «يوري» قد خلع قبعة الفرو وبدا شعره البنّي متراجعاً، وسحنته تدل على أنه يظهر بعمر يفوق الثلاثين سنة. قال لي: «راقب هذا يا روبرت»، وسحب من سترة الميدان التي يرتديها أنبوباً طويلاً يحوي نور إشارة، بينما وقفنا كلنا في أوحال الثلج التي تغمر رُكبنا، وشدّ «يوري» بحبل في أسفل الأنبوب؛ فحدث انفجار خفيف، وفاحت رائحة المتفجرات، وصعد حبل دخان إلى أعلى السماء. وشاهد ذلك الجنود العشرة الأقرب إلينا، وعرفوا أن حياتنا قد تتوقف على ذلك الصاروخ.

ولمَّا ارتفع حبل الدخان المرافق للصاروخ حوالى ألف قدم، تناثر منه سيل من النجوم. ولم تمرّ على ذلك خمسون ثانية حتى اندفعت من فوقنا طائرة «ميغ» سوفياتية نفاثة على علو متدنٍ خافضة جناحيها. وبعد دقيقة، دلفت إلينا ناقلة جنود رقمها ٣٦٨ تسحق الثلج تحت عجلاتها، وتوقفت أمام شاحنة الرائد «يوري»، وبرز منها رجلان. وطقطق الراديو، فأصغى إليه الرائد بصمت لحظات، ثم أشار إليّ بأربعة من أصابعه قائلاً «لقد قتلوا أربعة من الروس في القافلة الأولى أمامنا».

بقينا على الطريق وراء القافلة الأولى. وصدر الأمر لصف من الجنود بالتقدم في الحقول إلى مسافة مئتي متر. وسمح الرائد «يوري» لرجاله بأن يتناولوا حصصهم من الطعام. وقد قدّم لي الضابط الطاجيكي المترجم الطعام؛ ولحقتُ به إلى شاحنته. جلستُ في الشاحنة مع جنديين آخرين؛ وأكلنا «بسكوتاً» جافاً وقطعاً ضخمة من

اللحم النيء، نرفع قبعة الفرو عن وجهنا، وننهش الدهن المملح بالأسنان. وقد أُعطي كل جندي ثلاث برتقالات وعلبة سردين تحوي ١٠٪ من السردين و٩٠٪ من الزيت. وكان الرائد «يوري» يقطع الطريق ذهاباً وإياباً، ويتحدث تلفونياً بالراديو، وعندما سرنا مع الدروع المرافقة لنا والموزعة على القافلة لم يكن الرائد واثقاً من موقعنا على الطريق. فاستعار مني خريطتي. وتبيّن لي فجأة أن هذه القافلة الطويلة لا تملك خريطة واحدة لأفغانستان.

لم تكن هناك من دلائل على الكمين الذي نُصب للقافلة الأولى، سوى قدمي رجل ميت وضعتا في سيارة جيب سوفياتية قرب «تشاركار»، وكتلة من الثلج الذائب بلون قرمزي وأرجواني على بعد عدة ياردات جنب الطريق. وزادت طبقة الجليد على الطريق بعد غياب الشمس؛ ولكننا كنّا نغذّ السير أكثر. وما أن جُنَّ الليل حتى سطعت أنوار الشاحنات الأمامية البالغ عددها ١٤٧ مثل اللآلىء على الثلج وراءنا. وقد قدموا لي بلطف رشاش كلاشينكوف مع أمشاط ذخيرته الكاملة؛ بينما انبرى أحد الجنود إلى فتح كبسة الأمان، وطلب مني أن أراقب من النافذة. لم تكن لي رغبة في حيازة هذا السلاح، أو في إطلاق النار على رجال حرب العصابات الأفغان. ولكن إذا هاجمونا من جديد، ووصلوا إلى شاحنتنا ـ كما كانوا يفعلون مع هذه القوافل ـ فلا بد أن يفترضوا أني روسي؛ ولن يسألوا اتحاد الصحفيين القومي عن هويتي قبل إطلاق النار على الجنود.

لم أمسك منذ ذلك الوقت بأي سلاح في زمن الحرب؛ وآمل أن لا أفعل ذلك أبداً. وطالما ألقيت اللوم على الصحافيين الذين يلبسون ثياباً عسكرية وخوذاً، ويمثلون دور الجنود ويتمنطقون بسلاح على أوراكهم، متجاهلين الحد الفاصل بين المراسل والمحارب، ويعرِّضون حياتنا للخطر، إذ تنظر إلينا الجيوش والميليشيات كامتداد لأعدائهم وكمحاربين محتملين، وكهدف عسكري. ولكني لم أتطوع للسفر مع الجيش الروسي. لم أكن أنا جُزءاً منهم، بل كنت سجينهم مثلما كنت ضيفاً عليهم. وكلّما مرَّت الأسابيع، تعلّم الأفغان تسلّق الشاحنات السوفياتية بعد حلول الظلام، ومهاجمة مَنْ فيها بالسكاكين. ومع أني لم أستعمل ذلك الرشاش، كنت أعلم أن إمساكي به سوف يحدث رد فعل من قِبل كل ما هو عظيم وجيِّد في الصحافة. ورأيت من الأفضل الاعتراف بهذه الحقيقة لا حذفها من الرواية(*). فإذا كنت قد استحوذت على بندقية رشاشة للجيش السوفياتي، فتلك كانت الحقيقة.

(*) بعث «جيرالد لونغ» مدير «رويتر» من مكتبه في شارع «فليت» في لندن، برسالة إلى جريدة «التايمز»، يدينني فيها لحملي «كلاشينكوف»، قائلاً: «مهما كان كل شخص يدرك الغريزة الطبيعية للحفاظ على الذات، فقد كان عليه (أي على فيسك) أن يرفض حمل البندقية. وإذا كان علينا أن نحمي الصحافيين الذين يراسلون بشأن نزاع ما، فعليهم بدورهم أن يرفضوا حمل السلاح في جميع الظروف. وعلى المسؤولين عن سلامة الصحافيين أن يعطوهم تعليمات لتجنب ما يمكن تجنبه من مخاطر. فالخطر الذي يهدد جميع الصحافيين والناشىء عن حمل أحدهم سلاحاً، هو بنظري أكبر من الحماية المشكوك في أمرها التي قد يوفرها له حمل تلك البندقية». وبالرغم من غرابة التركيب النحوي لهذه الرسالة، فإني جدّ موافق على مضمونها. ولكن، كيف يُفترض بنا، نحن معشر الصحافيين، أن «نتجنب ما يمكن تجنبه من مخاطر» في أفغانستان؟ لقد كنت أحاول أن أذهب إلى «مزار» في سيارة باص، وليس إلى كابول في شاحنة ضمن قافلة سوفياتية.

مررنا ثلاث مرات عبر بلدات تجمهر فيها القرويون والفلاحون على جانبي الطريق ليراقبونا ونحن نمرّ. وكانت من الغرابة بمكان بالنسبة إليّ تلك الخبرة غير المسبوقة المتمثلة في جلوسي حاملاً بندقية رشاشة ضمن قافلة عسكرية سوفياتية مع جنود روس مدجّجين بالسلاح وغير مطّلعين، وأن أراقب أولئك الأفغان ـ وأكثرهم معتمرون عماماتهم، ومرتدون أوشحتهم الطويلة، وأحذيتهم المطاطية ـ ينظرون إلينا نظرة احتقار واشمئزاز. وكان هناك رجل يلبس سترة زرقاء واقفاً على مؤخرة شاحنة أفغانية، يرمقني بنظرات حادة. وكان ذلك أقرب ما رأيت من الحقد والمقت. صاح، ولكن صيحته ضاعت في زمجرة القافلة.

لم يكن الرائد «يوري» مشوَّشاً. وعندما قطعنا بلدة «كاراباخ»، أخبرته بأن الأفغانيين لا يبدون محبين للروس. وكان الثلج قد بدأ من جديد يتساقط بغزارة. فلم يرفع الرائد نظره عن الطريق، لكنه علّق على ذلك بقوله دون خبث: «إن الأفغان أناس بارعون»، وبقي صامتاً. وكنا لا نزال ننزل باتجاه كابول، عندما التفتُّ إليه من جديد متسائلاً عن سبب وجود الجيش الروسي في أفغانستان. فكر الرائد في الإجابة دقيقة ثم ابتسم قائلاً: «لو كنت تقرأ جريدة «البرافدا»، لوجدت أن الرفيق بريجنيف قد أجاب عن هذا السؤال. لقد كان الرائد «يوري» محازباً حتى النهاية(*).

بدأت الأبواب تقفل في كابول؛ فقد طُرد جميع الصحافيين الأميركيين من البلاد. كما أصدر المكتب السياسي الأفغاني بياناً شجب فيه عمل المراسلين البريطانيين وسائر المراسلين الأوروبيين، ووصفه بأنه نوع من الطعن السياسي. وقد زارت الشرطة السرية السيد صمد علي. وكان «غافين» ينتظرني، متجهم الوجه، في ردهة الفندق. فلما رآني قال: «لقد هدَّدوا السائق بمصادرة أولاده منه، إذا سار بنا إلى خارج كابول». ووجدنا السيد صمد علي في اليوم التالي متمركزاً في صف سيارات الأجرة أمام الفندق، يبتسم معتذراً ويكاد يبكي. وكانت سِمة السفر في جوازي قد شارفت على الانتهاء؛ ولكن كان عندي خطة. فإذا سافرت بباص عليّ إلى «بشاور» في باكستان، قد أستطيع أن أدور وأجتاز الحدود الأفغانية عند ممر خيبر قبل أن توقف حكومة كابول إصدار السمات للصحافيين البريطانيين. وهناك أمل في أن يدعني موظفو الحدود أدخل إلى أفغانستان أكثر من رجال الشرطة المرابطين في مطار كابول.

وعلى ذلك، استقلّني الباص عبر ممرّ كابول، وبقيت فيه عندما قطعنا جلال أباد، وقد شعرت بالغرابة عندما

(*) خلت رسائلي إلى جريدة «التايمز» من صورة لكن الرائد «يوري» التقط لي صوراً ليودعها في ملفه الخاص ـ أو لدى المخابرات الروسية (KGB) ـ ولم يكن لديّ صورة له. ولكن عندما عدنا إلى كابول، وسرت مجهداً عبر أكوام الثلج إلى بوابة القاعدة السوفياتية، لمحت قبعة روسية كاملة، مع شعار المطرقة والمنجل وغطاء الأذنين وحزامه، ملقاة على مقعد أحد السائقين، فخطفتها من الشاحنة وخبأتها تحت وشاحي الأفغاني. وبقيت لسنوات أريها باعتزاز في بيروت خلال سهراتي، كتذكار للقوة العسكرية السوفياتية. ولكن لم تمضِ عشر سنوات حتى انهار الاتحاد السوفياتي، وصار السائحون، بكل أسف، يتمكنون من شراء آلاف القبعات العسكرية المماثلة ـ مع قبعات أخرى للضباط السوفيات الرفيعي الرتب، مع مجموعات مداليات أيضاً غنمت في أفغانستان، من شارع «أربات» في موسكو بعدة «روبلات» فقط.

اجتزت خط «دوراند» ووجدت نفسي في باكستان، التي كانت تبدو حرَّة، وتقريباً ديمقراطية، بعدما عانيت من توتر وأخطار في أفغانستان. وأعجبت بالريش الذي يعلو قبعات الجنود من فرقة رشاشات خيبر على الضفة الباكستانية من الحدود، ذلك الريش الذي كان أول رمز للحكم البريطاني. وقد شُكِّلت تلك الفرقة منذ أكثر من مئة سنة، وهي مستترة في قلعة «شاغاي» مزيّنة بالفضة الإنكليزية القديمة، مع دفتر للتشريفات بتصرّف الزائرين، ممَّا يعيد إلى الذهن أيام نواب ملك بريطانيا.

ولكن ذلك لم يكن سوى أوهام. فالرئيس اللواء ضياء الحق أنشأ حكماً دكتاتورياً إسلامياً، يوقع القصاص في الناس رسمياً بالبتر والجلد. لقد حكم حكماً عرفياً، وشنق غريمه الرئيس السابق «ذو الفقار علي بوتو» قبل سنة تقريباً في نيسان/أبريل ١٩٧٩. وبالطبع، رد على الغزو السوفياتي لأفغانستان بالتعبير عن مخاوفه من خطة الجيش الروسي بالتقدم نحو باكستان. وقد عمدت الولايات المتحدة الأميركية فوراً إلى إرسال أسلحة بملايين الدولارات إلى الدكتاتور الباكستاني، الذي أصبح «حرزاً ثميناً» في الحرب ضد الشيوعية.

ولكني كنت أشعر بنوع من الحرية في الباص الخشبي للسائق علي. وبينما كنا ننزل عبر ممر خيبر الرائع، رأيت حولي تذكارات من الفرق البريطانية القديمة التي حاربت على هذه الأرض لقرن ونصف، في الغالب ضد مقاتلي «باثان غازي» برشاشاتهم البدائية المسماة «جيزيل» (Jezail). وقد وصف هذا المكان أحد الكتاب البريطانيين عام ١٨٩٧ بأنه: «غريب، خارق للطبيعة... إنه وادٍ مميت». وهناك على الصخور الكبرى خلف الباص، كانت لوحات تذكارية تحمل أسماء الفرق العسكرية البريطانية مع شعاراتها ومدة خدمتها: فرقة المشاة ٤٠ مع ريشة خوذتها، وفرق «ليسستر شاير»، و«الدورستشاير»، و«التشيشاير»: فرقة «بيل فيسك» قبل إرساله إلى فرنسا عام ١٩١٨، وفرقة السيخ ٥٤ الحدودية. وكان الطلاء متقشراً عند الريشة التزيينية للكتيبة الثانية، ومنعدماً عند أسماء الفرق التالية: البلوش، واللانك الجنوبي، ومتطوعي أمير وايلز. وكان رجال قبائل الباثان المسلمون قد سحقوا شارات الفرقة الهندية التي تشمل ريشتها طاووساً متغطرساً. وكانت «الخربشات» قد غطَّت لوحة فرقة «ليسسترشاير ١٧» لعام ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩. أما النصب التذكاري النظيف من «الخربشات» والوحيد المصقول مجدداً، فكان لفرقة المرشدين الخاصة للملكة فكتوريا، المؤلفة أساساً من «الباثان»، التي أمر قائدها بإلباسها «الكاكي» بدلاً من القرمزي، والتي أوحى أعضاؤها الهنود إلى الكاتب «روديارد كبلنغ» بمؤلفه «كونغا دين».

كانت «بشاور» مدينة كبيرة جيَّاشة بالضباب والدخان ، بما فيه دخان عادمات السيارات، وأشجار «الجاكاراندا» الاستوائية المتوهجة، والمرجات الواسعة، والثكنات. وفي فندق «الأنتركونتيننتال» القذر هناك، وجدت مجموعة من موظفي التلكس، الذين اعتبرتهم كأنهم جريدة «التايمز» لإرسالهم تقاريري إلى لندن. ولم يكن ذلك مجرد كرم مني، فلو استطعت أن أعود وأدخل أفغانستان، فسيكونون في المستقبل شريان الحياة للجريدة. وكذلك السائق علي. جلسنا على مرجة الفندق، نحتسي شاي «الراج»، بإبريق صيني وصحن من الكعك المسطح المستدير، تشاركنا فيه طيور ضخمة تهبط من الأشجار لتخطف ما تيسر لها من هذا الكعك. وقد أكَّد علي لي «أن الروس لن يرحلوا يا سيد روبرت. ولذلك لدينا عرب هنا». وها أنا أسمع ثانية عن العرب هنا. ولكن علي لا

يعرف أين هم في «بشاور»، إنما هناك مكتب لهم في المدينة. وقد أمر اللواء ضياء الحق جميع السفارات الباكستانية عبر العالم الإسلامي بإعطاء سمات سفر لأي شخص يريد أن يحارب الجيش السوفياتي في أفغانستان.

وعندما وصلت إلى مكتب الاستقبال في الفندق، كانت هناك بانتظاري مجموعة من رسائل التلكس، فقد تسلَّمت جريدة «التايمز» كل فقرة كتبتها. وقد اشتريت الجرائد اللندنية، وشربت ما فيها حتى الثمالة، مثلما أشرب بنهم مشروب «الجن والتونيك». وكان البوَّاب يلبس كمراً أي وشاحاً للخصر قرمزياً ملكياً عريضاً؛ وعلى جدار غرفة التلكس مقطع من قصيدة «الكبلنغ» في رثاء أبناء وطنه القتلى: «حساب على الحدود»، كتبها الشاعر للمدارس العامة، وأطَّر المقطع مدير الفندق الباكستاني؛ وجاء فيه:

مناوشة صغيرة في محطة حدودية،

متشرّد يهبط إلى ممرّ ضيّق مظلم،

ألفا «باوند» من التعليم،

تتضاءل إلى بندقية رشّاشة تساوي عشرة روبلات.

الفصل الثالث

جوقات قندهار

لم يتكلّم أحد عن بُغض الروس، لأن الشعور الذي خالج الصغار والكبار كان أقوى من البغض. لم يكن كُرْهاً، لأنهم لم يعتبروا الكلاب مخلوقات بشرية؛ لكنه كان نفوراً واشمئزازاً وارتباكاً إزاء القسوة العديمة الشعور لدى هذه المخلوقات...

ليو تولستوي، في «حاجي مراد»

لا تزال تنتاب «بشاور» أشباح الحكم البريطاني. ففي المكتبات، وجدتُ مئة نسخة من المعاجم الجغرافية، والمذكّرات الإنكليزية. وكان مؤلّف «السير روبرت وربورتون» المسمّى «١٨ سنة في خيبر» موضوعاً إلى جانب حكايات «ووسمان ميلز» المعنونة: «السلوك النبيل للسباهيين (أي الهنود المجنّدين في الجيش البريطاني)، و«التضحية بواحد وعشرين سيخيّاً»، و«كيف يموت الضبّاط البريطانيون». بينما تتحدّث مؤلّفات أخرى عن أمجاد «السير بندن بلود» الذي تعرّض أحد مرؤوسيه من الضبّاط «ونستون تشرشل» لكمين نصبه له الباثانيون في تلال «ملقند» إلى الشمال من «بشاور»(*).

ولم تكن في «بشاور» أشباح فحسب؛ بل كان هناك أيضاً أموات البريطانيين الذين لم يتيسّر نقلهم إلى بلادهم، خلافاً لوضع المحتلين الروس لأفغانستان اليوم. وعلى طرف من أطراف «بشاور»، كانت ترقد مقبرة بريطانية تروي النقوش على شواهد قبورها المزخرفة قصة الإمبراطورية.

لنأخذْ مثلاً الرائد «روبرت روي آدامز»، نائب التويسيير في مقاطعة البنجاب. كان راقداً بجانب طريق خيبر، الوادي الذي تسير فيه الحمير المحتجّة، التي ترن أجراسها على جدران المقبرة. وبحسب النقش المحفور على القبر، استُدعي الرائد «آدمز» إلى بشاور، «كضابط نادر الكفاءة للعمل على الحدود. إنه حكيم وعادل وشجاع،

(*) وكالعادة، احتفظ تشرشل بأفكاره الخاصة لجملته الأخيرة: «أصيب رجل في صدره، وكان الدم يتدفق منه، واستلقى آخر على ظهره يرفس ويتلوّى؛ وكان يدور خلفي ضابط بريطاني، ووجهه ملطخ بالدماء، وعينه اليمنى مقلوعة. نعم لقد كانت تلك مغامرة».

ومخلص في كل الأمور؛ جاء ليموت في مركز عمله بيد قاتله». لقد قُتل بتاريخ ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٦٥؛ وليس من دلائل على سبب مقتله؛ كما أنه ليس هناك من تفسيرات على القبور الأخرى. وفي عام ١٨٩٧ مثلاً، لقي «السير سبيرينغ روس» المصير ذاته، «قتل بيد متعصب في مدينة «بشاور» في «يوم الغفران». وعلى بعد أقدام قليلة من قبر «روس»، يرقد «باندزمان تشارلز لايتون» من الكتيبة الأولى وفرقة هامشاير «اغتيل بيد شخص «غازٍ» في هذه المحطة يوم الجمعة العظيمة». ربما كانت السياسة تُترك جانباً عند الموت، مع أنه يستحيل تجاهل الشبه بين هذه الشواهد الحانقة واللغة التي تستعملها الحكومة السوفياتية. إن رجال القبائل الأفغان الذين قتلوا البريطانيين، لهم أحفاد كبار اليوم يدينهم «الكرملين» لأنهم «متعصبون» ـ ويسميهم راديو موسكو «إرهابيين». ويبدو أن كل إمبراطورية تتكلم تماماً مثل الأخرى.

وفي سبيل الإنصاف، وضع البريطانيون موتاهم في سياق تاريخي. فتحت خميلة من أشجار الورد، وزقزقة الطيور الاستوائية يرقد الجنود: «هايز»، و«مال لويد»، و«ساندج»، و«دوويز» الذين قضوا في «بشاور» خلال اضطرابات الحدود ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨. وليس بعيداً عنهم، يرقد الملازم «بيشوب» الذي «قتل في الميدان في «شوبكودر» في اشتباك مع قبائل التلال ١٨٦٣». وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة. ولقي المصير نفسه في «كاشا غارهي» عام ١٩١٩ الملازم «جان لندلي غادلي» من الفرقة ٢٤ الرشاشة، والملحق مؤقتاً بالفرقة ٢٦٦ للمدافع الرشاشة.

وكانت هناك طبعاً قبور أخرى، أكوام بريئة مع شواهد صغيرة تضم الضحايا التي لا يمكن تفاديها لكل تدجين تقوم به الإمبراطورية. ومن تلك الضحايا: «بياتريس آن»، وعمرها سنة و١١ شهراً، الإبنة الوحيدة لقائد الفرقة الموسيقية والسيدة «بيلكينغتون»، التي ترقد في مقبرة الأطفال مع «باربارا البالغة من العمر سنتين، إبنة العريف والسيدة ب. ووكر»، ماتت قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام عام ١٩٢٨. وقد مات بعض الأطفال وهم أصغر من أن يعطوا أسماء. وكان هناك أيضاً شباب ماتوا بسبب الحر والمرض. فالجندي «تايدي» من «ساسكس» الأولى قضى بضربة حر؛ والجندي «وليامس» بحمّى في الأمعاء. و«صامويلز» من الخدمة المدنية البنغالية قضى نحبه بسبب حمّى التقطها في أفغانستان. وماتت أثناء الخدمة الفعلية، الرئيسة «ماري هول» من خدمات التمريض العسكرية للملك ألكسندر ـ التي عملت في سالونيكا وبلاد ما بين النهرين، بما في ذلك ربما حملة «غاليبولي» في تركيا، فضلاً عن الغزو البريطاني للعراق خلال عام ١٩١٧.

وكانت هناك أيضاً أضرحة غير منتظَرة. فقد كان هناك مرقد للمحترم «كورتني بيفرلي» المدير الرسولي «الكشمير وكافيرستان»، الذي عمل بجهد، نظراً لأنه كانت هناك كذلك بالإضافة إلى شواهد قبور البريطانيين، أمكنة جديدة لدفن آخرين من الجالية المسيحية التي لا تزال في «بشاور»، ترفرف عليها أعلام حمراء وصلبان من ورق مزينة بحسب الطراز القبائلي، قرب القبور المحفورة حديثاً. وكان كثير من تلك القبور العائدة لأبناء الامبراطورية يعبّر عن إيمان يفهمه أي مسلم، إذ إنه المفضل من كتاب الوحي: «فليبارك الله الموتى الذين يقضون نحبهم في سبيل الله». وكان هناك صليب غاليّ فوق رفات الملازم «وولتر أيرفاين» من شرطة الحدود الشمالية الغربية «الذي فقد حياته في نهر «ناغومان» ، عندما كان يقود فرقة بشاور للمطاردة. ولن يحظى أي جندي روسي بمثل هذا النصب

الرومانسي. فعلى قبور الجنود السوفيات الذين يموتون الآن ويدفنون شمالي هذه المقبرة، يكتب بأنهم قضوا أثناء قيامهم «بواجبهم الدولي».

ولكن عميل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) المحلّي، كان يعي معنى ذلك. كان رجلاً نحيلاً مهذاراً يحتلّ مركزاً إسمياً في القنصلية الأميركية الواقعة في المنحدر بعد فندق أنتركونتيننتال في «بشاور»، وكان من عادته أن يقيم حفلات مضجرة في دارته، ويُري ضيوفه شريطاً هزلياً حول حرب فيتنام. وفي تلك الأيام، كنت لا أزال أخاطب الأشباح، فزرته في إحدى الأمسيات، عندما كان يستقبل مجموعة من الصحافيين، ويُري كل واحد منهم بطاقة هوية سوفياتية، قائلاً عن صاحبها الملذوع الوجه والظاهر في صورته غير الملوّنة: «إنه وسيم الطلعة؛ إنه طيّار أسقط طائرته المجاهدون وصادروا أوراقه. ومن المؤسف أن يقضي شاب كهذا نحبه على هذه الصورة المأساوية». لم أهتم بدموع التماسيح التي ذرفها عميل المخابرات هذا، لكني توقفت عند عبارة إسقاط الطائرة، وبماذا أسقطت. فهل لدى رجال حرب العصابات صواريخ أرض ـ جو؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن يزوّدهم بها: الأميركيون، أم السعوديون، أم الباكستانيون، أو أولئك العرب المكتنفون بالأسرار؟ لقد رأيت آلافاً من الروس، ويبقى عليّ أن أرى رجلاً من رجال حرب العصابات عن كثب في أفغانستان. ولكنني لن أنتظر طويلاً حتى أراه.

عاد باص علي إلى الحدود بعد ظهر يوم دافىء، واجتزتُ خط «دوراند» إلى كشك قذر على الحدود. نظر حارس الحدود إلى جوازي وقلبه بإبهامه. ثم توقف ليدقق في إحدى الصفحات المستخدمة من هذه الوثيقة. وكالعادة. كنت قد سجلت كلمة «ممثِّل» لمؤسسة على بطاقة الهجرة. ولكن ذلك الرجل النحيل طقّ بلسانه قائلاً: «صحافي، إرجع إلى باكستان». كيف عرف أني صحافي؟ كانت هناك تأشيرات سفر إلى البلدان العربية في الجواز الذي عرّف عليّ بأني صحافي؛ لكن الموظف الأفغاني لا يعرف العربية ولا يدرك معنى صحافة وصحافي. وعلى الأثر، دفعتني جماعة من الرجال، فرجعت خائباً إلى عليّ. والظاهر أن إحدى التأشيرات التي حصلت عليها للسفر إلى أفغانستان كانت ممهورة بكلمة «خبناغر» التي تعني باللغة الفارسية أو الداريَّة «صحافي»، والداريّة إحدى اللغات الأفغانية، لسوء حظي.

رجعت بسيارة أجرة إلى «بشاور»، وأرسلت خبراً إلى جريدة «التايمز» مفاده أني في مأزق. ولكن عاد عليّ إلى فندقي في اليوم التالي قائلاً: دعنا نجرب مرة ثانية، يا سيد روبرت... ثق بي». لملمت حوائجي، وركبت سيارته الصدوقة، وتوجهنا من جديد نحو الحدود. وكان ذلك يبدو كأنه صورة عملية عن مؤلَّف «استمرّ في ممرّ خيبر»؛ لكنّ عليّ كان واثقاً من نجاحنا بشكل مستغرب. تراخيت على مقعدي تحت شمس بعد الظهر، بينما كان الباص يئنّ صاعداً المنعطفات الحادة للطريق. هناك شيء غريب مثير للأعصاب عند محاولة تجاوز الحدود دون موافقة السلطات. وقد اختبرت هذا الأمر، كما اختبره «غافين»، عند كل نقطة تفتيش وتدقيق في أفغانستان. هل سيدعوننا ندخل، أم سيرجعوننا، أم سيلقون القبض علينا؟ ألم تكن هذه حال أبطال المقاومة في أوروبا التي احتلها الألمان مع الحراس الألمان؟ ومع أننا لم نكن أبطالاً ولم يكن الحراس الأفغان كالألمان، فقد كان من

اليسير أن نشعر بالإثارة والخوف، عندما وصلنا للمرة الثانية إلى ذلك الكشك الكهفي على الجهة الأفغانية من الحدود.

ولم أكد أقف حتى جاء علي إلى مقعدي وطلب مني جوازي مع خمسين دولاراً أميركياً. ثم اختفى. وما غاب سوى عشر دقائق حتى عاد متهللاً يبشرني باستمرار رحلتي إلى جلال أباد، وهو يعيد إلي جوازي الممهور. ثم طلب خمسين دولاراً أخرى لأنه تصدق بالأولى على رجل فقير. أجل، لقد غزا الروس تلك البلاد، لكنهم لن يتغلبوا على المؤسسة الأكثر فعالية وفساداً من جميع المؤسسات بين البحر الأبيض المتوسط وخليج البنغال، ألا وهي: الرشوة. فرحت أيّما فرح، وضحكت من كل قلبي، وصرت أغنّي لنفسي على طول طريق جلال أباد؛ فضلاً عن أني رتَّبت مع علي أن يأتي كل صباح إلى فندق «سبينجهار» ليحمل تقاريري وينقلها إلى «بشاور» ـ ثم يعود إليّ بعد الظهر بما ترسله إليَّ «التايمز» من رسائل عبر باكستان؛ بينما أنا أختبىء في الفندق بعيداً عن أعين السلطات.

ولم يكن عليّ أن أقلق؛ فكل ليلة يقترب المتمردون من جلال أباد. فمنذ أربعة أيام نسفوا جسراً خارج البلد، وفي أول ليلة بالذات فتحوا النار طول الليل على دورية أفغانية من البساتين الواقعة خلف الفندق. وقد استلقيت في فراشي ساعة بعد ساعة، وأنا أسمع طلقات المدافع الرشاشة تتجاوب في بساتين البرتقال، وتنفِّر الطيور الإستوائية الصارخة في الليل البهيم. ولكن ما إن يطل الصباح، حتى تبدو كل تلك المعارك حلماً من الأحلام، إذ تستعيد جلال أباد دورها كمدينة حدودية يغشاها الغبار، وتفتح أسواقها لتروِّج للقماش الباكستاني البسيط النوعية، والخُضَر، بينما يحرس السوق جنود أفغان بشكل بارز، وهم يتكئون على رشاشاتهم البريطانية القديمة من نوع «لي إنفيلد». وكنت أستأجر عربة بدولابين لأتجول خارج المدينة، وأرى بعض آثار الحوادث، مثل دبابة معطَّلة، أو مكتب حكومي محروق، ثم أطبع تقريري عن القتال الجاري، ليأتي علي في منتصف الصباح ويأخذه، على باصه الذي ينزل سبعمئة قدم ليصل من كابول إلى «بشاور».

وكانت مقاهي الشاي «الشاي خانة» القائمة في أكشاك على طول الشارع الرئيسي تعجّ بسائقي الشاحنات، وكثير منهم من قندهار؛ وكلهم يتحدثون عن ازدياد المقاومة عبر البلاد. وفي جنوبي قندهار، أخبرني رجل أن القرويين أوقفوا بعض مهندسي البناء الروس وقتلوهم طعناً بالسكاكين، ممَّا يمكن أن أصدقه. فمهما قيل عن شجاعة المجاهدين ـ وشجاعتهم لا يرقى إليها الشك ـ فقد كانوا أيضاً متوحشين. ولم أكن بحاجة إلى رواية «توم غراهام» الخيالية عن مصير رمَّاحي الفرقة السابعة لأدرك ذلك. كما قال لي شاب على فنجان شاي ذات صباح: «إننا سنحتلّ جلال أباد؛ لقد انتهى أمر الروس هنا». كما قال طالب يافع آخر: «سيحتل المجاهدون جلال أباد الليلة أو غداً». وكان يحمل على زنده الصقر الطائر المفترس الذي يصطاد أبوه بواسطته. أعجبت بتفاؤله، وليس بتحليله العسكري.

وكانت مثل هذه الآراء شائعة أيضاً في صفوف الجيش الأفغاني، فبينما كنت في مطعم قذر قرب مركز

البريد، صادفت جندياً خارج الخدمة يجلس إلى طاولة قريبة مني، كان يأكل دجاجاً سيىء الطهو، بسكين وشوكة غير عاديتين: قال: «لا نريد أن نحارب المجاهدين ـ ولماذا نقاتلهم؟ كان للجيش مجندون محليون من هنا؛ ولكنهم انضموا إلى المجاهدين. ولذلك جاءت الحكومة بنا من هرات ومن أماكن أخرى في شمالي أفغانستان. لكننا لا نريد أن نحارب هؤلاء الناس. إن المجاهدين مسلمون، ونحن لا نطلق النار عليهم». وكان الشاب يتشكّى بمرارة من أن رئيسه الضابط رفض أن يسمح له بزيارة عائلته في هرات الواقعة على بعد ٧٥٠ كيلومتراً من الحدود الإيرانية. وفي سورة غضبه رمى السكين والشوكة على الطاولة، ونهش الدجاج بيديه، بينما كان الدهن يسيل على أصابعه، وقال أخيراً: «لقد انتهى أمر جلال أباد».

وممّا لا يصدق أيضاً، أنه في ذلك الصباح بالذات، حاول الطيران الأفغاني إخافة السكان بإرسال أربع طائرات «ميغ ١٧» لتطير على علو منخفض فوق المدينة. فرعدت فوق الجادّة الرئيسية، وهزت أوراق النخيل بصوت محركاتها النفاثة. وخلّفت وراءها صمتاً، لا يقطعه سوى شتائم الرجال الذين يحاولون تهدئة أحصنتهم المرعوبة. وكانت طائرات «ميغ ٢٥» الضخمة تنطلق من مطار جلال أباد الصغير كل صباح، وتتسابق فوق البلد، لتطلق مدافعها الرشاشة على القرى في جبال «تورا بورا». وبينما كنت أتسوق رأيت تلك الطائرات تطير على بُعد بضع أقدام فوق السطوح؛ وكنت إذا رفعت رأسي أرى أيضاً ربّان الطائرة، والمدفعي، والصواريخ المعلّقة عند حُجيرة الوقود تحت الطائرة؛ فضلاً عن نجمة كبيرة حمراء ساطعة ظاهرة على جسم الطائرة، ومذهَّبة الأطراف. إن مثل هذا العرض للقوة لم يكن منتجاً. ولكن خطر ببالي أن المقصود من هذه الوسائل حرمان رجال حرب العصابات من الوقت الكافي لاستعمال صواريخ الأرض ـ جو التي بحوزتهم. وكان على ربابنة الطائرات الأميركيين بعد ٢٣ سنة أن يستعملوا الوسائل ذاتها لتفادي الصواريخ في العراق.

وحتى لو كان هناك تفاهم عسكري بين الجيش الأفغاني والمجاهدين، فقد عرف المتمردون كيف ينالون من الحكومة. فقد أحرقوا حتى الآن معظم المدارس في القرى المجاورة، على أساس أنها مراكز للإلحاد والشيوعية. وقد اغتالوا معلمي المدارس، فضلاً عن قتلهم التلاميذ خطأً بالرصاصات ذاتها التي أصابت المعلمين. وهكذا، لم يكن المجاهدون محبوبين بشكل عام كامل. وإن نصبهم الكمائن للسيارات المدنية على الطريق الغربية ـ بعد أسبوعين من قتلهم سائق شاحنة ألمانياً ـ لم يزد في أمجادهم. مع العلم أن المجاهدين كانوا يسكنون في القرى ـ حيث كان يهاجمهم الروس. وبتاريخ ٢ شباط/فبراير، شهدتُ انطلاق أربع مروحيات حربية في الغسق لمهاجمة قرية «كاما»؛ ورأيت بعد ثوانٍ أعمدة من النار تتصاعد في الظلام.

كنت أذهب كل صباح عند الساعة الثامنة إلى مقاهي الشاي، حيث يخبر أصحابها هذا الإنكليزي الغريب الأطوار، عمّا حصل من دمار خلال معارك الليل. فأنطلق إذ ذاك في عربة بدولابين إلى مكان الحوادث. وقد وصلت ذات صباح باكراً إلى موقع جسر نسفوه ليلاً، وكان على طريق كابول؛ وقد أوقفت الحفرة الكبيرة التي أصابت الجسر تقدم الجنود الروس وتحركهم بين جلال أباد والعاصمة؛ بينما بدت الإثارة على الحشد الذي جاء ليعاين الأضرار.

وتقدم مني أحدهم قائلاً: «شوروي» أي روسي؛ فارتعبت. فلو ظن أني روسي لأنهى حياتي. فجأرت: «إنكلستان، إنكلستان»، وأنا أبتسم ابتسامة عريضة. فأومأ برأسه إيجاباً وعاد إلى الحشد يبلغهم الخبر. وبعد دقيقة، جاءني رجل آخر يتكلم بعض الإنكليزية: «من أين أنت، من لندن؟». فأجبت بالإيجاب، وأنا أشك في أن يكون لدى أهل قندهار معرفة تذكر عن «شرق فارلاي» على ضفاف نهر «مدواي» في «كنت». فعاد الرجل إلى الحشد بتلك الأنباء. ثم عاد بعد لحظات قائلاً: «يقولون إن لندن محتلة من قبل الروس». فلم أحبّ ذلك، إذ لو كانت لندن محتلة من قبل الجيش الروسي، لكنت أنا هنا مأذوناً من الروس ـ أي متعاوناً معهم. صرخت: «كلا، كلا. إن إنكلستان حرة، حرة، حرة. وسنقاتل الروس إذا جاؤوا إلينا». وكنت آمل أن تكون ترجمة الرجل إلى لغة «البوشتو» أدق من معرفة الحشد بالجغرافيا السياسية. وبالفعل، علت الابتسامات الوجوه بعدئذ، وحيّوا بسالة بريطانيا المفترضة. وقال الرجل: «إنهم يشكرونك لأن بلادك تقاتل الروس».

ولم أفهم ما حدث، إلّا عندما كنت عائداً إلى جلال أباد بعربتي ذات الدولابين، التي تخبّ بي على الطريق. فبالنسبة إلى هؤلاء الفلاحين، تعتبر مدينة كابول مدينة بعيدة عنهم، وربما لم يزرها معظمهم أبداً؛ مع أنها لا تبعد عنهم سوى مئة كيلومتر. وكذلك الأمر بالنسبة إلى لندن؛ ومن المعقول جداً في هذه الحال أن يفترضوا أن الروس يسيِّرون دورياتهم في ساحة «ترافلغار». عدت إلى جلال أباد منهوك القوى، وجلست على أريكة منتفخة في أحد مقاهي «الشاي خانة» الواقع على مقربة من فندق «سبينجهار». وكانت الوسائد مكوّمة تحت وشاح؛ ولما بدأت أحاول ترتيبها، جاءني صاحب المقهى، يلوّح برأسه ويشبك يديه قائلاً: «يا سيد. . . من فضلك». ونظر إلى الأريكة ثم إليّ قائلاً: «هناك عائلة جلبت جثة رجل مسنّ إلى المدينة من أجل دفنه، لكن عربتهم تعطلت وذهبوا ليصلحوها، وسيعودون ليأخذوا الرجل الميت». وقفت عندئذ معزياً. فوضع يده على ذراعي، كما لو كان هو المهتم بالميت، وقال: «آسف»؛ فأصررت بأني أنا الآسف. ولهذا السبب وضع كرسياً قرب الجثة المغطّاة، كما أظن، ثم قدّم لي فنجان الشاي الصباحي المعتاد.

وفي الليل الآن، لاحظت مجيء الشرطيين المحليين وقادة الحزب إلى فندق «سبينجهار»ليناموا، قبل حلول موعد منع التجول في الساعة الثامنة مساء. كانوا قلقين، يرتدون ثياباً سمراء ونظارات داكنة، إذ يصعدون إلى ردهة الطابق الأول ليتناولوا الشاي قبل خلودهم إلى النوم. ويتبعهم شباب يحملون رشاشات آلية، ويصلصلون بها باستمرار على الدرابزين. وقد يدعوني أحياناً أعضاء الحزب إلى المشاركة في الطعام، ويسألونني بإنكليزية جيدة عمّا إذا كان الجيش الروسي سينصاع إلى طلب الرئيس كارتر بالانسحاب. كانوا مهووسين بالخصومات الحزبية الصغيرة اللدودة في كابول. وقد اعترف أحد الملازمين المسمّى محمد إقبال الذي أقرَّ بأنه شارك في مقتل الرئيس الشهيد نور محمد طرقي، إذ قال إنه مع عضوين آخرين من شرطة القصر الأفغان تلقوا أمراً بقتل طرقي أصدره «الجزار» أمين؛ فأمسكوا بالرجل المسكين، وأوثقوه، وطرحوه على فراش، ثم خنقوه بوسادة ضغطوها على وجهه، ثم حفروا له قبراً وغطّوه بصفائح معدنية من دكان أحد الخطّاطين.

كان أعضاء الحزب ودودين إلى درجة أنهم دعوني إلى مقابلة حاكم جلال أباد. وهو رجل في منتصف العمر، مستدير الوجه، أبيض الشعر قصيره، يلبس نظارة تقليدية غليظة الإطار. إنه «محمد زياراد»، الذي كان

سابقاً مدير تصوير في شركة أفغانية للصوف، والذي لا يكاد يجد وقتاً وجهداً لمقابلة زوار الصباح الذين يفدون على مكتبه. فقد كان هناك قائد الشرطة الذي يقدم تقريراً عن الأضرار التي نتجت عن قتال الليلة الفائتة؛ وآمر الجيش الأفغاني المحلي الذي يبرز كومة كبيرة من تقارير مخيفة عن الحوادث، وهو يرتدي سترة قصيرة أصغر من حجمه بكثير. كما أن حشداً صاخباً من المزارعين اقتحموا المكتب مطالبين بتعويضات. وكان الهاتف يرن كل دقيقة، لتقديم مزيد من التقارير عن تخريب في القرى؛ مع أنه كان عسيراً على السيد «زياراد» أن يسمع صوت المخابرين بالتلفون، نظراً لخفقان طائرة مروحية حربية كانت تحوّم فوق الأشجار وراء نافذة الخليج. لقد كانت تلك ليلة ليلاء.

ولكن كل ذلك لم يفتّ في عضُد حاكم جلال أباد، ولم يطغَ عليه، إذ قال: «لا داعي للمبالغة في النظر إلى هذه الأحداث بشكل دراماتيكي». وكأن معارك إطلاق النار ليلاً جزء لا يتجزأ من حياة كل امرىء لسنوات. كان يرتشف الشاي وهو يوقع التقارير، ويمزح مع ملازم في الجيش، ويأمر بإخراج أحد الشحّاذين الذي اقتحم الغرفة طالباً بعض المال. ويستأنف حديثه قائلاً: «إن الثورات متشابهة؛ ونحن نساند الثورة، بالكلام وبالقتال، وبالتحدث سلبياً عن أعدائنا الذين يحاولون إثارة ثورة مضادَّة؛ فنحمي أنفسنا منهم. لكننا سنربح».

وإذا ظهر السيد «زياراد» متفلسفاً قليلاً على هواه في موقفه من الثورة الاشتراكية، فذلك لأنه ليس عضواً في الحزب. فقد تفادى عضوية «الپارشام» و«خلق» كليهما. وكان تنازله للثورة عبارة عن احتفاظه على طرف مكتبه بنموذج فضّي لطائرة ميغ مقاتلة. وقد اعترف بأن المتمردين يحدثون مشاكل بقوله: «لا نستطيع أن نمنعهم من أن يطلقوا النار، وأن ينسفوا الأسلاك الكهربائية وأنابيب الغاز، وأن يفجّروا القنابل ليلاً. وإذا كانوا يحاولون الاستيلاء على جلال أباد، ويقتربون من المدينة، فإنهم لن ينجحوا».

وهنا، خطَّ السيد «زياراد» رسماً بيانياً على الورق فوق مكتبه؛ ظهرت فيه دائرة تمثل جلال أباد، وسلسلة من الأسهم المتوجهة نحو الدائرة دلالة على هجوم المتمردين. ثم خطّ سلسلة أخرى من الأسهم صادرة عن دائرة جلال أباد، وقال باعتزاز: «هذا هو الهجوم المضاد الذي سنقوم به. وقد اختبرنا هذا الأمر سابقاً، وحصلنا على النتائج ذاتها. وعندما يصل العدو إلى مركز جلال أباد، فإن أفراده يتراصّون، بحيث تستطيع قواتنا أن تصيبهم بمزيد من السهولة، ثم نقوم بهجومنا المعاكس، ونطردهم». يا له من مستغرب عقار الأمل الخدَّاع هذا، لقد كنت أسمع هذا التفسير من عدد من الحكام والمجندين عبر الشرق الأوسط خلال ربع القرن القادم ـ من الغربيين والمسلمين على السواء ـ وكلهم يصرُّون على أنه كلما ساءت الحال، تحسّن الوضع في النهاية.

وادَّعى السيد «زياراد» أنه لم يُقتل خلال الأسبوع المنصرم سوى ثلاثة جنود أفغان في القتال الذي دار حول المدينة. وبالنظر للهدنة غير المعلنة بين الجيش والمجاهدين قد تكون إحصاءات الحاكم صحيحة. لكنه أنكر من جهة أخرى، أن يكون في جلال أباد جنود سوڤيات ـ ما عدا بعض المستشارين الزراعيين والمعلمين، متجاهلاً الألف من الجنود السوفيات القابعين في ثكناتهم خارج المدينة؛ ولم يكن مهتماً بالوجود الروسي في بلده، بل «إن جماعات قطاع الطرق والمالكين الإقطاعيين الذين انتزعت منهم أملاكهم بالقرار السادس، هم المشكلة؛ بالإضافة إلى مساعدة يتلقونها من تلاميذ الإمبريالية. إن هؤلاء يتدربون في مخيمات تقع في باكستان. وقد علَّمهم الإمبرياليون كيف يرمون القنابل اليدوية، ويطلقون الألغام»، بحسب قوله.

كان الحاكم يزور القرى المجاورة خلال النهار برفقة ثلاثة جنود، ليتفقد التقدم الحاصل في إصلاح الأرض، والنظام الجديد في جلال أباد المتعلق بالريّ. ولكنه يتفهم كيف أن الإصلاحات الجديدة أورثت العداء. قال: «لقد أكّدنا أن جميع الرجال والنساء لهم حقوق متساوية، وأنهم يتلقون التعليم ذاته. ولكن تبيّن أن لدينا مجتمعيْن في بلادنا: مجتمع المدن ومجتمع القرى. فأهل المدن يقبلون التساوي بين الجنسين، لكن أهل القرى أشدّ محافظة. وربما سرنا في إصلاحنا أحياناً أسرع من اللزوم. فلا بد من مرور الزمن كي تتحقق أهداف ثورتنا».

وقد ضاعت كلمات السيد «زيارادا» الأخيرة، ونحن خارجون من مكتبه في صوت الرعد الصادر عن أربع مروحيات حربية تتسابق فوق السوق، وتثير غيوماً من الغبار قرب بيوت الطين ذات الطبقة الواحدة. سألني الحاكم عمّا إذا كنت أرغب في الرجوع إلى الفندق بسيارته، فنظرت في وجوه الناس الغاضبة وهم يحدقون في المروحيات، وفضلت أن أعتذر عن استعمال سيارة الحاكم. ولكن الشرطة في فندق «سبينجهار» صاروا أكثر فضولاً. فهم يريدون أن يعرفوا كم سأبقى في جلال أباد، ولماذا لم أذهب إلى كابول. لقد حان الوقت لكي نترك جلال أباد «تهدأ»؛ أو كما قال «غافين»: لا تكن جشعاً(*).

ولكن الروس هم الذين كانوا جشعين؛ إذ أرسلوا مئات من الجنود الإضافيين إلى كابول. على أسطول من طائرات «أنطونوف»، مع مركبات مدرَّعة برمائية جديدة. وفي بعض الثكنات العسكرية، تمّ ضمّ جنود روس وأفغان معاً في وحدات مشاة، لتقوية معنويات الجيش الأفغاني، بحسب ظنهم. أما الشاحنات الأفغانية الجديدة، فقد نقلت قوات أفغانية، لكن السائقين كانوا من الروس. وتوالت خطابات الرئيس كارمال التي هاجم في أحدثها من سمَّاهم: «القتلة، والإرهابيين، وقطاع الطرق، والعناصر المخرِّبة، والسارقين والخونة، والمأجورين». وما لبث بعد أكثر من شهر على الغزو السوفياتي، أن وجَّه «جماعات المقاومة المتطوعين» لحراسة الطرقات والجسور والقوافل ـ ضد المقاومة الصحيحة الأقوى طبعاً ـ مما يبرهن على خطورة مشكلة المتمردين الآن، واتساع المناطق التي باتوا يسيطرون عليها فعلاً.

ولكن الروس لم يستطيعوا أن يحموا رجال العصابات، أو أن يعطوا الأمل للقرويين الأفغان بأن بقاء الروس سيحسِّن حياتهم. فقد انقطعت مناطق كبيرة من أفغانستان عن تلقي معونات الحكومة الغذائية؛ وكان الروس يرسلون بالطائرات شحنات من الحبوب ـ وحتى التراكتورات ـ إلى كابول، بينما ظهر أحد قادتهم الكبار في قاعدة «باغرام» الجوية، مدعياً أنه لم يبقَ من الإرهابيين إلَّا بقايا في الجبال. هذه البقايا المسماة «باكويايي» باللغة الداريَّة، صارت الكلمة الشائعة لوصف المتمردين على الراديو الأفغاني. ولكن «إصلاح» أفغانستان في هذه

(*) لمّا كنت قلقاً على عليّ لئلا يلزموه بتسليم ملفي على طريق «بشاور»، أرسلت إلى «التايمز» رسالة منحرفة بشأن رجال الشرطة تقول إني أعاني من صداع، كإشارة إلى ما عاناه «جورج سيمينون» مفتش الشرطة الفرنسي المشهور. ولكن في زمن الحرب، يجدر بالصحافيين أن لا «يتشاطروا». وبالفعل أوصلت رسالتي إلى مكتب (CBC) في لندن؛ وجاءني منه الرد السريع بأنهم يتعاطفون مع الألم الذي ألمّ برأسي.

الظروف بات مستحيلاً. كانت الحكومة تخسر. ولم يكن الأمر سوى مسألة وقت. وصار كلام الحكومة عن النصر أقل مصداقية عند الناس باستمرار. وفي ردهة فندق «أنتركونتيننتال»، أخبرني دبلوماسي بولندي بأنه يعتقد أن الروس يحتاجون إلى مئتي ألف جندي ليربحوا حربهم(*).

وكان رجال كارمال قد أغلقوا مساجد العاصمة باعتبارها مراكز للمقاومة. وقد التقيت في مركز كابول إمام مسجد «پوليخيشتي». وهو رجل قصير القامة شاحب الوجه نحيله؛ تنمّ قسماته عن همٍّ وقلق. وقد رفض أن يعطي اسمه، ولم يُجب عن أبسط الأسئلة حول حياة الناس. وصل قبل صلاة الفجر بدقيقة واحدة، يمشي بسرعة عبر باحة المسجد المتجلدة، بعباءته الحريرية المحبوكة وعمامته الذهبية. وغادر فور انتهاء الصلاة. وعندما مشيت نحوه، التفت فوراً إلى اليمين. وعندما طرحت عليه قائمة الأسئلة بلغة «البوشتو»: ما هو دور الإسلام في أفغانستان بعد شهر كانون الأول/ ديسمبر؟ لوّح بورقة الأسئلة في صقيع الهواء بحركة يائسة.

وصاح بي: «أسئلتك كلها سياسية، وإحداها عن سعادة الناس في النظام الجديد لبابراك كارمال». لن أجيب عن أي سؤال بشأنه. أنا لا أمثل الناس؛ بل سأجيب عن الأسئلة الدينية فحسب. وكان ذلك متوقعاً. وبصفته «كاتب» المسجد، فما عليه سوى أن يؤوِّل القرآن الكريم، لا أن يلقي عظات عن أخلاقيات الحكومة. ولمّا كان كل هؤلاء «الكتَّاب» قد تعينوا عن طريق الحكومة الثورية منذ سنتين، فمن غير المحتمل أن يبوح بأية مشاعر عن الغزو السوفياتي لبلده. وبعد أيام من انقلاب «طرقي» عام ١٩٧٨ تضمنت خطب المساجد في كابول الدعوة إلى الجهاد. وقد قطعت الطريق على أي استقلال سياسي عن الشيوخ المسلمين السنَّة خلال أيام عندما دهمت الشرطة كل المؤسسات الدينية في المدينة، ونقلت الشيوخ المنشقين إلى سجن «پوليكارخي»، حيث بقوا فيه، ولم يخرجوا منه.

إن الكنيسة المقطوعة الرأس لا تستطيع أن تقدم التوجيه السياسي إلى رعيتها. إنما تاريخ الإسلام في أفغانستان يوحي بأنه ليس هناك من قائد ديني ينذر نفسه لتوجيه الناس إلى الحرب ضد الأعداء. أما المسلمون الشيعة، الذين لديهم تقليد بالتضحية بالذات، وتوكيد على الاستشهاد، والذين دمروا نظام الشاه في إيران، فقد كانوا أقلية في أفغانستان. وفي مدينة هرات الغربية، التي تبعد ١٠٠ كيلومتر عن الحدود الإيرانية، كانت ترفع لافتات للخميني ولآية الله شريعة مداري على الجدران؛ لكن السنَّة كانوا هم الأكثرية، وكان هناك ارتياب في ممارسة رجال الدين للسلطة في إيران. فالأفغان لا يقرُّون بسلطة دينية إلهية على مستوى البلاد. والإسلام دين رسمي، يشغل فيه أئمة المساجد وظيفة بيروقراطية، وليس لديهم رسالة سياسية. وكان نفوذ المعتقد الديني التقليدي قوياً في أفغانستان، ولكنه لم يكن متطرفاً؛ وإن عدم وجود تراتبية عند السنَّة منعت «الملالي» أي أئمة المساجد من

(*) في هذا الوقت، اعتقد كثير من الأفغان أن جنوداً من بولندا، وألمانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا وغيرها من البلدان التابعة للاتحاد السوفياتي، كانوا يفدون على بلادهم لدعم الجنود الروس. وربما انتشرت هذه الشائعات عندما بدأ الجنود الروس يتكلمون الألمانية في سوق كابول. لكن أولئك كانوا من الجنود السوفيات القادمين من منطقة «الفولغا» التي تتكلم اللغة الألمانية.

استخدام مركزهم لإحداث وحدة سياسية في البلاد. وعلاوة على ذلك، كان المسلمون الأفغان مقسومين طبقياً في كابول. فمسجد «پوليخيشتي» يرتاده الفقراء، بينما يفضل العسكريون المسجد الأزرق، ويذهب باقي الشعب من الطبقة المتوسطة للعزاء في مسجد «دو شام شيرا» ذي الطبقتين.

وقدَّمت الملكية في أيامها للناس في أفغانستان وحدة فسيفسائية جمعت شمل السكان إلى حدٍّ ما. وكان الناس في مقاهي «الشاي خانة» يتباهون بتحية آخر ملك للبلاد. ولكن بعد ظهور حكام جدد منذرين بالشر، تبيّن أن الحكام المبذرين الذين حكموا البلاد سابقاً لم يكونوا أبداً شعبيين. فعندما انقرضت الملكية، لم يبقَ ما يجمع الناس سوى الإسلام الذي اتَّحد مع الشعور القومي ـ إزاء الشيوعية ـ مما يفسِّر لماذا أعاد كارمال اللون الأخضر إلى العلم الوطني. وقد صارت الخطب الوزارية، حتى من قِبل أعضاء الحكومة الذين قضوا حياتهم «ماركسيين»، تبدأ باستشهادات متضرِّعة من القرآن الكريم، وقد زار نائب رئيس مجلس الوزراء مدينة مزار، وصلَّى في مقام للإمام علي ابن عم الرسول وصهره. ولكن كان الدين موضع احترام وتبجيل في القرى أكثر من المدن ـ كما هي الحال في معظم البلدان الريفية ـ ولاسيما القرى التي جاء منها المجاهدون. ومع أن ذلك يشكل قوة رجعية ـ تناهض تحرر المرأة ومساواتها بالرجل، والتعليم العلماني ـ فإنها ركَّزت اهتمام الفقراء على الواقع السياسي، بشكل غير مسبوق. ولم يحدث صدفة أن شاعت نكتة في كابول مفادها أن على كل مسلم أن يستمع إلى محطة الإذاعة البريطانية، بالإضافة إلى تأديته أركان الإسلام الخمسة. ولن تكون تلك دعابة طبعاً، إذا برزت قوة إسلامية جديدة من أوساط المقاومة، لا من مقام الشيوخ.

وهكذا، لم يبقَ في أفغانستان الآن سوى صحافيين قلائل، بحيث لم يعد أحد يهتم بمراسل «التايمز» الذي لا يحمل آلة تصوير، ولكن لا يزال لديه تأشيرة إقامة صالحة. وفي كابول تسوَّقت السجّاد في السوق مع الجنود السوفيات الذين ما زالوا يشعرون بالأمان في شارع «الدجاج». اشترى الروس تذكارات، وعقوداً، وأساور لزوجاتهم وصديقاتهم، بينما الجنود الطاجيك قصدوا المكتبات ليبتاعوا نسخاً من القرآن الكريم. وأخيراً اشتريتُ سجادة بقياس ٢×٣ أمتار قرمزية وذهبية مطروحة على الرصيف الرطب. ولكن السيد صمد علي الذي لا يزال يمكنه أن يتنقل بنا ضمن حدود مدينة كابول، نظر إلى سجادتي نظرة ناقدة، وأخبرني أني دفعت فيها سعراً باهظاً ـ فمن وظائف سائقي سيارات الأجرة في جنوبي شرقي آسيا أن يبخسوا مشتريات الزبائن الأجانب ـ ولكنه أخذها وأوثقها على ظهر سيارته.

ومن كابول، ركبت مرة أخرى في باص عليّ نزولاً إلى جلال أباد، حيث نويت أن أقضي الليلة في فندق «سبينجهار» قبل عودتي إلى كابول. وفي سوق جلال أباد، فتشتُ عن كيس من «الساتان» لأحمل فيه سجادتي الكبيرة وأنقلها إلى الخارج. وكنت قد تعلمت معنى الكيس بلغة «البوشتو»: (أطلسي كاهزورا) ـ اشتريت كيساً كبيراً من الخيش ومجموعة من البطاقات البريدية من جلال أباد تحت الحكم الملكي، تلك المدينة اللطيفة الناعسة

المتلألئة بالألوان المفقودة الآن إلى الأبد. وزرت القنصلية الباكستانية في المدينة، التي لا بد أن يكون بعض موظفيها متعاونين مع رجال العصابات. حدثوني عن خوف الروس من أن تقع جلال أباد جزئياً في أيدي المتمردين، وأن تقفل طريق كابول. ولم يكن الدبلوماسيون الباكستانيون منزعجين أبداً من هذا التوقع.

ولم تمضِ برهة على وصولي إلى فندق «سبينجهار» حتى هُرع إلي موظف الاستقبال يعلمني بانفعال أن الروس يستخدمون المروحيات للهجوم على قرية «صورغ رود»، على بعد ٢٠ كيلومتراً إلى الغرب. استأجرت عربة بدولابين، ووجدت نفسي خلال نصف ساعة في بلدة ذات شوارع ترابية وبيوت طينية. طلبت من السائق أن ينتظرني على الطريق الرئيسية ودلفت إلى البلدة. لم يكن هناك مخلوق بشري، بل الأصوات المكتومة للحوَّامات المروحية السوفياتية من طراز (Mi-25)، التي لمحتها تمر بسرعة عند أواخر الشوارع. نبح بعض الكلاب عند مجرور مفتوح؛ وكانت الشمس لا تزال في كبد السماء وغطاء الحر يلف نسيم الشوارع. فأين الهجوم الذي استثار موظف الاستقبال؟ حانت مني التفاتة فرأيت طائرة بشكل حشرة تطير على علو منخفض وتطلق النار. وتعالى الصوت كأن مئة كرة غولف قد ضربت بالهراوات في الوقت ذاته، بينما أخذ الرصاص يرشق جدران المنازل، فتتناثر قطع الطين في الهواء، كلما أصيبت المباني. واتجه خط من هذا الرشق الرصاصي عبر الشارع نحوي، فارتعت وركضت عبر باب مفتوح، وباحة ترابية، ودخلت أول بيت رأيته.

اندفعت بقوة عبر المدخل، ووقعت على جنبي فوق سجادة عتيقة. وتبيّنت أمام الحائط الداكن الذي أمامي رجلاً أفغانياً ذا لحية غبراء، جالساً مع مجموعة من الأولاد، فاغرين أفواههم من الخوف، ووراءهم امرأة تلف رأسها بوشاح أسود. حملقت فيهم وحاولت أن أبتسم؛ فبقوا هناك صامتين. وشعرت أن عليّ أن أطمئنهم بأني لست روسياً، بل من إنكلترا بلد السيدة تاتشر، وأني صحافي. ولكن هل تفهم هذه العائلة الإنكليزية؟ أو ما هو الصحافي؟ كنت منقطع النَّفَس، جزعاً، ومتسائلاً كيف وصلت إلى هذا المكان الخطر بسرعة وبدون تفكير في وقت قصير، بعد مغادرتي فندق «سبينجهار».

كان لا يزال لديّ بعض سلامة العقل، لأتذكر معنى كلمة صحافي بلغة «البوشتو» ولأطمئن هؤلاء المساكين عن هويتي. فقلت متبجحاً «زا دي إنكليزي أطلسي كاهزورا يام!». لكن تلك العائلة زادت حملقتها فيّ، وعظم انشغال بالها. قرّب الرجل الأولاد إليه، وهمهمت زوجته متذمرة؛ فابتسمت. ولكنهم لم يبتسموا. لقد جاش الخوف في صدور هذه العائلة. ولم أتبيَّن أني لم أقل لهم أني صحافي إلّا فيما بعد تدريجاً، عندما راجعت ما قلته بلغة «البوشتو» فوجدت أن معناه هو «أني كيس ساتان إنكليزي!» هذا ما قاله المراسل الأشعث الذي خرق حرمة بيتهم.

فكررت كلامي بالانكليزية وبالبوشتو أني صحافي مراسل. ولكن ما وقع قد وقع. فلم يكن هذا الإنكليزي خطراً، وأجنبياً، بل كافراً تطفّل على حرمة بيت أفغاني؛ فضلاً عن كونه غير عاقل. لم يكن عندي شك في ذلك. وعندما نجد أنفسنا، نحن معشر الصحافيين، في خطر كبير، لا بد دائماً من التساؤل: لماذا رمينا أنفسنا في هذا

المأزق، وعرَّضنا حياتنا للخطر؟ هل من أجل رئيس التحرير؟ أو حباً بالمغامرة؟ أو لأننا لم نفكر، ولم نحسب الأخطار، ولم نتبصر في أن حياتنا كلها، وتربيتنا، وعائلتنا، وحبنا وسعادتنا، صارت الآن رهن الحظ وبعض الفقرات. كانت قرية «صورغ رود» هي المحطة الحدودية التي استعطى فيها الجندي البريطاني في قصيدة كيبلنغ، وكان الشارع خارج هذا البيت هو الممر الضيق المظلم، وكانت الطائرة المروحية هي رشَّاش العدو. هذا الرسم هو إطار ينبئنا بأن الحياة رخيصة؛ غير صادقة؛ وأن الموت رخيص. إنه يسير وفظيع، وغير عادل أبداً.

جلست على السجادة، ربما لمدة عشر دقائق، أبتسم ببلاهة للعائلة الباردة الوجوه الجالسة أمامي، حتى انبرت فتاة تلبس ثوباً قرنفلياً، وتقدمت نحوي وهي تتردد في مشيها، وابتسمت. فرددت الابتسامة بمثلها؛ وأشرت إلى نفسي وقلت: «روبرت»؛ فردَّدت اسمي. وأشرت إليها، فما هو اسمها؟ فلم تجب سمعت من الخارج صوت حمار يدبّ بعد البوابة وصياح رجل؛ بعدما غابت أصوات الطائرات المروحية وقفت ونظرت من الباب، فرأيت أناساً يمشون في الشارع. كان الأمر كما يحدث في جلال أباد عند الفجر، إذ يتحول ليل الموت سحرياً إلى يوم كدّ، وعمل، وغبار، وازدهار أشجار «الجاكاراندا». لقد مرَّت الحرب على قرية «صورغ رود»، وذهبت الآن إلى مكان آخر. التفتُّ إلى العائلة وشكرتها للحماية التي لم تقدَّم لي بقولي: «شكريَّة»، أي شكراً. فانحنى الرجل الملتحي ببطء ورفع يده اليمنى مودِّعاً.

كان صاحب العربة بدولابين لا يزال ينتظرني على الطريق الرئيسية، موجساً خيفة من أن أكون قد قضيت نحبي، وربما أكثر خوفاً من أن لا أبقى على قيد الحياة لأدفع له أجرته. عدنا إلى جلال أباد. وجاء تلك الليلة قادة الحزب إلى الفندق حاملين أنباء مزعجة لهم، كما يبدو. فقد أغار المجاهدون على مركز لإقامة الطالبات في جامعة جلال أباد، وساقوا عشرين فتاة من المبنى ونقلوهن إلى «تورا بورا»، حيث أعطين مالاً ـ مئة أفغانية تعادل ٢٢ دولاراً ـ وحجاباً أسود لكل منهن وتعليمات بإنهاء دراستهنّ. وفي اليوم نفسه، أُرسل مهندس روسي إلى ضواحي جلال أباد ليصلح خطاً كهربائياً جرى تخريبه تكراراً. وبينما كان على رأس العمود أطلق عليه شخص النار فأرداه قتيلاً، وبقي جسمه معلقاً بين الأسلاك على علو عشرة أمتار فوق الأرض لعدة ساعات؛ بينما كان الناس من رجال ونساء يفدون لينظروا إلى جثته.

غادرت في اليوم التالي إلى كابول على متن أول باص. وكان باصاً فخماً انطلق عند الفجر قبل وصول باص عليّ بوقت طويل. ولم تكن تأشيرتي صالحة إلّا لثلاثة أيام قادمة. ولم يكن الركاب من القرويين، أو من رجال الأعمال الباكستانيين الذين يسافرون على باص عليّ السياحي، بل من طلاب الحكومة الأفغانية، وأعضاء من حزب «بارشام» عائدين إلى جامعة كابول بعد العطلة. وحتى قبل أن نقطع ضواحي المدينة، كانوا يأمرون كل واحد بإنزال الستائر حتى لا يرى أحد من الخارج شيئاً. وكانوا يطلعون أعناقهم عند كل منعطف ليختلسوا النظر من خلال شقوق الستائر، لئلا يكون هناك كمين أمامهم. ولم أفقه كيف ستساعدهم الستائر. فالباص المحاط بالأستار والأسرار أدعى إلى لفت نظر المجاهدين من المركبة التي تفتح نوافذها، ويبدو الركاب نائمين فيها.

وعندما توقفنا على بعد ٢٥ كيلومتراً إلى الشمال وجدنا جثة رجل مغطاة تنقل إلى شاحنة، فنظر إليها الطلاب صامتين برعب واشمئزاز. لقد كانت حسبما قيل لنا جثة سائق شاحنة لم يتوقف لإشارة المجاهدين. كان هناك خمس شاحنات مترافقة ومتوجهة كلها نحو كابول. وقفت كلها الآن عند مقهى «شاي خانة»، ليبحث سائقوها المشكلة، فهل يتفاهمون مع حاجز رجال العصابات في أعلى الطريق، أم ينكفئون راجعين إلى جلال أباد. مرت ساعتان، ولم يستطع السائقون أن يقرروا شيئاً؛ وزاد انفعال الشباب الأفغان وتوتّرهم؛ ولسبب وجيه؛ إذ إن المجاهدين عرضوا على أسراهم خيارين: إما الانضمام إلى المقاومة أو مواجهة الإعدام. وبدأ بعض الشباب الأفغان بنزع شارة الحزب. فشعرت إذ ذاك بالأسف. ربما انضموا إلى حزب «برشام» ليترقوا في الجامعة أو لأن أهلهم موظفون في الدولة. ومهما وصفنا وحشية الحكومة واتكالها على غزاة أجانب، فموظفوها كانوا يحاولون إرساء دعائم مجتمع علماني يقوم على المساواة في القرى المحيطة بجلال أباد. ولم تكن الحكومة هي التي تحرق المدارس وتقتل المعلمين.

مرت ساعة أخرى، وتصاعد الحر، وزاد اكتئاب الطلاب، والسائقون يتدفأون في الشمس. ففي أزمنة الحرب، ولدى مواجهة الأخطار الكبرى، يمسي التردد وعدم اتخاذ قرار بمثابة مخدِّر. ثم جاء باص عليّ الخشبي يجاهد صعوداً، وعلى جنبيه شعار محافظة الحدود الشمالية الغربية. وأراد عليّ أن يعرف لماذا هجرته. وقال مشيراً إلى سيارته: أرجوك يا سيد روبرت أن تأتي معنا. وهكذا جلست على مقعدي إلى الجهة اليمنى من الباص، ومشت الباصات الأخرى وراءنا كالغنم. وعلّق عليّ على الوضع بقوله: «من الأفضل لك أن تكون معنا، لا معهم»، وما لبثت أن أدركت سبب ذلك.

وعند أحد المنعطفات بعدما سرنا حوالى خمسة كيلومترات في واد ضيق حافل بالصخور وشجر الصنوبر الصغير، طالعنا ستة رجال من المجاهدين لوَّحت وجوههم الشمس، يقفون منفرجي السيقان. وكان سابعهم مفترشاً صخرة، يلوّح بذراعه صعوداً ونزولاً كإشارة لنا كي نتوقف. قيل لنا إنهم غير مسلحين كما يجب، وأنهم لا يظهرون إلا بعد حلول الظلام، وأنهم يخافون انتقام الحكومة. ولكنهم كانوا هناك في وضح النهار تحت أشعة الشمس عند الظهر، بعباءاتهم وأوشحتهم الأفغانية، يحمل كل منهم بندقية رشاشة جديدة من طراز كلاشينكوف، ويسيطرون على المرور فوق أهم طرقات أفغانستان. كان ذلك عرضاً جريئاً للثقة بالذات ومنظراً مخيفاً للطلاب في الباص وراءنا. أما في باص عليّ، فلم يكن هناك أي قلق، حتى أن أحد المسافرين الباكستانيين ـ وهو تاجر قماش من «بشاور» ـ بلغ به الضجر مبلغه، فبدأ مناقشة طويلة ومتعبة بشأن سياسة باكستان الداخلية.

ومن نافذة الباص الخلفية، كنت أرى الطلاب ينزلون من الباص إلى الطريق. وقفوا هناك مطاطئي الرؤوس، كما لو كانوا مجرمين، يختبىء بعضهم خلف بعض. وكان عليّ يتحدث ويمزح مع أحد رجال العصابات. ووقف سائقو الشاحنات الآخرون قرب باصاتهم، وليس على وجوههم سيماء. وكان المسلحون يمرون على طول صف الشباب الأفغان؛ ويأمرون بعضهم بالرجوع إلى الباص؛ بينما أمروا آخرين شحب لون وجوههم من الخوف بأن

يصطفوا على جانب الطريق. أوثقوا ثلاثة منهم وعصبوا عيونهم، وساقوهم متعثرين عبر شجيرات الصنوبر باتجاه النهر الذي يخرّ عن يميننا. راقبناهم حتى اختفوا مع حراسهم عن أنظارنا. فطقطق التاجر الباكستاني بلسانه وهزّ رأسه قائلاً: «شباب مساكين».

صعد عليّ إلى الباص، وأعلن أن المجاهدين لن يزعجونا، لأن هذا الباص باكستاني. وحالما تحركنا للسير، أشار إلينا أحد رجال العصابات الشباب يضع وردة على رشاشه، بإلحاح عبر النافذة أن نتوقف. وأخيراً رأيتهم. لقد كانوا هنا، أولئك المقاتلون المقدَّسون الذين تتبنَّاهم وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، وأولئك الإرهابيون، وقطاع الطرق، والعناصر المخرِّبة المناوئة للثورة، كما يسميهم كأرمال، والبقايا، كما ينبذهم اللواء السوفياتي بلطافة، وطلاب الإمبريالية، كما يصفهم السيد «زياراد». ولكنهم لم يظهروا كبقايا في نظري؛ فرشاشاتهم جديدة من طراز (AKS 74s) الذي جلبه الروس مؤخراً إلى أفغانستان، وكانوا يرتدون أحزمة ذخيرة جديدة أيضاً.

صار فندق أنتركونتيننتال في كابول مهجوراً. فقد طرد معظم الصحافيين الغربيين أو رحلوا؛ ومنهم «غافين» وطاقمه. وعما قريب، ستنتهي مدة تأشيرتي، وليس هناك أمل في الحصول على أخرى. وفي مكتب مبيعات الفندق، رجتني إحدى السكرتيرات «جينا نوشين» أن أنقل بريدها الشخصي إلى خارج البلاد. وبعد تسعة أشهر في إيرلندا وردتني إشارة مُلْغِزة منها، تشكرني على إرسال بريدها. وأظهر الطابع البريدي على غلاف الرسالة صورة للعمّ الرئيس «طرقي» وهو يبتسم متصفحاً جرائد الصباح. ولكن هناك رسالة أهم منها هرِّبت إلى كابول من الاتحاد السوفياتي بواسطة كاتب شيعي، أوقف بعد قيام ثورة طرقي عام ١٩٧٨، واعتُقد أنه قُتل على أيدي الشرطة السرية الأفغانية. وفي تلك الرسالة التي بعث بها «الملّا» أي الشيخ أو الإمام «واعظ»، والذي استعان بعامل سوفياتي متعاطف، وطالب في جامعة موسكو لينقل رسالة باليد إلى كابول، أخبر الشيخ عائلته أنه مع مئات من الأفغان الآخرين سجناء في بلدة «تولا» السوفياتية، الواقعة على بعد ٢٠٠ كيلومتر جنوبي موسكو. وكان «واعظ» مكرَّماً بين السنَّة والشيعة، نظراً لمعارضته الحكم الشيوعي.

سرت شائعات لأكثر من سنة بأن آلافاً من الأفغان موقوفون في الاتحاد السوفياتي ـ خلافاً للقانون الدولي. فكثير من العائلات التي هاجمت سجن «بوليشارفي» خارج كابول في شهر كانون الثاني/ يناير كانوا يفتشون عن أقاربهم الذين ربما كانوا في الاتحاد السوفياتي طول تلك المدة؛ كما يبدو الأمر الآن. ويتبيّن من رسالة «واعظ» أنه مع غيره من الأفغانيين المسجونين في «تولا»، يشار إليهم بأنهم سجناء الدولة، مع أنه قبض عليهم في أفغانستان. وفي عام ١٩٧٩، قُتل سفير الولايات المتحدة في كابول «أدولف دبز» بواسطة مسلحين طلبوا أولاً في تلك الملابسات إطلاق سراح «واعظ» للمحافظة على حياة السفير. فهل كان السوفيات غير راغبين في اطلاق سراح «واعظ» لئلا يكتشف عدد الأفغان المأسورين لديهم في «تولا».

عرفتُ أن الحكومة الأفغانية تضغط على مَنْ بقي منَّا، نحن الصحافيين، للخروج من البلاد؛ ولكن ربما كان

الباب لا يزال مفتوحاً جزئياً بحيث أنسلّ من شقه(*). قمت برحلة أخيرة إلى جلال أباد مع عليّ، حيث وجدت في فندقي ملتقى اجتماع سرِّي بين ستة ضباط كبار سوفيات مع وزير الداخلية الأفغاني «سعد محمد غولابزوي» وموظفيه المحليين؛ وكلهم يتوقون إلى منع حصول حصار كامل على جلال أباد من قبل المتمردين. وكانت الطريق خطرة جداً إلى درجة استعان عندها الروس بالطائرات المروحية لنقل الروس من كابول. رأيتهم يدخلون فندق «سبينجهار» بحراسة رجال الشرطة الأمنية الذين يعتمرون خوذ الشغب، والذين نصبوا مدافع رشَّاشة تتلقم من حزام الرصاص على طاولات الفندق وحول حدائقه. وكان عدد الجنود السوفيات إذ ذاك ثلاثة آلاف جندي.

وكان تدمير القرى حول جلال أباد جارياً على قدم وساق؛ ومنها قرى «أليسنغ» و«ألينغار» خارج «ميترلام» التي قصفها الروس بالقنابل. ولكن الرحلة إلى مقاطعة «لاجمان» على بعد ٤٠ كيلومتراً، أظهرت أن المتمردين أحرقوا كل مدرسة وكل مكتب حكومي. وقال بعض القرويين أن عدد قتلى الغارات السوفياتية في الأيام الثلاثة الماضية بلغ حوالى خمسين شخصاً بين أمرأة وولد. وقد ردَّد رجل مسنّ كلمة «نابالم»، وهو يشير بيديه نزولاً ليكبح غضبه. وفي إحدى القرى الصغيرة خارج «ميترلام» تجمهر أكثر من ٢٠٠ شخص حول سيارة الأجرة التي كنت فيها، عندما ظنوا أننا روس.

ولم يخلُ المجاهدون من دعابة. فقبل ليلتين وجد سائق شاحنة أفغاني على الطريق الرئيسية الغربية ورقة كتب عليها: «باسم الله، إن هذا اللغم للدبابات». فما كان منه إلَّا أن فجَّره. فتصدى له أحد المتمردين المسلحين يطالبه بدفع ٣٥٠ دولاراً ثمن المتفجرات التي بذَّرها. كما جاء في تقرير مستقى من ثلاثة مصادر مستقلة في جلال أباد أنه جرى تدمير تمثال لبوذا يعود تاريخه إلى الألف الثاني قبل الميلاد، مع أثريات أخرى لا تقدر بثمن في متحف «حدَّة». فما كان معنى ذلك؟ وإذا كانت التقارير صحيحة، فأية ضمانة في العالم تقي تماثيل بوذا العملاقة القائمة في «باميان» والتي يبلغ عمرها ١٥٠٠ سنة من أن تُدَمَّر كذلك؟ وعند عودتي إلى كابول، كان رجال العصابات بالمرصاد على الطريق، وعددهم يبلغ العشرين هذه المرة، ولم تكن هناك ورود مشكوكة في رشَّاشاتهم.

عدت لفترة قصيرة إلى أفغانستان خلال صيف ١٩٨٠، ووصلت إلى كابول حاملاً مضرب تنس بصفتي أحد السائحين، فهل تصدق ذلك؟ ولكن منظمة «الخاد» ألزمتني بشُرطي رافقني إلى فندق «أنتركونتيننتال»، حيث دفعت له أجرة التاكسي حول العاصمة. كان الغبار يشكِّل طبقات من الحرّ فوق كابول، وكان الجنود الروس الآن متأهبين، يرافقون السيارات المدنية في قوافل طويلة مدرَّعة عبر طرقات أفغانستان؛ وكانت قاعدتهم الجوية في «باغرام» تدأب على قصف المجاهدين بالقنابل كلّ ثلاث دقائق. واحتل السوفيات الآن مراكز استشارية عليا في كل وزارات كابول؛ وكانت سياراتهم السوداء من نوع «ليموزين» تتجول في الشوارع الرطبة الحارة ضمن المدينة عند الظهر، وقد أنزلت الستائر على نوافذها الخلفية؛ ويطل من مقاعدها الأمامية رجال بثياب مدنية عادية. هؤلاء

(*) من المفيد أن نلاحظ أن الصحافيين السوفيات واجهوا صعوبة كبيرة في تصوير الواقع الحاصل في المرحلة الأولى من الحرب، إلى درجة اضطرت معها صحف موسكو إلى الاكتفاء بمنتخبات من البرقيات الغربية، بما فيها كتاباتي.

لم يكونوا مفوضي الشرطة الضخام المكتنزين كما يروى عنهم في الأسطورة، بل كان معظمهم رجالاً صغار القامة محترمين بثياب الشغل الغبراء اللامعة، وربطات العنق الرفيعة على خلاف «الموضة»، وشعورهم المزيّتة الكثيفة؛ إنهم رجال مرتبطون بعائلاتهم، وقادمون من جمهورية مستقلة لديها خطط إنمائية خمسية.

كان الروس يلبسون في الصيف الخانق قبّعات عريضة الحواف. ويعرقلون السير بشاحناتهم في شوارع كابول. وقد ولَّد «تدخّلهم المحدود» هجوماً ربيعياً ـ تلك الوسيلة التي يحبها جميع الجنرالات الذين يواجهون عصياناً مسلحاً ـ تطوّر الآن إلى حملة عسكرية على نطاق كامل. وكانت المروحيات المسلحة تقف صفوفاً في مطار كابول. وكانت طائرات «الإيليويشن» ذات المحركات الأربعة المتوجهة إلى طشقند، تدور طول النهار فوق المدينة، وتجر وراءها خطاً دخانياً بينما تميل جانبياً ميلاً حاداً فوق المطار الدولي لتتفادى صواريخ الأرض ـ جو.

وفي المطار، تمكن رؤية وجهي الثورة الأفغانية اللذين يبعدان أحدهما عن الآخر ٨٠٠ متر. ففوق المبنى الرئيس للمطار، يرتفع الترحيب الظافر الذي نصب في كانون الثاني/يناير: «أهلاً بكم إلى نموذج الثورة الجديدة». بحروف طولها متر ونصف متر؛ وقد بهتت ألوانها وتساقطت حروفها. وعبر مهبط الطائرات وعند نهاية المدرج الرئيس للمطار، ينتصب الرمز الآخر لنزاع الثورة الأفغانية: صاروخ سوفياتي من طراز (SA-2)، مع رأس حربي يزن ١٣٠ كيلوغراماً، ومدى يصل إلى ٥٠ كيلومتراً، بارتفاع ٥٠ ٠٠٠ قدم. كان هذا السلاح هو نفسه الذي كان له تأثير مدمِّر على قاذفات القنابل الأميركية (B-52) فوق هانوي أثناء حرب فيتنام. وفيتنام كانت الكلمة التي تستخدمها أعداد أكبر فأكبر من الأفغان لوصف النزاع عندهم. وكان الرئيس كارتر والسيدة تاتشر يحثّان العالم إذ ذاك على مقاطعة الألعاب الأولمبية في موسكو.

وكان تلاميذ المدارس في كابول يرفضون الذهاب إلى المدرسة ومتابعة دراستهم، لأن مئات منهم ألمَّ بهم المرض؛ فقد وضع المتمردون الكبريت في الماء الذي تتزود به المدارس، بحسب قول الحكومة. وقد نُقل ألف ولد إلى مستشفى «علي أباد» لهذا السبب في أسبوع واحد. وفي الليل، كانت المعارك تحتدم حول المدينة، عندما يهاجم المسلحون الدوريات الروسية، وإذ يهاجم حزب «بارشام» وحزب «خلق» أحدهما الآخر. وقد أطلقت النار على طبيب عضو في حزب «بارشام» الذي يتزعمه الرئيس كارمال، بينما كان يعود مريضاً في «بند غازي» ـ ضمن حدود المدينة ـ ولم تستطع الشرطة اكتشاف من قتله: المجاهدون، أم وكلاء «خلق»؟ وكان أحد رجال الشرطة الذي عيِّن لمرافقتي من رجال «خلق». وقد صرّح في خلوة المصعد غاضباً: «إن الحالة سيئة هنا؛ وقد سئمت منها. نحن نريد المساعدة السوفياتية ـ إذ إننا نحتاج إليها. ولكن، إذا بقي عندنا أيّ كان أكثر مما نريد ـ بما في ذلك الاتحاد السوفياتي ـ فإننا سنطلق النار عليهم».

وبتاريخ ١٤ حزيران/يونيو أمر كارمال بإعدام ١٣ شخصاً من موظفي «خلق» السابقين بتهمة «تدبير مؤامرات ضد الدولة». وكان أكثرهم موظفين ثانويين ـ مثل: «صادق علم يار» وزير التخطيط السابق، و«صائب جان

سهراي» المسؤول سابقاً عن شؤون الحدود ـ بينما لم يُمسّ نائب رئيس الوزراء «أسد الله سواري» الذي كان رئيس الجهاز السرِّي تحت حكم «طرقي». وقد ورد اسمه في رسالة الموت الليلية التي كانت تلقى ليلاً في المجمَّعات الدبلوماسية منذ أربعة أشهر. كنت محظوظاً لأني اختلست ٤٨ ساعة في كابول، مع أني كنت تحت مراقبة الشرطة السرية. وعندما أُرجعت إلى المطار لأسافر، كانت هناك طائرة «أيروفلوت» نفاثة واقفة في ساحة المطار، وجسمها يؤيد سخرية السيدة تاتشر من السوفيات».

كانت الطائرة تحمل بفخر على جانبيها شعار «أيروفلوت» باللغة الإنكليزية: «ناقلة رسمية للألعاب الأولمبية». ولكن لم يلبث أن خرج منها جنود سوفيات بلباس الميدان، كانوا شباباً ـ وبعضهم شُقْراً ـ يحملون رشاشاتهم تحت الشمس اللاهبة، وينزلون إلى أرض المطار المزفَّتة. كانوا منشرحين سعيدين ـ ورفع أحدهم ذراعيه نحو الشمس، وقال شيئاً أضحك رفاقه ـ لكن حظوظهم في العودة بالانشراح ذاته تضاءلت في الأسابيع الأخيرة.

لقد أُدخل إلى مستشفى كابول العسكري أكثر من ٦٠٠ من رجال الخدمة العسكرية السوفياتية أصيبوا بجراح بالغة، كما أدخل ٤٠٠ آخرون إلى العيادات السوفياتية قرب محطة الباص في «خاي خانة»؛ ومات منهم ٢٠٠ شخص ـ مع العلم أن هذا العدد يقتصر على الذين ماتوا بسبب جروحهم، ولا يشمل أولئك الذين ماتوا في ميدان المعارك. وقد حُمِّل الأموات في توابيت خشب مربعة على متن طائرات «أنطونوف ـ ١٢»، دون أن يعلم أحد بما تحويه تلك الصناديق، حتى انبرى بعض الجنود لتحية أحدها؛ وحتى أن الشرطي السرِّي الموفد معي من «الخاد»، والذي لازمني طول إقامتي، أقرّ بأن الجيش السوفياتي كان يعاني من مشكلة كبرى.

وإذا عدت الآن بالقارىء إلى شهر شباط/فبراير البارد عام ١٩٨٠، فإنني أصف اليومين الأخيرين من إقامتي في أفغانستان قبل أن ينتهي أمد تأشيرة السفر بأنهما يومان ثمينان من الحرية المستوحدة. قررت إذ ذاك أن أكون جشعاً، وأجرّب من جديد ركب الباص لمسافة طويلة إلى مدينة قيل لي عن سكانها في كابول إنهم عاودوا اكتشاف إيمانهم كجماعة في مجابهة غزاة بلادهم: إنها مدينة «قندهار».

ركبت الباص قبل الفجر، من المحطة ذاتها التي انطلقت منها في المرة الفائتة في رحلتي العقيمة إلى «مزار»، لابساً الطاقية الأفغانية نفسها، ومحدودباً تحت الوشاح الأسمر ذاته. كان الركاب عائلات فيها رجال ونساء يجلسون معاً. وحالما أعلنت عن جنسيتي، انهالت عليّ الأطعمة من جبن، وتفاح، وبرتقال، وخبز «نان» الذي يستعمله الأفغان كحاوٍ للطعام. وعندما صرَّحت بلطف عن خوفي من أن يكون هناك أناس «غير طيبين» في الباص ـ أكّدوا لي أني سأكون بأمان. وهكذا أعطاني هؤلاء الركاب، مع معرفتهم الضئيلة باللغة الإنكليزية، حمايتهم على طول الرحلة البالغ ١٤ ساعة عبر المناظر الطبيعية المتجمدة الخلابة، إلى قندهار.

لقد كانت ملحمة لبلاد تخوض الحرب. مرَّت حافلتنا بحطام ما لا يحصى من المركبات الملقاة على جانب الطريق. وعلى بعد ٦٥ كيلومتراً من «غازني»، البلدة التي هربت منها مع «غافين» وطاقمه الشهر الماضي ـ وكأنها

كانت حياة أخرى ـ تعرّضت قافلة مدنية من الباصات والشاحنات لكمين، مباشرة قبل وصولنا. وكانت تلك المركبات لا تزال تستعر فيها النار، وترسل في السماء أعمدة من الدخان الأسود، متسامقة فوق السهول المغطّاة بالثلج. وبقرب الحطام أكوام صغيرة متفحمة؛ وكان ذلك كل ما بقي من المسافرين. مرّت بنا قوافل سوفياتية في الاتجاه المعاكس، وفي مؤخرة كل مركبة منها، يقف جندي روسي شاهراً مسدّسه. لقد كان السوفيات إذ ذاك مهتمين بتأمين سلامتهم أكثر مما يقلقهم الحفاظ على سلامة المدنيين، الذين جاؤوا لإنقاذهم من قطّاع الطرق.

وفي إحدى القرى، صعد إلى باصنا ثلاثة جنود أفغان، بمن فيهم أحد الضباط، وحاولوا القبض على ساعي بريد هرب من الجيش. فجرت معركة وحشية بجمع الكف بين الجنود والمسافرين حتى انبرى مجندان إلزاميان كانا يدخنان الحشيشة في المقاعد الخلفية للسيارة ورفسا الضابط فعلاً خارج المركبة. يا لها من معنويات في جيش كارمال. وفي قرية أخرى استهجن المسافرون بالهسهسة لمرأى جنود طاجيك سوفيات كانوا يقفون قرب شريط شائك لمستودع عسكري. وربّت أحد المسافرين ورائي على كتفي بحدّة قائلاً: أنظر، أنظر! مشيراً إلى جبينه. لم أفهم أولاً، ثم وضع يده على رأسه، كما لو كان هناك قبعة. قبعة نعم، كان هناك شيء مفتقد من قبعات الفرو الغبراء التي يلبسها جنود الطاجيك السوفيات. لقد أزالوا النجمة الحمراء عن قبعاتهم. وقفوا ينظرون إلينا بوجوههم الأكثر سمرة من وجوه رفاقهم الروس، وهم مجرَّدون من شعار الأخوة الشيوعية الذي نشأوا في ظله.

كان واجباً عليّ أن أفهم فوراً. إذا كان الجنود السوفيات المسلمون في أفغانستان قد نزعوا عن قبعاتهم شعار بلادهم ذاته، ذلك الشعار الذي ارتداه آباؤهم بفخر في الحرب الوطنية الكبرى بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥، فذلك يعني أن أرواحهم قد تآكلت بفعل سرطان أفغانستان. لقد أُرسلوا ليحاربوا إخوانهم في الدين، فقرروا أن لا يحاربوهم. وكان ذلك في أفغانستان أفضل نذير بانهيار الإمبراطورية الوشيك. لكن رحلتي الشاقّة عبر بلاد الثلج كانت طويلة، والأخطار المحدقة بي كبيرة، وقد أخذ الإنهاك يسحقني، فكتبت في دفتري أن الجنود نزعوا الشارات عن قبعاتهم لسبب من الأسباب. وبعد مسيرة عدة أميال، لمحنا جندياً أفغانياً في الصحراء يطلق النار في الغَسَق من رشيشه على عدو لا يقدر أن يراه. وعندما توقف باصنا عند مقهى «شاي خانة» في الغسق المتجمد، جاءنا رجل من القافلة المحروقة، وأخبرنا أنه من المسافرين الثلاثمئة الذين كانوا في الباصات، قُبض على خمسين بواسطة مئة متمرّد مسلّح، وأُخبروا ـ علناً ـ بأنهم قد يُعدمون، لأنهم من رجال الحزب. وهكذا كان كل مشهد يتكلم عن نفسه، وفهم المسافرون المرعوبون بوضوح وجود العنف البارز الصارخ وضعف الحكومة.

وكان الوقت ليلاً عندما دخلنا قندهار، العاصمة القديمة لأفغانستان. وسار باصنا عبر المزار الذي يقال إن فيه عباءة النبي محمّد (ص)، ودار حول مدفع أثري من القرن التاسع عشر، كان لجيش اللواء «روبرت»، في الحرب الأفغانية الثانية. صرت قذراً وتعباً، فدخلت فندقاً رثّاً في المدينة القديمة، وهو مكان ينتشر فيه دخان السجائر، وينضح بالعَرَق، ويطهى فيه اللحم أكثر من اللزوم. كانت غرفة نومي صغيرة، وشراشفها ملطخة، وسجادتها مبرقعة بحروق من السجائر. ولكن كان فيها بابان تعلوهما قشرة من الصدأ يقودان إلى شرفة صغيرة، أستطيع أن أرى منها القمر والنجوم التي تتلألأ عبر السماء في الشتاء.

كنت مستلقياً على فراشي عندما سمعت الصوت: «الله أكبر». كان صوتاً رفيعاً مُدَوزناً شاكياً. «الله أكبر، الله أكبر». نظرت إلى ساعتي فكانت الساعة التاسعة؛ ليس هذا وقت الصلاة المعهود. لقد بدأ منع التجول. «الله أكبر». جاء النشيد الآن من السطح المجاور، على بعد أقل من ٢٠ متراً من غرفتي. وكان صوتاً متنقلاً من طبقة عادية إلى طبقة عليا، أكثر مما هو تضرُّع للعزة الإلهية. فتحت باب شرفتي. كانت الصرخة تنتقل وتتردد عبر الهواء؛ من عشر مرات «الله أكبر» إلى مئة مرة، غير منسّقة، ومتراكبة، قائمة على الكلمات ذاتها، بطبقة عالية وبطبقة الصادح، وبسوبرانو الأولاد؛ إنه جيش من الأصوات يصيح من على السطوح في قندهار. ثم تضخّم الصوت فحوى أكثر من ألف صوت؛ إنها جوقة ملأت أجواء السماوات، وطفت تحت القمر والنجوم، إنها موسيقى النجوم والكواكب.

رأيت عائلة مؤلفة من الزوج والزوجة ومجموعة من الأولاد كلهم ينشدون؛ ولكن أصواتهم ضاعت في موجة الأصوات التي غمرت المدينة كلها. هذه الظاهرة غير العادية لم تكن مجرد احتجاج، بل تفجُّعاً على فقدان الحرية. عندما دخل النبي مكة سنة ٦٣٠ ميلادية، تقدم من الحجر الأسود في الكعبة ومسّه بعصاه وصاح بصوت قوي ذلك الابتهال الإسلامي الأسمى: «الله أكبر». فردَّد بعده حوالى عشرة آلاف مؤمن الكلمات ذاتها، التي استقاها أعضاء قريش عشيرة النبي، الذين تجمعوا على السطوح والشرفات في مكة. والآن تُنشد تلك الكلمات المقدَّسة ذاتها بعشرة آلاف صوت آخر، من سطوح وشرفات قندهار، هذه المرة. وقد يؤوِّل شخص غربي ـ أو روسي ـ هذا الأمر بأنه شبه تظاهرة سياسية، أو كحَدَث رمزي. ولكن الحقيقة هي أن جوقات قندهار جاءت تأكيداً لا يقاوم للإيمان الديني، وتكراراً مباشراً ومقصوداً للحظات مقدَّسة في الإسلام. وفي آخر سنوات حياة الرسول، دخل الكعبة الجديدة المطهَّرة، وكبّر سبع مرات «الله أكبر». وفي قندهار كانت الأصوات يائسة، وإنما جدّ قوية فاتنة آسرة، لا تكاد تنتهي، تصمّ الآذان، لشعب صامت عاد فوجد وحدته في الله تعالى. إنها قوة لا يمكن إيقافها، وتأكيد للهوية الدينية لا يستطيع مرزبان أو كرملين أن يخمدها.

ولكن احتجاجات قندهار السياسية المتمكّنة كان لها تأثير بسيط. فأصحاب الحوانيت أقفلوا متاجرهم لمدة أسبوعين؛ ولكن فرقة من الجنود الأفغان ضغطت بالقوة لإعادة فتحها، وهددت بسحق المتاجر التي لا تمتثل للأوامر. وكان الجنود الأفغان يدخنون في شاحناتهم قرب مسجد «كالكي شريف». لكن مجموعات المتمردين الخمس الناشطة جنوبي قندهار توحَّدت، وقال «الملالي» أي الشيوخ ـ الذين يكونون من نواحٍ أخرى مطيعين ـ لسكان قندهار المسلمين بأن ينتبهوا للإحداث في إشارة ضمنية غير مسبوقة إلى الغزو السوفياتي.

وخلال الأيام القليلة المنصرمة، ظهرت على جدران السوق التي أعيد فتحها، لافتات بسيطة الخط، تحذر إحداها من أن «الناس نائمون»، وتقول أخرى: «لماذا لا تستيقظون؟»، وثالثة تتوجه إلى الجنود السوفيات: «يا أبناء لينين ـ ماذا تفعلون هنا؟». ولكن اللافتة الموجهة إلى الروس كانت مكتوبة بلغة «البوشتو» التي لا يعرفها الجنود الروس ـ وكان أهل قندهار قد شهدوا، قبل خمسة أيام، من تلك الشرفات والسطوح ذاتها قدوم قوافل

الدبابات والمدرَّعات والشاحنات ومرورها عبر مدينتهم. ظهرت الدبابة الأولى حوالى الساعة التاسعة مساء، ولم يغادر ذيل هذه القافلة قندهار إلّا عند الرابعة صباحاً. وانتهى معظم هذه القافلة على طريق «سبنبولداك» عند الحدود الباكستانية.

وفي قندهار، تضاعفت أسعار الطعام، وفتك التضخم النقدي بالأجور. فأسعار اللحم والأرز زادت بنسبة ٨٠٪، والبيض بنسبة ١٠٠٪. وادَّعى أحد أصحاب الحوانيت الذي يلبس كنزة وسترة مع العمامة والسروال الأفغاني الفضفاض، بأن حكومة كارمال لن تصمد، إذا لم تلجم أسعار المأكولات، وقال: «تقول الحكومة كل يوم إن أسعار الأطعمة تنخفض، وإن الأمور تتحسن بسبب التعاون مع الاتحاد السوفياتي. ولكن ذلك ليس صحيحاً». وخلص الرجل إلى الشتائم: «هل تعلم أن الحكومة عاجزة عن السيطرة على الطرقات، وتتمسك بالمدن فحسب؟ اللعنة عليهم!».

هذا ما كنت أعرفه. وخلال رحلة عودتي إلى كابول، التي قطعت فيها ٤٥٠ كيلومتراً عبر برك الثلج والصحارى التي يغزوها المتمردون، تأمَّلت في المستقبل الرهيب الذي ستضطر أفغانستان إلى تحمّله. وقد رأيت من نوافذ الباص قرية تشتعل بكاملها ويتصاعد لهيب الحريق ذهبياً على ثلج الجبال، على بعد ثمانية كيلومترات؛ بينما كانت الطرقات أحياناً تحت قبضة مسلحين ـ بعضهم عرب يعتمرون الكوفيَّات ـ أو تتجول عليها شاحنات ملأى بالجنود الأفغان القابعين فيها بانكسار. وصار الجنود الروس الآن يتوزعون على الطرق الفرعية، وينشرون جيشهم عبر السهول، ويدخلون دخولاً استبدادياً إلى القرى الصغيرة.

وعند حوافّ مفارق الطرقات كانت ترابط دوريّات سوفياتية، يظهر جنودها من مركباتهم المدرَّعة، ويلاحظوننا دون اكتراث؛ إذ يعتبرون رسالتهم مسألة طبيعية. لقد أصبحوا الآن في هذا الموقع الذي يشكل جزءاً من حياتهم، وكأن الأرض لهم على خطرها؛ لكنهم يقومون بواجبهم؛ مع أن الأمل مقطوع بنجاح مهمتهم الوهمية. لقد قال لي أحد رجال السوق الأفغان فيما بعد في كابول: «حتى لو قتلوا منّا مليوناً، فإن مليوناً آخر مستعد للموت. لن نسمح لأحد بأن يبقى في بلادنا». وكان ذلك صحيحاً.

ولم تمضِ أيام على مغادرتي كابول، حتى قمع الجنود الأفغان ورجال الأمن بوحشية تظاهرة شعبية جماهيرية قامت ضد الغزو السوفياتي، وأطلقوا النار على مئات من المحتجين، بمن فيهم نساء وأولاد، في شوارع العاصمة. وسيقتل أكثر من مليون أفغاني في الحرب الدائرة ضد الروس خلال الأعوام التسعة القادمة، وسيجرح أربعة ملايين وسيخرج من البلاد ستة ملايين نسمة كلاجئين ـ حتى قبل أن تدخل الحرب الأفغانية مأساتها الأخرى في النزاع المدني بين المجاهدين، وحكم طالبان والقصف الأميركي التالي بالقنابل. ولن نكتشف معنى تلك المعاناة إلَّا فيما بعد. وكانت الأفعل في القتل والفتك المقادير الهائلة من الألغام التي زرعها السوفيات عبر الجبال والحقول. وستكلف الحرب الروس ما يقدر بخمسة وثلاثين مليار دولار أميركي ـ فقد حصلت خسارة مليونين ونصف مليون دولار من قيمة الطائرات، خلال عام واحد فقط ـ وادَّعى الأميركيون أنهم صرفوا عشرة

مليارات دولار على هذا النزاع. وأقرّت العربية السعودية عام ١٩٨٦ بأنها صرفت ٥٢٥ مليون دولار أميركي خلال عامين فقط على أحزاب المعارضة في أفغانستان وعلى الداعمين العرب. وقالت المصادر الباكستانية فيما بعد أنه كان هناك ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف من المقاتلين العرب الفاعلين في أفغانستان في أي وقت من الأوقات خلال الحرب، وأن ٢٥ ألفاً منهم خدموا في القتال. ولكن في النهاية، عندما أحرق الدب الروسي مخالبه، وصار الاتحاد السوفياتي على طريق الضياع، تراجع مقدّمو العون الأميركيون ومن ساندهم من العرب والباكستانيين، وهجروا أفغانستان، وتركوها لمصيرها؛ كما تجاهلوا الآلاف من العرب الذين حاربوا هناك. لم يتجرّأ أيّ زعيم عربي أن يحارب في سبيل إخوانه المسلمين هناك، حتى أن ياسر عرفات الذي عرف معنى طرد الناس من بلادهم، لم ينتقد أبداً جيش الاحتلال الذي عاث خراباً في الأراضي المسلمة الواقعة بين «آمو داريا» وخط «دوراند». ولم يمثّل العرب سوى بن لادن ورجاله فحسب.

غادرت كابول بطائرة باكستانية ذات مراوح، كادت تسقط في الجيوب الهوائية فوق جبال «هندوكوش» حتى حطّت في مطار «بشاور» الحار كالفرن؛ ذلك المطار الذي انطلق منه «فرانسيس غاري باور» منذ عشرين سنة في طائرة التجسّس (U-2) الهالكة فوق الاتحاد السوفياتي. كنت أشعر بالخفّة، ويغمرني الشعور بأني شهدت التاريخ، وبقيت حياً؛ وكأنني تلميذ مدرسة قليل النضج. ولم يرد أيّ شيء من هذا القبيل في شريط «هيتشكوك» عن «المراسل الأجنبي»(*). وفي فندقي، تلقيت رسالة من رئيس تحرير الأخبار الأجنبية «إيفان بارنز» تنبئني بأني فزتُ بجائزة لتقاريري التي كتبتُها عن الثورة الإيرانية؛ ويقول فيها: «إشرب نخب ذلك على حسابي الليلة...». مثلما أعلن رئيس التحرير حصولي على علاوة إضافية مقدارها ألف دولار. كما وردتني رسالة من والدي الجندي المعمّر يهنئني فيها ويقول إنه لم ينم عندما سمع الخبر.

وفي اليوم التالي، ركبت ببراءة الطفل القطار البخاري، عائداً إلى ممر خيبر لألقي آخر نظرة على أفغانستان قبل أن أعود إلى بيروت. كان سائق القطار «محمد سليم خان» رجلاً رشيقاً من «الباثان» ذا شاربين كبيرين، يضع طاقية على رأسه، وله من الخبرة ١٨ سنة على خطوط الدولة الباكستانية. قام محمد خان بمسح مدخل الموقد بخرقة مزيّتة لمحركه البالغ من العمر ٦٠ سنة، واستعمل بخبرته المِشْحمة ـ «ويكفيلد ـ EC4» المصنوعة في لندن ـ وانسل بقاطرته ذات الرقم ٢٥١١ من محطة «بشاور» الحارة الحافلة بالدخان. ولا شك في أن كل تلميذ مدرسة يكون مسروراً لركوبه في هذا القطار بقاطرته (SGS-Class No. 2511)، ولقد سررت بذلك فعلاً.

كان لهذه القاطرة دواليب ومدخنة مع غطاء لها مثل إبريق الشاي، ومرجل صدىء يبقى دائماً قيد التصليح،

(*) ولكن «هنتلي هافرستوك» بطل رواية «هيتشكوك» يذهب ليشاهد الحرب بأمّ عينيه. وفيما بعد، عبّر لي «تشارلس دوغلاس ـ هوم» عن مخاوف رئيس التحرير بصدد القصة التي لا تروى، بقوله في رسالته: «ما دمنا الآن نفتقد أية تغطية منتظمة للحرب في أفغانستان، سأكون ممتناً لك، إذا استطعت بذل جهدك كي لا نخسر أية مناسبة، نستطيع فيها أن نقدم لقرائنا تقارير موثوقة عمّا يجري في تلك البلاد... يجب علينا أن لا ندع أحداث أفغانستان تندثر من جريدتنا، لأنه ليس لدينا مراسل هناك».

ومجموعة من الأربطة تنضح بالبخار، ولها «دوّاسة» ترشح بالزيت، ودخان برائحة الشاي المخمَّر. وكانت ضجتها تشبه الرعد، وقد جعلتني أتمسك بتجهيزات «الدوّاسة» التي يطأها السيد خان.

وقد دفعت وزارة الدفاع في إسلام أباد أكلاف صيانة هذا الخط البالغ طوله ٦٠ كيلومتراً ـ فقد يحتاجون إلى استعماله يوماً ما، لاستقدام جيشهم هم إلى «لاندي كوتال»، إذا تجاوزت القوافل الروسية الحدود ـ وسرنا ندبّ في صعودنا المنحدر الشديد الانحدار بنسبة واحد إلى ثلاثة، بل الأكثر انحداراً في العالم، يحاصرنا الدخان في أكثر من ثلاثين نفق تقع على طريقنا، مع صفَّارة حادّة تنفِّر الثيران، والمعز، والغنم، والأولاد، والرجال المسنِّين عن قضبان السكة الحديدية. وعندما وصلنا إلى علو ٣٠٠٠ قدم، اجتازت القاطرة منعطفاً حاداً عند سلسلة من الصخور العالية وفوق نهر هادر، فتقلقلنا إلى درجة جعلتني مع السيد خان، نتمسك بالأبواب الحديدية حتى لا نُقذف إلى الخارج. وهكذا وصلنا إلى «لاندي كوتال» من قلعة «جمرود»، وقاطرتنا تلفظ دخانها في النسيم الذي يلفّ هذه الأعالي.

وعندما قفزت من موطىء القدم في القطار، وشققت سبيلي عبر حجارة الطريق العام، ألفيت نفسي أمام جبال أفغانستان الشاحبة الزرقة، التي تومض إلى الشمال وإلى الغرب، الغارقة في أشعة الشمس، الباردة، الغاضبة، المألوفة، والخطرة. نظرت إليها الآن بمودة ومحبة؛ كما ينظر المرء إلى أرض خطرة، خرج منها حياً. هناك مع «غافين» ورجاله، كنا على قمّة العالم. ولم أكن أتصوَّر ماذا أنشأنا في أفغانستان، ولا ماذا يخبّىء القدر لهذه البلاد خلال السنوات العشرين القادمة، ولا الألم الذي ستسبِّبه لي.

حائكو السجّاد

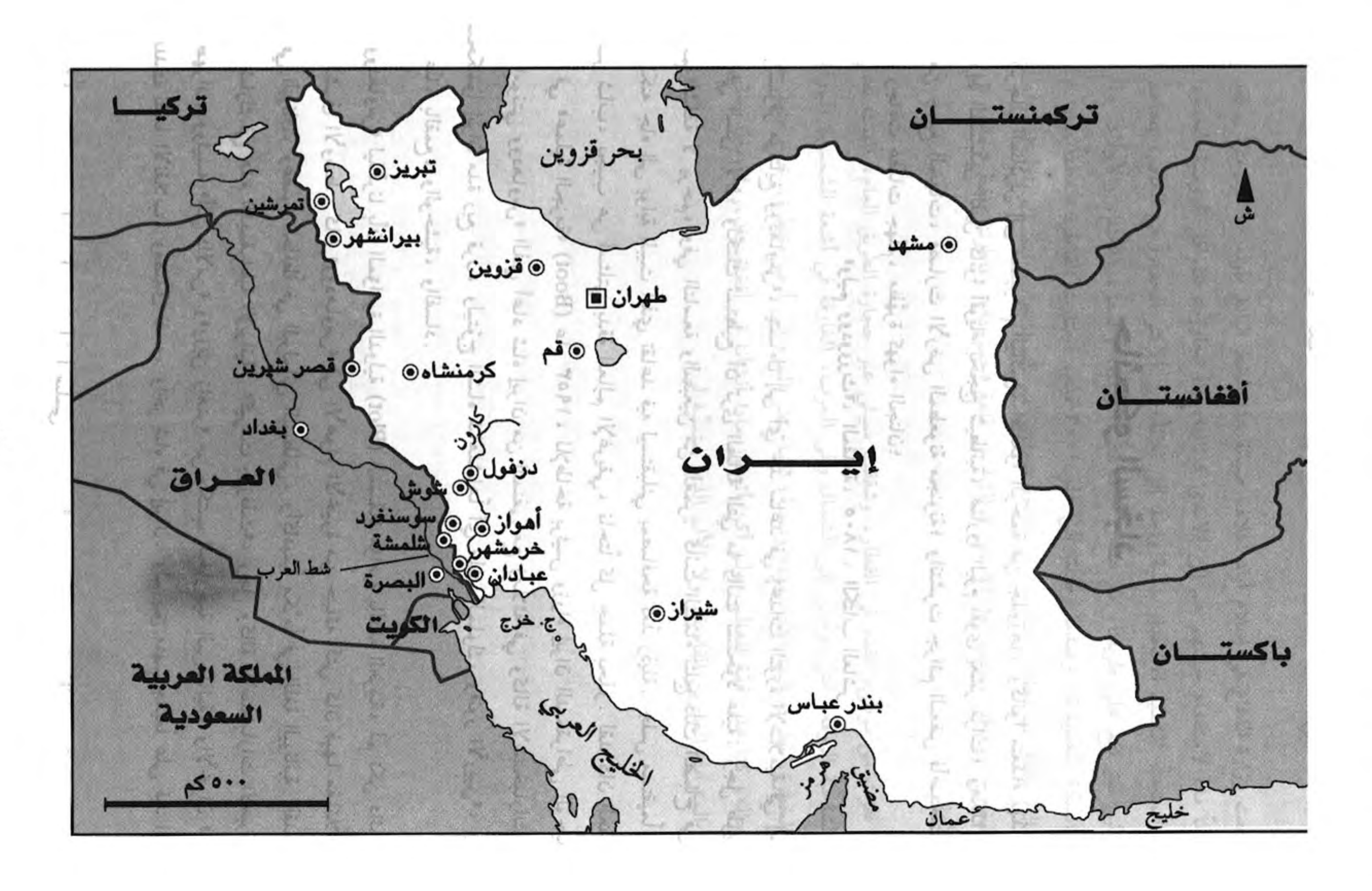
... إنّ الرجال السائرين إلى مصيرهم اليائس، اقتلعوا الرحمة من جذورها، وكانوا سعداء بهذا العدوّ الجديد. وإنّ المستبدّين الذين كانوا أقوياء بحجج شيطانية، صاروا اليوم أقوى بعشر مرّات؛ وهكذا اكتنفها الخصوم من جميع الجهات، فصارت الأرض المطعونة مجنونة؛ وانتشرت جرائم البعض فأصبحت جنوناً للعديدين، وجاءت عضّات جهنّم، مطهَّرة كهواء الجنان؛

«وليم وودوورث»، المقدّمة، ١٨٠٥، الكتاب العاشر

كان «كريستوفر مونتايغ وودهاوس»، يتساءل إلى أيّ حدٍّ ساعد في إحداث الثورة الإسلامية في إيران. صار رجلاً متقدّماً في السنّ الآن؛ ولكنك تستطيع أن ترى الطاقة التي ما زالت تستحوذ عليه: رجل طويل جليل، شجاع وعديم الشفقة لا يرحم، وفي التاسعة والسبعين من العمر. كانت السماء تثلج ذلك الصباح في أكسفورد عام ١٩٩٧، لكنه جاء إلى بوابة البيت الذي تقاعد فيه ليستقبلني بمصافحة تعدّ رذيلة. جلس مستقيماً صارماً في مكتبته بتفكير شاب، يجيب عن أسئلتي بدقة العالِم الإغريقي، ناحتاً كل جملة بحذر. لقد كان العميل السرّي الأعلى مقاماً في «عملية الجزمة» (Boot) عام ١٩٥٣، للإطاحة برئيس وزراء إيران الديمقراطي الوحيد: محمد مصدّق. إنه «مونتي وودهاوس» الذي أعاد شاه إيران من المنفى مع زملائه في وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) ليحكموا إيران مدة ربع قرن، وليتوّج الشاه شاهنشاهاً أي ملك الملوك، و«نور الآريين»، ويستبدّ في الحكم نيابةً عنّا، بالقمع، والوحشية، والفساد.

جاء «وودهاوس» ليذكّرنا بأن المؤامرة الدولية (Plot) المسمّاة مؤامرة باللغة العربية، لم تكن دائماً من نسج الخيال في الشرق الأوسط. كان «وودهاوس» في الأعوام الأخيرة من حياته التي كان فيها مقاتلاً في حرب العصابات في اليونان، وعضواً محافظاً في البرلماني البريطاني، وأكاديمياً مكرَّماً في اللغة اليونانية. لقد مات حتى الآن كل من شارك في هدم الديمقراطية الإيرانية: «كيرمت روزفلت»، رجل وكالة الاستخبارات الأميركية الأعلى مقاماً في طهران، ورئيسه «ألن دالاس» و«روبن زاهنر» من مكتب الخارجية البريطانية، والأخوان «الرشيديان» الملغزان اللذان نظما الانقلاب، ومصدّق نفسه، وآخر شاه في إيران. ولم يبق منهم جميعاً على قيد الحياة سوى «مونتي».

لقد تعارفنا منذ تسع سنوات، أي منذ أن أرسلتني جريدة «التايمز» للتحقيق في التاريخ الحربي السرّي لأمين


تركيا
تركمنستان
أفغانستان
باكستان
إيران
العراق
المملكة العربية السعودية
الكويت
بحر قزوين
الخليج العربي
خليج عمان
مضيق هرمز
ش
تبريز
تمرشين
بيرانشهر
قزوين
طهران
قم
مشهد
كرمنشاه
قصر شيرين
بغداد
كارون
دزفول
شوش
أهواز
سوسنغرد
شلمشة
خرمشهر
عبادان
البصرة
شط العرب
ج. خرج
شيراز
بندر عباس
٥٠٠ كم

عام الأمم المتحدة الأسبق «فرماخت أوبرلوتنانت كورت فالدهايم، في البوسنة(*). لقد لاحق «وود هاوس» مع العالِم البريطاني اللامع «جيرالد فلمنغ» ضابط المخابرات النمساوي السابق في الجيش الألماني باستمرار دون كلل أو ملل لأسباب شخصية وأخلاقية على السواء.

إن حرف (W) الذي يبدأ به اسم «والدهايم ـ فالدهايم» ظهر تحت خلاصة استجواب أحد ضباط «وودهاوس» التنفيذيين الذين كانوا أعضاء في العمليات الخاصة، ذلك الضابط الذي قُبض عليه في يوغوسلافيا وأُعدم فيما بعد بواسطة «الغستابو». كان «وودهاوس» رجلاً يعيش في الظل بادىء ذي بدء ـ أثناء حرب البلقان وفي طهران ـ ثم صار عضواً في البرلمان. وأردتُ أن أعرف منه، قبل أن يموت، لماذا قام الغرب بهذه الحرب ممثلاً ببريطانيا والولايات المتحدة الأميركية ـ لماذا اخترنا أن ندمِّر ديمقراطية إيران العلمانية الوحيدة.

نظر «وودهاوس» إليّ نظرات ثابتة خارقة. وقال: «قيل لي في بعض الأحيان أنني كنت مسؤولاً عن فتح الأبواب لآية الله الخميني والآخرين. ولكن من الجدير بالملاحظة أنه مرّ ربع قرن بين «عملية الجزمة» وسقوط الشاه. وفي النهاية برز الخميني فوق الجميع ـ ولكن بعد سنين. وأفترض أنه كان بالإمكان أن نحسن استثمار الوقت الذي مضى». دُهشت، فالانقلاب على مصدّق، وعودة الشاه، كان عملية وقف وتأخير للتاريخ. وكان هناك أيضاً مسألة بسيطة أخرى، الشركة الإنكليزية ـ الإيرانية للنفط، التي صارت فيما بعد شركة النفط البريطانية ـ التي أمَّمها مصدّق. وكان بإمكان المرء أن يستنتج من الطريقة التي تكلم بها «وودهاوس»، والإلحاح في حركات يديه، أن هذا الأمر كان من أكثر اللحظات إثارة في حياته. كانت عودة الشاب محمد رضا شاه بهلوي الهدف الأسمى. كلّفت مليونين من الإسترلينيات، وحمولة طائرة من الأسلحة، وربما حياة خمسة آلاف شخص. وبعد ٢٥ سنة تحوّل كل ذلك إلى غبار.

سمّى الأميركيون مؤامرتهم «عملية آجاكس»، التي لا بد أنها كانت جذابة لما هو أكاديمي في «وودهاوس»، حتى لو لم تكن أروقته الكلاسيكية مدعاة للنجاح، فآجاكس جاء بعد أخيل في الشجاعة؛ لكنه قتل نفسه في نوبة جنون، ذلك المصير الذي كان الأميركيون يريدونه لمصدّق. وعلى كل حال، كان ذلك بعيداً عما حدث فيما بعد

(*) أثناء ولايته كأمين عام للأمم المتحدة، أخفى «فالدهايم» بنجاح دوره في مجموعة (E) من «جيش الصاعقة النازي» في يوغوسلافيا، عندما اشترك الجنود الألمان وأعوانهم الكرواتيون في القتل الجماعي للصرب والمسلمين. ومع أنه ليس هناك إثبات على أنه شارك في هذه المجازر، فإن إنكاره معرفته بجرائم الحرب التي كانت تحصل في البوسنة عند اشتداد المعارك بين النازيين وأنصار «تيتو» عام ١٩٤٣، يتنافى مع استقصاءاتي التي قمت بها في المنطقة. وعندما زرت بلدة «بنجا لوكا» في البوسنة، اكتشفت أن أحد مكاتب المخابرات التي كانت تابعة لفالدهايم كانت واقعة بجوار أرض الإعدام أثناء الحرب، وعلى بعد لا يزيد على ٣٥ كيلومتراً عن مخيم الإبادة في «جازينوفاك» ـ الذي قال فالدهايم أنه لا يعرف شيئاً عنه. وقد حاضر الأمين العام الدائم المتحدة في الزعماء السياسيين في الشرق الأوسط بموضوع حرب العصابات، دون أن يبوح بأنه كان خبيراً فيه. وما زلت أتذكر بشأن مغادرتي البوسنة ذلك الصيف، أني خابرت «إيفان بارنز» في جريدة «التايمز» لأنبئه أني رأيت متشابهات في يوغوسلافيا الحديثة مع لبنان قبل بدء النزاع عام ١٩٧٥، وأني توقعت نشوب حرب أهلية في البوسنة في المستقبل القريب. فضحك «بارنز» من سذاجتي، وقال: «سنقدم تقريراً عنها عندما تحدث». وفي عام ١٩٩٢، كنت أراسل جريدة «الإندبندنت» بخصوص الحرب في البوسنة.

من حملات تطمح إلى «تغيير النظام» في الشرق الأوسط، وما قام به بعض المحافظين الجدد في «البنتاغون» عام ٢٠٠٣ من مراجعة محفوظات بدايات الخمسينيّات لقلب زعماء الشرق الأوسط قبل الانصراف إلى «عملية حرية العراق». ومن ثمَّ، فإنّ عملية «الجزمة ـ آجاكس» وإن كانت بلا شك متعلقة بالنفط ـ لم يكن المقصود منها تغيير خارطة الشرق الأوسط، ناهيك بإدخال «الديمقراطية» إلى إيران ـ فالديمقراطية بشكلها الشعبي وبصورة مصدّق الواهن إلى حدٍّ ما، باتت الأمر الوحيد الذي لم يكن ضمن اهتمام واشنطن ولندن.

لم يجتذب ذلك المشروع الرئيس «ترومان»؛ ولكن عندما جاء «أيزنهاور» إلى البيت الأبيض عام ١٩٥٣، خافت أميركا من أن يسلّم مصدّق بلاده للسوفيات. وكانت مسؤولية وكالة الاستخبارات الأميركية في تلك العملية منوطة إذ ذاك بالسعيد الذكر «كيرمت روزفلت» حفيد الرئيس الأسبق المغاير «ثيودور»، وكان غريمه شخصاً معاكساً تماماً لصدّام حسين. قال مصدّق مرّة: «لن تتوصّل أُمّة إلى شيء يذكر تحت لواء الدكتاتورية». وهذه كلمات أخرى يقولها بعد نصف قرن أولئك الذين يكتبون الخطابات لجورج بوش الابن. ولكن مصدّق كان ضحية حملة طويلة افترائية على شخصه من قِبل خصومه الدوليين. لقد تكلموا عن وجهه «الشاحب»، وعن السيلان الدائم من أنفه. وقد وصفه الكاتب الفرنسي «جيرار دي ڤيليه» بأنه «مثير للشغب بحجم نصف لتر. . . وبرشاقة الماعز». وادّعت جريدة «النيويورك تايمز» عند موته أنه «كان يعقد اجتماع مجلس الوزراء مسنوداً في الفراش بثلاث مخدّات، ومتغذياً بما ينقل إليه من بلازما الدم الأميركية». أجل، لقد كان مصدّق أرستقراطياً ذا ثقافة أوروبية؛ وكان يلبس بيجامات وردية اللون، وينفجر باكياً في البرلمان؛ ولكن يبدو أنه كان ديمقراطياً حقاً ـ لقد كان مشهوراً كدبلوماسي وعضو في البرلمان ـ وكانت إدانته لاستبداد الشاه، ورفضه الموافقة على تنازلات أخرى لشركة النفط مواقف أعطت دعماً شعبياً للجبهة الوطنية الائتلافية التي يتزعمها. وعندما وصل «وودهاوس» إلى طهران ـ وكانت وظيفته الرسمية «ضابط الاستعلامات» في السفارة ـ كانت إيران على شفا الكارثة. فقد انقطعت المفاوضات مع شركة النفط (AIOC) التي كان موظفوها، حسبما أقرّ «وودهاوس»، مضجرين، وعنيدين، ومتعبين». وكان السفير البريطاني عازباً، تسيطر عليه أخته المطلّقة. وكان إزاءه ملك من ملوك المال كوفىء لأنه تبرّع للحزب الديمقراطي(*).

قال «وودهاوس»: «كان أول عمل عليّ أن أقوم به استجلاب حمولة طائرة من الأسلحة إلى إيران». وقد سافر على متن تلك الطائرة من قاعدة الحبَّانية العراقية ـ التي أصبحت بعد عقود محطة قاذفات القنابل لدى صدّام حسين، ثم صارت فيما بعد كذلك ثكنات لجيش الاحتلال الأميركي ـ ثم اشترى ملايين من الريالات الإيرانية، وسلّمها في مكان سرّي إلى الأخوين الرشيديين، المولجين بتنظيم العصابات الغوغائية التي ستمهّد للانقلاب. وستكون الأسلحة لهم أيضاً. إلّا إذا غزا الاتحاد السوفياتي إيران، فتستعمل تلك الأسلحة عندئذٍ لمحاربة الروس.

(*) يجدر أن يلاحظ دارسو بهيمية صدّام حسين فيما بعد، أن خليفة السفير الأميركي «لوي هندرسن»، كتب إلى وزارة الخارجية: «نحن نواجه وضعاً يائساً وخطراً، ورجلاً مجنوناً قد يتحالف مع الروس». فإذا حذفت كلمة «الروس» ووضعت بدلاً منها «القاعدة» يمكن أن يكون التصريح للرئيس بوش، أو رئيس الوزراء بلير عام ٢٠٠٢.

واستأنف «وودهاوس» قائلاً: «هبطت طائرتنا في طهران، بعد أن أضعنا طريقنا فوق جبال «زاغروس». وكان أكثر الشحنة رشّاشات ومدافع «ستَنْ». سرنا بها شمالاً في شاحنة، متجنبين نقط التفتيش بسلوك طرق جانبية. ولم نفكر في أن يوقفنا أحد. دفنّا الأسلحة. وأعتقد أن مرؤوسيّ أعدّوا الحفر. وبحسب علمي، لا تزال تلك الأسلحة مخبّأة في مكان ما في شمالي إيران. وقد بنينا كل ذلك على افتراض أن الحرب ستنشب بدءاً من الاتحاد السوفياتي. وعندما أُرسلت إلى طهران لم يكن القصد من ذلك أن أتدخل سياسياً. وفي الواقع، كان التدخل السياسي في السفارة البريطانية في طهران بيد شخصية أخرى مختلفة. هي شخصية «روبن زاهنر»، الذي كان حسن المعشر وذكياً جداً، ولكنه غريب الأطوار. وكانت وظيفته أن يتخلص من مصدّق. لكنها أصبحت وظيفتي بعدما يئس «زاهنر» وغادر طهران».

وفي الواقع، صار «زاهنر» فيما بعد أستاذاً للديانات الشرقية في جامعة «أكسفورد»؛ واشترك في محاولة بريطانيا المشؤومة لإحداث ثورة في ألبانيا الشيوعية. وكانت قاعدته في مالطا؛ وقد اتهمه عملاء أميركيون بخيانة تلك العملية ـ ولم يصدّق «وودهاوس» ذلك أبداً ـ وصار ضابط الارتباط الأول مع الشاه. لقد كان «زاهنر» هو الذي رعى الأخوين الرشيديين، اللذين عملا كلاهما ضد النفوذ الألماني في إيران، خلال الحرب العالمية الثانية. وكانت طهران على وشك طرد موظفي السفارة البريطانية خارج إيران. ولذلك، اتصل «وودهاوس» برئيس محطة الاستخبارات الأميركية (CIA) في المدينة «روجر غواران»، «الذي كان زميلاً يستحق الإعجاب... جاء من عائلة فرنسية، وكان ثنائي اللغة، بالغ الذكاء ومحبوباً، وله زوجة فاتنة... كان حليفاً لا يقدَّر بثمن، عندما كان مصدّق سيرمينا خارجاً». وحالما عاد «وودهاوس» إلى لندن، أخذ خططه إلى الأميركيين في واشنطن: بحيث يسيطر على طهران خليط من الأخوين الرشيديين، مع تنظيم لعدد من الضباط المتذمرين في الجيش والشرطة، ونواب في البرلمان، والشيوخ والأئمّة، ورؤساء تحرير جرائد، ورعاع من السوق، بعد إغرائهم كلهم بأموال «وود هاوس»؛ بينما يسيطر على المدن زعماء القبائل بالأسلحة التي طمرها «وود هاوس».

رفض مصدّق آخر مقترحات التسوية مع شركة النفط (AIOC)، وهدَّد الشاه ـ الذي كان قد غادر إيران ـ ومن تلك اللحظة كان مصيره قد أصبح واضحاً. سافر روزفلت سراً إلى طهران، بينما قابل «وودهاوس» أخت الشاه «أشرف» في سويسرا في محاولة لإقناع أخيها بأن يبقى على العرش. كما أرسل إلى الشاه نفسه رسولاً لهذا الغرض، هو اللواء «هـ. نورمان شوارزكوف» والد «نورمان شوارزكوف» الذي سيقود القوات الأميركية عام ١٩٩١ في حرب الخليج على العراق. وتجاوب الشاه مع رغبات حلفائه من الدول الكبرى؛ فأصدر فرماناً يعزل مصدّق كرئيس للوزراء. فرفض مصدّق وأوقف اللواء نعمة الله نصيري ـ الذي نقل أمر الشاه ـ وظهر إذ ذاك في شوارع طهران السوقة الذين أعدّهم «روزفلت»، و«وودهاوس» لهذه الغاية.

كان «وودهاوس» غير نادم على ما فعل. قال: «كان كل ذلك من خطأ مصدّق الذي أمره فرمان الشاه بالرحيل، فجمع سفّاحيه وسبّب حمّام الدم. لو لم نفعل شيئاً؟ ماذا يمكن أن تكون عليه العلاقات بين مصدَّق

والشيوخ الأئمة؟ لكانت الأمور ساءت. ولمّا كانت شركة النفط (AIOC) قد عادت إلى وضعها السابق. ولكان الشاه قد خُلع عن العرش فوراً، بدلاً من أن يحصل ذلك بعد ٢٥ سنة»(*).

وكان «وودهاوس» لا يزال في حداده على وفاة زوجته منذ سنتين؛ ويُعمل فكره في ترجمة تاريخ اليونان الحديثة إلى الانكليزية، ذلك التاريخ الذي كتبه صديقه وزميله العالِم «بنايوتيس كانيللوبولوس».(**) وكان يسيراً أن تراه مسنّاً لطيفاً، وقد صار البارون «ترينغتون» الخامس، كشخصية رومانسيّة من التاريخ. لقد كان رجلاً عرف «تشرشل»، و«إيدن»، وكبار موظفي وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) في واشنطن. لكن العملاء البريطانيين الذين يهندسون الانقلابات لا تعذبهم ضمائرهم. وفي مرحلة من مراحل محادثتنا، تكلم «وودهاوس» عن مشاعره، بقوله: «لا أريد أن أتبجَّح، ولكني لم أكن خائفاً أبداً ـ لا في أثينا أثناء الاحتلال الألماني، ولا في طهران خلال هذه العملية ـ فضلاً عن أني لم أخف من القفز بالمظلات حتى في الموقع الخطأ، مثلما كان منتظراً مني. وعندما أستعيد هذه الذكريات أرتعد؛ لقد كنت دائماً مأخوذاً بالخطر، ومفتوناً بالاكتشافات التي تنجم عن كون المرء في خطر».

شعرت بأن هناك وجهاً مظلماً لهذا العزم والتصميم. ففي سيرة حياته، يصف «وودهاوس» شيئاً مما حدث له أثناء الحرب العالمية الثانية في اليونان. فقد قبض على غجري يحمل جواز سفر إيطالياً، ويعمل لدول المحور. وعلى الأثر، شكّل «وودهاوس» مع اثنين من قادة حرب العصابات هما: «نابوليون زرفاس» و«أريس فيلوكيوتس»، محكمة عرفية. وكما كتب: وكانت النتيجة حتمية، إذ لم يكن ممكناً إيكاله إلى حارس، أو تحمل مسؤولية هربه؛ ولذلك شُنق في ساحة القرية».

أمازال «وودهاوس» يفكر في ذلك الشاب؟ طرحت عليه هذا السؤال بلطف عند آخر محادثتنا، بينما كانت الدنيا ترشق نافذة مكتبته بالبَرد والثلج. صمت طويلاً، وهز رأسه ببطء وقال: «كان ذلك فظيعاً ـ لقد شعرت بفظاعته. أستعيد ذلك من وقت إلى آخر. كان شاباً فقيراً بائساً. لم يقل شيئاً ـ بل كان يرتجف، كما لو كان لديه شيء من البلاهة. وقد حضرت عملية الشنق. لقد شنقوه على شجرة بسحب كرسي من تحته. لم يدم نزاعه طويلاً، ولا أتذكر كم دام. كنا حوالي مئة شخص ـ وكان ذلك في أوائل الاحتلال. ولو تركناه لذهب وأخبر الإيطاليين. . . لقد كان يتبعنا من قرية إلى أخرى. وبعد ذلك طلبت من «زرفاس» أن لا يأخذ أسرى».

(*) ليس هناك ما يدعو إلى العجب في أن تعلن وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) عام ١٩٧٧، أن جميع الوثائق والمستندات المتعلقة بالانقلاب على مصدّق قد أتلفت في أوائل الستينات، ذلك الإتلاف الذي وُصف بأنه «نقض مخيف للعهد مع الشعب الأميركي»، من قبل مدير تلك الوكالة السابق «جايمس وولسي»، الذي صرّح علناً عام ١٩٩٣، بأن الوثائق الإيرانية ستعرض علناً على الشعب. وقد دوّن أحد المؤرخين المعنيين بهذه الوكالة بأنه كانت هناك «ثقافة إتلاف» في وكالة الاستخبارات الاميركية (CIA) في أوائل الستينات.

(**) عندما مات هذا العالم عام ٢٠٠١، لم تذكر سوى سيرة «وودهاوس» الحربية. وفي نعيه مع ترجمة لسيرته الصادرة في جريدة «الإندبندنت» (بتاريخ ٢٦ شباط/ فبراير ٢٠٠١)، لم يذكر الاحتيال الخادع الذي قام به في بلاد الفرس.

أعتقد أن «وودهاوس» نظر إلى الانقلاب الإيراني ببرودة القلب ذاتها. فلا شك في أنه لم يكن لديه وقت لآية الله أبي القاسم قاشاني مثلما كان لديه لمصدّق. كان قاشاني بشيراً بقدوم الخميني ـ وعالماً دينياً سماوياً ألطف منه ـ أكسبته معارضته للبريطانيين رصيداً وطنياً دون أن يصير حليفاً آلياً لمصدّق. لكنه لم يخلّف في نفس «وودهاوس» انطباعاً قوياً، إذ قال عنه: «لا يمكن المرء أن يأخذ قاشاني على محمل الجدّ ـ لقد أصبح عضواً في المجلس (البرلمان)، مما كان يتعارض مع مركزه كآية للّه. ولم تكن له قاعدة نفوذ. . . لقد كان وحيداً، وغير مرتبط بأية حركة جماهيرية. كما كان مزعجاً. مثيراً للمتاعب». ولكن آخرين قدّروا القاشاني بشكل مختلف: إنه يتكلم عن «الديمقراطية في الإسلام»؛ لقد كان غير هيّاب، لا يتحرّج في الإقدام حتى على الخطأ، ومتحرراً تماماً من المنفعة الذاتية. . . وبهذه الصفات النبيلة يجمع بين التواضع والتهيؤ للعمل، واللطف والدعابة، وسعة الثقافة والفصاحة الشعبية[*]. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، عام ١٩٥١، صرّح القاشاني قائلاً: «لا نريد لأية حكومة خارجية أن تتدخل في شؤوننا الداخلية. . . وعلى الولايات المتحدة الأميركية أن تتوقف عن اتباع السياسة البريطانية، وإلّا فإنها لن تربح شيئاً سوى البغضاء وفقدان مكانتها المرموقة في العالم بعامة، وفي إيران بشكل خاص».

ومعظم هذا التحذير يمكن أن يعطى لبريطانيا في الشرق الأوسط بعد ٥٢ سنة، عندما اتبعت حكومة طوني بلير سياسة أميركا في العراق.

لقد كان «وودهاوس» مصيباً في أمر واحد: تواري آية الله القاشاني عن الساحة بعد خلع مصدّق ومحاكمته ـ مع العلم أنه حُكم على مصدّق بالسجن ثلاث سنوات، ومات محتجزاً في منزله بعد عشر سنوات. وقد دوّن «وودهاوس» كيف أن آية الله هذا أرسل برقية تهنئة للشاه بعد عودته إلى إيران. لكنّ حكم مصدّق والانقلاب الذي أنهى استقلال إيران عام ١٩٥٣ يعطي دروساً مريرة وقاسية للثوريين منذ عام ١٩٧٩. فإذا كان هناك احتمال في أن يخلع الشاه، لا يجوز العبث بالحقوق الدستورية، ولا اتخاذ أنصاف حلول أو تدابير، ولا السماح لثورة مضادة بأن تعيد النفوذ الغربي إلى إيران. فالثورة المستقبلية ستكلّف أكثر من خمسة آلاف قتيل. ويجب ان تكون نهائية، مطلقة ـ لا ترحم؛ إذ يجب أن يُصفّى فوراً الجواسيس، والنظام البائد.

كما أن هناك دروساً أخرى للأميركيين وللبريطانيين، وللشاه، لو اختاروا أن يكونوا أكثر انتباهاً. فلا بد أن يُرى الشاه دائماً من الآن فصاعداً أداة للولايات المتحدة ولبريطانيا. وكما كتب «جايمس أ. بيل»: «إن سقوط مصدّق فتح عهداً جديداً من التدخل وزيادة العداء لأميركا بين صفوف القوى الوطنية الإيرانية الواعية». وسيصيب «وودهاوس» الاكتئاب الشديد بثورة الخميني التالية. أو كما قال: «شعرت بأن العمل الذي فعلناه ذهب سُدى،

(*) لم يكن رجل المستقبل آية الله الخميني في تلك المرحلة معارضاً للشاه. وقد روى الأكاديمي الأميركي «جايمس آ. بيل» شائعات عن أن قائد المستقبل للثورة الإسلامية في إيران كان بين الذين حثّوا رجل الدين الشيعي البارز في ذلك الوقت «آية الله سيد محمد حسين بوروجوردي»، على مساندة النظام السياسي للشاه. مع العلم أن سيرة حياة الخميني التي ظهرت في الجرائد عام ١٩٧٩، دبّرت عدم الإشارة إلى أنشطته التي مرّ عليها أكثر من ربع قرن.

وأن نوعاً من الرضا الذاتي أو الممالأة قد ساد بعد إعادة الشاه إلى عرشه. لقد سهّل تقبّل الأمور الراهنة». وبعد إخراج مصدّق، مدح «آلن دالاس» «وودهاوس» لأنه زار واشنطن، وأقنع إدارة «أيزنهاور» بدعم الانقلاب، بقوله مخاطباً «وودهاوس»: «لقد وضعت بيضة بهيجة صغيرة عندما كنت هنا في المرة الأخيرة».

ولكنك لن تذهب بعد اليوم إلى وضع «بيض صغير»؛ لأن هناك اليوم مشاريع أيديولوجية طموحة، وجيوشاً كبيرة ـ و«أنوات» (جمع «أنا» بلغة فرويد Ego) أكبر ـ تتورط في «تغيير الأنظمة». وربما لهذا السبب يخيبون بسرعة ويسبّبون حمّامات الدم. إن الانقلاب ضد مصدّق كان أول عملية من تلك العمليات التي قام بها الأميركيون في الحرب الباردة ـ وآخر عملية قام بها البريطانيون. وعلى الأقل لم ندَّعِ أبداً أنه كان لدى مصدّق أسلحة للدمار الشامل. ولكن الكلمة الأخيرة يجب أن تكون لرجل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، «كيرمت روزفلت»، إذ كتب وكأنه بصير بعلم الغيب: «إذا أردنا أن نصنع شيئاً من هذا القبيل في المستقبل، يجب علينا أن نتأكد تماماً من أن الناس والجيش يريدون ما نريد».

لقد قام الرضا الذاتي (أو الممالأة) الذي حدَّده «وودهاوس»، على عاتق أجهزة الأمن التي أنشأها الشاه بعد عودته: «السافاك»، أي «منظمة الاستعلام والأمن القومية» ـ التي صارت الأكثر شهرة، والأكثر إجراماً من غرف التعذيب بين مؤسسات الشرق الأوسط الأكثر فظاعة. وقد اتصلت بالمقر الرئيس للسافاك بعثة أميركية سرّية دائمة. وشملت طرائق الاستجواب ـ علاوة على الأسلاك الكهربائية التقليدية المربوطة بأعضاء التناسل، والضرب على باطن القدمين، وسحب الأظافر ـ الاغتصاب، و«الطبخ»، آخر صرعة من أشكال التعذيب التي تفسّر نفسها بنفسها، والتي تربط فيها الضحية إلى سرير من أسلاك يجري فيها التيار الكهربائي، لتصبح فعلاً أداة للشيّ أو التحميص(*). وقد انبرى كبير الصحافيين المصريين، محمد حسنين هيكل، الذي كان سابقاً رئيس تحرير الأهرام وأمين أسرار جمال عبد الناصر، فوصف كيف صوّر «السافاك» تعذيب امرأة إيرانية شابّة، وكيف جرّدوها من ملابسها، وأطفأوا السجائر في حلمتي ثدييها. وبحسب رواية هيكل، وُزّع الفيلم فيما بعد بوساطة وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) على وكالات الاستخبارات الأخرى العاملة في الأنظمة التي تدعمها أميركا حول العالم، بما فيها: تايوان، وأندونيسيا، والفيليبين. وقد سيطر الكولونيل «نعمة الله نصيري» على «السافاك» خلال الحقبة الأخيرة من حكم الشاه التي امتدت حوالى ١٥ سنة؛ واستخدم فيها ٦٠ ٠٠٠ عميل. وهو الذي أبلغ مصدّق أمر الشاه بصرفه. وفي وقت من الأوقات، تم الاعتقاد بأن ثلث السكان الرجال في إيران كانوا متورطين بالعمل مع «السافاك» بشكل من الأشكال، إما مباشرة، أو كمخبرين مؤقتين أو مبتزّين. وشمل ذلك دبلوماسيين،

(*) وكان أحد الضحايا «مسعود أحمد زاده»؛ وهو مهندس أعدمه النظام فيما بعد. ففي عام ١٩٧٢، حضر محاكمته محام فرنسي هو «نوري ألبالا»، الذي وصف كيف نزع «أحمد زاده» كنزته، وكشف عن آثار التعذيب، قائلاً: «كان كل وسط صدره ومعدته كتلة من الندوب الملتوية المشوّهة كآثار للحروق العميقة جداً. لقد كانت مرعبة مروّعة... وكان ظهره أسوأ من ذلك. كان هناك شكل مستطيل محفور فيه، مؤلف من خط مستمر من آثار الجروح. كما كان الجلد داخل المستطيل مغطى بندوب لامعة من أثر الحرق». وقد كتبت «أشرف دهقاني» التي هربت من السجن بعد التعذيب ـ وكانت مناضلة معارضة ـ عن كيفية اغتصابها من قبل معذّبيها من «السافاك»، ووضع حيّات على جسدها.

وموظفين مدنيين في الدولة، وشيوخاً أئمة، وممثلين، وكتّاباً، ومديرين في دوائر النفط، وعمّالاً، وفلاحين، وفقراء من العاطلين عن العمل، والمجتمع بأكمله أُفسد بالنفوذ والخوف.

وهكذا صار الشاه شرطي الغرب، الحاكم المستبد المطلق الحكيم ـ دون أن يكون دكتاتوراً ـ وأصبح معقِلاً ضد التوسع السوفياتي في جنوبي غربي آسيا، وحارساً لإمدادات النفط، ومرشحاً ديمقراطياً ـ تيمّناً ـ ومصلحاً منصرفاً إلى قيادة شعبه إلى مستقبل اقتصادي مشرق. وخلال ربع القرن القادم، صدَّرت صناعة النفط الدولية ٢٤ مليار برميل من النفط من إيران. كما أمسى «شرطي الخليج» أكثر أهمية من أي وقت مضى، نظراً لانسحاب البريطانيين من «شرق قناة السويس». ولكن حكم الشاه لم يكن أبداً مستقراً كما يدَّعي مساندوه ويحاولون إقناع العالم بذلك. فقد كانت هناك أعمال شغب وانتفاضات ضد النظام طيلة الستينيّات، وحصل ٤٠٠ انفجار بين عام ١٩٧١ و١٩٧٥. وفي أوائل عام ١٩٦٣، كرر آية الله الخميني إدانته لحكم الشاه. وفي ٣ حزيران/يونيو، يوم عاشوراء في كربلاء، أي مقتل الإمام الحسين حفيد الرسول، شجب حكم الشاه واتهمه بالفساد، فأوقف فوراً وسيق إلى طهران. فحصل انفجار غضب شعبي كرَّس الخميني كزعيم للمعارضة. وبتاريخ ٤ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٤، ألقى خطاباً أدان فيه قانوناً جديداً أعطى القوات الأميركية حصانة تمنع ملاحقتهم للجرائم المرتكبة داخل إيران. ومنذ ذلك الحين، يستطيع الأميركي الذي يقتل إيرانياً أن يغادر البلاد، بينما الإيراني الذي يقتل إيرانياً آخر يمكن أن يشنق(*). وفي اليوم التالي، نُفي الخميني إلى تركيا.

وقد نجحت ثورة الشاه «البيضاء» في استلاب الطبقات الوسطى، عن طريق إصدار تشريعات متعلقة بإصلاح الأراضي، واغتراب رجال الدين بتغذية الطابع العلماني للنظام، ولا سيما بإعطاء المرأة حق الانتخاب. وفي عام ١٩٧٧، قبل أقل من سنتين من نشوب الثورة الإسلامية، كان الشاه يتنبأ أن بلاده ستتنامى كدولة غربية خلال عشر سنوات، وتصير بعد ذلك واحدة من أقوى دول العالم الخمس. وكانت إدارة الرئيس «جيمي كارتر» حاملة عبء الرغبة الليبرالية في نشر حقوق الإنسان عبر العالم. لكنها كانت كذلك متلهفة إلى إبقاء نفوذ الشاه. فاستمرت في السياسة الأميركية الداعمة للإصلاحات التي سببت كثيراً من القلاقل للإيرانيين. وقد قام الزعماء الإسرائيليون بزيارات متكررة لإيران ـ ومنهم: «دايفيد بن غوريون، وموشي دايان، وغولدا مائير، وأبا إيبان، واسحاق رابين، وإيغال آلون»، الذين زاروا كلهم طهران، بالسر غالباً. كما سافر ضباط عسكريون إيرانيون إلى تل أبيب لإجراء محادثات مع كبار ضباط الجيش الإسرائيلي. وكانت هناك رحلات منتظمة لشركة طيران «العال» الإسرائيلية بين تل أبيب وطهران.

وكان الشاه يحاول باستمرار أن يجدّد نفسه، ككل الملوك المطلقي الصلاحية. ففي عام ١٩٧١، دعا زعماء العالم للاحتفال بيوبيل مرور ٣٠ سنة على حكمه. وجرى الاحتفال الكبير كصفعة عنيفة في المدينة القديمة

(*) وقد أصدر «بول بريمر»، نائب القنصل الأميركي في بغداد، بعد غزو أميركا للعراق عام ٢٠٠٣، قانوناً مماثلاً لذلك تقريباً؛ مما أثار احتجاجات واسعة النطاق من قبل العراقيين، وأسهم في تعبئة الرأي العام الشعبي ضد الاحتلال الأميركي.

«برسيبوليس»، عاصمة إمبراطورية الفرس تحت حكم داريوس الأول. وكان هناك توجه لجعل تلك المدينة «قبلة العالم ومركز جاذبيته وثقله». وجرى استيراد كل امرىء وكل شيء من الخارج: من «أميلدا ماركوس» إلى نائب رئيس الولايات المتحدة: «سبيرو أغنيو»، ومن الملك حسين، ملك الأردن، إلى النبيذ الرائع والمفروشات الفاخرة في خيمة «الرؤساء الكبار» الواسعة الواقعة قرب أطلال المدينة. وكان القصد أن يُعبد الشاه كوارث روحيّ لإمبراطورية «كسرى (سايروس) الكبير»، الذي شمل حكمه مسافات شاسعة من الأراضي التي امتدت إلى البحر الأبيض المتوسط، وفيما بعد إلى مصر غرباً ونهر «الإندوس» شرقاً. وقد أخضع الإسكندر الكبير «برسيبوليس» عام ٣٣٠ قبل ميلاد المسيح؛ وتقول الأسطورة إنّه أمر بهدمها بناء على طلب إحدى محظيات البلاط. ومن أجل عيد ميلاد الشاه، أُلبس الجنود الإيرانيون ثياباً تاريخية تمثل الميديين والفرس والصفويين والقاجار والبارثيين.

وقد خلا كل ذلك من أيّة إشارة إلى النبي محمد (ص) والغزوات الإسلامية التي أدخلت الإسلام إلى بلاد فارس. ولكن هنا بيت القصيد. كان الشاه يعرض نفسه، لا كمسلم، بل كوارث ملكي لبلاد الفرس قبل الإسلام. وبالطبع أدان الخميني حفلة السمر والمرح الصاخبة، ووصفها بأنها فاحشة.

لم يكن لهذا التعظيم الذاتي شأن كبير عندما جاءت النهاية. وفي الواقع، نُقل نثار الوليمة بواسطة نظام آية الله إلى رمز للخواء. وعندما كان الشاه منفياً لوقت طويل، وتحت المعالجة الجراحية في نيويورك، سافرتُ إلى أطلال مدينة «برسيبوليس» من طهران، ووجدتُ الخيمة الخاصة لا تزال قائمة قرب أطلال المدينة. كما أني انحنيت على حوض الاستحمام المصنوع من الذهب الخالص؛ وفتحت أيضاً الصنابير (الحنفيات) المصنوعة كذلك من الذهب الخالص؛ ولكن لم يكن بها ماء.

ولم يكن الشاه كذلك يحمل في عروقه دم كسرى (سايروس). فليس له تلك الرابطة السلالية ـ فسلالة بهلوي أُسّست عام ١٩٢٥ ـ مع أنه كانت هناك صلة ثابتة من الدم تربط مختلف الشاهات في تاريخ إيران. وقد روى الكاتب البولندي «ريزار كابوسنسكي» بوضوح وفصاحة الأهوال المرعبة التي ارتكبها في القرن ١٨ الملك «آغا محمد خان»، الذي أمر بقتل جميع سكان مدينة «كرمان» أو فقء عيونهم، لأنهم آووا الشاه السابق، بقوله: «صفّوا السكان، اقطعوا رؤوس الراشدين، واقلعوا عيون الأولاد بالأصابع... وقد غادرت المدينة فيما بعد قافلة من الأولاد العميان...».

وقد أقنع الأميركيون الشاه أخيراً بالسماح للجنة الصليب الأحمر الدولي بالدخول إلى السجون الإيرانية عام ١٩٧٧، لرؤية ثلاثة آلاف مسجون أمني ـ أي سياسي ـ في ١٨ سجناً مختلفاً. فسجلت اللجنة كيفية ضرب السجناء وحرق أجسادهم بالسجائر والمواد الكيميائية، وتعذيبهم بالكهرباء، واغتصابهم عن طريق إدخال القناني في شروجهم، وكذلك البيض المغلي. وأدخل المستنطقون المستجوبون أسلاكاً كهربائية عنوة في أرحام السجينات. وقد دوّن تقرير الصليب الأحمر موت ١٢٤ سجيناً تحت التعذيب. أما الشاه فقد صرّح بعد سنة «للصنداي تايمز» حول حقوق الإنسان قائلاً: «لا نحتاج دروساً من أي كان».

وعندما غمرت الثورة الإسلامية إيران في آخر المطاف، كنّا نتساءل عن القدرة الإيرانية على القسوة والإحساس، وعلى الغضب والجهد الفكري الممتاز، الطويل، المنهك. وفي بلاد لها تاريخ عنيف، نجد ساحاتها العامة ملأى بتماثيل الشعراء: الفردوسي، حافظ، سعدي، بدلاً من الفاتحين، مع أن للشاه ولوالده طبعاً تماثيل عديدة. وقد قارن أحد السياسيين العرب مرة استمرار وجود المحن في إيران مع تمهُّن الإيرانيين في حرفة حياكة السجّاد، قائلاً: «تصوّر أن نسج سجّادة واحدة، يشترك فيه عدد كبير من الناس، ويستغرق حوالى عشر سنوات. إن الناس الذين يصرفون سنوات في صنع سجادة مفردة، ينتظرون سنوات أكثر لينتصروا في الحرب. لا تستخفّ بصبر الإيرانيين ومثابرتهم...».

وهكذا كان. فقد نقل الخميني منفاه من تركيا إلى مدينة النجف الشيعية المقدسة في عراق صدّام حسين، حيث أعلن صراحةً دعمه للفلسطينيين؛ وسجّل خطبه على أشرطة وزّعت عبر إيران. وكان صدّام حسين قد اتفق مع الشاه على ترسيم الحدود بين البلدين عند شط العرب على الخليج، وعلى إخماد عصيان الأكراد المسلح في شمالي العراق؛ وهي خيانة تواطأ فيها الوزير الأميركي هنري كيسنجر والشاه. ولمّا لم يستطع الشاه أن يوقف انتشار خُطب الخميني المسجلة على أشرطة، طُلب من صدّام ترحيل الخميني، الذي خرج واستقر في ضاحية «نوفل ـ لو ـ شاتو» قرب باريس، حيث حظي بإعجاب الصحافة الدولية المستمر، تلك المؤسسة التي عاد فيما بعد فأظهر احتقاره لها.

وعندما وقعت الهزة السياسية في إيران، كانت جريدة «التايمز» تعاني من إقفال صناعي طويل. إن قَدَر الصحافيين أن يكونوا في المكان المناسب في الوقت المناسب، وأكثر من ذلك في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. ولكن أن يكون الصحافي في المكان المناسب دون أن يحظى بجريدة يكتب لها، فذلك وضع جهنمي له. وعندما كان عليّ أن أروي استشهاد عشرات الألوف من الإيرانيين على يد حراس الشاه «الجافيدان» ـ الخالدين ـ كنت أستقيل من الاتحاد القومي للصحافيين الذين كانوا، بناء على كل أنواع الأسباب الاشتراكية الوجيهة، يعارضون صاحب الجريدة «اللورد تومسون» الإنساني الخيِّر، في خصومته مع الطابعين بشأن التكنولوجية الجديدة. وقد قام الاتحاد في آخر الأمر، بحزم «التايمز» وعرضها على «روبرت موردك» للبيع. ولكن هيئة الإذاعة الكندية أنقذتني بطلبها مني تغطية أحداث الثورة الإيرانية لنصف ساعة توثيقية على الراديو. فحزمت المسجّل الكبير الذي كانت تلك الهيئة تزوّد مراسليها به في تلك الأيام ـ قبل ورود الوسائل الرقمية الحديثة بكثير ـ واصطحبتُ كيساً للأشرطة ودفتراً، استعداداً لنشر تقاريري في جريدة ما، إذا تسنّى لي ذلك.

كان سقوط الشاه ملحمة. لقد كان في ذلك السقوط شيء من تمثيل أخلاقيات القرون الوسطى، وربما المأساة العريقة في القِدم. وكان يمكن وصفها بأنها إغريقية لو كان الشاه رجلاً عظيماً حقاً وفقد حظوته بهفوة وحيدة. لكنه لم يكن رجلاً عظيماً، بل كانت خطيئاته عديدة. وربما كانت جريمته الكبرى هي الغطرسة الوقحة؛ مع أن الإيرانيين ربما أرادوا الأمر مختلفاً؛ لكنهم أحسُّوا بهذا العنصر الأسطوري قبل أن يقود ملك الملوك طائرته الخاصة من نوع «بوينغ» من مطار «مهراباد»، ويخرج من البلاد لآخر مرة يوم ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧٩.

ومن أكثر لافتات الثورة تأثيراً، واحدة صوَّرت الشاه بكل شعاراته ورموزه: والتاج منقلب عن رأسه الأصلع، وهو يندفع نحو مشعلة للنار تضرم في الهواء الطلق، بينما آية الله المنتقم يجوب فوقه بجناحين من ذهب. وحتى لو صُوِّر أحد حكام الشرق الأوسط تكراراً بشكل شيطان، فإنه لم يسبق في تاريخ الفن الإسلامي أن صُوِّر إنسان حي ـ كالخميني ـ بشكل يشبه الألوهية. وبينما كنت ذات يوم أتسكع في شوارع طهران التي تغطيها مستنقعات الثلج، استوقفني صبي من أولاد المدارس خارج بوابات جامعة طهران، وأراد أن يبيعني ببضعة ريالات نموذجاً من الفن التصويري لما بعد الثورة. وكان النموذج عبارة عن قناع يمثل وجه الشاه، مصنوعاً من «الكرتون»، ويبدو فيه الشاه رخو الفك مريضاً، وتاجه مثبت على رأسه بقرنين كبيرين جداً. ويمكنك إخراج العينين من محجريهما، ولبس القناع على وجهك، وإمعان النظر من خلال صورة الشيطان ذاتها في مَن يلبسنَ «الشادور»، وسائر الناس ذوي السحنة الجدِّية في مركز المدينة. وكلما اشترى أحدهم قناعاً ـ ووضعه على وجهه مثلي ـ يصرخ الناس بقوة: «الموت للشاه». كما لو كان هذا الشكل الكرتوني يحمل صاحبه في الواقع، وكأن الشيطان تجسّد فعلاً.

رجع الخميني من باريس، وقد سحرت ثورته الإسلامية بادىء ذي بدء الأكثر ليبرالية من إخواننا الصحافيين. فقد انبرى «إدوارد مورتيمر» ـ زميلي الحميم المنضوي تحت لواء «التايمز»، والكاتب القائد في الصحيفة، ورجل كل المواسم ـ منبهراً بهذه الرومانسية الزائفة في شكلها الأكثر إحراجاً، وكتب مقالاً في جريدة «سباكتايتر»، قارن فيه الثورة الإيرانية لصالحها، مع سقوط الباستيل عام ١٧٨٩، وخلع القيصر عام ١٩١٧. وقد رأى أن وصف «شارل فوكس» للثورة الفرنسية القائل: «إنها أكبر حدث يحصل في العالم! وإنه الأفضل»، هو ترحيب في محلّه تماماً بالنسبة إلى أُسر طهران، حيث كان بين أعضائها من يستمع إلى الأغاني الثورية المذاعة من مركز البث الذي تمت السيطرة عليه قبل ذلك الوقت بقليل. كتب «مورتيمر» أن أحداث إيران تمثل «ثورة شعبية حقيقية. وربما كانت الحقيقية المثلى في العالم كله منذ عام ١٩١٧، بل ربما الأكثر شعبية أيضاً من الثورة البلشفية... ولن يقل مدى تأثيرها عن الثورة البلشفية لسائر الناس في العالم... فقد تحدَّى الخميني نفسه الاتجاه الديني المحافظ، وبالتالي لن يفرضه على باقي المواطنين في المجتمع».

والآن، هذا نوع من الشجاعة الصحافية الرهيبة، بل ربما الانتحارية. ومع أني أوافق «إدوارد» على المغازي البعيدة المدى للثورة الإيرانية، فإني أرى أن ثقته بالنوايا الليبرالية للخميني نشأت عن إيمان، لا عن خبرة. لقد برهن سقوط مصدّق على أن الثورة الناجحة التي تدوم، لا تقوم إلَّا على سفك دماء أعدائها ـ وشهدائها. لقد ألقى اللوم على «السافاك» بشأن حريق السينما في «عبدان» خلال شهر آب/ أغسطس عام ١٩٧٨ حيث احترق ٤١٩ إيرانياً وهم أحياء. وقال أعداء الشاه إنه أراد أن تُلقى تهمة المجزرة على الثوريين المسلمين. وقد تلت كل فترة من الحداد على الموتى تظاهرات احتجاجية أوسع، وضحايا أكثر. وكانت المسيرات في الشوارع تضم أكثر من مليون شخص. ولا تزال أدبيات الثورة تذكر أن جيش الشاه قتل ٤٠٠٠ متظاهر في ساحة «جالِه» بطهران يوم ٨ أيلول/سبتمبر. وعندما عاد الخميني إلى إيران من باريس ـ قام الفرنسيون الذين قدَّموا الخمر للشاه في «برسيبوليس»، بتقديم طائرة للخميني ليعود إلى وطنه ـ أُخذ مباشرة بطائرة مروحية إلى مقبرة «بهجة الزهراء». وبعد أربعة أيام أعلن تشكيل حكومة مؤقتة برئاسة مهدي بازركان. وهكذا، قد تصبح إيران بلداً ديمقراطياً؛ ولكنها بحكومة موتى، بالموتى، وللموتى.

وعلى الفور تمّ تكريم شهداء الثورة؛ وحان الوقت لرجال الشاه كي يدفعوا الثمن. كنتُ أستيقظ كل صباح لأقرأ في الصحف على الصفحة الأولى أسماء الرجال المدانين، وأرى المستنطقين «السافاك» يسقطون أمام فرق الإعدام، أو متدلّين من المشانق. وحتى ٩ آذار/مارس صدرت أحكام بالموت على أربعين شخصاً من قِبل المحاكم الثورية. ولن يستطيع أيّ من عملائه البالغ عددهم ٦٠ ٠٠٠ أن ينقذوا نعمة الله نصيري رئيس «السافاك»؛ ذلك الرجل الأشيب، العاري الرأس، والقصير القامة، المسجّى على حمّالة في المشرحة، وقد فتحت ثغرة على يمين صدره. إنه «نَصِيري» ذاته الذي حمل فرمان الشاه إلى مصدّق طالباً استقالته عام ١٩٥٣، و«نَصِيري» ذاته الذي رتّب زيارات «بن غوريون»، و«دايان»، و«رابين» إلى طهران. وقد أُعدم اللواء «جعفر خولي صدري» رئيس شرطة طهران ـ الذي كان سابقاً رئيس سجن «كوميته» ـ كما أعدم الكولونيل «ناصر غافامي»، رئيس مخفر الشرطة في سوق طهران، ورجل آخر متهم بأنه كان من أكثر المعذِّبين وحشية في سجن «القصر». النقيب «قاسم جاهنبانار». وقد حكم على ثلاثتهم بالموت مساء وأعدموا خلال ١٢ ساعة.

وكان أكثر الذين واجهوا فرق الإعدام، من الذين أدينوا بإطلاق النار على المتظاهرين خلال المسيرات الكبرى المضادّة للشاه. وفي ١١ آذار/مارس أطلقت النار على الملازم «أحمد بهادوري»، لأنه قتل متظاهرين في «همدان». وفي «عبدان» أعدم أربعة رجال آخرون كانوا من الشرطة، لأنهم قتلوا شاباً في التاسعة عشرة من عمره أثناء التظاهرات. وفي ١٣ آذار/مارس، أرسلت المحاكم الثورية ١١ رجلاً آخرين متهمين بأنهم عملاء من الشرطة السرّية ومراقبين إلى فِرق الإعدام. وكان بينهم «محمود جعفريان» المتخرج من جامعة «السوربون» في باريس، ورئيس «وكالة الأنباء الوطنية الإيرانية»، و«برويز نيككه» مدير إدارة التلفزيون. وقد قال «جعفريان» البالغ من العمر ٥٦ سنة قبل موته: «آمل أن تعيش عائلتي وأبناء وطني بعد موتي بحرية». ويُعتقد أن «نيككه» كان الصحافي الذي كتب المقال الناري ضد الخميني، وأثار أعمال الشغب الدينية الدامية في مدينة «قم» المقدسة عام ١٩٧٨. وقد نشرت إحدى الصحف صور الأحد عشر رجلاً هؤلاء، مع أسمائهم مكتوبة على قطع كرتون معلقة برقابهم. وكان جعفريان يتطلع إلى آلة التصوير دون أمل؛ بينما كان «نيككه» يبدو غاضباً إلى يمين الصورة، وكانت عينا أحد رجال الشرطة السرّيين السابقين مُطرقتين نحو الأرض. ففي اعتقادهم أنهم رجال بحكم الموتى. ونشرت جريدة «كيهان» صورتين لرئيس شرطة «قم» السابق «آغا حسيني». وفي إحداهما، يبدو مربوطاً بسلّم، وعيناه معصوبتان بقطعة قماش، فاغر الفم، مصطكّ الأسنان، وهو يستعد لتلقي الرصاصة الأولى. وفي الصورة الثانية، يظهر وقد التوَت ركبتاه، وارتخى على السلّم.

ظهر مهدي بارزكان على التلفزيون مُديناً محاكمات «الكنغر»، إذ إنها عار على «ثورة رائعة حافلة بالقِيَم الدينية والإنسانية». وغضب بازركان في نيسان/ أبريل بشأن أمير عباس هويدا رئيس الوزراء السابق تحت حكم الشاه ـ الذي سجنه ليستجدي عطف الثورة قبل هربه من البلاد ـ عندما علم أنه أُخذ من سجنه واتُّهم «بالإفساد في الأرض»، و«بمحاربة الله تعالى». فأسرع إلى «قم» للتكلم مع الخميني، قبل أن يصل هويدا إلى فرق الإعدام. فشرَّع الخميني فوراً قواعد جديدة للمحاكم الثورية، دون جدوى.

كان هويدا رجل فكر، وابن مدينة، تشمل اهتماماته «باخ»، و«أوسكار وايلد» و«جايمس بوند»؛ وكان كارهاً للفساد الذي يحيط بالشاه، فكسب ثقة السياسيين والدبلوماسيين ـ ولكنه لم يكسب ثقة الناس العاديين ـ وعندما أُحضر إلى المحكمة الثورية من فراشه في سجن «القصر» مباشرة قبل منتصف الليل، بدا مرهقاً حتى الإجهاد؛ ودافع عن نفسه، بقوله: «لقد أعطاني طبيبي مسكّناً، ولا أكاد أقدر على التكلم، ناهيك بالدفاع عن نفسي، كما ينبغي». ولكنه كان يعلم ما ينتظره، إذ قال: «إذا أردتم إدانتي، فليس لي ما أقوله. فحياة فرد لا تساوي شيئاً إزاء حياة الأمة بكاملها. ما معنى «المحاربة ضد الله تعالى». فإذا كان معناها أني في النظام المدني للشاه فقد كنت واحداً في ذلك النظام. سمّوه نظاماً يحارب ضد الله إذا شئتم؛ وكذلك كنتم أنتم وجميع الناس الآخرين». لقد طلب وقتاً لإعداد دفاعه عن نفسه. قال: «إن يديّ غير ملوّثتين بالدم أو بالمال... جئتم بي إلى هنا كرئيس للوزراء، بينما غادر البلاد خمسة من رؤساء الوزراء. ألم يكن بإمكاني أيضاً أن أتنزه على «الشانزيليزيه» أو في شوارع نيويورك؟». ولم يكن له سلطة على «السافاك»، إذ قال: «إذا وجدتم في جميع أوراق «السافاك» وثيقة واحدة تظهر أن رئيس الوزراء له دور في تلك المؤسسة، فلن أقول إذ ذاك شيئاً للدفاع عن نفسي». ثم التفت إلى المراسلين الحاضرين بين أفراد الجمهور. «ما الأخبار؟؛ إني لم أقرأ أية جريدة أو أسمع الراديو لفترة».

حُكم على هويدا بالموت في آخر المطاف، لأنه كان «مُفسِداً في الأرض». وقام قاضي الإعدام في الثورة «صادق خلخالي» فوراً بعد صدور الحكم بقطع التلفونات عن السجن، وإغلاق الأبواب. وسيق هويدا إلى باحة السجن، ورُبط إلى وتد، وأطلقت النار عليه. قال الصحافي «شوكراص» في تقريره المسهب عن أيام الشاه الأخيرة: «لم يمت من الطلقة الأولى، لأنها أصابت رقبته، فأمره الجلاد الذي كان شيخاً من الشيوخ بأن يرفع رأسه، فأصابته الرصاصة الثانية في رأسه، ومات. ونشرت مجلة «باري ماتش» صورة لجثته، مع مسلح ينظر إليها وهو يكشّر استهزاءً. كما نشرت المجلة إلى جانبها صورة أخرى للعائلة المالكة المنفية، وهي تسبح في «جزيرة الفردوس ـ بارادايز أيلاند». لا تضعوا ثقتكم في الشاهات.

في تلك الأيام الأولى للثورة، كانت إيران في فوضى عارمة، بحيث لم تكن السلطات الجديدة متفرغة لضبط عمل الصحافيين. وكان الحرس الثوري على الطرقات يعيد المراسلين الأجانب إلى طهران؛ ولكنهم لم يأبهوا للبحث عنا في القطارات. فاشتريت ببطاقتي كطالب ـ كنتُ أحضِّر درجة الدكتوراه في السياسة في «كلية الثالوث الأقدس بدبلين» ـ تذكرة صالحة للاستعمال على جميع خطوط السكة الحديد في إيران. لقد كانت تلك القطارات الثورية طويلة، مكسورة النوافذ، مع صور ملصقة للإمام الخميني وزهور «الزنبق» ـ كرمز للاستشهاد ـ وكان الطعام في مطعم القطار مؤلفاً من الدجاج، والأرز، والشاي، للفطور، والغداء، والعشاء، على السواء. ولمّا لم أستطع أن أكتب إلى جريدتي، أرسلت رسالة مطوّلة إلى «إيفان بارنز»، رئيس تحرير القسم الأجنبي، أصف فيها الثورة غير المكتملة، وأخبره بأن معاوني الشاه كانوا متغطرسين في العادة بشكل لا يحتمل، بقولي: «وجدت أن غطرستهم اختفت عند بروز الثورة. لقد عوملت بلباقة ولطف، تقريباً أينما ذهبت. وألفيت الإيرانيين أكثر وعياً بمغازي الأحداث العالمية من... سكان البلدان العربية. كانت لديهم صفة قدّرتها أيّما تقدير في الأرياف

والبلدات. كانوا متشوّقين عطشى للتحدث عن أيّ شيء. والإزعاج الوحيد الذي صادفته في سفري إلى مدينة «قم»، جاء من قِبل جماعة من الحراس الإسلاميين (بشريط أخضر على الذراع، ورشاش (m-16)، عندما فتحوا باب مقصورتي، ورأوني أسجّل على كاسيت مع صوت القطار. اتهموني فوراً بأني جاسوس لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). لكنني شرحت لهم أني صحافي أعمل للإذاعة الكندية. وكرر المترجم، الطالب اليساري الذي يرافقني إلى كل مكان، الشيء ذاته، فارتاحوا قليلاً. وقد علّموني في طهران بأن أقول: «ديروت دو خميني، مارغ باشاه»، أي: «يحيا الخميني، والموت للشاه» باللغة الإيرانية، كلما صادفت أناساً مُتعبين. مثّلتُ دوري بقولي هذه العبارات؛ فرفع الحراس الخمينيون قبضاتهم في الهواء وصاحوا موافقين. ثم صافحوني جميعاً مع ابتسامات طويلة عريضة، وراحوا يتسكعون في أرجاء القطار لتعذيب شخص آخر في مقصورة أخرى.

إلى الشمال من الصحراء، تنهض مدينة «قُمّ» كجزيرة من الذهب المتنوّع، بقبب مساجدها ومآذنها الريَّانة الكريمة كواحة من واحات الجمال، عند الفجر. ويبدو مركز المدينة متسامقاً نحو السماء، مثل أبراج الجامعة الإنكليزية القديمة. ولكن القطار أوصلنا إلى هنا بعد حلول الظلام، وكانت ضواحي المدينة ملأى بالدخان، والغبار، وحشود الناس من رجال يرتدون سترات داكنة، ونساء يلبسن ملاءات سوداً، يتجهن نحو مبنى كالح من القرميد الأحمر، محاط برجال طوال القامة مفتولي العضلات مسلحين برشاشات آلية. التفت نحوي صديقي الطالب اليساري وقال: «هناك محاكمة لرجل من رجال الشاه». رميت كيسي في فندق محشور بين الحوانيت مقابل مسجد الجمعة، واصطحبت مسجلي القديم، وهرعت عائداً إلى ما سمّي «المحكمة».

كان رُستُمي، وهو معاون في الجيش الإمبراطوري للشاه، جالساً على كرسي ذي إطار معدني، على مسرح المحكمة الثورية، ويداه مشبوكتان أمامه، يحدّق في الأرض الخشبية على المسرح المعدَّل الذي يحاكم الآن فيه. كان رجلاً في منتصف العمر، له لحية غبراء ـ سمراء شعثاء، يرتدي سترة «أنوراك» خضراء متغضِّنة، وبنطالاً قذراً من «الجينز»، بعدما خسر بزَّته الرسمية العسكرية في فرقة المدفعية منذ زمن طويل، ولا يزيِّن مظهره «المشوّش» سوى حذاء فرنسي أنيق. كان يبدو للناس أجمع كشخص مدعى عليه متضجر، ينتظر حكماً بشأن مخالفة سير بسيطة، لا كشخص يتوقع التفاصيل «القانونية» (إذا كان تعبير «القانونية» هو الكلمة المناسبة) للحكم عليه بالموت. إنه متهم بقتل متظاهرين ضد الشاه.

وكانت المحكمة الإسلامية في «قم» قد سبق لها أن أرسلت ضحيتها الخامسة إلى فريق الإعدام منذ ست ساعات. وكانت تلك الضحية شرطياً محلياً متهماً بقتل متظاهرين أثناء الثورة. إنه الرجل الذي ظهرت صورته على الصفحة الأولى من الجريدة موثوقاً بالسلّم بينما تصطك أسنانه أمام فريق الإعدام. وقد تطفل أحدهم بقسوة وعرض الجريدة على رستُمي؛ وربما بسبب حتمية مثل ذلك الحكم الذي لا يمكن تفاديه بدا رستُمي هادئاً في جلوسه على المنصّة أمامنا. وكان كل بضع دقائق يخرج من جيبه علبة سجاير أميركية؛ فيتقدم منه مسلح برشاش، نعم رشاش أميركي، ليشعل له سيجارته بلطف. بالغ رستُمي في التدخين، وكان يتطلع إلينا من وقت إلى آخر، بعينين خاويتين من الحياة.

كان الجمهور الحاضر يتألف من حوالى ستمئة رجل، دون أية أمرأة؛ وكان أكثرهم يتكلم عن الإعدام الذي جرى ذلك الصباح؛ مع أنه كان من الصعب إدراك أسباب مثل تلك الإثارة. لم تحصل أية تبرئة في المحاكم الثورية، إذ كان القصاص الوحيد هو الموت. وكان الناس في هذا الحشد قد جاؤوا ليشاهدوا السجين يبكي، أو يلتمس الإبقاء على حياته، أو يسير متحدياً نحو فريق الإعدام، أي ليشهدوا سقوط القويّ. وقد ادّعى جورج «برنارد شو» مرة أنه لو طُرح المسيحيون طعاماً للأسود في صالة ألبرت الملكية في لندن، لكان المشاهدون تدفقوا على ذلك المسرح كل ليلة. إن الناس المستثارين بين الجمهور لا بد أن يكونوا قد تقنّعوا بالوجوه ذاتها التي كانت للرعاع الذين تجمّعوا أمام المشانق أثناء الثورة الفرنسية.

وكان بإمكان المرء أن يرى لماذا يصبح الحكم بالموت على المتهم هو الحكم الوحيد الممكن. حالما ابتدأت محاكمة رستُمي. جاء شيخ مسلم يرتدي ثوباً طويلاً أسمر اللون، ومحامٍ مدني عيّنته الهيئة الدينية، فصعدا إلى المنصّة، وأعلنا أنهما سيمثلان الإدعاء العام والقضاة. ولكن رستُمي لم يلتفت إليهما. ثم جلسا إلى طاولتين معدنيتين، وخلفهما صورة زيتية غير متقنة لآية الله الخميني؛ مما يوضح بجلاء السلطة المرجعية لهذه المحكمة.

توجه الشيخ بمقدمة موجزة إلى الحشد، مصرِّحاً بأن المحاكمة ستحصل بناء على أحكام القرآن الكريم، وأنه سيسمح للسجين بأن يجيب عن التهم الموجهة إليه. وكان الشيخ رجلاً طويلاً متميِّزاً، ذا لحية بيضاء طويلة، ووجه لطيف مستقيم؛ بينما ظهر المحامي المدني غاضباً ومنتقماً؛ ويبدو أنه قال شيئاً مؤذياً للسجين قبل أن يجلس. ولوَّح الشيخ بحزمة من الأوراق في يده، هي مجموعة من شهادات مكتوبة قدمها شهود شاركوا في التظاهرات ضد الشاه؛ ويدعي كل منها بأن «رستُمي» أمر الرجال الذين في فرقته بإطلاق النار على المدنيين.

نودي على الشهود واحداً واحداً من بين أفراد الجمهور الحاضر، ليقدموا إثباتاتهم ـ وقد قوطعت هذه العملية بصراخ علا خلف المسرح، حيث كان مزيد من الرجال يتدافعون للدخول إلى قاعة المحكمة. سحب رستُمي كرسيه وقرّبه من طاولة الشيخ، وأصغى. وكان الشاهد الأول شاباً، عُصبت كتفه بجبيرة؛ وكان الشاهد الثاني يعرج على المنصّة. وقد ادعيا بأنهما رأيا رستُمي يأمر رجاله بأن يطلقوا النار على المتظاهرين؛ بينما ركض رجل ثالث إلى المنصة صارخاً بأن رستُمي دخل المسجد عنوة وقتل صبياً كان يختبىء فيه. وجرت مناقشات مستفيضة حول التواريخ وأسماء الشوارع ـ إذ كانت هناك محاولة حقيقية إنما فوضوية لتحديد الأحداث التي رافقت إطلاق النار ـ قبل أن يدافع رستُمي عن نفسه وحقوقه.

كان الحشد يحثّه للدفاع عن نفسه، ولم يحرِّك الشيخ ساكناً لعدة دقائق. نظر رستُمي إلينا نظرات غير فاهمة. لقد أراد أن يتكلم، إذ اعترف بأنه أمر جنوده بأن يفرِّقوا المتظاهرين، عن طريق إطلاق النار في الهواء. وإذا أصيب أحد فذلك يعود إلى نبوّ القذيفة وارتدادها. حدث إذ ذاك صمت مؤقت في المحكمة، قبل أن ينبري شخص آخر، لا يكاد يبلغ عمره عشرين سنة، فيتسلق المنصة بجهد، ويشتم رستُمي وينعته بأنه كاذب، قبل أن يأمر القاضي بإخراجه.

ثم تمشّى المحامي على المنصة وصاح: «كاذب» في أذن السجين. فتذكرت للحظة بغيضة بعض أحداث تلك الأفلام الوثائقية المخدَّشة التي تُري محكمة الشعب النازية، وهي تحاكم المتآمرين على حياة «هتلر» عام ١٩٤٤، عندما شتم القاضي «رولاند فريزلر» المدعى عليهم. وفي نهاية اليوم الأول في «قم»، مشى المحامي المدني نحوي مبتسماً، وهو يقول: «إنها محاكمة عادلة، كما ترى، فنحن نسمح لرستُمي بأن يجيب عن الاتهامات». وفي اليوم التالي التأمت المحكمة، وبدا رستُمي تعيساً وهو يستمع إلى اثنين من رجال فرقته، يتّهمانه بأنه قاتل. ولكنّ جندياً آخر تقدم بشجاعة ليدافع عن السجين، إنما أُمر بالصمت، بعدما اتُّهم بأنه شوّش تاريخ الحادث.

وعندما سمح الشيخ باستراحة للغداء، لاحظت رجلاً في حوالى الثلاثين من العمر، يتقدم نحوي خارج المسرح. وكان هناك مجموعة من حراس الثورة المسلحين يراقبونه بارتياب. وتبين أنه أخو رستُمي، وهو خائف. سرنا معاً في الشارع ليتسنّى لنا أن نتكلم، وحراس الثورة وراءنا. فسألني هل تعتقد بأن هذه محاكمة عادلة؟ ليس لأخي أيّ محام يدافع عنه؛ وقد سمحوا له بواحد؛ إنما طفت في طهران على لجنة المحامين، وعرضت على عشرين منهم قضيته، فلم يقبل أيّ منهم أن يتولّاها. إن هذه المحكمة أمرت بقتل كل سجين حاكمته. وتوقف قليلاً، وهو يحاول أن لا يبكي، ثم قال: «إن لأخي طفلاً صغيراً، قال لرفاقه في المدرسة أنه سيقتل نفسه إذا قتلت المحكمة والده». ثم افترقنا، وابتعد أخو رستُمي، وسار وراءه حراس الثورة يتبخترون. وبعد ظهر ذلك اليوم، سألت آية الله كاظم شريعتمداري، أحد المستشارين المقربين من الإمام الخميني، لماذا لم يتيسّر لرستُمي محامٍ يدافع عنه. وكان آية الله بلحيته البيضاء متربعاً على السجاد الفاخر الغني بتزيينه، فقال: «يجب أن يُسمح لكل سجين في محكمة إسلامية بمحام يدافع عنه. وأنا لا أعرف ماذا يجري في هذه المحاكمة بمدينة «قم»؛ ولا أعرف ظروفها؛ وبالتالي لا أعرف الجواب عن سؤالك».

كان آية الله رجلاً مسنّاً ومعتدلاً بين رجال الدين في مدينة «قم»، ولكن ماذا تعني كلمة «معتدل» بعد كل هذا؟ ـ إنه لا يعرف ماذا يحصل في المحاكم وإني متأكد من أنه يفضل أن لا يعرف ذلك. ولا تزال لديّ الأشرطة التي سجّلت عليها اعتذارات الرجل المسنّ ـ وأصعب من ذلك ـ تسجيلات المحاكمة، وصراخ المحامي بكلمة: «كاذب»، في أذن السجين المدان الذي يحاول أن يشرح القواعد العسكرية، وبكاء أخيه خارج المحكمة. إنها وثائق تمثّل واقعاً مؤلماً، لظلم الأكثرية للأقلية. ولم تنفع في تبرئة السجناء المساقين إلى المسرح المعدَّل الأحكام التي سنّها الخميني بعد زيارة «بازركان» الملهوفة إلى «قم». وبناء عليه، بدأت الإعدامات من جديد في الصباح الذي غادرت فيه «قم»؛ ومع أن هوية الضحايا لم تكن واضحة، فقد تبيّنت اسم واحد منهم كان جندياً في جيش الشاه. لقد تعرّفت على اسمه.

لن تكون هناك انقلابات مضادة في هذه الثورة، أو عمليات مثل عملية «آجاكس»، ولا قيام رجال وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) بالعمل من داخل السفارة الأميركية، ليشتروا ضمائر المستزلمين من أهل السوق (رجال البازار). وفي الواقع، لن يكون هناك سفارة أميركية عمّا قريب. أما المطالبة بعودة الشاه فلم تكن لإعادة

تنصيبه، بل لمحاكمته. فلن تشعر الثورة بالأمان، إلّا بعد أن يُقطع رأس الحية؛ كما اعتقد الأميركيون بعد ٢٤ سنة أنه لن ينعم العراق بالاستقرار إلّا بعد القبض على صدّام حسين. وكذلك كان الخميني وحاشيته يعتقدون أن موت الشاه، أو بالأحرى شنقه كمجرم في إيران، «للجرائم التي ارتكبها ضد الله» ـ هو الذي يحرر إيران من ماضيها الفاسد(*). وفي الواقع، كان الشاه يموت بالسرطان. وقد رأى كثير من الإيرانيين في نفيه المحزن، قصاصاً حقيقياً من الله تعالى، وانتقاماً إلهياً من شخص مثقل «بالخطايا على الأرض». إن تجوال الشاه عبر مستشفيات أميركا الوسطى، ونيويورك، وفي آخر الأمر القاهرة، أرضى الشيوخ الذين كانوا قد أفتوا باغتياله.

وبعد مغادرة الشاه بوقت قصير، سنحت لي الفرصة أن أجلس عند قدميّ «حجة الإسلام خلخالي»، قاضي الإعدام، الذي أورد في قائمته أسماء أعضاء آخرين من أسرة الشاه، الذين حكم عليهم بالإعدام غيابياً. وقد جلس حوله حوالى عشرين من حراس الثورة المشوّهين من جرَّاء الحرب الثورية التي شنَّت على الأكراد في شمالي ـ غربي إيران؛ وكل منهم يطقطق بأصابعه المعدنية التي ركِّبت له حديثاً، ويديه ورجليه، بينما رجل الدين يلخص المصير الذي ينتظر أعداءه الأرستقراطيين. وكان خلخالي نفسه هو الذي حكم على يافع بعمر ١٤ سنة بالموت، والذي وافق على رجم امرأة حتى الموت في «كرمنشاه». وهو هو الذي كان في مستشفى للأمراض العقلية، يخنق القطط في زنزانة سجنه، حتى لُقِّب «بالقط» (غوربيه). وقد قال لي القط: «إن الشاه سيُشنق ـ ثم يُنزل ويسحق، إنه أداة إبليس».

وفي الواقع، كان الشاه بديلاً ضعيفاً للشيطان، ولا يكاد يكون نداً مساوياً «لفاوست»؛ لأنه باع نفسه لوعدٍ بالنفوذ العسكري العالمي، ولما كان يبدو أنه دعم أميركي دائم. وكانت جوقة السلّابين النهّابين الطفيليين الذين تابعوا الشاه حتى منتصف الطريق عبر العالم، مجموعة من الجراحين والأطباء والممرضات المندفعين الجشعين، الذين قذفوا الرجل المحتضر بالأقراص، وصفائح الدم، والأمل الخدَّاع. إنهم عملاء الظلماء الذين يمثلون تكنولوجية العالم تمثيلاً جيداً، تلك التكنولوجيا التي باع الشاه نفسه لها منذ وقت طويل. وكان أصدقاؤه السابقون ـ الملك حسين ملك الأردن، والملك خالد ملك العربية السعودية، والملك الحسن، ملك المغرب، والسويسريون، والنمساويون، والرئيس كارتر، ومرغريت تاتشر ـ إما قد أنهوا إقامته عندهم، أو طردوه، أو نقضوا وعدهم له بقبوله، عندما أحسّوا بالثمن السياسي الذي سيدفعونه لإيوائه ـ وكان الحاكم الوحيد الذي احترم دعوة «لكارتر»، عندما أراد الأميركيون ترحيله من نيويورك، هو الرئيس السادات، رئيس جمهورية مصر. أما الرئيس «توريجوس» رئيس «باناما» الذي أعطى الشاه ملجأ مؤقتاً، والذي أراد أن يغوي الملكة فرح، التي رفضته وصرفته نهائياً ـ فقد رثا رثاء متشفّياً «نور الآريين» وقال: «هذا ما حدث لرجل عصرته الدول الكبرى؛ ثم لفظته بعدما استهلكت ما فيه من نَسغ».

(*) كانت هناك أيضاً متشابهات مستغربة مع نكبة أميركا الأخيرة في العراق. فقد أصرّ الشاه دائماً وهو في الحكم على أن أعداءه هم «الشيوعيون» و«المتعصبون». كما كان الرئيس «بوش» يدَّعي دائماً أن أعداء أميركا كانوا «بقايا صدام» و«الإرهابيين الأجانب». فلم يعترف الشاه ولا «بوش» بأنهما يواجهان عصياناً شعبياً داخلياً.

وفي آخر المطاف، مات الشاه في القاهرة بتاريخ ٢٧ تموز/يوليو ١٩٨٠، وأودع الثرى في قبر متواضع في مسجد الرفاعي. وبعد ست سنوات، ذهبت في حر الصيف مع صديق إيراني لنلقي نظرة على مثواه. وكان الوقت عند الظهر. ولم يكن هناك سوى حارس واحد في المسجد، رجل مسنّ، أشيب، رضي أن يرينا المرقد الأخير للرجل الذي ظن أنه الخلف الروحاني لكسرى الكبير. وكانت هناك بلاطة رخام يتيمة تجثم فوق المثوى، مع قصيدة مكتوبة بخط اليد تعلن إيماناً ثابتاً بالشاه من قبل أحد حراسه «الجافيدان»، فضلاً عن بعض الورود المنثورة على الضريح. جاء إلينا الحارس الهرم، وتمتم: «بخشيش». فاتفقنا معه على ٥٠ قرشاً. وفي آخر الأمر، كلفتنا زيارة ضريح ملك الملوك ٤٠ سنتاً.

إن الثوريين المسلمين الذين ظهروا وراء آية الله الخميني كانوا من الطبقة الوسطى، ويا للغرابة! ومنهم صادق قطب زاده، مدير التلفزيون، ووزير الخارجية فيما بعد. مع العلم أنه أُعدم في تاريخ لاحق بتهمة التآمر ضد الخميني. وقد تخرج كل هؤلاء من جامعات أميركية؛ وكانوا يتكلمون الإنكليزية بلهجة أميركية؛ مما يعني أنهم يمكن أن يظهروا فجأة وبسهولة على شاشات التلفزيون الأميركية. وكثير منهم كانوا يزدهون بأصلهم غير «البروليتاري»، مثل نائب رئيس مجلس الوزراء أمير عباس انتظام، الذي صرّح لي يوماً باعتزازه أن تكون الثورة صادرة عن الطبقة الوسطى، ثم انحنى إلى الإمام وربّت على صدره مكرراً قوله: «أنا معتز بذلك». وكان مكتبه متواضعاً بالمستويات الوزارية، فيه طاولتان، وأريكة عريضة، ومجموعة كراسي غير مرتبة، وتلفون يخرخر في زاوية المكتب دون أن يجيب عليه أحد. وقد يكون من العسير أن تجد أحداً له صفات أبناء الطبقى الوسطى أكثر من «انتظام»، بتربيته الأميركية، ومهنته الكثيرة الأسفار كمهندس. ولكنه كان يقول الحقيقة، بطريقته الخاصة. فالقوة الفيزيائية وراء الثورة لفترة كانت ممثلة بالتظاهرات العملاقة في الشوارع التي قام بها الفقراء من سكان المدن، والمجدّدون الإسلاميون. لقد كانت تلك الطبقة الوسطى من البازار، الممثلة بعشرات الألوف من التجار الوافدين من أكبر سوق في الشرق الأوسط، الذين حاول الشاه أن يدجّنهم بنظام حرفي. إنهم هم الذين وفروا الدعم الاقتصادي لعودة الخميني. إنها طبقة التجّار المتحالفة مع الشيوخ الأئمة (الملّات)، التي برزت كخليط حَرِج بين المعارضة العلمانية والدينية.

ولهذا السبب تجنَّبت الثورة الإيرانية حتى الآن السبيل التقليدي لمثل هذه التطورات، أي سلب البيوت ونهب ممتلكات الأغنياء. ولذلك، ما زال بإمكانكِ أن تستقلّ سيارة أجرة عبر طهران، وتخرج إلى الضواحي الشمالية عند أقدام الجبال، لتجد أن الشقق الفخمة، وبيوت الوفرة التي تظلل الأشجار شرفاتها، مع أحواض السمك الذهبي، كلها لم تمسّ. فالحكومة لم تصادر تراكم الثروة. ولكن هذا الوضع بدأ يتغير منذ أواخر آذار/مارس ١٩٧٩. فقد استولى العمال على المصانع في شمالي إيران حول بحر «قزوين»؛ بينما قاد اليساريون الثورة في شرقي «كردستان»، ولم يستطع الدينيون أن يحتفظوا بنفوذهم هناك ـ فقد صودرت الممتلكات. وكانت الحكومة المؤقتة التي عيَّنها الخميني تتلقى تقارير حول مزيد من مصادرة الممتلكات قرب «مشاد»، وبدء انتشار هذا النمط باتجاه طهران.

وقبل ذلك بأسبوع، علم «فاريبورز عطابور» أكثر صحافيي المدينة إنتاجاً وصراحة، بأن والده قد أوقف. وتبيّن أن ذلك الوالد الذي يملك عقاراً على شاطىء بحر قزوين، ذهب إلى مصرفه المحلي في طهران، ليقبض شكاً، فأوقفه أمين الصندوق الذي ظن أن عميله غني، وبالتالي فاسد. مع العلم أن السيد «عطابور» الأب البالغ من العمر سبعين سنة، كان جندياً في الجيش الإمبراطوري، لكنه تقاعد من الخدمة العسكرية منذ ٢٧ سنة، وهو الآن مدين إلى حد كبير. ومع ذلك، أوقفته في المصرف «كوميته» (Komiteh)، أي لجنة ثورية شديدة التسلح، وحملته إلى سجن «القصر». وعلى الأقل ظن ابنه أنه سُجن هناك.

لم يصدر أيّ بيان رسمي عن «الكوميته»؛ حتى أن الحكومة لم تستطع الوصول إلى السجن. وقدّر عدد المساجين هناك الآن بثمانية آلاف سجين في الداخل ـ بينما كان حوالى ألفي سجين في أيام الشاه ـ واستغرق الأمر بالصليب الأحمر عدة أسابيع للسماح له بدخول السجن وتفقده. فغضب إبنه الصحافي، وقال: «لقد تدهورت حالة هذه الثورة إلى مستوى الانتقام الصغير والاستبداد، بحيث تمكن مقارنتها بالإرهاب اليعقوبي (Jacobin) خلال الثورة الفرنسية. إن تجار السوق لديهم مال أكثر من والدي، ولكنهم لا يهتمون بمصيره. ولا يهتم بذلك أيضاً القادة الدينيون. فقد تكلمت بالتلفون مع آية الله المحلي في منطقتنا على بحر قزوين، فقال إن أبي يجب أن يكون فاسداً، لأنه غني. ولم يسمح لي بالرد على اتهامه لأبي، فأقفل خط التلفون».

كان «عطابور» الإبن يتوقع يومياً توقيفه هو؛ ولكن بعد ثلاثة أيام من حديثنا، أُسكت صوته الصحافي، عندما أعلنت جريدتا طهران الناطقتان باللغة الإنكليزية أنهما ستتوقفان عن الصدور. وأعطت إحداهما «جريدة طهران» (Tehran Journal) ـ التي كان يكتب فيها عطابور الإبن ـ حججاً اقتصادية لتوقفها عن الصدور؛ مع العلم أنه مضت أسابيع على تنديد «الكوميتات» الثورية بهذه الصحيفة بصفتها «معادية للإسلام». كما تلقى معظم الموظفين في هذه الجريدة مخابرات تلفونية مغفلة تهدِّد حياتهم. إن تشبيه عطابور الإبن لذلك بما حصل أثناء الثورة الفرنسية ـ المتعارض إلى حدٍ كبير مع حماس «إدوارد مورتيمر» ـ لم يذهب سُدى بشأن النظام العقائدي الجديد في إيران. فالدكتور أحمد سالامتيان، المساعد السياسي في وزارة الخارجية الإيرانية، عثر على مقارنة مقبولة. فقد جرت إعدامات أقل في إيران مما جرى في الثورتين الفرنسية والروسية، كما قال. وعندما لفتُّ نظره إلى أنه لم يكن هناك أي فرق إعدام بإطلاق النار أبداً بعد الثورة البرتغالية عام ١٩٧٤، اندفع يجيبني قائلاً: «ولكن في البرتغال، كانوا يريدون التخلص من «كايتانو» فحسب ـ بينما كنا نحدث انقلاباً على أكثر من ألفي سنة من الحكم الملكي». وكان ذلك رد فعل مثيراً للفضول، لأن الفكرة القائلة بأن بلاد الفرس بقيت ٢٣٠٠ سنة تحت الحكم الملكي الاستبدادي دون معوقات، هي فكرة ملفَّقة دبَّجتها مخيّلة الشاه؛ إنها أسطورة نُشرت لتبرير حكمه الاستبدادي التسلطي.

وكان اعتبار هذه القاعدة استبدادية من القواسم المشتركة القليلة بين أولئك الذين يدعمون الثورة. وكان اليسار في إيران قد سبق له أن أدرك أن رجال الدين ينصبون أنفسهم في مواقع السلطة والنفوذ. وقد سأل سالامتيان

قائلاً: «لماذا يدينوننا لمطاردتنا مجرمي الشاه بغية القضاء عليهم؟ ففي الغرب، سجنتم النازي «رودلف هيس». ونحن نعتبر عملاء «السافاك» من طراز المجرمين النازيين. وقد حاكمتم النازيين في بلاد الغرب. ولماذا لا نقدم النازيين عندنا إلى المحاكمة؟».

وكيف يستطيع المرء أن يناقش في هذا الأمر عندما يقوم مراسلون، مثل «دريك آيف» من «الصحافة المتزاملة»، فيتدبرون أمرهم ليلقوا نظرة خاطفة على بيت من بيوت عملاء «السافاك»، قبل أن تنجح الثورة؟ ـ دخل «آيف»، المبنى عندما كان حشد من الناس يقتحمون الباب الرئيسي. قال لي: «كان هناك في الخارج بركة للسمك، وأُصُص زهور في القاعة الأمامية. ولكن كانت هناك زنازين عند أسفل الدرج، في كل منها سرير من حديد الصلب مع أحزمة، وتحته موقدان بيتّيان. كما كانت هناك أيضاً أدوات لتخفيض مستوى السرير، بحيث يمكن تنزيل الناس المربوطين إلى مستوى يصلهم عنده اللهب. وفي زنزانة أخرى، وجدتُ آلة غريبة الشكل تمسك بالذراع البشرية تحت سكين، وقربها غمد معدني يمكن إدخال الذراع البشرية فيه. وعند أحد الطرفين، أثبتت قاطعة لشرائح اللحم. لقد كانوا يكشطون أيدي الناس». وقد وجد «آيف» كومة من الأذرع البشرية في زاوية «واكتشف في زنزانة أخرى أجزاء من جثث تعوم في عدة «إنشات» مما يعتقد أنه حمض. ومباشرة قبل أن يندفع رجال الشاه إلى مؤخرة المبنى، اختلس «آيف» بعض الصور لأدوات التعذيب.

بعد الثورة، تسنّى لنا أن نقابل بعض عملاء «السافاك» الكبار أيام الشاه. لم يظهر هؤلاء السجناء البالغ عددهم ١٨ رجلاً، مثلما تصور الأسطورة الشعبية رجال الشرطة السرِّية؛ بل كانوا رجالاً في منتصف عمرهم جالسين في سجن «إيفين»، يرتدون قمصاناً مفتوحة عند العنق، وسترات صوفية محبوكة، وسراويل من قماش مخملي مضلَّع، يدخنون السجاير الأميركية بعصبية. أحضروهم إلى مكتب حقير، مستطيل الشكل، يُوسَّع أحياناً ليستوعب محكمة ثورية. وكانوا منذ دخولهم إلى هذه الغرفة، ودودين، يبتسمون، أو يحدِّقون فينا، بينما يصفهم موظفو الحكومة بأنهم مجرمون.

ولكنهم كانوا يروون قصصاً مقلقة وأحياناً مخيفة. «فحسن سنا» المستشار الاقتصادي والأمني لنائب رئيس «السافاك»، تكلم عن تعاون الاستخبارات البريطانية مع الشاه. وادَّعى أنها كانت اتصالات صدوقة جعلت العملاء البريطانيين يعطون زملاءهم الإيرانيين معلومات عن الطلبة الإيرانيين في بريطانيا؛ مما يسمح للسافاك بمراقبتهم وتوقيفهم متى عادوا إلى طهران من لندن. وكان «سنا» متهالكاً على التدخين، يلبس نظّارة سوداء، وله ولع بالقمصان ذات الألوان الزاهية.

وتكلم «سنا» عن نقل عملاء «السافاك» بالطائرة من نيويورك بواسطة وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) إلى حيث يعطون دروساً في تقنيات الاستجواب والاستنطاق، في قاعدة أميركية سرِّية، برحلة ملغزة تستغرق أربع ساعات طيران عبر الولايات المتحدة بطائرة معتّمة نوافذها. وكنا، كصحافيين، قد طفنا سابقاً بمركز استجواب «السافاك» في مركز العاصمة، حيث وصف لنا نزلاء سابقون كيف جرى تعذيبهم. ولم يبقَ من ذلك سوى غرفة

سوداء القرميد، أرضها من الإسمنت ـ متماثلة تقريباً مع ما اكتشفه زميلنا «آيف» ـ حيث كان السجناء يُحَمَّصون على أسرَّة فوق مواقد غاز. وفي سجن «إيفين» هذا جابه «محمد صدَقَي» أحد عملاء السافاك ومن رافعي الأثقال، في لحظة مرعبة رجلاً ماتت إبنته عندما كانت تحت رعاية «صَدَفي».

صاح الرجل بصدفي: «لقد قتلتَ ابنتي؛ لقد حرقتم كل جسدها حتى أصابها الشلل. لقد حمَّصتموها». التفت صدفي إلى الرجل وأجابه بهدوء: «لقد شنقت إبنتك نفسها، بعد سبعة أشهر من السجن». فرد الرجل عليه بمعنى أنه لم يكن هناك في السجن شرشف يمكن للنزيل أن يشنق نفسه به. فقال صدفي: «بل كان»، فقد اطلع بنفسه على فواتير المغسلة في سجن «إيفين».

لقد قام نظام الشاه على مثل هذه الفظاعة وهذا الرعب؛ مما غذَّى روح الثورة. وإذا كان هناك من مفاجأة في إيران عند هذه المرحلة الأولى من حياة النظام الجديد، فهي ملاحقة عدد قليل من المطلوبين للعدالة بين أتباع الشاه، بدلاً من الكثيرين منهم. ولكن الثورة لم تنتهِ بعد. إنها لن تنتهي عند تلك المرحلة البورجوازية الصدوقة، التي أتعبت البرتغاليين. كما أنه لم تكن هناك أرض مشتركة بين الجمهورية الإسلامية الجديدة وديمقراطية الشعب التي تنشرها جماعات الجناح اليساري. فقد أصبح اليسار الآن «أكثر نشاطاً ـ إذ كان هناك إطلاق نار في الشوارع كل ليلة ـ والوضع يتفاقم بالتردي المستمر للأوضاع الاجتماعية؛ حتى أن الإمام الخميني وصف بلاده بأنها «حي الفقراء»(*).

ولكن مسؤولي الأمن في الدولة الإسلامية الجديدة، استمروا مقتنعين بأن بعض أعضاء الحكومة الجديدة يتطلعون إلى الولايات المتحدة كشريك ممكن للمستقبل، وليس «كشيطان أكبر»، كما أوحت بذلك مظاهرات الشوارع.

وكانوا مصيبين في موقفهم هذا. فبعد الاستيلاء على السفارة الأميركية في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩، بواسطة «الطلبة المسلمين المتَّبعين لخط الإمام»، وجد رجال الأمن أطناناً من أوراق المراسلات الدبلوماسية الأميركية ممزَّقة؛ ولذلك قضوا شهوراً من أجل إعادة جمعها وتلصيقها. وكان في هذه الأوراق كمّية مُحرجة من المواد حول عباس أمير انتظام، نائب رئيس مجلس الوزراء، واتصالاته بالحكومة الأميركية. وقد بدأ ذلك بشكل رسمي ـ فقد بقيت السفارة الأميركية مفتوحة بعد الثورة. وكان الموظفون الأميركيون يقابلون بشكل عادي رتيب موظفي وزارة الخارجية الإيرانية، من أجل ترتيب عودة الموظفين العسكريين الأميركيين والمدنيين ـ وقد أخبرت السفارة «انتظام» في شهر آذار/ مارس ١٩٧٩ «بأن الولايات المتحدة الأميركية ترغب في تطبيع العلاقات مع إيران

(*) كان في إيران إذ ذاك، ٣,٥ ملايين من الناس العاطلين عن العمل ـ أي حوالى ربع القوة العاملة ـ ونصف الناس يعيشون في مدن مكتظة بالسكان. وهناك قصور حاد في إمدادات الطعام، غير ناتج عن إصرار الخميني على أن لا يتناول المسلمون في المستقبل اللحم المجلَّد، بل عن رفض إيران باعتزاز استيراد المزيد من السلع الأجنبية. ومع ذلك، كانت إيران لا تزال تستورد من الأطعمة ما قيمته مليارا دولار أميركي حتى فصل الشتاء الماضي.

بسرعة ثابتة». فأجاب «انتظام» بحسب الوثائق «بأن حكومته أيضاً تريد إقامة علاقة طيبة مع الولايات المتحدة الأميركية. . . وقد صرح بازركان رئيس مجلس الوزراء بذلك علناً».

ولكن خلال أيام قليلة بدأ «انتظام» يعبّر عن رغبة حكومته في أن تتبادل «المعلومات الاستخبارية مع الحكومة الأميركية». وكان قد سبق للأميركيين أن أعطوا بشكل غير معقول تقريراً عن أفغانستان ـ إذ كان خوف الإيرانيين يزيد من أن يغزو الاتحاد السوفياتي جارتهم الشرقية ـ ولكن «انتظام» يشرح اليوم أن حكومته أكثر اهتماماً «بالتهديدات الداخلية لأمنها». وبحسب تقرير للسفارة الأميركية عن اجتماع تالٍ في أيار/مايو، قال «انتظام»: «إن حكومة إيران المؤقتة مهتمة بإمكان تدخل عراقيين في خوزستان، فضلاً عن أنشطة منظمة التحرير الفلسطينية والليبيين. وقد تناهت إلى حكومتنا معلومات مفادها أن جورج حبش، قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المدعومة من سوريا، قد زار مؤخراً عدة بلدان خليجية. . . بهدف افتراضي يرمي إلى إحداث مشاكل في إيران». كما أن مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في مدينة الأهواز الجنوبية كان مدار انشغال، لكن «انتظام» هزّ رأسه وقال «إن حكومته لا تستطيع أن تفعل شيئاً بهذا الصدد. . . لأن رغبة الإمام الخميني تقضي بأن يبقى مفتوحاً».

كانت تلك مادة لإضرام نار الفتنة. فهذا هو «انتظام» ـ الذي كان منذ أسابيع قليلة يفتخر أمامي بأن الثورة هي ثورة الطبقة الوسطى ـ يناقش مخاوف إيران الأمنية مع وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)؛ ويكشف لا عن معلوماته الاستخبارية فحسب، بل يعبّر أيضاً عن تضايقه من الشخصية الأكثر احتراماً في البلاد بشأن تعريض الأمن للخطر. وفي حزيران/يونيو، صار «انتظام» يسأل عن معلومات أميركية حول «نوايا العراق إزاء إيران». وأثناء ذلك الوقت، جرى تبادل إطلاق المدفعية عبر الحدود الإيرانية ـ العراقية. وذكر القائم بالأعمال في السفارة الأميركية، بعد إيراد أنه لا يعرف من بدأ بالتحرش. . . أنه يتصور أن يحاول العراقيون إقامة «سياج شائك» على حدود العراق مع إيران، على شاكلة السياسة البريطانية القديمة على خط «دوراند».

وعقد «بروس لاينجن» القائم بالأعمال الأميركي اجتماعات أخرى مع «انتظام» الذي صار في غضون أسابيع يتلقى زيارات مباشرة من كبار موظفي وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)؛ وصار اسمه يرد في المخابرات تحت الرمز غير الرومانسي التالي: (SD/POD/1). وعندما صار «انتظام» سفيراً لإيران في السويد، تلقى مذكّرة استخباراتية من «جورج كايف»، عميل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) الذي أضحى فيما بعد أحد قادة فضيحة «الكونترا» عامي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦، كما عقدت اجتماعات أخرى في طهران بين وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) و«بازركان»، و«انتظام» و«إبراهيم يزدي»، وزير الخارجية الإيراني. وزار «كايف» بنفسه طهران، واتفق مع «انتظام» على وجوب إجراء مخابرات، ومذكرات أو تعليمات وتقارير موجزة كل ثلاثة إلى ستة أشهر مع إمكان وجود معلومات خاطفة يجري تبادلها إذا كانت هامة؛ بحسب ما جاء في الوثائق التي أعيد تلصيقها. وقد سأل «انتظام» عن إمكان وجود اتصال في طهران لتبادل المعلومات على أساس منتظم. (ملاحظة: قدّم «كايف» كموظف تعليمات كبير من جماعة الاستخبارات. ولم يستخدم تعبير وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) أبداً).

وعندما اقتُحمت السفارة الأميركية في طهران، بعد قبول الشاه في الولايات المتحدة، وكشفت الطبيعة المتفجرة للاتصالات بين «انتظام» ووكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، في الملفات الممزقة التي أعيد تلصيقها، كما ذكرنا أعلاه، خسر «بازركان» و«يزدي» حظوتهما، وأوقف «انتظام» وحوكم بتهمة الخيانة العظمى، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة عام ١٩٨١، بعدما نجا من الإعدام. ولكنه استمر في القول إنه كان ثوريّاً حقيقياً يسعى لتوطيد علاقات مع الأميركيين لمصلحة إيران.

وقد رأت «معصومة إبتكار» ـ وهي من المقتحمين الرئيسيين للسفارة الأميركية ـ الأمر بشكل آخر، في ما كتبت حيث قالت: «يبدو أن وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) اعتقدت أنها تستطيع التلاعب بأية ثورة أو نظام سياسي، إذا نجحت في التسلل إلى مراتبها العليا باكراً. وفي إيران كانت تلك الوكالة مصمِّمة على ذلك. ولها من ماضيها خبرة وافية لذلك». وبحسب قول «ابتكار» وجد تلامذة الإمام بطاقات هوية وجوازات سفر مزورة لعملاء وكلاء الاستخبارات الأميركية (CIA) في السفارة، بما في ذلك طوابع وأختام لدخول المطار، وسمات خروج مزورة لأوروبا وآسيا؛ فضلاً عن ١٠٠٠ جواز سفر مزيَّف من «غانا». وتناولت الوثائق الأخرى مناصري الملكية «الذين تورطوا في قتل إرهابي». ولكن حتى لو كانت هناك عملية من نوع «آجاكس» قيد الاعتبار في واشنطن، فلا شك في أنها اندثرت في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩.

ولم تخلُ حياتنا في تلك الأسابيع الأولى من قيام الجمهورية الإسلامية من دعابة، وما دامت إيران قد احتفظت بنظام السمات الحرَّة التي كانت قيد الاستعمال تحت حكم الشاه، فقد كنَّا نستطيع دخول إيران والخروج منها كما نشاء ـ حتى أني طرت إلى «دبلن» لإجازة آخر الأسبوع، مغادراً طهران صباح الجمعة، وعائداً مساء الإثنين ـ ولم تؤثر علينا القوانين الجديدة للنظام إلّا تدريجاً. وبقينا أشهراً في فندق أنتركونتيننتال بطهران ـ الذي سمّي فيما بعد «لاليه» أي الوردة بناء على شعار النظام ـ استطعنا خلالها أن نشرب الفودكا «بالبلينيز» (Blinis). ولكن ما لبث تحريم الكحول أن فُرض بسرعة. ولا يزال لديّ نبذة تذكارية من إدارة الفندق، دُفعت إليّ من تحت باب غرفتي بتاريخ ٢١ آذار/ مارس ١٩٧٩، تقول: «نظراً للإمدادات المحدودة من المشروبات الكحولية في البلاد، ولغلاء أسعار هذه المفردات، اضطرت الإدارة إلى رفع السعر بنسبة ٢٠٪. شكراً. ولم يطل بنا الوقت حتى دعت «كوميته ثورية» الصحافيين إلى أن يشهدوا إتلاف المخزونات الباقية من الكحول الشيطانية في أقبية الفندق. وبينما دارت آلات التصوير، قذف المسلحون بزجاجات الشمبانيا من ماركة «پول روجر» في قعر بركة السباحة الفارغة، مع أفخر النبيذ الفرنسي و«جن» و«غوردون»؛ حيث تراكمت الزجاجات إلى علو حوالى قدمين، وفاحت منها روائح التخمير التي غمرت الفندق أياماً تالية. ولكن، كان هناك أيضاً مطعم من كوريا الجنوبية يتفادى السلطات؛ إذ كان موظفوه يطمرون صناديق الجعة (البيرة) الألمانية في حديقتهم. وكان على الزبائن أن ينتظروا عشر دقائق حتى تستقدم كل جعة إلى طاولتهم معفَّرة بالتراب.

وبقيت الطبقات الوسطى العزيزة على قلب «انتظام» تكرم ضيوفها. وفي إحدى الأمسيات دعيت إلى عشاء في

دارة أرضها من رخام، وفيها لوحات زيتية مقلّدة للنهج الفني «الباروكي» أي ذي الأشكال المنحرفة أو الملتوية، في شمالي طهران؛ حيث كان زوجان شابان يستقبلان مجموعة من الكتاب الإيرانيين والداعي لكم، بإنشاد الشعر، وبوليمة من بذخ ما قبل الثورة، مع كؤوس «فودكا» بيتية التحضير. أثارت مضيفتنا الجذابة فضولي، إذ يقال عنها إنها كانت آخر خليلة للشاه. وكان الشاه إذا أراد أن يطارح الحب امرأة، كما يقال، يدعوها للدخول إلى قصره من أحد الأبواب الجانبية، حيث تقضي معه ساعتين في صالون خفي ـ وقبل المغادرة ـ يهديها جرو كلب من نوع «لابرادور» كتذكار لعاطفة ملك الملوك نحوها. ونظراً للتنافر في سمعة الرجل، كنت غالباً أتساءل لماذا لا توجد في طهران مئات من كلاب «لابرادور» الشاردة؟ أبعدت عن خاطري كل هذه الأفكار عند نهاية العشاء، ووقفت أودّع مضيفيّ، فإذا بباب مطبخ ينفتح باندفاع فجأة ويُقذف منه شيء أوبر عليّ، ويطالعني إذ ذاك وجه صدوق لكلب ذهبي من نوع «لابرادور»، ينظر إليّ كما لو كان ينتظر طوال السهرة ليتعرف إليّ.

وللتعرف على طبيعة حياة الشاه، دعتنا وزارة الإعلام، المتمتّعة الآن باسم «وزارة الإرشاد الإسلامي»، لزيارة قصر «نيافاران» شمالي طهران. وإذا كان صحيحاً أن «ريتشارد» الثالث بادل مملكته بحصان، فقد اشترى الشاه من حريته مجموعة من القصور، وكومة من السجاد العجمي لا تقدر بمال، ورسماً تخطيطياً من «مارك شاغال»، ونموذجاً من القرن السابع عشر لسفينة أرقّاء صينية، مصنوعة من ذهب عياره ٢٢ قيراطاً، ومكتبة من طابقين، ومجموعة من البيانوهات تحمل المرء على جناح النشوة، وجهازي تلفون من الذهب الخالص.

وقف أحد موظفي الحكومة الإيرانية تحت قضبان شجرة «البتولا» الفضية في قصر «نيافاران»، على مرجة خضراء يلعب فيها الهواء، وقام ببيع موجودات القصر، في جلسة من جلسات البيع التاريخية في هذا القرن. ولم يكن ذلك سوى فُواق مؤقت في تقدم الثورة ـ التي أثبتت أنها كذلك. أعلن الموظف: «سنطرح الموجودات بالمزاد؛ ثم تُحوّل القصور إلى متاحف». وهكذا بقينا نشاهد شيخاً بعمامة، ومسلحين برشاشين آليين من طراز (G-3)؛ وهم يجرُّون ويعرضون سجادة أصفهانية قرمزية وذهبية مصنوعة باليد، تبلغ مساحتها ٣٠ قدماً مربعاً، عبر الأرض الخشبية لقاعة استقبال الشاه. وعلى كل سجادة ظهرت صور أميرات شرقيات، وطيور تتباهى بريشها، وحيوانات بريّة كاسرة ودخيلة، متداخلة مع تطريز النسق العربي في الزخرفة؛ ولكل سجادة لصاقة عليها رقم الجردة: مما يدل على أن للثورة حكاماً جداً فعّالين، ولو كان لها ضروب من الصعود والهبوط. وفي الأسابيع القليلة السابقة، دلّت التقارير على أن سجادات الشاه جلبت دخلاً مقداره ١٥ مليون دولار أميركي.

وعلى المرء أن يُقرّ بأن ذوق الشاه في المفروشات كان رهيباً. ففي متروكاته تجد الكراسي «الباروكية» الفرنسية معششة حول طاولات من البلّور والصلب، بينما أكثر أباريق القهوة أو الشاهي تنافراً ـ تلك التي غيّرها صائغ الفضة بسحره الأسود إلى طواويس بشعة ـ موضوعة على طاولات حفرت فيها الفسيفساء في الخشب بعناية. أما زجاج الجدران المزخرف مع غبار خفيف عليها فيذكّر بدور السينما البريطانية في الثلاثينيّات من القرن العشرين. هكذا ترك الشاه وزوجته قصرهما في كانون الثاني/يناير ١٩٧٩، عندما غادرا في «عطلة» انقلبت إلى نفي مؤبّد.

إن القدر لا يعطف على الناس العاديين، ويسمح لهم بأن يتجولوا في قصر الشاه المموَّه بالذهب؛ وتحدث أشياء غريبة عندما يُترك المخلوق الإنساني لشأنه في أحضان هذه الوفرة من الغنى. فعندما دعيت الصحافة الدولية إلى ما سمَّاه «أبو الحسن صادق» من وزارة الإرشاد تهكُّماً «حي الشاه للفقراء»، كانت هناك مشاهد شبيهة بغزو الأوستروغوت Ostrogoth لروما (قبائل شمالية بربرية غزت روما ودمّرتها في القرن الخامس). فقد تعثَّرنا بكومات من السجاد، واندفعنا لندخل إلى المكتبة، ونكتشف ما كان الشاه يقرأ في أوقات فراغه. كانت هناك كتب مجلّدة بالجلد لـ «فولتير»، و«فرلين» و«فلوبير»، و«بلوتارك»، و«شيكسبير» و«شارل ديغول». وكانت أعمال «ونستون تشرشل» الكاملة قائمة إزاء «الملّاح القديم» لـ «كوكريدج» ـ وهو مؤلَّف ملائم للقراءة خلال رحلة المنفى ـ وسيرة حياة المهاتما غاندي. أما كتاب «شعبي» لـ «أبا إيبان» وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق ـ الذي كتبه جزئياً في الواقع أحد محرري مجلة «تعليق» ـ فكان على رفٍ منخفض، وعليه الإهداء بخط اليد: «إلى صاحب الجلالة الإمبراطورية، الشاهنشاه»؛ وعلى رف آخر كانت مذكرات «غوبلز».

وفي المكتب الخاص للشاه، لم يستطع الحراس أن يمنعونا من أن نطلب رقماً بالتلفون المذهب. وعلى الشرفة فوق غرفة الجلوس، كان هناك شاب يحمل رشاشاً على كتفه ويهتم بأن يراقبني وأنا ألعب بالإصبعين صيغة من تأليف «باخ»: لحن على خليط G على «البيانو القيثاري» الذي أهداه إلى الشاه الملك «بودوين» والملكة «فابيولا» من بلجيكا. وبوسع الساعين وراء التذكارات أن يعرضوا أسعاراً للألعاب التي كانت للأميرة ليلى، إبنة الشاه البالغة من العمر ثماني سنوات. ومنها: نموذج مصغّر لطائرة، وبعض لعب الدببة، بجانب خزانة غير بعيدة عن الفراش ذي الجياد الأربعة. وعلى خزانة جانبية صورة لعائلة الرئيس الأميركي مع تحية خطية: «مع أسمى الأماني؛ روزالين وإيمي كارتر». كما كان هناك أيضاً لوح أسود يبيّن المحاولات الأولى لليلى في الكتابة بالطبشور للأرقام العربية بصيغتها الأوروبية. وفي غرفة دراسة الشاه، كانت الروزنامة لا تزال تسجل ١٦ كانون الثاني/يناير، يوم غادر الملك مملكته. وفي منفضة رماد السجاير الذهبية، وجدت خمسة أعقاب مغبَّرة لخمس سجاير، شهدت ساعات الكآبة الأخيرة من الحكم الامبراطوري.

وكانوا قد أخذونا سابقاً إلى أحياء الفقراء في جنوبي طهران في محاولة إلزامية ثقيلة الوطأة إنما بالغة الفعالية من قبل وزارة الإرشاد لإبراز الاختلاف بين أسلوب عيشة الشاه وأسلوب حياة شعبه. شاهدنا هناك أولاداً يلعبون على الأرض الترابية بساحة «ناجحين» ذات الرقم ٩٤، ونساء يغسلن فوق مجاري الصرف المفتوحة. وكانت أحياء الفقراء في طهران تبدو أقل فقراً من شقق القاهرة؛ كما كان قصر الشاه متواضعاً بالمقارنة مع قصور بعض الحكام العرب. ولكننا فهمنا المقصود ـ حتى لو امتزجت رائحة مياه البواليع القذرة بغرابة مع عطر آنسات الوزارة، الباهظ الثمن.

كان هناك كثير من الغرابة في طهران. فقد كان مجرى الحياة العادية لتلك المدينة الكبرى، القذرة، ذات إعاقات السير، بحد ذاته، أكثر صخباً من أزمة العلاقات الإيرانية ـ الأميركية. وبالرغم من كل الكلام عن الغوغاء

المتعصِّبة، كنت أستطيع أن أركب الباص ذا الرقم ٢٠ ـ وهو باص مطلي بالأخضر من نوع «اليلاند» ذو طابقين ـ لأذهب إلى مركز المدينة، أشتري الثياب الفرنسية من المتاجر الغالية الأسعار؛ أو أتناول وجبة خفيفة من دجاج «كنتكي». وصار الإيرانيون المفطومون على أسلوب الحياة الأميركي، غير قادرين على شراء زبدة الفول السوداني من ماركة «سكيبي»، أو جبنة «كرافت» من المخزن الكبير المسمَّى «فور شاغ بوزورغ»، وتمشياً مع آراء الإمام الخميني حول المظهر الذي يليق بالنساء، حرِّمت مستحضرات التجميل الفرنسية والأميركية. لم تكن طهران مدينة جذابة بحسب المستويات الغربية والشرقية. والصفوف المربعة لمبانيها والضعف المعماري لواجهات الحوانيت المبنية في الستينيّات من هذا القرن، أعطياها طابعاً عقيماً على شاكلة ما نجد في أوروبا الشرقية. مع العلم أن أهالي طهران أنفسهم يواجهون مشكلات في الجغرافيا السياسية للمدينة، لأن الشوارع الرئيسة غيِّرت أسماؤها بحسب التعليمات الثورية. وهكذا اندثر شارع بهلوي وأصبح شارع الدكتور حسين فاطمي، وزير الخارجية الأسبق في حكومة مصدّق، الذي أعدم بعد شهرين من «عملية آجاكس»(*).

وصار مكتب وكالة «رويتر» للأخبار في طهران موضعاً للإصلاح الروحي. وعندما فتحت بابه لقيت مديره «هارفي موريس»، محاطاً بغمامة من دخان السجاير الكثيف، مع زجاجة «ويسكي» على طاولته، وعلى وجهه نظرة مفاجأة أليمة. كان جالساً بشاربي «مارك توني» وشعر أشعث متعجباً من تصرفات الثورة. فهي تبدو مفرطة في الخيال بشكل لا يطاق؛ وهي شجاعة، ومضحكة كما هي قاسية. وكان عليه أن يحمي موظفيه من «الكوميته» وأن يبقي الكتّاب الأحرار الإيرانيين خارج السجن، وأن يراعي وزارة الإرشاد الإسلامي. وكانت الوزارة هي التي سببت له أزمته الأخيرة، إذ طلبوا منه تاريخ وكالة رويتر للأنباء، فعبس وقال: «ولذا، قام الطيبون في مكتبنا اللندني بإرسال مجلد عن مؤسس وكالتنا «بول يوليوس، فرايهر فون رويتر» لأسلمه إلى الوزارة. ولكن تبيّن أن البارون السعيد الذكر بنى نصف خطوط السكة الحديد الدامية في هذا البلد، وأن «التنازل لرويتر» الصادر عام ١٨٧٢ منح الرعايا البريطانيين احتكاراً لجميع موارد إيران الاقتصادية والمالية. يا إلهي! كيف أستطيع أن أعلم رجال الوزارة بأن مؤسس وكالتنا كان أسوأ من الشاه السيّىء الذكر؟!.

أدركت قصده. لكن «هارفي» كان حاذقاً، يخفي وراءه مظهره الخامد المرهق رجلاً قادراً، ظريفاً، ذا فكر شرير أحياناً. كنت أمرّ كل مساء لأثقب نسختي بآلته السلكية، ولأخبره ماذا استجدّ هذا اليوم في تقاريري عن نشاط الشوارع، وعن أسفاري خارج طهران. وكان ينفحني بدوره بعض أخبار المؤتمرات الصحافية أو الفضائح ـ مثلما حصل لمدير التلفزيون «قطب زاده» الذي طلب من سكرتيرته أن تصور على الآلة الناسخة بعض الأوراق الرسمية التي انحشرت بينها رسالة من خليلته الفرنسية؛ فسحب من تلك الرسالة ألف نسخة. وكنت أتلقى من

(*) لم تكن التغييرات شيئاً يذكر بالمقارنة مع المشكلات التي انتابت رؤساء تحرير «أطلس التايمز» في لندن. ففي ١٣ كانون الأول/ ديسمبر تلقيت رسالة من «باري وينكلمان» من دائرة الكتب في «التايمز»، يطلب فيها الأسماء الجديدة للشوارع، ومنها: «بهلويدز» في كردستان، وخزان «رضا شاه بهلوي» شمالي «دزفول»، و«شاهريزا» في جنوب أصفهان. وفي طهران أراد أن يعرف الإسم القديم لجادة «تليغاني»، والجواب هو شارع «تخت ـ إي ـ جمشيد».

«هارفي» في الصباح مكالمات هاتفية، إذ يقول فيها مثلاً: «يا فيسكي، قد يهمك أن تعلم أن رجال خلخالي قد فتكوا بأناس آخرين بتهمة «الفساد في الأرض». أو يقول في الغالب: «هناك مظاهرة خارج السفارة الأميركية ـ والأفضل أن تذهب أنت لا أنا!».

ومن الغرابة بمكان، أن يصبح اقتحام السفارة الأميركية وعقابيله عملاً مضجراً للصحافيين. فالأميركيون لن يسلموا الشاه إلى «العدالة» الإيرانية، والإيرانيون لن يفرجوا عن الرهائن حتى تتواضع واشنطن. وإن نقل الشاه من مستشفاه في نيويورك، وإلقاءه في «باناما» لن يهدّئا الثوريين في إيران. وهكذا، كنّا نشاهد كل يوم عشرات الآلاف من المتظاهرين، من طلاب، وحراس مسلحين، وأعضاء في المنظمات الإسلامية، يتدفقون بمحاذاة السفارة ـ التي يشار إليها رسمياً الآن بأنها «العشّ الأميركي للجواسيس» ـ مناشدين السماوات بإعادة الشاه فوراً، ومنددين بالرئيس «كارتر» كمثير للحروب. لقد ألفنا ذلك إلى درجة الرتابة. كان صراخهم «فليسقط كارتر، فليسقط الشاه» يدوِّي لعدة دقائق يتخلله نداء: «أيها «اليانكي» الأميركيون، اذهبوا إلى بلادكم». وعلى جانب الطريق، يتجمهر بائعو «الهامبرغر» وعصير جذور الشمندر، والبطاقات البريدية.

وكانت الحشود تقف استراتيجياً لتظهر صورتها على شاشات التلفزيون. وكان مسموحاً للصحافيين أن يقتربوا من السفارة وأن يحدِّقوا النظر إلى الداخل من بواباتها المصنوعة من الحديد المطاوع؛ بل كانوا يشجعون على ذلك. كان الرهائن محتجزين في الأبنية الرئيسية للسفارة؛ وفيها الرجال مقيدو الأيدي، لا يمكن أن يُروا؛ بينما كان الطلاب يرفعون شعارات على سطح صف المباني المخصصة للاستقبال، وداخل الباحة الأمامية. لقد فرغوا الآن من نصب صورة زيتية على علو خمسة أمتار، كعمل رمزي، مستوحى من صورة التقطها «جو روزنتال» لجنود البحرية الأميركيين، وهم يرفعون علم النجوم والتقليم الأميركي على «أبو جيما» عام ١٩٤٥. وفي هذه الحال، حل حراس الثورة المسلحون محلّ جنود البحرية، وكانوا يجاهدون لرفع علم إسلامي أخضر، علق أحد أطرافه وظهر بأعجوبة كيدٍ تخنق النجوم والتقليم. لقد صار احتلال السفارة مسرحاً كاملاً مع مشاهد مصورة زيتية؛ بل أكثر من ذلك: أمسى كرنفالاً.

ومع ذلك فمن الخطأ اعتبار ذلك زيفاً. فقد عبَّر الإيرانيون عن احتقارهم للشاه بفصاحة ـ وبلهجة أميركية غالباً، على حد قول أحد طلاب جامعة طهران «البوليتكنيكية»: «أتريد أن تعرف لماذا نريد الشاه الملعون؟ لقد سرق ذلك الرجل خمسين ملياراً من الدولارات من إيران» وعاضده أحد جنود الطيران قائلاً: «إنه ابن حرام قام بأكبر عملية نهب وسلب في العالم».

وكانت لهجته بالإنكليزية تشبه نطق سكان شرقي نيويورك، وتفصح عن العلاقة بين إيران وأميركا أكثر من أية بلاغة سياسية. ويبدو أنه لم يسبق أبداً لمثل هذا العدد الغفير من الثوريين أن عملوا وتعلموا في بلد يعتبرونه اليوم مسؤولاً عمّا عانوه في الماضي(*).

(*) ومما يرد على الذهن أيضاً في هذا المقام، إيرلندا عام ١٩٢٠.

وكان عدد الإيرانيين الذين كانوا في الولايات المتحدة يرقى الأميركية إلى نصف مليون شخص أحياناً أثناء حكم الشاه. وكان كثير منهم في الكليات والجامعات؛ كما كان بعضهم هاربين من نظام الشاه. بينما كانت آلاف عديدة منهم تحت التدريب العسكري؛ وكان الضباط الإيرانيون يتباهون ويتغطرسون بالقيام برحلة مجانية إلى نيويورك، على متن طائرة نفاثة إيرانية. وعلى سبيل المثال، نذكر أن الدكتور إبراهيم يزدي، الذي استقال الآن كوزير للخارجية، وقد عمل طبيباً في أميركا طيلة ١٧ سنة قبل تعيينه رئيساً مساعداً لمجلس الوزراء في تموز/يوليو ١٩٧٩، والذي استشهد في حرب إيران والعراق، ساعد في إقامة جمعية الطلبة الإسلاميين في أميركا عام ١٩٦٢، مع «صادق قطب زاده»، الوزير القائم بأعمال وزارة التوجيه الوطني».

وقد انبرت فتاة إيرانية درست الصحافة في نيويورك ـ وخبرت على حد قولها الديمقراطية الأميركية ـ وطلبت أن تعرف لماذا يدعم الأميركيون نظام الشاه، عندما يعارض هذا النظام الحرية الفردية وحق الاختلاف، بقولها: «لقد تعلمنا في الولايات المتحدة الأميركية كل شيء عن حرية التعبير عمّا نريد أن نعبّر عنه. ومع ذلك، استمرت أميركا في تقوية الشاه وقسره على تبذير ثروة إيران على التسلح. لماذا فعلت أميركا ذلك؟ ولماذا تكون أميركا ديمقراطية في بلدها، ودكتاتورية في الخارج». إن في ذلك طبعاً تناقضاً صارخاً وإن التزام الرئيس «كارتر»، المعروف في إيران بحملته من أجل الحقوق الإنسانية، بدعم الشاه قبل الثورة مع بعض التردد، يعتبر نفاقاً؛ حتى لو كانت إدارته تعارض شكلاً الطبيعة الدكتاتورية لنظام الشاه، وتحثه على اتباع سياسة ليبرالية في بلاده.

كما اعتبر الإيرانيون أن من العسير احترام هذا الموقف، ومن اليسير رؤية شيء من السذاجة في تصريحات الرئيس «كارتر» خلال الأشهر الأخيرة من حكم الشاه. ففي تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٨، مثلاً، كان «كارتر» يصف الشاه «كصديق وحليف موالٍ»، ويقر بأن نقد سياسته «البوليسية» كان صحيحاً أحياناً، ولكنه لا يعرف تفاصيل ذلك. ولكن إدانة الإيرانيين وجّهت غالباً لأعمال الإدارات الأميركية السابقة أيام أيزنهاور، أو كنيدي أو نيكسون. وعندما كان الطلاب يصرخون مندّدين بمساوىء «كارتر»، كانوا يبدون معبّرين عن مشاعرهم السلبية التي شعروا بها حيال سياسات وزير الخارجية السابق «هنري كيسنجر»، والدور القوي الذي مثله، أيام كانوا يدرسون ويعملون في الولايات المتحدة الأميركية. وعلى سبيل المقارنة، نجد أن قليلاً من الطلاب الإيرانيين قد اختبروا إدارة «كارتر» ـ ما خلا معرفتهم بأن «كارتر» رفض تسليم الشاه إلى إيران. كما أن قلة من الطلاب الموجودين خارج السفارة، اهتموا بالآثار البعيدة المدى لاحتلال السفارة، وبإمكان أن تفضي إلى انتخاب «رونالد ريغان»، الذي قد يبدي قلة تسامح ورحمة في الشؤون العالمية، وكثرة حماس إزاء أعداء إيران الخارجيين.

أما رد الفعل الإيراني على القوى النافذة الشيطانية الصغرى فكانت تقريباً «دونكيخوتية». فعند السفارة البريطانية، التي لا تزال ملطخة بطلاء المظاهرات السابقة، جاء حشد يعبر عن رضاه عن عدم منح «شاهبور بختيار»، آخر رئيس وزراء لدى الشاه، حق اللجوء في المملكة المتحدة. وعندما وصل المتظاهرون أنفسهم إلى السفارة الفرنسية ـ التي أعطت بلادها إقامة مؤقتة لبختيار ـ عبّروا عن تقديرهم للملاذ الذي قدمته فرنسا لآية الله الخميني قبل الثورة.

ولكن لم ينفع أيّ مسعى سياسي في فك الحصار عن السفارة الأميركية. فقد تم تجاهل نداءات الأوروبيين، والسفير البابوي «شي ماكبرايد»، مؤسس لجنة العفو الدولية ـ فضلاً عن ٧٥ سفيراً يمثلون الجسم الدبلوماسي بكامله. ولم يكن حتى باستطاعة السفراء أن يزوروا «بروس لاينجن» الذي كان في وزارة الخارجية، عندما احتلت السفارة، والذي بقي هناك حتى إطلاق سراحه عام ١٩٨١. وقد أبلغ آية الله الخميني البابا بصراحة أن «يسوع المسيح ذاته كان ليقتصّ من الشاه». وقد قطع التلفزيون الإيراني بثّه حول «الرجل الثالث» ليعلن أن إيران أوقفت التزويد اليومي بالنفط للولايات المتحدة الأميركية البالغ ٦٠٠ ٠٠٠ برميل ـ كاستجابة متسرعة للقرار السابق الذي اتخذته إدارة «كارتر»، بوقف استيراد النفط من إيران.

وفي ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر، أعلنت إيران سحب ١٢ مليار دولار أميركي من إيداعاتها في المصارف الأميركية، فبادر «كارتر» فوراً إلى تجميد الأموال الإيرانية في الولايات المتحدة الأميركية. وقد قوّت كل خطوة جديدة نفوذ الحكم الديني الإيراني، وأضعفت نفوذ اليساريين.

وقد اجتمع نصف مليون طالب قرب جامعة طهران بتاريخ ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر لدعم الفدائيين، الجناح اليساري من حركة رجال العصابات التي أصبحت الآن غير شرعية في إيران، والتي لم تناصر احتلال السفارة. وقد وجدتُ داخل حرم جامعة طهران، «مهدي بازركان» يصلي يوم الجمعة، ثم يجلس القُرْفُصاء، وهو يرتدي كنزة غبراء، ويستمع إلى آية الله حسين علي منتظري، رئيس لجنة الخبراء الذين كتبوا الدستور الإسلامي الجديد لإيران، وهو يقول لسامعيه: «لقد كانت إرادة الشعب الإيراني وراء احتلال السفارة». وكان «يزدي» يجلس بجانب «بازركان» الذي استقال إذ ذاك لأن حصار السفارة قوّض وزارته. وكانت المادة الخامسة من دستور «منتظري» تنص على أن زعيماً دينياً يحظى بتأييد الأكثرية ـ «عادلاً، تقياً، مستنيراً، شجاعا، حصيفاً» ـ يمكن أن يصبح وصياً على الأمّة. ومن الواضح أن هذا الدور المرهق حتى لا نقول الشاق روحياً، لا يُعطى لأحد سوى الإمام آية الله الخميني.

وفي هذا الحكم الديني الجديد، لن يكون هناك مكان لحزب «توده» الشيوعي، وكان الشاه بعد قلب مصدّق عام ١٩٥٣ قد أعدم بعض زعمائه، بينما هرب آخرون. وعمّا قريب، سيأتي دور هذا الحزب ليُسحق من جديد، على يد الخميني هذه المرة.

ولكن بقي الحزب مناصراً رسمياً للخميني حتى شتاء عام ١٩٧٩ ـ حتى لو كان مكتب «نور الدين كيانوري» المكتب الوحيد في طهران الخالي من صورة الإمام؛ بينما كانت هناك لوحة نحاسية محفورة لصورة «لينين» فوق الدرج؛ وقد قطّب الأمين العام لحزب «توده» حاجبيه عندما سألته لماذا لا يركّز آية الله نظره نزولاً على طاولة مكتبه.

قال لي «إن عبادة الشخصية مذهب غير موجود في إيران. فنحن لسنا مثل الإنكليز، الذين يعلّقون صورة

الملكة في كل غرفة». ضحك «كيانوري» طويلاً لهذه الطرفة، مدركاً أن المقارنة كانت غير دقيقة. لقد كان رجلاً مدققاً، فكهاً إلى حدٍّ ما، له رأس أصلع، وعينان كبيرتان، وشاربان أغبران غليظان، يجعلانه يبدو كشخصية من رواية فرنسية عظيمة. لكن هذا الأستاذ السابق في جامعة طهران، وفي أكاديمية برلين الشرقية، كانت لغته السياسية أقرب إلى جريدة «البرافدا» منها إلى «زولا». لقد كان حزب «توده» منشغلاً «بالكفاح الراديكالي ضد الامبريالية» و«بمعاودة تنظيم الحياة الاجتماعية، ولا سيما للطبقات المسحوقة في المجتمع». فالحزب يريد «ديمقراطية شعبية»، لا بورجوازية تمسي شعبية كما في بلاد الغرب. وفي حدود الإمكان، يريد حزب «توده»، أقدم حزب سياسي في إيران، ما يريده آية الله الخميني. كانت هذه هي النظرية؛ وقد تشبّث بها «كيانوري» بشجاعة. والحقيقة هي أن نظرة «توده» إلى إيران الجديدة تكاد تطابق نظرة الاتحاد السوفياتي ـ التي كانت إذ ذاك مؤيدة للخميني.

قال «كيانوري»: «نقدنا النظام القائم؛ ولاسيما بشأن الحرية في الدولة وحقوق النساء. وانتقدنا أيضاً التعصب الإسلامي ـ إذ إننا ضد الأفكار التقليدية للعناصر المحافظة. ولكن بالنسبة إلينا، تمثل الناحية الإيجابية في آية الله الخميني مسألة هامة تتضاءل إزاءها الناحية السلبية وتندثر». فقاطعته بقولي: «منذ ثلاثة أشهر أدان الخميني حكومة حافظ الله أمين المدعومة من الاتحاد السوفياتي في أفغانستان لمناهضتها المتمردين المسلمين. أليس هذا اختلاف في الرأي؟». فأجابني «كيانوري»: «لكن نظرة آية الله الآن مختلفة. فلديه معلومات جديدة حول الوضع هناك».

هل كان آية الله مخطئاً إذن؟ ـ صحح لي «كيانوري» كلامي بقوله: «لم أستعمل كلمة مخطىء»، بل قلت إن نظرة آية الله تغيرت، فهو يعلم الآن أن الحركة الإسلامية المناوئة للثورة هي أداة بيد عملاء وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)». ألم يكن ذلك صوتاً سوفياتياً يكلمني؟ أليس حزب «توده» ناطقاً باسم الاتحاد السوفياتي؟ ـ كان الجواب: «ليس هذا صحيحاً. فالنقاد الحقيرون اتهموا «فكتور هوغو» بأنه جاسوس للإنكليز، وقد وصِمت شخصيات عظمى بأنها عملية للأجانب؛ لأن مثل هذه الشتائم تستخدم ضد القوى التي تحارب الإمبريالية. إن «توده» ليس الصوت الرسمي للاتحاد السوفياتي».

وفي تقريري لجريدة «التايمز» عن تلك المقابلة، ذكرتُ أن آية الله قد يقلل من قبوله للانتقادات المحدودة التي صدرت عن حزب «توده»؛ لكنني أخطأت في التوقيت. فقد أولى الخميني اهتمامه عام ١٩٨٣، في ذروة الحرب بين إيران والعراق، إلى حزب «توده» الذي يبغي «ديمقراطية شعبية». وعندما ارتدّ «فلاديمير كوزيكين»، ضابط (KGB)، سلَّم قائمة بالعملاء السوفيات العاملين في إيران، إلى السلطات البريطانية التي تشاركت في ذلك مع السلطات الإيرانية. فأوقف على الأثر أكثر من ألف عضو من حزب «توده»، بمن فيهم «كيانوري» الذي أُقنع بسرعة بأن يقرّ بأن «الحزب مذنب بتهمة الخيانة والتجسس لصالح الاتحاد السوفياتي». وظهر «كيانوري على شاشة التلفزيون الإيراني وقال إنه استمر في الاتصال بالعملاء السوفيات منذ عام ١٩٤٥، وأن أعضاء من حزبه كانوا يفشون أسراراً عسكرية ويسلّمون وثائق سياسية للسفارة السوفياتية في طهران. وعلى الأثر، طرد ١٨ دبلوماسياً سوفياتياً؛ وأرسل «كيانوري» مع زوجته «ريم فيروز» إلى سجن «إيفين» بعد أن حكم عليهما بالسجن عشر سنوات. ولكن لم يطل العمر «بكيانوري» الذي مات بعد إطلاق سراحه بقليل. وكانت تلك نهاية اليسار في إيران.

ولم تتح لي فرصة الجلوس في حضرة الإمام الخميني إلّا في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩. ومنذ أمدٍ بعيد كانت بريطانيا إمبراطورية، وكان مراسل جريدة «التايمز» يُعار أذناً صاغية من قبل رجال الدولة ورجال الحرب. فالشاهات والأمراء كانوا يطلبون أن تجرى لهم مقابلات. ولكن هناك إمبراطورية جديدة الآن، تضمن بأن يكون رجال التلفزيون الأميركي، وأولاد «النيويورك تايمز»، والصحافيون الأميركيون هم المعتمدون والناطقون باسم وزارة الخارجية الأميركية التي فازت بالحصول على هذه المقابلات. وكان أفضل ما يمكن أن أقوم به هو أن أنضم إلى فريق السلم الأميركي الجديد الذي أراد «آيات الله» ـ الذين يستشمّون النفوذ كالسياسيين ـ أن يكلموهم. ولذلك، سافرت إلى مدينة «قم» مع شبكتين من شبكات التلفزيون الأميركي التي قدَّرتُ مراسليها، لا مستخدميها. وأعجبت بخاصة برجلين هما: «جان هارت» و«بيتر جيننغز». فلا بد من أن يتحلى الأميركي بالشجاعة ليصف الثورة الإيرانية بتعاطف ونزاهة. وقد سافرت مرات عديدة مع «هارت» في طهران، إذ كان يقول: «الندغ «بوب» الشاب يأتي معنا، أليس كذلك يا بيتر؟ وعقَّب على ذلك بجلبة، وأنا أقف بجانبه، مؤكداً: «أعني أنه لن يعيق طريقنا. وممَّا يبعث في النفس الرضا، أن نساعد البريطانيين القدامى المساكين! وفي أية حال، إني متأكد من أن «بوب» سيكون ممتناً لأميركا». كان التهكم قسرياً؛ ولكن صاحبه أدرك تماماً مكانتي المتدنية بين صنوف الكتَّاب الصحافيين.

كان ذلك صباح يوم أحد مشرق من أيام الشتاء، ونحن ندلف باتجاه «قم»، بقبابها الزرق، ومآذنها الذهبية التي تتلألأ في الضياء. وكانت هذه هي الصورة التي تخيّلتها لمدننا الأوروبية في القرون الوسطى: بشكل أبراج عالية مستدقَّة على ظهر تلة أو على انحدار وادٍ. وهكذا، بدت «قم» صوفية عبر الصحراء، قبل أن نصل إلى مرائب ودكاكين إيواء السيارات وإصلاحها، والأحياء الفقيرة منها. لم نحتج إلى أن ننعتها بالمدينة «المقدسة» في تقاريرنا، بعدما قطعنا أميالاً من الكثبان الرملية الغبراء، وظهرت لنا كأعجوبة من الضياء والنفوذ. وبوسعك أن تدرك كيف يشعر الحجاج عندما تكتحل عيونهم بمرأى قبابها، وانعكاس الذهب على الأفق، وتجدد إيمانهم، بعد مسيرة أيام على الصخر والحصى والرمل الناعم. الله أكبر. من كل مكبِّر صوت في المدينة، وفوق كل ساحة من ساحاتها، يهدر هذا الصوت بالنصح والتسبيح. جئتُ مرة إلى «قم» عند الظهيرة في يوم قائظ، لإجراء مقابلة مع أحد رجال الدين؛ فقدّم إليّ تلميذ مسلم، بريطوني اهتدى إلى الإسلام، ماء بارداً في كأس من «البرونز». وما كدت أضع شفتيّ على الطاس حتى تهادت أمامي خارج النافذة شجرة «جاكاراندا» وردية في النسيم العليل؛ فشعرت كأني أرشف رحيق الحياة وأفرغه في جسمي. ولا عجب أن يقرِّر الخميني العودة إلى «قم». إنها المدينة التي بدأ منها هجومه على الشاه. هنا ولد وهنا مات شهداء الثورة الأولون. قالوا لي إنه كان يحيا حياة بسيطة متواضعة، وكانوا مصيبين. وقد أروني غرفة نوم الخميني، فإذا بها تحوي سجادة خشنة على أرض الغرفة، وفراشاً، ومخدة، وكأساً من أجل لبن الزبادي الذي يتناوله في الصباح.

ومن الظواهر المثيرة للاهتمام، هذه الرغبة الشرقية في أن يُروا الضيف عيشة زعمائهم ضمن أحضان البساطة والفقر. وفي القاهرة، أسعد أعضاء الجماعة الإسلامية السرِّية أن يطوفوا بي في أحيائهم الفقيرة حيث قضوا حياتهم. وقد أمر «بن لادن» أحد رجاله بأن يريني الخيم التي تعيش فيها زوجاته. وها هم حراس الخميني يفتحون

لي باب غرفة الرجل المسنّ. لم يكن هناك قصور للإمام، لأنه بنى قصوره في أفئدة الناس، وبالناس. إن الإيمان والتوقير له يظهر على وجوه عشرات الرجال الذين اندفعوا واقتحموا وركلوا ليشقّوا طريقهم إلى غرفة الاستقبال الصغيرة، بجدرانها البيضاء العارية، حيث تتبدّى أسس بيته الروحي وجدرانه. لقد كانوا خدمه ومحاربيه المخلصين، حماته وحراسه «البريتوريين»: حمى الله إمامنا. ويزيدهم تفانياً أن يصرِّح الخميني بأنه خادمهم، وأكثر من ذلك أنه خادم الله تعالى.

لم أره يدخل الغرفة، مع أني سمعت صراخاً يشبه الهستيريا عندما دخل. ثم حانت مني التفاتة صوبه لهنيهة، فرأيته يتقدم بسرعة، وتموج حوله عباءاته السود، وتظهر عمامة «السيد» بين الرؤوس، حتى جلس أمامي متصالب الرجلين على سجادة صغيرة بخطها الأزرق والأبيض. لم يبتسم، بل كان وقوراً يحملق بعينيه في الأرض. وغالباً ما تكون استجاباتي رديئة في مثل تلك اللحظات. فعندما رأيتُ ياسر عرفات لأول مرة ـ أقرّ بأنه ليس كالخميني ـ سحرتُ بعينيه، وأردتُ أن أقول له ما أكبر عينيك. وعندما قابلت حافظ الأسد في سوريا أُسِرتُ بتسطح قفا رأسه تسطحاً كاملاً لاثنية فيه. وقضيتُ أمسية مع الملك حسين، ودُهشتُ باستمرار لحجمه الصغير، وبقيت منزعجاً لعدم استطاعتي وقفه عن اللعب بعلبة السجاير الجاثمة على الطاولة فيما بيننا. والآن ها هو جبّار من جبابرة القرن العشرين الميلادي، سيظهر اسمه في كل كتاب تاريخ لألف سنة قادمة بصفته أداة معاقبة لأميركا، و«سافونارولا» (Savonarola) لطهران، ومصلحاً رائداً إسلامياً. وعندما تفحصتُ وجهه، لاحظت البقعتين على خدِّه، وحاجبيه الفضفاضين، والأكياس تحت عينيه، ولحيته البيضاء الناصعة، ويده اليمنى على ركبته، وذراعه اليسرى مستورة بعباءته.

ولكني لم أستطع أن أرى عينيه؛ لأنه كان يحني رأسه وكأنه لا يرانا، ولم يلحظ الغربيين الجالسين أمامه، مع أننا كنّا، بالنسبة إلى الرجال الفقراء، المتصبّبين عرقاً، المندفعين في غرفته، رمزاً لنفوذه وشهرته على الصعيد الدولي. كنّا القناصل الأجانب الوافدين على البلاط الشرقي، المنتظرين لأن يسمعوا الجواب الحكيم من وسيط الوحي. كان «قطب زاده» جالساً عن يمين الإمام الخميني، يتفرس بتذلل في وجه الرجل الذي سيدينه فيما بعد ويأمر بقتله، ويميل برأسه نحو آية الله، حريصاً على أن لا تفوته كلمة واحدة من كلماته؛ فهو المترجم في كل حال. أردنا أن نعرف وضع رهائن السفارة. وكان الخميني يعرف أننا سنطرح هذا السؤال؛ فهو عالم بالشبكات. وكانت ملاحظاته التهكمية حول الجرائد في أواخر أيام حياته تفصح عن أنه يفهمنا، نحن الصحافيين، كذلك.

قال: «ستجري محاكمتهم، ستجري محاكمتهم، ومن تثبت منهم جاسوسيّته سيخضع لقرار المحكمة. وكان الخميني يعرف ـ كما نعرف نحن أيضاً منذ بداية الثورة ـ أن كل من يجدونه مذنباً بالتجسس سيحكم عليه بالموت. وتابع آية الله كلامه قائلاً: «يجدر أن نقول إنهم ما داموا هنا فهم تحت راية الإسلام، ولن يمسَّهم ضرر... ولكن بما أن هذا الأمر يستمر، كما هو واضح، سيبقون هنا ـ وحتى يُعاد الشاه إلى هذه البلاد، فقد يحاكمون». لقد قرر الخميني أن تسليم الشاه إلى إيران يجب أن تتسم به كل وجوه السياسة الخارجية للبلاد. وبالطبع، تكلم «هارت» و«جيننغز» عن القانون الدولي، واحترام جميع السفارات. وقد ترجم السؤال همساً بواسطة

«قطب زاده». وكان جواب الخميني هادئاً، ولكنه بصوت خشن، كالحصى والرخام: «إن من نقض القانون الدولي هو الرئيس كارتر بإبقائه جواسيس في طهران، وإن الحصانة الدبلوماسية لا تشمل الجواسيس.

وكان يفكر طويلاً قبل كل جواب ـ مثل بن لادن ـ مع أنه ليس هناك ما يجمع بين الرجلين سوى التراث الإسلامي المنقسم ـ وأنه رفع نبرة صوته غاضباً عندما ذكر كلمة «جواسيس». واستأنف قائلاً: «إن الدبلوماسيين في أي بلد يفترض بهم أن يقوموا بالعمل الدبلوماسي؛ ولا يفترض بهم أن يرتكبوا الجرائم وأن يقوموا بالتجسس.... وإذا عملوا كجواسيس، فهم غير دبلوماسيين. إن شعبنا ألقى القبض على بعض الجواسيس، وبناء على قوانيننا سيحاكمون ويلقون قصاصهم... حتى لو أعيد الشاه، فإن إطلاق سراح الرهائن سيتمّ بمبادرة طيبة من قبلنا».

كنتُ ما زلت أفتش عن العينين. وعند تلك اللحظة، رأيتُ أنه يحدّق في نقطة على الأرض، على خيط من أشعة الشمس اخترق النوافذ العالية الوسخة، وكوّن دائرة من النور على السجادة. كان رأسه منحنياً باتجاه النور، كأنه يستوحيه وبقيت ذراعه اليسرى مخبأة تحت الثوب. هل كان يراقب هذه النقطة المضيئة لسبب ديني ما؟ أو هل أعطاه ذلك تركيزاً ذهنياً؟ أو هل ضجر وتعب من أسئلتنا الغربية، المشحونة بمطالب أنانية لمعلومات حول بعض العشرات من الأرواح الأميركية، بينما قُتل في الثورة آلاف من الإيرانيين؟

ولكنه كان قد قرر ما سيقوله لنا منذ أمدٍ طويل قبل المقابلة. لقد كان يعلم أن ثلاثة من أولئك الأميركيين سيطلق سراحهم بعد خمس ساعات. وهم عنصران أسودان من جنود البحرية الأميركية، وامرأة هي «كاثي غروس». ولكن الخميني عاد تكراراً إلى الحجة ذاتها. وعلى غرار شبكة التلفزيون الأميركية، بدأ ينتابه هاجس واحد متسلط عليه، ألا وهو: العقوبة. لم يرد أن يعظنا، أو يتكلم عن الله والتاريخ ـ وعن مكانته فيه ـ بل عن أن كارتر ارتكب إثماً ضد القانون الدولي «إن أحدهم ارتكب جريمة؛ ويجب أن يعاد ذلك المجرم إلى بلده ليحاكم». وكان صوته يستمر في تطهيرنا: «ما دام كارتر لا يحترم القوانين الدولية، لا يمكن إعادة هؤلاء الجواسيس إلى بلادهم». ثم هبّ واقفاً، وكأنه فقد كل اهتمام بنا، وانهار الرجال الجالسون في الصفوف الأمامية، بعضهم فوق بعض، من تأثرهم بمغادرته. وتقدم أحد سائقينا إلى الأمام ـ ومال مترجمنا الخاص وهمس في أذن الخميني بأنها لحظة عظمى في حياة هذا السائق، لو استطاع السلام على الإمام ـ وأمسك سائقنا بيد الإمام يقبلها، ويرفع رأسه والدموع تجري على خدّيه. لقد ذهب الخميني(*).

(*) دروس في الصحافة: عندما أرسلت تقريري ذلك المساء من طهران إلى جريدة «التايمز»، أبرزت فيه أن على هذه الجريدة الاعتراف بفضل الشبكتين الأميركيتين، وعدم تغيير الترتيب الذي وردت فيه أسماؤنا في التقرير، مع ذكر اسمي في آخر القائمة. فجاءني وعد من المكتب الأجنبي بالإيجاب. وفي آخر الليل، خطر لأحد المسؤولين عن التحرير أن يقدم مراسل «التايمز» على الأميركيين الآخرين، معطياً الانطباع بأن الأميركيين كانا تابعين لي في المقابلة. فلعنتُ الجريدة. لعنني جيننغز الذي توفي نتيجة مرض السرطان عام ٢٠٠٥؛ ولم يسامحني إلّا بعد أيام على هذا السلوك غير المهني الذي قامت به جريدة «التايمز».

لم يكن ذلك هبوطاً من الرفيع إلى الوضيع؛ بل كان نزوة عاطفية مفرطة. وعندما أعلن أحد رجال البحرية الأميركية المحرَّرين ذلك المساء، وهو الرقيب «وال مايبل»: أن الثورة الإيرانية هي «شيء جيد»، كان ذلك أيضاً مثيراً للاهتمام. ومنذ تلك الآونة، قررتُ أن أقرأ الخميني، وأن أطالع له كل خطاب يلقيه ـ مع العلم أن وزارة الإرشاد الإسلامي كانت تغرقنا بكل ما يقوله ـ من أجل معرفة ما الذي أسر قلوب الملايين العديدة من الإيرانيين. ثم فهمت تدريجاً. لقد تكلم بلغة الناس العاديين دون تعقيد وليس بلغة البلاغة الدينية؛ كما لو كان يتكلم إلى الشخص الجالس بجانبه. ومع أنه لم يكن يعلم من هو أسامة بن لادن عام ١٩٧٩ ـ إذ إن السعوديين لن يغادروا أفغانستان قبل مضي شهر آخر ـ فالخميني كان يعتقد أن المذهب السنّي الوهّابي يشكل خطراً على الشيعة وعلى العالم الغربي. وفي «رسالته الأخيرة» التي أطلقها قبل وفاته مباشرة، عندما كان قد سمع باسم «بن لادن» على الأرجح، هاجم الخميني بعنف الأفكار التي تروّج للمذهب الوهّابي.

كما أن الخميني عرف كيف يحاجّ ضد المحافظين الأميركيين الذين ادَّعوا وما زالوا يدّعون ـ أن الإسلام دين تخلف وانعزال، إذ كتب ما يلي: «يدّعون أحياناً بصراحة وبحجة واهية أن القوانين التي مرَّ عليها ١٤٠٠ عام، لا يمكن أن تنظّم العالم الحديث بفعالية». كما كتب أيضاً: «كما يجادلون أحياناً أخرى على أساس أن الإسلام هو دين رجعي، يعاكس أية أفكار جديدة، وأية مظاهر جديدة للحضارة، وأنه لا يمكن أن ينعزل أحد عن الحضارة العالمية، في الوقت الراهن... كما يناصرون بلغة دعاية رديئة خرقاء، قدسية الإسلام وورعه، بتوكيدهم على أن الديانات السماوية لديها مهمة نبيلة تطهّر النفوس، وتدعو الناس إلى التقشُّف، وإلى الزهد... وليس ذلك سوى اتهام باطل... فقد أكد القرآن الكريم والإسلام إلى حدٍ كبير على العلم والصناعة...

وعلى هؤلاء الأفراد الجهّال أن يعلموا أن القرآن الكريم وتقاليد نبي الإسلام تحوي المزيد من الدروس، والقرارات والفرائض حول الحكم والسياسة، أكثر مما تحويه بشأن أية قضية أخرى...».

كان «هارفي موريس» شديد الإعجاب بالخميني، عندما وصلتُ إلى مكتبه لأرسل تقريري برقياً ذلك المساء في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩، إذ قال: «عليك أن تقدم هذا التقرير إلى الرجل الكبير؛ فهو يعرف كيف يعاملكم، أنتم الذين نرسلكم لإجراء مقابلة معه. فالخميني لا يضيع وقته على قضايا دينية عامة لا تفهمونها؛ بل يعالج مباشرة صميم الموضوع، ويعطينا العناوين الكبرى الرئيسية». كان «هارفي» يحترم الخميني بطريقته الخاصة. فالخميني يعرف كيف يخاطبنا، وكيف يخاطب الإيرانيين. وعندما يقرأون «رسالته الأخيرة» بعد موته عام ١٩٨٩، تظهر كلماته مفعمة بالتواضع التام، إذ يقول فيها: «إني بحاجة إلى صلواتكم، وأطلب من الله تعالى الغفران لقصوري وأخطائي... وآمل أن تسامحني الأمة أيضاً على ما بدر مني من نواقص وتقصير... واعلموا أن غياب أحد الخدم لن يؤثر أبداً على درع الأمة الفولاذي».

وباستطاعتكم أن تدركوا كيف اقتنع أتباع الخميني بورعه وتقاه، حتى درجة الطاعة التامة تقريباً. إني أذكر كيف تكلم معي «قطب زاده» عنه، وخفض صوته إلى درجة الخرخرة النسائية، وهو يحاول أن يقنعني بأن انزعاج آية الله من المسيرة البطيئة للثورة لا يعني أي تغيير في خُلُقه. «فالرجل»، بحسب قوله: «هو كما كان دائماً: ورع، تقي، شريف، عاقد العزم، نقي». هذا هو الرجل الذي صادق الخميني على إعدامه. ولن ندري أبداً بمَ فكر «قطب زاده» أمام فريق الإعدام.

جابهني «هارفي» بسؤاله: «هل هي عودة إلى وكر الإثم، يا بوب؟»، عندما دخلت منقطع النَّفَس إلى مكتب «رويتر» لإرسال تقريري. كان دخان السجائر أكثف من العادة، مع زجاجة ويسكي أخرى على المكتب. واستأنف قائلاً: «كيف يكون الوضع في مركز الشر والقصف والعربدة» «ساتورناليا» (Saturnalia)، بحسب التعبير المفضل لدى الخميني. وكان من اليسير الهزء بالثورة الإيرانية، وبوعظها السرمدي، ونزاهة خصامها الذي لا يتغير، وثقتها الذاتية الطفولية. ولكن هناك إصرار وثبات في هذه الثورة، وضرب من المواظبة التي يمكن أن يكون لها آثار فائقة حالما يُحدّد الغرض بوضوح. ولا يرمز إلى ذلك التفاني شيء أفضل من معاودة توليف آلاف من الصفحات الدبلوماسية الأميركية الممزَّقة، التي وجدها الإيرانيون عندما احتلوا السفارة الأميركية.

وقد وصفت امرأة من «أتباع الإمام» فيما بعد كيف أن طالب هندسة يدعى «جافاد» استنتج أن الأجزاء الممزّقة من كل وثيقة لا بد من وضعها، بعضها بجانب بعض، بحيث يعاد تركيبها وردّها إلى شكلها الأصلي:

> «لقد كان عبارة عن دراسة في التركيز: ملتحياً، نحيلاً، عصبياً، وناشطاً. وقد اجتمعت هذه الصفات عنده مع سيطرة قوية على اللغة الإنكليزية، وعقلية رياضية، وفيض من الحماس؛ كل ذلك جعل منه شخصاً ملائماً بشكل طبيعي لهذا العمل... وبعد ظهر أحد الأيام، تناول حفنة من الأوراق الممزّقة من البرميل الذي يحتويها، وبسطها على ورقة بيضاء، وبدأ بتجميعها على أساس تشابه نوعياتها... وبعد مرور خمس سنوات لن نتمكن سوى أن نعيد تركيب حوالى ربع وثيقتين، لا غير. وفي اليوم التالي، زرتُ مركز التوثيق مع جماعة من الأخوات. فقال لنا مبتسماً: «اقتربن وانظرن. فبالإيمان وشيء من الجهد، نستطيع أن نحقق المستحيل، بعون من الله تعالى».

وهكذا التأم شمل فريق مؤلف من عشرين طالباً، ليشتغلوا في ضمّ تلك الأوراق. فبُسطت لوحة، ونُصبت عليها أربطة من البلاستيك لتثبيت الأوراق الممزّقة في مكانها. وكان بإمكانهم أن يعيدوا تركيب من خمس إلى عشر وثائق كل أسبوع. إنهم حائكو السجّاد، يعكفون بعناية على نسيجهم بمحبة، ليعيدوا خيوطه إلى أمكنتها. إن السجاد الإيراني حافل بالزهور والطيور، ومعاودة تخليق الحدائق في الصحراء. والمقصود من ذلك منح الحياة وسط الرمل والحرّ، وتخليق مروج خالدة وسط الأراضي القاحلة. إن الإيرانيين الذين كدّوا أشهراً على العمل بتلك الأوراق الممزّقة، كانوا يخلّقون سجادتهم الفذّة، التي عرضت الماضي، وتحولت إلى كتاب تاريخ حيّ وسط الدعاية الجرداء للثورة. وقد تطوع للعمل على هذه السجادة الورقية طلاب من المدارس الثانوية ومن المحاربين

القدامى المعاقين. واستغرق عملهم ست سنوات لإكمال ٣٠٠٠ صفحة تحوي ٢٣٠٠ وثيقة، مجمعة في ٨٥ مجلداً(*).

وقد عكفتُ بدوري على كل منشور من تلك الوثائق كلما صدر، واستغرقت في مطالعتها، ليلة بعد ليلة، فوجدتها عبارة عن محفوظات للتاريخ المعاصر السرّي من عام ١٩٧٢ إلى فوضى بدايات الثورة في إيران، كتبت بواسطة أمّة تهدِّد باتخاذ عمل عسكري ضد إيران. هنا ملاحظات السفير الأميركي «وليان سوليفان» في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٨، يشير فيها بازدراء إلى «الائتلاف المتطرف للمسلمين المتعصبين الذين يقودهم آية الله الخميني في العراق (الائتلاف الذي تم اختراقه، والذي تساعده مجموعات متنوعة من العناصر الإرهابية، والشيوعية السرِّية، وغيرها من العناصر اليسارية...). وهنا، نستمع أيضاً إلى الشاه «الذي يصرّ على قوله إنه يرى اليد السوفياتية في كل المظاهرات والاضطرابات التي حدثت». لقد كانت بعض التحليلات الدبلوماسية خاطئة تماماً، كما جاء في إحدى البرقيات السرِّية: «إن بعض الشخصيات مثل آية الله الخميني وشريعتمداري... ليس لهم أي حظ في أن يفيدوا من كثرة أتباعهم ليسيطروا على الحكم لأنفسهم».

أما الوثائق الأخرى، فكان منها ما هو تجريمي. فهذا «روبرت ر. بووي». مدير التقويم الوطني الأجنبي في وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، يشكر «سوليفان» بتاريخ ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٨ لإقامته حفلة «كوكتيل» مكّنته من التعرف على الشاه، وعقد بعض المحادثات الأخرى غير الرسمية مع بعض العسكريين الإيرانيين وجماعة «السافاك». كما كانت هناك بالتاريخ ذاته، مذكرة من القنصلية الأميركية في أصفهان تسجل محادثة جرت مع «إبراهيم بشاور»، المدير المحلي للتلفزيون الإيراني، يُسأل فيها بشاور عن «صحة قيام فريق أو أكثر عنده بتغطية مظاهرات أطاح فيها المتظاهرون بتماثيل للشاه، وأنه سلّمها لقوى الأمن من أجل التحقيق». فأجاب بالإيجاب، وقال: «إن هيئة الراديو والتلفزيون الإيرانية قررت أن لا تعرض ذلك على التلفزيون؛ وأن مثل تلك الأفلام يتم تبادلها مع «هيئات حكومية أخرى. وطلب... أن لا أفشي هذا السر».

وبين الملفات التي أعيد تركيبها كتيِّب لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) مؤلف من ٤٧ صفحة موسوم بأنه «سرّي»، ومؤرخ في آذار/مارس ١٩٧٩ ـ كتب بعد الثورة، لكنه باقٍ بشكل لا يصدَّق، بين محفوظات السفارة ـ حول الهيكلية الداخلية «لأجهزة الأمن والاستخبارات الأجنبية» الإسرائيلية. وجاء في هذا الكتيِّب أن جهود إسرائيل لكسر الطوق العربي الملتفّ حولها، أفضت إلى:

«إنشاء هيئة ارتباط ثلاثية رسمية سمّيت «المنظمة الثلاثية الشُّعَب»... أقامها «الموساد» مع «جهاز

(*) ومن ضروب السلوك النموذجية لبيروقراطية الأمن الأميركي، أن الصحافيين الذين وصلوا إلى مطار كنيدي في نيويورك من طهران، حاملين المجلدات المنشورة المحتوية على وثائق السفارة، تعرضوا لمصادرة تلك المجلدات من قبل الجمارك الأميركية، بدعوى أنها تحوي أوراقاً حكومية «محظورة التوزيع». وهكذا، استطاع الشعب الإيراني أن يبتاع نسخة من تلك المجلدات على الرصيف في طهران؛ بما لا يزيد على ١٥ ريالاً، بينما حرم الشعب الأميركي من اقتنائها.

الأمن الوطني التركي»، والمنظمة الوطنية للاستخبارات والأمن» الإيرانية أي «السافاك»... ويشمل عمل هذه المنظمة الثلاثية الاستمرار في تبادل المعلومات الاستخباراتية مع عقد اجتماعات نصف سنوية بين رؤساء تلك الوحدات... وكان الهدف الرئيس لعلاقة إسرائيل بإيران هو تنمية سياسة محابية لإسرائيل ومضادة للعرب لدى الموظفين الرسميين الإيرانيين. وقد تورط «الموساد» في عمليات مشتركة مع «السافاك» على مدى السنين الفائتة منذ أواخر الخمسينيّات من القرن العشرين الميلادي. وقد ساعد «الموساد» «السافاك» في أنشطتها، وناصر الأكراد في العراق. كما أن الإسرائيليين نقلوا إلى الاستخبارات الإيرانية تقارير منتظمة عن أنشطة مصر في البلدان العربية، وعن الاتجاهات والتطورات في العراق، والأنشطة الشيوعية المؤثرة على إيران».

وأظهرت بعض المذكرات الداخلية الأميركية استيعاباً كبيراً للأحداث السياسية، وفهماً لثقافة إيران ـ حتى لو كانت هذه الحكمة غير مقبولة في واشنطن. فقد أرسل «جورج لمبراكيس» مذكرة إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢ شباط/فبراير ١٩٧٩، يشير فيها إلى ما يلي:

«إن الناطق باسم الحكومة الإيرانية روَّج لفترة زمنية طويلة أن معظم أتباع الخميني هم أعضاء شيوعيون سرِّيون أو يساريون ماركسيون... وهذه المقولة مبنية إلى حدٍّ كبير على أسطورة مفادها أن الشيوعيين تغلغلوا كشباب في المدارس الدينية، وهم يؤلفون اليوم الشيوخ الأئمة وغيرهم من المنظمين للحركة الدينية...

وقد أحرز التغريب (Westernization) مكانة وشرعية له، تحت حكم العاهلَين البهلويَين، مما محا عملياً ذكريات الماضي الإسلامي لدى عدد غفير من أبناء الشعب الذين انخرطوا في المدارس الإيرانية ذات النظام المتغرِّب، وتابعوا دراساتهم العليا خارجاً في الغالب... وحاول الشاهان البهلويان دفع المؤسسة الإسلامية القائمة بأنها بقية جاهلة ورجعية من الماضي الذي عفّى عليه الدهر بسرعة. وقد اتخذت خطوات لجعل ذلك نبوءة تحقق ذاتها. وقد بذلت الحكومة جهوداً لقطع المساعدات الأهلية عن الشيوخ الأئمة.. ومع ذلك، فقد اتضح تماماً أن الإسلام مستوطن في عمق النفوس لدى أكثرية الشعب الإيراني. وقد تماهى الإسلام بشكله الشيعي مع القومية الإيرانية... إن البلهويين حاولوا استئصال هذه القومية القديمة وإحلال صيغة حديثة محلَّها قائمة على العودة إلى تقاليد، وأساطير، وأمجاد الماضي الذي سبق ظهور الإسلام...».

ويشبه تقويم السفارة للمجتمع الإيراني عام ١٩٧٨، وضع المجتمع العراقي قبل سقوط صدّام عام ٢٠٠٣ ـ ليت الأميركيين قرأوه قبل غزوهم للعراق ـ وينتهي إلى استنتاجات لا يسع الخميني إلّا أن يوافق عليها:

«هناك كثير من تقاليد التاريخ الإيراني التي تؤهل الحاكم والمحكوم لممارسة السلوك السلطوي وتوقّعه. وليس هناك من تقليد منتظم تنتقل السلطة بموجبه من حاكم إلى آخر، كما أنه ليس هناك من خبرة حقيقية بالأشكال الديمقراطية... وهناك في إيران... تقليد قائم لحاكم قوي على رأس حكومة

> سلطوية، وعن إجلال أية سلطة تعبّر عن إرادتها بالقوة. وخبرة الشاه الحالي مثلاً، توحي سطحياً بأن تأمين الاستقرار السياسي في إيران يتم عن طريق حكومة سلطوية، وأن فترات عدم الاستقرار السياسي الكبرى تحصل عندما يشارك الحاكم غيره في السلطة... كما حصل في أزمة مصدّق أعوام ١٩٥١ ـ ١٩٥٣، أو لدى محاولة السماح بالحريات، مثلما حدث في أواسط السبعينيّات بشأن البرنامج الليبرالي.. وإن عدم قدرة المجتمع الإيراني على التكيف مع هذه التغييرات الاجتماعية ناشىء إلى حدٍّ كبير عن التأثير المنتشر الطويل المدى للدين ولرجال الدين... إن الإسلام الشيعي ليس ديناً فحسب، بل إنه نظام شامل ديني، اقتصادي، قانوني، اجتماعي، وفكري، يسيطر على كل مناحي الحياة؛ ويُعتقد أن قادة هذا المذهب يكملون رسالة الوحي الإلهي على الأرض؛ خلافاً للمذهب السني المقابل له في الإسلام».

إن هذا المقال أفضى إلى استنتاجات غير دقيقة إلى حدٍّ كبير، إذ جاء فيه: «ونحن لا نتوقع قيام ظروف تأتي بحكومة قادة دينيين إلى السلطة»؛ بينما هناك وثائق أخرى معاصرة أكثر دهاء. فقد كتب «جون واشبورن» في ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨: «إن كبت الشاه للدين في إيران جعل الجماعات الشيعية المهيمنة محافظة «ومتشبّثة» بعقيدتها في مقام دفاعها عن نفسها؛ مثلما حدث للروم الكاثوليك في البلدان الشيوعية». ومنذ أمد طويل يمتد إلى عام ١٩٧٢، تسلّم السفير «ريتشارد هيلمز» الرئيس السابق لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، مذكرة طويلة سرّية حول الخُلُق (Character) الإيراني، مفادها أن الإذلال الوطني المتكرر الذي ألمّ بإيران، خلّف في الشخصية الإيرانية خصائص سلبية واضحة. ولكن تحت الاحتلال الأجنبي (العربي، والمونغولي، والتركي) أو في ظل التلاعب الدولي بهم (من قبل البريطانيين، والروس)، حافظ الإيرانيون على حسّهم الوطني والقومي عبر ثقافتهم... وعلى احترام الذات لديهم، في حياتهم الخاصة المنعزلة والمكتومة... بحيث يرون بحق أن العالم في الخارج هو عالم مُعادٍ لهم». ولكن، كانت جهود الدبلوماسيين الأميركيين العادية أقرب إلى الحقيقة. ففي ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٨، وردت إشارة من القنصليات الأميركية في إيران حول الرأي العام خارج طهران تتساءل: «لماذا تحتاج إيران إلى طائرات (F-14)، بينما يبقى القرويون الساكنون على بعد خمسة كيلومترات من قاعدة «تادايون» الجوية في شيراز، دون كهرباء أو مياه جارية؟»(*).

ومما لم تتنبأ به أيّ من وثائق السفارة الأميركية وحشية الثورة الإيرانية، والقسوة غير العادية التي أبداها القضاة والمشترعون المزعومون، الذين كانوا جاهزين للتعذيب والقتل، بناء على النزوة لا على التفكير. وكانت

(*) يبدو أنه ليست هناك نهاية للكشف عن مثل هذه الأسرار. فبين الوثائق الأخيرة التي أطلقتها الحكومة، كانت هناك أوراق سرّية لا يمكن تفسير وجودها في الصحراء الشرقية الإيرانية بتاريخ ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٠، عندما خاب الأميركيون في محاولتهم إنقاذ رهائن السفارة بعدما اصطدمت طائرة (C-130) بمروحية أميركية؛ ونجم عن ذلك مقتل ٨ جنود أميركيين. والوثائق التي نشرها الإيرانيون في كتاب ـ شامل كامل مع الصور المخيفة لأجسام بعض القتلى المحروقة ـ تضمَّنت عشرات الصور المأخوذة على علو شاهق وبالأقمار الفضائية لطهران، ومدارج الهبوط الاضطراري في إيران، والخرائط، والإحداثيات، والكلمات الرمزية السرّية، التي كان من المفروض أن يستعملها المنقذون في نقلهم وانتقالهم إلى حاملة الطائرات الأميركية «نيميتز».

ذروة ذلك في نهاية حرب الأعوام الثمانية بين إيران والعراق، عندما جرى الشنق الجماعي لآلاف من الأسرى المعارضين. كما ظهرت تلك الخصائص القاسية بوضوح تام، بعد أيام من قلب الشاه. ولم يكن هناك أكثر تشدداً ودماً بارداً في إيقاع القصاص من القاضي الرئيس للمحاكم الإسلامية «حجة الإسلام صادق خلخالي»، الذي لُقِّب «بالقط»، والذي أبلغني في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٧٩، عزمه على شنق الشاه. وعندما قال ذلك، وبالرغم من صيته الوحشي ظننتُ أنه يمزح، أو يرمي الكلام على عواهنه. ولكن بالطبع، لم يكن الأمر كذلك.

كان حراس الثورة الجالسون حول خلخالي، عندما زرته لأول مرة، من الجرحى الذين أصيبوا أثناء محاربتهم للمتمردين الأكراد في شمالي ـ غربي إيران. كان الطقس حاراً في تلك الغرفة الصغيرة بمدينة «قم»؛ التفت نحوي قائلاً: «أنت من «التايمز» في لندن؟ أنظر إلى هؤلاء الرجال». ثم توقف قليلاً، وبدأ يقهقه بصوت عال: «المتمردون هم الذين فعلوا هذا. «سأزيلهم عن بكرة أبيهم». وفي الواقع، لم يظهر خلخالي أنه صاحب هذا الدور. فقد كان رجلاً صغير الحجم، ذا ابتسامة لطيفة ـ مع العلم أن القضاة المسلمين في ذلك الزمن كانوا يبتسمون كثيراً ـ يُبديها ساعة يطرح دعاباته غير الملائمة. سأله أحد المراسلين منذ أسبوعين، ما هو شعوره لدى تضاؤل عدد الإعدامات في إيران، فأجابه بضحكة خافتة «أشعر بالجوع». ولكن من الخطأ الظن بأن هذا القاضي المخيف، المسمّى «غضب الله» من قبل المعجبين به، ليس جدِّياً في رسالته. قال: «إذا أدرك قاضٍ مسلم أن أحداً ما مذنب بتهمة الفساد في الأرض، أو محاربة الله تعالى، فإن القاضي سيدينه، حتى لو ادَّعى أنه بريء. فأهم شيء في الشريعة الإسلامية هو حكمة القاضي... حتى لو أنكر الرجل التهم الموجهة إليه، فلا يعني ذلك شيئاً يذكر، إذا قرر القاضي غير ذلك». وبالطبع، ليس لدى خلخالي وقت يضيعه على أسئلة المراسلين بشأن كثرة عدد الذين أعدموا بعد الثورة، إذ يقول: «إن الناس الذين أُعدموا كانوا خدّاماً رئيسيين للنظام السابق المكروه. لقد استغلّوا الأمّة، وكانوا مسؤولين عن القتل. والتعذيب، والسجن غير القانوني. إني مندهش من طرح مثل هذه الأسئلة». كما أنه ضاق صدره عندما سُئل عن عزمه على تنظيم قتل الشاه السابق وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، حسبما كُررت الدعاية عن ذلك. قال بمنطق واقعي: «نحن نعلم أن أميركا لن تعيد الشاه؛ ولذلك علينا قتله، وليس هناك من خيار آخر. ولو استقدمناه إلى هنا وحاكمناه، فسنقتله بعد المحاكمة. ولكن، بما أننا لا نستطيع أن نحاكمه ـ ولمَّا كنَّا متأكدين أنه يجب أن يعدم ـ فسنقتله في كل حال. ألم يحاكم أحد «موسوليني»، والرجال الفرنسيين الذين تعاونوا مع جنود «هتلر» في الحرب العالمية الثانية؟».

بينما كان يتكلم، كان حراس الثورة يمسّدون أطرافهم الجريحة ـ أو ما تبقى منها ـ ويمرّنون أيديهم الاصطناعية. وتخلَّلت طقطقة أصابعهم الحديث، بينما كان خلخالي يطوف في الغرفة حافياً دون حذاء أو جوارب، أو يدلك قدميه بيديه. سألته بماذا يشعر شخصياً عندما يحكم على رجل بالموت؟ قال: «أشعر بأني أقوم بواجبي وبما يتطلبه مني الشعب الإيراني. ولهذا لم ينتقدني أحد من شعبي بسبب هذه الإعدامات». ولكن، ألم يرفض طلب «هويدا»، و«نصيري» رئيس «السافاك» السابق، باستئناف الحكم عليهما بالموت؟!

وعقَّب على ذلك قائلاً: «لقد استأذنا وطلبا العفو من الإمام ومن المحكمة. وجاءني كثير من الناس يطلبون العفو عن هؤلاء الناس. ولكني كنت مسؤولاً أمام الأمّة الإيرانية وأمام الله. فلم أستطع أن أعفو عن «هويدا» وعن «نصيري». لقد حطما حياة ٦٠ ٠٠٠ شخص». كما ادعى خلخالي أنه أوفد فرقة فدائيين إلى «باناما» حيث يقيم الشاه مع عائلته، كي تقضي عليهم كلهم؛ وأنه لا يعرف إذا كانوا قد غادروا إيران حتى الآن. ثم قهقه، وغمغم بالأسبانية: «لديهم كلهم مسدسات». وبعد اغتيال ابن أخي الشاه في باريس منذ أسبوعين، صارت «الأنتربول» والضحايا المرتقبون يعيرون اهتماماً كبيراً لتهديدات القاضي. وقد تفضل خلخالي بإيراد الأهداف التي يسعى فريق الإعدام في أثرها، بقوله: «نحن نفتش عن «شريف إمامي» (رئيس وزراء سابق)، واللواء «پاليزبان»، و«هو شانغ أنصاري»، (وزير مالية سابق)، و«أزدشير زاهدي» (سفير سابق في واشنطن)، و«غلام علي غوفيزي»، (مدير الحكم العرفي السابق)، و«غراباجي»، (رئيس الأركان السابق في جيش الشاه)، و«فرح» (الإمبراطورة السابقة)، و«حجاب يزداني»، (صاحب مصرف سابقاً)، و«فاليان» (وزير زراعة سابق)، و«جمشيد أموزيكار»، (رئيس وزراء سابق)، و«شاهبور بختيار»، (آخر رئيس وزراء في عهد الشاه، والذي يعيش الآن في باريس). وكذلك نريد الشاه وشقيقه، وأخته التوأم «أشرف»، وأينما وجدنا هؤلاء، سنقتلهم».

لم يكن خلخالي محرجاً في الإعلان عن لائحته الخاصة بالإعدام. وكان بمنتهى الجدّية. وبعد مرور عقد من الزمن، التقيت رئيس تلك الفرقة الذي أُرسل إلى باريس ليقتل «شاهبور بختيار». سألت: «هل خلخالي غضب الله؟». فأجبت بما يلي: «لقد نشأت في الفقر، ولذلك أفهم الناس الفقراء. وأعرف كل شيء عن النظام السابق. قرأت كتباً في السياسة. وأمرني الإمام بأن أكون القاضي الإسلامي، وقمت بالعمل خير قيام. ولذلك لم يفلت من قبضتي أي عميل من عملاء الشاه في إيران[*].

ومرّت سبعة أشهر قبل أن أعود فأرى خلخالي. لم تُلَطِّخ سمعته الرهيبة بمسألة عدد الإعدامات. وفي تموز/ يوليو ١٩٨٠، صبّ جام غضبه على نواحٍ جديدة وأكثر فائدة. وقف الآن أمامي هذا النجم القضائي في ساحة سجن القصر المشمسة، يلوّح بملعقة صغيرة وردية من البلاستيك، ويتمطّق بشفتيه، ويدسّ في فمه قرناً من بوظة الفانيلا. إنه الرجل الذي أمر بتنفيذ أول إعدام علني في طهران منذ ١٥ سنة. وهو يبدو بأحسن حال ذهنية.

وقبل خمسة أيام، كُرِّست سابقة شنيعة، عندما رُجم أربعة أشخاص حتى الموت، منهم امرأتان في منتصف العمر، في مدينة «كرمان» الإيرانية الجنوبية. وقد أدينوا كلهم بآثام جنسية من قبل إحدى محاكم خلخالي. وخلال ساعات أُلبسوا ثياباً بيضاء، ودُفنت منهم أجسامهم حتى صدورهم في الأرض، ثم رُشِقوا بحجارة بحجم قبضة اليد. وأعلنت المحكمة في تعليق نموذجي لها، مما لا لزوم له، أنهم ماتوا بسبب إصابات في الدماغ. وقد أُدينت المرأتان «بالبغاء، والتغرير بالبنات الشابات»؛ وأُدين أحد الرجلين باللواط والزنا، والآخر باغتصاب فتاة عمرها عشر سنوات. وقبل تنفيذ الإعدام، غُسلوا وكُفِّنوا، وأُلبسوا غطاء على رؤوسهم ووجوههم، مع العلم أن رجال

(*) يقدر عدد الذين أرسلهم خلخالي إلى الشنق أو إلى فريق الإعدام بحوالى ثمانية آلاف رجل وامرأة، قبل أن يموت بمرض القلب والسرطان عام ٢٠٠٣م.

الذين المحليين قد زاروا المُدانين واختاروا حجارة الرجم بقياس قطر يراوح من إنش إلى ستة إنشات. واستغرقت عملية الرجم ١٥ دقيقة حتى ماتوا(*).

وصرّح صادق خلخالي قائلاً: «لا أدري إذا كنتُ أوافق على الرجم»، وهو يبتسم ابتسامة عريضة وينظر باتجاه الصحفيين ومجموعة من الدبلوماسيين المذهولين الذين دُعوا أيضاً إلى سجن القصر. وأضاف: «لكن القرآن الكريم ينصّ على ذلك». ثم غرز ملعقته في البوظة التي باتت تذوب وهو يتناولها، غير عابىء بالمساجين المكشوفي الرؤوس الذين يمرُّون به متثاقلين، وهم يرفعون بجهد حاويات فيها مراجل من حساء الخُضَر. واستأنف كلامه بقوله: «ونحن نلتزم بكل ما جاء في القرآن الكريم. ما الفرق بين قتل الناس بالحجارة وقتلهم بالرصاص؟ لكن الرجم يعلّم الناس دروساً». إنما تبرّأ خلخالي من مسؤولية الرجم في «كرمان»؛ ـ وأخبرنا مساعده للعلاقات العامة الملتحي أن المسؤول عن ذلك القرار الثقيل هو «فهين كرماني» ـ ولكنه أقر بأنه أمر ببعض الإعدامات ذلك الصباح؛ إذ أُوقف سبعة رجال في صف واحد في ناحية من شارع «جمشيد» عند الساعة الخامسة صباحاً، وأُعدموا بإطلاق النار عليهم من قِبل فريق الإعدام؛ بينما كان حشد من الناس يحدِّقون ببلاهة عن بعد. وكان كثير من أولئك الناس الذين أعدموا مُدانين بجرائم مخدرات، وكان حجة الإسلام خلخالي قد استقبلنا في سجن القصر بصفته رئيس فرقة مكافحة المخدرات في إيران، ليرينا غنيمته من عملية التهريب الأخيرة.

والواقع أن مشهد المصادرات خلَّف في نفوسنا تأثيراً قوياً. فقد جمع خلخالي في المسجد المحاذي للسجن ـ وهو مبنى مزيّن بأعمال الجصّ، وقرميد أحمر وأزرق ـ أطناناً من الأفيون، وأكياساً من كيلوغرامات الهيروين، ولوحات كبرى لزجة من الحشيش، وثلّاجات مسروقة، وطاولات للنرد مزينة بالحفْر، وجداراً علوّه متران ونصف من السجاير ـ وهنا خطر على بالي «هارفي موريس» في عربدته بوكالة «رويتر» ـ وآلافاً من النارجيلات، والسجادات، والسكاكين، والبنادق الرشّاشة، وصفوفاً من زجاجات الشمبانيا (من نوع كروغ ١٩٧٢). وكان المسجد الجميل عابقاً برائحة الحشيش، بينما يكمل خلخالي طواف انتصاره أمام غنائمه، شاقاً طريقه عبر عشرين طناً من الأفيون، ومئة كيلو من الهيروين على الأقل، وكل منها معبّأ في كيس أبيض نظيف. ولا بد طبعاً من أن يُسأل عما إذا كانت المحاكم الثورية جادَّة في تعاملها مع تجار المخدرات، ولا بد من أن يبدي حجة الإسلام ابتسامة عريضة ـ موجهة إلى الدبلوماسيين ـ قبل أن يجيب قائلاً: «لو فعلنا ما يريدنا الآخرون أن نفعل لكنّا قد قتلنا كثيراً من الناس ـ الأمر الذي أراه مستحيلاً؛ إذ يمكن أن يفضي إلى أزمة. فلو كنا سنقتل كل من يملك ٥ غرامات من الهيروين، لكان علينا قتل خمسة آلاف شخص؛ وهذا أمر متعذر». ومن أجل الإنصاف، تجدر

(*) يُعتقد أن هذه كانت أول مرة في التاريخ الحديث، يُرجم فيها مسلمون حتى الموت في الشرق الأوسط بعد محاكمة. مع الإشارة إلى أن الرجم بالحجارة كان قصاصاً قروياً معروفاً في إيران وفي بعض البلدان الإسلامية لمئات السنين. وفي القرن التاسع عشر الميلادي، قُتل أعضاء من طائفة البهائيين بالحجارة في شيراز وطهران. ولكنهم قُتلوا على أيدي الغوغاء، وليس بعد محاكمة قضائية. وكانت المومسات يرجمن بالحجارة حتى الموت قبل ظهور الإسلام بزمن طويل. وتصف التوراة كيف حاول يسوع المسيح أن يوقف تلك العادة.

الإشارة إلى أن آية الله بدأ بخطوة عادلة؛ إذ أرسلت محكمة ١٧٦ رجلاً وامرأة إلى فرق الإعدام لإدانتهم بجرائم المخدرات؛ وكثير منهم حكم عليهم خلخالي ذاته بالإعدام الذي ينفّذ في مبنى الإسمنت الذي لا يبعد سوى ٣٠٠ متر عن المسجد.

حاول خلخالي جاهداً أن لا يبدو مثل «الغول»؛ وأنكر تكراراً أنه على تلك الشاكلة. فجسمه الصغير الريّان، ولحيته البيضاء، وعيناه اللامعتان، كل ذلك كان يعطيه مظهراً أبوياً، كوالد يجلس في بيته قرب المدفأة، لابساً خُفّاً خفيفاً يتنقّل به على السجّادة، بينما قطّ العائلة يخرخر قربه ـ ما دام ذلك القط لا يزال على قيد الحياة. كان يمزح معنا تكراراً، وهو يقوم بجولته في المسجد، غارزاً إصبعه في كيس الأفيون. وكل دقيقة تقريباً، كان يقبل شاب يرتدي قميصاً أخضر باهتاً ويدسّ مسدساً في بنطاله، فيتسلق بجهد كومة من أكياس الهيروين ويصيح بملء رئتيه «الله أكبر»، كلازمة يتناقلونها، فتتردّد أصداؤها عبر المسجد.

قال خلخالي، وهو يعود إلى الظهور تحت أشعة الشمس: «إذا نظرتم إليّ لا ترون على وجهي المعاناة التي تجري في داخلي. لكنني شخص ثوري. إني ألاحق العملاء أينما كانوا ـ في فرنسا، وإنكلترا، وأميركا. هذا هو الواقع. إني ألاحقهم في كل مكان». كما ادّعى نجاحاً منقطع النظير في محو تجارة المخدرات من إيران، ونصراً يبلغ ٨٠٪ في الوقاية من تلك التجارة عالمياً ـ ولهذا السبب تمّت دعوة الدبلوماسيين إلى سجن القصر ليسمعوا تصريحات القاضي. وقال أيضاً: «هناك مافيا دولية للمخدرات تعمل في حلقة تشمل: باكستان، وبورما، وتايلند»؛ واتهم عضواً من عائلة الشاه السابق باستخدام طائرة خاصة لنقل المخدرات من أفغانستان إلى مدرج صغير خارج طهران. وأبلغنا بأن الأفيون المصادر سيستعمل من قبل الدولة لأغراض طبية. أمّا الحشيش والهيروين فسيتمّ حرقهما.

وبينما كان حجة الإسلام ينتقل بسرعة من الساحة نحو سياج من الشريط، حدث شيء غريب جداً. فقد ركضت نحوه عشرات من النساء المحجبات بالأسود ـ وهن نساء وأخوات الرجال الذين سيحاكمهم خلخالي عما قريب ـ صائحات: «يحيا خلخالي». تظاهر حجة الإسلام أولاً بعدم الاكتراث لهن، بينما كان الجنود يصدّونهن، ثم شقّ طريقاً لنفسه عبر السياج. وكان ينوي عقد مؤتمر صحفي رسمي قبل دخوله إلى مقر محكمته الصغير، ولكن تقدم منا أحد رجال الشرطة، وأخبرنا أن القاضي «غريب». وأوجسنا إذ ذاك خيفة من أن تطال نقمة خلخالي صحفياً أو اثنين، فعمدنا إلى إنهاء هذا الحدث العلني، بهربنا(*).

إن خلخالي يمثل للغربيين خطراً خاصاً. فإذا أُقرّت محاكمة رهائن السفارة بحسب الشريعة الإسلامية، فهلّا تطلق يد خلخالي فيهم؟ إن وعود الخميني بحماية الرهائن قد تُعدَّل الآن بعدما تمّت إعادة تركيب الوثائق التي اكتشفت في السفارة وكشفت عن أن اتهام الإيرانيين للسفارة بكونها «وكراً للجاسوسية» في طهران، له إثباتات تبرّره. وهكذا، عندما نقل الشاه مكان إقامته من الولايات المتحدة الأميركية إلى «باناما» ـ تلك الرحلة التي أنذر

(*) كنتُ أسجّل جولة خلخالي في السجن للراديو الكندي. ولا يزال لديّ ذلك التسجيل الذي يمكن أن يسمع فيه صوت شفتي خلخالي تتمطّقان البوظة (الجيلاتي)؛ بينما كان يناقش مسألة الرجم الدقيقة.

ثلاثة دبلوماسيين إيرانيين بشأنها، بناء على طلب واشنطن ـ انبرى «طلاب الإمام» إلى نشر تصريح يكرِّر العزم على محاكمة الأميركيين(*). وفي آخر الأمر، طبعاً، لم تحصل تلك المحاكمة.

ولا مفرّ من نفاد صبر الإيرانيين بشأن وجود المراسلين الأجانب في طهران. فبعد يوم من صدور تصريح «المحاكمة»، مشى «أبو الحسن صادق» في وزارة الإرشاد الإسلامي، وعلى وجهه علامات الغضب أو الضيق التي يبديها مدير المدرسة من صف لا يراعي النظام باستمرار. ومن حسن الحظ بالنسبة إلى «هارفي موريس» ـ وهالة دخان السجاير التي تحيط به ـ أن يتأخر صدور تحريم التدخين في أبنية الحكومة عقداً من الزمان. لكنه كان يدري ماذا ستأتي به الأيام. قال لي مهمهماً: «يا فيسكي، سنرى من سيطرد اليوم». وكانت في الوزارة قاعة استماع كبرى تحت الأرض، ظهرت كأنها قاعة محاضرات في مدرسة. وهناك انتظرنا لنتلقى الأخبار السيئة. جلس صادق مدير المدرسة إلى طاولته على منصّة صغيرة ونظر إلينا من علٍ بقساوة. فأحسسنا بأن في الجو طرداً لواحد أو اثنين منّا.

بادرنا بقوله: «أيها السادة» ـ وهارفي يحب شكيمة «السادة» ـ «أود أن نتشارك في الكرب الذي نعانيه بشأن وسائل التواصل الأجنبية. ويؤسفنا كثيراً أن نطرد كامل فريق مجلة «التايم» من إيران». ولم يكن مهماً أن يكون كامل ذلك الفريق مؤلفاً من شخصين فحسب، ولا كيف رأى صادق الأمور، إذ استأنف قائلاً: «لدينا في إيران ثلاثمئة صحافي أجنبي وافدون من أكثر من ثلاثين بلداً؛ ولكن «التايم» تجاوزت حدودها». وأومأ إلى قبضة من الصفحات الأولى من المجلة المسيئة، وعلى إحداها صورة غير مداهنة للخميني.

ثم قال، وهو يلوِّح بالعدد الأخير من مجلة «التايم»: «منذ أن نشأت مشكلة الرهائن، لم تقم هذه المجلة سوى بإثارة كره الشعب الأميركي؛ إذ كانت صفحاتها الأولى كمطرقة تهوي على الرؤوس. لقد خلَّقت هذه المجلة رد فعل غير عقلاني لدى الشعب الأميركي». ولم تكن مجلة «التايم» هيئة الأخبار الوحيدة التي أثارت الغضب الإيراني. فقبل ثمانية أيام، طرد «ألكس أفتيغولوس» مراسل الصحافة المتحدة ـ وهو شخص قبرصي ملتحٍ، له أرومة روسية جزئية تجعله يبدو مثل «راسبوتين» ـ بعد اتهامه بأنه شوَّه أخبار الشغب الذي حصل في تبريز، عاصمة محافظة أذربيجان؛ حتى أن البريطانيين تشاجروا مع الإيرانيين وتلقوا غضبهم. ففي أوائل كانون الأول/ديسمبر، كان «عناية إتحاد»، وهو مسؤول من التلفزيون الإيراني يشاهد أخبار هيئة الإذاعة البريطانية في أحد فنادق لندن؛ فغضب لعرض تقرير عن الرهائن أعدَّه «كيث غرايفز» ووصف فيه بالتفصيل المحرج كيف تربط أيديهم بالحبال،

(*) وقد نشرت «وكالة پارس نيوز» بالإنكليزية وبتاريخ ١٦ كانون الأول/ ديسمبر مقتطفاً من التصريح المنذر بكامل نكهته في ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، وباسم أمة إيران الإسلامية ـ إن الولايات المتحدة الأميركية، ذلك الشيطان الأكبر، ومصدر الفساد في الغرب، بعدما خذلتها أمتنا العظيمة، تحاول أن تجد ملجأ لخادمها الفاسد الشاه الهارب، وتمنع العدالة من أن تأخذ مجراها. . . ومن أجل أن تخرج من مأزقها السياسي وتخدع أمتها، تبذل جهداً ضائعاً بإرسال المجرم محمد رضا إلى صنيعتها «بناما». ونحن نعلن هنا أننا سنحاكم الرهائن الجواسيس، لإظهار مؤامرات الخيانة التي اقترفتها الولايات المتحدة المجرمة، وللاقتصاص منها».

ويمنعون من التكلم، بعضهم مع بعض، ومن تلقّي أخبار من العالم الخارجي. ولم أفاجأ بذلك. فمنذ عقدين ونصف من الزمن، و«غرايفز» يغيظ طالبان، والجيش الإسرائيلي، والحكومة الأميركية، والجيش الثوري الإيرلندي، والجيش البريطاني، و«الناتو» (حلف شمالي الأطلسي)، والمصريين، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وحزب الله، والسوريين، والأتراك، وحتى القبارصة: ـ ولا سيما إنجازه الأخير هذا الذي كان مدهشاً حتى بالنسبة إلى شخص قدير مثله ـ ويخرج من هذه الورطات كلها بخير. ولكن كان على هيئة الإذاعة البريطانية أن تدفع ثمن ذلك. فقد أعطى «إتحاد» تعليماته للتلفزيون الإيراني بأن يحرم كل فريق يأتي من قبل هيئة الإذاعة البريطانية من استخدام تسهيلات الأقمار الصناعية. فاضطرت هذه الهيئة إلى إرسال كل أفلامها غير المعالجة بالطائرة إلى لندن، حيث تصل متأخرة يوماً واحداً. ولكن، كان من الواضح أن «إتحاد» انزعج أكثر من ذلك بسبب برامج اللغة الفارسية التي تذاع من هيئة الإذاعة البريطانية، إذ كان صادق يلوّح مهدداً بكومة من الأوراق فوق رأسه قائلاً: «إنها شكاوى من كل أنحاء إيران، بشأن قسم اللغة الفارسية في هيئة الإذاعة البريطانية».

كان صادق مطمئناً إلى وابل نقده. فقد نوّه بصوت عال بأن أحد مراسليْ «التايم»، اشتغل سابقاً لصالح وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وقال: «ولكني مع ذلك أدخلته إلى إيران». وكان يشير إلى «بروس فان ڤورست»، الذي عمل مع تلك الوكالة بصفة ضابط بحوث في أواخر الخمسينيّات، والذي صرّح الآن بأنه قطع كل علاقة له مع تلك الوكالة ـ والذي بات نشاطه في إيران الآن هاجساً إيرانياً وطنياً؛ نظراً لاكتشاف وثائق السفارة الأميركية. وصادفت شبكة (CBC) الأميركية مشكلة، لأنها وصفت الطلاب في السفارة بزمرة «بادر ـ ماينهوف» الألمانية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى شبكة (ABC) لأنها أذاعت تقريراً لوزارة الخارجية الأميركية «جعل أيّ إيراني يبدو كالأحمق». ولكن، كانت ردود الفعل هذه التي صدرت عن الحكومة الإيرانية أقرب إلى الصغائر من الأمور، وإلى ردود فعل انفعالية ناتجة عن الغضب الوطني القومي، لا عن تفكير مستقبلي. وقد ظهر ذلك في بعض الحجج التي وردت لا شعورياً في كلام صادق، واستقاها من التاريخ الأميركي بتوازٍ غير موفق، إذ قال: «في عام ١٨٣٤، كان الكولونيل «ترافيس» يدافع عن «آلامو» ضد الجيش المكسيكي؛ وعندما طلب منه الاستسلام، أجاب بإطلاق المدافع. لقد ناصر مبادئه. وهذا هو ما تفعله إيران اليوم». عندئذٍ، تنهّد «هارفي»؛ وتعجب قائلاً: «ظننت أن «ترافيس» خسر معركة «آلامو» الدموية».

لقد كانت الثورة الإيرانية بمثابة عاصفة؛ وقد علقنا كلنا في دوّامتها. لقد أجرينا مقابلة مع الخميني، وشاهدنا المظاهرات الملحمية، ورأينا أميركا في حالة عجز. ودخلت السفن الحربية الأميركية الخليج. وطلب الخميني تشكيل جيش لجب يتألف من عشرات الآلاف من طلاب المدارس المتطوعين، ليدافع عن إيران. وقد سافرتُ على متن «باص» عائداً من كردستان إيران، حيث كان الركاب يشاهدون أثناء الرحلة برنامج تدريب على الأسلحة، على شاشة تلفزيون نُصب لهذه الغاية في الباص: «كيفية تفكيك بندقية رشاشة وإعادة تركيبها، وكيفية سحب فتيل قنبلة يدوية، وكيفية الرماية بمدفع رشاش». كنت أتمايل في القسم الخلفي من الباص المنطلق، بينما كان الركاب صامتين منتبهين، واليوم، كما أظن، علينا تسمية الأجزاء.

ولكني كنتُ أفتش عن طريقة أخرى لوصف الوضع في إيران، بعيداً عن الأحداث التي صُمِّمت من أجلنا؛ ولاسيما من أجل مراسلي التلفزيون الأميركي. كنتُ في مكتب زميلنا «هارفي»، أحدِّق في خريطة لإيران ملطَّخة على الجدار، عندما خطرت لي فكرة. «ما رأيك في أن أغمض عينيّ، وأغرز دبُّوساً في الخريطة، ثم أسافر إلى تلك النقطة التي غرزت فيها الدبوس، وأسأل الناس عن رأيهم في الثورة»؟ فأجابني «هارفي» إلى طلبي. وقال: «هاك الدبوس، وأظن أنك ستغرزه في أفغانستان الدامية». شككتُ الدبوس في الخريطة وفتحت عينيّ، فإذا بالدبوس قد استقرّ على حرف (هـ) من اسم قرية تسمى «كاهاك»، تقع جنوبي ـ غربي مدينة قزوين. فسافرت إليها فجر اليوم التالي.

كانت «كاهاك» مكاناً لا يزوره أحد. ولا يطالع الغريب الداخل إليها سوى صف مستطيل من البيوت الطينية ذات الطابق الواحد، تبدأ عند آخر طريق ترابية، ليس عليها سوى مجموعة من الأطفال وكومة كبيرة من روث الحيوانات يرعى عليها دجاج سمين. وإذا نظر المرء إلى الشمال عبر الغبار وسديم الحرّ، يرى جبال «ألبورز» تمتد على طول الأفق، بحيث تشكِّل الضفّة السفلى لحوض بحر «قزوين». إن الأجانب لا يرون «كاهاك» أبداً، إلّا أن المسافرين على القطار الليلي إلى الحدود السوفياتية يمرون على أطراف بساتين القرية؛ وحتى لو مرّوا فمن الأرجح أنهم لن يلاحظوا شيئاً. إن «كاهاك» قرية صغيرة جداً، بحيث أن سكانها البالغ عددهم ٩٥٠ شخصاً لا يستطيعون أن يبنوا مسجداً لهم في القرية.

كان هناك رجل تبدو عليه علامات الشيخوخة المبكِّرة، في الرابعة والستين من عمره، يتقطّر على وجهه من تحت عمامته بعض العَرَق، ويلبس قميصاً تلوثت مقدمته بالتراب. لقد جاء من «قم» ليكون إماماً في البلدة، يرعى المؤمنين. لكنه كان رجلاً نشيطاً بشكل غير عادي، وهو يمشي برشاقة حول أكوام روث الحيوانات، وبريكات ماء الأمطار الآسنة، ويتكلم عن القرية، واثقاً من نفسه، وبلهجة شبه خطابية وعظية، ونبرة تعلو وتنخفض بحسب مجرى الكلام الذي كان رسمياً أكثر منه محادثة. سألته عمَّا فعلت الثورة لهؤلاء الناس؛ فأشار الشيخ «إبراهيم زوده» إلى الأرض القاحلة التي تحيط بأكواخ الطين، التي تشبه صحراء من الأرض السمراء العصيَّة.

وقال: «إن القرويين يملكون كل شيء على جانبيّ الطريق؛ ولكنهم لا يعرفون بالضبط ماذا يملكون». وكان حرّ النهار يومض ويتراقص على أخاديد الريّ الجافَّة. لم تكن لدى هؤلاء السكان سندات ملكية أو ميثاق قانوني، بعدما غادر الملّاكون الكبار. وكان في مغادرتهم شيء أزعج الشيخ «زوده»؛ كما شرح ذلك بقوله: «في النظام السابق، كان هناك ملّاكان كبيران: «حبيب سرداي» و«إبراهيم صلحي». وكان القرويون يعيشون في ظروف سيئة. وكان بعضهم أشد فقراً بحيث تراكمت عليهم الديون؛ ولا سيما عندما جاء «سرداي وصلحي» وأخذا منهم محصول الحبوب. إني أذكر أنهم كانوا يذهبون إلى القرى الأخرى ليشتروا محاصيلهم من الحبوب بأسعار باهظة. ولذلك استدانوا المال، ودفعوا فائدة على تلك القروض». وخلال حديث الشيخ، تجمّع حولي عشرات الفلاحين. كانوا فقراء، وأكثرهم من أصل تركي، تبرز عظام خدودهم وتلمع. كانوا يلبسون سترات غبراء ممزّقة وسراويل

خدَّشتها قطع الحجارة وأشواك الحقل، مع صنادل بلاستيكية رخيصة بأرجلهم. وكان بينهم فتاة واحدة، تبلغ من العمر ١٣ سنة، شعرها أسود، وملفوفة بشادور أغبر وردي.

واستأنف الشيخ «زوده» كلامه قائلاً: «ثم تحسّنت حالنا؟ فغادر سرداي وصلحي بعد تنفيذ الإصلاح الزراعي». ولم يظهر أيّ تغيير على سحنة الشيخ الإمام. لقد سألناه عن الثورة الإسلامية في تلك السنة، لكنه تكلم عن ثورة الشاه البيضاء التي حدثت منذ ١٧ سنة، عندما جاءت القوانين الملكية وحدَّت من نفوذ الملَّاكين الكبار؛ وجرت إعادة توزيع الأملاك، واستبقى كل ملَّاك قرية واحدة. وهكذا دخل المزارعون الفقراء ميدان الاقتصاد، لكن لم تتغير حال الفلاحين وعمال الفلاحة. وهكذا، لم تستفد «كاهاك» تماماً من إصلاحات الشاه. قال الشيخ «زوده»: «كانت هناك أشياء مفيدة لنا في الإصلاحات. فقد زاد عدد الغنم الذي يملكه القرويون من ألفين إلى ثلاثة آلاف. ولكن القرية ذاتها التي كان يملكها اثنان، صارت تحت سلطة وكيل الحكومة. وهو رجل يسمى «دارود جيلاني»، وهو رأسمالي من مدينة «قزوين». كان رجلاً رديئاً، يأخذ من القرويين نصف محصولهم كأجرة».

وكان هناك أيضاً رجل آخر، له ذقن غير محلوقة، وعين يسرى أصابها السدّ (المياه الزرقاء أو البيضاء).٠كان يمشي باتجاه القرويين الذين هم في المقدمة؛ ولم أكن أتصور أن «عزيز محمودي» هذا هو أكبر مزارع في القرية ورئيسها، نظراً لقميصه القذر وحذائه المقطَّع. نظر إلى الشيخ لحظة، ثم قال بتمهل بطيء: «إن دارود جيلاني في سجن قزوين الآن». مشى محمودي عبر ساحة القرية يتبعه حشد من تلاميذ المدارس، وأشار إلى بيت متقوّض من الطين بطابقين، يعتبر بحبوحة وسط هذه الشدَّة؛ وقال: «كان صلحي يعيش في هذا البيت، مشيراً إلى النوافذ المحطمة؛ والآن ذهب جيلاني أيضاً؛ ولن يعود». ولم يكن هناك من سبب لعودة جيلاني، حتى لو خرج من السجن. وذلك لأن القرويين شاهدوا على تلفزيون أبيض وأسود بسيط، في أول يوم من أيام الثورة في شباط/ فبراير، الجيش الإمبراطوري يستسلم في طهران. وعلى الأثر نزلوا إلى الحقول التي كان يملكها «جيلاني» على جانبي سكة الحديد؛ وزرعوا شعيرهم كرمز للثورة التي وصلت إلى «كاهاك».

وفوق اللوح الأسود في مبنى المدرسة الطيني، وضعت لوحة تمثل آية الله الخميني وهو ينحني فوق قضبان سجن، ووراءه آلاف من السجناء الإيرانيين الذين ينتظرون بفارغ الصبر الإفراج عنهم. وفي الصف السابع، وقف الطلاب واحداً بعد الآخر يسمِّعون تهليلهم للخميني. ومنهم «جلال محمودي» البالغ من العمر ١٢ سنة، الذي تكلم عن فساد نظام الشاه؛ و«علي محمودي» ابن الرابعة عشرة من عمره وعريف الصف، الذي ألقى خطبة طويلة تصف حنان الإمام على الأولاد شملت ما يلي: «إني مسرور من الإمام آية الله، لأني لم أكن أتعلم جيداً في النظام السابق بينما لدينا الآن ثلاثة صفوف إضافية، ونستطيع أن نبقى في المدرسة وقتاً أطول». ويتوقع أن ينال علي من زملائه منديل تقدير يربط حول عنقه، نظراً للحماسة التي أبداها. لكن الأولاد الآخرين لبثوا ساكتين حتى

يطلب منهم أن يتكلموا. وأدركت حينئذٍ أنني لو كنتُ قد زرتُ القرية ذاتها في أعقاب انقلاب عام ١٩٥٣ على مصدّق، الذي مثل فيه «مونتي وودهاوس» دوراً حاسماً، لسمعت من آباء هؤلاء الأولاد كلاماً مشابهاً عن فساد مصدّق ولطف الشاه.

واجتمعت أيضاً بالمعلّم «كريم خَلَج». وهو رجل في أواخر الأربعينيّات من عمره، فلم تنبس شفتاه إلّا بالقليل، عندما جلسنا معاً في غرفة المعلّمين. صبّ لي الشاي من إبريق فضي كبير، وحلّاه بالرشف منه تدريجاً وهو يقضم برفق قطع السكَّر. ثم خرجنا نمشي عبر الحقول المغبَّرة نحو خط السكة الحديدية. فأخبرني بأنه سُجن لمدة قصيرة أثناء حكم الشاه؛ كما طُرد من عمله لأنه اشتكى من قبض أحد معلمي الحكومة رشوة.

بدأت الريح تتحرك، وصارت أشجار البساتين تتمايل. ولفَّ الأفق حزام من الضباب والدخان. وتخيّلت أن «مونتي وودهاوس» طمر أسلحته في مكان ما قرب «كاهاك». وسألت «خلج»: «هل ناصر أيّ من القرويين الشاه؟»، فقال مؤكداً: «لم يناصره أحد». و«السافاك» لم تفد أبداً على القرية؛ فقد كانت لصغرها لا تسترعي أيّ انتباه. ثم سألته: «ما هي الصورة التي كانت معلقة فوق اللوح الأسود في الصف السابع قبل عودة آية الله إلى إيران؟»؛ فهزَّ كتفيه وقال: «لا بد من وضع صورة هناك. وبالطبع كانت صورة الشاه».

الطريق إلى الحرب

«كان يطمح إلى ضَربٍ من الكمال، والشعر الذي ألّفه كان سهل الإدراك؛ عرف الحماقة البشرية مثلما يعرف ظاهر كفّه، وكان شديد الاهتمام بالجيوش والأساطيل؛ كان شيوخ المجلس يضحكون عندما يضحك، والأطفال يموتون في الشوارع عندما يبكي».

«و. هـ. أودِن» من «نقش على ضريح طاغية»

في آذار/مارس عام ١٩١٧، قام «تشارلز ديكنز»، الجندي ذو الرقم ١١ ٠٧٢ من فرقة «تشيشاير» بنزع ملصق عن جدار في المدينة التي تم احتلالها مؤخّراً: بغداد. كان ذلك نقطة انعطاف في حياته. فقد بقي حيّاً بعد حملة «غاليپولي»، ومهاجمة الإمبراطورية العثمانية على بعد ٢٥٠ كيلومتراً فقط من عاصمتها القسطنطينية. ثم مشى على طول «بلاد ما بين النهرين»، وهو يحارب الأتراك الذين كانوا لا يزالون يمتلكون الخلافة، ويتحمَّل معركة بغداد الشرسة. وكان قوام الجيش البريطاني الغازي ٦٠٠ ٠٠٠ جندي يقوده الفريق «ستانلي مود»؛ وصفحة الورق التي استرعت انتباه الجندي «ديكنز» كانت بيان «مود» لسكان بغداد، مطبوعاً بالإنكليزية والعربية.

كان ذلك الملصق بالذات ـ المؤطّر الآن باللونين الأسود والذهبي بقياس ٢٨ × ٤٥,٧سم ـ معلّقاً على الجدار على مسافة قريبة من مكتبي فيما أحرّر هذا الفصل. إنه ملصق تاريخي ملطّخ بالبقع؛ وربما لا تزال عليه بصمات «ديكنز» منذ ذلك الصيف العراقي القائظ عام ١٩١٧ . وقد قالت لنا ابنته «هيلدا» ، بعد ٨٦ سنة، إنّ هذا الملصق سافر معها زمناً طويلاً مطويّاً مرّات عديدة؛ وكانت تلقّبه بالوثيقة الثمينة. وأنا أدرك اليوم مغزى ذلك التقدير.

لقد كان ذلك الملصق حافلاً بالطموحات النبيلة والاستشعارات المسبَّقة لما سيأتي به المستقبل من مصاعب، وبالوعود الكاذبة لمستقبل أكبر إمبراطورية في العالم، وبالالتزامات والنوايا الحسنة وعهود الشرف التي ستتكرّر في المدينة ذاتها ببغداد من قبل الإمبراطورية الكبرى التالية، بعد أكثر من عقدين من الزمن غداة وفاة «ديكنز». إنها وثيقة تُقرأ كترنيمة جنائزية:


ش
تركيـــا
كردستان
دياربكر
زاخو
دهوك
ياسلوفا
إيـــران
الموصل
إربيل
السليمانية
سوريـــا
كركوك
حلبجة
دجلة
الفرات
تكريت
قصر شيرين
سامراء
الحبانية
الرمادي
بغداد
الفلوجة
العـــراق
الأردن
المسيب
كربلاء
القادسية
الديوانية
النجف
العمارة
الناصرية
البصرة
أم قصر
الكويت
العبدلي
الخفجي
المملكة العربية السعودية
٥٠٠ كم

بيان

... «إن عملياتنا العسكرية ترمي إلى أن نهزم العدو ونخرجه من هذه الأراضي. ومن أجل إتمام هذه المهمة، أنيطت بي السلطة العليا والمطلقة للسيطرة على كل المناطق التي يعمل فيها الجنود البريطانيون. ولكن عناصر جيوشنا لا يأتون إلى مدنكم وأراضيكم كفاتحين أو كأعداء؛ بل كمحرِّرين. فمنذ أيام «هولاكو»(*) خضع مواطنوكم لاستبداد الأجانب... وقد عانيتم وعانى آباؤكم قبلكم من العبودية؛ كما جُرَّ أبناؤكم إلى حروب ليس لهم فيها مطلب، وجرَّدكم الظالمون من أملاككم، وشتَّتوكم في أماكن مختلفة. إن رغبة مليكي وشعبه وحلفائه من الأمم الكبرى هي أن يعود إليكم الازدهار كما في الماضي عندما كانت أراضيكم خصبة... وأنتم يا أهل بغداد، لا تظنوا أن الحكومة البريطانية ترغب في أن تفرض عليكم مؤسسات غريبة عنكم؛ بل إنها تأمل أن تتحقق طموحات فلاسفتكم وكتَّابكم من جديد، وأن يزدهر شعب بغداد وأن يتمتّع بثروته وممتلكاته، في ظلّ مؤسّسات تتلاءم مع قوانينه المقدّسة، ومُثله العليا العِرقية... إن الحكومة البريطانية تأمل وترغب في أن ينهض العِرق العربي مرة أخرى إلى العظمة والشهرة بين شعوب الأرض... ولذلك، أُمرت بأن أدعوكم إلى المشاركة في إدارة شؤونكم المدنية بواسطة نبلائكم وكباركم وممثليكم، بالتعاون مع الممثل السياسي لبريطانيا العظمى... بحيث تتّحدون مع بني قومكم في الشمال، والشرق، والجنوب، والغرب، من أجل تحقيق طموحات عِرقكم.

الفريق «ف.س. مود»

قائد القوّات البريطانية في العراق

(دون تاريخ)

قضى هذا الجندي مدة الحرب العالمية الأولى، وهو يحارب المسلمين. حارب أولاً الأتراك في «خليج سفلافي غاليپولي»، ثم الجيش التركي ـ الذي كان يضمّ جنوداً عرباً ـ في بلاد ما بين النهرين. وكان والدي «بيل» في فرقة «تشيشاير»، ولكنه كان يخدم في إيرلندا في السنة التي دخل فيها «تشارلس ديكنز» بغداد، على أن يُرسل إلى الجبهة الغربية عام ١٩١٨. وكانت حرب «ديكنز» أطول. وتقول ابنته «هيلدا» إنه كان يتكلم تكراراً بإعجاب عن أحد رؤسائه من القادة، ألا وهو اللواء السير «تشارلز منرو»، الذي كان إذ ذاك بعمر الخامسة والخمسين،

(*) حفيد جنكيز خان الذي دمَّر بغداد عام ١٢٥٨، كجزء من حملة المغول لإخضاع العالم الإسلامي.

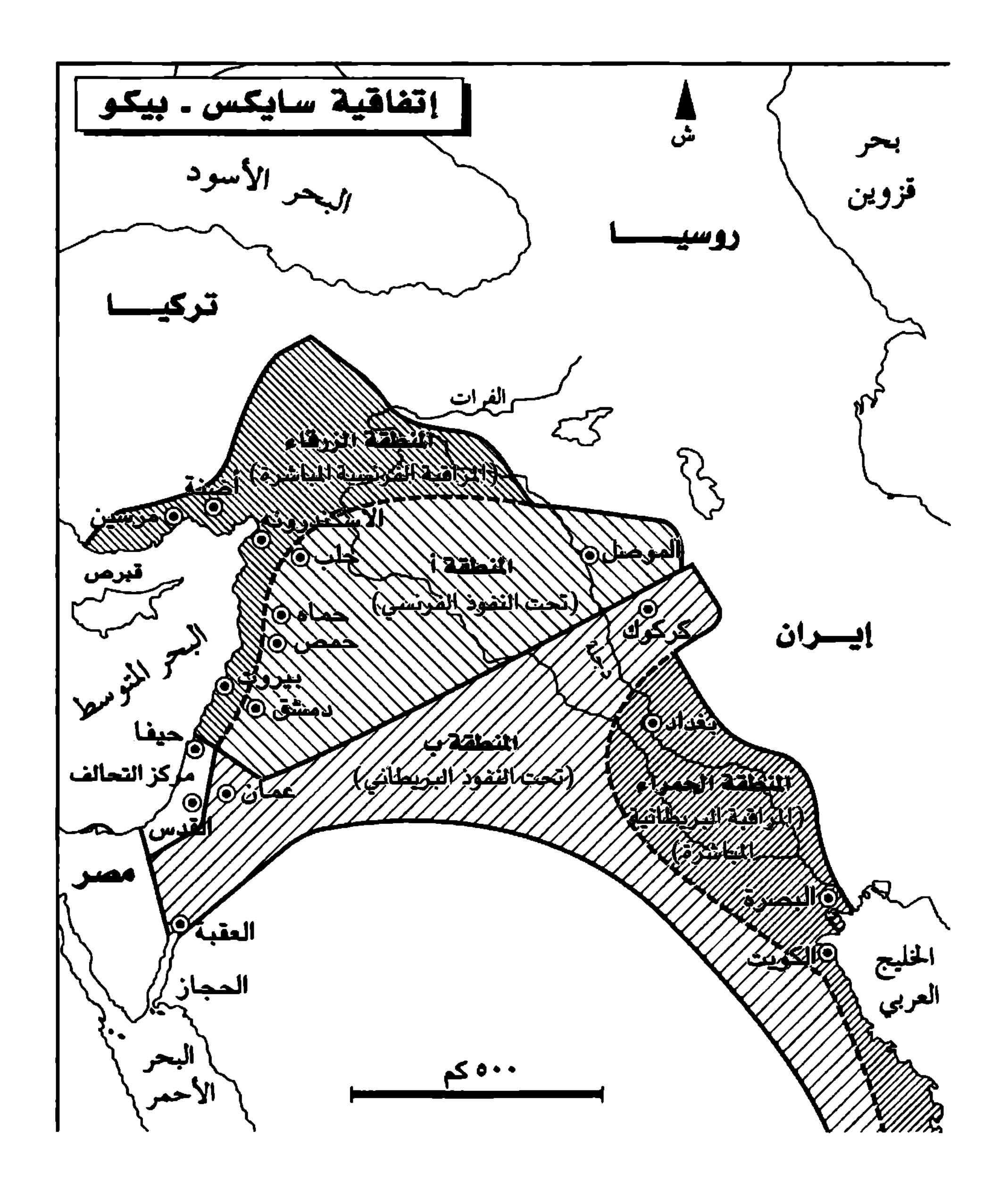
بعدما حارب في الأشهر الأخيرة من حملة «غاليپولي»، ثم استقر في البصرة بجنوب العراق، عند بدء الغزو البريطاني للعراق. ولكن قيادة منرو لم تنقذ حياة «صاموئيل مارتن»، ابن عم شقيقة «ديكنز» المتزوجة، من الموت في البصرة على يد الأتراك. وتذكر «هيلدا» كيف كان والدها يفكّر آنذاك في أن يقتل تركياً انتقاماً لابن عمه. ولا تتذكر هل كانا في الكتيبة ذاتها؛ لكنهما كانا في العمر نفسه: ٢٢ سنة(*).

كان البريطانيون معتزّين باحتلالهم للبصرة. وبعد ثمانين سنة أرسل إليّ شخص بريطاني مسلم من أصل باكستاني، رسالة أرفقها بعدد من البطاقات البريدية النادرة، طبعتها جريدة «التايمز أوف إنديا» في بومباي بالنيابة عن جمعية الشبان المسيحيين. تظهر إحداها المدفعية البريطانية جاثمة بين أشجار النخيل في البصرة؛ وتعرض صورة ثانية جندياً بخوذة ليّنة يلتفت نحو آلة التصوير، بينما يربط رفاقه قيود الأحصنة. وبطاقات أخرى تبدي طاقم زورق حربي على نهر شط العرب، وبلدة القرنة التي لا تزال بيد الأتراك، وبناية مزّقتها القذائف البريطانية، قبل أن تستسلم بقليل. وحتى عام ١٩١٤، تلقّى أحد كبار الموظفين البريطانيين تأكيدات «من الوجهاء العرب المحلّيين بأن القوات البريطانية ستُستقبل في بغداد بالودّ ذاته الذي استُقبلت به في جنوبي العراق، وأنها لن تلقى سوى مقاومة ضئيلة من قِبل الجنود الأتراك». ولكن الغزو البريطاني للعراق كان قد خاب. فقد سيَّر اللواء «تشارلس تونشند» جيشاً قوامه ١٣٠٠٠ جندي على ضفاف نهر دجلة باتجاه بغداد، ولكنه أُحيط بالقوات التركية وهُزم عند «كوت العمارة». وكان استسلامه من أكبر الكوارث العسكرية؛ وانتهى بمسيرة موت لأولئك الجنود البريطانيين الذين لم يقتلوا في المعركة وهم في طريقهم إلى تركيا. وقد غرقت قبور ٥٠٠ منهم في مقبرة الكوت الحربية، بمياه المجارير المالحة ، خلال فترة تنفيذ عقوبات الأمم المتحدة على العراق التي تلت غزو الكويت عام ١٩٩٠، عندما لم يُعْطَ العراق قطع غيار للمضخّات الضرورية لضخّ تلك المياه من القبور. وعندما زار زميلي «باتريك كاكبورن»، مراسل جريدة «الإندبندنت» تلك المقبرة عام ١٩٩٨، وجد أن شواهد القبور... لا تزال تُرى فوق المياه الخضراء القذرة، وأن هناك صليباً مكسوراً من الإسمنت يبرز من مهد القصب... لقد كانت أرضاً سبخة تنقّ فيها آلاف من صغار الضفادع التي تتغذّى على القمامة، كجماعات الصراصير. وبلغ مجموع خسائر البريطانيين حوالى ٠٠٠ ٤٠ جندي في حملة «بلاد ما بين النهرين».

وبدت بغداد على هذه الصورة عندما وصلها الجندي «ديكنز». وقبل ذلك بحوالى سنتين، وصف زائر تلك المدينة بأنها مدينة:

> «تتثاءب شوارعها فارغة، وتبقى حوانيتها مقفلة.... وفي المقبرة المسيحية، شرقي الطريق الكبرى المؤدية إلى بلاد الفرس، كانت تطفو التوابيت وأنصاف الهياكل العظمية العفنة. وفي ما يخصّ وباء

(*) بقي شاهد قبر «صاموئيل مارتن» سبعين سنة في مقبرة الحرب البريطانية في البصرة، وعليه العبارة التالية: «ذكرى الجندي صاموئيل مارتن ذي الرقم ٣٨٤ ٢٤، من الكتيبة الثامنة، وفرقة «تشيشاير»، الذي توفي يوم الأحد في ٩ نيسان/أبريل ١٩١٦. إنه ابن «جورج وسارة مارتن» من «بينش تري إن، بارنتون، نورثويتش، تشيشاير». وأثناء التراشق بالقذائف في البصرة خلال حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ مع إيران، دمّرت المقبرة، ونهبت، وتكسرت شواهد القبور كلياً. وعندما زرتُ المقبرة في أشهر الفوضى التي أعقبت الغزو الأميركي ـ البريطاني للعراق عام ٢٠٠٣، وجدت هناك كلاباً سائبة تجول بين شواهد القبور المحطمة، ولاحظت أن التركيبات النحاسية قد سرقت من النصب المركزي.


إتفاقية سايكس ـ بيكو
ش
البحر الأسود
بحر
قزوين
روسيـــا
تركيـــا
الفرات
المنطقة الزرقاء
(الرقابة الفرنسية المباشرة)
أضنة
مرسين
الاسكندرون
حلب
الموصل
المنطقة أ
(تحت النفوذ الفرنسي)
قبرص
حماه
حمص
كركوك
إيــران
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
بغداد
حيفا
المنطقة ب
(تحت النفوذ البريطاني)
مركز التحالف
عمان
المنطقة الحمراء
(الرقابة البريطانية
المباشرة)
القدس
مصر
البصرة
العقبة
الكويت
الخليج
العربي
الحجاز
البحر
الأحمر
٥٠٠ كم

«الكوليرا» الذي كان يكتسح البلد (بمعدل ٣٠٠ وفاة يومياً)، صار المسيحيون يقبرون على الجسر الجديد للطريق، بحيث لا يمر الماشي أو الراكب قرب القبور، بل عليها... لم تكن هناك أية حياة في البلد...».

وكانت للبريطانيين إذ ذاك آمال متفائلة عريضة لتجديد العراق بواسطة المشروع الغربي، على شاكلة الأوهام الأميركية المعقودة عام ٢٠٠٣، بعد غزو العراق. وكانت مجلّة «سفير» (Sphere) قد أنبأت قرّاءها عام ١٩١٥: «أن مساعدة العلوم والطاقة الأوروبية يمكن أن تعيد العراق ليكون جنّة لقارّة آسيا... وأنه تحت الحكم البريطاني يمكننا أن نأمل بتحقيق كل شيء...».

كان الاحتلال البريطاني مظلماً مع سوابق تاريخية. فالجنود العراقيون الذين كانوا مجنّدين في الجيش التركي «راودتهم دائماً أفكار ودودة إزاء الإنكليز»؛ ولكنهم ذاقوا المرّ في السجون البريطانية في الهند، إذ إنهم أُهينوا وتعرّضوا للإذلال بكل طريقة. وهؤلاء السجناء بالذات كانوا يريدون أن يعرفوا هل سيسلّم البريطانيون العراق إلى الشريف حسين في الحجاز ـ الذي وعده البريطانيون بذلك كذباً ورياءً، من أجل تحقيق «الاستقلال» للعالم العربي، شرط أن يحارب مع الحلفاء ضد الأتراك ـ على أساس أن بعض الأماكن المقدسة الإسلامية موجودة في بلاد ما بين النهرين.

كان الموظفون البريطانيون يعتقدون أن السيطرة على بلاد ما بين النهرين تؤمّن مصالحهم في النفط الفارسي ـ وقد صُمّم احتلال البصرة المبدئي ليحقق هذا الغرض ـ وذلك «هو بوضوح حقنا وواجبنا، فإذا ضحّينا بالكثير من أجل السلام في العالم، يجدر أن نحصل على تعويض ملائم، وإلّا نكون قد خذلنا أهدافنا» ـ ولكن تلك لم تكن الصيغة التي عبّر بها اللواء «مود» عن المطامح البريطانية في بيانه المشهور الصادر عام ١٨١٧. وقد كتب «إيرل سكُوِذ» في مذكراته أنه «مع السير إدوارد غراي»، وزير الخارجية البريطاني، اتفقا عام ١٩١٥ على أن «احتلال بلاد ما بين النهرين»... يعني إنفاق الملايين على الري والتنمية...». وحالما استقر البريطانيون في بغداد، قرروا أن يُحكم العراق ويعاد بناؤه بواسطة «مجلس مؤلف من المستشارين البريطانيين ومن ممثلين غير رسميين من السكان». وفيما بعد، فكروا في تأليف حكومة نصفها من أهل البلاد والنصف الآخر من البريطانيين، وراءها مجلس إداري أو هيئة استشارية تتكون من وجهاء القوم، بشكل رئيسي.

ولم يكن لدى «جرترود بل»، الرحّالة والعالمة ومستشارة الشؤون الشرقية لسلطة الاحتلال البريطاني، أي شك بشأن الرأي العام العراقي... «فكلما شدّدنا قبضتنا، سُرَّ السكان هنا... فهم لا يتصورون قيام حكومة عربية مستقلة! وأنا أعترف بأني لا أتصور ذلك. فليس هنا من يستطيع أن يدير شؤونها!» وهذا أيضاً بعيد عن المطامح النبيلة التي جاءت في بيان «مود» قبل أحد عشر شهراً. ولن يتفاجأ العراقيون لو قيل لهم ـ وهذا طبعاً لم يحصل ـ إن «مود» يعارض بشدّة البيان ذاته الذي ظهر بتوقيعه، والذي كتبه «السير مارك سايكس»، ذاته الذي اتفق سرّاً مع «فرنسوا جورج بيكو» عام ١٩١٦ على اقتسام السيطرة على معظم الشرق الأوسط بعد الحرب، بين الفرنسيين والبريطانيين.

وحتى الصحافيون بدأوا يدركون في أيلول/سبتمبر ١٩١٩ أن مشاريع بريطانيا للعراق كانت قائمة على أوهام. وقد كتب مراسل جريدة «التايمز» بتاريخ ٢٣ أيلول/سبتمبر يقول: «أتصوّر أن رأي كثير من الإنكليز بشأن بلاد ما بين النهرين هو أن كثيراً من سكانها المحلّيين يرحّبون بنا لأننا أنقذناهم من الأتراك، وأن البلد لا يحتاج إلّا إلى تنمية ليعوّض الإنكليز ما أنفقوه من مال وأرواح. ولكن أياً من هذه المثاليات لن يصمد عند امتحانه. . . فمن وجهة النظر السياسية، نحن نطلب من كل شخص عربي أن يستبدل بفخره وحريته بعض الحضارة الغربية، التي تمتص الإدارة فوائدها».

وهكذا أصبحت بريطانيا تحارب حركة التمرّد في العراق خلال ستة أشهر، وأمسى «دافيد لويد جورج» رئيس وزراء بريطانيا يجابه الدعوات إلى الانسحاب العسكري. ولكن «لويد جورج» لن يترك العراق فريسة «للفوضى والارتباك»، إذ يقول: «أليس من صالح هذا الشعب في هذا البلد أن يُحكم بحيث يستطيع أن ينمّي أرضه التي تذبل وتذوي تحت الانسحاق. ماذا يمكن أن يحصل إذا انسحبنا؟». عند هذه المرحلة، كان الموظفون البريطانيون في بغداد يعتبرون أن المسؤول عن العنف هو «اضطراب سياسي محلي ناشيء من خارج العراق»، موحين بأن سوريا قد تكون متورّطة. وعليك أن تقرأ بدلاً من سوريا ١٩٢٠ ادّعاء أميركا بأن سوريا تدعم التمرّد عام ٢٠٠٤. وقد اتخذ «أرنولد ويلسون» الموظف البريطاني الأعلى مقاماً في العراق، خطاً يمكن التنبؤ به، إذ قال: «لا نستطيع أن نحافظ على موقفنا. . . بسياسة توفيق بين المتطرّفين. وما دمنا قد بدأنا بمهمة تجديد «بلاد ما بين النهرين»، علينا أن نستعدّ لتقديم الرجال والمال. . . علينا أن نسير سيراً وئيداً بإرساء الدستور والمؤسسات الديمقراطية».

جرى قتال في مدينة الكوفة الشيعية، وحصار بريطاني للنجف بعد قتل أحد الموظفين البريطانيين، وطلبت السلطات استسلام المجرمين دون قيد أو شرط وغيرهم ممَّن اشتركوا في المؤامرة. ولكن القائد الديني الشيخ «السيد كاظم يزدي»، امتنع عن دعم التمرّد، واعتكف في بيته. وقد أعدم ١٢ شخصاً من المتمردين؛ وصار الشيخ المحلّي «بدر الرميد» هدفاً للبريطانيين، إذ كتب أحد الموظفين السياسيين: «يجب قتل البدر أو أسره، وملاحقته دون هوادة حتى يتحقق ذلك». وأدرك البريطانيون إذ ذاك أنهم ارتكبوا خطأً سياسياً كبيراً، إذ دفعوا بمجموعة سياسية كبرى إلى الاستلاب: الضباط والموظفين العراقيين السابقين لدى الأتراك. وتضخّم عدد الساخطين والمتمرّدين. ولم يُرجع «ويلسون» ذلك إلى القومية، بل إلى «الفوضى والتعصّب». وكانت السوابق كلها هناك. فبدلاً من كوفة ١٩٢٠، إقرأ كوفة ٢٠٠٤؛ وبدلاً من النجف ١٩٢٠، إقرأ النجف ٢٠٠٤؛ وبدلاً من يزدي ١٩٢٠، إقرأ آية الله علي السيستاني الكبير عام ٢٠٠٤؛ وبدلاً من البدر ١٩٢٠، إقرأ مقتدى الصدر عام ٢٠٠٤؛ وبدلاً من «الفوضى والتعصّب» عام ١٩٢٠، إقرأ «بقايا صدّام» و«القاعدة» عام ٢٠٠٤.

ونشب تمرّد آخر في منطقة «الفلّوجة»، حيث قتل الشيخ «الضاري» ضابطاً، «الكولونيل جيرالد لكمان»، وقطع خط السكة الحديدية بين الفلّوجة وبغداد. فتقدم البريطانيون نحو الفلّوجة وكبّدوا القبيلة «قصاصاً ثقيلاً». ويعرف موقع هذه المعركة اليوم باسم «خان الضاري». وفي عام ٢٠٠٣ شهد ذلك الموقع أيضاً مقتل أول جندي أميركي من قوات الاحتلال الأميركية بقنبلة على جانب الطريق. وفي حالة يأس، احتاج البريطانيون إلى «أن يكملوا واجهة الحكومة العربية». فقام تشرشل بدعم حماسي، ونصَّب على عرش العراق الملك فيصل الهاشمي، إبن الشريف حسين، ترضية للرجل الذي طرده الفرنسيون من دمشق. فلم تحتفظ فرنسا بأية ملوك في الأراضي السورية الواقعة

تحت انتدابها. وكتبت «التايمز» بتاريخ ٧ آب/أغسطس عام ١٩٢٠ تتساءل: «كم ستطول التضحية بالأرواح الغالية، في مجهود فاشل لفرض إدارة كبيرة وباهظة الثمن على الجماهير العربية التي لم تطلبها ولم تُردها؟».

وتكبّد البريطانيون ٤٥٠ قتيلاً في التمرّد العراقي، وأكثر من ١٥٠٠ جريح. وفي ذلك الصيف قدّر ت. إ. لورانس، «لورانس العرب» نتائج البطش البريطاني «بقتلهم حوالى عشرة آلاف عربي في ذلك التمرّد. ولا نستطيع أن نأمل المحافظة على ذلك المعدَّل...»(*). ومنذ ذلك الوقت، حصلَ ركود اقتصادي دولي، وفقدت الحكومة البريطانية الأرصدة المالية اللازمة لمعاودة التعمير، وجوبهت بجنود غير راضين، إذ إنهم اشتركوا في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وصاروا ينتظرون التسريح من الخدمة العسكرية؛ فلجأت إلى قوة الطيران لفرض مشيئتها.

فقام الطيران البريطاني الملكي، بدعم من تشرشل أيضاً، بقصف القرى الثائرة والمنشقين من رجال القبائل. وكانت حاجة الحكومة ماسَّة إلى قاذفات قنابل حديثة في الشرق الأوسط؛ وبدلاً من شحنها بالبحر، أقامت خط نقل متداعياً وخطراً، عرّضت فيه طواقم الطيران البريطاني الملكي نفسها للمهالك، وهي قادمة من أوروبا؛ إذ مات على الأقل ثمانية من ربابنة الطائرات في تحطم طائراتهم؛ وبلغت الخسارة في قاذفات القنابل ٣٠٪. وفي العراق، حثَّ تشرشل على استعمال غاز الخردل، الذي سبق استخدامه ضد المتمردين الشيعة عام ١٩٢٠. وكتب إلى مشير الطيران «السير هيوترنتشارد»، رئيس موظفي الطيران يقول: «من المؤكد أنك ستمضي قُدُماً في تجاربك على قنابل الغاز، ولا سيما غاز الخردل، الذي سيقتص من أهل البلاد المتمردين، دون إخضاعهم لإصابات خطيرة».

استُخدم «آرثر هاريس» قائد سرب الطائرات الذي صار فيما بعد مشيراً لسلاح الطيران الملكي، والرجل الذي أشعل النار وأحلّ الدمار في هامبورغ، ودرسدن، وغيرهما من المدن الألمانية في الحرب العالمية الثانية، من أجل إحكام القصف على المتمردين العراقيين. وكتب عن هذا فيما بعد: «إن الطيران الملكي وجد أن إحراق قراهم بأكواخها المصنوعة من القصب بعد إنذارهم بإخلائها، جعلهم بمنتهى الانزعاج، دون إيذائهم جسدياً، فتوقفوا حالاً عن الإغارة والنهب...» وكان هذا ما يسميه «البنتاغون» بإضعافه للغة الإنكليزية «نور الحرب» (War Lite). ولكن القصف لم يكن جراحياً تماماً كما جاء في سيرة حياة «هاريس» الرسمية. ففي عام ١٩٢٤، اعترف «هاريس» «بأن العرب والأكراد يعرفون الآن معنى القصف الحقيقي، بالنسبة للضحايا والأضرار؛ إنهم يعلمون أن ٤٥ دقيقة هي كافية لمحو قرية من الوجود وقتل أو جرح ثلث سكانها».

لاحظ «لورانس» في رسالة بعث بها إلى «الأوبزرفر» أن تلك الانتفاضات تأخذ مجرى منتظماً. فالعرب يحرزون نجاحاً مبدئياً، تقابله تعزيزات بريطانية تعمل كقوة معاقِبة. إنهم يحاربون (خسائرهم أكثر وخسائرنا أقل)

(*) لم يذكر لورانس توكيده السرّي الذي أعطاه للجنة وزارية، قبل ذلك بسنتين، بمعنى «أن العرب في العراق يتوقعون من البريطانيين أن يحافظوا على سيطرتهم».

من أجل تحقيق أهدافهم التي نعود فنقصفها بالمدفعية والطائرات والزوارق الحربية». وهذا الوصف يلائم تماماً العمليات العسكرية الأميركية في العراق عام ٢٠٠٤، أي حالما تفقد قوى الاحتلال وصنيعتهم الحكومة السيطرة على معظم العراق. وروى أحد أعضاء «جمعية لورانس» عنه أنه ذو خصال سيئة إذ «لديه عادة مثيرة ساخرة وحتى هزلية في قضايا جدّية خطيرة». فقد كتب في الرسالة المذكورة ذاتها: «من الغريب أننا لا نستعمل الغاز السامّ في هذه الظروف؛ فقصف البيوت طريقة ترقيعية للوصول إلى النساء والأطفال، وطالما كان مشاتنا يتكبدون خسائر في إطلاقهم النار على الرجال من العرب؛ بينما المهاجمة بالغاز تقضي قضاء مبرماً على جمهور كامل في المناطق المذنبة وتمحوه من الوجود بدقة وإتقان...»!!

ولكن، عندما تكلم «الورانس» عن احتلال العراق، جاء كلامه أقرب إلى العقل والصواب، إذ كتب إلى «التايمز» في السنة ذاتها يقول: «تمرّد العرب على الأتراك خلال الحرب، لا لأن الحكومة التركية سيئة، بل لأنهم يريدون الاستقلال. إنهم لا يخاطرون بحياتهم في المعارك ليستبدلوا بأسيادهم أسياداً آخرين، أو ليكونوا مواطنين بريطانيين... ولكن ليفوزوا بتسيير أمورهم بأنفسهم... أما كونهم قادرين على القيام بأعباء الاستقلال أم لا، فهذا أمر تحت التجريب. فالاستحقاق لا يؤهل للحرية».

وقد نشر «الورانس» أيضاً مقالاً آخر أكثر كشفاً عمّا سيأتي في «الصنداي تايمز» خلال آب/ أغسطس عام ١٩٢٠، تصلح كلماته أن تكون موجهة إلى رئيس الوزراء «طوني بلير»، بعد ٨٤ سنة؛ جاء فيه:

«إن شعب إنكلترا استُدرج في بلاد ما بين النهرين إلى مصيدة يصعب الخروج منها بكرامة وشرف. وقد خُدع في هذا الأمر عن طريق حجب ثابت للمعلومات. وكانت بلاغات بغداد الرسمية متأخرة عن موعدها، وغير صادقة، وغير كاملة. فقد كانت الأحوال أسوأ بكثير مما قيل لنا؛ وكانت إدارتنا أكثر سفكاً للدم وأقل فعالية مما يعرف الجمهور... إننا اليوم غير بعيدين عن الكارثة».

لقد رُوِّع العميد البحري «ليونيل شارلتون» لعدد الضحايا التي أوقعت في القرى البريئة بالعراق، إلى درجة جعلته يستقيل كضابط عالي المقام في الطيران، لأنه لم يعد بإمكانه «الاستمرار في سياسة التهويل بالقصف». فقد زار مستشفى عراقياً ووجده ممتلئاً بالجرحى من رجال القبائل. وبعد أن قصف الطيران البريطاني الملكي السليمانية، مدينة المتمردين الأكراد، عرف شارلتون «ازدحام السكان في هذه الأماكن، وتصوَّر فظاعة وصول قنبلة دون إنذار إلى وسط تجمّع للناس في سوق أو حي تجاري، حيث ينزل البلاء بالرجال والنساء والأولاد على السواء». وكانت هذه سياسة اتُّبعت بحماس من قبل الولايات المتحدة الأميركية بعد جيل.

لقد كانت هناك سوابق تاريخية للوعود الكاذبة ذاتها التي قُطعت للبريطانيين والأميركيين بشأن ترحيب الناس بهم، وللبلاغة العظمى ذاتها بخصوص عراق جديد ديمقراطي، وتفجّر التمرّد ذاته بين العراقيين ـ في المدن والبلدات ذاتها ـ ومجلس الوزراء المماثل، والانهيار ذاته لنفوذ الاحتلال. ولمّا لم يستطع الأميركيون سحق التمرد، لجأوا إلى

القصف الجوي دون تمييز؛ كما فعل البريطانيون قبلهم عن طريق: تدمير البيوت في القرى المنشقّة، وقصف المساجد حيث يُدَّعى أن الأسلحة تخبّأ، وقتل «الإرهابيين» بغارة جوية على الحدود السورية ـ الذين تبيّن أنهم مواطنون يقيمون حفلة عرس. كما أن سياسة القصف الجوي ذاتها، اعتُمدت في أفغانستان، حيث هُجرت ديمقراطية البلد بعد عام ٢٠٠١.

أمّا في ما يخص الجنود البريطانيين الذين قضوا خلال العشرينيّات من القرن العشرين الميلادي، فلم نستطع أن نعيد جثثهم بحراً إلى بريطانيا عبر حرّ الشرق الأوسط منذ ثمانين سنة. ولذلك، قبرناهم في مقبرة الجدار الشمالي في بغداد، حيث لا يزالون حتى اليوم؛ مقابل السفارة التركية التي جرى تفجيرها بقنبلة انتحارية بشرية. وكان أكثرهم يبلغون من العمر عشرين سنة أو أقل أو أكثر بقليل. وبين تلك القبور كان الضريح الفخم للّواء «مود»، الذي مات في بغداد بعد ثمانية أشهر من انتصاره، لأنه اختار أن يشرب حليباً غير مغلي. وعندما زرتُ المقبرة لتفقّدها في صيف عام ٢٠٠٤، حذرني الحارس العراقي بأن لا أبقى أكثر من خمس دقائق أمام القبر، لئلا أُخطف.

وفي ١١ تموز/يوليو، ١٩٢٢، نصَّب مجلس الوزراء في بغداد «فيصل»، ابن الشريف حسين، ملكاً دستورياً على البلاد، بعدما نال في الاستفتاء ٩٦٪ من الأصوات، الأمر المضحك الذي صار مألوفاً في العالم العربي، خلال السنوات الثمانين التي أعقبت ذلك. وكان الملك فيصل سنّياً من قبائل الخليج، ولم يكن عراقياً أو من الأكثرية الشيعية. وكانت تلك أول خديعة قمنا بها إزاء شيعة العراق؛ وستتكرر مرتين خلال المئة سنة القادمة. ومنذ ذلك التاريخ عرفت «بلاد ما بين النهرين» باسم «العراق»؛ ولكن ذلك لم يجلب السلام ولا السعادة إلى شعبه. ووقّعت معاهدة إنكليزية ـ عراقية تضمن المصالح الخاصة لبريطانيا، برغم المعارضة الوطنية. وفي عام ١٩٣٠، وقّعت اتفاقية أخرى لمدة ٢٥ سنة للتحالف الإنكليزي ـ العراقي، مع قاعدتين للطيران البريطاني الملكي في الشعيبة والحبَّانية. وممّا أذكى الغضب القومي العراقي بخاصة دعم بريطانيا المستمر لإقامة دولة يهودية في فلسطين، من خلال حكمها الانتدابي. ولكن الانتفاضات القبائلية وانقلاب عام ١٩٣٦، زادت في عدم الاستقرار ـ وبعد انقلاب آخر حدث عام ١٩٤١ ومجيء رشيد عالي الكيلاني ـ الموالي للألمان إلى السلطة ـ غزت بريطانيا العراق كله من جديد، وجابهت هجوم سلاح الجو الألماني القادم من سوريا ولبنان اللذين كانا تحت حكم «فيشي»، وعادت فاحتلت البصرة وبغداد(*). ولكن القوات البريطانية توقفت خارج بغداد لتتيح للأمير عبد الله الوصي على العرش أن يكون أول الداخلين إلى بغداد. وقد سمح هذا التأخير لأنصار الكيلاني بقتل ما لا يقل

(*) لم ينجح الألمان في العراق أكثر مما نجحت أية قوة غربية أخرى، خلال القرن الماضي. فقد أوفدوا إلى الموصل ٢٤ طائرة من طراز «هنكل» و«مسرشميت»؛ ولكنهم خسروا قائد ارتباط طيران سلاح الجو الألماني في معركة بين الطائرات المقاتلة فوق بغداد. وعندما كادت تنهار المقاومة العراقية ضد البريطانيين، أصدر «هتلر» توجيهاً عسكرياً يحمل الرقم ٣٠ وجاء فيه: «أن حركة التحرير العربية في الشرق الأوسط، هي حليفنا الطبيعي ضد إنكلترا. وفي هذا الصدد تكتسب الثورة في العراق أهمية خاصة...».

عن ١٥٠ شخصاً من الحوزة اليهودية العامرة، وحرق ونهب آلاف الممتلكات. وقد شُنق خمسة من قادة الانقلاب، وسُجن كثيرون غيرهم؛ ومنهم «خيرالله طلفاح» عمّ الطفل صدام حسين البالغ من العمر إذ ذاك أربع سنوات؛ وبقي في ذاكرة الطفل عداء عمه للبريطانيين. وخطّط الألمان لانقلاب عربي آخر يناصر دول المحور، بدعم من مفتي القدس الحاج أمين الحسيني ـ الذي سافر إلى برلين، وسنروي قصة رحلته هذه فيما بعد ـ ولم يسفر ذلك عن شيء.

ولكن العراق بقي دولة ضعيفة، ولم يكن لمليكها فيصل الثاني أيّ رصيد وطني ـ لانه لم يكن عراقياً ـ ولأن حكومته كانت لا تزال مؤلفة من مجموعة من الموظفين الأتراك، مثل نوري السعيد الذي احتال ليعود كرئيس وزراء أربع عشرة مرة، قبل أن يحصل إسقاطه الدموي. وفي ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨، هاجم العميد عبد الكريم قاسم القصر الملكي بقواته، وقضى على الملك فيصل وسائر أعضاء العائلة المالكة التي حاولت الهرب من القصر المشتعل؛ كما قضى على نوري السعيد بينما كان يحاول الهرب من بغداد بلباس امرأة. ولكن حكم قاسم أغاظ الولايات المتحدة الأميركية؛ إذ إنه سحب العراق من حلف بغداد المناهض للسوفيات. وهدَّد بغزو الكويت؛ وعجز عن أن يقمع ثورة كردية في شمال العراق. ثم أُسقط بانقلاب آخر في شباط/فبراير عام ١٩٦٣، وسيق إلى محطة الإذاعة، وقُتل في آخر الأمر. وقد قام بهذا الانقلاب حزب البعث بمساعدة كبرى ناشطة من قبل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وقد عُرضت جثة قاسم الممتلئة بثقوب الرصاص على شاشة التلفزيون مسنودة بكرسي، بينما كان جندي يرفس ساقيه ضاحكاً.

وقد أُسّس حزب البعث في سوريا عام ١٩٤١ ـ مستوحى من عبرة معاودة احتلال بريطانيا للعراق ـ كحركة عربية علمانية شاملة، تبغي رفع عبء الشعور بالذنب والذل الذي دام لدى الأمّة العربية على مدى أجيال. فقد قاسى العرب لعدة قرون تحت الحكم العثماني المجاعة وخسارة القوة الفكرية. وقد انحط التعليم عبر السنين في البلاد العربية، وبقي الملايين من العرب أميين لا يحسنون القراءة والكتابة. و«البعث» يعني «معاودة الولادة». ومع أن مؤسّسه السوري المسيحي، ميشال عفلق، كان من متخرّجي جامعة السوربون في باريس ـ وكان يلبس طربوشاً فضفاضاً ـ فلا شك في أن فكرة البعث العربي لها جذور طبيعية بين الفقراء، والقرويين والقبليين، وبالطبع في صفوف الجيش. وكان صدّام حسين من الأوائل الذين التحقوا بهذا الحزب، ومن بين البعثيين الأوائل الذين حاولوا قتل عبد الكريم قاسم. وكان هربه على أثر ذلك عبر العراق، واستخراجه بنفسه رصاصة من ساقه بشفرة موسى، وسباحته عبر نهر دجلة طلباً للحرية ـ تقريباً في المكان نفسه الذي وجدته فيه القوة الأميركية الخاصة عام ٢٠٠٣ ـ وقد أصبح ذلك كلّه رواية رسمية نُسجت حوله.

بالرغم من الاختلافات ضمن حزب البعث، برز صدّام حسين كنائبٍ لرئيس مجلس القيادة القطرية، بعد انقلاب آخر عام ١٩٦٨. وبقي في هذا المنصب بصفته الرجل الثاني الأكثر نفوذاً في العراق حتى ١٦ تموز/يوليو عام ١٩٧٩، عندما تقاعد الرئيس أحمد حسن البكر، ابن عمّ صدّام، بعد ذلك دعا صدام قيادات حزبه إلى وليمة عشاء شائن في القصر الرئاسي، وطلب منهم أن يتهموا أنفسهم وأن يبلغوا عنها. ثم بدأ بإعدام زملائه خلال أيام قليلة.

وبينما كان صدّام يسيطر تدريجاً على العراق، عاود الأكراد تمرّدهم في العراق. وزار الرئيس المصري أنور السادات القدس في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٧؛ وبذلك أخرج أكبر دولة عربية سكانياً من النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وكرّس ذلك في اتفاقية «كامب دايفيد». وهكذا ترأس صدّام ما سمّاه العراقيون فوراً «قمّة المجابهة» في بغداد؛ مما جعل العاصمة العراقية تصبح ـ ولو مؤقتاً ـ مركز العالم العربي، وأبرز مقام صدّام حسين غداة تسلّمه الرئاسة من الرئيس البكر. ونُصبت خيمة كبيرة وراء قصر القمّة، واستُقدم خمسمئة صحافي إلى العراق من أرجاء العالم ـ وكانت كلفة كل المكالمات الهاتفية مجانية إنما تحت المراقبة ـ وأُسكنوا في فنادق بعيدة عن بغداد، على أن تنقلهم الحافلات إلى «مركز الصحافة» حيث يمنعون من الاتصال بأعضاء الوفود، ويُراقَبون بواسطة جماعات من الشباب الذين يرتدون جوارب بيضاء؛ عرفنا أنهم من الشرطة لأنهم كانوا يضعون على طيّة ستراتهم كلمة «سياحة».

وكان المفروض أن تشغل السياحة معظم وقتنا. ولديّ ذكرى حيّة عن رحلة طويلة بالباص إلى «القرنة» الواقعة شمالي البصرة، لرؤية جنّة عدن. وصلت سيارتنا أخيراً إلى مقربة من جسر على نهر كريه الرائحة، يجري ببطء بين ضفّتين رمليتين عاريتين من الأشجار، تحت سماء مكفهرة. إذ ذاك وضع أحد رجال الشرطة يده اليسرى على ذراعي، مشيراً باليد الأخرى إلى هذا المشهد البائس. ناطقاً بتعريفه السياحي اليتيم لهذا اليوم: «وهذه يا سيد روبرت، هي جنة عدن».

وقبل انعقاد القمة، أُلزم كثير من القادة العرب بالتظاهر بالصداقة مع «الخائن صدام». وأُقنع الرئيس حافظ الأسد بنسيان الانشقاق الوحشي بين بعثه وبعث البكر وصدام. وأعلن السوريون أن الرئيسين الأسد والبكر سيناقشان «إقامة جبهة مشتركة ضد الهجوم الصهيوني المجنون على منطقتنا والمصالحة الاستسلامية المنفردة التي قام بها النظام المصري مع إسرائيل». وحالما وصل الرئيس الأسد إلى بغداد، باشر محادثات مع الرئيس البكر «في جو من التفاهم العميق»، بحسب جريدة «تشرين» الحكومية؛ بعدما كان قد صان حدوده مع العراق بكتيبة كاملة من جيشه، لئلا يغزوه العراق ـ مع العلم أنه كان قد نشر أيضاً ٣٣٠٠٠ جندي سوري في لبنان ـ وقد تقام الوحدة مع وجود التنوّع. وكان على الملك حسين عاهل الأردن أن يسافر إلى المدينة التي استُئصلت فيها شأفة الملكية الهاشمية، منذ ما لا يزيد عن ٢٢ سنة. وقد أُرسل موظفون بعثيون إلى المقبرة الملكية في بغداد، ليشذّبوا الحشيش النامي حول قبور الهاشميين، فقد يطلب الملك زيارتها؛ حتى إن «أبا نضال» رئيس أكثر الفصائل الفلسطينية قسوة، أُرسل إلى تكريت، لئلا يسيء وجوده في بغداد لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات.

وهكذا اجتمعوا: الرئيس البكر المسنّ، والشاب صدّام، وعرفات، وحسين، وولي العهد الأمير فهد من العربية السعودية. ومُنع المراسلون من دخول قاعة الاجتماعات، ولكن سُمح للمصورين أن يشاهدوا أولئك الرجال، كما يسمح للزائرين بأن يلقوا نظرة على جثمان «لينين» المحنّط. تنكرنا بزيّ طاقم هيئة الإذاعة البريطانية للتلفزيون، كتابعين لميخائيل كول، ومشينا في قاعة الاجتماعات ندلف متثاقلين بين صفوف الأمراء ورؤساء

الجمهوريات الذين جلسوا كتماثيل من الشمع منشغلين وموجسين خيفة، فمررت بعرفات الذي لا يفتأ يكرر بإبهامه رسم علامة النصر أمام آلات التصوير بشكل محرج، والملك حسين المقطب الحاجبين، وصدام المحملق. راقبت الزعيم العراقي المستقبلي بدقة وعناية، وعندما التقت عيوننا لحظة، رأيت في عينيه نوعاً من الاحتقار، ضرباً من التكبر والتشامخ. فقلت في نفسي: «إن رجلاً مثله لا يؤمن بالمؤتمرات».

وكان ذلك صواباً. فالسعوديون صمموا على أن لا يغضبوا الولايات المتحدة، وبعد ثلاثة أيام من المداولات، ولد الجبل العربي فأراً. فمصر وضعت قيد المقاطعة الاقتصادية ـ مثل إسرائيل ـ وألّفت لجنة لتذهب إلى القاهرة وتقنع السادات بأن يتخلى عن «كمب دايفيد»؛ مع تقديم ترضية سنوية لمصر تبلغ سبعة مليارات دولار لإنعاش اقتصادها المتردي. وكلف بمهمة رئاسة هذه اللجنة اليائسة «سليم الحص» رئيس وزراء لبنان الذي تضرب الحرب أطنابها في بلده المنقسم على نفسه أكثر من العالم العربي ذاته. لكن السادات صدّهم، ورفض أن يستقبل الوزراء؛ إذ أعلن أن المال المعروض رشوة، وأن الملايين العالمية لا تستطيع أن تشتري إرادة مصر.

ولم تكن طبيعة النظام العراقي، ولا قساوته خافية على أحد. وكانت بريطانيا قد تخاصمت تجارياً مع الحكومة العراقية، بعد أن قام عملاء عراقيون عام ١٩٧٨ في لندن باغتيال عبد الرزاق النايف، وهو رئيس وزراء سابق في العراق، بعدما حكمت عليه بالموت سلطات بغداد. كما ألقي في السجن المركزي دون اتهام ظنّي أحد ممثلي محل «ويمپي»، وسُحب «ريتشارد درو»، أحد الدبلوماسيين البريطانيين من سيارته في المدينة، وضُرب على أيدي الشرطيين بملابسهم الرسمية.

ولكن التفتيش عن «الجواسيس» ضمن الجسم السياسي في العراق كان مؤسساً قبل إحدى عشرة سنة. وتجب العودة إلى أيام نظام البعث الأولى لمعرفة الكره الذاتي الذي ولّده ذلك في النظام ـ ودور صدام في عمليات التطهير ـ. وبعد أن رأيتُ صدام لأول مرة في بغداد، بدأت أجمع ملفاً عنه في مقرّي ببيروت. راجعتُ محفوظات الصحف اللبنانية؛ وكانت بيروت آنذاك ترزح تحت القصف الليلي؛ لكن الصحافيين حافظوا على ملفاتهم في تلك الظروف. وهناك في مكتبات الصحف القذرة بلُبنان، بدأ يبرز نمط تقشعر له الأبدان. ففي مؤتمر عام ١٩٦٨ لحزب البعث، وبحسب جريدة بغداد «الجمهورية»، صارت «تصفية شبكات التجسس» شأناً وطنياً؛ وبعد ذلك بشهر، اكتشف حزب البعث، المؤسس حديثاً، مؤامرة لقلب نظامه. واتهم ثمانين شخصاً متورطين في ذلك، بمن فيهم رئيس الوزراء السابق الدكتور عبد الرحمن البزّاز، ووزير دفاعه السابق اللواء عبد العزيز العقيلي، ووُجهت اتهامات التجسس، بحسب ما أوردته جريدة لبنانية، «من خلال برامج خاصة لراديو وتلفزيون بغداد، صرّح فيها بذلك اثنان من المتهمين: جندي سابق من مرفأ البصرة، ومحامٍ من بغداد». وقد «أجرى المقابلة صدّام التكريتي شخصياً، أمين عام القيادة العراقية لحزب البعث الحاكم»؛ بحسب صحافة بيروت، التي أضافت إلى ذلك: «وقد قُدِّم للمقابلة بتسجيل لخطاب الرئيس البكر في بغداد بتاريخ ٥ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٦٨، جاء فيه: «لن يكون هناك مكان للجواسيس على أرض العراق».

وبدأت المجزرة خلال ستة أسابيع. ففي فجر يوم ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٦٩، شُنق علناً ١٤ عراقياً منهم تسعة يهود، بعد إدانتهم من قبل محكمة من ثلاثة أعضاء بالتجسّس لإسرائيل. وادُّعي أن «عزرا ناجي زلخا»، التاجر اليهودي في البصرة، والبالغ من العمر ٥١ سنة، كان زعيم حلقة تجسّس. وبينما كان هؤلاء يُشنقون في ساحة التحرير ببغداد، كانت قد بدأت محاكمة أخرى تورّط فيها ٣٥ عراقياً، منهم ١٣ يهودياً. وقبل عمليات الشنق التي جرت في كانون الثاني/يناير بساعات، نظم حزب البعث ـ الذي أصبح صدّام الآن سلطته الحقيقية، بحسب الصحافة اللبنانية ـ تظاهرة سار فيها ألوف العراقيين إلى الساحة ليشهدوا الإعدامات؛ ويسمعوا تصريح الحكومة بأن «الحزب مصمّم على تنفيذ وعده للشعب بإزالة الجواسيس». وأوردت «بغداد أوبزرفر» مقابلة مع رئيس المحكمة الثورية الكولونيل «علي هادي وِتْوِت» الذي قال: «إن المحكمة توصلت إلى هذا القرار بصرف النظر عن ديانة المدّعى عليهم، مع العلم أنها برّأت ساحة سبعة يهود». وعندما أُعدمت المجموعة التالية من «الجواسيس»، بتاريخ ٢٠ شباط/ فبراير كان المدانون الثمانية من الرجال المسلمين. وكالعادة، قُبض عليهم سراً، لكن راديو بغداد أذاع ليلة إعدامهم تسجيلاً للتحقيق معهم. واتّهم هؤلاء بأنهم كانوا يجمعون معلومات عن انتشار الجيش العراقي، وكان رئيسهم «نجاة كاظم خورشيد» واحداً من الثمانية، لكن التحقيق معه لم يُذَع. وأنبأ الراديو العراقي الناس فيما بعد «أن الشعب العراقي عبَّر عن إدانته للجواسيس».

وحتى شهر أيار/مايو ١٩٦٩، فشل حزب البعث في قمع التمرد الكردي، فأوقف مئات من العراقيين، بمن فيهم ٢٤ شخصاً كانوا يخدمون في ظل النظام السابق. ومن هؤلاء محافظ بغداد «مدحت الحاج سرّي»، الذي اتّهم «بإدارة شبكة مخابرات لوكالة الاستخبارات الأميركية». وشمل التوقيف وزراء سابقين بينهم إسماعيل خيرالله، وفؤاد الركابي، ورشيد مصلح، وصدّيق شنشل، وشكري صالح زكي. واستفسرت قيادة حزب البعث عن رأي «الشعب»؛ فجأر في الاجتماع ممثلون لنقابات المزارعين بدعمهم، عندما صرَّح الرئيس البكر بأنه «سيقطع رؤوس الخونة». وقد سيق محافظ بغداد السابق إلى تلفزيون بغداد «ليعترف» بدوره كعميل لوكالة الاستخبارات الأميركية؛ بينما انهار مدّعى عليه آخر، هو الدكتور «يوسف الميمار»، المدير العام السابق لوزارة الإصلاح الزراعي، وبلَّغ عن وزراء سابقين رفيعي المستوى في عملية ارتداد «منير رفعة» الطيار العراقي الذي فرّ بطائرة مقاتلة ـ قاذفة قنابل من طراز ميغ ٢١ إلى إسرائيل، قبل ثلاثة أيام.

وادَّعى «ميمار» أنه جُنِّد في وكالة الاستخبارات الأميركية عن طريق رجل أعمال عراقي يعمل في بيروت عام ١٩٦٤؛ وأنه تلقّى أمراً من شركة لتلك الوكالة تشتغل تحت قناع سمسرة التمويل، بأن يفتح عملاً تجارياً تمويلياً في ليبيا، ثم تأمين دعوة لزيارة بغداد لوزير المالية في حكومة الرئيس أيزنهاور «روبرت أندرسن». ومن المتعذر معرفة مقدار الصحة في مثل هذا الاعتراف. وقد شُنق في الشهر الماضي أربعة مدنيين ـ هم طالب عبد الله الصالح، وعلي عبد الصالح، وعبد الجليل مهاوي، وعبد الرزاق دهب ـ لأنهم تجسسوا لصالح وكالة الاستخبارات الأميركية. وبتاريخ ١٥ أيار/ مايو ١٩٦٩، شنق حزب البعث عشرة أشخاص آخرين، بعدما ظهر

على التلفزيون أحدهم، «عبد الهادي بشاري»، و«اعترف». واتهموا بأنهم عملوا لحساب إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية. وكان بينهم رقيب من الجيش، وملازم من سلاح الطيران.

وفي شهر حزيران/يونيو، أخبر «جاسوس» مقبوض عليه التلفزيون العراقي أنه عمل لحساب الاستخبارات البريطانية، واسمه «زكي عبد الوهاب»؛ وهو مستشار قانوني لرجل الأعمال العراقي في بيروت. واتُّهم في صحافة بغداد بأنه «عميل لبريطانيا وأميركا». وفي تموز/يوليو، أُخضع ثمانون عراقياً من الشخصيات البارزة للمحاكمة بتهمة «التجسس». ولم يكن ذلك سوى مقدمة لآلاف من عمليات الشنق؛ وكلها بسبب «التخريب» أو «التجسّس». وبعد إحدى عشرة سنة، عندما ثبت صدّام في السلطة، كان الجلّادون يرسلون إلى المقصلة ما معدله مئة شخص كل ستة أسابيع. وفي عام ١٩٨٠، أوردت منظمة العفو الدولية خبر إعدام ٢٥٧ شخصاً منذ وقت قريب.

وفي عام ١٩٧٩، أوقف صدّام شخصياً خمسة أعضاء من أصل ٢١ عضواً يؤلّفون مجلس قيادة الثورة؛ واتهمهم جميعاً بالتجسّس لسوريا، التي لم يمضِ على زيارة رئيس جمهوريتها لبغداد سوى سنتين، ليجري تلك المحادثات «للتفاهم العميق» مع الرئيس البكر. وقد أدانتهم المحكمة الثورية وحكمت عليهم بالموت دون حق الاستئناف والتمييز، مع التنفيذ في اليوم التالي. وقد ذهب صدّام شخصياً مع عدد من مستشاريه الكبار إلى السجن المركزي، وأعدمهم بنفسه؛ كما استخدم مسدّسه الخاص ليحطّم رأس أحد الضحايا.

وفي أيام النظام البعثي الأولى، كانت أسماء العراقيين الذين يُعدمون تُقرأ من تلفزيون الدولة كل يوم عند الساعة الرابعة بعد الظهر. وكان لي صديقة عراقية قديمة ذكّرتني عام ٢٠٠٣ بأن أقرباءها كانوا مسجونين؛ وأنها كانت كل يوم بعد الظهر تهدّىء نفسها بالمورفين قبل أن تجلس أمام شاشة التلفزيون. قالت: «لست أدري كيف استطعت أن أتجاوز تلك البرامج. كان المذيع التلفزيوني الذي يقرأ الأسماء ذا وجه نحيل وعينين نافذتين؛ وكان يقرأها بخشونة. وهو هو «محمد الصحّاف» الذي شاب شعره فيما بعد وصار وزير الإعلام الفِكه «علي الهزلي» أثناء غزو الأميركيين للعراق، والذي استفزّ الرئيس «بوش» ليضحك من ادعاءاته بأن القوة الأميركية لم تبلغ بغداد، بينما كانت دباباتها تقطع نهر دجلة؛ بعدما تطور من قسوته الأولى إلى التهريج المرح خلال ثلاثين سنة. وقد سجّل في ما بعد ذكرياته لمحطة التلفزيون الفضائية «العربية»، دون أن يذكر أنه كان ناطقاً باسم جلّاد بغداد.

وهنا يجدر التساؤل ماذا يقبع وراء هذا الشغف الوحشي بالإعدام الذي أبداه صدّام؟ هذه القسوة المضبوطة التي صارت جزءاً لا يتجزأ من وجود ذلك النظام(*)؟ لقد طرحت هذا السؤال يوماً على محمد حسنين هيكل،

(*) كانت بلاد ما بين النهرين قاعدة لحكام لطفاء، ولكن ليس من المتعذر العثور على سوابق من القسوة. أثناء ثورة الزنج الإفريقيين في العراق من عام ٨٦٩ إلى عام ٨٨٣، حينما لم يستطع الخليفة المعتضد أن يقنع زعيم الزنوج المسمّى «محمد شميلا» بأن يشي بأسماء رفاقه. ويقال أن «شميلا» قال له: «لو شويت جسدي لن أبوح باسم الشخص الذي عاهدته والذي اعتبره إماماً». فأمر الخليفة بأن يُعاقب كما قال. ويقال «إنهم أدخلوا قضيب حديد من إسته إلى فمه، ووضعوه فوق نار مضطرمة حتى مات، وهو يلعن الخليفة ويذمه بأبشع النعوت، ذلك الخليفة الذي حضر تعذيبه». وفي رواية أخرى، يقال بأن رجال الخليفة ربطوه بين ثلاثة رماح موضوعة فوق النار، وقلّبوه كطير الدجاج، «حتى فرقع جلده»؛ ثم علّقوه بالمشنقة في بغداد.

بينما كنّا جالسين على مرجة في مزرعته في منطقة دلتا النيل، وكانت الطيور البرّية الملونة تنعب قربنا في أشجار النخيل، وكان الساقي يدور علينا بالجعة الباردة في أباريق لطيفة من الزجاج الأزرق.

بدأ هيكل بقوله: «سأروي لك قصة، يا روبرت»، مع العلم أن قصص هيكل تكون دائماً برّاقة؛ وعليك أن تبقى صامتاً طول الوقت، إذ إن ذكرياته كان لها معنى التذكر الفذّ، كما كان لها وقع الأداء المسرحي. وهو يرفع يديه أمام وجهه وحاجبيه نحو السماء إذا أراد أن يعبّر عن صدمة، ويلوّح بسيكار «هافانا» نحوي إذا ظن أني لستُ منتبهاً. لقد كانت القصص التي يرويها هيكل ذات لدغة ومغزى في طُرفها(*). لقد عرف هيكل صدّام حسين ـ وفي الواقع، عرف كل زعيم عربي تقريباً، وعومل على الأرجح بالاحترام أكثر من معظمهم ـ ولكن لم تكن لديه أية أوهام بخصوص حزب البعث.

قال هيكل: «خلال زيارتي الأولى لبغداد بعد الاستيلاء على السلطة قابلت وزير التخطيط، الذي كان لطيفاً، ومهذباً، ومثقفاً، فأحببته فوراً. وعندما عدت إلى العراق بعد فترة، طلبت أن أراه. وكلما سألت وزيراً أين هو، كان يتجنّبني. وكانوا يقولون عليك أن تسأل الرئيس صدّام عندما تقابله. وكلما سألت عنه تلقيت الجواب ذاته. وعندما وصلتُ إلى صدّام، سألته إذا كان باستطاعتي أن أرى وزير التخطيط مرة أخرى. نظر صدّام إليّ سائلاً: «ولماذا تريد أن تجتمع به؟». قلت: «لأنه بدا لي ذكياً ولائقاً». فنظر صدّام إليّ عندئذ جدّياً وقال: «لقد قطعنا رقبته!»، ففوجئت وأُخذت على حين غرّة. فسألت: لماذا؟ بماذا أخطأ؟ وهل لدى صدام إثبات على سوء فعله. فقال صدام: «لا نحتاج إلى إثبات. إن هذه ثورة دموية، وليست ثورة بيضاء، فالاشتباه كافٍ».

فوقفت مشدوهاً لا أنبس ببنت شفة. «نعم يا روبرت. إن هذا الإبريق الأزرق الذي تشرب منه هو إبريق عراقي، قدّمه لي صدّام حسين شخصياً كهدية». فوضعت عندئذٍ إبريقي على المنضدة.

أنا اليوم في طهران عام ١٩٩٧، أسكن في فندق رخيص وسط المدينة. ثم إنني في مطعم حميم، يقدّم أباريق باردة من لبن الزبادي، وأمامي يجلس الدكتور حسين شهرستاني. الحائز درجة الدكتوراه في الكيمياء النووية من جامعة «تورنتو»، والذي كان سابقاً المستشار العلمي الأول لمنظمة الطاقة النووية العراقية تحت حكم صدّام. وهو مسلم شيعي متزوج كندية، وله ثلاثة أولاد. قصته مخيفة، فصيحة، مثيرة، وفظيعة، تستحق أن تروى بكاملها، بكلماته، دون مقاطعة من صحافي. وها هي بقلم الدكتور شهرستاني نفسه:

«في عام ١٩٧٩، حصلت ردة فعل ارتجاعية من قبل النظام في العراق، بسبب الناشطين من حوزة الشيعة.

(*) في كتابه عن «أبو الهول والقوميسّار»، روى هيكل رد فعل «نيكيتا خروتشيف» على تدخينه السيكار قائلاً: «التفت خروتشيف فجأة نحوي، وسألني: لماذا أدخّن السيكار؟»، فأجبته: «لأني أحبّ السيكار». لكنه أمسك بسيكاري وسحقه في منفضة السجاير؛ فاعترضتُ. فقال: «إن السيكار شيء رأسمالي... وعندما عدتُ فقابلته عام ١٩٥٨، تركت سيكاري خارجاً، فسألني خروتشيف عنه، معلّقا بقوله: «أريد أن أسحقه ثانيةً».

وفي الصيف، بدأ النظام بإعدامات وتوقيفات على نطاق واسع. أما أنا فقد أدليت بما شغلني بشأن حقوق الإنسان في اجتماعات الطاقة النووية. وكنت أعلم أهميّتي بالنسبة إلى برنامجهم النووي ـ وظننت أنهم لن يوقفوني لإدلائي بشواغلي. وأردت أن يطّلع صدّام على ما قلته. وكنت مخطئاً؛ إذ قبل ذلك بقليل، أوقف النظام وأعدم أحد أبناء عمي «علاء شهرستاني» ـ الذي كان في شهر العسل مع زوجته، ولم يمضِ على زواجهما سوى ١٤ يوماً. لم يكن منتسباً إلى أي حزب. أُوقف في الشارع وسُحب إلى التعذيب، وجاؤوا بزوجته وأخته ليشهدا ما يحلّ به في غرفة التعذيب. لقد أنزلوا به تعذيباً بشعاً؛ وهددوا زوجته بحضوره؛ وصدموا رأسه في الجدار بشدة حتى هزّ الجدار. ثم قتلوه.

وأثناء ذلك، صار صدّام رئيساً للجمهورية، وجاء ليرانا ويقول لنا إنه سيغيّر توجّه «منظمة الطاقة النووية» العراقية، لتعمل على ما سمّاه «مشاريع استراتيجية»، وحتى تموز/ يوليو ١٩٧٩، كنا منشغلين بالتطبيقات السلمية البحتة للطاقة النووية. وكنت مع الدكتور زياد جعفر مستشارين لصدّام. كنا علماء مدرّبين حسني السمعة على الصعيد الدولي. وكنا أيضاً صديقين حميمين. وقد ناقشت الأمر معه قائلاً: «إذا أراد صدّام تطبيقات عسكرية، فلن أستطيع الاستمرار في هذه المؤسّسة».

وفي ذلك الوقت، لم نُعِر المسألة كبير اهتمام، نظراً لأننا كنا نعلم محدوديات العراق. فافترضت أني سأُرمى في هذه الحال خارج المؤسّسة. جاءوا إلى منظمة الطاقة النووية، عندما كنت أتكلم مع مجلس المديرين بتاريخ ٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩، مستأذنين: «هل لنا بكلمة مع الدكتور حسين»؟ وحالما خرجت معهم، قيّدوا يديّ، وأكرهوني على الركوب في سيارة، وأخذوني إلى رئاسة الأمن في بغداد. وهناك أخذوني إلى مدير الأمن الدكتور فاضل بَراق، الذي أعدمه صدّام فيما بعد. قال لي إن بعض الموقوفين الذين اقتيدوا إلى رئاسة الأمن أعطوا اسمي. أنكرت أي تورّط في الأحزاب السياسية، وقلت إني مسلم ممارس، لكنني لم أشارك في أية أنشطة تخريبية.

ثم أحضروني إلى رجل أعرفه هو «جواد زبيدي»، مقاول البناء، الذي عذّبوه إلى درجة أني لم أقدر على التعرّف عليه. قال جواد: «إني أعرف الدكتور حسين. إنه يأتي إلى المسجد ويشارك في الأنشطة الدينية». وكانت «الأنشطة الدينية بالنسبة إليهم: أنشطة ضد الحكومة. قالوا لي: «من الأفضل أن تتكلّم لئلّا تندم على عدم الكلام». ثم أخذوني إلى غرفة التعذيب في القبو؛ فعصبوا عيني، ودفعوني على درج غرفة التعذيب. كانت قاعة كبيرة. وكانت يداي موثقتين خلف ظهري؛ وسحبوني في الهواء بيدي حتى صار الألم لا يحتمل بعد خمس دقائق. ثم أعطوني صدمات في الأمكنة الحسّاسة من جسمي. وفي آخر الضرب تصبح عارياً. كما كانت هناك صدمات في مواضع أخرى من جسمي بالإضافة إلى الأعضاء التناسلية.

وجاءوني بعد ربع ساعة قائلين: «وقّع». وكنتُ بحالة عرق بارد جداً. إنهم يعرفون أنه سيغمى عليك. أنزلوني وأعطوني راحة قصيرة فنمت لعدة دقائق. لكن ذلك استمر ليلاً ونهاراً، ليلاً ونهاراً، لمدة ٢٢ يوماً. وكان يقوم

بذلك أربعة منهم بالتناوب. وكان يقف هناك «براق» الذي حصل على درجة دكتوراه في علم النفس العسكري من موسكو. وعند نقطة معيّنة، قال: «يا دكتور حسين، سأخبرك ما هي مشكلتك. أنت تعتقد أنك ذكي، وأننا أغبياء. قد تكون ذكياً في حقلك، لكننا نعلم ماذا نفعل. قلْ لنا ماذا تعلم، وخلّصنا».

عرفت صدّام وعرفني، ولكن قد يحدث لي هذا الأمر. أذكر أنه قال لي: «أنت عالم؛ وأنا سياسي. وسأخبرك ما هي السياسة. اتخذ قراراً. وأخبر أحدهم بعكس ذلك. ثم أقوم بعمل قد يفاجئني أنا».

كانت تقنيات التعذيب في بغداد مسألة رتيبة، ومتنوّعة من حيث قسوتها. والصدمات الكهربائية يمكن أن تحصل أينما كان. لكنهم قد يحرقون الأعضاء التناسلية للناس تارة، ويستمرون في ذلك الإحراق حتى يحرقوها كلها. وكذلك الأمر بخصوص أصابع القدمين. ويضربون الناس طوراً بالحديد على المعدة أو على الصدر. لكنهم كانوا معي حذرين، بحيث لا يتركون أثراً على جسدي. رأيت رجلاً ضربوه بالحديد على معدته. وهم يستعملون المثاقب لفتح ثقوب في العظام، والأذرع، والسيقان. رأيت أحد الضباط المدعو «نجيب حميد»، أذابوا قدميه بالحمض (الأسيد). وكان هناك أيضاً طريقة تعذيب أخرى، يضعون بها حمض الكبريت في حوض، ويبدأون بتذويب يدي الضحية. وقد ذوّبوا مرة عبد الصاحب دخيل من حزب «الدعوة»(*). وقال لي بَراق: «هل سمعت بشأن دخيل؛ ذاك هو المكان الذي ذوّبناه فيه».

وفي نهاية مراحل التعذيب، لديهم طاولة بمنشار كهربائي. وباستطاعتهم أن ينشروا يداً أو قدماً. والأكثرية من الناس تتكلم. ومن لا يتكلمون هم استثنائيون. فعدنان سلمان مسؤول حزب الدعوة، رفض الكلام. رأيتهم يجلبونه؛ وفي ذلك الوقت تجمّعت لديهم اعترافات كثيرة من قِبل رجال آخرين عذّبوهم. وكان عدنان سلمان معلّماً عارفاً بأمورهم ـ وكان مستعدّاً. قال لهم: «اسمي عدنان سلمان. أنا مسؤول عن حزب «الدعوة» ولا أحد من هؤلاء الناس مسؤول عن أنشطتنا. وهذا آخر كلامي معكم؛ فلن تستخرجوا مني أية كلمة أخرى». جلبوا ثلاثة أطباء وهددوا بأن يعدموهم إذا مات عدنان تحت التعذيب. لم يفه ببنت شفة. وكنت تسمع أحياناً الأطباء يبدون خوفهم لأنهم لم يستطيعوا أن يعيدوه إلى وعيه. كنت آنذاك في غرفة أخرى للتعذيب وكنتُ أسمع كل شيء. وكنت في سجن «أبو غريب» عندما علمت أنهم أعدموا عدنان؛ إذ لم يمت تحت التعذيب».

أخبرني أحد الأسرى الشباب البالغ من العمر ١٧ سنة، وكان أصغر السجناء، بأنهم جعلوه يكنّس وينظّف داخل رئاسة الأمن كل صباح عند الساعة السابعة. وفي هذه الأثناء رأى امرأة فلّاحة من مستنقعات الجنوب، وعليها وشم؛ ومعها فتاة بعمر العاشرة وصبي بعمر السادسة تقريباً؛ وتحمل طفلاً بين ذراعيها. روى الأسير أنه بينما كان ينظّف تقدّم ضابط من المرأة وسألها: «أخبريني أين زوجك، لئلا تحدث لك أشياء سيّئة جداً». فأجابته: «إن زوجي يعتزّ بالمحافظة على سلامة زوجته، ولو عرف أني هنا لجاء وسلّم نفسه». فأخرج الضابط مسدسه،

(*) أنظر تفاصيل أخرى في بعض الصفحات التالية من هذا الفصل.

وأمسك الفتاة بجدائل شعرها، وأفرغ رصاصة في رأسها. لم تعرف المرأة تماماً ماذا يحدث. ثم أفرغ رصاصة أخرى في رأس الصبي؛ فجنَّت المرأة. ثم أمسك الطفل برجليه وسحق رأسه بالجدار وباستطاعتك أن تتصوّر حالة المرأة. وطلب الضابط من الأسير الشاب أن يأتي بعربة القمامة، وأن يضع الأولاد الثلاثة فيها على ظهر القمامة، وأن تجلس المرأة على جثثهم. وأخذ العربة إلى الخارج وتركها. ويبدو أن الضابط معتاد على التخلص من الناس الذين لا قيمة لهم.

أخذوني إلى المحكمة الثورية؛ وكان «مسلَم الجبوري» هو القاضي؛ وكان هناك لواءان من الجيش على كل جانب من جانبيه. سألوني عن اسمي، وعمّا إذا كان لديّ شيء أريد قوله. وكانت التهمة أني «أداة للصهاينة» و«جاسوس إسرائيلي» و«أني أعمل مع الأميركيين» و«أتعاون مع الإيرانيين». وأدركوا أني لست عضواً في حزب الدعوة. فأصدرت المحكمة حكمها عليّ ـ ذلك الحكم المحضَّر سلفاً قبل أن يأتوا بي إليها ـ بالسجن المؤبَّد؛ حتى أن المحامي الذي كان يدافع عني طلب إعدامي. ولم يكن له سوى تصريح خطي واحد تقدّم به: «إن هذا الشخص قد أقفل أبواب الرحمة ـ أنزلوا به أقسى عقوبة». فقلت للمحكمة: «إن هذه الدولة التي تحكمون فيها، أسّسناها بدمائنا. لقد عاقب البريطانيون والدي، وكنتُ أنا رئيساً للجمعية الفلسطينية في «تورنتو». فشخص بهذه الخلفية لا يمكن أن يكون عميلاً لإسرائيل». فقال المحامي: «إذن، أنت جاسوس للروس». قلت: «إن شجرة عائلتي ترقى إلى النبيّ محمد (ص)».

ساقوني إلى سجن «أبو غريب»، وألقوا بي في زنزانة صغيرة مع وجود أربعين شخصاً بداخلها. وعندما غادرتها في أيار/مايو ١٩٨٠ صار عددنا ستين شخصاً لكل زنزانة. وتصوّرت أن هناك ثلاثة أحكام بالموت إزاء كل حكم واحد بالسجن. وهكذا، كلما ذهب ألف شخص ليسجنوا في «أبو غريب»، فمعنى ذلك أن هناك إزاءهم ثلاثة آلاف إعدام. وفي شهر أيار/مايو المذكور، أخذوني إلى رئاسة «المخابرات» وكان التعذيب هنا أسوأ بكثير. ففي مركز التعذيب السابق، كان يسمح بنسبة ١٠ في المئة من حوادث الموت؛ بينما سمح هنا بمئة في المئة. وكان الرئيس هو برزان التكريتي، رئيس وفد حقوق الإنسان الذي أرسله صدّام إلى جنيف. وقد أحضروا الدكتور زياد جعفر إلى التعذيب لأنه قال لصدّام إن البرنامج النووي لا يمكن أن يستمرّ دون وجود الدكتور الشهرستاني، وأن العراق بحاجة إلى الدكتور الشهرستاني الكيميائي. فتلقّى صدّام هذا القول كتهديد. لم أرَ جعفراً أبداً. وقد عذبوا عشرين شخصاً أمامه حتى الموت. وهكذا رضي بأن يعود إلى عمله.

وفي يوم من الأيام، جاءوني، فحلقوا ذقني، وحمَّموني، وجلبوا لي بيجاما جديدة، وحملوني بسيارة إلى شقة تبدو كأنها في قصر، فيها غرفة نوم، وغرفة جلوس، وفيديوات، وتلفزيون... ثم جاء في يوم آخر برزان التكريتي وعبد الرزاق الهاشمي ـ الذي أصبح سفير العراق في فرنسا خلال احتلال الكويت عام ١٩٩٠. كان بعثياً، وسخيفاً جداً، يحمل دكتوراه في علم طبقات الأرض من الولايات المتحدة الأميركية. وكان نائباً لرئيس منظمة الطاقة النووية العراقية؛ وقد وقف عند الباب كحارس. كنت مستلقياً هناك، ويداي مشلولتان تماماً. فجاءني رجل، يقول: «أنت لا تعرفني، ولكننا نعرفك معرفة جيدة. لقد صُدم صدّام عندما سمع أنك موقوف ـ وغضب على

جماعة المخابرات. فهو يعرف إنجازاتك العلمية. إنه يريدك أن تعود إلى عملك في منظمة الطاقة النووية. فقلت: «إني ضعيف جداً، بعد الذي عانيته». قال: «نحن بحاجة إلى قنبلة نووية». ثم أضاف برزان التكريتي: «إننا بحاجة إلى قنبلة نووية لأنها تعطينا يداً طولى لمعاودة تشكيل الشرق الأوسط. ونحن نعرف أنك الرجل الذي يقدر أن يساعدنا في هذا السبيل». أخبرته بأن كل أبحاثي منشورة في أوراق بحث، وأني لم أقم بأي بحث في الأسلحة الحربية. وبالتالي، لست الرجل الذي تبحثون عنه للقيام بهذه المهمة. قال: «إني أعرف ماذا تقدر أن تفعل ـ وكل شخص لا يريد أن يخدم وطنه، لا يستحقّ أن يبقى حيّاً».

تأكدت من أنهم سيعدمونني، فقلت: «أتفق معك في أن من واجب الرجل أن يخدم وطنه؛ ولكن ما تطلبه مني ليس خدمة لوطني». فأجاب: «يا دكتور حسين، ما دمت توافق على أن من واجب الرجل أن يخدم وطنه، فالباقي تفاصيل. عليك أن ترتاح الآن، لأنك تعب». بعد ذلك، أبقوني في عدة قصور لعدد من الأشهر. وجاءوا بزوجتي لتراني مرة في قصر كان بيتاً لعدنان حمدان، أحد أعضاء مجلس الثورة الذي أعدمه صدّام. ولكنهم أدركوا أني لن أتعاون معهم؛ فأرجعوني إلى سجن «أبو غريب». أمضيت هناك ثماني سنوات؛ ولم يكن يسمح لي بالكتب، أو الجرائد، أو الراديو، أو أي اتصال مع أي كائن بشري.

كنتُ أعلم أني على الصراط المستقيم. ولم أندم يوماً على الموقف الذي اتخذته. نمت على أرض الإسمنت في زنزانتي، تحت حرام من حرامات الجيش، يعجّ بالقمل. كانت هناك حنفية، وسطل بمثابة مرحاض. وكانوا يعطونني صحناً واحداً من الطعام يومياً، وفي العادة يخنة فيها بعض اللحم. عانيت من ألم مبرّح في الظهر بسبب نومي على أرض الإسمنت. كنت أبتكر أحاجي رياضية، وأحلّها. فكرت في الناس الذين قبلوا النظام، والذين كان بوسعهم أن يحاربوه عندما كان ضعيفاً، ولم يفعلوا ذلك. وكلما فكرت في ذلك، زادت قناعتي بأني قمت بالعمل الصحيح؛ وعرفت أن عائلتي ستتفهّم أسباب ذلك. تمنّيت لو تأخذ زوجتي الأولاد وتغادر البلاد. فذلك كان سيخفّف من معاناتي. ولكنها قالت إنها لن تغادر البلاد ما دمتُ على قيد الحياة».

هذه هي قصة حسين الشهرستاني الباحث الذي هرب في آخر الأمر من سجن «أبو غريب»، خلال غارة جوية أميركية حدثت في شباط/ فبراير ١٩٩٠، بعدما ساعده أصدقاء له على أن يتنكّر بزي ضابط مخابرات عراقي. بعد ذلك وجد لنفسه طريقاً عبر السليمانية إلى إيران. وتتذكر زوجته «برنيس» أنها قامت مرة بزيارة زوجها في السجن، فلم تكد تتعرف على وجهه، إذ قالت: «تعرفتُ على ثيابه فحسب، لكني عرفتُ أنه هو، من دمعة ترقرقت على خده».

وبعد نقل الدكتور الشهرستاني من سجن «أبو غريب» إلى أحد القصور بشهرين تماماً، قرّر صدّام أن ينكر ما كان قد أقرَّ به للشهرستاني في العام السابق: بشأن خطته لامتلاك أسلحة نووية. وقد راقبت هذا الأداء النموذجي لصدّام، في ٢١ تموز/يوليو ١٩٨٠، أمام مئات من الصحافيين ـ بمن فيهم أنا ـ في قاعة الجمعية الوطنية العراقية غير الديمقراطية. ربما كانت القاعة بالغة الكبر، لأنه عندما دخل، كان الانطباع عنه أنه رجل بالغ الصغر، يرتدي

سترة فضفاضة مثنية على الصدر وكأنه قائد بسيط بربطة عنق ساطعة وسترة لامعة. لم يبدأ بموجة الابتهاج التي يتبنّاها العديد من قادة العرب، بل بتحية رسمية طويلة، مثل وضع الجندي المضطرب أمام ضبّاط كبار. ولكن عندما تكلّم، رفع الميكرفون صوته ـ عن قصد، دون شك ـ إلى حجم «الأخ الأكبر»، بحيث كان يهدر نحونا بتهكمه وغضبه عن حقد وغلّ، لا عن انفعال. ويمكنكم أن تتصوّروا كيف يكون النقد الذاتي أمام مجلس قيادة الثورة.

أنكر صدّام أن بلاده كانت تخطط لإنتاج أسلحة نووية؛ بغضب الحاكم المستبدّ المطلق من أن يفكّر أحد في أن العراق أراد أن يصنع قنبلة نووية؛ مع الإشارة إلى أن العرب قادرون تماماً على صنعها لو اختاروا ذلك. وقد أدان أيضاً غزو السوفيات لأفغانستان، والتدخّل الأميركي العسكري في الخليج، وسخر من قيادة حزب البعث في سوريا، واتّهم رجال الأعمال البريطانيين بالرشوة، وقلّل من شأن التقارير الدقيقة عن القلاقل الكردية في العراق، قائلاً: «ليس لدينا برنامج يتعلّق بصنع قنبلة نووية؛ ليس لدينا مثل هذا البرنامج الذي يحمل إسرائيل على إحباطه... إننا نريد استعمال الطاقة النووية للأغراض السلمية».

كانت حجّته بارعة. قال: «نشر الصهاينة في أوروبا، منذ عدة سنوات، أخباراً تفيد أن العرب قوم متخلّفون، وأنهم لا يفقهون التكنولوجيا، وأنهم بحاجة إلى من يحميهم. فالعرب لا يعرفون سوى أن يركبوا الجمال، وأن يبكوا على الأطلال، وأن يناموا في الخيم. ثم عادوا قبل سنتين مع من يدعمهم إلى الادّعاء بأن العراق قارب إنتاج قنبلة نووية. فكيف يستطيع قوم لا يعرفون سوى ركوب الجمال أن ينتجوا قنبلة نووية؟ إن العراق وقّع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية؛ ولكن لم يسأل أحد: هل يصنع الإسرائيليون قنابل نووية في مركزهم النووي في «ديمونا» بصحراء النقب. إن البلدان العربية على عتبة عصر جديد؛ وسينجحون في استخدام الطاقة النووية. وسيتمكن ملايين العرب من استعمال هذه التكنولوجيا المتقدمة». وكرّر صدّام استعمال تعبير «الانشطار الثنائي» (Binary)، كما لو قام العراق بفلق الذرّة.

وضمَّن صدّام كلامه إشارات إلى «الأمّة العربية»، وإلى روح جمال عبد الناصر ـ الذي كرَّر اسمه في ثلاث مناسبات ـ في محاولة لاسترجاع الأحداث. فبالنسبة إلى نظامه، كان يعتبره آية تجسّد الفلسفة العربية النقية، وبالنسبة إلى شخصه كان يرى نفسه الطامح إلى قيادة العالم العربي. ولكنه لم يستطع تفادي الإشارة إلى الحقيقة بصرخته التالية: «كل من يريد أن يعادينا، عليه أن يتوقع منا أن نكون عدواً مختلفاً تماماً في المستقبل القريب». لقد بيَّن غرضه: إذا كان العرب قادرين على استعمال التكنولوجيا النووية المتقدمة في المستقبل القريب، وإذا كان عدوّ إسرائيل سيصير «مختلفاً تماماً»، فذلك لا يعني سوى أنه ينوي امتلاك أسلحة نووية. ولم يكن سراً أن المفاعل النووي العراقي «أوزيراك» كان على وشك التلزيم خلال خمسة أشهر فقط.

ثم جاء دور الكلام عن إيران. قال إنه يعتقد بحق الإيرانيين في تقرير مصيرهم؛ ولكن الخميني صار «قاتلاً بين بني قومه». وعند نقطة معيّنة، بدأ صدّام يتكلم عن (٠٠٠ ٣٥) عراقي شيعي من أصل إيراني طردهم من

العراق ـ لكنه لم يذكر عددهم، ولا أن العديد منهم يحملون جوازات عراقية ثم توقف عند منتصف الجملة، بقوله: «طردنا بعض الناس من أصل إيراني، أي أناساً لا ينتمون إلى العراق. ولكن الآن إذا أرادوا أن يعودوا. . .». وكان ذلك تحذيراً ينذر بالعقوبات التي ينوي أن ينزلها بالثورة الإيرانية.

استمرّ مؤتمر صدّام الصحفي حتى بواكير الصباح التالي. وفيه تكلّم دون رؤوس أقلام؛ وكان دائماً يرتجل خطابه وهو مستغرق فيه، كما كان يفعل الرئيس السادات المصري؛ ولو كانت المقارنة لا تمدحه. وقد سجّلت في تقريري المرسل إلى «التايمز» في اليوم التالي أنه «عندما يبتسم الرئيس ـ وقلّما يفعل ذلك ـ تلاقيه حدّة التصفيق من وزرائه ومن موظفي حزب البعث. وعندما يكون بعضنا قريبين منه، بعد خطبته، يصافحنا. وقد سجلت في مذكراتي، أن يده «طريّة ورطبة».

وبعد سنتين، حدث أن «ريتشارد پريم»، رئيس غرفة الخرائط في مكتب ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا في شارع «داوننغ»، استعمل الكلمات ذاتها «طريّة ورطبة» عندما وصف لي خبرته بمصافحة جوزيف ستالين، القدوة التي حذا حذوَها صدّام بوعي. وقد ذكر أحد الذين كتبوا سيرة حياة ستالين، أن صدام آلى على نفسه في السبعينيّات من هذا القرن أن يزور جميع «الڤيلّات» التي كانت لستالين على شاطىء البحر الأسود عند «أبخازيا»، وعددها ١٥، وبينها قصور كانت للقيصر. ويُعتقد أن صدّام استوحاها ليبني لنفسه قصوراً ملكية شاسعة دون فائدة في شتّى أنحاء العراق»(*).

ولكن بالنسبة إلى الغربيين، كان صدّام بمثابة شاه جديد قيد الإعداد للغرب، وعبد الناصر للعرب؛ كما اشتبهت، من حضوري مؤتمره الصحفي المذكور آنفاً. فشخصيته كانت قد تمذهبت على هذا النحو. فقد أراد أن يكون صيغة جديدة من الخليفة هارون الرشيد، كما يقال في بغداد ـ فهو سيصبح عمّا قريب صيغة أكثر إقلاقاً من محارب عربي قديم ـ إذ تعمّمت صورة وجهه على كل البلد، باللباس الكردي، وبالكوفية العربية، وبلباس رجال الأعمال، وهو يحفر خنادق بلباس رجال العصابات، ومسدّسه على خصره على طريقة عرفات، وعلى عملة الدينار العراقي. لقد كان، كما وصفه شاعر محلّي متذلّل: «شذا العراق، ونخيله، ومصبّ نهريه، وشواطئه ومياهه، وسيفه، ودرعه، والنسر الذي تبهر عظمته السماوات. فالعراق منذ وجد، كنت أنت له المنتظر والموعود».

وكان صدّام قد عوّد نفسه على زيارة العراقيين في بيوتهم من وقت إلى آخر، ليسألهم: هل هم سعداء؟ ـ وبالطبع كانوا كذلك ـ وكان زميلي «طوني كليفتون» من «النيوزويك» شاهداً شخصياً على مثل هذا. وخلال مقابلة مع الرئيس، تهوّر «كليفتون» وسأل صدّام: هلّا يقلق بشأن اغتياله؟ فاصفرّ المترجم من الخوف، وعقب ذلك صمت طويل. ويذكر «كليفتون» «أن صدّام كان يعرف بعض الإنكليزية وفهم السؤال: ثم قال له المترجم شيئاً،

(*) وقد وجد «سيمون سيباغ مونتيفيوري» أموراً متوازية أخرى. فقد كانت «غوري»، مسقط رأس ستالين في «جورجيا»، لا تبعد أكثر من ٨٠٠ كيلومتر عن بلدة صدام «تكريت». وقد نشأ الرجلان في حضن والدتين قويتين طموحتين، ظلمتا من قبل والديهما؛ وكلاهما عُزّزا من قبل رجال دين محترمين، لكنهما خانا الأمانة.

فانفجر صدّام ضاحكاً، وربّت على كتفي وهو يستمرّ في الضحك، وقال: «أخرج الآن من هذه الغرفة إلى الشارع، واسألْ أياً كان في العراق: هل تحبّ صدّام؟» ثم تابع ضحكه مع كل الموجودين في الغرفة. ولو فعلتُ ذلك، لأجابوني بأنهم يحبونه طبعاً»(*).

ورث صدّام السلطوي الإطار القبائلي والديني ذاته الذي جابه البريطانيين عندما احتلوا العراق عام ١٩١٧. وكانت حوزة الشيعة الكبرى مستبعدة من الحكم، إنما تهدّد دائماً حزب البعث الذي يسيطر عليه السنّة. فلهم أماكنهم المقدّسة المذهَّبة في النجف وكربلاء كرموز على تفرُّدهم في حضن الإسلام؛ فضلاً عن أكثريتهم الساحقة في إيران. وما دام الشاه يحكم جارة العراق الشرقية فلا خوف من النفوذ الطائفي. ولكن بعد خلع الشاه، كان البعثيون أول من أدرك التهديد الذي يمثله الشيعة في البلدين كليهما.

نازع الشيعة حول قيادة الإسلام، منذ القرن الثامن عندما اغتيل الإمام علي، صهر الرسول محمد (ص)، في الكوفة. واعتقدوا أن سلالته المتمثلة بالأئمة هي الخلف الشرعي للرسول. وإن تعلّقهم بالاستشهاد والموت من شأنه أن يمثّل تهديداً لأي عدوّ، إذا ظهر في حرب حديثة. أما السنَّة فقد أصبحوا أقوياء تجارياً لمزاملتهم المماليك والأتراك. وكان نفوذ السنّة بُني على ضعف الشيعة في العراق؛ مع مسعى صدّام إلى إبقاء الوضع على تلك الحال. ولكن هذا التباين يتفاقم باستمرار ـ كما حصل في المملكة العربية السعودية، ذات الغالبية السنِّية ـ لوجود معظم نفط الشرق الأوسط صدفةً تحت الأراضي التي يسكنها المسلمون الشيعة: في جنوبي العراق، وفي شمالي شرقي العربية السعودية، وبالطبع في إيران، حيث غالبية السكان شيعية.

وقد تسامح صدّام مع الشاه منذ أن حجب الشاه دعمه للتمرّد الكردي في الشمال. والأكراد، مثل الشيعة، خُدعوا تكراراً من قِبل الغرب وإيران. واتُّفق على جعل الحدود العراقية ـ الإيرانية على طول شط العرب. وكان صدام متهيئاً للسماح بإقامة آية الله الخميني في النجف حيث سكن، بعد طرده من إيران؛ إنما مُنع من تعاطي أيّ نشاط سياسي؛ لكن الخميني لم يأبه لذلك. فقد أعطى أتباعه شرائط كاسيت عبّر فيها عن اشمئزازه من الشاه، وتصميمه على قيادة ثورة إسلامية، مع دعمه للقضية الفلسطينية. وكان من أقرب مناصريه في النجف حجة الإسلام علي أكبر محتشمي ـ الذي صار فيما بعد سفيراً لإيران في سوريا، والذي أرسل حرّاس الثورة إلى لبنان عام ١٩٨٢، والذي سجنته السلطة العراقية ثلاث مرّات(**). ولكن سفير الخميني الديني كان آية الله السيد محمد باقر

(*) مع أنه كان متعذّراً أن نقوّم الرأي العام تحت حكم صدّام، فقد كنت أستطيع التكلّم مع بعض الأصدقاء العراقيين في بيوتهم. وفي مقال كتبته «للتايمز» بتاريخ ٣٠ تموز/ يوليو ١٩٨٠، سجلت أن العديد من العراقيين «أقرّوا حتى على انفراد بأن الاستقرار تحت حكم الرئيس صدّام حسين أفضل من الفوضى الاجتماعية التي قد تحدث، إذا أطلقت الحريات فجأة على الطراز الليبرالي الغربي». وبعد ٢٤ سنة تأكدت مخاوفهم من الفوضى، كما يحدث الآن في العراق.

(**) وقد سُجن محتشمي في العربية السعودية وفي الكويت، لكنه أخبرني بعد سنوات أن «أياً من ذلك لم يفتّ في عضُدي، ولم يُعِقْ أو يؤثر على معتقداتي أو على تصميمي؛ لا بل إن ذلك جعلني وطيد العزم على المحاربة والجهاد ضد الولايات المتحدة الأميركية، وإسرائيل، وجميع وكلائها من حكومات وبلدان».

الصدر، أحد أكبر رجال الدين الشيعة في النجف نفوذاً وتأثيراً، والذي كتب عدداً من الأعمال المحترمة في الاقتصاد الإسلامي والتربية الإسلامية.

وقد دعا هو أيضاً إلى ثورة إسلامية في العراق، معتمداً ـ مثل حسين شهرستاني ـ على أهمّيته السياسية لتحميه من الهلاك. وحالما طرد صدّام الخميني ـ إلى تركيا، ومنها إلى باريس ـ صار باقر الصدر في خطر قاتل. وإزاء ثورة إسلامية مشتعلة في إيران، لم يكن لدى صدّام أي وخز ضمير في شلّ يد الخميني اليمنى في النجف، ناهيك بأتباعه. وبدأت المعاناة. فأوقف باقر الصدر، المريض في بيته، وأودع السجن في بغداد ـ ليفرج عنه بعد قيام مظاهرات واسعة في النجف ضد النظام، ثم أعلن حزب البعث عن وجود المعارضة المسلّحة المتمثلة بحزب «الدعوة»، وانقضّ على مناصري باقر الصدر. وأورد الإيرانيون فيما بعد أسماء الشهداء الأوائل للثورة الإسلامية في العراق. حجّة الإسلام الشيخ عارف البصري، وحجّة الإسلام السيد عزيز الدين القبنجي، وحجة الإسلام السيد عماد الدين طبطبائي تبريزي، والأستاذ حسين جلوخان، والأستاذ نوري طعمه. وقرّر حزب البعث سحق تأثير مدارس الشيعة الدينية في النجف، عن طريق نشر قوانين جديدة، تلزم كل المعلمين بالانضمام إلى حزب البعث. فأعلن باقر الصدر إذ ذاك أن مجرّد الانضمام إلى حزب البعث «تحرّمه القوانين الشرعية الإسلامية». وقرّر ذلك مصيره ـ وهو مصير لم يُرد صدّام أن يكشف عنه أولاً.

وشاعت على مدى شهور تقارير عن إعدام باقر الصدر في الخارج ـ دون صدور توكيد من النظام. ولكن، عندما طلبتُ أن أزور النجف عام ١٩٨٠، أخبرني أحد موظفي البعث الحقيقة؛ إنما بالطريقة البعثية القاسية. كان يوم ٢٣ تموز/ يوليو يوماً قائظاً، عندما وصلت إلى مكتب حاكم النجف البعثي المهيب «مصبان القاضي»، أحد أعضاء الحزب الأعلى مقاماً، والمؤتمن على الأسرار الشخصية لصدّام حسين. وقبل وقت الغداء في شهر رمضان الذي لا غداء فيه، وبينما كان ميزان الحرارة يشير إلى ٥٤,٤ درجة مئوية، جاءني الإقرار، جواباً عن سؤالي: «هل أعدم آية الله باقر الصدر؟».

قال القاضي: «ليس لي علم بآية الله باقر الصدر؛ ولكنني أعرف محمد باقر الصدر، الذي أُعدم، لأنه كان خائناً، وتآمر على العراق، وحافظ على علاقاته مع الخميني. لقد كان عضواً في حزب «الدعوة». وقد كان مجرماً وجاسوساً؛ ولم تكن له علاقات مع الخميني فحسب، بل أيضاً مع وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وقد أعطت السلطات جثته إلى أقربائه ـ ليقبروه في وادي السلام؛ ولكن عائلته لم يلحق بها ضرر. ولا تزال تعيش في النجف».

أذكر كيف كان مكيّف الهواء يُهسهس في ناحية من الغرفة، أثناء تكلّم القاضي. لقد تكلّم بنعومة، وملت أنا نحوه لأسمع كلماته. وكان ذلك كافياً لإرسال وخز انفعالي على طول العمود الفقري لأيّ سامع. فالخميني قلّل من احترام حُماته السابقين؛ وهذا كامن في قلب النظام البعثي الذي قام بالكثير ليساعده. قال القاضي بلطف: «يتكلّم الخميني عن حشود الناس التي أتت لترى باقر الصدر في غيابه. ولكن ذلك الرجل أقرَّ في المحكمة أنه

تجسّس. لقد شُنق منذ أكثر من خمسة أشهر. ولكن هذه أمور صغيرة تسألني عنها. إننا في العراق نُعدم كل خائن. ولماذا يطرح المراسلون أسئلة غير هامة مثل هذه؟ ولماذا لا تسألني عن مشاريع التنمية في النجف؟».

إن هذا التذكار كئيب نابذ للرجل الذي رافق الخميني خلال ١٤ سنة من النفي. وادي السلام هو مقبرة يتمنّى ملايين من الشيعة أن يدفنوا فيها، إذ إنها لا تبعد سوى بعض مئات الأمتار عن المقام الذهبي للإمام علي. وقد أُذن لعائلته أن تقيم له مأتماً إسلامياً تقليدياً. وهو يرقد الآن في قبر ضيّق بين مئات الألوف من القبور المتراصّة المحدودبة التي يعتقد الراقدون فيها أن قربهم من المرقد الأخير للإمام عليّ يؤمّن لهم الشفاعة الشخصية يوم القيامة لهذا المحارب المقدّس الذي توفّاه الله منذ زمن بعيد. ولكن كان هناك أيضاً قبر آخر قرب قبر باقر الصدر أنبأنا عنه أحد موظفي حزب البعث من الشباب، الذي أسعده أن يوسّع قصّة الحاكم الوحشية.

قال: «شنقنا شقيقته أيضاً. وقد أُلبس كلاهما كفنين أبيضين للشنق. وقد شُنقت بنت الهدى في الوقت نفسه تقريباً. لم أر عملية الشنق، لكني رأيت باقر الصدر المشنوق فيما بعد، خارج سجن «أبو غريب». لقد شنقوه علناً. وكان بثوبه الديني مع قماش أبيض فوقه؛ ولكن دون عمامة. وفيما بعد أنزلوه ووضعوه في تابوت خشبي، وأوثقوه على ظهر سيارة. ثم أُخذ إلى النجف. لماذا تسألون عنه، لقد كان شخصاً سيّئاً».

إن تاريخ حزب البعث في العراق يمكن أن يكتب بدم العلماء وعائلاتهم، وكيف أن زوال علماء الشيعة أصبح موضوعاً مخيفاً على مدى السنوات القادمة. ومن المعروف، أن الإمام موسى الصدر، زعيم الطائفة الشيعية في لبنان وأحد أقرباء باقر الصدر، اختفى بينما كان يزور ليبيا في آب/أغسطس عام ١٩٧٨. ولد في «قُمّ»؛ وكان رجلاً طويلاً ملتحياً، يبدو أصغر من أن يبلغ من العمر ٥٠ سنة. وقد دعي لزيارة ليبيا بمناسبة الاحتفال السنوي التاسع بثورة العقيد القذافي. وبحسب رواية إحدى الصحف اللبنانية، كان كل ما لديه ليتكلم عنه في العاصمة الليبية، هو الحالة في إيران. فهل قُبض عليه من قبل شرطة الشاه السرّية المسمّاة «السافاك»؟ أو هل أخفاه القذافي من أجل صدّام؟ كان من المفترض أنه استقلّ طائرة «أليطاليا» على الرحلة ذات الرقم ٨٨١ المغادرة إلى روما بتاريخ ٣١ آب/ أغسطس في طريقه عائداً إلى بيروت. وقد ظهرت أمتعته على مَدْوَرة مطار «فيوميسينو» بإيطاليا ـ ولكن لم يكن على الطائرة لا هو ولا الصحافي اللبناني الذي كان يرافقه. ولا يزال كثير من الشيعة في لبنان يأملون بعودة إمامهم؛ بينما يحاول غيرهم اليوم اتّهام القذافي. إن موسى الصدر الذي أسّس حركة أمل في لبنان، لم يعد يُرى.

وفي النجف، رُوِّع الشيعة بالتهديد. لم يكن أحد يذكر اسم باقر الصدر في المدينة المغبرة، التاريخية بمسجدها المجيد المبني حول ضريح الإمام علي صهر الرسول وابن عمّه. وقد استغرب أحد المشرفين على مواقف السيارات وهزَّ كتفيه متعجّباً من جهلي، عندما ذكرت أمامه اسم باقر الصدر. وكانت اللافتات المنصوبة في شوارع النجف في ذلك الشهر القائظ، شهر تموز/ يوليو، كلّها تمدح كرم صدّام ـ وقد صُمّم كل شعار منها شخصياً بواسطة أصحاب الحوانيت المحلّيين؛ كما أصرّ على هذه النقطة أحد موظفي وزارة الإعلام ـ وفي إحدى الطرق ارتفع علم أحمر صغير، وعليه ما معناه: «ليسقطْ نظام الخميني، الكاذب والخائن، وليتبعثرْ أشلاء».

كان آية الله أبو القاسم الخوئي الكبير والأكبر سناً، هو الوراث الشرعي للزعامة الشيعية في النجف. ولكنه كان رجلاً يعتقد أن الناس يجب أن تعطي ما لله لله، وأن تعطي ما للبعث لصدّام؛ ولم يكن له التأثير اللازم لتهدئة القلاقل ـ كما لم يستطع ضبط الغوغاء خلال التمرّد الذي حصل في جنوب العراق عام ١٩٩١. لم يُسمح لنا بمقابلة هذا الرجل الكهل. ولكن الحاكم كان مستعداً ليأخذني إلى البيت الذي كان يسكن فيه الخميني. وهو عبارة عن مبنى من طابق واحد له جدران مكسوّة بالطلاء المتقشّر. وكان موقعه في طريق سمّيت بما يناسبه ـ شريعة الرسول ـ في الضاحية الجنوبية من النجف.

يقولون لك إن للبيت باباً خشبياً مطلياً؛ وهذا صحيح. لكن حرّ الظهيرة حجزنا في الظلّ، حيث كانت تهبّ علينا موجات حارّة من الأزقة حتى بتّ لا أرى سوى بيوت مقفلة، وشوارع أحادية اللون، الوجه السلبي لمدينة كُرّست لهويّة العبادة وهويّة الموت. ولا نشكّ في أن آية الله الخميني قد أحبّ إقامته هناك.

ولكن المدينة كانت تمرّ بحالة تغيّر. فهناك تعبيد للطرق؛ كما أن مشروعاً بنائياً أزال من الوجود أحد البيوت «الأمينة» للخميني، والحكومة العراقية تبذل قُصارى جهدها لتأمين حاجات الشيعة في الأقدس من المدن. أضف إلى ذلك مصانع جديدة كانت تُبنى لجهة الشمال، وأكثر من مئة مدرسة حديثة ـ كاملة بمعلّميها البعثيين ـ كانت قد أنجزت، مع شبكة من المراكز الصحّية، والفنادق، وصفوف مباني الشقق المتلاصقة. وكان الحاكم يزدهي بأن يجعلني أمرّ بسيارته المرسيدس البيضاء عبر الشوارع الجافة الشديدة الحرارة، مشيراً بإصبعه القصير السمين نحو السوق الشرقية.

قال مصبان القاضي: «إني أعرف كل شخص هنا، وأحبّ هؤلاء الناس، وهم يبادلونني ذلك بإظهار مشاعرهم الحقيقية لي». ووراءنا كانت تسير سلسلة من سيارات الشرطة المرافقة؛ وهي تخرخر في ذلك الحرّ الرهيب. وكان «القاضي» شيعياً، ولكنه لم يكن من النجف، بل من ولاية قريبة اسمها «ديالا». كان يأتي إلى مسجد الإمام عليّ كل يوم، كما يدّعي، ويشير إلى علم منصوب فوق فسيفساء المقام، وكان عليه مقطع من خطبة لصدّام يقول: «نشعر ببالغ السعادة، لوجود والدنا الكبير علي؛ لإنه أحد زعماء الإسلام، وصهر النبي (ص) ولأنه عربي».

وقد كرَّر الموظفون البعثيّون هذه النقطة: إن كل العراقيين الذين هم من أصل إيراني طُردوا من النجف. وقال القاضي بنزق: «لو اتصلت بي البارحة تلفونياً لأعطيتك العدد». وكانت الرسالة عبارة عن أن الإسلام الشيعي هو نتاج الحضارة العربية لا الفارسية. وقد ورد هذا الموقف تكراراً. ألم يقدّم صدّام شخصياً مجموعة من البوّابات المرصّعة بالذهب لمقام النجف، وسعر كل منها لا يقل عن مئة ألف دولار أميركي؟ مشى الحاكم ببطء في السوق عبر الطريق. ولما كان الشهر شهر رمضان، كانت مصاريع الحوانيت مغلقة، وحارّة جداً لو مسستها لأحرقت جلدك. ولكن كان هناك كشك عطور لا يزال مفتوحاً، فجلس «القاضي» بثقله على مقعد متداعٍ؛ بينما كان البائع الثرثار يصبّ زيوته الفوّاحة الدافئة في قوارير.

سعل القاضي قائلاً: «اسأله هل يحبّ المعيشة في النجف». لكنني سألته عما إذا كان يتذكر الخميني، فأومضت عيناه عبر الموظفين القريبين منه، وقال بعناية: «نحن كلّنا نتذكّر الخميني؛ سكن هنا ١٤ سنة. وكان كل يوم يذهب للصلاة في المسجد، وكان أهل النجف يتجمّعون حوله بالآلاف لحمايته ـ فقد اعتقدنا أن الشاه قد يرسل شرطة «السافاك» لقتله؛ ولذلك كنّا نقف حوله في المقام». ثم جاءت لحظة صمت، بينما كان الموجودون حوله يقوّمون حسّه النقدي.

ولكن الحاكم قال: «هاكَ ولداً صغيراً يحبّ أن يقول لك رأيه في الخميني». وصرخ ولد صغير فقير يلبس عباءة قذرة: «الخميني خائن» بابتسامة فارغة. فأيّد جميع الموظفين قوله، باعتباره يمثل المشاعر الحقيقية للناس في النجف. لم يرَ «القاضي» الخميني أبداً، لكنه يؤكد واثقاً أنه كان عميلاً لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)؛ حتى أن «الخوئي» أرسل برقية إلى «قمّ» يستنكر فيها قتل المسلمين الأكراد في شمالي إيران. وقد يكون الخوئي قد فعل ذلك ـ مع العلم أن زميله المعلّم آية الله صاحب الحكيم قد أعدمه النظام ـ ولكن لم تُستثنَ عائلته. ففي عام ١٩٩٤، وبعد سنتين من وفاة الخوئي قُتل ابنه محمد تقي البالغ من العمر ٣٦ سنة، عندما اصطدمت سيارته بشاحنة متمفصلة غير مضاءة على الطريق العام خارج كربلاء. لقد كان ينتقد صدّام دائماً لاضطهاده الشيعة؛ وقد أخبر أصدقاءه في العام الماضي بلندن أنه من المرجح أن يموت على يد صدّام. ولم تجرَ له ولابن أخيه البالغ من العمر ست سنوات والذي مات معه، مراسم الدفن العادية، بناء على طلب السلطة.

وبعد أربع سنوات اغتيل آية الله الشيخ مرتضى البوروجردي. وهو يعود إلى بيته بعد صلاة العشاء من مقام الإمام علي. وهو من أبرز الباحثين والقانونيين في النجف، ومن تلاميذ «الخوئي» الأب، ومن أصل إيراني. وكان قد ضُرب في العام الفائت، ونجا من محاولة قتل عندما ألقيت عليه قنبلة يدوية. وذلك لأنه رفض أن يمتنع عن إقامة الصلاة في مسجد المقام. وكان آية الله علي السيستاني، مرجع التقليد الأساسي، لا يزال تحت الحجز في منزله؛ بينما كان البعثيون يروّجون لمن هو أكثر مطاوعة منه «السيد محمد صادق الصدر»، ابن عم الصدر الذي أُعدم. لكن صادق ذاته اغتاله مسلّح في النجف بعد تسعة أشهر من إصداره فتوى يدعو فيها الشيعة إلى حضور صلاة الجمعة، بالرغم من اعتراض الحكومة على تجمّع الحشود. كما أن يوسف ابن «الخوئي» ـ أخا تقي ـ ألقى اللوم على البعثيين، ونشب الشغب في أحياء الشيعة الفقيرة في مدينة صدّام ببغداد. ولكن تاريخ مقاومة الشيعة لم ينتهِ مع سقوط صدّام. فقد انبرى «مقتدى» ابن صادق الصدر لقيادة تمرّد ضدّ الاحتلال الأميركي للعراق، بعد خمس سنوات، في عام ٢٠٠٤؛ ممّا جلب الدبّابات الأميركية إلى شوارع النجف ذاتها، التي مرّت فيها مدرّعات صدّام، ولإثارة معارك مسلّحة عبر «مدينة الصدر» التي غيّر السكان اسمها بعدما أعدم صدّام باقر الصدر، من «مدينة صدّام» إلى «مدينة الصدر».

هؤلاء كانوا أبرز العراقيين من أصل عشرة آلاف عراقي قُتلوا خلال حكم صدّام الذي دام ٢٤ سنة. وقد نكّل النظام أكثر ما نكّل بالأكراد، والشيوعيين، والشيعة. وإني أجد في ملفّاتي التي جمعتها منذ السبعينيّات والثمانينيّات

من القرن العشرين، الكثير من المنشورات السيّئة الطبع الصادرة عن «الاتحاد الوطني الكردستاني» وعن اتحادات التجارة العراقية، وغير ذلك من الجماعات الصغرى للمعارضة، تذكر آلافاً من الرجال والنساء الذين أعدموا. وبينما كنتُ أقلّبها، عثرت على عدد من مجلة الاتحاد الوطني الكردستاني المسمّاة «الشرارة» (Spark) صادر بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٧، يُشتكى فيه من أن قوّات من البعث العراقي ومن قِبل شاه إيران قد حاصرت أنصار هذا الاتحاد في قرية «حلبجة» الشمالية، ويورد بالتفصيل أسماء القرى التي طُرد منها سكّانها الأكراد؛ فضلاً عن ذكر أن أربعمئة شخص من أعضاء هذا الاتحاد الكردي قد أُعدموا، أو اغتيلوا، أو عُذّبوا. وكان هناك أيضاً كرّاسة للاتحاد صادرة بتاريخ ١٠ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٧٧ تروي طرد ٣٠٠ ٠٠٠ كردي إلى جنوبي العراق. كما كان وهناك كذلك قائمة مخيفة من مجموعات شيوعية، تورد أسماء ٣٧ عاملاً عراقياً أعدموا أو «اختفوا» خلال عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣ ومنهم: «عامر قدير»، عامل في مصنع التبغ بالسليمانية ـ عُذّب حتى الموت؛ و«علي حسين»، عامل نفط من كركوك ـ أُعدم؛ و«مجيد شرهان»، فلّاح من الحلّة ـ أعدم؛ و«صدّام موهر»، موظف مدني من البصرة ـ أعدم... وكان الموتى من الحدادين، والبنّائين، والطابعين، وعمّال البريد، والكهربائيين، وعمّال المصانع. ولم يكن أحد بمأمن.

لم تكن هذه الحالة الدائمة من قتل الجماهير عبر العراق خافية على أحد، خلال السبعينيّات والثمانينيّات. ومع ذلك كان الغرب صامتاً، أو مُديناً لذلك إدانة خفيفة. ومن أبرز الأمثلة الفاضحة على علاقاتنا الملطّخة بالعار مع النظام العراقي، تصريح رئيس بلدية باريس آنئذٍ «جاك شيراك» بأنه يكنّ للرئيس العراقي صدّام حسين: «الاحترام، والاعتبار، والودّ»؛ عندما زار صدّام باريس عام ١٩٧٥. وخلال ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، تورّط أفراد من السفارة العراقية في باريس، في معركة مع الشرطة الفرنسية، بعدما حجز مسلّحان عربيان بعض دبلوماسييهم. وقُتل في هذه المعركة مفتّش شرطة فرنسي وجرح شرطي؛ ولكن العراقيين الثلاثة الذين قاموا بهذا العمل تحصّنوا بالمناعة الدبلوماسية وسُمح لهم بالمغادرة إلى بغداد بتاريخ ٢ آب/أغسطس عام ١٩٧٨، بعد يومين من عملية القتل. وانهمرت على العراق لمدة ١٥ سنة مختلف أنواع التصديرات الوافدة من الخارج الغربي، ومنها: اعتمادات التصدير والكيميائيّات، والطائرات المروحية الأميركية، والطائرات النفّاثة الفرنسية، والغاز الألماني، والآليات العسكرية البريطانية. وكان قد سبق للعراق أن استعمل الغاز لقتل آلاف من الجنود الإيرانيين. عندما قام «دونالد رامسفيلد» بزيارته المرموقة إلى بغداد عام ١٩٨٣، ليصافح يد صدّام ويطلب منه السماح بمعاودة فتح السفارة الأميركية. وكانت أول وآخر مرّة زرت فيها القنصلية الأميركية هناك، بعد زيارة «رامسفيلد». وقد أكد لي أحد أشباح وكالة الاستخبارات الأميركية الشباب آنذاك أنه لم يعد يخاف من السيارات المفخخة، لأن له «ثقة تامّة في الأمن العراقي».

واعتُبرت مشاريع العراق آنذاك في ميادين محو الأمية، والصحة العامة، والعمران، والاتصالات، إثباتات على أن حكومة البعث كانت جوهرياً كريمة، أو تستحق الاحترام على الأقلّ. وقد وجدتُ في ملفّاتي أيضاً مقالات عديدة ظهرت في الصحافة الغربية، وهي تكاد تركّز حصراً على مشاريع العراق الاجتماعية. ففي عام ١٩٨٠ مثلاً، نشرت

مجلة إدارة الأعمال في الشرق الأوسط (8 Days)، مقالاً طويلاً، كُتب بتهكّم لا شعوري، جاء فيه: «إن العراقيين الذين يتخلّفون عن حضور دروس القراءة، يمكن أن يدفعوا غرامة أو يودعوا السجن، لأن دروس محو الأميّة إلزامية. وقد تبدو مثل هذه التدابير قاسية. ولكن تجدر الإشارة إلى أن العراق يدخل سنته الثانية من حملته الحكومية لمحو الأمية، وأن النتائج التي حصل عليها نالت تقريظ الأمم المتحدة».

في عام ١٩٧٧، أجرت «دبلن صنداي برس» التي توقّفت اليوم عن الصدور، مقابلة مع «تشارلس هوغي» وزير المالية الإيرلندي السابق لم يرد فيها أي ذكر لانتهاك حقوق الإنسان في العراق. ولم يكن عسيراً أن نعرف السبب. فقد بدأ النص بتتويج عن «السوق الهائلة القادمة لمنتوجات إيرلندا في العراق؛ بما في ذلك الغنم، والبقر، والألبان والأجبان، ومتطلبات صناعة البناء... كما قال لي «تشارلس هوغي» بعد عودته من زيارة أسبوع لتلك البلاد». وقد علمنا أن «هوغي» وزوجته «مورين» كانا «ضيفين على الحكومة العراقية الاشتراكية التي مضى على وجودها تسع سنوات»، فصار باستطاعته أن يطّلع على «الوضع السياسي والاقتصادي هناك، والمساعدة في تعزيز علاقات أفضل بين إيرلندا والعراق على الصعيد السياسي». وقد قابل هوغي «المدير العام لوزارة التخطيط، صدّام حسين»، وصرّح بأن «الوجه الأساسي للعراق الحديث هو التصميم التام لقادته على استعمال الثروة المجنية من الموارد النفطية العراقية لصالح الشعب...» وأخبر المقال قرّاءه «بأن حزب البعث، تسلّم الحكم في تموز/ يوليو عام ١٩٦٨ دون إراقة قطرة دم».

وقد فهم البريطانيون النظام العراقي فهماً جيّداً. ففي عام ١٩٨٠، اقتحم مسلّحون السفارة الإيرانية في لندن. وكانوا من «المنظمة السياسية للشعب العربي في عربستان»، تلك الزاوية الصغيرة الواقعة جنوبي غربي إيران، والمسماة «خوزستان». وقد انتهى الحصار بدخول شرطة (SAS) المبنى، والقبض على أحدهم، وقتل أربعة آخرين، وإعدام الخامس، قبل أن تلتهم النار ذلك المبنى(*). وبعد ذلك بأقل من ثلاثة أشهر، وبتاريخ ١٩ تموز/ يوليو ١٩٨٠، دهشت عندما تلقيت مخابرة تلفونية في الفندق الذي أنزل فيه ببغداد، ودعوتي من قبل السلطات العراقية لحضور مؤتمر صحفي تعقده المجموعة العربية ذاتها التي اقتحمت السفارة. وانبرى منها «ناصر أحمد ناصر» البالغ من العمر ٣١ سنة؛ وهو متخرج في الاقتصاد من جامعة طهران، يتهم البريطانيين «بالتآمر» مع إيران على عرب المنطقة، ويطالب بإعادة جثث المسلّحين الخمسة إلى العراق.

كان ناصر ذا شاربين، يضع نظارة سوداء، ويرتدي قميصاً أسود وسروالاً متغضّناً. تكلّم بهدوء وبنظرة مستقبلية إلى ردّ الفعل على القتل، قائلاً: سنثأر، لأن عدونا الثاني الآن هو إنكلترا». وادّعى أنه حُكم عليه

(*) وقبل أيام من حدوث الحصار، كنتُ قد زرتُ السفارة، طالباً سمة سفر للدخول إلى إيران؛ وطُلب مني ترك جواز سفري لإنجاز المعاملة. وبعد حصول الحريق، توجب عليّ إرسال خبر إلى «إيفان بارنز»، رئيس تحرير القسم الأجنبي في الصحيفة، من بيروت، يقول: «علينا أن نفترض أن جوازي الثاني الآن قد احترق بجانب الجثث المتفحّمة في السفارة». وقررت استعمال جوازي الأول للحصول على سمة من الدبلوماسيين في السفارة الإيرانية في بيروت» آملاً أن لا يحدث انفجار آخر في السفارة، وأبقى دون وطن، وأن لا أضطر إلى محاولة دخول إيران دون سمة، إذا لم أحصل عليها.

بالموت غيابياً في إيران. ولكن مجرّد وصوله إلى المؤتمر ودخوله إلى مكاتب وزارة الإعلام العراقية الوثيرة، أوضح أن حكومة بغداد تناصر قضيّته تماماً، وقد تكون وراء اقتحام السفارة في لندن. وقد قام موظف ذو مقال عال في الوزارة بترجمة تلك الخطبة المنمَّقة.

كان عرب «خوزستان» يسعون إلى الاستقلال عن نظام الخميني؛ وقد أُعدم أو سجن العديد من أبناء تلك المقاطعة المتمرّدين، بحسب قول ناصر. وقد جرى اقتحام السفارة من أجل إطلاق سراح المسجونين. ووافق ناصر على أن هناك «رابطة» بين المتمرّدين وحزب البعث وكان علينا أن نستفسر منه عن ذلك. «فحزب البعث العربي الاشتراكي يرفع شعار: «أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة». وهو شعار مجيد نتبعه». فماذا يعني ذلك؟ بعد التفكير، كان علينا أن نستوعب أهمّيته: كان صدّام يحضّر لتحرير قطعة أرض من إيران في المستقبل، على شاكلة «السوديت»، أو «دانزيغ».

ولكننا طبعاً، سألنا عن الحصار في لندن، بدلاً من مغازي دعم العراق للمتمرّدين. قال ناصر: «عندما ذهبنا إلى السفارة الإيرانية في لندن، لم نكن ننوي أن نقتل فنحن لسنا إرهابيين. اخترنا الحكومة البريطانية كمفاوض، لأنها بلد ديمقراطي، وأردنا أن نستفيد من هذه الديمقراطية. وقد عرف البريطانيون ـ وعرف العالم أجمع ـ أننا لم نقصد قتل أي كان. . . ولكن انتظرنا ستة أيام، ولم يستجيبوا لطلبنا، أو ينشروا مطالبنا. وقطعوا خطوط التلكس والتلفون. . . ما كان ينبغي لهم قتل شبابنا. كان بوسعهم أن يأسروهم، ويحاكموهم».

وحمَّل ناصر القاضي الإيراني «صادق خلخالي» مسؤولية تعذيب العرب في «خوزستان» بقوله: «إنه يستخدم معذّبين يكسرون السيقان، ويطلقون النار على الأذرع، قبل قتل الضحايا بالسكاكين» ـ وقد ادَّعى أن العرب في تلك المقاطعة قبلوا أولاً الثورة الإيرانية، لأنها «جاءت باسم الإسلام»، لكنهم اليوم يريدون الاستقلال، «مثل الأكراد، والبلوشيين، والأتراك». وعندما سألناه: «كيف جاء مقتحمو السفارة بالأسلحة إلى بريطانيا؟»، أجاب: «كيف جلب الفلسطينيون أسلحة إلى «ميونيخ»؟ وكيف يجلب الثوار الإيرلنديون أسلحة إلى بريطانيا؟ نحن قادرون على أن نفعل مثلهم». ولكن، لم يسأل أحد: «هل وصلت الأسلحة إلى لندن في الحقيبة الدبلوماسية العراقية؟ وناصر نفسه جاء من مرفأ «خرمشهر» الإيراني، مستعملاً تعبير «المحمّرة» للدلالة على ذلك المرفأ. وهكذا ستكون «المحمّرة» «دانزيغ».

ولكن بريطانيا لم تحتجّ لدى العراق بسبب الحصار ـ أو لأجل المؤتمر الصحافي غير الاعتيادي المنظّم بوضوح من قِبل الحكومة العراقية. لقد كان ذلك صمتاً فصيحاً. وبالطبع، كان هناك تساؤل حول علاقة بريطانيا المريحة مع العراق. فقد دارت مناقشة في «مجلس اللوردات» عام ١٩٨٩، بعد سنة من انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية التي دامت ثماني سنوات، وبعد توقيف مراسل «الأوبزرفر» في بغداد «فرزاد بازوفت»، وصديقته الممرضة «دفنه باريش» ـ عندما سأل اللورد «هايلتون»: «كيف تبرِّر الحكومة البريطانية عملها في توفير رصيد جديد للعراق

يبلغ ٢٥٠ مليون جنيه مع أن ذلك البلد يحتجز رعايا بريطانيين دون محاكمة، ويرفض إطلاق سراح أسرى الحرب مع إيران بعد وقف إطلاق النار، وله سجلّ في انتهاك حقوق الإنسان».

فأجابه اللورد «تريفغارني» عن الحكومة قائلاً: «لا شكّ في أن الحكومة العراقية تعرف اهتمامنا بالمواطنة البريطانية المحتجزة «مسز باريش»، وحول سجلّ العراق بخصوص حقوق الإنسان... لكننا أمّة متاجرة بصفة رئيسية. وأخشى أنه لا بد لنا من أن نتعامل تجارياً مع عدد من البلدان، لا نوافق على سياساتها... نحن لا نبيع سلاحاً للعراق». فردّ عليه «هايلتون» بقوله: «مع أني أقدّر أن بلدنا هو بلد متاجر... فإني أتساءل أليس الثمن الذي ندفعه غالياً؟». وتوقّفت المناقشة عند هذا الحدّ دون أي تعليق آخر.

أما «بازوفت» المولود في إيران، والذي لديه أوراق تعريف بريطانية دون الجنسية، فقد زار «الحلّة» في العراق بسيارة «باريش» مستطلعاً دلائل تثبت أن العراق ينتج أسلحة نووية. وقد أوقف وهو في المطار يحاول مغادرة بغداد، واتّهم بالتجسّس، وأحيل على المحاكمة مع «باريش» تحت خطر الموت. وبعد شهر صرّح وزير الخارجية «وليم والدغريف»، بأنه «يشكّ في وجود سوق مستقبلية على نطاق واسع، في أي مكان للمملكة المتحدة فيه مكانة متينة، إذا لعبنا اللعبة السياسية لعباً جيّداً؛ كما لا أستطيع أن أتصوّر وجود سوق هامة حيث يكون أثر الدبلوماسية كبيراً على وضعنا التجاري. إنما يجب أن لا نسمح بأن يفوز بها الفرنسيون، أو الألمان، أو اليابانيون، أو الكوريون إلخ...» وأضاف: «وإذا حصلت حالات قليلة أخرى مثل حالة «بازوفت» أو استجدّ قتال للقمع الداخلي، فإن ذلك يعسّر الأمر». وقد سطّر «والدغريف» كلماته بعد أشهر من استعمال صدّام الغاز في «حلبجة». وقرّر «جيوفري هوي»، نائب رئيس مجلس الوزراء، أن يقلل من تقييد بيع الأسلحة إلى العراق ـ ولكنه أبقى الأمر سرّاً، لأنه «سيبدو من السخرية بمكان، أن نتبنّى أسلوباً متسامحاً في بيع الأسلحة إلى العراق، بعدما استنكرنا معاملة الأكراد فيه».

وقد حُكم على «بازوفت» بالموت بتاريخ ١٠ آذار/ مارس ١٩٩٠، فهاجمت «الأوبزرفر» صدّام بسبب هذه الإدانة ـ وربّما لم يكن ذلك قراراً حكيماً في تلك الظروف ـ وتطوّع «دوغلاس هيرد» وزير الخارجية بالذهاب إلى بغداد لمقابلة الرئيس العراقي. ولكن بحسب قول وزارة الخارجية العراقية، «لا يتدخّل صدّام تحت الضغط السياسي». ولكن، بدأت إذ ذاك عملية رتيبة شرسة، أوضحها لي البحث الذي أجريته في بيروت. فمنذ عام ١٩٦٨، كانت العادة أن المدانين «بالجاسوسية» يعترفون بذلك الإثم على التلفزيون؛ ثم يُعدمون. وفي عام ١٩٦٩، اعترف محافظ بغداد بالتجسّس على شاشة التلفزيون، ثم أُعدم. وظهر «بازوفت» على التلفزيون واعترف بالتجسس ـ ولم يكتشف أصدقاؤه إلّا فيما بعد أنه عُذّب بالكهرباء خلال استجوابه. وفي شباط/فبراير ١٩٦٩، وقبل إعدام سبعة «جواسيس»، أعلن راديو بغداد أن الشعب العراقي «عبّر عن إدانته للجواسيس»؛ ثم أعدموا. وفي أيار/مايو ١٩٦٩، صفّق ممثلو اتحاد الفلاحين لقرار الرئيس البكر «قطع رؤوس أعضاء حلقة الجواسيس العاملين لصالح وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وأعدموا على الأثر، كما ينبغي. وخلال زيارة من زيارات صدّام التي لا تنتهي إلى مجموعات الأقلّيات في العراق، سأل صدّام جمهوراً غفيراً من الأكراد: هل يجب أن يُشنق

«الجاسوس البريطاني»؟ فهتفت جوقتهم، بالإيجاب طبعاً. إنها التقنية البعثية القديمة ذاتها: إجعلْ الشعب يتّخذ القرار ـ بعد أن يعلم ماذا يجب أن يكون القرار ـ ثم عليك أن تطيع إرادة الشعب.

وفي صباح ١٦ آذار/مارس ١٩٩٠، أعلم «رابين كيلي» أحد الدبلوماسيين البريطانيين في بغداد أن «بازوفت» سيشنق اليوم. فوصل إلى سجن «أبو غريب»، ووجد الرجل غير دارٍ بمصيره، وهو يحاول أن يقدّم استرحاماً لصدّام. وكانت وظيفة «كيلي» أن يخبره بالحقيقة؛ لكنه أبى أن يلبّي حضور دعوة الشنق. وبعد ثمانية أيام، كان أربعة عمال في مطار «هيثرو» يرفعون تابوته ويخرجونه من إحدى طائرات الخطوط الجوية العراقية القادمة إلى لندن. ولم يكن في استقبال ذلك التابوت أي موظف من وزارة الخارجية، أو قريب، أو صديق. فنقل التابوت إلى سقيفة شحن ريثما يدفن. وحكم على صديقته «دفنه (دي) باريش» بالسجن ١٥ عاماً. وكانت آخر كلمات «بازوفت» للدبلوماسي «كيلي»: «بلغ «دي» بأني آسف».

وخلال السنوات الأولى من حُكم صدّام، كان هناك صحافيون يقولون الحقيقة بشأن النظام، بينما فضّلت الحكومات أن تبقى صامتة إلى حدٍّ كبير، بسبب محافظتها على مصالحها المالية، والتجارية، والاقتصادية. ولكن بعضنا ممَّن عارضوا الغزو الأميركي ـ الإنكليزي للعراق عام ٢٠٠٣، اتّهموا حالاً بأنهم «ناطقون» باسم صدّام، أو على كل حال «مناصرون لبقاء النظام البعثي». مع العلم أن «ريتشارد پيرل» كان من بين كل الناس، من أول المحرِّضين على نشوب تلك الحرب الكوارثية، مع صديقه «دونالد رامسفيلد»، الذي كان يحاول مصادقة صدام وتأييده عام ١٩٨٣. وبعد سنتين من مقاربة «رامسفيلد» للزعيم العراقي ـ واجتماعاته المتكرّرة مع طارق عزيز خلال الأشهر اللاحقة ـ كنتُ أقدّم تقاريري إلى «التايمز» عن اغتصاب زُمر صدّام وتعذيبهم للموقوفين في السجون العراقية. وبتاريخ ٣١ تموز/يوليو عام ١٩٨٥، اشتكى «وهبي القراغولي» السفير العراقي في لندن إلى رئيس تحرير «التايمز»، «وليام ريس موغ»، قائلاً:

«إن مقال روبرت فيسك المتحيِّز جداً، يتجاهل التقدّم الهائل الذي أحرزه العراق في ميادين الإنعاش الاجتماعي، والتربية، والتنمية الزراعية، والعمران المديني، وتصويت النساء. وهو يدّعي، دون تقديم أي إثبات، بأن «صدّام ذاته يفرض نظاماً إرهابياً على شعبه». ومن أكثر أقواله إهانة «أن نقّاد النظام الذين يُشتبه بهم يسجنون في سجن «أبو غريب»، ويُجبرون على رؤية زوجاتهم يُغتصبن جماعياً من قِبل عصابات الأمن «الصدّامية». وقد أُجبر بعض السجناء على أن يشاهدوا تعذيب أطفالهم أمامهم». إننا نشجب تماماً أن يقوم بعض الصحافيين، دون براهين داعمة، بترداد مزاعم طائشة لا أساس لها بشأن بلدان مثل العراق...».

وكانت تلك التعابير: «متحيّز جدّاً»، «دون أي إثبات»، «مهينة»، «نشجب تماماً»، «مزاعم طائشة لا أساس لها»، هي ذاتها التي استعملها الأميركيون والبريطانيون، بعد حوالى عشرين سنة، بشأن تقارير كتبتها وكتبها زملائي الصحافيون الذين سجّلوا بعض وجوه الغزو غير القانوني للعراق، وعواقبه الكارثية. وفي شباط/فبراير عام ١٩٨٦، رُفِض طلبي للحصول على سمة للسفر إلى بغداد على أساس «أن زيارة أخرى للسيد «فيسك» إلى العراق تعطي

تقاريره مصداقية مفرطة». طبعاً كان الأمر كذلك(*). وهكذا بقينا في بلاد الغرب كل هذه السنوات ـ حتى غزوه للكويت عام ١٩٩٠ ـ متسامحين مع قسوة صدام، وظلمه وتعذيبه للناس، وجرائم الحرب والقتل الجماعي التي ارتكبها. وفي الواقع، إننا ساعدنا في تخليقه وتكوينه. فقد أعطت وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) الحكومة البعثية الأولى في العراق أماكن الأطر الشيوعية، من أجل توقيفهم، وتعذيبهم، وإعدامهم، بالمئات. وكلّما تقدّم صدّام نحو الحرب مع إيران زاد خوفه من شيعة العراق، وساعدناه نحن الغربيين. وفي موكب الشخصيات المكروهة، التي نصَّبتها الحكومات الغربية فضلاً عن الصحافيين على المسرح السياسي ـ كان هناك «ناصر»، و«القذافي»، و«أبو نضال»، وفي وقت ما «عرفات» ـ بينما كان آية الله الخميني «البعبع» أو الغول بالنسبة إلينا في أوائل الثمانينيّات. رجل الدين المزعج، الذي أراد أن يؤسلم العالم، والذي صرّح بعزمه على تصدير ثورته. وهنا برز صدّام لا كديكتاتور، بل «كرجل قويّ». لقد كان حُصننا ـ وحُصن العالم العربي ـ ضدّ «التطرّف» الإسلامي. وحتى بعد أن ضرب الإسرائيليون بالقنابل المفاعل النووي العراقي «أوزيراك» عام ١٩٨١، لم يضعف دعمنا لصدّام. كما لم نجابه قصد صدّام الواضح بجرّ بلاده إلى حرب مع إيران. فقد كانت دلائل هذا النزاع تنذر بوقوعه الوشيك أينما كان؛ حتى أن «شاهبور بختيار»، آخر رئيس وزراء لدى الشاه، كان يذكي نار المعارضة للخميني من العراق، كما علمت منه عندما زرته في منفاه الفخم ـ إنما الخطر ـ بباريس، خلال آب/أغسطس عام ١٩٨٠.

وكانت لدى «تشارلس دوغلاس هوم» رئيس تحرير القسم الأجنبي من «التايمز»، فكرة لملاحقة ما بقي من نظام الشاه؛ إذ قال لي على التلفون: «إني متأكّد من أن بختيار يحضّر شيئاً؛ علاوة على أنه يعرف الكثير ـ وأن ابنته مذهلة الجمال!». وكان محقّاً في الأمرين. مع أن بختيار ـ الناطق باللغة الفرنسية، والذي التحق بالجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية ـ يبدو مثيراً للإعجاب في صوره أكثر من واقعه. فصور الجرائد تظهره كرجل متين، له ملامح كاملة ومعبِّرة، وعيناه مضطرمتان تنذران بالرجوع إلى الديمقراطية الإيرانية. ولكن الحقيقة هي أنه رجل صغير الحجم، نحيله، خداه منقبضان، وثيابه أوسع منه بقليل، كشخصية صغيرة جالسة على أريكة كبيرة؛ يحرسه في الخارج سبعة من رجال الدرك بأسلحتهم الثقيلة.

وحتى في شقّته الباريسية، ومع ضجّة المرور في الشارع، وحفيف أوراق شجر الحور التي يداعبها النسيم بالقرب من النافذة في غرفة الجلوس، يمكنك أن تشعر بوجود فرق الاغتيال الإيرانية التي أرسلتها طهران لقتل بختيار. فعندما جاءوا إليه منذ أقل من أسبوعين بقيادة «أنيس النقاش» اللبناني الإسلامي البالغ من العمر ٢٩ سنة،

(*) إن مهنيّتي «المشجوبة تماماً» كان لها الفضل، على الأقلّ، في إثارة الطرفين على حدّ سواء. ففي صيف ١٩٨٠ أخبر «طوني آلوواي»، مساعد «التايمز» في طهران، محرّرنا للشؤون الدولية «ايفان بارنز» بأنه لم يستطع الحصول على إذن عمل لي في طهران لأن المسؤولين الإيرانيين «كانوا مستائين جداً بسبب وصولي إلى طهران من دون تأشيرة دخول صالحة، وأيضاً بسبب الاستمارة التي ملأتها. وقد صرّحوا له بأنهم لن يسمحوا لي بالدخول أبداً بعد اليوم». . . إن مشكلة تأشيرة دخولي سببها احتراق جواز سفري الثاني في السفارة الإيرانية في لندن.

خلّفوا وراءهم امرأة ميتة، ورجلاً مقتولاً من الشرطة الفرنسية، ومقبض باب مسحوقاً بالرصاص، كذكرى من الفولاذ اللامع المثلوم الذي يقبع بجانب الطاولة على مقربة من رجلي «بختيار».

ولكن ذلك لم يفتّ في عضُد بختيار وتعبيره عن كرهه للخميني ولنظامه الثيوقراطي الديني. وقد اعترف لي، إنما بعد ساعة من الحوار، بأنه زار العراق مرّتين، ليتباحث مع موظّفي حزب البعث ـ المؤسّسة التي يصعب أن يُقال عنها أنها تمارس الديمقراطية الليبرالية التي يدعو إليها بختيار ـ وقد أذاع تصريحاً من الراديو السرّي الذي يديره العراقيون على حدودهم مع إيران، والذي ينشر الدعايات ضد النظام. قال بختيار: «لماذا لا أذهب إلى العراق؟ لقد ذهبت إلى بريطانيا مرّتين، وذهبت إلى سويسرا وبلجيكا. ولذلك أستطيع أن أذهب إلى العراق للاتصال بأناس هناك. وقد دُعيت للتعاطي مع السلطات العراقية، ولديّ نقطة مشتركة مع الحكومة العراقية. إن العراق، مثل غيره من البلدان الإسلامية، يناهض الخميني بأكثرية ساحقة. ومن الممكن التعاون معه. إن هذه الإذاعة القائمة على الحدود مع إيران، تبثّ ما يحبّ الإيرانيون أن يسمعوه. وقد أذاعت تصريحي على شريط كاسيت. وهذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة عندما تتمركز الدكتاتورية في مكان ما».

كان بختيار، كسائر رجال الدولة الغربيين، يعاني من عقدة «تشرشل»، أي الرغبة في أن يبدو بأفضل مظهر في ظلّ التاريخ. قال: «عندما وصل الخميني إلى إيران، قلت: نجونا من دكتاتورية (الشاه) لنقع بين براثن دكتاتورية أدهى وأمرّ. فلم يصدّقني أحد. والآن لديهم كثير من الأمور التي يشتكون منها، ولكن ليس لديهم الشجاعة ليتفوّهوا بالشكوى. فإذن، لماذا يتكلّم الناس عن انقلاب؟ أعرف أن هناك رجالاً يؤيّدونني في الجيش... وأذكر أنه عندما كنت طالباً في باريس، كان هناك زعيم إنكليزي اسمه «ونستون تشرشل» يرى أخطار الدكتاتورية. لكن الناس الآخرين لم يقلقوا بشأن الدكتاتورية، وأرادوا أن يتعاطوا مع «هتلر». أما «تشرشل» فأخبرهم بأنهم على وشك الاندثار. وكذلك، عرفت أن السيّد الخميني لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجل إيران: إنه رجل لا يفهم الجغرافيا أو التاريخ، أو الاقتصاد. ولا يمكنه أن يكون زعيماً لكل أولئك الناس في القرن العشرين، لأنه جاهل بشأن العالم».

وكان الشاه قد توفّي في مستشفى بالقاهرة، قبل مقابلتي لبختيار بستة أيام، ولكن لم يظهر عليه تأثر لفقدان مليكه السابق. قال: «إن موت شخص لا يسعدني، فلست رجلاً يرقص في الشارع لأن أحدهم مات، وهو ما زال حيّاً ـ حتى أني لم أفعل ذلك عندما مات هتلر. ويعلم الله بأني لستُ فاشياً، كما تعلم أنت. وقد كان الشاه مريضاً شديد المرض ـ وأعتقد أن الموت نفسه كان انعتاقاً معنوياً ومادياً بالنسبة إليه». وما كان بختيار يريده هو «حكومة مؤقّتة تعمل بدستور ١٩٠٦، وتدعو إلى جمعية تأسيسيّة، بهدوء ودون انفعال، وتدرس مختلف دساتير إيران». ولكن بختيار كان قد فقد اتصاله بما يجري في إيران بكل حسرة، وأصبح لا يدري أن ثورة الخميني لا رجوع عنها، لأنها تصرفت من جهة، مع أعدائها بشكل لا يرحم ـ بمن فيهم بختيار ذاته. فالنقّاش وفرقته الضاربة

لم يتقنوا المحاولة الأولى لقتله(*). وحتى بعد أكثر من إحدى عشرة سنة، وبتاريخ آب/ أغسطس ١٩٩١، جاء مزيد من القتلة إلى منزل بختيار، وقطعوا رأسه هذه المرّة. وعندما اتُّهم أحد رجال الأعمال الإيرانيين بمساعدة القتلة، أخبر هذا الرجل المحكمة العليا أولاً إن بختيار «قتل ٥٠٠٠ شخص خلال مدّة ولايته كرئيس للوزراء التي لم تتجاوز ٣٣ يوماً في السلطة. وثانياً، كان يحضّر لانقلاب في إيران، وثالثاً، أنه تعاون مع صدّام حسين خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية. . .»(**).

وبينما كان صدّام يخطّط لتدمير الثورة الإيرانية، كان الخميني أيضاً يدعو إلى قلب نظام صدام والبعث، أو ما سمّاه «العفلقيين»، نسبة إلى «ميشال عفلق» السوري مؤسس حزب البعث. وقد جهر الخميني بدعوته إلى قلب نظام الحكم العراقي، بعدما علم بإعدام باقر الصدر وشقيقته. وكتب بتاريخ ٢ نيسان/أبريل عام ١٩٨٠:

«من الغرابة بمكان أن تعمد الأمم الإسلامية، وبخاصة الأمة العراقية النبيلة، وقبائل دجلة والفرات، وطلّاب الجامعات الشجعان، وغيرهم من الشباب، إلى التغافل عن هذه النكبة الكبرى التي نزلت بالإسلام وآل رسول الله (ص)، وإلى السماح لحزب البعث الملعون أن يمعن في إعدام الشخصيات العراقية البارزة وضمّها إلى قافلة الشهداء، واحداً بعد الآخر. وأكثر من ذلك غرابة، أن يكون الجيش العراقي وغيره من القوى أدوات بأيدي هؤلاء المجرمين، يساعدونهم في إبادة الإسلام. ليس لدي ثقة بالضبّاط الكبار في القوّات المسلّحة العراقية، ولكن لم يخب أملي في الضباط الآخرين، الضباط غير المكلّفين (Non-Commissioned) وجنودهم. إني أتوقّع منهم، إمّا أن ينهضوا بشجاعة ويقلبوا هذا الظلم، كما حدث في إيران، أو أن يهربوا من الحاميات والثكنات. . . وآمل من الله تعالى أن يدمِّر نظام الظلم لدى هؤلاء المجرمين».

(*) وبعد مرور سنوات عديدة، أخبرني «النقاش» أنه مع رجاله المسلّحين ـ لبناني آخر، وإيرانيين، وفلسطيني ـ «حاولوا مهاجمة شقة «بختيار» وخابوا، لأن الباب كان مسلّحاً. قال: «ولم يكن لدينا سوى مسدّسات صغيرة. وعندما تتفحّص الباب لا تدرك أنه مسلّح أو غير مسلّح. وحصل تراشق بالعيارات النارية مع رجال الدرك الفرنسيين الذين كانوا يحرسونه. فقتل شخصان، وجرحتُ بذراعي وفخذي. ولم يرَ أحد المرأة؛ إذ إن الرصاصة اخترقت الباب وأصابت المرأة برأسها لسوء الحظ. وعندما صرت في المستشفى قال القاضي بأن هناك امرأة أصيبت فسألت: أية امرأة؟ إني لم أفهم. قلت: ذلك شيء سيّىء جداً، وشعرت بوخز الضمير. إننا لم نستشرف ذلك مطلقاً. لقد كانت بريئة. وقد اقترحت فوراً تعويض عائلة الضحية بحسب الشريعة الإسلامية، وكذلك عائلة الشرطي الفرنسي المقتول». وبرّر «النقاش» سعيه مع رجاله لقتل «بختيار»، بقوله: «شعرت بخطر تكرار انقلاب، كالذي حدث ضد مصدّق. ولذلك قررنا مهاجمة «بختيار»؛ إذ إنه كان رئيس مؤامرة لإحداث انقلاب ضد الثورة، والرجوع إلى إيران. . . لم يكن لديّ أية مشاعر ضد «بختيار». إنها مسألة سياسية. ولم تكن القضية مسألة اغتيال. فقد صدرت إدانة بالموت عن المحكمة الثورية الإيرانية وتمّت محاولة تنفيذها». وبحسب قول «النقاش»، جاءت البيّنة الثبوتية على إعداد انقلاب من قبل «بختيار»، عن طريق أحد الضباط الإيرانيين الذي سلّم السلطات أسماء ضباط آخرين تورطوا مع «بختيار»، فأُوقفوا وأعدم منهم أكثر من مئة.

(**) بقيت السلطات الإيرانية تتّهم «بختيار» علانية بالتخطيط لانقلاب لعدة سنوات. وقد ورد في كرّاسة صدرت عن وزارة الارشاد الإسلامي في طهران عام ١٩٨١، أن بختيار: «يحضّر المسرح ليعود إلى إيران على شاكلة ما حدث عام ١٩٥٣. وفي هذا الوقت، كانت الإدارة الأميركية تفكر «بإيران أميركية» دون الشاه. . .».

كان الظلم كرداء يغطّي الشرق الأوسط في أوائل الثمانينيّات في العراق، وفي إيران، وفي أفغانستان. وإذا كان الغرب لا مبالياً بآلام ملايين المسلمين، فكذلك، ويا للعار، كان معظم القادة العرب. فعرفات لم يتجرّأ على إدانة الاتحاد السوفياتي بعد غزوه لأفغانستان ـ إذ إن موسكو كانت لا تزال أهمّ حليف لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ والملوك والأمراء ورؤساء الجمهوريات في العالم العربي، الذين كانوا أفضل إدراكاً لما يحدث من نظرائهم الغربيين، التزموا الصمت بشأن ما قام به صدّام من طرد، وتعذيب، وإعدام، وإبادة جماعية. وأكثرهم استعملوا تنويعات على التقنيات ذاتها، وطبّقوها على جماهيرهم. وفي سوريا، حيث كانت «الكراسي الألمانية» للتعذيب تستعمل لكسر ظهور المعارضين الناشطين، جاء حمّام الدم لتمرّد حماة بعد أقلّ من سنتين(*).

وفي إيران، انقضّت السلطات بوحشية على أتباع المذهب البهائي، الذين يبلغ تعدادهم حوالى مليوني نسمة، ويعتبرون أن موسى، وبوذا، والمسيح، ومحمّد، «معلمون سماويون»، ويقع مركز عبادتهم ـ أي قبر النبيل الفارسي الذي عاش في القرن التاسع عشر الميلادي ـ في جوار مدينة عكّا الواقعة حالياً في إسرائيل. وفي عام ١٩٨٣، قدّرت لجنة العفو الدولية أن ما لا يقل عن ١٧٠ بهائياً أعدموا بذريعة الهرطقة من أصل ٥٠٠٠ إيراني فُرض عليهم الموت منذ قيام الثورة. ومنهم عشر نساء، اثنتان منهنّ لم يبلغن العشرين من العمر، وكلّهن شنقن في «شيراز» في حزيران/يونيو ١٩٨٣. واثنتان منهنّ على الأقلّ هما «زارين موكيمي» و«شيرين دالفاند»، وكلتاهما في العشرينيّات من عمرهما، سُمح لهما بالصلاة متوجّهتين نحو «عكّا» قبل تقييدهما وسوقهما بواسطة الجلاد إلى المشنقة. وقد اتّهموا كلهم بأنهم «عملاء للصهيونية». كما أن سجن «إيفين» بدأ يمتلىء بالنساء من «مجاهدي خلق» مع المجاهدين الشعبيين المدعومين من العراق؛ بينما أوقف آخرون عندما كانوا يتفرّجون على احتجاجات سياسية. وقد ضُربوا «الفلق» على أقدامهم ليعترفوا بأنهم مناهضون للثورة. وفي ليلة واحدة، قُتلت ١٥٠ امرأة بإطلاق النار عليهنّ. وعلى الأقلّ، طُلب من أربعين منهنّ أن يكتبنَ أسماءهنّ على أيديهنّ اليمنى وعلى سيقانهنّ اليسرى بأقلام رأسها من لبّاد. وذلك لأن الحرّاس أرادوا أن يتعرّفوا عليهنّ بعد الإعدام، إذ إن طلقات الرصاص الأخيرة على الرأس تشوّه وجوههن، وتعسّر عملية التعرف عليهنّ. ولكن الضحايا لم يكونوا من البهائيين، فحسب.

وتمّت الإعدامات في كل المدن الرئيسية في إيران. ففي تموز/ يوليو ١٩٨٠ مثلاً، ذكر راديو الدولة الإيراني حصول ١٤ عملية إعدام في «شيراز»، جرت كلّها عند الساعة الحادية عشرة مساء، وفيها إعدام لواء متقاعد ـ لأنهم «هاجموا مسلمين» ـ ومنهم ضابط شرطة سابق، وعقيد من الجيش متهم بأنه كان يضرب السجناء، ويهودي إيراني أدين لإدارته مركزاً للفسوق، وسبعة آخرون بدعوى مخدّرات. وأحدهم «حبيب فايلي» أُعدم «لعلاقاته اللواطية». وقبل يومين، أُطلقت النار على «مهدي قاهري» و«حيدر علي كيّور» بسبب اللواط في «نجف أباد». وبالطبع، ترأس «صادق خلخالي» معظم هذه «المحاكمات».

(*) أنظر ذلك في الجزء الثالث من الكتاب.

وسجّلت منظمة العفو الدولية بيّنة ثبوتية بشأن طالبة سُجنت في سجن «إيفين» بين أيلول/سبتمبر ١٩٨١ وآذار/مارس ١٩٨٢، ووضعت في زنزانة تحوي ١٢٠ امرأة، يراوح وضعهنّ من بنات مدارس إلى عجائز. وقد وصفت المرأة كيف:

«حدث في إحدى الليالي أن جيء بفتاة شابّة اسمها «طاهرة» من غرفة المحكمة إلى السجن، بعدما حُكم عليها بالإعدام، وكانت مرتبكة ومضطربة. ولم يظهر عليها أنها عارفة لماذا كانت هناك، ثم استقرّت لتنام قربي؛ ولكنها كانت تستيقظ من وقت إلى آخر مجفلة، مرعوبة، وتتمسّك بي سائلة عمّا إذا كان صحيحاً أنها ستُعدم. طوّقتها بذراعيّ، وحاولت تهدئتها، وطمأنتها إلى أن ذلك لن يحدث. ولكن، جاؤوا إليها عند الساعة الرابعة صباحاً؛ وأخذوها لكي تُعدم. وكانت في السادسة عشرة من عمرها».

وقد أصدرت وزارة الإرشاد الإسلامي كرّاسة مخيفة من تسع صفحات ـ دون ذكر اسم الوزارة أو الكاتب عليها ـ تعترف بأن «البعض يعتقدون بأن المجرمين وحدهم هم الذين يستحقّون الموت. وليس غيرهم ممَّن هم مذنبون بسبب مئات من الجرائم الأخرى... أليست الأعمال الشرّيرة التي حُكم على أصحابها بقصاص الموت مساوية لنشر... الفساد... لقد أيّد الناس بطريقة غير مباشرة أعمال المحاكم الثورية، لأنهم يدركون أن تلك المحاكم تصرّفت وفقاً لأمانيهم». وادّعت النشرة ذاتها أن محاكمات الموظفين الكبار في حكومة الشاه ستعقد بسرعة، لئلّا تحاول «العناصر المناوئة للثورة» إنقاذهم من السجن.

اغتاظ الخميني غيظاً شديداً من اليساريين والشيوعيين الذين تجرّأوا على معارضة حكمه الثيوقراطي الديني، ومن أميركا، الشيطان الأكبر، وحليفها العراق. وتساءل: «لماذا يعارض الناس عقوبة الإعدام... ومحاكمة عدّة أشخاص... وإعدام عدد من أولئك الذين تمرّدوا ضدّ الإسلام والجمهورية الإسلامية، والحكم عليهم بالموت، ممّا يجعلكم تستعرضون الإنسانية!؟ إن «القوى الاستعمارية، أخافت المسلمين بتقدّمها وقوّتها الشيطانية» ـ وهو التعبير الغيبي للخميني عمّا يسمّيه وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد «الصدمة والرهبة» ناعتاً به العراق، بعد مرور عشرين سنة ـ والآن نجد «الشيوعيين مستعدّين للتضحية بحياتهم حبّاً بما يمثّله الحزب من قِيَم»، بينما «يهلك شعب أفغانستان تحت قسوة النظام السوفياتي».

وهنا كان الخميني بمأمن. فقد جاء طوفان من الإثباتات على أن الجنود السوفيات يرتكبون فظاعات في أفغانستان؛ بحسب تقارير الجماعات المنفية من أفغانستان، والمنظمات الإنسانية. وقد نقلت مؤسّسة «مراقبة الحقوق الإنسانية» في عام ١٩٨٤ أنه أصبح من الواضح، أن الموظفين السوفيات باتوا يزيدون من مشاركتهم الحكومة الأفغانية في ظلم رعيتها. فالضبّاط السوفيات ليسوا «مستشارين» لوكلاء «الخاد» الأفغان الذين يطبّقون التعذيب ـ برتابة ووحشية في مراكز الاعتقال والسجون، وبحسب تقارير تلقيناها، هناك أيضاً سوفيات يشاركون

مباشرة في الاستنطاق والتعذيب». وقد أبدت الوثيقة ذاتها إثباتات مروّعة عن التعذيب. فقد عُلّق أحد الأفراد وعمره ٢١ سنة بحزامه حتى أوشك على الاختناق، وضُرب حتى تورّم وجهه إلى ضعفه، وسُحقت يداه تحت كرسي... لأنه كان يوزّع منشورات ضدّ الحكومة... وكانت هناك أُمّهات يُجبرن على رؤية أطفالهنّ يُعطَوْن صدمات كهربائية... أما الرجال الأفغان، فكانوا يُستبقَوْن في غرف التعذيب حيث يجري التحرّش الجنسي بالنساء. وقد وصفت امرأة جرى تعذيبها في السجن، كيف أُجبرت هي وغيرها من النساء على الوقوف في المياه التي وضعت فيها موادّ كيميائية تقشر جلد القدمين». وبعد أن قبض الأفغان على نقيب من الجيش السوفياتي وثلاثة جنود آخرين في بلدة «طاشكورغان» في نيسان/أبريل عام ١٩٨٢، قتلوهم وقطعوا أجسادهم ورموها في النهر. فما كان من أخي هذا الضابط إلّا أن ساق وحدته ـ من اللواء السوفياتي ذي الرقم ١٢٢ ـ إلى البلدة، وارتكب مجزرة قضى فيها على جميع السكّان البالغ عددهم ٢٠٠٠ شخص.

وفي نشرة بالمنفى للحزب الإسلامي في باكستان، وردت قائمة بأسماء ٢٦ شيخاً (مولوياً) من رجال الدين وغيرهم، قُتلوا مع كامل عائلاتهم غالباً في أفغانستان، من كابول، وقندهار، وهرات، وكونار، وغازني. وكان السوفيات يدّعون دائماً أن غاراتهم على القرى تطارد المتمرّدين، أو «الإرهابيين»، أو بقايا «الدوشمان» (Dushman) ـ ومن السخرية أنهم يستعملون الكلمة الأفغانية ـ الفارسية التي تعني «العدوّ» ـ ولكن لا مردّ لأن يكون معظم الضحايا من المدنيين. وقد تكرّر هذا النمط على يد القوّات الأميركية في العراق، بعد رُبع قرن تقريباً. وقد نُشرت صور في مجلّات المنفى تُظهر ضحايا غارات النابالم السوفياتية، ووجوههم محروقة بموادّ كيميائية. وقد انطلق أحد الضبّاط السوفيات اللواء «بافل غراتشيف» في مهنته وسط فظائع أفغانستان، وصار فيما بعد وزيراً للدفاع. وهو الذي استحقّ لقب «جزّار غروزني»، بعدما نسي دروس الحرب الأفغانية، وخيبة السوفيات على يد المجاهدين ورجال أسامة بن لادن، المحاربين العرب؛ وأطلق حرب الشيشان، بالنيابة عن «بوريس يلتسين»، وتبجّح بأنه يستطيع أن يصفّي الشيشان خلال ساعات؛ بينما حذّر المرشدون الأكثر حكمة من نشوب «حرب مقدّسة».

والآن، عبر معظم مشاهد الرعب القائم في البلدان الإسلامية في جنوبي غربي آسيا، كانت هناك ملحمة لإراقة الدماء تكاد تبدأ؛ إذ يقوم نظام عربي علماني قومي، ديكتاتوري، يكره الأجانب، بالاستعداد للتغلّب على القوّات الثورية المسلمة المجاورة التي عقدت عزمها بدورها على تدميره. وكما كشفت الوثائق التي وجِدت في السفارة الأميركية في طهران في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٧٩؛ فقد كانت الحكومة الإيرانية تخاف من تشجيع العراقيين على إثارة تمرّد آخر في صفوف الأكراد. وقد أخبر إبراهيم يزدي وزير الخارجية الإيراني الدبلوماسيين الأميركيين أنه «قد أُعطيت لصدّام حسين تأكيدات كافية بشأن الأكثرية الشيعية في العراق»، لتهدئة مخاوفه من الحركات الشيعية؛ ولكن «إذا استمر التدخّل العراقي، فعلى إيران أن تدرس إمكان تحريك حوزة الشيعة في العراق». وفي تشرين الثاني/نوفمبر، روى الأميركيون أن النظام العراقي مقتنع بأن إيران ستتابع مطالبتها بالجزيرة

العربية ذات الأكثرية الشيعية، المسمّاة البحرين، التي فكّر صدّام حسين في التفاوض بشأنها مع طهران بعد مقابلته «يزدي» في اجتماع قمّة في «هافانا»؛ لكن العراقيين يعتقدون الآن أن النفوذ الحقيقي يكمن في «النظام الديني الإيراني المعادي للعراق».

ولكنّ ما كانت عليه القوة العسكرية لهذين النظامين عام ١٩٨٠، استحوذ على تفكير الجهتين في الصراع القادم بينهما. ففي عام ١٩٧٨، فاخر الشاه «بعلاقاته الجيّدة» مع نظام صدّام في العراق، وادّعى أن لدى العراق «عدداً أكبر من الطائرات والدبّابات بالنسبة إلى إيران»؛ مع أن إيران استحصلت على طائرات F-14 80) (Tomcat من الولايات المتحدة الأميركية ـ لمواجهة أيّ هجوم من قِبل الاتحاد السوفياتي ـ مما يمكّنها من مجابهة قوة التعرف الفائقة لطائرات ميغ المقاتلة. مع العلم أن جميع ربابنة طائرات F-14 تلقّوا تدريبهم في الولايات المتحدة الأميركية. وقبل سقوط الشاه، وبحسب وثائق السفارة الأميركية في طهران، اعتقدت أميركا أن:

> «تفوّق إيران عسكرياً، يرجع أساساً إلى قوة طيرانها، الذي له أداء أفضل، وربابنة أمهر... ومعدّات حربية أرقى، مثل القنابل الموجّهة باللايزر، والصواريخ الموجّهة بالتلفزيون؛ مما هو غير مُتاح للعراق. كما أن البحرية الإيرانية أرقى بكثير مما لدى العراق؛ وباستطاعتها إقفال الخليج بسهولة ومنع حركة السفن العراقية. أما القوّات البرّية لدى البلدين، فتكاد تكون متوازنة؛ لأنّ لدى كلّ من الجهتين أفضليات مختلفة في المعدّات، تؤهّلها للإغارة على أرض الأخرى. وإن استعداد القوّات الأرضية العراقية وسرعة تحركها، يمكن أن يعطيها أفضلية عددية كبرى على طول الحدود، في المراحل الأولى من الهجوم».

وقد كان ذلك تنبؤاً دقيقاً جداً، لما سيحصل في أيلول/سبتمبر عام ١٩٨٠ ـ وربما كان صدّام حسين وكبار ضبّاطه يعرفون ذلك، كما هو مفترض. وربّما كان يواسيهم أن يعلموا أيضاً، بحسب التقديرات ذاتها، أن اعتماد إيران على المعدّات الأميركية يعني أنه «إذا سحب الأميركيون دعمهم، قد لا تستطيع القوات الإيرانية الصمود أمام عمليات حربية شاملة لأكثر من أسبوعين». ولكن ذلك كان تنبّؤاً غير دقيق إلى حدٍّ كبير؛ مما حدا بصدّام أن يقامر بأكثر أعماله الدموية حتى الآن.

ولا شكّ في أن الثورة الإيرانية أضعفت جزءاً من الجيش الإيراني. فقد تقاعد كل لواء ـ وترك الخدمة ٣٠٠ من كبار الضبّاط خلال ثلاثة أسابيع ـ وأُنقصت مدّة التجنيد العسكري الإيراني من سنتين إلى سنة. وبينما كانوا يستعدّون لغزو أميركي ممكن خلال حصار الرهائن في السفارة، حاول الإيرانيون معاودة بناء جيشهم إلى ما كان عليه قبل الثورة، بحيث يناهز ٠٠٠ ٢٨٠ جندي. ولكن نشوب معارك ضارية في كردستان أدّى إلى أن كل وحدة من وحدات الجيش الإيراني انضمّت إلى القتال في خريف عام ١٩٨٠. وكان حرّاس الثورة، الذين يمدّون الجيش بالزخم العسكري الديني، أثناء أي دفاع عن إيران، كانوا ـ كما وصفتهم في تقرير أرسلته إلى «التايمز» من طهران بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩ ـ «مندفعين، متحمّسين، وقليلي الخبرة»، بينما تفصلّت القوة

الضاربة للجيش إلى حدٍّ كبير. فهناك الآن ١٦٠٠ دبّابة، منها ٨٠٠ من طراز «تشيفتين» البريطاني، و٦٠٠ من طراز (M-60) الأميركي ـ وقد اشتراها كلّها الشاه ـ وقد تكون هذه المعلومات كبيرة التأثير على السامع أو القارىء، ولكن دبّابات «تشيفتين» لها نظام إطلاق نار معقّد، وقد تكون قوّتها انخفضت إلى النصف، بسبب سوء الصيانة. لكنّ دبابات (M-60) أسهل من حيث صيانتها. وكان الجيش الجديد بقيادة اللواء حسين شاكر الذي تدرّب في «قلعة ليفنورث» الأميركية.

وكان للحكومة الإسلامية في طهران ثقة أكبر في سلاحها الجوّي أساساً، لأن طلّاب المدارس الحربية مثّلوا دوراً قيادياً في محاربة الجيش، أثناء الثورة. ففي الأيام التي أعقبت سقوط الشاه، كان أعضاء السلاح الجوّي الوحيدين بين سائر الأجهزة الذين سُمح لهم بأن يظهروا بلباسهم الرسمي خارج قواعدهم، ولكنّ طائرات (F-14) كانت بحاجة إلى صيانة أميركية. ومع أن الربابنة كانوا يستطيعون أن يحلّقوا بقاذفات القنابل من طراز فانتوم (F-4)، فقد كانت أكثر أجهزة الرادار الأميركية والبريطانية معطوبة، وكان التقنيون الأميركيون الذين كانوا يصونونها قد سافروا من إيران(*).

وفي أوائل عام ١٩٨٠، حصلت حوادث عنيفة على طول الحدود الإيرانية ـ العراقية لعدّة شهور. وكان معتمدنا في طهران هو «طوني آلوواي»، الذي زاد انعزاله، إنما بقي يوافينا بالأخبار المنظمة ـ وبات يوافينا الآن بأخبار التراشق المدفعي شبه اليومي بين العراقيين والإيرانيين. وقد كتب تقريراً في «التايمز» بتاريخ ١٠ نيسان/أبريل، عن تبادل إطلاق النار بالمدفعية وبالدبابات عبر الحدود قرب «قصر شيرين». ونُقل عن صادق قطب زاده، وزير الخارجية، تصريح مفاده أن حكومته «مصمّمة على قلب حكومة البعث التي يرأسها عميل الولايات المتحدة الأميركية، صدّام حسين». وبتاريخ ٩ نيسان/أبريل وحده، أُبعد عن العراق عبر الحدود مع إيران ٩٧٠٠ عراقي من أصل إيراني، مع وجود ١٦٠٠٠ آخرين قيد الطرد. ومن بين الواصلين الجدد من هؤلاء، ٤٠٠ من رجال الأعمال الذين دعوا دعوة كاذبة إلى وزارة التجارة في بغداد، حيث نُزعت عنهم ملكيّاتهم، ووضِعوا في الشاحنات، وأُرسلوا إلى الحدود.

وفي نيسان/أبريل اختبرنا طبيعة الأحداث القادمة، عندما اشتبك في شوارع بيروت أنصار إيران المسلّحين مع نظرائهم من أنصار العراق المسلّحين. وقد استطعت أن أعدّ في مستشفى الجامعة الأميركية ٥٥ من الموتى، وبعضهم مدنيون، بينما جاء مسلّحون يربطون جباهم وأذرعهم بعصبات ملطّخة بالدم، في شاحنات مزوّدة بمدافع مضادّة للطائرات. وتصاعدت سحب الدخان المنتفخة المتموّجة من المخيّم الفلسطيني في برج البراجنة، حيث وجِدت ست جثث متفحمة داخل أحد مراكز حزب البعث.

(*) في ١٩٨٧، السنة التي سبقت انتهاء الحرب بين إيران والعراق، اعتقدت الحكومة الأميركية أن ليس لدى إيران سوى خمس طائرات من طراز (F-14) قادرة على الطيران، مع ١٥ طائرة من طراز «فانتوم».

وكان الإيرانيون يشتكون غالباً من أن الطيران العراقي دخل أجواءهم. ففي أوائل تموز/يوليو، مرّت الطائرات النفّاثة العراقية فوق مقاطعة «كرمنشاه»، على مدى يومين متتابعين، على علو منخفض بحيث تطالها قذائف المدافع المضادة للطائرات. ومن المفترض أن الطيّارين كانوا يحاولون معرفة مواقع الدفاع أرض ـ جو. وبتاريخ ٣ تموز/يوليو أوردت صحيفة «كيهان» في طهران أن النظام العراقي شكّل «جيشاً من المرتزقة، يقوده ضابط عراقي، قرب «قصر شيرين». وفي شهر آب/أغسطس، تمّ تبادل إطلاق النار من المدافع عبر الحدود في الاتجاهين. وقد نفى العراقيون ما يشتكي منه الإيرانيون من أن قراهم تتعرّض لهجمات مستمرّة. لكن وزارة الخارجية العراقية سجّلت عشرين حادثاً لإطلاق النار ـ على القرى والسفن العراقية في شط العرب وحول البصرة ـ بين ١٨ و٢٢ أيلول/سبتمبر. وحتى فيما بعد، ادّعى صدّام أن حرب إيران ـ العراق بدأت في ٤ أيلول/سبتمبر، عندما اشتكى العراقيون من إطلاق نار المدفعية على مواقعهم الحدودية، ومصافي النفط المجاورة، ٩٨ مرّة. وشجب العراق خرق إيران للاتفاق المعقود مع الشاه عام ١٩٧٥، الذي عيَّن للبلدين حدوداً مشتركة عند شط العرب، معلناً أن الاتفاقية باتت ملغاة.

ومع أنه اتضح عدم إمكان تفادي النزاع، لم يجتمع مجلس الأمن ليناقش الاعتداءات، حتى الوقت الذي غزا فيه العراقيون الأراضي الإيرانية. وقد بذل العراق جهوداً مضنية لتفادي تصويت سبعة أعضاء من جماعة عدم الانحياز. ولو لم تُنبذ إيران بسبب اقتحامها السفارة الأميركية، لكانت حصلت على نتيجة تصويت لصالحها. وفي النهاية جاء قرار مجلس الأمن رقم ٤٧٩ الذي لم يطلب حتى انسحاب القوات العراقية، بل طلب وقف إطلاق النار ـ مما لا يُرضي أيّ طرف. وصارت إيران مقتنعة بأنّ العالم كلّه يقف ضدّ ثورتها، ويدعم الاعتداء الذي شنّه صدّام.

وسيذكر فتحي داوود موفّق، مصوّر الأخبار العسكري العراقي، البالغ من العمر ٢٨ سنة، تلك الأيام حتى نهاية عمره. فبعد حوالى ربع قرن، ذكّرني في بغداد، كيف أنه انطلق في صباح يوم من أيام أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ من وزارة الدفاع العراقية إلى موقع قرب «قصر شيرين». قال: «عندما وصلنا وجدنا مواقع التفتيش العراقية مدمّرة تحت وطأة الهجوم. وكانت قوّاتنا هناك أقلّ من لواء. زرنا «قصر شيرين» و«سربول ذهاب». لقد دُمّرت كل نقاط التفتيش عندنا بقذائف المدفعية الإيرانية. صوَّرنا ذلك، ووجدنا جثثاً عديدة لشهدائنا، وأكثرهم من شرطة الحدود. لم أرَ قبلاً ذلك العدد الكبير من الأموات، ثم جلبنا معنا أفلامنا التي صوّرناها إلى بغداد». وكانت جريدة السينما التي يصوّرها «موفّق» تُعرض على التلفزيون العراقي تحت عنوان: «صور من المعركة». وكانت توفّر نوعاً من التحضير النفسي للشعب العراقي، وربّما لصدّام ذاته. فبتاريخ ٢٢ أيلول/سبتمبر وهو أول يوم ممّا اعتبره الإيرانيون «الحرب المفروضة» عليهم، انطلقت فِرق صدّام بآلاف الدبّابات، والمدرّعات، والمدفعية، واجتازت الحدود إلى إيران، على جبهة طولها ٦٥٠ كيلومتراً.

الفصل السادس

الحرب الخاطفة

الغاز! الغاز! أسرعوا أيها الشباب. بهجة تلمُّس الأشياء، وتركيز الخوذة غير الملائمة في الوقت المناسب؛
ولكن، لا يزال هناك مَنْ يصرخ ويتعثَّر ويتخبَّط كانسانٍ واقع في النار أو في الدبق...
... لو تستطيع أن تسمع، عند كل نخعة، صوت الدم قادماً متغرغراً من زبد الرئتين، فاحشاً كالسرطان،
مرّاً كالاجترار، متحدّراً من القروح الفاسدة التي لا شفاء منها، على الألسن البريئة...

«ويلفرد أوين» من: «دلسي وديكوروم أست»

سمّاها صدّام «الحرب الخاطفة». ولذلك أراد العراقيون أن نكون هناك. لقد اعتبروا أنفسهم منتصرين قبل حصول النصر، وكانوا يحتفلون بذلك قبل إنجاز النجاح. ولم يستطع سعد البزّاز، من السفارة العراقية في لندن، أن يصبر على التأخّر في منحي التأشيرة، بعد أن جئت من بيروت ـ فالصحافة في الشرق الأوسط تستلزم رحلات انكفائية يقطع فيها الصحافي آلاف الكيلومترات لتسهيل رحلة لا تستغرق سوى مئات الكيلومترات من نقطة الانطلاق ـ وهكذا وجدتني محشوراً في مكتب السمات، مع «غافين هيويت» من هيئة الإذاعة البريطانية، وطاقمه، وغيرهم من مراسلي الإذاعات والصحف، أكثر من أيّ وقت مضى، في غرفة تعبق بالدخان. كنا سنسافر إلى الكويت. ومن هناك، يأخذوننا عبر الحدود العراقية إلى جبهة الحرب في البصرة. وهكذا كان. ففي أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ ، دخلنا البصرة ليلاً في طابور من سيّارات السفارة العراقية في مدينة الكويت، بينما تجوب السماء ذيول القذائف الخطّاطة. وكانت الطائرات النفّاثة تئزّ فوق رؤوسنا، والأنوار مطفأة كلّها عبر المدينة، للحماية من الغارات الجوّية.

صاح العراقيون: «أخرجوا من السيّارات»؛ فقفزنا من سيّارات «الليموزين»، وربضنا على الأرض المرصوفة، رافعين آلات التسجيل في الظلام الدامس الحار، بينما كانت ترتجّ دارات البصرة الهشّة على دويّ المدفعية المضادة للطائرات، وتتراءى لنا تحت نور القمر الباهت. وكانت أنوار القذائف الخطّاطة تندفع كالبرق في السماء، وتشكّل حُجُباً تختفي خطوطها الذهبية عبر الدخان المتهادي نحو البصرة. وكانت صفّارات الإنذار تزعق بجنون، وكنّا نسمع وراء تلك الجلبة أزيز الطائرات الإيرانية النفّاثة. وكانت هناك نار كبرى تشتعل يصعب السيطرة عليها بعيداً نحو الشرق، ووراء شط العرب الذي لا نراه. وكان «غافين» الذي شاركته معظم مغامراتي في أفغانستان، واقفاً في عرض الطريق متعجباً يقول: «يا لها من رواية». وهكذا كانت؛ إذ لم يسبق أبداً لجيش عربي أن رحّب


تركمنستان
أفغانستان
باكستان
بحر قزوين
تركيا
سوريا
البحر المتوسط
الأردن
العراق
إيران
الكويت
المملكة العربية السعودية
البحر الأحمر
الخليج العربي
خليج عُمان
البحرين
ش
٥٠٠ كم
تبريز
تمرشين
مهاباد
بيرانشهر
السليمانية
حلبجة
قصر شيرين
كرمنشاه
تكريت
بعقوبة
بغداد
الرمادي
الفلوجة
كربلاء
النجف
مهران
كارون
دزفول
شوشتر
سوسنقرد
أهواز
خرمشهر
عبادان
العمارة
القرنة
البصرة
معركة
بحيرة السمك
أم قصر
ج. الفاو
غ. خرج
طهران
اصفهان
شيراز
كرمان
بندر عباس
هرمز
مضيق
الفجيرة
أبو ظبي
الدوحة
راس تنورة
الرياض
بيروت
دمشق
القنيطرة
عمان
القدس
دجلة
الفرات

بالصحافيين واستقدمهم إلى معارك الجبهة، وأعطاهم كل تلك الحرية، وشجّعهم على الركض وحماية أنفسهم، وعلى التقدم مع جنودهم. ففي مدخل فندق «حمدان» العابق بالبخار ـ حيث توقفت مكيّفات الهواء بسبب التعتيم في البصرة ـ كان الموظفون يستمعون إلى أجهزة الراديو العاملة على البطاريات، التي تتردّد منها أغنية مشوّشة متكرّرة بأصوات الأبواق والطبول تقول: «**الحرب الخاطفة. نحن سنربح الحرب الخاطفة**».

وقفنا على الدرج، نراقب بخّ الرصاص الوردي والذهبي الصاعد نحو السحب الداكنة التي تسوقها الرياح عبر البصرة. فهناك في مكان ما إلى الشرق، عبر بساتين النخيل على الشاطىء الشرقي لشط العرب، وعلى طول الجهة الشمالية، كان جيش صدّام يتحرّك نحو الشرق عبر الليل داخل إيران، في صحارى الأهواز الكبرى، وفي الجبال الكردية باتجاه «مهاباد». كان الصحافيون العرب الذين رافقونا في حالة نشوة. سيربح العراقيون، ويحمون العالم العربي من تهديد الثورة الإيرانية. كان صدّام رجلاً قوياً، رجلاً عظيماً. وكانوا واثقين من نصره ـ وربّما أوثق من ثقة صدام نفسه.

ولا بدّ أن تكون الأوامر بإعطاء الصحافيين الحرّية في ميدان المعارك، قد جاءت من صدّام نفسه. فقد كان باستطاعتنا أن نستأجر سيارة دون المراقبة العادية، ونذهب بها إلى الجبهة، إذا أردنا. وكانت وزارة الإعلام توفّر لنا موظفين يرافقوننا عبر نقاط التفتيش، إذا رغبنا في ذلك. وماذا بشأن شبه جزيرة «الفاو» تلك القطعة القصيرة من الأرض غير الحصينة الواقعة جنوبي البصرة، التي يمكن أن تنظر منها إلى الشرق عبر شط العرب، فترى صفوف أشجار النخيل على الشاطىء الإيراني؟ لا مشكلة بشأنها. ولكن عندما وصلنا إليها كانت تحت القصف الإيراني المستمرّ، وكانت محطتا النفط الطرفيّتان الواقعتان تحت سطح البحر وعلى بعد ثلاثين كيلومتراً من الشاطىء «الأمايا» و«البكر» ـ وهذه الأخيرة إحدى أحدث محطات النفط في العالم، ولم يمض على افتتاحها أربع سنوات ـ قد تضرّرتا إلى حدٍّ بالغ بالصواريخ الإيرانية أرض ـ أرض. ولكن العراقيين استطاعوا إسكات المدافع الإيرانية.

وبتاريخ ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠، وبعد أسبوع من الغزو العراقي بالضبط، كانت قذائف الإيرانيين تسقط حول الفاو بمعدل واحدة كل ٢٥ ثانية، وكان من المجازفة المرور بسيارة حتى على جانب النهر. وكانت النوافذ والأبواب في المدينة تهتزّ عند كل انفجار، فالقذائف تهسهس فوق السوق الشرقية، وتنفجر وراء مستودعات التخزين النفطية. وللأخذ بالثأر، هاجم العراقيون المحطة الطرفية الكبرى للنفط في «عبدان». وقد جلستُ قرب النهر لأكثر من ساعة، أراقب شُهب النار تتصاعد في الهواء فوق «عبدان»، بشكل موجة من اللّهب تندفع بسرعة مخيفة على طول شاطىء النهر تحت غطاء من الدخان الأسود. وكان هناك موظف عراقي رابض إلى جانبي، يشير إلى المواقع الإيرانية على الشاطى الآخر. وكان العراقيون يدَّعون في إذاعتهم أنهم طوّقوا «عبدان». وفي البصرة، ألقت طائرتا «فانتوم» إيرانيتان قنابل على سفينة راسية في النهر فأشعلت فيها النيران، واستمرّت ترشّ الرصاص على طول الواجهة المائية؛ مما يثبت أن سلاح الطيران الإيراني ما زال قادراً على الإغارة نهاراً.

وادَّعى العراقيون أنهم أسقطوا أربع طائرات «فانتوم» في خمسة أيام، وخزّاناً للوقود غير متضرّر من إحدى

الطائرات ـ وبالفعل، كان يمكن قراءة التعليمات الأميركية لإعادة التعبئة على إحدى العُلبيات في أحد مراكز حزب البعث المحلّية. وقد أوقع الإيرانيون الضرر بالمنازل والمدارس في «الفاو» ـ ولم يكن باستطاعة ربابنة طائراتهم طبعاً أن يميّزوا بين الأهداف «الحربية» و«المدنية» وهم يهاجمون بسرعة عالية وعلى علوّ منخفض.

صارت «الفاو» مهجورة. فقد رأيت العديد من سكّانها يتّجهون إلى الشمال الغربي نحو البصرة في قافلة من سيّارات الأجرة القديمة من طراز «شيفروليه»، محمّلين الأفرشة على سطوح سيّاراتهم، بينما تجلس الأمّهات والزوجات اللابسات «الشادور» على المقاعد الخلفية، ولا يأبهون جميعاً للحرائق التي تشتعل في «عبدان». وما هذا سوى غيض من فيض تدفّق اللاجئين بالملايين في تاريخ الشرق الأوسط. لقد كان هؤلاء من المسلمين الشيعة العراقيين الذين يقاسون الآن من قصف أبناء طائفتهم الإيرانيين، كهديّة يقدّمها لهم صدّام.

وإذ ذاك، كنتُ قد بدأت أدرك أن النصر في هذه الحرب قد لا يكون يسيراً؛ كما تريد السلطات العراقية أن نعتقد. وفي واشنطن ولندن، كان «الخبراء» العسكريون، والجنرالات السابقون المتحجّرون يتشدّقون بنوعيّة الجيش العراقي العالية، وخرائب إيران بعد الثورة، والقوّات العراقية المجهّزة بشكل واسع بالأسلحة السوفياتية. ولكن بتاريخ ٣٠ أيلول/سبتمبر، بعد ثمانية أيام من الغزو، لم يستطع العراقيون أن يتقدموا إلّا إلى مسافة تبعد ١٥ كيلومتراً عن «خرمشهر» ـ المرفأ العباسي القديم، الذي كان أكبر مرفأ لإيران، وعلى مقربة من «عبدان» دون «تطويقها».

قطعتُ النهر عند البصرة، وراء قوافل من الشاحنات الحربية التي تحمل معدّات لبناء جسر ـ فلا يزال يلزم العراقيين أن يقطعوا نهر «قارون» شمالي «خرمشهر» ـ وتوجّهتُ نحو الصحراء اللاذعة، باتجاه الموقع الحدودي الإيراني في «شَلَمْشه». وتجاوزت بالسيّارة عشرات الدبّابات من طراز (T-62)، والمدرّعات السوفياتية، والشاحنات المملوءة جنوداً؛ وقد أومأوا كلّهم إلينا بإشارات النصر. كان صوت المدفعية يتردّد مكتوماً في الهواء؛ ووصلت إلى محطّة حدودية إيرانية مدمّرة على ظهر تلّة، فتوقّفت ودخلتها بكل حذر. لقد كنتُ في إيران، في إيران المحتلة؛ وليس لديّ الآن أيّة مشكلة بخصوص سِمة السفر. فمن المثير الغامض دائماً أن تدخل بلداً مع جيش غازٍ، عالماً كم سيغضب كل أولئك الموظفين الأتقياء في قسم السمات ـ أولئك الذين جعلوني أنتظر ساعات في غرفة صغيرة تغلي بالحرّ، والعرق يتصبّب عبر شعري ـ لو رأوني أقطع الحدود دون تواقيعهم وأختامهم الرثّة التي لا تكاد تقرأ على جوازي. كانت هناك صور لآية الله الخميني مشوّهة شعائرياً على الجدران في محطة «شلمشه» الحدودية، وكومة كبيرة من السجلّات الرسمية المكتوبة بخطّ اليد متناثرة على الأرض.

لديّ انجذاب إلى الوثائق التي تبرز من ثنايا أطلال الحرب. كالرسائل البيتية، وأوراق البيروقراطية في الجيوش، والتعليمات لتوجيه الصواريخ أرض ـ جو التي أصبحت نافلة، والتي ما زالت ترفرف عبر الصحراء، وتغطّي أرض المصانع التي دُمّرت سطوحها. وقد سُطّرت تلك الكتب بالفارسية وسجّلت أسماء وأرقام السيّارات

العراقية والإيرانية التي قطعت الحدود عند «شلمشه». وكان آخر دخول بتاريخ ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠، أي قبل بدء الغزو العراقي بيوم. ومع أن العراقيين يدّعون أن الحرب بدأت بتاريخ ٤ أيلول/سبتمبر، فقد سمحوا للمسافرين ـ بمن فيهم أهل بلدهم ـ أن يمروا ويجتازوا الحدود كالعادة، حتى عشيّة هجومهم.

وكان هناك طاقم تصوير أميركي خارج الحُطام، يصوّر على شريط سينمائي صور الخميني المشوّهة؛ بينما يعدّ مراسلهم تقريره: «لقد شقّ الجيش العراقي طريقه بهجوم ساحق عبر الحدود الإيرانية، منذ أكثر من أسبوع، وهو يقف الآن لاستراحة المحارب، أمام مدينتي «خرمشهر» و«عبدان»...» أجل، كانت المدن دائماً «استراتيجية» ـ على الأقلّ كما تبدو في التلفزيون ـ وعلى الجيوش أن تتقدم بهجوم ساحق عبر الحدود وتتوقّف لتعيد اتّزانها خارج المدن. وكأنه ليس هناك سوى نصّ واحد لكلّ حدث. ولا شكّ في أن العراقيين سيكملون حربهم باتجاه «خرمشهر» عمّا قريب، أو ينتظرون خارجها أو «يدّعون الانتصار» على المدافعين الإيرانيين.

ولكن من أنا لأتكلّم؟ كان مسجّلي، الذي وهبتني إياه هيئة الإذاعة الكندية، على كتفي، وكانت هناك وراء مركز الحدود بطّارية مدافع روسية من عيار ١٥٥ ملم، وهي بهائم ضخمة تتّجه مواسيرها نحو «خرمشهر». وقد عرض علينا قائدها بلطف، بعد أن اقترب منّا مبتسماً، إذا كنّا نرغب في مشاهدة إطلاق النار. أردت للحظة أن أقول: نعم لهذا الإغراء، وكنت أركّز مذياعي، عندما ناداني صوت ضميري ـ لأتصوّر جسماً مجهولاً يتمزّق أشلاء ـ فركضت في إثر القائد الذي تهيّأ ليأمر بإطلاق النار، وصحت به: كلّا، كلّا، لا تُطلق النار من أجلي، في أيّ وقت من الأوقات.

ولكني وجدتُ حُفرة في الرمل، وجلست فيها، وركّزتُ مسجّلي على حافتها وانتظرتُ، فهبّت عليّ ريح الصحراء الهوجاء، وعجّ شعري وأنفي وأذناي بالرمل، وبعدها انفجرت أول قذيفة مدفعية باتجاه الخطوط الإيرانية. أدرت حينئذ مسجّلي. ولا أزال أحتفظ بالشريط. وكانت المدافع قاتمة اللون تحت السماء، وهي تخور. وظللت أفكّر في وصف «دافيد أوين» للذراع السوداء الطويلة التي أوشكت أن تلعن». وكان أمامي عشرون، بل ثلاثون ذراعاً سوداء، وأكثر من ذلك وراء كثبان الرمال. وهناك أيضاً، سجّلتُ، دون أن أدري، خسارة في السمع بأذني اليسرى، الأمر الذي لا يمكن إصلاحه. وهذه اللحظة ذاتها مسجّلة على الشريط هكذا:

> «نستطيع أن نرى ضابط المدفعية أمامنا، خلال هذه العاصفة الصحراوية، يلقّم بالقذائف المدافع الروسية من عيار ١٥٥ ملم، ويسدّ الجميع آذانهم. صوت المدافع عالٍ جدّاً، إلى درجة خلّفت طنيناً في آذانهم. صوت المدافع، هناك طلقة أخرى انطلقت، بلسان طويل من اللهب يبلغ عشرين قدماً ـ بانغ ـ أمامها ـ بانغ. توقفت المدافع حولي؛ يا للعجب الذي لا يصدّق؛ هذه المدفعية الثقيلة تطلق النار في وسط ـ بانغ ـ وهذه طلقة أخرى، في وسط الصحراء المغبّرة التي تُسفيها الرياح».

ما زلت قادراً على أن أسمع صدى المدافع البعيد في أذنيّ، وأنا أكتب هذه الكلمات، طنيناً ثاقباً، يكاد

يجنّني في الليل، أو عندما أكون تعباً أو مهتاجاً، أو عندما أحاول أن أستمع إلى الموسيقى، أو لا أسمع مخاطبي على العشاء.

فتحت الراديو على محطة الإذاعة العراقية، فإذا بمزيد من الأراضي الإيرانية توشك «أن تسقط» بأيدي العراقيين، والجنرالات العراقيون يعلنون عن «آخر دفعة» للدخول إلى «خرمشهر». ومنذ خمسة أيام، كان سكّان البصرة سعيدين بأن يستمعوا إلى الأخبار عن التقدّم العراقي على التلفزيون. ولكن التجار وأصحاب الحوانيت في المدينة، أرادوا أن يدعموا معرفتهم عن الحرب بمعلومات إضافية يجنونها من الصحافيين الأجانب. ولم يخطر ببال أحد أن القذائف الإيرانية قد تسقط على أرض العراق، على هذا البُعد بعد الغزو.

وقد دعينا ذلك المساء إلى جولة نقوم بها في مستشفى قضاء البصرة. وكان في مبنى أجرد كئيب معزول، من الآجرّ، مطليّ باللون الأزرق الشاحب. إنه يبدو كثكنة للجيش؛ ولا يخفّف من رتابته سوى أناقة مساكب الزهور خارجه، ونشاط الأطبّاء، ولا سيّما الوجود الدائم للدكتور سعدون خليفة التكريتي، نائب وزير الصحّة العراقي. وكان رجلاً قصيراً ودوداً، له شاربان كبيران وابتسامة لعوب؛ يُستقبل بالهتاف والتربيت على الظهر أينما ذهب. وكان كلّ واحد يسلّم عليه بحماس؛ وعندما يلقي الوزير طُرفة، ترتفع في ممرّات المستشفى هبّات من الضحك والاستحسان. وقد استوعب مستشفى البصرة كل الجرحى الذين بلغ عددهم خمسمئة خلال الأسبوع المنصرم. ولكن كان للتكريتي اهتمام آخر، بالإضافة إلى الاهتمام بالمرضى وهو يطوف بأجنحة المستشفى؛ إذ كان يسلّم على المراسلين الأجانب بخطاب قصير حادّ ينتقد فيه مساوىء قصف المدنيين؛ ثم يقف ويضرب بقبضته الطاولة ضرباً مكتوماً، ويدَّعي أن سلاح الطيران الإيراني قتل الأطفال العراقيين عن عمد.

مشى التكريتي إلى جناح الأطفال، وهو عبارة عن غرفة طويلة، مجلّلة بالستائر، حيث تبدو وجوه مروَّعة من تحت صفّ الضمادات التي تلفّ الرؤوس؛ بينما كانت تحدّق الأمّهات الفلّاحات بشدّة في الأطباء بأثوابهم الخارجية البيضاء. قال هذا الطبيب الطيّب، عندما وقف لحظة أمام طفلة لها عينان سمراوان جميلتان وشعر أسود أجعد: «خذوا مثلاً، هذه البنت الصغيرة. . إنها لم تتجاوز السنة الثالثة من العمر، وقد فقدت ساقاً من ساقيها». وهنا نزع التكريتي عنها الغطاء، فبدا فعلاً أن ساقها اليسرى مفقودة، ولم يبقَ منها إلا الجَذْعة (أي أرومتها). فعبست البنت الصغيرة، وهي مرتبكة لكشفها عارية. ولكن التكريتي كان قد سار وأمامه مسلّح بلباسه الرسمي. فقد كان هذا المسلّح في الحياة المدنية مساعداً للجرّاحين في المستشفى، ولكن سترته التمويهية ومسدّسه الموضوع في جِرابه، أعطياه مظهراً متعارضاً مع بيئة المستشفى، بينما كان يمشي متثاقلاً، وبجلبة حول الأسرّة، ولا سيّما عندما وصلنا إلى جناح الأطفال الثاني.

فقد كان هناك صبيّ في الخامسة من عمره قابعاً في زاوية مظلمة، وملفوفاً بالعصبات. وبدا أنه محروق بشكل فظيع بواسطة قنبلة إيرانية حارقة، وعلى وشك الموت. وكانت هناك أنابيب لدائنيّة في منخريه وشاش ملفوف حول صدره وفخذيه، وعيناه تقطران دمعاً وألماً؛ إنه في بحر من العذاب المقيم الذي لم نُرد أن نتخيّله. وكان الصبيّ

قد أغرق وجهه في مخدّته، وهو يتنفّس بصعوبة، عندما تقدّم منه ذاك المسلّح المذكور، ورفع رأسه المعصوب بالضمادات، كي تراه الصحافة. فلهث الصبيّ من الألم، واشتكى أحد الصحافيين من هذه المعاملة؛ فقيل له إن المسلّح مساعد طبّي متدرّب.

وبرشاقة، أشار الدكتور التكريتي إلى السرير التالي، وتُرك الصبيّ يقاسي تحت رحمة ربّه، بعدما أثبت لنا جور الإيرانيين الذي لن يفهمه. وزعقت صفّارة إنذار بغارة جوّية، وسمعنا عن بعد إطلاق مدافع مضادّة للطائرات بشكل متقطّع. وكانت هناك طبعاً أجنحة أخرى في المستشفى، منها جناح فيه بحّارة بنغلادشيون، قصفتهم نفّاثات إيرانية بالقنابل. وكانوا رجالاً نحافاً، تمسّكوا بأغطيتهم ارتباكاً، عندما نزعها عنهم الدكتور التكريتي ليرينا أجسامهم العارية المشوّهة؛ إنهم يشكّلون جيلاً من الشحّاذين المبتوري السيقان جدير بشوارع «داكا». وكان هناك أيضاً عمّال نفط، أصيبوا عندما انفجرت مراجل النفط، يحدّقون في السقف بوجوههم المحمَّصة؛ وكان الأطبّاء في ذلك الوقت قد شرعوا بإزالة الضمادة عن وجه أحدهم. ابتسم التكريتي ببراعة، قائلاً: «إن بعض هؤلاء، يتكلمون الإنكليزية، وباستطاعتكم أن تسألوهم عمّا حصل»؛ مشيراً إلى جمهور منهم على الأسرّة. لماذا لا تسألوهم عمّا حدث؟.

وكان نائب وزير الصحّة إذ ذاك يقود زائريه إلى مستشفى التدريب على شطّ العرب، في مبنى من ستّة طوابق، يبدو كوزارة حكومية أكثر من كونه مركزاً طبّياً. وكانت المدافع الإيرانية قد ثقبت الطابق الرابع، وجرحت أربعة مرضى؛ وادّعى الدكتور أن ذلك كان أيضاً هجوماً مقصوداً؛ نظراً لأن المستشفى كان قد رفع أعلاماً بيضاء عليها الهلال الأحمر. ولكن تلك الأعلام كانت بمقياس ستّة أقدام مربعة، بينما كان الهلال القاتم اللون الذي طلاه الأطبّاء على السطح المنبسط أقرب إلى لون الإسمنت. أشار التكريتي إلى لطخات الدم على السقف، مستنكراً: «إن العرب لا يفعلون ذلك، إنهم لا يهاجمون المدنيين». وبينما كان يغادر المبنى، جاءت شاحنة بالية، مفتوحة السطح؛ وفي مؤخّرتها جثتان، مغطّاتان جزئياً بحرام قذر، تبرز منه أربعة أقدام سمراء. سأل السائق عمّا يجب أن يفعل بالجثتين. ولمّا لم يرَ الدكتور التكريتي أيّ صحافي حوله، قال له: «خذهما إلى خلف المبنى».

وكان أوّل فوج من الفدائيين العراقيين قد اخترقوا الضفّة الغربية من نهر قارون على شطّ العرب عند الساعة ١٢:٢٣ ظهر ٢ تشرين الأول/أكتوبر، كانوا أربعة يركضون على رصيف مرفأ «خرمشهر» وراء خطوط الشاحنات المحروقة والمنحرفة عن الطريق؛ يرمون قنابل يدوية على الرصيف التحتاني. كنتُ أستطيع أن أراهم من خلال منظار حربي عراقي على بعد ٤٠٠ متر، وأنا أسترق النظر من فوق أكياس الرمل في كوخ طينيّ متداعٍ، بينما يكمن بجانبي قنّاص عراقي يقصف الخطوط الإيرانية على الضفّة الأخرى من نهر قارون.

وكان بجانبي أيضاً «بيار بايل» من وكالة الصحافة الفرنسية، وهو رجل قوي عملي، يأبى الخوف، كما تعلّم من خبرته في الفيلق الفرنسي الأجنبي. وكان يغمغم: «لا بأس، لا بأس»، كلّما تقدّم عراقي نزولاً على رصيف الميناء. «لا بأس بهؤلاء الشجعان»، على حدّ قوله. كان المنظر استثنائياً؛ كان هجوماً للمشاة يمكن أن تراه في

إحدى الصور الزيتية الرومانسية وراء أكياس الرمل، وهم يرشقون آخر معقل للإيرانيين على ضفّة النهر بالقنابل اليدوية. وبقي أزيز رصاصهم مستمرّاً أكثر من ساعة بين زروع الجزيرة الصغيرة التي لذنا بها وهو يصطدم بأشجار النخيل فوقنا، ويرنّ على جسر الأطواف العائم الذي يصل هذه الجزيرة بالبرّ العراقي الرئيسي. وكان العراقيون قد نجحوا في اجتياز نهر قارون، وساروا صعوداً أربعة كيلومترات من شط العرب، وأرسلوا فرقة دبّابات عبر النهر، قبل ذلك بأربع ساعات؛ وبدأوا أخيراً بتطويق الإيرانيين في عبدان. وقد اعترفت الإذاعة الإيرانية بأن «جنوداً من الأعداء» قد تسللوا شمالي المدينة.

يرفد نهر قارون شطّ العرب، عند زاوية قائمة. وكنا نحن قُبالة ملتقى النهرين، في جزيرة الزروع المسمّاة «أمّ الرسّاس» المنبسطة في وسط شط العرب، نراقب كيف يستولي العراقيون على واجهة النهر. وكانت القذائف العراقية تتفجّر في مجموعة من دبّابات «تشيفتين» هجرها الإيرانيون عندما قُطع انسحابهم عند نهر قارون. واستمرّ العراقيون يرمون وابل قذائفهم على عبدان طيلة الصباح وبعد الظهر، بأصوات مخيفة تهدر فوق رؤوسنا على الجزيرة الصغيرة، كأصوات الطائرات النفّاثة.

إن القذائف تنطلق بسرعة، عندما نراها بالعين المجرّدة. ولكنني أدركت بعد بعض الوقت أن ظلالها تنعكس على النهر، وتطير بسرعة عبر المياه؛ وحقول الأرز، ثم تسقط نحو عبدان حيث تترك الانفجارات الهائلة آثارها المدمّرة. لم أستطع أن أصرف نظري عن هذه الظاهرة الغريبة. فعندما تصل القذائف إلى أعلى نقطة لمداها قبل أن تعود فتسقط على الأرض، كانت الظلال الصغيرة ـ كنقط سوداء مشؤومة تنسحب على صفحة النهر ـ ترفرف قربنا، كغمامة بالغة الصغر تستقرّ على الماء. ثم ينكمش الظلّ، ويأخذ في الانتقال بسرعة مخيفة نحو الشاطىء، حتى يختفي في نور الشمس.

وعلى الضفّة المقابلة من النهر، أصابت إحدى هذه القنابل سفينة كبيرة، وأشعلت فيها النار التي ارتفعت كجدار علوّه ١٠٠ متر على ظهرها، من مقدّمتها إلى مؤخّرتها. أما في وسط النار فتشكّلت دائرة بيضاء ساطعة إلى درجة أحسستُ عندها أنها تحرق وجهي، وتؤذي عينيّ عندما أنظر إليها. وفي بعض الأحيان، كانت الجلبة الناتجة عن إطلاق المدفعية العراقية، وعن انفجار القذائف الإيرانية حول كوخنا الطينيّ، بالغة الشدّة إلى درجة جعلت الجنود العراقيين المرابطين وراء النوافذ والأزقّة في القرية المهجورة على الجزيرة، عاجزين عن إسماع بعضهم بعضاً. وقد أوجس أحد الضبّاط العراقيين ـ صاحب المدالية الذهبية البعثية التي تزيّن لباس المعركة الذي يرتديه ـ خيفة من أن يصيب جنوده بعضهم بعضاً بالرشّاشات على ضفّة النهر البعيدة؛ ولذلك أعطى أوامره تكراراً بتوجيه إطلاق النار باتجاه مجرى النهر. وجاء إلى كوخنا الطيني البالي، قنّاص عراقي، طويل القامة، جسيم، عريض المنكبين، مفتول الذراعين، وعلى خدّه الأيسر ندب؛ وهو يحمل رشّاشاً سوفياتياً طويلاً من طراز «دراغونوف» مع منظار تلسكوبيّ. ابتسم لنا ابتسامة عريضة مثل تلميذ مدرسة، وحكّ وجهه، ثم وضع سلاحه على النافذة المكسورة، وأطلق النار على الإيرانيين في جولتين. وكلّما سقطت قذيفة قربنا، كانت تهتزّ أشجار النخيل في الخارج، وتتساقط علينا قِطع طين من سقف الكوخ.

وأخيراً، يبدو أن العراقيين باتوا يزاوجون بين واقعهم ودعاياتهم، فلو استطاعوا أن يحتلّوا «خرمشهر» و«عبدان» وأن يسيطروا على ضفّتي شطّ العرب، لبسطوا تلك السيطرة على كامل ذلك المجرى المائي ـ وذلك أحد الأسباب الظاهرة للحرب. وجاءت تقارير تبيّن أن العراقيين يتقدّمون باتجاه «دزفول»، على بعد ٨٠ كيلومتراً داخل إيران؛ فضلاً عن تقدّمهم نحو الأهواز، مع أن ادّعاءهم بأنهم احتلّوا الأهواز صعب التصديق. لقد احتلّوها أصلاً منذ ١٢ يوماً، لكنّ الصحافيين راقبوها فيما بعد وهي تتمزّق أشلاء تحت القصف الإيراني. ولم يكن هناك من نفي لشراسة الدفاع الإيراني عن عبدان؛ حتى أنهم ما زالوا يدافعون عن «خرمشهر» وما فتىء قنّاصوهم يطلقون النار من أعلى رافعات الميناء.

وقد حذّرنا الجنود العراقيون من أولئك القنّاصين، عندما كنّا نتهيّأ لمغادرة «أمّ الرصّاص». ومع أنه لم يكن باستطاعتهم أن يرونا قرب الكوخ، فقد كانت لديهم رؤية واضحة من فوق أشجار النخيل، حالما نصل إلى جسر الحديد المعزول الذي يصل الجزيرة بالشاطىء الغربي لشط العرب. ركضتُ مع «بيار بايل» بسرعة بين الأشجار، ونحن نسمع بعض طلقات الرصاص السريعة، دون أن نقلق، حتى وصلنا إلى ضفّة النهر. وهناك أيضاً، كنا نرى ظلال القذائف تتهادى على المياه. قال بايل: «علينا أن نركض»، لكنني لم أوافق على ذلك. وربّما كان نور الشمس الساطع، والنخيل الأخضر السماوي، ما جعلني أعتقد ـ أو أريد أن أعتقد ـ أنه لن يزعجنا أحد أثناء انسحابنا عبر الجسر.

وبالطبع، كنت مخطئاً. فحالما انطلقنا عبر جسر الحديد الضيّق، صار الرصاص يفرقع حوالينا، وبعضه قريب جعلني أشعر بانحراف الهواء عن خطّ سيره. ورأيت خطّاً من رذاذ يتقدّم نحونا فوق النهر ـ وكنتُ إذ ذاك أركض، وأنا أفكّر كالطفل الطائش بأن ذلك يشبه ما نراه في أفلام هوليود، موجات من الماء تنطلق نحو الجسر، ثم تنبو وتئزّ عند اصطدامها بالحديد، وتنثر حوالينا ارتداداتها. وقد رأيت منها قطعة معدنية سطّحتها الطلقة، ومرّت على بعد إنشات قليلة من وجهي، فزدت من سرعة ركضي، لكنّ ركوداً شعورياً ـ وهو الأخطر ـ تملّكني، على أساس أنّ هذا لا يمكن أن يحدث لي، وإذا حدث فعليّ تحمّل نتائجه. وما هي إلّا ثوانٍ حتى صار «بايل» إلى جانبي، يخطف المسجّل مني، ويصيح: «أركضْ، أركضْ»، في أذني اليسرى، وهو يدفع جسمي إلى الأمام من الخلف، ثم عندما قاربنا نهاية الجسر، أمسكني بذراعي وجذبني لنقفز معاً إلى الماء في شط العرب، بينما الرصاص ما زال يتناثر حولنا على صفحة الماء. خضنا الأمتار الأخيرة، وتسلّقنا الضفّة، وغصنا في أيكة النخيل، بينما انفجرت مجموعة من قذائف الهاون حول الجسر، الذي صار حديده يرنّ بفعل الشظايا المتناثرة.

ووسط الأشجار كانت فصيلة عراقية تطلق قذائف الهاون نحو «خرمشهر» وأومأ الرقيب إلينا، فارتمينا على التراب منهوكين لنرتاح وسط جنوده. وجلب لنا أحد جنوده الشاي، ونظر إلى «بايل» وقابلني بانحناءة. فظننت أولاً أنه يريد أن يبلغني عن سوء الحالة، وأننا نجونا بحياتنا من وضع عسير. ثم أدركت أنه يفكّر مثلما أفكّر: لقد قضم صدّام أكثر مما يستطيع أن يمضغ؛ وقد لا تكون هذه حرباً خاطفة كما توهّم، بل غزواً مرهقاً قاسياً طويل

الأمد. وعندما عدنا إلى فندق «حمدان» بعد الظهر، سجّلتُ قصّتي على آلة التلكس القديمة، وأرسلتُ الشريط إلى لندن بجهد، وعدتُ إلى غرفتي، ونمتُ ١٥ ساعة. وبدأ شعوري بالمغامرة يتلاشى شيئاً فشيئاً.

لماذا أردنا أن نعود في طلب المزيد؟ ولماذا أخبرت القسم الأجنبي في «التايمز»، أنني سأبقى في البصرة، ولو لم يكن لديّ ما يكفي من المال؟ ـ من المؤكّد أنني أردتُ أن أرى بعض المزيد من هذا التاريخ الذي أشهده، وأعرّض نفسي فيه للخطر. فإذا كان صحيحاً أن صدام قد قلّل كثيراً من تقديره لآثار هذا الغزو ـ وأن الإيرانيين يقاومون بشجاعة كبرى ـ فقد يستجيب الجيش العراقي لدعوة الخميني بالعصيان. وهذا يعني نهاية نظام صدّام ـ أو نهاية الكابوس الأميركي والعربي ـ ومن ثمّ احتلالاً إيرانياً للعراق، وقيام دولة إسلامية شيعية أخرى.

ولكنّ الحرب عبارة عن خبرة فذّة، جذّابة، مؤلمة، وفريدة للصحافي. ولا بدّ من إحراق ذلك المخدّر. وإذا لم يحصل ذلك، قد يموت الصحافي. كنا شباباً. وكنتُ قد عدتُ لتوّي من أفغانستان وما انتابها من غزو سوفياتي، وكنت غارقاً أيضاً في تغطية الحرب الأهلية اللبنانية، وآثار غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٧٨. وكنتُ قد غطّيتُ كذلك الثورة الإيرانية، تلك البوتقة للحرب العراقية ـ الإيرانية. لقد كانت هذه حربي أنا. أو على الأقلّ، هذا ما كنتُ أشعر به كل يوم، عندما أنطلق إلى الخطوط الأمامية من الجبهة العراقية. وكانت هذه المرّة مع «غافين» وطاقمه في صباح حارّ، حيث تعرّضت لخطر الموت مرة أخرى، على طول شط العرب. وكنتُ كالعادة، أحمل مسجّلي، وأسمع قبل تسجيلي هذه الكلمات، شريط ذلك اليوم الرهيب، وأسمع نَفَسي وقلبي يدقّ، عندما بدأت أدرك كم تكون الحرب مخيفة ومرعبة.

صارت الآن معظم السفن على الضفّة البعيدة طُعمة للنيران، أبّهة فارغة للدمار، صوّرتها كلّ الكاميرات. ولكن كالعادة، كان علينا أن نقارب النهر من الخطوط العراقية. وصارت الآن للإيرانيين استعدادات أخرى، منها ربط رجال بالحبال إلى صواري الرافعات على الضفة المقابلة من النهر، وتزويدهم بقنابل يدوية تُقذف صاروخياً، بالإضافة إلى الرشّاشات. وفيما يلي نصّ التسجيل الصوتي الذي حضّرته لهيئة الإذاعة الكندية:

فيسك: نحن نمشي عبر هذه القرية المهجورة الآن، ولا يبدو لنا أيّ مخلوق هنا، ما خلا بعض الجنود العراقيين على السطوح، ممّا لا نراهم. ولكن، هناك كثرة من إطلاق نار خفيفة بقربنا. (صوت إطلاق النار يزيد). نعم، أوقف السيّارة يا «غافين» هنا.

هيويت: هنا في المنحدر؟

فيسك: نعم، ها هم، (صوت إطلاق النار أصبح أقرب هذه المرّة). لقد بدأت أفكّر لماذا انخرطت في سلك الصحافة. (ضربات قلبي الآن تعطّل تعليقي). مشينا عبر ساحة تبدو كساحة مدرسة، مع بعض المقاعد الملقاة هناك.

(يأتي الآن صوت قنبلة يدوية مقذوفة صاروخياً، يتبعه رعد انفجار يقطع التعليق، ويكسر مفتاح السمع على المسجِّل).

فيسك: إلى الوراء هنا، أعتقد، نلفّ بهذه الطريقة، (عشرات الطلقات وصوت غافين وطاقمه وفيسك، يركضون لإنقاذ حياتهم، وهم يلهثون) نحن نحاول أن نرجع إلى السيّارة طلباً للأمن. آخ، هذه الطلقة قريبة. أعتقد أن بإمكانهم أن يرونا نتجوّل هنا. لنذهب.

هيويت: (للطاقم)، نعم، تعالوا، تعالوا، نحن نغادر. هل يمكن أن نذهب؟

اللعنة!

ومن ثمَّ، عند الإصغاء إلى هذا الشريط، أسمع حثَّنا سائقنا العراقي على الانطلاق، بالصراخ، وأحدنا يصيح به بعنف ونحن نغادر: «إمشِ، بس، إمشِ». ثم أتكلّم بالمذياع، وأرسل رسالة قصيرة إلى «جورج لويسكي» و«سوهيكي» في مكتب هيئة الإذاعة البريطانية في لندن:

«يا «جورج وسو»، آمل أن تكونا قد استمعتما إلى كل هذا الآن. أرجوكما، أرجوكما، استعملا هذا التسجيل ما استطعتما إلى ذلك سبيلاً، لأنه يدلّ على الأخطار التي نتعرّض لها. ومن ثمَّ، احتفظا به مهما حصل ـ إنه ذكرى أريد أن أحتفظ بها لباقي حياتي، وأنا جالس في كوخي الإيرلندي. لا ترمياه، مهما فعلتما!».

ولكن التسجيل لم يجد لنفسه منفذاً. أعطيته لسائق التاكسي الذي يخدمنا في البصرة، ليخرج به عبر الحدود، ويرسله من مطار الكويت، لكنهم أرجعوه من نقطة الحدود، وأمضى أربع ساعات حتى عاد إلى الفندق يبتسم مداهناً، وملوّحاً بشريطي من نافذة السيّارة كسمكة ميتة. لكني أرسلته فيما بعد عبر خط يطقطق من خطوط التلفون. والله يعلم ماذا فعل به الكنديون ـ إنما علمت فيما بعد أن أحد سائقي الشاحنات في موقع «هوايت هورس، يوكان»، خابر هيئة الإذاعة الكندية من أحد أكشاك التلفون، سائلاً: «هل كان ذلك حقيقياً؟».

لقد كان حقيقياً، فالصوت المسجّل هو صوت أربعة من الرجال الشباب الذين عرّضوا حياتهم للخطر من أجل... لا شيء؟ ـ لا أعتقد ذلك. فهذه المجازفة بحياتنا، كما أظنّ، تعطي مصداقية حقيقية لعملنا، ولمواقفنا التي نتحدّى بها أحياناً صدق الحكومات ـ أو غيرنا من الصحافيين ـ في القول وفي الفعل. وقد أثبتت هذه الخبرة لي دون أيّ شكّ أنّ العراق «لن يربح» الحرب. فقد كان هناك هجوم مضادّ مستمرّ بالمدفعية الإيرانية؛ وقد كتبتُ إذ ذاك في شهر تشرين الأول/أكتوبر ـ بدقة وإنما مبكراً ستّ سنوات ـ إذا حملنا هذا على محمل النتائج المنطقية، لن تكون «خرمشهر» هي الوحيدة الواقعة تحت القصف العراقي؛ ولكنّ البصرة أيضاً ستكون تحت القصف الإيراني».

ويمرّ الآن على جسر «بايلي» في البصرة سيل مستمرّ من سيّارات الإسعاف العسكرية. وقد غامرتُ بالذهاب إلى «شلمشه» أيضاً. وهناك كان الجرحى العراقيون ممدَّدين على الرمل، بينما كانت بطارية للمدافع الثقيلة عيار ١٥٥ ملم بقربهم ترمي ببطء قذائفها عبر الحدود. وجاءت سيارة إسعاف تتخبّط على الطريق الصحراوية صعوداً وهبوطاً، ثم تثب لتقف في حوض رملي محاط جزئياً بأشجار النخيل. أخرجوا منها رجلاً من المشاة على حمّالة. ونزعوا عن كتفه الرباطات الملطّخة بالدم، ووضعوه على فراش بديل مؤقّت في ظلّ محطة قديمة للشرطة. وكان الرجل الذي أصيب بطلقة من قِبل قنّاص إيراني لا يزال متألماً، لكنه لا يئنّ، بينما كان ثلاثة من الممرِّضين الطبّيين العسكريين يتنازعون حول أكياس تغذيته بالتقطير، وبينما كانت المدافع تقوم بجولة إطلاق كل دقيقة، بتفجيرات صاعقة تهزّ جدران المبنى، وتجفّل الأطباء.

وجيء أيضاً من وراء كثبان الرمل بجندي آخر مصاب إصابات بليغة، إذ إنه عضو من طاقم دبابة فُجِّرت. كان رأسه يتمايل من جهة إلى أخرى، وركبتاه تلتويان، عندما حمله رفاقه، ونقلوه إلى ساحة محطة الشرطة. أما الجريح الآخر الذي أصيب في كتفه، فقد بدأ يئنّ قليلاً؛ وكلما أطلقت المدافع باتجاه «خرمشهر»، كان يلتفت حواليه مذعوراً، ويخبط بذراعيه يمنة ويسرة، كأنه لعبة أُخرجت أحشاؤها.

وكان مركز الإسعاف المتقدّم للجيش العراقي في الجبهة الجنوبية عبارة عن مكان صغير كالح، تشهد فيه لطخات الدم الطويلة التي لا تزال على الأرض على التضحيات الجسام التي تكبّدها الجيش العراقي لقيامه بـ «الحرب الخاطفة». وكان الممرِّض الطبّي الأعلى مقاماً واقعياً بهذا الشأن، إذ قال مكشّراً غاضباً: «إن هذا مبنى قديم، وهو ظاهر على كل خرائط الإيرانيين، وسيطلقون النار عليه، وسيكون لدينا مزيد من الضحايا. وبعد ذلك بثلاث دقائق بدأت القذائف الإيرانية تتساقط، وتقضّ مهاجع المدافعيين العراقيين في حُفرهم».

وقد احترق سائق إحدى سيّارات الجيب العسكرية ومات على طريق «خرمشهر ـ شلمشه» ـ التي وقعت بأيدي العراقيين ومضى عليها وقت طويل وهي آمنة ـ عندما سقط وابل من قنابل الإيرانيين على قافلته. ولم تسقط بعد أية مدينة إيرانية رئيسية بأيدي العراقيين، ما عدا «قصر شيرين» إلى الشمال. وكل ما احتلّه العراقيون حتى الآن عبارة عن ٣٠٠٠ كيلومتر مربّع من الصحراء السمراء العطشى، إنه منظر رثّ للصخر والرمل، أحسن الإيرانيون بانسحابهم منه، ليستمروا في قتالهم من التلال.

وعندما طلبت مع «غافين» و«هيويت» أن نزور المستشفى العسكري في البصرة أعطونا الإذن خلال دقيقتين، ولم يحاول أحد أن يمنعنا من أن نتكلّم مع الجنود الجرحى في الداخل. وكل المصابين أخبرونا بالقصص ذاتها، عن هجمات مفاجئة يقوم بها الإيرانيون، برشّاشات المروحيات الإيرانية ـ «الكوبرا» التي باعها الأميركيون للشاه ـ فضلاً عن طائرات الفانتوم المنقضّة عليهم من الشرق. ووصف رجل من طاقم إحدى الدبّابات أنه سمع صوت محرّكات الطائرة النفّاثة قبل أن تصاب دبّابته بصاروخ. وبلحظة اكتسى معظم جسمه بالنفط الملتهب. وقُذف أحد جنود قيادة النقليات في الجيش من سيارة الجيب التي كان فيها جنوبي الأهواز بصاروخ أُطلق من طائرة مروحية

إيرانية. وبينما انطرح على الطريق، أطلّت طائرة «فانتوم» من جهة الشمس وقصفت بالقنابل رفاقه الذين لا يزالون يترنَّحون من هول الضربة الأولى للدبابة المنكوبة.

وبتاريخ ٥ تشرين الأول/أكتوبر دخل العراقيون «خرمشهر» أخيراً، ونحن معهم. وجدناها مدينة محروقة محطَّمة. وكان هناك رجل عربي إيراني، يمثّل وحده الملايين من عرب «عربستان» الذين يحاول صدّام أن ينقذهم ـ يجلس القرفصاء على الأرض الحجرية لبيته الطيني، وهو يخمّر الشاي لأحد الجنود العراقيين ويتجاهل أسئلة الغرباء. كانت على وجهه تجاعيد عميقة، وله لحية بيضاء. لقد حُرِّر هذا الرجل. وهذه هي المدينة التي جاء منها ممثِّل حصار السفارة الإيرانية في لندن، المدينة التي يسمّيها «المحمّرة». هذه هي «دانزيغ» صدّام، والصحراء التي وراءها هي «السوديت». كان العراقيون يحاولون أن ينقذوا عرب إيران؛ ولكن كل ما نستطيع الآن أن نراه على أحد الشوارع الرئيسة، هو طريق عامة مدمّرة وأعمدة تلغراف مكسورة، وحوانيت مسودّة ذات طبقة واحدة، حيث يجلس الجنود العراقيون، الملوّثة وجوههم بالطين، على الدرج، ويتحدّثون تحت ألواح من التوتيا (الحديد المغضَّن).

وكان اللواء عدنان خيرالله، وزير الدفاع العراقي، وابن خال صدّام، قد عرض على الإيرانيين وقفاً لإطلاق النار ـ لتبيان «نوايا العراق السلمية»، أمام العالم، دون أية رغبة في الانسحاب من الأراضي الإيرانية ـ ولكن، لم يمضِ على الهدنة من طرف واحد، ستّ ساعات ونصف ساعة، حتى فتح الإيرانيون النار على «خرمشهر» المحتلّة. وكنا إذ ذاك نستمع إلى اللواء «رمزي» من الجيش العراقي، بعينيه المحتقنتين بالدم، ورأسه المائل من الإرهاق، وهو يدَّعي أن جنوده سيطروا على المدينة وميناءها، عندما نزلت زخّة من القذائف على البيوت والبساتين حولنا.

وقال أحد عمداء الجيش، بينما بدأت القنابل تنفجر حول الجسر عند آخر الشارع: «نرجوكم أن تذهبوا الآن، لأن الوضع غير آمن». وأُدخل من البوابة أحد الفدائيين العراقيين، والدم يسيل على خدّه الأيمن من جرح سبّبته شظايا القنابل. ولم تعد «القوّات العراقية الخاصّة» تضحك وتشير إلى الصحافيين بإيماءات النصر ـ بل جلس أفرادها عند حافة بركة خالية من السمك، وحدَّقوا فينا بكآبة. فقد كان حرّاس الثورة الإيرانيون ما زالوا يدافعون في المباني المتقوّضة الواقعة في الجهة الغربية من نهر «قارون»؛ وقد قادوا ستّ دبّابات من طراز تشيفتين» واجتازوا المركز الرئيس للبريد، مطلقين النار على أقرب مركز للقوّات العراقية، حتى أصيبت واحدة منها بصاروخ. وبينما كنتُ أركض من الدارة التي كنتُ فيها، لمحت دبابة عراقية تدور ماسورتها بشكل هائج، وتسحق جنازيرها القمامة في طريقها إلى مركز المدينة.

صار للعراقيين الآن دبّابات متمركزة على طول الواجهة المائية في «خرمشهر». ولا بدّ أنهم دخلوا المرفأ فجأة، لأن الأرصفة كانت لا تزال ملأى بمركبات الأطعمة الخالية، والصناديق، والحاويات التي تحترق وهي مدلّاة من الرافعات المعطوبة. وكان بعض الجنود العراقيين ينهبون محتوى بعض الحاويات، المؤلف من خليط من درّاجات «سوزوكي» النارية، وكرات القدم، وعلف الدواجن الهولّندي، ومضارب كرة الطاولة.

وكانت السفن راسية إلى جانب الرصيف تحت القصف منذ عدّة أيام. وكان الضابط الرئيس في سفينة الشحن «كراسيكا» ينحني عند مؤخرة ظهر سفينته المثقّبة بالرصاص، ويبتسم ابتسامات عريضة صارخاً: «لقد قُصفنا من الجهتين كل الوقت ـ خلال الأسبوعين الفائتين. ولذلك قبعنا في أسفل السفينة، ولعبنا بالورق، وشربنا البيرة. وماذا كان بإمكاننا أن نفعل؟». ولا شكّ في أن الحال كانت سيئة، لأن الرجل لم يأبه لينظر ناحية الشرق على الواجهة المائية حيث كان الدخان يتصاعد بكثافة من سفينة تحترق. وقد أتلفت النار في سفينة الشحن الإيطالية «كابريلّا» جسرها، ومدخنتها، وبناءها الفوقي. وكان بحّارة سفينة إيطالية أخرى قد أطفأوا النار بعد القصف الأول، ثم هربوا إلى سفينة شحن كورية منعتهم من الإلتجاء إليها، ولكن آوتهم سفينة يونانية. أما سفينة «يانغ تشون» الصينية فقد أصابها صاروخ ورصاص ثاقب في بدنها. وأبعد من ذلك لجهة الشرق كانت سفن أكبر تحترق.

لن تستطيع أي من هذه السفن أن تُمخر عُباب البحر من جديد؛ بل ستبقى حُطاماً متفحّماً على جانب المرفأ، لمدّة ثمانين سنة تالية. أمّا في البصرة، حيث توجد أيضاً تسعون سفينة شحن ذات أحجام أكبر راسية على طول الأرصفة، ومُتهيّئة للهرب، حالما يحصل أيّ وقف حقيقي لإطلاق النار؛ وإلّا ستبقى وتبلى بعد مرور ربع قرن. ويُعتبر ذلك تطوّراً حزيناً لمرفأ أسّسه الخليفة عمر بن الخطاب عام ٦٣٨، واحتلّه البريطانيون عام ١٩١٤ وعام ١٩٤١ وعام ٢٠٠٣. فالمصالح التجارية البريطانية كانت هنا منذ عام ١٦٤٣؛ ولا يزال بالإمكان رؤية الواجهات الخشبية المحفورة ومصاريع النوافذ المحصّنة للبيوت العثمانية وراء قنوات المدينة الستّ النتنة. وكان الخليفة عمر قد شرّع بأن لا يسمح لأحد بقطع نخيل المدينة؛ مع أنّ آلافاً من نخيلها تقف اليوم مقطوعة أو متفحّمة بالنار في مزروعات ضلّعتها مجاري مياه أحدثتها منذ زمن طويل السفن البخارية في القرن التاسع عشر. إنها متاحف بالية للتكنولوجيا الصناعية التي أُطلقت في أيّامها دون شكّ بتباشير النصر، عندما أُنزلت إلى البحر في «بوركنهيد» و«بلفاست»، منذ جيلين. ففي البصرة، التي لقّبها أحد مكاتب السياحة هناك في لحظة حماس، بـ «بندقية الشرق» (فينيسيا الشرق)، كان لا يزال من الممكن مصادفة ما تبقّى من تذكارات من أيام الإمبراطورية البريطانية. ففندق شطّ العرب كان محطّة مرحلية للخطوط البريطانية الملكية للزوارق الطائرة التي كانت تتوقّف في شطّ العرب، وتنزل ركّابها في قاعة استقبال لا تزال حتى اليوم مزيّنة بنماذج مصفّحة لسفن بُنيت في بريطانيا.

وكان العراقيون يتعلّمون في كلّ يوم الآن أن النصر لن يكون لهم ـ على الأقلّ، لأسابيع أو أشهر، أو حتى سنوات. ومن «خرمشهر» تقدّمت القوّات العراقية ثمانية كيلومترات فحسب في عشرة أيام، وفي المدينة، وافق معنا لواء يرتدي الطاقية الحمراء لرجال المظلّات، ويحمل مِخْصَرة (أي عصا الضبّاط التي يختالون بها) أن الإيرانيين لا يزالون يحاربون بشدّة. وبينما كان يتكلّم مرّ بنا جندي شاب محمول مغطّى بالدم يصيح بأنه يموت. وقد قال لي ضابط آخر في ذلك اليوم: «ظننّا أن الإيرانيين لن يقاتلوا، لكنّي أعتقد الآن أنهم سيستمرّون في القتال، مهما حدث». ولكن، لن يقول أيّ مرجع رسمي هذا الكلام.

ونادانا أحد مراقبي وزارة الإعلام في بهو فندق حمدان قائلاً: «يجب أن تأتوا ـ يجب أن تأتوا، كي تروا أسرى الحرب الإيرانيين. وكان ذلك أوّل عرض للأسرى من قِبل الفريقين في الحرب، في إخراج مسرحي سيشمل الآلاف من أسرى الحرب، ومناسبة «صحفية» تُعتبر خرقاً فاضحاً لاتفاقية جنيف. ولكننا ذهبنا في ذلك الصباح الساطع من تشرين الأول/أكتوبر لنرى كيف يبدو الأسرى الإيرانيون. وهل هم «حيوانات في زنزانة؟»، كما وصفهم «غافين» في تعليقه الملائم![*].

كانوا جالسين في زاوية من كوخ ثكنة عسكرية، جدرانه من الإسمنت. وهم جماعة من الرجال الشباب سود الشعور وغير مرتّبين، لبعضهم عصابات، وكلهم ببزّاتهم «الكاكية» السمراء غير المتغضّنة التي يلبسها الجيش الإيراني، وغير حليقي الذقون. فغروا أفواههم محدّقين أمام آلات التصوير التلفزيونية، وهم جالسون على الحصير الذي كان فراشاً لهم خلال الأيام الثلاثة الماضية. وأعلن عقيد عراقي أنه لن يسمح لنا بالتكلّم معهم، بينما كان الأسرى البالغ عددهم ١٧ رجلاً ينظرون إلى معدّات التصوير والتسجيل الممدودة قصداً إليهم. سأل أحد الصحافيين عمّا إذا كان أحدهم يتكلّم الإنكليزية، فانبرى رجل شاب ملتحٍ كان جالساً تحت نافذة ذات شعرية وقال إنه يتكلّم الألمانية، ولكن الرائد أسكته وقال: «أخذوا أسرى في الأهواز والمحمّرة؛ ماذا تريدون أن تعرفوا عنهم غير ذلك؟».

لكن الأسرى كانوا أفصح بأيديهم ووجوههم. وكان نصفهم من الجرحى المعصوبي الرؤوس والأذرع. وكان هناك رجل نحيل عند الجدار أومأ إلينا بإشارة النصر خفية. وقد أُمر خمسة منهم بأن يمسكوا بنسخ من جريدة بغدادية على صفحتها الأولى صورة صدّام حسين؛ ولكنّهم اجتهدوا في طيّها بحيث لم يعد بالإمكان رؤية الصورة. وقد ابتسم لنا الجندي الذي يتكلّم الألمانية وانحنى بينما كنّا نُساق كقطيع خارج ذلك الكوخ. ثم أعلن الرائد أن هناك اثنين من الأسرى سيكلّماننا إذا وعدنا بعدم أخذ صور للمقابلة. جاءنا رجلان شابان حزينان منسحبان، أحدهما ملفوف الصدر بجبيرة من الجصّ. جيء بهما أخيراً إلى غرفة غير مرتّبة، حيث كانت صورة منسوخة لصدّام إلى جانب زهور بلاستيكية، تبغي مكاناً على الجدار.

أُجلس الرجلان على كرسيين فولاذيين في وسط الغرفة، بينما وقف الموظفون الحكوميون والعقيد حولهما «من أجل الترجمة». عقد الأسير الجريح يديه بعصبية وأخذ ينتفض. وهزّ العقيد إصبعه أمام الجندي الأول، قائلاً: «إنهم يسألون عن الإصابات التي ألمّت بجيشكم». فهزّ الرجل كتفيه وأعلن جهله. قال: «أنا جندي إيراني». فسأله الصحافيون «هل كان الشيوخ والأئمة الإيرانيون مسؤولين عن الجيش الإيراني؟»؛ وقد ترجم الرائد

(*) علينا أن نحذر من الحرية في تقديم تقاريرنا، تلك الحرية التي كنا نتمتّع بها أحياناً. وقد استأجر «هيويت» وطاقمه في أحد الأمكنة قارباً ركبوه ليصوّروا عند شط العرب؛ فأوقفتهم السلطات العراقية، واعتقلت صاحب الزورق. وقيل «لهيويت» الذي وخزه ضميره: «إن الرجل سيعاقب»، ولُفت نظره إلى أن كل تدخّل للاحتجاج والدفاع عن صاحب الزورق سيفاقم عقابه.

ذلك بقوله: «هلّا يؤثر رجال الدين على ضبّاطكم؟». فقال الأسير: هذا صحيح. وأردف: «إن معنويات جنودنا لم تعد كما كانت».

وما كانت الصحافة العالمية تبغيه من هذين الأسيرين هو معرفة رأيهما بآية الله الخميني. لكنّ الرائد أساء ترجمة السؤال هكذا: «والآن، بعدما ساءت أحوالكما، ما رأيكما بالخميني؟ فقال الأسير الأول: «لم يعد «الرأي» ذاته بعد الحرب». لكن الأسير الجريح نظر إلينا نظرة خاطفة وقال: «إذا كان آية الله الخميني هو الذي أشعل الحرب بين بلدين مسلمين. فهذا خطأ». وضاعت جملته الشرطية الأخيرة، إذ أمر الرائد بسحب الأسيرين.

ويبدو أن الجيش العراقي مستعدّ للقيام بأي شيء كان لإثبات نصره، فقد صرفنا ساعة أخرى على تفقّد الآليات الإيرانية التي غنمها في «خرمشهر». ومنها مدفع مضادّ للدبابات مصنوع في أميركا بواسطة شركة «هيوز» ورمزه هو: (DAA-HOI-70-C-0525)، ومجموعة من عربات مصفّحة سوفياتية، وناقلة جنود أميركية، رسم عليها العراقيون بالطلاء الرذّاذ شعارهم لذلك اليوم: «غنيمة من الفرس الآسيويين العنصريين». وهكذا صارت الغنائم من الدروع جزءاً مملاً من دعاية الحكومة المتزايدة حول الحرب.

نقلونا بالباص إلى العمارة، الواقعة على بعد ١٦٠ كيلومتراً شمالي البصرة، والتي لا تبعد سوى ٥٠ كيلومتراً عن الحدود الإيرانية، كي نرى عشرين دبّابة من طراز «تشيفتين»، أُسرت على الجبهة الوسطى حول الأهواز، وهي جزء بسيط من ٨٠٠ دبابة من النوع ذاته باعتها بريطانيا للشاه، وقد أصيب بعضها بقذائف أو قنابل يدوية. تسلّقناها بجهد؛ ولاسيّما واحدة منها معطوب هيكلها وملقاة في حقل. وفتحتها مشرَّعة؛ فنزلت منها إلى مقعد السائق، ونظرت فوجدت في حقيبة على جدارها: دليل الدبّابات لوزارة الدفاع البريطانية، «محظور التوزيع»، ورمزه: (Wo 145571 ـ أما كيف يترجم طاقم الدبابة المحتوى من اللغة الإنكليزية، فهو سرّ لا ندركه. جلست هناك لحظة، فخطر ببالي أن طاقم هذه الدبّابة لم يبقوا على قيد الحياة بعد مجابهتهم للعراقيين. وبالفعل التفتّ إلى مقعد المدفعي على يميني، لأجد جثة رهيبة للإيراني المسكين ـ الذي دخل المعركة قبل عدّة أيام ـ بشكل هيكل متفحّم، مع الأسمال المحروقة للباسه الرسمي مدلّاة على عظامه كعلم صغير أسود؛ إنما لا تزال الجمجمة تحتفظ ببعض اللحم.

ولكن، لم يستطع العراقيون إخفاء خسائرهم. فقد صادفت شماليّ البصرة سيّارة أجرة بيضاء وبرتقالية واقفة في محطّة بنزين، بينما كان سائقها يتكلّم مع عامل المحطة، دون أن يأبه بالصندوق الذي يحمله على ظهر سيارته. فالتوابيت في العراق تُحمل على ظهر السيّارات، ولا تختلف عن غيرها في هذه الحال سوى بأنها ملفوفة بالعلم العراقي. كان ذلك التابوت لجندي ذاهب إلى بيته كي يدفن.

وبحسب جريدة «الثورة» البعثية، لم يُقتل سوى جنديين عراقيين خلال اليوم الفائت؛ مما يعني أني شاهدت صدفةً في محطة البنزين ٥٠٪ من ضحايا اليوم المنصرم. ولكن كانت هناك أيضاً أربع سيّارات أُجرة أخرى على الطريق ذاتها، كلها متجهة شمالاً بحمولتها الكئيبة، مع العلم الأحمر والأبيض والأسود، ونجومه الثلاث، يرفرف

على سطح التوابيت. مع العلم أننا لم نكن نرى هذه السيّارات في الأيام الباكرة للحرب، ولا هذا العدد الغفير من سيّارات الإسعاف التي تكاد تسدّ الطرقات الآن. ففي يوم واحد من الأسبوع الأول من تشرين الأول/أكتوبر، جلب الجيش ٤٨٠ جثّة إلى مستودع الجثث في بغداد. فلو جاءت هذه الجثث من القطاع الأوسط للجبهة، فهذا يعني أن الخسارة اليومية قد ترتفع إلى ٦٠٠ أو ٧٠٠ قتيل. ولذلك باتت الصحافة العراقية تمجّد الآن «تضحية» الجنود بأرواحهم في المعركة؛ وصار صدّام عندما يزور الجرحى المدنيين، كما حصل بتاريخ ١٢ تشرين الأول/أكتوبر في كركوك، يصف الإصابات بأنها «مداليات شرف».

وكان التلفزيون العراقي يوالي تغطيته المسرفة للنزاع ـ مع وقف موسيقى الحرب الخاطفة الآن ـ ويعرض بكثرة الدبّابات والمدافع، والطائرات الإيرانية المعطوبة، دون عرض صور للموتى من الطرفين. وعندما قدّمت محطة التلفزيون فيلم «همنغواي»: «لمن تُقرع الأجراس»، من بطولة «غاري كوبر»، أزالت منه السلطات بطريقة خرقاء المقطع الذي يصوّر جثث الجنود الجمهوريين الإسبانيين ملقاة على قارعة الطريق. إنما عاد العراقيون فيما بعد لعرض جثث الإيرانيين بتفاصيل غزيرة ومتوحّشة.

ومن بين المراسلين البريطانيين في البصرة، كان «جان سنو» من (ITN)، الذي كان زميلاً ممتازاً في زمن الخطر الشديد، نظراً لشجاعته وفكاهته. ولكنه لم يتصوّر أبداً المسرحية التي دُفع إليها في منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٠. كان «سنو» مقلّداً ماهراً للأمير «تشارلز»، مما كان يؤهّله لتمثيل ذلك الدور في مسرحية هزلية(*). وكان أيضاً مراسلاً منتظماً للكاميرا من شط العرب، جنوبي البصرة. وكان يشاهد تقاريره في لندن صاحب شركة الشحن البحري المسمّاة «سيلفرلاين» (أي الخط الفضّي). وقد مضى عليه ستة أسابيع، وهو يفتّش يائساً عن ناقلة بحريّة تخصّه تسمّى «التنّين»، يقودها قبطان بريطاني وحمولتها ٢٢ ٠٠٠ طن من زيت فول الصويا. وفجأة، رأى صاحب هذه الشركة سفينته تبدو على الشاشة وراء كتف «سنو»، عائمة، ولكن في وسط معركة. ولم يستطع المكتب الأجنبي أن يفعل شيئاً لمساعدته. فما كان منه إلّا أن عيَّن «سنو» وكيلاً رسمياً للشحن في البصرة، وثبَّت له تعيينه بالتلكس لصالح السلطات العراقية. كان على السفينة خمسون شخصاً، منهم تسعة بريطانيين، ولم يكن لديهم من وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي إلّا سفينة أخرى من بين عشرات السفن يقودها نرويجي وتتّصل يومياً بسفينة «التنّين». وقد أبلغ هذا القبطان «سنو» بأن قبطان «التنّين» وبحّارتها متلهّفون لمن يمدّ لهم يد الإنقاذ.

وقرّر «سنو» أن يطلب مساعدة العسكريين العراقيين، وأن يذهب إلى سفينة «التنّين» سباحة، لإعداد خطّة لإنقاذ بحّارتها. ولكن، لم تستطع البحرية ولا السلطات العراقية في البصرة أن تساعده بشيء سوى تقديم خريطة سياحية تحدِّد معالم هذا المجرى المائي الحيوي، الذي يحارب صدّام من أجل استرداده. كانت هذه طبعاً قصّة «سنو» الاستثنائية ـ مذهلة إذا نجح في تنفيذها، ومأساة إنسانية وسياسية للبحّارة وله ولـ (ITN)، إذا انتهت بكارثة ـ

(*) ادّعى «سنو» بدقّة أن الأمير «تشارلز» يلفظ هذه العبارة بشكل آخر: "thousands and thousands of pounds" as "thicends and thicends of pines". كما كان «سنو» قادراً على أداء منوّعات من اللهجات والنبرات الملكية في وضعيات الخطر الشديد.

ولكنه أخبرني شخصياً بأنه يجد صعوبة في الحصول على خريطة للنهر، قائلاً: «اسمع يا فيسكي، أيها الفتى العجوز، إذا استطعت أن تجد لي خريطة، سأسمح لك بأن تأتي معنا». فتذكّرت فوراً جدّي «إدوارد» الوكيل الأول للربّان في سفينة «كاتي ستارك»، وكل ما قرأته عن البحرية التجارية. فقد كان كل قائد لسفينة ملزماً بأن يحمل خرائط تفصيلية للموانىء والقنوات المائية التي يستخدمها، كما علمتُ. ولذلك رحت أفتّش حتى اهتديت إلى قبطان بحري من منطقة البلطيك، ذي لحية كبيرة، كانت سفينة الشحن التي يقودها راسية عند أرصفة البصرة، وهو الذي رضي أن يعيرني كشف الأميرالية البريطانية الذي لديه عن شط العرب. وقد نسخنا صورة وافية من هذه الوثيقة الرائعة ـ التي كانت آية من الفن الأوقيانوغرافي بشأن المحيطات، ومن الكفاءة التقنية ـ وقدّمناها إلى رجال الضفادع من البحريّة العراقية.

كانت كل عناصر المغامرة الكبرى في مكانها: ربّان سفينة «التنّين»، واسمه البحري الملائم «دايك»، الذي خطّط بالدرجة الأولى لعملية الإنقاذ؛ و«جاك سيمونز» الموظّف في القنصلية البريطانية، ذو الوجه المستدير، وصاحب النظّارة دون إطار، الذي وصل دون إعلان إلى البصرة، ولكنه لم يستطع أن يحصل على مساعدة من قِبل العراقيين. كما كان هناك أيضاً رائد من البحرية العراقية، بهي الطلعة، أشيب الشعر، هادىء، شجاع نبيل، خاطر بحياته من أجل بحّارة هذه السفينة البريطانية. لم يعطنا اسمه أبداً، ولذلك كان «سنو» يشير إليه بودٍّ وحفاوة قائلاً: «رائدنا». ثم كان هناك طبعاً «سنو» ذاته البالغ من العمر ٣٢ سنة، وطاقمه ـ المصوّر «كريس سكواير»، وضابط الصوت «فيجل ثومسپون» ـ وبالطبع فيسك، الذي سيعتبر هذه المجازفة آخر قصّة له من نوع «أوراق الصبيّ الخاصّة» (Boy's own paper) في حياته. أمّا باقي تقريري فسيكون حول المأساة.

رست سفينة «التنّين» في شطّ العرب منذ خمسة أسابيع، كي تُفرغ حمولتها من زيت الطهو بواسطة الصنادل (أي المراكب المسطّحة القعر المعدَّة لهذه المهمّة). ولكن عندما بدأت الحرب، وجدت نفسها محبوسة بين جيشين ـ كسائر السفن الكبيرة على النهر ـ فقد مشّطت المدافع والبنادق الرشّاشة سطح المياه وشاهد البحّارة لعدّة أيام الصواريخ المنخفضة المستوى تقشط سطح النهر حول هيكل سفينتهم. وقد تكلّم القبطان «دايك» مع «سنو» بواسطة الراديو الخاصّ بالقبطان النرويجي، واقترح تنفيذ الخطة بتاريخ ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر، وسمّى العملية «عملية الإجّاصة»، فاذا أخفقت أو أُجّلت، يمكن تكرار المحاولة بتاريخ ١٦ الجاري، إذ تصبح العملية «عملية التفّاحة». ولكنّ رائدنا أراد أن يزور القبطان «دايك» في سفينته «التنّين»، لمناقشة عملية الهرب. فوافق «دايك» على ما سمّاه «صعود الألياف» ـ مفترضاً أن الإيرانيين الذي يستمعون إلى محادثته لن يعرفوا أن تلك العبارة تعني: الحبل ـ إذا سبح المنقذون إلى سفينته.

وفي الساعة التاسعة مساء بتاريخ ١٥ تشرين الأول/أكتوبر، تسلّلت عُصبة غريبة عبر المزروعات المشبعة بالماء، على جزيرة في شط العرب ـ غير بعيدة عن «أمّ الرسّاس»، التي دبّرتُ مع «بيار بايل» هربنا منها قبل أيام قليلة. وكانت العصبة ـ العِصابة مؤلّفة من الرائد واثنين من رجاله الضفادع، و«سنو» ـ بالبذلة السوداء مع زعانف بيديه ـ و«سكواير»، و«تومسون»، وأنا. ولا شكّ في أن منظرنا كان مشهوداً ونحن ندلف في الظلام عبر الجزيرة

الاستوائية إلى مقطع النهر الذي نعلم أن سفينة «التنّين» ترسو فيه، ونحن نجرّ معنا قارباً مطّاطياً، من أجل محاولة الإنقاذ التي أخذها «سنو» على عاتقه. وفي الظلام الدامس، انسللنا عبر ممرّات الطين إلى بُحيرات ضحلة سيّئة الرائحة، وانزلقنا في الخنادق المنسيَّة، وتحرّكنا بتثاقل فوق جسور مهترئة لها صرير. ولمّا أثرنا مرةً حفيظة كلاب القرية المهجورة، فتح القنّاصة الإيرانيون النار على المزروعات لأكثر من دقيقة، سمعنا فيها أزيز الرصاص حولنا على مستوى الورك، عندما كان الإيرانيون يخمّنون مواقع المتطفّلين.

وحتى قبل أن نصل إلى ضفّة النهر، كنا نرى البنية الفوقية لسفينة «التنين» مضاءة كلّياً، وكذلك أنوار السير، كما وعد بذلك القبطان «دايك». كان صدى مولّدات الكهرباء في السفينة مسموعاً عبر غابة النخيل، وكانت مدخنتها البرتقالية الساطعة تبدو «سوريالية» من خلال ظلال جذوع الأشجار. وقد اكتشف «سنو» مع الرائد أولاً الخطأ الذي وقع. فقد طلب منهم «دايك» أن يصعدوا إلى سفينته عند الساعة ٩:٣٠ مساء من جهة ميمنة السفينة، عندما يكون الجزر قد أدار السفينة نحو الضفّة الغربية العراقية من النهر. وقد أضاء الجهة اليمنى من هيكل السفينة لهذه الغاية. لكنّنا جئنا إلى السفينة من جهتها المظلمة. أما الآن فكل إيراني يستطيع أن يرى الجهة اليمنى المضاءة من السفينة أمام الخطوط الإيرانية تماماً؛ وبالتالي، لا نستطيع أن نصعد منها.

جلس «سنو» على الضفّة محشوراً في زعانفه، وحدَّق في السفينة قائلاً: «يا للتفاهة!». نظرنا كلّنا إليه؛ ونظر هو إلى الرائد، وكذلك الرجلان الضفدعان. وقد اعتبر «سنو» فيما بعد هذا الحدث «كعمل جنوني لا يُضاهى». وكنّا شاكرين «سكواير»، و«تومسبون» وأنا لأنه لا دخل لنا في ذلك.

ثم انزلق «سنو» في المياه الموحلة، وإلى جانبه الرائد ورجلا الضفادع البحريان، وتسلّقوا قاربهم المطاطي، وهم يدفعون به ويجذّفون حتى وصلوا به إلى النهر. ولكنّ التيّار كان قوياً ـ فقد كان المدّ آنذاك في أعلى مستوى له ـ ولذلك استغرق معهم قطع ٢٠ متراً باتجاه السفينة حوالى عشرين دقيقة. وعند نقطة معيّنة، كما كنت أراهم بالمنظار، تعرّضوا لخطر انجرافهم وتجاوزهم للسفينة وخروجهم إلى عرض النهر. ولكنّهم تعلّقوا بسلَّم على الجهة المظلمة من السفينة، وصعدوا إليها.

صادف «سنو» أولاً البحّارة الفيليبينيين الذين صعقوا لظهوره بالبذلة السوداء والزعانف. كما تفاجأ أيضاً القبطان «دايك» الناشط المرح بوصول الجماعة قبل ثلاث ساعات من موعدهم. فالسفن تسير على توقيت «غرينتش» لا على التوقيت المحلّي. ولو وصل «سنو» والرائد العراقي بعد نصف الليل بنصف ساعة لكانت الساعة ٩:٣٠ بتوقيت «غرينتش»، وكانت الجهة اليمنى من السفينة تقابل العراق.

واتّفق «سنو» والرائد، و«دايك» على أن يتّجه ٢٣ من بحّارة السفينة إلى الشاطىء عند الساعة ٣:٣٠ صباحاً؛ ورأينا قارب «سنو» المطاطي يتّجه بصمت عبر النهر نحونا. وهكذا جلسنا خلال كل تلك الساعات الطويلة في الظلام، نراقب أنوار السير المشعَّة من «التنّين» والمنعكسة على المياه المتدفّقة، عندما دارت السفينة أخيراً مع

الجزر، وصرنا نرى وراءها نيران «عبدان». وكانت طلقات نار بعيدة تخور في الليل، بينما صرنا نحن طُعمة للبعوض. وعند حدٍّ معيّن، التفت «سنو» نحوي قائلاً: «يشعر المرء فعلاً بثقل المسؤولية الهائلة». كنت إذ ذاك أتساءل كيف يلفظ الأمير «تشارلس» هذا ـ فالعبارة كانت من خصوصيّاته ـ عندما انطلق من ظهر السفينة وميض مشعلين أحمرين، دلالة على بدء عملية «الإجّاصة». فأرسل «سنو» وميضيْ مصباح، ردّاً على ذلك. وسمعنا صوت رافعة تُدار بالماء يُهمهم بعلوّ مزعج فوق سكون النهر، تبعه صوت اصطدام. فقد تعطّلت البوّابة التي تقود إلى زوارق النجاة. كنا نرى البحّارة واقفين على ظهر السفينة، منتظرين فرج المغادرة؛ وتعاطفنا معهم بينما كان صوت ضربات المطرقة يتردّد صداه فوق النهر باتجاه الإيرانيين.

ثم أُنزل قارب النجاة، وصار شفيره يغطس في الماء، ويرسل باتجاهنا مويجات، لا بد أن الإيرانيين رأوها. ولكن عندما اصطدم القارب بطين ضفّتنا عند الساعة الرابعة صباحاً، زال خوف التوقّع عن رجلي الضفادع العراقيين، إذ انبرت فتاة إنكليزية على الظهر الزلِق للقارب تقول: «هل من أحد يساعدني لأنزل إلى الشاطىء؟». كانت تلك اللحظات من الهُنيهات الجوهرية الحبيبة إلى قلب الإنكلوسكسونيين؛ وكان البريطانيون يخدعون الخطر من جديد، بنزولهم على شاطىء استوائي تحت نور الهلال، مع إمكان نشوب قصف يقطّعهم إرباً، ومع ثلاث نساء شابّات بحاجة إلى حماية. وسررنا أيّما سرور برؤية قارب النجاة الصغير الذي جررناه إلى ضفّة النهر بضجّة كافية لإيقاظ أيّ إيراني ناعس على الضفّة الأخرى. وابتسم رجال البحرية العراقيون ابتسامات عريضة تدلّ على سعادتهم.

ولم يبقَ على السفينة سوى ١٣ رجلاً لحراستها. ولم يكن بين الذين أنقذناهم، والبالغ عددهم ٢٣ شخصاً، سوى سبعة بريطانيين، بحسب تقاليد ما بعد الاستعمار. أما الباقون فكانوا مجموعة من الفيليبينيين الأشدّاء، رجالاً صغار الجسم مرحين ضاحكين؛ صرخوا فرحين عندما أنزلناهم على الشاطىء ودفعناهم بفظاظة إلى الخنادق العراقية وراءنا. وقد ناولني العديد منهم كنوزهم التي جاؤوا بها من المنطقة الحرّة: كالراديوات، وأجهزة التلفزيون ـ وحتى غسّالة ثياب أوقعتها في الطين. وسرعان ما قادهم الجنود العراقيون داخل الغابة.

اهتم الضابط الأول في السفينة بأولئك البحّارة الذين لبثوا على ظهر السفينة ليحرسوها، وأعلن مهندسها أنه سيأخذ إجازة طويلة. أما «تيريزا هانكوك» زوجة أحد البحارة من «ستوك ـ أون ـ ترانت»، فكانت في شهر عسلها واحتفلت بعيد ميلادها الحادي والعشرين في شط العرب قبل ذلك بثلاثة أيام في حفلة صغيرة. ولكن القصّة السعيدة الكبرى كانت من نصيب البحرية العراقية التي نالت بهذه العملية مجداً ـ بتأديتها عملاً إنسانياً بشجاعة وتمهُّن ـ كما أن «سنو» نال أيضاً حصّته؛ وكان سبّاقاً إلى الإعلان عن تسمية نفسه منذ الآن بالكلمة العربية «الثلج». أما رائدنا العراقي المحبوب المقدَّر، فقد ذهبنا إليه في مكتبه المكيَّف لنشكره؛ فوجدناه يرشف لبن الزبادي، ويبتسم ابتسامات عريضة جداً من الأذن إلى الأذن؛ وهو عالم بأنه قلَّد لحية آية الله الخميني، وسار على تقليد «السير فرانسيس درايك».

لفّ «سنو» فيلمه وأعطاني إياه لآخذه معي إلى الكويت، حيث كانت بانتظارنا طائرة نفّاثة خاصّة استأجرتها محطة (NBC) الأميركية لأخذ فيلمها وفيلم (ITN) الإخباري إلى عمّان، ونقله من هناك فضائياً بالأقمار الصناعية إلى نيويورك ولندن. وحالما حلّقت بنا النفّاثة، قدّم لي ضابط المحاسبة في الطائرة شطائر سمك السلمون المدخّن وكأساً من الشمبانيا. ومن عمّان أرسلتُ قصّة «التنّين» إلى «التايمز». ثم غرقتُ في أعمق فراش بفندق «الأنتركونتيننتال». ومن ثمّ أفقت لأجد تلكساً ينكزني في الخاصرة ويقول ما معناه: «لماذا لم تسبح في شطّ العرب المليء بسمك القرش؟».

ولكن هنا تنتهي القصص السعيدة. ففي آخر شهر تشرين الأول/أكتوبر أدرك العراقيون أنهم عاجزون عن التقدّم في صحارى إيران، دون أي أمل في نصر سريع ـ وكانوا يطلقون صواريخ أرض ـ أرض على المدن الإيرانية. وفي أوائل ذلك الشهر، قُتل ١٨٠ شخصاً في «دزفول»، عندما أطلق العراقيون صاروخاً على السوق. وفي ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر، قُتل أيضاً مئة مدني آخرون، عندما أطلق العراقيون سبعة صواريخ روسية من طراز (Frog-7) على «دزفول». لقد بدأت حرب المدن. وكان ذلك محاولة مدروسة لإخراج السكّان من المدن والقصبات الكبرى عن طريق الإرهاب.

لقد جوبهت الحرب في إيران حتى من قِبل معارضي النظام الثيوقراطي الديني بالاستفظاع والروح الوطنية. فتبرّعت آلاف من نساء الطبقة الوسطى بجواهرهنّ التي تساوي ملايين الدولارات إلى «صندوق الحرب» الإيراني. وكان القائم بالأعمال الأميركي «بروس لاينجن» لا يزال أسيراً في وزارة الخارجية الإيرانية. قال: «عرفت أن هناك شيئاً يحدث، عندما سمعتُ ألحاناً عسكرية من مكبّر الصوت خارج وزارة الخارجية ـ تلك التي يستعملها الإيرانيون في المناسبات العسكرية. وسمعتُ فيما بعد أن العراقيين يستعملونها أيضاً. وفي تلك الليلة، استُعملت المدافع المضادّة للطائرات، وامتلأت السماء بالقذائف الخطّاطة، التي لا يبدو أنها تصيب شيئاً. وفي الواقع، كنا نرتاح عندما نسمع صوت صفّارة الإنذار، لأننا نعلم أن الطائرات العراقية تكون إذ ذاك قد ضربت وهربت».

كان الإيرانيون، على شاكلة صدّام، يحاربون الأعداء الداخليين والخارجيين على السواء خلال الحرب، لعلمهم أن بعض الجماعات مثل «مجاهدي خلق»، يتمتّعون بدعم ناشط من قِبل النظام العراقي. أما الموت المستغرب الذي أصاب وزير الدفاع الإيراني «مصطفى شمران» على جبهة القتال، فلن نستطيع تفسيره أبداً. ولكن لا شكّ في ما حدث عندما انفجرت قنبلة تزن ٦٠ رطلاً (باونداً)، في الساعة التاسعة مساء بتاريخ ٢٨ حزيران/ يونيو ١٩٨١ في اجتماع الحزب الجمهوري الإسلامي الحاكم، فقتلت ٧١ من قادة الحزب، وهم يستمعون إلى خطاب يلقيه «آية الله محمد بهشتي»، رئيس المحكمة العليا، وأمين عام المجلس الثوري، ورئيس الحزب الجمهوري الإسلامي، والمرشّح لخلافة الخميني. فقد دمّرت القذيفة جسور الحديد في المبنى، وعلى الأثر تداعت الأعمدة البالغ عرضها ٤٠سم من تأثير الانفجار، وسقط السقف على الضحايا. وكان بينهم أربعة وزراء من الحكومة، وستّة نوّاب للوزراء، و٢٧ عضواً من مجلس النواب الإيراني.

وكان «بهشتي» الذي مات معهم شخصية محيِّرة؛ إذ كان يبدو كمتآمر ذكي من القرن الثامن عشر، بوجهه النحيف، ولحيته الغبراء المستدقّة، ولهجته الألمانية الثقيلة، الباقية من أيام كان فيها إماماً شيعياً في ألمانيا. وعندما قابلته عام ١٩٨٠، لاحظت أنه يستعمل خليطاً فريداً من السلطة الفكرية واللطافة الحزينة، مما يجعله يشبه مزيجاً من الكاردينال «ريشيليو» و«السير آلك غينّس». ولعدّة شهور مضت كان يكيد للرئيس «بني صدر»، الذي ما عتّم أن عُزل. وقُتل «بهشتي» بعد أسبوع من عزله، فلم يتسنَّ له وقت لينال إربه منه.

لقد كان رجلاً له أعداء، ولا يتأثّر بالوباء المتنامي للإعدامات الجارية. وقد شرح لي ذلك مهتاجاً بعض الشيء، قائلاً: «ألا ترى أن هناك عدداً قليلاً جدّاً حُكم عليهم بالإعدام، بسبب فشلهم في وزارات (الشاه). لكنّ الذين حُكم عليهم بالإعدام يقعون في فئة أخرى ـ إنهم تجّار أفيون وهيرويين». ومن الواضح أن ذلك لم يكن صحيحاً؛ فمعظم الإعدامات تمّت لأسباب سياسية. قال «بهشتي»: «عندما تدرس تاريخ الثورات، تجد دائماً أن هناك مشكلات. وهذا أمر طبيعي. وعندما يقول الناس هنا إنهم غير سعيدين، فذلك لأنهم لم يختبروا الثورة من قبل. أجل، هناك مشكلات، ولكنها ستحلّ». وكان «بهشتي» يُعتبر خسارة كبرى للثورة ـ حتى وفاة الخميني عام ١٩٨٩ ـ لأنه نظّم الحزب الجمهوري الإسلامي على نمط الحزب الشيوعي السوفياتي، بشكل يجمع بين عدّة حركات ثورية تحت راية قائد واحد.

ومن قبيل المصادفة، نجد أن حمّام الدم الذي حصل بتاريخ ٢٨ حزيران/يونيو وراح ضحيته ٧٢ شخصاً، يساوي عدد الضحايا الذين ماتوا في معركة «كربلاء» عام ٦٨٠، وشملوا الإمام الحسين نفسه، وعائلته وأنصاره. وقد نوّه الخميني سريعاً بهذا الأمر، وذكر أن «صدّام وأميركا قد ضربونا من جديد عن طريق مجاهدي خلق». وسأل متهكّماً: «افترضْ أنك عدوّ للشهيد بهشتي... فما هو عداؤك لسبعين شخصاً من الأبرياء، وكثير منهم كانوا بين أفضل من خدموا المجتمع، والأعداء الألدّاء لأعداء الأمّة؟». ثم قُتل أيضاً «حسن آية»، أحد الأعضاء النافذين في مجلس النواب بتاريخ ٥ آب/ أغسطس. وبتاريخ ٣٠ آب/أغسطس قتلت قنبلة أخرى الرئيس «محمد رجائي»، الذي حلّ محل «بني صدر»، والرئيس الجديد لمجلس الوزراء، «محمد جواد بهنار». كما قُتل كذلك المدّعي العام «آية الله علي قدسي» بتاريخ ٥ أيلول/سبتمبر، وقُتل بعده بستة أيام الممثل الشخصي للإمام الخميني في تبريز «آية الله أسد الله مدني».

ولكن النظام ردّ على كل ذلك بقمع وحشي. وقد برز بين الإعدامات التي بلغت حوالى ستين إعداماً في اليوم، التلاميذ والطلاب. وأفادت بعض التقديرات عن شنق أو إعدام ما مجموعه عشرة آلاف من المشتبه بهم ـ وهو العدد الذي قُتل من الإيرانيين في الأشهر الستة الأولى من الحرب الإيرانية ـ العراقية. فكما كان صدّام يحاول القضاء على حزب «الدعوة» كامتداد عسكري شيعي، كان الخميني من جهته يحاول إزالة «مجاهدي خلق» كفرع من فروع حزب البعث. وقد جعلت هذه الثنائية في الأعداء كلا الطرفين يتخذ خطوات لإبادة خصومه في ساحة المعركة، وفي السجون وقاعات التعذيب.

وعندما زرتُ طهران في ربيع عام ١٩٨٢، لأجري استقصاءاتي بشأن تلك الإعدامات الجماعية، أخبرني الناجون من سجن «إيفين»، بأنه تمَّت ٨٠٠٠ عملية شنق أو إعدام. وحصل تطوّر وحشي لدى حرّاس الثورة البالغين من العمر ١٤ سنة، بسبب اشتراكهم في عمليات القتل. ومن بين ١٥٠٠٠ معتقل ممَّن لم يعدموا، وممَّن يُفرج عنهم اليوم ـ جزئياً بسبب إدانة منظمة العفو الدولية للعدالة الإسلامية في إيران ـ هناك من أدلى بإفادات عن وحشية مرعبة. وحدث بعد اغتيال بهشتي، ورجائي، وبهنار، أن طُلب من المساجين أن يبرهنوا عملياً على ندمهم وتوبتهم بأن يشنقوا أصدقاءهم. وكانت هناك ثلاث مراحل في هذا التطهّر: خنق زملائهم السجناء فعلاً، أو قطع حبل مشنقتهم، أو وضع جثثهم في التوابيت. وهكذا كان السجناء يخرجون من سجن «إيفين» بعد التنقية، إنما أيديهم ملوّثة بالدم. فقد مُحيت الاشتراكية الإسلامية؛ ولم ينجُ من الموت سوى قليل من اليساريين، ممَّن هم قادرون على إطلاق النار على نائب وزير الخارجية الإيراني في نيسان/أبريل عام ١٩٨٢. وإنما جرى تحطيم «مجاهدي خلق».

وفي آخر الشوط، ادَّعى صدّام الاستيلاء على «خرمشهر»؛ وأقرّ الإيرانيون بأنهم فقدوا الاتصال بقوّاتهم التي لا تزال في المدينة. وصار الإيرانيون منذ الآن يسمّون تلك المدينة «كومين شهر» أي «مدينة الدم». ولم يستطع العراقيون احتلال «عبدان»، لكنّ صدّام زجّ بعشرات الألوف من الجنود في «خرمشهر»، وأعلن العراق أنها ستكون «ستالينغراد» أخرى. وكانت تلك صيغة باكرة من «أمّ المعارك» التي هدّد بها صدّام دائماً دون أن يخوضها. وبعد ١٥ شهراً من بدء الحرب، وجد الجيش العراقي أن خطوط تموينه وإمداداته صارت مترامية الأطراف، فقرّر استراتيجياً الانسحاب، وبناء خطّ دفاعي ضخم على طول حدوده مع إيران، تاركاً وراءه أرضاً محروقة. وقد احتلّ العراقيون «الحويزة» البالغ عدد سكانها الذين يتكلّمون العربية ٣٥٠٠٠ نسمة، بتاريخ ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠. ولكن عندما عادت إليها القوّات الإيرانية في أيار/مايو ١٩٨٢ وجدتها مسطّحة بعدما هُدمت كل مبانيها البالغ عددها ١٩٠٠ مبنى، ما عدا مبنَيين لا يزالان واقفين، وهما: الجامع المتضرر الذي كان مركز مراقبة، ومنزل آخر كان مركزاً للقيادة؛ حتى إن الأشجار اقتلعت. وهذا ما فعله الإسرائيليون بمدينة «القنيطرة» السورية بعد حرب ١٩٦٧. وعند هذا الحدّ، تخلّى صدّام عن هدف أساسي للحرب هو تحرير «عربستان» أي «خوزستان». وكان الإيرانيون هم الرابحين. وصارت إيران الآن ترحّب بالصحافيين الغربيين بمودّة وحفاوة، كما كان العراق يرحّب بهم خلال «الحرب الخاطفة» الوهمية.

وكانت «دزفول» أول خيبة كبرى للجيش العراقي. ففي أواخر شهر آذار/مارس ١٩٨١، قام الإيرانيون بهجوم مضادّ ساحق، قوامه ١٢٠ ٠٠٠ جندي وحارس للثورة، ومتطوّع، وغاصوا في الصحراء باتجاه الخطوط العراقية، فأسروا ١٥٠٠٠ جندي عراقي، واستولوا على ٣٠٠ دبّابة ومدرّعة، واستعادوا ٤٠٠٠ كيلومتر مربّع من أراضيهم. وعندما وصلتُ إلى مسرح الانتصار الإيراني، كانت ساحة المعركة صامتة تماماً. وكانت هناك ورود برّية بجانب الطريق جنوبي «دزفول»، فضلاً عن نمل عملاق يخرق أرض الصحراء. وكان رجال المدفعية الإيرانية يجلسون تحت ظُلّة مدافعهم المضادّة للطائرات، وينظرون إلى السماء الخالية، من وقت إلى آخر. وكانت الدبّابات العراقية

التابعة للفرقة المدرَّعة الثالثة، مسحوقة ومنزوعة الأحشاء بنار الصواريخ، ودروعها مقشَّرة، كما لو قُشِّرت بفتّاحة عُلب، وملقاة تحت حرّ الشمس بعد الظهر، شاهدة على ما أصرَّ الإيرانيون الرافضون على تسميته «عمليّة النصر البديهي».

وكان الصمت الذي يخيّم على الصحراء، يدلّ على مدى نجاح الإيرانيين، وعلى واقع الأمر الغريب بعدم الردّ على إطلاق النار إلا لِماماً؛ فقد أوقف الجيش الإيراني تقدّمه على طول خطّ مستقيم هندسياً يبلغ حوالى ٦٥ كيلومتراً. وهو يمتدّ من سلسلة التلال الواقعة شمالي غربيّ «دزفول» إلى مستنقعات «سَنْدل»، حيث تغوص الدبابات والمدرعات العراقية في عمق الوحل؛ بعدما ساقتها إلى هناك قوّات صدّام المنسحبة تحت شعور الإحباط والخوف. وقد أعلن الإيرانيون عن توقف هجومهم في قطاع «دزفول» ـ على بعد ٥ كيلومترات تقريباً من الحدود العراقية ـ ومُنعوا من التقدّم عبر الحدود الدولية، بأمر من الخميني.

وكان الكولونيل «بيروز سليمان جار» من فرقة المشاة ذات الرقم ٢١، دقيقاً عندما كلّمنا، وعصاه بيده، في مركز قيادته المظلم تحت الأرض الواقع على سفح سلسلة من التلال المنخفضة. قال بثقة عسكرية: «لا يُسمح لنا بتجاوز الحدود، بتوجيه من الإمام». ثم ربَّت على خط نهر أزرق غير مستقيم ظاهر على خريطته المغطاة «بالبوليثين»، وأردف قائلاً: «باستطاعة جنودنا أن يتجاوزوا ذلك النهر، ولكن الإمام لا يسمح لهم. فهدفنا الاستراتيجي هو دفع جنود العدو، وإرجاعهم إلى أراضيهم». وكلّما تكلّم الكولونيل ـ بتواضع ظاهري ـ عن الهجوم المفاجىء الذي حصل بتاريخ ٢٢ آذار/مارس، ردَّت جوقة الموجودين معنا في آخر المخبأ، من ضبّاط صغار الرتبة، وشيوخ، بهتافها: «الله أكبر؛ فلتسقط أميركا؛ فليسقط الاتحاد السوفياتي». لن تكون أيّة تعليمات عسكرية أبداً مثل هذه التعليمات.

كان الخميني قد وعد في وقت سابق بأن جيوشه لن تغزو البلدان المجاورة. كما كان حجّة الإسلام «رفسنجاني» رئيس مجلس النواب، قد وعد أيضاً «بأن إيران ليس لها أيّة أطماع في أرض العراق». وكل ما تريده إيران هو تلبية أربعة مطالب: طرد الجنود العراقيين من الأراضي الإيرانية؛ وعقاب المعتدين؛ والتعويض عن أضرار الحرب؛ وإعادة لاجئي الحرب إلى ديارهم. وأوضح الإيرانيون أن عقاب المعتدين يعني إطاحة صدّام حسين؛ وهو أمر لن يسمح به العرب أو أميركا؛ ولاسيّما بعد إصرار الإيرانيين على إنهاء حكم صدام؛ كما حدث في معركة «دزفول» الدامية التي قُتل فيها ٤٠٠٠ عراقي بحسب التقديرات.

وقد حشرنا الإيرانيون، «جان كيفنر» من «النيويورك تايمز» وأنا، في مروحية حربية من طراز «بيلا ـ أوغستا» مع جماعة من الشيوخ (الملالي). ـ وكان الطيّارون قد تدرّبوا في الولايات المتحدة الأميركية طبعاً ـ وطاروا بنا كيلومتراً بعد كيلومتر فوق الحُطام والجثث. إنه منظر هائل لمذبحة بحدّ الشفرات القاطعة، ونحن نجول بمروحيّتنا بين التلال والوديان التي لا نكاد نراها حتى تطالعنا فجأة. وقد وضعنا كل ثقتنا في الربّان، وسلّمنا أمرنا لله، وخلدنا إلى التمتّع تقريباً بهذا الطيران الجنوني. وكانت كومة من موتى الجنود العراقيين قد جُرفت إلى قبر جماعي

ـ ووضعت على المكان إشارة «مقبرة المعتدين»، فوق طين تلك المدافن ـ ولكن بقي من القتلى مئات لا يزالون منطرحين تحت الشمس. وكثير منهم لم يبرحوا المكان الذي قُتلوا فيه، في مجاري الأنهار الجافة؛ وتُمكن ملاحظة تحلّل جثثهم من مروحيتنا. وقد حوّم الربّان بمروحيته عدّة مرّات فوق كومة من الجثث، بينما كانت رائحة تعفّنهم تطغى على طائرتنا، والشيوخ يصيحون: «الله أكبر»، و«كيفنر» وأنا نسدّ أنفينا. وكانت الجثث منتفخة بفعل الحرّ تحت الملابس الرسمية الرثّة. وكنا نستطيع أن نرى حرّاس الثورة قربها، يحفرون مزيداً من القبور الجماعية لعسكر صدام.

وعندما هبطنا بمروحيتنا وراء ما كان يعتبر خط الجبهة العراقية، ركض حراس الثورة مثل كثيب النمال، من بين سراديب المخابىء وصناديق الذخيرة ـ ولم يكن هناك تقريباً أي دليل على قصف مرتقب، أو قصف مبدئي كاسح بالمدفعية الثقيلة، بالأسلوب الذي تستخدمه الجيوش التقليدية. وكانت المواقع العراقية المهجورة قائمة لم تُمسّ؛ كما لو أن شاغليها أُخذوا من فراشهم ليلاً وهم نائمون، تاركين خنادقهم وسواترهم معروضة للزائرين الغيلان ـ مثلنا ـ الذين يتابعون شأن كل حرب من الحروب. وقد دعانا الإيرانيون لدخول مخابىء أعدائهم. وكان من اليسير معرفة سبب هذه الدعوة؛ فقد كانت تلك المخابىء مجهّزة بمكيّفات الهواء، والتلفزيونات، والفيديوات، والأفلام، وصور نساء شابّات من المجلّات. وكان لدى أحد الضبّاط ثلّاجة مليئة من الجعة، ولدى آخر سجّادة عجمية على أرضيّة الإسمنت. وهذه هي «ساتورناليا» اللهو والعربدة التي ندّد بها الخميني، بأوسع تجلّياتها. فصدّام لم يرد أن يتمرّد جنوده ـ حسبما كان يدعوهم الخميني ويحثّهم تكراراً ـ ولذلك رفّههم. فكيف يستطيع جيش مدلّل مثل هذا أن يحارب عندما يهاجمه الإيرانيون بعشرات الألوف؟

وتعلّم الإيرانيون أن مجابهة الهجوم المدرَّع العراقي الواسع النطاق بدبّابات «تشيفتين» الضعيفة الصيانة كان نوعاً من الانتحار ـ ونتج عن ذلك تحطّم عشرات من تلك الدبّابات المعطوبة في المعارك الأولى التي جرت قبل سنة حول «دزفول»، والتي لا تزال ملقاة في الصحراء. ففي «عين الكوش»، تمشّيت حول الدبّابات العراقية المعطوبة ساعة من الزمن. ولاحظت واحدة منها وقد نُزع برجها بكامله من قاعدته واستقرّ مع ماسورة مدفعه غير ممسوس بجانب حقل صغير، وكان قد تجمهر حول الدبّابة المقطوعة الرأس وحول برجها مجموعة من الجنود والفلاحين الإيرانيين، وكلهم يحملون بأيديهم محارم يسدُّون بها أنوفهم.

وكان الموتى من طاقم الدبّابة غير واضحي المعالم؛ وكأنهم مخلوقات ورقية محروقة، قادمة من كوكب آخر، وما زال كلّ منهم في موضعه؛ وجثّة المدفعي مسحوقة تحت البرج. وكانت حصيرة من الذباب متعلقة بهذه المدرّعة المنكوبة. وتطلّع أحد الجنود الإيرانيين إلى السماء ثم مرّ بيده سريعاً على لحيته القصيرة، احتراما لله تعالى الذي منّ عليهم بالنصر الدموي على أعدائهم. ولكنّ الدبّابة نفسها لم تُقصف وتُدمَّر ـ فلم تكن في المنطقة حُفرة لقنبلة، بل فجوة مثلومة في درع الدبّابة قرب صفائح البرج؛ مما يدلّ على أن إصابتها حدثت بفعل صاروخ مضادّ للدبّابات يطلق باليد. وفي الصحراء أصيبت دبّابات عراقية أخرى بالطريقة ذاتها.

وقد أصبح واضحاً أن الإيرانيين لم يستخدموا المدفعية الثقيلة أو الدبّابات بشكل يذكر في معركتهم التي دامت ستّة أيام. فقد أرسلوا الرجال بأعداد هائلة إلى الخطوط العراقية، وفاجأوا أعداءهم. وكان الإيرانيون يجرّبون الهجوم بالأمواج البشرية. فقد اندفع آلاف من الشباب يحملون رشّاشات وقنابل تُطلق صواريخ، وغمروا الخطوط العراقية المجابهة، بكل بساطة. وقد لفت أحد الضبّاط الإيرانيين نظرنا بغرور إلى «أن الغربيين خاضوا حربين عالميّتين، وأعطونا أدلّتهم العسكرية لاستعمال الأسلحة. ولكننا الآن سنكتب للغرب أدلّة التكتيك ليقرأها. وقد لاحظنا خلوّ الصحراء من جثث الإيرانيين؛ لكننا شاهدنا بكل تأكيد من طائرتنا المروحية آثار عجلات رفيعة عبر الرمال. هل هذه الآثار تدلّ على ما خلّفته الدرّاجات النارية للجنود الصبيان الذين سمعنا عنهم؟ أولئك الأولاد البالغين من العمر ١٤ سنة وأخوتهم الذين شُجّعوا على أن يحملوا سيف الاستشهاد حول أعناقهم، وهم يسوقون درّاجاتهم عبر حقول الألغام العراقية لتفجيرها بأنفسهم، تمهيداً لتقدّم المشاة؛ وهم يرتدون سترات شتوية ثقيلة، تسهيلاً لجمع ما تناثر من أجسادهم بغية دفنها في قراهم. وقد طلبتُ مع «كيفنر» أن نرى الناجين من المعركة الأصغر سناً. وفهم الإيرانيون فوراً قصدنا.

وتحت قصف المدافع، أخذونا إلى الخطوط الإيرانية على الجبهة الجديدة المحميّة بالسواتر الرملية، عند مرتفعات «دوسالوك». سرنا في الخنادق مثل جنود الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨. فهذه الحرب الإيرانية ـ العراقية باتت تشبه فجأة الحرب التي قبرت العديد من مئات الألوف في مواقع «الصوم» و«فردان» في أوروبا. وكان المخبأ الذي التجأنا إليه صغيراً، مع غبار كثيف في هوائه. وكانت هناك أسلحة من الغنائم على الطين وعلى الجدران المؤطّرة بالخشب ـ مدفع رشّاش، وبندقية رشّاشة ـ وبعض الخُوَذ الفولاذية الملقاة في الزاوية. وكان الضوء يتسرّب إلى داخل هذا المستودع من ناحية أكياس الرمل عند الفوّهة، ويرينا معالم الصبيان الموجودين في الداخل بمنظور ذي بعدين، كرسم مُجمل للموت الذي يترصّد الجميع في الجبهة. لم يكن هناك غضب رهيب للمدافع؛ بل نبض مكتوم يحصل في بعض الأحيان، ليدلّ على أن العراقيين لم يتخلّوا عن مدفعيتهم كلّها عندما انسحبوا من «دزفول».

وهنا، تنتهي المقارنة المتوازية. فالصبيّ المتحمّس الأصغر سنّاً ـ الذي رحّب بنا عند المدخل ـ لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ولم ينفعل صوته من الخوف أو من الرجولة. وكان أكبرهم سنّاً في الحادية والعشرين؛ وهو إسلامي متطوّع من «حملة إعادة البناء» الإيرانية التي تشرح لنا وتؤيّد وتدافع بالحجّة عن مبادىء الاستشهاد، بينما يتناهى إلينا دويّ المدافع من بعيد. وفهمت أن «الاستشهاد» كان موضوع مناقشة مستفيضة في هذا المخبأ، لأنهم شاهدوا أمثلة وافرة عليه.

قال الصبيّ البالغ من العمر ١٤ سنة إن اثنين من أصدقائه من «كرمان» استُشهدا في معركة «دزفول» ـ واحد بعمره وآخر أكبر بسنة فحسب. وقد بكى عندما أخّرت السلطات رحلته إلى جبهة المعركة. فسألته: هل بكيت؟ وهل يبكي الولد لأنه لم يستطع بعد أن يموت؟ ـ وهل نحن الآن على شفا حروب أطفال، وليس شفا حروب

يُقتل فيها الأطفال ـ كما تخصّصنا نحن في ذلك خلال القرن العشرين الميلادي ـ أهي حروب يذهب فيها الأطفال، والصبيان بصوت غير مرتعش، ليقتلوا غيرهم؟ ـ لقد كانت تعليقات الصبي، ابن الرابعة عشرة مرعبة لا تُصدّق، وإنما حقيقية في الوقت ذاته؛ وبالطبع غير محضّرة، لأننا دخلنا إلى مخبأه بالصدفة، ملتجئين من القصف الدائر في الخارج.

ولم يكن هناك شكّ في مَن مِن هؤلاء الجنود الصبيان يفهم بوضوح إيديولوجية الاستشهاد داخل هذا المستودع الرملي الترابي الذي يشيع في النفس الخوف من الأماكن المغلقة. فعندما سألتُ عمّا يظهر من رغبة الإيرانيين في الموت في المعركة، أومأ الجنود إلى شابّ ملتحٍ وانفعالي يحمل بيده بندقية رشّاشة، ويجلس القرفصاء على سجّادة قذرة قرب المدخل. قال ما معناه أن من الصعب أو بالأحرى من المستحيل على الناس في بلاد الغرب أن يتفهّموا تسلّط فكرة الاستشهاد البادية على إيران. فهل يريد هذا الشاب أن يموت في هذه الحرب؟

رفع الشابّ صوته بانفعال رتيب، واعظاً بدلاً من أن يجيب عن سؤالنا. إنه «حسن قصقاري» جندي من «حملة إعادة البناء»، يدفعه إيمانه إلى تجاوز مثل تلك الأسئلة. قال: «يستحيل عليكم في بلاد الغرب أن تتفهّموا هذا الأمر. إن الاستشهاد يقرّبنا من الله تعالى. فنحن لا نسعى في أثر الموت ـ ولكننا نعتبر الموت رحلة من شكل من أشكال الحياة إلى شكل آخر. والاستشهاد خلال مجابهة أعداء الله يدنينا من الله. وهناك مرحلتان للاستشهاد: التقرّب من الله تعالى، وإزالة العوائق القائمة بين الله والناس. وأولئك الذين يضعون عوائق في سبيل الله في هذا العالم، هم أعداء الله».

ولا شكّ في أنه اعتبر العراقيين من هذه القوّات الدينية المعادية. وإذ ذاك جأر صوت المدفعية عالياً، كإشارة من السماء، لا من جيش صدّام حسين؛ فرفع «قصقاري» سبابته نحو السماء. وانتظرنا لنرى أين سقطت القذيفة، خائفين من تلك الإصابة المباشرة التي يفضّل جميع الجنود أن لا يفكّروا فيها. حصل الانفجار وراء الخندق والمستودع؛ ولكنه هزّنا في مخبأنا. وأعقب ذلك صمت. لم أتصوّر أنّ مثل هذا الخطاب قد يُلقى في مخبأ عراقي، أو في أي جيش آخر. وربّما يتكلّم قسّيس بريطاني وأميركي كلاماً دينياً بمثل هذا الخيال. ولكنني أدركت أن هؤلاء الجنود الصبيان الإيرانيين كانوا كلّهم رجال دين واعظين، مؤمنين؛ كانوا كلهم من «أتباع الإمام» ـ وصرتُ الآن أفهم هذا التعبير ـ ثم سمعنا صوت انفجار آخر خارج الخندق.

بدا «قصقاري» ممتنّاً لانفجار القذيفة وأعلن ما يلي: «إن واجبنا الأول هو أن نقتل القوّات العدوّة، بحيث يسود نظام الله أينما كان. وإذا استشهد المرء فليس ذلك أمراً سلبياً. فقد قَتل الحسين، الإمام الثالث، مَن استطاع قتلهم من أعدائه قبل أن يستشهد ـ ولذلك يجب علينا أن نحاول البقاء أحياء». وإذا لم نفهم ذلك، بحسب قول «قصقاري»، فذلك لأن النهضة الأوروبية في عصر التنوير استبعدت الدين. ولم تهتمّ بالأخلاق، بل ركّزت على المادّيات. ولم يكن هناك من حدٍّ نضعه لهذه المفاجأة، أو من فرصة لتطعيمها بحجج حول الإنسانية والمحبّة. فقد أردف قائلاً: «لقد حصرت أوروبا والغرب هذه القضايا في قشور كنائسهم. والغربيون هم مثل السمك في الماء، الذي لا يفهم سوى المحيط المباشر الذي يعيش فيه. فهم لا يهتمون بالروحانيات».

عندئذٍ ودّعنا «قصقاري» دون سوء نيّة، وأعطانا برتقالاً عندما غادرنا مخبأه لنخرج إلى الرمل الساطع الخطر في الخارج. فكيف نودّعهم نحن؟ ـ نظرنا في عيونهم، عيون الأولاد الذين لهم أسلوبهم في الحياة والموت؛ لقد بدأوا رحلتهم. ثم سقطت القذيفة التالية وراءنا على بعد حوالى مئة متر، بينما كنا نركض على طول الخندق. وكان انفجار رعدي، أثار دخاناً أسود وأغبر، ونسف جزءاً من الطريق في الهواء، وأخافنا، لا بناء على الخطر المحدق بنا فحسب، بل لأنه وضع الاستشهاد في منظور مرعب.

عدنا إلى مدينة «دزفول» المبتهجة جدّاً، قبل أن يستعر غضب صدّام بساعة، ويبدأ بأخذ ثأره؛ إذ أحدث انفجارين كبيرين، تبعهما ارتفاع أعمدة قاتمة من الدخان الأسود، في أحد أحياء المدينة السكنية الأكثر فقراً. وكان ذلك الهجوم هو العاشر بالصواريخ أرض ـ أرض على «دزفول»، منذ بداية الحرب. وكانت مشاهد هذا الهجوم رهيبة ومألوفة: نصف طفل، ورأس امرأة على حجارة منزلها المهدّم، وسلسلة من الأذرع والسيقان مطروحة بعضها قرب بعض، إلى جانب سلسلة من الجذوع، لعلّ أحداً يجمع الأطراف مع الأجسام الصحيحة، ومئات من الرجال بارزة أيديهم من تحت حُطام حجارة الآجرّ التي يبني بها معظم الإيرانيون بيوتهم دون إسمنت أو هيكل يدعمها؛ لأنها رخيصة. وكأنها بُنيت من أجل التدمير السهل.

وفي أوائل العام ١٩٨٢، كان الإيرانيون يهدّدون باجتياز الحدود مع العراق. فقد استُبدِل بوعود الخميني بالمحافظة على حرمة الأراضي العراقية مفهوم عملي جديد. فإذا كان دخول العراق ينهي الحرب، فإن الجنود الإيرانيين قد يفعلون ما فعله العراقيون في أيلول/سبتمبر عام ١٩٨٠. وقد كرّر الخميني الكلام على ما يقاسيه الشيعة العراقيون، معبّراً عن بعض الإحباط الذي يعانون منه. فهل يكتفي الخميني برأس صدّام؟ ـ لا شكّ في أنه يريد نظاماً عراقياً إقطاعياً على شاكلة نظام إيران، أو ما يشبهه، وهو ما بدأ العرب يخشونه.

ولم يكن صعباً أن نسبر مكنونات هذا الأمر. فالطائفة الشيعية في لبنان هي الأوسع ـ وإن لم تشكّل الأكثرية ـ وسوريا يحكمها فعلاً العلويون، وهم طائفة شيعية في كل شيء ما عدا الاسم. وإذا حكمت الأكثرية الشيعية العراق، يمكن أن تتألّف دولة شيعية تمتدّ من البحر الأبيض المتوسط إلى حدود أفغانستان، فيها النفط ومياه النهرين الكبيرين دجلة والفرات. فيمكن في هذه الحال، أن يستولي الخميني على نفط إيران والعراق، ويقاطع «أوبيك» ويبيع بأسعار أدنى، ويسيطر على أسعار النفط العالمية، ناهيك بسيطرته على مياه الخليج والجزيرة العربية. وهذا على الأقلّ هو كابوس العرب والأميركيين، والخوف الذي كان يعزّزه صدّام باستمرار. فهو يصوّر نفسه الآن كمدافع عن أراضي العرب، ويسمّي حربه مع إيران «القادسية الجديدة»، تلك المعركة التاريخية التي وقعت عام ٦٣٦م، وانتصر فيها القائد العربي سعد بن أبي وقّاص على الجيش الفارسي الأكبر من جيشه بقيادة رستم. وتصف بغداد الإيرانيين الآن بلغتها الرسمية بأنهم «الوثنيّون الزرادشتيون».

وفي البصرة، عرض العراقيون علينا أسرى الحرب الإيرانيين؛ كما أخذنا الإيرانيون لمقابلة الأسرى العراقيين ـ البالغ عددهم كلهم ١٥٠٠٠ أسير. ففي مخيّم أسرى الحرب في «پارنداق» في شمالي إيران، جلس هؤلاء

الأسرى العراقيون القرفصاء على أرض ميدان تعصف فيه الريح، ويمتد نحو ميل، وكثير منهم بلحى حسنة التشذيب، ويضعون حول أعناقهم صورة ملوّنة للخميني، وعيونهم تتحرّك بأسلوب لا يضبطه سوى الأسر؛ يدرسون أحوال بعضهم بعضاً بعصبية، ثم يحدّقون في حرّاسهم، مشدوهين بضخامة استسلامهم. وعندما أخبرهم رئيس الأركان الإيراني، الأشيب، ذو النظّارة، عن عدم العدالة في العراق، صاحوا جميعاً: «فليسقط صدّام حسين».

لم يكن ذلك غسل دماغ بالمعنى المقبول للعبارة. ولا يمكن حتّى أن نسمّي ذلك تطبيعاً. فلا شكّ في ما يحاول الإيرانيون أن يفعلوه في «پارندك»، ألا وهو: جعل جنود صدّام أكثر خطراً على نظامه البعثي من الجيش الإيراني الذي يشقّ طريقه نحو الحدود العراقية. وعندما كان يُذكر اسم الخميني كان له صدى عام على امتداد أرض الميدان، يردّده الآلاف من الجنود العراقيين، الذين ركعوا وهم يؤدّون الصلاة، ويعبّرون عن إجلالهم وولائهم للمعتقد الإسلامي الذي أطاح بالشاه.

كان هناك بعض المنشقّين، والحقّ يقال، في صفوف الجنود العراقيين، الذين احتفظوا بهويّتهم السياسية والإسلامية. وفي آخر صفّ من صفوف قُدامى الأسرى ـ المحتجزين منذ أكثر من عام ـ صاح جندي عراقي: «إن صدّام رجل طيب»، فوافقه بعض رفاقه بإحناء رؤوسهم وشرح لنا ذلك أحد الموظفين الإيرانيين بثقة المعتاد على الكذب قائلاً: «لم يقل الرجل صدّام ـ بل كان يحييكم بكلمة السلام». وقد رفض بعض مئات من الأسرى أن يصلّوا. فقال الموظف ذاته: «إنهم لم يتوضّأوا قبل الصلاة، لم يتطهروا».

وكان الخميني قد أصدر تعليماته المحدَّدة من مسكنه في شمالي طهران، بأن يُعامل أسرى الحرب العراقيون معاملة حسنة، وأن يُعطوا جميع حقوق الأسرى. وقد تمّت زيارة هؤلاء السجناء من قِبل الصليب الأحمر الدولي، واستمعوا إلى محاضرات باللغة العربية كل يوم، ألقاها ضبّاط إيرانيون شرحوا لهم أن الولايات المتحدة الأميركية، وفرنسا، وبريطانيا، وغيرها من بلاد الغرب دعمت كلّها هجوم صدّام حسين على إيران عام ١٩٨٠. وبالطبع لم تكن هناك معارضة من جمهور المستمعين الواسع هذا. وعندما كان الأسرى العراقيون يركعون للصلاة كانوا ينزعون صورة الخميني من أعناقهم، ويضعونها على الأرض أمامهم، ثم يمسّونها برؤوسهم عند السجود. وفي ثكنات الجيش كان هؤلاء الرجال ـ بمن فيهم رجال المظلّات الذين جيء بهم من جبهة القتال يوم هذه الزيارة بالذات ـ لا يزالون يلبسون طواقيهم الزرقاء ويتلقّون دروساً أسبوعية من قِبل الشيوخ (الملّات) حول معنى الإسلام. وكان قد سبق لهم أن تسلّموا جريدة طهران اليومية «كيهان» مطبوعة باللغة العربية من أجلهم.

وعندما عاد هؤلاء إلى العراق، لا بدّ أن يكون بعضهم، لا بل نسبة جيّدة منهم قد نقلوا دروسهم معهم من الأسر، كحافز من أجل الإطاحة بصدّام حسين ـ أو كاستلهام لمعارضة أيّ جيش آخر يتجرأ على السيطرة على بلادهم، في ما سيأتي من السنين. ولم نعلم نسبة الشيعة والسنّة بين أولئك الجنود العراقيين الشباب.

لم يسمح لنا الإيرانيون بالتكلّم مع الأسرى، مع أنهم أرونا أكثر من مئة محجوز من «ضيوفهم» كما يسمونهم

باستمرار ـ من الأردن، ولبنان، وتونس، ونيجيريا، والصومال الذين كانوا بين الأسرى العراقيين. وادَّعى صاحب مكتبة ملتحٍ من زحلة بلبنان ـ وهي مدينة مسيحية ـ أنه أُجبر على التطوّع عندما كان يشتغل في بغداد. أما الصومالي «فوزي حجازي»، الخائف، والمبتسم، فقد طلب مني أن أُعلم سفارته عن وجوده. لقد كان طالباً صاحب منحة في جامعة بغداد، بحسب قوله، عندما ضغطت عليه زمرة للتطوّع في الجيش. ولم يزره موظفو الصليب الأحمر. وعند هذا الحدّ منعه الحارس الإيراني من متابعة الكلام.

والآن في زياراتنا مع مرافقينا إلى الجبهة الإيرانية، أصبحنا نرى ملامح الثقة بالنفس تعود إلى الإيرانيين. فقد أصبح حرّاس الثورة هم العمود الفِقري للقوة العسكرية الإيرانية. وهم يفدون بكثرة هائلة كمتطوّعين «باسيجي» (Basiji) من المناطق الريفية، أولاد مدارس ومتقدّمين في السنّ، وعاطلين عن العمل، وحتى المرضى. وقد نُشر كتيّب عن التاريخ الرسمي «التكوين الحراس» في طهران خلال الحرب، وادَّعى «أن هؤلاء الحرّاس يشبهون من وجوه عديدة المقاتلين في صدر الإسلام، أيام الرسول (ص)... ومن بين النقط السائدة والهامّة... الحياة بحسب الأخوّة الإسلامية؛ وقصّة المسافرين والأتباع. فالمسافرون... ساروا إلى جبهات القتال، بينما بقي الأتباع... ليعتنوا بعائلاتهم في المدن خلال الحرب». ومن أنشطة الحرّاس الهامّة، كما تقول النشرة «التدرّب العسكري، والسياسي، والإيديولوجي، الذي ينظم المحيط اللامتناهي من شعبنا»(*).

توجّه الآن «الحرّاس» و«المسافرون» في قوافل نحو حدود العراق، وهم يغنُّون وينشدون، معبّرين عن رغبتهم في تحرير العتبات المقدّسة للشيعة في العراق. وقد تجاوزتُ بسيارتي قافلة من هؤلاء قرب مدينة «سوسنغرد» فيها الشاحنات، وسيّارات الجيب، والدبّابات، وطولها خمسة كيلومترات، فضلاً عن آلاف من المتطوّعين الريفيين المذكورين؛ وكلهم يلوّحون بأعلام سوداء وخضراء، عليها اسم «النجف» و«الكوفة». وعندما أخذت صورتهم، صرخوا بي «حرب حتى النصر». وكانت هناك أيضاً قافلة أخرى تقودها دبّابة، مع إعلان مربوط عند فوّهة مدفعها يشير إلى أنها «قافلة كربلاء». وكان معظم هؤلاء سائرين إلى حتفهم في العراق، وهم يقومون بأدائهم بلا مبالاة وخلواً من الهموم ـ بنوع مثير من العناد الصفيق الشموس ـ وأفترض أن جنود حرب ١٩١٤، كان لديهم بعض هذا الابتهاج، كالبريطانيين الذين ظنّوا أن الحرب ستنتهي في عيد الميلاد، والفرنسيين الذين كتبوا اسم «برلين» على جوانب القطارات التي تقلّهم، والألمان الذين رسموا «باريس» على مركباتهم. وقد جاء في كتاب «نحن جنودها» من تأليف «فريدريك مانينغ»، وهو شبه سيرة حياة، أن وحدة من الجنود البريطانيين السائرين عبر قرية فرنسية ليلاً خلال الحرب العالمية الأولى، أيقظت السكّان:

«... فُتحت الأبواب فجأة، وانطرح الضوء من الممرات، وسألتهم أصوات إلى أين هم ذاهبون.

(*) ومن الجمل المشؤومة التي وردت في الوثيقة ذاتها: «سوف يكون من برامج (الحرّاس)، بعد قيام الحرب البعثية المفروضة علينا، تطهير كردستان من العناصر الشنيعة المرتزقة، تلك الجماعات المدعومة من الولايات المتحدة الأميركية، مثل «الحزب الديمقراطي (KDP)، وبهذه الطريقة يصبح إقليم كردستان منطقة إسلامية كاملة.

فصرخوا: «إلى «الصوم»! إلى «الصوم»؛ كما لو كان ذلك تحدّياً. فأُجيبوا: «آه، ليس ذلك أمراً جيّداً»، بلطف، وبأصوات مشفقة... وكان ذلك بمثابة عداء لهم. تلك اللمسة، لمسة اللطف والعطف؛ وقعت عليهم أقسى من الموت. فأنشدوا بصوت أعلى، وهم لا يرون سوى الطريق البيضاء أمامهم...».

فلا عجب والحالة هذه أن ينبري الجندي الصبي في مرتفعات «دوسالوك» ويحاضر أمامي عن الروحانية والماديّة؛ إذ إنّ في حياة الجندي لحظة تُمسي عندها حتميّة الموت وتعذّر اجتنابه أكثر إلحاحاً من إمكانية الحياة.

والآن، خاف العرب الذين وضعوا ثقتهم في صدّام من أن يخسر الحرب التي دعموها بابتهاج. فوصل الملك حسين إلى بغداد مسرعاً لإجراء محادثات مع صدّام، معلناً وقوفه مع العراقيين، «جنباً إلى جنب»، ولكنّه يعبّر في مجالسه الخاصة عن مخاوفه من أن يتقهقر جيشهم أكثر، سامحاً للإيرانيين بدخول العراق. فموّل الكويتيون والسعوديون التسليح الجديد للجيش العراقي. وأرسلت قذائف المدفعية الثقيلة جوّاً إلى العراق من القاهرة، مروراً بأجواء السعودية(*).

ولكن لم يكن العرب هم وحدهم الخائفين من انكسار صدّام. فقد كانت الولايات المتحدة الأميركية تزوّد العراق بصور فضائية عن الخطوط الإيرانية في المعركة منذ الأيام الأولى للحرب، وكان سيل ثابت من المستشارين الأميركيين غير الرسميين يزور بغداد بانتظام منذ ذلك التاريخ. وقد روى اللبناني محمّد سلام، وأحد مراسلي «الصحافة المتحدة الأميركية» الذي عُيِّن في العراق عام ١٩٨٣، «أن «دونالد رامسفيلد كان في بغداد آنذاك لمقابلة صدّام، وقد عاملوني كملك، مثل جميع الناس الذين هم على اتصال مع الأميركيين. وكانوا بمنتهى التعاون». وفي المثنّى، المطار الحربي القديم في قلب بغداد، أقام العراقيون معرضاً للأسلحة، و«كان هناك الجميع، من البريطانيين إلى الكوريين الجنوبيين»، بحسب تقرير سلام. وحوالى شهر أيار/ مايو ١٩٨٥، جاء وفد عسكري أميركي إلى بغداد، وفيه ١٢ ضابطاً من ذوي الرتب. وبحسب رواية سلام «لم تتكلم السفارة الأميركية عن ذلك. فقد جاؤوا على طائرة «بان أميركان» ولبثوا في بغداد ثلاثة أيام».

وفي ذلك الوقت، لم يستطع محمّد سلام ـ الذي غطّيتُ معه أحداث الحرب اللبنانية الأهلية ـ أن يذهب دون مرافقة إلى العراق. ولكنه أخبرني كيف أن الأميركيين يركّزون في ذلك الوقت على العراق. «بدأت الولايات المتحدة تعتبر العراق ورقتها الرئيسة في المنطقة... وكان صدّام لا يزال ناجحاً حتى ذلك الوقت في أن يقمع الشيوعيين، والشيعة وكل المعارضة. وكان ذلك مناسباً جداً للأميركيين. والملك حسين مفيد في ترويج العراق للغرب. ولكن، **لا تريد الولايات المتحدة الأميركية أن يبقى العراق مصدر قوة في المنطقة، بعد الحرب!** ـ ما مِن شيء واضح في السفارة. هناك رجل يعمل في المجال الإعلامي الأميركي يسمّى «بولوك»، ونائب رئيس البعثة «تد قاطوف»؛ بينما كان «دين سترونغ» هو رجل الشؤون العسكرية. ولكنهم مُبعدون عن الأنشوطة التي يحوكها

(*) أولاً، بحسب مراسل جريدة «الأهرام» العسكري، أرسل العراقيون عملاء أسلحة أوروبيين إلى القاهرة لشراء الذخيرة «لأنهم لم يرغبوا في أن نعلم أنهم يتعاطون معنا. ولكن عندما طلبوا ذخيرة سوفياتية للمدفعية الثقيلة... علمنا أنهم العراقيون... فأخبرناهم بأننا نحن المصريين، لنا كرامتنا واحترامنا؛ وعليهم أن يأتوا إلينا شخصياً، ففعلوا؛ وحصلوا على القذائف وعلى خبرتنا القتالية».

البنتاغون». ويذكر سلام الآن أنه «رأى صوراً فضائية للقوّات الإيرانية في قسم المصالح الأميركية في بغداد عام ١٩٨٤».

وصار سكّان العراق الآن، البالغ عددهم ١٥ مليوناً، يواجهون سكّان إيران البالغ عددهم ٣٥ مليوناً، والذين يزيدونهم بنسبة خمسة إلى واحد تقريباً في ميدان المعركة. ولا يستطيع جيش صدّام، والحالة هذه، أن يحارب في ظلّ عدم التكافؤ هذا في معارك مفتوحة ـ وآية ذلك ما حصل في «دزفول» ـ ولذلك لا بدّ من تبنّي منطق جديد لا رحمة فيه: تتخندق القوّات العراقية عند الخطوط الأمامية، وتُركّز آلاف الدبّابات في التراب، وتستخدمها ككتلة مدفعية شاملة لإبادة الهجمات بالأمواج البشرية. ولكن في عام ١٩٨٤، قاد حرّاس الثورة الإيرانيون هجوماً إلى عمق العراق في مستنقعات الحويزة والأنهر التي تجري في منطقة المستنقعات العربية، على طول السدود، مستعملين زوارق بمحرّكات. ولم يعترف العراقيون بذلك إلّا بعد ثمانية أشهر؛ بينما رأى سلام ذلك بأمّ العين ـ إذ دفع الإيرانيون بدروعهم عبر الطريق الواسعة التي تربط بغداد بالبصرة. فقطعوا نهر دجلة، وبدأوا بتدمير الدبّابات العراقية بإطلاق النار عليها من جسور الطريق العامّة.

وكان ردّ فعل بغداد ناجحاً إنما تدميرياً وقاسياً. ولمّا كان محمد سلام أحد الصحافيين القلائل الذين شاهدوا النتيجة، يجد القارىء في ما يلي تقريره عمّا حدث بعد ذلك:

> «حصلت معركة كبرى في «العزير»، و«السادة»، و«البيضا»، في مستنقعات «الحويزة» جنوبي العمارة ـ وكان القائد العراقي هو اللواء هشام صباح الفخري. قد جرّ الإيرانيين إلى جيب في المستنقعات ثم بنى العراقيون سدّاً كبيراً إلى الشرق منهم. وكنا لا نزال في أوائل عام ١٩٨٤. جاء الفخري بصهاريج ضخمة مملوءة وقوداً وضخّها في المستنقعات ثم أطلق قذائف حارقة على المستنقعات، فنشأ أكبر حريق شهدته في حياتي، قضى على كل شيء في البيئة. وعندما انطفأت النار، جلب مولّدات كهربائية، ووضع أسلاكاً ضخمة في المستنقعات، وكهرب كل شيء، بحيث لا يبقى مصدر حياة في كل تلك البقعة. مشيت نحو سدّ لأقضي حاجتي، فناداني أحد الجنود قائلاً: «لا تبوّل في الماء، أتريد أن تكون أحد شهداء التبويل؟».

كانت الأجساد التي أُخرجت أحشاؤها تطفو في كل مكان، وكان بينها أجساد نساء وأولاد ـ هم سكّان المستنقعات الذين يعرفون ما هو الضفدع، والذين عاشوا بين السدود والجواميس، واصطادوا السمك بالرماح؛ هؤلاء ضاعوا، وفُقدت حضارتهم. رأيت منهم حوالي ثلاثين امرأة وولداً. كلّهم مبقورو البطون كالسمك؛ فضلاً عن العديد العديد من الإيرانيين. لقد مات البريء مع المذنب».

ولكن النفط والكهرباء وحدهما لا يستأصلان الغزاة. ففي معركة القادسية التاريخية، دهش «سردار» ورفاقه العرب من رؤية جيش رستم يتقدّم نحوهم بحيوانات ضخمة جدّاً لم يروها في حياتهم، بهائم أكبر حجماً من الحصان بستّ مرات، ذات عظمين ناتئين حول خرطومها، وأرجلها ضخمة جداً كذلك، حتى غاصت في الرمل.

إنها الفيلة. فطلب «سردار» من رماة السّهام ومن جنوده، أن يرموا سهامهم وحرابهم في عيون الفيلة. ولا يزال العراقيون حتى اليوم يعتقدون أن ذلك كان سرّ انتصارهم. فما هو سلاح صدّام ضدّ القطعان المخيفة التي تدخل العراق الآن؟ وما هو الرمح المسموم لمجابهة الفرس «العنصريين»؟

أنا الآن على متن قطار حربي إيراني، يتدحرج على عجلاته عبر الليل البهيم في الصحراء شمالي الأهواز، عائداً من سفرة أخرى قمتُ بها إلى الجبهة؛ وها أنا آكل الدجاج والأرزّ، وأشرب كولا دافئة في مطعم القطار. إننا في عام ١٩٨٣. و«رامسفيلد» يصافح صدّام، طالباً معاودة فتح السفارة الأميركية. كان القطار بطيئاً، يصرّ صريراً عند المنعطفات بسبب عدم تزييته، ويهوي على المنحدرات، ويرتطم على خطّه الدائم غير المُصان. ومن وقت إلى آخر يمرّ ضوء عبر النافذة. إنها قرية بلا شكّ، لها نصيبها من الشهداء. وكان المراقب الذي يمثل وزارة الإرشاد نائماً، لعلمه أني لا أستطيع أن أشرد من قطار في حال سيره.

لم أستطع النوم؛ ولذلك تمشّيت عبر عربات القطار. كان الطقس بارداً والنوافذ مغلقة، حتى لا يدخل نسيم الليل الصحراوي، ولكن هناك رائحة خفيفة غريبة. ظننت أولاً أنها مرتبطة بمزيل للروائح النتنة في المراحيض عند آخر كل حافلة. ثم فتحت الباب الموصل إلى الحافلة التالية، فوجدتهم هناك، جالسين بالعشرات. جنود من حرّاس الثورة الشباب، يسعلون بنعومة في محارمهم الورقية أو مناديلهم الشاشية، بعضهم في عربات مكشوفة، وآخرون في حُجيرات، وكلهم يتقاطر الدم والمخاط رويداً من أفواههم وأنوفهم. وكان أحدهم ـ وأظن أنه في عمر الثامنة عشرة تقريباً ـ يغطّي وجهه بالشاش الملطّخ بالزهر والأصفر، لكنه يحمل بيده اليسرى قرآناً ذا غلاف أزرق لامع. ومن وقت إلى آخر، كان يضع الشاش على ركبته ويسعل، فيسيل خط أحمر جديد من أنفه، ويقلب صفحات القرآن الكريم بيده اليمنى؛ ثم يعاود وضع قطعة الشاش على وجهه، لتمتص الدم الجديد، ثم يمسك بالقرآن ويعاود القراءة فيه.

كانوا يجلسون في عربات متتالية من القطار، دون أن يتكلموا، أو يشتكوا، راضين ـ كما يبدو ـ بما أصابهم. وبعد حوالى ربع ساعة أدركت أن الرائحة التي أزعجتني، ينفثها هؤلاء من رئاتهم. ذهبتُ إلى نوافذ العربات وفتحتها، لأملأ المماشي بهواء الليل النافذ؛ إذ إنني لم أردْ أن أتنفّس الهواء الذي يزفرونه، وألهث كما يلهثون. ولم ينظر الجنود إليّ وأنا أستمرّ في فتح النوافذ، لأنهم يقاسون جهّنهم الخاصة، التي لم أدخلها والحمد لله.

يقول التاريخ الرسمي الإيراني للحرب إن العراق هو الذي استعمل الأسلحة الكيميائية ضدّ الإيرانيين بتاريخ ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٨١ فقتل سبعة منهم. وفي عام ١٩٨٢، سجّلت إيران ١١ هجوماً كيميائياً من قبل جيش صدّام، و٣١ هجوماً من هذا النوع عام ١٩٨٣. وقد فحص الدكتور «ناصر جلالي»، رئيس جناح أمراض الجلد في مستشفى «لقمان الدولة» في طهران، عدداً من الجنود الذي استُقدموا إلى العاصمة بعد هجوم بالأسلحة الكيميائية على «پيران شهر» و«طمرشين»، بتاريخ ٩ آب/أغسطس ١٩٨٣. قال الطبيب: «سبب هذه الإصابات هو

التعرّض لموادّ سامّة، أطلقت في الجوّ بشكل غاز، أو سائل، أو مسحوق. . . فقد استُعملت أسلحة لإطلاق مادّة كيميائية سامّة تُدعى «نيتروجين الخردل» أو «غاز الخردل». وكان ذلك عند الساعة ٩:٣٠ من صباح ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ بين «ماريفان» و«سلطان»، إذ انفجرت قذيفة مدفعية على الخطوط الإيرانية، أعطت رائحة الكاز (الكيروزين). وفي الصباح التالي أصيب ١١ إيرانياً ـ من الجنود، وحرّاس الثورة و«الباسّيجي» أي المتطوّعين ـ بالغثيان، والتقيّؤ، وحرقة في العينين، وغشاوة في البصر، والحكّ، والاختناق والسعال. وعندما أُخذوا إلى المركز الطبّي، وجرى الكشف عليهم، تبيّن أن البثور والقروح تغطّي جلودهم. وبين ٢١ و٢٢ تشرين الثاني/أكتوبر، تعرّضت ثلاث قرى كردية متعاطفة مع إيران لهجوم كيميائي. وجاء في التقرير الطبي الإيراني «أن الكثير من القرويين في هذه المقاطعة الكردية، بمن فيهم النساء والأولاد، وأصيبوا إصابات بالغة». وبين ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٠، و٢٠ آذار/مارس ١٩٨٤، يورد التاريخ الرسمي الإيراني للحرب ٦٣ هجوماً منفصلاً بالغاز من قِبل العراقيين.

ومع كل ذلك، لم يحصل ردّ فعل عالمي؛ مع أنه لم يحدث منذ أعوام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، أي هجوم بالأسلحة الكيميائية على هذا النطاق الواسع. ولكن كان الخوف من إيران والاشمئزاز منها كبيرين؛ وكان ولاء العرب لصدّام كلّياً؛ وكان دعمهم له لمنع ثورة الخميني من الانتشار دعماً مطلقاً جعلهم يبقون صامتين. ولم تطبع أبداً في الصحافة العربية التقارير الأولى عن استخدام صدّام للغاز. وكان ذلك يُعتبر في أوروبا وأميركا ضرباً من ضروب الدعاية الإيرانية؛ وكان ردّ فعل أميركا محدوداً. ولكن الولايات المتحدة أدانت العراق في آذار/مارس ١٩٨٤ لاستعماله الغاز السامّ وحتى تلك الإدانة كانت ملطّفة. أما في عام ١٩٨٥، فقد أوردت «النيويورك تايمز» «أن محلّلي المخابرات في الولايات المتحدة الأميركية توصّلوا إلى نتيجة مفادها أن العراق استعمل أسلحة كيميائية في ردّه على الهجوم الإيراني الأخير في حرب الخليج». وقد نُميَ هذا التقرير، بحسب أسلوب تلك الصحيفة الجبانة، إلى المصادر الأميركية المفضّلة لدى المراسلين الأميركيين ـ موظفي الإدارة الأميركية.

وقد أوحت الإثباتات الأوليّة أن العراقيين كانوا «يستخدمون الكبريتيد (bis 2-chlorethyl)»؛ وهو عنصر مقرّح يؤذي كل الأنسجة البشرية. ومضى تقرير «النيويورك تايمز»، على المنوال الجبان ذاته، يقول: «وقد نقلت إيران ضحايا الهجمات المزعومين إلى النمسا، وألمانيا الغربية، حيث نُمي عن بعض الأطبّاء قولهم إن علامات ظهرت على الجرحى تدلّ على أنهم هوجموا بغاز الخردل. . .». وقبل ذلك بأربعة أيام، قابل «جورج شولتز» وزير الخارجيّة الأميركي، نظيره العراقي طارق عزيز في واشنطن؛ ولكنه لم ينتقد الهجوم الكيميائي. وبالرغم من البيّنات الثبوتية الوافية، بقيت حتى جريدتي، جريدة «التايمز» اللندنية، تضع صورة جندي إيراني يعالج في إحدى مستشفيات لندن في آذار/مارس عام ١٩٨٥؛ وهو مغطّى بقروح جلدية رهيبة، مع تعليق يذكر أنه يشكو من «حروق تقول إيران إنها مسبّبة بأسلحة كيميائية».

وكان محمّد سلام أيضاً من الصحافيين القلائل الذين استطاعوا أن يحصلوا على إثباتات مباشرة، وتقريباً قاتلة، لهذا الهجوم الأخير بالغاز. وها هو يروي لنا مرّة أخرى، قصّته المرعبة، إذ يقول:

«دُعيت مع «زوران غراماسيف» من وكالة «تانجوغ» اليوغوسلافية للأنباء، للذهاب إلى البصرة، حيث حصل هجوم كبير للإيرانيين. وقد جوبه الجيش العراقي الثالث بقيادة اللواء ماهر عبد الراشد بهذا الهجوم الهائل الغامر؛ ولم تمكن مجابهته إلّا بالقتل الجماعي. فقهر الراشد الهجوم الإيراني. ولم يكن هناك أي طوفان، أو نار، أو كهرباء. فتجوّلت مع «زوران» في الصحراء حيث حصل كل ذلك، وصادفنا مئات ومئات من القتلى الإيرانيين، بل آلافاً منهم؛ وكلّهم أموات. وكانوا لا يزالون يحملون رشاشاتهم ـ فكّر فقط في الآلاف منهم موتى في خنادقهم، وهم ما زالوا يمسكون برشّاشات كلاشينكوف. كما كانت أكياس طعامهم لا تزال على ظهورهم ـ فكل الإيرانيين يحملون أكياساً صغيرة للطعام. ولم يكن هناك أية ثقوب أحدثها الرصاص، أو جراح ـ كانوا موتى، لا غير.

بدأنا بالعدّ ـ وسرنا أميالاً وأميالاً في تلك الصحراء المشؤومة ونحن نعدّ. وصلنا إلى الرقم ٧٠٠، فتشوّشنا، ورحنا نعدّ من جديد. كان هناك دم على أفواه وذقون جميع الإيرانيين، وكانت سراويلهم من تحت الخاصرة، كلّها مبلولة. لقد بالوا جميعاً في سراويلهم. فقد استعمل العراقيون لأول مرّة خليطاً من غاز الأعصاب وغاز الخردل. فغاز الأعصاب يشلّ أجسادهم، فيبولون جميعاً في سراويلهم؛ بينما غاز الخردل يحرق رئاتهم؛ ولذلك بصقوا دماً. وصفنا كل هذا في تقاريرنا، لكننا لم نعرف هويّته. سألنا الجنود العراقيين، الذين كانوا يأكلون البندورة (الطماطم) والخيار؛ ولكنهم كانوا يلبسون خوذ الغاز عندما يتوقفون عن الأكل. وبسبب تلك الزيارة أُصبت بالتهاب في جيوب أنفي، وذهبت لأرى طبيباً صديقاً لي في بغداد. فقال لي: «هذا ما نسمّيه «التهاب الخطّ الأمامي»؛ أنصحك بمغادرة العراق فوراً». ثم ذهبت لأرى «إيلين پاول وجيري لابل» الزوجين من فريق الصحافة الأميركية في نيقوسيا، فأرسلوني إلى العيادة القبرصية حيث أعطوني مضادّات حيويّة. ولكن ما رأيته كان آلة قاتلة. وفي آخر الأمر، عددنا «زوران» وأنا حوالى ٤٧٠٠ جثة إيرانية. أتعلم؟ إننا نحتاج إلى قرون من الزمن لنكتب عمّا حصل في تلك الحرب.

وعند الساعة السادسة من كل مساء، كانت الإذاعة العراقية تبثّ النشرة الرسمية عن الحرب. ولا أزال أذكر ما قالته حرفياً في أوائل عام ١٩٨٥: «إن أمواج الحشرات تهاجم البوّابات الشرقية للأمّة العربية. ولكن لدينا مبيدات الحشرات الكفيلة بالقضاء عليها».

ومن أين تأتي «المبيدات»؟ ـ جزئياً من ألمانيا (طبعاً). ولكن بتاريخ ٢٥ أيار/ مايو ١٩٩٤، أصدرت إحدى لجان مجلس الشيوخ الأميركي (لجنة المصارف والإسكان والشؤون المدينية) تقريراً حول «الصادرات الأميركية الثنائية الاستعمال المتعلّقة بالحرب الكيميائية والبيولوجية إلى العراق؛ وإمكان تأثيرها على العواقب الصحّية لحرب الخليج الفارسي» وحرب الخليج هنا تعني حرب ١٩٩١ وتحرير الكويت، ولكنّ استقصاءات هذه الدراسة شملت

الحرب الإيرانية ـ العراقية، التي كانت تسمّى أصلاً حرب الخليج من قِبل الغرب حتى شاركنا في حرب الخليج التي تخضّنا، واختلسنا الاسم.

وقد أعلم تقرير هذه اللجنة الكونغرس الأميركي حول ما وافقت عليه الحكومة الأميركية من شحنات المواد الكيميائية، التي أرسلتها الشركات الأميركية إلى العراق منذ عام ١٩٨٥ أو قبل ذلك. وشملت هذه الشحنات ما يلي:

Bacillus an thracis-which produces Anthrax; Clostridium botilinum; Histoplasma capsulatum; Brucella melitensis; clostridium perfringens and Escherichia coli (E.Coli).

وجاء في التقرير ذاته «أن الولايات المتحدة الأميركية زوّدت حكومة العراق بمواد مجازة «ثنائية الاستعمال»، ساعدت على تطوير البرامج الكيميائية، والبيولوجية، وبرامج نظام الصواريخ، بما فيها... مصنع لتسهيل إنتاج المواد الكيميائية الحربية، ورسومات تقنية (قُدّمت كخطط لتسهيل إنتاج المبيدات)، وتجهيزات تعبئة للحرب الكيميائية...».

وفي صيف ١٩٨٥، أخذت وزارة الإعلام العراقية محمّد سلام إلى مقربة من الحدود السورية، لتريه مقلعاً أو محفرة تسمّى «القايم قاشات» تُستخرج منها أسمدة، بحسب قول مراقب الوزارة. وكان هناك مهندس أميركي من تكساس، بحسب رواية سلام التالية:

«أجريتُ معه مقابلة فقال إنهم يصنعون أسمدة هناك. لكنهم كانوا ينتجون غاز الخردل وغاز الأعصاب. وكثير من الناس في العراق يعلمون ذلك. وكان بجانب المحفرة قرية اصطناعية فيها مطعم و«شاليهات». وقد قصف الأميركيون هذا المكان عام ١٩٩١ أثناء حرب ١٩٩١. وبقي أهل النظام فترة هناك بعد الغزو الأميركي عام ٢٠٠٣ في هذا المكان الرائع المخصّص لإنتاج السماد. وقد بسطوا لنا وليمة مع كثير من الخمر والويسكي».

كان «حميد كردي عليبور» راقداً في فراشه بالمستشفى وهو في شبه غيبوبة، تصفر رئتاه من خلال شفتيه المشقوقتين، ويبدو جبينه متغضّناً، نظراً لتقطيبه من شدّة الألم. وكانت الممرّضة بجانبه ـ وهي فتاة تلبس نظّارة سوداء الإطار، و«شادوراً» أسود كذلك ـ تصبّ الماء بلطف في فمه من إبريق لدائنيّ. وتبتسم له، كما لو كانت لا تلاحظ الجلد الأسود المتدلّي من وجهه، أو الحروق الزهريّة المزرقّة حول حنجرته. لقد حدث له أمر جلل مرعب، لكنّ الأطبّاء الإيرانيين أصرّوا على أن يخبرني قصّته بنفسه.

إنها القصّة ذاتها للعديد من الجنود الإيرانيين البالغ عددهم ١٩٩ جندياً وحارساً للثورة، الذين يتعذّبون في فراشهم في مركز «لابافينجاد» الطبّي في طهران. نحن الآن في شباط/فبراير عام ١٩٨٦. قال «عليبور»: «كنتُ في ملجأ في الجهة الإيرانية من «أرفاند» أي شط العرب؛ عندما سقطت قذيفة. لم أكن أدرك أن العراقيين كانوا يقصفون بالغاز. ولم أكن أرى المادّة الكيميائية؛ ولذلك لم أضع القناع الواقي. ثم فات وقت وضعه». ارتاح

المصاب قليلاً، وهو يتنفّس بصعوبة، بينما كانت الممرّضة تمسك الكأس له. وسألت عن عمره فنظر إلى الفتاة وقال: «١٩ سنة».

وكان ثمّة مرضى ينظرون إليه من أسرّتهم، وآخرون يرقدون وعيونهم متجمّدة ومغلقة، وقرب مخدّاتهم كُتل من مماسح العيون موضوعة في إناء. إنهم لا يتكلّمون. وكل ما تسمعه هو التنفّس الخشن العاني. كان هناك الدكتور فايز الله يزداني وهو من كبار الأطبّاء في المستشفى؛ له جسم صغير مع حاجبين كثيفين جداً، لكنه يشيع البهجة وسط كل هذا الألم. قال لنا: «المشكلة الحقيقية تكمن في الرئتين ـ نحن نعيدهم إلى بيوتهم عندما تتحسن أحوالهم، ونستطيع أن نتعاطى مع التهابات الدم... ولكنهم يعودون إلينا ولديهم مشكلات في الرئتين. إنهم يسعلون كثيراً. مع العلم أن بعضهم هوجموا بالغازين معاً: غاز الأعصاب وغاز الخردل».

أرسل الإيرانيون علانية بعض ضحايا الحرب الكيميائية إلى لندن، وستوكهولهم، وفيينا للعلاج، ولكن أجنحة المستشفى التي يشرف عليها الدكتور «يزداني» لا تزال تعجّ بالمصابين. ولم يمت حتى الآن من الذين استقبلهم عنده والبالغ عددهم ٤٠٠ سوى ٧ أشخاص فقط. وهو يأمل أن يرسل ٢٠٠ منهم إلى بيوتهم، مع أن العديد منهم لن يشفوا أبداً. وبحسب تصريح الأطبّاء، يستعمل العراقيون غاز الخردل و«التابون» (Tabun)، وغاز الأعصاب ضدّ الإيرانيين. وقد جدَّدوا هجماتهم الكيميائية على نطاق واسع بتاريخ ١٣ شباط/ فبراير. وعندما يتأثّر المصابون كثيراً من إصاباتهم، يختنقون بلعابهم هم. والذين يبقون على قيد الحياة يؤتى بهم إلى القطارات الاستثنائية الطويلة، وهم يكادون يختنقون؛ تلك القطارات التي خلفت قطار ضحايا الغاز الذي سافرتُ فيه منذ ثلاثة أعوام. وتسافر هذه القطارات الآن من الأهواز كل ٢٤ ساعة. قال الدكتور «يزداني»: «لا يمكنك أن ترى الغاز، ولذا يفاجئك ويروّعك. فيشعر الجندي برائحة خُضَر عفِنة، ثم تبدأ عيناه تحرقانه، ويعاني من ألم في الرأس، ويجد صعوبة في الإبصار، ثم يشرع بالبكاء، ويسعل وتصفر رئتاه».

كانت معاناة الألم في الجناح الذي زرته برفقة الطبيب، إذ قمتُ بجولة معه على الأسرّة، حيث يرقد رجال مقروحون، لُفَّت أجسامهم التي تتلوّى من الألم بأربطة صفراء. وكانت القروح أحياناً تغطي كل أجسامهم، وهي تبدو صفراء ووردية، طريّة جدّاً، وبحجم كرة السلّة أحياناً، وتفرز باستمرار انتفاخات جديدة من الجلد المرتعش، عليها.

وفي السرير ذي الرقم ١٦، صادفتُ طبيباً مصاباً، له من العمر ٣٤ سنة، وهو طبيب جلد من تبريز يُسمّى حسن صنافة. كان يعمل في مستشفى طبّي قرب شط العرب، بتاريخ ١٣ كانون الثاني/يناير، عندما انفجرت قنبلة غاز على مسافة ٢٠ متراً منه. ولا بدّ أن يكون إذ ذاك لابساً قناع الغاز، لأن الغاز ترك في جلده نسيجاً غير مشوّه حول عينيه وفمه، محدثاً إطاراً تهكّمياً حول جبهته وخدّيه. قال ببطء وهو ناعس من «المورفين»: «لم يكن هناك ما أستطيع أن أفعله، كنت مرتدياً الثياب المضادّة للغاز، لكنّ القذيفة كانت قريبة منّي جدّاً، فلم يستطع المنقذون حمايتي. أحسست بالحروق، وعرفت ما حلّ بي».

ابتسم. لقد نُقل بأمان إلى طهران، لكنه لم يسمح بإبلاغ زوجته ومعها ابنته البالغة من العمر ٢٠ شهراً، إلّا بعد يومين. فسألت عمّا فعلت زوجته عندما جاءت إلى المستشفى؟ فأجابني: «طلبت منها أن لا تأتي ففعلت، إذ لم أردهما أن يرياني وأنا في مثل هذه الحال».

وخلال هذه السنوات كلّها، استمرّ الأميركيون في تزويد العراقيين بمخابرات حربية للمعارك، بحيث يستطيعون الاستعداد للهجمات الإيرانية الجماهيرية، والدفاع عن أنفسهم، بالغاز، بمعرفة الحكومة الأميركية. وكان هناك أكثر من ستّين ضابطاً أميركياً من وكالة الاستخبارات الأميركية، يزوّدون سرّاً أعضاء الأركان العامّة العراقية بمعلومات مفصّلة عن التحرّكات الإيرانية وإعادة انتشار القوّات الإيرانية، والتخطيط التكتيكي، وتقويم الأضرار التي يوقعها القصف بالقنابل. وبعدما عاد العراقيون فاستولوا على شبه جزيرة الفاو من الإيرانيين في أوائل عام ١٩٨٨، قام الكولونيل الملازم «ريك فرانكونا»، وهو ضابط استخبارات للدفاع في أميركا، بجولة في مسارح المعارك، وأخبر واشنطن أن العراقيين استخدموا أسلحة كيميائية لتأمين انتصارهم. وفيما بعد أبلغ الكولونيل «ولتر لانغ»، ضابط الاستخبارات الأعلى مقاماً للدفاع في أميركا، جريدة «النيويورك تايمز»: «إن استعمال العراقيين للغاز في المعارك ليس شاغلاً استراتيجياً عميقاً».

وقد استعمل العراقيون الغاز لمعاودة الاستيلاء على «الفاو» بتاريخ ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٨٨ ـ بينما أبدى العالم اللامبالاة. وقبل ذلك بشهر تماماً، أي في ١٧ و١٨ آذار/مارس، وخلال «عملية الأنفال» أي «الغنيمة» ـ أخذ العراقيون بثأرهم من بلدة «حلبجة» الكردية، لأنها تعاونت كما ادّعوا مع الإيرانيين خلال هجوم «والفجر ١٠» في المنطقة. فألقت الطائرات النفاثة العراقية على مدى يومين الغاز المصنوع من مركّب «سيانيد الهيدروجين»، بمساعدة شركة ألمانية، على حلبجة، وقتلت ٥٠٠٠ مدني. وفي واشنطن، أرسلت وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، التي لا تزال تدعم صدّام ـ مذكّرة إلى سفاراتها في الشرق الأوسط، تصرّح فيها بأن إلقاء الغاز قد يكون من جانب الإيرانيين.

وفيما بعد، استخلصت المنظمات الإنسانية استنتاجاتها المخيفة من هذه الكذبة. فقد صرّح «جوست هيلترمان» من مؤسّسة «مراقبة حقوق الإنسان»، بعد ١٥ سنة، بقوله: «إن سجلّ أميركا بشأن «حلبجة» مخجل. فقد أبلغت وزارة الخارجية الأميركية دبلوماسييها بأن يقولوا إن إيران كانت ملومة جزئياً. وكانت نتيجة هذه المغالطة المذهلة أن المجتمع الدولي فشل في استجماع إرادته لإدانة العراق بقوة لقيامه بعمل شائن كهذا، على شاكلة الضربة الإرهابية لمركز التجارة العالمي». وفي الولايات المتحدة الأميركية ذُكرت «حلبجه» ١٨٨ مرّة في سرد الأخبار عام ١٩٨٨؛ ولكنها لم ترد سوى ٢٠ مرة في عام ١٩٨٩. أما عام ٢٠٠٠، فقد ظهرت «حلبجه» عشر مرّات في وسائل الإعلام الأميركية. ثم جرت محاولة تسخيفها من قبل إدارة جورج و. بوش، كتبرير لغزوه القادم للعراق. مع العلم أن الصحافيين ذكروا «حلبجة» ١٤٥ مرّة في شباط/ فبراير عام ٢٠٠٣. وبالاشتراك مع طوني بلير وغيره من زعماء الغرب، شدّد بوش تكراراً على أن صدّام «شخص قصف شعبه بالغاز».

وتعبير «قصف شعبه» هامّ؛ لأنه يؤكّد على شناعة الجريمة ـ فالضحايا ليسوا أعداء له، بل هم عراقيون من شعبه؛ وقد لا تكون تلك نظرة الأكراد إلى الأمر. ولكنّ تلك الوصمة استعملت أيضاً لاستبعاد، وتخفيف، جرائم صدّام المماثلة وإنما التي تشمل أعداداً أكبر بكثير من الإيرانيين، الذين راحوا ضحايا الغاز، مثلما حدث في «حلبجة». ولما كنا، نحن الغربيين، ما زلنا إذ ذاك نخدم صدّام عندما حدثت تلك الجرائم ـ ومنها جريمة «حلبجة» ـ أعطي قصف الأكراد بالغاز، كمثل فريد على وحشية صدّام.

وبعد عقد من حدوث قصف «حلبجة» بالغاز، اتهمت الولايات المتحدة الأميركية إيران بأنها تسعى للحصول على أسلحة كيميائية. وكان رئيس الجمهورية المغادر آنذاك هو علي أكبر هاشمي رفسنجاني، المسؤول عن القوّات الإيرانية خلال فترة طويلة من الحرب الإيرانية ـ العراقية. وعلى الأثر نفى ذلك رسمياً، بانفعال غير عادي عام ١٩٩٧، قائلاً: «كانت لنا تجربة خبيثة بصدد استعمال الأسلحة الكيميائية مع العراقيين في الحرب التي فُرضت علينا، ممّا لا نريد أبداً أن نستعمله أو نحصل عليه. وفي ذلك الوقت، كنتُ القائد الوحيد للقوّات الإيرانية في الحرب. وعندما استولينا على منطقة الأهواز رأيت مشاهد فظيعة، لا أستطيع أن أنساها. إن أهل حلبجة تعاونوا معنا بعد نصرنا. . . وقد قام صدّام بذلك العمل المنكر ضدّ شعبنا دون أن يتعرّض لعواقب وخيمة. ولذلك عمد إلى الحصول على أسلحة كيميائية متطوّرة من ألمانيا، واستخدمها ضدّ أولئك الناس (الأكراد). وقد استُعملت تلك الموادّ الكيميائية وحصدت الناس على الأرض. فعندما يستنشق المرء هذه الموادّ لا يمكن أن يعيش. لقد رأيت مناظر رهيبة هناك (في حلبجة)، وآمل أن لا يتكرّر هذا المشهد في أي بلد».

أنا الآن جالس على الأرض في خيمة بشمالي العراق، بتاريخ ٢٨ أيار/مايو ١٩٩١، وكانت «حلبجة» قد قصفت بالغاز منذ ثلاث سنوات، وحولنا آلاف من اللاجئين الأكراد، من ضحايا التطهير العِرقي الأخير الذي قام به صدّام ـ ذلك القمع الذي تلا تحريضَنا لهم خذلاننا لهم بعد التمرّد الكويتي ـ العراقي ـ ها هم يقاسون الضنى والمرض، والفساد السياسي تحت حماية الولايات المتحدة الأميركية. كان سفح التلّة بارداً، ولا تزال في الحُفر حول الخيمة مسحات من الثلج، والهواء جليدي، ولكنّه كثيف، بسبب تحويم مروحيات «تشينوك» الأميركية التي تحمل الطعام والبطانيات إلى مخيم اللاجئين.

كانت زليخة مصطفى أحمد في الثانية والعشرين من عمرها. وهي تلبس ثوباً أبيض مطرزاً، وتنّورة طويلة، ووشاحاً على شعرها الأسود. إنها تنحدر من عائلة كانت بين قتلى حملة «الأنفال» التي ربّما راح ضحيتها حوالى عشرة آلاف شخص. تزوّجت في الرابعة عشرة من عمرها. وكانت مع زوجها موسى عيسى الحاج، عندما ابتدأت حملة «الأنفال». وككثير من الأكراد كانوا يطيعون أوامر الحكومة بأن يبلغوا أقرب بلدة إليهم. «كنا في حافلتنا الصغيرة على مقربة من «دهوك» عندما أوقفنا جنود عراقيون؛ وأخذونا مع مئات غيرنا إلى قلعة «دهوك». أصعدونا إلى الطابق الثاني حيث رأيتهم يضربون زوجي موسى بحجارة الإسمنت. وقد رأيتُ بنفسي عشرة رجال ماتوا تحت الضرب بحجارة الإسمنت ـ فلم أكن أبعد عنهم سوى ستة أمتار. ثم جرّوهم كلهم معهم. فحاولت أن أكلّم

زوجي وأعزّز معنوياته، فقلت له: «لا تخف، أنت رجل»، فأجابني: «اهتمّي بأولادي؛ وإذا قتلوني فلا بأس». ماذا كنتُ أستطيع أن أقول؟ أخذوه؛ ولم أرَه منذ ذلك الحين. وأعتقد أحياناً أني لن أرى زوجي من جديد أبداً ـ نعم، إني أعتقد ذلك، أحياناً».

رجعت زليخة إلى قريتها «بهارقة». قالت: «حدث ذلك بعد عدّة أيام. وكنا معتادين على رؤية الطائرات. غادرتُ القرية باكراً مع ثلاثة من أولادي ـ وتركت الثلاثة الآخرين مع جدّهم ـ لأذهب إلى الحقول؛ لكني رأيت طائرتين تنقضّان على علوّ منخفض فوق «بهارقة»، وتلقيان قنابل. فتصاعد الدخان، واتجه مع الريح نحونا؛ وغطّى الأرض. كنّا نختبىء وراء تلّة صغيرة، لكنّنا رأيناها تتّجه نحونا. وكانت للدخان رائحة حسنة، كالدواء. وبدأ ولداي الصغيران «سرباس» و«صلاح» بالبكاء؛ وحصل لهما إسهال لا يتوقّف. فأخذتهما إلى المستشفى في «أربيل»؛ فخاف الأطباء؛ وأعطوهما حقناً ودواء دون جدوى. فقد اسودّا كلاهما كالإسفلت، وماتا بعد تسعة أو عشرة أيام. وكان الولد الأكبر سنّاً يتقيّأ رئتيه عندما توفّي. قبرتهما في مقبرة القرية. ومات أطفال كثيرون هناك. وإذا عدت الآن، لا يمكنني العثور على مكانهما».

قالت زليخة إنها لن تتزوج ثانية. فسألناها كيف ترى حياتها الآن؟ قالت: «أنا أعيش الآن لأربّي أولادي. هذا كل شيء. وفي أحلامي، أرى أولادي الذين ماتوا. وفي أحد أحلامي، أرى زوجي يقول لي: «لم تهتمي بالأولاد الاهتمام الكافي؛ ولذلك ماتوا».

ستبقى ذكرى الهجمات الكيميائية حيّة أيضاً مع بعض الجنود من الجيش العراقي، المعتدين لا المنكوبين، إلى الأبد. نحن الآن في شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٤، بعد ربع قرن تقريباً على اندلاع الحرب الإيرانية ـ العراقية، و١٦ سنة منذ حدوث حملة «الأنفال» ضدّ الأكراد. لقد أصبحت بغداد الآن المدينة الأكثر خطراً في العالم، تحت الاحتلال الأميركي ودُميتها الحكومة العراقية. فالقنابل الانتحارية، والإعدامات، والخطف، كلّها تمثل نبض المدينة. وها أنا أصل إلى حديقة السوق الصغيرة وراء شارع فلسطين لأشتري شُجيرة تُوب (كالأرز الإفرنجي) لشرفتي في الفندق، كي أستردّ بعض عافيتي في حرّ منتصف الصيف الشاوي في العراق. وهذه الحديقة هي مكان للزهور والنباتات البازغة، ونباتات الأصيص؛ يديرها «جواد». وهو رجل ابن ٤٤ سنة، له ندبة حادّة على جبهته؛ لكنه يعلم أنه يعيش في الجنّة.

ولكني أكتشف بسرعة أن جواد عاش أيضاً في الجحيم. سألته عن الندبة في جبهته. فأخبرني أنه أصيب بشظيّة من قذيفة إيرانية، أثناء قصف على جبل «بنجوين»، خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية. لقد كان عامل مخاطبة بالراديو في الجيش العراقي لمدّة ١٣ سنة. قال: «فقدت تقريباً جميع أصدقائي» وهو يفرك يديه بحركة نبذ خاطئة. وأردف: «ما حدث لهم كان فظيعاً. وكذلك ما حدث لي. لا أستطيع أن أتذكّر اسم أحد من أصدقائي الذين توفوا ـ لأن شظية القذيفة التي أصابت رأسي، ذهبت بذاكرتي».

ولكنها لم تذهب بكامل ذاكرته. كان جواد ينتقل بصمت بين الأشجار، ولا شيء يزعج رحلته هذه سوى تنقيط الماء من النافورة، وخلفية الأصوات التي يحدثها مرور السيّارات ببغداد. قال: «هل ترغب في شجرة تين؛ إنها جيّدة لتحمّل الحرارة». إنها الشجرة الوحيدة الخضراء المعروضة للبيع؛ وهي ذات جذور عميقة تلزمها ساعة لاقتلاعها. وقد قضى جواد كل حياته في حديقة السوق، مع والده. وكانت الحرارة تزيد من فوح الروائح النباتية؛ بحيث تكون أصغر وردة فوّاحة، بينما تزهر الورود البيض.

أجل، لقد بقي جواد حيّاً، بعد انقضاء الحرب الإيرانية ـ العراقية. لقد كره صدّام، ولكنه حارب من أجله ثماني سنوات فظيعة. قال: «كنتُ في الأهواز، عند نهر «قارون»، في جبال «شاميران»، خلال حملة الأنفال «في بنجوين». كنتُ مجنّداً، ثم جندياً احتياطياً؛ ولكنني رفضتُ أن أصبح ضابطاً، لو بقيت في الجيش مدّة أطول. وقد وضعتُ في دفتري خطّاً قرب كلمة «الأنفال». وكان جواد قد قطع الحدود الإيرانية عام ١٩٨٠، ودخل «خرمشهر»؛ ثم انسحب خارجها تحت جنح الظلام أثناء حصارها.

قال: «لاحظت أوّلاً استعمال الغاز شرقي «العمارة»، عندما كانت مدفعيتنا تطلق قذائف غاز على الإيرانيين. لم أكن أشمّ الغاز، ولكنّي بللت منديلي بالماء ووضعته على أنفي. ولمّا كنت عامل مخاطبة بالراديو، كانت لديّ أجهزة وافرة حولي تحميني من الغاز. كانت تلك أياماً سوداء؛ وقد تعذّبنا كثيراً. وبعد أن جُرحت، أصرّوا على إرسالي إلى الجبهة. كانت لديّ إعاقة مقدارها ٣٥٪ في المئة، ومع ذلك أصرّوا على إعادتي إلى الحرب».

يحرّك جواد في طريقه نبتة أصيص، ويلوّح بيديه للعصافير التي تبرز من النباتات البازغة. وإذا كان صحيحاً أن الجنّة عبارة عن حديقة دافئة ومريحة، فجواد يعيش فيها. ثم سألته عن حملة «الأنفال»، وهل رأى آثارها بأمّ عينيه؟

فرفع جواد يديه بحركة المتوسّل الذي لا حيلة له، وقال: «رأينا كل شيء. فهل تصدّق ذلك؟ لقد حدثت أشياء غريبة عندما ابتدأنا باستعمال الغاز. وقد رأيت طيوراً تسقط من السماء؛ وبراعم الأشجار تصبح سوداء، وأوراقها تبلى أمامنا. فاحتفظتُ بالمنشفة المبلولة حول وجهي، كما فعلت في العمارة».

والجثث؟

«نعم، رأينا الكثير منها. وكلّها لمدنيين. كانت مُلقاة خارج القرى وعلى سفوح التلال أكواماً. وكأنّهم تجمّعوا ليموتوا هناك. وكان بعضهم متفرّقين، ولكن كان هناك كثير من النساء يحملن أطفالهنّ بأذرعتهنّ؛ ولكنهم كانوا جميعاً أمواتاً. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لم أستطع أن أقول شيئاً. كنّا، نحن الجنود، خائفين جدّاً، حتى بشأن مناقشة هذا الأمر. لقد رأينا العديد من الأموات. وبقينا صامتين».

الفصل السابع

«الحرب ضدّ الحرب» والقطار السريع إلى الجنّة

«أيّة شموع يمكن أن نمسك لاستعجالهم كلّهم؟ لا بأيدي
الصبيان، بل بعيونهم، سيومض بصيص الوداع المقدّس».
«ويلفرد أوين» من «نشيد الشباب الهالكين»

في سكون الغرفة الأمامية المزوّدة بالستائر، جلس أمامي ربّانا الطيران العراقي سابقاً، والرجل الذي كان ثاني اثنين في قيادة السلاح الجوّي لصدّام حسين، صامتين. تكلّم الطيّاران بنبرة فرنسية ثقيلة تعلّماها من تدريبهما على قيادة قاذفات القنابل من طراز «ميراج» في «شربور». وقد سألتهما عن السفينة (USS Stark). ولكنهما أرادا أن يعرفا لماذا الآن؟ لماذا أردتُ أن أعرف المزيد عن السفينة التي كادت تغرق، بعد مرور ١٦ سنة على إطلاق صاروخين من طائرة «ميراج» عراقية على تلك الفرقاطة الأميركية الموجّهة للصواريخ في الخليج، وحرق ٣٧ من بحّارتها؟ ولماذا لا أبحث معهم الفوضى الضاربة أطنابها في بغداد الواقعة تحت الاحتلال الأميركي؟ ففي ذلك الصباح بالذات، انفجرت سيّارة مفخّخة خارج بوّابات مقرّ القيادة الأميركية في القصر الجمهوري السابق لصدّام.

خاف الرجال الثلاثة من كوني جاسوساً، ومن أني أحاول أن أعرف الطيّار الذي قتل البحّارة الأميركيين الشباب منذ أكثر من عقد ونصف من الزمان. ولماذا أسأل: ألا يزال على قيد الحياة؟ قلت لهم إني لن أخدع أو أخون أيّ كائن إنساني، وإني صحافي ـ ولست ضابط مخابرات ـ وإني لن أسلّمهم للأميركيين، كما لا أسلّم الأميركيين إليهم. وكنتُ أعلم أن كبار الضبّاط العراقيين استمرّوا على اتصال بعضهم مع بعض، بعد غزو العراق عام ٢٠٠٣، حتى أنهم باتوا يؤلّفون الآن سلاحاً للطيران، دون طائرات. لكنني اشتبهت أيضاً عن حقّ بأن العديد من هؤلاء متورّطون الآن في التمرّد ضدّ الاحتلال. حاولت أن أشرح لهم أن تلك كانت مهمّة سلاح الطيران التي غيّرت الشرق الأوسط. فالعمل الذي قام به زملاؤهم بتاريخ ١٧ آذار/مارس عام ١٩٨٧ هو الذي جعل إيران تركع على ركبتيها، من خلال المواقف المزدوجة الفظّة التي تبدو واشنطن وحدها قادرة على اتخاذها.

نظر إليّ اللواء السابق لدقيقة تقريباً دون أن يتكلّم. ثم أعطانا تقريراً إجرائياً عاديّاً، قائلاً: «رأيته ينطلق

بطائرته من «الشعيبة». وكانت تلك رحلة عاديّة فوق الخليج لاصطياد سفن إيرانية. إنما كانت هناك «منطقة محظورة»، على جميع السفن. وكانت السفينة «ستارك» في تلك المنطقة. ولم يعرف ربّان الطائرة أن الأميركيين كانوا هناك؛ بل كان عليه أن يدمّر أيّة سفينة تمخر عُباب تلك المنطقة ـ هذا هو كل شيء. رأى سفينة كبيرة على شاشة الرادار عنده، فأطلق عليها صاروخين؛ اعتقاداً منه أنها إيرانية. لم يرَ أبداً الهدف الفعلي. لأننا لا نستعمل النظر أبداً بالعين المجرَّدة ـ هكذا يعمل النظام. ثم دار وقفل راجعاً إلى دياره».

على بعد ٧٠ كيلومتراً شماليّ شرقيّ قطر، التقط الرادار في فرقاطة «پيري ـ كلاس» الأميركية صورة طائرة عراقية من طراز (ميراج F1)، وهي تطير ببطء على علوّ منخفض على طول شاطىء العربية السعودية باتجاه البحرين. ولكنّ النقيب «غلين بريندل» وطاقمه كانوا متعوّدين على النفّاثات العراقية وهي تطير فوقهم. وقد أخبر النقيب الصحافيين فيما بعد أن الطيران العراقي «يعتبر صديقاً». وبالتالي، لم تمثِّل البقعة الخضراء على الرادار تهديداً لهم. ولمَّا كانت «ستارك» تتّجه تقريباً مباشرة نحو الميراج العراقية، اعترضت البنية الفوقية للفرقاطة سبيل أجهزة التحسّس المضادّة للصواريخ، وبطّارية، «فالانكس» المضادّة أيضاً للصواريخ، التي بإمكانها أن تشعر بدنّو الصاروخ، فتطلق النار عليه آليّاً. وفي الوقت ذاته، كان النظام قد أعيد إلى التشغيل اليدوي، لتحاشي إسقاط أيّة طائرة بالخطأ في منطقة الخليج المكتظّة. كما ادّعى النقيب فيما بعد أن أجهزة الكشف كانت أيضاً سيّئة في تأديتها لوظيفتها. وعند الساعة ١٠,٠٩ بعد الظهر، أمر «بريندل» بإرسال إشعار إلى ربّان الطائرة يقول: «أيتها الطائرة المجهولة، هذه سفينة بحرّية أميركية على خطّ ٧٨. لمسافة ١٢ ميلاً. نطلب أن تعرِّفي بنفسك». فلم يأتِ ردّ على ذلك الإشعار. وبعد دقيقة، مالت الطائرة نحو الشمال، وارتفعت ٥٠٠٠ قدم. وقد فشل طاقم «مركز المعلومات للاشتباك» في تحديد صاروخي «إكزوسيت» برأسيهما الحربيين (16-352) اللذين انفصلا عن الميراج واتجها يتسابقان نحوهم.

وكان الرقيب الحارس هو أوّل مَن رأى الصاروخ ينزلق على سطح الماء نحو السفينة، فخابر القائد «بريندل». وبعد ذلك بثانيتين، ثقب صاروخ «إكزوسيت» جسم السفينة بسرعة ٦٠٠ ميل في الساعة، وانفجر في المقصورات الأمامية للبحّارة، حارقاً عدّة أفراد منهم، وهم مستلقون في أسرّتهم المبيَّتة؛ بينما انفجر الصاروخ الثاني بعد ثلاثين ثانية. فمات في هذه الحال أكثر من سُدس بحّارة الفرقاطة في أقلّ من دقيقة، بعدما لفظ الصاروخ الأوّل ١٢٠ باونداً من وقود الصواريخ الجامد الحارق في مهجع البحّارة. إنما لم ينفجر الرأس الحربي، لكنّه سحق ما اخترقه عبر سبعة حواجز فاصلة بين حُجيرات السفينة، ليستقرّ على ميمنة بدن السفينة المصفَّح. أما الصاروخ الثاني فأرسل كرة من النار عبر مقرّ البحّارة فقتل معظم الضحايا البالغ عددهم ٣٧، وأحال العديد منهم إلى رماد، بوقوده الحارق البالغ ٣٥٠٠ درجة. وامتلأت السفينة «ستارك» بالدخان الكثيف السامّ، وحلّقت الحرارة في الحُجيرات المجاورة إلى ارتفاع عظيم بلغ ١٥٠٠ درجة. وذابت في هذا الحرّ الأسرَّة، والحواسيب، والحواجز الفاصلة بين الحُجيرات. وقد قضى أحد الضبّاط الصغار ١٣ ساعة في غرفة مظلمة لمستودع الذخائر الحربية، وهو يرشّ الماء على ٣٦ صاروخاً، بينما شبّت نار حرارتها ٢٠٠٠ درجة عبر حاجز فاصل واحد عن الصواريخ. وبقيت السفينة تشتعل ليومين. وحتى بعد أن جُرّت مقطورة للإصلاح، بقيت النار تعود فتشب فيها من جديد.

وهكذا جرى تنكيس العلم الأميركي على السفينة «ستارك» وتمّ جرّها إلى البحرين. وقد وصف كاسبار واينبرغر وزير الخارجية الأميركي الهجوم بأنه «لا يميِّز، إذ إن ربّان الطائرة لم يهتم بمعرفة هويّة السفينة التي يطلق النار عليها». وهنا انتهى انتقاد أميركا للعراق. وحتى قبل أن يعبّر صدّام حسين عن ندمه الشخصيّ، الذي ليس له سابق، وقبل أن تبدأ البحرية الأميركية بإجراء تحقيقاتها الثلاثة بوقت طويل، قرّر الرئيس رونالد ريغان إلقاء اللوم على إيران قائلاً ما معناه: «لم يكن العراقيون معادين لنا، ولم نعتبرهم كذلك بأي شكل من الأشكال. والخليج ممرّ مائي دولي؛ وليس لأيّ بلد الحقّ في إقفاله، والاستئثار به. والوغد في هذا الأمر هو إيران؛ إذ إنهم سعيدون جدّاً بما حدث»(*).

وبالاستماع إلى أقوال ريغان، يظنّ المرء أن إيران هي التي بدأت غزو العراق عام ١٩٨٠، وأن إيران هي التي تستعمل الأسلحة الكيميائية ضد العراق، وأن إيران هي التي حدّدت المنطقة البحرية المحظورة في الخليج عام ١٩٨٤، التي أشعلت حرب ناقلات النفط في الخليج ـ والتي وقعت السفينة «ستارك» ضحية لها بطريقة غير مباشرة. بينما كان العراق هو المسؤول عن كل هذه الأعمال. ولكن العراق كان يُعتبر «صديقاً». وقبل حصول عملية شبه إغراق «ستارك» بعدّة أسابيع، زار بغداد نائب الوزير الأميركي ريتشارد موروفي شخصياً، وأثنى على «شجاعة» العراق بالتصدّي لإيران؛ فصار رشّ الغاز السامّ على الأعداء دليلاً على شجاعة العراق، بالنسبة إلى السيّد مورفي. وقد كافأ ريغان المعتدي بأن قبل أعذاره، وأشار إلى الأمّة التي لم تقتل مواطنيه بصفتهم «الأنذال». وكانت تلك سابقة مثيرة للاهتمام. فعندما كاد العراق يُغرق فرقاطة أميركية أُلقي اللوم على إيران. وعندما هاجمت «القاعدة» الولايات المتحدة الأميركية بعد ١٤ سنة، أُلقي اللوم على العراق.

ولم يبقَ في هذه الحال، سوى أن يقدّم صدّام تعازيه إلى أهالي الضحايا الأميركيين، قائلاً في رسالة بثّها إليهم دون تأخير: «تأكّدوا أن الحزن الذي تقاسونه نتيجة فقدانكم لأبنائكم هو حزننا كذلك». وكانت تلك الرسالة بتاريخ ٢٢ أيار/مايو. وقد طُبعت على أوراق السفارة العراقية في واشنطن، هكذا:

> «بمناسبة مأتم الضحايا الذين فُقدوا في الحادث المحزن وغير المقصود الذي حصل للفرقاطة الأميركية «ستارك»، أودّ أن أعبّر لكم عن... مشاعري الحزينة، وأقدّم لكم تعازيّ. إن كل العراقيين يشاركونني الحزن في مثل هذه اللحظات. وذلك لأننا نحن كذلك فقدنا كثيراً من أعزّائنا في الحرب التي لا تزال مستعرة منذ سبع سنوات، بينما لا تزال الحكومة الإيرانية مصرَّة على... رفض نداءاتنا ونداءات المجتمع الدولي لإقرار سلام عادل ودائم».

وحتى في هذه المناسبة، عبّر صدّام عن خطّه الدعائي الخاصّ، مع أنه تبع بذلك تماماً نظرة «ريغان» المشوَّهة للنزاع. وقد قصد برفض إيران لنداءات المجتمع الدولي عدم موافقتها على قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار، تلك القرارات التي قصّرت في طلب عقاب الأمّة المعتدية. وقد شرح «دان هوارد»

(*) على خلاف الشماتة بما حدث من هجوم، سمّاه «مركز الإعلام الحربي» الإيراني في طهران «فخاً جدّياً وخطراً» ينصبه العراقيون لجرّ واشنطن وموسكو إلى الحرب.

الناطق باسم البيت الأبيض أن ريغان وصف إيران «بالوغد أو النذل» لأنها «رفضت المجيء إلى طاولة المفاوضات»(*). وقد اشتبه موظفو الملاحة البحريّة في الخليج دائماً بأن العراقيين قاموا بهجومهم الليلي على «ستارك»، آملين أن تعتقد الولايات المتحدة الأميركية أن الطيران الإيراني هو الذي حاول أن يقضي على الفرقاطة، وبالتالي تقتصّ من إيران. وعلى كل حال، لم يحتاجوا إلى إضاعة الوقت بمثل هذه النظريات عن المؤامرات: فقد ألقت الولايات المتحدة اللوم على إيران في كل حال. وبعد عدة أيام نعت «ريغان» إيران بأنها «بلد البرابرة».

وقد قارن صدّام بين الأقرباء الأميركيين لضحايا «ستارك» وعائلات العراقيين الذي ماتوا خلال غزوه لإيران؛ وبالتالي، حوَّل موظفي البحرية الأميركية إلى أموات بُدَلاء قضوا نحبهم في حربه الضروس. وما كانت دعوته المبتذلة الشاكية لإحلال «السلام العادل والدائم» تشبه دعوة عرفات، إلّا من حيث الشكل. ثم جاء الإذلال الأخير للأميركيين عندما أوفدت واشنطن إلى بغداد فريقاً بحرياً أميركياً لاستقصاء ملابسات الحادث تحت إمرة العميد البحري «دايفيد روجرز». ولكن لم يسمح لهم باستجواب ربّان الطائرة الذي أطلق الصاروخين؛ ولم يوافق العراقيون مع الأميركيين على أن «ستارك» كانت خارج «المنطقة المحظورة» المفروضة ذاتياً، عندما أُصيبت. فقال الأميركيون إن السفينة كانت بعيدة عن تلك المنطقة بما لا يقلّ عن ١٠ أميال بحرية؛ بينما ادَّعى العراق أنها كانت على مسافة ٢٠ ميلاً بحرياً داخلها. وقد تمّ تجاهل طلب الوزير وينبرغر بإحضار الربّان العراقي؛ كما أعفي النقيب «بريندل» من قيادته؛ وعوقب ضابط الأسلحة الذي ترك الخدمة في البحرية، وعوقب الضابط التنفيذي لتقصيره في القيام بواجبه.

وقد افترض الأميركيون دائماً أن الربّان العراقي قد أُعدم ـ ولذلك رفض العراق إحضاره ـ ولكن نائب القائد العامّ للقوّات الجوّية العراقية أصرّ أمامي في بغداد على أن ذلك غير صحيح، قائلاً: «رأيته منذ أشهر قليلة. فهو مثلي عاطل عن العمل. ولكنه عمل بموجب كل القواعد المرعية الإجراء عندنا. كنا نقاتل عدوّاً شرساً. وكانت غلطة. ولم نكن لنضحّي بأحد طيّارينا الأعلى مقاماً لأجل خاطر الأميركيين. لقد دخل الأميركيون منطقتنا المحظورة. وكنا قد طلبنا منهم أن لا يدخلوها ثانية، ففعلوا».

وقد زارت مجموعة من الشيوخ الأميركيين المهاجع المصهورة للبحارة في السفينة «ستارك». وكانت تلك الزيارة كافية لجعلهم يستشيطون غضباً ضدّ البلد الذي لا علاقة له بإماتة أولئك الأميركيين. فقد وصف الشيخ

(*) أجريتُ مقابلة انفعالية مع سفير الولايات المتحدة في البحرين «سام زاخم»، الذي بقي يذرف الدمع خلال تلك المقابلة، أمام سكرتيرته المذهولة «آن أوليري»، ويصرّ قائلاً: «لم يكن لدينا سابقاً أيّ مبرّر لنشعر بأن العراقيين قد يهاجمون سفينة أميركية... وشعبنا يدرك أن الحادث حصل خطأً. وقد دفعنا ثمناً باهظاً لذلك الخطأ... لأن طبيعة الشعب الأميركي تمنح الآخرين تبرئة الظنّ والشكّ». وإذا كان الاتحاد السوفياتي يريد أن يظهر حسن نواياه في الخليج، بحسب قول «زاخم»: «عليه أن يوقف شحن الأسلحة من دول أوروبا الشرقية إلى إيران... إن إيران هي التي رفضت أن تأتي إلى طاولة المفاوضات». وهكذا يبدو العراق «صديقاً» ـ ويجب حرمان إيران من الأسلحة التي تلزمها للدفاع عن نفسها.

الجمهوري «جان وورنر»، الذي كان وزيراً سابقاً للبحرية الأميركية، إيران بأنها «دولة محاربة، لا تعرف القواعد ولا الأخلاق». كما لخّص الشيخ «جان غلين» إساءته إلى إيران بقوله: «إنها ترعى الإرهاب وخاطفي الطائرات». وهكذا جلب هجوم صدّام على «ستارك» فوائد له لا تخطر على البال. وقد تكلّم الأميركيون كما لو كانوا يفكّرون في القيام بعمل عسكري ضدّ إيران.

وادّعى ريغان أن الأميركيين كانوا في الخليج «يسعون إلى السلام»، بقوله شارحاً: «لو قامت قوة معادية وسيطرت على هذه المنطقة الاستراتيجية ومواردها، لشكّلت نقطة اختناق للحرية ـ لحلفائنا ولنا... ولذلك نحافظ على حضور بحري لنا هناك. وهدفنا هو الوقاية من توسّع النزاع لا استثارته؛ من أجل إنقاذ الأرواح العديدة التي سيكبّدنا إيّاها مزيد من النزاع... ويعلم معظم الأميركيين أن تراجعنا أو انسحابنا لا يبوء إلّا بتكرار أخطاء الماضي القصيرة النظر، ويمنح النصر النهائي لأولئك الذين يسعون في أثر الحرب، ويشعلون نارها». وغنيّ عن البيان هنا، أن الإيرانيين ـ ضحايا الغزو العراقي ـ هم الذين «يسعون في أثر الحرب ويشعلون نارها»، وليس العراق «الصديق»، الذي أزيل اسمه عن قائمة «البلدان الإرهابية» عام ١٩٨٢، أي بعد سنتين من غزوه لإيران وفي السنة ذاتها التي أعلنت فيها إيران وقوع ١١ هجوماً عراقياً بالغاز السامّ ضدّ قوّاتها. والحقيقة هي أن السفينة «ستارك» ـ إحدى سبع سفن حربية أميركية ـ كانت تبحر في ظلّ ادّعاءات خاطئة.

وكان العراق قد أقام «منطقته المحظورة» حول جزيرة «خرج» في كانون الثاني/يناير ١٩٨٤، بينما كان يخسر حرب اليابسة التي بدأها قبل سنتين. وكان صدّام يأمل أن يختق خصمه اقتصادياً بمهاجمة ناقلات النفط التي تأخذ شحنتها من المحطّة الطرفية في جزيرة «خرج» الإيرانية. وصار سلاح الجوّ العراقي يطلق النار على أيّة سفن من أيّة جنسية تتحرّك من المرافىء الإيرانية وإليها، منذ ذلك الوقت. وأخذت إيران ثأرها باستهداف المراكب المتاجرة مع العراق عبر بلدان الخليج. فقد كانت واردات العراق من أسلحة الحرب تمرّ عبر السعودية والكويت، البلدين اللذين موّلا المجهود الحربي العراقي بحوالى ٤٠٤ مليارات دولار أميركي. وصارت تجارة النقل البحري إلى أيّ منهما مهدّدة بالقصف الجوي الإيراني. وبين ١٨ نيسان/أبريل ١٩٨٤ و١٨ أيار/ مايو ١٩٨٧ ـ أي ثاني يوم قصفت فيه السفينة «ستارك» ـ هوجمت ٢٢٧ سفينة في الخليج، منها ١٣٧ هاجمها العراق، و٩٠ هاجمتها إيران. وأصيب بعضها بصواريخ وأصلحت تكراراً؛ وكان منها ١٥٣ ناقلة نفط. وبين أيار/ مايو ١٩٨١ و١٨ أيار/ مايو ١٩٨٧، قُتل ٢١١ بحّاراً تجارياً، وأكثرهم من الأجانب، على تلك السفن، ومنها ٩٨ ناقلة نفط. وما ذاك العدد سوى نزر بسيط بالمقارنة مع مئات الآلاف من المحاربين الذين قضوا نحبهم في حرب اليابسة. ولكنّ ذلك نقل النزاع إلى الصعيد الدولي ـ ربّما كما كان العراق وإيران يأملان.

ومن الواضح الآن أن السفن الحربية الأميركية تحافظ على إبقاء خطوط الملاحة الدولية مفتوحة، تلافياً لتحوّل الخليج إلى «نقطة اختناق»، بحسب القول الغريب لريغان. ولكن السفن الأميركية، لم تكن تحمي ناقلات النفط الإيرانية من الهجمات العراقية، ولا ناقلات النفط الأجنبية التي تأخذ شحنتها من النفط الإيراني في جزيرة «خرج»؛ بل كانت مهمّة أميركا في الخليج حماية جهة واحدة من السفن ـ أي ما يخصّ العراق من الخطوط

البحريّة، كما كان الأميركيون قد اقترحوا مرافقتهم للناقلات التي ترفع العلم الكويتي في الخليج، والتي لا تحمل نفطاً إيرانياً بل نفطاً عراقياً معدّاً للتصدير. وقد أدرك الإيرانيون فوراً أن العراق قد لا يستطيع أن يربح أيّ نصر في الحرب البرّية، لكنه قد يتمكّن من الانتصار في الحرب البحريّة بمساعدة الأميركيين. وادّعت الكويت أن الولايات المتحدة الأميركية كانت «تحارب الحرب» في الخليج. ولكن الواقع يشهد بأنها كانت تحارب إيران.

وبعد ١١ يوماً من إصابة السفينة «ستارك»، اشتكى الإيرانيون من أن السفن الحربية الأميركية «هدّدت» طائرة نفّاثة للطيران الإيراني كانت تنقل الركاب من شيراز إلى الدوحة في قطر، وأمرت ربّانها بتغيير اتجاهها. وقد تحرّيتُ الأمر مع مراقبي خطّ الطيران إلى دُبَي، فوجدت أن التهديد الأميركي جاء من إحدى السفن البحرية الأربع التي ترافق السفن المسجّلة في الكويت وتنقل حمولة من الأسلحة إلى البحرين. وقد كتبتُ تلك الليلة في «التايمز» أن ذلك الحادث «وفّر مشهداً من نوع... المأساة في الخليج. فإيران لها خطوط طيران إلى الدوحة، عاصمة قطر، وإلى دُبي في الإمارات... وبالتالي، تطير فوق المياه التي تحرسها الفرقاطات الأميركية. وربّما يكون ربّان تلك الطائرة قد مرّ فوق إحدى تلك الوحدات البحرية التي حدّدت هويّة الطائرة الإيرانية، وأمرتها بتغيير اتجاهها، ولو لم يذكر الإيرانيون ذلك». ولكن «المأساة» ستحدث بعد ١٤ شهراً بالتمام.

وقد كانت هناك وفرة من الإشارات المنذرة. فبعد زمن قصير من إصابة السفينة «ستارك»، قضيت يوماً وليلة على سفينة الحراسة في الخليج لصاحبة الجلالة المسمّاة «برود سوورد» أي «السيف العريض»، التي كانت ترافق السفن البريطانية عبر مضيق «هرمز»، نقطة الاختناق الشهيرة الآن التي أشار إليها ريغان ـ مع أن تعبير «المرافقة» لم يستعمله البريطانيون أبداً ـ وقد يكون تحويل انتباه الإيرانيين مسألة بسيطة في المذكّرات الجافّة المستخدمة في وزارة الدفاع بلندن؛ ولكن، في داخل تلك المدمّرة من طراز (Type-22)، كانت رادارات المراقبة تلاحظ بنشاط محموم عدداً من الطائرات المدنية التي تمرّ فوق تلك المدمّرة «برود سوورد»، حتى قال أحد المراقبين: «عليك أن تكون شديد الحذر، إذا أردت أن تتجنّب إحراق ستّة شيوخ في نفّاثاتهم الخاصّة».

وقد شُغّلت مكيّفات الهواء في عشّ المراقبين ـ لا من أجلهم، بل من أجل الحواسيب ـ ولكن البلاء الأعظم بالنسبة إلى معظم البحارة في الخليج، كان الحرّ الذي كان يلهب سطح السفينة إلى درجة يتعذّر معها المشي على ذلك السطح البالغ السخونة. وكان البحّارة البريطانيون يقفون على رؤوس أحذيتهم، ليخففوا من الحرارة الحارقة الصادرة عن فولاذ المدمّرة. وكانت غلافات قنابل الأعماق، ووسائل تصويب المدافع من طراز «بوفور» حارّة جدّاً، لا تُلمس. وعلى مدرج الطائرات المروحية ارتفعت الحرارة إلى ٥٤,٤ درجة مئوية؛ ولن تمسك بمفتاح الربط (الصمولة) يد إلّا وعليها قُفّاز. إنه وضع يلبّد الحسّ، ويبعث الإرهاق واليأس، ويثير السخط، لدى تلك الكائنات البشرية الموجودة على سطح المدمّرة الأمامي.

ولا شكّ في أن «اللوردات» (Lordships) كان من شأنهم أن يقدّروا نظافة هذه المدمّرة بأروقتها،

وسطوحها، وغرفها الحصينة، وتحذيراتها من أخطار الأيدز في مرفأ «مومباسا». لكنّ الحرّ كان يتنقّل في داخلها بأسرع من تحرُّك بحّارتها. أما مقصورة الضابط فلم تتجاوز حرارتها ٢٦,٧ درجة مئوية. وكأس واحدة من الماء كافية ليسيل مني العرق. وإذا فتحتُ أيّ باب موصد أقع في كمين الحرّ؛ كما حصل لي منذ سبع سنوات في شوارع النجف. وإذا فتحت الباب الثاني أسير في مصهر استوائي، بينما البحر الأغبر المألوف ذو اللون الواحد يلطم جدران السفينة تحت السطح. كيف يستطيع الناس أن يعملوا في مثل هذا الجوّ وأن يبقوا عقلانيين؟ أو ـ بدقّة أكثر ـ كيف يتمكّن العراقيون والإيرانيون من أن يتحاربوا في مثل هذا الجو القائظ، ويبقوا سليمي العقل؟

قال ضابط الرادار، وهو يضبط التصويب: «هذا هو مطار «الشارقة». إني أسمع صوت طائرة تهبط الآن ـ إنها طائرة تجارية ـ ولكن إذا أردتُ أن أستعلم عن طائرة معيّنة، أسأل: هل هي صديقة أم عدوّة؟ وأتكلّم مع برج المراقبة في الشارقة». كانت هناك ألواح وخرائط وعلامات بالقلم العريض على خطوط مناطق الحرب. وهنا تظهر سفينة «ريد» الأميركية، كجزء من الأسطول الصغير لريغان، وقد قطعت «المنطقة المحظورة» العراقية؛ حتى لا نعود نتكلّم عن إصرار «ستارك» أنّها كانت خارج تلك المنطقة. وتبدو أيضاً نازعتا ألغام سوفياتيّتان من طراز «ناتايا»، مع سفينة مستودع غوّاصة أيضاً خارج مضيق هرمز. كما تظهر أيضاً سفينتان من هونغ ـ كونغ تنتظراننا عند عودتنا.

أرخى الليل سدوله؛ ولم يجلب لنا الراحة. وعند الساعة الرابعة والربع صباحاً، وصلت المدمّرة «برود سوورد» إلى خليج عُمان. وجرّ مهندسوها حبل سفينة تدعمها تُسمّى «أورانج ليف» أي «ورقة البرتقال»، من أجل معاودة التزوّد بالوقود في الحرّ اللافح، والرطوبة التي تغمرنا كلّنا. كان سطح السفينة يندى بالماء المتكاثف، والعرق يسيل على وجوه البحّارة. وقد جرى العرق من خلال شعري وسال على ظهري. واسودّت قمصاننا بفعل الرطوبة. وقد حدث ذلك للجميع؛ بمن فيهم الروس. فعلى مقربة من الفُجيرة، كانت هناك سفينة مستودع ونازعتا ألغام متجاورتان تستكنّان فوق المدّ الدافىء، هدية من موسكو لحريّة الملاحة في الخليج. وكان البحّارة السوفيات نصف عُراة، ولامعي الأجسام، ينتظرون الناقلة الكويتية التالية للإبحار إلى الميناء. هنا كان السبب الرئيس الذي يحمل ريغان على حراسة الخطوط البحرية، وهنا كانت «القوّة المعادية» الحقيقية التي قد «تسيطر» على الخليج. ثم جاءت سفينتا شحن بريطانيتان لتقفا قربنا بانتظار أن «ترافقهما» المدمّرة «برود سوورد».

وعلى سطح السفينة، سمعنا الموظّف الهندي الذي يتخاطب بالراديو يبرِّر وضعه لسفينة حراسة إيرانية بقوله: «نحن لا نحمل سوى التمر، والتمر فقط». وكانت هذه السفينة على بعد ٣٠ كيلومتراً منه. ولكنّ طائرة استطلاع إيرانية أجابت بصوت مسموع على السفينة «برود سوورد»: «انتبهوا، فالبارحة شنّ العراقيون هجوماً بصواريخ «إكزوسيت» على ناقلة نفط مالطية تحمل النفط من إيران. ولذلك من المتوقّع أن يأخذ الإيرانيون بثأرهم...». وأحاط الموج الهائج بالسفينة تاركاً قطعاً متراصّة من الملح على سطحها حيث مدرج الإقلاع. وكانت سفينتا الشحن تمخران عُباب البحر قربنا في هذا الحرّ، على شاكلة ما كان يحصل للقوافل في المحيط الأطلسي خلال

الحرب العالمية الثانية، إذ إن سفينة «برود سووردs»، مهما كانت الرطوبة فيها أقلّ، فهي لا تعدو كونها قائمة بالمرافقة البحرية، مثل السفن الأميركية.

وبالرجوع إلى عام ١٩٨٤، عندما أثار العراقيون هذا النزاع البحري، كان الخليج يبدو أكثر بساطة. وكان العرب يحتجّون بقوّة عند كل اعتداء إيراني، ويصمتون عندما يضرب العراقيون الملاحة الإيرانية؛ وكانوا أيضاً يخافون من التدخل الأميركي، مثلما يخشون الإيرانيين. وقد حافظت العربية السعودية على علاقات هادئة مع إيران ـ تحسُّباً لانهيار العراق ـ في الوقت الذي تؤمّن فيه العون المالي لحرب صدّام. وبقي العرب ظاهرياً على الحياد ـ مشاركين في الحرب وإنما متهرّبين ـ كما وصف تشرشل بغير حقّ الإيرلنديين في الحرب العالمية الثانية ـ يقدّمون ملجأ لكلّ قائد سفينة يجد نفسه تحت القصف. فالبحرين ودُبي تستقبلان هياكل السفن المعطوبة من قِبل طرفي الاعتداء، مستفيدتين من ملايين الدولارات التي تنفق لإصلاح السفن لديهما. وحتى عام ١٩٨٧، شملت الإحصاءات ١٨ سفينة أصيبت مرّتين، وستّ سفن هوجمت مرّتين، واثنتين (سوبيرير ودينا) تميَّزتا بأنهما قُصفتا بالصواريخ وأُصلحتا أربع مرّات في أربع سنوات. وحتى في وقت مبكر بتاريخ أيار/مايو ١٩٨٤، كانت قرب البحرين مقبرة «خردة» عائمة للمراكب التي كانت إصاباتها قاتلة.

سمّوها مقبرة السفن بحقّ. فقد جُرَّت إلى هنا الناقلات الكبرى التي دمّرتها إيران والعراق بحالتها النهائية، تنزف النفط على الأمواج الموحلة الدافئة في قلب الخليج، وتُبدي الثقوب التي أحرقت هياكلها، وسبّبت هلاكها؛ حتى أن الحكومة البحرينية سيَّرت قارب حراسة إلى تلك المقبرة البحرية لتُري الصحافيين ماذا تمثّل هذه الحرب. فقد قصفت طائرة «فانتوم» إيرانية السفينة المسمَّاة «كاميكال فانتشور» أي «المخاطرة الكيميائيّة»، البالغة حمولتها ٢٩٠٠٠ طنّ، في ٢٤ أيار/مايو، بصاروخ مركَّز أصاب مركز جسرها حيث كانت هناك لافتة طولها ١٢ متراً تقول: «ممنوع التدخين». وهكذا صار بحّارة الناقلات موجسين خيفة من الأخطار. وعند آخر شهر أيار/مايو رست حوالى ٢٥ سفينة قرب الإمارات وحدها، بانتظار تعليمات من أصحاب السفن. وما عليك إلّا أن تنظر إلى أطلال الناقلة المسمّاة «الحوت» لتدرك خطورة الموقف. فهذه الناقلة العملاقة، البالغة حمولتها ١١٧٠٠٠ طن، كانت تميل لتبدي فجوة بجانبها عند مستوى المياه بحجم «باص» لندني، نتجت عن إصابتها بصاروخ عراقي، قبل ثلاثة أسابيع. وقد فُتل هيكلها إلى الخلف وبرز فوق مؤخّرتها؛ وانصهر مهجع البحارة، كما لو كان من لدائن وليس من فولاذ. وكان الشقّ على جهتها اليمنى واسعاً إلى درجة أنني كنتُ أرى نور النهار من خلاله.

وإلى الشمال، كانت تقف ناقلة النفط «صافينا العرب»، البالغة حمولتها ١٧٨٠٠٠ طن، والمسجّلة في السويد، تتمايل على الأمواج الطويلة بانتظار تحميل آخر شحنة لها من النفط الخام. كان النفط عالقاً بكل مكان: بجوانب الناقلة، وعبر المياه، حتى أنه لوّن زبد الأمواج بالسواد. وكنتُ أستطيع أن أشمّ رائحته من بُعد ميل. وكان بحّارة الإنقاذ ـ الهولّنديون في معظمهم ـ يعلمون بوجود المخاطر؛ لكنهم كانوا يتمشّون على سطوحها، وكأنهم في مرفأ مسالم، وليس على قنابل في الخليج، لا تبعد عنهم سوى ١١٥ كيلومتراً.

كان ذلك مكاناً معزولاً(*). فالخليج يبدو بكل بساطة كشقّ صغير على خريطة الشرق الأوسط، يفصل الصحراء العربية عن صحراء جنوبي إيران؛ لكن بحر الخليج يمكن أن يُصبح مضطرباً هائجاً، ويكون أفقه دون معالم، ما خلا وجود الناقلات المنعزلة السريعة العطب التي تغالب الرياح الشرقية الحارّة حتى رأس تنّورة والكويت. لم تكن هناك قوافل آنذاك، ولا حماية جوّية، بل كانت السفن تقترب قدر الإمكان من الشاطىء الجنوبي، وتمرّ بنا ونحن نصوّر مقبرة أخواتها العاثرات الحظّ، وهي سيّئة الطلاء بعامّة، غارقة في ضباب الحر، تشكّل أهدافاً لأيّ من الجانبين في النواحي العُليا من الخليج، بحسب أسيادها والمرافىء التي تقصدها.

لا بدّ أن يكون البحر قد تلوّث، لكنّه كان لا يزال حيّاً بوجود السمك الطائر الذي يقف على ذيله، وحيّات البحر الطويلة الصفراء التي تخرج من الأعماق الخضراء لتنظر إلينا، وخنازير البحر، وحتى السلاحف. كما كانت طيور النورس ذات المنقار الكبير تطير فوقنا على مهل ونحن في قارب الحراسة البحريني. وبدت بقع النفط كثيفة، زَلِقة، وأيضاً بخطوط رفيعة طويلة تتمزّق وتتجه صعوداً نحو المياه الزرقاء الشاحبة حيث حُطام السفن. وكان الشاهد الوحيد على شاغل الرئيس ريغان في تلك الأيام هو الطرّاد المهيب الكتوم «لويس» من الأسطول السابع، الذي يحمل صواريخه، ويرسو طول النهار خارج «ميناء سلمان» مرفأ البحرين، ويطوف حوله قارب طوارىء فيه بحّارة مسلّحون، لدفع المهاجمين غير التقليديين عنه ـ وهي فكرة سابقة لأوانها، إذ إن القطعة البحرية «كول» الأميركية لن تهاجمها القنابل البشرية في عدن إلّا بعد عقد من الزمن. وعلاوة على ذلك، كنا نسمع الاتصالات بالراديو، ونحن في طريقنا من السفينة إلى الشاطىء، وبدا أنها مشغولة بتعقيدات أفلام الفيديو الجديدة التي استُقدمت لصالح الطاقم. وبعد عدّة ساعات جاء مركب حراسة أميركي صغير إلى المرفأ، فأبحر الطرّاد «لويس» في الظلام القائظ، وقد تمّ له الحصول على الجديد من الأسباب الداخلية للترويح عن النفس.

ولكن، كانت هناك أيضاً ـ حتى في ذلك الوقت ـ سفن حربية أخرى تقوم بدور المرافقة للقوافل. وهذه الحماية غير الرسمية وغير المعترف بها، لم تُوَفَّر لها الدعاية لا في واشنطن، ولا في البلدان العربية، تجاوباً مع رغبتهم في إبقاء البحرية الأميركية عند الأفق. وكانت الحماية تقدّم أحياناً بواسطة الطرّاد الصاروخي الأنيق ذي المدخنتين «جان رودجرز» الذي دافع مؤخّراً عن المصالح الأميركية بقصف جبال الشوف في وسط لبنان منذ سنة. وفي أوقات أخرى قامت بالحماية حاملة الصواريخ الثقيلة الثخينة المسلّحة الظهر «يوني»، التي جاءت ليلاً من الإمارات ورست قرب البحرين. وكل مَن يقترب مِن السفن الحربية نهاراً ـ كما فعلنا، طبعاً ـ يجابهه بحّار أميركي بخوذة فولاذية، ومدفع رشّاش.

(*) يزيد المراسلون الأجانب على أسمائهم زمان صدور التقرير ومكانه ليعرف القرّاء فوراً وبالضبط من أين يقدّم المراسلون تقاريرهم. لكن إرسال التقارير من البحار والمحيطات أكثر عناء. وكنتُ أقوم بواجبي وأرسل خط المكان والزمان من الخليج بدقة هكذا:
51 degrees 40 mins E, 26 degrees 40 mins N لكن رؤساء التحرير المساعدين في «التايمز» كانوا يزيدون على ذلك تعبير «من البحر» بعد استشارتي. فذلك يلخّص إلى حدّ كبير شعورنا حوْل القصّة.

كانت طائرات الشحن الأميركية النفّاثة قد صارت تطير بانتظام إلى مطارات دول الخليج، وتحمل معدّات ضخمة تجعلها تستعمل جانحها العملاق المنخفض (C-48) لهذا النقل. وكانت هذه الرحلات تتوجّه إلى البلدان التي وصفها ريغان دائماً «بالعربية الصديقة»، ذلك التعريف الذي لم يعد يشمل لبنان ـ حيث «أعيد انتشار القوّات الأميركية إلى البحر» منذ ثلاثة أشهر، بعد تفجير ثكنات البحرية الأميركية في بيروت، وقتل ٢٤١ من رجالها ـ ولكنه التعريف الذي يضمّ بالتأكيد دول الخليج النفطية المحافظة. «وإذا عاد الأميركيون وتورّطوا استراتيجياً ـ كما فعلوا بعد ثلاث سنوات ـ تصبح البلدان العربية آنئذٍ بصورة أخرى»، كما كتبتُ عنها في «التايمز» في أيار/مايو ١٩٨٤، «طرفاً بريئاً في النزاع: مع بقاء الإيرانيين، في خانة الأعداء، لا محالة». وهكذا كان. ألم يكن سلاح الطيران الإيراني، والنظام الإيراني، وفي النهاية الإيديولوجية الإيرانية هي العناصر التي تهدّد المنطقة؟ ونعود ثانيةً، فننسى أن العراق هو الذي بدأ الحرب، وأن العراق هو أوّل مَن أمر سلاحه الجوّي بمهاجمة ناقلات النفط في الخليج.

وفي خريف عام ١٩٨٠، عندما بدا مؤكّداً أن نظام الخميني سينهار ويبوء بالفوضى تحت الهجوم الضاري للجيش العراقي حول عبدان، كانت البلدان العربية تصبّ المليارات في المجهود الحربي العراقي، وتطلب هي ذاتها عام ١٩٨٤ رقابة الأمم المتحدة على الهجمات الجوية الإيرانية على خطوط الملاحة. ولكن الآن، وقد أثبتت الثورة الإسلامية الإيرانية أنها أكثر ثباتاً مما قدّروا، علّق العرب آمالهم على مهمّة سلام عديمة القيمة، تقوم بها سوريا بين طهران والرياض. وسوريا هي البلد العربي الوحيد الذي راهن على أن أعداءها البعثيين العراقيين هم الذين قد يخسرون الحرب. وقد أدّى عدم بلوغ العرب عموماً مثل هذه النتيجة إلى قيام سياسة عربية عسيرة المتابعة، يصعب تبريرها تاريخياً.

وقد أكّد لي الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة، رئيس وزراء البحرين وشقيق الأمير، بتاريخ حزيران/يونيو ١٩٨٤، أن العراق لم يبدأ الحرب، بقوله: «أعتقد أن العراق يحاول أن يحمي نفسه، مثل أي بلد آخر... ولكن الحرب تبدأ من شيء ما. ولا يعُرف مداها من كل جانب. تبدأ النار بالاشتعال أولاً، ثم تعتمد النار على هبوب الريح، واتجاه هبوبها. وينجرف البعض أحياناً، ويظنّون أنهم أقوياء». وهذا أقرب انتقاد صدر عنه لصدّام. والآن صارت البحرين ـ مثل كل دول مجلس التعاون الخليجي ـ تطلب من مجلس الأمن الدولي إدانة إيران وحدها لتوالي هجماتها الجوّية في الخليج. ولم يكن الشيخ خليفة محبِّذاً للتدخّل الأميركي. قال: «هناك أساليب أخرى لمساعدتنا، ومنها إيقاف مدّ الطرفين المتحاربين بالسلاح من قِبل أوروبا وبلدان الشرق الأقصى». وهذا التصريح للذكرى؛ فهو صادر عن رئيس وزراء هذا البلد الذي شارك في دعم صدّام.

والكويتيون الذين شجبوا أيّ تدخّل أجنبي على أرض الخليج، وصلوا في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٣ إلى نتيجة مؤدّاها أن الدفاع عن مضيق «هرمز» هو مسؤولية البلدان المنتفعة به، أي بلاد الغرب. وقد نقلت جريدة «النهار» البيروتية عن الشيخ صباح الأحمد الصباح وزير الخارجية الكويتي، قوله: إن الخليج منطقة دولية، لا

نعترض فيها على التدخّل الدولي». ثم بتاريخ ٢٧ أيار/مايو ١٩٨٤ كان سفير الكويت في واشنطن يحذّر من التورّط الأميركي، لأنه «قد يدفع الاتحاد السوفياتي للدخول إلى المنطقة». وكان ذلك تصريحاً غريباً من البلد الخليجي الوحيد الذي سمح بإقامة سفارة سوفياتية في عاصمته، والبلد الذي أمل استمالة حُسن نيّة السوفيات بالنيابة عن دول الخليج في مجلس الأمن بالأمم المتحدة.

أما السعوديون فكانوا ما زالوا خائفين من أيّ وجود أميركي في الخليج. فالقواعد الأميركية على أرض الخليج تناقض الحملة المضادة لإسرائيل التي تقودها المشيخات؛ فضلاً عن أن إطالة مدّة الوجود الأميركي، قد تشعل النار التي جلبت الدمار على الأميركيين وحكومتهم العميلة في لبنان. فبلدان الخليج لم تنسَ اتفاق التعاون الاستراتيجي المعقود بين حكومة ريغان وإسرائيل ـ وقد أضرمت إسرائيل وقوداً إضافياً في حرب الخليج بإمداد إيران غريمة صدّام حسين بالأسلحة. وكان ذلك قبل «إيران ـ كونترا» بكثير، عندما استخدم الأميركيون إسرائيل لإرسال الأسلحة إلى طهران.

ولمّا شهد السوفيات تدمير حزب «توده» في إيران، صاروا يرسلون شحنات كبرى من الدبّابات إلى العراق، بينما كانت إسرائيل تزوّد إيران بأسلحة خفيفة وذخيرتها. وكذلك القول عن السوريين. أما الفرنسيون فكانوا ما يزالون يمدُّون العراقيين بصواريخ «إكزوسيت»، بينما كانت كوريا الشمالية تبيع رشاشات سوفياتية لإيران. وفي هذه الأثناء، كان الأميركيون يعيدون تنظيم وترسيخ علاقاتهم مع بغداد ـ وعند هذا الحدّ، كانوا ينمُّون «قسم الاهتمامات» في السفارة البلجيكية في بغداد ـ في ذلك الوقت بالذات الذي كان فيه صدّام يحتاج إلى الدعم المعنوي والمادي من قبل إحدى الدول الغربية. فبينما كان جورج بوش يشجب في باكستان النظام القمعي لإيران، نُمي عن صدام أنه كان يشنق الهاربين من الخدمة العسكرية على جوانب الطرق، خارج بغداد.

وبتاريخ ٢٩ أيار/ مايو عام ١٩٨٤، وصلت إلى العربية السعودية بالجوّ أول شحنة من صواريخ «ستينجر ٤٠٠» المضادّة للطائرات ومدافعها القاذفة. وحذّر الإمام الخميني واشنطن ساخراً، من أن إيران «ستقاوم وتحارب» أيّة قوّات أميركية تُرسل إلى ساحة المعركة، قائلاً: «إذا كان الأميركيون مستعدّين للغرق في أعماق مياه الخليج من أجل لا شيء، دعهم يأتوا بإيمانهم، ودوافعهم، وبقوّتهم الإلهية». كما حذّر عرب الخليج بقوله: «ستكونون على الحياد في الحرب، إذا لم تمدّوا صدّام بأية معونة. لكنّ الجار الذي يوجّه إلينا ضربة يكون أخطر من الغريب. وعلينا أن نجابه هذا الخطر». وعلى الأثر، حملت طواقم ناقلات النفط كلام الخميني على محمل الجدّ، مع معرفتهم التامّة بالدعم المالي المستمرّ للعراق. ولذلك صارت عدّة سفن تبحر ليلاً خوفاً من الهجمات الإيرانية، على الخطوط البحرية شمالي ـ غربي البحرين، وصولاً إلى الكويت.

وكانت تغطية مثل هذه الحرب المتطاولة على الزمن عملية مرهقة وغير مجدية بالنسبة إلى أية جريدة. فتكرار الأحداث، وهجمات العراقيين على جزيرة «خرج»، وتجميع مئات الآلاف من الجنود خارج البصرة، ونداءات الطرفين لمجلس الأمن بالأمم المتحدة، وإغراق المزيد من ناقلات النفط، هذه الأمور كلها كان لها تأثير مخدّر.

وكان هذا الحمّام الدموي الهائل يُسمَّى أحياناً «الحرب المنسيّة» ـ حتى لو قاربت أحياناً مجزرة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ الكوارثية. وأنا لا أحبّ المقارنة مع أكبر نزاعين حصلا خلال القرن العشرين الميلادي. فهل نستطيع القول مثلاً، إن قرار صدّام بغزو إيران عام ١٩٨٠ كان خطأ فاضحاً من وزن عملية «بربروسا» لهتلر، التي غزا فيها النازيون الاتحاد السوفياتي في حزيران/ يونيو عام ١٩٤١، والتي أدّت إلى مقتل ٢٠ مليون روسي ـ بينما لم يمت من الإيرانيين سوى مليون شخص كنتيجة لاعتداء صدّام؟ ولا شكّ في أن سفك الدماء في الحرب الإيرانية ـ العراقية دام الفترة الزمنية ذاتها التي دامت فيها حرب فيتنام، وكانت حرب صدّام أطول نزاع تقليدي حصل خلال القرن العشرين الميلادي السالف، وكانت نضالاً ذا قسوة بالغة، جعلت الإيرانيين يضطرّون إلى تغيير مواسير مدافعهم ١٢ مرّة قبل انتهاء تلك الحرب عام ١٩٨٨.

وكانت زياراتي إلى جبهات القتال، وإلى طهران وبغداد، تورث قصصاً لها نكهة «الآتية من بعيد»؛ حتى أن الإحصاءات فقدت قوّة الصدم. ففي عام ١٩٨٥ وحده، قدَّر الكولونيل «هيكي هولما» من فريق الأمم المتحدة للتفتيش في إيران أن ١٥٠٠ إيراني قد ماتوا أو جرحوا بالأسلحة الكيميائية. وفي سنتين حصل على الأقلّ ستّون هجوماً رئيسياً بالموادّ الكيميائية من قِبل العراق. وكان الضحايا على مستوى ضحايا معركة «الصوم» في الحرب العالمية الأولى. وهنا وجدتني دون رغبة مني أقارن مع الحرب التي خاضها أبي ـ ولكن لم يعترف أيّ من الطرفين بمدى خسائره. وفي عام ١٩٨٦ وحده، هلك مليون شخص في الحرب منهم ٧٠٠ ألف إيراني، بحسب قول الدبلوماسيين الغربيين الذين قلما زاروا جبهة القتال. وقال الإيرانيون من جانبهم أن ٥٠٠ ألف جندي عراقي قد قتلوا. وكان هناك ١٠٠ ألف أسير عراقي في إيران، وحوالى ٥٠ ألف أسير إيراني في العراق ـ وقد أُثبتت هذه التقديرات من قِبل الصليب الأحمر الدولي ـ وكان الطرفان ينفقان معاً ملياراً ونصف مليار من الدولارات شهرياً على الحرب.

وفي إيران، غيَّر النزاع مِزاج المتديّنين الذين يحاولون متابعة المعركة مع العراق. وقبل سنة واحدة فحسب، كانت هناك تقارير يومية عن التعذيب، والاغتصاب الجماعي في سجن «إيفين» ذي الجدران الغبراء. ولكن في نيسان/ أبريل عام ١٩٨٥، سُرِّح «حجة الإسلام علي لادجيفاردي» المدّعي العامّ في طهران من وظيفته، مع عديد من الجلّادين القتلة. وصارت الإعدامات الآن قليلة بحسب رجال أعمال إيراني قال بشيء من التهكّم: «إنهم الآن يقتلون المجرمين ورجال المخدّرات. وأسوأ ما يرتكبونه بحقّ فتاة خالفت الشريعة الإسلامية هو قصّ شعرها». وصار هناك إذعان لنظام الخميني ـ بدلاً من قبوله ـ ذلك النظام الذي أنتج حرّية محدودة للتعبير، بحيث يستطيع الآن أصحاب المتاجر، ورجال الأعمال والصحافيون الإيرانيون، وحتى العائلات المحافظة المتديّنة أن يشتكوا من الحكومة، دون خوف من تخوين حرّاس الثورة لهم.

وكان ذلك جزءاً من الأوهام. فالجمهورية الإسلامية لم تصبح فجأة ديمقراطية؛ ولكنها أمعنت تنكيلاً بأعدائها السياسيين إلى درجة لم يبقَ معها وجود لأيّة معارضة مركَّزة. ففي عام ١٩٨٤، يُعتقد أن عدد الإعدامات التي حصلت في طهران لا تقلّ عن ٦٦١؛ أضف إليها ٢٣٧ حالة إعدام حتى تسريح «لادجيفاردي»، بحسب إحصاءات

لجنة العفو الدولية، ولكن الإيرانيين أنفسهم أقرّوا بنحو ١٩٧ حالة قتل قانوني بين آذار/مارس ١٩٨٤ ونيسان/أبريل ١٩٨٥، بادّعاء مفاده أن كل هذه الإعدامات بسبب التعامل بالمخدّرات. وقد أعلن باعتزاز في جرائد طهران عن آلة صمّمها المهندسون الإيرانيون لقطع الأصابع، دلالة على أن الثورة حريصة على إنزال العقوبة بدقّة، على أولئك الذين يخالفون القوانين.

ولكن، لا يزال هناك مثل حرّية التعبير هذه في «المجلس» أي مجلس النواب، تلك المؤسّسة التي تنبّأ لها بعض النقّاد بأنها لن تكون سوى برلمان لختم قرارات الخميني. إنما حصلت فيها مجابهات حول سلسلة من القوانين المتعلّقة بالإصلاح الزراعي، والتجارة، والميزانية. فالمحافظون بزعامة رفسنجاني، رئيس المجلس، أرادوا استبقاء نفوذ رجال الدين وتجّار البازار، ودافعوا عن الاقتصاد الليبرالي، دون تغيير في ملكية الأراضي. ولكن الأعضاء الراديكاليين المدَّعين بأنهم يتبعون «خط الإمام»، كانوا يطالبون بسيطرة الحكومة الكاملة على التجارة، وتوزيع الأراضي، وعدد من الإصلاحات الاجتماعية التي تبدو وكأنها اشتراكية. وكانت النتيجة شللاً حكومياً. كما رفض ملّاكو الأراضي حراثة حقولهم لئلّا تصبح مجدية، فتصادرها الدولة.

وكان للخميني حقّ النقض لدى كلّ تشريع؛ ولكنّ وظيفته الرئيسة كانت عبارة عن حضور؛ إذ إنه الأب المؤسّس الذي تبرز مكانته لأهالي الشهداء، ونادراً للدبلوماسيين الأجانب، وكوجه للصلابة. ولكن ليس للحركة، كصورة وليس كمحتوى، كمرآة لانتصارات الماضي وليس لما سيأتي. وقد كان اجتماعه الأخير مع الدبلوماسيين نموذجياً. فقد تجمّع أكثر من ستّين سفيراً، وقائماً بالأعمال، وسكرتيراً، في غرفة صغيرة في مسكن آية الله، وأُلزموا بأن يجلسوا متصالبي الأرجل، على سجّادة وضيعة، بحيث أصاب القائم بالأعمال الفرنسي تشنّج حادّ إذ إنه ربض فوق القائم بالأعمال الإسكندنافي. وفي الوقت المناسب، دخل الخميني الغرفة، وألقى خطاباً باللغة الفارسية دام ربع ساعة، دون ترجمة. فقال أحد السفراء بمرارة: «ليس ما قاله مهمّاً، إلّا بنقطة واحدة أبداها الكهل لنا، ألا وهي أن الشاه استقبل ضيوفه في قصره الملكي، لكن الخميني يستقبلنا في مسكنه المتواضع».

وفي كلّ ليلة الآن، كان الخميني يُحمل إلى غرفة محصَّنة تحت الأرض، أسفل قصر الشاه القديم في «نيافاران»، الملجأ الوحيد في طهران من الغارات الجوّية. وذلك من أجل حمايته من الحرب التي صارت الآن تركته المستديمة. وكلّما حلّقت قاذفات القنابل العراقية فوق العاصمة، دون أن يضايقها أحد، كان عشرات الآلاف من مواطنيه يهربون إلى الجبال بسيّاراتهم. وبينما كان الخميني يطالب بالانقلاب على صدّام، كان الشيوخ يظهرون على التلفزيون الوطني ويطلبون من الأهالي في أصفهان وشيراز، والأهواز، ودزفول، وحتى طهران أن يتبرّعوا بالطعام واللباس لجنودهم في جبهة القتال. وقد طُلب من بلدات معيَّنة أن تعيد تموين أبنائها المرابطين في وحداتهم على الجبهة. وفي مستنقعات جنوبي العراق، كان المتطوّعون الإيرانيون «الباسيجي»، يتماسكون وسط الطين الحارّ والهجمات العراقية المضادّة.

والآن، أصبح الإيرانيون يشحنون صواريخهم أرض ـ أرض ذات الستمئة كيلو غرام إلى قاعدة جديدة في

«سربول زهراب» في كردستان، حيث سلّطها المهندسون من كوريا الشمالية لضرب بغداد. وعندما يعلمون أن الصاروخ قارب الوصول إلى الهدف بعد ربع ساعة، يعلن الإيرانيون عن تلك الضربة الوشيكة من إذاعتهم الوطنية. ويحدث ذلك تأثيراً غريباً على الصحافة والصحافيين؛ فيقول أحدهم، سمير غطاس، أو محمد سلام ممثل الصحافة الأميركية في العراق: «قد أكون جالساً في مكتبي ببغداد، عندما تخاطبني «نبيلة ميغالي» بالتلكس من البحرين مخبرةً أن الإيرانيين أعلنوا الآن عن إطلاق صاروخ على بغداد. فأُبقي على خط التلكس ـ إذ لم يكن لدينا «فاكس» في تلك الأيام ـ وحالما أسمع صوت الانفجار في بغداد، أكتب: «نعم». ويرسل العراقيون طلقهم الناري على الأثر. مع العلم أن الصاروخ يستغرق عشرين دقيقة ليصل من الحدود إلى بغداد».

ولم تستثر الغارات العراقية إلّا عرضاً خيالياً لإطلاق المدافع المضادّة للطائرات من الأرض حول طهران؛ إذ لا يتمكّن الطيّارون من أن يحدّدوا أيّة أهداف الآن، ما دام الإيرانيون قد حصلوا على رادار إنذار ألماني من طراز (SEL) يكشف الطائرات القادمة، وما داموا يطفئون الكهرباء في المدينة. ولكن، بتاريخ ٢ حزيران/يونيو ١٩٨٥، ألقت إحدى طائرات «إليوشن» العراقية قنبلتين من علوّ شاهق على مجمع سكني مدني كبير في ضاحية «غيشة» من المدينة، فدمّرت خمسة صفوف كاملة من المباني وما فيها من شقق. وكنتُ أستطيع أن أرى من نافذة غرفتي في الفندق الذي أنزل فيه، أنوار قاذفات القنابل البعيدة، ثم أرى لمعتين قرمزيّتين هائلتين، وأسمع زمجرة صوت القنبلتين أثناء انفجارهما تتّحد مع صوت انهيار المباني. وهكذا، أطلق العراقيون الصواريخ على طهران، وكانت تلك سابقة جديدة في حرب المدن. فقُتل ٥٠ مدنياً وجُرح ١٥ في تلك الغارة. وعندما وصلتُ لأعاين المكان، وجدت القصّة العادية ذاتها: تحوُّل القرميد الرخيص الذي صُنعت منه تلك المباني المتهدّمة إلى رماد وغبار، واندثار البناية المؤلّفة من أربع طبقات ـ والتي تؤوي ١٦ عائلة، بعد إصابتها بإحدى القنبلتين. وصدف أن كانت بنت صغيرة في ذلك المبنى تحتفل بعيد ميلادها، وقد دعت صديقاتها اللواتي نمن عندها، عندما نسفت القنبلة منزلها. وفي الصباح التالي، تجمهر الإيرانيون الغاضبون حول المكان، فاضطرّ حرّاس الثورة «الباسدران» إلى إطلاق النار في الهواء لتفريق الجمهور وفتح الطريق.

وعلى مدى شهري آذار/مارس ونيسان/أبريل عام ١٩٨٥، حصلت ١٣ غارة على طهران. والآن صار عدد الغارات ١٣ غارة أسبوعياً؛ وأحياناً ثلاث غارات في الليلة الواحدة. ولم يسقط من الطائرات سوى واحدة نفّاثة ـ خلال غارة نهارية في آذار/مارس ـ عندما اعترضتها طائرة (F-14) فوق العاصمة. فتحطمت الطائرة العراقية في الجبال الواقعة فوق طهران، وربّانها معها. وإنما، يمكن أن يُغدر الإيرانيون لاعتقادهم أن العالم كلّه يقف ضدّهم. ففي تموز/ يوليو، بدأ العراق بتسلّم دفعة من الطائرات المروحية الأميركية من طراز "Bell" ذات العشرين مقعداً، والبالغ عددها ٤٥ طائرة. وكلّها قادرة على نقل الجنود إلى جبهة القتال. وقالت إدارة ريغان، بكل جدّية، إن هذا البيع لم يخرق الحظر على تزويد المتحاربين بالسلاح، لأن «المروحيّات مدنية»، ولأن الحكومة الأميركية ستراقب استعمالها. وكانت المفاوضات حول ذلك البيع قد دامت أكثر من سنتين؛ وكانت الولايات المتحدة الأميركية خلالهما عارفة تماماً باستعمال العراقيين للغاز السامّ، و«تطهيرهم» للأكراد. وقد رأيتُ

فيما بعد ستّاً من مروحيّات «بل» هذه قرب «العمارة» مموَّهة بالطلاء، وراقدة على الإسفلت في إحدى القواعد العسكرية الجوّية.

إنما ما زال من الممكن استعمال إيديولوجية الاستشهاد في الحرب من أجل إرسال دم جديد إلى جبهة القتال. ويبدو أن هؤلاء الجنود الأولاد من الإيرانيين سيرسلون دائماً وأبداً إلى خنادق «كرمان» و«الأهواز» و«خرمشهر». وكلّ من هذه العمليات تُسمّى «والفجر» الذي يعني للمسلمين أيضاً «صلاة الفجر». وهكذا تسلسلت هذه العمليات من الفجر ١ إلى الفجر ٨. وكنتُ أنزل لمتابعة صلاة الجمعة في جامعة طهران خلال الحرب، وأشاهد هؤلاء الجنود المنمنمين ـ وكلّهم صغار السنّ، مبتهجين وخالين من هموم الحياة والموت، مثل أولئك الشباب الذين قابلتهم في الخنادق خارج «دزفول». ويقول الكلام المكتوب على عصابات رؤوسهم: «لبّيك، يا خميني، نحن مستعدّون». هؤلاء هم شهداء المستقبل، يلبسون بذلات الركض الخفيفة الصفراء، ويضربون صدورهم بقبضاتهم مثل سائر المصلّين، في الوقت المناسب من الإنشاد. إنه قرع للطبول الدماغية ـ لا يقلّ عن عشرة آلاف يدٍ تصفّق كل أربع ثوان ـ يتردّد صداه عبر البلاد كلّها، كل يوم جمعة، وعبر الإذاعة والتلفزيون الإيرانيين. إنه جمهور الجمعة المألوف، ولو تغيّرت الوجوه من أسبوع إلى آخر: وفيهم الشيوخ، وقُدامى المحاربين في كراسيهم النقّالة، وفقراء جنوبي طهران، والمتطوّعون من الأولاد، وأسرى الحرب العراقيون بلباسهم الأخضر، الذين يُشحنون إلى المساجد ليلعنوا رئيس جمهوريتهم.

كانت صلاة الجمعة في طهران مزيجاً فريداً من طقس ديني مع تصريحات تتعلّق بالسياسة الخارجية، وضرباً من حملة «بيلي غراهام»، وخطاباً عن حالة الأمّة في وقت واحد وعمل واحد، والغريب ـ ولا سيّما إذا جاء من بلاد الغرب ـ قد يرتبك ويتشوّش؛ لكنّ ذلك سيخلّف في نفسه انطباعاً قوياً، دون شك. ولا يكون الإمام الذي يقيم الصلاة هو مركز الاهتمام في هذا المسرح الكبير؛ بل يكون رفسنجاني، الذي قد يتحدّث إلى جمهوره الذي لا يقلّ عن عشرة آلاف شخص، حول منشأ الثورة، وإحباط القوّة العظمى في لبنان، والانتصارات الإيرانية التالية خارج البصرة. وقد يكون الخطاب غير مترابط؛ ويبدو شعره الأجعد تحت عمامته، وهو يضع يده على رشّاش آلي، ولا يستثير في جمهوره انفعالات متطرّفة.

وفي شهر حزيران/يونيو هذا، أمّنت الرعيّة وحدتها بنفسها؛ إذ كانت أصواتها تعلو وتهبط بإيقاعات ونغمات ختامية منتظمة في إطار نشيد طويل باللغة الفارسية، يحاول أن يكامل بين التاريخ الإسلامي والكفاح ضدّ العراق؛ بينما بقي الصبيان الصغار، ومنهم من لا يتعدّى عمره عشر سنوات، يضربون بقبضات أيديهم على رؤوسهم. مع العلم أن أكثر الشعر الفارسي مقفّى، وتأتي هذه الدعوات إلى الحرب بسذاجة مهجورة، تكاد تكون من العصر «الفيكتوري». وفي ما يلي الترجمة العربية المقفاة عن الترجمة الإنكليزية المقفّاة أيضاً:

مستعدّون لبذل أرواحنا، مستعدّون للذهاب،

والقتال ضدّ أعدائنا، كما في كربلاء، لا نهاب،

قال الإمام الحسين إن رجاله هم الأفضلون،

ونحن مع الإمام الخميني واقفون،

نحن ندافع عن شرف الإسلام،

عندما نتبع كلمة الإمام.

وكان هناك بعض صغار المتطوّعين «الباسيجي»، الذين اختيروا من أجل الاستشهاد، أبناء الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العمر، مطقومين في بذلات صغيرة، مموّهة، مشرقة. كانوا واقفين على جانبي منصّة رفسنجاني، حاملين صواني الحلوى ملفوفة بورق السيلوفان القرمزي، بانتظار إشارة تسمح لهم بأن يتجوّلوا بين صفوف الشيوخ وجرحى الحرب، وحرّاس الثورة بستراتهم العسكرية، والمسنّين المرسلي لحاهم قليلاً، وأصحاب الثياب الداكنة القادمين من جنوبي طهران، ويقدّموا لهم الحلوى. فيأخذ كل رجل منهم حبّة دون أن ينظر إلى الولد الذي يقدّمها في هذه المناسبة، التي يتشارك فيها مع هؤلاء الشباب الصائرين إلى حتفهم، والتي لا تشكّل فترة استراحة بين الركعات.

ثم يعود هؤلاء الصبيان مفعمين بالعاطفة في هذا الموقف إلى أمكنتهم على جانبيّ المنصّة، وتبدو شعورهم قصيرة القصّ، وعيونهم تطوف أحياناً بخجل على جماهير المصلّين، الذين أُبلغوا بأن هؤلاء مدركون للرسالة التي يؤدّونها. إنهم واقفون هناك، يتململون أحياناً، وتنحرف العصبات المعقودة حول رؤوسهم؛ لكنهم يبقون في حالة تأهُّب، كما يلعب الطفل لعبة الجندي في البيت. لم يذكرهم رفسنجاني؛ إذ إن رسالته كانت مرهونة بتلك الفترة الزمنية، وصيغتها هي صيغة قديمة مألوفة التعابير. فالعراق يخسر العديد من الرجال على الجبهة؛ ولحماية أولئك الرجال، لا بدّ من خسارة مزيد من الأرض؛ إن العراق يخسر الحرب. ففي أسبوع واحد، خسر العراق أربعة ألوية. فأنشد المصلون شكرهم لجيشهم على الجبهة.

وتجدر الإشارة إلى أن صلاة الجمعة تُذاع من مكبّرات الصوت عبر تلك الخنادق ذاتها المقابلة للبصرة، حتى يتسنّى للجنود الإيرانيين أن يسمعوا الآلاف العشرة من الأصوات فوق نيران القصف، وهم يطلبون الأخذ بالثأر بسبب الغارات الجوّية العراقية على المدن الإيرانية. كما أن رفسنجاني أضاف إلى ذلك ملاحظة عملية لأمّته جمعاء، قائلاً: «إذا أردتم أن تكونوا مفيدين، تستطيعون أن تحفروا ملاجىء للوقاية من الغارات الجوّية، كلٌّ قرب بيته». وكان الصبيان لا يزالون واقفين قربه من الجانبين، وقد فترت هِممهم؛ وكأن بيوتهم لم تعد شاغلاً مباشراً لهم.

وساق العراقيون الأسرى الإيرانيين ـ بالآلاف الآن، كما فعل الإيرانيون قبلهم ـ وقدّموهم متباهين إلى الصحافة العالمية. ففتح العراق لأسراه الجدد مخيّماً ـ سجناً هائلاً في الصحراء غرب بغداد، قرب المدينتين الحارّتين الفلّوجة والرمادي حيث تتجمّع أكثرية سنّية، ليس فيها حوزة شيعية تقدم الراحة والمساعدة لمن قد يهرب

من السجن. وكان ذلك معتقلاً كاملاً بقيادة النقيب عليّ المرح الذي أراد أن يقدّمنا إلى أسراه النموذجيين. تجمّع نزلاء السجن حولنا عندما وصلنا؛ وهم شباب في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، لا يزالون يلبسون بذلاتهم الصحراوية الصفراء ـ السمراء. وقد وصفهم الضابط العالي المقام في الرمادي «أنيس الطوسي» بأنهم سعداء. وكيف لا يكونون كذلك؟ فلديهم هنا مدارس، ومكتبة، وغرفة خياطة، ولوازم كرة الطاولة، على حدّ قول طبيب المخيّم.

وكانت فوقهم صورة لصدّام، وهو يبتسم بسخاء لهم. وعلى الجدار إعلان باللغة الفارسية يقول: «من الأفضل لكم وللآخرين كلّهم، أن تطيعوا قواعد المخيّم. أطيعوا قواعد المخيّم وقائده، كي تُعامَلوا كأصدقاء». ابتسم النقيب علي في قيظ الظهيرة، وأشار بفخر إلى المطعم، قائلاً: «شاهدوا الأكل الجيّد الذي نقدّمه للأسرى، ودفع بيده باب كوخ صغير بداخله ثلاثة متطوّعين إيرانيين «باسيجي»، قُبض عليهم في مستنقعات «الهويزة» قبل سنة، وهم يحرّكون بلطف في خلقين من السمك وآخر من الدجاج المحمّر. وأردف القائد المرح قائلاً: «هذا مخيّم الرمادي الثاني؛ وكل مخيّماتنا في الرمادي متماثلة. إن الأسرى ينعمون هنا بظروف جيّدة لا تحملهم على الهرب».

والعين النافذة تكشف عن عنصر في هذا التصريح. فمخيّم الرمادي الأول، مثلاً، محاط بأسلاك شائكة لامعة، عمقها تسعة أمتار وعلوّها خمسة أمتار، بشكل لا يكاد يسمح للمسجونين أن ينحنوا إلى خارج نوافذهم، ناهيك بإمكان اللعب بكرة السلّة. ومخيّم الرمادي الثالث، ليس فيه غرف للخياطة، ومكتبات للقراءة. وربّما كان المسجونون في المخيّمات الأخرى، لا يتكلّمون عن الخميني بمثل هذه المرارة والقسوة. وقد أدان اثنان من أولئك الجنود الصبيان في المخيّم الثاني للنقيب علي، نظام الخميني بحماس، بينما أومأ موظفو حزب البعث برؤوسهم موافقين، وابتسم الحرّاس من الشرطة العسكرية مرتاحين.

وعلى سبيل المثال، أقرّ محمّد إسماعيلي، البالغ من العمر عشرين سنة، من «كرمان»، بأنه أرسل إلى أهله من الإذاعة باللغة الفارسية، يقول «إن هذه الحرب ليست حرباً مقدّسة». وكان أحمد تقي الذي بلغ السابعة عشرة من عمره فحسب، أكثر دقّة. وهو نحيل، خجول، محلوق الرأس تماماً؛ كان متطوعاً «باسيجياً» أرسل إلى جبهة القتال منذ سنة تقريباً. قال: «كنتُ في المدرسة عندما دخل على صفّنا شيخ (مولى)، وأخبرنا بأنه يجب علينا أن نحارب في المعركة ضدّ العراق. وأنه سمع الخميني يقول إن جميع الشباب يجب أن يذهبوا إلى الجبهة «ولكني أعلم الآن أنها لم تكن حرباً مقدّسة». كانت تلك القصص متشابهة، تنبيء أولئك الأولاد بأن الله تعالى يكافئهم إذا ماتوا في المعركة. وهذا استيحاء روحاني يتبدّد حالما يدخلون مخيم الرمادي الثاني.

وقد اعترف بعضهم بأنهم لن يستطيعوا الرجوع إلى نظام الخميني بعدما أعلنوا تلك التصريحات ضدّه، حتى ولو انتهت الحرب. وكان الإيرانيون بدورهم، قد أقنعوا مئات من الأسرى العراقيين بأن يتكلّموا بمثل هذه الهرطقة عن صدّام. وربّما يكون هذا ما يريده الطرفان: أسرى لا يستطيعون العودة إلى وطنهم.

قال النقيب عليّ برباطة جأش: «لا يزال هنا حوالى ستّين أو سبعين أسيراً، يناصرون الخميني ـ وليس هذا كثيراً، وهي نسبة متدنّية، وقد يذكرونه أحياناً في صلواتهم ـ ونحن لا نتدخّل بشؤونهم الدينية». ولكن النقيب تدخّل في الأخبار التي تصلهم؛ إذ لم يسمح لهم إلّا بالاستماع إلى البرنامج الفارسي من الإذاعة العراقية ـ الذي قد لا يكون طرفاً غير متحيّز حول الحرب ـ ولا شيء غيره. أما الشيء الوحيد المسموح بتسلّمه فهو الرسائل المرسلة من قبل أهلهم عبر الصليب الأحمر الدولي. وقد أصرّ النقيب عليّ أن نرى الثكنات فمشينا إلى كوخ يحوي حوالى مئة شاب تحت العشرين من عمرهم، وكلّهم في بزّاتهم الغبراء الصفراء الشاحبة. كانوا حُفاة واقفين على بطّانيات عسكرية مزدوجة كأفرشة لهم؛ وحالما رفع أحد المصوّرين العسكريين العراقيين آلة التصوير، طأطأوا رؤوسهم، نظراً لأنهم إذ أخفوا هويّتهم قد تتسنّى لهم العودة إلى بيوتهم.

وكلّما حصلت نكسة عسكرية للعراقيين، اتُّخذت ذريعة لكسر المزيد من قواعد الحرب. فقد كان هناك الغاز لدرء الهجمات بالأمواج البشرية. وكانت هناك حرب بحرّية على التجّار العزّل، بعد حدوث مزيد من الخسائر. وقد حصلت سابقة غير أخلاقية جديدة في أوائل عام ١٩٨٦ ـ بعد أن استولى الإيرانيون على شبه جزيرة الفاو ـ عندما أسقط العراقيون طائرة إيرانية تحمل شارة الصداقة و٤٦ راكباً مدنياً، بمن فيهم بعض أعضاء مجلس البرلمان ورئيس تحرير جريدة «كيهان» السيّد «حسن شاه شرجي».

أراد الإيرانيون أن يأخذوا الصحافيين إلى الفاو، لكنني رفضتُ أنا شخصياً أن أستقلّ طائرة إيرانية عسكرية من طراز (C-130) ليلاً إلى الجبهة. فإذا كان العراقيون قد أسقطوا طائرة مدنية إيرانية، فلا شيء يمنعهم من أن يدمّروا الصحافة الدولية التي جاءت لتشهد أحدث انكساراتهم. ولذلك، أخذنا القطار من جديد نزولاً إلى الأهواز وإلى الحرب التي ما زلتُ أغطّيها منذ خمسة أعوام ونصف العام.

وكان للفاو معنى خاص بالنسبة إليّ. فقد كانت المكان الذي رأيت منه الحرب الإيرانية ـ العراقية لأوّل مرّة. إنها قطعة أرض تقع عند أسفل نهر شط العرب؛ وقد قصف منها العراقيون عبدان. وكان العراقيون آنذاك يعتزمون أن يحتلّوا الضفّة الشرقية للنهر، والاحتفاظ بها دائماً للعراق. وبالفعل لم يفشلوا في الاستيلاء على الضفّة الشرقية؛ ولكنهم خسروا الآن الضفّة الغربية، بما فيها مرفأ الفاو. وسيكون الهدف القادم للإيرانيين مرفأ البصرة الكبير، بسكّانه الشيعة، وطرقه المتوجّهة مباشرة إلى المدينتين المقدّستين: كربلاء والنجف إلى الشمال الغربي. وإن لم أكن أرسل تقاريري من البصرة ذاتها، الآن، فعلى الأقلّ أبعث بها من المدينة التي بدأت منها عملي في تغطية تلك الحرب.

لم أكن سعيداً؛ فقد كانت هناك تلميحات متكرّرة في طهران إلى حصول «نكسات» في معركة الفاو. وقد أشار رفسنجاني إشارة مقلقة إلى حاجة إيران إلى الاحتفاظ بالفاو، بينما يعلن عدم وجود خطط للتقدّم نحو البصرة ـ مما كان من الأمور الغريبة. فلماذا تمّ احتلال الفاو أولاً، إذن؟ وكانت جرائد طهران تصف كيف «تدعم» القوّات الإيرانية مواقعها ـ وذلك يدل دائماً على وجود صعوبات لدى الجيش. وعندما وصلنا إلى الأهواز

وأخذونا إلى أقرب قاعدة جوّية لنطير بالمروحية إلى جبهة القتال، وجدنا أن الطيّارين الإيرانيّين قد ملآ الطائرة بالصحافيين والشيوخ ـ ثم أحبطا الرحلة. وادَّعى أحدهما أن هناك ريحاً قوية فوق النهر، وتنبّأ بطقس سيّىء لما بعد الظهر. ولكنّ أحد رجال الدين وصل ليأمرهما بالانطلاق. وكان «تجيري ج. لابيل» من الصحافة المتحدة، الذي أمضيت معه سنوات في بيروت خلال الحرب، جالساً قربي على أرض المروحية. ونظر كلّ منا إلى الآخر بينما كانت المروحية تغادر ساحة المطار، وتُحلّق على علوّ مترين فوق الأرض، وتتّجه نحو الغرب ـ ثم تعود بلطف وتحطّ على إسفلت المطار. وكنّا ككثير من الصحافيين في أوقات الحرب، متهوّرين وساعين للوصول إلى الجبهة، وأكثر سعياً لإيجاد حجّة لتفادي الذهاب إلى هناك(*).

وكنتُ مع «تجيري» نقنع أنفسنا بقولنا «دعنا نذهب وننهِ هذه القضية». ألم أسرع إلى ركوب مروحية «بيل» مماثلة للذهاب إلى «دزفول»، قبل سنة تقريباً؟ ألم نعترف، «كيفنر» وأنا، بأننا تمتّعنا برحلة المروحية السريعة التي تكاد تمزّق القمصان وتقطع الأنفاس فوق الوديان وآلاف الدبّابات المحروقة؟ ألم تكن تلك مهمّة المراسل الأجنبي في الحرب؟ بالذهاب إلى ساحة المعركة، والحصول على القصّة، ومن ثمَّ العودة إلى البيت سالماً معافى، دون حاجة إلى الرجوع إلى هناك في اليوم التالي؟ خرجنا من المروحية؛ وكنتُ أرى دلائل الفرج على وجهي الطيّارين. فإذا لم يريدا الذهاب، فذاك يعني أن هناك مانعاً من الذهاب إلى الفاو.

لم أنم تلك الليلة في فندق «الأهواز» الذي يشبه الكهف. فقد جاءتني أسراب البعوض تطنّ حول وجهي، ونفد ماء الشرب بالزجاجات عندي، وأسقمني الدجاج الذي أكلته على العشاء. قال لي «لابيل» بابتسامة خبيثة: «نراك غداً صباحاً، يا فيسكي». وكان «لابيل» من نيويورك، لكنه نشأ في «أريزونا»؛ وكان سريعاً، صلب العود، حاضر البديهة بالمفردات الحشوية؛ ولا سيّما إذا ضايقه أحد على خط التلفون باستقصاءات طفولية حول تقاريره. سألني يوماً: «اللعنة! كيف تريدني أن أعرف إذا كان ابن صدّام الملعون يحارب في هذه الحرب الملعونة، عندما أكون على جبهة القتال الإيرانية، أُقصف بواسطة العراقيين الملاعين؟! إني أتساءل أحياناً لماذا أنا الملعون، أشتغل لهذه الوكالة الصحافية الملعونة؟!». لكنه كان يحبّ وكالة الصحافة المتحدة (AP)، ومواعيد الإنجاز لديها، وكيف يرنّ الجرس فيها لقصة تعرض على لوحة الإعلانات. وقد قال لي على التلفون عام ١٩٨٩ عندما مات الخميني: «أتعلم يا فيسكي، بأن ذلك الكهل الخميني قد انتهى. وأتصوّر أن ذلك يعني: لا حرب في المستقبل».

بعد تلك الليلة الليلاء من الأرق ولسع البعوض، أفقت في ذلك الصباح الحارّ اللعين، وأنا بأشدّ الحاجة إلى بعض فكاهات زميلنا «لابيل». وبينما كان مراقبنا من الوزارة ينادينا لنذهب إلى القاعدة الجوّية، واجهني «لابيل»

(*) يصف «جايمس كاميرون»، أحد أبطال الصحافة الذين أقدّرهم، الظاهرة ذاتها بدقّة، في تقريره عن الهبوط بالطائرة في «إنكون» خلال الحرب الكورية عام ١٩٥٠. فقد كتب وسط عملية هبوط بطائرة عسكرية تتجه نحو الشاطىء: «كنا نتجوّل في قارب ممهور بأحرف كبيرة: «صحافة»، يضمّ مراسلين مضطربين ومتبارين؛ وكلّ منا يحاول أن يعطي انطباعاً بأنه قرر أن يكون الهبوط من الطائرة عند «الموجة الأولى»، بينما كنا نسعى جاهدين لاستنباط طريقة مشرّفة كي ننزل في «الموجة الخمسين».

بابتسامات «ستيف ماكوين» الخالية من المرح قائلاً: «على رِسْلِك يا فيسكي؛ لقد أُخبرتُ أننا سنتلقّى التعليمات في الغرفة المحصَّنة كالعادة، ثم نتمشّى قليلاً على شطّ العرب، ثم نزور الفاو سياحياً. وسيكون أمامك الكثير من إطلاق النيران، ومن الجثث في الشارع». وعلمنا أنه قبل أيام قلَيلة أصيب مراسل ألماني بنوبة قلبية قاتلة، خلال غارة جوّية عراقية على الفاو. فقد كان مع رفاقه يقفزون ليجدوا ملجأ لهم، عندما فاجأتهم الطائرات؛ وبعدما عادوا ليركبوا شاحنتهم التي يسافرون فيها، بقي المراسل الألماني ملقى على الأرض. وسيسمِّيه الإيرانيون فيما بعد «شهيداً» من شهداء الحرب «المفروضة عليهم».

صدق «لابيل» بشأن الغرفة المحصَّنة. كانت هناك طائرتان مروحيتان من طراز «بيل» في القاعدة الجوية، وعليهما الشارات الإيرانية، تغالبان الهواء الساخن وتتهيّآن للانطلاق من أرض المطار. تراكمنا في إحداهما، «لابيل»، وأنا، مع أربعة صحافيين آخرين، ومجموعة من الشيوخ المنضمّين إلينا كالعادة. خفضنا رؤوسنا ونحن نترنّح في الهواء، بينما تنساب المروحيّة فوق بساتين النخيل، وتطير بسرعة فائقة على علو أمتار قليلة من أطراف الأشجار نحو جبهة القتال، التي نعرف جميعاً أنها رحلة إلى الجحيم، ما خلا إخواننا الشيوخ، على ما أظنّ. كانت الرحلة كأنها رجوع إلى الوراء، إذ كنّا نحاذي الأهراء، ونرتفع فوق أبراج الأسلاك الكهربائية، ثم نقع في جيوب هوائية ورملية، ونحوّم كالصقر فوق قوافل عسكرية تتجه نزولاً إلى النهر. كنتُ و«لابيل» ننظر تحتنا بدهشة، ونحن نحسّ بالمخاطرة إحساساً قوياً، لركوبنا الطائرة في مثل هذه الظروف، وقيامنا بهذا الجنون، على شاكلة ما اختبرته في دزفول: «ذاهبين إلى الجحيم مع أخطاره كي ننظر إلى الحرب».

رأيتُ مياه الشط على يميننا ــ وكان شحوبها عند ضوء الفجر يأخذ بألبابنا ــ ومن تحتنا كنا نشاهد، كما في قاذفة الانقضاض، مخيّماً إيرانياً فيه الأسلحة ومدافع الهاون، والسواتر الترابية، ومرابض إطلاق النار، والدبّابات والمصفّحات في الصحراء التي يبلّلها ندى الصباح، وكلّها يجرفها الرمل والدخان. كان الطيّار المساعد يلبس خوذة الخنافس التي يقدّمها الأميركيون لمن يشتري مروحيات «بيل» (Bell)، ويكتب شيئاً على ورقة صغيرة، بينما نحن على وشك الوصول، والطائرة تهبط لتقف قرب غرفة محصَّنة من الإسمنت. كان الطيّار المساعد يمسك مقود طائرته باليد اليمنى ويكتب باليد اليسرى. فظننت أنه يكتب كلمة مستعجلة للربّان؛ لكنه استدار نحونا وأرانا الورقة وهو يبتسم ابتسامة عريضة. وكان عليها العبارة الآتية بالإنكليزية: «سنقتل صدّام حسين». نظرنا «لابيل» وأنا أحدنا إلى الآخر. وهمس «لابيل» في أذني بخشونة: «عال، على الأقلّ إن الملعون يعرف ماذا يريد».

كنت أستطيع أن أرى من خلال ضباب الصحراء ومطرها، وعبر الهواء الحارّ الكاتم للضجّة، أن كلّ مخبأ مزيّن بعلم أخضر عليه أقوال إسلامية، وهنا، سارع إليّ جندي ممتلىء الجسم في منتصف العمر مبتسماً يصرخ: «الموت لإنكلترا»، وهزّ يدي مصافحاً وقائلاً: «كيف حالك؟ هل تريد بعض الشاي؟». وكان على غرفة «علي مازينان» المحصنة، لافتة تمنع الدخول إليها إلّا لمن نزع حذاءه، فدخلتها بالجوارب، ومشيت على أرضها المكسوّة بحرام صوفي، بينما كان مدفع من عيار ١٢٢ ملم يطلق قذائفه على البصرة. وكان المؤذّن إذ ذاك يدعو

إلى الصلاة. وفي الوضع الذي أرسلت فيه تقاريري السابقة إلى هيئة الإذاعة الكندية: كان صوت القصف يتخلّل صوت الأذان. وبالنظر إلى خريطتي، علمت أنني الآن في مكان ما يدعى قرية «نهر الهاد».

أمسك علي مازينان بمسطرة خشبية بيده اليمنى، وأشار بها بهدوء إلى الزاوية اليسرى الدنيا من خريطة كبيرة مصفّحة مثبتة على جدار مخبأه بشريط لاصق. وكان مازينان يلبس نظّارة كثيفة، ذات إطار أسود كثيف ـ على غرار عادة الأشخاص المحترمين، مثل الشيوخ، وقادة حزب الله، وضبّاط الحرس الثوري، وكُتّاب الوزارة ـ وكان هو ذاته قائداً للحرس، وأحد الذين استولوا على الفاو. قال: «فزنا لأننا اتّبعنا أوامر الله تعالى». وسألتقي مازينان أيضاً؛ وسيكون لي رمزاً للمهامّ الصحافية الخطرة والطائشة.

سألنا: «ما هي مساحة الأرض التي غنمتموها؟». فتحرّكت مسطرة مازينان نحو الخريطة، وحدّد الخطوط الخضراء الباهتة ورفع مسطرته بيده اليمنى أيضاً، وأطبق براحة يده اليسرى كلّها على شبه جزيرة الفاو. لم يمسّ الكويت، لكنه أشار بإبهامه نحو البصرة، واجتاز بإصبعيه الأوسطين المجرى المائي، والجسرين العريضين المؤقّتين المنصوبين فوق نهر الشط على مقربة من عبدان، ذينك الجسرين الأسطوريين الجديدين اللذين ربطا اليابسة الإيرانية بالأرض العراقية. ولم يتطرّق الحديث إلى ما يمكن أن يقوم به العراق من هجوم مضادّ؛ بل عاد مازينان إلى الخريطة، ونقر عليها مشيراً إلى الشقّتين الخضراوين الشاحبتين اللتين ترافقان كل ضفّة من ضفتي النهر. وقال: إن الضفّتين انتجتا التمر خلال الحرب؛ وبدأ يجري تحليلاً إحصائياً لمنتوجهما الزراعي. وبينما كان يتكلّم، وزّع رجال الوزارة علينا أكياساً بلاستيكية صغيرة قذرة، فيها أنبوبا سائل، وحقنة بغيضة المنظر. وهمس أحدهم في أذني: «لغاز الأعصاب» وهو يبرز الزجاجة ذات السائل الأخضر، ثم «لغاز الخردل»، وهو يشير إلى الزجاجة ذات السائل الأغبر. وها نحن نتزوّد بالحقن الطبّية المضادّة لسمّ صدّام قبل أن نحطّ في الفاو؛ ونستمع إلى القائد العسكري المحلّي، وهو يخبرنا عن صادرات العراق من التمر عام ١٩٧٩.

وقد ارتحنا إلى حدٍّ ما عندما أبلغونا أنهم سيأخذوننا إلى «الفاو». وقال لي «لابيل» بخبث: «تصوّر يا فيسكي، أنك ستكون عما قريب في مكان، يكون فيه خط تاريخك: من روبرت فيسك، في الفاو المحتلّة من قِبل الإيرانيين». وفي الخارج صار الرمل يدوّم حول وجوهنا، ويتخلّل ثيابنا، ويتسلّل تحت ياقات قمصاننا. وها هي قنيفة أخرى تنطلق انفجارياً باتجاه البصرة. صعدت إلى المروحية وكأني في حلم. وهي تستطيع أن تستوعب بأمان ثمانية ركّاب كحدٍّ أقصى؛ ولكننا كنا ١٩ شخصاً، وأكثرنا من الشيوخ الصاخبين. واكتشفت أني عندما أقوم بشيء جنوني، هناك جزء غير محدّد من دماغي يتولّى أمري. فلا أتخذ قرارات، ولا أقوم بخيارات، فدماغي الآن يشتغل باستقلال عني. وهو يعلمني أنه يجب أن أجلس قرب باب المروحيّة المفتوح على ميمنة الطائرة الحربية المسلّحة. وهناك ألاحظ «لابيل» رابضاً بقربي وبيده دفتر. فقلت لنفسي حالماً: هل يأخذ ملاحظات خلال هذه المهمّة الانتحارية؟

كان لإيقاع شفرات الدوّار الذي يسيّر الطائرة، والجلبة الحاصلة فيها، تأثير يخمد صوت الحرب. وكانت

انفجارات المدفعية تؤول إلى صوت مكتوم. وعند أول وكزة، ترتفع الطائرة فوق الرمل، ونصبح بأحسن حالاتنا، وكأننا خالدون! ها هي مروحيّتنا تدور، وتواجه الشرق، ثم الغرب، ثم الشرق من جديد، ثم تستدير ١٨٠ درجة، وتستوي، وتشقّ طريقها بين المدافع. وبينما كنا نتجاوز الخط المسلّح ـ مع إبقاء باب مروحيّتنا مفتوحاً بسبب الحرّ ـ لاحظنا أزهاراً وردية من النار تخرج من أفواه المدافع بشكل سدّ جميل ورهيب. وتمر إحدى هذه الأزهار النارية بجانب ميمنة مروحيّتنا، وأكاد أحسّ بوهجها حتى نتجاوزها. ثمّ يطالعنا خطّ من النخيل ينطوي تحتنا، ثم شطّ العرب، عن كثب، ولا تكاد الطائرة ترتفع سوى مسافة قدم عن الماء.

وها أنا أجلس وأنظر شزراً من نافذة الربّان. إني أستطيع أن أرى سحابة ضباب على الأفق داكنة بالنسبة إلى شحوب النهر، ثم سلسلة من المسلّات المكسورة تنتصب عند شاطىء العرب البعيد. أما مياه النهر فتتدفّق تحتنا بسرعة تفوق مئة كيلومتر في الساعة؛ وكأننا أسرع المتزلّجين على الماء في العالم، ودوّار طائرتنا يغالب الحرّ والريح، ويسحبنا فوق هذا النهر العريض. إننا آمنون في شرنقتنا، كملائكة لا يقعون من السماء؛ نتعجّب ونندهش ونحاول أن نتذكّر أننا لا نعدو كوننا بشراً. إننا نطير عبر دخان تنفثه ناقلتا نفط تحترقان؛ ويلكزني «لابيل» على قدمي، ويشير إلى تلّة من الطين والقذارة، تدور المروحية حولها، ثم تحطّ عليها بحذر شديد. صاح بنا الربّان: «اذهبوا، اذهبوا اذهبوا». فقفزنا على كتلة من الطين السائل الذي كاد يمزّق أحذيتنا عندما كنّا نتحرّك، ويجذب أقدامنا ويمنعنا من الابتعاد عن المروحيّة، عندما تعود لتحلّق، وتتركنا في صمت صارخ. حاولت مع «لابيل» أن نرفع سراويلنا عن الوحل، لكنّ أثواب الشيوخ تلطّخت بروث الحيوانات، وأحسسنا بارتجاج الأرض تحتنا بينما كانت الطائرة تغادر المكان.

وبالتأكيد، كانت الأرض تنبض تحتنا، كما لو كانت هناك هزّة أرضيّة تحت أقدامنا. وكانت الريح تذرو الدخان فوق الطين، ورافعات المرفأ المكسورة في الفاو ـ وهذه هي المسلّات التي رأيتها سابقاً من بعيد ـ وبقايا المدرّعات العراقية المحروقة. فشققنا طريقنا عبر المستنقعات؛ أنا و«لابيل» والشيوخ وأحد الشباب الزاهدين الذي تبيّن أنه من وزارة الإرشاد الإسلامي. وكنا آنذاك نستطيع أن نسمع صوت القذائف، كقعقعة تختلط فيها أصوات الانفجارات؛ وكأننا قرب مزلجة صاخبة على عجلات يتسابق فيها أولاد هائجون دون توقّف على أرضية خشبية. وعندما وصلنا إلى رصيف المرفأ، وجدنا فيه رُكاماً من أجزاء أجسام لا تزال مشتعلة، وكُتلاً ضخمة من الرافعات، وقذائف غير منفجرة. وجاءني «لابيل» وهو يترنّح، وحذاؤه عالق بطين دبق، وكنّا كلانا مُنهكين، نحاول استرداد أنفاسنا. فقال لي «لابيل» متجهّماً صافراً: «لقد حصلت على خط تاريخك اللعين!». ورمقني بنظرات وتكشيرات «ستيف ماكوين».

نزلنا وتمشّينا ميلاً على الشاطىء؛ فوجدنا خزّانات نفط محروقة، وما غنموه من قطع المدافع، والإسمنت المسحوق، وجثثاً عراقية غارقة في السماد الحيواني. فهذا جندي بلا رأس، وآخر دون ذراعين. وكلاهما أصيبا بالقنابل اليدوية. ولقد لقيت مع «لابيل» حوضاً من الرمل والإسمنت، ونادينا ممثل الوزارة. وحالما مشينا لنجلس على التراب، رأيتُ جثّة أخرى مسودّة قابعة في حُفرة مدفع، لشاب متقوقع كالطفل الجنين، يلبس خاتم زواج في

أحد أصابعه. سُحرتُ بهذا الخاتم؛ إذ كان يتألّق ويتلألأ بالنضارة والحياة، في ذلك الصباح الذهبي الحارّ. كان الشاب في حوالى الخامسة والعشرين من عمره، وذا شعر أسود. فهل نوقف الساعة عندما يفاجئنا الموت؟ وهل نقول إن الموتى لا يكبرون بالسنّ، بينما بعضنا يعيش ليهرم؟ لم يعد العمر يهمّهم، ولا إدانة السنوات؛ ولكنهم سُلبوا إنسانيتهم بسرعة الفساد الذي دبَّ فيهم، والشمس القديمة المشرقة على رُفاتهم. نظرت إلى الخاتم ثانية، وتساءلت: هل كان ذلك زواجاً مدبَّراً أو زواج حبّ؟ من أيّة بلدة أتى هذا الجندي ـ الجثّة؟ وهل كان سنّياً أم شيعياً أم مسيحياً أم كردياً؟ وماذا عن زوجته؟ لا يعقل أن يكون قد مضى على موته أكثر من ثلاثة أيام. وفي مكان ما نحو الشمال، توقظ زوجته أولادها، وتعدّ لهم فطور الصباح، وتلقي نظرة على صورة زوجها على الجدار، غير عالمة بأنها أصبحت أرملة، وأن خاتم الزواج لدى زوجها، ما زال يلمع حبّاً بها في هذا الصباح المجيد، لكنه يُطبق على إصبع ميت.

وبدا ممثّل الوزارة ممتلئاً بالثقة الكاذبة؛ إذ أعلمنا أنه لا داعي لأن نخشى من الغارات الجوّية، نظراً لأن سلاح الجوّ الإيراني قد أعدَّ غطاء دفاعياً فوق الفاو لحماية الصحافيين الأجانب الزائرين. فنظرنا «لابيل» وأنا، أحدنا إلى الآخر. إنها كذبة كبيرة؛ فلن يُضيع طيّار إيراني وقته ليحمي «الكاباناغوران» أي «الصحافيين»، عندما يكون جيشه تحت قصف عراقي كثيف إلى الشمال. وعلى الأثر، رأينا طائرة تطير على علوّ مرتفع، فأشار موظف الوزارة إلى السماء، قائلاً: «أترون، مثلما قلت لكم». ولكن «لابيل» وأنا نعرف طائرة «الميغ» عندما نرى واحدة. إنها عراقية.

ثم جاءتنا شاحنة عسكرية غنموها من العراقيين تعطس وتقفز على روث الحيوانات، فتسلّقناها. وكانت قد وصلت نقلة أخرى بالطائرة المروحية تضم جماعة من المراسلين آتين من «نهر الهاد»، يخوضون في الطين. يا له من وقت للسياحة! لم أستطع أن أتبيّن ملامح الفاو التي عرفتها ـ مع الخوف ذاته ـ منذ خمس سنوات ونصف السنة. لكنني تذكّرت ثكنات الجيش العراقي، التي نصبوا الآن على مدخلها علماً كُتب عليه: «الإسلام يعني الظفر». لقد احتلّ المدينة آلاف من حرّاس الثورة. كانوا يلوّحون لنا، ويرفعون المصاحف، ويبتسمون، ويقدّمون لنا الشاي بين الخرائب والأطلال. وقد اكتسب اسم الفاو بحد ذاته نوعاً من المعنى الديني. قال لنا أحد ضباط «الباسداران» الشباب: «سترون أن ليس للعراقيين من أثر هنا». وهكذا كان الطين ـ على شاكلة طين «صومّ» في الحرب العالمية الأولى؛ كما كتبتُ في مقالي المثير ذلك المساء ـ قد استهلك الفاو، وطرقها، ومواقع مدافعها، وأسفل صهاريج النفط التي تحترق، وبذلات المحاربين الإيرانيين الغبراء الشاحبة، وغطّى تدريجاً أجساد العراقيين المبسوطة والمنتشرة عبر المدينة. فهنا جندي عراقي قدَّته قذيفة شقّين، يرتمي أحدهما على الآخر قرب دبّابة؛ وهو يلبس أيضاً خاتم زواج. وكانت الدفاعات العراقية ـ التي تعلو بأكياس الرمل ثلاثة أمتار ـ قائمة عند النهاية الشمالية للفاو؛ وفيها المدافع الرشّاشة غير المعطوبة التي لا تزال منتصبة أمام الكوى. فهل كان ذلك نتيجة تراخٍ من قِبل العراقيين سمح للإيرانيين بأن ينسابوا في المدينة ولا يلقوا سوى مقاومة بسيطة، حتى إنهم استولوا على بطارية صواريخ كاملة على الشاطىء؟ ولا تزال بعض البيوت صامدة، بينما دمّرت المدينة في معظمها. وقد عرض الإيرانيون عدّة مدافع من عيار ١٥٥ ملم، بدأوا يستعملونها لقصف البصرة.

وبرز من بين أنقاض بيت متهدّم، رجل عجوز أشيب اللحية يمشي على عُكّازه، وهو يصيح: «جانغ إي پيروزي» أي «حرب حتى النصر»، بحسب الجوقة العادية ذاتها. وانهمر المطر بغزارة من السحاب المنخفض المارّ فوق الفاو، فصقل وجه الرجل. كان جبينه معصوباً بخرقة حمراء، وهو يلوّح بعصا فوق رأسه. وخرج أعضاء «دائرة الدعاية الحربية» من أحشاء مصنع، وتوجّهوا نحو الزائرين الأجانب، وهم مسرورون، يقولون: «أترون. هذا واحد من متطوّعينا. إنه يريد أن يموت من أجل الإسلام بمحاربة صدّام». وجاءت سيّارة «جيب» ووقفت قرب الرجل، وعليها مكبّر صوت صدىء، يصيح: «حرب حتى النصر» بينما الرجل يتواثب فوق الطين والوحل. وخلفه كان اللهيب الأحمر يتموّج عبر قاعدة مستودع للنفط يحترق، بسبب قصف العراقيين للخطوط الإيرانية.

وفي أعلى الطريق، كان غطاء من نار وستار من دخان أسود. ومن هناك كان يأتي صوت قرع الطبول، تلك الهزّة التي شعرنا بها عندما لامست طائرتنا الأرض. فالإيرانيون يبدون لامبالين عابثين كالأطفال بمناسبة ظفرهم. وقد لاحظنا أن في شاحنتنا ثقباً على مستوى علوّ الشخص خلف مقصورة السائق، أحدثته رصاصة. وفي المؤخّرة، وقف ضابط إيراني يحمل بوقاً ليخاطبنا ويشير عبر مضيق خور عبد الله الحارّ إلى جزيرة بوبيان الكويتية، صارخاً: «الكويت على يساركم». وكان ذلك أحد الأسباب التي كانت وراء مجيئنا إلى الفاو. فها نحن داخل العراق مع الإيرانيين، ننظر إلى البلد العربي الذي كان أحد اثنين من كبار مزوّدي الأسلحة للعراق.

ومساحة جزيرة «بوبيان» تبلغ ١٣٠ كيلومتراً مربّعاً من المستنقعات والشواطىء الطينية؛ ولكن الكويت تستبقي هناك قوّة صغيرة للحراسة، وما يرمز إليه ذلك واضح. فقد صرخ الضابط من جديد قائلاً: «نأمل أن تبقى الكويت حاملة مسؤوليتها خلال هذا النزاع». وكان العديد من حُفر المدافع الجديدة التي أحدثها الإيرانيون على طول الطريق إلى «أم القصر» ـ المرفأ الذي لا يزال بيد العراقيين ـ مجهّزاً تجهيزاً جديداً بالمدفعية المصوّبة مباشرة نحو الكويت. وفي الفاو، مدينة الأشباح، أصبح من الضروري دفن الجثث، إلّا إذا سبقت إلى ذلك الريح والرمل. وعلى قطعة أرض خالية، كان يرقد حُطام طائرة «ميغ» عراقية، مغمورة إلى نصفها بالرمل السائل، ولا يزال رأس قائدها يبرز من مقصورته المدمَّرة. كما كان هناك أيضاً جندي ميت جالس قرب الطائرة، وكأنه مستعدّ لاستقبالنا.

صرفنا ثلاث ساعات ونحن ننتظر مروحيّتنا، لتنقلنا إلى الشاطىء الشرقي من الشط، وكنا «لابيل» وأنا جالسين من جديد في حوض من الرمل، والجندي الميت وخاتم زواجه على بعد أمتار قليلة منا. وبينما كان «لابيل» يتمشّى بين قطع الآليات المحطّمة، وهو ينفث الدخان من سجائره العديدة ـ ناهيك بأنه مدخّن لديه ربو ـ اكتشفنا قنبلة غير منفجرة غارقة في الطين قربنا، فطمأننا رجل الوزارة بأنها معطّلة، لكنه كان يكذب. نظر «لابيل» إليها شزراً، وأشعل سيجارة أخرى، متمتماً: «يا فيسكي، إنها لن تنفجر»، وانفجر ضاحكاً. ولم ترجع سوى مروحية واحدة لتأخذنا. وهنا حصل سباق مخجل بين المراسلين والشيوخ عبر الطين كي يجدوا لهم مكاناً في الطائرة. وبينما كان «لابيل» يرفعني فوق مزالق الطائرة إلى خلف الطيّار، رأيت حذاء شخص يائس على كتف أحد الشيوخ، وهو يحاول أن يقحم نفسه إلى الداخل، لكنه لم يوفّق، وانقلب إلى الوراء على الطين. ثم انطلقنا، وعدنا نطوف

فوق ماء الشط الرقراق، وفوق القاعدة الجوّية في «نهر الهاد» باتجاه الأهواز والفندق ـ الكهف، ومركز البريد هناك الذي ليس لديه خطوط إلى لندن. ولذلك خابرت «طوني آلوواي» في طهران، وأمليت عليه تقريري، فأخبرني أن القسم الأجنبي من «التايمز» بعث إليّ بكلمة مفادها أن الجريدة صارت كاملة الموادّ الليلة، فهل يبقى مضمون قصّتي صالحاً للغد؟

وكان الإيرانيون قد احتلّوا حوالى ٣٠٠ كيلو متر مربّع من أرض العراق جنوبيّ البصرة ـ وادّعوا في إعلانهم عنها أنها ٨٠٠ كيلو متر مربّع بما فيها المياه الإقليمية ـ وسيبقون هناك طيلة السنتين التاليتين، حتى يأتي اللواء ماهر عبد الراشد ـ الذي قضى جيشه الثالث على آلاف الإيرانيين خارج البصرة في أوائل عام ١٩٨٥. فهو الذي قصف بالقنابل المبيدة ليفتح له طريقاً إلى المدينة في نيسان/ أبريل عام ١٩٨٨.

ولكن كيف استولى الإيرانيون على الفاو أوّلاً؟ ـ قالوا إنه سرّ يعلمه الله وحده. ولكن بعد سنوات من انتهاء الحرب، صادفت إيرانياً شابّاً ـ طيّار مروحيّة ـ سبح في شط العرب ليلاً ليستطلع المدينة، عندما كانت لا تزال تحت السيطرة العراقية. وقد استنبط خطة غير عادية: فوضع أنابيب النفط العملاقة في قلب النهر، حتى تشكّل جسراً تحت الماء، اجتازته الشاحنات والمدفعية الإيرانية بحيث لا تغرق في الماء سوى عجلاتها، كما مرّ عليه الجنود الإيرانيون، بحيث لا يغطس في الماء سوى أقدامهم، وهكذا فوجىء المدافعون العراقيون في الظلام الدامس بجيش إيراني من الأشباح يمشي على صفحة الماء مهللاً: «الله أكبر، الله أكبر»، وهو يترجّل على الشاطىء. ومن جهة أخرى، كيف استطاع اللواء الراشد أن يعاود احتلال الفاو؟ ـ فقد كتب مراسل «الأوبزرفر» بتاريخ ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٨، عن ممانعة المسؤولين في الكشف عن ذلك. لكنّ العراقيين استعملوا وسائلهم العادية، فأغرقوا الفاو بالغاز السامّ ـ كما لاحظ الملازم الأميركي «ريك فرانكونا» ذلك دون اكتراث، عندما جال في ساحة المعركة مع العراقيين فيما بعد. وكان كاتب تقرير «الأوبزرفر» الذي دعاه العراقيون لدخول الفاو «المحرَّرة» هو «فارزاد بازوفت»، الذي لم يعشْ بعد ذلك سوى سنتين، إلى أن شنقه صدّام.

وعند عودتنا إلى طهران، كان قطارنا قطار العذاب، فنصفه مستشفى ونصفه الآخر للجنود، ولكن دون المصابين بالغاز والحمدلله. كان الجنود صغار السنّ ـ لا يبلغ العديد منهم الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر ـ وقد جلسوا في مركبات الدرجة الثانية، وشعورهم محلوقة، يأكلون قوالب خبز «النان»، وينامون بعضهم على أكتاف بعض، وهم في بزّات السخرة الشاحبة التي تُعطى للجنود الفلّاحين. وكان الجرحى على عُكّازاتهم يجوبون المماشي ذهاباً وإياباً، كما لو كان ذلك سيخفّف من آلامهم.

كان أحدهم صبياً قصير الشعر، متألّم الوجه، ينخر كلّما ألقى بثقله على عُكّازيه، ويحدّق في حُجيرات القطار، كما لو كان رفاقه هم الذين سببوا محنته. وجلس شاب يلبس سروالاً كاكياً، وذراعه مع يده ملفوفتان بضمادات، على صندوق قرب باب المركبة متفطّر القلب، وأدار ظهره إلى النافذة المفتوحة، وصار يرمي أغطية الزجاجات من فوق كتفه إلى الصحراء شمالي الأهواز، وهو يقهقه بشكل تشنُّجي متقطّع مقلق.

كان قطارنا بطيئاً صعد بجهد لمدّة ١٧ ساعة من جبهة القتال على شط العرب، وعبر الجبال الشاهقة، وهبط إلى سهول «قم»؛ إنه قطار تَعِب، ينقل رجالاً تَعِبين من حرب مُتعِبة. وعندما حلّ الظلام، ترك بعضهم الحُجيرات المكتظّة وناموا في المماشي القذرة، حتى اضطررتُ إلى أن أرفع رجلي لأمرّ فوق حوائجهم من بطّانيات، وأحذية، وحقائب كي أصل إلى مركبة الطعام المعطوبة، وما فيها من أجنحة دجاج وشاي؛ فضلاً عن صور الكهل الملتحي الذي يقاسي هؤلاء الأمرّين من أجله. كانوا رجالاً لطفاء حزانى يتمتمون بكلمة «مرحباً» من طاولاتهم المكسّرة المصنوعة من «الفورمايكا»، وينتظرون ردّاً قبل أن يبتسموا. سأل أحدهم بشكل مثير للشفقة في الممشى: هل «جانغ» جيّد؟ أي هل الحرب جيّدة؟ فقال صوت داكن آخر: «لقد انتهى صدّام». ثم «مرحباً بكم في إيران».

وقفنا في «شوشتر» على بعد مئة كيلومتر شمالي الأهواز؛ وعقدنا «لابيل» وأنا محادثة مع مهندس مدني حاول أن يستوعب المسافة الفاصلة بينه وبين بني قومه. قال: «أنا لا أفهم هؤلاء الناس الذين يقولون إنهم يريدون أن يموتوا. لم أعرف أبداً أناساً مثل هؤلاء. إنهم يقولون إذا كان الخميني يريدهم أن يموتوا، فسيموتون. ماذا تستطيع أن تقول لهؤلاء الناس؟».

عاد القطار فغادر «شوشتر» في وقت متأخّر، ومحرِّكه الذي هو من نوع «ديزل» بدأ يهدر. ثم سلك قطارنا فجأة طريقه إلى وادٍ ضيّق. ورأينا من خلال النافذة المفتوحة جبالاً شديدة الانحدار، مكلّلة قممها بالثلج، بينما الجليد يتلألأ على صخورها، وتحتها الأنهار المتجمدة، وفوقها النجوم. وبينما كنا ندور حول قرية نائية، رأيت للحظة رجلاً وامرأة يقفان على سطح منزلهما، وينظران إلينا، وقد وضع ذراعه حول كتفيها اللتين يتدلّى عليهما شعرها، وهي دون حجاب. قال أحد الجنود. «إنها سلسلة جبال مشؤومة تُسمّى الجبل الأصفر» وقد تسامقت فوق قطارنا الذي يتسلّل عبر الأنفاق ويسير بجانب النهر وينعطف بحدّة إلى درجة يرى المرء عندها نور القاطرة يضيء الصخور والسيل الجارف المظلم في الحضيض. هذه أرض تستحقّ أن يموت من أجلها هؤلاء الشباب؛ وليس من أجل الرجل صاحب الصورة الباهتة المعلّقة في حافلة الطعام. ولكن قلّما نظر الجنود إلى الخارج من النوافذ. فقلّة منهم يقرأون المجلّات، وآخرون يدخّنون وعيونهم مغلقة، وأحدهم يقرأ في قرآن صغير الحجم ويتمتم كلماته بهدوء.

وكان على القطار رجل تاجر من الأهواز، يذهب إلى طهران ليوم واحد؛ مستدير الوجه، قصير وبدين، يتحسّر على مستقبله الاقتصادي؛ لكنّه قال إنّ أحواله تحسّنت منذ قيام الثورة، لأن أعضاء عائلته صاروا أكثر تديّناً. ما رأيه بالحرب؟ فكّر برهة، وهو ينظر إلى شلّالات نهر «بالارود» تحت ضوء القمر، هذا النهر البريء يشبه معظم الجنود المسافرين على هذا القطار ـ إذ إنه يسير في نهاية الشوط إلى طين شطّ العرب. قال في ظلمة الممرّ: «أعتقد أن الأميركيين وراء هذا الأمر. إن القوى الكبرى تريدنا أن نكون ضعفاء، لكننا سنربح الحرب». فسألته: «بأيّ ثمن؟». عندئذ وصل القطار بنا إلى قرية «تشامسنغار» ذات لوحة التعريف البيضاء. أشار الرجل

بإبهامه من فوق كتفه إلى حُجيرات الشباب الهاجعين، قائلاً: إنهم سيدفعون الثمن». ثم نظر إلى الخارج حيث النجوم والجبال والجليد؛ وأردف قائلاً: «سندفع الثمن؛ إننا نستطيع ذلك».

مَنْ يمكن أن يصدّق أن الولايات المتحدة الأميركية ستعود وتشحن جوّاً إلى إيران صواريخ مضادة للدبابات وللطائرات؟ كان عليّ أن أعتقد ذلك. كنتُ في لبنان أحاول إطلاق سراح زميلي «تيري أندرسن» الذي أُخذ كرهينة لدى إحدى الجماعات التابعة لحزب الله الشيعي منذ أكثر من سنة، وفكّ أسره بواسطة الوسطاء الإيرانيين. كان «أندرسن» رئيس مكتب الصحافة المتحدة في بيروت، ومن أعزّ أصدقائي، وقاطناً في البناية ذاتها التي أسكنها، وقد سافرنا معاً بمهامّ يشيب لها الشعر(*). فبدأ الإيرانيون يطلبون مني أن أكتشف مكان وجود ثلاثة من مواطنيهم أُخذوا رهائن في لبنان عام ١٩٨٢. ولكن عندما قابلت الوسيط الإيراني في مطعم ببيروت في أواخر أيار/مايو ١٩٨٦، أخبرني بفظاظة «أن «جماعة» أندرسن صاروا في طهران». لم أحمل ذلك على محمل الجدّ. ولكن بعد خمس سنوات من إطلاق سراح رهائن السفارة الأميركية في طهران، لم أظن أن أحداً من الموظفين الأميركيين، سيتجرَّأ على السفر إلى إيران.

ولكنني كنتُ مخطئاً في كلا الأمرين. فقد وقعتُ مصادفة على أول البيّنات الثبوتية بشأن مبادلة الأسلحة بالرهائن في فضيحة إيران ـ كونترا بتاريخ أيلول/سبتمبر ١٩٨٥، عندما كنتُ ماراً عبر قبرص في طريقي من القاهرة إلى بيروت ـ فتكرَّم عليّ صديق قديم لي، كان يشتغل في مراقبة سير الطيران في مطار «لارنكا»، بخبر مفاده أنه كانت هناك طائرة جاءت من «تبريز» في شمالي إيران وفُقد أثرها بعد أن مرَّت بتركيا ثم توجّهت إلى الجنوب، فجأة. ودلّتني اتصالاتي على أن موظّفي «تلّ أبيب» خابروا شخصياً مراقبي سير الطيران في قبرص ليثبتوا لهم أن طائرة نفّاثة من طراز (DC-8) حطَّت سالمة في مطار «بن غوريون»، بعدما تعرَّضت «لمشكلات كهربائية».

لكنّ الإسرائيليين نفوا رسمياً أيّ علم بالطائرة ـ ممّا يدلّ بصورة أكيدة على أن الطائرة تقوم بمهمّة سرّية ـ وعندما ادّعى أصحاب الطائرة العلنيّون في «ميامي» أنهم باعوها في الشهر الماضي إلى شركة نيجيرية، زاد اهتمامي بالموضوع. وقد ادَّعت هذه الطائرة، المسجّلة في أميركا تحت رقم (N421AJ) بتعريفها عن ذاتها لمراقبي سير الطيران، أنها تنتمي إلى شركة «الخطوط الدولية». وكانت تلك الطائرة قد سجّلت خطّ رحلة إلى «مالاغا» في إسبانيا، حيث قال أحد أصدقائنا من موظفي الطيران إن طائرة (DC-8) شوهدت هناك، كما حطّت أيضاً هناك طائرة من طراز «بوينغ 707»، ادَّعت أنها تنتمي إلى شركة «الخطوط الدولية»، وأنها قادمة من «تبريز»، ثم طارت في طريقها إلى مدينة إيرانية أخرى تُسمّى «زال» ـ ولم يستطع أحد تحديد مكانها ـ وكان ذلك بتاريخ ١٥ أيلول/ سبتمبر.

(*) بقي «أندرسن» محتجزاً في لبنان حوالى سبع سنوات. وقد روى قصّة محنته في كتاب «عرين الأسود» (شركة «هودر» (Hodder) ١٩٨٤). ويمكن الرجوع إلى تقرير المؤلف عن أسْر «أندرسون» في كتابي: (Pity the Nation)، «ويلات وطن» الصادر عن: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة السابعة عشرة، طبعة جديدة وفريدة بفصلين، ٢٠٠٥. انظر الفصل الرابع عشر.

وحتى عندما علمت بأمر هذه الرحلات الجوّية غير النظامية، كان عليّ أن أكون أكثر ارتياباً. فإذا كانت إسرائيل ترسل أو تتلقّى شحنات جوّية إلى إيران أو منها، فليست تلك شحنات لتصدير البرتقال أو استيراد الكافيار. ولمّا كانت واشنطن حليفة إسرائيل الحميمة في الشرق الأوسط، فلا شكّ أن أميركا متورّطة في الموضوع. ولو ربطتُ هذا الأمر بإقرار الوسيط الإيراني بأن «جماعة» أندرسن هم في إيران، لكنتُ قد اهتديت إلى قصّة إيران ـ كونترا. ولكن الذي فعل ذلك هو مجلّة «الشراع» المحدودة التوزيع في بيروت؛ والباقي لا يعدو كونه جزءاً من التاريخ، كما يقول المحاربون القُدامى. فقد انبرت جماعة من موظفي البيت الأبيض السذّج، بوحي من «أوليفرنورث» المقدَّم البحري الساذج إنما البهيّ الطلعة، فتجمّعوا مع بعض الوسطاء الإسرائيليين، وأقنعوا الرئيس ريغان أنه يمكن تحرير الرهائن الأميركيين في بيروت بواسطة حلفاء إيران ضمن حزب الله، لقاء إمداد إيران بكمّية كبيرة من صواريخ «هوك» المضادّة للطائرات، وصواريخ «تاو» المضادّة للدبّابات، على أن تُستخدم المدفوعات الجزئية لثمن هذه الأسلحة ـ التي خرقت بها واشنطن حظر تصدير السلاح إلى إيران ـ من أجل تمويل مسلّحي الكونترا اليمينيّين في نيكاراغوا، الذين يعجب بهم «ريغان» و«نورث».

كنتُ قد سمعتُ اسم «نورث» قبل ثلاثة أشهر، عندما كنتُ مسافراً إلى سويسرا على متن طائرة الشرق الأوسط من بيروت، ووجدت نفسي جالساً بجانب أحمد شلبي المستشار المالي الأوّل لنبيه برّي زعيم حركة أمل في لبنان(*)، الذي تدخّل لإطلاق سراح المسافرين والطاقم في طائرة (TWA) التي خُطفت وجيء بها إلى لبنان. وقد كرّر شلبي توصيته لي بأن «نبيه برّي» يستحق المساندة لأن «البديل عن ذلك هو حزب الله، غير المرغوب فيه». ولم تمضِ على طيراننا عشرون دقيقة حتى قال لي: «روبرت، هناك شخص أرغب في أن تتعرّف عليه في واشنطن؛ اسمه «أوليفر نورث» (Oliver North) فأنبأتني حاسّتي السادسة أن لا أضع ثقتي في «شلبي»، فرفضت الدعوة. ولكن، لا بدّ أن يكون شلبي قد حدَّث «نورث» عني، إذ كتب اسمي في مذكّرته، بخصوص اجتماعه في منتصف عام ١٩٨٦ مع «تشاك لويس» أحد أعضاء الصحافة المتحدة في واشنطن، الذي خابرني بعد عدّة أيام، ليسألني إذا كنتُ أريد أن أردّ على مخابرة من المقدَّم، فرفضت.

وتجدر الإشارة إلى أن رحلة «نورث» السرّية إلى طهران مع مستشار الأمن القومي الأسبق روبرت ماكفرلاين ـ من ٢٥ إلى ٢٨ أيار/ مايو ١٩٨٦ ـ كانت مهزلة شائنة، مضحكة، تلفيقية، لم يدرك الأميركيون أنهم يقيمون بازاراً للرهائن ـ مما أوقع فادح الضرر بالرئيس ريغان، وبعلاقات أميركا مع العالم العربي. ويمكن الرجوع إلى تقرير وافٍ عن هذه الحماقة كتبته «لجنة البرج» حول هذه الفضيحة. مع العلم أن ذيول هذه القضية استمرّت لسنوات تلت، وأظهرت تفاصيل عن الصفقة السرّية للأسلحة، التي طُمست فيها هويّة الطائرات الإسرائيلية عن جوانبها،

(*) حُكم على شلبي في عمّان عام ١٩٩٢ بتهمة احتيال بمبلغ مقداره ستون مليون دولار أميركي ـ أنكرها، ثم هرب من الأردن في حقيبة صديق له. وبعد إحدى عشرة سنة، صار شلبي ذاته زعيم البرلمان الوطني العراقي المموّل من وكالة الاستخبارات الأميركية. وصار مرشّح «البنتاغون» لخلافة صدّام في زعامة العراق. ولكن صُرف النظر عنه بفظاظة بعد استطلاع رأي شعبي لم ينل فيه سوى ٢٪ من المناصرين العراقيين. وفي عام ٢٠٠٥ أصبح نائب رئيس مجلس الوزراء للعراق «الجديد».

تلك التي نقلت صواريخ إلى مطاري «تبريز» و«بندر عباس». ومن أبرز تلك التفاصيل ـ التي تبرهن على يأس إيران في الوقت ذاته الذي احتلّت فيه الفاو ـ مقتطفات من مخابرات تلفونية جرت بين «أوليفر نورث» في فرانكفورت، ومستشار الحكومة الإيرانية غير المسمّى، في أواخر شهر شباط/فبراير ١٩٨٦. وقد يُسِّرت أشرطة هذه المكالمات لشركة التلفزيون الأميركية (ABC) في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩١؛ ويبدو أنها سُجّلت أيضاً في إسرائيل.

وعند مرحلة معيَّنة من الحديث، يناشد «نورث» مخاطبه بأن يطلق سراح أحد الرهائن المحتجزين في بيروت قبل متابعة إرسال الأسلحة. فيجيب الإيراني عبر أحد المترجمين: «يجب أن نحصل على صواريخ «هوك». يجب أن نحصل على تقارير مخابرات عن قوّة الجنود العراقيين. إن إيران في طريق التدمير. نحن بحاجة إلى تلك الصواريخ». وفي مقطع آخر من المكالمة، يحاول «نورث» أن يلطّف من واقع مقايضة السلاح بالرهائن، فيؤكّد للموظفين الإيرانيين ما يلي: «إذا استطاعت حكومتكم أن تعمل على إطلاق سراح الأميركيين المحتجزين في بيروت إنسانياً، فسيعقب ذلك فوراً خلال عشر ساعات، (وكرَّر)، فوراً خلال عشرة ساعات من إطلاقهم، وصول طائرة تحمل ما تبقى من قطع صواريخ هوك».

تسلّم الأميركيون رهينة واحدة؛ وربح الإيرانيون ملايين الدولارات من ثمن الصواريخ. وكما بيَّن علي أكبر رفسنجاني بسرور مغرور في طهران: «كعكة حلوى مع مفتاح مرزباني ـ أعدّت في تلّ أبيب، ولو لم يعرف الإيرانيون ذلك ـ وزوج من مسدّسات «كولت»، وتوراة موقّعة من ريغان. وآنذاك، كنتُ في طهران، أتابع هذه المفارقة المضحكة، فقد دعانا رفسنجاني إلى مؤتمر صحفي بتاريخ ٢٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٧، حيث وجدناه يحملق في كومة من الوثائق المنسوخة بالتصوير، وتحمل كلّ منها صورة صغيرة لماكفرلاين بحجم صورة الجواز. تجاهل رفسنجاني باعتزاز عشرات الصحافيين الواقفين حوله، وأشار إلى أحد المساعدين الذين يتكلّمون الإنكليزية بطلاقة وأمره بأن يتوجّه نحو مراسل أميركي؛ ففعل. وبعد لحظات، سأل المراسل رفسنجاني، وهو واقف بدوره، ما الدليل الذي يثبت أن ماكفرلاين دخل إيران بجواز إيرلندي؟

فأمسك رفسنجاني الوثائق المصوّرة، ولوّح بها فوق رأسه، ومدّ يده بها إلى الموجودين، كتاجر سجّاد يقدّم نماذج مجّانية للزبائن. فمن جهة اليمين كانت صورة ماكفرلاين المشبوه، وعلى الصفحة التالية ظهر ما يبدو بوضوح أنه جواز سفر إيرلندي. فغمغم سكرتير رفسنجاني «لقد زوّروا الأوراق»، بينما مال معلّمه إلى الوراء في كرسيّه ذات الذراعين، وضحك بخفوت؛ وأعطاه بعض شعره الأجعد تحت عمامته مظهر البارع الماكر. ولكن نظرة واحدة إلى الصورة أقنعتني بأن ذلك لم يكن تزويراً رخيصاً. فقد شككت كثيراً في أن تستطيع وكالة الاستخبارات الأميركية تهجئة اللون البندقي لعينيّ ماكفرلاين باللغة الإيرلندية، أو حتى تهجئة المقابل الإيرلندي لكلمة «دبلن». مع العلم أن فبركة اسم ماكفرلاين الإيرلندي الوهمي ـ شين دفلن ـ كان خالياً من الخيال؛ لكنهم جعلوا منه كاثوليكياً على الأقلّ، وبعد انتهاء المؤتمر الصحافي لرفسنجاني مباشرة، أقلّتني سيّارة أجرة، وأسرعت

إلى السفارة الإيرلندية، ومعي النسخة المصوّرة؛ فأرسلها القائم بالأعمال «نويل پورسيل أوبرن» فوراً إلى وزارة الخارجية في «دبلن». وتبيّن أن جواز ماكفرلاين لم يكن مزيّفاً تماماً، بل كان بين مجموعة من الجوازات التي سرقت من السفارة الإيرلندية في أثينا.

أما بالنسبة إلى التوراة، فقد أشرق وجه رفسنجاني بابتسامة وهو يرفع الكتاب أمام حشد من الصحافيين. والكتابة باليد عليه تبدو غير منتظمة على الصفحة بحسب الحروف اللاتينية، وكأنها عمل شخص مسنّ منقول عن رسالة القديس بطرس إلى «الغالاتيين» حيث يقول: «والكتاب المقدّس، يتنبّأ بأنّ الربّ يبرّىء المسيحيين بالإيمان، وقد بشّر إبراهيم بالإنجيل قائلاً: «ستتبارك كلّ الأمم بك». لكن الشكّ لا يرقى إلى التوقيع: رونالد ريغان، ٣ تشرين الأول/ أكتوبر، ١٩٨٦». وذكر الشهر هامّ، نظراً لأن ريغان وعد بقطع كلّ الاتصالات مع الإيرانيين قبل ذلك التاريخ بوقت طويل.

ولكنّ رفسنجاني أنكر ذلك. فالتوراة أُرسلت بعد مهمّة ماكفرلاين بوقت طويل، ومنذ شهر فقط كما أعلن رفسنجاني ـ وكان يتكلّم عن شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦ ـ عندما قابل موظف من وزارة الدولة الأميركية يسمّى «شارل دنبار» تجّار السلاح الإيرانيين في فرانكفورت، محاولاً بدء محادثات جديدة مع قيادة الثورة في طهران. وذلك صحيح بشكل لا يصدّق؛ مع أن «دنبار» الذي كان يتكلّم الفارسية يصرّ على أنه أخبر موظّفاً إيرانياً في فرانكفورت بأن لا مكان للأسلحة في هذه العلاقة.

وأردف رفسنجاني قائلاً: «وفي ما يتعلّق بالتوراة، لقد دُرس الكتاب من وجهة نظر الاستخبارات؛ وليس لدينا شعور مُعادٍ لإرسال ذلك الكتاب إلينا لأنه (ريغان) مسيحي يؤمن بهذا الدين، ولأننا مسلمون نؤمن بالمسيح وبالتوراة. وبالنسبة إليه كانت تلك نقطة مشتركة بيننا. ونحن نعتقد أن هذا الاستشهاد من التوراة، يدعو كلّ الناس من كلّ الأديان إلى الوحدة». لكنّ الإيرانيين رفضوا هدية المدسّين، بحسب قول رفسنجاني. أما الكعكة فقد أكلها حرّاس المطار.

وإذا كان ماكفرلاين هو «شين دفلن»؛ فهناك عدّة شخصيات «لأوليفر نورث». فكان هناك أولاً أوليفر نورث «الوطني»، الذي يصفه ماكفرلاين بأنه «ضابط ملتزم عدواني صاحب مخيّلة»؛ إنه «البطل» الشخصي الذي كرّسه ريغان. وكان هناك أوليفر نورث «رجل الربّ» الذي ولد مسيحياً مرة ثانية بحسب نظرة «كنيسة الرسل الأسقفية البروتستانتية» التي اعتقدت أن الإله شفى له جروحه في فيتنام، والذي «كان يعتقد أنه كان يخدم الله في عمله في مجلس الأمن القومي»؛ بحسب قول أحد المرتبطين بذلك المجلس. وكان هناك «أوليفر نورث»، «رجل الفعل» الذي يقدر أن يعمل ٢٥ ساعة في ٢٤ ساعة، والذي لُقّب «بالمطرقة الفولاذية» من قبل «روبرت أوين» رفيق السناتور «روبرت كايلي»؛ إذ إنه يطلق مذكراته من مركز الأزمات الذي هو على مستوى تقدّم الفنّ في هذا المجال، ضمن البيت الأبيض.

وكان هناك كذلك «أوليفر نورث» «السفّاك ـ السفّاح»، الذي يكتب مسوّدة التعليمات التي خوّلت وكالة

الاستخبارات الأميركية (CIA) أن «تجمّد» الإرهابيين، وتدعم «الإضرابات الاستباقية» ضدّ البلدان العربية أو ضدّ الزعماء الذين تعتبرهم أميركا مسؤولين عن مثل ذلك الإرهاب؛ كما تدعم أيضاً زمرة أخرى من الإرهابيين «الكونترا، المحاربين من أجل الحرية» في نيكاراغوا ـ مع عائدات صفقة لصالح زُمرة أخرى من الإرهابيين، يحتجزون رهائن أميركيين في بيروت. إن «أوليفر نورث» الذي حظي به الشرق الأوسط هو السفّاح(*).

وقد أخبر رفسنجاني الخميني بزيارة ماكفرلاين ونورث، بعد وصولهما إلى طهران. أما خليفة الخميني «آية الله حسين منتظري»، فأُبقي في جهل تامّ لهذا الأمر، ممّا جعله يستاء من ذلك أكثر من اغتياظه من شحنات الأسلحة. وعندما ناقش مجلس النواب الفضيحة، اشتكى الخميني من أن صوت النوّاب الجماعي كان «أقسى من صوت إسرائيل». فلم يكن يريد «إيران غايتس» (Irangates) في طهران.

وأثناء تغطيتنا للسنوات الأخيرة من الحرب الإيرانية ـ العراقية، مرَّت أوقات سبقتنا فيها الأحداث، ولم نستطع أن نفهم معناها. ولو فهِمنا، فإنّ فهمَنا يكون مقصوراً على ظاهرها. ومهما كان صدّام قاسياً في معاملته للعراقيين، فقد كان بوسعه أن يبرِّر كل ذلك بالأسباب الأمنية لحماية الوطن ـ في زمن الحرب. فقد علمنا مثلاً أن صدّام قد أكمل شبكة عملاقة من الطرقات عبر مساحة حوالى ٣٠٠٠ كيلومتر مربّع من مستنقعات «الحويزة»، وقطع كل أجمات القصب في المنطقة ـ ومع ذلك افترضنا أن ذلك تدبير أمني لحماية العراق من هجمات إيرانية جديدة، بدلاً من اعتباره حرب إبادة ضدّ عرب المستنقعات بذواتهم. وقد وُفّق سمير غطّاس في كتابة تقرير للصحافة المتحدة من بغداد ـ التي لم يعد هناك عاصمة أكثر قمعاً منها ـ أعلم فيه العالم بالإشارة إلى حملة إبادة جديدة ضدّ الأكراد. وكانت رسالته الصادرة بتاريخ ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧، قد صيغت بعناية، ونُسبت إلى الدبلوماسيين الغربيين ـ أولئك الأشباح الذين يستخدمون الصحافيين، كما يستخدمهم الصحافيون ـ ولكنّ من قرأ التقرير أدرك أن هناك فظاعات تُرتكب. فقد قال فيه: «دمَّرت القوّات العراقية مئات من القرى الكردية في شمالي العراق، وجنّدت آلافاً من الأكراد في حملة ضدّ رجال العصابات المدعومين من إيران...».

وها هو نضال صدّام ضدّ إيران يتجدّد. فرجال العصابات كانوا طبعاً من الأكراد ـ وشكّلوا حجّة لتبرير جريمة الحرب هذه. وقد حاول غطّاس أن يشير إلى ابن عم صدّام «علي حسن المجيد» ـ الذي سيعرف بلقب «علي الكيماوي» ـ على أنه الرجل المسؤول، واستشهد بسفير لم يذكر اسمه يقول إن ما لا يقلّ عن ٣٠٠٠ قرية قد مُسحت. وتكلّم عن تفجير القرى وتهديمها بالجرَّافات والتركتورات؛ كما ذكر ادّعاء الأكراد بأن العراقيين يستخدمون الغاز السامّ، وأضاف أن التلفزيون العراقي ذاته عرض شريطاً عن عاقبة إحدى الغارات، حيث كانت

(*) يمكن الرجوع إلى أشمل تقرير عن حياة «أوليفر نورث» ومهنته في كتاب «بن برادلي الصغير»: «الشجاعة والمجد: صعود وهبوط «أوليفر نورث»» (دار نشر غرافتون (Grafron) في لندن عام ١٩٨٨. مع العلم أن المؤلّف ارتكب بعض الأخطاء الساذجة حول الشرق الأوسط، وأنه يتبنّى نظرة مناصرة لإسرائيل في المنطقة.

«جثث المدنيين منتشرة على الطرقات المدمّرة». كما ذكر «غطاس» أيضاً أن «معظم الدبلوماسيين استبعدوا حصول قتل جماعي» ــ وهذا الشك هو سوء نقل للأخبار، صادر عن الدبلوماسيين في بغداد.

وفي الخليج، كان صدّام يحاول أن يقضي على كفاءة إيران في تصدير النفط. ففي آب/أغسطس ١٩٨٦، خرّب الطيران العراقي المحطّة الطرفية لتحميل النفط وتصديره في جزيرة «سرّي»، ودمّر ناقلتي نفط عملاقتين، وقتل أكثر من عشرين بحّاراً، وألزم إيران بنقل تسهيلات التحميل إلى جزيرة «لاراك» المتلاطمة الأمواج قرب مضيق «هرمز». وهبط تصدير إيران من النفط من ١,٦ مليون إلى ١,٢ مليون برميل يومياً. كما أن الغارات العراقية على جزيرة «خرج»، التي تبعد أقلّ من مئة ميل عن جبهة القتال خارج البصرة، أوقعت أضراراً جعلت ١١ من أحواض التحميل البالغ مجموعها ١٤ غير صالحة. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، صار العراقيون يستعملون طائراتهم النفّاثة من طراز «ميغ» لقصف جزيرة «لاراك»، قبل أو بعد تزوّدهم بالوقود من العربية السعودية سرّاً، في طريق ذهابهم أو عودتهم. كما أن سلسلة من الغارات العراقية على المدن الإيرانية قتلت ١١٢ شخصاً، بحسب المصادر الإيرانية؛ فردّت إيران بصواريخ «سكود» على بغداد، وقتلت ٤٨ مدنياً، بمن فيهم ١٧ امرأة، و١٣ ولداً. وحمّل العراق إيران مسؤولية خطف طائرة عراقية في رحلتها من بغداد إلى عمّان، بتاريخ ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر، انتهى بسقوط الطائرة في الصحراء، بعد أن انفجرت قنابل يدوية في مقصورة الركاب. ولم ينجُ من ركّابها وطاقمها البالغ عددهم ١٠٦ سوى ٤٤ شخصاً. وفي اليوم ذاته، نزل الإيرانيون على أرض جزيرة «أمّ الرصّاص» في شطّ العرب، التي هربتُ منها مع «بيار بايل» ونجونا بأنفسنا، منذ أكثر من ستّ سنوات.

وبسبب سلسلة من الاعتداءات على السفن التي ترفع العلم الكويتي تطوّع الاتحاد السوفياتي لحمايتها ــ ممّا أطلق فوراً اقتراحاً مماثلاً تقريباً من قبل الرئيس ريغان. وصارت الكويت تحسّ الآن بأن نَفَس الحرب صار أقرب إليها. وباتت صواريخ «دودة القزّ» الإيرانية تهبط على أراضي الكويت، بعد إطلاقها من الفاو بفاصل زمني قصير. وفي ليلة من الليالي، كنتُ راقداً في فراشي بفندق «مريديان» في الكويت، متعجّباً من صرير النوافذ والأبواب باستمرار، حين أدركت أن إطلاق المدافع خارج البصرة صار يتردّد صداه فوق مياه الخليج العليا ويصل إلى مدينة الكويت. وكان الكويتيون يجدون يومياً تقريباً جثثاً لإيرانيين تقاذفتها الأمواج إلى شواطئهم من شبه جزيرة الفاو الواقعة على الطرف الثاني من الممرّ المائي.

وبينما كان الأميركيون يضغطون في الأمم المتحدة من أجل حظر إرسال الأسلحة إلى إيران، كان موظفو الحكومة الإيرانية يحاولون الحصول على شحنات كبيرة من الأسلحة في برنامجهم. وقد أراني تجار سلاح في ألمانيا والنمسا مئات الصفحات المرسلة من قبل «مؤسّسة الصناعة الدفاعية القومية» (INDIO) الإيرانية، يطلبون فيها بإلحاح آلافاً من صواريخ «تاو» المضادّة للدبّابات ومن صواريخ مضادّة للطائرات لتحميلها على طائرات (F-14) الإيرانية: وكان الإيرانيون يعرضون مبلغ عشرين مليون دولار أميركي، في طلب واحد لمدافع عيار ١٥٥ ملم، مع ٢٠٠ ٠٠٠ قذيفة، بسعر ٣٥٠ دولاراً للقذيفة الواحدة.

خاف ملك الأردن حسين مما سمَّاه «كابوسي» أي هزيمة العراق وانتصار الإيرانيين الوشيك، فاستضاف في قاعدة جوّية لديه يرمز إليها بـ (H4)، كلّاً من صدّام حسين وحافظ الأسد رئيس الجمهورية السورية، آملاً أن يقنع الأسد بالتخلّي عن تحالفه مع إيران. فقضوا تسع ساعات من المحادثات بين الدكتاتورين: العراقي والسوري، اللذين يتبادلان الكره للملك؛ ولم تُفضِ جهودهما إلّا إلى أن يجتمع وزيرا خارجيتهما؛ فمكانة الملك السياسية المحدودة كانت دائماً تنعكس عليه. وكانت جهوده قيّمة دائماً بمظهرها لا بنتائجها. ألم يحاول أن يضع حدّاً لحرب الخليج بدعوته القادة العرب إلى الوحدة؟

وقبلت الكويت الآن عرض ريغان بأن ترفع ناقلات نفطها علم التقليم والنجوم (الأميركي). وقرّرت واشنطن أن تبهرج سياستها الجديدة الاستفزازية بمرافقة ناقلة النفط العملاقة «بريدجتون» البالغة حمولتها أكثر من أربعمئة ألف طنّ (٣٨٢ ٤٠١) صعوداً في مياه الخليج حتى الكويت. فتزاحم موظفو التلفزيون من أنحاء العالم ليستأجروا مروحيّات من دولة الإمارات العربية المتحدة لمتابعة هذه القصّة الاستثنائية. طرتُ إلى دُبي بتاريخ ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٨٧ على طيران الشرق الأوسط من بيروت. وقد تكرّم عليّ طاقم الطائرة بدعوتي للجلوس في مقصورة الربّان، حيث استطعت أن أرى على علوّ ١٠ آلاف قدم الناقلة «بريدجتون» تزيد عقدة إضافية على سرعتها القصوى البالغة ١٦,٥ عقدة؛ وتحوم حول هيكلها ثلاث سفن حربية صغيرة في دوائر قُطرها ثلاثة كيلومترات. فكتبت إذ ذاك في مفكّرتي بازدراء: «الدجاجة الأمّ محاطة بصغارها». واستعدّ الأميركيون للقتال عندما صاروا تحت مرمى صواريخ «دودة القز» الإيرانية، وعند جزيرة «أبو موسى» حيث توجد قاعدة لحرّاس الثورة.

كان ذلك إخفاقاً تاماً. فقد اصطدمت الناقلة «بريدجتون» بلغم من جانبها الأيسر، جنوبي شرقي الكويت، وعلى بُعد متّي كيلومتر من وجهتها المقصودة. وسارت سفن المرافقة وراءها، لتتفادى مصير «ستارك» التي أصيبت منذ شهرين. وعلى ظهر المدمّرة الأميركية المرافقة «كيد»، وضع القائد بحّارة مسلّحين على مقدّمة السفينة وأمرهم بأن يدمّروا بالرشاشات أيّ شيء في الماء يشتبهون به. وكانت هناك زوارق صيد إيراينة في المنطقة قبل إصابة «بريدجتون»؛ ولكن لم تكن هناك طريقة لاكتشاف اللغم. وهذا ما سمح لرئيس وزراء إيران «مير حسين موسوي»، بأن يمدح «الأيدي الخفيّة» التي أثبتت قابليّة العطب «للحملة الأميركية العسكرية». وعلى أثر الحادث خفّفت «بريدجتون» سرعتها بنسبة الربع؛ بينما كانت المقصورة الأولى في ميسرتها لا تزال مغمورة بالماء، وتابعت سيرها الذي أصبح طابعه سياسياً بدلاً من أن يكون تجارياً، باتجاه الكويت.

ورشحت لنا أخبار مفادها أنه ليس للأميركيين من كاسحات ألغام في المنطقة؛ كما أنهم لم يهتمّوا بتحرّي وجود ألغام في القناة التي أصيبت فيها الناقلة وعرضها ٣٠ كيلومتراً؛ وهم خائفون من أن تصاب سفنهم الحربية لأكثر تعرّضاً لخطر الألغام من السفن التي جاؤوا لحمايتها. وقد قام الموظفون الكويتيون والأميركيون بتحميل ناقلة «بريدجتون» بالنفط الخام؛ وهو عمل سياسي، عبَّر عنه أحد وكلاء النقل البحري مزدرياً بقوله: «أيّ ذي عقل سليم يحمِّل بضاعته على سفينة معطوبة؟». وازدادت القصّة الحزينة المتعلّقة بعدم التهيّؤ العسكري سوءاً عندما

عمد «يونكرز» قائد السفن الثلاث الحربية ـ المدمرة «كيد»، وفرقاطتين ـ إلى الإقرار بلطف أنه لا يرغب في أن يعود على الخط البحري ذاته لأنه ليس لديه إمكان حماية سفنه من الألغام. وتفاقم وضع هذا التصريح بكلام العميد البحري «هارولد ج. برنسون» الذي أخبر المراسلين المرافقين للقافلة ما معناه: «قد يبدو متناقضاً القول بأن سفينة كبرى غير حربية، مثل «بريدجتون» قد تكون أقلّ تعرّضاً لخطر الألغام من سفينة حربية... وإذا كانت الناقلة ضخمة، فمن الصعب إيذاؤها بلغم واحد، يمكن أن تتجاوزه. وهذا أفضل دفاع؛ وقد فعلنا ذلك». واستدعت هذه التصريحات سؤالاً واضحاً: إذا لم تكن البحرية الأميركية قادرة على حماية نفسها، دون الاختباء وراء سفينة مدنية، فكيف تدّعي أنها تحافظ على حرية الملاحة في الخليج؟

وكانت هذه القصّة مُحبطة لمراسلي الصحف؛ إذ لا يمكن من الشاطىء رؤية أسطول الناقلات ومرافقاته. ولا تتيسّر مراقبة هذا النزاع الهائل إلّا من الطائرات. فقد امتدّت الحرب الإيرانية ـ العراقية الآن من جبال كردستان على الحدود التركية على طول الخط إلى شاطىء شبه الجزيرة العربية، الأرض التي كانت جزئياً تحت سلطة الشريف حسين في مكّة، الذي أقنعه «لورنس» بأن ينضمّ إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. ومن الأسئلة الملحّة هنا: كيف نكتب عن النار والدمار الشاملين، إذا لم نستطع أن نراهما؟ فشبكات التلفزيون بميزانية تفوق مليون دولار لكلّ منها، استخدمت طائراتها الخاصّة. فهي بحاجة إلى صور، لا نحتاج إليها نحن. ولكنني في الحرب اللبنانية التي دخلت الآن عامها الثالث عشر، تصاحبت مع عدد من طواقم تلك الشبكات التلفزيونية ومنتجيها ومخرجيها الذين يحملون أفلامهم إلى دمشق أو إلى قبرص ليرسلوها بالأقمار الصناعية إلى الولايات المتحدة الأميركية. وقد سمحت لي شبكة (NBC) الأميركية لحسن الحظّ، أن أسافر في مروحية لها خارج دُبي ـ إذا تصرّفت «كمستكشف» إضافي للسفن على الممرّات البحرية التي يغطّيها السديم.

كانت هناك أربعون سفينة حربية تستعدّ لدخول مياه الخليج وخليج عمان خارج مضيق هرمز؛ وهي آتية من الولايات المتحدة الأميركية، وفرنسا، والاتحاد السوفياتي؛ لكن الأسطول الأميركي المؤلّف من ٢٤ سفينة كان هو الأضخم، وعليه ١٥٠٠٠ رجل، بما في ذلك البارجة الحربية «ميسوري». وقد جاءت أفضل السفن فيه. وكان أحد أكبر الأساطيل البحرية الأميركية منذ حرب كوريا، والأكبر منذ حرب فيتنام. وكل هذه السفن جاءت لتضمن حرّية الملاحة في الخليج «لأصدقائنا العرب» ـ وبالتالي للعراق ـ ولكنها لن تفعل شيئاً لحماية الملاحة الإيرانية. وليس مفاجئاً أن يعمد الإيرانيون للإعلان عن «عمليّة الاستشهاد» ذات المناورات البحرية أمام الشواطىء الإيرانية، مع التحذير بأن «الجمهورية الإسلامية لن تكون مسؤولة عن حصول حوادث ضدّ الطائرات والسفن الحربية الأجنبية التي تمرّ في المنطقة».

ومن مقعدي في مروحيّة شبكة (NBC)، سنحت لي الفرصة من هذه المنصّة أن أراقب المدى الملحمي لهذا النزاع. خرجنا من دُبي وطرنا على علوّ صواري السفن تقريباً، وسرنا عبر مئات من الناقلات وحاملات الغاز، الراسية على مسافة أميال في البحر؛ بعضها كحيوانات ضخمة قشدية اللون، قرب سفن شحن، ومراكب قديمة محمّلة بالرافعات وتجهيزات النقل بالعربات. ولا تظنّن أنها تؤخّر انطلاقها بسبب التهديدات الإيرانية؛ فهي تخضع لأوامر الانتظار حتى ترتفع أسعار النفط لهذه المنطقة. لكن الحرّ اللافح عبر الخليج جعلنا نتخبّط في سيرنا

ونخطىء في رؤية السفن الحربية ضمن ذلك الضباب الرقيق، فنسمع بمكبّرات الصوت: «هذه سفينة حربية أميركية، نطلب منكم أن تبقوا على بعد عقدتين بحريتين. حوّل». أما الصوت على الراديو فهو بلهجة الشاطىء الأميركي الشرقي، واقعي مختصر مفيد، دون الإعلان عن هوية الشخص. «السفينة الحربية الأميركية. طيّب. نخرج».

رأيناها منتشرة بغرور على مسافة ستة كيلومترات ـ ثلاث ناقلات نفط بشكل (٧)، والسفن الحربية على المسافة ذاتها من الناقلات ـ ظنّنا أننا في مهرجان سباق للمراكب، وليس في رحلة مخاطرة تسير صعوداً في الخليج. والناقلات الأجنبية منتشرة حولها، بعضها ينفث دخانه، وبعضها الآخر، يمتطي المدّ والجزر بانتظار أوامر أسياده، وكان ذلك منظراً مألوفاً من صدى الأيام الخوالي عندما كانت القوافل الكبرى تنطلق عبر المقاربات الغربية (Western Approaches)، منذ ٤٦ سنة خلت. وكان هناك ثلاث سفن مسجّلة في أميركا حديثاً: «غاز كنغ»، و«سي آيل سيتي»، و«أوشن سيتي» ـ ولكنها لا تلفت النظر كرموز لعزم أميركا السياسي في الخليج، إذ إنها سيّئة الطلاء، يظهر بعض الصدأ على أجسامها. ولم يرفع العلم الأميركي بعد على مؤخّراتها. والسفن الحربية الأميركية: «كيد»، و«فوكس»، و«ڤالي فورج» تحاذي مؤخّراتها أو وسطها، بينما سفينة أميركية أخرى تقف استعداداً للطوارىء. كان في كل هذا عنصر مسرحي، لهذه التشكيلة الأنيقة الصغيرة من ناقلات النفط الفارغة ومرافقاتها الغبراء، مسترخية في البحر الحارّ، بانتظار رفع الستار عن مسرحية هزلية أو مأساوية.

ظهر ضوء ذهبيّ ساطع صغير إنما فجائي على متن سفينة «ڤالي فورج»، وصعد منها صاروخ ضوئي جميل فوق البحر ثم تاه بغير انتظام نحو الأمواج. وصاح بنا الصوت المختصر من جديد بنبرة أعلى ترنّ في سمّاعاتنا. «أنتم الآن ضمن عقدتين بحريّتين. نطلب منكم الخروج. حوّل». وأتت إلينا الآن من «ڤالي فورج» مروحية كبيرة مضادة للغوّاصات من طراز (SH 603) تسترعي الانتباه بمحرّكيها عند صعودها. جاءت قربنا، وحملق فينا طاقمها من وراء الستائر، وأشارت إلينا يد من داخلها بيطء أن نبتعد عن السفن. وعند الساعة التاسعة صباحاً، بدت سفينة حربيّة، لها مدخنة طويلة ومسطّحة، مع جهاز إطلاق صواريخ «إكزوسيت» على ظهرها، وهي تمخر عُباب اليمّ في مؤخّرة القافلة الأميركية. إنها فرقاطة بريطانية من «دورية أرميلا» في الخدمة الناشطة لصاحبة الجلالة؛ تحافظ على مسافة متحفّظة من المقامرة السياسية الأميركية الأخيرة، تلك المسافة التي قد توافق عليها رئيسة وزراء بريطانيا «مرغريت تاتشر»، ألا وهي ميل بحري واحد من أقرب سفينة أميركية.

كان غضب إيران يزداد(*). وبدأ حرس الثورة يهاجمون السفن التجارية غير المرافقة، بقاذفات قنابل؛ إذ

(*) ليس بسبب وقوف مزيد من الدول الغربية إلى جانب العراق في الحرب. فقد قتل ٣١٧ إيرانياً خلال موسم الحج إلى مكة بتاريخ ٣١ تموز/يوليو ١٩٨٧، ادعت ايران أن رجال الشرطة السعوديين أطلقوا عليهم النار. وجاء في التقارير الأولية أن الحجاج سحقوا بتأثير فرار جماعي مذعور عبر ممرّات ضيقة قرب المسجد الكبير، عندما امتزجت مظاهرة إيرانية سياسية بالانفعال الديني، والغضب من رجال الأمن السعوديين الذين يلبسون بذلات سوداء. وفي عام ١٩٨٦، قال السعوديون إنهم اكتشفوا متفجرات في أكياس ١١٣ حاج وحاجة من الإيرانيين، لكن رئيس جمهورية إيران «علي خامنئي» وعدهم بأن لا يتكرر ذلك عام ١٩٨٧.

يقتربون منها بقوارب ذات محرّكات، آتين من جُزر إيرانية صغيرة في الخليج، ثم يفتحون النار عليها عن كثب. وطيلة هذا الوقت اتّسعت هوامش الخطأ. ففي منتصف شهر آب/أغسطس، أطلقت طائرة حربية أميركية في الخليج صاروخين على «طائرة» إيرانية، تبيّن فيما بعد أنها مجرّد سراب بفعل الحرّ. وبعد أسبوعين، أطلق الكويتيون صاروخ أرض ـ جوّ على غمامة منخفضة لأن الرطوبة جعلت شكلها يشبه شكل طائرة نفّاثة على شاشة الرادار عندهم.

وقامت حشود بنهب السفارة السعودية في طهران، لكنّ المظاهرة «المعنوية» التي جرت احتجاجاً على موتى مكّة، ضمّت بعض صانعي الأقفال من الحدّادين الذين استطاعوا سلب أربعين ألف دولار أميركي من النقد الموجود في سرداب السفارة. وهدّد السعوديون بتخفيض سعر النفط بغية الإضرار بالاقتصاد الإيراني؛ لكن كان هذا سلاحاً مُحبطاً. والعراق على شاكلة إيران يعتمد على صادرات نفطه لتمويل الحرب، دون احتياط يُذكر من النقد الأجنبي. وقد ارتفع دينه الخارجي إلى ستّين مليار دولار أميركي. ورأت الكويت أن ما ربحته من حماية الأميركيين لناقلاتها والبالغ ١٧ مليون دولار أميركي، قد تبخّر بين ليلة وضحاها. وهكذا بقي العرب عرضة للخسائر المالية، كما اعتقدوا أنهم يخسرون عسكرياً.

واكتُشف الآن مزيد من الألغام في الخليج. وانفجر أحدها بالناقلة العملاقة «تاكساكو كاريبين» خارج الفُجيرة في خليج عُمان، على بُعد من الخليج العربي، فأحدث الانفجار ثغرة كبيرة في خزانها الثالث تكفي لمرور سيارة عائلية منها. وحصل مزيد من الإدانة لإيران، دون إشارة تُذكر إلى أن تلك السفينة كانت تحمل نفطاً خاماً، حمَّلته من جزيرة «لاراك» الإيرانية. واستثار هذا الانقضاض بالألغام غضباً شديداً لدى واشنطن، على شاكلة ما حدث للسفينة «ستارك» من ضرب بالصواريخ العراقية: ويُظنّ أن الإيرانيين باتوا يفجّرون الألغام بناقلاتهم هم، ضاربين عرض الحائط بالسلام العالمي، كما اتُّهموا بذلك دائماً. وبالتأكيد، تكلّم وزير خارجية بريطانيا بعد أيام عن نظام طهران «غير العقلاني».

ومن بين كلّ الناس، وجد طاقم شبكة التلفزيون الأميركية (NBC) لغمين آخرين. فبينما كان «ستيف أونيل» يتجول بمروحيّته المعهودة على مستوى منخفض لمح جسماً كروياً أسود لجهة مزلجة الطائرة إلى اليسار. وكانت الطائرة على علو أمتار قليلة عن الماء، وسرعتها تبلغ ١٥٠ كيلومتراً في الساعة. ولكن الشيء المكتشف كان مشؤوماً جداً ـ كما هو مألوف في عشرات الأفلام السينمائية ـ ليكون أي شيء آخر غير اللغم. وبعد ساعات قليلة، وفي ظروف مماثلة تقريباً، وجد طاقم (CBS) لغماً آخر مطلياً بالأسود مثل اللغم السابق، لكنه مربوط إلى الأسفل بسلسلة. وقد أشار التقنيون العسكريون الصينيون الذين يعملون مع الإيرانيين إلى أن إيران أنشأت قرب مرفأ «بندر عبّاس» مصنعاً لتحسين الألغام القديمة التي اشتروها، والتي كانت قد صُنعت أصلاً في روسيا القيصرية ـ فتأمّل في هذا المدّ الإمبريالي.

وفي نيسان/أبريل، كادت تغرق السفينة الحربية الأميركية المسمَّاة «صموئيل بو روبرتس» عندما اصطدمت

بلغم، أثناء قيامها بدوريّتها في الخليج. وبتاريخ ٢١ أيلول/سبتمبر، انبرى العميد البحري «برنسون»، وهو الضابط الخنوع ذاته الذي قبل أن تسير سُفنه الحربية وراء ناقلات نفط عملاقة لحمايتها من الألغام؛ وقرّر القيام بهجوم على المركب الإيراني «إيران فجر»، الذي كان تحت المراقبة وتبيّن أنه يزرع ألغاماً في الخليج على بعد ٨٠ كيلومتراً شمالي شرقي البحرين؛ على أن تقوم بهذا الهجوم مروحيّات «وطواط البحر» المجهّزة «بالسونار»، انطلاقاً من السفينة الأميركية «جاريت»، أخت السفينة «ستارك»، ويا للصدفة التاريخية! وقد جاء المراسلون الذين استقدموا فيما بعد للزيارة، وعاينوا المركب الإيراني ـ الياباني الصنع منذ تسع سنوات، وغير الرومانسي، والذي يُفتح ويُغلق عند الإنزال إلى البرّ ـ وشاهدوا عشرة ألغام كبيرة مطليّة بالأسود وتحمل الرقم المتسلسل (MO8)، قرب مؤخّرة المركب، مع مزلاقة خاصّة مربوطة بسطح المركب، بحيث يستطيع الطاقم أن يدحرجها في البحر. ورأوا ثقوب الرصاص على سطح المركب، ومقصوراته، وهيكل جسره، مع آثار دم في الممرّات. وقد قُتل في الهجوم ثلاثة من طاقم المركب المؤلّف من ثلاثين إيرانياً، وفقد اثنان يعتقد أنهما ماتا، وجُرح أربعة، إثنان منهما بحالة خطرة. وقد كذّب رفسنجاني الادّعاء الأميركي بأن إيران تزرع ألغاماً في البحر؛ ولكن من الواضح أن ذلك حصل. مع العلم أن الإيرانيين عادوا وتراجعوا عن ادّعائهم بأنّ مركب «إيران فجر» كان بريئاً. وقد اطمأنّ صدّام حسين الآن إلى أن الأميركيين وقفوا إلى جانب العراق، كمحاربين للإيرانيين.

وتابعت الولايات المتحدة عملها بعد نجاحها ضدّ زرع الألغام الإيرانية بثلاثة أسابيع عن طريق ضربة بحرية ضدّ منصّتين إيرانيتين نفطيتين، تقعان في البحر على بعد ١٣٠ كيلومتراً من قطر. فقد أطلقت أربعة طرّادات للصواريخ الموجّهة مدافعها من عيار ٥ إنشات قذائفها على منصّتي «رستم» و«رخش» فدمّرتهما. وسمّى وزير الدفاع الأميركي «كاسبار واينبرغر» هذه العملية «استجابة مدروسة على القياس»، ردّاً على هجوم بالصواريخ حصل الأسبوع الماضي على ناقلة ترفع العلم الأميركي. وكلّ ما صدر أولاً عن الإيرانيين بهذا الخصوص، كان صوتاً إيرانياً بعيداً بالراديو المقرقع يطلب وقف إطلاق النار لإخلاء الجرحى من أحد التجهيزات التي لا تزال النار تشتعل فيها. وكانت المنصتان قد استُعملتا كقاعدتين بحريّتين من قِبل حرّاس الثورة، بحسب قول الأميركيين. وقد حذّرت طهران الولايات المتحدة الأميركية، دون كبير مصداقية، من أن ردّها سيكون ساحقاً.

ولمّا كانت هذه الأفعال العسكرية قد ورّطت القوى الغربية، فقد قلّ الاهتمام المُعطى لأمر أخطر، ألا وهو وقوع كثير من الضحايا في الحرب البرّية، حتى عندما يكون الضحايا من المدنيين. وعلى سبيل المثال يُذكر أنه بتاريخ ١٢ تشرين الأول/أكتوبر سقط صاروخ إيراني أرض ـ أرض موجّه كما يدّعون إلى وزارة الدفاع العراقية في بغداد، على مدرسة ابتدائية في ساحة الشهداء، التي تبعد ٢٠ كيلومتراً عن الوزارة، بينما كان التلاميذ يتجمعون للدخول إلى الصفوف صباحاً. فقتل الانفجار ٢٩ ولداً وجرح ٢٣٨ مدنياً آخرين، منهم ١٠٠ في حالة خطرة. وكان العراق قد أوحى باستعمال الأسلحة الكيميائية ضدّ القوّات الإيرانية، خارج البصرة؛ ولكن ذلك لم يمنع العراقيين من التركيز على إدانتهم المباشرة لهذا الدليل الجديد على «وحشية الإيرانيين».

وكان من نصيب البصرة أن تحدّد هويّة هذه المرحلة الأخيرة والوحشية من الحرب. فهي بالنسبة إلى الإيرانيين

بوّابة جنوبي العراق، والطرق بذاتها المؤدّية إلى مزارات كربلاء والنجف والكوفة التي تغري الجنود و«الباسداران» الإيرانيين، الذين ما زالوا محبوسين في أطلال الفاو المدمّرة. ولكن العراق كان لا يزال يحتفظ بجيش قوامه ٦٥٠٠٠٠ جندي موزّعين على سبعة ألوية من السليمانية إلى جبهة القتال خارج الفاو. ويشكّل الحرس الجمهوري والقوّات الخاصّة ٣٠ ألفاً منهم؛ فضلاً عن الجيش الشعبي من «المتطوّعين» البالغ عددهم ٤٠٠ ألف جندي. أضف إلى ذلك «الجيش العربي»، وقوامه ٢٠٠ ألف جندي أكثرهم من مصر، لاستكمال صورة القوة العراقية. ولكنّ الإيرانيين حشدوا ٦٠٠ ألف جندي مقابل البصرة. فصار مفروضاً على المشير صدّام حسين رئيس جمهورية العراق، ورئيس الوزراء، والأمين العامّ القطري لحزب البعث العربي الاشتراكي، ورئيس مجلس الثورة، أن يقوم بأحد انسحاباته المشهورة.

•

وعندما اخترق الإيرانيون الخطوط العراقية باتجاه البصرة في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٧، أرادوا أن نشهد ذلك. فجاءوا بنا إلى خلف الخطوط الإيرانية، و«باصنا» يسير بجلبة عبر الوديان ساعة بعد ساعة عبر الظلام الدامس، وسط جيش جرّار من الجنود الذاهبين إلى جبهة القتال، تحت رهبة الموت والجراح، بينما الأفق يلمع بنار المدفعية. وقبل عدّة سنوات، قاد أحد المراقبين من الوزارة مصوّراً من مكتب «رويتر» إلى حقل ألغام، فانفجرت فيهما كليهما وصارا أشلاء. فأعلن الإيرانيون مراسل «رويتر» شهيداً، وأرادوا أن يرسلوا إلى أرملته كتاباً لمّاعاً بالصور الملوّنة التي تظهر جثث الشهداء في مراحل مختلفة من تقطيع الأوصال والتعفّن؛ ولكنّ العقلاء تداركوا ذلك قبل فوات الأوان. قضيت تلك الليلة على أرض رملية في غرفة بيضاء محصّنة، قُدِّم لنا فيها العصير و«الدوك» أي لبن الزبادي البارد أو «العيران»، مع خبز «نان»، والجبن، والشاي؛ وبقيت كالعادة أرقاً تحت حرامي. وقبل الساعة السادسة صباحاً من اليوم التالي، جاء حرّاس الثورة ليأخذونا إلى «الجبهة»؛ فصعدت بسأم الدرج الشديد الانحدار إلى الشمس والحرّ وزمجرة إطلاق المدافع وصوت الانفجارات الثقيلة للقذائف التي سقطت عندنا. كانت «دزفول» شاشة عرض عريضة «سينما سكوب». وكانت «الفاو» مدمَّرة. ولكنها كانت ملحمة الآلاف، إذ كانت الدبّابات والشاحنات تتدفّق غرباً مع مئات من الجنود الإيرانيين الجالسين على الدروع وسيّارات الشحن المكشوفة، أو الماشين قربها. وجزعتُ لأنّ مرافقنا لم يكن سوى علي مازينان، ضابط الحرس الثوري، لابس النظّارة المخبول، المشغوف بتصدير التمر، الذي أرسلني بتلك الرحلة الجنونية بالمروحية إلى «الفاو». تقدّم مني بأحرّ العواطف والابتسامات، وضمّني معانقاً ضمّة الدب الأشيب، وقبّلني على الخدّين. وفي مثل هذه الحال، لم يكن هناك ما هو أنسب للمراسل من قول «كولريدج» عن «الوقف الإرادي للتكذيب». ولم يكن هناك أفضل من الإيمان بالشِّعر للاعتصام به خلال الساعات القليلة القادمة.

كانت «بُحيرة السمك» عبارة عن مُنبسط من الصحراء يقع شمالي نهر كارون، وغربي «شلمشه» ـ المركز الحدودي الذي فقدتُ فيه جزءاً من سمعي بفعل صوت المدافع العراقية التي كانت تقصف «خرمشهر» آنذاك، منذ أكثر من ستة أعوام ـ ولكن «شلمشه» الآن عادت إلى أيدي الإيرانيين، واتجه الجيش الإيراني نحو نهر شطّ العرب والبصرة. وهكذا عدتُ مرة ثانية إلى «الأرض العراقية المحتلّة من قِبل الإيرانيين»؛ ولكن في الصحراء التي أغرقها

العراقيون بالمياه عند انسحابهم. ولذلك بات الإيرانيون يتقدّمون الآن على سلسلة من السدود والممرّات التي تعلو مستوى الماء في الصحراء المشبعة به، وتحت قصف قويّ ومستمرّ من المدفعية العراقية، التي اهتدت فوراً إلى مواقع السدود والممرّات، كي تضربها بقنابلها.

وقد وفّر الإيرانيون للصحافيين سيّارة شحن مكشوفة أخرى من صُنع اليابان، مع مجموعة من الخوذ الفولاذية القديمة الملقاة في إحدى الزوايا، كي نلبسها متى وصلنا إلى ساحة القتال. سرنا بسيّاراتنا بين السواتر الترابية والمخابىء وخطوط الخنادق، بينما كان جنود الجمهورية الإسلامية يمشون قربنا، وهم يبتسمون، ويلوّحون بإشارات النصر، رافعين رشّاشاتهم كالأبطال الظافرين. وهذا ما آلت إليه حالة الضحايا الذين عادوا وانتصروا على المعتدين كما اعتقدوا، بعد سنين من العذاب والضياع. وفجأة، حالما تسلّقنا مرتفعاً صخرياً، رأيت رؤوس صواريخ «هوك» المهداة من قبل «أوليفر نورث»، مع قِطع غيار، والتي عزّزت الدفاع الجوّي للجيش الإيراني الظافر.

ثم عدنا إلى الممرّ المعبَّد؛ وهو سدّ متداعٍ من الرمل، تحيط به بُحيرات ضحلة، لا تزال تشتعل فيها بعض الدبّابات العراقية، وترتمي فيها بعض قاذفات الصواريخ، وشاحنات للجنود العراقيين، مغمورة إلى نصفها بالماء، وعشرات الجثث، لا يبدو من بعضها سوى القدمين فوق المستنقع. ولكنّ المخيف أكثر من ذلك، كان التعرّض لقذائف المدفعية العراقية الموجّهة إلى السدود والممرّات. شددت على رأسي خوذتي الروسية التي أعطاني إيّاها الإيرانيون؛ فقد أصيبت أمامنا شاحنة، اندلعت فيها النيران الوردية، وارتمى بعض من فيها في الماء، والنار تشتعل بثيابهم. تراجعت القافلة الآن، وتوقّفت شاحنتنا؛ ونحن نسمع وقع القنابل في البُحيرات الضحلة حولنا، و«طرطشة» الماء والوحل فوقنا.

كان «إيان بلاك» من «الغارديان»، أحد المراسلين الذين يمكن أن يذهب المرء معهم إلى الحرب، جالساً قُبالتي في الشاحنة، ينظر إليّ نظرات فاحصة من خلال نظّارته، قال: «هذا وضع خطر جداً»؛ فوافقت. وحولنا، على أكمات صغيرة وسط بُحيرات الماء الكبرى الزرقاء المائلة إلى الاخضرار، كان رجال المدفعية الإيرانية يطلقون قذائف من عيار ١٥٥ ملم باتجاه البصرة، ولم يكن أولئك الصبيان الإيرانيون يهتمّون بلبس خوذهم خلال القصف؛ بل كانوا يصرخون من تأثّرهم، ويعانقون بعضهم بعضاً؛ ويتسكّعون حول السواتر الترابية في الخطوط الأمامية التي غنموها؛ يدخّنون، أو ينشرون غسيلهم، ويلوّحون لنا بأيديهم بطيبة خاطر؛ بينما تطنّ فوقنا أصوات القذائف المدفعية العراقية؛ حتى أن انفجار القنابل حولهم كان يضحكهم. فهل كان ذلك ازدراءً بالموت، أو كان ردّ فعلهم إزاء خوفنا؟

ولدى حصول «طرطشة» أخرى، انحنيت مع بلاك إلى الأمام متلاصقَي الأكتاف، تفادياً لهبوط الروث والسائل المالح الكريه على وجهينا. وجاءت القذائف خمساً دفعة واحدة تئزّ فوق كواسر الأمواج. وفي رحلة مشابهة حصلت قبل عدّة ساعات، لخّص المراسل البريطاني لمجلّة «أخبار الولايات المتحدة الأميركية والتقرير العالمي» مشاعره تحت القصف على طول السدود والممرّات بقوله الفصيح: «لا أعتقد أني أستطيع أن أتحمّل أكثر من يوم

في مثل هذه الظروف». وكان سطح الطريق لا يعدو ارتفاعه عن الماء أقداماً قليلة؛ ولكن الطريق تبدو وكأنها ممتدّة إلى يوم القيامة، في فتيل من الرمل البالغ حدود الأفق حيث النار والدخان. وفجأة، انقطع رباط خوذتي فارتميت على الأرض. التقطتها، وعاودت وضعها على رأسي ممسكاً إياها بيدي اليسرى، ولكن ما الفائدة؟ فلو أُصبتُ برأسي، لقطعت أصابعي. وكان زميلنا «بلاك» مقطّب الجبين، وكنّا كلّنا مركّزين انتباهنا، تراودنا فكرة الموت؛ بينما كان صبيان الجيش، والمتطوعون المسنّون، وضبّاط حرّاس الثورة، يمرّون بنا تحت الشمس، ونحن نتقدم ببطء نحو جبهة القتال.

وظلّوا يصرخون «حرب حتى النصر» نحونا، وهم يمشون في الطين والوحل. فمتى نصل إلى نهاية هذا الأمر وهل أصل إليها في حياتي؟ بعد أن سرنا بسيّارتنا حوالى ثلاثة كيلومترات على طول تلك السواتر الترابية، ووصلنا إلى «شلمشه» وتجاوزناها؛ وظهر أمام شاحنتنا «مازينان» كالشبح وهو يشير كالمعتوه إلى الشمال الغربي، ويصيح تكراراً: «البصرة، البصرة، البصرة!!!» وكنتُ مع «بلاك» ننعم النظر في ألسنة اللهب والدخان، والأعاصير التي تثور بغرابة حولنا، كهيجان بركان، يحمل الطين الأغبر في الهواء للحظة، ثم يلقيه علينا. وصار «بلاك» ينظر إليّ من جديد، فقلت: «إنها مثلما حدث في كتاب «البحر القاسي»؛ فعقّب على كلامي قائلاً: «وأسوأ من ذلك».

كان «مازينان» مهووساً، يكرّر طلبه: «تعالوا، تعالوا». فزحفنا إلى سدّ من الطين، اهتزّ عندما أطلق الإيرانيون قذيفة ١٥٥ ملم من حفرة في الأرض المشبعة بالماء ورائي. حدّقتُ فوق الحافة، واستطعت أن أرى عبر فسحة من الماء اللامع أبراج مجمّع صناعي وبناياته في ضواحي البصرة يبدو أغبر في الأفق؛ وقد تراءى لرجال المدفعية في نور الشمس صباحاً. وكانت حولنا زمرة من الصبية يتضاحكون، ويقولون: «لماذا تخافون؟ انظروا إننا محميّون، إن صدّام سيموت».

وقبل ساعات قليلة، كان صدّام قد صرّح بأن طريق السدود والممرات ستنقلب إلى فرن يفنى فيه الإيرانيون. وأوجسنا «بلاك» وأنا خيفة من أن يعني صدّام ما يقول. ومع ذلك، انحصرت حماية الصبي بعصابة حمراء ملفوفة بإحكام حول رأسه؛ وقد كتب عليها بالأصفر ابتهالاً لله كي يبيد النظام العراقي. وتذكرتُ ما جاء في قصيدة «جان سكواير» من أنّ الربّ يقول: «لقد هيّأتُ عملي». ولم تكن الحرب العالمية الأولى «روسماً» يشبه ما يجري هنا. فسقوط مليون قتيل في معركة «بُحيرة السمك»، جعلها كمعركة «الصوم»؛ لكن معركة «باسخندالي» انقلبت فيها التضحية إلى هَوس مُفرح لدى «مازينان» ورفاقه. وكان هناك صبيّ ـ لا يكاد يتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره ـ يقف قرب مخبأ، ينظر إليّ. وما كان منه إلّا أن رفع خوذته على مهل، ووضع القرآن الكريم على قلبه، وابتسم. وكان ذلك هجوم «كربلاء» الخامس. وإني متأكّد من أن هذا الصبي يعتقد أنه سيصلّي عما قريب في مزار الإمام الحسين. إنه منظر مؤثّر وحزين في الوقت ذاته. إن هؤلاء الشباب يعتقدون أنهم خالدون بنظر الله تعالى. لم يكونوا متحرّرين من الخوف بقدر ما كانوا لا مبالين ـ وهذا ما جعلهم فريدين من نوعهم، وعُرضةً للعطب. لقد وجدوا مفتاح الخلود وآليّته؛ بينما لم نجد نحن ذلك. لذلك، كان الصبي شجاعاً وضاحكاً، بينما كنت أنا خائفاً؛ لأني لم أرد أن أموت.

وكانت القنابل غير المنفجرة منثورة حولنا كبهائم تشبه أسماك القرش بذيولها الغبراء؛ إذ إنها نصف مطمورة في الأرض السبخة، وقد أطلقها العراقيون عندما حاولوا دون جدوى أن يوقفوا هجوم «كربلاء» الخامس. وهناك لافتة تقول: «النصر لنا»، منصوبة فوق مخبأ مسحوق، بُنيت جدرانه بصناديق الذخيرة والقذائف. فمن يشكّ في ذلك؟ لقد كان للعراقيين خمسة خطوط دفاع عن البصرة، وقد اخترق الإيرانيون الخطوط الثلاثة الأولى. كما غنموا دبّابات عراقية من طراز (T-72)، وضمّوها إلى عتادهم، وأداروا مواسير مدافعها، وباتوا يطلقونها على البصرة.

وقد ادّعى «مازينان» بحقّ أن حرّاس الثورة قد انتصروا في هذه المعركة، وأن الجيش الإيراني النظامي لم يقدّم لهم سوى الإمدادات اللوجستية والتغطية النارية، وأن العراق خسر ١٥٠٠٠ قتيل وأصيب لديه ٣٥٠٠٠ جريح، ودُمّرت عنده ٥٥٠ دبّابة ومدرّعة. ولكني تهوّرت بقولي معترضاً إن الإيرانيين لا يزالون بعيدين عن مركز البصرة. فاتّسعت حدقتا «مازينان» وراء نظّارته الكبيرة، وقال لي: «تعال». وسار بي هذا العملاق المخبول ـ الذي كان عقلانياً عندما ناقشنا موضوع الحرب الدينية ـ إلى سدّ طيني آخر. فتسلّقناه إلى سطحه، ونزلنا من جانبه الثاني، وصرنا أمام خط الدفاع العراقي الثالث. فالطلقات تئزّ حولنا. وتذكّرت كم يشبه ذلك أزيز الزنابير السريعة، إذ كنت أسمعها تغرز في الطين ورائي. جذبني «مازينان» بذراعي اليمنى وأشار إلى أعمدة من الدخان الأسود التي بدت كستار جنائزي أمامنا. قال: «هل ترى تلك البناية؟». ولم أرَ في الظلام الدامس سوى الخطوط الكبرى لبناء مستطيل الشكل. وصرخ: «ذلك المبنى هو فندق «الشيراتون» في البصرة.

كان الإيرانيون يستعملون مدفعيّتهم ثلاث مرات أكثر من العراقيين؛ وتلمع أفواه مدافعهم عبر النهر بغزارة. وكان الصبيان والرجال المسنّون الملتحون يتسكّعون على طول السدود والممرات، ويسمعون أحياناً موسيقى دينية من مُكبّرات الصوت. وعندما عدنا إلى الشاحنة نظرنا «بلاك» وأنا بعضنا إلى بعض. وكان «برنت سادلر» وطاقم شبكة التلفزيون (ITN) قد ذهبوا ليصوّروا كومة من الجثث العراقية مزّقتها القذائف في أحد المستنقعات. قال سادلر: «إنها مهمّة خطرة، ولكن ليس لديّ أيّ خيار آخر». وكانت غمزة الموت في عينيه. ولكنه قد يبقى على قيد الحياة، كما حصل له سابقاً. أمّا «بلاك» وأنا فلم نكن متأكّدين من مثل هذا المصير. فصحت بمازينان متذمّراً: «نريد أن نعود». فرفع حاجبيه. كما صرخ «بلاك» أيضاً: «نريد أن نعود، أن نعود، أن نعود». فالتفت إلينا مازينان التفاتة أسوأ من الازدراء، سائلاً مزمجراً: «لماذا؟». لأننا جبناء. هيّا قلها يا «فيسك». لأني أرتجف من الخوف وأريد أن أعيش وأكتب قصّتي، وأعود إلى طهران، وإلى بيروت، وأدعو امرأة شابّة لتشرب النبيذ الأحمر الفاخر على شُرفتي.

أومأ مازينان برأسه إلى السائق؛ ثم رفع يده اليمنى إلى مستوى رأسه، وأطبق على أصابعه وفتحها مودّعاً، كما تلوّح الأمّ لطفلها الصغير مودّعة. وقال: باي، باي» بصوت ناعم. وهكذا انعطفت شاحنتنا إلى اليسار عن السدّ، وسارت في طريق معبّدة طويلة باتجاه أطلال «خرمشهر» ؛ وبقيت الشكوى قائمة.

وفي مستودع أحد المصانع، عُرض علينا منظر ألف أسير عراقي، بمن فيهم العميد «جمال البيّودي» من الفيلق (٥٠٦) العراقي، الذي شرح لنا كيف حفر «الباسدران» و«الباسيجي» الإيرانيين طريقهم عبر صفوف طويلة عريضة من الشريط الشائك بعمق ٦٠ متراً حتى وصلوا إلى خط دفاعهم الثالث(*).

وقد ردّد الأسرى العراقيون بفتور لعنات تنصبّ على قائدهم العراقي الذي كانوا يحاربون من أجله منذ عدة أيام. وقد ابتسم البعض لنا عندما غفلت عنهم أعين الحراس. وتمتم أحدهم اسمه لي قائلاً: «أرجوك، بلّغ عائلتي أني آمن، ولم أمت في المعركة. وبعد أسبوع أعطيت اسمه للصليب الأحمر الدولي الذي وعد بإيصال رسالته إلى أهله(**).

عدتُ من معركة «بُحيرة السمك»، وأنا أشعر باليأس. فذلك الصبي الذي كان يحمل القرآن الكريم على صدره اعتقد بشكل من الأشكال أن القليل من الغربيين، بمن فيهم أنا، قد يستطيعون فهمه. لقد علم من مُجريات ومعتقدات حياته أن الجنّة بانتظاره. إنه سيذهب مباشرة إلى هناك بالقطار السريع، دون أية إعاقة أو أي تأخير ـ إذا حالفه الحظّ بأن يُقتل على يد العراقيين. وبدأت أفكّر في أن الحياة ليست الشيء الوحيد الذي يموت في إيران. فقد كانت هناك أيضاً بشكل غير محدّد عملية موت في الدولة ذاتها.

فالأمّة التي تنظر إلى الوراء وليس إلى الأمام، والتي تُلبس فيها النساء ثياب الحداد إلى الأبد، والتي يُعتبر فيها الموت إنجازاً، والتي ينحصر فيها الإنجاز البطولي للأولاد في التضحية بذواتهم، تكون بلاداً تهلك نفسها، وتسير نحو خبرة قاتمة مكفهرّة، وتجد لنفسها شبيهاً في كمبوديا حيث جرى القتل الجماعي مثلما جرى في معركة كربلاء التاريخية.

وقد أقضي أياماً وربّما أسابيع من حياتي وأنا أزور مقابر موتى الحرب الإيرانيين. ففي أقلّ من سنة بعد احتلال الفاو ـ ذلك الهجوم الذي كان من المفروض أن يقود إيران إلى البصرة، ومن ثمّ إلى كربلاء والنجف ـ كنتُ أقف في مقبرة الإمام «زاده علي أكبر» الصغيرة، على المنحدرات الباردة لجبال «ألبورز» في «شازار»، حيث

(*) يمكن تقدير الانتصار الإيراني من معرفة عدد الضباط الكبار المعتقلين أثناء الهجوم. ومنهم الكولونيل «ياسر الصوفي» قائد لواء المشاة (٩٤)، والمقدّم «رضا جعفر عباس» من الفيلق السابع للقوات الخاصة الجوّالة، والمقدّم الركن «وليد علوان حمادي» القائد الثاني للواء المشاة (٩٥)، والمقدّم «مجيد العبيدي»، القائد الثاني لفرقة المدفعية (٢٠)، والمقدّم «سليم حمود عرابي» قائد الفرقة المدفعية (١٦)، والمقدّم «جابر حسن العماري»، قائد كتيبة المشاة الثالثة، من اللواء (١٩). ويبدو من أسمائهم أن ثلاثة منهم هم شيعة، على الأقل.

(**) قال الأسير الطيار «عبد علي محمد فهد» من سرب الطيران (٤٩) في الناصرية، أن دفاعات إيران الجوية تحسنت خلال الأشهر الأحد عشر السالفة، وأجبرت قاذفات القنابل العراقية على أن تطير على ارتفاعات أعلى. أما طائرته «الميغ ٢٣»، فقد أُسقطت، كما يبدو بأحد صواريخ «هوك» المهداة من «أوليفر نورث». وقد ادّعى الطيار ذاته أن التقنيين الروس، والفرنسيين، والهنود، يقومون بالاستشارات لصالح الأسراب العراقية في الناصرية، وأن العراقيين استخدموا غالباً قاعدة جوية كويتية، لمعاودة التزود بالوقود، خلال قصفهم لناقلات النفط الإيرانية.

كانوا يستعدّون للقيام بالهجوم الإيراني التالي. فقد حفرت الجرّافات عميقاً تحت جليد المقبرة، وظهر من ذلك العمق التراب الجديد ـ على اتساع رميتين من كرة القدم ـ لتستوعب المقبرة القافلة الجديدة من الشهداء.

وكان حارس المقبرة النحيل الأسمر فظّاً بهذا الشأن، إذ قال: «كلّما حصل هجوم كربلاء من جديد، يصل الشهداء إلينا، خلال أيام. فلدينا منهم الآن ثلاثمئة هناك بزيادة ١٢ خلال الأسبوع الفائت. ونحن نُتلف قبور الناس العاديين بعد ٣٠ سنة ـ ولا يبقى منها شيء ـ ولكن الحالة مختلفة بخصوص شهدائنا. إنهم يمكثون هنا لألف سنة أو أكثر». أما إحصائيات الحارس، فقد كانت أكثر دلالة رؤيوية مما تبدو. «فشزار» ـ التي لا تتميّز إلّا بمزارها المتداعي القديم ـ لا تحوي سوى موتى الحرب في ضاحية صغيرة من شمالي طهران. ولكن، إذا نظرنا على مستوى البلاد كلها، يراوح عدد الشهداء بين ٣١٢ ألفاً ونصف مليون، أو ثلاثة أرباع المليون أو ربّما أكثر. ففي مقبرة «بهجة الزهراء» خارج المدينة، يرقد الشهداء بعشرات الألوف.

وكل الشهداء شباب صغار السنّ، وكلّهم يكرَّمون، علناً على الأقلّ، بمزيج من الحزن والرضا المعنوي الخاصّ بالمسلمين الشيعة. فلنأخذ مثلاً «علي ناصر ريارات». لقد كان في الحادية والعشرين من عمره، عندما مات في معركة مستنقعات «مينون»، غربي «الحويزة» عام ١٩٨٦، وتُفصح صورته المعلّقة على قبره ضمن إطار فولاذي، يغطيها الزجاج، أنه كان شاباً نحيلاً جميل الصورة، ذا شاربين كثيفين. وعلى شاهد قبره رسالة إلى والده يوسف وإلى والدته، يقول فيها:

> «لا تبكي يا أمّي، لأنني سعيد. أنا لست ميتاً؛ بل أذكر كلّ ما فعلتما من أجلي. لقد سقيتماني الحليب، وأردتما أن أهب حياتي للدين. ويا أبي العزيز، لا تبكِ ولا تلطم، لأنك ستفخر بي وتعتزّ عندما تعلم أنني صرت شهيداً. . .»

وهناك نقوش أخرى متشابهة على شواهد بعض القبور الأخرى. حتى أن الزهور الموضوعة على قبر جنديّ شابّ يُسمّى «زمان» قرب كوخ حارس المقبرة، تعلن ما يلي: «إننا نهنّئك على استشهادك». وأصحاب التواقيع هم طلاب وموظفو جامعة طهران للعلوم. فهل هناك فرح حقيقي بين قبور «شازار»؟ إن تلك الصناديق الفولاذية القاسية القائمة فوق القبور تحمل زهوراً ناضرة، وحَمَاماً من البلاستيك، وبعض الرصاصات الحقيقية؛ لكنّ الصور تُظهر الشباب الذين قضوا في كلّ حرب يضحكون بين الحدائق، أو واقفين مع أهلهم على عتبات بيوتهم، أو رابضين على قمم الجبال ممسكين بمناظير الميدان. فمن يدرك معنى هذا الهدر في أرواح الناس؟ مثل هدر حياة الرقيب «أكبر زاده» البالغ من العمر ٢٥ سنة الذي مات عام ١٩٨٢ في «خرمشهر»، و «مهدي بلوش» ـ الذي رسمت قنبلة يدوية على شاهد قبره ـ وكان عمره ٢٣ سنة عندما قُتل في «زاكدان»، و«مهْردودي نصيري»، البالغ من العمر ٢٥ سنة الذي أصيب في «مهران» خلال شهر تموز/ يوليو ١٩٨٦. وهناك أيضاً شابّ آخر يبلغ من العمر ٢٤ سنة، مات خارج البصرة، قبل بضعة أيام ـ ربّما في معركة «بُحيرة السمك» ذاتها التي شهدتها ـ وقد ظهر في الصورة مع ابنتيه الصغيرتين، وإحداهما عاقدة شعرها فوق رأسها، يضمّهما بين ذراعيه قبل أن يذهب إلى جبهة القتال.

أليس هناك من يدرك معنى هذا الهدر في حياة الناس؟ ـ كان هناك رجل ملتحٍ لا يبتسم، في الأربعينيّات من عمره يهزّ برأسه. وماذا عن سؤال «أوين» عن الشباب المقضي عليهم بالهلاك؟ وأيّ ناقوس يُقرع لنعي هؤلاء الذين يموتون كقطعان من الماشية؟ قال الرجل: «لقد قابلت رجلاً واحداً يتكلّم بوعي لهذا الهدر. لقد كان رجلاً مسنّاً في مستشفى. كانت رجلاه مقطوعتين وكذلك إحدى ذراعيه بقنبلة قرب «الأهواز». كما أنه فقد إحدى عينيه. وكانت القنبلة قد قتلت زوجته وأولاده، وأخواته وإخوته. قال هذا الرجل بصراحة إنه يعتقد أن صدّام والخميني يعملان ليحصلا على ما يستطيعان الحصول عليه، دون اهتمام بشعبهم. ولكنه الرجل الوحيد الذي سمعته يقول مثل هذا الكلام النقدي».

وكان خارج المقبرة حانوت يبيع كتباً حول الاستشهاد؛ وبداخله شاب من حرّاس الثورة، عاد لتوّه من جبهة القتال الجنوبية، اسمه «علي خاني». فبمَ شعر أهله عندما كان غائباً؟ ـ أجابني بقوله: «أنا وإخوتي الثلاثة في الجبهة. وتعلم أمي ويعلم أبي أني إذا استشهدتُ، سأبقى حيّاً». ولكن ألم يدعُ له أهله بالسلامة، ألم يوصوه «بالحرص على حياته» عندما غادر إلى الجبهة؟» قال مبتسماً لمثل هذا الشعور الغربي: «كلّا، إنهم يعلمون أنها إرادة الله، إذا متّ». ولكن، ألا يبكي أهله إذا مات؟! لقد فكّر «علي خاني» في ذلك برهة طويلة، وأخيراً قال: «نعم؛ وقد بكى النبيّ محمّد (ص)، عندما مات ابنه إبراهيم. ولكن، لم يكن ذلك علامة ضعف أو قلّة إيمان؛ فقد كان كائناً بشريّاً».

الفصل الثامن

تجرُّع كأس السمّ

«. . . وأشرقت الشمس،

كما كان عليها أن تفعل، على الساقين البيضاوَين المختفيَتَين تحت الماء الأخضر؛ ولا بدّ أن تكون السفينة الثمينة اللطيفة، قد رأت شيئاً مدهشاً: صبيّاً يسقط من السماء، وكان عليها أن تصل إلى المكان المقصود، فنشرت شراعها، وسارت بهدوء».

«و. هـ. أودن» متحف الفنون الجميلة»

إنها لمسافة طويلة من واشنطن إلى مخزن «موسّان» البرّاد للأطعمة والفواكه في «بندر عبّاس» وإنّ تقرير «البنتاغون» المفصّل تفصيلاً عن آخر رحلة للطائرة الإيرانية (IR 655)، بتاريخ ٣ تموز/يوليو ١٩٨٨، لا يعكس الأبعاد الإنسانية لمستودع الجثث الذي أقف فيه الآن. ففيه ترقد «ليلى البهبهاني» البالغة من العمر ثلاث سنوات، في تابوتها الرخيص. لقد كانت بنتاً صغيرة؛ وهي لا تزال تلبس ثوبها الأخضر ومئزرها الأبيض اللذين ماتت فيهما منذ ثلاثة أيام، عندما أصاب صاروخ مُرسل من قِبل البحرية الأميركية طائرتها الإيرانية فوق الخليج، فقتل ليلى والمسافرين معها الذين يبلغ عددهم ٢٨٩ شخصاً. وقد سُحبت من الماء فوراً بعد الانفجار. وبقيت كما لو كانت نائمة، وحول رسغها الأيسر سواران ذهبيان، وما زالت قدماها في جوربهما الأبيض وحذائهما الأسود. وقد خُطّ اسمها بالقلم على تابوتها المسنود قربها. وعلى بعد إنشات منها يرقد أيضاً أخوها بهيئته الجميلة السمراء وشعره الأسود القصير، في تابوت آخر من الخشب الرقائقي.

ولا يدلّ على أن هذه الجثث على أهبة الدفن سوى بعض الجليد العالق بشعورها؛ وهي منثورة في هذا المخزن المركزي للفواكه بتوابيتها الخشبية الشاحبة. ويجد المرء على أحدها الكتابة التالية: «يوغوسلافي»، وأخرى «غير معروف حتى الآن». وفي إحدى الزوايا، كان رجل في منتصف العمر يعاين بعض الجثث. إنه يحاول أن يتعرّف على أعضاء من عائلته ـ فهناك اثنان لم يتمكّن من الاهتداء إليهما ـ ثم يدخل شخص إيراني يرتدي سروالاً من «الجينز»، وهو يدفع عربة خفيضة عليها ثلاثة توابيت أخرى مكدّسة دون ترتيب. ويبلغ مجموع الجثث ٥٨ جثة، بالإضافة إلى صفّ من البقايا الآدميّة الفظيعة، ممّا لا يمكن وصفه بدقّة سوى بتقرير طبّي أو في مجلّة طبّية. فهناك الأطراف، وجذوع الأجسام، والرؤوس ـ المفتوحة عيونها ـ شبه الملفوفة بحرامات أو بغلافات بلاستيكية. والإيرانيون من «الپاسداران» الذين هم أكثر نشاطاً بين الثوريين، صاروا إلى خمود وصمت. ويقول أحدهم لإحدى

المراسلات «أنتِ سيّدة، تعالي انظري إلى هذه المرأة التي قُتلت». ويعبث بقفل تابوت، ثم يكشف عن وجه شاحب، وشعر مبلّل، من تحت أغطية البلاستيك.

ولا بدّ من بلوغ بعض النتائج البغيضة، مهما كانت بنظر الغربيين غير ملائمة، وعبارة عن تدخّل في حزن الآخرين: فمعظم الموتى ـ البالغ عددهم ٦٦ ـ هم من الأطفال، وبعض التوابيت صغيرة الحجم، حتى أن هناك إمرأة شابّة في العشرين من عمرها مسجّاة مع طفلها في صندوق خشبي. «إنها فاطمة فايدازايدا» التي عُثر عليها في البحر بعد ثلاث ساعات من إسقاط الأميركيين الطائرة، وهي لا تزال متشبّثة بطفلها على صدرها؛ ولذلك «وضعناهما معاً؛ فقد وجدناهما معاً، ولا بدّ من أن يبقيا معاً». ، على حدّ قول أحد الموظّفين الإيرانيين.

وصادفت أيضاً رجلاً في منتصف العمر، يضع محرمة على وجهه، ويمشي متهادياً في ذلك المخزن البرّاد، مفتشاً عن أقاربه. لم يجدهم بين الجثث التي شوّهها انفجار الصاروخين الأميركيين في الطائرة الإيرانية. ولكنه عاد فيما بعد فوجد جثّة شقيقته وصهره تحت غطاء من البلاستيك، فركع وبكى ومسّ وجهيهما بلطف. وقبل ذلك بساعات، كان الرئيس ريغان قد أعلن عن بالغ أسفه لأهل الضحايا البريئين، وأن اعتذاره هذا أمام العالم «كافٍ وافٍ».

ومن غير الاعتيادي هنا في «بندر عباس» المرفأ الجنوبي الذي يغلي، وقع التفاسير الرسمية الأميركية، والتعازي، وإظهار الحزن وتبرئة الذات في واشنطن. فكلّ هذه الاعتذارات تبدو هنا خاوية وانتهازية. وما يُسمّى في واشنطن «مأساة» ـ كما لو نزلت بهؤلاء الضحايا المنثورين حولي كارثة طبيعية ـ يوصف في «بندر عباس» بأنه هجوم وحشي وانتهاك لحرمة القانون والأعراف. وقد حاول بعض رؤساء التحرير الأميركيين عُزْوَ حصول الكارثة إلى أن الطائرة كانت تقوم بمهمّة انتحارية، وأن ربّانها كان عازماً على سحق ركّابه الغفيرين في الفرقاطة الأميركية التي أسقطت تلك الطائرة؛ حتى إن جريدتي «التايمز» ادّعت الادّعاء الشائن ذاته. ولكنّني سمعتُ في «بندر عباس» من زملاء الطيار وأصدقائه دون أي تدخّل رسمي، أن هذه الادّعاءات هي عدوانية وداعرة. وكانت بين ركّاب الطائرة عائلة كاملة مؤلّفة من ١٦ شخصاً إيرانياً، ذاهبة لحضور عرس في دُبي. وكان أولادها ما يزالون راقدين في توابيتهم بألبسة العرس الزاهية؛ بينما كان ريغان يبعث برسالة إلى الكونغرس يعلن فيها أنه يعتبر الآن قضيّة تحطّم الطائرة قضية «مغلقة».

كنا نمشي بين صفوف الموتى، في صمت الكنيسة أو المسجد ورهبتهما، غربيين دون اعتذاريات، ورجال كاميرا يصوّرون الموتى في لقطات مديدة للجماهير التي ترفض أن تتقبّل حقيقة الأمر الذي سبّبته البحرية الأميركية. وكانت الجرائد الغربية لا تكرم بالنشر إلّا صور الموتى اللطفاء الذين كان حظّهم أن يقتلوا دون تشويه وجوههم بالانفجار الذي أحدثه صاروخان مباشران أطلقتهما على الطائرة الفرقاطة الأميركية «فانسان». لقد كان ردّ فعلنا ـ نحن الغربيين ـ منتظراً: لم نقصد ذلك؛ لقد كان إسقاط تلك الطائرة خطأ؛ ولكنه خطأ إيران.

وإني ما أزال أذكر تماماً تلك المخابرة التلفونية من «التايمز». كنت أمضي عطلة في «إيرلندا»، خلال ذلك

الصيف الدافىء الساطع، وقضيت وقت الصباح في «دبلن» أتحدّث مع «جان كريغ»، المؤرّخ الذي سيكتب المجلّد الرابع من تاريخ «التايمز» من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٨١، تلك الفترة التي تسلّم فيها «مورداك» الجريدة. وعلى فنجان قهوة، سردت لكريغ قصّة السنوات الأربع التي كنت فيها مراسلاً للجريدة، انطلاقاً من إيرلندا الشمالية، وقصّة «مذكّرات هتلر» الشائنة؛ مع أن هذه الأخيرة لا تقع ضمن اهتمامات مجلّده الرابع. وكان «مورداك» منهمكاً ومرتبكاً بشأن تسلسل تلك الأوراق الخيالية الزائفة؛ ولا سيّما هذيان «الفوهرر» النازي بخصوص تشامبرلين، وبشأن خليلته «إيفا براون»، إلى آخره(*).

قال لي رئيس التحرير المناوب في لندن: «إني متأكد من أنك تعرف ماذا حدث. إن رئيس التحرير يريد أن يعرف متى ستذهب إلى الخليج، وبأية سرعة». إن كل مراسل يكره هذه اللحظة. ماذا «حدث»؟ لم أستمع إلى الأخبار ذلك الصباح. ويمكن أحياناً أن تخادع بإعطاء جواب مبهم، ثم تلجأ إلى أخبار الراديو لمعرفة ما يجب أن تعرفه. ولم تكن هذه مناسبة من تلك المناسبات، فقد جاء الصوت عبر الهاتف يقول: «لقد أسقط الأميركيون طائرة ركّاب إيرانية. فوق مياه الخليج؛ وكانت السفينة الأميركية التي أطلقت صاروخين حراريين على الطائرة هي «فانسان». يقولون إنها كانت غلطة». أجل، إنهم قد يقولون ذلك، أليس كذلك؟ أعني أن الأميركيين لن يقدروا أن يدّعوا أن الطائرة مكتظّة «بالإرهابيين»؛ أو ربّما يستطيعون. فقد سبق أن صرّح البنتاغون بأن ربّان الطائرة كان يحاول أن يرمي بطائرته على السفينة الحربية. وكان على قائد السفينة الأميركية أن يذهب إلى البحرين ليشرح كيف أطلق النار على طائرة مدنية.

كان هذا النوع من «المآسي» هو ما تنبّأت به في تقريري إلى «التايمز» الذي أرسلته من الخليج في شهر أيار/ مايو عام ١٩٨٧، إذ توقّعت أن تجزع سفينة حربية وتظنّ أن طائرة مدنية هي نفّاثة مهاجمة. وهذا بالضبط ما قاله لي الرائد البحري قائد السفينة الحربية «برود سوورد» عن تلك الليلة القائظة، عندما كان موظف الرادار يدقّق أرقام التلقّي فوق الخليج: «إذا أردتَ أن تتجنّب حرق ستّة من شيوخ القبائل في طائرتهم النفّاثة الخاصّة، عليك أن تكون بمنتهى الحذر».

(*) كان المؤرخ «هيو تريفور ـ روبر»، لورد «داكري»، قد سبق أن أفتى بضمان حقيقيّتها. وكنتُ أمرّ بالمكتب الأجنبي في لندن، في طريقي عائداً إلى بيروت، عندما بدأ جرس «رويتر» للإعلان يئز في غرفة الأسلاك، وصادر «إيفان بارنز» الرسالة، ثم جأر بصوت عالٍ عميق: «آها، إن المذكرات مزوّرة». فقد أعلنت حكومة ألمانيا الغربية أن تحليلاً قضائياً أكّد أن الوثائق كتبت بعد الحرب.
واقترح عليّ «إيفان» أن أذهب وأخبر «تشارلي»، إذ إنني أظن أن «مورداك» معه الآن. وأضاف «بارنز»، الذي يشك دائماً في مصداقية المذكرات مثلي، وقد افترّ ثغره عن ابتسامة ذئب: «أعلمني بردود فعلهما». سرت نحو مكتب التحرير حيث وجدت «تشارلس دوغلاس ـ هوم» وراء مكتبه، بينما يجلس على أريكة إلى يمينه «روبرت مورداك». فقال «تشارلي»: «كنا كلنا ننتظر تصريحاً من الحكومة الألمانية ذلك الصباح». فأجبته ناظراً إلى رئيس التحرير ومتجاهلاً صاحب الجريدة: «يقولون إنها مزوّرة». ونظر «تشارلي» إلى رئيسه مثلما فعلتُ. فقال «مورداك» مقهقهاً: «لا بأس، ها نحن، لم نغامر بشيء، ولم نربح شيئاً». فأخبرت «كريغ» بأن هذا يلخص السياسة الأميركية في الشرق الأوسط.

ولكنّ هذه الطائرة لم تكن طائرة خاصّة؛ بل كانت طائرة ركّاب مكتظّة فُجّرت في السماء. طرت إلى باريس مع «لارا مارلو»، التي ستكتب تقريراً قاسياً جداً «للإنترناشينال هيرالد تريبيون» حول المجزرة، ومع «هارفي موريس»، الذي أصبح الآن مع «الإندبندنت»، ووصلنا إلى مطار «رواسيّ ـ شارل دي غول» في شمالي باريس، حيث كان «هارفي» يوالي تدخين سجايره المعتادة، ويقول: «لقد علقوا، وسينالون جزاءهم»، دون أن يفصح عمّن هم: الأميركيون، أم الإيرانيون. وسنعرف ذلك عمّا قريب؛ إذ طرنا مع خطوط الإمارات إلى دُبي ـ أقرب مدينة غير إيرانية إلى موقع القتل الجماعي الجوّي.

استغرقت الرحلة ثماني ساعات؛ في الحرّ الخانق والاكتظاظ. وجلس أمامي مراسل لإذاعة لندن، وهو يكتب في دفتره بنشاط محموم. قال ما معناه إنه يكتب مسوّدة تقرير أول، بحيث يُتلى تقريره صباح اليوم التالي، بعد أن تصل طائرتنا إلى مطارها. فلم يكن بوسعي إلّا أن أسأله عن فحوى تقريره، ما دام لم يصل بعد إلى وجهته، ولم يقم بأيّ تحرٍّ عن الموضوع. فقال إنه يكتب «عن الخطر المتمثل في استعمال الإيرانيين لزوارق انتحارية ليثأروا من الأميركيين». ولكنه أقرّ بأنه اختلق التقرير وهو على متن الطائرة؛ وأخبرني بأنه سيكتب تقريراً آخر عن إمكان قيام الإيرانيين بمحاولة اغتيال قائد السفينة «فانسان». وعندما سألته عمّا إذا كان واجباً عليه أن يتساءل عن كفاءة الأميركيين البحرية؛ ردّ بقوله: «قد نجابه تحدّياً إذا قلنا ذلك». وكانت محرّكات الطائرة قد بدأت تدور. وهكذا جعل هذا المراسل الأميركيين الذين دمّروا طائرة الركاب ضحايا محتملين للمستقبل، وصيَّر الضحايا الحقيقيين ـ الذين قُتلوا فعلاً ـ معتدين.

وقد ذهبتُ حالما وصلتُ إلى دُبي شطر المراقبين البريطانيين لحركة الطيران، الذين طالما ساعدوني في تقصّي أنباء «حرب ناقلات البترول». لقد سمعوا الإذاعة فوق الخليج في ذلك الصباح الدامي وكانت قصّتهم مرعبة. أخبروني بأنه راعهم لأسابيع خلت قلّة تدرّب الموظفين الأميركيين وقلّة فعاليتهم في تحدّيهم للطائرات المدنية. فقد تكرّر تحدّي طواقم السفن الحربية الأميركية لربابنة الطائرات المدنية التي تسافر بانتظام على خطوطها فوق الخليج من الكويت، وبدت تلك السفن غير دارية بأنها تمخر اليمّ تحت خطوط السفر الجوّية.

ففي أحد الحوادث ـ المعروف لدى المراقبين، والمحجوب عن الصحافة ـ رست فرقاطة أميركية قرب شاطىء الإمارات، وتحدّت كلّ رحلة مدنية تقترب من مطار دُبي الدولي. فقام المراقب البريطاني المناوب في المطار بمخابرة السفارة الأميركية في «أبو ظبي»، وطلب من الدبلوماسيين الأميركيين جعل السفينة تخرج من موقعها لأنها تشكّل «خطراً على الطيران المدني». واشتكى ربابنة الطائرات المروحية العالمية قرب الشاطىء من تحدّي السفن الأميركية لهم، على تردّدات إذاعية خاطئة. وقد تسنّى للمراقبين في دُبي أن يسمعوا بعض شطور من المخاطبات البحرية الأميركية. وقد أخبرني أحدهم قائلاً بهدوء: «يا روبرت، علم الأميركيون فوراً بأنهم أصابوا طائرة ركّاب. وكانت هناك سفينة حربية أميركية أخرى قريبة ـ ورمزها هو (FFG-14). وقد أخبرتنا أن بعض أعضاء طاقمها رووا أنهم شاهدوا أناساً يهبطون بسرعة فائقة من أعالي السماء».

جلست خلف برج المراقبة في دُبي، أفكّر في هذا. أجل، قد يقع المسافرون من السماء هكذا، على نطاق واسع معاً في كُتل، أو قِطع، من علوّ شاهق مقداره عشرة آلاف قدم، كما يبدو. ويمكنني أن أتخيّل الوقع والوقوع على البحر، وانبجاس الماء، وأن يبقى بعض الركاب دون شكّ محتفظين بوعيهم طول مدّة السقوط. وبعد ثلاثة أيام، سأنظر إلى «فاطمة فايدازايدا» في مستودع الجثث «ببندر عباس»، وأدرك بفظاعة وقوعها حيَّة من أعالي السماء متشبثة بطفلها، وسقوطها في الماء تحت شمس الصيف الساطعة؛ بينما يتساقط حولها رفاقها في الطائرة، وبعض قِطع من الطائرة. وقد تمسّكت بطفلها عالمة ـ فهل كانت تعلم؟ ـ أنها لا بدّ هالكة.

وقد أرسلتُ مساء ذلك الأحد من دُبَي ثلاثة تقارير إلى «التايمز». وهي أطول ما كتبتُ عن سجلّ البحرية الأميركية في سوء تحديد هويّة الطائرات المدنية المسافرة فوق الخليج، والجزء الذي أصاب السفن الأميركية، والذي سمعه مراقبو الحركة الجوّية على الهواء. وقد ادَّعت السفينة «فانسان» أنها كانت تحت وقع هجوم من قِبل زوارق حرّاس الثورة، عندما قصفت الطائرة المنكوبة. ولكنني أعلم أن لدى السفن الحربية الأميركية توقيت الخطوط الجوية المدنية، في مراكز المعلومات عن القتال (CICs). ألم يكن لدى القائد «روجرز» وطاقمه وقت ليتفقّدوا الأمر في نسختهم عن التوقيت؟ لقد كانت الطائرة الإيرانية (IR 655) تطير من بندر عبّاس إلى دُبي يومياً. فلماذا استهدفها القصف بتاريخ ٣ تموز/ يوليو؟

وقد صرّح القائد «روجرز» نفسه أن عليه أن يعيش إلى الأبد محمِّلا ضميره عبء ما فعل. وقد نشر بعد أربع سنوات تقريره عن إسقاط طائرة «الإيرباص» الإيرانية(*). وشمل ذلك وصفاً حيّاً لهجوم على السفينة «فانسان» من قبل الزوارق الإيرانية. وكان الإشعار الأول بانطلاق طائرة من «بندر عباس» ـ ومن مطارها الحربي والمدني ـ قد أرسل رمزين للتلقّي، الأول يُستخدم لطائرة ركاب، والآخر هو رمز حربي معروف استعماله لطائرات (F-14) الإيرانية المحاربة. وكانت الطائرة أيضاً تحت مراقبة الفرقاطة الأميركية «سايدز» ذات الرمز (FFG-14) التي رأى طاقمها الأجساد تتساقط من السماء، بحسب رواية مراقبي الحركة الجوّية.

وقبل أن تصل طائرة «الإيرباص» إلى بُعد ٤٠ كيلومتراً عن سفينته الحربية، كان «روجرز» قد أرسل تحذيراً بصيغة عادية ـ ولكنه موجّه إلى طائرة مقاتلة: «إلى الطائرة العراقية... المقاتلة السائرة على خط اثنين ـ واحد ـ واحد، بسرعة ٣٦٠ عقدة، وعلو ٩٠٠٠ قدم. هذه سفينة حربية أميركية، بارتكاز اثنين ـ صفر ـ اثنين، تطلب تغيير سيركم فوراً إلى اثنين ـ سبعة ـ صفر، وإذا حافظتم على سيركم الحالي فأنتم تقعون في موضع الخطر، وتتعرّضون لتدابير دفاعية من قبل البحرية الأميركية...» ويقول «روجرز» إنه طلب توضيحاً آخر من الطائرة على بعد ٢٥ كيلومتراً من سفينته. وعند الساعة ٩,٥٤ و٢٢ ثانية صباحاً، أطلق صاروخيه اللذين انفجرا بعد ٢١ ثانية

(*) بعنوان: «مركز العاصفة: «السفينة الأميركية «فانسان» ورحلة الطائرة الإيرانية ٦٥٥». تأليف «روجرز» وزوجته شارون، من منشورات المعهد البحري في «أنابوليس». وقد أصبح هذا التقرير فيما بعد موضع مناظرات ضارية بين ضباط آخرين في البحرية الأميركية، بمن فيهم قائد السفينة «سايدز».

في الطائرة النفّاثة «رضايان» التي لم تعد تظهر على شاشة الرادار في السفينة «فانسان». وقد قدّم طاقم السفينة تقريراً يفيد بأنه رأى لمعان انفجار الصاروخين عبر السراب، بحسب ما كتبه «روجرز». و«علا هتاف تلقائي من الرجال الذين تنفّسوا الصعداء». ولكن طاقم سفينة أميركية أخرى رأوا بعد لحظات جناحاً كبيراً من طائرة تجارية مع حُجيرة محرّك متعلّقة به يهويان إلى البحر.

وقد أظهر استقصاء جرى فيما بعد من قِبل «مركز معلومات المعارك» في السفينة «سايدز»، أن رمز «الإيرباص» هو رمز طائرة تجارية، في الوقت ذاته الذي أطلق النار فيه «روجرز». وقد علّق على ذلك قائد السفينة «سايدز» «دايفيد كارلسون» بقوله إن تدمير الطائرة الإيرانية «دلّ على قمّة ما وصل إليه القائد «روجرز» في عدوانيّته، التي ظهرت لأوّل مرّة منذ أربعة أسابيع». فبتاريخ ٢ حزيران/ يونيو اضطرب اثنان من زملاء «روجرز» لأنه مخر بسفينته قرب فرقاطة إيرانية كانت تنفّذ خطة مشروعة وإنما لا سابقة لها للعثور على ناقلة شحنة من الموادّ الحربية المرسلة إلى العراق. ويوم قصفت «فانسان» طائرة «الإيرباص» الإيرانية، أرسل «روجرز» مروحية تطير على بعد ميلين أو ثلاثة أميال فقط من مركب إيراني صغير ـ مع أن القواعد تنصّ على أن تكون المروحية على بعد لا يقلّ عن أربعة أميال ـ وتعرّضت المروحية للقصف، بحسب قولهم، وبدأ «روجرز» يطلق النار على بعض القوارب العسكرية الصغيرة الإيرانية؛ مما أزعج قائد سفينة «سايدز» «دايفيد كارلسون»، إذ صرّح في مقابلة مع أحد الضباط البحريين السابقين قائلاً: «لماذا تريد أن يقوم طرّاد درعي يحمي السفن الأخرى بإطلاق النار على القوارب الصغيرة؟ ـ إن ذلك ليس من البراعة في شيء. لقد كان القائد يؤزّم الحالة دون أن تكون لديه خطة...». وقد فتح «روجزر» النار إثر ذلك على قوارب إيرانية ضمن مياهها الإقليمية. مع العلم أن السفينة «فانسان» كانت قد لُقّبت سابقاً باسم «روبوكروزر»، من قبل طاقم السفينة «سايدز».

عندما سمع «كارلسون» لأول مرّة «روجرز» يعلن لرؤسائه عزمه على إسقاط الطائرة التي تقترب من طرّاده، صُعق وقال: «قلتُ لمن حولي: لماذا؟ وماذا يفعل بحقّ الله؟ وعدت إلى التمرين ذاته. طائرة (F-14). إنه يصعد. وصار الآن على علوّ ٧٠٠٠ قدم...» لكن «كارلسون» ظنّ إن السفينة «فانسان» لديها معلومات أكثر ـ ولم يعرف أنهم قالوا لـ «روجرز» خطأ أن تلك الطائرة تهبط. وأسف «كارلسون» لأنه لم يوقف «روجرز». وعندما أدرك رجاله أن الطائرة تجارية «ارتعبوا». وقد بيَّن التقرير الرسمي الأميركي فيما بعد أن معلومات الحاسوب والاستخبارات التي يعتمد عليها، أكّدا أن طائرة القائد «رضايان» كانت على خطّ السير التجاري... وعلى صعود مستمرّ منذ انطلاقها من «بندر عبّاس». وقد قامت مجلّة «نيوزويك» باستقصائها الخاصّ بها، ونعتت التقرير الرسمي بأنه «تلفيق واهٍ، وأنصاف حقائق وخُدع سافرة. ووضعت صورة مثيرة لقائد متلهّف للفتك، وطاقم مرعوب، وللرغبة في تغطية الحقائق...» وجاء في تقرير «نيوزويك» أن الكتب كانت تنزلق عن الرفوف في مركز المعلومات في السفينة «فانسان» خلال مناوراتها قبل إطلاق الصاروخين. فلم تكن هناك والحالة هذه أيّة فرصة لمراجعة توقيت خطوط الطيران.

ولكن في أعقاب المجزرة مباشرة، التزم الأميركيون بقصّة البراءة التامّة. وقد ظهر «بوش» نائب رئيس

الولايات المتحدة أمام مجلس الأمن بالأمم المتحدة، ليقول إن السفينة «فانسان» كانت تُسرع لمساعدة سفينة تجارية تتعرّض لهجوم إيراني ـ ممّا كان خبراً عارياً عن الصحّة. أما مرغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا فقد وصفت تدمير طائرة «الإيرباص» الإيرانية بأنه أمر «يمكن أن نتفهّمه». فهل يمكن لتاتشر «أن تتفهّم» إسقاط الإيرانيين لطائرة بريطانية تجارية فوق الخليج والادّعاء بكون الحادث «غلطة»، وأن القائد ظنّ أنه كان تحت وطأة هجوم طائرة نفّاثة أميركية؟ ومن مفاتيح الحادث أن الأميركيين يدّعون أنهم أرسلوا إلى القائد «رضايان» تحذيراً على الموجات العسكرية والمدنية. فهل سمع القائد «رضايان» هذه التحذيرات؟ وإذا لم يسمع، فلماذا لم يسمع؟

وكانت إثباتات تدمير الطائرة منشورة أمام الصحافيين على أرض معرض أمام القيادة البحرية الإيرانية في «بندر عبّاس». ومنها: غطاء محرّك الطائرة، وأجنحة، وقِطع مفصولة، ومثلومة ومحروقة بشظايا معدنية؛ وكتلة ضخمة من رفرف الجناح معوّجة مع فجوة كبيرة في وسطها يبلغ طولها ١٢ سم؛ وجزء من جدار مقصورة الركّاب بحجم ثلاثة أمتار مربّعة، اخترقته الشظايا المعدنية. وقد رأيتُ حروقاً قرمزية وحمراء على جسم بعض الجثث، مما يدلّ على أن هؤلاء كانوا جالسين في وسط الطائرة فوق المحرّكين اللذين جذبا بحرارتهما الصاروخين. وقرب هذا الحُطام، عُرض أيضاً المخروط الأمامي للطائرة، ومزالق النجاة، وأنظمة الكهرباء والأوكسجين. لقد كانت تلك الانفجارات كارثية.

بعد ثلاثة أيام من تدمير طائرة «الإيرباص»، طرت عائداً من «بندر عباس» إلى «دُبي» على متن أول طائرة إيرانية تعاود الطيران على تلك الخطوط. وكان رقم الرحلة طبعاً (IR655). جلست في مقصورة القائد في النفّاثة (بوينغ ٧٠٧)، الذي كان ملّاحاً مساعداً للقائد المرحوم «رضايان». إنه القائد «ناصر» الذي كان يطير مع القائد «رضايان» طيلة الأيام الماضية، ما عدا الأسابيع الستّة الأخيرة، عندما نُقل إلى قسم «البوينغ» ـ مما أنقذ حياته ـ وقد سجّل النقطة التي أصيبت عندها طائرة «رضايان»، وأصرّ على القول بأنّ صديقه كان دائماً يردّ على تحدّيات البحرية الأميركية في الخليج. قال: «لقد كان رجلاً حسّاساً وكفؤاً في مهنته، لا يخطىء أو يلاعب الأميركيين، إن ما فعله الأميركيون هو أمر بمنتهى القسوة ـ لا بدّ أن يكون قد أصابهم خوف شديد». أما قولهم بأن الطائرة كانت تقوم بمهمّة انتحارية «فهو قول يثير القرف والاشمئزاز». مع العلم أن «رضايان» طار على هذا الخط في السابق ما لا يقلّ عن ٢٥ مرّة، وكان ربّاناً «للإيرباص» خلال سنتين ونصف السنة. فماذا حدث فعلاً صباح ذلك الأحد المشؤوم؟

ولم يكن من العسير اكتشاف الجواب عن هذا السؤال. فالقائد «أسدابور»، كان عليه أن يتواصل باستمرار مع ثلاثة مراكز لضبط الملاحة الجوّية: طهران، وبندر عبّاس، ودُبي؛ وهو ما فعله بلغة إنكليزية طلقة. وعندما يتكلّم معهم لا يمكنه أن يرسل أو يتلقّى أيّة رسالة على موجة الراديو ١٢١٥ المدنية التي كانت مرتكز طائرتنا «البوينغ» ـ وهي الموجة ذاتها التي أرسلت سفينة «فانسان» عليها تحذيرها للقائد «رضايان». وعندما ارتفع «رضايان» بطائرته من علوّ ١٢٠٠٠ قدم إلى ١٤٠٠٠ قدم ـ ولم ينزل «بطريقة هجومية» كما ادّعى الأميركيون مبدئياً ـ كان يتكلّم طبعاً مع مطار «بندر عبّاس» على بعد ٥٠ كيلومتراً من السفينة الحربية، وإذ ذاك نسف الصاروخ الأميركي الأول جناح

الطائرة الأيسر. وقد أخبرتني المراقبة الأرضية في «بندر عبّاس» أن آخر رسالة بعث بها «رضايان» كانت: «نحن نرتفع إلى علوّ ١٤٠٠٠ قدم». فإذا لم يتمكن «رضايان» من سماع الأميركيين على موجته المدنية، فهو لم يكن أيضاً قادراً على سماعهم على الشبكة العسكرية. ولم تكن رسالتهم سوى تحدٍّ لطائرة حربية من طراز (F-14) غير موجودة، تكاد تُطبق على الطرّاد الأميركي.

ثم كان هناك أيضاً سرّ التلقّي (Transponder). فعلى طائرتنا الإيرانية يلمع ضوء أخضر قرب ركبة الربّان اليسرى. مما يدلّ على أنه يرسل تحديد هويّة في الظلام الدامس فوق الخليج. فأيّة سفينة موجودة تحتنا تمخر في ضوء القمر، تعرف من نحن. وقد أخبر «أسدابور» مراقبة دُبي تكراراً ـ لفائدة جميع المستمعين ـ أننا في رحلة (IR655)، و«معنا ٤٤ شخصاً في الطائرة». ولو كان جهاز الإرسال والاستقبال غير شغّال لكان الضوء الأخضر قد انطفأ. وأكد «أسدابور» أنه لا ينطلق أبداً قبل أن يتأكّد من حصول هذا التدقيق. وقد أخبرني «حسين بيروزي»، المراقب الأرضي ومدير مطار «بندر عبّاس» بتاريخ ٣ تموز/يوليو، أنه يفترض أن جهاز الإرسال والاستقبال لدى «رضايان» كان يعمل. ولا يعقل أن يكون «رضايان» قد انطلق قبل أن يتأكد من لمعان ذلك الضوء الأخضر المطمئن. وكان «بيروزي» رجلاً في منتصف العمر، له شارب أسمر حاذق، وشعر أجعد؛ تلقّى تدريبه الكامل في مراقبة الملاحة الجوّية في مطار «هيثرو» بلندن. قال إنه لم يعلم بوجود أيّ اشتباك بحري يجري عند انطلاق «رضايان» بطائرته. كما اكتشفنا فيما بعد أنه لم تكن هناك أية معركة قائمة عند وقت الانطلاق. قال «بيروزي»: «يذيع الأميركيون تحذيرات في كلّ مرّة يرون فيها زورقاً مسرعاً ـ ويتّخذون وضع «التأهّب الأحمر» عندما يرون كلّ طائرة. ليس لهم الحقّ أن يكونوا في الخليج، وأن يتحدّوا حقنا الشرعي في أن نطير على خطوطنا الجوّية ـ ولماذا علينا أن نردّ عليهم؟».

كان تعليقه مُفحماً. وحتى لو كان الافتراض السعيد «لبيروزي»، القائل إن الأميركيين لن يطلقوا النار أبداً على طائرة «إيرباص»، قد اتُّخذ قاعدة لسياسة الملاحة الجوّية، لكان من اليسير فهم الهلع الذي انتاب الطواقم البحرية الأميركية، المعبّئين نفسيّاً ضدّ ذلك البلد الذي حمّله رئيس جمهوريتهم مسؤولية حرب الخليج، بحيث أطلقوا النار على أول طائرة اقتربت من سفينتهم، بعدما ورّطوا أنفسهم في قتال مع مركب حراسة إيراني صغير.

فهل كان ذلك جزعاً وهلعاً، كما ارتأت مجلّة «نيوزويك» بعد أربع سنوات، جعل ضبّاط السفينة «فانسان» يسيئون قراءة المعلومات التي بدت على شاشات رادارهم، ورؤية طائرة هابطة عليهم؛ بينما كانت في الواقع ترتفع؛ فضلاً عن الحرّ الخانق الذي يكتنف أجسام وطاقات الطواقم البحريّة التي تعمل فوق مياه الخليج؟ وعلاوة على ذلك، ألم تكن إيران آنذاك هي العدوّ؟ ألم تكن «دولة إرهابية» ألم تكن بحسب كلمات «ريغان» «بلداً بربرياً»؟ ألم يكن القائد «رضايان» وركّابه المسافرون فوق الخليج غريبين عنهم؟ ألم تكن هناك فجوة ثقافية ووجدانية تفصل بين أميركا وإيران، بل هوّة عميقة وخطرة، نسف تيّارها الصاعد طائرة «إيرباص» إيرانية في الجو؟

لا شيء يمكن أن يوضح ما حدث ويثير مزيداً من الألم سوى ردّ الفعل الأميركي على قتل ٢٩٠ مدنياً بريئاً

بواسطة السفينة الحربية «فانسان». فقد تطوّع سكّان مدينة «فانسان» في ولاية إنديانا، للقيام بحملة تبرّع لإقامة نصب تذكاري ـ لا للضحايا الإيرانيين، بل للسفينة التي سلبتهم حياتهم(*). وعندما عادت السفينة «فانسان» إلى قاعدتها الوطنية في «سان دياغو»، استقبلوها استقبال الأبطال؛ وأُعطي رجالها أوسمة تقدير للعمل القتالي. وقد نال منسّق العمل الحربي الجوّي الضابط «سكوت لستيغ» مدالية الإطراء البحرية، «لإنجازه البطولي»، و«لمحافظته على رباطة جأشه وثقته بنفسه تحت وطأة إطلاق النار» التي مكّنته من «إتمام إطلاق النار بسرعة واختصار»؛ حتى أن مجلة «نيوزويك» اضطرّت إلى وصف ذلك «بالسوريالية». وقد تقاعد «روجرز» بشرفه العسكري عام ١٩٩١. وبعد أقلّ من سنة على إسقاط طائرة «الإيرباص» تعرّضت زوجته «شارون» لانفجار تحت سيّارتها «التويوتا» في «سان دياغو»؛ ولكنها لم تُصب بأذى. وكتب «روجرز» أن واسطة العقد في كتابه كانت «أحداث ٣ تموز/ يوليو ١٩٨٨ و١٠ آذار/ مارس ١٩٨٩ ـ وكأنَّ حمّام الدم الذي حصل فوق الخليج والمحاولة الفاشلة لعقاب زوجته، كانا متعادلين؛ وهي الفكرة التي عُرضت على غلاف الكتاب، حيث وصف محتواه بأنه «تقرير شخصي عن المأساة والإرهاب».

ولكن، من العدل أن نذكر لـ «روجرز» أنه ضمَّن كتابه رسالة طويلة مريرة كُتبت بخط اليد، أرسلها إليه «حسين» شقيق القائد «رضايان»، ويقول فيها:

«لقد تحوّل أخي إلى رماد في الفضاء بفعل سدّ النيران الذي أقامه هجومكم بالصواريخ، واندثر مع عدد كبير من الأرواح البريئة التي كانت على متن الطائرة، دون أن يرتكبوا أقلّ خطيئة أو إثم من أيّ نوع كان.

«كنتُ في منطقة المجزرة ثاني يوم حدوثها؛ ولسوء الحظ شاهدت نتيجة جريمتكم البربرية، وضخامتها. لقد كنت أنا أيضاً قائداً بحرياً؛ ودرستُ في الولايات المتحدة الأميركية، مثل المرحوم أخي. ولكن منذ إسقاط الطائرة الذي لا يعقل، شعرت حقاً بخجل من نفسي. كرهت بحرّيتكم وبحريّتنا؛ حتى أني تركت وظيفتي ودمَّرت مستقبلي... ومستقبل عائلتي... وربما استطعت أن أتحمل ألم المأساة، لو مات أخي (محسن) في حادث، ولكن هذا الأمر المدبَّر والمفتعل لا يُغتفر ولا يُنسى... والحكومة الأميركية بصفتها المجرمة في هذا الحادث المريع، لم تظهر أي تأنيب للضمير، أو أيّ تعاطف مع فقدان هذه الأرواح البريئة... ألا نستحقّ أيّة بادرة صغيرة من العطف؟ وهل كان عليكم أن تتفوّهوا بجملة من الأكاذيب والتصريحات المتناقضة حول الحادث من أجل تبرير وقوعه؟... أو أنه كان نتيجة هلع وقلّة خبرة. إني أقدّر لكم إجابتكم العاجلة عن هذه الرسالة».

(*) أطلق اسم «فانسان» (Vincennes) تيمّناً باسم المدينة الأميركية المشار إليها في القطاع الجنوبي ـ الغربي من الولايات المتحدة الأميركية، حيث توجد قلعة بناها الفرنسيون، واستولت عليها القوات الأميركية بقيادة «جورج روجرز كلارك»، عام ١٧٧٩. أما السفينة «ستارك» السيّئة الحظ، فحملت اسم اللواء «جان ستارك»، الذي قاتل في «بنكر هيل» عام ١٧٧٥.

وقد أحسن «روجرز» بإعطاء هذه الرسالة موقعاً بارزاً في كتابه. وكتب يقول: «بالرغم من النقد العنيف الساخر البادي في هذه الرسالة، ألمّ بي الألم والحزن المتفجران من هذه الرسالة، وضرباني بقسوة. فكل الحزن والهمّ اللذين انتاباني منذ تموز/ يوليو عادا إليّ بقوة». وقد أراد «روجرز» أن يجيب عن الرسالة، لكن ضابط العلاقات العامّة في البحرية الأميركية حذّره من أن تستخدم الحكومة الإيرانية المراسلة الجوابية «لغايات سياسية». وهكذا بقي الإيرانيون هم الأشرار. وسُلِّمت رسالة «حسين رضايان» إلى قسم الاستخبارات في البحرية الأميركية؛ ولعلّهم قرأوها.

لم يكن هناك من فائدة كبرى تُجنى من قراءة تقريري الأول عن المجزرة. ولكن، كنتُ أثق إلى حدٍّ كبير برؤساء التحرير الذين أتعاطى معهم؛ فجريدة مثل «التايمز» احترمت مراسلتي لها خلال ١٨ عاماً بشأن: الجيش البريطاني في إيرلندا الشمالية، والإسرائيليين والفلسطينيين، والسلطات الأميركية والإيرانيين والعراقيين عندما كانوا يشتكون من تقاريري. وعندما كانت تقاريري تُجتزأ، كان يحصل ذلك لأسباب وجيهة مثل تدبير مكان لها في الجريدة ـ فقد كانوا يسمحون لي باختصارها ـ أو تغيير موقعها في الجريدة، نظراً لوصول أخبار عاجلة تقضي بتغيير موقع الصفحات، ولكنهم لم يجتزئوا منها أبداً لأسباب سياسية.

اشترى «مورداك» جريدة «التايمز» قبل أن يغزو الإسرائيليون لبنان عام ١٩٨٢؛ ولكنّني قدّمت تقاريري دون أيّة مراقبة عليها ذاكراً أن إسرائيل قتلت حوالى ١٧٠٠٠ شخص من اللبنانيين والفلسطينيين ـ ومعظمهم من المدنيين ـ وما تبع ذلك من مذبحة مئات من اللاجئين الفلسطينيين بواسطة حلفاء إسرائيل المسيحيين، وقد أدانت السفارة الإسرائيلية تقاريري، كما أدانت أيّة تقارير صحافية أخرى تجرّأت على ذكر أن الجيش الإسرائيلي غير المنضبط قتل المدنيين كما قتل العسكر. إنما لم يحدث أن تغيّر ما كتبه أيّ مراسل أجنبي، بسبب الخوف أو التحيُّز، تحت قيادة رئيس التحرير «تشارلس دوغلاس هوم». وكان نائبه «تشارلس ويلسون» رجلاً صلب العود من البحرية الملكية؛ وقد يتنمّر، لكنه لم يلطّف كلامه بخصوص إسرائيل أو أيّة دولة أخرى تحاول أن تطعن في استقامة صحافيي الجريدة. وعندما أخبرته أن التصريح الإسرائيلي الذي يدين تقاريري كان محشوّاً بأخطاء في الوقائع، زمجر قائلاً: «يا لهم من زمرة من الفاشيين».

على أن الإسرائيليين ليسوا فاشيين؛ ولكنه أمر جيّد أن لا يخاف نائب رئيس التحرير من مناوئي المراسل. وقد صار «ويلسون» رئيساً للتحرير بعد وفاة «دوغلاس هوم» بالسرطان؛ وبقي متنمّراً، لكنه كان يمكن أيضاً أن يكون بمنتهى اللطف؛ ولاسيّما إزاء الموظفين الذين أصابهم مرض؛ فقد كان درعاً من القوة والتعاطف معهم. لقد أراد أن يكون محبوباً. وكان كريماً جدّاً معي عندما احتجت لأسباب شخصية إلى أن أعمل سنة في باريس. ولكن، حصل بعد ظهر أحد الأيام أن أرسلتُ تقريراً طويلاً ومفصّلاً، يستقصي أحوال التعذيب الذي تقوم به إسرائيل في سجن «الخيام» بجنوبي لبنان. ولم يمضِ على إرسال التقرير ساعة، حتى تلقّيت من مكتب الصحيفة الأجنبي تلكساً يطلب مني أن أوافق على زيادة فقرة إلى التقرير بمعنى أن المزاعم حول مثل هذا التعذيب ـ

بالضرب ومسّ أعضاء التناسل بالكهرباء ـ هي أمور معتادة في الدعاية التي يقوم بها أعداء إسرائيل. فاعترضت؛ إذ كانت لديّ إثباتات من الأمم المتحدة تدعم استقصائي ـ وقد تأكد كل ذلك في تقرير مفحم نشرته لجنة العفو الدولية. وفي آخر المطاف، أدخلتُ في تقريري المذكور فقرة ساندت فحوى التقرير تقول: لنستخدم مثل هذا المزاعم ضدّ إسرائيل، ولكن في هذه المرّة لا شك في أن هذه الاتهامات صادقة.

ربحت هذه الجولة، ولم أعد أفكّر فيها. ثم ظهر مقال على الصفحة الوسطى من «التايمز»، التي تُحجز في العادة للتعليق والتحليل. وادَّعى أنه يشرح الصعوبات التي تعترض كتابة التقارير الصحفية في الشرق الأوسط ـ على أساس التخويف الذي يلقاه الصحافيون من «الإرهابيين» ـ ثم ينتهي المقال معمّماً بأنّ كل من يكتب تقاريره من بيروت هو طفيلي مبتزّ. وكنتُ أنا أكتب تقاريري من بيروت؛ حيث مقرّي كمراسل من الشرق الأوسط ـ وبخاصّة لجريدة «التايمز» ذاتها. فما معنى ذلك؟ ـ تجنّب قسم الجريدة الأجنبي هذا الإحراج بالضحك. ولكني ثم أضحك؛ بل تساءلتُ هل كان «ويلسون» يحاول أن «يعادل» مقالاتي بالسماح لأعداء النقل الصادق للأخبار أن يسيئوا معاملتي في الجريدة؟ كلّا، إن ذلك مستحيل. أنا لا أؤمن بالمؤامرات. كما كنتُ أعلم أن «ويلسون» لا يقرأ الصفحة الوسطى من الجريدة.

ولكن القضية أصبحت أكثر جدِّية بتاريخ ٤ تموز/ يوليو ١٩٨٨، عندما اكتشفت أن تقريري الرئيسي «للتايمز» ـ الذي طُلب مني كتابته للصفحة الأولى ـ لم يظهر في عدد الجريدة لليوم التالي. لقد أزالوا من النشر كل الاستقصاءات التي قمتُ بها عن هلع طواقم السفن الحربية الأميركية وقلّة فعاليتهم في الخليج، وكل البراهين على أن الموظفين الأميركيين عرَّضوا الطائرات المدنية للخطر طوال أسابيع ـ ولا سيّما المحادثات الطويلة والمفصَّلة التي عقدتها مع مراقبي الملاحة الجوية في دُبي، أولئك الذين سمعوا المخاطبات بين ضبّاط البحرية الأميركية، عندما كانت السفينة «فانسان» تُسقط طائرة «الإيرباص» الإيرانية. ولو كان هناك شكّ في مصداقية تقريري، لأثيرت القضية معي ذلك المساء عندما قدّمتُ تقريري. ولكن لم يكن هناك سوى الصمت المطبق. كما أنه كان هناك أيضاً تقريران عاديّان حول ردّ الفعل الإيراني على تدمير الطائرة وإمكان الاقتصاص من الأميركيين ـ نُشرا في وسط الصحيفة.

وفي صباح اليوم التالي، تكلّمت مع «بيرز أكرمان» في مكتب الصحيفة الأجنبي، فأخبرني أن قصّتي أُلغيت في الطبعة الأولى لعدم توافر مكان لها، ولكن صيغتها المختصرة التي أعيدت للنشر تضمّنت «النقط الرئيسة». وعندما سألت عن إمكان حصول هذا الاجتزاء لأسباب سياسية، قال: و«ربّي، لو عرفتُ أن الأمور وصلت إلى هذا الحدّ، لاستقلت». فأعلمته أيضاً أنه لو رشح لي أن الاجتزاء كان سياسياً، لاستقلت»: لم تصل جريدة «التايمز» إلى الخليج إلّا بعد أيام، وكنتُ قد سافرت إلى إيران، فلذلك لم أقرأ تلك الجريدة خلال عدّة أيام. وعندما رأيت النشرات اللاحقة وجدت أن كل عنصر ذكرته في قصتي مما ينعكس سلبياً على الأميركيين قد أُزيل.

لا يجدر أن يكون الصحافيون تحت الأضواء، مثل المغنّيات الأوليات في الأوبرا؛ إذ علينا أن نجاهد لنثبت

قيمة عملنا. ولا يعمل رؤساء التحرير ولا القرّاء لصالح الصحافيين. ولكنّ هناك شيئاً غير أخلاقي في هذا الأمر: فقد جرت مراقبة، وتلطيف، وتغيير لمقالي عن إسقاط طائرة «الإيرباص» الإيرانية، بكل معنى الكلمة. لقد غُيّرت معانيه عن طريق الحذف. فأصبح الأميركيون في تقريري المجتزأ أبرياء بالتأكيد، مثلما ظهروا معذورين تماماً في تصريح السيدة «تاتشر». شعرت حينئذ أن هذا الأمر حدث بسبب ملكية «مورداك» لجريدة «التايمز». لم أعتقد أنه متورّط شخصياً في القصص الفردية التي تُنشر في الجريدة ـ مع أن هذا يمكن أن يحصل ـ بل لأن ملكيّته بثّت ثقافة طاعة ومطاوعة في أعمال الجريدة كافّة، على أساس الشعور بأن وجهات نظر «مورداك» ـ وما يريده «مورداك» ـ هي شؤون «معروفة».

وما صعقني هو أن يكون الموظف في قسم الجريدة الأجنبي الذي كان شديد الحماس لإدخال فقرة «الدعاية» إلى مقالي عن التعذيب في سجن «الخيام»، عضواً يسارياً في «اتحاد الصحافيين القومي» ـ ذلك الاتحاد الذي بذل جهده لإضعاف ثقة «اللورد ثومسون» في جريدته «التايمز»، ولتوضيب الجريدة وتهيئتها ليشتريها «مورداك». فقد انقلب أسد اشتراكي إلى فأرة لشركة الأخبار (News Corp). إني لست أسداً ولا فأرة، ولكنني كلب شديد المراس؛ وعندما أُمسك بحبل بين أسناني، لا أرخيه إلّا بعد أن أهزّه وأشدّه كشيء نتن، حتى أرى ما يكمن فيه عند طرفه الآخر. وهذا في نهاية الأمر ما يفترض في الصحافيين أن يقوموا به. ولكن استفساراتي اللاحقة من مكتب القسم الأجنبي في الصحيفة، لم تُسفر عن أيّة معلومات. فالمحرّر المطاوع «جورج بروك» الذي يعاون «ويلسون» لا يكون متاحاً لي أن أودعه ملاحظاتي؛ بينما «ويلسون» يقضي إجازته؛ والموظفون البديلون لا يداومون ليلاً عندما أتلفن. وهكذا مضت أيام على تقديم تقريري الأصلي المشار إليه؛ ولكني لم أترك القضية. فاقتطاع أو «تشذيب» أجزاء من مقال لعدم توافر مكان له في الجريدة هو أمر وتعريض حياة الصحافي للخطر ليجد على الأثر أن الناشرين ليست لديهم الشجاعة اللازمة لنشر التقرير، هو أمر آخر. وهكذا حدث لي في الخليج وفي صيفه اللاهب، أن فقدت إيماني بجريدة «التايمز».

قرّرتُ أن أنضمّ إلى هيئة جريدة هشّة، ذكية، شجاعة، وقليلة التمويل؛ ولكنها حرّة مستقلّة ـ وهي بالطبع ـ جريدة «الإندبندنت» (The Independent)، أي «المستقلّة». وستمرّ شهور قبل أن أُقنع «أندرياس ويثام سميث»، رئيس تحريرها والمالك لها جزئياً، أن يضمني إلى فريقه، أو يقوم «بتوزيع» الحصص المقنّنة، بحسب تعبيره. وهكذا استغرق الأمر حوالى سنة، حتى صرتُ أكتب من الشرق الأوسط لرئيس تحرير جديد، ولجريدة جديدة، ولزملاء جدد ـ مع العلم أن كثيراً منهم رفاق لاجئون جاؤوا من جريدة «التايمز».

ولم أعرف أنني بذّلتُ ولائي لأسباب وجيهة، إلّا بعد أن قدّمت استقالتي إلى «ويلسون» في جريدة «التايمز». فبعد حلول العام الجديد ١٩٨٨، تلقّيت مخابرة من أحد المحرّرين الليليين الأعلى مقاماً في الجريدة، الذي أراد أن يحدّثني عن قصّة «فانسان» بقوله:

«نصحتُ رئيس التحرير في اجتماع يوم الأحد المعقود عند الساعة الخامسة بعد الظهر بأن نُفسح

لمقالك نشراً عريضاً في مطلع الصفحة الأولى على ثمانية أعمدة. فقال «ويلسون» إنه يريد أن يطّلع على القصّة، التي كانت تدور حول قلّة كفاءة طقم العاملين في السفينة «فانسان». قرأته وقلتُ لنفسي: هذه أوضح قصّة قرأتها حتى الآن حول ما حدث فعلاً. وقد واجهت رئيس التحرير فيما بعد على المقعد الخلفي. فسألني «ويلسون»: «هل هذه هي القصة التي تتكلّم عنها؟» قلت: نعم. قال: «ليس فيها شيء؛ ليس فيها أيّة واقعة؛ إني لا أنشر مثل هذا الكلام الغامض». ووصفها «ويلسون» بألقاب مثل: (Hollocks) والبسكوتة الهشّة. وأذكر أني قلت لتشارلي: «هل أنت متأكد؟ إنها قصّة هائلة». لقد صُدمتُ. نظرت في مفكّرتي ليلة ٣ تموز/ يوليو فوجدت ما يلي: «مجزرة، فوضى في قصة الخليج. بروك يكتب مجدّداً إلى فيسك».

لم يظهر المقال في النشرة الأولى، لكن القصّة ظهرت في النشرة الثانية بعد أن أُزيلت منها كل الإشارات إلى قلّة الكفاءة الأميركية. راجعتها على الشاشة، فوجدت أن «جورج بروك» هو الذي دقّق في أمر نشرها. وقد حذف منها كل تلك الإشارات. وقد كتب على رأس المقال ملاحظة تقول «لا يجوز معاودة نشر الأجزاء المقتطعة من هذه القصّة، في أيّ حال من الأحوال». أردتُ أن أستقيل. ولكني راجعت نفسي بهذا الشأن، ولم أستقل. ربما كان عليّ أن أستقيل. أخبرت «دنيس تايلور» عن هذا الأمر في القسم؛ فاشمئزّ. وعلم جميع الأعضاء العاملين في قسم الصحيفة الأجنبي بالأمر. ولكن، لم يفعلوا شيئاً بهذا الخصوص. لقد خافوا. ولم يخبرك أحد بهذا. فقلت لنفسي: ربما كان أفضل للجريدة أن لا يعلم بوب (أي روبرت) بهذا الأمر. خفتُ أن تستقيل إذا علمتَ بذلك».

وفي اليوم الذي قدّمتُ فيه أول قصّة لي عن السفينة «فانسان»، تكلّمت مع «بيرز أكرمان»، وطلبت منه أن يُعلم الكتاب الأساسيين في الجريدة بنصيحتي القائلة إنه مهما كان ردّ فعل رؤساء التحرير على الكارثة، يجدر بنا أن لا ننساق مع التوجّه القائل بأن «محسن رضايان» كان ربّاناً ينوي الانتحار، الأمر الذي هو هُراء. وقال لي «أكرمان» إنه بلّغهم نصيحتي. ولكنّ المقال الافتتاحي عاد يقول إن الطائرة ربّما كانت تحت إمرة ربّان «انتحاري». وكان ذلك عارياً عن الصحّة تماماً. وهكذا تشوّه جوهر قصتي، حالما جرى تشذيبها المنشور في الصحيفة ذلك الصباح ذاته. فقد قُدّمت لقرّاء «التايمز» بجلال ومهابة صيغة احتيالية، خادعة، مغشوشة عن الحقيقة.

قلّما تُقدَّم للصحافي ترضية معقولة، عندما لا تنشر الصحيفة التي يكتب فيها القصّة الحقيقية. ولكن «فنسنت براوني» رئيس التحرير العنيد «للصنداي تريبيون» في «دبلن»، وهو صديق وزميل قديم لي من إيرلندا الشمالية، لم يخشَ قول الحقيقة عمّا يجري في الخليج، كما فعل «ويلسون». فقد دعاني لأن أكتب لصحيفته ثمار استقصاءاتي. ونشرها على الصفحة الأولى لجريدته، مع صورة شغلت نصف الصفحة لطرّاد أميركي مدرَّع يُطلق صاروخاً إلى السماء، مع تضمين الصورة هذا العنوان: «ماذا حدث فعلاً؟»، مع مقالي على كامل تلك الصفحة. وهكذا سمح سكّان منطقة (County Mayo) أن يقرأوا ما حُجب عن قرّاء «التايمز» في لندن.

من اليسير أن يشعر الصحافي بأهمّيته الذاتية بخصوص إنجازه، وأن يدّعي بأنه هو الوحيد الذي يحمل

الحقيقة، وأنّ على سائر المحرّرين أن يفسحوا له في المجال، كي يكشف عن عبقريّته للقرّاء. كما يغريه أن يقدِّم حججه الصحفية على المآسي المروِّعة التي يفترض فينا، نحن الصحافيين، أن نغطّيها بمقالاتنا. علينا أن نحسّ ببعض الاتّساق، وأن يكون لدينا منظور واضح في عملنا. ماذا أفعل؟ ماذا يفعل فيسك؟ أستطيع أن أسمع مُراجعاً معادياً لهذا الكتاب يتساءل بشأن الكتابة عن قتل ٢٩٠ شخصاً بريئاً من الكائنات البشرية قتلاً عنيفاً، ثم يستغرق ردّه خمس صفحات يشرح فيها مشاجراته الصغيرة مع «التايمز». والجواب يسير. فعندما نفشل، نحن الصحافيين، في كشف حقيقة الأحداث لقرّائنا، لا نكون قد فشلنا في عملنا فحسب، بل نكون قد أصبحنا طرفاً في النزاعات الدامية التي يفترض فينا أن نكتب عنها. فإذا لم نتمكّن من قول الحقيقة حول إسقاط طائرة ركّاب مدنية ـ لأن ذلك «يضرّنا» في الحرب، أو لأنه يجعل من البلد الذي «نكرهه» ضحية، أو لأنه يُزعج صاحب جريدتنا ـ عندئذٍ، نسهم نحن في التحيّزات التي تسبّب الحروب، بالدرجة الأولى. وإذا كنا لا نستطيع أن نطلق صفّارة الاستنكار لبحرية تطلق النار على مدنيين في عرض السماء، فإننا إذ ذاك نجعل من مثل هذا القتل أمراً «قابلاً للتفهّم» في المستقبل، كما وجدته السيدة «تاتشر». فلنسقطْ من حسابنا رعب الأميركيين وقلّة كفاءتهم ـ كما سيظهر كل ذلك في الأشهر التالية ـ ولنزعمْ أن الطيّار كان مهووساً بالانتحار، فلا يبقى لنا في هذه الحال سوى مرور بعض الوقت قبل أن ننسف طائرة مدنية أخرى في الجوّ. وتكون الصحافة إذ ذاك أمراً قاتلاً.

ولكني بقيت أتساءل، وأنا أقف في مستودع الجثث في «بندر عباس»، عن إمكان حصول حوادث مشابهة لهذا القتل الجماعي، مثلما حدث فوق بلدة «لوكربي» الاسكتلندية، بعد خمسة أشهر. وخلال ساعات من تدمير طائرة «الإيرباص» الإيرانية بتاريخ ٣ تموز/ يوليو ١٩٨٨، صرّح الرئيس خامنئي، رئيس إيران، بأن ريغان وإدارته هم جماعة من «المجرمين والقتلة». وأعلن راديو طهران وعيده بالقول: «لن تُترك جرائم أميركا دون قِصاص... إننا سنقاوم مؤامرات الشيطان الأكبر، وننتقم لدماء شهدائنا من المجرمين المرتزقة». ولم يكن لديّ شكّ في ما يعنيه هذا الكلام. وعندما عدتُ إلى بيروت لم أصادف أحداً يعتقد أن السفينة «فانسان» أسقطت الطائرة الإيرانية بطريق الخطأ. لكنني صرت أسمع ملاحظات متفرّقة مقلقة. فعلى مائدة الغداء، تصوّر أحد الأطبّاء الذي يتزعّم المناداة باللاعنف ـ أنه يجوز أن تكون الطائرة قد لُغمت بقنبلة موجودة بين الأمتعة المحمولة في الطائرة. وبعد عدّة أيام، قلت لنفسي، إذا كان الناس يتكلّمون عن هذا الأمر بهذا الاستخفاف، فلا بدّ أن ينبري أحد ليجرِّب ذلك.

وقد كان للإيرانيين دافع، على الأقل. لكنّ تدمير طائرة الركاب الإيرانية عمل رهيب، مهما كانت أعذار واشنطن. ولكن هل يتطوّع أحد لتدبير الانتقام؟ كنتُ في باريس عندما أعلنت هيئة الإذاعة البريطانية عن سقوط طائرة «پان أميركان» فوق بلدة «لوكربي». وكانت الحصيلة هذه المرّة ٢٧٠ روحاً أُزهقت في الطائرة، فضلاً عن أحد عشر قتيلاً على الأرض. لم أحتجْ أن أتصوّر الجثث ـ إذ إنني رأيتها في تموز/ يوليو ـ ولم أشكّ لحظة في السبب. فقد كانت هناك نظريات المؤامرات المعهودة: خطة فاشلة من قِبل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) بتغطية قوامها مكافحة المخدّرات، تدخّل فيها العملاء الأميركيون على الأرض بعد الحادث لإزالة الإثباتات. ومن ثمَّ انتقام إيراني للقتل الجماعي في طائرة «الإيرباص».

وكانت هذه النظرية الأخيرة محبَّذة في الولايات المتحدة الأميركية. فأظهرت الأخبار من جديد شريط الفيديو ـ الذي صوَّره فريق البحرية الأميركية ـ عن السفينة الحربية «فانسان»، وهي تطلق صواريخها بتاريخ ٣ تموز/ يوليو. وقد رأى القائد «روجرز» الشريط من جديد، وكتبت فيما بعد أنه «شعر بعقدة في معدته، وتساءل هلّا يتوقف هذا الأمر أبداً؟» لقد كان التوازي بين الحادثتين معقولاً، ولكن ليس من الناحية الأخلاقية. فإبادة «الإيرباص» كانت قتلاً جماعياً مخجلاً، لكنّ «لوكربي» كانت عملية اغتيال. وقد قال لي أحد معارفي القدماء في بيروت ممّن لهم اتصالات رهيبة في عالم الرهائن، بهدوء: «إنه (أحمد) جبريل والإيرانيون». وكان جبريل رئيساً «للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة» المتمركزة في دمشق. وكان المراسلون الدبلوماسيون في واشنطن ولندن ـ وهم يشكّلون الذرائع التي تتستّر وراءها اتهامات الحكومة ـ قد بدأوا يشيرون إلى الإيرانيين، والجبهة الشعبية المذكورة، والسوريين. وفي طهران، كان الناس ينظرون إليّ نظرات حادّة عندما أذكر حادثة «لوكربي»؛ مع أنهم لم يدَّعوا أبداً أنهم مسؤولون عنها؛ كما أنهم لم يستنكروا أبداً فظاعتها. ولكن بعد حصول مذبحة «الإيرباص»، قد يتحرَّون هذا الأمر أكثر.

وفي بيروت، صار رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة معروفين بأنهم «جماعة لوكربي»؛ ولكنّي لم أعلّق أهمّية على ذلك. إنما حدث شيء غريب بعد سنتين. فقد عقد جبريل مؤتمراً صحفياً في مخيّم من المخيّمات الفلسطينية في بيروت، ليتحدّث أولاً عن إطلاق ليبيا سراح الرهائن الفرنسيين والبلجيكيين الذين احتجزوا في سفينة في البحر الأبيض المتوسط. ولكن ذلك لم يكن ما يشغل باله؛ إذ انتقل فجأة إلى القول: «إني لست مسؤولاً عن تفجير طائرة لوكربي؛ وهم يحاولون زجّي في محاكمة لا تراعي مبادىء العدالة». مع العلم أنه لم تكن هناك محكمة آنذاك؛ ولم يتهمه أحد بحادثة «لوكربي». كانت إيران عدوّاً لصدّام الهمجي؛ وكانت سوريا ترسل دبّاباتها لتنضمّ إلى الجيوش الغربية في الخليج. وقد توارى رجال جبريل عن الأنظار؛ وكذلك إيران، البلد الوحيد الذي قد يكون له دافع لذلك الأمر.

وفي أعقاب إسقاط طائرة «الإيرباص» الإيرانية، علّق آية الله حسين علي منتظري، الذي كان متوقّعاً أن يخلف الخميني، قائلاً: «إنني متأكّد من أنه إذا صدرت أوامر الإمام ستنبري جميع القوّات الثورية وخلايا المقاومة، داخل البلاد وخارجها، لتصبّ جام غضبها على المصالح الأميركية المالية، والسياسية، والاقتصادية والعسكرية». لكنّ هجوم السفينة «فانسان» أقنع معظم القيادات الإيرانية بأن الولايات المتحدة الأميركية قد انضمّت في الحرب إلى جانب العراق. فالأميركيون قد دمَّروا منصّات النفط الإيرانية، وأزالو البحرية الإيرانية؛ ويبدو أنهم عازمون الآن على استعمال الصواريخ ضدّ طائرات الركّاب المدنية، كل تلك الأمور التي اتّخذها صدّام حسين أهدافاً يهاجمها. وصار الاقتصاد الإيراني في حالة انهيار؛ وحذّر رفسنجاني الخميني من أن معاودة إمداد الجيوش الجرّارة الإيرانية صارت مستحيلة، ولم يعد بالإمكان تجديد الهجوم على العراق، بحسب ما علم الخميني من «محسن رضائي» القائد العام لحراس الثورة في البلاد، حتى عام ١٩٩٣. ولذلك قبل الخميني قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة ذا الرقم ٥٩٨، ووقف إطلاق النار بدءاً من ٢٢ تموز/ يوليو ١٩٨٨، حمايةً للثورة الإسلامية ـ

وبقائها على قيد الحياة ـ و«الصالح استتباب الأمن على أساس العدالة». وكان ذلك للشيخ الهرم بمثابة كارثة شخصية وعسكرية؛ إذ قال بكآبة: «وا أسفاه، لأنني ما زلت على قيد الحياة، وقدّر لي أن أتجرّع في الثورة كأسَ السمّ».

ولكن الآتي كان أدهى وأمرّ؛ إذ لم يمضِ أسبوع على قبول الخميني قرار الأمم المتحدة بتاريخ ١٨ تموز/ يوليو، حتى تجاوز «جيش التحرير الوطني» لمجاهدي «خلق» الحدود الإيرانية بدبّابات ومدرّعات عراقية لقلب نظام الخميني. وكان ذلك منتهى الخيانة بنظرهم، لأن المهاجمين هم أيضاً إيرانيون، فقاتلوهم بشراسة؛ وبدأت الشرطة السرّية بتصفية مؤيّدي أولئك المجاهدين، بالجملة. وانقلب حرّاس الثورة على المجاهدين، وشنقوا أسراهم باستعجال في بختران، وكنغافار، وإسلام أباد. وتعرّض آلاف من المجاهدين ومناصريهم، والذين لا يزالون منهم مسجونين في كل إيران إلى معاودة محاكمتهم، وشنقهم.

وقالت جريدة «رسالات»: «نطلب من القائد أن يتعامل بقسوة مع المجرمين، وأن يخلّص الناس من وجودهم بأسرع ما يمكن». وألقى «آية الله الموسوي الأردبيلي»، رئيس المحكمة العليا خطبة نارية يوم الجمعة في طهران. وجاء فيها: «إن المنافقين لا يعلمون أن الناس يعتبرونهم أقلّ من الحيوانات؛ إنهم غاضبون منهم. وصار القضاء واقعاً تحت ضغط كبير من الرأي العام... إذ يقول الناس إنه يجب إعدامهم جميعاً... سنحاكمهم، عشرة عشرة، أو عشرين عشرين، ونأتي بملف ونستبعد ملفاً آخر؛ وآسف لعلمي أن ربع الملفّات قد ضاع، فقد كنت أتمنّى تدمير جميع الملفّات...» مع العلم أن عبارة «المنافقين» تشمل الهرطقة والردَّة، أي أكثر من أن يكون المرء ثنائي الولاء. فالنفاق إثم كبير يستحقّ العقوبة القصوى أي الإعدام.

وحتى قبل أن تنتهي الحرب، جرت معاودة استجواب جماهير المسجونين في إيران، وتمّ تصنيفهم إلى الذين لا يزالون يقرّون بمقاومتهم للجمهورية الإسلامية، وأولئك الذين تابوا ـ والذين يصلّون، والذين لا يصلّون. وعند حدٍّ معيّن، أمر الخميني بتصفية المساجين السياسيين بالجملة؛ مع العلم أن هذا الأمر بقي سرّاً؛ وأن آية الله منتظري، الذي اختير ليخلف الخميني، اعترض بقوّة على المذابح، فصُرف النظر عنه كإمام للمستقبل. وقد جاء في رسالة وجّهها منتظري إلى الخميني: «... أما بشأن أمرك بإعدام المنافقين في السجن، فإن الأمّة مستعدّة لقبول الإعدام، إذا كان الموقوفون على صلة بالأحداث الأخيرة (أي بغزو المجاهدين المدعوم من قِبل العراق)... لكنّ إعدام الذين سبق وجودهم في السجن... قد يؤوّل كانتقام وأخذ بالثأر». وقد جرى تقسيم نزلاء السجون إلى فئتين أوقفتا إلى الجانبين المتقابلين من الممرات: إحداهما ستعود إلى زنزاناتها بعد التوبة، والأخرى تساق فوراً إلى مقصلة الجماهير. وقد بدأ الحرس الثوري في سجن «إيفين» بتاريخ ٣ تموز/ يوليو بإعدام المسجونات من نساء المجاهدين؛ واستمرّت عمليات الإعدام عدّة أيام. أما المسجونون من الرجال الشيوعيين فقد شُنقوا في مسجد «إيفين»، عندما سيقوا إلى الحسينية ليُشنقوا؛ «وكان بعضهم يبكون، وآخرون يشتمون، وكلّهم يرتجفون»، بحسب شهادة أحد المسجونين السابقين الذي أضاف قوله: «... وكان بعضهم يبتسمون دون أمل... وكان بعض حرّاس الثورة يتنافسون في ما بينهم من أجل تنفيذ الإعدام، كي يسجّلوا لأنفسهم مزيداً من الولاء

والتقوى. وقد راعت قلّة منهم رؤية هذه الأعداد الغفيرة من الجثث. كما قاوم بعض المسجونين وضُربوا بقسوة. وكان الإعدام سريعاً». وقد عُرضت أجسام المشنوقين أمام المسجونات من النساء، لتحطيم معنوياتهنّ. ونشرت إحدى جماعات حقوق الإنسان المتمركزة في إيران أسماء ١٣٤٥ ضحية «لهذه الكارثة القومية» في طهران وحدها.

كما نشرت فيما بعد مجلّات المنفى المعارضة للنظام شهادات مروِّعة لمن شاهدوا عمليات الشنق في السجن. فقد أُعدم حوالى ٨٠٠٠ وربّما ١٠ ٠٠٠ سجين في صيف عام ١٩٨٨. وقد تلا الإعدامات السرّية إيداع الجثث في قبور سرّية أيضاً. كما روت إحدى السجينات ما يلي:

«أُخذتْ زوجة تائبة من الزنزانة الواقعة تحت قسمنا لتشهد إعدام زوجها، فرأت الحبل يلتفّ حول عنقه، ورأت امرأة أخرى و«شادورها» ملتفّ حول عنقها. وقد أنقذتها توبتها من الإعدام... لكنها فقدت توازنها النفسي فيما بعد...»

وكتبت إحدى السجينات السابقات عن سجينة مناضلة يسارية أخرى اسمها «فاريبا»، أُخذت إلى حصن تحت سجن «دستغورد»، لترى زوجها. وفي ما يلي وصف «فاريبا» للمشهد:

«روَّعني ما رأيته... فقد كان أمامي مسعود زوجي منحنياً، وعيناه تومضان وهما غائرتان في مِحجرين أسودين عميقين. صرختُ قائلة: مسعود، حبيبي، وقفزتُ ناحيته، فأرجعوني... وحذرني أحد رجال «الپاسداران» بقوله: «اصمتي، بإمكانك أن تنظري فقط، لتشهدي كيف نصفّي الحسابات هنا ـ أو تصبحين بجانبه». ... كان مسعود موثق اليدين وراء ظهره، والحبل حول عنقه، وهو واقف فوق كرسي بلا ظهر، ينظر إليّ بكامل كيانه، نظرات مرهقة إنما حافلة بالحبّ والحنان، خصبة بالشعور، وهو يحاول أن يبتسم، ويقول بصوت متهدِّج ضعيف: «ما أحلى أن أراكِ يا فاريبا». وارتفع صوت الجلّاد ورائي يقول: «إذا دفعتِ هذا الكرسي، وشنقت هذا المرتدّ، سأطلق سراحك فوراً في هذه اللحظة. أعدك بشرفي». فنظرت مباشرة إلى عينيه وصرخت: «هل لديك أي شرف، أيها الجلّاد الفاشي!». فقبض عليّ «الباسدار»، وانتضى الجلّاد مسدّسه وأطلق النار على مسعود، كما أزال الكرسي من تحته «باسدار» آخر. لقد شُنق مسعود في غمار محنتي وأمام عينيّ اللتين لا تصدّقان ما تريانه...».

هناك إثباتات مفحمة مستمدّة من مسجونات سابقات تفيد أن السجينات العذراوات اغتُصبن بواسطة المستنطقين قبل إعدامهنّ. ومن أصل ١٥٣٣ سجينة، شُنقن أو أطلقت عليهن النار، خلال عقدين من الزمن، بعد قيام الثورة عام ١٩٧٩، من اللواتي دوِّنت وصنِّفت أسماؤهنّ بواسطة مجموعة نسائية ألمانية، كانت هناك فئة يبلغ عددها ١٦٣ سجينة، لا يكاد تبلغ أعمارهنّ أكثر من ٢١ سنة، وكان بينهن ٣٥ حبلى. وكانت أصغرهنّ «نفيسة أشرف جهاني» في العاشرة من العمر، بينما كانت «أفسانه فارابي» في الثانية عشرة، وبلغت ثلاث بنات أخريات ١٣ سنة. وكان عمر «أكرم إسلامي» سبعين سنة؛ و«أرسته غوفيلاند» ٦٥ سنة عندما شُنقت وتركت وراءها ستّة أولاد.

ماذا نستطيع أن نقول لعائلات هذه الآلاف من الضحايا؟ إننا، معشر الصحافيين، نأخذ النظام على محمل الجدّ؛ نقابل الشيوخ والأئمّة من مقام آية الله وحجّة الإسلام، إلى مقام الآخرين الأكثر تواضعاً، ونطرح أسئلة حول حقوق الإنسان؛ وتُلقى علينا محاضرات عن شرور الشاه وعن مسؤولية بلاد الغرب في دعم حكمه «الشيطاني». فقد سبق أن سجن الشاه تقريباً كل حكام السجون على عهد الخميني؛ وكذلك العديد من مساجين «المجاهدين» الذين أُعدموا عام ١٩٨٨ وقبله. وها أنا جالس في بيت يقع في شمالي طهران، وأمامي أرملة تقلّب محفظة صور عائلية؛ وتشير إلى صورة «كوداك» لشاب جميل يلبس قميصاً بنّياً. قالت ببساطة: «لقد كان في المقاومة، فأوقف وقُتل». كان صاحب الصورة يعود حيّاً وهي تتكلم، بينما ينحني هو إلى الأمام باتجاه آلة التصوير، ويضع ذراعاً حول كتف شقيقته، وذراعاً أخرى حول والدته. قالت المرأة: «لم تستطع أمّه أن تتجاوز هذه المحنة؛ بينما كانت ابنتها الصغيرة ترقب بصمت. ربّما كانت في الخامسة من عمرها، أنيقة، مرحة، ذات شعر خفيف، وابتسامة مازحة. قالت والدتها: «إنها تلبس «الشادور» لتذهب إلى المدرسة... أرينا يا «فرشته» كيف تبدين عندما تذهبين إلى المدرسة». فتنطلق «فرشته» إلى غرفة نومها، وتخرج منها مرتدية لباس الحداد الأسود من رأسها إلى أخمص قدمها، بحيث لا يبدو شعرها؛ وتصبح جدِّية؛ ثم تعود أدراجها ببطء إلى غرفة نومها لترجع طفلة من جديد.

ولم تتقنَّع آلة القتل الداخلي بوجود الحرب في إيران وحدها. فقد أوردت لجنة العفو الدولية أسماء ١١٦ شخصاً أعدمهم نظام صدّام بين ١١ تشرين الثاني/نوفمبر و٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧؛ وكان أصغرهم في الرابعة عشرة من عمره. وبالإجمال، من تاريخ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧ إلى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨، أُعدم ٧٠٠ سجين في سجن «أبو غريب» الواقع غربي بغداد؛ وأكثرهم يحملون على أجسادهم آثار التعذيب. وقد جاء هؤلاء الضحايا من بغداد، والسليمانية، وبعقوبة؛ وكانت أعمار أكثرهم تحت الثامنة عشرة.

ولكن الحرب لم تنتهِ بالنسبة إلى تلك الملايين التي اشتركت في النزاع الذي قام بين إيران والعراق، وبالنسبة إلى كل جندي. فبعد صدور وقف إطلاق النار بتاريخ ١٨ تموز/ يوليو ١٩٨٨، تبادل البلدان الأسرى الذين بلغ عددهم تسعين ألف أسير؛ ولكن بقي آلاف منهم قيد الأسر لعقد زمني آخر. وبقيت إيران تخلي سبيل الأسرى العراقيين حتى عام ١٩٩٧. وبقي منهم ٥٠٠ أسير، أمضى بعضهم ١٧ سنة في الأسر، حرَّرته إيران قبل عقد مؤتمر القمّة الإسلامي في طهران في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٩٧. ولكنّ العراق استمر يدّعي أن إيران ما زالت تحتجز ٢٠ ٠٠٠ من جنوده، منهم ٨٧٠٠ جرى تسجيل أسمائهم بواسطة الصليب الأحمر الدولي؛ كما ادّعت إيران من جانبها أن العراق ما زال يحتجز ٥٠٠٠ من رجالها كأسرى حرب.

وعندما عاد «قدّوم الفاضل» إلى بغداد بعد ١٦ سنة من الأسر، لم يعد يتذكّر سوى الحزن والجوع و«داء المفاصل» في مخيّم إيراني محاط بالأسلاك الشائكة والألغام، بينما هو مقيّد بالأغلال في معظم الأوقات. لقد عاد آلاف من الأسرى العراقيين إلى ديارهم بعد عشر سنوات من معاناة ما يقرب من الجوع في المخيّمات

الإيرانية، ليجدوا العقوبات المدعومة من الأميركيين مفروضة على بلادهم، وآثار حرب ١٩٩١، التي لم يشتركوا فيها، تُعرّض عائلاتهم للمجاعة. وصار لدى العراق جيش جرّار من الأسرى السابقين ـ يملأ نفوسهم الحقد على إيران وعلى صدّام وعلى الولايات المتحدة الأميركية ـ وهم يعيشون في الفقر والبؤس في بلادهم: العراق. وقد تعلّموا في أحضان الطين والرمل، مع ملايين العراقيين الآخرين الذين لم يخضعوا للسجن أو الموت، أن يعيشوا وأن يموتوا. وكانوا قد تعلّموا أن يحاربوا، وأن يحافظوا على الخطّ الفاصل بينهم وبين إيران. فاستعملوا دبّاباتهم، كمنصّات لمدافعهم، مغروزة في الصحراء، وأحرقوا أعداءهم بالغاز، وأغرقوهم بمياه المدّ من الأنهار، أو أزهقوا أرواحهم بالكهرباء في المستنقعات. وأضحى جيل كامل من العراقيين بين ملازم ونقيب، ينظر إلى الحرب ـ بدلاً من أن ينظر إلى السلم ـ كعنصر طبيعي في حياته. وحتى لو جاءه يوم آخر بعد زوال صدّام، فماذا يستطيع هؤلاء الضبّاط ورفاقهم الآتون من الخنادق، أن يفعلوا إذا واجهوا جيشاً عرمرماً آخر؟ ماذا يستطيعون أن ينجزوا، إذا استخدموا مبادرتهم، ومخيّلتهم، وشجاعتهم ـ وإذا اعتصموا بوطنيّتهم، وقوميّتهم، وإسلامهم واستوحوا كل هذه المصادر، بدلاً من الاعتصام بيد البعث الحديدية؟

وبالطبع، كان هناك الموتى أيضاً. فقد بدأ صدّام، قبل انتهاء الحرب بثلاثة أعوام، ببناء نُصب تذكاري يلائم عصر الفضاء، لأكبر خطأ فاضح ارتكبه. وهو نُصب يبدو من الجو كأنه منصة لإطلاق الصواريخ، ويظهر من الأرض كصدفة بحرية عملاقة، ويمتد منحدراً على مساحة ٤ آلاف متر مربّع، بشمسية من الإسمنت يعلوها الرخام. ويأتيه الزائرون ـ وأهل البلاد بالآلاف ليزوروا موتاهم ـ فيصعدون إلى الحافة السفلى من النصب، ثم ينزلون في مجرى هواء مكيّف إلى سرداب تحت الظلّة. وهنا، بحسب الحروف العربية المحفورة، والمطليّة بالذهب الخالص، يرقد المحارب العراقي المجهول، بطل الأمّة العربية، وشهيد القادسية الثانية. مع العلم أن النصب لم يكتمل، حتى بعد مرور خمس سنوات على انتهاء الحرب.

وقد زرتُ النصب من جديد عام ١٩٩٣، لأجد جيشاً من البنّائين العراقيين، يقطعون ألواح الرخام. وكل شريحة منها، بين آلاف الشرائح الأخرى، تحمل أسماء ١٦ عراقياً لم يعودوا سالمين من تلك الحرب الهائلة. فقد تمّ حفر اسم الجندي «كاتم أحمد»، وبجانبه «محمد جادي»، و«عبد الله أحمد»، و«المحارب» صلاح يونس. فشهداء صدّام كانوا بنظره يستحقّون أعلى تكريم. ولذلك كانوا يبنون في بغداد «الجدار الفيتنامي» لصدّام حسين. ومن الصحيح أن الرخام كان أصفر شاحباً بدلاً من أن يكون أسود اللون؛ وكان يبنى حول السرداب الدائري، بدلاً من أن يكون تحت جزء إهليلجي بيضوي قرب القصر الرئاسي. ومن الصحيح أيضاً أن بناء هذا «الجدار»، كما قيل، كان من بنات أفكار صدّام. ولكنّ عدد القتلى الأميركيين في فيتنام بلغ ٥٦ ٥٥٥ قتيلاً؛ بينما بلغ عدد قتلى صدّام بين عام ١٩٨٠ و١٩٨٨ حوالى نصف مليون على الأقلّ.

وكان جدار شهداء صدّام أمراً سرّياً رسمياً حتى ذلك الوقت. فلم يُبلَّغ أحد عن بنائه، بل سيُزاح الستار عنه بعد إنجازه فقط عام ١٩٩٥، عندما يسمح للعائلات أن تتأسّى وتندب موتاها وأحبّاءها أمام أسمائهم. طلبت الإذن بأخذ صورة لقائمة الأسماء، فأجابتني سيّدة من لجنة النصب التنفيذي بحزم وعزم: «ممنوع أخذ الصور؛ لأنه غير

مسموح لنا أن نعطي معلومات؛ ولا نستطيع التحدث معك عن هذا الأمر. ليس لدينا تفصيلات أو أرقام؛ ولا يجدر قول شيء قبل أن يكتمل النصب. إن هذه التعليمات جاءت من أعلى مقام». ولم يكن لديّ شكّ فيمن يكون الأعلى مقاماً. ولكن ألا يمكننا مثلاً أن نستعلم عن عدد الأسماء التي ستظهر على الجدار. ولكن السيّدة كانت صلبة عنيدة، إذ قالت: «من المستحيل إعطاء أية أرقام، ما دام العديد من جنودنا ما زالوا أسرى في إيران، حتى بعد انتهاء الحرب بخمسة أعوام».

وهكذا كان. ولن ينعم موتى حرب الخليج الثانية ـ بين العراق والجيوش التي تقودها الولايات المتحدة الأميركية ـ بالتكريم هنا، أو في أيّ مكان آخر في بغداد. وذلك لأن حرب الثماني سنوات بين العراق وإيران، هي التي كرّسها تاريخ حزب البعث، بصفتها هي الأهمّ، والأكثر استراتيجية؛ وهي التاريخية المجيدة ـ وبتعبير أدقّ، الأكثر ضرورة ـ في تاريخ العراق. وكلّما تساءل العراقيون عن جدوى حرب الخليج الثانية، صارت حرب الخليج خارج نطاق النقد؛ حتى أن مسوّدة دستور العراق المحضَّرة عام ١٩٩٠، طلبت من أي رئيس جمهورية قادم أن يقبل كون الحرب العراقية ـ الإيرانية السالفة «كأسلوب وحيد لضمان وحدة أراضي العراق وسلامة الأماكن المقدّسة فيه».

ولكن، هل يمكننا أن نقفل الباب على التاريخ، بشكل آمن؟ لقد كانت هناك عائلات كاملة من الإخوة، والآباء، والأبناء، محفورة أسماؤها معاً على ألواح الرخام البادية على جدار شهداء صدّام، بمثابة دقّات لناقوس الموت البشع، تتخلّلها استشهادات محفورة مستمدّة من القرآن الكريم، تضمن ـ ما لا يضمنه أي دستور ـ الجنّة الخالدة لأولئك الذين مزّقتهم القذائف وطلقات الرصاص، أو الذين غرقوا في أوحال «الحُوَيزة»، و«بُحيرة السمك»، و«الأهواز»، و«خرمشهر»، و«قصر شيرين»، و«الفاو». وقد فاجأني أحد الموظفين العراقيين في شهر آذار/ مارس من عام ١٩٩٣ بقوله إن الدفاع عن «الفاو» كلّف العراقيين ٥٨٠٠٠ قتيل.

وبين قتلى هذه الحرب العراقيين البالغ عددهم حوالى نصف مليون، حُفِظت جثّة واحد منهم فقط ـ مستنقعة في الموادّ الكيميائية التي يفترض فيها أن تحفظها من التحلّل لمئة سنة ـ ضمن تابوت معلّق فوق «متحف الجندي المجهول» على بعد خمسة كيلومترات، وملفوف بالعلم العراقي، وسط الأسمال الباقية من ثياب المعركة الخاصة برفاق الشهيد. كانت تلك البذلات ملطّخة، ممزّقة بيد الجرّاحين الذين حاولوا إنقاذ الأرواح العراقية، ومحفوظة في صندوق زجاج، مع ضمادات الموتى الدامية، التي مضى على جفافها وقت طويل. سألني أمين المتحف الشاب: «هل ترى هذه السيوف المشكوكة في أحجار سود فوق البذلات، إن عددها هو ١٧؛ وهي ترمز إلى ١٧ تموز/ يوليو، تاريخ الثورة، بينما تمثل الأحجار السود قلوب أعدائنا». كما كانت هناك أيضاً لوحات محفورة معروضة على جوانب القاعة، مهداة من الملحقين العسكريين لبعض البلدان: رومانيا الاشتراكية، وألمانيا الشرقية، والاتحاد السوفياتي، والصومال؛ وكلّها بلاد ماتت منذ ذلك الوقت موتاً بائساً، مثل موت أي من الجنود الذين يكرّمون هنا.

وبكل بساطة، كان هناك معرض، مثل المعرض القائم أمام جدار الشهداء، لحياة صدّام حسين بالصور، منذ ولادته إلى أن اعتلى عرش البعث؛ ذلك الذي غامر بالقتل، وكان محارباً من رجال العصابات، وكان زعيماً قائداً. وكانت هناك صورة تمثّل كوخاً من الطين في قرية «عوجه» التكريتية، حيث ولد عام ١٩٣٧. ثم صورة تمثّله كابن ثماني سنوات، مقطّب الجبين قليلاً، ذلك الذي سيقود حزب البعث العربي الاشتراكي. وكانت هناك صورة مقطّعة تظهر قسمات وجه مروِّعة مألوفة للتلميذ صدّام، وهو جالس على درج عربة قطار. ثم كانت هناك أيضاً صور لسيّارة الليموزين التي كان فيها عبد الكريم قاسم، وهي مثقوبة بالرصاص، بعدما حاول صدّام حسين اغتيال الدكتاتور في شارع الرشيد. كما كانت هناك صور تمثّله مع طالبات في منفاه بمصر، وواقفاً وحيداً أمام الأهرام. وكانت زوجته «ساجدة» تبتسم في صورة من صور عرسها. وكان له صورة أخرى وهو يختال أمام آلة التصوير متباهياً بمن وراءه من بنّائين يحملون المطارق والأزاميل من أجل حفر آلاف الأسماء لشهداء صدّام. وقلّما رأينا رئيساً بهذا القرب من أولئك الذين أرسلهم إلى الموت. إنهم «شهداء قادسية صدّام». لاحظ صفة التملّك هنا ـ إنهم ملكه الشخصي. ولكن المعرض الصغير بلغ آخره خلافاً لتوقّعنا؛ إذ كانت هناك صور لموظفين بعثيين رسميين، ولبيوت صدّام ـ ليست صوراً للداخل بل لجدرانها من الخارج، ولبواباتها الفولاذية، ولأكشاك الخفراء، والأسوار التي تحيط بها. وإذا كان النفوذ والسلطة لا يفسدان المرء، فلا شكّ في أنهما يستلزمان الجدران والأسوار العالية. كانت أشعّة الشمس خارج السرداب الكبير تكاد تعمي الأبصار. ولم ألاحظ إلا بعد لحظات أن هناك ساحة كبيرة إلى اليمين، تحوي آلافاً من لوحات الرخام، تنتظر أن يمهرها البنّاؤون بشهادة الدم.

وخلال كل فترة الحرب، كان هناك بناء تذكاري أكثر جدّية، وأقلّ مدعاة للتفاخر واقع بغرب بغداد، في بلدة الغبار العسكرية، «الفلّوجة». هنا كان مستودع الجثث الأكبر في العالم، الذي يتّسع لألفي جثّة في كل مرّة، وهو منظّم في سقائف مبرَّدة. إنه المكان الكئيب الحارّ في ضواحي بغداد، الذي كانت تقصده عائلات ضحايا الحرب من أجل تحديد هويّة أبنائها، وأزواجها، وآبائها. وحتى هنا، لم تستطع السلطات أن تتغلّب على مشكلات إراقة الدم. فبعد مذبحة مستنقعات «الحويزة» في ربيع عام ١٩٨٥، كانت هناك جثث كثيرة برسم النقل إلى الفلّوجة، إلى درجة جعلت الحكومة تصادر رخص سوق السيّارات العمومية في بغداد، وإلزام صاحب كل سيّارة بنقل جثّة من البصرة، حتى تُعاد إليه رخصته. ومع ذلك بقيت جثث الموتى بالآلاف راقدة في سهوب الطين والوحل؛ كما نُقل آلاف من أقارب الشهداء إلى جبهة القتال لتحديد هويّة أقاربهم في ساحة المعركة. وقال بعضهم إن عدد قتلى المستنقعات من العراقيين في ذلك الربيع، بلغ ٨٠٠٠ قتيل؛ وقال بعضهم الآخر ١٤٠٠٠؛ وقال آخرون ٤٧٠٠٠.

إني أعود دوماً إلى الحروب القديمة وأتحدّث مع قُدامى الجنود. أعود إلى إيرلندا الشمالية، وإلى البوسنة، وإلى صربيا، وإلى الجزائر، وجنوبي لبنان، والكويت، وبغداد بعد الغزو. وأعتقد أني أحاول أن أفهم ما أشهده، وأن أضعه في سياق لم يكن موجوداً لديّ، عندما كنت أحاول أن أبقى حيّاً، وأتكلّم مع أولئك الذين شاركتهم تلك الكوابيس، ولو لفترة وجيزة. إني أنتظر أن يتوقّف مشكال الصور الزجاجية عن الدوران، لأرى رقائق الذكرى تنعكس في نمط أخير غير قابل لمزيد من المعالجة. هذه هي قضيّتي. وبينما أدوّن هذا الكتاب، أسمع أحياناً

القطع الزجاجية تتحرّك في المشكال، وتُحدث صوتاً شبيهاً بما يصدر عن تشغيل السجلّ الأساسي لحاسوبي النقّال، خلال التفتيش عن التطبيقات والبرامج، ومحاولة الوصول إلى نتيجة، إلى شاشة واضحة المعالم، ذات ذاكرة لا تخطىء.

أستطيع أن أجلس على شرفتي المطلّة على البحر في بيروت وأتذكّر بوضوح تام كيف كان الإيرانيون يأخذوننا إلى مواقع حربهم بناقلاتهم من طراز (Herculus-C-130) ـ عندما لا نختار القطار ـ عبر الظلام الحارّ إلى «الأهواز» أو «دزفول»، ونحن، الصحافيين، محبوسون في مقاعدنا الضيّقة، يسيل منا العرق، ونحن أيضاً متشبثون بدفاترنا وآلات التصوير على أحضاننا، نصلّي ونرجو أن لا يشعر العراقيون بنا بسبب الأصوات التي تحدثها محركاتنا في الليل البهيم. كما كنا نطير إلى قاعدة جوّية في الصحراء لنرى نيران النفط تشتعل ـ بلونها الأرجواني عند الفجر، ونحن نتناول قطع «الشوكولاتة» السوداء المسبّبة للسرطان وغير القابلة للأكل ـ ونسمع دمدمة المدافع التي تشبه مدافع «الصوم»، ونخشى من ٣٦ ساعة قادمة وما سنقاسيه خلالها من: قضاء الليل في غرفة محصَّنة تحت الأرض، واستنشاق الغبار المتطاير من أرضها، وتمضية النهار ونحن نتنقلّ بالسيّارة عبر خطوط القتال، والقذائف تتناثر فوق رؤوسنا، والجثث تُطلق روائحها العفنة على طريقنا، ومقابلة الرجال المحاربين دون خوذ على رؤوسهم، وهم يحملون بأيديهم القرآن الكريم.

وبعد مرور سبع سنوات على انتهاء الحرب، صار من اليسير أن نعود إلى زيارة ميادين القتال. وبناء على ذلك، وجدتُ نفسي صباح يوم من أيّام الصيف عام ١٩٩٥ في مطار «مهراباد» أصعد إلى طائرة إيرانية (IR 417) إلى الأهواز، وأتناول على متنها الخبز والمربّى ـ نعم إنها طائرة أخرى من طراز (A300)؛ بينما كان مرافقي من وزارة الإرشاد الإسلامي يغطّ ويشخر في نومه بجانبي. بعد ساعة دارت بنا الطائرة حول شُعَل غاز «البوتان» فوق مصافي النفط؛ ثم نزلنا وركبنا في سيّارة «بيجو» يقودها «غلام رضا»، واتّجهنا نحو الصحارى حيث خسرنا سنوات من عمرنا. وحالما قطعنا أوّل ساتر من الرمل، تبدّت لنا الشمس كبثرة بيضاء عند الساعة السابعة صباحاً، فأشار غلام رضا إلى هذا الخلاء من الغبار وقال: «بانغ، بانغ، الحرب».

وكان في ذلك «البانغ» تصوير صادق لأصوات مدافع الميدان العراقية، التي دمَّرت الكثير من مقدرتي على السمع، هناك إلى الغرب من هنا، منذ عقد ونصف من الزمن. وبينما كان غلام رضا يغذّ السير بسيّارته «البيجو» عند الفجر، كان صوت القصف البعيد يطنّ في أذنيّ، كما لو كانت تلك المدافع لا تزال تطلق النار على حقول الموت الذاوية. وعن يميننا ويسارنا، كان مشهد الصحراء يختلف من أغرّ إلى كُمَيْتٍ في نور الشمس البازغ؛ وكانت الخنادق ومواقع الدبّابات تمتدّ أمامنا على مسافة كيلومترات عديدة. وكان المزارعون قد حوَّلوا بعضها إلى حواجز تقي الذرة من الهواء، وبقيت الأخرى راقدة لا يمسّها شيء خلال ١٥ سنة، ولكنّ آثار مرورها على الرمل لا تزال ظاهرة بعد تدمير تلك الدبّابات الإيرانية والعراقية. ومن ناحية الطقس، كانت الحرارة قد بلغت ١٠٠ درجة فارنهايت في الظلّ، وبدأ العرق ينساب على وجهي، بينما كان رجل الوزارة نائماً على المقعد الخلفي للسيارة.

ربّما مات مليون رجل هنا، وعلى جبهة القتال الملتوية والممتدّة على مسافة ٩٠٠ كيلومتر إلى الشمال، إلى ثلوج الحدود التركية؛ أي بمقدار ضُعفَي طول الجبهة الغربية خلال الحربَ العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وعلى مدى زمن يناهز الضعفين أيضاً. لقد مرَّ من هنا جيل كامل من الإيرانيين والعراقيين إلى خطّ الموت في القرى التي تبدو للناجين ولأهل الموتى كئيبة مثل مواقع الحرب العالمية الأولى في «إيبر» و«فردان» و«التلّة ٦٠»، و«فيمي ريدج» و«بومونت هامل». لقد صارت أسماء أمكنة العذاب مألوفة لديّ الآن: «كرمان» و«شلمشه»، و«بنجوين» و«خرمشهر»، و«عبدان» و«الفاتح» و«الأهواز»، و«الفاو»، ومعركة «بُحيرة السمك». لقد كان الإيرانيون آنذاك هم الأكثر خسارة. وكنتُ أتساءل في تقاريري خلال تلك الأيام، هل كان لديهم من أمثال «أوين» و«ساسون» ليكتبوا عن أهوال الحرب، وليرثوها؛ وأنا مذهول من صمود الإيرانيين المدافعين ومرونتهم.

ولمَّا كان الإيرانيون يكرهون الأجانب، ومغايرين في عقيدتهم، ومعادين للغرب، حتى لنا نحن الصحافيين الذين خاطرنا بحياتنا لزيارة خنادقهم، فقد بقينا بعيدين عنهم، ولم نحاول أبداً أن نفهم دوافعهم، وأثرَ حمَّام الدم هذا على عقولهم؛ وحتى اليوم ما زلنا ننسى ذلك. لكن الإيرانيين لا ينسون. فهل كانوا على شاكلة جنود الحرب العالمية الأولى. يعودون إلى بيوتهم كسيري الجسم والروح، بعد أن يتخلّوا عن إيمانهم، ويتركوه في الصحراء المرويّة بالدماء؟ لقد سألت ضابطاً في حرس الثورة عالي المقام، بينما كنا نتغدّى في طهران: «ما هي أسوأ لحظة مررتَ بها في هذه الحرب؟». فأجابني فوراً: «١٨ تموز/ يوليو ١٩٨٨، ذلك اليوم الذي قبلنا فيه وقف إطلاق النار لإنهاء الحرب، عندما قال إمامنا بأنّ عليه أن يتجرّع السمّ، ويقبل بوقف إطلاق النار. كنتُ آنذاك أقود شاحنة حمولتها طنّان ونصف الطنّ إلى الجبهة عند «شلمشه»، فلم أستطع أن أصدّق أذنيّ عندما سمعت الأخبار من الراديو. سقت شاحنتي إلى الصحراء، وأوقفتها، واستلقيت على الرمل، والشمس من فوقي. وسألت خالقي لماذا وجدتُ على هذه الأرض؟ لقد كان ذلك أسوأ يوم في حياتي».

أسرع غلام رضا بسيّارته جنوباً؛ بينما كانت حرارة الجوّ ترتفع، ومرّ بسياج من الشاحنات والمدرّعات العراقية المهترئة، ميلاً بعد ميل، على امتداد يبلغ الأفق وما بعده. وكان هناك خفير إيراني لهذه الساحة الحربية، لهذا المتحف الذي يحوي دبّابات ومركبات عراقية مسحوقة، أكثر مما رأيناه عندما قام «نورمان شوارزكوف» بهجومه السقيم على الجيش ذاته عام ١٩٩١. فعلى اليمين، كان هناك قطار كبير من الحافلات الملتوية المحروقة والمقلوبة على جنبها قرب خطّ سكّة الحديد الممتدّ بين «الأهواز» و«خرمشهر». لقد تجاوز العراقيون هذه الناحية من إيران أكثر من مرّة. وكانت الخنادق ومراقد المدافع متواصلة بالآلاف امتداداً على الطريق، ومتراكمة سنة بعد سنة من زمن الحرب. وكان باستطاعة المرء أن يرى بالمنظار المقرابي هذه الأراضي العنكبوتية من القمر. قطعنا المياه العكرة لنهر قارون؛ لقد كنت في هذه المنطقة لآخر مرّة عندما كانت الجثث تطفو على تيّاراته الحارّة. وكانت حرارة الجوّ قد بلغت حينئذٍ

١١٠ درجات فارنهايت. لقد قاتلوا في ذلك الحرّ، وماتوا برياح حامية مثل رياح الأفران، وتعفّنوا خلال ثلاث ساعات. فلا عجب أن يكونوا قد قبروا العراقيين في مدافن جماعية، وأرسلوا قتلاهم إلى ديارهم في أقلّ من يوم.

لقد كتبوا فعلاً قصائد؛ وكانوا ألوفاً من «الباسيجي» و«الباسداران»، والفنّانين الذين سيقوا إلى جبهة القتال. لكنّ قصائدهم لم تكن مثل قصائد «آل أوين» و«آل ساسون». ففي مجلّدات قصائد الحرب المعروضة في مكتبات طهران، يشكر الجنود القُدامى الّله الذي زكّاهم وأكرمهم بساعته. طفت بالحوانيت القائمة قرب جامعة طهران، ووجدت أشباح «بروكي» و«و.ن. هدغسون» في هذه المجلّدات الضخمة. فهنا مثلاً الشاعر «محمّد رضا عبد الماليكيان»، يخطّ «رسالة إلى بيته» من جبهة «الأهواز ـ خرمشهر»، حيث يقوم الأولاد أبناء السنة الثانية عشرة من العمر بهجوم انتحاري على الشريط الشائك العراقي:

«هنا على خطّ الجبهة

تُنثر نعمة التضحية حولنا،

إن قوّتهم أكبر من أمواج نهر قارون،

هنا، يمكنك أن تقدّر تضحية الأولاد والراشدين،

الذين يتلهّفون ليمشوا في حقل الألغام،

إنهم هنا، لنراهم كلّنا»

إن في ذلك الأمر شيئاً مخيفاً: فليس هناك صورة استشهاد الأولاد الرهيبة فحسب، ولكن ـ بالنسبة إلى عقلي الغربي ـ هناك نوع من الاتزان في النضج والتطوّر. نعم لقد كان الشاعر «هدغسون» يكتب شيئاً من هذا القبيل عام ١٩١٤، عندما يقول:

«يا أبنائي، أسمعكم تهتزّون شوقاً

لنداء بوق الحرب،

... عاقدين العزم والتصميم على تحمّل

الخسارة والخيبة، والألم والموت،

دون شكوى».

ولكن، لم يهلّ عام ١٩١٦ حتى أدرك شعراء الحرب عندنا فُحش الحرب وقذارتها. أما «عبد الماليكيان» فقد كتب أبياته الشعرية بعد عدّة سنوات متتالية من الحرب؛ ولم يفقد الإيمان. فهل مردّ ذلك إلى أنه كان يحارب للدفاع عن بلاده، أو لأن الإسلام لا يسمح بأن يخامر الشكّ فؤاد المؤمن؟ أو لأن القصيدة في إيران يفترض فيها

أن تكون شيئاً مقدّساً، أن تكون كلاماً روحانياً، وليس كلاماً استفزازياً؟ نحن، في بلاد الغرب، ننتظر أن تحرّكنا قصيدة ـ إذ إن الوطنية والإيمان وحدهما لم يكونا كافيين لـ «ساسون» أو لـ «رويرت غرايفز». ألم يكن بمقدورهما أن يقولا شيئاً أكثر ممّا قاله «عبد الماليكيان»؟ في الواقع، دامت مدّة الحرب الإيرانية ـ العراقية ثماني سنوات منذ غزو صدّام بتاريخ ٢٢ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٨٠، واشتملت على استخدام الغاز السام والهجوم بالصواريخ، أي أنها كانت أشدّ رعباً من الحرب العالمية الأولى، وأرهب أسلحةً من الحرب العالمية الثانية.

وعندما كتبتُ لأوّل مرّة في جريدة «الإندبندنت» عن «اتّزان النضج» المذكور آنفاً، في قصيدة «عبد الماليكيان»، وقذارة الحرب التي تخلّلت قصائد الشعراء البريطانيين التالين، تلقّيت رسالة تحدٍّ طويلة من مُسلمة بريطانية، تقول: إذا أردتَ أن تفهم الواقع الإيراني والمرونة الإيرانية، يجب أن تدرك أولاً مغزى موقعة كربلاء التي حصلت في القرن السابع:

> «أشكّ في أن أُجانب الصواب إذا قلتُ إن الإيرانيين ـ بعامّة ـ كانوا مُدركين لأهوال الحرب قبل حصول حمّام الدم الإيراني ـ العراقي. وأعتقد أن الشيعة بصورة إجمالية، يدركون معنى الاستشهاد، أكثر من غير الشيعة. أذكر محاولتي في شرح مأساة كربلاء لصديقاتي البريطانيات في المدرسة، ودهشتي من ردّ فعلهنّ. لقد سبق أن تصوّرتُ الطفل «عليّ الأصغر» مصاباً بسهم في عنقه، و«عبّاس» مقطوع الذراعين، و«أكبر» يخترق الرمح صدره، و«الحسين» يرفع كلّ جسد، ويبكيه، ويعود به إلى الخيام... وتخيّلتُ النساء في عائلة الإمام الحسين، يُسقنَ عبر الأسواق بعد فقدان أعزائهنّ، ويتكلّمنَ ضدّ الحكّام. لقد تربّيت على هذا التاريخ؛ فقد كان ولا يزال جزءاً لا يتجزّأ مني. إن معظم الشيعة يدركون تماماً الثمن الذي قد يدفعه المرء، لوقوفه مناصراً لمبادئه...».

كانت سيّارة غلام رضا تهسهس على إسفلت الطريق الذائب، عندما ربّت موظّف الوزارة على كتفي صارخاً: «أنظر هناك». فأبطأ غلام رضا في سيره وهجم علينا الحرّ من النوافذ المفتوحة. كان هناك خطّ لسكّة الحديد قرب الطريق، ووراءه حُطام جيش مهزوم: دبّابات وشاحنات مدرّعة لنقل الجنود كلّها محترقة، ومواسير بنادق مشقوقة، ومدافع رشاشة تصدأ على أبراج الدبّابات؛ إن مسوخ صدّام تتحلّل وتتفسّخ في الصحراء. سرنا عبر خطّ السكّة الحديد. وقطعنا منطقة رمال متحرّكة ـ مشى فيها موظف الوزارة إلى ركبتيه ـ ووجدنا أنفسنا بين أشلاء وحُطام لمعركة كبيرة. فالعديد من هذه المركبات دخل بها سائقوها الرمل حيث عجزوا عن التقدّم بها، فأخلوها خائفين، ولا تزال آثار جنازيرها الفولاذية بادية على الصخور وعلى مواضع المدافع الإسمنتية. أمّا دواخلها فقد حوّلتها القنابل اليدوية المقذوفة صاروخياً إلى مراجل.

تسلّقت على دبّابة من طراز (T-62)، وفتحت برجها، وانزلقت إلى داخلها. كانت مؤخّرة المدفع منسوفة، ومقعد السائق قد ذاب، وكان هناك مليون ذبابة صغيرة تحوم حول مقصورة المدفعي الممزّقة. ربضتُ على سطح الدبابة وبدأتُ بأخذ الصور. لكنني أدركت أنها صور دون ألوان. فالشمس وبياض الصحراء امتصّا اللون من

بصري، بحيث ظهرت دروع صدّام ذات لون واحد. وكان موظّف الوزارة يحدّث نفسه أكثر مما يحدّثني، ولكن بالإنكليزية من أجل أن أفهم ما يقول: «فكّر في أن صدّام جاء إلى هنا، إلى بلادنا، فكّر في غطرسته. فهل يمكن أن يقوم بذلك دون أن يتعرّض لعواقب وخيمة؟... فكيف لا تدركون سبب محاربتنا له؟».

ورأيت على الجهة المقابلة من الطريق هيكل شاحنة روسية، فمشيت نحوها، ووجدت أنه لم يبقَ منها سوى مقدّمتها، وهي ملأى بآلاف الثقوب الصدئة التي أحدثتها الشظايا. وظهرت لي وراءها حُفرة كبيرة تتناثر فيها عُلب الذخيرة الممزّقة بانفجار جرى منذ وقت طويل، وهي مطمورة جزئياً بالرمل. إنها آلاف من رصاصات المدافع الرشّاشة ملتوية ومجمّدة بأشكال غريبة ـ بعد إصابة مباشرة ألمّت بشاحنة ذخيرة. وكان على حافة الحفرة مسحوق أبيض، ربّما كان عظماً بشرياً. أما موظف الوزارة فجلس على الرمل ليستريح.

مشينا في الصحراء فوجدنا خوذة إيرانية اخترقتها رصاصة، وعشرات من الأحذية العسكرية، أحدها ممزّق من جهة العقب مع شيء قاتم بداخله. كانت هناك فجوات أحدثتها القذائف ثم امتلأت بالرمل، وأسلاك شائكة، وصفّ من الملاجىء وراء خندق، كُسيت أرضها بأغطية صناديق الذخيرة، وأكياس الرمل المبقورة. وفي مكان ما بالقرب من هنا كتب الشاعر الإيراني «علي ببشوشي» قصيدة مثيرة للمشاعر حول حُلم ظهر له فيه رجل مسنّ من «نكستان» ـ وهي منطقة معروفة بإنتاج التمر في جنوبي إيران ـ ووقف أمامه في الصحراء:

«أنظر هناك، يا صاح،
أستطيع أن أراه بعينيّ الكفيفتين،
هل تراه؟
إنه «شير محمد» المسنّ من «نكلستان»،
الذي تومض الشمس على بندقيته،
... لقد رأيته بعينيّ الكفيفتين،
وقال لي «شير محمد»:
«جئتُ لأزرع رشاشي،
بدلاً من القمح والشعير،
عبر أرضي، أرض النخيل».

وقبل ذلك بعدّة أيام، كنتُ قد تكلمتُ في طهران مع بعض طلّاب الجامعة حول الحرب. كانوا يحضرون حلقة فلسفية؛ وهم ١٤ شاباً وثلاث نساء. وقد شارك نصف هؤلاء في حرب الثماني سنوات، وكانت إحدى النساء ممرضة عسكرية. كانوا «باسيجي» سابقين ومتطوّعين، وجنوداً، وحرّاساً للثورة: وهم يحاولون الآن أن

يحلّلوا مقالاً يصعب سبر غوره لأحد علماء الاجتماع الأميركيين. ثم يحاولون شرح معنى الحرب بالنسبة إليهم، ولماذا لم أفهمها.

كان «شوجا أحمد بندي» ملتحياً، ويبدو في الثلاثينيّات من عمره، وربّما يجدر أن يكون أصغر سناً. لكنّ عمره كان ١٨ سنة عندما أُرسل إلى الجبهة عند «مهران» على الحدود العراقية، على بعد ١٧٠ كيلومتراً من بغداد، عام ١٩٨٤. تكلّم بهدوء، منتقياً كلماته بكل عناية؛ قال: «كان انخراطي في الحرب انعكاساً لطبيعة ثورتنا الإسلامية؛ وقائماً على تأويل جديد للدين ـ إن الانخراط في الحرب هو واجب مقدّس. إن زعيمنا رجل دولة قريب إلى النبي؛ وهكذا ندرك مسألة الحرب. هذا هو السبب في التزامنا الغامر. لا يمكن فصل الحرب عن الدين. وقد رأيت بعض حوادث لا يمكن وصفها. وإني أتساءل: هل كانت حقيقية أم لا؟ لقد كانت مشاهد فوق العادة أثّرت فيّ».

وهنا نظر «أحمد بندي» إلى الأرض، وصار يخاطبها بدلاً من أن يخاطبني، قائلاً:

«جاء يوم عند بداية عملية «والفجر ٥»، عام ١٩٨٤، كنّا فيه بمهران. وكنتُ جالساً مع عدّة جنود آخرين على قمّة تلّة صغيرة. وكان يجلس معنا رجل يبلغ من العمر ثلاثين أو خمساً وثلاثين سنة. وفجأة لاحظنا أن رأسه مال إلى الأمام قليلاً. ولم نعرف ما حدث. ثم رأينا الدم يسيل بغزارة من ذراعه، ثم من رأسه. لقد أصابته رصاصة في رأسه. وعند تلك اللحظة، استدار قليلاً وهو شاعر بأنه أصيب، ووضع يده في جيبه وأخرج منها قرآناً كريماً، وصار ينظر إليه، بينما كان الدم لا يزال يسيل من ذراعه. وقفنا ثلاثتنا مدهوشين ـ إذ لم نستطع أن نفعل شيئاً ـ كان هذا الرجل يُحتَضر، وقبل وفاته بثوانٍ يخرج القرآن الكريم وينظر إليه. إنه مشهد لن أنساه أبداً طول عمري، إنه يدلّ على قوّة الالتزام».

خيّم علينا صمت طويل، ثم انبرت إحدى النساء، من آخر القاعة لتتكلّم، وهي ترتدي شادوراً أسود، قائلة: «على وجه العموم، كنّا فخورين بما فعلناه في الحرب. لقد حافظت بلادنا إيران على سيادتها. نحن نعلم كيف عاد الناس إلى ديارهم بعد الحروب الكبيرة. وقد قرأتُ عن ذلك في مؤلّفات «همنغواي». ولكن ذلك لم يحدث في إيران. على المرء أن يفهم أهمّية الأخلاقيات في حربنا ـ إنها أفضل من الطعام. إنكم تعتبرون أن عدد الضحايا مهمّ ـ وتقومون بهذه الحسابات الإحصائية على حواسيبكم ـ لكنّ انطباعي هو أن الناس ماتوا هنا بصرف النظر عن قيمة حياتهم المادّية؛ إذ إن المهمّ هو إيمانهم الإسلامي».

وقد لا يُعرف أبداً العدد الحقيقي لمن ماتوا في الحرب ـ فالعراقيون لم يعطوا أرقاماً دقيقة ـ لكن الرجل الذي كان مسؤولاً عن حرّاس الثورة خلال نزاع ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ أكّد لي أن الإيرانيين خسروا أقلّ من نصف مليون رجل. أما «محسن رفيق دست» مدير المؤسّسة التي صارت عام ١٩٩٦ تكرّس ملايين الدولارات لجرحى الحرب ولعائلات الشهداء، فقد ادّعى أمامي أن ٢٢٠٠٠٠ إيراني قتلوا، وأن ٤٠٠٠٠٠ منهم جرحوا. وقال:

«نعتقد أن العراقيين خسروا ٥٠٠ ٠٠٠ قتيل. ولكننا لا نعرف عدد جرحاهم. كما أننا خسرنا ٧٠ ٠٠٠ قتيل في الثورة الإسلامية قبل نشوب الحرب بسنة».

وحتى اليوم، علينا أن نرفع تلك الأعداد باستمرار. فقد وُجِدت ٢٧٠٠٠ جثّة للجنود الإيرانيين على الحدود العراقية بعد انتهاء الحرب عام ١٩٨٨. وفي تموز/ يوليو ١٩٩٧ ـ أي بعد وقف إطلاق النار بتسع سنوات ـ كانت إيران تقيم مآتم جماعية لعدد آخر من الجنود البالغ عددهم ٢٠٠٠، والذين اكتشفت رفاتهم قرب الحدود. والعديد من الضحايا ماتوا خلال الأشهر الأولى من الحرب، عندما دخل الجيش العراقي «خرمشهر» وهاجم «عبدان».

ومن بين الجنود الذين قاوموا الغزاة العراقيين، «مجتبى صنافي» الذي أخبرني بقصّته وهو جالس في المقعد الخلفي من سيّارة الأجرة، التي علقت في زحمة السير بطهران، قال:

> «أُلقيَ القبض عليّ على بعد حوالى عشرين ميلاً خارج عبدان. أحاطوا بنا ليلاً؛ ولم يكن لنا أيّ أمل. أخذونا إلى مخيّم كبير للسجناء في العراق، وعلى وجه التحديد في تكريت مسقط رأس صدّام حسين. كانت السنوات الأولى التي قضيناها هناك قاسية. فقد قتلوا بعضنا، وعذّبوا آخرين. ومضت سنة قبل أن يزورنا الصليب الأحمر، ويأخذ أسماءنا، ويجلب كتباً. وكان صغارنا من المساجين أقوى من كبارنا. وقد يرجع ذلك إلى أن الصغار يشعرون بأن الحياة ما زالت أمامهم. ولكن انتحر منا اثنان لم يستطيعا أن يتحمّلا الأسر أكثر من ذلك. فإذا كان المرء سجيناً، عليه أن يكون قويّاً جداً. تعلّمتُ في السجن أشياء كثيرة عن نفسي، وقوّتي. وعندما جاءتني رسائل بواسطة الصليب الأحمر من عائلتي كانت قد مرّت عليها سنة. فكتبتُ ردوداً عليها؛ ولا تزال والدتي تحتفظ بها، لكنني لا أريد أن أقرأها الآن؛ لأنها تذكّرني بتلك الأيام الرهيبة».

وقد أُخلي سبيل «مجتبى» عام ١٩٨٩ بعد سنة من انتهاء الحرب. وكان قد أمضى في الأسر عشر سنوات، أي أكثر ممّا تعرّض له أسرى الحرب العالمية الثانية من البريطانيين. وعندما التقينا عام ١٩٩٥، كانت إيران لا تزال تطالب بعدد يناهز ١٥٠٠٠ جندي لا يزالون محتجزين في العراق، وقد مضى على بعضهم أكثر من ١٥ سنة في الأسر.

وعندما وصل سائقنا غلام رضا إلى «خرمشهر»، هزّ برأسه عند مرأى الأطلال التي لا تزال متناثرة عبر المدينة. لقد دام القتال فيها حوالى سنتين؛ وقصفها العراقيون لمدّة ستّ سنوات تالية؛ وسُحقت بيوتها ومصانعها المبنية بالقرميد بسبب تكرار الهجوم المضادّ من قِبل العراقيين. لقد كانت بحقّ «ستالينغراد» إيران لا ستالينغراد العراق. وفي مركز المدينة، وقرب المجرى المائي المتخوم بالسفن المقلوبة، والمحروقة، وبعد المسجد الذي لا يزال قيد إصلاح قرميده الأزرق، كان هناك متحف للصور بمناسبة مرور ١٣ سنة على تحرير المدينة. وقال لنا الدليل: «لقد استشهد الشخص الذي أخذ هذه الصور، فيما بعد»؛ وأشار إلى جثّة على الأرض.

كان جسم الجندي القتيل قد صُنِع من جديد بالشمع، والدم الأسود ينساب من ظهره، ووجهه مدفون في الرمل، وخوذته تغطّي معظم شعره، حتى أني ظننتُ أن الإيرانيين احتفظوا برفات مثل هذا الجندي. وقرب حُفرة الرمل التي نُصب فيها هذا التمثال من الشمع، كانت هناك صورة نصفيَّة لآية الله الخميني تحت الشعار التالي: «إن الاستشهاد هو ذروة الحياة الإنسانية». مع العلم أن الصور المعروضة كانت تمثّل أشجاراً مكسّرة، ومواقف قطارات مسحوقة، ومساجد مهدَّمة، وبيوتاً مطحونة، وجثثاً ملقاة في الشوارع.

وكان هناك أيضاً شاعر آخر اشترك في الحرب، وأدرك ضراوتها، عندما كتب عن «خرمشهر» تحت الاحتلال العراقي. وهو «بارنيس حبيب عبادي» الذي استعمل في قصيدته رموز الحب التقليدية الإيرانية: الفراشة التي ترفرف حول القنديل ـ وغضب «أبي ذرّ» من أصحاب النبيّ محمد (ص) ـ ليدلّ على نقمته:

«يا صديقي، كم نشعر بالوحشة،

ونحن بعيدون عن هذه المدينة التي كانت مدينتنا،

إن شمعة القنديل تذوب، وقد التهمت النار الفراشة،

في كلّ مكان، وفي كلّ درب، أرى الرماد، والحُطام، والدم،

هنا رأس، وهناك شعر طويل ملطّخ بالدم،

لم يعد هناك من يدٍ لتمشّطه،

وحتى يأتي الوقت الذي يعود فيه الرأس ليستوي على الجثّة،

أكفّن نفسي بثيابي، وأصرخ مثل أبي ذرّ،

لأزرع الخوف في قلوب أعدائي».

ولكن، كان هناك أيضاً شخص شارك في تحرير «خرمشهر» ولم يُرد أن يموت. جلس معي في مطعم بعبدان، يمضغ السمك والبطاطا بصوت طاحن وضجيج، ويقول: «كنتُ في البحرية وجئنا لنشارك في التحرير. لم أرَ كثيراً من الجثث، لأن معظم العراقيين استسلموا، تصوّر ٢٠ ٠٠٠ منهم؛ هل تستطيع أن تتصوّر ذلك؟ كلّهم، وأيديهم مرفوعة هكذا». ووضع يديه على رأسه وراحتاه موجهتان نزولاً؛ ففاجأ جميع روّاد المطعم. ثم أردف قائلاً: «ولكن، كان علينا أن ننهي الحرب عندئذٍ في عام ١٩٨٢. فقد عرض صدّام وقفاً لإطلاق النار، كما قدّم السعوديون ٧٠ مليون دولار لمعاودة البناء. ولو توقّفنا عن المحاربة إذ ذاك، لأسقط «صدّام» شعبُه. إنما كانت هناك جماعة أخرى يصغي إليها الإمام. ولذلك قرّر الخميني متابعة الحرب حتى القضاء على صدّام، والقتال من أجل النجف وكربلاء، واحتلال البصرة. وكانت تلك غلطة كبرى. فقرّرتُ أن أتباعد إذ ذاك عن شؤون الحرب، وتسلّمت عملاً في طهران. واستمرّت هذه الحال ستّ سنوات؛ حتى أننا لم نربح الحرب؛ بل استعدنا الأراضي التي خسرناها، عندما صار صدّام يواجهكم أيها الغربيون، بعد غزوه للكويت».

كان هذا صوتاً انشقاقياً فريداً. وإني أذكر أن الأموات يتكلّمون مع الأحياء أثناء الحرب، فيؤاخِذون كلّ مَن ينتقد المسار الحربي للنزاع. وقد كانت لحرس الثورة مجلّة داخلية اسمها «حارس الإسلام»، تُكرِّم الموتى الجدد بنصّ قرآني لا يردّ «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربّهم يُرزقون». وقد كتب «حسين تشير ـ زارين» قبل موته بقليل عند شطّ العرب بلغة فارسية مهلهلة: «أُرسلتُ إلى الجبهة لأوّل مرّة ـ وكنتُ قد سمعتُ عن الهجوم، وأردتُ أن أشارك فيه...». ثم يتوجّه بالخطاب إلى والدته، وكأنّه يكلّمها من الآخرة، قائلاً: «أمّي العزيزة، إن ابنكِ تحرَّر من قيود الدنيا، والاستعباد، والخيانة... أجل، يا أمّي العزيزة، لقد صار ولدكِ عبداً للإسلام، وبلغ حدّ الطاعة، والتقى، والإخلاص ـ إن شاء الله».

كان عليّ أن أتعوّد على قراءة هذه الوصايا مع ما تتضمّنه من معتقدات تدلّ على أن كاتبيها يعتقدون أنهم على حقّ. «فأبو الحسن إسحاق» كان يبدو مبتهجاً في وصيّته، إذ يقول قبل موته: «ليس الاستشهاد مرتبة يستحقّها أيّ كان... إني أكتب هذه الوصيّة مع أني أرى إمكان استشهادي بعيداً ـ ولكن لا عار على المرء إذا كان لديه هذا الطموح. لست خائفاً من يوم البعث... وعندما تُراق أوّل قطرة من دم الشهيد، تُمحى له كلّ ذنوبه... نعم يا أعزائي، إن الموت سيدركنا جميعاً في آخر الشوط ـ فلا أحد يخلد في هذا العالم ـ ولماذا نضيع هذه الفرصة الذهبية؟».

إن «خرمشهر» يعاد بناؤها الآن، فتُقام فيها مدارس جديدة، ومستشفيات ومصانع جديدة، وأبنية سكنية. لكن المرفأ لا يزال أطلالاً، والسفن الغارقة فيه تسدّ النهر. وقفت إلى جانب المرفأ، قرب باخرة تُدعى: «رايس فيشر»، مسجّلة في «بارو ـ إن فورنس»، وشرعت آخذ صوراً، فتصدّى لي شرطيان يرتديان قميصين أسودين. وهُرع موظف الوزارة من سيّارة «غلام رضا» لينقذني، قائلاً بصوت معتدل: «إنهم يرتابون بالأجانب الذين يحملون آلات تصوير؛ لقد تضرّر أهل هذه المدينة كثيراً».

طفت بأحد المستشفيين الجديدين، حيث أخبرني طبيب بأن الحرب «ضرورية» في حياته، كما هي في حياة جميع الذين حاربوا. قال: «كنت في الحادية والعشرين من عمري في ذلك الوقت، وكان لي صديق يُدعى «حسين صدقات» من «تبريز». لقد كان «أذرياً»، وصديقاً وفيّاً، ومستقيماً. وفي يوم من الأيام، بينما كنّا نتقدّم، أُصيب في رأسه، ودفق دماغه عليّ، إذ إنني كنتُ بجانبه. لم أستطع أن أصدق ذلك. لم تكن هناك كلمات وداع، لم يكن هناك شيء. ثم أُصبتُ أنا أيضاً في كتفي بشظيّة من قذيفة مدفع «هاون» عياره ٨٠ ملم. كنتُ شبه فاقد للوعي في البدء، ثم جاءني الألم فيما بعد». ورفع قميصه ليريني الجرح. وقد فعل مثل ذلك أمامي الرجالُ عبر إيران كلّها، كي أعاين جروحهم في الذراعين، والرقبة، والساقين. وقد تكلّم معي أحدهم بفكٍّ اصطناعي، بينما كان يسعل آخر وهو يتكلّم؛ إذ إنه تعرّض للغاز السامّ. ولكن، عندما سألت الطبيب عمّا إذا كان الأمر يستحقّ كلّ هذا العناء ـ بالألم، والمعاناة، والتضحية ـ أشرق وجهه، وقال: «طبعاً، كنّا ندافع عن أراضينا وعن تراثنا الإسلامي. وكنّا في أشدّ حالات الغضب والغيظ إزاء أعدائنا».

وكان هذا ما شعر به شاعر «دزفول» المسمَّى «غايزار أمين پور» عندما كانت مدينته تحت وطأة القصف الجوّي. وتبدو قصيدته أقرب إلينا من غيرها، تخالطها الضغينة وحتى التهكّم:

«أردتُ أن أكتب قصيدة عن الحرب،
ولكنّي علمتُ أن ذلك غير ممكن؛
إذ كان عليّ أن أهجر قلمي،
وأستعمل سلاحاً أمضى منه.
إنّ قصائد الحرب يجب أن تُكتب بمواسير المدافع،
وأن تتحوّل الكلمات إلى رصاصات...
عندما، يكون هناك دائماً إنذار أحمر،
وصفّارات إنذار لا تفتأ تنتحب،
فوق جُثث لم تُكمل نومَ ليلتها،
حيث تحوم النفّاثات التي تكره الضياء،
لتقصف مخادع نومنا وستائرنا...
لا يمكننا أن نثق حتى بالنجوم، فقد تتجسّس علينا،
ولن نتعجّب من أن ينفجر القمر...»

ويتّخذ مثل هذا الغضب أحياناً طابعاً سياسياً. فهذا «يحيى فوزي»، البالغ الآن من العمر ٣١ سنة، والذي كان عمره ٢٤ سنة عندما قاتل في الحرب، يقول في الحلقة الفلسفية التي عُقدت بجامعة طهران:

«علّمتنا الحرب أن الغربيين الذين يتشدّقون بالحرية والحقوق الإنسانية، يستبعدون هذه الأفكار في سياق حربنا. لقد كان ذلك درساً لنا. وعندما غزانا صدّام، كنتم (أيها الغربيون) صامتين؛ ولم تصرخوا استنكاراً، كما فعلتم عندما غزا الكويت بعد ذلك بعشر سنوات، إذ ملأتم الدنيا حديثاً عن حقوق الإنسان، وكرّستم لذلك دعاية واسعة».

فقاطعه طالب آخر من الجامعة يلبس نظّارة، بقوله:

«في ثورتنا التي قامت عام ١٩٧٩، رفعنا شعارات ضدّ دكتاتورية الشاه. ولكنّ الحرب مع العراق أكملت هذه العملية لبناء الأمّة. فعلى قمّة تلّة تتعرّض للقصف، كان لدينا شباب من «بلوشستان» و«كردستان» وغيرها من المقاطعات يعملون معاً في الدفاع عن التلّة ذاتها. وكان لدينا كثير من

المهاجرين بسبب الحرب، مثل الأكراد الذين طردهم العراقيون من ديارهم، فهربوا إلى طهران وتبريز. وحصل تفاعل واندماج «إثني» مع سائر جماهير الأمّة. وفي هذه الحرب تركونا وحدنا منعزلين، ولم يعطف علينا أحد، فقلنا: لا بأس بأن نكون وحدنا. وتعلّمنا الكثير بعضنا من بعض؛ وتوحَّدنا لأوّل مرّة».

ومما كان شائعاً تلك الفكرة القائلة بأن الحرب مع العراق جاءت تكملة للثورة الإسلامية في إيران ـ بل كانت جزءاً لا يتجزّأ منها ـ فالطبقات الوسطى الإيرانية التي تجنّبت المشاركة في الحرب قدر الإمكان، صارت خارج ذلك التاريخ. وأبناء الطبقات الميسورة استعملوا سمات سفرهم، وقضوا زمن الحرب في كندا، أو الولايات المتحدة الأميركية، أو بريطانيا، أو فرنسا؛ لأنهم اعتبروا تلك الحرب نوعاً من الجنون. قال لي أحدهم ويبلغ من العمر ٢٩ سنة، أثناء إحدى الحفلات في طهران: «أمضيتُ زمن الحرب في كندا، وشاهدتها على التلفزيون، وسُررتُ لأني كنت بعيداً عنها». لم أستطع مناقشة منطقه، لكني تساءلت عن عُزلة الميسورين وحراس العهد القديم، وأسفهم لقيام الثورة، واستنكافهم عن الدفاع عن وطنهم، ومدى انقطاعهم عن الانتماء إلى بلادهم.

ولكنّ الأموات، لا الأحياء، هم الذين يتكلّمون بفصاحة. ففي جنوبي طهران مقبرة تُدعى «بهجة الزهراء»، غير بعيدة عن ضريح الخميني الذي أرسلهم إلى الموت، يرقد فيها عشرات الآلاف من الإيرانيين الذين عادوا أشلاء موضوعة في أكياس لدائنية من ساحة الحرب. فهنا جمجمة أو اثنتان مع بطاقة تشير إليهما، استخرجهما الحفّارون من ميدان المعارك على الجبهة الغربية. ولا يزال حفر القبور الجديدة جارياً لإيواء مزيد من الأجساد التي تُكتشف.

ليست هذه القبور كمراقد موتانا خلال الحرب العالمية التي تعلوها شواهد بسيطة، بل تُزيّنها ألواح من الرخام محفورة بالكلام والصور. مع صور فوتوغرافية، وأعلام، وصور أخرى أُخذت للقتلى بعد الموت مباشرة بواسطة رفاقهم الجزعين من استمرار سقوط القذائف حولهم، إنها صور لأجساد يغطيها الدم. وقد رأيت مثل ذلك في «شازار» الواقعة في الجبال فوق طهران؛ لكن هذه المقبرة مَجَرِّية ضخمة من طراز مقابر حرب «ذهب مع الريح»؛ إنها مدينة الأموات الإيرانية. إنما كانت هناك نافورة تنفث في الهواء ماء «أحمر بلون الدم». وهي تقابل صَدَفة صدّام ونُصبَه الإسمنتي المقامين في بغداد؛ مع أن كلتيهما تنضحان بالقداسة نفسها وبالإعتام ذاته، وبالطريقة الخاصّة بكل منهما.

هنا يرقد «نعمة الله حسَني» المولود في أول آب/ أغسطس ١٩٦٠، والمستشهد في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر عند «بنجوين». وهو طالب في كلّية الضبّاط. وقد كُتب على قبره: «عليك أن تضحّي بنفسك قبل أن تتمتّع بالحب ـ أي يجب عليك أن تتبع الإمام الحسين». وهناك صورة مطبوعة على قماش، تظهر «حَسَني» شاباً مع لحية صغيرة مشذّبة. وهنا يرقد «محمد نَوروزبيه»، المولود عام ١٩٦١ والمستشهد في ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٨٦ بساحة الاستشهاد في «فاقه».

وقد كتب العديد من هؤلاء الشباب رسائل وداع إلى عائلاتهم قبل أن يموتوا بقليل. وهي خطابات بلاغية طويلة، تبدأ بمدح زاهر للخميني ثم تتفرّع في أواخرها إلى القضايا الانسانية، عندما يتمنّون الخير لأهلهم. كتب «محمّد ساريخوني»: «آمل أن أكون قد قمتُ بواجبي في تضحيتي بدمي لأجل الإسلام». وهو مولود عام ١٩٦٣. ومقتول في غمار الحرب بتاريخ ١٧ آذار/ مارس ١٩٨٤، عند «بيرانشهر» في كردستان إيران. ثم يستأنف قائلاً:

«أهدي أحسن تمنّياتي إلى أبي وأمّي، وأخواتي، وإخوتي، وأصدقائي. آمل أن يكونوا راضين عني. وأطلب من الله تعالى أن يحفظكم، ويسامحكم، ويباركم. وأقول لزوجتي: صحيح أن حياتي كانت قصيرة، ولم أستطع أن أحقّق ما نويت أن أزوّدكِ به. ولكني آمل أن يكون هذا الوقت القصير الذي جمعنا ذكرى رائعة لكِ. اعتني بولدي، لأنه ذكرى ـ لكِ ولعائلتي أيضاً».

إنّ هؤلاء الرجال يتكلّمون من بين الأموات. فهذا «حسن جاهان بارتو»، الذي كان عمره عشرين سنة عندما قُتل في «مايماك»، كتب إلى أهله يقول: «أنصح أبي الكريم وعائلتي أن لا يبكوا إذا استشهدت ـ لا تحزنوا لئلّا تُزعجوا روحي». ولكن العائلات تبكي فعلاً، وهي تصلّي عند القبور، كل يوم جمعة بعد الظهر؛ كان أولئك يأكلون أيضاً قرب الموتى من أبنائهم وأزواجهم، وإخوتهم.

كان «مصطفى أزادي»، «الباسيجي» المتطوّع، يحارب في صحراء «شلمشه» عندما بلغه نبأ مقتل ابن أخيه الحاجّ «علي الجسماني». قدّم لي التمر في المقبرة، وقال: «كان مصطفى من أوائل الذين انضمّوا إلى حرّاس الثورة، وقد حارب حتى استشهد. لقد أصابته قذيفة. وكنتُ آنذاك في الجبهة، عندما وصلني النبأ. كنّا متقاربين؛ ولكني لم أستطع أن أرى جسده. فيمَ أفكر الآن؟ ـ إن الشهداء، جميعهم، حمَّلوا كاهلنا مسؤولية الدفاع عن ديننا وإيماننا».

وقد يبدو كلّ هذا كأمورٍ غير متوافقة وغير منسجمة بالنسبة إلينا، معشر الغربيين، وإلى حدٍّ كبير مثلما جاء في كتاب «في حقول «الفلاندز» لـ «جان ماكراي»، الذي يحذّر الأحياء بقوله: «إذا تخلّيتم عن إيمانكم بنا، نحن الأموات، لن نستطيع أن ننام، مع أنّ الأفيون لا يزال ينمو/ في حقول الفلاندز». واليوم نرى في هذه «الاستشهادية» (Martyrocracy) ما يلي: دكتاتورية الأموات، كمفهوم مضادّ للحُكم. إننا نفكّر الآن في الهدر بدلاً من أن نفكّر في المسؤولية. وقد شارك «روبرت باري»، الجندي البريطاني، أثناء الحرب العالمية الثانية، مع قوّات الاحتلال في بغداد والبصرة في الانقلاب على «رشيد عالي الكيلاني» عام ١٩٤١. وكتب إليّ عام ٢٠٠٤ مبدياً بعض ملاحظاته عن «الكذبة» القائلة بأنّ الجنود القتلى «أعطوا حياتهم لبلادهم»، إذ قال:

> «فعل بعض الرجال الرائعين ذلك؛ إذ إنّهم تطوّعوا للقيام بمهامّ انتحارية. بينما وهب آخرون حياتهم لإنقاذ رفاقهم. ولكنّ أكثريّتهم كانت تأمل الرجوع وهي على قيد الحياة. لكنّ الموت أخذهم دون سؤال عمّا إذا كانوا يرغبون في العطاء. لقد فقدتُ ابن عمّ لي في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. كان أكبر قليلاً من صبيّ، شبه متمرّن، يمشي قُدماً إلى صفوف الجبهة الأمامية. وبعد وصوله، خالجه الفضول، فرفع رأسه فوق الحاجز لينظر، وداهمه إذ ذاك قنّاص ألماني. فلم يبقَ له مجال للاختيار، كما قال هاملت. فالعطاء أو عدم العطاء هو المسألة».

وكنت قد اصطحبت «مجتبى صفائي»، وهو أسير الحرب السابق إلى مقبرة «بهجة الزهراء»، ليترجم لي ما كُتب أمام كل قبر. كان يقوم بذلك ببطء متأثراً بتلك القصص المكتوبة. ومنها وصف «بهرم مدني» لابن عمّه المتوفّى «أسكار تولير تاليري»، عند «الماعوط»، على أنه «مأخوذ بحبّ الله». بينما رأى «محمّد جونسيان» ولده «سعيد» قبل موته بعشرة أيام، وروى: «أن أمّه سألته إذ ذاك، عندما كنا نتحدّث في البيت: «لماذا تعود إلى الجبهة ثانية؟»؛ فأجابها ابني بأنه يدافع عن وطنه. فأردفت قائلة: «ولكن قد تنفعنا أكثر بوجودك هنا؟»؛ فردّ بقوله: «ما أحلى أن يكون المرء في بيته؛ ولكن العدوّ صار في بلادنا، وعلينا أن ندفعه إلى الوراء». فوافقتُ على كلامه. وكان هناك رجل مسنّ له لحية غبراء؛ وقد أخبرنا بأنه فقد ابنه البالغ من العمر ١٩ سنة، واسمه «هرمز أليدادي» الذي قُتل في حقل ألغام عند «داشدابوز»؛ وقال: «إنها مشيئة الله. وإننا نشكر الله، لأنه حارب من أجل الإسلام، ومن أجل بلاده».

أما «محمد تاليبلو» فقد تسلّم رُفات ابنه «مجيد» بعد عام ١٩٩٤. وهي عبارة عن «عدّة عظام» نبشوها من الطين عند «بنجوين». قال: «لست منفعلاً، فقد ذهب ليدافع عن الإسلام وعن بلاده. وكان ذلك عام ١٩٨٥، وقد سمعت أنئذٍ أنه أصيب. وقد جاء صديق له كان معه في الجبهة ليراني، وقال: «رأيت مجيداً يسقط، ولكني لم أعلم إذا كان قد قضى نحبه أم لا». وكان ذلك خلال هجوم مضادّ قام به العراقيون. فقد مات برصاصة واحدة».

وقد كتب الشاعر «محمّد رضا عبد الماليكيان» وداعه الأخير في قصيدة اسمها: «الجواب»، يقول فيها:

سألني ابني: «لماذا تحارب؟»،

وكنتُ أربط شريط حذائي،

ورشّاشي على كتفي، وزادي على ظهري،

وأمّي تحمل الماء والمرآة والقرآن بيدها،

وتمنح روحي الدفء والقوّة،

وعاد ابني يسأل: «لماذا تحارب؟»

فقلت له من كلّ قلبي:

«كيلا يسلبك العدوّ النور أبداً».

مضى على الحرب سبعة أعوام حتى الآن. وصار الدبلوماسيون الإيرانيون يزورون بغداد. ولكنّ أبناء الثورة ـ الذين عادوا إلى ديارهم بعد الحرب ـ لم يجدوا الحياة المدنية لائقة بالأبطال. فهم يُشهّرون الآن غاضبين بالفساد المستشري في «المجتمع المدني» للرئيس خاتمي. إنما عادوا كما يبدو، ووجدوا إيمانهم، بدلاً من أن يفقدوه، بعد نشوة الاستشهاد ـ مستفظعين مذابح الحربين العالميّتين، وخائفين من وقوع ضحايا قليلة عندما تدخّلنا، نحن الغربيين ـ في البوسنة، بعدما لملمنا خسائرنا في العراق ـ مذعورين، مصدومين، مردودين، نندب ضيعان الشباب

والتضحيات، وتدمير الأرواح الشابّة. لكنّ الإيرانيين الذين شهدوا حرب الخليج التي دامت ثماني سنوات يحبّون ذلك، لا للبرهنة على إيمانهم، بل لإكمال عمل الثورة.

أما بالنسبة إلى الجنود العراقيين، فقد بقيت الحرب لعنة من اللعنات. فـ «حسين فاروق»، أحد أفراد شرطة الميليشيا العسكرية يتذكّر وقف إطلاق النار عندما قال أحد الضبّاط لجنوده إنهم إذا أرادوا أن ينتقموا لموت أحبّائهم، فهذا هو الوقت المناسب لذلك. قال: «انبرى أحد جنودنا الذي فقد أخاه في الحرب، وذهب إلى مخيّم للأسرى الإيرانيين، واختار أحدهم، وأطلق عليه النار. وكان الرجل الوحيد الذي فعل ذلك». ويتذكّر فاروق يوم كان يحرس بدوره مجموعة من الأسرى الإيرانيين. قال: «كانوا جميعاً واقفين معاً. وطلب منّي أحدهم بعض الماء، فأعطيته إيّاه طبعاً. لكنّه أخذه ومزج بعضه بالتراب، وابتلع المزيج، وأنا في غاية الدهشة. ثم مشى بعد قليل واجتاز موقع الحرس، فركضت وراءه أسأله عمّا يفعل. فأجابني بحَيرة: «ماذا؟ هل ما زلت تراني؟».

وروى «فتحي داوود موفق» المصوّر العراقي الذي التقط شريطاً للضحايا الأولى التي سقطت عند الحدود عام ١٩٨٠، أنه وجد خبراته قد صارت مُقعدة، نظراً لاستمرار الحرب. قال: «نذهب إلى مركز القيادة عند الجبهة الوسطى، فيقولون لنا إن المعركة الآن هي في «الفقر»، ويدلّوننا على الاتجاه؛ فنذهب، ونجد لأنفسنا فجوة بين أكياس الرمل نوجّه عبرها آلات التصوير. لقد رأيت العديد من الشهداء من الطرفين ـ وإني أعتبر القتلى من العراقيين والإيرانيين شهداء». وقد صوّر موفّق الأسرى الإيرانيين، قال: «كان بعضهم من اليافعين في عمر الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وكانوا قد اقتحموا حقول الألغام بدرّاجاتهم النارية، فقُبض عليهم». وقد رأى موفّق عملاً بطولياً رفع من معنوياته؛ فقد اندفع جندي عراقيّ إلى ساحة المعركة تحت القصف، لإنقاذ إيرانيّ مصاب، وحمل عدوّه على كتفه، وجاء به إلى برّ الأمان في الخطوط العراقية. لكن «موفّقاً» سيرى أشياء أكثر رعباً من ذلك.

فخارج البصرة، كان هناك ضابط استخبارات عراقي يصرخ في أسير إيراني طالباً منه أن يقرّ بموعد بدء الهجوم الجديد. «لكنّ الإيراني لم يتكلّم؛ فهدّده ضابطنا بقطع أذنه، إذا لم يُدلِ بالمعلومات المطلوبة، وتدخّلنا نحن، معشر الصحافيين، حتى لا يوقع به هذا القصاص، فقيل لنا إن هذا ليس من شأننا. ولمّا بقي الإيراني صامتاً، قطع له الضابط أذنه؛ فبدأ جميع الأسرى الإيرانيين بالكلام». وقد كتب موفّق يقول:

> «كنا نقبض ثلاثة دنانير لكل يوم نقضيه في الجبهة ـ وكان ذلك يساوي آنذاك تسعة دولارات ـ فندفع منها ثمن الطعام في فندق يقع خلف الخطوط. كنّا نعود مُرهقين، ونبدأ نشرب «الجن»، و«التونيك»، و«الويسكي». وكان معنا مصوّر آخر، أحد أصدقائي، «طلال فانا». كان قلقاً لعدم تناوله طعام الفطور. وكان قد شرب من «العَرَق» العراقي ليكتسب قوّة قبل الموت؛ فهو يريد أن يصبح ثملاً بكل معنى الكلمة، قبل الذهاب إلى الجبهة، لئلّا يموت، كما يتوقّع ـ لكنه بقي على قيد الحياة».

وكان العديد من الجنود يشربون، ففي المحمّرة (خرمشهر)، جُرح أحد مصوّرينا للتلفزيون «عبد الزهرة» في يده، وفقد أحد أصابعه. كما أصيب «عبّاس» أحد رجال التصوير، في صدره. وفي عام ١٩٨٧،

قُتل «عبد الزهرة» وهو يصوّر في الجبهة عند موقع «قلاديس»، على تلّة تُسمّى «جبل بولغا». كما قُتل «عبّاس» في «الفاو» عام ١٩٨٨، خلال المعركة الأخيرة التي جرت هناك».

وفي معركة «شلمشه» انعزل موفّق بين خطوط الجبهة العراقية والإيرانية، في مَصيدة مع عدد من الجنود العراقيين الذين كان عليهم أن يستسلموا. وكان مختبئاً في حُفرة مع زميله الشمل «طلال». وكانت الأوامر ـ أوامر صدّام الشخصية ـ قد صدرت ليطير في مروحيّة، كي يصوّر عن كثب المعارك بين الجنود العراقيين والإيرانيين خارج البصرة. قال: «لقد كانوا قريبين جدّاً بعضهم من بعض، إلى درجة القتال بالسلاح الأبيض؛ وكنّا نستطيع أن نميّز بين الشهيد العراقي والشهيد الإيراني. وكان صدّام قد أمرني بأن آخذ معي شريطين على بكرتين من طراز «أريفلكس» (Arriflex)، فاستخدمتهما حتى آخرهما، وأعطاني صدّام فيما بعد ثلاثة آلاف دولار وساعة». وقد وجد موفّق نفسه في الكتيبة العراقية ذات الرقم ٦٠٣ من الجيش العراقي عام ١٩٨٧، وهو يتسلّق جبلاً في «كردستان» ليصوّر مشهداً للانتصار العراقي. لكنّه تاه على الجبل في الظلام، ووقع على حقل من الموتى العديدين؛ ولم يستطع أن يميّز القتلى العراقيين عن الإيرانيين.

وفي عام ١٩٨٥، فقد موفّق أخاه؛ قال:

«كان أحمد في التاسعة والعشرين من عمره. وكان له رفيق له زوجة على وشك الوضع في بغداد، فتطوّع أحمد ليحلّ محلّه بينما يسافر الصديق ليرى طفله القادم. وكان ذلك في الخامس من أيار/مايو ١٩٨٥. وكان أخي إذ ذاك يرافق قافلة تنقل الذخيرة إلى الجبهة، وقد تعرّضت لكمين؛ ولم نعلم أكثر من ذلك. ذهبت إلى الجبهة هناك، وتكلّمت مع قائده المقدّم رياض؛ فقال إنه لا يعرف ماذا حدث، وماذا كان مصيره. ربّما حصل هناك انفجار. ولكننا لم نتسلّم شيئاً: لا أوراقاً، ولا تأكيدات؛ بل لا شيء. وكنت في بغداد عندما انتهت الحرب. فسمعت إطلاق رصاص في الهواء. وكان الناس يقولون إن الحرب انتهت. ذهبت لتناول قليلاً من الويسكي والجعة. وظننتُ أن الناس سيصبحون سعداء، وسنبقى على قيد الحياة. فكّرت في مسألة أخي ـ إذ كان لدينا أمل بأنه سيعود، إذا كان بين الأسرى. انتظرنا سنين بعد سنين، ولم يأتِ أحد. لقد ضاع. لم تكن هناك رسالة، بل لا شيء. وكان أخي متزوّجاً ولديه بنتان وصبيّ؛ ولا تزال عائلته تنتظر عودته، وتتسقّط أخباره. ولما لم يكن هناك جسد، ولا تفاصيل عن موته، لم يوضع اسمه على نُصب الحرب التذكاري».

وبقي موفّق على قيد الحياة ليصوّر غزو العراق للكويت، ومن ثمّ جاءت العقوبات، ولم يعد يقدر أن يشتري أفلام «الكوداك» ـ وهو ما زال يعتقد أن الفيلم يعطي تحديداً لا يوفّره «الفيديو» ـ فانحصر تسجيله على الأشرطة في أفلام وثائقية عن إعادة البناء؛ حتى عُيِّن من جديد مصوّراً للأخبار، لدى الغزو الأميركي ـ البريطاني لبلاده عام ٢٠٠٣. لكنّه بقي حتى اليوم، تنتابه الهواجس بخصوص الوحشية التي شاهدها، ولا سيما بشأن التجربتين المريرتين اللتين عاناهما خلال الحرب مع إيران. وقد تكبّد الجيش العراقي خيبة مريرة على جبل «الماعوط» في السليمانية بشمالي العراق، عام ١٩٨٧. قال:

«كانت هناك شرطة عسكرية على الطرقات تحت الجبل، وكانت لديهم أوامر صريحة من صدّام مفادها: إعدام كلّ من ينسحب من القتال. ولسوء الحظ، أُلقي القبض على ثلاثة جنود، ووضعوا قيد الإعدام. لم يكن عليّ أن أشاهد ذلك؛ لكنني كنتُ شاهداً. لم أستطع أن أصوّر. وكانت أعمارهم بين ٢٠ و٢٦ سنة. وكلّهم قالوا الشيء ذاته: «انهار لواؤنا ـ فانسحبنا مع قادتنا». وكانوا كلّهم يبكون. لقد أرادوا أن يبقوا على قيد الحياة؛ ولم يصدّقوا أنهم سيعدمون، على يد فرقة للإعدام مؤلّفة من ستة إلى سبعة جنود. وقد قُيّدت أيديهم وراء ظهورهم؛ واستمرّوا في البكاء والصراخ والعويل. حتى قُتلوا وهم يُعولون. ثم تقدّم رئيس فرقة الإعدام وأطلق النار على كلّ واحد منهم في جبينه. ويسمّون ذلك «رصاصة الرحمة». فتقيّأتُ».

أجل، إنها «رصاصة الرحمة». ما أسرع ما تعلّم العراقيون منّا. وحدث أيضاً خارج البصرة أن اتُّهم أحد الجنود بالفرار، وكان موفّق شاهداً أيضاً على ما حدث:

«لقد كان شابّاً صغير السنّ؛ وقد حاول مراسل جريدة الجمهورية أن ينقذه، إذ قال لقائده: «إن هذا مواطن عراقي؛ ويجب أن لا يموت. لكنّ القائد أجابه: «هذا ليس من شأنك ـ إبقَ بعيداً عن هذا الأمر». وهكذا كان مصير هذا الشابّ أن يُقتل على يد فرقة إعدام، بعدما عُصبت عيناه. كلّا، لم يبكِ، لكنّه أُعدم. قال إنه أب لأربعة أطفال. وناشدهم أن يبقوا على حياته. قال: فمن يُعنى بزوجتي وأطفالي؟ أنا مُسلم. أرجوكم فكّروا في الله تعالى ـ ساعدوني، إكراماً لله، إكراماً لصدّام ساعدوني، لديّ أولاد. أنا لست مجنّداً، أنا في الاحتياط. لم أهرب من المعركة. دُمّرت كتيبتي». لكنّ القائد أطلق عليه النار شخصياً ـ في الرأس وفي الصدر؛ ثم أشعل سيجارة. وتجمّع الجنود الآخرون من الجيش الشعبي، فصفّقوا وصاحوا: «يعيش صدّام».

الجزء الثاني

الإبادة

الفصل التاسع

محكوم عليه بالموت

«وستنطفئ ذكراي،
كما تموت قنبلة في جبهة القتال،
قذيفة جميلة مثل «الميموزا المزهرة».
«غِيُّوم أبولينير» من مؤلَّفه: «إذا متُّ هناك»
٣٠ كانون الثاني/يناير، ١٩١٥، في مدينة «نيم» الفرنسية

عندما كنتُ صبيّاً، كان والدي يُجلسني على رُكبتيه، ويضع أحد أصابعي على انبعاج في جبهته، ينسلّ منه أثر جرح قديم؛ ويقول: «هنا أصابني بسكّينه ذلك الصينيّ». وتتلو ذلك رواية غريبة عن كيفيّة حلّ مشكلة ألمّت بـ «بيل فيسك» مع أحد الصينيّين، خلال الحرب العالميّة الأولى، وكيف هاجمه الصينيّ، فأطلق عليه بيل رصاصة قاتلة من مسدّسه. وكنتُ أتفاخر أمام رفاقي في المدرسة بأنّ والدي «أردى رجلاً صينيّاً»؛ دون أن أعلم لماذا فعل ذلك.

كان لوالدي علاقة مُستغربة بحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. وقلّما أراد أن يتكلّم عن مشاركته القصيرة في ذلك النزاع؛ ولكنّه بقي يقرأ طوال حياته كل ما كُتب حول هذا الموضوع. لقد قرأ قصائد «ولْفرد أوين» ـ الذي كان يسكن كوالدي في «بيركنهيد»، ـ ودرس كل تاريخٍ رسمي خُطَّ حول الجبهة الغربية. وما زلت أتذكّر شهقات الرعب التي أصدرها عندما كان يقرأ دراسة نقديّة عن سيرة حياة «إيرل هايغ»، وتبيَّن له أن الرجل الذي احترمه في ما مضى كان كذّاباً فعلاً. وعندما كان يتعالج في أحد بيوت الرعاية الصحّية من إصابته بالسرطان في أواسط الثمانينيّات، طلبتُ منه أن يطلعنا على ذكرياته عن أيام الخنادق. قال: «لقد كان كل ذلك يا «فلّاح» هدراً كبيراً هائلاً».

كان والدي يناديني يا «فلّاح» Fellah منذ أن رآني لأوّل مرّة في مهدي. لقد كان يقرأ القصّة البطولية «للفرقة الفرنسية الأجنبية» المعنونة «مبادرة جميلة» بقلم «پ. س. رين». فعندما كان أحد الأبطال في الرواية يعاني من جروحه بصمت، كان رفيقه يلقّبه «بالفلّاح القويّ». ولم يخطر على بال والدي أن كلمة «فلّاح» باللغة العربية تعني القرويّ أو المزارع. وقد تؤخذ على محمل التهكّم، ما دمت قد قضيت نصف عمري في العالم العربي. وفي

الواقع، كنتُ في بيروت عندما توفّي والدي بيل فيسك عام ١٩٩٢ عن عمر ٩٣ سنة، وهو غير خائف من الموت؛ لكنه زاد إذ ذاك غضباً ومرارة. لقد كان مخلصاً لوالدتي «بيغي» ـ زوجته الثانية ـ ولم يغشّ أحداً أو يكذب على أحد. لقد دفع فواتيره في موعدها. عمل كأمين صندوق «بورو» في «كَنْت» في مايدستون لمدّة تناهز ثلاثين سنة. وكان ينتظر والدتي كل يومِ أحد لتذهب معه إلى «كنيسة جميع القدّيسين»، كي يذرعا معاً أروقة الكنيسة وينشدا المزمور ٢٣ قائلين: «مع أني أمشي في وادي شبح الموت، فإني لا أخاف أيّ شر يُحيق بي». لقد كان أبي وطنياً. ففي عام ١٩٤٠، لم يتردّد في طلب رشّاش «م ١٦» (M16) لتشكيل خليّة مقاومة في «كَنْتْ»، عندما بدا أنّ الألمان قد يغزون جنوبيّ ـ شرقيّ إنكلترا. وكنتُ أتباهى في المدرسة بشرح خططه لنسف جسر السكّة الحديدية في «شرقي مايدستون»، عند مرور قطار يحمل جنوداً من الألمان. ولو جاء النازيّون لقتلوا «بيل فيسك» بصفته «إرهابيّاً». وقد بقيت صورة تشرشل الكبيرة، وهو يتكلّم من هيئة الإذاعة البريطانية أثناء الحرب، على جدار غرفة جلوسنا في مايدستون سنين طويلة، حتى أزالتها والدتي بعد وفاته رحمةً بنا، واستبدلتها بلوحة ألوان مائية لنهر «مَدْواي».

ولسوء الحظ كان هناك وجهان «لبيل فيسك». فبينما كان مُخلصاً لوالدتي، كان أيضاً مُلاحِقاً للآخرين. فقد كان يدقّق أسبوعياً في مصاريف البيت معها، وهي تحاول أن تتجنّب أيّ خطأ تقع فيه بهذا الصدد. وإذا قاطعتُه أثناء ذلك، كان يضربني بشدّة على رأسي. كما أن وطنيّته كان يمكن أن تنقلب إلى عُنصريّة. فقد كنتُ أغتاظ منه في سنواته التالية عندما كان يلقّب السود بالعبيد (Niggers)، ويغضب مني عندما أجادله بهذا الشأن. كان يقول: «نعم أنا عُنصريّ، ومفتخر بذلك. إني أعتزّ بكوني إنكليزياً»؛ بينما تلوي أمي يديها في الممرّ.

كانت والدتي تحاول أن تلطّف من لهجته، وكان ينتهي بها الأمر إلى أن تبكي. وقد أُرسلتُ إلى مدرسة داخلية في التاسعة من عمري. وكنت أكره الإقامة هناك ـ بسبب العنف والتمييز الطبقي فيها. وقد رجوتُ والدي أن ينشلني من هذه الورطة، وكرّرت رجائي عبر الأسابيع والأشهر والسنين، دون جدوى. وكذلك فعلت والدتي. فقد كان يعتقد أن المدرسة الداخلية تعلّمني أن أعتمد على نفسي، كما أخبرني. لقد أرادني أن أصبح «فلّاحاً قويّاً». وكان اعتزازه بي عندما أنجح في الامتحانات ينقلب إلى شراسة عندما لا أطيعه. وكان ينتقي لي ثيابي كلّها، حتى «ربطات العنق» والأحذية. وعندما أنبأته بعد سنين بأني شبعت من اتجاهاته العنصريّة ـ إذ كان يلعن الإيرلنديين آنذاك ـ رماني بسكّين الطعام. وقد أخبرتني أمّي أنه لكمَ أحد موظّفي المجلس على خدّه عندما ظنّ أنه يتقرّب إليها. ولم أعلم أن ذلك الرجل كان رئيس بلدية مايدستون إلّا من عمّتي بعد وفاة والدتي.

كنتُ بالإجمال ولداً مُطيعاً. وكان والدي في نظري ـ مثلما يكون الآباء لجميع أبنائهم الصغار ـ حامياً لي وظالماً. كنتُ أحبّه عندما لا يحبّ الظهور. وقد حاولتُ أن ألطّف مزاجه بتلقيبي إيّاه: «الملك بيلي»؛ ممّا كان هجاءً لشخصيّته الطاغية. وعندما كان يلقّب نفسه «بالملك بيلي» ـ مُقرّاً بأخطائه، ومُنزلاً من قدر ذاته ـ كان يعود إذ ذاك كائناً إنسانيّاً عاديّاً. لقد علّمني حبَّ المطالعة في الكتب ولا سيّما التاريخية منها. فمنذ نعومة أظفاري، عرفت «درايك» و«نلسون»، و«هارولد الإنكليزيّ» و«التمرّد الهندي». وكان اختياره من الأدبيات يراوح بين تاريخ

«كولين» لأولاد إنكلترا و ج. أ. «هنتي» الرهيب. وعندما أُرسلت إلى المدرسة الداخلية كنت على دراية بمسألة اغتيال الأرشيدوق في سراييفو التي أشعلت شرارة الحرب العالمية الأولى. وكنت أعرف أيضاً أن اتفاقية «فرساي» وضعت حدّاً لتلك الحرب، لكنها لم تستطع أن تتجنّب نشوب حرب عالمية ثانية. وقمتُ برحلتي الأولى خارج بلادي في عمر العاشرة ـ فذهب «الفلاح» إلى فرنسا، وإلى تلك الميادين الحربيّة التي كانت لا تزال تؤرّق خاطر والدي.

وعندما توفّيت والدتي عام ١٩٩٨، اكتشفتُ المحفوظات الصغيرة التي جمعتها عن عطلة عام ١٩٥٦ هذه. وكانت محفوظة في دفتر جامع رخيص غلافه من الجلد الاصطناعي، أُلصقت فيه مجموعة من الصور الصغيرة باللونين الأبيض والأسود، تمثّل «بيل» و«روبرت» واقفين أمام سيّارتنا ـ الأوستن الإنكليزية، كما كانت تُسمّى، وأنا أستطيع أن أتصوّر لماذا اختارها أبي ـ خارج محطّة «دوفر» البحريّة، بانتظار مركب السكك الحديدية الإنكليزي القديم، المسمّى «عبّارة سبرتون» أي «معدّيتها»، كي تأخذنا إلى بولونيا؛ ثم روبرت بكنزته المدرسية جالساً قرب «بيل»، وصندوق السيّارة مفتوح، مع موقد كاز يهسهس قربنا؛ فضلاً عن «روبرت» عند قاطرة بُخاريّة فرنسية، و«بيل» و«پيغي» معاً أمام السيّارة والصورة مهتزّة قليلاً، ولا شكّ في أنني الشخص الذي أخذها.

وكان من الواضح أين يتركّز اهتمام أبي وتفكيره. فقد كتبت «پيغي» في الدفتر الجامع، وهي تضع خريطة رحلتنا: عبر مونتروي، و«هسدن، سانت پول»، و«أرّاس»، إلى «لوڤنكور». وقرب كلمة «لوڤنكور» كانت هناك صورة لطريق تحفّ بها الأشجار الباسقة، في آخرها هُريٌ وسطح متداعٍ منخفض تدريجاً. وقد علمت ما كان ذلك؛ فقد تكلّم أبي عنه عدّة مرّات فيما بعد. لقد وجد المنزل ذاته في منطقة الصوم (Somme)، الذي نام فيه بتاريخ ١١ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٨، آخر يوم من أيام الحرب العالمية الأولى. وفي رحلتنا التي قمنا بها عام ١٩٥٦، خجل أبي من أن يقرع الباب. وكانت هناك أيضاً صورة أخرى تظهره واقفاً أمام نُصب أُقيم للموتى من لوڤنكور في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. وكان يرتدي ربطة عنقه الزرقاء والحمراء الداكنة التقليديّة المعتمدة لفوج ليفربول الملكي.

وفي إحدى الليالي، كان والدي لابساً ربطة العنق تلك في فندقنا «ببوفيه»، ينتظر والدتي لتنضمّ إليه عند المشرب. وكنتُ إذ ذاك مُصاباً بتسمّم من جرّاء الأكل، فبقيت معي. وإذ بوالدي يفتح باب غرفة نومي فجأة، ويقول لها: «أريد أن أتكلّم معك ـ الآن». وتناهى إلى مسمعي من خلال الجدار الرفيع الذي يفصل بين غرفتهما وغرفتي، قوله المتكرّر لها: «كيف تجرُئين على تركي أنتظر هكذا؟ كيف؟». فصارت تبكي؛ فقال: «طيّب؛ لن نقول أكثر من ذلك بهذا الشأن». وقد استعمل إزائي تلك العبارة مرّات عديدة خلال السنوات التالية؛ وامتنع عن مكالمتي بعدها لأسابيع عقاباً لي على ما ارتكبت من مخالفة واقعيّة أو خياليّة. وكذلك، لم يتكلّم مع پيغي لعدّة أيام بعدما تركته ينتظر عند المشرب في الفندق. وكنا في صُوَر إجازتنا نبتسم دائماً. وكذلك فعلنا خلال العُطلات التالية؛ فقد ذهبنا إلى الأماكن ذاتها، حيث جرت معارك الحرب العالميّة الأولى التي اشترك فيها أبي، وأخذنا الصور ذاتها لتلك الحرب الكبرى، كما كان يسمّيها والدي. وذهبنا بخاصّة إلى «إيپر» مرّات عديدة؛ وكذلك إلى

«فردان». وإذ ذاك صارت والدتي تأخذ صوراً ملوّنة عندما كانت تلك الصور في أوّل عهدها؛ وكنا فيها دائماً مبتسمين.

ومع أن بيل لم يُرد أن يتكلّم عن تلك الحرب، فقد استدرجته وضايقته عدّة مرّات ليروي عنها بعض القصص. وتبيّن أن جُرذاً عضّه في الخنادق عام ١٩١٨؛ فنام عدّة ليالٍ في محطّة للإسعاف الأوّليّ، داخل كاتدرائية «أميان»، بعدما نُسف سقفها خلال القصف الألماني ـ وتذكّر أبي كيف كان ينظر إلى النجوم، بينما كانت تنظر إليه كراغل القرون الوسطى. وقد أراني مرّة صورة أخذها لجبهة القتال الغربية، لا يكاد يبلغ طولها سوى إنش واحد تمثّل أشجاراً مقطوعة وسماداً حيوانياً. وكان أبي قد اصطحب معه آلة تصوير إلى ميدان الحرب ـ خلافاً لكل القواعد والأنظمة الحربية؛ ولكن عندما كنتُ أهمّ بالمغادرة من أجل تغطية شؤون الحرب اللبنانية الأهلية عام ١٩٧٦، للتايمز، التفت إليّ وقال: تذكّر يا فلّاح، أن القذائف التي يجب أن تحذر منها، هي ضربات القنّاصين التي يجب أن تنتبه لها». وكانت تلك نصيحة صحيحة مبنيّة على خبرة خنادق الحرب العالمية الأولى.

وقبل موت والدي بقليل، حدّثني عن زواجه الأوّل ـ وكان سرًّا محفوظاً حجبه عني حتى اكتشفت يوماً بالصدفة في مقبرة مايدستون، قبرَ زوجته الأولى. كانت حبيبته منذ الطفولة، ولكن لم تردّ له ذلك الحبّ بعدما تزوّجها، ولا حتى ليلة الدُّخلة. وقد ماتت «ماتيلدا فيسك» عام ١٩٤٤ أثناء الحرب العالمية الثانية. وعلى الأثر، تزوّج «بيل» «بيغي» عام ١٩٤٦. وكان عمرها إذ ذاك ٢٥ سنة، بينما كان عمره هو ٤٦ سنة.

ولكنه أخبرني أيضاً قصّة أخرى مذهلة، غير اعتيادية. فعند نهاية الحرب العالمية الأولى بالذات، طُلب منه أن يرأس فرقة إعدام لتنفّذ الحكم بأحد الجنود؛ لكنه رفض. وبعدما انتهت الحرب، عاقبه الجيش بأن أجبره على نقل الجثث التي كانت لا تزال مُلقاة على أرض المعارك لدفنها في المقابر البريطانية الكبرى. وكنتُ أعرفه دائماً كارهاً للأشياء المتعفّنة المهترئة: كالعصافير النافقة والكلاب الميتة المطروحة على الطرقات. وكان عدم انصياعه للأوامر أمراً غريباً يصدر عنه؛ لكنني أكبرتُ فيه ذلك. وعلى مرور الأيام وصلت إلى نتيجة مؤدّاها أن رفضه قتل إنسان آخر كان الشيء الوحيد الذي فعله في حياته، وكنتُ مستعدّاً لأن أفعل مثله.

وعندما بلغتُ الثامنة والعشرين من عمري، اشترى لي والدي كتاب «وليم مور»؛ الخطّ الأصفر الرفيع»، أحد التواريخ الأولى عن القصاص الكبير (الموت) على جبهة القتال الغربية. وقالت لي أمّي إنّ أبي قرأه من أوّله إلى آخره، ولم ينبس ببنت شفة. وقد أرادني أن أقرأ عن مصير ٣١٤ رجلاً أعدمهم البريطانيون في الحرب الكبرى. فقد كان الأمر هاجساً له. وقبل موته بقليل، سألته عمّا إذا كان يعرف هويّة الجندي الذي رفض أن يطلق النار عليه. فقال إنه كان أُسترالياً، ثملَ وقتل دركياً فرنسياً. فناب عن أبي شخص آخر في رئاسة فرقة الإعدام.

وكان هذا كل شيء. وكنتُ قد رجوت والدتي مرّة أن تتحدّث مع والدي عن الحرب، وأن تستجوبه كصحافية، لاستكشاف هذه الحلقة المفقودة من حياته؛ فوعدتني بأن تقوم بذلك. ولكني لم أجد عند وفاته سوى

تسع صفحات قصيرة كتبها بخط يده ـ بقلم الرصاص ـ حول قصّة عائلته. فقد ولد عام ١٨٩٩ في «ستون هوس» في «ليسو ويرال تشيشاير». وكان والده «الماستر مارينر» المولود عام ١٨٦٨، ووالدته ابنة «ماركت غاردنر»، المولودة عام ١٨٦٩. ومن قُدامى عائلة فيسك أستاذ هولّندي جاء إلى إنكلترا عام ١٨٣٧. وقد درس «بيل» في مدرسة المجلس، وحاز منحة للدراسة في المدرسة الثانوية. ولمّا لم يستطع والده أن يعيله إذ ذاك، كان لا مناص من ترك المدرسة والمنافسة للعمل في دائرة «بورو» المالية، بين ٢٦ متقدّماً للعمل مقابل ٦ شلنات أسبوعياً. فنجح في المباراة وابتدأ بالعمل عام ١٩١٣ قبل عيد ميلاده الرابع عشر بأسبوعين». ولا عجب إذاً أن يحرص «بيل» على إكمالي دراستي. ولكنّ ملاحظاته أغفلت أن والده إدوارد كان ضابطاً مساعداً (Mate) على سفينة «كاتي سارك» الكبرى الراسية الآن في حوض «غرينويتش» لإصلاح السفن. وكانت هناك أيضاً نُبذة أخرى، مُفادها أن «بيل» لم يكتشف إلّا بعد الحرب العالميّة الأولى أن جدّه ـ والد والده «إدوارد» ـ قد خدم أيضاً خلال ذلك النزاع ذاته، كاحتياطي بحري في موقع «زيبروغي» عام ١٩١٨، عندما سدّ البريطانيون المرفأ البلجيكي لمنع استعماله من قِبل الزوارق والمدمّرات الألمانية.

ومرّت ستّ سنوات أيضاً قبل أن أكتشف مزيداً من المعلومات عن هذه الأمور. وهكذا، عندما توفّيت والدتي عام ١٩٩٨، وجدتُ تحت سطح بيتها في مايدستون صندوقاً من التنك من النوع الذي كانت العائلات ترسله إلى الجنود خلال الحرب الكبرى، مزوَّداً بالصابون وفُرش الحلاقة. قرأت على سطح العُلبة اسم «معطرة شيوتسباكي» فوق لوحة رسِمت عليها صورة امرأة شابّة، شكَّت في شعرها بعض الورود، وهي تكاد تبتسم. وبداخل العُلبة كانت عشرات الصور المحفوظة كتذكارات من حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. كما كانت هناك أيضاً بعض صور بحجم البطاقات البريدية، تمثّل أصدقاء «بيل» في الجيش، ممّن قضوا نحبهم منذ زمن طويل، وهم يرتدون البزّات الرسميّة لفوج ليفربول الملكي، وفي نظراتهم وقارُ شباب سائر إلى الهلاك. وقد كُتب على قفا إحدى البطاقات: «شباب برستون»؛ فضلاً عن وجود صور أخرى أخذها «بيل» بكاميرته غير القانونية، ومنها صورة واحدة، كنتُ قد رأيتها قبلاً، تمثل مشهداً ريفيّاً من مشاهد جبهة القتال شمالي «أرّاس عام ١٩١٨»، كما كتب بيل على ظهر تلك الصورة؛ وصورة أخرى تُظهر خيَّالاً على صهوة جواده، كُتب على قفاها «أنا على ظهر وايتسوكس قرب هايزبْراك». كما كانت هناك بعض العُملة الفرنسية، مع صورة تمثّل خمسين جندياً مع والدي، لا يلبسون قبّعات على رؤوسهم، مستلقين باسطين أذرعهم وأقدامهم في موقع الجبهة وجزماتهم بمساميرها موجّهة نحو الكاميرا. لكنّ الصورة المثيرة كانت تمثّل استعراض الكتيبة الرابعة لفوج ليفربول الملكي في «دوويه» بشمالي فرنسا، والحراب مشكوكة خلال عاصفة ثلجية؛ فضلاً عن صورة أخرى باهتة وسيّئة التظهير ـ تمثّل مدرسة المدفعية في دووية، وبناية نابوليونية أمام مكان الاستعراض، وحشداً من الجنود البريطانيين والأحصنة ومركبات المدافع؛ وقد كُتب على ظهرها: «اللواء كاپر يتفقّد الفرقة ب (B)».

ثم كانت هناك صورة فوتوغرافية كبيرة «لبيل فيسك»، وهو يتكئ على قاعدة نافذة بيت في أرّاس بفرنسا، مؤرّخة في آب/أغسطس عام ١٩١٨. لقد كان رجلاً طويلاً جميلاً، منفوش الشعر، عميق النظرات، نافر الأنف،

مع ابتسامة باهتة على وجهه، واضعاً يده اليمنى في سرواله، مع الحصان شعار الفوج على طيّة صدر سُترته. لقد بدا مثل «بورت لانكستر» في شبابه. وبصرف النظر عن جمال طلعته، لا بدّ لي من أن أعترف بأنه يشبهني قليلاً.

وقد أظهرَته صورة أخرى جالساً في سيّارة مكشوفة مع رجل وامرأة؛ فضلاً عن صورة غيرها أُخذت في الريف الفرنسي بدا فيها لابساً ثياباً مدنية، إنما مع لفائف قماش حول الساقين، كان الجنود البريطانيون يلبسونها لتقيهم من تسرّب ماء الخنادق إلى أحذيتهم. وكانت وراءه على غصن شجرة، قبّعة نسائية. فهل حصلت له قصّة حبّ أثناء الحرب؟ لم يقل شيئاً عن ذلك؛ وكذلك والدتي. فعندما كان في فرنسا لم تكن قد وُلِدَتْ بعد. ولكن عندما مات، عثرتُ على بطاقتين لحضور مهرجان سباق في «الونشان» عام ١٩١٩. وطلبت والدتي مني أن أرميهما؛ إذ لم ترحّب بأن يحتفظ «بيل» بهاتَين البطاقتَين طوال تلك السنوات.

كانت عُلبة التنك التي احتوت الصور محفوظة في صندوق أحذية تحت السطح. ولكني عثرت أيضاً في غرفة والدي على صفحات مكتوبة بخطّها كانت في جارور طاولتها. وكانت عبارة عن مقابلة أجرتها مع والدي بناء على طلبي منذ عقد من الزمن. فقد تكلّم بيل بحريّة معها؛ ووصف حماسه عندما جرى تعيينه في فرنسا ــ ممّا يدعو إلى العجب، لأن رفاقه من «ليفربول» ماتوا في موقع «إيبر» في فرنسا ــ وتأثّره عندما لبس بزّة الضابط الرسمية، وتسلّم منحة ٥٠ ليرة إسترلينية ومسدّساً من طراز «سميث وسّون». قال إنه شعر بأنه «مشير». وكان قد أُرسل إلى فرنسا في آب/أغسطس عام ١٩١٨، حيث وجَد آلافاً من الصينيّين استُقدموا ليصلحوا من شأن الطرقات الملأى بالحُفر. وكان هؤلاء الصينيّون قد نهبوا قطاراً فرنسياً يشحن المؤن. وجاءت كتيبة والدي على أثر ذلك... وكان والدي إذ ذاك ضابطاً ثانوياً. وعندما وصلت الكتيبة لم يسمح الصينيون لها بدخول مخيّمهم المؤلّف من أكواخ محاطة بشريط شائك؛ لكنهم سمحوا له شخصياً بأن يدخل. قال:

> «عندما وصلنا لم يسمحوا لنا بالدخول؛ بل سمحوا لي وحدي بذلك. فقلت لذلك الرجل الصينيّ الذي يتكلم الإنكليزية: «لقد أُرسلت لأستقصي مسألة قطار شحن فرنسي، مع فصيلتي المؤلّفة من ثلاثين رجلاً. فأجاب: «تفضّل، دون رجالك». فلم أُلقِ بالاً لقوله؛ ولكني لم أرحّب بتعبير «دون رجالك». فدخلت وجلست إلى طاولة، وكان هناك صينيّون حولنا. فهاجمني ذلك الرجل بسكّين وجّهها مباشرة إلى جبهتي بين عينيّ. وكنت إذ ذاك منحنياً أحاول أن أقرأ شيئاً، عندما رأيته يتحرّك. فتحرّكت، ولولا ذلك لطعنني في قفا رقبتي. فأطلقت عليه النار ووثبت إلى الباب وركضت بعدوٍ سريع جدّاً، لأنهم جدّوا في أثري؛ وفتح العريف المسؤول عن رجالي النار عليهم ــ لا أدري كم قُتل منهم؛ لكنه أحسن صُنعاً».

وكانت القصص العديدة التي رواها أبي لأمّي متناثرة. فقد عضّه الجُرذ في صدره خارج موقع أرّاس «وكانت الجرذان محتشدة بالآلاف حول خطط الجبهة، ولا شكّ في أن أسنانها كانت مسمومة، نظراً لأنها كانت تقتات جِيَف القتلى المُلقاة هناك منذ أسبوع أو أكثر... وكان في مستشفى «أميان» أسرى ألمان يخدمون هناك. وقد

أهداني الأسير الألماني، الذي كان يخدمني، صندوق ذخيرة رَسم عليه الحصان، شعار فرقتنا، واسمي ورتبتي». وقد جلبته معي إلى «بركنهد» حيث بقي وقتاً طويلاً على مدخنة والدتي، ثم اختفى قبل أن أولد. وقال أبي: «لو بقي هذا الصندوق لفرح به ابني روبرت».

وكانت هدنة تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٨ عبارة عن وقف لإطلاق النار؛ ولذا بقي عشرات الآلاف من الجنود البريطانيين في أوحال الجبهة، لئلّا يتجدّد القتال مع الألمان. وفي مرفأي «دوفر» و«فولكستون»، رفض آلاف الجنود البريطانيين أن يركبوا في الزوارق الذاهبة إلى فرنسا عام ١٩١٩؛ لكنّ والدي تطوّع كي يخدم في الجندية سنة أخرى. وأخبر والدتي عن الرحلات التي قام بها مع قائده على صهوات الجياد عبر المدن الفرنسية الشمالية المهشَّمة، بينما كانت القوى الغربية الظافرة تعقد اجتماعات «فرساي» وتمعن تقطيعاً في أوصال إمبراطوريات أوروبا والشرق الأوسط. وكان أحد الأحصنة التي استخدمها والدي أعور؛ فدار به دوراناً ورماه في باحة سكّة حديد فرنسية. كما أُرسل أبي إلى «كولونيا» مع جزء من جيش الاحتلال، وإلى ميناء «الهافْر» ليشرف على مغادرة آخر قافلة من الجنود البريطانيين المقاتلين لفرنسا.

ولكن، لم يكن في تلك المذكّرات سوى القليل عن الحرب ذاتها، ومعاناة الحياة في الخنادق التي أعرف أنه قضى فيها أسابيع طوال؛ كما لم يذكر شيئاً عن فرقة الإعدام التي رفض أن يترأسها. وكانت الصفحة الأخيرة من مذكّرات والدتي هذه قد انقطعت في منتصف جملة. فهل أتلفها والدي ـ عدا ما أسرّ به إلى أمي، وخوافي بعض الصور الفوتوغرافية الصغيرة. وكان لا بدّ أن تكون هناك طريقة أخرى للتفتيش على محتوى الأشهر المفقودة من سيرة حياة أبي. ففي كانون الثاني/يناير، دخلتُ مكتب المحفوظات العامّة البريطانية في ضاحية لندن المسمّاة «كيو»، وطلبت ملفّ خدمة «بيل» الشخصي في الحرب ـ مع سيرة الحرب للكتيبتيْن اللتيْن خدم فيهما ـ الفوجيْن الثاني عشر والرابع الملكيّين لليفربول.

وعليّ أن أعترف بحصول وخز خفيف في ظاهر يديّ، عندما دقّ حاسوب القرّاء، وذهبت إلى المكتب، حيث ناولني موظف مدني في منتصف العمر الملفّ ذا الرقم (WO 374/24476)؛ وقد كُتب على غلافه (2nd Lt Wm Fisk). ولكنّ آمالي تهاوت على الفور عندما رأيت على الغلاف ذاته أنّ تنقية الملفّ جرت عام ١٩٣٦ وعام ١٩٥٥. فبدلاً من أن يحتوي الملفّ على خمسين أو ستّين صفحة مثلاً، كان يحتوي الآن على ما يناهز عشرين صفحة فقط. لكنّ تكليف «بيل» كضابط لم يمسّ. كما ظهرت في الملفّ مكانته المدنية: «مساعد ماسك دفاتر». وقد سُئل عمّا إذا كانت سلالته أوروبية خالصة، فأجاب بالإيجاب على استبيان المكتب الحربي، فلم تكن في ذلك مشكلة. وتحت تقويم «قدرته على القيادة»، كتب أحد الضبّاط: «حسن، لا تلزمه سوى بعض الخبرة». وكانت في ذلك الملفّ أيضاً: تواريخ إرساله إلى فرنسا، ونقله إلى الكتيبة العاملة بعد الحرب، ورحلته الأخيرة بالباخرة من «بولونيا» إلى «ليفربول» قبل عيد الميلاد عام ١٩١٩. ولا شيء غير ذلك. فماذا سحبوا من ذلك الملفّ؟ ربّما الإشارة إلى رفضه رئاسة فرقة الإعدام، ومجزرة الصينيّين الصغيرة؟

وكان هناك ملفّ (PRO) مستقلّ حول الصينيّين يظهر أن عددهم بلغ ١٨٧٠٠٠ في فرنسا عام ١٩١٨. كانوا مأجورين لوزارة الدفاع، وقد وُعدوا لدى استقدامهم بأن لا يعملوا على جبهة القتال. ولم يتمّ الوفاء بهذا الوعد. وكان لقبهم «عمّالاً حمّالين»؛ مع توصية بإبقائهم بعيداً عن الأوروبيين. وقد أُعدم منهم عشرة أشخاص بتهمة القتل؛ ولم يُنعَم على بعضهم باسمٍ - بل برقم فقط - عندما أُطلقت النار عليهم عند الفجر من قِبل الجنود البريطانيين. وقد أوردت المذكّرة الحربيّة تورّطهم مرّة في نهب قطار مؤن فرنسي.

ثم رنّ حاسوب القرّاء من جديد مُعلناً وصول مذكّرات الحرب المتعلّقة بفوج ليفربول الملكي من قسم المحفوظات. ففي الأشهر الأخيرة من الحرب العظمى، شنّ الألمان هجوماً ضخماً كاد يبلغ باريس؛ ولكنهم رُدُّوا على أعقابهم بواسطة جنود الحلفاء من بريطانيين وكنديين، وفرنسيين، ومن الأميركيين الواصلين حديثاً. وهكذا اتخذت معارك «بيل» الأخيرة شكل هجوم مضادٍّ قام به الحلفاء، وكان ساري المفعول عندما انتهى النزاع. وكانت مذكّرات الحرب لتلك الكتيبة قد وردت مكتوبة بخط اليد على ورق مهلهل، مفتّت الأطراف، وموضوعة في صناديق كبيرة من الكرتون. لكن الصفحات المتعلّقة بتاريخ الكتيبة الثانية عشرة بدءاً من آب/أغسطس ١٩١٨، بدت مألوفة بغرابة. وسأقضي عدّة ساعات لأعرف ذلك.

كانت هناك تقارير مستعجلة في مذكّرات الحرب حول «الاعتداء بالقصف»، و«قذائف الغاز التي سبّبت مقتل أربع ضحايا من رُتب أخرى». وفي ٢٢ آب/أغسطس، حصلت غارة على الخنادق الألمانية انتهت بالقبض على أسيرين «وقد دُمّرت معظم تحصينات العدوّ الإسمنتيّة تحت وطأة قصف مدفعيّتنا». وفي أوّل تشرين الثاني/نوفمبر وجدت الكتيبة مأوى لها بأمر رسمي في شارع «سان روون» في «كامبريه». وكنت أعلم أن أبي كان في «كامبريه» - وكان قد أعلمني أنها كانت مشتعلة عندما دخلها مع فرقة كنديّة. ولكنّ الكتابة بخط اليد هي التي استرعت انتباهي. فقد كانت متماثلة مع ما كُتِب على قفا الصور الفوتوغرافية التي عثرت عليها تحت سقف البيت الذي كانت تسكنه والدتي؛ حتى أن الخطوط القصيرة الملتوية التي كان «بيل» يصفّها تحت حرف «د» (D) الكبير، كانت أيضاً هناك، تماماً.

فلا شكّ في أن بيل فيسك كان ملازماً ثانياً مولجاً بكتابة مذكّرات الحرب، كل ليلة؛ إذ إنه كان قبل ذلك طبعاً «ماسك دفاتر محاسبة». وكانت تلك المداخل أحياناً لا تتعدى كلمات قليلة، أو ملاحظة حول الطقس القاسي العاصف - فقد كان أبي طول عمره يسمّي الطقس الماطر عاصفاً؛ وكنتُ أبتهج لتلك التسمية - ولكن، كانت هناك أيضاً تقارير أطول مكتوبة باللغة العسكرية الجافّة التي علّموه إيّاها، كقوله في أول تشرين الأول/أكتوبر: «دوريات ناشطة ليلاً ونهاراً»... «كانت الدوريات ناشطة، تلتحم باستمرار مع العدوّ. ففي صباح اليوم الخامس من الشهر تحرّكت دوريّاتنا شمالاً وجنوباً من المواقع الجديدة التي احتلتها... وواجهت مقاومة من المدافع الرشاشة العديدة». وكان «بيل» يذكر الألمان في المذكّرات الرسمية للحرب بصفة «العدوّ»؛ كما كان يسمّيهم شخصياً «البوش» (The Bosche)، طول عمره.

لقد وجد بيل مأوى رسمياً أيضاً في «دوويه»، كما علمتُ. فقد كانت مع تلك الصور الفوتوغرافية التي وجدتها في علبة «التنك»، صور أخرى ملتقطة من بعيد لأسرى ألمان يقودهم رفاق «بيل» من فوج ليفربول الملكي في طريق ذات ثلاث شعب؛ فضلاً عن مئات من البطاقات البريدية. فحيثما حلّ «بيل» كان يشتري تلك الصور الرخيصة من المدن والبلدات والقرى الواقعة في شماليّ فرنسا. وبعضها يظهر الدمار والخراب اللذين أحدثهما القصف الألماني، لكنّ أكثرها طُبع قبل الحرب ـ إذ إنها تمثّل بلدات باقية منذ القرون الوسطى، وكنائسها ذات الأبراج المستدقّة، وشوارعها المرصوفة بالحجارة المدوّرة، وواجهات البيوت «الفلامنكية»، وحافلات «التراموي» التي تجوب بين البنايات ذات الشرفات الخشبية ـ وقد كانت حتى في ذلك الزمن الذي اشتراها فيه «بيل» ذكريات عن فرنسا التي لم تعد موجودة.

وكانت هناك ٢٤ بطاقة بريدية في مجموعة «دوويه»، كان بيل قد أرسلها إلى ذويه: إدوارد ومارغريت فيسك، في بركنهَد، كما يتبيّن من السطر أو السطرين اللذين كتبهما على قفاها. وعلى ظهر صورة فوتوغرافية تظهر حافلة «ترامواي» تجتاز شارع بيلّان ـ المدمَّر بفعل القتال الحديث ـ كتب «بيل» ساخراً: «لم أرَ أيّ حافلة ترامواي هنا حتى الآن». ومهَر بيل صورة «ساحة الأسلحة» ـ حيث برج الساعة التابع لقاعة المدينة التي تبدو عن بُعد، وصفت من المباني الأنيقة الباقية من القرن التاسع عشر والواقعة عن يمين البرج ـ بالوصف الآتي: «إن المباني البادية عن يمين البرج متهدّمة. وقاعة طعامنا تبعد مئة ياردة عن البرج المسمّى بالفرنسية «أوتيل دو ڤيل»، أي «فندق المدينة». أما صورة «بوّابة أرّاس» الباقية من القرون الوسطى، فكتب عليها «بيل»: «مكان إقامتنا الرسمي يبعد ٥٠ ياردة عن هنا ـ ويليام»، مرسلاً قُبلة لوالدته مرغريت. وبين الصور، رسم مطبوع كبير لزوج من الوجهاء بملابسهما الفاخرة، ممّا يشير إلى تاريخ «دوويه» العنيف(*). وكان من الأسهل على «بيل» أن يفهم صورة مثيرة ـ نُشرت طبعاً بعد تحرير البلدة بواسطة البريطانيّين ـ تُظهر جنود الاحتلال الألمان بخُوَذهم المستدقّة الرأس، وهم يمرّون في عرض أمام ضبّاطهم في ساحة «بارليه». وقد أرسلها «بيل» إلى أهله في «بركهَد»، وكتب على قفاها غاضباً: «هذه هي طريقة «البوش»، أي الألمان، في دخول بلدة من البلدات».

وأجمل من ذلك وأدقّ، صورةٌ مؤطّرة مأخوذة في ممرّ مُقنطر، تُظهر مجموعة من مباني حجارة القرميد ذات البُرَيْجات، قريبة من قاعة البلدة. وكان «بيل» قد رسم إشارة الصليب على الشارع المرصوف عن يمين البطاقة البريدية تحت قاعة الطعام ليدلّ عليها إزاء الرقم ١٦٠٦، عند ممرّ «فندق المدينة». لقد بقي هذا الشارع بعد الحرب العالمية الأولى، فهل يصمد بعد الحرب العالمية الثانية؟ وفي إحدى جولاتنا التي لا تنتهي حول مواقع المعارك، أخذنا «بيل»، أنا ووالدتي، عبر «دوويه» ـ ولا شكّ أن ذلك كان في أواخر الخمسينيّات من القرن العشرين ـ لكني لم أعد أتذكّر تلك البيوت. وكلّ ما أتذكّره هو أنّ أحد رجال الدرك صفّر لأبي كي يوقف سيّارته

(*) إن «غايان» زعيم «كانتان»، الملقّب «بجيهان جيلون» حرّر مدينة «دوويه» التي كانت محاصرة من قِبل الاسكندينافيّن القدماء (Norsemen). ومع أن «بيل» كجندي، كان يحمل دائماً قاموساً فرنسياً في جيبه، فقد كتب على قفا الصورة آسفاً: «لا أدري ماذا تعني».

الأوستن الإنكليزية، إذ كان يسير عكس اتجاه السير في ذلك الشارع؛ حتى أن «بيل» كان قد ابتاع نموذجاً خشبياً صغيراً لدركيّ سمين، كي يحتفل بأن شرطياً فرنسياً مُختالاً تجرّأ على أن ينتقد سياقة أحد البريطانيين الذين حرّروا «دوويه». وبقي ذلك النموذج منتصباً سنين طويلة على عتبة نافذتنا في غرفة الجلوس بيتنا في «مايدستون».

وبعد مرور ٨٦ سنة على إرسال بيل لتلك البطاقات البريدية من «دوويه»، أعدتُها إلى ظرفها وكتبتُ على الغلاف: «ويليام فيسك، ملازم ثانٍ»؛ وانطلقتُ لزيارة تلك المدينة الفرنسية مرّة أخرى، تلك التي دخلها «بيل» تحت القصف الألماني عام ١٩١٨. ولكني لم أكن واثقاً ممّا آمل أن أجده في «دوويه». ربّما أجد شبح البلدة التي دخلها، وبعض المباني التي لا تزال قائمة فيها، مثل رصف الشارع بالأحجار المدوَّرة التي سار عليها ذلك الجندي من الجيل السابق؛ تلك الحجارة التي رسم عليها إشارة الصليب قبل ٢٨ سنة من تاريخ ولادتي. وكان القطار السريع المنطلق من المحطة الشمالية عبر الريف النديّ في شمالي فرنسا، ينزلق إلى «دوويه» خلال ساعة من الزمن. بينما ينقر المطر نوافذ عرباته. وكان لديّ تصوّر بأن أستخدم الصور التي تركها بيل لاستكشاف معالم المدينة، ومعاودة تركيب صورته عن «دوويه» ـ مع أن المدينة صارت بالغة التضرّر بعد الزمن الذي أرسل فيه أبي تلك البطاقات ـ ومتابعة السير على خطاه. فإحدى تلك البطاقات البريدية تصوّر محطّة سكّة الحديد في المدينة، الباقية من القرن التاسع عشر والمؤلّفة من ثلاث طبقات، وذات الأسلوب المعماري الهولّندي، بنوافذها المحاطة بأحجار تزيّنها؛ فضلاً عن وجود أحصنة وعربات ومركبة قديمة ذات محرّك في مقدّمة الباحة. لكنّ المحطّة التي دلف إليها قطاري كانت مبنى مثل الصندوق، سقفه، مقشور، ومن مخلّفات أواخر الأربعينيّات من القرن العشرين. وكان «بيل» قد كتب على ظهر صورة المحطّة تلك، كلاماً غير واضح المعالم، بمعنى «إنّ هذا قد تضرّر قليلاً».

ولم يطل بي الأمر حتى اكتشفتُ السبب؛ «فقد قصف البريطانيون والأميركيون ذلك المكان وفتّتوه أجزاء خلال الحرب العالمية الثانية»؛ كما أخبرني رجل عجوز كان جالساً قربي في مشرب المحطة. «وعلى التوالي، دمّر الألمان «دوويه» عام ١٩١٤، ثم عام ١٩١٨، وبعد ذلك عام ١٩٤٠. أما البريطانيون والأميركيون فقد قصفوها عام ١٩٤٤. وأرادوا أن يمنعوا الألمان من استخدام خط السكة الحديدية من أجل إرسال تعزيزات إلى النورماندي بعد الإنزال على الشاطئ». توقّفتُ عند إحدى المكتبات؛ فوجدت سيلاً من الكتب المتمحورة حول الاحتلال الألمانيّ الصادرة بمناسبة الاحتفال بمرور ستّين سنة على تلك الأحداث، مع أنه لم يكن بينها أيّ كتاب عن المدينة يعالج وضعها خلال الحرب العالمية الأولى. أليس ذلك غريباً؟ ولكنّ أحد كتيّبات التاريخ العسكري للمدينة أورد كيف احتلّ الجنود الألمان المدينة بتاريخ ٣١ آب/أغسطس ١٩١٤ ـ بعد ٢٧ يوماً من نشوب الحرب، أو بعد أربعة أشهر على عيد ميلاد «بيل» الخامس عشر ـ راوياً كيف طُرد الأهالي من المدينة ثم عادوا إليها بتاريخ ٢ تشرين الأول/أكتوبر. كانت «دوويه» أول خط للسكة الحديدية، ومركزاً لتعدين الفحم؛ وبالتالي هدفاً عسكرياً استراتيجياً. فكل الفرنسيين الذين تراوح أعمارهم بين ١٧ و٥٠ سنة تلقّوا الأمر بالمغادرة، ثم بدأت حركة المقاومة، وشرع الألمان يأخذون الرهائن. فأرسلوا عشرين رهينة إلى ألمانيا بتاريخ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٦، وأتبعوهم بثلاث وثلاثين رهينة أخرى ـ بينهم ١٢ امرأة ـ أُرسلوا إلى ألمانيا ولتوانيا في أواخر شهر

كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧. وبالإجمال، مات ١٩٣ مدنياً من هذه المدينة على يد الألمان خلال الحرب الكبرى.

انقطع المطر، فسحبتُ بطاقات «بيل» البريدية من ظرفها. لقد كانت المكتبة في شارع «سانت جاك»؛ وقد أظهرت صور أبي الشارع ذاته قبل الحرب. كان هناك خط «ترامواي»، وحافلة، وأكثر من ثلاثين شخصاً ـ والعديد منهم من النساء اللواتي يلبسن مآزر بيضاء ـ واقفين في الشارع وعلى الرصيف. وكان الشارع ينعطف نحو اليسار، كما هو ظاهر أمامي. وإلى اليسار بناية من ثلاث طبقات لها شُرفات خشبية غير اعتيادية، مع شَعْرية كبيرة متدلّية فوق خط «الترامواي». وكانت هذه الشرفة لا تزال قائمة هناك. لقد كانت هذه «دوويه» التي عهدها بيل. تمشّيتُ على طول القناة. وكانت بطاقة «بيل» المختصّة بهذه القناة، تُظهر عدّة مبانٍ من الطراز «الفلامنكي» متماثلة مع مباني رصيف الميناء الذي كنت أتمشّى عليه. استدرت إلى اليسار لأدخل شارعاً مرصوفاً بالحجارة المدوّرة، بدا من المؤكّد أنّ أكواخه المنخفضة لم تُلمَس منذ قرن من الزمن. فهل مشى «بيل» ورفاقه الجنود في هذا الشارع عام ١٩١٨؟

عادت الدنيا تمطر، ولمعت أحجار الشوارع المرصوفة؛ فأرجعتُ البطاقات البريدية إلى ظرفها. إن الصحافيين يريدون أحياناً أن يكونوا مُخرجي أفلام، ليعاودوا تخليق التاريخ من مصادر المحفوظات والخبرة على السواء. فباستطاعتي أن أرى الآن فوج ليڤربول الملكي ينزل في هذا الشارع تحت المطر، وخُوَذه تلمع، والدخان يتصاعد من البنايات المقصوفة وراء البيوت، وبعض المدنيّين الذين سمح لهم الألمان أن يبقوا في المدينة، يلوّحون للجنود البريطانيين الذين حرّروهم. فهل لوّح لهم «بيل» البريء ابن التاسعة عشرة مستجيباً لتحيّتهم؟ لا بدّ أنه فعل ذلك. لقد كان مُحرِّراً، بطلاً. ولا بدّ أن يكون هذا الشعور قد خالجه؛ ولا بدّ أن يكون ذلك الشعور طيّباً لجنديّ بريطانيّ موجود في «دوويه» عام ١٩١٨.

ولكن هل عرف تاريخ تلك المدينة؟ هل أدرك أنه منذ ثماني مئة سنة قبل وصوله إليها، انطلق سادتها الإقطاعيون في حرب صليبية قادتهم إلى الشرق الأوسط، كي يحرّروا القدس؟ وبالتأكيد، لم يكن ليعرف أن عائلةً من هؤلاء الصليبيّين الوافدين من هذه المدينة قد استقرّت شماليّ القدس (أورشليم) في بلد يُسمّى الآن لبنان، حيث تزوّجوا من أهل تلك البلاد المحلّيين المسيحيّين، وأسّسوا عائلة «الدويهي». ولماذا حاولتُ بعد رُبع قرن أن أستجوِب زعيماً لعائلة لبنانية صليبية أخرى، العجوز سليمان فرنجية ـ وكلمة «الفرنج» مشتقّة من كلمة «فرنسي» وتعني «الأجانب» و«الغربيين» باللغة العربية ـ بشأن اشتراكه في مجزرة بالرشّاشات ذهب ضحيتها آل «الدويهي» في بلدة «زغرتا» اللبنانية عام ١٩٥٧. لقد أُطلقت النار عليهم في كنيسة لبنانية؛ لكنّ العجوز سليمان فرنجية رفض أن يبحث ذلك معي. وعندما عاودت فتح الموضوع، صوَّب رجال ميليشياته رشّاشاتهم نحوي. ولذلك لم أكتشف أبداً خلفيّة وحشيّته الصليبيّة ـ الفرنسية. ومن المعلوم أن المسيحيّين في لبنان كانوا يتقاتلون في ما بينهم، حتى عندما تحدّاهم نفوذ المسلمين الصاعد الغامر.

ولكنّ ملامس التاريخ لا تُرخي قبضتها عنّا، ولا تفتأ تُناكدنا، حتى عندما لا نتصوّر وجودها. فأوروبا والشرق الأوسط، والغرب والعالم العربي، متشابكان بحيث يصعب فصلهما بعضهما عن بعض، حتى في «دوويه» الحديثة، عندما تجابهني قصّتي الصحفية. ففي زُقاقٍ مقابل للقناة، ها أنا أوقف رجلاً وأسأله أن يدلّني على محفوظات المدينة؛ فيعدني بالمساعدة وينبئني بأنه سيذهب إلى الجامعة ليَستفسر عن العنوان المطلوب، ويعتذر عن قلّة معرفته بالمنطقة لكونه لبنانيًا ـ كنت قد أدركت فجأةً أنّه كذلك. ريمون حدّاد، مسيحي لبناني من الأشرفية في بيروت؛ أبوه ضابط في الشرطة قضى أسابيع يحاول التوصّل دون جدوى إلى وقف لإطلاق النار بين الكتائب اللبنانية المسيحية والجنرال ميشال عون، قائد الجيش والمخلّص المسيحي الذي ادَّعى عام ١٩٨٨ أنه رئيس مجلس الوزراء. وكنتُ قد صرفتُ أكثر من سنتيْن وأنا أكتبُ تقارير عن ذلك النزاع الدامي العبثي بين الفئات المسيحية المتناحرة. وها أنا الآن على بُعد أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر عن لبنان، أطلب المساعدة من لبنانيّ مسيحيّ، بينما أقتفي خُطى والدي عبر حرب ضروس أكثر إخافة ورعباً. سمع مني ريمون حدّاد قصّة «بيل» أبي ـ إذ إن أولئك الذين قاسوا ويلات الحرب يُبدون تفهّماً لمثل هذا الاستقصاء التاريخي، ولو لم يُبدوا تعاطفاً معه ـ ورافقته إلى «فندق المدينة» الذي ساد برج ساعته الكبير العديد من بطاقات «بيل» البريدية.

وساعدتنا امرأة في «مجلس البلدة»، واستطاعت فوراً أن تحدّد الشارع الذي رسم «بيل» إشارة الصليب عليه ليدلّ على قاعة الطعام التي كانوا يأكلون فيها عام ١٩١٨. أمّا القنطرة التي بدت في الصورة فقد دمَّرتها قنابل الحلفاء عام ١٩٤٤، ولكن كان من السهل العثور على المباني البادية عن يمين الصورة. فقد كانت متماثلة بشُرفاتها، وأبراجها التي تحاكي أبراج القصور، ومنعطف الشارع، وصفوف الحجارة التزيينية المرصوفة حول النوافذ. وكانت السلطات قد أصلحت الثغرات التي أصابت حجارة البناء ـ بفعل شظايا القصف الذي جرى عام ١٩٤٤ ودمَّر القنطرة ـ لكنّ الشارع بقي على حاله لم يمسّ. قرعت جرس المنزل ذي الرقم ١٦٠٦ في الممرّ؛ وأنا أقول لنفسي أن بيل مشى على الدرجات المؤدّية إلى هذا الباب، عندما كان شابّاً يؤمن بالحياة وبالسعادة وبالوطنية، وربّما بالحبّ. وليس «بيل» الذي كان في منتصف عمره، حسبما أتذكّر من أيام طفولتي، أو الرجل العجوز الغاضب الذي كان يهدِّد والدتي.

لا أدري ماذا كنتُ أتوقّع إذ ذاك. فهل توقّعتُ أن ينبري «فيسك» الملازم الثاني ليفتح لي الباب، فيلتقي الابن البالغ من العمر ٥٧ سنة والده البالغ من العمر حينئذٍ ١٩ سنة، وهو يلبس البزّة «الكاكيّة» التي تصوَّر بها في بلدة «أرّاس» خلال آب/أغسطس عام ١٩١٨؟ فُتح الباب ـ ذاك الباب الذي كان يؤدّي إلى قاعة طعام الجنود ـ وحيَّاني رجل فرنسي صغير الجسم، بأدب جمّ، فتصوّرت أنّه محامٍ ـ وكان ذلك صحيحاً ـ وأبدى تفهّماً لقصّتي دون أن يتحمَّس لها. أجل، هذا هو البيت الذي كانت فيه قاعة طعام «بيل»، وكان صاحبه السيّد «لوروا» محامياً يُعبّر عن نفسه بكلّ دقّة. وكانت شُرفته ذات الحديد المُطاوع الذي يسيِّجها ويطلّ على ذلك الشارع الضيّق، هي ذاتها البادية في البطاقة البريدية. لكنّ كلّ شيء تغيَّر في الداخل. فقد ابتاع المحامي هذا البيت منذ ثماني سنوات، وأعاد تركيب الغُرف ـ بعدما كان قد أعيد بناؤها داخلياً في أعقاب الفترة الطويلة من الزمن التي تلت

الحرب العالمية الأولى. فأهله يعيشون الآن في القاعة الطويلة المنخفضة، حيث كان «بيل» ورفاقه من الضبّاط الصغار يشربون ويدخّنون بالغليون. نظر السيّد «وورو» إلى صديقي اللبناني الملتحي ـ الذي بقي حيّاً بعد الحرب التي عاناها ـ ثم نظر إليّ ـ أنا الذي عانيت حرب «ريمون» وحروباً أخرى، وبقيت حيّاً ـ وشكرني لاهتمامي بمنزله.

ولكن، بماذا أتوقّع أن يبدي مواطن من «دوويه» تعاطفاً أكبر معي؟ ففي الحرب العالمية الثانية، قتلت الغارات الجوّية البريطانية والأميركية ٣٤٢ مواطناً في المدينة خلال ليلة واحدة فحسب، بتاريخ ١١ آب/أغسطس ١٩٤٤، وتركت كثيراً من المباني القديمة جدّاً أطلالاً ـ بما فيها مبنى مدرسة المدفعية التي كان «بيل» قد صوّرها منذ أكثر من رُبع قرن. ومن المعقول أن يكون بعض الموتى ممَّن حرَّرهم «بيل» وجنوده عام ١٩١٨، عاشوا ليموتوا على أيدي أبناء بلاده بعد ٢٦ سنة. كما يمكن أن يكون من بينهم اليهود الفرنسيون البالغ عددهم ١٣ شخصاً الذين هجَّرهم النازيون عام ١٩٤٢. فقد مات عدّة أشخاص من أهالي «دوويه» تحت التعذيب بأيدي «الغستابو» (البوليس السرّيّ النازيّ) مع العلم أن عمّال المناجم المحلّيين دعموا المقاومة المحلّية بقوّة؛ وكان الكثير منهم من الشيوعيّين.

ولكنني تساءلت: «ما قيمة الحرب التي خاضها «بيل»؟ بينما كان القطار يعود بي إلى باريس عبر الريف النديّ في موقعة «الصوم»، قاطعاً خطّ الجبهة القتالية القديمة، من فرنسا التي احتلّها الألمان إلى فرنسا التي رابط فيها البريطانيون. على مدى أربع سنوات مات عشرات الألوف من الجنود كي يحموا هذه الخطوط ـ التي لا تعدو الآن كونها موجات خفيفة عبر الحقول ـ بينما كان قطاري يقطعها كلّها في أقلّ من عشر ثوانٍ، مجزرة تمّت في سُدس دقيقة. وبينما كنتُ أحتسي قهوتي في الدرجة الأولى، لاح لي بسرعة خاطفة مرأى مقبرة عسكرية بريطانية، فلم أستطع أن أقرأ أسماء القتلى تحت الإسمنت وعبر القبور.

وكان والدي يقول لي دائماً إنني سأرث مكتبته عندما يموت؛ تلك المكتبة التي تشغل جداريْن من الكتب في منزلنا في مايدستون، والتي كانت مرجعاً له كلّما أخنى عليه الدهر. وكان يردّد دائماً: «الديّ دائماً كُتبي». وبالفعل كان لديه مؤلّفات تشرشل كافّة، المتضمّنة مجلّديْن من سيرة حياة «مالبورو»، وقّعها بنفسه لبيل عن طريق صديق له في حركة «المدَّخرات الوطنية». وما زلتُ أتناول ذلك الكتاب من وقت إلى آخر عن الرفّ؛ وأرى توقيع «ونستون تشرشل» المكتوب بقلم حبر والمنزلق عبر الصفحة تعمره الثقة بالنفس مثلما كانت حاله عندما كتب تقاريره عن الأفعال العسكرية على الحدود الأفغانية، وعندما كتب مديحه للربابنة الشبان في معركة بريطانيا عام ١٩٤٠. وقُبيل وفاة والدي صارت مكتبتي أكبر من مكتبته ـ ولكنّي لم أقل ذلك له، طبعاً ـ مع العلم أن مجموعات كتبه الكبرى عن حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وعقابيلها كانت قيّمة بحيث لا ينوب عنها شيء. وقد استعملتُ بعضها كمراجع لهذا الكتاب وكانت هناك مذكّرات «هايغ» و«لويد جورج»، و«آلنبي» ـ الذين دخلوا القدس عام ١٩١٧ بعد ثمانية أشهر من دخول «مود» إلى بغداد ـ بجانب المجلاّت المصوّرة الأسبوعية للحرب الكبرى، والتحاليل لمعاودة ترسيم الحدود العالمية بعد الحرب.

وعلى العموم، استغرق الحلفاء من جيل والدي ٢٣ شهراً ليخلّقوا تلك الحدود الاصطناعية والدول الاصطناعية التي تحتويها تلك الحدود. فدولة لبنان الكبير الجديدة انتُزعت من جسم سوريا، وأعلنها اللواء «هنري غورو» بتاريخ ٣٠ آب/أغسطس عام ١٩٢٠. وشُكّلت كذلك يوغوسلافيا، مملكة الصرب المزعومة، من الصرب، والكرواتيين، والسلوفينيين، وأُعلنت بتاريخ ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٢١. ووُقّعت المعاهدة الإنكليزية ـ الإيرلندية التي جزّأت إيرلندا بعد حوالى ستة أشهر، بتاريخ ٦ كانون الأول/ديسمبر. وأقرّت «عُصبة الأمم» انتداب بريطانيا على فلسطين ـ بما فيه شروط اتفاقية بلفور ـ بتاريخ ٢٢ تموز/يوليو ١٩٢٢، بعد ١١ شهراً من تنصيب الملك فيصل ابن الشريف حسين ملكاً على العراق بواسطة البريطانيين. ومن الواقع المتجهّم المقيت في حياتي الشخصية، كما أفكّر غالباً، أنّ مهنتي كصحافي ـ التي بدأت في إيرلندا، ثمّ انتقلت إلى الشرق الأوسط والبلقان ـ صرفتُها في كتابة التقارير عن هذه الحدود الوهميّة اللاهبة، وانهيار تلك الدوَيلات التي أقامتها الحرب التي خاضها والدي، وسمحت بقتل شعوبها. ومن طرائف التفكير حول روحية ذلك العصر، أن معظم عمليّات معاودة وضع خرائط تلك المناطق وإقامة دُوَيلاتها، يفترض أنها حصلت بالنيابة عن الأقليّات، التي لم تكن هي ذاتها تريد أبداً وضع تلك الخرائط، ما عدا حالة يهود فلسطين، وحالة البروتستانت في شماليّ إيرلندا.

فقد سقط الكروات والصرب فوراً. وحصل شغب طائفي شرس في إيرلندا، بينما نشبت حرب أهليّة بين الوطنيين الإيرلنديين. ودمّر الفرنسيون جيش سوريا العربي، وأعدموا وزير دفاعه، وقمعوا تمرّدات قامت في سوريا ولبنان. وواجهت بريطانيا تمرّداً وطنياً في العراق. وحوالى الثلاثينيّات من القرن العشرين الميلادي، صار البريطانيون يحاربون تمرّداً في فلسطين، قام به العرب الساخطون على تقسيم أراضيهم وإعطائها لليهود كوطن قومي. أما الوعود بالاستقلال التي قطعها ت. إ. لورانس للعرب، فلم يعد لها قيمة؛ بينما جاء في تصريح اللورد بلفور عام ١٩١٧ حول فلسطين حرفياً ما يلي: «إن حكومة صاحب الجلالة ترحّب بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين»؛ فضلاً عن مُلحق خارجي ينصّ على أنه «لا يجب القيام بشيء يضرّ بالحقوق المدنية والدينية للسكّان غير اليهود في فلسطين». وفي الواقع، لم يكن بلفور مهتمّاً باستشارة عرب فلسطين حول مستقبلهم؛ بل إن اللورد بلفور نفسه اتّخذ موقفاً يكاد يكون مماثلاً أيضاً ـ ولكنه أكثر انفتاحاً ـ إزاء إيرلندا الشمالية. كما أن «بلفور» أعطى أيضاً دعماً وزاريّاً حيويّاً لرئيس الوزراء «جايمس كريغ» عندما اقترح أنه، بالنظر إلى عدد الكاثوليك الذين قد يخدمون في شرطة «ألستر» الملكية، يلزم إنشاء قوّة بروتستانتية من قوّة «ألستر» المتطوّعة الطائفية. وهكذا صار لدينا فلسطين الطائفية، وإيرلندا الشمالية الطائفية، ولبنان الطائفي ـ القائم على نفوذ أقلّية نحيلة من المسيحيّين الموارنة ـ كما صار لدينا سوريا والعراق، البلدان المقسومان اللذان تحكمهما طوائف وقبائل، ويوغوسلافيا القائمة على الارتياب الإثنيّ: هذه هي بعض الهدايا التي منحتها حرب والدي للعالم.

وبينما كان ذلك النزاع يدفن أجياله، عمدت الإمبراطوريات ـ المنتصرة والمنكسرة في ما بعد ـ إلى استخدام أبناء المستعمرات طُعمة للمدافع. فمع والدي في معركة «الصوم» كان «الهنود» يحاربون أيضاً؛ ومع الفرنسيين في «فردان» حارب الجزائريون والمراكشيون. كما حارب الفلسطينيون والسوريون بمن فيهم الذين سيصيرون لبنانيين مع

الجيوش العثمانية. وقد أخبرني سائقي اللبناني «عبد مغربي» بأن والده سيق إلى الجيش العثماني مباشرة بعد ليلة عرسه ليحارب ضدّ «ألّنبي» في فلسطين. أضف إلى ذلك أن أرض موقعة «الصوم» في فرنسا، حيث حارب أبي خلال الأشهر الأخيرة من الحرب، قد ارتوت من دم عشرات الألوف من الإيرلنديين الكاثوليك الذين حاربوا ببزّات رسمية بريطانية؛ بينما كان إخوانهم يموتون بالرشّاشات البريطانية ـ أو أمام فِرق الإعدام البريطانية في دبلن(*). وقد ساعد «بادرايغ بيرس»، و«جايمس كونولي»، و«جان ماكبرايد» ـ وكذلك إيمون دي فاليرا ـ كلهم ساعدوا بطريقة غير مباشرة على إنقاذ حياة بيل فيسك. ففي أعقاب ثورة عيد الفصح عام ١٩١٦، أُرسل والدي إلى إيرلندا بدلاً من فرنسا، حيث كان يمكن أن يموت في الأيام الأولى من معركة «الصوم»؛ فحارب «الشين فين» أو الشينيين» (Shinners) في إيرلندا بدلاً من محاربته «للبوش» (الألمان)، على الأقلّ في المرحلة الأولى.

منذ ربُع قرن مضى، سافرت مع امرأة إيرلندية شابّة إلى مدينة «إيبر» (Ypres) البلجيكية؛ حيث حُفرت في الصخر فوق بوّابة «منين»، أسماء أولئك الرجال البالغ عددهم ٥٤,٨٩٦ الذين حاربوا باسم البزّة الحربية البريطانية مثل والدي ـ ولكن لم يُعثر على أجسادهم. كانوا يحاربون بحسب اعتقادهم من أجل بلجيكا الصغيرة ـ الكاثوليكية ـ التي غزاها الألمان بجيوشهم عام ١٩١٤. وقد تأثّرت المرأة الشابّة مرافقتي لكون العديد منهم إيرلنديين. وتساءلت «لماذا بحقّ الله، يأتي شابّ من «استايشن هاوس» في «ترالي» ليموت هنا في وحل الفلاندرز؟»

وبعد دقائق قليلة، اقترب منّا رجل متقدّم في السنّ يحمل سجلّ الزائرين، وسألها إذا كانت تحبّ أن توقّع عليه. وكان ذلك قبل أن تواجه الجمهورية الإيرلندية القوية الواثقة اقتصادياً خطر التضحية بجنود ما قبل الاستقلال التابعين لها، الذين يرتدون البزّة الرسمية البريطانية. فنظرت صديقتي إلى شارة الجيش البريطاني على كتاب النصب التذكاري بكرهٍ شديد؛ إذ كان التاج يتلألأ على الغلاف في ضوء المساء. وكان رجال المطافئ البلجيكيون يتأهّبون لتغيير مواقعهم داخل بوّابة «منين» الكئيبة؛ كما يفعلون كل ليلة. ولم يكن هناك وقت كافٍ لأخذ القرار. لكنّ صديقتي لم تكن لتنسى ذلك الشاب الوافد من «ترالي». لقد كانت تواجه التاريخ، الذي لم يكن سهلاً ومطمئناً ومفهوماً بالنسبة إليها، كما يمكن أن يكون بالنسبة إلى الذين يُعتبرون منا أنهم دائماً المنتصرون في الحروب. وفي آخر المطاف، كتبَت في السجلّ باللغة الإيرلندية ما معناه: «للبلدان الصغيرة». فكم يسّرت رغبة الشاب الإيرلندي

(*) تحتاج سياسة التقسيم إلى بعض الإحصائيّات هنا. ففرقة «ألستر» ذات الرقم ٣٦ كانت مؤلّفة كلّها تقريباً من بروتستانت وافدين من المقاطعات الإيرلندية في أقصى الشمال ـ التي تؤلّف ستّ منها الآن إيرلندا الشمالية ـ لم يكونوا مُتعاطفين مع ثورة ١٩١٦ في دبلن. وقد بلغ عدد الضحايا المروّع منهم ٣٢,١٨٦ بين قتيل وجريح ومفقود في معارك «الصوم» و«إيبر». أما الفرقتان الإيرلنديتان العاشرة والسادسة عشرة، المؤلّفتان في معظمهما من الإيرلنديين الكاثوليك ـ والذين وُلِد العديد منهم في بريطانيا ـ فقد حاربوا في «غزّة» وفي سائر فلسطين، كما حاربوا في «الصوم» و«الفلاندرز». وبالإجمال، خسروا ٣٧,٧٦١ رجلاً بين قتيل وجريح ومفقود. وعلى العموم، يُقدّر عدد الإيرلنديين الذين قضوا نحبهم في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ بما يناهز ٣٥٠٠٠ قتيل.

في مساعدة بلجيكا الصغيرة ـ أحد الأسباب التي دفعت بأبي للذهاب إلى الحرب ـ في إطار ذكرى مأساة بلد صغير آخر، وكم استطاعت أن تجمع بين إيرلندا والفلاندرز، دون أن تتخلّى عن صدق مشاعرها الخاصّة.

أُعجبتُ بسلوكها وقدْرته. فمن اليسير أن يقف المرء مع الحرب، وأن يدعم «الشباب» الذاهبين إليها، وأن يكتب المقالات الافتتاحية لتبيان الحاجة إلى الوقوف في وجه الاعتداء، والغزو، و«الإرهاب»، و«الشرّ» ـ مع العلم أن الحرب العالمية الأولى كانت حافلة بتعاريف «الشرّ» ـ ولكنه أمر آخر أن يقف المرء ضدّ الحرب، وأن يتملّص من قبضة التاريخ، ومن اليد المائتة التي تقبض على ذراعنا وتذكّرنا بأنه لا يزال هناك عمل يجب القيام به، وغضب يجدر استثماره، وشراسة تلزم تهدئتها، وطموح ينبغي تحقيقه، وحدود تحتاج إلى معاودة ترسيم، وبلدان نرغب في تخليقها، وشعوب لا بدّ من أن تُحكم أو تُدمَّر. وهكذا، جاءت الحرب العالمية الأولى، والإنزال على شواطئ غاليپولي الذي استفزّ تركيا لمحاولة إبادة الأرمن ـ وهي أول محرقة في القرن العشرين الميلادي ـ وتُرك الشعب الأرمني لمصيره عندما جرى إبرام معاهدة السلم في فرساي؛ كما حصل لشعب كردستان. ففي حرب بيل الكبرى، استعملنا، نحن الأوروبيين، الأسلحة الكيميائية لأوّل مرّة، وهو تطوّر أورثناه الشرق الأوسط. فكم هو يسير علينا أن ننسى أن هزيمة الغرب الأولى على يد الجيوش الإسلامية في العصر الحديث، جاءتنا لا عن يد العرب، بل عن يد الأتراك في «غاليبولي» و«قط العمارة» في العراق.

لقد تعامت القوى الكبرى الأوروبية عن العديد من الحقائق التي كانت تُخلّقها. ويتذكّر المرء وصف «لويد جورج» للورد «كيتشنر» بقوله: «كان كإحدى تلك المنارات التي تطلق إشعاعاً موقّتاً بضوء بعيد المدى في الظلام المحيط بها، ثم تنكفئ إلى الظلمة». فبالنسبة إلى البريطونيين، كانت الحرب الكبرى إدماناً، لحظةً تعطي فرصة للتفكير في الأجيال المتعاقبة، وفي التضحية الفارغة من المعنى، وفي انهيار الإمبراطورية، وفي الحروب التي خاضها آباؤنا ـ وأجدادنا. إنها الحرب التي خاضها والدي ووالد جدّي، على الأقلّ. لكنّ عواقب حرب بيل فيسك هي التي أرسلتني إلى إيرلندا، ويوغوسلافيا، والشرق الأوسط. أمّا واضعو الخرائط المنتصرون، فلم يكونوا كلّهم ذوي عقل واحد. فحدّ إيرلندا الشمالية كان إيذاناً بانحطاط الإمبراطورية، وحدود الشرق الأوسط كانت محاولة أخيرة من قبل بريطانيا وفرنسا للتعلّق بنفوذهما الإمبريالي. كلّا، لا يمكن لوم «بيل» لما اقترفه زعماء الغرب من أكاذيب، ووعود عُرقوبية، وفساد في معاهدة «فرساي». ولكنّ عالمه هو الذي شكّل عالمي، وإمبراطوريات زمانه هي التي أحدثت كوارث الشرق الأوسط. فلم تكن بطاقاته البريدية هي الإرث الوحيد الذي تركه لي.

وكم أستطيع أن أتقدّم في بحثي حول حياة «بيل» بين مهاجمات الغاز، والقصف، والغارات الجوّية المذكورة في مذكّرات الحرب ـ عبر الأراضي المتنازع عليها والبادية بحيويّة في الصور الصغيرة التي ورثتها عن أبي. وفي مذكّرات كتيبة الحرب، بتاريخ ١٠ ـ ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر كتب والدي ما يلي: «رسالة فوريّة عند الساعة ٧:٣٠، بتاريخ ١١: من الفيلق ١٧، تلقّيناها عبر الكتيبة، تُفيد بأن الاعتداءات ستتوقّف عند الساعة ١١:٠٠ اليوم ـ وعلى الجنود المتقدّمين أن يبقوا في الخطّ الذي بلغوه». ثم كتب: «الوصول إلى مأوى «الوفنكور» عند الساعة

١٨:٠٠». وهكذا وصل أبي إلى الكوخ ـ الحظيرة الذي سيصبح مأواه والذي سيسكن فيه حتى آخر كانون الثاني/ يناير القادم. وعدت مرّة ثانية إلى الملاحظات التي استلّتها أمّي من أبي قبل وفاته، حيث تذكّر أنه: «كان هناك قصر (في لوفنكور)، سكنه كبار الضبّاط، نظراً لأن أصحابه هجروه، ولأن الضبّاط الصغار أووا إلى البيوت القروية الحقيرة. وجدتُ نفسي أسكن كوخاً متداعياً مهجوراً؛ وعليّ أن أمرّ في غرفة أخرى تسكنها امرأة عجوز كي أصل إلى غرفتي... وكنت أراها يومياً جالسة في سريرها تدخّن الغليون».

وقد اكتشفتُ أن ذاكرة «بيل» قد تخونه أحياناً. فقد جاء في سجلّات الكتيبة الرابعة ما يلي: «دويزون» في ١١ حزيران/يونيو ١٩١٩، تولّت فرقتان تهدئة الاضطراب الذي حصل في المجمّع الصيني في أرّاس... وبقي منهما ضابط وفصيلة للحراسة. وأظنّ أن هذه هي الصيغة الرسمية التي تمّت مراقبتها بشأن إطلاق النار الذي حصل في المجمّع الصيني، وأن الضابط كان «والدي». ولكن التاريخ كان عام ١٩١٩ لا ١٩١٨؛ فقد أخطأ أبي في تذكّر السنة.

لكنه تذكّر لوفنكور بكامل وعيه. وفي يوم صَقِع من أيام الشتاء، كانت فيه جوانب الريف مكلّلة بالثلج، والحقول بمثابة مقابر عسكرية بيضاء، سافرت على الطريق ذاتها التي سلكتُها مع أهلي منذ أكثر من أربعين عاماً، عائداً إلى لوفنكور في منطقة «الصوم». وكانت معي الصورة المستلّة من محفظة العائلة ومن مجموعة والدتي، والتي تُظهر المنزل الذي سكنه والدي. وها أنا الآن أيضاً لا أدري ماذا أتوقّع أن أجد. ربّما شخصاً يتذكّره؟ ـ لا أظنّ ذلك. لقد غادر أبي «لوفنكور» منذ ستّين سنة خلت. فهل هناك معلومات موثوقة عن تحوّل ذاك الشاب، الطليق الروح، كما يظهر في صورة عام ١٩١٨، إلى رجلٍ مسنٍّ أتذكّره يهدّد بضرب «بيغي»، عندما بدأت تظهر عليها إمارات مرض «باركنسون». والذي آساها إلى درجة ارتاحت فيها عندما رأته ينتقل إلى بيت العناية بالمسنّين؛ ولم تزره هناك، كما أنها رفضت أن تحضر جنازته؟

عثرتُ على ذلك البيت في «لوفنكور»، وكان سطحه لا يزال مائلاً، لكنّ الجدران تجمّلت بنوافذ ومصاريع جديدة. وعلى خلاف سلوك «بيل» عام ١٩٥٦، قرعت الباب، ففتحته سيدة فرنسية عجوز، ولدت عام ١٩٢٠ ـ ذلك العام ذاته الذي ولدت فيه والدتي «بيغي» ـ وبالتالي لا يُحتمل أنها عرفت والدي. ولكنها تتذكّر جدّتها المسنَّة ـ أي المرأة العجوز التي ذكرها والدي ـ التي كانت تعيش في ذلك المنزل. وكانت أرض غرفة الجلوس مكسوّة بالآجرّ الذي لا بدّ أنه لبث هناك أكثر من مئة سنة؛ ولا بدّ أن يكون «بيل» قد مشى عليه بحذائه المُمَسْمَر والضمادة الملفوفة حول ساقه. ثم وجدتُ القصر عند آخر ذلك الشارع البارد، بعد الكنيسة، ونصفه أطلال وراء الجدار القرميدي الأصفر والأحمر، وقابلت الرجل الأكبر سنّاً في القرية ـ كان قد بقي له ثلاث أسنان فقط في مقدّمة فمه ـ الذي تذكّر تماماً وجود الجنود الإنكليز هنا. أجل، لقد سكن الضابط آنذاك في القصر[*]؛ واتّخذوا

(*) بعد أن كتبتُ عن إقامة والدي في لوفنكور في جريدة الإندبندنت، تلقّيت رسالة من قارئة تقول إنها اليوم تمتلك القصر. كانت بريطانية؛ وقد أخبرتني أن كثيراً من الضبّاط حفروا أسماءهم على الطاولة والجدران في القبو. ولم يكن اسم «بيل» مع تلك الأسماء.

من بيته مستوصفاً صحّياً للكتيبة. وكان عمر الرجل إذ ذاك ستّ سنوات؛ وكان الجنود الإنكليز يعطونه «الشوكولاتة». وربّما لذلك فقد أسنانه!

صعدتُ الطريق عائداً؛ فوجدت مقبرة حرب بريطانية صغيرة أخرى، مقابل البيت الذي قضى فيه والدي تلك الليالي الباردة. وكان هناك قبران لجنديّين قتلتهما فجراً فرقة الإعدام، وهما: «هاري ماكدونالد» من فرقة «وست يوركس» الثانية عشرة ـ وهو أب لثلاثة أولاد ـ الذي أُعدم لفراره بتاريخ ٤ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٦؛ و«ف.م. برّات» من فرقة الرشّاشات الملكيّة الذي أُعدم أيضاً لفراره بتاريخ ١٠ تموز/يوليو ١٩١٧. وكان قبراهما لا يبعدان أكثر من عشرين متراً عن نافذة الغرفة التي كان يسكنها الملازم الثاني «بيل فيسك». فهل عَرف من هما؟ وهل أسرَّ قبراهما إلى ضميره بشيء، لقربهما منه، عندما طلب منه أن يترأس فرقة الإعدام لقتل الجندي الأسترالي؟

ومن باريس، خابرتُ بالتلفون أمين المحفوظات المسؤول عن سجلّات الحرب في كامبيرّا؛ فقال: لم يُعدم أيّ جندي من الفِرق الأسترالية المشتركة في الحرب العالمية الأولى. فلم يُرِد الأستراليون أن يعدم رجال «هايغ» شبابَهم عند الفجر. ولكن عندما انتهت الحرب، كان هناك أستراليان محكوم عليهما بالموت، أحدهما لأنه قتل مدنياً فرنسياً. وقد شكّ موظّف المحفوظات في أن يكون هذا هو الرجل الذي تكلّم عنه «بيل»، ولكنّه غير متأكّد. وقد يُسرّ أبي لو علم أن الرجل المُدان، قد عُفي عنه. ولكنّ الحقيقة كانت أقسى من ذلك بكثير.

وقد كتب إليّ قارئ آخر لجريدة الإندبندنت، يشير إلى أن هناك حالة لجندي أسترالي، من فِرقة المدفعية في الجيش البريطاني، حُكم عليه بالإعدام ـ لأنه قتل شرطياً عسكرياً بريطانياً في باريس، وليس لأنه قتل دركياً فرنسياً. وكان اسمه فرانك ويلز؛ وقد فُتح ملفّه الآن في المحفوظات الوطنية في لندن. فعدتُ إلى ما كان يُسمّى «مكتب السجلّات العامّة»؛ حيث استُبدلت برنَّة الحاسوب شاشة. وعندما قرأت عليها أن الملفّ ذا الرقم (WO71/682) ينتظرني، علمت أن تلك الأوراق تحتوي على قسم من حياة والدي «بيل». ولو لم يقرأها، فلا شكّ في أنه كان على دراية بمحتواها. فلا بدّ أنه كان يعرف قصّة «غنَر وِيلز».

كانت القصّة بمنتهى البساطة. وقد لُخّصت محاكمة «غنر فرانك ويلز» ذات الرقم ٢٥٣٦١٧، من كتيبة مدافع الهاون الملكية التابعة للفرقة ٥٠، في صفحتين مضروبتين على الآلة الكاتبة. لقد فرّ من الجيش البريطاني بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨ ـ بعد أكثر من أسبوعين من تاريخ الهدنة ـ وقُبض عليه في باريس بتاريخ ١٢ آذار/مارس ١٩١٩. وأُوقف مع زميله في شارع «فوبور دو تامپل»، في الدائرة الباريسية الحادية عشرة، من قِبل شرطيَّين عسكريين بريطانيَّين هما «ويستر» و«كوكسون»، وكلّ منهما برتبة وكيل عريف. وكانت قصّته قصّة الفارّين المألوفة ذاتها. هاتِ أوراقك. فقال «ويلز» إن أوراقه موجودة في فندقه ذي الرقم ٦٦ بشارع «مالت». فذهب الأربعة إلى «فندق البريد» ليُحضر ويلز أوراقه. وبحسب تقرير المدّعي العام:

«صعد المتّهم مع وكيل العريف وبستر الدرج، وسُمعت على الأثر طلقتان ناريّتان... ثم نزل المتّهم وركض هارباً وبيده مسدّس، فتبعه وكيل العريف كوكسون، فرماه المتّهم بثلاث طلقات، جرحته إحداها جرحاً بسيطاً في ذراعه. وهرب المتّهم... ولكنّ بعض رجال الدرك والمدنيّين طاردوه؛ فقُبض عليه، وجُرِّد من مسدّسه الذي كان قد أطلق منه خمس خرطوشات. ووُجد وكيل العريف وبستر ملقًى على أعلى الدرج، مصاباً في صدره، وبطنه، وإصبعه. فنُقل إلى المستشفى حيث مات بعد ثلاثة أيام...».

لا بدّ أن يكون هذا الرجل هو الذي أُمر «بيل» بأن يترأس فرقة إعدامه. فهو جندي أسترالي، والمقتول هو شرطي، والمشتركون هم الدرك الفرنسي، والمكان هو باريس. وقد التحق «غنر ويلز» بالجيش الأسترالي عام ١٩١٥ في عمر السادسة عشرة ـ كان عمره من عمر بيل ـ وأُرسل إلى مصر، وصحراء سيناء، والدردنيل. وعلى شاكلة الجندي ديكنز، شارك «ويلز» في حملة تشرشل الهالكة إلى غاليبولي. فقد حارب هو أيضاً الأتراك العثمانيين. ولكنه أُرسل إلى المستشفى عام ١٩١٦ بسبب «الحُمَّى المصريّة» ـ التي خلّفت لديه مشكلات عقلية وثُغرات في ذاكرته. ولم يجادل المدّعي العامّ في هذا الأمر. وقد سُرِّح «فرانك ويلز» من الجيش الأسترالي عام ١٩١٧؛ فسافر إلى إنكلترا وسُمح له ـ بسبب يأس الجيش البريطاني في تلك المرحلة من الحرب ـ بأن يتطوّع في فرقة المدفعية الملكية في نيسان/أبريل عام ١٩١٨. ووصل إلى فرنسا قبل «بيل فيسك»؛ لكنه اختلف عنه بكونه محارباً سابقاً.

وبحسب منطق دفاعه، كان «ويلز» يعاقر الخمرة. وقد جاء إلى باريس من أجل فورة انغماس في الشراب... ولم يكن قد أفطر صباح ١٢ آذار/مارس، ١٩١٩... لكنه لم يكن ثَمِلاً، بل كان على طريق السكر. ولا يذكر إذا كان قد أطلق النار على كوكسون أم لا. لكنه كان يعلم أن المسدّس محشوّ، منذ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨. وقد كتب شهادته بيده على ثماني صفحات، ومهرها بتوقيعه تزيينياً «ف. ويلز»؛ وشرح فيها كيف سأله الشرطيّان عن الإذن الذي يحمله لزيارة باريس، وكيف وصل معهما إلى الفندق:

«صعدت الدرج بسرعة إلى غرفتي؛ فوجدت الباب مُغلقاً. وسمعت خلال ثوانٍ أحداً يصعد الدرج. وكان معطفي على ذراعي في ذلك الوقت. وكان لديّ في إحدى جيوبه مسدّس ذو ستّ طلقات. وقد أُعطيته في فرقتي... سحبت المسدّس من جيبي كي أخفيه تحت السجّادة حالما أدخل. فلم أشأ أن أُوقف وبحوزتي مسدّس، إذ كنت أحمل كمّية كبيرة من المال، وكنت ألعب لعبة «التاج والمرساة». وبالتالي، قد يتعاظم اتّهامي. ولم أكد أسحب مسدّسي حتى جاء أحدهم صاعداً الدرج... فركض إليّ هذا الرجل، وتبيّن أنه العريف «وبستر». لم نتحادث. أمسكني «وبستر» بمِعصمي الأيمن؛ فخفت واضطربت؛ وعندما لوى معصمي انفجرت من المسدّس طلقتان. فترك العريف «وبستر» معصمي، وضربني على رأسي فتدحرجت على الدرج. صُعقت من الضربة التي أصابت رأسي... ووجدت المسدّس على الدرج أمامي. فأمسكته. وكنتُ أظنّ أن العريف «وبستر» يجري ورائي على الدرج. كنتُ مرتبكاً متحيّراً وشديد التأثر. وعندما وصلت إلى الشارع، سمعت طلقة ناريّة. ولم أعد أذكر ما حدث بعد ذلك حتى أُوقفت».

كانت شهادة ويلز شهادة شابّ صغير السنّ وغير ناضج، إذ كتب يقول: «عندما تركت فرقتي، لم أرغب في أن أبقى بعيداً عنها. قابلت بعض الأصدقاء الذين أقنعوني بأن نذهب لتناول دورة شراب؛ ثم وصلت إلى باريس. وكنتُ أنوي العودة إلى فرقتي حالما أرى باريس: فلم يكن هناك في الفِرقة أيّ عمل يذكر في ذلك الوقت، وكان سير الأمور وئيداً. وتورّطت مع جماعة سوء، وصرت أقامر وأشرب بإفراط...» وقد كرّر «ويلز» اعترافه بمشكلة معاقرته للشراب في شهادته الأخيرة؛ وادّعى أنه لا يزال يشكو من انقطاعات في ذاكرته. لم يكن لديه إذن بزيارة باريس، وقد عاد إلى فندقه ليجمع حوائجه. وانفجرت الطلقتان لأن العريف وبستر لوى معصمه. وقد كتب أنه بعد توقيفه، أخذته الشرطة الفرنسية بسيّارة أجرة، ولم يستعد ذاكرته حتى ضربه أحد رجال الشرطة بحربته. وعبّر عن ذلك عندما كتب قائلاً: «لم أكن ثملاً بل كنتُ على طريق السكر مع العلم أن الشرب يعطّل الذاكرة...». ولم يكن صعباً تصوّر الشابّ ثملاً، يائساً، مُدركاً ببطء المصير المروِّع الذي ينتظره. أردت أيضاً أن أرى ذلك المكان، إذا كان لا يزال موجوداً: الفندق، والدرج والطابق الثاني، حيث جرح «ويلز» الشرطي العسكري البريطاني جرحاً مُميتاً، والشارع الذي أوقف فيه الدرك الفرنسي «ويلز».

سافرت إلى فرنسا من جديد؛ ووجدت أن شارع «مالت» الضيّق ذا الاتجاه الواحد، الذي تقطعه جادّة، لا يزال موئلاً لمجموعة من الفنادق الصغيرة الرخيصة. ودُهشت لأن الرقم ٦٦ لا يزال فندقاً ولكنّه يحمل اسماً جديداً. فندق «هيبيسكوس» بدلاً من فندق «البريد». فماذا أتوقّع أن أجد هنا؟ كان موظف الاستقبال جزائرياً، فطلبت منه استئجار غرفة في الطابق الثاني، أقرب ما يمكن إلى الدرج، تلك الغرفة التي سكن فيها «ويلز». وعلمت أن الفندق جُدِّد مرّات عديدة، وكُسيت جدرانه بالورق المصوّف. وكان في الردهة جهاز تلفزيون مفتوحٌ على برنامج مباراة كرة القدم، مع تعليق عليها باللغة العربية. لكن الدرج كان نسيجَ وحده، بدرابزينه ومفاصله المعدنية، ممّا كان سائد التركيب في كثير من البيوت الفرنسية في أواخر القرن التاسع عشر.

لم أكد أنبئ الجزائري بسبب قدومي إلى هنا، حتى رجمني فجأة بسيل من أسئلته. لماذا جاء ويلز إلى باريس؟ ولماذا أطلق النار على الشرطي العسكري؟ كان اسمه «صفوان»؛ وقد أخبرني أنه أعدّ دراسة عن تأثير مذبحة قرية «بينتالّا» في الجزائر على الأولاد ضمن موجبات الدرجة الجامعيّة التي كان يحضّرها. قلت لنفسي: «بينتالّا»، إني أعرف هذا الاسم. لقد كنتُ هناك، ورأيت دماء طفل مُنتشرة على شرفة في «بينتالّا»، حيث ذُبح هذا الصبي على يد شابّ قتل مئات من المدنيين في القرية عام ١٩٧٧. وقد اتهمت الحكومة الجزائرية آنئذٍ الإسلاميين بارتكاب المجزرة؛ لكن كنتُ دائماً أرتاب بوجود يد للجيش الجزائري في ذلك. كرّرتُ قول ذلك لصفوان، فأجاب بمعنى أنه سمع به، وقال: «هناك الكثير الذي يجب كشفه بشأن هذه المذبحة. لقد كان لي صديق، وكان العسكريون هناك، وقد تقدّموا قرابة المكان الذي كانت تحصل فيه المذبحة. فلم يفعلوا شيئاً. ولا أستطيع أن أجيب وأقول الكثير عن ذلك. تذكّر أني جزائري». نعم إني أتذكّر. أتذكّر القرويين الذين ما زالوا على قيد الحياة. فقد قالوا لي الشيء ذاته: «لقد استنكف الجيش الجزائري عن إنقاذهم».

وكما حصل عندما التقيت فجأة الشابّ اللبناني في «دوويه»، يبدو أن الشرق الأوسط العربي يمدّ إليّ أخباره. فها هو شابّ جزائري ـ يخاف من حكومته ويخشى بلاده ـ ويقبع في رُدهة فندق رخيص بباريس. ولا شكّ في أنّ مقتل شرطيّ هنا منذ ٨٠ سنة موضوع أكثر أماناً له. ترجمت شهادة ويلز لصفوان الذي لم يفهم لماذا أطلق «ويلز» النار على العريف «وبستر»، بينما كان اتّهامه بالفرار مسألة أقلّ خطراً. صعدت الدرج مرّتيْن؛ فلم يستغرق وصولي إلى الطابق الثاني أكثر من ١٥ ثانية. وعندما ركضت على الدرج بلغتُ الطابق الثاني في خمس ثوان ـ مثلما بلغه العريف وبستر. فلم يكن لدى «ويلز» وقت لإخفاء مسدّسه ـ لو كان ينوي القيام بذلك. ولا يشغل الطابق الثاني أكثر من خمسة أمتار مربّعة. وهنا ناضل «ويلز» ضدّ «وبستر»، وتركه ملقًى على الأرض مضرَّجاً بدمائه. دخلت الغرفة ذات الرقم ٢٢، وهي الأقرب إلى الدرج، غرفة «ويلز» آخر مكان نام فيه قبل موته. هنا كان يحفظ معطفه الكبير ومسدّسه. لقد كان يشرب صباح يوم ١٢ آذار/مارس ١٩١٩، ربّما في هذه الغرفة بالذات من «البنتش» و«الكونياك»، و«الكروغ الأميركي»، كما أخبر أعضاء المحكمة. وكان في الفندق جندي أميركي سارع إلى الهرب بعد إطلاق النار. ولم يتحرَّ أحد أبداً هويّته. فهل كانت تعمل هناك مافيا حرب؟ ومَن كان يدير أوكار المقامرة، ويقدّم المشروبات؟ ومَن أعطى «ويلز» المال الذي كان يحمله: ٦٦٤٠ فرنكاً فرنسياً بالعُملة الورقيّة، وعشر ليرات ذهبيّة من طِراز «لويس»؟

جلست على سريري في غرفة ويلز، وأعدت قراءة شهادته؛ ذلك الشابّ الذي كُلِّف أبي بأن يترأس فرقة إعدامه، متأمّلاً في الكلمات الأخيرة التي كتبها دفاعاً عن حياته:

> «أبلغُ من العمر ٢٠ عاماً. وقد التحقتُ بالجيش الأسترالي عام ١٩١٥، عندما كنت في السادسة عشرة من عمري. ذهبتُ إلى مصر وإلى الدردنيل. واشتركتُ في عدد كبير من الاشتباكات هناك، وفي فرنسا. ثم التحقت بالجيش البريطاني في نيسان/أبريل عام ١٩١٨، وجئت إلى فرنسا في حزيران/يونيو ١٩١٨. وكنتُ قد سُرِّحت من الجيش الأسترالي بسبب حُمّى أصابتني في مصر وأثّرت على رأسي. أقنعني بعض أصدقائي بترك فِرقتي، وانغمست في عِشرة السوء. وبدأت أشرب وأقامر بإفراط. ولم يكن في نيّتي أن أرتكب تلك الآثام التي أقف بسببها أمام المحكمة... أطلب من المحكمة أن تأخذ بنظر الاعتبار شبابي، وأن تعطيني فرصة لأستقيم وأُمضي حياة صالحة في المستقبل».

أستطيع أن أدرك كيف أثّر ذلك على «بيل فيسك». لقد كان «ويلز» من عمره ـ وكان قد أُرسِل إلى فرنسا قبل شهرين فقط من إرسال «بيل» إلى منطقة الصوم. لم يفرّ «ويلز» من الجيش أثناء الحرب؛ لكنه قتل شرطياً عسكرياً بريطانياً. وإني أتذكّر كم آمن «بيل» بالقانون، والعدالة، والمحاكم، والقضاة، والشرطة.

خرجتُ من ذلك الفندق الباريسيّ إلى طراوة الليل في الصيف. وكان عن يساري ذلك الشارع حيث طلب الشرطيّان العسكريّان من ويلز وزميله أوراقهما الثبوتيّة. وأبعد من ذلك بقليل شارع «ألبير» ـ المذكور في الوثائق

البريطانية باسم شارع «ألبرت طوماس» ـ حيث قبض الدرك الفرنسي على ويلز وأخذوه بسيّارة أجرة، وضربه أحدهم بحربته؛ فخسر إذ ذاك حياته.

وجاء في خُلاصة الحُكم الذي لفظته المحكمة العُرفيّة «أنّ ويلز حُكم عليه بالموت». وعلى الأثر، سيق إلى القاعدة البريطانية في «الهافر» على الساحل الفرنسي بتاريخ ٢٤ أيّار/مايو، وكان موقع بيل هناك. وقد أخذ صورتيْن للمخيّم، إحداهما يلوح في خلفيّتها برج كنيسة ـ وكان حاضراً لدى وصول ويلز. وقد رجعتُ في المحفوظات البريطانية إلى السجلّ الأخير لإعدامه، يداخلني شيء من الخوف. وكان بيل قد تكلّم عن رفضه رئاسة فرقة الإعدام. وصدّقته آنذاك لكنّ الصحافي الذي يقطن فؤادي، والمدقّق في المحفوظات الذي يعمر روح أيّ مستقص للحقائق، يحتاج إلى معاودة التدقيق. أعتقد أن ابن «بيل» أراد أن يتأكّد من أن والده لم يقتل «فرانك ويلز» حقّاً؛ وأن يستوثق من أن هذا العمل البطولي كان حقيقياً.

وكانت هناك قُصاصة ورق يتيمة، سُجّل عليها موت ويلز. لقد أطلقت النار عليه فرقة الإعدام «تنفيذاً للحكم عند الساعة ٤:١٤. بتاريخ ٢٧ أيار/مايو. وكان توقيع قائد الفرقة بالأحرف الأولى (CRW)؛ ولم يكن بخطّ والدي. كما كانت هناك أيضاً ملاحظة أخرى، جاء فيها: «إن الإعدام نُفّذ إنسانياً وكما ينبغي. وكان الموت فوريّاً». وهل يكون الموت فوريّاً؟ وماذا عن ويلز في تلك الدقائق الأخيرة، بل في تلك الثواني بين الساعة الرابعة والساعة ٤:١٤ صباحاً. كيف كان ابن عشرين سنة يشعر في تلك اللحظات الأخيرة، في ظلام فرنسا الشمالية، وربّما بانسياب نسيم قادم من البحر؟ وهل سمع بيل الطلقات التي قتلت ويلز؟ لقد كان ضميره مرتاحاً، على الأقلّ.

ولد بيل فيسك منذ ١٠٦ سنوات؛ لكنّه بقي لُغزاً لي. هل كانت المرأة الفرنسية التي ذهب معها في نُزهة قادرة على أن تجعل حياته سعيدة؛ ومَن كان ليمنعه من أن يعود على الباخرة البولونية إلى ليڤربول منذ ٨٦ سنة، إلى حياة الضجر في مكتب المحاسبة، وزواجه الأول عن غير حبّ؟ وهل كانت زوجته الأولى سبب تطوّعه الحقيقي لتجديد إقامته في فرنسا بعد الحرب؟

لقد دمَّرت الحرب الكبرى حياة الناجين كما سحقت حياة الموتى، ففي مقبرة لوڤنكور وعلى مقربة من مكان السكن القديم لبيل، يرقد اتفاقاً رولاند لايتون الجندي الشابّ الذي حزِنت عليه خطيبته فيرا بريتان حزناً شديداً، وكتبت رائعتها الأدبية: «شهادة الشباب»، معبِّرة عن الخسارة الإنسانية. وربّما منحت الحرب والدي الفرصة كي يمارس حرّيته بشكل لم يألفه من قبل، تلك الاستقلالية التي سلبه إيّاها المجتمع بقسوة. فقد كانت مدالياته التي ورثتُها منه تشمل: مداليّة الدفاع لعام ١٩٤٠، ومداليّتيْ (OBE وMBE) للعمل في «المدّخرات الوطنية» بعد الحرب؛ فضلاً عن مداليتيْن من الحرب الكبرى. وعلى إحداهما حُفرت السنوات ١٩١٤ ـ ١٩١٩، التي لم تشمل وقف إطلاق النار في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٨ بل معاهدة «فرساي» المعقودة عام ١٩١٩، والتي أنهت النزاع رسمياً، ونشرت منذ ذلك الحين نتائجها الدامية عبر الشرق الأوسط. وهي المداليّة التي تحمل شعار: «الحرب الكبرى من أجل الحضارة».

وفي أيام والدتي «بيغي» الأخيرة، أخبرتني إحدى الممرّضات أن السناجيب دخلت عُلّيتها، وأتلفت بعض الصور العائلية. فصعدتُ إلى العليّة لمعرفة ما جرى، فوجدتُ أنه بالرغم من افتقاد بعض الصور، فإن عُلبة التنك التي تحوي الصور التي التقطها أبي بقيت سليمة. وبينما كنتُ أستعدّ للمغادرة، نطحت برأسي أحد جسور السقف؛ فجرى الدم مدراراً على وجهي. وأذكر أني اعتبرت ذلك خطأ من قِبل والدي، الذي لعنتُ اسمه آنذاك. ولم أكد أنتهي من تنظيف جرحي، وتمرّ عليّ ساعتان من الزمن حتى ماتت أمّي. وفي الأسابيع التي تلت ذلك حصل شيء غريب؛ فقد تشكّلت آثار جرح وانبعاج على جبهتي ـ كما حصل لأبي عندما هاجمه ذلك الصينيّ بسكّينه.

ومن حياة الآخرة، حاول «بيل» أن يُصلح شأنه. ففي ثنايا البرودة التي ما زلت أشعر بها إزاءه، لا أستطيع أن أنكر الرسالة التي تركها لي، لأقرأها بعد وفاته. وقد جاء فيها:

«يا فلّاحي العزيز،

أريد أن أقول لك شيئين فحسب، أيّها الفتى الكبير. أوّلاً: أشكرك لما منحتنا إيّاه، أنا وأمّك، من حبّ، وفرح، واعتزاز. إنّنا فعلاً أهل محظوظون بأن يكون لنا ابن مثلك. ثانياً: أعلم أنك ستُعنى بوالدتك العناية القُصوى؛ فهي ألطف وأحسن امرأة في العالم، كما تعلم. فقد منحتني أسعد فترة في حياتي بحبّها المستمرّ الذي لا يخيب».

مع مودّة والدك،

«الملك بيلي»

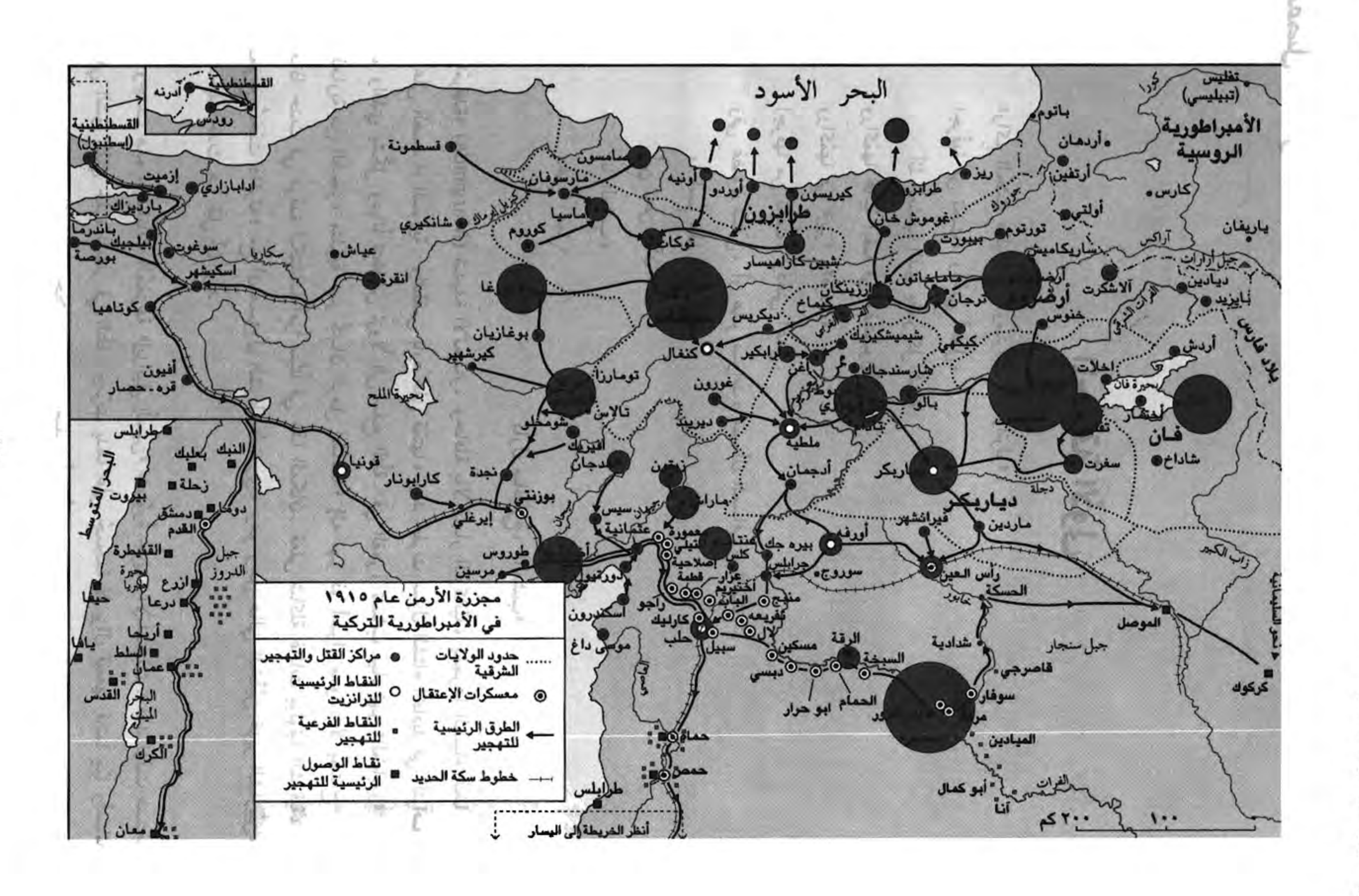
المحرقة الأولى

«راكمِ الجُثث عالية في «أوسترليتنز» و«واترلو»،
اجرفْها من تحت، ودَعْني أعمل،
أنا العشب الذي يغمر كلّ شيء.
وراكمْها عالية أيضاً في «غيتسبورغ»،
وراكمْها في «إيبر» و«فردان».
اجرفْها من تحت، ودعْني أعمل.
وفي غضون سنتيْن، أو عشر سنوات، سيسأل المسافرون السائق:
ما اسمُ هذا المكان؟
أين نحن الآن؟
أنا العشب،
دَعْني أعمل».

كارل ساندبرغ، «العشب»

تلّة «مَرقدة» (Margaada) شديدة الانحدار، وحافلة بالأحجار البركانيّة، يغمرها الضياء الخارق والظلال، بإطلالتها على الصحراء السورية. والطقس بارد على قمّتها، وقد حفرت سيول الشتاء أخاديد في التراب العالق بين الصخور، والذي يشكّل ودياناً تنخفض نزولاً إلى سفح التلّة. في القعر، تنساب مياه نهر «الخابور» بين الضفاف الغبراء العارية من الشجر، متلوّية عبر كُثبان الرمل القاتمة؛ إنه نهر ذو أسرار سود. لا يحتاج المرء إلى أن يعرف ماذا حدث في مرقدة ليكتشف أمراً سيّئاً في هذا المكان. فعلى شاكلة غابات بولونيا الشرقية، تنتصب تلّة مرقدة كموقع مُحيَت ذاكرته؛ مع أن مسؤول الشرطة السوري، وهو رجل عالي الخدّيْن غزير الشاربيْن، قد سمع بأنّ أمراً مخيفاً حدث هنا قبل أن يولد.

وقد وجدت هذه الإثباتات المُفزعة «إيزابيل إلْسين» مصوِّرةُ جريدة الإندبندنت. فقد نزلت مستعينةً بيديْها وقدميْها في الشقّ الذي حفره المطر في التلّة. ومرّت يدها على جُمجمة لا يزال قحفها قاتماً بنيّاً وأسنانها لامعة. كما برز من قربها عمود فقري من خلال الطين. وعندما أزحتُ التراب عن الجهة الثانية من الفجوة، ظهر هيكل


مجزرة الأرمن عام ١٩١٥
في الأمبراطورية التركية
مراكز القتل والتهجير
النقاط الرئيسية للترانزيت
النقاط الفرعية للتهجير
نقاط الوصول الرئيسية للتهجير
حدود الولايات الشرقية
معسكرات الإعتقال
الطرق الرئيسية للتهجير
خطوط سكة الحديد
البحر الأسود
الأمبراطورية الروسية
بلاد فارس
تفليس (تبليسي)
باتوم
أردهان
كارس
باريفان
طرابزون
ريز
كيريسون
أوردو
أونيه
سامسون
مارسوفان
قسطمونة
أماسيا
كوروم
توكات
شانكيري
شبين كاراهيسار
غوموش خان
بيبورت
تورتوم
أولتي
أرتفين
الاشكرت
ديادين
بايزيد
أرضروم
خنوس
أرزينكان
كيماخ
ديكريس
كيكهي
شيميشكيزيك
كنفال
بوغازيان
كيرشهير
تومارزا
تالاس
شومخلو
أفيرك
غورون
ديريند
ملطية
هارسندجاك
بالو
أدجمان
أرابكير
أخلات
أرديش
فـان
شاداخ
سغرت
ديـاربكر
دجلة
ماردين
فيرانشهر
رأس العين
الحسكة
الموصل
كركوك
زاب الكبير
جبل سنجار
شدادية
قاصرجي
سوفار
الميادين
أبو كمال
آنا
الفرات
الرقة
السبخة
الحمام
ابو حرار
مسكين
دبسي
سبيل
حلب
كارليك
راجو
إسكندرون
موسى داغ
حماة
حمص
طرابلس
أورفة
بيره جك
سوروج
جرابلس
منبج
كفريعه
الباب
أخترين
عزاز
كلس
قطمة
إصلاحية
عمورة
عثمانية
سيس
مرعش
زيتون
نجدة
بوزنتي
إيرغلي
كارابونار
قونيا
بحيرة الملح
طوروس
مرسين
أضنة
دورتيول
أنقرة
عياش
سكاريا
إسكيشهر
كوتاهيا
أفيون قره - حصار
سوغوت
بيلجيك
باندرما
بورصة
بارديزاك
إزميت
ادابازاري
القسطنطينية (إسطنبول)
أدرنه
رودس
البحر المتوسط
النبك
بعلبك
زحلة
بيروت
دوما
دمشق
القدم
جبل الدروز
القنيطرة
بحيرة طبريا
حيفا
ازرع
درعا
يافا
أريحا
السلط
عمان
القدس
البحر الميت
الكرك
معان
أنظر الخريطة إلى اليسار
١٠٠
٢٠٠ كم

عظمي كامل، ثم هيكل ثانٍ وثالث، وكلّها مرصوصة ومتشابكة بعضها ببعض. فكلّ شِبر من الوحل والطين يكشف عن عظم فخذ أو جمجمة، أو طقم أسنان، أو عظم ساق وجوارب معصورة معاً، كما كانت عندما ماتت بفعل الإرهاب عام ١٩١٥، مربوطة معاً بالحبال لتغرق بالآلاف.

وحالما تعرّضت العظام للهواء صارت مثل الطين وتقشّرت بين أيدينا؛ إنها رُفات القتلى الباقية من شعب كامل اختفى بسرعة مثلما أراد ساحقوه الأتراك أن ننساه. لقد قُتل ما يناهز ٥٠ ٠٠٠ أرمني في هذا الحقل الصغير المميت؛ وقد أدركتُ تماماً مع «إلْسين» بعد دقيقة أو دقيقتيْن أننا نقف على قبر جماعيّ. إن مرقدة والصحارى التي تحيط بها ـ شأنها شأن آلاف القرى في ما كان واقعاً ضمن أرمينيا التركية ـ كانت «أوشفيتز» الشعب الأرمني، موطن «المحرقة» الأولى الدوليّة المنسيّة.

إنّ التوازي مع «أوشفيتز» ليس عبثاً. فقد كان هناك حُكم تركيّ إرهابيّ موجّه ضدّ الشعب الأرمنيّ لاستئصال شأفته. وقد بلغت ضريبة الموت التي دفعها الأرمن حوالى مليون ونصف مليون نسمة. وبينما كان الأتراك يتكلّمون علناً عن قيام الحاجة إلى «معاودة إسكان» الشعب الأرمني ـ كما كان الألمان يتكلّمون فيما بعد عن يهود أوروبا ـ كانت النيّة الحقيقية للحكومة التركية محدَّدة تماماً. ففي ١٥ أيلول/سبتمبر عام ١٩١٥ مثلاً، أرسل وزير الداخلية التركي طلعت باشا تعليمات ـ والنسخة الكربونية لهذه الوثيقة موجودة ـ إلى الوالي التركي في حلب تقول: «لقد أُعلمتم سابقاً أن الحكومة... قرّرت القضاء التامّ على جميع الأشخاص المعهودين الذين يعيشون في تركيا... يجب إنهاء وجودهم. ومهما كانت التدابير المتّخذة مأساوية، ينبغي عدم الأخذ بعين الاعتبار العمر، أو الجنس، أو أيّ حيرة للضمير».

ألم يكن هذا ما أفضى به «هملر» تماماً إلى القتلة الذين يعملون تحت إمرته عام ١٩٤١؟ وها نحن الآن نقف في تلّة «مرقدة» على الرفات الباقية من «الأشخاص المعهودين». إن «بوغوص داكسيان» مع ابن أخيه «هاغوب» البالغ من العمر خمس سنوات اللذين جاءا معنا من «دير الزور» السورية، يعرفان تماماً تلك التدابير المأساوية. «لقد جلب الأتراك عائلات كاملة إلى تلك التلّة ليُقتلوا. واستمرّت المجزرة أياماً. كانوا يوثقونهم معاً في صفوف مؤلّفة من الرجال، والأولاد، والنساء، وأكثرهم يعانون المجاعة، والمرض، وكثير منهم عُراة. ثم يدفعونهم من التلّة إلى النهر ويطلقون النار على واحد منهم، فيجرّ المقتول باقي جماعته نزولاً ليغرقوا في النهر. لقد كان قتلهم رخيصاً، لا يكلّف سوى رصاصة واحدة».

ركع داكسيان قرب مسيل صغير، ورفع بمفتاح سيّارته التراب عن جُمجمة أخرى. وإذا كان هذا يبدو كئيباً وحتى فاحشاً، يجدر أن نتذكّر أن الشعب الأرمني عاش مع هذه القضيّة تسعة عقود زمنية ـ وأن إثبات حصول الشرّ أهمّ من التأثّر به. وبعد أن كشفنا التراب عن فجوتَي العينيْن وعن الأسنان، أعطى «داكسيان» الجمجمة لهاغوب الصغير الذي وقف في الخندق يبتسم، غير مُدرك لمعنى الموت. قال «داكسيان»: «لقد أخبرته بما حصل هنا، فعليه أن يفهم». وقد سُمّي هاغوب على اسم والد جدّه ـ جدّ داكسيان ـ الذي كان ضحيّة المحرقة الأولى في القرن العشرين الميلادي، بعد أن قطع رأسه شرطي تركي في بلدة مرعش عام ١٩١٥.

وقد زرتُ في بيروت عام ١٩٩٢ مأوى العميان الأرمني ـ حيث يوجد الناجون الأخيرون من المحرقة الذين يعيشون مع ذكرياتهم الأليمة، ويعانون في الوقت ذاته ويلات الحرب الأهليّة في لبنان التي دامت ١٦ سنة ـ هناك اكتشفتُ زاكار بربريان في غرفة ليس فيها ضوء، إذ إن لمبة «النيون» الكهربائية اليتيمة كانت تناضل في الداخل القارس. وكان العجوز الأرمني البالغ من العمر ٨٩ عاماً، قابعاً في معطف قديم، يحدّق في مُكالميه وهو كفيف. ولم يلبث «زاكار بربريان» أن مات بعد عشر سنوات ـ مثل معظم الذين أعطوني شهاداتهم بشأن الإبادة ـ وفي ما يلي قصّته، كما رواها لي:

«كنتُ في الثانية عشرة من عمري عام ١٩١٥، وكنتُ أعيش في قرية بالاجيك الواقعة على نهر الفُرات. وكان لي أربعة إخوة؛ وكان أبي حلّاقاً. رأيتُ في ذلك اليوم العسكر الأتراك يدخلون قريتنا؛ وهو مشهد لا أنساه أبداً. ولم أكن قد فقدتُ بصري. أحرقوا السوق في بالاجيك؛ وتناثر قِرميد البناء والأحجار في المكان. رأيتُ كلّ ما حدث بعينيّ. فقد أخذوا الرجال الذين لم يعودوا أبداً. وجرّوا النساء والأولاد إلى السوق القديم؛ وصار الجنود يرفعون كلّ ولد ـ من أيّ عمر كان، من السادسة أو السابعة أو الثامنة ـ ويرمونه في الهواء ليقع على الحجارة، أمام الأمّهات؛ فإذا بقيَ على قيد الحياة يفجّرون دماغه على الحجارة. وقد فعلوا ذلك كلّه أمام أمّهاتهم. لم أسمع في حياتي مثل ذلك الصراخ... رأيت تلك المشاهد كافّة من حانوت الحلاقة. وكان العساكر الأتراك بلباسهم الرسمي، ومعهم الشرطة الحكومية. وبالطبع، لم تستطع الأمّهات أن يفعلنَ أيّ شيء بينما يُقتل أولادهنّ أمامهنّ بهذا الشكل، ورُحنَ يَصرخْنَ وينتحِبْنَ. كان أحد هؤلاء الأولاد من مدرستنا. لقد وجدوا دفتر علاماته في جيبه، وتبيّن أنه نال أحسن العلامات المدرسيّة؛ ففجّروا دماغه. وقد ربط الأتراك أحد أصدقائي برجليه إلى ذيل حصان، وجرّوه خارج القرية حتى مات.

وكان هناك ضابط تركي تعوّد أن يأتي إلى حانوتنا؛ وقد حمى أخي الذي فرّ من الجيش؛ لكنه قال إن علينا أن نهرب. ولذلك غادرنا بالاجيك إلى قرية أسما. وبقينا على قيد الحياة لأن والدي غيّر دينه، وقَبِل أن يصبح مسلماً. ولكنّ والدي ووالدتي مرضا كلاهما بالكوليرا كما أظنّ؛ فماتا. ومرضتُ أنا أيضاً، وبقيت بين الموت والحياة. واستمرّت عمليات الترحيل؛ وكان من المرتقب أن أموت، لكن الأتراك أعطوني طعاماً فبقيت على قيد الحياة.

وفي آخر المطاف أُخذ «بربريان» إلى مأوى للأولاد اليتامى، حيث غسّلوه؛ وإنما بماء وسخ. وكان معه في الحمّام أولاد آخرون عميت عيونهم بسبب الماء الزرقاء. «فتحمّمت بذلك الماء وصرتُ أعمى مثلهم. ولم أر شيئاً بعينيّ منذ ذلك الزمن. وكنتُ أنتظر أن يعود إليّ بصري، دون جدوى. ولكنني أعرف لماذا فقدت بصري؛ فلم يكن ذلك بسبب الحمّام؛ بل لأن والدي غيَّر دينه. فقد أخذ الله ثأره مني، لأننا تخلّينا عنه».

لم يظهر على «بربريان» أيّ علاقة انفعالٍ في صوته عندما روى قصّته؛ ربّما بسبب تقدّمه في السنّ. لن يعود إليه بصره أبداً؛ إذ لم تكن له عينان، بل بعض الجلد الأخضر الشاحب مكان البؤبؤين.

كان العام ١٩١٥ بمنتهى الفظاعة في الأراضي الأرمنية بتركيا، وفي صحارى سوريا الشمالية، وكانت السلطات التركية آنذاك بالغة القسوة، إلى درجة أنّ بعض المسلمين ضحّوا بأرواحهم لإنقاذ الأرمن المسيحيّين الهالكين. وفي كلّ مقابلة تقريباً أجريتها مع الأرمن العُميان المسنّين الناجين من إبادة شعبهم، رُويت لي قصص عن أفراد أتراك خالفوا القوانين شبه الفاشية لحُكّامهم الشباب في القسطنطينية، بدافع دينيّ أو إنسانيّ، وآووا الأرمن في بيوتهم، وعاملوا أيتام الأرمن المسيحيّين كأعضاء في عائلاتهم الإسلاميّة. وكان والي دير الزور التركي علي سعاد بك بمنتهى العطف على اللاجئين الأرمن ـ إذ أقام لأولادهم دوراً للأيتام ـ وعلى الأثر، استُدعي إلى القسطنطينية، وعُيّن مكانه زكي بك الذي حوّل البلدة إلى معسكر اعتقال.

وهكذا، تبقى قصّة المحاولة التي قام بها الأتراك لإبادة الأرمن مُرعبة. فقد نفّذ العسكر والشرطة الأتراك أوامر حكومتهم بكلّ اندفاع لاستئصال شأفة هذا الشعب المسيحي في الشرق الأوسط. وكانت تركيا العثمانية عام ١٩١٥ في حالة حرب مع الحلفاء الغربيين. وقد ادّعت أن الجماهير الأرمنية ـ التي تعرّضت لمذابح الأعوام ١٨٩٤ ـ ١٨٩٦ ـ كانت تدعم أعداءهم المسيحيّين. وفي روسيا، كان ما لا يقلّ عن ٠٠٠ ٢٠٠ أرمني يحاربون في جيش القيصر. وكان في بيروت رجل أرمني اسمه ليفون إسحاقيان، أعمى لكنه يقظ نسبة لعمر ١٠٥ سنوات. وكان لا يزال يحمل آثار الجرح الذي أصاب رأسه على يد الخيّالة الألمان، عندما كان من رجال المشاة القيصريين في بولّندا عام ١٩١٥. وبعد سنتيْن في فوضى الثورة البلشفية، عاد إلى وطنه. مشى مجهداً على قدميه عبر روسيا حتى وصل إلى نوغورنو كاراباخ، والتجأ إلى إيران، وسجنه البريطانيون في بغداد. وأخيراً مشى طول الطريق حتى حلب، حيث وجد بقايا بني قومه الجائعين. لم يُقضَ عليه. لكنّ آلافاً من الأرمن كانوا يخدمون ضمن القوّات العثمانية؛ دون أن تكون لهم الحظوظ ذاتها. وادّعى الأتراك أن الأرمن ساعدوا أساطيل الحلفاء في البحر الأبيض المتوسط، دون أيّ إثبات.

وفي الواقع، نشأت حركة تركيّة شبابيّة ـ تُسمّى رسميّاً «لجنة الاتحاد والترقّي» ـ واستولت على الإمبراطورية العثمانية الفاسدة من السلطان عبد الحميد. وكانت أصلاً حزباً تقدّميّاً دعمه كثير من الأرمن، تبنّى معتقداً قوميّاً، تركيّاً، عِرقيّاً، ينتشر في أنحاء الدولة المسلمة الناطقة باللغة التركية من أنقرة إلى باكو ـ وهو حكم تحقّق لفترة قصيرة عام ١٩١٨، لكنه مُعاق اليوم على الأرض بوجود الجمهورية الأرمنية التي نشأت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. والأرمن المسيحيون في آسيا الصغرى، هم خليط من العِرق الفارسي، والروماني والبيزنطي. وقد زالت حالاً ثقتهم بالحكّام الجُدد الذين سادوا الإمبراطورية التركية(*).

(*) ترجع سلالة الأرمن إلى «أوارتو». وقد أنشأوا أول أمّة مسيحية عندما اعتنق ملكهم «درتاد» المسيحية بدلاً من الوثنية عام ٣٠١ بعد الميلاد. وكان عليهم أن يحموا معتقدهم أولاً من الفرس الذين كانوا «زردشتيين» قبل اعتناقهم الإسلام، وثانياً من العرب. وقد جاء الأتراك من آسيا الوسطى في القرن الحادي عشر. وكانت أرمينيا واليونان كلتاهما الأمّتين المسيحيتين ضمن الإمبراطورية العثمانية.

تشجّع الأتراك بعد انتصارهم على الحلفاء في الدردنيل، فأطبقوا على الأرمن بالضراوة نفسها التي عامل بها النازيون اليهودَ في أوروبا بعد عقدين من الزمن. وقد تنبّه «ونستون تشرشل» لهذا الدور المدمِّر الذي نجم عن حملة الحلفاء على تركيا، فكتب في «العقبول» (The Aftermath)، وهو كتاب يكاد يكون منسيّاً مثل الأرمن أنفسهم ـ يقول: «ربّما يصحّ أن حصول الهجوم البريطاني على شبه جزيرة غاليبولي، قد استثار الغضب الشديد لدى الحكومة التركية». ولا شكّ في أن انتصار الأتراك على البريطانيين والأستراليين في الدردنيل منح النظام التركي ثقة بالنفس جديدة لا ترحم. وكان هناك في تلك المعارك الجندي «تشارلز ديكنز» الذي نزع بيان اللواء «مود» عن الجدار في العراق؛ وكذلك فرانك ويلز الرجل الذي رفض والدي أن يعدمه عام ١٩١٩. واختير يوم ٢٤ نيسان/أبريل عام ١٩١٥ ليبقى إلى الأبد يوماً يُحتفل فيه بذكرى الإبادة الجماعية الأرمنية ـ عندما اعتُقِل الأرمن المفكّرون والقادة في القسطنطينية وقُتلوا؛ وتلا ذلك تدمير منهجي للشعب الأرمني في تركيا.

وكان الجنود الأرمن في الجيش التركي قد سُرّحوا وتحوّلوا إلى كتائب شغل وعمل في ربيع عام ١٩١٥. وفي مأوى المكفوفين الأرمن في بيروت، أمسكت «نيڤارت سرويان البالغة» ٩١ سنة بيدها صورة فوتوغرافية لوالدها، البادي كرجل جميل مهيب في بزّته العسكرية التركية. كانت «نيڤارت» لا تكاد تسمع عندما قابلتها عام ١٩٩٢، فصرختْ بصوت عالٍ: «كان أبي رجلاً رائعاً، وذكيّاً جدّاً؛ وعندما جاء الأتراك إلى عائلتنا عام ١٩١٥، لبس بزّته الرسميّة، التي خاطت أمي عليها شارات كي توحي بمقامه العالي. كما وضع مداليّاته الأربع التي استحقّها كجندي. وبهذا الزيّ، خرج بنا إلى محطة سكّة الحديد في «قونية»، ووضعنا على متن قطار، فنجونا. لكنه بقي هناك؛ وعندما اكتشف الأتراك لعبته أعدموه».

وقد ساقت الشرطة التركيّة كلّ الرجال الأرمن في كلّ بلدة أو قرية كي يُقتلوا على أيدي فِرق الإعدام، ويُلقوا في القبور الجماعية أو في الأنهار. وقد قابلتُ أيضاً في مأوى المكفوفين في بيروت «مايراني كلوصتيان». وكانت في الثمانين من عمرها عندما قابلتها. وبدت مخلوقة سريعة العطب، تربط رأسها بمنديلها وترتجف وهي تروي قصّتها المثيرة للشفقة، حتى أن إحدى الممرّضات الحاضرات انفجرت باكية، وهي تستمع إليها:

«أنا من قرية «مَشْ». وكنا نزرع الجاودار كلّ عام بعد أن يذوب الثلج. وكان أبي مانوك طارويان وأخي يشتغلان في الحقول. ثم جاء العساكر الأتراك. وكان ذلك عام ١٩١٥. فوضعوا جميع رجال القرية، البالغ عددهم حوالى الألف في إسطبل، ثم أخذوهم في اليوم التالي من قرية «مَشْ» ـ بمن فيهم كلّ أقربائنا من الرجال، وأبناء عمّي، وإخوتي. وكان والدي معهم. وقال الأتراك: «إن الحكومة تحتاج إليكم». أخذوهم كقطيع؛ ولا نعرف أين ذهبوا بهم؛ لكنّنا رأيناهم يذهبون. وكان كلّ منّا في حالة صدمة. واكتشفت والدتي خاتون ما حدث. فقد كان قرب قرية مَشْ مكان تلتقي فيه الأنهار وتمرّ تحت أحد الجسور. وهو موقع هائل من الماء والرمل. ذهبت أمّي إلى هناك في الصباح ووجدت مئات من رجالنا مصطفّين على الجسر، وجهاً لوجه. ثم أطلق العسكر عليهم النار من الجهتَيْن. «فوقع بعضهم فوق بعض كالقشّ»، بحسب قولها ـ وبعد أن جرّدوا الجثث مما تحمل من ثياب وأشياء ثمينة،

حملوها باليدين والرجلين ورموها في النهر. واستغرق هذا العمل الفظيع طول النهار حتى هبوط الليل. وعندما عادت والدتي قالت: يجب أن نذهب إلى النهر ونرمي أنفسنا فيه».

وما كانت مايراني تصفه لم يكن جريمة حرب معزولة؛ بل كانت عملية عادية رتيبة. فعند مدخل حصن كيماخ، ذبح الأكراد وعسكر كتيبة الخيّالة ذات الرقم ٨٦ أكثر من ٠٠٠ ٢٠ امرأة وولد. وفي بتليس، أغرق الأتراك أكثر من ٩٠٠ امرأة في نهر دجلة. كما جرت مذبحة كانت من الضخامة بحيث شكّلت آلاف الجثث سدّاً على نهر الفرات قرب قرية إرزنجان، وجعلت النهر يغيّر مجراه لمسافة مئة متر.

وقد وصف السفير الأميركي في القسطنطينية هنري مورغانتو اليهودي، ما حدث بعد ذلك في برقية أرسلها إلى وزارة الدولة الأميركية قائلاً:

«تدل التقارير الواردة من شتّى المناطق المتباعدة على أن هناك محاولة لاقتلاع الشعب الأرمني المسالم، من خلال توقيفات تعسّفية، وتعذيبات مخيفة، وطرد وترحيل بالجملة من طرف من الإمبراطورية إلى آخر، ترافقها عمليّات اغتصاب، ونهب، وقتل، تحوّلت إلى مجزرة تجلب الدمار والإملاق على ذلك الشعب. ولا تُتّخذ هذه التدابير استجابة لطلب شعبيّ أو تعصّب دينيّ، بل كعمل تعسّفي محض صادر عن القسطنطينية باسم الضرورة العسكرية، وغالباً ضمن مقاطعات لا يُحتمل أن تجري فيها أيّة عمليات عسكرية».

وغداة قتْل الرجال ورمْيهم في النهر، بدأت مسيرة الموت انطلاقاً من قرية «مَشْ». وسارت فيها مايراني كلوصتيان، وأمّها خاتون، وشقيقاتها: ميغاد وديلابار وهريكو وأرزون، وشقيقاها الصغيران درجيفان وفرياد. قالت مايراني:

> «سافرنا أولاً بعربات تجرّها الثيران؛ ثم كان علينا أن نمشي على أقدامنا لعدّة أسابيع. لقد كان هناك آلاف منّا. استجدينا الطعام والماء. وكان الطقس حارّاً. مشينا بدءاً من الربيع، ولم نتوقف حتى عيد القديس يعقوب في كانون الأول/ديسمبر. وكان عمري آنذاك اثنتي عشرة سنة عندما فقدت والدتي. ذهبنا إلى سيفاس. ثم جاء الروس في جيش القيصر، ووصلوا إلى قرية مَشْ وفجّروا الجسر الذي قُتل عليه أبي. حاولنا الرجوع إلى «مَشْ» لكنّ الروس هُزموا. ثم مرضنا جميعاً بالكوليرا: إخوتي وأخواتي وأنا. وماتوا كلّهم ماعدا أرزون وأنا. ثم ماتت أرزون؛ فأُخذت إلى بيت للأيتام. لن تتصوّر كيف كانت حياتنا. ترك الأتراك قطّاع الطرق يفعلون ما يريدون؛ وسُمح للأكراد باختطاف البنات الجميلات. وأذكر أنهم كانوا يضعونهنّ على صهوات جيادهم وهنّ متدلّيات على السروج؛ كما أخذوا الأولاد. وكنا ندفع للأتراك ثمن الماء».

ومن المنسيّ أيضاً أن الأتراك شجّعوا إحدى الجماعات الإثنية الإسلامية على مشاركتهم في المذبحة. وهكذا، شملت المجزرة آلافاً من الأرمن ــ وتخلّلت ذلك مشاهد من الاغتصاب والنهب الجماعي ــ على أيدي

الأكراد ـ الشعب الذي حاول صدّام حسين أن يبيده بعد حوالي ستّين سنة ـ وعلى ضفاف نهر الخابور، وغير بعيد عن تلّة مرقدة، بيعت النساء الأرمنيات للأكراد وللعرب المسلمين. وتذكر النساء الناجيات أن الرجال دفعوا عشرين قرشاً للعذراوات، وخمسة قروش فقط للأولاد والنساء اللواتي تمّ اغتصابهنّ. أما النساء الأكبر سنّاً، والعديد منهنّ حوامِل، فقد دُفعن إلى النهر برسم الغرق.

وفي عام ١٩٩٢، وعلى بعد ١٦٠ كيلومتراً من مرقدة، وفي مجموعة من أكواخ الطين التي تقع على بعد ٣٠ كيلومتراً من الحدود العراقية ـ حيث كان القرويون السوريون عام ١٩٩١ يراقبون صواريخ سكود العراقية تنطلق في الليل البهيم فوق بيوتهم ـ هناك وجدتُ سيربوهي پاپازيان، السيّدة الأرمنية التي نجت من الإبادة، وأرملة أحد العرب المسلمين الذي أنقذها في دير الزور. كانت امرأة تشبه العصا الطويلة وذات طاقة هائلة، لها عينان لامعتان، ولكن ليس لها أسنان. وكانت تعتقد أن عمرها يبلغ مئة سنة ـ لكنّ عمرها الحقيقي كان ٩٢ سنة ـ وإنما لا شكّ في صدق قصّتها؛ قالت:

«أنا من قرية تاكيردا التي تقع على بعد ١٢ ساعة من اسطنبول ركوباً على ظهر الحصان. كان عمري آنذاك ١٥ سنة. ساقنا الأتراك من بيوتنا بكامل عائلتنا، ووضعونا على متن سفينة وسخة أبحرت بنا من قونية إلى الشاطئ؛ ثم ذهبنا إلى حلب: أمّي «رنوهي»، وأبي «طاتيوس»، وعمّتي «أزّاز»، وشقيقتاي «هارتووي» و«بيڤا». ضربونا وجوّعونا. وفي حلب ماتت أمّي وعمّتي بسبب المرض. وأرغمونا على المشي طول الطريق في حرّ الصيف. ثم وضعنا الأتراك في مخيّم هناك. وكلّ يوم، كانوا يأتون ليأخذوا آلافاً من الأرمن ويسيروا بهم نحو الشمال. وقد سمع والدي قصصاً مخيفة عن العائلات التي أُعدمت. ولذلك وشم الحروف الأولى من أسمائنا باللغة الأرمنية على معاصمنا، حتى نستطيع أن نهتدي إلى بعضنا البعض فيما بعد».

إنها لهويّات تُرسم بالوشم. لم يحدث للعجوز سيربوهي پاپازيان ما يوازي عملية إبادة أخرى. لقد أنقذها صبيّ عربيّ، وتحوّلت إلى الإسلام مثل الكثير من الأرمنيّات اللواتي التجأن إلى المسلمين غير الأكراد. ولم تسمع بما حدث لباقي أفراد عائلتها إلّا فيما بعد؛ قالت:

«أرسلَهم الأتراك بكاملهم إلى الصحراء شمالاً. وربطوهم بعضهم ببعض، مع عديد من الناس الآخرين. ربُط أبي وشقيقتاي معاً، و«بيڤا» و«هارتووي» بمِعصميْهما. ثم أخذوهم إلى تلّة تسمّى «مرقدة، حافلة بالجثث. ورموهم في أوحال النهر بعدما أطلقوا النار على أحدهم ـ ولا أدري مَن هو ـ وهكذا غرقوا هناك كلّهم معاً».

وبعد عشر سنوات من حصول المحرقة الأرمنية، عادت سيربوهي إلى تلّة مرقدة، وهي تحاول أن تعثر على رفات أبيها وأختيها. قالت: «وكلّ ما وجدته عام ١٩٢٥، هو رُكام من العظام والجماجم. لقد أكلتهم الحيوانات البرّية والكلاب. ولا أدري لماذا تكلّف نفسك عناء المجيء إلى هنا حاملاً دفترك لتسجيل ما أقوله». وهذا فحوى

ما قاله لي أيضاً بوغوص داكسيان في لحظة جرداء حين كنا نجوب تلّة مرقدة بين الجماجم. وعندما تحوّلت إحدى الجماجم بين يديه إلى فُتات وغبار، قال: «لا تقل اشفقْ عليهم. لقد انقضى الأمر بالنسبة إليهم وانتهى». وتذكَّرت سيربوهي النهر الجاري قرب التلّة. ولكني مع رفيقتي إيزابيل إلسين لم نجد أوّلاً أيّ آثار لعظام على ضفاف نهر الخابور. ولم نجد تلك العظام إلّا عندما صعدنا التلّة فوق الطريق الرئيسيّة المؤدّية إلى دير الزور ـ على بعد حوالى كيلومترين من الماء ـ لنرى مُجمل المشهد، وتظهر لنا ضفاف نهر أصابه الجفاف منذ زمن بعيد. فقد غيَّر نهر الخابور مجراه خلال ثلاثة أرباع القرن المنصرمة، منتقلاً في سيره مسافة كيلومتر باتجاه الشرق. وإذ ذاك وجدنا الجماجم. لقد كنا نقف على التلّة حيث قُتلت «بيقا» و«هارتووي» مع والدهما. وخطرت ببالي مقارنة بين نهر الفرات ونهر الخابور. فكما غيّر نهر الفرات مجراه بسبب انسداده بالجثث، يمكن أيضاً أن يكون نهر الخابور قد اختنق أيضاً بالرفات البشرية، وتحوَّل نحو الشرق. ولا شكّ في أن جثتي «بيقا» و«هارتووي» ما زالتا ترقدان في طين «مرقدة» الطريّ حتى اليوم.

لكنّ حقول مقاتل الأرمن لها انتشار أوسع في الصحراء السورية. فعلى بعد ٨٠ كيلومتراً شرقي قرية شحادة، توجد أوشفيتز أخرى صغيرة. وهي عبارة عن كهف ساق إليه العسكر التركي آلافاً من الرجال الأرمن خلال عمليات الترحيل. وجدناه، داكسيان وأنا، بسهولة وسط ما هو اليوم حقل نفط سوري. وقد انهار جزء من الكهف، ولكن ما زال بإمكان المرء أن يزحف إلى فم الصخرة، وينسلّ في ضوء القدّاحات داخل الكهف المشؤوم الذي يمتدّ لأكثر من كيلومتر تحت الأرض. قال داكسيان متضجّراً من سوء احتساب الإحصاءات: «لقد قتلوا هنا حوالى خمسة آلاف شخص، بإدخالهم إلى الكهف وإشعال نار عند المدخل بحيث يملأ الدخان الكهف. وهكذا ماتوا اختناقاً. لقد سعلوا كلّهم حتى ماتوا». مرّت علينا عدة ثوانٍ حتى استوعبنا مغزى كل هذا، فهنا في الصحراء الباردة الجافّة حوّلَ الأتراك هذا الشقّ من سطح الأرض إلى أوّل غرفة غاز في القرن العشرين الميلادي. لقد بدأ تطبيق المبادئ التكنولوجية للإبادة هنا في الصحراء السورية، عند مدخل هذا الكهف البريء، في غرفة طبيعية منحوتة في الصخور.

وهناك متوازيات أخرى مع هذا. فقد أخبر «أنور باشا» وزير الحربيّة التركي[*] السفير الأميركي «مورغانتو» أنه يجري نقل الأرمن إلى «أماكن أخرى جديدة»؛ تماماً كما ادّعى النازيون فيما بعد أن يهود أوروبا أُرسلوا إلى الشرق «لإعادة إسكانهم». وقد أُضرمت النار في كنائس الأرمن، مثلما حدث لكلّ كنيس يهودي تحت السيطرة النازية. ومات الأرمن في ما سمّاه الأتراك «القوافل»؛ كما أُرسل اليهود الأوروبيون «بوسائل النقل» إلى معسكرات الموت. وفي جنوبيّ تركيا، استعمل الأتراك أحياناً حافلات قطارات الماشية لسوق الرجال الأرمن إلى قبورهم الجماعيّة. وقد مثَّل الأكراد دور الجلّادين في خدمة الأتراك، مثلما فعل اللتوانيون والأوكرانيون والكرواتيون في خدمة النازيين؛ حتى أن الأتراك أسّسوا منظمة خاصّة تُسمّى «تشكيلات المخصوصيّة» لتنفيذ الإبادات: كسابقة «لجماعات العمل الخاصّ» التي أسّسها هتلر.

(*) عندما استولى أنور على مدينة «إديرن» خلال الحروب البلقانية الكارثيّة، سُمّي آلاف من الأطفال باسم وزير الحربية التركي هذا، قاتل الجماهير المستقبلي؛ منهم أنور خوجا دكتاتور ألبانيا المجنون... وأنور السادات دكتاتور مصر العاقل.

وقد وضع العلماء الأرمن خريطة تفصيلية تمثّل اضطهاد شعبهم؛ مثل خرائط أوروبا التي تبيّن خطوط القطارات إلى أوشفيتز ـ بيركانو، وتريبلينكا، وداشو وغيرها من معسكرات الاعتقال النازيّة. وقد سيق أرمن سيڤاس إلى مالاتيا، ومن مالاتيا إلى حلب، أو من مَشْ إلى ديار بكر وإلى رأس العين ـ عبر ماردين ـ وإلى الموصل، وإلى كركوك. إنها خريطة مجرى العذاب، وقوافل الإذلال والحزن التي سيقت ١٥٠ كيلومتراً جنوبيّ مرعش إلى حلب، ثمّ مسافة ٣٠٠ كيلومتر شرقاً إلى دير الزور، ومن ثمّ شمالاً ـ باتجاه تركيا نحو نهر الخابور وراء تلّة مرقدة. وقد جرى ترحيل الأرمن من شاطئ البحر الأسود،ومن أوروبا التركية إلى الصحراء السورية؛ كما انتقل بعضهم جنوباً إلى فلسطين.

وما اتّضح من أمر هذه الوحشية الإثنية آنذاك لم يكن مداها واتّساعها ـ ربّما شملت مِئتيْ ألف أرمني ذُبحوا قبل عقدين من الزمن ـ بل طبيعتها المنهجية المتّسمة بالمحرقة. فقد صُمّمت سياسة لقتل شعب في زمن الحرب، وضعها رجال الدولة التركية الكبار الذين كانوا يسيطرون على «آلة العنف الرسمي وغير الرسمي»؛ كما وصفها أحد المؤرّخين. وعلى غرار يهود أوروبا، كان كثير من الأرمن مثقفين ثقافة عالية. لقد كانوا محامين، وموظفين في الدولة، ورجال أعمال، وصحافيين. وعلى خلاف محرقة اليهود، عرف العالم حرب الإبادة التركية حالما بدأت. وقد كُلّف الڤيكونت جايمس برايس والشابّ «أرنولد توينبي» بإعداد تقرير للحكومة البريطانية عام ١٩١٥؛ فضلاً عن مؤلّفهما المسمّى «معاملة الأرمن في الإمبراطورية العثمانية ١٩١٥ ـ ١٩١٦» ـ الصادر في ٧٠٠ صفحة من المشاهدات العيانية للمجازر ـ الذي صار تأريخاً كاشفاً للمذبحة؛ بل أوّل محاولة جدِّية للتعاطي مع الجرائم المرتكبة ضدّ الإنسانية. وكانت معظم الشهادات قد جاءت من المبشّرين الأميركيين في تركيا ـ الذين شكّلوا آنذاك المنظمات غير الحكومية لتلك الحقبة الزمنية ـ ومن الدبلوماسيين الإيطاليين، والهولّنديين، والسويديين، واليونانيين، والأميركيين، والألمان، ومن السجلّات(*).

وكان الدبلوماسيون الأميركيون من أوائل الذين سجّلوا حصول «المحرقة» الأرمنية ـ ومن أشجع شهود العيان ـ وقد بقيت تقاريرهم في محفوظات وزارة الخارجيّة الأميركية بين الشهادات التي لا يرقى إليها الشكّ عن مصير الأرمن. وقد كتب لزلي دايفيس، البالغ من العمر ٣٨ سنة، والمحامي السابق الذي كان قُنصلاً أميركياً في «هاربوت» تقريراً مُرعباً عن رحلاته الشخصية التي قام بها على صهوة جواد عبر أراضي الموت في أرمينيا. فحول بُحيرة غولجوك، وخلال ٢٤ ساعة، رأى «رُفات ما لا يقلّ عن ألف أرمني». لقد وجد جُثثاً متراكمة على الصخور عند أقدام المنحدرات الصخرية الشاهقة، وفي الماء، وفي الرمل، وفي الوهاد، «وقد كانت النساء مُلقيات على

(*) تأسّست الجمعية الأرمنية ـ البريطانية بعناية اللورد برايس عام ١٨٨٠. وهي جماعة تأثير، مارست الضغط على الحكومة البريطانية لتأمين حقوق متساوية للأرمن، ضمن الإمبراطورية العثمانية. ولدى المؤلّف ملحق خاصّ بالمجلّة الأرمنية ـ الإنكليزية الصادرة في نيسان/أبريل عام ١٨٩٥، يحوي تقريراً عن مجزرة الأرمن في ساسون، فضلاً عن رسالة دعم ضخمة من اللورد غلادستون ـ جاء فيها: «إن مجرّد الكلمات، الصادرة عن الأتراك، لا تساوي النفس المبذول للتلفّظ بها» ـ والطلب إلى الشرطة الرسمية الأوروبية أن تحمي «الأرمن المسيحيين». فدينهم، لا كونهم أقلّية في الإمبراطورية العثمانية، كان بوضوح هو المحرّك لإثارة شعور البريطانيين.

ظهورهنّ مع دلائل تشويه بربرية بحراب الشرطة...». وفي إحدى رحلاته، اقترب دايفيس من امرأة تحتضر، وقدّم لها خبزاً «فصرخت تقول إنها تبغي الموت». وقد أنقذ دايفيس أستاذاً أرمنياً في كلّية، عبر القرية التي تتناثر فيها جثث الرجال، والنساء، والأولاد. فكتب الأستاذ نُبذة عن الألم والكرامة ـ يمنح بها «بركة»، بحسب تعبير المؤرّخ الأرمني بيتر بالاكيان.

«ألا تستحقّ هذه الأجساد الميتة وهذه العظام المبيضّة، حفنة من تراب؟!

حفنة من تراب على الأقلّ، لهؤلاء الموتى الذين لا يطالِب بهم أحد...

إننا نكره أن نتخيّل أجساد أحبابنا طُعمة للحشرات؛ وعيونهم، عيونهم الجميلة ملأى بالدود؛ خدودهم، خدودهم الحريّة بالقُبل محشوّة بالعفن؛ وشفاههم الرمّانية الوردية طُعمة للزواحف.

إنهم مطروحون في الجبال، مهجورون وغير مدفونين، تهاجمهم الديدان والعقارب؛ وعيونهم مكشوفة، ووجوههم مرعبة، وسط روائح نتنة، مثل روائح المسلخ...

هناك نساء صدورهنّ وسيقانهنّ مكشوفة، أليس لديكم حفنة من تراب تغطّي شرفهنّ؟!

أعطِنا يا ربّ حفنة التراب المنشودة، التي نطلبها منك».

وكان الألمان أيضاً من شهود تلك المجازر، إذ إن ضبّاطاً من جيش القيصر أُوفدوا إلى تركيا لمعاودة تنظيم الجيش العثماني. وكانت هناك أرمين وغنر الممرّضة الألمانية والملازمة الثانية في بطانة المشير «فون دير غولتز». وقد عصت الأوامر، وأخذت مئات الصور للضحايا الأرمن في مخيّمات رأس العين، والرقّة، وحلب، ودير الزور. وتُعتبر اليوم هذه الصور المرعبة التي أُخذت للموتى وللمحتضرين قاعدة للصور الشاهدة على المذابح. ومن المعلوم أن الألمان شاركوا في بناء نظام السكك الحديدية في تركيا، ورأوا بأمّ عيونهم أول استعمال لحافلات الماشية من أجل ترحيل الناس بمعدّل تسعين رجلاً في الحافلة الواحدة ـ وهو المعدّل ذاته الذي استعمله النازيّون لنقل اليهود إلى مخيّمات الموت ـ وذلك على خطوط السكك الحديدية في الأناضول وبغداد. وقد أرسل فرانز غونتر ممثّل البنك الألماني، الذي موّل مشاريع السكك الحديدية التركية، صورة عن قطار الترحيل إلى أحد رؤسائه، كمثل على القسوة الوحشية للحكومة التركية.

وقد أعطت الجرائد العالمية ـ وبخاصّة في الولايات المتّحدة الأميركية ـ مكاناً بارزاً في صفحاتها لهذه الإبادة. ومنذ البدء، تميّزت جريدة النيويورك تايمز بتغطية شبه يومية للمذابح، والاغتصاب، ونزع الملكيّات، واستئصال شأفة الأرمن. وقد ظهرت التقارير الأولى في الجريدة في تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩١٤. وفي ٢٩ منه، ظهر في الجريدة عنوان «متعصّبو أرضروم يذبحون المسيحيين». ونُشرت احتجاجات السفير «مورغانتو» للحكومة التركية بتاريخ ٢٨ نيسان/أبريل ١٩١٥، تحت عنوان: «نداء إلى تركيا لوقف المجازر». وبتاريخ ٤ تشرين الأول/

أكتوبر نشرت النيويورك تايمز عنواناً آخر: «الفظائع المرتكبة في أرمينيا»، وتحته برقية تحوي تفاصيل الفظائع والتعذيب، والترحيل، وقتل الأولاد. وبتاريخ ٧ تشرين الأول/أكتوبر بدا العنوان هكذا: «٨٠٠٠٠٠ أرمني يُقضى عليهم و ١٠٠٠٠ يُغرقون فوراً». وقد أعطي تقرير «مورغانتو»، وخُطب «برايس» أمام مجلس اللوردات تغطية كبرى. كما نشرت «النايشون» سلسلة مقالات افتتاحية قويّة تدعو برلين ـ كانت الولايات المتّحدة لا تزال محايدة في الحرب ـ لوقف القتل الجاري بواسطة حليفتها تركيا. وبقيت القصص تُروى عن القتل الجماعي، وتُنشر في النيويورك تايمز حتى حزيران/يونيو ١٩١٩، بعد مضيّ حوالَي ثمانية أشهر على انتهاء الحرب. ففي أوّل حزيران/يونيو جاء العنوان التالي: «الفتيات الأرمنيات يروين قصّة المجازر». وحتى في مدينة «هاليفاكس» الكندية، نشرت الجريدة المحلّية تقارير شبه أسبوعية عن الإبادة. وتكوَّن المجلّد الذي يحوي البرقيات والرسائل بخصوص إبادة الأرمن المنشورة في هذه الجريدة، والبالغ ٣٥٢ صفحة.

وقلّما نال التطهير العِرقي والإبادة الجماعية مثل هذه الدعاية على نطاق واسع. وكان الدبلوماسيون البريطانيون أنفسهم يتلقّون عبر الشرق الأوسط تقارير مباشرة عن المجازر. ففي مدينة البصرة التي كانت آنذاك بيد العثمانيين كتب جرترود بيل ـ الذي أصبح فيما بعد وزير الشؤون الشرقية في بغداد ـ تقريراً استخباراتياً عن الاعتداءات والانتهاكات التي رواها أحد الجنود الأسرى الأتراك:

> «غادرت الكتيبة حلب في ٣ شباط/فبراير، ووصلت إلى رأس العين خلال ١٢ ساعة... وكان هناك حوالى ١٢٠٠٠ أرمني محجوزين في مخيّم تحت إشراف مئة كردي... وكان هؤلاء الأكراد يسمّون «جندرمة» (أي دَرَكاً) لكنهم كانوا في الحقيقة جزّارين. وقد أُمرت جماعات منهم علناً بأن يأخذوا معهم مجموعات من الأرمن من الجنسيْن إلى أمكنة مختلفة؛ لكنهم تلقّوا تعليمات سرّية بقتل الرجال والنساء والأولاد... واعترف أحد هؤلاء الدرك بقتل ١٠٠ رجل بنفسه... وامتلأت كهوف الصحراء الخالية وأحواضها بالجثث... وقد ارتاع الضبّاط الأتراك في الكتيبة من المشاهد المرعبة التي رأوها، حتى أن إمام الكتيبة الشيخ المسلم هاله أن يرى هذا العدد الكبير من الجثث، فصلّى وطلب من الله تعالى أن يُجنّب المسلمين القِصاص المترتّب على هذه الجرائم. ومن أجل التكفير عن هذه الذنوب حفر بنفسه ثلاثة قبور... وبعد مجزرة رأس العين، لم يعد أيّ رجل ينظر إلى جسد امرأة، إلّا بنوع من الرعب...».

وبعد أن دخلت الولايات المتّحدة الحرب، استمرّ دبلوماسيّوها في جمع التقارير حول تلك الفظائع. فقد كتب «ج. ب. جاكسون» القنصل الأميركي السابق في حلب بتاريخ تموز/يوليو، ينبئ عن ١٠٠٠ امرأة وولد من قرية هاربورت سُلّموا إلى الأكراد:

> «الذين ساروا بينهم على جيادهم، واختاروا أجمل النساء والفتيات والأولاد... وقبل أن يقوموا بهذا الاختيار والإخضاع، نزعوا ثياب مَن بقي من النساء، وأجبروهنّ على إكمال باقي الرحلة عاريات. وقد أخبرني شهود عيان عن هذا الانتهاك الذي وصلت بموجبه أكثر من ٣٠٠ امرأة عارية تماماً إلى رأس

العين، تذرو الرياح شعورهنّ كالبهائم؛ وبعد أن مَشيْن ستّة أيام في الشمس الحارقة... جاء بعضهنّ إلى القنصليّة في حلب. وأظهرنَ لون أجسادهنّ الذي صار مثل الزيتون الأخضر، وجلدهنّ الذي تقشّرت بثوره الكبيرة؛ فضلاً عن أن العديد منهنّ كان لديهنّ جروح بليغة على الرأس والبدن.

وقد سُجّلت فظائع «المحرقة» الأرمنية في رسائل ومذكّرات خاصّة لا تُحصى ـ وبعضها لم ينشر بعد ـ كتبها أوروبيون مرّوا بشمال سوريا التركي وجنوب تركيا. وفي ما يلي مثلاً، يجد القارئ نُبذة من تقرير طويل كتبه سيريل بارتر رجل الأعمال الذي أُرسل من العراق إلى حلب تحت الحراسة التركية عام ١٩١٥:

«قد أُخبركم أننا التقينا، على مسيرة يومين جنوبي دير الزور، فوجاً من اللاجئين الأرمن، وبقيت أراهم على مدى الأشهر الثلاثة التالية باستمرار. ومن المستحيل وصف بؤسهم وشقائهم. بكلمة موجزة، لم يكن بينهم رجال من أعمار ١٦ إلى ٦٠ سنة، لأنهم ذُبحوا؛ وما تبقّى من رجال عجزة، ونساء وأولاد، كانوا يموتون كالفراش بسبب المجاعة والمرض، بعد أن ساروا على الطريق التي مشوا عليها من قُراهم إلى هذه الصحراء الجرداء، دون أيّة أرزاق تبقيهم على قيد الحياة، في رحلتهم التي دامت من ثلاثة شهور إلى ستة أشهر... كان ذلك كابوساً استحوذ عليّ، ودام لديّ وقتاً طويلاً، بعدئذٍ».

وقدّم بارتر فيما بعد تقريراً إلى لجنة برايس المذكورة ـ التي طبعته أولاً دون ذكر اسم كاتبه ـ حيث سجّل كيف كانت العربات تمرّ بحلب، و«تُلقى عليها أجساد القتلى الجُدد من الأرمن كأكياس الفحم». كما شهد بارتر أيضاً ترحيل الأرمن بالقطار، ووصف «إخراجهم من مأوى اللاجئين بخشونة إلى محطّة السكّة الحديديّة، ومُراكمتهم في عربات القطار كالأغنام، وإرسالهم إلى دمشق وغيرها من بلاد الحجاز».

كما أن أحد الضبّاط البريطانيين الذي أُخذ كأسير حرب، الملازم إ. هـ. جونز، روى مصير الأرمن في قرية يوزغات، حيث كان محجوزاً في مخيّم لأسرى الحرب. فقد كتب يقول: «حصلت المذبحة على بعد حوالي عشرة أميال من البلدة. وكان بين حرّاسنا رجال شاركوا في قتل الرجال، والنساء، والأولاد حتى تعبت أذرعهم من الفتك. وكانوا يفتخرون بذلك في ما بينهم؛ لكنهم كانوا من نواحٍ أخرى لطفاء». وحتى في عام ١٩٢٣، زار «جان دوكورسي إيرلند ـ الطالب الإيرلندي الذي صار فيما بعد كاتباً بحرياً ومؤرّخاً ـ مركز «كاستل غاندولفو» خارج روما، حيث رأى أولاد اللاجئين الأرمن، ووصفهم بأنهم «سُمْر، يسترعون انتباه المرء، لكنهم هادئون، بالرغم من فوضى احتشادهم».

وبما أنّ كلّ الناجين من «المحرقة» الأرمنية قد ماتوا؛ فقد تسلّم أولادهم القضيّة. وكان بعض الناجين من الموت عام ١٩١٥، قد تعرّضوا عام ١٩٢٢ لمجزرة ثانية في مدينة «سميرنا» أي «إزمير» اليوم التي كان يسيطر عليها اليونانيون. وقد أفادت ابنة أحدهم المدعوّ سركيس بأنّ والدها الذي نجا بحياته من الصحراء السورية، شارف على الموت في «سميرنا». وقالت في رسالتها إليّ:

«... جاء والدي واثنان آخران إلى سميرنا، في الوقت الذي تسلّم فيه أتاتورك ورجاله الحكم.

أوقفوهم وأخذوهم إلى باحة عند محطّة سكّة الحديد، مع بضع مئات من اليونانيين والأرمن، الذين أُعدموا بالمدافع الرشّاشة. وقد نجا أبي لأنه أُغمي عليه. ولكنه لم ينجُ من حدّ الحراب التي كان يشكّ بها الجنود الأتراك الموتى تكراراً. وقد أُصيب بجروح بليغة في جبهته وساقه، ولكنه نهض وسار إلى رصيف المحطة.

ورأى أمامه فتاتيْن شابّتيْن ترتجفان من الخوف مذعورتيْن لهول ما شاهدتاه. فلم يطاوعه قلبه على أن يتركهما هناك. فأمسك بأيديهما، وركض الثلاثة لينجوا بحياتهم. وما رأوه على رصيف المحطة سيبقى مع والدي لبقيّة أيامه. لقد احتشد عشرات الألوف من الناس مرعوبين، ولهب المدينة المحتضرة يقترب منهم أكثر فأكثر. ومع ذلك... لم تأتِ أيّ مساعدة من السفن الحربية التابعة للبريطانيين، والفرنسيين والأميركيين. لكنّ والدي رأى عن بُعد سفينة أخرى يصعد إليها الناس، وكان على ثلاثتهم أن يقفزوا إلى الماء ويسبحوا ليصلوا إليها. ففعلوا، وأنقذهم بحّارة إيطاليون».

كان أول من سمّى إبادة الأرمن بالمحرقة ونستون تشرشل، مضمّنا القائمة التركية لفظائع الحرب «مجزرة آلاف لا تُعدّ من الأرمن المساكين، من رجال، ونساء وأولاد، ضمن مناطق كاملة تعرّضت كلّها لمحرقة إدارية... لا تُبقي ولا تَذر». قال تشرشل:

«إن التطهير العِرقيّ في آسيا الصغرى تمّ بأحسن ما يكون... وليس هناك من شكّ معقول في أن هذه الجريمة قد خُطّط لها ونُفّذت لأسباب سياسية. لقد سنحت الفرصة لتطهير الأرض التركية من عِرق مسيحي يتعارض مع كلّ المطامح التركية؛ ويرعى مطامح قومية لا يمكن تحقيقها إلّا على حساب تركيا؛ وهو مزروع جغرافياً بين تركيا والقوقاز المسلميْن».

وقد اعترف تشرشل بأنّ اهتمام البريطانيين والأميركيين بمذبحة الأرمن المشؤومة، «قد أُوقد بمصابيح الدين، والاهتمام بالغير، والسياسة... وحرّكه غضب أناس ذوي شهامة وفروسيّة من الرجال والنساء المنتشرين في العالم الناطق باللغة الإنكليزية».

ولكن كان هناك أيضاً أناس آخرون أقلّ شهامة وفروسية، نفعتهم خبرتهم المباشرة بمحرقة الأرمن، في أوروبا الجديدة المتوحّشة. فهناك مثلاً: فرانز فون پاپن الذي كان رئيس الأركان في الجيش التركي الرابع خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨؛ وقد خدم بصفته نائب مستشار لهتلر عام ١٩٣٣. وكان خلال الحرب العالمية الثانية ثالث سفير «للرايخ» في تركيا. كما اطّلع على التفاصيل الحميمة لإبادة الأرمن الفريق الألماني هانز فون شيخت، الذي كان رئيس الأركان التركية العامّة عام ١٩١٧. وقد أرسى دعائم الفيرماخت في العشرينيّات من القرن العشرين الميلادي، وكرّمه هتلر بمأتم رسمي للدولة عندما مات عام ١٩٣٦. وكان أكثرهم سوءاً وشؤماً شابّ ألمانيّ يُدعى رودولف هِسّ، الذي انضم إلى القوّات التركية قبل أن يبلغ العشرين من عمره. وفي عام ١٩٤٠ عُيِّن قائداً لأوشفيتز، وصار نائب مفتّش لجميع معسكرات الاعتقال في قيادة الجيش الألماني عام ١٩٤٤.

وفي أحد أعمال المؤرّخ الأرمني «فاهاكن داذريان»، وصف «ماكس إروين فون شيوبنر ـ ريختر»، كأحد أكثر المعلّمين النازيّين فعاليّة. وقد كان نائب القنصل في أرضروم، وشاهد مذابح الأرمن في مقاطعة بتليس، وكتب إلى المستشار الألماني تقريراً طويلاً عن عمليات القتل. وعلى العموم، قدّم إلى برلين ١٥ تقريراً عن الترحيل والقتل الجماعي. وصرّح في رسالته الأخيرة بأنه إذا استثنينا بعض مئات الألوف من الناجين، فإن أرمن تركيا قد أُبيدوا عن بكرة أبيهم. وقد وصف الأساليب التي اتّبعها الأتراك في إخفاء خُطط الإبادة، والتقنيات التي استخدموها للإيقاع بالأرمن، واستعانتهم بزُمر من المجرمين؛ حتى أنه أشار إلى الأرمن بصفتهم «يهود الشرق» الذين برعوا في إدارة الأعمال والتجارة. وقد قابل شوبنر ـ ريختر هتلر بعد خمسة أعوام، وصار من مستشاريه المقرّبين. كما كتب مقالات افتتاحيّة عنصريّة في جريدة ميونيخ التي طالبت بحملة «لا ترحم ولا تتوقّف» ضدّ اليهود، بحيث تنظّف ألمانيا. وعندما احتفل هتلر بانقلابه على حكومة بافاريا، شبك «شوبنر ـ ريختر» ذراعه بذراع هتلر، بينما كانا يسيران في الشوارع، فأُصيب في قلبه برصاص الشرطة، وقُتل.

لا ندري كم تعلّم هتلر من محرقة الأرمن بواسطة صديقه؛ لكنه كان مطّلعاً على التفاصيل بالتأكيد؛ إذ أشار إلى أن الأرمن وقعوا ضحيّة الجبن عام ١٩٢٤؛ وفي آب/أغسطس عام ١٩٣٩ سأل جنرالاته السؤال البلاغي المشؤوم في ما يتعلّق بالبولونيين: «مَن يتكلّم اليوم عن تدمير الأرمن؟». وكانت هناك محاولات متكرّرة ـ ولا سيّما في تركيا ـ للادّعاء بأن هتلر لم يتفوّه بتلك الملاحظة؛ لكن داذريان وجد خمس صِيَغ من ذلك السؤال، أربع منها متطابقة، واثنتان مسجّلتان في محفوظات القيادة العليا الألمانية. وعلاوة على ذلك، اكتشف المؤرّخون الألمان أن هتلر أبدى تعليقاً مماثلاً عام ١٩٣١ في مقابلة أجراها معه رئيس تحرير جريدة ألمانية، إذ قال: «ينتظر الناس في كل مكان نظاماً عالميّاً جديداً. ونحن ننوي أن نُدخل سياسة جديدة كبرى لإعادة الإسكان... هل تذكرون إبادة الأرمن». ثم وردت إشارة مصيرية أخرى إلى الإبادة الأولى عندما كان هتلر يطلب ترحيل يهود هنغاريا، وأنهى كلامه بخطبة طويلة أمام الأميرال هورثي وليّ العهد الهنغاري، عام ١٩٤٣، مع ملاحظة حول «أفول نجم الناس الذين كانوا يوماً شديدي الاعتزاز ـ الفرس ـ والذين يعيشون الآن حياة بائسة مثل الأرمن».

ولا يزال البحث التاريخي مستمرّاً بشأن الألمان الذين شاهدوا مأساة الأرمن، ودورهم التالي في حرب هتلر. وكان بعض الأرمن من العمّال المستعبدين ـ رجالاً ونساءً ـ قد صرفوا الأشهر الأخيرة من عمرهم، وهم يشتغلون في إتمام قسم من خط سكّة الحديد الذي كان الألمان يبنونه إلى بغداد؛ وبالتالي كانوا في حماية المشرفين الألمان على ذلك الخط. ولكن كان هناك ألمان آخرون يشهدون موت الأرمن ولا يحرّكون ساكناً(*). وما كان يبعث الرعشة في النفس بخصوص سؤال هتلر لجنرالاته، لا يتعلّق بالمقارنة التي أجراها ـ إذ إن العالم كلّه كان عالِماً بتفاصيل إبادة الأتراك لجماهير الأرمن ـ ولكن بمعرفته المهمّة أيضاً بأن المعتدين والمرتكبين لجرائم الحرب هذه، قد كوفئوا بعدم القصاص.

(*) ألقى الأستاذ ولفغانغ ويبرمان من جامعة برلين الحرّة، محاضرة في بيروت عام ٢٠٠١، عرض فيها إثباتاً على أن كثيراً من الضبّاط الألمان شهدوا المجازر الأرمنية دون أن يتدخّلوا أو يساعدوا الضحايا.

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة انعقدت المحاكم العُرفية لعقاب أولئك المسؤولين، وقد اعترف برلمانيون أتراك بتلك الجرائم ضدّ الإنسانية. وأصدرت محكمة عسكرية تركية، غير مسبوقة في التاريخ العثماني، سجلّات حكومية استُخدمت كإثباتات خلال المحاكمة. وكان أحد الاتصالات البرقيّة ذا طابع نازيّ. فقد قال موظّف عن الأرمن: «لقد أُرسلوا إلى مصيرهم النهائي»؛ فسأله آخر: «وماذا يعني ذلك؟»، فجاء الجواب: «يعني أنهم ذُبحوا، وقُتلوا». وعلى الأثر شُنق ثلاثة موظفين ذوي رُتب بسيطة؛ كما حُكم غيابياً على الثلاثي: جمال، وأنور، وطلعت، بالموت.

ولكن لم يكن لدى المحاكم التركية الإرادة في الاستمرار؛ كما أن الحلفاء الغربيين، الذين تشجّعوا ووعدوا بإجراء محاكمة لمُجرمي الحرب الأتراك الرئيسيين ـ والذين وصفوا القتل الجماعي للأرمن بأنه «جرائم ضدّ الإنسانية» في تحذير أرسل إلى الحكومة التركية في أيار/مايو عام ١٩١٥ ـ لم يهتمّوا بإلزام الأتراك القيام بذلك. وفي الواقع ـ ما زال الادّعاء المنهجي قائماً حتى اليوم بإنكار أن القتل الجماعي قد ارتُكب ـ وهو ادّعاء مخيف مثل لامبالاة الحلفاء الذين كان عليهم أن يلاحقوا أولئك الذين صمّموا خطة إبادة الأرمن. وقد قُتل طلعت باشا في برلين على يد أرمني راحت عائلته ضحيّة عمليّة الإبادة. وقد جرت محاكمة «سوغومون طهليريان» وبُرّئ عام ١٩٢١؛ ودلّ ذلك على أن تفاصيل المحرقة الأرمنية كانت معروفة تماماً لدى الجمهور الألماني. وقد أورد «فرانز ويرفيل» الكاتب اليهودي الألماني تحذيراً تنبُّئياً بالمحرقة اليهودية القادمة في معالجته لقضيّة المقاومة الأرمنيّة ضدّ القتلة الأتراك تحت عنوان: «أربعون يوماً لموسى داغ». وألقى محاضرات عبر ألمانيا عام ١٩٣٣، حتى شهَّرت به المجلّة النازيّة المسمّاة: «داس شوارزي كوربس»، على أنه يقوم بدعاية فظائع التركية المزعومة المرتكبة بحقّ الأرمن». كما كانت هناك أيضاً رابطة مُقلقة أخرى بين «المحرقة» الأرمنية ومحرقة اليهود القادمة. فقد أدانت الجريدة المذكورة ذاتها «أن يقوم اليهود الأرمن في أميركا بترويج كتاب «ويرفيل» في الولايات المتّحدة الأميركية.

وبينما كان يجري إخفاء معالم الإبادة الجماعية الأولى، استمرّ ونستون تشرشل في التوكيد على حقيقة حصولها. وقد كتب في عام ١٩٣٣، ذلك العام الذي طاف فيه ويرفيل ألمانيا محاضراً، ما يلي:

> «لقد برز الشعب الأرمنيّ من الحرب الكبرى، مشتّتاً، مُحجّماً، مستأصلاً في كثير من المناطق بسبب المجازر، والخسائر التي مُنيَ بها أثناء الحرب، والترحيل، في إطار نظام سهل للقتل والفتك... إنّ المحنة التي ألمّت بالأرمن صارت معروفة في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية. وقد حطّ الدهر بظالميهم ومضطهديهم بسبب الحرب أو الثورة. إن الدول العظمى إبّان انتصارها كانت صديقة للأرمن، وتريد أن تُصلح شأنهم».

لكنّ الأرمن خُدعوا وخانهم المنتصرون. وتروي المحفوظات قصّة مُرّة عن التقاعس والضعف وقلّة الجدوى والوعود الكاذبة. وفي ما يلي هذه الفقرة من معاهدة سيفر بين الحلفاء والحكومات التركية بتاريخ ١٠ آب/ أغسطس، عام ١٩٢٠:

«اعترفت تركيا بأرمينيا كدولة مستقلّة، وقبلت تحكيم الرئيس (وودرو) ويلسون، بشأن إقامة الحدود بين البلدين».

وتقول المادّة ٦٤ من المعاهدة ذاتها:

«وخلال عام واحد. . . على الشعب الكرديّ أن يخاطب مجلس عُصبة الأمم، ويُظهر أن غالبية سكّان هذه المناطق يرغبون في الاستقلال عن تركيا، وإذا أوصى المجلس بمنحهم هذا الاستقلال، تقبل تركيا بموجب هذه المعاهدة أن تُنفِّذ تلك التوصية، وأن تتخلّى عن جميع حقوقها وإشرافها على هذه المناطق».

وكانت النقاط الأربع عشرة التي وضعها الرئيس «ويلسون» محاولة أولى من قِبل الولايات المتّحدة الأميركية لإقامة «نظام عالمي جديد»، وقد حوت مطالب مشرّفة. فقد أصرّت النقطة الخامسة على ما يلي:

«إجراء تكييف حرّ، منفتح الذهن، وغير متحيّز على الإطلاق لجميع المطالب الاستعمارية. . . وإن مصالح الشعب المعنيّ، يجب أن يكون لها الوزن ذاته الذي تحظى به مطالب الحكومة، التي سيُحدَّد اسمها فيما بعد».

وقد أشارت النقطة ١٢ بوضوح إلى الأرمن والأكراد:

«إن الأقسام التركية من الإمبراطورية العثمانية الحاضرة، تُؤكَّد لها سيادة آمنة؛ كما يؤكَّد للجنسيّات الأخرى التي تقع الآن تحت الحكم التركي، دون أيّ شكّ، تأمين على حياتها، وفرصة غير منقوصة للنموّ المستقلّ. . .»

وكان الرئيس ويلسون قد أعطى على الأثر الجمهورية الأرمنية مناطق من تركيا الحديثة ـ بما فيها محافظتا «أرضروم» و«ڤان» ـ ولكن الأتراك والبولشفيك تعاونوا على تدمير ذلك قبل كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٢٠. ولم يكن «ويلسون» من نوع الرؤساء الذين يرسلون قوّة مثل «عاصفة الصحراء»، لطرد تلك الجيوش، والوقاية من مجزرة أخرى تصيب الأرمن. ولم يكن مصير الأكراد الذين بطشوا بقسوة في إبادة الأرمن، أفضل من مصير الأرمن؛ إذ إن الحماس لإقامة دولة كردية تحميها بريطانيا، وتكون منطقة عازلة بين تركيا وإيران والعراق، خمد عندما قرّرت بريطانيا أن تكسب الرأي العامّ العربي في العراق بإبقاء المناطق الكردية ضمن الدولة العراقية، وعندما بان أن الاتحاد السوفياتي الصاعد قد يستفيد من دولة كردية صنيعة.

وقد عنى الانعزال الأميركي في ما عنى، أن يُترك الأرمن وشأنهم. فقام الأتراك من جديد بالهجوم على جيش فرنسي مرابط في سيليسيا وطرده من مرعش وذبح ٥٠ ٠٠٠ أرمني آخرين، ظنّوا أنهم تحت الحماية الفرنسية. كما حدثت مجزرة أخرى في ياريفان. وقد كتب تشرشل على أثر توقيع معاهدة لوزان، التي ثبّتت السلم الأخير بين تركيا والقوى الكبرى، ما يلي: «سيفتّش التاريخ عن كلمة أرمينيا، دون جدوى».

ومع ذلك، فمن المهمّ أن نتذكّر أن الدولة التي اختارت بديلاً ديمقراطياً للشرق الأوسط، في الأعقاب المباشرة لحرب والدي، كانت الولايات المتّحدة الأميركية. ولا أُشير هنا فقط إلى المبادئ الأربعة التي شكّلت حجّة قويّة للتطوّر الديمقراطي. فقد صرّح الرئيس «ويلسون» أيضاً في خطاب إلى «الكونغرس» أنه «يجب أن لا تجري مقايضة على حساب الشعب باستبدال سيادة بسيادة أخرى عليه، كما لو كان الشعب شيئاً منقولاً أو حجراً في لعبة». وقد دافع الدبلوماسيون الأميركيون والإرساليات الأميركية ببلاغة عن ضرورة إقامة إمبراطورية عربية ـ دون تركيا ـ «كأمّة عربية واحدة»، كما سمّوها، كي تتطوّر وتتقدّم بين بلدان العالم. كما جاءت حجّة أخرى أيضاً من لجنة «كنغ كراين»، التي شكّلها ويلسون، والتي سافرت إلى الشرق لتستفتي شعب المنطقة وتستطلع رغباته.

ولم يكن من خطأ ويلسون انعزال الشعب الأميركي، الذي سبّب انسحاب أميركا من شؤون العالم. لكنّ ذلك كان إحدى أكبر مآسي العصر في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه أميركا طرفاً من أطراف النزاع في الشرق الأوسط. لقد سيطرنا، نحن الأوروبيون، على المنطقة؛ وأخفقنا. وعندما عادت الولايات المتّحدة الأميركية فدخلت من جديد إلى المنطقة بعد رُبع قرن فإنما فعلت ذلك من أجل النفط. وبقيت منذ ذلك الوقت داعمة وممولّة لإسرائيل، دون قيد أو شرط.

وكان اللورد برايس، الذي نوّر تقريره الرأي العامّ الأميركي قد اشتكى خلال جولة قام بها عبر أميركا عام ١٩٢٢، من تقاعس الحلفاء في تجريد الجيش التركي من السلاح؛ ممّا سمح للأتراك بمعاودة ممارسة «غطرستهم القديمة». وقد عبّر رايس عن ذلك الوضع بجُملة مُلغزة، ألمح فيها إلى أن رفض الحلفاء معاودة تركيز وضع الأرمن، ناجم عن أكثر من تعبهم من متابعة خوض الحرب. فقد تساءل: «لماذا، بعد أن قامت الحكومة التركية عام ١٩١٥ بذبح مليون من رعاياها المسيحيين... لماذا، بعد أن ارتكبت تلك الحكومة تلك الجرائم، عومِلت من قِبل الحلفاء بليونة فائقة ـ كل ذلك أسرار يعلمها بعضكم؛ لكن تلك الأسرار، كما قال هيرودوتس بشأن بعض القصص التي سمعها من كُهّان مصر، بالغة التقديس، بحيث لا تُروى». وبحسب قول برايس قاسى الأرمن أكثر من أيّ شعب آخر خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، و«تُركوا لشأنهم بقسوة بالغة».

فما كان السرّ الذي ادّعى «برايس» أنه يعلمه ولا يبوح به؟ هل كان ذلك مجرّد بلاغة تُفسِّر تردّد الحلفاء بعد الحرب؟ أو أنه اعتقد أن بريطانيا وفرنسا أرادتا اتّخاذ تركيا حليفة لهما إزاء قيام الدولة البلشفية الجديدة، التي قد تهدّد قريباً آبار النفط في الشرق الأوسط؟ وفي منطقة القوقاز كلّها، قاوم الجنود البريطانيون بادئ ذي بدء البلاشفة ـ باستنشاق رائحة النفط في باكو، بحسب وصف أحد المراقبين ـ وحافظوا لفترة قصيرة، على استقلال، جورجيا، وأذربيجان، والدولة الأرمنية المقطّعة أوصالها. ولكن عندما انسحب البريطانيون عام ١٩٢٠، وقعت هذه الدول الثلاث تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي. وفي تركستان، حيث كنّا، نحن البريطانيين، مهتمّين بمنع ألمانيا من الوصول إلى إمدادات القطن، حاربت قوّاتنا البريطانية الروس، بمساعدة أعوان أنور باشا الأتراك، ضمن تحالفات عجيبة غريبة؛ نظراً لأن روسيا القيصرية بقيت حليفة لبريطانيا حتى بدء الثورة الروسية عام ١٩١٧.

وقد تمسّك الأرمن بإحدى زوايا الأراضي الخاضعة للحكم التركي سابقاً: الإسكندرون، التي صارت الآن قلعة موسى داغ المهدّمة، الواقعة على مسافة ٢٠ كيلومتراً من أنطاكية، التي صمد أهلها بوجه الحصار المضروب عليهم، كما جاء في ما كتبه ويرفيل. وسقطت الإسكندرون الواقعة في أقصى شمال غرب سوريا تحت الحكم الاستعماري الفرنسي عام ١٩١٨. ورجع عدة آلاف من الأرمن إلى بيوتهم الضيّقة. ولكنّ فرنسا عادت فسمحت لتركيا بأن تستولي على لواء الإسكندرون. ومن أجل أن يفهم القارئ هذه الخيانة، يجدر به أن يذهب إلى بلدة «عنجر»، بلدة الحزن الصغيرة، التي تُزرع حول بيوتها الورود، وتُرى من الطريق العامّ تزيّن مداخل البيوت؛ وهناك على طول حديقة الأب أشود كراكشيان خط طويل ورديّ وقرمزيّ يرمز إلى الآلام التي عاناها الأرمن الذين أقاموا بلدتهم هذه على المستنقعات الواقعة في خراج بلدة «مجدل عنجر»، شرقي وسط لبنان عام ١٩٣٩. إن هؤلاء الأرمن قوم ذوو أنفة، يحملون الآن جوازات سفر لبنانية، كما يكنُّون في نفوسهم الأسرار المظلمة للماضي الأرمني: وذلك لأنهم هُجّروا من موطنهم مرّتين خلال القرن العشرين الميلادي، أولاً عام ١٩١٥، ثم عام ١٩٣٩. وإذا كانوا يلومون الأتراك بسبب تهجيرهم أوّل مرّة وثاني مرّة، فهم يلومون الفرنسيين أيضاً، وهتلر. لكنهم يلومون الفرنسيين أكثر.

وكانت فكتوريا شقيقة الأب كراكاشيان في العاشرة من عمرها عام ١٩٣٩؛ لكنها تتذكّر الكارثة الثانية التي ألمَّت بعائلتها، والتي كانت عبارة عن إبادة صغيرة بالمقارنة مع إبادة عام ١٩١٥. قالت: «رافقنا الجيش الفرنسي على طول الطريق؛ ولكننا كنا نحتضر. فقد مات أخي فاروجان البالغ من العمر آنذاك سنة أو سنتيْن أمامي في حضن أمّي على الشاحنة التي كانت تقلّنا. لقد أصابته «الملاريا» مثلنا كلّنا. ولم يكن الفرنسيون يعرفون ماذا يجدر أن يفعلوا بنا. أخذونا أولاً إلى العبّاسية في سوريا، حيث مكثنا أربعين يوماً؛ ثم وضعونا في السفن سبعة أيام، حتى وصلنا إلى ميناء طرابلس في شمالي لبنان. ومن هناك أركبونا في قطار للماشية إلى رياق في سهل البقاع؛ ثم أخذونا إلى عنجر، حيث بقينا فيها حتى اليوم».

وكان الأب كراكاشيان مع شقيقته وسائر الأرمن المقيمين في عنجر قد وِلدوا في موسى داغ، بلدة القلعة الأرمنية التي تقع الآن جنوبيّ شرقيّ تركيا، والتي صمدت أربعين يوماً ضدّ الظروف العسيرة أثناء الإبادة الأولى؛ حتى جاءت السفن الحربية الفرنسية والبريطانية فأنقذتهم، ونقلتهم إلى مصر؛ ثم أعيدوا إلى بلدتهم بحماية الجيش الفرنسي بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. وهناك عاشوا تحت الانتداب الفرنسي، مثل سائر أنحاء سوريا حتى عام ١٩٣٩، عندما لجأت الحكومة الفرنسية إلى محاولة يائسة لإقناع تركيا بمساندة الحلفاء ضدّ هتلر، فأعطتها بلدة «موسى داغ» ومدينة الإسكندرون ولواءها.

وكان الأولاد من عائلة «كراكاشيان» قد ولدوا بعد حصول محرقة ١٩١٥؛ لكنّ كثيراً من جيرانهم ليس لهم آباء أو أجداد. وحتى عندما جاءوا إلى عنجر ـ التي كانت لا تزال تحت الانتداب الفرنسي في «لبنان الكبير» ـ ظلّوا يعانون. فقد هاجمهم بعوض المستنقعات، وكانت تلك المنطقة برّية. «وقد أعطى الفرنسيون كلّ رجل ٢٥

ليرة لبنانية لينحت الصخر ويبني لنفسه بيتاً. كما مات كثير منهم بسبب الملاريا». وبلغ عدد هؤلاء زُهاء ألف رجل وامرأة؛ ولا تزال قبورهم المتهدّمة قائمة شماليّ البلدة. وفي تلك الأثناء، حواليّ عام ١٩٤٠، كان معظم أوروبا في حالة حرب، كما هو معلوم.

وتملأ صور المأساة الأرمنية جدران كنيسة القدّيس بطرس في عنجر. ومنها صورة أُخذت عام ١٩١٥ تُظهر الناجين من حصار «موسى داغ» يتسلّقون بيأس ظهر سفينة حربية للحلفاء. وأخرى تبيّن الضبّاط الفرنسيين وهم يستقبلون وجهاء الطائفة الأرمنية العائدين إلى الإسكندرون، مع بعض رجال «اللواء الأرمني» التابع للجيش الفرنسي. وفي الثلاثينيّات من القرن العشرين الميلادي، بنوا نُصباً تذكارياً للحصار ـ عاد الأتراك فهدموه ـ وعندما أُجبروا على الرحيل مرّة أخرى قبل الحرب العالمية الثانية أخذ الأرمن موتاهم معهم، على الطريقة «الصربية». فاصطحبوا رُفات ١٨ شهيداً من معركة ١٩١٥، لم يمسّها الأتراك، ووضعوها في شاحنة عام ١٩٣٩، وجلبوها مع لاجئيهم الذين ما زالوا أحياء إلى عنجر، حيث رقدت في ضريح رخامي بجانب كنيسة القدّيس بطرس «بالذكرى الأبدية»، كما هو ظاهر على الضريح.

ولكن الذكرى تلطّفت بسكّان عنجر. قال الأب كراكاشيان: «خلال السنوات العشر الأولى من مغادرتنا للإسكندرون، كان عدد المرحّلين يناهز ستّة آلاف شخص، وكانوا يريدون العودة. ولكن، بعد الحرب العالمية الثانية، هاجر كثير من شعبنا إلى أميركا الجنوبية. والآن نحن لا نرغب في العودة. ولكنّي عدتُ إلى هناك في العام الماضي سائحاً؛ فوجدت حوزة أرمنية صغيرة من ٣٠ عائلة لا تزال تعيش في ذلك الجزء من تركيا الذي يخصّنا حول «موسى داغ»، وقد جُدّدت الكنيسة الأرمنية. وكان الأتراك مهذّبين معنا. وأعتقد أنهم يعرفون ما حدث، وأنهم يحترموننا لأنهم يدركون أنهم يعيشون على أرضنا».

إن تسليم الفرنسيين سنجق الإسكندرون، بما فيه «موسى داغ»، إلى الأتراك عارٌ لم تروَ قصّته بين قِصص الحرب العالمية الثانية. فقد خافت فرنسا أن تنضمّ تركيا إلى المحور الألماني؛ كما فعلت في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، ووافقت على إجراء استفتاء في لواء الإسكندرون ليختار السكّان جنسيّتهم. فما كان من الأتراك إلّا أن أقحموا في السنجق أعداداً غفيرة من مواطنيهم ليصوّتوا طبعاً على جعل السنجق جزءاً من تركيا. وهكذا كان. قال الكاهن: «عندما قرّرت الحكومة الفرنسية تسليم السنجق إلى تركيا، أدرك الأرمن أنهم لم يعودوا قادرين على العيش هناك؛ فطلبوا من الحكومة الفرنسية إجلاءهم إلى موطن آخر، يتخلّصون فيه من الأتراك. فغادروا. لقد عقد الفرنسيون اتفاقاً لمصلحتهم. إنّي ألوم الفرنسيين». وهكذا صار السنجق الذي كان يسمّى «ألكسندريتّا» (Alexandretta) يحمل اسم الإسكندرون، واسم محافظة هاتاي (Hatay) التركية. وفي سياق السخرية الأخيرة، انضمّت تركيا إلى جانب الحلفاء ضدّ هتلر ـ ولكن لم يحصل ذلك إلّا في الأيام الأخيرة من ذلك النزاع الأوروبي، عندما كان هتلر على وشك الانتحار في ملجأه تحت أرض برلين، وعندما تحوّل الرايخ» إلى رماد. وكانت التضحية بالسنجق دون مقابل.

كما لم تنقشع أشباح ذلك الأمر. ففي عام ١٩٩٨، أنذر رئيس وزراء تركيا مسعود يلماظ سوريا، لمساعدتها رجال حرب العصابات الكردية من حزب العمّال الكردي الناشطة على الحدود. وقد اختار أن يقيم حفلة في ذكرى تسليم الفرنسيين السنجق إلى تركيا، وأعلن: «إن الذين يركّزون أنظارهم على الأراضي التركيّة مصابون بالعمى ـ إننا لن نتهاون في أن يؤخذ من تركيا سنتيمتر واحد». ولكنّ السنجق كان أرمنياً. وسلام على اتفاقية «سيڤر».

إن العالم مليء بالإبادات الكبيرة والصغيرة؛ نعرف أخبار بعضها من شهادات جماهيرها، بينما أغمضنا عيوننا عن بعضها الآخر، مثل اللاجئين الأرمن الذين فقدوا بصرهم في حمّامات البيوت التي وضعوا فيها عام ١٩١٦. وقد كتب «مارك ليڤين» بإسهاب عن إحدى الإبادات غير المعروفة ـ أخبِرونا عنها أيها القرّاء، إذا كنتم تعرفونها ـ التي حصلت عندما شنّ الجيش العراقي الناشئ عام ١٩٣٣ هجوماً إبادياً على سكّان من الطائفة الأشورية. فقرب مدينة «داهوك» فتك الجنود بأهالي قرية تُدعى «سومايْل». والناجيات القليلات من تلك المذبحة، اغتُصبن من قِبل العصابات فيما بعد. وقد شارك الأكراد الذين يؤلّفون غالبيّة سُكّان المنطقة في القتل الجماعي ـ وكانوا في بعض الحالات هم الأكراد أنفسهم الذين نهبوا وقتلوا الأرمن عبر الحدود التركية منذ ١٨ سنة. وحصل كلّ ذلك في ظلّ الاحتلال البريطاني للعراق. وقد عمد المفتّش الإداري في المنطقة الكولونيل ر. س. بستافورد إلى تقديم تقرير إلى لندن حول ما قرّره الضبّاط العراقيون بشأن عمليات القتل «وإبادة الأشوريين قدر الإمكان». وكان الأشوريون قد رحلوا من تركيا بعد هجمات الإبادة على قراهم، ولجأوا إلى بلاد فارس، ثم نقلهم البريطانيون إلى قرب الموصل في الدولة العراقية الجديدة القادمة.

وقد روى ليڤين قصّة هذا النمط من المواجهات مع الدولة العراقية من عام ١٩٣٣ إلى عملية قتل الأشوريين في حملة الأنفال التي قام بها صدّام عام ١٩٨٨. وحتى بعد حصول المذابح الأولى، أعاق البريطانيون إجراء عملية تحرٍّ في عُصبة الأمم، لأن ذلك قد يؤدّي إلى انهيار حُكم الملك فيصل؛ وأمدّوا الطيران العراقي الجديد بقنابلهم في حملته المضادّة للأشوريين ـ بعد حصول القتل الأوّليّ. وكان البريطانيون قد حذّروا من أن البحث العلنيّ في هذا الأمر قد يُحدث «ردّة فعل بخصوص كُره الأجانب»، ذلك الأمر الذي نجحوا في القيام به بعد مرور سبعين سنة.

وتظهر أيّ مناقشة لعمليات الإبادة في جريدة مثل الإندبندت إلى أيّ مدى يسيطر هذا الموضوع على تفكير الجمهور. فقد راسلني رئيس المجلس اللاتفي في بريطانيا، بعد أن كتبت عن المحرقة الأرمنية؛ وذكّرني بأن ما يناهز ١١ مليوناً من الناس ماتوا في «المجاعة الإرهابية» في «أوكرانيا» بين ١٩٣٠ و١٩٣٣، قائلاً: «لن يكون لمحرقة هؤلاء احتفال تذكاري في يوم معيّن». وماذا عن ملايين المسلمين المطرودين من البلقان ومن روسيا في القرن التاسع عشر، «كجزء من تاريخ أوروبا المنسيّ»، كما عبّر عن ذلك أحد المؤرّخين؟ وقد حثّني بعض القرّاء على فحص «محرقة الكونغو» التي قام بها الملك «ليوبولد» الثاني، حيث مات ملايين الناس ـ من الضرب أو من الإنهاك الجسدي، أو الجوع، أو المرض ـ في مخيّمات «السخرة» للعمّال المستعبدين، خلال القرن الماضي.

وكيف سنتعاطى مع أولئك الإسبانيين الذين لديهم الحقّ في التشهير بما فعله «فرانكو» من إبادة ٣٠ ٠٠٠ من خصومه السياسيين والعسكريين ـ الذين لا يزالون مدفونين في ٦٠٠ قبر جماعي عبر إسبانيا كلّها؛ واعتبار هذه الفاجعة شكلاً من أشكال الإبادة.

وعندما كتب إليّ المؤرّخ نورمان دايفيس عام ١٩٩٨، ليذكّرني بأن سؤال هتلر عن الأرمن القائل: «مَنْ يتكلّم اليوم عن تدمير الأرمن؟»، قد طُرح من جديد في ما يتعلّق بالبولونيين، وكان قد سجّله أولاً رئيس مكتب الصحافة المتحدة في برلين لويس لكنر في آب/أغسطس عام ١٩٣٩. فقد توصّل «دايفيس» إلى النتيجة التالية: «وقد يُغري المرء أن يضيف إلى ذلك: «ومَنْ في النهاية، يتكلّم اليوم عن مَحْق البولونيين؟». ولكن، من المؤكّد أن هناك كتاباً نُشر دون ذكر اسم مؤلّفه، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، مع مقدّمة كتبها الشاعر المعروف «ت. س. إليوت»، يسجّل عذاب الملايين من البولونيين الذين رحّلهم إلى الموت والمجاعة الجيش الروسي الذي دخل بولونيا بعد الغزو الألماني عام ١٩٣٩، وهناك مقطع من هذا الكتاب يحرّك مشاعري تُعبّر فيه أمّ بولونية عن رجائها بأن يغادر قطار الترحيل في الليل:

«كان خطّ القطار يمرّ بتلّة منخفضة قرب بيتنا وحديقتنا؛ وقد خالج الأمّ الأمل بأن لا ينتبه الأولاد لهذا المنظر، حتى لا ينبجس كلّ حزنهم من جديد. وحالما لاح منظر البيت والحديقة، رأى أولادنا الجيران وأعضاء آخرين من عائلتنا واقفين على التلّة، بينما كان كاهن الأبرشية يحمل الصليب بيده... وعندما تجلّى منظر المداخن، والحديقة، والأشجار، بوضوح، صرخ توموس بصوت شديد: أمّي، أمّي، هذه حديقتنا، وبِرْكتنا، و... بقرتنا ترعى في المرج! لماذا يجب علينا أن نذهب من هنا يا أمّي!».

إن تلك المغادرة، وبراءة توموس، وحبّه لبقرة العائلة، واستشعار الأمّ بأن قطار الترحيل سيمرّ قرب بيتهم، وذلك السؤال الذي طرحه الولد، كلّها أمور سيردّد صداها ملايين من الأصوات الأخرى، التي ستُسمع على هذه الخطوط الحديدية ذاتها، عندما تنطلق محرقة اليهود التي أمر بها هتلر في الأشهر والسنوات القادمة؛ كما حدث في محرقة الأرمن منذ ٢٤ سنة. إن الذي ابتدع كلمة «إبادة» (Genocide) بخصوص ما أصاب الأرمن عام ١٩٤٤، هو روفائيل لامكين، اليهودي المولود في بولونيا. وهو إنجاز ساعد على إرساء القاعدة القانونية والأخلاقية لثقافة تراعي حقوق الإنسان.

ومع كلّ هذه الإثباتات، وما قدّمه الشهود العيان، والتقارير الدبلوماسية، والبرقيات، والعظام والجماجم لمليون ونصف مليون من الناس، هل يمكن إنكار هذه الإبادة؟ هل يمكن التستُّر على هذا الشرّ الجماعي الذي أُنزل بالأرمن؟ أو هل يمكن نسيانه، كما قال هتلر؟ أليس من السخرية بمكان أن لا يُعترف اعترافاً كاملاً بالمحرقة العالمية الأولى، وأن لا تتصدّر قائمة الأعمال الوحشية الرهيبة التي اقترفها الإنسان في القرن العشرين الميلادي، والتي أنبتت أعمالاً من البربرية، وآذنت بالشراسة القادمة في القرن الحادي والعشرين؟

والأسفاه، أن يمرَّ كلّ ذلك ويُنسى. عندما كتبتُ لأوّل مرّة عام ١٩٩٣ عن المجازر التي حلّت بالأرمن، شجب الأتراك مقالتي ونعتوها بالكذب ـ كما فعلوا إزاء ما لا يُعَدّ من الكتب ومن الاستقصاءات قبلاً ومنذ ذلك الوقت. وكتب القرّاء الأتراك إلى رئيس تحرير جريدتي يطلبون عزلي من «الإندبندنت». وقد جاء فيما كتبوا أنه إذا كان المواطنون الأرمن قد قُتلوا ـ لاحظ كلمة «إذا» ـ فقد كان ذلك نتيجة للفوضى العارمة التي سادت تركيا العثمانية، خلال الحرب العالمية الأولى، إذ قُتل ما لا يُعدّ من الأتراك في تلك الفوضى المدنية، وحينما كان الأرمن شبه العسكريين قد ناصروا روسيا القيصرية. وبذلك نُبذت بصفتها دعاية كلّ الإثباتات الصادرة عن اللجان الأوروبية حول المجازر، وتقارير الشهود العيان من الصحافيين الغربيين الذين شهدوا فيما بعد مذبحة الأرمن في سميرنا ـ إزمير اليوم ـ ذلك المنتجع السياحي العامر بما لا يُحصى من السائحين البريطانيين الذين يتشمَّسون هناك، دون أن تكون لديهم أيّة فكرة عن حمَّام الدم الذي حصل على تلك الشواطئ وحولها ـ فضلاً عن الشجب الذي كتبه مورغونتو وتشرشل.

وقد كتب غولر كوكنار رئيس «تجمّع الرابطات التركية الأميركية» إلى رئيس تحرير جريدتي «سيمون كيلنر»، مدّعياً أن الأرمن «قد ارتدّوا جماعياً ليحاربوا مع العدوّ، ويخدموا كطابور خامس، وبدأوا حرباً أهليّة ضدّ المسلمين العثمانيين». كما كتبت السيدة «سونا كاكير» لتنبئني بأن الادّعاء بحصول إبادة جماعية للأرمن كان «محض تلفيق... ومجرّد اختلاف خيالي». أما «آيجن تات» من واشنطن العاصمة، فقد أرسلت مقالتي بالبريد الإلكتروني لتصفها بأنها «مخادعة»، وتذكر أن مقطع هتلر المستشهد به «مُلفَّق» إذ «لم تكن هناك أبداً محرقة للأرمن أو إبادة لهم، إنما كانت هناك مذبحة للأتراك ارتكبها الأرمن وأسيادهم القيصريّون الروس». وكان آخر سطر خطّته «تات» تساؤلاً يقول: «لماذا نلوم تركيا والأتراك بشأن أحداث حصلت عام ١٩١٥؟». ويثير «إبراهيم تانسيل» الاهتمام، إذ يقول: «إن إبادة الأرمن المزعومة كانت جزئياً عبارة عن ردّة فعل من قِبل القرويين. وفي الواقع، أُرسل الأرمن إلى لبنان من أجل تجنّب أيّ إراقة جديدة للدم». وكان هذا الطوفان البريدي يمثّل شيئاً مقلقاً جدّاً: بمحاولته جعل مرتكبي إبادة الأرمن ضحايا، والضحايا قتلة وكذّابين».

وكانت كلّ رسالة تفد إلينا ـ وكأنَّ المراسلين منظّمون ليكتبوها بالدور ـ تزيد من لهجة الإنكار. فرسالة «س. زوربا» من روتشستر، في ولاية نيويورك، أشارت إلى «الضحايا التعساء لأحداث تعيسة»؛ وتصف فيما بعد الإبادة بأنها «مزعومة». وقد وصفتني رسائل إلكترونية بأنني «شرّير»، ونعتتني أخرى «بالجهل والغطرسة» وانتهت بسطر كاشف يقول: «ربّما حدثت إبادة، ولكن ليس من واجبك أن تعطي حُكماً؛ إذ إن من عمل المؤرّخين أن يكشفوا عن الواقع والحقيقة». وقد صار ذلك لازمة مُضجرة، تكرّرت ـ بشكل لا يُصدّق ـ حتى من قِبل سياسيين إسرائيليين، سنتكلّم عنهم فيما بعد.

ولكن، يجدر أن لا يُنظر إلى هذه الملاحظات بمعزلٍ عن سياقها. فقد كانت مدعومة من قبل دبلوماسيين أتراك. وقد اشتكى «قرقماز هاكتانير» السفير التركي في لندن، في رسالة وجّهها إلى جريدة «الإندبندنت» من أن

«كثيراً من أعضاء عائلتي وحوزتهم عانوا وماتوا على أيدي الإرهابيين الأرمن». وضمَّن رسالته صورتين فوتوغرافيّتين لنساء مشوَّهة أجسادهنّ بشكل رهيب قتلهنّ الأرمن في قريتيْ سوباتان ومرسيني دير عام ١٩١٥. وعقّب على ذلك بتأكيده: «ان «فيسك» متلهّف ليعيد فتح الجروح القديمة» ـ مما يثبت على الأقلّ أنه كانت هناك جروح أُحدثت في الواقع.

ولكنّ النظير المقابل لـ «هاكتاينر» في إسرائيل، «بارلاس أوزينر» قام بمسعى أكثر غرابة ـ بالنسبة إلى البلد الذي كان يخدم فيه، فقد اتّهم في رسالة وجّهها إلى مجلّة جيروزاليم بوست صاحبة مقال «إنكار الإبادة» بخصوص الأرمن، بأنها تحاول أن تعيد كتابة التاريخ. قال في رسالته: «إن أسطورة «المحرقة الأرمنية» لُفّقت مباشرة بعد الحرب العالمية الأولى، أملاً في أن يكافأ الأرمن بناء على «معاناتهم» بقطعة أرض من الدولة العثمانية المتفكّكة». إننا لا نفهم ماذا سيستفيد الناجون من محرقة اليهود من ذلك المقال عن الإنكار. إن الصحافية «مارلين هنري»، بحسب قول «أوزينر»، استخدمت قلمها مستهدفة «الكنيست الجديد، والحكومة الإسرائيلية الجديدة، والعلاقات التركية ـ الإسرائيلية».

ولكن، لا داعي لأن يخشى الدبلوماسيون الأتراك من خِزي إسرائيل. وعندما تقرَّر عقد مؤتمر المحرقة في تلّ أبيب عام ١٩٨٢، اعترضت الحكومة التركية على تضمين المؤتمر موادّ عن المذبحة الأرمنية. وصرّح وزير الخارجية الإسرائيلي بأن هذا الأمر قد يوقع الضرر بالعلاقات الإسرائيلية ـ التركية. وكان ذلك بمنتهى عدم المعقولية، بحيث اضطرّ «إيلي ويزل» أحد الناجين من محرقة «أوشفيتز» أن ينسحب من المؤتمر. لكن المؤتمر استمرّ ـ مع محاضرات عن الإبادة الأرمنية ـ بعدما بذل «شيمون بيريز» جهده دون جدوى لإقناع «إسرائيل تشارني»، أحد أبرز الخبراء المختصّين بشؤون الإبادة، في إسرائيل، بأن لا يضمن المؤتمر موضوع المجازر الأرمنية.

وقد تجاوز بيريز أيضاً هذا الحدّ ـ وغرق في مستنقعات إنكار المحرقة ـ في تصريح أدلى به قبل أن يقوم بزيارة رسمية إلى أنقرة، بصفته وزيراً للخارجية في نيسان/ أبريل عام ٢٠٠١. ففي مقابلة أجرتها معه «وكالة الأنباء الأناضولية» قال: «إننا نرفض المحاولات التي تُبذل لإقامة تشابه بين محرقة يهودية والمزاعم الأرمنية. لم يحدث أي شيء يشبه المحرقة اليهودية. إنها مأساة تعرّض لها الأرمن، ولكنها ليست إبادة». وأضاف: «وإذا كان لا بدّ من اتخاذ موقف من هذه المزاعم، فيجب أن يُتّخذ بعناية فائقة حتى لا تتشوّه الحقائق التاريخية. ولكنّ هذه التعليقات المدهشة التي فاه بها بيريز لم تمرّ دون ردّة فعل عليها، إذ إنها تعارض كل الوقائع التي لا بدّ أن يكون على دراية بها، وكل ما قاله الشهود عيان، وكل الروابط المباشرة بين إبادة عام ١٩١٥ وإبادة اليهود. وقد تصدّى لها «تشارني»، أحد الأكاديميين الإسرائيليين المشهود له بالاستقامة التامة.

فقد كتب «تشارني» رسالة شخصية إلى «بيريز» يقول فيها: «يبدو لي أنك تجاوزت الحدّ الأخلاقي الذي لا يجدر بأيّ يهودي أن يتعدّاه... وربّما كان عليك، في منظورك الواسع لحاجات دولة إسرائيل، أن تتحاشى إثارة

الموضوع في تركيا؛ ولكني كيهودي وإسرائيلي أخجل من المدى الذي بلغتَه في إنكار حصول الإبادة الأرمنية، والذي يمكن أن يُقارَن بإنكار حصول المحرقة اليهودية». وقد ذكَّر تشارني بيريز أنه حدث في مؤتمر حول المحرقة اليهودية عُقد في فيلادلفيا عام ٢٠٠٠، أن وقَّع عدد كبير من الباحثين، بمن فيهم مؤرّخون إسرائيليون، تصريحاً علنياً بأن الإبادة الأرمنية حقيقية، وأنه في اجتماع عام ١٩٩٧ «لجمعية علماء الإبادة»، جرى التصويت على قرار بأن الأرمن قاسوا «إبادة شاملة». كما أن تشارني لم يحجم عن الدفاع عن هذه القضيّة في كتابه: «موسوعة الإبادة» الواقعة في مجلّدين، والمحتوية على ٤٥ صفحة من إفادات شهود العيان وتقارير معاصرة دبلوماسية وصحافية حول المذبحة الأرمنية؛ ولاسيّما من النيويورك تايمز؛ فضلاً عن استشهادات مطوّلة من مصادر تركيّة أصلية. وأحدها عن المؤرّخ التركي المرموق «أحمد رفيق» الذي خدم في استخبارات الأركان العامّة العثمانية. وقد صرّح بشكل باتّ أن «هدف الاتحاد (القيادة التركية للجنة الاتحاد والتقدّم) كان تدمير الأرمن».

وقد أشار تشارني إلى أن إنكار بيريز ارتكز على أمنيته أن تتحسّن العلاقات الإسرائيلية ـ التركية ـ تلك العلاقات التي أعاقتها تركيا ذاتها عندما تعارضت مع مؤتمر الإبادة الذي عقده «تشارني» عام ١٩٨٢ في تلّ أبيب. وشهد «إيلي ويزل» بأن موظّفاً كبيراً أخبره أن الأتراك أعلنوا أنه «ستكون هناك صعوبات جدّيّة إذا اشترك الأرمن في المؤتمر».

وهكذا، هلّا يكون للأرمن أيّة عدالة، أو أي اعتراف بالجريمة التي ارتُكبت بحقّهم، أو أيّ تعويض، أو أيّ إعادة لأملاكهم، أو أي اعتذار؟! إن المسألة تدور حول مليون ونصف مليون من الهياكل العظمية، التي ما زال الأتراك يُنكرون وجودها. هل تخشى تركيا من ماضيها، بحيث لا تستطيع أن تفعل ما فعلت ألمانيا إزاء اليهود ـ بتنقية الذات، وتبكيت الضمير، والإقرار، والاعتراف، والتعويض، وحُسن النيّة؟ وبحسب قول «جوناثان أريك لويس» من معهد «رومارك» في جامعة نيويورك: «كيف يكون تدمير قسم كبير من طبقة التجّار في الإمبراطورية العثمانية أيَّ شيء آخر سوى قضيّة مركزية في تاريخ تركيا الحديث؟ إنّ أراضي الأرمن، وبيوتهم، وسائر أملاكهم، هي الآن بيد أولئك الذين استفادوا من الجرائم السابقة. إن خوف تركيا من دفع التعويضات لا يتعدّى كونه أحد الأسباب التي تجعل الحكومة التركية رافضة للاعتراف بالإبادة».

ولكنّ عمليات الإنكار تستمرّ. وعندما تجرّأ البابا يوحنا بولس الثاني أن يشير إلى «الإبادة الأرمنية، التي كانت مقدّمة لفظائع مستقبلية»، لقّبته جريدة «مِلّيّت» التركية على صفحتها الأولى بما يلي: «البابا مصاب بخرف كبر السنّ». وعندما حاول الدكتور صلاحي صونييل أن يُظهر أن سؤال هتلر عن الأرمن كان تزويراً، وأن يفصله عن الإبادة التي قام بها النازيون، بالإشارة الصحيحة إلى أن الفوهرر كان يتكلّم عن البولونيين، وليس عن اليهود. يبدو ذلك خطّاً إقناعياً قويّاً، إلى حين نتذكّر أن ثلث السكّان البولونيين عام ١٩٣٩ كانوا يهوداً، أي الفئة من السكّان التي نوى هتلر أن يقضي عليها. وصونييل ذاته هو الذي عَنوَن إحدى مقالاته بما يلي: «كيف أمالت الدعاية الأرمنية المناهضة للخلافة العثمانية العالم المسيحيّ الساذج». والفرق الحقيقي طبعاً، بين المحرقة الأرمنية والمحرقة اليهودية، هو أن ألمانيا اعترفت بمسؤوليتها، بينما أنكرت الحكومات التركية المتعاقبة حصول الإبادة الأرمنية.

إن لدى تركيا جماعات قويّة ناشطة تهاجم أيّ صحافي أو أكاديمي ينادي في الولايات المتّحدة الأميركية بأن إبادة الأرمن هي حقيقة وقعت. فتركيا اليوم لم تعد ذلك الرجل المريض؛ بل إن القوى الغربية ذاتها التي أدانت قسوتها في القرن الماضي لا تزال تحاول اكتساب ودّها. فهي عضو مقدَّر في حلف شمال الأطلسي (الناتو) ـ وحليفتنا في إلقاء القنابل على صربيا عام ١٩٩٩ ـ وأقرب حليف إقليمي إلى إسرائيل، وزبون أساسي في شراء الأسلحة من أميركا وفرنسا. وكما بقينا صامتين عند بداية اضطهاد الأكراد، نفضّل الآن أن نتجاهل المحرقة الأولى التي حصلت في القرن العشرين الميلادي.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الإنكار وصلت عدواه إلى الصحافيين. وعندما زار البابا أرمينيا في أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ شعرت الصحافة المتّحدة بأنها مضطرّة إلى أن تخبر مشتركيها بأن «تركيا تُنكر بإصرار الاتهامات الأرمنية بأن الجيوش التركية العثمانية تورّطت في عملية الإبادة، تلك الكلمة التي درج استعمالها بعد الحرب العالمية الثانية، فحسب». فبصرف النظر عن كلمة «إصرار» ـ بمعنى أن الأتراك قد يكونون على حقّ ما داموا يصرّون على موقفهم ـ تبدو كلمة «اتهامات» جزءاً قبيحاً من عمل الصحافة، وأن الإشارة إلى تعريف «لمكين» (الذي حصل أثناء الحرب العالمية الثانية، وليس بعدها) لم تذكر أنه كان يشير إلى الأرمن. وقد غطّت وكالة الإذاعة البريطانية الزيارة ذاتها التي قام بها البابا، وكشفت عن المستوى المحتقر الذي وصلت إليه، عندما أخبرت مستمعيها «بقتل أكثر من مليون أرمني أثناء تفكّك الإمبراطورية العثمانية» ـ لنلاحظ كلمة «قتل» بدلاً من كلمة «ذبح» أو تدمير، وكيف أن ذلك حصل بطريقة غير معروفة خلال اندثار الإمبراطورية العثمانية ـ ممّا هو غير صحيح في كل حال، نظراً لأن الإمبراطورية استمرّت بعد الحرب العالمية الأولى.

ولكن الأكثر خِزياً وعاراً جاء من ـ قبل النيويورك تايمز التي سجّلت الأسطورة بشجاعة ـ وسبقت غيرها عالمياً ـ وغطّت قضية الإبادة الأرمنية التي حصلت عام ١٩١٥؛ فتحوّلت شجاعتها إلى جُبن. وفي ما يلي على سبيل المثال، فقرة هامّة من تقرير النيويورك تايمز بتاريخ ٢٦ آذار/مارس ١٩٩٨، بقلم «ستيفن كينزر»، حول ما تبقّى من الأرمن في تركيا، وعددهم ٠٠٠ ٧٠ شخص:

> «كانت العلاقات بين الأتراك والأرمن جيّدة خلال معظم الفترة العثمانية، لكنها انجرحت عميقاً بمجازر أصابت الأرمن نفّذتها قوى تُناصر العثمانيين في شرقي الأناضول خلال ربيع عام ١٩١٥. ولا تزال تفاصيل ما حدث موضع نقاش حارّ؛ لكن من الواضح أن عدداً كبيراً من الأرمن قُتلوا أو تُركوا ليموتوا، خلال المسيرات الإجبارية في تفجُّر يسمّى اليوم التطهير العرقي».

والآن لديّ مشكلة جدّية بخصوص هذه الفقرة. فقد اختفى منها أولاً، العدد الإجمالي للأرمن المصابين البالغ مليوناً ونصف مليون ـ أو حتى مليوناً ـ وهو عدد يجب ذكره لوضع الفاجعة في خانة الإبادة، وللدلالة على المنكوبين كضحايا المحرقة الأولى التي حصلت في القرن الماضي. ولذلك بقينا مع ما سمّاه كينزر: «عدداً كبيراً» من القتلى، ممّا يجعل جريدة النيويورك تايمز بمنجى من الإضرار بالأتراك. ثم جرى تقزيم الإبادة إلى «التطهير

العِرقيّ»؛ وهي عبارة مألوفة من أيام حرب الصرب ضدّ المسلمين في البوسنة والألبانيين في كوسوفو، وعلى مستوى أقلّ فظاعة من مجازر ١٩١٥. ثم لنلاحظْ كيف حدث ذلك «بتفجّر» من التطهير العرقي الذي حصل فجأة وبصورة تلقائية بدلاً من كونه قتلاً عن سابق تصوّر وتصميم. ولنلاحظْ أيضاً تعبير «القوى المناصرة للعثمانيين»، بدلاً من تعبير «القوى التركية» الخَطِر، أو حتى «القوى التركية العثمانية» التي كان عليه أن يكتب عنها. ثم يخبرنا بأن القضيّة جدليّة تُناقش مناقشة حارَّة. فكم يكون من العدل أن تذكّرنا النيويورك تايمز بأن هناك حملة إنكار لحقيقة الإبادة، دون أن تعبّر عن ذلك بوضوح. إنه تكذيب لما حدث مماثل لتكذيب حصول المحرقة اليهودية. كما أن من مقالات «كينزر» أيضاً مقالة بعنوان: «أرمينيا لا تُنسى أبداً ـ ولكنني ربّما أنسى».

إن لديّ شكوكاً حول هذا كلّه. وأعتقد أن مراسل النيويورك تايمز كتب هذه السفاسف كي يتجنّب إثارة حفيظة الحكومة التركية الحاضرة. ولم يرغب في أن تصبح مقالته موضوع مشادّة خلافية؛ أو أن يثير قضايا. ولذلك لطَّف الحقيقة الواقعة ـ ولا شكّ في أن الأتراك سُعدوا بذلك. والآن لنقمْ باختبار بسيط. فلنتحوَّلْ شطر محرقة اليهود الأرهب والأوفر عدداً التي حصلت في أوروبا. فهل كان «كينزر» ليتجرّأ على أن يكتب عن ذلك الفتك الجماعي بالأسلوب ذاته؟ وهل كان ليخبرنا أن العلاقات الألمانية ـ اليهودية قد «انجرحت عمقاً» بسبب المجزرة النازية؟ وهل كان ليلفظ ـ ولو للحظة ـ أن التفاصيل «تُناقش مناقشة حارَّة» وهل كان ليُقارِن بين مجزرة اليهود وحرب البوسنة؟ ـ كلّا، لم يكن ليتجرّأ على فعل ذلك؛ ولم يكن عليه أن يفعل ذلك. فلماذا كان إذاً مستعدّاً لإلقاء الشكّ على الإبادة الأرمنية؟

عاد كينزر إلى حِيَله القديمة المتمحورة حول «الإنكار» في مقالة صدرت في النيويورك تايمز بتاريخ ٢٧ نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٢، بشأن متحف الإبادة الأرمنية في نيويورك:

> «الواشنطن الآن مؤسّسة واحدة رئيسة هي متحف المحرقة اليهودية، التي توثّق لمحاولة تدمير شعب بأسره. والقصّة التي تقدّمها، ليس عليها خلاف. أما أحداث عام ١٩١٥، فلا تزال موضع مشادّة حادَّة».

وها نحن من جديد أمام الموقف ذاته. فالمحرقة اليهودية حقيقة «لا يمكن إنكارها». لكن عدم الإنكار هذا يُستخدم هنا للانتقاص من حقيقة المحرقة الأرمنية التي ليست «خارج الإنكار» والتي تقوم حولها مشادَّة حادَّة». وهذه التلميحات تقوّي في مقالتيْ كينزر مصداقيّة الإنكار التركي. وقد عادت هذه التفويتات التلميحية إلى الظهور مجدّداً في النيويورك تايمز بتاريخ ٨ حزيران/يونيو عام ٢٠٠٣، عندما برزت الصورة الشهيرة لرجال أرمن يساقون بواسطة «الجندرمة» التركية في بلدة لم يذكر اسمها عام ١٩١٥، مع العنوان التالي: «الأرمن يُساقون إلى السجن بواسطة العسكر الأتراك عام ١٩١٥». مع العلم أنهم كانوا نادراً ما يساقون إلى السجن؛ بل كانوا يُساقون مشاة قبل ترحيلهم، وتُغتصب وتذبح نساؤهم وأولادهم. والبلدة الظاهرة في الصورة هي هاربوت ـ وقد أخذ الصورة أحد رجال الأعمال الألمان ـ ورجال هاربوت الذين يظهر بعضهم في الصورة أبيدوا كلّهم تقريباً؛ لكنّ «النيويورك تايمز» تراهم يساقون إلى «السجن» بسلام.

وليست «النيويورك تايمز» وحدها في إبداء هذا الجُبن. فبتاريخ ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٠٠ عمدت «وول ستريت جورنال»، وقد تكون أكبر صديقة لإسرائيل في الصحافة الأميركية ـ مع أن هناك أيضاً جرائد أخرى مرشّحة لتكون مقرّبة لها ـ إلى القيام بإنكارها الخاصّ للمحرقة البسيطة. فمع اعترافها «بالواقع التاريخي الذي يثبت موت ٦٠٠ ٠٠٠ أرمني أو أكثر تقديرياً؛ وكثير منهم في عمليات الترحيل القسريّ إلى سوريا وفلسطين، التي نظمتها الجيوش العثمانية» تتابع الجريدة قائلةً ـ وعلى القرّاء أن لا يبتسموا لمطالعتهم تلك اللغة البائسة الجديرة بالازدراء ـ ما يلي: «أما كون معظم هذه الميتات نتيجة لسياسة مقصودة مدبَّرة ترمي إلى الإبادة، أو نتيجة لعوامل أخرى، فإنّ هذا الأمر هو موضع مشادّة علمية خلافيّة». هنا، نجد المسعى القديم المرذول لاجتزاء الحقيقة. فالأرمن «ماتوا» ـ كما يموت الجنود، مع أن الصحافيين قلّما يشيرون إلى ضحايا المجازر بعبارة ملطّفة مثل هذه ـ أثناء الترحيل الذي «نظمته الجيوش العثمانية». وقد حُذفت من ذلك كلمة «التركيّة». كما جاءت كلمة «نظمته» بدلاً من «ارتكبته» التي تعني أننا نتكلّم عن إبادة. ثم لدينا في آخر الأمر «المشادَّة». فحقيقة إبادة الأرمن لا تزال قيد «المشادَّة» التي هي «شديدة وحادّة»؛ فضلاً عن أن هذه المشادّة «خلافيّة وعلميّة».

وأعتقد أني أعرف هويّة «العالِم» الذي تفكّر فيه الجريدة: إنه هيث لوري، أستاذ أتاتورك المتخصّص في الدراسات العثمانية والتركية الحديثة في جامعة «برنستون»، والذي كتب عدّة كرّاسات دعائية ـ نُشرت في تركيا ـ حاول فيها أن يضعف طرح فكرة الإبادة الأرمنية. وقد أحسن «بيتر بالاكيان» والمؤرّخ «روبرت تجاي ليفتون» باستقصاء عمل لوري. فقد ذهب لوري إلى تركيا حاملاً شهادة الدكتوراه في الدراسات العثمانية، واشتغل في معهد للبحوث في إسطنبول كما حاضر في جامعة البوسفور، وعاد إلى أميركا خلال عام ١٩٨٦، ليصبح مديراً لمعهد الدراسات التركية في واشنطن العاصمة. وقد أقامت الحكومة التركية هذا المعهد. وفيه كتب «لوري» مقالات ينكر فيها الإبادة التي حصلت عام ١٩١٥؛ كما سعى في الكونغرس لإحباط القرارات التذكارية بخصوص إبادة الأرمن.

ولكنّ المدهش في هذا الأمر أنه عندما كتب السفير التركي في واشنطن نوزهيت كامديمر إلى روبرت تجاي ليفتون يشتكي بشأن الإشارة إلى إبادة الأرمن في كتابه الجديد «الأطبّاء النازيون»، ضمَّن هذا الدبلوماسي عرَضاً رسالة من لوري إلى السفارة كانت النسخة الأصلية التي اعتمدها السفير وأرسلها إلى ليفتون ذاته. وبتعبير آخر، كان لوري يخبر السفير التركي كيف يعترض على مرجعيّات الإشارة إلى الإبادة، مضيفاً أنه «شدّد تكراراً، خطيّاً وشفهيّاً، على اهتمامه بالمؤرّخين الذين اعتمد «ليفتون» على كتاباتهم، بمن فيهم «فاهاكن دادْريان» الذي لا يكلّ ولا يملّ. فماذا كان لوري يفعل في نصحه للحكومة التركية بكيفيّة إنكار الإبادة الأرمنية؟

وكان هناك أساتذة كراسٍ جامعية في الدراسات التركية في هارفارد وجورج تاون، وإنديانا، وبورتلاند ستايت، وشيكاغو. والمؤهّلات المطلوبة من شاغلي هذه المناصب الجامعية هي أن يكونوا قد قاموا ببحوث في محفوظات في تركيا (تلك المحفوظات التي لا تُفتح للمؤرّخين الذين ينتقدون تلك البلاد)، وأن تكون لديهم

علاقات ودّية مع الحوزة الأكاديمية التركية ـ وهو الأمر الذي لن يحوزوه إذا تصدّوا لجوهر الإبادة الأرمنية. وقد كان لدى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (UCLA) الشجاعة في أن ترفض إقامة هذا الكرسيّ. ومن المعلوم أن جميع شاغلي هذه الكراسي يعتقدون بأنه يجب على المؤرّخين أن يقرّروا الحقيقة، أي التعبير الذي يعني هنا منع إدراج الإثباتات التي يُدلي بها الناجون من المجازر الذين يتناقص عددهم تدريجياً. وكلّ هذا أهاب بمئة وخمسين عالماً ومؤرّخاً أن يناشدوا تركيا كي تنهي حملة الإنكار التي تقوم بها. وقائمة هؤلاء العلماء تشمل: ليفتون، وإسرائيل تشارني، ويهودا بوير، وهوارد زن، وديبورا ليپستاد. ولكنهم خابوا في مسعاهم. وكان إيلي ويزل هو الذي قال أولاً إن إنكار الإبادة هو «قتل مزدوج»: ذبح الضحايا أولاً ـ ثم قلب موتهم إلى إنكار للحدث، وإنكار للواقع. وهكذا يموت الموتى مرّتين. والناجون يتعذّبون، ويقال لهم إنهم لا يتعذّبون، وإنهم يكذبون.

وهكذا استُعملت المدافع الثقيلة ـ تقريباً حرفيّاً ـ للتأكّد من بقاء الموضوع على حاله من الإنكار. فعندما قُدّم في الكونغرس الأميركي مشروع قرار بشأن الإبادة الأرمنية عام ٢٠٠٠، يطلب من الرئيس الأميركي كلينتون أن يشير في الذكرى السنوية الأرمنية إلى عمليات القتل على أنها إبادة، كان لمشروع القرار الأصوات الكافية لإقراره. لكنّ تركيا حذّرت واشنطن بأنها ستغلق قواعدها الجوّية أمام الطيران الأميركي الذي يطير فوق المناطق العراقية الذي يمنع فوقها الطيران. وأعلن وزير الدفاع التركي «سَباهاتن كاكما كوغلو»، أنه مستعدّ لإلغاء اتفاقيّات لشراء الأسلحة من الولايات المتّحدة الأميركية. وناصرت وزارة الخارجية الإسرائيلية موقف تركيا؛ فعمد الرئيس «كلينتون» بكلّ خزيٍ وعارٍ، إلى طلب الإجهاز على الوثيقة. وهكذا كان.

ويعمل هذا الضغط عبر الولايات المتحدة كلّها. ففي عام ١٩٩٧ مثلاً، أزال متحف جزيرة إيليس (Ellis) صوراً ونصوصاً لشهود عيان على الإبادة الأرمنية من أحد المعارض؛ كما فعل عام ١٩٩١. وفي عام ٢٠٠١، اعترض القنصل العام التركي في سان فرانسيسكو على استعمال صليب تذكاري من الحرب العالمية الأولى، كنُصب تذكاري أرمني للإبادة. وعندما استقصيتُ مسألة هذه الشكوى في سان فرانسيسكو، تبيّن أن «مركز العلماء للتدقيق التاريخي، فرع ستانفورد المزعوم، ليس له علاقة بجامعة ستانفورد، وأنه ادّعى في إعلان نشَره في «سان فرانسيسكو كرونيكل»، أن ذلك النصب قد يصبح دعاية سياسية تبشّر بالرواية «الأرمنيّة» للتاريخ التي يقع عليها الخلاف لدى العلماء والمؤرّخين الموضوعيين»؛ حتى أن الأتراك وزّعوا نشرة إعلانية على «النادي الصيني ـ الأميركي الديمقراطي» المحلّي، ـ باللغة الصينية ـ تنذر بأن النصب قد يؤدّي إلى تنازع تاريخي حدث مثله في الماضي». وهكذا تحوّلت «المشادّة» إلى «تنازع»؛ ولكنني عرفتُ مَن هم أولئك «العلماء الموضوعيّون».

إن إنكار المحرقة الأرمنية أمر حيّ يرزق في الولايات المتّحدة الأميركية. فالمؤرّخ برنارد لويس، المناصر القويّ لإسرائيل، والمقرَّب من الرئيس جورج بوش لم يعد يقبل بحصول إبادة الأرمن؛ ويبدو أن آراءه لا تلقى تحدّياً في الولايات المتّحدة الأميركية. أما في فرنسا، حيث إنكار الإبادة يعتبر إثماً، فقد بدرت صرخة من الأرمن؛ وأُدين لويس من قِبل المحكمة العُليا في باريس لاقترافه خطأً، إذ قال: «إن كلمة «إبادة» هي الصيغة

الأرمنية الوحيدة لهذه القصّة». ولكن، عندما اقترح مجلس الشيوخ الفرنسي في عام ٢٠٠٠ الاعتراف بالإبادة الأرمنية لعام ١٩١٥، استجاب المدير العام لوزارة الخارجية الفرنسية بتصريح يمكن أن يكون قد صدر عن السفارة التركية؛ إذ اعترض على أن يبدر هذا الاقتراح من قِبل البرلمان، لأن التاريخ «يجب أن يؤوّله المؤرّخون». وكل ذلك يبدو رهيباً ومألوفاً؛ لكنّ مجلس الشيوخ عاد وصوّت على المشروع في تشرين الثاني/نوفمبر، واعترفت الجمعية الوطنية الفرنسية رسمياً بإبادة الأرمن، بعد شهرين.

ثم هبطت السماء؛ إذ ألغت الحكومة التركية صفقة تجارية لشركة «ألكاتيل» الفرنسية تبلغ قيمتها ٢٠٠ مليون دولار أميركي بخصوص آلات تجسّس فضائية، وسحبت من شركة الأسلحة «جيات» اتفاقية يبلغ مقدارها سبعة مليارات دولار أميركي ثمن دبّابات. وقد ناصرت جريدة «تركية» مقترحاً تقدّم به ٤٢ نائباً إسلامياً في البرلمان للتصويت عليه من أجل الاعتراف «بإبادة الجزائريين على أيدي الفرنسيين» ـ وكانت تلك ضربة صائبة لبلد كان دائماً متحفّظاً إزاء قسوته في حرب الجزائر من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢، مثلما كانت إزاء ماضي «ڤيشي» خلال الحرب العالمية الثانية ـ وذكّرت القرّاء بالمذابح الجماعية الأولى التي أصابت الجزائريين المسلمين حول «كيريتا» عام ١٩٤٥.

وكان الرئيس «جاك شيراك» دائماً يخشى مسألة القتل الجماعي الذي تعرّض له الأرمن. ففي مؤتمر صحفي له عُقد في بيروت عام ١٩٩٩ ـ حيث يعيش عشرات الألوف من أبناء الناجين من المحرقة الأولى ـ رفض أن يناقش قرار الاجتماع المقترح حول الإبادة، قائلاً: «لا أعلّق على مسألة تتعلّق بالسياسة المحلّية وأنا خارج بلادي». فتساءلت وأنا أستمع إلى هذا الجواب الشائن: هل يكون هذا جوابه على إدانة المحرقة اليهودية؟ وأفضل ما أمكن أن يفعله شيراك عام ٢٠٠٠ كان تصريحه بأنه يتفهّم «شواغل» الأرمن(*). لكن طلب تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، أثار المسألة من جديد. ففي الاجتماع المعقود بتاريخ ١٤ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٤ سأل «فرانسوا بايرو» لماذا اهتمت اللجنة الأوروبية بتجريم الزنا في النظام الجنائي التركي الجديد ـ الذي سُحب فيما بعد ـ ولكنها تجاهلت المادة (٣٠٥)، التي أقرّها البرلمان التركي، والتي تتطلّب الملاحقة في حالة «المؤامرات ضدّ الوطن»، بما في ذلك «المطالبة بالاعتراف بالإبادة الأرمنية»، بحسب لجنة العدل التركية.

ولكن من حيث الجُبن السياسي المجرَّد، يصعب إيجاد ما يضاهي أداء طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا ـ الذي كان متلهّفاً للذهاب إلى الحرب في صربيا وفي العراق لوضع حدٍّ للعبث بحقوق الإنسان ـ فقد أعلن عام ٢٠٠٠ أنه سيكون في بريطانيا سنوياً يوم مخصّص لذكرى المحرقة اليهودية التي قام بها النازيّون ضدّ اليهود. ولكنه لم يُشِر لا من قريب ولا بعيد ـ ولو بملاحظة واحدة مثيرة للشفقة ـ إلى إعدام مليون ونصف مليون أرمني عام

(*) ممّا يدعو إلى الاستغراب أن الخطوط الجوية الفرنسية «إيرفرانس»، لم يكن لديها أيّ تخوف من مناقشة حمّام الدم الأرمني. ففي عام ١٩٩٩، نشرت مجلّتها التي تُستخدم على متنها مقالاً حول معرض فوتوغرافي للقتل الجماعي. مشيرة إلى «الإبادة التي لا يزال الأتراك ينكرونها اليوم». ومع ذلك ما زالت «إيرفرانس» تقوم برحلاتها العادية إلى تركيا.

١٩١٥. ألم تكن الحكومة البريطانية هي التي نشرت تقرير برايس؟ ـ لقد اعترض قادة الأرمن فوراً على هذا الحذف الغريب المتنافر، وطلبوا تضمين محرقتهم في ذلك الحدث. لكنّ استجابة الحكومة البريطانية كانت نوعاً من المراوغة الكلامية المخزية.

وقد قال نيل فرايتر من «وحدة المساواة العِرقيّة» ـ حيث هذا الاسم وحده يتكلّم مجلّدات عن التوجّه السياسي الصحيح لإدارة بلير ـ إن تلك الفظائع هي «مأساة مروّعة»؛ وقد بلّغت الحكومة «تعاطفها» مع القضية إلى أبناء الضحايا. وإن «وحدته» طلبت من «اللجنة التوجيهية لذكرى يوم المحرقة» أن تدرس الموضوع. ولكن «بعد كامل الدرس والتمحيص» قرّرت اللجنة أن لا تغيّر خططها الاحتفالية بذلك اليوم. فقد أرادت اللجنة التوجيهية، بحسب قول فرايتر أن تتجنّب المخاطر التي تجعل الرسالة مائعة جدّاً، لدى إدخال كثير من الأحداث التاريخية فيها». فهدف يوم المحرقة، كما وعظ، هو «تأمين تفهّم أكبر لقضايا «الإبادة»، والترويج لمجتمع ديمقراطي ومتسامح، يحترم التنوّع ويحتفل به، متحرّراً من التحيّز والتمييز العنصري».

وهكذا يبدو أن مجرّد ذكر إبادة الأرمن قد «يميّع رسالة» يوم المحرقة! وحدث كل ذلك بسبب «تمرين الاستشارة «الذي تمّ في وايتهول (Whitehall). فعقد «تمارين الاستشارة» خصيصة تميّز إدارة بلير؛ وهي التي تقرّر أيّة جماعة عِرقيّة لها الحقّ في الاحتفال بذكرى معاناتها، وأيّة جماعة أخرى تُستأصل من كتب التاريخ دون رحمة أو شفقة. وبالطبع، لم ترد كلمة «تركيا» في أيّ ناحية من نواحي مراسلات فرايتر. لكنه كتب رسالة أخرى مدهشة بقلّة إحساسها، إلى «أرمن لوكاس» أحد رجال الأعمال المرموقين في فرنسا، وكرّر فيها التفكير ذاته حول التعاطف مع الأرمن، مضيفاً إلى ذلك أن الحكومة البريطانية قد تلقّت طلبات لفحص فظائع أخرى، بما فيها «الحروب الصليبية، والعبودية، والاستعمار، وضحايا حُكم ستالين، وحرب «البوير». وهكذا، طوّت الحكومة البريطانية الآن إبادة الأرمن مع حرب البابا «أوربان» الثاني في القرن الحادي عشر الميلادي ضدّ المسلمين في الشرق الأوسط. وقد جادل رئيس الكلّية الإنجيلية الأرمنية في بيروت، بمنطق قوي، مفنّداً قرار لجنة «فرايتر» بقوله: «أي عمل تذكاري يستحقّ هذا الاسم، يجب أن يشمل بداية عمليات الإبادة؛ ولا سيّما التي حدثت خلال القرن العشرين الميلادي، وبخاصّة إذا كان تناسي إحداها شجّع على حصول الإبادة التالية».

وقد طُلب من هيئة الإذاعة البريطانية أن تنظّم الاحتفال باليوم التذكاري للمحرقة اليهودية. وعندما أثار لوكاس قضيّة حذف إبادة الأرمن مع «بريتين ـ كاتلن» المخرج المسؤول، أقرّ هذا الأخير بأن «المكتب البيتي» (Home Office) «احتفظ بالضبط الإجمالي لتحرير الموادّ التي ستقدّم». وتلا ذلك نموذج من الغطرسة السياسية التي تقطع الأنفاس، إذ أعلن بريتين ـ كاتلين: «إن إطارنا المرجعي لا يشمل فترة ١٩١٥ ـ ١٩٢٠، وبحسب شروط الحدث، لم يكن في حُسباننا أن نستعرض كل فظائع القرن العشرين الميلادي في موجزنا». ثم أردف يقول: «ولكن هناك إذاعة خارجية تُذاع على الإذاعة البريطانية الثانية تشمل الإشارة المختصرة إلى الإبادة الأرمنية». لنلاحظْ كيف أن الرسالة تتجنّب القضيّة الحقيقية. إن لوكاس لم يكن يسأل عمّا إذا كان إطار الإذاعة البريطانية التاريخي المرجعي ـ مهما كانت طبيعة ذلك الإطار ـ يتضمّن قضيّة إبادة الأرمن، بل لماذا لا يتضمّنها؟ فإذا لم

يكن في حُسبان موجز الإذاعة البريطانية أن تشمل كل فظائع القرن العشرين، فالسؤال هو: لِمَ لا تشملها ـ ولِمَ لا تشمل الأرمن؟ ففي آخر الأمر، لا بدّ من الرأفة بمئات الآلاف من أولئك المذبوحين من الرجال، والنساء المغتصبات، والأولاد، والإشارة إلى وضعهم ـ ولو كانت إشارة مُقتضَبة. ولكن «بريتين ـ كاتلن» أورد عبارة «إبادة»؛ وربّما كانت تلك هفوة بيروقراطية. ولكن كان من العسير تدبيج رسالة أكثر استعلاء إلى رجل اضطُهد شعبه بقساوة.

وكل هذا التعتيم بُني على مقولة ساخرة صدرت عن حكومة بلير، مُفادها أنها تستطيع أن تتسترّ بإنكار الإبادة، ولا تتعرّض لعواقب وخيمة، بل تحافظ على علاقات جيّدة مع تركيا. وكانت الرسالة واضحة جدّاً عام ١٩٩٩، عندما صرّحت الحكومة البريطانية في جواب لها بمجلس اللوردات بالقول «إنه في غياب الإثباتات غير المُلتبسة التي تظهر أن الإدارة العثمانية اتخذت قراراً باستئصال شأفة الأرمن الموجودين تحت سيطرتها في ذلك الوقت، لم تعترف الحكومة البريطانية بأن أحداث ١٩١٥ و١٩١٦ هي «إبادة». فإذا كان هذا التصريح صحيحاً ـ أي إذا لم تكن هناك «إثباتات غير مُلتبسة، لحصول الإبادة عام ١٩١٥ ـ فلا بدّ أن تكون الحكومة البريطانية تعتقد أن برايس، في تقريره، وتشرشل، ولويد جورج، والدبلوماسيين الأميركيين المتمركزين عبر الإمبراطورية العثمانية وقت حصول المجازر، و«أرمن وَغنر» المصوّر الفوتوغرافي للمحرقة الأرمنية، والعالم «إسرائيل تشارني» ـ عدا الناجين الفعليين و١٥٠ أستاذاً وقّعوا بياناً يفيد أن المذبحة كانت عملية إبادة ـ هم كلّهم مخادعون. وهذا طبعاً غير صحيح. وكانت البارونة «رمساي أُف كارتفالي» هي التي أطلقت هذا التصريح الكاذب بالنيابة عن الحكومة البريطانية، وادّعت أن هناك حكومات أخرى قليلة «خلعت لقب «إبادة» على هذه الأحداث المأساوية. وفي رأينا هذا هو الصحيح، لأننا لا نعتقد أن من عمل الحكومات اليوم مراجعة أحداث حصلت قبل ٨٠ سنة لتبدي موقفها منها... وفي كل حال، من هو المستفيد من اتخاذ مثل هذا الموقف؟».

بالتأكيد، ليس طوني بلير هو المستفيد. لكنّ قسماً آخر من التصريح هو أكثر إقلاقاً ـ وأكثر دلالة على موقف حكومة بلير غير الأخلاقي من التاريخ ـ عندما يقترح أن على أرمينيا وتركيا أن تحسما في ما بينهما القضايا التي تفرّقهما... «إننا لا نستطيع أن نمثّل دور صديق مساند لكلا البلدين، إذا اتخذنا موقفاً سياسياً حول قضية بالغة الحساسية لهما كليهما». إذن، إن الاعتراف بالإبادة أو إنكارها هو عمل «سياسي»؛ والقتل الجماعي هو «حدث». والحكومات لا تستطيع أن تراجع الأحداث التي حصلت «منذ أكثر من ٨٠ سنة»، وأن تتّخذ موقفاً منها. ومعنى ذلك أنه إذا صارت ألمانيا عام ٢٠٢٥ يمينية التوجّه ـ حمانا الله من هذا التطوّر ـ وأنكرت المحرقة اليهودية، قد تتراجع الحكومة البريطانية، وتقول إنها لا تستطيع أن تتّخذ موقفاً إزاء «الأحداث» التي حصلت منذ ثمانين سنة، وأن على جماعة اليهود أن «يحلّوا» هذه المشكلة مع الألمان. وهذا هو المنطق الداعي إلى أن يعمد الخلف القوي للمُبيدين العثمانيين إلى حلّ هذه القضية «الحسّاسة» مع مَن بقي مِن سلالة الضحايا الأرمن. كما يكون البريطانيون إذ ذاك متّبعين أيضاً ممارسات إسرائيل في التفريق بين المحرقة الأرمنية والمحرقة اليهودية، من أجل تخليق فردانيّة للتجربة اليهودية في الاضطهاد، ممّا لا يسمح لأيّ جماعة إثنية أخرى بأن تشارك فيها. وقد كرّر

سفير إسرائيل في دولة أرمينيا الشيء ذاته ببلاهة عام ٢٠٠٢(*). وكذلك فعل السفير البريطاني في أرمينيا بعد سنتيْن.

ولكن من اليسير أن يشعر المرء أنه على حقّ. فعندما رفض بلير الاعتراف بإبادة الأرمن، كتبتُ سلسلة من المقالات الغاضبة في جريدة الإندبندنت، أقول فيها إن اليوم التذكاري للمحرقة يستبعد الأرمن ويصبح شأناً يهودياً فحسب. أجل، لقد كان الحرف الأول من كلمة "Holocaust" ـ «محرقة» ـ مطبوعاً بشكل كبير (H) عندما يتعلّق باليهود. وكنتُ أنا موافقاً على ذلك دائماً.

فالقتل العِرقيّ على هذا النطاق الواسع ـ أي إعدام هتلر لستّة ملايين من اليهود ـ يستحقّ هذا الحرف الكبير. ولكنني أعتقد أيضاً أن إبادة الأعراق الأخرى ـ من أيّ جنس كانت ـ تستحقّ أيضاً حرفاً كبيراً مماثلاً. وهكذا كتبت على طول صفحة مركزية في مقالي. ثم اجتمعت مع أحد معارفي من الأرمن، وذكرت له أني فعلت ذلك، بمعنى أنني اعتمدت الحرف الكبير (H) عندما أشرت إلى «المحرقة الأرمنية» في مقالي. وقلّما تصوّرت أن الموتى سينهضون من قبورهم بسرعة من أجل تعدادهم. فحالما ظهر مقالي في الإندبندنت، ـ تلك الجريدة التي لم تألُ أبداً في نبش أعمال الشرّ البشري التي أصابت أيّ عِرق وأيّ معتقد ـ بقيت مرجعيّاتي الدالّة على أول حرف من «المحرقة اليهودية» بحرف كبير؛ ولكن، أُعيد أول حرف من عبارة "Armenian Holocaust" ـ «المحرقة الأرمنية» ـ إلى حجمه الصغير (h)(**). ولذلك قال لي صاحبي الأرمني وهو يكظم غيظه: «أخبرني يا روبرت، كيف يصبح الأرمن مستحقّين لحرف كبير في أول كلمة من محرقتهم؟ ألم يقتل الأتراك عدداً كافياً منّا؟ أو لأننا لسنا يهوداً؟».

(*) قال رفقا كوهين السفير الإسرائيلي في ياريفان بتاريخ ٥ آذار/مارس عام ٢٠٠٢: «بينما كانت إبادة الأرمن «مأساة»، تميّزت محرقة (اليهود) بأنها «ظاهرة فذّة؛ لأنها كانت دائمة ومُصمَّمة وترمي إلى تدمير كامل الأمّة». وبالطبع أصدرت الحكومة الأرمنية في ياريفان مذكّرة اعتراض دبلوماسية.

(**) لم تكن هناك مؤامرات في جريدة الإندبندنت، بل كانت هناك قاعدة داخلية صلبة متّبعة، تُطبّق أسلوب «الاستعمال العادي» في الجريدة. وبحسب هذه القاعدة، كان أول حرف من كلمة Holocaust عندما يتعلّق الأمر بـ «المحرقة اليهودية» يطبع كبيراً وحده، دون سائر بدايات المحارق الأخرى. ولا يعرف أحد تماماً لماذا ـ وهذه الممارسة ذاتها متّبعة في سائر الجرائد والكتب عبر العالم كلّه؛ مع أنها كانت في مركز مجموعة في الولايات المتّحدة الأميركية، حيث لم تتمّ الموافقة في جامعة هارفارد على إقامة «كرسيّ للمحرقة وللدراسات المشابهة»، لأن الأكاديميين اعترضوا على جمع إبادات الشعوب الأخرى ـ بمن فيهم الأرمن ـ في سلّة واحدة تسمّى «المشابهة» (Cognate). ولكن، كل هذا لا يجيب عن الأسئلة التي طرحها صديقي الأرمني. ولو قلنا له إن شبهه لا يستحقّ حرفاً كبيراً أولاً، لكان ذلك عاراً علينا، كما كان إهانة له ولشعبه. إن «الاستعمال العادي» نعمة لكل الصحافيين؛ لكنه ليس مقدّساً، ولا يجدر أن يبقى على حاله. وقد أخبرت رئيس تحرير جريدتي أن والدي مثلاً، حارب في ما سمّاه «الحرب الكبرى»؛ لكن الاستعمال العادي لتلك الحرب تعدّل عام ١٩٤٥ إلى «الحرب العالمية الأولى». وقد تساءلت في مقالي عمّا: «يقبع وراء الحرف الكبير. كم جمجمة أخرى تلزم لتلتحف رمال سوريا الشمالية؟ ألم يقتل الأتراك عدداً كافياً من الأرمن؟ ومنذ ذلك التاريخ طبعت جريدة «الإندبندنت» الحرف الأول الكبير للمحرقتين كليهما: محرقة اليهود، ومحرقة الأرمن.

إن جريدة الإندبندنت تطالب أكثر من غيرها من الصحف في بريطانيا أن تعترف تركيا بحقيقة قتل الأرمن. وعندما اشتكت السفارة التركية رسمياً في آب/ أغسطس عام ٢٠٠٠، طالبة إحداث تغييرات ضمن الإشارة إلى قتل الأرمن، في «معرض الحرب الملكي» في لندن، لم يستطع الدبلوماسي التركي «محمد أتاك» سوى أن ينعت قتل الأرمن بلقب «قضيّة مؤلمة وفوضويّة». بينما نشرت الإندبندنت مقالاً افتتاحياً تساءلت فيه عن احتمال آخر، قائلة: «تصوّر، لو صرّحت الحكومة الألمانية بأن عدداً من اليهود ماتوا في الحرب العالمية الثانية، وأن ذلك كان بسبب سوء الصحّة ونتيجة للعمليات القتالية».

ولكن، حتى «معرض الحرب الملكي» ينحني أمام تركيا. فعندما نظمت تركيا، بعد سنة تقريباً، معرضاً آخر بعنوان: «جرائم ضدّ الإنسانية» ـ وهو التعبير الذي استُعمل لأوّل مرّة عام ١٩١٥ بخصوص الأرمن ـ شمل المعرض لوحة كاملة في القسم الأرمني تنصّ على إنكار تركيا لحصول القتل الجماعي. وقد علّق أحد قرّائنا على زيارته لذلك المعرض الذي أُقيم إحياء لذكرى المسلمين الذين قتلهم الأرمن في بلدة ياسيليلا، بقوله: «إن ما يصدم الزائر هو استعمال اللغة ذاتها التي تُستخدم كردّ فعل على «المحرقة اليهودية»، بعد تكييفها للدلالة لا على الأرمن المقتولين، بل على الأتراك أنفسهم». مع العلم أن تركيا حاولت زعزعة مصداقية الإثباتات الفوتوغرافية لإبادة الأرمن، وطلبت من «مكتبة هلتن غيتي للصور» أن تسحب من مجموعتها ثلاث صور شهيرة للأرمن المقتولين ـ بما فيها صورة أيقونية أخذها الألماني الشجاع «أرمن وغنر». وهي تمثّل فتاة أرمنية وولديْن أرمنيين صغيرين مقتولين وممدّدين بين القُمامة عام ١٩١٥ ـ على أساس أنه لم تكن هناك إبادة. وبالفعل، سحبت مكتبة هلتن الصور من المعرض لمدّة ثلاثة أيام، لكن مدير عامّ المؤسّسة «ماثيو بطسن» صرف النظر عن الاعتراضات التركية، قائلاً: «أعتقد أن ذلك يحصل، نظراً لتقديم تركيا طلباً للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. إن الأتراك يريدون أن «ينظّفوا» سجلّهم التاريخي؛ ولكن ليست هذه هي الطريقة للقيام بذلك».

وإذا رجعنا الآن إلى الولايات المتّحدة الأميركية، نجد أن الأرمن قد طلبوا تعويضات من الشركات الأميركية التي عقد معها أهلهم ـ الذين قتلوا عام ١٩١٥ ـ بوليصات تأمين على حياتهم. وإذا انتظر الناجون من المحرقة اليهودية ٤٠ سنة ليحصلوا على تعويضات من شركاتهم فقد تطلّب هذا الأمر من الناجين من المحرقة الأرمنية وأبنائهم ٨٠ سنة. وأخيراً، وافقت شركة نيويورك للتأمين على الحياة على دفع ٢٠ مليون دولار أميركي؛ لكنّ رئيسها ساي سَتِرنبُرغ الذي قال إنه «دفع ثُلث المبلغ بعد القتل»، استعمل اللغة الحيادية التي تحبّذها تركيا، إذ قال: «دفعنا مباشرة، حالما اتضح أن العديد من حاملي بواليصنا من الأرمن قد هلكوا خلال الأحداث المأساوية التي حصلت عام ١٩١٥». لنلاحظ «هلكوا» و«الأحداث المأساوية». وقد تمنّعت أولاً عدّة شركات عن الدفع في الولايات المتّحدة الأميركية، «لأنه لم يتقدّم أحد» للمطالبة. وبهذا الصدد، قال أندرو كيفوركيان أحد أفصح المتكلّمين بين البريطانيين الأرمن عن قضية ١٩١٥: «ماذا كانوا يتوقّعون؟ هل كانوا يتوقّعون أن يتسلّموا من الأتراك ملاحظة «لمن يهمّه الأمر، نصرّح عن كل قتيل في حينه؟».

وعندما سألت الجالية الأرمنية في الولايات المتحدة الأميركية المرشح جورج و. بوش عن سياسته إزاء قضية إبادة الأرمن، في حال انتخابه رئيساً، قال بتاريخ ١٩ شباط/فبراير عام ٢٠٠٠: «إن الأرمن أُخضعوا لحملة إبادة... وهي جريمة فظيعة في قرن مليء بالجرائم الدموية ضدّ الإنسانية. وإذا انتُخبتُ رئيساً، سأضمن أن تعترف أمّتنا بالعذاب المأساوي الذي مُنيَ به الشعب الأرمني». لكنه عندما صار رئيساً فقد شجاعته، وخاب في الوفاء بوعده للجالية الأرمنية، ولجأ إلى المداهنات الكلامية. وفي خطابه الموجّه إلى الأرمن بتاريخ ٢٤ نيسان/أبريل ٢٠٠١، وهو الذكرى ٨٦ لبداية المذبحة، لم يعد بوش يستعمل تعبير «إبادة»؛ بل «إحدى أكبر المآسي في التاريخ»، و«القتل الشائن»، وعن «المأساة التي شوّهت تاريخ الأرمن»، وعن «مصيرهم المرّ»، عند «نهاية الإمبراطورية العثمانية».

وبعد مرور سنة وفي مثل ذلك اليوم، لقّب بوش تلك «الإبادة» «بالمأساة المرعبة»، وتكلّم عن «القتل المروّع»، وأشار إلى ذلك السلب الرهيب للحياة. وهكذا تبخّرت كلمة «إبادة». كما كان هناك أيضاً ملاحظة تضليليّة عن «الجروح المؤلمة التي لم تلتئم لدى شعب أرمينيا، وفي تركيا، وحول العالم». وفي نيسان/أبريل عام ٢٠٠٣، جاء وصف «المأساة المخيفة» و«الفاجعة الكبرى»، وبعبارة لا يدركها سوى «بوش»: «تعكس الحزن العميق الذي لا يزال يتتابهم مع جيرانهم الأتراك». لقد كان ذلك مخالفاً للطبيعة وللعقل. وكانت الحكومة التركية لا تزال تُنكر الإبادة ـ دون أن ترثي لمصير ضحايا الإبادة. وبحسب كلام «اللجنة الوطنية للأرمن في أميركا»، وبالرغم من أن بوش دعا إلى «الصفاء الأخلاقي في الشؤون الدولية»، فقد «سمح» بوش لحكومة أجنبية أن تضغط على رئيس الولايات المتحدة الأميركية وتضطرّه إلى استعمال تعابير رجراجة وبلاغية ليتجنّب التحديد الصحيح لإبادة الأرمن...».

ويجب أن نتذكّر هنا أن هذا هو الرئيس ذاته الذي اعتقد أنه «يحارب الإرهاب»، والذي ادّعى أنه يحارب «الشرّ»؛ ولكنه عندما جابهه الإرهاب والشرّ بإثبات دامغ، على مستوى يفوق أي شيء ارتُكب بحقّ الأميركيين، بردَ، واستكان، وهرب من مواجهة الحقيقة. وفي الواقع، هناك أوقات يبدو فيها حصول الإبادة الأرمنية ـ بالنسبة إلى العديد من الأمم حول العالم ـ أخطر من أسلحة الدمار الشامل، التي كذب بوش وبلير بشأنها. وفي هذه الصورة المتوازية بل في هذا العالم الواقعي، نجد أن الأتراك هم الذين يقولون لبوش ولبلير: إما أن تكونا معنا أو ضدّنا. وقد وقف الرجلان إلى جانب الأتراك في إنكار التاريخ.

والآن، دعوني أُلقِ بعضاً من الضوء اللمّاع الشتوي الحزين على ردّ الفعل البائس، الجبان، والخطر الذي أبداه الغرب إزاء المحرقة الأولى التي حصلت في القرن العشرين الميلادي. ففي عام ١٩٩٦، جاءت ذكرى إبادة عام ١٩١٥ بقوّة إلى دير وستمينستر، عندما قام السير مايكل ماين، العميد الفخري لذلك الدير ـ الكنيسة، وكلّف فناناً إيرلندياً بأن ينحت صخراً يوضع خارج أبواب البوّابات الغربية. ويقول النقش عليه: «تذكّر جميع الضحايا الأبرياء للقهر، والعنف، والحرب». كما نقش على طرفه: «ألا يعني هذا الأمر لكم شيئاً، أيها المارّون هنا؟».

وقد رفعت الملكة الغطاء عن ذلك الصخر بحضور رجال ونساء عانوا في «أوشفيتز»، و«رواندا» و«البوسنة»، و«سيبيريا» و«سويتو»، و«أرمينيا». وبين هؤلاء كان يرفانت شكردميان، البالغ من العمر ٨٩ سنة، الذي خبر المجازر الأرمنية وهو طفل، وفقد معظم أفراد عائلته في غِمار تلك الإبادة.

وبعد مضيّ أشهر على الرفض الخسيس للاعتراف بحقيقة تاريخية، تفجّر غضب شعبيّ عامّ، ألزم حكومة بلير في آخر لحظة بأن تستجيب وتسمح لأكثر من ٢٠ أرمنياً بحضور الاحتفال باليوم التذكاري للمحرقة الأولى عام ٢٠٠١. وقد دُعيَ إلى ذلك الاحتفال شكردميان وناجٍ آخر من تلك الإبادة يُسمّى أنيغ بودوسيان. وقد شغل مطران الأرمن في بريطانيا مركز شرف مع سائر الأساقفة المتقدّمين في السنّ، بمن فيهم الحاخام الأكبر، وكان بين الذين أشعلوا الشموع أمام بلير وغيره من السياسيين.

ولم يطُل بذلك الزمن حتى ظهر على التلفزيون التركي شيء عجيب. فقد ألقى «تانر أكّام» الكاتب والمؤرّخ التركي محاضرات على بني قومه حول الوقائع ـ والحقيقة ـ المرتبطة بإبادة الأرمن عام ١٩١٥. وأمام جماهير المشاهدين على مستوى البلاد كلّها، نصح بالندم والتوبة، قائلاً: «إذا لم تستطيعوا أن تُقنعوا أنفسكم بأنها كانت إبادة سمّوها مجزرة إذا أردتم؛ لكنها كانت جريمة ضدّ الإنسانية... اطلبوا الصفح من الشعب الأرمني... والتزموا في تركيا بأن لا تعتبروا الانشقاق السياسي وعدم الاتفاق منذ اليوم في عداد الآثام».

وقد صعب كثيراً على جماهير المشاهدين أن يسمعوا هذا الكلام الغادر. وهكذا، قوطعت تلك المشادّة المرّة مع أكّام التي دامت ستّ ساعات على التلفزيون، بتاريخ ٣ شباط/فبراير عام ٢٠٠١. وجاء صوت مُتعجرف على التلفون يقول: «كيف تتجرّأون أن تسمحوا لهذا الرجل بأن يتكلّم؟ أسكتوه!». وكان ذلك صوت «سمرة أوزال» زوجة رئيس الجمهورية التركي السابق «تورغوت أوزال». لكنّ الدكتور أكّام لم ييأس، أو يكفّ، أو يستسلم، بل أردف: «إذا لم نُبعد أنفسنا عن الذين ارتكبوا هذه الجريمة، التي كانت جريمة إبادة، لن نظفر براحة النفس والتخلّص من هذا العبث الرهيب». وقد استعمل الكلمة التركية ـ «سويْكيريم» ـ عبر كامل البرنامج. وزاد شرحاً بقوله: «إن اللازمة الدائمة التي تقول «لسنا مذنبين، لسنا آثمين»، وما يقابلها من الانتقال إلى لوم الأرمن، الضحايا، ليس في صالح تركيا، بل يضرّها». كما استشهد بقول كمال أتاتورك مؤسّس الدولة التركية، الذي وصف بتاريخ ٢٣ نيسان/أبريل عام ١٩٢٠، «المجازر الأرمنية بأنها فعل يلفّه العار» شاجباً إيّاها.

وقد انبرى حكمت سيسيك رئيس تحرير جريدة «إيدينلينك» فوراً لشجب أقوال أكّام ووصفه «بالخائن»؛ ولكن كان هناك صحافيون آخرون أجرأ منه؛ إذ كتب «أرطغرل أوزكوك» في عموده بجريدة «مِلّيّيت» في اليوم ذاته عن مُرتكبي إبادة الأرمن أنهم من فئة «بول بوت»، و«بيريا»، و«ستالين»؛ وكلّما حاسبناهم على جرائمهم... استطعنا تطهير أنفسنا من هذا البلاء الذي نوصم فيه بارتكاب جريمة إبادة».

وبعد مناقشة أكّام على التلفزيون بثلاثة أعوام تماماً، تجمّع أكثر من خمس مئة مُنكر تركي ـ من أساتذة

الجامعات، والمؤلّفين، والكتّاب، ودُعاة حقوق الإنسان ـ واعترضوا على منهاج تاريخ جديد يأمر المعلّمين بأن يشجبوا أمام تلامذتهم «ادّعاءات الأرمن الواهية». ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي جابه فيها المفكّرون الأتراك حكومتهم. وقد جرت ملاحقة ثلاثة أتراك في إسطنبول خلال آذار/مارس ١٩٩٤ لأنهم ترجموا ونشروا ١٥٠٠٠ نسخة من كتاب فرنسي حول إبادة الأرمن. وكان قد وقع حظر على ذلك الكتاب في شهر كانون الثاني/يناير من تلك السنة أصدرته محكمة الدولة الثالثة في إسطنبول؛ كما اتُّهموا بأنهم محرّضون على الشغب، وعلى التمييز العُنصريّ، والتمييز في ملكيّة الأراضي التركيّة». وقد قامت جماعة أرمنية لحقوق الإنسان بحملة لمناصرة هؤلاء.

وخلال المحرقة اليهودية، وجد يهود أوروبا أناساً صالحين من غير مِلّتهم رجالاً ونساء، يعرّضون حياتهم للخطر من أجل إنقاذ أولئك اليهود. كما لاحت أشباح مجموعة أخرى من المنقذين من خلال صفحات تقرير برايس الكبير حول المحرقة الأرمنية. وقد سجّل شاهدان أميركيّان كيف وصلت الأوامر إلى تحسين بك، حاكم «أرضروم» عام ١٩١٥، تأمره بقتل جميع الأرمن. لكنه رفض تنفيذ تلك الأوامر. وفي الواقع كان دائماً ممانعاً في إساءة معاملة الأرمن؛ إنما طغت عليه «قوة قاهرة»(*).

وكان الأرمن أنفسهم يعلّمون أولادهم في المدارس سيرة جلال باشا حاكم حلب، الذي أعلن أنه حاكم وليس جلّاداً، إذ قال: «إن من الحقّ الطبيعي للكائن البشري أن يحيا لا أن يموت». وبذلك أنقذ أرواح الآلاف، وكان الرجل الصغير ـ الصالح ـ الذي تبدو شخصيّته أحياناً من خلال تقرير برايس. وعند الترحيل من «رأس العين» كانت ماريتزا كادجيجيان شاهدة على اغتصاب الأكراد لنساء شابّات. فقد كتبت فيما بعد: «عندما كانوا يحاولون اختطاف فتاة، رجوتُ الشاويش إيومر، الرجل المارديني الذي كان عريفاً في الجيش التركي، أن يساعدنا، فلم يتوانَ عن ذلك:

> «أوقفهم حالاً، ولم يسمح لهم باصطحاب (الفتاة) وأخذها معهم... وكان الأكراد الوافدون من القرى المجاورة قد هاجمونا ليلاً. وخرج إيومر الذي كان مسؤولاً عنّا، إلى أعالي التلال فوراً وخطب فيهم باللغة الكردية، ليمنعهم من مهاجمتنا. وكنّا جوعى وعطشى، ولم يكن لدينا ماء نشربه. فحمل إيومر بعضاً من أوانينا، وجاءنا بالماء من مكان بعيد... وكانت زوجة أحد أصهارنا قد وضعت طفلاً تلك الليلة... وفي اليوم التالي، بدأنا السير من جديد، بعدما ترك العريف إيومر بعض النسوة معها، وبقي يراقبها من بعيد. ثم أركب الأم والطفل على دابّة، وألحقها بنا سالمة».

فهل هناك من قصّة أكثر إثارة من هذه نستمدّها من الحقول الدامية للمحرقة الأرمنية؟ وهكذا، أرجع إلى سؤالي الأوّليّ: أليس على الأرمن أن يحتفلوا بذكرى جميع أولئك الأتراك الشجعان الذين تصرّفوا من باب الشفقة

(*) وتجدر الإشارة من جهة أخرى، أن تحسين بك لم يظهر بمثل هذه الصورة الإيجابية. ولكن، ألم يكن أوسكار شندلر عضواً في الحزب النازي؟

والرحمة، ورفضوا إطاعة الأوامر؟ ومهما كان عدد هؤلاء قليلاً لسوء الظرف، ألا يكون الأرمن في حال إقرارهم بالجميل، قد اعترفوا إذ ذاك بإنسانيّتهم؟ وكيف يكون ردّ فعل الأتراك؟ هل يكون برفض تقدير هؤلاء الزملاء الأتراك الشجعان؟ أو باعتزازهم بشجاعة أولئك الأفذاذ ـ وعلى الأساس ذاته ـ قبول الاعتراف بإبادة الأرمن؟ إن «تانر أكّام» يستحقّ مثل هذا الإقدام. وكذلك العريف إيومر.

وكذلك الأرمن أيضاً. في عام ٢٠٠٢، أرسل إليّ آرام كيفوركيان نُبذة عن زيارته لموقع تشنكوش، البلدة الأرمنية في تركيا التي وِلد فيها والده. لقد وجد فيها رُكام الكنيستيْن الأرمنيّتيْن اللتيْن لا تزالان واقفتيْن. وذهب إلى المنحدر الذي قُتل فيه شعبه عام ١٩١٥، «حيث أُلزم الأرمن بخلع ثيابهم، وأوثقت أيديهم، وقد نُحِرت أعناقهم، أو حُطّمت رؤوسهم بالفؤوس، ورُميت أجسادهم في الحُفر». وقف كينوركيان هناك وقرأ من «ييتس» قصيدة الأمل «لابِس لازولي»:

«جاءوا على أقدامهم، أو على متون السفن،

أو ظهور الجمال، والأحصنة، والحمير، والبغال،

حضارات قديمة تحت حدّ السيف.

ووقعوا كلّهم مع حِكمتهم في حُضن العذاب:

ليس هناك شيء من أعمال «كاليماكوس»،

الذي تعامل مع الرخام وكأنه من نُحاس،

وصنع أشرعة كانت ترتفع واقفة،

عندما تهبّ ريح البحر وتضرب الزوايا.

لم تصمد المدخنة الضوئية الطويلة،

التي تشبه ساق النخلة الرفيعة،

إلّا يوماً واحداً؛

لقد سقطت كلّ الأشياء،

وها هي تُبنى من جديد...»

نحن الآن في عام ١٩٩٢، وأنا أزور موقع مارغارا على الحدود بين تركيا وأرمينيا ـ الدولة الأرمنية الحقيقية، المتحرّرة أخيراً من المعطف السوفياتي الثقيل ـ وأنظر إلى قمّة جبل أرارات المكلّلة بالثلوج وراء الحدود التركية. إن أرارات، الرمز الوطني الأرمني، يقع داخل تركيا؛ وهو مكان يُنظر إليه ويُفكّر فيه من بعيد. وأنا أقف في حديقة ليفون كرابيجيان، فوق مزاهر البندورة (الطماطم) والخيار ومساكب البطاطا، وأشجار الكرز

التي تبدو مريضة لديه؛ وأرى عَلَماً تركياً يتدلّى في حرّ الظهيرة. على سطح مركز حراسة خشبي. قال كرابيجيان: «أرى أحياناً الجنود الأتراك هناك عند تلك الشجرة الصغيرة على الجهة الأخرى من السياج»، وأتساءل: «مَن هو الأرمني الذي يريد أن يعيش على بعد ستّة أمتار من الأمّة التي قام حكّامها العثمانيون باستئصال شأفة شعبه؟».

لم يبقَ من القرويّين سوى عدد قليل، لكنّ طيور اللقلاق أكثر منهم. وهي مُعشّشة على رافعة المصنع المهجور، وعلى أعمدة التلغراف، وعلى سطح المكتبة العامّة المتداعي، وعلى قمّة منصّة الرخام التي تُمجّد ذكرى أولئك الأرمن الذين سقطوا ضحايا حرب ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ «الحرب الوطنية الكبرى» ضدّ هتلر. وكرابيجيان هو أستاذ تاريخ في المدرسة الثانوية المحلّية، يعلّم ويربّي أولاد أولاد الذين هربوا ونجوا من الإبادة ـ أي من قرى لا تكاد تبعد ٢٥ كيلومتراً عن مكانهم الحالي في معظم الحالات، وتقع على الضفّة الأخرى من الحدود التركية ـ خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٥ و١٩١٨.

وبينما أنا أجلس مع ليفون كرابيجيان وعائلته إلى طاولة في حديقته، نأكل الكرز، صرت أسمع صوت طير الوقواق من تركيا، ممّا تسمّيه العائلة «أرمينيا الجنوبية». وفي هذه الأثناء، أشارت زوجته إلى صفّ من أشجار الحور الواقعة وراء مركز الحراسة التركي، وقالت: «كان ذلك بيت عائلتنا. وإني أتذكّر كيف كان والدي يحملني على كتفه عندما كنت صغيرة، ويخبرني كيف كان جدّي يقوم بزرع كل تلك الأشجار».

وبعد خمس سنوات، وعلى بعد ٣٥٠٠ كيلومتر، بينما كان ضباب البحر يلتفّ حول كُثبان منطقة ساسَكْس، خلال أمسية إنكليزية رطبة، جلست أمامي أستريد أغاجانيان تصبّ لي الشاي من إبريق كبير ثقيل. إنها واحدة من أخريات الناجيات. عمرها الآن ٨٢ سنة؛ وقد قتل الأتراك بالبندقية جدّها، وجدّتها، وعمّتها. قالت:

> «ثابر مَن بقيَ من العائلة على المسير. وعندما وصلنا إحدى القرى، جاءنا والدي ليزورنا. وأخبر والدتي أنه سُمح له بأن يودّعنا، وأنه سيُعدم مع سائر الرجال. وقد قالت لي أمّي كلماته الأخيرة: «أفضل ما تتذكّرينني به هو الاهتمام بأستريد». لم نره منذ تلك الزيارة أبداً. وكانت مسيرتنا طويلة. جاءنا الأتراك والأكراد ليخطفوا البنات ويغتصبوهنّ. وكانت أمّي تركض من عمود إلى آخر، كلّما رأتهم يهاجموننا. وماتت جدّتي الأخرى أثناء المسيرة. وكذلك مات أخي الوليد «فارتكيس». وقد اضطُررنا إلى تركه على حافّة الطريق. وفي أحد الأيام، جاء الأتراك، وادّعوا أنهم سيجمعون الأولاد الصغار للاهتمام بهم. وقد عمدت الأمّهات اللواتي لا يستطعنَ إطعام أطفالهنّ إلى التخلّي عنهم. وقد رأت أمّي مراكمتهم للأولاد، بعضهم فوق بعض وإشعال النار بهم؛ فدفعتني تحت كومة من الجثث. ودفنت نفسها معي تحت تلك الأجساد. ولا أزال حتى اليوم لا أتحمّل البقاء في الظلام أو البقاء وحدي. لقد أنقذتني أمّي من النار. وأخبرتني فيما بعد أنها عندما سمعت صراخ الأولاد، ورأت لهيب النار، كانت تتصوّر أن أرواحهم تصعد إلى السماء».

حملت والدة أستريد طفلتها في آخر الأمر إلى مخيّم للبدو، وبعدما وصلت إلى حلب ـ بمساعدة أحد

الضبّاط الأتراك ـ تزوّجت ثم سافرت إلى قطاع الانتداب الجديد في فلسطين. وفي القدس قابلت أستريد زوجها المقبل غاسبار الذي عاشت عائلته هناك لعدّة أجيال خلت. ولكنّ شقاءها الأرمني لم ينتهِ. فقد اضطرّوا إلى الهرب من جديد عام ١٩٤٨ بعد نشوب الحرب بين العرب وإسرائيل، والالتجاء إلى الأردنّ ـ حيث حصل غاسبار أغاجانيان على الجنسيّة البريطانية ـ ثم انتقل إلى قُبرص. ولكن عندما غزا الأتراك الجزيرة عام ١٩٧٤ بعد حدوث الانقلاب اليوناني، فقد الزوجان أملاكهما من جديد. وهكذا صارت أستريد لاجئة هاربة من الأتراك مرّتيْن خلال القرن العشرين الميلادي. ودخل الجيش التركي إلى ما كان منزلهما. فهل يمكن أن يعذّب التاريخ شخصاً أكثر من هذا؟

يبدو أن ذلك ممكن. فقد تسلّمت عائلة أغاجانيان تعويضاً عن المنزل الذي فقدته، ولكن عندما طالب غاسبار بتعويض عن سائر ممتلكاتهما ـ مثل السجّاد العجمي، والمفروشات، ومجموعة من العُملة القديمة، وصور الأقرباء المقتولين عام ١٩١٥، وبيانو ومكتبة كبيرة من الكتب الثمينة، ممّا سرقه الأتراك ـ تلقّى رسالة من المكتب الأجنبي البريطاني تقول: «إن السلطات القُبرصيّة التركيّة. . . أصدرت تشريعاً تستبعد بموجبه مطالب الأشخاص الذين لهم علاقات يونانيّة أو قُبرصية ـ يونانية. ويشمل هذا الاستبعاد مَن هم مِن سُلالة الأرمن».

لم يكن الزوجان من القبارصة اليونانيين، ولم يطلبا يوماً جوازات قُبرصيّة ـ يونانية، قال غاسبار: «كنّا مواطنين بريطانيين بكل معنى الكلام؛ ولكنهم رفضوا إعطاءنا التعويضات نظراً لأصولنا العِرقيّة». وعندما علم أن مرغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا ستزور تركيا عام ١٩٩٠ لحضور الاحتفالات التذكارية بمعركة غاليبولي عام ١٩١٥ ـ بعد دورة زمنية كاملة من تاريخ تلك الكارثة ـ كتب زوج أستريد إلى نائبه في البرلمان يشتكي، مضيفاً أن زوجته هي من الناجين القلائل من إبادة الأرمن؛ فجاءته رسالة من مدير المكتب الأجنبي فرانسيس مود ـ وهنا يُسمح لقارئ هذا الكتاب أن يصرخ ويستغيث ـ تقول: «مع أن الحكومة البريطانية تعتبر خسارة هذه الأعداد الكبيرة من الضحايا بمثابة مأساة. . . فقد رأينا منذ زمن بعيد صواب عدم إثارة هذا الموضوع مع الحكومة التركية الحاضرة أو اتّهامها بهذا الأمر؛ لأنه يتعلّق بأعمال حدثت منذ ٧٥ سنة خلال حُكم العثمانيين».

وهكذا لا تُعدّ قصّة «كاتش ٢٢» (Catch 22) شيئاً يذكر أمام هذا الأمر. فمن أجل المحافظة على العلاقات مع تركيا، لم تعد الحكومة البريطانية تعترف بأن إبادة الأرمن حصلت. ولكنها لا تستطيع أن تحصل على تعويضات لعائلة أغاجانيان لأن الأتراك يرفضون دفع تعويضات لمواطنين بريطانيين من أصل أرمني ـ بسبب الإبادة الأرمنية التي حصلت عام ١٩١٥. ولم يتسلّم الزوجان أيّ تعويض عن سائر ممتلكاتهما، حتى الآن.

وإذا كان ثمّة لطف دولي يمكن أن يقدّم إلى عائلة أغاجانيان، فقد جاء عام ٢٠٠٣، عندما طلبت امرأة تركية، طالبة في شيكاغو أن تراهما. فقد سافرت الفتاة، التي يجدر كِتمان اسمها لحمايتها، من تركيا إلى الولايات المتّحدة الأميركية، وعاشت بين الأرمن هناك، وأصرّت على سماع قصّة الإبادة. وقد بدأت عملاً أكاديمياً لاكتشاف ما حدث عام ١٩١٥. وبعد ظهر ذات يوم، جاءت إلى بيت خشبيّ بسيط في شورهام بجنوبيّ

إنكلترا، وعبَّرت عن حزنها لأستريد، وعن ندمها لما فعله الأتراك من شعبها. وقد اصطحبت مسجِّلها، وحفظت بواسطته ذكريات أستريد أغاجانيان ـ ابتداء من وداع أبيها، إلى موت شقيقها، وحرق الأولاد الذين صعدت أرواحهم إلى السماء ـ فقد أصبحت كلّها محفوظة لدى هذه المرأة التركية الشابّة(*).

وفي بيروت، صار البيت الأرمني للمكفوفين بيتاً لجميع المسنّين الأرمن ـ وأصبح اليوم أدفأ ممّا كان عليه في أواخر أيام الحرب الأهليّة، فقد رُكّبت له أبواب جديدة، وتدفئة مركزية. ومع أن جميع الناجين من المحرقة الذين قابلتهم عام ١٩٩٤ قد ماتوا، كان هناك نزيلان جديدان من الناجين أيضاً؛ (ولن يكون هناك مزيد من الناجين). أوّلهما سيّدة مسنّة، لا تتذكّر سوى الأغاني التي تعلّمتها من أمّها حول فظائع المسيرة والترحيل، تنوح بها صارخة باللغة التركية، لأنه لم يتيسّر لها أن تتعلم اللغة الأرمنية؛ وعلى الموظّفين أن يفتّشوا عن ممرّضة تتكلّم التركية لتترجم لها. وقد اطّلعت على هذه الأغاني، التي جمعها بعناية ودقّة أكاديميّ أرمنيّ؛ وجاء فيها:

«الورود قادمة بكثرة كاثرة،

ما أصعب الموت عليّ،

استفقْ أيّها السلطان، أيّها السلطان المستبدّ،

إن العالم كلّه يبكي دماً».

والناجي الثاني كان رجلاً مسنّاً، مستلقياً في فراشه عند آخر الممشى. إنه هاروتيون كبدجيان يحمل بيسراه التوراة بطريقة «براي» للمكفوفين، ويشير بيمناه إلى رسائل ناتئة الورق. استقبلني بابتسامة، وهو لا يبصر. نحن الآن في عام ٢٠٠٠، وقد بلغ من العمر ٩٣ سنة؛ وكان عمره ثماني سنوات عندما نجا من الإبادة الأرمنية. ولا تزال ذاكرته واضحة مثل انفعالاته؛ قال:

> «كنّا نعيش في «دورتيول». كان اسم أبي سركيس وأمّي مريم؛ وكنّا عشرة أولاد أنا وأخوتي وأخواتي. وقد جمع الأتراك كلّ الناس، مع حميرهم وأحصنتهم. وكان علينا أن نذهب إلى حلب ورأس العين. ولكنهم ابتدأوا بقتلنا على الطريق. لقد ساقونا إلى نهر الخابور؛ وحين وصلنا إلى هناك، لم يبق من عائلتي إلّا أمّي وأختي وأنا. أمرونا جميعاً من رجال ونساء أن نخلع ثيابنا. كانت أختي بنت ١٨ سنة، وجاءها خيّال فرفعها ووضعها على حصانه، أمامنا؛ ورأيت ذلك بأمّ عينيّ؛ إذ إنني لم أكن قد فقدت بصري بعد. وابتدأوا بضرب أمّي ولمّا رجتهم أن لا يأخذوا أختي، ضربوها حتى الموت. ولا أزال أذكر صراخها وهي تموت: «هاروتيون، هاروتيون». وقد أخذني أحد رجال البدو إلى بيته؛ وبقيت هناك ثلاث سنوات. وانتهت الحرب وجاء أناس يقولون إنهم يفتّشون عن أيتام الأرمن. فقلت إنني

(*) وقد كتبت فيما بعد لعائلة أغاجانيان: «سأبذل جهدي للاستمرار في العمل الرامي إلى الاعتراف بالإبادة، وأحدث فرقاً ولو طفيفاً في هذا الأمر».

منهم، فأخذوني إلى حلب. وهناك أصاب عينيّ «فيروس» ففقدت بصري فجأة، وأنا لا أزال في الحادية عشرة من عمري. وبقيت حتى صار عمري ٢٣ سنة، وأنا مشحون بالغيظ إزاء الأتراك الذين أخذوا أختي، وضربوا أمّي حتى الموت أمامي. ولكن عندما بلغت الثالثة والعشرين من عمري، شعرت أنها ليست الطريق القويمة لأكون رجلاً. لذلك صرت أصلّي إلى الله تعالى كي يراني. كنت أتصالح مع نفسي. والآن أنا مستعدّ لملاقاة ربي. إني في سلام. وفي العام الماضي عندما حصلت الهزّة الأرضية الكبرى في تركيا قُتل كثيرون من الأتراك. وقد صلّيت من أجل أولئك الأتراك ـ لقد صلّيت من أجل أولئك الأتراك الفقراء».

الفصل الحادي عشر

خمسون ألف مِيل عن فلسطين

«لم نَعد نُؤمن بهؤلاء الشياطين المُشَعوِذين،
الذين يُراوغوننا ويساوموننا على الوجهيْن،
إذ يُغدقون علينا الوعود،
وينكثون تلك الوعود، فيحبطون أملنا»

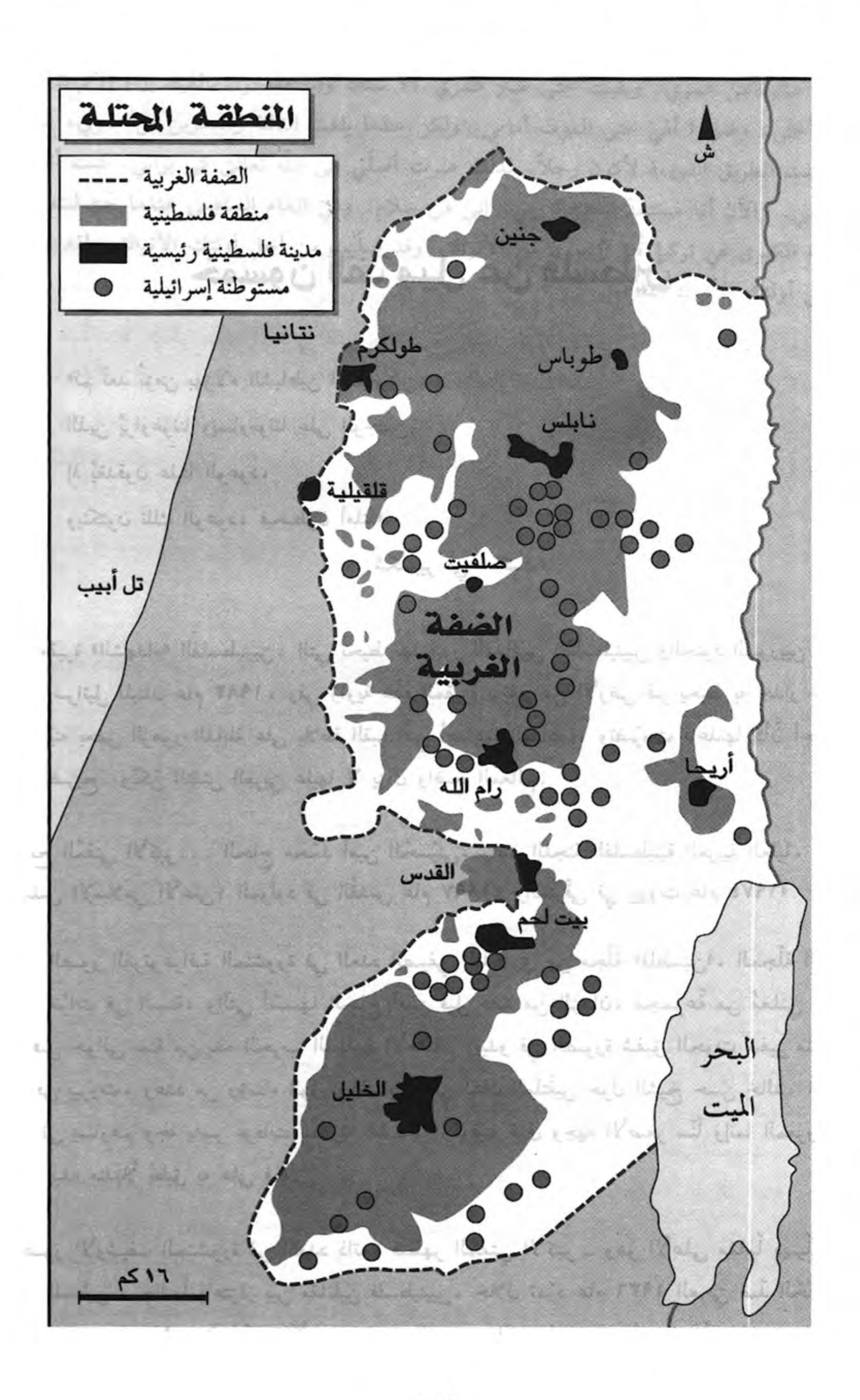
شكسبير في «ماكبِث»

غربيّ مقبرة «الشهداء» الفلسطينيين، التي تحيط بها قبور للفدائيين الفلسطينيين والجنود السوريين الذين راحوا ضحية غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، وفي زاوية هذه المقبرة يرتفع عن الأرض قبر يحيط به جدار من الإسمنت العاديّ، وتزيّنه بعض الزهور الذابلة على بلاطة القبر التي أصابتها القذائف، وتضرّرت قاعدتها كأنَّ أحداً حاول أن يدخل إلى الضريح. ولكنّ النقش العربيّ عليها لا يزال واضح المعالم:

> «ضريح المُفتي الأكبر... الحاج محمّد أمين الحُسيْني، زعيم اللجنة الفلسطينية العربية العليا، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى؛ المولود في القُدس عام ١٨٩٧، والمتوفّى في بيروت عام ١٩٧٤».

وتُظهر الصور الفوتوغرافية المنشورة في العدد الصيفي التذكاري من مجلّة «فلطسين»، المجلّة السياسية التي تصدر أربع مرّات في السنة، والتي أسّسها الحاج أمين قبل عقد من الزمان، مجموعةً من مُعلني الحداد قُرب الضريح، قبل حوالى سنة من بدء الحرب اللبنانية الأهلية. ويبدو في الصورة شفيق الحوت سفير منظّمة التحرير الفلسطينية في بيروت، وعدد من رؤساء الوزراء السابقين في لبنان الملتفّين حول الشيخ حسن خالد، المفتي الأكبر اللبناني، وإلى يسارهم وجه ياسِر عرفات بنظّارته الشمسيّة وكوفيّته فوق وجهه الأصغر سنّاً وإنما المعروف المعالم، وهو يُمسك بيده منديلاً يُطبق به على فمه.

أمّا صُوَر الأرشيف المنشورة في العدد ذاته، فتُظهر المفتي الأكبر ـ وهو الأعلى مقاماً دينياً وأهمّ زعيم مُنتخب في فلسطين ـ جالساً باعتزاز بين مقاتلين فلسطينيين، خلال تمرّد عام ١٩٣٦ العربيّ ضدّ الحُكم البريطاني في فلسطين؛ وهو يلبس ثوبه المذهّب الأطراف قرب المندوب الفلسطيني إلى عُصبة الأمم في جنيف. إنه رجل


المنطقة المحتلة
الضفة الغربية
منطقة فلسطينية
مدينة فلسطينية رئيسية
مستوطنة إسرائيلية
ش
جنين
نتانيا
طولكرم
طوباس
نابلس
قلقيلية
صلفيت
تل أبيب
الضفة
الغربية
أريحا
رام الله
القدس
بيت لحم
البحر
الميت
الخليل
١٦ كم

طويل القامة، ذو عينين واسعتيْن جدِّيتيْن، وذقن مُشذّبة بعناية، تنضح سيماه، حتى في الصور القديمة، بجاذبيّة الزعيم الذي لا يزال مُريدوه يتكلّمون عنها؛ بينما يتحدّث الذين يعرفونه عن عينيه الزرقاوين، اللامعتيْن، غير العاديّتيْن.

ولكنْ هناك صُوَر فوتوغرافية أرشيفيّة أخرى، لم تنشرها مجلّة «فلسطين»، صور أكثر إقلاقاً من صُوَر وداع أخير لرجل وُصف خلال جنازته بأنه «شيخ المتمرّدين، وإمام الفلسطينيّين». وتظهره هذه الصوَر جالساً على كرسيّ عالي الظهر، مُرتدياً عمامته وثوبه الأسود، يُصغي إلى رجل قصير الشعر أشعث الشاربيْن، يلبس بِزّة عسكرية ويلوّح بيده اليسرى. هذا الرجل هو أدولف هتلر، وقد ظهر على كُمّه الأيسر شعار النسر الألماني حاملاً الصليب المعقوف. والمكان هو برلين، والتاريخ هو ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١. وكانت هناك صور أخرى من تلك الأيام: الحاج أمين في التجمّعات النازيّة في برلين، والحاج أمين يصافحه «هنريك هيملر»، والحاجّ أمين يرفع يده اليمنى بالتحية النازِيّة، ويتفقّد المجنَّدين حديثاً من البوسنيّين المسلمين الذين انضمّوا إلى «الفيرماخت».

وربّما لا يكون مفاجئاً بعد أكثر من ثلاثين سنة على وفاته، أن يبقى اسم الحاجّ أمين الحسيني، مُفتي القدس الأكبر، مثيراً للحماس لدى الفلسطينيين وللمقت لدى الإسرائيليين. تذكُّرْ تكريسه جهده لقضية العرب الفلسطينيين، ورفضه التسوية عندما عرضت عليه حكومة الانتداب البريطانية تقسيم البلاد، وكيف يَسأل الإسرائيليون لماذا لا يُدان الحاج أمين بصفته مجرم حرب نازيّاً ــ كما يصوّرونه اليوم في نُصب المحرقة التذكاري «بياد ناشيم» غربيّ القدس. تمعّن في دوافعه لمسايرة هتلر، تلك المسألة التي يشير إليها الفلسطينيون بانزعاج أحياناً على أنها «الفترة الألمانية». كما يسألك الفلسطينيون لماذا ترغب في دعم حملة الافتراء «الصهيونية» الموجّهة ضدّ ذكرى الرجل المسنّ؟ فمجرّد البحث في سيرة حياته يُلقيك في أتون الحرب الدعائية بين العرب والإسرائيليين. فالتقويم النزيه لسيرة الرجل ــ وبالتالي التأريخ غير المتحيِّز للنزاع العربي الإسرائيلي ــ يشبه امتطاء درّاجتيْن في الوقت ذاته. وقد نصحني أحد معاونيه السابقين، عندما طلبت منه أن يسرد لي بعض ذكرياته عن المفتي الأكبر، بقوله: «أنصحك بأن تكتب عن الحاجّ أمين بعد أن تتقاعد، فقد يكون من الخطر عليك إخراج سيرة حياته».

ومن المؤكّد أنه قلّما ظهر اسم الحاجّ أمين الحسيني في خُطب ياسر عرفات خلال الربع الأخير من القرن العشرين؛ وليس ذلك بسبب تعاونه مع النازيّين فحسب. فقد أعطاني العَالِم الفلسطيني إدوارد سعيد، عندما كنّا جالسين نستريح في إحدى حدائق بيروت سبباً آخر لهذا التحفّظ، «كنت جالساً مع عرفات عام ١٩٨٥، عندما وضع يده على رُكبتي، وقبض عليها بقوّة قائلاً: «يا إدوارد، إذا كان هناك شيء واحد لا أريد أن أكونه، فهو أن أكون مثل الحاجّ أمين. لقد كان دائماً على حقّ، ولم يحظَ بشيء، ومات في المنفى». ولكن في عام ١٩٩٠، كان على عرفات أن يتبع بشكل مُستغرَب مصيراً مشابهاً. فكما سافر الحاجّ أمين إلى بغداد ومن ثمّ إلى برلين ــ معتقداً أن هتلر يمكن أن يضمن استقلال فلسطين عن الحكم البريطاني ووقف الهجرة اليهودية ــ كذلك سافر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى بغداد ليحضن صدّام حسين بعد غزو العراق للكويت، مقتنعاً بصحّة وعد صدّام بتحرير الأرض المسمّاة فلسطين. ولا عجب إذن أن يُثير شبح الحاجّ أمين قشعريرة لدى الوكلاء على منظمة

التحرير الفلسطينية. وكان مُفتي القدس الأكبر قد ألّف حكومة عام ١٩٤٨ لما تبقّى له من تلك البلاد، لكنها لم تعش طويلاً ـ على شاكلة السلطة الفلسطينية، التي كانت تجتمع في حدود فندق رتّ في غزّة.

لكنّ وقائع حياة الحاجّ أمين موثّقة تماماً. فقد وُلِد في القُدس في السنوات الأخيرة من الحُكم العثماني في عائلة تسلسل تاريخها إلى النبيّ الكريم؛ وتعلّم في المدارس الإسلامية، وفي جامعة الأزهر في القاهرة، قبل أن يخدم مدّة قصيرة كضابط في الجيش التركي خلال الحرب العالمية الأولى؛ تلك الحرب التي أصدر فيها البريطانيون وعديْن متناقضيْن. فقد وعدوا العرب بالاستقلال من جهة، مكافأةً لهم على تحالفهم معهم ضدّ الأتراك. وأعلن اللورد «بلفور» من جهة أخرى دعمه لوطن قومي يهودي في فلسطين المأهولة بغالبيّتها من قبل الفلسطينيين العرب. ومن هذه الخُدع، برز الحاجّ أمين كقوميّ عربيّ، وكخصم لا يُهاود ضدّ الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ولمّا اتُّهم بإثارة العُنف ضدّ اليهود والبريطانيين عام ١٩٢٠، هرب الحاجّ أمين إلى شرقيّ الأردن، ثم إلى دمشق، حيث احتُفل به كبطل قومي. ومن باب المفارقة التهكّمية، كان البريطانيون ـ الذين بُهروا بمكانة عائلته وموقفه القومي بين العرب الفلسطينيين ـ هم الذين هندسوا انتخابه لمركز المفتي الأكبر. فأسرع الحاجّ أمين إلى تدويل القضية الفلسطينية بين البلدان الإسلامية، وضمن أيضاً انتخابه للمجلس الإسلامي الأعلى الذي كان يُسيطر على الهبات، والمحاكم وسائر المؤسّسات الدينية. ومن نافل القول إنه كان واحداً بين كثير من العرب الذين كان يمكن أن يُرفعوا إلى مقامات أسمى بواسطة القوى الغربية ـ لكنه أُنزل إلى الدَّرْكِ الأسفل عندما خالف سياساتهم.

وعلى شاكلة الملك حُسين، ملك الأردنّ، باشر الحاجّ أمين مشروعاً لترميم قُبّة الصخرة والجامع الأقصى في القدس. وهو الأمر الذي أكسبه شعبيّة كبرى في المناطق الريفية من فلسطين. ويذكر شفيق الحوت أن مصادر القوّة والنفوذ لدى الحاجّ أمين كانت متمثّلة بأئمة المساجد والقرويّين؛ بينما كان العرب في المجالس البلديّة مُناصرين للإنكليز؛ قال: «وقد اعتبرْنا نحن، الناس العاديّون، رؤساء البلديّات خائنين لأنهم كانوا ضدّ الحاجّ أمين». وفي آب/ أغسطس عام ١٩٢٨ أثارت الخُطب التي ألقاها الحاجّ أمين وغيره من الزعماء المسلمين شغباً قُتل أثناءه ستّة يهود في الخليل.

وكان من بين خصوم الحاجّ أمين، راغب النشاشيبي، رئيس بلديّة القدس، كواحد من الفلسطينيين الذين أبوا أن يتقبّلوا رجلاً لا يقبل التسوية بأيّة حال من الأحوال. وفي عام ١٩٣٠، بدا أن البريطانيين استعدّوا لتقييد هجرة اليهود وشرائهم للأراضي في فلسطين. ولكن عندما أصرّ الحاجّ أمين على إقامة «حكومة وطنية» أيضاً، خفت اهتمام البريطانيين بذلك. وعندما أوقف البريطانيون الزعماء الفلسطينيين القوميّين خلال تمرّد الأعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، هرب الحاجّ أمين سرّاً إلى لبنان. وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية مباشرة، قام البريطانيون بمبادرة تجاه القضيّة العربية، فدعوا إلى طاولة مستديرة عربية لمناقشة قضيّة فلسطين. والحاجّ أمين ـ الذي منعه البريطانيون من حضور المباحثات ـ أصرّ على «أن توقف بريطانيا مساعيها لإنشاء وطن قومي يهودي، وإعطاء فلسطين

استقلالها». وهكذا خاب المؤتمر. وصدرت بعد ذلك ورقة بيضاء بريطانية تدعو إلى التخلّي عن وعد «بلفور» لليهود، واقترحت إقامة دولة بأكثرية عربية خلال عشر سنوات. فرفض الحاجّ أمين ما سمّاه «مالكوم ماكدونالد»، وزير المستعمرات الإنكليزي «فُرصة ذهبيّة». وفيما بعد، اتُّهم «عرفات» بتصلّب مماثل لعدم إطاعته الرغبات الإسرائيلية والأميركية.

وخاف الحاجّ أمين من أن تعتقله قوّات الانتداب الفرنسي على لبنان، فهرب من جديد إلى العراق، حيث استُقبل كبطل فلسطيني. ولكنّه نقض بسرعة وعده المُعطى إلى نوري السعيد، رئيس الوزراء العراقي، بأن لا يتدخّل في السياسات الداخلية. فقد اعتقد الحاجّ أمين أن انتصار البريطانيين سيقضي على فلسطين، وبناء عليه دعم رشيد عالي الكيلاني المناصر لدول المِحْوَر، بصفته خليفة لنوري السعيد؛ وكتب إلى هتلر رسالة طويلة غاضبة يلخّص فيها المأزق الذي صار إليه العرب الفلسطينيون في مواجهة ما سمّاه «التهويد العالمي»، هذا العدوّ الخطِر، صاحب الأسلحة السرّية ـ المتمثّلة بالأموال، والفساد، والمكائد ـ والمتحالف مع «الخناجر البريطانية» حتى انتهى إلى تمنّيات «بفوز هتلر فوزاً ساحقاً، وازدهار الشعب الألماني العظيم...».

وكان نديم دمشقيّة، الذي صار فيما بعد سفيراً للبنان في الأمم المتحدة، مُعلّماً في بغداد آنذاك. وكان يزور الحاجّ أمين غالباً. قال لي بعد نصف قرن: «أظنّ أن الحاجّ أمين اقترف خطأً بتورّطه في السياسة العراقية الداخلية؛ إذ إنّ الناس الذين تورّط معهم كانوا جامحين وغير مسؤولين. ولكن أين كان يمكنه أن يذهب؟ إلى أميركا؟ إلى بريطانيا؟ لقد كان يأمل أن يناصر العراقُ ألمانيا، ممّا كان من شأنه أن يجعل العرب في موقف أقوى للمفاوضة بشأن فلسطين عندما تنتهي الحرب لصالح هتلر. فقد كان الحاجّ أمين يردّد أمامنا: «نأملُ أن لا يخسر الألمان الحرب».

وعندما غزا البريطانيون العراق عام ١٩٤١(*)، حاول الحاجّ أمين تنظيم فِرقة من الفلسطينيين الذين يعيشون في بغداد ليقاتلوا إلى جانب العراقيين. وقد ذهبت عناصر من هذه الفِرقة إلى «أبو غريب» لمواجهة القوّة الغازية، فوجدوا أن العراقيين كانوا قد انهاروا. ولذلك هرب الحاجّ أمين مرّة ثانية إلى إيران، حيث طلب اللجوء إلى أفغانستان. لكنه رفض اقتراح كابول بأن يجتاز الحدود ويهرب عبر تركيا إلى دول المحور في أوروبا، كخطوة سياسية نهائية. وهكذا صار الحاجّ أمين في نظر الفلسطينيّين رهينة للتاريخ، كرجل أجبرته وطنيّته على الالتجاء إلى الحليف الوحيد المتيسّر له. وكان هذا عملاً لا يُغتفر، في نظر الناجين من المحرقة اليهودية ـ فضلاً عن سائر اليهود في العالم.

وكان واصف كمال مُناصراً للحاجّ أمين في بغداد، وقد وجد لنفسه طريقاً توصله إلى ألمانيا النازية عبر حكم «فيشي» في سوريا، ومنها إلى تركيّا، وبلغاريا عام ١٩٤١. وصار عمره في منتصف التسعينيّات من القرن العشرين

(*) انظر الفصل الخامس.

الميلادي ٨٧ سنة، وأصبح الناجي الوحيد من مجتمع برلين أيّام الحرب المشتعلة. وقد قال لي عام ١٩٩٤: «إن معظم الفلسطينيين والعرب الذي كانوا في ألمانيا آنذاك تحلّقوا حول الحاجّ أمين ورشيد عالي الكيلاني الذي وصل أيضاً إلى برلين». ثم أردف:

«معظمهم فضّلوا المفتي الأكبر. وصرت أحد معاونيه الكبار في برلين، حيث قرّرنا إنشاء منظمة دعوناها «جمعية الطلّاب العرب في ألمانيا». وقد اعتُبر الحاجّ أمين رئيساً للدولة تقريباً من قِبل الحكومتيْن الإيطالية والألمانية. وحصل اتفاق تُقدِّم بموجبه دول المحور سُلفات مؤقّتة إلى الحاجّ أمين ورشيد عالي الكيلاني ـ تُدفع فيما بعد بواسطة الدول العربية التي ستتشكّل بعد انتصار المحور. فأُعطي الرجلان راتباً. أما أنا فقد عوملت كلاجئ؛ لكنّنا تلقّينا أربعة أضعاف الحِصص التي كانت تُعطى للمواطنين الألمان، وعاملونا معاملة حسنة. ولكن خابت كل الجهود التي بذلها الحاجّ أمين ورشيد عالي الكيلاني لإقناع «هتلر» و«موسوليني» بتوقيع معاهدة مع الزعماء العرب، تضمن نشوء دولة عربية مستقلّة، وتدمير «الوطن القومي» الصهيوني. وكل ما قالوه على الراديو العربي كان: نحن مع الشعب العربي، ومع حيازته الاستقلال. لكنهم لم يقبلوا بوضع اتفاقيّة أبداً».

وعندما قابل الحاجّ أمين هتلر أخيراً في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤١، حصل المفتي الأكبر على وعد شفهي من «الفوهرر» بأنه «عندما تصل ألمانيا إلى جنوبيّ القوقاز، يحين موعد تحرير العرب ـ ويمكنك الوثوق بكلمتي». وصرف الحاجّ أمين النظر عن أن كلمة هتلر تكون غالباً كاذبة؛ إنما سجّل كيف أن هتلر أكّد على حلّ المشكلة اليهودية «خطوة خطوة»، وكيف أن الحاجّ أمين سيكون زعيماً للعرب. لكنّ هتلر رفض الاعتراف باستقلال البلاد العربية علناً، لأن «موسوليني» لم يكن في مِزاج يُفضي إلى التخلّي عن مستعمرته ليبيا، فضلاً عن أسباب أخرى.

وقد تذكّر واصف كمال ما يلي:

«لم يحصل اتّفاق؛ ووجدنا أنفسنا مضطرّين للعمل مع المحور. وعندما بدأ «رومل» يُحرز انتصارات في ليبيا وشارف على دخول مصر، جاءنا الألمان معتقدين أنهم سينتصرون في الشرق الأوسط. فقارب هتلر وموسوليني الحاجّ أمين ورشيد قائلَين: «ستدخل جيوشنا قريباً مصر وكذلك العراق عبر القوقاز وستذهب يا رشيد مع جيوشنا من روسيا؛ بينما يذهب الحاجّ أمين مع الجيش الإيطالي عبر مصر إلى فلسطين». فاستدعانا الحاجّ أمين؛ وقال: «استعدّوا، واحصلوا على بزّات عسكرية، وتأهّبوا لدخول مصر معي». لكنني قلت له: «يا صاحب السماحة، كان للشريف حُسين (قائد التمرّد العربي الذي حصل عام ١٩١٦ ضدّ الأتراك) اتفاقية مع البريطانيين ـ وبالرغم من ذلك خدعنا البريطانيون وخانونا باتفاقية سايكس ـ بيكو السرّية التي عقدوها مع الفرنسيين. والآن ليس لدينا حتى اتفاقية مع هؤلاء الناس. فكيف نذهب، وليس لدينا شيء بأيدينا؟ إني لستُ ذاهباً، ولستُ داخلاً في هذه العملية». أما الحاجّ أمين فقد استعدّ ليذهب إلى مصر عبر ليبيا. ولكن بدأت دول المحور تخسر شيئاً فشيئاً».

وصار الحاجّ أمين يشتغل بحماس في آلة الدعاية للألمان. وسيجد العرب فيما بعد صعوبة كبرى وإحراجاً في تفسير هذه الأعمال. وفي كتابته لسيرة الحاج أمين كرّس تيسير جبارة ما لا يتعدّى أربع صفحات، تعاونه مع الألمان تحت عنوان: «المفتي في أوروبا»؛ حيث أعطى الحاجّ أمين الحقّ في التعاون من أجل إنقاذ وطنه الفلسطيني من براثن البريطانيين والمهاجرين اليهود، مثلما اضطرّ الصهيونيون إلى التعاون لإنقاذ الأرواح اليهودية. وقد بالغ الإسرائيليون أحياناً في تصوير تعاونه في سبيل إظهاره كمُجرم حرب. ويمكن الاحتجاج على ذلك على أساس أن المرء قد يتحالف مع الشيطان. وقد كرّر أمامي اثنان من رفاق الحاجّ أمين السابقين المثلَ السائر المكرور والمزعج القائل: «عدوّ عدوّي هو صديقي». وقد تحالف تشرشل حالاً مع أعتى الدكتاتوريين القتلة في القرن العشرين الميلادي، جوزف ستالين، محوّلاً «الشيطان» إلى «العمّ «جو»، حتى انهزمت ألمانيا. كما أنّ ميليشيا الكتائب اللبنانية التي تأسّست عام ١٩٣٦، بعدما استوحى قائدها انضباط «النازيّين الألمان»، تصرّفت كحليف لإسرائيل عام ١٩٨٢. وقد عمل أنور السادات كجاسوس لرومل، وصار فيما بعد حبيب الغرب ـ وإن لم يكن حبيب مصر ـ لإقامته سلاماً مع إسرائيل. ومن الصحيح أن هدف الحاجّ أمين الرئيسي كان كسب الاستقلال لفلسطين بعد أن ينتصر الألمان، ومنع استمرار هجرة اليهود إلى فلسطين في تلك الأثناء.

ولكنْ، وسط شرّ المحرقة لا يبدو من الممكن دعم موقف الحاجّ أمين. فهناك أيضاً في محفوظات خدمة المراقبة لهيئة الإذاعة البريطانية، مجموعة من التسجيلات لمحطّات الراديو النازيّ تُلقي ظلالاً قاتمة على أيّ مبادئ أخلاقية كان يدّعيها الحاجّ أمين. فها هو مثلاً، يخاطب الحشود في ذكرى يوم وعد «بلفور» في قاعة «اللوفتواف» ببرلين، بتاريخ ٢ تشرين الثاني/نوفمبر، قائلاً: «يعرف الألمان كيف يتخلّصون من اليهود... لقد حلُّوا المشكلة اليهودية، قطعاً». كما قال عبر راديو برلين بتاريخ أول آذار/مارس عام ١٩٤٤: «أيها العرب، هبّوا كرجل واحد وناضلوا من أجل حقوقكم المقدّسة. اقتلوا اليهود حيث تجدونهم. فهذا يُسرّ الله، والتاريخ، والدين». وبتاريخ ٢١ كانون الثاني/يناير من تلك السنة، زار الحاجّ أمين دولة «كرواتيا» الفاشيّة الضارية (Ante Pavelic's) ـ التي تشمل ما يُسمّى اليوم البوسنة ـ حيث خاطب مجنّدين مُسلمين بكلمات تتعارض والانفعالات التي عبّر عنها في مذكّراته بعد الحرب، إذ قال: «هناك تشابه كبير بين المبادئ الإسلامية والاشتراكية الوطنية، ولا سيّما بشأن توكيد الجهاد والزمالة... في فكرة النظام».

حتى أنه مثَّل دوراً في تخمير الكره بين البوسنيّين المسلمين من جهة والقوّة المتحزّبة التي يقودها الصرب لمحاربة الألمان في يوغوسلافيا؛ وهو الغضب الذي تفجّر من جديد عام ١٩٩٢. وقد سجّلت خدمة المراقبة لهيئة الإذاعة البريطانية بتاريخ ٢٦ أيار/مايو عام ١٩٤٤ كلاماً للحاجّ أمين يصف فيه «تيتو» كصديق لليهود و«خصم للنبيّ». وفي عام ١٩٤٣ تلقّى من «هنريك هملر»، مهندس المحرقة، برقية تذكّره «بأن الحزب الاشتراكي الوطني قد رسم على علمه «القضاء على اليهودية العالمية». إن حزبنا يتعاطف مع نضال العرب، ولا سيّما عرب فلسطين، ضدّ اليهودي الغريب الأجنبي». كما ذكر راديو برلين فيما بعد أن الحاجّ أمين «وصل إلى فرانكفورت لزيارة معهد الأبحاث الجارية حول المشكلة اليهودية.

فهل علم الحاجّ أمين بالمحرقة اليهودية؟ بحسب أكثر مَن كتبوا سيرة حياته بدقّة «زفي ألبيليغ» ـ الحاكم العسكري الإسرائيلي السابق لقطاع غزّة، المعروف باستقامته كمؤرّخ، حتى من قِبل مَن تبقّى من عائلة الحاجّ أمين ـ «لا بدّ أن تكون اتصالاته الوثيقة والمتكرّرة مع قادة الحزب النازيّ، قد أطلعته دون شكّ على المصير الذي كان ينتظر اليهود، الذين أسهمت جهوده في منع هجرتهم». وفي تمّوز/يوليو عام ١٩٤٣، عندما كانت مُعسكرات الإبادة شغّالة في بولونيا، كان الحاجّ أمين يشتكي، لوزير الخارجية الألماني، «جواشيم فون ريبنتروب» حول الهجرة اليهودية من أوروبا إلى فلسطين، كما يلي: «إذا كانت هناك أسباب تجعل نقلهم ضرورياً، فمن الجوهري والأفضل إرسالهم إلى بلدان أخرى، حيث يكونون تحت مراقبة ناشطة، مثل بولونيا مثلاً...». وقد كتب الحاجّ أمين قبل وفاته: «سدَّد الألمان حساباتهم مع اليهود قبل مجيئي إلى ألمانيا». وهو تصريح غير صحيح واقعياً وتاريخياً.

يصرّ واصف كمال على أن الحاجّ أمين لم يشجِّع على سحق اليهود. قال: «طبعاً، كان يسعى لوقف هجرة اليهود إلى فلسطين؛ ولكن لم تكن له علاقة مع سياسة الإبادة. وعندما كنتُ معه في برلين رأيتُ العديد من اليهود. وكانت العلامة الفارقة التي تميِّز الأجانب ربطة «أوست» (Ost) على ذراع الروس، ونجمة داوود على ثياب اليهود. وكانوا يتجوّلون. أعتقد أن مسألتهم كانت سرّاً، وما كان يحصل...» وقبل وفاة الحاجّ أمين بثلاثة أشهر قابل أبو إياد أحد ضبّاط عرفات في بيروت. وقد كتب أبو إياد عن ذلك:

> «اعتقد الحاجّ أمين أن قوى المِحْوَر قد تكسب الحرب، وتمنح إذ ذاك فلسطين الاستقلال... فقلت له إن مثل هذه الرؤى قائمة على حسابات ساذجة، لأن هتلر صنّف العرب في الدرجة ١٤ بعد اليهود ضمن التراتبيّة التي أقامها للأعراق. ولو ربحت ألمانيا الحرب، لفرضت على العرب الفلسطينيين نظاماً أقسى من النظام الذي عرفوه أثناء الحكم البريطاني».

أخبرتني عالية الحسيني حفيدة الحاجّ أمين كيف تكلّم جدّها في سنواته الأخيرة عن أهداف هتلر الحقيقية، بقولها: «قال إنّ دور العرب في الإبادة يأتي بعد اليهود ـ لقد عرف نيّة الألمان. ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل؟ وعليك أن تدرك أن الحاجّ أمين عاش في زمن كان فيه كلّ الناس ضدّه». وقد حاول رفعت النمر أحد مؤسّسي منظمة التحرير الفلسطينية، الذي صار فيما بعد أحد المصرفيّين البارزين في بيروت، دون جدوى أن يحصل على دعم الحاجّ أمين لتلك المنظمة بعد الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧. وقال: «لا أعتقد أنه أخطأ بعلاقته مع الهر هتلر». ففي عام ١٩١٦ كذب البريطانيون على العرب بشأن الاستقلال. وفي عام ١٩١٧ صدر وعد بلفور. فهل كان البريطانيون والأميركيون ليُعطوا الحاجّ أمين أيّ شيء لو لم يلتجئ إلى هتلر؟ ولكن النمر أقرّ بأن الحاجّ أمين «كان يكره اليهود لأنهم سلبوه وطنه».

وبينما كان الحلفاء يشدِّدون قبضتهم على ألمانيا، وجد واصف كمال والحاجّ أمين نفسيهما يتنقّلان بين أخطار مدينة برلين ومنتجعات شماليّ إيطاليا التي بقيت تحت سيطرة المحور. ويذكر كمال أنه كان واقفاً مع الحاجّ أمين

على مرجة أحد الفنادق بعد ظهر أحد الأيام، ينظران إلى السماء، ويريان «آلافاً وآلافاً» من قاذفات القنابل الأميركية والبريطانية تتجه نحو ألمانيا. بعد ذلك، عاد الحاجّ أمين إلى برلين، وسافر إلى «أوبرسالزبورغ» ثم طلب اللجوء إلى سويسرا المحايدة فُردّ طلبه، فاستسلم إلى الفرنسيين، الذين حبسوه فترة في باريس، قبل أن يدبّروا هربه على متن طائرة حربية أميركية إلى القاهرة، باسم مستعار، ومن دون معرفة الأميركيين.

وفي ثمانية أيام مثيرة عام ١٩٤٨، ساعد الحاجّ أمين في تشكيل حكومة لعموم فلسطين في غزّة، قبل انهيار الجيوش العربية وضمّ الضفّة الغربية إلى الأردنّ. كانت تلك حرب التحرير لإسرائيل، و«النكبة» للفلسطينيين ـ «الكارثة» التي أُخرج فيها ثلاثة أرباع مليون عربي فلسطيني من ديارهم، أو هربوا إلى منفى للاجئين لم يعودوا منه. قال أحد المُعجبين السابقين بالحاجّ أمين حبيب أبو فاضل: «كان على الحاجّ أمين أن يقبل مشروع التقسيم الذي طرحته الأمم المتحدة، بعد أن وافق عليه كثير من الدول، وعلى رأسها الروس. ولكنه لم يفكّر في المستقبل». لقد صرف الحاجّ حياته السياسية عبثاً. لقد تقرّب من الكولونيل ناصر الذي احتلّ جنوده غزّة، ثم كرهه ـ وكره فيما بعد الملك حسين ثم تقرّب منه، بعدما احتلّ جيشه الضفّة الغربية. وهكذا عاد الحاجّ أمين إلى منفاه الأخير في لبنان؛ حيث سكن في دارة بالجبل، يُزجي النصح ويروي الذكريات إلى الفلسطينيين الذين يأتون لرؤيته؛ رافضاً الانضمام إلى أيّة حركة سياسية، حتى لا يتقزّم بذلك.

وقد أراد شفيق الحوت تقوية نفوذ المفتي الأكبر بين اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، وحاول أن ينصح الشيخ عندما زاره في داره في المنصورية خلال أوائل الخمسينيّات، لكنه واجه الصدّ، ثم ضربه رجال الحاجّ أمين في بيروت. قال الحوت: «لقد كان مثل أولئك الأتباع العثمانيين المدجّنين. كان يتكلّم ببطء همساً، ويُصغي واعياً لنفسه خلال ٢٤ ساعة في اليوم؛ وكأنه على المسرح؛ لا تمكن مقاطعته. ولم تكن هناك نِكات...». لكنّ حفيدته عالية تتذكّره كرجل العائلة، الذي كان ينبّه والديها لتركها تضحك مع الأصدقاء خلال قيلولته بعد الظهر، «لأنه كان يعتبر ضحكنا نوعاً من الموسيقى».

وقد قضى الحاجّ أمين سنواته الأخيرة يستمع إلى أغاني المطربة المصرية أم كلثوم وإلى القسم العربي من هيئة الإذاعة البريطانية. وبعد نسيان الماضي، دعاه الحوت كضيف شرف إلى حفلة زواجه ـ من شابّة تدعى «بايان» ابنة أحد الرفاق الأوائل للحاجّ أمين، الذي سيكتب أطروحته للدكتوراه عن الحاجّ أمين. قالت بايان: «كانت رحلة الحاجّ أمين إلى ألمانيا غير صائبة. فقد كان بإمكانه أن يرسل مَن ينوب عنه لمفاوضة هتلر. كان يعتقد أنه مسؤول عن جميع المسلمين في العالم؛ إذ كان يشعر بمسؤولية إسلامية كبرى. وكان ينظر إليه البوسنيّون كزعيم كبير...».

وبعد سنتيْن من وفاته في عام ١٩٧٤، اقتحمت ميليشيا الكتائب اللبنانية دارته الفارغة، وسرقت ملفّاته ومذكّراته ـ وهناك إشاعة في بيروت تقول إنها بحوزة الإسرائيليين الآن ـ بينما انتقلت إلى ذلك البيت المتهدّم ١٥ عائلة من اللاجئين المسيحيّين. وكانت لا تزال هناك عندما زرته بعد عشرين سنة، ووجدت تحت غرفة مكتبه مرآباً

لتصليح السيّارات. وقد عامله آخر من كتب سيرة حياته معاملة أفضل من سابقيه. فقد كتب ألبيليغ (Elpeleg)، عن «خيبته الكبيرة»، كما ذكر «إنجازاته الكبرى للحركة الوطنية الفلسطينية».

وعندما مات بالسكتة القلبيّة، رفض الإسرائيليون طلباً لدفنه في القدس؛ وكان على الحوت أن يتدبّر أمر دفنه في بيروت. وقد دُهش لأن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية لم تهتمّ بذلك كحدث كبير، وكفصل تاريخي انتهى، ليُفتح فصل جديد. وقد طلب من عرفات أن يحضر المأتم. وأبّنه الحوت «كمجاهد» وكشهيد. ويذكر الحوت أنه نُسي أمره، بعدما تكاثر عدد الشهداء في الحرب اللبنانية.

ولكن لم ينسَ أمره آخرون. فحاولت عائلة الحُسيني المحافظة على الضريح؛ لكنّ ميليشيا «أمل» الشيعية ـ التي تنازعت في الحرب اللبنانية مع منظمة التحرير الفلسطينية في مخيّمات بيروت ـ اعتقدت أن هناك أسلحة فلسطينية مخبّأة في قبر الحاجّ أمين. فنزعت عنه غطاء الرخام لتجد المفتي الأكبر مسجًّى بكفنه الأبيض، دون سلاح.

إن الصراع العربي ـ الإسرائيلي، بدءاً من الوعود البريطانية المتضاربة الصادرة خلال حرب بيل فيسك، ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ الداعية في الوقت ذاته إلى استقلال البلاد العربية، وإلى دعم قيام وطن قومي يهودي في فلسطين ـ حتى تأسيس دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية، بعد المحرقة اليهودية والحرب العالمية الثانية، إن هذا الأمر هو ملحمة مأساوية انعكست نتائجها على العالم كلّه، ولا تزال تُسمِّم حياة المشاركين فيها فضلاً عن تسميم جميع السياسات والمحاولات العسكرية في الشرق الأوسط وفي العالم الإسلامي. وقد شكّلت رواية هذه الأحداث ـ من وجهة النظر العربية والإسرائيلية، ومن خلال تقارير وتعليقات الصحافيين والمؤرّخين المتحيِّزين منذ عام ١٩٤٨ ـ مكتبات ضخمة من المعلومات والتضليلات التي يتيه فيها القارئ ويُنهك. ومنذ عام ١٩٣٨، عندما كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني بقرار من عُصبة الأمم، كتب المؤرّخ البارز جورج أنطونيوس تحذيراً من أخطار كثرة الاعتماد على الأدبيّات الغزيرة التي كانت موجودة آنذاك؛ وكلامه لا يزال فاعلاً اليوم:

> «. . . يجب أن تُستخدم (تلك المعلومات) بحذر، بسبب ارتفاع نسبة الدعاية السافرة والمبطّنة فيها من جهة، ولأن نأي المراجع العربية اللازمة عسَّر الوصول إلى العدل الحقيقي، حتى في أعمال المؤرخين المحايدين المنفتحي العقول من جهة أخرى، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تيّار المعلومات اليومي. إن الدعاية الصهيونية ناشطة، ومنظمة تنظيماً دقيقاً، وواسعة الانتشار، على الأقلّ في الديمقراطيات الغربية. وهي تقود العديد من القنوات المعدّة لنشر الأخبار، وبخاصّة في العالم الناطق باللغة الإنكليزية. أما الدعاية العربية فهي بالمقارنة بدائية وغير ناجحة إلى حدٍّ كبير. فليس لدى العرب سوى القليل من المهارة، وإتقان مختلف اللغات، والموارد المالية، التي تجعل الدعاية اليهودية فعّالة جدّاً. وآلت النتيجة على مدى سنوات مديدة إلى أن ينظر العالم إلى فلسطين من خلال منظار صهيوني بالدرجة الأولى؛ كما اكتُسبت عادة التفكير بناء على المقدّمات الصهيونية».

لقد قضيت معظم السنوات الثلاثين الماضية من عمري وأنا أصنِّف الأحداث التي تتصل مباشرة أو غير مباشرة

بمعركة فلسطين، وبقلّة العدل والإنصاف التي لا تزال معلّقة دون حلٍّ، في ما يتّصل بالعرب واليهود على السواء، منذ عام ١٩٢٠، وحتى قبل ذلك. فالدعم البريطاني لأمّة عربية مستقلّة صدر عندما احتاجت بريطانيا إلى مشاركة القوى العربية في محاربة الأتراك؛ وصدر تصريح بلفور الذي يدعم قيام وطن قومي يهودي عندما كانت بريطانيا بحاجة إلى دعم يهودي ـ سياسياً وعلمياً ـ خلال الحرب العالمية الأولى. وكان لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا يتخيّل معتصماً بالمسرحية التوراتية التي تُمَثَّل في فلسطين، ويقول إنه يبغي القدس لعيد الميلاد عام ١٩١٧ ـ وقد حصل عليها، بهمّة الجنرال «ألّنبي» ـ وقد أشار في مذكّراته إلى «استيلاء الجيش البريطاني على أشهر مدينة في العالم، تلك المدينة التي صدّت جهود العالم المسيحي في قرون خلت لمعاودة استرداد مزاراتها المقدّسة». ولا بدّ أن يكون لويد جورج قد فكّر في حملة «ألّنبي» كخليفة للحملات الصليبية ـ من أجل «معاودة استرجاع» القدس من المسلمين ـ وكان هذا موضوعاً كبيراً ساد القرن العشرين الميلادي في تعامل الغرب مع الشرق الأوسط. وقد وجد صداه أيضاً في كلام جورج و. بوش عن «الصليبية» في الأعقاب المباشرة للجرائم الدولية التي ارتكبت ضدّ الإنسانية بتاريخ ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

ولم يُشر لويد جورج في مذكّراته إلى تصريح بلفور إلّا عندما ربطه بمبادرة ترمي إلى مكافأة العالم البارز حاييم وايزمان للعمل الذي قام به حول «الأسيتون»، العنصر الكيميائي الضروري لصنع متفجّرات «كوردايت»، وبالتالي لدعم الجهود الحربية البريطانية. لقد وضع لويد جورج اسم «وايزمان» مع اسم «نحميا» (Nehemia) في قصّة أبناء إسرائيل المُبهرة والموحية»؛ ذاك الذي كان مسؤولاً في القرن الخامس الميلادي عن معاودة بناء وتجديد القدس، وهي المُهمّة التي قام بها بعد الإفراج عنه كأسير لدى الملك الفارسي «أرتحشستا». ولكن، عندما كان يدوّن لويد جورج هذا الإطراء ـ عام ١٩٣٦ ـ كان في الوقت ذاته تقريباً يتكلّم بمزيد من الصراحة عن تصريح بلفور في مجلس العموم، خلال مناقشة التمرّد العربي، حيث قال:

> «لقد أعدّ السيد بلفور مسوّدة تصريحه خلال أحد أحلك ظروف الحرب. وفي ذلك الوقت كان الجيش الفرنسي يتمرّد؛ وكان الجيش الإيطالي على أُهبة الانهيار؛ وكانت أميركا عند بداية تحضير استعداداتها الجدّية. ولم يبقَ شيء يعوَّل عليه سوى بريطانيا التي تجابه التجمّع العسكري القوي الذي لم يشهد له العالم مثيلاً. وكان من المهمّ لنا التفتيش عن أيّة مساعدة شرعية نتمكّن من الحصول عليها. وقد توصّلت الحكومة من المعلومات التي تلقتها من أنحاء العالم كافّة، إلى نتيجة مفادها أن من الأمور الأساسية الواجبة علينا أن نكتسب تعاطف الحوزة اليهودية... ولكن من المؤكّد أنه لم يكن لدينا شيء ضدّ العرب؛ إذ كان لدينا في ذلك الوقت مئات الآلاف من الجنود الذين يحاربون لتحرير العرب من الأتراك. وفي مثل تلك الظروف، وبالنظر للنصائح التي تلقّتها الحكومة، قرّرت أن تظفر بتعاطف وتعاون تلك الحوزة الاستثنائية، حوزة اليهود، عبر العالم كلّه. لقد ساعدونا في أميركا إلى حدٍّ كبير، حتى أنهم نفعونا في روسيا في ذلك الوقت، لأن روسيا كانت على وشك أن تخرج وتتركنا وحدنا. وفي تلك الظروف اقترحنا هذا على حلفائنا؛ فقبلته فرنسا، وإيطاليا، والولايات المتحدة الأميركية... كما أن اليهود، بنفوذهم كلّه، استجابوا بنُبل لتلك المناشدة».

إن تمرّد الجيش الفرنسي وقرب انهياره على الجبهة الإيطالية متعلّق كما يبدو بالوعود التي تعطي اليهود «وطناً قومياً» أكثر من تعلّقه بـ «نحميا». ولكن العرب الآن باتوا يطالبون بوقف الهجرة اليهودية»، كما جاء في خطاب لويد جورج أمام مجلس العموم، إذ أردف قائلاً: «ولا يمكننا أن نقبل ذلك إلّا إذا نكثنا تعهّداتنا كما أن العرب يقولون إن الهجرة اليهودية تطردهم من أراضيهم. . .» لكن لويد جورج استوعب طبيعة المشكلة، ولو بقليل من الجدّية والرزانة، عندما قال:

«إن التزامات الانتداب محدَّدة ونهائية. لقد قضت علينا بأن نشجّع تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين دون أن نضرّ بحقوق الجماهير العربية. كان ذلك مشروعاً مزدوجاً؛ وعلينا تنفيذ الوجهيْن من مهمّة الانتداب».

ولكن لم يكن ممكناً تنفيذ جزأي المشروع؛ إذ تحوّل اضطهاد اليهود عام ١٩٣٦، الذي ذكره لويد جورج، إلى محرقة تفضي إلى إقامة دولة إسرائيلية في فلسطين، «مهما كانت حقوق جماهير العرب». وفي عام ١٩٣٨، كان المؤرّخ جورج أنطونيوس يقول بوضوح:

«لا يُمكن إقامة دولة يهودية على فلسطين، أي وطن قومي قائم على سيادة أرض، إلّا بإزاحة العرب بالقوّة. . .». لقد أراد أنطونيوس إقامة دولة عربية مستقلّة «تضمّ ما تستطيع من اليهود دون إضرار بحرّيتها السياسية والاقتصادية؛ بحيث يعيشون هؤلاء بسلام وكرامة، ويتمتّعون بحقوق المواطنين الكاملة». وخوفاً «من محرقة لا يمكن التنبّؤ بها تُصيب العرب واليهود والبريطانيين»، تجدر مساعدة يهود أوروبا ليستقرّوا في مكان آخر غير فلسطين، كما قال:

«إن المعاملة التي يلقاها اليهود في ألمانيا وغيرها من البلدان الأوروبية هي عار على الذين يقومون بها وعلى الحضارة الحديثة، ولكنّ الأجيال القادمة لن تعفي أيّ بلد يقصّر في القيام بحصّته من التضحيات اللازمة لتخفيف العذاب اليهودي وضائقته. وإن وضع الجزء الأكبر من هذا العبء على فلسطين العربية هو تهرّب بائس فاضح من الواجب الذي يقع على عاتق العالم المتمدّن بكامله. كما أنه شائن أخلاقياً بشكل لا يُحتمل. فليس هناك أي دستور أخلاقي يُبيح اضطهاد شعب ما في سبيل تلطيف اضطهاد شعب آخر. إن علاج طرد اليهود من ألمانيا لا يجدر أن يحصل على حساب طرد العرب من وطنهم، وإن تخفيف ضائقة اليهود يجب أن لا تتمّ على حساب فرض ضائقة موازية على شعب آخر بريء ومُسالم».

ومن المدهش أن تكون هذه الملاحظات ـ ذات البصيرة المستقبليّة في ما يختصّ بكارثة فلسطين التي حصلت خلال عقد من الزمان بعد ذلك ـ قد كتبت عام ١٩٣٨. مع العلم أن آخرين استطلعوا أيضاً قيام الكارثة المستقبليّة بعبارات كئيبة مماثلة. فقبل سنة واحدة، كتب ونستون تشرشل في معرض تفكيره المستقبلي عن استحالة تقسيم فلسطين، متنبّئاً بمثل ذلك بشكل أوفى، بقوله:

«إن الدولة اليهودية الغنية، المزدحمة، التقدّمية، تقع في السهول وعلى شاطئ بحر (فلسطين). وحولها في التلال والمرتفعات، التي تمتد على اتساع بعيد في الصحارى التي لا حدّ لها، قوم من عرب سوريا وشرقيّ الأردنّ والجزيرة العربية مدعومون من قِبل القوّات العراقية، سيهدّدونها دون انقطاع بالحرب... ولكي تحافظ الدولة اليهودية على وجودها يجب أن تكون مسلّحة تماماً حتى أسنانها، وينبغي أن تُلحق كلّ رجل قادر جسمياً بجيشها من أجل تقويته. ولكن كم سيُسمح لهذا الوضع بأن يستمرّ من قِبل العراق وفلسطين؟ هل يمكن أن نتوقّع أن يقف العرب جامدين، ويراقبوا تأسيس جيش يهودي مزوّد بأفتك أسلحة الحرب، وانتظاره حتى يقوى إلى درجة تنفي الخوف من العرب، عن طريق الرأسمال والمصادر اليهودية العالمية؟ وحتى لو وصل الجيش اليهودي إلى ذلك الحدّ، مَن يستطيع أن يؤكّد أن لا يعمد اليهود القابعون ضمن حدودهم الضيّقة إلى التوسّع ويُقحموا أنفسهم في الأراضي الجديدة غير المنمّاة التي تحيط بهم؟».

ووصل تشرشل إلى نتيجة تقول: «إني أجد من الصعب... أن أتفادى الوصول إلى نتيجة مفادها... أن مشروع (التقسيم) سيُفضي حتماً إلى أن تفريغ بريطانيا لفلسطين تفريغاً كاملاً». وهكذا صار.

وقد اعترف بذلك الجنرال جون باغوت غلوب المعروف، قائد الفيلق العربي منذ عام ١٩٣٩، إذ علّق على هذا الموضوع بشكل يثير المشاعر قائلاً:

«إن المأساة اليهودية ترجع في أصلها إلى ما قامت به الأمم الغربية في أوروبا وأميركا. وأخيراً، استفاق الضمير المسيحي. يجب أن تنتهي المأساة اليهودية الطويلة عبر القرون. ولكن عندما جاء وقت دفع التعويض تكفيراً على التقصير السابق، قرّرت الأمم المسيحيّة في أوروبا وأميركا أن تدفع الأمّة الإسلامية تلك الفاتورة».

لقد أراد المؤرّخ أنطونيوس إسكان اللاجئين اليهود في بلدان غير فلسطين ـ ونحن نعلم أن البريطانيين فكّروا في «أوغندا» ـ كما نعلم أن اللجان الصهيونية التي شُكّلت قبل الحرب كانت تفكّر في ترحيل عرب فلسطين ـ في معرض التطهير العِرقي ـ إلى منطقة الجزيرة في سوريا، من بين احتمالات أخرى. وهي الصحارى نفسها القائمة حول دير الزور وحلب حيث سيق «الأرمن البائسون ليقضوا نحبهم» منذ عشرين سنة. وفي هذا الجوّ من الارتياب، والاضطهاد، والمعاناة الشديدة الوطأة، شهد العرب واليهود الحرب العالمية الثانية تغمر أوروبا. وخاف العرب من أن تكرّس بريطانيا لليهود دولة في أراضيهم في نهاية المطاف، وراقب اليهود استئصال عِرقهم في أوروبا، حتى أن بريطانيا اعترضت سبيل بضع سفن تنقل اللاجئين اليهود إلى «أرض الميعاد». لقد كان هذا هو العالَم الذي رحل فيه المفتي الأكبر الحاجّ أمين إلى ألمانيا، لحثّ هتلر على وقف هجرة اليهود إلى فلسطين. ولكن بأي ثمن؟

وهنا صارت البوصلة الأخلاقية تدور بسرعة فائقة ـ فلماذا يجب على الفلسطينيين أن يتحمّلوا مصير الوعد الذي صدر عن بريطانيا في الحرب العالمية الأولى لشعبٍ عاش أجداده في تلك الأراضي منذ ألفي سنة؟ لماذا

على هذا الطوفان الجديد من اللاجئين المسلمين أن يدفع الثمن إذاً ـ مثل الأرمن ـ وأن يوصفوا بأنهم المعتدون، وأن الذين أخرجوهم من ديارهم هم الضحايا؟ وذلك لأنه في العقود الزمنية القادمة، سيكون الفلسطينيون هم «الإرهابيين»، والذين أخذوا أراضيهم هم الأبرياء، ممثلّين أمّة الفينيق الذي قام من رماد «أوشفيتز». فبنظر العالم ـ ولا سيّما في عام ١٩٤٨، في عالم تعب من أعباء الحرب، وعجّ بملايين اللاجئين الذين تدفّقوا على أوروبا ـ ماذا يعني وجود ٧٥٠ ٠٠٠ لاجئ فلسطيني إزاء إعدام ٦ ملايين يهودي؟

نحن اليوم في شهر نيسان/أبريل عام ٢٠٠٢، ذات صباح ربيعي مشمس في القدس الغربية، وأنا في شقّة صغيرة أنيقة حيث يعيش جوزف كلينمان وزوجته «هيا» فيما قد يبدو لنا أنه ضاحية دون أشجار ـ إذا كنّا لا نعرف مغزاها التاريخي. ويبدو كلينمان، الرجل الكريم اليد، مهتاجاً، يريد أن يخبرني عن أكثر الأيام سواداً في حياته؛ إذ كان يقفز من كرسيّه كالنمر، ويقول: «سأريك متحفي»، ويعدو نحو غرفة خلفيّة.

ثمّ يعود ومعه حقيبة ظهر، ويقول: «هذا هو القميص الذي أعطاني إيّاه الأميركيون، عندما حُرِّرت من «لاندزبرغ» في ٢٧ نيسان/أبريل عام ١٩٤٥». إنه قميص متجعّد رخيص ذو أشكال مربّعة، لا يمكن أن ترفأ رقعته. ثم يُخرج ثوباً خارجياً فضفاضاً مخطَّطاً بالأزرق والأبيض، وقبّعة مخطَّطة أيضاً بالشكل ذاته من الأمام إلى الوراء؛ ويقول: «هذه هي بِزَّتي الرسمية كأسير في «داشو». لقد كانت صدمة ليَ أن أمسك بهذا الرمز لإهلاك الناس، كما نعهده في كلّ فيلم إخباري صدر منذ عام ١٩٤٥، وفي «قائمة شندلر» وفي مئات أخرى من أفلام المحرقة اليهودية. وكان كلينمان يراقبني وأنا أمسك ذلك الثوب؛ مدركاً معنى تلك الصدمة. إني أفكّر أن الرجل كان في «داشو»؛ وأن هذا الثوب من إنتاج النازيّين. إن هذا الجزء من تاريخ الإبادة حقيقي، منقوع بالزحار، ومضمّخ بغاز السيانيد، وكلّ قطعة منه شهدت الوحشية والبربرية، على شاكلة العظام الأرمنية التي عثرتُ عليها مع «إيزابيل ألسن» وأخرجناها من الوحل السوري منذ عشر سنوات. وتظهر جلابيب معسكرات الاعتقال في الأفلام الإخبارية سوداء وبيضاء، ولكن القتل الحقيقي ليهود أوروبا نُفِّذ باللونين الأزرق والأبيض. وهما اللونان ذاتهما الباديان في العلم الإسرائيلي. وعلى وجه ذلك الجلباب ظهر الرقم ١١٤٩٨٦.

وعند مدخل قطاع الشقق حيث يسكن كلينمان، نشرات إعلانية تُذكّر المستأجرين بقرب الاحتفال بذكرى المحرقة. إن منطقة «غيفات شاوول» ضاحية مجاورة صدوقة ومشرقة يسكن فيها متقاعدون، وفيها دكاكين، وشقق، مع بعض المنازل القديمة الفخمة، بعضها متهدّم وبعضها الآخر مستخدم كبيوت. ومنها منزل أو اثنان ما زالا يحملان آثار الرصاص الذي أُطلق منذ زمن طويل، بتاريخ ٩ نيسان/أبريل ١٩٤٨، عندما جابه شعب آخر كارثته فغيفات شاوول هي دير ياسين. وهنا حصلت مذبحة دير ياسين حيث قُتل ١٣٠ فلسطينياً على يد اثنتين من الميليشيات اليهودية هما «أرغون زفاي ليومي» و«شترن غانغز»، عندما كان يهود فلسطين يقاتلون من أجل تأسيس دولة تُسمّى «إسرائيل». وقد أرعبت المذبحة عشرات الألوف من العرب الفلسطينيين إلى درجة جعلتهم يتركون بيوتهم ويهربون بأعداد كبيرة ـ كجزء من ثلاثة أرباع المليون من جماهير اللاجئين الفلسطينيين الذين شكّل خروجهم من فلسطين مشكلة تكمن في قلب الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني.

ففي عام ١٩٤٨، وحول المنازل التي لا تزال موجودة قرب منزل كلينمان مزّقت القذائف اليدوية التي أطلقها المحاربون اليهود النساء الفلسطينيات إرباً. وقد أُخذت من القرية حمولة شاحنتين من الأسرى العرب للطواف بها عبر شوارع القدس. كما أُرجع العديد منهم فيما بعد إلى دير ياسين، وأُعدموا، ويُعتقد أن قبرهم الجماعي موجود تحت مستودع المحروقات القائم الآن عند نهاية إحدى ضواحي القدس. وهكذا، تثير زيارة بيت كلينمان سؤالاً أخلاقياً غير اعتيادي. هل يمكن للمرء أن يصغي إلى شهادته الشخصية حول أكبر جريمة في التاريخ الحديث، ثم يسأل عن المذبحة التي قضت على الفلسطينيين في هذا المكان بالذات، بينما يبدو طرد العرب من فلسطين على فظاعته، لا يقارن إحصائياً أو أخلاقياً بقتل ٨ ملايين يهودي؟ وهل يعلم جوزف كلينمان أن سخرية التاريخ جعلت يوم المحرقة ويوم دير ياسين يقعان هذه السنة في التاريخ ذاته؟

ليس جوزف كلينمان شخصاً اعتيادياً بين الناجين من المحرقة اليهودية. لقد كان الناجي الأصغر سنّاً من «أوشفيتز»، وقد سُمعت شهادته في محاكمة أدولف إيخمان، رئيس «الشعبة اليهودية» في الاستخبارات الألمانية، الذي أشرف على البرنامج النازي لقتل يهود أوروبا. حتى أن جوزف كلينمان رأى الدكتور جوزف مانغيلي الذي كان يختار الأولاد والنساء والمسنّين والمرضى الذي يساقون إلى غرف الغاز. ففي الرابعة عشرة من عمره رأى يوماً مانغيلي يجيء على درّاجة، ويأمر صبيّاً بتثبيت لوحة من الخشب على عمود. وفي ما يلي جزء من شهادة كلينمان لدى محاكمة إيخمان.

> «لم يخبرونا عمّا سيحدث. لكننا علمنا: إن الصبيان الذين لا يستطيعون المرور تحت اللوحة يُصفح عنهم؛ وإن الذين لا تبلغ رؤوسهم اللوحة يرسلون إلى غرف الغاز. حاولنا جميعاً مطّ أنفسنا علوّاً، لنكون أطول؛ لكنني يئست. فسألني أخي: هل تريد أن تبقى على قيد الحياة؟ قلت: نعم. قال: إذن، افعل شيئاً. فرحت أفكّر، ووجدت بعض الحجارة، فوضعتها في حذائي، فصرت أطول. لكنني لم أستطع الوقوف عليها وقت التأهّب؛ لأنها كانت تقتلني ألماً».
>
> قام «شلومو» (أخو جوزف كلينمان) بتمزيق قبّعته شقّين ووضع «جوزف» قسماً منها في حذائه؛ إنما بقي قصيراً. لكنه اخترق المجموعة التي نجحت في الاختبار بينما سيق باقي الصبيان ـ الذين يبلغ مجموع أعدادهم ألفاً ـ إلى غرف الغاز. ويتذكّر كلينمان أن مانغيلي كان يختار أيام العطل اليهودية للقتل الجماعي المفروض على أولاد اليهود. وقد أُرسلت عائلة كلينمان المؤلّفة من «مائير» و«راشيل» وشقيقته مباشرة إلى غرف الغاز حالما وصلت إلى «أوشفيتز» من جبال «الكارپات»، في ما يُسمّى اليوم «أوكرانيا»؛ لكنه نجا شخصياً مع أخيه ـ الذي لا يزال نجّاراً مثل جوزف، ويعيش على بعد عدّة مئات من الأمتار عن منزل أخيه في ضاحية غيفات شاوول/ دير ياسين. كما نجا جوزف كلينمان من «داشو»، ومن العمل المرهق لبناء ملجأ ضخم تحت الأرض ليؤوي مصنعاً سرّياً لهتلر ينتج فيه الطائرة الحربية «وسرشميت» (Me 262).

بعد أن حرّر الأميركيون كلينمان، سلك طريقه إلى إيطاليا، حيث استقلّ قارباً صغيراً وضعه على متن باخرة

أوصلته إلى فلسطين، تلك الباخرة التي حملت مهاجرين يهوداً غير قانونيين يحاولون الدخول إلى أرض الانتداب البريطاني المتلاشي. ولم يكن بوسعه أن يحمل سوى بعض حوائجه؛ فاختار أن يضع بزّته في «داشو» ضمن الكيس ـ حتى لا ينسى ما حدث له. وبعد أن أعاده البريطانيون إلى قُبرص، قضى ستّة أشهر في مخيّم «فماغوستا»، ثم وصل أخيراً إلى مخيّم المهاجرين في عتليت بفلسطين. وانتقل إلى القدس بتاريخ ١٥ آذار/مارس عام ١٩٤٧، عندما اشتعلت حرب تأسيس دولة «إسرائيل». فاشترك في تلك الحرب ـ ولكن في غير دير ياسين. فقد ذكرتُ اسم دير ياسين عرضاً، وأومأ كلينمان وزوجته برأسيهما موافَقة على أنه لم يشترك في تلك المذبحة.

قال كلينمان: «لقد كُتبت أشياء غير صحيحة عن دير ياسين. كنتُ آنذاك في القدس، ورأيت حمولة الشاحنتين من الأسرى الذين أُخذوا من هنا. وتقول بعض التقارير أن العرب قُتلوا، وبعضها الآخر ينفي ذلك. لم يُقتل الجميع، فهذه دعاية. ولكنني لا أدري فقد قتل العرب أسراهم من اليهود. ولم يكن هناك قتال واسع النطاق يحمل العرب على المغادرة».

ولكن عندما رأى كلينمان العرب يغادرون، ألم يذكّره ذلك بحياته هو؟ ـ مهما كانت المقارنة مع الكارثة الدامية التي أصابت اليهود غير ملائمة عددياً. فكّر في هذا الأمر بُرهة، ثم قال إنه لم يرَ كثيراً من اللاجئين العرب. لكن زوجته «هيا» أجابت بقولها: «أعتقد أنه بعد ما حصل لجوزف من أهوال، صار كل شيء آخر في العالم أقلّ أهمّية. عليك أن تفهم أن جوزف عاش في ذلك الوقت، وقت «الشوا» (Shoah). فمن أصل ٢٩٠٠٠ يهودي استقدموا إلى «أوشفيتز»، مات ١٥٠٠٠».

ولكن هل ينحصر الأمر في مجرّد ضخامة إحدى الجرائم، ومقارنتها العددية بترحيل العرب عام ١٩٤٨؟ هناك جماعة من اليهود، والمسلمين، والمسيحيين قاموا ولا يزالون يقومون بحملات من أجل تذكّر دير ياسين ـ حتى الآن في ذروة حروب فلسطين الأخيرة. وكما وصفها أحد منظّمي هذه الحملات: «قد لا يرغب كثير من اليهود في النظر في هذا الأمر. لأنهم يخشون من تصغير مأساتهم. ولكن بالنسبة إلى الفلسطينيين، هناك دائماً خوف من أن تُستخدم حجّة المحرقة لتبرير البطش بهم». ويبدو أن عائلة كلينمان لا تعلم شيئاً عن إحياء ذكرى دير ياسين ـ ولا تدري عن خطط المنظّمة لإقامة نُصب تذكاريّ لموتى الفلسطينيين غير بعيد عن بيتهما، في ضاحية «غيفات شاوول» الحالية. ولم يتكلّم جوزف كلينمان عن حمّام الدم الذي لا يزال جارياً في إسرائيل وفلسطين، بينما كنا نتحادث. ولكنه يعترف أنه سياسياً من جماعة اليمين، وقد انتخب أرييل شارون في الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة؛ إذ قال: «وهل هناك من رجل آخر؟».

لكن تذكُّر جوزف كلينمان لدير ياسين غير كامل. فسجلّات الصليب الأحمر، ورسائل المراسلين الأجانب في ذلك الوقت توضح أن القرويّين الساكنين في دير ياسين أُعدموا، وأن بعض النساء بُقرت بطونهنّ. وفي كلّ أرجاء ذلك الجزء من فلسطين الانتداب الذي أصبح «إسرائيل»، حصلت مذابح صغيرة ـ بدأها أحياناً العرب، وغالباً المحاربون الإسرائيليون الذين حاولوا أن يصبحوا جيشاً إسرائيلياً ما دامت الحرب قائمة. وفي ما يلي قصّة صغيرة مأساوية تُعطي فكرة عمّا حدث خلال إخراج الفلسطينيين من ديارهم.

في عام ٢٠٠٠، كنتُ في قرية لبنانية جنوبية يغمرها المطر، أصابها الفقر وتدمّرت طرقاتها تُسمّى شبريحا. وكان فيها شخص يبلغ من العمر ٨٥ سنة يُسمّى نمر عون، كشف عن ساقه ليريني العضلات والأربطة الممزّقة حيث أصابته رصاصة إسرائيلية منذ ٥٢ عاماً. وقصّته قصّة خيانة مُزدوجة؛ فلم يقع ضحيّة للإسرائيليين فحسب، بل لقوّتَي الانتداب كلتيهما ـ البريطانية والفرنسية ـ اللتين كان المفروض بهما في أعقاب الحرب العالمية الأولى أن تحمياه. إنه من قرية اسمها صلحا ـ تقع الآن على بعد كيلومترين داخل إسرائيل على الجهة الأخرى من الحدود اللبنانية ـ وكان الناجي الأوحد من المذبحة التي ارتكبها الإسرائيليون بحقّ الرجال من القرويّين.

وقصّة «صلحا» والقرى الستّ الأخرى: «الناعمة، والزوق، وترشيحا، والخالصة، والكتيَّة، واللقاس» ترجع إلى عام ١٩٢٣، عندما كان البريطانيون يحكمون فلسطين، والفرنسيون يحكمون دولة لبنان الجديدة التي أُنشئت برعايتهم. واتفقت القوّتان الإمبرياليتان على تغيير خط الحدود قليلاً لصالحهما. فقرّرت باريس أن تتخلّى للندن عن أميال مربّعة قليلة من لبنان ـ فتوسّع الانتداب البريطاني قليلاً إلى الشمال ليستوعب القرى السبع المذكورة. وكانت هناك صفقة قذرة وراء هذا الاتفاق. فقد أظهرت السجلّات القديمة في بيروت أن تلك الأرض قد سُلِّمت لقاء اتفاقية عُقدت مع شركة فرنسية من أجل تجفيف مستنقعات في المنطقة للاستعمال التجاري. وقد سُمّيت في ذلك الزمن «اتفاقية حُسن الجوار» ـ ولكني رأيت أن لا أخبر نمر عون المسنّ بذلك ـ وبالتالي، قُضِيَ على كلّ قروي بالهلاك.

وهكذا، لم يعد نمر عون لبنانياً تحت الانتداب الفرنسي؛ بل صار فلسطينياً تحت الانتداب البريطاني ـ مع العلم أن السلطات لم تستشر في هذا الشأن عائلة عون أو غيرها. وعلى كل حال، ما زال عون يذكر البريطانيين بشغف. لقد كان مزارعاً؛ وتزوّج فتاة عمرها ١٣ سنة، ورُزق منها بتسعة أنجال يعيشون في حقول الذرة في قرية «صلحا». ولكنّ صوته بدأ يرتفع عندما وصل في روايته إلى عام ١٩٤٨. «عندما غادر البريطانيون، وجاء الجيش اليهودي إلى خارج القرية حيث ألقوا منشورات تقول إذا سلَّمنا أنفسنا نبقى بأمان. وكان أولادنا ونساؤنا قد هربوا. فصدّقناهم وسلَّمنا. لكنّ الإسرائيليين كذبوا. لقد شتمونا، وأوقفوا منا سبعين رجلاً معاً».

وما حصل بعد ذلك مُثبّت في المحفوظات الإسرائيلية. فقد كتب المؤرّخ الإسرائيلي «بني موريس» عن هجوم إسرائيلي يُدعى: «عملية حيرام»، حصل بعد مقاومة عربية بسيطة خارج قرية صلحا، إذ جرى تفجير منزل فيه ٩٤ قروياً بتاريخ ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٤٨. لكنّ قصّة عون حول هذا الأمر مختلفة، يدعم صدقها آثار الجراح البادية على جسمه؛ قال:

> «عندما وقفنا كلّنا معاً، فتحوا علينا النار. وكانت هناك ١٣ دبّابة حول المنطقة. لم يكن لدينا أمل. وقد ساعدني أني بعدما أُصِبتُ بساقي وقعت تحت رُكام من الجثث؛ وصار الرصاص يصيب رفاقي. لقد كنتُ أنزف بكثرة؛ ولم أشعر بشيء. وعندما حلّ الليل سحبت نفسي، وزحفت وراء إحدى الدبّابات ثم عبر الحشيش العالي، حتى وجدت حماراً».

رفع نمر عون جسمه بمشقّة حتى صار على ظهر الحمار، وسار به متألّماً إلى بلدة «مارون» اللبنانية، حيث حصل على عناية طبّية. وقد منع أحد موظفي الحكومة الأطبّاء من بتر ساقه، مما جعله لا يزال قادراً على أن يعرج حول منزله في «شبريحا»، الواقعة على بعد ٤٠ كيلومتراً من موقع كان يُسمّى قرية «صلحا» اللبنانية، حيث لا يرتفع هناك سوى بناء واحد؛ أما بقيّة الأرض فصارت كلّها بساتين للبرتقال.

وحتى عام ١٩٩٨، عومل نمر عون مع غيره من الناجين القلائل القادمين من «القرى السبع» عام ١٩٤٨، كفلسطينيين، مع وجود وثائق فلسطينية معهم. ثم قامت الحكومة اللبنانية بمنحهم الجنسية اللبنانية ـ لتكسب بذلك حسنات سياسية. وقد أراني عون تذكرة هويّته اللبنانية، والأرزة اللبنانية قرب صورته على جوازه اللبناني. لقد بدأ حياته كمواطن في الإمبراطورية العثمانية، وصار لبنانياً تحت الانتداب الفرنسي، وانقلب إلى فلسطيني تحت الانتداب البريطاني، وأمسى لاجئاً فلسطينياً في لبنان قادماً من إسرائيل، وفي آخر حياته عاد لبنانياً من جديد.

وتبدو ملفّاتي حول السنوات الأخيرة للانتداب الإنكليزي في فلسطين زاخرة برسائل قُدامى الجيش البريطاني، ومقابلات مع محاربين يهود وعرب، مع قُصاصات معاصرة من الجرائد. إنها قصّة فوضى وألم، و«هجمات إرهابية» ـ بحسب تعبير إسرائيل ـ وتفجيرات، قامت بها منظّمات يهودية مثل «الهاغانا» و«أرغون» و«شترن غانغز». وهناك نشرة بريطانية رسمية من عام ١٩٤٦، يمكن أن تُقرأ كتقرير عن التمرّد العراقي في سنته الأولى ضدّ الاحتلال الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣: هجمات على الطرقات وعلى جسور السكك الحديدية، وخطف للضبّاط البريطانيين، ومحطات إذاعة سرّية تبثّ دعاية للمتمرّدين. وقد بدأ راديو «كول إسرائيل» البثّ يوم ١٨ حزيران/يونيو عام ١٩٤٦. وجاء في التقرير: «إن تفجير الجسور عبَّر عن معنويات وشجاعة المحاربين اليهود الذين قاموا به».

وقد أثارت غارات الجيش البريطاني غير المنظّمة ـ الموجّهة ضدّ العرب واليهود ـ عمليات انتقام قاسية. فقد حدث تفجير مقرّ القيادة البريطانية في فندق الملك داوود بواسطة منظمة «أرغون» اليهودية بتاريخ ٢٢ تموز/يوليو ١٩٤٦، وقُتل ٩١ موظفاً من الموظفين المدنيين البريطانيين، واليهود، والعرب. وكان ذلك أكثر الهجمات سوءاً بين التي مُنيت بها قوّات الاحتلال البريطانية. وقد فتحت القوّات البريطانية النار على مدنيين في شوارع تلّ أبيب. وبعد أن شنق البريطانيون ثلاثة من محاربي «أرغون» اليهود، شنقت «أرغون» بالمقابل رهينتيْن من الجيش البريطاني؛ وحدثت هجمات معادية للساميّة عبر بريطانيا. وقد قضى الرقيبان في الاستخبارات البريطانية «مرفين بايس» و«كليفورد مارتن» أياماً في مخبأ تحت الأرض في بلدة «ناتانيا»، بينما كانت «أرغون» تهدّد بإعدامهما. وكتب والد «بايس» رسالة استرحامية إلى قائد «أرغون» مناحيم بيغن، الذي صار فيما بعد رئيساً لوزراء إسرائيل، والذي أمر بالغزو الوحشي للبنان عام ١٩٨٢ ـ كما سيفعل أقرباء الرهائن الغربيين مُناشدين الخاطفين العراقيين عاميْ ٢٠٠٣ و٢٠٠٤. ولديّ نسخة من قرار «محكمة أرغون زفاي ليومي في فلسطين» الذي أُلصق على صدرَي الرجليْن بعد إعدامهما. والقرار يقول إن «المحكمة وجدت أن «بايس» و«مارتن» مذنبيْن أوّلاً بدخولهما إلى وطننا؛ وثانياً لانتمائهما إلى «المنظمة الإرهابية البريطانية المجرمة» المعروفة باسم «القوّات العسكرية البريطانية

المحتلّة»... وقد نُفّذ الحكم بتاريخ ٣٠ تموز/يوليو ١٩٤٧. وكان شنق الجاسوسيْن... عملاً قانونياً عادياً للمحكمة السرّية التي أدانت وستدين المجرمين الذين ينتمون إلى «جيش الاحتلال النازي ـ البريطاني».

وقد أُرفق بهذه الوثيقة تقرير من الشرطة البريطانية في فلسطين حول العثور على جثّتي الرقيبيْن في أيكة من شجر «الأوكاليبتوس»:

«لقد كانا معلّقيْن ومتدلّييْن من شجرتيْ «أوكاليبتوس»، على بُعد خمس ياردات أحدهما عن الآخر. وكان وجهاهما ملفوفيْن بالضمادات بحيث يتعذّر تبيّن ملامحهما... وجسداهما بلون قاتم باهت. والدم قد سال على صدريهما، وكأنّما أُطلقت عليهما النار... وقد سُمح للصحافة بأن تصوّر المشهد. بعد ذلك تقرّر إنزال الجثّتيْن. فقام المهندس الملكي النقيب بقطع الأغصان التي تحمل الجثّة الواقعة إلى اليمين، وبدأ بقطع الحبل بمنشار... وحالما وقعت الجثّة على الأرض دوّى انفجار كبير... فقد اقتُلعت الشجرتان من جذورهما، وبدت تحت الجذور فجوتان كبيرتان. ووجِدت إحدى الجثّتين بالغة التشويه على بعد عشرين ياردة... بينما مُزّقت الجثّة الأخرى شرّ تمزيق إلى قطع صغيرة وجِد بعضها على بعد ٢٠ ياردة».

وقد نشرت «أرغون» كرّاسات بلغة إنكليزية ضعيفة، تحثُّ فيها الجنود البريطانيين على الرحيل، لأنهم إذا لبثوا في فلسطين فسيعرّضون حياتهم للخطر يومياً؛ كي يتسنّى للحكومة البريطانية مهلة عشر سنوات كي تقرّر الانسحاب من فلسطين. وقد خالف البريطانيون العديد من قواعد الحرب. ووصف أحد أفراد الشرطة البريطانية كيف كانوا يسافرون على خط السكّة الحديدية من اللّدّ: «كان لدينا عادة في المقدّمة حافلة لنظّار العمّال ومعهم بعض السجناء ـ كي تنفجر بهم الألغام المبثوثة على طول الطريق».

هناك سخرية كبرى في كلّ هذا. فقد جاءت إسرائيل إلى الوجود، بعد حرب عصابات ضدّ استعمار جيش الاحتلال؛ ولكن خلال خمسين سنة، ها هو الجيش الإسرائيلي يصير جيش احتلال ويجابه أيضاً حرب عصابات تقليدية ضدّ الاستعمار في الضفّة الغربيّة وغزّة. ولكن هذا الترابط بين الأمرين غير وارد لدى الحكومة الإسرائيلية. وبتاريخ ٦ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤٤، اغتال مسلّحون يهود اللورد «مويْني» الوزير البريطاني المقيم في القاهرة، الذي كان وزيراً سابقاً للمستعمرات وصديقاً حميماً لتشرشل، وكان يدعم مشروع تقسيم فلسطين. وقد أقلق الفلسطينيين اليهود طلبُه من السلطات التركية ردّ السفينة «ستروما» التي كانت تحمل لاجئين يهوداً من المحرقة(*). وجاء على لسانه بعض الملاحظات العِرقية ضدّ اليهود؛ ولكن قلّما تجد من لا يوافقه على أن «العرب الذين عاشوا ودفنوا أجدادهم على مدى عشرين جيلاً في فلسطين، لن يرضخوا طواعية ويسلّموا أرضهم وحكمهم الذاتي لليهود».

(*) بعد رفض مرور تلك السفينة عبر «البوسفور» بوقت قصير، انفجرت وغرق من ركّابها ٧٦٧ شخصاً.

وقد حدا مصرع «مويني» بتشرشل إلى التفكير التالي: «إذا تبخّرت أحلامنا الداعمة للصهيونية في دُخان مسدّسات القتلة، وإذا كانت جهودنا لمستقبلها ستُحدث موجة جديدة من اللصوصيّة تليق بالنازيّين الألمان، فهناك أناس عديدون مثلي ينبغي عليهم أن يُعيدوا النظر في الموقف الذي حافظنا عليه بثبات لوقت طويل». ومع ذلك، فقد أُقيم للقاتليَن «إلياهو حكيم» و«إلياهو بن زوري» عام ١٩٧٥ مأتم رسميّ لضمّهما إلى حضن دولة إسرائيل، حضره رئيس الوزراء، ومأتم عسكريّ حضره نائب رئيس الوزراء وحاخامان رئيسان. وقد سأل ابن «موِيْني» ضابط «الهاغانا» السابق «دايفيد هاكوهين»: «لماذا قتل شعبكم والدي؟... ففي النهاية قُسّمت فلسطين، وأنتم الآن تقيمون دولتكم على أساس هذا التقسيم؛ ومع ذلك لم يُقتل أحد منكم لأنه قبل التقسيم».

إن مسألة تكريم القتلة لأنهم من جماعتكم، وإدانة قتلة الجانب الآخر على أنهم «إرهابيون»، هي مسألة تدخل في صميم الصراعات الحديثة. وكذلك فإن حرب عام ١٩٤٨ كانت نذيراً استثنائياً لحدوث حروب أخرى نشبت فيما بعد في الشرق الأوسط ـ تلك الأحداث التي نعتبرها أسباباً للأخطار الحاليّة، لكنها تتجلّى بوضوح بصفتها ملامح صراع قائم في المنطقة منذ زمن يفوق تصوّرنا.

وفي عام ١٩٩٧ قرّرت جماعة من الفلسطينيّين الإنسانيّين في سكوتلاندا الاحتفال بالذكرى الخمسين لقرار الأمم المتّحدة بتقسيم فلسطين، وانتهاء الانتداب البريطاني، وحرب تأسيس دولة إسرائيل، والنكبة الفلسطينية. وذلك عن طريق إصدار نشرات عن أحداث فلسطين اليومية عام ١٩٤٨، مأخوذة في معظمها من صفحات جريدة «السكوتسمان» ـ ذلك المشروع الذي أورث نتائج تخريبية. وفي ما يلي على سبيل المثال، رسالة من «مراسل خاصّ وصل حديثاً من الشرق الأوسط»، نُشرت في تلك الجريدة بتاريخ ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٤٨:

> «ظهر خطر جديد على القانون والنظام في الشرق الأوسط، قادم من قِبل شباب عرب متحمّسين يشكّلون جماعات إرهابية غير منظّمة، يكرهون الأجانب؛ وقد أقسموا على أن يخلّصوا بلادهم من جميع الغربيين، وبخاصّة طبعاً البريطانيين والأميركيين. وقد تلقّى أوروبيون قاطنون في دمشق، وبغداد، والقاهرة ـ وهم تجار نفط في الغالب ـ تهديدات صريحة بأنهم إذا أبقوا على علاقات تجارية مع اليهود، فسيقتلون.... والعمود الفقري لهذه الجماعات عرب فلسطينيون. فقد رأوا بلادهم تُستباح... وخسروا كل شيء كانوا يمتلكونه؛ بيوتهم، وممتلكاتهم، وأموالهم، ووظائفهم، وليس لديهم شيء آخر يخسرونه. وهم يشعرون أن البريطانيين والأميركيين قد خدعوهم؛ وكذلك الأُمم المتّحدة، وإلى حدّ ما البلدان العربية. ويدركون أن هناك الآن خطراً كبيراً يتمثل في أن يحصل اليهود على الاعتراف والدعم القانوني، وهم يملكون في الوقت الحاضر أحسن جزء من البلاد...».

وكذلك، ألقى «باتريك و. دونافان» ضوءاً مقلقاً آخر على المستقبل في مقال له ظهر في جريدة «السكوتسمان» بتاريخ ١٤ تموز/يوليو ١٩٤٨:

> «إن حرب تأسيس إسرائيل بدأت كحرب بسيطة للبقاء على قيد الحياة ـ أو هكذا شعر اليهود، كما

يبدو. وكانت الإحصاءات العامّة معروفة غيباً من قِبل كل ولد لوّحته الشمس ـ فكان هناك ٧٠٠ ألف يهودي إزاء ٣٠ مليون عربي، مع توافر الدعم البريطاني لليهود. وكانت كل مستوطنة يهودية تبقى على قيد الحياة بعد أي هجوم عليها، تعتبر ذلك نصراً مؤكّداً. . . لكنّ العرب برهنوا على قلّة فعاليّتهم. وقد هُزئ بقبول اليهود الاستمرار بالهدنة (وليس هناك من فرق حول صحّة الموافقة إذ إنّ العرب كانوا سيرفضونها أوّلاً). وهكذا، تحرّر اليهود من أي وجوب لضبط النفس. وفي حال خابت جهود الكونت برنادوت(*)، عندئذ يخوض اليهود الحرب بصراحة على أساس الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي العربية، وإبقاء معظمها في حوزتهم، لأنها ستكون خالية من العرب ومحتلّة من قِبل اليهود. . .

ففي حيفا. . . أقاموا للعرب حيّاً وضيعاً، فيه أربع شوارع حقيرة معزولة، مثلما كانت حال اليهود في «كراكاو» خلال القرون الوسطى. وفي هذا الحيّ يتعيّن على العرب من مسيحيّين ومسلمين أن يعيشوا ويناموا تحت الحراسة. ويمكن لرجال الأعمال العرب أن يطلبوا الحصول على بطاقات مرور، إذا أرادوا أن يخرجوا من تلك القوقعة أثناء النهار. . . ويبدو من العسير تخيّل شعب مقهور وخائف أكثر من العرب في إسرائيل. . .»

ومع أن نزع ملكيّة العرب الفلسطينيين يبدو غالباً أمراً يُكتشف من جديد في تاريخ الشرق الأوسط ـ على الأقلّ إلى أن تمكّن المؤرّخون الجُدد، أمثال «بني موريس» من الاطّلاع على محفوظات الحكومة الإسرائيلية لتلك الفترة ـ فقد أوردت الصحافة البريطانية مقالات عن «النكبة» بتفصيلات مصوّرة بيانياً. ففي ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر مثلاً، كتب مراسل «التايمز» من «بيرشيبا» (بئر سبع) يقول:

«لقد هُجّرت القرى العربية، ونُهبت بيوتها البائسة، وحُرق بعضها. والسكّان المقدّر عددهم بعشرين ألف شخص ـ العدد الذي ابتلعه عدد اللاجئين الكبير من الشمال ـ هربوا، ولا يعرف أحد أو يهتمّ كما يبدو أين ذهبوا. ومن الواضح أنهم هربوا مرعوبين، تاركين وراءهم معاطفهم، وأثوابهم المصنوعة من جلد الغنم، وحراماتهم الضرورية لهم إذا كانوا سيبقون على قيد الحياة في الليالي الباردة على تلال الخليل. . . وفي «بيرشيبا» ذاتها، التي كانت مركزاً مزدهراً لبيع الجمال، لم يبقَ سوى القليل من السكّان. ويقوم الآن بعض الأفراد من الجيش الإسرائيلي بنهب منظّم لتلك البيوت التي بقيت سالمة بعد التفجيرات. وربّما كان من تقاليد الحروب القديمة والضمنية أن يتنعّم الجنود الغازين على حساب المغلوبين. ولكن من الصعب إيجاد عُذر للبعض الذين يهزأون بالدين الإسلامي ويدنّسون مساجده. . . بتمزيق كتبه المقدّسة ونثرها على الأرض. . . إن هذا المشهد يُحبط عزيمة الذين لاحظوا العناية التي بذلها الجيش الإسرائيلي للحفاظ على قُدسية الأماكن المقدّسة المسيحية في مواقع أخرى، وأولئك

(*) وقد نظم الكونت فولكي برنادوت، وسيط الأمم المتحدة، عدّة هدنات. وفي ١٧ أيلول/سبتمبر عام ١٩٤٨، اغتالته في القدس منظمة «شترن غانغز» اليهودية، لأنها اعتبرته عميلاً بريطانياً. وكان أحد الرجال الذين أقرّوا باغتيال إسحاق شامير، أحد رؤساء الوزراء المستقبليّين.

المراسلين الذين زاروا اليوم مقبرة الحرب الملكية خارج البلدة. فبالرغم من الصعوبات التي عملوا في ظلّها، قام الوكلاء العرب في آخر لحظة بواجبهم في رعاية قبور البريطانيين والأُستراليين من الجنود الذين ماتوا هنا عام ١٩١٧؛ ولا تزال الورود البريطانية تزهر في رمال الصحراء».

لم يكن التدنيس والقتل مقصورَيْن على طرف واحد من أطراف الحرب. فعندما استولى الإسرائيليون على القدس الشرقية عام ١٩٦٧، لاحظوا أن الجنود الأردنيّين استعملوا شواهد القبور اليهودية لأرض الحمّامات. كما أن نصب الكمائن والقتل أصابا العديد من المدنيين اليهود. وقد رافقت تقدّم الإسرائيليين في قرى الجليل مذابح؛ وأحياناً اغتصابات للنساء العربيات الشابّات؛ كما أثبت ذلك البحثُ المعاصر في إسرائيل. ولكن، إذا كان المؤرّخون الإسرائيليون قد أثبتوا حقيقة هذا الأمر، فقد بقي المؤرّخون العرب صامتين حول ما يمكن أن تكون جماعتهم قد ارتكبته في هذه الحرب وسائر الحروب.

وفي كتابي عن الحرب اللبنانية، كتبتُ مطوّلاً عن نزع ملكيّة الفلسطينيّين عام ١٩٤٨، وما تلا ذلك من إخلاء أولئك الفلسطينيين الخائفين لبيوتهم، وهجرة ٧٥٠ ٠٠٠ لاجئ فلسطيني، فضلاً عن الملايين من أبنائهم وأحفادهم، الذين يتلفون في مخيّمات الفقر والبؤس في لبنان، وسوريا، والأردنّ، وفي الضفّة الغربية المحتلّة وسوريا(*). ونظراً إلى العذاب الذي يقاسونه، أصبحت الكتابة عن الفلسطينيين ونقل أخبارهم مسألة عسيرة، ولا سيّما بخصوص قيادتهم السياسية الميؤوس منها، والتضحية بهم والاحتيال عليهم ـ وبخاصّة عندما يتناسى النافذون أن الفلسطينيين هم الضحايا، ويجعلونهم معتدين أمام العالم، كما تفعل إسرائيل بقوّتها الجامحة، وفيما بعد الولايات المتّحدة الأميركية الأكثر هيمنة ـ ناهيك بمحاولاتهم المشجية، والشجاعة، والصلبة لكسب عطف العالم. كل ذلك يجعل الكتابة عنهم خبرة صحافية كئيبة. فكلّما كتبنا عن طردهم من بلادهم خفّ تأثير هذه الكتابة، وزاد سوء معاملتنا كصحافيين.

فحرب السويس ذات الأيام الستة عام ١٩٥٦ ـ وعدم تبصُّر عبد الناصر بقبول تحدّي الجيش الإسرائيلي القوي ـ وصراع الشرق الأوسط عام ١٩٧٣، وغزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، كلّ ذلك سحق الفلسطينيين، بطريقة غير مباشرة، وكذلك بطريقة مباشرة. ففي عام ١٩٦٧، وقعت الضفّة الغربية وقطاع غزّة تحت الاحتلال الإسرائيلي، بحيث توصّلت إسرائيل أخيراً إلى بسط سيطرتها على كامل أراضي الانتداب البريطاني الفلسطينية، فلسطين التي وعد بلفور اليهود بإعطائهم وطناً قومياً فيها ـ مع العلم أن بلفور لم يحدّد مقدار مساحة الدولة اليهودية في فلسطين، فلنتذكرْ ذلك. كما تبيَّن أن أصدقاء فلسطين العرب كانوا بائسين في مطامحهم العسكرية مثلما كانوا في مطامحهم السياسية. فمحاربة العرب بشواذاتهم، وقلّة استعداداتهم، جعلت الجيوش العربية تنثني أمام ما لدى إسرائيل من قوّة ناريّة، وحِيَل قاسية، ومعنويات أفضل. وهي مميّزات يضاف إليها ما يفهمه كل إسرائيلي من

(*) أنظر: ويلات وطن، Pity the Nation: The Abduction of Lebanon, بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، عام ٢٠٠٥ .N.Y.: Nation Books, 2002, especially p.p.12-47; 161-400

أنه لا يستطيع أن يخسر حرباً واحدة. وكان نجاح الجيش المصري المبدئي عام ١٩٧٣ ـ لا تُصدَّق أخباره بشأن استيلائه على خط بارليف وجنوده ـ قد ضاع بسبب التردّد العسكري المصري. ولكن «حزب الله» اللبناني أثبت أن إسرائيل يمكن أن تُغلب ـ وهو الحزب المدعوم من قبل إيران وسوريا. فانسحاب إسرائيل عام ٢٠٠٠ من المنطقة التي احتلّتها في لبنان وتفكيك سجن التعذيب الإسرائيلي في بلدة الخيام، يبقيان من الأحداث العسكرية الهامّة في الحرب العربية الإسرائيلية ـ مع أن الإسرائيليين الخاسرين لم يعتبروها خسارة، وأن الأميركيين أصدقاء الإسرائيليين، رفضوا أن يتعلّموا الدروس.

وعلى مدى هذه السنوات الطويلة، كانت هناك ظاهرة بارزة لا تتغيّر واقعيّاً، حافظت على توازن القوى في الشرق الأوسط: ألا وهي دعم إسرائيل الثابت، غير الناقد، والإلزامي غالباً. فقد أصبح «أمن» إسرائيل ـ أو الافتقاد المفترض لأمنها ـ هو مقياس كل المفاوضات، وكل التهديدات الحربية، وكل الحروب. فالظلم الذي فُرض على الفلسطينيين، ونزع أملاكهم وطردهم، وإخضاعهم للمجازر، وخسارة الجزء الأكبر من فلسطين لبناء دولة إسرائيل ـ والاعتراف بها دولياً ـ فضلاً عن احتلال إسرائيل لما تبقّى من أراضي فلسطين إبّان الانتداب البريطاني، والقمع الدموي لأي مظهر من مظاهر المقاومة الفلسطينية؛ كل ذلك يأتي في الدرجة الثانية بعد أمن إسرائيل، وما تمثّله من قِيَم متحضّرة وديمقراطية يُروَّج لها باستمرار. وجيشها الذي تصرّف غالباً بقسوة وقلّة انضباط، اعتُبر نموذجاً «لطهارة السلاح»، وكلّنا من الذين شهدوا قتل إسرائيل للمدنيين، وأُسيئت معاملتنا ووصِفنا بأننا كذّابون ومعادون للساميّة، أو أصدقاء «للإرهاب».

إن الإبلاغ عن الإسراف في استخدام العنف من قِبل الفلسطينيين ـ كخطف الطائرات، ومهاجمة المستوطنات اليهودية غير الشرعية، والتفجيرات الانتحارية ضدّ الأبرياء، بينما الجاني يلفّ المتفجّرات على جسمه ـ كل ذلك «إرهاب» نقيّ وبسيط، ينذر بالخطر، ويُعزل بسهولة عن التعقّل، والقضية، والتاريخ. وما دام الفلسطينيون يُتّهمون بارتكاب جرائم لأنهم يكرهون إسرائيل أو اليهود، أو لأنهم ضدّ الساميّة (بالرغم من أنهم ساميّون)، أو يمثلون «الشرّ» ـ وما دام الأميركيون يعودون فيما بعد إلى استخدام هذه الأوصاف والتفسيرات ضدّ أعدائهم العرب ـ فإن الفلسطينيين يُعتبرون خارج نطاق العقل والمعقول. لا يمكن التكلّم معهم، أو مفاوضتهم؛ إذ لا يمكن «التفاوض مع إرهابيين».

و«الإرهاب» كلمة صارت وباء على مُفرداتنا، وأصبحت عُذراً، وحُجّةً، ورخصة أخلاقية للقيام بعنف الدولة ـ عنفنا ـ الذي يُستخدم الآن للإيقاع بالأبرياء في الشرق الأوسط، بشكل شائن ومفضوح. الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب. لقد صار نقطة توقّف، وأداة ترقيم، وعبارة وخطاباً، وعِظة، وكيان كل شيء، ونهاية كل شيء لكل شيء، والمفهوم الذي يجب أن نكرهه من أجل التنكّر للظلم، والاحتلال، والقتل على مستوى جماهيري. الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب. إنه لحن موسيقي، سمفونية، أوركسترا تُعرض على كل محطّة تلفزيون وراديو، وتقرير من وكالات الأخبار. إنه المسرح اليومي للشيطان، يُقدّم في أوقات الذروة، أو يُصفّى بشكل مُمِلّ وكذوب في تقارير «المعلّقين» الأميركيين على الشاطئ الشرقي من الولايات الأميركية المتحدة، أو في «الجيروزالم بوست»، أو لدى مثقّفي أوروبا. فلنضرب الإرهاب. والانتصار على الإرهاب. والحرب على الإرهاب. والحرب

المستديمة على الإرهاب. قلّما حدث في التاريخ البشري أن انحاز الجنود، والصحافيون، ورؤساء الجمهوريات، والملوك بهذا الشكل إلى عدم التفكير وعدم المساءلة. ففي عام ١٩١٤، اعتقد الجنود أنهم عائدون إلى ديارهم في عيد الميلاد. وما زلنا حتى اليوم نحارب إلى الأبد. الحرب أبدية. والعدوّ أبدي، لكنّ وجهه يتغيّر على شاشاتنا. فمرّة يعيش في القاهرة، ويبدي شارباً، ويؤمّم قناة السويس. ثم يعيش في طرابلس الغرب، ويلبس ثوباً عسكرياً غريباً، ويساعد جيش التحرير الإيرلندي، ويفجّر حانات الأميركيين في برلين. ثم يلبس ثوب إمام مُسلم ويشرب لبن الزبادي في طهران، ويخطّط لثورة إسلاميّة. ثم يرتدي ثوباً أبيض ويعيش في كهف بأفغانستان. ثم يُظهر شارباً غريباً آخر، ويقيم في سلسلة من القصور حول بغداد. الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب. وأخيراً، يعتمر الكوفية، ويلبس زيّاً عسكرياً للسخرة على شاكلة السوفيات، ويحمل اسم ياسر عرفات، ويصبح سيّد الإرهاب العالمي، ورجل دولة عظيماً، وسيّد الإرهاب من جديد، ويرتبط بحسب تقدير أعدائه الإسرائيليين براعي الإرهاب سيدهم، الذي يعيش في كهف بأفغانستان.

هنا يتمثّل كل ما هو شرعي وكل ما هو تاعس بشأن الحُلم الفلسطيني. لديّ تسجيل على شريط لعرفات، وهو جالس معي على تلّ بارد قاتم خارج مرفأ طرابلس الشمالي في لبنان عام ١٩٨٣، حيث كان الرجل «الختيار» ـ كانوا يسمونه «الختيار» قبل أن يصبح مُسنّاً ـ تحت الحصار الذي ضربه عليه الجيش السوري، أحد «الإخوان» العرب، بدلاً من الإسرائيليين. والأسوأ من ذلك أن السوريين استدرجوا بعض الفلسطينيين لينضمّوا إليهم في الحصار. ولم يكن قد مضى عام على حصار منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت لمدّة ٨٨ يوماً من قِبل الجيش الإسرائيلي، الذي كان يقوده وزير الدفاع أرييل شارون. والآن يعود حظّ عرفات إلى الانهيار. والتسجيل يهسهس، بصوت القذائف التي تسقط ويُكتم صوتها على جانب التلّة. وها أنا أستمع إلى التسجيل وصوت الريح حول المذياع:

عرفات: لن أبتعد عن المحاربين معي من أجل الحريّة، وهم يجابهون الموت، وخطر الموت... واجبي أن أكون مع هؤلاء المحاربين من أجل الحريّة، مع ضبّاطي وجنودي.

فيسك: منذ عام مضى، تحادثنا في بيروت الغربية. والآن نحن على رأس تلّة تلفّها الريح خارج طرابلس، على بعد ٥٠ ميلاً من حدود إسرائيل أو فلسطين، وهناك متمرّدون داخل «فتح».

عرفات: أترى؟ هذا إثبات آخر على أننا جوزة لا يسهل كسرها. آمل أنك لا تزال تتذكّر ما قاله شارون عند بدء غزوه. لقد كان يحلم بأن يصفّي أو يسحق منظمة التحرير الفلسطينية خلال ثلاثة أو خمسة أيام، ويقضي على شعبنا ومحاربينا المجاهدين من أجل الحريّة. وها نحن الآن لا نزال صامدين. مرّ علينا حصار بيروت، ومعارك جنوبي لبنان، هذه الأعجوبة التي صمدنا فيها ٨٨ يوماً كأطول حرب بين العرب والإسرائيليين. ثم جاءتنا حرب الإنهاك ضدّ الجيش الإسرائيلي. ولسنا وحدنا نحن الفلسطينيين ـ قطعاً ـ بل نحن وحلفاؤنا اللبنانيون الذين يسهمون معنا في حرب الإنهاك. وإني معتزّ جدّاً بهذا الحلف الشجاع.

فيسك: على بعد خمسين مِيلاً من فلسطين؟!

عرفات: وما الفرق بين خمسين ميلاً وخمسين ألف ميل؟ إن متراً واحداً خارج حدود فلسطين، يجعلني بعيداً جدّاً عنها.

فيسك: أعتقد أن «السرطاوي»(*) هو الذي قال مرّة أنك إذا ثابرت على إحراز الانتصارات على شاكلة انتصار بيروت في العام الماضي، فإنك ستعقد اجتماع العام التالي للمجلس الوطني الفلسطيني في «فيجي».

عرفات: أرجوك. أرجوك. لا تعطني هذا المثل.. إنه من أشجع شهدائنا؛ إنه شهيد شجاع؛ لكنه كان متأثراً... ولم يستطع التغيير...

لقد كان عرفات حالماً. وهي صفة ملازمة للفلسطينيين الذين ليس لديهم سوى الأحلام يعطونها لشعبهم. ولو كان المطلوب منه التسوية، لتكلّم مع الإسرائيليين، وأشار إلى قبوله بتقسيم فلسطين، حيث يقول: «سأقبل ولو إنشاً مُربّعاً من أرضي»؛ إذ لم تكن النسبة الجغرافية من مشاغله الكبرى. ولكن عندما يُحرج الفلسطينيين ـ والعالم ـ أحد أتباع منظمة التحرير الفلسطينية الغرباء، بقتله أحد الأبرياء، يتدخّل عرفات لمنع تفاقم المأساة، واكتساب احترام مستمدّ من الجرائم التي ترتكبها منظّمته. وقد تجلّى ذلك بوضوح عام ١٩٨٥ في رحلة الباخرة التطوافية «أشيل لورو» الإيطالية، حيث انبرى أربعة أعضاء أعمارهم دون العشرين، من جبهة التحرير الفلسطينية، وهي جماعة صغيرة منشقّة عن منظمة التحرير الفلسطينية، رئيسها محمد زيدان (أبو العباس)، ليسيروا بالسفينة إلى شاطئ حيفا، ويحتجزوا رهائن إسرائيليين، ويطلبوا الإفراج عن سجناء فلسطينيين في سجون إسرائيل.

ولكنّ بعض أفراد طاقم السفينة اكتشفوا أمرهم قبل الوصول إلى إسرائيل، فقام المسلّحون وسيطروا على السفينة، ووضعوا ركّابها البالغ عددهم ٤٧٦ شخصاً والطاقم المؤلّف من ٨٠ شخصاً تحت رحمتهم؛ كما قتلوا بدم بارد العجوز المتقاعد المقعد اليهودي «ليون كلينغوفر» البالغ من العمر ٦٩ سنة، ورموه في البحر ـ وهو لا يزال في مقعده النقّال ـ قرب الشاطئ السوري. وهُرع عرفات بالطائرة إلى القاهرة دون أن يدري بعملية القتل، ليمارس دوره كقائد إنساني، وأمر الخاطفين أن يجيئوا بالسفينة «أشيل لورو» إلى مصر. وقد سردت تقارير الجرائد من بورسعيد ـ بما فيها تقريري إلى «التايمز» اللندنية ـ كيف أن عرفات «مثّل دوراً رئيسيّاً في إيجاد حلّ سلمي لأزمة شغلت الولايات المتحدة، وسوريا، ومصر. وما إن وصلت السفينة المشعشعة مثل شجرة عيد الميلاد تحت ضوء القمر إلى قناة السويس قبل الفجر، حتى عرفنا كلّنا ما حدث.

(*) عصام السرطاوي، الموظف في منظمة التحرير الفلسطينية، وجرّاح القلب الذي نصح عرفات بمفاوضة المعتدلين الإسرائيليين. قُتل في البرتغال في نيسان/أبريل عام ١٩٨٣ ـ قبل محادثتي مع عرفات بشهرين تقريباً ـ على يد مسلّحين من جماعة «أبو نضال» والمجلس الثوري لفتح. وقد تمّ ادّعاء المسؤولية عن ذلك في «قلب العروبة النابض»: سوريا، التي تحاصر الآن عرفات.

كان السفير الأميركي في القاهرة «نيكولاس فيليوتس» يتكلّم بانفعال أمام دبلوماسيّيه عن «أولاد الحرام» الذين قتلوا «كلينغوفر» بينما كان نور الفجر يظهر السفينة الكبيرة وهي تتبع زورقاً صغيراً للمراقبة كي ترسو عند مكتب شركة قناة السويس المزخرف بالجصّ. وعندما بدا السفراء الأجانب الآخرون خارجين من السفينة بعدما تفقّدوا رعاياهم بين الركّاب، تبيّنت معالم القصّة كلّها. قال السفير النمساوي فرانز بوغان: «كان الرجل الأميركي على ظهر السفينة في كرسيّه، ولا أدري لماذا. وكان الوقت ليلاً. وأخبرني القبطان أنه عندما سمع الطلقات، انحنى على جانب الجسر ورأى ثياب أحد الإرهابيين ملطّخة بالدم».

ثم أشرقت الشمس عبر القناة، وأظهرت بُقعة قاتمة تبدو كبقيّة طِلاء على جانب السفينة تحت الجناح (أ). لقد كانت من دم «ليون كلينغوفر» المتناثر عندما دفعوه من السطح إلى البحر. وقامت السلطات المصرية بترحيل الخاطفين مع أبي العبّاس في طائرة «بوينغ» مصرية، أقلعت من مطار عسكري قرب القاهرة إلى تونس حيث قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. لكنّ الأميركيين بدورهم خطفوا تلك الطائرة وأجبروها على النزول في أحد مطارات حلف الأطلسي في إيطاليا. وقد سمّى الرئيس مبارك ذلك غاضباً: «قرصنة جوّية»؛ وتبيّن أنها من مغامرات المقدّم «أوليفر نورث» المحكوم عليها بالإخفاق. وهناك منع الجنود الإيطاليون المسلّحون، وهم شاهرو السلاح، القوّات الأميركية من اعتقال الفلسطينيين. وأُرسل أبو العباس إلى يوغوسلافيا. وصارت قصّته الباقية مُلغزة كما كانت مُميتة. فبعدما عفا عنه الإسرائيليون شكلاً، سُمح له بالرجوع إلى غزّة بعد اتفاق «أوسلو» عام ١٩٨٣، كأحد رجال الدولة الصغار ـ لكنه وُجد في بغداد بعد عشر سنوات، حيث قبضت عليه القوّات الأميركية التي ادّعت أنها ألقت القبض على «أحد الإرهابيين الكبار». وأقرّ الأميركيون بعد أشهر دون أي اعتذار، أنه مات «بأسباب طبيعية» تحت رعايتهم في العراق.

وبعد أقلّ من ثلاث سنوات على حادثة «أشيل لورو» الفاشلة، ظهر ياسر عرفات في «ستراسبورغ» ليخطب في الأعضاء الاشتراكيين ضمن البرلمان الأوروبي. وكانت الجريدة اليومية المحلية تسأله ـ مثلما يسأل المتظاهرون في الخارج ـ متى ينوي عرفات أن يتخلّى عن الإرهاب؟ ـ كما لو كان «الإرهاب» شكوى صحّية، مثل الإدمان على الكحول. وممّا كان هامّاً في هذا الأمر أن الصحيفة ذاتها عادت بعد ٢٤ ساعة إلى التكلّم عن انتصار عرفات. وبدلاً من التشهير به لدى زيارته إلى «ستراسبورغ» جعلوه مُستأسداً. وقد دعا إلى السلام مع إسرائيل. وحيًّا يهود إسرائيل بمناسبة بداية السنة اليهودية ـ وباللغة العبرية ـ لقد أراد إقامة دولة في الضفّة الغربيّة وفي غزّة ـ وكان ذلك للذكرى، في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨؛ فقد ظنّ أن إطلالته بصفته «إرهابيّاً سابقاً»، تساعد قضيّته.

وفيما بعد سنحت لي الفرصة لأن أحشر عرفات بسؤال ـ وكان يرمقني بعينَي ذئب ـ إذ سألته عمّا إذا كان أيّ لاجئ فلسطيني يُسمح له بأن يعيش في دولة الضفّة الغربية، أي واحد من الملايين الخمسة الذين جاءت عائلاتهم أصلاً من ذلك الجزء من فلسطين المسمّى اليوم إسرائيل، فلم يرتحْ للسؤال؛ وقال بضعف: «كلّ فلسطيني يحقّ له جواز سفر». أجل، ولكن هل يستطيع أن يعيش في الدولة الفلسطينية الجديدة؟ فأجاب عرفات:

«يمكن أن يُقبر هناك، على الأقلّ». وكان جواباً غير موفّق، كما شعر بذلك معاونوه فوراً؛ وحاول الذين كانوا على يساره مقاطعته بالكلام، لكنّ عرفات عاد وكرّر القول ذاته.

ولكن هل يستطيع أيّ فلسطيني أن يذهب إلى فلسطين ليعيش هناك؟ هذا هو السؤال الذي كرّرته بدوري. فلا بدّ أن يكون الفلسطينيون راغبين في أن يعيشوا في فلسطين، لا أن يموتوا هناك. فماذا تفيدهم أرض الوطن، إذا لم يتمكّنوا من أن يلمسوها إلّا في القبر؟ فهل يمكن للشتات الفلسطيني أن يعود ويعيش في دولة الضفّة الغربية؟ بعد أن كرّرتُ ذلك للمرّة الرابعة، حصلت غمغمة بين مساعديه، ثم أجابني متهلّلاً: «يحقّ ذلك له قطعاً». وكان ذلك جواباً صحيحاً وخاطئاً في الوقت ذاته. إنه جواب صحيح لأنّ من حقّ كل فلسطيني أن يعيش في بلاده، وخاطئ لأن عرفات لن يسمح لملايين الشتات الفلسطيني بأن يدخلوا الضفّة الغربية. فيصبح سكّان فلسطين في هذه الحال أكثر من سكّان إسرائيل ـ مما لا يسمح به الإسرائيليون، ولا يقدر عليه عرفات. وفي كانون الأول/ ديسمبر، كان عرفات قد قبل بتقسيم فلسطين. ولكن لم يقدّم هذه الصيغة أمام اللجنة الخاصّة للأمم المتحدة في جنيف. فأمام هذه الهيئة المهيبة ولا سيّما بالنسبة إلى الأميركيين ـ قبِل وجود إسرائيل. وفي خطابه للأمم المتحدة، وفي مؤتمره الصحفي بعد ذلك تخلّى فعلاً عن فكرة العودة إلى حدود الانتداب البريطاني. فتلك الأرض التي آلت الآن إلى إسرائيل، ستبقى لإسرائيل بالرغم من وجود ثلاثة أرباع المليون من الفلسطينيين اللاجئين الذين غادروا بيوتهم هناك.

ثم جاء خطأ عرفات التقليدي الذي يميّزه: دعمه لصدّام حسين بعد غزوه للكويت عام ١٩٩٠. فقد كان ذلك قراراً اتّخذه في حالة انفعال وليس في حالة تعقّل. فصدّام حسين بطل الحرب الإيرانية ـ العراقية، الذي أوقف القبائل الفارسية، والذي لم يخف من ضرب إسرائيل بالصواريخ: أليس شريكاً مقدَّراً في تأسيس الدولة الفلسطينية؟ قد يتساءل المؤرّخون العرب يوماً عمّا إذا كان أجدر بزعمائهم أن يستعملوا انفعالاتهم أقلّ من استعمالهم لعقلهم، عندما يقرّرون مصير شعبهم. وقد انحرف الزعماء الغربيون وغيّروا اتجاهاتهم كثيراً بين هذين القُطبيْن، فقد قدّموا ببرود خططهم الاستعمارية عند انهيار الدولة العثمانية، أجروا حسابات قاسية بقسوة عندما خطّطوا لغزو السويس، وكانوا واقعيين عندما قرّروا تحرير الكويت، ومأسورين بالسياسة والشعور بالإثم لدى دعمهم إسرائيل، وانفعاليين إلى درجة الجنون عند غزوهم للعراق. لقد كان عرفات تحت سيطرة الانفعال. كان يمثّل شعباً فلسطينياً سليب الأرض ومحتلّاً لأكثر من أربعة عقود، ومع ذلك كانت صورة هذا الشعب في أميركا ـ وفي وسائل التواصل الجماهيري بعامّة ـ شعباً خطِراً، «إرهابياً» لا مُبالياً، يشكّل تهديداً للشعب الآخر الذي استولى على بيوت الفلسطينيين وأملاكهم، واحتلّ كل شبر من أراضيهم بكاملها منذ عام ١٩٦٧.

ولكنّ خطأ عرفات الأكبر، أي دعمه لصدّام حسين، أعطاه انتصاراً كبيراً وفارغاً جدّاً. فقد قطعت عنه بلدان الخليج الغنية ولا سيّما الكويت ـ المعونة المالية؛ وسخر منه العالم؛ فشاطر الملك حسين ملك الأردنّ مصيره: لقد صار ضعيفاً إلى درجة لم تعد تقبل به إسرائيل كشريك لإقامة السلام. وأوّلاً لم يعد يُسمح للفلسطينيين بأن يمثّلوا أنفسهم. فقد سمح الرئيس جورج بوش الأب للفلسطينيين بحضور مؤتمر مدريد حول الشرق الأوسط كجزء

من الوفد الأردني الذي لم يُدعَ عرفات إلى المشاركة فيه. ولكن في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩١، اجتمع العرب والإسرائيليون ـ الذين كانوا برئاسة إسحق شامير، مع كثير من الممانعة ـ في العاصمة الأسبانية تحت رعاية النظام العالمي الجديد لبوش؛ دون أن تكون لدى أيّ منهم رغبة في تدبير الأمر.

وكانت يد جورج بوش الأب هي القاطعة في اتخاذ القرارات في سلام الشرق الأوسط إذ قال: «دعوهم يضعوا حلاّ... لسنا هنا كي نفرض حلاّ». ها هو الرئيس الأميركي قبل ٢٤ ساعة من دخوله المبنى الأثري من القرن الرابع عشر «بالاشيو ريل» الذي سيعقد فيه المؤتمر، وهو مبتهج جذلان بتسليمه المسؤولية المستقبلية إلى الشعوب التي تقطن المنطقة التي سمّاها بوش ذاته تكراراً «الزاوية المضطربة من العالم».

ومَن يريد أن يراجع التاريخ طبعاً يتذكّر قصراً آخر ومؤتمراً آخر للسلام، حيث قام المنتصرون بتوزيع أسلاب المهزومين على أنفسهم. فقصر «بالاشيو ريل» في مدريد ليس قصر «فرساي»؛ ولكن كانت هناك تشابهات واضحة متوازية بينهما. وكان ميخائيل غورباتشيف حاضراً أيضاً هناك، ذلك «الخاسر» في الحرب الباردة؛ تلك الشخصية الباسمة المطاوعة، التي توافق برزانة على كل ملاحظات الرئيس الأميركي. لقد كانت المناقشة تدور في هذا الصرح «البوربوني»، حول مستقبل حلفاء غورباتشيف العرب السابقين.

لا يستطيع أحد أن يجادل بشأن الفرق في الحجم والنطاق. فقد حضر مؤتمر باريس حول السلام عام ١٩١٩ أكثر من عشرة آلاف موفد. وكان لأرمينيا، أكثر الضحايا دماً مسفوحاً، أربعون وفداً مستقلاّ. وقد دعم الملك فيصل، ملك العراق، القضيّة الصهيونيّة ـ وكان الصهيونيّون يريدون لأنفسهم أمّة تمتدّ أراضيها عُمقاً في ما يُسمّى اليوم الجنوب اللبناني. وفي مدريد، بعد مرور سبعين سنة، كان عدد الموفدين قليلاً، والنظّارة أكبر. فقد وصل إلى مدريد ستّة آلاف صحافي وعضو في فريق تلفزيوني؛ وأكثرهم لن يروا السادة: بوش، وغورباتشيف، ووجهاء الشرق الأوسط شخصياً. بل سيجلسون في خُمّ القاعة الكبرى، ويراقبون صنّاع السلام على شاشات تلفزيون عملاقة، وهو معادل فقير بالنسبة إلى الصورة الأخيرة التي رسمها «وليم أوربن» للويد جورج وكليمنصو في قاعة المرايا بقصر فرساي.

وقد تمثّلت بلدان الشرق الأوسط على الأقلّ في مدريد. فمن باريس، أُخذ فيصل ليَطوف في أرض المعارك التي جرت في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨؛ ثم خُدِع من قِبل البريطانيين والفرنسيين. وكان على الصهيونيين أن ينتظروا ٢٩ عاماً كي يُنفّذ وعد «بلفور». لكنّ ويدرو ويلسون اعتصم بنقاطه التي يبلغ عددها ١٤ ما دام في باريس. وفي مدريد لاحظ الدبلوماسيون الأميركيون رفض جورج بوش التعليق على قراريْ مجلس الأمن في الأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨، اللذين يطلبان من إسرائيل الانسحاب من أراض عربية محتلّة، واللذين كانا بالنسبة إلى العرب حجر الزاوية في كل معاهدة سلام. ولم يتكلّم بوش عن «مبادلة الأرض بالسلام»، وكذلك كان موقف المطيع ميخائيل غورباتشيف. والرجل الذي أرسل عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ نصف مليون جندي لتطبيق قرار مجلس الأمن ـ الذي طلب من جيش آخر في الشرق الأوسط، جيش العراق، أن ينسحب من أرض عربية أخرى محتلّة، أرض الكويت ـ

شعر بأنه يستطيع أن يطرد قتامة التاريخ، إذ قال جورج بوش: لا أريد أن أعود إلى أعوام الفروقات(*). وبالنسبة إلى الأميركيين، كان الحاضر هو المستقبل؛ وبالنسبة إلى العرب والإسرائيليين، كان الحاضر أيضاً هو الماضي. لقد كانوا هم، وليس الأميركيون، الذين ذكّروا بأن اليهود والمسلمين كانوا يعيشون بسلام في أسبانيا. وقد بُنيَ قصر «بالاشيو ريل» على أساسات قلعة بناها العرب للدفاع عن طليطلة.

وعلى الأقلّ اتفقت جميع الوفود في مدريد حول «الّله». فقد ناشد الرئيس بوش الله تعالى في بدء المؤتمر، وطلب منه المساعدة. ومدح شامير رئيس وزراء إسرائيل «اليهودية لأنها أشاعت الاعتقاد بإله واحد». وذكّر «أبو جابر» وزير خارجية الأردن المؤتمر «بأن الله خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا». وبسمل حيدر عبد الشافي «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ وصلّى فارس بويز وزير خارجية لبنان قائلاً «ليسدِّدْ الله خطانا ويهدينا». وهكذا، كان الله الشخصية الوحيدة التي نالت الاتفاق والشهادة الصحّية النظيفة في بدء مؤتمر مدريد حول السلام.

لكن اللغة الإنكليزية التي اختار أن يتكلّم بها معظم المؤتمرين لم تكن كذلك. ولو كانت الشعارات والرواسم الشكلية تؤول إلى السلام لوقف الاقتتال في الشرق الأوسط. فالسعي من أجل السلام «لا يلين» (شامير)، و«إن قيود الكره» يجب أن تزول (أبو جابر)؛ وإن هناك «ضوءاً في آخر النفق» (عبد الشافي)؛ وثمّة «فجر جديد» (فاروق الشرع، وزير خارجية سوريا) سيبزغ من «ليل الظلام الطويل» (أبو جابر أيضاً). وكانت الاستشهادات فرجاً وارتياحاً: من القرآن الكريم، وألبرت أينشتاين، والنبي قزحيا وياسر عرفات، ومارك توين، والفيلسوف اليهودي «يهودا هلڤي»، والشاعر الفلسطيني محمود درويش؛ وقد تم الاستشهاد بأقوالهم جميعاً من قِبل الموفدين الملائمين. واستشهد شامير بمؤلّف «هاكلبيري فين» لإثبات أن فلسطين كانت برّية قبل وجود إسرائيل، وشِعْر درويش لشرح أن الوطن الفلسطيني لم يعد يتمثّل بحقيبة لاجئ. وقد لوّح الحاضرون بالمُثل العُليا النبيلة كالسكاكين: «الحقوق الإنسانية»، و«الحرية»، و«العدل»، و«السلام»، و«الوفاق» و«وحدة كلّ أمّة من الأمم»، و«الشرعيّة الدولية».

(*) إن قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الصادر بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧، الذي أكد على «عدم جواز حيازة الأرض بالحرب»، طلب: «انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراض محتلة في النزاع الحديث»، و«إنهاء كل المطالب أو الأوضاع الحربية، واحترام الاعتراف بالسيادة، وسلامة الأراضي، والاستقلال السياسي لكل دولة، وحقّها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها». وهذا الجزء الأخير يشير ضمناً إلى اعتراف العرب بحق إسرائيل في الوجود. ولكن إسرائيل التي باتت تحتلّ الضفّة الغربية وغزّة، كرّرت دعواها بأن طلب الأمم المتحدة منها الانسحاب استعمَل كلمة «أراضٍ» دون ال التعريف ـ وبالتالي عنى أنه ليس على إسرائيل أن تنسحب من جميع الأراضي التي احتلّتها عام ١٩٦٧. ومن غير المعقول أن يكون الذين صاغوا القرار ٢٤٢ قصدوا أن تعطى إسرائيل حق انتخاب واختيار أيّ جزء تتركه من الأرض التي احتلتها، وأيّ جزء تحتفظ به. ثم إن ادّعاء إسرائيل بأنه يُسمح لها بأن تحتفظ بأراضٍ عربية لأن حرب ١٩٦٧ كانت عملاً عدوانياً من قبل العرب، وأن تلك الأراضي احتُلّت أثناء حرب دفاعية، هذا الادّعاء تقوّض بتأكيد قرار الأمم المتحدة على «عدم جواز حيازة الأرض بالحرب». ولا يزال الإسرائيليون والعرب يتجادلون حول معاني هذا القرار القصير الصياغة.

ويبدو في بعض الأحيان أن درجات العذاب بدلاً من الشرعية يُفترض بها أن تعطي السلام. فقد ذكّر شامير بطرد اليهود (وليس المسلمين) من إسبانيا، وبالمحرقة اليهودية. واعترف العرب بخطايا ألمانيا النازيّة، ولكنهم سألوا لماذا يجب عليهم أن يدفعوا الثمن. وكان هاجس عبد الشافي تهجير الفلسطينيين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧؛ ومأساة الاحتلال. وذكّر بويز بالحرب الأهلية في لبنان التي دامت ١٦ سنة، والغزو الإسرائيلي المزدوج للبنان. وكان هناك نوع من التوازن في الحذف. فشامير أراد أن يعرف لماذا يتجاهل العرب قرار الأمم المتحدة الرقم ١٨١ الذي أعلن وجود دولة إسرائيل(*)؛ بينما طلب أبو جابر من إسرائيل التقيّد بالقرار ٢٤٢. وبدت تحت مستوى بلاغة الكلام قلقلة أخرى. فالعرب يريدون استرداد أرضهم والسلام مع إسرائيل، والإسرائيليون يريدون السلام مع الاحتفاظ ببعض الأرض. قال شامير إن الكلام عن الأراضي هو أسرع أسلوب للوصول إلى طريق مسدودة. ولكن عندما أشار عبد الشافي إلى «حلم إسرائيل التوسّعي» خبط شامير بيده اليسرى على الطاولة.

وكان أول شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٩١ يوم الغضب الشديد في مدريد. فالشيوخ «الملالي» في طهران، نظّموا ضمن الأسبوع ذاته «يوم غضبهم الشديد» ضدّ محادثات السلام في مدريد؛ ولا بدّ أنهم سُرّوا بغضب مدريد. وربّما حاول صدّام حسين أن يفتح تُحفة مُبدعة. فقد كان القسم الداخلي من غرفة الولائم في قصر «بالاشيو ريل» في اليوم الأخير من الحلقة الأولى أكثر من مُخزٍ. ولو لم أكن هناك، لما فهمت طبيعة السمّ الذي أظهره العرب والإسرائيليون بعضهم تجاه بعض. ولم يكن معظم عيب المشهد راجعاً إلى الاتهامات المتبادلة «بالإرهاب»؛ أو إلى القرار المستغرب لرئيس وزراء إسرائيل بأن يخرج مدموغاً بالاستنكار بعد خطابه الأول، لأنه يريد أن يرجع إلى إسرائيل قبل يوم السبت؛ أو قرار وزير خارجية سوريا بأن يلوّح بملصق قديم من أيام الانتداب يمثّل «إرهابياً» يهودياً شاباً يُدعى إسحق شامير؛ بل لأن الإسرائيليين والعرب استخدموا مؤتمر السلام ليتكلّموا عن الحرب.

وقد اتّهم شامير السوريين بخطف الطائرات، وقتل المدنيين، وإخضاع الطائفة اليهودية في سوريا لـ «إرهاب مستمرّ». وقال: «إن الفلسطينيين كان لهم قائد «تعاون مع النازيّين من أجل إبادة اليهود أثناء المحرقة» ـ حتى الحاجّ أمين الحسيني، كما يبدو، كان له موقع على طاولة مؤتمر مدريد ـ بينما اتّهم فاروق الشرع وزير خارجية سوريا شامير بالكذب، وإسرائيل بخطف طائرات مدنية، وإطلاق النار عليها. ثم أبرز المُلصق القديم لشامير «الإرهابي»: «عمره ٣٢ سنة، وطوله ١,٦٥م. . .»، كما قرأ الشرع في مُلصق المطلوبين البريطاني. وفي هذه الأثناء، جلس العرب والإسرائيليون، وكأنّ على رؤوسهم الطير، وقد تعرّقت وجوهم تحت مصابيح الإرسال التلفزيوني. لقد كان هناك نوع من التنويم المغنطيسي في هذا الجمود بشأن التاريخ القتّال للشرق الأوسط. ولقد كان طول شامير ١,٦٥ متر أي أكثر من خمسة أقدام عندما كان عمره ٣٢ سنة، وليس أقلّ من ذلك؛ كما أراد الشرع أن يثبت بدقّة.

(*) كان من مزاج الغضب النموذجي في مدريد أنه لم يُشر أحد إلى قرار الأمم المتحدة الرقم ١٨١ لعام ١٩٤٧، الذي دعا إلى تقسيم فلسطين ـ ورفضه العرب ـ ورسم الحدود، التي تجاهلتها إسرائيل حالما وسّعت أراضيها بعد حرب ١٩٤٨.

وكان وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر قد وصفهم بأنهم يتّخذون أوضاعاً في جلوسهم استجابة للكاميرات التي تصوّرهم. ولكنّ الأمر ليس كذلك. فمشاهدة وجوههم وهم جالسون إلى الطاولة التي اتخذت شكل (T) أي خطّين متعامدين، تُظهر أنهم متجهّمون، ومرتابون، ويقظون ـ وكأنهم أحياناً صور لغيظ مكبوت ـ وكان واضحاً أنهم يكرهون بعضهم بعضاً. ولو كان لدى الموفدين أسلحة آليّة لهرعوا إلى الأبواب. وحول جدران قاعة الولائم كانت صور نصفية متغطرسة للقياصرة الكبار تنظر مليّاً بصلابتها الرخامية إلى الخيبة المؤسفة للنخوة الشجاعة في هذا المؤتمر. فشامير سبق أن انصرف، طبعاً. مع العلم أنه يُسمح لليهودي بأن يخالف التعطيل يوم السبت إذا كانت الحياة الإنسانية هي موضوع المراهنة؛ ولكنه آثر أن يغادر المؤتمر ـ الذي يشمل مفاوضات قد تُنقذ ما لا يحصى من الأرواح ـ دون أن يستمع إلى الموفدين الآخرين. ومهما كانت أسبابه للقيام بذلك صادقة ومخلصة، فقد ظهر كأنه أعذر نفسه للذهاب إلى موعد مع طبيب الأسنان. مع أن عبد الشافي ذكّر الإسرائيليين بكرامة قائلاً: «لقد اخترنا البقاء في هذا المؤتمر اليوم بدلاً من أن نذهب لنقوم بشعائرنا الدينية».

وكان شامير قد قال إن نقد سوريا لإسرائيل «يوسّع حدود السذاجة إلى اللانهاية». فكيف يتجرّأ الشرع أن ينتقد سجلّ إسرائيل بشأن الحقوق الإنسانية، بينما كانت سوريا «أحد الأنظمة الأكثر قهراً في العالم»؟ فأجاب الشرع «إنها أكاذيب»، واتهامات إسرائيل «مختلقة تماماً»، فالإسرائيليون قتلوا أول وسيط للأمم المتحدة وصل إلى المنطقة. وإذ ذاك، بدأت أفكّر في أن علينا، نحن معشر الصحافيين، أن نصل في المستقبل إلى مؤتمرات السلام ومعنا «قائمة وقائع». أجل كي تُعلّمنا. فيهود سوريا لم يكونوا كلّهم أحراراً في مغادرة البلد ـ وقد عوملوا معاملة سيّئة من قِبل الأنظمة السابقة ـ ولكنهم أحرار الآن في ممارسة شعائر دينهم. أجل، إن الإسرائيليين أسقطوا فعلاً طائرة مدنية ليبيّة تاهت في الفضاء الإسرائيلي. أجل، لقد أجبر الإسرائيليون طائرة مدنية تحمل موظّفين حكوميّين سوريّين على الهبوط في تلّ أبيب. أجل، إن لسوريا سجلاً مروّعاً بشأن الحقوق الإنسانية. أجل، إن شامير وزملاءه في منظمتَي «شترن» و«أرغون غانغز» اليهوديتين قتلوا مدنيّين. أجل، لقد قتلت فرقة إعدام يهودية الكونت «فولكي برنادوت» عام ١٩٤٨. أجل، إن الحاجّ أمين الحسيني شجّع «هتلر وهملر» على منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وربّما ساعد بذلك على جعل آلاف من يهود أوروبا بين الهالكين.

ولكن، كان المفروض أن يكون هذا المؤتمر مؤتمر سلام، ومكاناً للتسوية، وليس محاكمة حول القتل. وقد برز عبد الشافي بحقّ للمطالبة بوقف الاستيطان اليهودي في المناطق الفلسطينية، وقبوله حاجة إسرائيل إلى الأمن، مصرّاً على «أن هذا هو الذي يجلب الأمن، وليست المداورات». وناشد وزير خارجية مصر عمرو موسى الموفدين بأن يتجنّبوا «الخطابات الانفعالية» وأدان «أحلام شامير التوسّعية». ومع ذلك بقيت القضيّة مُحزنة، وكانت الاستجابات لها غير وافية عمقاً.

ومن الناحية الرسمية، كان مؤتمر مدريد معقوداً تحت رعاية الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي ـ ولذلك حضر غورباتشيف ـ فضلاً عن الأمم المتحدة. ولكن في قاعة الاجتماعات الكبرى قرب القصر، لم يكن

هناك شكّ في مَن يدير هذه العملية. فالأميركيون كان لهم مكاتب عديدة، عامرة بمئات من الموظفين الحكوميين. وكان للأمم المتحدة مكتبان، وبعض البيروقراطيين وآلة فاكس. وكان للروس مكتب واحد، دون آلة فاكس.

وقد أقرّ شامير فيما بعد أن نيّته الوحيدة في مدريد كانت المراوغة والمماحكة. أما العمل الحقيقي، والاقتراحات الحقيقية للسلام فكانت تُدبّج من قِبل العرب في الفنادق الفخمة التي عُيّنت لهم خارج مدريد.

فسوريا مثلاً، أعدَّت خطّة من ١١ نقطة للشرق الأوسط. وطلبت فيها انسحاباً شاملاً وكاملاً من كلّ الأراضي المحتلّة، مع قبولها بوجود منطقة منزوعة السلاح على الجانبين الإسرائيلي والسوري، وإمكان بقاء عدد معيَّن من المستوطنين اليهود تحت السيادة العربية ضمن فلسطين «المحرَّرة» في الضفّة الغربية. وقد جاءت هذه الخطّة بالمطالب السورية القُصوى، بعد تسلّم الرئيس حافظ الأسد رسالة توكيد من وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر جاء فيها بحسب قول السوريّين، إن الولايات المتحدة الأميركية ترفض قبول ضمّ الجولان من قِبل إسرائيل، وضمّ القدس الشرقية وشرعية المستوطنات الإسرائيلية في الضفّة الغربية.

وقد أُعِدّت المقترحات السورية، التي أكّدت أنه لا محيد عن قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢، و٣٣٨، و٤٢٥(*)، بعد زيارة قام بها جيمس بيكر إلى دمشق أجرى خلالها محادثات مع الأسد. وقد قال الرئيس السوري لبيكر إنه «لا يمكن مناقشة قرارات الأمم المتحدة»، إنما يجب أن تُنفَّذ بكاملها، وأردف قائلاً: «لو جرت مناقشة قرارات الأمم المتحدة مع العراق لبقي الجيش العراقي حتى الآن محتلاً للكويت». وقد تأثر أسلوب الأسد المصرّ على حيازة «كل شيء ـ أو لا شيء» بشأن الانسحاب الإسرائيلي، «برسالة مستقلّة» وُجّهت إلى الحكومة اللبنانية، بحسب قول السوريين أيضاً، وورد فيها أن إسرائيل قد تنسحب من لبنان على مراحل. وأنها «تعيد الأرض مقابل السلام»؛ ولكنها ترفض التخلّي عن الجولان، والضفّة الغربية، وغزّة، وقد نبّه الأسد وفده المتوجّه إلى مدريد بأنه إذا جرى التخلّي عن أيّ من قرارات الأمم المتحدة، فهو يعتبر مؤتمر مدريد «صفراً ولاغياً».

وبينما لم تكن سوريا تقترح بقاء جميع المستوطنات اليهودية في الضفّة الغربية، فقد كانت مستعدّة لدرس إبقاء مُقيمين من اليهود في الضفّة يتمتّعون بحرّية الانتقال من إسرائيل وإليها، دون أن يرفعوا العلم الإسرائيلي في مستوطناتهم، مع قبولهم للسيادة العربية. وقد قال لي الشرع شخصياً إنه: «إذا لم تقبل إسرائيل هذا، فبوسعنا أن نطلب رفع الأعلام العربية مع السيادة العربية في القرى العربية الواقعة داخل إسرائيل». ولكن يمكن أن لا يقبل السوريون أيضاً بعض التسوية، مثل ما سمّاه الأميركيون «تدابير بناء الثقة» ـ أي وجود مراقبين عسكريين، وإنهاء حملات الدعاية ـ قبل بدء الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة. ولن تنتهي المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، ولن يكون هناك اتفاق حول مصادر المياه، حتى يقوم الإسرائيليّون «بانسحاب شامل من الأراضي المحتلّة».

(*) جاء القرار ٣٣٨ الصادر عام ١٩٧٣ يكرّر جوهرياً محتوى القرار ٢٤٢. أما القرار ٤٢٥ فقد طلب انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، لكن إسرائيل انسحبت من المنطقة التي احتلتها في لبنان عام ٢٠٠٠، بعد ٢٢ سنة من التصويت على القرار ٤٢٥ في مجلس الأمن بالأمم المتحدة.

وفي محادثات السوريين الشخصيّة مع الأميركيّين، أصرّوا على أنهم سيفاوضون أيضاً حول القضية الفلسطينية والجولان معاً، لمنع الإسرائيليين من استغلال ضعف الوفد المشترك الأردني ـ الفلسطيني في المؤتمر، فحقّ الفلسطينيين في «تقرير المصير» ـ العبارة الهامّة جدّاً التي تتضمّن إقامة دولة مستقبلاً ـ يجب أن يكون بالمشاركة مع الأردنّ وليس «ضمن الأردنّ». وقال السوريون إن رسالة خاصّة من بيكر إلى الأسد رفضت الاعتراف بتوسّع إسرائيل في المنطقة الإدارية للقدس. فكل المستوطنات الإسرائيلية المبنيّة حول القدس الشرقية منذ عام ١٩٦٧ ـ التي يزعم الإسرائيليون الآن أنها جزء من المدينة، (وبالتالي جزء من إسرائيل) ـ تُحسب جزءاً من الضفّة الغربيّة، حيث تعتبر الولايات المتحدة إقامة المستوطنات عملاً غير شرعي. فالقدس الشرقيّة ذاتها يجب أن ترجع إلى السيادة العربية، لكنّ السوريين مستعدون لدرس «إجراءات إدارية» ـ تسمح لأتباع جميع الأديان ـ بمن فيهم يهود إسرائيل، طبعاً ـ بدخول المدينة المقدّسة. وتعتقد سوريا بأن ٦٠٪ من مصادر المياه في إسرائيل تأتي من الضفّة الغربية، والجولان، وجنوبيّ لبنان ـ ولذلك أراد الأسد حصول تفاوض بين الإسرائيليين والعرب على أساس التكافؤ في المحادثات بعد الاتفاق العسكري ـ عندما لا تستطيع إسرائيل أن تطالب بما هو غير مقبول ومعقول.

ولم يكن من العسير تبيّن زعامة عرفات عبر الفلسطينيين المشاركين في المؤتمر ضمن الوفد المشترك الأردني ـ الفلسطيني. ولمّا منعوه من حضور مؤتمر مدريد، صار الإسرائيليون يسعون إلى أن لا يتأثر عبد الشافي والأكاديمية الدبلوماسية حنان عشراوي بمنظمة التحرير الفلسطينية «الإرهابية» ـ مع العلم أن عرفات قابل الأسد قبل المحادثات، وأعطاه وعداً بالاعتصام بقرارات الأمم المتحدة؛ ثم نقضه خلال سنتيْن. وقد روى موظّف فلسطيني على لسان الأسد قوله لعرفات: «سنحصّن أنفسنا بالشرعية الدولية، لأن مطالبنا تتوافق مع الشرعية الدولية».

وجاءت خيبة الرئيس بوش في الانتخابات عام ١٩٩٢ فقوّضت زخم محادثات الشرق الأوسط. وبينما كانت إدارة بوش قد قامت بإنجازات في السياسة الأميركية الخارجية، لم تكن ملاحظات كلينتون الأولى مشجّعة تماماً. وكان الوعد الوحيد الذي نطق به في مؤتمره الصحفي الأول، تعليقاً جانبياً بمعنى أنه «سيبقي عملية السلام في الشرق الأوسط جارية، مع المحافظة على استمراريّتها». وكان تعبير «عملية السلام» قد سبق أن كُرِّس كرَوْسم شكلي، وصار السلم في السنوات القادمة يشبه حافلة قديمة صرَّارة لسكّة الحديد، تخرج عن مسارها إلى خط جانبي، لتعود فتوضع من جديد على مسارها الأساسي. وكان الحصاد هزيلاً لدى الإسرائيليين، والفلسطينيين، والأردنيين، والسوريين، واللبنانيين، الذين يضيّعون الآن وقتهم في أجنحة فنادق واشنطن. وفي الأسبوع الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٩٢، طغت على اجتماعاتهم بإشراف وزارة الخارجية الأميركية مقطوعة إسرائيلية هزلية، لدى محادثاتهم المتعدّدة الأطراف في «أوتاوا»، عندما رضي الإسرائيليون بمتابعة المفاوضات، ونُمي إليهم أن أحد الموفدين الفلسطينيين ـ الذين اعترضوا على مشاركته، لأنه ينتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية ـ هو عضو في المجلس الوطني الفلسطيني، وبالتالي تحقّ له المشاركة، ولكنّ عضويته كانت قد «انتهت».

وفي واشنطن، وجدتُ رئيس الوفد السوري موفق علّاف مكتئباً لأن كلينتون لم يبدُ يبدو مستوعباً للقضايا الداخلة في المحادثات ـ حتى لو أراد الرئيس الجديد أن يتغاضى عن وعده قبل انتخابه بأن ينقل السفارة الأميركية من تلّ أبيب إلى القدس. واشتكى علّاف من أن إدارة بوش انغمست في هذا الأمر منذ أربع سنوات على الأقلّ، وكانت عملية السلام مرتبطة بالجهود الشخصية لبوش وبيكر، ولكن... أيّ رئيس، حتى لو جاء إلى الحكم بأفكار مسبقة غير مبنية على معلومات متوازنة، سيدرك عمّا قريب وقائع الوضع من منظور المصالح الأميركية».

وتوجّس الموفدون العرب الآن خيفة أكثر من أي وقت مضى من أن الوقت الذي يستغرقه الوصول إلى أيّ اتفاق سيكون مُضرّاً لبلادهم. وقد أسرّ الفلسطينيون في مقابلات غير رسمية إلى الصحافيين بأن الاعتراض على مشاركتهم في المحادثات يقوى في الضفّة الغربية وفي غزّة. وكان السوريون مهتمّين جدّاً بتأثير إخفاق المفاوضات على الأصوليّين الإسلاميّين في سوريا. وكانت المفاوضات حول التفاصيل مؤلمة. فقد استغرق إقناع الإسرائيليين من قِبل الموفد الفلسطيني صائب عريقات، أشهراً لكي يمتنعوا عن تسمية الضفّة الغربية بالاسم التوراتي: «يهودا والسامرة» ـ تلك التعابير التي تُلغي اسم «فلسطين» من الرواية الإسرائيلية. ولم يحصل ذلك إلّا بعد أن انحنى «داني روتشيلد» أحد الموفدين الإسرائيليين، وهمس أنه سيسمّيها: «أراضي» عندما يتوقف الفلسطينيون عن تسميتها «بأراضٍ محتلة». وهكذا حصلت تسوية: وصار الفلسطينيون يرمزون إلى الأراضي الفلسطينية المحتلّة بأوائل حروفها (Palestinian Occupied Territories = POT).

إن استغراق المفاوضات سنة كاملة للوصول إلى هذا المستوى من «تجارة الأحصنة لفظياً» يستدعي تعليقاً غير سعيد عن المحادثات. أراد الفلسطينيون أن يتكلّموا عن الأرض؛ بينما أراد الإسرائيليون أن يتحدّثوا عن «الوظائف المحوّلة». أراد الفلسطينيون أن يتكلّموا عن «الاستقلالية الانتقالية»، بينما أراد الإسرائيليون أن يتحدّثوا عن «الاستقلالية الفاصلة». أراد الفلسطينيون أن يتكلّموا عن بلد اسمه فلسطين، بينما لم يُرد الإسرائيليون سماع ذلك. وبقيت القدس موضوعاً غير مطروق خلال المحادثات البينيّة، ومفتوحاً للمناقشة في المراحل الأخيرة من المفاوضات.

وكانت المشكلة بالنسبة إلى الفلسطينيين أن الإسرائيليين أرادوا أن يتكلّموا عن «ازدواجية الأراضي»، والصلاحيات القانونية المتراكبة؛ كما أنهم لا يريدون أن يحكم العرب المستوطنين اليهود في «فلسطين» المستقلّة، أو فصل القدس الشرقية عن إسرائيل. ومع أن سائقي السيّارات العمومية الإسرائيلية لم يعودوا يتجرّأون على العبور في شوارع المدينة ليلاً منذ عام ١٩٩٢، فلا بدّ أن تبقى القدس «عاصمة إسرائيل الثابتة والموحّدة». تقدّم الإسرائيليون بمقترحات حول «المناطق العربية»، و«المناطق الأمنية»، و«مناطق المستوطنين»، ومنطقة يفترض أن «يتعاون» فيها الفلسطينيون والإسرائيليون. وقد قالت ناطقة إسرائيلية في واشنطن إن حكومتها أدركت أن الأرض التي يملكها العرب موجودة في تلك المناطق، وكانت مستعدّة للاعتراف بهذه الملكية، لو كانت مدعومة بوثائق

قانونية. لكنّ معظم تلك الأراضي مختلف عليها. فما هو القانون الذي يُفترض أن يسود هناك؟ القانون الإسرائيلي؟ أم القانون الأردني قبل حرب عام ١٩٦٧؟ قانون الانتداب البريطاني؟ أم القانون العثماني؟».

إن الفلسطينيين لن يقبلوا بذلك. وقد تعذّر على عُريقات الغاضب أن يسيطر تماماً على غضبه عندما كان لا يزال بانتظار معاودة بدء المحادثات في واشنطن. وعندما خاطبته قال: «نحن نريد أن نعطيهم ضمانات أمنية. لكنّ الإسرائيليين هم الذين خلقوا هذه المشكلة في المقام الأول بإنشائهم المستوطنات. وهم الذين أحدثوا ما سمّوه «مناطق أمنية» على أرضنا. ومنذ عام ١٩٦٧ اقتصرت حرية التعامل بالوثائق القانونية والقوانين على الإسرائيليين بخصوص الضفّة الغربية. ولماذا علينا أن نقبل بكل هذا التراكب في الوظائف؟ يجب أن نُعطى مزيداً لا مقداراً أقلّ من النفوذ. وإذ ذاك تكون لدينا السلطة لحكم قومنا، وإعطاء إسرائيل الضمانات الأمنية التي تقول إنها تحتاج إليها».

ولا شكّ في أن الموفدين الفلسطينيين في واشنطن كانوا يمثّلون دور الشعب المقهور، وبالتالي كانوا غير قادرين على تقديم تنازلات تُذكر ـ لأن أرضهم محتلّة ـ ولكنهم حاولوا التوفيق بين تنازلات المحتلّين وتلطيف مطالبهم بالاستقلالية. قال أحد الموظفين الفلسطينيين: «عندما أذهب إلى غرفة الاجتماعات في وزارة الخارجية، وأرى روتشيلد منسّق الأراضي، أشعر كأني جالس مع سجّاني». وكردّ فعل قال لي أحد الموفدين الإسرائيليين غاضباً: «لسنا هنا في المحادثات أمام مَن يحاكمنا. إن هذه الجلسات ليست محاكمة، حيث نناقش مَن فعل كذا بمَنْ، إن التاريخ هو الذي خلق هذه المشكلة».

قلت في رسالة من واشنطن في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٩٢، إن العرب خائفون من أن تُضعف إسرائيل قوّتهم عن طريق استفراد الدول العربية واحدة واحدة، وعقد صفقة معها، كما فعلت مع مصر عام ١٩٧٩. ولذلك تخشى سوريا من أن يعقد الأردنّ اتفاقاً منفرداً مع إسرائيل. كما خشي عرفات من أن تفعل سوريا الشيء ذاته... وكان الأردنّ قد سبق أن أعدّ مسودة روزنامة لمفاوضات السلام النهائية مع إسرائيل، تضمن الأمن المتبادل للبلدين... وحلّ مشكلة بُقعتين من الأراضي الأردنية...».

وسيظهر خلال أشهر أن «عقد صفقة هو تماماً ما تحضّر له إسرائيل «ولكن مع الفلسطينيين بدلاً من السوريين أو الأردنيين». وأُعيد الموفدون الفلسطينيون من واشنطن ليجدوا أن عرفات سعى من وراء ظهورهم إلى فتح قنواته السرّية مع الإسرائيليين، وكان يفاوض إذ ذاك حول خطة سلام مستقلّة وإنما مقدّر لها الهلاك أيضاً. وهكذا، تبخّر بين ليلة وضحاها كل ما فعله العرب أو ما سعوا في واشنطن لإنجازه. ولكنّ المشكلات التي جابهتهم والتفاصيل التي شوّشتهم خلال تلك الشهور الطويلة، منذ مؤتمر مدريد الكئيب، ستظهر كلّها عام ١٩٩٣ في اتفاقية «أوسلو» الخاطئة والمقدَّر لها أن تتصدّع. وسيحاول الآن عرفات وموظّفوه غير المدرّبين ـ والذين ليس بينهم محامٍ واحد ـ أن يتغلّبوا على الحجج التي أعدّها المفاوضون الإسرائيليون الأكثر ثقافة وفطنة يغريهم وَهْمُ دولة فلسطينية، مع عاصمة لها في القدس. وهو شيء لن يُعطَوه أبداً قطعياً.

وليس من العسير أن يرى المرء لماذا رأى الإسرائيليون والفلسطينيون مصلحة مشتركة لهم في عقد صفقة سرّية. فاحتلال إسرائيل يسير إلى مزيد من الوحشية؛ كما تكتسب الفصائل الفلسطينية الدينية مزيداً من القوّة، ولا سيّما «حماس»؛ ممّا كان يخيف الإسرائيليين والقيادة الفلسطينية على السواء. ومنذ سنوات وإسرائيل تشجّع «حماس» على بناء المساجد وتقديم الخدمات الاجتماعية كمنافسة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وقائدها «الإرهابي الكبير» المنفيّ.

وكما ساعدت أميركا على خلق أُسامة بن لادن وصدّام حسين، كذلك رعت إسرائيل «حماس» وقادتها من الأئمّة ومُحاربيها المؤمنين بصواب مسعاهم، والذين يطالبون اليوم بفلسطين ـ كلّ فلسطين ـ للفلسطينيين. وفي آخر الأمر، هؤلاء هم الذين أنقذوا عرفات من الإهمال، بنفوذهم كمنافسين إسلاميين بين الفلسطينيين، وما بلغوه من مدى في استنزاف إسرائيل ضمن الأراضي المحتلّة. ولولا معارضة «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، لما كان للإسرائيليين رغبة في الانسحاب. ولولا وجودهم ـ ووجود تلك المطالب الإسلامية الشاملة التي لا تقبل التسويات، والتي فاقت بكثير مطامح عرفات ـ لما اهتم الإسرائيليون قيد أنمُلة بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية أو بإرجاع قطعة صغيرة من فلسطين إلى عرفات.

غزّة في ٢٠ نيسان/أبريل ١٩٩٣. لن يسمح الإسرائيليون لسيّارة الإسعاف الصحّية بالمرور. وقد منعوا أيضاً جماعة الأمم المتحدة. كما منعوا أيضاً الإطفائيين، بينما كانت النار تشتعل والدخان يتصاعد من «طوفه» بضواحي غزّة. وكان باستطاعتنا أن نسمع الانفجارات طوال اليوم، تتخلّلها رشقات المدافع الرشّاشة، وهدير المروحيّات التي تحوّم حول تلك الأحياء الفقيرة. إن الإسرائيليين مشغولون بخسارة حربهم في غزّة. ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الفلسطينيين. فعبد الرحمن الشبكي يتألّم أمام الأشعّة السينيّة في مستشفى «الأهلي» مع جزء من رصاصة إسرائيلية فائقة السرعة استقرّت على بعد ٣ إنشات من قلبه. لقد كان الإسرائيليون يفعلون ما يريدون في «طوفه». قال لي الشبكي بينما كان الدكتور صلاح ساف يضع لفافات من الأربطة في المنطقة الواقعة تحت قلبه: «سرت في الشارع أثناء منع التجوّل، وتصوّرت أنهم سيسمحون لي بالذهاب إلى بيتي».

جاءت الممرّضات بمجموعة من صور الأشعّة السينية، تظهر إحداها لطخة بيضاء مُنذرة بسوء اخترقت الحجاب الحاجز في صدر «الشبكي»، وبدت مرفوعة في الضوء تحت أنظار أفراد عائلته وأصدقائه الغاضبين الذين كانوا يتمتمون مستائين. وقد رأى هذا الشاب الفلسطيني البالغ من العمر ٢١ سنة الجندي الإسرائيلي الذي أطلق النار عليه مباشرة في صدره. وكان غضب الفلسطينيين الشديد بادياً، حتى قبل أن يُنقل الشبكي إلى «طوفه». سألني أحد الفلسطينيين الملتحين: «ماذا تفعل هنا؟»، بينما كنتُ أُلملم نفسي في إحدى الصيدليات، محاولاً الإفلات من قبضة الرائد الإسرائيلي الذي كان قد لوّح أمام وجهي بوثيقة الحظر في هذه «المنطقة العسكرية المغلقة»، وأمرني بالخروج من شارع صلاح الدين.

صاح بي الفلسطيني «نحن نحتاج إلى مساعدة، وأنت تأتي إلى هنا لترانا نرقص». وكنّا قد رأينا لتوّنا أول دفعة من الأسرى، المحتجزين في «طوفه»، يجلسون في سيّارة الجيب الإسرائيلية مطأطئي الرؤوس.

لا يقول الإسرائيليون لماذا يقومون بهذه الغارة على «طوفه»، ولكن لا يشكّ أحد في غزّة في أنهم يفتّشون عن المسلّحين الفلسطينيين الذين قتلوا «إيلان فاينبورغ» بالسكّين والفأس منذ يومين، بينما كان يجلس في مكاتب وكالة التعاون الأوروبي للإنماء. وقد أعلنت مسؤوليتها عن قتل هذا المحامي الإسرائيلي مجموعة من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» ملقّبة «بالنسور الحمر» ـ وكم لدينا من ألقاب في حروب الشرق الأوسط الذاتية المنشأ ـ وربّما قاموا بذلك لاستفزاز الإسرائيليين ليقوموا بعمليّات عسكرية تثير حفيظة آلاف الفلسطينيين. وإذا كان هذا الظنّ صحيحاً فقد نجحوا.

ما هو الإنجاز الحاصل من كل هذه الأمور؟ هكذا سألت الرائد الإسرائيلي، بينما كنّا في شارع صلاح الدين، وكان الأولاد الفلسطينيون على أُهبة أن يشعلوا النار بالإطارات الأولى لذلك النهار، على بعد مئة ياردة عنا. أليست غزّة حالة لا يُرجى منها نفع للإسرائيليين، كحرب سبق أن خسرتها إسرائيل؟ قال الضابط مجيباً: «ماذا تقترح أن نفعل، وماذا نستطيع أن نفعل؟ ـ طيّب، ما قولك بمغادرة غزّة؟ فأجاب: «إنها مسألة سياسية». وكان مصيباً؛ لأنه مهما حرق الإسرائيليون من أحياء فقيرة بائسة ليثأروا لمقتل «فاينبورغ»، ومهما أوقفوا من الفلسطينيين، ومهما منعوا سيّارات الإسعاف من المرور وحجزوها خارج «المناطق العسكرية» حيث يسود منع التجوّل، فقد خسر الإسرائيليون الحرب في غزّة. إن جدران غزّة ملأى بخربشات وأقوال الكره والحقد، والمطالبة بإعدام المتعاونين مع إسرائيل، فضلاً عن التهديدات بالنار والدم الصادرة عن مقاتلي «حماس» ومنظمة التحرير الفلسطينية. وحالما يغادر الإسرائيليون شارعاً من الشوارع يقع ذلك الشارع فوراً تحت سلطة الفلسطينيين.

وفي اليوم التالي عرفنا ماذا حدث فعلاً في شارع صلاح الدين، وماذا كان ذلك الرائد يحجبه عنا من حقائق. فقد عثر الإسرائيليون على مسلّح من «حماس» في «طوفه»، يُدعى زكريا شربجي وينتمي إلى «كتائب القسّام»؛ فقتلوه بسلاح خفيف مضادّ للدروع. وأخذ الفلسطينيون رأسه، بينما أخذ الإسرائيليون جسده؛ مما خلق مشكلة لأرملته وأهله في مخيّم «جباليا» للاجئين. وكان دمه لا يزال يلطّخ جدران الكوخ المسحوق الذي قُتل فيه مع صفحات غير معطوبة من القرآن الكريم الذي سقط من جيبه عندما قُتل ـ كما أورد محبّوه الخبر. وقد لاحظ أحد زوّار المزار الجديد «أنهم أخذوا عظام رأسه ودماغه، بينما كان الإسرائيليون قد أخذوا جسده».

لم ينكر أحد أن الشهيد كان ينتمي إلى «حماس»، وأن له طفلاً لم يبلغ بعد السادسة من عمره. وقد كان متوارياً عن الأنظار في «جباليا» و«طوفه» هرباً من الإسرائيليين. ولما كان الإسرائيليون ميّالين عادة إلى إيقاع عقوبة جماعية أيضاً، فقد أحرقوا الشوارع المجاورة وفجّروا ما لا يقلّ عن ١٧ بيتاً فلسطينياً ـ كانت تأوي حوالى ٢٠٠ شخص ـ خلال ١٢ ساعة. وتلك كانت الانفجارات التي سمعتُها من شارع صلاح الدين. والركام حول آخر معقل للشربجي صار مشهداً للصراخ والغيظ من قِبل حوالى ألف فلسطيني تجمّعوا ليروا آثار البطش الإسرائيلي في

الجدران والسقوف المتهدّمة، والمفروشات المحروقة، والثياب والأفرشة الممزّقة، والبرّادات المسحوقة، والغسّالات وأجهزة التلفزيون التي تركها الإسرائيليون وراءهم. إن المرء ليعجب ويسأل: «أين ينتهي العِقاب وأين يبدأ التخريب المتعمّد؟».

ولكن ليست هذه هي القضيّة التي يناقشها أهل الفقيد. فمع أنهم لم يحظوا بجسده، قرّروا إقامة المأتم على كلّ حال في مخيّم جباليا. وهي خطوة كان للإسرائيليين ردُّ فعل فذّ عليها؛ إذ أعلنوا أن جباليا «منطقة مغلقة» ويُمنع فيها التجوّل. كما هي العادة في قاموس مفرداتهم.

يجب دراسة هذا التعبير بعناية. فمنع التجوّل في غزّة يسري مفعوله حالما يخرج الضابط الإسرائيلي ورقة و«يخربش» عليها بوضع اسم وتاريخ وساعة؛ كما حدث لي عندما حاولت أن أزور أقارب الشربجي؛ وعندما أوقفت دورية للشرطة الإسرائيلية سيّارتي أصدرت أمرها السرمديّ إليّ: «ممنوع التصوير». فأين هو القانون الذي يمنع أخذ الصور في غزّة؟ جاءني الجواب فوراً، عندما انبرى شرطي يرتدي بزّة خضراء، إذ إنه عربي إسرائيلي، ويضع نظّارة قاتمة، وأخرج ورقة مطبوعة من جيبه كُتب عليها بسرعة: «جباليا، ٢١ نيسان/أبريل، الساعة ٠٠:٠٦»، تحت عنوان «منطقة عسكرية مغلقة». فهل نأخذ له صورة وهو يوقّع هذه الورقة؟ طبعاً، إذ إن «كوفكا» لا يعترض على ذلك.

لكن هذه اللعبة التخمينية ليس لها تأثير يُذكر على شوارع غزّة. فحالما يبدأ رشق الحجارة على الإسرائيليين من وراء دخان الإطارات المحترقة، يعقبه فوراً ظهور الجرحى المصابين بالرصاص، وهم يئنّون من الألم، ويُنقلون إلى مستشفى «الأهلي». وهناك، وصل رجل مصاب برصاصة مكسوّة بالبلاستيك استقرّت في عمق فخذه، بينما وصل آخر يجري الدم من جرح أحدثته رصاصة في كاحله. أما الأطبّاء فيعطون هؤلاء الجرحى مسكّنات، ويفحصون الجروح وينظّفونها، ويُخرجون منها الرصاص، رصاصة رصاصة، ويرمونها في صينية معدنية ترنّ مع كل رصاصة، في مسرح العمليات.

وقبل حلول الظلام، رأيتُ بعض الرجال الملثّمين ـ واثنان منهم يحملان فأسيْن ـ يظهرون في مأتم الشربجي، في بريّة من الرمل وسط مدينة غزّة. أخذوني إلى شارع فقير حيث كانت قطعة من الإسمنت قائمة وسط قدم مربّع من الرمل الذي نُبش حديثاً عند أسفل حائط. هناك أسرّ إلينا بوقار موظّف مُلتحٍ من «حماس» قوله: «هنا قبرنا دماغه؛ وهناك بعض أجزاء من فكّه» مشيراً إلى ناحية شجرة. وأضاف: «هل تريد أن ننبشها لنريها لك؟».

واستمرّ إطلاق النار ثلاثة أيام في غزّة. وكان الضحايا الفلسطينيون ـ من مسلّحين، وراشقي حجارة، وأولاد، وعابري سبيل ـ تصطادهم الأسلحة، كما لو كانت المعارك المسلّحة عبارة عن عواصف مُمطرة، تحمي نفسك منها داخل البيت إذا شئت؛ إذ لم تعد هذه الحال شيئاً مخيفاً أو غير حقيقي أو حتى غير طبيعي. وفي الفوضى والهستيريا اللّتيْن تسودان مستشفى الشفاء، كان من المتعذّر أن تسأل الأطبّاء عن هويّة كلّ ضحيّة، ما

دامت أثوابهم ملطّخة بالدماء، وما داموا مغمورين بالصياح والصراخ. وخلال وقت منع التجوّل بتاريخ ٢٤ نيسان/ أبريل، جيء إلى المستشفى بعدد من الفلسطينيين الجرحى بإطلاق النار عليهم يبلغ ٢٧ شخصاً، و١٣ إلى مستشفى الرفاع، و٢٥ إلى عيادة مستشفى «الأهلي»، وصار المجموع ٦٥ شخصاً جرحهم الإسرائيليون خلال ثلاث ساعات من منع التجوّل. وكانت آثار الدماء ظاهرة عبر مدخل مستشفى الشفاء. وكان معظم الجرحى ما زالوا يتظاهرون ضدّ تدمير البيوت في منطقة «طوفه».

وعندما وصلتُ إلى المستشفى بعد الساعة السادسة مساء مباشرة، كان أقرباء الجرحى يصيحون ويبكون عند المدخل. وكان هناك عدد من الشبّان وولد صغير مُستلقين على الأسرّة؛ والدم يغمر سيقانهم أو صدورهم؛ بينما كان شخص آخر مفتوح الثياب، يسيل الدم على صدره، ويلهث بقوّة وهو مُمدّد على طاولة، ويبدو أثر رصاصة اخترقت ذقنه. وعلى شاشة فوق رأسه خط أخضر يؤشر على استمرار الحياة، أو هبوطها، أو تعطّل وظائفها. صاحت الممرّضة: «لقد دخلت الرصاصة إلى دماغه؛ إنه في وضع حَرِج»؛ بينما كان الأطبّاء يدخلون أنبوباً إلى حنجرته، وإبرة تغذية بالمصل في ذراعه. كما كانوا يدخلون أصابعهم في فمه حتى لا يبلع لسانه. ولكنه مات أمامنا، فأغلق عينيه، وتدلّى رأسه إلى اليمين، وصُعِق الأطبّاء لعدم استطاعتهم إنقاذ حياته. وظهرت ضربات القلب على الشاشة كخط أخضر رفيع. وفي أقلّ من دقيقة، عمد الرجال الملتحون من أقاربه إلى تكفينه ووضعه على المقعد الخلفي لسيّارة «بيجو» بيضاء قديمة، وهم ينشدون أناشيد دينية. وكان حشد من الناس الواقفين عند مدخل المستشفى يراقبون انطلاق السيّارة ويردّدون: «الموت لليهود». هذه هي فلسطين الذي يُفترض بعرفات الآن أن يرثها.

وجاء اتفاق «أوسلو»، الذي أفرخ في الخفاء، مثقلاً بالأحلام العديمة الضمانات، مبدياً وعوداً كاذبة بإقامة الدولة وبالقدس، وبوضع حدٍّ للاحتلال الإسرائيلي، والاستيطان اليهودي. فتلقّاه زعماء الدول ومعظم صحافيّي العالم ـ كبارقة أمل جديد. وصارت «المصافحة التي جرت في حديقة البيت الأبيض» بين إسحق رابين وياسر عرفات بتاريخ ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، نوعاً من الإيديولوجية. ولا داعيَ لإعمال النقد هنا. كفى الجميع دماء ودموعاً. سيسكن الذئب مع الحمل ـ ولم يتنازل أحد ليخبرنا مَن هو الذئب ومَن هو الحمل ـ وسيحوّلون سيوفهم إلى سكك للفلاحة. ولم يلاحظ أحد أن بين الرجال الثلاثة الذين اجتمعوا في حديقة البيت الأبيض، واحداً استشهد بالقرآن الكريم، ألا وهو الرئيس بيل كلينتون. ولم يسأل أحد كيف استطاعت مجموعة من السياسيين النرويجيين ـ وبعضهم لا يتمتّع سوى بخبرة عملية بسيطة في الشرق الأوسط ـ أن تساعد في إخراج ما يُفترض أنه أعجوبة. فالسلام يمكن أن يكون واسطة لبيع كثير من الجرائد، مثل الحرب. وكلّ من تجرّأ منّا، معشر الصحافيين، على أن يصف «أوسلو» بمأساة للفلسطينيين ـ وفي النهاية للإسرائيليين أيضاً ـ اتُّهم بأنه معادٍ للسلام ومناصر «للإرهاب».

وفي هذه المرحلة الفاصلة المؤقّتة يمكن أن يُنشئ عرفات وجماعته من منظمة التحرير الفلسطينية «سلطة فلسطينية» في غزّة وأريحا. ثم يخضعون لجدول زمني طويل ومعقّد لانسحاب الجيش الإسرائيلي من سائر المدن

الكبرى والضفّة الغربية. لكن «الوضع الدائم» الذي سينشأ بعد خمس سنوات هو الذي سيكفل حلّ مستقبل القدس، والمستوطنات اليهودية، و«حقّ العودة» لثلاثة ملايين ـ وربّما خمسة ملايين ـ من الفلسطينيين اللاجئين. وبتعبير آخر، يبقى إنشاء الدولة الفلسطينية حسبما اعتقد عرفات ـ وأُوهم العالم ـ مسألة لا محيد عنها ومبنية على الثقة. وعلى الإسرائيليين والفلسطينيين أن يعقدوا زواجاً معنوياً، قبل إثبات وفائهم وإخلاصهم، وعليهم أن يتقبلوا كلمة «عمّهم» بيل كلينتون ـ الذي سيرعى مصالح إسرائيل، بصفته رئيساً للولايات المتحدة الأميركية ـ في سبيل جعل ذلك الزواج ممكناً.

وكان عرفات، قَبْل أن يصافح رابين، قد زار الرئيس مبارك في مصر. وكنتُ قد سافرتُ إلى الإسكندرية لأنظر إلى ذلك الرجل الهرم، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، الذي تحدّث معي يوماً عن خمسين ألف مِيل بعيداً عن فلسطين؛ لكنه يعتقد الآن أنه «سيذهب إلى بيته». وعندما وقف إلى جانب مبارك في الإسكندرية ظهر كأنه يستحقّ الشفقة. فقد تبدّل جذع جسمه الملآن، وانكمش إلى نحولة شديدة، وتحوّلت ابتسامة الاعتزاز التي كانت لا تفارقه في مقابلاته إلى ابتسامة مُصطنعة. وقال: «إن بصمات مصر ظاهرة على هذه الخطّة» التي تمنحه وتعطي منظّمته فلسطينَين صغيرتَين وسط الاحتلال الإسرائيلي. وكان تعبير «بصمات الأصابع» يوحي بأن المشروع هو جريمة ـ كما ظنّ العديد من الفلسطينيين، لكنّ أصواتهم لم تُذعْ في أميركا وأوروبا ـ بينما لم يلقِ عرفات لقولهم بالاً. لقد كان يتودّد إلى مبارك. وفي الواقع، كان يتودّد إلى كل إنسان. فقد قبِل الآن رسمياً وبشكل ممهور على الورق تقسيم فلسطين الذي رفضه دائماً، وانصاع ليصافح «رئيس وزراء الدولة اليهودية التي جعل يوماً إزالتها عن وجه الأرض، رسالته المقدسة»، بحسب قول صحافي الشرق الأوسط دايفيد هيرست.

وقبل عقد من الزمان، ناقشتُ في لبنان مع عرفات مسألة تقسيم فلسطين. قال لي: «سنتّحد، وسنحظى بدولتنا»؛ لكنه لم يقرّ بأنه سيعطي ٧٨٪ من فلسطين الانتداب إلى الإسرائيليين. ذكّرته بأن «مايكل كولنز» الذي ناضل دموياً من أجل استقلال إيرلندا عن بريطانيا، اضطرّ إلى قبول ٢٦ من أصل ٣٢ محافظة من إيرلندا فحسب، وأن يلتزم بقسم ولاء لسيّده المستعمِر السابق؛ وأن الإيرلنديين الذين حاربوا معه من أجل الاستقلال انقسموا بسبب ذلك الاتفاق. قال: «سأمكث على أيّة زاوية من زوايا بلادي»، وكرّرها؛ ثم سأل: ماذا حدث لكولنز؟ فأخبرته أن الإيرلنديين الذين حاربوا بريطانيا مزّقوه إرباً. مع العلم أن كولنز كان رجلاً شريفاً أكثر من عرفات بكثير؛ لكن القائد الفلسطيني استمع إلى كلامي بصمت. ثم بدا برود على وجهه عندما وصفتُ له كيف عمد الجيش البريطاني، عندما كان يستعدّ لمغادرة دبلن، إلى توزيع أسلحة ميدان على رجال كولنز ليحاربوا رفاقهم القدامى. وسألت عرفات: ماذا لو أمدّه الأميركيون أو الإسرائيليون بالأسلحة للقضاء على زملائه الذين رفضوا التسوية؟ فصاح: «أبداً، أبداً».

بدت ورطة عرفات لا نهاية لها ـ بالرغم من أنه هو شخصيّاً لا يقدّر مداها. وربّما قاده غروره أو جرّته شيخوختِه ليقع في هذا الفخّ. ففي عمر الرابعة والستين، صار عرفات ومَن حوله من الرجال الذين هم في أواسط أعمارهم ـ بدينين، وخطهم الشيبُ في بيروت ـ ووصلوا إلى نقطة شكّوا عندها في أن يستطيعوا العودة ليروا

فلسطين، ناهيك بحُكمها، وتساءلوا عن مدى تحقيق الأسطورة التي تخيّلوها عن الرجوع إلى بلادهم، وعن استكمال مسيرة النضال من أجل البقاء والحصول على الاعتراف بحقّهم. فقد انتظروا في منفاهم طويلاً، وترقّبوا نهاية قصّتهم الملحميّة بشكل انتصار لهم، ودخولهم إلى القدس «المحرّرة»، حتى يصل الحُلم الكبير إلى غايته.

أم أنا مخطئ؟ ولو كانت هناك بعض الاستثناءات ـ مثل حالة إدوارد سعيد، وهو الأشجع ـ فإننا نجد أن «خبراء» الشرق الأوسط ومحلّليه والمراسلين القُدامى الذين سلخوا عقوداً من الزمن في تغطية أنباء هذه الحروب الإسرائيلية ـ العربية القذرة، كانوا مقتنعين بأن الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط قد تغيّرت إلى الأبد. وقد غضب «تشارلز ريتشاردز» رئيس تحرير قسم الشرق الأوسط في جريدة الإندبندنت، عندما سألته عن إيمانه المطلق باتفاق أوسلو، فقال لي بنزق على الهاتف: «يا رُوبرت، لقد تغيّرت الأمور». عندها انطلقت من مصر إلى الضفّة الغربية المحتلّة في شهر أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٣، لأكتشف صحّة هذا الأمر. نزلت في مطار «بن غوريون»، وذهبت بالسيّارة إلى القدس، ثم سرت في الصباح التالي على الطريق الطويلة من «أريحا عبر الخليل (حبرون) إلى حدود إسرائيل الجنوبية الشرقية؛ وهي أقرب ما يمكن إلى قطاع غزة.

وجدت أن العمّال قد بدأوا يبنون طريق عرفات. هناك التقيت عماد عيد أحد هؤلاء العمّال الذين يشتغلون في بناء هذه الطريق، على المنحدر القائظ النازل من بلدة «العبيدية». قال لي متشائماً وهو يجلس في ظلّ شاحنته على الطريق المغطاة بالتراب والغبار: «هذه الطريق هي مقبرة الشعب الفلسطيني، أنظر إليها وإلى موقعها، تعرف لماذا أقول هذا الكلام». وكان هناك إبريق أسود للشاي يهسهس حاقداً على موقد غاز قربه.

ثم أردف قائلاً: «سيسمحون لعرفات بأن يسلك هذه الطريق من أريحا إلى غزّة، وبهذه الطريقة لا يستطيع أن يمرّ عبر القدس»، وهو يومئ بإصبعه إلى تعرّجات طريق الغبار عبر الصخور نزولاً إلى الوادي. «هذا ما يريده الإسرائيليون». فوافق الرجال الخمسة الجالسون قربه على ذلك؛ وكانوا كلّهم فلسطينيين يبنون الطريق التي تستبعدهم وتستبعد عرفات عن المدينة التي حلم يوماً بأنها ستكون عاصمته.

بدت الطريق بشعة مثل الهدف منها: تنحرف بشدّة نحو الصخور خارج «أبو ديس»، ثم تنزل إلى عمق وادٍ حافل بنور الشمس، وتقطع مجرى للمياه المالحة على جسر إسمنت. ويحاول عيد ورفاقه توسيع الطريق وتحسينها، بعدما مرّ عليها عقدان من الزمن وفتّت الصقيع سطحها. وقد أخبرهم الإسرائيليون بضرورة إصلاحها قبل الشتاء وأمطاره، بحيث يستطيع الفلسطينيون في رام الله، ونابلس، وجنين في شمالي الضفّة أن يسافروا إلى الخليل في النصف الجنوبي من الأراضي المحتلّة من قِبل إسرائيل، دون المرور عبر القدس؛ ممّا يحوّل استبعادهم المؤقّت عن المدينة المقدّسة ـ الذي بدأ بعد قيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى ـ إلى نفي دائم.

ولمّا كان من القسوة بمكان منع الفلسطينيين في الشمال من زيارة الفلسطينيين في الجنوب، بسبب منعهم من عبور القدس مؤقّتاً من قبل الإسرائيليين، بدا إصلاح هذه الطريق عملاً إنسانيّاً، ولكنه في الواقع عمل سياسي

تخريبي. فحالما ينهي عماد عيد وعمّاله فرش الزفت على الطريق لا يعود بإمكان سكّان الضفّة الغربية طلب إذن مرور عبر القدس، لأن لديهم طريقاً أخرى بديلة.

كما كان سهلاً نصب الأفخاخ والمصائد. فقطع هذه الطريق بالسيّارة من أريحا إلى الخليل (أي مسافة أقلّ من ٥٠ كيلومتراً) قد يكشف لعرفات كم هو غرّار هذا «الممشى» السياسي. قطعتُ الجزء الأول من هذه الطريق البالغ ١٠ كيلومترات عبر فلسطين «اليهودية»، في وادٍ يبدأ من مخيّم «عقبة جابر» في أريحا، مروراً بمواقع عسكرية إسرائيلية تحت الأرض، وأحواض بيزنطية مهجورة في «منزل جبر»، وانتهاءً بالمستوطنة الإسرائيلية في وادي «قلت». وكانوا إذ ذاك يوسّعون المشروع الإسكاني هناك عندما وصلت، ويمهّدون مرجات «القرية السياحية» في وادي «قلت»، حيث قابلت مدير الأشغال الجارية؛ وهو من قُدامى العسكريين الذين اشتركوا في حرب لبنان وحاول تدمير عرفات في بيروت منذ ١١ سنة؛ ولم يستنكف عن التنبّؤ بحرب أهليّة بين الفلسطينيين لا غير.

أما الطريق من وادي «قلت» إلى القدس فكانت تمرّ بوادٍ فيه مستوطنات يهودية، منظّمة صفّاً بعد صفّ بالبيوت ذات الطابع الأوروبي ـ كجزء من «حلقة» الإسمنت التي تحيط بالقدس ـ والتي غيَّرت محيط الأرض العربية التي يتذكّرها عرفات. ولكنه لن يصل إلى القدس؛ بل تطالعه طريق متعرّجة قائظة إلى «العبيدية» وإلى سائر القرى الممتدّة جنوباً، حيث نجد صوتاً فلسطينياً مختلفاً على الجدران؛ يقول على جدار أحد محلّات البقالة: «لا للتآمر على بيع فلسطين». و«كلّ من يتخلّى عن القدس لا يمثّل شعبنا». كما بدا قرب إحدى المقابر إنذار أكثر شؤماً يقول: «لن ينجح أولئك الذين يتخلّون عن حقّنا بإعطائه إلى اليهود». ولكن على المرتفعات، قبل أن تصل إلى بيت زعيم قديم جدّاً خشي من الخيانة ـ ألا وهو قصر الملك «هيرودوس» الذي لا يعدو اليوم كونه مجموعة من الحجارة المتراكمة ـ سيُمنح الزعيم الفلسطيني منظراً للقدس عن بعد بُعيد يبلغ ٨ كيلومترات، إنها قُبّة الصخرة والجدران العثمانية التي لا تزال تُرى من خلال الشقوق بين التلال التي تبدو قريبة بارتفاعها، وبعيدة تبعث اليأس. وفي ساحة قرية «صير»، حيث لا تُرى معالم المدينة المقدّسة الثالثة في الإسلام، قالت العجوز «عائدة جدور» بلهجة تقرب من الاحتقار: «لا حلّ دون القدس. وإذا جاء عرفات إلى هنا لن نستقبله. لن نقبل أن يموت أطفالنا في الانتفاضة من أجل أريحا وغزّة لا غير».

وعلى طول الطريق جنوباً لم يتكلّم أحد لصالح قبول عرفات «بمرحلة انتقالية». وفي مستوطنة «هارسينا» اليهودية الواقعة خارج الخليل ـ حيث وصلت البيوت الجديدة المتنقّلة على عجلات منذ شهرين، بينما كان عرفات في مرحلة الاقتناع بتوقيع اتفاق مع إسرائيل ـ دخلت قافلة عسكرية إسرائيلية المدينة، تضيء مصابيح شاحناتها في وضح النهار تحت أشعّة الشمس، وجنودها جالسون على شاحناتهم يحملون رشّاشاتهم ويصوّبونها نحو الحوانيت العربية. وعلى الرصيف، قرب مجموعة من حرّاس الحدود الإسرائيليين، جلس ستّة رجال فلسطينيين، بقبّعات منحرفة، يصيحون بكلّ مَن حاول أن يخالف منعاً آخر للتجوّل ـ كانوا كلّهم مُخبرين. حسبما أخبرني الشاب العارف الذي وجّهني إليهم، وكانت عيونهم كلّها صفراء محدّقة، وكان أحدهم يهذي.

قهقه أحدهم وقال «كوكايين». ربّما؛ فقد قيل عن المُخبرين إنهم «عالقون» بالعقاقير التي يعطيهم إيّاها مراقبو الاستخبارات الإسرائيلية، مع العلم أن الإسرائيليين ينكرون ذلك بطريقة عادية. وحتى هؤلاء المساكين أدانوا عرفات حالاً؛ وتمتم أحدهم «خيانة». لقد أمضى ١٤ سنة في السجون الإسرائيلية قبل أن يلتحق بجهاز «شن بث». في ذلك الوقت القائظ بعد الظهر بالضفّة الغربية لم أتمالك أن أشعر بالأسف لحالة ياسر عرفات؛ بالرغم من أن ذلك كان صعباً عليّ. وجاءت الملاحظة الأكثر تفاؤلاً ذلك النهار من رجل فلسطيني يعرّف عن نفسه بأنه «بسّام»، إذ قال: «إذا كنت متعاوناً صغيراً مع الإسرائيليين، فإنهم يساعدونك قليلاً؛ أما إذا كنت متعاوناً كبيراً مثل عرفات، فإنهم يسمحون لك بزيارة القدس».

ولكنّ الوضع كان أسوأ من ذلك ـ إذ لم يُسمح لعرفات أبداً بأن يزور القدس ـ إنما لم تكن لنشاطه المتفائل حدود. فقد كتبتُ مقالاً مبنياً على رحلتي إلى الخليل في جريدة الإندبندنت بعنوان: «طريق عرفات إلى غزّة مقبرة للفلسطينيين». وفي اليوم التالي تلقّيت مخابرة هاتفية في فندق الملك داوود من هارفي موريس، الثرثار نفسه الذي كان رئيس مكتب «رويترز» في طهران، منذ ١٤ سنة، والذي صار رئيس القسم الأجنبي الذي أعمل فيه. قال: «يا فسكي، أنت تضع القطّ بين الحمام بحسب القول المأثور؛ إن الكبار والصالحين هنا يتساءلون عمّا إذا كنتَ مُصيباً». فتصوّرت إذ ذاك كيف كان تشارلز ريتشاردز يُرغي ويُزبد بمقولته العديمة المعنى عن حتميّة السلام. ولكن هارفي بادرني قائلاً: «كلّا، لا يتعلّق الأمر به أو بي يا صاح، إنه رئيس التحرير العامّ الذي يسأل عمّا إذا كنت متعجّلاً». فأخبرته أن أندرياس هويتام سميث «كان دائماً يطبع تقاريري بكل إخلاص، بالرغم من الصواريخ الكلامية التي كانت توجّه إليه. فإذا كان يعتقد ذلك دعه يتفضّلْ بمخابرتي». وبعد دقائق خابرني قائلاً: «أنا لا أشكّ في أنك تنقل بدقّة التشاؤم الذي يعبّرون عنه؛ ولكن هل هذه هي الصورة الكاملة؟ إن أصدقائي اليهود يرحّبون بالسلام الذي سيعقد مع الفلسطينيين». لكنني في هذا الموقف أمسكت عن سؤال ويتهام سميث عمّا يقول له أصدقاؤه العرب.

ولكنّ الإسرائيليين حفظوا ملفّات عرفات داخل «بيت أغرون» ـ معبد الصدق الذي يستقي منه الصحافيون الإسرائيليون الحقائق. فقد جمعوا بعناية من الصحافة العربية كلّ ما يلزم، عندما كان عرفات يجسّد الشرّ ـ تلك الأيام التي اعتبره فيها مناحيم بيغن: «هتلر في المخبأ». كانت هناك صفحات وصفحات عن بلاغة عرفات، ووعوده، ومطالبه، وتهديداته. وكانت هناك كل تصريحاته وبياناته المتعَبة اليائسة التي استمعنا إليها عبر السنين؛ بينما كان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يعرق ويصرخ، ويبكي أحياناً من الانفعال، وهو يخاطب فدائيي فتح، والمُعدمين الفلسطينيين في المخيّمات، قائلاً: «إن فلسطين وطن الفلسطينيين، ووطن الأمّة العربية من المحيط إلى الخليج». وكما قال عام ١٩٨٩: «... إن منظمة التحرير الفلسطينية لا تقدّم سلام الضعفاء، بل سلام صلاح الدين»؛ ولا شيء غير ذلك. «لن تقف ثورة الفلسطينيين أبداً حتى الحصول على حقوق الشعب الفلسطيني، بما فيها حق العودة»؛ ولا شيء غير ذلك. «لن يكون هناك سلام... إلّا عن طريق العودة، وتقرير المصير، وإرساء دعائم الدولة الفلسطينية بعاصمتها القدس»؛ ولا شيء غير ذلك.

كان عرفات يحبّ أن يستعمل الأولاد كدعامات. ففي إحدى الأمسيات البالغة الحرّ في لبنان، وفي أجمة من أشجار الزيتون التي تطلّ على ميادين حربه، التقى عرفات مجموعة من الصحافيين ليتكلّم عن مستقبل منظمة التحرير الفلسطينية. سألناه بأدب جمّ، عن تماسك مستقبلها. فما كان من عرفات إلّا أن أمسك بولد ابن ١٢ سنة، يلبس بِزّة المجاهدين، وأطبق بشفتيه على خدّ الولد خلال ثوان، وقال: «إن هذا هو مستقبلنا». فارتبك معاونوه؛ ولم يكن في تلك الحركة أي شيء غير لائق؛ إنما كان هناك خواء، وقلّة تفكير، وعدم ملاءمة في ردّ فعله، ممّا أقلقهم. فلا بدّ أنهم تساءلوا: «إذا كان هذا ما اختاره عرفات ليتكلّم عنه بصدد مستقبل بلاده، فكيف كان ردّ فعله عندما كان عليه أن يفاوض بشأن إنشاء دولة فلسطين؟

إننا نعرف الآن أن عرفات كان أعزب و«متزوجاً الثورة»؛ ثم عقد زواجاً غير سعيد على فتاة فلسطينية مسيحية عمرها ٢٨ سنة، أي أقلّ من نصف عمره ـ كما ندرك أن وعود عرفات كانت أحلام يقظة، وبيانات عن حُسن نيّته لصالح شعبه، وأحدثها ارتطم بقاعات الاستقبال النرويجية، ليحظى بأريحا وأحياء غزّة الفقيرة. فبماذا يستطيع أن يحلم الآن؟

وفي ذُروة حصار بيروت عام ١٩٨٢، تلك اللحظة الحرجة في حياة منظمة التحرير الفلسطينية، عندما انقضّ الإسرائيليون على المدينة المطوّقة بوحشية تشبه وحشية «سراييفو» قدَّم زائر إلى عرفات أُحجية للصور المقطّعة تمثّل القدس ليقتل بها الوقت في مخبأه تحت الأرض. ورأى عرفات كاميرات التلفزيون، فأمسك بغطاء الأُحجية أمامه، وقال: «أجل، هذه مدينتي، وبيتي، حيث ولدتُ».

في ذلك مزيد من الأحلام. فعرفات لم يولد في القدس، ولا في مخيّم اللاجئين بخان يونس في غزّة، كما يدّعي بعض رفاقه؛ بل ولد في القاهرة عام ١٩٢٩؛ وكان الخامس بين سبعة أولاد لتاجر فلسطيني يدعى عبد الرؤوف القُدوة الحُسيني. وقد قُتل وهو يحارب الإسرائيليين منذ عشرين سنة. ويقول أصدقاء عرفات السابقون إنه كان يصرف ساعات يومياً في دراسة القرآن قبل وفاة والده. وقد استوحى لفترة قصيرة تعاليم الإخوان المسلمين المصريين بينما كان يدرس الهندسة في جامعة القاهرة. لكنه جمع القوميّة مع الدين عندما قرّر ـ بغروره الذي أصبح مألوفاً ـ أن يغيّر اسمه. فترك اسمه الأول السابق «عبد الرحمن» واختار «ياسر» على اسم رجل قتله الجنود البريطانيون أثناء الانتداب. أما «عرفات» فهو اسم الجبل المقدّس الواقع خارج مكّة المكرّمة.

وهكذا أعاد اختراع اسمه، كما كان عليه أن يعاود اختراع اسم «فلسطين» لملايين اللاجئين، الذين تطلّعوا إليه طلباً للأمل. وأخيراً، أدرك عرفات أن شيئاً ما أفضل من لا شيء. وفي أوائل عام ١٩٩٣ خابره بالهاتف «علي عزّة بيغوفيتش» رئيس البوسنة، طالباً نُصحه حول خطّة السلام المدروسة في «فانس ـ أوين»، والتي فشلت فيما بعد. فسأله عرفات على الهاتف: «هل قدّموا لكم أرضاً؟» فأخبره «بيغوفيتش» بأنهم عرضوا أرضاً صغيرة، فأجاب عرفات: «خذها، خذها، واقبلْ!». ولكن رئيس البوسنة لم يأخذها. ورأى عرفات النتائج المروّعة.

صار عرفات الآن، بكوفيّته المرتّبة مسرحياً(*)، وبزّته «الكاكية»، ومسدّسه الساذج، شخصية عفّى عليها الدهر، وثائراً من أيام زمان لن يطول به الأمر حتى يتخلّى عن الأشياء الطفولية. حتى أن كلمة «ثائر» تبدو غريبة بصدده. لقد انتهت ثورة عرفات الآن. وكانت اتفاقية «أوسلو» بمثابة خيانة بالنسبة إلى نصف مليون فلسطيني لاجئ مقيم في لبنان، لا يستطيعون العودة إلى بيوتهم التي غادروها عام ١٩٤٨، والواقعة في ما يُسمّى اليوم «إسرائيل» ـ إذ إن التسوية النهائية في أوسلو لا تكاد تسمح لهم «بالعودة» إلى حيفا وناتانيا والجليل. وقال لي جندي إسرائيلي كان يحاول فرض منع تجوّل آخر في الخليل في أوائل أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٣ «قد أستطيع أن أقبل بعرفات. قارنه مع الآخرين. لم يكن سيّئاً جدّاً كإرهابي». فيا له من رثاء للحياة الثورية لياسر عرفات.

يُفترض بالثوريين أن يكونوا مفكّرين. فـ «روبسبيار» و«لينين»، و«ماركس»، و«تروتسكي»، و«أتاتورك»، و«عبد الناصر»، و«كاسترو»، و«غيفارا»: كانوا كلّهم مفكّرين، ألّفوا كتباً، أو تحدّثوا بفلسفة كبرى أثناء جهادهم. ولكنّ عرفات لم يكن كذلك. فقلّما شوهد وهو يقرأ كتباً، ناهيك بكتابة مؤلّفات. كان ذا عقليّة واحدة. وقد كرّس نفسه لذلك ـ مع كثير من الغرور ـ وكان ذلك مصدر قوّة كبرى له. كانت فلسطين، فلسطين، فلسطين هي الشاغل من البداية حتى النهاية. وبالنسبة إلى الغربيين والإسرائيليين كانت بزّته وكوفيّته تمثلان ذوقاً خيالياً. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين الفقراء فكانتا ضروريّتين، وجزءاً من الروابط الروحية في المنفى. ولكنّ تلك المعنويات الروحية شارفت على التلاشي.

كنتُ في مصر عندما سمعت الكلمة الأولى التي رشحت عن اتفاقية أوسلو. فخابرت محمّد حسنين هيكل، ووصفتُ له عرفات بأنه يشبه رجلاً رهن بيته ثم عاد يحاول بيع بيته للمصرف العقاري. فعاتبني هيكل قائلاً: «لقد سبق أن باع عرفات بيته... مرّتين». ومنذ البداية ـ من تلك الخطابات التي تُبودلت في حديقة البيت الأبيض بتاريخ ١٣ أيلول/سبتمبر ـ كان بالإمكان رؤية تطوّر وانكشاف اتفاقية أوسلو. فقد تكلّم رابين، رئيس وزراء إسرائيل، متأثراً عن «رفقائه الجدد في عملية السلام»، إذ قال: «دعوني أخبركم، أيها الفلسطينيون، أنه مقدَّر علينا أن نعيش معاً على التراب ذاته وعلى الأرض ذاتها». لكن خطاب عرفات كان أكثر تحديداً، كما لو أنه كان يدرك ما الذي سيقود هذا «الأمل التاريخي» إلى الكارثة، إذ قال: «إن المسؤولية مشتركة بين الفلسطينيين والإسرائيليين لوضع الاتفاق موضع التنفيذ، والتقدّم نحو التسوية النهائية بعد سنتيْن، وتنفيذ كل وجوه قراري الأمم المتحدة: ٢٤٢ و٣٣٨ من جميع النواحي، وحلّ كل قضايا القدس، والمستوطنات، واللاجئين، والحدود».

«كل وجوه» مكرّرة بقوله: «من جميع النواحي»؟ والقدس؟ والمستوطنات؟ واللاجئون؟ لقد كان يطلب من الإسرائيليين تقديم هدايا، ولا يقدّم لهم بالمقابل سوى السلام. وقد سمّاه «سلام الشجعان» ـ وقد أخذ عرفات العبارة من كلينتون ـ وربّما لم ينتبه في البداية أن ذلك كان صدى «السلام الشجعان» الذي عقده الجنرال ديغول مع الجزائريين في الاتفاق النهائي الذي أعطى الجزائر استقلالها. ولكنّ هذا السلام الموازي كان أكثر إيلاماً مما اعتقد عرفات ـ واعتقد الإسرائيليون.

(*) كان عرفات دائماً يرتّب كوفيته بشكل عهد الانتداب، بحيث تغطي «صحراء النقب» على قماشة أذنه اليمنى.

وفي بيروت، تلقّى شفيق الحوت سفير منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، والذي نظم مأتم الحاجّ أمين الحسيني عام ١٩٧٤، مكالمة هاتفية من عرفات، أخبره فيها صائحاً يائساً: بأنه غيّر الوثيقة التأسيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتخلّى عن حقّ العودة لحوالي ثلاثة ملايين فلسطيني. وجرى كل ذلك في الخفاء. قال الحوت: «لم تُفد هذه منظمتي لتحرير فلسطين. لقد كلّمني عرفات وناداني يا أخي، لكنني لا أستطيع الاستمرار. قلت له: لم يحصل اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني؛ ولا نعرف تفاصيل الاتفاقية. وإن قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة الرقم ١٩٤ لعام ١٩٤٨، أعطى اللاجئين حقّ العودة إلى بيوتهم في ما هو الآن إسرائيل. ولكنّ عرفات تخلّى عن كل ذلك. لقد استقلت؛ ولم أعد سفيراً».

ألقى شكر ياسين مفتاح بوّابة بيته على الطاولة في كوخه بحيّ اللاجئين الفقير، فبدا يلمع في الضوء قليلاً، بينما برت الأيام مقبضه ـ كما كان يلمع عندما هاجرت عائلة ياسين من فلسطين عام ١٩٤٨؛ وكان عمر شكر خمس سنوات عندما صار لاجئاً. سحب شكر من عُلبة لفيفة أوراق وثائقية غليظة من أيام الانتداب البريطاني ـ وعلى رأسها شعار السلاح الملكي ـ بشأن بيت تملكه عائلة ياسين في قرية «عزيب» الواقعة على بعد ١٠ كيلومترات من عكّا، وبساتين من الحمضيات. قال شكر: «احتفظتُ بهذه الوثائق لأني اعتقدتُ أني سأعود إلى بيتي في يوم من الأيام. ولكني أعرف الحقيقة الآن. لم يشمل عرفات لاجئي عام ١٩٤٨ في خطة السلام مع إسرائيل».

عام ١٩٤٨. هذا التاريخ متغلغل في كل محادثة تجري في المخيّم الكبير، المزدحم، الغاضب، الذي يغلي في «عين الحلوة» بصيدا، عبر كل شكوى وكل خطاب رسمي. إن جميع الفلسطينيين القاطنين في لبنان هم لاجئون ـ أو أولاد أو أحفاد لاجئين ـ منذ الهجرة التي تلت تقسيم فلسطين. وهناك حوالي ٦٥ ألف شخص يعيشون في بؤس عين الحلوة. تمتم محمّد خُضر، وهو يعرج في أزقّة عين الحلوة التي تُعتبر طرقاً: «يتكلّم التلفزيون والجرائد عن سلم رائع؛ ولكنّ هذه الوسائل الإعلامية لا تذكرنا. إن زعماءنا كاذبون. وعدونا بالعودة إلى بيوتنا؛ لكنّ اتفاقية السلام تشمل بعض الفلسطينيين الذين صاروا لاجئين في حرب عام ١٩٦٧. فماذا يفترض بنا أن نفعل؟». كان خُضر في الثامنة من عمره عندما سافر من فلسطين إلى لبنان على الشاحنة الخربة ذاتها التي جاء عليها آل ياسين، قبل إعلان دولة إسرائيل بأربعة أيام.

وتوزّع مليون ونصف مليون من اللاجئين الفلسطينيين الآخرين الذين هاجروا عام ١٩٤٨ على مخيّمات مبثوثة في الأردن وسوريا؛ مع مليون شخص أيضاً في غزّة والضفّة الغربيّة، وبعضهم يجدون أنفسهم أيضاً في دُوَيلتيْ عرفات. لكنهم لن يعودوا. وهكذا، صار هناك الآن حوالي ثلاثة ملايين فلسطيني ـ أي ما يعادل نصف عدد الفلسطينيين الإجمالي ـ ممّن فقدوا «الحقّ في العودة إلى ديارهم»، لأن بيوتهم واقعة في ما هو الآن إسرائيل. وفي عين الحلوة جُمّدت أسماء المدن والقرى التي جاء منها اللاجئون بإطلاقها على الأحياء التي يسكنونها الآن في هذا المخيّم. فالذين جاؤوا من عكّا يسكنون بضعة شوارع دُعيت «عكا»، والذين قدموا من حيفا يسكنون

«حيفا»، وجماعة حِطّين في «حِطّين»، وهلمّ جرّاً. أما شكر ياسين فيعيش في «عكّا» لأنها الأقرب إلى قريته «عزيب». لقد قضى ٢٧ سنة محارباً في جيش فتح، يقطع الحدود الإسرائيلية ليلاً عام ١٩٦٩، وبقي على قيد الحياة بعد الاجتياحيْن الإسرائيليّيْن عام ١٩٧٨ وعام ١٩٨٢، وحتى بعد حرب المخيّمات ١٩٨٥، و١٩٨٦، وهو واثق من وعد عرفات بالعودة إلى «فلسطين».

قال ياسين: «لا يمرّ يوم أبداً نعيشه دون أمل؛ كنا دائماً نعيش بالأمل. قُتل أحد إخواني عام ١٩٨١، بقذيفة أطلقها أعوان إسرائيل في صيدا. لقد تعذّبنا كثيراً، ولكن لم يكن بوسعنا أن نفقد الأمل. كان أبي يؤمن بالله وببلاده. ولا يسمح لنفسه بأن يعتقد أنه لن يعود إلى دياره. نحن مع السلم. نحن نريد السلم. ولكن يجب أن يكون سلما سليماً، وليس اتفاقاً مُجحفاً بحقّنا. إني من «عزيب» في فلسطين، وأبي من هناك، وجدّي، ووالد جدّي، وأقربائي هناك. يجب أن نعود جميعاً إلى قرانا».

وبالطبع، هذه قضيّة ميؤوس منها. فإسرائيل لن تسمح لثلاثة ملايين فلسطيني بأن يعبروا حدودها. ولا بدّ من تذكير فلسطينييّ عام ١٩٤٨ بأن القرى التي نزحوا منها والتي يبلغ عددها ٤٠٠ قرية دمّرها الإسرائيليون خلال السنتيْن اللّتيْن أعقبتا رحيلهم عنها؛ وأنه في معظم الحالات لم تعد بيوتهم موجودة. إن ياسين يعرف ذلك كواقع قائم؛ ولكنه لا يفهمه. وتتذكُر أمّه مريم اليوم الذي هربت فيه مع توفيق وأولادها البالغ عددهم ١٥ ولداً، والثياب والعدس والزيت وسائر اللوازم التي تركتها وراءها في منزلها ـ لأنها ظنّت أنها ستتمكّن من العودة بعد أسبوع، أو شهر في الخارج.

إنها تذكر أنه «كان بيتاً قروياً، مطلياً بالكلس الأبيض؛ له بوّابة كبيرة بنّية اللون، ودرج خشبي. كان جميلاً لوجود أشجار الليمون الحامض حوله. وقد استطاع أحد أصدقائنا أن يعود إلى هناك لفترة قصيرة، ووجد أن جميع بيوتنا قد هُدمت، بما فيها بيتنا. ولم يبقَ منها سوى بيت من حجر في أحد أطراف القرية، حوّله الإسرائيليون إلى فندق». التقط ياسين مفتاحه وقلّبه بيده، كأنه يريد أن يفتح به الباب. وقال: «لقد مرّ عشرون يوماً على سماعنا هذه الأخبار كلّها، ومنذ ذلك الوقت ونحن نعيش على أعصابنا، نحن الفلسطينيين هنا». ثم قال: «لا أدري ما هو مصيري. ولكنني آمل أن يكون في زاوية من زوايا الاتفاق موضع ما للاجئين عام ١٩٤٨، كما يقول أبو عمّار (عرفات)، حتى نستطيع العودة إلى ديارنا». وجلس ياسين يروز المفتاح بيده ـ المفتاح الذي لم يعد له بيت قائم فعلاً ـ وكأنه قد يعطيه جواباً؛ ويقول: «لقد حفظت هذا المفتاح، هذا الكنز، لمدّة تتجاوز أربعين سنة. لقد حافظتُ على هذه الأسطوانة المعدنية التي تحتوي جميع الأوراق والوثائق القانونية، حتى يتسنّى لنا يوماً أن نجد حلاً لمشكلتنا... ولم أكن لأحمل معي هذه الأشياء خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ـ وأرعاها تحت القصف ـ لو لم يكن هناك بصيص من أمل...».

الفصل الثاني عشر

الحرب الاستعمارية الأخيرة

وكلَّم الربّ موسى في عربات موآب على أردنّ أريحا قائلاً:
كلِّم بني إسرائيل وقلْ لهم،
إنكم عابرون الأردنّ إلى أرض كنعان،
فتطردون كلّ سكّان الأرض من أمامكم،
وتمحون جميع تصاويرهم، وتُبيدون أصنامهم المسبوكة،
وتُخرّبون جميع مرتفعاتهم،
تملكون الأرض وتسكنون فيها:
لأني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها
... وإن لم تطردوا سكّان الأرض من أمامكم،
يكون الذين تستبقون منهم،
أشواكاً في أعينكم ومناخِس في جوانبكم،
ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها.

التوراة، عدد: ٣٣ ـ من ٥٠ إلى ٥٥

لا يثق «بن غرينبورغر» بالعرب، ولا بالأميركيين؛ كما أنه لا يثق بكثير من السياسيين الإسرائيليين. فالّله وحده هو الذي يجمع اليهود بأرضهم. وعليّ أنا كصحافي أن أُقرّ وأعترف بأن «الّله» يحتلّ مكاناً رحباً في دفتري الخاصّ بالشرق الأوسط. نحن الآن في ربيع عام ١٩٩٢. ولا يبعد عنا اتفاق «أوسلو» سوى ١٨ شهراً. ويهودا والسامرة سليمتان الآن:

إن الأرض التي يعنيها «غرينبورغر» ـ تقع صدفةً في أرض الضفّة الغربية العربية ـ ولكن نائب رئيس البلدية في مستوطنة «معال أدومين»، وهي الأكبر في الضفّة الغربية، لا يقبل ذلك أبداً. وليس هناك أدنى شكّ في ملكيّة المنازل الجديدة المبنية على تلال الصخور والأفيون التي تمتدّ نحو جبل الزيتون. وتصرّفه يدلّ على أكثر من الاقتناع. ومطالبة العرب بها هي أكثر من تعصّب، وهم مخطئون. والكلمة التي ترد على الخاطر هي: إنّك على حقّ.

قال بلهجته، لهجة «نيوجرسي»، وعيناه الخفيفتا الزرقة تتفحّصان وجهي: «طبعاً إنها أرضنا». فكيف السؤال حول هذا الافتراض؟ وأردف قائلاً: «إذا كانت تلّ أبيب يهودية، فالخليل أكثر يهودية. ومن سوء الحظّ أن هناك شعباً يسكنها. ولكن علينا أن نتعلّم العيش مع هذا الواقع». فالعرب هم الذين يرفضون التسوية، وزعماؤهم يطلبون استعادة الأرض العربية ـ «الأرض اليهودية» حسبما يؤكّد «غرينبورغر» ـ كمرحلة أولى لتصفية إسرائيل. وأضاف: «إني لا أثق بهم. دعْهم يحصلوا على «استقلاليّتهم» مهما كلّف الأمر. دعْهم يحكموا شؤونهم وحياتهم. ولكن هذا لا يعني إقامة دولة. فالدولة يجب أن تكون يهودية. كان علينا أن نُلحق هذا المكان بدولتنا عام ١٩٦٧. ولو فعلنا ذلك لما كانت لدينا هذه المشكلات مع العرب الآن».

ولا يسع المرء وهو يستمع إلى «غرينبورغر»، البالغ من العمر ٤٢ سنة، والمحاضر في القانون بالجامعة العبرية، إلّا أن يسأل: هل أنت واثق ومتأكّد؟ ـ ولكنه بالطبع متأكّد أخلاقياً بشكل مطلق لا يُنقض؛ إذ يقول أيضاً: «كل ولد يهودي درس تاريخه والتوراة يعرف أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذي يمكن الشعب اليهودي أن يطالب به كوطن له. لو كانت إسرائيل اليوم بحدود عام ١٩٦٧، وكانت تحدِّق بتطفّل إلى الخليل، فإني أوافق على أنه لا داعي لإشعال حرب من أجل ذلك. ولكن الحرب فُرضت علينا عام ١٩٦٧؛ فربحناها؛ والآن أجد نفسي في أرض أعتبرها أرضي. فلماذا أتركها؟».

لا غرابة في هذه الآراء؛ ما دامت مستوطنة «معال أدومين» لا تزال تتوسّع ـ فسكّانها الأقوياء البالغ عددهم ١٦٠٠٠ نسمة، سيزيدون بنسبة ٢٥٪ في العام القادم في شقق مؤلّفة من غرفتين بسعر ٩٠ ٠٠٠ دولار للشقّة ـ كما أن مستوطنة «إيرفت» الواقعة على طريق الخليل والبالغ عدد سكّانها ٣٥٠٠ نسمة مرشحة للتوسّع بضُعفي تلك السرعة في منطقة تزخر بالمجابهة شبه اليومية بين العرب واليهود. وها هو «بوب لانغ»، المولود في «مانويت» بولاية نيويورك، والمتخرّج من جامعة «ويسكونسن»، والمقيم في مستوطنة «إيرفت» يُسمعني كلاماً يجعل «غرينبورغر» من المعتدلين، إذ يقول:

«إذا كان هناك شعب يهودي، فيهودا والسامرة هما موطنه. وقولك لليهودي أنه لا يستطيع أن يعيش في الخليل هو إنكار لوجود الشعب اليهودي. فتسعون في المئة من الأمكنة المذكورة في التوراة موجودة في يهودا والسامرة. لذلك، يجب أن تشكّل يهودا والسامرة دولة إسرائيل، بدلاً من الشاطئ البحري من حيث جاء الفلسطينيون القدماء (Philistines) الذين أورثوا اسم «فلسطين». و«لانغ» يتكلّم بسرعة ونشاط خارقيْن، شأن المؤمن الحقّ؛ وتأتي لغته انفعالية وتوراتية: «إن الأرض لي. إني أحسّ بها في عظمي. كان جدّي يعتقد أنه وجد موطناً في ألمانيا، خلال الحرب العالمية الأولى، لكنه هرب بعدما بدأ هتلر يحرق كنائس اليهود (Kristallnacht). ولكن هنا أرضنا، سواء أكانت بيوتنا هنا أم لا. إنها أرض يهودية، وأنا أشعر بالتاريخ في عظمي. لا يلزمني أيّ كتاب يوجّهني سوى التوراة. وكلّما عملت «التراكتورات» في بناء منازل جديدة، تبدّت لهم مواقع قديمة. وتلك المواقع القديمة يهودية».

طبعاً، هناك مشكلة. إذ إنّ مليوناً وسبع مئة ألف عربي يعيشون في الضفّة الغربية وغزّة اللتين لم تكونا أبداً جزءاً من إسرائيل الحديثة ـ وترجع انتفاضتهم الأولى إلى وجود ١١٥ ٠٠٠ مستوطن يهودي بين ظهرانِيهم، بالدرجة الأولى، أكثر مما ترجع إلى أيّة ظاهرة أخرى. ليس هناك دولة واحدة تعترف بحقّ إسرائيل في الاحتفاظ بالأراضي المحتلّة بعد ربع قرن من الاستيلاء عليها. ومع أن إسرائيل لم تُلحقها بدولتها، فقد سمحت لـ «غرينبورغر» ورفاقه من المستوطنين بشراء بيوتهم بالتقسيط على ٤٩ دفعة. فهل من العجب أن يعمد جورج بوش ـ ونعني هنا الأب طبعاً ـ إلى اشتراط وقف الاستيطان كي تحظى إسرائيل بقروضها المضمونة؟

يريد «غرينبورغر» و«لانغ» وضع حدّ لهذا التردّد؛ وتضييع فرصة المعونة الحكومية الأميركية؛ وتجاهل طلب الإسرائيليين والعرب للأرض مقابل السلام؛ ولا أقلّ من السيادة الإسرائيلية المطلقة على الأرض ـ أي ضمّ الأرض. ويقول «لانغ»: «لا عجب أن تكون لدينا هذه المشكلات. فالوضع القائم ليس جيّداً. وما دام العرب المقيمون هنا يعتقدون أنه سيكون لهم يوماً ما دولة، فهم لا يجدون مُبرّراً للتفاهم معنا. ولذلك، على إسرائيل أن تُنهي احتلالها العسكري وتضمّ الأرض كلّها، وتقول للعرب: «إن حقوقكم القومية على هذه الضفّة من نهر الأردن قد انتهت». وسيقبل العرب هذا الأمر عندما يدركون أننا جادّون فيه. وقد عاش العرب في الجليل بعد عام ١٩٤٨ تحت سلطة الشرطة حتى عام ١٩٥٦، حين توصّلوا إلى نتيجة مفادها أن إسرائيل هنا لتبقى. فقرّروا أن السبيل الوحيد للتقدّم هو أن يصبحوا مواطنين ـ كما فعلوا عام ١٩٥٧».

وإذا كان هناك شيء من الكرم مدفون في هذا الحلّ الوحشي، فما عليك إلّا أن تستمع إلى رؤية «غرينبورغر» لهذا المشهد لكي تفهم معناه الحقيقي، حيث يقول: «عندما مُنح العرب الجنسية في إسرائيل بعد عام ١٩٤٨ كانت تلك العملية متطوّرة. وباليد القوية الثابتة يمكن تكرار تلك العملية في يهودا والسامرة. وإذا ثابرنا على ذلك نحلّ هذه المشكلة ـ عندما يدرك كل امرىء أن لا عودة إلى الوراء». ولكن، ماذا لو لم يدرك العرب ذلك؟ وما هي تلك اليد الثابتة التي يتكلّم عنها «غرينبورغر»؟ وهو يجيب عن ذلك بقوله: «كل بلد له قوّات من الشرطة؛ وإذا نشأت مشكلات نتصدّى لها».

ممّا يُثلج الصدر وجود إسرائيليين يتحلّون بالفصاحة والشجاعة الكافيتيْن لتحدّي هذه العقلية الاستعمارية. ومع أن «ديدي زوكر»، العضو الليبرالي في الكنيست ورئيس حركة الحقوق المدنية لا يزال في صفّ الأقلّية، فهو رجل ـ منفتح واسع التفكير والنظر، وله مظهر أكاديمي ـ يقصده زوّار إسرائيل لسماع ما يريدون سماعه من محامد. إننا نقول لأنفسنا هذه هي «إسرائيلنا» عندما نقابل أناساً مثل زوكر. هذه هي ديمقراطية الشرق الأوسط التي نريد أن نؤمن بها، تلك التي تمثّل قِيَمنا الغربية، ويكون لها جيش يتقيّد بمعتقد «نقاء السلاح» (Parity of Arms)، تلك التي لا تدعم هذا المشروع الاستعماري الكريه لبناء منازل لليهود على الأرض الفلسطينية العربية المسلمة. ولكن «زوكر» ليست لديه أوهام حول رغبات الحكومات الإسرائيلية في الاستمرار ببناء مستوطنات في الأراضي المحتلّة، وليس لديه شكّ أبداً في ما يمثّله المستوطنون.

ويقول «زوكر» عن هؤلاء المستوطنين: «إنهم النوع الجديد من الإسرائيليين الذين يشعرون بأنهم «ضحايا» ـ بالرغم من أن لدى هؤلاء الضحايا إمكانات لاستخدام أسلحة نوويّة. إن هذا عنصر من عناصر «الرجولة والمرجلة» الإسرائيلية. ولهذا الأمر منشأ آخر يعود إلى إحياء النموذج البدائي القديم للإسرائيلي الرائد الذي يذهب إلى أراضٍ جديدة، ويحاول أن يستولي عليها بالدم، وبالتربية، ويجلب الأولاد إليها. وهذا يلائم المزاج الأميركي للتوسّع غرباً محاطاً بالأعداء. . . وفي المنظور الضيّق، ترى مستوطناً يعيش ـ ويعيش أولاده ـ في خطر يومي يحيق بهم. ولكن هذا المنظور الضيّق يتجاهل أن المستوطنين أقحمتهم الدولة هناك ليكونوا أصابع للاحتلال. والعنصر الرابع هو «الأصولية الدينية». وهنا، نحن نتكلم عن «عشيرة أو زمرة» من الأشخاص المتوجّهين نحو الكتب المقدّسة ـ إنهم منعزلون عن الحداثة، ومعارضون متغطرسون إزاء الفلسفات والإنجازات الغربية». وبالنسبة إلى زوكر ليس هناك من حلٍّ سوى إعادة تقسيم البلاد، وتشكيل بلدين يحقّقان جزءاً من مطامحهما القومية. ويقول زوكر بصرامة: «إن على المستوطنين أن يقرّروا خيارهم بين «صهيونيّتهم» ـ طموحهم أن يعيشوا في دولة يهودية ـ وبين رغبتهم في العيش في مكان مهمّ دينياً. ومعظمهم سيقرّرون العيش مع الإسرائيليين».

وفي الواقع، نجد أن الإسرائيليين الذين يعتبرون المستوطنين المستعمرين تهديداً لبقاء إسرائيل، هم قلائل؛ مع أن «يشاياهو ليبوفيتز» كان ينذر منذ انتصار إسرائيل عام ١٩٦٧، بأن الاحتلال الدائم للضفّة الغربية سيفيد بلده. هذا الأكاديمي الذي يبلغ من العمر ٩٠ سنة؛ كان رئيساً لتحرير الموسوعة العبرية (Hebraica)؛ ورئيس قسم الكيمياء البيولوجية وأستاذاً للفيزيولوجيا العصبيّة في الجامعة العبريّة، وهو أستاذ زائر في قسم الفلسفة، ويقوم بدور في استعمال المنطق للمناقشة في مكتبته بشرقي القدس.

قال ليبوفيتز:

«يجب أن نبدأ من الأساسيّات الجوهريّة ـ متجاوزين النظريّة، والإيديولوجية، وحتى الإيمان ـ فبالنسبة إلى هذا البلد الذي ندعوه «إيريتز إسرائيل» والذي يدعونه «فلسطين»، هناك شعبان موجودان، وكل منهما يعي بعقله ـ ويشعر بعظمه ـ أن هذا البلد هو بلده. ولكن التاريخ لا يمكن أن يُعدّل أو يُصحّح. ولهذا الوضع الرهيب إحدى نتيجتيْن لا ثالثة لهما». وعند هذه النقطة، توقّف الأستاذ ليبوفيتز طويلاً، منحنياً في كرسيّه، بحيث تكاد طاقيّته تنزلق عن رأسه الأصلع. صحيح أنه لا يتمتّع بنفوذ سياسي، ولكن من اليسير أن يرى المرء سلطته الأخلاقية، التي جعلته كبير التأثير على الإسرائيليين الشباب من الجناح اليساري.

ثم استأنف حديثه قائلاً: «قد ينبري أحد هذيْن الشعبيْن ليستولي على البلد الآخر ويحرم الشعب الآخر من حقّه في الاستقلال الوطني. وقد حاول العرب فعل ذلك عام ١٩٤٨، وخسروا. ولكننا فعلنا ذلك منذ عام ١٩٦٧ ـ وهذا الوضع جرّ علينا كل الأشياء المرعبة المعاصرة. إن سيطرة دولة إسرائيل على شعب آخر لا تدوم إلّا بالعنف. وليس هناك من بديل سوى التقسيم. فعلى الطرفيْن أن يتخلّيا عن مطالبتهما بالبلد كلّه. إنما التقسيم

صعب من الناحية الفنّية، بل إنه أصعب نفسياً ـ لأن لدى الشعبيْن وعياً عميقاً بأن هذا البلد هو بلدهم. ولكنّ التقسيم ضرورة مطلقة، إذا شئنا أن نتجنّب الكارثة».

وتجدر الإشارة إلى أن ليبوفيتز لا يرى أن ينفّذ التقسيم تبعاً للحدود التي رسمتها الأمم المتحدة لإسرائيل. ولا ينسى أن الأردن ألحق الضفّة الغربية به عام ١٩٤٨، وأن العرب لم يسمحوا لفلسطين بأن توجد ـ كدولة بحسب تقسيم الأمم المتحدة.

ثم قال: «ولكنّني أصرِّح بجلاء لا لَبْس فيه بأننا مسؤولون عن الحالة الرهيبة التي نحن فيها اليوم، كما كان العرب مسؤولين عن حرب ١٩٤٨، عندما كان العالم كلّه يقف وراء إسرائيل. وإذا لم يحصل تقسيم، وإذا استمرّت الحالة الحاضرة، لا يمكن تفادي عاقبتيْن: ستصير دولة إسرائيل داخلياً دولة فاشيّة فيها مخيّمات اعتقال، لا للعرب وحدهم، بل أيضاً ليهود من أمثالي. أما خارجياً، فستحصل لنا مع العرب حرب استئصال؛ وسيتعاطف العالم كلّه مع العرب. ولا يمكن تفادي هذه الكارثة إلّا بالتقسيم. ومن الناحية النفسية، سيكون من الصعب التخلّي عن مطالبتنا بالقدس كعاصمة مستقلّة لإسرائيل. فإذا تحقّق التقسيم، لا بدّ من تقسيم القدس أيضاً».

وليس من الصعب أن نرى لماذا يرفض المستوطنون اليهود ـ وربّما معظم الإسرائيليين ـ قول الأستاذ المسنّ الذي هرب من ألمانيا إلى فلسطين الانتداب في السنوات الأولى من حكم «الرايخ الثالث»، قبل أن تسوء حالة اضطهاد اليهود. ويصف «غرينبورغر» الأستاذ «ليبوفيتز» بأنه «فلتة» غريبة لوسائل الإعلام؛ بينما يرى «ليبوفيتز» «غرينبورغر» ورفاقه المستوطنين كأكبر خطر يهدّد دولته. وهكذا يقدّم الرجلان صيغتيْن متعاكستيْن لرؤية الواقع، الذي يحاول أحدهما أن يخلقه، بينما يحاول الآخر مستميتاً أن يتجنّبه. أحدهما يستقوي بالله والمنطق، والآخر بالله و«التراكتور».

انطلق أُسامة حميد ليفجّر نفسه إلى أشلاء بعد أن صلّى في جامع بلال. وقد أجمع أصدقاؤه على أنه ليس من طراز الذين يفجّرون السيارات، ولكن حمدي حميد لم يفاجأ عندما أخبروه بنبأ مقتل ابنه. كان جالساً إلى جانب حافظ المسجد حيث رأى ابنه للمرّة الأخيرة، وقال: «لقد تكلّم كثيراً عن الاستشهاد، وعن الموت في المعركة مع الإسرائيليين. وأخبرني أنه إذا استُشهد في هذه القضيّة فسيعلو مقامه في الجنّة». وكان قد أعدّ نفسه للموت بعد ثلاثة أشهر من اتفاق عرفات مع رابين في حديقة البيت الأبيض.

وكانت ملاحظات حمدي حميد تُقطع كلّ عدّة ثوانٍ بمجيء أحد الأقارب أو الأصدقاء ليقبّله ويعزّيه باستشهاد الفلسطيني الثاني خلال ٤٨ ساعة. وقبل ذلك بيوم، ساق أنور عزيز سيّارة إسعاف مشحونة بالمتفجّرات لصدم سيّارة جيب ملأى بالجنود الإسرائيليين في قطاع غزّة، فجرح ثلاثة منهم؛ وبقيت جثّته المتفحّمة المتغضنّة ستّ ساعات على الطريق، بينما كان رفاقه يروون كيف حضّر نفسه للموت ـ بالاغتسال والوضوء والصلاة في مسجد المحلّة ـ ويعبّرون عن اعتزازهم بتضحيته بالصراخ المدوّي.

أما بالنسبة إلى الإسرائيليين، فقد كان ذلك الأسبوع مخيفاً: فأداة التدمير الجماعي المخيفة التي لا تتوقّف ـ المفجّر الانتحاري ـ والتي أسهمت في استدراج جيش الاحتلال الإسرائيلي إلى جنوب لبنان قبل عقد من الزمن، قد نضجت في غزّة. فهناك اثنان آخران من المفجّرين الانتحاريين قُبض عليهما خلال ذلك الأسبوع، وعُطّلت المتفجّرات التي يحملانها. لقد فهم إسحق رابين معنى ذلك؛ إذ قال في الكنيست بتاريخ ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣: «لقد شهدنا الهجمات الانتحارية منذ أن قويت حركة «حماس؛ فحتى ذلك الوقت لم يُقدم عليها الفلسطينيون؛ كما أن اللبنانيين لم يُقدموا عليها قبل مجيء حزب الله».

وبالطبع، لم يذكّر رابين جمهوره بأن إسرائيل هي التي شجّعت أصلاً على قيام حركة «حماس» كمناوئة لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولم يكن بالإمكان معرفة مقصد أسامة حميد، البالغ من العمر ٢٥ سنة، والصيدلاني في الجامعة الإسلامية بغزّة، عندما سلّم على أبيه الذي لا يعلم مقصده في جامع بلال، وانطلق بسيّارته، والقنبلة في صندوقها الخلفي ورشّاش كلاشينكوف على المقعد ـ كي ينفّذ المهمّة الانتحارية الثانية خلال ذلك الأسبوع.

وكان إخوة الفقيد وأبناء عمّه الذين جاءوا لتعزية والده ـ وهم مجموعة صلبة من الشباب يرتدون سترات جلدية سوداء ـ يتكلّمون كلّهم عن تعاظم اهتمامه بالدين. وقد وصفه ابن عمّه وليد حميد بصورة من تلك الصور العقيمة التي تظهر بعد كل تفجير انتحاري، بقوله: «كان يقرأ القرآن دائماً، ويخطب في المسجد عن ضرورة الموت في الحرب ضدّ إسرائيل؛ ولم يكن يضحك؛ لكنه كان يلعب بكرة الطاولة من وقت إلى آخر. وكان الإسرائيليون يعتقلونه دائماً. وقد قضى أربع سنوات في السجن، بصفته عضواً في حركة «حماس». وكانوا يضربونه دائماً». وكانت عائلة أسامة حميد قد ألصقت على جدران مسجد بلال مجموعة من صوره الملوّنة. وهي تظهره شابّاً ملتحياً، يضع نظّارة، ويتأهّب مسرحياً لأخذ الصورة؛ فيركع على رجل واحدة، والكلاشينكوف بيده، ووراء رأسه آيات من القرآن الكريم. ولكنّ مُلصقات حماس التي تعلن عن آخر «شهدائها» ـ المفجّر الانتحاري السابع الذي هاجم الإسرائيليين ـ لم تُشر طبعاً إلى فشل مهمّته.

فقد انطلق أسامة حميد بسيّارته نزولاً في طريق «سجايا» بغزة، ولم يقتل أحداً من أعدائه، إذ كان يأمل صدم شاحنة للجيش الإسرائيلي ـ فوجد نفسه ملاحقاً من قِبل دورية حدود إسرائيلية لاحظت أنه يقود سيّارة مسروقة. وبدلاً من أن يقف، حاول حميد أن يطلق النار ويهرب، لكنه أصيب برصاصتيْن إسرائيليتيْن وقُتل فوراً.

قال أبوه: «كان أسامة ضدّ سلام عرفات»؛ بينما كان صوت المؤذّن ينادي للصلاة عبر الشوارع الملوّثة ببيض الذباب حول خيمة المأتم. ثم أردف قائلاً: «قال إن ذلك السلام لن يُنفّذ؛ لكنه كان قد تكلّم عن الاستشهاد في سبيل تحرير فلسطين قبل ذلك بأسابيع. وعندما شاهدته لآخر مرّة سألني عمّا إذا كنتُ مع والدته بحاجة إلى شيء ما. لم ينم إذ ذاك في البيت. ثم سمعت بما فعل في اليوم التالي». توقّف الرجل عن الكلام، شاعراً بأن ابنه يُعتبر «إرهابياً» ـ بنظر الإسرائيليين ـ قال: «إني فخور به».

ولكن، لماذا ينطلق مثل هؤلاء الشباب بسهولة إلى حتفهم؟ ففي يوم مأتم أسامة حميد، وجدتُ في مستشفى الشفاء خمسة رجال فلسطينيين ينزفون من جروح في سيقانهم. فقد أطلق الإسرائيليون النار عليهم، دون توضيح السبب، وبعد نصف ساعة أوقفني على الطريق وأنا خارج من غزّة جنود يصرخون في مجموعة من الشباب؛ وقربهم جثّة فلسطيني. فأخبرني أحد الشباب أن الإسرائيليين حاولوا أن يوقفوه «لكنه أخرج فأساً وهاجمهم، فأطلقوا النار عليه». ثم أعلن الجيش الإسرائيلي أنه قتل عرفات خليل البالغ من العمر ١٨ سنة، عندما هاجم جندياً بفأس.

سمّوه «سلام عرفات». ولم يكن أسامة حميد يعتقد أن اتفاق «أوسلو» سينفّذ أبداً؛ وكان مُصيباً. وقد بدت أولى تلك الدلائل في القاهرة بتاريخ ١٢ كانون الاول/ديسمبر عام ١٩٩٣، عندما وافق عرفات على عقد مؤتمر صحفي مشترك مع رابين، الذي سيعلن أولى الانسحابات، بحسب ظنّه. ولكن حالما رأيت عرفات أدركتُ ماذا حدث؛ إذ كانت حيويّته كلّها قد سُحبت منه. ومع أن عرفات كان يحبّ آلات التصوير التلفزيونية ـ ولا سيّما أنه صار «رئيس فلسطين» ـ فقد حملق فيها دون أن يرمش، وكأنه خائف. في هذه المرّة، لم يكن لديه شيء يخبرنا به، ولا حتى مسحة هتاف عشية اليوم الذي سمّاه «اليوم المقدّس»؛ إذ لم يكن باستطاعته أن يعلن عن أي انسحاب إسرائيلي من الأراضي المحتلّة، أو عن إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين، أو عن ممرّات للمستوطنين اليهود في الضفّة الغربية وغزّة، أو عن حجم «المنطقة الفلسطينية المستقلّة» في أريحا؛ حتى أنه لم يتلفّظ بكلمة القدس. وعندما سُئل عن الانعكاسات السلبية على الأراضي المحتلّة، بسبب خيبة منظمة التحرير والإسرائيليين في بدء الانسحاب في موعده، قال عرفات: «أرجو أن لا يحصل ذلك».

عرفنا أن هناك شيئاً ليس على ما يُرام في المحادثات بين عرفات و«رابي» حالما دخل رئيس وزراء إسرائيل الغرفة، تحيط به وجوه متجهّمة لمفاوضيه العازفين عن الابتسام. وجاءت كلماته كما يتشدّق عادة، إنما دون الحيوية التي أبداها منذ الأشهر الثلاثة القصيرة التي مضت على لقاء البيت الأبيض. تكلّم عن «صعوبات» تحقيق الأمن، وممرّات المستوطنين، والحدود التي سترسم بين «المناطق الفلسطينية المستقلّة» والأراضي المحتلّة من قِبل إسرائيل.

وبالطبع، أخبرنا أنه لن يكون هناك فرقٌ يذكر. إنه تأخير عشرة أيام على معاودة المحادثات لجلاء القضايا. قال: «لا أرى سبباً لقيام أيّة صعوبة في تنفيذ «غزّة ـ أريحا أولاً»، ضمن الإطار الزمني للمفاوضات، إذا توصّلنا إلى اتفاق خلال عشرة أيام من الآن...» وبتعبير آخر، ما زال بالإمكان إكمال الانسحاب الإسرائيلي بتاريخ لا يتجاوز نيسان/أبريل ١٩٩٤. وترك عرفات ليتكلّم عن «بعض نقاط التنوّع والاختلاف» ولمّا كان عرفات قد فشل في تأمين ضمانات دولية لاتفاقية «أوسلو»، فقد التجأ إلى مناشدة النرويجيين ليضغطوا على الإسرائيليين كي يبدأوا بالانسحاب بتاريخ ١٢ كانون الأول/ديسمبر. كما ناشد «وارن كريستوفر» وزير الخارجية في حكومة كلينتون لحثّ إسرائيل على القيام بانسحاب رمزي على الأقلّ في تاريخ ذلك «اليوم المقدّس». ومن جهة أخرى، تعلّمت منظمة

التحرير الفلسطينية، أثناء زيادة انشغالها بهذا الأمر، أن الدبلوماسيين الأميركيين في الشرق الأوسط ـ الذين يُعتمد عليهم لمعرفة اتجاه الريح، عندما تُخفق الخطط ـ بدأوا يتباعدون عن تلك الاتفاقية التي شجّعوا العالم على التصفيق لها، كنهاية ممكنة لمئة سنة من الصراع. وقد أشار هؤلاء الدبلوماسيون إلى «ثغرات» في بنود الاتفاق الذي وقّع بتاريخ ١٣ أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٣. وأخبرت سفارات أميركا المراسلين الأميركيين أنه يجدر النظر إلى ذلك الاتفاق كخطوة أولى على درب السلام، وليس كنهاية بحدّ ذاته.

ولم يمنع أي شيء من هذا «خبراءنا» ـ أي كل أولئك الذين يعتقدون أن إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية سيكملان عملية السلام ـ من الاعتصام بتحليلهم الخاطىء الدالّ على أن الإسرائيليين سيفوزون بالسلام. وقد أطلع «تشالز ريتشاردز» رئيس تحرير قسم الشرق الأوسط في جريدة الإندبندنت، القرّاء بتاريخ ١٤ كانون الأول/ديسمبر على أن «الاختراق التاريخي لا تُعكس مسيرته... فرابين قرّر؛ حاملاً بلاده معه؛ وإسرائيل كالعادة هي التي تأخذ المبادرة، لا الفلسطينيون». ولكن التباطؤ الإسرائيلي صار مَعْلماً من معالم السنوات التالية، وأسهم في انهيار اتفاق «أوسلو». وفي الواقع، لم تمضِ ٢٤ ساعة على ذلك المؤتمر الصحافي الكئيب، حتى قال رابين: «من الخطأ الاعتقاد أن الاتفاق قد يوقّع في الأيام العشرة القادمة».

وعندما عدتُ إلى الخليل، وجدتُ رجال «حماس» يتكلّمون عن تجديد «الانتفاضة»، وعن «تفوّقهم» في فهم «استسلام» عرفات. وكانت هناك كتابات حديثة بالدهان الأسود على الجدران قرب جامعة الخليل، تهدّد المستوطن الذي قتل مدنياً فلسطينياً في تشرين الثاني/نوفمبر، بالقول: «إن حركة حماس الإسلامية ستقتل الرجل الذي قتل طلال بكري»؛ وتزيد على ذلك قولها: «إن سلاحنا يتكلّم؛ وسنقضي على بائع بلادنا». و«البائع» طبعاً هو عرفات. وقد صادفت «إبراهيم» وهو يجمع في كيس بلاستيك أرغفة خبز من فرن على الشارع الرئيسي من الخليل ـ ومعظم الفلسطينيين يفضّلون عدم كشف أسمائهم ـ ويدّعي أنه مناصر لحماس، ويقول: «نشكر رابين لأنه رفض أن يساعد عرفات. وكما ترى يريد الجيش الإسرائيلي الآن أن يتفاوض معنا، وليس مع منظمة التحرير الفلسطينية».

ومن الجدير بالملاحظة أن إبراهيم كان مصيباً. فقد أقرّ الجيش الإسرائيلي بفتح حوار مع «حماس» ـ ضدّ عرفات ـ إذ التقى مسؤولين من «حماس» مع العميد «دورون ألموغ» قائد قطاع غزّة. فتكلّم العميد ألموغ عمّا إذا كانت «حماس» تفضّل «استمرارية الاحتلال الإسرائيلي على سيطرة عرفات في إطار الاستقلالية»، وحدّث «حماس» بشأن بذل كل هذا الجهد من قِبل الإسرائيليين لتقويض مركز رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت الحقيقة طبعاً أن في الجيش الإسرائيلي أعضاء كرّسوا أنفسهم لنسف اتفاق «أوسلو» ـ كما أن هناك أيضاً إسرائيليين مجرمين، بلغ بهم غلّهم أن يقتلوا رئيس وزرائهم عام ١٩٩٥، لإطفاء كل أمل في عقد اتفاق مع الفلسطينيين.

وفي هذه الأثناء، كان على عرفات أن يشرح لزملائه العرب عمله الطائش المغامر. وقد سافرتُ من جديد إلى القاهرة لأحضر الأداء المُحْرِج لعرفات في موقفه كرجل واحد، في الدورة المئة من دورات انعقاد الجامعة

العربية الضعيفة النفوذ. وقد عبّر عن هذا الوضع موفد مشرقي ـ وللقرّاء أن يخمّنوا من أيّ بلد أتى ـ بقوله: «تهريجات غريبة». وبالفعل ظهر عرفات أمام رفاقه العرب كتلميذ مدرسة عليه أن يشرح الكثير. فقد أرادوا أن يعرفوا لماذا فاوض من وراء ظهورهم، بعدما طالب جميع العرب بأن يفاوضوا إسرائيل معاً؟ وماذا عن السلام «الشامل» الذي طلبه جميع القادة العرب ـ بمن فيهم عرفات ـ ؟

وضع عرفات نظّارته، وقرأ من نصّ مكتوب بعناية. قال إنّ على العرب أن «يجابهوا النظام العالمي الجديد» لئلا يُستبعدوا منه. وإن فلسطين ستبقى دائماً جزءاً من الأمّة العربية. وأردف محاضراً: «بالرغم من أننا نحمل شقاء أمّتنا، وأقوالها، وتطلّعاتهم، فإننا نقف على عتبة مرحلة جديدة من تاريخنا». أجل، ستكون هناك دولة فلسطينية مستقلّة وعاصمتها القدس. وستجري مناقشات ومشادّات في المجلس الوطني الفلسطيني. ولكن في آخر الأمر، قرّرت منظمة التحرير الفلسطينية منذ زمن بعيد «إقامة دولة على أي جزء من فلسطين المحرّرة».

ثم جاءت المصيبة الكارثة. «بعد ٢٢ شهراً، لم يحصل تقدّم في المحادثات الفلسطينية الإسرائيلية (في واشنطن)، بينما ازداد القهر الإسرائيلي لشعبنا الفلسطيني في الأراضي المحتلّة». وقد أخذ عرفات على عاتقه القيام بمحادثات سرّية «لكسر ورطة الجمود التامّ، ولتجسير الهوّة عند الطريق المسدود» في محادثات السلام بواشنطن. فإذاً هذه هي القصّة. وكان على العرب أن يكونوا ممتنّين لعرفات الذي أنقذ «عملية السلام» وحده، بالشروع في مفاوضاته السرّية مع إسرائيل. وفي النهاية الأخرى من القاعة، كان فاروق الشرع، وزير خارجية سوريا ـ وشرطي الرئيس الأسد المرتدي بزّة رمادية والمرابط في آخر القاعة ـ يجلس ويدخّن السجاير الفاخرة، بينما يسجّل مساعدوه الملاحظات. وهنا نجد تقريراً مدرسياً، يثير الاهتمام بقراءته، لكن المدير في دمشق سيجده غير مُرْضٍ. إنما لم تكن هناك نهاية لتنازلات عرفات.

واستأنف عرفات قوله: «في سبيل مجابهة التصلّب الإسرائيلي، كان علينا أن نتراجع عن الشروط المرجعية لعملية المفاوضة. فالفلسطينيون كانوا على أُهبة الدخول في عهد جديد». وقد ذكّرنا في درسه التاريخي الذي ألقاه علينا بالمؤتمر الصهيوني الأول المعقود في سويسرا عام ١٨٩٧، ثم أورد أن العالم اعترف أن شعب فلسطين، «عاش على هذه الأرض، منذ بدء الخليقة». كلّا، إن الحلّ الكامل لم يحن وقته بعد. «إن العملية المتمرحلة قد أكسبتنا جزءاً عزيزاً من فلسطيننا في أريحا وغزّة، وتأسيس الحكم الذاتي الفلسطيني. . . والأهمّ ليس النصّ أو بدء الانسحاب الإسرائيلي، بل أن تُشرف السلطة التنفيذية الفلسطينية على كامل الأراضي المحتلّة». فهذا الحلّ وحده ـ أي صفقة عرفات ـ هو الذي يكفل تحقيق سلام «شامل». ولم يذكر عرفات مُنتقديه الفلسطينيين من المعارضة الإسلامية المسلّحة. . . أما بشأن الملايين من الفلسطينيين الذين لم يرد ذكرهم في الاتفاقية، فقد قال عرفات: «سأخبركم فيما بعد ماذا سيحصل للاجئي عام ١٩٤٨»؛ ولكنه لم يخبر أبداً.

وعندما ذهب إلى الأسد في دمشق ليقدّم اعتذاراته، جلس القائد السوري إلى يمين عرفات صامتاً، بينما كان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يشرح اتفاقه السرّي مع إسرائيل. ثم قال الأسد لعرفات بهدوء وبصوت منخفض

وإنما قاسٍ: «أنت تجلس الآن على الكرسيّ التي جلس عليها السادات، عندما جاء ليراني قبل عقد معاهدة سلامه مع إسرائيل ـ انظر ماذا حدث له». لقد قُتل السادات عام ١٩٧٩ ـ على يد أحد جنوده ـ وقد ألقى هذا القتل بظلّه على كل زعيم عربي منذ ذلك الوقت. وفي عام ١٩٨٢، عبّر الرئيس اللبناني المنتخب، بشير الجميّل، عن رغبته في عقد صلح مع إسرائيل ـ ثم مات بعد أسابيع بقنبلة انفجرت خلال اجتماع للكتائب في بيروت. وفيما بعد وصف عبد الحليم خدّام، نائب الرئيس السوري، بشكل غير رسمي اتفاق «أوسلو» بأنه «أسوأ وثيقة وقّعها العرب منذ تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨».

ومنذ البداية لم نفهم لماذا أصرّ الإسرائيليون اليمينيّون، فضلاً عن الإسلاميين الفلسطينيين ـ الذين يمكن أن ندعوهم يمينيّين ـ على معارضة اتفاق «أوسلو». فدرجة خيانة عرفات غطّت على المدى الذي بلغته خيانة «رابين» بنظر المستوطنين الإسرائيليين في غزّة والضفّة الغربية. ولما قرّر «باروخ غولدشتاين»، ضابط الاحتياط في الجيش الإسرائيلي ببزّته الرسمية، القيام بمجزرة يقضي فيها على المصلّين الفلسطينيين في جامع قبر إبراهيم في الخليل بتاريخ ٢٥ شباط/فبراير ١٩٩٤ ـ لم نعرف ـ نحن الصحافيين، والأميركيين، والأوروبيين، والإسرائيليين ـ ماذا يجدر أن يكون ردّ فعلنا. فالمفروض في «الإرهابيين» أن يكونوا عرباً. لكن غولدشتاين، كان متعلّماً وطبيباً مولوداً في أميركا ـ ويا الّله ـ مَن كان يظنّ أنه كان مُقدِماً على عملية انتحارية. والناجون من تلك المذبحة ضربوه وخنقوه ومزّقوه إرباً.

وقد تحدّثت التقارير الأوّليّة حول الحادثة عن أكثر من ٥٠ قتيلاً فلسطينياً في الخليل ـ وكان التقدير دقيقاً. وبعد أن أردى غولدشتاين أكثر من عشرين فلسطينياً وجرح ١٧٠ آخرين في المسجد الملطّخ بالدم، قتل الجنود الإسرائيليون أيضاً ٢٥ مدنياً من الفلسطينيين المغتاظين على الأقلّ في الخارج؛ ممّن ضربوهم بالحجارة وحاولوا اقتحام الشريط العسكري الذي كان مفروضاً فيه أن يحمي المنطقة المقدّسة ـ والذي خاب في أن يحمي المصلّين. ولكن الصحافة المتحدة غيّرت الإحصاءات خلال ٣٦ ساعة. فغولدشتاين ذاته قتل ٢٩ فلسطينياً ـ وكانت تلك الحصيلة الإجمالية لحمّام الدم. أما الباقون البالغ عددهم ٢٥ قتيلاً، فقد ابتكروا لهم قصّة أخرى وقالوا إنهم قُتلوا في أعقاب المجزرة.

كما أنهم غيّروا أيضاً هويّة القاتل الإسرائيلي. قال شفيق الحوت سفير فلسطين في بيروت المستقيل حديثاً: «تصوّر لو ارتكب هذه الجريمة فلسطيني في كنيس يهودي: كأن يُقتل خمسون يهودياً على يد مسلّح فلسطيني واحد، ماذا كان يمكن أن يكون ردّ فعل العالم هذا الصباح؟ أخبرني». لقد كان السؤال صعباً. فبادئ ذي بدء كان العالم قد سمّى المسلّح «إرهابياً»؛ وأسبغ اللقب ذاته على جماعته. وهدّد كل بلد يؤوي مثل تلك الجماعة الإرهابية بالعقوبات. وكان الرئيس الأميركي قد أدان ذلك الفعل واعتبره بحقّ «جريمة شنيعة».

ولكنّ ذلك لم يطبّق في هذه الحال. فغولدشتاين كان إسرائيلياً. وكان ضابطاً إسرائيلياً احتياطياً. وكان مستوطناً يهودياً. لذلك، وصفته نشرتا أخبار غربيّتان فحسب بأنه «إرهابي». وكان هذا القاتل مرتبطاً بحركة «كاخ»

اليمينية. ولكن تلك الحركة كانت شرعية في إسرائيل. وكان لها مكاتب في نيويورك. وقد انبرى الرئيس كلينتون ـ سائراً على خطى الإدارة الأميركية السابقة، عندما بدا أن إسرائيلياً هو المسؤول عن المجزرة ـ ليصف المذبحة التي جرت عند قبر إبراهيم عليه السلام بأنها «فعل إجرامي كبير»، كما كانت فعلاً، ولكنها أيضاً «مأساة رهيبة». لقد كان ذلك كلام المراوغة والمداهنة المعهود ذاته. فالضحايا ليسوا ضحايا إرهاب بل ضحايا مأساة ناتجة عن كارثة طبيعية، أو موجة مدّ بحرية، أو هزّة أرضية.

وغير بعيد عن منزل الحوت في بيروت، وحول مخيّم «مار إلياس»، رُفعت أعلام الحداد السود على أعمدة الكهرباء وأسلاك التلفون والجدران. وقد صرخت في وجهي امرأة: «أنتم ساعدتم الإسرائيليين، أيها الملعونون. . . ليس لنا وزن عندكم، إنكم تعتبروننا حيوانات». وفي المكتب الضيّق للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، هدر صوت سهيل الناطور هائجاً: «أتساءل لماذا كان الغرب مستعدّاً لمساعدة أهل البوسنة، عندما قُتل منهم ٦٨ شخصاً في سوق سراييفو، ولم تتحرّكوا أيها الغربيون لحمايتنا عندما قُتل منا حوالى ذلك العدد، في المسجد وحواليه؟ لقد بلغ الضعف بالفلسطينيين مبلغه، بحيث صار الإسرائيليون يكرّرون جرائمهم ضدّنا».

ويجدر القول: إن الدول العربية ترفع الصوت لإدانة مجزرة الخليل، دون أن يكون لها ما يكفي من السلطة الأخلاقية لتصوّب إصبع الإدانة. فباستطاعة مصر أن تندّد بذلك القتل، لكنّ شُرطيّيها كانوا يعذّبون مئات من الأسرى المسلمين في القاهرة، بطريقة منهجية. وبإمكان الأردنّ أن يدين حمّام الدم، وينسى عدداً أكبر من الفلسطينيين ذُبح على أيدي الجنود الأردنيين في عام ١٩٧٠. ويمكن سوريا أن تشجب فعل إسرائيل، وتتجاهل الآلاف ممّن أعدمتهم القوّات السورية الخاصّة في حماه عام ١٩٨٢. أما الإسرائيليون فلهم أيضاً قائمة بالفظاعات التي ارتكبها الفلسطينيون ضدّهم: كالقنبلة التي قتلت ١٢ إسرائيلياً في سوق القدس عام ١٩٦٨، وإطلاق النار بوحي فلسطيني في مطار تلّ أبيب حيث قُتل ٢٥ شخصاً، بمن فيهم عدّة إسرائيليين عام ١٩٧٢؛ فضلاً عن مقتل ١١ إسرائيلياً من الفريق الأولمبي الإسرائيلي في ميونيخ في العام نفسه؛ وقتل ١٦ مدنياً في «كريات شمونة» عام ١٩٧٤؛ وقتل ٢١ ولداً في «معلوت» عام ١٩٧٤. وهذا مؤشّر على إمكان انهيار كامل «لعملية السلام» الحمقاء، مع أن هذه الأعداد ستكون معتدلة، إذا قورنت بما سيأتي فيما بعد.

وفي عام ١٩٩٤ ثار هيجان العرب الخاصّ ـ العرب العاديين لا زعمائهم غير المنتخبين ـ ضدّ المعايير المزدوجة التي يتعامل بها الغرب. وطالما سئلت: «لماذا فوجئ الغرب بمجزرة الخليل؟ فهل نسينا مجزرة صبرا وشاتيلا التي حدثت عام ١٩٨٢، والتي ارتكبها حلفاء إسرائيل من الكتائب اللبنانية وبوجود القوات الإسرائيلية في بيروت، حيث قتل حوالى ١٧٠٠ فلسطيني؟ وهل نسينا أنه كلّما قَتل فلسطيني إسرائيلياً يُوصم بأنه «إرهابيّ»؛ بينما كلّما قتل إسرائيلي فلسطينياً يُوصف بأنه «مستوطن يهودي مختلّ»، أو أنه «مهاجر أميركي»، أو من «المقاتلين اليهود السرّيين»، ولكنه لا يوصم أبداً بأنه «إرهابي»؛ (إلّا مرّتين).

وفي أعقاب مجزرة الخليل، فتّشتُ في محفوظاتي المبعثرة فوجدت أنه بتاريخ ٩ نيسان/أبريل عام ١٩٤٨،

وصفت الصحافة المتّحدة مسلّحي «أرغون» ـ الإرهابيين بأيّ مقياس ـ والذين ارتكبوا مجزرة دير ياسين، بأنهم «مقاتلون يهود سرّيون راديكاليون». وفي تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٦، قُتل ٤٣ فلسطينياً في بلدة «كفرقاسم» على يد الجنود الإسرائيليين لأنهم على بساطتهم خرقوا منع التجوّل؛ ثم جاء حمّام الدم في صبرا وشاتيلا. وممّا يثير الفضول، أن مجزرة «صبرا وشاتيلا» لا تظهر في القائمة التي أعدّتها الصحافة المتحدة عن «المهاجمات بين الإسرائيليين والفلسطينيين» منذ عام ١٩٤٨. بينما ذكرت لجنة «كاهان» الإسرائيلية للاستقصاء، التي اعتبرت شارون «مسؤولاً شخصياً» عن المذابح، أن الجنود الإسرائيليين الموجودين حول المخيّمات شاهدوا بعض أعمال القتل، ولم يفعلوا شيئاً خلال فترة المجزرة التي دامت ٣٦ ساعة. وبتاريخ ٢٠ أيار/مايو ١٩٩٠ صفّ جندي إسرائيلي جماعة من الفلّاحين الفلسطينيين في «ريشون ليزيون»، وقتل سبعة منهم برشّاشه. وقد غطّت الصحافة الدولية هذا القتل تماماً، دون أن تذكر كلمة «إرهابي». وكان التفسير هو أن الجندي كان «مختلّاً». وبعد خمسة شهور، فتحت الشرطة الإسرائيلية النار على فلسطينيين في القدس وقتلت ١٩ رجلاً. وكان من نصيب وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر أن يتكلّم عن هذه المجزرة. ولكنه لم يدْعُها «مجزرة» بل «مأساة»، كما استعمل «كلينتون» فيما بعد الكلمة ذاتها لوصف مجزرة الخليل.

إن قائمة الأهوال ليست شاملة؛ ولكنْ هناك نمط ظاهر منها. فعندما يقتل الفلسطينيون الإسرائيليين، نعتبر القتلة شرّيرين، ولكن عندما يذبح الإسرائيليون الفلسطينيين، تعتبر أميركا وسائر البلدان الغربية أنه يمكن النظر عملياً إلى هذه الجرائم بصفتها مآسي، وسوء تفاهم، أو من عمل أفراد مجانين. والفلسطينيون ـ بالمعنى الإجمالي الشامل ـ هم المسؤولون مبدئياً عن حدوث هذه الأعمال الشنيعة؛ أمّا إسرائيل فغير مسؤولة. وهكذا، حصل تشويش على مدى الأيام في ردّ فعل الغرب على الأعمال الشنيعة الإسرائيلية، بحيث أصبح ردّ الفعل الغربي في نهاية الأمر مُضرّاً بإسرائيل، كما هو مضرّ بالغرب نفسه. فعندما يقتل جنود أو مستوطنون إسرائيليون الفلسطينيين، تبعدهم التقارير لفظياً عن كونهم إسرائيليين.

فـ «باروخ غولدشتاين» كان ضابطاً كبيراً برتبة رائد في الجيش الاحتياطي الإسرائيلي. ولكنّ هويّته خضعت لتغييرات وتحويلات صارت اليوم معروفة في نشرات الأخبار التي كانت سائدة في تلك الأيام. فلم يعد يشار إليه كجندي وضابط إسرائيلي، مع أنه كان مرتدياً بزّته العسكرية الرسمية وحاملاً رشّاشه العسكري عندما انطلق ليقتل، بل وُصف بأنه «مهاجر يهودي أميركي». وخلال فترة ١٢ ساعة فحسب، حام إثم الرجل بلطف حول سُمعة الولايات المتحدة الأميركية، وأثناء العملية ذاتها تضاءلت أهمّيةُ جنسيّة القاتل الإسرائيلية. ولكن عندما تورّطت إسرائيل كدولة في إزهاق الأرواح العربية ـ في الغارات الجوّية الواسعة الماحقة التي شنّتها على بيروت عام ١٩٨٢ مثلاً، إذ كان السلاح الجوّي الإسرائيلي يقتل أكثر من ٢٠٠ شخص يومياً في أوائل شهر حزيران/يونيو من ذلك العام ـ جرى أيضاً تجنّب الشعور بالإثم أخلاقياً. فتلك الغارات لم تكن أعمالاً «إرهابية»، بل عمليات عسكرية ضدّ «أهداف إرهابية».

وكذلك الأمر في وصف القصف الإسرائيلي لجنوب لبنان عام ١٩٩٣؛ إذ استُعملت فيه تعابير لغوية معوّجة.

فانتقاماً لقتل ٩ جنود إسرائيليين في المنطقة التي احتلّتها إسرائيل من لبنان، قامت إسرائيل بمهاجمة قرى جنوب لبنان، وقتلت أكثر من مئة شخص، من رجال ونساء وأولاد ـ أي ضعف ما قتله غولدشتاين تقريباً ـ وسيَّرت قوافل من اللاجئين يقدّر عدد أفرادها بما يناهز (٣٠٠ ٠٠٠) لاجئ، على طريق بيروت. وكنتُ آنذاك من بين قلّة من المراسلين الأجانب في لبنان. وقد شاهدت بأمّ عيني النساء والأطفال يصرخون من الألم في أروقة المستشفيات، بسبب احتراق أجسادهم بفعل القنابل الفوسفورية الإسرائيلية. وقد كلّفت هذه العملية، بحسب تصريح وزير مالية إسرائيل، ٣٣ مليوناً من الدولارات الأميركية، تكفّلت واشنطن بفاتورتها، وأخذتها على عاتقها. وماذا كان ردّ فعل الرئيس كلينتون؟ لقد ألقى اللوم على «حزب الله» ـ الذي قتل الجنود التسعة ـ وحمّله مسؤولية كل ما حصل من قتل؛ وناشد «جميع الأطراف ضبط النفس».

ومن خلال هذا التعتيم والإرباك رُسم للشرق الأوسط إطار نظري تبريري جديد ـ على نطاق سياسي وجغرافي أكبر بكثير ـ ولا يزال قائماً حتى اليوم. وهو على هذا المنوال: تجري أميركا «عملية سلام». وكل من يدعمها هو صديق. ويشمل ذلك إسرائيل وعرفات ـ إلّا إذا تحوّل عرفات وعاد «سوبر ـ إرهابي» ـ كما يشمل مصر والأردنّ والعربية السعودية. ولكن، أيّ عربي يعتقد أن اتفاق عرفات ـ رابين كان خاطئاً ـ أو يعتقد اليوم أن خطط واشنطن الطموحة جدّاً والتي لا أمل بنجاحها في العراق وسائر الشرق الاوسط، هي خطط تقوم كلّها على أكاذيب أو على خدع ـ وكل امرىء يعارض هذه السياسة، أو يرفضها، أو لا يوافق عليها ـ ولو بغير العنف ـ أو يقول شيئاً يضرّ بها، كان يُعتبر ولا يزال يُعتبر عدوّاً؛ وبعبارة أدقّ، وبحسب تقارير الصحافة الأميركية «عدوّاً للسلام».

وهكذا، وبصورة أوسع، فإن كل مَن يعارض سياسة أميركا في المنطقة ـ ممّا يعني أيضاً كل مَن يعارض إسرائيل ـ هو عدوّ للسلام. وهذه العبارة الشاملة تقود إلى تشويهات غريبة متنافرة، فقد تظاهر أولئك الفلسطينيون ضدّ ما كانت تقوم به إسرائيل من تفجير بيوتهم البالغ عددها ١٧ بيتاً، وضربها بالصواريخ في «طوفه» بمنطقة غزّة عام ١٩٩٣، فعرضت محطة السي إن إن (CNN) شريطاً يظهر أحد الشباب الفلسطينيين يرشق الجنود الإسرائيليين بالحجارة. ولكنّ التعليق وصف ذلك الشاب بأنه «يتظاهر ضدّ عملية السلام». فما دام يحارب الإسرائيليين، فهو «عدوّ للسلام». وحتى لو كان ذلك سبب تظاهره، فقد كان يُنظر إليه على أنه غير شرعي(*). ولكنّ اتفاقية منظمة التحرير الفلسطينية مع الإسرائيليين في «أوسلو» كانت ـ بنظر العديد من الفلسطينيّين ـ هي التي سمحت لإسرائيل بالاحتفاظ بجنودها ومستوطنيها في الضفّة الغربية وفي غزّة. إن عرفات، بنظر عشرات الألوف من المنتقصين من قدره، هو الذي شرّع المستوطنات اليهودية، التي جاء منها القاتل الجزّار الذي قتل الفلسطينيين في الخليل. ولمّا كانت الجرائد وشبكات التلفزيونات الأميركية لا تريد أن يعتبروها «عدوّة للسلام»، لا يدرك الكثيرون في بلاد

(*) عندما استجوبتُ رئيس مكتب السي إن إن (CNN) في القدس حول ذلك التعليق الكاذب الخادع، أجاب بأن: الشريط من النوع العامّ الشائع، واعتبر الفيلم عامّاً شائعاً لأن العنف كان عامّا شائعاً، ولأن الفلسطينيين هم على وجه العموم شعب عنيف. لقد تظاهروا، ورشقوا بالحجارة، واعترضوا على «السلام»، وبالتالي كانوا، كما أظنّ، ضدّ الإسرائيليين، وضدّ الأميركيين، وضدّ السلام، وبالطبع «محبّذين للإرهاب».

الغرب كم كانت اتفاقية عرفات الكوارثية مع إسرائيل عامل تشرذم، ولا سبب لوم إسرائيل مباشرة من قِبل الفلسطينيين لحدوث مجزرة الخليل. لقد نفت حكومة إسرائيل أيّ تورّط في المذبحة. ولكن ذلك لا يعني أنها لم تكن مسؤولة عن المذبحة. وذلك لأن سياسة إسرائيل الاستعمارية، وتسليحها للمستوطنين المستعمرين، وما نتج عن ذلك من مقاومة فلسطينية ضدّ الاحتلال، كل ذلك قاد مباشرة إلى عملية القتل الكبرى في الخليل. وحتى لو كانت عملية القتل عملاً فردياً، فقد كان لا معدى عنها. ففي كلّ بيئة، تُقزَّم فيها إنسانية خصوم إسرائيل، وحيث يعامل المجرمون الإسرائيليون على مستوى أخلاقي مختلف عن معاملة المجرمين الفلسطينيين، ستُرتكب مثل تلك الجرائم. لقد نظر غولدشتاين إلى العرب «كإرهابيين» ـ تلك الكلمة الصدئة التي ساقت الإسرائيليين إلى مغامرتهم في لبنان عام ١٩٨٢، والتي أقنعت الأميركيين بأن يركبوا رأسهم ويرتكبوا حماقتهم في العراق، بعد ذلك بفترة ٢١ سنة ـ وعلى ذلك، مشى غولدشتاين إلى جامع الخليل لطرد الشياطين التي خلقناها كلّنا له.

وعرفات أيضاً لديه شياطينه. وعندما بدا ذلك الساحر المشعوذ المسنّ متأخّراً كالعادة في غزّة، كان لديه وهمٌ آخر يخدعنا به. كان وجهه هو ذاته، كما كان منذ ١٢ سنة في بيروت، عندما ادّعى أنه انتصر على الإسرائيليين المنتصرين، وتفقّد جنوده على رصيف الميناء قبل أن يهرب من لبنان. لكنه يبدو الآن أكبر سنّاً، وقد برزت عظام خدّيه؛ لكنّ عينيه بقيتا على ما كانتا عليه تماماً بينما كان يشقّ طريقه عبر الحشد المتحمّس، ساعياً بين النشوة والخوف. وقبل ذلك بدقائق، كان أحد المسلّحين يصرخ بمكبّر الصوت أن عرفات سيقودهم إلى القدس، وبدا أن كثيراً من الفلسطينيين يؤمنون بكلامه.

وتكثّفت الأوهام. فقد أنبأنا عرفات في تلك الساحة المكتظّة الحارّة من غزّة أنه جاء «ليبني وطناً للحرية والمساواة والديمقراطية». فمن يستطيع أن ينكر على الفلسطينيين أحلامهم بعد ما قاسوه من ظلم سنوات الاحتلال؟ ومع ذلك، من ينكر أيضاً المشاهد المألوفة على الطريق من نقطة الحدود المصرية في رفح: المسلّحين الصارخين، والشباب المسلّحين الذين يطلقون النار ابتهاجاً من نوافذ السيّارات، والاندفاع خوفاً خارج خان يونس، وتحطّم العربة بين أشجار الزيتون إلى جانب الطريق؟ إنها ذكرى لبنان تمرّ على الخاطر.

وحتى قبل أن يُمسرح عرفات رجوعه إلى بلده، ويقف أمام آلات التصوير التلفزيونية الدولية، كان هناك رجال أمن بدينون مُريبون من مخابراته، منتشرين على الطرقات، ومسدّساتهم مثبّتة على خصورهم. وقد ذكّروني عند إحدى نقاط التفتيش كيف كانوا هم هم ـ أعضاء في الجهاز ذاته الذي كان يحكم بيروت. وقد يتمتّع هذا الوضع ببعض الحسنات. فالصحافيون شُجِّعوا على أن يشهدوا كل لحظة من عودة عرفات المظفَّرة إلى «فلسطين»؛ ولكنّ الموظّفين الفلسطينيين، وهم يقلّدون قاهريهم، كانوا يسمحون للصحافيين الذين يحملون أوراقاً ثبوتية إسرائيلية ـ أو أوراقاً صادرة عن السلطة الفلسطينية في غزّة ـ بأن يبلغوا حدود رفح. ولكنّ بطاقتي الصحفية ـ الصادرة عن الحكومة اللبنانية ـ صارت غير نافعة هنا. وكانت المراسلة اللامعة لجريدة الإندبندنت، «سارة هيلم» حاصلة على جميع الأوراق اللازمة. فتلطّفت بقولها لي ولزميل آخر، بينما كنا نقف في الوحل على جانب الطريق: «لا تقلق يا

روبرت، فحالما أصل إلى رفح سأجد لك موظفاً ينقذك». ولكنها لم تفعل(*). إنما جاءنا شخص فلسطيني نحيف يحمل رشّاش كلاشينكوف يبغي مساعدتنا. وسأل: «سيد روبرت، هل أنت السيد روبرت من بيروت»؟ أنت لا تتذكّرني؟ لقد قدّمتَ لي الشاي أمام منزلك خلال حصار بيروت». فتذكّرت حينئذٍ بشكل مُبهم مسلّحاً شابّاً منهوكاً خائفاً، وذراعه معصوبة، يترنّح على مدخل بيتي عام ١٩٨٢، ويطلب ماء. وها أنا مَن يطلب المساعدة الآن. قال: «طبعاً، ستأتي معنا إلى رفح». لقد صار هذا المسلّح ورفاقه جنوداً. وهذه أيضاً حيلة شَعْوذة أخرى، مثل الاستعراض الذي جرى في رفح لرجال البحرية الفلسطينيين بثيابهم الزاهية ـ ومهاراتهم المضبوطة ـ دون أن يكون لهم قارب صيد. لكننا وصلنا في الوقت المناسب لنشهد هذه الشظيّة من شظايا التاريخ.

وها هو عرفات؛ «هتلر» بالنسبة إلى المستوطنين الإسرائيليين القاطنين بالقرب من هنا في «غوش قطيف»، الذين أبطأوا في التعرّف على تطوّره من «إرهابي» إلى «رجل دولة». كان يمكن أن يأتي عبر الحدود ببزّته التقليدية وكوفيّته؛ لكنه أدرك أن الاستقبال المعدّ له ـ من قِبل وجهاء القرية الجالسين في ذلك القيظ ـ لم يكن يليق به أن يهدر وقته عليه. فانسلّ من أمامهم في ثُلّة من رجال الأمن، مسلّماً على زوجة رفيقه القديم أبو جهاد ـ الذي اغتالته الدولة التي أرسلت جنودها الآن لتراقبه من جانب الطريق.

قال لي أحد أولئك الجنود الإسرائيليين ـ من قُدامى حرب لبنان، ويعتمر طاقية اللواء «جيناتي» الحمراء ـ : «لم أتصوّر يوماً في حياتي أكون فيه مساعداً لحماية ياسر عرفات». وعبر تلك الطريق، صادفت أيضاً النقيب «أبو سمرا» أحد قُدامى الفلسطينيين في لبنان، يلبس على رأسه الطاقية السوداء لجيش التحرير الفلسطيني، وقد أصرّ على أنه عندما كان في لبنان لم يراوده الشكّ أبداً في أنه «سيعود إلى فلسطين». لقد أربك الساحر المشعوذ الإسرائيليين، ولكنه لم يُربك الفلسطينيين.

لقد اقتضى الأمر عشرة أشهر بعد مصافحة عرفات رابين، كي يفاوض بشأن دخوله إلى فلسطين. إنما كان من اليسير أن يكون المرء صعب المراس في ذلك الصباح القائظ بتاريخ ٢ تموز/يوليو ١٩٩٤. فقد وقف عرفات في سيّارته المسرعة باتجاه غزّة، ورأسه مرفوع من فتحة سقف السيارة؛ يلوّح له الفلسطينيون من نساء وأولاد بأيديهم من بساتين النخيل. وقال حرّاسه إنه كان يبكي بكاء لا يهدأ. ثم تعالى صوته أيضاً وتردّد فيما بعد عند الواجهات الإسمنتية في مدينة غزّة، مخاطباً أعداءه بين الإسرائيليين والفلسطينيين في حركة حماس على السواء؛ إذ أعلن للإسرائيليين «سلام الشجعان» الخدّاع؛ ومدح شجاعة قائد حماس المسجون الشيخ أحمد ياسين. وحيّا صمود الفلسطينيين في مخيّمات اللاجئين في لبنان، وسوريا، والأردنّ، دون أن يذكر أن اتفاق السلام الذي عقده قضى عليهم أن يبقوا إلى الأبد في هذا البؤس. ثم أخبر الحشود بأنهم «سيصلّون جميعاً في القدس».

(*) وفيما بعد، وصل إلى صحن الغبار الذي كنا فيه، سائق فلسطيني يحمل كلمة مكتوبة من سارة، ذلك النوع من الرسائل التي لا يرغب المرء في أن يستلمه من زملائه. وفيها: «يبدو أنك لا تستطيع أن تتقدّم أكثر؛ ولذلك سأبقى أنا. ليس لدينا صحافيون هنا، على وجه التقريب. تمتّع بوقتك. مع محبّتي، سارة».

ألم يرَ عرفات الجنود الإسرائيليين مبثوثين على طول الطريق حتى مدينة غزّة، وراء سواترهم الترابية وهم بلباس المعركة، ومدافعهم الرشّاشة مصوّبة إلى الطريق العامّ؟ ألم يلاحظ غابة الأعلام الإسرائيلية ـ قبل الأعلام الفلسطينية ـ عندما دخل إلى وطنه؟ ألم يرَ الإعلانات التي تُنبئ بأن دخول المناطق «المستقلّة» الفلسطينية، يحصل بالتنسيق مع جيش الدفاع الإسرائيلي؟

وقد امتدّ حكمه ببطء عبر مدينة غزّة. فجاءته أوّلاً مدائح التجّار الغزيرة التي تقرّظ الرئيس الفلسطيني الجديد في إعلانات نُشرت على صفحات الجرائد الأولى والأخيرة، ومدائح رؤساء البلديات وأصحاب المطاعم ومديري الشركات، الذين لا شكّ في أنهم كانوا يأملون عقد بعض الاتفاقيات مع السلطة الفلسطينية. وقد جاء مثلاً في إعلان لشركة «راغب مرتجى» التي تصدّر الحمضيات وتستورد المحرّكات ما يلي: «تهانينا إلى الأخ والقائد ياسر عرفات وإخوانه، بمناسبة عودتهم إلى فلسطيننا الغالية. إننا نشكركم لشروعكم في بناء الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس».

وفي فندق «فلسطين»، عقد عرفات اجتماعاً مع أعوانه قادة فتح الذين أداروا معارك المقاومة ضدّ الاحتلال ـ والذين يحتاج إلى ولائهم المطلق في الأعوام القادمة. كما قابل قناصل كلّ من بريطانيا وفرنسا وألمانيا في القدس ـ الذين يحتاج أيضاً إلى مساعدة بلادهم المالية، مثلما يحتاج إلى دعم رجاله المسلّحين. وبمصاحبة عشرات من الرجال المسلّحين، طاف بسيّارته في مخيّم «جباليا» للّاجئين ـ حيث بدأت أوّل انتفاضة ضدّ الحكم الإسرائيلي ـ وخاطب آلافاً من اللاجئين في بناء مدرسة متداعٍ. وجاءه هُتاف المُتعبين: «بالروح، بالدم، نفديك». فأجابهم عرفات: لا، في المستقبل، «ستضحّون بأرواحكم من أجل فلسطين». ولمّا شعر عرفات أخيراً بعدم الرضا العميق والمنتشر بشأن اتفاقيات «أوسلو»، تكلّم عندئذ بأسف وندم قائلاً: «ليست الاتفاقية مُرضيّة لنا. ولكنها أفضل ما استطعنا الحصول عليه أثناء أسوأ ورطة يتخبّط فيها العرب في الوقت الحاضر». وفي غضون ذلك كلّه كان رجال عرفات يُشرفون على الحشود برشّاشات الكلاشينكوف.

وخلال وقت قصير، انتشر رجال عرفات في غزّة. وكان بعضهم من غزّة؛ لكنّ كثيراً منهم كانوا من الفلسطينيين الذين لم يشتركوا في المقاومة، بل كانوا قابعين في بغداد أو القاهرة، أو منغمسين في حروب لبنان الضروس. وقد جاءوا الآن إلى هنا ليحكموا غزّة، محتفظين بخصائص البلدان العربية التي كانوا منفيين فيها. فالجنود والشرطيون الفلسطينيون الذين وفدوا من مصر تبنّوا ذلك المزيج من البيروقراطية العثمانية والغطرسة الاستعمارية البريطانية التي زالت منذ مئة سنة. والفلسطينيون الذين جاءوا من العراق بعد أن قضوا فيه مدّة طويلة، تعوّدوا الصراخ وإعطاء الأوامر؛ وأرادوا «أن يستعملوا العصا»، كما وصفهم أحد الغزّاويين. أما الذين قدموا من لبنان، فكانوا أكثر مطاوعة، ومستعدّين لإغماض العين عن المخالفات، مع تقبّل الرشوة مرّة أو اثنتين.

وفي شارع عمر المختار، كانوا جالسين خارج مخفر الشرطة يعالجون مجموعة من الآلات الطابعة القديمة، ويحاولون تنظيم تسجيل السيّارات. وكان الفلسطينيون إذ ذاك يسلّمون أوراقهم العسكرية الإسرائيلية، لقاء تسلّمهم

وثيقة طُبع في أعلاها: «السلطة الفلسطينية». لكن رموز الدولة وحدها لا تجعل الدولة حقيقة واقعة. وكل من يتجوّل في شوارع مخيّمي «الشاطئ» و«جباليا» في غزّة، يدرك أن معظم رعايا عرفات في غزّة ـ بنسبة تصل إلى ٩٠٪ ـ هم غير غزّاويين.

لقد كانوا من اللاجئين ـ أو أولاد اللاجئين ـ القاطنين في ذلك الجزء من جنوبيّ فلسطين الذي أصبح الآن جنوبيّ إسرائيل، والذين سلخوا من عمرهم نصف قرن تقريباً وهم يعيشون في حُفر غزّة وفقرها، بانتظار أن يفي عرفات بوعده، ويعيدهم إلى «أشكيلون» أو «بئر السبع». وكما أن لاجئي الجليل استُنزفوا في مخيّمات لبنان، وسوريا، والأردنّ، فقد انتهى الأمر بفلسطينيي الجنوب أن يعيشوا في أراضي غزّة القاحلة، ـ المختلفة عن أراضي الشمال ـ والتي جاء عرفات اليوم ليحكمها. ولكن عليهم الآن كذلك، أن يجابهوا الواقع المرّ الذي لا يسمح لهم بالعودة إلى «ديارهم». وفي الواقع، عليهم أن يعيشوا الآن في غزّة بوجود ثُلثي قوّة الاحتلال الإسرائيلية الأصلية، المولجة بحماية المستوطنات اليهودية، وضبط حدود الدولة الفلسطينية التي أغدقت عليها الإعلانات في الجرائد كل ذلك التقريظ المُرائي.

وفي مخيّم «الشاطئ»، وبعد يوم من وصول عرفات إلى غزّة، صادفتُ إبراهيم. وهو سائق سيّارة من «الرملة» التي تقع اليوم داخل إسرائيل، كان يقف أمام منزله الفقير، يحاول أن يلقي نظرة على عرفات. قال لي: «منذ عشر سنوات، ذهبت بسيّارتي ومعي أمّي إلى الرملة، حيث طرقت باب بيتي، فوجدت فيه عائلة إسرائيلية. دعانا الرجل إلى الدخول مرحّباً: «أهلاً بكم في بيتي». فبكت أمّي بيتها الذي أُخرجت منه. إنما كان الإسرائيليون لطفاء، وفهموا أنه كان دارنا وملكنا. بعد ذلك بعام توفّيت والدتي. وأنا أدري أننا لن نستعيد بيتنا في مستقبل الأيام. وعلى كل حال، دمّروه الآن لإقامة بناء جديد؛ وربّما أحصل على تعويض؛ وتصريح من الإسرائيليين يفيد بأنهم أخذوا منا بيتنا عام ١٩٤٨».

وفي مواقع أخرى، من مخيّم «الشاطئ» تحدّث رجال آخرون قدموا أصلاً من بئر السبع، ويافا، واللّد، عن اعتقادهم فعلاً أنهم سيعودون يوماً إلى هذه البلدات والقرى ـ التي صارت اليوم داخل إسرائيل ـ «بمشيئة الله». ولكن لم يكن ذلك ما يدبّره الإسرائيليون لهم. لقد كان الإسرائيليون يريدون أن يروا أمام دولتهم «منطقة مستقلّة» منضبطة ـ وقد اختاروا ياسر عرفات للقيام بهذا العمل. وبعد عدّة ساعات، وبينما كنت أشقّ طريقي ببطء عبر كُثبان الرمل، عائداً إلى فندقي الذي لا يكاد يعمل، تصدّى لي رجلان بثياب عاديّة وسيّارة عاديّة، بصفتهما من رجال الأمن في منظمة التحرير الفلسطينية، وسألاني بارتياب وفظاظة: «ماذا تفعل هنا؟ ومن أين أتيت؟ أعطنا أوراقك». ففكّرت آنذاك بأن «فلسطين» ستكون في نهاية الشوط دولة أخرى بحسب النموذج العربي.

ووعد عرفات مستشاريه الاقتصاديين بإصدار طوابع بريدية خلال ثلاثة أسابيع، وجوازات سفر خلال ثلاثة أشهر. وقد أخبرني أحد أولئك المستشارين بمزيج من التوق والكآبة أنه «لن تكون هناك مشكلات بهذا الصدد مع الإسرائيليين»، بينما كان يذرع حديقة الفندق بخطى واسعة، ويضيف قوله: «وليس للمتظاهرين أهمّية». لقد أصبح

الإسرائيليون الآن «أعداء ـ أصدقاء». وكانت تلك وجهة نظر غير اعتيادية. وبدأ الموظفون الفلسطينيون في منظمة التحرير الفسلسطينية يتكلّمون عن «اليهود الطيّبين»، الذين يمكن التفاوض معهم، والإسرائيليين الشرفاء الذين يمكن الوثوق بهم. ولكن، حالما خرجت من غزّة، وسرتُ في طريقي عبر إسرائيل والضفّة الغربية، إلى ضاحية عرفات الأخرى في «أريحا»، تأكّدت لي المعاملة ذات المستوى المزدوج. فعند تقاطع «أريتز» بين غزّة وإسرائيل، رأيت سيّدتيْن فلسطينيّتيْن مسنّتيْن، أُجبرتا على الجلوس على أرض الطريق تحت أشّعة الشمس، بانتظار التدقيق في أوراقهما، وأيديهما مرفوعة فوق رأسيهما، وهما ترجوان الضابط الإسرائيلي أن يسمح لهما بالمرور. كما ألزم شرطي إسرائيلي أحد الفلسطينيين بأن يقف قرب سيّارته لأن أوراقه الشخصية مرّت فترة صلاحها، وهو يصيح من سوء معاملته.

وقد حافظت «الجيروزاليم بوست» ذلك الصباح كذلك على المستوى المزدوج ذاته في المعاملة. فقد أعلنت في الصفحة الأولى عن جرح يهودي إسرائيلي على يد «إرهابيين» عرب؛ بينما نشرت على الصفحة الأخيرة مقالاً أصغر عن «متطرّفين يهود» يمكن أن يكونوا مسؤولين عن مقتل فلسطيني عربي. وقد راقب سائق سيّارة الأجرة التي كنتُ فيها بخوف جماعة من الإسرائيليين الملتحين والمرتدين قلنسواتهم، وهم يرفعون لافتة عند تقاطع طريق «أشكلون ـ تلّ أبيب»، تدعو إلى اغتيال عرفات. ومع ذلك، وخلال أربعة أيام من ظهوره في غزّة، عاد عرفات إلى ممارسة الحيلة ذاتها من جديد، في أريحا هذه المرّة.

كانت تلك أمور مثل الأحلام ـ ياسر عرفات يصل بالطائرة إلى الضفّة الغربية، ترافقه مروحية عسكرية إسرائيلية؛ ياسر عرفات يقبض على المذياع بيده اليمنى مثل أحد المغنّين، يناشد الجميع أن يستمعوا إليه، بينما يتدافع مؤيّدوه حول المنصّة في «أريحا المحرّرة»؛ ياسر عرفات يعِدُ «بثورة صناعية» في أقدم بلد في العالم؛ ياسر عرفات يَعِدُ جازماً «بحكومة» يكون فيها «وزير الشؤون اليهودية» اليهودي العضو الأوحد الذي لا يعترف بدولة إسرائيل. هل بقي هناك شيء يمكن أن يفاجئنا، ما دام الرجل «الختيار» قد وصل إلى عاصمته المؤذنة بالسقوط؟ لقد أصبحت قسمات وجهه مألوفة، حتى أننا لاحظنا في آخر يوم من رجوعه الأول إلى فلسطين أن لحيته السوداء والبيضاء تتوافق الآن مع كوفيّته السوداء والبيضاء التي يعتمرها. وقد أعطته عادة رفع حاجبيه للتعويض عن صغر عينيه، مظهر الفُقمة البحرية المتفاجئة، وهي خاصّية التقطها بدقّة غريبة وقاسية فنّانو الجدران الهواة في أريحا.

أما بالنسبة إلى صوته الخشن، فقد زادت خشونته بينما كان يناشد الحشود، حتى اختفى تماماً. وقد أظهره شعره المُنسدل على جانبيْ وجهه مظهراً مُفرطاً في التأثّر؛ إذ كان يصرخ: «استمعوا إليّ، استمعوا إليّ. لقد عدت إلى فلسطين... لا تمسّوا أولئك الناس» ـ كان ذلك توجيهاً للشرطة التي تردّ الحشود. ثم أردف قائلاً: «اهدأوا... اسمعوني، استمعوا إليّ كما طلب منكم ذلك الدكتور صائب... استمعوا إليّ... في عام ١٩٤٨، قال الإسرائيليون إنهم وجدوا أرضاً دون شعب، وكانوا شعباً دون أرض... استمعوا إليّ.... واليوم نذكّرهم أنه لا يستطيع أحد أن يمحو الشعب الفلسطيني... أريد أن أقول لكم إننا مع السلام العادل، وملتزمون به... أريد أن أعرف مَن يمنع الناس من أن يأتوا إلى هنا، إلى أريحا اليوم... الوحدة، الوحدة، الوحدة... سنصلّي في القدس ـ إلى أن نصلّي في القدس، إلى أن نصلّي في القدس».

كان من المؤلم نقل خطابه ـ وسماع ذلك الصوت المتداعي، والإحساس بأفكاره وجُمله وهي تتصادم ـ بينما تتقدّم امرأة ضخمة وتشقّ طريقها عبر رجال الأمن المسلّحين، وهي تصرخ قائلة إنها تريد أن تعانق «رئيس فلسطين». وقف عرفات مذهولاً، لكنه لان فجأة، ورُفعت السيّدة إلى المنصّة، واندفعت نحوه بسرعة، فتراجع مذعوراً، لكنه عاد بابتسامة جامدة، وطوّقها بذراعيه.

لقد عثر عرفات على مشكلة حقيقية عندما سأل: «أريد أن أعرف من يمنعكم مِن القدوم إلى أريحا؟». فبعدما خرق الجمهور حواجز الأمن، واصطدم بالصحافيين والمصوّرين، صار من الواضح أن الحقل الواقع إلى الوراء فارغ ـ ولا سيّما إذا نظرنا إليه من حيث يقف عرفات على المنصّة فوقنا ـ فلم يأتِ لرؤية عرفات نصف سكّان أريحا أو حتى رُبعهم. وسرَت إشاعات بأن الجيش الإسرائيلي قد صدّ قادمين بالشاحنات من الضفّة الغربية ـ وقد أقرّ جندي إسرائيلي في أقرب نقطة مراقبة بأنه أوقفهم، ثم قال العكس. ولا شكّ في أن المستوطنين رشقوا السيّارات بالحجارة على طريق القدس ـ أريحا. ولكن، هناك مليون فلسطيني يعيشون في الضفّة الغربية، دون منع تجوّل يبقيهم في منازلهم. وأولئك الذين تجمّعوا لتحيّة عرفات كانوا أقلّ من الذين تجمّعوا لوداعه في بيروت بعد حصار عام ١٩٨٢.

لقد استنتج معظم الفلسطينيين سبب عودة عرفات. فقد تبع مجزرة الخليل تفجير دامٍ لباص إسرائيلي في بلدة «العفّولة» ـ وقالت محطة السي إن إن حالاً إنه هجوم «إرهابي» ـ وطُلب من الرئيس الفلسطيني بوضوح وقف «الإرهاب». وعلى مرّ الأشهر والسنوات، صارت هذه الحجّة مطلباً دائماً على روزنامة إسرائيل والأميركيين ـ والصحافيين السائرين في ركابهم ـ وصار السؤال نفسه صيغة مبتذلة: هل يستطيع عرفات أن يضبط شعبه؟ أمّا أن يمثّل شعبه بدلاً من أن يضبطه، فمسألة لم يتطرّق إليها الصحافيون أو السياسون الغربيون. كما لم يسأل أحد: هل يستطيع شارون أن «يضبط» جيشه الفوضوي، عندما يطلق النار على أطفال الحجارة الفلسطينيين أكثر فأكثر بالرصاص الحيّ.

وتهيّأت «السلطة الفلسطينية» للقيام بالمثل. فحتى تشرين الثاني/ نوفمبر، كان عرفات مشتركاً في مسرحية موازية. فبينما كان شرطيّوه يطلقون النار على الفلسطينيين خلال المظاهرات العنيفة التي نظمتها «حماس» و«الجهاد الإسلامي» في غزّة، كان الإسرائيليون يطلقون النار على الفلسطينيين في غزّة والضفّة الغربية. وخلال أيام تقهقر عرفات إلى مطلب ينادي به كل الحكّام المستبدّين عندما تهاجمهم شعوبهم: إذ اعتبر أن خصومه مشتركون في «مؤامرة أجنبية». وكان ذلك جزءاً أساسياً من قصّة عرفات ـ قوله أيّ شيء لتحاشي مجابهة الواقع المتمثّل بأن الفلسطينيين الذين كرهوا حُكم عرفات كانوا أبناء البلد، ولم يعترضوا على مبدأ السلام بل على ما رأوه من ظلم مستغرب بادٍ في «إعلان المبادئ»، الذي سارع عرفات إلى توقيعه قبل عام. فاتّهام «الأجانب» هو دائماً ورقة في يد أولئك الذين لا يجابهون هويّة خصومهم. وقد استعمل الأميركيون مثل هذا العذر الأعرج في الأعوام ٢٠٠٣

و٢٠٠٤ و٢٠٠٥، عندما واجهوا تمرّداً عراقياً شاملاً. والفخ الذي وصل إليه عرفات بثقة رسالة الخلاص، لا بدّ أن يكون قد اتّضح له. فإذا كان قد رفض مجابهة الحركات الإسلامية المعارضة لاتفاق «أوسلو»، فهذا يثبت أنه لا يمكن الوثوق به لتسلّم مزيد من الأرض ـ حسبما يخوّله الاتفاق. ومن جهة أخرى، إذا حارب الإسلاميين في حرب أهلية، فلا بدّ أيضاً من حصول فوضى تثبت أنه رئيس لتلك الفوضى ـ ممّا يشكّل كذلك حجّة جيّدة لعدم إعطائه مزيداً من الأرض. وكلّما زاد انتظار الفلسطينيين لحصول الانسحابات ضعف مركز عرفات.

وفي السنوات القادمة انزلق النزاع بين الإسرائيليين والفلسطينيين إلى تفجيرات انتحارية، وغارات جوّية إسرائيلية، وإعدامات غير قانونية، وتدمير بيوت، وتجريد الفلسطينيين من ملكية الأراضي على نطاق واسع ـ كما ألقت إسرائيل والأميركيون اللوم على الفلسطينيين لفشلهم في «ضبط» العنف، وقبول صفقة كان يمكن أن تُعطي الفلسطينيين ٦٤ في المئة من ٢٢ في المئة من فلسطين الانتداب، الجزء الذي تُرك قيد المفاوضة. وهكذا، قبل أن نبدأ برواية قصّة هذه المأساة والخسارة المعيبتين، من الجوهري أن نثبت أن إسرائيل نكثت عهد كل اتفاق أو تفاهم جرى توقيعه في السنوات اللاحقة.

بحسب اتفاق «أوسلو»، تُقسم الضفّة الغربية المحتلّة إلى ثلاث مناطق. تخضع الأولى منها (أ) للسيطرة الفلسطينية حصراً، والثانية (ب) للاحتلال العسكري الإسرائيلي بالمشاركة مع السلطة الفلسطينية، والثالثة (ج) تحت كامل الاحتلال الإسرائيلي. وفي الضفّة الغربية، تتألّف المنطقة الأولى (أ) من ١،١ في المئة من الأرض ـ أما في غزّة المزدحمة بالسكّان وذات التمرّد والعصيان المسلّح ـ فتقع كل المنطقة تقريباً تحت سيطرة عرفات. والمفترض في نهاية الأمر أن يصبح شرطي غزّة. أما المنطقة الثالثة (ج) في الضفّة الغربية فتتألّف من ٦٠ في المئة من الأرض، ممّا يسمح لإسرائيل باستمرار إقامة المستوطنات اليهودية «لليهود» على الأرض العربية. وكان إدوارد سعيد أول من أشار إلى أن عرفات تنازل عن القدس، ووافق على أن تُناقش قضيّتها في محادثات «الوضع النهائي» فحسب. وبذلك صارت القدس خارج نطاق المناطق المذكورة، وبقيت بأيدي الإسرائيليين كلّياً.

والحقيقة هي أن اتفاق «أوسلو» ـ نأى عن إمكان إقامة دولة للفلسطينيين، وسمح لإسرائيل أن تفاوض من جديد بشأن قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة ذي الرقم ٢٤٢. فبينما طلب القرار ٢٤٢ انسحاب القوّات الإسرائيلية من الأراضي المحتلّة في حرب عام ١٩٦٧، سمح اتفاق «أوسلو» للإسرائيليين بأن يقرّروا ما هي الأجزاء التي سينسحبون منها من أصل القسم الباقي من فلسطين والبالغ حجمه ٢٢ في المئة. وقد مثّل التقسيم إلى مناطق هذا النظام الإسرائيلي الجديد. وممّا لا يصدّق أن الخرائط كانت بيد الإسرائيليين، ولم تكن لدى الفلسطينيين الخرائط اللازمة ـ عندما جرت مفاوضات أوسلو ـ وقد قرّر الإسرائيليون أي مناطق ستعطى للفلسطينيين فوراً، وأي مناطق ستبقى قيد المساومة فيما بعد.

وفي الواقع، يُثبت الاستقصاء المفصّل لعام ٢٠٠٠ بشأن الانسحابات الإسرائيلية بموجب بنود الاتفاق، أن

الإسرائيليين لم ينفّذوا أيّاً من هذه الاتفاقات، منذ مؤتمر مدريد المعقود عام ١٩٩١(*). وفي هذه الأثناء، زاد عدد المستوطنين اليهود المقيمين بطريقة غير شرعية على الأرض الفلسطينية خلال سبع سنوات منذ عقد اتفاق «أوسلو»، وزاد من ٨٠٠٠٠ إلى ١٥٠ ٠٠٠ مستوطن ـ مع أنه بموجب بنود هذا الاتفاق مُنع الإسرائيليون والفلسطينيون على السواء من اتخاذ «خطوات منفردة».

وقد اعتبر الفلسطينيون بحقّ أن هذا دليل على سوء نيّة، ولا عجب في هذه الحال عام ١٩٩٩، أن ينبري إدوارد سعيد، الذي أظهر لسنوات تعاطفاً مع الدور الشجاع الذي مثّله عرفات كممثّل وحيد لشعب مَنسيّ ومسلوب؛ فيصف إذ ذاك القائد الفلسطيني ليس «كمظهر مأساوي» فحسب، بل بأنه «بيتان» (Pétain) الفلسطينيين.

وكنتُ أسافر من بيروت كل بضعة أشهر عن طريق قبرص أو الأردنّ إلى إقطاعة عرفات الصغيرة عبر إسرائيل ـ التي ما زالت في حالة حرب رسمية أو فعلية أحياناً ولا توجد إليها خطوط جوّية مباشرة من لبنان ـ وكانت كل من هذه الرحلات تكشف عن قصّتين متناقضتين تماماً: التفاؤل المذهل للمراسلين الأميركيين والغربيين بشأن كون السلام الإسرائيلي ـ الفلسطيني شيئاً مؤكّداً (بالرغم من معاودة وضع «عملية السلام» على الخط باستمرار)، وتضاؤل كل آمال الفلسطينيين بإقامة دولتهم في يوم من الأيام، ناهيك بكون عاصمتها في القدس الشرقية. وقد كانت الرحلة إلى غزّة بتاريخ ٨ آب/أغسطس عام ١٩٩٥ مجرّد رواية مثل رواية «أليس» أمام المرآة.

صاح رجل يلبس قميصاً أبيض: «اسحبوا سيّاراتكم لئلّا نحرقها. أستحلفكم بدم شهدائنا. أن أبا عمار قادم». كان يُطلب من الفلسطينيين أيام زمان أن يقوموا بأعمال مثيرة من أجل دم شهدائهم. ولكن لم يحصل أن استُدعي دم الشهداء ليحلّ مشكلة وقوف سيّارات. كان ذلك بمناسبة عيد ميلاد عرفات السادس والستّين؛ وقد حُضِّرت له بهذه المناسبة على ميدان السباق قرب الشاطىء، حفلة كاملة بوجود الجياد المطهّمة العربية التي يركبها أعضاء «الجمعية الفلسطينية للفروسية» التي يكون عرفات أمينها الفخري. وعندما جاء تتقدّمه سيّارات الشرطة الزرقاء،

(*) إن اتفاق «أوسلو» الثاني (اتفاق طابا) الذي عقده رابين في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٩٥ ـ قبل اغتياله بشهرين ـ وعد بإجراء ثلاثة انسحابات إسرائيلية من المناطق الثلاث (أ) و(ب) و(ج)؛ على أن تُستكمل قبل نهاية تشرين الثاني/أكتوبر ١٩٩٧؛ وعلى أن تُستكمل اتفاقات «الوضع النهائي» التي تشمل القدس، واللاجئين، والمياه، والمستوطنات قبل نهاية تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٩، إذ سينتهي آنذاك الاحتلال كلّه. ولكن، في كانون الثاني عام ١٩٩٧، أعطيت مجموعة صغيرة من المستوطنين ٢٠ في المئة من الخليل، بالرغم من أن اتفاق «أوسلو» يُلزم إسرائيل بمغادرة جميع بلدات الضفّة الغربية. وقبل نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٨، وبعد مرور سنة على موعد التنفيذ، لم تكن إسرائيل قد نفّذت اتفاقيات «طابا». فقد فاوض رئيس وزراء إسرائيل الجديد «بنيامين ناتانياهو» حول اتفاق جديد عند «نهر واي»، يقسم الانتشار الثاني الذي وعدت به إسرائيل في «طابا» إلى مرحلتين ـ لكنه لم ينفّذ منهما سوى المرحلة الأولى. وكان «ناتانياهو» قد وعد بتقليص النسبة المئوية للأرض المحتلّة كلّياً في الضفّة الغربية من ٧٢ في المئة إلى ٥٩ في المئة، ناقلاً ٤١ في المئة من الضفّة الغربية إلى المنطقتين (أ) و(ب). ولكن حدث في «شرم الشيخ» عام ١٩٩٩، أن «إيهود باراك» رئيس وزراء إسرائيل الجديد نكث العهد الذي قطعه «ناتانياهو» عند نهر «واي»، وجزّأ المرحلتين إلى ثلاث مراحل، تنقل أولاها ٧ في المئة من المنطقة (ج) إلى المنطقة (ب). وقد توقّفت كل أعمال تنفيذ الاتفاقات عند ذلك الحدّ.

وسيّارات الجيب الملأى بالمسلّحين والجنود ورجال الأمن، يجدر القول إن الرئيس بدا في عمره الحقيقي. لقد كان تعباً، مرهقاً، وعيناه منفوختان بسبب قلّة النوم ـ إذ إن الاجتماعات الغاضبة للسلطة الفلسطينية كانت تستمرّ حتى الفجر ـ كما ظهر ضبّاطه الكبار في الرتبة والسنّ ببزّاتهم الباهتة، وشعار النسر والسيفين المتقاطعين على كتفيّاتهم الباهتة أيضاً، وكأنهم رجال من الماضي، يكثرون التدخين، ويمسِّدون شواربهم باستمرار. وفي هذه الحفلة كانت الجياد هي المخلوقات الوحيدة ذات اللياقة في تبخترها وهي تمرّ متقافزة أمام القائد الفلسطيني، بينما هو جالس على أريكة زرقاء وحمراء تحت ظُلّة يحدّق في الفضاء فوق البحر الأبيض المتوسط. لقد كان يحاول أن يظهر سعيداً.

عانق الأولاد، وقبَّل فتاة أربع مرّات على خدّها، وولداً صغيراً يلبس زيّاً عسكرياً خمس مرّات على خدّه ومرّة على يده. وكان قد افتتح حديقة الأطفال العامّة التي سمّاها «زهوة» على اسم ابنته المولودة منذ ١١ يوماً ـ «حديقة ملاهي فلسطين زهوة» ـ كما سمّيت بخجل؛ فضلاً عن افتتاح حديقة حيوانات للأولاد، فيها أسد رثّ الحال، من أجل الترويح عن أولاد فلسطين. وعندما مرّ الأولاد الكشّافون صفوفاً أمامه، انتصب وحيّاهم. كما حيّا مُرشدات البنات، وأعضاء جمعية «كونغ فو»، الذين يلبسون أردية سروالية سوداء مع عصابات بيضاء حول رؤوسهم، وطفلاً بهلواناً. وعندما أقنع الخيّال مطيَّته بأن تنحني أمام رئيس فلسطين، انتصب عرفات على قدميه وحيّا الحصان.

وقد ضحك وابتسم ابتسامات عريضة، عند رقص «الدبكة» مع الموسيقى، وعندما قام بعض الممثّلين بمناقشة صعوبات «عملية السلام». وقالوا كجوقة واثقة من نفسها: «حصلنا على غزّة وأريحا بمسعاكم». ثم «سترجع القدس إلينا بجهود أبو عمار»، بنغمة أقلّ ثقة. وتساءل أحدهم: «هل نبيع هذه الأرض؟». فأجاب رفيقه: «لن أنسى القدس، أو حيفا، أو بيسان». وزمجر الحشد لأن نصف القدس، وحيفا، وبيسان كلها واقعة اليوم ضمن إسرائيل، وليست في غزّة أو في الضفّة الغربية. وأخيراً قبل بدء السباق، عانق الممثّلون أصدقاءهم القدامى الذين اختلفوا معهم حول السلام، وتعاهدوا على أن لا يحارب بعضهم البعض، الآخر أبداً. صفّق عرفات وضحك. وليت الحياة هنا كانت بهذه السهولة، وليس من حاجة إلى المحاكمات الأمنية عند منتصف الليل، وأحكام بالسجن ٢٥ سنة، والتوقيف بعد حلول الظلام، هذه الأمور التي أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من الحياة في غزّة لأولئك الذين يختلفون مع عرفات. ثم افتتح رئيس فلسطين السباق، بينما كان رجاله يوزّعون سلالاً من الحلويّات الخفيفة على الشيوخ ورؤساء العائلات الذين جلسوا تحت الظلَّة. أكل الناس وتسابقت الأحصنة. أجل لقد أعطى «الختيار» شعبه خبزاً ولهواً بمناسبة عيد ميلاده.

لقد كان عرفات يمارس دكتاتورية صغيرة هنا في غزّة، بموافقة كاملة من إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية. فتحت عذر قمع «الإرهاب»، بالنيابة عن إسرائيل، صار لديه الآن أكثر من عشرة أجهزة استخبارية فلسطينية متنافسة تحت قيادته، لا يزايد عليه فيها سوى القادة العرب في بغداد ودمشق. وقد صدرت قوانين للصحافة تكمِّم الصحافيين الفلسطينيين، الذين يُستضاف كثير منهم في القيادة الأمنية في مدينة غزّة، لعقد اجتماعات بعد حلول الظلام مع ضبّاط مخابرات بلباس عادي ينسّقون مع أجهزة الأمن الإسرائيلية.

كان هذا الغطاء الأمني الصلب موجّهاً ظاهرياً نحو حركتيْ «حماس» و«الجهاد الإسلامي» اللّتيْن نفّذتا تفجيرات انتحارية ضدّ الإسرائيليين؛ ولكنه أرخى سدوله أيضاً على كل وجه من وجوه الحياة في غزّة. وهذا يعني أن عرفات تحوّل إلى مستبدٍّ عربي آخر. فقد كانت محاكم منتصف الليل تحكم على أعضاء مزعومين في «حماس» بالسجن مدداً تصل إلى ٢٥ سنة؛ بينما توفّي ثلاثة من الفلسطينيين في السجن. وفي نيسان/أبريل عام ١٩٩٥، قُتل أسير أُطلق سراحه برصاص شرطة عرفات، الأمر الذي اعتبره الفلسطينيون إعداماً غير قانوني؛ ويقال إن جسده أصيب بسبعين رصاصة.

وقد تأسّست الآن حول عرفات وحدات «أمن عسكري»، و«أمن سياسي»، و«أمن وطني»، و«أمن وقائي»، مع استخبارات فلسطينية، وحرس إمبراطوري مؤلّف من ثلاث منظمات أخرى شبه عسكرية: أمن الرئاسة، وحرس الرئاسة، والقوّة ١٧، ووحدة الأمن الخاصّة المسؤولة عن حماية عرفات الشخصية. وبحسب تقاليد عرفات المرعيّة الإجراء، تم تشجيع رؤساء هذه الوحدات على أن يرتابوا بعضهم ببعض، وأن يكرهوا بعضهم بعضاً. فالمقدّم محمّد المصري، الضابط السابق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مثلاً، يتعاون مع رئيسه الرسمي اللواء يوسف ناصر رئيس قوّة الشرطة الفلسطينية، و«الأمن الوقائي» كان بقيادة المقدّم محمد دحلان الضابط الذي عقد صلات حميمة مع الاستخبارات الإسرائيلية، مع أن رجاله يتألّفون في معظمهم من «صقور فتح» ـ الذين مثّلوا دوراً قيادياً في التمرّد المسلّح الأوّل الذي قام ضدّ الإسرائيليين ـ ومن الذين أمضوا في الأسر الإسرائيلي مُدداً طويلة. وكان على جميع رؤساء الوحدات الأمنية أن يستمعوا كل ليلة إلى حديث عرفات عن واجباتهم والأخطار التي تحيق بدويلتِه، في الاجتماع الذي يسمّونه الآن: «المحاضرة».

وبدلاً من أن يُدين الإسرائيليون المظاهر المتزايدة للاستبداد على الضفّة الثانية من حدودهم، عمدوا إلى تقريظ التدابير الأمنية «العرفاتية» الجديدة. وتحوّل الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية، بعد أن أشار إلى «اهتمامه» بالحقوق الإنسانية، إلى تهنئة عرفات بمحاكمه السرّية التي تُعقد بعد منتصف الليل ـ والتي شجبتها «منظّمة العفو الدولية». أما الاجتماعات السرّية الداخلية لوزارة عرفات التي أفضت إلى توقيف خصومه السياسيين بالجملة، فقد تجاهلتها الإدارة الأميركية.

ولم تُكتشف اجتماعات وزارة عرفات السرّية إلّا عندما وقّع القائد الفلسطيني سلسلة من التدابير القاسية ضدّ الصحافة بتاريخ ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٥. ومن أصل خمسين مادّة، تنصّ المادّة ٣٧ على أنه «يُمنع منعاً باتاً على الصحافيين أن ينشروا وقائع الجلسات السرّية للمجلس الوطني الفلسطيني ولمجلس الوزراء في السلطة الفلسطينية». ومن أجل فهم هذه القوانين الجديدة بخصوص الصحافة، كان من الضروري زيارة مروان كنفاني المستشار الخاصّ للرئيس ـ رئيس فلسطين طبعاً ـ وهو أخ المناضل (المقتول) غسّان كنفاني.

لقد أعلمني أن صحيفة «الوطن» أُغلقت، بسبب مقالها عن الرئيس. «لكن رئيس تحريرها أوقف لسبب آخر» ـ «نعم، إنه موقوف الآن، وتتم مساءلته. كما أغلقنا «الاستقلال» فقد تورّطوا في سوء نقل المعلومات». ونظر

كنفاني إلى شاشة حاسوبه، كما لو كانت تحتوي القانون ذاته الذي طُبّق على عماد الفالوجي رئيس تحرير جريدة «حماس»؛ فأُخذ من منزله صباح السبت على يد رجال الشرطة الفلسطينية بلباسهم العادي. وكانت خطيئة الفالوجي، كما يبدو، أنه نقل خبراً صغيراً على الصفحة الأخيرة عن تقرير نشر في جريدة «الإندبندنت» مُفاده أن عرفات باع شركة فرنسية حقّ استعمال اسم ابنته «زهوة» المولودة حديثاً على منتوجاتها. وفي الواقع، لم تنشر جريدتي أي تقرير عن الموضوع، ولكنّ مصدر الخبر لم يكن ذا أهمّية بالنسبة إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

قال كنفاني بازدراء: «نشرت حماس هذا الخبر لتضعف مصداقية الرئيس عرفات. لن يصدّق ذلك أحد. إن الرئيس عرفات رجل كريم ـ ولن يقوم أبداً بمثل هذا السلوك الغبيّ. إن المقصود من هذا الأمر هو النيل من سُمعة الرئيس. أجل، لقد تكلّمت مع الرئيس بهذا الخصوص. وكان ردّ فعله أقرب إلى الحزن منه إلى الغضب. آمل أن يكون التوقيف مؤقّتاً. وآمل أن يفهم كتّاب تلك الجريدة أن مثل هذا النوع من «الأخبار» ليس له علاقة بما يُسمّى «حقّ الناس في أن يعرفوا». إني مطّلع على ثلاث وكالات أخبار رفضت نقل القصّة. إن الكتّاب في صُحف مثل هذه يُضرّون بالأساس الذي تقوم عليه حرّية الصحافة». ثم قال: «ليس لدينا أيّ ممنوعات هنا؛ نعم هناك محاكم أمن الدولة، هل تعلم مَن يُربكون، ومَن المشتكي غالباً؟ الفلسطينيون. أنا لا أحبّهم. لقد مرّروا كثيراً من العبارات، وبعضها قاسٍ. نعم، هناك قواعد تمنع الجمهور من الحضور. ولكن هذه هي أنظمة تلك المحاكم. وفي الظروف الحاضرة هنا قد تكون بعض قواعدنا غير ديمقراطية. ولكن ألم يكن لدى بريطانيا محاكم استثنائية عندما كانت في حالة حرب؟ نحن تقريباً في حالة حرب ضدّ أولئك الذين لا يريدوننا أن نطبّق السلام هنا. إن الحالة حرجة جدّاً. وعندما يعاقب مليون وربع مليون فلسطيني من أجل عمل قام به شخص (مناضل) أو اثنان، يتطلّب الوضع تدابير استثنائية. نحن نحاول أن نعاقب أولئك الذين يهدّدون الأمن، والملكيّة، وحياة الشعب وحقوقه».

وكان ذلك خطاباً بمعنى الكلمة، آتياً من قِبل المستشار الخاصّ لعرفات. ولكن، هناك المزيد أيضاً:

«كان «إعلان المبادئ» الموقّع في واشنطن قائماً على ثلاث كلمات: الأرض مقابل السلام. سنفعل كل ما يمكن فعله بشرياً لتلبية حاجات أمن إسرائيل. ولكن عليهم أن يفعلوا ما بوسعهم أيضاً لتلبية حاجتنا إلى الأرض. لقد علم الرئيس عرفات عندما وقّع هذا الاتفاق أن فيه ثغرات كبيرة. وقد مُدح الإسرائيليون لإقدامهم على عقد السلام. وتقاسم رابين مع عرفات جائزة نوبل. ولكن عندما نأتي الآن إلى حقيقة الواقع نجد أن الإسرائيليين يريدون السلام مع الأرض. وإذا أرادوا أن يُبقوا جنودهم في الضفّة الغربيّة لحماية المستوطنات والاحتفاظ بأرضنا تحت مختلف الحجج والذرائع فلن يكون هناك سلام. لقد خاطر عرفات بالكثير من أجل ذلك. وأخذ على عاتقه كل القرارات الضرورية، نعم، حتى التوقيفات، والقرارات غير المحبّبة شعبياً، فضلاً عن رفع آمال شعبنا... لقد فعل ذلك لأنه يؤمن بالسلام. إن رؤساء الجمهوريات لا يخاطرون بمثل هذه الأمور، لكنّ قادة الشعوب يفعلون ذلك ـ وهو قائد. إنه يريد للعملية أن تنجح، ولكنه استنفد طاقته، وهو قَلِق. إنه غير راضٍ عن سير عملية السلام».

وهذا تماماً ما فكّر فيه الفالوجي. ولذا قمت بزيارة اللواء يوسف ناصر، قائد الشرطة الفلسطينية، وبطل الجولان، ومقاتل من منظمة التحرير في لبنان، ولاجئ من عام ١٩٤٨. وعندما دخلت باب مكتبه ـ بواسطة بطاقة ممغنطة إسرائيلية ـ قابلت ذلك الرجل الكبير بنظّارته، وابتساماته، وبزّته الرسمية الأنيقة على جسم بدين، ويده الندية الممدودة للمصافحة. إنه رجل متفائل. سألني: «كيف ترى أداءنا في السلطة الفلسطينية؟». فذكرت له التأخير في التطبيق الذي لا نهاية له بشأن الاتفاقات مع إسرائيل، واستمرار وجود الجنود الإسرائيليين في غزّة، والتفجيرات الانتحارية، والموت في السجن، ولجنة العفو الدولية...

قال اللواء مجيباً: «كل معاهدات السلام تُفرض بقوّة النفوذ، وهذه حال الاتفاقية الحاضرة... ولكن انظر بعد عام ١٩١٧، حين أعطى «النظام العالمي» اليهود وطناً وقسّم بلادنا. وفي عام ١٩٤٨، خلق «نظام عالمي» آخر دولة إسرائيل، وألغى الفلسطينيين من الخريطة الجغرافية والديمغرافية. ولكننا استطعنا الآن أن نعيد تمركزنا على الخريطة الدولية، ونعاود إرساء دعائم هويّتنا كفلسطينيين... لقد أصبحت الهويّة الفلسطينية اليوم دولية، بالقرارات ذاتها التي أوجدت إسرائيل».

فقلت له: «إن ذلك غير صحيح بدليل أن الأمم المتحدة اعترفت بإسرائيل؛ وليس هناك من قرارات للأمم المتحدة تضمن اتفاق منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل». قال: «أجل، أجل، ولكن لن يأخذ أحد على عاتقه تدمير عملية السلام. وللمستوطنين اليهود خياران: إما أن يغادروا الأرض الفلسطينية، أو أن يصبحوا مواطنين فلسطينيين. فإسرائيل لا تقدر على حيازة السلام والأرض معاً... إن الأمور ليست سهلة؛ وهذا صحيح. ولكنْ هناك واقع: هناك ثلاثة ملايين فلسطيني يعيشون على أرض الضفّة الغربية وغزّة. ولإسرائيل خياران: تحقيق استقلال الفلسطينيين أو الاندماج بهم ـ ولكنها لا تستطيع الاستمرار في سياستها الإمبريالية...».

كان ذلك إيهاماً ذاتياً مقصوداً، تميَّز به عادة الإسرائيليون. إذ إن إسرائيل مدعومة من قِبل القوّة العظمى الوحيدة الباقية في العالم. لن يختار أحد من المستوطنين اليهود أن يصبح فلسطينياً، وقلائل منهم سيغادرون الضفّة الغربية. أما مسؤولية «تدمير عملية السلام» فستأتي من قِبل مناهضي إسرائيل من الفلسطينيين ـ مثلما سيحصل في السنوات القادمة ـ عندما تستنكر إسرائيل التفجيرات الانتحارية.

قال لي أحد مناهضي عرفات في برودة أُمسية من أُمسيات غزّة الصيفية في آب/ أغسطس: «إن عرفات يتعرّف الآن إلى المطلوب من كونه الرجل الذي تعتمد عليه إسرائيل. والإسرائيليون يعرفون أنه ديكتاتور، وأنه كلما حاز نفوذاً داخلياً أوسع، انصاع لأوامرهم. ولذلك يوافقون على هذا كلّه. إنهم لا يريدون ديمقراطية حقيقية لأن عرفات قد يخسر في الانتخابات، وقد لا يلبّي قائد جديد رغباتهم. ويحاولون الآن حمل عرفات على أن ينقلب ضدّ سوريا، عن طريق إقناع منظمة التحرير الفلسطينية بأن تطالب بمرتفعات الجولان كأرض فلسطينية... وفي هذه الأثناء تستمرّ إقامة المستوطنات اليهودية...».

حاولتُ دون جدوى أن أكتشف أصل الاستعمال الصحافي لكلمة «مستوطنات». فهذا التعبير بطبيعته مطمئن. وله معنى البقاء والشرعية (باللغة الإنكليزية) (Settlements). فكلّ بشريّ يطلب الاستقرار (لا الاستيطان باللغة العربية)، وأن يكون له بيت. ولكنّ الكلمة المقلقة ـ والأكثر دقّة ـ لمصادرة إسرائيل الأراضي في الضفّة الغربية وغزّة منذ عام ١٩٦٧ هي كلمة «الاستعمار» (Colonization). فالمستوطنون مستعمرون. وجميع الإسرائيليين تقريباً في الضفّة الغربية يعيشون على أرض غيرهم. وقد يقولون إن اللّه أعطاهم الأرض، ولكنّ أولئك الفلسطينيين الذين يملكون تلك الأرض قانونياً ـ ولديهم أوراق مُلكيّة تثبت ذلك، منذ أيام الانتداب البريطاني، ومنذ أيام الإمبراطورية العثمانية ـ أليس لديهم الحقّ في مناشدة اللّه. وقد دعمت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة سرقة هذه الأراضي، وصار عدد اليهود الإسرائيليين الذين يعيشون في الأراضي الفلسطينية المحتلّة يناهز ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة عام ٢٠٠٣، بمخالفة واضحة للمادّة ٤٩ من معاهدة جنيف ـ التي تنصّ على أن «الدولة المحتلة لا يحقّ لها أن ترحِّل أو تنقل جزءاً من سكّانها المدنيين إلى الأراضي التي تحتلّها».

وخلال المفاوضات الطويلة مع الفلسطينيين، كان الإسرائيليون يعتبرون دائماً أن إعادة أيّ أرض هي «إعطاء» تلك الأرض من أجل السلام ـ وكأن الأراضي المحتلّة هي ملك إسرائيلي شرعي، تستطيع إسرائيل أن تتصرّف فيه، إذا كانت كريمة. لذا، من المهمّ أن نتذكر دائماً أن سياسة زرع المستوطنين اليهود في الأرض العربية المحتلّة منذ ١٩٦٧ جرى دعمها باستمرار وبحماس من قبل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة.

ومنذ عام ١٩٧٨، كانت إدارة الرئيس الأميركي جيمي كارتر تدين تكاثر المستوطنات اليهودية في الضفّة الغربية وغزّة، وتسأل لماذا يعيش إذ ذاك ٩٠٠٠ إسرائيلي في الأراضي المحتلّة ضمن ١٣ مستعمرة «غير رسمية»، عندما أراد مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل أن يقيم كما هو مفترض، سلاماً مع الرئيس المصري أنور السادات. ثم تكاثرت المستوطنات فبلغت ٣٩ مستوطنة مبنيّة منذ حرب ١٩٦٧. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٧٨ قامت الوكالة اليهودية برسم خطّة ـ وهنا أستشهد بتقرير «الغارديان» المنحاز إذ ذاك ـ لإسكان (١٦٠٠٠) عائلة إسرائيلية في بعض القرى الجديدة التي يبلغ عددها ٨٤ في الضفّة الغربية الأردنية؛ فضلاً عن إسكان (١١٠٠٠) عائلة أخرى في القواعد الاستيطانية القائمة... مع العلم أن المشروع يكلّف ملياراً ونصف مليار من الدولارات الأميركية، ويُستكمل خلال خمس سنوات ـ وهو الحدّ الزمني المعيَّن لما كان يُقصد أن يكون نهاية «الفترة الانتقالية» للحكم الذاتي الفلسطيني. ويجدر بالقرّاء هنا أن يفهموا أن لغة السلام وآماله في الشرق الأوسط هي تعابير مبتذلة. فهذه «الفترة الانتقالية» لا علاقة لها باتفاق «أوسلو» القادم، بل تتعلّق بقمّة «كمب دايفيد» بين بيغن والسادات عام ١٩٧٧، والتي لم تعطِ أية «استقلالية ذاتية» للفلسطينيين.

وفي أيار/مايو عام ١٩٧٩، كان الرئيس كارتر يناشد الإسرائيليين «ضبط» توسّعهم في إقامة المستوطنات، لأنها «لا تتفق مع القانون الدولي، وتشكل عقبة أمام السلام». ولكنه عاد فقال: «هناك لازمة تتكرّر من قِبل الإدارات الأميركية المتعاقبة، تتجاهلها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، ولكن هناك حدود لما يمكن أن نفرضه

على دولة ذات سيادة». وفي كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، قام الفلسطينيون بمظاهرة صامتة ضدّ قرار الحكومة الإسرائيلية نقل مستوطنة إلى الأرض العربية قرب نابلس. وفي هذه المظاهرة، فرش العرب سجّادات الصلاة على الطريق القريبة. وكان مراسل «التايمز» اللندنية في تلّ أبيب يشير إلى الضفّة الغربية باسمها اليهودي «السامرة».

وكان هناك في الواقع نوع من الخضوع الغريب في رواية ما تقوم به إسرائيل من سرقة للأراضي الفلسطينية. ففي ١٤ آذار/مارس عام ١٩٨٠ مثلاً، كتب «كريستوفر ووكر» من «التايمز» أن «الاحتكاك زاد بين إسرائيل ومصر حول إقامة المستوطنات في الأراضي المحتلّة، بسبب قرار إسرائيل بمصادرة حوالى ٠٠٠ ٤٠ متر مربّع من الأرض في القدس الشرقية من أجل بناء ضاحية يهودية جديدة. مع العلم أن العرب يملكون ثُلثي هذه الأرض». لقد كان ذلك فضيحة، وليس مجرّد احتكاك أو خلاف حول ضاحية، كما يروَّج له. وعندما أصدرت إسرائيل في العام ذاته «قانوناً أساسياً» يجعل القدس عاصمة لها، أعلن مجلس الأمن في الأمم المتحدة بقراره ذي الرقم ٤٧٦ أن أعمال إسرائيل الرامية إلى تغيير وضع القدس «يشكّل خرقاً فاضحاً لمعاهدة جنيف». ولم يكن لذلك تأثير. وفي شهر آذار/مارس من العام ذاته، أُجبرت آخر عائلة عربية تعيش في الحيّ اليهودي القديم، عائلة «أيوب حميس التوتونجي» ـ التي يشرف بيتها على حائط المبكى والجامع الأقصى ـ على قبول تعويض عن ملكيّتها، والمغادرة. قال «التوتونجي معترضاً باللغة العبرية: «إني من القدس؛ وأريد أن أبقى فيها. عندما يحبّ يهودي القدس، يعطى لحبّه قيمة روحية. وعندما يحبّ عربي القدس، يشتبه به بأنه يدعم منظمة التحرير الفلسطينية». وقد اعترض الكاتب الإسرائيلي «آموس إيلون» على هذا العنف؛ دون جدوى.

وعندما لم يتأثّر العالم «بالقانون الأساسي» الإسرائيلي الذي يدعم مطالبة إسرائيل بالقدس عاصمة لها، واصلت إسرائيل مصادرة الأراضي ـ ٠٠٠ ٤٠ متر مربّع لمستوطنة تكلّف ٠٠٠ ٦٠٠ دولار أميركي (أو الضاحية كما سمّتها جريدة «التايمز» مرّة أخرى) ـ في آذار/مارس ١٩٨٩. والآن، يعيش ٦٠ ألف يهودي في القدس الشرقية «العربية»، أي ما يعادل أكثر من نصف السكّان العرب هناك البالغ عددهم ١٠٠ ألف نسمة. وفي العام التالي، قال إسحاق رابين، رئيس وزراء إسرائيل، إنه سيحتفظ بالأراضي العربية المحتلّة لصالح الموجة الجديدة من المهاجرين اليهود السوفيات الواصلين إلى إسرائيل، شارحاً: «إنّ الزعماء السابقين من حركتنا تركوا لنا رسالة واضحة بأن نحتفظ بأرض إسرائيل من البحر (الأبيض المتوسط) إلى نهر الأردنّ من أجل الجيل القادم...».

وحالما أُعلن اتفاق «أوسلو»، رأى حزب الليكود الإسرائيلي نهاية المستوطنات اليهودية على الأراضي الفلسطينية. وقال بنيامين ناتانياهو رئيس وزراء إسرائيل: «إن هذه الجزر الإسرائيلية، المنعزلة في بحر منظمة التحرير الفلسطينية، لن تدوم طويلاً». ولم يكن عليه أن يقلق. فبتاريخ ٢٧ أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٤ ـ عندما كان في الضفّة الغربيّة ١٤٠ مستوطنة يهودية موجودة، وعندما كان عمر اتفاق «أوسلو» سنة واحدة لا غير ـ وافق

إسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل على بناء ألف شقّة سكنية جديدة في مستوطنة «ألفي مناخي» القريبة من القدس. وعند نهاية عام ١٩٩٦، كانت نسبة ٨٦,٥ في المئة من القدس الشرقية قد نُقلت من سيطرة المقيمين الفلسطينيين واستعمالهم؛ ونُزعت ملكيّة ٣٤ في المئة من القدس الشرقية، من أجل بناء مستوطنات يهودية. وأعلنت بلدية القدس عن خطط من أجل بناء ٧٠ ٠٠٠ وحدة سكنية جديدة على مدى السنوات العشر القادمة. ثم جاء فتح «النفق الأثري» بدءاً من حائط المبكى ـ بعناية «إيرفنغ موسكوفيتز» المليونير الذي يملك مستشفيات ونوادي للقمار في فلوريدا ـ ذلك النفق الذي يمرّ تحت القدس الشرقية المسلمة. وقد قامت مظاهرات عنيفة ضد إقامة النفق، دفعت نفقتها وزارة الشؤون الدينية الإسرائيلية، وخلّفت وراءها من القتلى ٤٣ فلسطينياً، و١١ جندياً إسرائيلياً.

وفي شباط عام ١٩٩٧، وافقت إسرائيل على بناء مستوطنة يهودية كبيرة جديدة عند «جبل أبو غنيم»، قوامها ٣٥٤٦ بيتاً، وسكّانها زُهاء ٢٥ ٠٠٠ إسرائيلي، خلال المرحلة الأولى من المشروع فحسب. وهذه التلّة التي أقيمت عليها هذه المستوطنة تقع خارج القدس الشرقية ـ حيث كان يأمل الفلسطينيون إقامة عاصمتهم. وجرى تجاهل المظاهرات الفلسطينية، واستعملت الولايات المتحدة الأميركية حقّ النقض في مجلس الأمن لإحباط قرار يدعو إسرائيل إلى وقف عملية البناء. وفي الشهر ذاته، بدأت وزارة الإسكان الإسرائيلية بيع الأرض التي تتّسع لخمسة آلاف بيت جديد ضمن المستوطنات القائمة في الضفّة الغربية وقطاع غزّة. وقد ادَّعى بنيامين ناتانياهو أنه في مقابل مستوطنة «جبل أبو غنيم» ـ التي غيَّروا اسمها الفلسطيني إلى «هار هوما» ـ هناك مشروع بناء آخر يضمّ ٣٠١٥ بيتاً للفلسطينيين. وقد شجبت منظمات حقوق الإنسان هذا التصريح الإعلامي غير الصحيح؛ وأشارت إلى أن الأذون البالغ عددها ١٨٠٠٠ الموعود بها منذ عام ١٩٨٠ لبناء بيوت فلسطينية، لم يُنفّذ منها بيت واحد بعد ١٧ سنة.

ولم تبخل الولايات المتحدة الأميركية بتشجيعها هذا التوسّع الاستعماري غير القانوني الهائل ـ الذي استمرّ خلال عملية أوسلو للسلام. فبتاريخ ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٧٧، نشرت جريدة «النيويورك تايمز» صفحة إعلانية كاملة موقّعة من قِبل عشرة زعماء روحيين مسيحيين ـ بمن فيهم بات روبرتسن وجيري فالويل ـ وكلّهم يدعمون «استمرار سيادة دولة إسرائيل على مدينة القدس المقدّسة. . . «ونحن نعتقد أن القدس أو أي جزء منها لن يكون قابلاً للمفاوضة في أيّ عملية سلام. يجب أن تبقى القدس غير مقسّمة، كعاصمة أبدية للشعب اليهودي». وتدّعي هذه الرسالة «الروحية» أن إسرائيل «قد أثبتت عملياً إحساسها بشواغل وحاجات المقيمين في القدس، بمن فيهم الفلسطينيون»؛ وأن حقّ إسرائيل بالقدس كعاصمة ذات سيادة جاء «بأمر إلهي»[*].

(*) يمكن القرّاء الذين أرادوا اختبار هذا الأمر العودة إلى سفر التكوين ١٢: ١٧؛ واللاويين ٢٦: ٤٤ ـ ٤٥؛ والعدد ٧: ٧ ـ ٨؛ وصموئيل ٧: ١٢ ـ ١٦؛ والملوك ١٥: ٤، والمزامير ٨٩: ٣٤ ـ ٣٧، و١٠٥: ٨ ـ ١١. ويزيد الإعلان على ذلك قوله: «إن معركة القدس بدأت؛ وحان الوقت للمؤمنين بالمسيح أن يدعموا إخوانهم اليهود. . .».

وتحت حكم «ناتانياهو» بدا أن السلطات الإسرائيلية تريد إغاظة جمهور الفلسطينيين وتقويض وضع عرفات أكثر فأكثر. فعندما اتخذت الأمم المتحدة عام ١٩٧٧ قراراً يحثّ الدول الأعضاء فيها على «تثبيط» المساعي لبناء المستوطنات على الأراضي العربية، انبرى الناطق باسم «ناتانياهو»، «دايفيد بار إيلان»، لاعب البيانو، ووصف المقترح بأنه «مُعيب، ومُفلس أخلاقياً»، لأنه يتجاهل الأخطار العالمية بينما يُدين ما يسمّيه بخبث «بناء شقق يسكن فيها الشباب زوجيْن زوجيْن». كما أن «مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية الأميركية عبّرت عن جبن وتحايل إيجابي عندما حثّت إسرائيل في أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٧ على «الامتناع عن القيام بأعمال منفردة، بما فيها ما يدركه الفلسطينيون على أنه توسيع للمستوطنات بشكل استفزازي».

وقد اتضحت معاني هذا الكلام، فإذا لم يكن استمرار بناء المستوطنات اليهودية على الأرض العربية المسروقة، خلال عملية أوسلو للسلام، سوى «ما يدركه الفلسطينيون» على أنه استفزازي، إذاً، كيف تدرك الولايات المتحدة الأميركية هذا العمل؟

وعندما لا يبني الإسرائيليون بيوتاً للمستوطنين على الأرض الفلسطينية، ينصرفون إلى هدم بيوت الفلسطينيين، فبين توقيع اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، وشهر آذار/مارس عام ١٩٩٨، دمَّرت جرّارات إسرائيل ٦٢٩ بيتاً، منها ٥٣٥ بيتاً في الضفّة الغربية و٩٤ بيتاً في القدس، ثُلثها خلال حكم حزب العمل والباقي تحت حكم الليكود. وهناك ١٨٠٠ أمر آخر بالهدم؛ بانتظار التنفيذ. هذا الانتهاك بالجُملة لحرمة الفلسطينيين، المتمثّل بمحاولة إخراجهم بالقوّة من القدس ـ ولا سيّما لأن إسرائيل لا تعطيهم أذوناً للسكن هناك ـ تفاقم أمره عندما اتخذت لجنة وزارية إسرائيلية في نيسان/أبريل عام ١٩٩٩ توصية ببناء ١١٦ ٠٠٠ بيت إضافي للمستوطنين على مدى عشرين سنة قادمة.

وقد عمدت حكومة حزب العمل برئاسة إيهود باراك ـ المعلن عنها أنها أكثر ليبرالية والإدارة الإسرائيلية الأقرب إلى الفلسطينيين منذ حكومة رابين ـ إلى استعمار الضفّة الغربية بأسرع من حكومة ناتانياهو الليكودية بعشر مرّات. وقبل بدء مفاوضات «الوضع النهائي» بين الإسرائيليين والفلسطينيين بيوم واحد في أيلول/سبتمبر ١٩٩٩، زار باراك مستعمرة «معال أدومين» التي صارت اليوم مستعمرة كبرى ـ وأعلن «إننا لن نزيل أية مستوطنة يبلغ عدد سكّانها ٢٥٠٠٠ نسمة... والتي ساعدت كل الحكومات الإسرائيلية في تطويرها... فكل بيت هنا، وكل شجرة، هي جزء من إسرائيل إلى الأبد؛ وهذا أمر واضح». وقبل آخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٠٠، اكتشفت جماعة الضغط الإسرائيلية، «السلام الآن»، أن إدارة باراك كانت تخطط لصرف مبلغ ٢١٠ ملايين دولار أميركي على المستعمرات في العام التالي.

وفي جميع الأحوال، لا يمكن تفادي الإحصاءات الأخيرة المُدينة لإسرائيل. فبين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٨٢، دخل الضفّة الغربية وغزّة ٢١٠٠٠ مستعمر. وفي عام ١٩٩٠، صار المجموع ٧٦٠٠٠ مستعمر. وعام ٢٠٠٠، بعد

اتفاق أوسلو بسبع سنوات، وصل عدد المستعمرين إلى ٠٠٠ ٣٨٣ مستعمر، بمن فيهم مستوطنو القدس الشرقية المضمومة(*). وبتاريخ ١٧ أيار/ مايو ٢٠٠١، شعر رينيه كوزيميك رئيس بعثة الصليب الأحمر الدولي إلى إسرائيل والأراضي المحتلّة، بأن من الضروري تذكير العالم بمقتضيات معاهدة جنيف التي تعتبر «إقامة سكّان الدولة المحتلّة في الأراضي التي احتلّتها عملاً غير قانوني، يوصف بأنه خرق فاضح. . . كما أن سياسة الاستيطان بحدّ ذاتها تُعتبر في القانون الإنساني الخيِّر جريمة حرب». ومع كل ذلك، وحتى عندما كان عرفات على فراش الموت عام ٢٠٠٤، وكان جدار «الأمن» الإسرائيلي ينهب طريقه عبر المنزيد من أراضي العرب، بقي الاحتلال الإسرائيلي، واستمرّ نزع ملكية الفلسطينيين.

وكان هذا التوسّع الاستعماري الهائل، أكثر من أي حدث آخر، يثبت للفلسطينيين أن اتفاق «أوسلو» كان خدعة زائفة، وكذبة، وحيلة للإيقاع بعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية في شرك التخلّي عن كل ما سعوا إليه وصارعوا من أجله خلال أكثر من ربع قرن. لقد كان هذا الاتفاق أسلوباً لتخليق أوهام كاذبة، وإضعاف الطموح الرامي إلى إقامة دولة للفلسطينيين. أما بالنسبة إلى المستوطنين فقد كان اتفاق «أوسلو» طبعاً تهديداً للمشروع الاستعماري الذي دعمته الحكومة، والذين هم جزء منه. وعندما استمرّ إسحق رابين في عمليّة السلام بعد حصول عدّة تفجيرات انتحارية قام بها الفلسطينيون، صار في نظر المستوطنين جزءاً من «الإرهاب» ذاته الذي مثّله عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. فبتاريخ ٢٤ تموز/يوليو ١٩٩٥، مثلاً، قتل مفجّر انتحاري سبع إسرائيليين على متن باص في تلّ أبيب، وفي ٢٢ آب/أغسطس فجّرت إحدى الفلسطينيات نفسها في مؤخّرة باص، وحوّلت ذاتها مع أربعة ركاب آخرين إلى أشلاء. وفي ثاني يوم حمّام الدم الثاني، قال رابين إن ذلك لن يثنيه عن «محاربة الإرهاب الإسلامي المتطرّف، والاستمرار في المفاوضات» مع الفلسطينيين. وبعد شهرين بالضبط اتُّهم رابين بأنه «خائن» في تجمّع حصل في القدس وكان ناتانياهو من المتكلّمين الرئيسيّين فيه. ووزّعت منشورات في ذلك التجمّع صوّرت رابين بلباس ضابط نازي؛ كما أظهر فيديو مسجّل لذلك التجمّع امرأة تطعن بالسكّين صورة لرابين.

ولكن سيرة حياة رابين النهائية، لم تُكتب بعد. وقد لاحظ المؤرّخ الإسرائيلي «آفي شليم» بفطنة أن رابين أنزل بالفلسطينيين عقاباً وألماً أكثر من أي قائد إسرائيلي آخر. فهو الذي احتلّ الضفّة الغربية، عندما كان رئيساً للأركان عام ١٩٦٧. وحاول خلال الخمسة وعشرين عاماً التالية الاحتفاظ بها بالقوّة الضارية «التي أكسبته سُمعته في إسرائيل كسياسي مسؤول وموثوق». وعندما كان رئيساً للوزراء، سمح للجنود الإسرائيليين بأن يكسروا عظام

(*) ولكنّ القادة الإسرائيليين لم يكونوا الوحيدين الذين يحاولون مجابهة هذه العقبة المادّية الواضحة على طريق السلام. في عام ٢٠٠٠، نصح «جان هيوم»، رجل الدولة الإيرلندي الشمالي، الفلسطينيين والإسرائيليين بقوله: «إن التحدّي أمامكم ليس سباقاً جغرافياً، ولكنه بناء مؤسّسات متّفق عليها. . .» لكن هذه الصيغة من «عملية السلام» لم تذهب بعيداً. وحرب السباق ـ التي تتنافس فيها جماعتان على قطعة عقار ـ تصوّر بدقّة حقيقة نزاع الشرق الأوسط. وأقرب صيغة إيرلندية للصراع الإسرائيلي ـ العربي، هي محاولة التوسّط لوضع حدّ للعنف بعد نزع ملكية الكاثوليك في القرن السابع عشر. ومفادها حثّ الملّاكين البروتستانت وجمهور الكاثوليك الإيرلنديين الفقراء على بناء «مؤسّسات متّفق عليها»؛ ولكنها لم تكن لتعجب أياً من الطرفين.

المتظاهرين الفلسطينيين، تلك الممارسة التي استمرّت حتى قام مصوّر إسرائيلي بأخذ لقطة تظهر الجنود الإسرائيليين يكسرون ساقَي أسير فلسطيني. إن استمرار رابين في عملية الاستعمار، حتى بعد توقيع اتفاق «أوسلو»، يشير إلى أنه أراد أن يعطي عرفات شرف حُكم تلك المناطق في الضفّة الغربية وغزّة، حيث لم يكن الإسرائيليون فيها بحاجة إلى الأمن أو إلى مزيد من الاستيطان ـ وهذا تأويل مختلف عن تأويل عرفات. ولكن بتاريخ ٤ تشرين الثاني/نوفمبر، وبعد أن أخبر تجمّعاً في تلّ أبيب أن «طريق السلم أفضل من طريق الحرب»، اغتيل رابين على يد طالب إسرائيلي متديّن يبلغ من العمر ٢٥ عاماً ويسمّى «إيغال آمير»، أحد المعجبين «بباروخ غولدشتاين»، قاتل الفلسطينيين في جامع الخليل. وأثناء محاكمته، قال «آمير» إنه حالما وعى أن هناك شيئاً يمثّل وصية دينية «لم تكن هناك مشكلة أخلاقية. فلو كنتُ أحرّر الأرض الآن، كان عليّ أن أقتل الأطفال والأولاد، كما هو مكتوب في (كتاب) جوشوا». وإذا غيَّرتَ الدين هنا، فإنك تكاد تسمع صوت أحد المفجِّرين الانتحاريين الفلسطينيين.

كان التشابه المتوازي سهلاً، بالطبع. فبينما كنتُ أدفع حسابي لأغادر فندق الملك داوود في القدس باكراً في صباح أحد الأيام، تمنّى لي سفراً بالسلامة لدى عودتي إلى بيروت، رئيس المحاسبة في الفندق، كالعادة. وهو يهودي تقليدي طويل اللحية إلى حدّ فائق ـ يعتقد أن بيروت هي «مركز الإرهاب». سألني ذاك الصباح عمّا إذا كان شكله يذكّرني بشخص أعرفه، بقوله: «ألا أبدو مثل بعض أعضاء حزب الله؟»، شافعاً قوله بابتسامة عريضة. وكان عليّ أن أعترف أنه يشبه فعلاً بعض المقاتلين المسلمين الشيعة في لبنان. فاللحى لها علاقة بالاتجاه التقليدي، والأصولية بالمعنى الحرفي للكلمة، مثل «حجاب» النساء ـ النساء اليهوديات التقليديات، والنساء المسلمات، والراهبات المسيحيات ـ وكأنها من معالم الأديان الثلاثة في الشرق الأوسط. وكنت أتساءل: «ما الذي يكمن في تطويل الشعر، أو تخبئته، أو كون شعر الرجل رمزاً على الرجولة، أو شعر الأنثى مصيدة جهنمية للرجال، أو طول اللحى، أو أشكالها؟ ولماذا كانت للمسيح لحية دائماً في كل تلك الصور التوراتية؟ ولماذا ينمّي الأئمة الشيعة الشعر حول ذقونهم، فيجيء كالزغب الأبيض، أو قصيراً خشناً، أو متشابكاً؛ لكنّه معقّد مثل تفسير الكتاب المقدّس، أو بحث في الفقه الإسلامي يضع الشيخ في مَصفّ الأئمة التراتبي؟ هل قُصد من اللحية أن ترمز إلى الحكمة، أو الالتزام، أو الرجولة، أو أريد بها اكتساب الاحترام؟

وعندما رحّل إسحاق رابين حوالى ٤٠٠ فلسطيني من مناصري حماس والجهاد الإسلامي إلى لبنان عام ١٩٩٢، أنشأ جامعة إسلامية على منحدرات جبل حرمون (جبل الشيخ). فلمّا لم تسمح الحكومة اللبنانية لهم بأن يسافروا شمالاً ضمن باقي البلد، عُزلوا في قرية «مرج الزهور» في قيظ الصيف وزمهرير الشتاء. وكان العديد منهم أساتذة جامعات، ومهندسين، وكتّاباً. فصاروا يتناقشون في شؤون الإسلام الحديث والفلسفة، وتعلّم القرآن، وحفظه؛ وصاموا رمضان، وصلّوا. وكان تخييمهم قرب طريق متعرّجة شهدت منذ ٩٠٠ سنة، كما يقال، مرور صلاح الدين إلى بيت المقدس. وكان بعض زعماء الجهاد الإسلامي يعقدون اجتماعاتهم هناك، مثل الشيخ عبد العزيز الرنتيسي والشيخ بسّام جرّار وغيرهم. وقد سألني الشيخ جرّار عن الفائدة التي تُرتجى من صفقة «سلام»

سرّية لطَخت شرف الذين ماتوا في الانتفاضة الفلسطينية بين عام ١٩٨٧ أو عام ١٩٩٣. وكان هؤلاء المرحّلون يطلبون الحصول على جرائد؛ ولكن بمرور الأشهر لفتت قضيتهم الانتباه، وأمدَّتهم الجماعات المتعاطفة معهم مثل حزب الله وغيره من الجماعات الإسلامية اللبنانية بما يلزمهم، بما في ذٰلك مولّدات الكهرباء، والتلفزيونات والكتب؛ حتى أنه كانت هناك «مكتبة» جامعية، وخيمة تقوم مقام المسجد، وأخرى كمستوصف صحّي. وهكذا نشأ مجتمع إسلامي ذكوري عند الصخور الدهرية المعطاءة لمرج الزهور.

قال لي أحدهم: «سأفتقد هذا الجمال الطبيعي»، وذلك قبل أن يُسمح لهم بالعودة إلى «فلسطين» ـ وإلى سجن إسرائيلي ـ عام ١٩٩٤. ثم أردف قائلاً: «سيبقى لهذه الصخور مكان خاصّ في عقولنا في مستقبل الأيام». وقد أعطاني بعض هؤلاء الرجال أرقام تلفوناتهم في رام الله والخليل وجنين، وطلبوا مني أن أزورهم عندما أعود إلى «فلسطين». وكثير منهم تفاوضوا مع الموظفين الإسرائيليين؛ حتى أن أحدهم أعطاني تلفون منزل شيمون بيريز.

وهكذا، في يوم من أيام كانون الأول/ديسمبر الباردة عام ١٩٩٥، ذهبتُ إلى جامعة الخليل، ولقيت الشيخ جرّار أحد متخرّجي مرج الزهور. لقد صار أنحف؛ ولم يعد يلبس العباءة التي كانت تقيه من ثلوج لبنان؛ بل يرتدي سترة جلد، وقد قصّ لحيته فصارت قصيرة أنيقة؛ وهو يجلس في مكتب الطلبة. وكان يتحلّق حوله مؤيّدون آخرون لحماس من جماعة مرج الزهور، وقد وخط الشيب رؤوسهم أكثر من السابق؛ لكنهم ما زالوا يصغون إلى أستاذهم بالانتباه الكامل، الذي كانوا يعطونه لدروس التاريخ التي تلقّوها منه في الخيمة الكبيرة الباردة في جامعة مرج الزهور. قال: «إن مرج الزهور غيّرتنا كلّنا. وقد ارتحت عندما علمت أن العالم لاحظ ورطتنا، وأدركت أنه لا تزال هناك قِيَم صالحة في الدنيا».

توقّف عن الحديث تكراراً خلال اجتماعنا في مكتب الطلبة المزدحم. وربّما كان يشعر أن كل أولئك الملتحين يتطلّعون إلى حكمة وإلى هنات أستاذهم في التاريخ. وها هو في آخر الأمر، رجل غربي عرف الشيخ جرّار في المنفى، يأتي كمراسل من ثقافة مختلفة؛ وقد يعرف أشياء لا يعرفونها عن سلوك أولئك الرجال الأربع مئة من الفلسطينيين في منفاهم منذ سنتين. ثم تابع الشيخ جرّار حديثه قائلاً: «بما أن العالم أثبت أنه ليس دغلاً كما كنا نتصوّر، صار لدى العديد منّا تشكّك في تقويم خبرتنا بجنوب لبنان. لقد عدَّلنا خطابنا السياسي. وفي مرج الزهور تكلّمت مع أناس من ثقافات مختلفة. وكان علينا أن نجد اللغة التي تُقنع الآخرين. لا أن تقنعنا نحن. ولذلك طوّرنا تلك اللغة».

وماذا عن اتفاق منظمة التحرير الفلسطينية مع الإسرائيليين، الذي نبذه المنفيّون منذ زمن إقامتهم في مخيّم سفح جبل الشيخ، وسط الثلوج. قال الشيخ جرّار: «كل حلٍّ يتصل بمفهوم للعدالة. وإذا حصل خطأ، لا يدوم طويلاً. هناك إمكان في إقامة السلام، ولكن، سيكون هناك أيضاً عنف. يعتقد كل امرئ أن هذا هو حلّ قوّة عظمى وغير قائم على العدالة... لن تتعامل معنا إسرائيل على أساس من العدالة...» وأومأ كلّ الشباب الموجودين في الغرفة برؤوسهم موافقين، عندما عاد جرّار إلى الموضوع المألوف: نفوذ واشنطن الكبير الشامل،

المتدخّل في الشؤون الدولية لرعاية المصالح الأميركية ـ في البوسنة، فضلاً عن الشرق الأوسط. قال: «إن البوسنة قائمة في قلب أوروبا؛ وهي حالة خاصّة. وقد توصّلوا إلى حلٍّ لإبقاء المسلمين تحت المراقبة، ومنع أي طرف ثالث، كالإسلاميين، من اكتساب أي نفوذ. أما فلسطين، فهي في قلب العالم الإسلامي؛ وهنا يتطلّع الأميركيون إلى رعاية مصالحهم في الشرق الأوسط المتمثلة: بالنفط وإسرائيل».

وما كان مني إلّا أن دفعت الشيخ جرّار إلى موضوع القدس، الذي تكلّم عنه عدّة مرّات في مرج الزهور. قال: «قد يسيطر عرفات على بعض مناطق مُلحقة بالقدس. أما الضفّة الغربية فستقسم إلى «كانتونات» على يد الإسرائيليين الذين بنوا كل طرقات المرور هذه للمستوطنين كي يفتّتوا أرضنا. سيغادر بعض المستوطنين ولكنّ آخرين سيبقون، ولا سيّما في وادي نهر الأردنّ، في الشمال الغربي، وفي تلك المناطق كافّة التي صارت المستوطنات فيها مدناً افتراضية». لقد كان الشيخ مصيباً بنسبة خمسين في المئة. سيُعرض على عرفات بعض الضواحي الضعيفة حول القدس. ولن يغادر أحد من المستوطنين ـ بل سيزيد عددهم ـ وإنما ستقطّع الطرق أحشاء الأرض الفلسطينية، بحيث لا تقوم للدولة الفلسطينية قائمة.

وفي مماشي الجامعة، تحلّق مئات الطلّاب حول لوحات الإعلانات المختصّة بالجماعات الفلسطينية المقاتلة. فعلى اللوحة الإسلامية، عُلّقت عشرات من صور «الشهداء» المنتمين إلى حماس وإلى الجهاد الإسلامي. وهم يحملون مسدّسات ورشّاشات آلية، ومدافع رشّاشة ثقيلة. وكان هناك أيضاً «بسّام إماسلني» أحد قُدامى مرج الزهور، يشير إلى صورة رجل، خفيف اللحية، ذي عينين سوداويْن جدّيتيْن ويقول: «جاءوه إلى بيته، فوقع في الفخ؛ لكنه خرج إليهم مقاتلاً برشّاشه؛ ولم يُقتل إلّا لكثرة عددهم».

وإني أتساءل: «هل كنّا نخدع أنفسنا أو نتوهّم لاعتقادنا بأن «السلام» معروض؟ ولا أتمالك عندما أراجع تقاريري عن الشرق الأوسط المتمحورة حول النصف الثاني من تسعينيّات القرن العشرين الميلادي، إلّا أن أشعر بالإرهاق والهول. كتبتُ في حزيران/يونيو عام ١٩٩٦: «لقد انتهى شهر العسل، بل انتهى الزواج... فالمسرحية تدرّجت إلى نهايتها منذ زمن طويل. وقد وقع الطلاق النهائي عندما صار «بيبي ناتانياهو» رئيساً للوزراء؛ إذ لم يظهر أيّ اهتمام للحكومة الإسرائيلية الجديدة بالاتفاقات الرسمية المهيبة التي وقّعتها منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل: فلم تنفّذ إسرائيل انسحابها من الخليل؛ ومحادثات الوضع النهائي المفترض فيها أن تقرّر مستقبل القدس والمستوطنات اليهودية التي لا تزال تتوسّع عبر الأرض الفلسطينية في الضفة الغربية، صارت غير ذات موضوع».

وفي كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٩٦، وجدت نفسي أكتب: «هناك انفجار قادم في الشرق الأوسط. إنه انفجار كبير قد يغيّر وجه المنطقة إلى الأبد. لقد اخترنا نحن في بلاد الغرب أن لا نهتمّ بالعلامات الدالّة على الكارثة القادمة، وفضّلنا الادّعاء بأن «عملية السلام» التي شبعت موتاً وكانت محشوّة بالأخطاء، لا يزال فيها رمق من الحياة... لكن العالم العربي يستعدّ لموجة صادمة من الأحداث الرهيبة». وها أنا أسأل نفسي الآن: «ماذا

كنت أتوقّع من أحداث رهيبة؟ لا بدّ أني تخيّلتُ أن الانفجار سيحصل في الشرق الأوسط ضمن إسرائيل أو فلسطين. ولكن، لديّ أيضاً شريط مقابلة مع الممثّل المعتمد لهيئة الإذاعة الكندية في «تورنتو» عام ١٩٩٨، تكلّمت فيه أيضاً عن «انفجار قادم».

كان هناك التعذيب والموت في السجن، وكان التوقيف والاحتجاز تعسّفياً دون محاكمة، وكان هناك إعدامات، ومحاكمات غير عادلة من قِبل الإسرائيليين، والفلسطينيين على السواء: هل يمكن أن يكون هناك، بعد خمس سنوات من اتفاق أوسلو، اتهام بائس «للسلام» أكثر من تقرير منظّمة العفو الدولية المنشور؟ لقد تمّت التضحية السريعة بالحقوق الإنسانية خلال التفتيش العاثر عن «الأمن» بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، بحيث كان تقرير تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٩٨ متأخّراً جدّاً في تسجيل الفظاعات الأخيرة: إطلاق فرقة إعدام النار على شخصيْن فلسطينيين بتهمة القتل، وضرب «حسين غالي»، حتى الموت من قِبل بعض أتباع ياسر عرفات؛ وهو الذي جاء إلى مخفر الشرطة لتسجيل شكوى. وقد جاءت كلمات منظّمة العفو الدولية أكثر فصاحة ووضوحاً من تقارير أيّ من المراسلين:

«... إن قتل الفلسطينيين على أيدي أجهزة الأمن الإسرائيلية أو المستوطنين الإسرائيليين، أدّى إلى التفجيرات الانتحارية وموت المدنيين الإسرائيليين. وأدّى كلّ ذلك إلى موجات من توقيفات واحتجازات انفرادية تعسّفية، وتعذيب، ومحاكمات غير عادلة... وكان الشعب الفلسطينيّ الضحيّة الرئيسيّة لهذه الانتهاكات... كما أصبحت الأراضي المحتلّة أرضاً حافلة بالحواجز التي أقامتها في الأغلب أجهزة الأمن الإسرائيليّة بين القرى والبلدات».

وكانت طرائق التعذيب لدى الإسرائيليين تشمل «الشابح» Shabeh، (أي الحرمان من النوم مع التقييد في أوضاع مؤلمة وتغطية الرأس والرقبة)، و«الغمباز» Gambaz (الإلزام بجلوس القرفصاء لأكثر من ساعتين)، و«التلتول» (Tiltul)، (أي الهزّ العنيف، الذي سبق أن قتل أحد الأسرى الفلسطينيين)(*)، و«الخزانة» (أي الحبس في خزانة). وتشمل طرائق التعذيب الأخرى الضرب، والضغط على الأعضاء التناسلية، والتعرّض للحرّ والبرد. وقد قالت منظّمة العفو الدولية: «هناك إقرار عام لدى المجتمع الدولي بأن إسرائيل قد شرّعت استعمال التعذيب». أما التعذيب على يد سلطة ياسر عرفات فقد شمل: الضرب، والتعليق بالرسغين، والحرق بالكهرباء أو بالسجاير، مع أنواع التعذيب الأخرى التي تعلّموها من الإسرائيليين، ولاسيّما «الشابح». وقد مات عشرون فلسطينياً في

(*) أكّد اختصاصي اسكتلندي في علم الأمراض عام ١٩٩٥ أن الفلسطيني الذي مات تحت الرعاية الإسرائيلية، «عبد صامد حريزات» من الخليل، مُني بإصابات قاتلة في دماغه، عندما ضُرب رأسه بقوة، أثناء «هزّ عنيف»، على يد عناصر «شين بت» الإسرائيلية بتاريخ ٢٢ نيسان/ أبريل خلال ذلك العام. وفي تقرير للجنة الإسرائيلية الخاصّة حول التحقيق، أقرّ القاضي المتقاعد «موشي لاندو» في شهادته باستعمال «الضغط الجسدي الخفيف» ضدّ الفلسطينيين. وفي عام ١٩٩٧، جاءت الاستخبارات العسكرية الفلسطينية إلى مستشفى نابلس بشخص موقوف يُسمّى «يوسف بابا» محروق في ذراعه وفخذيه بأداة كهربائية تُستخدم لغلي الماء. وقد تطوّرت جروحه إلى «غرغرينا»؛ ثم أعيد إلى السجن حيث مات بتاريخ ٣١ كانون الثاني/ يناير.

السجن تحت رعاية السلطة الفلسطينية، منذ اتفاق أوسلو، ومعظمهم أثناء التعذيب أو بعده. ومن الذين عُذّبوا بطريقة رتيبة عادية «الموقوفون لأسباب أمنية»، والمتعاونون مع الإسرائيليين المشكوك في أمرهم، والفلسطينيون الذين باعوا أرضاً للإسرائيليين.

وقد اهتمّت منظّمة العفو الدولية بالقتل غير القانوني. وشمل ذلك مصرع هاني عبد، أحد أعضاء حركة حماس المتهم بقتل جنديين إسرائيليين، والذي قُتل في غزّة بانفجار سيّارة. وفتحي الشقاقي، القائد في الجهاد الإسلامي الذي أطلقت عليه النار في مالطا. ويحيى عيّاش، صانع القنابل الذي قُتل بواسطة جهاز هاتف نقّال مفخّخ، وقد أدّى مقتله خلال هدنة ذاتية أعلنتها حماس إلى سلسلة من التفجيرات الانتحارية. وبين العديد من الأبرياء الذين قتلهم الإسرائيليون الطفل «علي جوارش» البالغ من العمر ٨ سنوات. وقد استشهدت اللجنة المذكورة بقول الصحافي «جويل غرينبورغ» من «النيويورك تايمز»، الذي أخبر منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية «بي تشاليم» (B'Tselem) فيما بعد أنه رأى الجنود الإسرائيليين يطلقون النار على ولد خلال المظاهرة:

> «رأيت أحد الجنود يركع ويصوّب بندقيته نحو الأولاد... وكنت أعتقد أنها كانت طلقة مغطاة بالمطاط... ولكنّي لست متأكّداً من ذلك. وعندما انسحب الجنود لاحظتُ ولداً يرقد دون حراك على الأرض، وهو في حوالى التاسعة أو العاشرة من عمره... رأيت... جرحاً على الجهة اليمنى من جبينه، وكثيراً من الدم ينزف. وفيما بعد، أخبرني الأطبّاء في مستشفى «المقاصد» وفي «بيت جالا» أن دماغ الولد تناثر إلى الخارج».

ومن الغريب تآلف الأمور في هذا الصراع الدموي. فكلّما زاد العنف في إسرائيل ـ وفلسطين، اكفهرّ المستقبل السياسي، وعظم تفاؤل الغرب بشأن «عملية السلام»، التي «توضع على خطّ سكّتها» من جديد. وأفترض أن هذا كان نوعاً من التمرّن اللاشعوري تمهيداً لغزو العراق من قبل الإنكليز والأميركيين عام ٢٠٠٣. وبينما كانت نتائج تلك العملية العسكرية غير الشرعية تتشبّث بشكلها الكوارثي، كان الأميركيون والبريطانيون يكرّرون التعبير عن ثقتهم المطلقة بأن الغزو كان يستحقّ ذلك العناء، وأن عواقبه كانت قابلة للتنبّؤ، وأن النتيجة النهائية هي مزيج من «الحرّية» و«الديمقراطية». وكذلك الأمر بالنسبة إلى فلسطين وإسرائيل عام ١٩٩٨.

وفي أيار/مايو من تلك السنة، سافرتُ إلى لندن لمراقبة المسيرة المستمرّة لعملية خلق أوهام السلام في الشرق الأوسط حول شارع «داوننغ». وقد حوّمت مروحيّة فوقنا ببطء وهي تخرخر، عندما خرج بنيامين ناتانياهو من الرقم عشرة ليخبرنا كم هو ممتنّ من طوني بلير. ثم عادت الطائرة المروحية تتهادى في أشعّة الشمس الربيعية، عندما أطلّ ياسر عرفات من شارع «داوننغ» كي يشكر بلير «لالتزامه بعملية السلام». كم كانا يُحبّان طوني؛ وكم كانا يكرهان بعضهما البعض. وفي تلك الأثناء، كانت تبدو خلفنا البناية المصيرية التي دبّج فيها اللورد «بلفور» تصريح بريطانيا عام ١٩١٧ الداعم لإقامة وطن يهودي في فلسطين.

أخبرنا «بيبي» ببزّته الداكنة النقيّة وشعره الأبيض الكثيف، أنه يمكن أن يحصل تقدّم، إذا أظهر الجانبان

مرونة. وادّعى أن إسرائيل خطت الخطوة الإضافية. وكانت الخطوة الإضافية، هذا الميل الإضافي بنظر الفلسطينيين، هي الخطوة التوسّعية لآخر مستعمرة يهودية أسّستها إسرائيل في قلب الأراضي الفلسطينية المحتلّة. أما عرفات فظهر بسحنته الرمادية، وشفته السفلى ترتجف، وكوفيّته غير مرتّبة على غير عادته ـ وأنذر بأنه «على ناتانياهو أن يتحمّل مسؤوليته. . . بشأن الفوضى التي قد تحدث في المنطقة، إذا جاءت نتائج هذه المحادثات غير إيجابية».

وعلى بُعد ميل واحد، وعبر شوارع مصرف لندن الفارغة في العطلة، كان رئيس وزراء إسرائيل يتكلّم مع وزيرة الخارجيّة الأميركية مادلين أولبرايت، في الأجنحة الفخمة لفندق «غروسفينر بارك». وكانت المدخنة العامرة بما يشبه الحطب المشتعل، وبالرسوم الزيتية للمتزلّجين على الجليد، تشبه بإنذارها غرفة التدخين في سفينة «التيتانيك». وخلال دقائق، جاء الناطق باسم إسرائيل دايفيد بار إيلان، بلهجته الباردة الجامدة المألوفة في مدارس بريطانيا الخاصة، يتمشّى في ردهة الفندق ليقول للصحافيين ـ كردّ على تصريح عرفات ـ إنه «إذا كانت المعادلة «الأرض ـ مقابل ـ الإرهاب»، فإننا لا نستطيع أن نستمرّ في هذا الأمر». كانت تلك لغة الأولاد المتبادلة بين الطرفين، لغة التهديد والوعود الكاذبة. كما كان ناتانياهو وعرفات يحبّان السلام ويسعيان إليه. ولكنهما لم يستطيعا أن يتكلّما فيما بينهما. لقد أُضعف عرفات إلى درجة لم يعد معها قادراً إلّا على قبول طلب واشنطن بانسحاب إسرائيل بنسبة ١٣,١ في المئة من الضفّة الغربية، الذي هو تقزيم مشوّه لما جاء في اتفاقات «أوسلو». وفي فندق «غروسفينر»، كانت مادلين أولبرايت ـ المفترض بها أن تكون وزيرة قاسية الحديث ـ تحاول أن تصبّ كل غضب النعجة على الإسرائيليين لوقفهم عن الاستمرار في تشييد المستوطنات في الأراضي العربية المحتلّة، ولحملهم على الالتزام بروزنامة أوسلو، وإقناع ناتانياهو أن يتخلّى عن أكثر من ٩ في المئة من الأرض الفلسطينية ليمنحها إلى عرفات في المرحلة التالية من تسليم الأراضي؛ دون جدوى ناهيك بالدولة الفلسطينية. ولكن، خارج الرقم ١٠ من شارع «داوننغ»، كانت شبكات الإعلام تبدي آراءها ـ فقد جاء على لسان أحد موظفي هيئة الإذاعة البريطانية ـ أن ناتانياهو لم يكن لديه سوى «مجال ضيّق للتحرّك» لأن وزارته منقسمة على نفسها. ولكن، لم يُذكر في ما أُذيع أن إسرائيل لم تتقيّد بمقتضيات اتفاق أوسلو الموقّع. وقد أوضح بار إيلان الوضع تماماً. فإسرائيل تريد مزيداً من الأمن من عرفات، وتطلب منه تخفيض عدد رجال الشرطة عنده. المزيد من الأمن مع الأقلّ من الشرطة! مَن حلم بهذه المعادلات المعتوهة؟!

وكانت هناك هُنيهة صورّت اليأس المخيّم على «عملية السلام» في الشرق الأوسط. فعلى الأريكة خارج المقهى في فندق «تشرشل» بلندن، وفي ثاني يوم من المحادثات، رأيت شخصاً مألوفاً لديّ متهاوياً على تلك الأريكة. لم يكن ظاهراً هناك رجال شرطة أو أمن، بل الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية، الطويل الأسود الشعر، والمرأة الشاحبة المرهقة الجالسة في زاوية الأريكة. لقد بدت مادلين أولبرايت على شفا الانهيار. وكانت قبل ساعات قد تلفنت لعرفات لتقدّم أعذارها؛ إذ لم تستطع أن تأتي لتراه، بحسب الاتفاق. لقد كانت متعبة جدّاً بحيث تعذّر عليها الذهاب إلى «كلاريدج» لمقابلته. انفجر عرفات ضاحكاً بعد انتهاء تلك المكالمة. فحالته

الصحّية كانت أسوأ بكثير من صحّتها؛ إذ يصطدم المرء عندما يراه عن قُرب، ويده اليمنى تمسك باليسرى المرتجفة، وشفته السفلى تتحرّك لاإرادياً عندما لا يتكلّم. ولكن عندما جاء دور ناتانياهو بعد ساعات قليلة، ركبت أولبرايت في سيّارتها الليموزين لتقابل رئيس وزراء إسرائيل في فندقه.

وما كان أشدّ وقعاً وصدماً من صحّة عرفات، كان خوف أولبرايت من ناتانياهو، بل من إسرائيل في الحقيقة. فقد قبل عرفات ومنظّمة التحرير الفلسطينية شروط أميركا لمقابلة الرئيس كلينتون بتاريخ ١١ أيار/مايو ١٩٩٨. ولكن ناتانياهو لم يستجب بعد. إنه سيطير إلى إسرائيل «للتشاور» مع وزرائه. وعندما تكلّمت أولبرايت معنا كلنا فيما بعد ـ وهي متردّدة، ومرتبكة أحياناً أو ناسية لبعض الأسئلة ـ كانت تمدح القائد الإسرائيلي المستمرّ في تشييد المستوطنات اليهودية على الأرض التي يريدها عرفات كجزء من دولته الفلسطينية. فناتانياهو في وضع «مشجّع»، يبدي «آراء جديدة»، وهو متحمّس، ومستعدّ «للمساعدة». إنها جدّ ممتنّة من ناتانياهو. قالت: «بالطبع، إن إسرائيل هي التي تحدّد مطالب أمنها» ـ فالوداع إذن لرجال الشرطة الفلسطينيين. وعندما سألناها ما هي تلك «الأفكار الجديدة» التي أبداها ناتانياهو، أنبأتنا بأن «المزيد من التفاصيل لا تساعدنا على المزيد من التقدّم».

كان ذلك كلاماً فارغاً. ولكنها مع ذلك كانت تتكلّم عن «التقدّم» ـ وقد أحصيت تكرار هذه الكلمة فبلغ ١٨ مرّة خلال عدّة دقائق فحسب. وكذلك فعل طوني بلير عندما ظهر أمام الصحافة. فقد استعمل علامات الوقف في كلامه بكثرة متزايدة، مما يحمل المرء على الاشتباه في ما يقوله. قال عرفات إنه سمع من أولبرايت عن تحقيق «تقدّم»، عندما سألتُه عما إذا كان قد ندم لتوقيعه اتفاقات أوسلو؛ فوسّع حدقيته، واستعاد صوتُه قوّته القديمة، وأردف قائلاً: «إن اتفاق السلام الذي وقعتُه كان سلام الشجعان. وقّعت مع شريكي إسحاق رابين الذي دفع حياته ثمناً لهذا السلام. إن واجبنا الثابت هو أن نستمرّ بالمحاولة التي وقّعناها مع رابين وبيريز. وهكذا، لم يرد ذكر ناتانياهو؛ كما لم يرد ذكر «سلام الشجعان» في كلام ناتانياهو وأولبرايت، مع الاستخفاف غير الملائم. وقد أبدت أولبرايت ملاحظة حول جهود السلام الأميركية مفادها أنه «يعود للطرفين أن يقرّرا إلى أيّ حدٍّ نحن نخدمهما» وربّما يكتب هذا الكلام على ضريح اتفاق أوسلو.

وفي خريف عام ١٩٩٨، تكلّم الرئيس كلينتون قليلاً عن ناتانياهو، بمناسبة عشاء خاصّ في البيت الأبيض مع الأعضاء الشباب في العائلة المالكة الأردنية، ومجموعة من الضيوف لا تتعدّى عشرة أشخاص من الرجال والنساء، من المتعاطفين مع ملاحظاته. قال: «إني أكثر الرؤساء الأميركيين مناصرة لإسرائيل منذ ترومان؛ لكن المشكلة مع «بيبي» أنه لا يعترف بإنسانية الفلسطينيين». فبصرف النظر عن تواضعه المزيّف ـ كان كلينتون ميّالاً إلى إسرائيل أكثر من ترومان ـ وقد وضع إصبعه على العيب الفاضح الضارّ لدى ناتانياهو ألا وهو: عدم اعتبار الفلسطينيين إخوة في الإنسانية، واقتناعه بأنهم لا يخرجون عن كونهم شعباً خاضعاً. وتظهر هذه الصفة أيضاً في كتابه: «مكان بين الأمم»، الذي يمكن أن يكون قد كتبه حاكم استعماري. لقد كان كلينتون على حقّ. لقد فهم القصور النفسي القابع في قلب حكومة ناتانياهو بكاملها، وليس في سياسات ناتانياهو فحسب.

ومع ذلك، لم تمضِ عدّة أيام حتى ترأّس اتفاقاً آخر للسلام في «الواي» ـ وضع الفلسطينيين في دور المستضعفين المتضرّعين المتوسّلين. فالقسم الرئيسي في اتفاق «واي»، لم يكن حول الانسحابات، بل حول «الأمن» ـ المربوط بغزارة الإشارة إلى «الإرهابيين» و«خلايا الإرهابيين»، و«المنظّمات الإرهابية»، في ما يتعلّق بعنف الفلسطينيين، فحسب. ولم تكن هناك أية إشارة وحيدة إلى القتلة الذين جاءوا من مجتمعات المستوطنات اليهودية.

إن التعذيب الذي فُرض على عرفات كان بمنتهى الروع والروعة. فكل اتفاق جديد يعقد مع إسرائيل يتطرّق إلى معاودة كتابة الاتفاقات السابقة، كتابة أكثر خفّة ورهافة. فاتفاق مدريد ـ بكلّ ما فيه من ضمانات للفلسطينيين ـ انقلب إلى اتفاق أوسلو ـ دون أيّة ضمانات على الإطلاق، وإلى نظام من الانسحاب الإسرائيلي مصوغ بحيث يُعفيه من التنفيذ بمواعيد. ثم انقلب هذا الاتفاق أيضاً إلى اتفاق الخليل عام ١٩٩٧ ـ الذي سمح للمستعمرين اليهود بأن يبقوا في المدينة، وجعل الانسحاب الإسرائيلي مرهوناً بوقف العنف ضدّ الإسرائيليين؛ حتى أنه في عام ١٩٩٨، أسقط اتفاق «واي» شعار «الأرض مقابل السلام». وصارت الفاتورة تُدفع الآن على أساس «الأرض مقابل الأمن»، مع إبقاء السلام غير قابل للتحقيق مؤقّتاً. فالسلام يعني الاحترام، والثقة المتبادلة، والتعاون. والأمن يعني عدم وجود عنف ـ كما أنه يعني أيضاً السجن والكره، والتعذيب، كما سبق أن عرفنا ذلك مما تقدّم. وبالمقابل، يمكن أن يضع الفلسطينيون ٤٠ في المئة من أرضهم تحت سيطرتهم ـ خلافاً لنسبة ٩٠ في المئة التي أعطاهم إيّاها اتفاق أوسلو. أضف إلى ذلك أن وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، الأكثر مصداقية والأفضل أخلاقية من المؤسّسات، ستكون حاضرة في الضفّة الغربية للتأكّد من أن عرفات يوقف المشتبه بهم العاديين.

لم تمنع السلطة الفلسطينية «حماس» من مهاجمة الإسرائيليين ـ أكثر مما منعتهم إسرائيل من ذلك قبل اتفاق أوسلو ـ ولكنها ستنجح الآن بأعجوبة، لأن وكالة الاستخبارات الأميركية تساعدها. وسيُجَرَّد الفلسطينيون المسلّحون بطريقة غير شرعية من أسلحتهم؛ بينما يبقى الألوف من المستوطنين اليهود على الأراضي الفلسطينية مسلّحين ـ وهم الذين رفضوا صيغة اتفاق «واي» المخفّفة، ووصفوها بأنها «خيانة». كان يجدر أن يعيش الإسرائيليون دون خوف؛ وكذلك الفلسطينيون. ولكن الأمن يأتي عن طريق السلام، وليس عن غير طريق. وإن نسبة ٣ في المئة من الأرض الفلسطينية التي تعد إسرائيل بالانسحاب منها يوماً ما ستصبح «معزلاً طبيعياً أو محميّة طبيعية» ـ وربّما كان هذا من أكثر مظاهر اتفاق أوسلو المشوّهة والعبثية؛ شرط أن لا يبني عليها الفلسطينيون بيوتاً لهم. وهكذا يتعجّب المرء ويتساءل أيّ نوع من الحيوانات البرّية يفترض بها أن تجول ضمن تلك المنطقة المحميّة، وأيّ نوع من الحيوانات البرّية ستتجوّل خارج جدرانها!

إذن، ليس في اتفاقية «واي» أيّ إشارة إلى «المنظمات الإرهابية» اليهودية. وليس هناك من أمل في ضبط جماعات المستوطنين الذين سيهاجمون الفلسطينيين في المستقبل. ففي تمّوز/يوليو من عام ٢٠٠١ مثلاً، أطلقت

جماعة «إرهاب» من هؤلاء عشرات الطلقات على سيّارة تحمل ثمانية فلسطينيين عائدين من التحضير لعرس في بلدة «إدنا» الصغيرة في الضفّة الغربية. مع العلم أن هذه الجماعة هي جماعة «إرهاب» بحسب تعريف إسرائيل، بالرغم من أن الصحافة الدولية تسمّيهم رجال حرب العصابات، أو أعضاء في لجان أمن أهلية. وكانت النتيجة أن مات «محمد سلامة طميزه» وقريبه «محمّد حلمي طميزه» على الفور؛ وجرح خمسة آخرون. كما أن ثالثة القتلى كانت «ضيا طميزه»، طفلة لم تكد تبلغ الشهر الثالث من عمرها. وليس هذا دفاعاً عن العنف الفلسطيني أو «الإرهاب» ـ فقد سبق أن قتل قنّاص فلسطيني طفلاً إسرائيلياً في مستوطنة بالخليل ـ ولكنّ هناك فرقاً جوهرياً؛ إذ إن الفلسطينيين سيُجرَّدون من السلاح، بينما يحتفظ المستعمرون الإسرائيليون بسلاحهم.

فكيف سمحت الولايات المتحدة بحصول هذا؟ هل كان ذلك عن جهل، أو ضعف تجاه الجماعات الأميركية النافذة التي تسعى لدعم إسرائيل، أو لا مبالاة فكرية عندما تُطرح القضايا الكبرى المعقّدة: قد يكون في كل هذا أدلّة. ولكن، هناك نوع عامّ من التهرّب من حمل المسؤولية في السياسة الأميركية. فقد أراد كلينتون أن يكون صانع «سلام»، لكنه يرفض بعناد أن يَضْمنه. وقد سمعنا منه تكرار اللازمة القائلة «إن واشنطن تقدر أن تجمع الطرفين؛ ولكن عليهما هما أن يتّخذا القرارات». ولمّا كانت إسرائيل هي الطرف الأقوى على الإطلاق ـ فالدبّابات الفلسطينية لم تكن تحتلّ تلّ أبيب ـ وهي تتصرّف على هواها داخل اتفاق أوسلو أو خارجه. وخارج الإطار الرسمي المسجّل، يروى لنا ـ كما قيل لضيوف البيت الأبيض الأردنيين ـ عن ضيق صدر كلنتون إزاء ناتانياهو(*)، مع العلم أنه يبقى رسمياً صامتاً، حتى يصيب العنف الفلسطيني الإسرائيليين. عندئذٍ يتّخذ مزاج الأسد، ويصف القتلة بأنهم «رجال أيام زمان»؛ كما فعل في عمّان، وفي «واي»، وهو يحاضر عن «الكره» الذي يحيق بالنجاح الأخير «للسلام».

ومن أكثر الوجوه خطراً في اتفاقات «السلام» الأميركية المتتابعة نوعية اللغة الفضفاضة المستخدمة. وقد كان «كلينتون» حاذقاً في الكلام الشكلي والبلاغة اللفظية، ـ من السخرية أنه يبدي رغبته في إظهار فصاحته بالنسبة إلى علاقته مع مونيكا لوينسكي ـ لكنه يتكاسل عندما يأتي وقت الكلام عن التفاصيل. وبالرغم من جميع المصافحات والتفاهات التي جرت في «واي»، مثلاً، ذهب كلٌّ من الفلسطينيين والإسرائيليين إلى بلادهم، بأفكار متضاربة عمّا تمّ إنجازه. فقد استطاع ناتانياهو أن يؤكّد للمستعمرين الإسرائيليين أنه لن تكون هناك دولة فلسطينية؛ بينما أقنع رجال عرفات من تبقّى لهم من المناصرين أنه سيكون هناك انسحاب إسرائيلي كخطوة أخرى على طريق تأسيس الدولة الفلسطينية. وما كاد ناتانياهو يعود إلى إسرائيل حتى حثّ وزير خارجيته أرييل شارون المستوطنين على «حيازة أيّ قمّة تلّة في الضفّة الغربية، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً».

(*) وليس أقلّه عندما طلب «ناتانياهو» إطلاق سراح الجاسوس «جوناثان پولارد» من أحد السجون الأميركية؛ ذلك الجاسوس الذي كان يرسل أسرار البنتاغون إلى إسرائيل ـ كجزء من مطالبه للنجاح في «واي». وپولارد يهودي أميركي كان يعمل كمحلّل استخبارات في أميركا، حُكم عليه بالسجن المؤبّد في آذار/مارس ١٩٨٧. وفي عام ١٩٩٥، جعله إيهود باراك مواطناً إسرائيلياً. أمّا كلنتون، فقد تدبّر أمر رفضه لطلب ناتانياهو، بعدما قال متقبضاً إنه «سيراجع بجدّية» وضع پولارد.

ولو تشبَّه عرفات بدور ناتانياهو، في معركة الحذاقة المتبادلة معه نداً لندّ، لطلب ما يلي: وقف «عملية السلام» حتى تتخلّى إسرائيل عن مطالبتها الحصرية بالقدس كعاصمة لها ـ مما يلغي محادثات «الوضع الأخير» ـ ؛ وعدم الاستمرار في إنشاء مستوطنات يهودية في الأرض العربية المحتلّة. ولكن عرفات لا يمكنه القيام بذلك ـ ولن تتكلّم معه واشنطن إذا فعل ذلك. وهكذا قضت محادثات «واي» على كل أمل فلسطيني في إقامة سلام عادل. وقد وعد عرفات ـ لقاء حوالى ١٤ في المئة من أصل ٢٢ في المئة الباقية من «فلسطين» الانتداب ـ بأن يحمي الإسرائيليين الذين يشيّدون المستوطنات، ويصادرون أوراق الهويّة الفلسطينية، ويهدمون البيوت.

وفي هذه الأثناء، استمرّ «مبعوثو السلام» الأميركيون بزيارة ناتانياهو وعرفات، كجزء من ضيافة أميركا «غير المتحيّزة» لعملية «السلام» في الشرق الأوسط. وقد علم كل فلسطيني أن أربعة من أعضاء هذا الفريق الأميركي كانوا يهوداً. ولم تناقش الصحافة الغربية علنياً الخلفية «الإثنية» لأعضاء الفريق الأميركي. ولا يجدر أيضاً من حيث المبدأ مناقشة ذلك. فموظّفو وزارة الخارجية الأميركية أو مَن يُعيّنون في هذا المنصب ـ هم ككل المواطنين في دولة ديمقراطية ـ يشغلون وظائفهم بصرف النظر عن أصلهم «الإثني» أو العرقي. ولكن دنيس روس المفاوض الأول، كان رئيساً لأقوى جماعة تسعى لدعم إسرائيل من حيث النفوذ؛ وهي المسمّاة «اللجنة الأميركية ـ الإسرائيلية للشؤون العامة (AIPAC). ونادراً ما جرى ذكر ذلك في الصحافة الأميركية؛ لكنّه كان طبعاً أمراً ذا أهمّية حيوية. ولو كان المفاوض الأول رئيساً سابقاً لجماعة مناصرة للعرب، لأظهرت إسرائيل رأيها فيه فوراً. ولو كان المفاوضون الأربعة الرئيسيون كلّهم مسلمين، لنوقش هذا الأمر بكل تأكيد في الصحافة العالمية. أما في الصحافة الإسرائيلية، فكانت عضوية الفريق الأميركي موضوع تعليق. وعندما جاء وفد روس إلى القدس، سمّته جريدة «معاريف» الإسرائيلية: «بعثة اليهود الأربعة»، وتكلّمت عن الروابط الإسرائيلية لأولئك الرجال. ولاحظ الصحافيون الإسرائيليون أن أحدهم كان له ابن يتلقّى تدريباً عسكرياً في إسرائيل. وكان الكاتب والناشط الاسرائيلي «ميرون بنفنيستي» هو الذي أبرز ذلك في «هآرتس»، إذ كتب يقول:

> «قد يكون الأصل الإثني للدبلوماسيين الأميركيين الموفدين إلى الشرق الأوسط لتعزيز السلام غير ذي بال. ولكن من الصعب تجاهل الواقع الذي أوكلت فيه الولايات المتحدة الأميركية تحريك «عملية السلام» بالدرجة الأولى إلى يهود أميركيين، وأن واحداً منهم على الأقلّ في فريق وزارة الخارجية الأميركية اختير لهذه المهمّة لأنه يمثّل نظرة المؤسّسة اليهودية في أميركا. إن التأثير الهائل للمؤسّسة اليهودية على إدارة كلنتون ظهر بأجلى معانيه في معاودة تعريف «الأراضي المحتلّة» على أنها «أراضٍ مُتنازع عليها». ومن المفهوم أن يغضب الفلسطينيون. ولئلا يُتّهم الفلسطينيون بأنهم معادون للساميّة، فهم ـ لا سمح الله ـ لا يستطيعون أن يتكلّموا عن روابط كلينتون باليهود. . .»

كما لم نتجرّأ كصحافيين أن نثير هذه القضية. فلو فعلنا ذلك للاحقتنا تهمة المعاداة للساميّة، والعنصرية والتحيّز. وكان من المقبول لدى الداعمين لإسرائيل إثارة قضايا العائلة أو الأصل الإثني، إذا انتقد الآخرون

أفعالها. وعندما طلب الأمين العام للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي من مستشاره العسكري اللواء الهولندي فرانكلين فان كاپين، أن يقوم باستقصاء حول المجزرة الإسرائيلية التي قضت على ١٠٦ لاجئين لبنانيين في قاعدة الأمم المتحدة في «قانا» بجنوب لبنان عام ١٩٩٦، انتقدت جريدة موالية لإسرائيل هذا القرار وأدانته على أساس أن «فان كاپين» هو من بلد سلّم اليهود إلى النازيين في الحرب العالمية الثانية. ولكن عندما عُيّن رئيس لجنة «إيباك» (AIPAC) اليهودية في أميركا كمفاوض أول في قضية السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، لم تجرِ مساءلة حول ذلك. أشكر الله لقيام الصحافة الإسرائيلية بذلك؛ كما ألاحظ غالباً.

وكلّما مضت عدة أشهر في الشرق الأوسط يدقّ ناقوس «تشمبرلن»، معلناً «السلام في زماننا»، فينبري العرب والإسرائيليون إلى التعبير عن تأييدهم له، حتى لا يُلاموا على خيبته. وما إن تسلّم إيهود باراك رئاسة الحكومة باسم حزب العمل عام ١٩٩٩، حتى قام موظفو التلفزيون الفضائي من صبيان وبنات ـ بالإضافة إلى هيئة الإذاعة البريطانية السادرة ـ فوضعوا من جديد «عملية السلام» على الخط، مع أن باراك صرّح بكل وضوح أن القدس ستبقى العاصمة الموحّدة لإسرائيل، وأن المستوطنات اليهودية الكبرى ستبقى، وأنه لن يسمح للاجئين الفلسطينيين المهاجرين منذ عام ١٩٤٨ أن يعودوا إلى قراهم العربية الأصلية.

أراد باراك أن يعقد محادثات مع السوريين، فعادت بسرعة عادات المفاوضات القديمة الرتيبة إلى سابق عهدها. وكان السوريون لا يزالون يطالبون بكل الجولان. ولكن لماذا لا يقبل السوريون بجزء من الجولان؟ أو الجولان مع مستوطنات؟ أو جزء من الجولان مع عدد مجهول من الجنود الإسرائيليين لإقامة محطات الإنذار المبكّر؟ مع التذكير بأن سوريا هدّدت إسرائيل من الجولان قبل حرب ١٩٦٧(*). ولكن الأسد اعتبر باراك رجلاً شريفاً وقوياً، لأنه لم يرغب في أن يُلام كذلك بشأن خيبات جديدة. وعندما سافر كلينتون لمقابلة الأسد أثناء وجود حزب العمل الإسرائيلي في الحكم، كانت سوريا تُعتبر آنذاك البلد الذي «يرفض السلام» ويعرقله، ولاسيّما من قِبل مراسل محطة السي إن إن. لكن الواقع لم يتغيّر. فقد أرادت إسرائيل إقامة علاقات دبلوماسية وصلات اقتصادية مع دمشق قبل مناقشة المقدار المرتجع من الجولان إلى سوريا. ولكن الأسد لم يكن يرى في ذلك «فرصة ذهبية» لإقامة السلام، كما كان يعبّر كلنتون عن ذلك؛ ولا سيّما بعدما رأى ما كان من أمر عرفات بهذا الصدد ـ إذ تلوّى في طريق كثيرة الاعوجاج، فاعترف بإسرائيل، وساوم على إقامة الدولة الفلسطينية، وصارت إسرائيل حاكمة على مستقبل فلسطين. وكان ذلك المشهد هو السيناريو العادي ـ فلو قبلت سوريا بالصيغة الإسرائيلية من السلام لغمرتها ظروف لا تستطيع أن تتحمّلها. أما الرفض، فيبقيها في خانة الملامة لمعارضتها السلام، ويجعلها عدوّة للسلام، وإذاً عدوّة الولايات المتحدة الأميركية.

(*) وقد أحاق الشكّ بهذا «التهديد» المزعوم، عندما كشف «رامي تال»، أحد المراسلين الإسرائيليين لجريدة «يديعوت أحرونوت» عام ١٩٩٧، أن «موشى دايان»، وزير الدفاع الذي احتلّ الجولان عام ١٩٦٧، أخبره في سلسلة من المقابلات قبل وفاته أن العديد من عمليات إطلاق النار بين الإسرائيليين والسوريين في الجولان، كانت أعمالاً استفزازية مقصودة من قِبل إسرائيل، وأن سكان «الكيبوتز الذين ضغطوا على الحكومة لأخذ الجولان كانوا طامعين بالأراضي الزراعية، لا بتحقيق الأمن.

وهكذا، لم يكن ممكناً أبداً تحويل يقطينة «اتفاق أوسلو» إلى مركبة ذهبية للسلام. ولكن لم يُثبت ذلك إلّا انهيارُ محادثات «عرفات ـ باراك» في «كمب دايفيد» عام ٢٠٠٠. وحتى في ذلك الوقت، كان منطق كليتون قد آل إلى الادّعاء بأن مفاوضات أوسلو «مبنيّة» على قراري مجلس الأمن في الأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨ ـ اللذين لم يُراعيا أبداً في اتفاقيات أوسلو ـ ولا بدّ أن يكون عرفات نفسه قد أدرك أن النهاية جاءت عندما تقدّمت مادلين أولبرايت بعرضها السخيف بشأن «السيادة» على المواقع الدينية الإسلامية في القدس. فلن تكون هناك «سيادة كاملة» لعرفات إلّا على تلك الحفنة من القرى البسيطة حول العاصمة التي يتمنّاها، بحسب منطق الأميركيين. ثم جاءت التسريبات التي تقصد الغشّ والخداع، بشأن أن عرفات رفض ٩٥ في المئة من «فلسطين» وفي الواقع حوالى ٦٤ في المئة من مقدار ٢٢ في المئة الباقي من «فلسطين». إن باراك لن يتخلّى عن القدس، أو المستوطنات. وهكذا اعترف أبناء إبراهيم بما كان يعرفه كثيرون من الإسرائيليين والفلسطينيين: أن أوسلو مسألة خائبة. وقد رأى كلينتون في تنبّؤاته أن من المناسب مدح الطرف الأقوى من الطرفين، فتكلم إذ ذاك عن «شجاعة ورؤية» باراك، لكنه لم يذكر سوى التزام عرفات. وهذا ما كان من أمر أميركا ودورها «كسمسار شريف» في سلام الشرق الأوسط. ولم تحظَ القيادة الفلسطينية ـ الفاسدة؛ وغير المنتجة وغير الديمقراطية ـ سوى بسيادة افتراضية من أجل تحقيق سلام افتراضي. ولذلك آثرت الخيبة على مزيد من الإذلال.

وعاد عرفات إلى غزّة حيث استُقبل كبطل؛ ففي هذه المرّة فقط، لم يقدّم مزيداً من التنازلات. لقد وقف في وجه أميركا وإسرائيل على السواء. لقد كان «صلاح الدين، صلاح العصر»، ويا له من صلاح الدين في هذه القصّة المحزنة! فصلاح الدين هذا لن يمشي في القدس بحصانه، إذ إن المدينة ستصبح مشهداً للمذابح المتكرّرة بين اليهود والعرب المسلمين الذين سيهاجمون بعضهم بعضاً في الأشهر القادمة. وفي أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٠، نظّم أرييل شارون مسيرة إلى الأماكن المقدّسة الإسلامية ـ الواقعة فوق مرتفع الكنيس اليهودي ـ يرافقه حوالى ألف شرطي إسرائيلي. وخلال ٢٤ ساعة، فتح القنّاصون الإسرائيليون النار برشّاشاتهم على المتظاهرين الفلسطينيين الذين يتخاصمون مع الشرطة أمام باحة قُبّة الصخرة التي يرجع تاريخها إلى القرن السابع. فقُتل على الأقلّ أربعة أشخاص، وأكّد فيما بعد رئيس الشرطة الإسرائيلية «يهودا ويلْك» أن القنّاصين أطلقوا النار على الحشد عندما «شعر الإسرائيليون بأن الفلسطينيين يهدّدون حياة الضبّاط»! فجُرح ٦٦ فلسطينياً، برصاص مكسوّ بالمطاط بالنسبة إلى معظمهم. وقد جاء هذا القتل بعدما مرت عشرة أعوام تقريباً على قتل الشرطة الإسرائيلية المسلّحة ١٩ فلسطينياً من المتظاهرين، وجرح ١٤٠ آخرين، في حادث مفتعل مشابه حصل في المكان نفسه، تلك المذبحة التي جعلت الولايات المتحدة الأميركية تخسر دعم العرب في التمهيد السابق لحرب الخليج عام ١٩٩١.

أما شارون، فلم يعذّبه ضميره. وقد أخبر محطة السي إن إن «أن دولة إسرائيل لن تقبل بأن لا يستطيع مواطن إسرائيلي زيارة جزء من بلده، ناهيك بزيارة أكثر الأماكن قدسية بالنسبة إلى سائر اليهود في العالم». لكنه لم يشرح لماذا اختار هذا التوقيت بالذات ـ بعد انهيار «عملية السلام» ـ ليأخذ على عاتقه القيام بهذا الفعل الاستفزازي. وعلى الأثر، انتشر الرشق بالحجارة وإطلاق النار في الضفّة الغربية. فقرب «قلقيليا» أطلق شرطي فلسطيني النار

على جندي إسرائيلي وجرح آخر ـ والظاهر أنهم كانوا جميعهم أعضاء في دورية مشتركة إسرائيلية ـ فلسطينية، نظمت أصلاً بموجب اتفاق أوسلو. وعقّب على ذلك شارون نفسه بادّعائه: «أن كل شيء كان مدبّراً؛ فقد استغلّوا زيارتي إلى مرتفع الكنيس. ولم تكن تلك المرّة الأولى التي جئت بها إلى هناك...».

كان هناك مستوطن إسرائيلي من «إيرفات» يصرخ شاكياً من سوء معاملته أمام مجموعة من الجنود الإسرائيليين، خارج القدس. فسيّارته رُجمت بالحجارة من قِبل أولاد فلسطينيين على تلّة قريبة. وهو يطلب تدخّلاً عسكرياً حالاً. وما لبث أن التفت نحوي وقال: «هل أنت أحد الصحافيين الذين يكذبون مثل محطة السي إن إن؟ أنتم عليكم أن تكتبوا أن الحجر هو مثل سلاح قاتل، مثل الرصاصة. فالذي يرمي حجراً على باص يحاول أن يقتل خمسين شخصاً». وهكذا، نتعلّم من هذا الانفجار الغضبي أن الأولاد الموجودين على التلّة وراء «بيت جالا» انقلبوا إلى قتلة بالجملة، مسلّحين دون أسلحة، يستحقّون الغضب التوراتي المتمثّل بعبارة «مثل سلاح قاتل». وبات من الواضح أن الفلسطينيين ليسوا وحدهم الذين آمنوا «بأيام الغضب الهائج». فقد كان الغضب محسوساً كذلك لدى الإسرائيليين في شهر تشرين الأول/أكتوبر هذا من عام ٢٠٠٠، حتى لو كان «الإحساس بالنسبة ـ أو بعدم وجودها ـ أمراً مقلقاً جدّاً. إن وصم الفلسطينيين بالوحشية ـ والخوف منهم ـ كشف عن عجز الإسرائيليين عن استيعاب الحقيقة، تكراراً وتكراراً: فقد تظنّ أن إسرائيل واقعة تحت الاحتلال الفلسطيني، وأن النار تُطلق على الإسرائيليين بالعشرات من قِبل «رجال الأمن» الفلسطينيين، وأن دبّابات الفلسطينيين ومروحيّاتهم تُفجّر البلدات الإسرائيلية، حتى أن ياسر عرفات انتهز فرصة أخذها من وقت النشاط الدبلوماسي؛ كما صرّح باراك علناً عن رغبته في أن يفعل ذلك.

وما كان يحصل الآن في الأراضي المحتلّة عبارة عن شكل من أشكال الحرب الخفيفة الضراوة، الذي يتّخذ صيغة صراع مسلّح بين شعبين، أسبوعاً بعد أسبوع. فالفلسطينيون الآن يعتقدون أنهم لم يعد لديهم شيء يخسرونه إذا حاربوا الإسرائيليين. فهم مسجونون في قراهم المستقلّة، ضمن مجتمع كامل موقوف في بلداته. ولم يعد لديهم شيء يربحونه بصمتهم أو مطاوعتهم. وقد عبّرت سيدة فلسطينية شابّة تعمل مع قوى الأمن العرفاتية، بالشرح البريء التالي: «على عرفات أن يستمرّ في قتاله ـ ولا يجب أن يتراجع الآن. فالانتفاضة ستجبر الإسرائيليين على معرفة أن اتفاق أوسلو مات، وأنه لا بديل من الانسحاب الكامل من الضفّة الغربية وغزّة وشرقيّ القدس، لإحلال السلام». وعندما ألمحتُ أمامها أن عرفات لا يقوم بالقتال ـ إذ إن الفلسطينيين وعناصر مختلف المنظمات الفلسطينية المعارضة لاتفاق أوسلو، هم الذين يقدّمون «الضحايا» لفلسطين ـ غيّرت حجّتها قائلة: «يجب أن تتأكّد من أن الشعب ومنظمة التحرير الفلسطينية متّحدان معاً، عندما يبدأ القتال الحقيقي».

«القتال الحقيقي؟» ماذا يعني القتال الحقيقي؟ ـ منذ عشر سنوات ـ عندما كان شارون وزيراً للدفاع ولحقه عار «صبرا وشاتيلا»، قال: إن الدبّابات الإسرائيلية قد يلزمها يوماً ما أن تقصف نابلس ورام الله. كم قهقهنا لدى سماعنا هذا القول إذ ذاك. ولكننا اليوم، بعد عقد من الزمان، وشارون على أُهبة العودة إلى الحكومة الإسرائيلية، صارت تلك الدبّابات تقصف فعلاً البلدات الفلسطينية. فقد قصفت الدبّابات داخل رام الله، والمروحيّات أطلقت

صواريخها على البلدات الفلسطينية في أغلب الأحيان، حتى صارت أخبارها لا تحتل مركز العناوين الكبرى. كما أني لم أجد أحداً في تلك البلدات وفي شوارع غزّة النتنة، يريد أن تصل الانتفاضة الجديدة إلى نهايتها. كما لم أعثر على عائلة فلسطينية لا تشاهد محطة «المنار»، محطة حزب الله الفضائية التلفزيونية، التي تبثّ من بيروت، وتبعث رسالة مستمرّة إلى الأراضي المحتلّة مفادها: أن إسرائيل طُردت من أرض محتلّة لأن أهلها قاتلوا من أجل تحريرها، وآمنوا بالله، ولم يخافوا من الموت. وها هو لبنان حرّ الآن. ولماذا لا يحصل الأمر نفسه في الضفّة الغربية وغزّة والقدس؟

لقد كانت تلك رسالة قويّة وخطرة تُرسل إلى الفلسطينيين. وذلك لأن غزّة غير جنوب لبنان، ورام اللّه وبيت جالا ليستا صور وصيدا، والقدس ليست بيروت. ولكن تبيّن أن «أوسلو» كانت خيانة كبرى للفلسطينيين، إذ إن ثقتهم بالإسرائيليين قلبتها إسرائيل وشوّهتها، واستمرّت في بناء المستوطنات، ومصادرة الأراضي، ورفض إقامة عاصمة للفلسطينيين في جزء من القدس، بحيث لم يعد المسعى السياسي مُجدياً من أجل التقدّم. فإسرائيل مستمرّة في انتهاج سياستها المفلسة القائمة على ضرب العرب ليخضعوا ـ وهي السياسة التي أهلكت إسرائيل في لبنان ـ والردّ على الحجارة بالرصاص، وعلى الرصاص بالصواريخ. ولكن فلسطينيي غزّة في أكواخهم يستطيعون أن يستوعبوا هذا القصاص. لقد عرفوا أنه إذا أراد الإسرائيليون غزو كل الأرض الفلسطينية ـ وهي الفكرة التي راودت المستوطنين الأقلّ توازناً، والتي عاد شارون فتبنّاها ـ فسيجابهون حرباً دائمة أبدية.

كما لم يكن هناك شكّ في استمرار التهديد الرهيب الذي يمثّله الجهاد الإسلامي باستئناف حقيقي لحرب القنابل الانتحارية.

فإذا خاب «نبيل عرير» في قتل أي إسرائيلي على درّاجته المجهّزة بالقنابل في غزّة، فهناك كثيرون مستعدّون لأن يحلّوا محلّه. لقد صارت حافلات إسرائيل تسافر برُبع ركّابها. والانتحاريون يضربون ـ حتى قبل أن يجهّزوا قنابلهم. و«حماس» تسيطر الآن على غزّة. وغنيّ عن البيان أن علاقات إسرائيل السابقة مع حماس لم يعد لها ذكر في التقارير الإخبارية التي تصدر عن القدس الإسرائيلية.

إذاً، هل «سيطر عرفات على شعبه؟» ـ هذه العبارة الإسرائيلية التي تتناقلها بأمانة محطة السي إن إن وهيئة الإذاعة البريطانية. لقد أصبح هذا السؤال غير ذي موضوع، لأن الفلسطينيين هم الذين يسيطرون الآن على عرفات. إن يأسهم يصوّر اقتناعه هو بأن اتفاق أوسلو قضى نحبه. وإن هياجهم الغاضب إزاء قتل الإسرائيليين للعديد من الفلسطينيين يتلاءم مع غضب عرفات إزاء الأميركيين والإسرائيليين على السواء. إن تفجّرهم السياسي حصل ـ وصار أمراً واقعاً ـ ولا يستطيع عرفات إلّا أن يعترف من خلال تكراره أساس المحادثات التي بدأت في مدريد: «إن السلام العادل الوحيد يكمن في التنفيذ المباشر والكلّي لقرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة ذي الرقم ٢٤٢»؛ كما قال أيضاً في نهاية عام ٢٠٠٠. وكان ردّ فعل عرفات على نداء باراك لإقامة «فصل سياسي» بين الفلسطينيين والإسرائيليين أنه يحبّذ «فصلاً سياسياً قائماً على حدود ١٩٦٧ والقرارات الدولية... مما يؤدّي إلى إقامة دولة فلسطينية».

ولا بدّ من التساؤل: «ماذا كان ردّ فعل الإسرائيليين بعد مرور شهر على الانتفاضة الجديدة؟ قال صاحب رسالة وصلت إلى «الجيروزالم بوست»: «الفلسطينيون عُنصريّون». تلك الجريدة التي نشرت مقالاً رئيسياً عن «الأولاد الضحايا» تحت عنوان بارز: «التضحية بالأولاد هي وثنية الفلسطينيين. أجل، إن الفلسطينيين وثنيّون، عُنصريون، يضحّون بالأولاد، «إرهابيون»، حيوانات، «أفاعٍ»؛ كما جاء في أقوال باراك عام ٢٠٠٠. ولكنّ المأساة ـ بالنسبة إلى الفلسطينيين والإسرائيليين على السواء ـ هي أنه من المرجّح أن يستمرّوا في التقاتل، حتى لو سلّحت أميركا الإسرائيليين، وأغدقت عليهم دعمها.

بالنسبة إلى الفلسطينيين لا يمثّل هذا الواقع نقطة تُدوَّن في السجلّ السياسي. فبعد حلول الظلام بتاريخ ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٠، سقط صاروخان على الأقلّ في زاوية بيت عائلة «كسيّة» في «بيت جالا». فتح الانفجار الأول فجوة في الحائط، بينما نفذ الصاروخ الثاني من تلك الفجوة وخرق أرض الممشى لينفجر في مطبخ الجيران. وقد أطلقتهما مروحية إسرائيلية، بحيث ظهر الإثبات واضحاً ليراه الجميع. وكان أحد الصاروخين من نوع «هيلفاير» مصنوع في شركة «لوكهيد مارتن». أما الثاني فكان قذيفة أكثر حداثة تحمل الرقم ٩٣٨٣٥ ـ س ـ ٤٢٨٦، ومصنوعة في حزيران/يونيو من عام ١٩٨٨. ولم يكن عسيراً، بالنظر إلى مؤشّرات الصنع المعدنية على الصواريخ، أن نرى سكّان «بيت جالا» غير حزينين على موت بحّارة سفينة «كول» الأميركية التي هاجمها فدائيون انتحاريون من «القاعدة» في عدن، منذ أسبوعين.

ومع أن القرويين هنا ـ و٦٠ في المئة منهم مسيحيون ـ ليسوا انتقاميين، وأن الفلسطينيين المسلّحين الذين يطلقون النار عبر الوادي على مستوطنة «جيلو» ليسوا من «بيت جالا»، فإن هذه القرية الصغيرة، بما فيها من كنائس أرثوذكسية مبنية بالحجر المشغول، وتصاوير جصّية للقديس جورج (الخضر) والتنّين، والقطط الكبيرة الكثيفة الوبر، لم تكن ساحة حرب تماماً؛ ولكنها الآن واقفة على خط الجبهة في الضفّة الغربية، تتلقّى عقوبات إسرائيل بسبب الرصاصات التي تصفع نوافذ المستوطنين اليهود عبر الوادي. ومنذ أسبوع، أطلق مسلّحون ـ من وحدة ميليشيا «التنظيم» على الأرجح ـ النار على الإسرائيليين. فكان الردّ من دبّابة «مِركافا» ـ التي أستطيع أن أراها راقدة تحت قماش مشمّع على جانب التلّة المقابلة ـ إطلاق ثلاث قذائف على أحد الشوارع الضيّقة في «بيت جالا». فانفجرت إحداها في مرآب «مارغو زيدان» ودمّرت سيارة «فولكسفاغن غولف» جديدة تماماً، وسحقت المدخل الحجري القديم فوقه. والحرب مع مساعدة الربّ تستبعدان دفع تعويضات التأمين. وفتحت قذيفة أخرى فجوة في الطابق الثاني من منزل «جميل سلط» في أسفل المنحدر.

وصارت «المؤامرة» ـ وهي العنصر الجوهري في حماقة الشرق الأوسط ـ تشمل هذه القرية السياحية الجميلة. وجاءت الرواية الفلسطينية المحلّية هكذا: أطلق بعض رجال «التنظيم» النار من بين البيوت؛ كما أرسلت إسرائيل أيضاً فلسطينيين مسلّحين متعاونين إلى داخل القرية ليطلقوا النار على المستوطنة، وليعطوا عذراً للإسرائيليين كي ينشروا أربع دبّابات «مركافا» على التلّة الأخرى.

أما الرواية الإسرائيلية «للمؤامرة» فكانت أكثر براعة: استفزّت السلطة الفلسطينية عن سابق تصوّر وتصميم الإسرائيليين ليطلقوا النار على البيوت المسيحية أملاً في توريط «الفاتيكان» بالوقوف إلى جانب الفلسطينيين في الانتفاضة الجديدة.

لكنّ الحقيقة كانت أبسط من ذلك. فمستوطنة «جيلو» ـ وهي الصيغة العبرية لجالا ـ تقع على مرتفعات فوق «بيت جالا»، على مرأى من القدس. واستهداف بيوتها من قِبل الفلسطينيين يبعث برسالة إلى الحكومة الإسرائيلية مُفادها: أن الاستيطان هو جزء من الحرب الجديدة، بما فيها المستوطنات التي تشكّل جزءاً من القدس «اليهودية». لكنّ القرويين المسيحيين والمسلمين على السواء، ادّعوا أنّ الهجوم الأخير ـ بالصاروخين على بيت «كسيّة» ـ حصل دون استفزاز، ولم يكن هناك أي إطلاق نار من تلك القرية قبل الهجوم. ولذلك لن يغامروا بعد اليوم. وقد كلّفوا ثلاثة عمّال كي يبنوا ساتراً من أحجار الإسمنت حول صندوق توزيع الخطوط التلفونية عند أحد أطراف «بيت جالا». وعلى عمود التلغراف قربه، ألصقت صورة تلميذ مدرسة يبلغ من العمر ١٣ عاماً، اسمه «مراياد جَوارِش»؛ مات قبل أسبوع، عندما كان عائداً من المدرسة إلى بيته في مخيّم اللاجئين المجاور. كان يبتسم عاقداً ربطة عنقه في الصورة. ذلك «الشهيد» الصغير السنّ بين شهداء القضية الفلسطينية، الذي قُتل برصاص أُطلق عليه من مصدر مجهول.

فرقعت «غدير» ابنة «مارغو زيدان» بلسانها، وهي تنظر إلى صورة ذلك الشهيد، قائلة: «أنتم تحمون الإسرائيليين، وتلوموننا من أجل هذا الأمر. كما تقولون إننا مسؤولون عن قتل أولادنا. ولكن ذلك غير صحيح. نحن شعب واحد هنا. وليس هناك فرق بين المسيحيين والمسلمين». وهذه الألفة حقيقية بكل تأكيد. فعندما انتقلنا من بيت إلى آخر في «بيت جالا» أخذتني العائلات المسيحية إلى بيوت مسلمين، كما أن الأولاد المسلمين ذهبوا إلى بيوت أصدقائهم المسيحيين ـ تلقائياً، دون أي ترتيب مسبَّق، أو تعارف. «ولكن هل كان القرويون يدعمون الفلسطينيين الذين يطلقون النار على «جيلو»؟ كانوا يهزّون أكتافهم عند ردّهم على سؤالي هذا، ويقول أحدهم: «أولئك الرجال لديهم أسلحة صغيرة سخيفة؛ وهم يطلقون النار من بين البيوت. فماذا نستطيع أن نفعل؟ ولكن كيف نوقف الإسرائيليين؟ إنهم يعلمون جيّداً بأننا لا نطلق النار عليهم».

الرتابة. لقد أصبح العصيان المسلّح عملاً عادياً رتيباً. وصار العنف عادياً حتى لينفجر فجأة في رتابة جديدة أكثر سفكاً للدماء، لا تُقلَب ولا تُعكس. لقد أمست «رام اللّه» ما كان يحبّ الصحافيون أن يسمّوه «مصادمات» أو «اصطدامات». والمصادمات هي، كما ترى، فعل يمكن أن يموت فيه فلسطينيون دون أن يكون أحد مسؤولاً عن موتهم. كأن تقول: «قُتل ثلاثة فلسطينيين في مصادمات جرت البارحة». فربّما قُتلوا من قِبل جماعتهم أو ماتوا بسبب الإجهاد في المظاهرات. أما عندما يُقتل إسرائيليون فتمتدّ أصابع الاتّهام إلى المذنبين من الفلسطينيين في العادة. ولا يُتّهم الغير عندما يكون الضحايا من الفلسطينيين، وعلى ذلك، انطلقت بسيّارتي لمراقبة يوم من أيام المصادمات.

«المُصادمة» (Clashes): كلمة تطرق السمع معدومة الشكل، بليدة، لا مبالية، وحيادية متأدّبة. ولكن كلا الطرفين: الإسرائيلي والفلسطيني يستخدمانها عندما يتكلّمان بالإنكليزية. و«نقطة المصادمة» كانت أيضاً عبارة عن قسم من الطريق تحت فندق «سيتي إن»، الذي احتلّ غرف المنامة فيه جنود إسرائيليون مزوّدون برشّاشات قنّاصة. وعبر الإنشاءات الموحلة الممتدّة شمالاً، هناك صفّ من بنايات الشقق التي لم تكتمل بعد، يحتلّ فيها الفلسطينيون غرف النوم، ومعهم رشّاشاتهم. وعلى الطريق الصاعدة نحو الشمس المائلة إلى الغروب موقع مصادمة اليوم.

ويسمّى هذا الموقع «تقاطع عيّوشة». وهو المكان ـ بالنسبة إلى الشخص المسلم المتديّن المؤمن بالاستشهاد ـ الذي تصعد فيه روح المستشهد إلى الجنّة، خلال جولات إطلاق النار الحيّة. أما بالنسبة إلى الإسرائيليين، فهم يطلقون العديد من الرصاصات المكسوّة بالمطاط ـ أو الرصاص الحيّ في بعض الجولات ـ على مَن يسنح لهم من الأولاد حاملي الحجارة. أما الرصاص الذي يُطلق عبر الوادي على الفلسطينيين المسلّحين، فلا يبدو أن له أثراً يُذكر. فالضحايا في العادة هم من راشقي الحجارة.

ولهذه المشاهد وقع خاص. فهناك صباحاً بضعة إطارات مطّاط تُشعل لإغاظة الجنود الإسرائيليين القادمين في سيّارات «الجيب» المقعقعة. ثم تمرّ جنازتان أو ثلاث أو أربع جنازات لأولاد من راشقي الحجارة البارحة ـ فقد أصبح الموت هو القصاص المحتوم العادي الذي لا يُناقش الحساب لمن يرمي الحجارة على الإسرائيليين ـ ثم تحصل مُصادمة أخرى عند تقاطع «عيّوشة». وكانت إطارات المطّاط لا تزال تشتعل عندما شيّعوا جثمان «حسام سالم» إلى المقبرة قرب بيته، في موكب جنائزي، مشت فيه نساء متّشحات بالسواد، ورجال وقورون يلبسون نظّارات، وسيّارات اختلطت مع قافلة من الشاحنات. وكانوا يحملون التابوت الخشبي المعهود، مع جماعة تهتف: «الله أكبر»، ووراءهم شاحنة تجارية للعصير، ثم جماعة من النساء يحملن لافتات خضراء كُتب عليها: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وبالطبع، كان كل واحد من هؤلاء الناس يتذكّر الشاب العازب البالغ من العمر ٢٤ سنة، الذي كان يشتغل في دكّان البقالة عند أبيه، ذلك الشاب الذي تلقّى رصاصة في وجهه، منذ حوالى ١٨ ساعة ـ في تقاطع «عيوشة» طبعاً.

قال لي أحد أصدقاء عائلته: «لقد كان متديّناً، وذا لحية كبيرة عندما مات؛ وكان مع «حماس». بقي مؤيّداً لحماس فترة طويلة، ثم صار «ناشطاً» منذ ثلاثة أشهر؛ وكانت كل عائلته مع حماس. وعندما بدأت انتفاضة القدس منذ ثلاثة أسابيع، توقّع إخوته كلّهم أن يصبح شهيداً: كما أكّد هو ذلك. والبارحة، ودّع أمه، وسار إلى عيّوشة، حيث وقعت مصادمة». لقد كان ناشطاً. ولكن هل كان يحمل سلاحاً؟ لا نعرف. ولكنه كان يرشق بالحجارة، وتُظهر صورته الكبيرة المروّعة بعد الوفاة ـ التي أُخذت له في المشرحة ـ تهشّماً تحت أنفه، بينما تكسو اللحية معظم وجهه. سألت رجلاً في أواسط العمر، ذا شاربين أغبرين، ويضع نظّارة مؤطّرة: «هل ذهب إلى الجنة؟»، فقال: «إذا كنتَ مؤمناً تذهب إلى الجنّة. وأعتقد أنه ذهب إلى هناك، إن شاء الله».

تفرّق المعزّون من المسجد الصغير، حيث كانت مجموعة من البنايات الباقية منذ القرن التاسع عشر والمبنية

بالحجر الأغبر الشاحب، تتحدّث عن «رام الله» السابقة اللطيفة التي كانت أيام العثمانيين. ولم تمضِ ساعة حتى وصل مرشّحون آخرون ليأخذوا مكان الشهيد «حسام سالم» عند «نقطة المصادمة». كان هناك ما لا يقلّ عن ٤٠٠ شاب يرمون ويرجمون بالحجارة عند أسفل الطريق. ـ فلننسَ الآن الصيغة المبتذلة المعهودة بشأن «رمي الصخور»، فقد كانت هذه حجارة بحجم حجارة الحدائق، بقياس عرض يبلغ ٥ إنشات ـ وكان الجنود الإسرائيليون مختبئين وراء سيّارات الجيب المصفّحة، يطلقون القنابل المسيلة للدموع على الفلسطينيين، بطريقة بطيئة كسولة تقريباً.

وكان أحد الإسرائيليين يجلس في مؤخّرة سيّارته على بُعد ثلاثة أمتار مني، يحتسي بعض «الببسي كولا» الباردة. وبعد قليل، سحب نفسه من السيّارة، وثبّت قنبلة يدوية في رشّاشه وأطلقها في الهواء فوق سيّارته «الجيب»؛ فارتفعت متألّقة لتسقط على بعد ٤٠٠ متر مع ذيل من الدخان الأبيض، وتنفجر وسط الحشد. ثم عمد زميله، باللامبالاة نفسها، إلى إسناد رشّاشه فوق باب السيّارة، وإطلاق رصاصة مكسوّة بالمطّاط راحت تطفر على طول الطريق النازلة. كان الإسرائيليون عند المنطقة (أ)، بحسب اتفاق أوسلو (أي منطقة الاحتلال الإسرائيلي (الكامل)، وكان الفلسطينيون عند حدّ المنطقة (ج) (حيث السيطرة الفلسطينية) من الضفّة الغربية. وكانت المسرحية التي تُمثّل هناك تظهر كم كان اتفاق «أوسلو» مخبولاً. فلو غادر الإسرائيليون لتوقّف الفلسطينيون عن رمي الحجارة. ولو غادر الفلسطينيون لانصرف الإسرائيليون. ولكنّ كل طرف كان هناك، لأن الطرف الآخر موجود ـ ولأنه كان من الواجب حماية المنطقة (أ) والمنطقة (ج).

وكانت عُلب الخرطوش المكسوّ بالمطّاط تُرمى كل عدّة ثوان عند قدميّ. ثم تنفجر قنبلة من نوع «كوكتيل مولوتوف» عند أحد أعمدة التلغراف دون إحداث أضرار تُذكر، وتطقطق على الطريق رشقة الحجارة. وعند منتصف بعد الظهر، جاءت سيّارة إسعاف سريعة إلى عرض الطريق لتنتشل أحد المصابين من راشقي الحجارة. وهكذا دواليك، بمزيد من «المصادمات» التي يندبها كلينتون أمام الميكروفون في واشنطن. أما أنا فقد صُعقتُ وأنا أسمع كلماته على الراديو من رام الله، وما فيها من خواء ـ وعدم ملاءمتها؛ وكأنها قادمة من كوكب آخر ـ كان يريد أن يتصل الشباب من أحد الطرفين بالشباب من الطرف الآخر ـ وكأن هذه «المصادمات» تحصل في فراغ، خلافاً لإرادة الآلاف من الفلسطينيين والإسرائيليين. فقد كانت المشكلة بحسب رأيه، تنحصر بالشباب: أي بالجندي المحتسي «الكولا»، والشاب الذي رمى قنبلة «المولوتوف»، و«حسام سالم»، فهؤلاء هم الشباب. فسالم لم يرغب في الانضمام إلى اجتماع الشباب السعيد؛ بل أراد أن يذهب إلى الجنّة. وكان الإسرائيليون مستعدّين لإرساله إلى هناك. فكتبتُ إذ ذاك لنستمرّ في تسمية ما يحدث «مصادمات»، أو لعب أولاد، أو عنفاً عادياً، ننسحب منه كلّنا، ونركب قطار «أوسلو»، حالما يوضع اتفاق «أوسلو» من جديد على خط سكّة اللعبة الطفولية الصغيرة. أو يمكنك من هناك أن تُسرع ـ إذا كنتَ مؤمناً بذلك ـ في الوصول مباشرة إلى السماء، إلى الجنّة.

كانت هناك مأساة في كل قرية. ذهبت بسيّارتي إلى «ياباد»؛ ومن في حياته سمع بـ «ياباد»؟ لم أستطع أن أجدها على الخريطة. إنها قرية صغيرة تقع جنوبي غريب جنين. ولكن من اليسير أن نكتب القصّة المتعلّقة بها. فقد كان هناك شخصان، تربّيا معاً، ودرسا معاً في المدرسة ذاتها، وناما في الغرفة نفسها، وصارا شريكين في

المطعم ذاته في القرية. وبتاريخ ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠٠، قُتلا معاً على يد الإسرائيليين؛ وفي اليوم التالي قُبرا في المقبرة الصغيرة الواقعة على تلّة فوق «ياباد»، في مهبّ الريح. لقد قُبر «بلال» و«هلال» صلاح معاً.

وبحسب رواية عائلتهما أُصيب هذان الأخوان برصاص من عيار ٥٠ ملم، بينما كانا يصرخان من سوء المعاملة أمام وحدة عسكرية إسرائيلية على الطريق تحت القرية. وقال شقيقهما الأكبر زُهَير: «إن دماغ بلال انفجر وتناثر على الأرض هنا، على حاجز من تراب النفايات أقيم على طريق المستوطنين اليهود. أخذنا بلال إلى المستشفى، وعندئذٍ فقط تفقّدنا هلال فلم نجده، فعدنا أدراجنا إلى المكان ذاته لنجده ملقى على بُعد عشرة أمتار ومصاباً برأسه أيضاً. لقد ماتا معاً». وقد أصرّ زهير على أن أخويه ـ بلال البالغ ٢١ سنة، وهلال البالغ ١٩ سنة ـ كانا يصرخان على الجنود الإسرائيليين الموجودين على الطريق تحتهما؛ ولكنّ أحد القرويين قال: إن الحجارة كانت تُرمى على الإسرائيليين من قِبل ١٧ شاباً كانوا واقفين على الحاجز. ومن المعلوم أن رمي الحجارة، كما يعلم كل فلسطيني، جريمة كبرى. وقد وُضعت كتل كبرى من الإسمنت حول بقع الدم التي سالت من المغدورين، في الموقع الذي ماتا فيه.

لقد كانت انتفاضة مصغَّرة، ومزيجاً طائشاً من الخوف الإسرائيلي المُسرف، والحزن اليائس. وعلى الطريق التحتانية، حذّرني جنود إسرائيليون ـ وربّما كانوا القتلة الذين فتكوا ببلال وهلال صلاح ـ من أن أزور القرية. وقال ضابطهم ببرود: «لن أذهب إلى تلك القرية، فهناك مأتم». ولكنّ المأتم كان قد حصل قبل ذلك بوقت طويل؛ وكلّ ما وجدته كان عبارة عن حلقة من الرجال في أواسط العمر، يبكون في غرفة ملأى بنسخ موطّرة من القرآن الكريم، وبعض الزهور الحمراء البلاستيكية، ووالدة الأخوين القتيلين «سارة» جالسة على الأرض تبكي تحت حرام ورديّ رخيص. وكان هذان الشابان أول دفعة من «الشهداء» في «ياباد». وقال زهير: «إن الجنود الإسرائيليين يحمون خمس مستوطنات يهودية موجودة بالقرب من هنا، ونحن نتعرّض لإطلاق النار كل يوم، لكن الرصاص من عيار ٥٠ ملم ليس الذخيرة المستخدمة في العادة؛ لأنها تستطيع أن تخرق حجارة البناء. ونحن نضطرّ إلى إغلاق المدرسة عندما يخترق الرصاص جدرانها». كانت قصّة هذه العائلة دنيوية مثلما كانت مأساوية. كان لبلال وهلال صلاح أربعة إخوة وخمس أخوات؛ وكان زهير مثل والده المرحوم عاملاً كادحاً. وكان الأخوان القتيلان قد نصبا قبل وفاتهما بيومين اسماً جديداً لمطعمهما: «مطعم دوّار السير المزهر». وكانت عائلتهما قد طبعت مجموعة من البطاقات البريدية عليها صورة الشهيدين، وحول رأسيهما آيات من القرآن الكريم، وشعار السلطة الفلسطينية.

وعلى أسفل تلك الطريق المميتة، أشعل القرويون إطارات المطّاط احتجاجاً على القتل الذي جرى؛ وتهادى الدخان الأسود في أواخر النهار فوق حقول الرجم بالحجارة، تاركاً على زفت الطريق لفائف أسلاك محروقة. وتحلّقت حول «ياباد» مظاهر المعارضة المخزنة لاحتلال إسرائيل المستمرّ. وعلى مرتفعات التلال حول القرية كانت السطوح الحمراء للمستوطنات اليهودية تتلألأ تحت شمس الزوال؛ وعلى طرقات تلك المستوطنات تخبّ

قوافلهم محروسة بقوّة الجيش. فهل يدري هؤلاء السكّان المتطفّلون أن «بلال وهلال صلاح» قد وريا في الثرى، على مقربة منهم؟

ولمّا كان الإسرائيليون أكثر تبصّراً ذاتياً حول تاريخهم من الفلسطينيين، كان من الأيسر عليهم أن ينتقدوا أنفسهم انتقاداً ذاتياً. وهذا الأمر من ترف المنتصر، المحتلّ، السيّد. وعلى منتصف الطريق المؤدّية إلى القدس، وبينما كان باصنا الصغير يتسلّق التلّة صاعداً من السهول شرقي تلّ أبيب، بدأ «سيمون» يحدّثني عن خدمته أثناء الحرب في الجيش الإسرائيلي. والآن في عمر الثالثة والسبعين، انتهت حياته العسكرية. ولكنه قاتل في عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣، وانتهى بالنزول على الشاطىء شماليّ صيدا في لبنان عام ١٩٨٢، والتقدّم إلى بيروت. ومن باب الرأفة، لم يجرِ الحديث حول «الإرهابيين» بل حول السلام. وعندما سألت زوجته لماذا لا يكون للفلسطينيين عاصمة لدولتهم الجديدة في شرقيّ القدس ـ وهذا بعد ما لا يزيد عن أربعة أسابيع على موت اتفاق «أوسلو» ـ تساءلت عمّا إذا كانت هناك إسرائيل أخرى لم أكتشفها بعد.

كان باصنا يواجه المنعطفات الحادّة حول «هاريل»، حيث نرى بقايا القافلة اليهودية لعام ١٩٤٨ قرب الطريق؛ إذ تُركت هناك كنُصب تذكاري لنضال اليهود من أجل إبقاء طريق القدس مفتوحة، منذ أكثر من نصف قرن من الزمان. وإذ ذاك، أعلنت زوجة سيمون أن الأمور كلّها ساءت عام ١٩٦٧ بقولها: «تعوّدنا على الأرض التي أخذناها عندئذٍ، تعوّدنا على الاحتلال. وكان ذلك ممّا سهّل لنا غزو لبنان لنصير محتلّين. ما كان يجدر بنا احتلال أرض الغير». ثم سألتني بحدّة عن «محمّد الدرّة»، البالغ من العمر ١٢ سنة، والذي أطلق عليه النار الجنود الإسرائيليون بتاريخ ٣٠ أيلول/سبتمبر، وهو ينكمش مرتعداً بين ذراعي والده في غزّة. «ماذا كان يفعل إذ ذاك، لماذا كان على الشارع؟». والواقع هو أنه رافق أباه لشراء سيّارة، إذ إن أباه كان مُلزماً عند الساعة الثانية من كل صباح أن يمشي إلى حدود غزّة ليحصل على إذن بالعمل في إسرائيل ـ وكانا عائدين عندما دهمهما إطلاق النار(*). ولكني فهمت مغزى هذا السؤال فوراً: إذا لم يكن لدى «محمّد الدرّة» سبب وجيه ليكون في شوارع غزّة في ذلك الوقت ـ أي إذا كان مشاركاً في مظاهرة ـ فقد نال الصبي الصغير ما يستحقّه، ليصبح ضحيّة طفوليّة أُخرى من ضحايا «الوثنية الفلسطينية».

(*) صار شريط «الفيديو» والصور التي التُقطت للصبيّ ابن الثانية عشرة من العمر، وهو يفارق الحياة بين ذراعي والده، صوراً رمزية للانتفاضة الثانية. وقد عمد الإسرائيليون بسرعة إلى محو كل آثار القتل، عن طريق هدم الجدار الذي اختبأ وراءه الرجل وابنه. وجرى استقصاء عسكري كي يحاول أن يثبت أن الفلسطينيين كانوا مسؤولين عن موتهما ـ واستطاعوا إقناع قناة (CBS) الأميركية أن تعرض النتائج المزيّفة التي توصّلوا إليها، في برنامجها المعروف «ستّون دقيقة». وفي هذا المقام أوضح «أوفير باينزباز» عضو الكنيست بشجاعة قائلاً: «يحصل المرء على انطباع مفاده أنه بدلاً من مواجهة الحادث بأمانة، اختار جيش الدفاع الإسرائيلي أن يعاود تمثيله من جديد وهمياً، ليتستّر عليه عن طريق استقصاء وضعت نتائجه مسبقاً، والقصد الوحيد منه هو تبرئة جيش الدفاع الإسرائيلي من قتل الدرّة». وتوصّل المراسلون الغربيون الذين استقصوا جريمة القتل إلى نتيجة تُظهر أن الإسرائيليين أطلقوا النار على الابن وعلى الأب الذي بقي على قيد الحياة؛ مع إمكان تعذّر رؤية الجنود الإسرائيليين المسؤولين عن عملية القتل للابن والأب وراء الجدار.

ويأتي هذا الانقطاع عن الواقع بأشكال مختلفة. فبعد أن نزلت في مطار بن غوريون في أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٠ طلبت مني موظفة الهجرة الإسرائيلية الشابّة بمرح أن أتذكّر أن إسرائيل «دولة صغيرة مهدّدة بشعب يأتي من الخارج ليستولي عليها». فأوضحت لها أن الفلسطينيين عاشوا لأجيال خلت في «فلسطين» ـ أي إسرائيل الحديثة، وبالتالي ليسوا من الخارج (ما خلا الذين طردتهم إسرائيل من أراضيهم)، وأن قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة، ذا الرقم ٢٤٢، قد يجلب لهذه الأرض السلام في آخر المطاف. فأرادت أن تعرف ماهيّة القرار ٢٤٢.

وكان من الغرابة بمكان، أن لا تعرف موظّفة الهجرة الإسرائيلية المثقّفة الشابّة فحوى القرار ٢٤٢ ـ بأرقامه الثلاثة المختصرة الذي يرمز بالنسبة إلى أي فلسطيني يستشهد به إلى قرار الأمم المتحدة الذي يطلب انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة. ولكنّ اتفاق «أوسلو» ذو معنى بالنسبة إليها، تلك العبارة التي يلفظها فلسطينيو الأراضي المحتلّة باحتقار. إنما «دير ياسين» لا تعني لها شيئاً كذلك. إن هذا الانقطاع عن الواقع هو ذاته يجد طريقة أيضاً إلى الصحافة الإسرائيلية والغربية.

والإسرائيليون يُعدمون أو «يُقتلون دون محاكمة» ـ كما حصل لدى ذبح جنديّي الاحتياط في مخفر الشرطة في «رام الله»، ثم قذفهما من النافذة ـ لكن الفلسطينيين أيضاً كانوا يُقتلون في تلك «المصادمات» التي أصبحت مألوفة لديّ. وقد اتّبعت وكالة «رويترز» هذا السرد المعوجّ. فبتاريخ ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٠، أورد تقريرها عن القتل الذي ارتكبه جنود إسرائيليون في الأراضي المحتلّة، أن فلسطينيين جُرحوا في «مصادمات رمي الحجارة» وقُتلوا في «مصادمات سابقة»، فضلاً عن أن «المصادمات» بدأت بتاريخ ٢٨ أيلول/سبتمبر، وأن «المصادمات قد أوقفت محادثات السلام»، وأن العرب الإسرائيليين اشتكوا من قتل إخوانهم في «المصادمات». ولكن عندما أُطلقت النار على حارس أمن إسرائيلي في اليوم ذاته، وصفت «رويترز» قاتله بأنه «مسلّح فلسطيني يُشتبه به». وفي اليوم نفسه، أوردت الصحافة المتحدة خبراً عن «مهاجمات فلسطينية بإطلاق النار على المستوطنات اليهودية»، كما ذكرت أن فلسطينياً قُتل أيضاً وطبعاً في «المصادمات».

إن هذا الازدواج في مستويات نقل الأخبار في الصحافة الإسرائيلية والأجنبية، يجد طريقه إلى أمكنة يصعب التنبّؤ بها. ففي غرفتي بفندق الملك داوود في القدس الغربية، كنتُ أشاهد شريط فيديو تاريخياً داخلياً، مختصاً بالفندق على شاشة التلفزيون. فماذا جاء في شريط الفيديو عن تدمير القيادة العسكرية البريطانية في هذا الفندق ذاته بواسطة رجال مناحيم بيغن الذين فجّروه؟ إن هذا عمل، لو ارتكبه الفلسطينيون لوصفه الإسرائيليون بأنه «إرهاب وحشي». ولكن شريط الفيديو يفتخر ويعتزّ بأن فندق الملك داوود هو «الفندق الوحيد في العالم الذي فجّره رئيس وزراء مستقبليّ»، وأشار إلى مرتكبي هذه المجزرة، بأنهم «ناشطون» كرّسوا حياتهم لقضيّتهم. مع العلم أن هذا التفجير قتل ٤١ عربياً، و٢٨ بريطانياً، و١٧ يهودياً.

ويُدان أرييل شارون «كصقر» في الصحافة الإسرائيلية، وكونه من أهل «اليمين»، وكشخص ضحّى إرادياً بحياة

الجنود الإسرائيليين في الحرب ـ ولكن لا تذكر الصحف الإسرائيلية أنه الرجل الأول المسؤول عن مذبحة «صبرا وشاتيلا». وهذا القلب للرعب الأخلاقي ذكرني بالصربيّين الذين يشمئزّون من «سلوبودان ميلوزوفيتش»، ويحمّلونه مسؤولية انهيارهم الاقتصادي وخسارة «كوسوفو» ـ ولكن لا يلومونه لما قام به من التنظيف الإثني لنصف مليون من الألبانيين في «كوسوفو» ـ ناهيك بتنظيف إسرائيل الإثني لثلاثة أرباع المليون من الفلسطينيين عام ١٩٤٨، بحيث ساقت معظمهم إلى قذارة غزّة.

وهكذا صار من عادتنا، نحن معشر الصحافيين، أن نذهب كل يوم لنشهد هذه المعارك الضارية بين راشقي الحجارة والجنود الإسرائيليين ـ تلك «المصادمات» طبعاً ـ وكانت قنابل الغاز المسيل للدموع الإسرائيلية تتساقط مثل الألعاب النارية الصينية قرب مفترق طرقات «كارني»، عندما رنّ جرس هاتفي الجوّال. لقد فُجّرت قنبلة في القدس. وكان أحد رجال الشرطة الفلسطينيين يستمع إلى مخابرتي. فسألني: «كم مات منهم؟»: قلت: اثنان. فبدت عليه خيبة الأمل. وقال: «هل هذا كل شيء؟!»؛ إذ لم يكن هناك تعاطف في غزّة مع العدوّ «الشريك» مع ياسر عرفات في عملية السلام.

إن غزّة منطقة صغيرة جغرافياً، بحيث لا تكاد تتّسع للمفارقات. وها أنا جالس عند الظهر، بين النباتات المرتفعة، وشجر الليمون والتين والرمّان، فضلاً عن الغاردينيا، أستمع إلى أحد ضبّاط عرفات المؤتمنين يحدّثني عن تهديدات «جورج تنيت». وفي الواقع، يبدو حضور رئيس وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) ـ الذي يزور غزّة غالباً ـ حضوراً غريباً، ويبدو أن مضيفي يعرف أولاد هذه الوكالة معرفة جيّدة. ثم أعود بعد ساعتين إلى مفترق «كارني» لأراقب الجنود الإسرائيليين يهربون من سياج الحدود، ويقرفصون في كُثبان الوحل، ليصوّبوا بنادقهم نحو صبيّ يحمل نقّافة ثم أسمع طقّة عالية النبرة، وصوت ارتطام رصاصة بشيء؛ وها هو الولد قد ارتمى على الطريق، وهُرع إليه شخصان ليحملاه على نقّالة. ثم يلعلع الرشّاش أيضاً، وأشعر بمرور الرصاصة وهي تئزّ إلى يميني. أجل، لقد أخبرني رجل عرفات في البستان، أن وكالة الاستخبارات الأميركية تعرف أن الإسرائيليين يحاولون أن يقتلوا راشقي الحجارة. وقال: «لقد أريناهم الإحصاءات، وأخذناهم ليشاهدوا هذه المعارك غير المتكافئة. وهم يوافقون شخصياً معنا على أن الإسرائيليين يطلقون النار على الجزء الأعلى من الجسم. ولكنهم يطيعون أسيادهم السياسيين الأميركيين».

ومن البستان، ببعوضه وعصافيره، إلى وحول مفترق «كارني»، تبلغ المسافة حوالى ١٥٠٠ متر. ومن المثير للاهتمام المزاوجة بين التهديدات والغضب في «كمب دايفيد»، والدم وزعيق سيّارات الإسعاف على أسفل الطريق. لم يوفّر ضابط عرفات كلامه. لقد وردت إليه القصّة من عرفات شخصياً، في نهاية محادثات «كمب دايفيد»، تلك المحادثات التي جلبت إلينا ـ خلال أسابيع ـ الكارثة التي تحيق الآن «بفلسطين»، وربّما بإسرائيل أيضاً، كما يقول البعض:

«ذهب «تنيت» إلى عرفات بتهديد يقول: «نستطيع أن نضع حدوداً جديدة، ونصنع شعوباً، وأنظمة».

هذا ما قاله «تنيت» لعرفات في «كمب دايفيد. وعندما لا يخضع عرفات لما يريده كلينتون وباراك، يعود «تنيت» فيهدّد عرفات: «إذن، ستعود إلى الشرق الأوسط وحيداً». وهو يعني أن عرفات سيفقد دعم وكالة الاستخبارات الأميركية. ويجيبه عرفات: «إذا كان الأمر كذلك، فأهلا وسهلاً بكم لحضور جنازتي ـ ولكني لن أقبل عروضكم».

وحولنا، انتقل الذباب مع العصافير عبر الأشجار الحارَّة. وكان موظف عرفات يمضغ حبّة ليمون أفندي، والعصير يسيل من ذقنه، ويتلقّى بعض المخابرات على تلفونه الجوّال؛ بينما كان ابناه يلتقطان حبّات الزيتون من شجرة وراءنا. ثم قال: «عليك أن تدرك أن الأسوأ سيأتي؛ ولو مرَّت علينا بضعة أيام قليلة المشاكل. ولكن هذا هو كل شيء. إننا نعرف كيف نباشر الأمور، ولكننا لا نعرف كيف ستنتهي. إنما نعتقد أنها كلّما طال بها الزمن، جاءت لمصلحتنا. ولا أحد يعرف كيف تتطوّر آليّات الحرب». وكان أكثر اطمئناناً إلى حقّ اللاجئين «المقدَّس» في العودة ـ ربّما مئة ألف منهم في عشر سنوات ـ على يد رئيسه. وأردف قائلاً: «نصحنا الإسرائيليين أولاً بأنه ليس لديهم شريك في السلام سوى عرفات. نعم، إنه يسيطر على فلسطين. وإذا كان باراك يسيطر على الجيش الإسرائيلي، فلماذا لا يكبح جِماح المستوطنين اليهود السارحين بأسلحتهم على هواهم». فذكرتُ له اتفاق «أوسلو». فأجاب: «لقد مات مع وفاة رابين».

وعند مفترق «كارني»، أمر ضابط عرفات بضبط النفس. ومرّت مجموعة من ضبّاط الشرطة ملوّحين بأذرعهم أمام حشد من الشباب عند منتصف الطريق المنحدرة. وحدثت حركة مؤقّتة في الحشد؛ ثم تجاهل الحشد الشرطة. وسار حوالى ٤٠٠ شاب على الطريق الضيّقة، وتقدّموا كلّهم ككتلة بشرية، يداً بيد، وكتفاً بكتف، حتى كاد بعضهم يقع على جانب الطريق لضيقها، مقدِّمين للإسرائيليين هدفاً سهلاً لا يمكن أن يخطئوه، طالبين «الاستشهاد» ـ الذي لا يفهمه الإسرائيليون ومعظمنا. لقد كان منظراً خارقاً للعادة. تجمّع الحشد دون أن يأمرهم أحد في سبيل هدف مشترك يدركونه. لقد أرادوا أن يكونوا مرمى لإطلاق النار. فأُلزم الإسرائيليون؛ وقذفوهم بمجموعة قنابل مسيلة للدموع أولاً، ثم برشقة رصاص حيّ ففرّقوهم. وتعالى الصياح والصراخ. وجيء بالنقّالات لحمل المصابين إلى سيّارات الإسعاف التي انطلقت عبر الغبار إلى مستشفى «الشفاء».

وكان وراءنا على أعلى الطريق رجل يبيع عصير البرتقال ومناقيش الصعتر لراشقي الحجارة المتعبين ولرجال الشرطة المرتدين بزّات سوداء. وكان هناك أيضاً بين الواقفين طواقم التلفزيون بستراتهم الزرقاء الفضائية الواقية وخوذهم، وطواقم سيّارات الإسعاف، وسائقو شاحنات، وعائلات قادمة من أكواخ الإسمنت عبر الطريق. وكان ذلك مزيجاً من شكسبير و«سكوت جيرالد»، والتمثيل الإيمائي، أخذاً بالثأر وملهاةً. ولا عجب في هذه الحال، كما تصوّرت وأنا عائد إلى القدس بسيّارتي، أن يكون الشِّعْر الفلسطيني بتلك المرارة، كما يقول محمود درويش: «كل ما أملك أمام الموت هو الاعتزاز والغضب».

ولا أحد يفهم هذا الأمر أكثر من حنان عشراوي. انفجرت في بيتها في رام الله بطاقةٍ استمدّتها من الإرهاق

والسفر بالطائرة النفّاثة، والغضب، والاحتقار لإسرائيل والصحافيين الأجانب على السواء، مشتكية من ألم في ضرسها، تلتهم الدجاج والبطاطا والأفاويه؛ بينما تجلس قطّتها «لبنة» منعزلة فوق السجّادة. إن المستقبل سيكون عسيراً. قالت: «ليس من العدل، في «ليل الروح المدلهمّ»، وعندما تعود القلاقل، أن يرافقها فقدان الثقة بعملية السلام». لقد مات اتفاق «أوسلو». هذا هو ما عنته؛ ولم يبقَ سوى قرارات الأمم المتحدة.

إنها أشهر امرأة فلسطينية ـ وأشهر مواطنة فلسطينية باستثناء ياسر عرفات وكانت عضواً في فريق مدريد ـ وقد عادت لتوّها من رحلتها إلى الجامعات الأميركية حيث حاضرت عن الكارثة التي تصيب قومها، وحاولت أن تقنع فريقَي «غور»، و«بوش» في الانتخابات الأميركية بفهم حقائق الشرق الأوسط، مُدينةً الصحافة الأميركية لتحيّزها في نقل أخبار الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. وعملها كأستاذة للأدب الإنكليزي، يسمح لها أن تتكلّم بفصاحة فذّة وباحتقار لما يجري. وخارج دارتها، تثور عاصفة، وتضرب الريح الأشجار في حديقتها الخلفية الصغيرة.

وعندما سألت عن انتهاء أمر «أوسلو» أومأت برأسها إيجاباً، وعن أنه لم يبقَ من طريق للسلام سوى قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة، ذي الرقم ٢٤٢، أومأت برأسها إيجاباً مرّتين، بينما كنا نتناول «التبّولة» والأرز. وعندما سألت عمّا إذا كان ذلك يقتضي إزالة المستوطنات الإسرائيلية على الأرض العربية المحتلّة وإرجاع شرقيّ القدس، احتدّ صوتها وقالت: «يجب أن تزال جميع المستوطنات ـ فعندما تقبل بغير ذلك، فأنتَ تشرّع الاستيلاء على الأراضي بالقوّة. إن أساس اتفاق «أوسلو» هو القرار ٢٤٢... ولكن أوسلو خالفته، وأوّلته. ولم يحترم الإسرائيليون أبداً أي موعد من مواعيد الانسحاب بحسب اتفاق «أوسلو». وما يحدث الآن هو نتيجة لاتفاق «أوسلو». وكنا ولا نزال نقول ونحذر من أن ذلك سيحصل، وأنه سيحدث انفجار داخلي أو خارجي. وقد ثبت ذلك الآن. لكن الوقت فات، وحصلت خسارة مأساوية بالأرواح».

إن الاستماع إلى حنان عشراوي ـ صوت الاعتدال والإنسانية ـ يجعلك تمرّ بخبرة صدمة تاريخية لما حدث في الشرق الأوسط خلال الأسابيع الستّة الماضية. قالت غاضبة: «إن الفلسطينيين يعتبرون أنفسهم ضحايا «لعملية السلام»؛ إذ كان يعاد اختلاق تلك «العملية» اختلاقاً لتناسب إسرائيل. وأميركا تعتقد أنه ما دامت هناك «عملية» جارية، فالّله في ملكوته. وقد تورّط الأميركيون الآن في أزمة حكم، وموروثات فردية. لقد وصل الأميركيون المتورّطون في هذا الأمر في واشنطن إلى نهاية مهنتهم»(*).

(*) وبعد أقلّ من أسبوعين كتبت عشراوي رسالة مفتوحة إلى الرئيس بيل كلينتون قالت فيها: «أيها السيّد الرئيس، لقد دلّت خبرتنا على أنه حالما يخرج موظفو الدولة الأميركيون من وظائفهم، يبدأون بمعاناة عذاب ضمير، ودافعية لا نستطيع تفسيرها للتعبير عن ندمهم وأسفهم العميق بشكل اعترافات علنية تتعلّق بالظلم الذي عاناه الشعب الفلسطيني. ونظراً لرغبتنا الشريفة في أن نجنّبك مصير الموظفين الكبار الذين جاءهم الاستبصار بعد وقوع الواقعة، مع السعي نحو العدل والإنصاف، أودّ أن أبرز أنه لا يزال هناك عالم ووقت كافيان للتكلّم ـ والأفضل للفعل». وكانت عشراوي تعرف أنه لن يفعل ذلك. ولكنها لم تكن لتعرف أنه عندما تكلم، بعد مغادرته الرئاسة، لام الفلسطينيين.

ومن الواضح أن عشراوي أرادت أيضاً أن تنتهي مهنة عدّة مراسلين. إذ قالت وهي مرهقة تتّكيء على أريكتها: «عندما زرت الواشنطن بوست، سألتهم: ماذا حدث لمبدأ الاستقامة في العمل الصحفي؟ إذ إن هناك الآن انفصاماً كاملاً بين صورة ما يحدث ـ أي الضحايا من الفلسطينيين ـ واللغة. إن ذلك نتاج اللغة الأميركية التي تمّت معالجتها والآلة الإسرائيلية المدوِّمة. إنكم تغذّونا الآن بالعبارات المعروفة: «عملية السلام». و«وضع عملية السلام على سِكّتها»، و«وقف إطلاق النار»، و«تعليق النشاط مؤقّتاً»، و«وضع حدٍّ للإرهاب»، و«على عرفات أن يضبط شعبه ويسيطر عليه»، و«هل لدينا الشريك الملائم للسلام؟». إن هذا أسلوب تمييز عِرْقي في النظر إلى الفلسطينيين. إنه يعتّم على الواقع الذي يشهد بأن الفلسطينيين عانوا من الاحتلال الإسرائيلي باستمرار. وعندما تسأل الجرائد عمّا إذا كان الفلسطينيون يضحّون بأولادهم، وأنه عمل عِرقيّ لا يُصدّق؛ فإنّما تنتقص من إنسانية الفلسطينيين. إن الصحافة الإسرائيلية جرّدتنا من المشاعر الإنسانية الأساسية بخطاب ساخر، عِرقيّ، يلوم الضحايا. طبعاً، نحن نحبّ أولادنا؛ حتى أن الحيوانات تحبّ أولادها».

ويرنّ جرس الهاتف ـ كقرع مجموعة أجراس في جهاز ساعة ضمن بيت عشراوي في رام الله؛ ويُسقسق الهاتف الجوّال، ويتكرّر الشرح المتعب عن سبب فشل اتفاق «أوسلو» ـ وبعد دقيقة صمت تستأنف عشراوي كلامها قائلة: «قلتُ دائماً إن «أوسلو» ستقود إلى كارثة أو إلى دولة. وكما تتذكّرون، إنها ليست اتفاقاً بل تفصح بدقّة عن «إعلان مبادئ»، وتمثّل الخطر في أن ينقلب «سلام الشجعان» إلى «سلام القبور». إن الانتفاضة الجديدة ستستمرّ ـ بأشكال وأساليب مختلفة ـ ولسنا مولعين بالانتحار الجماعي، ولكننا نريد المحافظة على حقّنا في مقاومة الاحتلال والظلم. وعندما نقول «مقاومة» يسحب الإسرائيليون كلمة «إرهاب» ـ وهكذا يُصبح الولد الذي يحمل حجراً هدفاً «شرعياً» لنار القنّاص الإسرائيلي وللرصاصة الفائقة السرعة».

وعلى أرض الغرفة، تخرخر القطة «لبنة»؛ فقد مضى وقت الطعام. وتكاد عشراوي تنام من شدّة الإرهاق. ويعلن التلفزيون مقتل فلسطينيَّيْن آخريْن بالرصاص الإسرائيلي. مع العلم أن الشهر الأول من الانتفاضة الثانية حصد أرواح مئة من الفلسطينيين، بمن فيهم ٢٧ ولداً، قُتلوا على يد الجنود الإسرائيليين وشرطة الحدود. ولكنّ أكثر الإحصاءات إقلاقاً هي المفارقة الكبرى بين خسائر الفريقيْن. فحتّى عام ٢٠٠٢، كان قد قُتل من الفلسطينيين ١٤٥٠ شخصاً في انتفاضة الأقصى؛ وقُتل من الإسرائيليين ٥٢٥ شخصاً، أي حوالى ثلث ما تكبّده الفلسطينيون في الأرواح. والفلسطينيون هم المعتدون؟

الفصل الثالث عشر

الفتاة والطفل والحبّ

يجب استخدام الدم والدمار أيضاً
وكذلك الأشياء المرعبة المألوفة
ويجب على الأمّهات الابتسام فقط عندما
يحتضنّ أشلاءَ أطفالهنّ المقطّعة من جرّاء الحرب
إنَّ الشفقة، كلَّ الشفقة، مصدومة بعادة الأفعال الساقطة

شكسبير ـ «يوليوس قيصر»

كلّما حاولت أميرة حاس شرح مهنتها كصحفيّة إسرائيلية ـ وكصحفيّة من أيّ جنسيّة ـ استذكرت لحظة عصيبة من حياة أمّها. جرى نقل حنّة حاس في قطار ماشية إلى معسكر الاعتقال في برجن ـ بيسن (Bergen - Belsen) ذات يوم من صيف ١٩٤٤. «ظلّت والنساء الأخريات عشرة أيام في القطار القادم من يوغوسلافيا، وكنّ مريضات وبعضهنّ يحتضر في الطريق. ثم شاهدت والدتي النسوة الألمانيات اللواتي لا يكدن يُلقين نظرة على السجينات وغدت هذه الصورة أساسية في تشكيل وعيها: تلك النظرة الجديرة بالازدراء، «نظرة من طرف العين»... وبدا لي المشهد كما لو أنني كنت هناك ورأيته بنفسي». ثم نظرت أميرة حاس إليّ من خلال نظّارتها بينما كانت تتحدّث، لترى مدى فهمي للمحرقة (الهولوكست) اليهودية في حياتها.

شرحت حاس في كتابها المثير «شرب البحر في غزّة» (Drinking the sea at Gaza) بفصاحة لماذا ذهبت كصحافية إسرائيلية للعيش في دُوَيلة ياسر عرفات القذرة المبعثرة. كتبت:

«في الختام لم تنبع رغبتي في العيش في غزّة من المغامرة أو من الجنون، بل من رهبتي أن أكون متفرّجة ومن رغبتي أن أفهم فهماً دقيقاً حتى آخر تفصيل عالماً كان ـ بحسب فهمي السياسي والتاريخي ـ صنيعة إسرائيلية بشكل مكثّف. بالنسبة إليّ، تجسّد غزّة الرواية الكاملة للصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني؛ إنّها تمثّل التناقض الرئيسي لدولة إسرائيل ـ الديمقراطية للبعض، والحرمان للآخرين؛ إنّها وقاحتنا المكشوفة».

نحن في صيف ٢٠٠١. تجلس أميرة حاس عند أسفل نافذة منزل زميلي فيل ريفيس في القدس وخلفها تسطع قُبّة المسجد الأقصى المصقولة في ضوء الشمس. فهي تعيش حالياً في «رام الله» وليس في القدس، مع الفلسطينيين الذين يعتبرهم العديد من مواطنيها «إرهابيين». كانت تُنصت إلى اللعنات الفلسطينية الموجّهة إلى اليهود بسبب فِرَق المصادرة والتجريد من الملكيّة والقتل، وبسبب المستوطنات ـ ممّا يجعلها من بين أشجع المراسلين. ويتّصف مقالها اليومي في صحيفة «هآرتس» بإدانة سلوك إسرائيل في إساءة معاملة الفلسطينيين وقتلهم. ولم أدرك مدى الزخم ـ والعاطفة القويّة ـ في عملها إلا عندما كنت ألتقيها. وأبلغتني بالنظرة الثاقبة نفسها التي تريد أن تضمن فهمي: «هناك تأويل خاطئ حول إمكانية أن يكون الصحفيون موضوعيّين. يقول لي الفلسطينيون إنني موضوعية. أعتقد أن ذلك مهمّ لكوني إسرائيلية. لكن أن تكون مُنصفاً وأن تكون موضوعياً ليس الشيء نفسه. ما هي مهمّة الصحافة في الواقع ـ إنها مراقبة السلطة ومراكز السلطة».

وفكّرتُ للحظة لو أن الصحفيين الأميركيين كانوا يستمعون إلى أميرة حاس. أولئك الصحافيّون الأميركيون الذين يكتبون تقارير جبانة من الشرق الأوسط، خائفين من الانتقاد الإسرائيلي، بحيث يحوّلون القتل الإسرائيلي إلى «هجمات مُحدّدة» والمستوطنات غير الشرعية إلى «ضواحٍ يهوديّة».

كانت أميرة تكتب كلّ يوم نصّاً حول اليأس، هو سردٌ زمني لا تتخلّى عنه عندما تتحدّث عن حياتها الشخصية. تبدأ من البداية، بوالدتها وهي يهودية من سراييفو انضمّت إلى مؤيّدي تيتو واضطرّت إلى الاستسلام إلى النازيين عندما هدّدوا بقتل كلّ امرأة في مدينة ستنجي Cetinje في المونتنغرو، وبوالدها الذي أمضى أربع سنوات في معسكر اعتقال ترانسينيستريا (Transnistria) في أوكرانيا، حيث تفشّى وباء التيفوس الذي أدّى إلى مقتل ٥٠ في المئة من اليهود، وفقدَ أصابعه بسبب الصقيع. وعندما جاء إلى إسرائيل انخرط في العديد من الاضرابات والتظاهرات كناشط شيوعيّ بعد الحرب. وفي بداية الخمسينيّات قامت الشرطة الإسرائيلية باعتقاله وأُحضِر أمام قاضٍ طلب معرفة سبب رفضه إعطاء بصماته. «وضع والدي قدمَيه اللتين لا أصابع لهما على مكتب القاضي وقال: «لقد أعطيتُ بصماتي آنفاً». وأضافت أميرة حاس: «جمع أبراهام بين اليهودي القويّ والهويّة العلمانية، كان اشتراكياً ولم يكن صهيونياً أبداً».

تُعتبر قصّة حنّة وأبراهام أساسيّة لفهم أميرة. لقد ناضلا من أجل حقّ المساواة في الشتات «الدياسبورا اليهودية» وأرادا البقاء في الأراضي الأوروبية التي تحوّلت إلى مقابر جماعيّة. وقد عاد العديد من هؤلاء الناس إلى بلادهم بعد الحرب ـ وقبل السكّان هناك محنة اليهود بسهولة. وعادت والدتي إلى بلغراد كواحدة من مجموعة «دجيلاس ميلوڤان» الشيوعية. وكان قد نشأ نظام جديد في يوغوسلافيا . لكن عندما ذهبتُ للتسجيل كمواطنة في بلغراد، قالت لها الموظّفة: لكنّك هاجرت. «أترى، لقد قام الألمان بترحيلها وما زالوا يسجّلون رسمياً أنّ المرحّلين هاجروا. وقد صدّقت الموظّفة أقوال الألمان». كانت تجربة مشتركة. رغم الدمار الكامل، الذي تعرّضت له عائلات بأكملها من قِبل النازيين، وكان الفراغ الناشئ عن «الهولوكست» اليهودية صعب الاحتمال.

«جاء والداي إلى إسرائيل بشكل ساذج وقد غُرِّر بهما. لقد عرضوا عليهما منزلاً في القدس، لكنّهما رفضا قائلين: لا نستطيع أخذ منزل لاجئين آخرين. وكانا يقصدان الفلسطينيين. لذلك ترى أنه ليس أمراً مهمّاً أن أعيش بين الفلسطينيين». أصبحت أميرة حاس صحفية بالصدفة. فقد عاشت قبلاً من خلال وظائف غير منتظمة ـ عملت مرّة عاملة تنظيف ـ وسافرت إلى هولّندا «أحسست هناك بغياب الوجود اليهودي ودلّني ذلك على أمور عديدة، وبخاصّة حول موقفي من إسرائيل وكوني غير صهيونية. هذا هو مكاني، إسرائيل، اللغة، الشعب، الثقافة، الألوان...».

تخرّجت حاس في الجامعة العبرية حيث كانت تجري بحثاً عن تاريخ النازيّة والموقف الأوروبي المتعلّق بالمحرقة اليهودية. «كنت عالقة. اندلعت الانتفاضة الأولى ولم أرغب أن أبقى في العمل الأكاديمي في الوقت الذي يجري فيه كل ذلك. استخدمت الواسطة، وأنت تعرف هذه الكلمة العربية، للحصول على وظيفة كمحرّرة في مكتب صحيفة هآرتس، وهي صحيفة ليبرالية حرّة التعبير، والصحيفة الإسرائيلية الأقرب إلى صحيفة الإندبندنت. وعندما اندلعت الثورة الرومانية طلبت حاس إرسالها لتغطية الأحداث هناك ـ وكان لديها العديد من الاتصالات من زيارتها لبوخارست عام ١٩٧٧. وكم كانت دهشتها عندما، وافقت هآرتس رغم أنه لم يكن قد مضى على وجودها في الصحيفة سوى ثلاثة أشهر.

«عندما ذهبت إلى رومانيا سابقاً، شعرت أن لديّ مسؤولية فلسفية لتذوّق الحياة في ظلّ هذا النظام الاشتراكي. كان ذلك أسوأ ألف مرّة ممّا تخيّلت. كان هناك ذلك الضغط الرهيب. فالحياة تحت الاحتلال الإسرائيلي ليست أسوأ من الحياة تحت حكم تشاوشيسكو في رومانيا. كانت اختناقاً غير محتمل. وهكذا غطّيت الثورة طيلة أسبوعين ثم عدت إلى صحيفتي. ولم تكن هآرتس تعرف ما إذا كنت قادرة على الكتابة، وها هي تعلم الآن أنني قادرة. لكنني تعلّمت أيضاً عدم التطلّع الى ما يتطلّع إليه الصحفيون الآخرون».

عام ١٩٩٠، انضمّت بدعم من والديها إلى جماعة تُدعى «خطّ الاتصال المباشر للعمّال» وتساعد الفلسطينيين الذين يتعرّضون للغشّ من قِبل أصحاب العمل الإسرائيليين. «وصلتُ خلال حرب الخليج إلى غزّة الخاضعة لحظر التجوّل ـ ذهبتُ لإعطاء الفلسطينيين شيكاتهم من أرباب العمل الإسرائيليين. عندها بدأت علاقتي الرومانسية مع غزّة. لم يعرف أيّ صحفي إسرائيلي غزّة أو يغطّي أخبارها. وكان رئيس تحرير صحيفتي متعاطفاً جدّاً. وعندما بدأت عملية السلام عام ١٩٩٣ ـ طلبت وضع علامات اقتباس حول الجملة ـ اقترحت هآرتس تغطيتي لموضوع غزّة. وقال أحد المحرّرين: «لا نريد منك العيش في غزّة». وعرفت فوراً أنني أرغب في العيش هناك».

منذ البداية، استذكرت حاس أن هناك شيئاً قويّاً جدّاً حول التصرّف الفلسطيني ـ كان هناك الكثير من الدعابة والحالة النفسيّة الشخصية في هذه الظروف الصعبة. وعندما اقترحت أن هذا شيء ربّما عرفتهُ عند اليهود، وافقت حاس فوراً «بالتأكيد، أنا يهودية أوروبية شرقية وحياة «الشتل» (Shtetl الحيّ اليهودي في أوروبا الشرقية) مغروسة في داخلي. وأعتقد أنّني وجدت مثل هذا «الشتل» وأذكر أنني شاهدت في غزّة لاجئين من مخيّم جباليا، جالسين

على الشاطئ ينظرون إلى الموج. سألتهم عمّا يفعلون. وأجاب أحدهم أنه ينتظر أن يبلغ سِنّ الأربعين ـ إذن لديه من العُمر ما يكفي للحصول على تصريح للعمل في إسرائيل. هذه دعابة يهودية بامتياز».

لكنّ حاس لم تجد أيّ دعابة في سياسة المنع الإسرائيلية، وحصار المدن الفلسطينية وتقويض اقتصاد السكّان وشعبهم. «اكتشفت في أوائل ١٩٩١ أن سياسة المنع كانت خطوة ذكيّة من قِبل نظام الاحتلال الإسرائيلي، نوعاً من الضربة الوقائية، ووسيلة تضعف بشكل مُذهل أيّ نوع من التحرّك وردّة الفعل الفلسطينية. وكان الإغلاق هدفاً في حدّ ذاته أيضاً: إنّه فصل ديمغرافي، ممّا يعني أنّ لليهود الحقّ في التجوّل في نطاق فلسطين القائمة. وقد أوصلت سياسة الإغلاق هذا الأمر إلى ذِروته...».

وجدت حاس نفسها مُعجبة بالفارق بين الصورة الفلسطينية المعطاة والواقع. «فقد صوّرت الصحافة الإسرائيلية مدنهم على أنّها «وكر دبابير». لكنّني رغبت حقّاً في تذوّق ما يعنيه العيش في ظلّ الاحتلال ـ ماذا يشبه العيش في ظلّ حظر التجوّل، العيش في حالة خوف من جنديّ. أردت أن أعرف كيف يكون الإسرائيلي في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي». لقد استخدمت تلك الكلمة، «تذوّق»، مجدّداً، كما فعلت بالنسبة إلى رومانيا في ظلّ الديكتاتورية. قالت إنها لا تزال تفكّر في رحلة والدتها إلى «بيلسن» Belsen: «كانت لديّ تلك الفكرة عن عدم التدخّل، عدم تغيير أي شيء. ولحُسن الحظّ، كان هذا يمتزج عندي مع الصحافة». وتتملّك حاس فكرة أن التغيير يمكن أن يحصل فقط من خلال الحركات الاجتماعية وتفاعلها مع الصحافة ـ صيغة غريبة قد تبدو غير منطقية، لكن ليس هناك شيء غامض حول رسالتها. «فإسرائيل هي بشكل واضح مركز السلطة التي تُملي الحياة الفلسطينية. ولأنني إسرائيلية، فإنّ من واجبي كصحفية مراقبة هذه السلطة. لقد سُمّيت «مراسلة في الشؤون الفلسطينية» لكنّ التسمية الأكثر واقعية هي أنني خبيرة في الاحتلال الإسرائيلي». وتقول إن ردّ الفعل الإسرائيلي كان عنيفاً جدّاً حيالها. «وصلتني رسائل تقول إنني كنت مراقبة لمعسكر الموت اليهودي لصالح النازيّين في تقمّصي الأول .ثم وصلتني رسالة إلكترونية تقول: أحسنتِ، لقد كتبتِ مقالاً عظيماً ـ يحيا هتلر!. وقال لي بعضهم إنهم يتمنّون إصابتي بمرض سرطان الثدي. وقال غيرهم: لن يكون هناك سلام حتى طرد جميع الفلسطينيين».

لكنّ العديد من الإسرائيليين طالبوا أميرة حاس بالاستمرار في الكتابة. «لقد ضلّل الناس أنفسهم من خلال الاعتقاد بأنّ اتفاقية أوسلو مشروع سلام ـ لذلك أصبحوا غاضبين جدّاً من الفلسطينيين. وكان جزء من غضبهم موجّهاً ضدّي. لا يذهب الإسراثيليون إلى الأراضي المحتلّة. لا يشاهدون بأمّ أعينهم. لا يشاهدون قرية فلسطينية أُقيمت مستوطنة على أرضها، وقرية ليس فيها ماء وتحتاج إلى إذن رسمي لزرع شجرة، ناهيك ببناء مدرسة جديدة. لا يفهم الناس كيف يفرض انتشار المستوطنات الإسرائيلية السيطرة على الأرض الفلسطينية».

وبينما كانت والدتها ترقد وهي تنازع في ربيع ٢٠٠١، كانت أميرة حاس جزعة من احتمال بقائها ضمن الحصار الإسرائيلي لرام الله، حيث كانت تعيش، وأن تمضي ساعات لاجتياز بضعة أميال حتى تتمكّن من زيارتها.

الآن، أصبحت وحيدة. قبل شهرين من لقائنا، توفّيت المرأة التي علّمتها احتقار الذين ينظرون من طرف أعينهم. حاليّاً، أصبحت حاس مُلهمة بالنسبة إلى الصحافيين الذين يحاولون قول الحقيقة حول آخر حرب استعمارية عالمية. لقد حاضرت في أميركا، وشاركت في عدّة حوارات إذاعية ومقابلات، وكان عملها الذي لا يفتر أكثر ذكاء وتأثيراً. إنها لحَالة نموذجية أن تكتب امرأة يهودية عن الفلسطينيين بأسلوب أبلغ من أي صحفي آخر. كم هو رائع أن تكون امرأة يهودية أكبر سنّاً، ولكنّها ملتزمة أيضاً، من نيويورك، هي التي تقاتل من أجل العدالة للمدنيين اللبنانيين الذين يعيشون حيث دُمّرت حياتهم في قصف «عناقيد الغضب» الإسرائيلي لجنوب لبنان عام ١٩٩٦، والتي يُعتبر بحثها حول مجزرة قانا أرقى من أيّ شيء كتبه مؤلّف عربي.

عندما نزل جدّ إيفا شتيرن من وسيلة النقل في معسكر الإبادة في «أوشفيتز» عام ١٩٤٤، مع والدتها وخالتيها من العائلة اليهودية المتديّنة، كان لا يزال يحمل شال الصلاة. وقد حذّره سجين بولّندي أنه سيموت إذا لم يسلّمه، لكنّه رفض بحسب قول إيفا شتيرن. «عندها أمر ضابط ألماني جدّي بأن يسلّمه الشال بينما كان ينتظر في صفّ الاختيار لغرف الغاز. رفض مُجدّداً. لذلك أطلق الضابط النار على رأسه وهكذا مات».

وفي ردهة فندق في منهاتن الحارّة، تحدّثت شتيرن بسرعة وبصوت خافت نسبيّاً، مستذكرة القصّة الرهيبة التي روتها لها والدتها حول رحلة العائلة من تشيكوسلوفاكيا إلى أوشفيتز. «كانت في سنّ السابعة عشرة وحاولت إنقاذ إحدى شقيقاتها الصغار بحملها بين يديها. لكنّ سجينة أخرى أبعدتها عنها وأعادتها إلى شقيقتها لأن الجميع سيُقتلون إذا شاهد المدعو منجيل المرأتيْن مع طفل. وهكذا تمّ اختيار شقيقتها وأولادها للموت. ونجت والدتي.

قُتل سبعون فرداً من عائلتها على الأقلّ. ونُقلت إلى معسكر اعتقال رافنسبروك **Ravensbruck** وأُطلق سراحها فيما بعد من قِبل الجيش الأحمر. وقد كان لحادثة الطفلة تأثير كبير. وأستطيع القول بنزاهة إن والدتي لم تنم طيلة خمسين عاماً». لكن طريقة وفاة جدّها أهارون هيرش ــ المفكّر التلمودي البالغ من العمر عشرين عاماً والذي أُعدم بعدما رفض تسليم شال الصلاة ــ هي التي رسمت حياة إيفا شتيرن.

فتحت شتيرن ملفّاً كبيراً على المقعد المجاور وعملت على لجم غضبها بألم. كان عنوان الملفّ: عملية إسرائيل «عناقيد الغضب» ومجزرة قانا. وكان هذا العمل من صنعها وهو مزيج من التقارير الجديدة والصور حول قصف إسرائيل عام ١٩٩٦ الذي أدّى إلى مقتل ١٧٠ مدنياً لبنانياً، منهم ١٠٧ في قانا بينهم ٥٥ طفلاً. وجّهت شتيرن إصبعها بغضب إلى إحدى الصور، التي تظهر جنوداً إسرائيليين يقفون أمام دبّاباتهم على الحدود اللبنانية، ويقول كلام الصورة: «أوقف الجنود الإسرائيليون لفترة وجيزة قصفهم وذلك لإحياء ذكرى يوم الهولوكوست» ونظرت شتيرن إليّ بحيث أستطيع رؤية مدى غضبها.

وسألت: «ماذا كان جدّي ليقول عن ذلك؟ ماذا كان تفكير هؤلاء الإسرائيليين بينما كانوا يضعون شالات الصلاة؟ هل كانوا يصلّون: «أبانا الذي خلق الجنّة، ساعدني في قتل أكبر عدد ممكن من العرب؟» أيحقّ لهم الآن

أن يقتلوا دون أن يشعروا بأي ذنب؟» تعتبر لفظة «أرابوشيم» Arabushim عبارة عُنصريّة لكلمة عرب باللغة العبرية وقد استُخدمت لاحقاً في مقابلة أجرتها صحيفة إسرائيلية من قِبل جنديّ مدفعيّ أطلق النار على قاعدة الأمم المتحدة في قانا. وقد ضمّنت شتيرن ملفّها ترجمة إنكليزية لمقابلة في صحيفة كول هائير Kol Ha'ir، ومجموعة من الوثائق أرسلتها إلى الأمم المتحدة، وإلى الوفد اللبناني للأمم المتحدة وإلى كبار الصحفيين الأميركيين في نيويورك. كانت تأمل إقناع الأخيرين بإحياء الذكرى الأولى لمجزرة قانا. كان شعورها بالمهانة شجاعاً وفريداً. ورغم أن العديد من اليهود الأميركيين شعروا بالاضطراب نتيجة تصرّف الحكومة اليمينية الإسرائيلية والمغامرات الدامية التي تورّطت بها إسرائيل في لبنان وفلسطين، فإن معظمهم لا يحبّذ اهتمام شتيرن بقول الحقيقة. لكنّها كانت مثابرة:

«تحرّكت مشاعري ببطء. كانت لديّ مشكلة دائماً مع الطاعة المطلقة للسلطة ـ لذلك كنت أقع دائماً في سلسلة من المشاكل. وعندما فكّرت في الفظائع التي ارتكبها الإسرائيليون، شعرت بواجب التكلّم كوني دافعة ضريبة أميركية ويهودية أميركية. إذا كان من الممكن تحميل الألمان العاديّين الذين يعيشون في ظلّ القمع الكلّي مسؤولية الجرائم التي ارتكبها النازيّون بسبب عدم رفع أصواتهم، فكم هو حجم مسؤوليتنا نحن الذين نعيش في بلد يسمح بحرية الكلام؟ إذا كان الألمان العاديّون مذنبين بعدم الكلام، فنحن أيضاً مذنبون بسبب صمتنا حول قانا لأننا لا نعيش في حالة خوف من فِرق الموت. ما أقوم به ليس شجاعة، وإنما هو عمل جيّد يجب القيام به. ولو تكلّم عدد كافٍ من الألمان الصالحين في ذلك الوقت لكان من الممكن ربّما تفادي حدوث الهولوكوست. بالطبع لا، لكنّني أعلم أنني سدّدت، كدافعة ضرائب، ثمن القذائف التي سقطت على قانا. وبناء عليه إذا بقيت صامتة، فلن أكون أفضل من أولئك الألمان. لقد ادّعت إسرائيل أنها ممثّلة للشعب اليهودي. ومن المهمّ للعالم معرفة أنهم لا يتحدّثون باسم يهود العالم. إنهم لا يمثّلونني بشكل واضح. إذن لديّ واجب الكلام».

كانت إيفا شتيرن تعمل سكرتيرة في مؤسّسة قانونية في منهاتن، وهي درست في مدرسة بنات بروكلين الدينية وقد حصلت على تشجيع في حملتها من نعوم شومسكي أكثر فلاسفة ولغويي أميركا غضباً وشهرة، ومن المؤلّف الناجي من غيتو وارسو السابق إسرائيل شاحاك الذي كانت تحفظ قصّته عن إسرائيل عن ظهر قلب. «كتب أن أيّ مساندة لحقوق الإنسان بشكل عامّ من قِبل يهودي لا تتضمّن دعماً لحقوق الإنسان لغير اليهود الذين خُرقت حقوقهم من قِبل الدولة اليهودية تُعتبر مُحبطة مثل دعم حقوق الإنسان من قِبل ستاليني. وقد أثّر ذلك بي فعلياً»..

كان والد شتيرن، حاييم، يهوديًّا هنغاريًّا نجا أيضاً من معسكر الاعتقال. «كانت والدتي ابنة عمّه وقد تزوّجا عام ١٩٤٩ وولدت أنا بعد ذلك بسبع سنوات. ما زال والداي حَيّين ويعرفان مشاعري تجاه الفظائع الإسرائيلية. ولديهما مشاعر متناقضة إلى حدّ ما في هذا الشأن. فهما يعتقدان بأنني على حقّ في إدانة ذلك. ونتيجة ما عاناه فإنهما يعتقدان أن العالم بمُجمله مُعادٍ للساميّة ولذلك عندما يحصل عمل إرهابي ضدّ الاسرائيليين لا يضعانه ضمن سياق الصراع العربي ـ الإسرائيلي. إنني أندّد بقوّة بأيّ هجوم إرهابي. لكنّ والديَّ يريانه من منظور أنّ العرب

معادين للساميّة، ولذلك هناك عمل إرهابي. أرفض التنديد بوالديّ بسبب مشاعرهما. ومن ذلك مثلاً أنهما يعتبران الألمان كلّهم نازيين لأنهما لم يصادفا إلّا نازيّين خلال تجربتهما.

وبالنسبة إلى معظم الفلسطينيين، فإن معظم اليهود الذين عرفوهم من اليهود الظالمين. ومن المؤكّد أن الفلسطينيين لم يصادفوا في مخيّمات اللاجئين أيّ يهودي جيّد ومبدئي».

لكنّ محاولة إيفا شتيرن إقناع الصحفيين الأميركيين إحياء ذكرى مجزرة قانا قوبلت بالتجاهل. ولم تنشر أيّ صحيفة أميركية رئيسيّة واسعة الانتشار فقرة أو تقريراً إخبارياً موجزاً حول قيام الأمم المتحدة في لبنان بإحياء الذكرى الأولى لحمّام الدم. وبعكس إيفا شتيرن، ظلّ الصحفيون الأميركيون صامتين وكذلك رؤسائهم. وقد شجّعت مجلّة المؤسّسة القانونية في منهاتن موظّفيها على الكتابة عن اهتماماتهم خارج أوقات العمل، فكتبت شتيرن قصّة مؤثّرة حول تحقيقاتها المتعلّقة بقانا وبمجزرة عام ١٩٨٢ ضدّ الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا. إلّا أن مسؤولاً في المؤسّسة رفض نشر مقالها بحجّة أنه حسّاس ويمكن إساءة فهمه.

بعد فترة قصيرة من لقائي إيفا شتيرن، وصلت رسالة إلى بريدي في بيروت من نِزار هنداوي. هل تذكرون الاسم؟ كان هنداوي هو الفلسطيني الذي أعطى يوم ١٧ نيسان/أبريل ١٩٨٦ صديقته الإيرلندية البريئة والحامل آن ماري مورفي قنبلة لتحملها على طائرة العال في مطار هيثرو في لندن. وكان يمكن أن يؤدي انفجار القنبلة التي تزن ١,٥ كلغ من السيمتكس إلى تدمير الطائرة وقتل جميع ركّابها بمن فيهم خادمة الغرف الشابّة التي صدّقت أن هنداوي سيصل إلى إسرائيل بعد أيّام قليلة للزواج بها. وكان قد طلب حماية رجال الأمن السوريين في لندن قبل أن يقرّر تسليم نفسه. وقد حُكم عليه بعد ستة أشهر في أولد بايلي Old Bailey بالسجن خمساً وأربعين سنة، وهي أطول عقوبة في التاريخ الجنائي البريطاني.

لذلك، كانت رسالته إليّ تحمل عنوان سجن صاحبة الجلالة «وايتمور» في كامبريدج شاير. كانت رسالة مهذبة لكنّها تحمل مغزى واضحاً: «إذا كان يمكن إطلاق سراح قتلة منظّمة إيرا (الجيش الجمهوري الإيرلندي) IRA المعتقلين لجرائم سياسية فعندها يجب إطلاق سراحه. وقد كتب بلغته الإنكليزية الضعيفة: «قضيّتي سياسيّة كما تعلم، لا أحد يذهب لتفجير طائرة ركّاب لأسباب شخصيّة. وأعتقد أنه لو لم تكن الطائرة إسرائيلية ولم تكن في بريطانيا لما عوقبت بهذا القدر الذي يُعتبر الأطول في تاريخ بريطانيا المعاصر». لم تكن مشكلتي الأولى في رسالة هنداوي سياسية. لقد اكتشف العديد من رجال إيرا، وكذلك القتلة شبه العسكريين البروتستانت في إيرلندا الشمالية، إحساساً عميقاً بعدم الراحة والندم حيال الأفعال الرهيبة التي ارتكبوها. وحتى العجوز غاستي سبنس، أوّل القتلة من جماعة الموالين للإنكليز، فقد خرج من السجن مسيحيّاً تائباً. وحتى الآن، لم أجد أي إشارة ندم في رسالة هنداوي إليّ، ولا حتى أدنى دليل على أنه يشعر بالندم على ما حاول القيام به. كانت فقرة، «لا أحد يقوم بتفجير طائرة ركّاب لسبب شخصي»، مرعبة. وقد كتبت في صحيفة الإندبندنت أن تصنيفه لقوى الشرّ واضح جدّاً. فهو يقول إن نسف طائرة لأسباب شخصية ـ إذا افترضت أنه كان يكره الركّاب ـ عمل لا يُغتَفر. ولكنّ

الأمر غير ذلك إن كانت الأسباب سياسية، أي في حال كان الركّاب وحتى صديقته الحامل آن ماري مورفي لا أهمّية لهم عنده... مشيراً إلى قضيّته الشخصية بأنّها تاريخية. تابع هنداوي:

«لقد عقدت منظمة التحرير وإسرائيل معاهدة سلام مع الأردنّ. وحتّى العلاقات بين سوريا وبريطانيا صارت في أفضل حالاتها، لاحظ ماذا حصل بعد اتفاق السلام في إيرلندا الشمالية، لقد أرسلت الحكومة البريطانية جميع معتقلي إيرا إلى إيرلندا الشمالية وتم إطلاق سراح العديد منهم... كتبت إلى رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير، وجاك سترو، وروبن كوك، وكين ليفنغستون، وطوني بن ود سكينر، وإلى نوّاب، وغيرهم طالبا منهم إطلاق سراحي ولم أحصل على ردّ حتى الآن».

لم أُفاجأ. فبالنسبة إلى السلام الإيرلندي الذي تسانده غالبية الشعب في بريطانيا وإيرلندا، فإن السياسة التاتشريّة القديمة بتجريم كلّ الأشرار قد سقطت. كان هناك أطفال قتلة، وزوجات قتلة، وقتلة من المافيا، ورجال مأجورون يجب أن يبقوا في السجن، وهناك سياسيّون قتلة ومأجورون قتلة ذهبوا الآن إلى ديارهم. أحببنا ذلك أم لا، هكذا تنتهي معظم الحروب. هناك نوع من التجاوز للذنوب. فالرجال الذين لقّبناهم بالإرهابيين ـ جومو كينياتا، مناحيم بيغن، الأسقف مكاريوس، جيري آدامز، ياسر عرفات ـ لديهم عادة غريبة في التحوّل، إلى حدّ البروز لاحقاً وهم يجرون محادثات في داوننغ ستريت، ويحتسون الشاي مع الملكة إليزابيت أو يُجرون أحاديث وديّة في البيت الأبيض.

لكن أين يترك هذا كلّ السجناء من الحروب الأخرى؟ نظريّاً، يمكن أن يؤثّر اتفاق السلام الفلسطيني ـ الإسرائيلي على قضيّة هنداوي. لكنّ السلام أصبح الآن ميتاً، وقد أشار هنداوي بشكل مثير إلى اعتقاده بأنه كان يعمل لصالح السوريين(*).

لم أردّ مباشرة على رسالته. لكنّني كتبت مقالاً حول رسالته قلت فيه إنني أريد «الحصول على معلومات أكثر عن نزار هنداوي الحقيقي» ـ وكيف لرجل (مهما يكن مَن يعتقد أنه يعمل لصالحه) أن يعطي قنبلة لصديقته الشابّة التي تحبّه، المرأة التي تحمل طفله، مع معرفته أنّ ذلك يعني هلاكهما وهلاك جميع من معهما. أرسلت لهنداوي

(*) التجأ بالتأكيد إلى منزل رجال الأمن السوريين في لندن. وقد وقّع هنداوي اعترافاً عند الشرطة يفيد أنه أُعطيَ الحقيبة التي تحتوي على القنبلة من قِبل ضابط يعمل بإمرة الجنرال محمّد الخولي، رئيس المخابرات الجويّة السوري. وفي المحكمة، تراجع هنداوي عن اعترافه، مدّعياً أنه أكره على التوقيع دون قراءة الإفادة ويعتقد أنه كان جزءاً من مخطّط وضعته الاستخبارات الإسرائيلية للإضرار بسوريا. وقد حُكم عليه، وقطعت بريطانيا علاقاتها مع دمشق، وندّدت إسرائيل «بالدور الرئيسي لسوريا في الإرهاب». غير أنني أتذكّر حادثاً غريباً حصل بعد أيّام قليلة عندما التقيت السفير البريطاني السابق في سوريا في قاعة الشخصيات في مطار دمشق. قال السفير: «كانت هناك بعض الدلائل على أن الإسرائيليين علموا بوصول القنبلة إلى مطار هيثرو». ولم يصرّح بأكثر من ذلك. هل علم الإسرائيليون بالقنبلة من خلال التنصّت على المخابرات الهاتفية للسفارة السورية؟ هل تمّ تحذيرهم من قبل أجهزة الأمن البريطانية؟ هل شجّعوا السوريين للتورّط في عملية القنبلة؟ لا تقوم أيّ حكومة إسرائيلية بتفجير طائرتها. لكن إذا كان الإسرائيليون على علم بذلك مسبقاً كان بإمكانهم اعتقال آن مورفي لدى وصولها مع القنبلة إلى مطار هيثرو وإثبات أن سوريا هي «مركز الإرهاب العالمي».

نسخة من المقال. وبعد أكثر من ثلاثة أشهر وصلتني رسالة أخرى منه. كانت غاضبة وتنمّ عن انزعاج، وقد كُتبت من أعماق أحاسيس الإذلال التاريخي. فالهنداوي على الرغم من ضعف لغته الإنكليزية قام بمحاولة لإعادة تمثيل الخيانات في الشرق الأوسط مستخدما لغة المجاز ليصف نفسه (التي كان يلومها بقسوة) على أنها كانت أداة «الإرهاب» الذي دعا فرنسا وبريطانيا إلى إنهاء انتدابهما وإلى خلق دولة إسرائيل... قالت الرسالة:

«اعتقدتُ أن من المفيد لك أن تعرف أكثر قليلاً حول نزار هنداوي الحقيقي... يبدو لي أنك لم تعثر على ذلك القليل... أنا نزار هنداوي الذي دعا أباطرة بريطانيا وفرنسا إلى المنطقة العربية ـ الشرق الأوسط ـ لتقطيع الحلوى ولتعليم العرب كيفيّة لعب الكريكت. لكنّ النقطة الأهمّ لهذه الدعوة هي إيجاد أو ملء «أرض بلا شعب بشعب بلا أرض». وهكذا، أحضر إمبراطور بريطانيا في أوروبا «شعباً بلا أرض إلى أرض بلا شعب». وهكذا أُعطيت لذلك الشعب مجّاناً قطعة الأرض التي أسموها «إسرائيل». لكن استمرّت لعبة الكريكت لفترة طويلة وكانت تحتاج إلى وقت لكي تنتهي. ولقد ذهب الحَكم إلى الأبد. هل تعتقد أنه ربّما يعود لوقف اللعبة؟ تلك اللعبة التي كنت مؤسّسها أنا نزار هنداوي، مؤسّس وقائد عصابة هاغانا، وأرغون وشتيرن، المنظّمات الإرهابية، وبأوامري المباشرة انطلقت حملة من الإرهاب والعنف التي استهدفت بشكل خاص المدنيين... أمرتُ بتفجير فندق الملك داود في القدس ممّا أدّى إلى مقتل حوالى ٩٠ بريطانياً. أمرت بغزو لبنان وبيروت الغربية وقمت بمجازر مخيّمات صبرا وشاتيلا. وهاك بعض المعلومات الإضافية لك يا عزيزي السيّد روبرت فيسك حول نزار هنداوي المسؤول عن قتل وتعذيب واختفاء أكثر من ٤ آلاف شخص في تشيلي وليس الجنرال أوغستو بينوشيه. أنا المسؤول عن إبقاء العقوبات ضدّ العراق... الآن تستطيع فهم نزار هنداوي وأعماله الشريرة».

إن استخدامي لكلمة «الشرّ»، وقبل أن يتمّ تحوير معناها من قبل جورج بوش الابن، قد أزعج هنداوي. لكن ليس هناك أدنى شكّ في مغزى هذه الرسالة. يَجري سجن المجرمين الصغار مثل هنداوي لفترة خمسة وأربعين عاماً. لكنّ المجرمين الكبار ـ مناحيم بيغن، بينوشيه، بريطانيا وفرنسا بتاريخهما الاستعماري ـ يفلتون بجرائمهم. وهناك فقرة من رسالته المكتوبة بخطّ يده يثني فيها على «سوريا الكبرى»، الولاية العثمانية التي كانت تضمّ أراضي فلسطين وسوريا الحالية ـ الشام ـ بلاد الشام ـ التي وجدت «قبل أن أرسل الدعوة إلى حكّام بريطانيا وفرنسا».

كتب أنه فخور بحبّه لسوريا:

«ولدت في منطقة من سوريا تُدعى الأردنّ. لكن هل تشكّل الأردنّ دولة؟ هل هي حقّاً دولة؟ إنها جزء من سوريا ويوماً ما يجب أن تعود إلى الأمّ، إلى القلب، إلى سوريا ،هذه حقيقة واقعة ويمكن أن تشهدها في حياتك... لديّ تاريخ كبير ساطع وأنا فخور به. لا أريد أن أكتب عن الأشياء الخاصّة، إنها تخصّني وحدي، ولذلك أيضاً لا أريد الردّ على ما كتبته حول الفتاة والطفل والحبّ... أعتبر هذه الأمور شخصية وعندما تسنح الفرصة للكلام عن هذه الأمور، تأكّد أنّك ستكون أحد الذين سأبلغهم...»

وأنهى هنداوي رسالته بالتعبير عن حبّه للرئيس السوري حافظ الأسد.

هناك الكثير ممّا أرغب في معرفته حول هذه القضيّة. ومن ذلك: لماذا صرّح محامي الدفاع عن هنداوي، جيلبرت غراي، في محاكمته عام ١٩٨٦ بأنّ دولة أخرى قد تتّخذ إجراءً ما إذا حُكم على هنداوي (وهذه كانت ملاحظة قال القاضي السير وليم مارس جونز، الذي حكم على المتّهم بخمسة وأربعين عاماً سجناً، إنها ما كان يجب أن تُقال أبداً». هل كانت الدولة المفترضة سوريا؟ ولدى طبيبٍ نفساني الكثير ليقوله أيضاً حول رفض هنداوي مناقشة موضوع «الفتاة والطفل والحبّ» لأن ذلك بالتأكيد هو الحلّ لمُجمل هذه المأساة. إنّ ما يواجهه هنداوي هو المأساة السياسية للشرق الأوسط ـ (وغباء عالم يُعاقب المجرمين الصغار بالسجن ٤٥ عاماً، لكنّه يسمح في الآن نفسه للذين كانوا مسؤولين عن القتل الجماعي بالبقاء أحراراً) وليس النتاج المباشر والواضح لضميره الأخلاقي. أجل، أنا في انتظار هنداوي ليطلعني على موضوع «الفتاة والطفل والحبّ». وكذلك آن ماري مورفي أيضاً التي أجرت أوّل مقابلة صحفية بعد ١٨ عاماً من محاولة هنداوي تهريبها وطفلها غير المولود بعد على رحلة العال في مطار هيثرو مع قنبلة... وقد اشتكت في تلك المقابلة من أنّ هنداوي حصل على مساعدة قانونية لطلب مراجعة لعقوبته:

> «ذلك الرجل هو شرّ مطلق. أنت تتحدّث عن رجل لم يُظهر أبداً أيّ ندم أو أعرب ولو لمرّة عن أسفه... ماذا عن حقوق الإنسان بالنسبة إلى جميع الأشخاص الذين كانوا على متن الطائرة وحاول قتلهم؟ لقد حملني بين يديه وقبّلني على وجنتي. وفي المرة التالية التي رأيته فيها، قال إننا سنتزوج. وبهذا ابتسم ووقف هناك مودّعاً. حمل الحقيبة طيلة الوقت إلى المطار ومن ثمّ أعطاني إيّاها بينما كنت أستعدّ للدخول. تركني في المبنى رقم ١ للمغادرة مدّعياً أنّ رحلته تنطلق من المبنى رقم ٣. أتذكّر مروري بالكلاب البوليسية وبنقطتَي تفتيش قبل أن يطلب حارس منّي الوقوف جانبا للحظة. وعندما فتحوا الحقيبة ونظروا ما بداخلها انهار كلّ عالمي».

إذا كان عليّ دخول عالم هنداوي ولست متأكّداً أنني أريد ذلك ـ وأنا في انتظار رسائل أخرى من سجن وايتمور حول هذه المسألة ـ فهل أجد المنطق نفسه الذي استخدمه إيغال أمير، قاتل رابين، الذي سيشير إلى سِفر يوشع لتبرير كيف أنه «إذا غزوت أرضاً، عليك قتل الأطفال والصغار!؟ أليس هذا هو التفكير نفسه ـ أو الافتقار إليه ـ الذي يسمح لانتحاري فلسطيني بأن يرى ضحيّته قبل ضغط الزرّ وتفجير المتفجّرات؟ يقوم الانتحاري بالقضاء على حياته لكن لديه الخصوصية المرعبة في النظر إلى القتلى اللاحقين، الجنود أو ـ لنتكلّم بصراحة ـ أطفال محلّ البيتزا الإسرائيليين أو الفتيات في الحافلة اللواتي سيختفَين من هذا العالم. حاول الإسرائيليون والبيت الأبيض التقليل من العنصر المدمّر للانتحاريين ووصفوهم بغباء، «بالمفجّرين القتلة»، وهو وصف يُعتبر سخيفاً، لأنّ كل المفجّرين، أكانوا انتحاريين أم لا، هم قتلة. والفارق هو أنّ الانتحاري لا يقتل نفسه فقط ـ هكذا يصبح شهيداً بالنسبة إلى المجموعات الفلسطينية. لكنّه في النهاية قاتل. إنهم يشاهدون الذين سيقتلونهم. إنهم يمسكون بأيديهم، بشكل ما، حياة الأبرياء وموتهم. ويعود الخيار إليهم للضغط على زرّ التفجير. لكنّ هنداوي لم يكن يخطّط بالطبع

للضغط على أيّة أزرار. كانت آن ماري مورفي هي الزرّ. وإذا أردنا تصديق رسائله إليّ، فإن التاريخ كان هو المفجّر.

أنا أقف في غُبار مخيّم اللاجئين الفلسطيني ورُكامه في خان يونس في بداية عام ٢٠٠١، ويشير دفتري إلى تاريخ ١٥ نيسان/أبريل مع الكلمات التالية: لو أنّ هذا حصل في أيّ بلد آخر لكان فضيحة وإهانة. «كتبت في تقريري إلى الإندبندنت تلك الليلة: «لو دمّر الفلسطينيون عن قصد منازل ٢٠٠ إسرائيلي، لعنى ذلك: بربرية، إرهاباً، وتحذيرات جدّية لعرفات من الرئيس الأميركي الجديد جورج بوش الابن لكبح العنف. لكن كان اليهود هم مَن دمّر منازل ٢٠٠ فلسطيني على الأقلّ في غزّة صباح أحد الفصح عام ٢٠٠١، وقاموا بجرف أثاثهم وملابسهم ومواقد الطبخ والسجّاد والفراش مع ركام حظائرهم بحيث بدت ناحية من خان يونس كأنّها ضُربت بهزّة أرضيّة. وهذه الأمور بالطبع لم تكن إرهاباً، كانت أمناً.

جلس المسنّون كالتماثيل بين أنقاض منازلهم التي دمّرها الإسرائيليون. وقد طُرد العديد منهم مثل أحمد حسن أبو رضوان (٧٥ سنة) من بيوتهم في فلسطين ـ بالنسبة إليه من بئر سبع ـ عام ١٩٤٨، والآن تمّ حرمانهم للمرّة الثانية من قِبل الأشخاص أنفسهم بعد ٥٣ سنة، وهذه المرّة برعاية أرييل شارون. ربّما كان من المستحيل وَصْمُ التاريخ بالعار. فما حصل في خان يونس ـ رغم إرفاق الإسرائيليين تخريبهم بالكلام عن الأمن ـ كان وصمة عار. كان ذلك تدميراً لبيوت ـ لنسمّه تدميراً داخلياً ـ على نحو لا سابق له حيث تمّ إرسال مجموعة من الجرّافات لسحق هذا الجزء من خان يونس عند البحر حيث ـ وفقاً للجيش الإسرائيلي ـ أُطلقت عيارات باتجاه جنود الاحتلال. وعندما انطلقت الآليّات من الطريق عند الشاطئ بعد منتصف الليل، هرب آلاف الفلسطينيّين من أكواخهم ومنازلهم وهم ينتحبون.

فرّ العديد منهم إلى أقرب مسجد، حيث استخدموا مُكبّرات الصوت وطلبوا من جيرانهم حمل السلاح والمقاومة. وأمام المفاجأة الظاهرة للجيش الإسرائيلي، فإن هذا هو ما قام به الجيران. وعندما رُفعت البنادق في وجه الجرّافات، هُرعت دبّابتان إسرائيليتان على الأقلّ على الطريق نفسها وبدأت بإطلاق القذائف على أقرب الأبنية. وبرزت طائرة هيلكوبتر «أباتشي» من الظلمة وأطلقت صواريخ على تلك الأبنية.

وكما يتذكّر المسنّ أحمد حسن أبو رضوان وعائلته بوضوح فقد تحرّكت فجأة من الظلمة جرّافة مع فصيلة من الجنود الإسرائيليين وعندما رفعت مِجرفتها إلى أعلى مستوى أطلق الجنود النار.

استمرّت المعركة المسلّحة أربع ساعات وأدّت إلى مقتل فلسطينيين وإصابة ثلاثين بجروح، اثنا عشر منهم بحالة خطرة، وبينهم فريق تصوير من «رويترز» كانوا يصوّرون عندما انفجرت قذيفة على الحائط الذي كانوا يقفون خلفه. لقّن أرييل شارون (الجرّافة الكبرى) الفلسطينيين درساً آخر. ولكن إذا شقّ المرء طريقه عبر رُكام ٣٥ منزلاً، فسرعان ما يدرك أن الدرس الذي فهموه لم يكن هو الدرس الذي أرادته إسرائيل. وقد أوضحت مريم أبو رضوان،

ابنة عمّ المسنّ أحمد، بفصاحة: «لم تعد عندنا حياة بعد الآن. هذا تدمير لحياتنا. دعوهم يقتلونا ـ رجاءً دعوهم يقتلونا ـ ونحن نستطيع الموت هنا. ودعوا الإسرائيليين يموتوا أيضاً. لا أحد يكترث لنا ـ لا دول عربية ولا دول أجنبية.

كان أحد القتيلَيْن يُدعى رياض إلياس، وهو ضابط أمن فلسطيني، وقد قُتل وهو يقاوم الإسرائيليين. والثاني هو هاني رزق، وكان معروفاً منّي كعامل تنظيفات في مستشفى ناصر المحلّي، المستشفى نفسه الذي أُخذت إليه جثّته قبل دفنها بعد ظهر الأحد. وعلى أحد أسرّة المستشفى يرقد المزارع إبراهيم عامر البالغ من العمر ٣٥ سنة ـ أُصيب في ظهره وجنبه برصاص الأسلحة الرشّاشة من الهيلكوبتر بينما كان هارباً ـ متألّماً من جراحه. قال إنه رأى رزق يركض في الشارع «عندما أصابت زخّة من رصاص الهيلكوبتر حائطاً وارتدّت عليه وأصابته ـ كانت في جسمه ١٢ رصاصة على الأقلّ». هل كان الفلسطينيون يطلقون النار على الإسرائيليين من هذه المنازل؟ ولو سألت أيّاً كان وسط هذا الركام لقال إنه لم يشاهد أحداً، وهذا ليس كالقول بأن لا أحد أطلق النار من هنا. كان ذلك أكثر من نسبيّ، فقد كانت العملية الإسرائيلية هجوماً متعمّداً ضدّ المدنيين.

كان أحمد حسن أبو رضوان، مثل العديد من أولاد عمّه، مزارعاً بدويّاً عندما تقدّم الإسرائيليون باتجاه منزله في بئر سبع عام ١٩٤٨ حيث عاش مع والده حسن ووالدته شيماء وأخوته الأربعة. ومنذ ذلك الحين، عاش فقيراً في خان يونس، وكان ينام في منزله المؤلّف من سبع غرف مع زوجته فاطمة وأولادهما وأحفادهما البالغ عددهم ٢٣ شخصاً عندما سمع صوت الجرّافات الإسرائيلية. قال: «ما حصل لي الآن هو ما حصل لي منذ خمسين عاماً. أشعر بحالة من الغضب. السلام الآن؟ لا أعتقد ذلك. لقد أغدق اليهود الكثير من الوعود لنا لكنهم لا يحافظون على وعودهم».

وكالمعتاد، أُطلقت العيارات النارية في الهواء في تشييع الجنازتَيْن بعد ظهر الأحد. وقبل ثلاث ساعات، تمّ دفن وائل الحواتر الطبيب العسكري الفلسطيني، الذي سقط ضحيّة لهجوم الليلة السابقة الذي قامت به طائرة هيلكوبتر على ما أسماه الإسرائيليون «قاعدة بحريّة فلسطينية» ـ وبالطبع ليست لدى الفلسطينيين بحريّة أو سفن ـ وهكذا بدأ النهار وانتهى بالتقليد المألوف في غزّة: بالجنازات. ولا حاجة إلى القول إنّ السيّد بوش ظلّ صامتاً.

وهكذا كان بوش وكلينتون صامتَيْن بينما طبّقت إسرائيل نظام الإعدامات ضدّ الفلسطينيين المحكوم عليهم بالموت لدورهم في «حماس» أو «الجهاد الإسلامي» أو أيّ تنظيم آخر يناهض الاحتلال الإسرائيلي للضفّة الغربيّة وغزّة. وليس هناك شيء جديد في حملة الإعدامات التي تتعدّى القانون. وعندما ذهب الإسرائيليون وراء أبو جهاد ـ خليل الوزير ـ في تونس عام ١٩٨٨، استخدموا حوالي ٤ آلاف رجل لاغتياله. فقد كانت هناك طائرة «أواكس» فوق تونس، وسفينتان حربيّتان في المتوسّط وطائرة «بوينغ ٧٠٧» للتزوّد بالوقود وحوالى أربعين رجلاً للنزول إلى الشاطئ ومحاصرة منزل نائب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، وأربعة رجال وضابط لقتل ضحيّتهم.

وقد روى لي جهاد الوزير، ابن أبو جهاد، الذي يعيش الآن في غزّة مع الانتفاضة الثانية، بالتفصيل كيف تمّ إعدام والده. «قاموا أوّلاً بقتل الحارس الذي كان نائماً في الخارج داخل سيّارته ـ ثمّ قتلوا البستانيّ والحارس الثاني. وكان والدي يكتب في مكتبه فتوجّه إلى الردهة حاملاً مسدّسه. وأطلق رصاصة واحدة قبل إصابته. تتذكّر والدتي كيف تقدّم كلٌّ من الرجال الأربعة نحوه وأفرغ مخزناً من الذخيرة من سلاح أتوماتيكي بوالدي ـ كما لو كان ذلك نوعاً من الطقس الديني. ثم تقدّم ضابط يضع قناعاً أسود وأطلق النار على رأسه للتأكّد من موته».

وقد أصبحت فِرق القتل الإسرائيلية أرخص الآن: رُقاقة كمبيوتر تُشغّل القنبلة في هاتف خليوي، أو عميل من العائلة، أو رذاذ من الشعاع على سقف سيّارة لإنذار طائرة أباتشي إسرائيلية لإطلاق صاروخ هلفاير Hellfire على السيّارة الفلسطينية. إنه اغتيال بعيد المدى. وإنها حرب دولية غير قانونية كان الفلسطينيون أنفسهم متّهمين بها في الماضي. ففي مرحلة السبعينيّات، كان العملاء الإسرائيليون وعملاء منظمة التحرير يقتل بعضهم بعضاً في أوروبا وفق سياسة الردّ والردّ المضادّ ممّا أغضب قوّات الأمن الأوروبية. وفي بيروت، تورّط اثنان من الإسرائيليين في قتل زعماء فلسطينيين وهما إيهود باراك وآمنون شاحاك. وقد أصبح شاحاك قائداً عسكرياً إسرائيلياً في لبنان عام ١٩٨٢. في حين أن إيهود باراك الذي أصبح رئيساً للوزراء هو مَن يُعيد الآن إطلاق فِرق القتل.

ولدى «حماس» و«الجهاد» قتلة خاصّون بهما، ويقتل انتحاريّوهما المدنيين والجنود على السواء، والضحايا المجهولون هم أكثر من ضبّاط المخابرات الإسرائيلية. لكنّ القتلة الإسرائيليين يقتلون أرواحاً بريئة أيضاً. فقد أدّى هجوم هيلكوبتر على مقاتل فلسطيني عام ٢٠٠١ إلى تمزيق امرأتيْن فلسطينيّتيْن أشلاء ولم يقدّم الإسرائيليون اعتذاراً. وقد اعترف ابن أخي فلسطينيّ اغتاله الإسرائيليون في نابلس لاحقاً للسلطات الفلسطينية بأنه هو مَن حدّد مكان عمّه للإسرائيليين. وقال للمحقّقين: «قالوا لي إنهم كانوا سيعتقلونه فقط. ثم قاموا بقتله». وعندما أعطى أرييل شارون الأمر بقتل مسؤول من حماس في غزّة، قامت طائرة إسرائيلية بقصف مجمّع سكنيّ ممّا أدّى إلى مقتل ١٧ مدنياً بينهم تسعة أطفال. ووصف شارون الهجوم بأنه انتصار على الإرهاب.

ويعتقد جهاد الوزير، وهو باحث اقتصادي في غزّة الآن، أن الأشخاص الذين يستبعدون استهدافهم، يجدون أنفسهم الآن عُرضة للهجوم. «هناك جهاز مشترك بين الجيش الإسرائيلي ومخابرات سلاح الجوّ والموساد والشين بيت، يعمل معاً، ويغذّي الجميع بالمعلومات. يستطيعون عبور الخطوط بين المنطقة ج والمنطقة ب في الأراضي المحتلّة. وهم يقومون بعمليّاتهم عادة عندما تكون معنويات جيش الدفاع الإسرائيلي منهارة. عندما قتلوا والدي، كانت معنويات الجيش الإسرائيلي في أدنى مستوياتها بسبب الانتفاضة الأولى. لذلك ذهبوا إلى عمل استعراضي ليظهروا مدى عظمة مقاتليهم. والآن تُعتبر معنويات جيش الدفاع الإسرائيلي متدنّية بسبب الانتفاضة الثانية».

يهتمّ ضبّاط الأمن الفلسطينيون في غزّة بالمنطق الكامن وراء عمليات القتل الإسرائيلية. وقد أبلغني أحد المسؤولين الفلسطينيين: «يجتمع رجالنا مع رجالهم ونحن نعرف ضبّاطهم وفعاليّتهم، أقول لك بصراحة، هم فاسدون وغير منضبطين مثلنا وكذلك قُساة. وعندما استهدفوا موكب محمّد دحلان بينما كان عائداً من مباحثات أمنيّة، تحدّث دحلان إلى وزير الخارجية بيريز وقال له: «انظر ماذا يفعلون بنا، ألا تدرك أنني مَن أخذ ابن شارون

لمقابلة عرفات؟». ويفهم جهاد الوزير بعض منطق فِرق الموت: «الديها بعض التأثير لأننا مجتمع مرتبط بسلطة الأب ونؤمن بفكرة الشخصية الأبويّة. ولكن عندما اغتالوا والدي، لم تتوقّف الانتفاضة، صحيح أنها تأثّرت، لكن فشلت كلّ الأهداف السياسية للاغتيال، وعوضاً عن إحباط معنويات الفلسطينيين فقد عزّزتها. يقولون إن هناك الآن مئة فلسطيني على لائحة القتل. كلّا، لا أعتقد أن الفلسطينيين سيطبّقون أسلوب القتل نفسه ضدّ المخابرات الإسرائيلية. ذلك أن الجيش يُعتبر مؤسّسة، نظاماً، واغتيال ضابط يؤدّي إلى استبداله». كان قُتل معارضين سياسيين أو عسكريين ضمن عمل خبراء إسرائيليّين في لبنان حيث يتمّ قتل قادة الثوّار اللبنانيين بانتظام بواسطة عبوّات ناسفة مخبّأة أو غدراً من قِبل فِرق القتل التابعة لشين بيت كما حصل في قضيّة مسؤول أمل في قرية بدياس بعد استجوابه. وكل ذلك باسم الأمن(*).

(*) هناك خطّ غني بالمعلومات حول سياسة اغتيال الإسرائيليين لمناوئيهم داخل إسرائيل، وفي الضفّة الغربية وغزّة. في عام ١٩٨٤، ضُرب اثنان من أصل أربعة خاطفين للباصات حتى الموت من قِبل عملاء الشين بيت بعد استجوابهما، وقد تم الاعتراف بذلك فقط عندما قدّم مصوّرون صحفيون صوراً للرجلين لدى اعتقالهما أحياء من الحافلة. وقد وصف وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك إسحق رابين عملية القتل بأنها حادث. عام ١٩٩١، بدأ محامون فلسطينيون ومجموعات حقوق الإنسان بإعادة تفحّص عشرات القضايا لفلسطينيين كانوا قد قتلوا خلال الانتفاضة الأولى بعدما كشف التلفزيون الإسرائيلي عن وجود فِرق القتل في الجيش الإسرائيلي. وفي بداية عام ١٩٩٢، أفاد شهود إسرائيليون أنهم رأوا جنوداً إسرائيليين بملابس مدنيّة يفتحون النار على مُقنّعين فلسطينيين كانوا يرسمون شعارات على الجدران في منطقة الدورة في الخليل.

إن تقرير منظّمة العفو الدولية الصادر يوم ٢١ شباط/فبراير ٢٠٠١ حول إسرائيل والأراضي المحتلّة: «عمليات اغتيال الدولة وعمليات قتل أخرى غير قانونية» يُعتبر بحثاً دقيقاً حول عمليات القتل الإسرائيلية التي تتضمّن مقتل الدكتور ثابت ثابت (٤٩ عاماً) وهو ناشط سابق من «فتح» عُيّن فيما بعد ممثّلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية في مفاوضات مدريد للسلام، وأقام علاقات صداقة عديدة مع حركة السلام الإسرائيلية. جرى اغتيال ثابت وهو طبيب أسنان من طولكرم داخل سيّارته من قِبل القوّات الإسرائيلية يوم ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. وقد ادّعى الإسرائيليون لاحقاً أنه كان قائداً لخليّة تنظيم «ترشد الناس كيف يقومون بهجمات»، وهو تفسير غير مُقنع لقتل فلسطيني حضر جنازة جندي إسرائيلي، ابن داعية سلام إسرائيلي صادقه. أصبح قتل قادة حماس والجهاد الإسلامي روتيناً وساعدت في ذلك فتوى أحد كبار حاخامات إسرائيل. لقد ادّعى الحاخام الإسرائيلي «مائير لو» يوم ٢٧ تموز/يوليو ٢٠٠١، أن الشريعة اليهودية تعطي دعمها الكامل لسياسة القتل النشطة التي تخطّط لها وتنفّذها قوّات الأمن الإسرائيلية اليوم لمنع الإرهابيين من التخطيط والقيام بهجمات في إسرائيل. وفي اليوم نفسه، أعلن الزعيم الروحي لحزب «شاس» المتطرّف دينياً، الحاخام أفاديا يوسف في خطبة منقولة عبر إذاعة الجيش الإسرائيلي، أن العرب يتوالدون مثل الحشرات ويجب إرسالهم إلى جهنّم». قال: «في مدينة القدس القديمة، يزحفون كالنمل وعليهم الذهاب إلى جهنّم وسيُسرّع المسيح خطاهم».

وقد ندّدت المجموعة الإسرائيلية لحقوق الإنسان «بيت سلم» " B'Tselme" بالممارسة غير الأخلاقية وغير القانونية لقتل المطلوبين الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة. وفي عام ١٩٩٣، أحصت منظمة حقوق الإنسان الأميركية مقتل ١٢٠ فلسطينياً من قِبل وحدات إسرائيلية سرّية منذ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧. وعندما حاولت فرقة من الموساد اغتيال خالد مشعل، مسؤول حماس في الأردنّ عام ١٩٩٧ ـ انتقد الإسرائيليون الهجوم ليس لكونه غير قانوني بل لأنّه فشل ـ وحتى الرئيس مبارك كان مجبراً على وصف العملية بأنها غير أخلاقية. وقد صُدمت إسرائيل بالاعترافات المبكّرة لرجال أمنها الذين قتلوا عشرات الجنود المصريين في حرب الشرق الأوسط عام ١٩٦٧، وتمّ اكتشاف قبورهم الجماعية في سيناء، وقد وصف رابين جريمة الحرب هذه بالشاذّة. ويشتمل الموت دائماً على معيارَين. ففي عام ١٩٩٨، على سبيل المثال، قال نظام الأمن الاجتماعي الإسرائيلي إنه لا يستطيع التعويض على عائلة فلسطيني قُتل على يد مسلّح إسرائيلي لأنه وفق القانون الإسرائيلي إذا قُتل عربي على يد «إرهابي يهودي» لا يُعتبر ضحية إرهاب، بينما يُعتبر كذلك اليهودي المقتول على يد عربي.

أعود إلى مفترق طرق عيّوشه والاشتباكات. تتساقط الحجارة على سطح سيّارات الجيب الإسرائيلية وتسقط على الطريق وتصطدم بالأعمدة المعدنية للوحات الدعاية الملقاة أرضاً منذ وقت طويل. شاهدت جنديّاً شابّاً يفتح باب سيّارة الجيب كلّ دقيقة أو أكثر ويسدّد بندقيته بعناية ثم يطلق النار وينسحب إلى الداخل. كان يقوم بذلك كلّ نصف ساعة ثم يعود وينظر إليّ. سألني: «من أين أنت؟ ربّما التقينا في حانة، أو على الشاطئ، أو تصادفنا في مكتب أحدهم». من بريطانيا! ابتسم الجندي ابن الواحد وعشرين عاماً: «أنا من كوينز، نيويورك. والآن أنا على مفترق طرق عيّوشة رام الله. مجرّد رحلة! هذا أكثر مرحاً من كوينز». مرح؟ هل أسمعه جيّداً؟ مرح؟ «حسناً، على الأقلّ أنت هنا لا تتعرّض للإصابة بينما تنتظر على الإشارات الضوئية». وابتسم. «اسمي إيلان». واستمرّت الحجارة تتساقط على الأسطح المعدنية لسيّارات الجيب.

انطلقت قنابل الغاز عبر السماء الحارّة باتجاه الشباب المختبئين خلف هيكل حافلة، مستخدمين مقاليع ـ أستطيع رؤيتهم بوضوح عبر الدخان ـ لإعطاء حجارتهم زخماً. كان الإسرائيليون يطلقون رصاصا مطّاطيّاً معظم الوقت ممّا جعل أُذنيّ تطنّان ـ كان طنين الأذنين من الأسلحة العراقية الممزوجة بالبنادق الإسرائيلية أعلى صوتاً من أيّ إطلاق نار في أفلام هوليوود التي على ما يبدو أخذ إيلان السيناريو منها. تراجعت إلى الخطّ عند الإشارات الضوئية. بالطبع، هناك إمكانية أكبر للموت عند الإشارات الضوئية في الضفّة الغربية منها في نيويورك. قال إيلان: «إسرائيل مكان عظيم». لكن هذه ليست إسرائيل. وتهيّأ لي من خلال مراقبة هؤلاء الشبّان في لباسهم الأخضر الساخر أنهم قد مارسوا طقسهم الديني. وضع جنديان قنابل غاز في بنادق زملائهم. وأشار جندي لزميله إلى شابّ يركض فأطلق هذا طلقة باتجاهه. وتحرّكت سيّارة إسعاف نحو الشاب الملقى الآن على الأرض. ثمّ أصاب أحد الجنود شابّاً آخر في ظهره. ثمّ وصل النقيب شاي في سيّارة جيب أخرى لمراقبة المشهد المزعج (وهو يعمل محاسباً في تلّ أبيب) مع سائقه (موظّف التأمين، عندما لا يراقب رماة الحجارة في رام الله)... وفي مؤخّرة الجيب، يجلس طالب إدارة أعمال مغربي الأصل واضعاً بندقيته على رُكبتيْه، وهو يناقش السياسة بفرح مع «شاي» المهتمّ أكثر بالزواج بصديقته بعد ستّة أشهر من نتيجة العرض المسرحي اليوم في عيّوشة. كانت النقاشات مألوفة. يومئ «شاي» برأسه ـ إنه يصف المواجهة الحالية بالطقس الديني ـ لكنه يعتقد بأن الجيش الإسرائيلي لا يستطيع «إفساح المجال»؟ إفساح المجال؟ لكن هذه ليست إسرائيل. خاطرت بتقديم فكرة هرطوقيّة مُفادها أنه خلال عشر سنوات ستعود إسرائيل إلى ما وراء حدود ١٩٦٧ (ولا أعتقد بذلك الآن) ـ ووافق شاي بذهول. لكنّ الطالب في الجيب لم يوافق. «إذا انسحبنا من هنا، نُظهر أننا ضعفاء. عندها سيطالب العرب بكلّ إسرائيل وسيحاولون استعادة حيفا وتلّ أبيب».

إنّه الجدل المملّ نفسه الذي كنت أسمعه من الجنود الإسرائيليين في لبنان. إذا بقينا فنحن أقوياء. وإذا غادرنا نحن ضعفاء. يفهم الهرب أسلوب القوّة فقط. وفي وقت ما، أشار شاي نحو رُماة الحجارة وقال: «إنهم حيوانات». فسألت: لماذا؟. «لقد شاهدت ماذا فعلوا بجنودنا في مركز شرطة رام الله». أجل لدى كل إسرائيلي تنك الصورة محفورة في ذهنه. ليست صورة الأطفال المسحوقين ولا صورة محمّد الدرّة الذي سقط قتيلاً تحت وابل من الرصاص الإسرائيلي، بل صورة القتل الوحشي لاثنين من جنود الاحتياط الإسرائيلي. وتوجد على الإنترنت صور كثيرة لوجهيهما المشوّهين بشكل بشع. وقد شاهدها العديد من الجنود. وقال شاي: «إن إعلامكم

مسؤول جزئياً عن هذه الصور. وتجعلون هذا المكان ساحة حرب نتيجة للحجارة وإطلاق النار». أجبت: «لكنّ شارون هو مَن فعل ذلك. شارون هو الذي ظلّ يُبلغ العالم أن إسرائيل تحت الحصار وأنها تعرّضت للاعتقال من «الإرهاب الدولي».

تلقّى شاي على هاتفه الخليوي اتصالاً من عائلته. قال: «إنهم على الشاطئ حيث يجب أن نكون». وبدا لي أن هؤلاء الجنود لديهم خيار في الحياة.

يستطيع شاي أن يكون على الشاطئ ويستطيع الجندي في مؤخّرة الجيب أن يكون برفقة صديقته. لكنّ الفلسطينيين في الجانب الآخر من خطّ النار لا يستطيعون الذهاب إلى أيّ مكان. إنهم مسجونين وتحت حصار حقيقي. وكان تدهور مستوى العيش عملية متزايدة تماماً كما تحرّكت الحرب بشكل متزايد من الألم إلى حمّام الدم.

أليس هذا هو ما حدث في حرب الجزائر ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢؟ لقد بدأت تلك الحرب كإزعاج ـ قُطعت الأشجار لإغلاق الطرق وخُرّبت سكك الحديد وألقت الجموع الجزائرية الحجارة على القوّات الفرنسية ـ وانتهت بوابل من القذائف ومجازر القرى. كان هناك الكثير من عمليات التعذيب أيضاً قادها شخصيّاً ضبّاط فرنسيون كبار. وحصلت عمليات إعدام جزائريين من قِبل جزائريين. ولذلك أيضاً تحوّلت الانتفاضة الفلسطينية نحو الفوضى. من رُماة للحجارة إلى انتحاريين ومن قنّاصة إلى طيّارين انتحاريين. ويتعرّض الفلسطينيون يوميّاً للتعذيب على يد ضبّاط إسرائيليين في المجمّع الروسي في القدس. ويخضع الفلسطينيون بانتظام وبشكل علنيّ لعمليات تصفية لتعاونهم مع العدوّ.

في أواخر تموز/يوليو ٢٠٠٠، أطلق الإسرائيليون صاروخاً على مكتب مسؤول حماس في نابلس. وأدّى انفجار الصاروخ الأميركي الصنع بالطبع إلى مقتل طفليْن فلسطينييْن. وقد طالب مئة ألف محزون بالثأر. وحدث أن سائق باص إسرائيلياً يُدعى مناش نورييل توقّف لإصعاد شاب فلسطيني في السابعة عشرة من العمر وهو في طريقه من القدس إلى كريات شمونة. وقد اشتبه السائق بالشابّ ولاحظ أسلاكاً ظاهرة من الحقيبة التي يحملها فتعارك معه في الباص بينما كان ٤٦ راكباً يراقبون بذهول. كانت الحقيبة تحتوي على ثلاث قذائف هاون عيار ٨١ ملم ومتفجّرات كانت ستقتل كلّ راكب في الباص. وأبلغني الشرطي الإسرائيلي خارج بوّابة دمشق أنه «إذا لم يحصل ذلك اليوم فهو سيحصل غداً». سألت الرجل: «لكن إذا كان الردّ الفلسطيني حتميّاً فلماذا إذن قُتل مسؤول حماس في نابلس». تململ وقال: «إنها حرب ونحن نعرف ما هي الحرب. لا داعي للقلق فالمكان هنا آمن من لندن» لكنه ليس كذلك.

تُعتبر القدس مدينة أوهام. وعد أرييل شارون شعبه هنا بالأمن وجلب لهم الحرب. على الطريق الرئيسي إلى معال أدونيم داخل حدود إسرائيل البلدية غير الشرعية، يقود الإسرائيليون بسرعة تفوق مئة ميل في الساعة. وفي المدينة القديمة، يوجّه الجنود الإسرائيليون والمدنيّون الفلسطينيون الشتائم بعضهم إلى بعض أمام عدد من السيّاح المسيحيين المذهولين. إنّ حبّ المسيح لا يساعد على تهدئة الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وقد وصف جدعون

ساميت الأمر بصدق في صحيفة هآرتس: «تبدو القدس مثل بوسنة ستنشأ. وقد أصبحت الطرق الرئيسية داخل الخطّ الأخطر قاتلة وأصبحت ضواحي العاصمة معرّضة مثل رامات راشيل إبّان حرب الاستقلال». ويبالغ ساميت بعض الشيء، إذ تبدو الحياة أكثر خطورة بالنسبة إلى الفلسطينيين منها إلى الإسرائيليين. إرهاب، إرهاب، إرهاب. ويبلغنا شارون: «أقترح أن نردّد لأنفسنا ليلاً ونهاراً أنه لن تكون هناك مفاوضات مع الفلسطينيين حتى الوقف التامّ للإرهاب والعنف والتحريض».

لكنّ ذلك لا يعني أن على فِرق القتل الاسرائيلية التوقّف عن الاغتيال بالثقة بالنفس ذاتها أو أن على المستوطنين الإسرائيليين التوقّف عن قتل المدنيين الفلسطينيين. إن الانتحاريين الفلسطينيين هم وحدهم الذين يجب أن يتوقّفوا عن قتل الإسرائيليين الأبرياء. وقد وضع محامٍ فلسطيني نسخة من صحيفة «وال ستريت جورنال» أمام نظري. وصرخ بي: «إنّ صحفكم تؤسّس لمعاناتنا». كنت أرغب في التنصّل من أيّ ارتباط ممكن مع صحيفة مانهاتن اليمينية «تمّت تصفية الإرهابيين الأعداء جرّاء سوء أعمالهم... إنها حرب في وضح النهار... بارعة ولكنها ليست أقلّ فتكاً». العدوّ؟ تمّت تصفيته؟ لا إشارة في الـ «وال ستريت جورنال» إلى مقتل الطفلين في الهجوم على مكتب مسؤول حماس.

أوّلاً حدثت تغيّرات في الضغط الجوّي، ثم كان صدى قصف دبّابة. نظرت من النافذة عبر سهل كيدرون إلى قبّة الصخرة التي تشعّ بالأنوار فوق المدينة القديمة. لقد مضى وقت طويل على المغيب لكنّ الحرب الإسرائيلية الفلسطينية صارت الآن صوتاً مألوفاً في القدس بينما تقصف الدبّابات بيت جالا. قبل ساعات قليلة حاول الإسرائيليون اغتيال مروان ديريّة وهو عنصر من القوّة ١٧ في رام الله، فأطلقوا صاروخين أرض ـ أرض على سيّارته في شارع بوغنقيلا المكتظّ وأخطأوه في المرّة الأولى ـ ممّا أعطى ديريّة الوقت الكافي للخروج من سيّارته ـ وأصاب الصاروخ الثاني السيّارة. وعلى الفور اعتبر الإسرائيليون ديريّة إرهابيًّا قيادياً. هل أوقفت محاولة اغتيال ديريّة الهجمات الفلسطينية في بيت جالا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فماذا يعني هجوم طائرة هيلكوبتر إسرائيلية على مركز شرطة فلسطيني في مدينة رفح في قطاع غزّة؟

بعد وقت قصير من وصولي لرؤية حُطام سيّارة ديريّة في رام الله، أطلق الإسرائيليون النار بشكل مباشر من معسكر عسكري كبير ومستوطنة غير شرعية على التلّة المجاورة. بعدها قام فلسطيني بالردّ. عُنصر من حماس؟ من الجهاد الإسلامي؟ شابّ يقود سيّارة سوداء مرّ بسرعة قرب إحدى قواعد الجيش الإسرائيلي الرئيسية في تلّ أبيب وأمطر بالرصاص مجموعة من الجنود كانوا يستعدّون للذهاب إلى الغداء. إنه مثل الإسرائيليين يحاول قتل أعدائه. أصاب عشرة رجال بجروح قبل أن يطلق مسلّح إسرائيلي النار على رأسه فيصطدم بعمود إنارة. كانت تلك أوّل محاولة اغتيال بالسلاح من قِبل الفلسطينيين داخل إسرائيل منذ سنة! وهذا عنصر جديد آخر يُضاف إلى الحرب.

في اليوم التالي كنت أقود سيّارتي بسرعة على الطريق السريع شمال تلّ أبيب، الطريق الأسرع للوصول إلى طولكرم إذ لم أشأ التوقّف عند نقاط التفتيش الإسرائيلية خارج رام الله. أبلغني الجندي الإسرائيلي عند حدود الضفّة الغربيّة أنه «إذا استدرت يميناً وسرت ٣٠٠ متر ثم استدرت يساراً، تجد ابن الكلبة عند نقطة التفتيش». لكن

«ابن الكلبة» ليس هناك. لا يريد الشرطي الفلسطيني عند تقاطع طولكرم الموت في أيّ كمائن إسرائيلية عن طريق الخطأ، والطريق هي عبارة عن مهرجان منتصف نهار حارّ من الدواليب والحجارة والرصاصات الإسرائيلية الفارغة وأكياس الرمل المتناثرة. كان علم فلسطيني ممزّق يتدلّى فوق نقطة التفتيش المهجورة. وغير بعيد ينتشر الغضب حارّاً مثل الشمس. إنه يوم ٦ آب/أغسطس ٢٠٠١. وهم يستعدّون لدفن عُمر حسن الخُضيري ويبحثون عن الرجل الذي خانه.

كان عُمر الخُضيري الناشط الشابّ من حماس (يمكن تسميته مقاتلاً، إرهابيّاً، متطرفاً أو مناضلاً أو أي شيء) الذي احترق حيّاً عندما قام طيّار إسرائيلي يقود طائرة أباتشي أميركية الصنع، وينفّذ سياسة دولة القتل التي تعتمدها إسرائيل، بإطلاق ثلاثة صواريخ أميركية الصنع على سيّارة الخضيري. لم يكن هناك شكّ حول هويّة الصانع. لكن هل كانت السيّارة سيّارة الخضيري؟ كان رجل أمن «فتح» الواقف خارج مجموعة من المحلّات العثمانية البناء أكثر اهتماماً بالسيّارة منه بالصاروخ.

قال: «لم يبقَ شيء منه، لقد تمزّق واحترق حيّاً. كان مجرّد رماد. لكن لدينا معلومات أنه كان على سقف السيّارة نوع غريب من الطلاء». قال ذلك ورفع نظره كما لو كان ما قاله سؤالاً أكثر منه معلومة صغيرة ومهمّة. سألت عن الصاروخ. ففتح باب سيّارته وأخرج شيئاً من المقعد الخلفي وأعطاني قطعة من الحديد ـ ربّما كان طولها ستة إنشات ـ مع أنبوبيْن معدنييْن مربوطيْن بها ورقم متسلسل: ١٨٨٧٦-١٣٤١١٩٢٣-١٤٠٦٤. لقد شاهدت مثل هذا الجزء من الصاروخ والأرقام المتسلسلة في لبنان. كانت دائماً من صنع لوكهيد، صواريخ تطلق من طائرات أباتشي. إذن للوكهيد دور في مقتل الخضيري مع أن ذلك لم يكن ليهمّ رجل فتح.

قال: «لم يكن الخُضيري يقود سيّارته الخاصّة. لقد استعار هذه السيّارة، وكان مالكها قد أخذها إلى إسرائيل الأسبوع الفائت. إنه مفقود الآن. ونحاول العثور عليه(*)». لقد حلّقت الهيلكوبتر فوق الجسر خارج المدينة وأطلقت

(*) تلافياً للمحاكمات الطويلة التي أصدرت أحكام الموت ضدّ تسعة متعاونين مع العدوّ حتى الآن، تقوم مخابرات عرفات الآن بقتل الفلسطينيين المشتبه بتجسّسهم لصالح إسرائيل،وقد قتلوا حوالى عشرين رجلاً بين كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ وآب/أغسطس ٢٠٠١. ولم تحقق الشرطة الفلسطينية في عمليات قتل الرجال الذين يُعتقد أنهم تعاونوا مع المخابرات الإسرائيلية والذين يساعدون بشكل ما إسرائيل على قتل مناضلين فلسطينيين. وقد اعترف لي بسّام أبو شريف أحد مستشاري عرفات، «أن هؤلاء الأشخاص الذين أعدموا، قتلتهم المخابرات بناء على أوامر بسبب المعلومات المؤكّدة والاعترافات المسجّلة. وقد جرى قتل هؤلاء على أيدي المخابرات الفلسطينية في مناطق تقع تحت سلطتنا الأمنية. وتمت تصفية الكلّ في المنطقة ب أو ج حيث كانوا محميّين من الأمن الإسرائيلي». وقد وجِد قاسم خلف ميتاً عند نقطة تفتيش قرب الرام يوم ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ وجرى اتهامه بتزويد «الشين بيت» بمعلومات حول تحرّكات حسين عبيّات الذي اغتيل قبل ثلاثة أيام. وأطلق مسلّحون النار على عدنان فتحي سلطان في العنق والبطن بعدما اقتادوه من منزله في بيت لحم يوم ١٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ لاعتقادهم بأنه تعاون مع الإسرائيليين لاغتيال يوسف أبو سواي قبل خمسة أيام. وفي ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠١، تلقّى جمال عبد شاهين (٦٨ عاماً)، وهو أكبر الضحايا، اتصالاً في منزله في بيت ساحور من رجال يرتدون لباس الشرطة الفلسطينية وطلبوا منه مرافقتهم إلى الشارع. وهناك أطلقوا النار عليه أحد عشر مرة وقاموا بضرب جثته ببلطة. ومنذ عام ١٩٩٣ حتى صيف ٢٠٠١، توفّي ما مجموعه ١٨ فلسطينياً في السجون الفلسطينية معظمهم تحت التعذيب على يد محقّقين تلقّوا تدريباً من قبل وكالة الاستخبارات الأميركية.

ثلاثة صواريخ. ونعتقد أن نوعاً من الطلاء كان قد وضِع على سقف السيّارة». الرسالة واضحة! تعتقد فتح أن الخضيري تعرّض لخيانة من قِبل متعاون، وهو على الأرجح صاحب السيّارة الذي سمح للإسرائيليين برشّ بعض الرذاذ على السطح لتوجيه الصاروخ. أو ربّما كان هناك صفّارة من نوع ما أو شيفرة كمبيوتر.

بعد ظهر اليوم نفسه، أعلنت الشرطة الإسرائيلية أنها اعتقلت فلسطينياً كان يستعدّ لتنفيذ عملية انتحارية في تلّ أبيب. كلّ ما كان يحتاج إليه هو المتفجّرات التي كان من المفترض أن يحضرها عُمر حسن الخضيري. أو هكذا قالوا. علماً بأن روايات الأمن الإسرائيلية تفتقر غالباً إلى الحقيقة. لكن في طولكرم هناك حقائق قليلة تنتشر. الحقيقة الأولى تتمثّل في وجود أكثر من جثّة. إن الجثّة التي رأيتها تنقل من المسجد الصغير ملفوفة بالعلم الفلسطيني وعصبة حول الرأس، تكشف عن الفم والشارب فقط، لم تكن للخضيري بل لمحمد مَزْيَد وهو عُنصر من فتح عمره ٢١ سنة قتله الإسرائيليون ـ ولم يُعلن عنه ـ قبل أربع وعشرين ساعة. راقبت الفم والشارب والجثمان تنتقل بين الحشود إلى المسجد الثاني حيث وُضِعت بقايا الخضيري التي تنتظر الدفن. ثم خرج من المسجد أربعة أعضاء من حماس يسيرون بخطى عسكرية ويلبسون قُفّازات خضراء وعيونهم شاخصة ـ ويضعون سيوف الاستشهاد على ظهورهم، وهم يرفعون حمّالة خشبية مغطّاة بالعلم الأخضر بدت وكأنّها تحمل القليل المتبقّي من الجثّة...

وكان رجل في منتصف العمر جالساً على الرصيف، يرتجف ويعرق «لقد رأى ما حصل لصديقه بالأمس ـ رآه يتحوّل إلى رماد» كما قال ابن عمه. كان مأتماً معتاداً. كان هناك عشرة آلاف منتحب ومكبّر للصوت يصرخ «الله أكبر»، وزخّات غاضبة من رشقات الأسلحة الآليّة للشباب الذين كانوا يطلقون رصاص رشّاشاتهم ومسدّساتهم في آن واحد. شقّوا طريقهم بين البيوت الطريّة والقديمة في طولكرم عبر السوق الذي يقف بائعوه وحميره بين أكوام من الخوخ والقرنبيط والبصل والخسّ والبندورة (الطماطم) والبطاطا والإجّاص والتفّاح والبطّيخ. حياة في وسط الموت.

حصل مزيد من إطلاق النار في المقبرة حيث يتقبّل والد الخضيري منصور التعازي (وهو شخص معروف، أشيب الشعر، وأستاذ في ثانوية طولكرم) من مئات المعزّين. وهكذا كان ابنه الحزين والباكي، شقيق عُمر، الملتحف بشال أخضر حول عنقه بينما كان الجثمان محمولاً على أكتاف المسنّين والشبّان والمسلّحين.

وضِعت الجثّة في القبر وقام مسؤول حماس المحلّي عباس زياد بإلقاء خطبة صغيرة ومؤثّرة. قال: «أحبّ عزيزنا وأخونا عُمر والديه، وقبل مغادرته منزله للمرّة الأخيرة قال لهما: والدي ووالدتي الحبيبيْن، إذا متّ لا تنتحبا عليّ». رفع آلاف المشاركين حول القبر أعينهم وقالوا مجدّدا «الله أكبر». أهو تنبّؤ؟ أم أن عُمر الخضيري كان في مهمّة لا يتوقّع العودة منها، مهمّة قام بها ـ لسوء حظّه المميت ـ في سيّارة شخص آخر؟

جاء دويّ الانفجار بشكل صدمة على بعد كيلومتر. كنت أتناول الطعام في حانة في القدس الغربية فالتفتّ إلى النادلة الإسرائيلية وقلت «انتحاري» فأومأت برأسها وتحرّكت يدها اليمنى لاشعورياً نحو فمها. أعطيتها شيكلات

تُقدّر بأكثر من قيمة الطعام وانطلقت نحو شارع يافا، نحو دخان بنّي ورماديّ وسخ يتصاعد عالياً. وصلت إلى هناك بينما كانت الشرطة والجنود يخرجون من سيّاراتهم. خارج مطعم سبارو، كانت سيّدة ممددة على الأرض ونخاعها خارج رأسها. وكانت هناك طفلة في الثالثة، وربّما في الخامسة من العمر، مشوّهة وعيناها ممزّقتان جاحظتان. إنها الفظاعة التي كان كلّ إسرائيلي ينتظرها. انتحاري فلسطيني يفجّر نفسه في مطعم بيتزا للعائلات مزدحم قبل الساعة الثانية من بعد ظهر يوم حارّ في القدس الغربية. كانت هناك دماء وزجاج على أرض الشارع وعلى حمّالات سيّارات الإسعاف (نجمة داوود الكبرى) وعلى وجوه الذين نجوا. أحصيتُ قتيلين حتى رأيت امرأة أخرى وفي معدتها رِجل طاولة. ثلاثة قتلى ثم خمسة. وأحصى مصوّر مجلّة شتيرن الألمانية، جينس بالم، عشر جثث خلال دقيقتيْن. ورأى منظّم رحلات يهودي من برشلونة يُدعى يهودا (اسمه الأول مجهول وهذا من الأشياء القليلة التي يرغب الإسرائيليون والعرب في تقاسمها) جنديّاً يطير في الجوّ، وأشلاء وأجزاء جسم تطير في الدخان. وكانت غالبية الجثث صغيرة جدّاً. فقد كان أكثر من نصف القتلى من الأطفال الإسرائيليين.

يافا، أستطيع سماع الصوت الحقيقي ليهود القدس الغربية، الغاضبين والمصدومين والصريحين. صرخ شاب: «رأيت طفلاً ابن سنتيْن على الأرض أشلاء». وقال إن اسمه ألكسندر، وهو سمسار عقارات يهودي أمضى نصف سنة في أنتروب. «كان طفلاً صغيراً، ماذا كان يعرف من الحياة؟ لم يعرف شيئاً. كان أشلاء. شيء لا يُصدَّق». وتجمّع عدد من اليهود المتديّنيين حول ألكسندر، وهم يعتمرون قبّعات سوداء ويرتدون قمصاناً بيضاً، ويرخون ضفائرهم ويومئون برؤوسهم بشدّة. «عندما يُقتل فلسطيني أو اثنين، تقولون أنتم الصحافة للناس بأنها نهاية العالم. لكن الفلسطينيين يُرهبون بلادنا بمُجملها. إذا كنّا سنخوض حرباً، فليكن. ماذا يريد الفلسطينيون أكثر؟ عندما نعطيهم إصبعاً، يريدون اليد بكاملها. أعطيناهم ٩٨ في المئة من أرضهم». لاحظت كلمة أرضهم! ليست مئة في المئة؟ في الوقت الحاضر، هذا تفكير ماجن.

تحدّث دايفيد، وهو رجل أعمال من القدس، عن البربرية. ولعب دور المحرّض لحشد من الغاضبين من أصحاب المحلّات المتزاحمين حوله: «إذا لم يستطع عرفات السيطرة على شعبه، عندها علينا الذهاب إلى هناك والاستيلاء على الأرض وتطهيرها... انتهت الحفلة وربّما يجب إعادة وضعهم تحت الاحتلال. نحن نعاود قتال حرب ١٩٤٧. يعتقد العرب بأن لديهم مسؤولية محدودة. لكن إذا خسروا، فإنهم يذهبون للبكاء أمام العالم لمساعدتهم». لا أريد التفكير في ما تعنيه كلمة تطهير. على طول الشارع، انتشرت شرائط الشرطة ترفرف في الهواء الحارّ مثل أطواق حول أرض معرض، وتسطع الشمس فوق ملايين الشظايا من الزجاج، ورجال الشرطة بستراتهم الواقية وقد وصلوا الى أعلى درجات الترقّب بإمرة ضبّاطهم: القنبلة الثانية. لكنّ الانتحاريين يلفّون حزاماً ناسفاً واحداً فقط حول أوساطهم. ولقد تحرّكت الآن السلطة الفلسطينية، ويحاول المتحدّثون باسمها، غير الأكفاء وغير المفهومين، تذكير العالم بالخسائر الفلسطينية التي سبّبها مروّج الحرب المدعوّ شارون.

كانت عبارة «لا يُغتفَر» تراود الأذهان. ماذا فعل الطفل الفاقد العينيْن للفلسطينيين؟.

رنّ هاتفي الخليويّ. وكانت أجهزة الخليويّ ترنّ في الشارع على خصور رجال الشرطة والجنود، وفي أيدي موظّفي المحلّ المنتحبين، وعلى الأرصفة، وعلى الأجساد السليمة بأصوات قاسية وموسيقى بيتهوفن. تحدّثت معي إذاعة بلفاست! بلفاست؟ في وسط هذه المجزرة؟ بلفاست! قنبلة زُقاق تخاطب قنبلة زُقاق آخر. أبلغتني فتاة بلكنة أولستر Ulster أن منظمة «الجهاد الإسلامي» أعلنت مسؤوليّتها عن التفجير. كانت هناك آلة إطفاء حريق تتحرّك عبر الزجاج، وكنت مهموماً جدّاً لكي أتقبّل سخرية أحدهم في شمال إيرلندا وهو يبلغني مَن فجّر المقهى الذي بجانبي في القدس. أجرت «الجهاد» اتصالاً بوكالة الصحافة الفرنسية في عمّان. كنت أتحدّث بالهاتف وأجبرني صوت صفّارات الإنذار والصراخ على رفع صوتي في المقابلة الحيّة بينما كنت أروي ما أرى، ولاحظت أنّ بعض الإسرائيليين بجانبي يُنصتون إليّ بغضب متزايد.

ليست زاوية شارع يافا وشارع الملك جورج المكان المناسب لمناقشة أسباب هذا الرعب. إن التذكير بالطفلين الفلسطينيين اللذين قُتلا في هجوم هليكوبتر صاروخي على نابلس ـ عُمر أحدهما سنتان والآخر خمس سنوات ـ أو عشرات الأطفال الفلسطينيين من رُماة الحجارة الذين قتلتهم القوّات الإسرائيلية أو أصغر ضحيّة لهذه الحرب، طفلة فلسطينية قتلها المستوطنون اليهود ـ إن من شأن هذا التذكير أن يؤدّي إلى إشعال الغضب . بالنسبة إلى الحشد الإسرائيلي المجتمع الآن خارج المحلّات ومعارض الأحذية في شارع يافا، هذا دليل إضافي ـ وربّما نهائي ـ على أنّ الإرهابي عرفات يريدهم جميعاً قتلى، محترقين أحياء، أمواتاً.

فوقنا كانت طائرتا هليكوبتر إسرائيليّتان تحوّمان في الهواء الحارّ بينما يجري دفع مجموعة من الشباب الهلعين إلى داخل باص للشرطة. هل اعتُقلوا؟ أم كان الأمر من أجل حماية العرب؟ في شارع «الذي يريد الحرب فقط وليس السلام». إنهم يقولون ذلك في الوقت غير المناسب وفي المكان غير المناسب.

ثمّ جاء يوم الحزن. وحتى قبل بدء مراسم تشييع الأربعة عشر قتيلاً، عرّف الإسرائيليّون عن القتلى كما لو كانوا عائلاتهم ـ كما لو أنهم بشكل ما عائلاتهم. وقبل أن يدفن خمسة أفراد من عائلة شكيبفسوردر Schijveschuurdr في مقبرة غيفات شاول Givat Shaul خارج القدس ـ (غيفات شاول نفسها، أم تلك التي كانت دير ياسين) شاهد جميع الإسرائيليين الصورة في صحف الصباح: صورة حفلة «بار متسفاح»(*) لطفلتيْن صغيرتيْن كانتا في ثوبيْن أبيضيْن، ومعهما رجل متوسّط العمر يضع نظّارة. وينحدر الوالد مردخاي والوالدة تزيرلي من عائلات الناجين من الهولوكوست، عائلات عاشت فظائع النازية فقط ليُقتل أولادها ويتحوّلوا إلى أشلاء من قِبل انتحاري فلسطيني في القدس الغربية.

خارج مطعم بيتزا سبارو، أضاء الإسرائيليون المئات من الشموع. هناك الكثير من الكلام عن الانتقام ـ كما هو حاصل في الجنازات ـ وتزايد الغضب مع استيلاء شارون خلال الليل على المكاتب الفلسطينية في القدس

(*) «بار متسفاح هو حفل تسليم الأطفال اليهود دينهم وشريعة التوراة والتلمود عندما يبلغون سنّاً معيّنة ـ المترجم

وقصف مقارّ قيادة الشرطة في رام الله وبدا ذلك ردّاً صغيراً بالنسبة إلى ما كان يتوقّعه الإسرائيليون. وقد أذكت هذه المرارة التقارير في التلفزيون الإسرائيلي حول احتفال الفلسطينيين بالمجزرة في شوارع رام الله. وكانت هذه التقارير صحيحة. وبين بيوت مخيّم عين الحلوة للاجئين في لبنان، كان الفلسطينيون يرقصون الدبكة التقليدية تعبيراً عن رضاهم عن عمليّات القتل.

وجاءت ابنة آل شكيبفسوردر، ليا، وعمرها عشر سنوات، رغم جراحها الخطيرة، لتحضر جنازة أفراد عائلتها الخمسة... كانت مصمّمة على رؤيتهم وهم يُنزلون إلى داخل القبور، وقد وصلت على حمّالة وكانت تنظر إلى السماء الساطعة تراقبها ممرّضة وحولها أكثر من ألفيْ إسرائيلي. قُتل مردخاي وتزيرلي وأولادهما، سمدة (عمرها سنتان) وأبراهام (٤ سنوات) وريا (١٤ سنة) بواسطة القنبلة المفخّخة بالمسامير. وقد أصيبت شقيقة ليا حمدة بجراح خطرة في الانفجار. وتضمّنت لائحة القتلى أيضاً جوديث شوشانا غرينبوم من نيويورك، وكانت حاملاً في شهرها الرابع ويوشيفيد شوشان (١٠ سنوات) وتامارا شيمشاويلي (٨ سنوات) ووالدتها ليلي. وكانت الضحية الأكبر سنّاً فريدة ماندلسون البالغة من العمر ٦٢ سنة.

عندما اقتحم الجنود الإسرائيليون في الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم المكاتب الفلسطينية في بيت الشرق في القدس ورفعوا العلم الإسرائيلي على سطح المنزل الفخم القديم بنوافذه المزخرفة وسطحه القرميدي، فعلوا أكثر من احتلال رمز عملية السلام الأساسية، المبنى الذي انطلق منه الفلسطينيون عام ١٩٩١ إلى مؤتمر السلام في مدريد. في داخل المنزل، عثر الإسرائيليون على خزائن لحفظ المستندات والخرائط، وملفّات مفاوضات «الوضع النهائي» التي كان يُفترض أن تجيء بالسلام النهائي للشرق الأوسط. وهكذا مات الحلم عندما اقتحم الجنود الباب الرئيسي.

وفي مواجهة الخطر الحقيقي للانتحاريين، بدّد رجال شارون عطف العالم بإعلانهم أن بيت الشرق (بمسؤوليه الأبويّين العجائز وبملفّات معاهدة السلام وبالتدفّق المستمرّ للزوّار الدبلوماسيين الأجانب) وعلى لسان دو غولد المتحدّث الرسمي باسم الحكومة الإسرائيلية، هو «وكر فعلي ومركز رئيسي للإرهابيين». ولم يخدع إقحام غولد الفاضح لكلمة «فعلي» الإسرائيليين الذين تساءلوا (وليس من غير حقّ) إذا كان بيت الشرق مركز إرهاب فلماذا لم تتم الإغارة عليه والتقليل من شأنه وإقفاله واحتلاله أو تدميره منذ سنوات؟ وقال لي صحفي إسرائيلي ساخراً: «نستطيع اصطياد إرهابيّيهم في الطرق الضيّقة لرام الله ولكن لم نعرف سوى الآن أن مقرّ قيادتهم الإرهابية كان على مرمى حجر من مكاتب المخابرات السرّية الإسرائيلية شاباك. ماذا علينا أن نصدّق بعد ذلك؟» ويقع مقرّ «الشين بيت» في المجمّع الروسي في القدس على بعد ألف متر من بيت الشرق. وإذا كان يجب تصديق غولد (وهو أمر مستبعد) فإن رجال الشرطة الإسرائيلية الذين كانوا يقفون خارج المبنى منذ ثماني سنوات، كانوا غير كفؤين، وذلك لسماحهم لجميع هؤلاء الإرهابيين بالدخول والخروج من مركزهم المهمّ طيلة عقد من الزمن. وهكذا انطلق الحسّ المعتاد بوجود عدم تناسب. . .

جرى دفن فلسطينيّيْن قتلهما الجنود الإسرائيليون في غزّة بعد يوم من تفجير سبارو وسط مشاهد الحزن والغضب. وكان معظم الإسرائيليين غير عابئين بمقتلهما. وبينما كانت صحف غربية عديدة تحثّ حكومة شارون على الانتقام بشكل دموي، كان هناك صحفي إسرائيلي يقدّم الردّ الأكثر كرماً وعقلانية لمجزرة الإسرائيليين. سأل جدعون ليفي في صحيفة هآرتس:

«بِمَ يجب أن يشعر سكّان قرية عنين حيال مقتل مصطفى ياسين، وهو أحد سكّان القرية ، وذلك أمام أعين زوجته وابنته الصغيرة؟ وفيمَ يجب أن تفكّر عائلة ماجد جلّاد وهو طفل في الخامسة من عمره معلّق بين الحياة والموت، بعدما أصابه الجنود في معدته؟... وماذا عن مصير عشرات آلاف الفلسطينيين الذين أصبحت حياتهم جحيماً بسبب الإغلاق والحصار؟ ما هي المشاعر التي تنتابهم وما هي براعم الكارثة التي سينتجونها؟».

وكتب ليفي أنه حان الوقت لقول الحقيقة: «فضحايا الانتفاضة هم ضحايا مشروع الاستيطان».

كم من الفلسطينيين الانتحاريين ينتظرون الموت؟ بعد سبارو ـ وحرقُ ٢١ شاباً إسرائيلياً في نادٍ ليليّ في تلّ أبيب قبله ـ كان كلّ إسرائيلي يسأل هذا السؤال. يوم ٢١ آب/أغسطس ٢٠٠١، نزل محمّد نصر من سيّارة أجرة وسار نحو سطيحة مقهى «وال ستريت» في كريات موتزكين شماليّ حيفا وفجّر نفسه مصيباً عشرين شاباً إسرائيلياً بجراح. قال صاحب المقهى أهارون روزمان إنه شاهد نصر يسير نحو السطيحة المحاطة بأشجار البلح. «تقدّم من نادلة ورفع قميصه ليكشف عن المتفجّرات المربوطة بحزامه وسأل المرأة: أتعرفين ما هذا؟ فصرخت بكلمة واحدة: إرهابي! التقطتُ كرسيّاً ورميته عليه وركضت للاحتماء خلف جدار ـ لذلك نجوت». وبلغة الجهاد الإسلامي المغالية والمخيفة، صرّح أحد المسؤولين الشيخ عبد الله الشامي أن نصر «استطاع اختراق قلب الصهيونية رغم كلّ الإجراءات الأمنيّة ـ وسوف نستمرّ في قتالنا، وصراعنا، وعمليّاتنا حتى نصل إلى هدفنا بالتحرير الكامل».

كانت التداعيات مهيبة. ذلك أن نصر لم يقتل نفسه فقط بعد وقت غير قصير على تفاخر عرفات باعتقاله لأربعة ناشطين من الجهاد. فقد كشف محمود والد نصر في منزله في الضفّة الغربية في قرية قباطيّة، أن ابنه كان يعمل ضمن قوّات أمن عرفات منذ ستّة أسابيع.

أمضيت أكثر من ٤٥ دقيقة أبحث عن قرية قباطيّة في الخريطة ـ (تمّ الآن وضع إشارات حمراء على أسماء عدّة مدن صغيرة في «خريطة» الانتحاري) ووجدت الاسم في النهاية قرب جنين. كانت الشمس تلهب الطريق إلى قباطيّة، وكان ثلاثة شبّان وكلب شارد يراقبونني بريبة عندما أوقفت سيّارتي عند زاوية تلّة من القُمامة. وسأل أحد الأولاد قبل أن أقول أيّة كلمة: «منزل الشهيد؟» وأشار بيده إلى منزل قديم جدرانه من الإسمنت.

لقد جلست من قبل في غُرف كهذه قرب الآباء المحطّمين الذين يحاولون دائماً إظهار الفخر بموت الشبّان

الذين تحدّق فيك صُوَرهم من الملصقات اللامعة على الحائط، والذين انطلقوا لقتل الأبرياء. وكان الأقارب متلهّفين لإضافة استحسانهم. كانت كلمة «شهامة» الكلمة التي استمرّوا في استخدامها عن محمّد نصر. وعندما سألت والده بماذا كان يفكر ابنه بحسب اعتقاده عندما كان متوجّهاً نحو مقهى وال ستريت ليفجّر الصاعق على وسطه، رفع يديه بعجز وأجاب: «لا أعرف». وذلك ما يقوله الجميع. وتوافق العائلة على أن الشيء الأكثر حزناً حول موته كان وقت مولده. تقول ابنة عمّه سهام: «كان أوّل صبيّ يولد بعد سبع بنات. فكّر في ذلك. سبع بنات ثم جاء محمّد والآن رحل». كان الحاج محمود نصر المسنّ متربّعاً على الأرض يعتمر غطاء رأس أبيض ويتكئ على مِسند مزخرف. أفاد أن ابنه كان في المرحلة التعليمية التاسعة وتوقّف عن الدراسة، وقال إنه كان طيّباً وكان يملك بعض الخراف لكن لم يكن لديه مال للزواج. «كلّ ما أعرفه أنه كان نشطاً في الانتفاضة الأولى». لكنّ قصّة حياة وموت نصر تتضمّن درساً للفلسطينيين والإسرائيليين معاً. هو شاب طويل نحيف ذو لحية قصيرة وقد ولِد تحت الاحتلال واليأس، وأصيب في فخذه عندما كان في الخامسة عشرة من عمره بعد إلقائه الحجارة على الجنود الإسرائيليين عام ١٩٨٨. وتعتبر قباطيّة قرية جرديّة، وبيوتها الحجرية القديمة قاسية بقدر قساوة أهلها. وعندما يجد الرجال هناك متعاوناً مع العدوّ من بينهم كانوا يحرقون منزله ويشنقونه على عمود كهربائي. وقد التحق نصر بعمل مع السلطة الفلسطينية ـ مع جهاز المخابرات العسكرية التابع لموسى عرفات ـ كحارس للسجن، يراقب رجال الجهاد الإسلامي وحماس الذين سجنهم ياسر عرفات، ابن عمّ موسى، في جنين بناءً على أوامر إسرائيل.

كان إياد حردان واحداً من هؤلاء السجناء، وكان ذكيّاً وعنصراً قويّاً من الجهاد، أرادت فِرق القتل الإسرائيلية قتله. كان يدرس في جامعة مفتوحة ويريد إطلاق سراحه من السجن لمتابعة دروسه. يوم ٥ تموز/يوليو، ذهب لإجراء اتصال من هاتف عمومي في جنين، وعندما رفع السمّاعة، فجّرت رأسه. وكان ذلك نقطة تحوّل في حياة محمّد نصر «كان يحبّ المعتقلين الذين يحرسهم وكان معجباً بحردان»، بحسب قول ابن عمّ محمّد نصر، واسمه محمّد أيضاً، «بقي حزيناً لبضعة أيام بعد استشهاده، وكان غاضباً مثل الجميع. وأذكر أنه استمرّ يردّد: إنا للّه وإنا إليه راجعون، قبل أن يعود ليحدّثنا كيف يريد أن يصبح شهيداً». ويتذكّر آخرون من العائلة كلمات أكثر سوداوية. قال محمّد نصر: «اللعنة على الذين يقفون وراء هذا التفجير». وبعد أيام قليلة، في منتصف تموز/يوليو، ترك عمله مشتكياً أنهم لم يدفعوا له منذ شهر. وربّما كان ذلك هو الوقت الذي التحق فيه بالجهاد الإسلامي. كان، بحسب قولهم، مختاراً، مستعدّاً للشهادة التي يريدها، وقد تمّ تدريبه على كيفية ربط المتفجّرات حول وسطه. وتصرّ عائلته على أنها كانت تجهل ذلك. وهذا أيضاً ما كان يقوله الجميع.

ربّما كانت تلك هي الحقيقة، رغم أن مدرسة جنين للانتحاريين تبدو مسألة غير مُتقنة، فقد ضمّت خليّتها من الجهاد الإسلامي جاسوساً واحداً على الأقلّ. وأعدّ متعاونٌ عملية اغتيال حردان، وعلى الأقلّ بدّل أحد عناصر الجهاد الإسلامي الذين أُرسلوا للموت رأيه وسلّم نفسه للإسرائيليين. وليس محمّد نصر. قالت سهام: «صباح يوم الأحد، لم يتناول إفطاره بل شارك في صلاة الظهر. استحمّ وبدّل ملابسه وقال لوالده: هل تريد شيئاً مني؟ ثم طلب رؤية ابن أخيه، إسلام الصغير».

يبلغ إسلام أربعة أشهر من العمر فقط. هل كان محمّد يريد بعض الحبّ من الحياة وقد تخلّى لتوّه عن حياته؟ «كان يحبّ الأطفال». هذا ما قالته سهام مجدّداً. «كان يحبّ اللعب معهم. شرب قهوته لكنه لم يحلق ذقنه ذلك اليوم. وكان يرتدي بنطالاً أبيض وقميصاً بيجيّاً وحذاء أسود. لم يقل إلى أين هو ذاهب. أجل كان معه هاتف خليوي. ولقد أخذه معه».

بعد الثالثة من بعد الظهر بوقت قصير، استقلّ نصر سيّارة أجرة قرب حيفا. وكان الإسرائيليون قد وضعوا حواجز على الطرقات في وقت سابق، ويبدو أن متعاوناً آخر أبلغهم أنّ انتحارياً هو في طريقه لتنفيذ عملية ـ لكنّهم لم يجدوا نصر أبداً. وتذكّر السائق لاحقاً كيف كان نصر غير واثق من وجهته. وقال في وقت لاحق: «أجرى اتصالاً ثلاث مرّات على هاتفه النقّال وقال: لم أجد المكان». وعندما سأله عن أجرة السيّارة، أجابه نصر بأنه غير مهتمّ كم تكلّف. ممّا جعل السائق أكثر ريبة بينما كان ينزله قرب مقهى وال ستريت. هل كان يفكّر خلال تلك الثواني الأخيرة في أن الإسرائيليين الذين يحاول قتلهم ربّما كان بينهم أطفال، صغار بعمر إسلام، ابن الأربعة أشهر؟ هل طرح تساؤلاً حول أخلاقية محاولة إزالة أرواح الأبرياء؟ إن سنواته الثماني والعشرين على الأرض كانت على وشك الانتهاء؟ وأجاب ابن عمّه محمّد عن هذا السؤال قائلاً: «لم يكن لديه أي تفكير في نفسه. كان يمكن أن يفكّر في أمور عدّة باستثناء شخصه ـ لا يستطيع التفكير في نفسه لأنه أراد الموت. إنّ أيّ شخص يوافق على هذا النوع من التضحية لا يفكّر في نفسه».

نفّذ الإسرائيليون انتقامهم بالإغارة على جنين بعد يومين ودمّروا مركز الشرطة متجاهلين (أو مُقصّرين في الفهم) أن قتلهم لحردان هو الذي دفع محمّد نصر إلى هذه المهمّة المرعبة. وكان لقتل حردان ـ وقد هدف إلى زرع الرعب في الجهاد الإسلامي ـ تأثير معاكس. فقد حوّل محمّد نصر إلى انتحاري.

سألت مرّة زعيم تنظيم حزب الله اللبناني إذا كان يستطيع أن يفسّر لي ماذا يدور في عقل انتحاري؟ وكانت تلك أوّل مقابلة تلفزيونية غربية له. كان السيد حسن نصرالله مرتدياً عِمامته السوداء ورداءه الأسود. وكان سابقاً القائد العسكري لحزب الله في جنوب لبنان ومن قوّاته انطلق أوّل الانتحاريين العرب الذين ـ بعد أكثر من عشر سنوات ـ حطّموا معنويات جيش الاحتلال الإسرائيلي المنسحب. طلبت منه بصفتي غربياً أن يشرح لي كيف يستطيع إنسان أن يُضحّي بنفسه. قال:

> «هناك صفات يتميّز بها مقاتلونا. إن الذي يقود شاحنته إلى داخل قاعدة لجيش العدو ليفجّر نفسه ويصبح شهيداً، يتوجّه بقلب ملؤه الأمل، مبتسماً وفرحاً لأنه يعلم أنه ذاهب إلى مكان آخر. الموت، وفق عقيدتنا، ليس النسيان... ليس النهاية. إنه بداية لحياة حقيقية...

إن التعبير المجازي الأفضل بالنسبة إلى غربيّ لمحاولة فهم هذه الحقيقة هو التفكير في رجل موجود في حمّام سونا لفترة طويلة. إنه عطشان وتَعِب وحارّ ويعاني من تأثيرات الحرارة المرتفعة. ثم يقال له إنه إذا فتح الباب

يستطيع الذهاب إلى غرفة هادئة ومريحة، وشرب كوكتيل ممتع وسماع موسيقى كلاسيكية. عندها سيفتح الباب ويخرج بدون تردّد، علماً بأنّ ما يتركه وراءه ليس جديراً بالثمن العالي الذي يدفعه، وأنّ ما ينتظره ذو قيمة أكبر بكثير... لا أستطيع أن أفكّر في مثال آخر لتقريب الفكرة إلى غربيّ».

استمتع نصرالله بالمجازات والتشبيهات، تماماً مثل ملصقات شهيد حزب الله التي تُظهر غالباً الميت في الجنّة، محاطاً بالأنهار وأزهار الزنبق وأشجار الصفصاف. هل هذا هو حقّاً المصير الذي يعتقد الانتحاريون أنهم ذاهبون إليه؟. إلى الأنهار والعسل والأشجار ـ وبالطبع ـ إلى الحور العِين؟ أو إلى غرفة هادئة ومريحة مع كوكتيل وموسيقى هادئة؟.

تُعتبر فكرة التضحية قُدوة نبيلة (ولنترك جانباً للحظة لاعدالة قتل أطفال في مطعم بيتزا في القدس) يشترك فيها المجتمعان الغربي والشرقي على حدّ سواء. وتُغطّى أضرحة ضحايا الحرب العالمية الأولى في فرنسا بعبارات تمجيد لذكرى الرجال ـ رفاق بيل فيسك القتلى ـ الذين ضحّوا بحياتهم أو ماتوا في سبيل بلادهم (ولو أن معظمهم قد مات بعد عذاب أليم، وهو يدعو فقط للبقاء على قيد الحياة). بعد سنوات من لقائنا، عندما قُتل ابن نصرالله في هجوم انتحاري على موقع للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان، أصرّ زعيم حزب الله على القول بأنه لا يتقبّل التعازي بل التهنئة.

ظهر نصرالله على شاشة التلفزيون اللبناني، ضاحكاً ومبتسماً، مليئاً بالفرح بينما كان يتحدّث إلى مؤيّديه. وقد عبّرت خطيبة ابنه الشابّة عن فخرها بموت خطيبها، إلا أنها لم تبتسم.

وإذا كانت فكرة التضحية بالذات بهذا الوضوح، فإنها بشكل واضح أيضاً ليست ظاهرة طبيعية. ففي مجتمع طبيعي، ضمن جماعة يشعر أهلها بأنّهم يُعامَلون بشكل متساوٍ وبعدالة، ننظر إلى الانتحار على أنه انحراف مأساوي، وأنه موت يحصل ـ بحسب تفسير الطبيب الشرعي ـ عندما يكون العقل مضطرباً. لكن ماذا يحصل عندما يكون توازن عقل مجتمع بكامله مختلّاً؟ عندما كنت سائراً مع صديق عبر رُكام مخيّم صبرا وشاتيلا للّاجئين الفلسطينيين في بيروت عام ٢٠٠٠، استطعت فقط التساؤل عن مدى صلابة الناجين الذين ما زالوا يعيشون هناك في البيوت الإسمنتية وفي الغُرف الصغيرة. كان العديد منهم مشرّدين منذ حرمانهم من وطنهم الأصلي منذ ٥٢ عاماً. قلت لصديقي: «لو عشت هنا لانتحرت». وهذه هي المسألة.

عندما يكون مجتمع ما محروقاً، وعندما تكون المظالم التي تحيط به دائمة، وعندما يكون العدوّ قويّاً، وعندما يكون شعب أحدهم يُعامَل كالحشرات والصراصير أو حيوانات برجلَيْن، عندها يتخطّى العقل الصواب. يصبح مأخوذاً باتجاهين: بفكرة ما بعد الحياة وبإمكانية أنّ معتقده سيزوّده بسلاح أقوى من السلاح النووي. عندما كانت الولايات المتحدة تحوّل بيروت إلى قاعدة لحلف الناتو عام ١٩٨٣ واستخدمت قوّتها النارية ضدّ المقاتلين المسلمين في الجبال إلى الشرق، كان حرّاس الثورة الإيرانية في بعلبك يَعِدون الناس بأنّ الّله سيخلّص لبنان من

الوجود الأميركي. كتبت في ذلك الوقت ـ ليس بصمت كلّي ـ أن ذلك يشبه معركة جبّارة: التكنولوجيا الأميركية في مواجهة الله. من سيربح؟ ويوم ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ قاد انتحاري شاحنة محمّلة بالمتفجّرات إلى داخل مجمّع مُشاة البحرية الأميركية في مطار بيروت وقتل ٢٤١ جندياً أميركياً في ستّ ثوان. أنا متأكّد أن هذا هو الانتحاري الذي كان نصرالله يشير إليه، الانتحاري الذي اقتحم قاعدة عسكرية «باسماً وفرحاً». وفي وقت لاحق أجريت مقابلة مع أحد الناجين القلائل من البحرية الأميركية الذي رأى الانتحاري. أبلغني: «كلّ ما أستطيع تذكّره أن الشابّ كان يبتسم».

أمضيت شهوراً أدرس موضوع الانتحاريّين في لبنان. كانوا غالباً غير متزوّجين، ونادراً ما كانوا من النساء، وفي أغلب الأحيان كانوا من ضحايا التعذيب الإسرائيلي أو من أقارب العوائل التي قُتل أفرادها في الحرب ضدّ إسرائيل. قد يحصلون على أوامرهم بينما هم يصلّون في المسجد في قراهم في جنوب لبنان. يُطلَب من الإمام استخدام جُملة محدّدة في خُطبته ـ إشارة إلى ورود أو حدائق أو ماء أو نوع من الشجر. وليس على الإمام فهم الهدف من هذه الكلمات، لكن خلال خطبته يفهم شابٌ ما أنّ يوم «الشهادة» قد حان.

في غزّة، وحتى قبل اتفاق أوسلو، اكتشفت نموذجاً شبه مماثل. فكما في لبنان، كان الذي سيصبح شهيداً يُمضي آخر ليلة وهو يقرأ القرآن. لن يودّع أهله أبداً وداعاً نهائياً. لكنه يقبّل والده ووالدته ويطلب منهما عدم البكاء إذا مات في يوم ما. ثم ينطلق لتسلُّم المتفجّرات. كما فعل محمّد نصر في قباطيّة(*).

والحال أن الأمر مختلف إلى حدّ كبير مع انتحاريي فلسطين. فعلى الرغم من أنّ الكاميكاز اليابانيين من طيّاري الحرب العالمية الثانية ـ الريح الإلهيّة ـ كانوا مُرعبين، فقد هاجموا السفن الحربية وحاملات الطائرات وليس المستشفيات. وقد اتّبع اللبنانيون هذا النمط بشكل واسع! إنهم يذهبون عادة إلى الأهداف العسكرية.

كنت محتاراً لماذا كان اللبنانيون يقفون في الطابور لمشاهدة فيلم «بيرل هاربر» عندما عُرض في بيروت في تموز/يوليو ٢٠٠١ ـ حتى شاهدت الشبّان يدرسون الصور السينمائية للطيّارين اليابانيين الشبّان الذين يشبهونهم وهم يضعون عصبات الاستشهاد حول رؤوسهم. بهذا النمط نفسه، وغالباً بعصبات رأس تتضمّن عبارات قرآنية، استهدف حزب الله الجيش الإسرائيلي والميليشيات الحليفة. قاموا بتفجير مواقع بكاملها وقتلوا عدداً كبيراً من الجنود. وتعلّم الفلسطينيون من ذلك كلّه.

(*) أبلغتني أميرة حاس، مراسلة هآرتس، أنها رغم زيارتها لبيوت الانتحاريين في غزّة، لم تختر القيام بذلك خلال السنة الأولى من الانتفاضة الثانية لأنها «لا تستطيع أن تكون موضوعية كونها إسرائيلية». فهي ذهبت فقط، ونادراً، إلى بيوت «الشهداء».
«كتبت قصّة حول طفل ـ أردت فعلاً إظهار كيف قُتل، وأنه لم يكن تهديداً للجندي الذي قتله. ولم تكن العائلة مسرورة لمقابلة صحفية إسرائيلية».

لكنّ انتحاريّيهم ـ بمن فيهم النساء الانتحاريات اللواتي برزن في السنوات الأخيرة ـ استهدفوا أكثر فأكثر المدنيين الإسرائيليين. في حين أن سفينة حربية أو دبّابة إسرائيلية شيء، وطفلاً يبلغ ثلاث سنوات كان ينتظر أمّه الشابّة لتقطع له البيتزا شيء آخر تماماً(*).

أفردت منظّمة العفو الدولية تقريراً كاملاً حول استهداف المدنيّين من قِبل الانتحاريين الفلسطينيين. بين أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ وتموز/آب ٢٠٠٢، قُتل ٣٥٠ مدنياً على الأقلّ معظمهم من الإسرائيليين بواسطة ١٢٨ هجوماً من قِبل مجموعات فلسطينية مسلّحة أو أفراد. «يجب أن لا يكون المدنيّين أبداً هدف الهجمات، لا باسم الأمن ولا باسم الحرية» بحسب قول منظّمة العفو الدولية، و«ندعو قادة كلّ المجموعات الفلسطينية المسلّحة إلى التوقّف عن مهاجمة المدنيين فوراً وبدون شروط». وكانت أكبر ضحيّة في هجوم انتحاري وفق منظمة العفو الدولية، شاناع روغان التي قُتلت في تفجير فندق ناتانيا يوم ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٢. وكان عمرها ٩٠ سنة(**).

اتصلت بصديقة فلسطينية في رام الله أستفسرها عن ذلك، وأسألها كيف يستطيع الشباب الفلسطيني الابتهاج في الشوارع نتيجة مجزرة مطعم البيتزا. أبدت امتعاضها مما حصل ـ كانت صادقة في ذلك ـ لكنّها حاولت التفسير قائلة: «إنّ الفلسطينيين عانوا من إصابات مدنية عديدة منذ بدء الانتفاضة الأولى ولذلك يشعرون بالفرح لأيّ معاناة يُصاب بها العدوّ». وأضافت: «كان هناك شعور بأن عليهم معاناة العذاب هم أيضاً». وهذا بالطبع ـ مع تطبيق المبدأ دون تفاصيل المقارنة التاريخية ـ ما قيل بالضبط في بريطانيا لتفسير قصف الماريشال في سلاح الجوّ السير أرتور هاريس لمنطقة مليئة بالمدنيين الألمان. عليهم المعاناة أيضاً. وباستثناء بعض الأشخاص مثل أسقف شيشستر، فإنّ البريطانيين المكلومين دعموا هاريس حتى النهاية. لكنّني أعود إلى ردّة فعلي الشخصية عندما وصلت الى مطعم بيتزا سبارو المحطّم: «شيء لا يُغتفر!». سألت مجدّداً: ماذا فعل هذا الطفل الإسرائيلي المقتول الذي فقد عينيه للفلسطينيين؟ ألم يكن باستطاعة الانتحاري الفلسطيني في لحظاته الأخيرة النظر إلى هذه الطفلة على أنها طفلته،

(*) كان التفسير الأكثر خِزياً في فهم الانتحاري الفلسطيني ما لفّقه توم فريدمان، وهو صديق قديم صار مؤخّراً مُعلّقاً مؤمناً بالمسيح المنتظر بشكل متزايد، ويعمل في النيويورك تايمز. كتب: «لم يقم الفلسطينيون باختيار الأسلوب الانتحاري نتيجة اليأس بل لأنهم جميعاً يستطيعون الموافقة كجماعة على ما يريدون تدميره». وبحسب ادّعائه، لقد فقدوا الرؤية حول قُدسيّة الحياة البشرية لأنهم أصيبوا بالعمى نتيجة «الغضب النرجسيّ». ونصح الفلسطينيين بتبنّي «المقاومة السلمية على طريقة غاندي». لكنّ تظاهرات الاحتجاج السلميّة للفلسطينيين تمّ تجاهلها وقمعها دائماً. وعندما تقدّم الفلسطينيون والدول العربية الأخرى بشكواهم ضدّ جدار الفصل الذي أنشأه أرييل شارون إلى المحكمة الدولية في لاهاي عام ٢٠٠٤ ـ بالتأكيد وفق تقنية غاندي لطلب العدالة ـ رفضت إسرائيل ببساطة تنفيذ حُكم المحكمة. ولم يعلّق فريدمان على ذلك.

(**) في تسجيل لهذه التفاصيل حول «فريق العمل الدولي الخاصّ بالصراع العربي ـ الإسرائيلي، قالت مجلّة الكوايكرز (طائفة الكوايكرز أو الفرندز ـ المترجم):
«لقد انزعجنا لاكتشافنا وجود خيار الترانسفير داخل إسرائيل ـ وهو التطهير العِرقي لأعداد كبيرة من الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة أوالمواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل ـ والذي يُناقش الآن بشكل علنيّ من قِبل السياسيين، والمثقّفين، والزعماء الدينيين والعديد من قطاعات المجتمع الأخرى... نحن نشجب هذه الفكرة أو أي اقتراح آخر يفشل في احترام القيمة المتساوية لكلّ أبناء الله».

أخته الصغيرة، ابنة عمّه الصغيرة؟ للأسف كلّا. كان مُتّجهاً في الشارع إلى موته، منغمساً كلّياً بمأساة شعبه. لم يكن عمله «عملاً إرهابياً بدون تفكير»، وتلك كانت الكلمات التي استخدمها المتحدّثون الإسرائيليون بينما كانوا يحاولون خداع العالم وشعبهم على السواء. إنه النتاج المنطقي لشعب تمّ سحقه، وحرمانه، وخداعه، وتعذيبه وقتله بأعداد كبيرة. كانت طنجرة الضغط العربية حمّام السونا له وقد عبر الباب(*).

لو ـ كم نستخدم هذه العبارة حول الشرق الأوسط ـ لو أنّ الإدارة الأميركية واجهت بصورة جدّية الصراع العربي ـ الإسرائيلي عام ٢٠٠١، عوضاً عن تبديد قدراتها في إطلاق حرب أخرى في المنطقة، كم كان ليكون مقدار الربح؟ وكم كان مقدار المعاناة المخفّفة أو الملغاة؟، وكم كُنّا تجنّبنا من الألم في التاريخ المستقبلي؟

في شباط/فبراير ٢٠٠١، كان الفلسطينيون والإسرائيليون يخوضون حرباً أهلية. وماذا فعلت الولايات المتحدة؟ قصفت العراق. ماذا فعل وزير الخارجية الأميركي الجديد كولن باول؟ وصل إلى الشرق الأوسط ليس لمواجهة سعير الحرب بين إسرائيل وفلسطين، بل لتقوية العقوبات ضدّ العراق وإعادة بناء التحالف العربي المناهض للعراق الذي اضمحلّ منذ أكثر من عشر سنوات. هناك رواية ـ محتمل كذبها ـ تقول بأنه بينما كان الجيش الأحمر يقتحم برلين عام ١٩٤٥، كان الموظفون الألمان ما زالوا يحاولون حساب ميزانية الرايخ الثالث للعام ١٩٤٦ من مشابك الورق، وكان باول الآن هو رجل المشابك.

في ذلك الحين، كان باول قد أرسل تعليمات إلى السفارات الأميركية في المنطقة تقول بأنه لا يجب الإشارة بعد الآن إلى الأراضي الفلسطينية المحتلّة بكلمة «المحتلّة». كان يجب الإشارة إليها من الآن فصاعداً «بالمتنازع عليها». وعلى الفور تبعت وسائل الإعلام الأميركية وعدد من مثيلاتها البريطانية هذه التعليمات. وأتذكّر مقابلة تلفونية مع محطة البي بي سي العالمية في أوائل ٢٠٠١ ـ اتصلوا بي على هاتفي الخليوي بينما كنت عالقاً في ازدحام سير في بيروت الشرقية ـ وتمّ وصلي مع متحدّث باسم الحكومة الإسرائيلية في القدس. وفي اللحظة التي أشرت فيها إلى «الأراضي المحتلّة من قِبل إسرائيل»، ردّ صوت إسرائيلي مدوّياً: «لكن يا مستر فيسك، الأراضي ليست محتلّة من قِبل إسرائيل!». انتظرت لحظة، ثم أجبت: «آها، تعني أن الجنود الذين أوقفوني على الطريق بين رام الله وجنين الأسبوع الماضي كانوا سويسريّين! أو بورميّين؟». لكن المسألة ليست هزليّة. فالأرض المحتلّة تولّد مقاومة عنيفة قد تطالب بشرعية دولية. لكنّ العنف المستخدم حول خلاف (مشكلة عقارية حقيقية، أو أيّ أمر من

(*) إذا كان حزب الله هو الذي ساعد في بناء ذلك الممرّ، فقد نقله الفلسطينيون بالتأكيد لاحقاً للمتمرّدين العراقيين عام ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤. وكان الانتحاريون يبرزون يومياً في شوارع المدن الكبرى في العراق، البلد الذي لم يكن لديه حتى الآن أي سجلّ في تدمير الذات خلال انتفاضاته المتعدّدة ضدّ الحكم الأجنبي. وقد فقدت أرواح المدنيّين في العراق أيضاً قُدسيّتها عند الطرفيْن. وقد يكون الانتحاريون أو قادتهم تعاطفوا مع مئات الأبرياء من الرجال والنساء الذين تحوّلوا إلى أشلاء في الهجمات على القوافل الأميركية والبريطانية، ومراكز الشرطة والثكنات والفنادق ومراكز قيادة الاحتلال، إلا أنّهم لم يعبّروا أبداً عن أيّ أسف. لم تكن المقاومة السنّية، بحسب قول أحد المتحدّثين باسمها، قلقة أبداً حيال الخسائر المدنية لأنّ المتمرّدين كانوا مستعدّين لدفع أيّ ثمن لتدمير الاحتلال. لكنّ الثورات في حرب العصابات مهما كانت عنيفة فإنها لا تتعدّى الحدود إلّا إذا كانت لدى الأشخاص الذين يرغبون في تبنيها قضيّة...

الممكن تسويته في المحاكم) هو بوضوح غير شرعي، إجرامي، غير منطقي، وبالفعل يمكن تصويره كنتاج «للعنف المجنون». كان باول والإسرائيليون يرمون طبعاً إلى جعل الانتفاضة غير شرعية.

إن ذلك كلّه قد حجب من ناحية ثانية تحوّلاً مرحلياً في المجتمع العربي: هو التحوّل الأكبر الذي شهدته أنا خلال الثلاثين سنة من عملي الصحفي في الشرق الأوسط. عندما زرت الضفّة الغربية بعد تسع سنوات تقريباً على حرب ١٩٦٧، كان في الأراضي المحتلّة ميليشيا فلسطينية مسلّحة بإشراف إسرائيلي، أي جيش من العملاء ـ كانوا يضعون أيضاً قبّعات سوداء ـ يسيطرون على شعب فلسطيني مقموع ومذلول. وإلى الشمال من الحدود الإسرائيلية، كان يعيش سكّان لبنانيون في حالة خوف من اجتياح عسكري إسرائيلي. وما كان على القوّات الإسرائيلية إلّا أن تعبر الحدود وتدفع بربع مليون مدني لبناني إلى الهرب بحالة فوضى نحو بيروت. وفي الشرق، كان يعيش ملايين العراقيين في خضوع تامّ لحزب البعث.

اليوم، لم يعد العرب خائفين. كانت الأنظمة خائفة كالعادة، كانت تمثّل حلفاء مخلصين ومعتدلين يطيعون أوامر واشنطن، ويأخذون المساعدات الضخمة من الولايات المتحدة ويجرون الانتخابات البالغة السخف، ويرتجفون من الخوف إذا قرّر شعبهم أخيراً تغيير النظام ـ من خلال مجتمعاتهم وليس وفق الصيغة الغربية المفروضة من قِبل الغزو ـ إن العرب كشعب (مقموع ومسحوق لعدّة عقود من قِبل طُغاة فاسدين) لم يعودوا هاربين بعد الآن. تعلّم اللبنانيون في بيروت، تحت الاحتلال الإسرائيلي، رفض الانصياع لأوامر المحتلّ. وقد أثبت حزب الله أنه يمكن إذلال الجيش الإسرائيلي القويّ. وأظهرت الانتفاضتان الفلسطينيّتان أن إسرائيل لم تعد قادرة على فرض إرادتها على الأراضي المحتلّة دون دفع ثمن مروّع. وانتفض العراقيون أوّلاً ضدّ صدّام، وبعدها ضدّ قوّات الاحتلال بعد الغزو الأنغلو ـ أميركي. لم يعد العرب يهربون بعد الآن. إنّ السياسة الشارونيّة القديمة التي وضع المحافظون الجُدد الأميركيون أنفسهم ضمنها قبل غزو عام ٢٠٠٣ للعراق ـ أي ضرب العرب حتى يخضعوا أو يتصرّفوا بشكل مناسب أو حتى يتمّ إيجاد زعيم عربي «للسيطرة على شعبه» ـ أصبحت مفلسة الآن مثل الأنظمة العربية المستمرّة في العمل لصالح القوّة العظمى العالمية الوحيدة.

لا يعني ذلك التوصية بالثورات الاجتماعية والعسكرية الشعبية التي حدثت في الشرق الأوسط. لكن في لبنان، وفلسطين والعراق، أصبح الانتحاري رمزاً للشجاعة الجديدة. فعندما يتخلّى شعب محتلّ عن خوفه من الموت، يهلك المحتلّ. وعندما يكفّ رجل أو امرأة عن الخوف لن يخاف مجدّداً. ليس الخوف مُنتجاً يمكن إعادة ضخّه في شعب عبر إعادةِ غزو أو معاملةٍ أقسى أو هجمات جوّية أو جدران أو تعذيب...

بينما كانت بقايا اتفاق أوسلو تهترىء كانت المبادرات المتاحة في وقت ما قد سقطت هي أيضاً. ولسنوات عدّة، أشارت الانتقادات الموجّهة إلى اتفاق أوسلو، إلى قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ الحيوي والذي لا يمكن إنكاره. لكنّ هذه المبادرة بدأت الآن تفقد قوّتها أيضاً. ورحتُ أسمع أكثر فأكثر في أوساط الفلسطينيين الكلمات التي ترعب الإسرائيليين، من أنّ عليهم استرجاع كلّ فلسطين وليس فقط الأراضي التي احتلّتها إسرائيل

عام ١٩٦٧. في غزّة، في خريف عام ٢٠٠٠، واجهت فعلياً تزايد هذا التحوّل. بدأ متدرّب فلسطيني على الكمبيوتر بإبلاغي أنّ قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ لم يكن الممرّ الوحيد للتسوية الحقيقية والسلام. وفي ختام خطابه المليء بالمرارة المتزايدة، بدأ الكلام عن حيفا وعكّا وعسقلان وهي مدن موجودة في إسرائيل وليس ضمن الدولة الفلسطينية التي يقبل بها عرفات.

وطيلة الوقت، بينما كنت أراجع تقاريري وأنا أُحرّر هذا الكتاب، مررت ببعض العلامات الصغيرة المخيفة. وجدت نفسي أتساءل في مقال أمليته على صحيفة الإندبندنت يوم ٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠١ «هل يدرك الأميركيون الكارثة التي ستغمر المنطقة؟». «هل لديهم أيّ فكرة عن القوى الأساسية التي ستنطلق في الأشهر القادمة؟» وتساءلت مجدّداً لماذا أكتب هذه الكلمات؟ ماذا كنت أتوقّع قبل أقلّ من ستّة أشهر ونصف شهر من انفجار هذه القوى الأساسية؟ وتذكّرت ذلك الصديق في رام الله، الصديق الذي حاول أن يشرح لي ردّة الفعل الفلسطينية تجاه الانتحاريين بالقول إن الفلسطينيين شعروا «بضرورة معاناة عدوّهم أيضاً»...

وهكذا، بينما كنت أخرج ملفّاتي من فوق الرفوف، وملاحظاتي من بيروت وإسرائيل وفلسطين، سمعت الساعة تدقّ باتجاه ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، والرزنامة تلفظ التواريخ. ولديّ نسخة قاسية لتقرير طويل مرسل من القدس يوم ٢٨ آب/أغسطس ٢٠٠١. ولم يكن قد بقي غير أسبوعين فقط للانطلاق...

لم يبقَ ثمّة أثر لإيناس أبو زيد. كان عمرها سبع سنوات وملصقات الشهداء التي انتشرت في ذلك الوقت في خان يونس أظهرتها فتاة مميّزة. لكن ليس لها أثر بين أجزاء الحديد والبلاستيك المجعّد، ولا على تراب غزّة الناعم. تبخّرت إيناس وتحوّلت إلى غبار خلال ثوان. وأبلغني صبيّ مشيراً إلى البعيد عبر الرمل إلى حيث توجد أكواخ من الإسمنت ونوافذ من القماش ماثلة في الأفق: «سوف أدلّك من أين جاء الصاروخ. أطلق الإسرائيليون الصاروخ من خلف تلك المنازل. كانت دبّابة».

هل كانت كذلك؟ قلت ذلك لنفسي، ليس كسؤال بل كملاحظة أخرى من تلك الملاحظات التي تجد نفسك تقولها في غزّة؟ كذب؟ أم حقيقة؟ تصبح تلك الأمور مهمّة عندما تتطوّر حرب ما إلى مثل قساوة هذه الحرب وسوئها. مات والد إيناس، سليمان، معها وكذلك ابنه البالغ ستّ سنوات والمدعوّ سليمان أيضاً. لا أعتقد أنني صادفت حرباً يُقتل الأطفال فيها بهذه السرعة. وإذا لم يكن ثمّة طفل إسرائيلي وقع في خطّ نار قنّاص فلسطيني، فإن طفلين فلسطينيّيْن كانا غافليْن إلى حدّ الوقوف خارج مكتب لحماس عندما اختار الإسرائيليون تفجير المكان، أو أطفال مدارس قرّروا تناول بيتزا في وقت مبكّر بعد الظهر، أو إيناس وسليمان الصغير حين كانا في الطريق أو ـ إذا كانت حماس تكذب والإسرائيليون يقولون الحقيقة ـ تحوّلا إلى رماد بسبب قنبلة والدهما.

قامت السلطة الفلسطينية بمسح شامل لحديقة أبو زيد الخلفية. فإذا كان يصنع قنبلة فقد اختفت مثل إيناس. فتّشت بين الركام. كيف يمكن لصاروخ إسرائيلي التحليق فوق الأكواخ الأخرى والتسلّل عند الزاوية خارج حديقة

أبو زيد الخلفية، والمرور فوق جدران الحديقة ثم تحت السقف البلاستيكي لتحويل العائلة الى أشلاء؟ لكن مَن يصنع قنبلة بينما يقف طفلاه بقربه؟ أو ربّما كانت هناك قنبلة مخبّأة في الحديقة الخلفية ولمستها إيناس أو سليمان الصغير!؟

تجمّع حشد من الناس حولي، وكانوا عابسين ومُرتابين. وليس من السهل الآن التحقيق في هذه الوفيات. قالت لي موظفة إغاثة نرويجية: «أنا نرويجية لكنّ الفلسطينيين بدأوا ينظرون إليّ في الشارع ويتحدّثون عنّي على أنني أميركية، إنهم يلومون الأميركيين على ما فعله الإسرائيليون. والآن يلومون الأوروبيين لأننا لا نفعل شيئاً لمساعدتهم». هذا بالضبط ما حصل في لبنان. كانت السيدة النرويجية على حقّ. كنت مُراقباً وأنا أسير في الشارع في مدينة غزّة وتمّ التدقيق بملامحي من قِبل الشباب في رفح عند نقطة في الخالدية ـ خارج القدس في الطريق إلى رام الله ـ ونظر طفل فلسطيني من بين حوالى اثني عشر طفلاً من أترابه إلى لوحة سيّارتي الإسرائيلية والتقط قضيباً من الحديد وضربه بقوّة على دفاع مؤخّرة السيّارة. ونظر رجلان في شاحنة إليّ بازدراء بينما كنّا ننتظر جميعاً عند إحدى نقاط التفتيش الإسرائيلية المذلّة.

في كلّ مكان كانت تُلاحظ علامات الانهيار لسلطة ناشئة. وكانت جدران غزّة تُستخدم لرسم صور عرفات بتكشيرته المشعّة البشعة، وصور المسجد الأقصى. والآن هي مليئة برسوم الحافلات المتفجّرة وعلى متنها الأطفال والجنود الإسرائيليّون القتلى والدماء تتدفّق من رؤوسهم. وقال لي صاحب مقهى فلسطيني بينما كانت تمرّ بقربنا ثلاث عربات تنقل ماء وتجرّها ثلاثة جياد مُنهكة: «لم يعودوا يتحدّثون عن عرفات. هناك فقط دُعابة منتشرة عنه في المحيط تقول: عرفات في كامب دايفيد واليهود يطلبون منه «وقف العنف». فيردّ عرفات: لا أستطيع وقف العنف إلّا عندما أتمكّن من وقف ارتجاف شفتيّ».

وقد أصبح عجز عرفات المتزايد مصدراً لاهتمام عميق. ليس بعيداً عن الخليل، التقيت مسؤولاً فلسطينياً كبيراً، مهمّاً إلى حدّ أنه طلب إبقاء شخصيّته مجهولة، حرّك رأسه بيأس، وقال: «ماذا يستطيع عرفات أن يفعل الآن؟ لقد تحطّمت حياته الزوجية ـ التقى زوجته لثلاث دقائق فقط خلال الشهور العشرة الأخيرة. تحتاج طفلته إلى والد وهو غير موجود هناك. وهو يسمح لهذا المكان بالتحوّل إلى القبليّة والتفكّك. توجد هنا حالة تفكّك كاملة».

إنّها حقيقة. ففي الطريق إلى نابلس، أصيبت سيّارة أجرة فلسطينية صفراء بحجر ـ قذفه على ما يبدو سائق إسرائيلي في السيّارة القادمة من الجهة الأخرى، أو هذا ما اعتقده رجال الشرطة الإسرائيليين، ومالت السيّارة بسرعة خارج الطريق، فقُتل سائقها كمال مسلم على الفور. لكن عندما وصل جثمانه إلى مستشفى رفيدية، ظنّت عائلته أنّه تعرّض للقتل من قِبل عائلة فلسطينية معادية بزعامة علي فريج. وقد كمنت عائلة فريج لآل مسلم المحزونين برشّاشات الكلاشينكوف. وكان بين القتلى الفلسطينيين الأربعة علي فريج ومسؤول في فتح كان عضواً في وحدة الأمن الوقائي المحلّية التابعة لجبريل الرجوب، وأُصيب ستّة آخرون بجراح. هؤلاء هم رجال عرفات وهم يقتتلون وما انفكّ عرفات صامتاً.

حتى الآن هذا هو الأمر الواقع: يستمرّ أرييل شارون في القول بأن عرفات قاتل، إرهابي كبير، زعيم الإرهاب العالمي، مرتبط بأسامة بن لادن، رجل يعطي أوامر لقتل الأطفال في مطعم البيتزا. ويصدّق الرأي العامّ الإسرائيلي ذلك، ويضع صحفيّوهم ذلك في الصفحة الأولى ويردّده شعبهم بشكل مستمرّ. وفي أحاديثي مع الإسرائيليين ـ في سيّارات الأجرة، وعلى متن الطائرات، وفي المطاعم ـ كنت أسمع دائماً الكلام نفسه: إرهاب، قتل، قذارة. مثل شريط تسجيل. أين سمعت ذلك من قبل؟.

في غزّة، لا أتمالك نفسي من تذكر بيروت عام ١٩٨٢. غزّة الآن هي عبارة عن نموذج مصغّر لبيروت: تحت الحصار الإسرائيلي، مقصوفة بطائرات «أف١٦» وبنيران مدافع الدبّابات والسفن الحربية، محرومة من الموادّ الغذائية وضعيفة (وهناك الآن ستّ ساعات قطع للكهرباء كل يوم في غزّة). كان الأمر كما لو أنّ عرفات وشارون يعاودان لعبة الأيام الدامية في لبنان. كان شارون حينها يُسمّي عرفات قاتلاً جماعياً. من المهمّ ألّا نصبح متسلّطين خلال الحروب. وكل يوم في القدس، أشتري صحيفة الجيروزالم بوست، وأجد في الصفحة الأولى كالعادة شارون آخر يندّد: قتلة منظّمة التحرير، السلطة الفلسطينية الإرهابية، إرهابيون قتلة.

كلّ يوم، أسافر إلى أماكن وقوع غارات إسرائيلية جديدة. ويقوم الإسرائيليون بقصف مراكز الشرطة الفلسطينية، ومراكز الأمن الفلسطيني ونقاط تفتيش الشرطة الفلسطينية. لماذا الشرطة؟.

تجوّلت في قطاع غزّة مع صديق قديم من حرب بيروت، موظّف إغاثة أوروبي مازال يحمل أثر جرح رصاصة لبنانية في يده ومعدته ـ وقد أصابت الشظيّة طِحاله وكبده. قال: «الآن إذا نظرت إلى يمينك يا بوب، ترى هناك مركز الشرطة الذي دمّره الإسرائيليون الأسبوع الماضي». وثمّة المزيد من المباني القديمة. «وفي أسفل الشارع تستطيع رؤية المكاتب الفلسطينية التي دُمّرت في تموز/يوليو». بعد الغارات الأولى، قام الفلسطينيون بعملية إعادة بناء وطلاء سريعة. والآن لم يعودوا يهتمّون. لكن كيف يستطيع عرفات اعتقال القتلة إذا كان الإسرائيليون سيدمّرون كلّ مراكز شرطته؟.

هناك قصّة رواها لي أحد الرجال الذين يحقّقون حول مسؤولية شارون في مجزرة صبرا وشاتيلا، والقصّة تتلخّص في أن وزير الدفاع الإسرائيلي أعلن لحلفائه الكتائب قبل إرسالهم إلى داخل المخيّمات، أن الإرهابيين الفلسطينيين هم الذين قتلوا زعيمهم، الرئيس المنتخب بشير الجميّل. ونُقل عن شارون لاحقاً أنه لم يتصوّر أن الكتائب سيقتلون الفلسطينيين. لكن كيف يمكنه قول ذلك إذا كان قد ادّعى سابقاً أن الفلسطينيين هم الذين قتلوا زعيم الكتائب؟ في الواقع، لم يكن أيّ فلسطيني متورّطاً في مقتل الجميّل. وفي هذه الحرب الجديدة يبدو مستغرباً التفكير في تلك الفظاعة السابقة. كنت مذهولاً من اللغة المستعملة: قتلة، إرهابيون. هذا ما قاله شارون حينها وهذا ما يقوله الآن. هل صرّح بذلك حقاً عام ١٩٨٢؟.

بدأت بإجراء اتصالاتي من القدس، واتّصلت بمكاتب الأسوشيتدبرس الذين ربّما لا تزال لديهم ملفّاتهم

العائدة لتسع عشرة سنة خلت. ربّما ألقى هذا الخطاب ـ وهل استخدم هذه الكلمات فعلاً ـ في ساعة ما من يوم ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢.

بعد ظهر يوم أحد، رنّ هاتفي في القدس. كانت المخابرة من إسرائيلي في يافا التقيته بعد تفجير سبارو حين كانت امرأة يهودية أميركية توجّه إهانة إليّ ـ كان الصحفيون الأجانب يتعرّضون للإهانة من الطرفيْن بلهجة أعنف ـ وتدخّل هذا الرجل فجأة لحمايتي. كان مبتسماً ولطيفاً وتبادلنا أرقام الهاتف. ويقول الآن على الهاتف إنه متوجّه على رحلة طائرة العال الليلية إلى نيويورك مع زوجته. وسألني إذا كنت أرغب في الحضور لتناول الشاي.

بدا أنه يملك شقّة فخمة قرب فندق الملك داود ولاحظت عندما قرأت اسمه على الجرس الخارجي أنّه حاخام. كان غاضباً لأنّ جاره قام لتوّه بتنفيس إطارات سيّارة صديق في المرآب تحت الأرض، وقال إنه شعر برغبة في تحطيم زجاج سيّارة جاره. أحضرت زوجته الشاي والبسكويت وقالت إن زوجها ـ الذي طلب إبقاء اسمه مجهولاً مجدّداً ـ يغضب بسرعة. كان هناك نوع من اللطف والإنسانية في المكان. كم هو سهل اكتشاف زوجيْن ما زالا في حالة حبّ ـ هذا مثير للإعجاب. لكن عندما بدأ الحاخام بالكلام عن الفلسطينيين، أخذ صوته يتردّد في أنحاء الشقّة. قال عدّة مرّات إن شارون صديق حميم له، ورجل جيّد، وجاء لزيارته في مكتبه في نيويورك.

قال: «ما علينا القيام به هو الذهاب إلى أوكار الحشرات وإخراج الإرهابيين والقتلة. أوكار الحشرات، أجل أقول حشرات، حيوانات. أقول لك ما يجب علينا عمله. إذا أُلقي حجر من مخيّم لاجئين، علينا إحضار الجرّافات وتدمير أوّل عشرين منزلاً قريبة من الطريق. وإذا أُلقي حجر آخر، يتمّ تدمير عشرين منزلاً أخرى. وسيتعلّمون بسرعة عدم إلقاء الحجارة. انظر، سأقول لك ذلك. الحجارة مميتة. إذا ألقيت حجراً عليّ، أقتلك. لي الحقّ في قتلك».

والحال، أن هذا الحاخام يُعتبر رجلاً كريماً. جاء إلى إسرائيل للتبرّع بمركز طبّي، مهمّ جدّاً وباهظ الكُلفة. ويمكنك جيّداً قراءة ما يفكّر فيه. وقد أحببت واقع أنه بعكس العديد من الإسرائيليين والفلسطينيين الذين يقولون «إننا نريد السلام فقط» بشكل روتيني لإخفاء المزيد من الأفكار المتوحّشة ـ كان على الأقلّ يقول ما في ذهنه. لكنّ الأمر أصبح خارج السيطرة. لماذا عليّ إلقاء حجر على حاخام؟ صرخ مجدّداً. «إذا ألقيت حجراً عليّ، أقتلك». قلت له: ولكن إذا ألقيت حجراً عليّ فأنا لن أقتلك. لأنّ لديّ الحقّ في عدم القتل. قطّب جبينه. ثم قال: «إذن، سأقول وقتها إنك فقدت عقلك».

كنت أقود سيّارتي عائداً إلى البيت عندما صعقني الأمر. فجأة، تصادم العهد القديم والعهد الجديد للتوّ. لقد علّم والد الحاخام ابنه مبدأ العين بالعين ـ أو عشرين منزلاً مقابل حجر ـ كما علّمني بيل فيسك مبدأ إدارة الخدّ الآخر. اليهودية تتصادم مع المسيحية. إذن هل هناك أيّ مفاجأة في تصادم اليهودية والإسلام؟ إذ بمعزل عن كلّ الحديث عن المسيحيين واليهود «كأهل كتاب» بدأ المسلمون يعبّرون بشكل أشدّ قسوة عن وجهات نظرهم حول

اليهود. إن إشارات حماس المزعجة عن اليهود أنهم أبناء خنازير وقردة لقيت صدى عند الإسرائيليين الذين يتحدّثون عن الفلسطينيين كصراصير وحشرات، والذين يقولون لك ـ كما أخبرني الحاخام ـ بأنّ الإسلام دين مقاتل، دين لا يقدّر الحياة البشرية. وتذكّرت عدّة مرّات مستوطناً إسرائيلياً قال لي عام ١٩٩٣ ـ في غزّة، قبل توقيع اتفاقيات أوسلو ـ «إننا لا نعترف بقرآنهم كمستند صالح».

خرجت من مكتب صحيفة الإندبندنت في ضاحية أبو طور المقدسيّة لأجد سيّارتي محطّمة الزجاج. الآن جاء دوري لأغضب. فقد جرى تحطيم نافذة السائق وكذلك الراديو. وكان الملصق الذي يحمل علامة التلفزة TV واضحاً على النافذة ـ على أمل أن لا يُطلق المسلّحون الفلسطينيون والجنود الإسرائيليون النار على السيّارة. كان معظم سكّان أبو طور من العرب، ويقع مكتب صحيفة الإندبندنت على الخط الأخضر القديم، حيث العرب إلى يمين الباب الأمامي ومعظم اليهود إلى اليسار. قدت سيّارتي إلى مكتب وكالة هآرتس للتأمين وأنا أجلس على كومة من كِسَر الزجاج. وهناك أبلغتني الموظفة أنه للحصول على كفالة هآرتس عليّ إبلاغ الشرطة عن السرقة. وطلبت مني الذهاب إلى المجمّع الروسي.

كنت أعرف عن المجمّع الروسي من خلال تقارير منظّمة العفو الدولية. هنا يحصل معظم التعذيب الإسرائيلي للإرهابيين الفلسطينيين السيّئي السمعة. إذن هذه رحلة مهمّة. وما كدت أوقف سيّارتي عند المجمّع حتى تحدّث إليّ مكبّر صوت بالعبرية، وأبلغني شرطيّ أنه لدواعٍ أمنيّة عليّ إيقاف سيّارتي عند المنعطف. لا مشكلة بهذا الخصوص. شاهدتُ سيّارتيْ شرطة كبيرتيْن نوافذهما محصّنة تمرّان عبر الحاجز الأمني. ولما أوقفت سيّارتي وعدت إلى الباب. سُئلت: «أين سُرقت سيّارتك؟ أجبت: خارج المكتب في أبو طور. تنهّدت الشرطيّة وسألت: حسناً، ماذا تتوقّع؟ فهمت ماذا تقصد. العرب يسرقون، ألا يفعلون؟، يسرقون أجهزة الراديو من السيّارات ويفجّرون محلّات البيتزا أيضاً؟.

انتظرت ساعة. لم يكن هناك أيّ شرطي ليكتب التقرير، مع أنّ أكثر من مئتيْ شرطي يحاصرون بيت الشرق على بعد بضع مئات من الأمتار في الطرف الآخر من المدينة.

كلّ يوم تجري تظاهرة في الشارع قرب بيت الشرق. وهناك كانت كاميرات التلفزيون لكن ذلك لم يمنع ستّة من رجال شرطة الحدود من مهاجمة عدّة شبّان فلسطينيين، وضربهم أمام الكاميرات ستّة من رجال على رؤوسهم وأجسادهم. وجرى اقتياد أحدهم إلى سيّارة الشرطة وظلّ متماسكاً حتى ضربه شرطي آخر على خُصْيتيْه. ولم يستطع رجل أمن إسرائيلي إشاحة نظره عن هذا العمل الشنيع، فكان ينحني أمامي ليرى أين استقرّ حذاء الشرطي الإسرائيلي الآخر بين فخذي الشاب. كيف يستطيعون القيام بذلك أمام الكاميرات؟ رحتُ أسأل نفسي هذا السؤال، ثم راودتني الفكرة السوداوية بأنّ الشرطة الإسرائيلية تريد أن تصوّر الكاميرات ذلك، يريدون أن يشاهد الفلسطينيون ما يحصل لهم عندما يعارضون إسرائيل، عندما يتظاهرون، عندما يعترضون ـ من خلال رفع علم فلسطيني من ورق، تماماً كما يفعل طفل صغير.

أعتقد أن الصدمة النفسية التي يحدثها العنف هي التي تصيبك أولاً، فتدرك فجأة أن البشر ينوون إيذاء بعضهم البعض. إنها تؤثر على الجميع في هذا الصراع.

كنت أشارك في جنازة رجل من حماس في طولكرم وعدت إلى سيّارة الأجرة المتوقّفة في الجانب الإسرائيلي من الخطّ. على خارطة الضفّة الغربية وغزّة (فُسيفساء من طرق المستوطنين والحدود) تُعتبر طولكرم منطقة أ، أي تحت إشراف فلسطيني، ومكان توقّف السيّارة يُعتبر منطقة ج، أي تحت إشراف إسرائيلي. وعندما ذهبت في الصباح من المنطقة ج إلى المنطقة أ كانت الطريق مليئة بالنفايات والحجارة. لكن عندما عدت، كانت هناك معركة محتدمة يخوضها الأطفال الذين كانوا يلقون الحجارة على المواقع الإسرائيلية ويحرقون الإطارات بينما تنطلق الطلقات المطّاطية عبر الأشجار.

كنت تَعِباً وجائعاً ومُتلهّفاً للعودة إلى القدس. لذا أمسكت بالفتيان قرب الإطارات المحترقة وأبلغتهم أنني صحفي وأنّ عليّ العبور عبر الخط. وجدت وجهَيْن آخرَيْن كئيبَيْن متوارِيَيْن في حافلة محطّمة. أبلغتهما الشيء نفسه. ثم سرت بين الإطارات المحترقة نحو الإسرائيليين المختفين، سرت ببطء مثل المتسكّع. ثم حطّ حجر قرب قدمي.

كان حجراً صغيراً جدّاً لكنه سقط مُحدثاً صوتاً مزعجاً. وعندما استدرت أوشك حجر آخر أن يلامس وجهي. وبدأ أحد الأولاد الفلسطينيين بالضحك. حجارة، لم أفكّر فيهم أبداً كأعداء من قبل. وخلال أشهر قليلة، سوف تُصيبني الحجارة، يُصيبني العديد منها ـ حتى أنها كادت مرّة تقتلني ـ لكنّ هذا سيكون لاحقاً، عندما تصل الرزنامة إلى اليوم الذي ينتظرنا جميعاً والذي أستطيع بشكل مُبهم تأكيده الآن على أنه «انفجار».

تابعت السير ببطء وأدركت أن عليّ أن أتلقّى كلّ حجر بهدوء كما لو أن من الطبيعي لمراسل الإندبندنت أن يتعرّض لحجارة الفلسطينيين بعد ظهر يوم صيفيّ حارّ. كانت الطريق موازية للمنطقة أ الآن وجاء شاب يحمل مِقلاعاً واختبأ بين الأشجار ـ أستطيع سماع صرير الحبل ـ ثم اندفع الحجر بسرعة كبيرة نحوي بحيث أني لم أستطع تجنّبه في الوقت المناسب لكنّه أخطأني بحوالى قدم واصطدم بالجدار الحديدي لمصنع إسرائيلي. جعلني الاصطدام أنظر حولي. أنا في وسط محلّ نباتات مهجور، محاط بالأوعية والنسور الإسمنتية والغزلان والأواني الضخمة. كان هناك أحد النسور بدون رأس وثلاثة أحجار أخرى طولها ثماني إنشات تقريباً. أدركت ما حدث. عرف الفلسطينيون أنني مراسل أجنبي ـ وقد أطلعتهم على بطاقتي الصحفية اللبنانية، لكن في اللحظة التي عبرت فيها الخطّ، أصبحت إسرائيلياً. وفي اللحظة التي لم يعودوا قادرين فيها على تمييز وجهي، لم يعودوا مهتمّين. أنا إسرائيليّ لأنني في الجانب الإسرائيلي من الخطّ. أتساءل ماذا كان ليفعل صديقي الحاخام؟

لدى عودتي إلى القدس، شغّلت هاتفي مجدّداً، محاولاً اكتشاف تلك العبارة المراوغة. إذا سمّيت الناس حيوانات، وإرهابيين، وحشرات، فهل تفاجأ إذا تصرّفوا بعنف؟ أمن العجب إذن أن يكون عرفات شخصياً يحرّك المناطق التي يسيطر عليها قبلياً، مؤلّباً آل المصري والنابلسيين في نابلس بعضهم ضد بعض، وداعماً آل الشقّار في نابلس والشوّا في غزّة، ومؤيّداً حماس والجهاد الإسلامي من خلال عدم إصدار موقف؟.

في الطريق إلى جنين، أوقفنا، أنا وزميلي من الدايلي تلغراف، حرس الحدود الإسرائيلي. وعلى الطريق الرطبة، اتصلنا بالمكتب الصحفي للجيش الإسرائيلي لطلب إذن بالمرور. وهناك على التلّة، مستوطنة يهودية صغيرة، كلّ أسطحها حمراء ومليئة بالنبات الطيّب الرائحة. غريب كيف نعامل بشكل طبيعي عمليّات سلب هذه الأراضي الصغيرة الآن. وكان حرّاس الحدود يشعرون بالملل. قام أحدهم بفتح مكبّر الصوت في سيّارة الجيب ووصل الميكروفون بهاتفه الخليوي وبدأ يلعب بزرّ الموسيقى. ثلاث وصلات من مطلع ١٨١٢، ثلاثة مقاطع من سيمفونية بيتهوفن الخامسة، وثلاثة من موسيقى الماء لهاندل، وكلّها تزعق بصوت مرتفع، محرّفة وهابطة، قاذفة تدميرها العالي التقنية لأكبر مؤلّفي الموسيقى في العالم على الطريق الحارّة مع كلّ سِحْليّاتها وأدغالها وقُمامتها. كم هو جميل ومريح أن تجد أنّ ثمّة عقلانية ما.

في الرحلة إلى تلّ أبيب، وجدت نفسي جالساً إلى جانب ضابط إسرائيلي احتياطي. صرّحت له عن وجهة نظري ـ الانتفاضة تستمرّ حتى عام ٢٠٠٤. قال إنها ستستمرّ حتى عام ٢٠٠٦. «وفي النهاية، سوف نعود إلى حدود ٦٧ ونعطيهم القدس الشرقية». ثم أضاف: «لكن استناداً إلى الطريقة التي نعاملهم بها، سأكون مندهشاً إذا اكتفوا بذلك». سألت فلسطينياً من رفح عن رأيه فقال: «٢٠٠٥، ٢٠٠٦ ما الفرق؟ لكنّني أبلغك شيئاً واحداً، بعد انتهاء هذه الانتفاضة، ستكون هناك ثورة ضدّ عرفات. كيف يسمح بحصول ذلك؟ كيف يستطيع التفكير أنه سينتصر؟». بالطبع لن تكون هناك ثورة، سوف يحاصر شارون عرفات في رام الله، وسوف يموت عرفات.

أقود سيّارتي مجدّداً في أنحاء غزّة. إلى جانب الطريق رأيت مجموعة من الرجال متوسّطي العمر جالسين تحت مِظلّة خضراء من القماش، بعضهم يضع يديه على رأسه وآخرون ينظرون إلى الرمال. إنهم ينتحبون على محمّد أبو عرار الذي أُصيب في رأسه من قِبل جندي إسرائيلي بينما كان يلقي الحجارة. كان عمره ١٣ عاماً. لقد أصبح كلّ جدار فسيفساء من الملصقات ترى فيها: شبّاناً قتلى، رجالاً مُسنّين قتلى، أطفالاً قتلى، نساء قتيلات، انتحاريين قتلى، وتوجد عادة صورة ملوّنة للمسجد الأقصى خلفهم، مبنى لم يشاهده معظمهم أبداً.

خارج خان يونس، قام الإسرائيليون بجرف عدّة دونمات من أشجار الليمون والبيوت ـ لأسباب أمنية بالطبع ،طالما هناك مستوطنة إسرائيلية منشأة في الجوار ـ وتركوا جزءاً آخر في فلسطين يبدو مثل القبر. «حسناً، يقولون إنه من أجل الأمن». قال لي موظّف أوروبي، «لكن عندي سؤال. هناك ثلاثة منازل مشيّدة، أحدها مكتمل ومسكون والاثنان الآخران مازالا قيد البناء، جدران وسقف فقط. قال الإسرائيليون إنه يمكن استخدامهما من أجل الكمائن. لذلك جاءت جرّافة ودمّرت المنزل بالكامل ثم دمّرت أدراج المنزلين غير المكتملين فقط. الآن، كيف يمكن أن يكون ذلك من أجل الأمن؟».

في رفح، كان اللامعقول الحقيقي!!. خرج رجل في الأربعين من العمر من خيمته على الحدود ـ خلفه العلم المصري يلامس العلم الإسرائيلي ـ وسألني إذا كنت أرغب في رؤية أنقاض محلّه المخصّص لبيع الألعاب. وكان إلى جانب الخيمة رُكام من الحجارة الإسمنتية، وهواتف من مختلف الأنواع، وأغطية مصابيح، وساعات، وألعاب

من طائرات هيلكوبتر، وحفرة ضخمة. قال: «لقد دمّره الإسرائيليون في أيار/يونيو وبقيت حتى اللحظة الأخيرة أركض في الزقاق عندما وصلت الدبّابات». وخرج محمّد الشاعر وهو فلسطيني يحمل جواز سفر مصرياً وأشار عبر الحائط الحدودي ـ «عندي بيت خلف شجرة النخيل هناك، وأنا هنا لحماية أرضي». لديه إذن بالذهاب والمجيء مثل كلّ سكان رفح المزدوجي الجنسية وفق اتفاق ١٩٠٦ بين الإمبراطورية العثمانية وبريطانيا والذي عمد إلى شرحه بتفصيل معقّد لا نهاية له.

خلفه، كان الأطفال يطيّرون طائرات ورقيّة ـ وكلّما طارت طائرة فوق الخطّ الحدودي، يطلق جندي إسرائيلي طلقة رصاص. تسقط الطائرة في الروث والرمل ويصرخ الأطفال فرحين، وتسقط طائرة مجدّداً. ويقول محمّد الشاعر «إنهم يطلقون النار على الطائرات الورقية أو الأطفال». وأخبرني أنه تعلّم اللغة الإنكليزية كمُبرمج كمبيوتر في القاهرة. وشرح بإسهاب أن السبب الرئيسي لبقائه أن لديه قريباً لا يثق به وأن هذا القريب يعيش في الجانب الفلسطيني من رفح وربّما عمد إلى إعادة تسجيل الأرض التي يقع عليها المحلّ لصالحه لو عاد محمّد إلى مصر.

كلّ ليلة، يطلق الفلسطينيون النار على الإسرائيليين من هذه الطرقات ـ ولهذا السبب دمّر الإسرائيليون محلّ محمّد الشاعر. قال: «هذه الفجوات من الرصاص الذي أُطلق الليلة الماضية»، وأراني ثلاث فجوات بحجم القبضة في جدار أقرب مبنى. وتابع: «أستطيع سماع العيارات النارية تمرّ فوق خيمتي». وإني أتساءل كيف يمكنني كتابة الصورة التي وصفها لي الشاعر: فلسطيني في حالة حرب مع قريبه، يجلس في خيمة قرب محلّ ألعاب مدمّر، يراقب الإسرائيليين وهم يطلقون النار على الطائرات الورقية.

اتصلت بإيفا شتيرن في نيويورك . فقد كانت موهبتها في مراجعة الملفّات موضع ثقتي بأنها تستطيع معرفة ما قاله شارون قبل مجزرة صبرا وشاتيلا. أعطيتها التاريخ الذي يدور في مخيّلتي ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢. وعادت إلى الاتصال بي في الليلة نفسها. قالت إيفا: «افتح جهاز الفاكس وسترغب في قراءة هذا».

بدأت الورقة تخرج من الجهاز. تقرير لوكالة أسّوشيتدبرس يوم ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢. ربط وزير الدفاع الإسرائيلي أريل شارون في تصريح له مقتل رئيس الكتائب بشير الجميّل بمنظمة التحرير الفلسطينية قائلاً إن ذلك: «يرمز إلى الإرهاب القاتل لتنظيمات منظمة التحرير الفلسطينية الإرهابية ومؤيّديها».

ثم، بعد ساعات قليلة، أرسل شارون مسلّحي الكتائب إلى داخل المخيّمات الفلسطينية. ولدى مراجعتي الورقة مرّة تلو أخرى، شعرت بقشعريرة تنتابني. هناك إسرائيليون اليوم يحملون الغضب نفسه تجاه الفلسطينيين كما فعل الكتائب منذ تسع عشرة سنة. وهذه هي الكلمات ذاتها التي أسمعها اليوم من الرجل ذاته حول الشعب ذاته.

لكن مَن هم هؤلاء القوم؟ في عالم الصحافة الغربية المتحرّر من المحرّمات، يستمرّ بذل كل جهد ممكن ليس من أجل إظهار هؤلاء القوم غير إنسانيين فحسب بل لتجهيلهم أيضاً، لتجريدهم من وطنهم، من هويّتهم.

يشرح مقال طويل لدايفيد مارغوليك في «ڤانيتي فَير» Vanity Fair سياسة إسرائيل في «القتل الهادف» (اغتيال الفلسطينيين الذين يختارهم الإسرائيليون كتهديد أمني) ومع ذلك لا يورد أبداً كلمة «القتل العمد» ويقول مارغوليك: «إن بعض عمليات إسرائيل في القتل الهادف باهرة». وعلاوة على ذلك، خلا المقال من أيّ إشارة تفسّر من أين جاء الفلسطينيون، ولماذا هم خاضعون للاحتلال ـ أو لماذا شُيّدت المستوطنات الإسرائيلية على أرضهم. وكتب ستيوارت ستيفن في صحيفة «مايل أُون صنداي» Mail on Sunday أنه «لا توجد لغة تُعرف بالفلسطينية، وليست هناك ثقافة فلسطينية مميّزة، وليس هناك لباس فلسطيني مميّز، ولا يمكن تمييز الفلسطينيين عن بقيّة العرب». وأضاف: «لم يقم محمّد بزيارة القدس أبداً». والواقع أن الفلسطينيين يتكلمون العربية ولكن بلكنة فلسطينية مميّزة، وهناك ثقافة فلسطينية في الشعر والنثر، كما في اللباس الوطني الخاصّ بالنساء. وجسدياً، يتميّز العديد من الفلسطينيين بطولهم، ولونهم القاتم ـ إذا جاؤوا من الجنوب ـ وبقسمات وجوههم الجميلة. ويمكن القول بالمقياس نفسه (الذي اعتمده ستيفن) أنه لا توجد لغة أميركية، وأن الثقافة الأميركية إنكليزية المنشأ، وأنه لا يوجد لباس أميركي مميّز، وأنه لا يمكن تمييز الأميركيين عن بقيّة الغربيين. (ولقد جاء في القرآن الكريم أن الله تعالى أسرى بالنبيّ محمّد من مكّة إلى بيت المقدس) إن الرواية تقول إن النّبي محمّداً زار القدس. وأياً كان الأمر، فإن المسيحيين مثلاً لا ينفون الطبيعة المقدّسة للفاتيكان أو لكنيسة كانتبري لأن المسيح لم يقم بزيارة روما أو بريطانيا أبداً. على أنّ النماذج الأكثر إزعاجاً وقساوة لهذا الإزدراء بالفلسطينيين إنما تظهر بشكل منتظم في الصحف الغربية. في صحيفة الأيريش تايمز، على سبيل المثال، شعر مارك شتاين بنفسه قادراً على وصف حزن عشراوي المتميّزة كواحدة من «المدافعين عن الإرهاب». وفي زيارة للضفّة الغربية عام ٢٠٠٣، كتب شتاين: «شعرتني بالنفور». إنها «بيئة مريضة بكاملها»، «ثقافة تمجّد الشرّ»... ممّا قاد الكاتب الى الاستنتاج أن «لاشيء جيّداً ينبت في أرض سامّة».

حالما تمّ إسقاط هويّة الفلسطينيين أصبحت أرضهم موضوع «خلاف» وليس «احتلال»، وحالما سمح عرفات للأميركيين والإسرائيليين بالتقليل من أهمّية القدس، والمستوطنات وحق العودة، وتأجيلها إلى مفاوضات المرحلة النهائية (وهكذا فإنه لا يجب الحديث عنها في الوقت الراهن لأن ذلك سيهدّد السلام) صار ممكناً تعريف أية مقاومة فلسطينية بالإرهاب. وفي هذا المجتمع يوجد «مرض»، «وباء»، «شرّ»، «أرض سامّة»، مدفونة في قلوب الفلسطينيين ـ سرّاً ـ ويجب أن يظلّ شعورهم بالغضب والإحباط والاستياء حيال جُملة من المظالم(*).

بعد ساعات من هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ضدّ الولايات المتحدة، حوّل شارون إسرائيل إلى حليف لأميركا في «الحرب على الإرهاب» وجعل من عرفات فوراً الترجمة الفلسطينية لبن لادن، والانتحاريين الفلسطينيين

(*) في كوريا، وهي بلد لديه مخزونه الخاص من الحزن والخيانة، يترجم هذا الشعور بكلمة: هان han. وقد استنتج كاتب حول كوريا أن ذلك يشبه سوء حظّ كلّ الدول الصغيرة التي تخضع لتجربة الظلم على يد جيران أكبر وأقوى. وقد وجّه الإيرلنديون ترجمتهم لكلمة han نحو الإنكليز، ووجّه الـ han البولندي نحو الجيران الروس والألمان الذين قاتلوا لفترة طويلة من أجل السيطرة على الأرض التي تقع بينهما.

أخوة في الدم للانتحاريين التسعة عشر ـ لم يكن بين أولئك الذين خطفوا أربع طائرات ركّاب أميركية فلسطينيّ واحد ـ وضمن الروح الجديدة والانتقامية التي شجّعها الرئيس بوش في أوساط الأميركيين، شعر مساندو إسرائيل في الولايات المتحدة بأنهم صاروا أحراراً الآن في تصعيد طلب العقوبات ضدّ مناوئي إسرائيل، إلى حدّ أنها لامست الدعوة إلى الدفاع عن جرائم الحرب.

دعا ناثان لوين، وهو مدّعٍ عامّ بارز في واشنطن وزعيم لمجموعة يهودية ـ ومرشّح لمنصب قاضٍ فيدرالي أحياناً ـ إلى إعدام عائلات الانتحاريين. وقد كتب في صحيفة Sh'ma، «إذا كان إعدام عائلات الانتحاريين يُنقذ عدداً مماثلاً من الضحايا المدنيين المحتملين، فالمقايضة، بحسب اعتقادي، جائزة أخلاقياً».

يستطيع المرء التساؤل فقط كيف يمكن وضع خطّة لوين موضع التنفيذ. هل يحكم على زوجة الانتحاري ـ أو زوجها ـ بالموت أوّلاً؟ أو المولود الأوّل؟ أو الابن الأصغر؟ أو ربّما تُؤخذ الجدّة من كرسيّها وتُعدم بينما تشاهدها بقيّة العائلة. يرتكز منطق لوين، بشكل يمكن التنبّؤ به، على الكتاب المقدّس. «صار الأمر التوراتي بالقضاء على قبيلة العماليق القديمة يشكّل سابقة في اليهودية لاتخاذ إجراءات كانت غير مقبولة في الحالات الطبيعية، في وجه تهديد قاتل». قال آلان دورشويتز، أستاذ القانون في كلّية القانون في جامعة هارفرد والذي يحبّذ الاستخدام المحدود للتعذيب للحصول على معلومات، إنّ اقتراح لوين مشروع إذا كان محاولة لإقامة توازن بين مواجهة الإرهاب والحفاظ على الديمقراطية. وقد ندّد زعماء يهود أميركيون آخرون بوجهة نظر لوين وشجبوها، كما أشاروا إلى أن العلماء قالوا بأن دروس العماليق لا يمكن تطبيقها على الأحداث المعاصرة إلا إذا ذهب المنطق إلى نهاية الطريق ورأى بأن الشعب الفلسطيني بمجمله يستحقّ مصير العماليق... ولا يمكن القول بحال من الأحوال إن الفلسطينيين أنفسهم كانوا كارهين لعقوبات الموت بحقّ مواطنيهم، مع أن الأشخاص المستهدفين كانوا عُملاء إسرائيل.

يوم ٩ آب/أغسطس ٢٠٠٠، على سبيل المثال، احتاج القاضي فتحي أبو سرور إلى عشرين دقيقة فقط للحكم بأن مُنذر حفناوي يجب أن يُعدم. في الساعة العاشرة تماماً، جلس حفناوي في كرسيّه البلاستيكي، ويداه مربوطتان بين ركبتيه، فيما نظره يتحرّك بثبات بين الحشد الغاضب في محكمة نابلس الفلسطينية، وقد تفادت عيناه العسليّتان والدة الشابّ الفلسطيني الذي كان قد دبّر هو عملية اغتياله من قِبل الإسرائيليين. جلس محاميه، سمير أبو عوده ـ المعيّن من السلطة الفلسطينية ـ بوداعة خلف الطاولة، مطأطئ الرأس، صامتاً. في الساعة ١٠:٢٠، أمر القاضي أبو سرور بإعدام المتهم وكان حفناوي يصرخ كالحيوان عند أقدام حرّاسه.

لم تكن تلك عدالة أوّلية... لم تكن حتى رواية مأساوية. كانت مهمّة استعراضية تسمح للجمهور بالصراخ والصفير باستهجان على المتهم الأبيض اللحية البالغ من العمر ٤٣ سنة لحظة إعلان القاضي أنه استناداً إلى القانون الجنائي الأردنيّ رقم ١١١ لعام ١٩٦٠ ـ ذي اللمسة القضائية الهاشمية اللطيفة ـ كانت العقوبة «إعدام المجرم». وبينما كان الحرّاس يسوقون حفناوي نحو باب المحكمة، انحنى عدّة رجال نحو المحكوم ليضربوه

قبضت أيديهم على رأسه. «فخامة الرئيس»، صرخ الحشد ـ والمقصود كان الرئيس عرفات ـ «أعدم الجاسوس على الفور!» لم ينس أحد في محكمة نابلس البسمة على وجوه الرجال عندما طلب المدّعي العامّ «الإعدام رمياً بالرصاص» وصيحات الازدراء تجاه الخائن، المخلوق الذليل الذي يرتدي قميصاً أبيض وبنطلوناً أسمر، والمتعلّق بقدم سجّانيه.

بدت القرية في ظاهرها مدينة. كان حفناوي، بحسب قول المحكمة، عضواً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ثم في فتح وبعدها في حماس حيث قام بخيانة رفاقه لصالح الإسرائيليين. وقد أقرّ في اعتراف مكتوب بأنه عمل لصالح الإسرائيليين منذ عام ١٩٧٩. لكنّ اغتيال عضو حماس محمود مدني البالغ من العمر ٢٥ سنة يوم ١٩ شباط/فبراير عام ٢٠٠٠ فضح أمره. كان حفناوي يملك متجراً للألبسة وقام بتوظيف مدني عنده، وقد تعرّض هذا لمقتل بينما كان في طريقه إلى متجر حفناوي قادماً من المسجد. وقد استند القاضي إلى اعتراف حفناوي المدوّن في ١١ صفحة ـ يستطيع المرء تصوّر العدالة الثابتة التي حصل الاعتراف بموجبها ـ ووفقاً لهذا الاعتراف فإن الإسرائيليين طلبوا منه جمع معلومات عن مدني، وقد أبلغ المحققين أنه «لم يكن يعلم أن الإسرائيليين سيقتلون مدني».

بدأ المتهم يتصبّب عرقاً. وبدأت قطرات العرق تظهر حول عينيه. ثم تدفّق سيل من العرق من مؤخّرة أذنيه وسال على رقبته، فيما كان شرطيان يمسكان بيديه. كان رجلاً مقضيّاً عليه. وقال القاضي بكآبة إنه لولا مساعدة حفناوي لما استطاع الإسرائيليون اغتيال مدني. وأبلغ القاضي الحشد الغاضب من الحضور ووالدة مدني أنه «من غير المنطقي القول إنه لم يكن مسؤولاً لأنه لم يكن في موقع الجريمة. لقد لعب دوراً رئيسيّاً في ارتكاب الجريمة نتيجة ارتباطاته بالإسرائيليين». وكانت هناك إفادات لشهود عيان ودليل قدّمته القوى الأمنية (طلب حفناوي من زوجته إلغاء الأرقام المسجّلة على هاتفه الخليوي عندما حضرت الشرطة لاقتياده بعد ساعات من الاغتيال)، وكانت هذه الجلسة الثالثة والأخيرة للمحكمة.

كان الحشد صامتاً كالحجارة بينما كانت لحظة الحكم تقترب. رافع القاضي أبو سرور بهذه الكلمات: «إن هذا المتهم الذي كان مواطناً من الوطن، لكنّ ولاءه كان ضدّ الوطن، باع نفسه ـ عينيه وأذنيه ـ لمغتصبي وطنه. أيّ نوع من الرجال هو؟ ألم يفكّر في جذوره؟ لم يكن لديه احترام لذلك». لم يكن هناك صمت في القاعة عندما غادر القاضي وزميلاه أحدهما عقيد في الجيش والآخر نقيب. وعند منتصف النهار الساطع في الخارج، أبلغتني هدى والدة محمود مدني أنها كانت سعيدة جدّاً للحكم لكنها أرادت أن يُنفّذ في الحال. قالت «كان ابني بطلاً. فقد حضّر لعمليتين انتحاريتين في تلّ أبيب وكان يخطّط لستّ هجمات أخرى. كان نقيباً في كتائب عزّ الدين القسام (حماس). أشكر الله. قلبي مرتاح الآن». قاطعها أحد الجيران ليهاجم القاتل المحكوم قائلاً: «فليمتْ يمت ببطء». التفتت السيدة مدني نحوه وقالت: «أفضّل أن أقتله بنفسي». وأضافت أن حفناوي ومدني كانا معتقليْن معاً عند الإسرائيليين. «سَلْح حمام، عميل، خائن». وبحسب ما قيل، لم تكن عائلة حفناوي في المحكمة. لكنّ هذه المسارح القانونية لن تستمرّ طويلاً، فإن الرعاع الفلسطينيين هم الذين سيقرّرون بشكل كامل العدالة إثر سقوط آخر حدود تفاقية أوسلو.

في الخليل، بعد أربعة أشهر. كنت أقود سيّارتي على طريق المستوطنين ـ بلوحة إسرائيلية طبعاً ـ ثم مررت بنقطة تفتيش إسرائيلية مهجورة وسرت خلف كل الرجال والنساء والأطفال الفلسطينيين الذين كانوا يتحرّكون مثل التيّار داخل المدينة. كانت أوّل جثة معلّقة بالمقلوب، القدم اليسرى الداكنة مربوطة إلى عمود الكهرباء بشريط والقدم اليمنى تتدلّى بشكل مشين والرأس يتأرجح تحت ما تبقّى من قميص أسود. كان هذا موسى الرجوب من قرية الدورة. كانت الجثّة الثانية أكثر فظاعة، ذبيحة لحّام، معلّقة أيضاً من القدم اليسرى لكنها عارية مع علامات ضرب حيث كان أطفال بعمر العاشرة والثانية عشرة يضربونها أو يطفئون السجائر فيها. كان هذا هو زهير المحتسب. كان رأسه شبه مفصول عن جسده يتأرجح ببطء في الهواء، ملتحياً، مرعباً.

إنه يذكّرني بتلك الصور المرعبة للقدّيس، بجسده المليء بالسهام والجراح المفتوحة. لكنّ زهير المحتسب كان شرّيراً، غير محترم، حسبما كان يصرخ الأطفال والرجال الفلسطينيون المتوسطو العمر بفرح عندما كانت الحجارة تنهال على جثة العميل الدامية. «هذه أمثولة للجميع هنا». التفتّ لأجد رجلاً ذا لِحيَة بنّية يشير إلى كيس من اللحم خلفي. «كان هذا محمّد دبابسي. إنه أمثولة لكل الناس. على الجميع مشاهدة ذلك». وبينما كنت أراقب، ألقت مجموعة من الشبّان الغاضبين الجثّة في شاحنة القُمامة.

ماذا تفعل عندما يفرح الناس إزاء وحشية كهذه؟ لا أستطيع أن أصِف ما أشاهده كتابةً في دفتر ملاحظاتي، وعوضاً عن ذلك رسمت صوراً لما أشاهده. وصرخ الحشد المرعب: «اللّه أكبر».

كانت هناك فتيات على السطوح، وشبّان يرتدون بذلات وربطات عنق يحدّقون في الجثث عن بعد ثلاثة أمتار فقط، وأطفال يلقون الحجارة لإنهاء عملية شنق زهير المحتسب. وكان الشارع حيث حصل ذلك الشيء ولنسمّه: المجون الإباحي، هو شارع السلام.

كان الرجال الثلاثة قد سُجنوا في السجن المحلّي ـ وحُكم عليهم منذ فترة طويلة بحيث لا يتذكّر الحشد متى ـ لتعاونهم مع قوّات الاحتلال الإسرائيلي. هل كانوا يعرفون مصيرهم، قبل ساعات قليلة، عندما سمعوا مروحيّة أباتشي تُطلق صواريخها الأربعة التي كانت قوّة انفجارها مسموعة في سجن السلطة الفلسطينية على بعد مئات الأمتار؟.

كان الإسرائيليون قد أرسلوا فِرقة قتل بالهليكوبتر لاغتيال مروان زلّوم، أحد قادة كتائب الأقصى في الخليل، وقد حوّلت الصواريخ الأربعة (وهي هديّة أخرى من مارتن لوكهيد في فلوريدا استناداً إلى الأجزاء التي عثرت عليها) سيّارته الميتسوبيشي إلى كُتلة من نار. وعلى الفور قُتل زلّوم البالغ من العمر ٤٣ سنة ـ متزوّج وأب طفلة تُدعى سُجى ـ وسط فيض من الفرح لدى الجيش الإسرائيلي. قالوا: «كان يعادل ميليشيا مسلّحة كاملة» (مبالغة سخيفة)، وأشاروا إلى العمليات الانتحارية ومئات الهجمات المسلّحة التي خطّط لها رجاله، ومن ضمنها حوادث شلهيفات باس، حيث قُتل طفل يهودي برصاص قنّاص فلسطيني في آذار/مارس ٢٠٠١، ومدني إسرائيلي

(مستوطن). بعد ثلاثة أشهر، تحدّثت فِرقة الموت في الجيش الإسرائيلي ثلاث مرّات عن «المجموعات اليهودية» عندما كان ذلك يعني «المستوطنات اليهودية» على الأرض العربية. وكانت أمينة لأخلاقيةِ مثل هذه التصريحات حين فشلت في الإعلان أن سمير أبو رجب، صديق زلّوم، قُتل معه أيضاً بصواريخ إسرائيلية من صُنع أميركي.

على الرغم ممّا حصل، وفي الساعة التاسعة والنصف، قرّرت كتائب الأقصى وحماس أيضاً، وبالتأكيد عدد كبير من أولاد الحيّ الفلسطينيين الانتقام بإعدام ثلاثة متعاونين مع إسرائيل كانوا ينتظرون ساعتهم في السجن المحلّي.

وأبلغني مهندس مدنيّ كان يراقب الحشد أنهم اقتادوهم إلى مكان حصول الانفجار وضربوهم بدون رحمة ثم أعدموهم. وهكذا وصل سكّان ضاحية عين سارة في الخليل للاحتفال بهذا الحدث المثير. لمس بعضهم الجثث، ووقف آخرون إلى جانب الطريق لإلقاء الحجارة. كان هذا بمثابة دكّان لحّام. تسلّق الأطفال أعمدة الكهرباء لأخذ صور لهم مع أصدقائهم قرب ذبيحة الجزّار... وكم ابتهجوا عندما تحرّكت شاحنة القُمامة بين الحشود أمام سيّارة إطفاء تقدمة من ألمانيا. وبعدما أُلقيت بقايا دبابسي الدامية في مؤخّرة الشاحنة تحرّكتْ نحو العمود حيث تتدلّى جثّة المحتسب. كان رأسه شبه مفصول عن جسده عندما أُلقيَ في الشاحنة الرمادية يرافقه صراخ رضى من الحشد.

هكذا تصرّف مواطنو الدولة الفلسطينية الناشئة بغضب وعنف ومتعة رهيبة بانتقامهم من إسرائيل لاغتيالها زلّوم وأبو رجب. وفي طريق العودة إلى القدس كان المرء يستطيع تصوّر ردّة فعل سكّان هذه المستوطنات اليهودية غير الشرعية في إفرات ونيفي دانيل وغوش أتسيون بسطوحها الحمراء النظيفة ورشّاشات المياه. وحشية، بربرية، حيوانات تتصرّف مثل الحيوانات. وعرف أحدهم كيف يفكّر الفلسطينيون. لقد عمل هؤلاء الرجال الثلاثة لإسرائيل، للدولة التي احتلّت أرضهم طيلة ٣٥ سنة. وهمس لي سائق فلسطيني: «لقد فعلوا ذلك حتماً من أجل المال». كان المتعاملون الثلاثة متزوجين. وقيل في الخليل إنه لم يُسمح لهم بمدفن إسلامي. وتساءل أحدهم كم يصبح الفلسطينيون قُساة قبل أن يحصلوا على دولة.

لكنْ أيّة دولة هناك ليحصلوا عليها؟ يوم ٢٩ آذار/مارس ٢٠٠٢، شنّ الإسرائيليون هجوماً على الضفّة الغربية أطلقت عليه الصحافة اسم «عملية الدرع الواقي»(*). قبل يومين دخل انتحاري من حماس فندقاً على شاطئ مدينة ناتانيا الإسرائيلية وفجّر قاعة مكتظّة بأشخاص يحتفلون بعيد الفصح اليهودي وقتل ٢٨ مدنياً معظمهم من المسنّين، وبعضهم من الناجين من المحرقة اليهودية. كانت أسوأ عملية قتل جماعي من نوعها ضدّ المدنيين الإسرائيليين منذ انطلاقة الانتفاضة.

(*) مثل الجيوش الأميركية والبريطانية، يعلن الإسرائيليون أحياناً عنواناً إعلامياً لعمليّاتهم لا علاقة له باسم العملية العسكرية الجارية. وهكذا فقد سُمّيت عملية غزو لبنان عام ١٩٨٢ رسميّاً «عملية السلام من أجل الجليل» ـ أسطورة دعائية بثّها الصحفيون المخدوعون بسرور ـ بينما كان رمزها «عملية كُرة الثلج». بعكس السلام، يزداد حجم كرات الثلج وقوّتها بينما تتدحرج نزولاً.

بالإجمال، قُتل أربعون إسرائيلياً بين ١ آذار/مارس و١ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. لذلك كان السبب المعلن للهجوم الإسرائيلي، استناداً إلى الجيش الإسرائيلي، هو استئصال الإرهاب. وبشكل حتميّ، كانت ضربتهم الأولى ضدّ عرفات شخصياً، المتحصّن في قلعته البريطانية القديمة في وسط رام الله. ولعدم قدرتي على شقّ طريقي عبر الحواجز الإسرائيلية على الطريق السريع في القدس، توجّهت نحو مستوطنة بساغوت غير الشرعية، حيث شاهدت من منطقة إسرائيلية تلك المعركة الجديدة لتدمير السلطة الفلسطينية.

كانت تلك، مرة أخرى، النظّارة المكبّرة إياها... إنه يوم ٣١ آذار/مارس، وأنا في وسط مستوطنة مسلّحة ومكتظّة بالقوّات المسلّحة التي كانت تعرض عليّ بودّ جميل أن أشاركها طعامها وأنا أنظر إلى أسفل، إلى مأساة فلسطين الأخيرة. ارتفع دخان رمادي كستار فوق مقرّ قيادة عرفات، وتحرّك عالياً فوق مئذنتيْن ثم غطّى السماء جنوب رام الله.

قال مجنّد إسرائيلي بازدراء: «أعتقد أنه فجّر نفسه، لقد انتهى ذلك الرجل». وقفنا على طرف المستوطنة ـ على بعد ٤٠٠ متر من المنازل الأولى للمدينة الفلسطينية التي أعيد احتلالها حديثاً ـ تحيط بنا دبّابات ميركافا وناقلات جند ماغاه Magah وسيّارات جيب وشاحنات ومئات الجنود الاحتياطيين الذين يُنزلون البطّانيات والفرش والأسلحة من الشاحنات. قال المجنّد: «إنها البداية فقط، هل تعرف ذلك؟ إنهم مغفّلون هناك في الأسفل. كان عليهم أن يعرفوا أن إرهابهم قد انتهى. لن نعود أبداً إلى حدود ٦٧. بكلّ الأحوال، يريدون تلّ أبيب». لطمَ صدى صوت آذاننا، فقد انفجرت قذيفة على الجانب الآخر من التلّة حيث تقع رام الله. اقتربتُ أكثر من المدينة عبر حديقة من النرجس وأزهار الأرجوان القاتمة وحيث كان يقف جندي إسرائيلي شابّ. قال بحيرة: «أريد الذهاب إلى بيتي». قلت له: «إنّ عمر العشرين يبدو صغيراً لتكون جندياً». أجاب: «هذا ما قالته لي أمّي». كان يأكل خبز ماتزو مع السجق، محدّقاً في شوارع رام الله الخالية. قال: «لقد سجنوا أنفسهم في بيوتهم. هل تلومهم؟» لا ألومهم. لكنّه كان صباحاً غريباً، وأنا أجلس مع الجنود الإسرائيليين فوق رام الله، مثل مراكز المراقبة الفظيعة التي كان يحضّرها الجنرالات لضيوفهم في الحروب النابليونية، حيث يُقدّم لهم الطعام والنبيذ بينما هم يشاهدون تطوّر المعركة. كان هناك أيضاً زوجان من المستوطنين يقدّمان الطعام الساخن والقهوة بلطف للجنود الاحتياطيين. كانت المرأة تحمل إناء من الخُضر والجبن وتقدّمه لي عندما قالت ببهجة: «ابنتي في جامعة كامبريدج، إنها تدرس تاريخ الصليبيين». علّقت قائلاً: «تلك كانت قصّة دموية» ووافق زوجها بسرور. هكذا هي الحروب الدينية. عندها شاهدت الفلسطينيين الأربعة.

تحتنا مباشرة، قرب حديقة أزهار النرجس والأرجوان، كان ثلاثة منهم راكعين على العشب أمام مجموعة من الضبّاط الإسرائيليين وكانوا جميعاً معصوبي العيون وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم بقيود من البلاستيك والمعدن، وكانت سترة أحدهم متدلّية على ظهره بحيث لا يستطيع تحريك كتفيه. كان الإسرائيليون يتحدّثون إليهم بهدوء، وكان أحدهم راكعاً على ركبة واحدة كما لو كان أمام مذبح وليس أمام أسير. ثم شاهدت الرجل الرابع، وهو

متوسّط العمر، مربوطاً كالدجاجة، ممدّداً على العشب معصوب العينين قرب مجموعة من الزهور. قال المجنّد باستخفاف: «يقولون جميعهم إنهم لم يفعلوا شيئاً، إنهم أبرياء، وإنهم أُخذوا من بيوتهم بدون سبب. حسناً هذا ما يقولونه».

ذكرتُ الأسرى للمستوطنين الودودين، فأومأوا برؤوسهم كما لو كان طبيعياً اكتشاف أربعة رجال مربوطين ومعصوبي العيون في الحديقة. وعندما سألت ابن العشرين عنهم، أومأ برأسه مثل المجنّد. قال «إنهم ليسوا أسرى» وفكّرت في أميرة حاس واحتقارها للذين «ينظرون من طرف العين». مشيت من زاوية المبنى إلى المرجة حيث كان الفلسطينيون يخضعون للاستجواب. كان أسير آخر يُحني رأسه تكراراً على باب وكتفاه يهتزّان كما لو كان يبكي. ولم يكترث الجنود لشيء من هذا. ففي حربهم «الفريدة على الإرهاب» كان هؤلاء الأسرى إرهابيين. وقال جندي آخر يأكل طبقاً من الخُضر أنه كان يعتقد بأن جميع الناس هناك إرهابيون. إرهابيون، إرهابيون، إرهابيون. مرّت أمامنا دبّابة مركافا متجهة إلى أسفل التلّ تحتنا مصحوبة بغيمة من الدخان الأزرق ترتفع ماسورتها وتنخفض فوق بدنها. وصلت قوّات أخرى في شاحنات أخرى وبأيديهم أسلحة هجومية. ونُصبت هوائيات أجهزة الاتصال وتمركزت العربات المدرّعة فوق رام الله.

في طريق العودة إلى القدس، مررت بحافلة قديمة صدئة مقابل معال أدونيم، وكانت نوافذها مشبكة بالأسلاك. كانت الأيدي تمسك بالأسلاك، وخلفها كان يمكن رؤية عشرين أو ثلاثين وجهاً عبر الشباك. كان الأسرى الفلسطينيون صامتين، ينظرون من النوافذ إلى المستوطنة اليهودية الكبيرة، يراقبون بوجوه داكنة في الظلّ، تحرسهم سيّارة جيب تحمل جنوداً إسرائيليين.

بعد دقائق قليلة، توقّفتُ لشراء خبز وشوكولاتة من محلّ بقالة فلسطيني في القدس الشرقية. كان المشترون ـ معظمهم من الرجال مع امرأتين محجّبتين ـ يقفون تحت جهاز تلفزيون في المحلّ، وأكياس الطعام البلاستيكية تتدلّى من أيديهم. لا يُحجم التلفزيون الإسرائيلي عن قول الحقيقة حول خسائره، فقد أعلن المعلّق أن «عدد القتلى وصل حتى الآن الى أربعة عشر». وسمع ذلك فلسطينيو القدس الذين يفهمون العبرية. كانت كاميرا على متن طائرة هليكوبتر تصوّر سطح مطعم في حيفا، مكشوفاً مثل عُلبة سردين نتيجة لمتفجّرات انتحاريّ حماس. حرّك صبي رأسه لكنّ رجلاً التفت نحوه وقال مشيراً إلى الشاشة: «كلّا، هذه هي الطريقة للقيام بذلك».

وفكّرت في الفتاة التي تدرس في كامبريدج عن الصليبيين وفي التاريخ الذي وافقنا كلّنا على أنه كذلك، وكيف أن الحروب الدينية تتجه لتصير الأكثر دموية على الإطلاق.

كلّما أراد الجيش الإسرائيلي منعنا من رؤية ما سيفعله، كانت تظهر تلك الممارسة البالغة السخف في القانون العسكري الفظّ: «المنطقة العسكرية المغلقة» كما في لبنان عام ١٩٨٢ وفي غزّة عام ١٩٩٣. وكما في كلّ الحملات الإسرائيلية للاحتلال ـ كذلك عام ٢٠٠٢ ـ فإن أفضل ردّة فعل تمثّلت بالذهاب للنظر إلى ما لم يرغب

الإسرائيليون في إطلاعنا عليه. في رام الله، تصوّرت لماذا لم يرغبوا في وجود مراسلين في الجوار. فأن تنحدر على تلّة مليئة بالحصى، ليس بعيداً عن نقطة تفتيش إسرائيلية، وأن تتسلّق الصخور وتخوض في الوحل سائراً بتطفّل إلى مخيّم العماري للّاجئين الفلسطينيين على الجانب الآخر من رام الله، فهذا يعني أن تحكي قصّة المدنيين المرعوبين والدبّابات الهادرة والأطفال الذين يلقون الحجارة على سيّارات الجيب الإسرائيلية، تماماً كما فعلوا قبل أوسلو وقبل كل الآمال الكاذبة التي أحضرها الأميركيون والإسرائيليون وعرفات إلى المنطقة.

كان يوماً رمادياً، بارداً، رطباً، من أجل حرب شارون على الإرهاب، وكان مَن أقلّني في سيّارة الإسعاف إلى وسط رام الله طبيباً يقود ببطء إلى الطرق الفرعية، متوقّفاً عندما يلمح مدفع دبّابة ظاهراً من خلف البنايات، وينظر إلى أعلى باتجاه طائرات الأباتشي التي كانت تحلّق كالزنابير، اثنتين اثنتين فوق المدينة. كان في وسط المدينة سيلٌ من الدبّابات المتحرّكة بسرعة وحاملات الجند المصفّحة، وكوّاتها مغلقة، يرافقها إطلاق نار كثيف من الإسرائيليين والفلسطينيين. وبينما كانت الطلقات تئزّ في الشوارع، قاد الجيش الإسرائيلي دبّابات APC ومركافا ـ وبعض دبّابات سونتوريوس Centurious الإنكليزية، ما لم تخدعني عيناي ـ في الشوارع بسرعة فائقة تجعلهم لا يكادون يرون إرهابياً، ولو وقف، يلوّح لهم من فوق درجات السوق المحلّي. هذا ما وصلت إليه أوسلو. وكلّما شاهدوا غربياً، صحفياً أو «ناشط سلام» (والأخير يتميّز بلبس الكثير من الحلق، والكوفية الفلسطينية، وفي حالة واحدة حلقة أنف) يخرج الفلسطينيون في رام الله من أبواب بيوتهم ويلوّحون لنا ويقدّمون لنا القهوة. ركض طفل عبر بستان، يلاحق حصاناً، وكان رجل عجوز يقود بغلاً نحو طريق فرعي وعلى وجهه ابتسامة عريضة. وأدركت عندها، حسبما أعتقد، أن هؤلاء الناس العاديين ـ العائلات والرجل العجوز والطفل والحصان ـ هم الذين يشكّلون المقاومة الحقيقية للإسرائيليين، هؤلاء هم الذين يرفضون الإذلال، انطلاقاً من حياتهم العادية جدّاً، أكثر من المدّعين في كتائب الأقصى وفتح.

وهنا جاء سيل من الشكاوى الفلسطينية عن التخريب والسرقة التي قام بها الجنود الإسرائيليون. وكان الردّ الإسرائيلي: أن هذا تحريض لا أساس له لفّقته السلطة الفلسطينية!. لكنّه كان صحيحاً بمعظمه. لقد تغوّط الجنود الإسرائيليون على أرض المكاتب، ودمّروا أجهزة فاكس وآلات تصوير ثمنها آلاف الدولارات في الوزارات الفلسطينية والمدارس ـ والأخطر أنهم سرقوا مجوهرات ونقوداً تساوي عشرات الألوف من الدولارات من البيوت الفلسطينية الخاصّة حيث تُعتبر رام الله مدينة تقطنها الطبقة الوسطى. ولسوء حظ الجيش الإسرائيلي فإنّ العديد من الفلسطينيين الذين سُرق مالهم يحملون أيضاً الجنسية الأميركية. وبسبب تقريري عن هذه السرقة التي اقترفها جيش يُفترض أنه يؤمن بنقاء السلاح، تمّت مهاجمتي بصفتي كاذباً ومعادياً للساميّة من قِبل ما يُسمّى أصدقاء إسرائيل. والحال، أنه بعد بضعة أيام اعترف الجيش الإسرائيلي بأنه «حصلت بالفعل وبشكل واسع ظاهرة بشعة من التخريب... وكان حجم النهب أكبر بكثير ممّا يمكن توقّعه»... وشمل ذلك في رام الله التدمير المنظّم لأجهزة الكمبيوتر. وقد نشر الصحفيون الإسرائيليون تقارير مشابهة دون أن يتعرّضوا لتهجّم عنصري.

وفي الأيام القليلة التالية، تدفّقت القوّات الإسرائيلية إلى طولكرم، ونابلس ومدن أخرى(*). لكنّ الإسرائيليين واجهوا أشرس مقاومة في جنين وارتكبوا ما يمكن وصفه بجرائم الحرب الفردية. ومنعوا مجدّداً كل الصحفيين من دخول جنين بينما كانوا يشقّون طريقهم داخل السوق القديم والمخيّم الذي يشكّل جزءاً من وسط المدينة. وقد دافع المقاتلون الفلسطينيون بشراسة. ولم يكن هناك أدنى شكّ في أن جنين مركز للانتحاريين ـ فقد أجريت مقابلات عدّة مرّات مع عائلاتهم في المنطقة ـ وليس هناك أدنى شكّ أيضاً أن الإسرائيليين واجهوا مقاومة رائعة(**). وبحلول ٩ نيسان/أبريل كان الإسرائيليون قد فقدوا ٢٣ جندياً في القتال. وكانوا هم الذين أعطوا أوّلاً الانطباع بأن هناك مجزرة ضدّ المدنيين في المدينة.

وقد صرّح المتحدّث باسم جيش الدفاع الإسرائيلي العميد رون كيتري في وقت سابق خلال المعركة بأن هناك على ما يبدو مئات القتلى. وأعلنت «مصادر إسرائيلية» ـ الستارة المجهولة التي يتحدّث من خلالها جنرالات إسرائيل ـ أنه كانت هناك خطّة لنقل الجثث خارج المخيّم ودفنها في «مقبرة خاصّة». وقد تمّ إرسال شاحنات مبرّدة إلى جنين. وعندما طالبت مجموعتان لحقوق الفلسطينيين المحكمة الإسرائيلية العُليا بمنع نقل الجثث لأنه سيجري دفنها في مقبرة جماعية في وادي الأردن، مما يُعتبر إهانة للقتلى، أصدرت المحكمة أمراً قضائياً يُساند المدّعين.

طيلة هذا الوقت، أُبقيَ الصحفيون خارج جنين، بالإضافة إلى موظّفي الإغاثة والصليب الأحمر الدولي(***). وفي مؤتمر صحفي أعلن قائد وحدة إسرائيلية، الرائد رافي ليدرمان أنه ـ خلافاً للتقارير الصحفية ـ لم تُطلق القوّات المسلّحة الإسرائيلية صواريخ من طائرات هليكوبتر كوبرا الأميركية الصنع. وكان ذلك كذباً واضحاً. فقد كانت أنقاض جنين، عندما دخلها الصحفيون في النهاية، مليئة بأجزاء صواريخ جوّ ـ أرض ـ صنع الولايات المتحدة بالطبع ـ وقد صرّح الملحقون العسكريون الغربيون الذين زاروا المنطقة بأن الإسرائيليين يكذبون حول طائرات كوبرا. عندها، وكما كتب مراسلنا فيل ريفيس في القدس «أعلنت القيادة الفلسطينية فوراً وبدون دليل أن مجزرة حصلت في جنين قُتل فيها أكثر من ٥٠٠ شخص. وقد جعلت مجموعات حقوق الإنسان الفلسطينية الأمور أسوأ من خلال نشر قصص غير صحيحة».

(*) أظهرت إحصائيات منظمة العفو الدولية أنه في الفترة بين ٢٧ شباط/فبراير وحزيران/يونيو ٢٠٠٢ التي تضمّنت هجومَين إسرائيليين رئيسيّين وإعادة احتلال للضفّة الغربية، قُتل حوالي ٥٠٠ فلسطيني، سقط العديد منهم خلال مواجهات مسلّحة ومع ذلك فإن ١٦ في المئة من الضحايا ـ أكثر من سبعين ـ كانوا من الأطفال. ومنذ العمليات الإسرائيلية الأولى في آذار/مارس وحتى حزيران/يونيو، قُتل أكثر من ٢٥٠ إسرائيلياً بمن فيهم ١٦٤ مدنياً منهم ٣٢ طفلاً. وقد تم اعتقال أكثر من ٨ آلاف فلسطيني خلال هذه الفترة، استناداً إلى منظمة العفو الدولية، وكانوا عُرضة لمعاملة سيّئة، وتمّ تدمير ثلاثة آلاف منزل فلسطيني.

(**) غير أن المقاتلين الفلسطينيين الذين صمدوا ستة أسابيع خلال حصار بيروت عام ١٩٨٢ لم يحظوا بأيّ إعجاب. وقد سألني أحدهم في لبنان بعد شهر: «لماذا لم يقاتلوا؟».

(***) قال الإسرائيليون إنه كان مسموحاً لرجال الصليب الأحمر بالدخول إلّا أنهم رفضوا ذلك. وقال الصليب الأحمر إن ذلك غير صحيح. ثم ادّعى الإسرائيليون بأنّ لديهم شريط فيديو يظهر فيه مسؤولو الصليب الأحمر وهم يرفضون العرض. ولكن حين طلبنا رؤية ذلك الشريط فشلت السلطات الإسرائيلية في تقديمه. والقليل من الصحفيين صدّقوا وجوده.

وأصبح هذا الكلام هو الأهمّ لإسرائيل في ردّها على عمليات القتل في جنين. فقد صرخ بنيامين ناتانياهو أثناء تظاهرة مؤيّدة لإسرائيل في ميدان الطرف الأغرّ: «لم تكن هناك مجزرة». ومنذ ذلك الحين، لم يتمّ تسليط الضوء في رواية الهجوم الإسرائيلي الشامل والقاسي داخل جنين على ما حصل بالفعل في تلك الحقبة الرهيبة من التاريخ الفلسطيني والإسرائيلي بل على الكذبة المفترضة للمجزرة. وأصبحت الكذبة، وليس الوقائع، هي القصّة. لقد «كذبَ» الصحفيون، لقد «كذبتَ» ـ خلال سلسلة محاضرات في أنحاء الولايات المتحدة في أواخر ربيع ٢٠٠٢، اتّهمت مراراً بالكذب حول مجزرة جنين ـ حتى عندما كنت في لوس أنجلوس في ذلك الوقت، ولم أشهد عمليات القتل ولم أستخدم أبداً كلمة «مجزرة». لقد كانت هناك مجازر حقيقية كافية منسوبة إلى إسرائيل دون حاجة إلى اختراع المزيد.

لكنّ زميلَيّ في صحيفة الإندبندنت، جاستين هوغلر وفيل ريفيس، استمرّا في تحقيقاتهما الدقيقة حول عمليات القتل في جنين. لم يصفاها بالمجزرة بل استخلصا أن حوالى نصف القتلى الفلسطينيين الخمسين المعروفين كانوا من المدنيين بمن في ذلك النساء والأطفال والمسنّون.

لقد حدثت فظائع فردية بحسب استنتاج الإندبندنت، وهي فظائع تحاول إسرائيل إخفاءها من خلال حملة دعائية واسعة:

> «هاني رميلي، مدني عمره ١٩ سنة، قُتل بينما كان يحاول النظر من بابه الرئيسي. فدوى جُمعة، ممرّضة تعيش مع شقيقتها في منزل مجاور، سمعت هاني يصرخ وذهبت للمساعدة. وقد أصيبت شقيقتها رفيدة دمج التي هُرعت أيضاً للمساعدة لكنها نجت. ومن سريرها في مستشفى جنين، روت لنا ماذا حصل. قالت: «استيقظنا في الساعة ٣,٣٠ صباحاً على صوت انفجار كبير. سمعت أن رجلاً أصيب خارج بيتنا. لذلك توجّهت مع شقيقتي للقيام بواجبنا ومساعدة الرجل وإعطائه الإسعافات الأوّلية. كان هناك بعض الشباب من المقاومة وكان علينا سؤالهم قبل أن نتحرّك إلى أيّ مكان... وقبل أن أُنهي كلامي مع الشباب بدأ الإسرائيليون بإطلاق النار. أُصبت برصاصة في قدمي وسقطت على الأرض وكُسرت ركبتي. حاولت شقيقتي المجيء ومساعدتي. أبلغتها «إنني مصابة». قالت: «أنا مصابة أيضاً». كانت مصابة في خاصرتها ثم أطلقوا النار عليها ثانية في قلبها... أصدرت صوتاً رهيباً وحاولت التنفّس ثلاث مرّات».
>
> كانت الآنسة جُمعة ترتدي لباس ممرّضة أبيض مرسوماً عليه علامة الهلال الأحمر بوضوح، شعار المُسعفين الفلسطينيين، عندما قتلها الإسرائيليون. قالت السيدة دمج إن الجنود كانوا قادرين بوضوح على رؤية النساء لأنهنّ كنّ واقفات تحت الضوء الساطع وكانوا قادرين على سماع صراخهنّ طلباً للنجدة لأنهم كانوا قريبين جدّاً. وعندما صرخت السيدة دمج للمقاتلين الفلسطينيين طلباً للمساعدة، أطلق الجنود الإسرائيليون النار مجدّداً، وانطلقت رصاصة ثانية اخترقت قدمها صعودا لتستقرّ في صدرها...

مات جمال فايد بعدما دفن حيّاً في الركام. وأبلغنا عمّه صائب فايد أن جمال وعمره ٣٧ سنة كان متخلّفاً عقلياً ومُعاقاً ولا يستطيع المشي... وعندما شاهد السيد فايد جرّافة إسرائيلية تتقدّم نحو المنزل حيث ابن أخيه، ركض لتحذير السائق. لكنّ الجرّافة اخترقت جدار المنزل الذي انهار على جمال...».

على طريق مهجورة في أطراف مخيّم اللاجئين، وجدنا بقايا كرسيّ متحرّك مسطّحة. كانت مُحطّمة كلّياً، وحديدها مسطّح كما لو كانت في فيلم كرتون. وفي وسط الركام علم أبيض ممزّق. أبلغنا ضرار حسن كيف قُتل صديقه كمال زغير بينما كان يحاول الانتقال بالكرسيّ المتحرّك عبر الشارع. ويبدو أن الدبّابات الإسرائيلية سحبت الجثّة إذ عندما وجده السيّد حسن قال إن القدم واليدين كانت مفقودة والوجه مقسوماً إلى نصفين.

كان السيد زغير، البالغ من العمر ٥٨ عاماً، قد أُصيب وجُرح في الانتفاضة الأولى. ولم يكن قادراً على السير أو العمل. وقد عرض لنا السيد حسن الغرفة المفردة المحزنة حيث كان يعيش صديقه، وكان الأثاث الوحيد فراش قذر على الأرض... كان السيد حسن يغسل له، وكان هو الذي وضع العلم الأبيض على الكرسيّ المتحرّك لزغير... قال حسن: «بعد الساعة الرابعة بعد الظهر دفعته إلى الشارع كالمعتاد. ثم سمعت الدبّابات قادمة، وكانت أربع أو خمس دبّابات. وسمعت إطلاق نار واعتقدت أنهم يطلقون طلقات إنذار لإبلاغه بالابتعاد عن وسط الطريق». لم يذهب السيّد حسن للتحقّق ممّا حدث إلا في صباح اليوم التالي. وقد وجد الكرسيّ المتحرّك محطّماً على الطريق وجثّة السيد زغير مقطّعة على مسافة قريبة في العشب.

إذن، متى يصبح حمّام دم فظاعة؟ ومتى تصبح الفظاعة مجزرة؟ كم يجب أن يبلغ حجم المجزرة قبل أن تصنّف بالإبادة؟ كم يجب أن يكون عدد القتلى قبل أن تصبح الإبادة هولوكوست؟ أسئلة قديمة تصبح أسئلة جديدة عند كل ساحة قتل.

كتب الصحافي الإسرائيلي آري غاسبي مقالاً لاذعاً في أواخر نيسان/أبريل تناول الإجابة الغبيّة عن عمليات قتل جنين بدقّة مؤلمة:

«حسناً إذن، لم تكن هناك مجزرة. قتلت إسرائيل فقط بعض الأطفال، ودمّرت منزلاً فوق رجل مسنّ، وأسقطت حجارة الإسمنت فوق مُعاق لم يستطع الخروج في الوقت المناسب، واستخدمت السكّان المحلّيين كدروع بشرية ضدّ القنابل ومنعت المساعدة من الوصول إلى المرضى والجرحى. هذه ليست مجزرة بالفعل، وليست هناك حاجة بالفعل إلى لجنة تحقيق أكانت بإشرافنا أم مرسلة من غير اليهود. يبدو أن الجنون الذي استحوذ على إسرائيل تخطّى أخلاقيّاتنا... يؤمن العديد من الإسرائيليين بأن مكاننا محفوظ في الجنة. ما دمنا لا نمارس القتل الجماعي المنظم. وفي كلّ مرّة يصرخ فلسطيني أو اسكندينافي مجنون: «هولوكوست»! نردّ بانزعاج مُفرط: هل هذا هولوكوست؟.

إذن، قُتل القليل من الأشخاص، ٢٠٠، ٣٠٠، بعضهم صغير جدّاً، وبعضهم الآخر مسنّ. هل رأى أحدكم غرف غاز أو محرقة؟».

ليست هذه أسئلة تافهة أو ساخرة. بعد فترة ليست طويلة من محاولة شارون الفاشلة وقف انتحاريي حماس والجهاد الإسلامي، اقتحم مسلّحون فلسطينيون يوم ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٢ مستوطنة يهودية غير شرعيّة مبنيّة على أرض عربية في الدورة في الضفّة الغربية الفلسطينية.

أُصيبت دانييل شافي، ابنة الخمس سنوات، في سريرها مع والدتها وشقيقيها. قُتلت دانييل ونجت الأم. في أعلى الطريق، أُمطرت كاتيا غرينبرغ وزوجها فلاديمير بالرصاص بينما كانا نائمين. في غرفة نوم الطفلة الصغيرة، بقع دم وثلاثة ثقوب لرصاصات فوق سرير دانييل. وقد أُصيبت والدتها بينما كانت تهرع لحمايتها. وكانت الحصيلة مقتل أربعة إسرائيليين ـ بمن فيهم مستوطنان مسلّحان قاتلا دفاعاً عن النفس ـ وإصابة ثمانية آخرين.

يجب أن يكون لدى المرء قلب من حجر حتى لا يتأثر بالمصير الرهيب لدانييل شافي. كان عمرها خمس سنوات فقط. لكن إذا لم يكن مقتل ٢٤ فلسطينياً على الأقلّ في جنين مجزرة، فكيف نصف القتلى الإسرائيليين الأربعة في مستوطنة الدورة؟ حسناً، قال المتحدث الرسمي باسم الجيش الإسرائيلي، الرائد أفنير فوكسمان حول عمليات قتل الدورة: «بالنسبة إليّ، الآن أعرف ما هي المجزرة. هذه مجزرة». ووصفت صحيفة ناشيونال بوست الكندية إلى الهجوم الفلسطيني بأنه «بربري»، وهي كلمة لم تستخدمها حيال عمليات قتل المدنيين الفلسطينيين. لا أحبّ العمليات الحسابية هنا. إنّ سقوط أربعة قتلى إسرائيليين، من ضمنهم مستوطنان مسلّحان، يُعتبر مجزرة. سأقبل هذا. لكنّ مقتل ٢٤ مدنياً فلسطينياً، من ضمنهم ممرّضة ومعاق، ألا يُعتبر مجزرة. (إنني أدعُ جانباً بوضوح ثلاثين فلسطينياً مسلّحاً أو أكثر قُتلوا أيضاً في جنين). ماذا يعني هذا؟ ماذا يخبرنا حول الصحافة، حول مهنتي؟. هل أصبح تعريف حمّام الدم الآن يعتمد على دين المدنيّ القتيل أو عِرْقه ليتمّ تصنيفه بالمجزرة؟ كلّا، لم أصف عمليات القتل في جنين بأنها مجزرة، لكن كان عليّ القيام بذلك.

مع ذلك، فإن مسؤوليتنا لا تنتهي هنا. كم من كلامنا الالتفافي فتح الطريق أمام هذه الهجمات؟ كم من الصحفيين شجّعوا الإسرائيليين ـ من خلال تقاريرهم أو من خلال نصائحهم التافهة ـ على القيام بهذه الهجمات القاسية ضدّ الفلسطينيين؟ يوم ٣١ آذار/مارس ٢٠٠٢ ـ قبل ثلاثة أيام فقط من الهجوم على جنين ـ كتب توم فريدمان في صحيفة نيويورك تايمز أن «إسرائيل تحتاج إلى القيام بعملية تفجير عسكري تُظهر بوضوح أن الإرهاب لا يُجدي». حسناً، شكراً يا توم، قلت ذلك لنفسي عندما قرأت هذه القطعة من الصحافة القاتلة بعد أيام قليلة. لقد اتّبع الإسرائيليون بالتأكيد نصيحة فريدمان.

عندما بدأ شارون عمليّته «الدرع الواقي»، طلب مجلس الأمن الدولي بمشاركة ودعم الولايات المتحدة النشط، الإنهاء الفوري لعملية إعادة الاحتلال الإسرائيلي للضفّة الغربية. أصرّ الرئيس جورج بوش أنّ على شارون اتّباع نصيحة «أصدقاء إسرائيل الأميركيين» والانسحاب.. (وكان طوني بلير مع بوش بعد ذلك بثلاثة أيام)، و«عندما أقول انسحاب أعني ذلك». لكنه لم يَعنِ شيئاً من هذا. وعوضاً عن ذلك، أرسل وزير الخارجية الأميركي كولن باول في «مهمّة عاجلة للسلام»، رحلة إلى إسرائيل والضفّة الغربية استمرّت ثمانية أيام مستحيلة ـ الوقت الكافي،

بحسب اعتقاد بوش من أجل السماح لصديقه شارون بإنهاء مغامرته الدموية الأخيرة في الضفة الغربية؛ على افتراض أنه كان غير مدرك أن رئيس الأركان الإسرائيلي شاوول موفاز أبلغ شارون أنه يحتاج إلى ثمانية أسابيع على الأقلّ لإنهاء عملية سحق الفلسطينيين. قام باول بجولة في الشرق الأوسط متسكّعاً في المغرب، وإسبانيا، ومصر والأردن قبل أن يصل أخيراً إلى إسرائيل. ولو أن رجال الإطفاء في واشنطن أخذوا هذا الوقت الطويل للوصول إلى اللهب، لكانت العاصمة الأميركية تحوّلت إلى رماد منذ وقت طويل. لكن من المؤكّد أن سبب تباطؤ باول هو إعطاء الوقت الكافي لجنين حتى تتحوّل إلى رماد. مهمّة، أعتقد أنها أُنجزت.

وعندما وصل أخيراً إلى القدس، كان أول شيء يجب على باول القيام به هو طلب زيارة جنين. لكن عوضاً عن ذلك، وبعد مزاحه مع شارون، أخذ يناور طالباً أن يشجب عرفات العملية الانتحارية الأخيرة في القدس التي قُتل فيها ستّة إسرائيليين وأصيب خمسة وستّون بجراح، بينما فشل في إعلان أكثر من كلمة «قلق» حول جنين. هل كان باول خائفاً من الإسرائيليين؟ هل كان حقّاً بحاجة إلى التقليل من قيمته بهذه الطريقة؟ لأن موقفه بدا وكأنه نهاية اللعبة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، والدليل النهائي على أن الولايات المتحدة لم تعد جديرة بعد الآن بأن تكون صانعة السلام الشرق أوسطي. لكن لا! إذ سيحصل هذا عام ٢٠٠٤، عندما يدمّر بوش فعلياً قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢.

بدا أن ليست هناك حواجز لا يمكن تحطيمها. وقد كتبت في صحيفتي في ذلك الربيع الشنيع أن هذه كانت حرباً على الإرهاب. وبعد، فإنّ المسيح لم يولد في بيت لحم. وعندما تحصّنت مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين في كنيسة المهد، قاد الإسرائيليون حصاراً ضدّهم وتحوّلت مدينة بيت لحم إلى ساحة قتال. وكان أوّل مَن قُتل رجل فلسطيني عمره ثمانون عاماً لم تصل جثّته أبداً إلى المشرحة. ثم أصيبت سيّدة وولدها بجروح خطرة نتيجة النيران الإسرائيلية. وتصاعد دخان أسود مع الرياح العاصفة من الجانب الآخر من ساحة المِزود، من عربة مصفّحة إسرائيلية تحترق ولذلك، وبينما كنّا نهرع للنجاة بأنفسنا والرصاص يئزّ حولنا، لم يكن لدينا وقت للنظر إليها. وكان هارفي موريس ـ المتجسّد الآن، ليس كمحرّري للأخبار الأجنبية، بل كمراسل للفايننشال تايمز، ذلك المجذّف عديم الرحمة وغير المراقبة كلماته» ـ برفقتي عندما انطلقنا تحت المطر الذي كان يهطل على شكل موجات فوق الدبّابات الإسرائيلية التي كانت تهدر بين البيوت الحجرية العثمانية، ويُحطّم السيّارات ويمزّق سياجات الإعلانات التابعة للمحلّات.

تم إعلان «منطقة عسكرية مغلقة» مرّة أخرى من قِبل الإسرائيليين. افترضنا أنه كان على المسيح التعامل مع ترجمة رومانية للمناطق العسكرية المغلقة، لكنه لم يكن وحده فقد كان الله إلى جانبه، إنما لم يكن مع أهالي بيت لحم أحد. انتظروا تصريحاً ما من البابا، من الفاتيكان، من الاتحاد الأوروبي. وكان ما حصلوا عليه غزواً مدرّعاً. وقال هارفي بمبالغة جديرة بالمديح: «لقد أرسلوا كلّ الجيش الكريه». وطيلة الصباح راقبنا دبّابات المركافا وAPC تشقّ طريقها متسلّلة عبر الشوارع القديمة، تبحث عن وحوش «الإرهاب» الذين أبلغ شارون العالم عنهم لتوّه. جلسنا في منزل سيدة فلسطينية مسيحية، هي نورما حزبون، نراقب التلفزيون الذي استطعنا من خلاله مشاهدة فلسطين تتهاوى حولنا.

هوجمت مكاتب المخابرات الفلسطينية في رام الله. وبدأت القذائف تتساقط على مخيّم الدهيشة. عرفنا ذلك فوراً ـ كان مخيّم الدهيشة قريباً لدرجة أن النوافذ اهتزّت. وكان شارون يعرض على التلفزيون السماح للأوروبيين بأخذ عرفات خارج رام الله شرط أن لا يعود أبداً إلى الأرض المسمّاة «فلسطين». لكنّ العرض رُفض.

كان هناك إطلاق نار متزايد خارج نافذتنا. وجاءت دبّابة على الطريق، يشقّ مدفعها المرجة الخضراء ثم يرتفع ليوجّه مباشرة إلى نافذتنا. تسلّلنا نحو أسفل الدرج. هل رأونا نراقبهم؟ وقفنا على الدرجات الباردة الرطبة ثم اختلسنا النظر عبر النافذة. كان جنديان إسرائيليان يركضان قرب المنزل بينما اهتزّت دبّابة أخرى على الطريق مُبتلعة سيّارة صغيرة داخل سكّتها الحديدية ثم لفظتها أجزاء في مؤخّرتها المدرّعة.

عرفنا جميعاً هذه الدبّابات، سرعتها القصوى، وصوت محرّكاتها الضخمة، وحجم نيرانها. احترمناها وكرهناها بالقدر نفسه.

أمضينا حوالي ساعة نسير في الشوارع الخلفية لتجنّب «المنطقة العسكرية المغلقة»، شوارع قذرة، باردة سوداء، مع دبّابات غاضبة على الطرقات السريعة المجاورة. وعند تقاطع طرق ركض أحدهم بينما وقفنا بسترات زرقاء وسوداء عليها علامة TV بأحرف كبيرة، أيدينا مرفوعة مثل البطّ لنظهر أننا لا نحمل أسلحة.

جلسنا مرتاحين دافئين الآن قرب مدفأة نورما حزبون، محبوسين في منزل أستاذة علم الاجتماع في جامعة بيت لحم. تعثّر قارئ الأخبار بكلماته. من الممكن أن توقف إيران والعراق صادرات النفط لإجبار الأميركيين على طلب انسحاب إسرائيلي من الضفّة الغربية. سعلت أنا وهارفي بازدراء متزامن، لن تفعل إيران والعراق مثل هذا الأمر. كانت مقارّ قيادة عرفات في رام الله تحترق. وقُتل جندي إسرائيلي في دبّابة APC على الجهة الأخرى من ساحة المهد بعدما أُصيب بقذيفة صاروخية. وكانت هذه العربة المحترقة التي رأيناها على الأرجح منذ ساعة. قال كولن باول إن الأميركيين سيستمرّون في الاعتراف بعرفات كزعيم فلسطيني، حتى لو كان في أوروبا. ضحك هارفي مجدّداً قائلاً: «لكن إذا كان في أوروبا، لن يكون الزعيم الفلسطيني، هل يكون؟».

خارج المنزل ،وقرب مجموعة من شجر البرتقال، برزت حاملتا جند إسرائيليّتان، كانت طواقمها تحاول ملء الفيول بيأس بواسطة خرطوم من سيّارة أخرى قبل أن يصيبهما القنّاصة الفلسطينيون.

مرّت الطلقات حولهم خلال ثوان وألقى جنديان هلعان نفسيهما عن السطح للاحتماء بمحلّ. ثم رنّ هاتفي الخليوي. صوت إنكليزي، سيّدة من واترينغبوري Wateringbury في كينت (عاش بيل وبيغي في القرية المجاورة أعلى شرق فارليغ Farleigh، عند إشارة التوقّف بعد غابة ميدستون Maidstone في بادوك Padock إلى الغرب من خط سكّة الحديد) لكنّ ليز واتيس لم تكن في كينت، ولكن في مخيّم عايدة للاجئين مع تسعة غربيين آخرين،

تحاول مساعدة أربعة آلاف فلسطيني هناك من خلال مطالبة قنصليّاتهم بالضغط على الإسرائيليين للانسحاب. كان ثمّة بعض الأمل. في النهاية، كان على القنصليات إنقاذ الغربيين.

كان حوالى عشرين مدنياً فلسطينياً الآن يسعون للاحتماء مع عشرين مسلّحاً في كنيسة المهد(*). تلقّيت اتصالاً آخر، هذه المرّة من سامي عبده. أبلغني أن الجنود الإسرائيليين حضروا يوم الثلاثاء إلى منزله في وسط بيت لحم ـ ورغم تحذيرهم من قِبل جار أن منزله مليء بالنساء والأطفال ـ فقد زعم الإسرائيليون أن الإرهابيين كانوا في المبنى وأطلقوا النار على عائلة عبده. كان سامي عبده يبكي بينما كان يتحدّث معي وهذه كلماته الدقيقة:

«أطلقوا ثماني عشرة طلقة عبر بابنا الرئيسي. أصابوا والدتي سميّة وشقيقي يعقوب. كانت أمي في الرابعة والستين وشقيقي في السابعة والثلاثين من العمر. وقع الاثنان على الأرض. اتصلت بكل إنسان يمكنني الاتصال به لأخذهم إلى المستشفى. لكن لم يكن هناك أحد لمساعدتنا. كانا يحتضران. وعندما جاءت سيّارة إسعاف، رفض ضابط إسرائيلي السماح لها بدخول الشارع. لذلك بقينا ثلاثين ساعة مع جثثهم. وضعنا الأطفال في الحمّام حتى لا ينظروا إلى الجثث. ساعدنا أرجوك».

هذا السؤال الملحّ: ما هو المقدّس؟ كان يمكن أن يسأله أيّ شخص في الأراضي المقدّسة في ربيع ٢٠٠٢، أو أيّ شخص يقرأ صحيفة جيروزالم بوست. لقد أفردت صفحة كاملة لصور صغيرة لعشرات المدنيين الإسرائيليين الممزّقين أشلاء على يد انتحاريين فلسطينيين خلال شهر فقط. كانت بينها صورة فتاة إسرائيلية شابّة بعُمر الفتاة الفلسطينية التي دمّرت حياتها.

لقد كانت صفحة رعب وتعاسة! أجل، كانت الحملة الانتحارية الفلسطينية غير أخلاقية، لا تُغتفر (وهي الكلمة التي قيلت لي خارج محلّ البيتزا في القدس) ولا تحتمل! يوماً ما، يتعيّن على العرب (وهم ليسوا من النوع الذي ينظر عن قرب إلى نفسه في المرآة حين يتعلّق الأمر بجرائمه هو) الاعتراف بالقسوة المحض لخططهم. لكن بما أن الإسرائيليين لا يحاولون مواجهة لاأخلاقية قتلهم لرماة الحجارة الأطفال أو شرور فِرق الموت المتهوّرة التي تتجوّل وتقتل الفلسطينيين على لوائح المطلوبين ـ إضافة إلى قتلها مجموعة النساء والأطفال المعتادة التي تقع في طريقهم ـ فهل بعد ذلك من داعٍ للعجب؟.

وهكذا عدت إلى غزّة، لأجلس في خيمة أخرى من خِيَم العزاء نُصبت هذه المرّة من أجل طلّاب مدارس، تراوح أعمارهم بين ١٤ و١٥ سنة، من روّاد مقهى الإنترنت المحلّي حيث يمضي أحدهم وقته في رسم أفلام الأطفال، وجميعهم من هواة كرة القدم. بعد ساعات على قتلهم من قِبل الجيش الإسرائيلي قرب مستوطنة نيتساريم

(*) أتاح حصار بيت لحم سابقة أخرى عندما استخدم تلفزيون «بي بي سي» BBC للأخبار العالمية، بسبب عدم قدرته على تغطية القتال حول الكنيسة بآلات تصويره الخاصة، بشكل متكرّر مقاطع من تسجيلات الجيش الإسرائيلي ـ دون الإعلان عن مصدرها.

اليهودية، تسلّم آباؤهم جُثثهم، وكانوا جميعاً مصابين بالرصاص. وقيل إنهم سُحبوا بواسطة عربة مصفّحة مما أدّى في حالة إسماعيل أبو ندى ـ إلى قطع جثته نصفين.

كانوا انتحاريين حملة سكاكين يتسلّلون إلى مستوطنة يهودية بحسبْ قول الجيش الإسرائيلي ـ وطبعاً ـ النيويورك تايمز. لكن حتى حماس المخطِّطة لحملة الانتحاريين الآثمة، اعترفت بأنّ الطلّاب الثلاثة ـ جميعهم في المرحلة التاسعة في ثانوية صلاح الدين في مدينة غزّة ـ خطّطوا بسذاجة لمهاجمة المستوطنة من تلقاء أنفسهم وبواسطة سكاكين. ممّا استدعى قيام الدعاة وأساتذة المدارس بإبلاغ الطلّاب أنه لا يجب أبداً أن ينجرفوا في مثل هذه الأعمال الخطرة مجدّداً.

وعندما تحدّث الآباء الثلاثة معي، أخبروني قصّة ضياع ومأساة وغضب أطفال نتيجة الاجتياح الإسرائيلي الدموي لمخيّم جنين للّاجئين. أبلغني محمّد أبو ندى بينما كنّا نجلس بين المعزّين خارج منزله: «أمضيت ليلة أمس بكاملها أسأل نفسي لماذا فعل ابني ذلك، هل كان إسماعيل بحاجة إلى المال؟ كلّا. هل رسب في المدرسة؟ كلّا. كان الأوّل في صفّه. هل كانت لديه مشاكل مع العائلة أوالأصدقاء؟ كلّا. سألت نفسي مراراً لماذا؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا؟».

سؤال مؤلم يسأله أب مكلوم. هل أراد إسماعيل الموت؟ قال والده إن ذلك كان مستحيلاً حتى «ثلاثة أو أربعة شهور ماضية». كان ذلك عندما بدأ الطالب، المولود في أبو ظبي والمتحدّث للإنكليزية بطلاقة، يسأل والده لماذا لايحصل الفلسطينيون على دعم خارجي في نضالهم من أجل إقامة دولة؟ «سألني: لماذا الفلسطينيون فقط ليست لهم دولة؟».

اعتقد باسم زقّوت، والد يوسف ابن الخامسة عشرة (لم يتقابل أيّ من الآباء من قبل مع أن أولادهم يدرسون معاً في المدرسة نفسها) أنّ حمّام الدم في جنين أثّر على ابنه: «كان يرسم صوراً وأفلام كرتون ويكتب الخطّ العربي. لم أفكّر أبداً أن ذلك يمكن أن يحصل. لكن شاهدنا جميعاً الأخبار حول إعادة الاحتلال الإسرائيلي ـ التلفزيون الفلسطيني، والجزيرة من قطر والسي إن إن ـ وربّما شاهد شيئاً ما... وعندما عدت من صلاة العشاء يوم الثلاثاء، كان قد غادر المنزل. لم أعرف لماذا الآن. أعتقد أن الأولاد كانوا يسيرون نحو المستوطنة اليهودية وفي ذهنهم فكرة مهاجمة الإسرائيليين هناك. لكنّه لم يمسك بسلاح من قبل. وعندما تسلّمنا جثّته أمس، كانت في حالة مرعبة. كانت الكلاب تنهشها طيلة الليل وكان وجهه غير معروف المعالم لأنه تعرّض للسحق من قِبل سيّارة ثقيلة مرّت فوقه».

أُعيد ابن عادل حمدونة، أنور البالغ من العمر ١٤ سنة، إليه بحالة مماثلة. كان وصف الوالد بارداً غير انفعالي. «لم يبقَ له وجه، وقُطعت رجلاه. لقد تعرّض للدهس عدّة مرّات وكان بدون خُصيتيْن».

تعرّضت جثّة أنور أيضاً لنهش الكلاب. «كان مجرّد ولد، طفل. أنا أستاذ في مدرسته. عند الخامسة مساء،

قال لوالدته إنه ذاهب إلى مقهى الإنترنت للّعب. وعندما لم يرجع إلى البيت عند التاسعة، شعرت بأن هناك خطباً ما. ثم سمعنا إطلاق نار من نتساريم...».

وهناك لُغز حول لماذا شعر عادل حمدونة بأن «هناك خطباً ما» إذ إن أنور كان قد بدأ الحديث مع عائلته عن «الاستشهاد». كان للأحداث هنا تأثير على الصبيّ. كان يرغب في أن يصبح شهيداً. «كنت أشكّ أنه بعد سنوات قليلة، عندما يكبر، يمكن أن يقوم بذلك ـ لكن ليس الآن». وقد ثبت أن إسماعيل أبو ندى ترك على ما يبدو رسالة وداع لأهله. اعترف والده: «أحضر لي أحد أصدقائه رسالة كتبها بخط يده ويقول فيها: "والدي، والدتي، أرجو أن تصلّيا للّه وتطلبوا منه أن أنجح في دخول نتساريم وأقتل الجنود الإسرائيليين وأطردهم من أرضنا". لم أستطع تصديق ذلك. في سنّه، أيّ صبيّ آخر (وأنا كنت في بريطانيا، والولايات المتحدة، والهند وباكستان)، أجل أيّ صبيّ آخر يريد أن يتعلّم وأن يكون سعيداً... أن يحصل على مال، أن يعيش بسلام. لكنّ أولادنا هنا لا يستطيعون إيجاد السلام».

أما في ما يتعلّق بحالة الجثث، فلم يرغب أيّ من الآباء التفكير في الأسباب. هل قام الإسرائيليون بتشويههم عن عمد؟ يبدو الأمر بعيد الاحتمال. أو أنهم بعد إطلاق النار على الطلّاب الثلاثة ولتجنّب المجازفة بأن يكون أحدهم مازال حيّاً ـ وبواسطة قنبلة معدّة للتفجير ـ قاموا بقيادة سيّارة فوق جثثهم؟ وعندما سُحقت أجسادهم هل كانوا جميعاً موتى؟ أرسل والد إسماعيل أبو ندى رسالة بسيطة ـ لا جدوى منها لتوم فريدمان على ما أظنّ ـ حول مقتلهم: «إذا لم يكن هناك مستقبل، فليس هناك أمل. إذن ماذا تتوقّع من صبيّ أن يفعل؟».

لكنّ عبدالله الرنتيسي زعيم حماس في غزّة كان أيضاً متلهّفاً لتحييد حركته عن مقتل الأولاد رغم أن كلماته لم تكن خالية من رسالة مُزعجة خاصّة بها. «أعتقد أن جرائم الإسرائيليين دفعت الأولاد إلى القيام بأعمال انتقامية بدون وعي. كانوا صغار السنّ، لم يدركوا أنهم لا يستطيعون عمل أي شيء في المستوطنة... اتصلت بالدعاة في المساجد والأساتذة ليشرحوا للأطفال أن دورهم في كل ذلك لم يحن بعد...»

كان الرنتيسي يُمسك بلحيته باستمرار. تعوّدت الحديث معه في مرج الزهر وفي جنوب لبنان لكنه الآن هارب من فِرق القتل الإسرائيلية، وكان رنين الهاتف يقطع حديثه باستمرار وهو جالس في مكتبه في غزّة، وحارسه الشابّ يضع رشّاش كلاشينكوف على ركبته ويعطيه جهاز هاتف لاسلكي عسكري لاقط بالاتجاهين. أعتقد ـ لكن لا أقول ذلك ـ أن ذلك كان من أجل حماية زعيم حماس. فأجهزة الهاتف الخليوية سهلة التعقّب على بعد أقدام قليلة. وتُعتبر فِرق القتل الإسرائيلية سيّدة في التكنولوجيا العادية والمبرمجة. هل هو مُراقَب من مروحيّة أباتشي؟ هل يرى ضحايا إسرائيل عادة الصواريخ وهي تطلق نحوهم؟

ليست لدى الرنتيسي أيّ أوهام: «إنه أمر متوقّع ما دام الأمر متعلّقاً بنا. لكنّ الشيء الوحيد الذي أستطيع قوله هو ما يمكن أن يفهمه فقط شخص لديه عقيدة إسلامية مثلي. نحن نؤمن بأن حياتنا محدّدة دائماً وأن موتنا

محدّد سلفاً من الله تعالى، ولا يمكن تغيير ذلك. هناك أسباب عديدة متنوّعة يمكن أن تقود إلى إنهاء حياة إنسان ـ حادث سيّارة، سرطان، سكتة قلبيّة ـ لذلك لا أقول إنني أقوم بخيار لتقصير حياتي. لكن الطريقة المُثلى لإنهاء حياتي ستكون الاستشهاد». وسيحقّق الرنتيسي أمنيته.

نظرت مجدّداً نحو النافذة. لقد أمضى الرنتيسي من سنوات عمره الخمس والخمسين حوالى ستّ وعشرين سنة في السجن أو المنفى في المنطقة الجبلية اللبنانية. في تلك الأيام، كان مازال يحاول التعلّم كيف يقود حماس. وهو الآن يتكلّم بشكل مريح ـ بارد وغير خائف ـ عن الانتحاريين والموت. لدى حماس فِرق القتل الخاصّة بها. إنهم يقتلون الجنود، وأيضاً النساء والأطفال، والمسنّين والمرضى. «حتى الآن، قتل الإسرائيليون خلال الانتفاضتيْن أكثر من ألفَي فلسطيني. وبعد عمليات القتل في نابلس وجنين، وصل عدد الأطفال القتلى إلى أكثر من ٣٥٠. هذا يثبت أن الجانب الإسرائيلي يرتكب عن قصد مجازر ضدّ المدنيين». مررت بهذه المرحلة من قبل. فكلّما سألت مسؤولاً في حماس عن قتل المدنيين من قِبل الانتحاريين، يقودك ذلك في اتجاه الإحصائيات... ماذا عن الأطفال في قاعة مطعم البيتزا، والرجل المسنّ في عشاء الفصح؟.

أجاب بسرعة: «نحن نحارب أشخاصاً اغتصبوا أرضنا. إنهم جميعاً جنود أو جنود احتياط. كان جنود الاحتياط في جنين هم الذين قتلوا المدنيين ـ هؤلاء أشخاص يعملون في الحياة العادية، أطبّاء ومحامين. كانوا مدنيين قبل ساعات من ذهابهم إلى جنين. لكن بالطبع، لدى مقاتلينا أوامر بعدم قتل المدنيين، وبخاصّة الأطفال».

أوامر لتجنّب قتل الأطفال؟ أو أن ذلك فقط لُعبة أرقام؟

رنّ الهاتف العسكري مجدّداً وتحدّث الرنتيسي لعدّة دقائق. هل هو على اتصال بقادة حماس في الضفّة الغربيّة؟ ابتسم ببرود. «أجل، هناك بعض الاتصالات على المستوى السياسي مع زعماء في الضفّة الغربيّة. لكنّهم رجال مطلوبون ومحاصرون ومختبئون». دوّنت على الهامش في مفكّرتي، هذه هي المرّة الأولى التي تعترف فيها حماس بتأثيرات إعادة الاحتلال الإسرائيلي. «خُذ على سبيل المثال حسن يوسف، وهو زعيم سياسي في رام الله ـ لقد كان يتصل بي من أجل معلومات حول ما يجري. لكن في النهاية، لن يستطيع شارون وضع حدّ للمقاومة. عندما قام الإسرائيليون بترحيل ٤٦٠ مُبعداً منّا عام ١٩٩٣ واعتقلوا ١٥٠٠ آخرين من عناصر حماس في اليوم نفسه، قالوا إنهم «وضعوا حدّاً» للمقاومة ولحماس. بعدها أدّى مقتل يحيى عيّاش (صانع القنابل في حماس) من قِبل الإسرائيليين إلى تصعيد المقاومة».

تبدو مرج الزهور، جامعة الإسلام، بعيدة جدّاً. اعترض الرنتيسي: «كانت مرحلة غيّرت النضال الفلسطيني. بدّلت تاريخ حماس إلى الأبد. قبل ذلك، كانت حركة محلّية. بعد نفينا إلى تلال لبنان، أصبحت حماس منظمة دولية معروفة في جميع أنحاء العالم. استفدنا من أخطاء إسرائيل».

كان الرنتيسي يتحدّث بثقة كبيرة بالنفس. وليس هناك أدنى شكّ في من هو عدوّه الرئيسي. «أراد شارون تمزيق

اتفاقيات أوسلو. إنه يمارس سلطته على الشعب الفلسطيني مدمّراً وقاتلاً عن عمد الفلسطينيين بهدف إجبارهم على الرحيل. يريد أن يحطّم عزيمتنا بحيث نرضخ لشروطه المذلّة. يريد أيضاً خلق صراع بين السلطة الفلسطينية والشعب». وماذا عن غزّة؟، ضحك الرنتيسي: «أودّ أن أذكّرك بشيء قاله رابين مرّة ـ إنه يتوق إلى النهوض يوماً ما ليجد غزّة مغمورة بالبحر».

غريب كيف يتحدّث مناوئو عرفات أحياناً عن رابين (الذي اعتقد عرفات أنه وقّع معه «سلام الشجعان») وعن عرفات، خصمَي شارون، في الجملة نفسها. كان رابين قائد الوحدات الإسرائيلية التي احتلّت اللدّ والرملة في تموز/يوليو ١٩٤٨ والذي أعطى الأمر بترحيل ٦٠ ألف عربي فلسطيني، معظمهم من النساء والأطفال، وعدد غير معروف منهم مات خلال الرحلة. نشر رابين مذكّرات يستذكر فيها الاحتلال الإسرائيلي للدّ:

«تمشّينا في الخارج. كان بن غوريون (رئيس الوزراء الإسرائيلي المعيّن قبل شهرين) برفقتنا. أعاد إيغال آلون قائد الهاغانا ترداد السؤال: «ماذا نفعل بالسكّان؟» حرّك بن غوريون يده بإشارة تعني: «اطردوهم جميعاً».

«أجريت مع آلون مشاورات. ووافقت على طرد السكّان. أخذناهم سيراً على الأقدام إلى طريق بيت هارون مفترضين أن الفرقة العربية ستكون مُجبرة على الاهتمام بهم ممّا يزيد من المصاعب اللوجستية التي تُضعف قدرتها القتالية، ممّا يجعل الأمور أسهل بالنسبة إلينا... لم يغادر سكّان اللدّ طواعية. لم يكن هناك أيّ طريقة لتجنّب استخدام القوّة والطلقات التحذيرية لإجبار السكّان على السير ١٠ ـ ١٥ ميلاً إلى النقطة حيث التقوا بالفرقة العربية».

بالتأكيد، حدّد الرنتيسي بدقّة ازدراء شارون لأوسلو، وكأنه اطّلع عن قُرب على سجلّ شارون. منذ انتخابه عام ٢٠٠١، حاول مؤيّدو شارون في الغرب تحويله إلى براغماتي، إلى ديغول آخر ، وتمّ اللعب على الفكرة مجدّداً عندما اقترح في عام ٢٠٠٤ أن على إسرائيل التخلّي عن المستوطنات في غزّة، وهي خطوة اعترف المتحدّث باسمه صراحة بأنها تجعل أي خطط لإقامة دولة فلسطينية لا طعم لها ولا لون. في الحقيقة، يبدو شارون أكثر شبهاً بالجنرالات الفرنسيين العاصين في الجزائر. هؤلاء استخدموا أيضاً التعذيب وقتلوا مناوئيهم العرب. ويدلّ عمله على أي شيء إلّا السلام. فقد صوّت شارون ضدّ معاهدة السلام مع مصر عام ١٩٧٩. وصوّت ضدّ الانسحاب من جنوب لبنان عام ١٩٨٥. وعارض مشاركة إسرائيل في مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١. وعارض تصويت الكنيست على اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣. وامتنع عن التصويت على السلام مع الأردنّ عام ١٩٩٤. وصوّت ضدّ اتفاق الخليل عام ١٩٩٧. وندّد بطريقة انسحاب إسرائيل من لبنان عام ٢٠٠٠. وفي عام ٢٠٠٢ فقط، شيّد شارون ٣٤ مستوطنة يهودية جديدة على الأرض الفلسطينية.

استمرّ تورّط شارون في مجازر صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ يلاحق الرجل الذي يتحمّل، استناداً إلى تقرير لجنة

كاهان الإسرائيلية الصادر عام ١٩٩٣، مسؤولية شخصية في المجزرة الكتائبية. وكانت السلطات الإسرائيلية خائفة من أن يُتّهم قادتها بجرائم حرب ممّا دفعها إلى وضع قائمة بالدول التي يمكن أن تجري فيها محاكمات ـ والتي يجب عليهم تجنّبها ـ وذلك بعد أن طوّرت الدول الأوروبية قوانينها لتشمل المواطنين الأجانب الذين ارتكبوا جرائم في الخارج. كان القضاة البلجيكيون قد أخذوا بعين الاعتبار شكوى الناجين في صبرا وشاتيلا (بينهم امرأة كانت ضحية للاغتصاب) بينما جرى تصعيد حملة في الخارج ضدّ شخصيات إسرائيلية أخرى مرتبطة بهذه الفظائع. كانت إيفا شتيرن إحدى اللواتي حاولن منع تعيين العميد أموس يارون ملحقاً عسكرياً في واشنطن لأنه سمح لميليشيا الكتائب اللبنانية بالدخول إلى المخيّمات الفلسطينية يوم ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ وأنه عرف ـ وفق تقرير لجنة كاهان ـ بأن النساء والأطفال كانوا يُقتلون، ولم يُنهِ عملية القتل إلّا بعد يومين. وقد رفضت كندا قبول يارون كملحق عسكري.

وقد جمعت سترن ملفّاً قانونياً حول يارون لتشنّ لاحقاً مع جماعات حقوق الإنسان حملة يائسة لإلغاء تعيينه ـ من قِبل رئيس الوزراء إيهود باراك ـ مديراً عامًا لوزارة الدفاع الإسرائيلية(*).

وقد غيّرت الحكومة البلجيكية قانونها، وأسقطت اتهامات جوهرية ضدّ شارون ـ بعد زيارة لوزير الدفاع الأميركي رونالد رامسفيلد إلى بروكسل، وهو الرجل الذي أشار بشكل بارز يوم ١٦ آب/أغسطس ٢٠٠٢ إلى سيطرة الإسرائيليين على «ما يُسمّى الأراضي المحتلّة» التي كانت «حصيلة حرب ربحوها». وهدّد رامسفيلد بأنّ مقرّ قيادة الناتو سوف يُسحب من الأراضي البلجيكية إذا لم يسحب البلجيكيون الاتهامات ضدّ شارون.

حتى الآن، وطيلة الوقت، كان يُفترض بنا التصديق بأن الرجل الفاسد، ياسر عرفات، المصاب بمرض الباركنسون، هو الملام بالنسبة إلى الحرب الجديدة. لقد تعرّض للتجريح من قِبل جورج بوش بينما كان الشعب الفلسطيني يُعامَل كالحيوانات من قِبل القيادة الإسرائيلية .

وقد وصف رئيس الأركان الإسرائيلي السابق رفاييل إيتان الفلسطينيين «بالصراصير في وعاء من زجاج». ونعتهم مناحيم بيغن «بالحيوانات من ذوات القدميْن». أما رئيس حزب شاس، الذي قال إن على الله إرسال «النمل» الفلسطيني إلى جهنّم، فوصفهم أيضاً «بالأفاعي». وفي آب/أغسطس ٢٠٠٠، وصفهم باراك «بالتماسيح». ووصفهم رئيس الأركان الإسرائيلي موشي يعالون «بالظاهرة السرطانية»، وقارن العملية العسكرية في الأراضي المحتلة «بالعلاج الكيميائي».

(*) مُجدّداً من دون طائل؛ ففي كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، كان يارون في واشنطن يعرض احتياجات إسرائيل الدفاعية لتبرير طلب ٤ مليارات دولار «مساعدة دفاع خاصّة».

وفي آذار/مارس ٢٠٠١، وصف وزير السياحة الإسرائيلي، رحافيم زيفي، عرفات «بالعقرب». ونعت شارون عرفات تكراراً «بالقاتل» وقارنه ببن لادن، وساهم في إظهار صورة غير إنسانية عن الفلسطينيين وذلك في مقابلة أجراها عام ١٩٩٥، عندما صرّح بأن فتح تعاقب أحياناً الفلسطينيين «بقطع أعضاء أطفال بعمر سبع أو ثماني سنوات أمام أهليهم كنوع من العقاب». ومهما كانت فتح قاسية، فليس هناك أيّ سجلّ لأيّ فظاعة من هذا النوع اقترفوها. لكن لو أن عدداً كافياً من الأشخاص يمكن إقناعه بتصديق مثل هذه التفاهة، لأصبح الاستخدام الإسرائيلي لفِرق القتل ضدّ هؤلاء الفلسطينيين طبيعياً أكثر منه غير قانوني(*).

وأمام كراهية شارون «للإرهاب» فقد نسي الناس انتقاده لحرب الناتو ضدّ صربيا عام ١٩٩٩ عندما كان وزيراً للخارجية. قبل ١١ سنة تعاطف شارون مع الهدف السياسي لسلوبودان ميلوزوفيتش: لمنع إقامة دولة ألبانية في كوسوفو. قال: «إن ذلك سيقود إلى ألبانيا كبرى ويؤمّن ملاذاً ـ وعلى القرّاء حبس أنفاسهم هنا ـ للإرهاب الإسلامي». وفي مقابلة مع صحيفة من بلغراد، قال شارون: «إننا نقف معكم ضدّ الإرهاب الإسلامي». وبينما كان قصف الناتو لصربيا على وشك البدء، فإن السبب الحقيقي لدعمه للصرب بدا واضحاً. قال: «من الخطأ أن تعطي إسرائيل شرعية لهذا النوع القاسي من التدخّل الذي تقوم به دول الناتو... في محاولة لفرض حلّ للخلافات الإقليمية، ففي اللحظة التي تعبّر فيها إسرائيل عن دعمها لمثل هذا النوع من التدخّل، فإنها ستكون هي الضحية التالية. تخيّل أن يطالب عرب الجليل يومًا ما أن يتمّ الاعتراف بالمنطقة التي يقطنونها كمنطقة مستقلّة، مرتبطة بالسلطة الفلسطينية». وقال شارون: «إن قصف الناتو تدخّل وحشي». وقد صرّح الصحفي الإسرائيلي يوري أفنيري الذي تلقّف هذه القطعة النادرة من الازدواجية، بأن الإرهاب الإسلامي في كوسوفو يمكن أن يوجد فقط في «مخيّلة شارون العنصريّة». وكان أفنيري أكثر فظاظة في ترجمة ما هو مخفيّ وراء تهجّم شارون على عملية الناتو أكثر من شارون نفسه. «إذا تدخّل الأميركيون والأوروبيون اليوم في قضيّة كوسوفو، فماذا يمنعهم من القيام بالشيء نفسه غداً في قضيّة فلسطين؟ وقد جعل شارون الأمر شديد الوضوح للعالم بأن هناك تشابهاً وربّما توافقاً أيضاً بين

(*) الويل والثبور نصيب أيّ صحفي أو ديبلوماسي يشير إلى هذا الأمر. في عام ٢٠٠١ اتّهم مركز سيمون ويزنتال في باريس الرئيس السويدي للاتحاد الأوروبي بأنه يشجّع «العنف المعادي لليهود». وكتب المركز في رسالة إلى رئيسة الوزراء السويدية أنه يرى أن تنديدها بإسرائيل «لتصفيتها الإرهابيين» يشبه تماماً حجج الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية والتي كانت تقول بأن قصف خطوط سكة الحديد المؤدّية إلى أوشفيتز، كان من شأنه تشجيع مشاعر العداء للساميّة بين الألمان». ورأت الرسالة أن السويد تقوم «بهجوم من جانب واحد ضدّ دولة الناجين من الهولوكوست»... ولكن ماذا عن جريمة الرئيس السويدي للاتحاد الأوروبي؟ لقد تجرّأت على القول بأن «ممارسة التصفيات تشكّل عائقاً في وجه السلام وقد تؤدّي إلى استثارة عنف جديد»... حتى أنها لم تسمّ وحدات القتل الإسرائيلية باسمها: «فِرق الموت». لم يعتذر السويديون. كما أنهم لم يصمّموا سوء استخدام الحقائق التاريخية. ذلك أن الحجج الرئيسية للحلفاء لتبرير عدم قصفهم معسكرات أوشفيتز وبيركيناو تحدثت عن «مصاعب تقنية»، والاعتقاد بأن العملية كانت من اختصاص القوة الجوّية السوفياتية، والاقتناع بأنّ كل القوى كان يجب أن تتوجّه نحو إسقاط ألمانيا النازية، الأمر الذي كان ليشكّل «الحلّ الإيجابي لهذه القضية». إن الأسباب الأخيرة (الضعيفة والمخزية في ضوء وقائع التاريخ) لم تكن بالطبع لتجعل رسالة مركز ويزنتال إلى ستوكهولم أقلّ ممّا كان مقصوداً أن تكون عليه.

تصرّف ميلوزوفيتش تجاه كوسوفو وتصرّف ناتانياهو وشارون تجاه الفلسطينين». إضافة إلى ذلك فإن الرجل الذي أدّى تدخّله الوحشي في لبنان عام ١٩٨٢ إلى حمّام دم لا مثيل له في الشرق الأوسط، كانت ملاحظاته منافقة(*).

وبينما أرسل شارون فرقة مدرّعة لإعادة اجتياح نابلس، ظلّ متجاهلاً طلب بوش سحب قوّاته من الضفّة الغربيّة، وتحوّل كولن باول إلى عرفات محذّراً إيّاه بأنها فرصته الأخيرة لإثبات زعامته. لم تكن هناك أيّة إشارة إلى المستوطنات اليهودية غير الشرعية. وليست هناك «فرصة أخيرة» لتهديد شارون. لقد سمح الأميركيون له أيضاً برفض فريق تقصّي حقائق تابع للأمم المتحدة في الأراضي المحتلّة. وكان شارون مجتمعاً بالرئيس جورج بوش الابن في واشنطن عندما قتل انتحاري خمسة عشر مدنياً إسرائيلياً على الأقلّ في نادٍ ليلي في تلّ أبيب، فقطع زيارته وعاد فوراً إلى إسرائيل وعلى الأثر دعا الزعماء اليهود الأميركيون البارزون، بمن فيهم إيلي وايزيل وألان ديرشوويتز البيت الأبيض، لعدم الضغط على شارون للمشاركة في محادثات السلام الشرق أوسطية الجديدة. وأعلن وايزيل: «هذه فترة عصيبة، ليس الوقت وقت الضغط على إسرائيل. إن أيّ رئيس وزراء كان ليتصرّف كما تصرّف شارون. إنه يفعل ما بوسعه. عليهم الوثوق به». كان وايزيل غير قلق. وقبل شهر فقط، أنتج الأميركيون أولى طائرات الهليكوبتر S-70A-55 بلاك هوك حاملة الجنود لبيعها للإسرائيليين. وقد اشترت إسرائيل ٢٤ من هذه الآلات الجديدة تبلغ قيمتها ٢١١ مليون دولار ـ تدفع الولايات المتحدة معظم ثمنها ـ مع أنها حصلت على ٢٤ طائرة بلاك هوك من الطراز السابق. وقد أعطيت كاتالوغات طائرات الهليكوبتر الجديدة الأولى بمراسم رسمية لمدير عامّ وزارة الدفاع الإسرائيلية، أموس يارون ليس غيره، ومن قبل ألكسندر هيغ شخصياً (الرجل الذي أعطى بيغن الضوء الأخضر لغزو لبنان عام ١٩٨٢).

ربّما كان الرجل الوحيد الذي لديه الوقت الآن لإيجاد تسوية منطقية للصراع القائم، هو الزعيم الفلسطيني الجالس الآن في مكتبه المحاصر، المدمّر، المضاء بشكل ضعيف، وغير الصحّي في رام الله. إن الصفة المشتركة التي يتقاسمها عرفات مع شارون، إضافة إلى كِبر السنّ والمرض، هي رفضه التخطيط المسبق... ما قاله، ما فعله، ما اقترحه، تقرّر فقط في الوقت الذي اضطرّ فيه إلى التحرّك. كان ذلك جزئيّاً، يعود إلى تدريبه القديم في حرب

(*) كانت الاختلافات في موضوع شارون هذا تبرز في الصحافة الإسرائيلية. ورغم قيام إسرائيل بإرسال مساعدة إنسانية لألبان كوسوفو (وهو تحرّك قال شارون إنه يؤيّده) فقد ظلّ الخوف من أن تنتقل حملة الناتو إلى الشرق الأوسط قائماً. «هناك شيء ما في السؤال الذي طرحه وزير الخارجية أرييل شارون حول ردّ إسرائيل المستقبلي إزاء إمكانية قيام العرب في الجليل بطلب كيانهم الانفصالي».. هذا ما كتبه دان مارغاليت مضيفاً: «يستطيع المرء الافتراض أن إسرائيل لن تتصرّف أبداً مثل الصرب وتقوم بالمجازر فيما يتمّ طرد السكّان بالقوّة عبر الحدود. لكن ما هو بالضبط مستوى الشرّ الذي يسمح للناتو بمهاجمة دولة مستقلّة تقوم بحماية سيادتها؟» وبصفتي صحفياً كان في صربيا في ذلك الوقت، فقد طرحت السؤال نفسه حول سيادة صربيا، على الأقلّ لأن الناتو كان قد أدخل فقرة مؤذية إلى مقترحات السلام ما قبل الحرب الموجّهة إلى ميلووفيتش تفرض عليه القبول بقوّات الناتو في جميع أنحاء صربيا. لكن وصف مارغاليت لمجازر صربيا «فيما يتمّ طرد السكّان بالقوة» هو العبارة الصحيحة لوصف تصرّف إسرائيل عام ١٩٤٨. كان هناك أيضاً انتقاص شبه مقصود للتاريخ في ملاحظة مارغاليت العابرة «أن المجازر ضدّ الألبان التي قام بها سلوبودان ميلووفيتش كانت بشكل ما ردّاً على مجازر الأتراك ضدّ الأرمن... جرائم رهيبة لكنها ليست هولوكوست».

العصابات، وهذه صفة يتقاسمها مع صدّام. إذا كنت جاهلاً ما ستفعله غداً، فيمكنك أن تطمئن إلى أنّ أعداءك لا يعلمون أيضاً. اتخذ شارون وجهة النظر نفسها.

وبينما كان يستولي على مكاتب السلطة الفلسطينية، قام الجيش الإسرائيلي بنهب المعدّات والأرشيف. وأفادت هآرتس أن الجنود كانوا يتقاتلون على غنائم عمليّاتهم في الضفّة الغربيّة بعد استيلائهم على العشرات من سيّارات لاندروفر البريطانية الصنع. وقد تمّ تحويل السيّارات إلى الوحدة اللوجستية في الجيش الإسرائيلي بناء على أوامر من رئيس الأركان شاوول موفاز. وكان من غير الواضح ما إذا كانت السيّارات قد دُفع ثمنها من قِبل الاتحاد الأوروبي. واستولى الإسرائيليون أيضاً على آلاف المستندات التي تُظهر إلى أيّ مدى فقد عرفات السيطرة على التنظيمات المقاتلة التي كانت تنمو في أوساط الفلسطينيين في الضفّة الغربيّة. لكنّ الإسرائيليين نشروا الترجمات والروايات التي تضمّنتها والتي كانت مشوّهة عن قصد، وفي إحدى الحالات غير صحيحة. وقام الصحفيون طواعية بإعادة طبع الترجمة الإسرائيلية للملفّات ـ التي تظهر دور عرفات في الإرهاب واستخدامه أموال الاتحاد الأوروبي لتمويل الإرهاب ـ لكن عندما قامت الإندبندنت بنشر ترجمة دقيقة للأوراق، أصبح واضحاً أن الإسرائيليين قدّموا رواية مزيّفة عن محتوياتها(*)، ولكن في اليوم التالي قدّم شارون بوقاحة «ملفّ عرفات الإرهابي» لبوش أمام الكاميرات في البيت الأبيض ـ وقد شكره الرئيس الأميركي على هذا «الدليل».

وبمعزل عمّا وصفته الكاتبة الفلسطينية جاين مقدسي بدقّة بأنه «علم الإرهاب» (كانت شقيقة إدوارد سعيد تشير إلى الترجمة المعقّدة لواقع الشرق الأوسط التي رغب أكاديميو الجناح اليميني مثل ستانلي كيرتز فرضها على الجامعات الأميركية) لم يكن من المفاجئ معرفة أن ضابطاً إسرائيلياً نصح رجاله قبل إعادة احتلال الضفّة الغربيّة بدراسة الخطط العسكرية التي اتّبعها النازيّون في الحرب العالمية الثانية. واستناداً إلى صحيفة معاريف الإسرائيلية، قال الضابط: «إذا كانت مهمّتنا الاستيلاء على مخيّم للّاجئين مكتظّ أو الاستيلاء على محافظة نابلس، وإذا أُعطيت هذه المهمّة لضابط إسرائيلي للقيام بها دون خسائر على الجانبين، فإن عليه قبل أي شيء تحليل وجمع دروس المعارك السابقة، وحتى ـ مع أن ذلك يبدو مثيراً للصدمة ـ تحليل كيف تصرّف الجيش الألماني في غيتو وارسو».

ماذا يعني ذلك على الأرض؟ هل يشمل الأرقام التي وضعها الإسرائيليون على أيدي وجباه المعتقلين الفلسطينيين في أوائل آذار/مارس ٢٠٠٢؟ هل يعني أن على الجندي الإسرائيلي اعتبار الفلسطينيين الآن أقلّ من البشر، وهذا بالضبط ما فعله النازيّون بالنسبة إلى اليهود المعتقلين واليائسين في غيتو وارسو عام ١٩٤٣؟ هل كانت لدى الأميركيين أفكار عن ذلك كلّه؟ مَن كانت قوّات الإرهاب في وارسو منذ ٦٢ سنة؟ أكان اليهود يقاتلون من أجل حياتهم أو ضدّ قوّات الصاعقة SS التابعة العميد الفيوهرر جيرغن ستروب؟.

(*) في مستند فلسطيني يشرح بالتفصيل موضوع محمود فريح، البالغ من العمر ١٧ سنة، والذي زرع قنبلة لدبّابة إسرائيلية في غزّة، أشارت الترجمة الإسرائيلية إلى أنه كان بحماية السلطة الفلسطينية. في الواقع، أشار المستند العربي الأصلي بوضوح إلى أن السلطة الفلسطينية منعت تفجير الدبّابة بقطع سلك الصاعق قبل إقناع فريح بالانضمام إلى قوّات عرفات.

إجمالاً، قدّرت جماعة حقوق الإنسان الإسرائيلية B'Tselem أنه بين عام ١٩٨٧ وأيار/مايو ٢٠٠٣، قُتل ٣٦٥٠ فلسطينياً و١١٤٢ إسرائيلياً، ووصل عدد القتلى ككلّ إلى ٤٧٩٢. لكنّ الإحصائيات وحدها لا تستطيع تبرير عذاب الأطفال. ففي عام ١٩٩٣، قُتل ٢٣٢ طفلاً فلسطينياً تتراوح أعمارهم بين ستّ عشرة سنة وأقلّ خلال الانتفاضة الأولى. وخلال ١٢ شهراً تنتهي يوم ٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، قُتل ٢٥٠ طفلاً فلسطينياً و٧٢ طفلاً إسرائيلياً. ففي واحد من أكثر التقارير إثارة للصدمة حول الحرب الإسرائيلية ـ الفلسطينية، ندّدت منظمة العفو الدولية بالطرفيْن لقلّة اهتمامهما بأرواح الأطفال. وأظهرت اللائحة الخطيرة التي جمعتها منظمة العفو كيف أصبح قتل الأطفال متجذّراً. كان هناك سامي جزّار، الذي أُصيب في رأسه من قِبل جندي إسرائيلي عشية عيد ميلاده الثاني عشر في غزّة، وقتل قنّاص إسرائيلي في غزّة خليل مغربي البالغ من العمر ١١ سنة ـ وقد عاش أحد أصدقائه بعدما أصيب في خُصيته بشظيّة كبيرة ـ وكانت هناك رهام الورد، التي قُتلت في ملعب مدرسة في جنين بواسطة قذيفة دبّابة إسرائيلية. ثم ريّا وحمده ـ ١٤ سنة وسنتان ـ اللتان قُتلتا مع أهلهما على يد انتحاري فلسطيني هاجم مطعم بيتزا سبارو في القدس، وشلهفيت باس وعمرها عشرة أشهر تقريباً التي قُتلت على يد قنّاص فلسطيني في الخليل، وقتلت أڤيمالكا على أيدي فلسطينيين أطلقوا النار وألقوا قنابل يدوية على سيّارات في ناتانيا. وكان عمرها تسعة أشهر.

كان الحادث الأكثر فظاعة ـ الممدوح من قِبل شارون في وقته على أنه نجاح كبير ـ هو الهجوم الإسرائيلي على صلاح شحادة (قائد من حماس) الذي قُتل فيه أيضاً تسعة أطفال وثمانية راشدين فلسطينيين. وقد أضفت أسماؤهم حقيقة مخيفة على هذه المذبحة بحقّ الأطفال: أيمن مطر (١٨ شهراً)، محمّد مطر (٣ سنوات) ديانا مطر (٥ سنوات)، صبحي حويطي (٤ سنوات)، محمّد حويطي (٦ سنوات) آلاء مطر (عشر سنوات)، إمام شحادة (١٥ سنة)، مريم مطر (١٧ سنة). ودينا مطر (عمرها شهران). وقد ألقى طيّار من سلاح الجوّ الإسرائيلي قنبلة زنتها طنّ على منازلهم من طائرة «أف١٦» أميركية الصنع يوم ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠٢(*).

ما هي الحرب التي يعتقد شارون أنه يخوضها؟ ولأيّ غرض يحارب؟ خلال الفوضى الدموية الأخيرة، كان المظهر الوحيد المميّز للصراع ـ الاستيطان غير الشرعي والمتواصل للأرض العربية المحتلّة ـ مجدّداً موضوعاً محرّماً، يجب تجاهله أو الإشارة إليه عرضياً فقط عندما يُقتل المستوطنون اليهود. إن هذا هو آخر صراع عالمي استعماري، تساند الولايات المتحدة فيه المستعمرين، وهو غير قابل للجدل، وموضوع محرّم، وشيء يتعدّى القسوة بين الفلسطينين والإسرائيليين، وهو يُعتبر الآن، كما علينا أن نتذكّر، جزءاً من حرب أميركا على الإرهاب.

(*) لا تربح الحقيقة دائماً في مواجهة الدعاية. أفاد تقرير منظمة العفو لعام ٢٠٠٢ أنه رغم الادّعاءات المتكرّرة بالتعارض، «لا يوجد تحقيق قضائي معروف حصل حول أيّ من عمليات قتل الأطفال من قِبل عناصر من قوّة الدفاع الإسرائيلي في الأراضي المحتلّة، حتى في القضايا التي صرّح مسؤولون حكوميون بأن التحقيقات حولها ستنجز». حتى أنه خلال السنتين التاليتين، شعر مايكل ويليامز، وهو محرّر في «إندبندنت أون صنداي» Independent on Sunday وجد نفسه قادراً على الإشادة بالحزم الذي تطبّق به إسرائيل أحكام القانون على أعمال قوّاتها العسكرية...»

هذا ما ادّعاه شارون بطريقة غير شريفة منذ ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. مع ذلك، أصبحت الحقيقة واضحة في مقابلة صريحة لشارون مع مجلّة فرنسية في كانون الأول/ديسمبر تلك السنة حيث استذكر محادثة تلفونية مع جاك شيراك. قال شارون إنه أبلغ الرئيس الفرنسي بالتالي:

«كنت أقرأ حينها كتاباً رهيباً حول الحرب الجزائرية. إنه كتاب يقول عنوانه بالعبرية: «الحرب المتوحّشة من أجل السلام». أعلم أن شيراك قاتل بصفة ضابط خلال هذا النزاع وأنه حصل على وسام الشجاعة. لذلك أبلغته، بطريقة ودّية مطلقة: «سيّدي الرئيس، على كلّ منا أن يفهم الآخر، نحن هنا كما لو أننا في الجزائر. ليس عندنا مكان آخر نذهب إليه. وإضافة إلى ذلك، ليست لدينا النية للرحيل»...

الفصل الرابع عشر

«أيّ شيء للقضاء على الشرّير»

هذا اللصّ الذي يتسلّل على الجدران ليلاً للذهاب إلى منزله، هو الشخص المقصود. هذا الشخص الذي يحذّر أولاده من الحديث عن عمله الشرّير، هو المقصود.

هذا الشخص الشرّير الذي يتسكّع في المحاكم منتظراً الحكم، هو الشخص المقصود. هذا الشخص المقبوض عليه خلال غارة في الضاحية والمدفوع ببندقيّة إلى مؤخّرة الشاحنة هو الشخص المقصود. إنّه الشخص الذي يخرج من منزله في الصباح غير واثق من الوصول إلى مكتبه وهو أيضاً الذي يغادر عمله مساءً غير متأكّد من الوصول إلى بيته.

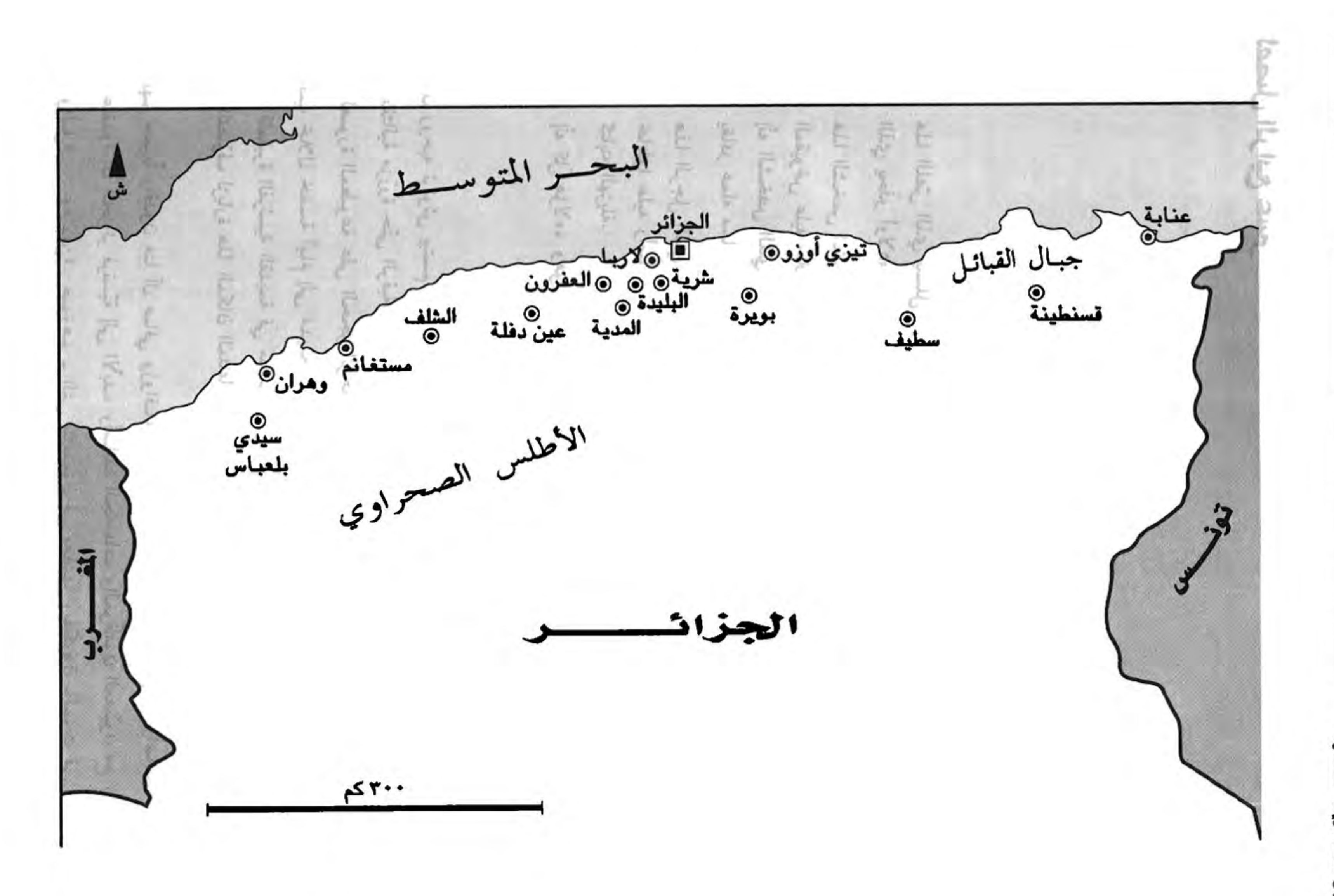
هذا الرجل الذي يتمنّى ألّا يموت وبُلعومه مقطوع، هو الشخص المقصود. هذا الشخص الذي خاطوا عليه رأساً مبتوراً هو الشخص المقصود. إنّه الشخص الذي لا تعرف يداه أيّ مهارة سوى كتابته الهزيلة.

إنّه كلّ هؤلاء، وهو صحافيّ فقط.

سعيد مقبل، «المسار الصدئ» ١٩٩٤

كان روجيه ترتوش يبتسم من تحت خوذته المعدنية العائدة للجيش الفرنسي، ورأسه مائل قليلاً إلى اليسار، وبذلته القتالية مزرّرة حتّى الرقبة. وقد كُتب على قبره: «مات من أجل فرنسا: ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٠». وتُظهر الصورة المطبوعة على الحجر الرخاميّ شابّاً واثقاً من نفسه، مدركاً لحظة وفاته أن شارل ديغول سيصل دون ريب خلال خمسة أيام إلى مدينة الجزائر ليؤكّد حِرصه على مستقبل الجزائر الفرنسية. وعلى الأبواب الحديدية للمقبرة الفرنسية القديمة في سانت أوجيني كُتب «أنا اليوم وأنت غداً». والجزائريون خارج حائط المقبرة يُحسنون التصرّف لزيارة هذا المكان المدعاة للفخر والمأساة، وكذلك العرب الآخرون ـ ويهود إسرائيل.

إنهم جميعاً راقدون هنا آل صافي وزواف، والخيّالة المنسيّون للجيش الكبير، وأساتذة المدارس والمهندسون الذين اعتقدوا أن الجزائر فرنسيّة إلى الأبد، وأساتذة الجامعات والموظّفون المدنيّون مع زوجاتهم الموقّرات في «ميتز» و«ليل». . . و«زوين». صورهم ـ التي يبتسمون في بعضها ويفكّرون بالموت في البعض الآخر ـ مثيرة للشفقة بكل المعنى الأخلاقي للكلمة: حكّام موتى في لباس الأحد. ما زالوا سالمين من التخريب الذي سيكون له



ش
البحر المتوسط
عنابة
جبال القبائل
قسنطينة
سطيف
تيزي أوزو
بويرة
الجزائر
لاربا
شرية
البليدة
المدية
العفرون
عين دفلة
الشلف
مستغانم
وهران
سيدي بلعباس
الأطلس الصحراوي
الجزائر
تونس
المغرب
٣٠٠ كم

قريباً مبرّر وجيه لانتهاك حُرمة هذا المكان الأبدي... يرقد كولونيل القيادة العليا ألكسندر إدوارد كونستانت فورشو (المولود في أورليانز يوم ١٩ آب/أغسطس ١٨١٧) تحت صخرة ثقيلة من الرخام تمجّد ذكراه في إخضاع المسلمين الذين تجرّأوا على معارضة الحكم الفرنسي. ويُظهر تمثاله النصفي رجلاً مرعباً ذا خدّين نحيلين مع شارب كثيف وقبّعة عسكرية موضوعة بفجور على جهة من رأسه، وقد دُوّنت حملاته في الأسفل: معركة القبائل الكبرى ١٨٥٤، معركة جرجرة ١٩٥٧، معركة المغرب عام ١٨٥٩، معركة ألما بالسترو ١٨٧١، معركة العمارة ١٨٧٦، بطل حرب سباستبول والحرب الفرنسية البروسية، توفّي في بلده فرنسا في مدينة اسمها الجزائر.

خرج من المدينة نفسها أتباع فورشو في وطنه للموت على تراب فرنسي آخر. قُتل رينيه وإدغار غيديسللي معاً على الجبهة الغربية، رينيه بينما كان يهاجم المواقع الألمانية على المارن يوم ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩١٥ وإدغار بقذيفة مدفع في أرض المعركة نفسها بعد ثلاث سنوات. كان الرجلان يحدّقان بخجل من صورهما، وكلاهما باللباس الرسمي، «يتذكّرهما إلى الأبد والدهما ووالدتهما». تدفع السفارة الفرنسية للحارس في سانت أوجيني، كما تدفع للمقبرة المجاورة غير المسيحية، لقبور آلاف المواطنين من الديانة اليهودية وليس للمواطنين من الديانة الإسلامية الذين آمنوا أيضاً بأن الجزائر فرنسية، وكانت شواهدهم ـ بالعبرية والفرنسية أيضاً ـ لا تزال غير متضرّرة ومحميّة في هذه العاصمة المسلمة.

كم من المآسي مطمورة في هذه البقعة الصغيرة من الأرض؟ «مات وليم ليفي من أجل فرنسا في ١٦ حزيران/يونيو ١٩٤٠ في أرباجون (سين إي واز) المآسي مطمورة عن عمر ثلاثين سنة». كان على الأرجح يواجه هجوم هتلر الأخير على بقايا الجيش الفرنسي. وكانت نظراته ساخرة في الصورة، في تعبير واثق لرجل اعتقد أنه سيعيش حتي سنّ متقدّمة. ويضمّ معبد يهودي صغير «شيّدته الجالية اليهودية لأبنائها في الجزائر الذين ماتوا في ساحة الشرف» عشرات الصور لشبّان بائسين بلباس عسكري فرنسي، قُتل معظمهم قبل أن يعلموا بأيّ نكران للجميل ستعامل بلادهم مواطنيها اليهود.

في آخر الممرّ الضيّق، يصبح التاريخ أوضح للزائر. «هنا يرقد يوليوس روجيه ليفي، ضحيّة الإرهاب، ٣ حزيران/يونيو ١٩٥٧، عمره ٣٤ سنة». هنا يرقد ألبير سارفاتي، ضحيّة الإرهاب، ٢٠ شباط/فبراير ١٩٦٢ عمره ٤٢ سنة... والأكثر إيلاماً من الجميع: «هنا ترقد جوزيت سماجا (٢٤ سنة) قرب خطيبها بول بيريز، قتلا طعناً حتى الموت يوم ٩ حزيران/يونيو ١٩٥٧». كان مواطنو فرنسا ما وراء البحار يعتبرون أنفسهم ممّن يُسمّون «أقداماً سوداء»، أو ذوي الأقدام السوداء ....Pieds noirs"(*). وفي هذا اليوم البارد والعاصف من شهر كانون الثاني/

(*) هناك نظريات كثيرة حول أصل عبارة pieds noirs. كتب أليستر هورن في كتابه حول تاريخ حرب الاستقلال الجزائرية، أن العبارة جاءت من الأحذية المطلية بالأسود التي كان ينتعلها الجيش الفرنسي، أو من الفكرة الفرنسية أن الشمس الإفريقية أحرقت أقدام المستعمرين فأصبحت سوداء. ومؤخراً، أبلغني جزائري أن الاسم أُعطي للمهاجرين الإسبان الفقراء الذين عاشوا في حيّ من أحياء العاصمة المغربية الرباط والذين اتُّهموا أنهم لا يغسلون أقدامهم أبداً. وعندما انتقل الفرنسيون إلى المنطقة نفسها، ورثوا الاسم ثم أحضروه معهم إلى الجزائر.

يناير عام ١٩٩٢، تعتبر قبورهم تحذيراً رهيباً للجزائر التي أصبح ضبّاطها وسلطاتها متشدّدين الآن في معارضة قيام جمهورية إسلامية كما كان الفرنسيون في معارضتهم لجزائر حرّة.

تشرف كنيسة نوتردام دي مير (سيّدة البحر) الكئيبة العائدة للقرن التاسع عشر على المقابر وتمثال السيد المسيح البرونزي المقتلع والمحطّم قبل عيد الميلاد عام ١٩٩١. وعلى الفسيفساء فوق المذبح كُتبت صلاة معبّرة وشبه استعمارية: «يا سيّدة أفريقيا، صَلّي لنا وللمسلمين». كان هناك رجل دين فرنسي من قساوسة مونبلييه لخدمة رعيّة من ثلاث مئة أو أكثر من الكاثوليك القدماء ذوي الأقدام السوداء لم يغادروا البلاد. ويتجمّع في كنيسة سانت تيريز في «باب الواد» في مدينة الجزائر، خمسة عشر منهم كلّ سبت لتناول القربان ولطمأنة بعضهم بعضاً أنهم لن يغادروا أبداً.

قالت لي سيّدة عمرها ٦٩ سنة من سومور Saumur، لم تصرّح باسمها لأنها تعيش هنا، إنّها «تتقبّل التاريخ بقدريته». إنها امرأة قصيرة، وجهها مستدير، وشعرها الأبيض كثّ ومجعّد. قالت: «لم يكن ديغول رجلاً سيّئاً. قال في البداية إنه يتفهّم موقفنا وأعتقد أنه كان يعني بقاء الجزائر فرنسية. لكن عندما تجوّل في المنطقة وشاهد الوضع بأمّ عينه، أدرك أن فرنسا لا تستطيع البقاء هنا. لم يخنّا، لكنّه بدّل رأيه فقط. بقيت مع زوجي لأن هذا بلدنا. توفّي بعد ثلاث سنوات من الاستقلال لكنّ الجزائر ما زالت وطني، بموانئها وبحرها وجبالها التي أحبّ. تزوّجت ابنتي جوزيت من جزائري واعتنقت الإسلام. تحمل الآن اسماً إسلامياً، ضياء. أجل أنا سعيدة في سنّي المتقدّمة. ولديّ العديد من الأصدقاء حتى في الجبهة الإسلامية للإنقاذ».... ابتسمت بحرارة بدون التوتّر أو الخوف الذي أراه الآن على وجوه الجزائريين. ثم قالت بلطف شديد: «لكلّ إنسان قدره». جنون من الذبح والإرهاب، حرب أهليّة ستقضي على حياة ١٥٠ ألف نسمة تنتظرها وتنتظر كلّ أجنبيّ في الجزائر وكلّ صحافيّ، وكلّ مسؤول حكوميّ، وكلّ إسلاميّ، وكلّ شرطيّ، وكلّ صاحب محلّ، وكلّ زوج وزوجة وطفل.

عاشت تلك السيّدة السنوات الأخيرة من حُلم فرنسا الاستعماري الذي تحوّل إلى كابوس، علماً بأن الحلم دام أكثر من مئة سنة. وهو لا يزال حيّاً حتى الآن في مكتبات الأثريّات في باريس. هنا تستطيع شراء بطاقات تذكاريّة للجزائر من القرن التاسع عشر حيث كانت البيوت الفرنسية مشيّدة خلف أشجار الزان في أحياء تعجّ بالفتيات الفرنسيّات المرتديات ملابس طويلة والشبّان الفرنسيين المعتمرين قُبّعات من القشّ. وتُظهر بطاقة ملوّنة محلّ بِقالة في مدينة سوق أهراس حيث يتنزّه المواطنون الفرنسيون في شارع فيكتور هيغو. وفي المدن الصغيرة كنائس فرنسية مملّة ومهيبة ونوافير حجرية مربّعة وقطارات فرنسية جميلة تتّجه إلى محطات سكّة الحديد الفرنسية المُزخرفة. وفي العديد من البطاقات، تبدو المدن الفرنسية الصغيرة في الجزائر مهجورة، معابدها وبلديّاتها ومكاتبها جزء من مسرح سيظهر عليه الممثّلون. وعندما يظهر الجزائريون في الصورة، يجلسون أو يقفون عادة إلى جانب عدسات الكاميرا، ملتحين أو مُعتمرين كوفيّات كجزء رومانسي من المشهد الطبيعي، مثل أشجار النخيل أو المساجد البعيدة. وتظهر صورة ضخمة أخذت في وهران عام ١٩١٠ أكثر من مئة رجل وامرأة وطفل فرنسيين واقفين أو جالسين على رصيف مقهى الكونتيننتال الكبير، وثمّة شخص واحد ـ صبيّ المقهى على ما يبدو إلى

أقصى اليسار في الصورة ـ ربّما كان جزائرياً. في تلك السنة، كان سكّان الجزائر مؤلّفين من ٤٠٠ ألف فرنسي (٢٠٠ ألف أجنبي معظمهم من الإسبان والمالطيين والإيطاليين) وأربعة ملايين وخمس مئة ألف جزائري مُسلم. وعلى كلّ بطاقة طابع فرنسي بقيمة خمسة سنتيمات يحمل صورة ماريان، المربّية الأمّ للأمّة الفرنسية.

في باريس، تستطيع اليوم شراء مجلّة شهرية مزيّنة بالرسوم مخصّصة لذوي الأقدام السوداء وعائلاتهم، تأسّست بمساعدة الجنرال الانقلابي إدموند جوهاد وناشر مجلّة «الجزائر الفرنسية» جاك سوستل، وتمتلئ صفحاتها بصور الأحياء النظيفة والمنظّمة التي بناها الفرنسيون في عاشر أكبر مدينة في العالم واعتقدوا أنها جزء من فرنسا. وتعتبر المجلة مختصّة بشؤون ذوي الأقدام السوداء القدامى والمعاصرين وبالحركيين وأصدقائهم(*).

من خلال إلقاء نظرة سريعة على الصفحات الكئيبة الواحدة تلو الأخرى، يسهل التعرّف على الطبيعة الانفصامية للجزائر الفرنسية. ففي سيدي بلعباس، على سبيل المثال، كانت الشوارع تحمل أسماء ألكسندر دوما، بونيه، لي ترومبل، دلنيي أي بوليه (Les Trembles , Deligny et Boulet) وأيضاً وادي سفيونة الصلاح، وادي إمبرت، (Oued Imbert) , (Oued Sefioun, Tessalah, Sidi Yacoub) وسيدي يعقوب . وفي بسكرة ينتصب تمثال ضخم للمونسينيور شارل لافجري Charles Lavigerie في وسط المدينة تكريماً لأُسقُف الجزائر الذي حاول تنصير الجزائريين وأسّس جمعية الآباء البيض. وعلى الرغم من أن غزو فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ كان يهدف إلى صرف الأنظار عن المشاكل المحلّية للبوربون والثأر للقنصل الفرنسي ـ ضربه الداي حاكم مدينة الجزائر على وجهه بمنشّة الذباب ووصفه بالوغد الشرّير، الكافر، عابد الأصنام ـ فقد أصبح الأمر بسرعة حرباً صليبية مسيحية.

وانتهى ذوو الأقدام السوداء لاحقاً إلى الاعتقاد بأن مهمّتهم في الجزائر تمدين بلاد بربرية، ومن هنا التشديد المستمرّ على الإدارة والعدالة والتعليم والتقنية الحديثة. لكنّ الدليل المعاصر والأدب المنشور في السنوات الأولى للغزو الفرنسي يرويان قصّة مختلفة. فعندما وصل الكونت دو بورمان، القائد الذي قاد قوّة الحملة الفرنسية على الجزائر، إلى ساحل شمال أفريقيا مع ٤٢ مدمّرة وفرقاطة وزورق دوريّة وستّين سفينة أخرى في أيار/مايو ١٨٣٠، أصدر بياناً مملّاً:

> «أيّها الجنود، إن الأمم المتمدّنة للعالمَين الجديد والقديم تنظر إليكم، ومشاعرها معكم. إن قضية فرنسا هي قضية الإنسانية، أثبتوا أنكم جديرين بهذه المهمّة النبيلة. لا تدعوا أيّ تجاوز يلطّخ شعار أعمالكم البطولية، كونوا عديمي الشفقة في القتال، ولكن عليكم أن تكونوا رُحماء ونبلاء بعد النصر، هذا لمصلحتكم كما أنه واجبكم. وبسبب اضطهاده من قِبل العسكر المغتصب والقاسي، سيجد العربي فيكم محرّرين وسيطلب التحالف معكم».

(*) كان الحركيون أتباعاً من الجزائريين الموالين للجيش الفرنسي الذين خانهم أسيادهم عام ١٩٦٢ وتركوهم وراءهم ليُقتَلوا على يد أبناء وطنهم ويُطردوا للعيش في البؤس في جنوب فرنسا.

قبل ٨٧ عاماً من إعلان الجنرال مود Maude الموجّه إلى الشعب العراقي والذي أكّد فيه أن الجيش البريطاني قام بغزو العراق محرّراً أكثر منه غازياً، وقبل ١٧٣ سنة من غزو الرئيس الأميركي جورج بوش الابن ورئيس الوزراء البريطاني طوني بلير للبلد نفسه وللأسباب عينها ـ واعتقادهم القويّ أنهم سيكونون موضع ترحيب من قِبل السكّان المحلّيين، تدفّق الفرنسيون على الشاطئ في خليج سيدي فريج الهادئ وهم يحملون أوهاماً مشابهة، ليبدأ تاريخ الجزائر المستعمرة، الطويل والمظلم. وسوف يمضي الجيش الفرنسي الخمسين سنة القادمة في قمع الثورة، خمس عشرة منها في محاربة قائد المقاومة الجزائرية البارز والقويّ عبد القادر. وارتكب الطرفان فظائع. وكان المجتمع الفرنسي مصدوماً أيضاً لدى معرفته أن قوّاته قامت بقتل ٥٠٠ جزائري من الرجال والنساء والأطفال من خلال إشعال حريق على مدخل مغارة لجأوا إليها ـ مقدّمة مرعبة للمصير نفسه الذي أعدّه الأتراك ضدّ ألوف الأرمن خلال عملية الإبادة عام ١٩١٥.

بين عامي ١٨٣١ و١٨٣٩، خسر الفرنسيون ١٤١٢ جندياً في معركة الجزائر. وأشبهت الحالة كابوساً وصفه دبلوماسي فرنسي عام ١٨٤١ للعالم بقوله:

«أصبحت البلاد بدون اقتصاد، وتوقّف تنقّل القوافل، وجُرفت الحقول... وتحوّل العرب إلى عمليات إراقة الدماء والذبح، ووصلوا إلى مداخل مدينة الجزائر»....

أكان نتيجة هوس شخصي أو تفاؤل مزيّف، ما قام به ليون غاليبر بكتابة تاريخ الجزائر بعد ثلاث سنوات فقط، حيث وصف بإعجاب أعمال الكنيسة الكاثوليكية التبشيرية الفرنسية ـ «لأنهم أظهروا بقوّة تعزيز سلطتنا في الجزائر» ـ ورغبتها في قهر الإسلام:

> «يوم ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٨٣٢، تمّ تحويل واحد من أجمل مساجد الجزائر في شارع ديفان للعبادة الكاثوليكية. وبدأت الخدمات الدينية بمهابة خلال قدّاس منتصف الليل... وبدأت هنا حقبة جديدة لكنيسة أفريقيا. إنّ الاحتفال المهيب وعظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يجعلا السكّان الأصليين يدركون أن الغازي يؤمن بالله وعنده دين فحسب، بل جعلتهم أعمال الكنيسة الخيرية المتزايدة التي استفادوا منها يفهمون أن هذا الدين رحوم وصديق للإنسان»... وكتب الكاردينال باكّا Pacca في صحيفته الموجّهة إلى العالم الكاثوليكي مادحاً الجهود التي بذلتها فرنسا لنشر المسيحية في ممتلكاتها. «رأيت على شواطئ أفريقيا الأمّة الفرنسية نَشِطة تعيد رفع راية المسيح، رأيتهم يعيدون المذبح إلى مكانه ويحوّلون المساجد الكافرة إلى معابد مسخّرة للخالق ويبنون كنائس جديدة. إضافة إلى ذلك، رأيت على شواطئ أفريقيا رجل دين مقدّس تتبعه رعية متحمّسة، موضع ترحيب بالأهازيج وصيحات التمجيد من قِبل الكاثوليك كما أنها محترمة وموقّرة من قِبل الكفّار والعرب والبدو. في القسطنطينة حيث يمكن إيجاد حوالى خمسة آلاف كاثوليكي... جرى تحويل مسجد جميل إلى كنيسة وأعيدت تسميته

بسيّدة الأحزان... وبفضل التدخّل الفرنسي استعادت المسيحية القوّة التي تمتّعت بها في العصر الأوّل للكنيسة في هذا الجزء من أفريقيا».

نظرت الكنيسة إلى هذا التبشير على أنه إعادة تأسيس للمسيحية في بلد شُيّدت فيه كنيسة القديس فانسان دي بول لأوّل مرّة عام ١٦٤٦. غير أن الأمر تطلّب مشاعر مسيحية أقلّ تجاه الأراضي التي قرّر الفرنسيون استيطانها. كان خطاباً سعيداً ذاك الذي أُلقيَ بحضور مميّز أمام الجمعيّة الوطنية عام ١٨٤٠: «حيثما وجِد ماء عذب وأرض خصبة، يمكن للمرء اكتشاف المستعمرين دون الاهتمام بموضوع مَن يمتلك هذه الأراضي». وأدّى تطوّر فرنسا كديمقراطية إلى تطوير وإعادة تطوير سياساتها في الجزائر، وكان وضعها الإمبريالي موضع تحدّ باستمرار من قِبل ليبراليّتها. وإذا كان الجزائريون لا يتمتعون بحقّ التصويت في برلمان الوطن الأمّ، فقد كان عليهم القيام بتضحية مماثلة في مواجهة أعداء فرنسا. لم يكن ذوو الأقدام السوداء وحدهم الذين ذهبوا للقتال والموت على الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى. ففي مقابر الحرب الواسعة في شمال فرنسا، يمكن إيجاد مدافن جزائرية تحمل علامة الهلال الإسلامي بالآلاف، مفصولة عادة عن قبور القتلى الفرنسيين لكن في محيط المقبرة ذاتها. وقد أثار مصيرهم حالة من البلبلة في الجزائر، مع أن ذلك بقي غير معلن في ذلك الوقت. بالطبع، على المرء التفتيش في الملفّات الفرنسية العائدة لفترة ما بعد الحرب للعثور على أيّ تدقيق جدّي بهذه الثورة. ورغم انتصار عام ١٩١٤ في المارن، تحوّلت مصادر القلق والمظالم إلى قصص رهيبة لمعركة شارل روا.

وقد كتب مؤلّف في الذكرى المئوية للغزو الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠:

«بشكل خاصّ، قيل إننا ضحّينا بقوّاتنا المسلمة ولم يتبقّ لنا أيّ جنود في الجزائر، وأن قُدرتنا على تعزيز قوّاتنا اضمحلّت وأن المجنّدين سيصبحون عُرضة للنيران حالما يفرزون». وقد انطلقت حوادث المقاومة في ثلاث مناطق. وفي بداية تشرين الأول/أكتوبر، في منطقة بسكرة المختلطة كان تمرّد بني شكران (قبيلة) الذي حصل بعد أيام من المظاهرات التي قام بها أهالي سيدي داحو تعبيراً عن عداء المنطقة ورفضها تجنيد عناصر جديدة».

يبدو أن الجزائريين كانوا جديرين بالموت من أجل فرنسا ولكن ليس للمشاركة في ديمقراطيتها، وهذه وجهة نظر عبّر عنها دون غموض عام ١٩٢٦ أحد الجنرالات الحاكمين الأكثر خبرة: «ليس هناك أدنى شكّ في أنّ إعطاء الجميع الحقّ في التصويت ـ الأمر الذي يهتمّ به قلائل بالفعل ـ لن يحلّ بحدّ ذاته المشكلة الوطنية. وإنه لجدير بالمديح الكامل مِن قبل الذين هم أصلاً رجال القرن العشرين، المطالبة بهذا الحقّ، لكن علينا القلق من أن البقيّة الذين اختاروا الحفاظ على تقاليد محترمة، لم تكد تبلغ مستوى النضج العائد للقرن الثالث عشر».

وقد اتّسمت السنوات الأخيرة للحكم الفرنسي بالقسوة والقمع. ومن يزور متحف الشهداء في مدينة الجزائر اليوم، خلف الأجنحة الإسمنتية للنصب التذكاري لأكثر من مليون جزائري قتلوا في حرب الاستقلال ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ ضدّ الفرنسيين، يمكنه أن يشاهد على جُدرانه كلّ ما يرغب في رؤيته من هذا الصراع الرهيب. قام المشرف

على المتحف بوضع سيمفونية بيتهوفن الرعوية وموسيقى برامز على الكمان على جهاز التسجيل كما لو كان ضرورياً تلطيف دليل البربرية. هناك ملفّات عسكرية فرنسية تطالب بالقبض على زعماء المقاتلين. وهناك أصفاد وسياط وأسلحة. وتشير ملصقات قديمة عمرها ٤٣ سنة، طبعتها جبهة التحرير الوطني الجزائرية إلى أن حركة المقاومة هي «منارة الاشتراكية الأفريقية». وهناك صور بالأبيض والأسود لشهداء جزائريين ولرجال معذّبين، وجوههم مهشّمة ودماؤهم سائلة على يد وحدة المظلّيين العاشرة التابعة للجنرال جاك ماسّو. وهناك خزانة عرض مليئة بمعدّات صغيرة للشرطة العسكرية الفرنسية، ونماذج من الذخيرة ومخازن الذخيرة وأداة معدنية بحجم ثمرة أناناس مكتوب عليها: «قنبلة انشطارية دفاعية أميركية طراز رقم ٢».

يوافق معظم المؤرّخين أن مجزرة سطيف عام ١٩٤٥ ـ عندما قتل المستوطنون الأوروبيون والدرك والقوّات الفرنسية حوالى ستة آلاف مسلم انتقاماً لقتل المسلمين ١٠٣ أوروبيين ـ ساعدت على اندلاع الصراع الأساسي من أجل الاستقلال. ويوافق الجميع أيضاً على أن محاولات فرنسا اللاحقة إدخال إصلاحات جاءت متأخّرة جدّاً، وليس فقط لأن الانتخابات الديمقراطية خضعت بشكل فاضح للتزوير من قِبل السلطات الفرنسية بحيث لا يستطيع المسلمون أبداً تحقيق المساواة مع الجزائريين الفرنسيين. وعندما أُعلنت جبهة التحرير الوطني عام ١٩٥٤، تمّ إسكات المسلمين الجزائريين المعتدلين بواسطة مناوئيهم الوطنيّين، بمن فيهم حركة استقلال إسلامية مَنسيّة بشكل واسع، هي «جماعة العلماء» التي رأت أن الصراع هو ديني أكثر مما هو سياسي. كانت أولى هجمات جبهة التحرير الوطني صغيرة، حيث جرى قتل بعض الدرك الفرنسيين في خراج قرية بلد أو في جبال القبائل. وبدأت الجبهة حملة تدمير خطوط التلغراف ووضع قنابل صغيرة في مكاتب الطيران والمكاتب الحكومية. وعندما اشتدّت الحرب، كان أكثر من خمس مئة ألف جندي من القوّات الفرنسية يقاتلون في المدن والجبال، وبخاصة في الأخضرية، شرق مدينة الجزائر، مستخدمين الغارات الجوّية وطائرات الهيلكوبتر للقضاء على مجموعات المقاتلين. وكان مقاتلو حرب العصابات ناجحين أحياناً. ويقبع حُطام طائرة هيلكوبتر فرنسية أسقطت في قرية بلد اليوم على منصّة عرض في «متحف الشهداء».

يزعم بعض الجزائريين أن مليوناً ونصف مليون جزائري قتلوا خلال السنوات الثماني من الحرب التي انتهت عام ١٩٦٢، مع أن خمسمئة ألف من هؤلاء ربّما قُتلوا من قِبل زملائهم في حرب داخلية.

كان الصراع يتعلّق بخيانة المسلمين الجزائريين بعضهم بعضاً، وخيانة الجزائريين الفرنسيين من قِبل حكومتهم خاصّة ـ في ذهن العديد من ذوي الأقدام السوداء من قِبل ديغول. ولقد قتل رجال حرب العصابات واغتصبوا وشوّهوا الجنود والمدنيين الفرنسيين المعتقلين. وقتل الجيش الفرنسي المعتقلين وقضى على سكّان قرى بأكملها. وقام أيضاً بعمليات اغتصاب.

أصبحت حرب الاستقلال دعامة للسياسات الجزائرية الحديثة، وموضع انتقادات عنيفة من كلا الطرفين للسلطة الاشتراكية المفترضة والفاسدة وللذين يعارضون الحكومة. كانت الحرب قذرة لكن يمكن تسميتها دائماً بأنها عامل

تطهير في الحياة الجزائرية. وقد فوّضت الحكومة الثورية في الجزائر جيلّو بونتكورفو إخراج فيلم حول الانتفاضة بين عامي ١٩٥٤ و١٩٥٧، وبقي «معركة الجزائر» أحد الأفلام الكلاسيكية لحرب العصابات والتضحية. وهناك لحظة مأساوية في الفيلم، عندما قاد الكولونيل ماتيو، وهو الشخصيّة التي جسّدت في الواقع دور الجنرال ماسّو، قائدَ جبهة التحرير الوطني العربي بن مهدي المعتقل إلى مؤتمر صحفي طرح فيه الصحفيون أسئلة حول أخلاقية إخفاء القنابل في سلال تسوّق النساء. سأله صحافي: «ألا تعتبر أن من الجبن استخدام سلال تسوّق النساء وحقائبهنّ لنقل المتفجّرات التي قتلت العديد من الأشخاص؟». أجاب بن مهدي: «أفلا يبدو لك أكثر جبناً أيضاً إلقاء قنابل النابالم على القرى الآمنة، حيث يوجد من الضحايا الأبرياء عدد أكبر بآلاف المرّات؟ أعطونا قاذفاتكم ويمكنكم الحصول على السلال؟ وسأل: «هل عليكم البقاء في الجزائر؟ إذا كانت الإجابة بنعم، عندها عليكم قبول كلّ التبعات الضرورية». ويتضمّن الفيلم عدّة دروس لمحتلّي العراق الأميركيين والإنكليز. ألم يكن مفاجئاً أن ينظم البنتاغون في أوائل ٢٠٠٤، عرضاً سينمائيّاً للخبراء العسكريين والمدنيين في واشنطن الذين جرى سؤالهم ببيان يتضمّن: «كيف يتمّ كسب معركة ضدّ الإرهاب وخسارة حرب المبادئ؟».

إذا كانت الحرب عنصر تنشيط مستمرّ للجزائريين، فإنها أُزيلت خلال ثلاثة عقود تقريباً من الذاكرة الفرنسية الجماعية.

ولعدّة سنوات، تم منع فيلم «معركة الجزائر» في فرنسا، وعندما جرى عرضه في النهاية، تعرّضت دور السينما للهجوم بالقنابل الحارقة.

وتطلّب الأمر ثلاثين عاماً قبل أن يقوم مخرج أفلام فرنسي بإجراء مقابلة مع المجنّدين المنسيّين للصراع الذي قُتل فيه ٢٧ ألف جندي فرنسي. وأظهر فيلم برتران تافرنيه «الحرب التي لا اسم لها» La guerre sans nom قُدامى الحرب يُجهشون بالبكاء بينما كانوا يعبّرون عن أسفهم لعمليات قتل الجزائريين. في السنة نفسها، ١٩٩٢، أقام متحف التاريخ المعاصر معرضه الأوّل عن الحرب ونشر في ٣٢٠ صفحة دليل معلومات لم يحاول فيه إخفاء الوحشية. وفي عام ٢٠٠٠، رفض الرئيس جاك شيراك الدعوات إلى تقديم اعتذار رسمي حول استخدام التعذيب من قِبل الجنود الفرنسيين خلال الحرب. وعندما نشر الجنرال بول أوساريس، الذي كان منسّقاً لنشاطات الاستخبارات الفرنسية في الجزائر عام ١٩٥٧، مذكّراته عام ٢٠٠١ وتفاخر بشأن الجزائريين الذين أعدمهم شخصياً، طلبت منظمة العفو الدولية إجراء تحقيق من قِبل الحكومة الفرنسية. وادّعى أوساريس أن فرنسوا ميتران، الذي كان وزير داخلية اشتراكياً في ذلك الوقت، أعرب عن قلقه المطلق لعمليات التعذيب والقتل التي قامت بها القوّات الفرنسية في الجزائر. لكنّ الحكومة الجزائرية المعاصرة حافظت على ما أسماه صحافي جزائري «الصمت الجبان» حيال تصريحات أوساريس، على الأقلّ لأنّ بعض أعضائها مارسوا لفترة طويلة عمليات تعذيب ضدّ مواطنيهم تشبه تلك التي مارسها أوساريس ورجاله ضدّ الجزائريين. وحتى في باريس، مات الجزائريون بالمئات عندما احتجّوا في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦١ على حظر التجوّل الليلي الذي فرضته عليهم الشرطة. وهاجم رجال الشرطة الفرنسيون بوحشية المتظاهرين وقتلوا أكثر من ثلاث مئة منهم، أُلقيت جُثثهم في اليوم التالي في نهر السين.

وحتى يومنا هذا، لم تفتح السلطات الفرنسية كلّ الملفّات حول هذه المجزرة، مع أن قائد الشرطة المسؤول عن هذا القمع كان موريس بابون الذي أُدين في نيسان/أبريل ١٩٩٨ بجرائم ضدّ الإنسانية ارتكبها خلال الاحتلال الألماني.

كما كان لادّعاء فرنسا الأساسي أنها غزت الجزائر لتحرير شعبها صدى معاصر مؤلم، وكذلك الدعوات لتقديم الدعم للحكومة الفرنسية من قِبل الإدارة الأميركية خلال حرب استقلال الجزائر. وقيل للأميركيين إن فرنسا تحارب دفاعاً عن الغرب ضدّ الجهاد، ضدّ «التطرّف الإسلامي الشرق أوسطي».

وادّعى الفرنسيون أن هذا صراع حضارات. وكانوا بالطبع مُخطئين ـ كانوا يحاربون ضدّ ثورة وطنية في الجزائر كما وجد الأميركيون أنفسهم يحاربون ضدّ ثورة وطنية في العراق ـ لكنّ المضمون الإسلامي لحرب الاستقلال ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ تم تجاهله منذ وقت طويل، على الأقلّ من قِبل الحكومة الجزائرية التي وجدت نفسها تحارب عدوّاً إسلامياً في التسعينيّات.

أخرج محمد بو يعلي صورة فوتوغرافية لأخيه الراحل وعرضها عليّ. «لقد التقطت عندما كان مصطفى طليقاً. لم تحصل الحكومة أبداً على صورة له وهو ملتحٍ. كنا نتحدّث في تموز/ يوليو ١٩٩٢ وكانت الجزائر آنذاك على وشك الوقوع في حرب جديدة مُرعبة، في صراع إنساني مخيف. استردّ محمّد الصورة مني. وعندما عدت إلى الجزائر، كان منزل محمّد بو يعلي في منطقة تسيطر عليها الجماعة الإسلامية المسلّحة GIA وقد رفض سائقي الجزائري زيارة المنزل. وهكذا كانت صورة مصطفى بو يعلي على مكتبي عندما كتبت هذه الكلمات. إنها صورة محبّبة وقويّة، وجه كبير ولحية كثيفة وعينان حادّتان تحدّقان بقوّة في الكاميرا، عينا شخص مطلوب. عام ١٩٩٢، كنت جالساً مع شقيقه في منزله الجبلي المرتفع والجيّد التهوية في قرية عاشور التي تركها مصطفى بو يعلي منذ عشر سنوات ولم يرجع إليها أبداً.

كانت الصورة غير واضحة تماماً، وكان الورق المطبوعة عليه مجعّداً ووسخاً. ويبدو أنها عُرضت عدّة مرّات على أصدقاء العائلة المقرّبين، صورة شهيد مكرّم منذ تلك الليلة الماطرة من ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٧ عندما كمن الجيش الجزائري لبو يعلي على طريق لاربا Larba حيث أطلق جنديّ النار على رأسه. ومع أنها صورة فوتوغرافية ضعيفة، غير مؤطّرة، فإنّنا لن نكون مبالغين مهما تحدثنا عن تأثير هذا الرجل على التاريخ المعاصر للجزائر.

وقد رويت قصّته كثيراً في الغرب، فيما لم تعد تطرح قضيّته علانية في الجزائر. حينها كان هو الرجل الذي ألهم الجماعات المسلّحة التي هاجمت الحكم الجزائري في التسعينيّات. وكان الحافز وراء حركة الجهاد الإسلامي التي قامت بعد ذلك باغتيال ضبّاط الشرطة في أنحاء الجزائر؛ ١٢٠ شرطياً في الأشهر الستّة الماضية وحدها. وهنا في قرية عاشور، في هذا المنزل ذي النسيم والمقعد الدافئ المخملي والطاولة المغطاة بالبلاستيك وأشجار الخوخ

خارج الفناء الخلفي، يكمن الرابط التاريخي المفقود بين حرب الجزائر المتوحّشة من أجل الاستقلال والحرب الأهلية عديمة الشفقة بشكل متزايد في التسعينيّات، نقطة مهمّة لخيانة الجزائر واستمراراً لمأساتها. ولأنّ بو يعلي مقاتل مخلص لجبهة التحرير الوطني ضدّ فرنسا ومقاتل إسلامي ضدّ حكومة جبهة التحرير الوطني التي أخذت مكان الحكم الفرنسي، فقد طرحت نشاطاته تساؤلاً حول معنى التاريخ الجزائري. كيف يمكن لرجل سجنه الفرنسيون، وفدائي في جيش جبهة التحرير الوطني، أن يكون قائداً لجيش فدائي آخر ضدّ رفاقه القدامى؟.

ولِد مصطفى بو يعلي في عاشور يوم ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٤٠ وانضمّ إلى جبهة التحرير الوطني في سنّ السادسة عشرة، وقام بجمع تبرّعات في قريته، وهي جزء من المنطقة السادسة في الولاية الرابعة لجبهة التحرير الوطني. عام ١٩٥٨، اعتقلته الشرطة الفرنسية في المنزل الصغير في قريته عاشور وسُجن لمدّة سنتين. عند إطلاق سراحه، حاول الفرنسيون إجباره على الانضمام إلى الجيش، لكن بعد ثلاثة أشهر فرّ من ثكناتهم في بليدا وعُيّن ضابطاً في جبهة التحرير الوطني في مدينة الجزائر. ويتذكر رفيقه القديم أيام الحرب فيقول إن بويعلي كان أيضاً مناضلاً إسلامياً. واستناداً إلى صيّاح، فقد وجد بويعلي داخل جبهة التحرير الوطني مجالاً لممارسة الجهاد ضدّ الفرنسيين ـ كان يحمل هذا المفهوم الإسلامي حتى عندما كان في جبهة التحرير الوطني.

أيّد محمد بويعلي ذلك عندما قدّم صورة أخرى قديمة لشقيقه تظهر مصطفى في زيّ مقاتلي جبهة التحرير الوطني، يرتدي سترة مموّهة وقبعة بانشو وينتعل حذاء عسكرياً ويقف بطريقة مثيرة كما لو كان على وشك مهاجمة عدوّ، حاملاً بندقية قديمة. جرى تلوين الصورة بطريقة ذلك العصر: اللباس أخضر فاتح، والسماء زرقاء صافية، والوجه أصفر شاحب. وكان زجاج الصورة محطّماً. آنذاك كان ثمّة مؤيّدون آخرون مجهولون أيضاً لجبهة التحرير الوطني. وكان أحدهم هو الذي خطّط لتفجير مبنى الحكومة الفرنسية، ويدعى عبّاسي مدني. وقد أمضى معظم فترة الحرب في السجن.

ليس هناك أدنى شكّ في المرارة التي ولدتها الحرب. وقد اكتشف الفرنسيون أن المئات من المسلمين الموالين هربوا إلى جهة جبهة التحرير الوطني مصطحبين معهم أسلحتهم ممّا أثار خوفهم. ووجد الأسرى الفرنسيّون لدى جبهة التحرير الوطني عيونهم منزوعة وأعضاءهم التناسلية موضوعة في أفواههم. وردّ الفرنسيون بعمليات اعتقال واسعة النطاق، وسجن آلاف الرجال الجزائريين في معسكرات صحراوية بدون محاكمة. وقد طبّقت عقوبة الإعدام على المقاتلين المعتقلين، وكانوا يعدمون عادة على المقصلة إلا إذا أصبح مفيداً سياسياً تطبيق عقوبات أخفّ. وبعدما عاد ديغول إلى السلطة من منفاه في «كولومبي ـ لي دو زغليز» انتقل إلى الجزائر حيث قدّم ظاهرياً دعمه لذوي الأقدام السوداء وأبلغهم أنه يتفهّمهم ـ ثم عمد إلى التفاوض مع جبهة التحرير الوطني وانقلب على الجيش الفرنسي الذي ساعده في الوصول إلى السلطة. عام ١٩٦٠، تفاوض ديغول شخصياً مع ثلاثة زعماء من جبهة التحرير الوطني في الولاية الرابعة ـ قطاع بو يعلي ـ وقد نفّذ معظم محاولات الاغتيال التي تعرّض لها ديغول لاحقاً، ومجموعها ٢٤ محاولة خلال ثلاث سنوات، فرنسيون بعضهم من القوّات المسلّحة.

كانت التشابهات التاريخية غير ذكيّة، لأنها جميعها، باستثناء حادثة واحدة، تكرّرت بشكل ما في الجزائر في الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩٩٠. وقد اتّبعت الحكومة الجزائرية أكثر فأكثر الأسلوب المأساوي للإدارات الفرنسية السابقة. ولم يكن ذلك من باب الصدفة. فقد تعلّم الجزائريون من الفرنسيين أن الانتخابات يمكن تزويرها. وقد وصفت المؤرّخة الفرنسية آني راي ـ غولدزيغر كيف كان الجزائريون فاسدين بالفعل. «علّمناهم أن بإمكانهم اللعب بالديمقراطية وتزوير الديمقراطية... كنّا أساتذة من الدرجة الأولى في معاداة الديمقراطية». وبينما لعب الجزائريون دور حكّامهم الفرنسيين السابقين، قام المناوئون الإسلاميّون لنظام الحكم الجزائري بتقليد نشاطات جبهة التحرير الوطني أكثر فأكثر.

لقد تمّ خداع الجزائريين بثمار الاستقلال من قِبل زعماء زمن الحرب. ففي الأشهر الأخيرة قبل التحرير، قام فدائيّو الداخل ـ الرجال الذين كان عليهم محاربة أكثر الوحدات العسكرية الفرنسية قسوة ـ بالاعتراض على الأسلوب الذي حاولت من خلاله قيادة الخارج في تونس وليبيا ـ رجال مثل أحمد بن بلّا وهوّاري بومِدين ـ فرض سياسة معيّنة بالنسبة إلى مستقبل الدولة الجزائرية. كان حكم بن بلّا المفرط في الشهامة في السنوات الثلاث الأولى للاستقلال مثار غضب بويعلي، الذي صار يعمل الآن مندوباً عن جبهة التحرير الوطني في شركة الإلكترونيات الجزائرية الوطنية SoNalec. وكان مصطفى معارضاً لحقّ رجال الخارج في تقرير مستقبل الجزائر، كما قال محمد بويعلي، وكان ذلك أوّل خلاف له مع النظام. ولم يرغب في الانصياع لميثاق طرابلس.

كان يريد مؤتمراً لجبهة التحرير الوطني داخل الجزائر. وفي نهاية عام ١٩٦٣، انضمّ إلى الفدائيين مجدّداً، مع جبهة القوى الاشتراكية، وحسين آيت أحمد ومهنّد الحاج وكريم بلقاسم. لكن بعد ستّ سنوات من القتال، وعده بن بلّا أنه سيكون هناك تمثيل منصف داخل الحكومة لرجال الداخل والخارج معاً. وفي عام ١٩٩٢، كان حسين آيت أحمد زعيماً لجبهة القوى الاشتراكية. وتجنّب الحاج، وهو مقاتل قبائلي قديم، مصير رفيقه بلقاسم، الذي خُنق لاحقاً في فندق في فرانكفورت على ما يبدو بناء على أوامر بومدين.

عاد بويعلي إلى الحياة المدنية، متبوّئاً مركزاً سياسياً في جبهة التحرير الوطني في مدينة الجزائر ـ حتى حصول انقلاب بومدين ضدّ بن بلّا عام ١٩٦٥. واستناداً إلى صديقه في زمن الحرب ورفيقه صيّاح، رفض بويعلي إرسال برقية التهنئة التقليدية إلى المجلس الثوري الجديد الذي أنشأه بومدين. «قال إنه رفض دعم الانقلاب. لكن جبهة التحرير الوطني دعمت الانقلاب. وأيّدتُ أنا صديقي مصطفى بويعلي. اعتقدنا معاً أن الثورة الجزائرية انتهت. ورأينا أن الشعب الجزائري عانى ما فيه الكفاية. وأن الوقت حان لاستشارة الجميع في الجزائر حول مستقبلهم. كنا نريد الديمقراطية».

تذكّر صيّاح كيف أنّ بويعلي ورفاقه القدامى الآخرين في جبهة التحرير الوطني الذين عارضوا ديكتاتورية بومدين كانوا يجتمعون سرّاً في بيوت خاصّة ـ أحياناً في منزل صيّاح في ضواحي الجزائر ـ للبحث في مستقبل الجزائر وإمكانية إقامة دولة إسلامية. وصيّاح الذي كان يتعافى من التهاب معويّ عندما التقيته وتحدثت معه لفترة

قصيرة كان يتحدّث بعبارات لاهثة، ولا يزال في حالة انفعالية في ذلك الوقت: «يجب أن ترى ما يجري الآن في الجزائر فهو النتيجة المباشرة للمعارضة التي بدأها بويعلي عام ١٩٦٥. كانت معارضتنا تهدف إلى العمل من أجل مستقبل ديمقراطي بدون إراقة دماء. وكان الإسلام جزءاً أساسياً من إيماننا ـ حتى عندما حاربنا الفرنسيين. في حالتنا، كانت مشاعرنا الوطنية غير قويّة مقارنة بمشاعرنا الإسلامية. جاء الفرنسيون عام ١٨٣٠ ودمّروا مساجدنا ومنعونا من التحدّث بحرّية بلغتنا، لغة القرآن. وتحت حكم بومدين ليست لدينا حرّية. أجل كانت اجتماعاتنا دينية. كانت محادثاتنا السرّية تبدأ دائماً بقراءة آيات من القرآن الكريم وكنا نقول «الله أكبر» كما كنا نفعل عندما نذهب إلى المعركة خلال الحرب ضدّ الفرنسيين. كان المَيل الإسلامي قوياً جدّاً داخلنا... لم نُعطِ حركتنا اسماً عن قصد لأنّ قوّات بومدين الخاصّة كانت قويّة جدّاً وكان من الأسهل لهم اعتقالنا جميعاً لو استطاعوا معرفتنا في وقت واحد».

كان الشيخ محفوظ نحناح الذي قاد حزب حماس عام ١٩٩٢ (لاعلاقة له بالاسم الفلسطيني)، والشيخ أحمد سحنون، آخر الناجين من تجمّع العلماء القديم والذي يشغل الآن منصب إمام مسجد مدينة كونكورد خارج الجزائر العاصمة، وهما شخصيّتان دينيّتان توفّيتا تحت الإقامة الجبرية ـ وعبد اللطيف سلطاني والشيخ مصباح ـ جميعهم شركاء بو يعلي في هذه الاجتماعات السرّية وهكذا أعطوا حركتهم بسرعة اسم «جماعة القِيَم». وقد حظرت السلطات الجزائرية هذه الحركة عندما عارضت بشكل علني إعدام عبد الناصر للمفكّر الإسلامي سيّد قُطب في مصر ـ إدانة أحرجت حكومة بومدين. واستناداً إلى محمّد بويعلي، بدأ شقيقه أيضاً بإلقاء محاضرات للمسلمين في المسجد المحلّي في عاشور، تعاونه شخصية بارزة، هي عبد الهادي دودي، الذي كان عام ١٩٩٢ إمام مسجد مرسيليا. وقد تحدّث مصطفى عن الإسلام كنظام حكم ـ وهذا يعني أنه تحدّث في السياسة. وكانت خطبه تدور حول التثقيف السياسي في الإسلام وشجب الفساد، وعمد أيضاً إلى إعلان أسماء الأشخاص الفاسدين في النظام. وجرى إغلاق القرية أيّام الجمعة لأنّ العديد من الناس جاؤوا للاستماع إلى مصطفى وعبد الهادي.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٨، توفّي بومدين ليخلفه الشاذلي بن جديد الذي كان حكمه أيضا ديكتاتورياً وأكثر فساداً بشكل علنيّ من سلفه.

بدأت الشرطة بمراقبة مصطفى بويعلي. وقال شقيقه محمّد: «جاء رجال الحكومة إلى المسجد وبدأوا بتسجيل أرقام السيّارات، وإهانة الأشخاص الذين كانوا يستمعون إلى مصطفى. قاموا بتصوير الحشد. وطلبوا مراراً من مصطفى التوجّه إلى مركز الشرطة للاستجواب. كانوا يفعلون ذلك يومياً ـ حتى ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١. وعندما ذهب إلى العمل ذلك اليوم، حاول رجال شرطة بلباس مدنيّ اختطافه فأنقذه رفاقه في العمل. وفرّ إلى منزل جدّه. كان متأكداً أن الشرطة تريد اختطافه وأنه سيختفي».

وقد عمل الأصدقاء وسطاء لترتيب اجتماع بين الشرطة وبويعلي. وقيل له إن الحادث كان غلطة. وأضاف محمّد: «اتّهم قائد قوّات الأمن الوطني الجزائري مصطفى بويعلي بأنه متورّط في السياسة. عندما تتنفّس، عندما

تأكل، فهذا كلّه سياسة». في شباط/فبراير ١٩٨٢، واستناداً إلى عائلة بويعلي، كان تحويل ملفّ مصطفى من الشرطة إلى الاستخبارات العسكرية، نذير شؤم. وفي ٢٨ نيسان/أبريل، قفز عن سور منزله في عاشور ولاذ بالفِرار بينما كان رجال مسلّحون يرتدون ملابس مدنية ينتظرون عند البوّابة لاعتقاله لدى خروجه لإمامة صلاة الفجر في المسجد.

تذكّر محمّد بويعلي: «هكذا أصبح مصطفى في حالة فرار وبدأ بإجراء اتصالات من أجل العمل العسكري. تحدّث إلى معظم العلماء ـ إلى الشيخ نحناح، وعلي بلحاج والشيخ أحمد سحنون وعبّاسي مدني ـ وقال إنه سيلجأ إلى العمل العسكري وإن عليهم التحدّث في المساجد. والتقى مئات من أصدقائه الفدائيين القدماء في الجبال، وشكّل منهم مجموعات مسلّحة. كما اتصل بشباب باب الواد وبدأ يصنع قنابل». وقد لعب نحناح دوراً غير عسكري. ومع أن سحنون كان الأكبر سنّاً، فقد أصبح بلحاج ومدني قائدين للجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS).

في أواخر عام ١٩٨٢، أطلق بويعلي النار على ضابط شرطة وجرحه عند نقطة تفتيش على الطريق فتحرّكت الحكومة ضدّ أنصاره جميعاً، وجرى اعتقال ٤٧ منهم بين منتصف كانون الأول/ديسمبر وبداية كانون الثاني/يناير ١٩٨٣، و١٠٣ آخرين في أيار/مايو. وفي السنوات التالية لجأ بويعلي إلى عمليات السلب لجمع الأموال. وقامت مجموعته بمهاجمة كلّية الشرطة للحصول على أسلحة. وقد ادّعى صيّاح، الذي ترك بويعلي بحزن عندما تحوّل صديقه إلى الثورة المسلّحة، أن الشرطة بدأت انتقامها من بويعلي في وقت سابق خلال قتل أحد أشقّائه أمام أولاده ـ وكان ذلك ما دفع بويعلي إلى التخلّي عن الحوار لصالح الحرب. «فانتقل إلى الجبال... في ميتيجا والمدية والأخضرية، وفي أنحاء البلاد حتى سطيف. وجرت هناك معارك ضارية، حرب حقيقية».

كانت حرباً سرّية لم يسمع العالم بها أبداً، وكان هناك الكثير من الكمائن الحكومية. وجرى اعتقال أحد قادة بويعلي الرئيسيّين، عبد القادر شيبوثي، وحُكم عليه بالإعدام ـ لكنه حصل على عفو من الشاذلي بن جديد وعاد إلى القتال مع فدائيّي بويعلي بعد وفاة زعيمه. وكان العشرات من رفاق بويعلي يخوضون «حرباً إسلامية» ضدّ الجيش السوفياتي في أفغانستان، حيث أُعجبوا بعبدالله عزّام (قائد فدائي فلسطيني إسلامي اغتيل بواسطة سيّارة مفخّخة عام ١٩٨٩). وكان أحد أبطالهم الآخرين في أفغانستان مقاتل مصري يُدعى شوقي الإسلامبولي، شقيق الرجل الذي اغتال الرئيس المصري أنور السادات في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١.

وعندما اغتيل مصطفى بويعلي أخيراً، اكتفت الصحف بإيراد خبر موت إرهابي. قال محمّد بويعلي: «وشى به سائقه. كان مصطفى يتنقّل في الجبال قرب لاربه، في وقت متأخّر من الليل أثناء عاصفة مُمطرة. وكان سائقه قد اعتُقل قبل بضعة أيام وتعرّض للتعذيب ثمّ أُطلق سراحه بعد بضعة أيام ـ وكان من عادة مصطفى أن يبقى بعيداً عن الأشخاص الذين يتعرّضون للاعتقال خوفاً من انقلابهم عليه. كانوا مُنطلقين على الطريق عندما لاحظ مصطفى قيام السائق بتحويل أضواء السيّارة إلى أعلى وإلى أسفل مرّة أخرى وسمعه أصدقاؤه يصرخ: «خائن» وفي تلك اللحظة أُطلقت العيارات الناريّة من جانبي الطريق وقُتل مصطفى مع خمسة من رجاله». واستناداً إلى صيّاح، كان آخر عمل

قام به بويعلي على الأرض أنه أعدم سائقه بإطلاق النار على رأسه قبل ثوان من إصابته هو أيضاً برصاصة في الرأس.

لكن إرث بويعلي بعد وفاته كان أكثر عنفاً. فعندما قتلت قوّات الشاذلي بن جديد أكثر من ٥٠٠ متظاهر يطالبون بالديمقراطية في مدينة الجزائر عام ١٩٨٨، ساعد الحدث على ولادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ التي كان من قادتها مدني وبلحاج رفيقا بويعلي القديمين. وكان الحدث بحجم مجزرة سطيف التي وقعت منذ زمن طويل، ولكن بأسلوب أشد مأساوية.

وجد الرئيس بن جديد نفسه في مواجهة ضغط من أجل الإصلاح، لم يكن مختلفاً عمّا واجهته السلطات الفرنسية قبل حرب الاستقلال. وعندما ألغى العسكريون الجولة الثانية من الانتخابات الوطنية عام ١٩٩٢ ـ بعد جولة أولى أظهرت أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ستكسب ـ كان هذا القمع للديمقراطية مثيراً للسخرية في كل تفاصيله، كما كان الفرنسيون يزوّرون انتخاباتهم في الجزائر. ثم جرى إقصاء بن جديد من قِبل الجنرالات، وتمّ حظر الجبهة الإسلامية للإنقاذ وبدأت حرب عصابات بالغة العنف.

كان هؤلاء الفدائيّون الجُدد عام ١٩٩٢ مؤلّفين أساساً من الرجال الذين قاتلوا مع بويعلي في الجبال، واستخدموا أساليب جبهة التحرير الوطني القديمة ضدّ الفرنسيين. قاموا بقطع خطوط الهاتف والكهرباء وزرعوا قنابل في مراكز مكاتب الطيران والمباني الحكومية، واغتالوا رجال شرطة. وردّت الحكومة ـ كما فعل الفرنسيون في مواجهة جبهة التحرير الوطني ـ بتسمية أعدائها إرهابيّين. وبدأ ألوف من الجنود الجزائريين بمن فيهم قوّات المظلّيين ـ تدرّب العديد منهم في فرنسا على يد أسيادهم الاستعماريين القُدامى ـ بتصفية رفاق بويعلي القُدامى وتلامذته الشباب في الأخضرية، وجميلة، وسيدي بلعباس، وجيجل، كما فعل فوج المظلّيين الفرنسي بتصفية جبهة التحرير الوطني في تلك الأماكن نفسها منذ أكثر من ثلاثة عقود. وخلال هذه العمليات التي لم تحظ فعلياً بأيّ إعلان عنها في داخل الجزائر أو خارجها، هرب عشرات الجنود وانضمّوا إلى المقاومة الإسلامية مع أسلحتهم كما فعل القنّاصة الجزائريون الفرنسيون عندما انتقلوا إلى جبهة التحرير الوطني.

وهكذا قادت خيانة الثورة ضدّ فرنسا إلى تكرار تاريخي. ففيما أفسد طُغاة جبهة التحرير الوطني بلادهم، اعتُبر انتصارهم الأساسيّ خيانة، وكذلك فرانكوفونيّتهم، وزمرتهم الغربية (على النمط السوفياتي أساساً) اعتُبرت نسخة ضعيفة عن النظام الاستعماري الفرنسي القديم. ودلّت ثقافتهم الفرنسية ـ التي يصفها الجزائريون «بالإرث اللعين» ـ على أن لا شيء تغيّر. ونشأ شباب الجزائر العاطل عن العمل تَعِباً من الوعود المزيّفة لحرب الاستقلال، مريضاً من كثرة ما سمع عن الثورة، شاعراً بالملل من تذكّر الأبطال الموتى الذين جلبوا له الفقر والتشرّد. وبحلول عام ١٩٩٢، كان أكثر من ٧٥ في المئة من سكّان الجزائر ممّن ولدوا بعد حرب الاستقلال. هل كانت مفاجأة والحال هذه أن الناجين المسنّين من تلك الحرب شكّلوا الأهداف الأولى للإسلاميين؟ وفي كلّ يوم كانت تظهر إعلانات وفاة في الصحافة الجزائرية المصدومة... وغدت قبور شهداء جبهة التحرير الوطني مفتوحة،

وعظامهم ـ الممزّقة بالعيارات النارية الفرنسية منذ ثلاثة عقود ـ مهشّمة بالحجارة من قِبل الجزائريين المفترض بهم احترام ذكراهم.

لم يفاجئني كون الحكومات الجزائرية اللاحقة أُجبرت على الاعتراف بخطورة التهديد الذي كانت تواجهه آنذاك. وعندما سألني رئيس الوزراء الجزائري مقداد سيفي عام ١٩٩٥ ما إذا كنت أعرف مَن كان بويعلي، كان ذلك نوعاً من المنعطف ينحو إلى فهم دور بويعلي التاريخي، والعلاقة التي ربطته بالماضي والمستقبل. كان صراع ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ حرباً أهلية وفي الوقت نفسه حرب استقلال ضدّ الفرنسيين في ما بعد.

وكانت الجزائر داخل سور فولاذي طيلة سنوات من ديكتاتورية ما بعد الحرب، كما أطبق تيتو على يوغوسلافيا بقبضته الحديدية بعد الحرب العالمية الثانية. وعندما يصدأ الحديد، يستعيد التاريخ عافيته حيث توقف. من هنا، نظرت الحكومة الجزائرية ومناوئوها المسلّحون إلى الوراء عوضاً عن النظر إلى الأمام. فقد قدّمت السلطات وعوداً شبيهة بوعود بومدين حول الرخاء المستقبلي والديمقراطية والدعم الشعبي. وهاجم الإسلاميون الثقافة والفنون وتحدّثوا عن الخلافة. حتى أنّ حسن الترابي، رجل الدين السوداني البارز الذي ادّعت الحكومة الجزائرية أنه أثّر بشكل كبير على الإسلاميين، اعترف لي عام ١٩٩٢ بأنه لا يستطيع فهم القيادة الإسلامية في الجزائر. وعبّر عن أسفه قائلاً: «إنهم لا يتكلّمون عن المستقبل. لقد تحدّثت إلى عبّاسي مدني قبل الانتخابات وسألته: ما هو برنامجكم؟ ماذا ستفعلون بعد الانتخابات؟ هل بدأتم حواراً مع الفرنسيين؟..» فاكتفى بالقول: «كلّا، كلّا، نحن نريد كسب الانتخابات فقط».

في غضون شهور من الانتفاضة الأخيرة، تشكّلت الحكومة الجزائرية التي تقودها فعلياً مجموعة من الضبّاط الكبار والواسعي النفوذ في الجيش الذين تجوّلوا في الشرق الأوسط لتكوين فكرة عن صراعهم ضدّ «الإرهاب الأصولي». وأصدروا كتباً وكُرّاسات حول جذور النشاط الإسلامي لإقناع الدبلوماسيين والصحفيين الأجانب بأنّ جذور الإرهاب الجزائري تعود إلى الأخوان المسلمين في مصر، وباكستان والسعودية. وفي عام ١٩٩٥، ادّعى وزير الداخلية أن حزب الله اللبناني والإيرانين وحركة حماس الفلسطينية أجروا اتصالاً مع الجماعات الإسلامية الجزائرية في اجتماع عُقد في مدينة طرابلس شماليّ لبنان. وكانت الرواية من نسج خيال كاتب فرنسي ـ زعم أن المخابرات السورية مصدر معلوماته ـ وأعيد تركيبها في رواية للنيويورك تايمز من باريس. ولقد بحث الجزائريون في كلّ مكان ـ أيّ مكان ـ عن طريقة ما لإثبات أن الانتفاضة الجزائرية ليست جزائرية. كما فعل الأميركيون في العراق بعد عشر سنوات، إذ إنّ أعداءهم يجب أن يكونوا أجانب، من الفضاء الخارجي، داكني الوجوه عبروا الحدود لقتال قوّات الديمقراطية.

كانت لدى الطرفين أوهام متمّمة. فقد اعتقد العديد من الفرنسيين أنهم يحاربون الشيوعية في الجزائر بينما كانوا في الواقع يحاربون القومية ـ أو الإسلام، إذا أردنا تصديق رفاق بويعلي والدعاة الفرنسيين في ذلك الوقت. وتؤمن المقاومة الإسلامية الآن بأن حرب الاستقلال كانت جزئياً جهاداً دينياً، على أن الأمر ـ وفقاً لحجم الدليل

المضادّ الموثّق الكبير ـ لم يكن كذلك بشكل واضح لمعظم المشاركين. وما زال مؤيّدو بويعلي السابقون ـ الذين تركوه عندما ذهب إلى الجبال ـ يعتقدون أنه لو تحدّثت الحكومات الجزائرية المتعاقبة مع مناوئيها بدلاً من سجنهم لكان من الممكن التوصّل إلى تسوية للأزمة. وعوضاً عن ذلك حوّل الذين اختاروا القتال بالسلاح ذكرى مصطفى بويعلي إلى مصدر إلهام لمزيد من الكفاح. وكانت لدى شقيقه محمّد صورة أخرى له. إنها صورة ملوّنة لبويعلي في الأشهر الأخيرة قبل مصرعه، جالساً متربّعاً على الأرض في مغارة جبليّة، يقرأ القرآن المفتوح أمامه ـ ومعه رشّاش فرنسي مسنود إلى الحائط عن يمينه. وبالطبع، أتذكّر اليوم إسلامياً آخر مسلّحاً يجلس على الأرض في كهف ويقرأ القرآن وبجانبه سلاح.

هل حكم بويعلي على شعبه بإعادة تحريك الحرب المُرعبة التي انتهت عام ١٩٦٢؟ في تموز/يوليو ١٩٩٢، أُلقيَ القبض مجدّداً على رفيق بويعلي القديم، عبد القادر شبوثي، مع أحد أنصاره السابقين، منصوري ميلاني، بعد معركة بالسلاح في عاشور. قُبض عليهما على بعد مئات الأمتار فقط من قبر بويعلي المجهول.

بلغت الديمقراطية ـ التي يجب أن تكون دائماً مثل فلسطين في السياق الجزائري مُستَخدمة في نقاط الاقتباس ـ نهايتها يوم ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢، عندما طبّقت الحكومة القانون العُرفي وجرّدت جبهة الإنقاذ الإسلامي من فوزها الانتخابي الديمقراطي عبر إلغاء الجولة الثانية من التصويت المقرّرة بعد أربعة أيام. وكنت قد وصلت إلى مدينة الجزائر بتأشيرة لتغطية الانتخابات التي لن تجري بعد الآن. وتملأني الحماسة لمشاهدة «تجربة الجزائر في الديمقراطية»، نزلت في فندق السان جورج الفرنسي القديم، الذي كان مقرّ قيادة الجنرال دوايت أيزنهاور في الحرب العالمية الثانية ـ واسمه الآن فندق الجزيرة ـ لأجد الرئيس الشاذلي بن جديد يعلن استقالته من على جهاز التلفزيون القديم في بار الفندق. وكان يجب إعادة برمجة المفكّرين الحكوميين، الذين تولّوا إطلاعنا على أعاجيب الديمقراطية الجزائرية لشرح كيف يمكن حماية الديمقراطية بتعليق الديمقراطية. كان هذا عملاً شاقّاً. كما لو كان تدمير قرية فيتنامية بهدف إنقاذها شيئاً وتدمير الديمقراطية بهدف إنقاذها شيئاً آخر تماماً.

أقصى الجيشُ الشاذلي بن جديد عن الرئاسة وأعلن أن مجلس رئاسة مؤلّفاً من خمسة رجال بمن فيهم الجنرال القوي خالد نزار سيدير البلاد. ومع أنه لم تكن لهذا المجلس شرعية دستورية، فقد كانت ثمّة حاجة إلى شخصية رمزية تجلس على عرشه، وبيأس استدعت السلطات بطلاً من الماضي، رجل أقدار عاد من المنفى لقيادة الجزائر في وقت الحاجة. وكما عاد ديغول من كولومبي لي دوزغليز عاد محمّد بوضياف، وهو من قُدامى حرب ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ وأحد مؤسّسي جبهة التحرير الوطني، إلى الجزائر. وأبلغ شعبه أنه يتفهّم احتياجاته، كما قال ديغول إنه يتفهّم الجزائريين الفرنسيين، ولن تكون الجزائر جمهورية إسلاميّة.

حذّر الزعماء الإسلاميّون الجزائريّون ـ المصعوقون من رؤية الجيش يسيطر على البلاد التي اعتقدوا أنهم سيحكمونها ـ من أنهم لن يتسامحوا مع أيّ محاولة لإلغاء الجولة الثانية من الانتخابات. لكنّ انقلاباً عسكرياً هادئاً جعل الجنرالات وليس السياسيين مسيطرين على الجيش وأُقيمت نقاط التفتيش التابعة للشرطة شبه العسكرية على

جميع الطرقات الرئيسية في العاصمة. وتمركزت القوّات وناقلات الجند المصفّحة حول المباني الحكومية ـ مكتب رئيس الوزراء، وزارة الخارجية، مكتب البريد، وزارة المالية، محطة الإذاعة ـ وقامت قوّات الكوماندوس الجزائرية شاهرة الحراب بأعمال الدورية في شوارع العاصمة الجنوبية. وندّد الزعيم النشط للجبهة الإسلامية للإنقاذ الشيخ عبد القادر حشّاني بحكّام البلاد الجدد ووصفهم باللصوص «الذين سلبوا الشعب الجزائري حرّيته». وقال: «يجب أن يقف الجيش إلى جانب الشعب». حتى الشيخ نحناح، الذي أمّن له موقفه المعتدل النجاة من الاعتقال، شعر بأنّ من الضروري القول إن «العنف الأكبر يحصل عندما تهاجم الدولة شعبها». وقال: «إن النظام الجديد ديكتاتوري».

ركبت إحدى سيّارات الأجرة الصفراء في وسط المدينة في أول صباح للديكتاتورية متوجّهاً إلى غرفة رخيصة في طابق أرضي في شارع العربي بن مهيدي حيث يقوم معرض كل جزء منه محزن مثل «متحف الشهداء» الذي يشبه منزلاً مكتظّاً. هنا جرى استبدال بيتهوفن وبرامز بصوت مرتفع عبر مكبّر للصوت يتلو آيات من القرآن. وقد تضمّن عرض للتاريخ المعاصر نظّمته الجبهة الإسلامية للإنقاذ بعض المقارنات المتجهّمة مع متحف آخر على التلّة. هنا تبدو مجدّداً الوجوه المحطمة للقتلى والرجال المضروبين ـ بالألوان هذه المرّة وهؤلاء ليسوا ضحايا حرب ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ ضدّ الفرنسيين بل عشرات الجزائريين الذين قُتلوا في شوارع مدينة الجزائر على يد القوّات الجزائرية في اضطرابات ١٩٨٨. هناك أيضاً خزانة عرض تتضمّن عيارات نارية والخرطوش الذي أطلقه الجيش الجزائري. وكان مكتوباً بوضوح على إحدى الرصاصات: «المختبرات الفيديرالية المتحدة ـ سالزبورغ، بنسلفانيا ١٥٦٨١ الولايات المتحدة الأميركية».

لم يكن المصدر الغربي لهذه الأسلحة هو المهمّ ـ مع أن الشعور المعادي للغرب في أوساط الجبهة الإسلامية للإنقاذ كان يزداد يومياً ـ بل نموذج القمع الذي تمثّله. بدا وكأن الحكم الاستعماري الفرنسي أورث الجزائريين القوّة العسكرية وليس الحرّية. ففي ظلّ حكم جبهة التحرير الوطني الديكتاتوري، بعد الاستقلال، مارست قوّات الأمن الجزائرية العديد من عمليات التعذيب المماثلة لتلك التي كان يمارسها أسلافهم الفرنسيون ـ «الكهرباء بتهذيب شرقي» كما وصفها لي أحد الضحايا ـ وقد تعلّم الفرنسيون أنفسهم كيف يجعلون الرجال والنساء يتكلّمون في أقبية الغستابو خلال الحرب العالمية الثانية. كانت سلالة من الرعب واحدة ستتسع إذا واجهت الجزائر ثورة إسلامية.

كان مؤيّدو الجبهة الإسلامية للإنقاذ يشرحون سبب غضبهم ببساطة. لقد تمّ تشجيعهم على المشاركة في هذه الانتخابات. ولقد ردّد الغرب تكراراً أن السلطة تأتي عبر صناديق الاقتراع أكثر منها عبر الثورة ـ إسلامية أو غيرها ـ وقد لعبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ بأمانة البطاقة الديمقراطية، والتزمت بالقوانين ـ وارتكبت خطأ كسب الانتخابات. لم يكن ذلك ما يريده النظام أو مؤيّدوه الغربيون.

كانت فرنسا مسرورة بمنع كابوس الكارثة الإسلامية على الساحل الجنوبي للمتوسّط. ولم يكن الأميركيون راغبين في رؤية ثورة إسلامية أخرى تسير على خُطى إيران. فهذا كثير بالنسبة إلى الديمقراطية.

بالطبع، لم يكن الأمر بهذه السهولة. وذلك أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ تصرّفت بدون مسؤولية. فقد أدّت مطالبتها المتكرّرة بجمهورية إسلامية إلى حصولها على تأييد ٢٦ مليون جزائري عليها تمثيلهم عندما تتسلّم السلطة. ويمكن أن يكون تسليمها بمبدأ العدالة ـ وإيمانها غير القابل للنقاش بخطّها الإسلامي بكل قوانينه الشرعية الاجتماعية ـ رائعاً، وكذلك تمسّكها بالتاريخ. وقد أبلغني رجل دين شابّ من الجبهة الإسلامية للإنقاذ خارج مسجد باب الواد: «كل شهدائنا ضدّ الفرنسيين ماتوا من أجل الإسلام. كانت حرب الاستقلال نضالاً إسلامياً». وكانت هذه عقيدة بويعلي.

في الواقع، لم يكن الكيان السياسي للجزائر مهدّداً بالطريقة المثيرة للشفقة التي أظهرها الشاذلي بن جديد في مقابلته التلفزيونية. فقد كان الدستور الجزائري مصمّماً بحيث أنه حتى لو سيطرت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على البرلمان فلن تكون قادرة على الاستيلاء على الحكم. لأن الرئيس كان هو من يختار الوزراء ـ والوزراء هم مَن يحدّدون البرنامج السياسي. وإذا رُفض البرنامج مرّتين من قِبل المجلس النيابي، تجرى انتخابات عامّة جديدة. بعبارة أخرى، تستمرّ الحكومة نفسها ـ التي يؤيّدها الجيش ـ في السيطرة على الجزائر. ولذلك لم ترغب السلطات مرّة أخرى في التفاوض مع المعارضة. وذلك أنهم لا يريدون الديمقراطية إلا إذا استطاعوا أن يكونوا هم الرابحين. وأرادوا سجن مناوئيهم مؤقّتاً. وبعد ثلاثة أيام من إعلان الحكم العسكري، أعلنت الجبهة الإسلامية للإنقاذ أن الجيش اعتقل ٥٣ من أعضائها ـ بمن فيهم ثلاثة نجحوا في الجولة الأولى من الانتخابات ـ.

تبنّى حشّاني بذكاء الدور الدستوري، مقترحاً أن يشكّل كل النواب البالغ عددهم ٢٣١ ـ بمن فيهم ١٨٨ عضواً من الجبهة الإسلامية للإنقاذ انتخبوا في كانون الأول/ديسمبر في الجولة الأولى ـ مجلس نوّاب متوازناً وقال: «يجب البدء بعمل سياسي»، غير أن كلمات حشّاني تم تجاهلها بظهور عمّار براميه، وهو رئيس فريق الجزائر الرياضي الوطني، في مؤتمره الصحفي الذي عرض فيه رواية غير سارّة حول اعتقاله والمعاملة السيّئة التي تلقّاها على يد الجيش يوم ١٣ كانون الثاني/يناير. وصرّح بأنه اقتيد إلى وزارة الدفاع في مدينة الجزائر لأنه تم التعرّف عليه في مهرجان للجبهة الإسلامية للإنقاذ، وأُجبر على خلع سرواله قبل تعرّضه للضرب بوحشية. وقال: «هدّدوني باغتصاب زوجتي إذا أبلغت أحداً بما حصل. وأنا أُبلغ ذلك للصحافة حتى يعرف الشعب الجزائري أيّ نوع من الأشخاص يحكموننا».

لكن أيّ نوع من الأشخاص ساندوا الجبهة الإسلامية للإنقاذ؟ من الخارج، تُعتبر مُجمّعات باب الواد السكنية أقفاص عصافير، نوافذها مستطيلة صغيرة محشوّة بأغطية الأسرّة الجافّة والفرش القديمة، ومؤلّفة من ثمانية طوابق، وهي ثلاثون مجمّعاً تصطفّ جنباً إلى جنب، جدرانها الخارجية متّسخة، ويقطنها أكثر من ٣٥٠٠ شخص يعيش كل عشرة منهم في غرفة. تمشي في الردهات الكئيبة الرمادية، فاقداً السمع من صراخ الأطفال، وتستطيع مشاهدة أسرّة متراكبة من الأرض حتى السقف في كل غرفة كما لو أن السكّان يعيشون في ثُكنات، وهم كذلك من الناحية المنطقية. وقد شُيّدت مراكز شرطة حديثة في الأحياء خارج باب الواد، وأصبحت قوّات الأمن جيش احتلال دائم.

فليس مستغرباً والحال هذه أن السكّان هناك لم يعتبروا الجمهورية الديمقراطية الشعبية، شعبية أو ديمقراطية. وكانت شعارات الجبهة الإسلامية للإنقاذ في شهر كانون الثاني/يناير البارد والرطب من عام ١٩٩٢ على كل حائط. تحدّثت إلى صاحب محلّ مُلتحٍ عمره ٣٩ عاماً، يرتدي كنزة رمادية قديمة وينتعل حذاء ـ آثر أن يبقى مجهول الاسم في ظلّ القانون العرفي المخيف ـ أشار إلى الشرق باتجاه مطار الجزائر، حيث سيصل محمد بو ضياف رجل حرب الاستقلال الكبير بعد ٢٨ سنة من المنفى في المغرب وقال: «لماذا أنتم الأجانب مندهشون لأنّنا اقترعنا للجبهة الإسلامية للإنقاذ؟ لو كنت في المطار ومعي مسدّس لقتلت بوضياف. كيف يجرؤون على فرض هذا الرجل العجوز علينا بعد انتصارنا الانتخابي؟ ماذا يريد منا؟ لم أسمع عنه أبداً حتى قالوا إنه سيكون القائد الجديد للجزائر». وليس متوقّعاً أن يعرف صاحب المحلّ بوضياف. فقد كان عمره تسع سنوات عندما غادر الفرنسيون الجزائر وأطلقوا سراح بوضياف من السجن.

مع ٧٠ في المئة ممّن هم تحت سنّ الخامسة والثلاثين من مواطني الجزائر البالغ عددهم ٢٦ مليون نسمة ـ ٤٤ في المئة تحت سنّ الرابعة عشرة ـ لا يستطيع سوى ربع السكان تذكّر حرب العصابات ضدّ فرنسا.

لكنّ تحوّل الجزائر نحو الإسلام كان مُلتبساً. فالعلم الجزائري يتضمّن هلال الإسلام، والكلمات الأولى من القرآن مطبوعة فوق البند الأول من الدستور الجزائري. وينصّ البند الثاني على أن «الإسلام دين الدولة». لكنّ الصحوة الدينية التي اختبرها ملايين الجزائريين خلال العقد السابق لا تحمل أيّ تشابه بين الموالاة الشكلية لجبهة التحرير الوطني الحاكمة والعقيدة. وقد ذكر أعضاء الجبهة الإسلامية للإنقاذ أنهم بدأوا بتطبيق الإسلام فعلياً قبل عشر سنوات ـ عام ١٩٨٢ ـ عندما فرّ بويعلي وبدأ حرب عصابات، وعندما ظهرت مجموعة جديدة من الدعاة الشباب في مساجد الجزائر، وهم رجال رفضوا الحفاظ على التكتّم السياسي في مواجهة سوء الإدارة الاقتصادية للحكم. وفي المقابل أمّن هبوط أسعار النفطوالفقر المتزايد للشباب الجزائري صعود الأصولية ـ لذلك رفضت الجبهة الإسلامية للإنقاذ عبارة الأصولية باعتبارها اختراعاً غربياً.

على سبيل المثال، قال لي «عقلي» في «مسجد كابول» في بلكور إن حضور المقاتلين السابقين الذين حاربوا السوفيات في أفغانستان هو السبب في تسمية المسجد باسمه الحالي.. وتذكّر متى بدأت عقيدته الدينية بالتأثير على حياته. «بدأتُ مناقشة الإسلام في أواخر السبعينيّات، في المقاهي والطرقات ـ وأيضاً في الحانات ـ وقد ملأت فراغاً في المجتمع الجزائري. كان شعبنا يزداد فقراً. وكنت أفكّر دائماً في الجمهورية الإسلامية كحلم، وأصبحت حقيقة بالنسبة إليّ. يُبلغنا الغرب أن مشاكل العالم الثالث اقتصادية، لكنني أدركت من خلال الإسلام أن ذلك غير صحيح، وأن على الشعب في الواقع أن يتغيّر».

كان «عقلي» عالم بيولوجيا. ويميّز الافتتان بالعلوم معظم تفكير الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وكان كثير من أنصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ من المثقفين مهندسين متخصّصين وتقنيّي اتصالات. وبدون استثناء، أفردت كلّ مكتبة في مدينة الجزائر قسماً خاصّاً للأدب الإسلامي، وإلى جانب كلّ قسم هناك رفوف للأعمال العلمية. وكان

جميع مرشّحي الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى الانتخابات النيابية في كانون الأول/ديسمبر من المتخرّجين، وخمسة عشر منهم علماء. وفي جمهورية إسلامية جزائرية، ستكون الحكومة على الأرجح بقيادة تكنوقراط وليس رجال دين. وزعم مؤيّدو الحزب أن الإسلام والعلوم ليسا متوافقين فحسب بل متكاملان، فالاثنان يحملان الحقيقة المطلقة والفهم المطلق.

يمكن للعلوم أيضاً أن تُستخدم للتضليل. ففي تموز/يوليو ١٩٩١، هرّبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ جهاز ليزر إلى داخل الجزائر بواسطة حقيبة دبلوماسية لسفارة عربية وكتبت ليلاً في السماء على الغيوم فوق المدينة كلمة «الله أكبر»، وزعم العديد من الحاضرين أنهم شهدوا معجزة. لكن لم تكن الجبهة الإسلامية للإنقاذ حزباً رجعياً. ولم يستطع رجل آخر من باب الواد (وهو عاطل عن العمل ومجهول الهويّة مجدّداً، بما أنّه توقّع بحقّ حرباً أهلية واعتقالات واسعة) إخفاء غضبه إزاء محاولات الرئيسيْن السابقيْن بومدين وبن جديد قمع الشعور الديني العميق. قال: «ظنّوا أنهم يستطيعون الحفاظ على ولائنا ببناء المساجد ـ عشرات المساجد في جميع أنحاء الجزائر وجامعات إسلامية أيضاً في مدينتَي الجزائر ووهران. وبدأت زوجة بن جديد تظهر في الصور مرتدية الحجاب قبل أن تختفي من المشهد العلني. لكن أنت لا تحبّ الإسلام بسبب بناء المساجد، وعلينا ممارسة عقيدتنا في حياتنا اليومية. كنّا نجد الشجاعة عندما كان داعية، داعية مناضل، يتقدّم ويتخلّى عن التقيّة في الثمانينيّات. كان اسمه مصطفى بويعلي. وقد قتلته الشرطة».

بويعلي. كان ذلك قبل فترة طويلة من مقابلتي عائلة بويعلي أو إجرائي بحثاً عن حياته. كانت تلك إحدى المرّات التي سمعت فيها باسمه. وكانت الجبهة الإسلامية للإنقاذ قد نفت قيامها بأي دور عسكري. ومع ذلك، كانت هناك تقارير تفيد بأن عدّة خلايا مسلّحة موجودة بشكل حرّاس حول مقارّ الحركة. وقيل إن إحدى المجموعات مؤلّفة من أبناء القبائل الذين قاتلوا في أفغانستان. وثمّة مجموعة أخرى يُعتقد أن اسمها لواء القدس. لكنّ الجبهة الإسلامية للإنقاذ لن تتحدّث عن ذلك.

«لا تستفزّ أحداً، ابقَ هادئاً. لن يحدث عنف»، كان هناك حوالي ٣٠ ألف مصلٍّ في الشوارع الضيّقة، المحطمة، حول مسجد السنّة المصنوع من الخشب وهم يطيعون التعليمات حرفياً بحيث لا يكادون يتبادلون الحديث عندما ينهون صلاة الجمعة. وقد أبلغ الشيخ عبد القادر حشّاني أتباعه ـ كان الألوف منهم جالسين على حُصر في الطرقات وعلى الأرصفة في باب الواد ـ أن خمس مئة شابّ على الأقلّ اعتُقلوا من قِبل الشرطة والجيش. وعلى طول الشاطئ، كان رجال شرطة مكافحة الشغب بخُوَذهم الواقية والهراوات في أيديهم منتشرين منذ أربع ساعات.

ولقد شاهدت شابّاً مُلتحياً في الخامسة عشرة من العمر على الأرجح، يصرخ مُحتجّاً بينما كان مسحوباً من ياقته على الطريق السريع خارج مقرّ قيادة شرطة الأمن، وكان كلامه شاكياً وغاضباً. ثم دفعه شرطي شبه عسكري إلى داخل باص صغير ممتلئ بشباب مُلتحين. بدا الأمر وكأنّ الشرطة تحاول استفزاز الحشد الكبير. لكن بالنسبة

إلى حشاني فإن تخلّيه عن خطبته سوف يُعتبر انتصاراً لمحمّد بو ضياف. ومع أن هذا كان لا يزال في المغرب، بعد أن تمّ تعيينه رئيساً لمجلس الدولة الجزائري، فقد أعلن أنه لن يسمح «باستخدام الإسلام للاستيلاء على البلاد»... وبالمناسبة كرّر حشاني ـ الذي كان صوته يرتفع من عشرات مكبّرات الصوت عبر الشوارع المتداخلة ـ ادّعاءه أن بوضياف رئيس غير دستوري، زاعماً أنّ المتحدّثة باسم الإدارة الأميركية أعطت موافقتها على النظام الجزائري الجديد.

يبدو أنها المرّة الأولى في التاريخ التي يُعلن فيها اسم مارغريت توتويلر في مسجد جزائري. لقد خطّط نظام جورج بوش العالمي الجديد بعد حرب الخليج لانقلاب بوضياف بُغية منع إقامة جمهورية إسلامية. وهو ما أكّده حشّاني. كان الجمع الساجد باللباس القرمزيّ والأزرق يستمع بصمت مُطبق وبانتباه شديد بحيث كان من الممكن سماع الصلوات من المساجد الأخرى بين كلمات حشّاني التي تتردّد في فضاء المدينة. من خلال مراقبة هذه الآلاف من الوجوه بنظراتها الحادّة والدموع ـ دموع حقيقية ـ التي تتساقط طواعية على وجوههم بينما هم يصلّون، يستطيع المرء السؤال فقط ما إذا كان باستطاعة بوضياف المسنّ مواجهة هذا الهدف الجامع، المخيف والحسّي.

أبلغ بوضياف مواطنيه قبل ساعات قليلة: «الجزائر مهدّدة، سأفعل كل ما بوسعي لحلّ مشاكل الشباب... الإسلام في هذا البلد ملك للجميع، وليس لفئة قليلة... سأدعو الله أن يوحّدنا ويخرجنا من هذه المحنة». لكن في مسجد السنّة، كان جمهور حشّاني يدمدم أيضاً بدعوات مُخلصة. همس أحد مؤيّدي الجبهة الإسلامية للإنقاذ بينما كان يراقب شرطة مكافحة الشغب في أسفل الشارع: «الإسلام سينتصر، سوف يموت بوضياف ورجال الحكومة، وسوف يذهبون إلى الجحيم». لم يقل ذلك بمجرّد الكلام بل بتصميم كما لو كان يستطيع تأكيد مصير أولئك الذين يتمنّى زوالهم.

لم يكن جميع أولئك الذين احتشدوا في شوارع باب الواد مؤيّدين للجبهة الإسلامية للإنقاذ. فقد كان على بعض الشرفات المصنوعة من الحديد فتيات بدون حجاب، شعورهنّ طويلة فوق أكتافهنّ وفي معاصمهنّ بعض الأساور. كنّ جريئات يرفضن القبول بما يمكن أن يطلبه منهنّ العديد من الرجال في أحيائهنّ دون وجل في دولة إسلامية. ولقد تجاهلهنّ آلاف الرجال من الجبهة الإسلامية للإنقاذ الذين اختاروا عدم النظر إلى الشرفات، ولم يكترث المصلّون أيضاً عند مغادرتهم بإلقاء نظرة على الجنود المزوّدين بالخُوَذ ودروع مكافحة الشغب أمامهم والذين يقفون قرب حواجز التفتيش ذات الأسلاك الحديدية الشائكة. لقد تمت محاصرة منطقة باب الواد من قِبل قوّات بوضياف وشرطته، بحسب تسمية حشاني، ولكن يبدو كما لو أن سلطة بوضياف الغائبة هي المحاصرَة.

مدينة الجزائر، الجزائر البيضاء. إذا كانت جدرانها البيضاء ملطّخة بالرطوبة الآن، فقد مارست جاذبية غير عادية على كل الذين وصلوا إلى المدينة. كانت شبيهة بمكان كنت تعرفه من عالم سابق. وكانت طرقاتها ذات الطبيعة الجبلية والفيلّات المغلقة والأشجار ـ وحتى رائحة السمك في المسمكة في آخر الرصيف الفرنسي القديم ـ تنتظر كلّها زيارتك. كتب وزير الحرب الفرنسي إلى إمبراطوره يوم ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٢٧ بعد الهجوم

الخاطف على القنصلية الفرنسية قائلاً: «سيّدي، هناك حرب مع الجزائر. كيف يمكن أن تنتهي بطريقة مفيدة ومجيدة لفرنسا؟». كانت الجزائر دائماً مدينة مُستولى عليها أكثر من كونها محبوبة من قبل الذين لا يملكونها. وبعد أن سيطر جيش بن بلّا المنتصر عام ١٩٦٢، هاجم قلب هذه المدينة المتوسّطية الناعم بتشييد الأبنية الإسمنتية من الطراز الاشتراكي والمكاتب الواسعة التي تهزأ من باريس الصغيرة، وسط جادة هوس في المدينة القديمة التي استثمرها الفرنسيون طيلة ١٣٢ سنة.

يذكّرني التجوال في أنحاء المدينة القديمة بتلك الزيارة الأولى التي قمت بها لفرنسا مع بيل وبيغي عام ١٩٥٦. آنذاك كانت شوارع القرن التاسع عشر الفخورة الجامدة، والشوارع المليئة بالحُفر، والسيّارات المبعّجة، ومجاري الصرف الصحّي المهترئة والنتنة، ومحطّات سكّة الحديد بجدرانها الحجرية المقطّعة وسقوفها المرتفعة الشديدة الانحدار وأيضاً عربات سكّة الحديد الرخيصة غير المطليّة بجوانبها المعدنيّة الفضّية المحزّزة، مرآةً لمدن المقاطعات الفرنسية في أواخر الخمسينيّات، المزيّنة فقط ببيوت ما بعد الحرب، تلك الحرب الرديئة التي خاضتها الجمهورية الرابعة. بدا الأمر تقريباً وكأنّ الزمن توقّف عندما كان المليون جزائري فرنسي من ذوي الأقدام السوداء يتكدّسون كالقطعان على متن طائرات شركة عبر الأطلسي المصادرة على عجل والتي نقلتهم إلى فرنسا قبل ثلاثة عقود. في فندق السان جورج، كان المضيف يصل كلّ صباح حاملاً إفطاراً فرنسياً تقليدياً مؤلّفاً من عصير برتقال وكرواسّان وإبريق فضّي من القهوة. لكن لا يأتي العصير الآن من بساتين البلاد المثمرة وإنما من عُلبة إيطالية بديلة، ومذاق الكرواسان مثل الكرتون والقهوة لا طعم لها البتّة.

ربّما كان هذا ما يحصل عندما تصبح حضارة بلد محصورة في صناعة مدنية لم تعد تملكها.

لا تزال المكتبات تبيع أعمال زولا وجيد وكامو، وهذا الأخير من ذوي الأقدام السوداء، وقد كتب روايته المميّزة «الغريب» في الجزائر. ولا يزال بعض كبار المؤلّفين الجزائريين يكتبون بالفرنسية، وبشكل نموذجي. وكتب أكثر المؤلّفين شهرة، رشيد ميموني، أحدث رواياته «مشقّة العيش»، Une peine à vivre، في منفاه الطوعي في فرنسا، وتدور الرواية حول الديكتاتورية وحبّ السلطة وقوّة الحبّ.

قُم بزيارة لمطعم «برنيه» في شارع «بوردو» تجد الزبائن يناقشون رعبهم من الحكم الديني وخوفهم على ديمقراطيّتهم المقصومة الظهر، على الطريقة الباريسية الفرنسية. ولائحة الطعام باللغة الفرنسية وليس العربية، والصحن اليومي ستيك بالفلفل. والنبيذ الأحمر المفضّل جزائري، واسمه مشروب الرئيس Cuvée du Président، الذي اتخذ معنى جديداً منذ استقالة بن جديد . كان الصحفيون من صحيفة Algérie Actualité، وهي واحدة من ثلاث وسبعين صحيفة جزائرية جديدة ـ تُطبع كلّها في مطبعة حكومية ممّا يجعل من السهل إغلاقها ـ محتشدين حول طاولة يدخّنون ويشربون البيرة. وهم ينظرون إلى خطر الجبهة الإسلامية للإنقاذ بافتتان المثقّفين. وإحدى توريات هذا الحزب أنه يستخدم الحروف الأولى لاسمه بالفرنسية (FIS).

قال رئيس تحرير الصحيفة زواوي بن عمادي: «هناك أمر واحد عليك فهمه حول الجبهة الإسلامية للإنقاذ. إن الحركات الإسلامية هي وحدها القادرة على تحطيم أنظمة الحكم القائمة في العالم العربي. لكن مَن هم هؤلاء الناس؟ ما هي هذه الملابس الغريبة التي يرتدونها؟ إنهم يُطلقون لحاهم ويعتمرون الطواقي البيضاء ويرتدون سراويل قصيرة ليظهروا ولاءهم لجبهة الإنقاذ الإسلامي. لكن لدينا ملابس وطنية جميلة في الجزائر. لدينا البُرنس، والجلباب الحريري الكبير. من أين جاء هذا اللباس الغريب الخاصّ بهم؟» كان بن عمادي، رجلاً قصيراً، كستنائيّ الشعر يلبس نظّارة كبيرة، وهو حليق الذقن، يرتدي سترة رياضية ويضع ربطة عنق، ويبدو شبيهاً باشتراكيّ فرنسي. وعندما عاد إلى مكتبه الكائن في مبنى من القرن التاسع عشر على بعد مئة متر من المطعم تنمّ سقوفه العالية وطلاؤه الأصفر اللامع وأرضه الفُسَيفسائية المحطّمة عن نوع من الذوق الرديء، أحضر له محرّر ثانوي الطبعة الأولى لافتتاحية اليوم التالي وتفحّص بن عمادي النسخة بتركيز رجل دين. كتب: «من يوم إلى يوم، يفترض أن يصبح الريف الجزائري «الجزائر المعادية للبربر على الطريقة الأفغانية»، علينا تغيير ملابسنا، وعادات طعامنا، وتقاليدنا، بما في ذلك طُرق دفن موتانا... والنتيجة: هروب بالجملة للطبقات الوسطى، من الذين قدّموا خدمة كبيرة لحياتنا الوطنية».

زرت مسجد القبّة أثناء صلاة الجمعة ووجدت الأجوبة عن بعض أسئلة بن عمادي. صحيح أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ضدّ الكحول، وضدّ الغناء في الأعراس، وضدّ تناول المعزّين أطعمة خاصّة في اليوم الأول والسابع والأربعين بعد الموت، وضدّ تلاوة صلوات في المآتم. وصحيح أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ طوّرت نمطاً من اللحى والسراويل القصيرة. ومن المفترض أن ترمز هذه الأخيرة إلى رغبة المسلم الصالح في الوضوء قبل الصلاة من دون أن يمسّ الماء أسفل الرداء. لكن تلاحظ على رؤوس المصلّين بينما هي ترتفع وتنخفض مئات القبّعات الأفغانية، تلك القطعة من القماش الملفوفة التي تغطّي رأس المقاتلين المجاهدين. وبالنسبة إلى الارتباط الأفغاني ـ الملاحظ وغير المعترف به بشكل كافٍ من قِبل بقيّة الجزائريين ـ فهذا أمر حيوي لإظهار التعاطف مع الإسلاميين.

اركبْ سيّارة أجرة في باب الواد ترَ المغزى واضحاً، للسائق وأصدقائه لحى. وتروي أحاديثهم الارتجالية القصّة. قال السائق: «أردنا الذهاب إلى أفغانستان للقتال. إن الغالبية هناك من المسلمين السنّة وليس من المسلمين الشيعة. والأهمّ أنهم يحاربون، يريدون دولة إسلامية. إن الحزب الإسلامي جيّد جداً.

نريد القتال لصالحهم. لقد ذهب عدّة مئات من أصدقائنا إلى أفغانستان للقتال. والآن تحاول حكومتنا منعهم، وجرى اعتقال جزائريين وثلاثة فلسطينيين في مطار الجزائر لدى عودتهم من أفغانستان. من السهل الذهاب إلى أفغانستان. نذهب إلى ذلك المبنى للحصول على تأشيرات». كنّا في جادة سويداني بو جمعة، نمرّ قرب مكتب سيّىء الطلاء عليه لوحة حديدية غير مطليّة مكتوب عليها: «سفارة باكستان».

اشتكى قلب الدين حكمتيار، زعيم الحزب الإسلامي، من فتور حماس الحكومة الجزائرية المفاجئ تجاه

حركته. لكنّ الخطر الحقيقي لحرب الجبهة الإسلامية للإنقاذ في أفغانستان ليس دينياً. وإنما هو التعلّم من جمهورية إسلامية فعلية. والأكثر جدّية أن شبابهم يتعلّمون كيفية القتال. في أفغانستان، يتعلّمون استخدام رشّاشات الكلاشينكوف، ومدافع الهاون وحتى الدبّابات ـ يمكنهم تعلّم قيادة دبّابات T55 وT62 أنواع الدبّابات نفسها التي يستخدمها الجيش الجزائري.

صرخ رجل جبهة التحرير الوطني المسنّ: «فاشيّون». إنه رجل لطيف ولا يراوده الشكّ حول ضرورة حرمان الجبهة الإسلامية للإنقاذ من مكسبها القوي، ألا وهو انتصارها الديمقراطي الحقيقي في الجولة الأولى من الانتخابات. نجلس الآن إلى مائدة طعام، ونتحدّث إلى رجال ليست لديهم هواجس أخلاقية حول وقف محرّك الديمقراطية من أجل مصالح النظام العامّ. شربنا النبيذ الأحمر، وكان لديهم عصير برتقال. وتم تقديم الطعام ـ الشوربا الجزائرية ـ من قِبل مضيفين يرتدون بدلات. كان مضيفونا يتكلّمون الفرنسية بطلاقة، وبدأت كلماتهم تنساب ببطء عندما أصبحوا أكثر غضباً. قال رجل جبهة التحرير الوطني العجوز: «تريدون الحديث عن الديمقراطية ـ كان طالباً عند بدء حرب الاستقلال ـ لكنّ هذا ليس درس فلسفة بالنسبة إلينا. إذا وصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى السلطة سوف تنشب حرب أهلية في الجزائر. سوف يحدث حمّام دم رهيب. علينا التعامل مع مشكلة حقيقية. يمكن أن تفكّر كم هو رائع أن تقوم جمهورية إسلامية في الجزائر. ويا له من أمر ديمقراطي! لكن لا يمكننا السماح بحصول حرب أهلية. لدينا مسؤولية تجاه بلدنا وتجاه شعبنا».

تنقّل مرافقه الشابّ عبر معادلات هذا المبدأ. «فمن أصل ٢٦ مليون جزائري، حصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على ٣,٢ مليون صوت فقط في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١. كان هناك مليون ورقة انتخاب غير صحيحة ومليون أخرى تعبّر عن تراجع في الأصوات. ففي الانتخابات البلدية عام ١٩٩٠، حصلت جبهة الإنقاذ الإسلامي على ٤,٣ ملايين صوت. ألا يمكننا لهذا السبب رؤية مدى انخفاض التأييد؟ فمن أصل ١٣ مليون ناخب مسجّل، شكّل انتصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ في كانون الأول/ديسمبر ٢٣ في المئة فقط من مجموع السكّان. كيف كان يمكن السماح لهم بكسب جولة ثانية من الانتخابات؟ يريد هؤلاء الناس جمهورية إسلامية حقيقية وشعبنا لن يقبل ذلك. سيكون رجال الجبهة الإسلامية للإنقاذ ديكتاتوريين. إنهم يستخدمون أسلوب النازيّين».

إنّها تورية مطلقة ورهيبة. والوضع معكوس في بقيّة العالم العربي. ففي مصر، والأردنّ، وسوريا، إن النخبة الليبرالية الديمقراطية هي التي تندب الافتقار إلى الديمقراطية في بلادها، وجموع الكادحين المسلمين الواسعة التي تعاني من تبعاتها بصمت. في الجزائر عام ١٩٩٢، كانت حركة شعبية إسلامية هي التي طالبت بالديمقراطية بينما كانت الطبقة الوسطى المثقّفة تطرح أسباباً معقّدة لوقفها. كانت المأساة أن بو ضياف ربّما كان على حقّ. فلم تظهر الجبهة الإسلامية للإنقاذ أيّ رغبة في التسامح مع ملايين الجزائريين الذين لا يرغبون في إقامة في جمهورية إسلامية، وهم من الطبقة الوسطى المولعة بكل ما هو فرنسي ولا يستطيع العديد منهم التحدّث بالعربية بطلاقة، ومن سكّان المدن من النساء المتحرّرات ومن جماعات المسلمين البربر ـ ٢٥ في المئة من السكّان ـ الذين يتحدّثون اللغة الأمازيغية وليسوا عرباً.

يوم ٢٣ كانون الثاني/يناير، قدّمت محطّة الإذاعة الثالثة الجزائرية للموسيقى الشعبية صورة مُنصفة لسياسة الحكومة. كان الخبر الأول في نشرة أخبارها التي تُذاع كلّ ساعة، الطلب الدولي الذي قدّمه رئيس الوزراء للحصول على ٨ مليارات دولار من القروض لتخفيض البطالة في البلاد البالغة ٢٠ في المئة ولدعم المواد الغذائية. وبعد الحدث مباشرة، ورد خبر قصير حول اعتقال عبد القادر حشّاني. كانت خطّة الحكومة واضحة. تشجيع الشعب، والحديث عن أوقات اقتصادية جيّدة قادمة، وإيلاء قمع الجبهة الإسلامية للإنقاذ اهتماماً ثانوياً، نتيجة غير سارّة وضرورية لغباء هذا الحزب في كسب ١٨٨ مقعداً في المرحلة الأولى من الانتخابات.

وعلى أيّ حال فقد جرى اعتقال حشّاني بناء على أوامر الجنرال خالد نزار وزير الدفاع بسبب دعوته الجيش الجزائري إلى التمرّد ضدّ الحكومة.

لقد فعل حشّاني ذلك قبل يومين فقط من اعتقاله. وقد تسلّمتُ نسخة عن الدعوة العاصفة الموجّهة إلى «الجيش الشعبي الوطني» والموقّعة بخطّ يد حشّاني. واستناداً إلى قانون الطوارئ، تحرّكت قوّة الشرطة والجيش إلى داخل مكاتب صحيفة «الأخبار» اليومية التي نشرت النداء الرسالة واعتقلت الصحفيين العاملين في الصحيفة. وجرى اعتقال حشّاني شخصياً من قِبل رجال شرطة باللباس المدني بينما كان يقود سيّارته في حيّ بلكور في مدينة الجزائر ونُقل إلى سجن بليدا لينضمّ إلى عبّاسي مدني وعلي بلحاج الزعيمين الرئيسيين للجبهة الإسلامية للإنقاذ. في تلك الأثناء، أعلن رئيس الوزراء سيّد أحمد غزالي أنه لن يسمح في المستقبل بأيّ خُطب ذات طابع سياسي في مساجد البلاد ولن يسمح بتظاهرات في محيط المساجد. وكالعادة، كانت هناك سوابق تاريخية وراء هذه الاعتقالات الأخيرة. ففي عام ١٩٣٠، قامت فرنسا بحلّ أوّل مجموعة استقلالية جزائرية في القرن العشرين ـ نجمة شمال أفريقيا ـ التي سمّى زعيمها مصالي الحاجّ نفسه «الوطني الإسلامي» وأصدر صحيفة أسماها «الأمّة» للتبشير بـ «الصحوة الإسلامية». وقد جرى سجن الحاجّ لمحاولته إعادة تشكيل جمعية منحلّة وحُكم عليه لاحقاً بالسجن سنة في سجن فرنسي «لتحريضه الجنود على عصيان الأوامر بُغية خلق فوضى».

يتحدّث الناطق باسم الحكومة الجزائرية يومياً عن الهدوء والأمن. وفي الشوارع، يتحدّث أصحاب المحلّات عن الانفجار القادم. شعرنا جميعاً باليقين المطلق أنك لا تستطيع إلغاء الديمقراطية دون إثارة العنف. يوم ٢٠ كانون الثاني/يناير، قُتل عريف في الدرك الجزائري. كان العريف عمّاري عيسى (٤٣ سنة) متزوجاً وأباً لأربعة أولاد. وقد قامت جموع الشباب بإلقاء الحجارة على نقاط التفتيش العسكرية خارج مدينة الجزائر وكان على الجنود إطلاق عيارات تحذيرية في الهواء لتفريقهم. وعندما طلبت بعض الإيضاحات حول موقف الحكومة أجاب أحد المسؤولين إجابة فظّة قائلاً: «أيّ إنسان يستطيع قتل شرطي. الناس يقتلون الشرطة من نيويورك إلى نيبال. إنه عمل إجرامي وينعكس على أيّ حال بشكل سيّىء على الجبهة الإسلامية للإنقاذ. في كلّ مرّة يُقتل شرطي، تخرج قريته في جنازته وينقلب الناس ضدّ الجبهة الإسلامية للإنقاذ». إنها إذاً قضية إجرامية فقط. وليست أمراً لا يمكن حدوثه في الولايات المتحدة. لكن لا أحد يُعلّق الانتخابات في أميركا. والعريف عيسى لم يُقتل من قِبل المافيا. وخلال

ثلاثة أسابيع، حصلت مواجهات طيلة سبعة أيام بين الشرطة ومؤيّدي الجبهة الإسلامية للإنقاذ ـ يُعتقد أن خمسين شخصاً قُتلوا خلالها وجُرح مئتان ـ مما دفع مجلس بو ضياف الذي يسيطر عليه العسكريون إلى إعلان حالة الطوارئ. وفي أزقّة مدينة الجزائر، انتشرت دعوات سرّية إلى «حرب مقدّسة» ضدّ سلطة بو ضياف. وكانت قيادة جبهة الإنقاذ الإسلامي في غالبيتها قد أصبحت قَيد الاعتقال، وتمّ إغلاق المقرّ الرئيسي للحزب في مدينة الجزائر واعتُقل حوالَي ستّين من أئمّة المساجد.

حصل الانهيار بأسرع ممّا توقّعنا. وفي مكان ما من مدينة الجزائر يوم ١٥ شباط/فبراير ١٩٩٢، وسط منزل هادي بوزناد المحروق ـ بين ملابس النوم النظيفة والأسلاك الكهربائية المحترقة، والدرج الحجري المشوّه ـ كانت تكمن الحقيقة. كانت النساء الجزائريات المحجّبات يبكين في الأزقّة الضيّقة خارج المنزل وهنّ على يقين من أنهنّ عرفن ما حدث. لذلك كان ابن عم هادي بوزناد يحمل فانوساً بيده اليمنى بينما يروي كيف احترق القاطنون الأربعة الأبرياء بصاروخ أطلقه الجيش الجزائري. هذا هو حال الحكومة الجزائرية التي أعلنت أن جنودها هاجموا المنزل فقط لأن طلقات نارية أُطلقت عليهم من المبنى. يمكنك رؤية المشاهد نفسها في بلفاست أو الضفّة الغربيّة، لكن تداعياتها في مدينة الجزائر أكثر خطورة، لأن التناقضات بين الحقائق هنا ترمز إلى الهوّة بين الشعب والحكومة الخائفة من الحرب الأهلية. هل يصدّق الناس أن هادي بوزناد وأصدقاءه كانوا شهداء أم إرهابيين؟.

يقع منزل بائع الفاكهة في وسط المدينة حيث تنساب الدرجات الحجريّة المتعرّجة بين الجدران الخشبية والطينية وحيث تقود الممرّات الضيّقة إلى المنازل ذات القُبب القديمة المدفونة بين الطبقات المسكونة بحيث تبدو تقريباً تحت الأرض. لا أحد يجادل في أن خمسة رجال كانوا في المنزل في الساعات الأولى من اليوم السابق. ولا أحد يجادل في أن المظلّيين الجزائريين ـ شاهد الجيران قبّعاتهم الحمراء في الظلمة ـ كانوا يحاصرون منزل هادي بوزناد الصغير في وقت ما بين الساعة الثانية والثالثة بعد منتصف الليل.

هنا، مع ذلك، تصبح الحقيقة مراوغة نوعاً ما. قالت الحكومة إن الجنود وقعوا في مرمى النيران من المبنى، لكنّ المدخل منخفض جدّاً بحيث لا يظهر من أقرب ممرّ ولا توجد نوافذ مواجهة للممرّ الوحيد الذي يمكن أن يسلكه الجنود. هناك فجوة فوق الباب، ناتجة على ما يبدو عن قذيفة صاروخية. وكانت الحكومة مسرورة بالإعلان أن خمسة مناضلين من الجبهة الإسلامية للإنقاذ قتلوا في الداخل.

حدّد طريقك في الظلام على الدرجات الحجرية في الداخل وفي غرفة تضمّ عدّة أسرّة بعضها فوق بعض تجد ابن عمّ هادي بوزناد. لا أسماء متوفّرة لدى الشاب الملتحي، المفكّر الذي وصل عند الصباح. قال: «كانوا جميعاً أبرياء. لم يحصل أيّ إطلاق نار. كان الرجال نياماً. لقد تزوّج ابن عمّي مؤخّراً وزوجته حامل في شهرها الرابع. عندما وجدنا القتلى كانوا مشوّهين. لقد احترقوا كلّياً». كانت هناك مراسلة إذاعة فرنسية، وضعت المذياع أمام وجه ابن العمّ وسألت بحدّة: «هل تقول الحقيقة؟».. لستُ متأكّداً أنه كذلك، لكن ليست هذه طريقة يُعامل بها رجل فقد قريبه للتوّ. والوقت غير مناسب لكي يمارس الصحفي فنّ التحقيق القاسي هنا في منزل القتلى.

لكن لا أحد يستطيع تفسير لماذا لم تكن الزوجة الحامل والقريبات الأُخريات في المنزل في ذلك الوقت. وصل رجل آخر، صهر هادي، قال: «كان بإمكان السلطات أخذهم أحياء. كان المنزل محاصراً. لكنّ الجنود اقتحموه وقتلوا رجلاً في الممرّ ثم ألقوا قنبلة داخل الغرفة. كان اثنان من الرجال القتلى ممدّدَيْن على الأرض. كانوا جرحى سابقاً». جرحى سابقاً؟ هل كان هذان الرجلان بين المهاجمين الذين قتلوا ستّة رجال شرطة في المدينة الأسبوع الماضي، وجُرح أحدهم على الأقلّ عندما هرب؟ «قطعاً لا»! قال الصهر على الفور: «جُرحوا خلال التظاهرات» لكنّ الجنود عرفوا بوضوح أن الجرحى كانوا هناك. لقد تعرّضوا لخيانة. وأقرّ الصهر بأسف «أنّ أحدهم أبلغ الجنود بأن الجرحى كانوا هنا». ثم وصل الرجل الملتحي، وقال بصوت رقيق، خطير: «كان انتقاماً من قِبل الجيش، عندما دخلوا المنزل، صاح أحد الجنود: سنفعل بكم ما فعلتموه بنا في غيمار. وهي المركز الحدودي حيث قتل المسلّحون المسلمون أكثر من ١٥ جندياً جزائرياً عام ١٩٩١. كانت المسألة واضحة بالنسبة إلى الرجل الملتحي الواقف في الظلّ متمتماً بعبارة انتقام: «بالطبع كان بإمكانهم أخذهم أحياء. لكن أرادوا قتلهم جميعاً بمن فيهم الجرحى. لا يمكننا أخذ جرحى مُلتحين إلى المستشفى لأنهم سيُعتقلون ويُعذبون. لذلك كانوا مختبئين هنا».

في الخارج، في الأزقّة، تجمّع العديد من النسوة وهنّ يبكينَ بهدوء، وانضمّ إليهنّ عشرات من الشباب الحذرين. شقّ التاريخ طريقه بلطف نحونا، كما بدا دائماً في الجزائر، وسأل أحدُ الرجال إذا كنّا نعرف مغزى هذا المنزل، فعلى بعد ثلاث مئة متر فقط في الشارع الرهيب نفسه، يقع منزل «شهداء» آخرين. ففي ذلك المنزل الآخر فضّل مقاتلو جبهة التحرير الوطني ـ بمن فيهم الهارب علي لابوانت بطل معركة الجزائر ـ وبعض أطفالهم التحوّل إلى أشلاء على يد المظلّيين الفرنسيين عوضاً عن الاستسلام. وفي وقت مبكر من صباح ١٤ شباط/فبراير ١٩٩٢، عاد حُماة من جنسية مختلفة إلى المدينة وولِدت أسطورة أخرى.

لا أحد اكتشف كم من الملائكة يمكن أن يرقصوا في طرف المشبك. لكنّ سؤالاً مُلحّاً رمى بثقله بين مؤيّدي الجبهة الإسلامية للإنقاذ يوم عاد بوضياف إلى الوطن: كم من الوقت تستغرق حلاقة لحية رجل؟ في صالون حلاقة عليّ في آخر شارع رحموني الطيّب، يستطيعون حلاقة ذقن إسلامي في خمس دقائق. لكن كما قال لنا المالك ابن الخمسة والسبعين عاماً، يتحدّث رجال الجبهة الإسلامية للإنقاذ كثيراً أحياناً خلال الحلاقة الضرورية. وهذا يمكن أن يطيل مدّة الحلاقة إلى عشر دقائق لكنها تكلّف ١٥ ديناراً جزائرياً فقط، أي حوالي ٦٠ سنتاً أميركياً، وهي جديرة بالسعر لتجنّب الاعتقال العشوائي والسجن. من أجل ذلك فإنّ الرجال الشجعان وحدهم هم الذين احتفظوا حتى الآن باللحى الطويلة التي كانت حتى أسبوع مضى رمزاً للجبهة الإسلامية للإنقاذ. وهكذا كانت للتغيير الجذري تبعات سياسية خطيرة ـ وحتى عسكرية ـ بالنسبة إلى الحكومة الجزائرية. فمن خلال حلاقة ذقونهم، تحوّل الإسلاميون إلى العمل السرّي.

يكمن الدليل على أرض عليّ، كومة من الشعر البنّي والأسود الكثيف، سجّادة من الفرو البشري، الذي يلقيه بسرعة في الزبالة بمِقشّة صناعية. كان عليّ يخشى إعطاء اسم عائلته لكنّه كان فخوراً في الإعلان عن عمله بينما

كان واقفاً أمام محلّه حيث كانت قطّتان رماديّتان تصدران خريراً تحت ضوء الشمس. لم تلعب صنعته أبداً دوراً بارزاً من قبلُ في سياسات الجزائر. قال: «حلاقة ذقن تشبه قيادة الطائرة» أو... ـ وهنا بدا مزيج من السخرية والمكر في ابتسامته ـ أن الأمر يشبه كتابة مقال. توجد المهارة بأيدينا. أقوم يومياً بحلاقة خمس ذقون مع أنني لم أستطع فتح المحلّ يوم الجمعة الفائت بسبب إطلاق النار. لكنّ معظم هؤلاء الناس يحلقون لحاهم في المنزل». بحكمة أيضاً. ولكن بالنسبة إلى الاستخبارات الجزائرية فإن زوال اللحية خلق مشكلة أخرى، فمن أجل التسكّع في الشوارع زيّن معظم عملائهم وجوههم بلحى طويلة. ومنذ أسبوع تقريباً اشتهر عميل أمن مُلتحٍ يرتدي قميصاً طويلاً بأنه قبض على إمام جامع قرب مسجد باب الواد. وفي مركز الشرطة المحلّي قام العميل بحلاقة النصف الأيمن من لحية الإمام مضيفاً ـ استناداً إلى الداعية ـ «سوف نقبض عليكم جميعاً في النهاية». إنه عمل واعد الآن فحلّاقي الجزائر العاصمة حصلوا على أرباح إضافية.

طُلب من سكّان مدينة الجزائر القيام بترحيب صاخب بالمبذّر العائد. لكن عندما وصل محمّد بو ضياف الطويل، والضعيف والمسنّ، إلى المطار الذي يحمل اسم خصمه السابق والمكروه هوّاري بومدين، كان هناك عدد قليل من سائقي سيّارات الأجرة، والصحفيين ومسؤولي جبهة التحرير الوطني لاستقباله. وجاءت إشارة الحماس الوحيدة من ثلاث مجموعات من البربر في لباسهم البنّي التقليديّ وقفوا على مقربة من قاعة الوصول وضربوا بفرح على الطبول أمام عيون الشرطة السرّية. تم اقتياد بوضياف عبر الشوارع الخالية إلى مكتب الرئاسة الخالي حيث قبل المنصب غير الدستوري لرئيس مجلس الدولة ويده على القرآن. وقد وعد بمتابعة ما أسماه «المسار الديمقراطي» من دون أن يشرح كيف يمكنه القيام بذلك في حين لم يعد العمل الديمقراطي ـ مثل الرئاسة والبرلمان ـ موجوداً.

طُرحت الأسئلة من قِبل الصحافة على متقاعد مسنّ عمره ٧٢ سنة، كان حتى شهر مُنصرم صاحب مصنع طوب مغربي.... و طيلة ساعتين، أثبت محمّد بوضياف صلابته: رجل أعقف الأنف، امتصّ أضواء الكاميرات مثل نور الشمس، معنّفاً الصحفيين الذين تجرّأوا على الحديث عن القمع، داعياً الدول الغربية لمساعدة الجزائر في وقت الحاجة. وندّد بأسلافه في الحكم، طالباً الخضوع للقانون، واعترف بسجن ستة آلاف شابّ جزائري على الأقلّ في معسكرات اعتقال صحراوية ـ عمل آخر منسوخ عن الاعتقال في أيام الاستعمار الفرنسي ـ وزعم أن احترام الديمقراطية يجب أن لا يؤدّي إلى دمار الديمقراطية(*).

(*) ليست هناك لغة تحمي السياسيين من التجاوزات الوهميّة عن الديمقراطية والإسلام. وأترك للقرّاء اكتشاف الأكاذيب في المقتطفات التالية من المؤتمر الصحفي لبو ضياف في مدينة الجزائر في ١٦ شباط/فبراير ١٩٩٢ ـ الذي أجراه بالعربية والفرنسية ـ وأيضاً تفاؤله الوهمي وعدم فهمه لما دفع العديد من الجزائريين لدعم الجبهة الإسلامية للإنقاذ. قال: «كان من الضروري وقف العملية الانتخابية بهدف حماية الديمقراطية. تمّ إيقاف العملية الانتخابية لأنها أصبحت تمثّل خطراً على الجزائر. لكنّ حالة الطوارئ لا علاقة لها بأيّ تقييد للحرّيات الأساسية. الوضع يتحسّن يوماً بعد يوم. لقد سئمت الجزائر من جماعات الإرهاب والشكّ... في الإسلام، التسامح والتفاهم والاعتدال تتماشى كلّها مع الديمقراطية. لا يستطيع إسلام منغلق يعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر العمل مع الديمقراطية. في إيران، هل هناك ديمقراطية أم لا؟ أترك ذلك لكم لتقرّروا... الناس لا يُعدمون هنا. إذا اتّبعنا مبدأ الانتخاب، نعدم الجزائر... يجب على الإسلام أن لا يتبنّى التطرّف. يجب أن تكون المساجد مكاناً للوعظ، للراحة والاعتدال. للدين مكانته، لكنّ الديمقراطية هي مسار نحو مجتمع عصري يتضمّن التعدّدية السياسية».

وخلال أربعة أيام، قُتل خمسون متظاهراً إسلامياً على يد الشرطة في المدن الجزائرية. وقد سُجن عبدالقادر مغني، أهم مرشّحي الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وكان قد انتخب في كانون الأول/ديسمبر، وهو الرجل الذي ربّما كان قادراً على إعادة مناقشة موقعه في المؤسّسة السياسية، وحتى الحديث مع الحكومة.

لكن بوضياف لم يكن راغباً في الحديث مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ . كان هناك شكّ متزايد في الجزائر أن مجلس الدولة يفضّل دفع الجبهة الإسلامية للإنقاذ نحو ثورة مسلّحة ـ وهكذا يثبت أن الحزب لم يكن مهتمّاً أبداً بالسياسات الدستورية وأن إلغاء انتخابات كانون الثاني/يناير منع انقلاباً من قِبل الإسلاميين لا من قِبل الجيش. بالتأكيد بدأ يظهر العديد من مجموعات المسلّحين السرّية. ودعت منظّمة سمّت نفسها «الأمناء على العهد» إلى الجهاد، مدّعية أنه استمرار لحرب الاستقلال على طريقة بويعلي. وركّز بو ضياف غضبه على هدفين: الجبهة الإسلامية للإنقاذ والفساد الذي دفع العديد من الجزائريين إلى اليأس من الديمقراطية التي وعِدوا بها. وقد استهزأ منه أوّل أهدافه وقتله الثاني.

وعندما قُتل بوضياف، في ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٩٢، فهمنا ذلك جميعاً بشكل خاطئ. كنت في موسكو، جالساً في غرفة الفندق المطلّة على حائط الكرملين بعد عودتي من حرب نغورني ـ كاراباخ على طرف أرمينيا عندما رنّ الهاتف وكان على الخطّ من لندن هارفي موريس الذي كان لا يزال محرّر الأخبار الدولية. قال بحساسيّته المعتادة: «لقد تغلّبوا على بو ضياف. يبدو أن أصدقاءك المسلمين فعلوها». وصدّقته.

في الواقع، اعتقدنا جميعاً عندما سمعنا أن ثلاث طلقات أردت بو ضياف قتيلاً بينما كان يخاطب اجتماعاً عامّاً في مدينة عنّابة الشرقية الجزائرية أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ـ أو مجموعة مسلّحة متعاطفة مع الحركة ـ نفّذت التهديد بالقتل الذي نطق به العديد من المسلمين. وقد أنذرت منظمة واحدة على الأقلّ، هي الجهاد الإسلامي، بأنّ حرباً شاملة ضدّ الحكومة الجزائرية ستبدأ يوم ٣٠ حزيران/يونيو. ووعدت بقتل ألف شرطي وجندي ـ لذلك كتبتُ منذراً في الإندبندنت: «لكنهم ضربوا في يوم مبكر وقطعوا عوضاً عن ذلك البنية الكاملة للسلطة الحاكمة التي أسّست لتدميرهم».

لم تكن لديّ أيّ شكوك في هويّتهم، ولم أسأل نفسي لماذا لم نسمع أبداً من قبل عن جهاد إسلامي جزائري مع أن الاسم استُخدم من قِبل مجموعات أخرى في لبنان وفي الأراضي الفلسطينية المحتلّة في الضفّة الغربيّة وغزّة. لم أستطع العودة إلى دفاتر ملاحظاتي الجزائرية ـ لأنها كانت في بيروت وكنت في موسكو ـ التي ربّما دوّنت فيها بعض المؤشّرات على معاداة بوضياف، ليس من قِبل الجبهة الإسلامية للإنقاذ فقط وإنما أيضاً من قِبل الأعضاء الأغنياء في السلطة، وحتى في أوساط العسكريين الذين خافوا من حملته المعادية للفساد. وعندما عدت إلى مدينة الجزائر بعد أسبوعين، اكتشفت فقط أن هناك دليلاً متزايداً على أن الرئيس المسنّ ربّما لم يقتل في

النهاية من قِبل الإسلاميين. ففي الأسابيع التي سبقت مقتله، صنع بوضياف أعداء علمانيين أقوياء داخل الجزائر ـ واحد منهم على الأقلّ مرتبط وفقاً للتقارير بالرئيس السابق الشاذلي بن جديد ـ وحتى أرملة بوضياف تعلن الآن أنها لا تصدّق أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ارتكبت الجريمة.

بعد أقلّ من ثلاثة أسابيع على جريمة القتل، أُقصيَ وزير الداخلية الجنرال نزار الرجل الثاني القويّ في مجلس دولة بوضياف ـ من قِبل رئيس الوزراء الجديد بلعيد عبدالسلام لخطأ في الأمن. بعض الخطأ.

قُتل بوضياف على يد أحد حرّاسه، الملازم المبارك بو معرفي. كانت كاميرات تلفزيون الدولة تسجّل خطاب الرئيس لحظة مقتله وأُعلن في الخبر أن بومعرفي عمل وحده. وقد أطلق رصاصتيْن على رأس بوضياف والثالثة في ظهره. وما لم يكن معروفاً في حينه أن حملة الرئيس لمكافحة الفساد أصابت أساساً جنرالاً متقاعداً في الجيش الجزائري ورجل أعمال بارزاً ومعاوناً للشاذلي بن جديد في المدينة الجنوبية تامانراست. وقبل أيام فقط من اغتيال بوضياف، اغتيل ضابط كبير مسؤول عن أحد التحقيقات بشكل غامض.

كذلك كانت هناك شائعات تفيد أن بوضياف ـ على غرار السابقة التي وضعها ديغول في التفاوض مع جبهة التحرير الوطني ـ كان يحاول فتح حوار خاصّ مع المسؤولين المعتدلين في الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وقد أثبتت زيارة هادئة لأحد المعارف في التلفزيون الجزائري الرسمي أن مقطعاً من تسجيل فيديو مقتل بوضياف حُذف من قِبل السلطات. وادّعى شهود عيان في عنّابة أن أربع كاميرات تلفزيونية منفصلة سجّلت الحادث لحظة الاغتيال. كان المقطع ، الذي شاهده العالم، والذي يمكن رؤية بوضياف فيه يلقي آخر كلماته ثم يقع ميتاً على الأرض والدم على صدره، ملغى. وكان مصدري واضحاً.

صوّرت الكاميرات اللحظة الفعلية للاغتيال واقتطعوا المشهد عندما أصابت الطلقات بوضياف. وأظهر الشريط دماغه ينفجر عندما أصابته الطلقات في رأسه ـ لا يمكنك عرض شيء فظيع على التلفزيون. وهذا شريط آخر يظهر اعتقال بومعرفي. في هذا الشريط قال بومعرفي أمام الكاميرا: «قتلتُ بوضياف مع علمي بماضيه البطولي وأنه كان رجلاً صالحاً. لكنه لم يفعل ما فيه الكفاية ضدّ المافيا وعارض خيار الشعب. لا أنتمي إلى أيّ حزب سياسي لكنني أنتمي إلى الحركة الإسلامية». كان بومعرفي واثقاً جدّاً من نفسه، واثقاً ـ تحدّث جيّداً وكان موهوباً ـ بحيث خشيت السلطات أن يصبح بطلاً إذا عُرض الشريط على التلفزيون.

إذا كانت هذه الرواية صحيحة، عندها يكون الإسلاميون متورّطين في اغتيال بوضياف. لكن الظروف المحيطة باعتقال بومعرفي كانت محيّرة ـ خاصّة إذا صدّقت السلطات فعلاً أنه قاتل أصولي ـ وجاء في رواية أخرى أنه استطاع الفرار من قاعة مؤتمر عنّابة وفي وقت لاحق استسلم بهدوء للشرطة. والمستغرب، أن الجيش ـ الذي حاكم زعماء الجبهة الإسلامية للإنقاذ في محكمة عسكرية مصحوبة بدعاية في بليدا بعد أسبوعين ـ رفض تحمّل

بومعرفي المسؤولية، وادّعى عوضاً عن ذلك أنه يجب محاكمته من قِبل محكمة مدنية. علماً بأن بومعرفي كان مسجوناً في السجن المدني في عنّابة ـ وهي للمصادفة، موطن الشاذلي بن جديد ـ بينما استطاع الصحفيون المحلّيون الحصول على معلومات قليلة حول حياته. كان عمره ٢٦ سنة. وسرت شائعات أنه كان حارس الرئيس بن جديد. وكان قد تدرّب على عمله ضمن وحدة الأمن الرئاسي من قِبل الدرك الإيطالي Carabinieri.

لم يكن الخوف بادياً على بوضياف في الأشهر التي سبقت اغتياله مع العلم أنه لم يكن محبوباً. وقد فاجأ الرجل المسنّ جبهة التحرير الوطني، وقيادة الجيش التي ساندته في الأساس، عندما أمر في أيار/مايو باعتقال اللواء المتقاعد مصطفى بليوسف الذي أُدين أمام محكمة عسكرية بإساءة استخدام أموال الدولة. كذلك أمر بوضياف باعتقال رجل أعمال مرموق بتهم الفساد. والرجل بحسب ما زعموا كان متورّطاً في التجارة غير المشروعة بالموادّ الغذائية المدعومة والتهريب. وكان أحد الضبّاط الذين كُلّفوا إجراء التحقيق ملازماً في قوّات الأمن، وقد اغتيل في أحد شوارع الجزائر قبل أيام فقط من اغتيال بوضياف.

وصف معلّق صحفي جزائري اغتيال بوضياف «بالمخرج الجزائري» وألمح إلى أن تفاصيل مقتله ربّما طُمست مثل اغتيال المرتدّيْن في جبهة التحرير الوطني محمّد قدير الذي قُتل في أحد شوارع مدريد عام ١٩٦٧، وكريم بلقاسم الذي قُتل خنقاً في فرنكفورت عام ١٩٧٠. وذكّر ليث زغلاني في صحيفة «الوطن» اليومية بأن تفاصيل مقتل وزير الخارجية الجزائري محمّد بن يحيى ـ الذي أُسقطت طائرته مع الوفد المرافق فوق الحدود العراقية ـ الإيرانية عام ١٩٨٢ خلال محاولة لوقف الحرب ـ بقيت سرّية لحماية مصالح البلاد العليا». حصل ذلك على ما يبدو لحماية صدّام حسين ـ لكنّ هذه رواية أخرى.

أصبح شائعاً الآن في الجزائر ربط اغتيال بوضياف بالمافيا، وهي عبارة غامضة استُخدمت للإشارة إلى الطبقة الاجتماعية والسياسية التي اغتنت على حساب الوطن خلال حكم الشاذلي بن جديد طيلة ١٢ سنة. وقد ادّعى رئيس وزراء سابق هو عبد الحميد الإبراهيمي أن رُشًى بقيمة ٢٨ مليار دولار ـ ما يوازي ديون الجزائر الخارجية ـ دُفعت لمسؤولين حكوميين خلال عقد من الزمن ودخلت في الفولكور الشعبي. وزعم مؤيّدو بوضياف أيضاً أنه كان هناك تحالف بين المافيا والحركات الإسلامية. ومع ذلك فإن الشيء الوحيد الذي يريدونه، يجب أن لا يحصلوا عليه أبداً.

«نطالب بمعرفة كلّ الحقيقة حول اغتيال شهيدنا محمّد بوضياف ـ ارفعوا أيديكم معي وقولوا إنكم تريدون الحقيقة». انسابت العبارات فوق كومة التراب وأكاليل الزهور التي ترقد تحتها البقايا المخترقة بالرصاص للرئيس المقتول. وقد رفع رفاق بوضياف من المناضلين القدامى ـ المسلّحين ورجال المدفعية والمراسلين الذين حرّروا منذ أكثر من ثلاثين عاماً بلادهم من رجال ماسّو ـ أيديهم اليمنى قرب الضريح وقالوا بحزم وبصوت عال: «نريد ذلك».

يمنح العمر الاحترام واللطف تجاه أكثر الرجال والنساء فظاظة. فقد بدا عمر بوداود بشعره الأبيض ورأسه المطأطئ احتراماً للزعيم الميت، مثل جندي آخر مسنّ.... من ذلك النوع من الشخصيات المنحنية التي يمكن أن تراها يوم الأحد في مراسم إحياء ذكرى حربٍ بريطانية. والحال أن بوداود كان الرجل الذي قاد جبهة التحرير الوطني داخل فرنسا، والذي دبّر تفجير خزّانات الوقود وانحراف قطار عن خطّه في كايني ـ سور ـ مير» وقتل أربعة من رجال الدرك الفرنسيين في ليون، وقاد محاولة اغتيال الحاكم العامّ للجزائر جاك سوستيل. هل يستطيع رجال يحملون إرثاً دموياً توقّع الحقيقة؟ كان هناك أيضاً أبو بكر بلقائد، وهو على سبيل المثال، مناضل قديم من أجل الحرية، ورفيق لبوضياف في سجن «فريم» عام ١٩٥٦، وكان يندب الفرص الضائعة للجزائر: «كان في المنفى، بعيداً عن المؤسّسة قبل أن يصبح رئيساً. جاء إلى هنا لتحديث بلدنا، ليمنحنا مساراً واضحاً. أجل، أتمنّى أن نعرف الحقيقة عن استشهاده. لكن هل نعرف؟ هل نعرف من قتل كنيدي؟ هل نعرف؟».

أمّا السيدة بوضياف فقالت إنها لا تعتقد للحظة واحدة أن جبهة الإنقاذ قتلت زوجها. كانت ترتدي لباساً أخضر وأبيض وتغطي معظم وجهها بنظارّة شمسية، وقد وقفت قرب كومة التراب، ثم حضنت بلقائد وانتحبت بين ذراعيه متجاهلة الشاهد الرخامي إلى جانب قبر زوجها والمكتوب عليه: «هوّاري بومدين ١٩٣٢ ـ ١٩٧٨».

رفض بوضياف عرض بومدين أن يصبح رئيساً بعد التحرير عام ١٩٦٢ لأنه لم يرغب أن يكون شخصية رئيسية، وعارض بومدين في منفاه المغربي. كانت هناك قبور أخرى مشابهة في الصفّ نفسه مثل قبر بوضياف، تحتوي محاربين مُكرّمين، كُتبت أسماؤهم على شواهد قبورهم دون تعليق أو تكريم شفوي، ويحتاج المرء إلى كتاب مذكّرات أو تاريخ لفهم معانيها. كان هناك العربي بن مهيدي (قتلته قوة المظلّيين الفرنسية في آذار/مارس ١٩٥٧)، وفرحات عبّاس (نفته جبهة التحرير الوطني)، وعبّان رمضان (اغتيل بوحشية ـ خُنق على الأرجح ـ عام ١٩٥٧ من قِبل زملائه في جبهة التحرير الوطني قرب طنجة)، وكريم بلقاسم، الضحية المقتول في فرانكفورت، وآيت حمّوده حمروش وسيّد الحواس (من قادةِ جبهة التحرير الوطني في الولاية الرابعة ـ قطاع بويعلي ـ قُتلا كلاهما على يد الفرنسيين عام ١٩٥٩). ومع وجود عظام عديدة محطّمة بالرصاص وأعناق مكسورة داخل هذه المقابر، هل يستطيع أحد توقّع معرفة الحقيقة حول الشهيد الجديد في المقبرة؟.

هكذا كانت المطالبة بالحقيقة الشفّافة والمكتشفة في المقبرة الرطبة في العالية. لم يوجّه أحد إصبع الاتّهام إلى أحد بالطبع. لم يلم أحد الإسلاميين أو المافيا أو جبهة التحرير الوطني القديمة. وقفت مجموعة من الجنود خلف القبور وبعض رجال الشرطة باللباس الأزرق ومجموعة من الشبّان الملتحين الذين يرتدون سراويل الجينز ويحملون رشّاشات ومخازن ذخيرة في أحزمتهم، من أجل الأمن بالطبع، وكانوا شبيهين بالحرّاس الشخصيّين الذين أمّنوا حماية محمّد بوضياف في عنّابة، والذين أطلق أحدهم النار على رأسه وظهره.

كان موت بوضياف اللحظة التي أصبحت فيها حرب الجزائر وحشيّة. وكانت محطة تلفزيون بي بي سي توجّه تحذيراً لمشاهديها حول ما تسمّيه عرضاً مثيراً، عندما ترغب في عرض فيلم منفّر. وها أنا أوجّه إلى القرّاء

بالطريقة الصحيحة التحذير نفسه قبل الإبحار في صفحات هذا الكتاب التالية الملطّخة بالدم. فخلال سنتيْن، حصلت مأساة واسعة غير مصرّح عنها في أنحاء الجزائر، طبيعتها ـ ثورة من قِبل الإسلاميين المسلمين الذين حُرموا من النصر الانتخابي ـ معروفة جيّداً، لكنّ أبعادها ازدادت بشكل مرعب يومياً مع إراقة دماء على مستوى لا مثيل له منذ الاستقلال عن فرنسا. وبحلول عام ١٩٩٤، تمّ رسمياً تسجيل أربعة آلاف عملية موت عنيف، وكانت مناطق واسعة من الجزائر تسقط كلّ ليلة تحت سيطرة تنظيم عسكري متماسك جدّاً، «الجماعة الإسلامية المسلّحة».

إذا كانت السنتان السابقتان قد شهدتا إعادة للحرب الجزائرية المتوحّشة من أجل السلام ضدّ فرنسا، فإنّ حمّام الدم الذي انطلق الآن يشكّل سابقة رهيبة للاحتلال الأنغلو ـ أميركي للعراق بعد عقد من الزمن. كانت عائلات قوّات الأمن ـ وفي بعض الحالات الضبّاط أنفسهم ـ قد أصبحت مُجبرة على الانكفاء كلّ ليلة إلى داخل المجمّعات الحكومية تأميناً لسلامتهم الشخصية. وبالرغم من المعارك الضارية ضدّ الإسلاميين كان الجيش الجزائري والشرطة شبه العسكرية غير قادرين على حماية العدد المتزايد من الضحايا الذين كانوا يُذبحون بوحشية ـ كانت عبارة مذبوحين دقيقة جدّاً. كان العديد من الذين قتلهم الإسلاميون مقضيّاً عليهم بواسطة السكاكين ومتروكين في مستوعبات القمامة أو على جوانب الطرق ورؤوسهم شبه مفصولة عن أجسادهم. وكان الأساتذة والصحفيون والجنود والمقاتلون الإسلاميون ورجال الشرطة والمسؤولون الحكوميون المحلّيون يذبحون يومياً. وغدت مفكّراتي حول الزيارات المرعبة التي قمت بها للجزائر مليئة بتفاصيل عمليات القتل الواضحة والفظيعة.

يوم ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، كان رجل عاطل عن العمل عمره ٢٤ سنة في قرية قصر البخاري مذبوحاً كلّياً ورأسه ملقًى على درج قاعة سينما مهجورة. قال قاتلوه في بيان مُلصق على جدران القرية: «أمثولة لكلّ مَن يخرق مبادئ الإسلام». وعشية انعقاد مؤتمر وطني للأحزاب السياسية (لا حاجة إلى القول إن جبهة الإنقاذ استُبعدت عنه) ضُرب شرطي حتى الموت أمام مجموعة من الأطفال في عنّابة. وعشية انتهاء المؤتمر، اغتال الإسلاميون سبع مدنيّين في ولاية جيجل، أحدهم فرحات شيبوت (دكتور في التاريخ) الذي أُعدم أمام والديه وزوجته وطفليه.

وكالعادة، كان العالم الخارجي أكثر اهتماماً بضحايا الحرب الأجانب منه بالضحايا المحلّيين، وهي حقيقة تلقّفها القتلة بذكاء. وتنفيذاً لوعدهم بإعدام كلّ مواطني الدول الصليبية ارتفع عدد ضحاياهم في أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٩٤ إلى ٢٦ قتيلاً أجنبياً في الجزائر. وأدّى مقتل امرأة فرنسية مسؤولة في القنصلية إلى وقف كلّ التأشيرات إلى فرنسا. وتلا اغتيال مونيك آفري مقتل ريمون لوزوم وهو تونسي يهودي عمره ٦٢ سنة كان يعيش في مدينة الجزائر طيلة ثلاثين سنة. وكان لوزوم اختصاصيّ نظّارات، تزوّج بامرأة مسلمة وكان يسعى للحصول على الجنسية الجزائرية، ولعب دور ضبّاط فرنسيين في سلسلة أفلام حول حرب الاستقلال. وقد أُصيب بعياريْن ناريّيْن في رأسه في شارع ديدوش مراد في وسط مدينة الجزائر.

لم يكن التمرّد الإسلامي مُحتكراً للقتل. ففي أواخر ١٩٩٣ كانت مجموعة حقوق الإنسان الجزائرية أوّل من

أعلن أن الحكومة كانت تستخدم فِرق الموت في صراعها ضدّ الإسلاميين. وقدّمت رسالة مُعترضة للمخابرات الفرنسية حول هجوم الشرطة الجزائرية على معقل إسلامي الدليلَ على أنّ ضابطاً أعطى أوامر لرجاله بعدم أخذ أسرى. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣، قتل إسلاميون ـ وهنا ربّما كان علينا البدء بوضع علامات اقتباس حول تلك الكلمة ـ اثني عشر مجنّداً في معسكرهم قرب سيدي بلعباس. وفي أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، تم توقيف جندي عند نقطة تفتيش روتينية للشرطة خارج مدينة الجزائر، وعندما قدّم إذن الجيش بالمرور تمّ ذبحه على الفور. كانت نقطة التفتيش مزيّفة وكان المسلّحون عنده متنكّرين بلباس الشرطة. أو هل كانوا كذلك فعلاً؟ أصبحت هذه الحواجز المزيّفة ظاهرة متكرّرة وتقترب من العاصمة كلّ أسبوع. وأصبح كل شيء واضحاً بسرعة للصحفيين القلائل الذين كانوا ما زالوا يسافرون إلى مدينة الجزائر وتبيّن لهم أن القتلة كانوا أحياناً رجال شرطة حقيقيين ـ يعملون للحكومة نهاراً وضمن حركات التمرّد ليلاً.

قبلاً، كان الجيش يستخدم الدبّابات والهليكوبتر ضدّ الوحدات الإسلامية في جبال الأخضرية. وكان الخيار ضئيلاً لأنّ المتمرّدين كانوا يتحرّكون في أنحاء الجزائر مدجّجين بالسلاح. وعندما ذُبح عدد من العمّال الكرواتيين الوافدين إلى البلاد في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣، لم تكن لديهم فرصة للفرار، إذ كان قاتلوهم حوالَي خمسين رجلاً مسلّحاً وكانت أكواخ سكنهم خارج وهران. في ذلك الوقت، كانت مدن الجزائر قريبة من الفوضى الشاملة. وكانت طوابير طالبي الخبز لا تحصى في مدينة الجزائر ناهيك بآلاف الجزائريين المستميتين لمغادرة بلادهم والذين كانوا يقفون خارج السفارة الفرنسية ليلاً ونهاراً، حتى أدّى مقتل مونيك آفري إلى إغلاق قسم التأشيرات. وكان التلفزيون الرسمي يكرّر يومياً بثّ فيلم إخباري عن المذبحة في كابول بعد خروج السوفيات، وعن طائرات الميغ التي تقصف العاصمة الأفغانية وعن جُثث النساء والأطفال المطروحة في الطرقات. وتقول الرسالة غير الناطقة: إذا لم تبقوا موحّدين حول حكومتكم، عندها ستكون الجزائر ووهران والقسنطينة وكل مدن الجزائر الأخرى على هذا الشكل. لكن إلى أيّ حدّ تستطيع السلطات من خلال التخويف دفع الأهالي إلى دعم الحكومة؟ بعد سنة، أرسلت الحكومة وفداً رفيع المستوى من ضبّاط مخابرات الجيش الجزائري في جولة على العواصم العربية وبخاصة القاهرة ودمشق، على أمل تعلّم كيفية محاربة مسلّحي حرب العصابات الإسلامية. في مصر ـ حيث قتل الإسلاميون الحقيقيون الرئيس السادات ـ تعلّموا كيف اقتحمت قوّات الأمن المركزي المصرية مخابئ المتمرّدين المسلّحين في حقول قصب السكّر حول أسيوط وبني سويف قبل استجواب الناجين تحت التعذيب أو إعدامهم بعد إدانتهم في المحاكم العسكرية. في دمشق، تعلّموا بالدرجة الأولى كيف قتلت القوّات الخاصّة السورية بواسطة المدفعية والدبّابات آلاف المسلمين في تمرّد مدينة حماه عام ١٩٨٢، مدمّرة شوارعها ومساجدها القديمة. وفي أواخر كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤، شنّ الجيش الجزائري هجوماً مركّزاً على المعقل الإسلامي حول عين دفلة ـ الذي يوازي مدينة حماه بالمساحة ـ بواسطة المدافع والدبّابات وقتل أكثر من ثلاثة آلاف رجل من الجماعات الإسلامية المسلّحة. مرّة أخرى، لم يكن هناك أسرى.

ليس من المستغرب معرفة كم من المرّات استخدمت هذه الصراعات الشرق أوسطية مدارس للآخرين في

حملاتهم العسكرية لاحقاً. فخلال حرب الجزائر ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ أعطى الفرنسيون الحكومة الإسرائيلية معلومات لا سابق لها عن حربهم ضدّ جبهة التحرير الوطني. وجرى اصطحاب إسحاق رابين الذي كان حينها رئيس أركان الجيش الإسرائيلي وعوزي نركسيس الملحق العسكري في باريس وحاييم هرتزوغ الذي كان حينها مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية، في زيارة إلى وحدة كوماندوس بحريّة في جنوب فرنسا، مركز تدريب الكوماندوس الفرنسي في كورسيكا، وإلى الجزائر نفسها حيث، استناداً إلى هيرتزوغ «راقبنا الصراع المرير ضدّ جبهة التحرير الوطني». بعد أربعين عاماً، أرسل البنتاغون وفداً إلى إسرائيل لدراسة خطط الجيش الإسرائيلي خلال الانتفاضة الفلسطينية لكي يطبّق هذه الدروس في معركته ضدّ المتمرّدين العراقيين ـ والتي نفّذتها القوّات الأميركية وأسفرت عن نتائج كارثية يمكن التنبّؤ بها. وبطريقة مشتقّة وغير واعية، ربّما كان الأميركيون يطبّقون أيضاً في العراق ـ ما هو مستخدم فعلاً ـ أساليب فرنسا الفظيعة في حرب الاستقلال الجزائرية.

اتخذت المؤامرة ـ الكامنة في فكر كلّ الجزائريين وكلّ العرب ـ وكذلك في تصوّر الإدارة الأميركية لجورج بوش منذ عام ٢٠٠١ ـ شكلاً مزعجاً الآن. فقد أقنعت الجماعات الإسلامية المسلحة نفسها بأن المساعدة العسكرية الفرنسية والتشجيع السياسي للنظام الجزائري ـ بشكل بارز من قِبل محبّ المؤامرات والمتسلّط، وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا ـ يمثّلان إعلان حرب ضدّ المسلمين الجزائريين من قِبل الدول الصليبية القديمة في أوروبا. واقتنعت الحكومة الجزائرية بأن الولايات المتحدة تساند الآن الجماعات الإسلامية المسلّحة. تساءلت: لأيّ سبب تسمح واشنطن لناطق باسم الجبهة الإسلامية للإنقاذ، أنور هدّام، بالإشراف على مكتب في واشنطن؟ ولأيّ سبب يُلحّ الأميركيون لإجراء حوار مع الإسلاميين، وهو أمر لن يفعلوه أبداً مع أعداء إسرائيل المسلمين؟. تريد واشنطن بشكل واضح إقامة أنظمة إسلامية معتدلة في شمال أفريقيا عوضاً عن ديمقراطيات لن تكون قادرة على السيطرة عليها. أو اقرأ المؤامرة إذن.

في الجزائر بحدّ ذاتها، أصبح الخوف مرضاً. «ذهبتُ إلى جنازة قريب في وهران في كانون الأول/ديسمبر ـ مات بشكل طبيعي ـ لكن في الجنازة ذكر شيخ أن امرأة جزائرية اغتيلت حينها مع زوجها البلجيكي». خيّم الصمت على مائدة الطعام، فلم يكن الوقت مناسباً لتحريك سكاكيننا وشوكنا فوق الفلفل الحارّ والبندورة الساخنة. «لم يتحدّث الشيخ عن مقتل البلجيكي ـ تجاهله. أما عن المرأة فقال: «لو لم تتزوّج بأجنبي لما حصل ذلك».

توقّف الرجل عن الكلام من هول التصريح ليفهم. ثم قال: «كيف نستطيع التفاهم مع أشخاص من هذا النوع؟ كيف يمكن أن نترك أشخاصاً شبيهين بهذا الشيخ يصلون إلى السلطة؟ يُعتبر نظامنا التعليمي السبب الرئيسي لمشاكلنا. لقد علّمت جبهة التحرير الوطني الأطفال أن التاريخ يبدأ عام ١٩٦٢، بعد حرب الاستقلال. لم يتعلّموا شيئاً من مناضلنا عبد القادر الذي حارب الفرنسيين. لكنّ الشعب نبذ جبهة التحرير الوطني وقراءتهم للتاريخ. إذن الشيء الوحيد الذي كان صحيحاً بالنسبة إليهم هو القرآن ـ الذي أعطى الزعماء الأصوليين قوّة متزايدة. كانوا مثل الشيخ في مسجد وهران، يستطيعون أخذ أي جملة من القرآن لإشعال حريق كبير بها». الحرائق الكبيرة منتشرة في كل مكان. لم أُبلغ مضيفي أنني شاهدت صورة للرجل البلجيكي وزوجته المقتولة بعد موتهما. لقد أصدرت

الحكومة الجزائرية ملفّاً حقيراً عن الجثث المقطوعة الرأس، صوراً ملوّنة واحدة تلو الأخرى لرقاب مقطوعة وجثث ممزّقة بالرصاص في مشارح الجزائر. كانت المرأة البيضاء الشعر ممدّدة على أرض المشرحة، وبدت فجوة طلقة إلى الجانب الأيمن من فمها، وكانت عيناها شبه مفتوحتين، وثديها الأيمن مكشوفاً فوق غطاء أبيض. كان زوجها بملابسه الداخلية فقط، وظهرت فجوات رصاص في بطنه وكتفه ووجهه. كانت عيناها شاخصتين إلى الكاميرا كما نظرت إلى القتلة عندما جاؤوا إلى منزل العائلة في البويرة يوم ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣. في الجانب الآخر يتمدّد شاب فرنسي، قُتل في بير خادم يوم ٢٣ آذار/مارس ١٩٩٤، وكان شعره الأسود القصير لا يزال مفروقاً بعناية، وهو ينظر إلى أسفل حيث فجوتا الرصاصتين في بطنه. تساءلت، هل هذا ما فعله لحظة موته؟ هل شعر بالمعدن يخترق بطنه ونظر إلى أسفل بدهشة ليرى ما مزّق قلبه؟

أقلب الصفحات ويصبح الأمر أسوأ. كانت بلاعيم العمال اليوغوسلاف الضيوف المغمورين خارج وهران مقطّعة. ليست شقوقاً صغيرة في العنق، بل شفرة حلاقة جعلت الموت أسرع وبدون رحمة. كانت بلاعيمهم مفتوحة، مرئية من الداخل، والدم يتدفّق على بطونهم. كان أحدهم شاباً متجهّماً من الألم، عذابه مكتوب على وجهه الميت، وشفتاه مطبقتان بقوّة كما لو كان يحاول التعامل مع الألم. كان أحدهم قد شقّ طريقه إلى بلعومه واستمرّ في الذبح حتى وصل إلى طرف عظم الظهر. تستطيع رؤية بياض العظم في مؤخّرة عنقه.

كانت جثث أخرى تبدو وكأنها مجزرة من الدم واللحم، وجوهها مقطّعة، وأيديها مسلوخة. في بعض الحالات، ظهرت الرؤوس المشوّهة فقط في الصور. كانت العين اليسرى لجلالي نوري، المقتول يوم ٢٨ آب/أغسطس ١٩٩٤ في عين دفلة، جاحظة، تنظر إلى الغطاء الذي يوجد عليه رأسه برعب كما لو كان يحدّق في سكّين قاتله. وبعد فترة أصبح هذا المجون من الفظاعة سخيفاً. كان رأس أحمد حدّاد المقتول يوم ١٣ أيار/مايو ١٩٩٤ موضوعاً على رفّ حجري، والدم يسيل من قاعدة الجمجمة، ويد بشرية أمسكت الرأس بإصبعين حتى تدحرج إلى الأرض. كانت حليمة ميناد شابّة، قُتلت في عين دفلة يوم ٢٣ تموز/يوليو ١٩٩٤، وكان شعرها الأسود الطويل وعيناها نصف المفتوحتين لا تزالان توحيان بجمال غارب، وخصلات شعرها غارقة في فتحة عنقها المقطوع. يمينة بن عمارة، سيّدة أخرى شابّة ذُبحت قرب وهران يوم ١١ نيسان/أبريل ١٩٩٤، وتُركت مطروحة على أرض منزلها بملابس النوم. كانت جثتها ممدّدة على سجّادة برتقالية وزرقاء رخيصة، مغطاة جزئيّاً بمخدّة؛ وما زال رأسها، جزء من عنقها متصل بالذقن، مرمياً على سجّادة أخرى والعينان مغمضتان. وتظهر صور أخرى مصانع محترقة، وركام المدارس والحافلات والشاحنات.

انضمّ الجميع إلى سوق الموت الداعر. في «ميدِلسَكس»، نشرت منظمة الجبهة الإسلامية للإنقاذ صورها السخيفة: إسلامي ذو لحية كثيفة مليء بالثقوب، ضحية التعذيب؛ يقول العنوان، ثُقب جسده وعنقه بآلة حادّة. ضحّى بحياته وبكل غالٍ لديه. كانت عينا الرجل مفتوحتَين بطريقة طبيعية، تنظران مباشرة إلى الكاميرا كما لو أنهما متلهفتان للقول كم كان عذابه رهيباً. وكانت هناك جثث متفحّمة: فتاة في العشرين من العمر غارقة في الدماء، ورجل أصلع ظهرت فجوة رصاصة في جمجمته. وعوضاً عن ركام المصانع، يتضمّن الكُتيّب صوراً ملوّنة

لمعسكرات الاعتقال الخالية التي سُجن فيها آلاف الشبّان الجزائريين، وصوراً لرجال شرطة يحققون مع شبّان في شوارع مدينة الجزائر. ويزعم كتاب الحكومة حول الذبح أن ١٥ ألف رجل وامرأة قتلوا، قُطعت رؤوس معظمهم.... ويقول منشور الجبهة الإسلامية للإنقاذ أنه «منذ انقلاب الجيش قُتل ٦٠ ألف مسلم». وكُتِب فوق صورة جثّة شابّ ممددة في بركة من الدم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد انقضت عشر سنوات قبل أن أرى هذا النوع من المجزرة مجدّداً، وذلك أنّ كلّ صورة من هذه الصور كان يمكن أخذها في مشارح العراق عام ٢٠٠٣ وبعده، وكذلك صور الشاحنات المحترقة والمعامل المدمّرة.

قبل أن أبدأ بالسؤال حول من ارتكب هذه الجرائم ضدّ الإنسانية ـ لأنّها لا يمكن أن تكون كلّها من صنع الجماعات الإسلامية الجزائرية أو المنشقّين عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ـ كان من الطبيعي أن أسأل أيّ نوع من الرجال ـ إذ إن القتلة جميعهم رجال ـ يستطيع إمساك نبيلة رزقي، بشعرها القصير وأنفها الصغير ووجهها الجميل على أرض منزلها في عين دفلة يوم ٢٣ تموز/يوليو ١٩٩٤ وذبحها من عنقها كما لو أنها خروف أو دجاجة؟ ماذا عن صرخات الرعب، وصرخات الألم، ونداءات الرحمة اليائسة التي صدرت قبل تحرّك السكّين؟ ماذا عن «الفتاة والطفل والحبّ؟».

وبعد دقائق قليلة، ظهر لي أنّ الاهتمام الذي أبديه بهذه الفظاعة، والتفاصيل التي أجدها في الصور، تجعلني شريكاً في هذه الجرائم. تذكّرت كيف كان حرّاس الثورة الإيرانيون يتناقلون صور القتلى من ركّاب طائرة الإيرباص في مخازن بندر عبّاس المبرّدة عام ١٩٨٨، ويدرسون التفاصيل الدقيقة للمعاناة: بُقع الدم على الجثث، والعيون التي ما زالت تنظر بذهول من الوجوه. ومرّة أخرى، ذكّرتني تلك الصور برسوم القرون الوسطى، بجثث حيرونيموس بوش المشكوكة بالأسياخ، وضحايا غويا المغتصبين والمنزوعة أحشاؤهم نتيجة الوحشية الفرنسية، وبالقدّيسين المختَرَقين بالسهام أثناء الصلاة. ذات يوم، وجدت رأس رجل ألبانيّ في حقل في كوسوفو، ملقى على العشب، مقطوعاً نتيجة قنبلة ألقاها سلاح الجوّ الأميركي على قافلة لاجئين تنظر إلى السماء... وتساءلت ببرود: هذا مشهد مشترك نراه في تودُر Tudor البريطانية أو أيّ مكان آخر في القرن الخامس عشر في أوروبا. وفيما بعد التقيت السيدة الشابّة التي وجدتِ الرأس ووضعته على العشب لأنها حسبت أن ذلك سيعطي الرجل المقتول كرامة أكثر إذا كان وجه الرأس المشوّه قادراً على النظر إلى السماء.

آنذاك كنّا نسافر، نحن الصحفيين القلائل، إلى الجزائر خائفين. وقد وضعنا، أنا ولارا مارلو من مجلّة التايم، نظاماً رتيباً. إذا زرنا محلّاً، يجب أن نبقى أربع دقائق فقط لشراء الفاكهة أو الشاي أو الكتب، فقد حسبنا أن خمس دقائق ستعطي أحدهم الوقت الكافي لجلب القتلة. وكنا نُخفي وجوهنا بالصحف عندما نقع في ازدحام وسط المدينة. وكنا نعبر ما بين السيّارة والباب الأمامي بجنون، بسرعة مونتي بايتون ـ الصحفيون في سيرهم الغبيّ شخصيات في فيلم صامت قديم ـ يدفعنا رعبنا إلى التحرّك بسرعة غير عادية. اقرع الباب، وراقب الطريق بطريقة

عرضية لاهثة، لاعناً أصحاب المنزل لعدم الردّ عندما تقرع. عند الغداء، ننظر إلى ساعاتنا. يبدأ حظر التجوّل الساعة ١١:٣٠. وعقرب الدقائق الذي يتحرّك بعد الحادية عشرة يجعل ابتساماتنا تتجمّد ويزيد رغبتنا في الهرب. يريد رجال الشرطة مواكبتنا في أنحاء المدن، وهم يعتمرون قبّعاتهم أحياناً ويقولون: «من أجل حمايتكم». أجل، لكن مَن يرغب أن يشاهد مسافراً برفقة شرطي يضع خوذة، وسترة واقية، لتمييزه مع الرجال الذين يعتقلون شباب مدينة الجزائر، هؤلاء الذين يخضعون للتعذيب ـ بدأ الدليل يتأكّد بشكل أكثر فظاعة ـ ويتعرّضون للموت في أغلب الأحيان؟

سافرنا إلى بليدا، المدينة القديمة التي سندعوها قريباً «مثلّث الموت». أجل نحن نحبّ هذه الأسماء النشيطة. بعد عشر سنوات في العراق، سنبدأ الحديث حول المثلّث السنّي ـ الذي لم يكن سنّياً بالكامل ولم يكن مثلّثاً على الإطلاق ـ وعندها سنخلق بشكل حتمي، مثلّث موت عراقياً في صفحاتنا. وقد استغرق الوصول إلى بليدا نصف ساعة فقط. يوم ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، اعتمر رجال الشرطة هناك الخُوَذ وحملوا الرشّاشات. وكانت الجدران مليئة بشعارات الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وكان جثمان الشيخ محمّد بوسليماني ـ المدفون طيلة شهرين في معبر جبلي قبل اكتشافه ـ تنبعث منه رائحة كريهة وقد لُفّ بغطاء بنّي وأصفر ومُمدّد في ساحة المدينة الاستعمارية تحت جبال الأطلس.

كانت والدته زهرة البالغة من العمر ٨٤ عاماً جالسة على الأرض في منزل العائلة المؤلّف من طابق واحد، والواقع في سفوح الجبال فوق سهل ميتجا، والدموع تسيل على خدّيها المجعّدين من خلف نظّارة قديمة، وكانت تحاول أن تعلم لماذا قُتل ابنها. قالت: «أشكر الله أنني استطعت رؤيته في المستشفى واستطعت تقبيله. أتمنّى أن نراه في الجنّة. كان ابناً مطيعاً. الله برحمته وهبنا إيّاه والله برحمته أخذه منّا. يجب أن أتقبّل ذلك».

في الجزائر، أصبح القبول ـ بالخطف والقتل والذبح والموت ـ هو نمط حياة الآن. لكن مَن قتل بوسليماني؟ مَن يريد أن يخطف ثمّ يقتل أستاذ اللغة العربية الذي كان رئيس جمعية الإرشاد والتجديد الجزائرية، وسافر قبل عام إلى سراييفو وأحضر معه عشرات المسلمين البوسنيين الجرحى للاستشفاء في الجزائر؟ «اغتالته يد الغدر»، كان ذلك هو تفسير الشيخ محفوظ نحناح زعيم حزب حماس الذي كان بوسليماني عضواً تأسيسيّاً فيه، والذي كان يخطب في تلك الساحة الاستعمارية الصغيرة، باكياً أمام ثمانية آلاف مُعزّ.

مَن كان الخونة؟ القتلة هم بالتأكيد: الرجال الأربعة الذين أخذوا الشيخ الشجاع الملتحي من منزله المؤلّف من طابق واحد يوم ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣، وسمحوا له باتصال هاتفي قصير مع عائلته بعد بضعة أيام قبل إسكاته إلى الأبد. في استطلاعنا لمنزله رأينا الكتب الدينية التي كان يقرأها عندما استدُعي إلى الباب الأمامي، وقد أعيد خطّ الهاتف ـ الموصول الآن بشريط أسود لاصق ـ الذي قطعه الخاطفون قبل أخذهم الشيخ في سيّارته الرينو المضروبة. لقد أبلغوا زوجته غشام أنهم يأخذونه لإجراء محادثة، كلمات قليلة، ولا شيء يدعو للقلق. وسيرجع قريباً، بحسب الرواية المعادة.

بين مئات النساء المحجّبات اللواتي جلسن تحت أشجار الأوكاليبتوس والحي المتداعية بيوته الذي عاش فيه بوسليماني، روى صديق قديم الحدث القاضي: «سمحوا له بإجراء اتصال هاتفي واحد. سألته عائلته: «مَن يعتقلك؟» وكان صامتاً. ثم سمعوا صوتاً خلفه يقول: «أبلغهم أنها الجماعات الإسلامية المسلّحة». ثم قال: «سمعتم». سألته عائلته كيف صحّته، وأجاب: «في بعض الأحيان عليك شكر الله حتى في أسوأ الظروف». وكان هذا آخر ما سمعوه منه.

لكنه لم يكن الأخير الذي شوهد. قبل عشرة أيام من مؤتمر وطني ميؤوس منه حول الجزائر كان يُفترض به حلّ أزمة البلاد، انتشرت إشاعة أن جثة الشيخ وجِدت في أعالي الجبال، مدفونة بجانب أشجار قرب مقبرة في العفرون. لم يعلن المزيد حتى انتهاء المؤتمر، الذي حضرته حماس لفترة قصيرة وقاطعته الجماعات السياسية الرئيسية كافّة. وفي لحظة ما، أعلنت السلطات الجزائرية فجأة أن جثّة الشيخ وجدت بالفعل في المنطقة الجبلية. وبالنبرة ذاتها تقريباً، تم الإعلان أن الرجلين المشتبه بهما في عملية خطفه ـ غيتون ناصر ورشيد زيراني ـ اعتُقلا. وقيل إن ناصر وزيراني تلقيا أوامر من جعفر الأفغاني، وهو عضو في الجبهة الإسلامية للإنقاذ لعب دوراً فعلياً في قيادة الجماعات الإسلامية المسلّحة، لخطف الشيخ بغية إقناع حماس بمقاطعة المؤتمر.

كانت الحكومة مسرورة بلوم الجبهة الإسلامية للإنقاذ حول كل مآسي البلاد. وكان عشرات الآلاف من المناضلين الإسلاميين ـ وأعضاء من الجماعات المسلّحة المتحاربة مع النظام ـ يقيمون في بليدا. لذلك كانت جدرانها مغطاة بشعارات الجبهة فيما يراقب شباب البلدة الأجانب مراقبة دقيقة. ولذلك يقف أفراد الشرطة العسكرية الذين يرتدون اللباس الكاكي والمسلّحون بالكلاشينكوف في الشوارع حولنا ويغطون وجوههم بأقنعة من القماش ذات شقوق واسعة تسمح للعيون بالمراقبة. وكانت لديهم أوامر بالقتل.

لكن كان هناك أصدقاء للشيخ ـ أصدقاء دراسة من أيام ثانوية بليدا حيث علّم العربية ـ يشكّكون في الرواية. قال عضو في حماس: «فجأة وجدت الحكومة الجثّة والمذنبين بعد انتهاء المؤتمر. ماذا أظنّ حيال ذلك؟ إن حماس أكثر اعتدالاً من الجبهة الإسلامية للإنقاذ، لكنّ للجبهة مؤيّدين في حزبنا». إذن، لماذا يجب على جبهة الإنقاذ قتله؟ لا أعلم ـ مع أنني أرغب في سماع جبهة الإنقاذ تشجب الاغتيال، أرغب في سماعهم يقولون إنهم لم يقتلوه. لكن هناك مَن يقول إن الحكومة تريد القضاء على حماس ـ إنه الزعيم الثاني الذي يُقتل ـ حتى تتمكّن من شنّ حرب مفتوحة بين الجيش وجبهة الإنقاذ. وهناك أحزاب أخرى مثل حزب الثقافة والديمقراطية الذي يرفض أي حزب مثل حماس لأنها تُظهر أن الإسلام يستطيع أن يكون إنسانياً ومعتدلاً. إن الناس مستعدّين للموت عندما يجد الجميع أن موتهم لمصلحتهم. وقد خسرت الجبهة الإسلامية للإنقاذ خصماً معتدلاً. وكانت السلطات قادرة على توجيه اللوم إلى الجبهة الإسلامية للإنقاذ بينما لم يعد للذين يتعاملون مع الدين في السياسات الجزائرية ـ أمثال بوسليماني المشهور جدّاً ـ مجال للنضال معها.

كان الشيخ رجلاً معروفاً في بليدا. وكانت جنازته في ظلّ الجبال المكلّلة بالثلج محزنة وعظيمة. وقد بكى

المعزّون حتى أُغميَ على بعضهم، وسقطوا بين أيدي أصدقائهم بينما كان الشيخ نحناح يعلن أن بوسليماني «فعل كل شيء من أجل تراب الجزائر والآن يستردّه تراب الجزائر». لم يكن لبوسليماني أولاد ـ قُتل شقيقه في الحرب ضدّ الفرنسيين التي سُجن الشيخ خلالها لمدة خمس سنوات ـ لكنه مع غشام كانا يربّيان ابنة شقيقه وكأنّها ابنتهما. وكانت أسماء تبكي أمام أمّها المتبنّية وتلطم بيديها حزناً، بينما نُقل الجثمان إلى مثواه الأخير في البلدة أسفل حيّ العائلة الفقير في سيدي الكبير. وقد سُمّي أحمد الكبير هاملت المهزوم ثمّ مؤسّس بليدا في القرن السادس عشر، وكان قد أحضر معه من إسبانيا عرب الأندلس ـ مزارعي البساتين وسُقاتها ـ قبل وقت طويل من وصول الفرنسيين إلى الجزائر لاستعمار أمّة لم تنتهِ مأساتها بعد.

كان رئيس الجزائر التالي جنرالاً سابقاً لا صبغة له شهد الفوضى قبل الحرب الأخيرة. وبصفته سفيراً في رومانيا، شهد الجنرال الأمين زروال الفوضى التي تلت سقوط الرئيس تشاوشيسكو. وشغل سابقاً مناصب قائد مدفعية في سيدي بلعباس، وضابط قيادة للوحدة المؤلّلة السادسة في تامنارست، ومدير كلّية تشرشل العسكرية، ووزير دفاع. وهو الآن رئيس الجمهورية السادس بعد الاستقلال. كان زروال يمثل آخر فرصة للجزائر. وقد سار بلباسه الرمادي وربطة العنق الداكنة، إلى داخل نادي المشاة المجاور لمقرّ جبهة التحرير الوطني، مروراً بمراتب محاربي السباهي Spahi باللباس القرمزي والأخضر، راسماً ابتسامة باردة على وجهه، مومئاً برأسه لصف الجنرالات والأميرالات الذين تسطع سيوفهم المذهّبة وشارات النخيل على أكتافهم تحت أضواء التلفزيون. وقد لاحظت عدم وجود تغطية حيّة لهذه المناسبة. فلا تغطية تلفزيونية حيّة لرئيس بعد اغتيال بوضياف. لذلك استمعنا جميعاً بصمت يوم ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤ إلى قسم زروال وهو يضع يده على نسخة من القرآن الكريم ويعد «بإيجاد مخرج لأزمة البلاد عبر الحوار».

هل صدّق أحد ذلك؟ عندما دخل زروال القاعة، ربّما سمع بما حصل. قبل ثلاث ساعات ونصف ساعة فقط، وصل سياسي آخر إلى بوّابة منزله في مدينة الجزائر حيث فاجأه رجل يحمل سلاحاً قاتلاً، ثمّ يقطع رقبته ويتركه ميتاً على الرصيف ـ ومثل كلّ قتلة الجزائر استطاع الإفلات. كان رشيد زيغاني، الأمين العام لحزب يميني صغير دعا منذ فترة طويلة لانقلاب عسكري، يغادر منزله متوجّهاً إلى مكتبه في وزارة الأشغال العامّة عندما وجد نفسه وجهاً لوجه مع قاتله. لم يكن هناك شهود بالطبع.

في اليوم التالي، كان المراسل التلفزيوني الفرنسي أوليفيه كيمنير يصوّر في مدينة الجزائر عندما اغتاله مسلّح، ووجِد إلى جانبه الصحفي الجريح ممدّداً وهو يبكي. وفي مقرّ زروال ساعدت في نقل قاعدة كاميرا كيمنير وعدنا معاً في الباص نفسه إلى مدينة الجزائر، ونحن نتحدّث عن مصاعب العمل في هذه الدولة البوليسية الديمقراطية وعن المخاطر التي تنتظرنا. وقد أُضيف كيمنير الآن إلى لائحة القتلى الأجانب. وفي فندق الجزيرة قال شرطي باحتقار: «لم يأخذ معه مرافقة من الشرطة». كلّا، بالطبع لا، كان كيمنير يحاول القيام بعمله، بشجاعة وبدون حماية في قلب حرب الجزائر.

داخل مكتب وكالة الصحافة الفرنسية المحصّن في وسط المدينة القديمة، كانت الإحصائيات معلّقة على

الجدران. وأظهر الإحصاء الأخير مقتل ٢٤٣ رجلاً من قوّات الأمن و٨٨١ إسلامياً و٣٣٥ مدنيّاً ـ مع إجماليّ قتلى رسمي وصل إلى ثلاثة آلاف شخص لا أحد يصدّقه سوى رجال الحكومة(*).

حكمت محاكم الدولة على مئات الإسلاميين بالإعدام؛ ٢١٢ في مدينة الجزائر، و٦٤ في وهران و٣٧ في القسطنطينية. وعن عمليات القتل الفردية التي كان صحفيّو الوكالة قادرين على اقتفاء أثرها، كُتب بالحبر الأحمر: «عمليات اغتيال»: «يوم ١٦ آذار/مارس ١٩٩٣، قُتل جيلالي عبّاس وزير التربية السابق خارج منزله في ثنّة؛ يوم ١٧ آذار/مارس ١٩٩٣ قتل معادي فليسي، طبيب وكاتب وعضو في المجلس الوطني الاستشاري...، يوم ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣، يوسف سبتي، شاعر وكاتب فرانكوفوني وأستاذ، قتله «مجهولون». وحتى نائب رئيس مفوضية الجودو الجزائرية كان ضحيّة ما أسمته الصحف «اغتيال جبان».

عند الغداء، أعطتنا امرأة صديقة رسالة من تحت الطاولة، مثل شخص يعرض أدباً إباحياً. كيف لا، والمضمون مُعيب بشكل كافٍ. فقد كتب إليها مراسل مجهول بقلم عنكبوتي: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا عمل بعد الآن، أنت عاهرة. بسم الله الرحمن الرحيم، لا شرطة بعد الآن... الّله أكبر». كانت المرأة طبيبة أسنان ومن بين زبائنها رجال شرطة. سألت: «ماذا أستطيع أن أفعل، يجب أن أستمرّ في العمل. ربّما أغادر الجزائر». كان التهديد باللغة الفرنسية، والعبارة القرآنية بالعربية. لم أستطع سوى الملاحظة أن لغة الكاتب الفرنسية أفضل من لغته العربية؛ تفكير غريب حول الكراهية للغرب يعبّر عنه الإسلاميون كثيراً ـ ذلك في حال كانوا هم من أرسل الرسالة. وقد أُرسلت هذه الرسالة إلى مكتب بريد سكّة حديد مدينة الجزائر بتكلفة دينارين. إنه إرهاب بالبريد بقيمة ١٤ سنتاً.

وزير تربية سابق، خبير جودو، شاعر، طبيب أسنان، صحفي. ضمّ بيان إسلامي أسماء ٣٠ صحفياً فرانكوفونياً محكومين بالإعدام، تمّ اغتيال تسعة منهم حتى الآن. عام ١٩٩٣، اغتيل طاهر دجاوت، الروائي المحرّر الحائز على جوائز، والمحبّذ للأدب الفرنسي، وقد أصيب برصاصة في رأسه خارج منزله ومات في حالة الغيبوبة. عام ١٩٩٤، اغتيل سعيد مقبل، الذي يمكن اعتباره أفضل صحفي جزائري، والذي يكتب تعليقه «مسمار جحا» ـ المسمار الصدئ ـ في صحيفة «لوماتان» اليومية، وقد قُتل على يد رجل أنيق دخل إلى مطعم البيتزا حيث كان يتناول الغداء وأطلق النار على رأسه مرّتين. لم يعترض أحدٌ القاتل لأنه زبون دائم. وقد هُرع أحد موظفي الصحيفة إلى محلّ البيتزا. قال: «كان سعيد في مؤخّرة المطعم، جالساً خلف الطاولة، وما زال ممسكاً بالسكّين والشوكة بيديه، رأسه منحن قليلاً إلى الأمام كما لو كان ينظر إلى الطعام في الطبق، وكان لا يزال يتنفّس. قلت له: سعيد انتظر. سوف نأخذك إلى المستشفى. ومددتُ يدي لألمس شعره لكنني سحبتها مغطاة بالدم».

ترك مقبل الذي قاتل جدّاه لأبويه مع فرنسا في الحربيْن العالميّتيْن الأولى والثانية، مقالاً غير مُنجز في مكتبه جاء فيه: «أرغب حقّاً في معرفة مَن سيقتلني».

(*) عام ١٩٩٥، اعترفت الحكومة الجزائرية رسمياً بأن ١٥ ألفاً من مواطنيها قُتلوا وأنّ هناك ستّة آلاف جريح و ٢١٤٣ عملية تخريب. في الواقع، يُعتقد أن عدد القتلى الحقيقي وصل إلى ما يقارب ٧٥ ألف شخص.

وقد حكم أيضاً على الأكثر براءة؛ كانت كريمة بَلهاج البالغة من العمر ٢٠ سنة تعمل سكرتيرة في مكتب تقاعد شرطة الجزائر. كانت امرأة جميلة خُطبت لسائق باص محلّي. وتمّت خيانتها مقابل ١٨ دولاراً من صبيّ يسكن في مجمّع الفقراء نفسه القائم في ضاحية أوكاليبتس. وبينما كانت عائدة ذات مساء إلى البيت، أمسك بها رجل من شعرها وجذبها من الخلف إلى الأرض وأطلق رصاصة في بطنها، وبينما تأرجحت إلى الأمام بألم، أطلق رصاصة أخرى على رأسها. وقد سمع شقيقها إطلاق النار. وكانت آخر كلماتها له: «خذني إلى المستشفى،أريد أن أعيش»، ثم ماتت.

من المهمّ فهم هذه الأفعال الرهيبة في ظلّ الوحشية التي ردّ بها الجيش والشرطة. هناك الآن دليل قويّ على أن الشرطة في أحياء بلكور والقبّة في مدينة الجزائر اختارت سجناء سابقين لإعدامهم كلّما قُتل شرطي. وأصبح التعذيب روتينياً في ثلاثة مراكز شرطة متفرّقة في العاصمة. وكانت غرف التعذيب مجهّزة في ملاجىء تحت الأرض مخصّصة للاختباء من الغارات ومبنيّة أساساً تحت مراكز الشرطة الفرنسية من قِبل جيوش الحلفاء عام ١٩٤٢. وراجت شائعات دائمة تفيد أن جثثاً ملفوفة بأغطية بلاستيكية أُحضرت من هذه البنايات خلال ساعات منع التجوّل لدفنها سرّاً. وقد وصف معتقلون سابقون من سجن سكارجي ما عانوه طوال شهور من الوحدة في الزنازين الصغيرة المظلمة. من هؤلاء سجين التقيته وهو في طريقه إلى المحاكمة وبدا كرجل كهف، شعره طويل متدلّ حتى الكتف، وأظفاره طويلة والقروح تُغطّي جلده والقَيح يسيل من أذنيه. وعندما انطلق معتقلو سكارجي في إضرابهم عن الطعام للاحتجاج ضدّ هذه الظروف في خريف ١٩٩٣، أطلقت الشرطة قنابل مسيلة للدموع داخل السجن، ممّا أدّى إلى اختناق سجين حتى الموت.

كانت لدى نشطاء حقوق الإنسان داخل الجزائر تقارير أشدّ رُعباً. يوم ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، ادّعوا أن عملية تمشيط للجيش في مدينة لاربا انتهت عندما قرأ الجنود لائحة بأسماء سبع رجال ـ الطيّب بلعروسي، محفوظ سلامة، حليم جيداوي، عزّ الدين غنيم، محمّد قادر، والشقيقان مجادني ـ وضعوهم مقابل الجدار وأطلقوا النار عليهم. والجنود الذين عادوا إلى المدينة لاحقاً خلال النهار أطلقوا النار على حشد، وقتلوا طفلة عمرها سنتان وجدّتها. ويوم ٢٤ كانون الثاني/يناير، واستناداً إلى المصادر نفسها، دخل الجنود مدينة بودواو التي تبعد ٣٥ كلم عن الجزائر واختاروا أربعة رجال ـ محمّد سعيد تيغالمانين، وعبدالله لانواني، وعلي بوشنتوف، ومسعود بوتيش ـ وأعدموهم على الحائط. هل هي مفاجأة والحال هذه أن يشكّ العديد من الجزائريين الآن أن السلطات الأمنية تحاول خلق جوّ من الإرهاب؟ وهل من المفاجىء أن يساعد الإسلاميون في انتشار مثل هذه الإشاعات؟.

ومع توالي سنوات الدم، علمنا أن قوّات الأمن الجزائرية كانت شديدة التورّط في الفظائع أكثر مما نستطيع تصوّره وأنها قامت بالفعل بتنفيذ بعض المجازر المتفرّقة التي وجّهت اللوم فيها إلى الإسلاميين. وما زالت مفكّرتي عندي ـ من مقابلة عام ١٩٩٥ مع أحد أفراد الشرطة العسكرية الجزائرية في مركز حدّاد للحرس في حراش ـ حيث دوّنت ما أبلغني به ضابط طلب عدم ذكر اسمه:

«إن حرب عصابات عاديّة شبيهة بهذه الحرب لن تنجح أبداً. لم تنجح بالنسبة إلى الفرنسيين ولن تنجح بالنسبة إلينا. الحلّ الوحيد هو في اختراقهم بارتداء ملابس شبيهة بملابسهم، والعيش مثلهم واستخدام جماعتهم».

في دفتر ملاحظاتي في ذلك الوقت، دوّنت الجُمل الثلاث الأخيرة، مُضيفاً تصوّري في الهامش.

كانت علامات الانهيار موجودة في جميع أنحاء الجزائر. ففي الأسبوعين الأخيرين من شهر كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، جرى اغتيال ١١٦ شرطياً أكثر ممّا هو مُعلن رسميّاً. وكانت مناطق واسعة من البلاد تحت سيطرة المتمرّدين فعلياً. أما الحكومة فكانت تسيطر فعلياً على مدن الجزائر ووهران وعنّابة فقط وحتى أن قسنطينة كانت تحت سيطرة المسلّحين في ساعات الليل. وخلال رحلة مسافتها ٢٥٠ كلم في جبال القبائل، اكتشفت أن السلطات الأمنية انسحبت من الطرقات. وكانت نقاط تفتيش الجيش والشرطة مهجورة. وكان الشرطي الوحيد الذي رأيته بين مدينة الجزائر «وتيزي وزو» يقف حاملاً رشّاشاً خلف حاجز رملي خارج مركز شرطة مرشوش بالرصاص في عسير. وفي تيزي وزو نفسها، التقيت رجالاً ونساء خائفين تحدّثوا عن غزو إرهابيّ من القرى المجاورة كلّ ليلة.

في طريق العودة إلى مدينة الجزائر، مررت بدورية عسكرية واحدة، مؤلّفة من عربتيْن مصفّحتيْن فيهما جنود ملثّمون يعتمرون الخوذ وأسلحتهم مصوّبة إلى السيّارات العابرة. وكانت هذه المشاهد بالضبط هي التي شهدتها بعد عشر سنوات على الخطوط السريعة جنوب بغداد، حيث لمست فقدان السيطرة الحكومية نفسه، وكذلك الهجرة والخوف.

كانت تقاريري من الجزائر شبيهة بمخزن مليء بالجثث: فتيات مقتولات بسبب رفضهنّ ارتداء الحجاب، وأبناء قُطعت رؤوسهم لأن أهلهم رجال شرطة أو نساء شرطة، ونساء اغتُصبن حتى الموت في أقبية الشرطة. وعندما جاءت تقارير مُرعبة من الريف الجزائري في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤ ـ عن شابّتين قُطعت رقبتاهما لأنهما رفضتا زواج المتعة مع مقاتلين إسلاميين ـ كان كثيرون خارج الجزائر يرفضون تصديق ذلك. وعندما أبلغت مسؤولي حزب الله المحلّيين في بيروت عن ذلك، أومأوا برؤوسهم غير مصدّقين، وصرّح أحدهم: «الحقيقة، أعتقد أننا المجموعة الإسلامية الأكثر نضجاً». وكونه من حزب الله فإنه يعبّر عن وجهة نظره.

قبل سنوات قليلة، ربّما كان ادّعى أن كلّ القوى الإسلامية متّحدة وراء هدف واحد. لكنّ حرب الجزائر بدّلت ذلك. وقد مضى وقت حاولت فيه السلطات الجزائرية إخفاء أخبار الفظائع التي ارتكبها الإسلاميون، لكنّ الوحشية المفرطة التي استُخدمت في التصفية دفعت المسؤولين إلى تغيير سياستهم، وباتوا يرغبون الآن في إعلان الفظائع. لقد ذُبحت الفتاتان ـ وفُصل رأساهما لاحقاً عن جسديهما ـ لأنهما رفضتا «زواج المتعة»، وكان عمر إحداهما ٢٥ سنة، والأخرى ٢٢ سنة، وقد خُطفتا مع أعضاء آخرين من عائلتيهما من منازلهم في بليدا. وقد تحدّث ضابط في الجيش الجزائري متمرّد عن ٥٠ ألف جندي متورّطين الآن في «الصراع ضدّ الإرهاب» وفي التصفية الجسدية السرّية للعديد من الإسلاميين المشتبه بهم.

كان محمّد معتاداً الذهاب إلى مدرسة قرآنية، ويخطب في مسجد في مدينة الجزائر. وكان يجلس على أريكة في منزل آمن في مدينة الجزائر حيث دُعيت مع لارا مارلو الصحفية من مجلّة التايم. إنه يوم ٣ شباط/فبراير ١٩٩٤، بعد أربعة أشهر على مجيء ثلاثين عنصراً من القوّات الخاصّة ملثّمين إلى منزل محمّد الساعة الثانية صباحاً. كان عمره لا يتعدّى التاسعة عشرة. وكان يحدّق في أعلى طاولة نحاسية بينما كان يتحدث:

«ضربوا والدتي البالغة ٤٨ سنة وعصبوا عينيّ واقتادوني مباشرة إلى غرفة تعذيب. كانت تقع أسفل ثلاث أو أربع مجموعات من الدرجات وكانت باردة جداً. قاموا بتعريتي، وكانت هناك فتحة في الأرض فقاموا بتغطيس رأسي مراراً في المرحاض، وسألوني تكراراً: «أين الأسلحة؟» أجبت بالنفي. أصرّوا بسبب قيامي بإلقاء خطب الجمعة في المسجد. وعندما نزعوا العصبة عن عينيّ رأيت أنهم يرتدون جميعاً ملابس شرطة زرقاء وقبّعات. كان عددهم ثمانية عشر وكنت أسمع صراخ أشخاص آخرين. رأيت على الجدران أضواء ساطعة وبقع دم. ربطوني على دكّة من الإسمنت وقرصوا فتحات أنفي ثم أدخلوا خرقة مبلّلة بالماء والصابون في فمي، وصبّوا المزيد من الماء عبر الخرقة حتى امتلأت معدتي بالماء والمسحوق، ثم ركلوا معدتي حتى تقيّأت. ودام الأمر ثلاث ساعات».

اقتيد هذا الشاب إلى سرداب كلّية شرطة شاتونوف في حيّ البيار. وأشار محمّد إلى جروح حمراء داكنة على قدميه، وقال إنه «أُخضع لصدمات كهربائية على قدميه بواسطة آلة تشبه المسدّس». وبعد عشرة أيام، اقتيد إلى مركز الشرطة الرئيسي قرب مبنى الخطوط الجوّية الفرنسية في وسط مدينة الجزائر:

«كان في مركز الشرطة ضابطان أحدهما يُسمّى قرعة والآخر عبد الصمد، قاما بتعذيبنا أمام بعضنا البعض، للتأثير النفسي. وعرضا علينا أمواتاً معلّقين بأصفاد في السقف، وكانوا أشخاصاً ماتوا من التعذيب والعطش. كانوا في الزنازين معي. من بلكور رأيت خمسة أشخاص موتى في مركز الشرطة. اثنان منهما متدلّيان من السقف والثلاثة الآخرون عُذّبوا وأُحرقوا بالنار حتى الموت. هدّدوا بإحضار زوجتي إذا لم أعترف بالحقيقة. وكان معي في السجن رجل يدعى سيّد أحمد شبلة من بَرَكي أبلغني أنهم أحضروا زوجته وعذّبوها. وأحضروا والدته وعذّبوها واغتصبوها أمامه. كنت خارج الغرفة عندما قاموا بذلك وعندما خرجت والدته كانت عارية ومضرّجة بالدم. كان عمرها ٥٥ سنة، وطلبت منا أن نكون شجعاناً وأن نصمد. وقد حُكم على سيّد أحمد بالإعدام. قاموا بتعذيبي بقسوة في مركز الشرطة بحيث ندّدت بشقيقي كونه في المقاومة. أوثقوا يديّ وقدميّ وسحبوني على بطني على الأرض. وضربوا رأسي بالأرض حتى سقطت أسناني».

أجهش محمّد بالبكاء، فجلسنا وانتظرنا حتى يستعدّ لاستئناف حديثه:

«أحضروا شقيقي إلى مركز الشرطة ووضعونا وجهاً لوجه في غرفة، فأبلغته أن ما قلته غير صحيح وقلته بسبب التعذيب. وكان شقيقي يبكي ويقول: «سامحك الله». وقد حطّموا ضلوعه وتركوه يذهب... تحت التعذيب اعترفت بأنني كنت أجمع الدواء والمال للمقاومة. ولم يكن ذلك صحيحاً. قلت ذلك فقط

لأنني أردت منهم التوقّف عن تعذيبي. كنت حافي القدمين أمام القاضي وكان جسمي ما زال مغطى بالعلامات. صرخت أمامه وقلت إنني تعرّضت للتعذيب. قال: «أجل، أعرف، ليس هناك ما أستطيع عمله... في سكارجي وضعوني في زنزانة ضيّقة ورطبة في السرداب طيلة ٤٥ يوماً... لم يكن هناك ضوء، وكان في الزنزانة العديد من الفئران. عذّبوني مجدّداً من خلال الضرب على قدميّ. وأعطوني إناء صغيراً للشوربا مليئاً بالصراصير وقطعة خبز صغيرة يومياً.

سمّى معذبيه بالملازم أبو عمرة وسعيد حدّاد، وكان السجناء يسمّون الأخير بهتلر بسبب شاربه. وتم اقتياد أحمد إلى المحكمة مجدّداً وجرت تبرئته هذه المرّة. قال لي إن الحرّاس أبلغوه: «إذا عدت ثانية، سوف نقضي عليك». وهو الآن مُتوارٍ عن الأنظار لأن فِرق الموت تتجوّل وتقتل كلّ مَن يخرج مِن السجن»... والآن هاكم رواية من الدرجة الأولى، أعطانا إياها رجل أسميته ليث ـ من أجل سلامته ـ في تقريري:

«في هضبة «دوق دي كار»، عاش ولدان كانا يذهبان معاً إلى المدرسة ويسكنان في البناية نفسها. أصبح أحدهما أصولياً والآخر شرطياً. تم إرسال الأصولي إلى معسكر اعتقال في الجنوب. وعندما خرج أراد الانتقام فقتل الشرطي صديق المدرسة. وقتل والد الشرطي ذلك «الإسلامي». لقد عرفهما الجميع في الحيّ. وإذا ذهبت إلى جنازة شرطي، تقول الجبهة الإسلامية للإنقاذ إنك مع الحكومة. وإذا ذهبت إلى جنازة «إسلامي» تلاحقك الشرطة. لذلك قدّم سكّان بنايتنا التعازي للعائلتين»....

وحتى الجنرال السابق جاك ماسّو أعطى نصيحته للحكومة الجزائرية الجاهزة للقتال. فقد أعلن القائد السابق للقوّات الفرنسية الشرسة بتفاخر: «تتحمّل قوّات الأمن المسؤولية الرئيسية في ما يتعلّق بمستقبل بلادها. وبمساعدة الغرب فإن قوّتها ستكون ناجحة حتماً»[*].

(*) كان ماسّو يُسدي النصيحة فقط ـ فيما كانت الحكومة الفرنسية تقدّم مساعدة جدّية للجيش الجزائري. وخلال معظم عام ١٩٩٤، كانت فرنسا ترسل طائرات هيلكوبتر، وأجهزة رؤية ليلية للمراقبة الجوّية للمخابئ الجبلية ومعدّات أخرى معظمها عبر شحنات جوّية عسكرية فرنسية إلى مطار الجزائر. وقيل إن ابن مسؤول حكومي فرنسي يدير شركة أمنية خاصة خارج باريس، باع معدّات قيمتها ملايين الفرنكات لقوّات الأمن الجزائرية ـ كما باع الأميركيون طائرات هيلكوبتر لصدّام خلال الحرب الإيرانية العراقية على قاعدة أنها ستُستخدم لأغراض مدنية ـ متجنّبين بذلك تحقيقاً قانونياً من قِبل لجنة وزارية فرنسية داخلية لمراقبة الصادرات العسكرية (CIEEMG)، وقد جُهّزت طبعاً بصواريخ وعدسات ليلية لتصبح أسلحة هجومية. وكان الفرنسيون يستمعون أيضاً إلى البيانات العسكرية الجزائرية في سفينة شحن سابقة، تبحر على طول الساحل الجزائري ومجهّزة بطاقم مؤلّف من عناصر الإدارة العامة للأمن الخارجي (DGSE، المخابرات الفرنسية) ورقمها A646. وكانت السفينة البيضاء تراقب القوّات الجزائرية في جبال الأخضرية. وكان عملها خاضعاً بشكل متزايد لاعتراضات طائرات سلاح الجوّ الفرنسي وضبّاط المخابرات داخل السفارة الفرنسية في مدينة الجزائر. وعشية عيد الميلاد ١٩٩٤، اختطف مسلّحون إسلاميون طائرة للخطوط الجوّية الفرنسية في مطار الجزائر، وبعد إعدام عدّة مسافرين طاروا بها إلى مرسيليا للتزوّد بالوقود وهدّدوا بتحطيمها في برج إيفل. ولم يكن الأمر المفاجئ متعلّقاً بعملية الخطف التي حصلت بل باستمرار رحلات الخطوط الجوّية الفرنسية إلى بلد انحدر فيه مستوى القانون والنظام وحيث أصبح مجرّد ذكر اسم فرنسا حكماً بالإعدام على المواطنين الفرنسيين الذين لا يزالون في الجزائر. ولم يسأل أحد ما إذا كان المسلّحون ينوون الطيران للاصطدام ببرج إيفل جدّياً ـ أو أن خططهم ربّما ألهمت خاطفين آخرين في المستقبل، كان لديهم مشاريع أكثر طموحاً تورّط فيها ركّاب طائرات نقل وأبنية عالية.

لم يطلب الجزائريون أبداً نصيحة ماسّو، لكنه ربّما كان موافقاً على ترقية قائد فرقة الإبادة في الجيش الجزائري الجنرال محمد لمعاري إلى رتبة قائد الجيش وليس لديه اعتراض على تعيين عبد الرحمن مزين شريف وزيراً للداخلية، وهو واحد من السلالة النادرة من رجال الجزائر الأقوياء الذين يتحدّث عنهم الجزائريون، والذي يؤمن بأن الحلّ العسكري وحده قادر على جلب السلام إلى الجزائر. لذلك وجّهت إليه السؤال القاتل بينما كان متوجّهاً إلى مكتبه في الطابق الثاني من القصر الحكومي مرتدياً بدلة زرقاء ومدخّناً سيكار هافانا: من هم الاستئصاليون؟ وهل هو أحدهم؟.

أخذ مزين شريف نفساً طويلاً من دخان سيكاره قبل أن يجيب. ثم قال: «الفلّاح يمكن أن يكون استئصالياً عندما يقتلع الأعشاب من الحقول، وأحياناً على الرجل تنقية الماء وتطهير الأشياء من الحشرات والجراثيم. هناك حالة متقدّمة من العنف والإرهاب في الجزائر. هل تسمّي ضابطاً يطبّق القانون ويقوم بواجبه استئصالياً؟ يدعو الناس عادة الذين يرتكبون الخيانة والفرار بالمستسلمين. وإذا كان عليّ الاختيار بين الاثنين، سأفعل كل ما بوسعي لتأمين استمرار الجزائر مجتمعاً عصرياً». وبعبارة أخرى، فإن مزين شريف استئصالي، مستعدّ للقتال حتى النهاية ضدّ الإرهابيين والمجرمين، والفيروس ـ عبارته إضافة إلى الحشرات الصدامية ـ الذين يهدّدون البلاد. كان الوزير أحد الرجال المتشدّدين، وقد حُكم عليه بالإعدام من قِبل الفرنسيين إبّان حرب الاستقلال، وكان حاكماً لجلفة وعين دلفة، وجلبة، وبجّاية، ومدينة الجزائر، ومن ذلك النوع من الرجال الذين لا تؤمّن سجونهم تكييفاً. وعندما سألت إذا كان من العدل التنديد بمبادرة غربية حديثة في روما حيث دعا الجزائريون بمن فيهم الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى السلام ونبذ العنف، تمتم مساعد الوزير وهو رجل مصدوم يده قوية: «إنها تشجب العنف بأسلوب فلسفي». هذا كثير من أجل المصالحة.

انزلقت الحرب الجزائرية نحو نمط من الاستفزاز الذاتي حيث يجري الانتقام ردّاً على كلّ فظاعة. في كانون الثاني/يناير ١٩٩٥ أعلن جيش الإنقاذ الإسلامي المعروف بالجناح العسكري للجبهة الإسلامية للإنقاذ أنه سيشنّ هجوماً دموياً يصادف شهر رمضان حيث ستتكثّف هجماته ضدّ المرتدّين والأتباع. وقبل أيام قليلة وعد البيان رقم ٣٣ لجيش الإنقاذ الإسلامي المعنون بالفتح المبين بأن عمليات الجماعة ستصل إلى العاصمة. وتأكيداً لذلك، أدّى انفجار سيّارة مفخّخة في وسط المدينة إلى مقتل ٣٨ شخصاً وإصابة ٢٥٦ آخرين بجراح. وهذا ما سيفعله المتمرّدون العراقيون بعد عقد من الزمن، من خلال تحديد شهر رمضان شهراً للهجوم العسكري ـ ومن ثم يهاجمون المحتلّين الأميركيين وأعوانهم من الشرطة العراقية دون الاكتراث بالأبرياء الذين يموتون. وقد وضِعت العبوّات الناسفة في مدينة الجزائر خارج مقرّ قيادة الشرطة في شارع عمروش ـ مبنى مؤلّف من أربعة طوابق زعم العديد من الإسلاميين أنهم تعرّضوا للتعذيب داخل أقبيته ـ وانفجرت عندما كان الجزائريون يشترون الطعام قبل بدء شهر الصوم... وفقد العديد من الجرحى البالغ عددهم ٢٥٦ شخصاً أطرافهم.

كان الأبرياء الأكثر تضرّراً بشكل متزايد هم ضحايا أشدّ الهجمات قسوة. ففي كانون الثاني/يناير ١٩٩٥، جاء

مسلّحون إلى منزل صلاح زوبار وهو مناضل في حرب الاستقلال، قرب شليف في غرب الجزائر، وخطفوا ابنته البالغة ٢٤ سنة وأبناءه الثلاثة ـ أصغرهم يبلغ ١٣ سنة ـ وقاموا بقتلهم جميعاً برصاصة في الرأس. وفي شباط/ فبراير، اغتال الإسلاميّون عزّ الدين مدجوبي مدير المسرح الوطني الجزائري وهو ممثل مشهور، شاربه متدلّ بشكل مضحك ـ معروف في مدينة الجزائر بتقديمه مسرحية وليامز «عربة اسمُها اللذة» ـ وكان خارجاً من مسرحه بعد تقديمه عرضاً للأطفال عندما أطلق شابّان عدّة طلقات على رأسه(*).

تسارعت الأحداث في الجزائر بحيث كان الذين يسافرون منّا بانتظام إلى البلاد أن يصبحوا معارضين. في شهر شباط/فبراير، حصل تمرّد في سجن سكارجي السجن الفرنسي البربري القديم في مدينة الجزائر المركزية حيث كانت المقصلة تسقط على أعناق الأسرى من جبهة التحرير الوطني ـ وانتهى بموت ٩٩ سجيناً من ضمنهم مسؤولان كبيران في الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وقد سيطرت الشرطة العسكرية الجزائرية على السجن بعد مقتل أربعة من الحرّاس استناداً إلى السلطات. ولم يعرف أحد ما إذا كان السجناء يحاولون الهرب ـ كما فعل ٩٠٠ إسلامي في سجن تازولت ـ لمباس العام الفائت ـ أو أنه حمّام الدم الذي وصفته الجبهة الإسلامية للإنقاذ بأنه مجزرة طوعية قامت بها السلطات. وأفادت صحيفتان جزائريّتان أن ١٤ سجيناً قُتلوا على أيدي زملاء لهم في السجن. في البداية، قيل إن المبارك بومعرفي ـ المتهم باغتيال بوضياف ـ كان بين القتلى. لكنه ظهر فجأة بعد ذلك على شاشات التلفزيون بإصابة في ركبته وبشارب حديث، مبتسماً ومحيّياً مشاهدي شريط الفيديو قائلاً: «هذا أنا بومعرفي وأنا حيّ». ثم سرت شائعة أن الذي في شريط الفيديو ليس بومعرفي.

كانت الحرب الجزائرية تُخاض في الظلام. وتمنّى كلا الجانبين أن تغطّي هذه الظلمة صراعهما، ورغم ذلك كانت النتائج تُنشر دائماً بشكل مرعب. وقد أمضيت عدّة أيام مع القوّات الجزائرية المجنّدة التي تحوّلت إلى وحدات شبه عسكرية مع الوقت، أراقب رجال الشرطة الذين يرتدون الخُوَذ والأقنعة وهم يعتقلون الشبّان من الأحياء الفقيرة لاستجوابهم. وكان من الممكن أن نتسلّل عبر فقر مدينة الجزائر، في قافلة سيّارات «لاند كروزر»

(*) كان شهر رمضان ١٩٩٤ الأكثر حزناً بشكل خاصّ بالنسبة إلى المثقفين الجزائريين. فقد قُتل الكاتب الدرامي عبد القادر علّولة، مدير المسرح الوطني في وهران وهو في طريقه لإلقاء محاضرة درامية. بعد أربعة أيام، أصيب عزيز صماتي وهو منتج تلفزيوني إصابة بالغة وهو مقعد الآن. وفي أيلول/سبتمبر من تلك السنة قتل مسلّحون شابّ حسني أهمّ مغنّي موسيقى الراي. وكان لتهديد البربر بإعلان الحرب على الإسلام الأثر في إنقاذ حياة المغنّي لينوس متوب، وقد أطلق سراحه بعد ١٥ يوماً على اختطافه. ومن خلال اتهامهم المثقّفين بالاستخفاف وبإهانة الدين الإسلامي، اعتبرت الجماعات المسلّحة الوسط الفني ـ وليس بدون مبرّر ـ خطّ المواجهة الأمامي للحرب الثقافية ضدّ قيام جمهورية إسلامية. وكان أشهر المؤلّفات كتاب رشيد ميموني عن «البربرية بشكل عام والأصولية بشكل خاصّ»... وكان الإعلان الوحيد حول موته في شباط/فبراير ١٩٩٥ أنه مات نتيجة عوارض طبيعية. وفي مصر، كان الكتّاب أيضاً عُرضة للقتل حيث اغتيل الكاتب فرج فودة، وقامت جماعة إسلامية بطعن الكاتب نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل في القاهرة لكنها فشلت في قتله. وقد شرح كريم الراوي، الكاتب المصري الذي قدّم الكثير لحركة حقوق الإنسان في القاهرة أن الصراع الإسلامي هو بشكل محدّد ثقافي بطبيعته، «لأن الإسلام هو دين الكتاب، والقرآن هو كلمة الله الناطقة باللغة العربية، وبناء عليه فإن اللغة العربية هي اللغة المحكية لكل يوم واللغة المقدّسة... وحين تكون كاتباً يعني أن تكون مؤلّف نصوص وتدّعي حقيقتها الأمر الذي ليس بالضرورة هو الحقيقة الوحيدة للنصّ المقدس. لهذا السبب فالكتّاب هم الهدف وليست كلماتهم فقط».

خضراء وبيضاء، ورشّاشات الكلاشينكوف مصوّبة من الأبواب الخلفية للسيّارات بين جموع من الرجال الواقفين وسط أكوام القمامة، التي تنتشر مكدّسة على طول الطرقات عبر Cherarba , Chateau Rouge , Houaoura , Eucalyptus, Gaid Gassem. وأحياناً كنّا ننطلق في الريف مع رجال الدرك بلباسهم الأخضر وهم يهرعون في بساتين البرتقال حول بليدا ويفتشون الشبّان الذين كانت أيديهم مرفوعة عالياً ووجوههم مليئة بالرعب، وفوّهات رشّاشات الشرطة تلامس رقابهم. ظللت أتساءل، ماذا يحصل عندما لا نكون نحن الصحفيين برفقة الشرطة؟

أصبح المقدّم محمّد ـ عرفت اسم عائلته لكنّني وعدت بعدم الكشف عنه أبداً ـ دليلاً سياحياً، وهو يشير إلى الأماكن الجاذبة للخطر: سوبرماركت مدمّر من الداخل، ومصنع غاز محروق، ومجموعة من الشاحنات المتفحّمة عائدة لتعاونية رسمية، ومدرسة مدمّرة ونوافذ متناثرة. وعندما مررنا بقطار سكّة حديد كامل، كانت مجموعة مقطوراته الفضيّة محترقة وملقاة جانباً... وبملاحظة رجال الشرطة بأقنعتهم وخُوَذهم، أطلق عليهم سكّان الجزائر منذ زمن بعيد اسم نينجا، وهو لقب كانوا سعداء باستخدامه. وكلّما مررنا بشارع كنا نستطيع رؤية الشباب في الجانب الآخر يركضون للاختباء في المحلّات والأزقّة. كان الشباب الذين لم يهربوا ينظرون إلينا بحقد بحيث اخترقتنا نظراتهم كما لو أنهم هزموا الحكومة التي يمثّلها رجال المقدّم. لكنّ الوقائع مضت قُدماً مع محمّد. وبحسب قوله فإن الجماعات الإسلامية المسلّحة تحمل أسلحة تشيكية أو إسرائيلية ـ سكوربيون أو عوزي ـ يعتقد أنه تم تهريبها عبر حدود الجزائر مع المغرب وليبيا وتونس أو مالي. وكانوا يضعون القنابل في قوارير الغاز المليئة بالمتفجّرات، والزجاج، والغاز، والفُسفور والحديد، ويدفنونها في الطرقات ويتمّ تفجيرها عن بُعد.

قال: «إنهم منظّمون ووراءهم عقل مدبّر وهم أشخاص يتكيّفون مع الوضع ويتغيّرون. كانوا يستخدمون بنادق صيد مسروقة، والآن يستخدمون أسلحة رشّاشة ومتفجّرات. إنهم يشنّون الهجمات عندما يرغبون وبيدهم المبادرة. ولديهم مرشدون في أساليب العمل. ويعرف القادة بعضهم بعضاً لكن الذين يشنّون الهجمات لا يعرف بعضهم البعض الآخر. إنها بنية هرميّة». قام الإسلاميون بحلاقة لحاهم، وتخلّوا عن الجلابيب، وعملوا أحياناً قاطفي فاكهة، بنادقهم موضوعة جانباً في بساتين البرتقال. يستريحون في الأزقّة ليلاً ويخرجون في الوديان المحيطة عبر المجاري عند الفجر. وأبلغنا المقدّم محمّد بينما كان يرتاح في مكتبه في حراش «أن الجماعة الإسلاميّة المسلّحة في مدينة الجزائر أكثر عدداً من الحركة المسلّحة للجبهة الإسلامية للإنقاذ» في هذه الأثناء كانت آلة تسجيل تبثّ أغنية قديمة لرولنغ ستونز ـ «أنا مقاتل حرب شوارع» موضوعة على الطاولة المستديرة. «عندما تقاتلهم، يقاتلون حتى النهاية. ولا يستسلمون أبداً». وهذا ما سيقوله بعد ستّ سنوات ضبّاط القوّات الخاصّة الأميركية عن رجال القاعدة الذين يقاتلونهم في غرب أفغانستان.

في باب الواد، أقوى معاقل الإسلاميين على الإطلاق في أيّ مدينة جزائرية، جهّز المقدّم محمّد ورجاله أنفسهم على طول الطريق، يراقبهم حوالى ألف شابّ. تمتم المقدّم: «إن الحي يعجّ بالمراقبين، انظر إلى طريقتهم في النظر إلينا». صوّب رجال الشرطة بنادقهم إلى السطوح والشرفات بينما زادت الحشود وأصبحت أكثر إزعاجاً. وفجأة، أراد محمّد الرحيل ولم يمضِ على وجودنا هنا أكثر من دقيقتين. تمتم: «علينا المغادرة الآن». كم من

المجنّدين الجُدد أوجد رجاله لدى الجماعات الإسلامية المسلّحة؟ إنّ دعم السلطة من خلال فوّهة بندقية لا يقضي على العنف. وتقريباً كان كل شارع مررنا به خارجاً عن سيطرة الحكومة الفعلية. ومن المؤكّد أن هناك مناطق محظورة في مدينة الجزائر. ولكن كانت هناك مناطق غير آمنة أيضاً.

أحببت التنقّل مع هؤلاء الرجال وأحبّوا رفقة الغربيين بسبب شعور الحماية الذي يمنحونهم إيّاه. كان هذا شعوراً مزيّفاً. وعلمت أنني إذا بقيت معهم الوقت الكافي سأشهد الحرب، وعرفت أنه مع مرور الأيام سيحصل إطلاق نار، وعملية مواجهة أراها بأمّ عيني عوضاً عن كتابة تقرير بعد ساعات أو أيام. لكن لم أصدّق أن ذلك سيحصل سريعاً.

كانت أشجار الصنوبر تسطع في ضوء الصباح الباكر، وأشجار البرتقال تلمع كالذهب، وامتدّت بساتين الزروع نحو سلسلة رمادية من الجبال. لا تستطيع إيجاد جدول أكثر هدوءاً يتدفّق عبر أشجار السرو من السواقي التي امتلأت من أمطار الليل. هكذا كانوا يظهرون الجنّة في كتب الأطفال. كانت الشبيبة بلدة الشارع الواحد، بداراتها الفرنسية القديمة القليلة ومجموعة من البيوت الإسمنتية الرخيصة. ونوافذها المشرّعة. في الواقع كانت النوافذ مفتوحة في هذا الصباح البارد المنعش والشوارع خالية من الناس. وفي مكان ما في رأسي ـ وكنت في داخل سيّارة اللاندكروزر المكيّفة التابعة للمقدّم محمّد ـ كان جزء من عقلي يسأل جزءاً آخر سؤالاً. ربّما كان الطقس بارداً في الخارج، وكان الناس في بيوتهم. لكن لماذا فتح الجميع نوافذهم؟ أيّ عمل غريب يحصل؟ عندها تعرّضنا للهجوم. لا أحبّ كلمة «نحن». لكنّك لا تستطيع وضع علم صحافي على سيّارة شرطة جزائرية، أضف إلى ذلك أنّ مفجّري القنابل سيكونون أكثر من سعداء لمعرفة أن هناك أجنبيّاً مع ستّة عشر شرطياً هدفاً لهم. وعندما انفجرت العبوّة الأولى تردّد صداها داخل عربة القيادة المصفّحة مثل إطار ينفجر خلفنا. عرف رجال الشرطة المقنّعين ماهيّتها. وعندما انفجرت العبوّة الثانية على بعد مئة متر بينما كنت أفتح الباب الخلفي، وارتفع جدار من الصوت وغطاء من الإسمنت والدخان خلف سيّارة الشرطة الثانية.

وعندما أخرجت آلة التصوير ونظرت من خلال العدسة إلى السيّارة الثانية ـ لالتقط صورة الدخان المنبعث خلفها ـ حصل انفجار ثالث وشعرت كما لو أن أحدهم يلطم أذني بيديه، ورأيت عبر العدسة طبقة من الإسفلت والعشب والحديد والنفايات تتصاعد ببطء في الهواء.

ركض شرطي من أمامي وأطلق النار إلى داخل الحقل المزهر إلى يساري، وخرجت امرأة من منزل مدمّر ـ دارة قديمة عائدة لذوي الأقدام السوداء، على ما أتذكّر ـ وهي تبكي وتصرخ وتطلب من الله والشرطة وقف الضجيج. وتساقط وابل من الحجارة الإسمنتية على الطريق حولنا وطار الغطاء الواقي لسيّارة الشرطة الثالثة وتدحرج على الطريق ومرّ قرب وجهي. حصل ذلك عندما انفجرت العبوّة الرابعة.

صرخ المقدّم محمّد: «انبطحْ، انبطحْ قد تنفجر عبوّة أخرى». نظرت حولي. كان إلى جانبي فندق بائس،

ومحلّ حلّاق مهجور على الجانب الآخر من الطريق مع عبارة «حلّاق للشباب» مطبوعة بوضوح على زجاج الباب. كنّا منبطحين أرضاً عندما كانت الشظايا تتساقط، كمطر مجنون في هذا الصباح الجميل في الجنّة. وساد صمت خرقه صراخ المرأة المرعوبة وأصوات رجال يتنفّسون ويسعلون وصوت على جهاز الراديو يسأل هل وقعت إصابات وشرطيّ يتردّد بهدوء: «اللّه أكبر». في هذه اللحظة، شرع رجال الشرطة في تمشيط الأشجار بالرصاص، وسقطت القذائف داخل الأغصان، وعادوا إلى إطلاق النار على الحقول مجدّداً وكانت رصاصاتهم تضرب بشدة وتئزّ منطلقة نحو حاجز سكّة حديد. ما عدت أكتب تقريراً حول الحرب الجزائرية من الدرجة الثانية بعد الآن.

كان كميناً مُتقناً. فقد وضعت الجماعة الإسلامية المسلّحة التي يقودها الآن أمير جديد في قرية بليدا ـ يُدعى سعيد مخلوف ـ عبوّات ناسفة على جانب الطريق تبعد الواحدة منها مسافة ٥٠ متراً عن الأخرى، وقد أصابت أربع منها أربع سيّارات من الدورية. قال محمّد: «إنهم محترفون. انتظروا حتى خرجنا من سيّاراتنا وفجّروا العبوّة الرابعة، لكنّ سيّاراتنا كانت موزّعة. ثم فرّوا. ربّما كانوا هناك...» وأشار إلى قرية الشبيبة البريئة، المهجورة مرّة أخرى، «ليس هناك أي شخص في الطرقات، فقد تمّ تحذير سكّانها من قِبل الجماعات الإسلامية المسلّحة بحيث لا تحطّم القنابل زجاج نوافذهم لذلك ـ لم أفهم المعنى بدقّة ـ فتحوا تلك النوافذ في هذا الصباح الربيعي البارد». قال محمّد موجّهاً إصبعه نحو الأفق حيث تسطع الشمس الآن بحبور على جدران القرى الصغيرة المخفيّة تقريباً خلف الأشجار. تقدّمنا داخل الحقول بحذر ورجال الشرطة يطلقون النار أمامنا باحثين عن الأسلاك المبثوثة في العشب المبلل بالماء والأشجار المتأخرة النموّ. عبر قطار سكّة حديد قربنا، القطار المحلّي بين بليدا والجزائر العاصمة، وكان الركّاب ينظرون إلينا وبأيديهم صحف الصباح من العربات النعسة كما لو كنا في حقل تدريب متطرّف. عندها وجدنا أسلاك التفجير الكهربائية وأربع بطاريّات سيّارة مغطّاة بالتراب بشكل غير مُتقن ومجموعة من المصابيح الضوئية المهشّمة نتيجة للتفجير قرب الحُفر الضخمة على الطريق. كانت واجهة إحدى سيّارات الشرطة محطّمة ومقابض الأبواب مخلوعة والشظايا منتشرة في الهيكل، لكن لم يُصب أحد.

كانت الأسلاك الكهربائية ممتدّة في الحقول وقام رقيب في الشرطة بتتبّعها مخرجاً إياها من الوحل والماء مثل مشهد من فيلم «جسر على نهر كواي» عندما اكتشف أليك غينيس أن أحدهم يخطط لتفجير جسره. وجدت الأسلاك طريقها إلى خارج الطين وتشابكت مع شريط سياج حيث يمرّ شريط صيد سمك أخضر باتجاه سكّة الحديد حيث انتهى الشريط على خطّيها، هناك كان ينتظرنا ثلاثة أو أربعة منهم، يستمعون إلى ـ أجهزة المسح بحسب المقدّم محمّد أجهزة الشرطة. وكان رجل عجوز يقطع العشب على جانب الحقول. قال: «كان هناك بعض الرجال هذا الصباح ومعهم أسلحة صيد، كانوا يصطادون الطيور». لكن في الواقع، كان الجميع في شبيبة يعلم ماذا يحدث. ربّما احتاج الأمر إلى ساعات لنشر قوارير الغاز المليئة بالمتفجّرات، وأسلاك الكهرباء والبطّاريات وصواعق التفجير. ولعلّهم كمنوا هناك منذ أيام بانتظارنا.

عندما غادرنا شبيبة، لم ينظر السكّان إلينا ولم يلقوا حتى نظرة على سيّارة التويوتا المتضرّرة بالانفجار، وكأننا لسنا موجودين، وكان ذلك هو المصير الذي أعدّته لنا الجماعات الإسلامية المسلّحة. أما الخطأ الذي حصل فيعود

إلى المسافة بين العبوّات. وجّه المقدّم محمّد نداء عبر جهاز الإرسال قائلاً: «مسافة ـ ابقوا متباعدين عن بعضكم» ثم صاح مجدّداً: «الّله أكبر». وتمتم الشرطي الذي بجانبي بعبارة «محمّد رسول الله»، فردّدها الجميع معه وقد حيّرني هذا الدعاء الذي لم أفهمه في البداية. واستمرّ الأمر لدقائق قاربت الساعة بعد الكمين. كان رجال الشرطة يشكرون الله على رحمته. ولم يكن عندي شكّ أنه على الجانب الآخر لخطّ السكة الحديد، ربّما استخدم مفجّرو القنابل العبارات نفسها، طالبين الرحمة من الله ومستحضرين اسم النبي في محاولتهم قتلنا جميعاً. في طريق العودة إلى مدينة الجزائر التفت إليّ المقدّم محمّد وقال: «كان الحظّ إلى جانبنا اليوم».

كان حظّي جيّداً أيضاً. أردت أن أرى الحرب وحصلت على تقريري من الدرجة الأولى وعدت إلى فندق الجزيرة الآمن. لكن في الساعة ٥:٣٨ من صباح اليوم التالي ـ أصبحت لديّ عادة تفحّص ساعتي في كلّ مرة يحصل فيها انفجار ـ دوّى انفجار هائل وارتفعت سحابة ضخمة من الدخان فوق مساكن عائلات رجال الشرطة في القبّة. وقبل الانفجار، كان منفّذو التفجير يغادرون مسرح الانفجار هاتفين ـ بشعار الإسلام ـ الّله أكبر، الذي يؤمن به رجال الشرطة أيضاً. ولم يودّ الانفجار المفترض أن يدمّر المبنى بكامله على رؤوس عائلاتهم إلّا إلى تدمير الجدار الأمامي فقط. كان معظم الجرحى الواحد والعشرين من النساء والأطفال وأصغرهم طفل عمره سنة. في السابق كان شرطيان يقومان بحراسة المباني في الخارج. وقد أبلغني شرطي خارج الخدمة: «لقد تمّ اغتيالهما معاً العام الماضي ومنذ ذلك الحين ليست هناك حراسة للمباني».

كان نوعاً من التثقيف أن تراقب قوّات الأمن الجزائري وهي تتفحّص مسرح التفجير. كان هناك رجال شرطة باللباس الأخضر والأقنعة ورجال شرطة مرور باللباس الأسود مع أحزمة ذخيرة وأقنعة سوداء لا تظهر فيها سوى العينين والفم، يقفون بين الحشد يراقبوننا جميعاً. «مَن هم؟» قال شاب ووضع راديو ترانزيستور عند أسفل النافذة وموسيقاه الصاخبة تعطّل أي جهاز تنصّت يمكن أن يكون رجال الأمن الجزائريون قد وضعوه قرب المنزل. كانت القصّة التي استمعنا إليها إحدى القصص السرّية التي تتحدّث عن الخوف، والإعدام العشوائي وفِرق القتل الحكومية السرّية، وزعيم إسلامي قُتل «بينما كان يحاول الهرب»، فضلاً عن المقابر الجماعية والجثث التي لا تُحصى في أكياس البلاستيك. وقد أدّت مذبحة سجن سكارجي إلى مقتل ٢٢٣ عنصراً من الجبهة الإسلامية للإنقاذ، واستناداً إلى الرجال في الغرفة، قتلوا جميعهم انتقاماً لتفجير مركز قيادة شرطة مدينة الجزائر.

لا يراود هؤلاء الرجال أدنى شكّ، ولا لحظة تردّد في روايتهم... بالنسبة إليهم، لا تُعتبر الجماعات الإسلامية المسلّحة إرهابيّة ولكن معارضة مسلّحة. وبالسؤال عن الروايات ـ المدعومة بالدليل الحسّي ـ التي تتحدّث عن اغتصاب رجال الجماعات الإسلامية المسلّحة للنساء، يجيب أحد الرجال: «إنها مجرّد محاولة لتشويه سُمعة المقاومة». وإذا عبّرت عن عدم تصديقك، يصبح الردّ ألطف، نوعاً من الإجابة القذرة التي تعطيها الحكومات عندما تُدعى للمحاسبة. «هناك مبالغات من قِبل الجماعات الإسلامية المسلّحة بالطبع». الأمر الذي يعني بشكل ما القول بأن الجماعات الإسلامية اغتصبت النساء.

لكن كان هناك إفراط من قِبل الحكومة، وهو ما يجري الحديث عنه ووصفه بالوحشي والمستمرّ ـ بحسب ادّعاءاتهم في مدينة الجزائر ـ حين يتطرّق الحديث إلى وحدة خاصّة لمكافحة الإرهاب متمركزة في مقرّ شرطة شاتونوف، مركز التعذيب حيث تؤخذ النساء للاغتصاب المنظّم والإعدام على ما يقوله هؤلاء الرجال. ويقول المحامون الذين يمثّلون رجال الجبهة الإسلامية للإنقاذ إنه في العديد من القضايا لا ينزعج رجال الشرطة الجزائرية من تعذيب السجناء للحصول على اعترافات قبل سوقهم إلى المحكمة. إنهم يقتلونهم فقط.

يحاول محامٍ من مدينة الجزائر تفسير ما يحدث. منذ شهر ونصف شهر لم تعد هناك محاكمات قضائية في مدينة الجزائر. فقد شكّلت الحكومة محاكم خاصّة في وهران، والجزائر والقسطنطينية في أيلول/سبتمبر ١٩٩٢، لكنها لم تنفع بسبب عدم تعاون المحامين. وقد ألغت الحكومة المحاكم الخاصّة هذه السنة ـ وقيل إنه عمل ليبرالي جيّد. لكن لم تحصل أي محاكمات منذ ذلك الحين. كانت تجري اعتقالات فقط.

وأورد المحامي قضيتيْ أستاذيْ فيزياء إسلاميّيْن من بليدا، الدكتور فؤاد بوشلاغم والدكتور أحمد نولاريس، اللذين اعتقلتهما الشرطة الجزائرية. يحمل أحدهما شهادة دكتوراه من جامعة تولوز، وتدرّب الثاني في معهد التكنولوجيا الأميركي الشهير MIT. وأعلنت الشرطة بعد اعتقالهما أنهما «قُتلا بينما كانا يحاولان الهرب». ماذا يفترض بنا الاستنتاج من ذلك؟. وكانت قضيّة الدكتور نورالدين عمّور رئيس وحدة جراحة العظم في مستشفى حراش في مدينة الجزائر، وقضيّة والدكتور شريف بلحراش رئيس قسم الأعصاب في مستشفى قسطنينة، أكثر رعباً. اقتادتهما الشرطة المسلّحة من المستشفيْن اللذين يعملان فيهما عام ١٩٩٤، واختفيا ببساطة.

وهناك قضيّة عزّ الدين علوان، وهو محاسب في شركة المياه الوطنية، «قُتل شرطي العام الفائت وجرى اتّهام موكّلي بالجريمة» بحسب قول محامٍ ثانٍ». كان والد علوان مجاهداً، بطل حرب الاستقلال ضدّ فرنسا. وقد عذّبوا علوان في السجن بشكل قاس ثمّ قاموا بخصيه. وتدخّل والده لإخراجه من السجن وحصلنا على البراءة في المحكمة ـ كان رجال الشرطة الآخرون يبكون في قاعة المحكمة عندما سمعوا الدليل على ما تعرّض له ـ وقد ذهب والده إلى وزير الداخلية مزين شريف طالباً منه المساعدة لكن الوزير أبلغه بعدم استطاعته المساعدة لأن الرجال المذنبين ليسوا تحت إمرته».

عندما أجريت مقابلة مع مدخّن السيكار الاستئصالي مزين شريف، نفى وجود فِرقة مكافحة الإرهاب لكنه وافق على «أنهم نظّموا مجموعات داخل الجيش، والشرطة والدرك» لمحاربة الإرهاب. واستناداً إلى الرجال في الغرفة، بلغ عدد أفراد هذه المجموعات نحو ستة آلاف شرطيّ قويّ وعامل في مراكز الشرطة في ضواحي مدينة الجزائر في سيدي داي، والقبة، وبن عكنون وفونتين فريش. وكما في شاتونوف قال أحدهم إن طبيب سجن سكارجي أبلغهم بمقتل ٢٣٠ سجيناً. «كانت تصفية. ومن بين كوادرنا المقتولَين خلف شراتي، وهو إمام وأستاذ في مدرسة القرآن الصغيرة، ونور الدين حويك أستاذ التربية». وقد دُفن جميع الضحايا في مدافن جماعية في مقبرة العالية، ثلاثين أو أربعين في الحفرة ووضِعت أرقام على الأضرحة. وقد أعلنت الحكومة الجزائرية فتح تحقيق حول الفضيحة. ومَن الذي عُيّن رئيساً للتحقيق؟ مزين شريف بالطبع.

ومع مرور الوقت، أصبحت الحرب أكثر ضراوة والكتابة عنها أصعب ـ ليس بسبب المخاطر الجسدية فقط بل لأن تفاصيلها المرعبة كانت منفّرة، ومَن منا يعمل على تأريخ وحشيتها؟ ـ قامت الصحف الجزائرية بما تستطيع ـ بتشجيع من الحكومة بالطبع ـ لترويع القرّاء بصور لهذه الجرائم ضدّ الإنسانية. فهذه طالبة جزائرية في الخامسة عشرة من العمر مذبوحة وممدّدة في مشرحة في بليدا، تنظر بعينيها المفتوحتين نظرة اتهام للقارئ. وتُظهر صورة أخرى جثّتها، مغطاة بالدم، ويديها مقيّدتين بشريط خلف ردائها المدرسي. وتُظهر صور في صحيفة يومية جزائرية أخرى جثّة مقطوعة الرأس لشابّة أخرى. وفي اللحظة التي أفتح فيها صحيفة كلّ صباح، أشعر أن عليّ النظر خلفي لأرى إذا كان هناك من يراقبني. إن مجرّد النظر إلى هذه الصور المرعبة عمل إجرامي بحدّ ذاته. هل باستطاعة الجزائر إنتاج المزيد من الرعب؟ باستطاعتها ذلك. كانت فاطمة غضبان ترتدي حجاباً في غرفة الصفّ في مدرسة «محمّد الأزهر» عندما جاء لأخذها في آذار/مارس ١٩٩٥، ستّة رجال مسلّحين ببنادق صيد ومسدّسات. واستناداً إلى زميلاتها، فقد بكت وتوسّلت إلى المسلّحين الذين أخذوها إلى خارج بوّابة المدرسة حيث مزّقوا حجابها وأوثقوا يديها وصفعوها على وجهها ثم ذبحوها. قال شاهد إن المسلّحين وضعوا رأسها المشوّه خارج باب غرفة صفّها حيث أُصيب العديد من الأطفال بالإغماء، ووجدت الشرطة الجزائرية العديد منهم فاقدي الوعي ومرعوبين. وقد حفر الرجال على إحدى يدي فاطمة أحرف "GIA". كان والد فاطمة غضبان مفتّش أشغال عامّة متقاعداً ويصعب تصنيفه بأنه عميل للحكومة. وقد استنتجت صحيفة «الوطن» أن جريمة فاطمة ترتبط بجمالها.

قبل يومين من مقتل فاطمة، اقتحم المسلّحون منزل عائلة مزارع في رغاية عند الصباح وحبسوا الابنة الصغرى في الحمّام ووضعوا الأختين آمال البالغة ١٨ سنة وكريمة غودجالي البالغة ٢١ سنة ـ إلى جانب والدهما. ثم أطلقوا رصاصتيْن على رأس آمال ورصاصتيْن على قلب كريمة. كانت آمال مخطوبة لضابط شرطة جزائري. وفي الليلة نفسها اقتحم المزيد من المسلّحين منزلاً في تسالة المرجة قرب بليدا وقتلوا يمينة عمراني وهي امرأة حامل في شهرها التاسع وتبلغ من العمر ٢٦ سنة وكان زوجها خارج البيت. وقد اغتيلت نساء أخريات ـ اثنتان في العقد الثاني من العمر ـ أيضاً قرب بليدا في الأسبوع نفسه، وبعد أيام قليلة أقدم مسلّحون على اختطاف شقيقتين تبلغان من العمر ١٦ و١٧ سنة من من منزلهما في جبال أوراس وذُبحتا على بعد ٢٠٠ متر من المنزل.

أيّ طاقة بدائية تحرّك هذه الساديّة؟ مع أن الثمن كان رهيباً، فقد ربح الجزائريون حربهم ضدّ الفرنسيين. وهم جميعاً مسلمون على المذهب السنّي. وتقع بلادهم الشاسعة على أرض تحتوي مخزون نفط وغاز طبيعي بقيمة مليارات الدولارات. والجزائر هي الدولة الثامنة عشرة في تصدير النفط، والسابعة في تصدير الغاز. وتُعتبر بعد فرنسا وكندا، ثالث دولة فرانكوفونية. ويفترض أن تكون غنية بقدر غنى دول الخليج العربي، وباستطاعة أهلها شراء الأملاك والاستثمار في أوروبا وأميركا مثل السعوديين والكويتيين. على أن الجزائر تعاني حاليّاً من البطالة بنسبة ٢٥ في المئة ومن الأميّة بنسبة ٤٧ في المئة، ومن أفظع الصراعات الداخلية في العالم. في وزارة الداخلية، ينتجون الآن أشرطة فيديو حول المجازر أكثر إثارة وسُخفاً من كتب صوتَ الموت الإباحية الحكومية. وفي كلّ أسبوع يموت أكثر من ٢٠٠ رجل وامرأة الآن في المدن حول العاصمة الجزائر، ويعتقد الصحفيون الجزائريون بشكل خاصّ أن أكثر من مئة ألف قتلوا حتى الآن.

بدا في العديد من المجازر الأخيرة أن الجماعات الإسلامية المسلّحة تنتقم من هذه القرى التي أنشأت ميليشيات مدعومة من الحكومة لمحاربتهم ـ مبادرات أخرى صغيرة من صُنع مزين شريف. وكانت الشاحنات والباصات تتوقّف خارج هذه المدن عند حواجز مزيّفة مخيفة، وكان ركّاب هذه الحافلات يتعرّضون للذبح ـ عشرين أو ثلاثين ضحيّة في كلّ مرّة.

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٦، توقّفت خارج لاغاويت سيّارة إسعاف تحمل امرأة مريضة وزوجها ومُسعفاً خلف باص عند نقطة تفتيش للشرطة، واستناداً إلى صحيفة ليبرتيه (Liberté)، المصدر الصحفي الوحيد الموثوق به على الأرجح والمتبقّي في هذه الحرب ، ذبحت «الشرطة» /المسلّحون، المسعف والسائق والزوج تاركين المرأة المريضة وحيدة في السيّارة. وقُتل جميع ركّاب الباص الأمامي بالطريقة نفسها. وقد توقّفت عدّة سيّارات خلف سيّارة الإسعاف حتى أدركوا ماذا يحصل، فاستدار الناس بسيّاراتهم وعادوا أدراجهم إلى لاغاويت للنجاة بحياتهم.

في سيدي الكبير، لم يكن هناك مثل ذلك الهروب. كان رجال القرية المسلّحون في التلال المشرفة على منازلهم يوم ٦ تشرين الثاني/نوفمبر يبحثون عن الإرهابيين الذين تسلّحوا ضدّهم من قِبل الحكومة. خلفهم، كان أكثر من ثلاثين رجلاً من الجماعات الإسلامية المسلّحة يَدخلون قرية سيدي الكبير، ويبدو أنهم قاموا مرّة أخرى وبشكل منظّم بقتل مَن وجدوه في القرية. وقد أفادت التقارير أن طفلاً ذُبح بعد مناقشة بين المهاجمين حول أخلاقية قتل الأطفال، وتمّ ذبح عشر نساء على الأقلّ. وجرى الإجهاز على زوجين في منزلهما، الزوج في السرير، والزوجة على عتبة غرفة النوم بعد أن طلب منها ـ وبدون تبرير ـ ارتداء ثوب الزفاف. وقد وجد طفلهما الصغير مقيّداً في الغرفة نفسها.

وصل المسلّحون إلى أعالي جبال الجزائر، إلى دير تِبرهين Tiberhine حيث أخذوا سبعة من الرهبان. وقد فزعت فرنسا لذلك. فهؤلاء الرجال الروحيون يقدّمون المساعدة بلطف حتى لجرحى الجماعات الإسلامية المسلّحة. بعد سبعة أشهر، كنت جالساً قرب الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية الصغيرة في هيدرا في مدينة الجزائر مع المونسنيور هنري تيسيه، أسقف الجزائر وأستاذ اللغة العربية الفرنسي الجنسيّة. كان يضع نظارة. وكان قد حصل على الجنسية الجزائرية بعد الاستقلال. روى أنه تلقّى يوم ٢١ أيار/مايو ١٩٩٦ اتصالاً هاتفياً أبلغه أنه جرى ذبح الرهبان السبعة:

> «صحيح أننا وجدنا رؤوسهم فقط. كانت ثلاثة رؤوس متدلّية من شجرة قرب محطة وقود، والرؤوس الأربعة الأخرى مُلقاة تحتها على العشب. لكن الرائع أن عائلات هؤلاء الرهبان حافظوا على صداقتهم لنا ولجميع الجزائريين. لقد قاموا بزيارة الدير. وتقبّلوا خسارة أولادهم. كانوا يعلمون أن الذين قاموا بهذا العمل لا يمثّلون كل الجزائريين».

إذن، مَن قام بهذا العمل؟ قالت الحكومة الجزائرية إن الجماعات الإسلامية المسلّحة بقيادة صيّاح عطيّة الذي

تعرّف عليه أحد رهبان الدير عندما فتح الباب ـ من صورة صحفية تصف عطيّة بقاتل اليوغوسلاف الذين ذُبحوا قرب الدير.

لذلك هل يستطيع الأسقف معرفة ما كان يدور في أذهان القتلة عندما استلّوا سكاكينهم؟ «باستطاعتهم قتل صبيّ أو اثنين أو كهل عمره ٨٥ سنة. أعتقد أنهم بحالة اللاوعي. إنهم يعملون وفق فهمهم هم للشريعة الإسلامية ـ «علينا قتل أعداء الله» ـ وانتهى الأمر. نحن لا نفكّر في حياتنا فقط بل في حياة كل الناس في الجزائر... إن الأمر الأكثر صعوبة يتعلّق بمعرفة أن بعض الأشخاص يموتون كل يوم، والأمّهات يبكين أبناءهنّ وبناتهنّ. نحن لسنا الآن في الوضع الذي كنّا عليه قبل الأزمة. عندما تحيي شعائر القربان المقدّس، لا تستطيع سوى التذكّر أن المسيح قُتل بواسطة العنف البشري ـ وباسم الدين. الآن علينا فهم الخطر في هذا المجتمع. إننا نسير على خطى المسيح. لا نستطيع النظر إلى صليب المسيح كما كنا ننظر من قبل. سابقاً، كان أمراً نظرياً في السابق، والآن أصبح حقيقة يومية».

كان الأسقف قد أقام قُدّاساً لمجموعة مؤلّفة من ستّ راهبات ورهبان في مدينة الجزائر، وكان القسّ يقرأ من إنجيل متّى ـ الفصل ٢٥ الآية ١٣: «لذلك توخى الحذر، لأنك لا تعرف اليوم أو الساعة التي يأتي فيها ابن الانسان». لقد جاءوا لإحياء ذكرى أول شهداء فرنسا الدينيين في الجزائر، الفيكونت شارل دو فوكو، الجندي الذي تحوّل إلى راهب واغتاله إسلامي في تمانراست عام ١٩١٦ والذي شكّل مقتله سابقة للرهبان والراهبات الذين ما زالوا يرفضون مغادرة الجزائر. في أوائل عام ١٩٩٦، قُتل أسقف وهران المونسينيور بيار كلافري نتيجة انفجار قنبلة في اليوم الذي قابل فيه وزير الخارجية الفرنسي هرفيه دي شاريت قال الأسقف تيسيه: «انفجرت القنبلة في الشارع وقد ارتطم الأسقف بباب الكنيسة ووجِد دماغه على أرض الكنيسة. كان عملاً أحمق غبيّاً وغير واعٍ».

كان زائري شابّاً، أنيقاً، يرتدي سترة جلدية ثمينة فوق كتفيه. وكنت قد تلقّيت اتصالاً من لندن، لكن لم أتوقّع أبداً أن يأتي ممثّل للقوّة الفدائية الإسلامية في الجزائر إلى فندقي في مدينة الجزائر المحروس من قِبل قوّات الأمن والشرطة المسلّحة في البهو الأمامي وقوّات الميليشيا عند المداخل. قال الشاب بينما جلسنا على شرفة غرفتي وأشجار النخيل تتمايل مع الريح خلفنا: «تستطيع مناداتي أبو محمّد». اعترف صراحة بعضويّته في الجناح العسكري للجبهة الإسلامية للإنقاذ وأعلن بشكل مطلق أنه بعد شهور من الحرب المدمّرة، اتّحد جيش الإنقاذ الإسلامي التابع له مع الجماعات الإسلامية المسلّحة ـ قال إنه كان المفاوض في الاجتماع الثالث في شليف أوائل تشرين الأول/أكتوبر حيث تم اتخاذ القرار النهائي لدمج القيادتين.

لكنّه زعم أن الجماعات المسلّحة مخترقة بعمق من قِبل أجهزة المخابرات العسكرية. وادّعى أيضاً أن أسوأ الفظائع في الحرب حصلت على يد عملاء الحكومة. كانت كلماته فظّة ومطلقة. وعندما سألته لماذا تذبح الجماعات الإسلامية أعداءها. أجاب:

«إنها الوسيلة الفُضلى للتقرّب إلى الله، الوسيلة الفُضلى لقتل الطاغوت (عدوّ الله). إذا كان لديك أحد قادر على قتل أطفال بعمر خمس سنوات ماذا تفعل به؟ أتقتله بالرصاص؟ الرصاص عزيز بالنسبة إلينا ـ فهو غالي الثمن. خذ على سبيل المثال طلقة كلاشينكوف عيار ٩ ملم، إنها كما لو أنك ترميها بعيداً. أي إنسان يحاول تدمير الإسلام، تدمير السيّد الخيّر، ويتجاهل اسم الله هو شرّير».

هناك نوع آخر من التحوّلات في العمل. يعتقد أبو محمّد أن الشرطة وعملاء الحكومة هم قتلة الأطفال. ويعتقد رجال الشرطة والحكومة أن الجماعات الإسلامية المسلّحة هم قتلة الأطفال. أو كما يقولون. لذلك مَن يقتل الأطفال؟ في وقت ما، أعطاني أبو محمد كرّاساً إسلاميّاً وسلسلة مفاتيح مكتوباً على قبضتها خالد. وأضاف أن خالد هو اسم قائده العسكري المحلّي أو أميره. وأشار مراراً إلى الحاجة إلى القضاء بعون الله على الحكم الجزائري بُغية إقامة دولة إسلامية شرعية وبرّر ملاحظاته مستشهداً بالقرآن بأسلوب حماسي. قال: «لقد فقدت مئتي صديق لكنّ هذا غير مهمّ لأنني أعلم أنني سألقاهم مجدّداً يوماً ما. لأنه عوضاً عن المئتين الذين قتلوا، أصبح هناك ٦٠٠ أو ٧٠٠ آخرون مجاهدين». وصف لي كيف جرى اعتقاله في كانون الثاني/يناير ١٩٩٦ ـ نحن الآن في شهر كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها ـ وتعذيبه من قِبل رجال الأمن بالكهرباء:

«أحمد الله أنني لم أُدل بأيّ معلومات. فحالما تدلي بمعلومة، يُقضى عليك لأنهم سيعذّبونك من أجل معلومات أخرى حتى تموت... كانت هناك عدّة نساء عملن لصالح الإسلاميين... في بعض الأحيان كنّ يتصلن بالمجاهدين ويُبلغن عن أزواجهنّ بأنهم يعملون لصالح الدولة. حصل ذلك معي، جاءت امرأة إليّ منذ سنة وأبلغت عن زوجها وقالت إنه يعمل لصالح الأمن العسكري. كان علينا التحقّق للحصول على دليل. قتلته الجماعات الإسلامية المسلّحة ـ الجماعات الإسلامية المسلّحة الحقيقية التي لم تتعرّض للاختراق. قامت قوات الأمن العسكري باعتقال نساء وتعذيبهنّ واغتصابهنّ ثم إلقائهنّ في السجن. أتعلم ماذا يطلبنَ منا؟ يطلبنَ منّا إلقاء قنبلة في زنازينهنّ. أتعرف لماذا؟ لأنهنّ عانين كثيراً وهنّ يعشنَ كابوساً. كلهنّ حوامل».

كانت هناك عدّة تقارير مؤكّدة جمعتها صحيفة الإندبندنت وكذلك مجموعات حقوق الإنسان حول اغتصاب المعتقلات في الجزائر.

كان أبو محمد متشدّداً أيضاً في وجهة نظره حيال الدول العربية الأخرى. «المسلمون منتشرون في كل مكان لكنّ جميع رؤسائهم أشرار... كل المسلمين في حالة حرب مع الدولة ـ في مصر، في تونس، في ليبيا. يقولون إن السودان دولة إسلامية لكن عندهم أخطاء هناك. إيران دولة شيعية ـ ليسوا مسلمين حقيقيين». لم يكن أبو محمد على علم بأنّ قنبلة انفجرت للتوّ في ميترو باريس، لكنّ رده كان فورياً: «هذا مشروع، ففرنسا هي السبب لكلّ ما يجري في الجزائر. لقد ساعدت الحكم الجزائري ـ لماذا اختاروا فرنسا بالتحديد بحسب اعتقادك؟ «عليك أن تسأل نفسك هذا السؤال».

بدا أبو محمّد كفتى لمجلّة بلايبوي أكثر منه إسلاميّاً بسترته الجلدية وذقنه المحلوقة وعطر الحلاقة الذي تفوح رائحته بقوة. لذلك بدت كل ملاحظاته حول الاستشهاد أكثر غرابة: «وعدنا القرآن بالنصر أو الشهادة. ويقال إن الشهداء الحقيقيين لا ينزفون الكثير من الدم. عندما يموتون، تفوح منهم رائحة المسك. هذا صحيح. عندما يموت شهيد، تلقاه في الجنّة ٧٢ من الحُور العِين».

لكنّني بدأت أتساءل إذا لم تكن كلّ النساء الجميلات قد قُتلن وإذا لم يكن بعض هؤلاء النسوة الاثنتين والسبعين يحملن ندوباً دامية حول أعناقهنّ. عام ١٩٩٧، تميّز شهر رمضان المبارك بمجموعة من حمّامات الدم التي تتضمّن الذبح وقطع الرأس والسيّارات المفخّخة وخنق الأطفال أيضاً. قُتل حوالي ثلاث مئة شخص. واعترف وزير الداخلية بمقتل ٨٠ ألف جزائري حتى الآن. وفي بن عاشور على بعد ٥٠ كلم من الجزائر العاصمة، جرى بقر عائلات بكاملها انتقاماً لدعم القرويين الميليشيا المحلّية الموالية للحكومة. وكان من بين القتلى طفل عمره ستّ سنوات، وطالبتان بعمر العاشرة وامرأة حامل أُخرجت أحشاؤها قبل قطع رأسها. وفي حروش تراب، ذُبح عشرة مدنيين بينهم سبعة نساء وصبي في العاشرة من العمر. كانت إحداهنّ في الخامسة والعشرين من العمر وقد قُطع رأسها وعُلقت من شعرها على حربة ـ تُركت إلى جانب الطريق بحيث ترحّب بزوجها عندما يعود من دورية الميليشيا. وكتب القتلة على جدران قرية: «حرب بعد حرب، دمار بعد دمار. كوكا سيعود». كوكا هو الاسم العسكري للقائد المحلّي للجماعات الإسلامية المسلّحة ـ اسمه الحقيقي هليلة كوك ـ وقد أردته قوّات الميليشيا «الحرس المشترك» قبل عام.

أبلغتنا شابّة نعرفها برعب أن صديقتها كانت في باص متوجّهة إلى عملها عندما مرّ الباص بشارع رأت فيه رأس شرطي معلّقاً على عمود في أعلى بوّابة. ووصف مواطن آخر في مدينة الجزائر آلة جديدة للجماعات الإسلامية المسلّحة هي نموذج بدائي للمِقصلة، بديل مُرتجَل للمقصلة متصل بشفرة جديدة تُستخدم ضدّ الضحايا بعد سوقهم من بيوتهم. واستناداً إلى السكّان توضع المقصلة على شاحنة. ويؤخذ المحكوم عليهم بالإعدام من قِبل الجماعات الإسلامية المسلّحة من بيوتهم، وتملأ أفواههم بالجرائد وتقطع رؤوسهم في الشاحنة.

بن طلحة وريس: قريتان أخريان وبائستان في الريف. هذه المرّة تُميّز الساديّة ومستوى الهجمات بُعداً جديداً للوحشية، شيئاً لم نشهده من قبل، قرى بكاملها قُضي عليها بالسكّين، وذُبح سكّانها بشكل جماعي مثل الحيوانات، ونُزعت أحشاؤهم، وقطّعوا إرباً. عندما تم اصطحابنا إلى هاتين القريتيْن الصغيرتيْن ـ رأيناهما على النمط البوسني، بلدتي أشباح جدرانهما مهدّمة وأسقفهما ـ حتى رجال الشرطة والجنود خيّم عليهم الصمت. من الخجل أو الذنب؟

من على سطح منزل عليّ في ريس، أستطيع رؤية ثكنات الجيش المحلّي على بعد كيلومتر عبر الحقول، مطليّة بالأزرق يرفرف على سطحها العلم الجزائري الأبيض والأخضر مبتهجاً. قال عليّ إنه لا يعرف لماذا لم يتدخّل الجنود عندما بدأ القتلة ـ الذين يرتدون جلابيب وقبّعات أفغانية ـ بذبح عائلته. على جانب رقبة عليّ نُدبة

حمراء وحشية عميقة في الجلد مُقطّبة بخشونة ـ لأنهم حاولوا جزّ رقبة عليّ أيضاً. قال ورأسه منحنٍ إلى اليمين: «كان هناك أكثر من مئة رجل جاؤوا إلى قريتنا من ثلاث اتجاهات وظلّوا هنا ثلاث ساعات على الأقلّ. حدث إطلاق نار وصراخ. لم يساعدنا أحد». حوله، في الدور الرخيصة المبنيّة بالطوب وفي مزارع الدجاج والمرائب المحروقة ما زالت هناك طبقة كثيفة من الدم القديم... في قرية واحدة: ذُبح ٣٤٩ جزائرياً ـ معظمهم من النساء والأطفال ـ في وقت متأخر من ليل ٢٩ آب/أغسطس ١٩٩٧. وعندما سألت عليّ أن يَصِف لي تلك الليلة، حدّق نحوي بصمت مشيراً بيده اليسرى الملفوفة بالضمادات التي تظهر ندبة حمراء أخرى مخيفة عند الرسغ. وهمس جار له في أذني: «ذبحوا زوجته أمامه». وكان هذا ما دفع عليّ إلى الكلام:

«كانت معظم عائلتي هنا. زوجتي وأولادي الثلاثة وشقيقي وزوجته وأبناؤه وابنته وعدّة من أبناء العمّ. اختبأنا في المنزل لكنّهم ألقوا قنابل عبر النوافذ واقتحموا الباب بالبلطات».

مال عليّ واتكأ على حائط الشرفة بينما كان يقول هذه الكلمات.

تجوّلت داخل المنزل المحترق ووجدت قرب نبات البغونيا والعنب على الشرفة منفضة قديمة عليها كلمات: «لا إله إلا الله محمّد رسول الله». إلى جانبها، بقعة داكنة من الدم على الحائط كما لو كان مطلياً تحدّياً لكلّ الأديان. تنهّد عليّ. وكان على وشك الغوص عميقاً في بحر من الألم:

«كان طفلي محمّد في الخامسة من عمره ذبحوه وألقوا به من النافذة العليا. ثم ذبحوا ابني الأكبر ربيع ثم شقيقي لأنه شاهدهم وهم يخطفون زوجته وحاول منعهم. وأخذوا بعض الفتيات الأخريات».

ثم رفع عليّ يده وقال: «دم». هناك المزيد من الدم في الطابق الأرضي وبُقع بنّية في غرفة الجلوس حيث حدثت جلجلة عليّ الأخيرة: «قطعوا عنقي وأحسست بالسكّين داخله لكنني حاولت حماية نفسي فجرحني الرجل في ذراعي. كانت زوجتي شجاعة. حاولت مساعدتي ومقاومتهم لإنقاذي، لذلك اقتادوها إلى عتبة الباب حيث كنت ممدّداً وذبحوها أمامي. كان هناك طفل آخر، حاولت الأمّ إخفاءه خلف بعض الحجارة لكنهم ذبحوها ثم ذبحوا الطفل فوق الحجارة. تعرّفت على الرجل الذي استخدم السكّين ضدّي. رأيته في شوارع قريتي».

هناك أوقات في هذا المكان المليء بالفظائع يصاب فيها المرء بالعمى من هول ما حدث أمام الأسئلة الواضحة. لماذا لم يتوغّل الجيش في البساتين؟ لقد سمعوا الصرخات تنطلق من الأبنية على الطريق الرئيسي. لقد رأوا النيران على الأسطح. لقد سمعوا انفجار القنابل. ومن هم أولئك المدعوون مسلمين، الذين يقومون بهذه الأفعال من الذبح غير المبرّر؟ لماذا يقتل الإسلاميون القرويين أنفسهم الذين اقترعوا للجبهة الإسلامية للإنقاذ بصدق والذين عارضوا تاريخياً الحكم الجزائري؟.

في قرية بن طلحة المجاورة ـ حوالي ٢٤٠ قتيلاً ـ كانت لافتات الجبهة الإسلامية للإنقاذ لا تزال موجودة

على الجدران وعلى أعمدة الإضاءة. وهنا أيضاً، أبلغني رجل عمره ٥٤ عاماً عرّف نفسه باسم سعيد فقط، أن رجال القرية هربوا لتحذير الجيش، تاركين نساءهم وأولادهم خلفهم. كلّما مررت بهذه الشوارع الحزينة تذكرت ما حدث هناك. قبل سنتين، اصطحبنى المقدّم محمد من الحرس الوطني إلى هذه القرى. في بن طلحة، أوقفت قوّات الشرطة التابعة له رجلاً حاول الفرار ـ قرب قناة المجارير التي رأيتها عندما تجوّلت في القرية. كان الرجل خائفاً من تصفيته فقد ساند كل الناس الإسلاميين. بعد ذلك قال لي المقدّم في سيّارته اللاندكروزر إن سكّان القرية كانوا يساندون الإرهابيين .كانت منطقة إرهابية. إذن، لماذا يريد الإرهابيون الآن قتل كل هؤلاء الناس الذين ساندوهم بحسب زعمه؟ كانت بن طلحة، وهي قرية ليست بعيدة عن السياسة، معقلاً للجبهة الإسلامية للإنقاذ.

أُحرقت فيها البيوت الكبيرة ـ من البيوت المتداعية الفقيرة إلى البيوت الأوسع التي تحتاج إلى الحماية عند وصول المسلّحين وحاملي الفؤوس ـ وغرقت باحتها الخلفية بالدماء. اعترف سعيد بأسى: «هرب الرجال ـ كانت غلطة. لقد عرفوا ما سيحصل وحاول بعضهم إلقاء الحجارة والطوب من سطوح المنازل. كان لدى أحد رجالنا بندقية وقتل أحد الوحوش. وصادف أن الرجل القتيل من القرية نفسها. مرّة أخرى استمرّ الصراخ طويلاً خلال الليل. ومرّة أخرى وصل الجنود من الثكنات المحلّية بعد فرار القتلة. وتذكّر سعيد أن الإسلاميين كانوا يشتمون وهم يندفعون في الشارع غير المرصوف مرتدين الجلابيب والعمامات. تابعوا الصراخ «سوف تموتون وتذهبون إلى جهنّم ـ سنقتلكم وسنذهب إلى الجنّة».

هرب معظم سكّان بن طلحة بعد المجزرة. والآن عاد البعض عند الصباح. وجدت اثنين منهم يحاولان إصلاح داخل بيتهم المحروق، ويقومان بتثبيت الأضواء نصف المحترقة في الجدران، متجاهلين أسئلتي، بينما كانت مجموعة من الأطفال ـ الذين اختبأوا على السطح خلال المجزرة ـ تراقبهما بصمت. ورفض رجل آخر إعطاء اسم زوجته المقتولة. قال وهو يبكي: «اسمها ملكي».

يثير الناجون البائسون من العائلات مشاعر تتعدّى الشفقة. إنهم خائفون من المستقبل كما كانوا خائفين من الماضي. في المطبخ، أصبحت الأطباق المعدنية صعبة التمييز، الصحون محطمة والأدوات ملقاة على الأرض. في أحد البيوت، أُلقيت قنبلة على قفص عصافير محوّلة قاطنيه إلى كتلة من الريش المحروق في الغرفة. أي نوع من الرجال يلقي قنبلة على قفص عصافير؟ وتظهر كومة من الكتب المدرسية في مرآب قرب ثلاث برك كبيرة من الدم المتجمد كيف أنّ صاحبها الراحل حاول بجدّية ـ بالرغم من الفقر المدقع في هذه القرية ـ تحسين وضع المجموعة.

تحمل الصفحة الأولى من دفتر تمارين الصبي اسمه: قريشي لقد مارس الصبي تصريف الأسماء وكتب بامتثال سيرة عائلته الميتة. «عبدالقادر هو والدي ويعمل كهربائي. زهور اسم والدتي وهي خيّاطة. حميد هو عمّي ويعمل شرطياً. سليمة عمّتي وتعمل ممرّضة». وتساءلت ما إذا كان عمل حميد قد أدّى إلى موت العائلة. لكن الناجين نفوا وجود أيّ تمييز. لقد عوملت كل الضحايا بشكل متساوٍ: قتلوا جميعاً. قال أحدهم إنه سمع المسلّحين الذين دخلوا القرية يصرخون أن أعداءهم «يهود».

قال رجل طلب مني عدم ذكر اسمه أنه شاهد العائلات الأكثر فقراً في بن طلحة تسعى للاختباء في أكبر منزل في شارع هجيلالي «لم يكن الأمر جيّداً بالنسبة إليهم. وقفت هنا خلف النافذة وكنت أستطيع سماع الناس الفقراء يصرخون ويموتون. وعندما نظرت من نافذتي استطعت رؤيتهم يذبحون النساء فوق السطح». قُتل سبعة عشر شخصاً على الأقلّ في ذلك المنزل. في إحدى زواياه، اكتشفت كتاباً عن الفنّ الأوروبي ـ صورة ملوّنة لبِيّتا Pieta مايكل أنجلو ملقاة على الأرض ـ وآخر يتحدّث عن مزايا شهداء الحرب ضدّ الفرنسيين، وبدت فيه وجوههم مشوّهة بالطلقات النارية والشظايا. إلى أيّ حدّ تغيّرت معاناة الجزائر؟ بعد أيام، أظهرت صورة لامرأة مضطربة من بن طلحة أن عائلتها قُتلت، وستصبح هذه صورة المأساة. وسوف يعطون الصورة اسم «بِيتا» Pieta.

لذلك أتساءل: مَن قتل كل هؤلاء الأشخاص الفقراء؟ يوم ٢٠ آب/أغسطس، أي قبل يومين من مجزرة ريس، أعلن الرئيس زروال «أن الإرهاب يعيش ساعاته الأخيرة في بلادنا». وأن الأفعال العنيفة الآن تعتبر ما «تبقّى من الإرهاب». كانت بن طلحة القرية التي قام بحراستها بوّاب الفندق الجزائري في باريس، الفندق الذي طُلب فيه من والدي إعدام الجندي الأسترالي الذي قتل رجل الشرطة العسكرية البريطاني عام ١٩١٩.. لاحظ ذلك الجزائري أيضاً كيف امتنع الجيش عن دخول القرى حتى رحيل القتلة. استخدم عبارة سلطة ـ السلطات ـ واختار عندها قول المزيد.

عرفنا جميعاً أن ذلك حصل في الجزائر. لأكثر من أربع سنوات، أخبرنا المعتقلون المحرّرون عن التعذيب بالماء والضرب، والخنق والاختناق بالقماش وسحب الأظفار من قِبل المحققين، واغتصاب النساء بالجملة من قِبل رجال الشرطة، وعمليات الإعدام السرّية في مراكز الشرطة. كان الدليل مقنعاً بشكل كافٍ حتى عندما صدر عن الأعداء المعلنين للنظام الجزائري أو أعضاء التنظيمات المسلّحة المعارضة له. لكن في منتصف عام ١٩٩٧، وحتى عندما كانت مجازر القرى تحصل ـ والمتهمة بها طبعاً الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعات الإسلامية المسلّحة، الإرهابيين، البرابرة ـ جُمعت المئات من الصفحات التي تقدّم البراهين، من قِبل المحامين الجزائريين وناشطي حقوق الإنسان، وتُثبت بشكل مطلق أن قوّات الأمن الجزائرية مسؤولة عن عمليات الاختفاء، والتعذيب وجرائم القتل ضدّ الإنسانية. والأمر الأكثر حساسية أنني وجدت، بعد أسابيع من الاتصالات، عناصر من قوّات الأمن الجزائرية الذين طلبوا اللجوء السياسي في بريطانيا وكانوا مستعدّين الآن للحديث عن الفظائع التي عايشوها.

سافرت إلى لندن للحديث مع أندي مارشال، محرّر الأخبار الدولية الجديد في صحيفة الإندبندنت. وأحضرت معي من الجزائر صوراً لنساء اختفَين ـ علمت ذلك من خلال مقابلاتي مع ضبّاط الأمن الجزائريين ـ أعطيته إياها. قال: «أصدّق ذلك، يبقى أن نطلب من رئيس التحرير نشرها في الصفحة الأولى». أعلم ما يعني هذا. باتت الفرصة ضئيلة الآن في الحصول على سِمات الدخول إلى الجزائر الصعبة المنال. فلا ينفع أي إنصاف من قبلنا في جعل سُمعتي نظيفة لدى السلطة بعد التشهير بها بتهمة الشرّ الإنساني. بدأ تقريري في مدينة الجزائر.

قدّر الأستاذ محمّد طاهري، وهو رجل قصير ذو شارب صغير، عدد المفقودين بحوالي ١٢ ألفاً. ولكن في

اللحظة التي بدأت فيها مناقشة هذه الشخصيّة المرعبة، دخلت شابّة ترتدي حجاباً أبيض بهدوء من الباب وهمست في أذن الأستاذ طاهري. أنصت المحامي البالغ من العمر ٤٦ سنة بدون انفعال محدّقاً إلى الأرض. ثمّة من رجال جاؤوا إلى مكتبه. نظرت إليهم لفترة قصيرة؛ كانوا رجالاً طوال القامة ضعفاء يحدّقون عبر الباب الأمامي وتُسمع من خلفهم ضوضاء ضاحية القبّة الجزائرية. وكانت ملابس المحكمة تتدلّى على الحائط خلف الأستاذ طاهري، سوداء وأطرافها من الفرو الأبيض، الرمز الخاصّ للقانون النابوليوني الذي حكم الجزائر في وقت ما. لكن السلطة بعيدة الآن بضعة أمتار عنه.

تمتم طاهري: «تقول إن الرجال جاؤوا من مركز الشرطة ويريدون رؤيتي». كان على مكتبه ملفّ كبير يحتوي آلاف الصور، لرجال ونساء، أحياء وأموات جميعهم اختفوا بواسطة الشرطة الجزائرية ـ من قِبل هؤلاء الرجال أنفسهم الواقفين الآن عند الباب. أخرج طاهري صورتين ملوّنتين ليعطيني إيّاهما، إحداهما لامرأة شابّة ترتدي كنزة سوداء عليها مِشبك بشكل قلب، ولها غرّة من الشعر في مقدّمة رأسها، والأخرى لامرأة جالسة في استديو مصوّر ترتدي لباساً أحمر طويلاً وقصّة شعرها أقصر لكن مع الوجه الناعم نفسه.

نعيمة ونجوى بوغابة شقيقتان تبلغان من العمر، ٢٣ و٢٩ سنة، اعتقلتهما الشرطة الجزائرية يوم ١٢ نيسان/أبريل ١٩٩٧. كانتا موظفتين في المحكمة، وإحداهما تعمل عند قاض في مدينة الجزائر يحقّق لسوء الحظ في لائحة من الإسلاميين المشتبه بهم وضعتها الشرطة السويسرية ـ وباعها شرطي سويسري للاستخبارات الجزائرية. جرى اختطاف المرأتين من قِبل عملاء للسلطة خارج المحكمة. ويعتقد أنهما على قيد الحياة. وأخرج طاهري صورة أخرى من ملفّه لفتاة جميلة وجهها مشرق، وشعرها المنفوش مرفوع بربطة قرنفلية اللون، وهي تبتسم للمصوّر. إنها الجزائرية أمينة بوسليمان المتهمة بالتقاط صور للمقابر والأبنية المفجّرة، ربّما لوجود دليل لديها على العنف الرسمي ضدّ المدنيين. كان عمرها ٢٨ سنة عندما اعتقلتها الشرطة يوم ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤ ولم تُشاهد بعدها. وقد نصح أصدقاء لوالدتها لديهم اتصالات في السجون بأن لا تأمل رؤية ابنتها مجدّداً. وقيل لها إن أمينة عُذّبت حتى الموت.

في كل مرّة يعرض الطاهري صورة، ألمح مئات من الصور لرجال دمثين متوسّطي العمر من الإسلاميين الملتحين المشتبه بهم ولفتيات ورجال مسنّين . والمفقود الأكبر سنّاً هو أحمد عبود، عمره ٧٤ عاماً وقد جرى اعتقاله يوم ٢٣ شباط/فبراير ١٩٩٧. والمفقود الأصغر هو إبراهيم مغراوي يبلغ الخامسة عشرة من العمر. وتظهر صورة موسى مدني مُقعداً في كرسي متحرّك، جرى اعتقاله يوم ٣ أيار/مايو ١٩٩٧، ولا أحد يعلم السبب. وهذه سعيدة خيروي، شابّة جذابة ترتدي لباساً أحمر وشعرها شبيه بشعر الأميرة ديانا وهي ـ أو كانت ـ شقيقة عضو مطلوب من الجماعة الإسلامية المسلّحة، وصورتها أصغر من الصور الأخرى. اختفت بواسطة عملاء السلطة في ٧ أيار/مايو ١٩٩٧. وكل ما هو معروف عن مصيرها أن الشرطة كسرت عظام إحدى قدميها أثناء التحقيق معها .

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧ شعر محمّد طاهري بالخوف من أن يضاف إلى اللائحة. فقد دعا إلى اجتماع

لأمّهات المفقودين أمام مركز البريد المركزي في مدينة الجزائر، قامت الشرطة بإفشاله. قال لنا بصوت خافت، قلقاً من استمرار وجود رجال الشرطة عند الباب: «نصحوني بعدم السير وراء المحتجّين، وأبلغوني بالذهاب إلى شارع فرعي حيث كان رجال شرطة فقط وخفت من الاختطاف». لذلك بدأت بالصراخ: «أنا محامٍ أدافع عن حقوق الإنسان ـ لا يحقّ لكم إعاقة تحرّكاتي». أخرجت بطاقتي المهنية لكن كان هناك ضابط شرطة كبير يدفعني لمنعي من المغادرة. «حاصرني رجال الشرطة. قلت: «أنا محام» لكنّ الضابط قال: «لست محامياً ـ أنت خائن لأنك أجريت اتصالاً مع أجانب ومع تنظيمات ما يُسمّى بحقوق الإنسان» وعندما قلت إنني أرفض الذهاب أمر الضابط باعتقالي.

أخذوني إلى مكتب في مركز شرطة كاڤينياك حيث أعرف أن أشخاصاً ماتوا تحت التعذيب. قالوا لي: أنت مَن أعطى معلومات لمنظمة العفو الدولية والمنظمات الأخرى. أنت مَن نظم التظاهرات التي سبّبت الاضطراب في هذا البلد». وقبل إطلاق سراحه، اقتيد طاهري إلى مركز شرطة حي عمروش حيث أبلغ: «لديك اتصالات مع صحفيين».

إذا كانت أدلّة طاهري مُدانة، فقد وفّرت الاجتماعات التي رتّبتها مع رجال الشرطة الجزائريين الفارّين وضبّاط الجيش في لندن أدلّة أكثر إقناعاً حول تورّط حكومتهم في الجرائم ضدّ الإنسانية. كانت كلّ مقابلاتي باستثناء واحدة مع هؤلاء الرجال الشجعان، المرعوبين ـ وامرأة واحدة ـ تجري على ساحة سياسية مختلفة، ليس في ضاحية من مدينة الجزائر بل في قاعة اجتماعات في فندق شيراتون بلغرافيا في وسط لندن، في غرفة غطّتها سحب دخان السجائر التي كان يدخّنها الشهود المتوحشون على الوحشية.

كانت داليا معتادة على مشاهدة الدم. عندما تصفّ السجناء نصف العُراة والمقيّدين إلى سلالم في مرآب مركز شرطة كاڤينياك فإنها تفعل ذلك بلامبالاة غريبة. ولاحقاً، بعد أن أمضيت أكثر من ساعة أستمع إلى شهادتها حول الوحشية والموت، التفتت نحوي بخضوع مرعب. وقالت: «لقد خضعت للعلاج على يد طبيب نفساني لأنني تعرّضت لأحلام سيّئة. حبّي الكبير اليوم يتمثل بالذهاب لمشاهدة أفلام الرعب ـ إنه الشيء الوحيد الذي يحظى باهتمامي. أرغب في رؤية الدم».

إنها ملاحظة غير عادية تصدر عن امرأة جذّابة في الثلاثين من العمر، وشعرها أسود كثيف مضفور برباط، بينما تداعب طفل صديقة جزائرية على رُكبتيها. انضمّت داليا إلى الشرطة كتحرّية في الوحدة الخاصّة الجزائرية عام ١٩٨٥ ـ «كنت أرغب أن أصبح شرطية لخدمة شعبي منذ سنّ الثانية عشرة»، وليس لأنّ والدها كان شرطياً. لكن بدأت الأمور تزداد سوءاً بالنسبة إليها بعد إلغاء الانتخابات:

«جرى نقلي إلى مركز شرطة كاڤينياك قرب مكتب البريد وكرهت ما كان يحدث هناك، وما كان يحدث للشرطة. كانوا يعذّبون الناس ـ رأيت ذلك. شاهدت شباباً أبرياء يُعذّبون مثل الحيوانات. أجل،

شاهدت شخصياً عمليات التعذيب. ماذا كان باستطاعتي أن أعمل؟ كانوا يعدمون الناس الساعة الحادية عشرة ليلاً، يعدمون أشخاصاً لم يفعلوا شيئاً. كان هؤلاء الناس قد تعرّضوا لوشاية من آخرين لا يتّفقون معهم. بمجرّد أن يقول الناس «هذا إرهابي» يتعرّض الرجل للإعدام. كانوا يقيّدون شبّاناً بالحبال على سلالم، وكانوا دائماً بدون قمصان وأحياناً عُراة. كانوا يغطّون وجوههم بالقماش ثم يصبّون عليها ماء مالحاً. وكان هناك قِمع مزوّد بقسطل يدخلونه في جوف السجين ثم يصبّون الماء حتى تنتفخ بطنه. وعندما أتذكر ذلك، أفكّر كم من المؤلم رؤية إنسان بهذه الحالة ـ من الأفضل قتل الرجال عوضاً عن رؤيتهم يتعذبون هكذا».

تتحدّث داليا عن التعذيب مثل الإنسان الآليّ بصوت رتيب. قالت إنها رأت خلال شهور حوالَي ألف رجل يخضعون للتعذيب بمعدّل ١٢ رجلاً يومياً، وكان محقّقو الشرطة يبدأون العمل الساعة العاشرة صباحاً ويعملون بالتناوب حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً. لكنها بكت عندما وصفت ما رأته:

«تقضي عمليات التعذيب بأن على السجين أن يعترف بقتل هذا وذاك، ويجبرون السجناء على توقيع اعتراف وعيونهم معصوبة ـ لا يحقّ لهم قراءة ما وقّعوا عليه. كان هناك سجناء يبكون ويقولون: «لم أفعل شيئاً ـ يحقّ لي استدعاء محامٍ وطبيب. وعندما يتفوّهون بذلك يتلقّون ضربة على الفم. والذين ماتوا نتيجة التعذيب بالماء كانت بطونهم منتفخة جدّاً. وبينما يحدث ذلك، يقوم المعذّبون أحياناً بوضع عصا مِكنسة في مؤخّراتهم. وكانوا يستمتعون بفعل ذلك. كان بعض السجناء ملتحين والبعض الآخر حليق الذقن. كانوا جميعاً فقراء. وكان كبار الضبّاط يعطون الأوامر بالتعذيب ـ أعتقد أنها كانت تُعطى بالهاتف. لكنّهم لم يكونوا يستخدمون عبارة تعذيب ـ كانوا يستخدمون جملة (nakdoulou eslah) ـ الاهتمام بالضيف. كان السجناء يبكون ويصرخون: «واللّهِ لم أفعل شيئاً» أو «نحن جميعاً مسلمون». كانوا يصرخون ويبكون كثيراً.

رأيت رجلين يموتان هكذا على السلّم. كانت الجثتان معلّقتين على السلّم. كانا ميّتين وكان المعذّب يقول: «خذوهما إلى المستشفى وقولوا إنهما ماتا في معركة». كانوا يفعلون الشيء نفسه بالذين يعدمونهم عند الساعة الحادية عشرة ليلاً ـ كان يتم ذلك بعد فرض منع التجوّل عندما يكون باستطاعة الشرطة والدرك التجوّل وحدهم. وكان عليّ كتابة شهادات الوفاة بحيث يمكن أخذ الجثث من المستشفيات. كان عليّ التوقيع أنها جثّة وجِدت في الغابة بعد تحلّلها ـ كان الطقس حارّاً حينها». قالت داليا إنها حاولت الاحتجاج لدى ضابط أعلى أسمته حميد:

قلت له: «يجب أن لا تقوم بهذه الأفعال لأننا كلّنا مسلمون ـ يجب أن يكون هناك دليل ضدّ هؤلاء الناس قبل أن تقتلهم» قال لي: «يا ابنتي، أنت لا تصلحين للعمل في سلك الشرطة ـ إذا اشتبهت بأحد عليك قتله. عندما تقتلين الناس تتمّ ترقيتك». كان يمكن لأي شرطي ضرب السجناء بعقب رشاشه. ويصبح بعض السجناء مجانين كلّياً نتيجة التعذيب. كان كلّ من يُؤتى به إلى كافينياك يخضع للتعذيب ـ شهد حوالي ٧٠ في المئة من رجال الشرطة هناك كل ذلك، وشاركوا فيه. ومع أن التعذيب كان وظيفة

الشرطة القضائية فقد انضمّ إليهم آخرون. كان عدد السجناء بين عشرين وثلاثين في الزنزانة وكان يتم إحضارهم واحداً تلو الآخر إلى السلّم حيث يتعرّضون للركل باستمرار. هذا غير إنساني».

واستناداً إلى داليا كانوا يأخذون النساء السجينات إلى قسم خاصّ في مركز شرطة شاتونوف يُدعى «المنظمة الوطنية لمكافحة الجريمة». حيث تمنع الشرطة العسكرية الجزائرية الجميع من الدخول باستثناء الذين لديهم تصاريح. «يجب أن تكون ضابطاً كبيراً حتى تدخل إلى هناك بسبب الطريقة التي يعاملون بها النساء. إنهم يقتلون هناك أيضاً. . . .» كانت مأساة داليا شخصية. «لا أستطيع النوم في الظلام لأنني أخاف. ليس ذنبي أن يُقتل خطيبي خلال شهر رمضان عام ١٩٩٣. كان الذين قتلوه متنكّرين بلباس رجال الشرطة ـ وقتلوه لكونه شرطياً سألت: «مَن هم؟» وأجابت: «هذا هو السؤال الكبير». لكن كان التعذيب هو الذي حطّم حياة داليا ـ والذي يثبت ارتدادها:

«كان هناك مجموعة من المسنّين تعرّضوا للتعذيب. لم أستطع تحمّل رؤية رجل عمره ٥٥ عاماً كانت ذراعه مصابة بالغنغرينا ورائحته كريهة. لم أستطع تحمّل ذلك فذهبت واشتريت له بعض البنسلين ووضعته على ذراعه لأنني اعتقدت أن ذلك يساعده. كان في الزنزانة ستّة أشخاص آخرون خضعوا للتعذيب ـ وكانت الرائحة هناك تشبه رائحة الموت. لكن رآني شرطي آخر وطلب منه عدم قبول أيّ شيء. أترى، كان ممنوعاً علينا مخاطبة السجناء ـ كان يحقّ لنا ضربهم فحسب. لكنّ الشرطي كتب تقريراً إلى المفتّش الذي استدعاني وقال: «قد تذهبين إلى السجن بجرم مساعدة الإرهابيين. لقد تمّ إطلاق سراح الرجل الذي ساعدته فيما بعد مما يدلّ على أنه كان بريئاً».

كان المسلّحون الإسلاميون ـ أربعة شبّان جاؤوا إلى منزل والدتها ـ يستهدفون داليا حينها، وقد طلبوا منها أن تسلّم سلاحها العسكري خلال خمسة عشر يوماً. وعندما طلبت حماية الشرطة رُفِض طلبها. فكانت تنام في مراكز الشرطة ليلاً. ثم تسلّلت من منزلها ودفعت رشوة للذهاب إلى أوروبا على متن سفينة هرباً من أجهزة الأمن الجزائرية ومن رجال العصابات الإسلاميين.

كان رضا يستريح طويلاً خلال حديثه. كان آمناً في لندن تأخذه ذاكرة الجندي إلى طريق تبعد ٣٠ كلم عن مدينة الجزائر. روى أنه كان في الخدمة العسكرية عضواً في وحدة خاصّة خارج بليدا:

«أعطونا لقاحاً في ظهورنا ثم طلبوا منا تلقيح بعضنا البعض قبل الخروج بمهمّات. كان اللقاح سائلاً أبيض وكان يجعلنا نشعر مثل رامبو. وعند نقطة التفتيش كنّا نوقف أي شخص نشتبه بأنه إرهابي. إذا كان يشبه إرهابياً، أو كانت له لحية طويلة يُقتل. مرّ رجل ملتح قرب نقطة الدورية، فطلبت منه التوقّف. أجاب: «لماذا عليّ التوقف؟». كان الرجل فظّاً لذلك قتلته. حدث ذلك كما لو كنت أحلم ولم أكن أنا. لم أتذكّر الأمر حتى أخبرني أصدقائي أنه أصيب في بطنه. وعندما مات، صرخ: «لا إله إلّا الله». أرجو من الله أن يغفر لي وأن يغفر لكلّ البشر».

قد لا تكون نايتسبريدج المكان المتوقّع لطلب المغفرة، لكن من وقت لآخر كان رضا يبكي ـ بالنسبة إلى

عمليات القتل والتعذيب التي شهدها، والجنود الذين يعتقد أنهم قُتلوا من قِبل الجيش. بدأ خدمته العسكرية في مدينة سكيكدة ثم انتقل إلى بسكرة للتدرّب على السلاح. «قيل لنا إن كل الناس ضدّنا. وجرى تدريبنا على كيفية معرفة الإرهابيين ـ من لحاهم وجلابيبهم ولباسهم الإسلامي».

يوم ١٢ أيار/مايو ١٩٩٧، طار رضا إلى بليدا للخدمة الفعلية في الحرب المناهضة للعصابات. وفي مهمّته الأولى في قرية سيدي موسى يوم ٢٧ أيار/مايو أمر هو ورفاقه عائلات بالخروج من بيوتها وبينما كانوا يفتشون المنازل سرقوا ما وجدوه من الأموال والذهب:

«أخذنا ١٦ رجلاً للتعذيب. قيل لنا من قِبل المخبرين إن هناك إرهابيين. ومهما قالوا لنا، علينا تنفيذه. كان هؤلاء الرجال ملتحين. وكانت في ثكنة بليدا غرفة تحت الأرض تسمّى «غرفة القتل» ـ وكان جميع السجناء يُنادون بأسماء مُستعارة من قِبل المحققين، أسماء مثل زيتوني. وكانوا يخضعون للتعرية وعصب العيون والتقييد بالكرسي أو الرشّ بالماء البارد. ويقف جنديان أمام كل سجين ويطرحون عليه الأسئلة. ثم يبدأون تعذيبه بالمثقاب الكهربائي».

كان رضا يحرّك يديه وهو يروي القصّة المروّعة. قال إن المثاقب كانت تُستخدم على أرجل السجناء. وقد رأى أحدهم يثقب بطن رجل. كان الأمر يستمرّ أربع ساعات مع كل سجين ـ وإذا عاش يتمّ إطلاق سراحه بعد أسبوع. في إحدى نقاط روايته، سأل رضا أخاه الأصغر أن يغادر الغرفة، لم يشأ أن تعرف عائلته ما رآه:

«كان هناك شريط كهربائي قُطره حوالي ٥ سم، يضعونه في آذان أو مؤخّرات السجناء، ثم يلقون الماء عليهم. بدأ اثنان من الرجال بشتمنا. وكان المعذَّب يصرخ: «الله يلعنك». ويستمرّ التعذيب ٢٤ ساعة يومياً. كنت مجنّداً فقط. كنت أراقب لكنني لم أشارك. لقد جرى ثقب بطن الرجل لأنه مشتبه به مئة في المئة على أنه إرهابي».

في حزيران/يونيو ١٩٩٧، طُلب من رضا الانضمام إلى قوّة الحماية حول سيدي موسى خلال غارة للقوّات النظامية: «كان علينا التدخّل عند احتدام المعركة ـ لكن المعركة لم تحتدم وعدنا إلى بيوتنا بعد ساعتين. في اليوم التالي... سمعنا أنه حصلت مجزرة في القرية نفسها وقُطعت رؤوس ٢٨ قروياً. وقادنا ذلك إلى التفكير في مَن فعل ذلك. وبدأت أعتقد أن رجالنا هم القتلة».

بعد يومين، قال رضا إنه كان ورفاقه المجنّدون ينظّفون الثكنة ويفتّشون ملابس القوّات النظامية بحثاً عن سجائر عندما عثروا على لحية مزيفة وقناع وعطر يستخدمه الإسلاميون. «تساءلنا ماذا كان يفعل الجنود بهذه اللحية؟». واستنتج رضا أن وحدة من الجيش نفّذت مجزرة سيدي موسى لكنّ خوفه ازداد عندما نُقل رفاقه الستّة والعشرون إلى ثكنات أخرى في «شريعة» Chréa. «أعادوا جثثهم إلينا لاحقاً وزعموا أنهم قُتلوا في كمين، لكنني واثق أنهم أُعدموا لأنهم لم يعودوا موضع ثقة بعد الآن، ولم يقتلوا في كمين. ربّما ثرثروا كثيراً. وقد عرف جميع

جنودنا أنه تمّت تصفية هؤلاء الرجال ـ لأنه طُلب منّا في وقت سابق لأخذهم عدم التحدّث إليهم». لم تكن نهاية خدمة رضا العسكرية بطولية. قال إن أسنانه وقعت بسبب زملائه، وسُجن أسبوعاً بعدما شوهد يَعطي السجناء خبزاً. بعدها تعرّض لهجوم بينما كان في الخدمة عند حاجز على طرف بليدا وتم التعرّف عليه من قِبل إسلاميين مسلّحين. «كانوا أصدقائي وشاهدوني بلباسي القتالي وقبّعتي الخضراء. صرخ أحدهم: «هناك متّسع من الوقت خلال السنة للنيل منك. انتبه لنفسك ولزوجتك وطفلك». هربت مع ثلاثة من المجنّدين بمساعدة الأهالي الذين أعطونا ملابس مدنية. وأنا الآن بين نارين ـ بين الإرهابيين والسلطة الجزائرية».

وصل رضا إلى مطار هيثرو بعد بضعة أسابيع وطلب الحماية . زعمت السلطات الجزائرية أنها تعرفه ـ وأنه لفّق قصّة الفظائع العسكرية للحصول على اللجوء في بريطانيا. لكن لماذا يطلب رضا اللجوء إلى بريطانيا أساساً مع عشرات من عناصر أجهزة الأمن الجزائرية الآخرين؟ كانت آخر معلومات رضا عندما تحدّث إليّ في الجزائر مُرعبة جداً: ذُبح ثمانية من أقاربه في ضاحية بوفريق قرب بليدا.

جرى الاستماع إلى عناصر أمن جزائريين آخرين من قِبل صحيفة الإندبندنت. تحدّث إليّ المفتّش عبد السلام، الذي كان مسؤولاً عن الانضباط العسكري في مركز شرطة دار البيضا قرب مطار الجزائر، وأخبرني كيف راقب المشتبه بهم من الإسلاميين وهم يخضعون للتحقيق من قِبل الجلّادين، وقد زوّدني بأسماء بعضهم أيضاً، أسماء كانت مؤكّدة لرجال الأمن العاملين. قال: «أحياناً كان يجري إجبار السجناء على شرب الأسيد أو كانت توضع خرقة مربوطة بأفواهم ويجري صبّ الأسيد عليها. كان السجناء مُجبرين على الوقوف بجانب الطاولات وخُصاهم فوق الطاولة، وكان الجلّادون يضربونهم على خصاهم... وقد أعطى عدد قليل من السجناء معلومات، بينما فضّل بعضهم الموت، ومات البعض الآخر تحت التعذيب بالماء». وقد نشرت صحيفة الإندبندنت، التي كانت تستخدم صفحة جديدة خاصّة وتنقل تقاريرنا على الصفحة الأولى بدقّة ومطوّلاً، صور أربع شابّات مفقودات: أمينة بوسليمان، ونعيمة ونجوى بوغابة وسعيدة خيروي ـ مع خِتم «مفقودات» مطبوع على وجوههنّ.

بدأت سلسلة مقالاتنا يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧ مع عنوان للصفحة هو: «الأرواح المفقودة في الليل الجزائري: الآن يعترف جلّادوهم بالحقيقة». لم نكن الصحيفة الوحيدة التي تحاول كشف دور السلطة الجزائرية في الجرائم ضدّ الإنسانية ـ فقد راودت الشكوك العديد من الصحفيين الفرنسيين لسنوات ـ لكنّ تقاريرنا عوملت من قِبل الحكومات بالاحتقار الذي قوبلت به تقاريرنا حول عمليات تعذيب صدّام في الثمانينيّات، وتحقيقاتنا حول عمليات القتل الإسرائيلية في الفترة نفسها، وتحقيقاتنا حول الذخائر المشبعة باليورانيوم المستهلكة في العراق، وإعادة فتحنا لقضية الإبادة الأرمنية في تركيا عام ١٩١٥.

كتب السفير الجزائري في لندن رسالة مهينة وحقودة لرئيس تحرير الإندبندنت متهكّماً على سعيدة خيروي، الشابّة التي حُطّمت قدمها تحت التعذيب، لأنني أشرت إلى شعرها الشبيه بشعر الأميرة ديانا، وأفاد أن آلاف

المفقودين ـ بمن فيهم النساء الأخريات اللواتي خضعن للتعذيب حتى الموت انضمّوا في معظم الحالات إلى «العصابات الإرهابية».

من المتوقّع أن يكذب السفراء لصالح بلدهم. ولكنّ ردّ الدول الغربية بالنسبة إلى الدليل المتنامي حول تورّط السلطة الجزائرية في فظائع هذه الحرب مدعاة للشفقة ومُعيب. في أيار/مايو ١٩٩٨، بعد أكثر من ستة أشهر من تخصيص حيّز كبير لكشف شهادة عناصر قوّات الأمن الجزائري السابقين ومحامي حقوق الإنسان، نشرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً سياسياً حول الجزائر. قال البيان إنه بينما كانت هناك تقارير حول تورّط السلطة الجزائرية في المجازر «ليس هناك دليل حسّي وجوهري يدعم هذه الاتهامات». وزعم التقرير أن العنف المنتشر على مستوى واسع والوحشية ـ وليس تعليق الانتخابات الديمقراطية ـ كانا منشأ الأحداث الرهيبة في الجزائر.

بعيداً عن الاعتراف بشجاعة رجال الشرطة السابقين الذين فضحوا جرائم دولتهم، رفضت بريطانيا في أوائل ١٩٩٧ طلب لجوء من شرطي جزائري سابق آخر وأعادته بالقوّة مكبّلاً إلى الجزائر. وجرى توقيفه في مطار الجزائر وتم التحقيق معه بوحشية من قِبل رفاق سلاحه السابقين حول اتصالاته الجزائرية في لندن وبعدها اغتيل على أيدي رجال الأمن، وسُلّمت جثّته إلى والدته لدفنها بعد أسبوعين على ترحيله من لندن. كان قد بدّل عنوانه في بريطانيا ولذلك لم يتسلّم إشعار المغادرة ليستأنف رفض طلب اللجوء. وعلى نحوٍ شائن، زوّدت السلطات البريطانية السلطة الجزائرية بالتفاصيل التي تظهر أنه ضابط شرطة ـ الأمر الذي قضى عليه فوراً[*].

عندما حاولت مفوّضة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة ماري روبنسون الاهتمام بأسباب أعمال العنف في الجزائر وليس بأعمال العنف، قام وزير خارجية الجزائر أحمد عطاف بتوبيخها، وطلب معرفة «أية ذرائع تبرّر قتل النساء والأطفال». عندها سكتت السيّدة روبنسون. وكانت لجنة الأمم المتحدة، التي يرأسها ماريو سواريس رئيس وزراء البرتغال السابق والتي ذهبت في مهمّة جمع معلومات إلى الجزائر في خريف ١٩٩٨، أكثر ضرراً. فقد قدّمت تقريراً يُعتقد أنه كُتب من قِبل الحكومة الجزائرية. ففي بادرة جبن غير عادية، سمح سواريس للمسؤولين الجزائريين بقراءة تقرير الأمم المتحدة قبل نشره، ويوافق التقرير بالكامل على ادّعاء السلطة الجزائرية أنها تحارب الإرهاب واستخلص «أن الجزائر تستحقّ دعم الأسرة الدولية في جهودها لمحاربة هذه الظاهرة». واستخدم التقرير كلمة «إرهاب» أو «رعب» ٩١ مرّة في ١٩ صفحة دون السؤال مَن هم هؤلاء الإرهابيون أو لماذا يعارضون الحكومة. ويتّفق التقرير مع الشهود الذين قالوا إن التجاوزات المرتكبة من قِبل قوّات الأمن لا تضاهي «جرائم

(*) لم يكن البريطانيون وحدهم هم الذين يرحّلون الجزائريين إلى بلادهم لإعدامهم. فقد قامت السلطات البلجيكية بترحيل زعيم شابّ من الجبهة الإسلامية للإنقاذ، هو بن عثمان بوسرية، إلى الجزائر يوم ١٥ تموز/يوليو ١٩٩٦ بادّعاء كاذب أنه لن يكون في خطر إذا عاد. وبعدما حاول مرّة أخرى الهرب من الجزائر، اعتُقل وهو يحاول عبور الحدود الليبية ومات في سجن الشرطة في مستغانم. وأفاد تقرير للشرطة أنه انتحر بإلقاء نفسه من مكتب قوّات الأمن بينما كان ينتظر المحاكمة.

الإسلاميين ضدّ الإنسانية». ورغم أن حوالَي ٢٠ ألف جزائري ما زالوا معتقلين بتهم الإرهاب، استمعت لجنة الأمم المتحدة إلى واحد منهم فقط. وليس مستغرباً قيام عطاف بتوزيع تقرير سواريس على الصحافة الجزائرية المحلّية لنشره. وعندما اتهمت منظمة العفو الدولية تقرير الأمم المتحدة بأنه هزيمة كاملة، كذّب عطاف التهمة بشدة.

وقد تصرّفت لجنة أوروبية سابقة للأمم المتحدة باهتمام أقلّ تجاه دليل التعذيب والقتل من قِبل السلطات الجزائرية. وخلال ثماني عشرة ساعة في مدينة الجزائر، لم تغادر أبداً الدور والمكاتب الرسمية للسلطات الجزائرية. وحثّ نائب رئيس اللجنة الأوروبية، مانويل مارين، الأوروبيين على «التصرّف برويّة»، ولم تكن هناك أسئلة حول التعذيب أو الحاجة إلى تحقيق دولي في ما يتعلق بالمجازر. وقبل بضعة أيام، أبلغ وزير الخارجية الإيرلندي مستمعي الإذاعة أن الوقت قد حان «التوقّف الدخلاء عن مهاجمة الجزائر عن بُعد».

وقد عبّر عن الشعور نفسه الرئيس الفرنسي جاك شيراك. فعندما سُئل ماذا باستطاعة فرنسا القيام به لوقف المجازر أجاب: «لاشيء من خلال التدخّل. علينا إيجاد وسيلة للعمل بفعالية من الخارج». كانت تلك سياسة تلائم السلطات الجزائرية تماماً. كانوا متلهّفين لقبول الأسلحة الفرنسية والمعدّات العسكرية لخوض حربهم الأهلية لكنّهم رفضوا أيّ مطالب بإجراء تحقيقات على قاعدة أن ذلك سيشكّل تدخّلاً في شؤونهم الداخلية. ولفترة من الوقت، صدّق أكثر مثقّفي فرنسا شراسة، برنارد هنري ليفي، موقف السلطة الجزائرية. وقال إنه أمر مُشين وإهانة لذكرى ضحايا المجازر أن يُطرح السؤال مَن كان يقتل من في الجزائر ـ لأن من الواضح أنّ الأصوليين المسلمين هم الملامون. بهذه الطريقة المشينة والمخزية تجاهل ليفي الآلاف من ضحايا التعذيب الحكومي. وقال عبد الحميد الإبراهيمي وهو رئيس وزراء جزائري سابق يُتّهم الجيش بقتل ٣١ من أقاربه في المديه إنه «يرفض إجراء تحقيق دولي» ـ يدافع ليفي والمثقفون الفرنسيون الآخرون عن النظام بنفي مسؤولية العسكر في هذه المجازر.

ظلّت الولايات المتحدة بعيدة عن التدخّل في الشؤون الجزائرية، لحماية العديد من الدبلوماسيين الأميركيين في مدينة الجزائر الذين أعطوا بعض الشابّات الجزائريات تأشيرات مقابل خدماتهنّ. ورغم قيام الجزائر بتقديم مساعدة مالية لمنظمة التحرير الفلسطينية خلال الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ ـ أرسلت أسلحة بقيمة ٢٠ مليون دولار عن طريق الاتحاد السوفياتي ـ كانت البلاد مؤيّدة دائماً لأميركا. وخلال أزمة الصواريخ الكوبية، كان بن بلّا في نيويورك وحمل رسالة سرّية إلى فيديل كاسترو من الرئيس جون كنيدي، يحذّره فيها من خطورة المواجهة مع السوفيات. ولم ينس بن بلّا أن كنيدي كان يدعو وحده في الكونغرس إلى استقلال الجزائر خلال الحرب ضدّ الفرنسيين.

لكن كان لادّعاءات السلطات الجزائرية المتكرّرة بأنها تحارب إرهابيّ الجبهة الإسلامية للإنقاذ تأثيرها. فقد حاولت وزارة العدل الأميركية ترحيل المتحدّث باسم الجبهة الإسلامية للإنقاذ أنور هدّام ـ الذي تحدّث عن الحاجة إلى السلام والمصالحة في مؤتمر روما ـ واستخدمت عشرات التقارير الواردة في الصحافة الجزائرية التي

تُشرف عليها الحكومة، كما عمدت إلى تحريف مضمون مقالاتي في الإندبندنت. ورغم أن وزارة الخارجية الأميركية اعترفت بأن هناك دليلاً مُقنعاً على قيام قوّات الأمن الجزائرية بعشرات عمليات القتل دون محاكمة وأنها عذّبت المعتقلين وأساءت إليهم، فقد استندت وزارة العدل بشكل واسع على مؤيّدي السلطة الجزائرية في ملفّها ضدّ هدّام المتعلّق بالجرائم ضدّ الإنسانية والتي لم يكن هدّام مسؤولاً شخصياً عن أيّ منها(*).

وقد أوردت إحدى الصحف الأميركية عمليات القتل الجماعي للمقاتلين الإسلاميين التي قامت بها قوّات الأمن متسلّلة عبر المنطقة الغربيّة المدمّرة خلال المجازر الأخيرة، دون السؤال كيف قُتِل هذا العدد الكبير في مدّة وجيزة ـ وقد ورد ذلك في الأسوشيتدبرس يوم ١١ آذار/مارس ١٩٩٨ ـ وأقنعت قرّاءها بتصديق أن ذبح المدنيين شجّع بطريقة ما الجزائريين على دعم السلطة التي كانت مسؤولة جزئياً عن عمليات القتل. وعلى ما يبدو، هذا ما اكتشفه جون لانكستر في الواشنطن بوست عام ١٩٩٧ من «أن العنف أدّى إلى تعزيز ردّة فعل معاكسة ضدّ المناضلين وحتى بين الذين دعموا في وقت ما قضيّتهم». وقد وردت إشارة عرضيّة واحدة في مقاله تشير إلى أن السلطات ربّما كانت متورّطة في المجازر.

في أواخر التسعينيّات، عندما أصبح تورّط الجيش الجزائري في عمليات القتل موضع شكّ بشكل واسع، قامت البحرية الأميركية بمناورات مع السفن الحربية الجزائرية في المتوسّط بينما كان الدبلوماسيّون الأميركيون يتشجّعون لزيارة مدينة الجزائر. وحلّ روبرت بلّيترو ضيفاً على الحكومة الجزائرية عام ١٩٩٦. وفي عام ١٩٩٨، أرسلت وزارة الخارجية الأميركية شخصية بارزة إلى العاصمة الجزائرية هي مارتن أنديك ، الرجل الرئيسي في فريق مبادرة سلام الرئيس كلينتون للمحادثات الإسرائيلية ـ الفلسطينية ومدير سابق للأبحاث في أكبر مجموعة لوبي إسرائيلي في واشنطن. وبشّرت الإذاعة الجزائرية بوصول أنديك بالإعلان أن السياسات الأميركية قد تغيّرت الآن وأن البيت الأبيض قرّر دعم الصراع ضدّ الإرهاب وأن الكونغرس الأميركي ندّد مرّات عديدة بالجماعات الإسلامية المسلّحة.

أمام اللامبالاة بالطبيعة الحقيقية للمجازر ـ ومَن يمكن أن يكون مسؤولاً عنها ـ شعر المسؤولون الجزائريون الآن بالقدرة على استبعاد مسؤولية قوّات الأمن عن الفظائع بشبه ارتياح.

(*) في دليلها الكاذب بامتياز، اقتبست الحكومة الأميركية مقالاً لي في الإندبندنت ـ كُتب في الجزائر يوم ٨ آذار/مارس ١٩٩٥ ـ حيث أوردت أن صور المثقفين الجزائريين القتلى «كافية لكراهية الإسلاميين، ولاحتقارهم، وحرمانهم من أيّ صفة إنسانية ناهيك بحقوق الانسان ـ وتلك كانت بالطبع النيّة ـ بحيث تنسى كم هو عدد الأشخاص الذين اقترعوا لصالح الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الانتخابات التي ألغتها الحكومة». وقد فشلت وزارة العدل الأميركية في اكتشاف السخرية في السطر الأخير ـ والمعنى الضمني الواضح الذي أظهرته الصور كجزء من الحملة الدعائية الحكومية الجزائرية. وكان التوثيق الأميركي غير متقن أيضاً. فقد كانت عناوين صحيفتين جزائريتين على الأقلّ مهجّاة بشكل خاطئ ـ وليست هناك إشارة لتشديد السلطة الجزائرية على طبع الصحف الجزائرية أخبار الإرهاب وفق تعليمات السلطة. وقد أوردت عدّة مقالات المجازر التي شجبتها الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وبعدما كتبت عن سوء استخدام الإدارة الأميركية لمقالاتي في الإندبندنت، اختفت كل إشارة إليها بشكل غامض من لائحة وزارة العدل الأميركية للتهم الموجّهة ضدّ هدّام.

وقد اعترف رئيس الأركان الجزائري والمستأصل الرئيسي الجنرال محمّد لمعاري بدماثة أنه: «ليس مستحيلاً في الوضع الذي كنا فيه، أن تكون قد حصلت تجاوزات من قِبل أفراد تصرّفوا بعكس أوامر رؤسائهم». وجاءت قفزة أبعد داخل أعماق عدم الإحساس من وزير التعليم العالي السابق عبد الحقّ بريرحي الذي أعلن عام ١٩٩٨ أن مقارنة الاغتصاب في مركز شرطة مع الاغتصاب من قِبل إرهابي في الجماعات الإسلامية المسلّحة منافية للأخلاق.

لم تكن الجماعات الإسلامية المسلّحة بحدّ ذاتها صنيعة السلطة الجزائرية، مع أن أصولها الأفغانية غير واضحة. ولمّا كان ألوف الجزائريين قد سافروا للانضمام إلى المجاهدين المعادين للسوفيات، وقدّم بعضهم الدعم لأسامة بن لادن ـ فقد قابلتُ جزائريين من «القاعدة» خلال زياراتي لبن لادن في أفغانستان، وجلست إلى جوارهم عام ١٩٩٧ بينما كان المذنّب الشهير يحلّق فوقنا قرب معسكر بن لادن. وأفاد أحدث بحث أن يد السلطة كانت حاضرة هناك أيضاً. وأُفيد الآن أن الأمن العسكري الجزائري أرسل رجاله إلى أفغانستان لمتابعة مراقبة الجزائريين الأفغان الذين شرعوا في الجهاد ـ طارحين كمقاتلين مسلمين عند عودتهم إلى الجزائر فكرة الجيش الإسلامي الذي سيدخل حتماً البلاد لخوض صراع ضدّ أعدائه الاشتراكيين الفاسدين. كان اختراق عناصر الجيش الجزائري قد تحقّق في مرحلة سابقة.

وعندما قُتل زعيم الجبهة الإسلامية المسلّحة جمال زيتوني، في كمين للجيش الجزائري على ما يبدو، أعلنت السلطات بزهو أنها حققت نصراً استراتيجياً ضدّ أعدائها الإرهابيين. لقد انتقل ابن مزارع الدجاج البالغ من العمر ٢٩ سنة والذي عمل في محلّ والده في مدينة الجزائر قبل أن يقع تحت تأثير مصطفى بويعلي إلى العمل السرّي عام ١٩٩١. وقد أُنيطت به، بحسب زعمهم، قيادة فرقة كتائب الموت التابعة للجماعة الإسلامية المسلّحة، وأصبح أمير التنظيم عندما توفّي زعيمه السابق شريف غصمي عام ١٩٩٤. وقد ادّعى زيتوني شخصياً مسؤوليته عن خطف طائرة الخطوط الجوّية الفرنسية وعن موجة هجمات القنابل في فرنسا عام ١٩٩٥، وألّف كتاباً من ٦٢ صفحة ـ من المحتمل أنه كُتب من قِبل رفاقه ـ «حول واجبات المقاتلين المؤمنين». لكن استناداً إلى الجماعة الإسلامية المسلّحة، طُرد زيتوني من الحركة يوم ١٥ تموز/يوليو ١٩٩٦ وحوكم على نشاطاته.

كان بيان من مجلس شورى الجماعة الإسلامية المسلّحة هو الذي أعلن وفاته في اليوم التالي، مضيفاً أن عنتر زوابري تسلّم القيادة. لذلك يمكن السؤال هل قتل الجيشُ زيتوني أو تمّ إعدامه من قِبل الجماعة الإسلامية المسلّحة؟ أو أن الفرضيّتين ترجعان إلى الشيء نفسه؟

فعلى سبيل المثال، اتهمت الحكومة الجزائرية زيتوني بالمسؤولية عن قطع رؤوس الرهبان الفرنسيين السبعة من دير تبهرين عام ١٩٩٦. لكن بعد سنتين، أثبت تحقيق مطوّل في صحيفة «لوموند» أن قوّات الأمن الجزائرية كانت متورّطة في عمليات القتل بعد تعرّضها لوشاية من قِبل المخابرات الفرنسية ـ عمل أدّى إلى استياء قائد زيتوني الذي كان ضابطاً سابقاً في القوّات العسكرية الخاصّة الجزائرية. وأشار المقال نفسه إلى أن الدبلوماسيين الفرنسيين

يعتقدون أن القنبلة التي أدّت إلى مقتل بيار كلافري أسقف وهران ربّما وضِعت من قِبل السلطات الجزائرية ـ لأنه عَلِمَ بالمفاوضات السرّية بين السلطات الجزائرية والفرنسية حول قضية خطف الرهبان. وقد وصل عدد الجزائريين الذين قُتلوا في هذه الحرب إلى ٢٠٠ ألف شخص عام ٢٠٠٢. واغتال الجيش عنتر زوابري خليفة زيتوني، ـ مشوّهاً جثته كليّاً هذه المرّة مع رصاصة في الرأس كبرهان.

لكنّ جماعات حقوق الإنسان الدولية نفّذت الآن المهمّة التي تهرّب منها كلٌّ من الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي ـ وكذلك الولايات المتحدة الأميركية والدول الأوروبية الأخرى ـ بشكل معيب جدّاً:

فقد اتهمت هيومان رايتس واتش Human Rights Watch السلطات الجزائرية بأعمال خطف وتعذيب وإعدامات بدون محاكمة قضائية. وبعد سنة، فعلت منظمة العفو الدولية الشيء نفسه معدّدة ثلاثة آلاف ضحيّة ـ وردت أسماء مجموعة صغيرة منهم في تحقيق سابق نشرته الإندبندنت اغتيلوا من قِبل السلطات بمن فيهم عمّال المستشفيات والموظّفون وطلّاب المدارس وأمناء عامّون ومزارعون ومحامون. وبينما كان الجنرال خالد نزار، أحد قادة الانقلاب العسكري عام ١٩٩٢ ووزير دفاع سابق، يقوم بزيارة لفرنسا عام ٢٠٠١ للترويج لكتابه الجديد حول الجزائر، فتحت محكمة فرنسية تحقيقاً ضدّه ـ بطلب من أقارب الضحايا ـ حول تعذيب المعتقلين. وغادر نزار فرنسا بعدما أقفل التحقيق(*).

وقد أوصلت انتخابات متتالية في الجزائر، مخصصة كلّها لتعزيز فكرة أن البلاد حافظت على ديمقراطيتها رغم سيطرة العسكر، وجهاً آخر قديماً من قيادة جبهة التحرير الوطني هو عبد العزيز بوتفليقة إلى سُدَّة الرئاسة.

وأدّت سياسة بوتفليقة في العمل للسلام والتفاهم الأهلي إلى حصوله على ٩٨,٣ في المئة في تصويت على الطريقة الصدّامية ـ استفتاء لم يستطع الغرب مجابهته ـ وجرت تظاهرات واسعة النطاق عندما تحوّل التمرّد البربري في تيزي أوزو إلى انتفاضة شعبية ضدّ الفقر والفساد. وأراد أن يتناسى الجزائريون ما فعلوه بعضهم ببعض ـ بما في ذلك ما فعلته الحكومة ضدّهم ـ والتمتّع بالرفاهية بعدما اختار العسكر سبعة رؤساء وزراء وأربعة رؤساء جمهورية منذ عام ١٩٩٢. لكنّ دلائل الحرب القذرة في الجزائر تراكمت ضدّ السلطة.

وعندما نشر ضابط القوّات الخاصّة الجزائرية السابق حبيب سويدا كتابه «الحرب القذرة» في باريس عام ٢٠٠١، كان يُفترض أن يُحدث كارثة . فقد كانت المرّة الأولى التي يُصرّح فيها ضابط باسمه الكامل ـ وصورته ـ ليظهر في الصحافة. كتب الضابط: «شاهدت زملاء يحرقون صبيّاً في الخامسة عشرة من العمر حيّاً. رأيت جنوداً

(*) يوم ١٦ كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٤، اعترف محقّق معيّن من الحكومة الجزائرية أن عناصر في جهاز الأمن الجزائري قتلوا ٥٢٠٠ مدني. قال فاروق كسنتيني: «عملاء للسلطة بهذه الأعمال غير القانونية بشكل فردي. كانت الحرب رهيبة وكانت هناك خروقات. لكن السلطة بحدّ ذاتها لم ترتكب أيّ جريمة». وبعد أسبوعين، أبلغ كسنتيني وكالة «رويترز» أن عملاء للسلطة قاموا بتصفية ٦١٤٦ مدنيّاً.

يقتلون مدنيين ويزعمون أن جرائمهم ارتُكبت من قِبل الإرهابيين. شاهدت عقداء يقتلون مشتبهاً بهم بدم بارد. شاهدت ضبّاطاً يعذّبون إسلاميين حتى الموت. شاهدت العديد من الأشياء. ولا أستطيع البقاء صامتاً بعد الآن». وذكر أسماء وتواريخ وأماكن ـ على الأمل الضعيف المتبقّي أن تجري يوماً ما محاكمة هؤلاء المسؤولين بتهمة ارتكاب جرائم حرب. وكتب القاضي الإيطالي فرناندو في مقدّمة الكتاب أنه «كان في الجزائر دائماً تمركز خفّي للسلطة... سجن الشعبَ وقام بتصفية مناوئيه».

ليس هناك دليل أكثر إدانة ضدّ النظام. وقد عرف الفرنسيون صحّة ذلك ـ وكذلك عرف قرّاء الإندبندنت البريطانيين أن الجزائريين الذين تحدثوا بشجاعة إلينا قالوا الحقيقة ـ لكن كان الأمر مشابهاً للحقيقة الكامنة وراء الحرب العراقية عام ٢٠٠٣. كانت الأكاذيب والمعلومات المغلوطة والمبالغات الفاضحة والتحريف المقصود مفهومة كلّياً من قِبل الذين اهتموا بمعرفتها ـ كانوا يشكّلون الأغلبية في أوروبا على الأقلّ ـ لكنّ العالم الرسمي تجاهل الدليل، فلم تتجاوب فرنسا الرسمية مع اعترافات الملازم سويدا، واستمرّت في دعم النظام الجزائري ـ كما فعلت الإدارة الأميركية والاتحاد الأوروبي. ورأت بريطانيا الرسمية عدم المصداقية ودقّة الدليل حول تورّط الجيش في المجازر.

عام ٢٠٠٤، دعت منظمة العفو الدولية إلى تحقيق حول اكتشاف ١٢ مقبرة جماعية على الأقلّ في الجزائر منذ عام ١٩٩٨، كان آخرها يوم ٢٩ تموز/يوليو «لتبيان الحقيقة حول هذه المجازر».

تجاهل العالم دعوة منظمة العفو الدولية. وفي الوقت نفسه، بدأت القوّات الخاصّة الأميركية عملياتها في الصحراء الجزائرية الجنوبية ضدّ القاعدة ـ بالتعاون مع القوّات الجزائرية. وبات الأشخاص المشتبه بهم في ارتكاب جرائم حرب يعملون الآن مع الأميركيين للقضاء على أولئك المسؤولين عن جرائم ضدّ الإنسانية. وأعلنت وزارة الدفاع الأميركية أن هذا التعاون العسكري جزء من «الحرب ضدّ الإرهاب».

الفصل الخامس عشر

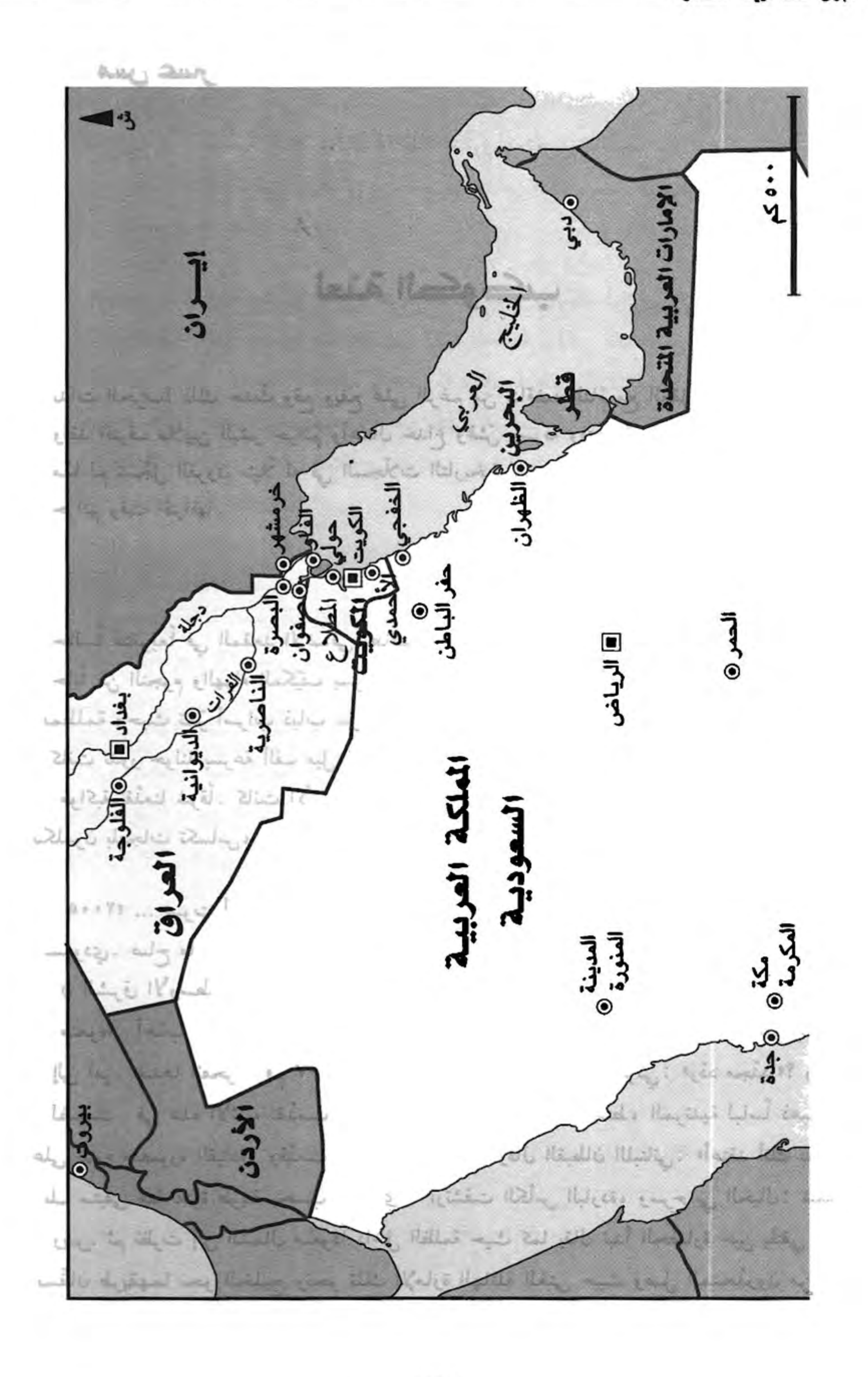
لعنة الكوكب

بدأت الحرب! ذلك حدثٌ وقع ويقع على الرغم من تناقضه التامّ مع العقل ومع الطبيعة البشرية. ولقد اقترف ملايين البشر جرائمَ وأعمال خداع وغشّ وسرقة وفِتن لا حصر لها بعضهم ضدّ بعض ممّا لم تسجّل القرون مثيلاً له في السجلّات التاريخية للمحاكم القضائية في العالم.. لكنها لم تُعتبر جرائم وقت اقترافها.

ليو تولستوي، «الحرب والسلام»

كنت جالساً مُتقوقِعاً في المقعد الإضافي لطاقم الطائرة ٧٠٧ الملتصق بسقفها بينما كانت الأضواء مطفأة والليل مهرجاناً من النجوم والهواء المكيّف يسري بصمت عبر الفتحات. نظرت إلى أسفل حيث صحراء السعودية الحارّة والمظلمة وحيث تمرّ أسراب ذباب سراج الليل مسرعةً قربنا بألوانها البيضاء والصفراء المخطّطة بلون الذهب؛ وكانت تدور حولنا بسرعة ألف ميل في الساعة تقريباً كانت سرعتها القصوى وسرعتنا متعاكستيْن أو أنها كانت تطير مواكبة تقدّمنا شرقاً. كانت الأصوات تصل إلى مسامعي منهكةً مُملّة، آتيةً في بعض الأحيان من رجال مُتوتّرين يتكلّمون بلهجات تكساس، والقاهرة، وغلوسسترشاير، والحجاز.

«مايك ٢٠٠٥» ... صوت أميركي من خارج الكوكب الأسود الكبير يطلب التوجيه بشكل يائس من المراقب الأرضي السعودي. صاح مايك مجدّداً: «أطلب تردّداً أعلى للمجال التقني». صوت المكيّف يهدر. استدار قبطان طائرة طيران الشرق الأوسط (MEA) نحوي وابتسم قائلاً: «يريد التوجّه نحو قاعدة الظهران وأراهنك أن السعوديين منعوه». أجاب صوت سعودي بلُكنة ثقيلة: «لا تردّد أعلى متوفراً بل درجة «ط» متوفّرة».. وتحوّلت التعليمات إلى أمر. عندها انفجر طاقم ٧٠٧ بالضحك. «ماذا تتوقّع!» قال الأميركي: «ردّد مجدّداً»؟ ردّد مجدّداً»؟ مزيد من الضحك. في هذه الأثناء تقدّمت مني مضيفة طيران الشرق الأوسط، المرتدية لباساً ذهبياً يميل إلى البياض على ضوء مقصورة القيادة، وقدّمت لي كأس شمبانيا. وقال القبطان اللبناني: «أعتقد أنك بحاجة إليه يا روبرت لأنك ستبقى هنا لفترة طويلة بحسب اعتقادي». ارتشفت الكأس الباردة، وسرح بي الخيال: شمبانيا فرنسا وجادات باريس. ثم نظرت إلى الشمال صعوداً داخل الظلمة حيث كما يقال تبدأ الحضارة حين يلتقي نهرا الفرات ودجلة ويشقّان طريقهما نحو الخليج ونحو تلك الإمارة الهائلة الغنى حيث وصل المتحدّرون من السومريين والأمويّين والسلاجقة والعبّاسيين ومن المغول أيضاً، بدبّاباتهم T72 ومجنزراتهم ZSU23 والمضادّات الأرضية



ش
إيــران
العراق
الأردن
المملكة العربية السعودية
الكويت
بغداد
الفلوجة
الديوانية
الناصرية
البصرة
صفوان
خرمشهر
الفاو
حولي
المطلاع
الأحمدي
الخفجي
حفر الباطن
الظهران
البحرين
قطر
الخليج العربي
دبي
الإمارات العربية المتحدة
الرياض
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة
بيروت
دجلة
الفرات
٥٠٠ كم

الموجّهة بالرادار وصواريخ سكود ومدافع الـ ١٥٥ ملم ورشّاشات الكلاشنكوف وادّعاءاتهم بأن الكويت كانت وما زالت المحافظة التاسعة عشرة من العراق. زادت كثافة ذباب السراج على بعد ٥٠٠ كلم إلى الجنوب من حدود الكويت.

Ascot! أسكوت شيء طريف! إنه اسم مقاطعة قرب لندن (فيها ملعب شهير لسباق الخيل ـ المترجم). كم هو نموذجيٌ لدى الإنكليز تشفيرُ دعواتهم الهوائية لحمل السلاح بعد مباراة سباق الخيل. هؤلاء هم المتحدّرون من رجال الجنرال مود (Maude) ورفاق تشارلز ديكنز يستعدّون لتحرير المزيد من العرب، من أحفاد الشعوب التي «حرّروها» عام ١٩١٧.. وطلب «أسكوت ٢١٠٠» تسليط الضوء على التوسّعات الأميركية المتخلة الهادرة أمامنا بسرعة «دارث ڤايدر» Darth Vader. «هل تراه يا روبرت؟» أجل لقد رأيته ونظرت إلى شاشة الرادار التي تتوهّج أمامي في قعر بحر أخضر ولمحت نقطة ضوء متّجهة نحو أكروتيري Akrotiri (أسماء أماكن من لعبة حرب النجوم ـ المترجم).

حتى قبرص بدت مشابهة للوطن... كنت قد بدأت لتوّي عطلة في باريس عندما اجتاح صدّام الكويت. ولم أكن أرغب حتى في الشمبانيا. قلت لنفسي إلى الجحيم يا صدّام. لقد فشلت آلة روبرت فيسك القديمة في التنبّؤ. لم تُظهر لي الكرة البلّورية شيئاً في بيروت بينما كنت أدوّن بنفاد صبر قصص ما قبل العطلة عن نزاع صبيانيّ آخر بين العراق والكويت حول سرقة النفط وزيادة الإنتاج. ألم تموّل الكويت حرب صدّام ضدّ إيران؟ في الواقع كنت قد سألت في عام ١٩٨٨ على إحدى الصفحات الرئيسية الطويلة التي أحبّ محرّرو التايمز استهلاكها عندما انتهت النزاعات: كيف ينوي صدّام الآن استخدام فيالقه القويّة؟. ثم انتقلت بعدها إلى صحيفة الإندبندنت، وعدت إلى تغطية أخبار صراع حزب الله ضدّ الاحتلال الإسرائيلي للبنان وأخبار الانتفاضة الفلسطينية الأولى. وكنت قد وضعت نُسخاً من تقاريري السابقة في حقيبتي قبل الصعود إلى رحلة طيران الشرق الأوسط هاكم بعض ما جاء فيها: «الإندبندنت، بتاريخ ١٩ تموز/ يوليو ١٩٩٠، من روبرت فيسك ـ بيروت:

«ردّ حكّام الكويت بخوف على تهديدات العراق المتجدّدة ضدّهم داعين إلى اجتماع طارئ للبرلمان، وقاموا بإرسال وزير الخارجية الكويتية لطلب مساعدة من السعودية... واستناداً إلى طارق عزيز ـ وزير خارجية العراق ـ فقد خرقت الكويت الحدود العراقية ـ الكويتية وسرقت نفطاً بقيمة ٢,٤ مليار دولار. وقال عزيز: «كانت الكويت تتلاعب بنظام حصص الإنتاج في منظمة أوبك وفق خطّة متعمّدة ومعدّة سلفاً لإضعاف العراق وضرب اقتصاده وأمنه».(*) إذاً، كانت المؤامرة متعمّدة ومُعَدّة مسبقاً. لقد تغذّى جهاز البعث القمعيّ على المؤامرات والتواطؤات

(*) وفق قوانين الأوبك تحافظ الكويت على حصّة إنتاج تبلغ ١,٥ مليون برميل يومياً لكنها كانت تنتج مؤخراً ١,٩ مليون برميل يومياً. وقد انخفض سعر الأوبك للبرميل من ١٨ إلى ١٤ دولاراً، وزعم صدّام أن انخفاض قيمته دولاراً للبرميل سيكلّف العراق مليار دولار خسارة سنوية في الدخل وأن انخفاض الأسعار العالمية كلّف العراق خسارة ١٤ مليار دولار حتى الآن. لا أحد جادل في زيادة الإنتاج لكنّ العراقيين ادّعوا أن الكويت كانت تأخذ النفط من حقول النفط العراقية الجنوبية عبر الحفر شمالاً على طول الحدود المتبادلة. بعبارات أخرى كانت الكويت تسرق موارد الأمّة التي ساهمت آلتها العسكرية في إنقاذها من الثورة الإيرانية.

والشره وعدم التسامح وغذّى جشعه بالشكّ. وعلى ما زعم صدّام فقد «قامت الكويت بتخريب اقتصادي ضدّ العراق». وكان عليّ قراءة تقاريري لأرى كم كنت غبيّاً حين قرّرت الذهاب في إجازتي الباريسية: فيسك ١٩ تموز/ يوليو، موثقاً في بيروت.

«الاحظ الآن بندم شديد أنه كانت لديّ كلّ الأدلّة. تحدّث الرئيس صدّام حسين عن وسيلة أخيرة ضدّ جيرانه، مضيفاً «إن قطع الأعناق أفضل من قطع الأرزاق». ويواجه العراق ديوناً خارجية مستحقّة للدفع تبلغ قيمتها ما بين ٣٠ و٤٠ مليار دولار... وأضفت (يومها): «لا تعتقد أيّ من دول الخليج أن أميركا سوف تتدخّل عسكرياً لحمايتها من العراق. وفي الوقت الراهن توجد سبع سفن حربية أميركية فقط في الخليج. ولكننا نعرف الآن ما ينويه صدّام أيضاً»... لذلك سافرت إلى باريس!! لأكون في المكان الخطأ في الوقت الصحيح .

ألستُ أنا ذلك الشخص الذي قيل له إن الإسرائيليين سيقومون باجتياح غرب بيروت في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ وستكون هناك مجازر في المخيّمات ومن ثمّ سافرت بإجازة إلى إيرلندة لن يهاجم الإسرائيليون لأن فيسك ذهب بإجازة إلى إيرلندة، ولن يجتاح صدّام حسين الكويت لأن فيسك سافر إلى باريس. في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠ «القوّات العراقية تجتاح الكويت»، إذاعة «البي. بي. سي» BBC الساعة ٨ صباحاً، بينما كنت أسخّن الكرواسّان بالشوكولاتة. ربّما وقعنا جميعاً تحت تأثير صدّام حسين أو سحر واشنطن في الأيام الأخيرة الحرجة قبل الغزو. وحتى بعد كلّ تهديدات صدّام ضدّ الكويت فلا يزال الأميركيون يعتقدون أن دِكتاتور العراق رجلهم. ولدى سؤال ريتشارد مورفي، مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأوسط، في مقابلة قبل أربعة أيام من الغزو، عمّا إذا كانت تهديدات صدام مشابهة لتهديدات هتلر عند بدء الحرب العالمية الثانية، اعتبر مثل هذه التصريحات «زلّة لسان». وأضاف: «صدّام زعيم فظّ وصريح لا يتردّد في استخدام القوّة... وأعتقد أن الأمر يحتاج إلى حوار مستمرّ مع العراقيين وأنّ صدّام تصرّف عن ضِيق». وجاءت مقابلة مورفي بعد أربعة أيام من مقابلة سفيرة الولايات المتحدة في بغداد أبريل غلاسبي مع صدّام حسين حيث لاحظت أن الخلاف هو «شأن عراقي ـ كويتي». وفي شهادة لاحقة أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الأميركي، قالت غلاسبي إن الرواية العراقية لهذه المحادثة قد تمّ تحريفها. بعد تلقّي صدّام مكالمة من الرئيس المصري مبارك عاد إلى الاجتماع ووعد بعدم استخدام القوّة وبالعمل ضمن السياق الدبلوماسي الذي وضعه. وكالعادة، كانت هناك كل علامات الكارثة. فهل اخترنا ضمناً نحن الصحافيين والدبلوماسيين العرب والأجانب قراءتها على طريقتنا؟ لقد اعترف لي دبلوماسي بحريني لاحقاً بأنه فشل في فهم مغزى كلمات الرئيس العراقي في القمّة العربية قبل ثلاثة أشهر من الغزو:

> أظهر صدّام أول إشارة لما سيقوم به في قمّة بغداد في أيار/مايو، وفي جلسة مغلقة للقمّة بدا أنه متأثر جدّاً بالنسبة إلى وضع اقتصاده. وقال: «إن انخفاض أسعار النفط يخنقنا»، وأضاف أنه «لا يستطيع الاستمرار إذا ظلّت الأسعار على حالها». كنت هناك وسمعته يقول ذلك لكننا لم نفهم مغزى كلامه. وكان هناك الملك الأردني حسين الذي قال علناً إنّ بلاده بحاجة ماسّة إلى مساعدة اقتصادية وإنه بحاجة إلى دعم اقتصادي.. وهذا ما يذكره العالم.. لكنهم لم يُنصتوا لما قاله صدّام حسين.

بعد أربع وعشرين ساعة على غزو صدّام للكويت، اتّخذ العاهل السعودي الملك فهد قراره التاريخي، وكان ذلك تعبيراً سعودياً عن خطوة لا سابق لها: دعوة الأميركيين إلى دخول الأراضي السعودية، حيث أقدس مدينتين في الإسلام (مكّة والمدينة) للدفاع عن المملكة. وكان الوزراء ورجال الأعمال العرب يعتقدون أن الملك فهد سيطلب على الأرجح مساندة جوّية من الأميركيين في حال اضطرّت إلى ذلك قوّاته غير المجهّزة وغير المهيّأة من أجل الدفاع عن السعودية، وأن السعوديين سيموّلون مقاتلين عرباً للدفاع عن المقاومة الكويتية للاحتلال العراقي كما سبق لهم أن دعموا جيش أسامة بن لادن العربي ضدّ السوفيات في أفغانستان. لكنّ عرض أسامة بن لادن للمساعدة رُفض بازدراء مع كلّ النتائج الخطيرة المترتّبة على ذلك. بعد أربعة عقود من الإذلال على يد إسرائيل (حليفة أميركا الكبرى في الشرق الأوسط) سيشاهد العرب الآن هؤلاء الأميركيين أنفسهم يصلون إلى أرضهم المقدّسة ـ التي يشكل الملك فهد الوصيّ عليها ـ للدفاع عنهم ضدّ زعيم عربي آخر. وبالنسبة إلى العديد من العرب، فإن ذلك يُعتبر بمثابة الكفر عينه. في تلك الأيام الأولى الحارّة من شهر آب/أغسطس، ذهبت كما أفعل دائماً في الخليج لطلب رأي علي محمود، مدير مكتب وكالة الأسوشيتد برس في البحرين، وهو مصري سُجن أيام عبد الناصر،(*) ويمتلك رؤية مسبقة قاتمة عندما يتعلّق الأمر بالطيش في العالم العربي. قال لي يومها: «لا تهمّ النتيجة، فقد وقع الأذى».

في الواقع، فإن دعوة الأنظمة الدينية والقومية لأميركا إلى الشرق الأوسط ستكون موضع امتعاض لفترة طويلة ولن تكون موضع تسامح أبداً. وعند انتهاء هذه الأزمة سيحصل الأسوأ. وبعد ستّ سنوات في أفغانستان سوف أتذكّر كلمات علي، بينما كان بن لادن يعدّد ما وصفه بـ «مساوئ» آل سعود التاريخية واحدة تلو الأخرى.

بالنسبة إلى الغرب، بدا تصرُّف صدّام حسين وعرضه الانسحاب من الكويت مقابل انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية المحتلّة، واعتقاله آلاف الرهائن الأجانب في العراق والكويت، وضمّه الرسمي للإمارة، سياسة ساذجة ووهماً. لكن لم يبدُ الأمر كذلك بالضرورة في العالم العربي الذي توجّه إليه صدام بشكل رئيسي. بالنسبة إلى العرب كان الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية جريمة كبرى دامت طويلاً، أمّا بشأن احتلال العراق للكويت فإن المحتلّين كانوا عرباً على الأقل(**).

(*) علي محمود هو معارض سياسي، وكذلك مراسل للأسوشيتدبرس في مصر إبّان حكم عبد الناصر. كانت ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة عندما كان يستذكر تجربة استجوابه من قِبل جلّادي الشرطة بينما كان معلّقاً من رجليه فوق وعاء كبير للسوائل مليء بغائط بشري ساخن في سجن القاهرة المركزي.

(**) كان ذلك مفهوماً كلّياً من قِبل محلّلي النفط الغربيين الذين جادلوا بحرص في ما إذا كانت الدراسات المبهمة وصلت أساساً إلى النتيجة نفسها. «معظم العرب مقتنعون بأن التدخّل الأميركي في المنطقة لا تبرّره الرغبة في فرض القانون الدولي». وقد كتب ذلك روبرت مابرو في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٠. كان العرب يتمنّون بصدق أن تلعب أميركا هذا الدور في لبنان وفلسطين كما تدّعي أنها تقوم به في الكويت. لكنّ فشل الولايات المتحدة المستمرّ عبر العقود في فرض القانون الدولي عندما يتعلّق الأمر بسياسات إسرائيل وأفعالها يترك شكّاً كبيراً في الذهن العربي حول المبرّرات الحقيقية لهذا الأمر.

وقد أضحت الصور التلفزيونية لآلاف الجنود الأميركيين الذين يهبطون من الطائرات رغم الرياح الرملية في شمال شرق السعودية من أكثر الصور إملالاً في الأزمة لاحقاً. لكن في تلك الأيام الأولى من آب/أغسطس ١٩٩٠ كان وصول الفرقة ٨٢ المُجَوقلة والقوّات الأميركية الأخرى إلى الظهران التي تبعد ١١٠٠ كلم عن مكّة وحوالى ٣٠٠ كلم عن المجموعات المتقدّمة من قوّة الغزو العراقي، هو القصّة الأضخم والأكثر تغطية في العالم. يحتاج الحصول على تأشيرة دخول إلى المملكة إلى أسبوعين عادة ضمن نظام متكتّم مصاب برُهاب الأجانب كحالة السعودية التي أخفت الغزو العراقي عن شعبها حوالى ٤٢ ساعة. ولا يحلم أيّ مسؤول حكومي بالسماح للصحافيين الأجانب بمشاهدة تحرّك قوّة كافرة على أرض مقدّسة(*).

هذا ما حملني على التحوّل إلى رحلة طيران الشرق الأوسط إلى الظهران. فقد اكتشف جو كاي ـ أحد مسؤولي محطّة بيروت، وهو من أذكى مديريها ـ أنه يحقّ لراكب طائرة هذه الشركة المرور عبر السعودية من دون تأشيرة شرط أن تكون معه تذكرة سفر إلى دولة خليجية أخرى . وهكذا حجز لي عبر السعودية إلى البحرين وساعد صحيفة «الإندبندنت» لتقوم بسبق صحافي عالمي. إذاً، كان لديّ خمس ساعات بالضبط للمكوث في الظهران. وقال جو: «سوف ترى الأميركيين يا حبيبي، وسيكونون في كلّ مكان». ولقد كانوا بالفعل!! فبينما كانت طائرتي تحطّ في السعودية استطعت رؤية العشرات من طائرات الهليكوبتر الأميركية المسلّحة «بل أغوستا» Bell Agusta تسطع تحت أضواء القاعدة الجوّية، بينما كانت مراوحها تدور مثل مراوح الهواء متراصّة كشبكة ضخمة من الحشرات منتظرة منتصف الليل للانتقال شمالاً.

كانت مجموعة من البوارج تلفظ المزيد من الطائرات المروحية وأكداساً من الصواريخ البيضاء. كانت هناك طائرة هيركوليس Hercules C-130 تهدر محرّكاتها وهي تحمّل صواريخ لرحلتها نحو الشمال الغربي إلى القواعد السعودية قرب الحدود. وداخل المطار، تفحّص السعوديون جواز سفري ولم يُبدوا اهتماماً بتذكرة السفر إلى البحرين وطلبوا مني الانتظار في القاعة. وكما قال جو، كانوا في كل مكان، كل هذه المجموعات الأميركية في الفرقة الثالثة المحمولة وعلى أكتافها شعارات عسكرية تقول «سليم، سريع، واثق». إننا ظاهرياً على أبواب حرب: جيش مسيحي ينزل في أكثر الدول الإسلامية حساسية. كل ذلك ضاع مع الشبّان والشابات المحدّدي الملامح الواقفين على الطريق المعبّدة، المحدّقين شرقاً لمشاهدة طائرة لوكهيد أخرى ضخمة C-5B تهبط من الجوّ. كانت طائرات النقل تصل كل خمس عشرة دقيقة تنوء إطاراتها تحت ثقل مدافع الكوبرا وتتأرجح أجنحتها البالغة ٣٠ متراً مثل الطيور المسنّة عندما تلامس حرارة الصحراء.

كان الأميركيون مبتهجين ومسرورين للكلام، ولم يكونوا مضلّلين (إطلاقاً)، ولم يبدُ عليهم القلق لأن صحافياً

(*) عندما كنا نحتاج إلى تأشيرة لم يكن ذلك متيسّراً عادة.. فإذا كان السعوديون يرغبون في دعوة الصحفيين إلى مؤتمر عربي، كانت سفاراتهم جاهزة لإصدار تأشيرات دخول خلال ساعات. وعندما كنّا نرغب في تجنّب هذه الظروف الصعبة، كنا نتجاهل ملء السؤال المتعلّق بالديانة على طلب التأشيرة بسبب الخشية من افتراضات السعوديين بأننا يهود، ولذلك كانوا يرفضون إصدار تأشيرة.

شاهدهم يُنزلون آلاف الجنود والطائرات إلى داخل السعودية. كان الرائد الطيّار كورت موريس ينتظر الباص الذي سيقلّه إلى موقعه. قال: «مكثنا في فندق جميل في المدينة وأكلنا بعض الطعام العربي الليلة الماضية واستمتعنا به، وكان الطقس لطيفاً في اليومين الأخيرين». وتابع مبتسماً: «خلال يومين سوف نعود إلى بلادنا في ميلدين هيل ونحن نتطلع إلى ذلك»... سياحة، طقس جميل، طعام أجنبي، العودة إلى غرب بريطانيا. من الجهة الأخرى للقاعدة الجوّية كانت القوّات المصرية تهبط من طائرة ٧٣٧ وهي طائرة تنقل المصطافين عادة إلى الأقصر.

بدا السعوديون على الأقلّ متفهّمين لخلفيّات هذه الأحداث التي يشهدونها. فقد كانت سلطات المطار مزوّدة بأقنعة سوداء مع فتحات للعينيْن. وقال لي أحدهم، وهو شاب رفيع الشارب، بينما كان يشاهد هبوط طائرة نقل تابعة لسلاح الطيران البريطاني: «أكانت أميركا تأتي لحمايتنا لو لم يكن لدينا نفط؟». عرفت الردّ بالثقة نفسها التي بنى عليها الرائد موريس تفاؤله.

لم يكن رجال الشرطة والجنود السعوديون الذين سألتقيهم في الأشهر القادمة حمقى، ولو لم يكونوا جامعيين، غير أن دينهم علّمهم بشكل كافٍ ممارسة مُنتهى الحذر، إن لم نقل الريبة، تجاه هجمة الوهم الخطرة التي يمثّلها الوصول الأميركي إلى بلادهم.

عمدت القوّات الأميركية منذ البداية إلى الحصول على غطاء ديني من حلفائها العرب الأكثر ولاءً (القوّات المصرية والمغربية وهي كانت موجودة أصلاً في معسكرات مجهّزة في الصحراء). وقد جرى إخلاء مدينة الخفجي الحدودية، وكذلك مدينة حفر الباطن إلى الغرب، حيث تمتد الأراضي السعودية على طول الحدود العراقية ويعود بناء قاعدتها الجوّية ومجمّعاتها السكنية إلى عام ١٩٨٥، وقد كلّفت يومها ٥ مليارات دولار وأقيمت لتستوعب ٧٠ ألف جندي. وتمّ كذلك إخلاء معسكر عمّال نفط أرامكو المحلّي. وقف الرائد موريس إلى جانب جنديّة شقراء طويلة القامة قصيرة الشعر (نموذج أميركي آخر يصدم السعوديين)، وقال: «لا أريد أن أفكّر بالطبع في ما سيحدث إذا اضطرّ رجالنا إلى ارتداء الملابس المضادّة للغاز عندما ترتفع الحرارة فعلياً». يمكنني التكهّن بأن الرجال سيموتون من الحرّ. عند الفجر، تمكّنت من رؤية معظم قاعدة الظهران وذلك عندما حلّقت طائرتي الخليجية محاطة ببطّاريّات الصواريخ الفضيّة والبيضاء.. وقد استطعت أن آخذ من مقعدي عدّة صور لصفوف الطائرات وطائرات الهليكوبتر. كان التاريخ في الشرق الأوسط يتحرّك بسرعةٍ تفوق القدرة على الإمساك به.

تساءلت (وكانت تساؤلاتي هذه متوازية من المفاجآت أكثر منها قياساً نسبياً): أهكذا كان الأمر، يوم توجّه الإنكليز إلى الحرب عام ١٩١٤؟ لم تكن لدينا أيّ فكرة يومها عن الفوضى الشاملة التي ستجلبها القوى الامبريالية الأوروبية على نفسها. مَن كان يعتقد قبل ليلة فقط أن الكويت ستزول، وأن الأميركيين والإنكليز سيقفون ضدّ العراق في الصحراء التي مشى فيها النبيّ محمّد، وأن معركتهم عند حصولها ستقودهم بعد ثلاثة عشر عاماً مباشرة إلى أخطر نزاع شهده الشرق الأوسط منذ سقوط الامبراطورية العثمانية؟

من البحرين سافرت متطفّلاً فوق الخليج مع أصدقائي القُدامى من فريق التلفزيون الأميركي الذين قمت معهم منذ سنوات قليلة بجولة فوق المياه المليئة بالأسماك عندما كان العراق صديقنا وعندما كان يستطيع مهاجمة سفينة

حربية أميركية دون قِصاص منذ سنتين فقط!! تذكّرت بينما كانت طائرتنا التجارية تعبر فوق الأمواج وأسماكها الطائرة، أن صدّام كان لا يزال صديقنا والزعيم الصلب الصريح الذى بقي كذلك حتى قرّر احتلال الكويت.

منذ بضعة أشهر فقط، عندما أحضر مبارك برفقته مجموعة من الشيوخ لمقابلة صدّام، اتفقوا على أن مشكلة الدكتاتور العراقي الحقيقية هي الصحافة. المزيد من الضحك! أجل كان صدّام يحتاج إلى مستشار في العلاقات العامة. أمّا الآن فإن رجال العلاقات العامّة هم مستخدمون لدى العائلة الحاكمة الكويتية ولدى القائد الأعلى للقوّات السعودية والحليفة المشتركة، صاحب السموّ الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز ابن شقيق الملك فهد وابن وزير الدفاع الأمير سلطان. حلّقنا فوق الأمواج المتحرّكة بلطف وفوق السفن الماخرة في البحر التي تُظهر مقدّماتها المقوّسة هشاشة عصر آخر وحضارة أخرى. لكن حتى ونحن نطير بسرعة مئة ميل في الساعة فوق الماء فقد تصبّب العرق على وجوهنا وظهورنا. بعد خمس أو ست ساعات تحت درجة حرارة ٥٤,٤ أصبح البحر والسماء غائمين مع سحابة رمادية احتفظت فيها الشمس بلونها الذهبي الباهت. كيف يستطيع المرء مراقبة حرب في هذا الموقد الطبيعي؟ كان الدليل هناك: على بعد مئة كلم من دُبَي كانت الفرقاطة الفرنسية كوموندان دوكوان Commandant Ducoing تتزوّد بالمؤن من سفينة شحن ضخمة بينما يتجمهر طاقمها حول مدفع مضادّ للطائرات، وقد عكس ضوء الشمس على الماء رقمها ف٧٩٥ F795 ثم اختفى في الضباب . انسابت عبر الرطوبة ذكريات أخرى عن الغزو العراقي للشمال الغربي: ناقلات نفط فارغة تتجه شرقاً إلى خارج الخليج، وهذا تناقض طبيعي إذ كان عليها الاتجاه غرباً فارغة والعودة شرقاً مليئة بالنفط الكويتي الخام وخط غطسها تحت الماء.

وكانت الناقلة ت.م. ريغولوس T.M Regulus من سنغافوره طافية على الماء ويظهر الصدأ على مقدّمتها الراسية في الضباب.. وحتى ناقلة النفط الكويتية شيزابيك سيتي Chesapeake City التي كانت ترفع العلم الأميركي وكانت رمزاً للحماية الأميركية ضدّ التهديد الإيراني في حرب الناقلات منذ سنتين، فإنها كانت تلاطم أمواج البحرين. وعلى ضفاف الضباب وجدنا أيضاً سفينة شحن في داخلها وعلى متنها سيّارات تويوتا فخمة لأغنى إمارة في الخليج تهرب الآن نحو مضيق هرمز والبحار المفتوحة. لقد انتهت إذاً الأيام السعيدة!! باستثناء بعض الصحافيين الغربيين المتروكين في الكويت ـ كان من بينهم طوني والكر من صحيفة «الفاينشال تايمز» الذي ظهر في الصحراء بقصّة قويّة عن القسوة والخوف(*) ـ يتحدث مراسلو العالم الآن من بغداد أو من المدن الحرّة في الخليج العربي. من هناك، حاولنا إضافة علامات تساؤل إلى حملة الحرب: بعض قنابل الشكّ التي تدفع القارئ

(*) كان العديد منهم مهاجرين شجعاناً وكويتيين فرّوا من المحتلّين العراقيين. وقد اقترب جورج وودبري مسؤول عمليات الإنقاذ البريطاني المؤقّت في الكويت من الحدود بسيّارته ليجد ٥٠ دبّابة عراقية أمامه. وصرّح لنا: «لم نستطع رؤيتهم حتى وصلنا إلى قمّة المرتفع وكان قد فات الأوان للعودة، لذا واصلت القيادة بينهم وطول كل خط دبّابات ٤٠ ياردة من كل جهة. لم نلوّح لهم ولم نقل لهم شيئاً، بل تابعنا سيرنا. وكانت طواقم الدبّابات واقفةً هناك تراقبنا. وقد وصف وودبري الكويت المحتلّة حيث توقّف العمل قائلاً:
«كان الجنود العراقيون يقرعون أبواب المنازل طلباً للمال والطعام، وتمّ نهب كل متجر، وقام الفلسطينيون بالنهب أيضاً مع أنهم عاشوا هناك لسنوات طويلة. وكانت هناك خزائن وصناديق قوية متناثرة على الطرق حيث كان الناس يحملونها لفتحها. لم يسلم أي متجر أو مكتب في وسط المدينة من النهب».

بى طرح أسئلة كثيرة كما فعلنا في الليالي الطويلة والجافّة التي تناولنا خلالها اللحم وشربنا العصير في السعودية. وقد طالب خاطفو الرهائن الأميركيين في بيروت (وكان بينهم صديقي القديم تيرى أندرسون، مدير مكتب الأسوشيتد برس) بالإفراج عن ١٧ شيعياً كانوا معتقلين في الكويت، وذلك مقابل تحرير الرهائن. وقد تم بالفعل إطلاق سراح اثنين من المعتقلين السبعة عشر الذين كانوا جميعاً أعضاء في حزب الدعوة الإسلامي. هل أفرج العراق عن الخمسة عشر الآخرين؟ الجواب: كلّا.. فقد فرّوا.

بعد ثلاثة عشر عاماً أصبح حزب الدعوة حزباً سياسياً في العراق المحرّرة مطالباً أميركا بإجراء انتخابات. وتجاهل الأميركيون حقيقة أن أعضاءه من الذين تحدّثوا معهم، كانوا كبار إرهابيي الثمانينيّات.

وتحدث دبلوماسيون عن أن الفلسطينيين المقيمين في الكويت تعاونوا مع المخابرات العراقية وزوّدوها بعناوين المسؤولين الكويتيين قبل الغزو. هل كانت منظمة التحرير تساعد صدّام لاحتلال الكويت؟ الجواب كلّا! لأن بعض الفلسطينيين انضموا إلى المقاومة الكويتية التي كانت قد تشكّلت. لكنّ الفلسطينيين المدرّبين في العراق أحضروا فيما بعد من بغداد وكان يمكن رؤيتهم بأسلحتهم في شوارع الكويت. ويا لها من فرصة ـ حجّة تهيّأت للعائلة الكويتية الحاكمة المنفيّة حالياً والتي تستطيع العودة يوماً ما إلى الإمارة وتقوم بإبعاد ٣٠٠ ألف فلسطيني «عميل»، بعضهم وُلِد في الكويت؟ وهذا ما فعلته لاحقاً.

أرسل السوريون فرقة من الجنود للانضمام إلى الأميركيين في السعودية: سرايا الدفاع العربية المتحالفة الآن مع أصدقاء الصهيونية (أو كما بدا) ضدّ الأعداء البعثيين. وفي كلّ يوم كانت فِرق وكالات الأنباء ومئات من فِرق التلفزيون من مختلف أنحاء العالم تنتظر خارج قاعدة الظهران الجوّية على الطريق نفسها التي شهدتها بعد الغزو لمراقبة وصول الأميركيين بعتادهم ووحداتهم وفرقهم التي تعّد بعشرات الألوف لزيادة حجم جيش وصل في بداية عام ١٩٩١ إلى نصف مليون جندي ضدّ جيش صدّام. في عام ١٩٩١ اعتقدت أميركا أنها بحاجة إلى هؤلاء الجنود لتحرير الكويت.

وفي عام ٢٠٠٣ قدّر البنتاغون أنه يحتاج إلى أقلّ من نصفهم لمحاصرة العراق واحتلاله. لكن في ذلك، لم يقم أحد بمثل هذه المقاومة. وقد أقنع ضبّاط الجيش الملكي الصحافيين بارتداء أقنعة الغاز ونصحونا باستخدام نظام «بادي بادي» بحيث إنك تستطيع مساعدة زميلك بأن تضع الفيلتر في قناعه بعد الانتهاء من وضع قناعك أولاً... وفي أثناء ذلك يكون زميلك قد مات اختناقاً. ويحتاج مُجمل هذه العملية الرديئة إلى قوّة بدنية ـ جملة أشكّ في أنّ العسكريين حصلوا عليها من الصحافة ـ بينما كانت غالونات من كوكتيل صدّام الشرّير تحيط بنا.

زيارة واحدة إلى الفرقة الأجنبية الفرنسية (نبيذ أحمر في الصحراء يزعج أكثر من جرعة ماء ساخن بريطانية) أقنعتني بأنّ هناك أساليب أبسط لتجنّب الانتشار الكيميائي. وقد أخبرني عنصر بريطاني في الفرقة البرّية الثانية من شرق لندن، أن وحدته لديها تعليماتها الميدانية الخاصّة. قال: «مبدئياً، عندما يكون هناك إنذار بهجوم بالغاز،

يُطلق أحدهم صفّارة إنذار ونتجمّع في الشاحنات وننطلق خارج المنطقة». بدا ذلك شديد الحساسية بالنسبة إلى «الغازيت» السعودية، وهي الصحيفة التي فشلت في إبلاغ قرّائها بأن مئة ألف جندي عراقي احتلّوا الكويت وقتلوا شقيق الأمير وهم يقفون على الحدود السعودية.

«ما يجب أو لا يجب فعله عند حصول هجوم بالغاز»، اقرأ العنوان الرئيسيّ في الصفحة الرقم ٣. كان ذلك أحد أكثر مقالات الأطبّاء حصريّة في العالم. مقالٌ يتطرّق إلى السعوديّة بالقدر الذي يتطرّق إلى الحرب الكيميائيّة. أمّا الذين يتذكّرون كيف عزا الملك فهد في تلك السنة مقتل ١٤٠٠ حاجّ مسلم في مكّة إلى مشيئة الله، فسوف يجدون محتوى ذلك المقال مألوفاً بعض الشيء.

ويقول المقال: «إذا كنت خارج منزلك في العراء، ولا تستطيع عمل شيء سوى قبول مصيرك». من جهة أخرى، «إذا كنت في البيت فانظر من النوافذ إلى الطيور وهي تهوي عن الأشجار وإلى القطط والكلاب والبشر يتساقطون ويختنقون، والسيّارات تتصادم، والفوضى عارمة، هذه كلّها علامات هجوم كيميائي. عندما ترى مثل هذه الأشياء تحصل، أحكم إغلاق الأبواب والنوافذ ولا تدع أحداً يدخل أو يخرج من البيت». وتتضمّن التعليمات المساعدة الأخرى: ارتداء ملابس طويلة وجوارب وقبّعة وتغطية الرأس كليّاً بمنشفة مبلّلة أو غطاء... ادخل تحت الدوش وابقَ هناك»...(*) لكن صحيفة «الغازيت» السعودية لم تشأ إخافة قرّائها، فقد تضمّنت صفحتها الأولى يوم ٤ آب/ أغسطس ١٩٩٠ فقرة واحدة غريبة، تقول: «تبادل الملك فهد وبوش وجهات النظر حول الوضع في المنطقة على ضوء التطوّرات الجارية». كان ذلك هو الامتياز الخالص للصحيفة بالنسبة إلى الحقيقة، وكان «التطوّر الجاري» يتمثّل باحتلال العراق للكويت. وقد أُعطي الأميركيون توجيهات ثقافية، كان بعضها شديد الحساسية: «لا تشرب الكحول، لا تظهر أيّ اهتمام بنساء العرب، لا تفقد أعصابك»؛ وأخرى تكشف المشاكل الحقيقية لسياسة أميركا ـ الشرق أوسطية ـ إذ تضمّن الدليل الرسمي للجيش الأميركي في السعودية مقطعاً بعنوان: «مناطق حسّاسة» يحثّ الجنود الأميركيين على عدم مناقشة المقالات والمواضيع التي تتحدّث عن علاقات الصداقة بين أميركا وإسرائيل، أو «التظاهرات ومشاعر العداء للعرب في الولايات المتحدة»، أو «دعم الأنشطة الإسرائيلية»، أو «الوجود في لبنان». الواقع أن هذا الدليل العسكري لا يستطيع حتى الإشارة إلى غزوات إسرائيل أو إلى الاحتلال بمثل هذه الكلمات، لأن تلك المواضيع كانت أكثر حساسية للبنتاغون منها للعرب الذين يستطيعون مناقشتها. وقد تضمّن مصنّف سابق للجنود الأميركيين تعليمات حول «تجنّب النقاش حول اللوبي (جماعة الضغط) اليهودي أو المعلومات الأميركية المعطاة لإسرائيل»، وهي تعليمات ألغاها البنتاغون الأميركي كلّياً بعدما كتب المؤتمر اليهودي العالمي رسالة إلى وزير الدفاع الأميركي ديك تشيني (نائب الرئيس حالياً)، يعبّر فيها عن استيائه وعن «شعور عميق بالأذى والغضب». وطُلِب إلى القوّات الأميركية أن تعمل على «إبراز كامل قِيَم التسامح والتعدّدية والانفتاح التي جعلت من الولايات المتحدة مجتمعاً ديمقراطياً واحداً». وبذلك نجح الضغط اليهودي في شطب كل نقاش حول اللوبي اليهودي.

(*) كان الاغتسال تحت الدوش بشكل مستمرّ نصيحة جيّدة لضحايا هجوم كيميائي، وكانت القبّعة إضافة غريبة إلا إذا كانت بغطاء مقفل.

وجرى حثّ اليهود الأميركيين أيضاً على التذكّر أنّ «النبي محمّد مؤسّس الإسلام وُلِد في السعودية عام ٥٧٠ ميلادي، وكان لهذا الواقع تأثير عميق في السعودية، جاعلاً منها المركز المميّز للدين الإسلامي». صادفت لاحقاً هذه الرواية السعودية لهذا الدليل، في إحدى الليالي عندما كنت عائداً من الظهران بعد زيارة إلى الحدود الكويتية، وتوقّفت عند نقطة مراقبة: توقّفت شاحنة عسكرية سعودية، وتوجّه منها جنديّان نحو سيّارتي، قال لي أحدهما: «سيّدي، نريد منك أن تأخذ هذه»، وقدّم لي منشوريْن مكتوبيْن بالإنكليزية من إعداد منظمة الشباب المسلم العالمية، وتوزيع مركز الدعوة الإسلامية والإرشاد في الدمّام. كان عنوان المستند الأول «سيف الإسلام»، وهو يدّعي أن مجرّد لمعان هذا السيف «يزيل الكذب كما يزيل الضوء الظلمة». ويتضمّن سلسلة تعليقات من غربيين اعتنقوا الإسلام بمن فيهم كات ستيفنز ـ الذي مُنع من الدخول إلى أميركا عام ٢٠٠٤ بتهمة كاذبة كلّياً تقول بأنه كان متورّطاً في الإرهاب ـ الذي يحمل اليوم اسم يوسف إسلام. ويشتمل البيان على قول لستيفنز: «من الخطأ الحكم على الإسلام في ضوء تصرّف بعض المسلمين السيّئين الذين يقدَّمون دائماً للإعلام».... وهذا مثل الحكم على سيّارة بأنها سيّئة إذا كان سائقها ثملاً»... ويحثّ المنشور الثاني كلّ أجنبيّ «كافراً، كان أو لا أدرياً، أو مؤمناً بالديمقراطية والحرية» على دراسة حياة النبيّ وتعاليمه.

وقال لي الجندي السعودي: «أعطينا هذه المنشورات للأميركيين». كان رجلاً طويلاً ملتحياً، حيّاني ثم عاد إلى شاحنته. كانت شاحنة أميركية الصنع بالطبع، وكانوا يعتمرون قبّعات أميركية (كڤلار) وتحت قيادة أميركية: كان هذا فعلاً مصير العديد من المسلمين: العيش تحت المظلّة الغربية... إنها لمفارقة!!! أن يكون على السعوديين (مثلهم مثل الإيرانيين) العيش في بلد طُرقها السريعة وأنظمتها الضريبية من صُنع أميركي، وقواعدها الجوّية من صنع أميركي، وطائرات الهليكوبتر والطائرات المقاتلة والقاذفات فيها أميركية، وأن يعيشوا في دول بُنيتها التحتية أميركية، وأمراؤها (أو في حالة إيران: ثوّارها) درس معظمهم في الولايات المتحدة، أو يتكلّمون الإنكليزية بلكنة أميركية. ربّما كانت وجهة نظر الرئيس بوش وجيهة عندما أوضح أن الانتشار العسكري في السعودية يهدف أيضاً إلى الحفاظ على نمط العيش الأميركي، وأنه لم يكن يفكّر قطعاً بالدين، أو بقطع الرأس السعودي. لكنّ السعودية لم ترتدِ الملابس السعودية فقط، بل كانت بلاداً مليئة بالمنتجات البريطانية، بما في ذلك المزيد من الطائرات، التي يفوق عددها عدد الطيّارين السعوديين الذين يستخدمونها. ويعود الفضل في ذلك إلى صفقة ١٩٨٨ في اليمامة البالغة قيمتها ٢٣ مليار دولار، وهي تتضمّن شراء ١٣٢ طائرة تورنادو وهوك، وعمولات أعطيت للوسطاء البريطانيين ولنظرائهم في العائلة الحاكمة السعودية. وقد قام مكتب التدقيق البريطاني الوطني بإجراء تحقيق حول الموضوع عام ١٩٨٩، لكنّ التقرير حُفظ لتجنّب إغضاب السعوديين، بحسب ما قالت الحكومة البريطانية. وكانت رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر متورّطة شخصياً في المشروع وذلك بحجّة منع المنافسة الفرنسية والأميركية. بالطبع «ليس للنفط على الإطلاق أيّ علاقة بانتشار القوّات الأميركية في السعودية». وإذا كان ادّعاء الجنرال نورمان شوارزكوف هذا دليلاً مُرضياً للذين يخشون ذلك، فإن البلاغة والحقيقة كانتا شريكين في الشرق الأوسط. ويجدر القول هنا إنّ الجنرال قد أدلى بتصريحه في لحظة تجلٍّ لخيال حقيقي. ولأنه القائد الأعلى للقوّات الأميركية في الخليج، فقد استخدم لغة مقرونة بالدبّابة. «على الإطلاق»، قال شوارزكوف وهو يحدجني بنظره عندما كنت سهل

الانقياد للقول إن الحماسة الأميركية للدفاع عن السعودية لها علاقة ما بالبترول. «لا أعرف لماذا يظلّ الناس يتحدّثون عن هذا الموضوع، حقيقة لا أعلم. وإذا كان في ذهن أحدهم شيء ما حول ما قام به العراق، فأقترح عليه البحث عن مجال آخر للعمل. ما لديكم هنا أمر واضح: إنه ليس ظلماً بل اغتصاب». عندها قامت فِرق التلفزيون الأميركي بتشغيل كاميراتها وتسجيلاتها، فهنا جنرال لا يتكلّم بلغة العسكر فقط، أو ما اعتقده التلفزيون لغة عسكر، بل هو يتكلّم بلغة لطيفة ولاذعة أيضاً. صرخ: «هذا انتهاك أوّليّ للنظام الدولي، كلنا نشمئزّ عندما تُغتصب سيدة عجوز في نيويورك بوجود شهود بلغ عددهم ٢٤ شخصاً لم يفعلوا شيئاً لمنع الجريمة... ليس الأمر مسألة نفط... ليس هناك أيّ جندي يفكّر على هذا النحو».

إذاً، كلّ هذه الرواية عن الدعم الأميركي لصدّام كي يغزو إيران واعتداءاته الكيميائية على الإيرانيين والأكراد، وغضّ واشنطن النظر عن غُرف التعذيب والقبور الجماعية، كلّ ذلك سكتت عنه العالم، ولم يتحرّك إزاءه كأنه لم يحصل. كان على الذين التقوا منّا ولو جندياً أميركياً واحداً لا يعتقد أن الأمر يتعلّق بالنفط، أن يلتزموا الصمت لاحقاً. وعندما سألنا الجنرال لماذا لم تستخدم أميركا قوّاتها لمنع ضمّ دول شرق أوسطية أخرى واغتصابها، قيل لنا لا تكونوا مغفّلين!

أحبّ شوارزكوف، الرجل الضخم ذو الصدر المنتفخ والرأس الشبيه بالكرة الأميركية، كلّ ذلك. فقد كان أصلاً «الجنرال» الذي خدم دورتيْ قتال في فيتنام، للفرقة الأولى في قوّات المشاة الأميركية التعيسة. التي كانت مسؤولة بالفعل عن مجزرة ماي لاي ـ وهو بالفعل لم يكن قائداً لكل وحداتها ـ والرجل الذي يحمل ١٤ وساماً عسكرياً بما فيها وسام الخدمة المميّزة والنجمة الفضّية وفرقة الشرق ووسام الطيران وقلبان أرجوانيان.

بالطبع لم يسأل أحد عن والده نورمان شوارزكوف الآخر، الذي ساهم في تدمير الديمقراطية الإيرانية عام ١٩٥٣ مع كرفت روزفلت ومونتي وودهاوس. سُئل: كيف هي المعنويات العراقية؟ «يا يسوع! أرجو أن تكون منهارة! أن يكونوا جوعى وعطاشاً، وأرجو أن تكون ذخيرتهم قد نفدت... أظنّ أنهم مجموعة من المجرمين». هل هناك أيّ فرصة ليجتاح العراقيون السعودية؟ «الفرق أننا هنا الآن، وإذا قاتلوا فعليهم مقاتلتي، ليست المسألة التسلّط على جار ضعيف، لا يريد السعوديون أن يُنظَر إليهم كجار ضعيف، كانوا أقوياء، واثقين وقادرين على الدفاع عن أنفسهم، أليس الليفتنانت جنرال الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز قائد القوّات المشتركة؟». وبالفعل، وبينما كنّا نستقصي في وسط الغابة العسكرية التي كانت تحاصر الخليج، اكتشفنا أنه لم يُسمح لأيّ جندي أو طاقم دبّابة أميركية بتجربة سلاحه منذ بداية انتشار القوّات. وقد رفضت السلطات السعودية السماح للأميركيين بتجريب أسلحتهم خشية أن يسمع السكّان المدنيين أصواتها. وحتّى السفينة الحربية العملاقة «يو أس أس ويسكونسين» USS Wisconsin، التي تستطيع تسعة من مدافعها الستة عشر إطلاق قذائف تصل إلى ٣٠ كلم، مُنعت من الإعلان عن موعد تدريباتها بالذخيرة الحيّة وذلك لتجنّب الفوضى على ساحل الخليج. وفي بعض نقاط الصحراء الشرقية كان على فرقة المشاة ٢٤ إعادة تمركز دبّاباتها لأن جنازيرها تُعرّض مراعي الجمال للضرر.

إذاً، كان السعوديون يُضعفون موقّتاً القوّة العسكرية الأميركية، إذ إن الجيش الأميركي كان يقوم بعملية تحوّل نفسي مهمّة لقوّاته. فعندما غزا الجيش العراقي الكويت يوم ٢ آب/أغسطس، كان جيشاً مليونياً قويّاً مقاتلاً، أكمل قدرته الهجومية بقوّة مقاتلة صلبة. غير أن الضبّاط السعوديين والأميركيين يستخلصون من الأنباء التي يرويها اللاجئون الكويتيون أن القوّات العراقية تنهب المحلّات والمنازل وهناك عمليات اغتصاب وشنق. وقد تحدّث الضبّاط الإنكليز عن الجيش العراقي قائلين: «فوضى عارمة بمعنويات منهارة». أما في ما يهمّنا فقد أبلغنا قُبطان المدمّرة البريطانية «يورك» بأن هناك خداعاً كبيراً حول الحرب الكيميائية. ومع ذلك، ففي بداية تشرين الثاني/نوفمبر كان كتاب «الترتيب القتالي لعاصفة الصحراء» المعدّ من قِبل رئيس جهاز الاستخبارات، يصف الجيش العراقي مجدّداً «كأفضل جيش تجهيزاً، والأكثر خبرة قتالية في العالم، والمميّز بمرونته وقدرته العالية على الحركة». ربّما يتوقّف الأمر على نوعية الجمهور الذي نتحدّث إليه. عندما تحدّث الجنرال كولن باول، المفترض أيضاً أنه ليبرالي ووزير خارجية (ومفكّر بليغ في إدارة بوش الآن بعد عشر سنوات) إلى قوّات البحرية الأميركية على متن المدمّرة ويسكونسين يوم ١٤ أيلول/سبتمبر، قال: «كان صدّام هو الجوكر الذي وضعناه في بغداد والذي قال العالم له: لا نستطيع قبول هذا النوع من القذارة بعد الآن». وإذا أراد أحدهم مقاتلة الولايات المتحدة، قال باول لرجاله: «فارفسوه بأرجلكم». في هذا الوقت كان الفلسطينيون في الكويت أكثر استهزاءً بحسب قول آلان كلارك وزير الخارجية البريطاني، الذي ادّعى في البحرين أنهم شكّلوا ميليشيا غير رسمية في الكويت، وزعم أن العديد منهم استولى على أسلحة عندما تبدّل الوضع.

في الظهران كان خط الطيران شاهداً على كل قادم، على آلاف الجنود الأميركيين الشبّان وهم ينزلون سلالم الطائرات، حاملين زجاجات ماء بلاستيكية مصدومين من الحرارة، والذين اكتشفوا فجأة أنهم قابلوا عدوّهم الرئيسي هنا على أرض المطار. كانت على وجوههم ندوب وشرائط بين الندوب والخُوَذ، بحيث يبدون كمئة نسخة قوية للرجل الخفيّ. وكانت القاعدة الجوّية تضجّ بأصوات الناقلات والدبّابات التي تشقّ الغبار قرب صواريخ الباتريوت المضادّة للصواريخ غير المجرّبة بعد. وقد أصبح الصحافيون جزءاً من هذا الانتشار العسكري. لقد أحضروهم لتصوير عمليّات الوصول المستمرّة، وذلك (بشكل رئيسي) لإعطاء شعور بأن في السعودية قوّات أميركية أكبر ممّا هو متوقّع، ولتعزيز الاعتقاد أن هذه القوّات تمثّل القوّة التي لا تقاوَم، كما اعترف شوارزكوف. وإذا كانت الحرب ستندلع، فسوف يسمح للصحافيين بمرافقة القوّات بوسائل نقل مشتركة. وقد قاتل المراسلون والصحف وشبكات التلفزة بضراوة للانضمام إلى هذه الوسائل حيث إنهم سيخضعون للمراقبة والمنع وتقييد حريّة الحركة على أرض المعركة، في حين يفترض أن يخضع الباقون لأنظمة الكابتن مايك شيرمان. وكان شيرمان الذي هو أقصر من الرجل العجوز الخشن الذي شقّ طريقه عبر كارولينا، يمتلك نظرة ثاقبة مليئة بالقسوة كأحد أسلافه، الجنرال وليم تكومسي شيرمان. لم يكن ذلك مفاجئاً، لأن الكابتن شيرمان كان يقود أحد أكثر الأسلحة الأميركية فتكاً في الخليج، سفينة حوت كبيرة راسية بشكل دائم في قاعة رقص رائعة من الأحلام والتوقّعات في فندق الظهران الدولي. وكان مجرّد القول بأن قاعة الرقص كانت في الظهران كافياً للحصول على إحدى رسائل الكابتن شيرمان التخديرية الشهيرة، لأن على متن السفينة قوانين يُتوقّع من الصحفيين الذين يتمتّعون بالتسهيلات الحربية

الالتزام بها. أمّا حالات خرق القوانين الميدانية من قِبل ١٣٠٠ صحفي ومراسل تلفزيوني وقّعوا على تغطية الحرب بما في ذلك ستر هويّة القواعد العسكرية (حتى قاعدة الظهران التي استخدمها الطيّارون العراقيون خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، ولذا كان شيرمان قلقاً)، فستعالج كلّ حالة منها على حِدة. هناك شبه بأستاذ المدرسة، لأن قيادة الكابتن شيرمان المعروفة رسمياً باسم المكتب الإعلامي المشترك أو (JIB) هي بحدّ ذاتها مدرسة. إنها تُثير وتُعقّد وتُغضب وتُضلّل.

في الأيام الخوالي، في منتصف آب/أغسطس عندما كانت الحرب وشيكة، أدار شيرمان المكتب الإعلامي بستة ضبّاط عسكريين في ركن من مدخل الفندق، وعلى مقربة منهم جلس مندوبان من وزارة الإعلام السعودية في غرفة مشابهة. لكن مع توسّع أهداف أميركا العسكرية، كقرار بوش بتحرير الكويت الذي تحّول إلى قرار بالقضاء على صدّام حسين، تحولّت مقصورة الكابتن شيرمان إلى شيء أضخم وتحرّكت إلى أعلى، من تحت سقف كبير أزرق تتدلّى منه بيضات ذهبية إلى قاعة رقص أكبر فيها سجّاد وهواتف وآلات طباعة وأكياس للعتاد وبنادق وسجلّات ومعلومات أكثر لأي شخص يريد الحصول على آليّات قتل الآخرين من البشر. إلى اليمين جلس ممثّلو التحالف العسكري الغربي خلف ستار طويل، ثلاثون ضابطاً بلباس عسكري من سلاح البحرية الأميركية، والجيش، والسلاح الجوّي والبحرية، وطاقم جديد من العناصر، وعلى رأسهم شيرمان وفريق من موظفي وزارة الدفاع البريطانية. إلى الجهة الأخرى في الغرفة، جلس ١٨ سعودياً مع آلات الكمبيوتر والهواتف وكل واحد منهم يرتدي كوفيّة ودشداشة بيضاء. وعلى مكتب منعزل، جلس أيضاً ممثل عن الحكومة الكويتية في المنفى موزّعاً صوراً ملوّنة لضحايا التعذيب. وبشكل مشابه للشبّان والفتيات في درس الرقص، كان الغربيون نادراً ما يعبرون الغرفة للحديث مع السعوديين المواجهين. كان الصحفيون وحدهم يتحرّكون بين الثقافتين، ستة أمتار ربّما كانت تفصل قوة الغرب عن مهد الإسلام. وكان في طرفي القاعة جهازا تلفزيون كبيران. في الجهة العربية، كان التلفزيون السعودي يبث مباريات كرة القدم والصلوات، وفي الجهة الأميركية، كانت «السي أن أن» تبث طريقة العيش الأميركية، وكان كثير من السعوديين يشاهدون «السي أن أن». في سوق الحرب هذه، كان مراسلو خمسين بلداً قادرين على طلب معلومات حول صواريخ باتريوت، وترتيب زيارة ليلية إلى موقع القوّة المجوقلة ٨٢، وتناول الفطور مع طيّاري سرب طائرات تورنادو Toronado الملكية البريطانية، وطلب معرفة مدى طائرة ف ١٥ والقوّة التدميرية لقذيفة سايدويندر أو سعة برميل دبّابة شالنجر. كانوا يستطيعون التسجيل في الباصات والطائرات التي تقلّهم إلى السفن الحربية الأميركية، وإلى الوحدات المصرية المدرّعة والقوّات السورية الخاصّة ووحدة المشاة الأميركية ١٠١ ووحدة المدرّعات الأميركية الأولى أو جنود الاحتياط من بورتوريكو. وكان السعوديون يواكبون أيضاً المراسلين إلى سوق الجمال في الهفوف. وقد احتاج الأمر بضعة أيام قبل أن يكتشف المرء أنه إلى جانب الإثارة هنالك أيضاً شيء مقلق جدّاً حول المكتب الإعلامي المشترك.

تغلّبت الوعود بشأن القدرة العسكرية وقوّة العيارات الناريّة وعبارات الثقة والتفوّق التقني والمعدّات، على

نوعية اللاوعي. ولفترة كان يمكنك تعلّم كلّ ما ترغب فيه عن القوّة التدميرية لمدفع ١٥٥ ملم أو خصائص القنبلة العنقودية، وكان من غير المسموح به نقاش نتائج استخدامها.

ماذا يحدث عندما تنفجر قنبلة ١٥٥ ملم أو سايدوندر؟ كان هناك كلام كثير عن تعطيل أهداف وخسارة أشخاص وطريقة جعل وحدات العدو غير ذات فائدة. ويمكنك طلب زيارة الوحدة المدرّعة السابعة البريطانية المدرّعة، لكن ليس مستودع الجثث. وكانت طلبات زيارة الأماكن الطبيّة مسموحة. وعند السؤال عن أكياس الجثث التي تصل إلى الظهران، كان الردّ أن سؤال المراسل تافه.

فهذه الحرب خيضَت من دون مجازفات. لقد كانت حرباً نظيفة ـ لم تكن جحيميّة بل فقط عديمة المسؤوليّة يتدفّق سيل المعلومات فيها فجأةً عند بدء الصدام، مثل الجنس بدون لذة... كان من السهل تقييم المكتب الإعلامي الأميركي: دراما وتسلية لكلّ العائلة. إذا كنت مؤمناً بالمكتب الإعلامي، فليس ما يمكن تصوّره بالنسبة للمستقبل.

كان صدّام حسين هو الذي احتكر سوق الموت. فلم يعلن العراقيون أيّ معلومات حول آلتهم العسكرية ولم تكن هناك تسهيلات لزيارة الحرس الجمهوري. لكن بعد الغارات، كلّ ليلة، كان صدّام يتحدّث عن الصحراء التي تحوّلت إلى مقبرة لعظام تسطع تحت الشمس أو جثث تتحلّل تحت وطأة الحرّ. ووصفت الإذاعة العراقية تعفّن الموت بأنه ثمن حاسم للوطنية العراقية. وتحدّث الأميركيون عن الثقة بينما تحدّث العراقيون عن الأنذال. لكن إذا كان الكابتن شيرمان يسوّق الآن للحرب، فقد كنّا نحن الصحافيين مندوبي تسويق. أنظر إلى زملائي في قاعة التأمّل الذين لبس العديد منهم لباس التعب العسكري. كان مراسل غانّيت نيوز سرفيس Gannet News Service يسوّق لبطاقات تعريف عسكرية علّقها على ملابسه. وظهرت سيدة من تلفزيون صوت كولومبيا في المكتب الإعلامي مرتدية اللباس العسكري الأميركي. واحتذت لوفونتانا من WISTV جنوب كارولينا، جزمة مغطاة بأوراق شجر ميتة وهي تُباع عادةً للصحراء في متجر بارون لمعدّات الصيد. (إن أيّ شخص ألقى نظرةً على صحراء، أو حتى رآها خلال صورة، يدرك أنه لا توجد أوراق شجر على الرمل أو أشجار أو أي شيء). خلف الستائر، يشعر رجال الكابتن شيرمان ونساؤه، وبعضهم صحفي في الحياة المدنية، بالراحة مع الصحافة أكثر ممّا يشعرون به مع العسكر.

كان شيرمان نفسه متمركزاً في كاليفورنيا وكان مستشاراً بحرياً لبرنامج هرمان ووك التلفزيوني ـ الحرب والذكرى. وحصل الملازم البحري تشارلز هسكنسون على درجة عالية في دراسات الشرق الأوسط، ونظراً إلى مَيله المهنيّ الحقيقي عمل مراسلاً صحافياً في مجال التعليم و السياسة في صحيفة «غرينفيل» اليومية في شمال كارولينا. لقد دأبتُ على مقابلة جنود البحرية الذين يرغبون في كتابة قصص: المراسلون باللباس العسكري والجنود بلباس الصحافة، في شرايينهم علاقة توحي بالتعايش والتآلف. ويبدو أن نصف الجنود يرغبون في العمل في مجال الصحافة.

كان الباقون يتحلّلون بعيداً في الصحراء، يأكلون الطعام الجاهز ويتأمّلون النجوم والخطوط، ويتساءل العديد منهم كيف وقّع على دخول معهد التدريب ليجد نفسه على الشاطئ الكبير بانتظار قتال رجل لم يسمع به إلا قبل رحيله بأسبوعين. وكلّما سنحت لي الفرصة كنت أقوم برحلة رسمية أو غير رسمية إلى الصحراء، مع جنود صادقتهم في الظهران، أو في طلعات رسمية كان ينظمها شيرمان ورفاقه، أو مع الصحافيين الفرنسيين الذين رفضوا بروح حرّة الالتزام بالتعليمات وتحرّكوا ببساطة إلى الصحراء بحثاً عن صور ومقابلات مع جنود من أي نوع كانوا: أميركيين، إنكليزاً، مصريين، كويتيين، سوريين، سعوديين، وحتى باكستانيين. أجل، فالوحدات الخليجية تضمّ جنوداً آسيويين، هم الترجمة العسكرية لكلّ تلك الملايين من الخدم الباكستانيين والفيليبينيّين والسيريلانكيين والهنود، الذين يُستعبدون عبر الجزيرة العربية للأسياد والسيّدات العرب.

كانت الصحراء عدوّ هؤلاء الجنود كما كانت عدوّنا. كانت الشمس تسطع كالسيف والرمال تغزونا. كانت الرمال الحارّة والجافّة واللاصقة نفسها التي شقّت طريقها إلينا في الحرب الإيرانية ـ العراقية، بلّوراتٍ سكّرية سميكة أو ناعمة مثل ملح الأرض، بُنّية أو بيضاء أو رمادية تلتصق بالشُعيرات في آذاننا وتستقرّ بين أصابعنا رطبة ومدغدغة ما بين ثنايانا، ومتفجّرة مثل رشّاش لزج من الماء على وجوهنا منسابةً بين عيوننا وجفوننا... ريح جاء وصفها في كتاب «بادرة جميلة» Beau Geste لـ پ.سي. وارن ـ وهو كتاب أعطاني إيّاه والدي عندما كنت صغيراً ـ كالآتي «ليست بعاصفة رملية، بقدر ما هي سحابة أو غيمة، أو غبار ناعم كالطحين، يملأ العيون، والرئتين، والمسامّ الجلدية، والأنف والصدر ويدخل في فتحات البنادق والساعات، وفي الماء والطعام، جاعلاً الحياة عبئاً ولعنة».

فتّشت على ولفريد أوين وحتى على روبرت بروك الموجود في الصحراء، متناسياً أن بروك كان جندياً يافعاً وأن شِعر أوين صُقل في الحرب وليس في السوبرماركت على الطريق السريع بين الظهران والخفجي، حيث يصطفّ الجنود لشراء الحليب (اللبن) المخفوق وشوكولاتة كادبري والبوظة (آيس كريم)، ويقفون في الباحة ومعهم هواتفهم النقّالة يتصلون بسيدار رابدز Cedar Rapids أو البريستول Bristol ويتذمّرون من البريد وغياب المشروب والنساء ووجود العقارب، وهي حشرات كبيرة نشطة تصل في الليل لتبدّل ألمَ الإحساس بالحرّ بألم الجلد الممزّق ونقص الأخبار. بالطبع لعبنا على ذلك كلّه نحن الصحفيين. أخذنا معنا مجموعة من الصحف، وهواتفنا التي أفادتنا كثيراً حين كنا نرى الجنود على الخط السريع حيث السيّارات معطّلة، وكنّا ندعهم يتصلون بالوطن مجّاناً. وعندما قاموا بذلك شعرنا بأن انضباطهم وأنظمتهم تلاشت فأصبحنا أصدقاء للذين يستطيعون التعبير عن خوفهم ووحدتهم وعدم استعدادهم المذهل لإمكانية الذهاب إلى الحرب.

كم مرّةً سألني جنود البحريّة أو المشاة أو سائقي سيّارات الإسعاف، إذا كان باستطاعتهم استعارة خرائطي أو شراؤها؟ جنود بدون خرائط، جنود لا يعرفون أين هم في هذا المحيط من الرمل... الرمل المتحرّك بسرعة فوق الأرض تحوّله الرياح إلى غبار عبر إيران وتركمنستان ملطّخة (البحر) المتوسّط باللون البنيّ، مكدسةً إياه خلال

الرياح الخمسينية على شرفتي في بيروت، ناشرةً إياه فوق اليونان وجنوب إيطاليا وعميقاً في تلك الأجزاء من أوروبا التي لم تصل إليها الغزوات العربية أبداً.

لا شعراء في سَريّة برافو التابعة لفرقة المشاة الآلية ٢٤. وقد اعترفوا أن رسائلهم للوطن مليئة بالملل وأوصاف الحرارة. يقرأون قليلاً، ينامون، يعملون كثيراً غالباً في الليل عندما ينتعش الهواء. يعيشون في عالم من السكون الضاغط بحيث تستطيع أن تسمع الجندي أندرو شوميكر يفتش في القعر الحارّ لدبّابته M1. وعندما يصعد إلى البرج كان يعمل وفي يده قطعة كرتون بنّية، يتكئ على كتفه الأيمن فوق مخزن الرشّاش ثم يقوم ليبعد الرمل الناعم اللامع بيده اليسرى قبل أن يجلس على الجزء الملفوح من الدبابة. ثم يبسط ورقة الكرتون بعناية كبيرة كما لو كانت رسالة حبّ، فتبدو عليها مجموعة من الخطوط المستقيمة التي تتقاطع وتنقسم إلى سلسلة من الدوائر المرسومة بدقّة. ولكل دائرة اسم: زُحل، أورانوس، بلوتو، عُطارد، الأرض، وفي الأعلى بخط اليد وضع الجندي شوميكر خطاً تحت عبارة «لعنة الكوكب». هذه فكرته. وكل ما تحتاج إليه هو مجرّد «نرد». قال بأسلوب خجول: «أردت أن أبقي الشباب بعيداً عن الملل. ينطلق كلٌّ منّا في سفينة فضائيّة من كوكب الأرض وعلينا السفر بعيداً في الفضاء. عند كلّ كوكب، المرّيخ على سبيل المثال، علينا التزوّد بالوقود. لكنّ المسافات كبيرة جدّاً بحيث ينفد الوقود. عليك محاولة الوصول إلى كوكب آخر قبل أن ينفد الوقود، وعندها تستطيع التزوّد به. «ومَن يستمرّ حتى النهاية يكون هو الرابح، ويخسر الآخرون».

لم يلاحظ الجندي شوميكر، على ما أعتقد، أنه حجز أرواح طاقم دبّابته في هذه الورقة المستطيلة المطويّة. عزلة، حاجة ماسّة إلى الوقود، الخوف من المجهول. كان أصدقاء شوميكر جالسين على الدبّابة حوله وعلى الرمال قرب الجنازير ينصتون بانتباه بينما يشرح هو شروط اللعبة. في اليوم الحادي عشر من استقرارهم على الكوكب الشاسع الموحش لم تصلهم أي رسائل من الوطن، ولا أي صحف أو طعام ساخن. وليس لدى معظمهم خرائط. وعندما يتحدّثون يقومون بذلك على شكل حوار كونهم فكّروا كثيراً وتحدّثوا قليلاً منذ وصولهم.

من الجهة الأخرى لمخزن المدفع الرشّاش كان الرقيب دارين جونسون يجلس القُرفصاء، وعيناه شاخصتان إلى تلك النقطة في الصحراء حيث الرمل شديد البياض والسماء الزرقاء باهتة بحيث أصبح الاثنان واحداً. لا ينظر إليك ولو مرّة وهو يتكلّم. تزوّج منذ ٢٠ يوماً. «اسمها فيرجينيا، أحبّها وأعتقد أنْ ليس فيها شيء مميّز سوى أنها تضع عدسات لاصقة زرقاء». ويضحك الآخرون بتوتّر. «لقد عرفتها منذ عشرة أشهر. لقد كانت تعمل لدى «هاردي» عندما التقيتها». «كان من المقرّر أن نتزوّج في عيد ميلادي يوم ٢٣ أيلول/سبتمبر، لكن تمّ استدعائي إلى ثُكنة ستيورات يوم ١٧ آب/أغسطس وقرّرنا معاً الزواج فوراً. أجرينا مراسم الزواج في منزل والدتها. كان أقاربها هناك ولم تستطع والدتي الحضور، وبقيت معها ثمانية أيام أو تسعة». كان الرقيب جونسون لا يزال ينظر نحو الأفق المفقود وكانت أفكاره تتخطى ذلك الأفق. «جاءت لتودّعني في المطار. وأنا أوفر حظاً من بعضهم. كان هناك شابّ، وأومأ بيده نحو الأرض الصافية إلى الغرب، بقي ٣ أو ٤ ساعات فقط مع زوجته. تزوّج عند الغداء

يوم مغادرتنا. لقد كتبت رسالتيْن لفرجينا حتى الآن. ماذا قلت لها؟ قلت إنني بخير وإنهم لن يفعلوا شيئاً». كانت «إنهم» إشارة جونسون إلى صدّام حسين والرئيس بوش.

لكنّ ما قاله لزوجته كان كذبة. قال: «حتى لا أحزنها». ويعتقد جونسون أنهم سيقومون بشيء ما بالتأكيد. قال «يبدو أن ذلك سيحصل، ولكن إذا حصلت حرب أتمنّى أن تنتهي بسرعة. أن أُصاب بجروح تشغل تفكيري كثيراً، أجل أفكّر في ذلك كثيراً. أعتقد أنني أشعر بأمان في دبّابتي، وأنني سأنجو من هنا. إنني أعمل في مجال الدبّابات منذ سبع سنوات وأعرف ماذا تصنع».

عندما صعدت إلى دبّابته لم تكن آمنة كثيراً. من جهة كان هناك مقعد مغطّى ببلاستيك أسود وكان موقع الرقيب جونسون إلى يسار مؤخّرة المدفع، وإلى اليمين موقع الجندي شوميكر مع قناعه المضادّ للغاز المتدلّي من الخلف. وربّما كانت المسافة ٦ أقدام من طرف إلى الطرف الآخر. ويشير ميزان الحرارة على صندوق الذخيرة إلى ٥١,٧ درجة مئويّة. وعندما تتحرّك الدبابة تصل الحرارة إلى ٥٧,٢. عندما أخرجت نفسي من سفينتهم الفضائية الهزيلة، كان الرجال يضعون أيديهم على وجوههم لحمايتها من العاصفة الرملية. وكانت الصحراء مليئة بأغصان الشجر المحطّمة واليابسة.. وتحت شباك التمويه الكثيفة تبدو سريّة دبّابات «برافو» المنتشرة على الرمال كالعملاق الذي جعلته شباك خيوط العنكبوت الطويلة المميتة متحلّلاً ومسنّاً، مجمّدةً إياه في رمال الصحراء... لكن لا توجد حماية من رمال الصحراء. فالحُبيبات تدخل إلى رؤوسنا مثل الحشرات وإلى آذاننا وأفواهنا وأنوفنا. وعندما أشعر بالرمل أحسّه يُقضم تحت أسناني. وبينما كنت أتصبّب عرقاً خلف الدبّابة، كان العرق يترك آثار رمل على وجهي. كان شوميكر وجونسون وزملاؤهم بكامل لباسهم القتالي ويرتدي معظمهم الخُوَذ. لا توجد رشّاشة للاغتسال: هناك خيوط رفيعة بين التهكّم والواجب، وبين التذمّر والشجاعة، ليست واضحة مثل لعبة الجندي شوميكر. كان الجندي الاختصاصي كليفلاند كارتر غير متحمّس لهذه المغامرة في الشرق الأوسط. «أنا أحبّ الجيش، ولا تفهموني بشكل خاطئ، لكن لم أفكّر أبداً بالمجيء إلى هنا، فهم ليسوا من شأني ـ أي العرب ـ لكن بما أنه طُلب مني القيام بهذا العمل فأنا أقوم به، فأنا جندي. لكن أتمنّى أن يأتي بعض هؤلاء النوّاب إلى هنا مع كل هذه الوطنية ليشعروا بحرارة الصحراء. لا يبدو هذا عدلاً بالنسبة إليّ. هناك أناس يتقاضون مالاً أكثر لوقودهم، ثم يدفعون حياتي ثمناً لوقودهم».

ربّما كان الجنرالات متلهّفين إلى المعركة، لكن الجنود الأميركيين الشبّان الذين تكلّمت معهم لم يكونوا متحمّسين للحرب. قال لي الرقيب باروت وهو ملقّم دبّابة، ضعيف وطويل من تكساس، إنه يضيّع وقته في الصحراء. وقد انضمّ إلى الجيش للحصول على منحة دراسية وليس للقتال في السعودية. وأضاف أنهم يتحدّثون بإسهاب عن إمكانية حصول الحرب. كذلك، كان الجندي شوميكر قد انضمّ إلى الجيش لينهي دراسته: «كنت أحبّ كل تلك الأفلام، كنت أشاهد العديد من الأفلام عن الحرب العالمية الثانية، لكن كنت دائماً أريد الإنخراط في الجيش، أتعلم، لقد أحببت بيتون Patton؟ وكنت أرغب دائماً في قيادة الدبّابات بكلّ الأحوال». كان عمره ٢٠ سنة. إنّ كان معظم قادة الفرقة ٢٤ من قُدامى حرب فييتنام وكان معظم جنودهم في سنّ الخامسة عندما انتهت

حرب الهند ـ الصينية. لم تؤثر سياسة النفط فيهم جميعاً. ويعتقد جونسون أنه «إذا كان السعوديون أصدقاءنا فعلينا حقاً واجب حمايتهم». ويرى الرقيب جيف إيغارت «أن السعوديين يحتاجون إلى مساعداتنا، وقد وعدنا بها لذا علينا تأمينها». ويتحدّث اثنان من الجنود عن واجب إطاعة الرئيس. وبعد فترة بدأ الواجب يدخل في كل تفسيراتهم لوجودهم في الصحراء، فهم لا يكنّون أيّة كراهية للعراقيين، فأعداؤهم أكثر قُرباً. «تأتي العقارب في الليل» بحسب قول جونسون، «العشرات منها، وهنالك حيّات أيضاً يمكن رؤية آثارها على الرمال. لذا لا نستطيع النوم على الرمل، وعلينا أن ننام جميعاً على البطّانيّات لأن المعدن حارّ ـ متقوقعين حول برج الدبّابة». حلّقت فوقنا طائرتا أ ـ ١٠ نفّاثتان سوداوان، مُحدثتين ارتجاجاً في الدبّابات الشهيرة أو غير الشهيرة التي يفترض بها حماية الجندي شوميكر وزملاءه من المدرّعات العراقية.. وكان في أسفل كل طائرة صاروخ أصفر مطليّ. لكن الجنود لم ينظروا حتى إلى أعلى، وقال إيغارت: «إذا كانت طائراتنا لا آبه، فأنا أعرف كيف أميّز طائراتهم، الميغ ٢٣ والميراج. لكن لا أعتقد أن العراقيين يستخدمون الأسلحة الكيميائية. وأقول لزوجتي في رسائلي: كلّما طال انتظار الحرب قلّ احتمال استخدامهم الأسلحة الكيميائية، هذا منطقي ولا أعرف لماذا».

منذ سنتين فقط ارتبط الجندي شوميكر بصديقته هايدي، ابنة الثامنة عشرة، ويقول: «ستتزوّج قريباً، ولكنني لم أرها منذ خمسة أشهر، عندما أرسلوني إلى هنا. كل ما استطعت عمله أنني اتصلت بها هاتفياً وقلت إلى اللقاء، وعلى الفور غادرت من ثكنة فورت ستيوارت. كتبت لها، لكن لم يصلني جواب كما لم يصلني شيء من والدتي وأنا أفكر فيهما طوال الليل. أجلس على الدبّابة وأنظر إلى النجوم، وقد استوحيت لعبتي من الكواكب بهذه الطريقة». ليس لدى طواقم الدبّابات أيّة خبرة قتالية أو علم مسبق.

وبدا الجندي شوميكر وأعضاء طاقمه الآخرون مُحبطين بسبب الحرارة. ولم يكن لدى شوميكر جهاز راديو بحيث يستطيع الاستماع إلى إذاعة «البي بي سي» BBC. وقد سألني شوميكر وجونسون وأصدقاؤهم عندما غادرتهم: «ماذا يجري هناك». قلت لهم هناك قمّة بين بوش وغورباتشوف حول إطلاق سراح العراق لبعض الرهائن من النساء والأطفال، وحول تزايد مأساة اللاجئين على الحدود العراقية ـ الأردنية. باختصار، أصبحت لديهم رؤية للعالم الخارجي، وكان الجواب فورياً إذ طلب مني الرقيب جونسون: «هل يمكنك الاتصال بزوجتي». وكان شوميكر يريد مني الاتصال بوالدته، ودوّن بقيّة الجنود في مفكّرتي أرقام عائلاتهم المتواجدة على بعد ٨ آلاف ميل منهم، مسافة تتخطّى أبعد نقطة على ملعب شوميكر.

اتصلت بهم بعد بضع ساعات، وبدت لي فرجينا جونسون شابّة. «إنني أكتب له كل دقيقة، أبلغه أنني تسلّمت رسالته الأولى، وأنني أكتب له كل يوم». أبلغت عائلة إيغارت أنه يرسل لها حبّه، ويحتاج إلى سجائر. وكانت والدة شوميكر تريد معرفة ما إذا كان في الخطوط الأمامية: «هل تستطيع إبلاغي بشكل تقريبي إذا كان قرب الكويت؟» أطلعتها أنه على بعد أكثر من ٥٠ ميلاً من حدود الكويت، ولم أقل لها إنه لا يوجد شيء سوى الأميال بينه وبينها. يستطيع صدّام أن يكون على أحد كواكب شوميكر، فهو يعقد اجتماعاً وقحاً مع الرهائن البريطانيين، وقد وضع يده على وجه طفل بريطاني، وسأله ما إذا كان يشرب الحليب بانتظام. وتدلّ تصريحات صدّام العلنية

على شغفه بالحليب وهو يهدّد السعودية بحرب مقدّسة ويعرض نفطاً مجّانياً على دول العالم الثالث. لقد تمّ التعامل مع هذه الأحداث بازدراء من قِبل واشنطن ولندن. وفي المغرب حصلت تظاهرات مؤيّدة للعراق. وتحوّلت الجموع في الجزائر إلى تظاهرات عفويّة وهي دائماً بمثابة تهديد في العالم العربي عندما تكون حقيقية ومن تدبير الحكومة لدعم العراق. وقد رُسِمت على الجدران الضخمة صواريخ صدّام حسين التي هدّد بإلقائها على إسرائيل والتي سيطلقها عليها خلال شهور. على مقربة من حدود الكويت، اكتشفَت وحدة العمليات الخاصّة الحادية والعشرين ـ وهي قوّة سرّية أمضت الوقت في استطلاع اللاجئين الكويتيين وشعارها شيطان من الغبار يظهر من خلال العاصفة الرملية ـ أنّ هناك مناطق واسعة من الكويت غير موجودة على خرائطها. فقد بنت الثروة المتدفّقة في الكويت شوارع جديدة ومدناً أخرى بسرعة أكبر مما يستطيع أيّ رسّام خرائط تسجيلها.

ليلاً ونهاراً، كانت القوافل الأميركية الكبيرة تنشط على الخط السريع السادس باتجاه الحدود الكويتية بمدرّعاتها ومدافعها وناقلات الجند ومعدّات بناء الجسور والدبّابات وشاحنات الذخيرة وسيّارات الجيب والدوريات. كان هناك سرب من طائرات الهليكوبتر الخضراء القاتمة، ينساب فوق الرمل ويتبع الطريق شرقاً وهو ينوء تحت ثقل المدفعية والصواريخ والمولّدات وحتى البيوت الجاهزة التي يحملها. ولدى الجيش المتقدّم إيقاع خالص وطاقة وجدّية في التصميم، لا يستطيع أيّ مدير في هوليود إنتاجها. في نهاية تشرين الأول/أكتوبر كانت القوّة المتعددة الجنسيّات منتشرة عبر الصحراء وكانت الأرض ممهّدة ومغطّاة بآلاف السيّارات المدرّعة ومراكز القيادة ومواقع الصواريخ والمعسكرات، ومواقع مدفعية مموّهة بأسطول من الجرّافات التي تقيم تحصينات في الصحراء. كان غبار مئات الطرق العسكرية يملأ الجوّ، بينما يجلس عشرات الألوف من الجنود المفترض بهم المدافعة عن السعودية.

كم من الوقت يستطيع بوش وتاتشر الادّعاء أنّ هذا هو جلّ ما يتمّ القيام به.

كان هناك العديد من الجيوش العربية المسلمة منتشرة عبر الصحراء السعودية لتشكّل الأساس الروحيّ لـ «التحالف»، وكانت بمثابة دليل على أنه ليست هناك عملية أميركية من أجل النفط وأنّه ما من تضحية كبيرة بالنسبة إلى الغرب. عندما ظنّت النساء السعوديات أن الوجود الأميركي في المملكة يمثّل حريّة جديدة، تظاهرن في الرياض ضدّ منع النساء من قيادة السيّارات، وظلّت واشنطن صامتة عندما عوقِبن. وعرضت «البي بي سي» شريط فيديو لجنود بريطانيين في الصحراء يحتفلون يوم الأحد بالذكرى السبعين لانتهاء الحرب العالمية الأولى حتى لا يشعر السعوديون بالإهانة لرؤية إقامة صلاة مسيحية على الأرض الإسلامية، وقد طُلب من الجنود الأميركيين عدم ارتداء الصلبان أو نجمة داود بشكل علني.

عندما قتلت الشرطة الإسرائيلية ١٩ شاباً فلسطينياً في تظاهرة القدس في تشرين الأول/أكتوبر، ردّت الصحافة السعودية والعربية الأخرى على عملية القتل ووصفتها بالمجزرة، وهي كانت بالفعل مجزرة، وقد وصفها وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر بأنها «مأساة». في حال أقدم جنود بلد عربي على قتل ١٩ يهودياً ـ وكم مرّة

يجب على المرء إجراء هذه المقارنات؟ ـ هل كان بيكر وصف الأمر بالمأساة؟ هل كان أحدهم فعل؟ عندها، كانت الوكالات تحدّثت بحقّ عن المجزرة ولكان تمّ تحجيم العرب بدعوتهم إلى ضبط النفس. لم يحصل رابط على الإطلاق. فقد اكتفى بيكر بالقول بين «المأساة» في القدس والأزمة في الخليج.

لقد قامت أهمّ حليفة لأميركا في الشرق الأوسط للتوّ بقتل (أو ارتكاب مجزرة بحقّ) ١٩ فلسطينياً في ثالث أقدس مكان إسلامي، بينما تقوم الحليفة الثانية الأهمّ لأميركا، السعودية التي تضمّ أول وثاني أقدس الأماكن الإسلامية، بتشجيع الولايات المتحدة على مهاجمة جيوش صدّام حسين العربية. وهذا هو المعيار المزدوج للنظام العالمي الجديد الذي كان يتبنّاه بوش وما زال. كان بوش يريد إنهاء الاحتلال العراقي للكويت. لكنه لم يكن متلهّفاً مطلقاً إلى إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للضفّة الغربية وغزّة. لم يتمّ غزو البلدين بالطريقة نفسها ـ عام ١٩٦٧ كانت إسرائيل معرّضة للهجوم ـ لكن كيف تستطيع واشنطن الآن التعامل مع كلّ من الاحتلالين بطريقة مختلفة(*)؟

وكيف نستطيع بهذه السهولة التخلّي عن الحلفاء العراقيين السابقين ـ الرجال الذين ساندناهم بقوّة في غزوهم لإيران ـ وتحويلهم إلى أعداء؟

كنت مصدوماً في تلك الليلة الباردة في الصحراء مع أفراد فرقة الخيّالة الملكية الإيرلندية الذين يعود تاريخهم القتالي إلى أكثر الكوارث البريطانية مأساوية!(**) أخذني المجنّد كيفن ستيفلي ـ الذي لم يتحدّث أبداً إلى سعودي، ولكنه استنتج بذكاء أن الأمر يتعلّق بالنفط وليس بالديمقراطية ـ إلى دبّابة شالنجر خلف الكُثبان وكنت أحبّ التسلّل إلى هذه العوالم الخاصّة. رافقته في الدبّابة وصعدت إلى البرج متعلّقاً بالكوّة كالحيوان الذي يلتصق بالرمل. اكتشفت أن ستيفلي يتولّى قيادة سفينة كاملة. مالت دبّابة الشالنجر ذات البرج العالي وانحرفت نحو الصحراء مثل سفينة كبيرة تغطي صناديق الذخيرة مقدّمتها. وانساب الرمل من النتوء مثل رذاذ ماء بحري كان محتّماً علينا مثلما هو محتمّ وجود خطّ مستوٍ على خارطة ملاحة خارطة بحرية. لكن عندما يجلس الجنود في معسكراتهم حول النار في الليل، كانوا يحبّون الجلوس باتجاه الغرب بعد غياب الشمس بفترة طويلة، لأن الأعداء العراقيين كانوا في الغرب.

(*) في حزيران/يونيو وآب/أغسطس ١٩٨٠ أعلنت الجمعية العامّة للأمم المتحدة ضمّ إسرائيل للقدس باطلاً وغير قانوني وفق القانون الدولي. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٨١، أعلن مجلس الأمن ضمّ إسرائيل لهضبة الجولان السورية باطلاً وغير قانوني، وفق القانون الدولي. وفي ٩ آب/أغسطس ١٩٩٠، أعلن مجلس الأمن الدولي ضمّ العراق للكويت باطلاً وغير قانوني وفق القانون الدولي. بالنسبة إلى الإعلان الثالث وليس الإعلانين الأوّلين، يصرّ الغرب على التطبيق الواضح للقانون الدولي. ولقد عرف العرب مسبقاً بالتأكيد أنه يوجد قانون واحد للإسرائيليين وقانون مختلف تماماً لغير الإسرائيليين.

(**) زرت الوحدة البريطانية يوم ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر، وكلّ جندي تحدثت معه ذكّرني بالوحدة المضيئة التي أرسلت إلى وادي الموت في بالاكلافا منذ مئة وستّ وثلاثين سنة ويومين. واعترف اللفتانت كولونيل أرثور دينارو أن «من تقاليد الجيش البريطاني العادية الميل إلى الاحتفال بالهزائم» وهذا صحيح. بالنسبة إلى إحصائيات التاريخ الامبريالي، كان ٣٥ في المئة من الخيّالة من إيرلندا ومعظمهم من الرجال المستعدين لقتال صدّام، ولديهم لكنة بلفاست، وديري، ودبلن وكورك. وحتى دبّاباتهم كانت تحمل أسماء مدن إيرلندية.

كانت كلٌّ من عقليّتهم وعقليّتنا طبيعية بقدر ما كانت مُعدية. منذ عشر سنوات تقريباً، وربّما حتى اليوم، كان العراقيون يدخلون مدينة خرمشهر الإيرانية متقدّمين فوق أنقاض المنازل المحترقة تحت قصف المدفعية. وكنت مع هؤلاء العراقيين. حينها كنّا نتقاسم معاً الأخطار نفسها، ونختبئ في المواقع العسكرية ذاتها. وقد وضعنا، جون سنو وأنا، ثقتنا بهؤلاء الكوماندوس العراقيين والرائد الذي ساعد في إنقاذ البريطونيّين على متن سفينة التنّين في نهر شط العرب. كانوا أصدقاءنا وجزءاً منّا.

عندما انطلق جون في مهمّته الإنقاذية الليلية الخطرة إلى السفينة، لم يكن هناك أدنى شكّ في مَن نكون! نعم هم كانوا عندئذٍ نحن. والآن ونحن جالسون مع هؤلاء الجنود البريطانيين، أصبحنا نحن هم. وكان المجنّد ستيفلي يتساءل إذا كانوا سيلقون قنابل كيميائية علينا. وبدون شكّ اعتقدت أنه في مكان ما عبر ذلك المحيط الكبير والمخيف أمامنا في الرمل الذي لم يكن في الواقع يتجاوز ٣٠٠ كلم، كان هناك بعض قُدامى حرب خرمشهر بمن فيهم الرائد الذي شكرناه بحرارة، جون وأنا، منذ عشر سنوات.

إذا نسينا إنسانية العراقيين، كان من السهل أيضاً بالنسبة إلينا تجاهل مشاعر السعوديين وانفعالاتهم، أولئك الذين سيطلق وجودنا العقال لتأزّمات في مجتمعهم. وخلال هذه الأشهر الأخيرة قبل تحرير الكويت، غالباً ما أصبح السعوديون لاعبين صغاراً في مأساتنا، لوردات مساعدين يفترض بهم التفوّه بعبارات التأييد والولاء المناسبة تجاهنا والكراهية للقيادة العراقية. عندما أكّد وزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز أنه لن يحصل أيّ هجوم من الأراضي السعودية ضدّ الأخوة العراقيين، استدعى الرئيس بوش السفير السعودي في واشنطن الأمير بندر بن سلطان لتفسير هذا التحوّل عن المخطط. وحصل انزعاج مماثل عندما صرّح الأمير سلطان في أواخر تشرين الأول/أكتوبر بأن السعودية إذ ترى أن على العراق الانسحاب من الكويت، فإنها سوف تساند أيّ مطالبة عراقية مُحقّة بأراضٍ في الإمارة.

في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، تلقيت اتصالاً في فندق الظهران من إمام مسجد قريب كنت من وقت لآخر خلال الأشهر السابقة أمّر للحديث معه. عندما وصلت إلى المدرسة الفارغة قرب المسجد، كان الشيخ منفعلاً بشكل واضح حول موضوع كان يناقشه مع مجموعة من الرجال الملتحين المتوسّطي العمر كانوا يجلسون بلباس أبيض في غرفة خلفية. اعتقدت أنه يريد مناقشة احتمالات الحرب، لكنّ ما سأله كان: «متى سيرحل الأميركيون؟».

لم يكن الشيخ راديكالياً. كانت خُطبه التي تبثّ عبر مكبّرات الصوت من المئذنة الإسمنتية قرب جامعه، تردّد الحاجة إلى الهدوء في أثناء الأزمة. «لكنّهم الآن هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ولم يحصل شيء. وقالت حكومتنا إن الأميركيين سيرحلون عندما تنتهي الأزمة. صدّقنا ذلك، ولا نزال. لكن أعتقد أننا نصدّق ذلك لأننا نريد تصديقه». سمع الشيخ كلّ الإشاعات. كان رجال الأعمال في جدّة يتبجّحون بصمت أنهم أمّنوا عقوداً مدّتها خمس سنوات لتأجير أراضٍ للقوّات العسكرية الأميركية المتمركزة في المملكة. وفي الظهران قيل إن الأميركيين أخذوا

عقوداً لسنتيْن على مواقف السيّارات والمخازن وتسهيلات النقل. وكانت سفن الشحن الأميركية تُحضر معدّات بناء وأسلحة.

بالنسبة إلى الأميركيين والإنكليز الغرباء لم تكن العادات والتقاليد الخاصّة بالمجتمع السعودي واضحة... كانت الصحافة السعودية تعلن بملل تصميم الرئيس بوش على طرد صدّام من الكويت. وعندما زار بوش السعودية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، قام المتعهّدون المحلّيون بنشر إعلانات على صفحات كاملة في صحف السعودية تمتدح قراره إرسال قوّات أميركية للحفاظ على السلام والحرية وحمايتهما والدفاع عنهما في هذا الجزء من العالم. لكن الشيء الآخر الأكثر أهمّية هو أن هذه الرسائل سُمعت الآن في السعودية.

وكانت أشرطة التسجيل الدينية التي يعبّر فيها الدعاة عن قلقهم المتزايد إزاء وجود الغربيين في الأراضي الإسلامية، توزّع في البلاد. وكانت الحكومة قد سمحت منذ سنوات بأشرطة التسجيل التي يقدّمها دُعاة مسلّحون لكن الشرطة السعودية سحبت ستّة أشرطة من التداول في الأشهر الثلاثة الأولى لانتشار القوّات الأميركية بسبب مضمونها المعادي. ويذكّر بعض هذه الأشرطة الجديدة بعلاقات السعوديين السابقة مع العراق عندما كان صدّام يُعتبر رسمياً تجسيداً للقومية العربية والفضيلة، وعندما كانت قسوته المدوّنة جيّداً في الغرب من قِبل الحكومات الغربية يتمّ تجاهلها من قِبل العائلة المالكة السعودية. وكانت تسجيلات أخرى تنتقد بقسوة حلفاء السعودية وبخاصّة الرئيس السوري حافظ الأسد. وكان المئات من اللاجئين السوريين الفارّين من انتفاضة حماه التي قُمعت بقسوة عام ١٩٨٢ عندما سحق جيش الأسد ثورة الإخوان المسلمين، أحد التنظيمات السنية الراديكالية، يعيشون الآن في السعودية وقد أثّرت ذكرياتهم تأثيراً عميقاً في أعضاء الطبقة الدينية.

وقد قام الداعية السعودي المعارض سليمان العودة بطبع خطاب مسجّل معروف بـ «سقوط الأمم». فبينما تحدّثت خطبته الاحتفالية ظاهراً عن أسباب انحلال الأمم، عرّفت الفساد ومحاباة الأقارب وفقدان حرية التعبير وعدم وجود مجلس شورى استشاري، على أنها أسباب رئيسية للانهيار الوطني. وقد فهم المستمعون فوراً أنه كان يتحدّث عن آل سعود. وبعد فترة قصيرة من حظر الشريط، أعلن الملك فهد للمرّة الثالثة في بضع سنوات أن خطط إنشاء مثل هذا المجلس باتت في مراحلها النهائية. وقد ألغى العودة، الذي كان عميد جامعة محمد بن سعود في القصيم، خطبته في أوائل أيلول/سبتمبر ١٩٩٠ وجرت مصادرة تسجيلات الخطبة على الفور(*).

إزاء ذلك استمع السعوديون فقط إلى أمرائهم، والوعود التي لا تنتهي حول الحرية والحماية من قبل الزعماء الغربيين، وتصريحات الذين يعرّفون الفلسفة المسيحية كعربة لجعل أي حرب مستقبلية مقبولة. وقد أعلن أسقف كانتربري أنها ستكون حرباً عادلة بينما تحدّث أساقفة آخرون بالتفاهة نفسها التي ستستخدم لشنّ الغزو غير القانوني على العراق عام ٢٠٠٣. وأعلن الأسقف إدوارد نورمان عام ١٩٩٠ (وهو عميد معهد كنيسة المسيح في كانتربري)

(*) هذا هو الشيخ العوده نفسه الذي طالب بن لادن بإطلاق سراحه عندما التقيته في أفغانستان منذ سبع سنوات.

أن العراق يحتاج إلى تدمير، كونه يشكّل تهديداً نووياً، بينما يستمرّ كدولة يمكن أن تكون مساهمتها بالنسبة إلى العالم والمجتمع العربي قيّمة جداً. وكتب لاحقاً:

إن أسلحته النووية ستكون جاهزة. ولدى العراق القدرة على إطلاقها... إن القوّة العسكرية، مع كلّ العذاب المتوقّع والخسارة البشرية التي ستنتج عنها تُعتبر بكلّ المقاييس أفضل أخلاقيًّا من الخسارة البشرية التي ستنتج عن نزاع نووي مستقبلي في الشرق الأوسط. إن خسارة أرواح في الحرب الآن سوف تحول دون خسارة الملايين من البشر بعد بضع سنوات، وهذا بالتأكيد استنتاج مسيحي خالص. . . إن مجتمعاً يضع الرفاهية المادّية والبشرية فوق صناعة قِيَم أعلى وأكثر استمرارية ليس تصوّراً سامياً وهو على أيّ حال تصوّر سيتخطّاه الذين يؤمنون حالياً بقِيَمهم.

بعيداً عن تبريراته غير العادية المشابهة للحرب القادمة التي هي واحدة ضدّ العراق، فإن القسم الثالث من هذا البحث الجزئي تحدّث عنه أسامة بن لادن، لكن هناك طرافة أخرى موازية لغزو العراق عام ٢٠٠٣ وهي تتمثل في العلاقة غير المتساوية بين واشنطن ولندن. وفيما حمل الدعم الذي عبّرت عنه مارغريت تاتشر، ولاحقاً جون مايجور، لتحرير الكويت قليلاً من التذلّل، فإن الحماس الروحي والنفسي الذي أبداه طوني بلير لغزو العراق، ودور بريطانيا كخادم مطيع لصانع القرار العسكري في واشنطن، كانا واضحين قبل بدء الحرب عام ١٩٩١ بفترة طويلة.

ميدانياً بدا التحالف الأنجلو ـ أميركي مؤثّراً. كان ضابط اتصال الوحدة المدرّعة متمركزاً الآن في الصحراء في مقرّ القيادة التكتيكي للجنرال ميخائيل ميث، قائد فرقة مشاة البحرية الأولى الأميركية. وقامت قوّات البحرية الأميركية والبريطانية بتدريبات دفاعية وهجومية بإشراف القائد البريطاني العميد باتريك كوردنغلي. وقد ناقش اللفتانت جنرال سير بيتر دولابيلير القائد الأعلى للقوّات البريطانية في الخليج مجموعة من السيناريوهات الهجومية مع شورازكوف في الرياض ووافق عليها. وسوف تلعب الدبّابات البريطانية دوراً رئيسياً في العمليات الهجومية البحرية الأميركية.

ولقد حان وقت الخلاف، وسوف تفقد بريطانيا قدرة اتخاذ القرار. ذلك أن التخطيط شيء والتنفيذ شيء آخر. وسوف تحوّل القيادة القومية في زمن الحرب، القوّة المتعدّدة الجنسيّات إلى فوضى. وقد ناقش دولابيلير موقع بريطانيا في شبكة القيادة والمراقبة خلال زيارة للسعودية قام بها وزير الدفاع البريطاني توم كينغ يوم ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر حين اعترف بالدور الرمزي للسعوديين والدور العسكري للأميركيين.

«القائد الأعلى هو الأمير سلطان، صلاحيّاته وصلاحيّات الجنرال شوارزكوف تتفق مع احتياجاتي في ما يتعلّق بالخدمات التي يشترك فيها الإنكليز. إن القوّات البرّية والجوّية البريطانية تحت السيطرة التكتيكية للأميركيين»(*).

(*) السؤال طُرح أيضاً عندما زار مارشال القوّة الجوّية ورئيس العديد في وزارة الدفاع السير غريغ المملكة السعودية.

وبحسب مصادري، فقد لوحظ ضمن القيادة الأنجلو ـ أميركية أن العلاقة بين البريطانيين والأميركيين لم تكن متقاربة أو موضع ثقة متبادلة كما أُريد للعالم أن يعتقد. كان ذلك واضحاً بشكل خاصّ عندما وصلني نبأ خلال عطلة الميلاد في باريس مفاده أن لصّاً سرق حقيبة وجهاز كمبيوتر يحتوي على خطط موجزة لحرب الخليج من سيّارة للجيش البريطاني في أكتون غرب لندن. واستناداً إلى مصدر معلوماتي، كانت المستندات بحوزة ضابط كبير في الجيش البريطاني، كُشف لاحقاً أنه القائد دايفيد فاركهار، ضابط العديد التابع للسير باتريك هاين، الرئيس المباشر لدولابيلير، وقد أخذها السارق من السيّارة بينما كان فاركهار متوقفاً لمشاهدة سيّارة مستعملة في معرض أكتون. وقد رمى اللصّ المستندات التي وجدت بعد بضع ساعات، بينما احتفظ بالكومبيوتر لبيعه، غير عابئ بأنه يحتوي على معلومات عسكرية. ولكنّ أخطر ما في ذلك هو أن البريطانيين لم يبلغوا الأميركيين بالسرقة. أرسلتُ إلى صحيفة الإندبندنت قصّة غير عادية، لأبلغ فقط أن الحكومة البريطانية أصدرت «التعميم D» حول المعلومات على أمل منع وصولها إلى الصحافة، وأن رئيس التحرير ماتيو سيموندز وافق على الالتزام بالطلب وإبقاء القصّة سرّية.

كان سيموندز أحد المؤسّسين الثلاثة لصحيفة «الإندبندنت» وكان من الشخصيات الأكثر مغامرة في تاريخ الصحافة البريطانية، وقد أنشأ صحيفة لا تخضع لسلطة بارونات الصحافة أو الحكومة. ولم يخضع أندرياس ويتام سميث أبداً للضغط، لكن سيموندس الذي بدأ يُظهر حماساً رومنسيّاً مربكاً للحرب فشل في إدراك أن التعميم D لم يُصدر بشكل أساسي لأسباب أمنية بل لمنع الجانب الأميركي من المعرفة بالسرقة. لذا أبلغتُ الموضوع إلى زميل لي في صحيفة «يرتش تايمز» الصادرة في الجمهورية الإيرلندية، وغير المعنية بإثارة الانتباه، عندها ضجّت الإدارة العسكرية ونشرت على الفور التقرير حول السرقة. وقال أندرياس لي عندما عاد إلى المكتب من إجازته وعند عودتي إلى السعودية: «ما كنتُ لأسمح للتعميم D بإيقافنا». وقد كشف ذلك عن شرخ مهمّ في إدارة صحيفتي، شرحه أندرياس بنفسه في صحيفة الأحد بعد مضيّ ستّ سنوات. وإن الشيء الوحيد الذي ندم عليه بحسب قوله هو: «أنّ سيموندز أقنعه بوجهة نظره حول حرب الخليج المخالفة لوجهة نظري. أتمنّى لو أنني أدرت سياسة الصحيفة على نحو جعلها مناهضة للحرب، لكن ماتيو والجميع أقنعوني بعدم القيام بذلك لأنهم لا يوافقون على وجهة نظري». والأمر الأكثر أهمية، كان تأكيد مبلّغي أن السبب الحقيقي للتعميم D كان إخفاء السرقة عن حلفاء بريطانيا الأميركيين. واعترف دولابيلير De la Billière في تقييمه الشخصي لحرب الخليج بأن الأميركيين تُركوا في حالة جهل من قِبَل البريطانيين وأنّ الإفشاء الذي صدر في الأيريش تايمز والذي كان ليظهر في الإندبندنت لو كانت الأخيرة تحت رئاسة تحرير مغايرة في ذلك الأسبوع ـ سبّب الارتباك السياسي نفسه الذي تسبّبه الصحف عادة في مجال الكشف: «لقد وضعني هذا الخبر في موقف شيطاني مُحرج. بماذا كنت لأبلغ نورمان شوارزكوف؟ لو لم أقل شيئاً، لكان بالتأكيد سمع عن السرقة من مصدر آخر. ولما كان الأمر بهذه الأهمّية الكبيرة، اقترحت أن يسافر بادي هاير لإبلاغ الـ CinC شخصياً، وهذا ما وافق على القيام به. في الوقت نفسه سافر معي رئيس الأركان في وزارة الدفاع السير ريتشارد فينسينت إلى واشنطن لإبلاغ كولن باول بدرجة خطورة الحادث بمجمله، ودرجة نسفه للعلاقات الأنجلو ـ أميركية». بدا شوارزكوف مرتاحاً للأخبار استناداً إلى دولابيلير

مع أن مذكّرات الأخير الحديثة تكشف سرّاً صغيراً آخر بقي مخفياً عن واشنطن حتى الآن! فحسب دولابيلير إن الطبخة رقم ٢ «Cock up No2» جاءت عندما طُلب مني إبلاغ نورمان شوارزكوف أننا معه حتى النهاية مهما حصل، واكتشف فيما بعد أن الوزراء البريطانيين لن يتدبوه ـ أنظمة التدخّل - لإرسال الطائرات للردّ السريع على أية ضربة عراقية وقائية»(*).

جاء عيد الميلاد هذه المرّة وأنا في حالة اضطراب.. لقد كان صديقي وزميلي تيري أندرسون لا يزال رهينة في لبنان بيد رجال يطالبون بإطلاق سراح سجناء حزب الدعوة في الكويت ـ ذلك في حال كان هؤلاء لا يزالون في السجن. وبما أنني كنت قادراً على الإبقاء على بعض الاتصالات مع تيري عبر خاطفيه، سافرت إلى نيويورك لأتحدّث مع رئيس تيري في الأسوشيتد برس، لويس. دي. بوكاردي ـ وهو رجل صغير أنيق لديه عادة غريبة في التحدّث مع زوّاره على أنغام الموسيقى التي يرفعها عالياً في مكتبه ـ ومع صديق تيري دونالد. س. ميل الثالث، كما كنّا نسمّيه، وهو كان مصوّر تيري في بيروت. وقد أخذني إلى عشاء لا يُنتسى تناولنا خلاله ديكاً رومياً في صالة قوس القزح في مبنى GE في مانهاتن. ومع ذلك أقول (للذكرى) إنه مثل معظم دعوات عشاء ميل في بيروت، كان من الصعب تذكّر الجزء الأخير من ذلك العشاء. وعلى الرغم من أنه لم يكن رقيقاً كما كان في أيام الحرب السريعة في لبنان، كانت لدى ميل المقدرة المربكة على جذب أجمل المضيفات عندما يدخل المطعم؛ تأثير يبدأه بابتسامة ماكرة. وكان يقول عندما نجلس: «فيسكي، ستكون هناك حرب، والولايات المتحدة الأميركية القديمة سوف تكسب كالعادة»، أتذكر لبنان؟، أتذكر الفوضى الهائلة التي كانت؟، حسناً أنا متأكّد أننا سنفعل الشيء نفسه في العراق أيضاً». ربّما كان يتكلّم عن أحداث سوف تقع بعد ١٣ عاماً، غير أنه بالنسبة إلى عشرات الآلاف من العراقيين ـ على الأقلّ نصف مليون إذا أردنا تضمين عاقبة المرحلة الطويلة لحرب ١٩٩١ ـ فإن تقديراته كلّها ستكون دقيقة جدّاً. كان ميل مسافراً أيضاً إلى الخليج لتحرير الكويت ـ ولم نشكّ في أن ذلك سيحصل ـ وشربنا الشمبانيا معاً وأمامنا مبنى الإمبايرشيت يشعّ بألوان العلم الأحمر والأبيض والأزرق، ومركز التجارة العالمي يشعشع على قمّة منهاتن.

اتفقت أنا وميل على أن تأثير التحرّكات الأميركية في الشرق الأوسط مصيره في نهاية الأمر أن يطارد العرب، وتحدّثنا أيضاً حول هذا العشاء غير العادي، لكننا لم نخمّن أن الانفجار سوف يحدث بعد أقلّ من ١١ سنة وعلى بعد أقلّ من أربعة أميال.

عدت إلى سعودية باردة الطقس، رطبة وموحشة. لقد عبر الثلاث مئة لاجئ كويتي الحدود منذ فترة طويلة، وقلّص العراقيون عدد مواطني محافظتهم التاسعة عشرة الأصليين إلى ثُلثي ما كانوا عليه قبل الغزو. وكان الملك فهد وصدّام حسين متورّطين في خلاف شخصي مرير، حيث جرى استحضار الله والشيطان، وقد تعلّق ذلك مباشرة بمساندة السعودية الأساسية للعراق في غزوه لإيران عام ١٩٨٠. فقد اشتكى صدّام من الملك فهد بكلمات نابية

(*) أعاد اللصّ الوطني الكمبيوتر وترك معه هذه الملاحظة: «سيّدي العزيز، أنا لصّ وأحبّ ملكتي ووطني، فمن أضاع هذا الجهاز يجب أن يشنق» المخلص إدوارد.

حول موقفه في ذلك الوقت، ما يعدّ إهانة كبيرة لأي عربي وليس فقط لسعودي. وكان رد فهد عارماً في كشفه لخلافهما، الذي يُظهر في تفاصيله مدى ما أنفقه السعوديون في محاولتهم تدمير إيران،قبل عقد من الزمن:

لماذا لم تلتزم بوعدك لي وللرئيس حسني مبارك بأنك لن تشنّ هجوماً على الكويت؟ بعد بضعة أيام فقط من طلبك، ارتكبت أفظع جريمة نكراء في تاريخ البشر، عندما تسلّلت في جنح الظلام مع جيشك وأرقت الدماء، وطردت شعباً بكامله إلى الصحراء خارقاً كلّ المعايير والقِيَم.... لقد أصررت على متابعة الغزو زاعماً أن الكويت كانت جزءاً من العراق. الله يعلم أن الكويت لم تكن أبداً تحت الحكم العراقي، وأن آل الصُّباح كانوا حكّام الكويت منذ ٢٥٠ سنة(*). مَن سمح لك بقتل مليون إيراني وعراقي مسلم؟ مَن سمح لك باحتلال الكويت وقتل أبنائها واغتصاب نسائها ونهب ممتلكاتها وتدمير معالمها؟ لا شكّ أن الشيطان وشهوتك دفعاك إلى القيام بذلك على حساب دول الخليج العربي التي كانت فخورة بالجيش العراقي.

كان أمراً مفاجئاً أن يقوم الملك فهد بتحميل صدّام مسؤولية خسارة أرواح مليون مسلم خلال حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ العراقية ـ الإيرانية، بما أن السعودية كانت المموّل الرئيسي للعراق في تلك الحرب. وقد تم كشف بعض التفاصيل حول حجم الدعم المالي الذي كان السعوديون مستعدّين لإنفاقه على صدّام في ذلك النزاع:

«قلت في رسالتك إننا حوّلنا لك فقط ١١,٥٣ مليون دولار مساهمة في إعادة بناء البصرة، إضافة إلى مليون دينار قيمة معدّات لإعادة بناء الفاو.

لكنّنا نرغب في توضيح الحقائق: «يا حاكم العراق، حوّلت المملكة لبلادك ٢٥,٧٣٤,٤٦٩,٨٨٥.٨٠ دولار، أي حوالى ٢٦ مليار دولار».

أخذت مضامين هذا الكلام بعض الوقت لتنتشر في السعودية التي أعطت صدّام ٢٥ مليار دولار ليقاتل ويقتل أخوة مسلمين في إيران(**). لقد قدّم له الأميركيون المعلومات والأسلحة الكيميائية (بالتعاون مع الألمان) وزوّده

(*) هذا يدفع رسالة التاريخ بعيداً بعض الشيء. كانت الكويت جزءاً من محافظة البصرة العثمانية، واعتبر الأتراك آل الصباح حكّاماً عثمانيين حتى بعد أن وافق الشيخ الجديد مبارك الصباح الذي قتل أخويه غير الشقيقين عام ١٨٩٩ على جعل الكويت محميّة بريطانية مقابل ١٥ ألف جنيه استرليني كل سنة. وبعد سقوط الملكية العراقية عام ١٩٥٨، طالب العراق بالوحدة مع الكويت وقد تراجع عن غزوها بعد أن هُرعت القوّات البريطانية إلى المشيخة كما فعلت القوّات الأميركية عندما هُرعت لإنقاذ السعودية عام ١٩٩٠.

(**) تفاصيل هذه الأرقام كانت كما يلي: قروض غير قابلة للدفع، ٥,٨٤٣,٢٨٧,٦٧١.٢٣ دولار، قروض نقدية مريحة ٩,٢٤٦,٥٧٥,٣٤٣.٤٦ دولار، قروض تنمية ٩٥,٨٩٠,٤١٠.٩٥ دولار، معدّات عسكرية ولوجستية ٣,٧٣٩,١٨٤,٠٧٧.٨٥ دولار، نفط ـ ٦,٧٥١,١٥٩,٥٨٣ دولار، منتجات صناعية لإعادة بناء البصرة ١٦,٧٧٢,٨٠٠ دولار، مدفوعات لتصليحات صناعية ـ ٢٠,٢٦٦,٦٦٧ دولار، شاحنات، جرّافات تراكتورات، محادل للتزفيت (٢٧٠ آلية) ٢١,٣٣٣,٣٣٣.٥٠ دولار، كان الحساب السعودي أقلّ بدولار و١٩ سنتاً.

الروس بمعظم المدرّعات، لكنّ السعوديين قدّموا المال بسخاء. توقّفت قليلاً لبضع ثوانٍ عند الـ ٨٠ سنتاً الموجودة في نهاية الفاتورة، وهي إضافة توحي أن ذهنية غريبة الأطوار تعمل في وزارة المالية السعودية.

دعاني أحد ضبّاط الهجرة السعوديين في مطار الظهران إلى العشاء في خيمته الصحراوية التي بدت مكاناً جيّداً لمراقبة رمال السلام تنفذ في جنيف (إشارة إلى فشل محادثات اللحظة الأخيرة في جنيف ـ المترجم). صبّ محمد الشاي الساخن المُحلّى، وقام عبدالله بتوزيع أطباق الموز والعنب والجزر. وظهر جيمس بيكر على شاشة تلفزيون بالأبيض والأسود في إحدى زوايا الخيمة العربية التي كانت مكاناً جيّداً لسماع الأخبار. كنّا هناك محاطين بستة سعوديين بلباسهم الأبيض والبنّي وكوفيّاتهم، متمدّدين على سجّاد ملوّن، مُتكئين على سروج جمال نأكل الدجاج المليء بالتوابل والشيش كباب، بينما العبور إلى الحرب يجري أمامنا. عندها نظر بيكر فجأة نحونا وتلفّظ بهذه الكلمات الهامّة: «بكلّ أسف أيها السيّدات والسادة»، كلمات مجوّفة مرعبة، كان يجب أن ترعبنا جميعاً، لكنّ السعوديين نظروا إلى الشاشة بالاهتمام نفسه الذي أبدوه لاحقاً لوضع شريط فرقة راقصة.

وعندما أعلن وزير الخارجية الأميركي وصورته تصعد وتهبط على الشاشة القديمة الكبيرة، حكمه القاتل «خلال ستّ ساعات لم أسمع شيئاً يوحي إليّ بأيّة مرونة عراقية من أيّ نوع». فقط، الشقيق الأصغر لمحمّد اهتمامه، ورفع يديه إلى مستوى كتفيه على شكل رجل يستسلم، ثم قال: «إذن ستكون هناك حرب، ماذا يمكن أن نفعل؟».

ربّما كانت هذه هي الطريقة التي تنظر بها القبائل إلى الكوارث منذ مئات السنين، متمدّدين على سجّاد، يقطعون أرجل دجاجة، بحماية سقف من القماش. كان موقد من الفحم مثبتة أرجله بقوّة في التراب يتوهج أمامنا. وقام محمد وعبدالله بتوزيع المزيد من الشاي والفاكهة، وأبدى الآخرون اهتماماً أكبر ببيكر الآن. قال خالد، وهو شاب ضعيف بلحية خفيفة: «عندما يبدأ ذلك سوف أحزم أمتعتي وأرحل».

جهّز محمّد تلفزيونه بلاقط من صنع محلّي، يلتقط بثّ السي إن إن المباشر من غرفة المؤتمر الصحفي في جنيف. كانت الإشارة ضعيفة، لكننا كنا نستطيع قراءة كلمات: «أوتيل إنتركونتيننتال ـ جنيف» على اللوحة أمام بيكر والاستماع إليه يشرح لماذا لا يستطيع القبول بالربط بين أزمة الخليج والصراع العربي ـ الإسرائيلي، بالنسبة إلى رجل غربي كان كلام بيكر منطقيًّا. فبعدما أكّد الأخير أن العراق يواجه ١٨ دولة، إضافة إلى الولايات المتحدة قال: «الخيار الآن بيد القيادة العراقية». لكن عندما ظهر وزير الخارجية العراقي طارق عزيز على شاشة التلفزيون جذبت لُكنته العربية انتباه الجميع في الخيمة الصغيرة، وكانت كلمات بيكر بشكل ما أقلّ إقناعاً، ليس لأن الحقّ إلى جانب العراق ـ الجميع يوافق أن صدّام حسين كان رجلاً سيّئاً ـ لكنّ بيكر أميركي وعزيز عربي مثل السعوديين الستة.

سألت محمّد لماذا كان السعوديون لفترة طويلة أصدقاء صدّام المقربين؟ هل وثقوا به فعلاً وبوزير خارجيته

طارق عزيز؟ ألم يصدّقوا التقارير حول استخدام العراق للغاز السامّ في الحرب ضدّ إيران؟ أو كانوا أصدقاء فقط لأن صدّام عربي، أو بشكل أدقّ عربي قويّ، قوّته مُهابة ومحترمة أيضاً؟ فجاء ردّ عبدالله: «أُبلغنا في صحفنا ـ من حكومتنا ـ أنه كان رجلاً جيّداً. الحكومات تقول دائماً ما تريد وعلى شعبها أن يفهمه. هذا ما حصل، لم نُبلغ بالحقيقة»، ثم توقّف لبضع ثوانٍ وقال: «لكن سوف أفعل أي شيء تطلبه مني حكومتي». هنا دخل أحد السعوديين إلى الخيمة ومعه صينية عليها زجاجات الويسكي، ربّما نصف دزّينة، وقام محمّد بصبّها في أكواب صغيرة. لم أستطع تصديق ذلك: ويسكي جاك دانيالز، وجوني ووكر، وجينسون ابتسم محمّد وقال: «صادرناها من مسافرين يحاولون تهريب الكحول عبر المطار». لقد شرب الضيوف كمّية كبيرة من الكحول وكانوا يعبّون المشروب كما لو أنه عصير وليس كحولاً. السعوديّون لا يعرفون كيف يشربون. أدركت أن هنالك خطأ، عندما سألت عبدالله إذا كان يعتقد حقيقة أن الأميركيين سيغادرون السعودية، عندها وقف خالد فجأة وأعلن بغضب: «لن أبقى في هذه الخيمة هنا، إذا استمررت في هذه المناقشة». كانت لحظة قاتمة ومتوتّرة كما لو أن الكارثة التي ظهرت على تلك الشاشة المرتعشة دخلت أخيراً عقول السعوديين الستّة محدثة نوعاً من الفوضى في الخيمة. وسأل محمّد ما إذا كان يجب أن يحصل الأكراد على دولة، فردّ خالد وقد احمرّ وجهه: «لماذا يجب أن يحصلوا على دولة؟».

غادر الخيمة بالفعل ورداؤه يتأرجح في أثره حتى خرج محمّد وأقنعه بالعودة. وصل رجل آخر مع زوجته، وهذا خرق غير متوقّع للعُرف والتقليد، الذي يسمّيه العديد من السعوديين الأخلاق. كانت امرأة سوداء الشعر، تبتسم بلطف ولا ترتدي الحجاب، لكنّها جلست بصمت إلى جانب زوجها في زاوية من الخيمة، واضعة شالاً أسود على كتفيها. تحدّث الرجل بنشاط، وكان محمّد يؤكّد طيلة الوقت أنه لن يغادر بيته إذا ما حصلت الحرب. وسأل: «إلى أين أذهب؟!، ما هو المقصود؟ الحرب يمكن أن تصل إلى أيّ مكان».

على الشاشة كان دان راثر يبلغنا الآن بحتمية الحرب، ويتحدّث عن قصف واسع للقوّات العراقية، وضربات جوّية مدمّرة، وشلّ للقدرة العسكرية العراقية، وأنا جالسٌ بين هؤلاء السعوديين، بدت لي كلماته مُشينة وغير طبيعية. كان رجلاً غربيّاً، يتحدّث بطريقة عشوائية عن احتمال الموت العنيف لآلاف العرب المسلمين على يد أميركا. وكان السعوديون يستمعون إلى ذلك بانزعاج كبير وكذلك فعلت أنا. كانوا كمن يبدأ بالتهام الثمار السامّة وهو على وشك اختبار نوايا قاتله.

كان يمكن أن يتحدّثوا عن ذلك ما لم يتسلّل من خلفنا عبر الجدار الأخضر الهشّ للخيمة، هدير صوت طويل، مستمرّ ومتزايد تدريجياً بعمق وزخم. عرفنا جميعاً ماهيّته. كان هديره يدخل كلّ جزء من الخيمة مُضعفاً صوت راثر وجاعلاً الصورة تقفز بتوتّر حتى صُمّت آذاننا، وكنّا جميعاً نألف هذا الصوت الصادر عن إحدى طائرات النقل العسكرية س٥ C5 للرئيس بوش في مرحلة اقترابها الأخير من أقرب قاعدة على مسافة ٣٠ متراً فوق رؤوسنا مالئةً خيمتنا الضعيفة بضجيجها. في الأيام الأخيرة قبل المجزرة كانت القيادة على الطريق السريع إلى الحدود الكويتية لا تزال ممكنة. كانت أيام صخب وسخرية. وكانت سحب الغبار تخيّم على طول الشاطئ وتنفث الدخان الأبيض الذي يتصاعد بطريقة ودّية من المداخن في محطّة الطاقة الكويتية. كنت تستطيع رؤية ذلك بكل

وضوح من الحدود السعودية، حيث المحطّة العاملة ببياضها الباهت والمدخنتيْن التوأميْن ما زالت تزوّد بالكهرباء الجنود العراقيين المحتلّين والمواطنين الأسرى على الجانب الآخر من الحدود. ودلّ ذلك على أن الأوضاع طبيعية، والحياة مستمرّة بشكل اعتيادي.

في أسفل التلّة عند مركز الجمارك المهجور، وجدت باكستانياً على عتبة دكّانه، حيث الرفوف نصف فارغة قال لي أن لا مجال لإعادة التخزين. وعند زاوية الملعب قرب البحر، وقف رجل بلباسه الأبيض مع زوجته المتشحة بالسواد وابنهما الضعيف. وإن تمّ استثناءهم من المشهد، قد يبدو لك هذا اليوم مثل أيّ يوم ممطر في الجبهة البحرية في «مارغات» أو جزيرة «كوني». ولا أثر لنصف مليون جندي عراقي على الجانب الآخر للحدود.

وعلى هذا الجانب يوجد رجل غربي ضخم بنّي الشعر في سيارة بيك آب رجلٌ من العصر الفيتنامي، غير قادر على إخفاء كرشه تحت الجاكيت، ينظر نحو الكويت ممثّلاً النصف مليون أميركي وحلفاءهم.

تجوّلت في الخفجي، لكنّ حقيقة النزاع العربي غائبة عن الذهن. لقد هرب معظم النساء والأطفال، وكان بعض الجنود السعوديين يُجرون مكالمات مع عائلاتهم من مركز البريد المحلّي، وعلى جهاز التلفزيون في قاعة الانتظار في فندق شاطئ الخفجي يُعرض فيلم حربي يتابعه شرطي بانتباه. كان عليّ القيادة عبر الطريق الفرعية قبل أن أجد دورية من الجيش الأميركي مؤلّفة من ثلاث سيّارات، كان جنودها يرتدون الخوذات، ويجلسون على مقاعد عالية في العربات المصفّحة، ويحترمون حدود السرعة ويتوقّفون عند الإشارات الضوئية. لمدّة شهور راقبت المدرّعات تعبر الطريق السريع: أصبح المشهد مألوفاً مثل محطة الطاقة الكويتية، بحيث اكتسب ديمومته.

يمكنني التصوّر أنه لستّة أشهر أخرى وحتّى لفترة سنة ستظلّ الدبّابات والمدافع تتقدّم على هذا الطريق، وسيظلّ هذا البوش يهدّد بطرد العراق من الكويت، وستظلّ محطة الطاقة تنفث دخانها الأبيض كما لو أن الاستعدادات للحرب أبديّة كالصحراء.

في اليوم الذي سبق بدء شوارزكوف قصفه للعراق، كتب إلى زوجته في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩١: «أصدرت للتوّ الأوامر الرهيبة التي ستجعل الوحش يخسر». وكان الصحفيون الأميركيون مُحبطين تقريباً، ومثل الصحافة البريطانية، كانت الصحف الأميركية الكبرى تروي لقرّائها الدرجة التي أصبحت فيها الحرب حتمية بالفعل، وأن بعض الردّ أصبح إجبارياً، وأن القتال سيكون سهلاً. كان يوم ك "K" بالنسبة إلى محرّري العناوين مساعداً. فبينما كان بيكر وعزيز يتباحثان، ساد شعور شبه واضح من عدم الراحة في أوساط بعض خبراء الإعلام الأميركيين. لقد اتضحت المخاوف على السلام، لكن عندما اعترف بيكر بالفشل كانوا فرحين. وارتفعت آمال الحرب. لم يكن ذلك مجرّد سخرية فقد حذّر مراسل إذاعة أميركية مُستمعيه في الأسبوع الأول من كانون الثاني/ يناير بأن أزمة الخليج تسير نحو التسوية. وعلى غرار بطل شوميكر، الجنرال بيتون ـ الذي انتهى ممجّداً جمال الحرب ومشكّكاً بأهوال السلام ـ ووضع العديد من المراسلين أنفسهم في حالة ذهنيّة حيث السلام غير أخلاقي

والحرب تمثّل الصلاح. ولا يبدو لأوّل وهلة أن هناك مكاناً في الحرب الجديدة للمراسلين المراقبين. علمنا جميعاً أن القصف الجوّي للعراق سوف يبدأ، بعدما رفض صدّام الموعد المحدّد من الأمم المتحدة للانسحاب من الكويت. لذا عندما رنّ هاتفي في الساعات الأولى من ١٧ كانون الثاني/يناير، وأبلغني صحافي شابّ من الدوام الليلي لصحيفة الإندبندنت أن قناة السي إن إن تنشر الصور الأولى للقنابل التي تتساقط على بغداد وسألني متى يمكنني التسجيل؟ أبلغته أنني أشاهد الصور نفسها في الظهران، وأننا كنّا نعلم بأن القنابل ستتساقط هذا الصباح، وقلت: القصّة الحقيقية، أن أقوى الجيوش المسيحية متمركزة الآن لقتال أكبر قوّة عسكرية في العالم الإسلامي. لذا «متى تستطيع التسجيل؟» سأل الصوت مجدّداً. أجبته: لقد بدأت. تصادم السلاح المسيحي ـ الإسلامي كان على الصفحة الأولى في اليوم السابق.

لكنّني توجّهت إلى قاعدة الظهران الجوّية، وكانت الطائرات الأميركية تنطلق أسراباً وتقصف بشدّة تاركة أثراً ذهبياً وأرجوانياً من الأنابيب العادمة في السماء. وشكّل ذلك مشهداً تلفزيونياً جيّداً. نفحة من الألوان تتسلّل إلى أضواء مقرّ السي إن إن الخضراء الباهتة في بغداد، المضادّ لصواريخ الطائرات البعيدة المدى. في الساعات الأولى لذلك الصباح، انطلقت ١٢ طائرة قاذفة سعودية من قاعدة جوّية في المقاطعة الشرقية لمهاجمة العراق. وقد اتّخذ الملك فهد شخصياً قرار إرسال طائرات التورنادو في طلعات، وأيّد الرئيس بوش هذا القرار علماً بأن هذه الطائرات كانت جزءاً من مشروع اليمامة السعودي ـ البريطاني. لم ينتبه أحد لهذه الحقيقة، ولم يورد أيّ مراسل أن ١١ طائرة من أصل ١٢ عادت عند الفجر وصواريخها ما زالت ملتصقة بالأجنحة. وأفاد طيّاروها أنهم فشلوا في تحديد أهدافهم. وقد أفرغت الطائرات الـ ١٢ حمولتها فوق الصحراء العراقية الغربية! لكن هل ضلّت طريقها حقّاً؟

في اليوم التالي، انطلقت ٦ طائرات تورنادو يقودها سعوديون من القاعدة نفسها وفشل الطيّارون في إلقاء حمولتها من القنابل، وجرى تقديم الطيّارين إلى الصحافة. فالمهمّ الإيحاء بالتالي: كان السعوديون يقاتلون، وكان الرئيس بوش يستطيع الادّعاء أن القوّات العربية وكذلك الغربية في حالة حرب ضدّ العراق.

كان عليك النظر إلى طائرات التورنادو. كان على ذيل كلّ قاذفة مقاتلة العلم السعودي المذكور عليه بحروف عربية، الشعار الإسلامي: «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله». وهكذا شكّلت السورة الأولى من أقدس كتاب للإسلام علم معركة العرب الذين ذهبوا إلى الحرب ضدّ دولة مسلمة أخرى. «أجل العراق دولة عربية»، كما شرح لي طيّار سعودي قبل الخروج في الطلعة الثالثة، «لكن عندما يهاجمك أخ لك فهو عدوّ، وصدّام عدوّنا الآن».

أو هكذا بدا، وبعد يوم من بدء القصف، كانت تسمية هذا الهجوم الخاطف حرباً تدفع هامش الحقيقة أبعد في هذه المرحلة. وقد قال الملك فهد شخصياً إن المعركة تشكّل «سيف الحقّ وصوته»، وإن الله «سيمنح النصر لجيشه». لقد التزم آل سعود الآن بشكل مُبرم بالقوّات العسكرية الغربية، وأصبح الملك فهد القائد الأعلى للقوّات المشتركة، وهي واحدة أخرى من الصفات الطريفة التي كان من المفترض أن تختبئ وراءها القوّة الأميركية التي لا

تُقهر ضمن التحالف. واعتقد السعوديون أنهم أسكتوا انتقاد الطبقة الدينية للأميركيين، من خلال السماح لرجال الدين بالتعبير عن غضبهم حول القضايا الداخلية، مثل قيادة النساء للسيّارات، والعمل بسخاء كمضيفين للعائلة الحاكمة الكويتية القلقة.

مع تقدّم الحرب، أصبحت صور تحرّك القاذفات عبر الأجواء السعودية والكويتية روتينية. وقد اكتشف الذين لم ينضمّوا منا إلى تسهيلات النقل السيّئة السمعة أن ثمّة اختلافاً لا ينسجم بسهولة مع ما يعرفونه في استديوهات التلفزيونات برجالها الأكثر وطنية وجنرالاتها السابقين المملّين، ونماذج دبّاباتها وحُفرها الرملية عديمة الحياة. وكان لدى نقاط التفتيش السعودية العسكرية أوامر بمنع الصحفيين من السفر نحو الحدود إلا إذا كانوا مسجّلين بالنقل العسكري والرقابة. لذلك قمت مع مجموعة من المراسلين الفرنسيين والمصوّرين المتمرّدين بارتداء اللباس المموّه الواقي من الغاز الذي دفعت ثمنه صحيفة الإندبندنت لمراسليها، ووضعتُ على رأسي خوذة حديدية بريطانية. كانت الخوذة هديّة من الرائد آلان بارنز وهو عضو مدرّب عالي الرتبة في جهاز تدريب الجيش البريطاني، وقد أخذت معي في رحلتي طيلة النزاع ديوان شعر من مجموعته عن الحرب العالمية الأولى، مسروقاً على الأرجح من مكتبة الجيش.

ارتدى الفرنسيون ملابس قتال لجيشهم الوطني غير مُتقنة الصنع لم تفعل سجائر «جيتان» المتدلّية من شفاههم السفلى سوى تعزيز تغطيتهم. بينما أنا كنت في لباسي المضادّ للغاز سيّئ التهوية وخوذتي من طراز كوماندو بارنز، أبدو مثل ضابط اتصال مُمِلّ. كان مفتاح النجاح كما اكتشفنا بسرعة هو التقدّم من كل نقطة تفتيش دون النظر إلى الجنود الذين يحرسون الطريق، وقد أثبت فقدان اللياقة عندنا أننا جنود حقيقيّون.

حين وصلت إلى الخفجي بهذه الطريقة، كانت المدينة الحدودية السعودية قد تبدّلت، وارتفعت أعمدة من الدخان العالية تصل إلى ٣ كلم فوق الطرقات المهجورة. وقد وجدت ٤٠ قذيفة مدفع من عيار ١٣٠ ملم، أطلقت من وراء مجموعة من الأشجار على الجانب الكويتي من الحدود. وكانت ألسنة اللهب تتأجّج، حول قاعدة من الدخان داخل مستودع تخزين لشركة النفط العربية، بألوانها القرمزية والصفراء مستفزّة الرقيب البحري الأميركي بيل وليامز ورجاله التسعة الواقفين على الرمل يقومون بتفكيك لواقط أجهزة الراديو الطويلة المدى بدون حماسة لدخول المدينة . كان هناك جهاز راديو يبثّ من خلف سيارته الجيب صوت مراسل من واشنطن مادحاً السجلّ المسلكي للقوّة الجوّية الأميركية. كان المجنّد رافي سابا، وهو شاب في العشرين من العمر من كولومبوس ـ أوهايو يتحدّث بلُكنة يوركشاير غير متّزنة ـ وقد أمضى طفولته في شيفيلد ـ مهتمّاً بالراديو أكثر منه بالبرهان على أن العراقيين يمكن أن يضربوا مرّة أخرى. قال: «فُقدت طائرة واحدة فقط في ألف طلعة، يمكنكم أن تحطّموا هذا الرقم؟».

كان الرقيب وليامز لا يزال يراقب النيران المتصاعدة من أنبوب النفط، وطبقة الدخان التي كانت تنتشر الآن إلى مسافة ١٥٠ كلم في البحر. وسأل: «لا أحد يعالج أمر النيران، هل يفعلون؟»، كنّا أنا ورفاقي الفرنسيون قد قمنا بجولة في الخفجي ولذلك كنّا نعرف أكثر ممّا تعرف قوّات البحرية. قلنا: كلّا، لم يستدعِ أحد فرقة الإطفاء».

في الواقع لم يكن في الخفجي أحد ليرفع جهاز الهاتف للاتصال، فقد فرّ الجميع، عائلات صاحب صالون الحلاقة، وصاحب المخزن الباكستاني، ومديرو مطاعم المدينة الثلاثة.

وقد اكتشفنا للتوّ سرّ الخفجي غير السارّ، فقد كانت شوارعها الواحد تلو الآخر تحمل آثار الهلع، وثمّة ملابس مُلقاة في وسط الطريق، سقطت من الشاحنات أو السيّارات، وبقيت سيّارة ليموزين مفتوحة، وسيارة شرطة متروكة على الطريق الرئيسي وباب سائقها مفتوح. وعندما قدنا مباشرة نحو الحدود الكويتية على مرمى من نيران العراقيين، وجدنا مدافع الجيش السعودي متروكة، وتحصيناتهم الرملية فارغة، وخيَمهم مهجورة، وكان هناك فقط دورية حرس وطني سعودي وحيدة، مؤلّفة من ثلاثة رجال ملتحين يرتدون قبّعات حمراء، تُركت لتمثّل المملكة السعودية.

كانوا رجالاً فخورين، قاموا بتحيّتنا لأنهم كانوا فرحين لرؤية وجوه صديقة قريبة من المواقع العراقية. وكان من الصعب معرفة عدد العراقيين خلف الأشجار، لكنّ قذائفهم توزّعت عبر المدينة بخطّ مستقيم قرب مركز الجمارك الفارغ، وعبر حائط حديقة إلى منتصف الطريق، حتى أصابت في الجولة الأخيرة أنبوب النفط ووسمت هذا المكان بعمود من الدخان. بعد فترة وجيزة من القصف، شاهدنا طائرة هليكوبتر تمرّ بمحاذاة الشاطئ وتطلق صاروخين بين الأشجار، فتوقّفت المدفعية عن القصف. كانت تبدو حرائق أخرى في العمق داخل الكويت. وعلى مسافة حوالي ٢٥ كلم منا ارتفعت طبقة كثيفة من الدخان: عدة كيلومترات في الطول والعرض تصاعدت في سماء الشتاء الباهتة، وربّما كان ذلك مخزن ذخيرة أو وقود ضربه الأميركيون.

كان الفرنسيون جيّدين في الصحراء فقد خدم بعض رفاقي من المراسلين الفرنسيين في الجيش في أفريقيا واستخدموا بوصلة للتحرّك بعيداً عن الخط السريع والقيادة عبر الرمال لتجنّب نقاط التفتيش الأميركية التي لن تخدعها ملابسنا العسكرية. وفي وقت لاحق قصفت طائرة ميراج فرنسية مراسل صحيفة ريدز Raids الفرنسية العسكرية ولم تنفجر القنبلة. لذلك أخذ المراسل القنبلة غير المنفجرة على ظهر الجيب، إلى قاعدة جوّية فرنسية للاحتجاج. كان الرمل الرطب يلتصق بعجلات سيّارتنا وقد حوّل الطرق إلى حلبات تزلّج موحلة، وكان الجنود يشعرون بالبرد. وكان جنود الفرقة البرّية الممكننة الأميركية الرابعة والعشرين يجلسون على عرباتهم بمعاطفهم الواقية من المطر، يضربون جوانبهم طلباً للدفء. وعبر الوحول كان البريطانيون محتشدين في شاحناتهم مع أغطيتهم أو جالسين في خِيَم حول مدافىء تعمل على الزيت. لا أحد يستطيع التصديق أن الحرارة تهبط إلى درجة الصفر في الصحراء السعودية. كانت العاصفة تأتي من الجنوب الغربي مندفعة فوق الكتل الرمادية المُخضلّة، والمنخفضات السبخة محوّلةً طرق الإمداد المغمورة بالنفط إلى أفخاخ موت. وكانت سيّارة هامفي متوقفة على الرمال غير قابلة للتمييز بعد اصطدامها بشاحنة. وهناك دبّابة أميركية كبيرة M1A1 مقلوبة رأساً على عقب في الصحراء برجها وخزاناتها نصف مدفونة في الوحل، وفوق هيكلها الكبير جندي وحيد يراقب. ومن بعيد في الصحراء، كنّا نستطيع سماع تلقيم وتفريغ بطاريات المدفعية التابعة للبحرية الأميركية التي كانت تقصف العراقيين. لكنّ عملية تجميع جيوش الحلفاء ـ غريبة السرعة التي بدأنا فيها باستخدام كلمة حلفاء، كما عشية يوم النصر ـ تُعزى في معظمها

إلى السيناريوهات المريحة والفعّالة التي وضعها القادة العسكريون الأميركيون والبريطانيون في الرياض. وقد تأخرت عمليات التجمّع على طرق الإمداد إذ حصل ازدحام لستّ ساعات في الوحول حول مراكز القيادة. وكان العديد من الضبّاط الشبّان يقودون وحداتهم إلى الخطوط الأمامية بدون خرائط. كما أن المستشفى الميداني البريطاني الثاني والثلاثين الذي توجّه بكامله إلى الحدود الكويتية لم تكن لديه أية خريطة، وكان الطاقم يحاول إيجاد مساره من خلال آخر دورية سعودية إلى الشرق من الخفجي ـ إلى أحضان القوّات العراقية مباشرة ـ إلى أن أبلغنا نحن مجموعةً من جنود القوّات الخاصّة الأميركية التي أعادتهم عن طريقهم. كانوا محظوظين لأنهم لم يوجدوا في الساعات الأولى من يوم ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر عندما قامت قافلة عراقيّة من الدبّابات وناقلات الجند المصفّحة بالإبلاغ أن هدفها غير محميّ، فعبرت الحدود ودخلت الخفجي من الغرب مستولية على المدينة، وفي عمليّات أخرى منفصلة إلى الجنوب الشرقي قتلت ١٢ جندياً أميركياً بالضبط بعد أسبوعين من إعلان الأميركيين أن تحرير الكويت قد بدأ، كانت القوّات الأميركية تقاتل الآن وتموت لتحرير زاوية من السعودية! ولم يكن مقصوداً أن يكون الأمر بهذه الطريقة. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى طرف الخفجي صباح اليوم التالي كانت على الحدود سحابة نفطية كثيفة مدافع الـ ١٥٥ ملم الأميركية تطلق قذائفها على الطرقات حول مستودع النفط. وجدتُ الرقيب البحري جون بوست وهو رجل طويل كثيف الشارب يسجّل النيران المعادية القادمة على جهازه المغطّى بالرمل قرب المدافع الأميركية. بينما كانت قذائف الهاون تنفجر داخل المدينة وترتفع من أماكن سقوطها بقعة بيضاء ضعيفة من الدخان. ورغم السحابة السوداء، برز برج مائي مكسور محطّم بفعل القذائف لأن أحدهم استنتج أن العراقيين وضعوا نقطة مراقبة متقدّمة على قمّته. قال سكوت: «لا أعرف لماذا تركنا العراقيين يذهبون إلى داخل الخفجي منذ البداية، لكنّ هذه عملية سعودية والعراقيون ما زالوا هناك ـ ربّما كان هناك ٢٠٠ جندي. يقال إنهم قوّات خاصّة عراقية، أعتقد أن لدى السعوديين عدّة مئات من الأسرى وقد أحصيت ١٢ باصاً محمّلاً بهم حتى الآن مع حرّاس سعوديين على جوانب الباصات. لكنّ العراقيين مقاتلون .

طيلة الليل كانت ألسنة اللهب تنتشر فوق الخفجي، وفوق المدافعين الأشدّاء عنها. تسلّلت دبابة هاريير إلى الشرق وقصفت قرب الشاطئ. اتصلنا بفندق شاطئ الخفجي ليرحّب بنا جندي عراقي أعلن تأييده للقومية العربية، وأصدر عدداً من الشتائم عبر المذياع. أمّا الرقيب بوست الذي يتمتّع بخبرة ١٤ سنة في جهاز البحرية فقد أومأ برأسه واتّكأ على سيارة الهامفي وهي نسخة عن سيّارة الجيب التي أدخلها الأميركيون إلى المعركة للمرّة الأولى وكان على متنها جهاز إطلاق صاروخ تاو Tow. كانت هذه أسلحة ستصبح جزءاً من القوّة الأميركية في العقد القادم. وكالمعتاد، كان هناك راديو يعمل في أعلى السيّارة، ناقلاً مزيجاً من موسيقى البوب والتي يستمتع بها جنود المارينز والتي تتنافس مع أزيز نيران المدفعية ـ وأنباء جديدة عن ٣٠٠ قتيل عراقي في الخفجي و٥٠٠ أسير، ممّا أسعد المارينز أكثر.

كان السعوديون يقاتلون في المدينة يساندهم جنود من جنسيات أخرى عرفنا بسرعة أنهم قطريون ـ وبعضهم جنود باكستانيون معارضون لحكومة قطر ـ وعلى الخط السريع رأيت ناقلة ضخمة تحمل حُطام دبّابة قطرية مصابة

بقذيفة في محرّكها الموجود في المؤخّرة. كان هناك قصف آخر، فأومأ الرقيب بوست برأسه مجدّداً وقال: «تلك طائرات ب٥٢ B 52 تلقي بقنابلها فوق الكويت، هل تستطيع تصوّر كيف تكون الحال تحتها!». كلّا، إذ كان من المستحيل تخيّل المذبحة الحاصلة عبر الحدود تحت تلك السحابة السوداء. وقبل ساعات، في الليل على بعد ٢٤٠ كلم سمعت هزّة أرضيّة بسبب طائرة ب٥٢ B52. وقد ردّدت الصحراء الصوت الأقوى والأعمق لسقوط برميل بعيداً كل دقيقة ونصف.

كان العراقيون يموتون على بعد ٢٥ كلم فقط وبالمئات، لكن السعادة العارمة بالقوة أعطت الأميركيين بهجة معيّنة، وكما قلت في تقرير تلك الليلة فإنها «سوف تكسبهم مزيداً من الأعداء في الشرق الأوسط في السنوات القادمة». على الأرض كان الجنود أكثر واقعيّة. نظر الكابتن جون بورث، قائد بوست، إليّ بعيني رجل رأى فقط بضعة كيلومترات من الأرض حوله، وقال: «إذا كان صدّام يستطيع الاستيلاء على مدينة خاوية مثل الخفجي ويعتبرها نصراً، فإنه يخسر العديد من الرجال لاجتياح مدينة لا أهميّة لها. أنا متأكّد أننا لو كنا أكثر اهتماماً للأمر لكنّا فعلنا الكثير» ربّما! لكنّ الخفجي تعني الكثير لأنها في السعودية، وهي إحدى مدن المملكة الكبرى. قد أشار شوارزكوف إليها باحتقار وبشكل خاطئ على أنها قرية عندما أبلغ في البدء عن الهجوم العراقي. كانت مدينة، وكان على الحلفاء بشكل رئيسي الإعلان عن استرجاعها، الأمر الذي قام به رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور بعدما طرد مارغريت تاتشر من داوننغ ستريت، وفي الوقت الذي كان العراقيون لا يزالون يقاتلون في الشوارع.

في النهاية، كان يجب أن يكون هناك انتصار سعودي شهير. «فشهداء الخفجي» ـ الثمانية عشر جندياً من الجيش والحرس الوطني الذين قُتلوا في عملية استعادتها ـ هم مكرّمون من قِبل الأمير عبدالله «كرمز للقِيَم والشجاعة في أذهان الأجيال القادمة»؛ وما حقّقوه هو شرف كبير لوطنهم وعائلاتهم. وأهمل التلفزيون السعودي ذكر أن هذا الشرف لم يكن ضرورياً لو دافع الجنود السعوديون والأميركيون عن الخفجي منذ البداية. ولكانوا جنّبوا الناس أيضاً مشاهد الفيديو التي تصوّر جثث شهداء المملكة المتفحّمة والممدّدة في رماد ناقلاتهم. رغم دمار المدينة التي عاد إليها سكّانها لم ألمح أيّة فرحة. وقد سألنا أصحابُ المحلّات: «لماذا لا يحرّر الأميركيون الكويت الآن؟» وبالمقابل كانوا يشاهدون على شاشات التلفزيون تدمير العراق. وعندما حاولت أن أشرح لمستورد ملابس سعودي أن تحرير الكويت سيسبقه قصف، كان ردّه فورياً: «لكنّ الجسور والكهرباء والنفط في العراق والناس في المستشفيات... لماذا يفعل الأميركيون ذلك؟» كان تساؤلاً طُرح بدرجة عالية من التكرار والحرارة. وكان عبثاً تفسير الأميركيين أنهم كلّما قصفوا هذه «الصراصير» كانت خسارة قوّات الحلفاء البشرية أقلّ، بمن فيهم الجيوش العربية، عند تقدّمهم نحو الكويت. وقد سمع السعوديون عبر وسيلة إعلام قوية وخطرة هي السي إن إن أن القتلى والجرحى من المدنيين العراقيين والعرب غالبيّتهم من المسلمين «ممّا يشكّل ضرراً إضافياً على محيط غنيّ»... وهذه عبارات تحمل معنى شخصياً وماجناً عندما يكون المشاهدون يحملون عقيدة الضحايا.

كان دور الصحافة في حرب الخليج عام ١٩٩١ رخيصاً وغير شريف. إذا كانت العلاقة بين المراسلين والجنود متناغمة، فقد كانت أيضاً طفيلية على صعيد الصحفيين. لقد غذّينا الحرب وكنّا نريد أن نصبح جزءاً منها. وقد أراد

كولونيل أميركي يشرف على القاعدة الجوّية الأميركية في البحرين تكريم مجموعة المراسلين في وحدته، الذين كانوا تابعين لسرب القاذفات المقاتلة لديه منذ بداية الحرب. هؤلاء لم يشاركوا في أيّة طلعة مع أية طائرة، ولم يصادفوا أيّ قصف أرضي، باستثناء الاحتماء من بعض الإنذارات الكاذبة ضدّ صواريخ سكود، ولم يفعلوا شيئاً أكثر من ترداد العبارات المبتذلة للطيّارين العائدين وقادتهم. لكنّ قائد القاعدة قدّم لكلّ منهم هديّة، علماً أميركياً صغيراً، موضحاً أن هذه الأعلام كانت موجودة على مقدّمات الطائرات الأميركية الأولى التي قصفت بغداد. وبينما كان يقدّم الأعلام لهم قال: «أنتم مقاتلون أيضاً».

تحدّث الإعلام كثيراً عن العلاقة الجديدة المفيدة (والضارّة) بين المراسلين والعسكريين، وهي علاقة ستُصقل وتُنحت وتُلمّع مع الوقت من أجل غزو العراق عام ٢٠٠٣. إذن كان الهدف من علاقة كهذه هو التحضير للحرب، وقد أصبح الصحفيون معتمدين كثيراً على المعلومات التي تقدّمها السلطات العسكرية الغربية، المفتونة بتقنيتها بحيث وجد مراسلو التلفزيون والصحافة أنفسهم أسرى حماسهم الصبياني.

بالنسبة إلى معظم الصحفيين في الخليج ومعظم الجنود الغربيين كانت الحرب كمّية مجهولة، مذهلة ومخيفة أيضاً، تاريخية ومميتة. قُدّمت لنا على أنها حرب عادلة، كما جعلتنا نعتقد بالأرشمندريت روبرت رونسي وبالرئيس بوش. إذا كان صدّام حسين، هتلر الشرق الأوسط، أسوأ من هتلر وفق تحليل بوش التاريخي، فمن المؤكّد أننا ننقل الصراع بشكل مناقض للواقع.

عندما انطلق طيّارو مقاتلات السلاح الجوّي البريطاني من قاعدة خليجية في أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٩١، أبلغ مراسل بريطاني مستمعيه أن شجاعتهم لا حدود لها. وعندما انطلقت البحرية الأميركية من حاملة الطائرات «يو إس إس كنيدي» USS Kennedy في بداية الحرب لشنّ غارات تسبّبَت بإصابات مدنية عديدة، كتب مراسل «فيلادلفيا إينكوايرر» Philadelphia Inquirer في رسالة مستعجلة من الحاملة: «كان صباح الخميس أحد تلك الأوقات التي توقّف فيها الزمن ... ممهّداً الطريق لفجر من الأمل». أصبح الصحفيون يتحدّثون عن العراق الآن كعدوّ كما لو أنهم ذهبوا إلى الحرب بأنفسهم، وقد حصلوا عليها للأسف.

كانت لهجتهم شبيهة بلهجة الأربعينيّات عندما وصلت جيوش هتلر إلى «پادكاليه» Pas de Calais وتمركزت لغزو بريطانيا. وكان الصحفيون باللباس العسكري والخُوَذ يحاولون تبنّي جدّية إدوارد مورو وريتشارد ديمبلبي. ولم يكن مراسلو الحاملة عُرضة لهجوم جويّ مثل مورو. ولم يقوموا بمهامّ فوق أراضي العدو مثلما فعل ديمبلبي خلال غارة عاصفة النار على هامبورغ. لكنّهم كانوا يهيّئون العالم لأكبر معركة دبّابات منذ الحرب العالمية الثانية أو منذ عملية إنزال D Day الضخمة أو حرب كوريا. لن تكون هناك معركة دبّابات رئيسية أو عمليّة إنزال برمائيّة على الإطلاق. لكن كانت جيوش الحلفاء تشبه مع الإيقاع المطمئن حلف زمن الحرب الذي أطاح بهتلر والذي لعب فيه ستالين، بطل صدّام، دور القيادة دون منازع.

كانت هذه التفاهة خطرة بقدر ما كانت مضلّلة. إذ عندما تقوم أكبر ثلاثة جيوش مسيحية في العالم بشنّ حرب ضدّ دولة مسلمة لصالح دولة مسلمة أخرى تضمّ أقدس مَعلمين في الإسلام، فليس هذا هو الوقت المناسب لإجراء مقارنات مع الحرب العالمية الثانية. لو كان إيد مورو حيّاً اليوم، لكان بين المراسلين القلائل في بغداد مثل زميلي باتريك كوكبورن من صحيفة الإندبندنت واصفاً آثار الغارات الأميركية على المدنيين. وربّما كان هذا الوصف بداية لكراهية متجدّدة بين الغرب والعالم العربي، لكنّ تقاريرنا لم تكن هي التي بدأت تعكس تلك الكراهية. . ليس سهلاً على الصحفيين ممارسة النقد الذاتي عندما يتحدّثون عن التاريخ. ولإثارة الشكّ حول كلام الضبّاط الأميركيين أو الإنكليز في الخليج كانت الدعوة للإدانة فورية على الأغلب. كان منّا هؤلاء الذين تحدّثوا عن المعاناة الإنسانية التي سبّبتها الغارات الإسرائيلية على بيروت عام ١٩٨٢ ووصفوا بأنهم معادون للساميّة. وأيّ شكّ حقيقي حول الادّعاءات الأميركية في الخليج يؤدّي إلى اتهامات مماثلة. هل أخذنا جانب صدّام؟ ألم ندرك أن العراق غزا الكويت عام ١٩٩٠! ليس هناك أي مراسل في السعودية لم يدرك أن صدّام حسين طاغية فظّ شرّير حكم من خلال الإرهاب. وليس هناك أدنى شكّ حول وحشية جيشه في احتلال الكويت. وقد كان المراسلون الذين حاولوا التحقيق في القضايا العسكرية في السعودية عُرضة لأبشع عمليّات الطرد وقد شُنق آخر صحفي قام بذلك في بغداد. وقبل غزو صدّام حسين للكويت بفترة طويلة.. كنّا نحن نكتب عن الأهوال وذلك بخلاف السعودية التي كانت تموّل نظامه السيّىء السمعة والولايات المتحدة التي كانت تسانده.

حالياً يرتدي معظم الصحفيين في الميادين العسكرية لباس حُماتهم الغربيين ويعتمدون على نصيحة الجنود من حولهم، خائفين من الاشتباكات على الأرض ويتطّلعون إلى مساندة الجنود. كانوا يحفرون الخنادق مع حُماتهم. ويقفون في الصفّ مع الجنود لأخذ حُقن وحبوب ضدّ الأنتراكس وضدّ الطاعون.

نصحتُ إحدى الزميلات المقرّبات بأن لا شأن لها بهذا السائل السحريّ الذي يُعتقد الآن أنه موجود بشكل واسع مع الذخائر المطليّة باليورانيوم وهو سبب عوامل الضعف والموت في حرب الخليج، وكانت شاكرة لي حتى يومنا هذا. كان هؤلاء الصحفيّون يعتمدون على القوّات في اتصالاتهم وربّما على حياتهم. وكانت هناك رغبة عميقة في التأقلم، في العمل بالنظام، وغياب نادر ومتزايد للقدرات النقدية.

كان ذلك واضحاً بشكل مؤلم بالنسبة إليّ عندما احتلّ العراقيون الخفجي. فقد بقي المراسلون المرافقين للقوّات الأميركية على بُعد ٢٥ كلم من منطقة القتال في البداية مضلَّلين من قِبل قادتهم العسكريين ونقلوا أخباراً غير صحيحة مدّعين أن المدينة استعيدت. لكن عندما سافرت مستقلاً إلى المدينة للتحقيق، واجهني مراسل شبكة أن. بي. سي الذي كان تابعاً للقوّات المشتركة وصرخ بي: «يا حمار، سوف تمنعنا من العمل، ليس مسموحاً لك أن توجد هنا. إرحل وعُد إلى الظهران الحقيرة». ثمّ حوّلني إلى جندي أميركي في العلاقات العامّة أبلغني: «لستَ مخوّلاً بالتكلّم مع جنود المارينز وليس مسموحاً لهم بالتكلّم معك». كان وقتاً كثير الاضطراب . اكتشفت صحيفة الإندبندنت من خلال السفر إلى الخفجي أن العراقيين ما زالوا يقاتلون في المدينة بينما كان رئيس الوزراء

البريطاني يعلن من داوننغ ستريت أنها تحرّرت. مع ذلك كانت اللجنة المشتركة وامتيازاتها والقوانين المتعلّقة بها أكثر أهمية بالنسبة إلى المراسل الأميركي من حقّه الصحفي. وقد أشرت إلى مراسل الأن بي. سي في الإندبندنت وفي مقابلة مع النيويورك تايمز وجرى إبعاده عن الشرق الأوسط. لكنّ السلطات الأميركية كانت قادرة على توظيف مراسلين مضادّين لآخرين وذلك لتفتيت صفّ الصحفيين على الأرض بحيث يحاول الذين يعملون خارج اللجنة (مراسلون أحرار: كما تسمّيهم القيادة الأميركية المضلّلة) تدمير فرص الذين يتلقّون تعليمات صارمة من اللجنة. لذلك عندما وجد مراسل مغامر من صحيفة صانداي تايمز اللندنية وحدة ستافور شاير في الصحراء في أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٩١ قال له ضابط بريطاني غاضب إنه سيخرّب فرص الآخرين إذا لم يرحل.

بيد أن الآخرين كانت لديهم مشاكلهم أصلاً. عندما التقط مراسلون أميركيون على الحاملة ساراتوغا الكلمات الدقيقة لطيّاري القوّة الجويّة، لاحظوا أن القائد وضباطاً آخرين حذفوا كلمات الشتائم وغيّروا بعض التصريحات قبل إرسال التقارير، بعد تأخير دام ١٢ ساعة. وعلى الحاملة كنيدي، سجّل مراسلو وكالات الأنباء في اللجنة المشتركة كيف يشاهد الطيّارون أفلاماً خلاعيّة بهدف الاسترخاء قبل مهمّات القصف، وكان ذلك محظوراً على المراسلين.

في إحدى القاعدتين الجويّتين في البحريْن كانت هناك لافتة كبيرة مدلّاة داخل مرآب طائرة، تمثّل سوبرمان أميركياً يحمل بين يديه عربياً ضعيفاً ومذعوراً ذا أنف معقوف. لم تُبلغ اللجنة الإعلامية في القاعدة عن وجود هذه اللافتة مع ما تحمله من توجّهات عنصريّة. ونقل مراسل تلفزيوني من اللجنة عن اللفيتانت كولونيل ديك وايت وصفَه لرؤية قوّات عراقية تهرب من الكويت للنجاة بحياتها: «كان الأمر شبيهاً بإضاءة الأنوار في المطبخ في آخر الليل ورؤية الصراصير تهرول. قمنا في النهاية بإخراجها حيث وجدناها وقتلناها». لم تستدرّ هذه الملاحظات المذهلة أيّ سؤال من اللجنة الإعلامية مع أن الكولونيل سُئل: «ما جدوى النظام العالمي الجديد عندما يقارن ضابط أميركي أعداءه العرب بالحشرات بعد ثلاثة أسابيع فقط من القصف؟». شعر الصحفيون أن العراقيين لم يُعاقَبوا بشكل كافٍ وسعوا إلى تحريف سجلّ الحرب لإثبات ذلك، ورأوا أن تحرير الكويت الذي تمّ في أربعة أيام فقط شكّل مجمل النزاع. وكتب جيم هوغلند من الواشنطن بوست أنه «باستثناء المئة ساعة من عاصفة الصحراء عام ١٩٩١ فإن الولايات المتحدة وحلفاءها عاملوا نظام صدّام على أنه شرّ مقبول». وفي الصحيفة نفسها، ساهم ريتشارد كوهين في تطوير القصّة من خلال إبلاغ قرّائه أن الحرب استمرّت مئة ساعة فقط. وكناشط عربي أميركي قال سام حُسيني: «لقد تمّ تناسي الأربعين يوماً وليلة التي أمطرت فيها القوّات الأميركية العراق بحوالي ٨٠ ألف طنّ من المتفجّرات»، أي أكثر من القصف التقليدي لأوروبا في الحرب العالمية الثانية.

لكن مرّت فترة طويلة قبل انتهاء الحرب للحديث عن مجزرة كاملة ضدّ القوّات العراقية الهاربة وفقدان الاحترام من خلال خيانتنا لمئات الآلاف من العراقيين الشجعان الذين انتفضوا ضدّ صدام بناء لطلبنا. أصبح الصحفيون شبه أصفار، أبواقاً للجنرالات يتجنّبون بحرص أيّ أسئلة أخلاقية ويغلقون كاميراتهم، كما سنرى لاحقاً عندما تصبح أهوال الحرب واضحة جدّاً. وقد أصبح الصحفيون المتجاهلون للحرب هم مسانديها وباتوا جزءاً منها.

فمن خلال عدم النضج وعدم الخبرة والتنشئة يمكن اختلاق أيّ عذر تريد . لكنهم خلقوا حرباً بدون موت. لقد كذبوا.

كانت الأسئلة التي طرحها السعوديون بطرق مختلفة أكثر صِلة بالموضوع من تلك التي طرحها المراسلون. سألني داعية سعودي: «ما هو النظام العالمي الجديد؟». يُعتبر النظام شيئاً يحبّ السعوديون وقعه. والعالم كِيانٌ كثير من السعوديين معزولون عنه. لكن لدى العرب الخليجيين إحساس خطير تجاه كلمة «جديد». حاولت تفسير ما عناه الرئيس بوش في جملته، مستنداً إلى السياق الذي ظهرت فيه الجملة أصلاً: انتهت الحرب الباردة، وأصبحت أوروبا الشرقية حرّة، ويعتقد الأميركيون أن هذه الرياح يجب أن تهبّ على الشرق الأوسط أيضاً.

لم يعد ممكناً التسامح مع الطغاة، ولاسيّما الطغاة الذين يعارضون رغبات الولايات المتحدة. بالمقابل اكتشفت الآن أنني أشرح العقيدة الرسمية لبوش الابن وكنت مبكّراً عقداً من الزمن.

بالنسبة إلى اهتمامهم بأيّ نظام عالمي جديد، دع جانباً طريقة العيش الأميركية، فقد كان من الطبيعي أن يطلب الملك فهد من صدّام العودة إلى حكم الله. وهذا تفسير ديني يميّز رؤية بوش ـ مضيفاً: أن نطلب من الله أن يحقق النصر لقوّاته. وفي بغداد، طلب صدّام حسين الدعم الإلهي ضدّ قوّات الشيطان ومأجوريه. وباختياره شخصية المحارب الكردي في القرن الثاني عشر (صلاح الدين)، حاول التحدّث بالنبرة ذاتها، فقال بعد ثلاثة أيام من قصف العراق: «سيُهزم الشيطان». كان الاقتباس بمعظمه مطلوباً. ففي معركة حِطّين يوم ٧ تموز/يوليو ١١٨٧ روى الملك الأفضل ابن صلاح الدين كيف حشد والده قوّاته المسلمة في مواجهة الصليبيين الفرنسيين بصرخة المعركة: «الشيطان يجب أن يهزم». وبدوره طلب بوش من الله أن يحمي جنود أميركا في الخليج. لكنه وضع الصراع مسبقاً على قاعدة دينية وأخلاقية عندما دعا إلى اجتماع الزعماء الدينيين في الولايات المتّحدة معلناً أن حرب الخليج هي بين الخير والشرّ، الصواب والخطأ. وهكذا كانت القاعدة العقائدية للغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣ قد وُضِعت قبل تحرير الكويت عام ١٩٩١.

لم تبدُ نوبات الجنون التي بدأت يوم ١٣ شباط/فبراير ١٩٩١ في الساعة السادسة متأخّرة أبداً، لكنها لم تفاجئ أحداً. كانت هناك مشكلة في تأييد أهميّتها. كيف سيجيب ريتشارد نيل نائب قائد العمليّات الأميركي على عمليّة قتل أكثر من ٤٠٠ مدني عراقي بريء في الغارة التي شُنّت على العامرية في بغداد؟. هل يبدأ بالإعلان عن إجراء تحقيق في ما بدا أنّه مأساة مروّعة، القصف الخطأ لملجأ مُكتظ بالمدنيين، أو من أسف عميق في حال كانت تقارير بغداد صحيحة؟ أو أنه سيدّعي أن القتلى كانوا ضمن موقع عسكري مُحصّن وأن الهدف صحيح وأنه لا يعلم كيف وصل المدنيون إلى هناك؟.

كان الردّ الأخير هو ما صرّح به نيل بدقّة مثبتاً لملايين العرب أن الأميركيين لا قلب لهم، وهم أقوياء. حتى أنه تفاخر بجرأة طيّاريه على إطلاق صواريخ عبر فتحة تهوية في الموقع. لا شكّ أن العرب حبسوا أنفاسهم.

بالطبع، فقد اختار الجنرال تمضية أكثر من عشر دقائق في شرح نشاطه العسكري: عدد الطلعات الجوّية، وعدد الطائرات العراقية المدمّرة على الأرض، وعدد آبار النفط المشتعلة قبل الإشارة إلى مئات القتلى في بغداد كتذييل، كما لو كان آخر شيء يهمّ الناس. «قصف موقع» هذا ما سمّاه، «أنا هنا لأقول لكم إنه موقع عسكري، مركز قيادة ومراقبة، موقع مُحصّن، ولا تفسير حتى الآن لماذا وُجد المدنيّون هناك».

عندما انتهى من الردّ، وجد الجنرال نفسه يواجه بحراً من الأسئلة؟ ماذا حدث؟. كانت ردود الجنرال نيل محسوبة لطمأنة الحلفاء أن الخطط العسكرية بقيت أخلاقية كالمعتاد وكانت محكومة بإثارة السخط في معظم أنحاء العالم العربي. الملجأ/الموقع، كان هدفاً عسكرياً وكان على لائحة أهداف الحلفاء لبضعة أيام، وقد صدرت منه إشارات عسكرية. وقال إنه طُلي بطلاء تمويهيّ، لكنه اعترف في تحقيق لاحق أنه «لم يقل له ذلك إلّا عندما حضر»، وأضاف أن الأميركيين تعمّدوا ضربه. فهؤلاء الطيّارون الشبّان يتصرّفون من تلقاء أنفسهم رغم أن الحملة الجوّية حُدّدت أهدافها بدقّة وتطلّب وضع خططها وقتاً طويلاً. حتى الآن لم يتفوّه الجنرال بأيّ عبارة ندم وعندما سُئل ما إذا كانت هناك بادرة أسف أجاب: «إنك على حقّ لكنّني أضيف أنه كان هدفاً مشروعاً، لكن إذا كان قد قُتل ٤٠٠ مدني كما ورد، فمن المنطقيّ أن أقول لك إنني والرأي العامّ الأميركي وقوّات التحالف جميعاً نشعر بالحزن للواقعة إذا كان هناك بالفعل مدنيّون. إذا كان هناك بالفعل مدنيّون فإن ما حصل يكون مأساة»، إذا، إذا، إذا... لقد كان هدفاً عسكرياً مشروعاً، كان طيّارونا عظماء، كان «موقع قيادة ومراقبة». لكنه لم يكن كذلك. انكشفت الحقيقة التي أخفاها نيل في مؤتمره الصحفي بعد ٢٤ ساعة في دارة في ضاحية الرياض: اعتقد الأميركيون أن الموقع استُخدم من قِبل أعضاء كبار في حزب البعث العراقي وعائلاتهم وأصدقائهم. ولقد كانوا يقصفون بشكل منتظم المواقع التي يفترضون أن المدنيين المتعاونين مع صدّام ينامون فيها. وكان قصف الأهداف حيث توجد النساء والأطفال عادياً. كان مصدري صادقاً: جنرال سابق في سلاح الجوّ الأميركي يعمل الآن ضابط تحديد أهداف لدى سلاح الجوّ الملكي السعودي. كان يدقّق في صُوَر القوّات الجوّية الأميركية وصُوَر القمر الصناعي يومياً وكان على علم بملجأ العامرية.

عندما زرته صباحاً لشرب القهوة، كان في حالة من الحزن الشديد، قال: دخل أحد صاروخين أميركيين موجّهين عبر فتحة تهوية في ملجأ في بغداد، وقد أصاب الصاروخ الآخر كومة من الأوساخ في الخارج مسبّباً أضراراً للأبنية المجاورة. وأضاف أن جميع السعوديين غاضبون بسبب ذلك، والعرب الذين هم معنا في التحالف يقولون بأن العراق سوف يدمّر كلّياً إذا استمر هذا القصف. لقد كان المشروع مجلبة للعار عن عمد، للمدنيين كما للعسكريين... لكنّ هذا القصف كان خطأً كبيراً. كنت أرتشف قهوتي وأنا أدوّن الملاحظات وأراقب الألم على وجه هذا الرجل. أستطيع فقط التفكير مليّاً في الفجوة بين الطبيعة المتعمّدة والقاسية لحملة القصف الأميركي والتحريف المتعمّد والمركّز للحقيقة المستوعَبة والمقبولة والمردّدة من قِبل وسائل الإعلام. وبعيداً عن محيط الهدف الثمين الذي ادّعى نيل وزملاؤه من الجنرالات أنه كذلك، يقوم الأميركيون والإنكليز الآن بما يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ طلعة جوّية يومياً فوق بغداد وحدها. ويفيد الطيّارون أنهم يعاودون قصف الأهداف ٥ أو ٦ مرّات حتى بعد تدمير

ـنية التحتية كلّياً. تحدّث الجنرال ببطء مستهجناً نشاطات القوّة الجوّية التي عمل معها في يوم ما... ليس الذنب ذنب الطيّارين بالتأكيد. وقد شهدَ المجادلات بين الليفتانت جنرال تشارلز هورنر، قائد قوّات الحلفاء في الخليج، و ليفتانت جنرال أحمد البحيري، قائد سلاح الجو السعودي:

«هناك غليان كبير سائد في أوساط وزارة الدفاع والطيران السعودية بسبب قصف بغداد. فهم حزينون لهذا القصف المستمرّ وهم مهتمّون جداً بمسألة أن العراق لا يجوز أن يُدمّر، ويفكّرون في مرحلة ما بعد الحرب... ولا يميل السعوديون إلى الاعتقاد مع واشنطن بأن الملجأ كان هدفاً عسكرياً مشروعاً. لكن تشارلز هورنر كان مؤيّداً لقصف بغداد كونه رجلاً تقنياً. بينما يرى الجنرال بحيرى أنه يجب البدء بالهجوم البرّي. لقد تحدث نيل عن تمويه على سطح الملجأ. ولست ممّن يعتقدون أن الملاجىء حول بغداد غير مموّهة، وقد قيل إن حوله أسلاكاً شائكة وهذا طبيعي في بغداد . وقيل لنا إن الأسلاك توضع في بعض الأحيان لضبط الحشود وأن هناك أسلاكاً شائكة حول الأفران لمنع الاضطرابات. وليس في الجيش الأميركي فرد واحد يصدّق أن الملجأ كان مقرّ قيادة عسكرية ومراقبة وإنّ القادة الميدانيين الكبار لا يقدّمون تقاريرهم إلى مراكز القيادة في بغداد . اعتقد الجيش أنها تضمّ جنوداً وكنّا نعتقد أنه ملجأ للجنود. ويفترض في أي ملجأ عسكري وجود بعض المدنيين. لقد هاجمنا هذا الموقع ونحن متأكّدون أن هناك نساء وأطفالاً وهم أفراد عائلات العسكريين الذين يُسمح لهم بدخول الملاجىء. ولا تصمد الملاجىء أمام القنابل الموجّهة بالليزر وأمام إمكانات الطاقة الحركية للقنبلة وسرعتها الكبيرة».

أستطيع التفكير بسهولة بتلك الطاقة. قمت بزيارة هذا الملجأ في ضاحية العامرية في بغداد عدّة مرّات في لأعوام اللاحقة. لقد أصبح مزاراً وغطت جدرانه السوداء صور ٤٠٠ امرأة وطفل قتلوا هناك. لقد كان يستخدم كل مساء كملجأ للعائلات المحلّية ولم يكن أي مسؤول بعثي بينهم وقد أحرقهم الصاروخان اللذان أُطلقا على المبنى جميعاً وهم أحياء. على بعض أجزاء الجدران ظلّت بقايا لحم لعدّة سنوات فيما بعد. ووجدتُ أحجاراً إسمنتيّة عليها علامات بحجم البشر تحوّلت إلى سائل عندما انفجرت الصواريخ الأميركية خلال ثوان. ستبقى ذكراهم كطيف على الجدران مثل هيروشيما. تجرّع الجنرال الكثير من القهوة، لقد شاهد صور القمر الصناعي وفهم درجة الألم غير الطبيعي الذي عانى منه الضحايا لكنه ظلّ محصوراً ضمن الأمور التقنية للقصف الجويّ. فالمصادر لعسكرية الأفضل، حتى عندما تكشف الأكاذيب العسكرية، لا تصرّح دائماً بما نرغب في سماعه. إذا كانت لقنابل تقتل الأبرياء في بغداد، فالجنرال يتحسّر أيضاً على خسارة الذخيرة:

«نحن ملتزمون بتقليص عديد القوّات العراقية بنسبة ٤٠ في المئة على مسرح العمليات الكويتية وعلينا زيادة فعالية أسلحتنا نحو الأفضل. لقد تخطّينا نقطة الرجوع في قصف بغداد، والجوائز المربحة توجد في الكويت. ويمكننا التأكيد أننا نقتل العديد من قوّاتهم المتقدّمة. لم يكن علينا قصف بغداد، إنها ضربة طائشة، فحملة قصف كهذه تجنح إلى القضاء على نفسها. بعد قصف الملجأ أصبحنا متوتّرين حيال استمرار حملة القصف على بغداد. كان لدى الرئيس بوش حرّية حركة حتى نهار أمس ولم يعد

يملك هذه الحرّية بعد الآن. لكن حرّيته ليست مقيّدة. أظنّ أن ذلك يعجّل الحرب البرّية. سيعرف الطيّار الذي فعل ذلك أنه هو الفاعل، لكنها لم تكن غلطته هو... فصدّام حسين يضع الأطفال في المواقع العسكرية وهو الملام في ذلك».

لكننا كنّا مخطئين أيضاً. فالليفتانت جنرال توماس كيلي، قائد عمليات القوّات المشتركة شخص إنساني ولطيف وأنا أعرفه جيّداً، لكنه مأخوذ الى حدّ كبير بهذه الحرب التقنية الجوّية اللعينة بحيث يظهر على التلفزيون ويصرّح أنه مرتاح بالنسبة إلى التهديف. نستطيع من خلال إبداء أسفنا العميق عمل شيء لتصحيح الخطأ. لقد كان قصف ملجأ العامرية وحده الأكثر دموية في ما يتعلّق بالمدنيين . ففي ٤ شباط/فبراير قتلت طائرات بريطانية حسبما أعتقد ٤٧ مدنياً وجرحت أكثر من ١٠٢ عندما دمّرت جسراً فوق نهر مكتظّ بالمشاة في الناصرية، وسقط معظم الضحايا في الفرات. يوم ١١ شباط/فبراير، هاجمت القاذفات جسراً متحرّكاً في مدينة الفلّوجة إلى الغرب من بغداد، وبعد ١٢ سنة أصبحت الفلّوجة مركزاً للمقاومة ضدّ الاحتلال الأميركي للعراق. لكنّ الطائرة أخطأت الجسر وأصابت بناية وسوقاً مزدحماً وأدّت إلى قتل العشرات من المدنيين. ويعزو المراسلون غالباً اعتمادهم المراقبة الذاتية وعدم انتقادهم لتصريحات الجنرالات إلى إبقاء الباب مفتوحاً أمام الوصول إلى كبار الضبّاط بغية الحصول على معلومات، إذ من دون ذلك سيتخلّى عنهم قرّاؤهم. ولكن الأمر يختلف بين إيرلندا والشرق الأوسط. وبقدر ما يتحدّى الصحفيون السلطة يزداد عدد الراغبين في الحديث معهم طلباً للشهرة. وتتضمّن ملفّاتي مئات الرسائل من ضبّاط كل جيش عامل في الشرق الأوسط تقريباً. وجاءتني رسالة من لغويّ يعمل مع طاقم أواكس أميركي كان يراقب فوق الخليج قبل وخلال نزاع ١٩٩١.

> «يبلغ وزن قنبلة BLU - 82 المعروفة بشكل عام بـ «دايزي كاتر» Daisy cuter ٦٨٠,٤ كلغ وتُلقى من على قاعدة خشبية من طائرة C-130 مثل حمولة شاحنة. في هذه الحالة ألقت طائرتا C-130 اثنتين منها في مكانين على التوالي. تلا ذلك إلقاء طائرتي MC 130 منشورات تقول إنهم سيحصلون على الشيء نفسه في الليلة القادمة وأن عليهم الاستسلام جميعاً. في الليلة التالية، ألقت الطائرتان قنبلتين مع منشورات أخرى تقول إننا أبلغناكم بذلك. وبما أن قنابلهما تُلقى اثنتين اثنتين، لم يُضع الملخّصون الوقت في تسميتهما باسم «الشقيقتين الزرقاوين» مؤثر أليس كذلك؟(*).

وكانت طواقم طائرات أواكس AWAKS خلال حرب الخليج ١٩٩١ تطير في ظلام تامّ، وكانت النافذة الخلفية للطائرة مغطّاة لتجنّب التوهّج على أجهزة الكمبيوتر. كلّ فرد من الطاقم، رجلاً كان أم امرأة، يجلس على

(*) من قبيل المزاح مقارنة هذا الحساب الإنساني الساخر لـ BLU 82 بتقرير مراسل رويترز المتشوّق للقتال، عن سلاح أميركي خارق آخر استخدم لتدمير أكثر المواقع تحصيناً تحت الأرض عام ١٩٩١: كانت القنبلة GBU-28 أكثر قوّة بخمس مرّات من أيّ سلاح آخر غير نووي... كان عمرها بضع ساعات عندما أُلقيت على أقوى التحصينات العراقية تحت الأرض، وكان صانعوها يصلّون كي تنجح... صُنعت القنبلة الجديدة بسرعة في شركة لوكهيد للصواريخ والفضاء وشركة تكساس للمعدّات، بجهد فريق لا سابق له، وقد أُلقيت من طائرة ف١١١ على مركز قيادة في قاعدة التاج، واخترقت القنبلة الخارقة ٤٧٠٠ ليبرة (وهي عبارة عن برميل هوتزير مليء بالمتفجرات، وموجّه بأشعة الليزر) اخترقت الجدران الإسمنتية القويّة وانفجرت داخل الملجأ، وقال ميرل كالب من شركة لوكهيد: إنها قضية وطنية وتعاون لا سابق له.

منصّة تتضمّن شاشة تصاميم كبيرة، مع خريطة لمنطقة الخليج. كانت الطائرة مجهّزة بشاشات متصلة، يحصل أعضاء الطاقم عبرها على مسار طائرات الأواكس الأخرى، والرادار الأرضي E2CS. ويستطيع الطاقم مراقبة عمليات الضرب: عندما يدخلون العراق والكويت، يقصفون أهدافهم، ويعودون فيراهم الطاقم كسهام مسنّنة على الشاشة. كانت مهمّة مصدري «التأكّد أن سلاح الطيران العراقي لا فرصة له»... ويُظهر وصفه لهذه العملية العديمة الرحمة مدى التطوّر الذي بلغته المراقبة الأميركية التقنية:

«بمجرّد التقاطي صوت مذياع أستطيع معرفة مَن هم؛ وأيّ نوع من الطائرات يستقلّون، وأين هم، وإلى أين يتوجّهون، أو ماذا سيفعلون. خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى لحملتهم الجوّية، حاول العديد من الطيّارين العراقيين على الأقلّ إظهار محاولة الدفاع عن وطنهم.. ولكن ما إن يقوموا باتصالهم الأول، حتى أتصل بالأواكس وأخبرهم بعدد الطائرات، نوعها وموقعها، ووجهتها، وارتفاعها. وعلى الفور ترسل الأواكس مقاتلات التحالف خلفها. وكانت حقيقة ما يجري تصل إلى سمّاعتي فوراً وذلك عندما يصبح الطيّارون العراقيون ضائعين ومذعورين، وأخيراً صامتين. لقد شعرت حقاً بالأسف عليهم. كانوا يتحدثون جميعاً على الموجة نفسها، إلى درجة أن المراقب الأرضي لم يستطع الوصول إليهم لتحذيرهم بأن مقاتلات الحلفاء تقترب».

«إنهم يحرقون حقول نفطنا»، قالها مسؤول كويتي على الهاتف، وكانت بالتالي دليلاً غير قابل للنقاش. على مسافة ١٠٠ كلم فقط من الرياض كنا نرى ذلك الظلّ الناقص، سحابةٌ حاجبة امتدّت على طول الطرف البعيد للصحراء اللامعة. وبعد ساعة، وعلى بعد ١٥٠ كلم إلى الشمال، امتدت تلك السحابة فوقنا وصولاً إلى الشمس محوّلةً الرمل إلى لون أبيض شاحب. كان السائقون على الطريق السريع ينظرون جميعاً إلى تلك السحابة كما لو أنهم يتوقّعون إشارةً ما من حجم الظلام... غير مدركين أن السحابة كانت هي، الإشارة. كان العراقيون يحرقون الأرض كما وعدوا. وقد ساعد الأميركيون على ذلك من خلال إلقاء متفجّرات على آبار النفط في الكويت والعراق. الآن أصبح شبح دمار الكويت يمتدّ إلى الشمال الشرقي للسعودية.

كان سرّاً معروفاً أن الأميركيين والإنكليز سوف يتوغّلون قريباً توغّلاً عميقاً غرب العراق مسافة ٢٥٠ كلم تقريباً وذلك في الهجوم الشامل لتحرير الإمارة. وكان التحضير لذلك واضحاً الآن على الطريق السريع الذي بات شبه فارغ، وكانت الدبّابات ومدافع الهوتزر وبطّاريات الصواريخ جاهزة خلف التلال تحت الظلام الكبير. وحدها شاحنات الذخيرة والنفط كانت تسير مسرعة على الطرق باتجاه الحدود. وخلف الأكمة ظهرت جمال ترعى. لم يقم رجال الشرطة المتعبين حتى بالتدقيق في أوراقنا. وكان مراسلو المكتب الإعلامي المشترك المحصورون بزيّهم العسكري ينتظرون جميعاً التحرّك قُدماً في الليل، إلى الشمال ثم إلى الشرق إلى داخل مدينة الكويت أو مباشرة عبر الحدود العراقية باتجاه نهر الفرات. وكانت الطريق على طول شاطئ الخفجي (الطريق الأسهل للوصول إلى الكويت في زمن السلم) تُعتبر مصيدة موت، إذ كانت ملغمّة ومحميّة من أفضل القوّات العراقية. وقرّر المخططون الأميركيون أن الجيش الكويتي وحلفاءه السعوديين سيكون لهم الشرف المريب للاستيلاء على الطريق السريع وتحرير عاصمة الكويت. لذا ومع شعور قريب من الخوف، قمت بجولة مع تلفزيون سكاي Sky ووحدة

كوماندوس كويتية متلهّفة لعبور هذا الطريق غير السارّ والمشؤوم. ستكون هناك خنادق مليئة بالنفط وهم ينوون إضرام النار فيها لإحراقنا أحياء. وستكون هناك نيران من المواقع العراقية المتحصّنة بدبّابات T-72 لتدمير عرباتنا على الخط السريع... هكذا أُبلغنا. وعند الفجر المظلم لصباح ٢٥ شباط/فبراير، شربت وفريق تلفزيون سكاي الشاي بالحماس نفسه الذي شعر به والدي على شاطئ صوم عام ١٩١٨، ثم تأرجحنا خلف دورية مدرّعة كويتية ونزلنا عند مركز الجمارك السعودية. وبينما كانت الشمس تسطع في الوديان، عبرنا الخنادق المليئة بالوحول السوداء، والخنادق والسدود الترابية التي تمتد كذيل عبر الصحراء الكويتية، والتراب القاتم المبلّل بالنفط. كان من المفترض أن نُدمّر بالنار. لكن لم يكن هناك خنادق حارقة، أو قنّاصون أو حقول ألغام، بل ميلا بعد ميل مدرّعات وشاحنات ذخيرة عراقية مدمرّة، بفعل قنابل ذكية. لقد فرّ العراقيون مبكراً.

تنفّست هواء الفجر. كان كما لو أن الله أعطانا حياةً ثانية. تحرّكنا كيلومتراً تلو الآخر إلى جانب القوافل الكويتية والسعودية، والقوّات العربية، مع بعض القوّات الأميركية الخاصّة التي كانت تنطلق بسيّاراتها في الصحراء قربنا. كانت أجهزتهم اللاسلكية مزيّنة بعلم الكويت الملوّن بالأحمر والأخضر والأبيض والأسود. وكانت إشارات الطريق إلى مدينة الكويت ترشدنا. وفي الوقت الذي توقفنا فيه خلف سحابات منخفضة من النفط المحترق كان الضغط الجوّي يتغيّر مع انفجار قذائف المدفعية.

كانت الجائزة على بعد ٧٠ كلم. . والضواحي على بعد ٥٠ كلم فقط.. نصف ساعة من القيادة.. كان الكولونيل فؤاد حدّاد من الفرقة الكويتية التاسعة يقف في مدينة عزور الكئيبة، بلحيته الكثيفة والذكريات تكاد تخفي ابتسامته، في حين كان الأميركيون يطلقون النار على عدد قليل من المشاة العراقيين الذين فشلوا في الهرب. قال: «أشعر بأنني أحلم». نحن أيضاً شعرنا بذلك.. فبعد عدّة أشهر والكثير من التخطيط (ولنكن هنا صريحين وقُساة)، اخترقت قوّات الحلفاء القوّات العراقية في ساعات قليلة وانطلقنا بسرعة على الطريق السريع مثل الملوك. دمّر العراقيون خطوط الهاتف في الكويت، لكنّ هاتفي النقّال السعودي كان لا يزال فيه إرسال غرب عزور. اتصلت بالمكتب الخارجي لصحيفة الإندبندنت ولم يكن هارفي موريس موجوداً، فقد وجد مراسلنا الخارجي العزيز ريتشارد دودين نفسه منذ وقت طويل في مواجهة جنود عراقيين طلبوا منه أخذهم أسرى. وتحدّثت التقارير من الغرب عن استسلام الآلاف. فبعد وعده «بأمّ المعارك»، أمر صدّام جيشه بالانسحاب من الكويت مثل طفل سئم من لعبة مألوفة، وتعب من القصف والبيانات وهو متلهّف لبدء ملحمة جديدة وخلق هامش جديد من الشجاعة الفارغة.

تساءلت كم سيمضي من الوقت قبل أن تُبلغنا بغداد تصميم العراقيين العارم على عدم الاستسلام للولايات المتحدة، وكيف أن العراق وحده واجه القوّة العظمى الوحيدة في العالم، وكيف كان احتلالهم المؤقّت للكويت نصراً عراقياً تاريخياً؟ لم يمض أكثر من أسبوع في الواقع. بينما كنت أمضغ لوح شوكولاتة أميركية في سيّارة هومفي تابعة للقوّات الخاصّة، تذكّرت كيف تمّ الدفاع عن خرمشهر عام ١٩٨٤ بمثل شجاعة ستالينغراد بواسطة الحشود الإيرانية ممّا دفع صدّام بعد ٧ سنوات إلى سحب جيشه من المدينة التي استولى عليها مضحّياً بدماء كثيرة

سقطت عام ١٩٨٠. شكّلت الكويت تكراراً لخرمشهر. للمرّة الثانية، وما وصف بالمعارك الكبرى في التاريخ العراقي شُطب من كتب التاريخ. وهناك سيناريو جديد يبدأ غداً.

إلى جانب الطريق السريع إلى مدينة الكويت، كانت توجد كمّيات من الألغام المضادّة للأفراد وشاحنات عراقية مليئة بالصواريخ والقنابل اليدوية وصناديق ذخيرة للرشّاشات، تسطع في الرمال. لقد قطعت أسلاك الكهرباء، وكانت هناك سيّارات فخمة مقلوبة ومسروقة عجلاتها. وأنابيب النفط تنتشر في كل مكان في الصحراء، تنبعث منها رائحة النفط. وكانت الخنادق مليئة بسائل أسود مُزبد. ألم يكن باستطاعتهم إشعالها؟ أم كان الأميركيون أسرع؟ أم أن صدّام تخلّى عنها؟ ماذا فعل العراقيون؟ كان المكان أشبه بأرض ميتة.

وسألت في مدينة الكويت سؤالاً أشدّ وقعاً: أيّ نوع من البشر يقوم بذلك؟ تحوّل النهار إلى ليل، فقد كانت هناك طبقة من الدخان سميكة، وكانت آبار النفط الوطنية تحترق بلون ذهبي وبرتقالي على طول الأفق الأسود.. وهكذا ـ ويجب عليّ هنا استخدام مثل تلك الصور الحضارية التي كانت الأكثر انتشاراً في القرون الوسطى ـ اعتبر «هيرونيموس بوش» الجيش العراقي أكثر إنسانية هذه المرّة. وبعد خمس سنوات، سوف يتذمّر الصينيون من التلوّث والثلج الأسود على جبل إيفرست، والذي سبّبته حرائق النفط الكويتي..

لقد استخدم العراقيون ما يمكن اعتباره الموازي الحديث لعجلة التعذيب. طيلة اليوم، كان الرجال الكويتيون، شباباً وكباراً، يقتربون من سيّارتنا ويروون قصصهم المرعبة. قال رجل: «وضعوا ابني على عمود وكسروا رجليه بقطع خشبيّة، ظنّوا أنه في المقاومة، والآن أخذوه معهم مع كلّ الآخرين كدرع بشري». ثم هناك قصّة هيزر رينيسون، وهي امرأة بريطانية متزوّجة بكويتي: «اعتقلوا ابنة عمّ حماتي، وعمرها ١٩ سنة فقط، وقد وجدوا في غرفة نومها جهازاً لاسلكيّاً لاقِطاً ومستقبِلاً .. وبعد ثلاثة أيام جاءوا إلى منزل ذويها طلباً للملابس والأغطية... اعتقد أهلها أنها ستكون بخير.. قام العراقيون بشنقها ورموا بجثتها خارج منزلها... كانت الحروق بادية على يديها ورجليها. بالتأكيد احتفظ العراقيون بالملابس والأغطية».

ربّما كان على المرء السير على أرصفة مدينة الكويت ليرى حجم ما فعله العراقيون وأنه يصل بالفعل إلى درجة جريمة حرب. وقال لنا رجل مُلتحٍ في سيّارته: «سأدلّكم على المسجد الذي أعدموا فيه ١١ شخصاً يوم الجمعة». كان مسجد عبدالله عثمان يقع في حيّ حوَلّي الفلسطيني حيث أشار الرجل الملتحي إلى حائط أصفر: «قال العراقيون إن كل الذين يصلّون سيُؤخذون ويُخطفون، وقد بقي ١١ شخصاً في المسجد ورفضوا الرحيل، لذا جاءوا بهم إلى هنا، وعصبوا أعينهم، وأوقفوهم وظهورهم إلى الحائط، وأطلقوا النار عليهم في وجوههم»، وقال الرجل: «الرصاصات التي اخترقت رؤوس المؤمنين ما زالت مستقرّة الآن في الجدار الأصفر» وأضاف: «لا تُفاجأ، لديّ جاران ظنّ العراقيون أنهما كانا في المقاومة لذلك وضعوهما في مجرور، وأقفلوا الفتحة، ثم صبّوا عليهما النفط وأحرقوهما، وقام ذووهما بدفنهما لاحقاً، فأنت لا تستطيع ترك الجثث في المجارير»... كان رقم ٥ آلاف كويتي مخطوف في الساعات الأخيرة قبل الانسحاب العراقي يبدو خيالياً إلى أن تجد، كما حصل معي في

ذلك اليوم، أن العائلات الثلاث التي أقلّتني إلى عدّة مناطق في مدينة الكويت وقع كل أولادها أسرى. لقد أُخِذ الشبّان ببساطة إلى باصات الجيش العراقي بينما كانوا ذاهبين إلى العمل. وقُتِل ثلاثة آلاف رجل وامرأة هنا... يتساءل الكويتيون أيضاً: «مَن يستطيع فعل ذلك؟».. وإنه لأمر مروّع أن تحاول تسجيل حُكم الرعب للبحث عن سبب منطقي: كراهية مُزمنة ربّما، أو بعض عناصر وحدة منحرفة من المخابرات السريّة العراقية. لكن سيكون ذلك أمراً خيالياً. ماذا يظنّ المرء حين يرى ما رأيت عندما تجوّلت في رُكام المتحف الوطني الذي أحرقه العراقيون يوم الثلاثاء؟ أو داخل البرلمان؟ أو المكتبة التي ما زالت تحترق في قصر السِّيف، الذي دمّرت ساعةَ برجه الذهبية الرائعة قذيفة دبّابة، وحيث وجدت بقايا كتاب نشرته الحكومة الهندية: مختارات من أعمال المهاتما غاندي؟ أيّ نوع من الأشخاص يحرق المتاحف والمكتبات؟ ألن أقوم بكتابة الكلمات نفسها على بعد ٨٠٠ كلم من هنا، في بغداد، بعد ١٢ سنة بالضبط من الآن؟

خارج المتحف، جرى حرق مجموعة السفن الخشبية الأثرية الكويتية لتصبح رماداً كما أصبح البيت الإسلامي رُكاماً. وقد دُمّرت جدران قصر أمير الكويت في دسمان بالقذائف والجرّافات. واستخدم العراقيون الدبّابات لقصف البرلمان كما تمّ إحراق الفنادق الكبرى بشكل منظّم. وزرع العراقيون متفجّرات في غرف فندق ميريديان. كان ذلك أشبه بأعمال جيش من جيوش القرون الوسطى يغزو وينهب ومن ثمّ يحرق... وحتى على مستوى الأفراد، وجد أصحاب السفن يخوتهم مسروقة، أو غارقة في المرافئ. ووجد أصحاب المحلّات مخازنهم محروقة، إن لم تكن منهوبة. وفي موقع مضادّ للطائرات على الشاطئ حيث لغّم العراقيون الشواطئ ضدّ إنزال بحري أميركي غير موجود، مررت بأكوام من الأحذية النسائية الجديدة صنع فرنسا، ليس فيها واحد مشابه للآخر .. كانت ملفوفة داخل أغطية الجيش العراقي في مجلّات رياضية. لماذا يفعل هؤلاء الجنود ذلك؟ لماذا سرقوا معرضاً لمستحضرات تجميل عيون نسائية؟ كانت هناك صناديق مخازن ذخيرة في باحة المتحف، وحُفر طلقات في جدران المبنى المهدّم الذي كان في يوم من الأيام يضمّ أثمن الكنوز الوطنية الكويتية التي نُهبت منذ فترة طويلة؛ فيمَ كان يفكّر هذا الجندي عندما فتح النار على المتحف؟

جرى تدمير كلّ المطاعم المحاذية للشاطئ. وأُطلقت النيران على الأبراج المائية المغطّاة بالزجاج الفني. وفي الأحمدي، وضع العراقيون متفجّرات في حقلَي النفط اللذين يضمّ كل منهما ٢٠ خزّاناً. وكان «البيت الأبيض» البريطاني القديم الجميل محروقاً مع غرفة المراقبة التي تشغّل أنابيب النفط. أفترض أن أحدهم في الكويت شعر بأن شيئاً حقيراً جدّاً حصل هنا، شيئاً شرّيراً بالفعل ألَمَّ بهذه المدينة، ليس جيش احتلال فقط ولا حتى ميليشيا حزب البعث العراقي، بل شيء يرتبط جوهرياً بالدكتاتورية والفساد. يقول شعار مكتوب بالأحمر على أحد جدران القصور المحروقة: «فليسقط القذر فهد وصباح وحسني، وعاش صدّام حسين». في المتحف الفنّي الزراعي الكويتي الصغير المنهوب وجدت مُلصقاً لصدّام معلّقاً على حائط، ويقول الشعار: «الأكثر ظفراً بين كل العرب، الزعيم الكبير صدّام حسين حفظه الله»، مَن كان قائل هذه الكلمات؟ أراد العقيد مصطفى عوضي من حركة المقاومة الكويتية إطلاعي على ما يجري في منطقة سكنية في ضاحية كيوان، فأخذني إلى مدرسة كان يستخدمها

العراقيون مركزاً للتحقيق، وفي أحد الصفوف عرّفني على ستة عشر جندياً عراقياً. كانوا جالسين على الأرض، مُقيّدي الأرجل، غير حليقين وبؤساء. كانوا رجالاً عاديين تعبين، وجوههم وسخة وملابسهم قذرة. قال العقيد: «كانوا مسرورين بالاستسلام». «أنظر، نحن نعطيهم الشاي والطعام، وأعِد أنني سأسلّمهم بدون أذى إلى الجيش الكويتي».. كان اثنان من الرجال مصابين بجروح في الوجه، وكانت ضماداتهما جديدة وقد ابتسما عندما سلّمت عليهما . . قلت للعقيد بالعربية إنني سأبلغ الصليب الأحمر بوجود هؤلاء الأسرى. لا يستطيع المرء سوى الشعور بالأسى لهؤلاء الشباب المهزومين، وابتساماتهم الحزينة!! إذاً، أيّ نوع من الرجال اغتصب الكويت؟

أخيراً، كانت هذه فرصتي المثاليّة لأسأل التالي: الفرصة كيف كان الأمر تحت القصف وتحت ضربات القنابل الموجّهة والـ GBUs والدايزي كاتر؟ كيف تكون حال جندي عراقي تهاجمه القوّات الأميركية؟؟ قال محمّد: «قصفنا الأميركيون والإنكليز». تعرّفنا على كل الطائرات ف١٥، وف١٦، وب٥٢، وجاغوار، وعرفنا ما سيحصل». كان محمّد جندي احتياطي عراقي عمره ٣٣ سنة، ومن أكبرهم سناً، وكان رفاقه السجناء يومئون بالموافقة بينما كان هو يصف معاناتهم. حرّك يده اليسرى بسرعة من اليسار إلى اليمين بينما كان يصف في حركة سريعة تأثير قنبلة انشطارية: «الانفجارات حصلت في كل مكان، قنبلة كبيرة وعدّة قنابل صغيرة في كل مكان». بعد كل الروايات وصور أفلام الفيديو حول القنابل، هذا ما كان الوضع عليه في الجهة الأخرى، بلسان الذين حاولوا النجاة في «محيط الهدف المهمّ». وصف شوارزكوف العراقيين بأنهم لا يأكلون جيّداً ويعيشون في خوف من فِرق الإعدام. وبشهادة محمّد ورفاقه كان الأمر صحيحاً. لم يأكل أيّ من الجنود العراقيين شيئاً سوى الأرزّ والخبز الرديء لعدّة شهور. وتحدّث الجميع بازدراء عن القوّات الخاصّة. استناداً إلى عليّ (٢٢ سنة)، وهو جندي من الديوانية، كانت القوّات الخاصّة تسيطر على فِرق الإعدام «كانوا يأتون لرؤيتنا على الجبهة في الوفرة ـ الكويت ـ ويبلغوننا ما سيفعلونه بنا، قال لنا أحدهم أننا نعرف ما سيحلّ بنا إذا هربنا، ودعا أحدنا للذهاب والنظر إلى جثث خمسين جندياً أُعدموا. لكن بعد بضعة أيام، في نهاية الحرب، فرّ صديق لي اسمه سلام حنون وهو جندي من العمارة، فأمسكوا به وأعادوه، ثم جعلونا نشاهد إعدامه، وقد وقف ينتظر موعد إعدامه، ثم شتم صدّام حسين، وعندها أطلقوا النار عليه. كان عمره ٢٣ سنة».

كان وصف محمّد لفِرق الموت مُرعباً. كانوا كلّهم أعضاء في حزب البعث، بدّلوا أسماءهم حتى لا يتمّ التعرف عليهم أبداً. فالذي اسمه محمّد يدعونه حسين مثلاً، وقال: «ليست لديهم مشاعر ولا رحمة». لم تُرهب الإعدامات عليّ. «في النهاية حاول عشرة منا الهرب، تحت القصف، فأُلقيَ القبض علينا، وقُيّدت أيدينا وعُصبت عيوننا، وقالوا إنهم سيقتلوننا. لكن أتى أمر الانسحاب واحتاجوا إلينا لمساعدتهم في قيادة الشاحنات إلى خارج الكويت». وقال النقيب بعد فترة: «إذا كان الفرق بين الحياة والموت على الجبهة العراقية مسألة تكيُّف تقني، فقد حبّذ الجنود مخاطر قصف الحلفاء». وقال محمّد: «في الليل، كنا نختبىء دائماً في مواقعنا في التراب. كنّا مختبئين هناك طيلة الوقت، منتظرين انتهاء القصف وبدء الهجوم البريّ. كان أحد أصدقائي عبّاس، عطشاً ذات ليلة، عندما كانوا يرمون قنابل انشطارية علينا، وظلّ يشتكي أنه يحتاج إلى ماء. قلنا له لا تخرج إلى هناك فهذا

خطير جدّاً، وكان الماء موجوداً في مخبأ آخر على بعد عشرة أمتار فقط. غادر عبّاس رغم تحذيرنا، وعلى الفور أصابته شظية في رأسه وقتلته. كان علينا تركه هناك ولم يُدفن».

اعتقد غسّان، وهو جندي احتياطي عمره ٣٠ سنة، من الناصرية، أنه كان هناك أمل ضئيل للاستسلام إلى الحلفاء، لذلك سلّم نفسه مع رفاقه للمقاومة الكويتية منذ ثلاثة أيام وقال: «بعد أن قرأنا المنشورات التي ألقيت علينا أردنا الفرار، وأبقينا المنشورات معنا طيلة الوقت، وصنعنا أعلاماً بيضاء لنلوّح بها لطائرات الهليكوبتر إذا جاءت، لكن كانت أمامنا ألغام كثيرة.. وفي البداية كنا على بعد ٤٠ كلم من الحدود... وقال العراقيون إنهم حصلوا فقط على الماء والأرزّ والخبز المخلوط بالرمل منذ تمركزهم في الكويت. «وفي العراق كانت حصّتهم العسكرية من الطعام ٥ كلغ من الطحين شهرياً وثلاث قطع من الخبز يومياً».

تكلّم العديد من الأسرى عن الشعور بالثكل والعذاب في أوساط عائلاتهم في العراق. كان طفل عدنان البالغ ثمانية أشهر يعاني من إسهال حادّ وحرارة مرتفعة عندما رأى هذا الجندي عائلته لآخر مرّة.. لم تستطع عائلته الحصول على الأدوية من الطبيب بسبب حصار مجلس الأمن ولا يعلم ما إذا كان طفله ما زال على قيد الحياة. وتوفّيت شقيقة غسّان، نضال، بعد إنجابها طفل بيومين، لأن الأكسجين كان مفقوداً في مستشفيَيْن، قال: «هذا بسبب الحصار». كان هذا هو الدليل الأوّل الذي وجدته، حتى قبل تحرير الكويت،على أن عقوبات الأمم المتحدة كانت قاتلة.

فاقة ومأساة في الوطن، فِرق إعدام، جوع، و٢٤ ساعة قصف على الجبهة، كلّها معاً دمّرت معنويات ١٦ جندياً تحدّثوا إليّ.. تحدّث أحدهم بمرارة عن صدّام، للتأثير على سجّانيه الكويتيين دون شكّ، لكنه لم يكن خائفاً من خيانة زملائه له لاحقاً، قال: «أودّ العودة إلى عراق لا وجود فيه لصدّام حسين». كانت تلك أمنية ملايين عدّة من العراقيين. قبل يوم كنا نحن في الغرب نحثّ الشعب العراقي على القيام بذلك وعلى الثورة وتحطيم الطاغية. كم كان من السهل قيامنا بذلك؟ كم بدا ذلك طبيعياً؟ ذهبنا بعد ذلك إلى الحرب بالتحالف مع العرب. رجال صالحون وحقيقيّون، من الديانتين المسيحية والإسلامية، حاربوا معاً ضدّ صدّام. هذه هي الصورة التي أُعطيت عندما جلس شوارزكوف والأمير خالد القائد الأعلى لكلّ القوّات الغربية في صفوان في ٣ آذار/مارس ١٩٩١، لترتيب وقف إطلاق نار عراقي والسماح لصدّام بالحفاظ على طائرات الهليكوبتر وما تبقّى من قوّات الحرس الجمهوري سالمة.

في السنوات التي تلت، أثبتت مذكّرات الذين يُفترض أنهم قادوا هذه الحرب أن التحالف كان فريقاً وأن تقاريرنا عن الحرب مُعيبة مثل الرجال الذين خاضوها.. وقد استخدم الأمير خالد شركة علاقات عامّة أميركية لإدارة مؤتمراته الصحفية.. في أقصى المدخل المغطّى بالسجّاد الفاخر في وزارة الدفاع السعودية، كان رجل أميركي ضخم من أصل إيرلندي اسمه لينش من شيكاغو يقف خلف الأمير خالد يختار الصحفيين الذين يسمح لهم بطرح أسئلة، وكان يقترح على القائد السعودي كيفية الردّ. كان ذلك لجعل الأمر ألطف ولتقديم أداء مرحّب به.

وقف الأمير خالد أمام كاميرات التلفزة وأعرب عن شكره العميق للشعب الأميركي لإرساله أبناءه للدفاع عن أرضه، بينما كان السيد لينش يربّت بلطف على كتفه. كان عرض الأمير أكثر تميّزاً بشعر كثيف مفروق ومنخفض، ويبدو أنه قام بزراعة شعر في رأسه مؤخّراً.

قال الأمير خالد: «كان قرار الملك فهد دعوة القوّات الأميركية إلى السعودية أحد أشجع القرارات في حياتي».. ولم يجد هو أيضاً أيّ خطأ في دعوة ضيوف أجانب. وقال إن الولايات المتّحدة ستحترم القوانين السعودية كما احترمت السعودية قوانين الولايات المتحدة. وكانت لفظة «الاحترام» هي الكلمة التي يستخدمها السعوديون دائماً؛ سيحترم الأجانب الإسلام، ويحترمون العرب، وبالطبع سيحترم العرب أميركا. وعبّر خالد عن احترامه لشوارزكوف وكذلك بادله شوارزكوف باحترام قيادته. وبدا لبعض الوقت أن لا نهاية لهذا الإعجاب المتبادل حتى عندما تركت القوّات السعودية مواقعها في الخفجي، بعدما شقّ السعوديون والقطريون ومرتزقتهم من الباكستانيين طريقهم إلى داخل المدينة. كانت هناك ابتسامة الأمير الدائمة، وهو يتجوّل وعلى رأسه قبّعة زرقاء مزيّنة بنجوم الجنرالية الأربع معلناً فخره بجيشه وبحلفائه الأميركيين.

ولك أن تتخيّل مفاجأة الأمير خالد عندما تصفّح مذكّرات شوارزكوف بعد سنة، ووجد أن احترام القائد الأميركي لم يكن عميقاً بقدر ما تراءى له.. واستناداً إلى شوارزكوف فقد اشتكى خالد من أن القوّات الأميركية كانت ترتدي قمصاناً عليها خرائط السعودية (كانت خرائط سرّية)، وأن حاخاماً نفخ ببوق روش هاشانا على أرض إسلامية (كان الحاخام في أميركا وكتب في صحيفة إسرائيلية)، وأن الأميركيين أحضروا راقصات إلى الظهران.. وأن خالداً طلب من الأميركيين شنّ هجومهم من تركيا عوضاً عن السعودية.. وأنه أبلغ شوارزكوف بأن السوريين لا يرغبون في القتال... لقد اختير خالد لهذا العمل كما كتب شوارزكوف من قِبل جنرالَيْن أميركيَّيْن. وكان على السعوديّين توقّع مثل هذه المعاملة. ففي الأشهر التي تلت تحرير الكويت برزت السعودية باعتبارها الزبون المالي الرئيسي لأميركا في الشرق الأوسط، دولة تابعة تدعم تمويل حلفاء واشنطن الأفقر في الشرق الأوسط (مصر على سبيل المثال)، وتشتري شكوك الأقلّ حماسة للسياسة الأميركية (سوريا خاصّة)، ومقابل دعم القوّة العسكرية والسياسية الأميركية أصبحت السعودية مموّل واشنطن.

وعلى ما يبدو، فقد شنّ الأمير خالد بمرارة سلسلة تهجّمات على المحترم شوارزكوف متّهماً إيّاه بتلفيق روايات وتزييف حقائق لإعطاء نفسه كل الفضل بالنصر على العراق، بينما وجّه الطعن إلى الجميع.. مسكين خالد! هل اعتقد الأمير خالد حقاً أن الأميركيين قبلوا به جنرالاً بأربع نجوم مع شوارزكوف ودولابيلير؟ وعلى سبيل المثال، فقد أخفق في الاعتراض على إحدى الفقرات الأكثر تهجّماً في كتاب شوارزكوف، ربّما لأنه فشل في فهم معانيها، والقرّاء مدعوون لملاحظة الإهانة..:

«كان خالد مثالياً (بين مزدوجين)، درس في ساندهرست في الكلّية العسكرية البريطانية والتحق بكلّية سلاح الطيران الأميركي في قاعدة ماكسويل الجوّيّة، نال درجة ماستير في العلوم السياسية من جامعة

أوبورن Auburn، وكان الأمير الأعلى رتبة في القوّات المسلّحة السعودية، ولم تكن معلوماته العسكرية بمستوى أهمّية دمه الملكي بما أن كل السلطة تقريباً في السعودية محصورة في دائرة ضيّقة من العائلة المالكة. كان ولديه، بعكس الجنرالات الآخرين، السلطة لتوقيع شيكات للنفط».

ولذلك كان الأمير خالد مهمّاً، بالنسبة إلى حرب الخليج، بعد أن قلّصت مبيعات الغرب لكمّيات كبيرة من الأسلحة شعبية بوش الذي وعد بتخفيض مستوى التسلّح في الشرق الأوسط. فقد انتهت الحرب بربح صافٍ للتحالف الغربي، وقاتل فيها شباب من ديترويت وغلاسكو.. هل يستطيع شريكان كهذين إظهار قدر أكبر من الاحترام التجاري(*) المتبادل؟

والغريب أن قائديْ أكبر جيشين غربيين في الخليج يفردان قسماً كبيراً من مذكّراتهما محاولَيْن إقناعنا بأنهما يحترمان العرب والمسلمين في الشرق الأوسط.. خلال زيارته لمنطقة الخليج كقائد للقيادة المركزية الأميركية عام ١٩٨٩، ادّعى شوارزكوف أنه معجب بطريقة العيش العربية، وقام برحلة صيد مع الشيخ محمّد بن زايد آل نهيان في الإمارات.. وحتى أنه ارتدى ملابس كويتية للعشاء. وقد رحّب به نُظراؤه في بيوتهم ومساجدهم، وكتب شوارزكوف «إنهم يعرفون الآن إعجابي بحضارتهم».. وبدا الجنرال السير بيتر دولابيلير شديد التأثّر بالحضارة العربية، وكتب: «أحببت العرب واحترمتهم وفهمت طرق عيشهم، وقدّرت العرب جيّداً وكذلك حضارتهم الممتازة». وفي صفحات لاحقة تفاخر مجدّداً بفهمه للعرب ولطرق عيشهم. غير أن جزءاً كبيراً من خدمة دولابيلير السابقة في الشرق الأوسط، مطاردة كضابط في المخابرات. في عمّان قال إنه فشل في القضاء أو القبض على ثلاثة زعماء عرب معارضين لكنه نجح في إجبارهم على الرحيل إلى المنفى.. وفي وادي روضة، هاجمت مخابرات SAS مركزين قويّين للثوّار، وقضت عليهم بفعالية.

ومن المستغرب أن دولابيلير لم يذكر حصار السفارة الإيرانية في لندن من قِبل المخابرات (SAS) التي كان يرأسها عندما اقتحم المبنى وأنقذ الرهائن المدنيين الموجودين هناك، ثم عمد إلى إعدام الخاطفين ما عدا واحداً منهم عربياً.

(*) أنفق العرب ٨٤ مليار دولار في عملية عاصفة الصحراء ودرع الصحراء والتي سمّيت بشكل مأساوي في إحدى المراحل بأزمة الخليج وحربها ١٩٩٠ ـ ١٩٩١. واستناداً إلى تقرير اقتصادي عربي نُشر عام ١٩٩٢، فإن هذا الرقم هو ثلاث مرّات أكثر ممّا دفعه السعوديون لحرب صدّام ضدّ إيران خلال ثماني سنوات. ويقدّر الأمير خالد بن سلطان مساهمة السعودية وحدها في نزاع ١٩٩١ بأكثر من ٢٧,٥ مليار دولار أي أكثر قليلاً ممّا قدّمت لصدّام. إجمالاً، تكبّد العرب خسارة مقدارها ٦٢٠ مليار دولار بسبب الغزو العراقي والنزاع اللاحق، وكانت الكويت الأولى في المساهمة بالموارد المالية للحرب عندما وافقت على دفع جزء من ٦ مليارات دولار لانتشار القوّات الأميركية في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١. اشتكت أميركا في آب/ أغسطس ١٩٩١ أن السعودية والكويت ما زالتا مدينتين لها بـ ٧,٥ مليار دولار من حصّتهما في تكاليف حرب الخليج، آنذاك كانت كل منهما قد ساهمت بـ ١,٧ و١٢,٥ مليار دولار. كان يمكن للشرق الأوسط أن يثبت حقيقة اقتصادية جديدة في عالم الاقتصاد: وهي أن الحروب يمكن أن تخاض للفائدة كما للنصر، وهو درس عزّزه غزو العراق حتى انتهى الاحتلال إلى كارثة.

ربّما كان من الضروري بعد عدّة شهور من حرب الخليج جعل العلاقة رومانسية بين الغرب والعرب، بين المسيحيين والمسلمين، من دون تبسيط، وإعادة بناء أسباب قيام الجيوش الغربية بحملتها الصليبية لإنقاذ أضخم بُحيرة نفطية في العالم، ولمنع صدّام من أن يصبح أكبر مسيطر على النفط. وقد أورد شوارزكوف الذي يفهم على الأقلّ حاجة الولايات المتحدة إلى الحفاظ على علاقتها مع العرب أن أحد أهداف الحرب كان القضاء على قدرة العراق على تهديد العالم العربي.. وليس بعيداً عن الحقيقة ارتياب الملايين من العرب في كون الحرب وغزو العراق إنما كانا للإطاحة بقدرة العراق على تهديد إسرائيل، ويكفي لتأكيد ذلك الارتياب ملاحظة الجهد الكبير الذي بُذل لتدمير قواعد صواريخ سكود العراقية المتحرّكة والتي كانت تُطلق على إسرائيل.

لم يُشر شوارزكوف أو دولابيلير إلى قتل مئات الفلسطينيين في الكويت وعملية التطهير العنصري لعشرات آلاف آخرين على يد الكويتيين بعد الحرب.. وقد أتى شوارزكوف على ذكر الفلسطينيين ثلاث مرّات في كتابه. وأظهرت المرّة الثانية عدم إحساس من قبله ممّا أدّى إلى إثارة غضب الأمير خالد. ونورد محادثة بين الجنرال والأمير خالد جرت في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠ بعد قتل الشرطة الإسرائيلية ٢١ فلسطينياً في القدس. يقول شوارزكوف: «لقد حذّرت الجنرال خالد من التسرّع في إدانة الدعم التاريخي الأميركي لإسرائيل خاصة بعدما استوعب الشعب الأميركي ١٠ حوادث موت لجنود سقطوا بينما كانوا يدافعون عن السعودية». ذلك الشوارزكوف يستطيع مقارنة حوادث عسكرية مأساوية مع ما كان بالفعل مجزرة ممّا يظهر مدى ابتعاد «إعجابه بالحضارة العربية» عن الحقيقة.

انتقد الرجلان بعنف ظلم صدّام، وحتى قصّة دولابيلير كانت غير صادقة هنا. ففي نقطة ما تكلّم عن حرب صدّام ضدّ «التوسّع الإيراني»، في الوقت الذي كان فيه صدّام هو التوسّعي. كان العراق هو الذي غزا إيران عام ١٩٨٠ وليس العكس. إذن ثمّة الكثير من الفهم «لطريقة العيش العربية!». ولو كان حقّاً هناك احترام للعرب والمسلمين لكان من الإسراف في نهاية الحرب أن يطلب دولابيلير بفرح غامر من الشعب البريطاني «الخروج إلى الشارع وقرع أجراس الكنائس»، في الوقت الذي كانت فيه عشرات الآلاف من جثث الجنود العراقيين المسلمين تنتشر في الكويت والعراق ويُلقى الكثير منها في مقابر جماعية مجهولة الهوية. وبغض النظر إن كان مدركاً لمضمون حديثه أو تأثيره، فإننا نتساءل إن كان هناك تجلٍّ أوضح من ذلك لانتصار المسيحية على الإسلام؟ لكن حتى ترويج دولابيلير لنفسه لم يؤثر على الأمير خالد. فعندما ظهرت مذكّرات الأخير عام ١٩٩٥، شعر بالقدرة على إبلاغ قرّائه بأن الموافقة على طلب دخوله الكلّية الحربية في قاعدة ماكسويل الجوية تدلّ على أن الله كان يوجّه عمله ليعدّه لما سيأتي. كان متأثّراً عندما قارنه الدبلوماسيون الصينيون بهنري كيسنجر.

قبل الحرب، نام خالد في غرفة تحت غرفة وزير الدفاع السعودي. وأبلغنا الجنرال الذي سمّى كتابه «مقاتل من الصحراء»: «عانيت من الوحدة، ولتهدئة نفسي وإبعادها عن الحرب، خصّصت الليل لمشاهدة مسرحيات أميركية كوميدية في التلفزيون، وبعد مشاهدة إحداها لمدّة نصف ساعة كنت أنام بهدوء». وقد زاد الأمر سوءاً ما

نُقل عن جداله مع وزير الدفاع الفرنسي.. فقد قارن الأمير خالد نفسه بشكل غير مباشر بتشرشل الذي كان هو وعابر اللورين (ديغول) من الصعب مجارتهما. وقد انزعج لأن كرسيّ شوارزكوف كان أكبر من كرسيّه، وأصرّ على أن يقوم شوارزكوف بزيارة مكتبه للاجتماع به وليس العكس، ووصف معركة الخفجي بالمعركة المحورية في الحرب. وأبلغنا خالد بكآبة أن مهمّته كانت أكثر صعوبة وتعقيداً من مهمّة شوارزكوف الملكة. فهو لا يستطيع الانحناء عندما يحظى بتكريم من الملكة إليزابيث، ويذهب لتسلّم أوسمة الشرف والأوسمة الأخرى من فرنسا والبحرين وهنغاريا والكويت، والمغرب والنيجر وعمّان، وقطر والسنغال وبالطبع من السعودية. وقد أفادنا الجنرال أن ذلك، «شيء للتاريخ... بالنسبة لجنديّ عربي في حرب»، مضيفاً بسرور: إنني أرغب في شكر الذين قدّموا لي الأوسمة».. هل هذا ما تعنيه الجندية؟ حكى لنا خالد عن الحاجة إلى حماية حضارة السعودية وتقاليدها.. ومع أنه لم يقل ذلك، فقد تعني الحضارة قطع رؤوس المجرمين وإطلاق النار على مؤخّرة الرأس إذا كانت المحكومة امرأة، وتمييزاً فعلياً لكلّ الطبقة النسائية في المملكة. وأفرد صفحتين للحديث عن الحاجة إلى تقديم الولاء للعائلة المالكة، وهو نظام يقوم بموجبه خمسة آلاف أو أكثر من الأمراء بالسيطرة على أراضي ٩ ملايين نسمة بعد دعوة الأميركيين لحمايتهم. أما الأمير سلطان، والد الأمير خالد كما يذكّرنا باستمرار، فقد كان وزيراً للدفاع ولعب دوراً مهمّاً مثل دور ديك تشيني، وزير الدفاع الأميركي. والأمير سلطان هو الذي اقترح أيضاً أن يقوم الغرب مؤقّتاً بعقد اتفاق مع صدّام بينما تستعدّ الولايات المتّحدة للحرب.

في كتاب خالد الصحراوي، هناك من وقت لآخر نقاط بارزة حول كيفية تسلّل المخابرات العراقية إلى معسكرات اللاجئين في السعودية، على سبيل المثال، وخطأ شوارزكوف الفادح في صفوان عندما سمح للعراقيين باستخدام طائرات الهليكوبتر بعد وقف إطلاق النار. قال الأميركيون للجنرالات العراقيين المذهولين: «لا مشكلة مطلقاً، هذه نقطة مهمّة جدّاً ونريد التأكّد أنّ باستطاعة طائرات الهليكوبتر التحليق فوق العراق». ردّ العراقيون بالشكر وذهبوا لذبح الشيعة في البصرة والأكراد في الشمال. استشهد الأمير الطيّب بكلاوزفيتز، وأخذ إجازة بعد الحرب ليستعيد رباطة جأشه بعد إحباط الأحداث الكبيرة التي لعب دوراً فيها. لطالما عانى وتنفّس بصعوبة نتيجة الكوابيس حول القتال والموت... هل قمت بعمل جيّد؟ أترك ذلك لحكم المعاصرين وللتاريخ .

بينما كان الأمير خالد يتعافى من الحرب ويستعدّ للإجازة كانت فلول الجيش العراقي تتوجّه إلى العراق تحت ضربات الأميركيين الشرسة. بعد وقف إطلاق النار على سبيل المثال، قام الجنرال باري ماكوفري من الوحدة ٢٤ الأميركية بشنّ هجوم لمدة ٤ ساعات ضدّ القوّات العراقية المنسحبة قرب نهر الفرات مدمّراً ٧٥٠ عربة بما في ذلك باص يقلّ نساء وأطفالاً، قاتلاً آلاف الجنود. وسُمِع أحد عناصر طائرة أباشي يصرخ قائلاً: «قُلْ مرحباً لله»، بينما كان يطلق جحيماً من الصواريخ عليهم. لم يُقتل أي أميركي(*). وقد قابل مراسلو وكالات الأنباء الغربية في بغداد الجنود الهاربين الذين وصفوا المجازر في أرض المعركة بالمرعبة. وأبلغ عراقي وكالة الأسوشيتدبرس: «كان

(*) قام بالتحقيق في هذه المجزرة المشينة الشخص نفسه الذي كشف التعذيب في سجن أبو غريب عام ٢٠٠٤، سيمور هرش. وكالعادة، فشلت اللجنة الإعلامية في كشف حجم عمليات قتل الفرقة ٢٤ وقدّمته على أنه هجوم عراقي على الأميركيين.

ظلام وكنت أسير على الجثث، والأيدي، والأرجل ورؤوس الجنود الموتى». ووصف آخر كيف أُخذوا في شاحنات عسكرية وسيّارات من أرض المعركة وجثث الموتى تغطّي الخطوط الاثني عشر للطريق السريع: «لم نتوقف لأخذ الجرحى، هربنا بأرواحنا».

في السنوات اللاحقة قابلت العديد من الجنود العراقيين الذين نجوا من تلك الأيام الرهيبة الأخيرة. كان الملازم إحسان الصافي ضابطاً صغيراً في الوحدة الهندسية ١٥ من الجيش العراقي: «عندما وجدت نفسي وصديقاً لي تحت القصف الجوّي الأميركي لجسر كويتي مليء بجثث جنود آخرين كانوا ممدّدين على الأرض بينما يسعى جنديّان آخران للهرب إلى الأمان من ناقلة جند مصفحة». وقد أدّى انفجار القنبلة الأميركية إلى قذف ناقلة الجند المهجورة نحو صديق الصافي. وعندما وقف إحسان على قدميه أمسك بيد صديقه «لكن لم يكن هناك أحد متعلّقاً بها». كان العراقيون يحترقون أحياءً في زحمة القوافل على الطرق السريعة شمال الكويت. وكان العديد منهم مجنّدين إجباريين. وكان بعض الناجين الذين التقيتهم من الأكراد والتركمان في العراق وبعضهم من الأرمن الذين قُتل أجدادهم في مجزرة ١٩١٥. وقد تحدّثت مع كردي نجا من جحيم النار على الطريق السريع وعاد إلى العراق، ليجد نفسه بدون مأوى في الجبال إلى الشمال عندما سحق صدّام الانتفاضة التي شجّعها الأميركيون.

امتدّ دمار طريق صدّام إلى مئة كلم على الطريق السريع من مدينة الكويت إلى الحدود العراقية في صفوان؛ إنها طريق الرعب والدمار والعار بسبب مئات الجثث المقطّعة الممتدة على الطريق نتيجة تدمير آلاف الدبّابات العراقية والعربات المصفّحة التي تنتشر سوداء ومهجورة هناك: عار لأن جنود صدّام ملأوا سيّاراتهم المصفّحة بالسرقات، عار أيضاً لأننا عاقبناهم جميعاً بموت مهين وغير ضروري. لقد انتشر الموتى على طول الطريق على بعد ٨ كلم من مدينة الكويت، وكنت تستطيع رؤيتهم كلّما اقتربت من الحدود العراقية حيث آبار النفط المحترقة تقذف النار إلى السماء. بالطبع إن الرعب هو الذي يصدمك أولاً. ثمّة جثة جنرال عراقي نصفها خارج الليموزين المسروقة، شفتاه ممزّقتان ويداه ممدودتان على الطريق بشكل مهين على بعد ٢٥ كلم إلى الشمال من المدينة، وترى شارات الجنرال على لباسه المرقّط. لقد اصطدم بمؤخرة مصفّحة في عمليّة التقهقر الكبير. وفي مكان أبعد، تنتشر الجثث على الطريق السريع قرب الدبّابات وشاحنات الجيش. هناك سقط جندي عراقي على جانب الطريق وتقوقع، يداه على وجهه وظهره ممزّق.

وعندما حضرت سيّارة الإسعاف ونقلت جثّته لاحظنا أن رجله اليسرى فُقدت كلّياً. وكان جنديان متفحّمان في مقصورة قيادة شاحنة تلقّت قذيفة مباشرة من الجوّ، وكانا يشخصان إلى الطريق باتجاه الوطن الذي لم يصلا إليه. كان المدنيون الكويتيون يقفون فوق الجثث وهم يضحكون ويأخذون الصور لبقايا أجساد لجنود العراقيين. ويبدأ الدمار الكبير على بعد ٢٥ كلم أخرى تحت جسر يقع في أسفل تلّ صغير يُسمّى متلة، حيث مات العراقيون. ماتوا بالمئات لا بل بالآلاف عندما وقعوا في فخّ القصف الأميركي والبريطاني للطريق على قمّة التلّ، وربّما أصيبوا بالذعر عندما تكدّسوا في شاحناتهم ـ ٢٠ في كل واحدة، في سلسلة طولها ٦ كلم ـ وقام الطيّارون الأميركيون والبريطانيون باصطيادهم. كانت هناك دبّابات وسيّارات شرطة مسروقة، ومدفعية وبطّاريّات صواريخ

وسيّارات ليموزين مسروقة، وسيّارات برمائية وجرّافات وشاحنات. لم أُحصِ عدد الجثث العراقية المدفونة في الحطام المحترق أو المغروسة في التراب.. كان ذلك باعتقادي من حيث المستوى والإذلال شبيهاً إلى حدّ ما بانسحاب نابليون من موسكو. ربّما كانت فرقتان كاملتان منتشرتين على الطريق. لقد غادر جيش نابليون موسكو ملتهبة وحاول جيش صدّام إحراق الكويت، لكنّ الفرنسيين لم يقوموا بهذا القدر من النهب. بين الأسلحة والمدرّعات وجدتُ عدداً كبيراً من السجّاد النفيس وعقود اللؤلؤ وشاحنة مليئة بالمكيّفات وببدلات رجالية جديدة وأحذية نسائية وعطور ومساند وألعاب أطفال وكمّية من نُسخ القرآن فوق خمس ساعات كبيرة مسروقة. وكانت هناك أقنعة وأحذية مضادّة للغاز، فقد أعدّ العراقيون أنفسهم لحرب كيميائية. وهناك آلاف البنادق وقاذفات الصواريخ المحمولة وقنابل وسكاكين. توقّفت سيّارتي بجانب صناديق من القنابل اليدوية والبنادق. واكتشفتُ العديد من الدبّابات والسيّارات المدرّعة مهجورة بشكل مرعب بينما كانت المفاتيح ما زالت في داخلها ومحرّكاتها تعمل. وجدتُ شاحنة ملأى بحقائب من عُلب الكبريت والسجّاد وخلّاطات طعام وأصابع أحمر الشفاه. وهناك علبة موسيقى لطفل في الرمل ما تزال تعزف سنة سعيدة جديدة وسنة جديدة سعيدة. معدّات عراقية، وخناجر عسكرية، وأحزمة، وقبّعات وخوذ منتشرة في كل مكان مع أسماء أصحابها مكتوبة على القطع الجلدية. في أعلى سيّارة مصفّحة، كان محرّكها لا يزال يعمل، وجدتُ خوذتَي الملازم رباح حميدي والجندي جمال عبدالله، اللذين لم تكن لديهما فرصة، إذ كان أمام عربتهم ٣ كلم من السيّارات العراقية العسكرية المحترقة، وفي نهايتها تقف قوّة من الجنود الأميركيين من الوحدة المدرّعة الثانية (على معاطفها عبارة "Hell on wheels" جهنّم تحت أحذيتنا) المسؤولة بشكل مباشر عن مصير آلاف السيارات المزدحمة في الأسفل. لا يستطيع أيّ مصوّر أن ينقل صورة صادقة عن الفوضى غير الطبيعية والمثيرة للشفقة التي أعطاها صدّام حسين تسمية «انسحاب منضبط». حول المذبحة والغبار، كانت هناك سيّارتا لاندروفر من وحدة المدفعية الملكية البرية، يرفرف فوق كل منهما علم كبير للاتحاد، وكان هناك الرقيب بوب هولز والمدفعي باري باكستر، اللذان أرشدانا إلى الطريق على الرمال لنصل إلى جسر متلة شاقّين طريقهما عبر القنابل الانشطارية غير المنفجرة والقذائف الحيّة. قال لي باكستر: «لا تستطيع بالفعل معرفة ما تسبّبه الحرب حتى ترى بنفسك! لماذا يحصل ذلك؟ قوّات صدّام لا اعتبار لها، هل هي مُعتبرة؟ لم يرغبوا في الذهاب إلى الحرب، كانوا يريدون الاستسلام فقط، إنهم أعداؤنا، لكنهم لم يكونوا راغبين في الحرب أصلاً، إنه لمشهد مؤسف». وكان كذلك بالفعل. كان الأسرى الذين رأيناهم بقايا رابع أكبر جيش في العالم غير حليقين متعبين يقودهم كالقطيع جنود فرقة الخيّالة من الفوجَين ١٦ و٥ يسيرون في الصحراء على الأقدام، ويلقون بأسلحتهم الفردية على كومة من الأسلحة ارتفاعها بين ٤ و٥ أمتار تحرسها القوّات الأميركية. على طول الطريق نحو الحدود العراقية، وجدنا حُطام الانسحاب العراقي، الدبّابات والسيّارات المصفّحة وعليها براميل الماء منتشرة في الصحراء على الخطّين، وبعضها لا يزال يحترق. كان الأميركيون ينظرون إلى كل ذلك بمزيج من الخوف والارتياح.

أمضى الملازمان أندرو ناي وروي مونك من الكتيبة «س» C من الوحدة الأولى من فرقة ستافوردشاير فترة من الصباح وهما يدفنان الموتى الذين كان بينهم نساء وأطفال، كانوا لاجئين عراقيين أو كِويتيين أو مصريين

هاربين من جبهة القتال سقطوا في آخر هجمات جوّية أميركية وبريطانية. لقد خسر الملازم ناي أحد رجاله في القتال، قال: «قُتل أحد رفاقنا، أصيب في بطنه بصاروخ محمول بعدما رفع بعض العراقيين العلم الأبيض ومن المحتمل أن بعض العراقيين لم يعلموا باستسلام الآخرين. عندها أصبحنا معتادين على الأسرى، ورأينا العديد منهم، وسمعنا عن العدد الهائل لأسرى الحرب في الإذاعة، عليك أن ترى ذلك لتصدّق. يوجد أفخاخ صغيرة هنا وهناك. وكان العراقيون الذين ماتوا على الطريق قد نهبوا مدينة الكويت، ولكنني خشيت التفكير في ما سيكون عليه الوضع لو كنت مكانهم؟». إنّ تصوّر الموت (نهاية الحياة)، يجعل المرء يشهق من الرعب بسبب ما يلي ذلك من فراغ وفناء. لكن أن تصبح واحداً من هذه المخلوقات المحترقة في وقت الضحى، في ثواني الألم الذي لا يوصف، في الإدراك القصير الأمد، في معرفة عذاب كهذا، كان كل ذلك بالتأكيد كثيراً جدّاً. بعد حين نظرنا إلى تلك الوجوه المتفحّمة، وحاولت استخلاص شيء منها، أعتقد أنه بعض الغموض الرهيب الذي لم أكن مخوّلاً البحث عنه، والذي لم يكونوا مخوّلين كشفه.

كان صديقي قائد الآواكس يقوم بطلعة جوّيّة بعد يوم من قصف طريق الموت السريع، وقد كتب لي بعد ستّ سنوات: «أتذكّر كم كان المراقب مبتهجاً فعلاً عندما أخبرنا كيف حدّدت طائرة أواكس «جيستار» JSTARS، قافلة بكاملها قرب صفوان ، واتصلت بمركز المراقبة ABCCC فاتصل الأخير بسرب طائرات A10 الذي اعتبر ذلك اليوم يوماً ميدانيّاً!

ويبدو أنه بعد تدمير عدد قليل من دبّابات برادلي Bradleys التابعة للبحرية الأميركية، وعلى الأقلّ واحدة APC بريطانية، صوَّب طيّارو A10 أخيراً هدفهم.

بعد ذلك بوقت طويل، اكتشفنا أن الطيّارين أنفسهم دبّ فيهم المرض لاحقاً نتيجة لعملهم القذر: كان انهيار معنويات الطيّارين سبباً لذلك، حسبما قيل.. وقد قال وزير الخارجية البريطاني أكثر من ذلك بعد ستّة أشهر. إن كلماته تلك تحمل اليوم معنى أكثر ممّا حملته يومها، لأن تحذيراته عمّا كان يمكن أن يحصل لو لم نتوقف في الكويت وعن المخاطر التي كانت تنتظرنا لو ذهبنا مباشرة إلى بغداد، وربط ذلك مباشرة بالكارثة التي توجد جيوشنا فيها الآن في العراق، يعطي الأمر معنى مختلفاً.

لو عادت أشباح القتلى في المستقبل لكان العديد منهم يحدّق من فوق جسر متلة مستذكراً تلك الأيام الباردة والمكفهرّة من عام ١٩٩١. قال هيرد: «يناقش بعض الناس أنه كان ينبغي على الحلفاء نقل القتال إلى بغداد وطلب رأس صدّام. في الواقع، عندما فقدت القوّات العراقية فعلياً القدرة على الدفاع عن نفسها كان العديد من الطيّارين متردّدين في متابعة القتال ... أولاً: لقد حدّد الحلفاء بشكل واضح أهدافهم وفقاً لما أقرّته قرارات الأمم المتّحدة المتعلّقة بتحرير الكويت. ثانياً: لو أننا ذهبنا إلى بغداد لكنّا وجدنا أنفسنا مجبرين على اختيار، ثم على دعم، حكومة عراقية جديدة».

وقال هيرد أيضاً: «سيكون ذلك إغراقاً لقوّات الحلفاء في مستنقع السياسات العراقية، ومجازفة بأرواحنا وبالدعم الشعبي للمهمّة».

في وقت متأخر من بعد ظهر ٢ آذار/مارس ١٩٩١ قمت مع صديقي القديم أليكس تومسون من «أي تي في» ITV بجولة على طريق الموت السريع إلى الشمال من طريق صفوان وأبعد إلى مكان آخر حيث كان ينتشر القتلى العراقيون بكثافة فوق الصحراء. اقتربت منهم مجموعة من الكلاب تنهش الأطراف وتمزّق الملابس لتصل إلى المعدة والصدر . كانت الكلاب تتقاتل على هذه الحفلة الليلية المرعبة، وكان بعضها قد حصل على أجزاء قاسية من الجسم، وكان هناك كلب يخطف يداً في فمه ويهرب في الصحراء، وكانت أصابع يد ميت آخر تقبع بقسوة في الكومة. قام فريق تومسون بطواعية بتصوير هذه الفظاعة. وأما أليكس الذي كتب أكثر الدراسات انتقاداً للإعلام في هذه الحرب، فقد نظر ببرود وقال: «لن يخرج ذلك للإعلام، بل هو للأرشيف فقط». وهكذا كان . عندما كان الصحفيون يريدون تصوير الحرب، كانوا يغضبون من إجراءات التقييد المفروضة عليهم، لكن عندما انتهت الحرب رسمياً ورُفعت الإجراءات المقيّدة، وأصبحوا قادرين على تصوير أي شيء، لم يرغبوا في إظهار حقيقة صورة هذا النزاع. لاحظت كيف كان العراقيون الذين ماتوا موتاً نظيفاً نسبيّاً ـ الذين كانوا مجبرين تماماً على الموت قطعة واحدة، وعلى السقوط المريع، متمدّدين كمقاتلين صرعى على جانب الطريق ـ يرمزون في مشاهد مقتضبة لهم على شاشة التلفزيون إلى الثمن البشري للحرب. لكن لم يكن مسموحاً للعالم رؤية ما شاهدناه: الجثث المحروقة المفرغة من الداخل والمقطّعة، والرؤوس المخيفة، والحيوانات المقتاتة. هكذا ساعدنا نحن الصحفيين على جعل الحرب مقبولة. تغاضينا عن الحرب، دعمناها ثم أصبحنا جزءاً منها. عدت إلى الكويت تلك الليلة. ملأت تقريري لصحيفة الإندبندنت، متعباً، محبطاً وغاضباً من مهنتي. في نهاية تقريري حول القتلى العراقيين، أضفت بعد تفكير فقرتين حول العمّال المصريين الضيوف الذين كانوا يهربون من الفوضى إلى الشمال: بينما كنا نقترب من الحدود العراقية، بدأ اللاجئون المصريون ينزلون عن الخط السريع، بعضهم يحمل أغطية ويطلب ماء، وآخرون يحملون مقتنياتهم في عربات تسويق صدئة، وبعضهم يطلب سجائر، وكان العديد منهم مرهقين لا يستطيعون الكلام لأنهم ساروا حوالي ٦٠ كلم من البصرة . قال أحدهم: «يقتلون كل المصريين في العراق»، لكنه لم يضف الملاحظة المرعبة، أن مجموعة من الجنود الأميركيين قالوا إنهم سمعوا بأن العراقيين يطلقون النار على اللاجئين عند الحدود .

اتصلت بالمكتب الخارجي للصحيفة بعد ساعة لأسأل ما إذا كانت لدى هارفي موريس أية أسئلة حول التقرير. قال: «كنت مهتمّاً بالفقرتيْن الأخيرتيْن. أعتقد أنك تعرف ما ترسل، أليس كذلك؟ لقد بدأ التمرّد». كعادتي، كنت قد فشلت في إدراك ما عناه ذلك. الآن وقد انتهت حرب الخليج رسمياً، فإن حمّام الدم الحقيقي يوشك أن يبدأ.

الفصل السادس عشر

الخيانة

«. . . ملوّحين بأسلحتنا الحمراء فوق رؤوسنا، لنصرخ جميعاً «سلام، حرية، تحرّر».

شكسبير ـ يوليوس قيصر

ليل ٢٤ شباط/فبراير، بينما كنت في مدينة الخفجي السعودية أستعدّ مع طاقم قناة «سكاي» SKY للذهاب إلى الكويت قامت محطة إذاعة تشرف عليها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA وتُدعى «صوت العراق الحرّ»، بتوجيه نداء إلى الشعب العراقي للثورة على نظام صدّام حسين. كان واضحاً أن الحرب والدمار سيستمرّان حتى يُسقط الشعب العراقي الدكتاتور. لم تعلن الإذاعة أن لحظة التحرير قد دنت. ولكن قيل للعراقيين إن عليهم أن يثوروا إذا أرادوا النجاة. ومضت الإذاعة تقول: «اضربوا مراكز قيادة الطاغية وأنقذوا البلاد من الدمار». لكنّ مَن كان يستمع إلى تلك الإذاعة كان يظنّ بأن الجيوش العربية والغربية قادمة لنجدة العراقيين. كان المتحدث هو صلاح عُمر العلي، العضو السابق في مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي والذي طرده صدّام عام ١٩٧٢، وكانت الإذاعة تبثّ من السعودية. كان العلي واضحاً:

«ثوروا لإنقاذ الوطن من براثن الدكتاتورية ولتخلّصوا أنفسكم وتجنّبوها مخاطر استمرار الحرب والدمار. يا أبناء دجلة والفرات، في هذه اللحظات المصيرية من حياتكم وبينما تواجهون الموت على أيدي القوّات الأجنبية، ليس أمامكم خيار للنجاة والدفاع عن الوطن سوى وضع حدّ للدكتاتور وعصابته المجرمة».

لا خيار، لا خيار. إذا أراد العراقيون النجاة. هذا موضوع نفطي ومخيف. قال العلي إنّ صدّام كان «الطاغية ومجرم العراق»، وهو الذي دفع أبناء الوطن إلى مجزرة برفضه الانسحاب من الكويت:

«أثبتوا لشعبكم ووطنكم أنكم أبناء مخلصون وشرفاء لهذا الوطن وهذه الأمّة المعطاء. ابدأوا الثورة الآن قبل فوات الأوان. إن الطاغية يفكّر بنفسه فقط. لا يهتمّ للعذاب الذي عانيتموه خلال الأشهر القليلة الماضية من الأزمة المدمّرة. إنه يصرّ على دفع أبنائكم المخلصين إلى هذه المجزرة دفاعاً عن مجده المزيّف وامتيازاته وزعامته المجرمة».

واستناداً إلى الإذاعة فقد هرّب صدّام عائلته وثروته إلى خارج العراق. و«سيهرب من أرض المعركة عندما

يتأكّد أن الكارثة أحاطت بكل شارع، بكل منزل وبكل عائلة في العراق». وقد استخدم صوت العراق الحرّ موجات الإذاعة العراقية الرسمية والموسيقى الافتتاحية نفسها في نشرة الأخبار، وكان قد بدأ البث على الموجات القصيرة والمتوسطة في بداية السنة. وقد حاول العراقيون التشويش على الرسائل المارقة لهذه الإذاعة، ومع ذلك ظلّت تبثّ ساعات قليلة كلّ مساء.

لكن لم تكن إذاعة الاستخبارات الأميركية السرّية هذه وحدها التي تبثّ هذه الرسالة الخطرة العنيفة. فقد كان الشيعي حيدر الأسدي من البصرة يستمع إلى الدعوة لحمل السلاح عبر «صوت أميركا» بالعربية وتوقّع أن «يحرّر الحلفاء العراق ويخلّصونا من المجرم». وهكذا حمل رشّاش كلاشينكوف وسار في شوارع مدينته ممزّقاً صور صدّام على الجدران. وقبل أيام دُمّر منزل الأسدي عندما أطلقت طائرة أميركية صاروخاً على عدّة مبانٍ في المدينة مخلّفة شقيقه مصاباً بجروح خطرة في كتفه. لكن مثل العديد من العراقيين الآخرين الذين عانوا من قصف الحلفاء اهتمّ حيدر بالنداء الأميركي: «انضممت إلى الانتفاضة لأنني منذ صِغري والناس حولي يكرهون صدّام، وقد سُجن أخوة والدي ١٢ سنة بسبب قولهم إن الحرب الإيرانية ـ العراقية لن تنتهي إلا بموت صدّام. أتذكّر استماعي إلى البرنامج العربي لصوت أميركا الذي أبلغنا أن الانتفاضة شاملة وسوف نتحرّر». في ٦ آذار/مارس، تحرّك مراسل الإندبندنت ريتشارد دودين أمام الجيش الأميركي ووصل إلى مدينة الناصرية العراقية على بعد ١٦٠ كلم إلى الشمال الغربي من مدينة البصرة التي كانت بيد الثوّار العراقيين. وكما كتب في تقريره المميّز فقد:

«بدت الثورة التي انطلقت بعد سنوات من حكم البعث القمعي مرتبكة ومشوّشة، موحّدة فقط بكراهية الشيعة في الجنوب لصدّام حسين. إنها ثورة وطنية تهدف إلى تخليص البلاد من نظام البعث بحسب زعمها، لكنها تحمل أيضاً في طيّاتها سمات قويّة من الأسلوب الإيراني الأصولي الإسلامي. قال أبو إمام قائد الثوّار في المدينة إن النظام سوف يُستبدل بحكومة من الشعب لن تكون على شكل الديمقراطية الغربية أو الثورة الإيرانية، بل لها مسارها الخاصّ. لن تكون سنّية أو شيعية بل لكل العراقيين».

وحيث كانت صور صدّام ممزّقة وجد دودين صوراً لآية الله الخميني ولعالم دين شيعي كبير. وقد تسلّم بياناً مطبوعاً من اللجنة الثورية في الناصرية ينصّ على أهداف الحكومة الجديدة:

إنهاء الحرب وإسقاط النظام البعثي وإقامة حكم جديد مرتكز على الديمقراطية والوطنية. ودعا أعضاء حزب البعث إلى الانضمام إلى حكومة جديدة بمعزل عمّا سبّبوه للعراق من أذى. غير أنه استناداً إلى القادة الثوريين، فقد تمّ إعدام حاكم المدينة طه ياسين حسين وزعماء بعثيين محلّيين آخرين. وبدأت بذلك ثورة الفقراء. كان كل قادة الثوّار يرتدون جلابيب وكوفيّات قذرة وكانوا ملتحين ويتناقشون باستمرار .

مجدّداً وجد دودين طريق موت سريعاً آخر عندما اقترب من الناصرية:

حيث كانت الطريق مليئة بحُطام السيّارات العسكرية وفي العديد منها جثث متحلّلة أو ممدّدة قربها على الأرض. عند مدخل المدينة كانت هناك شاحنتان إلى جانب حاجز للثوّار مؤلّف من كرسيّ وطاولة وإطارين وصندوق قنابل. وفي داخل كل شاحنة جثث لمئة جندي عراقيّ، وكانت هذه الشاحنات برّادات للّحوم تُحضر الجثث من الجبهة منذ أربعة أيام، وقيل لي إن سائقيها رفضوا التوقّف عند الحاجز فأطلق الثوّار النار عليهم.. وقد فرّ السائقون... ولكن لم يتمّ لمس هذه الجثث منذ ذلك الحين.

غير أن دودين أنهى تقريره بتعليق مثير لقائد الثوّار المحلّي أبو إمام:

«الأميركيون لا يساعدوننا، إنهم يوقفوننا على الطريق وينزعون أسلحتنا.. لقد عملوا على تقوية صدّام ثم دمّروه، ومع انتهاء الحرب الآن فهم يدعمونه مجدّداً».

في السنوات اللاحقة، نفى القادة الأميركيون والإنكليز المسؤولية عن الانتفاضة العراقية الواسعة التي شجّعوها. وفي وقت سابق، في شمال العراق انتفض أيضاً عشرات الآلاف من الأكراد ضدّ مضطهديهم متجاهلين الخيانات الأميركية السابقة منتظرين بلهفة مساعدة الحلفاء. وكانت ردّة الفعل الأولى لرئيس الوزراء البريطاني جون ميجور ساخرة، فقد صرّح بعُنجهية أنه «لم يطلب من الأكراد القيام بهذه الثورة».

كان الارتياح عارماً في الغرب. وكان عدد القتلى الأميركيين والإنكليز في هذا النزاع قليلاً. وكانت الروايات عن الأعمال الوحشية العراقية في الكويت مرعبة وهائلة ، وآبار النفط تحترق ملتهبة في أنحاء جنوب العراق حيث قامت الطائرات الأميركية ب٥٢ بضربها.. ومرّت الأحداث المروّعة شمال الخطوط الأميركية مجهولة تقريباً.

وقد نتج عن الحرب نوع خاصّ من الاستنزاف عانينا منه جميعاً تحت سحب الحرائق النفطيّة التي حوّلت النهار إلى ليل مغلّفةً مناطق واسعة من الكويت والعراق... كنا، نحن الجنود الأميركيين والعرب والعراقيين الفارين والكويتيين المحرّرين، نتحرّك تحت ستار من الظلمة والتعب. وكذلك كان الصحافيون الذين اضطرّوا إلى اجتياز أربعة عشر طابقاً من مخارج الحريق لفندق الميريديان الكويتي. كان المراسلون الذين يتحرّكون شمالاً يتمايلون تحت مجموعة من خطوط الهاتف المخرّبة مُتعبين حذِرين. وجاءتنا الأرقام بسرعة الطلقات النارية: أعلن الجنرال شوارزكوف يوم ٢٧ شباط/فبراير: «نحن على بعد ١٥٠ كلم من بغداد ولا يوجد بيننا وبين بغداد شيء»... وقال إن جيشه استولى على، أو دمّر، ٣ آلاف دبّابة و١٨٥٧ سيارة مصفّحة و٢١٤٠ قطعة مدفعية. وقد تمّ أسر ٥٠ ألف جندي.. وقال أيضاً إن ٤ آلاف دبّابة عراقية دُمّرت في عمليات التحرير والقصف الجوي الذي سبقها لمدّة ٣٨ يوماً. لم يسأل أحد كيف استطاع شوارزكوف الحصول على هذه الإحصائيات الدقيقة بعد أقلّ من ٢٤ ساعة على إعلان الرئيس بوش تحرير الكويت. وقد أعلن بثقة يوم ٣٠ كانون الثاني/يناير أنه تمّ تدمير جميع قواعد صواريخ سكود الثلاثين في العراق بواسطة ١٥٠٠ طلعة جوّية.. في حين أن اللفتانت جنرال توم كيلي صرّح في ١٤ شباط/ فبراير أنه نتيجة ثلاثين يوماً من القصف تمّ تدمير حوالي ١٣٠٠ دبّابة من أصل ٤٢٨٠ في الكويت وحولها، وأُعطِبت حوالي ٥٠٠ دبّابة أخرى. وانفردت وكالة رويترز يوم ٢٧ شباط/فبراير بإلقاء نظرة مشكّكة عندما نقلت

عن الكابتن البريطاني سيمون أوليفر من فرقة التنّين قوله إن قوّات الحرس الجمهوري الأفضل لدى صدّام والمجهّزة بدبّابات ت٧٢ استطاعت الإفلات من قوّات الحلفاء إلى الجنوب من البصرة. وقال: «شاهدنا آثار دبّابات تتحرّك إلى الشمال ومن الممكن أن يكون الحرس الجمهوري قد انسحب». كان على الصحفيين تخمين ما عرفه العسكريون آنفاً وهو أن لدى الحرس الجمهوري مهامّ أخرى أكثر أهمّية داخل جنوب العراق. كان الأميركيون دقيقين بشأن خسائرهم: «قُتل ١٤٨ أميركياً»، وكانوا أقلّ دقّة حول الخسائر العراقية. ففي ١٤ شباط/فبراير عبّر كيلي عن اعتقاده «أن حجم الخسائر مرتفع نتيجة القصف المتواصل». وفي ٢٨ شباط/فبراير، كان السعوديون يتحدّثون عن مئة ألف قتيل عراقي بينما قدّر محلّل عسكري فرنسي سابق هو الكولونيل جان لوي دوفور عدد القتلى العراقيين بأكثر من ١٥٠ ألفاً. وتحدّث شوارزكوف فقط عن عدد كبير من القتلى . وفي ١٩ شباط/فبراير أعلن نائب وزير الدفاع العراقي السابق سعدون حمادي أن ٢٦ ألف عراقي من المدنيين والعسكريين قُتلوا نتيجة ٦٥ ألف غارة جوّية. وقد صرّح مصدر في البنتاغون إلى نيوزداي Newsday بعد ستّة أشهر بأن ثمانية آلاف جندي عراقي دُفنوا أحياء في خنادقهم بواسطة الجرّافات الضخمة المُبتة بمقدّمات الدبّابات الأميركية المهاجمة التابعة لفرقة المشاة. ربّما كانت لحظة الشفقة تلك التي ولّدها هذا التقرير ترتبط بتأنيب الضمير، إضافة إلى عدم التحرّك الغربي لمساندة الثوّار العراقيين، أكثر ممّا ترتبط بحجم الخسائر الضخمة في الأرواح البشرية(*).

لاحقاً فقط، عرفنا بعض الحقائق الأقلّ بطولة حول تحرير الكويت. لقد ألقى الأميركيون ـ وقد تسرّب الخبر ـ عدّة أطنان من القنابل يومياً توازي ما أُلقي على ألمانيا واليابان يومياً خلال الحرب العالمية الثانية. ومن بين ١٤٨ جندياً أميركياً قتلوا هناك ٣٥ جنديّاً تقريباً فقدوا حياتهم بنيران صديقة، أي من قوّات أميركية أخرى(**).

ولاحقاً أيضاً، أعلن مكتب الإحصاء العام الأميركي ـ غير المحبوب ـ عبر البنتاغون ومقاوليه عن دقّة أهداف طائرات الشبح وصواريخ كروز والقنابل الذكية الموجّهة، وأن طائرة ستيلث Stealth الخفيّة قد حقّقت ٤٠ في المئة فقط من النجاح في قصفها، بينما حقّقت القنبلة الذكية الضخمة الملقاة على الأهداف العراقية ٧٠ في المئة. وقال مكتب الإحصاء العسكري إن الصاروخ المضادّ لصواريخ باتريوت Patriot الأكثر شهرة دمّر فقط ٤٠ المئة من صواريخ سكود الموجّهة إلى إسرائيل و ٧٠ في المئة من تلك الموجّهة إلى السعودية. في الواقع، وبحسب

(*) رأى الصحفيون أن القوّات العراقية المسلّحة تطوّرت بشكل ملحوظ بين ١٩٨٠ و٢٠٠٥ وقد أشير في الإعلام الغربي إلى العديد من الوحدات العراقية المسلّحة عندما غزت إيران على أنها قوّات صدم، فهي بكل الأحوال تهاجم إيران التوسّعية. بعد ذلك بعشر سنوات، غزا الجيش نفسه الكويت الصديقة وأصبح هو العدوّ الذي وصِف بالفظّ والقاسي. وعندما أصبح العراقيون معادين لصدّام عام ١٩٩١ بما في ذلك أفراد القوّات المعادية المهزومة في الكويت المحرّرة، اعتُبروا متمرّدين. لكن عندما انتفض الجنود السابقون الناجون ضدّ الاحتلال الأميركي عام ٢٠٠٢ اعتبروا عندها إرهابيين وقساة أو موالين لصدّام. وبسبب مهاجمتهم القوّة العظمى الوحيدة بشراسة، أنعمنا عليهم لاحقاً بلقب ثوّار.

(**) من بين آلاف الأميركيين الذين حصلوا على أوسمة لدورهم في تحرير الكويت، جندي مدفعية على دبّابة برادلي حصل على النجمة الفضّية وعدّة مداليّات أخرى. كان تيموتي ماكفاي جندياً شابّاً واعداً حاول الانضمام إلى القوّات الخاصّة الأميركية لكنه فشل وترك الجيش حزيناً في ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١... أُعدم تيموتي بتهمة تفجير أوكلاهوما سيتي يوم ١١ حزيران/ يونيو ٢٠٠١ والذى أدّى إلى مقتل ١٦٧ أميركياً.

سيمون هيرش ـ نعمة الصحافة ـ فقد كشف تقرير للقوّة الجوّية الإسرائيلية صدر لاحقاً عدم توافر دليل واضح على أيّ اعتراض ناجح لصاروخ سكود العراقي من قِبل صاروخ باتريوت فوق إسرائيل.

وداخل مدينة الكويت كنّا نحن الصحفيين مغمورين بروايات الخسائر، هكذا ببساطة. بعد أسبوع من التحرير كانت أجزاء من المدينة تشبه فوضى زمن الحرب في بيروت، فقد سيطر المسلّحون على الشوارع وكانوا يقومون بخطف الفلسطينيين من بيوتهم. وقد ناشد بعض السفراء الغربيين ومنظّمات الإغاثة بعض الوزراء الكويتيين الذين وصلوا إلى الكويت (لم يكن الأمير وأفراد عائلته المباشرين قد عادوا بعد) فرض القانون والنظام قبل فقدان السيطرة على العاصمة. حتى تلك اللحظة بدا الجيش الكويتي مصمّماً على التحرّك ضدّ الجالية الفلسطينية التي تعاون بعض أفرادها مع المحتلّين العراقيين. وقد أفيد أن أكثر من ٥٠٠ شاب فلسطيني خُطفوا من منازلهم في الأيام الثلاثة الأولى من آذار/مارس. وعندما دخلت ومراسل الأوبزرفر، كولين سميث، صباح ٣ آذار/ مارس، إلى ضاحية حَولّي في مدينة الكويت، وهي مكان إقامة عشرات الآلاف من الفلسطينيين، وجدنا جنوداً كويتيين يقودون ١٢ عربة مصفّحة عبر الشوارع ويطلقون النار في الهواء ويأمرون المحلّات بالإقفال ويضربون المدنيين الفلسطينيين الذين يقعون تحت أيديهم. شيء لا يصدق، أو أنه بدا لنا كذلك! لم تفعل القوّات الأميركية الخاصّة الموجودة هناك شيئاً لوقف العنف وعوضاً عن ذلك أطلقت النار بوقاحة على الصحفيين الذين سألوا لماذا لا تتدخّل. وعندما بدأ ثلاثة جنود مسلّحين بضرب ولد فلسطيني على درّاجة في حَولّي، وجدت نفسي وسميث مضطرَّين للتدخّل دافعَيْن الكويتيين بعيداً عن الشاب وطالبيْن منهم خفض أسلحتهم. والحقيقة أنني كنت وسميث لا نزال نرتدي الثياب المضادّة للغاز التي دخلنا بها إلى الكويت مما أقنع الكويتيين أننا قوّات حلفاء ولذلك تركوا الصبيّ يذهب. لكن عندما طلبنا من أحد عناصر القوّات الخاصّة الأميركية مساعدتنا ردّ علينا: «طاب يومكم؟ لا نرغب في رؤية أمثالكم هنا مع شائعاتكم. هذه حالة طوارىء يا فتى. أنت ثرثار. ارحل!». أخذت وسميث رقم السيّارة الأميركية IS055A وبعدها ذهبت إلى السفارة الأميركية، التي أعادت فتح أبوابها، لأبلغهم بما رأيت. وبالمصادفة، قامت البي بي سي بتصوير الحادثة. بعد بضع دقائق، برز ضابط أميركي مع فْريد كوني أحد أشجع مسؤولي الإغاثة بعد سنوات الحرب.. لكن بدا الضابط قليل الاهتمام بما سنخبره. وكان يريد أن يعرف: «هل رأيتم أيّ إشارة لإرهابيين فلسطينيين في الشوارع؟».

قلت لسميث لاحقاً: «ها قد عدنا من جديد إلى النغمة ذاتها: الفلسطينيون إرهابيون، إرهابيون، إرهابيون». كان تلهّف الأميركيين لمعرفة أخبار الإرهابيين أكثر من تلهّفهم على القانون والنظام(*). وقد أكّد لنا الرجلان

(*) كالعادة، ساهمت مصادر المخابرات الأميركية بهذه العملية. في صباح ٢ شباط/ فبراير أشار دوغلاس جيهل من صحيفة لوس أنجلوس تايمز، وهو صحفي يعمل مع القوّات الأميركية في السعودية، إلى تقارير للمخابرات صدرت للقادة الأسبوع الماضي تحذّر من أن أكثر من ١٢ فلسطينياً إرهابياً معروفين ينشطون في القطاع المحتلّ الآن من قِبل الفرقة الأولى المدرّعة. وقد ربط الضبّاط بين هؤلاء الإرهابيين غَير الموجودين واختفاء خمسين سيّارة عسكرية أميركية من قاعدة أميركية. كيف يستطيع ١٢ فلسطينياً أو غيرهم سرقة هذا العدد الكبير من السيّارات؟ سؤال بقي دون تفسير. وقد رأى جيهل إمكانية واحدة في آخر تقريره وهي أن يكون الجنود الأميركيون قد سرقوا الشاحنات وسيّارات الهومفي وأخذوا منها قطع غيار لسياراتهم.

تسجيل رقم سيارة هومفي التابعة للقوّات الخاصّة وقالوا إنهم «سينظرون في المسألة».. وكان ما سيلي أسوأ. كانت فرق الإعدام تجوب شوارع الكويت وكان على رأس إحداها ابن وابن أخ لأمير كويتي كبير. وقد عقد مسؤولون أميركيون اجتماعاً سرّياً مع الأمير في أواخر آذار/مارس ١٩٩١، وبعد الاستماع إلى نفيه الغاضب قاموا بتسليمه لائحة بأسماء وتواريخ وتفاصيل أخرى عن فِرق الإعدام.. جرى نقل كوني إلى ساحات القتال في كردستان شمال العراق للتعامل مع اللاجئين الأكراد الفارّين من انتقام صدّام. وكان هو الذي أسرّ إليّ في أواخر نيسان/أبريل أن فريقاً سرّياً من القوّات الخاصّة الأميركية وضبّاط احتياط مدرّبين جيّداً ومعهم قاضٍ فدرالي أميركي ومساعد مدّعٍ عامّ من فيلادلفيا، أوكلت إليهم مهمّة اقتفاء أثر ومصير مئات الفلسطينيين المفقودين في الكويت. واستناداً إلى كوني، فإن وزارة الخارجية كانت على علم منذ فترة طويلة قبل التحرير بأن السلطات الكويتية أعدّت خططاً سرّية لترحيل كل الجالية الفلسطينية إلى العراق في حافلات عليها شارات جمعية الهلال الأحمر والإغاثة. وكانت الرواية الأخرى التي وصلت إلى مسامع الأميركيين أن الكويتيين سيعدمون أعداداً كبيرة من الفلسطينيين محاولين دفع الجالية إلى هجرة جماعية. شكل آخر من الأسلوب المستخدم في إسرائيل لإفراغ غرب فلسطين من السكّان عام ١٩٤٨ (مع أن هذه الملاحظة لم تكن أميركية). وقد اعترف كوني أن الأمور في الكويت لم تكن على ما يُرام في البداية، ولم يفهم رجالنا على الأرض ما هو دورهم. ولم يكن بعض كبار الضبّاط ينقلون تقارير حول ما حصل. وسنجد أن ضبّاط القوّات الخاصّة المتمركزين في مراكز الشرطة الكويتية يعرفون أن أشخاصاً خضعوا للتعذيب لكنهم لا يستطيعون إثبات ذلك.. ولدينا ضبّاط أميركيون سمعوا شخصاً يصرخ لكن لا يستطيعون القول إن كان الرجل يخضع للتعذيب لأنهم لم يشاهدوا شيئاً. أرسلت كل ذلك بدقّة في تقريري إلى الإندبندنت، وقلت إن الزعم بأن الأميركيين لم يتحرّكوا لأنهم فشلوا في رؤية ما حصل كان تفسيراً سخيفاً بالفعل.

لكنّ خطف الفلسطينيين كان لا يزال قائماً(*)، وفي النهاية كان لدى الحكومة الكويتية أسلوبها الخاص. فخلال الأشهر التالية قامت بإبعاد ٢٠٠ ألف فلسطيني، وقد تبعهم آخرون في ما بعد. كان الفرق الوحيد أن العديد منهم رحلوا شمالاً إلى العراق في حافلات الصليب الأحمر التي استأجرتها المنظمة عوضاً عن حافلات مموّهة بشارات الهلال الأحمر. واعترفت المقاومة الكويتية أن ٥ في المئة من رفاقها في السلاح كانوا فلسطينيين لكن ذلك لم ينقذهم. كانت تجربة هؤلاء الكويتيين أنفسهم رهيبة أحياناً، وقد اختفت جرائم أخرى من تقاريرنا المملّة. مع نهاية التحرير، كانت المقاومة قد أعدّت لائحة الشهداء التي تضمّنت نساء ورجالاً تمّ توقيف بعضهم في الساعات الأخيرة للاحتلال العراقي وعانوا مصائر مرعبة. كان أبو أحمد، وأبو سامي وأبو سعد من بينهم.

(*) لم تكن هناك صعوبة في جمع أدلّة حول ذلك: في حَولّي، أبلغتني سارة موسى كيف شاهدت ولديها تحسين وأمين يؤخذان من منزلهما يوم ١ آذار/ مارس ١٩٩١ من قِبل ستّة مسلّحين كويتيين ببنادق G3، قالت: «فتشوا البيت، قاموا بتقييدهما وغطوا وجهيهما. وعندما طلبا من الكويتيين عدم المسّ بشقيقاتهما، ضربهما المسلّحون ووضعوهما في صندوق سيّارة وأخذوهما بعيداً. لم أرهما منذ ذلك الحين». وقام مسلّحون بأخذ إبراهيم ابن تمّام سلمان، البالغ من العمر ٢٣ سنة في اليوم نفسه ووضعوه في صندوق سيّارة. قالت إنها عندما طلبت مساعدة شرطي كويتي، بصق عليها لأنها «فلسطينية». وقد ظهرت شهادات أخرى لأعمال اضطهاد كويتية في عدّة صحف أوروبية.

قال عضو في المقاومة الكويتية من ضاحية تيران: «كان العراقيون يعرفونهم وكانوا يراقبونهم لعدّة أيام وقرّروا الوصول إليهم في النهاية». كانت بينهم امرأتان وقد لقيتا المصير نفسه. وقال عضو في المقاومة يُدعى طارق أحمد: «ثقبوا رأسيهما بمثقاب وشاهدنا جثتيهما بعد ذلك.. قُتلتا بهذه الطريقة». مثل هذه الإحصائيات أُغفلت على اعتبار أنه مبالغ فيها.. لكن لم يكن في الأمر مبالغة بالنسبة إلى بعض الجثث التي وجدت في ما بعد في المستشفيات الكويتية: ثلاث منها على الأقلّ وجدت فيها ثقوب على الأيدي والأرجل، كانت مصلوبة آليّاً.

إذا لم يكن هناك شيء آخر فإن هذا وحده كان كافياً ليعطينا صورة مرعبة عن المعاملة التي مارستها الحكومة العراقية بحقّ الثوّار الذين لبّوا النداء الأميركي بشكل عفوي للثورة في الشمال، ثمّ وقعوا بين أيدي مخابرات صدّام. مع ذلك، كان المراسلون في الكويت، بمن فيهم أنا، مشغولين بحجم هزيمة الجيش العراقي في الكويت أكثر من انشغالهم بأخبار الوضع المخيف في العراق. في الأيام الأولى للتحرير، قدت سيّارتي إلى ما بعد الحدود الكويتية مع مراسلة التايم ـ لارا مارلو. كانت لا تزال هناك علامة بسيطة للأحداث المرعبة التي تحصل خلف الخطوط الأميركية: صوت إطلاق نار إلى الشمال وصوت ضابط أميركي يتحدّث عن رجال جاءوا إلى نقطة التفتيش طلباً للسلاح ولم يحصلوا عليه.

على الطريق السريع إلى الشمال من صفوان، قدّم لي جندي أميركي أسود من طاقم دبّابة تابعة للوحدة المدرّعة الأولى زجاجة بيبسي باردة من فوق دبّابته الأبرامز. جلسنا هناك معاً نحدّق إلى الشمال عبر الأراضي البور الرمادية لجنوب العراق. كانت الدبّابة متوقّفة على مفترق طرق مهمّ تغطي خطوطه الستة للطريق السريع مشهداً طبيعياً خطراً: قطعة مغروسة من أوروبا أو أميركا وسط أنقاض الحرب. كان الطقس بارداً ورطباً وكنا نستطيع سماع صوت حرائق النفط التي تتصاعد سحبها عالياً إلى السماء الموحشة. قال جندي الدبّابة الأميركي بعد فترة: «يسمّون هذا مهد الحضارة». بالطبع كان على حقّ.. إلى الشرق من هنا تقع المدينة السومرية القديمة (أور) التي تعود إلى ٤٠٠٠ سنة.. إلى بلاد ما بين النهرين والمهد التوراتي لإبراهيم... لتوّ، أوقف ضابط مدفعية أميركي مُتبصّر طاقم دبّابة يطلق النار على معالم تاريخية. وإلى الشمال باتجاه بغداد تقع بابل نينوى ونهرا دجلة والفرات الكبيران وكذلك مقامات النجف وكربلاء. من الشمال تقدّم نحونا، أنا، ولارا، ثلاثة جنود عراقيّين يضعون القبّعات الحمراء التي يرتديها حرس صدّام الجمهوري. لم يكن معهم أسلحة وأظهروا أنهم مسالمون. طلبوا سجائر. أعطيناهم بعض سجائر مارلبورو فيما الجندي الأميركي يراقبنا من على ظهر الدبّابة. ثم أشار أطولهم إلى شاحنة عسكرية عراقية مهجورة في حقل شمال الطريق السريع وطلب الإذن بأخذ الشاحنة. قلنا: «بالتأكيد لكن سنبحث الأمر مع الأميركيين». وسألنا: «هل هناك مشكلة في أن يأخذ هؤلاء الرجال الشاحنة؟» أشار الجندي من على ظهر الدبّابة بالإيجاب. وأضاف: «لقد هُزموا ويستطيعون أخذ قذارتهم». أعطيناهم مزيداً من السجائر.. ثم سار العراقيون الثلاثة نحو الشاحنة العسكرية الروسية الصنع وأداروا المحرّك ثم انطلقوا بها نحو الشمال. تساءلنا لاحقاً فقط لماذا جاءوا لأخذ الشاحنة؟ لماذا يهتمّون بشاحنة مهجورة وسط كل هذا الدمار؟ لماذا يريد الحرس الجمهوري هذه الشاحنة الآن؟ في اليوم التالي فهمت. بالعودة إلى صفوان كان الخط السريع الخالي قد تحوّل من غربي إلى شرقي رهيب يتدفق عليه العديد من الأشخاص.

كان بعضهم جنوداً عراقيين وآخرون نساء مرتعبات، بعضهنّ يبكين وأخريات يلقين بأنفسهنّ في الخنادق طلباً للنوم. كان هناك العديد من الكويتيين الذين خُطفوا في الساعات الأخيرة للاحتلال والذين أفرج عنهم ثوّار البصرة وبجعبتهم روايات مرعبة عن المستشفيات المكتظّة بالجثث والمحتضرين. كان أحدهم صيدلياً ونائباً كويتياً سابقاً يدعى أحمد بختيار. كان قد أُخذ إلى مستشفى البصرة لمساعدة الجرحى من الرجال والنساء المنتشرين على الأرض. قال: «توفّي شابّ أمامي للتوّ. كانت الدبّابات تصل وتطلق النار مباشرة إلى داخل المنازل في كل شارع محوّلة البيوت إلى رماد. كان هناك كثير من الناس يموتون من مرض غريب. ويعتقد البعض أن السبب شربهم الماء الملوّثة الموجودة في الطرقات. ويقول آخرون إنّ الماء في البصرة يحتوي الآن على نفط نتيجة الحرائق فوق المدينة»(*).

وطيلة هذا الوقت، كان تدفّق الناس المرضى والجوعى والخائفين متواصلاً أمامنا. جاء بعضهم في عربات تدفع باليد، مسنّين وأطفالاً، بأغطية وسخة، وتذكّرت عربات القرون الوسطى التي كانت تنتقل من بيت إلى آخر عندما ضرب الطاعون أوروبا حاصداً الموتى. كان بعض هؤلاء الناس في العربات أمواتاً. كان هناك مصوّرا تلفزيون يوجّهان كاميراتهما عن قرب إلى وجوه اللاجئين ولاحظت كيف أن الوجوه لم تتأثر بالكاميرات، كما لو أن كل وجه مات أيضاً. كان مسؤولان أميركيان من السفارة يقفان أمام محطة قطار مع ضابط أميركي كبير. وقال أحدهما للرقيب نودل من الكتيبة المدرّعة الأولى: «لا نستطيع السماح لهم جميعاً بالبقاء هنا، لا يستطيعون عبور الحدود، ليست لدينا تسهيلات لاحتوائهم، عليهم العودة». لاحظت كوني يقف قرب موظّفي السفارة يستمع بصمت. وكان الدبلوماسي يقول: «أنظر! علينا إيقافهم، إنه أمر مأساوي، أعرف ذلك، لكن ليست عندنا تسهيلات لهم». وسأل كوني عمّا إذا كانت هناك إمكانية لنصب خيام الإسعاف الأوّلي للاجئين... شهق الدبلوماسي، ليس من المفترض أن يكون الأمر هكذا. تحرير.. نصر نظيف.. والآن فوضى. وعلى التلفزيون تستطيع مشاهدة المعاناة. وأجاب الدبلوماسي: «عليكم إيقافهم». وانضم إليه الضابط قائلاً: «يمكن أن يتسلّل عناصر المخابرات العراقية إلى الكويت بين اللاجئين».

لكن، على هذا الطريق البارد المبلّل، ظهر أمامنا فجأة كل ما هو الأفضل في أميركا، كل الأمل والرحمة

(*) بعكس حكومتهم، كان يمكن للكويتيين إظهار العطف تجاه الذين عانوا أيضاً. وقفت امرأة كويتية شابّة في صفوان تدعى سهام المرزوق تبحث عبثاً عن شقيقها فيصل الذي خُطف في الأيام الأخيرة للحرب بين الجموع الهاربة من العراق. كان المطر يتساقط عندما وجدت مصرياً عاش في الكويت أكثر من ثلاثين عاماً وكان ناظر مدرسة خطفه العراقيون، والآن لا تسمح له السلطات الكويتية بالعودة إلى بيته، وقد صنع من قطع الحواجز الحديدية للخط السريع كوخاً يحتمي فيه من المطر. وطلب من أحدهم إبلاغ السفارة المصرية في الكويت عن مكان وجوده، وكتب قصة معاناته على ورقة وجدها على الرمل وكان يبكي طيلة الوقت. حاولت المرأة الكويتية تهدئته وأعطته طعاماً ومالاً. وعندما رأت امرأة فلّيّنية محتاجة خلعت رداءها الصوف وأعطتها إياه. بعد يومين وصل أخاها المخطوف فيصل إلى صفوان سالماً.

والإنسانية التي يحبّ الأميركيون أن نعتقد أنهم يملكونها. فقد التفت الرقيب الشابّ المتعب بغضب نحو الدبلوماسي قائلاً: «آسف سيدي. لكن إذا كنت ستأمرني بإيقاف هؤلاء فأنا لا أستطيع القيام بذلك. لقد جاءوا يطلبون العون، نساء وعجزة ينتحبون، وأطفال مرضى، وأولاد يطلبون طعاماً. أعطيناهم نحن معظم حصّتنا من الطعام. لكن عليّ إخبارك سيدي أنك إذا أمرتني بوقفهم فلن أقوم بذلك». تستطيع مشاهدة موظفي السفارة ينتفضون غضباً. أوّلاً كانت هناك تلك الجماعة من الناس مشتّتة على الطريق السريع، ثم كاميرات التلفزيون، والآن جندي يرفض الأوامر. لكن الرقيب نودل أدار ظهره للدبلوماسيين وسار نحو خط من سيّارات اللاجئين. وصرخ بالجنود عند نقطة التفتيش: «أبلغوا هؤلاء الناس أن يوقفوا سيّاراتهم إلى جانب الطريق هناك واطلبوا منهم الصبر وسوف نهتمّ بهم ولا تعيدوهم».

جلس حول نودل أفراد عائلتين عراقيتين جوعى، النساء بملابس سوداء قذرة والأطفال حُفاة ووجوه الرجال مذهولة متّسخة، يفتحون علب الطعام الأميركية العسكرية بأظفارهم ويأكلون كتل الطعام الباردة ويسكبون محتويات عُلب الصلصة في أفواههم. في الرمال الباردة، ساعد نودل وجنوده على إيواء امرأة عراقية مع خمسة أولاد. كانت قصّتهم بسيطة ورهيبة. أعدم أفراد الحرس الجمهوري الأب لرفضه الانضمام إليهم واغتصبوا الأم بعد ذلك. وقد قامت عمّة الأطفال بأخذهم جنوباً باتجاه الخطوط الأميركية وهم هناك الآن يقيمون في مركز كهرباء مهجور. كان الأميركيون يقدّمون لهم الطعام ووجدوا بعض الألعاب، أربعة كلاب وحماراً، أعطوها للأطفال.

أصبح هناك الآن خطّ متّصل من السيّارات التي كانت تتحرّك بثبات نحو موقع نودل وهي مكتظّة بالمدنيين الخائفين. كان العديد منهم بدون طعام منذ أيام. وكان الرجال غير حليقين والنساء يبكين، وقد بال الأطفال في السيارات خلال الرحلة الطويلة عبر العراق المدمّر. وكانت عائلات بكاملها تبكي على أقارب مدنيين قتلوا في الغارات الجوّية للحلفاء. كانت القافلة قذرة. وهناك طفلة تتدلّى من نافذة سيّارة مرسيدس سوداء تحملها سيّدة تنتحب. كان جسد الطفلة ينتفض وكانت توشك على الموت..

لم يكن ذلك تفكير بعض الجنرالات في الرياض عندما أعلنوا أيام التحضير للمعركة وحظر الاتصالات. وأعطى نودل أوامر لرجال بالتوجّه نحو خط السيّارات. «أين السيّارة التي فيها الطفلة المريضة؟» كان الجندي يصرخ بالإنكليزية حتى ترجم أحدهم السؤال إلى العربية. كان هناك عويل صادر من المرسيدس. وأمر الجندي: «أحضروا طبيباً إلى هنا فوراً».. وصل أميركيّان آخران.. وأخذ جندي أسود ضخم الطفلة بين يديه ولمس جبينها. وقال: «يا الله إنها تمر بنوبة، أبلغ المستشفى الميداني أننا قادمون معها». وأخذ الطفلة المصدومة مع والدتها المضطربة في السيّارة. ثم وصل نودل وأمر بإخراج السيّارة من القافلة. وقال: «بلّغ بقيّة العائلة أننا نحتاج إلى تفتيش سيّارتهم ثم يستطيعون الذهاب والانتظار قرب شاحنة الصليب الأحمر». قدّم نودل وجنوده الاثنا عشر من الكتيبة المدرّعة الأولى المزيد من وجبات طعامهم. لكن ليست هناك أوسمة تُعطى مقابل القيام بهذه الأعمال.

ولسبب ما، لصراع مصالح بدا ظاهراً، وصل الضابط الأميركي والدبلوماسيون الأميركيون لتفتيش موقع نودل. ولم يكن لدى الحكومة الكويتية الجديدة والشرعية التي ذهب هؤلاء الأميركيون للحرب لأجلها الرغبة في إعطاء هؤلاء اللاجئين ملجأ في الكويت. وقد همس ضابط في أُذن نودل هذه العبارة الكاشفة: «جاءنا جندي عراقي وسلّم نفسه قرب هذا المكان اليوم الفائت فأخذه جندي كويتي إلى زاوية ثم أطلق النار على رأسه ورمى جثّته في خندق. إذا سمحت لهؤلاء بالعبور من صفوان فإنهم ربّما يلقون المصير نفسه». أُعطيت أوامر له بإعادة هؤلاء الناس إلى حتفهم ليس بسبب نقص الإمكانات أو لتسلّل عراقي، بل لأن الكويتيين لا يريدون تبديد ثروة إمارتهم المحرّرة. كان جواب نودل الرفض. .

لم تكن هناك لحظات كثيرة جيّدة في هذه الحرب أو أيّ حرب أخرى.. لكن مرّت هنا للحظة أجنحة ملاك قربنا، روح راوول والنبرغ في ساحة سكّة حديد بودابست وهو يعطي جوازات سفر سويدية ليهود المجر. كلّا! لم تكن هذه الحرب العالمية الثانية! ماذا فعلنا لأمثال هؤلاء؟ سيموت هؤلاء العراقيون إذا أُجبروا على العودة، وقد رفض الرقيب نودل إطاعة الأمر. ومثل ضابط شاب في الصوم منذ ٢٣ عاماً رفض إعدام جندي آخر، رفض الرقيب الأميركي إطاعة الأوامر. هل كان بوش وتشيني وشوارزكوف وميجور يُظهرون مثل شجاعته الآن.

في البصرة بقي مراسل الإندبندنت كارل والدرون صامداً في مركزه بشجاعة حتى اللحظة الأخيرة للهرب يوم ٦ آذار/مارس. ويصف الآن نتائج الخيانة ببساطة مخيفة: «كانت الساعة تتعدّى الثانية فجراً عندما شقّت دبّابات ت٧٢ التابعة للحرس الجمهوري طريقها وسط البصرة عبر التحصينات في الطرقات الضيّقة... كانت جيوب المقاومة الصغيرة من المجموعات الشيعية بغالبيتها مثل، «الأخوة عتيق»، تحافظ على مواقعها حتى تصبح عاجزة أو مُجبرة على الانسحاب أمام فرقة المشاة المتقدّمة الجيّدة التسلّح... في شارع ناصر كان هناك آخر الباقين من، كانوا في اليوم السابق يفتخرون بلباسهم العسكري والعصبات الحمراء المربوطة فوق زنودهم ورؤوسهم على نحو يذكر بالصورة العامّة للثورة وقد ارتدوا الآن اللباس الديني... كانت هناك ذخيرة كثيرة لكنها ليست من عيار الأسلحة السوفياتية. وكان مَن بقي الآن في مخازن الذخيرة بعض الحرّاس الذين يراقبون تقدّم الحرس الجمهوري. وكانت أصوات جنازير الدبّابات تشير إلى اقترابهم فتراجعت المجموعة وبدأ عددها يتناقص بينما كان الرجال يختنقون في الليل مع حمولتهم الثمينة. وعندما هربنا جنوباً عابرين الحواجز المنخفضة حول مجموعة المباني، كان صوت مجنزرات أخرى مسموعاً أمامنا هذه المرّة...».

روى اللاجئون الذين تدفّقوا الآن إلى صفوان بتفصيل مرعب ماذا حصل خلف تلك الدبّابات: «دبّابات تسير فوق الجثث». وقال بعضهم إن مسؤولي حزب البعث شاركوا في عمليات القتل الجماعي للمدنيين. وكان أفراد القوّات العراقية الذين انضمّوا إلى الثوّار مشنوقين وجثثهم ممزّقة بالرصاص.

في البصرة، فرّ حيدر الأسدي ابن السابعة عشرة والذي كان يستمع إلى صوت أميركا وهو يدعو العراقيين للثورة ضدّ صدّام، فر إلى مدينة شطّ العرب أو لعلّه لجأ الى إيران(*).

وقد فعل العديد من الثوّار الناجين الشيء نفسه... ومع والدرن: «أصبح واضحاً أن السبيل الوحيد للنجاة هو العودة إلى النهر والزحف فوق رُكام الهجوم الجوّي الحليف الأخير حيث أملنا أن الدبابات لن تذهب، راجين أن يكون الإيراني في المركب على الضفّة الأخرى لم يفقد أعصابه. وعندما وجدناه أخيراً، كان هناك مركبان آخران يعودان إلى خرمشهر. وكان هناك رجل آخر في أواخر العشرينيّات وآخر أكبر سنّاً في مقدّمة المركب الصغير يحتميان من العاصفة والماء تحت القماش البلاستيكي لصندوق سمك. وبينما كانا يتغطّيان، ازداد السيل المدمدم وتحوّلت إدانة والدرن إلى إعصار: شكّل صدّام وبوش فهد وميتران حلفاً غير مقدّس مع سيل الشتائم. سأل الشاب: «لماذا لم يأتوا؟ لماذا لم يسمحوا لهم؟». وقال إن مجموعات المقاومة سمعت بتحرير الكويت وتوقّعت دعم الحلفاء أو حتى منع قوّات الحلفاء العراقَ من نشر مدرّعاته الثقيلة في محافظة البصرة. وقد صوّرت الأقمار الصناعية كل ذلك. إن شبح الحلفاء الذين كسبوا حربهم ويخشون الآن بروز تجمّع شيعي في شمال الخليج، متخلّين عن سكّان البصرة، لن يمرّ بسلام. والأمر الأسوأ كان تسامح الحلفاء وتشجيعهم للناجين من نظام صدّام.

كان الشيعة العراقيون على صواب. فقد نُقل عن دبلوماسي أميركي لاحقاً قوله: «صدّام حسين الذى نعرفه أفضل من تحالف ضعيف صعب السيطرة عليه أو رجل جديد قوي غير معروفة قدراته». لقد تدفّق الناجون من غضب صدّام نحو نقاط التفتيش الأميركية في العراق مع روايات كثيرة حول عمليات إعدام جماعية ـ قالوا إنّ عددها بلغ أربعة آلاف في اليوم وبخاصّة في المدن الشيعية الأصغر إلى الشمال الغربي من البصرة أو جنوب بغداد حيث لا توجد أمام السكّان فرصة للفرار إلى إيران. وفي حالات عديدة لن يظهر دليل على شهاداتهم، التي كانت كلّها صحيحة، إلّا بعد ١٢ سنة. ففي عام ٢٠٠٣ فقط، اكتشفت ما حصل في مدينة المسيّب حيث بدأ فتح المقابر الجماعية بعد الاحتلال الإنجلو ـ أميركي.

كانت كلّ مقبرة جماعية تكشف أكثر فأكثر الفظاعة التي تمّ اقترافها في الصحراء الحارقة الرمادية، غربيّ نهر دجلة، كان هناك عمود معدني لامع في وسط كومة من العظام البنّية وقطعة قماش بالية ترمز إلى نظام صدّام، كان

(*) الآن فقط بدأت معاناة الأسدي. فهو سكن أوّلاً في مخيّم لاجئين غير صحّي جنوب إيران ثم انتقل بعدها إلى قُم حيث انضمّ إلى حزب الدعوة العراقي المعارض. لكنّ السلطات الإيرانية شكّت في أن تكون المجموعة شبكة تجسّس أميركية. ضُرب الأسدي وجرى تصوير اعتراف مزيّف بأنه كان يحاول إسقاط الحكم الإيراني. عام ١٩٩٦، بعد ستّ سنوات على فراره من البصرة، حُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات لكن أطلق سراحه بعد فترة عندما وافق، حسب قوله، على التعاون مع الإيرانيين. بعد خمسة عشر يوماً من تركه السجن، دفع ثمن انتقاله عبر الحدود إلى منطقة شمال العراق الكردية وحصل على أوراق إقامة من الحزب الديمقراطي الكردستاني برئاسة مسعود برزاني، ثم انتقل عبر نهر دجلة إلى سوريا ثم إلى لبنان حيث قابله المؤلّف عام ١٩٩٨ وسعى جاهداً لطلب المساعدة من الأمم المتحدة للسفر إلى أوروبا. وسافر في النهاية إلى فنلندة للعيش هناك مع شقيقه.

وركاً مُستبدلاً. لمس حفّار قبور بلطف قدم جثّة متحلّلة، وصدر صوت خافت. كانت للرجل المقتول قدم خشبية وعند موته كان مريضاً في المستشفى.

بلغ عدد الجثث ٧٣ جُثّة تم إحصاؤها من قِبل الحفّارين استناداً إلى الكشف الزمني، وكانت هناك بطاقة مستشفى مربوطة إلى عظمة. لم يهتمّ جلّادو صدّام بما إذا كانت لديهم أوراق ثبوتية تعرّف بهوية الضحايا.

كانوا ممدّدين بلباسهم الأبيض، أكثر من ثمانين منهم، تحت شمس منتصف النهار مثل الخراف الميتة، بينما كان آخرون مصفوفين جنباً إلى جنب (حوالي ٤٧٠ في آخر إحصاء) في ملعب لكرة السلّة في المسيّب، المدينة القذرة على دجلة حيث كان جميع المسلمين الشيعة يطيعون، قبل ١٢ سنة، أوامر صهر صدّام حسين، حسين كمال، بالتجمع. كان على كل رجل فوق ١٧ سنة أن يأتي إلى هذا المكان. وقالت النساء القلائل اللواتي قابلناهنّ: رأيناهم يتجمّعون بالآلاف، وكانت هناك أربعون شاحنة على الأقلّ تنتظرهم في الليلة الأولى (٥ آذار/ مارس ١٩٩١). لقد تمّ سحق التمرّد المسلم الشيعي في هذه المنطقة وكان منفّذو الإعدام ينتظرون في ساحات القتل في الصحراء في حفر صفا. ويعني الاسم «شاطىء الصخور».

كانت أيدي القتلى أو أجزاء منها مربوطة خلف ظهورهم وكان أحمد رسول كدوم مقيّداً بهذه الطريقة وكذلك رضا محمّد حمزة من الحلّة وعلي حسّونة علوان وإبراهيم عبد الصدر. وهناك رجل مجهول يرتدي ملابس عسكرية فرّ من الجيش وحمل السلاح مع الانتفاضة الشيعية. وقد أخبرني مزارع كان يساعد في عملية الحفر بملل: «هناك مقابر أخرى في كل مكان، لقد سمع بعضنا إطلاق نار في وقتها، وشاهد الجرّافة. كان الأمر منتظماً وروتينياً وقيل لنا إنه إذا تكلّم أحدكم فسوف يُعدم». وأشار إلى أكوام على الأرض غير مستوية إلى الجنوب وعندها أصبحت الحقيقة واضحة. كان هناك ألوف القتلى. وعندما كان يُطمر قبر جماعي كان قتلة صدّام يحفرون آخر. يمكنك تصوّر ثقب في مؤخّرة جمجمة. لكن بعدما ذهب القرويون العراقيون إلى المقابر في الصحراء الرمادية، كانت الرؤوس التي ظهرت محطّمة، وهناك رصاصة حطّمت كل الجمجمة. لكن لا تعطي الأرض الموتى برضاها دوماً. وقد ظلّ حفّار قبور يحفر لعدّة دقائق عند صخرة كبيرة حتى أزيحت فجأة وظهرت جمجمة مع شعر أسود وقميص مع عظام ناتئة. كان هناك فريق طبّي وعسكري يراقب عمليّات الحفر. وكانت معظم الجثث ترتدي دشاديش بيضاء وهي الملابس التي خرجوا بها من بيوتهم. وكانت بيد جثة ساعة توقّفت يوم ٩ آذار/ مارس وظلت تصدر صوتاً في المعصم لمدّة أربعة أيام أخرى في التراب. لكن القبور الجماعية هي مسألة سياسية مثلما هي أعمال إجرامية أيضاً.

إن حسن كامل، صهر صدّام حسين، هو نفسه الرجل الذى أمر بالمجزرة وهرب إلى الأردنّ وكشف أسرار أسلحة العراق الكيميائية قبل عودته إلى العراق ليُقتل على يد صدّام. بالطبع تحدّث حسن كامل إلى المخابرات الأميركية حول الأسلحة الكيميائية العراقية: هل تحدّث أيضاً عن حقول القتل الصحراوية وعن مصير رجال المسيّب؟ في ملعب الأطفال، كانت الأكفان ممدّدة بصفوف عسكرية وقد تمّ التعرف إيجابياً إلى ١٧٠ منها. قال

رياض عبد الأمير أحد محقّقي القبور الجماعية بينما كان يسير ببطء قرب صفوف الجثث: «هؤلاء الناس ضحايا صدّام، لكنّهم أيضاً ضحايا الأنظمة العربية التي تعاونت مع صدّام والغرب الذي سانده، وكانت انتفاضتنا عام ١٩٩١ لتنجح لولا تدخّل الإدارة الأميركية».

دلّ وجود ثماني جثث لمصريين ـ كانوا على ما يبدو سائقي شاحنات يعملون في العراق، ربّما حاولوا القتال إلى جانب الشيعة أو أنهم تحرّروا من الأسر في الأيام الأولى للانتفاضة ـ إلى إمكانية وجود جثث أخرى لأجانب. فمثلاً أين هم الكويتيون الستّمئة، أو أكثر، الذين لم يرجعوا أبداً من العراق عام ١٩٩١؟ كان محمّد أحمد يبحث دون جدوى بين الجثث عن بقايا شقيقه. قال: «هؤلاء القتلى كانت لهم حقوق لكن كيف نتأكّد أنهم حصلوا عليها»... لكن ليس للميت حقوق في العراق ولا حتّى للأحياء. في بيروت اجتمعت ٢٣ جماعة عراقية معارضة في منتصف آذار/مارس ١٩٩١ برعاية سوريا، وكان ثمّة رجال غاضبون، بعضهم علماء دين شيعة وعدد آخر منهم فارّون من نظام صدّام، وحصل جدل كبير واحتجاج بشأن طلب مساعدة الأميركيين لإقامة دولة جديدة وحرّة فوق أنقاض العراق وحزب البعث. كان الأمر مدعاة للشفقة. وفي مقهى مُحاذٍ لفندق البريستول نظر إليّ مندوب شيعي بجهد وسأل: «ما هي خطط الأميركيين؟» بينما كان عشرات من زملائه الشيعة والسنّة والأكراد والشيوعيين يحتلّون بهو الفندق: «لقد سمح الجيش الأميركي للحرس الجمهوري باجتياز طريق البصرة للهجوم على المقاتلين هناك. لماذا فعلوا ذلك؟ أعتقد أن اتفاق إطلاق النار نصّ على عدم تحريك القوّات. هل يريد الأميركيون بقاء صدّام؟».. شربت الكثير من القهوة ذلك اليوم. لا يسأل أحد عن نوايا الأميركيين في العراق مع أن مؤتمر بيروت الذي بدأ في ١٠ آذار/مارس (والمنطقة المحيطة بمكان انعقاده، البريستول، تسيطر عليها القوّات السورية ورجال المخابرات المسلّحين بمسدّسات) كان يفترض به الموافقة على برنامج سياسي مشترك لمرحلة ما بعد صدّام. كان هناك كلام أيضاً عن حكومة منفى. ومع ذلك تمّت الإشارة إليها بشكل مُبهم في خطاب بعثي على أنّها «قيادة مشتركة»، أداة للسلطة في بغداد بعد الإطاحة بصدّام، تهيّىء لتشكيل حكومة جديدة وطنية وديمقراطية من الرماد. لكن لم يحضر إلى المؤتمر أي مراقب أميركي. ويبدو أنهم غير معنيين بالموضوع على الإطلاق. سافرت من الكويت عبر السعودية إلى البحرين على خطوط طيران الشرق الأوسط MEA وعدت إلى بيروت. أثناء الرحلة حلّقنا فوق إيران وعند الفجر فوق تركيا، ونظرت شرقاً وشاهدت سُحب النفط السوداء من الكويت إلى العراق تمرّ فوق جبال آرارات القاتمة حتى الجبل المقدّس لأرمينيا القديمة والمقابر الجماعية المخفيّة منذ فترة طويلة في تلك البلاد. عندما نزلت في بيروت توجّهت إلى شقّتي وجلست على شرفتي أتنشّق نسيم الصباح المنعش. نظرت خارجاً فوق المتوسّط فرأيت في الأفق البعيد البقعة السوداء نفسها. وحين خرج بعض العراقيين من فندق بريستول وساروا على شاطىء البحر شاهدوا تلك العلامة المتجهّمة لمصير وطنهم.

رغم الحزن، بحثوا عن الأمل. قاموا بإحصاء المدن العراقية التي خسرها صدّام وأكّدوا أن مجرّد قيام ٣٢٥ عراقياً من مختلف الأطياف والقوى بالاجتماع معاً هو نصر بحدّ ذاته. وكانت اللافتة المعلّقة فوق المنصّة في قاعة المؤتمر تقول: إن وحدتهم ضمان للخلاص من الدكتاتورية. وقالوا لنا أن ليس لدى أيّ منهم نيّة فرض دولة

إسلامية في العراق لأنهم اكتشفوا أن ذلك هو الكابوس الأميركي والكويتي والسعودي، لكن تركوا لآية الله مدرّسي التعبير عن مخاوفهم. قال: «بدأ بعض العراقيين التفكير في أن الأميركيين يفضّلون صدّام وهم يتساءلون ما إذا كانت أميركا تفضّل صدّام بدون أسنان على عراق بدون صدّام».

كان كل العراقيين في بيروت يتحدّثون بغموض. عندما عبّروا عن رغبتهم في إجراء انتخابات شعبية وديمقراطية كانوا يحاولون تبديد المخاوف الأميركية حول نشوء جمهورية على النسق الإيراني في مرحلة ما بعد صدّام. وعندما تحدّثوا عن الوحدة كانوا يحاولون إقناع بعضهم البعض أن العراق لن يتجزّأ إلى دولة شيعية ودولة سنّية وكردستان جديدة. وعندما أدانوا وجود قوّات أجنبية على الأرض العراقية (القوّات الأميركية) كانوا ينفون أنهم موظّفون أميركيون. وصرّح أحد المندوبين على المنبر: «لن نقبل أجانب على الشواطىء المقدّسة لدجلة والفرات»، لدرجة أن الأميركيين فقدوا الاهتمام بهذه اللعبة الديمقراطية.

لم يكن ذلك هو السبب الوحيد. فلفترة طويلة كانت الأحزاب الإسلامية بغالبيّتها من الجماعات الشيعية، ولم يكن السنّة الذين يشكلون ٤٠ في المئة ممثلين بمنظّمة سياسية واحدة. ولم يستفد المسيحيون والشيوعيون كثيراً منذ بداية المؤتمر، حيث كان مندوبوهم يستمعون إلى تلاوات طويلة من القرآن الكريم.

كان الزعماء الشيعة اللبنانيون مرتبطين بشكل وثيق ببعض الحركات العراقية. كان آية الله محمّد باقر الحكيم ـ الرجل الذي يُعتقد أنه كان وراء انتفاضة البصرة والذي قُتل بانفجار ضخم في النجف أثناء الاحتلال الأميركي بعد ١٢ سنة ـ ابن خالة السيد محمّد حسين فضل الله، المرشد الروحي لحزب الله والمرشد الروحي لحزب الدعوة العراقي. كانت والدة الحكيم من عائلة بزّي اللبنانية.

كانت هناك صفة صغيرة ميّزت المؤتمر ولقد مرّت دون ذكر. كلّنا نعرف أنه كان بين الأحزاب العراقية الأشخاص السبعة عشر، الذين شكّلوا لجنة العمل المشتركة للمعارضة العراقية والتي اجتمعت في دمشق في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠ للعمل على بناء عراق جديد وديمقراطي. كانت اللجنة تضمّ حزب الدعوة، والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية الأكثر أهمّية بين المجموعات الموالية لإيران والمرتبط بشدة بالوزير الإيراني السابق علي أكبر محتشمي، والحزب الشيوعي العراقي وعلى الأقلّ أربعة أحزاب كردية ومجموعتان من الحركة الإسلامية والوطنيين المستقلّين المدعومين من السعودية. لكن أصرّ السعوديون أيضاً على مشاركة صلاح عُمر العلي عن الحزب الدستوري العراقي الوطني وحزب سعد صلاح جابر ـ المؤتمر العراقي الحرّ ـ في المؤتمر. وكان صلاح عُمر العلي البعثي السابق نفسه الذي أذاع ذلك النداء العارم والمصيري للثورة عبر إذاعة الاستخبارات الأميركية يوم ٢٤ شباط/فبراير. في الأيام القادمة، كانت هذه الدعوات الأميركية المنظمة للتمرّد على صدّام مشابهة لدعوات السوفيات إلى البولنديين للثورة على الألمان في وارسو عام ١٩٤٤ عندما وصلت القوّات الروسيّة إلى الضواحي الشرقية للمدينة وبدت مستعدّة لتحرير العاصمة البولندية عندما تبدأ الانتفاضة. أطاع البولّنديون الدعوة إلى الانتفاض ضدّ النازيين وانتظر السوفيات حتى قضى الألمان على الثوّار من القوّات القوميّة البولّنديّة التي كان يمكن أن تعارض النظام الشيوعي.

كان العراقيون يعملون لصالح الأميركيين وفعل السعوديون الآن الشيء نفسه. دعوا إلى ثورة وراقبوا صدّام وهو يسحق الثوّار وقضوا على أيّة فرصة لجمهورية إسلامية أو أي نوع آخر من الدولة في العراق. وبعد ١٢ سنة حتلّوا بغداد وعيّنوا حكومتهم الانتقالية كما فعل السوفيات في بولّندا بعد الحرب.

في بيروت قابلت آية الله مدرّسي الذي وافق على أن البصرة سقطت بالفعل، لكنّه ادّعى أن العمارة والناصرية والديوانية وسامرّاء والنجف وكربلاء ما زالت صامدة أمام قوّات صدّام. وحول رغبة الأميركيين في دعم صدّام مسالم لمنع قيام دولة إسلامية، صرّح بأن «على الولايات المتحدة أن تدرك أن الثوّار العراقيين يركّزون على إعادة إعمار العراق وليس على الثورة. كان هذا الخوف لدى الغرب مرتبطاً بإيران مباشرة، إذ ليس لدى الغرب علاقات جيّدة مع إيران، لذا كان هناك قلق حول ما يجرى الآن في العراق. لكن هذا سوء تقدير. فالانتفاضة لم تحصل خلال السنوات الثماني للحرب العراقية الإيرانية بل حصلت بسبب ما قام به صدّام. لا تستطيع نسخ ثورة من دولة إلى دولة أخرى. أظنّ أن علينا سؤال الشعب أية جمهورية يريد. شخصيّاً أريد دولة إسلامية لكن ليس بالقوّة. إذا اختار الشعب طريقاً آخر فأنا معه أيضاً. لكن لن ينسى العراقيون قلّة الدعم الأميركي عند إسقاط صدّام».

لكن بعد ٢٤ ساعة، اعترفت المعارضة العراقية أن الانتفاضة الشيعية فشلت. وكان الدليل الأكثر إقناعاً حول ذلك ما ورد على لسان السيد عبد العزيز الحكيم، شقيق آية الله محمّد باقر الحكيم، الذي اعترف أن النجف وكربلاء لم تعودا بيد الثوّار. وحتى الشيوعيّون اعترفوا أن الانتفاضة تواجه الآن مصاعب خطيرة. وحدهم المندوبون الأكراد كانوا قادرين على تشجيع المؤتمر بمزاعم أن ثوّارهم ما زالوا يسيطرون على القرى شمال كركوك!

كانت الشخصية الأكثر احتراماً في بيروت شخصية محمّد مهدي الجواهري، أشهر شعراء العراق. كان عمره تسعين سنة وكان يجلس على المنصّة مرتدياً سترة مجعّدة مع قبّعة طرية على رأسه ويتحدّث بلغة الشعر. وقال: «لم أتوقّع المشاركة في المؤتمر... أطفال العراق يبتسمون الآن وكذلك المسنّون. يعاني شعبنا في ظلّ نظام صدّام حسين، وكلّنا نعاني الإعدام والتعذيب والإبعاد. لكننا صابرون ومتّحدون. قلبي معكم ويدي بيدكم. تحتاج الانتفاضة في العراق إلى مساعدتكم. . . لكلّ شيء نهاية، ولكل جريمة عقاب»...

في ختام المؤتمر استطاعت المعارضة العراقية فقط صياغة طلب غير مُلزم بتشكيل لجان.. هذه المؤسّسات يحبّها الزعماء العرب الذين يرغبون تجنّب قرارات جدّية. وكانت لجنة الخلاص الوطني هي الصيغة الأكثر أهمّية والأقرب إلى حكومة منفى. ولكن الأمر الأكثر سخفاً كان تشكيل وفد لإبلاغ بقيّة العالم ماذا يجري في العراق كما لو أن العالم لا يعرف سلفاً ما الذي يجري هناك.

لقد بات واضحاً أنه عندما أوقفت الفرقة الأميركية المدرّعة الأولى دبّاباتها في صفوان، تحرّكت فِرق الإعدام شمالاً إلى داخل العراق ناشرة النار والدم على الأرض. ومثل العديد من الناس، كان العراقيون الذين يُقتلون كلّ يوم أكثر ممّا حصدت غارات الحلفاء الجوّية في الشهر السابق. وكان آية الله مدرّسي الذي وصف معاناة شعبه قد

صرّح: «تحرّرت الكويت على حساب دم الشعب العراقي». وتجلّت حقيقة ذلك في ساحات الإعدام في جنوب ووسط العراق، بينما كانت واشنطن تراقب بصمت ماكر. وبحسب صحيفة الواشنطن بوست، لم تستطع الإدارة الأميركية التقرير إن تعمد إلى إرسال قوّات إلى داخل العراق «لشلّ قدرة صدّام على قمع الثوّار» أو تنسحب بحيث تستطيع القوّات العراقية تعزيز سيطرتها، ومن ثمّ تتحدّى زعامته. كان رئيس أركان القوّات الأميركية كولن باول في أشدّ حالات الهلع. وتساءل بطريقة مؤثّرة: «ما هي الطريقة الأفضل للتخلّص من صدّام حسين؟ حقيقةً لا أعرف». لم تتّخذ الإدارة الأميركية أي موقف حيال المسألة لأنها مشكلة داخلية في العراق، ولم تكن لدى باول أيّ تعليمات للقيام بشيء ما وهذا لمصلحة الطرفين.

كانت الطائرات الأميركية تحلّق بحرّية فوق العراق، على علوّ منخفض كافٍ لمراقبة المعارك عن قُرب. وكانت طائرات الاستطلاع التقطت صوراً لحواجز الطرقات والأبنية المحترقة والدبّابات العراقية، وفي بعض الحالات طائرات الهليكوبتر العراقية المهاجمة التي سمح لها شوارزكوف والأمير خالد بالتحليق فوق شوارع مدن العراق الرئيسية. وإذا تحرّك الأميركيون متردّدين لحماية الأكراد كما فعلوا لاحقاً مُجبرين تحت ضغط الرأي العام فإن ذلك لم يحصل تجاه الشيعة في الجنوب. ورغم الدليل الحسّي على الجرائم المروّعة ضدّ الإنسانية، لم تكن هناك أيّة محاولة لإنقاذ السكّان الشيعة التي تخيف روابطهم الدينية بإيران واشنطن وحلفاءها في الخليج.

كانت هناك روايات دقيقة حول الفظائع يرويها الجنود العراقيون السابقون عند الخطوط الأميركية في الجنوب. روى إبراهيم مهدي إبراهيم (٣٢ سنة) وهو جندي فارّ، كيف أخرجت وحدات الحرس الجمهوري العائلات من بيوتها بوعود بالأمان ثم قصفتها بالمدفعية. قال: «كان جنود صدّام يحاولون حصدهم مثل القمح والقشّ بمدافع الهليكوبتر الرشاشة بينما كانوا يختبئون في الحقول». وقد أبلغني مُسعف عسكري أميركي عن معالجته للاجئين شيعة ضُربوا بالأنابيب وهم مصابون بحروق، فيما ضُرب الأطفال بأسلاك شائكة. وكان العديد منهم ممّن قُتلت عائلاتهم. وضُربت فتاتان بالأحزمة وبأدوات غير حادّة. ووصل العديد من الرجال الباكين إلى نقطة تفتيش أميركية في سوق الشويخ بروايات مشابهة حول مقتل عائلات بكاملها من قِبل الحرس الجمهوري. وقال جندي عراقي آخر هارب: «إن العائلات التي أرادت الرحيل حوصرت وقُتلت على الطريق. ورأينا بأمّ العين كيف أحضروا الجرحى من المستشفيات وقاموا بقتلهم مع الأطبّاء المعالجين. وعندما دخل الجيش العراقي منذ أسبوع، عادت العائلات التي هربت من القتال مع أولادها، فقاموا بصفّهم على الجدران ثم أعدموهم». ولقد أثبتت أسرار المقابر الجماعية الكثيرة خارج المسيّب بعد عدّة سنوات أن قصّة هذا الرجل لا مبالغة فيها. وفي أميركا نشرت صحيفة نيويورك تايمز أن الولايات المتحدة تركت الثوّار العراقيين لمصيرهم ونقلت عن مسؤول كبير، مجهول كالعادة، قوله: «لم نقدّم أبداً وعوداً لهؤلاء الناس، ليس لدى التحالف أيّة مصلحة في عمليّات عسكرية إضافية». وهكذا كانت الحال في أوساط حلفاء أميركا العرب. فإذا كان تصرّف الولايات المتحدة وبريطانيا مهيناً وغير أخلاقي فردّ فعل معظم الأنظمة كان مُذلّاً. وقد عبّر العديد من الصحفيين العرب عن اشمئزازهم لأن أكبر الجيوش العربية والأكثر تطوّراً في الشرق الأوسط هُزم بشكل مُخزٍ. في الصحف العربية وُصِف تدمير جسر متلة بأنه «نكبة» وهو التعبير نفسه الذي

استُخدم لوصف هزيمة الفلسطينيين عام ١٩٤٨. وباستثناء سوريا، كانت هناك بعض كلمات التعاطف في العواصم العربية مع الرجال اليائسين الذين يقاتلون ضدّ صدّام بين أنقاض جنوب العراق وجبال الأكراد. ولم تُثر مجازر البصرة والنجف ولاحقاً كركوك أيّة مشاعر بالفظاعة بين ملوك وأمراء الخليج ولا بين الرؤساء المسنّين المدعومين من الغرب. فبشكل عام كان لدى معظمهم أقلّيات مقموعة بينها الكثير من الشيعة.. ولم تكن لديهم النيّة لدفع شعوبهم لإدانة ما حصل للانتفاضة العراقية. ولخزيه، كان على عرفات الذي يوجد شعبه في المنفى إظهار تعاطف مماثل مع الأكراد الهاربين لكنّه لم يُظهر أي شعور نحوهم.

مرّت جُلجُلة الشيعة غير مكشوفة بشكل واسع من الصحفيين الغربيين وخاصة التلفزيون وكانت الروايات عن حجمها تنقل عن طريق الرجال والنساء اليائسين الواصلين إلى مراكز التفتيش الكويتية شمال الكويت. ولكن في كردستان كان مراسلو التلفزيون والصحافة بين المقاتلين واللاجئين حيث نتجت عن هجوم صدّام المعاكس مأساة ضخمة (قُتل أربعة مراسلين هناك). وسار الصحفيون إلى جانب عشرات الآلاف من الرجال والنساء الأكراد الذين كانوا يهربون شمالاً إلى جبال الثلج الكثيفة على الحدود التركية. وكان المسنّون يموتون من البرد والنساء يلدن في الثلج والأطفال يُتركون وسط القاذورات. وكما كتبت صحيفة الإندبندنت بدقّة متناهية: «كانت أقوى آلة عسكرية تجمّعت منذ الحرب العالمية الثانية تراقب المشهد الوحشي من الخطوط الجانبية». لذا ورغم تقارير المراسلين المؤلمة كانت وجهات النظر التي تشكّلت لدى الصحف الأميركية الكبرى والرأي العامّ الشرقي متفاوتة: كانت الواشنطن بوست لصالح عدم التدخّل بينما اشتكى كاتب النيويورك تايمز لسلي غيلب قائلاً: «إن منطق التدخّل يقود حكماً إلى احتلال بغداد. وإذا فشلت القوّات العراقية في القتال في الكويت فإننا لا نستطيع الاعتماد على ذلك في مدينتهم. ومن سيقاتل إلى جانبنا؟ لا أحد. وماذا عن الخسائر المدنية؟ العديد منها. وماذا نفعل بعد احتلال بغداد؟ وبأي ثمن؟».

هنا سوف تزور أشباحُ المستقبل الماضي مجدّداً. أجل، لو تابعت القوّات الأميركية التقدّم نحو بغداد، كما اعتقد شوارزكوف أنه كان عليها القيام بذلك بسرعة، فماذا يحصل؟ سوف يتفكّك التحالف العربي ولن يكون لدى بريطانيا وأميركا أيّ أصدقاء. لكن هناك بعض الشكّ في أنه لو سارع الأميركيون لإسقاط نظام صدّام لكان قد حصل ترحيب من العراقيين الذين توقّعوا بثقة حصوله عام ٢٠٠٣، لكن ذلك لم يحصل. بالتأكيد بعد خيانة أميركا للشيعة عام ١٩٩١ لم يعد الأميركيون موضع ترحيب لدى الشعب العراقي. عام ١٩٩٦، تحدّث الرئيس بوش الأب من شاشة التلفزيون في سلسلة مقابلات وقال إن ابنه أخطأ بملاحقة القوّات العراقية حتى بغداد عندما غزا العراق عام ٢٠٠٣، «لأننا سنسمع بعد ذلك أن أميركا احتلّت أرضاً عربية بحثاً عن هذا الطاغية الفظّ الذي يمتلك أفضل أمن في العالم، والمتورّط في حرب عصابات مدنية». الأمر الذي حصل بالفعل لاحقاً حتى مع فشل بوش في إدراك أن القبض على صدّام سوف يشجّع حرب العصابات المدنية التي تحدّث عنها[*].

(*) كانت هناك أصوات غامضة أخرى داخل الإدارة في ذلك الوقت. وقد نقل مراسل الواشنطن بوست يوم ١٤ نيسان/ أبريل ١٩٩١ عن مسؤول أميركي مجهول بالطبع «أن الشيء الذي يجعل الأمر مثل فيتنام هو الدخول إلى العراق والبقاء هناك وإقامة حكومة جديدة وحمايتها ضد الشعب المعادي.. إن ذلك سيكون مصدر الكارثة».

غير أن المَخرج المبدئي تمثّل في مساندة بوش لدعوة الثوّار العراقيين. لقد أيّد بحماسة الانتفاضة وبث إذاعة الاستخبارات الأميركية نداءات للشعب العراقي تدعوه إلى إسقاط صدّام. وكان واضحاً أن هذه النداءات ألزمت الأميركيين بحماية الذين دعوهم لحمل السلاح إلى جانبهم.. ولم يكن تجاهل هؤلاء الرجال الشجعان والمصمّمين عندما لبّوا النداء، وتركهم يبادون مع عائلاتهم، عملاً حقيراً فقط بل جريمة بحقّ الإنسانية. والآن، وحتى بعد أن أُجبرت الحكومة الأميركية على تقديم حماية عسكرية للأكراد، وعلى الرغم من سحق تمرّدهم بشكل جوهري، فإنها ما زالت تعتبر حرب الخليج نزاعاً أخلاقياً بالطبع، نزاعاً يرفع من شأن الأميركيين. في آب/أغسطس ١٩٩١، كان وزير الدفاع الأميركي ديك تشيني قادراً على وصف الحرب بأنها قدر بالنسبة إلى أميركا بعد فيتنام. وصرّح: «إنها عملية مداواة بامتياز لجرح ظلّ مفتوحاً لفترة طويلة». على أن الجراح الحقيقية لعشرات الآلاف من الجرحى الناجين من الانتفاضة العراقية، وللعائلات المحطّمة والمشتّتة من الشيعة والأكراد، وحتى للعدد الأكبر من المقاتلين والمدنيين الأموات المدفونين تحت التراب على أيدي قتلة صدّام، لم تكن جزءاً من عملية المداواة التي تحدّث عنها تشيني. كان قدرهم الموت. قاموا بما أُمروا به، خدموا قضيّتهم. فشلوا في إسقاط صدّام. كان هذا مصيرهم. لكننا شُفينا. دعا بوش لإسقاط صدّام ثمّ قال إنه لم يهدف أبداً إلى مساعدة الثوّار في نزاعهم. وأوجز تقرير للأسوشيتدبرس بوضوح سياسة بوش في أوائل نيسان/أبريل. قال التقرير إن الرئيس يراهن «على أن الأميركيين مهتمّون بعودة القوّات من الخليج أكثر من مساعدة الثوّار العراقيين على إسقاط صدّام». لكنّ الرايات الصفراء وأجراس الكنائس التي احتفلنا بها نحن الغربيين عام ١٩٩١ أصبحت الآن موضع سخرية. امتدت شظايا الزجاج الهشّ الذي يرتكز عليه الشرق الأوسط الآن إلى مسافة ٨٠٠ كلم، إلى الفرات ودجلة. وكانت أرواح بشرية كثيرة معظمها من المدنيين تُزهق يومياً داخل العراق أكثر من أي وقت مضى منذ غزو صدّام للكويت. وقد أبلغني مسؤول كبير من مجلس التعاون الخليجي في الرياض: «حذّرناهم من ذلك، أبلغنا الأميركيين أن تحرير الكويت سوف يحرق المنطقة. أبلغناهم أن عليهم البقاء حتى لو رفضهم شعبنا لكنهم لا يتعلمون أبداً، أبداً».

كان عليّ التحدّث إلى الكويتيين وبشكل خاصّ وترك المعارضة العراقية والسوريّة جانباً، وكانت صحوة مرعبة أن أدرك أن هذه الأحداث في الخليج تمثّل بالنسبة إليهم مرحلة غير منفصلة ومأساوية من تاريخهم، فترة دموية مستمرّة بشكل مأساوي بدأت قبل سقوط الإمبراطورية العثمانية وهي تتزايد بشكل مرعب في جبال كردستان. عبر التاريخ، لم يحصل تدخّل غربي في العالم العربي لم تصاحبه خيانات، مع أن الخداع كان أكثر وضوحاً هذه المرّة.

ما كان يفترض أن يبدأ «كحملة» غربية نبيلة لتحرير الكويت من العدوان تحوّل إلى مأساة بأحجام كارثية. كتبت في صحيفتي في نيسان/أبريل ١٩٩١، أن المؤرّخين ربّما يقرّرون في المستقبل أن تحرير الكويت شكّل فقط الفصل الأول من حرب الخليج، وأن مجزرة الشيعة والأكراد داخل العراق كانت الفصل الثاني. ويوحي التاريخ نفسه بأن الغرب لن يكون قادراً على تجنّب التورّط في الفصول القادمة.

في الأسبوع الأول من نيسان/أبريل، كان مليونا لاجىء كردي منتشرين على الحدود المغطّاة بالثلج بين تركيا وإيران وقد مات ١٢٠٠ منهم على الحدود. وأقرّت أميركا مع حلفائها الغربيين الآن أن المأساة يُستبعَد أن تكون نتيجة منطقية لدعواتهم إلى الثورة بل هي نتيجة أخرى لجرائم صدّام ضدّ الإنسانية. إن المعاناة الكردية وبطش فرق القتل التابعة لصدّام تمثّل جريمة ضدّ الإنسانية من قِبل النظام العراقي. لكنّ التورّط الغربي في مأزق الثوّار العراقيين سوف يُترجم من خلال تدفّق المساعدة الإنسانية. وسوف تغرق الضمائر المذنبة بالأطعمة الجاهزة والخِيَم وملايين الدولارات مساعدة لهؤلاء الثوّار. وفي الأسابيع اللاحقة وبينما كانت القوّات الأميركية والبريطانية تنتشر في شمال العراق لحماية اللاجئين الأكراد مُلقية من الجوّ آلاف الأطنان من الأغطية والأطعمة، قُتل العديد من الذين هُرعوا لالتقاطها عندما وقعت في الجبال عليهم.. وهذا خبر جديد وغير سارّ وُضِع جانباً من قِبل الغرب. تعال انظرْ ماذا حصل للأكراد، انظرْ ماذا يستطيع قتلة صدّام فعلَه؟ مَن يستطيع الآن أن يشكّ في المبرّر الأخلاقي للحرب ضدّ صدّام؟ هنا كان الدليل الأخير، بين مخيّمات اللاجئين في الجبال، على انتقام صدّام. وعندما رحنا ننبش المقابر الجماعية للثوّار وعائلاتهم، بعد ١٢ سنة، كنا نريد أن نقول إن ذلك فقط هو الدليل الأخير على مظالم صدّام والبرهان على أننا كنّا على حقّ بغزو العراق عام ٢٠٠٣، وأننا كنا في عام ١٩٩١ نستعرض مجموعة من الأدلّة على شروره.

لا حاجة إلى القول إن القتلى الشيعة تمّ تناسيهم على نطاق واسع. ويجب الآن إعادة كتابة التاريخ لنعطي هؤلاء حقّهم بشكل أفضل ضمن سياسة الولايات المتحدة. «لن نقوم بتكرار التدخّل في عمليات اللاجئين» هكذا حذّر مستشار الأمن القومي برانت سكوكرفت من عنف صدّام يوم ٤ آذار/مارس.. ثم أضاف بالنبرة نفسها: «إننا لن نتدخّل.. وقد قلنا سابقاً إنها حرب أهلية». كان ذلك مُهيناً.. فمن دون تحدّي أحد بهذه الملاحظات المخادعة، حوّل سكوكرفت الانتفاضة التي دعت إليها حكومته إلى حرب أهلية بين العراقيين. كان الثوّار الآن مشاركين في نزاع داخلي. والذين طلبنا منهم إسقاط صدّام يشاركون في نزاع لا علاقة لنا به. إن هؤلاء العراقيين يؤمنون بالتأكيد بما طلبناه منهم أساساً وهم يحاولون إسقاط دكتاتور بناء على طلبنا.

ثم عمد الرئيس بوش إلى توسيع هذا الشريط الجديد الكاذب للأحداث. في خطاب ألقاه في ألاباما في اليوم نفسه، أعلن أن واشنطن لن تتسامح مع أيّ تدخّل في عمليات الإغاثة الدولية، ثم قال «لا أريد أن يقتل أيّ جندي أو طيّار في حرب أهلية قائمة في العراق منذ أجيال». لاحِظ الدلالات هنا. يجب على صدّام ألّا يتدخّل في توزيع المساعدة الدولية لكنه لم يتدخّل أو حتى يخطط للتدخّل بما أسماه الأميركيون «عملية تأمين الراحة». كانت طائرات صدّام وفِرق إعدامه تقضي على الثوّار والأهالي المدنيين قبل وصولهم إلى مراكز الإغاثة، وكانوا يقصفون الأكراد ويقتلونهم حين كانوا يحاولون جاهدين الوصول إلى المخابئ في الجبال. وعندما وصلوا، كان هناك «دليل آخر على وحشية صدّام». وأثناء فرارهم إلى الجبال كانوا «مشاركين في حرب أهليّة»، ولذلك لم يكن من الضروريّ التدخّل. أضف إلى ذلك أنهم كانوا «جزءاً من حرب أهليّة تجري منذ أجيال». كان الأمر لغزاً بالنسبة

إلى معظم العراقيين، فها هم وقد صاروا متورّطين فجأة في حرب أهلية. صحيح أن قمع صدّام للأكراد كان يهدف إلى إشعال مثل هذا النزاع لكنّ الحرب الأهلية كانت شكلاً من العنف تحرّر منه العراق تاريخياً. لم تكن هناك أبداً حرب أهلية في العراق. وظلّت هذه حقيقة حتى عندما ادّعى الاحتلال الأميركي والبريطاني بعد ١٢ سنة أن أعداءهم في البلاد يحاولون إشعال حرب أهلية. كل ذلك يعيدنا بالذكرى، وهو هروب إلى الأمام، إلى واقعة رفضنا إنقاذ أرواح الأبرياء في حرب البوسنة عام ١٩٩٢، بعد عام فقط من إعلان انتهاء حرب العراق. في البوسنة، كرّر المسؤولون الأميركيون والأوروبيون الأسطوانة ذاتها، بينما كان المسلمون يُذبحون على أيدي الصرب: «إنها حرب أهليّة بالفعل وهذه الحرب الأهليّة مستمرّة منذ أجيال». ربّما فهم جنود الحدود الأميركيون وقوّات البحرية، وقد وجدوا أنفسهم الآن مع الطواقم الجوّية بعيداً عن الكويت ليعودوا بعد أيام ويُرسَلوا إلى البلد الذي اعتقدوا أنهم انتهوا منه. كانوا هناك بالآلاف، جيش آخر، ولكنه هذه المرّة جيش عنده ضمير (ضميره مُذنب بحسب رأيي)، أُعطيت له أوامر لإنقاذ أرواح وليس للقتل بالطبع.. رحلت أرواح الشيعة، آخر أكوام الإعدامات ملأت شوارع البصرة، ولكن بعض أرواح الأكراد ما زالت هناك. كان الأميركيون رجالاً أذكياء، قمنا بجولة مروحيّة داخل ما يشبه مدينة أميركيّة صغيرة حقيقية، كانت آلة التسجيل بيدي، بينما كنا نحلّق فوق ما سوف يصبح دولة جديدة، إذا لم يتعرّض الأكراد مجدّداً للخيانة، كما اعتقدت. أمّة أسمها ـ كردستان. أول تقسيم للعراق. وكالعادة أراد الأميركيون أن يكونوا مُرشدين سياحيين. « حسناً بوب، سوف نريك جزءاً من العراق». كان الضابط تيم كوروين يعني جيّداً ما يقول. قاد طائرته «سيكلون سيڤن فايف» Cyclone seven five CH 47 فوق زاوية جبل ارتفاعه ٦٠٠ متر حيث الوديان والسهول الكبيرة الخصبة لما بين النهرين تنتشر تحتنا. وبحسب ملفّ قانون الطيران، المتأرجح على ركبة كوروين نحو المحرّكات، كنا نطير فوق بلد اسمه كردستان. الويل للجندي العراقي الذي أطلق النار علينا أو على القوّات البريطانية الزاحفة نزولاً عند أطراف الجبل تحتنا.

كان صوت كوروين الذي يطقطق عبر سمّاعات القائد تشاك لانكستر يروي كلّ القصّة. «سيّارة نصف مجنزرة إلى اليمين، قربها ثلاثة إنكليز. وادٍ جميل جدّاً، هذا المكان برمّته. إذا رأيت أيّ أشرار أعلمني». كان مدفع رشّاش الرقيب جيمس سيمز يتدلّى من باب المروحية التي عبرت الوادي الذي أمامنا... أجاب «لا أحد»، وعيناه تراقبان الصخور أمامه ورجلاه مثبّتتان بشدّة في مواجهة الاضطراب الذي خرج من الشقّ الجبلي. «أليس هناك رجال أشرار؟».

خارج العمادية كان هناك المزيد من الإنكليز، قبّعات البحرية الملكية تتحرّك على طول الطريق وسلسلة من سيّارات اللاندروفر. ضغط كوروين على زرّ الراديو: «الإنكليز في كلّ مكان». أومأ لانكستر برأسه وضغط: «أحبّ رؤية ذلك».. المزيد من سيّارات اللاندروفر الآن على طول طريق زاخو والسيّارات المدنية محمّلة بالفرش والأغطية.

على القمم كانت التحصينات العراقية مهجورة، وآثار موحلة للمدرّعات والأسلحة تسلّلت باتجاه أقرب الطرق.

حصن عراقي بأسلحته اللامعة وأبراجه الحجرية الأربعة يتّجه نحو المرفأ، علمه العراقي ممزّق، وأبوابه مشرعة لتريح، آخر حُطام لقمع صدّام للأكراد. لم تعد هذه العراق. أصبحت شيئاً مختلفاً، كياناً جديداً يظلّل خرائطنا أعمق من الوديان المتصدّعة بفعل حرارة الموصل.

مالت مروحية «سيكلون سيڤن فايف» بزخم شديد مع انحسار التلال تحتنا. صرخ كوروين: «بالطبع هذا بلد جميل. إنه مثل بلدي في أريزونا». الجبال إلى الشمال تغطّي الأفق مكسوّة بالثلوج، سلسلة من الغيوم المنفوشة تلتصق بالغرانيت، «نفاية» بلغة الطيران عند لانكستر. نظر الطيّارون الأميركيون الأربعة إليها بانتباه وهم يتحدّثون مثل طيّاري حرب فيتنام معبّئين موجات الراديو بالشكاوى والمراسلات اللاسلكيّة والحسابات الدائرية. كانوا رجالاً أذكياء ومرحين يمزجون الفرح بالسياسة مع الطيران. في مؤخّرة المروحيّة جلس الرقيب تشارلز نابورز صامتاً معظم الوقت. تتعلّم الكثير من الطيران معهم وأنت تستمع إليهم... الخطوط تطقطق، الوحول تتسلّل إلى الملاجىء المؤقتة تحت جسم المروحيّة، جوف صغير آخر أستطيع الجلوس فيه مع مسجّلتي وأشعر بالأمان مع نظرة «سيكلوبية» إلى العالم. بعيداً إلى الغرب، كان نهر دجلة يلمع.

كوروين: «بالطبع أعرف أن هذا من التاريخ. أعتقد أنها ستصبح دولة كردستان أو ما يسمّونها».

لانكستر: «إذا كان علينا البقاء هنا أكثر من ثلاثة أشهر سينخفض معدّل مزاجي».

كوروين: «أتمنّى أن لا يكون ذلك مستنقعاً مثل بيروت ـ لبنان. أتمنّى أن يكون بوش يعرف ماذا يفعل».

لانكستر: «عليه ذلك، لأن الشعب لن يوافق على القذارة. هذا يكلّف كمّية ضخمة من المال. نحن تكلّف ما بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ دولار على هذه المروحية لكلّ ساعة صيانة فقط. لحظة، اتصل بالمجهّز على ٣٧٥، لديّ مهمّة لدلتا فايف Delta five. الشيء الوحيد الذي يهمّني على هذا الارتفاع هو الوقود. أنظر فقط إلى تلك القرية. إنها تبدو كما في العهد القديم».

كوروين: «إنها تشبه ما تقرأه في الإنجيل. طرسوس إلى الغرب من هنا، إنها من حيث جاء بولس. وجبل أرارات إلى الشرق، أليس هذا شيئاً ما؟ كنت في أزمير حيث سُجن ريتشارد، «قلب الأسد»، وكنت بعيداً ١٥ ميلاً عن طروادة قبل ذلك. فكّر في ذلك: هوميروس، الأوديسة.... هناك الكثير من الدم على هذه الأرض. شيء لا يصدّق. كلّ ذلك باسم المسيحية. كل ذلك الدم والتخثّر».

لانكستر: «كم تعتقد أن هذا المستنقع سيستمرّ؟».

كوروين: «أراهن أنه لن يستمرّ أكثر من شهر ونصف. وماذا عن الأكراد؟».

لانكستر: «إنهم لا يثقون بنا».

كورِوين: «كلّا، هذه هي الحقيقة».

لانكستر: «هل ساعدناهم عندما حصل التمرّد؟».

نابورز (من آخر المروحيّة): «كانت معي طفلة عمرها أربع سنوات توفّيت بين يديّ. أعتقد أنها كانت مصابة بالتهاب معويّ. كان ينقصها الماء. أخذناها معنا إلى زاخو مع كل عائلتها لمحاولة إنقاذها. بدأت تتنفّس بصعوبة وكنت أحملها بين يديّ. كان أفراد العائلة جالسين قربي على الأرض ووضعوا أيديهم عليها. كانوا يصلّون. وضع والدها يده على رأسها وصلّى ونظر بعيداً. هكذا صلّى كل الأكراد لها في الطائرة. أترى، كانوا يعرفون أنها ستموت ثم ماتت. رحلت بسرعة بين يديّ».

مشيت إلى مؤخّرة الطائرة شينوك . كانت عيون نابورز مليئة بالدموع. تحتنا ظهرت بقايا قرية من العصور الوسطى وربّما الحجرية، والعشب يغطي الدوائر والطرقات والأزقّة القديمة التي كانت يوماً العراق. كانوا رجالاً جيّدين على متن هذه الطائرة. كانوا ينقلون الطعام إلى مخيّم يكمال الموجود في منطقة جبلية تركية والذي أخذنا لانكستر إليه لاعناً المراقبة الأرضية وشاتماً، عندما تمزّقت خِيَم اللاجئين على الأرض بسبب المراوح. كان تحت الخيم ٦٠ ألف لاجىء وعندما أوقف كورِوين المحرّكات سمعنا فجأة أصوات ٦٠ ألف شخص يتمتمون. عندما غادرنا، عدنا إلى عالمنا الزجاجي الأولمبي متسلّلين فوق أشجار الصنوبر والشلّالات مظفّرين في طيراننا، آمنين في وجودنا الصغير، ضمن أجهزة الإرسال وأجهزة التدوير، وضغط النفط، فوق كردستان. ربّما مع هذا الانحياز تنشأ الأمم.

بالطبع، خرقت عملية إنقاذ الأرواح في وقت ما التشابه الغريب مع نقيضها. كان تقرير المهمّة اليومية هو الذي يعطيك شعوراً محسوساً بعدم الراحة: «هذه عملية ٢٨ يوماً لتأمين المساعدة». حتى الساعة السادسة كان هناك ما مجموعه ١٩٥٤ مهمّة إلقاء جوّي لـ ٨٧١٣ طنّاً من المساعدات. كانت الطلعات الجوية بقيادة أميركا وبريطانيا وفرنسا وكندا وإيطاليا وألمانيا لمجمل قوّات التحالف مستمرّة في التزايد مع أكثر من ١٣١٤٦ جندياً من ثماني دول مشتركة الآن. هل سمعنا هذه اللغة من قبل؟ لماذا قبل شهرين فقط كانت اليد نفسها ترحّب بنا للقيام بعملية ٢٨ يوماً في عاصفة الصحراء. لقد قُدّمت لنا أعداد المهمّات والطلعات وأعداد الشركاء من الحلفاء والقوّات العسكرية بالقدر ذاته من الشجاعة والتفاخر. ثم قامت طائرة ف١٦ F16 وطائرة أ ـ ١٠ A-10 بقصف محيط ملجأ صغير. لقد أصبح كلام الحرب كلام سلام، وهذا تحوّل لغوي طفيف لكنه فريد من نوعه. وحدها الأزياء تبدّلت فعوضاً عن ارتداء ملابس صفراء يرتدون ملابس مرقّطة. وليس لدى هؤلاء الأميركيين الذين عادوا إلى العراق شيء من الخدمة الشخصية. كان لديهم شعور حادّ بالمسؤولية أكثر من قادتهم السياسيين، وهم عادوا قبل وقت طويل من طلب بوش وميجور بحسب اعتقادهم.. وكان لديهم رغبة في إنقاذ الأرواح. طرت إلى داخل إيليكلي، وهو وادٍ

من العشب وأشجار الحور ونهر مُزبد، سمّاه عناصر القوّات الخاصّة الأميركية «الوادي السعيد»، ووجدت جنوداً يحفرون آباراً وجداول مركّزين مضخّات وسدادات صنابير وخِيم للتلقيح الطبّي. كان الرقيب جون ملكويست من القوّات الخاصّة العاشرة ومعه مترجمه الكردي، أحد عناصر قوّة الغزو إلى الكويت في آب/أغسطس الماضي، يشرف على معالجة اللاجئين المرضى طيلة أسبوعين. كان يعيش بقربهم، ويتقاسم طعامهم.. وهو أصيب شخصياً بالتهاب معويّ نتيجة بقائه مع المدنيين الذين أُرسل لإنقاذهم. لمست هناك الحزن نفسه الذي لا ينتهي حول روايته للأحداث كما عرفها تشارلز نابورز:

«كانت عندنا طفلة تموت وكنا نعلم أنها ستموت. كانت بالغة، لا تأكل وتعاني من التجفاف. قلنا لوالدتها أن تغلي الماء الذي كانت تعطيه لطفلتها لكنها لم تفعل. أخذت الماء من النهر الملوّث وقالت إنه جيد. قلنا لها اغليه، فلم تفعل، وماتت الطفلة».

كان هؤلاء الرجال يشهدون الآن ولأوّل وهلة نوعاً من المعاناة، لم يشهدوا مثلها في حياتهم. ليس هناك أدنى شكّ حول غياب أنانيّتهم وهم يواجهون هذا السيل من الأبرياء. لقد عرفوا أن لديهم مسؤولية نحو هؤلاء الناس وأن عليهم أن يكونوا هنا. كان السياق القصصي مفقوداً بين عملية عاصفة الصحراء وعملية الراحة المقدّمة. لقد ارتكب نظام صدّام فظائع عديدة ضدّ الأكراد. بالطبع، يُشجّع الصحفيون الآن من قِبل الأميركيين للسفر إلى مدينة حلبجة المحرّرة، وهي مكان إحدى عمليات القتل الجماعي بالغاز التي أمر بها «علي الكيماوي» عام ١٩٨٨. لكن ابتعد الجميع عن الهدف. فهؤلاء الأكراد لا يموتون في الجبال لأن صدّام قرّر فجأة استئناف قمعه بعد تحرير الكويت. لقد ارتدّ جيشه بقسوة ضدّ الشعب الكردي لأنه لبّى دعوتنا إلى الثورة ضدّ نظام البعث. إن موقفهم الصعب الآن ناتج مباشرة عن تشجيعنا وسياستنا ونداءاتنا. نحن، الغرب والحكّام العرب أصدقاءنا في الخليج، نتحمّل المسؤولية عن هذه الكارثة. وقد حوّلناها الآن لصالحنا ومحينا كل شيء حصل بين تحرير الكويت ووصول مئات الآلاف من الجموع الغفيرة إلى الجبال. أجل كنا مسؤولين عنهم، لكن كضحايا، لسوء أدائنا السياسي من جهة ولقسوة صدّام من جهة أخرى. ومثل تقاريرنا اليومية، كانت عملية الإنقاذ الإنسانية هي الجانب الآخر من الحرب.

كان موقفاً مفاجئاً أن يرفض الأكراد الذين وصلوا إلى الأماكن الجبلية الجليدية تركها الآن. وكان القادة الأميركيون والإنكليز متلهّفين لإقناعهم بالعودة جنوباً تحت الحماية الغربية والعيش في معسكرات المدن الواسعة التي أقامها الأميركيون حول زاخو والمدن العراقية إلى الشرق. كان الخط الثلجي يختفي: آخر الصقيع بُقعة رمادية على القمم. قريباً سوف ترتفع الحرارة، وسيرتفع الماء القذر وتنتشر الأمراض. لكن الأكراد لن يتزحزحوا. عزونا ذلك إلى الخوف من عودة جيش صدّام لقتلهم جميعاً، وتغاضَينا عن فهم الحقيقة التي شرحها لنا كل كردي بلباقة شديدة، وهي عدم ثقتهم بنا لحمايتهم في حال خرجوا من الجبال. وعدناهم بعدم السماح لقتلة صدّام بالوصول إليهم، لكننا كنا نحن الذين طلبوا منهم تدمير صدّام ثم تركناهم لمصيرهم منذ شهرين فقط. كانت تلك مشكلة الرقيب فرانك جوردن عندما وجدته واقفاً وحذاؤه غارق في حقل من الخشخاش في تلّ الكبير غير بعيد عن زاخو.

كانت المرّة الأخيرة التي التقينا فيها الجندي الاحتياطي من ماين ـ وهو رجل لطيف يضع نظّارة ووجهه متغضّن ـ عندما كان غارقاً حتى ركبتيه في الوحل وهو يحاول التعامل مع آلاف اللاجئين الشيعة الذين لم يستطع تقديم الخِيَم والطعام لهم. وهو الآن يحرس مئات الخِيَم وآلاف الحصص الغذائية التي لا يكاد يحصل عليها اللاجئون. أصبح الدور الأميركي في العراق دائرة مكتملة. فقد أخذت الولايات المتحدة ثلاثة أيام فقط لإرسال جوردن من صفوان إلى تلّ الكبير، والآن كان هذا الجندي (٣٥ عاماً) ينتظر الأكراد للنزول من الجبال. لكن بالطبع لن يأتوا. لم يكن الجندي جوردن نفسه الذي التقيته الآن. فعوضاً عن وحشة الصحراء، كان محاطاً بنبات كثير من الذرة والخشخاش. وكانت عاقبة الحرب الخيانة. لقد بدأ يدرك أن الحرب لم تنته بكل الأحوال. وقال: «حصل الكثير من إطلاق النار في التلال الليلة الماضية. وعندما كنت في زاخو، وجدت هناك العديد من الجنود العراقيين وكنت متوتّراً لأنني رحتُ أفكّر في القنّاصة».

وفق بنود التفاهم المتّفق عليها بوقار بين الحلفاء والسلطات العراقية في بغداد، ينسحب الجيش العراقي إلى الجنوب بينما يبقى ممثلو السلطة العراقية من الشرطة خلفهم لتأمين القانون والنظام وسيادة الأمّة العراقية. وهذا يقلّل من طبيعة وحجم الأزمة في شمال العراق ليسخر من مخاوف جوردن. لكن جيلبير وسوليفان وجدا وحي أوبرا حيّة عند طريق زاخو حيث كان مئات من الجنود العراقيين يزعمون أنهم شرطة، بينما يزعم مئات من رجال المخابرات أنهم مدنيّون. كانت القوّات الأميركية تواكب هذه التمثيلية مع أن الشرطة كانت تحمل رشّاشات كلاشينكوف والأميركيون يحملون بنادق م١٦. لم تكن مجموعة الشرطة سعيدة. أما عشرات الآلاف من الأكراد فقد رفضوا تقبّل هذا الرمز المسرحي لأنهم عرفوا على الأقلّ أن الجنود العراقيين ليسوا شرطة وأن ضبّاط الخدمات المدنية الأميركية كانوا جنوداً. لو عرف الأخيرون فقط حقيقة السابقين، عندها يمكن أن يشعر الأكراد بالأمان بشكل كافٍ للنزول من الجبال. في الوقت نفسه كانت المسرحية مستمرّة. سألت أحد رجال الشرطة العراقية خارج مركز شرطة زاخو: «ما اسمك» أجاب بينما كان أصدقاؤه باللباس المدني يضحكون: «اسمي شرطي». وإذا توقّفتَ للحديث مع أستاذ مدرسة، أو مهندس أو فلّاح، يقف رجلان أو ثلاثة بلباس مدني قربك للاستماع. وإذا سألت عن هويّتهم يقولون إنهم عسكر أو طلّاب. أترى كيف قام صدّام بتطوير التعليم العالي في كردستان. لماذا لا يحبّه شعبه إذن؟.

قال لنا مدنيّ محترم: «نريد من الأميركيين البقاء. لماذا لا يأتون؟». وهنا كان على أحدهم الدخول إلى خِيَم الرقيب جوردان. كان العديد من جنود البحرية الذين يبنون المعسكر الكبير الفارغ في تلّ الكبير عناصر من وحدة الاستطلاع البحرية ٢٤ التي لعبت عام ١٩٨٣ دوراً مختلفاً في بيروت. عام ١٩٨٢ غزا الإسرائيليون لبنان وساعدت البحرية الأميركية في إخلاء عناصر منظمة التحرير المحاصرين في المدينة. وأعلنوا رسمياً عندما رحلوا بعد أيام قليلة أن: «المهمّة أُنجزت»... بعدها حصلت مجزرة بحقّ مئات الفلسطينيين المدنيين غير المحميّين على أيدي الكتائب حلفاء إسرائيل. قام الضمير الأميركي وصوت الرأى العام، الذي لا يشبه ذلك الذي رحّب بالهجرة الكردية، بإرسال القوّات الأميركية مجدّداً إلى بيروت «لحماية المدنيين».. مهمّة ورطّت البحرية الأميركية في الحرب

الأهلية اللبنانية لأنها انحازت إلى جانب الحكم الكتائبي الذي وضعته إسرائيل. في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣، قُتل ٢٤١ جندياً أميركياً معظمهم من الوحدة ٢٤ على يد أول الانتحاريين الشرق أوسطيين. عام ١٩٩٠ غزا العراقيون الكويت، وقامت الولايات المتّحدة بطردهم وأعلنت مجدّداً أن المهمّة أنجزت بفعالية. ثم جاءت الانتفاضة التي شجّعناها والصور التي نقلها التلفزيون عن الأكراد المحصّنين في الجبال ممّا أعاد الأميركيين إلى العراق. بالطبع لم تكن المقارنات دقيقة، لكنها كانت مفهومة. كان الرقيب جوردن خائفاً من أنه إذا بقي الأميركيون طويلاً في شمال العراق فستكون هناك عمليات انتحارية مجدّداً. بعد ١٢ سنة، كانت مخاوفه حقيقية. لكنه عبّر عن ذلك الأمر بعبارات أبسط وأكثر إنسانية.

«عندما أبلغونا بالانسحاب من صفوان، طلبوا منّا عدم النظر خلفنا. لكنني شاهدت من سيّارتي المصفّحة صبيّاً عراقياً صغيراً. لم يلوّح أو يرسم علامة النصر مثل الآخرين، ورمقني بنظرات ثاقبة ثم حكّ بطنه دون إزاحة نظره عني، ربّما كان جائعاً جدّاً. وكنت شديد الغضب طيلة يومين ولم أستطع الكلام مع أحد. والآن لا أستطيع التفكير في عدد القتلى الأكراد الذي وصل إلى ألف شخص يومياً».

ما زالت نزاعات الشرق الأوسط تتداخل مثل الأواني المستطرقة، ففي بضعة عقود حصل تحوّل مؤذٍ تحت المنطقة يزلزل مدنها ومكاتبها وأبنيتها ومساجدها. ذات ليلة على الحدود العراقية الشمالية، لم أستطع الحصول على غرفة في أيّ من فنادق محطات توقّف الشاحنات على الحدود التركية الجنوبية وانتهيت متجهاً بالسيارة إلى التلال، لأن البعثة المسيحية أبلغتني عن قرية قديمة أستطيع فيها الحصول على سرير.

كان سائق التاكسي التركي يتفقّد الطريق الوعرة عندما جاءت الأوامر مدويّة في الظلام. فتحت بابي وطلبت من السائق تخفيف الأنوار وإنارة الضوء الداخلي للسيّارة. توجّهوا نحونا على الطريق والبنادق على أكتافهم وكانوا دورية من الجنود الأتراك. كانوا يضعون القبّعات الزرقاء للقوّات الخاصّة التركية وصرخوا بعدوانية بينما توزّعوا حول السيّارة. لم أفهم كلمة واحدة، لكن لم أحتجّ على ذلك أيضاً. وكان سائقي بجانبي رافعاً يديه والضوء مسلّط على وجهه. في مثل هذه الظروف أستخدم الأداء البريطاني المهني. أضع يدي على فخذي وأصرخ: «ماذا يجري على الأرض؟».. توجّه ضابط نحوي فأخرجت يدي. إنها طريقة نجاحُها مضمون لتخفيف التوتّر في أوساط الجنود الغاضبين (جندي غاضب أو خائف أو سكران)، إذ لا يريد أيّ ضابط إذلال نفسه برفض مصافحة أجنبي صديق. حرّك الجندي بندقيته إلى اليد الأخرى وصافحني وابتسم وسأل بإنكليزية لا عيب فيها: «ماذا تظنّ أنك تفعل هنا؟».. قلت له إنني أبحث عن مكان للنوم وقيل لي عن هذه القرية وقرّرت تمضية الليل هنا». وسأل: «هل تعرف أنه يوجد مشكلة هنا؟».

أجل يوجد مشكلة بالفعل، اسمها الأكراد. إذا كان أكراد العراق مستعدّين للثورة ضدّ صدّام ومن ثمّ يتعرّضون للخيانة من قِبلنا ويهربون إلى الجبال، فإن أكراد تركيا، أو بعضاً منهم، مستعدّين للانتفاض ضدّ دولة أتاتورك التركية لأنهم هم أيضاً يريدون العيش في دولة تُسمّى كردستان. إنها كردستان التي وافق الرئيس ولسون

أساساً على حمايتها منذ أكثر من سبعة عقود لكنها مثل أرمينيا كانت منسيّة ببساطة في نُفايات العُزلة الأميركية. تعامل الأتراك كما رأينا بقسوة مستوحاة من المشكلة الأرمنية منذ سبعين سنة. ويستخدم الحكم التركي الآن نظاماً من القمع العسكري وإعادة التوطين والتطهير العِرقي والتعذيب والقتل غير القانوني للتعامل مع المشكلة الكردية الحالية.

وبالطبع، كان الأتراك الآن خائفين كثيراً من القومية الكردية، لأن أكراد العراق يطالبون بدولتهم وحوالي مليون ونصف المليون منهم يريدون الفرار عبر الحدود التركية إلى الجزء التركي من وطنهم. وبما أن تركيا عضو في حلف الناتو وصديقة للولايات المتحدة، نفهم الجبن الأميركي عن الحديث عن الإبادة الأرمنية.. كما أن واشنطن متلهّفة أيضاً للحفاظ على الأكراد العراقيين داخل العراق. وكان هذا سبباً غير معلن ومهمّاً لإرسال قوّات أميركية لحماية الأكراد داخل العراق، وإقناعهم بعدم التوجّه إلى الحدود الجبلية والعودة إلى منازلهم العراقية. وكان ذلك أيضاً سبب إبلاغ الرقيب جوردان لإرسال كل هذه الخِيَم إلى خارج زاخو. كان يجب إبقاء أكراد العراق بعيداً عن أقاربهم الأكراد في تركيا. ويجب حماية الأكراد العراقيين.. لكن هكذا فعلت الدولة التركية كما علمت لاحقاً من مصادري. لقد بتّ متعوّداً على التحليق حول شمال العراق. فقد أعطانا الأميركيون حرية التنقّل بمروحيّاتهم مثل فيتنام، مُجبرين على ترك ممرّات لنا للسفر على أيّة آلة إلى المعاقل الجبلية المحصّنة التي تحتاج إلى أيام للوصول إليها على الطريق أو مشياً على الأقدام. وقد تمّ ترتيب مساعدتنا بالمروحيّات عن طريق طيّار مدني أميركي يده اليمنى اصطناعية. وحتى خلال الأيام الأكثر ضباباً أو سوءاً كان يرسلنا إلى الجبال مع رجاله لمشاهدة الأكراد ينجون أو يموتون في المعسكرات المكسوّة بالثلج. انتقلت إلى قاعدة سالوبي الجوّية يوم ٢٩ نيسان/أبريل مع حقيبة أوراقي وخرائطي وملابس إضافية في يوم ممطر وعاصف بينما كانت ١٢ مروحية تهدر على مدرج الطائرات. كان الكابتن هوك مبلّلاً ولا يكاد يتمكّن من النظر إليّ عندما أعطاني أغراضي عبر العاصفة «إذهب، اذهب»، صرخ في أذني وركضت باتجاه الطائرة الخضراء الهادرة التي كان طاقمها يشير إليّ من خلال المطر. لم تظهر عليهم الأبّهة التي كنت أرى فيها كوروين ولانكستر وآخرين. وأشار الطيّار إليّ بسرعة من مقصورته. وعندما صعدت إلى المروحيّة أمسك بي أحدهم ووجدت نفسي ملقى على بطني على أرض الطائرة. عندها فقط، أدركت أنها طائرة أباتشي مسلّحة وهي دبّابة قاتلة كبيرة، وليست من نوع مروحيّات شينوك الصديقة ذات المقدّمة البارزة والحادّة التي تجسّد العدوان العسكري، والمكتظّة بجنود أميركيين جدّيين. جلست على المقعد الخلفي باحثاً عن حزام الأمان بينما كانت المروحية تنطلق في الجوّ. عندها لاحظت أن كل الأميركيين كانوا يرتدون اللباس المدني ويحملون جميعاً مسدّسات أو بنادق قنّاصة. مال نحوي الأميركي الجالس قُبالتي، وهو رجل ضخم بدين بيده فانوس، وصرخ في أذني: «من أين أنت؟» قلت بحزن: «من بريطانيا، صحفي من جريدة الإندبندنت». زعق: «يا مسيح» واستدار نحو جاره وصرخ في أذنه. عبس الرجلان في وجهي وحرّك الرجل القوي رأسه غير مصدّق. ومال نحوي مجدّداً: «ربّما حصل خطأ». لا أدري: لقد صعدت إلى مروحية وقد طلب مني الكابتن هوك ذلك، أو اعتقدت ذلك، أو بدا لي ذلك، ثم اكتشفت أنني في المروحية الخطأ، أو احتجت إلى ثوانٍ في الضوضاء والمطر لأدرك ذلك. لكنني كمراسل موجود بوضوح على الطائرة الصحيحة. مهما حدث فسوف

يكون أكثر إثارة من عملية إلقاء موادّ غذائية أخرى. ملت نحو حامل الفانوس وسألته: «من أين أنتم؟».. أجاب: «نحن من السفارة الأميركية في أنقرة ومعظم هؤلاء الرجال من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. ليس مفترضاً أن تكون هنا!» نظرت إليه وابتسمت. في الواقع، انفجرت بالضحك بصوت مرتفع رغم الضجّة في المقصورة، حتى أن حامل الفانوس ابتسم راضياً. ملت نحو أذنه مجدّداً لأن دوري جاء الآن وقلت: «يا الله» ثم ابتسم لي بشكل ودّي وقال: «لقد حصلت على قصّة مهمّة».

انطلقت الطائرة على المدرج وحلّقت عبر فتحات في سلسلة الجبال وارتفعت في السحاب بسرعة كبيرة وطارت على طول الخط الثلجي، فيما كان الركّاب المأخوذون ينظرون أمامهم. كنّا ننطلق شرقاً بسرعة كبيرة. أخرجت خارطتي الرقّيّة من حقيبتي وحدّدت الأميال بوضع إصبعي الممدود على الجبال. كنا نتوجّه مباشرة إلى الحدود الإيرانية. أخذ حامل الفانوس خارطتي ووجّهها نحوي ووضع إصبعه على اسم صغير بالإيطالية ياسيلوڤا Yasilove. نظرت خلسة إلى الخارطة بينما كانت الأباتشي تعبر بين مجموعتين من الصخور. قال لي لانكستر إنه إذا حلّقت مروحيّة بتماسّ مع الصخور فهي تكسب دائماً. وكنا نتحرّك أسرع من طائرة الشينوك القديمة.

خلال لحظة، حلّقنا عبر السماوات الزرقاء ثم انحرفنا جانبياً داخل مجموعة سحب لا تكاد تعلو خمسة أمتار عن أشجار الصنوبر. كانت طائرة الأباتشي تتمتّع بقدرة فائقة على التسلّل في الجوّ، والمرور في الزوايا مثل سيّارة أو الانبساط أو التحليق كعصفور فوق مجموعة من الصخور. وتذكّرت كل تلك الدبّابات المحترقة والسيّارات المصفّحة والسيّارات فوق رمال جنوب العراق وأدركت مجدّداً أنه لم تكن لدى العراقيين فرصة للنجاة. كان ذلك الموت بالكومبيوتر، ذاك الذي تعتمد عليه حياتنا. لم تعن ياسيلوڤا لي شيئاً. لكن كانت الحدود الإيرانية على مسافة ضئيلة إلى يمين الاسم.. ثم هبطنا. تفحّص رجال المخابرات الأميركية وحرّاس السفارة، وهم جميعاً متشابهون، ذخيرتهم، وحملوا أسلحتهم على صدورهم بينما كنا نهبط وادياً خصباً من العشب الطريّ وأشجار الربيع، ونهر صغير يتحرّك مثل السيل فوق الأرض. كان تحتنا مخيّم للاجئين، خيم قذرة ورجال ونساء ينظرون إلى أعلى، إلى مروحيّتنا الأباتشي ثم إلى الأمام حيث الأبواب المفتوحة وجنود الجيشين الكبيرين يصوّبون أسلحتهم بعضهم باتجاه بعض: الأتراك إلى اليسار والبحرية الملكية الإنكليزية إلى اليمين. وضع الأتراك مدفعاً رشاشاً على أحد جوانب النهر فيما بدت القبّعات الخضر للجيش البريطاني داخل العشب الخفيف الأخضر وأسلحتهم، جاهزة. عندما توقّفت المراوح في المروحيّة وهبط رجال المخابرات منها، ربّت حامل الفانوس على ركبتي وصرخ: «رجالكم والأتراك على وشك الذهاب إلى الحرب»، ورمقني بابتسامة كبيرة حقيقية «ألم أقل لك إنك ستحصل على قصّة كبيرة مهمّة».

كنت خارج المروحيّة أركض مثل الفأر للنجاة بحياتي من الأميركيين نحو النهر حيث كان عامل الراديو من البحرية الملكية يصارع حمولته في الوحل قُبالة الأميركيين. وكان الأتراك يركضون صعوداً إلى شرقي النهر وهم

يصرخون ويصوّبون أسلحتهم نحونا. وفي أعلى المنحدر على مسافة ٢٥ كلم إلى الشرق تقع الحدود الإيرانية. تساءلت ماذا تفعل الجمهورية الإسلامية حيال ذلك؟

توجّه بعض رجال المخابرات الأميركية عبر النهر نحو القوّات التركية التي كان يقف عدد من أفرادها قرب أكوام من الأسرّة والفُرش وصناديق الطعام، وراح الآخرون يركضون أمامي نحو الإنكليز. ولما أصبحنا في وسط هؤلاء، صرخ أحد الأميركيين بأحد الضبّاط الإنكليز الشبّان سائلاً: «ما هو وضعكم؟ هل تبادلتم النار؟ .. رأيت الجندي يومىء برأسه قائلاً: «ليس بعد».. وردّ الأميركي: «لن يحصل إطلاق نار» .. ثم حدّثني جندي بلهجة ريفية وسأل: «هل أنت مراسل صحفي؟».. وعندما أومأت برأسي إيجاباً ابتسم وقال: «جيّد، نحن نحتاج إلى مراسل هنا» .. وكدت لا أصدّق أذني.

أمضت وزارة الدفاع وقتاً طويلاً محاولةً إبعاد الصحفيين عن القصص الحقيقية مثل هذه. والواقع أنه منذ عملت في شمال إيرلندا، كان لدى الوزارة كراهية خاصّة تجاه تقاريري. لكن كان ذلك تحت السيطرة. فهذا كوكب الأرض ورغم التنوّع البارد والجبلي، كان يحصل هناك شيء غريب جدّاً. لماذا كان الجنود الإنكليز على وشك إطلاق النار على الجنود الأتراك لأوّل مرّة بعد غاليبولي؟.

كان الملازم الجرّاح بيتر ديفيس، من الكادر الحربي والجبلي للبحرية البريطانية الطبيب، الوحيد الذي يعالج ٣ آلاف لاجىء كان بعضهم يقف حولنا بمزيج من الرهبة والخوف. وقد شرح ما حصل بسرعة وبدقّة الجنود المحترفين: «كان الجنود الأتراك يسرقون طعام اللاجئين والأغطية لذا كان علينا منعهم، ونحن في حالة استنفار وعلى سلاحنا منذ ذلك الحين». نظرت عبر النهر إلى الأكداس الضخمة من صناديق الماء والأغطية الموجودة قرب القوّات التركية بشكل آثم. كان اللاجئون الأكراد، وبينهم العديد من الأشوريين الذين هربوا من بغداد، يقفون إلى جانب الإنكليز حُماتهم. سرق الأتراك حتى الآن ٦٠ صندوق ماء من هؤلاء اللاجئين المشرّدين... ولعدّة دقائق كان الإنكليز، والأميركيون الأقلّ عدداً مُجبرين على رؤية الأتراك وهم يسرقون أغطية أخرى وأسرّة وأطعمة مقدّمة كلّها من الجمعيات الإنسانية الدولية. كان الإنكليز يرغبون في نقل ثلاثة آلاف كردي جوّاً خارج ياسيلوڤا لحمايتهم من الأتراك، لكنّ ضابطاً تركياً رفض السماح لهم بالرحيل. والآن كان ديفيس ورجاله يجمعون ما تبقّى من طعام الأكراد في طائرة شينوك RAF متوقّفة عند الأشجار لإبعادها عن متناول الأتراك. إنهم يأخذون مساعدات الإغاثة جوّاً بعيداً عن معسكر اللاجئين.

كان هناك أميركيون مع الإنكليز منذ أسبوع، وكلّهم من البحرية، وقد سردوا قصّة قوّات تركية متتالية تنهب طيلة هذه الفترة. وكان ضابط بريطاني ينتفض غضباً ويقول: «الجنود الأتراك هنا قذرون لا يبدو أنهم يهتمّون لما يحصل لهؤلاء الأكراد. وكان من المفترض أن يشرفوا على المعسكر. إنهم يأخذون ما يريدون، وقد قال لي أحدهم: «إن من الأفضل تجويع الأكراد، إذ بهذه الطريقة نستطيع السيطرة عليهم، ولكنني لا أستطيع السماح

بحصول ذلك». مرّت الفضيحة في معسكر ياسيلوفا بدون إعلان.. من جهة لأن الأمر طفيف، ومن جهة أخرى بسبب الرغبة الطبيعية لجيوش الحلفاء الذين عرفوا المهانة لعدّة أيام، في الحفاظ على علاقات جيّدة مع الأتراك. عندما وصل الإنكليز والأميركيون أوّلاً إلى معسكر ياسيلوفا كان الأتراك وحدهم مسؤولين. قال أميركي: «كان الأكراد في حالة مُزرية. كانوا يعانون من التهابات معوية حادّة ولم تكن هناك خدمات طبية تقدّم من قِبل الأتراك. وكان المكان معرّضاً لانتشار الكوليرا فيه». كان هذا المعسكر لا يزال أكثر المعسكرات حقارة وكانت رائحة المجارير تملأ المكان.

كان مئة على الأقلّ من اللاجئين يطلبون من الأميركيين والإنكليز أخذهم إلى أوروبا لأنهم بحسب قولهم، خائفون من الأتراك وكذلك من العراقيين. وتحدّثت امرأة شابّة معي: «لدينا أقارب في النمسا والسويد وأميركا، بالله عليك قل لهم إننا هنا». كانت تروى قصص سوداء في المعسكر حول قيام الأتراك بتقسيم العائلات ونقلهم إلى معسكر آخر إلى الغرب. وكان الإنكليز مستمرّين في تحميل المساعدات الغذائية على متن المروحية واضعين صناديق الماء والأغطية على قاعدة خشبية قرب المحرّك. قال أحد مشاة البحرية: «إذا لم يحصل عليها اللاجئون فلن يأخذها الأتراك».

سافرت على طائرة سلاح الجوّ الملكي البريطاني مع المساعدات الغذائية وطفل مريض وامرأة كردية تبحث عن ابنها الضائع ورجل كردي مصاب بعينه خلال الانتفاضة. أنزلناهم في زاخو وانتقلنا إلى ديار بكر حيث لديّ غرفة في فندق الآن. اتصلت بهارفي موريس في لندن وأبلغته قصّة للصفحة الأولى تظهر فضيحة ياسيلوفا. في اليوم التالي، عرفت أن السلطات استاءت من التقرير. ومع وجود مليون لاجىء كردي على الحدود، شعر الجيش التركي أنه يفقد السيطرة على عملية الإغاثة. وفي الحقيقة لم تكن لديه الإمكانيات لضبطها. وفي تركيا كان يُنظر إلى أيّ انتقاد للجيش على أنه جريمة. وكان هذا جزءاً من شريعة أتاتورك الذي كان عمله العسكري في غاليبولي جزءاً من أسطورة تركيا. لكن تركيا تريد الانضمام إلى المجموعة الأوروبية.. وتكاد لا تستطيع أن تنفي حقيقة ما جرى في ياسيلوفا.. أو أن هذا ما اعتقدته أنا.

أمضيت اليوم التالي في الجوّ، مسافراً مع طاقم الشينوك الأميركية حول زاخو، لكن عندما عدت مجدّداً إلى ديار بكر أخبرني عامل إغاثة بريطاني: «إن الأتراك غاضبون ولو كنت مكانك لأخبرت صحيفتي بذلك».

اتصلت بهارفي فضحك قائلاً: «بالطبع الأتراك غاضبون فقد أهنت جيشهم. اتصل بي إذا واجهتك أيّة مشكلة».. جاءت المشكلة بعد ساعتين مع طرق على باب غرفتي. فتحت الباب، فرأيت مدير الفندق وهو رجل كردي صغير واقفاً أمامي وخلفه رجلان عابسان يلبسان سترتين جلديّتين سوداوين. قال: «آسف لإزعاجك يا سيّد فيسك، لكن هناك بعض رجال الشرطة يطلبون الحديث معك». إنهم لا يتكلّمون الإنكليزية وأنا لا أتكلّم التركية، لذا طمأنني الكردي الصغير أنهم جاءوا كأصدقاء ويريدون مني زيارة مركز الشرطة. كان عليّ أخذ أغراضي معي. وقد أخذت الغليون أيضاً. وبينما كان رجال الشرطة يتذمّرون، طلبت لندن وتحدثت مع محرّر الشؤون الخارجية

غودفري هودجسون. أبلغته بعبارة واحدة ما حصل وأنني أشكّ أن الأمر أكثر خطورة ممّا تصوّرنا وطلبت منه الاتصال بأهلي في ميدستون لإبلاغهم أن لدينا مشكلة. ولا يرغب بيل وبيغي سماع ذلك من الإذاعة(*). اقتادوني (وقد لحق بي زميل من دايلي مَيل Daily Mail إلى مركز الشرطة حيث دعاني مفتّش وقور للجلوس في مكتبه. وقد شرح لي مدير الفندق تعيس الحظ: «أنت هنا ضيف مفتش الشرطة ولم يتمّ توقيفك». في هذه الحالة، قلت، الموقف قائلاً: «أريد شرب الشاي مع مفتّش الشرطة. تجهّم. وصل الشاي بعد نصف ساعة، ومن على الجدار خلفه، كان أتاتورك ينظر عابساً نحوي أيضاً.

أبلغني بول أوكنور، السكرتير الثاني في السفارة البريطانية في أنقرة، ببرود: «يريدون التحقيق معك حول التقرير. نصيحتي عدم التفوّه بأي شيء». إلا أنه بدا واضحاً أن ما يعتبره رجال الشرطة اتهاماً شكليّاً ضدّي، لإهانتي الجيش التركي، أخطر من ذلك، ممّا جعلني أشكّ أن هذا أمر عسكري للشرطة وليست تعليمات من وزارة الداخلية أو الخارجية في أنقرة. أبلغني أحد رجال الشرطة بسرور كبير أن إهانة الجيش عقوبتها عشر سنوات سجناً. جلست في مقعد المفتش متذكّراً فيلم «قطار منتصف الليل» لاعناً النقيب هوك. كان لركوبي مروحيّة رجال المخابرات الأميركية نتائج غير سارّة.

دخل الغرفة عدد آخر من رجال الشرطة. وتلقّى المفتش عدّة اتصالات هاتفية وكان ينظر إليّ وهو يستمع إلى المتّصل. ثم وصل شرطي بلباس مدني ومعه آلة كاتبة كبيرة قديمة ألمانية. وبدأ يفتّش في حقيبتي مستخرجاً فرشاة الأسنان، والبطانية الإضافية، والشوكولاتة، ولسوء حظّي، كتاباً عن التاريخ الأرمني. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً. سقط أوكنوَر من التعب وطلب أن يُسمح لي بالعودة إلى فندقي. أجاب المفتش أنه ليست لديه سلطة للسماح بذلك. عندها أعلن الشرطي الذي معه الآلة الكاتبة أن التحقيق سيبدأ. اعترض أوكنوَر لكنني قرّرت أن التحقيق هو الأمر الذي سينهي هذه المسرحية. طلبت منه الترجمة، وللحقّ، فإنه وافق بملل مصارعاً البقاء يقظاً. تقتضي بنية اللغة التركية إكمال كل جملة قبل ترجمتها. وكانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف صباحاً، قبل انتهاء هذه التفاهة. متى دخلت تركيا لأوّل مرّة؟ هل دخلت البلد من أي مكان غير خابور (الحدود بين العراق وتركيا)؟ هل جئت إلى ديار بكر مباشرة من أنقرة؟ هل تعمل لصحيفة الإندبندنت؟ هل كتبت مقالاً للإندبندنت يوم ٣٠ نيسان/ أبريل ١٩٩١؟ هل هناك روبرت فيسك آخر في صحيفة الإندبندنت؟ هل لديك أي مقال آخر نشر في الإندبندنت يوم ٣٠ نيسان/أبريل ١٩٩١؟ كان ذلك أمراً غبيّاً صبيانياً وسخيفاً. وبدأت أدرك لماذا لم يستطع الأتراك قمع الثورة الكردية في جنوب تركيا. وأصبح واضحاً لي أيضاً أن ترجمة الشرطة لقصّتي لم تأتِ في صحيفتي بل في تقارير لمراسلين أتراك في لندن أعادوا ترجمة مقالاتي إلى إسطنبول وأنقرة.

هل شاهدت الجنود الأتراك يسرقون؟ هل أخذت صوراً لذلك؟ فهمت هذا السؤال. ففي حال كانت لديّ صور للجيش التركي وهو يسرق، عندها تسقط الملاحقة ضدّي. إذن يريدون مصادرة هذه الصور. لكن ليس لديّ

(*) فعلوا ذلك. ولسبب غير معروف، فشل هودجسون وهو صحافي من الدرجة الأولى وصديق ـ في إبلاغهم.

أي صور. بقيت أردّد أن الجواب» عن أسئلتهم موجود في مقال الإندبندنت. «هل رأيت جنوداً يسرقون «هلڤاراً» helvar؟ حاول أوكونور ترجمة هذه الكلمة الغريبة كانت تعني نوعاً من البسكويت التركي الذي لم أره أو أتذوّقه في حياتي. وصل جنود آخرون، ورغم وجود أوكنوَر فقد وقفوا حولي وكل واحد منهم يحمل عصاً خشبية. قال المفتش إنه ربّما كان عليّ قضاء الليلة في قبو مركز الشرطة. تمتم أوكنوَر: «أصبح الأمر صعباً نوعاً ما». ثم جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها.

شرطي: «في مقال صحيفة الإندبندنت يوم ٣٠ نيسان/أبريل ١٩٩١ والذي يحمل اسمك، هل صحيح أن الجنود الأتراك سرقوا المساعدة الإنسانية في معسكر ياسيلوڤا؟».

فيسك: «أبلغني والدي دائماً أن مصطفى أتاتورك كان من عظماء القرن العشرين. أعتقد أن والدي كان على حقّ. للأسف، لم يلتزم بعض جنودكم في ياسيلوڤا بالمعايير العليا والمبادىء التي وضعها مصطفى أتاتورك، مؤسّس الأمّة التركية».

فجأة تغيّر الجوّ، وشكرت بصمت بيل فيسك على كل هذه القصص التاريخية الصبيانية. لست متأكّداً على الإطلاق أن أتاتورك كان عملاقاً (أو أن بيل فكّر كذلك) لكنني كنت مستعدّاً لأصبح من المعجبين به لأجل المفتّش ورفاقه. وبدأوا الكلام بعضهم مع بعض بحماس كبير. أخبرني أوكنوَر، وقد بدا مغمياً عليه من التعب، أنهم سيسمحون لي الآن بالعودة إلى الفندق. وردت كلمة ترحيل في محادثتهم، وعرفت لماذا. فإذا كان جدلي سيؤدّي إلى إدانة للطريقة التي تجاهل بها الجيش التركي مؤسّس الأمّة، والرجل الذى أنوي الدفاع عن نزاهته ضدّ الجيش التركي، فمن الأفضل حينذاك إسقاط الاضطهاد أو قضية المحاكمة. وهكذا قُضيَ الأمر.

بعد ساعات قليلة، أُبلغت باحترام أنني سوف أخضع للترحيل.. وعرض أوكنوَر شراء تذكرة الطائرة. وأكّد المتحدّث باسم وزارة الخارجية التركية مراد سنغار ترحيل فيسك من الوطن، وقال: «وجوده في تركيا غير مرغوب فيه بسبب تقريره المتحيّز والمنحرف والمغرض». كانت رحلة شاقّة إلى أنقرة وكان عليّ تهدئة رجل شرطة تركي لم يركب الطائرة من قبل. لكنّ قرار النقيب هوك بوضعي على مروحية الأباتشي يعطي للرحلة معنى آخر. وأصدر الأتراك أمراً بترحيل رجال البحرية البريطانية أيضاً زاعمين أنهم أساءوا إلى مسؤول محلّي تركي. وقامت وزارة الدفاع بإعادة انتشارهم فوراً جنوب الحدود داخل العراق. واحتجّت وكالات الصحافة وطالبت اللجنة الأوروبية بتفسير من السفير التركي في بروكسل. وأرسل لي أحد مسؤولي الأسوشيتدبرس من نيويورك رسالة من سطرين: «لا يمكن تخيّل نوعية الطعام في سجن في ديار بكر، حتماً أنت تحسد اللاجئين الأكراد الآن». كانت المشكلة أن اللاجئين الأكراد اختفوا من الرواية السخيفة. كانت كرامة الجيش التركي الآن على المِحكّ. أما رئيس الأركان الجنرال دوغان غورس الذي كان يتعيّن عليه ضبط جنوده في ياسيلوڤا وحماية الأكراد، فقال غاضباً إن تقريري الدقيق كان مخطّطاً ودعاية مبرمجة.. لكن ماذا كان يفترض بي أن أعمل؟ الامتناع عن الصعود إلى المروحية في سالوبي؟ تجاهل كشف ما شاهدته عيوني في ياسيلوڤا؟ مراقبة تقاريري لمصلحة العلاقات التركية الغربية؟ في أنقرة

وضعت على طائرة لوفتهانزا إلى فرانكفورت. وقد حيّتني مضيفة قائلة: «أنت الرجل المبعد، أليس كذلك، لعلّك كنت تروي الحقيقة؟».

هذا ما أردت متابعته في شمال العراق. لكن كيف العودة إلى هناك الآن وتركيا قريبة مني؟ عدت إلى بيروت ومنها إلى دمشق حيث كان أتباع الإمبراطورية العثمانية السابقين أكثر من سعداء لتكريمي. شرحت مأزقي لمحمّد سلمان وزير الإعلام ـ لأوبِّخ من قِبل نظام الأسد بعد ثماني سنوات ـ الذي اقترح عليّ زيارة الجنرال منصور، مسؤول المخابرات العسكرية السورية في مدينة القامشلي الحدودية. قدت السيارة عبر سوريا باتجاه الحدود التركية وكنت أستطيع رؤية العلم التركي خارج نافذة الجنرال منصور الذي قام بتنظيم دورية لأخذي إلى نهر دجلة الذي يتدفّق من تركيا ويشكّل حدود سوريا وشمال العراق. كان رجل مسنّ على قارب خشبي ينتظر في ضوء الفجر.. ودّعني الجنود السوريون بينما راح الرجل يجذّف بصمت إلى الشاطىء الآخر حيث كان ينتظرني ثلاثة من مقاتلي البشمركة الكردية. إن الشقيقة سوريا، كما تُسمّى دولة الأسد في لبنان، لها أصدقاء داخل كردستان. سألني أحد الأكراد: «سيّد روبرت؟ نحن هنا لمرافقتك إلى زاخو». وهكذا عدت إلى سرد الكارثة الكردية. كان الوقت الآن آخر الربيع وكان الأميركيون والإنكليز يخطّطون للرحيل.

وصلت الأمم المتحدة مع مراقبيها لحماية الأكراد. ولكن في ما بعد فقط، ومن خلال توسيع كردستان الحرّة جنوباً تمكّن الأميركيون من إغلاق معسكرات اللاجئين التي اضطرّ الأكراد إلى العيش فيها مؤقتاً بعد تركهم الجبال. وقريباً سيتعرّض الأكراد للهجوم مجدّداً، كالمعتاد من القوّات التركية ومن طيّاريها الذين سيقصفون في السنوات القادمة القرى الكردية حيث يعتقدون أنّه يوجد ثوّار لحزب العمّال الكردي. وسوف تدخل القوّات التركية زاخو خارقة كل المعاهدات مع الحلفاء الغربيين. وسوف يضرب صدّام المنفيين الأكراد في شمال العراق الذين فشلوا في اغتيال الدكتاتور الحقير بالتعاون مع المخابرات الأميركية. وهكذا وبينما كان الأميركيون يرحلون عن شمال العراق كان عليهم التقدّم جنوباً لإقامة «أماكن آمنة» أكثر للأكراد. وقد أيّدوا إجراء مفاوضات كردية جديدة مع صدّام. وكانوا متحمّسين للعمل مع نظام البعث، أو الحكم في بغداد كما فضّلوا تسميته.

احتاج الأميركيون إلى مساعدة صدّام وفهم الأكراد معنى ذلك. لم يستطيعوا منع الأميركيين من الرحيل لكنهم استطاعوا القضاء على بقايا حكم البعث في المدن الواقعة ضمن حزام الأمان وفعلوا ذلك بقسوة. قُتل العديد من رجال صدّام أو طُردوا من منازلهم وجرى الاستيلاء على مراكز الشرطة وفُتحت غرف التعذيب للمرّة الأولى منذ أكثر من عقدين.

في عُمق سجن دهوك مقرّ قيادة الشرطة السرّية، كانت الشابّات الكرديات اللواتي اغتُصبنَ وقُتلن على أيدي رجال المخابرات، قد تركن آخر سجلّ على الجدران القذرة. رسمت إحداهنّ صورة لنفسها بعينين كبيرتين وشعر طويل: فتاة جميلة ترتدي قميصاً ياقته طويلة. ورسمت أخرى وردة فوقها الكلمات التالية: «سوف أموت، أرجو إبلاغ الآخرين». وأخرى، يبدو أن اسمها نادرة، كتبت على جدار زنزانتها كلمتين فقط: «هذا مصيري».

اقتحم البشمركة الأكراد وعدّة مئات من أهالي مدينة دهوك مركز الشرطة، وإن متأخّرين، لمنع المخابرات العراقية من إحراق السجلّات التي تتضمّن أسماء السجناء وجلّاديهم في كشك الحارس الإسمنتي على المدخل الرئيسي. وكانت لا تزال مشتعلة عندما وصلنا هناك، يراقبها عشرة رجال شرطة عراقيين بصعوبة وقد أصبحوا الآن رهائن عند الأكراد. ماتت آخر امرأة شابّة هنا في الزنزانات القذرة منذ شهرين تقريباً. وقال البشمركة إنهم وجدوا جثث ثلاث نساء عاريات وأيديهنّ موثقة. وكانت إحداهنّ تبلغ الثانية عشرة من العمر وأخرى امرأة أكبر اغتُصبت مراراً قبل أن تموت. إن كل من يريد معرفة لماذا هرب مليون ونصف المليون كردي من بيوتهم في آذار/مارس ١٩٩١ عليه فقط زيارة مركز شرطة دهوك(*). في مواجهة ذلك، يمكن أن نتوقّع قيام الأميركيين بإلقاء نظرة على هذا الدليل حول بربرية صدّام حسين. كانت مقرّات الشرطة السريّة في دهوك موجودة في دارة من طابقين فقط على بعد كيلومترات قليلة من مقرّ القيادة العسكرية الأميركية الجديد. هنا على الأقلّ، دليل على أن أزلام الطاغية الذي قارنه الرئيس بوش بهتلر يستطيعون حقاً التصرّف مثل النازيين. ألم يقم بعض الحلفاء في وقت ما بإجراء محاكمة لجرائم الحرب؟.

ليس بعد الآن كما يبدو، على الأقلّ.. كان اثنان من كبار ضبّاط الشرطة في دهوك، وهما رجلان عرفا الأسرار الرهيبة تحت تلك الدارة، يجتمعان الآن يومياً مع كبار الضبّاط الأميركيين لمناقشة عودة اللاجئين الأكراد إلى المدينة. الآن، بات العقيد مقداد والكولونيل جمال بارعين الآن في ضمان عدم حصول تصادم بين العراقيين المسلّحين وقوّات الحلفاء في دهوك. وكانا في كلّ صباح، يقتادهما سائقاهما في سيارتيهما الليموزين أو الأوتوموبيل، يصلون إلى الفندق الجديد الذي يتخذّه الأميركيون مقرّ قيادة ويقومون بتحيتهم مصادفة.

كم من الوقت ستستمرّ هذه التفاهة؟ يوم ٢٥ أيار/مايو، وصل العقيد مقداد مع ممثّل البشمركة وتوجّه نحو كولونيل أميركي شابكاً سبّابتيه في إشارة تقول: نحن أصدقاء الآن. كان من المفترض أن تكون الشرطة العراقية والأكراد حلفاء خلال تفاوض زعمائهم في بغداد. وبعد إنجاز تلك المحادثات يؤمّن العراقيّون الديمقراطية للأكراد، أو على الأقل هذا ما يفترض تصديقه. وبالطبع، يمكن عندئذٍ للقوات الغربيّة العودة إلى ربوع الوطن. ويبدو أن أي ثمن جدير دفعه من أجل الانسحاب، حتى لو كان ذلك الثمن تجاهل مركز قيادة الشرطة السرّية.

كانت أمام المبنى حديقة عاطرة. فيها ورود مزروعة بشكل منسّق قرب الممرّ. وتم تزيين مدخل المقرّ بشكل

(*) أصبح وجود غُرف الاغتصاب العراقية موضوع نقاش غير ضروري عندما قال الكاتب المنفي كنعان مكّية عام ١٩٩٣ إن بحوزته مستنداً رسمياً يثبت أن الاغتصاب استخدم سلاحاً سياسياً. وكان الدليل الذي أصدرته منظمة الأمن العامّ العراقية يتضمّن نشاطاتها «في هتك أعراض النساء»، وادّعى العديد من شهود مكّية المناهضين لصدّام أنه أشرف على السجلّات، وقد وصف سجناء سابقون كيف كانت نساء معارضي صدّام يُغتصبنَ أمامهم. ولقد كان تقريري الأول حول الحرب العراقية ـ الإيرانية سبب الرسالة العنيفة الموجّهة من السفير العراقي في لندن إلى التايمز. وقد وجدت دليل سجن دهوك قبل أن يصل مكّية إلى برهانه. وبالرغم من ذلك أشرت لاحقاً إلى الاغتصاب في السجون العراقية واتّهمت باستخدام مكّية كمصدر.

ذوّاق بأضواء عربية صغيرة. كان المنظر جميلاً بمستوى جمال الحديقة خارج مبنى تعذيب السافاك في طهران عام ١٩٧٩. لكن على بعد أمتار قليلة إلى اليمين كانت هناك بضع درجات. قمنا بفتح باب حديدي سماكته تسعة إنشات ونزلنا مع قائد البشمركة تاسين كيميك. كان الماء ينساب على الدرج. وفي الأسفل سلسلة من الزنازين الضيّقة وعدّة غرف واسعة، كانت مليئة بالقاذورات والأغطية الوسخة. قال كيميك: «جلبوا النساء إلى هنا، ولم يكنّ نساء البشمركة فقط. عذّبوهنّ واغتصبوهنّ ثم قتلوهنّ. وبعضهنّ كنّ صغيرات السنّ. وكان أفراد الجيش العراقي يأتون إلى الزنازين ويتعاقبون على اغتصابهنّ واحداً تِلو الآخر». كان على الأرض فراش مبقّع وبعض الملابس النسائية. وكانت الجدران مغطّاة بالكتابات. وقال كيميك: «أحياناً كنّ يكتبن أسماءهنّ بالدم».

لكنّ رغبة أميركا في محاسبة صدّام تراجعت بينما زاد اندفاعها نحو الانسحاب من العراق. ولم يكن أحد جدّ مصمّم على الانسحاب أكثر من قائد قوّات التحالف القوية البالغة ١٥ ألف جندي في كردستان والتي تسيطر على مساحة ١٣ ألف كلم^2 في شمال العراق، ألا وهو الجنرال جاي غارنر. بعد ١٢ سنة، سيكون غارنر أحد الحكّام الأميركيين في العراق المحتلّ؛ رجلٌ أساء القيام بواجبه بشكل خطير، بحيث استُبدل خلال شهور. لكن في عام ١٩٩١ لم يكن أحد جدّياً في المفاوضات مع السلطات العراقية. قال غارنر: «أبلغنا الأكراد منذ اليوم الأول أننا هنا لسببين، لوقف الموت في الجبال ولإنشاء محيط يستطيعون العيش فيه مجدّداً. لم نوقّع أبداً على أن نكون قوّة أمن في شمال العراق. لقد أُرسلنا إلى هنا للقيام بعمل واحد وأنجزناه بشكل جيد. لا أعتقد أن الأكراد سيعودون إلى الجبال إلا في حال تعرّضهم للهجوم. وإذا عادوا فتلك مشكلة الأمم المتحدة وزعماء العالم وعليهم اتخاذ قرار قاسٍ. من أجل ذلك يتلقّى الزعماء رواتب، من أجل اتخاذ القرارات الصعبة».

كان غارنر رجلاً قصيراً وبديناً يتحدّث بعبارات دقيقة، وهو نائب قائد الجيش الخامس الأميركي في أوروبا، لكنه في كردستان يلعب دور الرجل السياسي: «الأكراد مواطنون عراقيون. لا أعتقد أن عليكم إبقاء قوّات هنا لحماية الأكراد. أوافق أن هناك زعيماً شرّيراً في بغداد، ونظاماً شريراً، لكن إذا كنتم تريدون إبقاء القوّات العسكرية هنا، فعليكم تغيير المهمّة ومن ثمّ تغيير الأنظمة.. الأكراد يموتون بمعدّل ٤٠٠ شخص يومياً في الجبال التركية. لم يكونوا مواطنين أتراكاً ولذلك حصل شيء ما هناك. حالياً، زعماؤهم على وشك توقيع اتفاق مع صدّام، إنهم يعيشون هنا. في الواقع، جئنا إلى هنا لإعطائهم موقفاً أفضل للتفاوض».

كان على غارنر مثل شرطي حزين تقريباً، استنباط قوانينه الخاصة بينما كان يعمل بانتظام. وإذا كان قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ قد سمح بالتدخّل الإنساني في بلد أجنبي، فقد وفّر بعض التوجيهات للضبّاط الأميركيين والإنكليز والفرنسيين والإسبان والهولنديين الذين يلتقون الجنرال كل مساء من أجل تقريرهم اليومي. وأسرّ لي غارنر: «الخوف الأسوأ يكمن في وضع رجالنا وسط المعركة ومن ثمّ إصابتهم. كان العراقيون والبشمركة يتقاتلون منذ وصولنا إلى هنا. لسنا جيش احتلال، ولا أحد تحت الحكم العُرفي. ليست هناك شرعية».

في زاوية من مكتب غارنر بندقية ملفوفة بقماش يحمل علامة عائلة بهلوي. كان المزلاج صدئاً والخشب

مشقّقاً، لكنّ أسد الشاه كان واضحاً على الرمز الملكي. بالنسبة إلى غارنر، كان هذا السلاح الذي سلّمه جندي عراقي عند وصول القوّات الغربية إلى كردستان تذكار الحرب الأهلية الذي يعتقد رئيس غارنر أنها مستمرّة منذ أجيال، والنزاع الذي ينوي الجنرالات البقاء خارجه. بدا كل شيء بسيطاً. يودّ الأكراد ترقيع الأمور مع بغداد بوضوح، فالأكراد مواطنون عراقيون وليسوا مواطنين أتراكاً، وكانت اهتمامات تركيا كبيرة وفق لائحة أولويات غارنر، وإذا رجع صدّام لقمعهم فتلك مشكلة الأمم المتّحدة.

اعترف غارنر بصعوبة النقاش يومياً مع المسؤولين العراقيين الذين ربما كانوا مسؤولين عن تعذيب المدنيين وخلال انتفاضة دهوك وقبلها. لكنه قال إن مهمّته لا تشمل مثل هذه العواطف: «في اجتماعهم معي، كانوا مهذّبين، ومنهم الفظّ. إنهم قُساة جداً. كان الذين حضروا الاجتماعات بملابس مدنية، يقفون ويلقون عليك خطاباً سياسياً طويلاً وأفكاراً حول طريقة معالجتك للأمور».

إذن، هذا ما توصّلت إليه. شكراً على تعليقاتكم. حيوان بغداد لم يعد يخيف. كان يجب تهدئته والعمل معه والاعتماد عليه لمعاملة الأكراد كمواطنين عراقيين، وبعدل. لم تكن النهاية بعيدة بالتأكيد. جاء الصيف إلى شمال العراق كسولاً، هواء ساخن يلفح مئات الكيلومترات المربّعة من حقول القمح حول دهوك. فاستباقاً لآثار عقوبات الأمم المتحدة عام ١٩٩٠، أمر صدّام العراقيين بزرع القمح في كلّ الأراضي المتوفّرة.

وكانت المنظمات الإنسانية والجيش الأميركي والأمم المتحدة تشجّع الأكراد على حصاد المحصول الذي يخرق عقوبات الأمم المتحدة.

في وسط الطريق ذي الاتجاهيْن شمال دهوك كان ستّة جنود من البحرية الأميركية متعبين يلوّحون للاجئين الأكراد العائدين عبر حاجزهم المحاط بالأسلاك. كانت هناك إشارة تحمل عبارة «منطقة خاضعة للحلفاء» مطبوعة بالأسود. إلى الشرق، كانت هناك بطارية مدفعية ١٠٥ ملم تابعة للبحرية مموّهة على أثر الحرّ، إنّها شبح صغير لكلّ مواقع المدفعية التي كانت يوماً منتشرة في الصحراء السعودية على بعد ٨٠٠ كلم إلى الجنوب. لقد تمّت تهدئة ضمير العالم. تم تلطيف المأساة الحادّة للتقهقر الكردي إلى الجبال بعودتهم وإعادة توطينهم. وعوضاً عن الأطفال الأموات والمرضى، كانت حقول زاخو الآن مكتظّة بالعائلات الكبيرة. وعند المساء، كانت سلسلة من الأضواء التي تتحرك نزولاً من الجبال تثبت أن الأكراد يعودون إلى بيوتهم.. إذن، مَن الذي يفاجأ عندما سمع الجنرال كولن باول يقول لدى وصوله إلى مطار صدّام الخاصّ في سيبرنك بعد ظهر ٣٠ أيار/مايو بكلمات محدّدة إنه لن تكون هناك ضمانات للأكراد؟ قال لنا: «سوف تقوم المجموعة الدولية بتقييم تحرّكات بغداد في الأسابيع القادمة. وسوف تستخدم الولايات المتحدة كل الوسائل الدبلوماسية والسياسية وأيّ وسائل أخرى متاحة لإقناع السلطات العراقية بعدم استخدام القوّة ضدّ الأكراد».

كان مؤتمر باول الصحفي غامضاً. لم يورد ببساطة اسم صدّام، فالوحش الذي شغل العالم لشهور لا يمكن

التحدّث عنه بعد الآن. سألت باول عن الرضوخ. قلت له إنه يقف هنا على أرض مطار صدّام الشخصي الذي يغطّي الرخام مبانيه غير المكتملة، ورغم رؤيته لقصور صدّام الشتوية في الجبال المحيطة، لم ينبس باسم صدّام. لماذا؟ أجاب بمراوغةٍ شجاعةٍ حقاً: «لن يكون من مصلحة القيادة في بغداد العودة إلى هذه المنطقة بالقوّة أو بطريقة عدوانية تهدّد هؤلاء الناس وتسبّب لهم الخوف على حياتهم مجدّداً». وتحدّث أيضاً عن الحكم في بغداد كما لو كان نوعاً من الديمقراطية البيروقراطية الكبيرة. وهذا كل شيء. لقد جرى شطب اسم صدّام من الخطاب. وعندما سأل مراسل أميركي باول ما إذا كانت أميركا قد ربحت فعلاً حرب الخليج عام ١٩٩١، رغم الحرائق النفطية الضخمة في الكويت والضرر البيئيّ في الخليج وعدم رغبة السعودية في دعم الخطط الأمنية الأميركية والكارثة الكردية والطريق المسدود في عملية السلام في الشرق الأوسط، ذكّر باول مستمعيه بأن غزو الكويت قد انتهى وتحرّرت، واستعادت الإمارة الآن شرعيّتها (حتى لو كان حكمها غير ديمقراطي) «أصدقاؤنا المقرّبون في المنطقة لم يعودوا عُرضة لخطر رابع أكبر جيش في العالم». كان هذا انتصاراً. لقد تغيّر الوضع الاستراتيجي في المنطقة كلّياً. وكان الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر هو الوجود المستمرّ لصدّام في بغداد. لكنّ هذا اسم لن يتحدّث عنه الجنرال باول.

كانت هناك أوقات أيضاً لا يمكن فيها الحديث عن التاريخ في كردستان. كان في زاخو جسر روماني، ويخبر السكّان المحلّيون الزوّار بأن العشب الذي يغطّي التلال المنخفضة التي تحمي المدينة وطئها ألوف اليونانيين في عصر كزينوفون. وعلى بعد ١٥ كلم إلى الغرب، على ضفاف نهر الخابور، كان التاريخ ما يزال حديثاً جدّاً لكي يدوّن. لا يتحدّث السكّان المحلّيون عن تسعة آلاف أرمني ذُبحوا هنا خلال الإبادة الأرمنية عام ١٩١٥ لأن الأكراد كانوا القتلة.

إذن كانت زاخو مدينة أسرار، أخفتها حتى عن جيوش الحلفاء. عام ١٩١٩، اشتهرت المدينة بقتل ضبّاط الجيش البريطاني الذين أرداهم الأكراد المطالبين بالاستقلال في زمن الانتداب. وجرى قتل الجنود البريطانيين في السنة نفسها في ضاحية قرية العمادية التي يسيطر عليها جنود البحرية البريطانية. فلا عجب إذا أخفت زاخو ماضيها كما تخفي حاضرها.

قُبالة مركز الشرطة العراقية منطقة قيل لي إن الجالية اليهودية الرئيسية عاشت فيها إلى حين رحيلها إلى دولة إسرائيل الجديدة عام ١٩٤٨. كانت المنازل هناك فقيرة تتألّف من طابق واحد من الطين والطوب. وتقع المقبرة اليهودية القديمة تحت فندق «أشوا» على الجانب الآخر من المدينة. وقد عمل رجال صدّام على تحقيق ذلك. لكن إذا عبرت النهر نحو شارع الكنيسة تكون بين الأكراد والأرمن، أحفاد وحفيدات القتلة والمقتولين عام ١٩١٥. وحتى الآن لا تستطيع السؤال عن المجازر دون إثارة الشكّ. فالأكراد يلقون بالمسؤولية على الأتراك، بينما يخبرك الأرمن وبشكل صحيح أن الأكراد كانوا هم المذنبين وكانوا تحت إمرة الأتراك. قال لي رجل أعمال أرمني: «لدينا أصدقاء أكراد. بالطبع نتحدّث عمّا حصل في ما بيننا، نشرب القهوة معاً. اتفقنا أن ما قام به الأكراد كان غلطة. لقد جرى استخدامهم من قِبل آخرين (الأتراك) ليقوموا بما فعلوه ضدّنا. أجل، لكنّ معظم أصدقائي مسيحيّون».

كان ١٥٠٠ أرمني فقط يعيشون في زاخو وسط ١٥ ألف كردي. ويشكّل الأشوريون والكلدان الجالية المسيحية الأخرى. كان الأرمن يخضعون للقانون في ظلّ صدّام. وعندما فرّ الأكراد من زاخو لتجنّب الخدمة العسكرية، ذهب الأرمن طواعية للقتال من أجل صدّام. قُتل ثلاثة جنود أرمن في زاخو من جرّاء قصف الحلفاء عام ١٩٩١ على الكويت والبصرة والموصل. وقُتل حوالى ١٣٠ أرمنياً في المدينة خلال ثماني سنوات من الحرب بين العراق وإيران. ويمكن القول إن الأكراد كانوا الوحيدين الذين قاتلوا في حرب ١٩٩١ في معسكرات اللاجئين خارج زاخو مع أنهم ليسوا من المدينة. كان أحدهم يعيش في خيمة زرقاء وبيضاء مع والده ووالدته وهو شابّ كان عنصراً من كتيبة دبّابات الرافدين العراقية ونجا من الهجمات الأميركية والبريطانية عند مرتفع متلة. قال: «كنت مختبئاً في الرمل عندما جاءت الطائرات (وطلب عدم ذكر اسمه)، وشاهدت السيارت العراقية في زحمة السير وقد بدأت تنفجر. كانت هناك شاحنة عسكرية شاهدت طائرة أميركية تطلق صاروخاً عليها، فرأيت ناراً ذهبية ثم تحوّلت الشاحنة إلى ضعف حجمها واختفت. نجحت في الوصول إلى البصرة وحصلت على إجازة لخمسة أيام لذا سافرت إلى الجبال للهرب». لكنّ الانتفاضة الكردية لم تصل إلى الجاليتين الكردية والأرمنية في زاخو. وعندما عاد الأكراد إلى المدينة بحماية الأميركيين وجدوا أن الأرمن لم يغادروا بيوتهم. قال شابّ أرمني: «ظنّوا أننا وقفنا إلى جانب الحكومة، لم يفهموا أننا لم نستطع التمرّد، فنحن قلّة». وقد هربت عدّة عائلات أرمنية إلى الجبال عندما انهارت الثورة الكردية. وكان هناك أربعة أطفال أرمن بين المئات الذين ماتوا على الحدود التركية متقاسمين القبور مع خلفاء الذين ذبحوا أجدادهم العظام.

الآن، يهتمّ الأرمن بمشكلة مختلفة. قال لي مهندس أرمني: «نريد الذهاب إلى وطننا الأمّ. إن الاتحاد السوفياتي على وشك التفكّك، وقريباً تصبح أرمينيا السوفياتية دولة حرّة، وطننا الذي سيحمينا. لا أستمع إلى إذاعة بغداد أو الإذاعة الكردية. أستمع كل مساء في الساعة السادسة إلى الإذاعة الأرمنية، التي تبثّ في ياريفان في الاتحاد السوفياتي. يقولون: «هذه إذاعة الجمهورية الأرمنية» ويبلغوننا أن الجنود الروس والأذريين يغتصبون نساءنا كما فعل الأكراد. هل تصبح أرمينيا حرّة قريباً؟ هل نستطيع الذهاب إلى هناك؟» .

يبدو أن الجميع يريد مغادرة العراق، الجميع باستثناء الموتى. يقول البعض إن ٢٠٠ ألف عراقي قُتلوا في الانتفاضة التي تلت تحرير الكويت، أي ضعف مجموع العراقيين الذين قُتلوا في الحرب وفق بعض الإحصاءات ممّا يعني أن أكثر من ربع مليون عراقي قُتلوا في العراق في النصف الأول من عام ١٩٩١. وكان بين القتلى ألوف من عرب المستنقعات الذين لم يسجّل شيء عن مصيرهم، لأن بيوتهم تقع في الأراضي السومرية القديمة المجفّفة في شرق العراق.

عودة إلى عام ١٩٨٢، في السوق السيّئة لأحد فنادق بغداد المشلولة، اشتريت دليل البلد. كان مطبوعاً من قِبل حزب البعث أو كما هو مذكور في الصفحة الأولى من «المنظمة الحكومية لتنظيم السياحة العامّة للسفر والخدمات السياحية».. فإلى أين ينصحني هذا الكتيّب بالذهاب للسياحة؟». إلى العالم الفريد، إلى المستنقعات حيث يبدو أن الطبيعة حافظت على عُذريّتها. أميال وأميال من المياه مع تنوّع لا ينتهي من الطيور والسمك والنبات

والقصب والعشب منتشرة بقدر ما تستطيع العين مشاهدته مع الأكواخ.. كل جزيرة قائمة بحدّ ذاتها». لأوّل مرّة شاهدت المستنقعات شرقيّ الطريق السريع بين البصرة وبغداد. كان الدليل صادقاً في كلماته. فلعدّة كيلومترات، توجد ألوف الأكواخ من القصب على اليابسة وفي الجزر، يسكنها المتحدّرون من السومريين القدماء، في زمن من البساطة التي بدأت، استناداً إلى المخطوطات العربية القديمة، مع فيضان جارف حوالى العام ٦٢٠ بعد الميلاد. وقد بدأ صدام بتجفيف المستنقعات فعلياً عام ١٩٨٩ قبل سنة من غزوه للكويت، والتفسير الرسمي للعملية: «أسباب أمنية».. لا أحد يستطيع إخفاء التأثير الفعلي لذلك.

لسنوات خلت كان عرب المستنقعات يذهبون إلى الكويت وإيران حاملين روايات عن تجفيف النهر والمجاعة والأمراض. كان الرجل الذي بنى بابل على صورته يدمّر سامرّاء. بالطبع كانت حرب صدّام مع إيران هي التي لفتت نظره إلى قابلية تعرّض المستنقعات للهجوم، ومن هنا قام الجنود الشبّان الإيرانيّون باختراقهم الكبير للعراق. وكما رأينا، أغرق صدّام المستنقعات بالنفط والنار والموت والكهرباء. وبعد سنة من انتهاء الحرب، بدأ العمل لبناء السدود الضخمة وجدار الإسمنت المسلّح، أوّلاً بشكل سرّي ثم علناً بعدما كشفت الأقمار الاصطناعية للرأي العامّ ما يقوم به صدّام.

بعد عام ١٩٩١، جرى اصطحاب الصحفيين الأميركيين لرؤية السدود الشمالية لما وصف بـ «مشروع الريّ». كانوا ممنوعين من الذهاب إلى المستنقعات جنوباً حيث لا يزال صدّام يتعرّض للهجوم من قبل الفارّين من الجيش الذين كانوا يظهرون ليلاً في المستنقعات لمهاجمة قوافل الجيش ومراكز الشرطة حتى بعد ثلاث سنوات من حرب ١٩٩١. وكالمعتاد في العالم العربي عرف الجميع ماذا يحصل ولم يتفوّه أحد بكلمة. كان الطيّارون البريطانيون والأميركيون الذين يحلّقون فوق منطقة الحظر الجوّي يشاهدون ما تبقّى من مياه المستنقعات والبرك الشاطئية. لكن لم نفعل شيئاً وظلّت الأنظمة العربية صامتة. لم يصدر عن كبار العالم العربي المفترضين، مبارك وعرفات والأسد وفهد، أي انتقادات.. ولا كلمة.. تماماً كما فعلوا عندما قُتل الأكراد بالغاز. وقد لفت الكاتب العراقي كنعان مكّية الانتباه إلى مقال عنيف في صحيفة الثورة البعثية في نيسان/أبريل ١٩٩١، بينما كان جيش صدّام يحاول قمع الانتفاضة الجنوبية. فقد هاجم الكاتب عرب المستنقعات لفقرهم وتخلّفهم وذلّهم واصفاً إيّاهم بالأشرار والقذرين. تقول الصحيفة: «يسمع الغرب غالباً عن الشذوذ الذي يجعل فمك يتدلّى».. إذن، عرب المستنقعات الذين تُحمل عرائسهم في وقت ما إلى زفافهنّ في مواكب من القصب، تحوّلوا إلى حيوانات قبل تدمير حضارتهم. قام صدّام بتجفيف ركن آخر من العراق وألجأ الناس والطيور إلى الفرار، وتأكّد من عدم بقاء أي جزر صغيرة في المستنقعات.

الجزء الثالث

الى البرية

الفصل السابع عشر

أرض المقابر

«بيتي مظلم، وقلب حديقتي مظلم، والصحراء مظلمة،
كلّ زاوية في المدينة المدمّرة مظلمة،
السماء تعبة، والشمس مستسلمة،
ومثل زنزانة سجن، القمر المسافر مظلم».

كوهار أوزي (طريق الظلمة) ١٩٩٠

في أعالي مرتفع متلة باقة رخيصة من الزهور الاصطناعية الممزّقة ابيضّت في الشمس... نفايات في مهبّ الريح، ما زالت ثابتة على أنبوب معدني صَدئ شامخ في الرمل. إنه يوم ٢ آب/أغسطس ١٩٩١. لقد مرّت سنة على غزو جيش صدّام للكويت. والزهور البلاستيكية هي الذكرى المتبقية للمذبحة التي وقعت هنا. لقد كانت بادرة لطف يتيمة من جندي أميركي. فالأميركيون هم من رأيت هنا منذ خمسة أشهر، يكدّسون الجثث المشوّهة في حُفرة وقد وضعوا كماماتهم فيما كانت جرّافة عسكرية تقوم بتوسيع القبر الجماعي. أما الآن، فإن الرمال التي تدفعها الرياح فوق الصحراء ـ وتضرب بعنف منّا الوجوه والأيدي التي تواجهها ـ باتت تغطي ثلث الرِّمم التي جمعتها الجرّافة. تلك الأكداس وتلك الزهور المزيّفة تُبرز آخر مكان لقوّات صدّام. كم مات من الناس هنا؟ من هم هؤلاء العراقيون الذين وجدنا بقاياهم البالية منتشرة حول دبّاباتهم المحترقة وشاحناتهم والباصات المسروقة، وقد حصدتهم الطائرات البريطانية والأميركية ليلاً مع أسلحتهم وسيّاراتهم المصفّحة أثناء فرارهم من الكويت؟ عندما يتعلّق الأمر بهذا القطاف المميّز، تستطيع تناسي معاهدة جنيف وتلك الفقرة المتعلّقة بتبادل اللوائح التي ترشد إلى «بقايا القتلى المدفونين هناك».

على الطريق السريع أسفل المقبرة، كانت المدرّعات الصدئة والسيّارات المسروقة ما زالت هناك، وهي الآن مغطّاة بكتابات المنتصرين وبالنكات التي كانت لتضحك «أمي» و«أبي»، وشعارات الكتيبة الأميركية والملاحظات البذيئة والوقحة التي لا تنتهي (ليست كلّها حول العراق وصدّام بل إن أكثرها كان يتناول النساء بشكل مهين ومزعج كما لو أن الغُزاة يحتاجون إلى دمج الجنس بالموت العنيف).. لقد غيّر الرمل بدقّة المشهد الطبيعي على كل جهة من المقبرة الجماعية، كما بدّل الزمن نظرتنا إلى مثل هذه الأحداث. في لحظة موتهم، شهدنا للتوّ دليلاً

على الوحشية العراقية في مدينة الكويت المحرّرة حديثاً. زرنا غرف التعذيب العراقية وشاهدنا الجثث المشوّهة للرجال والنساء الكويتيين، وتدمير قصور الكويت وآبار النفط. وبين القوافل الهالكة في متلة، وجدنا سلباً ونهباً يشابه أحوال العصور الوسطى. شاهدت مئات القتلى هنا وربّما كانوا بالآلاف. وقد تحدّث الكويتيون عن ١٠٠ ألف جندي عراقي قتلوا في الصحراء، ويقول البعض ٢٠٠ ألف. أما كان يجدر بنا الإشارة إلى ما قبل ذلك، ليس إلى «طريق الموت السريع» ـ وهو الذي صار العنوان الرئيسي المنتشر حول العالم ـ وإنما إلى مجزرة مرتفع متلة؟

الغنيمة أعيد نهبها منذ ذلك الحين، لكن مازالت هناك أشباح في الصحراء. على مقربة من حُطام دبّابة مقاتلة، شعارٌ لكتيبة: علامة زرقاء مربّعة إلى جانب مثلّث أبيض؛ فالجيوش تحاكي البيروقراطية مثلما تحاكي الموت. سحبتُ بقايا ملفّات ممزّقة، ودفاتر تمارين مدفونة كلّياً في التراب، بقايا إدارة الجيش العراقي المهزوم، جرى تحميلها بأمانة في الساعات التي سبقت تدميرها يوم ٢٨ شباط/فبراير ١٩٩١. أوّلاً، لن يلفظ التراب هذه الأوراق، لذا حفرت بأصابعي في الأرض، وأخرجت هذه السجلّات بأظافري. أمسكت بيدي ورقة سجِّل فيها أسماء جنود هذه الحامية، مسلمون عرب، وأكراد، ومسيحيون وحتى أرمن. «عبد الرضا رحيم أحمد، مراسل على درّاجة ناريّة، ولد عام ١٩٥٤، حائز على الشهادة الابتدائية، عربي مسلم من البصرة. منديل أحمد قديس مصطفى الكولي، مراسل على درّاجة ناريّة، ولد عام ١٩٥٢، مسلم كردي من محافظة التأميم، جندي مدفعي. علي حسين حمزة، ولد عام ١٩٤٩، حائز على الشهادة الابتدائية، عربي مسلم من القادسية».

هل هذه أسماء هؤلاء الرجال الممدّدين على مرتفع متلة؟ لم أجد الأسماء وحدها، بل وجدت كوابيس خلف الصحراء. رأيت طرف كتاب كبير شبه مدفون، جثوت وأمسكت بطرفه وسحبته من الجهتين شاعراً بركبتيّ تغوصان في الرمل حتى أصبح بين يديّ. فتحت الصفحات فانسابت منها حبّات الرمل حتى انكشفت. هذه مذكرات بخطّ اليد لمسؤول في حزب البعث غير معروف مرتبط بوحدة عسكرية مجهولة، يسجّل دقائق اجتماع بين صدّام حسين ووزير الصناعة العراقي يوم ٢٨ شباط/فبراير ١٩٩٠، قبل عام من دمار جيشه في هذه الصحراء. كنت جالساً على ركبتيّ لكن عندما رأيت اسم صدّام جلست براحة على الرمل ووضعت الكتاب في حضني.. إنه يصف صدّام حالياً بالمتكبّر الذي يشعر بالمصاعب المالية، التي قادته إلى غزو الكويت بعد خمسة أشهر. وتورد المذكّرات المسجّلة قول صدّام «سوف نعطي ٢٠ ديناراً لكل قنبلة يصنعها الرجال في العراق، اجعلوا مصانعنا تنتج خمسة آلاف قذيفة يومياً، دعوا مصانعنا المحلّية تتنافس في ما بينها حتى تستطيع منافسة صناعة الأسلحة العالمية. علينا توفير ملايين الدولارات في الإنفاق العسكري، إذن لننفق أكثر قليلاً على صناعاتنا المحلّية بحيث نستطيع الوصول إلى مرحلة نصبح فيها غير معتمدين كلّياً على السوق الدولية». مستقلّون عسكرياً، هذا نظام صدّام العالمي الجديد. من تحت رمال الصحراء الكويتية وصلتني هذه الكلمات.. وبأية وقاحة؟ إذ إن الجموع العراقية لم تكن هي التي صنعت القوّة العسكرية لصدّام، بل العالم الغربي الذي زوّد جمهورية الرعب بالمساعدات والأغذية وبكل معاني دماره. كانت بريطانيا ما زالت ترسل موادّ نوويّة لبغداد كما لو أن صدّام كان يخطط لإنتاج محلّي ضخم من الأسلحة. وكانت

أميركا قد دفعت الأموال، والاتحاد السوفياتي أعطى صدّام الدبّابات والمدرّعات التي تسلّلت على مرتفعات متلة. وليس مستغرباً أن صدّام لا يزال يكذب على الأمم المتحدة حول ما تبقّى من ترسانته. وتقول النظرية الجديدة للرئيس بوش حول النظام العالمي الجديد إنه كلّما كان قوياً استطاع البقاء مدة أطول. إنه نظام دولي لم يعد فيه العدوان يؤدّي (نظرياً) إلى منافع ولم يعد من المفترض تزويد دول الشرق الأوسط بالأسلحة بمثل هذه العشوائية.. وسيكون ذلك أكثر الكوابيس ظلمة، وربّما استطاع صدّام النجاح رغم ذلك.

على كل حال مَن يتذكّر الآن تأكيد جورج بوش للعراقيين أنه ليس على نزاع معهم بل مع زعيمهم؟ فهو أكّد يوم ١٥ شباط/فبراير ١٩٩١: «لسنا على خلاف مع الشعب العراقي، خلافاتنا مع الدكتاتور القاسي في بغداد». والآن بينما يموت الشعب العراقي من الأمراض والمجاعة الناتجة عن الحرب، يستمرّ نظام صدّام القاسي بالطبع. فعندما حاول الشعب العراقي القضاء على صدّام سمح له الأميركيون وحلفاؤهم بتدمير شعبه وأيضاً بالبروز عبر تصريح حاسم له في الأسبوع نفسه الذي يوافق ذكرى الغزو قال فيه: إن العراق ربح «صراعاً تاريخياً كبيراً»، بما أنه لا ينبغي النظر إلى النصر على أنه قتال بين جيش وعدّة جيوش أخرى. وليست هذه بالطبع وجهة نظر يوافق عليها أشباح مرتفع متلة، ولا العائلات السعودية والكويتية التي نجت أيضاً من الصراع سالمة، رغم أن لديهم الآن سبباً للرضى. أما آمال الطبقات السعودية المتوسّطة المثقفة في أن الوجود العسكري الأميركي في الخليج سيحرّر الأمّة وسيجعل الحكم أكثر خضوعاً للقيادة الجماعية، فقد أصبحت آمالاً منسيّة الآن.. بعد عملية إذلال صدّام، أصبحت السعودية أكثر محافظة وليس العكس وأصبحت معنويات الشرطة «المطاوعين» أكثر ارتفاعاً ومؤسّستها العسكرية أقوى رغم الحديث عن نزع السلاح. وقد صرّح البنتاغون الآن أنه يخطط لبيع السعوديين معدّات تعمل بالليزر و٢١٠٠ قنبلة انشطارية، و٧٧٠ صاروخ جوّ ـ جوّ بقيمة ٣٦٥ مليون دولار.. وقد أبلغ البيت الأبيض مسبقاً الكونغرس الأميركي بخططه بيع سيّارات جيب وخدمات دعم عسكرية إضافية للسعودية بقيمة ٤٧٣ مليون دولار. ومنذ تحرير الكويت وضعت واشنطن خططاً لإرسال أسلحة بقية ٤,٢ مليار دولار للسعودية ومصر والمغرب وعُمان وتركيا، وستسلّم الأخيرة ثماني طائرات ف١٦ مقاتلة قاذفة، وهذا كثير بالنسبة إلى نزع سلاح الشرق الأوسط. ويحظى السعوديون وحلفاؤهم الآن بنوع من السخاء كان قد حظي به صدّام منذ سنة تقريباً.

قطعنا مسافة طويلة منذ إعلان جورج بوش رؤيته لعالم ما بعد تحرير الكويت، يوم ٢٩ أيار/مايو ١٩٩١، والقائلة بأنه يجب أن تكون هناك مبادرة لمراقبة التسليح في الشرق الأوسط تبطئ ثم توقف البناء غير الضروري لترسانات الأسلحة المهدِّدة للاستقرار في المنطقة. وقبل أقلّ من ثلاثة أشهر، تنازل بوش عن فكرة أنه «سيكون أمراً مأساوياً أن تصبح دول الشرق والخليج الفارسي الآن على أبواب حرب تجعلها تنطلق في سباق تسلّح جديد». الآن وبعد سنتين، اشترت الكويت ٢٣٦ دبّابة أميركية من نوع M1A2 بقيمة ٢ مليار دولار. واشترت السعودية بما قيمته ٧,٥ مليارات دولار دبّابات تورنادو Tornadoes وأنفقت ٣,٩ مليارات دولار أخرى على شراء فرقاطات فرنسية بعد الإعلان العام السابق عن شراء طائرات مقاتلة أميركية F-15XP بقيمة ٩ مليارات دولار. لفهم هذه الأرقام، على المرء أن يتذكّر أن الدعم المالي السعودي للاتفاق الفلسطيني الإسرائيلي (غزّة ـ أريحا) كان بقيمة

١٠٠ مليون دولار. وقد قدّمت الإمارات العربية المتحدة ٢٥ مليون دولار فقط للفلسطينيين واشترت عام ١٩٩٦ بما قيمته ٣,٥ مليارات دولار دبّابات لوكليرك Leclerc الفرنسية. وقد باعت الولايات المتحدة الأميركية ما تفوق قيمته ٢٨ مليار دولار من الأسلحة خلال العامين التاليين لحرب الخليج عام ١٩٩١، وكانت حصّة السعوديين منها ١٧ مليار دولار. وقد وصلت مبيعات الأسلحة للشرق الأوسط عام ١٩٩٣ إلى ٤٦ مليون دولار يومياً.. بالرغم من ذلك كانت مسألة القتلى العراقيين تضغط بثقلها على الذين كان من واجبهم التأكّد من أن «قوانين الحرب» يطبعها المنتصرون.. والحال أن روايات كانت تصدر من واشنطن تقول بأن عشرة آلاف جندي عراقي دفنوا أحياء قرب الحدود السعودية عندما تقدّم الجيش الأميركي للمرّة الأولى على الحدود نحو الكويت. كان أمام الأميركيين خياران: إما شقّ طريقهم عبر الخنادق والتحصينات التي حفرتها القوّات العرقية، وإما جرف الرمال فوقهم وخنقهم فيما هم يستعدون للقتال. بالطبع، قرّرت الولايات المتحدة الأميركية اللجوء إلى الخيار الأخير. هل كان دفن العراقيين أحياء أسوأ من إبادتهم بالقصف ولا سيّما أن الخسائر الأميركية ستكون أكبر في معركة مواجهة؟

لقد لعب الأميركيون لعبة «دلالات»... فقد أعلنت «مصادر عسكرية مغفلة»، لوكالة رويترز في هذه الحالة، أن معظم العراقيين القتلى قد قتلوا خلال الأسابيع الخمسة من القصف الجوّي التي سبقت الهجوم البرّي الذي دام أربعة أيام، ومن المحتمل أن يكونوا قد دفنوا من قِبل زملائهم.. وأن عدد جنود الاحتلال العراقي الذين قُدّروا أساساً بحوالى نصف مليون جندي، قد يكون مبالغاً فيه. ومن المحتمل أن حوالى ١٢ ألف جندي قوي من الوحدات العراقية استنزفوا بنسبة ٥٠ في المئة، قبل وصولهم إلى الكويت.. وقد استسلم ٦٢ ألف جندي عراقي جائع أو خائف على الأقلّ إلى الحلفاء..، وكل ما كان يقوله الضبّاط هو أن «عدداً كبيراً» من العراقيين لقوا حتفهم في الحرب.. ممّا كان يعني ـ وكان مطلوباً له من دون شك أن يعني ـ لا شيء.

ولم يجد أي ضابط أميركي أن من المناسب الإشارة إلى المقابر الجماعية التي وضع فيها الأميركيون والإنكليز القتلى العراقيين، أو إعطاء المعلومات إلى الصليب الأحمر الدولي كما يتعيّن على الحلفاء القيام به حسب القانون الدولي. في أواخر أيام ١٩٩١، تمّ استدعاء الطبيبة السويسرية في الصليب الأحمر الدولي في الكويت جانيك دامي لتفحص جثث تسعة جنود عراقيين غير مدفونة ملقاة في الصحراء قرب مقرّ قيادة الفرقة السادسة للجيش الكويتي، ليس بعيداً عن الحدود العراقية. وقد وجدت أن بقايا الجيش العراقي تحلّلت بشكل سيّىء لكن ثمّة ثلاث عشرة جثة عراقية أخرى كانت مدفونة على بعد أمتار تحت علامة خشبية كتب عليها كلمة واحدة بالإنكليزية «مجهول».

كان الأمر مضلّلاً بشكل كبير. وكانت على كل الجثث باستثناء واحدة بقايا ملابس عسكرية عراقية، ووجدت الدكتورة دامي أوراقاً ثبوتية لثمانية منهم أو بطاقات بأسمائهم. لم يكونوا جميعاً مجهولين. وكانت معظم الجثث مدفونة بأكياس جثث عسكرية أميركية وبينها جثة مجنّد عراقي مربوطة رجلاه بحبل، عمره ٢٧ سنة واسمه جبر علوان قيدار.. وكانت الجثة الوحيدة التي من دون لباس عسكري تخصّ امرأة.

كان أهمّ ما في اكتشاف الدكتورة دامي أنها كانت المرّة الأولى التي استطاع فيها الصليب الأحمر الدولي تفحّص قبور قتلى الجيش العراقي. ويقدّر الأميركيون أن عدد القتلى العراقيين وصل إلى مئة ألف. وقد تمكّن الصليب الأحمر الآن من الوصول إلى قبور ٢١ عراقياً فقط. وفي خرق كامل للبند ١٧ من معاهدة جنيف، فشلت قوّات الحلفاء وقوّات التحالف العربي في إعطاء إحصائيات ولو تقريبية لعدد القتلى العراقيين. ولم تعطِ السلطات العسكرية الأميركية للصليب الأحمر الدولي أسماء القتلى العشرة آلاف من أعدائها أو مكان المقابر الجماعية التي دُفنوا فيها. إن العدد الحقيقي للقتلى يبقى أحد الأسرار المزعجة لحرب الخليج ١٩٩١، وكذلك الأمر بالنسبة إلى فشل الحلفاء في إعطائه؟

لم يكن صدّام في وضع يسمح له بالشكوى حول خروقات معاهدة جنيف.. كان أسرى الحرب من الحلفاء يُعذَّبون من قِبل العراقيين ونظام صدّام البعثي الذي يعرف الجميع أنه عذّب باستمرار وقتل مناوئيه السياسيين. إن استخدام صدّام للغاز السامّ في قتل آلاف من الجنود الإيرانيين ثمّ من المدنيين الأكراد وذبحه للمتمرّدين الشيعة بعد الحرب في انتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ شكّل أحد السجلّات المقزّزة لحقوق الإنسان في العالم.

إن معاهدة جنيف تنصّ على أن الأطراف في حالة نزاع يجب أن يتأكّدوا من أن دفن القتيل أو إحراق جثّته ـ إفرادياً بالقدر الذي تسمح به الظروف ـ يسبقه فحص دقيق للجثة مع تدقيق في حصول الوفاة وفي هويّة القتيل وكتابة تقرير حول ذلك كلّه، وأن عليهم أيضاً أن يضمنوا دفن القتلة بشكل مشرّف وإذا أمكن وفقاً لتقاليدهم الدينية، وأن تُحترم قبورهم وتُصان بشكل جيّد وتوضع علامة عليها حتى يسهل العثور عليها دائماً. ووفق معاهدة جنيف فإنه يطلب من الجنود تنظيم خدمة تسجيل القبور وهي تتضمّن لوائح تظهر الأماكن الصحيحة للقبور وعلامات التعرّف إليها، مع معلومات عن الميت المدفون. لقد تجاهل حلفاء حرب الخليج ١٩٩١ كلاً من هذه الأنظمة الأساسية. بعد تحرير الكويت، تحاشى الجنرال شوارزكوف بفظاظة الأسئلة حول القتلى العراقيين بحجّة أنه «لا يعمل في إحصاء الجثث». غير أنه وفق معاهدات جنيف يجب على الجنرالات، حتى الجنرالات الأميركيين، التأكّد من أن الجثث أحصيت فعلياً. صحيح أن القوّات العراقية ارتكبت ما يمكن تصنيفه جرائم حرب خلال احتلالها للكويت لكن حتى جنود هتلر الذين قتلوا في القتال ضدّ الأميركيين حول باستوني **Bastogne** عام ١٩٤٤ جرى تعريفهم ودفنوا في قبور عليها علامات. وكالعادة، علينا اللجوء إلى عمّال الإغاثة، الذين يتحدّثون دون ذكر أسمائهم حتى لا يفقدوا الحظوة المعنوية القليلة التي لديهم مع الجيوش المنتصرة، لنعرف ما شعر به أفراد الصليب الأحمر الدولي. روى لي طبيب بريطاني: إنهم غاضبون كثيراً ولا ألومهم. ما هو محيّر حقاً أن الأميركيين يعرفون مكان العديد من المقابر الجماعية ولديهم ملفّات حول عدد العراقيين الذين دفنوهم في كلّ مقبرة. إنهم يخفون الأرقام. والصليب الأحمر يعرف ذلك، لكنهم لا يستطيعون إجبار الحلفاء على إعطاء إحصائية واحدة. لمَ لا؟ الجواب واحد من اثنين: إمّا أن يكون الأميركيون قتلوا عدداً أقلّ بكثير ممّا زعموا، ربّما عشرة أو عشرين ألفاً فقط، وفي هذه الحالة سوف يتساءل الناس ما إذا كان نصرهم كبيراً كما يدّعون. واحتمال العدد القليل

من الخسائر قد يفسّر ربّما لماذا بقي لدى صدّام عدد كافٍ من الجنود الحلفاء. وإمّا أن يكون الأميركيون قد قتلوا أعداداً أكبر (٢٠٠ ألف وأكثر)، وهم قلقون من أن يشمئزّ العرب حيال مقتل حوالي ربع مليون شقيق عربي».

أكّد كريستوفر جيرود مندوب الصليب الأحمر الدولي أنه سأل السفارة الأميركية مرّتين عن معلومات حول القتلى العراقيين دون الحصول على أيّ منها. وقيل للصليب الأحمر إن عليه السعي لطلب معلومات مباشرة من البنتاغون. لكن أثبت البنتاغون أيضاً عدم المساعدة. قال جيرود: «ما زلنا ننتظر الردّ من الحلفاء عن أمكنة القبور الجماعية، وعدد القتلى وربّما عن أسماء وتفاصيل(*). من واجبهم إعطاؤنا هذه المعلومات وفق البند ١٧ من اتفاقية جنيف ونأمل أنهم سيزوّدوننا بذلك.. البعض يأمل. لم يزوّدنا الأميركيون أبداً بأيّ من هذه الأماكن والأرقام والأسماء». أصبحت تلك عادة!!! عام ٢٠٠٣، أبدت الولايات المتّحدة وبريطانيا القليل من الاهتمام بتسجيل تفاصيل حول قتلى العدوّ أو (في هذه الحالة) المدنيين الذين قُتلوا إبّان الغزو مع أنهم كانوا حريصين كما كانوا في حرب الخليج ١٩٩١ على وضع لوائح بالجنود الأميركيين والبريطانيين وغيرهم من الغربيين أو قوّات التحالف الذين قُتلوا أثناء القتال.

كان قتلانا، الأبطال، الغربيون الذين قُتلوا من أجل الحرية، أو الديمقراطية أو أيّ منافع أخرى خطّطنا لفرضها على الخاسرين، قتلى مقدّسين. عام ١٩٩١، خسر الأميركيون ١٢٥ جندياً والحلفاء حوالي السبعين. وسوف تبقى أسماؤهم حيّة طويلاً مثل تلك الموجودة على الأنصاب التذكارية على طول الجبهة الغربية القديمة في فرنسا في حرب «بيل فيسك»، ستكون هناك صلوات دينية لتكريمهم، ومقابلات مع زوجاتهم وأطفالهم وأهلهم وخطيباتهم. سيكون هناك جدل في كلتا الحربين حول القتل الخطأ لجنود من القوّات البريطانية من قِبل قنّاصين أميركيين سعداء. لكننا سنعرف من كانوا. سيكون لدى قتلانا هويّات، وعائلات، ورأي عامّ يحزن عليهم. كانوا أشخاصاً حتى في مماتهم. أمّا القتلى العراقيون فكانوا كمّية غير محدّدة، غير مصنّفين، مثل المقابر التي وضعوا فيها. كانوا المحتلّين للكويت، أو لاحقاً البقايا أو الإرهابيين الذين أصرّوا على قتال مَن غزوا وطنهم عام ٢٠٠٣ ولا يستحقّون الذكرى. لذلك.. كان الأميركيون في هذه الحالة مدعومين من نظام صدّام... إذ لم تكن لدى حزب البعث في بغداد الرغبة في أن يكشف للعالم عن مدى الهزيمة العسكرية التي مُنيت بها البلاد أو إعطاء أي إيضاح حول حجم خسائره. وكما أوضح الأميركيون فقد قُتل عدّة مئات من الجنود العراقيين تحت قصف طيران الحلفاء وذلك قبل الهجوم البرّي.. وكان صدّام سعيداً بأن تبقى أعدادهم وأسماؤهم مجهولة، تماماً كما كان غير مهتمّ لمصير بقيّة «شهدائه» في الكويت... لقد تشارك الأميركيون والعراقيون إذن في مصادفة سعيدة من النوايا. كان الطرفان يرغبان في المحافظة على عدد القتلى العراقيين سرّاً.

(*) لم تُطبّق هذه اللامبالاة في معاهدة جنيف مع أنه عندما قام العراقيون بعرض طيّارين أُسروا خلال الحرب على شاشة التلفزيون، ظهر أن بعضهم تعرّض للضرب. وأصرّ المسؤولون البريطانيون والأميركيون عندها على احترام مطلق لمعاهدات جنيف من قِبل النظام العراقي في ما يتعلّق بأسرى الحرب. كان بعض الطيّارين يحملون علامات قذفهم الفجائي من طائراتهم مع أن طواقم طائرات السلاح الجوّي أعطوا روايات حول سوء معاملتهم على أيدي رجال الأمن العراقيين.

في نهاية الأسبوع الأوّل من عام ١٩٩١، أخذني كريستوفر جيرود إلى مرتفع متلة حتى أرشده إلى المقبرة الجماعية التي مررت بها في شباط/فبراير الماضي. كانت الزهور الاصطناعية لا تزال هناك ولاحظ جيرود فوراً أكوام التراب التي رمتها الجرّافة، عندما كشفت عن الجثث هناك. تم الكشف عن دزّينات من الجثث وتمّت إعادتها للعراق. لكن هذه كانت المقبرة الوحيدة التي استطعت إيجادها. في أماكن أخرى، بحثت في مذكّرتي مسترجعاً ما كتبت حتى شهر شباط/فبراير، فقد تغيّر اتجاه الريح وكذلك طبيعة الأرض، وتحوّلت الأرض المسطّحة قرب الطريق السريع نحو العراق إلى كثبان رملية، وقد انتشرت رُفات الأشخاص على الأرض في الصحراء نتيجة العواصف الربيعية.

لقد اشترك الأميركيون والإنكليز في آلاف عمليات الدفن السريعة في هذه الصحراء في شباط/فبراير ١٩٩١. وقد شاهدت تسع منها بنفسي حيث كان جنود شباب ينوؤون تحت ثقل الأغطية المليئة بالجثث، ويحفرون في الرمال ويرمون حمولتهم في الحُفر التي أعدّوها.

كانت هذه الطقوس تجري على طول المنطقة الرملية إلى الشمال من مدينة الكويت. كان عمّال الهلال الأحمر الكويتي، الذين ساعد بعضهم في إجلاء القتلى من مرتفع متلة ومن أماكن أخرى إلى الشرق «من طريق الموت السريع» لم تكتشف، متورّطين في العملية نفسها. وقد أبلغ الكويتيون في ما بعد عمّال الإغاثة الغربيين أن العشرات من ضحايا الهجمات الجوّية الحليفة كانوا مدنيين كويتيين أبرياء أُخذوا إلى العراق كرهائن للجيش المنسحب.

أمّا منظّمة الصليب الأحمر فقد أعادت جثث ٢١ جندياً عراقياً إلى بغداد، ووجدت الدكتورة دامي أن الجثث لم تُدفن كما يجب وفق الطقوس الدينية باتجاه مكة، وجرى دفن القتلى كل اثنين معاً مع أوراق هويّة بين أكياس الجثث. وقد عُثر في ملابس العديد منهم على أوراق خاصّة ومفكّرات كان ينبغي وفق اتفاقية جنيف أن تُعاد إلى أقاربهم.. وعلى صفحة من مفكّرة تعود لبرهان أحمد وجِد رسم لابن أخ الجندي المدفون استطاع العراقيون من خلاله إبلاغ أقارب الرجل الميت. وقد وجدنا أسماء أخرى على الجثث سُلّمت إلى العراقيين عبر الصليب الأحمر، منها: مسير جبر حمدي، مسلّم إسماعيل إبراهيم، أحمد فهد ملّا، حسن داوود سلمان. ووجدت مع إحدى الجثث زجاجة عطر مخبّأة في جيب، كانت حتماً مسروقة من الكويت. ولم يتم أبداً تفسير لماذا كانت رجلا جبر علوان قيدار مقيّدتيْن.

لو لم تنبش منظمة الصليب الأحمر البقايا لكان هؤلاء الجنود «معروفين عند الله»، كما تقول الأنصاب الحجرية البريطانية العائدة للحرب العالمية. حتى الآن لم يتم اكتشاف المقابر، أمّا السيّدة الميتة فقد أُخذت جثّتها إلى مدينة الكويت حيث قالت السلطات إنها تستطيع معرفة هويّتها من بصماتها. كانت مقيمة سابقاً في الكويت، وعندما سألت مسؤول إغاثة كويتي عن هويّتها ردّ بصوت ينمّ عن ازدراء: «قالوا إنها عاهرة عراقية».

كانت المحاولة الجدّية الوحيدة لتقدير الخسائر هي تلك التي قامت بها بيث أوزبورن دبونت موظّفة مكتب

المسح الديمغرافي الأميركي المكلّفة بجمع إحصائيات حول عدد العراقيين الذين قُتلوا خلال الحرب. وحسب إحصائياتها فقد مات ٨٦٠٠٠ رجل و٤٠٠٠٠ امرأة و٣٢٠٠٠ طفل على أيدي قوّات التحالف التي يقودها أميركيون وذلك خلال الانتفاضات الموحى بها أميركياً، ثم ما تلاها من حرمان مباشر بعد الحرب. وقد تمّ طرد دبونت ثم قام المكتب بعد إقالتها بإعادة كتابة التقرير مخفّضاً حجم القتلى وحاذفاً القتلى من النساء والأطفال. ولاحقاً ورد في رواية مسؤول في البنتاغون فصلٌ عن الخسائر لم يُشر إلى القتلى العراقيين.

لا حاجة إلى القول إنه لم يسمح إطلاقاً لتلك الدماء الهائلة التي سبّبتها هذه العمليات العسكرية بأن تلطّخ «الصورة الكبيرة»، أي أهداف الحرب التي يستطيع الزعماء الغربيون وكتّاب التعليقات الإشارة إليها باعتبارها دليلاً على أنها كانت حرباً جيّدة وأن الله كان إلى جانبنا.. ولكن أيّ إله ذاك الذي استُقدم هنا فهذه مسألة تبقى غير محسومة.. لقد تمت إعادة العائلة الحاكمة الكويتية إلى السلطة كما وعد الرئيس بوش وما مِن أحد من الذين دخلوا العاصمة الكويتية يوم تحريرها (كما فعلت أنا وزملائي) يستطيع الشكّ في أن تحريرها لم يتمّ بإخلاص متفانٍ. فلو استطاع صدّام الاحتفاظ بالمحافظة التاسعة عشرة، لكان ذلك كارثة للمنطقة وللنظام الدولي.

والحال أنه بالنسبة إلى الكويت، وكذلك السعودية (والعراق في ما يتعلّق بهذه المسألة)، لم تكن عاقبة القتال البرّي المشاركة في نظام عالمي جديد بل إعادة الوضع السابق. عاد الحكّام العرب إلى حدودهم المرسومة من قِبل البريطانيين.. ووجد هؤلاء الكويتيون الذين رفضوا الاحتلال والذين عانوا من خطر مرعب على بلادهم أن الذين فرّوا من الكويت بمن فيهم العائلة الحاكمة أُعيدوا ليحاكموهم. عاد الأمير وجماعته الذين عانوا من المنفى في أفخم فنادق الطائف ليخبروا الكويتيين الذين ظلّوا هناك والذين قاوموا بشجاعة في بعض الأحيان أنهم لن يحصلوا على الديمقراطية الآن.

كانت الفضيحة الكبرى في السياسة الكويتية الداخلية عملية طرد ٣٦٠ ألف فلسطيني خلال السنتين التاليتين.. تلك كانت عملية تطهير عِرقي لا مثيل لها في الشرق الأوسط منذ المجازر التي رافقت الهروب الفلسطيني من القوّات الإسرائيلية عام ١٩٤٨. ولم يتكبّد مجلس الأمن الدولي حتى عناء مناقشة هذه الإهانة أو سؤال الكويتيين حول عُذرهم لمثل هذه المعاملة لأشقّائهم العرب. لقد تعاون بعض الفلسطينيين مع العراق خلال الاحتلال. وعلى الطريق الطويل باتجاه البصرة كنت أشاهد كل يوم الشاحنات المحمّلة فوق طاقتها وسيّارات البيك أب وهي تحمل الفلسطينيين إلى منفى آخر، عبر العراق إلى الأردن حتى دون حقّ بيع البيوت أو الأملاك التي كانت لهم طيلة عقود في الكويت. قال لي سليمان الخالدي، وهو صديق فلسطيني، في الكويت عام ١٩٩٢ «سوف يطردونني قبل عودتكم. اتصل بي إن أردت ولكنني لا أعتقد أنني سأردّ على اتصالك».. في كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ اتصلت بالخالدي حسب ما وعدت. وكما وعد هو، لم يكن هناك أحد. أجابت امرأة بانزعاج: «أجل لقد كان يقطن هنا لكنه غادر إلى الأردن. كلّا لن يعود. نعم أنا كويتية».

وما كان أقلّ حجماً من حيث المأساوية ولكن مساوياً إلى حدّ ما من حيث الفضيحة محنةُ أفراد قوّة البدو

الكويتية الذين رفضوا الهرب يوم ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠ واختاروا قتال الغزاة العراقيين وأُخذوا أسرى حرب من قبل جيش صدّام.. هؤلاء الآلاف من الشبّان الذين لم يحملوا الجنسية الكويتية ومع ذلك حاربوا في سبيل الإمارة. لكن الآن وبينما أُعيد معظم الضبّاط الكويتيين الذين فرّوا إلى مراكزهم، رفضت الكويت السماح لهؤلاء الجنود البدو المخلصين بالعودة من سجنهم العراقي. وهناك مئات آخرون عالقون في معسكر اعتقال في العبدلي على الحدود الكويتية العراقية، وقد تحرّروا من السجون العراقية خلال الانتفاضة الشعبية لكنهم رُفضوا من قِبل الدولة التي قاتلوا في سبيلها. إن الوطنيين الكويتيين الآن معتقلون من قِبل الجنود الكويتيين الذين ولّوا الأدبار عندما كانت بلادهم بحاجة إليهم.

في صباح يوم حارّ توجّهت إلى العبدلي. كان المشهد مُخزياً.. ولم يكن مردّ ذلك إلى المراحيض التي تملأ رائحتها المكان، أو العواصف الرملية التي تعصف فوق الأنقاض محوّلة من فيها إلى ظلال بيضاء ورمادية، أو حتى الأكواخ الحقيرة المصنوعة من الملابس والحديد المجعّد والأغطية القديمة التي يحوّل صوت تلاطمها المستمرّ المحادثة إلى مباراة صراخ. بل إلى حقيقة أن سكّان هذا المكان المرعب كلّهم (١١٧٣ شخصاً) كانوا من البدو الكويتيين الشرفاء الذين تُركوا للعيش هنا لأنهم لم يحصلوا أبداً على الجنسية والذين صدف وجودهم في المكان الخطأ لجبهة حرب الخليج، عندما أعلن الرئيس بوش وقف إطلاق النار في شباط الفائت. وكان العديد منهم رجال شرطة كويتيين خدموا الأمير لسنوات وقد اعتقلوا خلال الاحتلال وأُخذوا رهائن إلى العراق من قبل شرطة صدّام حسين السرّية. وكان هناك أيضاً نساء وأولاد رجال شرطة كويتيّون كانوا يبحثون عن أقارب مفقودين في العراق عندما وصل الأميركيون إلى بلدة العبدلي الحدودية منذ خمسة أشهر ورفضوا السماح لهم بالعودة إلى بيوتهم في الكويت رغم انتظار عائلاتهم لهم هناك. وقلّة منهم كانوا كويتيين بدون جنسية، ارتكبوا خطأ محاولة شراء طعام بعملة عراقية بعد التحرير فأرسلوا إلى هذا المكان الموحش من قِبل قوّات الأمن. إن مصير أفراد هذه الأسر كان مرسوماً على اسمهم: «البدون»، الربع مليون كويتي الذين فشلوا في تسجيل أنفسهم كمواطنين أو الذين فشل ذووهم في تسجيلهم بعد استقلال الإمارة عام ١٩٢٠ وتركوهم مخلصين موالين ولكن مواطنين بلا دولة في بلد لا يرغب في إعطائهم جواز سفر... أما الآن وقد تحرّرت الكويت وعائلة الصباح ترغب في تخفيض عدد المواطنين غير الكويتيين، فإن «البدون»، إضافة إلى الفلسطينيين الذين ولدوا في الكويت وإلى عدد آخر كبير من العرب الذين أسّسوا بيوتهم في الإمارة لعقود خلت، متّهمون الآن بالتعاون مع المحتلّين العراقيين.

وهكذا، وفيما كنت أنقّب أثناء هذه العواصف الرملية في زاوية معسكر العبدلي الجنوبية ـ الشرقية، وجدت خلف كوخ من الحديد مغطى بقماش الوجه الملتحي لسابا أبو نصر الخالدي، وهو كان موظفاً في وزارة الداخلية وفنّاناً كويتياً مشهوراً، حتى ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠.. قال لي: «لم أحاول أبداً الذهاب إلى مكتبي عندما حضر العراقيون لأنني علمت أنهم يعتقلون الموظفين الحكوميين. لكنني رسمت لوحات للمقاومة الكويتية وقد أبلغ أحدهم عني وقام العراقيون باعتقالي. أخذوني إلى مركز شرطة الصالحية حيث تعرّضت للضرب لكنني رفضت إبلاغهم بأيّ شيء. لذا تركوني أذهب إلى بيتي. لكن بعد شهر أخذوني مجدّداً ووضعوني ضمن قافلة من الباصات

مع أربع مئة «بدون» آخرين ونقلونا إلى ثكنة عسكرية في العمارة داخل العراق. بقينا سجناء هناك لمدة ثلاثة أشهر، وعندما بدأ الأميركيون بالقصف جرى نقلنا إلى الديوانية. كان لدينا القليل من الطعام وكنّا وسخين ولطالما تساءلت إن كنت سأرى بيتي مجدّداً»..

لقد تمّ تحرير الخالدي ورفاقه البدون خلال الانتفاضة الشيعية في جنوب العراق وأيقظتهم حرّيتهم الوشيكة عندما أصابت طلقات الرصاص نوافذ زنازينهم. قال الخالدي: «مشيت من هذا السجن مع أربعين كويتياً آخرين لعشرة أيام في الصحراء والأرض الجرداء، نأكل البندورة (الطماطم) والتمر، وننام الليل في المساجد العراقية المدمّرة والأماكن المهجورة والملاجئ الخالية أو في ظلّ الدبّابات العراقية المتروكة». كانت روايته عن الجثث العراقية المتحلّلة على جانبَي الطريق والانفجار المستمرّ للذخائر المخبّأة تحت الأرض بينما كان يشقّ طريقه جنوباً مخيفة بقدر ما كانت مُقنعة. وقال: «ذات ليلة نمنا على تلّة اسمها تل اللحم وكنا نسمع انفجارات مرعبة، وكانت الأرض تتحرّك تحتنا طيلة الوقت والقذائف تسقط فوقنا. أنقذنا الله. هل تعلم ما كان شعورنا عندما وصلنا إلى الكويت، وأننا كنّا سنرى عائلاتنا مجدّدا؟ لكن كانت الحكومة الكويتية هنا وأوقفتنا. قالوا: «أنتم بدون» لذا بقينا هنا وما زلنا».

وزعمت السلطات الكويتية أن العديد من «البدون» انضمّوا إلى الجيش الشعبي العراقي بعد الاحتلال وعندما أعلنت الحكومة الكويتية في تموز/يوليو ١٩٩١ أنها ستشنق أي شخص انضمّ طوعاً إلى الوحدات العراقية غادر ثلاثة آلاف «بدون» بمن فيهم النساء والأطفال مخيّم العبدلي وعادوا إلى العراق. غير أن أكثر من ألف بقوا وجادلوا أنهم لم يساعدوا أبداً العراقيين وأن الذين سجّلوا أسماءهم مع المحتلّين فعلوا ذلك تحت الإكراه ولم يعودوا أبداً للعمل. وقال أحد البدون في العبدلي: «كانت خدعة من العراقيين تسمية هؤلاء الناس «جيش متطوعين»، كانوا أعضاء في الجيش العراقي بقدر ما كان الرهائن في العراق ضيوفاً».

كان البدون في العبدلي يحملون جميعاً أوراقهم الرسمية الكويتية وقد عرض لي رجال الشرطة بطاقات رقاقة حكومية مع صور لهم يرتدون فيها اللباس العسكري الأزرق ولم يشكّ عمّال الصليب الأحمر الذين يديرون المخيّم في صحة هذه المستندات. كان استخدام البطاقات قليلاً. وقال الخالدي: «جميعنا نريد العودة إلى بيوتنا حيث ولدنا وحيث عملنا وعشنا قبل هذه الحرب الرهيبة. ما هي جريمتنا؟؟». خلال أسره رسم الخالدي سلسلة من الصور الجميلة والحزينة عن الحياة أثناء الحرب..

كانت الصورة الأكثر إثارة للمشاعر تظهر عائلة «بدون» تدفن ابنها الشرطي الذي قُتل خلال الاحتلال على أيدي العراقيين وكان هناك طفل قرب قبر يلوّح مودّعاً باتجاه مدينة الكويت البعيدة التي يمكن التعرّف إليها من أبراجها المائية. سألني الخالدي: «أترى ما يحصل؟ البدون يمكن أن يموتوا هنا لكن لن يسمح لهم بالعيش هنا».

لكن، إذا كانت الاستعادة «الجغرافية» للكويت من قِبل حكّامها إجراء لمصلحة الحرب فإن لحرائق النفط أكثر

من أثر ماذّي على الأرض. كان تدمير الآبار الجريمة الأكبر التي ارتكبها صدّام في الإمارة وكان استمرار اشتعالها يعني أن الحرب لم تنته بعد. وكان عليّ الطيران فوق الآبار لأُدرك فظاعة ما حدث.. كان ممكناً من الجوّ رؤية بُحَيرات النفط، مئات الكيلومترات من الطين اللزج، وقد تحوّل بياض الرمال إلى سواد.. وبعد مئة عام سيبقى الدليل هنا للمشاهدة.. لقد تغيّر لون الصحراء لعدّة أجيال قادمة. بعد وصولي إلى الكويت على متن بوينغ ٧٠٧ لطيران الشرق الأوسط استطعت أن أدرك بشكل ملموس مدى الخراب الذي حصل. فيما كنت جالساً في الطائرة شاهدت الطيّار ينعطف بطائرته حول سحب النفط كما لو أنه يقوم باستعراض جوّي، ولكن عندما صدمنا إحدى سحب الدخان السوداء خلال اقتراب نهائي، قفزت الطائرة القديمة في الجوّ مرتعشة ومهتزّة بينما كانت تندفع بقوّة داخل الضباب الكبريتي لتتوقّف قرب الحرائق.. كانت الأرض تهتزّ تحت قدميّ وكان هدير الحرائق مهيباً وجوهرياً. كان الكويتيون أكثر من راغبين في أخذ المراسلين إلى هذه المشاهد من جرائم صدّام البيئية والاقتصادية. أردنا أن نقود سيّاراتنا خارج مدينة الكويت حيث يواجه آب/أغسطس المحرق والمذهل بحرائق ساطعة تؤذي العيون، وكانت الحرارة شديدة بحيث كنا نستدير غرائزياً كل بضع ثوان لتلطيف الجانب الأيسر أو الأيمن من وجوهنا وأيدينا. وأبلغنا محمود صومالي أن العراقيين الذين فعلوا ذلك وصلوا بعد ثلاثة أشهر من الغزو... وبينما كنا نقف قرب إحدى هذه المشاعل الهادرة والنافثة، والدخان فوقنا كثيف إلى درجة أنني لم أستطع رؤية مفكّرتي لولا وهج الحرائق الذهبية، قال: «كان رجلاً عاديّاً جدّاً، نسيت اسمه، وكان ودوداً تجاهنا وغير عدائي على الإطلاق، تحدّث معنا كثيراً وشرب القهوة معنا في كافيتريا الأحمدي. قال إنه مسلم مؤمن ويذهب كل جمعة إلى المسجد. لكنه وضع بعدها الألغام تحت الآبار وقال لنا إن هذا واجبه وعليه القيام به».

هل كانت هذه تفاهة الشرّ، هذا الرجل ذو الاسم المنسيّ، (كان موظفاً في شركة النفط العراقية حسبما يعتقد معظم الكويتيين في الأحمدي الآن) ارتكب بطاعته ومهنيّته ما يمكن تصنيفه بجريمة حرب، وبكارثة بيئية أيضاً؟؟ لهذا لا ينبغي أن ننكر حرفيّته. فمن أصل ٩٤٠ أو أكثر من الآبار المنتجة، كان هو مَن وضع ألغاماً في ٧٣٢ بئراً، محوّلاً ٦٤٠ منها إلى بُحيرات نار. وبإمكانك أن تقف قرب بِرك حقل برقان النفطي حتى اليوم ـ أي بعد أكثر من خمسة أشهر على مغادرة شارب القهوة العراقي بمهرجانه الديني ـ ولا تملك إلا التعجّب من آثار عمله.

كانت العبارات المبتذلة قد استُنزفت منذ وقت طويل: حرائق جهنّم، ظلام في وضح النهار، كلّها كانت تحوي عنصر حقيقة. عبر البُحيرات السوداء التي تعكس النور البنّي الذهبي للحرائق، كانت سحب الدخان ـ التي حجبت الشمس فغدت مجرّد نقطة من النور الأصفر الباهت مباشرة فوقنا ـ مخيفة بقدر هدير الآبار المحترقة. سجّلت في برقان هذه الملاحظات في مفكّرتي، إلى أن أدركت أن الصفحات أصبحت مبقّعة وتحوّلت إلى مادّة بنّية لزجة التصقت بملابسنا وآذاننا وشعورنا. كنا نتنشّق نفطاً خاماً، وسعلنا لعدّة ساعات بعدها. عندها اتضح الأمر لي: لقد استخدم صدّام الحرب الكيميائية.

ماذا كانت في كل الأحوال بضع قذائف من الغاز السامّ مقارنة مع مليونَيْ طنّ من ديوكسيد الكربون وخمسة آلاف طنّ من السخام تنطلق في الجوّ فوق الكويت كل يوم، وتنساب بلطف مثل تابون Tabun أو سارين Sarin

عبر الخليج؟ كان الجميع شاهداً.. كانت هناك ابنة صومالي مصابة بالربو وكان عليه إحضار تكييف لحماية رئتيها كلّما تغيّرت الريح.. وفي مقرّ إدارة الأحمدي، وصل فريق حفر إيراني لمساعدة الكويتيين على إطفاء الحرائق.. كانوا جدّيين، ملتحين، ومصدومين بشكل ظاهر لأنهم على ما يبدو لم يشهدوا من قبل أي شيء بهذا المستوى ، حتى خلال الثماني سنوات من التدمير العراقي في داخل بلدهم.

قال هومايون موتيه لي (وهو مهندس تنقيب من شركة النفط الوطنية الإيرانية): «بالتأكيد هذه كارثة بيئية، جئت من الأهواز وقد غطّانا هذا الدخان حتى هناك... لقد بلغ التلوّث من هذه الحرائق سماء جنوب إيران. هل تدرك أن هناك سخاماً فوق جبال زاغروس على بعد ألف كيلومتر؟. لقد شاهدت ذلك هناك.... إنه يرقد في طبقات تحت الثلج ويتجمّد طبقة فوق طبقة».... لاحقاً بعد أن انكفأ الغزو العراقي، وصمَ الأميريكيون والإنكليز إيران بالأوصاف الخطرة نفسها التي استخدموها لوصف العراق (جزئياً، لإقناع العرب بشراء أسلحة إضافية) وتمّ تحديد إيران على أنها المعتدي التالي، أو التهديد التالي لدول الخليج العربي كما كانت إبّان الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩.

وسيتمّ تناسي عمل هومايون موتيه ورجاله...

إذا وقفت تراقب نوافير النفط المحترق والحرائق المنتشرة عبر البرك، فإنك لا تستطيع تجنّب الاعتقاد بأن حرب الخليج لم تنته بعد، وبأن صدّام لم يكن ينوي إنهاءها عندما طُرد من الكويت. كانت الإحصائيات تتبدّل كل يوم، لكن مع حلول ٥ آب/أغسطس استطاعت ثلاث فرق أميريكية ووحدة كندية لمكافحة الحرائق محاصرة ٢٧٤ بئراً محترقة والسيطرة عليها وذلك من أصل ٦٤٠ معظمها آبار ضخمة في برقان (وعددها ٤٢٦ بئراً) ومقوى (١٤٨ بئراً) والأحمدي (٨٩ بئراً). كانوا يلقون أطناناً من مياه البحر على الحرائق مستخدمين أنابيب النفط الأصلية لضخّ الماء في الحقول لتبريد الفحم الشديد الحرارة الذي تشكّل حول ألسنة اللهب. وكانت الكمّية التي تستطيع الكويت تصديرها من النفط كل يوم ١١٥ ألف برميل معظمها من حقل مقوى. وحتى الآن فإن هناك أكثر من ٦٠ مليون برميل من الغاز والنفط (من أصل ١١٠ ملايين برميل يومياً) ما زالت تحترق يومياً وقد تحوّلت إلى موادّ كيميائية تسمّم الأرض والبحار حتى جبال الهملايا شرقاً. قال محمود صومالي الذي كان طيلة ٢٢ عاماً يعمل في قسم التنقيب في شركة نفط الكويت ولم تكن لديه أوهام حول ما حصل:

«عندما وصل العراقيون إلى هنا في الأسبوع الأوّل للاحتلال وصل أيضاً جنود وعدد كبير من التقنيين المدنيين العراقيين». لم يسمح لنا الجنود بالذهاب إلى حقول النفط. وكان التقنيون يريدون البدء بتصدير النفط مجدّداً، وأبلغونا أن علينا زيادة الإنتاج. كانوا يريدون تصدير النفط الكويتي وذلك قبل العقوبات. وفي أحد الأيام، بعد أن قرّر مجلس الأمن العقوبات، حصل عندنا توقّف مفاجئ للنفط وأخذني الجنود إلى الحقل لإصلاح العُطل. وعندما وصلت إلى هناك، شاهدت فوراً سلسلة من الأسلاك البيضاء ممدودة حتى الآبار. كانوا محترفين. وكانت الأسلاك ممدودة تحت المضخّات الرئيسية بحيث إذا أرادوا تفجيرها لا نستطيع إغلاقها. وهذا ما حصل. بعد ثلاثة أشهر، جاء العراقي الذي كان مسؤولاً عن الألغام وهو الذي وضع المتفجّرات تحت الآبار منذ البداية. كان العراقيون

يفكّرون في تدمير نفطنا». كان لدى صومالي شكوك قليلة في أن أبرياء سيموتون في كل ذلك (من التسمّم الكيميائي، من السرطان) ليس فقط في الكويت ولكن أيضاً في إيران وأفغانستان وباكستان. قال رغم الظلمة في برقان: «من المؤكّد أنهم سيموتون، لكن من سيتحمّل المسؤولية؟ صدّام؟».

أعلن الكويتيون أنهم يصدّرون الآن ١١٥ ألف برميل يومياً، وهي كمّية ترتفع إلى ٢٠٠ ألف برميل إذا أضفت النفط المستخرج من المنطقة المحايدة. إذا أمكن إطفاء الحرائق في حقول مقوى والأحمدي في نهاية آب/ أغسطس، تستطيع الإمارة إنتاج نصف مليون برميل يومياً في نهاية عام ١٩٩٢. ولكنه نصر فريد، لا يضاهي حصّة الكويت من الأوبك قبل الغزو والتي كانت ١,٥ ملايين برميل يومياً، وهو أقلّ بكثير من إنتاجها الذي تجاوز مليونيْ برميل يومياً والذي دفع صدّام لغزو الكويت. وللدفاع عن هذا المصدر المتجدّد للثروة، أصبحت الولايات المتّحدة مُجبرة الآن على إبقاء فرقة مقاتلة في الكويت الأمر الذي يفسّر لماذا كانت دبّابات M1A1 الأميركية التي كنت شاهدتها قبل خمسة أشهر على مرتفع متلة، ما تزال تقوم بدوريّات على الخطّ السريع إلى العراق.

رغم الاحتمال القوي بأن القوّة الجوّية الأميركية ستبقى في الخليج فإنه لم يكن هناك غيرهم للدفاع عن الكويت. وعندما قرّر السعوديون أنهم لم يعودوا في حاجة إلى القوّات المصرية والسورية على أرضهم، انهار كل البنيان المقترح لقوّة أمن عربية خليجية ... ولم يعد باستطاعة الكويتيين تأمين الدفاع عن الإمارة الآن كما كان الأمر قبل عام. غير أننا في هذه الذكرى الأليمة، تشجّعنا للنظر إلى مكان آخر، إلى مؤتمر السلام في مدريد الذي قيل إنه سينهي صراع الشرق الأوسط إلى الأبد. هنا أخيراً، أوحي إلينا أننا سنشهد الثمار الحقيقية للحرب بشرط أن ننسى ما عنته الحرب حالياً، أي إذا استطعنا تجاهل عشرات الألوف من الشيعة الذين وضعوا أمام فِرق الإعدام عند صدّام، والمأساة الملحمية للأكراد. وإذا استطعنا القبول بأن النظام العالمي الجديد كان هو نفسه النظام العالمي القديم تقريباً ولكن بصيغة مهذّبة، عندها ربّما نستطيع الإيمان بالمستحيل.

بمعنى ما، سيكون مؤتمر السلام (أو أكثر من ذلك وبشكل مباشر: تسوية سلميّة) عملية إعادة اعتبار للحدود المرسومة بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ مع إقامة الدولة الأصلية لإسرائيل والتي رُسِمت عام ١٩٤٨. سيكون الأمر عبارة عن عودة إلى حدود مقبولة. إذاً، يتعلّق الأمر بالنظام العالمي القديم. وهذا هو ما ترتكز عليه جذور السياسات الغربية في الشرق الأوسط. كان علينا إدراك ذلك عندما سمح الأميركيون بسحق معارضي صدّام المحلّيين. ففي مواجهة خيار السماح بتجزئة العراق أو السماح لشعب العراق بإعادة رسم خريطته في هذا الجزء من الشرق الأوسط، فضّل الغرب صدّاماً حسن التصرّف أو على الأقلّ غير مؤذٍ عالمياً.

هذا ما كان يجب على حرب الخليج ١٩٩١ تلقيننا إيّاه: إن الغرب هو مَن يقرّر مستقبل المنطقة أكان ذلك بطريقة لطيفة أم كارثية لا فرق، تماماً كما فعلت القوى الغربية العظمى منذ أكثر من سبعين عاماً. وسوف يدفع الزعماء المحلّيون الذين خرجوا عن السيطرة بمَن فيهم صدّام الثمن حتى لو كان على المستوى الشخصي أقلّ رُعباً من مصير الذين يرقدون في المقابر الجماعية في مرتفع متلة.

أمام هذا الأفق المخيف، بدت معاناة الكويت المستمرّة وطلبها عودة ٨٥٠ مواطناً مفقوداً ظلّوا أسرى في العراق، ضئيلة وحتى في غير موضعها. لكن قضية المفقودين إضافة إلى رؤية هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا في حالات عديدة قد خطفوا من قِبل العراقيين في الساعات الأخيرة للاحتلال، ستكون تجربة موجعة لآلاف الكويتيين في السنوات القادمة. عليك فقط زيارة مبنى الرياضة حيث أنشأت «اللجنة الكويتية للمفقودين وشؤون أسرى الحرب» مقرّها في ضاحية سلمان الصباح لتفهم ما يجري.

كانت القاعة مليئة بالصمت والصور. كان بعضها صوراً فوتوغرافية لشباب يرتدون دشاديش بيضاء أو بنّية وأخرى لطلّاب مبتسمين تخرّجوا في المعاهد الأميركية. وعلى الجدران صور ضبّاط في الشرطة وجنود وأطبّاء وأطفال ونساء محجّبات، ولقطات فوتوغرافية معاد تصويرها أو مأخوذة لكويتيين في حفلات أو أفراح أو أعياد ميلاد يبتسمون مع كل الغنى والثقة المفرطة قبل اجتياح الكويت. لا أحد يتمنّى أن يُقسّم أصحاب هذه الصور بين حي وميت مع أن معظمهم موجود منذ فترة في مقابر جماعية... ومع مرور السنين، أصبحت هذه النفوس (٨٥٠ مفقوداً) جزءاً من مبرّر وجود الكويت ودليلاً على مصابها وإحصاءً حيوياً يساعد على تحويل انتباه العالم عن حياة البؤس الجديدة التي يعيشها العراقيون الآن إلى الشمال من الحدود. كانت محنتهم مزيّنة على شكل إعلان أولمبي على الجسم المستعاد للطيران الوطني للكويت. كان إعلان «أعيدوا أسرانا الـ ٨٥٠» مطبوعاً على زاوية كل باب طائرة ركّاب. وما ٨٥٠ كويتياً مفقوداً مقارنة مع مئة ألف عراقي قتيل؟ يردّ الكويتيون بتهذيب إن العراقيين كانوا غُزاة بينما الـ ٨٥٠ مفقوداً كانوا ضحايا بريئة للعدوان.

في أواسط التسعينيّات، تعدّت فظائع البوسنة، وكذلك الذبح والاغتصاب الجماعي للمسلمين في يوغوسلافيا القديمة، معاناة الكويت تحت الاحتلال العراقي. وقد بدّد عمل الكويت في التطهير العِرقي (طرد ٣٦٠ ألف فلسطيني من بيوتهم بعد التحرير) الكثير من التعاطف الدولي مع عائلات الكويتيين الذين أُخذوا بالشاحنات إلى السجن في البصرة وبغداد والناصرية والسماوة.

اعترف الجنرال شوارزكوف في مذكّراته بأن عودة الأسرى المدنيين الكويتيين من العراق كان أحد شروط وقف إطلاق النار إلّا أن جنرالات صدّام حسين رفضوا مناقشته ربّما لأنهم كانوا يعرفون أن معظمهم قد مات أصلاً.

إذا نظرنا اليوم إلى رواية الجنرال شوارزكوف حول هؤلاء المئات من المدنيين نجد أنها قصّة دبلوماسية ضعيفة إلى حدود مؤلمة من جانب الحلفاء المنتصرين. وقد كتب شوارزكوف في روايته حول مفاوضات وقف إطلاق النار في شباط/فبراير ١٩٩١: «توصّلنا إلى الحصول على تأكيد من جنرال عراقي بأن أي شخص جاء إلى العراق منذ غزو الكويت لديه الحرية في التقدّم إلى الصليب الأحمر أو الرحيل إذا أراد».

في الحقيقة، لم تتلقّ لجنة الصليب الأحمر الدولي أيّ اتصال من كويتيين في بغداد أو في مكتبها في ضاحية

البصرة. كان هناك اهتمام كبير بنحو ٦٥٠ أو أكثر من المدنيين (بينهم ٣٠ امرأة) المعروف أنهم اعتقلوا في الكويت خلال الاحتلال والذين شوهدوا لاحقاً في سجون داخل العراق... وقد رأى العديد من الكويتيين الذين أُخذوا رهائن في الأيام الأخيرة للحكم العراقي هؤلاء المدنيين في سجونهم العراقية، وذلك قبل فترة قصيرة من تحريرهم وعودتهم إلى الكويت. . وكان هذا بحدّ ذاته دليلاً رئيسيّاً على أن الرجال والنساء المفقودين ما زالوا أحياء.

لكن منذ شباط/فبراير ١٩٩١، لم يكن هناك أي كلام مباشر عنهم أو رسائل مكتوبة منهم، أو وصول الصليب الأحمر إلى سجونهم، سوى الدليل الافتراضي القديم بأن الكويتيين ما زالوا أحياء في السجون العراقية..

رأى مصريّان على سبيل المثال سميرة (لم يُذكر اسم عائلتها حفاظاً على أمنها) في أول آب/أغسطس ١٩٩١ تعمل مع نساء أُخريات من أسرى الحرب في بغداد. وقد طلبت منهما إبلاغ والدتها أنها ما زالت على قيد الحياة و أنها تعمل في التنظيفات في مستشفى السعدي وتعيش في سجن الكاظمية الذي يديره عُديّ حسين، ابن الرئيس. هذا كل ما قالته للمصريَّين، رسالة سلّماها بأمانة إلى السلطات الكويتية.. هذه الأسيرة ذات الـ ٢٩ عاماً تُظهرها الصورة الفوتوغرافية في ملفّها امرأة جميلة شعرها كستنائي وعيناها لامعتان وقد شوهدت مرّة واحدة فقط قبل يوم ١٥ آذار/مارس ١٩٩١ عندما وجهّت الرسالة نفسها. بعدها كان الصمت المطبق.

استمدّ الكويتيون قوّة الصبر من الأسرى الإيرانيين وعددهم ٢٠٠٠ الذين اعتقدت إيران أنهم أموات ثم ظهروا أحياء في سجون صدّام بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية عام ١٩٨٨. أحبّ صدّام الرهائن.. هكذا فكرّوا وحلّلوا.. وقد عرف كيف يستخدمهم. فهو اعتقل آلاف الغربيين بعد غزوه الكويت عام ١٩٩٠، لكن لم يكن للسجناء الكويتيين أهمّية عنده... ولم يُشاهَد أيّ من هؤلاء الأسرى الرجال أو النساء (الـ ٨٥٠) ولا حتى سميرة، حيّاً بعد. وقد عرف الكويتيون السبب بعد الغزو الأنغلو ـ أميركي عام ٢٠٠٣.. فمن بين آلاف الجثث التي نُبشت من أماكن الإعدام في الصحراء غرب الحلّة وجدت ١٢ جثة لرجال يحملون الجنسيّة الكويتية.. وهكذا فإن لدى الكويت اليوم أسماء أكثر لتضيفها إلى لائحة شهداء الحرب: إنه عدد صغير ربّما لكنه دليل إضافي على أن العرب يموتون بيد العرب.

ولكن، إلى الشمال من الحدود، هناك الآن أرض قاحلة من البؤس والخوف والهزيمة.. لقد قُصفت محطّات الطاقة الكهربائية ومحطّات تكرير المياه، وتحطّمت أنظمة تكرير المياه بفعل تفجيرات الحلفاء، وكانت المجارير تتدفّق في الشوارع وفي البيوت. وقد شاهد الصحفيون الغربيون الذين أُخذوا بالهيليكوبتر للقيام بجولة فوق جنوب العراق الآلاف من تحصينات الدبّابات والخنادق وكلّها مغطاة الآن بالعشب والرمال، فقد استنزف الجيش العراقي طاقاته في سحق الانتفاضة، وفي الحفاظ على النظام.. إن تهديد الجيران لم يعد بعد الآن خياراً ممكناً. كان العراق مهزوماً وشعبه خاضعاً لعقوبات الأمم المتّحدة التي كانت تهدف أوّلاً إلى إقناع صدّام بالانسحاب من الكويت دون قتال ومن ثم إلى تدمير نظامه (لم يتحقّق أيّ من الهدفين)، كان العراق يوشك على السير في رحلة موت جماعي بطيء أمست أكثر رعباً وأكثر خِزياً لأن هذه العقوبات فرضتها الدول التي تعتبر نفسها الأكثر تحضّراً على الأرض.

كان الشيعة في جنوب العراق يعيشون في خطر مُميت على حياتهم، وكانت جُثث أولادهم وأزواجهم وأخوتهم في أماكن الإعدامات حول الحلّة والناصرية. كان المسجد الكبير المطليّ بالذهب (مسجد الإمام علي في النجف) مدمّراً جزئياً، وقُبب الرخام الزرقاء التي عمرها عدة قرون تنتشر على شكل أكوام حول المقام: تذكارات للصحفيين المارّين، ولحرس صدّام الجمهوري الذين شقّوا طريقهم إلى داخل الأماكن المقدّسة لدى المسلمين الشيعة لقتل الثوّار الذين التجأوا إلى هناك.. بعد ١٢ سنة، كان الثوّار الشيعة في بعض الحالات هم أنفسهم الرجال الذين قاتلوا قتلة صدّام عام ١٩٩١، وكانوا يختبئون في المقام نفسه، هذه المرّة هرباً من نيران دبّابة أميركية.. إلى الشمال كان الأكراد يعيشون الآن تحت الحماية البريطانية والأميركية، رغم إبادة المئات من قراهم بالغاز والتي دمّرت بعد ذلك بشكل منظّم بأوامر من صدّام.. لقد أُخمِد التمرّد الشيعي، وأُخمِد التمرّد الكردي... ولاحقاً، بعد وقت طويل، عندما أتينا لتدمير صدّام كنا نتوقّع منهم أن يكونوا شاكرين لنا... لكنهم كانوا يتذكرون.

إن العقوبات التي خنقت العراق حوالى ١٣ سنة قد نالت إلى حدّ كبير من رواية مغامراتنا الشرق أوسطية. فقد طوى غزونا للعراق عام ٢٠٠٣ أو هذا ما تمنّيناه، صفحة معاملتنا للشعب العراقي قبل ذلك التاريخ... وأزيلت وصمة العار المرتبطة بسجن شعب بكامله وبإضعافه المستمرّ وبالموت تحت نظام عقوبات الأمم المتحدة... وعندما استقرّ المحتلّون الأميركيون والإنكليز داخل قصورهم في بغداد، وضعوا اللوم على صدّام حسين في تدمير الطاقة الكهربائية ومحطّات ضخّ المياه والمصانع والحياة الاقتصادية كما لو أنه وحده خطّط لإفقار العراق.. لم تُذكر العقوبات أبداً، فقد أصبحت أشباحاً خارج القصّة... أوّلاً كان هناك صدّام ومن ثمّ «الحرية».

وبالطبع، عندما فُرضت العقوبات للمرّة الأولى بعد غزو العراق للكويت، كان هناك احتجاج ضئيل... فلو أنهم كانوا يستطيعون إكراه صدّام على الانسحاب من الكويت دون الحاجة إلى الحرب فإن القليلين كانوا سينتقدونهم... بالإضافة إلى أن محطّات الطاقة العراقية كانت لا تزال تعمل قبل تحرير الكويت بالطاقة الكاملة.. وكان اقتصاده، رغم اضطرابه نتيجة لثماني سنوات من الحرب مع إيران، لا يزال قادراً على تزويد العراقيين بأعلى مستويات العيش في العالم العربي. لقد تمّ إدخال نظام الحصص إلى العراق في أيلول/سبتمبر ١٩٩٠... غير أن معظم الغربيين، وكذلك معظم العرب، افترضوا أنه عندما ينسحب صدّام من الكويت، وإن شاء الله قبل حصول أي عمل عسكري، فإن هذه العقوبات سترفع.. وكما يحدث غالباً في الشرق الأوسط، فإن أي قرار يبدو لطيفاً في البداية قبل أن يتحوّل بسرعة إلى سلاح أكثر فتكاً من الصواريخ أو القذائف.

صدر قرار مجلس الأمن رقم ٦٦١ يوم ٦ آب/أغسطس ١٩٩٠، وما كادت تمضي أربعة أيام على عبور جيش صدّام حدود الكويت، داعياً كل الدول إلى حظر استيراد كل البضائع والمنتجات التي يعود منشأها للعراق أو للكويت ومنع تزويد العراق بكل البضائع باستثناء البضائع المتعلّقة مباشرة بالأمور الطبّية وبالأمور الإنسانية «موادّ غذائية». في المقابل كان من الواضح أن الولايات المتحدة لا تعتقد البتّة بأن هذه العقوبات الليّنة بالمقارنة مع إجراءات ما بعد الحرب، سوف تقنع صدّام بسحب قوّاته من الكويت، وكما سوف تدّعي أميركا وبريطانيا بعد ١٢

سنة فإن مفتّشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة لم يستطيعوا في ذلك الحين إنهاء عملهم قبل غزو ٢٠٠٣.. لذا تخلّى الأميركيون عن نظام العقوبات عندما تمركزت قوّاتهم لتحرير الكويت.. واستنتجت مؤسّسة واشنطن لسياسة الشرق الأدنى قبل نهاية ١٩٩٠، أنه لا يمكن الاعتماد على العقوبات للوصول إلى نتيجة مؤكّدة. وفي ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، كان وزير الخارجية البريطاني دوغلاس هيرد يعلن أن بريطانيا مصمّمة على القتال من أجل الكويت لأنه ليس لعقوبات الأمم المتحدة تأثير فعّال على قدرة صدّام على شنّ حرب.. وبعد الحرب فقط قامت الولايات المتحدة بتوضيح أن العقوبات لن تُرفع حتى رحيل صدّام حسين. وصرّحت الناطقة باسم البيت الأبيض مارلين فيتزواتر أن العقوبات ستبقى حتى يحصل تغيير في الحكم في العراق. لكن تأثير العقوبات كان الآن قد أصبح كارثياً.. عام ١٩٩١، أضعف الحلفاء محطّات الطاقة وقاموا عن عمد بقصف محطّات المياه وشبكات الصرف الصحّي، وهذا قرار سيؤدّي إلى كارثة إنسانية بين المدنيين في العراق.. وقد أعلن فريق من المحامين ومن الاختصاصيين في الصحّة العامّة من هارفرد بعد زيارتهم ٤٦ مستشفى عراقياً و٢٨ محطة مياه وصرف صحّي عام ١٩٩١: أن عدد الموتى من الأطفال تحت سنّ الخامسة في العراق وصل إلى خمسة أضعاف وأن مليون طفل تقريباً لا يتغذّون جيّداً ومئة ألف يموتون من الجوع. وقد وجدت دراستهم أن ٤٦٧٠٠ طفل تحت سنّ الخامسة ماتوا من التأثيرات المشتركة للحرب والعقوبات الاقتصادية في الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩٩١.

وفيما بدأ يتزايد عدد العراقيين الذين يموتون ليس فقط بسبب المياه المكرهين على شربها من محطّات المياه المتضرّرة بالقنابل ولكن بسبب منعهم بشكل متزايد من الحصول على الأدوية التي يحتاجون إليها للشفاء، قامت لجنة من الأمم المتّحدة بإعادة ترسيم الحدود الجنوبية للبلاد لحرمانها من جزء من حقول النفط الرملية ومن القاعدة البحرية في أمّ القصر، وهي المنفذ الوحيد للعراق على مياه الخليج. وقد جرى ضمّ الأراضي المصادرة إلى الكويت... وأصرّ الزعماء الغربيون على أن باستطاعة صدّام حسين استخدام موارد العراق الذاتية لدفع قيمة المساعدات الإنسانية متجاهلين عن قصد أن ودائع العراق المالية محجوزة وأن مبيعاته النفطية ممنوعة... وفي نهاية العام ١٩٩٤، وصل التضخّم المالي العراقي إلى ٢٤٠٠٠ في المئة سنوياً، وأصبح معظم السكّان محتاجين.. وفي شوارع بغداد، كانت الطبقات الوسطى أيضاً تعرض مكتباتها للبيع من أجل المال اللازم لشراء الطعام. وانتهت مجلّدات الفكر الإسلامي، وكتب شكسبير بالإنكليزية، والأطروحات الطبيّة والأكاديمية حول الهندسة العربية إلى أرصفة شارع المتنبّي في بغداد.

مع حلول العام ١٩٩٦، كانت التقديرات أن نصف مليون طفل ماتوا نتيجة العقوبات. وقامت مادلين أولبرايت التي كانت مندوبة الولايات المتّحدة في الأمم المتّحدة بالإدلاء بردّ مقيت يوم ١٢ أيار/مايو من ذلك العام عندما سُئلت عن العقوبات في برنامج سي. بي. أس CBS الإخباري ستون دقيقة.. يومها سأل أنغور لسلي ستاهل السيدة أولبرايت: «إننا سمعنا بموت نصف مليون طفل، أعني أن عدد الأطفال الذين ماتوا أكثر من عدد قتلى هيروشيما، هل الثمن يساوي هذا؟» وأجابت أولبرايت: «أعتقد أن هذا الخيار صعب لكنّ الثمن يساوي هذا!!!!». وفي آذار/مارس ١٩٩٧، أصبحت أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية وقد صرّحت باستحالة إنهاء العقوبات. «نحن

لا نوافق الدول التي تقول بأنه يجب رفع العقوبات في حال التزم العراق بتعهّداته المتعلّقة بأسلحة الدمار الشامل. إن وجهة نظرنا التي لا تتبدّل هي أنه يجب على العراق إثبات نواياه السليمة. وهناك كمّ من الأدلّة على أن نوايا صدّام حسين لن تكون أبداً سليمة».

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٦، قدّر فيليب هيفنينك ممثّل صندوق رعاية الأطفال التابع للأمم المتّحدة في العراق «أن حوالي ٤٥٠٠ طفل تحت سنّ الخامسة يموتون كل شهر من الجوع والمرض». بعد عام، توصّلت دراسة مشتركة بين الأمم المتّحدة وبرنامج الغذاء العالمي إلى استنتاج «أن العقوبات أضعفت بشكل كبير قدرة العراق في الحصول على العملات الأجنبية التي يحتاج إليها لاستيراد كمّيات كافية من الطعام لتلبية احتياجاته»... في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧، قدّمت اليونيسيف تقريراً جاء فيه أن ٣٢ في المئة من الأطفال تحت سنّ الخامسة، أي حوالي ٩٦٠ ألف طفل، لا يأكلون بشكل جيّد، وقد زادت النسبة إلى ٧٢ في المئة عام ١٩٩١، وأن حوالي ربع الأطفال هم تحت معدّل الوزن الطبيعي، أي أعلى مرّتين من النسب الموجودة في الأردنّ وتركيا المجاورتين.

وطيلة هذه الفترة تغيّرت أسباب العقوبات أو الشروط التي يجب تلبيتها لرفعها، كما جرى تمديدها. وكان على صدّام السماح لمفتّشي لجنة الأمم المتّحدة الخاصّة بمراقبة الأسلحة بالقيام بعملهم بحرّية، ووقف التعدّي على حقوق الإنسان وتحرير الأسرى الكويتيين ووقف تعذيب شعبه والاعتراف بسيادة الكويت ودفع خسائر الحرب وسحب بطّاريات الصواريخ من منطقة الحظر الجوّي المحدّدة من الأمم المتحدة... إذا أخذنا هذه المطالب بشكل فردي لا نجد فيها ما يُشين.. أما لو أُخذت جُملة فإنها كانت تهدف إلى التأكيد على أن نظام العقوبات مستمرّ إلى ما لا نهاية.. في كانون الثاني/يناير ١٩٩٨، كان البابا يتحدّث عن الحصار القاسي المفروض على العراقيين، مضيفاً «إن الضعيف والبريء لا يستطيع دفع ثمن أخطاء ليس مسؤولاً عنها». وبدأ المسؤولون الأميركيون بالتحذير من أن العقوبات سوف تبقى إلى الأبد إلّا إذا وافق صدّام على المطالب الأميركية.

وأشار المتحدّثون والمتحدثات الأميركيون تكراراً إلى أن صدّام حسين نجح في التهرّب من تأثيرات العقوبات.. وظهرت أولبرايت في الأمم المتّحدة ومعها صور التقطتها الأقمار الصناعية لمجمّعات سكنية ضخمة في العراق قالت إنها صور لبناء قصور جديدة لصدّام حسين.. كانت صادقة في قولها ولكن مخطئة في استنتاجاتها. ففي حال كان صدّام قد نجح في تجنّب تأثير عقوبات الأمم المتّحدة على نظامه فإن هذه العقوبات تكون قد فشلت بشكل واضح في تحقيق هدفها.. عام ١٩٩٨ أصبح هاجس وزير الخارجية البريطاني روبين كوك هو قيام النظام العراقي بشراء معدّات شفط الشحم، الأمر الذي يعتبر دليلاً إضافياً على فشل العقوبات، في حال تأكّدت صحّته. وهو أعلن مراراً أن العراق يستطيع بيع ما قيمته ١٠ مليارات دولار من النفط سنوياً لدفع ثمن الطعام والدواء والاحتياجات الأخرى الإنسانية... لكن بما أن أكثر من ٣٠ في المئة من عائدات النفط كانت تذهب إلى صندوق التعويضات ومصاريف الأمم المتّحدة في العراق، فإن تصريحه كان خاطئاً.

وقد وجد صدّام حسين الآن قضية مشتركة مع أميركا.. فبقدر ما كانت الأخيرة بحاجة إلى إثبات أن صدّام زاد من معاناة شعبه فيما كان يبني معابد لعظمته، كان صدّام بحاجة إلى أن يظهر أمام العالم، وبخاصّة العرب، كم كانت وحشية الأميركيين في تحطيم أهالي العراق الأبرياء... لقد كان ذلك رواية وجدت تأثيراً قوياً عند أحد أعدائه العرب: أسامة بن لادن، الذي عبّر بشكل دائم عن تعاطفه (وقد فعل ذلك في إحدى مقابلاته معي) مع الشعب العراقي المعاني في ظلّ العقوبات الموحاة أميركياً.. إن أولئك الذين زاروا العالم الرمادي المحتضر الذي كان عليه العراق خلال تلك السنوات المرعبة، كانوا أحياناً، بقدر ما كنا نحن أيضاً، غاضبين من استخدام الحكومة العراقية للمعاناة التي شهدناها. ففي كل صباح، كان مفكّرو وزارة الإعلام يستحثّون الصحفيين الأجانب لمشاهدة التظاهرات العفوية التي يقوم بها المدنيون العراقيون ضدّ العقوبات. كان الرجال والنساء يجوبون الشوارع حاملين التوابيت التي كانت تحتوي بحسب زعمهم جثث أولادهم الذين ماتوا من المرض وسوء التغذية. وعندما كنا نطلب رؤية ما بداخل الصناديق الخشبية كانوا يبلغوننا أن الاحتجاج رمزي وأن التوابيت تمثّل الموتى فقط... غير أن الموتى كانوا حقيقيين.. كانت أنهار المجاري التي تجري الآن بشكل سيّىء في المناطق الأكثر اكتظاظاً من ضواحي بغداد دليلاً على انهيار الخدمات الاجتماعية الأساسية. وجاءت تقارير من المناطق الريفية تقول إن العراقيين كانوا يأكلون العشب للبقاء على قيد الحياة.

إذن لماذا فرض الأميركيون والبريطانيون وأصدقاؤهم الآخرون نظام العقوبات البغيضة على العراق؟ لقد توصّل الكثيرون من عمّال الإغاثة الغربيين وموظفو الأمم المتّحدة في بغداد إلى استنتاجاتهم الخاصّة.. كانت مارغريت حسن، البريطانية المتزوّجة بعراقي، والتي كانت تدير مكتب كَير Care في بغداد، مستاءة من هول المأساة التي كانت تناضل للتعامل معها. قالت: «يريدون منا التمرّد ضدّ صدّام، يعتقدون أننا محطّمون لدرجة أننا سنفعل أي شيء، حتى التضحية بأرواحنا، للتخلّص من صدّام... لقد فشلت الانتفاضة ضد حزب البعث عام ١٩٩١، لذا فإنهم يستخدمون الآن أساليب أكثر قذارة. لكنهم مخطئون.. لقد تحوّل هؤلاء الناس إلى فقراء وهم يعيشون على القذارة... وعندما لا يكون لديك مال أو طعام فإنك لا تهتمّ بالديمقراطية أو بمن هم حكّامك».

كانت مارغريت حسن على حقّ ... أبلغ أحد مخطّطي القوّة الجوّية الواشنطن بوست عام ١٩٩١: «الخطة الأساسية هي أننا أردنا جعل الشعب يفهم الآتي: تخلّصوا من هذا الرجل وستكونون أكثر من سعداء لمساعدتكم في إعادة البناء. لن نتسامح مع صدّام حسين ونظامه. قوموا بذلك وسنصلح الكهرباء». قبل فترة من تحرير الكويت عام ١٩٩١، وصف مستند لوكالة الاستخبارات العسكرية الأميركية النتائج المحتملة لتدمير محطّات الطاقة واستمرار العقوبات الاقتصادية: «من دون موارد محلّية تسمح باستبدال قطع معالجة المياه والحصول على بعض الكيميائيات الضرورية، فإن العراقَ سوف يستمرّ في المراوغة والاحتيال على عقوبات الأمم المتّحدة لاستيراد هذه الاحتياجات الضرورية. وإن الفشل في تأمين هذه الإمدادات سينتج منه نقص في مياه الشرب لمعظم السكان». بعبارة أخرى، كانت الولايات المتّحدة وبريطانيا وأعضاء آخرون في مجلس الأمن مدركين جيّداً أن النتيجة الرئيسيّة لعمليّة القصف والعقوبات ستكون الانهيار الجسدي والمرض والموت للمدنيين العراقيين. إن وصف ذلك بالحرب البيولوجية قد

يكون أقرب إلى الصواب.. إن الطبيعة الحقيقية لحرب ١٩٩١ في الخليج ستصبح الآن أكثر وضوحاً بالنسبة إلى المدنيين العراقيين: أقصف الآن، ولتمت لاحقاً..

قبل فترة قصيرة من عيد الميلاد ١٩٩٧ حصل دنيس هاليداي، الإيرلندي الملتحي والأصلع الذي كان يرأس برنامج الأمم المتّحدة «النفط مقابل الغذاء»، على دليل شخصي ومحزن جدّاً لما يعني ذلك.. لقد قام بزيارة إلى أربعة أطفال عراقيين يعانون من فقر الدم في المركز الطبّي لصدّام حسين. أبلغني هاليداي في مكتبه الضيّق في بغداد، المغطاة جدرانه بسجّاد عربي رخيص: «قال لي الأطبّاء إنهم لم يستطيعوا الحصول على أدوية لمعالجتهم.. وقد اشتركت معهم أنا وزميل لي في منظّمة الصحّة العالمية حتى استطعنا تأمين الأدوية التي يحتاجون إليها، بعضها من الأردنّ والبعض الآخر من العراق، ممّا يعني أنها هُرّبت حتماً من تركيا. ثم عدت ليلة الميلاد لأتفقّد الأطفال في جناحهم، كان اثنان منهم قد ماتا».

كان هاليداي يتألّم أصلاً جرّاء وظيفة توزيع الطعام والدواء لـ ٢٣ مليون عراقي جميعهم معاقبون وبعضهم يموت بسبب ظروف المستشفيات الفظيعة نتيجة لجرائم صدّام. في الوقت نفسه وفيما كان يسعى لتأمين الأدوية للأطفال كتب هاليداي الذي كان على وشك الاستقالة رسالة جافّة إلى الأمين العام للأمم المتّحدة كوفي أنان يشتكي فيها من أن ما تقوم به الأمم المتّحدة في العراق يسبّب معاناة لا توصف للأبرياء. قال: «كتبت أن ما نقوم به هو نسف للمصداقية الأخلاقية للأمم المتّحدة ووجدت نفسي في حيرة أخلاقية. بدا لي أن ما نقوم به كان متناقضاً مع البنود المتعلّقة بحقوق الإنسان في ميثاق الأمم المتحدة نفسها». كان هاليداي واحداً من طائفة الكوايكرز (أو الأصدقاء ـ المترجم) وقد سبق له أن عمل في كينيا وإيران قبل الانضمام إلى بيروقراطية الأمم المتّحدة في نيويورك، وكان يبحث عن بعض البدائل للعقوبات ـ وبحثه هذا كان دون جدوى لأنه لم تكن لدى الولايات المتّحدة وبريطانيا النيّة لإنهاء مأساة العراق.

كان مكتبه مليئاً بالإحصائيات التي لا تريد الأمم المتّحدة معرفتها... إنّ محطّات الطاقة الكهربائية تنتج أقلّ من ٤٠ في المئة من قدرتها وأنّ المياه وأنظمة التنقية على وشك الانهيار. كان الأطبّاء مُجبرين على إعادة استعمال القفّازات المطّاطية خلال العمليات، وكانت أجنحتهم بدون تكييف أو ماء نظيف. وكان ضغط الماء يهبط في الأنابيب لعدم وجود المضخّات الكهربائية، وكانت المجاري تشفط بالمكنسة الكهربائية. «اعتادت الحكومة هنا على تشجيع استخدام الطرق البدائية.. والطريقة البدائية مع وجود ماء ملوّث تُعتبر قاتلاً حقيقياً». لكن هاليداي كان قلقاً من الآثار الأخرى الطويلة الأمد للمعاناة. هناك رجال ونساء هم الآن في العشرينيّات والثلاثينيّات والأربعينيّات من العمر عرفوا أكثر قليلاً من مجرّد الحرب العراقية ـ الإيرانية، وحرب الخليج والعقوبات... إنهم يرون أنفسهم محاطين بأناس غير ودودين، وبأميركا وبريطانيا غير الصديقتين إطلاقاً. إنهم بعيدون عن التكنولوجيا والاتصالات، ولا يستطيعون رؤية التلفزيون الغربي... وهؤلاء هم الأشخاص الذين سيتحمّلون مسؤولية البلاد في المستقبل.

إنهم يشعرون بالعدائية وقد أصبحوا انطوائيين جدّاً. وسيعرف جيرانهم المباشرون وقتاً عصيباً في التعامل معهم.

لم يكن زميل هاليداي في مكتب اليونيسيف UNICEF في بغداد أكثر تفاؤلاً منه... في الخارج، كان أطفال قُساة يفتّشون في القُمامة في زاوية الشارع. وفي الداخل، كانت سجلّات فيليب هفينك تظهر أن معدّل سوء التغذية للأطفال تحت سنّ الخامسة وصل إلى ٣١٪، «هذا يمثّل مليون ومئة ألف طفل في كل العراق بما في ذلك المناطق الكردية. هذه مشكلة خطيرة، وخطيرة بشكل خاصّ عندما يكون لديك سوء تغذية مزمن وخطير حتى سنّ الثانية وهي الفترة التي يتشكّل فيها الدماغ. إن ذلك يؤدّي إلى الذهول.. هناك فقدان نموّ جسدي وعقلي سوف يصيب الطفل، وسوف يؤثّر على دراسته وعلى فرص عمله، وفرص تأسيس عائلة.. ومن المحتمل إصابة نسله أو نسلها أيضاً». في نيسان/أبريل وصف باتريك كوك بورن الذي يراسل من بغداد صحيفة الإندبندنت، الطريقة التي تغيّر فيها لون نهر دجلة إلى «قهوة بالحليب بنّية» لأن قذارات ٣,٥ ملايين نسمة في بغداد والمدن الأخرى تتدفّق في النهر. وكَتب: «تلوّث مياه الشرب كان السبب الرئيسي في ارتفاع نسبة الأطفال العراقيين الذين يموتون قبل بلوغ سنّ ١٢ شهراً، من ٣٪ في السنة قبل العقوبات إلى ١٢٪ بعد تسع سنوات. وقد أدّى نقص قِطع الغيار الكهربائية وغياب الموظفين والانخفاض الكبير في تأمين الطاقة إلى انقطاع المياه العذبة في مناطق عديدة»(*).

شعر عمّال الإغاثة الغربيون في بعض الأحيان أن مساهمتهم عديمة الفائدة تقريباً. وقد وصفت جودي مورغان التي عملت في بغداد كيف شعرت أنها أشبه بقربيبة فقيرة للملك. قالت لي إنه بعد ظهر يوم من عام ١٩٩٨: «كانت المياه تسيل حول أرجلنا قبل أن تُتاح الفرصة لنا لكي نطلب من المدّ والجزر الرحيل». كان لدى زميلتها مارغريت حسن ملفّات ضخمة من الأمثلة تثبت أنها تقول الحقيقة. قالت: «لو كان هذا بلداً من بلدان العالم الثالث، لاستطعنا إحضار بعض مضخّات المياه بقيمة بضع مئات من الجنيهات ولأنقذت آلاف الأرواح. لكن العراق لم يكن بلداً من العالم الثالث قبل حرب ١٩٩١، وأنت لا تستطيع تقديم مساعدة لمجتمع متطوّر. المشكلة في شبكة المياه هي نتيجة للانهيار والضرر الحاصل في محطّات تكرير المياه الباهظة الثمن والأبنية. وهذا يتطلّب مئات آلاف الجنيهات، ثمن صيانة لمنطقة واحدة فقط من البلاد. الأطبّاء هنا ممتازون، والعديد منهم تدرّب في أوروبا وكذلك في العراق لكن نتيجة العقوبات لم يطّلعوا على مجلّة طبّية منذ ثماني سنوات. ومعروف في العلوم، ماذا يعني ذلك. ولقد كشفت نظرة سريعة إلى لائحة الموادّ المحظورة من قِبل لجنة العقوبات في الأمم المتّحدة طبيعة الحملة الطفولية والحاقدة التي تثار الآن ضدّ العراق. كان ضمن اللائحة: أقلام. برّايات، أشرطة، أحذية، أقمشة للأكفان، مناشف صحّية، صابون سائل للشعر، مستحضرات لتنقية المياه، مماسح طبية، شاش، إبر طبّية، مجلّات طبّية، كوبالت لآلات تصوير الأشعّة، قفّازات للعمليات الجراحية، أدوية للصرع، معدّات للجراحة،

(*) كان دليل المعاناة البشرية الهائلة فاضحاً الآن. أورد مصدر مسؤول عن النواحي الإنسانية في الأمم المتّحدة حول العقوبات عام ١٩٩٩. «إن خطورة الوضع الإنساني للشعب العراقي لا نقاش فيها ولا يمكن وصفها. وبصرف النظر عن المحاولات المزعومة للسلطات العراقية المبالغة في وصف بعض الحقائق لأسباب دعائية سياسية، فإن المعلومات من مصادر مختلفة وكذلك التقارير النوعية لمراقبين مخلصين وتحليلات ذكيّة حول التحوّلات الاقتصادية تقارب وتؤيّد هذا التقييم». وقد أوردت اليونيسيف في آب/أغسطس ١٩٩٩ أن انخفاض معدّل الوفيات الجوهري في العراق المسجّل في الثمانينيّات لو استمرّ خلال التسعينيّات لكان هناك نصف مليون طفل ميت (في عمر أقلّ من سنّ الخامسة) في البلاد إجمالاً للفترة ما بين ١٩٩١ و١٩٩٨.

معدّات لتنقية الدم، أدوية للذبحة الصدرية، شحنات غرانيت، معدّات لمصانع النسيج، معجون أسنان، فرش أسنان، أوراق صحيّة للحمّام، كرات تنس، ملابس للأطفال، طلاء للأظافر، أحمر للشفاه(*).

سجّل الصحفي الناشط جون بيلفر، وهو أحد المراسلين القلائل الذين كانت لديهم الشجاعة للتنديد بالعقوبات الحقيرة وغير الأخلاقية، كيف أن دائرة الصناعة والتجارة البريطانية، التي حاولت الدفاع عن بيع مستوعبين لغاز الخردل للعراق قبل غزو صدّام للكويت على أساس أن أحدهما يمكن أن يُستخدم لصناعة حبر الأقلام، منعت قبل عيد الميلاد عام ١٩٩٩ شحنة من اللقاحات الهادفة إلى حماية أطفال العراق من الالتهاب المعوي والصفيرة. وقد أبلغ الدكتور كيم هويلز البرلمان بالأسباب الموجبة. ويبدو أن مركزه كسكرتير مساعد في الدولة لشؤون المنافسة والاستهلاك، ناسب إلى حدّ ممتاز ردّه الأورويلي (نسبة إلى الكاتب جورج أورويل). قال إنه تمّ حظر لقاحات الأطفال «بسبب إمكانية استخدامها في أسلحة الدمار الشامل». ولم يخطر بباله أن إصبعه كان يضغط على زناد سلاح دمار شامل مؤكّد (هو العقوبات).

عام ٢٠٠٠ بلغت نسبة المؤسّسات الصناعية المدنية العراقية التي تعمل بمعدّل طاقة أقلّ إلى أكثر من ٧٠ في المئة، ووصل معدّل البطالة إلى حوالي ٦٠ في المئة. و قد استقال هاليداي وكذلك خلفه هانز فون سبونيك، وهما كانا أكبر موظفي الأمم المتّحدة للشؤون الإنسانية في بغداد، استقال هاليدي في أيلول/سبتمبر ١٩٨٨ وفون سبونيك في ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٠ .. وهما يتحدّثان الآن للصحافة وعلى التلفزيون وفي الاجتماعات العامّة .. وكان فون سبونيك يشير إلى موت ١٦٧ طفلاً عراقياً كل يوم حين قال: «خلال سنوات عملي في الأمم المتّحدة لم أتعرّض أبداً لهذا النوع من المناورة السياسية والضغط الذي واجهته أثناء العمل في هذا البرنامج. نحن نعامل العراقيين كما لو أنهم ٢٣ مليون صدّام حسين وهذا هُراء».

وكان هاليداي أكثر صراحة حين قال في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨: «أكّدت منظّمة الصحّة العالمية لي منذ عشرة أيام فقط أن النسبة الشهرية لوفيات الأطفال تحت سنّ الخامسة، المرتبطة بنتائج العقوبات، تراوح بين ٥ آلاف و٦ آلاف شهرياً. ويُعتقد أن هذه إحصائية غير دقيقة إذ لا يجري تسجيل الأطفال عند الولادة في المناطق الريفية، كما أنه لا يتمّ تسجيلهم أبداً في حال ماتوا خلال ٦ أسابيع من ولادتهم. وقد اجتمعت مؤخّراً بقيادات الاتحادات النقابية في العراق الذين سألوني لماذا لا تقوم الأمم المتّحدة ببساطة بقصف الشعب العراقي وبشكل فعّال عوضاً عن توسيع العقوبات التي تقتل العراقيين بشكل متزايد على الأمد الطويل... إن العقوبات تنسف الانتعاش الثقافي والتعليمي للعراق وهي لن تغيّر نظام حكمه.. إن العقوبات تشجّع العزلة والعدائية والتطرّف.. إنها تشكّل خرقاً خطيراً لشرعة الأمم المتّحدة حول حقوق الإنسان وحقوق الأطفال». وكتب هاليداي عام ٢٠٠٠: «إننا

(*) وعلى سبيل المثال فإن مركز جراحة النخاع الشوكي الوطني العراقي، الذي تأسّس بمساعدة فريق دانمركي خلال الحرب العراقية-الإيرانية لمعالجة الجنود الجرحى المصابين، كان يفتقر إلى الأدوية والإمدادات طيلة فترة العقوبات. كان الموظفون مجبرين على إعادة تطهير الشاش والأنابيب الطبّية ولم يسمح لهم بالحصول على أبحاث طبّية حديثة أو مجلّات.

في منتصف سنة الألفية الثانية ونحن مسؤولون عن الإبادة في العراق. اليوم أصبح رئيس الوزراء طوني بلير في موقف الدفاع في العديد من القضايا المحلّية. وهو نادراً ما يذكر تأييده الدائم لبرنامج كلينتون ـ أولبرايت في قتل أطفال العراق. ماذا يعني هذا بالنسبة إلينا جميعاً؟».

حاولت وزارة الخارجية البريطانية وبشكل خاصّ بيتر هاين الذي يشغل الآن منصب وزير دولة مسؤول عن الشرق الأوسط التقليل من أهمّية مسؤولي الأمم المتّحدة اللذان استقالا قائلاً: وأبلغت رسالة لطيفة من وزارة الخارجية ـ قسم شؤون الشرق الأوسط طبيباً قارئاً لصحيفة الإندبندنت:

«نحن نعلم أن البعض أبدى اهتماماً باستقالة هانز فون سبونيك وقبله دنيس هاليداي المنسّقين الإنسانيين للأمم المتّحدة في العراق».

«إن إدارة برنامج فريد ومعقّد بقيمة مليارات الجنيهات تُعتبر عمل مدير متخصّص ومتفانٍ ملتزم بالقيام بالحدّ الأقصى لبرنامج النفط مقابل الغذاء للشعب العراقي. للأسف لم يكن هاليداي أو فون سبونيك الرجل المناسب لهذا العمل. كان واضحاً منذ وقت طويل أنهما اعترضا على قرارات مجلس الأمن وأهداف قرارات الأمم المتّحدة. لم يكن من مصلحتهما القيام بعمل «النفط مقابل الغذاء»..

هذا ادّعاء سخيف. إن هاليداي رجل حسّاس ومحترم وكذلك فون سبونيك وهما متخصّصان وخبيران في العمل الإنساني. والقول بأن هذين المنسّقين كانا الواحد تلو الأخر مخطئين هو أمر لا مصداقية له.

وقد زعمت الرسالة نفسها أن قراراً جديداً لمجلس الأمن ـ رقم ١٢٨٤ ـ سيجعل برنامج النفط مقابل الغذاء أكثر فاعلية لأنه سيرفع السقف عن صادرات النفط العراقية.. ولكنها (أي الرسالة) فشلت في أن تضيف أن منشآت النفط العراقي مدمّرة وأن إيّ تخفيض في أسعار آلنفط (وهذا ليس خطأ الأمم المتّحدة) ستكون له تأثيرات عكسية على المبادرة. إن ما كان يحتاج إليه العراق ليس تخفيف العقوبات المفاجئ على البضائع الشخصية بل إعادة استثمار حقيقية في الصناعة والبنية التحتية والحياة الاقتصادية، وهذا شيء لم تسمح به الأمم المتّحدة. لا حاجة إلى معجون الأسنان أو أوراق الحمّام إذا كان العراقيون غير قادرين على شرائها..

وكل بضعة أشهر، وفيما كان مفتّشو الأمم المتحدة الذين أُرسلوا لتجريد نظام البعث من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية، والذين غالباً ما كانوا يُواجَهون بفظاظة وتهديدات الأمن العراقي، يحاولون اكتشاف حجم ترسانة صدّام العسكرية. وكان الأميركيون يعلنون عن تهديد آخر من الدكتاتور العراقي بغزو الكويت وبتجاهل منطقة الحظر الجوّي المفروضة من قِبل الأميركيين في جنوب وشمال العراق لحماية الشيعة والأكراد، أو عن محاولة استرجاع صواريخ أرض ـ أرض التي تركها خلفه في المنطقة الخاضعة للأمم المتحدة أو على طول الحدود العراقية ـ الكويتية. ومراراً وتكراراً، كنت في بداية التسعينيّات، أسارع إلى مطار بيروت لأخذ طائرة أخرى إلى الكويت في حال أراد صدّام تكرار خطأه الفاحش عام ١٩٩٠... رغم أن شبكات الأخبار المصوّرة كانت تنشر صور جنود عراقيين يسيرون حول العربات العسكرية، بعضهم حافٍ والعديد منهم هزيلون وملابسهم ممزقة وبالية.

بعد سنتين من الاحتفال بالنصر في حرب الخليج ١٩٩١ شنّ الحلفاء الغربيون الرئيسيون الثلاثة في الصراع (الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا) سلسلة من الغارات الجوّية ضدّ ما يفترض أنه خرق عراقي لمنطقة الحظر الجوّي الجنوبية، والاستيلاء من الأمم المتّحدة على صواريخ «دودة القزّ» المضادّة للسفن. وفي ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣، انضمّت ست طائرات تورنادو قاذفة إلى سرب من طائرات الميراج المتمركزة في السعودية ومعها قوّة كبيرة من الطائرات الأميركية من الحاملة كيتيهوك Kittyhawk، لمهاجمة أهداف داخل العراق معظمها مواقع صواريخ وقواعد رادار. واحتجّت الولايات المتحدة لأكثر من أسبوع على قيام العراق بوضع صواريخ سام المضادّة للطائرات داخل المنطقة المحظورة.

والحال، إذا كان الأميركيون يريدون أزمة منتظمة في الخليج فإن صدّام كان يريد أيضاً تصعيد التوتّر. فقد ادّعى المتحدّث باسم صدّام مرة أخرى في ذلك اليوم: «أن الكويت جزء من العراق سيتمّ استعادته». وقامت الأمم المتّحدة بمرافقة فريق من الصحفيين إلى الحدود العراقية الكويتية الجديدة، وهي الحدود التي راجعتها الأمم المتّحدة لصالح الكويت والتي لم يقبل العراق بها، وعرضت بحبور صناديق خشبية (مطبوع عليها وزارة الدفاع ـ الأردنّ) حصل منها العراقيون على صواريخ سيلكورم القديمة في نهاية الأسبوع الفائت، وكانت تلك أسلحة أخذت أمام أعين جنود الأمم المتحدة.

في الصباح نفسه، قام العراقيون بغارتهم الثالثة عبر الحدود الجديدة التي لم يعترفوا بها مدّعين أن لديهم اتفاقاً مع الأمم المتّحدة لأخذ معدّاتهم من المخازن حتى ١٥ كانون الثاني/يناير. لكنّهم لم يطلبوا إذناً من الأمم المتّحدة أو الحكومة الكويتية للقيام بذلك. لماذا لا؟ ولماذا لم نُبلغ حتى الآن بأن الغارات العراقية على قاعدة أمّ القصر البحرية بدأت منذ ٨ أشهر؟ في أيار/مايو ١٩٩١ ظهر أن العراق استولى على ١١ صاروخ سيلكورم من القاعدة ثم على أربعة صواريخ أخرى في أقلّ من شهر. وقد أعاد الصواريخ الأربعة لاحقاً بناء على طلب لجنة المراقبة العراقية ـ الكويتية التابعة للأمم المتّحدة واحتفظ بأحد عشر صاروخاً. وأتاحت غارة نهاية الأسبوع للعراقيين الاستيلاء مجدّداً على الصواريخ الأربعة.

كان صدّام يتحرّك على ما يبدو وفق سيناريو أميركي. لكنها لم تكن المرّة الأولى التي يحصل فيها هذا التواصل القديم بين واشنطن وبغداد. فكما وجد الطرفان من المناسب تجاهل الأضرار العراقية الكبيرة في حرب ١٩٩١، يلعب صدّام الآن دوره المكلّف به كمُعتدٍ. سألني صديق كويتي قديم، وهو أحد المحظوظين الذين هربوا من الاعتقال داخل العراق في الأيام الأخيرة للحرب: «صدّام مجنون، لكن أتعلم لماذا فعل ذلك؟».. كان يضحك باحتقار لافت على ما خيّل إليّ... «صدّام لا يهتمّ لبوش. هو يريد أن يهتمّ بالعرب. لقد فشلت الأمم المتّحدة في البوسنة، والأهمّ أنها فشلت في جعل إسرائيل تسمح بعودة المعتقلين الفلسطينيين المبعدين إلى لبنان (والذين أُبعدوا بشكل غير قانوني على أنهم «إرهابيون»). لكنّ الأمم المتحدة سمحت للولايات المتحدة باستخدام العصا الغليظة ضدّ العراق. لقد أراد صدّام من العرب التفكير في هذا الفارق. وهو يعتقد أنه بهذه الطريقة سيجعل العرب يتوجّهون إليه».

كان صدّام يفعل ذلك بطريقة تضليلية متزايدة. كان خطابه التلفزيوني إلى العراقيين لمدّة نصف ساعة يوم ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ تحفة في الجعجعة العربية القومية. هاجم الخونة العرب الذين عارضوه والعراقيين الذين تمرّدوا ضدّ حكمه قبل سنتين. وأشار إلى أن الأمم المتّحدة مرزبان للولايات المتحدة، وهذا اتهام له قيمة على الأقلّ، وأكّد أن «أمّ المعارك» لم تنته ولا النضال من أجل عراق منتصر، ولا من «أجل فلسطين محرّرة» وأن الكويت والعراق هما جزء من أمّة واحدة. كان خطاب ذكرى حرب الخليج موجّهاً إلى «أبناء العروبة في كل مكان».

على كل الأحوال، كان صدّام العابس هو الدكتاتور نفسه الذي تعلّم الغرب الاشمئزاز منه خلال احتلال الكويت. كان لباسه الأخضر مع شارات البريغادير جنرال على كتفيه يحجبه بفظاظة إناء من الزهور الحمراء والبيضاء. كان العراق مجيداً وشعبه الصامد يتحرّك فقط لمصلحة الأمّة العربية. أما الولايات المتحدة وشركاؤها فمجرمون، يعملون فقط على تفتيت أمّة عربية قوية مستعدّة للوقوف وحدها.. وأميركا تحاول الاستحواذ على الكويت «كبئر نفطية مستأجرة». لكنه اتجه بعد ذلك إلى هجوم شخصي غاضب ضدّ آل الصباح في الكويت متحدّثاً إلى الشعب الكويتي بلهجة تراوح بين التهديد والطلب والاعتذار.

حثَّ الكويتيين على استخلاص العِبر واستيعاب الظروف وفهم فترة الاحتلال العراقي. وأعلن أن العراقيين الذين ارتكبوا أيّة أفعال ضدّ الكويتيين عوقبوا. «وسيذكر الكويتيون الذين بقوا في بلادهم أن أحد الضباط العراقيين ظلّ معلّقاً ليراه الجميع بسبب الأفعال السيّئة التي قام بها ضدّ الكويتيين.. هذا هو وجه بغداد الحقيقي، هذه هي مبادئ بغداد..... وإذا كانت هناك أفعال سيّئة فقد قام بها الخونة الموجّهون من قِبل أعداء العراق».

ما من ذكر لغُرف التعذيب واغتصاب النساء الأجانب وإعدام رجال المقاومة ونسائها على عتبات بيوتهم (أمام عائلاتهم بالطبع)... وليس إلّا إشارة بسيطة إلى الضرورة المؤسفة التي واجهت القوّات المسلّحة العراقية بالردّ على النيران عندما كانت تتعرّض للهجوم. ولهذا السبب فإن على الكويتيين الشعور «بالأخوة والحبّ لله، والأمّة التي تحفظهم في قلبها في بغداد». لم يتذكّر الكويتيون التاريخ بهذا الشكل الرومانسي... رغم أن قليلاً منهم سينسون العقيد العراقي المشنوق... «وجه بغداد الحقيقي بالفعل»... وهو كان مدلى على رافعة في الساحة الرئيسية، وقيل في ذلك الوقت إن ذلك بسبب مساندته المزعومة للمقاومة الكويتية.

لكنّ سبب هذه المعاناة كلّها وفق صدّام هو الحكم في الكويت... «لقد استثمر ٦٠ مليار دولار في البنوك الغربية بينما يعاني العرب من الجوع والفقر»(*). لقد فشل في الالتفات إلى تحذيرات بغداد حول عدم دفع الديون المترتّبة جرّاء الحرب العراقية ـ الإيرانية، وفي «وقف زيادة إنتاج النفط»... كل هذه التحذيرات وجّهها صدّام في

(*) ستكون هناك عودة مرعبة للإساءة الشخصية إلى العائلة الحاكمة الكويتية في محاكمة صدّام الأولى التي رتّبها الأميركيون في بغداد عام ٢٠٠٤ عندما اتّهم بعض الأشخاص في حكومة الكويت بمحاولة إفقار النساء العراقيات ليصبحن عاهرات.

القمّة العربية في ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٠ وكرّرها في ١٧ تموز/يوليو ومجدّداً في مذكّرة وزير الخارجية العراقي للجامعة العربية في اليوم نفسه. «تلقّى سعد العبد الله الصباح، المفاوض الكويتي في قمّة جدّة مع العراقيين، (الاجتماع الذي أدّى فشله إلى الغزو العراقي)، أوامر سرّية من الأمير بعدم تسوية الخلاف» ـ بحسب رواية صدّام... «وعلى شعب الكويت تعلّم الدرس والسيطرة على بلاده من العائلة التي سمحت للأجانب بإدارة الكويت والتي هربت من الجيش العراقي».

أما بالنسبة إلى «الكفار» الذين ما زالت قوّاتهم تقف على «أرض مسلمة مقدّسة» فقد تغيّرت أهدافهم من الدفاع عن السعودية إلى تدمير «النظام العراقي».. «لأيّ غرض إذن تمّ إنشاء مناطق الحظر الجوّي؟ لقد شكلّت هذه المناطق، إضافة إلى منع الطائرات العراقية من الطيران، عملاً حربياً بامتياز وذلك بمعزل عن وقف إطلاق النار». «كان الغرب متلهّفاً لتدمير الأمّة التي ظلّت حصناً للحرية من زاخو في كردستان إلى الفاو في جنوب العراق». ومع القليل من الانفعال تنبّأ بأن «الكفّار سيعلمون قريباً مَن هو المنتصر... وإذا استمرّ المعتدون فإنهم سيفشلون.. ساعدكم الله». هنا بالضبط، ومن دون لبس، كان هذا صدّام القديم.

وخلال ساعتين من الغارات الجوّية في كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ ضدّ العراق، قرّر الأميركيون إيجاد حلّ للاستفزازات العراقية المتواصلة على طول الحدود الكويتية العراقية مطالبين بغداد بإغلاق ستّة مراكز شرطة في المناطق المنزوعة السلاح التي تشرف عليها الأمم المتحدة مع حلول منتصف ليل ١٤ كانون الثاني/يناير وإلّا فإنها تتحمّل العواقب. جاء التهديد الأميركي عشية وصول ١٢٥٠ جندياً أميركياً من كتيبة المدرّعات الأولى إلى الكويت لأسباب ميدانية. وكانت المراكز العراقية الستّة التي تضمّ حرس حدود عراقيين مسلّحين موجودة أصلاً منذ سنة، أي في الوقت الذي كانت ترسم فيه الحدود، ولم تتحدّث واشنطن عن وجودهم آنذاك.

لعب الصحفيون دوراً خاصّاً في كلّ ذلك: نشر الرواية الأميركية.. ومن المؤكّد أيضاً أن التعزيزات الأميركية المرسلة إلى الكويت رافقتها طواقم التصوير والشعر المرتّب من المراسلين ورجال وكالات الأنباء الذين أرادوا إظهار هذه الصور الدقيقة للرجال الذين سيدافعون عن حرّية الكويت. وهكذا كان النقيب لاكي يرسم خطّاً على خارطة لقاعدة جوّية عراقية. ويصيح بالمراسلين: «إذا تخطّيتم هذا الخط أُبعدكم عن القاعدة. سأطلب من رجال الأمن إبعادكم من هنا إذا لم تطيعوا التعليمات. هل من أحد لم يفهم ماذا قلت؟». تجمّعت طواقم المصوّرين مثل طلّاب المدارس واصطفّت الأقدام ومنصّات التصوير على أرض الشقّة البيضاء. كانت الفرقة الأولى الأميركية على وشك الوصول.

ربّما كان الجيش الأميركي ينتقم من الكارثة الإعلامية على شاطىء مقديشو (انهيار مهمّة الأمم المتّحدة في الصومال لم يكن قد حصل بعد)، لكن النقيب لاكي كان يعرف ماذا يريد.. وبينما العدسات الصغيرة تصوّب على الوجوه الصغيرة الصاعدة على درجات طائرة الجامبو ٧٤٧، رفعنا رؤوسنا فوق أعناق المصوّرين لنلقي نظرة على

آخر رمز للتصميم الأميركي من الخليج بينما كان الجنود الذين يحمل العديد منهم حقائب أمتعتهم يتوجّهون عبر ممرّ الطيران إلى صفّ من باصات المدارس الأميركية المتوقفة على بعد ٣٠٠ متر من الطائرة.

وعوضاً عن الحديث إلى الجنود الذين سيقومون «بعمل الله» (إذا كانت كلمات الرئيس بوش عن طيّاري القاذفات تنطبق عليهم)، كنا ميّالين إلى الحديث مع الطاقم المدني لطائرة النقل الشمالية الغربية ٧٤٧... لذلك أحاط الصحفيون بأجمل مضيفة مرتدية لباسها الأنيق بينما كان قائد الطائرة يعرض لنا بحركة دعائية رائعة ما قدّم للجنود من أطعمة خلال الرحلة.. شكّل الرجال والنساء خطّاً آخر في الرمل بعدما أمضوا ستّ عشرة ساعة في الجوّ يأكلون الدجاج المشوي والأرزّ والبيض. لا أسئلة هنا، لا تفكير في ما يأكله العراقيون على بعد ١٠٠ كلم إلى الشمال من هنا. فقط مجموعة الرجال نفسها تقوم بأعمالها المعتادة بسرعة وبشكل طارىء. أخرجت مفكّرتي لألتقط بعض نفائسهم. «على بعد ستّين ميلاً من الحدود العراقية» ... «ستة أسابيع، لكن يمكن أن يبقوا هنا أكثر»... أما بالنسبة إلى الكويتيين فهذه إشارة مطمئنة أخرى... رادع ضدّ أيّ هجوم يحاول صدّام حسين القيام به على الحدود الكويتية.

كانت الاقتباسات حقيقية لكن ما هي المهمّة؟ هل هؤلاء الشبّان والشابّات وكتيبتهم من عربات القتال المتمركزة برادلي Bradly ودبّابات MA وبطّاريات المدفعية مجرّد رمز؟ ليس الأمر هكذا في الحقيقة. في النهاية، أطلق الرئيس بوش مجموعة أخرى من صواريخ كروز باتجاه العراق (بغداد) وبعد دقائق من وصولها بدأت الشرطة العراقية بتفكيك مواقعها في أمّ القصر، وقد قُتل أحدهم على يد شرطي كويتي... وفي وقت لاحق وصف لي النقيب مايك موغهام، من فرقة ألفا الأولى، الوضع قائلاً: «كانت ليلة عادية، بقينا حتى منتصف الليل نشاهد مباراة كرة قدم أميركية وكنا طيلة المباراة إلى جانب فريق بوفالو لكنّ الرقيب أوّل كان يأتي من وقت إلى آخر لتغيير القناة، وخلال أوقات الاستراحة في المباراة كنا نشاهد السي إن إن في بغداد».

«استراحات خلال المباراة»... اعترف النقيب موغهام أن مشاهدة النيران المضادّة للطائرات فوق بغداد على قناة السي إن إن CNN كانت «تجربة رزينة». لكن كان هناك العديد من العبارات المنمّقة ـ الكليشيهات ـ على طول خطّ عرض برادلي في الصباح التالي. أثبتت السي إن إن بشكل غير مريح أن الانفجار الذي وقع في قاعة استقبال فندق الرشيد الذي قتل موظفة استقبال ناتج عن صاروخ أميركي. وخرج برانت سادلر مع قطعة من صاروخ كروز كاملة مع شيفرة الكمبيوتر وقد أثار ذلك الشكّ المعهود في مثل هذه الحالة. كتب الملازم برنارد إيتريدج: «لا أحد يحبّ رؤية الأضرار المدنية لكن هذه طريقة عمل الحرب، يحدث ذلك، لكن إذا ضرب صاروخ كروز فندقاً لا أعتقد أن أضرار الفندق ستكون طفيفة. تكلّم جنودنا عن ذلك واعتقدوا أنه ربّما ارتدّت طلقة مضادّة للطائرات وعادت نحو العراقيين». . . وكالعادة عندما قُتل الفلسطينيون جرّاء القصف الإسرائيلي في بيروت عام ١٩٨٢، فإنهم قُتلوا بأسلحتهم. وعندما قصف الأميركيون ليبيا، قُتل المدنيون من جرّاء شظايا صواريخ ليبية مضادّة للطائرات... وعندما فرم الأميركيون العراقيين في شوارع بغداد عام ٢٠٠٣، فإن القتلى سقطوا، مرّة أخرى، من

جرّاء شظايا صواريخهم، أو من جرّاء قنابل قديمة زرعتها شرطة صدّام السرّية في الأنقاض... لم نكن أبداً نحن... وإذا كنا نحن فإننا لم نكن نقصد ذلك....

وهكذا كان أيضاً، عندما خسر الرئيس كلينتون ٢٣ صاروخ توما هوك أخرى ضدّ بغداد يوم ٢٧ آب/أغسطس ١٩٩٣، أُطلقت ردّاً على محاولة اغتيال جورج بوش في الكويت قبل شهرين.. وما زالت القضيّة ضدّ المتّهمين العراقيين قيد التحقيق وسوف تغربل من الشوائب، وقد فسد التحقيق بشكل عميق وأبدى الصحفيون اهتماماً ضئيلاً عندما وجدوا ثمانية مدنيين بين الضحايا كانت بينهم الرسّامة العراقية المشهورة ليلى العطّار التي عرضت أعمالها في الكويت والقاهرة ونيويورك... كان ذلك قبل خمس سنوات من سماعي القصّة الكاملة للمأساة.

ففي عام ١٩٩٨، وفي معرض فنّي خلف فندق الميريديان في بغداد، كان يعمل رجل عجوز اسمه أبو خالد (ضيف في هذه الحياة لديه ثلاث أو أربع سنوات ليعيشها).. وقد حدّثني عن ذلك المساء الحارّ من حزيران/يونيو يوم ودّع ليلى عطّار التي كانت مديرة المعرض. «غادرت في الساعة التاسعة مساءً، وفي الصباح، قال لي الرجل الذي كان يجهّز الشاي هنا... أبو خالد، السيّدة عطّار في المستشفى. لكنها لم تكن هناك. وجدت ابنها وابنتها في المستشفى لكنّهما قالا إنها ما زالت تحت أنقاض المنزل».

عندما وصل أبو خالد إلى منزل الفنّانة في حيّ المنصور في بغداد وجد زوج ليلى عطّار ميتاً تحت الأنقاض، وقال: «لا أحد استطاع العثور عليها لكن بعد ذلك شاهدت شعرها الطويل بين حجارة البيت وعرفت أنها كانت هناك.. وجدناها ممسكة بحقيبة يدها. كانت تحاول الهرب عندما ضرب الصاروخ».

لم يكن هناك أي اعتذار أو ندم في واشنطن، فقد كان صدّام هو الهدف الذي هوجم.. ونظامه وقوّات أمنه القاتلة.. وعندما زرت أنقاض منزل ليلى عطّار في بغداد عام ١٩٩٨ كنت متأكداً بشكل كافٍ أنه كان خلف منزلها مركز مخابرات كبير جدرانه عالية ومحاط بأسلاك شائكة، لم يلحظ صاروخ كروز بيتها أثناء بلوغ هدفه.. إذن لم تكن الغلطة غلطتنا مجدّداً.. هذا ما يعرف في الحروب باسم الضرر الجانبي... لم نكن نقصد ذلك... وقد أبلغ الرئيس كلينتون الأميركيين أنهم يستطيعون الشعور بالطمأنينة حيال الهجوم.

كان كل ذلك، ظاهرياً، ردّ فعل على مؤامرة عراقية لقتل الرئيس السابق بوش، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤. وبعد عام من غارات كلينتون الجوّية، ذهبت إلى محكمة الاستئناف الكويتية لحضور محاكمة ١٣ رجلاً من المدانين بالتخطيط لقتل بوش. كان المتهمون يرتدون ملابس رمادية وبدت وجوههم رمادية ومعظمهم كان ملتحياً وعدد كبير منهم يدعو ويصلّي، وكانوا يستمعون بدون انفعال بينما كان القاضي عبد الله العيسى يتلو مطالعته القضائية.. لكن مع إعطائهم الفرصة للكلام، كان لدى أحد المحكومين على الأقلّ الكثير ليقوله.. وبالنسبة إلى رجل، كان قد حُكم عليه من قِبل الرئيس كلينتون الذي أطلق غاراته الجوّية الانتقامية قبل انتهاء الجلسة الأولى للمحاكمة،، وحُكم لاحقاً بالإعدام من قبل حكومة الكويت كان وصلي الغزالي يبدو غضبان غضباً مبرّراً بينما كان

يشير بإصبعه عبر قضبان القفص في المحكمة رقم ١٥... صرخ بنا: «كل طفل عربي أغلى من كل أميركا. أنا مواطن عراقي، قتل بوش ١٥ شخصاً من عائلتي، فقدت كل مشاعري. كان الغزالي و١٢ رجلاً آخرون أحدهم كويتي متورّطين جميعاً في المؤامرة.

استناداً إلى السلطات الكويتية، فقد أمرت المخابرات العراقية المتّهمين بقتل بوش وفق خطة كشفتها أجهزة الأمن الكويتية قبل يوم من وصول الرئيس الأميركي السابق إلى البلاد. وقيل إن أحد المتّهمين وجِد وفي حوزته سيّارة محمّلة بمتفجّرات زنتها حوالي ٨١ كلغ، بينما اتّهم الغزالي بالتخطيط لقتل بوش بحزام ملغّم مربوط حول وسطه. غير أنه تراجع لاحقاً عن اعترافه. وقال الآخرون في المحاكمة الرئيسية إنهم تعرّضوا للضرب للإدلاء باعترافات كاذبة وإنهم عبروا الحدود ضمن مجموعة مهرّبين.

ورغم أن المحكمة الأولى حكمت على ستّة منهم بالإعدام وعلى البقية بالسجن المؤبّد، فقد كانت هناك مجموعة من الأسباب تدفع الكويتيين والمحامين الأجانب إلى الشكّ في عدالة هذه المحكمة الخاصّة. كان هناك التماس لإعادة المحاكمة، وأدلّة أخرى عن عمليات ضرب قامت بها الشرطة ونقص مُشين في السماح للمحامين بالتواصل مع المتّهمين قبل المحاكمة... والأغرب من كل ذلك كان هجوماً بالصواريخ على بغداد، بُني على إدانة للمتّهمين قبل نطق الحكم... ولذا لم يكن مستغرباً أن يعلن نجيب الوقيان، المحامي الصغير والمثابر عن الكويتي الوحيد المحكوم بالإعدام بدر الشمّري، أن هجوم كلينتون إدانة لمحاكمة موكّله غير العادلة. قال: «وضع هجوم كلينتون الصاروخي على بغداد المحاكمة في إطار سياسي.. قال كلينتون إن لديه دليلاً على أن العراق وراء محاولة الهجوم بالقنابل على بوش، كيف يستطيع فعل ذلك قبل انتهاء المحاكمة؟ هناك متّهمون اعترفوا بذنبهم ولا أجادل في ذلك، فهم قدّموا اعترافات، لكنّ بدر لم يعترف... إنه بريء وقد حكم عليه الأميركيون». في الواقع، قال البيت الأبيض إن لديه دليلاً على تورّط العراق في المؤامرة، وهو ادّعاء شجبته منظمة العفو الدولية لاحقاً وقالت إنه نسف افتراض براءة المتّهمين. بعد ثماني سنوات سوف يذكر جورج بوش الابن خلال خطاب يستجدي الدعم في غزوه للعراق: «إن صدّام حاول قتل أبي»....

تبيّن لاحقاً أن هؤلاء الرجال كانوا متورّطين في عملية عصابات روتينية للتهريب لا في محاولة اغتيال سياسية.. وهو تفسير أُعطي مصداقية أكبر عندما بدأ شقيق المتّهم الكويتي سليم الشمّري بالضحك خلال ظهوره في المحكمة بعدما سأله القاضي لماذا يبدو وجهه مألوفاً. أجاب إنه سُجن في ١٥ حادثة سابقة بتهريب ويسكي إلى داخل الكويت. كان هناك كثير من الشكّ حول عدالة المحاكمة عندما أشار المدّعي العام إلى المتهمين قائلاً: «هذه المجموعة الفاسدة من المتهمين».

من أجل كلّ ذلك ماتت ليلى عطّار.

الفصل الثامن عشر

الوباء

«هناك ما يُسمّى حرباً مشروعة؛ وللحرب قوانينها؛ وهناك أشياء يمكن القيام بها بشكل عادل وأشياء لا يمكن القيام بها. لقد حاول (على حدّ فهمي للأمر) تسميم الآبار»

جون هنري:ـ كاردينال نيومان Apologia Pro Vita Sua,1864

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤، كانت لدينا «أزمة أخرى في الخليج»، كما كانت تحبّ شبكة السي إن إن أن تعلن عن كلّ إعادة غزو مزعومة للكويت. واستناداً إلى البنتاغون، فقد حشد صدّام هذه المرة ٦٠ ألف جندي في جنوب العراق إضافة إلى ٩٠٠ دبّابة وأكثر من ذلك من العربات المصفّحة. وعلى ما يبدو فإن أيّاً من الصحفيين الذين أُرسلوا لتغطية هذه المأساة الأخيرة لم يتذكّر السرّية التي وصفوا بها هزيمة الجيش العراقي عام ١٩٩١، وكيف كان جنود صدّام في حالة من الفوضى، وحرسه الجمهوري مدمّراً بفعل القصف الأميركي، ولوجيستياته مفكّكة. لكن بعد أن أكّد زعماء العالم أن صدّام انهار كلّياً، كانت وحدات حرسه الجمهوري المحطّم الآن تعود لتظهر افتراضياً في ساحات القتال مجدّداً. وكان هؤلاء المتخّصصون في التلفزيون ومراسلو المحطّات الفضائية يتدفّقون على عواصم الشرق الأوسط طلباً للتأشيرات وحجز تذاكر على أي طائرة تستطيع الوصول إلى الخليج أسرع من مجموعة بيل كلينتون المحمولة. وتساءلت في صحيفتي: هل يقومون بخداعنا أو أنهم وقعوا في فخّ تصديق تقاريرهم؟

لقد وُفّق صحفي كويتي حقّاً في تحليله عندما أشار إلى أن صدّام يحاول إجبار الأمم المتّحدة على رفع العقوبات وأيضاً إعادة انتشار جيشه العراقي بعد إشاعة عن محاولة انقلاب في بغداد.. هذا في حين أن كلينتون كان يريد إبعاد الانتباه عن فشله في البوسنة قبل انتخابات مجلس الشيوخ. لكنّ ردّنا المبرمج مسبقاً بدا غير قابل للتوقف(*). . . وكالعادة، لم يزعج أحد نفسه لتخمين حجم الأضرار المدنية التي ستلي ضربة أخرى في العراق.

(*) حتى في عدد الإندبندنت ليوم الأحد، رأيت قصّة أزمة أخرى على خطوط الوكالة مساء ٩ تشرين الأول/أكتوبر. وقد سُحب مقالي المتشكّك من الصحيفة بعد الطبعة الأولى خشية أن تبدأ الحرب عند الصباح. كانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي يحصل فيها مثل هذا لتقرير لي في الصحيفة التي وافق محرّروها في اليوم التالي على أن لا داعي لسؤال صحفي يعكس شكوكه حول تقارير مبالغ فيها إذا كانت مثل هذه المبالغات ستؤدّي إلى اضطهاد الصحيفة.

ومن المؤكّد أن الصحفيين الذين نُقلوا إلى حدود الكويت مع العراق وجدوا أن من الصعب تلبية مطالب محرّريهم. واستطاع العديد منا فقط رؤية دبّابة كويتية وحيدة في الصحراء، استخدمت لاحقاً كعربة لجرّ الباص الصحفي خارج الرمال. من الجهة الأخرى للحدود كانت هناك أيضاً بقايا قليلة. وقد ذكر ضبّاط الأمم المتّحدة أن طائرة استطلاع تابعة لهم حلّقت بهم على مساحة ٢٠ كلم شمال الحدود، فلم يشاهدوا أيّ دبابة عراقية أو ناقلة جند.

كان رجال الشرطة العراقيون القلائل خلف الحدود ـ الموجودون الآن على الخط الجديد للحدود ـ في وضع لا يسمح بوصفهم بالعدوانيين. . ومعظمهم كانوا بحالة مُزرية ويطلبون باستمرار طعاماً من الأمم المتحدة ويسألون عن ملابس يرتدونها بدلاً من بذلاتهم البالية. وقد اعترف موظف في الأمم المتّحدة قائلاً: «لا يفترض أن نعطيهم شيئاً لكن من الصعب طرد أحد بعيداً عندما يكون بحاجة إلى طعام».

في ما بعد، وبحلول ١٢ تشرين الأول/أكتوبر وردت تقارير تفيد أن ٣٩٧٨٣ جندياً أميركياً عادوا إلى الخليج مصحوبين بـ ٦٥٩ طائرة و٢٨ سفينة. وكان السلاح الجوّي الملكي البريطاني يرسل طائرة هركوليس C130 إلى الكويت كلّ ساعتيْن خلال الليل، يحمل بعضها مدافع من عيار ١٥٥ ملم.. ونزلت أوّل مجموعة مؤلّفة من ٤٥ جندياً من القوّات الخاصّة من طائرة تري ـ ستار Tri-Star، وقد سبق لهم أن شاهدوا كل ذلك : الليل الحارّ والرطب، ومحرّكات C130 تهدر على أرض المطار، ولهجات شيفيلد وأكسفورد وليفربول تحت سماء الخليج. وعوضاً عن «عمليّة غرابني» (الاسم الحركيّ للانتشار البريطاني في الخليج عام ١٩٩٠)، لدينا الآن «عمليّة السائق»... لكنّ الجنود كانوا يحملون جميعاً احتياجات حرب نووية وكيميائية وبيولوجية صغيرة.

وعندما وصلت وحدة البحرية الأميركية ١٥ لتبدأ تدريبات بالذخيرة الحيّة، هل تعلمون أيّ مكان اختارت؟ مرتفع متلة بالتأكيد!! كان العديد من رجال البحرية يعرفون جيّداً أنها قمّة لطريق الموت السريع حيث كانت القوافل العراقية المُدْبِرة قد أزيلت من الوجود قبل ثلاث سنوات ونصف سنة. وكان رجال وحدة التدخّل السريع ١٥، وعددهم ١٣٠ جندياً، ينوؤون تحت ثقل المدافع الرشاشة والأسلحة المضادّة للآليّات، وقاموا بترتيب مؤنهم وآلاف صناديق الذخيرة المتفجّرة في الخنادق بعد التلّة، حيث ما تزال المقابر الجماعية المجهولة منتشرة في التراب. قال الكولونيل ريك باري: «كان العديد من جنود البحرية هنا في ذلك الوقت وبعضهم يعرف ماذا حصل». وأضاف بحماس أن جنود البحريّة ساعدوا في محاصرة القوافل العراقية المنسحبة عام ١٩٩١. وتحدّث رجال الكولونيل باري بلغة البحرية المحكية الجديدة والمُعدية عن عمليات الإنزال البرمائي لطائرات الهليكوبتر باعتبارها تطوّراً ـ لاحظ الطبيعة الإيجابية والمتطوّرة للكلمة ـ وعلى أنها تمرين مستمرّ، ومغامرة، وبالتأكيد فرصة لأخذ صورة.

احتشدت طواقم التصوير التلفزيوني حول جنود البحرية وهم يشتمون ويتدافعون مع الانتباه إلى تجنّب أيّ صور تدلّ على أن تطوّر البحرية سيرك صحفي. وهكذا فإن مخازن قذائف الأسلحة الرشّاشة كانت تقفز فوق

الطبقات الإسمنتية تحت مرتفع متلة، بينما كان رجال البحرية يهاجمون وسط القذائف الدخانية عبر الرمال وهم يصرخون ويصيحون على جنود صدّام الوهميين. وتحوّلت عينا النقيب ستيفن سوليفان إلى شقّين ضيّقين في مواجهة شمس الظهيرة الحارقة وحاول وضع الأمر ضمن البُعد التاريخي الذي تحوّل إلى مزيج من المبادئ الأخلاقية والمزيد من حديث البحرية.

قال: «منذ اغتصاب هذه البلاد ونهبها بشكل رئيسي قبل سنتين تقريباً تجري عملية إعادة بناء قوّات واسعة على الحدود، وهذا تهديد بارز لهذا البلد ولكلّ الدول التي تمثّل التحالف. نحن قوّة انتشار متقدّمة موجودة وهذا أمر عادي. وأعتقد أن ذلك يُنتج استقراراً مع انتشار القوّة لإظهار وجودنا».

لكن هل سأل نفسه لماذا لم تقم وحدته «قوّة الإنزال» بالتركيز على البوسنة حيث كان الاغتصاب الآن على نطاق أوسع ممّا كان في الكويت؟ لم يتردّد النقيب سوليفان البتّة. كانت البوسنة تحت إشراف القيادة الأميركية المتوسطية ووحدة التدخّل السريع ١٥ ولم تكن مهمّتها تغطية منطقة المتوسّط. وهكذا كان.

مرّت أوقات جرى فيها وضع تقارير حول كل ذلك يتساءل فيها المرء ما إذا كان الجنون مزيّة في كتابة تقرير عن الشرق الأوسط. وغداة انتشار قوّات البحرية الأميركية في مرتفع متلة، سار وزير الدفاع الأميركي وليم باري ـ وهو رجل صغير الوجه يرتدي بذلة بنّية فاتحة ـ على مدرج مطار الكويت لتهديد صدّام بالحرب إذا لم يسحب جنوده من جنوب العراق. وبعد نصف ساعة فقط، سار وزير الخارجية الروسي أندريه كوزيريف ـ وهو طويل القامة يرتدي بذلة زرقاء نظيفة وربطة عنق ـ في قاعة الشخصيات في المطار وهدّد السلام. من نصدّق؟ السيد باري الذي صاح أن تعزيزات أميركية أخرى سترسل إلى الخليج أو السيّد كوزيريف الذي قال إن صدّام أبلغه بأنه سوف يعترف بالحدود الجوّية للكويت في النهاية. وهمس كوزيريف عبر الميكروفون: «أحضرت أخباراً جديدة لشعب الكويت ولكلّ الشرق الأوسط، أخباراً جديدة تفيد أنه في هذا اليوم تعزّز استقلال الكويت».

ربّما كان انتهاء الحرب الباردة أمراً جيّداً. ففي أيام جيمي كارتر كان وزير الدفاع الأميركي يدعو إلى السلام بينما رجال ليونيد بريجينيف يدعون إلى الحرب إذا قصفت أميركا العراق. إضافةً إلى هذا التحوّل جاء التأكيد من السيناتور جون وارنز القائد السابق للبحرية الأميركية الذي كان يقف إلى جانب باري. قال: «إن الدروس المستخلصة من حرب الخليج جعلت إنشاء هذه القوّة الرادعة ممكناً».

بالطبع، كان الدرس الحقيقي لحرب الخليج بالنسبة إلى أميركيين محافظين جدّاً أنه لو جرى إسقاط نظام صدّام في ذلك الوقت، لما كان من الضروري إرسال كل هذه القوّة الرادعة إلى الشرق الأوسط الآن.

إن انتظام الهجمات ضدّ العراق على نحو مطّرد فعل أكثر من جعل مشاعر الصحفيين بليدة، لقد أعطى

روايتهم طابع الاستمرار بحيث أنه عندما قامت الولايات المتّحدة وبريطانيا، الحليفان الوحيدان الباقيان من حرب ١٩٩١ (لأن الفرنسيين انسحبوا بحكمة من قصف مناطق الحظر الجوّي) بمهاجمة المواقع العراقية العسكرية خلال العقد التالي، أصبحت أعمالهما عادية، كجزء من أنموذج، وتوقفت مع مرور السنوات لتصبح قصّة أخبار ليس إلّا. كان من المفترض أن تحمي منطقة الحظر الجوّي الجنوبية السكان الشيعة من صدّام، رغم أن الثوّار الشيعة عام ١٩٩١ كانوا قد أصبحوا منذ وقت بعيد في مقابرهم الجماعية أو مختبئين في معسكرات اللاجئين وراء الحدود في إيران. وفي الشمال، كان من المفترض أن تحمي منطقة الحظر الجوّي الأكراد من عدوان مماثل، لكنّ المنطقة الآمنة التي أقامها حلفاء ١٩٩١ ما زالت موجودة هناك على الأقلّ، حتى ولو لم تكن كافية لحماية أكراد أربيل عندما أرسل صدّام دبّاباته إلى المدينة لقمع عملية دبّرتها المخابرات الأميركية عام ١٩٩٦، كما أنها لم تنقذ الأكراد من الأتراك كما كشف جون بيلفر. ففي آذار/مارس ٢٠٠١، اشتكى الطيّارون البريطانيون الذين انطلقوا من القاعدة الجوّية التركية في باتمان أنهم، بعيداً عن حماية الأكراد، كانوا يتلقّون أوامر باستمرار للعودة إلى المطارات من أجل السماح للقوّة الجوّية التركية بقصف الناس الذين يُفترض بهم حمايتهم. وكان الطيّارون البريطانيون الذين عادوا للمراقبة الجوّية في شمال العراق يتلقّون أوامر بإغلاق راداراتهم حتى لا يتعرّفوا الأهداف التركية... وكانوا يشاهدون الخراب في القرى الكردية بعد الغارات التركية.. وقد أُعطيت أوامر للطيّارين الأميركيين بالعودة إلى القاعدة، وذكر أحد الطيّارين «أن الطائرات التركية ف١٤ وف١٦ كانت تأتي محمّلة بكمّيات كبيرة من الذخائر، ثم تعود بعد نصف ساعة وقد نفدت ذخيرتها».. وعند عودتهم إلى عملهم كان الأميركيون «يرون القرى المحترقة وكثيراً من الدخان والنار»... في عامي ١٩٩٥ و١٩٩٧ هاجمت قوّات تركية قِوامها ٥٠ ألف جندي مدعّمة بالدبّابات والقاذفات المقاتلة وطائرات الهليكوبتر المسلّحة مواقع حزب العمّال الكردستاني «في المنطقة الآمنة»... ورغم التعتيم الكبير من قِبل الأميركيين والبريطانيين على واقع أن مناطق الحظر الجوّي هي جزء من قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ ومحميّة به، لم تكن لديهم شرعية الأمم المتّحدة ولم تعد هذه المناطق تُناقَش أو يوافق عليها من طرف الأمم المتّحدة. لكنّها أصبحت ذريعة لاستمرار الحرب الجوّية ضدّ العراق، حرب غير معلنة وغير مبلّغ عنها بشكل واسع من قِبل الصحفيين الذين كانوا يركّزون على استفزازات صدّام، وبخاصة عندما أعلنوا رفضه أو تضليله لمفتّشي الأمم المتّحدة عن أسلحة الدمار الشامل. وكان فريق الأمم المتّحدة قد دخل العراق مباشرةً بعد وقف إطلاق النار عام ١٩٩١، وكانت مهمّته البحث عن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية وتدميرها، وهي الأسلحة التي سعى صدّام إلى امتلاكها أو حصل عليها فعلاً في بعض الحالات. كان هذا هو صدّام نفسه الذي استخدم الغاز ضدّ الأكراد في حلبجة ومئات أخرى من القرى (وقد قام أيضاً باستخدام الغاز بقساوة ضدّ الجيش الإيراني وهو أمر لم يُثر المشاعر كثيراً في الغرب) وكان يجب ردعه. وخلال ثلاث سنوات، حقق المفتّشون نجاحات كبيرة.

إن عمليّتهم التي سيدمّرها الأميركيون أنفسهم في النهاية قد جرى توثيقها مراراً بشكل مفصّل... لكن من المذهل مقارنة هذه الجهود مع المحاولات الأميركية والبريطانية اللاحقة لإرسال المفتّشين إلى العراق مجدّداً عام

٢٠٠٢ ومن ثمّ إقناع العالم أن صدّام ما زال يُنتج ويُخفي أسلحة دمار شامل. وفي نهاية نيسان/أبريل ١٩٩٢، جرى تدمير مركز الأثير للأسلحة النووية في العراق وكذلك مواقع الاختبار الحصينة، التي أُجبر ألوف العمّال العراقيين على العمل فيها. وفي عام ١٩٩٤ قدّم رولف أكويس رئيس فريق الأمم المتّحدة تقريراً جاء فيه أن كل المعلومات المطلوبة من العراقيين أُعطيت وأن أجهزة مراقبة الأسلحة وضعت قيد العمل. وبينما كان العراق مستمرّاً في تجنّب تسليم موادّ إلى مفتّشي الأمم المتحدة، قامت طائرات الاستطلاع U2 المستعارة من الولايات المتحدة بحوالي ٢١٠ طلعات فوق العراق، ونفّذت طائرات الأمم المتّحدة المروحيّة ٢٧٣ طلعة فوق ٣٩٥ موقعاً مشتبهاً فيه.

وادّعى العراق طيلة الوقت أن هؤلاء المفتّشين لم يكونوا يعملون للأمم المتّحدة بل للمخابرات الأميركية.. وكانت يونيسكوم UNSCOM استناداً إلى صدّام وكالة دعاية لواشنطن. ولا يكاد يمكن لومه في ادّعائه هذا. وقد طلبت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية من الكونغرس ١٢ مليون دولار للقيام بعمليات في العراق. وخشيت السلطات العراقية ألّا تستخدم معلومات الأمم المتحدة للقيام بعمليات تفتيش أخرى بل لتحديد الأهداف التي يريد الرئيس الأميركي إطلاق صواريخ كروز عليها في بغداد. وفي أيار/مايو ١٩٩٥، أعرب أكيوس عن اهتمامه بفقدان ١٧ طنّاً من الموادّ يمكن استخدامها لصناعة الأسلحة البيولوجية... لكن في آب/أغسطس ١٩٩٥، هرب العميد حسين كامل حسن والعقيد صدّام كامل حسن، صهرا صدّام حسين إلى الأردنّ حيث أبلغا مفتّشي الأمم المتحدة أنه تمّ التخلّي عن كلّ برامج أسلحة الدمار الشامل في العراق ـ مع أنه لم يكشف عن هذا الخبر حتى عام ٢٠٠٣.

مع ذلك، لم يوافق الأميركيون أبداً على تأكيدات الأمم المتّحدة... فبينما كانت مخابرات صدّام تحاول من وقت لآخر إعاقة عمل المفتّشين (كان ظهور مفتّش الأمم المتّحدة سكوت ريتر الاستعراضي في أكثر مراكز قيادة صدّام حساسية من الناحية الأمنية دليلاً كافياً على ذلك) كانت حكومة الولايات المتحدة ترفع دائماً أدلّة يقدّمها الفارّون العراقيون تفيد بأن الإنتاج النووي مستمرّ، وأن العراقيين دفنوا القنابل البيولوجية في الصحراء، وأن رفض صدّام الاستجابة لكلّ طلبات تقديم المعلومات عن الموادّ الكيميائية دليل على عدم استقامته. وقد جرى تكذيب ادّعاءات العراقيين حول تدمير عدّة ملفّات عن هذه الأسلحة في انتفاضة ١٩٩١ ـ ولم يكن ذلك دائماً من غير سبب ـ .. لكن بينما كانت الأمم المتّحدة تبحث في المكتبات العراقية عن استمرار البحث العلمي، توصّل صدّام إلى الاستنتاج أن الأمم المتّحدة كانت تتجسّس لصالح أعداء العراق على المستقبل العسكري للبلاد وكذلك على ماضيه.

كانت تجارب ريتر مهمّة... وهو ضابط بحرّية أميركي دحض مزاعم شوارزكوف حول تدمير صواريخ سكود عندما كان يخدم في الرياض عام ١٩٩١. حتى بعد أن أعلن العراق أنه لا يهتمّ بالحرب الجرثومية وذلك في أوّل خضوع للأمم المتّحدة، فقد كان لديه ٩٠ غالوناً من مادّة ميكرو أورغانيسم التي ينتج عنها غاز الغانغرين، وأكثر

من ألفي غالون من مادّة الإنتراكس، و٥١٢٥ غالوناً من البوطيلونيوم توكسين (الذي يسبّب الشلل والاختناق لضحاياه) و٢,٧ غالون من مادّة توكسين ـ ريسين. . وقد اعترف العراق بتردّد أنه أنتج غاز الأعصاب VX وحوالي ١٥٠ طناً من غاز سارن... وقدّمت مواجهات ريتر الدرامية الناجحة وفي بعض الأحيان السخيفة مع رجال أمن صدّام صورة مُرعبة عن النظام ونظرة داخلية مهمّة إلى عقلية مفتّش أسلحة أميركي(*).

وقد أورد ريتر في وقت ما ملاحظة شهيرة: «العراقيون!! إنهم مثل سمك القرش، والخوف مثل الدم، يشّمونه ويأتون إليك، وعندما تبدأ عملية الإذلال هذه، لن تربح أبداً.... أنا كلب ألفا Alpha أدخل وذيلي مرتفع، إذا تكلّموا معي بغضب سوف أنقضّ عليهم.... عندما نذهب إلى موقع سيعلمون أننا كنا هناك، وسوف نرفع ذيلنا ونفرغ بولنا على جدرانهم». مع ذلك بعد ست سنوات، أجبر أكيوس صدّام على تدمير ٤٠ ألف قنبلة ومؤن عسكرية أخرى، و٧٠٠ طن من المواد الكيميائية، و٤٨ صاروخاً طويل المدى، ومصنع أنتراكس، وبرنامج تخصيب نووي و٣٠ رأساً صاروخياً. وقد دُعي الصحفيون إلى تصوير مجموعة ضخمة من صواريخ سكود بينما كانت مُلقاة مُحطّمة على وجه الصحراء.

لكنّ يونسكوم، مثل العديد من عمليات المدى الطويل المماثلة لها، أصبحت ملوّثة. وذلك أنّ ريتر الذي ادّعى بشجاعة وإصرار عام ٢٠٠٢ (وبشكل متوازن وصحيح) بأن العراق لم يعد يمتلك أي أسلحة دمار شامل، قد أخذ هذه المعلومات في حينه إلى الإسرائيليين مقدّماً للعرب الدليل القاطع على أن الأمم المتّحدة تتقاسم أسرارها العسكرية مع عدوّ العراق الوحيد في الشرق الأوسط... وقد ذهب ريتر أبعد من ذلك إلى حدّ التصريح لصحيفة هآرتس أن إسرائيل كانت تساعد مفتّشي الأمم المتحدة في العراق من عام ١٩٩٤ إلى عام ١٩٩٨، وقال: «أستطيع بصدق القول إنه لولا مساعدة إسرائيل لم تكن اللجنة لتستطيع متابعة جهد الكشف». وفي ٥ آب/أغسطس ١٩٩٨، علّقت بغداد كل تعاون مع يونسكوم مدّعية أنها استُخدمت من قبل عملاء المخابرات الأميركية. وقالت إنها ستتابع التعاون مع موظّفي الأمم المتّحدة في بغداد وليس مع أعضائها الأميركيين.

وبدل العمل على كشف حقيقة مزاعم العراق قرّرت الأمم المتحدة سحب كل عناصر فريقها المؤلّف من ٧٨ شخصاً، من بغداد يوم ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر، وأعلنت وكالات الأنباء الغربية أن صدّام تحدّى مجلس الأمن.. وكان هذا صحيحاً فقط في حال كانت الاتهامات العراقية خاطئة. ولم ينتظر الرئيس كلينتون ليشرح الأمر. وقد اشتملت عملية ثعلب الصحراء (وهو لقب جنرال هتلر، إيروين رومل الألماني، ويبدو أن هذا لم يخطر على بال المخطّطين العسكريين الأميركيين) على قصف العراق مجدّداً بمئتي صاروخ كروز، مما أدّى إلى مقتل ٦٢ جندياً عراقياً و٨٢ مدنياً. ونفّذت الطائرات الحربية الأميركية ٦٢٢ طلعة ضدّ ١٠٠ هدف مُلقية حوالَي ٥٤٠ قنبلة، وأرسل

(*) نُشرت الروايتان الأفضل لعمل ريتر واختراق السي آي إي لليونسكوم في النيويوركر، الأولى بقلم: بيتر.ج. بويرز «الحرب الخاصّة بسكوت ريتر» في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨، ومنها أخذت الاستشهاد السابق... والثانية لسيمون ج. هيرش: «أفضل صديق لصدّام: كيف سهّلت المخابرات الأميركية على الزعيم العراقي إعادة التسلّح»، في ٥ نيسان/أبريل ١٩٩٩.

البريطانيون ٢٨ طلعة جوّية لطائرات تورنادو ضدّ ١١ هدفاً. ولم يكن العراقيون وحدهم الذين لاحظوا أن العديد من المواقع التي قُصفت، بما في ذلك مبنيان يُعتقد أن صدّام كان يقابل فيهما عشيقاته، كانت قد خضعت مؤخّراً لزيارة المفتّشين الأميركيين من يونسكوم. وفي أوائل كانون الثاني/يناير أوردت منظمة اليونسيف وبرنامج الغذاء العالمي أن الهجوم دمّر أيضاً مدرسة زراعية وخرّب ١٢ مدرسة أخرى ومستشفى ودمّر خزانات ماء يستفيد منها ٣٠٠ ألف عراقي في بغداد.

كانت تلك نهاية اللعبة، الإفلاس الأخير للسياسة الغربية تجاه العراق، وآخر رمية للنرد. في الوقت الذي أُطلقت فيه الصواريخ أعلن الرئيس كلينتون أنّ صدّام «جرّد المفتّشين من أسلحتهم»، وهذا كذب. وأبلغنا طوني بلير الذي كان يتألّم قلقاً على حياة القوّات البريطانية المتورّطة (أي الـ ١٨ طيّاراً) أننا «تحرّكنا لأنه كان يجب علينا ذلك». هل ذهبنا إلى الحرب بهذه الطريقة الصبيانية؟ رغم أن دلالات عرضها حملت أدلّة مقلقة على عدواننا العسكري المقبل في المنطقة؟

لم تكن هناك سياسات أو وجهة نظر أو أدنى تلميح لما سيحدث بعد انتهاء القصف. فمع عدم عودة مفتّشي الأمم المتحدة إلى العراق، ماذا كان علينا أن نفعل؟ أن نعلن حرباً أبدية على العراق؟ في الواقع، كان ذلك إلى حدّ كبير هو ما قمنا به حتى الآن وما سنقوم به في السنوات الثلاث القادمة مع أننا لم نقل ذلك في حينه.

كنّا «نعاقب صدّام» أو هذا ما أراد منا بلير تصديقه في ذلك الوقت. هل كان هناك جهاز كمبيوتر يصنع هذا العمل؟ ربّما وُجِد أيضاً قسم للعبارات المبتذلة في داوننغ ستريت زوّد وزير الخارجية البريطاني روبين كوك ومادلين أولبرايت بالجملة السقيمة حول كيفية استخدام صدّام للغاز ضدّ شعبه الكردي في حلبجة لأن هؤلاء الأكراد كانوا في ذلك الوقت، متحالفين مع إيران، ونحن الغرب كنا نساند غزو صدّام لإيران.

كان التشجيع المجّاني يتمثّل في فقدان أي سياسة عاقلة طويلة الأمد تجاه العراق. وكان صبرنا، بحسب كلينتون وبلير، قد نفد. لا يمكن الوثوق بصدّام للحفاظ على كلمته، وقد اكتشفوا ذلك الآن! وحتّى قُدرة صدّام على تهديد جيرانه (الجيران الذين لا يريدوننا الآن أن نقصف العراق) كان من شأنها أن تضعف. نحن الآن نقصف على الأرجح أماكن الأسلحة التي لم يستطع المفتّشون العثور عليها، لكن كيف ذلك؟ إذا لم يستطع المفتّشون إيجاد الأسلحة، فكيف نعرف على ماذا نطلق صواريخ الكروز؟

يبدو أن لا نهاية لهذه الأوهام التي كان علينا تصديقها... والتي تظهر مجدّداً على أنها ركض جافٍ وراء التهديد ـ الشبح الذي كان يمثّله صدّام كمقدّمة لغزو ٢٠٠٣ الأنغلو ـ أميركي.. قيل لنا إن صدام يستطيع تدمير العالم، أو (وقد استمتعت بهذه الجملة بالذات) أنه يستطيع القيام بذلك مرّتين. وأعلن وزير الدفاع الأميركي وليام كوهين أن العواقب ستكون وخيمة على العراق في حال هاجم إسرائيل. مع أنّ السيّد كوهين، الذي كان وزير الدفاع الأميركي وليس الإسرائيلي، لم يشرح ما هي «العواقب» التي كان من الممكن أن تستتبع إقدامنا السابق على

إطلاق مئتي صاروخ على العراق. وفي ١٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨، أي قبل ثلاث سنوات من وقوع الهجمات على الولايات المتحدة، زعم الأميركيون أن أُسامة بن لادن قد تحادث هاتفياً مع صدّام.. وفي الحقيقة كان بن لادن (الذي كان ينظر إلى صدّام بريبة أثناء حديثه معي) يميل إلى إطلاق تسمية «حيوان بغداد» على الرئيس كلينتون. لقد قال كلينتون إنه ينشد الديمقراطية في العراق.. لكن لم تُطرح أية أسئلة ولم تُدحض أية أكاذيب.

أبلغ نائب الرئيس آل غور الأميركيين أنه حان وقت «التصميم والوحدة الوطنية». ربّما اعتقدتم أن اليابانيين قصفوا بيرل هاربير أو أن الجنرال ماك آرثر تخلّى عن باتان. عندما واجه الرئيس كلينتون الأسوأ في فضيحة مونيكا لوينسكي، قصفَ أفغانستان والسودان. وحين ووجِه بالخيانة، قصف العراق. إلى أي مدى يمكن للمصادفة أن تذهب؟ لا عجب إذا سمّى بعض مفتّشي الأمم المتّحدة ذلك «حرب تنّورة مونيكا». إذاً ، لقد ذهبت جيوش مسيحية (أميركية وبريطانية) إلى الحرب ضدّ بلد مسلم(العراق) بدون أهداف ولكن بجيش من العبارات السخيفة، وقد تخلّوا عن نظام الأمم المتحدة لمراقبة الأسلحة وفتحوا الباب أمام هجوم عسكري شامل ضد العراق.. ولم يسأل أحد السؤال الواضح: ماذا يحدث لاحقاً؟

في واشنطن قيل لنا إن محاكمة الخيانة ضدّ كلينتون (لأنه معرّض للإهانة أكثر من صدّام) تأجّلت لأن القوّات الأميركية كانت في «مسار مؤذٍ». وفي الحقيقة كان الرجال الذين يطلقون الصواريخ على العراق من سفن آمنة في الخليج في موقف خَطِر يوازي خطر موقف مقدّم الأخبار في السي إن إن. بينما الأشخاص الوحيدون الذين كانوا في خطر حقيقي هم العراقيون. مع ذلك عندما انضمّ السلاح الجوّي البريطاني إلى القصف أبلغنا مقدّم الأخبار في البي بي سي ـ القسم الدولي، أن الطائرات البريطانية بدأت العمل فوق العراق كما لو كانت هذه معركة بريطانيا أكثر من كونها قصفاً لبلد عربي محطّم بفعل العقوبات شبه القاتلة.

عندما اتصلت بصحفي سعودي صديق، وأبلغته أن داوننغ ستريت تدّعي أن الهجوم على العراق يهدف إلى حماية الخليج العربي، صرخ بكلمة واحدة على الهاتف: «زبالة، زبالة، لماذا تريدون قتل المزيد من هؤلاء المساكين». كان الإنكليز يحاولون إظهار القصف العدائي على العراق بوجه عامّ على أنه بنقاء حرب الخليج ١٩٩١. إن جيران العراق مهدّدون ويجب حمايتهم من أسلحة الدمار الشامل. وباستثناء الكويت، التي قرّر بعض مواطنيها ممارسة العادة المألوفة بالفرار عبر الحدود السعودية، لم ترغب دول الخليج العربي في أي حماية غربية. . في البصرة، كانت مصفاة النفط هدفاً للقصف الأنغلو ـ أميركي، وقد وعد كلينتون وبلير أن الأهداف العسكرية فقط سوف تضرب، لكن المصفاة استُخدمت، كما قيل، لتهريب النفط ولذلك أصبحت «هدفاً عسكرياً». وسيُقال لنا قريباً إن مصافي النفط هي لتأمين مورد لدفع برنامج «النفط مقابل الغذاء» الذي كان يفترض أن يخفف تأثير عقوبات الأمم المتّحدة، لكن لم يكن هذا التزييف الفاضح للعبارات هو الذي أغضب العرب. لكنّ ما أغضبهم (المسلمون غير العرب) هو الأسلوب الأحادي الغبيّ الذي حاولنا به تبرير الهجوم على العراق. وتكفي مراجعة لائحة الأعذار العدوانية عام ١٩٩٨. فاستناداً إلى كلينتون وبلير:

١ ـ رفض صدّام حسين الانصياع لقرارات مجلس الأمن التي لا تُحصى.

٢ ـ استمرّ في صناعة أسلحة الدمار الشامل.

٣ ـ عطّل عمل مفتّشي الأسلحة من اليونسكوم.

٤ ـ أساء إلى حقوق الإنسان.

٥ ـ استخدم الغاز السامّ ضدّ شعبه.

الآن علمنا أن صدّام حسين كان فظيعاً، ليس سيّئاً بقدر هتلر وستالين لكنّه حتماً أسوأ من لورنس كابيلا، وبالتأكيد أسوأ من مُعمّر القذافي وأيضاً أسوأ من سلوبودان ميلوزوفيتش.

لكن مَن أيضاً صُنّف عام ١٩٩٨ للجريمة الأولى؟ إسرائيل وصربيا!! ومَن صُنّف للثانية؟ إيران، إسرائيل، سوريا، باكستان، الهند، كوريا الشمالية... أما الجريمة رقم ٣ فقد كانت حصريّة لأنه لم يكن هناك يونسكوم للتفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في دول أخرى. لكن صُنّفت للجريمة رقم ٤ كلّ من الجزائر، مصر، إيران، ليبيا، فلسطين، إسرائيل، سوريا، السعودية تركيا...الجريمة رقم ٥؟ العراق فقط مع تحذير: أنه لم يعترف أي زعيم غربي بأن صدّام قتل من الإيرانيين أكثر مما قتل من الأكراد العراقيين بينما كانت الإدارة الأميركية ووزارة الخارجية البريطانية تساندان العراق.

إذن، ماذا نفعل بقصفنا للعراق؟ لنعدْ إلى شباط/فبراير ١٩٩٩... لقد أردنا قصف العراق عندما منع صدّام مفتّشي الأمم المتّحدة من دخول قصوره. وأصدر أمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان «مذكرة تفاهم» للسماح للأمم المتحدة بالتفتيش لمرّة واحدة، بمرافقة دبلوماسيين أجانب، في أماكن يُفترض أنها رمز لسيادة العراق. لكن عندما اعترض صدّام على المفتّشين الأميركيين التابعين للأمم المتحدة، طفح الكيل: إنه الآن بالتأكيد يرغب في أن يُقصَف لأنه فقد الأمل بأي رفع للعقوبات وعرف أن العرب سيتعاطفون مع العراق. وقد أصبح الصحفيون مرعوبين من رقم نصف المليون طفل الذين ماتوا في العراق بسبب العقوبات، لذا فقد كان من الأسلم مناقشة الخطأ أو الصواب في قتل ٨٢ مدنياً في الغارات الجوّية في كانون الأول/ديسمبر. لم يرَ العرب الأحداث مشوّهة بمثل هذه الطريقة، ومع أن أنظمتهم يُرثى لها، فقد تملّكهم شعور بالغضب والإذلال.. كما أن الاقتناع بأن الغارات على بغداد كانت لتجنّب اتّهام كلينتون جعل الأحداث تبدو وكأنها تجاوزت ما هو لاأخلاقي.

عندها، عندها فقط، وفي العام الجديد، في الأسبوع الأول من كانون الثاني/يناير ١٩٩٩، أي بعد أقلّ من ثلاثة أسابيع على الهجمات التي شُنّت على العراق لأن صدّام منع فرق اليونسكوم من العمل، جاء كشف الحقيقة. لقد كان المفتّشون الأميركيون جواسيس. فقد تمّ وضع رجال المخابرات الأميركية في فِرق التفتيش إضافة إلى عملاء المخابرات البريطانية م١٦.. وإذا كان التقرير في الإندبندنت صحيحاً، وأن الأمم المتحدة كانت مجبرة على

الاعتراف بأن يونسكوم سهّلت مباشرة تشكيل نظام تجسّس للولايات المتّحدة خارقةً مهمّتها، فقد أنشأ عملاء الولايات المتحدة «صندوقا أسود» للتنصّت في مراكز اليونسكوم في بغداد كان يلتقط مخابرات صدّام حسين الرئاسية. كانت عملية «هزّ الشجرة» تفترض كشف إخفاء النظام للأسلحة، لكنّ موظّفي الأمم المتّحدة أدركوا أن عملية سيجنت SIGINT التي تديرها وكالة الاستخبارات الأميركية ـ وحدة الشرق الأوسط، التي يرأسها زميل ريتر ستيف ريتشتر، لم تكن تتبادل المعلومات مع اليونسكوم. فقد أصبحت بعثة الأمم المتحدة للتفتيش في العراق تقوم بعملية تجسّس أميركية ضدّ النظام. وتكبّد قليلون عناء التذكير بأن مبرّرات صدّام لطرد مفتّشي الولايات المتحدة (السبب الرسمي لقصف كانون الأول/ديسمبر) قد ثبتت صحّتها. لكن اليونسكوم كانت قد انتهت... بعكس الهجوم على العراق... فمع قليل من الدعاية، ورغم اللامبالاة الواضحة في العواصم الأوروبية، قامت الطائرات الأميركية والبريطانية بأكثر من ٧٠ غارة جوّية على العراق خلال خمسة أسابيع من كانون الثاني/يناير حتى شباط/فبراير ١٩٩٩، محدثة أضراراً إضافية فاقت ما سبّبته غارات ما قبل الميلاد. وقد أعطيت أوامر جديدة الآن للطيّارين الذين ينطلقون من السعودية والكويت تسمح لهم بإطلاق النار على المنشآت العراقية حتى لو لم تتعرّض طائراتهم لتهديد مباشر. وكان الهجوم الجوّي محسوباً بدقّة لتجنّب الانتقاد وجدل الرأي العامّ على الرغم من أنه تصادف مع محاولات إضافية من واشنطن لإسقاط نظام صدّام حسين. في بيتي في بيروت، في يوم غزير المطر، أمضيت ساعات أبحث بين نُسخ الصحف العربية والبريطانية عن تفاصيل تلك الغارات. زرت توفيق مشلاوي وهو صحفي لبناني فلسطيني قديم كانت صحيفته ميدل إيست ريبورتر Middle East Reporter دقيقة في تسجيل كلّ غارة جوّية غربيّة على العراق وانعكاساتها السياسية في العالم العربي، ووجدت أن أرشيفه كان مليئاً بتصريحات مُقتضبة خارجة عن الموضوع من قبل متحدّثين عسكريين غربيين. وهكذا، بينما كنت جالساً في مكتبه البارد قرب وسط بيروت، وضعت هذه القُصاصات بعضها بجانب بعض ووجدت نفسي أقرأ رواية متماسكة ومزعجة جدّاً لحرب سرّية قريبة. تحوّلت فقرات إخبارية صغيرة كما نسمّيها إلى قصص أطول، وقمت بتصويرها وجمعها واحدة تلو الأخرى في ملفّي، وبدأ الملفّ يكبر. . وكان عليّ فتح ملفّ جديد لمجموعة القصاصات التالية.

هوجمت مواقع الصواريخ العراقية (بدون إنذار) واستُهدفت محطّات الرادار بسبب وجودها فقط وليس بسبب أي نشاط عدائي يهدّد القوّات الأميركية في الخليج كما قيل. في بداية شباط/فبراير على سبيل المثال، قصفت الطائرات الأميركية CSSC-3 Seersucker بطّارية صواريخ مضادّة للسفن في شبه جزيرة الفاو كانت (بحسب ناطق رسمي) «تستطيع تهديد الملاحة في الخليج». وقالت مصادر عسكرية إنه لم يكن هناك دليل على أن الصواريخ كانت مُعدّة للإطلاق رغم أن المسؤولين الأميركيين والبريطانيين استمرّوا في القول لأكثر من سنة بعد الحادثة أن طيّاريهم كانوا يردّون فقط على تهديدات محدّدة ضدّ طائراتهم. في مقال في صحيفة الإندبندنت يوم ٧ آب/أغسطس ٢٠٠٠ كتب وزير الخارجية بيتر هاني (الشخص نفسه الذي هاجم هاليداي وفون سبونيك على انتقاداتهم لعقوبات الأمم المتحدة) أنه كان هناك حوالي ٨٥٠ تهديداً مباشراً ضدّ طائراتنا في السنة ونصف السنة الماضية بما في ذلك هجمات بالصواريخ ونيران كثيفة مضادّة للطائرات. «لقد قام طيّارونا بالردّ فقط للدفاع عن أنفسهم ضدّ هذا النوع من الهجوم».

كان ذلك كذباً واضحاً!! لكن من خلال مهاجمتهم للعراق يومياً بينما يصدرون معلومات عاديّة فقط عن الأهداف، كان الأميركيون والبريطانيّون يضمنون أيضاً أن يلقى قصفهم المتدرّج هذا اهتماماً ضئيلاً، أو لا يلقى أي اهتمام في الصحافة.. كانت الصحف الآن تفرد غالباً أربعة أسطر عن الضربات الجوّية بينما كانت تملأ الصفحات الأولى منذ عام. وكانت الانتقادات الخفيفة تُسمع فقط عندما تصيب الصواريخ الأميركية مناطق مدنية. وأحياناً، كانت هذه الهجمات أكثر دموية ممّا كان يعترف به العراقيون. عندما كان صاروخ أميركي AGM- 130 ينفجر في مجمّع سكني في البصرة، كانت التقارير الأولية تتحدّث عن إصابة مدنية واحدة مع أن حوالي ١٦ شخصاً قتلوا في ذلك اليوم وأصيب مئة آخرون بجروح. وصرّح فون سبونيك الذي كان لا يزال المنسّق الإنساني للأمم المتحدة في بغداد أن صاروخين ضربا منطقتين مدنيّتين تفصل بينهما مسافة ٣٠ كيلومتراً، الأول في البصرة حيث سقطت امرأة وخمسة أطفال بين القتلى، والثاني في قرية أبو الخصيب حيث قتل خمس نساء وخمسة أطفال. بعبارة أخرى كان معظم الضحايا من الأطفال. وفي وقت لاحق اعترف ناطق باسم البنتاغون ردّاً على سؤال عن الإصابات قائلاً: «أودّ أن أكرّر أننا لا نستهدف المدنيين».

وكانت الهجمات الجوّية لعام ١٩٩٩ قد بدأت يوم رأس السنة بخمس غارات أميركية خلال أسبوعين، تبعتها يوم ١١ كانون الثاني/يناير غارة عندما هاجمت طائرات أميركية مواقع صواريخ عراقية انطلاقاً من قواعد جوّية في تركيا،... استمرّت الغارات يومياً تقريباً حتى أواخر ذلك الشهر، أي الوقت الذي انضمّت فيه القاذفات البريطانية إلى الطائرات الأميركية في غاراتها. وفي ٣١ كانون الثاني/يناير، قامت ٨ طائرات أميركية وبريطانية بقصف طرق المواصلات إلى الجنوب من البصرة... و قال بيان صادر عن الأميركيين يوم ٤ شباط/فبراير إن الطائرات الأميركية والبريطانية دمّرت حتى تاريخه أربعين بطّارية صواريخ، مضيفة أن ذلك وحده سبّب أضراراً كبيرة للعراق تفوق غارات كانون الأول/ديسمبر.. ومرّ البيان بدون تعليق. ولم تفسّر واشنطن أو لندن ما إذا كانت الغارات مدعومة من الأمم المتّحدة، ومرّ تحذير من أكبر رجال الدولة في الحزب الاشتراكي البريطاني طوني بِن دون أن يلفت الانتباه.

يوم ١١ شباط/فبراير، شجب الجنرال السير مايكل روز، القائد البريطاني السابق لقوّة الأمم المتّحدة في البوسنة، الهجوم في خطاب ألقاه أمام معهد الخدمات المتّحدة الملكية، قال فيه: «إن الصور التلفزيونية المستمرّة لأنظمة الغرب العالية التقنية التي تسبّب الموت والدمار في العالم الثالث لن يستمرّ التسامح حيالها إلى الأبد من قِبل الشعوب المتحضّرة». لكن تمّ تجاهل ملاحظاته بشكل واسع. بالمقابل، استمرّ المسؤولون الأميركيون في محاولاتهم الفاشلة لتشكيل معارضة عراقية موحّدة ضدّ صدّام، وطلبوا دعماً عربياً لخططهم. وعندما أعلن صدّام أن «مناطق الحظر الجوّي» الغربية غير قائمة (وكان هذا صحيحاً وفقاً للقانون الدولي)، فقد شجّع دفاعاته الجوّية على إطلاق النار على الطائرات الأميركية والبريطانية، وقدّم أيضاً جائزة قيمتها ١٤ ألف دولار لطواقم صواريخ أرض ـ جوّ الذين يُسقطون طائرة مُغيرة. . على أن ذلك لم يسفر عن شيء: فقد كانت بطّاريات الدفاع الجوّي العراقية أدنى مستوى مقارنةً بالتقنية الأميركية والبريطانية.

وبينما استمرّت الحرب شبه السرّية، أُعلن في بغداد أن ستّة مدنيين آخرين ماتوا، واحد في غارة قرب النجف يوم ١٠ شباط/فبراير ١٩٩٩ وخمسة آخرون سقطوا مع ٢٢ جريحاً بعد خمسة أيام في جنوب العراق.

وبعدما نشرت الإندبندنت تفاصيل هذه الحرب العقيمة، تابعت بحثي في الصحف العربية اليومية... فوجدت تقريراً منشوراً في ٢٢ شباط/فبراير، جاء فيه أن الطائرات الأميركية والبريطانية هاجمت موقعاً صاروخياً عراقياً وقاعدة اتصالات قرب العمارة وتليل. ويوم ١ آذار/مارس، ألقت طائرات أميركية أكثر من ٣٠ قنبلة موجّهة زنة ألفي ليبرة و٥٠٠ ليبرة على محطّات إرسال إذاعية «كانت أهدافاً تتعلّق بالاتصالات وبطّاريّات الدفاع الجوّي» في شمال العراق. وقد صرّح وزير الدفاع الأميركي كوهين في اليوم نفسه أن لدى الطيّارين الأميركيين حرّية أكبر في هجماتهم. وعندما أوقفت غارة جوّية صادرات النفط إلى تركيا، اشتكى المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتّحدة «النفط مقابل الغذاء» بينون سيفان أن هناك عجزاً بقيمة ٩٠٠ مليون دولار حتى الآن بين الموارد المتوقّعة والمبالغ الضروريّة لتمويل البرنامج الإنساني الخاضع للعقوبات، وأن استمرار الغارات سيجمّد جهود تأمين الغذاء والدواء للمدنيين. وقد تمّ تجاهله تماماً مثلما حصل مع طوني بِن ومايكل روز.

لكن تقارير الصحافة العربية حول الغارات الأميركية والبريطانية أثبتت أن تحذيرات روز كانت صحيحة. حتى أن قطر، الحليفة القديمة لواشنطن عارضت الحملة. وقد أبلغ وزير الخارجية القطري الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني الوزير كوهين يوم ٩ آذار/مارس بأن قطر «لا تتمنّى رؤية العراق يُقصف يومياً ولا هذه الغارات التي تحصل في مناطق الحظر الجوّي». وطلب أمين عام الجامعة العربية عصمت عبد المجيد وضع حدّ لهذه الغارات الجوّية. وقد ساهمت حرب كوسوفو التي استطاع الأميركيون والإنكليز فيها لعب دور حامي المسلمين في تلطيف حرب العراق. وفي ٢ نيسان/أبريل، أعلن العراقيون أن الطيران دمّر مركز مراقبة لمحطة ضخّ النفط في ميناء البكر.

لم يكن هناك من نهاية لذلك الأمر!! ففي ٦ نيسان/أبريل، أعلن البنتاغون عن هجوم مشترك أنغلو ـ أميركي على قاعدة صواريخ أرض ـ جوّ في الفيصلية. وأفيد عن مقتل ثلاثة مدنيين في غارات على كردستان العراق يوم ٨ أيار/مايو.. وقُتل ١٢ آخرون في الموصل بعد خمسة أيام. وهكذا استمرّ الأمر. ولاحظت النيويورك تايمز أن حرب العراق مستمرّة من دون علم الأميركيين وأوردت في ١٣ آب/أغسطس أن الطيّارين الأميركيين والإنكليز أطلقوا أكثر من ألف صاروخ ضدّ ٣٥٩ هدفاً في الأشهر الثمانية الماضية، وأنهم قاموا بطلعات جوّية تفوق بمعدّل الثلثين ما قام به طيّارو حلف الأطلسي ضدّ يوغوسلافيا خلال قصف الربيع لمدّة ٧٨ يوماً. وما كان الردّ على كلّ ذلك في الإدارة الأميركية؟ صرّح المتحدّث جيمس روبن: «إن المسؤولية الكاملة عن هذه الأحداث تقع على عاتق صدّام حسين».

وخلال ذلك العام، استمرّ الأميركيون والإنكليز باستهداف البنية التحتية للعراق أو ما تبقّى من دفاعاته.. وكانت حرب استنزاف قلّصت بانتظامها الغارات الجوّية شبه اليومية إلى مجرّد روتين لا يستحقّ الإعلام... ولكن، ليس في العالم العربي!!! فقد ندّدت الصحف في جميع أنحاء الخليج بالهجوم المستمرّ، وصرّح المسؤولون السعوديون في مجالسهم بأن القصف الجوّي يسبّب غضباً متزايداً في أوساط الشباب والمواطنين الأكثر تديّناً في المملكة... وحذّر الجنرال روز من أن هذا العنف «لن يتمّ التسامح معه إلى الأبد».... ولكن ماذا كان بإمكان

العرب أن يفعلوا؟ وما هي الأسلحة التي كانوا يملكونها في ترساناتهم لكي يغيّروا توازن القوّة بين الشرق والغرب، غير تلك الطائرات والدبّابات التي بيعت للمتسلّطين عليهم لزيادة ثرواتنا نحن؟؟

ومن ناحية ثانية، فإن هناك سوطاً آخر مسلّطاً فوق رأس الشعب العراقي كان علينا الحديث عنه، وهو كان خليطاً مجنوناً لعبت فيه نيراننا وعقوباتنا دوراً شخصياً رهيباً، سوف يَسم العراقيين في السنوات، وربّما الأجيال، القادمة. وبعبارة تاريخية، قد توصف يوماً بأنها أبشع جرائمنا في الشرق الأوسط، ضدّ العرب وضدّ الأطفال.. لقد تجلّت هذه الجريمة في دمامِل، وأورام منتشرة، وغانغرينا، وسيلان للدم، وتشوّه في رؤوس الأطفال، وآلاف من المقابر الصغيرة.

سمعت بداية معلومات تقول إن العراقيين سيعانون من سرطان جديد غريب مُعدٍ، وذلك حين كنت في زيارة للعاصمة السورية دمشق صيف ١٩٩٧... وقد أخبرني زعيم عراقي معارض، وهو رجل دين شيعي هرب إلى إيران بعد فشل انتفاضة ١٩٩١ وسافر بعدها إلى سوريا، أن الجنود السابقين الذين التجأوا إلى المعسكرات في جنوب إيران أصيبوا بعدد غير عاديّ من أمراض السرطان، وقد قاتل معظمهم عام ١٩٩١ في معارك الدبّابات جنوب غرب البصرة، وضُربت مدرّعاتهم بشكل متكرّر بقنابل أميركية مشبعة باليورانيوم... وتحدّث رجل الدين عن أطفال عراقيين في مخيّمات إيران أصيبوا بالمرض أيضاً. إذا كان ذلك صحيحاً، وكان هؤلاء قد جاءوا أيضاً من جنوب العراق، عندها فكيف هو الوضع الصحّي للأطفال في البصرة اليوم؟ ما طبيعة أمراض السرطان الغريبة؟ عندما وصلت إلى بغداد أوائل ١٩٩٨، وُوجهت تقريباً في وقت واحد بحالات غير متوقّعة من السرطان. فقد خسرت عائلة عراقية أعرفها منذ سنوات ثلاثة من أفرادها بسرطان الدم خلال سنتين. وكان لهذه العائلة تاريخ في مجال التدخين. لكنّ السيّدة المتوسّطة السنّ التي استقبلتني عند الباب وكانت ترتدي حجاباً على رأسها لم تكن تدخّن. وجدت ذلك غير عادي. وكان هناك مسؤول حكومي أُدخل ولداه إلى المستشفى نتيجة شكوى من مرض رئوي، تحوّل لاحقاً إلى مرض سرطاني. وقد أخبرني صديق عراقي آخر عن طفل الجار الذي أصيب بمرض في إحدى عينيه وقد استخرج الأطباء عينه حتى لا ينتشر السرطان.

تطلّب الأمر منّي عدّة أيام، قبل أن أكتشف أنّ هذا الشيء الرهيب حصل في نهاية حرب الخليج عام ١٩٩١. وقد عزا بعض العراقيين الأمر إلى حرائق النفط التى اشتعلت خلال الحرب وبعدها مُطلقة سُحباً من الدخان خيّمت على البلاد لأسابيع وأنتجت ضباباً مولّداً للسرطان فوق بغداد والمدن الأخرى... وشك آخرون في أن ذلك ناجم عن آثار تدمير مصانع الأسلحة الكيميائية التي كانت لدى صدّام. لكننا وجدنا، بشكل متزايد، أن معظم المعرّضين للخطر جاءوا من مناطق استخدمت فيها طائرات الحلفاء (والدبّابات في الجنوب) كمّيات كبيرة من الذخائر المشبعة باليورانيوم.. وقد تمّ صنع قنابل DU من بقايا الصناعة النووية، وهي خليط معدني قاسٍ أقوى من التنغستين الذي يتحوّل إلى سائل نووي بخّاخ بعد إطلاقه على الدبّابات المصفّحة وناقلات الجند. وكما توقّعت، فقد أنكر الأميركيون والبريطانيون أن تكون هذه الذخائر سبب السرطان.

لم تكن تلك رواية يسهل التحقيق فيها... وبعكس شظايا القنابل المبرمجة بالكمبيوتر، لا يمكن مادّياً ربط ذخائر DU (التي يسهل التعرّف إليها لأنها تترك رأساً مخترقاً في الهدف أو قربه) بسرطان الدم الذي أصاب عدّة آلاف من العراقيين إلّا من خلال تحليل دقيق لمكان الانفجارات السرطانية ومقابلات مع العشرات من المرضى. فعلى سبيل المثال، لم يكن بعض الأطفال الذين تحدّثت معهم قد ولدوا عام ١٩٩١، لكن وجدت أن أهلهم كانوا قريبين من هجمات الحلفاء الجوّية أو الهجمات بالدبّابات. كانت هناك صعوبة أخرى في نقل هذه القصّة واجهتني مع زميلَي (لارا مارلوي التي تعمل الآن مع صحيفة الأيرش تايمز وأليكس طومسون من القناة الرابعة البريطانية وهما عملا معي في تحقيقي الأول) عندما زرنا المستشفيات العراقية المهدّمة والقذرة بشكل كبير. كانت أجنحة مرض السرطان صادمة، وأكثر منها أجنحة الأطفال المرضى بالسرطان: أماكن لا يجب أن توجد على الأرض إذا كان للحياة وللطفولة من معنى. لكنّ أجنحة سرطان الأطفال بغيضة، بالنسبة إلى الذين يموتون من أمراض الحرب... ذلك أن ما صار واضحاً شيئاً فشيئاً هو أن وباءً كيميائياً انتشر جنوب ما بين النهرين، مخلّفاً وراءه كابوساً متنقّلاً من سرطان الدم وسرطان المعدة أدّى إلى وفاة الآلاف من الأطفال العراقيين، وكذلك من الكبار الذين كانوا يعيشون قرب مناطق القتال في حرب الخليج عام ١٩٩١.

كان هؤلاء الأطفال يبتسمون وهم يُحتضرون كان عمر علي هلال ابن ثماني سنوات عندما التقيته في مستشفى المنصور في بغداد... كان يعيش قرب محطة تلفزيون وعدّة مصانع في ديالا التي قُصفت مراراً من قِبل طيران الحلفاء، كان الطفل الخامس لعائلة ليس لديها ماضٍ مع السرطان... وهو الآن مصاب بورم في الدماغ.. وقد ذكر الدكتور عليّ مدى سوء تغذية الصبي عندما وصل إلى المستشفى. «أولاً كان عنده نكاف، بعدها كان لديه انتفاخ في البطن والصدر، والآن وصل الورم إلى الدماغ، وكان التشخيص المسبق فقيراً جداً». وقد تذكّرت والدة عليّ هلال فاطمة عمليات القصف. قالت: «كانت هناك رائحة غريبة، رائحة حريق صادمة، كرائحة مُبيد للحشرات». وقال الدكتور إسماعيل إن الطفل أصيب بصُداع حادّ البارحة، وأضاف بينما كان يبتسم له: «كان يصرخ، وعندما أعطيته حقنة بين ضلوعه، عرف ألم الإبرة لكنه ظلّ هادئاً لأنه يعرف أنني أبغي الخير له».

كان الطفل لطيف عبد الستّار يلعب بسيّارة كهربائية صغيرة عندما شاهدته للمرّة الأولى. وكانت ابتسامته توحي بالحياة، رغم رأسه الأصلع لكنه سيموت(*).

سرت مع الدكتور إسماعيل في جولته الصباحية. كان يوسف عبد الرؤوف محمّد من كربلاء حيث كان يعيش

(*) تمّ تشخيص مرضه بأنه غير خبيث قبل ثلاثة أشهر، فقد تلقّى علاجين من السيتوتوكسين لكنّ المرحلة الثالثة كانت جزئية، لأنه كان يتلقى فقط Adriamycin cyclophosphamide كمضادّ لـ Vincristine كما قال الدكتور إسماعيل. ما كان يحتاج إليه لطيف كانت تنتجه شركة ألمانية أسمها استراميديكا. «حصلنا على عشرين وحدة من المضادّ الحيويّ خلال عشرة أيام، قبل ذلك كان أهالي المرضى يشترونه بسعر ١٦٠ ألف دينار، ما يعادل راتب أكثر من سنتين للعديد من العراقيين. لكن مع ذلك لم نحصل على ما يكفي. كان لطيف يحتاج إلى علاج طويل طالما استمرّ المرض الخبيث».

قرب قواعد عسكرية قُصفت عام ١٩٩١ وهو يعاني من نزيف معوي. ما زال شعره المجعّد موجوداً وكان يستطيع الحديث مع أهله، ولكن ظهرت على وجنتيه بقع دم صغيرة، وتلك علامة مؤكّدة على النزيف الداخلي... لكن الدكتور إسماعيل كان منزعجاً من ذكرى ما... قال: «منذ حصار الأمم المتحدة، يموت المرضى غالباً قبل أن يحصلوا على علاج»، وكان ينظر إلى الأرض لأنه يعلم أن قصّته ستكون مرعبة. وأضاف: «أصيبوا بانخفاض حادّ في لوحات الدم. وكانوا ينزفون من كل مكان من أجسادهم. كان لدينا طفل آخر مثل يوسف يدعى أحمد فليح. وبعدما بدأنا بالمعالجة بالسيتوتوكسين، بدأ النزيف من كل مكان، من فمه، وعينيه، وأنفه، ودبره. نزف حتى الموت خلال أسبوعين».

كان الدكتور إسماعيل الذي يعمل في قسم السرطان يجلس في مكتبه يحدّق أمامه، وقال: «عندما توفّي فيصل عبّاس منذ يومين، جئت أمام الباب هنا وجلست ثم بكيت. لقد أعطيته أدوية بيدي، كان بمثابة أخ لي، وكان عمره ١٠سنوات فقط، أصيب بسرطان الدم منذ ثلاث سنوات وعالجناه بالأدوية وحصل على العلاج لكنه كان جزئياً فقط لأننا نفتقر إلى العديد من الأدوية».

وضع الدكتور إسماعيل اللوم على العقوبات بالتأكيد لتسبّبها بمنع الأدوية، واشتكى أن حرب ١٩٩١ حوّلت جناح سرطان الأطفال إلى معبر للأطفال الذين يموتون، للأطفال الذين كانوا ينزفون حتى الموت أمام الأطبّاء بعد أخذهم جرعة العلاج الأولى. وقال الدكتور إسماعيل: «خلال ثلاث سنوات شاهدت مئات الأطفال المصابين بسرطان الدم، وفي العام الفائت كانت هناك زيادة مأساوية. هذا الشهر شخّصنا عشرين حالة جديدة معظمها من الجنوب، من البصرة، والناصرية، وكربلاء والنجف، نتجت بشكل رئيسي عن الإشعاع». كان لدى الأطبّاء هنا طريقة غريبة في التعبير عن أنفسهم بنوع من اللغة العاطفية العلمية. قال أحدهم: «لدينا علاج مخفّف لكن ليس لدينا علاج شافٍ».

عندما تجوّلت في ردهة جناح سرطان الأطفال فهمت ماذا يعني ذلك.... كانت الطفلة سمر قدير ترقد في ما يسمّيه الأطبّاء عرضاً: «جناح الموت». عمرها خمس سنوات لكنها كانت تبدو أصغر سنّاً وهي ممدّدة ترتجف في سريرها، مغمضة العينين من الألم، وكان والدها المصدوم بجلّابيته الرمادية رغم حزنه وألمه يضع ضمادة مبلّلة صفراء على وجهها. جاءت من اليوسفية على طريق بابل التي كانت هدفاً للغارات المنتظمة في شباط/فبراير ١٩٩١.

بدا جابر والد سمر رجلاً مسكيناً، وقد دفع ١٥ ألف دينار لشراء دواء السيتوتوكسين Cytotoxin لابنته التي تموت، أي ما يعادل راتب أكثر من ثلاثة أشهر بالنسبة إليه، وأبلغني بهدوء: «بعت سيّارتي لشراء الدواء لها». وعندما سألناه كيف سيدفع ثمن الجرعة الثانية لها قال: «سوف أستدين المال». أنصت الدكتور إسماعيل بصمت ثم قال لي بالإنكليزية: «لقد رأيت عائلات المرضى عدّة مرّات، يبيعون كلّ ما يملكون في بيوتهم حتى الأسرّة ومن ثمّ يموت الطفل على كلّ حال».

لا تستطيع التحرّك في «جناح الموت» في بغداد دون شعورَيْن: إحساس عميق بالضيق وحتى الخزي بأن نصرنا العسكري على صدّام القاسي عام ۱۹۹۱ خلق هذا المطهر المكتظّ بالأبرياء، وذلك بسبب تسميم الهواء الذي يتنشّقون والأرض التي يحاولون العيش فيها.... وإعجاب عميق بكرامة الفقراء العراقيين الذين يبيعون أحياناً ملابسهم جاهدين لإنقاذ أطفالهم الذين يموتون في أحضانهم، ولا أحد يستطيع البقاء غير متأثر بشجاعة الضحايا.

إنّ سلمى حدّاد طبيبة من اللواتي يمكنك بالتأكيد اختيارها لعلاجك في مرضك الأخير.. كما دوّنت تلك السنة في ملاحظاتي التي لا تصدّق ووضعتها في محفظتي المليئة بعشرات الصفحات. في مركز صدّام حسين الطبّي في بغداد (من الضروري اتّباع نوع من فقدان الذاكرة خاصّ بدلالات الألفاظ بالنسبة إلى أسماء العديد من المؤسّسات في العراق)، أحصت الدكتورة حدّاد الأطفال الذين تعرف أنهم سيموتون قريباً. كانت تمزح مع كرّار عبد الأمير البالغ من العمر ۱۳ سنة والذي كان خائفاً من سرطان الدم ولكنه أكثر خوفاً من أخذه الأدوية التي يمكن أن تنقذه... عرّفتني إلى كلّ طفل بالاسم من دون النظر إلى البيانات أسفل الأسرّة لمعرفة هويّاتهم. ضحكت الدكتورة حدّاد قائلة: «الآن هذه شيرو جاسم وهي لبست ثوباً جديداً لك لكي تأخذ صورتها».

وقد ابتسمت الفتاة الجميلة فرحاً بقبّعتها الشمسيّة... اسمها يعني برعم زهرة، وكانت تعاني من سرطان دم حادّ. جلست آمنة أحمد صلعاء مُشرقة، ومسحة هدوء على وجهها الصغير وأنا أصوّرها بكاميرتي... حرارتها المرتفعة خفّضتها المروحة الكهربائية، وقد بدت هذه الآلة التي تحارب حرارة بغداد بعد الظهر نوعاً من الهالة القدسيّة حول رأسها: كملاك من بابل، تموت من ورم معويّ. وقالت الدكتورة حدّاد: «أنا مُحبطة ومتشنّجة. لا أستطيع إنقاذ العديد من الأطفال، لكن ما الذي باستطاعتي فعله؟ لديّ شعور بالمسؤولية تجاه الأطفال المساكين، وأشعر بالعجز معظم الوقت». وسألتُ إذا كنتُ سأرسل نسخ الصور إلى الأطفال في بغداد بأسرع ما يمكن، فخلال شهر أو شهرين تكون آمنة قد توفّيت، وشيرو أيضاً، وترغب الدكتورة حدّاد أن يروا صورهم قبل وفاتهم.

ماذا يستطيع المرء أن يقول في حضرة الأمّهات والآباء الواقفين قرب أسرّة أطفالهم الذين يموتون؟ يوسف محمّد ابن السابعة، صبي صغير يرتدي بيجامة زرقاء وبيضاء، يعاني من سرطان دم حادّ، وتعتقد والدته حسيبة أنها تعرف السبب. قالت: «كانت هناك قاعدة عسكرية قرب بيتنا في بغداد، وقد تمّ قصفها بشدّة من قِبل الأميركيين، وكذلك شبكة الاتصالات المحلّية. شعرنا بالمرض بسبب الدخان الصادم في وقتها، وكان لديّ طفل بصحّة جيّدة ولِد قبل الحرب. وعندما حملت بعد الحرب أجهضت، ثم رُزقت بيوسف الذي يعاني سرطان الدم. وبعدها وقع لي إجهاض آخر. لماذا حصل لي ذلك؟ توفّي صهري عبد القادر رشيد من سرطان الدم بعد سنتين من الحرب، وكان جندياً عمره ٣٦ سنة فقط. كيف يمكن لعائلتي التي ليس لديها تاريخ مع مرض السرطان أن تعاني فجأة هكذا؟».

أشواق حميد ابنة الثالثة عشرة المصابة بسرطان حادّ، فتاة هادئة تغطي رأسها بحجاب أصفر، وهي تحتاج إلى زرع مخّ العظم، الأمر الذي لا يتوافر في العراق... وكانت جدّتها جاسمية تجلس قرب سريرها. قالت: «نحن من

ديالا شرق العراق، كان القصف قريباً جدّاً منا، وقد قُصف المطار والمصنع الزراعي بشدّة، وشممنا دخاناً غريباً رائحته كالغاز». ما يتساءل عنه المرء هنا هو ماذا يُنتج المصنع الزراعي؟ مُبيدات أو غازاً؟ ومن أي موادّ صُنعت القنابل البريطانية والأميركية؟

عُلا فلاح ابنة الرابعة، ولِدت بعد أربع سنوات من حرب الخليج وعندها ورم في الكُلى. كان والدها جندياً في حرب ١٩٩١.. وهناك شائعات عديدة في العراق تقول بأن العديد من قُدامى الجنود يموتون بمرض السرطان... وكانت والدتها فاتن تهزّ رأسها حيال مصير ابنتها، وتقول: «ما زلت مشدوهة متعجّبة لماذا أصيبت ابنتي بالسرطان». على بعد بضع خطوات، كانت دامية قاسم في وضع خطير بعد معاناتها من اضطراب عمل القلب خلال علاجها الأخير ضدّ سرطان حادّ. تبلغ دامية الثالثة عشرة من العمر، وقد توفّيت عمّتها بنوع غامض من مرض السرطان قبل أربعين يوماً فقط، وكان عمر العمّة ٣٦ سنة فحسب.

وتُعتبر حالة أحمد وليد أكثر إزعاجاً، وقد تمّ تشخيص مرضه على أنه سرطان دم مزمن منذ ثلاث سنوات. كان طفلاً عندما قُصفت بلدته ديالا. لكن والدته تروي قصّة مخيفة: «شممنا جميعاً روائح غريبة بعد القصف، ثم بدأ الأطفال بجمع قطع الصواريخ والقذائف كتذكار وكانت ذات لون فضّي لامع، ولعبوا بها في البيت. وقد قُتل جار لنا عندما سقط صاروخ على مزرعته. وأحضر الأطفال قطع حديد كبيرة من الصاروخ إلى بيتنا».

ذات ليلة، وبعد قضاء عشر ساعات في «جناح الموت» المخصّص للأطفال في بغداد، زرت مركز الصحافة العراقية الحكومي حيث يكتب صحفيّو الوكالات الغربية تقاريرهم الأخيرة حول المفاوضات بين كوفي أنان وصدّام. مشيت في الردهة الرثّة نحو مكتب الأسوشيتدبرس في مكان مستطيل جدرانه من الخشب، وأخبرت زميلاً أميركياً قديماً وصديقاً ماذا اكتشفت، فأنصت بصبر واستذكر دعاية «التابوت العراقي الفارغ»، وأعطاني إجابته المنفعلة قليلاً. قال: «روبرت، أنا لا أكتب قصص الأطفال العراقيين!». لكنّ ما أسمعه لا ينتهي، وهو ثابت وصحيح من دون شكّ ما دام الأهل غير المتعلّمين غالباً كانوا لا يعلمون أنني سأزور أطفالهم. بغض النظر عن أسئلتي حول حرب ١٩٩١، كنت أسمع مراراً وتكراراً الشيء نفسه.

يبلغ طارق عبدالله الثالثة عشرة من العمر، وهو مُصاب بسرطان دم حادّ. وقد روى لي بنفسه: «أحضر الجيران قطع قنابل لامعة إلى بيتنا، كانت ثقيلة مثل الحديد». وقد تمّ تشخيص مرض طارق منذ سنة تقريباً.

كرّار عبد الأمير، الطفل الخائف من العقاقير التي يمكن أن تنقذه أكثر من خوفه من سرطان الدم جاء من كربلاء في جنوب العراق. تتذكّر والدته إخلاص القنابل التي تساقطت قرب بيتهم: «سقطت بعض الشظايا حولنا. وحاولت إيجادها، وكانت حادّة مثل شفرات آلة الحلاقة، ولم أسمح لأولادي بلمسها خوفاً من جرح أنفسهم. كانت هناك رائحة حادّة جعلت عيوننا تدمع».

رشا عبّاس، من البصرة مصابة بسرطان الدم، عمرها ١٥ سنة، تعاني حرارة مرتفعة وهبوطاً في ضغط الدم

واهتراء في الفم وعدم قدرة على الكلام. كان والدها أحد قتلى الحرب العراقية ـ الإيرانية. قالت لنا والدتها حسنة ببطء متسائلة ماذا حصل لعائلتها: «عام ١٩٩١ احترق بيتنا جرّاء تعرّضه للقصف وقُطعت أذنا رشا. دخلت شظايا الصاروخ إلى بيتنا، وركض الأطفال لالتقاطها...».

بالتأكيد، لم يكن الأطفال الضحية الوحيدة في بغداد أو في جنوب العراق. إلى جانب جناح السرطان في مستشفى التعليم في البصرة حيث يرقد مطر عبّاس بجسده المهترىء الذي يهزأ بسطح شط العرب الأزرق خارج النافذة. خسر إحدى عينيه وهو ينخع المخاط في منديله، وأسقط غطاء رأسه عنه ليكشف أثر المعالجة الكيميائية، فبان جزء من وجهه مشوّهاً بسبب السرطان الذي يأكل الآن نخاعه. جاء من مدينة الناصرية التي قُصفت ضواحيها من قِبل قوّات الحلفاء في آخر أيام حرب ١٩٩١. زوجته غانية امرأة فلّاحة على وجهها وشم، بقيت طيلة الحرب مع مطر، وهو سائق سيّارة أجرة على الطريق بين العمارة وميسان، عمره ستون عاماً، ولديهما تسعة أولاد. قالت لي: «شاهدنا شظايا القنابل، لكن لم يُقصف أي شيء قربنا، كنا بأمان». ثم تحدثت بهدوء كما لو أن الذكرى ستنقذ بطريقة ما زوجها المحتضر. تدخّل الدكتور جواد كاظم العلي وهو عضو في المعهد الملكي للأطبّاء قائلاً: «نادراً ما رأينا هذه الأنواع من الأورام قبل الحرب». كان يبتسم بينما يلمس أذن مطر اليمنى مع أنه من وقت لآخر كانت تطفر الدموع من عينيه، وكنت تُدرك أنه محطّم نفسيّاً أيضاً. إنه يشبه قليلاً بيتر سيليرز، صغير القامة وشعره قصير، وشاربه متهدّل وليس في تعليقه فكاهة.

قال: «بسبب الورم في أذنه، لا يستطيع مطر عبّاس الكلام الآن أو الأكل وهو أصمّ. جاء للعلاج الأول فقط يوم ١٦ كانون الثاني/يناير وهو يترنّح غير قادر على الكلام والشرب، وقد أظهر الكشف مرض السرطان، وأنا أعطيه علاجاً كيميائياً Cytotoxic لكن في ما بعد انتقل المرض إلى الدماغ والكلى، حتماً لن يعيش أكثر من سنة».

قادني الطبيب عبر غرفة إلى حيث ترقد زُبيدة محمّد مرتدية مُلاءة في سريرها. جاءت من الزُّبير قرب القاعدة الجوّية العراقية التي تشبّعت بقنابل الحلفاء في سلسلة غارات بدأت ليل ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٩١. قال الدكتور العلي: «إنها مصابة بأورام لمفاوية، وقد وصلت إلى صدرها. وهي تعاني من ضيق في التنفس». كان عمر زبيدة ٧٠ سنة.

في الجانب المقابل يرقد جواد حسن (٥٥ سنة) المصاب بمرض سرطان المعدة منذ سنتين. كان يعيش قريباً جدّاً من محطّة تلفزيون البصرة التي كانت هدفاً لقصف الحلفاء. قال الدكتور العلي: «كان معرّضاً للغازات والقذائف على منزله. وكان قريباً أيضاً من الجسور القائمة على النهر والتي قُصفت. كان وزنه يتناقص رغم العلاج الذي يجعل مرضه سيّئاً جدّاً». تطلّع الرجل المتوسط العمر إليّ بنظرة فارغة: «منذ تعرّضي لغازات القنابل، اشتكيت من آلام في المعدة».

كانت مضامين ما يقوله ضحايا السرطان هؤلاء مُرعبة إلى حدّ أنني تمنّيت أن تكون زيارتي هي نتاج محاولة ضعيفة من السلطات لترتيب رواية يبلعها صحفي زائر وتكون أكاذيبها سهلة الكشف، أي كمحاولة فظّة من قِبل نظام صدّام لإثارة مسألة أخلاقية خطيرة حول مُجمل حرب ١٩٩١. لكن مجدّداً، لم تكن لدى الدكتور العلي أي فكرة عن زيارتي حتى لحظة دخولي إلى مكتبه في البصرة.. ولم يكن مرضاه يتوقّعون أي زوار... وإذا كان بعضهم، مثل العديد من ضحايا السرطان في أماكن أخرى من العالم، من كبار السنّ، فماذا يُقال عن هذا العدد من الرجال والنساء، الشباب والمسنّين، الذين كانوا ينتظرون خارج قسم الأورام عندما وصلت؟ قال الدكتور العلي: «هذه مأساة بالنسبة إليّ».. مشيراً إلى شاب طويل يقف بين مجموعة من النساء... «إني أفقد أصدقاء كل يوم، هذا الشاب مُصاب بالغُدد اللمفاوية وهذه الفتاة تعاني من مرض السرطان»... كانت صغيرة الجسم مع ابتسامة كبيرة ووجه كالقمر، اسمها فوزيّة عبد النبي وعمرها ٥١ سنة، أستاذة لغة إنكليزية سارت إلى مكتب القسم وكشفت عن رقبتها لإظهار أثر جراحة، ثم فتحت قميصها لتكشف عن جُرح حيث كان ثديها الأيمن، وسألت: «لماذا يحصل هذا لي؟ كانت الجراحة الأولى عام ١٩٩٣، وحتى ذلك الحين كانت صحّتي جيّدة جداً»... وتحكي الخرائط في مكتب الدكتور العلي القصّة: «عدد مرضى السرطان من كل الأنواع في منطقة البصرة» .. هذا ما تقوله خارطة لمحافظة البصرة مقطّعة باللون الأصفر والأخضر والأحمر، يمثّل اللون الأصفر بشكل أساسي جنوب المدينة من المناطق الريفية والصحراوية التي كانت مسرح معارك ١٩٩١. وتظهر منطقة خضراء إلى الشمال معدّل انتشار مرض السرطان. والمستطيل الأحمر الواسع في الوسط يمثل الـ ٤٠٠ مريض بالسرطان الذين عالجهم الدكتور العلي عام ١٩٩٧. تقول نظريّته إن ساحات معارك حرب الخليج السابقة الموجودة في المنطقة الصفراء إلى الغرب لوّثت المياه والحقول وحتى الأسماك باليورانيوم والنيترات.. وأصبحت الأرض ملوّثة ليس للناجين من الحرب فقط بل أيضاً للذين ولدوا حديثاً.. إذا عدنا إلى الأيام الأخيرة للصراع، فإن واضعي الخطط في الولايات المتّحدة كانوا يتناقشون حول ما إذا كان الضرر الذي لحق بالبنى التحتية للعراق (ضرب أنابيب المياه ومحطّات الطاقة ومصافي النفط) سيؤدّي إلى موت العراقيين في الأشهر أو السنوات القادمة... لكنهم لم يشيروا أبداً بشكل علنيّ إلى أن سياسة «اقصِف الآن تحصد الموت لاحقاً»، سوف تؤدّي إلى مرض السرطان.... جاء معظم المئات من الأطفال الذين ماتوا من مرض سرطان الدم أو سرطان المعدة منذ الحرب، من الجنوب وقد أرسلوا إلى الشمال من قِبل الدكتور العلي الذي قال: «نحن في حالة يأس، يحتاجون إلى زرع النخاع الشوكي، لكننا لا نستطيع تقديم ذلك لهم. لا أستطيع النوم في الليل من شدّة التفكير في ذلك»... توجّهت أنا وأليكس ولارا متسلّحين بإحدى خرائط الدكتور العلي عن توزّع انتشار السرطان إلى جنوب البصرة ...نحو تلك الساحات التي قاتلت عليها آخر الدبّابات عام ١٩٩١... سافرنا برفقة دليل من وزارة الإعلام؛ «غاسل دماغ» بالطبع، إلا أنه كان لفترة طويلة يعمل لنا مقابل مال كثير، وكنا ندفع له الآن يومياً ما يتقاضاه في شهر من الوزارة... عندما كنا نريد السفر إلى أي مكان يمكن أن يكون ممنوعاً الذهاب إليه، أو عندما كنا نريد السؤال عن أي شيء قد لا يحظى بموافقة الوزارة، كان الدليل يُصاب بنزلة برد ويعود إلى الفندق أو ينتقل إلى الطرف الآخر من الغرفة.... لكننا كنا بحاجة إليه في جنوب البصرة، وهي منطقة عسكرية عراقية تتقاطع مع منطقة عمل قوّة حفظ السلام الحدودية التابعة للأمم المتحدة...

اعتقدت دائماً أن آخر معارك حرب ١٩٩١ حصلت في الصحراء في الرمال الكثيفة لشمال العراق التي أزعجتنا في شباط/فبراير ١٩٩١... لكن المنطقة الريفية التي نتوجّه إليها هي منطقة رعي. هناك جداول وأبقار ترعى، وحقول من الخُضر منتشرة رغم هذا السيل الريفي والأعداد الكبيرة المحترقة للدبّابات العراقية، التي انفجر بعضها وتحوّل إلى قطع من الحديد تنتشر الآن في الخنادق أو دُفنت في التراب، وأخرى ما زالت سليمة ومدافعها موجّهة نحو الجنوب والغرب باتجاه الأعداء الأميركيين الذين دمّروها.

قُدنا مسافة ١٥ كيلومتراً أخرى... للوهلة الأولى، لم يبدُ حقل البندورة (الطماطم) التابع لعائلة عدوان على أنه حقل قتل. كانت الخِيَم البلاستيكية تعكس الشمس العالية والساطعة لفصل الشتاء. وعندما سألت عماد ابن السادسة عشرة ماذا حصل هنا خلال حرب الخليج، نظر إلى رجل وزارة الإعلام الواقف إلى جانبي وقال إنه لا يتذكّر... ترى من الأفضل أن يكون لديك ذاكرة قصيرة في العراق وأن تكذب... بينما تنساب المياه في الخنادق وسط العشب الأخضر الباهت، عصفت ريح حادّة من الصحراء إلى الغرب، تماماً كما حصل في شباط/فبراير ١٩٩١ عندما قامت كتيبة المدفعية الأولى الأميركية بقيادة الميجور الجنرال توم رام بقصف الخط السريع حتى صفوان، حاصدة قوافل الحرس الجمهوري العراقي المنسحبة بقنابل DU. كان عماد عدوان يراقبني ليرى إذا كنت قد فهمت إشارة فقدانه للذاكرة.

قال رجل الوزارة: «لا تخف» وأبرز بطاقة هويّة، ابتسم الصبي. «كانت المعارك تدور حولنا هنا، حتى إننا لم نستطع البقاء في المنزل لأننا عرفنا أنه لن يحمينا، لكننا لم نرحل. الدبّابات المحطّمة تنتشر هناك»... بعيداً خلف الأسلاك الحديدية التي تحيط بالمزرعة، خلف مجموعة من الأشجار ونباتات أخرى، كانت الضحايا الصدئة لهجوم الجنرال رام تقبع بعمق في الأرض... ظهرت والدة عماد إلى جانبنا وعلى رأسها غطاء أسود تحركه الهواء، وفي يدها حبّة بندورة باهتة وقالت لي: «أرجوك، هذه لك» حبّة البندورة صغيرة وقد قُطفت من الأرض أمامنا، ثمرة مسمومة، استناداً إلى أطبّاء البصرة، من حرب مسمومة نبتت في أرض خطرة مرويّة بمياه ملوّثة، قالت: «الجنود ماتوا على هذا الطريق»، وأشارت إلى الطريق نحو صفوان والحدود الكويتية الجديدة، «استمرّت المعارك لساعات، وما زال الناس يقتلون، فقد انفجرت ألغام بولدين هناك في تموز/يوليو الماضي». يظهر خط الخنادق المدمّرة حجم الموت. لكننا جئنا إلى هنا من أجل الموتى الآخرين... هل آل عدوان قلقون على أرضهم؟ هل يعلمون ما قاله الأطبّاء بشأنها؟ سمعت والدة عماد فقط عن حالات مرض السرطان في المزارع ولم يعلم بذلك أحد من عائلتها.

عندها تقدّم منا حسن سلمان، الذي يزرع البندورة والبصل على الجانب الآخر من الطريق، وله وجه مميّز داكن بسبب الشمس ويرتدي جلباباً مطرزاً بخيوط ذهبيّة اللون. وحين كنا نتحدّث عن السرطان، صرخ قائلاً: «أجل، كانت عندنا حالات من السرطان كثيرة هنا، أعتقد أن ذلك حصل بسبب النيران وما حدث خلال المعارك. كانت الدبّابات عند أسفل الطريق»، توقّف لحظة ثم تابع: «توفّيت زوجة ابني بالسرطان منذ خمسين يوماً، كانت مريضة بالمعدة، اسمها آمال حسن صالح، شابّة عمرها ٢١ سنة فقط».

كانت ردّة فعل مسؤولي الحكومات الغربية على العلامات المتزايدة لتلوّث ذخائر DU تثير الشفقة. عندما كتبت تقارير لأول مرّة من أجنحة الأطفال المرضى بالسرطان في شباط/فبراير وآذار/مارس ١٩٩٨، ذهبت الحكومة البريطانية بكل قوّتها إلى دحض ما كتبت. وما زلت أحتفظ بعناية برسالة تهكّمية من اللورد جيلبيرت في وزارة الدفاع الذي قال لقرّاء الإندبندنت إن روايتي عن احتمال وجود علاقة ممكنة بين ذخائر DU وتزايد حالات السرطان لدى الأطفال العراقيين، لو جاءت من أي شخص آخر غير روبرت فيسك لكان يمكن النظر إليها على أنها انحراف مقصود عن الحقيقة.. واستناداً إلى معاليه، فإن «الجزئيات من قذائف DU ـ ذات الرؤوس المقوّاة، والتي استُخدمت ضدّ دروع الدبّابات، هي صغيرة جدّاً وتذوب وتتناثر بسرعة بسبب الطقس، ويصبح من الصعب بالتالي كشفها حتى بأدقّ الأجهزة المتطوّرة»... والآن فقد بات عليّ القول إنني جمعت خلال أشهر متواصلة ما يكفي من أدلّة للقول بأنه لو جاءت هذه الرسالة من شخص آخر غير معاليه، لكانت مضامينها كاذبة ومضلّلة.

ولكن فلنبدأ برسالة أكثر بلاغة ودقّة أُرسلت إلى دائرة التجهيز العسكري في لندن يوم ٢١ نيسان/أبريل، من قبل بادي برتولوميو مدير التطوير العملي لـ AEA التقنية، الاسم التجاري لسلطة الطاقة النووية البريطانية... إنّ رسالة برتولوميو التي حصلت على نسخة منها (اتصلت به لاحقاً وأكّد لي أنه مرسلها لكنه لن يدلي بأي تعليق آخر) تشير إلى مكالمة تلفونية مع مسؤول إدارة التطوير العملية المدعوّ ج.ي. ساندرز حول مخاطر تلوّث في الكويت نتيجة الذخائر المطليّة باليورانيوم. وفي رسالة تحذير إضافية، لاحظ برتولوميو أنه بينما تُعتبر الأخطار التي يسبّبها انتشار الإشعاع والتلوّث السامّ لهذه الأسلحة قليلة مقارنة مع تلك التي كانت خلال الحرب، إلا أنها «يمكن أن تسبّب بالتأكيد مشكلة طويلة الأمد إذا لم تُعالج خلال فترة السلم»، **وهي تشكّل خطراً على المدنيين والعسكريين على السواء** (التشديد من عندي).. ويتابع المستند الموسوم بعبارة «محدود التداول ـ بريطانيا» فيقول إنّ الدبّابات الأميركية أطلقت خمسة آلاف قذيفة DUوالطائرات الأميركية عشرات الآلاف، والدبّابات البريطانية عدداً قليلاً من قنابل DU. . . ويصل حجم ذخيرة الدبّابات وحده إلى أكثر من ٥٠ ألف ليبرة من DU. . . وإذا جرى تنشّق ما تحتويه الدبّابة من DU ، فإن عنصر المخاطرة، وفق آخر تقارير اللجنة الدولية للحماية من الإشعاع.... **يصل إلى حدود احتمال سقوط ٥٠٠ ألف قتيل** (مجدّداً التشديد من عندي).

وأضاف مستر برتولوميو في رسالته عام ١٩٩١ أنه في حين أن «هذه الأرقام النظرية ليست واقعية، إلا أنها تشير إلى مشكلة خطيرة»... وتابع قائلاً:

> «سوف ينتشر DU حول أرض المعركة ويستهدف المركبات بمختلف الحجوم والكمّيات... وسيكون تصرّفاً غير عاقل من قِبل الناس البقاء قرب هذه الكمّيات الكبيرة من ذخائر DU لفترات طويلة، وسيشكل ذلك خطراً أكيداً على السكان المحلّيين في حال التقطوا هذا المعدن الثقيل واحتفظوا به. وستكون هناك مناطق محدّدة أُطلقت فيها عدّة قنابل، حيث التلوّث المحلّي للسيّارات والأشخاص يمكن أن يفوق الحدود المسموح بها، وهذه ستكون خطرة على فِرق التطهير وعلى السكّان المحلّيين على السواء».

وتقول رسالة برتولوميو إن تلوّث الكويت مؤثر ولذا ينبغي التعامل معه بطريقة حسّاسة، مضيفاً أن مدير التسويق الإقليمي لشركة AEA (أليستر باركر)، يمكن أن يرسل نسخة من «رسالة التحذير» إلى السفير البريطاني في الكويت... وأن إمكانيات AEA التقنية يمكن أن تطهّر اليورانيوم المستهلك بناء على عقد مع حكومة الكويت.... ولا حاجة إلى القول إنه لم يتبرع أحد لاقتراح عملية تطهير في العراق حيث يموت العديد من الأطفال بأمراض سرطانية لا تفسير لها.. لِمَ لا؟ ولماذا كتب اللورد جيلبيرت رسالته المضلّلة والمثيرة إلى حدّ بعيد لصحيفة الإندبندنت في آذار/مارس ١٩٩٨؟ إليكم حلاً لهذا اللغز ورد في رسالة تاريخها ٢١ آذار/مارس ١٩٩١ أرسلها عقيد أميركي في مختبر لوس ألاموس الوطني إلى النقيب لارسون من شعبة «الدراسات والتحليل».. وهي تقول:

> «كان وما يزال هناك اهتمام بالنسبة إلى تأثير DU على البيئة.. وبناء عليه، فإذا لم يرفع أحد قضية حول فعالية DU في أرض المعركة، فإن قنابل DU قد تصبح غير مقبولة سياسياً، وتُلغى بالتالي من ترسانة الأسلحة ...أما إذا أثبتت قذائف DU قدرتها خلال نشاطاتنا القتالية الأخيرة، فعندها يجب علينا تأمين مستقبل استمرارها (حتى يتمّ تطوير شيء أفضل) من خلال اقتراح دعم عمل (دائرة الدفاع) وإذا لم يتمّ تجميل الاقتراح، فمن الممكن أن نخسر قدرة قتالية مهمّة».

إذن هذا هو الأمر!!! إذا جرّدنا لغة النقيب الإنكليزية الشنيعة، فالرسالة بسيطة: إن المخاطر الصحّية لذخائر DU مقبولة، حتى نجد نحن الغرب شيئاً أكثر فتكاً ليحلّ مكانها. لا عجب عندها أن تكون مراجعة مسؤول حكومي بريطاني من إدارة النفايات المشعّة في وزارة الدفاع البريطانية لمدى إطلاق البريطانيين لقذائف DU في لايك ديستريكت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧، قد فصّلت الشرح إلى حدّ مثير عن المسافات المطلوبة لحماية السكّان المحلّيين في القرى المجاورة. وقد تضمّن ذلك إطلاق قذائف داخل أنفاق تملك نظام تنقية مستخرج، وتنظيف السطح بالضغط وإغلاق النفايات الملوّثة في براميل إسمنتية. لم يبلغ اللورد جيلبرت قرّاء الإندبندنت كل هذه التفاصيل في رسالته للصحيفة... فمن هو يا تُرى الذي يقوم «بتحريف طوعي مقصود للحقائق»(*).

إذا لم تهتمّ الحكومات بالأطفال العراقيين، فقد اهتمّ الشعب البريطاني بهم، ونظمت الإندبندنت حملة لجمع الأدوية التي يحتاج إليها هؤلاء الأطفال بشكل يائس. وخلال أسابيع تبرّع قرّاؤنا الكرام بأكثر من ٢٥٠ ألف دولار لنا لشراء عقاقير للسرطان وأجهزة طبّية لأخذها إلى العراق... في النهاية، بدا كأننا نستطيع القيام بشيء ما أكثر من مجرّد كتابة مقالات غاضبة حيال محنة أطفال منبوذين... ولكن هل كنا حقاً نستطيع ذلك؟ هل كنا نقوم بإنقاذ أرواح أو بمجرّد تمديد المعاناة؟

كان ذلك عملاً مملاً.. في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨ استخدمنا عربات النفايات ومجموعة من العراقيين

(*) على القرّاء الذين يرغبون في معرفة المزيد حول ذخائر DU اللجوء إلى التقارير الضخمة لجماعة Swords into Ploughshares وحول تأثير عقوبات ما قبل ٢٠٠٣ وكذلك قذائف DU على التقارير المنتظمة لجماعة أصوات في البرّية ـ بريطانيا وعنوانها: 16 b Cherwell Road Oxford , OX4 1BG.

يتصبّبون عرقاً لحمل صناديق المساعدات الطبّية من شاحنة مبرّدة أدخلناها إلى موقع التفريغ المحطّم في مستشفى المنصور. كان علينا استخدام ناقلة مرضى لنقل ٥١٨٥ كلغ من الأدوية ووضع دواء فنكريستين Vincristine الغالي الثمن في برّاد المدير الشخصي... كان ذلك جزءاً صغيراً في نهاية مخيّبة للآمال إلى أن شاهدنا الأطفال في أجنحة الطابق الأعلى.. كان أطفال السرطان في العراق، في البصرة والموصل كما في بغداد، يتلوون من الألم أو يبتسمون ببراءة أمام قدرهم، وقد حصلوا أخيراً على مساعدة... سألتني فتاة صغيرة عندما أبلغها طبيب أن الأدوية يجب أن تقسم بالتساوي: «هل أحضرت لي شيئاً؟».

في إحدى زوايا جناح السرطان في مستشفى المنصور، كانت هبة مرتضى مستلقية بثوب أزرق، وورم شنيع يشوّه وجهها الصغير... عندما رفعت والدتها الثوب بانت على بطنها المنتفخ بشكل رهيب دمامل عديدة. وكان الأطبّاء قد أزالوا بجراحة سابقة كتلة ورم ليجدوا ورماً دخيلاً آخر ينمو في مكانها.

خلال حرب ١٩٩١، كانت ضاحية هِبة في البصرة قد قُصفت بشدّة بحيث فرّت عائلتها إلى بغداد. عمرها الآن حوالي تسع سنوات، وقد أخبرني أطبّاؤها أنها لن تعيش لتكمل عيد ميلادها العاشر.

نظراً إلى عقوبات الأمم المتحدة، ومن بعدها حظر صدّام حسين استيراد الأدوية، كان وصول شاحنتنا عبر صحراء العراق بمثابة معجزة... وأخيراً تمّ توزيع حمولتها على مستشفيات العراق بإشراف اثنتين من موظفات كَير Care في العراق، مارغريت حسن وجودي مورغان، اللتين لا تقهران.... في البداية احتجّت الأمم المتحدة بالنسبة إلى طول الوقت اللازم لأخذ الإذن لتمرير أدويتنا عبر لجنة العقوبات، حتى أبلغناهم أننا سنأخذ الأدوية شاءوا أم أبوا... وهذا ما كان.. ففي يوم ١٥ حزيران/يونيو أعطي الإذن خلال ٢٤ ساعة. كان مكتب رئيس الجمهورية مساوياً إلى حدّ ما في قلّة الفهم والمراوغة وتجاهل طلب الشحن إلى أن أعطى صدّام حسين موافقته الشخصية في شهر أيلول/سبتمبر... ها نحن مجدّداً أمام مِثال آخر على تطابق النوايا المقلق بين الغرب ودكتاتور بغداد..... «ليس لدى أعضاء لجنة مجلس الأمن أي اعتراض على إرسال المواد المحدّدة»... بهذه العبارات اختُتمت رسالة الأمم المتّحدة التي كانت تفيض افتخاراً كما لو أنهم كانوا يقدّمون إلينا خدمة...... وأشار مستند الأمم المتّحدة بدقّة إلى ثمن الأدوية على أنه تبرّعات من قرّاء صحيفة الإندبندنت. وقد وزّعت بنجاح على مستشفيات الأطفال في أنحاء العراق كلّ العلب والصناديق الثمانية والخمسين التي نُقلت من مطار هيثرو إلى عمّان بواسطة الطيران الملكي الأردني ثم نُقلت بالشاحنة مسافة ٨٠٠ كلم إلى بغداد بواسطة السائق العراقي رحمن جاسم محمّد ,Ampicillin Cloxacillin, Cytarabine, Vincristine, Methotrexate) وزجاجات Dexamethasone وإبر وقفّازات ومحلولات دم).

لكن هل وصلنا في الوقت المناسب؟ الحقّ يُقال إنّ معظم الأطفال الذين عدّدت معاناتهم كانوا قد ماتوا، حتّى الصبيّ الذي أصبحت صورته رمزاً وشعاراً لنداء الإندبندنت. كنت قد أخذت صورة لطيف ستّار، ابن الخامسة المصاب بسرطان لمفوي، في بابل... كان يلعب بسيّارة صغيرة ويبتسم تحت الورم الذي في رأسه عندما

التقيته في شباط/فبراير الماضي، وقد أخذت صورته عن قرب بينما كان مستلقياً في سريره يرتدي قميصاً محاكاً وعيناه تشخصان إليّ... لكنّ سجلّات مستشفى الأطفال في بغداد دلّت على أنه توفّي يوم ٧ نيسان/أبريل ١٩٩٨. كذلك كانت سمر خضير، تلك الفتاة الجميلة التي ظهرت صورتها في صحيفتي في اليوم التالي لصورة لطيف، ضحيّة لسرطان الدم ... كانت الطفلة ترقد بلباس النوم، ووالدها يضغط بضمادة صفراء على جبينها، وكانت عيناها مغمضتيْن من الألم... مجدّداً لم يعط سجلّ المستشفى أي عزاء، فهو سجلّ كيف أصيبت سمر بانتكاسة بسبب نقص العقاقير والدم، لكنها قاومت فقط لتموت يوم ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨ أي قبل بضعة أيام من وصول العقاقير المدفوعة من القرّاء إلى بغداد.... إن معظم الأطفال الهزيلي البنية الذين أراهم الآن في العراق سيموتون أيضاً... وقد أبلغني الدكتور العلي بصراحة عندما وصلت إلى البصرة وتحدّثت معه مجدّداً: «عندما يصل مرض السرطان إلى هذه المرحلة، لا يبقى الكثير ممّا نستطيع عمله، لكن عليك فهم ما فعله أصحابك، لقد ساعدوا في إطالة حياة هذه الأرواح الصغيرة، وتحسين نوعية حياة هؤلاء الأطفال. إنهم سيموتون خلال شهر، أو شهرين، أو سنتين.... أجل، ربّما يعيش بعضهم... صدّقني، كان إحضار هذه الأدوية إلى هنا أمراً جديراً بالمحاولة». عمدت إلى كتابة أسماء الذين سيموتون قريباً في مفكّرتي. يبلغ نور شهاب وجلال صالح عشر سنوات من العمر، وهيثم أحمد ثماني سنوات، وتبلغ طيبة فافل ١٨ شهراً فقط، ومصطفى جابر ثمانية أشهر، ودامية قاسم ١٣ شهراً. يعاني الجميع من سرطان دم حاد، باستثناء مصطفى الذي يعاني من ورم لمفاوي.

كان من المستحيل العودة لزيارة أجنحة السرطان دون الأحساس بمهانة كبيرة. وحتى الآن، وبعدما حصل الأطفال على العقاقير التي كانوا بحاجة إليها لسرطان الدم، فإن فصل الدم لم يكن يجري بسرعة كافية في مستشفيات العراق، لأن آلات فصل الدم كانت بحاجة إلى الصيانة. لقد قضت عقوبات الأمم المتحدة على نظام المستشفى. ونحن في الغرب كنّا مسؤولين بالمعنى الأدبي للكلمة عن كل هذا، نحن الذين وافقنا على عقوبات الأمم المتّحدة ضدّ العراق، العقوبات التي كانت تقتل بشكل واضح هؤلاء الأطفال والتي لم تكن بالمقابل تؤذي صدّام حسين. لكنْ كان هناك أيضاً سبب آخر للغضب. لأنه رغم محاولة الإدارة الأميركية والبريطانية إبقاء مجموعَتي الضحايا منفصلتَين بشكل مفهوم، فإن الجنود الأميركيين والإنكليز الذين يعانون ممّا أصبح معروفاً بأعراض حرب الخليج، ظهر أنهم يعانون من أمراض سرطان مشابهة تقريباً ومن لوكيميا ونزف داخلي مثل أطفال العراق. لقد أصاب انفجار الأمراض السرطانية في العراق بشكل واسع الطائفة الشيعية، ولذلك لم يكن مفاجئاً بعد سبع سنوات من الحرب عدم ذكر نظام صدّام حسين للأمر. وهنا أيضاً نجح كلينتون وبلير وصدّام مجدّداً في حمل قضية مشتركة من خلال الفشل الكلّي في تفسير الكارثة. لكن حتى عندما كنت أقوم بجولة على أجنحة مرضى السرطان في البصرة وبغداد، كان طوني فلينت، الرئيس الفعلي لجمعية قُدامى حرب الخليج البريطانيين وعائلاتهم، يحذّر من أن قذائف «دي يو» DU نفسها يمكن أن تكون مسؤولة عن أمراض السرطان التي قتلت حتى الآن ثلاثين محارباً بريطانياً.

في اليوم التالي، أعلن مركز التعبئة الوطنية الأميركي للخليج وهو تحالف مجموعات المحاربين القدامى الأميركيين، أن ما يقارب ٤٠ ألف جندي أميركي ربّما تعرّضوا للغبار النووي في أرض المعركة.

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨، اتصل بي فيل غارنر تلفونياً وسأل كيف يمكنه الاتصال بالأطبّاء الذين يعالجون ضحايا السرطان من أطفال العراق. كان يقرأ تقاريري حول الدليل المتنامي للعلاقة بين أمراض السرطان والقذائف المشبعة باليورانيوم.. خلال حرب الخليج ١٩٩١، كان غارنر في الفريق الطبّي للجيش البريطاني.... لم يكن في الخطوط الأمامية إلا أنه عالج إصابات الجنود البريطانيين بنيران صديقة، أي أولئك الرجال الذين هوجموا خطأ من قِبل الطيران الأميركي الذي كان يستخدم قذائف مشبعة باليورانيوم... و يعاني غارنر اليوم من الربو، وسلس البول، وألم في الأمعاء، ولديه دمّلة في الجانب الأيمن من رقبته، فماذا يعني كل ذلك؟ عرفت كل شيء عن هذه الدمامل، فقد شاهدتها على أعناق أطفال العراق .

في البصرة مجدّداً... شاهدت عذاب أحد الأهل. «أكسجين، كرامة لله أحضر بعض الأكسجين، ابني يموت». كان هذا نواحاً يشبه نواح الحيوان يطلقه رجل على درج مستشفى الأطفال... كانت الدموع تنهمر من عينيه وهو ينتفض دون توقّف. في الغرفة الصغيرة أعلى الدرج، كان ابنه يحيى سلمان يبكي بخوف ويحاول التنفّس. إن نكسة لوكيميا شيء مرعب وبخاصّة في الحرارة اللاسعة لجنوب العراق. قامت الدكتورة جنان غالب بتحذير الأب وهي تزمّ شفتيها بمزيج من القلق والتوتّر: «توقّف عن الصراخ، لدينا أنبوبة أكسجين أخرى»، لكن الرجل لم يكفّ وصرخ: «ربّي ماذا أفعل؟» بينما كان تقنيّ يفتح سدّة أنبوب أكسجين آخر كبير. كانت نظرات الصبي الصغير تنتقل عبر الغرفة، نحو الطبيب ونحوي ونحو والده. ليس هذا بالوقت المناسب لإخبار الطفل أن لدى المستشفى الآن كل العقاقير التي يحتاج إليها لمرض سرطان الدم. لقد وصلت صناديق العقاقير والقفّازات الطبّية والإبر منذ أقلّ من ٢٤ ساعة. لكن يحيى سلمان قطع مسافة طويلة من الطريق نحو الموت، وكذلك يوسف قاسم ابن السنتين في الغرفة المجاورة وحلا صالح ابنة العشر سنوات التي تعاني من سرطان دم ليمفاوي حادّ، وقد عرضهم عليّ أطبّاء هؤلاء الأطفال بسأم متناه.. وأنا أفهم السبب. لقد استقبلوا العديد من الزوّار والعديد من وعود المساعدة. على الأقلّ نحن احترمنا وعدنا. سألت الدكتورة غالب بحرص شديد إذا كان مستشفى البصرة سيحصل على كمّية العقاقير نفسها كبقيّة المستشفيات في بغداد والموصل، وقد فهمت الغاية من سؤالها: كان الشيعة هم الذين انتفضوا هنا في الجنوب ضدّ الحكومة العراقية عام ١٩٩١، وكان هناك في بغداد من لم يغفروا لهم ذلك أبداً.

لم تذكر الدكتورة غالب شيئاً عن ذلك.. أجل، أكّدت لها... فعقاقير الإندبندنت قد جرى توضيبها مسبقاً وقبل مغادرة مطار هيثرو بشكل يسمح بالتأكّد من أنّ كلّ منطقة في العراق حصلت على حصّة متساوية... وابتسمت بينما كانت تقرأ لائحة الأدوية التي أحضرتها معي. إنها أول ابتسامة شاهدتها في هذه الرحلة إلى البصرة. ذلك أن الأطبّاء هنا كانوا ينوؤون تحت ثقل المعاني الضمنية لاكتشافاتهم كما بنقص الدواء. وكانت الزيادة في مرض سرطان الأطفال في المحافظات الجنوبية قد وصلت في بعض الأماكن إلى مستويات مخيفة، وكنا الآن في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨.

وبينما وصل معدّل المعاناة من مرض السرطان في بعض المناطق إلى نسبة ٣,٩ طفل في الألف فقط، فإن

أحياء الحارث وغورن لديها الآن نسبة ٧١,٨ و٤١,٨ في الألف. لقد شهدت هذه الضواحي قصفاً كثيفاً عام ١٩٩١، وكانت عبارة «يورانيوم مشبع» تُسمع في كل جناح... حتى الأهل عرفوا الآن معنى هذه الجملة. كان الدكتور جواد العلي الآن مذهولاً، وقال: «لا أعرف كيف أشرح معاني ذلك لك، لكنني أرى الآن أشياء مرعبة». يعاني أحد طلّاب الطبّ الذي تخرّج منذ فترة من السرطان وسوف يموت خلال بضعة أيام، واسمه زين الدين قدام. وتوفّيت زوجة أحد جرّاحي الأطفال بعد أسبوع من تشخيص إصابتها بمرض سرطان الدم. لقد قضت منذ أقلّ من شهر عندما ظنّت أنها تعاني من الزائدة الدودية، ولكنّهم وجدوا جزءاً من أمعائها مصاباً بالغرغرينا.

فتح الدكتور العلي ملفّاً آخر كبيراً: «من أصل ١٥ مريضاً بالسرطان من منطقة واحدة لم يبق سوى اثنين. إنني أستقبل أطفالاً مصابين بسرطان العظام، هذا صعب التصديق. استقبلت الآن فتاة عمرها ١٥ سنة، تُدعى زينب منور وهي مصابة بسرطان الدم، وسوف تعيش سنة فقط. يا الّله، قمت باستئصال الأورام لفتاتين مصابتين بسرطان الثدي، عمر إحداهنّ ١٤ سنة فقط. هذا لا يجري الحديث عنه؟».

لم يكن الدكتور أكرم حمود مدير مستشفى الأطفال أقلّ ذعراً، قال: «تقريباً، كلّ الأطفال هنا سيموتون خلال بضعة أشهر، لدينا عائلة عندها ثلاثة أطفال مرضى بالسرطان اللمفاوي. ما هو سبب ذلك؟ قبل الحرب، استقبلنا في هذا المستشفى حالة سرطان واحدة كل أسبوع، والآن نستقبل ٤٠ حالة أسبوعياً. هذا جنون، نستقبل مرضى مصابين بسرطان الغدّة تحت سنّ العشرين، أحد مرضاي عمره ٢٢ سنة والآخر ١٨ سنة. النزيف من الأنف هو أحد أعراض سرطان الدم، والآن كل طفل ينزف أنفه يأتي به أهله مذعورين». كان الأطبّاء حريصين في كلامهم عن اليورانيوم المشبع، لا يريدون أن يُستخدم مرضاهم أو ملاحظاتهم للدعاية مع أن ذلك مبرّر، لكنهم يعلمون بشأن التقرير العسكري الأميركي عام ١٩٩٠ الذي أوضح أن السرطان ومشاكل الكلى والتشوّه الخلقي هي من بين الآثار الصحّية للتلوّث بذرّات اليورانيوم.

قال الدكتور العلي: «حتى الإصابة المعهودة بالبرد في البصرة تغيّرت أعراضها، ويستغرق العلاج وقتاً أطول الآن، ولدينا حالات متقدّمة، في بعض الأحيان مرفقة بالتهاب في الدماغ». وأعاد فتح ملفّه: «استقبلنا ١١٦ مريضاً بالسرطان في كل المنطقة عام ١٩٨٩، والعام الماضي كان العدد ٢٧٠ حالة، وفي الأشهر العشرة الأخيرة من هذا العام وصل العدد إلى ٣٣١ حالة. لن يعطينا أحد المعدّات لأخذ عيّنات من التربة لفحصها. حتماً نحن كلّنا ملوّثون».

ردّت الحكومة البريطانية على الدليل الجديد لسرطان الأطفال في العراق بالفتور واللامبالاة اللذين ردّ بهما اللورد جيلبرت. وقد كتب الوزير البريطاني للقوّات المسلّحة دوغ هاندرسون في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨: «إن الحكومة قلقة من الإيحاءات الصحافية، وبخاصّة من قِبل روبرت فيسك في الإندبندنت، بأن جنوب العراق يشهد تزايداً في الأمراض، بما في ذلك تشوّهات، وسرطان، ونقص في الإنجاب، يعزوها بعضهم إلى استخدام اليورانيوم المشبع DU في الذخائر المستخدمة من قِبل بريطانيا والولايات المتّحدة خلال حرب ١٩٩٠ ـ ١٩٩١..

غير أن الحكومة لم ترَ حتى الآن أيّة معطيات بحثية أكاديمية مرجعية تناولت الحالة الوبائية على السكّان بما يسمح بتدعيم هذه الادّعاءات.. وسيكون من المبكر التعليق على هذه المسألة..». أعجبتني عبارة «معطيات بحثية مرجعية».. لأنه بالتأكيد لم تكن هناك أي أبحاث سابقة ولن تكون. وحتى الجمعية الملكية طلبت التحقيق في تأثيرات اليورانيوم المشبع، ولم يقم باحثوها بزيارة العراق(*).

لم يكن للدليل سوى تأثير ضئيل رغم كونه مُعيباً وصادماً. خلال صلاة مسيحية عام ٢٠٠٠ في الذكرى الخمسين لقصف سلاح الجوّ البريطاني والأميركي مدينة درسدن، أعلن أسقف كونفرتي، كولين بينيت أنّ على بريطانيا التسليم بالمسؤولية عن موت وتشوّه أطفال العراق على أنه نتيجة لقصف الحلفاء خلال وبعد حرب الخليج ١٩٩١. وبينما انتقد «الشيطان» صدّام حسين قال الأسقف عن الأطفال الضحايا في العراق: «حُمِلوا وولدوا خلال حرب الخليج. ولِدوا بتشوّهات جسدية مروّعة. ويعاني العديد منهم أيضاً من سرطان الأطفال، ويعتبر هذا دليلاً قوياً جدّاً للقول إن كل ذلك ناتج عن اليورانيوم المشبع في أسلحتنا». حتى الآن رفض الأميركيون والبريطانيون الاعتراف بمثل هذا الذنب. وبعد ثلاث سنوات، عادوا إلى استخدام اليورانيوم المشبع مرّة أخرى ضد العراق.

ماذا يعني كل ذلك بالنسبة إلى ادّعاءاتنا حول المستقبل، وإلى الأمل اليائس والوهمي بأن هؤلاء الأشخاص سيستقبلوننا كمحرّرين (إذا ما قمنا بغزو العراق وتدمير نظام صدّام حسين)؟ ربّما يشعر العراقيون بالرضى لإسقاط

(*) هذه اللامبالاة المشينة تجاه تأثيرات DU تكرّرت بعد سنتين عندما بدأت تُظهر التقارير الواردة من البوسنة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، أن مئات من الصرب الذين يقيمون قرب الأماكن المقصوفة عام ١٩٩٥ من قِبل سلاح الجوّ الأميركي، يعانون من سرطان مجهول أو أنهم ماتوا. عندما سافرت إلى البوسنة للتحقيق في هذه الوفيات، وجدت أن أكثر من ٣٠٠ رجل صربي وامرأة وطفل يعيشون قرب قاعدة عسكرية في ضاحية سرايبفو «هادجيسي» قُصفت بقنابل DU ماتوا من سرطان الدم خلال السنوات الخمس التالية. وكانوا مدفونين أحدهم قرب الآخر في قبر واسع في مدينة براتوناك، شرق البوسنة، التي ذهبوا إليها لاجئين.

في صباح يوم قارس، قابلت الطفلة سلاد جانا سارىناك (١٢ سنة) التي التقطت شظايا قنبلة خارج بيتها في هادجيسي. كانت قصّتها مخيفة ومؤلمة، قالت: «لمعت وفعلت ما فعله كلّ الأطفال. كان عمري ستّ سنوات وتظاهرت أنّني أعمل حلوى من هذه القطع المعدنية الصغيرة وتربة من الحديقة. خلال شهرين، حصلت على نوع من الرمل الأصفر على أظفاري، وبعدها بدأت تسقط». وكانت سلاد جانا مريضة جداً منذ ذلك الحين. وقد عاودت أظفارها السقوط تكراراً من يديْها ورجليْها، وعانت من نزيف داخلي والتهاب معويّ مستمرّ وتقيّؤ، وظلّت حوالي ٣٠ ساعة في حالة غيبوبة وتعذّبت في مستشفيات يوغوسلافيا. كانت القصة القديمة نفسها، قال حلف الناتو أن لا دليل لديه على آثار مرضيّة ناتجة عن ذخائر DU في البوسنة... وأنه يريد أن يعلم ما إذا وجدت أي حالة. وحين تهيّأت الفرصة للتحقيق في هذه التقارير، لم يُظهروا أي اهتمام للقيام بذلك. يوم ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، وجّهت نداء عبر الإندبندنت لأيّ طبيب في الناتو يعمل في البوسنة للاتصال بي على تلفوني المؤقّت في سيرايبفو، عارضاً عليهم أخذهم إلى براتوناك وتقديمهم لسلاد جانا. لم يرنّ الهاتف أبداً. كان العراقيون مسلمين والصرب مسيحيين أرثوذوكساً، معظمهم معادٍ لأهل البوسنة المسلمين لكنهم تقاسموا صفة واحدة عام ١٩٩١ و١٩٩٥، كانوا جميعاً أعداءنا بالتتابع، وهذا يمكن تجاهله. على نحو مماثل، تُركت الأمم المتّحدة لتقوم باستطلاع غير قاطع حول استخدام DU خلال حرب كوسوفو ١٩٩٩ التي اعترف الأميركيون فيها أنهم أخطأوا الحساب حول عدد قنابل DU المستخدمة خلال قصف الناتو لصربيا، (راجع تقرير الكاتب في الإندبندنت يومي ٤ تشرين الأول/ أكتوبر و٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٩».

الدكتاتور... لكن هل يأتون حقاً لاستقبالنا والتودّد إلينا؟ إلى المحتلّين الجُدد الذين عاقبوهم وأذلّوهم واضطهدوهم طيلة سنوات، من خلال اثنتي عشرة سنة من العقوبات، ومن القصف تكراراً من طائرات الحلفاء، في الفترة نفسها التي طُبّقت فيها نظريّة أن تعزيز مناطق الحظر الجوّي سوف يحميهم، ومن خلال تعريضهم لغبار الذخائر المشبع باليورانيوم وسمّها، مرّتين خلال عقدين من الزمن؟

في أواخر التسعينيّات، أصبحت تقاريري من العراق يومية. وكنت أرزح معنوياً تحت ثقل ما نفعله، وما فعلناه لهذا البلد. كيف يستطيع العراقيون في بغداد تأمّل المستقبل عندما يعيشون من خلال بيع آخر مُقتنياتهم في سوق ميدان؟ في أحد أيام شباط/فبراير ١٩٩٨، وجدت على الأقلّ مئة رجل مريض وبضع نساء يقفون تحت المطر خلف القبّة الضخمة الرائعة لمسجد جماعة القشلة، تنتشر عند أقدامهم الأشياء المثيرة للشفقة المعروضة في أيّ سوق شعبي في العالم: مجموعة من قطع الأدوات الصحّية الصدئة، وقطع سيّارات قديمة، وبعض الأحذية القديمة وأجهزة التلفزيون المحطّمة الموضوعة على عربة وهي أجهزة قديمة من الخشب والشاشات الصغيرة لعصر ما قبل البعث. نظرت إليّ امرأة ترتدي عباءة سوداء وتُدعى ليلى، قالت: «عملتنا لا قيمة لها، وحده الله يمكن أن يساعدنا».

ما زال لدى سهاد مال، وهي زوجة دبلوماسي سابق من الطبقة الوسطى يطلّ منزلها على ضفاف نهر دجلة. كان عمرها ٨١ سنة وأمضت فترة طويلة في الهند حيث تعلّمت العقيدة الهندوسية المتعلّقة بالصبر الطويل، قالت بأسلوب ناعم: «لقد تغيّرنا جميعاً في السنوات السبع الماضية، نحن نتقبّل الحياة كما هي، إذا لم نستطع الحصول على أدوية نظيفة سوف نعود إلى الأدوية القديمة. لديّ مشكلة في الركبة، صديقتي تصنع لي دواءً من عشبة قديمة استخدمها الصينيون منذ ألفيْ سنة وأنا أشرب منها كل صباح وركبتي بحالة أفضل الآن».

شقيقة سهاد عمرها ٨٥ سنة، قالت: «نحن نعيش من يوم ليوم ومن ساعة لساعة، هذا جزء من حياتنا المتغيّرة. بالنسبة إلينا، أصبح التخطيط الآن رفاهية. أنا لست في حالة توازن، فلماذا أزعج نفسي بذلك؟ الآن أريد الحصول على زهرة من حديقتي لأنظر إليها خلال اليوم». في ردهة منزلهما القديم مجموعة من صور أجدادهما الأتراك الذين يرتدي بعضهم، لباس الجيش العثماني، الجيش الذي قاتل ضدّه تشارلز ديكنز من كتيبة شاير في بلاد ما بين النهرين والذي قاتل ضدّه جندي المدفعية الأسترالي فرانك ويلز في غاليبولي. قالت سهاد: «هكذا نستجمع قوّتنا. إنها مستمدّة من جذورنا العربية والجيورجية والكردية والتركية». قابلت سيّدة مسنّة أخرى محترمة في اليوم نفسه، امرأة باعت تقريباً كل الكؤوس الزجاجية من طراز باكارا، قالت لي: «اشتريت هذه الكؤوس في زيارتي الأولى لباريس، عام ١٩٤٧، لكنني الآن بحاجة إلى المال، لذا قلت فلتذهب إلى الجحيم، لقد كانت عندي لفترة طويلة وتمتّعت باستخدامها لذا أتخلّى عنها. بعتها مقابل بعض المال، لم يبقَ لديّ سوى إبريق ومغرفة».

أجل، العراقيون شعب فخور، لكنّ للفقراء حيّزاً خاصّاً، مجنوناً، عليهم العيش فيه. عبر المصبّ الهادئ لنهر

دجلة، استمرّت بغداد بالتحلّل بعيداً، أرصفتها مغطّاة بالعشب، والأشجار تنمو في الطرق التحتية للمدينة، وتمتلئ ساحات سكّة الحديد بالعربات الصدئة والفارغة. حتى صور صدّام حسين أصبحت باهتة بفعل شمس الصيف. وبينما تأكل العقوبات كلّ كائن حيّ باستثناء المركز الفاقد الحسّ للنظام نفسه، ينتشر جيش من الشحّاذين على طول الطريق.

كانت النساء والأطفال يأتون ويطرقون على الأبواب وعلى شبّاك سيّارتي في وسط بغداد طالبين المال والطعام.

صبيّ صغير، تملأ الدموع وجهه المعفّر بالتراب، لا يتعدّى عمره أربع سنوات، حافي القدمين، يرتدي سترة كبيرة مليئة بالثقوب، مدّ يده عبر شبّاك السيّارة وصرخ: «أعطني مالاً» وكان يركل الباب ويحدّق إليّ عبر الزجاج ويفرك عينيه لذرف الدموع، أو أكان ذلك عادة؟ بعد ساعة على الرصيف، هاجم ثلاثة أطفال لارا مارلو من صحيفة الأيريش تايمز وهاجموني، كانوا أكبر سنّاً هذه المرّة، وتشبّثوا بمعاطفنا وهم يصرخون: «مال» حتى أعطيناهم دولاراً. تمسّكوا بحقائبنا طلباً للمزيد حتى دفعناهم عنا مندّدين بتهجّمهم. أكانت مادلين أولبرايت لتعطيهم دولاراً؟ أم تعطيهم محاضرة عن شرور زعيمهم والحاجة إلى عقوبات الأمم المتّحدة، والغزو العراقي للكويت، وأسلحة الدمار الشامل؟ في المقهى الوحيد المحترم قرب الفندق، كانت تُسمع أغنية مسجّلة لدوريس داي، كانت تغنّي "que sera sera": ما سيحصل سيحصل... بينما كان الشحّاذون يراقبون من خلال النوافذ "what ever will be, will be the future's not ours to see" ما سيكون سيكون وليس المستقبل بيدنا». في طريقي من بغداد إلى البصرة بصحبة لارا، أعطيت فتاة فقيرة ٢٥٠ ديناراً عراقياً (أي ما يعادل أقلّ من ١٤ سنتاً) فرأيت أصدقاءها يلقونها على الأرض ويأخذون المال من يدها الوسخة. البصرة الآن تبعث على الأسى. أمام منزل فاطمة حسن، كان سائل أزرق فاتح وأبيض يتدفّق إلى المجرى المفتوح، ولم يستطع بابها الحديدي إخفاء الرائحة الكريهة أو صوت صراخ الأطفال الحفاة في الشارع. كان القفز فوق هذا المجرور والوثب فوق مجاري القذارة تمضية للوقت لدى أطفال ضاحية دورشعون. قف عند باب منزل فاطمة يهرولوا نحوك، مقرّحين، وجوههم ملطّخة باللبن، وعيونهم واسعة القزحيات، بيضاء عاجيّة بسبب سوء التغذية.. وثمّة امرأة جميلة مشرقة ترتدي عباءة سوداء مع عصبة بيضاء على رأسها، قدّمت إلينا ابنتها رولا البالغة من العمر ثماني سنوات، ثم قالت فجأة: «رجاءً خذوها معكم». تبلغ سندس عبد القادر الثلاثين من عمرها وهي مستعدّة للتخلّي عن ابنتها.

لدى فاطمة خمسة أولاد، كان زوجها يعمل دهّان سيّارات في الكويت قبل غزو صدّام للإمارة، وبقي هناك ثمانية أشهر بعد التحرير، يعمل دون قبض مال من مستخدميه الكويتيين، وهو الآن بائع سندويشات. قالت: «لا نأكل البيض أو الحليب، ولا نستطيع أكل اللحم، ونشرب المياه الملوّثة ولا نغليها. ابني الصغير يعاني من مشاكل في التنفّس، وهذا أيضاً بطنه منتفخ بسبب الماء. نذهب إلى المستشفيات لكنّ الأطباء يقولون إنه لا توجد أدوية... أينما ذهبنا، يقولون لا توجد أدوية».

في الخارج امرأة أكبر سنّاً، ترتدي ملابس سوداء وتشقّ طريقها بين الصبية الأشقياء. قالت: «عندي شخصان مُقعدان في عائلتي، حرارتهما مرتفعة ولديهما تقرّح في الحلق، هل تستطيعون أخذهما معكم إلى أوروبا؟». شرحنا لها أننا لسنا أطبّاء، لكنها رفعت في وجهنا ورقة صفراء سميكة مع تقرير عن مرض وهن العضلات الذي يعاني منه أهلها. بعد نصف ساعة، تخدّرت يدي التي أكتب بها نتيجة الجوع وتسجيل الأمراض: طفل يعاني من فقر الدم، وآخر من مشاكل في التنفس، وثالث لا يستطيع السيطرة على تبوّله ويبدو أنه يحتضر. صرخت بي امرأة أخرى: «متى سترفعون العقوبات؟ أولادنا بحاجة إلى الطعام واللباس».

في آخر الشارع، يرتفع صوت بوق. ثمّة رجل ضخم بيده طبل وجندي مسنّ مُنحن يحدّد الوقت لمجموعة من ثلاثين رجلاً في منتصف العمر، وهم شبه ملتحين، ويحملون رشّاشات الكلاشينكوف، ويرتدي معظمهم ملابس بالية، إنهم الجيش الشعبي للأب، فدائيو صدّام الأبطال، يستعدّون لمواجهة أميركا. ساروا حول إشارة مرور بينما الأطفال ينشدون نشيداً وطنياً تحمل كلماته هذه المعاني:

بلد يفرد جناحيه على الأفق

ويُلبس نفسه لباس مجد الحضارات...

هذه الأرض شعلة ونور،

مثل الجبل الذي يشرف على العالم...

لدينا غضب السيف

وصبر النبي.

بعد ذلك، عاد الأولاد إلى القفز فوق المجرور، وكنت أذكّر نفسي بأن هذا هو البلد الذي يهدّد العالم كلّه، استناداً إلى كلينتون وبلير..

توجّهنا نحو ميناء البصرة القديم، المرفأ الذي استخدمه الإنكليز عام ١٩١٤، والذي زاره مرّة في أواخر القرن الثامن عشر الشاب هوراثيو نلسون.

وأعلن عليّ العمارة بفخر: «أشرف على هذا المرفأ خمسة رجال إنكليز حتى عام ١٩٥٨. كان أول رئيس مجلس إدارة هو جون وارد من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٤٢، وبعده وليم بينيت حتى عام ١٩٤٧، وكانا رجلين طيّبين جدًا. عام ١٩٥٨ تسلّم الإدارة السيد شعاوي وكان رجلاً طيّباً جدّاً أيضاً». لا إشارة إلى الثورة العراقية عام ١٩٥٨ التي أنهت الإشراف البريطاني على مرفأ البصرة القديم وعلى العراق. لكن لماذا الفظاظة في مكان بهذا

العجز؟ اليوم، ما زالت أرصفة المرفأ مزيّنة بورود «تودور» الأنيقة، لكن الحجارة الإردوازية سقطت عن سطوح المكاتب الاستعمارية القديمة. وقد تآكلت خطوط سكّة الحديد التي أُنشئت عندما كانت البصرة ميناء دولياً.

ممرّ شطّ العرب الواسع البطيء الحركة، الخطير والمثقل بالموت في تاريخ العراق الحديث، كان ينساب حول السفن القديمة المربوطة بالرصيف. هنا مركب الصيد «ياسمين» الذي ما زال من الممكن أن نقرأ ما كان مكتوباً من كلمات تحت طلائه الأسود: «لورد شاكلتون، ميناء ستانلي (جزر فوكلاند)... وهناك ناقلة النفط ويستاريا بوزنها البالغ ٦٧٤٢ طنّاً يقوم القيّمون عليها بتفكيكها ببطء... سألت ثلاثة موظفين عراقيين عند الرصيف، مَن أشعل النار فيها؟ ردّ أحدهم: «أصابها صاروخ إيراني عام ١٩٨١». لكن زميله تمتم بالعربية: «قل له إنهم الأميركيون»، ثم قال الجميع: «إنهم الأميركيون»!

تعيش مدينة البصرة على الأكاذيب... يقولون لك «لو لم يهاجم الإيرانيون العراق ويغلقوا النهر عام ١٩٨٠، لكان العراقيون هم الذين هاجموا إيران؛ لو لم تفرض الأمم المتّحدة عقوبات على العراق بعد الحرب العراقية الإيرانية... ويفترض بنا أن ننسى القضية الصغيرة التي اسمها غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠. حتى السفن غيّرت أسماءها بإحراج... فقد كانت سفينة الشحن أكتوسارا Atco Sara، وفق الاسم نصف الممحيّ تحمل اسم باسيفيك بروسبكتور في إيلينوي وقبل ذلك نورثرن بيلدر Northern Builder. وكانت هناك آلة رافعة يدوية ومجموعة من الرافعات الصدئة تحمل اسم شركة توماس سميث وأولاده ليدس Thomas Smith and Sons of Leeds على لوحة معدنية. . ولم أتمالك أن أتذكّر كيف وصلت إلى المدينة ومينائها منذ ١٨سنة. شاهدت هذه السفن تحترق.. عند أسفل النهر كانت الجزيرة التي أبحر منها جون سنو لإنقاذ طاقم سفينة الشحن العالقة «التنّين» بينما جلست على ضفة النهر أنتظره... كان الرصاص الإيراني الخطّاط يطلق باتجاهنا على ضفّة نهر شط العرب المظلمة، وكنت عند هذا الجانب من الرصيف على متن سفينة الشحن اليوغوسلافية قد أخذت خرائط الممرّ لجون والغطّاسين العراقيين الذين ذهبوا لإنقاذ الطاقم. وكنت أخرج كل صباح من البصرة مع غافين هويت من البي بي سي لأشاهد الحرب الدائرة التي ستدمّر الجمهورية الإسلامية، والآن يحصد العراقيون نتيجة العاصفة.

خلفنا الآن كانت الساحات المرصوفة مليئة بقطارات الشحن الطويلة.. عربات رمادية كبيرة مترابطة للذهاب في رحلة كان يجب أن تبدأ عام ١٩٨٠.. كانت الشاحنات الآن مليئة بالشجر والعشب... مشى السيّد العمارة بمحاذاة الأحواض، وقال: «خذ ما تريد من الصور، فلولا العقوبات لكان هذا المرفأ نظيفاً ويعمل».

كان هناك كلب مسنّ ينام على الأرض تحت مؤخّرة السفينة ويستيريا Wisteria التي كانت سلالمها ملقاة على السطح حيث كانت منذ ١٨ سنة.

إنه ألم غريب يؤرق الآن البيروقراطية البعثية العراقية، المعتادة على التفاخر أن ذلك كلّه هو خير بالنسبة إلى

العراق، إلا أنهم يصرخون الآن قائلين إنه الأسوأ بالنسبة إلى العراق. إنه تحوّل شديد الصعوبة. إذ من يعلم متى تأتي الأوامر من بغداد لقلب المعادلة مجدّداً؟

أبلغنا السيد العمارة أنه شاعرٌ، إضافة إلى كونه «مستشار علاقات عامّة» لمرفأ البصرة... بينما كان يسير قرب سُفنه البالية والمهجورة، أسمعنا نصّاً من إنتاجه سمّاه «المواجهة»:

عندما تُطلق رصاصة من أي مكان،

تصيب الرصاصة بطني مباشرة؛

لأن الأحداث التي مررنا بها

جعلت بطني مستديراً.

ونظرنا إلى بطن السيّد العمارة الصغير وضحكنا بأدب، إلى أي رصاصات كان الشاعر يشير؟ بالتأكيد ليست تلك التي تركت أثرها على جدران مركز شرطة البصرة الرئيسي، وما زالت قذيفة فارغة موجودة قرب أحد المجاري الكريهة للمدينة. وبالطبع ليست تلك التي أصابت مبنى المحافظ المحترق خلال انتفاضة ١٩٩١ من قِبل الغالبية الشيعية في البصرة، والذي استُبدل الآن بكتل إسمنتية خرسانية. وليست القذائف التي أطلقت على سيّارات شرطة المدينة، التي استبدلت الآن كما حصل في جميع أنحاء العراق بسيّارات هيونداي كبيرة جديدة، استهزاء أخيراً بمجاعة الشعب الذي يُفترض بالشرطة أن تسيطر عليه. وعلى شاشة التلفزيون القديم في غرفة فندقي في البصرة، كان صدّام يتصدّر مجلس قيادة الثورة ويروي نكتة اعتبرها ضبّاطه سخيفة، وعندما ضحك انفجر نوّابه المحترمون بالضحك.

إنّ كورنيش الشهداء يُصحّح أي سوء فهم حول العدو، فعلى طول الضفّة الغربية لشطّ العرب وخلف الأبواب الرطبة لفندق شيراتون البصرة يقف الأبطال الموتى لحرب صدّام الدائرة. فبالنسبة إلى هؤلاء الـ ٣٦ جندياً عراقياً من بين نصف مليون على الأقلّ، فإن الموت لم يكن بدون نتيجة. كان النصب البرونزي لكل رجل والمأخوذ من صورته يشير، عبر الممرّ المائي الموحل باتجاه جبهة الحرب داخل إيران، إلى حيث قتل. وتقول اللوحة على كل نصب: «عرفاء، رقباء، نقباء، مقدّمون وعقداء كلهم شهداء حرب القادسية».

كانت تماثيل الجنود التي تعادل ثلاثة أضعاف حجمهم الطبيعي معرّفة بالاسم إلى جانب تمثال ضخم عند الضفّة يمثّل ابن عمّ صدّام، الجنرال عدنان خير الله أحد أكبر القادة العسكريين العراقيين وأكثرهم شعبية، ربّما الأكثر شعبية بالنسبة إلى صدّام، «يقف مواجهاً» رجال المدفعية ويده اليمنى مرفوعة تحية لشجاعتهم. وقد توفّي خيرالله بشكل مأساوي، كما أوردت الصحافة العراقية في ذلك الوقت، في حادث تحطّم طائرة الهليكوبتر التي

كانت تقلّه بعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية. تحت هذه التماثيل، كان الصبية الأشقياء يبيعون صحفاً قديمة بقيمة ١٢ سنتاً للرزمة.

إنهم بعيدون قدر الإمكان عن طوابير الطعام، وهم على حدود إيران محصورون بين شكوك إيران إلى الشرق وكراهية الكويت إلى الجنوب، واحتقار الغرب المسيطر من خلال السفن الصدئة والأبراج العملاقة من الموتى. كنت في كلّ ليلة قضيتها في العراق، أضرب على جهاز الكمبيوتر المحمول المتضرّرة شاشته جزئياً، مدوّناً معاناة العراقيين وغضبهم العارم. وفي ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨، كتبت هذا التقرير الذي أرسلته إلى صحيفتي تلك الليلة من بغداد، وهو تقرير سأقرأه مجدّداً عام ٢٠٠٣ بعد أن احتللنا العراق ووجدنا أنفسنا نواجه ثورة ضارية:

«كانت الأنوار الساحرة تضيء مطعم بابيش للمشاوي في شارع الرئاسة. نوافذ مطليّة بألوان ساخرة تحمي الزبائن. لأنه مطعم من الدرجة الأولى لزبائن كبار معظمهم من موظّفي الأمم المتّحدة. يستطيع العراقيون الجوعى الذين لا تبهرهم الأنوار الساحرة الجلوس في الخارج على الطاولات المضاءة بالشموع. والأجانب في الداخل يشقّون طريقهم نحو لحم البقر والدجاج المشوي والأطباق الثانوية من الفاكهة والخُضر أو الطبق الخاص ببابيش، سلطة القريدس. وعلى أنغام موسيقى هادئة يقوم المضيفون ذوو السترات البيضاء بخدمة أحسن رجال الأمم المتّحدة، رجال العقوبات ومفتّشي ومفتّشات الأسلحة الذين يحاولون جاهدين وقف المعاناة التي سبّبها الرجال في ذاك المبنى الزجاجي على الضفّة الشرقية على بعد ٥٩٩٠ ميلاً.

لكن بمعزل عن المضيفين المرتدين ألبسة بيضاء، ومهما كنت تفعل، إيّاك أن تذكر السفينة تيتانيك. فقد عرض التلفزيون فيلم جيمس كامرون الـ «تيتانيك» ثلاث مرّات (فهو يستطيع أن يتناسى حقوق المؤلّف) على أنه بلسم للحرمان، الموازي في بغداد للخبز والاحتفالات. لكن بعكس سفينة تيتانيك ليس لدى بابيش طعام للدرجة الثالثة. إنه مطعم للذين يحسبون المال بالكيلو عوضاً عن أوراق الدينار العراقي. واليوم بينما يساوي الدينار ٠,٠٠٠٦ من الدولار (شكراً لأصحاب بابيش)، يحتاج طعام لثلاثة أشخاص إلى رزمة من ٤٨٨ ورقة من فئة المئة دينار، رزمة من الأوراق النقدية بسماكة حذاء. ولا عجب إذا توقّف بعض المقاهي عن عدّ ما يدفعه الزبائن من مال، واستعاضت عن ذلك بوضع المال على ميزان.

وهكذا فإنك لا تستطيع نسيان جمهورية ويمار في بلد يستطيع قروي أن يكسب فيه ٣٤٠٠ دينار في الشهر تقريباً، دعني أكرّر: ٣٤٠٠ دينار في الشهر تساوي دولارين. مما يعني أن طعامنا في بابيش (ولا يوجد نبيذ الآن لأن الخمرة ممنوعة في المطاعم بأوامر من الرجل الذي لا يستطيع أحد ذكر اسمه بصوت عالٍ) كلّف ١٤ مرّة الراتب الشهري لموظّف عراقي، إذن، لماذا لا تحصل مظاهرات من أجل الطعام؟ لماذا لا تحصل ثورة؟

إستقلّ أيّ باص من شارع الرشيد إلى الجزء القديم من المدينة لكي تعرف السبب!. تمتدّ المجارير كالبُحيرات ،جنباً إلى جنب، كتلة قذرة من سائل لونه أخضر باهت يمتلك جماله المخيف. هذا ما يحصل عندما تنقطع

الكهرباء وتصبح محطّات تكرير المياه ومجاري المياه مهملة. باعة الأدوات في شارع الرشيد ـ حيث تذهب لتشتري محوّلاً شريط كهرباء، بطارية أو لمبة ـ يلتصق باعة الأدوات الكهربائيّة بالجدران مثل الراهبات لإبعاد القذارة عن أحذيتهم البلاستيكية. قال لي رجل ضعيف ملتح عندما سألته عن فانوس كهربائي: «فعلتم ذلك بنا». يمكن شراء الفانوس فقط من محلّ للبضائع الأجنبية في الضواحي بسعر ٢٠ دولاراً أي ما يساوي ٩,٥ مرّات الراتب الشهري لقروي عراقي...اضطهدِ الناسَ إلى هذا الحد البائس يصبح البقاء على قيد الحياة أكثر أهمّية من الثورة، هذا ما لم تختَر السرقة على الطريق السريع. لا أقصد النوع الممارس في مطعم بابيش بل على الطريق الطويل غرباً إلى الأردنّ أو جنوب البصرة. قال لي سائقي على بعد ١٠٠ كلم من بغداد على الطريق إلى عمّان: «هناك قتلوا الأردني»، إشارة خالية من المسؤولية إلى الدبلوماسي الذي اختار السفر ليلاً ودفع الثمن. لا تتوجّه إلى البصرة بعد منتصف الليل خوفاً من الجنود الفارّين الذين تحوّلوا إلى الإجرام لإبقاء عائلاتهم على قيد الحياة (أو هكذا تقول الشائعات). في الليل، ينتشر المسلّحون، وفي النهار تنتشر القرويّات اللواتي يبعنَ أنفسهنّ بزواج مؤقت وبضعة دنانير». لم أصدّق الجزء الأخير.

لم أصدّق.. إلى أن كانت لحظة مغادرتي البصرة بعد ظهر يوم حارّ، ومروري عبر الأحياء الفقيرة ببُحيراتها المليئة بالقاذورات التي هي أكثر سخونة من تشكيلة بغداد لأن حرارة الخليج ترفع درجة سخونة كل سائل،ورؤيتي مجموعة من الرجال والنساء المحزونين يخدشون وجوههم بأظافرهم وهم يحملون أمامهم جثة طفل يدخلونها في سيارة تاكسي برتقالية وبيضاء على الطريق الرئيسي. ثم رأيت فتى في السادسة عشرة من عمره تقريباً يقفز إلى بُحيرة القاذورات قرب الطريق السريع ويمرّغ جسمه بالنجاسة، ويصرخ غاضباً ويضرب يديه في المياه الخضراء بحيث يلوّث كل المحزونين بالقذارة.

إلى أين يقود الفقر والجوع الناس؟ لقد اكتشفت ذلك بسرعة. على بعد سبعين ميلاً إلى الشمال من البصرة حيث الطريق سراب بين معسكرات صدّام حسين التي لا تنتهي والتي تقمع عرب المستنقعات، يمكن رؤية مجموعة من الفتيات يرتدينَ قبّعات حمراء تشبه العمائم وملابس سوداء، وهنّ ملثّمات مثل الطوارق، يرقصن، وفي الواقع يدرنَ ويدرنَ على الخطّ السريع حيث توقفنا. تقدّمت إحداهنّ من شبّاك السائق، نظراتها ناعمة، وصوتها خشن، وهمست: «تعال اشترِ سمكاً، تعالَ شاهدْ سمكنا وسوف ترغب في شرائه منا».

لفظت الكلمة العربية، سمك، مع فحيح، وتحرّك السائق بطريقة ماكرة شهوانية. ربّما كان عمرها ١٦ سنة ولم تكن تبيع السمك بل تبيع نفسها. وعندما أدركنَ أننا لسنا زبائن، تراجعت فتيات السمك إلى الخط الفرعي لعرض أنفسهنّ أمام شاحنة أردنية مسرعة. أجل، تستطيع أن تنسى إسقاط صدّام حسين، وتدع جانباً تدمير القصور الفخمة والبُحيرات المزيّنة والردهات المليئة بالأعمدة. لكنني أعجب كيف يستطيع العراقيون في شارع الرئيس مقاومة الرغبة في تحطيم نوافذ مطعم بابيش والدخول لتمزيق زبائنه قطعاً وربّما اختيار البقايا الغريبة من اللحوم المستوردة طعاماً لهم...

الفصل التاسع عشر

اليوم يومكم يا صانعي الأسلحة

* ـ الليدي بريتومار: لا مشكلة أخلاقية في المسألة على الإطلاق يا أدولفيوس. عليك ببساطة أن تبيع مدافع وأسلحة فقط للذين عندهم قضيّة عادلة وأن ترفض بيعها للأجانب والمجرمين.

* ـ أندرشافت (بنبرة حاسمة): كلّا!! لاشيء من هذا!! علينا المحافظة على إيمان حقيقيّ بالتسلّح. أي أن نعطي السلاح للذين يعرضون سعراً جيّداً، بغضّ النظر عن الأشخاص أو المبادئ.. علينا أن نبيع للأرستقراطيين والجمهوريين، للملحد والقيصر، للرأسمالي والاشتراكي، للبروتستانتي والكاثوليكي، للحرامي والشرطي، للرجل الأسود والرجل الأبيض والرجل الأصفر، لكلّ الأصناف والحالات، لكلّ الجنسيّات، لكلّ المعتقدات، لكلّ القضايا ولكلّ الجرائم...

جورج برنارد شو - مايجور برباره

المشهد الثالث

قبل أن ألِجَ إلى داخل المعرض البالغة مساحته ٢٤ ألف قدم مربّعة والقريب من مطار أبو ظبي، حصلت على دعوة مفصّلة، مطبوعة على رَقّ جلديّ ناعم... تقول الدعوة: «برعاية صاحب السموّ الجنرال الشيخ محمّد بن زايد آل نهيان يتشرّف صاحب السموّ الشيخ فلاح بن زايد آل نهيان، رئيس مجلس إدارة سباق غنطوط ونادي البولو بدعوتكم لحضور مباراة البولو الودّية الختامية لدوري البسطي، الساعة ٧,٣٠.. يتبعها عشاء... اللباس رسمي». بعد بضع دقائق وبعد مروري بمراكز الأمن عُرضت عليّ سجّادة فارسية من الحرير الخالص، صُنع «قمّ» على ما أذكر.... كما عُرضت عليّ مجموعة من أواني الطبخ وأباريق قهوة بسعر بخس. كانت هناك منصّات للشاي والزهور، زهور ذهبية وخضراء وأرجوانية في بداية الربيع الحارّ. وكان العرب يرتدون دشاديشهم البيضاء بوقار، ويرتدي الزوّار الغربيون بذلات كحليّة وربطات عنق، فيما ترتدي زوجاتهم ملابس ضيّقة لمّاعة وغالباً مع قبّعات سخيفة على أطرافها زهور مزيّفة. ومعظمهنّ جئن لمشاهدة قسم المجوهرات بأساوره وخواتمه الذهبية. وفي الأثناء كان أحد أفراد فرقة الشيخ محمّد العسكرية يعزف الألحان العسكرية البريطانية والاسكتلندية. وكان العمّال الهنود والباكستانيون الذين يرتدون حللاً يعملون على تجهيز الخِيَم قبل أن تبلغ شمس الظهيرة ذروتها.

ماذا حاول صانع الأسلحة في مسرحية جورج برناردشو، المدعوّ أندرو أندرشافت، أن يقول لابنته، الرائد بربارة، عندما زارت مصنعه الضخم للأسلحة في بريفال سانت أندروز؟.

«النظافة والوقار لا يحتاجان إلى تبرير ... إنهما يبرّران ذاتهما بذاتهما. لا أجد ظلمة هنا أو إزعاجاً». وكان على حقّ. بولو، سجّاد حرير، أباريق قهوة، ورود، شاي، مجوهرات.. كل هذا كان هنا بينما كان «المواطنون» يحمون وجوههم الملفوحة بالشمس الشرقية. إنه أمر حضاري بقدر الفن الرفيع.. هذا ما أصبح عليه بيع الأسلحة بالنسبة إلى صانعي الأسلحة العالميين.

خلف هذه الخِيَم ومحلّات الحليّ وفرقة الموسيقى في هذا المبنى الواسع في إمارة أبو ظبي، ينتشر على منصّات بعض من أكثر العتاد الحربي تطوّراً وفتكاً ممّا صنعه الإنسان حتى الآن.. وهو جديد إلى درجة أنك تستطيع أن تتنشّق الطلاء الحديث الذي يلمع تحت الشمس. وهو أيضاً نظيف وجريء وفنّي في تصميمه، بحيث أنك لا تحزر أبداً ما هو هدفه. وفي كل مرّة كنت أجول لتفحّص صاروخ فرنسي، أو دبّابة ألمانية، أو قاذفة نار أميركية، أو عربة مصفّحة بريطانية، أو مدفع رشّاش ألمانيّ ذاتيّ الحركة، أو رفّاً من المسدّسات الإيطالية، أو بندقية رشّاشة روسية، أو شاشة فيديو كاشفة للمتفجّرات ما تحت الحمراء، من صناعة جيش جنوب أفريقيا... كان يظهر أمام هذه الأسلحة رجل جذّاب ببذلة كحليّة، تاجر موت، يحمل ملفّاً من الإعلانات.. يسلّم عليك بقوّة ويقدّم لك كوباً آخر من الشاي.... في بعض الأحيان كان هؤلاء الرجال يبدون مهيبين إلى حدّ ما (فبيع الموت على مستوى عالٍ كان يعني المزيد من الضيافة)، في أحيان أخرى كانوا يضعون وردة قرنفلية أو زرقاء في عروة الياقة. وكانت الأسلحة الباليستية هي سحرهم الخاص. وقد أسرّ إليّ أسترالي كان يبدو مسروراً: «مع ارتفاع الحرارة، تنطلق الرصاصة بصورة أبطأ». تدفّق ماريشالات الميدان المبتسمون، والجنرالات المنشرحون، من كل أنحاء العالم العربي، على أجنحة الأسلحة، يلقون نظرة على البنادق القنّاصة ويتسلّقون بمشقّة، مثل طلّاب المدارس، على مدافع الهوتزير والدبّابات، ويلمسون بأيديهم مراراً وتكراراً قواعد إطلاق صواريخ ناعمة الملمس، وأدوات موت أخرى.

عليّ هنا الاعتراف ببعض الافتتان الشخصي البشع بكل هذا.. لعلّه اهتمام مهني. إنه ربيع ٢٠٠١.. منذ ٢٥ سنة، وأنا أواجه القذائف المصمّمة بشكل فظّ ورائع، والصواريخ، والقذائف الصاروخية، وقذائف الدبّابات، وقنابل المدفعية، والقنابل اليدوية، وهي كلّها تُرشق باتجاهي من قِبل بعض الجيوش الحاقدة والأكثر تميّزاً على الأرض. السوريون بدبّابات ت٧٢ الروسية، والطيّارون البريطانيون مع قنابل أميركية انشطارية، والمجاهدون الأفغان مع بنادق كلاشينكوف AK 47 الروسية، وصواريخ سكود صُنع روسيا، وقنّاصات إيرانية من صُنع أميركي، وأميركيون مع قاذفات مقاتلة من صنع بوينغ وسفن حربية قذائفها بحجم سيّارة الفولسفاكن.. كلّ هؤلاء وجّهوا منتجاتهم نحوي. حتى وأنا أسير بين هذه المنصّات النظيفة فإن أصداء المدافع العراقية من عيار ١٥٥ ملم كانت تصفر بقسوة في أذني وقد أصمّتني بشدّة في عام ١٩٨٠. خلال ربع قرن، شاهدت الآلاف من جثث النساء والأطفال والرجال، وهي مشوّهة، مقطّعة، متحلّلة، ممزّقة، مقطوعة الرأس، مخصيّة، وباختصار مدمّرة، ضحيّة لصناعة الأسلحة التي تساوي عدّة مليارات من الدولارات. كان معظم هذه الضحايا من المسلمين. وكان ما أراه في أبو ظبي، في هذا اليوم الحارّ من شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠١، رمزاً لتفوّقنا على الشرق الأوسط،

ولقدرتنا على قتل مسلمين، والمساعدة على قتل مسلمين آخرين، بأسلحتنا نحن. ليس لديهم أيّة أسلحة تستطيع مجابهتنا. ليس الآن.. ولا حتى بعد ستة أشهر أخرى.

كنت أقصد أسواق الأسلحة في الشرق الأوسط، بانتظام، باحثاً عن إجابات لبعض الأسئلة القديمة. مَن هم الرجال الذين يصنعون هذه الأسلحة الشرّيرة؟ كيف يبرّرون تجارتهم؟ كيف سترد الضحايا على عملية سحق حياتها؟ أي لغة تستطيع أن تجمع بين العلم والموت وجَني المكاسب الكبيرة، على هذا المستوى؟ لأنه، وكما اكتشفت في أبو ظبي، كان هناك تناسُب أساسي مخيف بين علم اللغات والأسلحة، بين القواعد والقذائف... إن الأمر كلّه يتعلّق بالكلمات. بهذه الرؤية، جلتُ في أجنحة تجّار السلاح ومعي كيس كبير من الخيش، تحدوني رغبة مهووسة لتجميع كل كتيّب، وبيان، ودعاية ومجلّة من الأميركيين والروس والبريطانيين والصينيين والفرنسيين والسويديين والألمان والإيطاليين والأردنيين والإيرانيين، وأنا أغربل وأرمي جانباً آلاف الصفحات من المعلومات.

صاح بي تقنيّ أسلحة باكستاني فيما كنت أضع في حقيبتي قُصاصات عن التصاميم العامّة للقنابل وصواريخ السفن: «خذ كمّية أخرى».

كان الروس هم الأكثر اعتدالاً في كلامهم. وقد وعدني مسؤول مكتب التصميم الروسي KEP «سوف تشعر بالحماية بفضل الدرع الواقي من الأسلحة الذكيّة». كانت دبابة ت٩٠ الأخيرة Uralvagoncavod، من سلالة دبّابات ت٥٥ التابعة لحلف وارسو القديم ومصنّفة إعلامياً بأنها الأفضل.. وكانت شركة الصواريخ المضادّة للطائرات Ulyanovsk Mechanical تعرض صفقة كبيرة لزبائنها. أما عند الإنكليز الأكثر ليونة، فإن أنظمة ڤيكرز للدفاع Vickers كانت تحاول بيع شالنجر الجديدة E2 الهادفة إلى تقديم توازن أفضل ما بين القدرة القتالية وقوّة النيران والحركة.. إن قدرتها على تقديم فعاليّة قتالية.. قد جرى التحقّق منها واختبارها «... أجل!! أنا أذكر ذلك... لقد استخدمت دبّابة شالنجر ٢ من قِبل القبّعات الحمر في الخليج. وأذكر أن دبّابات شالنجر أطلقت ذخائر مشبعة باليورانيوم. بالطبع كان ذلك مجرّباً.

وكانت صناعات السلاح الأسترالية (وهي صارت الآن، بفضل عولمة غريبة للسلاح، شريكاً في مصانع ثاليس الفرنسية) تبيع نظام تدريب بالذخيرة الحيّة «يتضمّن وحدة محمولة مستقلّة».. كانت هذه تؤخذ مباشرة إلى ميدان القتال بحيث يستطيع الجنود ممارسة إطلاق النار على أشخاص وهميين (في الكمبيوتر) في أثناء قتلهم لأشخاص حقيقيين. «محرّكو أهداف».. كانت تلك المفضّلة حقيقة عندي.. وكان بإمكانها أن تلبّي وظائف مبرمجة، بما في ذلك: «اظهرْ في المقدّمة».. «اسقطْ عندما تصاب».. «اظهرْ مجدّداً بعد الإصابة».. «توقّف لقبول وتعداد النيران الأوتوماتيكية»... و«اظهرْ فجأة.. لتركيب الهدف إلى أعلى أو أسفل كما ترغب وحتى تصيب». وقد عرض لي أسترالي ضخم هذه اللعبة الصغيرة المخيفة. كان القتلى على الشاشة مهذّبين... يرتفعون عندما أطلب منهم ذلك وأقتلهم... ثم يُبعثون مجدّداً بحيث أستطيع إطلاق النار عليهم مجدّداً ومجدّداً وأرفعهم وأخفضهم كما أرغب...

أما الإيطاليون فقد كانت أسلحتهم على غرار أبواقهم المدوّية. . . . . تؤمّن الأسلحة النارية بيريتّا Beretta «النوعية بدون منازع».. «الخبرة»، «التجديد»، «احترام التقليد»... «تراث بيريتّا في الامتياز».. «تمّ تطوير السلاح Beretta 9000S - Type F ليصبح حجمه صغيراً وعياره قويّاً بالنسبة إلى المسدّسات الجديدة، وذلك لكي يستحقّ ثقتك. طوّر بينيلّي Benelli مثل Beretta أسلحة الصيد بحيث تكون حيواناً «عدوانيا أسود عالي التقنية». توصف حركة ضغط النار عند بينيلّي، من حيث الميزة، بالعاصفة. وقد تبجّح صانعو سلاح الصيد ساكو ٧٥ الفنلندي بأنهم سألوا المصمّمين سؤالاً واحداً مفاده: «ماذا تفعلون لو أُعطيتم الإمكانيات لتصميم بندقية أحلامكم، البندقية الجديدة الكاملة للألفيّة الجديدة؟» ... ولاحقاً بالطبع، بعد بضعة أشهر فقط، سوف أدقّق في هذا السؤال مجدّداً وأتساءل بماذا يجيب أُسامة بن لادن لو سُئل عن تصميم سلاح أحلامه أيقول: السلاح الكامل الجديد للألفية الجديدة؟؟.

روايات أخرى عن «الامتياز» تظهر أمامي مجدّداً ومجدّداً في تلك الكتيّبات. فهذا أوشكوش Oshkosh من ويلمنغتون ينتج شاحنات عسكرية لها «تراث في الامتياز». . و«إنتاج الشركة يرتكز على تاريخ طويل ويتطلّع نحو قرن جديد»... ثم هناك طائرة هيلكوبتر أباتشي المهاجمة من صُنع بوينغ التي يقول الإعلان عنها: «من السهل الحديث عن الأداء، وحدها طائرة هيلكوبتر Apache Longbow تهاجم». كانت الشركة الأوروبية للدفاع الجوّي والفضاء من بين القلائل التي تسمح بإخراج القطّ من الكيس.. إذ يقول إعلانها: «الاحترام الحقيقي يمكن كسبه فقط من خلال صناعة أنظمة دفاعية متفوّقة... فقط من خلال امتلاكها».

عام ١٩٠٦ قال أندرو أندرشافت الشيء نفسه تماماً في مسرحية برنارد شو. ولدى سؤاله ما إذا كان يختار الشرف، العدل، الحقيقة، الحب والرحمة، أم المال والسلاح، أجاب أندرشافت: «المال والسلاح لأنك بدونهما لا تستطيع الحصول على كل الأمور الأخرى المذكورة». بعد فترة، بدأت أشعر بشيء من القرف. . . هناك شيء محزن إلى حدّ كبير في اللغة المخيفة التي يستخدمها تجّار الموت: إطنابهم والكلمات الذكورية التي تتوازن مع نوعيّة الأسلحة المصمّمة للقتل، واعترافهم بأن الأسلحة تعني القوّة، التعريف النهائي «للامتياز». لكنّ الأسوأ من ذلك كلّه كان ما لم يأت بعد.

بوفور (من السويد البلد المحبّ للسلام ومانح جائزة نوبل) «هو مزوّد لتكنولوجيا مستقبل آمن... موثوق ومجدّد»... وتنتج مصانع العتاد الحربي الباكستانية ذخائر «صُنعت من أجل الكمال»... شركة موواغ Mowag (من سويسرا صانعة ساعات الحائط والمحبّة للسلام أيضاً) تنتج ناقلات جند مصفّحة من نوع «بيرانها ٣» Piranha 3 (بمفهوم عائلي يجعلها صالحة لعدّة مهمّات متنوّعة) ... لكن لوكهيد مارتن من دالاس حقّق سبقاً صحفياً بملفّ رابح عن الصواريخ والقنابل: «مقاتلات فالكون ف١٦ Falcon F16 الخالدة».. وأنظمة جديدة لتحديد الأهداف تمثّل «عقول وقوّة عضلات» طائرات هيلكوبتر الأباتشي لوكهيد... طائرات ف٢٢ رابتور F-22 Raptor فصيلة جديدة من المقاتلات الخارقة التي ستهيمن على الأجواء وتؤمّن قدرة لا تُضاهى للطيّارين الأميركيين... صاروخ

الرمح «أطلق، وانسَ»، الذي يؤمّن استخداماً طويل الأمد للمدفع... والنظام الجديد من قاذفات الصواريخ المتعدّدة الفوّهات التي أسماها العراقيون من شدّة خوفهم (عام ١٩٩١): «الأمطار المعدنية» ـ في الحقيقة نقل لوكهيد هذا عن العراقيين كاستشهاد يدعم كلامه ـ وهي تعطي مستخدميها قدرة «إطلاق واندفاع». «إطلاق واندفاع»: كان هذا أيضاً وصف الجنرال نورمان شوارزكوف الساخر لجنود إطلاق صواريخ السكود العراقية المفترض أنهم جبناء.. طبعاً لا تذكير بذلك هنا. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى المجلّات البرّاقة المكدّسة على أرض غرفة نومي. إنها رحلة لغوية في عالم وهمّي. ونصف الكلمات المستخدمة من قِبل تجّار الأسلحة (حماية، ثقة، امتياز، تاريخ، احترام، اعتماد، خلود، دقّة) تستوحي الصفات الأنسانية والإنجازات الروحية حتى. وكان النصف الآخر (ضاربة، أداء، خبرة، فعاليّة، قدرة قتالية، نوعيّة، قوّة عضليّة، عاصف) كلمات محض عدائية، تستوحي بصبيانية القدرة الذكورية الجنسية لإثبات أن القوّة هي الحقّ. وقد أطلق الأميركيون على أسلحتهم أسماء مشابهة لأسماء السكّان الأميركيين الأصليين الذين أبادوهم (هيلكوبتر أباتشي، نظام السهم الطائر، قاعدة إطلاق صواريخ متعدّدة الفوّهات Kiowa، أجهزة تحسّس أشعّةٍ ما تحت الحمراء ....Hawkeye)؛ كما أن المصنّعين الغربيين أعطوها ألقاباً مثل: الكواسر والضواري Raptors & Piranhas. كان الموت هو الشيء الوحيد الذي لم يذكر هنا.

ربّما كان لفقدان الذاكرة علاقة بذلك. في معرض للأسلحة في دبيّ يوم ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣، أمضيت ثلاث ساعات أراقب الزوّار ـ نساء أوروبيّات بألبسة رسمية وتنانير قصيرة مع عملاء حكوميين وحكّام عرب يمرّون قرب منصّة صاروخ هيوغز Hughes حيث تظهر صورة سفينة حربية من طراز Ticonderoga تطلق صاروخاً في الجوّ. كان صاروخاً مماثلاً لذلك الذي أطلقته سفينة حربية (USS Vincennes)، من طراز Ticonderoga مضادّة للطائرات مجهّزة بنظام إدارة معركة من نوع Aegis، وأسقط يوم ٣ تموز/يوليو ١٩٨٨ طائرة الإيرباص الإيرانية مما أدّى إلى مقتل ٢٩٠ راكباً مع طاقمها. لا ذكر لذلك في الجناح بالطبع.

ما زلت أحتفظ بملاحظاتي حول المحادثة القصيرة عند المنصّة مع بروس فيلدز من برنامج هاغز الدولي للتنمية. قال: «أجل كان ذلك أحد صواريخنا ذا الكفاءة العالية. لم أرد أن يستخدموا أيّة صور للسفينة الحربية Ticonderoga في دعايتنا هذا الأسبوع. فقط عند وصولي إلى هنا رأيت هذه الصورة على الجدار. لحسن الحظ نحن لن نعرضها مع الدعاية». راقبت مرور مجموعة من الشخصيات المبتسمة، مسؤولين واعين من وزارات دفاع عربية، ومُلحقين عسكريين أميركيين، يتفحّصون القطعة... وأخيراً أميرنا تشارلز، أمير ويلز يشقّ طريقه بين القاذفات المقاتلة البريطانية.

كانت الورود في كلّ مكان، كما لو كانت المناسبة عرساً وليس سوق أسلحة... زهر، زنبق، طيور الجنّة، أقحوان، كلّها كانت موضّبة بشكل نظيف بين الصواريخ. لكن الوردة الأكثر لمعاناً التي كان يمكن رؤيتها في دُبيّ كانت اصطناعية بقدر ما كانت ساخرة: زهرة الخشخاش الحمراء للفلاندرز. هل أدرك رؤساء صناعة الطيران البريطاني، والسفير البريطاني والقناصل، وحتى الأمير تشارلز الذي يضع زهرة على طيّة بذلته الرمادية، هل أدركوا هذا التناقض الظاهري؟

في حقول الفلاندرز تنبت الأزهار

بين الصلبان، صفاً فوق صف،

أزهار تُميّز موطننا.....

عندما كتب هذه السطور في المعركة الثانية في إيبر Ypres عام ١٩١٥، لم يكن الدكتور الكندي جون ماكراي ليدرك كيف سيكون عليه استخدام زهور الفلاندرز هذه بعد سبعين سنة. ولمدّة أسبوع، في دُبيّ، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣، كان يمكن رؤية هذه الزهور الحمراء تتراقص على صدور الرجال بينما كانوا يبدون إعجابهم بما هو حديث من «أسلحة الدعم القتالية»: أباتشي، بوما، هاريرز، لينكس، ف١٨، وميراج ٢٠٠٠ الجديدة.

وحتى «الجندي المجهول»، المحتفى به، لم يحظَ بأيّ اهتمام في أبو ظبي بعد ثماني سنوات.. وباستثناء الإشارة المختصرة والمرعبة إلى الأمطار المعدنية، فإن القضاء على الحياة لم يكن له وجود.. أما الحديث عن «أدوات القتل» فكان يشير فقط إلى عمليات القتل بواسطة الآلات والدبّابات والسفن. حتى «الحرب»، كانت كلمة محظورة. إنه دفاع. كما بالنسبة إلى تسمية «وزارة الدفاع».. وأيضاً «معرض الدفاع الدولي» الذي كان الاسم الرسمي لذلك المهرجان العامّ في أبو ظبي. كانت لحظة غريبة، لحظة سألت سلطان سويدي «مدير معرض الدفاع»، في المؤتمر الصحفي في المبنى المخصّص لافتتاح معرض الأسلحة: «لماذا تقيم الإمارات العربية المتحدة، الدولة المسلمة المسالمة الصغيرة والفتيّة، سوقاً للأسلحة التي يمكن أن تُستخدم لقتل أخوة مسلمين». تلت سؤالي فترة صمت طويلة ذات مغزى، نظر إليّ خلالها سلطان سويدي بانتباه مركّز، ثم قال: «هذه المعدّات ليست بأيّ حال صانعة الحروب أو صانعة قرارات الحرب. إن استراتيجية الدول هي التي تقرّر ما إذا كانت ستستخدم هذه المعدّات ضد مسلمين آخرين أو غيرهم... نحن دولة مسالمة. رئيسنا (حاكم الإمارات) معروف عنه أنه أكثر الزعماء تأييداً للسلم في العالم».

وعندما ذهبت للحديث مع الناس الذين كانوا في أبوظبي بُغية الوقوف على ماهيّة هذه المعدّات، وجدت أن هؤلاء الناس كانوا بريئين وطيّبين ونظيفين كأيّ مجموعة من رجال العائلات من الطبقة المتوسّطة. بالطبع كان عليك أن تكون مهذّباً في الحديث معهم، وهم كانوا يعرفون كل الحجج المتداولة، وبعضهم كان قد شاهد مسرحية الرائد، وكان يبتسم ببرودة عندما أذكر أندرو أندرشافت.

عند جناح ڤيكرز Vickers كان يقف ديريك تورنبول من بليث في نورثومبرلند، يراقب نموذجاً مصغّراً لدبّابة شالنجر E2 تتحرّك بشكل دائم دائرياً على منصّة بلاستيكية. سألته إذا كان يفكّر في ما تصنعه كل هذه الأسلحة بالبشر وكان جوابه فوريّاً: «أيّ شخص يقول لك لا أعرف، كاذب. أيّ إنسان متحضّر يعمل في هذا المجال يعرف ما هي أغراض هذه المعدّات. لكننا أكثر تكتّماً من أيّ كان. إن صادرات كبيرة من هذه المعدّات مسيطر عليها بدقّة من قِبل الحكومة البريطانية.. إذا جلسنا وأمامنا خارطة للعالم ووضعنا علامة على الدول التي لا نستطيع بيعها

سلاحاً، فإنه لن يبقى لنا الكثير». يبدو أن الحكومة البريطانية ـ ڤايكرز والسيد تورنبول Turnbull ,Vickers يتبعون نصيحة السيدة بريتومار في مسرحية برنارد شو: «بيع مدافع وأسلحة لأشخاص أصحاب قضية مُحقّة وعادلة ورفض بيعها للأجانب والمجرمين».

عندها أضاف تورنبول ملاحظة غريبة، قال: «تذكّر أن الدبّابة صُنعت لتقتل الدبّابات وليس الأشخاص. هذا هو الغرض منها». والحقّ أن السيد ديريك تورنبول هو رجل ذكي وودود أيضاً. أهو راضٍ حقّاً عن تعليق كهذا؟. أليس هناك بشر، أولاد أمّهات، داخل هذه الدبّابة عندما «تقتل»؟ هل يعتقد حقاً أنهم ينجون عندما تشق قذيفة بريطانية طريقها إلى داخل مدرّعة؟ لدى تورنبول ولدان: ستيفن، عمره ١٦ سنة، وهو يدرس هندسة الصوت، وكريغ، عمره ١٤ سنة «وهو سيكون حتماً صحافيّاً جيّداً». ومدينة بلايث حيث يوجد منزل آل تورنبول هي بالصدفة المكان الذي عملت فيه لأوّل مرّة كمراسل لصحيفة «نيو كاسِل إيڤننغ كرونيكل» Newcastle Evening Chronicle وحيث شاهدت لأوّل مرّة جثّة لضحية مقتولة، قتلها صديق لها، على ما أذكر، بمسدّس ألماني أو إيطالي.

فكّر تورنبول لفترة قصيرة بسؤالي. تحدّث عن التجرّد والانفصال الذي يأتي مع تكنولوجيا المعلومات العسكرية. وقال: «لقد توصّل الجميع إلى التعايش مع الأمر بطريقتهم الخاصّة. ومعظم الناس يتكلمون الآن عن الهندسة والتكنولوجيا... ولكنهم يذكرون «هذا الأمر» بالطبع بين الحين والآخر».... و«هذا الأمر» الذي يعنيه تورنبول هو إنتاج الموت.. مع أنه لم يستخدم الكلمة في أيّة لحظة. بعد ذلك تبيّن أنه كان في السعودية من أجل ڤايكرز Vickers خلال حرب الخليج ١٩٩١.. ومع أنه ليس جندياً فقد وصل إلى «طريق الموت» السيّىء السمعة، جنوب البصرة بعد يومين من المذبحة الجماعية التي تعرّض لها العراقيون الفارّون من قِبل الطائرات الأميركية والبريطانية... ملقياً بنظرة من علٍ، من مرتفع متلة، على ميادين القتل التي قُتلت فيها أيضاً النساء الهاربات...

كان تورنبول حسن الاهتمام عندما تكلّم عن المشهد، متفكّراً بردّات فعله في ذلك الوقت.. كان بحقّ رجل تسلّح ينظر إلى النتيجة النهائية لتقنيته. «كان المشهد مرعباً... لكن بطريقة غريبة، لم تحصل عندي ردّة الفعل التي كنت أتوقّعها. تصوّر أننا سرنا صعوداً عبر الكويت، ومررنا بآبار النفط التي أحرقها العراقيون. كان أفظع شيء شاهدته في حياتي. مررت بكل هذا الدمار المرعب ولم أكن مصدوماً جدّاً للضرر الحاصل في متلة». بقينا صامتين لفترة. كان الضرر في متلة بشرياً وليس مادياً فقط. تذكّرت الجندي العراقي الذي وجدته مُقحماً في التراب، وسماكة جسمه لا تتعدّى الإنش. كانت آبار النفط المحترقة رهيبة لكن موت البشر شيء مختلف بالطبع. وينبغي أن أذكر أن تورنبول بدا مستمتعاً بأسئلتي... بعدها تحوّل إلى تاجر سلاح أصليّ . قال: «أنظر روبرت، إذا كان العالم مليئاً برجال لطفاء يقومون بأعمال حضارية، فلن نحتاج إلى هذا العتاد».

على بعد بضع خطوات كان يقف جندي بريطاني، وهذا يظهر إلى أي حدّ كانت الجيوش وتجّار الأسلحة قد

أضحت متداخلة.. جندي الدبّابة الرقيب أشلي فرانكس البالغ من العمر ٣١ عاماً، كان قد قاد دبّابة مسلّحة إلا أنه لم يشترك في حرب الخليج... اعترف: «كنت في إيرلندا الشمالية، ذهبت دبّابتي إلى الخليج لكنني لم أذهب. إنه لعار حقّاً». ومن ثمّ بدأت محاضرته الصغيرة حول تحسينات دبّابة شالنجر وكيف يجب على ڤايكرز استحسان هذه المساعدة العسكرية.. وكانت محاضرته شبيهة بالكتب الدعائية الموجودة في غرفة فندقي. «يوجد في الدبابة شالنجر قوّة دفع إضافية، وكانت قوّة شالنجر ٢ حوالي ١٢٠٠ حصان بينما قوّة هي ١٥٠٠ حصان. وبالنسبة إلى سيناريو صحراوي فالأحصنة الإضافية أكثر من ضرورية. وتُعتبر شالنجر ٢ رائعة في حال لم تقد دبّابة شالنجر 2E. والتطوير الآخر هو أنه عندما كانت دبّابة شالنجر ٢ قيد التصنيع كانت أجهزة تكييف لحرارة محدودة جدّاً. والآن لدى دبّابة شالنجر 2E أجهزة تبريد مستقلّة للمدفع... ومن خلال نظام إدارة المعركة، في حال استُهدفت دبّابة بالليزر، يعرف الجميع أن عربة معادية تستهدف دبّابة.. وفي متناول قائد المجموعة المقاتلة أيضاً النظام، نفسه، وأروع ما في الأمر أن دبّابة أخرى تستطيع استخدامه ضدّ دبّابة العدو». أصبحت لهجة الرقيب البريطاني الآن مألوفة جدّاً. «مجموعة طاقة»، «رائعة»، «زيادة»، «مستقلّة»، «جمال». كان الأمر كما لو أن الرقيب فرانكس يحاول بيعي سيّارة رياضية جديدة، وهذا ما أعتقد أنه كان يقوم به.

بينما كان يتحدّث، تأرجحت الدبّابة النموذج على قاعدتها البلاستيكية، واستطعت أن أرى بكل وضوح الملحق العسكري، قائد دبابة 2E الجديدة يندفع إلى الصحراء بسرعة.. سبق لي أن جلست على قمّة دبّابة شالنجر ٢ في السعودية، فعلت ذلك قبل أيام فقط من حرب الخليج وأستطيع أن أفهم ثقة الرقيب فرانكس ورفاقه عندما تعرّضت دبّابتهم للنيران. لكن تذكّرت أيضاً كيف باعت بريطانيا دبّابات تشيفتن Chieftain لشاه إيران وكيف استخدمت الجمهورية الإسلامية هذه الدبّابات ضدّ العراق بعد إسقاط الشاه عام ١٩٧٩، ولم أستطع أبداً إزالة الذكرى الواضحة لصعودي على ظهر التشيفتن التي استولى عليها العراقيون عام ١٩٨٠، ورؤيتي الهيكل العظمي للمدفعي الإيراني الباقي على الكرسي بقربي عندما التفتّ إلى اليمين. ربّما كان بعمر الرقيب فرانكس. لقد وافقت الحكومة البريطانية على بيع إيران دبّابات تشيفتن وهي دبّابات انتهت بين أيدي جنود آية الله الخميني وبعدها بين أيدي صدّام.

لكنّ معارض السلاح تتعلّق بالبيع وليس بالقتل. على بعد بضعة أمتار من تورنبول وفرانكس، صادفت طالبتيْن من الجيش الأوكراني تلمّعان دبلومهما الجديد أمام بعض العرب المذهولين. كانت ماريا فرينيس وجوليا بارتاشوفا نموذجاً لحملة دعائية رئيسية حديثة ـ أوكرانيا تبيع دبّابات ـ وبعيداً عنهما، في الجناح الأميركي، كانت شخصية أكثر إثارة تشقّ طريقها عند منصّة بندقية وينشستر. كانت راموناً دول تقوم بعرض دعائي وهي ترتدي ملابس ضيّقة وتحمل مسدّساً وتصنع الكثير من أحمر الشفاه.

وقد أُعجب الجنرال مصطفى طلاس بها. واكتشفتُ أن وزير الدفاع السوري كان برفقة الملك الأردني عبدالله ابن الملك القصير القامة حسين، الصديق السابق لبريطانيا (والمشتري للأسلحة البريطانية) قرب الجناح العسكري الأردني. كان طلاس يعاين داخل العربات المصفّحة والأسلحة، وقد بقيت فسحة صغيرة على بذلته لأوسمة

جديدة.. وقد صرّح مرّة عن حبه لجينا لولو بريجيدا، وكتب لها قصيدة.. وكتب لها في بيت شعر ما معناه: لو أن جنوده الاستعراضيين يستطيعون حمل صواريخ تتحوّل إلى أزهار حبّ... لكن صواريخ سام ٦ السورية أكلها الصدأ وكان مصيرها مثل بقيّة الذخائر. وكان الأميركيون قد أغرقوا دبّابات م٤٨ في بحر فلوريدا بعد إفراغ الوقود منها لتشكيل شعب مرجانية. وقد استخدم التشيكوسلوفاكيون براميل دبّابات ت٥٥ لصنع مراكز إنارة. وكان من شأن ابنة أندرشافت، العضو في جيش الخلاص، أن توافق على كل ذلك...

لكنّ السلاح الذي لازم مخيّلتي طويلاً، والذي سيكون شرّير هذا الفصل، يسمّى «نار جهنم».. وهو سلاح مضادّ للمدرّعات استُخدم لسنوات من قِبل الإسرائيليين ومؤخّراً في الضفّة الغربيّة المحتلّة وقطاع غزّة. كانت «نار جهنم ١» قد أُطلقت من طائرة أباتشي إسرائيلية، أميركية الصنع، على سيّارة إسعاف لبنانية عام ١٩٩٦ مودية بحياة أربعة أطفال وامرأتين كانوا على متنها. وكانت بقايا «نار جهنم ٢»، المطوّر، والتي وجدتها في منزل مدمّر جزئياً في قرية بيت جالا المسيحية في الضفّة الغربيّة المحتلّة في تشرين الثاني/نوفمبر الماضي، قد أُطلقت على الفلسطينيين من قِبل الإسرائيليين، بعدما هاجم المسلّحون الفلسطينيون المستوطنة اليهودية جيلو المنشأة جزئياً على أرض مصادرة من الفلسطينيين في بيت جالا. ويبدو أن كبار رجال لوكهيد كانوا أحياناً إسرائيليين. وقد عبَّرت نيتي جونسون، التي اعترفت شركتها بأنها حذفت إسرائيل من زبائنها في اللائحة الرسمية المقدّمة إلى العرب في أبو ظبي، عن عدم ارتياحها إزاء كل حديث عن إسرائيل.

لكن كان جون هيرست يبدو كالأب الفخور بسلاح «نار جهنم». وقد فازت روكويل Rockwell بالمسابقة حول صاروخ «نار جهنم» جو ـ أرض في السبعينيّات، لكن هاغيز تفوّق عليها ببرنامج مافريك. كان هناك تاريخ كامل لصاروخ «نار جهنم»: منذ خلافته لصاروخ تاو TOW، وتطوير لوكهيد مارتن لنظام ليزر قليل التكلفة، ونموذج «ف» F (تحديد سريع لتحرّك مدرّعة)، وحتى الإنتاج المشترك بين لوكهيد (٨٠ في المئة) وبوينغ (٢٠ في المئة) وصولاً إلى إنتاج لوكهيد (١٠٠ في المئة) لنظام هيلفاير Hellfire 2 وبيعه لإسرائيل والسعودية والإمارات ومصر... وكان على الولايات المتّحدة الموافقة على المشتري. هذا تاريخ يحبّ صانعو الأسلحة روايته باعتبار أنه خالٍ من السياسة والموت ومليء بأرقام النسب وتكاليف التطوير والاتفاقيات.

لكنّ هيرست قرأ «الميجور بربارة» ـ وقد ذكر اسم أندرشافت قبل أن يخطر ببالي ـ وعندما ركّزت على الكلام عن أخلاقية (أو لا أخلاقية) عمله، كان لديه «بيانُ مهمّة» خاصّ به يُلقيه عليّ. وعند إعادة التفكير في الأمر، أعتقد أن ذلك كان أشبه بتلاوة أركان الإيمان. كان يريد مني أن أفهم. قال: «قمت بنقاشات كبيرة على قاعدة دينيّة أيضاً. قبل ذلك، كنت مدير تطوير صاروخ برشينغ ٢. كانت مهمّتي بيع صاروخ برشينغ ٢ للقوّات المسلّحة الأميركية وللدول الأخرى مثل ألمانيا التي اشترت برشينغ 1A. توقّف هنا ليرى إذا كنت قد فهمت تداعيات الموضوع.. كان بيع صاروخ برشينغ يعني بيع حرب نووية. قال هيرست: «هناك قانون أخلاقي. كان الأمر يتعلّق بتسليح دول أخرى لخوض حربها عوضاً عن إرسال جنودنا للقيام بذلك».

لكنه أراد الذهاب أبعد من ذلك.. لذا جلست في جناح لوكهيد مثلما فعل جون هيرست منذ ٤٥ عاماً مع لوكهيد معلّقاً على أندرشافت من وجهة النظر الدينية «أنا مسيحي مؤمن، أنا تابع للكنيسة الأسقفية. وتستطيع التفتيش في كل العهد الجديد ولن تجد شيئاً حول الدفاع عن نفسك بقتل الشخص الآخر». نعم، قال لي موافقاً ومضيفاً أن هناك إشارة في إنجيل بولس حول لبس «درع الله». لكن العهد القديم شيء مختلف. «فيه الكثير من الأقوال بأن الله يريد منا الدفاع عن أنفسنا ضدّ الذين يريدون تدميرنا. والعهد الجديد يقول بأن الله يريد منا نشر بشارته (إنجيله) ولا يمكننا فعل ذلك بشكل جيّد إذا كنا أمواتاً. ليس هذا إعلانا عدوانياً وعلى الشخص الذي يودّ إيذائي التفكير مرّتين... يريد الله منا الدفاع عن أنفسنا والتسلّح لكي نتمكّن من نشر كلمته» ...

يبدو ذلك أقلّ أخلاقية من تبريرات الحروب الصليبية، أي التبرير الديني لحملة تبشير عسكرية. أجل، هيرست ربّ عائلة متزوّج بليتيسيا ولديه أربعة أولاد. ابنه الأول جون، ترك عمله في فنادق ماريوت ووقع في حبّ فتاة من بودابست وتزوّجها. وليام، يعمل مدير تسويق في الماريوت في أورلاندو ولديه ابنتان. بايرون، يعمل في برامج البحرية لصالح شركة استشارية في واشنطن. كارول تعمل معلّمة مدرسة ولديها أولاد. وبالطبع سألتُ مجدّداً: أطفال؟ أسلحة؟ موت؟. وردّ هيرست: «عليك التفكير في ذلك، عرفت أشخاصاً في برنامج برشينغ تركوا الشركة.. كانوا لا يستطيعون مجرّد التفكير في الحرب النووية. عليك النظر إلى الأمر من وجهة نظر مخطّط استراتيجي ـ صاروخ برشينغ في الفناء الخلفي أفضل من صاروخ SS-20 على سطح بيتك. هذا ما قاله ألكسندر هيغ يومها.. ولم يطلق الروس نيران صواريخهم SS-20 (يقصد يوم اندلاع أزمة الصواريخ الأوروبية مطلع الثمانينيّات حين قرّر الاتحاد السوفياتي نشر صواريخ SS-20 في أوروبا ـ المترجم). . .

سألت مجدّداً: لكن الموت، الموت؟ فأجابني: «صحيح كان ذلك أم خطأ، أنا لم أربطه أبداً بما أقوم به. إذا شاهدتُ قنبلة تنفجر وأرجلاً تطير، لا أقول أبداً لنفسي: «كان من الممكن أن أكون سبب ذلك». لأننا نحاول تجنّب هذا الأمر. في بعض الأحيان يرغب أحد غريبي الأطوار في إشعال شيء... عندما يقوم شخص مثل صدّام حسين بسحب السدادة عندها لا يعود لدينا أي مهرب أو ملاذ... (فنقول حينئذ) «هذا ما يحدث عندما تفعل ذلك، لا تفعله من جديد».

لكن بينما عمل صانعو الأسلحة باعة للغات القوة، والجمال، والامتياز، والحماية، والاعتماد، والفعاليّة، والقوّة العضليّة، لم يكن للإنجيل، الذي يبشّرون به في أبو ظبي، أيّة علاقة بإله جون هيرست. كان مضمونه كلّياً حول الخوف والتهديدات: الخوف من العراق وإيران، وتهديد العدوان الصدّامي المستمرّ، والتحذيرات المتكرّرة بأن هذه الدول النفطية العربية الخليجية اللطيفة، والمرنة، والشديدة الغنى يجب أن تتسلّح وتعيد التسلّح للدفاع عن نفسها ضدّ الهجوم الكيميائي أو البيولوجي أو النووي. وكان من شأن هذا السيناريو المزيّف والخاطىء كلّياً أن أصبح مألوفاً بعد ثمانية عشر شهراً عندما استخدم الرئيس بوش ورئيس الوزراء بلير الشياطين نفسها لدفعنا إلى الحرب. لكن في أبو ظبي، في آذار/مارس ٢٠٠١، كانت وظيفة هذه التبشيرات مجرّد الكسب التجاري الكلّي: أن

نُرهب أصدقاءنا في الخليج ونُقنعهم بأنهم لن يكونوا بأمان إلا في حال اشتروا أسلحة بمليارات الدولارات. وبنظرة إلى الماضي نجد أن هذه التكتيكات كانت تجربة أوّلية لإعادة استخدام المعلومات غير الدقيقة نفسها لتبرير غزونا للعراق عام ٢٠٠٣.

إن الطريقة التي تمّ فيها التعريف بهذا الإنجيل (والتبشير به) كانت واضحة كثيراً في القاعة الواسعة المكيّفة في الجانب الآخر من سوق الأسلحة. كان مؤتمر «الدفاع الخليجي» هو المكان الأمثل للتعرّف على التهديدات. في اليوم الأول، كان نيل باتريك من مركز الخدمات الملكية المتّحدة يحاضر لمستمعيه حول «الدول الخطرة في الخليج».. سمعنا كلّنا عن قدرة الصاروخ البالستي الإيراني المتوسّط المدى، وقدرة العراق على إعادة بناء منصّات صواريخ متحرّكة. وسُئل العرب: «إذن ماذا سيحصل... عندما تصبح إيران دولة نووية؟».

كانت عروض باتريك مرفقة ببنود مشروطة. لكنّ الرسالة كانت واضحة بشكل كافٍ: «الشيء المهمّ هو بناء تحالف مع دول الخليج العربي... بناء تحالف مع الحلفاء الأميركيين والأوروبيين...» ... كان أسامة بن لادن تهديداً جديداً يضاف إلى المجرمين في الاتحاد السوفياتي السابق وإلى احتمال نقل روسيا أسلحة متطوّرة جدّاً إلى إيران(*)». كانت التحذيرات في أرجاء سوق الأسلحة في أبو ظبي مستمرّة بخشونة أكبر. في الجناح البريطاني للطيران الجوّي (تؤمّن أنظمة BAE لك رزمة كاملة تلائم احتياجاتك)، يبرهن لك شريط فيديو طويل كيف يعرف الجيش البريطاني طريقة إنهاء نزاع حدودي. كانت العناصر الحربية في هذا الفيلم السخيف «برتقالي» (مُعتدٍ) و«أزرق» (ضحيّة)، وكانت أراضيها (وهنا كلّ القصّة) تحتوي على احتياطيّ نفط وغاز في المنطقة الحدودية. وكان ذلك يعني بالتأكيد الكويت والسعوديّة والبحرين والإمارات. كانت القوّة الوحيدة ذات الحدود المشتركة مع السعودية والكويت هي العراق. إذن، فليكن البرتقالي هو لون العراق.. وحملت المنشورات العسكرية الغربية التي أعطيت للزوّار العرب في المعرض معنى موازياً. وعلى سبيل المثال، أوردت نشرة Gannett's Defense News من سبرينغفيلد، فرجينيا، أنه: «حان الوقت الآن لدول الخليج الفارسي لتكون جدّية حول أمنها المشترك. وأن التهديدات الموجّهة إلى المنطقة تظهر أهمّية تدعيم الأنظمة الدفاعية في أنحاء الشرق الأوسط الضعيف، وشبه الجزيرة العربية... وفي غياب تعاون أكبر يصبح الوضع الأمني أكثر دقّة يوماً بعد يوم».

وقد عمل نائب رئيس الأركان الكويتي، اللواء فهد الأحمد جاهداً لإبلاغ المندوبين أن إسرائيل تبقى الخطر الأول على العرب، وأن «الوضع الأمني في الخليج والوضع الأمني بالنسبة إلى الصراع العربي ـ الإسرائيلي مرتبطان». وكان نداؤه يائساً حين قال: «إذا أردنا إقامة نموذج سلام في منطقة الخليج، فيجب أن يكون لدينا

(*) قبل ستة أشهر فقط من الهجمات على الولايات المتحدة، كان أمراً ساحراً أن نرى أن بن لادن اعتُبر تهديداً ثانوياً مرتبطاً بالمجرمين الروس وبالخبرة النووية في الاتحاد السوفياتي السابق. كان نظام صدّام (الذي لا يملك أسلحة دمار شامل) لا يزال معتبراً الخطر الأكبر. وبعد قصف أفغانستان وفرار أسامة بن لادن، أعيد إدراج السيناريو نفسه من قِبل السيّدين بوش وبلير عام ٢٠٠٢. لكن مجدّداً أيضاً، لم يكن وجود أسامة بن لادن ليحرّك المكاسب الماجنة التي جنيناها من مبيعات الأسلحة في أبو ظبي ومن معارض سلاح أخرى في الشرق الأوسط.

نموذج سلام في فلسطين». كما كان تحذيره بأن مصير القدس موجود في قلب كل عربي، تحذيراً يائساً. وقد تجاهل منظّمو سوق الأسلحة في الإمارات الفاكسات التي أرسلها صانعو الأسلحة الإسرائيليّون للمشاركة في معرض أبو ظبي. لكن جرى توزيع نسخ مجّانية من مجلة Jane's Intelligence Review على رجال الأسلحة في معرض أبو ظبي، وهي تتضمّن مقالاً يتحدّث عن المعتقدات المزيّفة البالية حول النزاع العربي ـ الإسرائيلي. ويشير المقال إلى المستوطنة اليهودية غير الشرعية التي بُنيت على أرض عربية في هارحوما على أنها مجرّد «مشروع مُتنازع عليه»... وقد حُذف اسمها العربي: جبل أبو غنيم... وأعطي الاسم الإسرائيلي للضفّة الغربيّة المحتلّة: يهودا والسامرة... ولم يلفت المقال الانتباه إلى أن الرقم الذي يورده لعدد القتلى في الانتفاضة الأخيرة (٤٥٠ قتيلاً) يعود في غالبيته الساحقة لضحايا فلسطينيين عرب. كان اسم كاتب المقال دايفيد إيشل وقد تمّ تعريفه بأنه «محلّل عسكري»، ولكنه كان بالمناسبة أيضاً ضابطاً سابقاً في الجيش الإسرائيلي.

أجل، كان ما تجري الدعوة إليه (أو التبشير به) في أبوظبي هو عقيدة جورج بوش الجديدة: يأتي التهديد من مجرم الحرب صدّام حسين، وليس من إسرائيل المحبّة للسلام. ويحتاج العرب من أجل الدفاع عن أنفسهم ـ سريعاً ـ إلى سياسة تقتضي استنزاف ثروة الخليج العربي وتبديد مليارات الدولارات على الأسلحة الغربية لحماية الخليج من بقايا العراق ومن فوضى إيران. وتفيد الإحصائيات بذلك كلّه. ففي عامي ١٩٩٨ و١٩٩٩ فقط، وصل الإنفاق العسكري لدول الخليج العربي إلى ٩٢ مليار دولار. ومنذ عام ١٩٩٧، وقّعت الإمارات وحدها عقوداً قيمتها أكثر من ١١ مليار دولار مضيفة ١١٢ طائرة إلى ترسانتها التي تشتمل على ٨٠ طائرة ف١٦ من لوكهيد مارتن و٣٢ طائرة ميراج ٢٠٠٠.... الأرقام مذهلة ومنفّرة!!. وبين عامي ١٩٩١ و١٩٩٣، كانت بعثة التدريب العسكري الأميركية قد سلّمت أسلحة قيمتها أكثر من ٣١ مليار دولار للسعودية مشتراة من واشنطن، و٢٧ مليار دولار معدّات أميركية جديدة. وتمتلك القوّة الجوّية السعودية أساساً ٧٢ طائرة ف١٥ مقاتلة قاذفة أميركية و١١٤ طائرة تورنادو، و٨٠ طائرة ف٥ و١٦٧ طائرة بوينغ ف١٥. في معرض دبيّ، كان ٨٠٠ مشترك من ٤٢ دولة يعرضون أسلحتهم. وكان الجناح العسكري الروسي يتضمّن ٥٠ شركة عسكرية روسية تبيع دبّابات، وعربات مصفّحة، وصواريخ أرض ـ جوّ، وسفناً حربية.. وبشكل لا يصدق، أعلن فيليب روجيه، مدير العلاقات الدولية لإدارة التسلّح الفرنسية، في أبوظبي أنه «بينما تستطيع حكومات الخليج التفكير في استخدام عائدات النفط الكبيرة لخدمة ديونها، فإننا نعتقد بأن القسم الأكبر يمكن أن يذهب إلى الإنفاق الدفاعي». وإذا كان الشعب العربي المعارض لحكّامه يرفض هذا الجنون، فقد كانت الوسائل متوفّرة في سوق الأسلحة لإنهاء احتجاجه. كانت منتجات «سْوارتكليپ» Swartklip من جنوب أفريقيا تعلن عن مولّدات دخان لعمليات التطهير الواسعة: «قذيفة من عيار ٣٧ ملم تشلّ المشاغب من خلال تسديد ضربة قوية غير قاتلة، قنبلة دخانية تُطلق داخل المباني، وبندقية عيار ١٢ تطلق رصاصاً مطّاطياً وهي ناجحة لشلّ النشطاء».

سرتُ بيأس نحو الجناح الروسي. وهنالك قابلت الرجل. والحقُّ أنني ما كدت أصدّق أن هناك اسماً آخر كان مشهوراً في كل حروب العالم وفظائعها، ومُفعماً بكلّ ذكريات التمرّد والثورة، ومستخدماً بشكل متكرّر في

الحروب الدائرة، بحيث أصبح مجرّد عبارة مُبتذلة في تقارير الحرب، غير اسم AK-47، الرشّاش الأكثر شهرة في العالم. كان ذلك الرشّاش هو الرشّاش الذي شاهدته في لبنان، وفلسطين، وسوريا، والعراق، ومصر، وليبيا، والجزائر، وأرمينيا، وأذربيجان، والبوسنة وصربيا. كان ذلك الرشّاش هو الذي حملته بيدي مع قافلة الجيش الروسي في الطريق إلى كابول عندما هاجمَنا المجاهدون الأفغان قبل ٢١ عاماً. كان ذلك علامة على الزمن الروسي التعيس بحيث أنهم احتاجوا لكي يبيعوا دبّاباتهم وطائراتهم الميغ إلى مساعدة هذا الرجل البالغ ٨١ عاماً ومخترع السلاح الأكثر قدسيّة، وقد أحضروه معهم من هناك إلى أبوظبي.

وجدته جالساً في غرفة صغيرة، إنه ميخائيل كلاشينكوف شخصياً، رجل قصير القامة، أبيض الشعر، في فمه بعض الأسنان الذهبية، يداه ترتجفان لكن عينيه السيبيريّتين كانتا في يقظة الذئب، وما زال يضع أوسمة حزب العمّال الاشتراكي. سأله ضابط سعودي منذ بضع سنوات: «ألم يخطر ببالك أبداً أن عليك تغيير معتقدك. فبحسب المعتقدات المسيحية أنت مذنب كبير. أنت مسؤول عن عشرات الألوف بل عن مئات الألوف من القتلى في جميع أنحاء العالم. لقد جهّزوا لك منذ زمن طويل مكاناً في جهنم».. لكن الرائد قال: «إن كلاشيكوف كان مسلماً حقيقياً.. وعندما ينتهي وقته في هذا العالم، سوف يستقبله الله كبطل، إن رحمة الله لا حدود لها» .. على الأقلّ، هكذا روى ميخائيل كلاشينكوف القصّة. وهو على الأقلّ أحد تجّار الأسلحة القلائل الذين خبروا الحرب. ولد في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٩، وكان من بين ثمانية عشر ولداً، عاش منهم ستّة.. كان قائد دبّابة ت٣٨ T38 سوفياتية عام ١٩٤١، وأصيب في كتفه وظهره عندما دمّرت قذيفة ألمانية جزءاً من دبّابته: «كنت في المستشفى عندما سألني جندي يرقد في السرير القريب مني: لماذا لدى جنودنا بندقية واحدة فقط لكل ثلاثة رجال بينما لدى الألمان رشّاشات؟» لذلك صمّمت واحدة. كنت جندياً واخترعت رشّاشاً لجندي. قمت بتسميته رشاش كلاشينكوف، السلاح الآليّ كلاشينكوف AK وحمل تاريخ أول إنتاج له: عام ١٩٤٧».

أصبح AK-47 رمزاً للثورة الفلسطينية، والأنغولية، والفيتنامية، والجزائرية، والأفغانية، وحزب الله، وبندقية قتال حلف وارسو. وسألت ميخائيل كلاشينكوف العجوز كيف يستطيع تبرير كل هذا الدم، كل هذه الجثث الممزّقة نتيجة اختراعه. قال إنه سُئل هذا السؤال من قبل: «أنظر، كل هذه المشاعر تحصل لأن طرفاً يريد تحرير نفسه بواسطة الأسلحة. لكنني أرى أن الخير هو الذي ينتصر. يمكن أن تعيش لترى اليوم الذي يسود فيه الخير، وسيكون ذلك بعد موتي. لكن سيأتي اليوم الذي ينتفي فيه استخدام أسلحتي أو أنها تصبح غير ضرورية».

وهكذا ركبنا على جناح التفسير الروسي لمسار أخلاقي مألوف. أخبرني كلاشينكوف: «كان هدفي حماية حدود وطني الأمّ.. ليس خطئي أن صار الكلاشينكوف معروفاً جدّاً في العالم وأنه جرى استخدامه في عدّة أماكن مضطربة. أعتقد أنه يجب لوم سياسات هذه الدول وليس مصمّمي الأسلحة. خُلق الرجل ليحمي عائلته، أولاده وزوجته. لكن أريدك أن تعلم أنني إضافة إلى الأسلحة، ألّفتُ ثلاثة كتب حاولت من خلالها تثقيف شبابنا بثقافة الاحترام لعائلاتهم، للمسنّين، للتاريخ..».

كان كلاشينكوف الآن في حالة حنين إلى الماضي. «عشت في زمن كنا فيه جميعاً نريد المنفعة للاتحاد السوفياتي. إلى حدّ ما، اعتنت الدولة بأبطالها ومُصمّميها... ففي القرية التي ولدت فيها، وبناء على مرسوم خاصّ، جرى تشييد تمثال لي ارتفاعه ضعف طولي. وفي مدينة إيشفك حيث أعيش الآن، متحف باسم كلاشينكوف وفيه قسم مخصّص لسيرتي وقد شيّد في حياتي»!. وقال لي ميخائيل كلاشينكوف أنه ليس غنياً ولكن لديه بعض المال، وأضاف: «لو كنت أملك المال لاستخدمته بطريقة جيّدة. لكن هناك صفات أخرى يمكن أن تكون أكثر أهمّية. طلبني الرئيس بوتين يوم عيد ميلادي. ما مِن رئيس آخر يتصل بمصمّم أسلحة. وهذه الأشياء مهمّة جداً بالنسبة إليّ». وسألته عن الله، ماذا سيقول الله عن ميخائيل كلاشينكوف؟ أجاب: «لقد تربّينا بطريقة قد تجعل مني مُلحداً نوعاً ما..، لكنْ هناك شيء ما موجود».

كان هناك مكان آخر فقط للحصول على إجابة. سرت نحو منصّة عرض مخيفة في زاوية من أحد الأجنحة البعيدة حيث تُعرض نماذج مطلية بالبنّي لقاذفات صواريخ متحرّكة على رفّ. كان هذا بازار الأسلحة الإيراني. كانت صواريخهم تسمّى «الفجر» أو «شروق الشمس».. وقد لفت نظري صاروخ V-2 مداه ١٢٥ كلم تنتجه مجموعة S.B الصناعية «في طهران واسمه Nazeat وهي كلمة فارسية تعني «رعب الموت».. أجل إيران الدولة الوحيدة في كل عالم صناعة الأسلحة تقول الحقيقة عن غاية السلاح وقد أعطت الصاروخ اسماً يعني إطفاء الحياة. وتساءلت: هل تكمن الإجابة عن أسئلتي هنا؟.

لم تكن هذه الصواريخ للبيع.. أبلغني مرتضى خسروي ذلك بوقار. إنها هنا فقط لإبراز قُدرات إيران.. ومع ذلك باعت إيران عام ٢٠٠٠ منتجات دفاعية بقيمة ٣١ مليون دولار لآسيا وأفريقيا... شرح لي خسروي الأمر بهدوء... إنه رجل صغير الحجم من وزارة الدفاع الإيرانية، ملتحٍ وعلى وجهه تعبير جدّي.. فقدت عائلته شهداء في حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ مع العراق.. أخذ نصف دقيقة للتفكير في كل سؤال قبل الإجابة بأن «معدّات الدفاع في مجالات إنتاجنا هي ملك للدول الإسلامية ونحن هنا لإقامة تعاون مشترك معها». لكنه أضاف بسرعة أن مبيعات إيران تخضع لقوانين واضحة طبقاً لشرعة الأمم المتحدة في مراقبة التصدير. ومرّة أخرى، جاءت الليدي بريتومار للإنقاذ. وعلى أيّة حال، فإن أكثر من ٦٠ في المئة من مقدرة إيران العسكرية تحوّلت نحو الإنتاج المدني.

كنت أعرف ذلك كلّه. ما أردت سماعه كان حول لا أخلاقية صناعة الأسلحة. بدا مرتضى خسروي مُرتبكاً. ألم يكن السؤال واضحاً؟ قال: «هناك غايتان رئيسيّتان لصناعة الأسلحة. البعض يوجّهها للعدوان والبعض الآخر للدفاع عن النفس.. وهذه الأخيرة هي وضعية حكومتنا. إننا ننتج أسلحة للدفاع عن النفس ولحماية بلدنا فقط.. كنّا بلداً مسالماً فغزانا الآخرون، وكانت عندنا ثماني سنوات من «الحرب المفروضة». كانت السياسة الوحيدة لقوّاتنا في ذلك الوقت هي الدفاع عن حدودنا وبلدنا. واعتمدنا دائماً سياسة الدفاع عن أنفسنا». كانت هناك استراحة أخرى. ثم نطق خسروي بالكلمات ـ اللازمة لكل بائع سلاح: «في الواقع يجب على كل إنسان حماية نفسه».

كنت قد سمعت الشيء نفسه من ديريك توربول، ومن ميخائيل كلاشينكوف، ومن جون هيرست: لو كان

العالم مليئاً بأشخاص خيّرين يفعلون أموراً حضارية.. يريدنا الله أن ندافع عن أنفسنا... ولد الإنسان للدفاع عن عائلته.. حماية.. احترام.. ثقة.. تاريخ.. أبديّة. بدا أنه لا فائدة من الإصغاء لهذه الكلمات بعد الآن. إنها لا تنتهي، لا تُجادَل، مستحيلة. الآن تطوّر صانعو الأسلحة بالطبع. يبيع تجّار الموتِ الموتَ على شكل حماية، القتل للدفاع عن النفس، كمشيئة الله، مصير البشر، واجب وطني. وتأتي الفواتير الإنسانية والمالية لاحقاً. ونحن البشر المساكين، «محرّكو الأهداف» أشخاص خائفون يحتالون بأحاديث التهديدات والعدوان... الخطر موجود في داخلنا بالتأكيد حيثما نسافر عبر العالم. إنها مهمّتنا «أن تركب إلى أعلى وإلى أسفل بحسب الطلب وحتى تصيبك الطلقة».

هكذا يشعر الفلسطينيون... بعد شهر تقريباً من محادثتي مع جون هيرست، كنت في بيت لحم في الضفّة الغربيّة المحتلّة حيث قدّم لوكهيد مارتن من فلوريدا والمختبرات الفيديرالية من بنسيلفانيا مساهمة للحياة في البلديّة المحلّية. أو ـ في حالة لوكهيد ـ الموت. وجدت أن قطع صواريخ هيلفاير محفوظة في أكياس في مقرّ قيادة الدفاع المدني كبرهان على الموت العنيف لأسامة خرابي ابن الثامنة عشرة. فمنذ نحو شهرين انفجر صاروخ هيلفاير في غرفة جلوسه وأدّى إلى مقتله على الفور. وقد أُخرجت الصواريخ وأنابيب الوقود وأوراق نظام التفخيخ في أكياس بلاستيكية من قِبل سائقي سيّارات إسعاف وممرّضين، مع عشرات الشظايا صناعة أميركية للقنابل التي أطلقتها الدبّابات الإسرائيلية في بيت جالا في الهجوم على القرية المسيحية التي قال جيم هيرست إنه لم يسمع بها. ويستطيع الفلسطينيون قراءة دليل الأسلحة الأميركية المنشأ لكنهم غير قادرين على تحديد هويّة الصواريخ والقذائف المستخدمة حاليّاً. وقد قال لي أحد سائقي سيّارات الإسعاف صباح يوم سبت ممطر بينما كنت أفتّش كيس قطع صاروخ معدنية وشظايا في مكتبه في بيت لحم: «نحن عمّال إغاثة ولسنا علماء».

كان استخدام الأسلحة الأميركية ضدّ العرب من قِبل إسرائيل أحد المصادر الأكثر إثارة للغضب في الشرق الأوسط.. ولذا فإن عملية سرد وقائع استخدامها هي بمقدار أهمّية النزاع السياسي بين إسرائيل وأعدائها. إذ إن ادّعاء واشنطن بأنها «شريك محايد» في مفاوضات الشرق الأوسط في حين أنها تدعم طرفاً واحداً ـ إسرائيل ـ بكل احتياجاته، هو شيء.. وشيء آخر أن تحمل الأسلحة التي استخدمتها إسرائيل لفرض إرادتها (أسلحة تقتل وتمزّق العرب) الدليلَ المنقوش لمصنعها في الولايات المتحدة. حتى قذائف الغاز التي يطلقها الإسرائيليون على الفلسطينيين في بيت لحم هي أميركية الصنع. وقد أعلن الفلسطينيون لأسباب وجيهة أن الغاز المستخدم سبّب مصاعب في التنفّس بين الأطفال بعد إطلاق القذائف على أطفال الحجارة قرب قبر راشيل. كان مكتوباً على القذائف وحاويات الغاز «المختبرات الفيديرالية، سالتزبورغ ـ بنسلفانيا ١٥٦٨١»، ومذكوراً على المعدن أنها لقاذفات «طويلة المدى ١٥٠ ياردة».. وتحوي القذائف بحسب تعليمات صانعيها الأميركيين كما قرأت على جانبها «غازاً مسيلاً للدموع يسبّب حساسية عالية في العيون والأنف والجلد وجهاز التنفّس، وإذا تعرّضت لها لا تفرك عينيك واطلب مساعدة طبيّة فوراً»(*).

(*) كان الفلسطينيون لا يزالون يحاولون اكتشاف طبيعة المقذوف الغازي المستخدم الآن بانتظام من قِبل الإسرائيليين والذي يحتوي على ما أسموه «الدهان البنّي». كان المتظاهرون الفلسطينيون يخشونه بشكل واضح. وتمّ وصفه على أنه أكثر تأثيراً من الغاز المصنوع في مختبرات بنسيلفانيا الفيديرالية. على الأقلّ كانت إحدى قذائف «الدهان البنّي» التي تفحّصتها بنفسي في بيت لحم مغطّاة بعلامات عبرية وتحمل الرمز ٣٢٣ ـ ١ ـ ٩٩. ولم يظهر أنها من صُنع أميركي.

خلال عام ٢٠٠١، كانت طواقم الدبّابات الإسرائيلية تطلق قذائف مدفعية على بيت جالا بشكل روتيني عندما كان المسلّحون الفلسطينيون يطلقون رشقات كلاشينكوف.. (أجل اختراع البطل العجوز، البالغ من العمر ٨١ عاماً، لحزب العمال السوفياتي ميخائيل كلاشينكوف)... من قرية بيت جالا على مستوطنة جيلو اليهودية المجاورة.. وكانت معظم قذائف الدبّابة التي تحمل مقذوفاً أميركياً عليها علامات: UZE P18D M 549 A CO 914 H014-014. وقد قتلت إحدى هذه القذائف في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ الدكتور هارالد فيشر وهو مواطن ألماني كان يعيش في بيت جالا.

كانت القذيفة الصاروخية لوكهيد هيلفاير Lockheed Hellfire التي أصابت منزل أسامة خرابي في شباط ٢٠٠١ تحمل الرقم المتسلسل «١٨٩ ٧٦ ـ ١٣٣٤٩٨٧ DMW90E003-007» ورقم المجموعة (أي مجموعة الصواريخ التي تنتمي إليها) ٤٨١. وكان الرقم المتسلسل المكتوب على قطعة معدنية صغيرة على رأس محرّك الصاروخ هو «١٢٩٠٣ ـ ٩٢٢٥١٥٨ MFR-5S443». وكان مكتوباً على القبّة الصغيرة الثقيلة الأسطوانية التي تأتي من المقذوف نفسه «بطّارية حرارية» وكانت تحمل الرقم "P\N 10217556 E- W62, Lot No. EPH2-111"، تاريخ الصنع «٠٨٧٧٦، MFG code 81855» وقد حملت الأرقام المتسلسلة الأحرف "U.S". وكانت أجزاء أخرى من الصاروخ تتضمّن قطعاً متضرّرة من جانح مركّب وكمّية من الأسلاك. كان الهجوم الصاروخي وفقاً للإسرائيليين «ضربة وقائية» ضدّ القرية، مع أن السيد خرابي لم يكن مقاتلاً وكان طموحه الوحيد الانضمام إلى مشروع مسرح بيت جالا. وقد استخدم الإسرائيليون طائرات هيلكوبتر أباتشي لإطلاق صواريخهم على بيت جالا في ستّ مناسبات، بما فيها المرّة التي قُتل فيها السيد خرابي.. وطائرات الأباتشي مصنوعة من قِبل لوكهيد في مصنعها الضخم للأسلحة في أورلاندو، فلوريدا، وهي موطن صواريخ ١ هيلفاير ١ و٢. ويرفض صانعو الأسلحة الأميركيون بشكل روتيني أي لوم بالنسبة إلى النتائج الدموية لاستخدام أسلحتهم. وقد وجدت أن قذائف الغاز بنسيلفانيا Pennsylvania التي استخدمها الإسرائيليون في بيت لحم تحمل تنبيهاً رسمياً إلى عدم تحمّلها أية مسؤولية. وتقول الملاحظة على القذيفة: «لا تتحمّل المختبرات الفيديرالية مسؤولية أي سوء استخدام للجهاز».

إن سوق السلاح العالمية غير أخلاقية ومخيّبة للآمال وقاتلة بالفعل، وهي رغم ذلك حيوان يصبح من أجل الدعاية والسرّية معاً. إنها تحتاج إلى البيع بقدر ما تحتاج إلى التكتّم وإلى جني المليارات من العرب بينما تتجنّب في الوقت نفسه أيّة إشارة إلى الدماء والرؤوس التي ستُسحق على الرمال كنتيجة لعملها. لدى تكتّل جيات Giat وداسّو للأسلحة الفرنسية إضافة إلى لوكهيد مارتن مراكز محلّية في بنايات المكاتب اللامعة في أبوظبي. ولدى الوسطاء أيضاً ـ عرب، وإسرائيليين، وألمان، وأميركيين، وإنكليز ـ ميل غريب للتودّد إلى الصحافة، ولكشف صفاتهم الإجرامية والتبجّح بقسوتهم والحاجة إليهم في عالم غير أخلاقي. أعتقد أحياناً أنهم يريدون استخدام الصحفيين كراسيّ اعتراف.

ربّما لهذا السبب أمضيت سنوات أحقّق بشكل جماعي في الطرق التي أنتجنا بها نحن، الأميركيين

والأوروبيين، (بمن فيهم الروس)، أي الغرب بالمعنى الأكثر كرماً للكلمة، معدّات القتل للذين يعيشون في الشرق الأوسط. لم نفكر ولو مرّة كيف يمكن للعرب المسلمين الردّ على هذه التجارة الشرّيرة وغير العاديّة للأسلحة.. كيف سيحاولون الانتقام لأنفسهم منّا، ليس على أرضهم بل على أرضنا. خلال الحرب الأهلية اللبنانية حاولت جاهداً ربط الضحيّة بالقاتل... حتى إنني كنت أحياناً أتجوّل في أنحاء بيروت للعثور على القنّاص أو المسلّح الذي مزّق رجلاً أو امرأة. حين كنت في شرق بيروت، واجهت رجلاً من ميليشيا الكتائب المسيحية التي كانت قد أطلقت، بحسب قناعتي، قذيفة هاون قتلت شابّة في شارع في بيروت الغربية. وقد رفض هذا الرجل التحدّث معي. لذلك بحثت عن تجّار الأسلحة الذين جعلوا هذا القتل ممكناً. وسعيت أكثر من أي شيء آخر لمواجهة صانعي الأسلحة بالدليل الكلّي والقاطع بأن سلاحهم الخاصّ هو الذي قتل البريئة. كانت رحلة أخذت مني عشرات الآلاف من الكيلومترات خلال عشر سنوات.... إلى الخليج، وإيران، وفلسطين، وإسرائيل، وألمانيا، والنمسا، والولايات المتحدة.... كانت مهمّة مثقلة بالهموم ومُحبطة... إذ كلّما كنت أعرف أموراً جديدة، بدت لي مأساة الشرق الأوسط يائسة لا أمل فيها. أن تكون هناك دول مرتشية ترسل منتجاتها القاتلة إلى مسلمي العالم وإسرائيل شيء، وأن تشاهد هذه الدول الشرق أوسطية نفسها تناشد وتتباكى وتبذّر ثرواتها لشراء هذه الأسلحة نفسها شيء آخر.

في يوم شتائيّ بارد من عام ١٩٨٧، بينما كانت حرب إيران الرهيبة تدخل آخر وأكثر مراحلها عنفاً، وصلت إلى محطّة القطار في كولونيا في ألمانيا لمقابلة بائع أسلحة كان يعرف الكثير عن أكثر نزاعات الشرق الأوسط كلفة. كان الرجل سميناً يضع نظّارة، وهو تاجر أسلحة عمل عدّة مرّات كوسيط بين الحكومة الأميركية ونظام صدّام حسين في العراق. جلس في مكتبه مع ابتسامة عريضة على وجهه مصرّاً على أنه يجب أن يظلّ مجهولاً إلا إذا كنت أرغب أن أتحمّل مسؤولية قتله. سألته هل صحيح أنه سلّم معلومات السي آي أي عن الجيش الإيراني للحكومة العراقية؟ ضحك طويلاً وبعمق ربّما لأكثر من ثلاثين ثانية قبل أن يعترف بكل شيء. «سيّد فيسك، سأقول لك ذلك. في بداية الحرب، في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ دعيت للذهاب إلى البنتاغون وهناك أعطوني آخر صور الأقمار الصناعية الأميركية عن خطوط الجبهة الإيرانية. تستطيع رؤية كل شيء في الصور. كانت هناك مواقع المدفعية الإيرانية في عبدان وخلف خرمشهر، وخطوط الخنادق على الجهة الشرقية لنهر قارون، واستحكامات الدبّابات، آلاف منها على طول الجانب الإيراني من الحدود حتى كردستان. لا يرغب أي جيش في أكثر من ذلك. سافرت مع هذه الخرائط جوّاً من واشنطن إلى فرانكفورت ومن فرانكفورت على الخطوط الجوّية العراقية إلى بغداد. كان العراقيون شاكرين جدّاً!».

بدا الألمان ميّالين إلى لعب هذه الألعاب المغشوشة. لعدّة شهور من منتصف الثمانينيّات حتى أواخرها، حقّقت في تجارة الأسلحة الشرق أوسطية ووجدت نفسي أعود دائماً إلى تلك الحقبة من ماضي أوروبا المظلم... وكنت أقتفي الأثر عبر الوديان المغطّاة بالثلج في قطارات ألمانيا الكبيرة، ومعي حقيبتي المكتظّة بدفاتر ملاحظاتي وملفّاتي المتضمّنة متطلّبات إيران الكاملة من الأسلحة للعامين ١٩٨٧ و١٩٨٨ وما بعدهما ـ أي لسنوات عديدة من الحرب ضدّ العراق التي ما لبثت أن انتهت بعد حوالي ١٢ شهراً.

في صقيع عام ١٩٨٧، حملني أحد هذه القطارات الطويلة إلى كونيغسوينتر Konigswinter وكان ينتظرني في المحطة سائق مع سيّارة ليموزين دافئة ليأخذني إلى شلوس Schloss حيث يساعد «عنكبوت بون» في تغيير الخارطة العسكرية للشرق الأوسط. كان جيرهارد مارتينس يدخّن سيكاراً كوبيّاً طويلاً وسميكاً وبدا كأنه تاجر أسلحة.. وهو دور يلعبه بدقّة واحتراف، لأنه حقيقي. لا أثر لأيّة شكوك، لأيّة ثقة مفقودة، لأيّ غموض أخلاقي، في مشيته الواثقة وهو يدخل إلى مكتبه في كونيغسوينتر. . . كان الثلج يتساقط بغزارة وبشكل مريح خارج النافذة. سألني بينما كان يزيل الثلج عن سترته: «أحبّ هذا النوع من الطقس، ألا تحبّه أنت أيضاً؟».

رنّ جرس الهاتف وتكلّم الهر مارتينس بانتباه عبر السماعة. قال بنفاد صبر: «علينا معرفة احتياجات جنرالاتك». ثم وضع السمّاعة مع ضحكة هادئة، وتظاهر بالصراحة. «كان ذلك الاتصال من الجيش القبرصي اليوناني.. إنهم مهتمّون بالأسلحة الجديدة المضادّة للطائرات والألغام بالنسبة إلى موانئهم. سجّل كلماتي، هناك شيء يُعدّ في جزيرة قبرص». ثم ضحك مجدّداً.. إنه رجل مطّلع، غير مصدوم بمظالم الحرب. وعندما سألت الهر مارتينس لمن يبيع الأسلحة، سعل معترضاً على المهانة التي وجّهتها إليه بسبب طرحي هذا السؤال: «إذا سمحت لي، أعتقد أن هذا سؤال سخيف جدّاً».

نفث دُخان سيجاره بقوّة ثم حرّك يده الى الأمام واستخدمها ليصف دائرة بيضاوية شبه بهلوانية ارتسمت أمامي. «دعني أخبرك بصراحة. أنا حصان العرب. لِمَ لا؟ أنت تعلم، عندي مبادئ. أنا لا أقوم بذلك للاستفادة. أجل، تُقال أشياء عنّي، في المكسيك كتبت صحيفة أكسليور أنني كنت نازيّاً ورجل مخابرات SS وصديق كلاوس باربي «سفّاح ليون». لم أقابل هذا الرجل أبداً. لكنهم شعروا في مكسيكو بأن عليهم ترحيلي». لدى الهر مارتينس مكاتب في جدّة والرياض وهو لا يحتاج إلى تأشيرة لدخول السعودية.. وقد عرض لي صورة له يقف فيها مع مشايخ الخليج. قال إنه يحزن على بيروت القديمة، المدينة المدمّرة في الحرب الأهلية التي ما زالت تقطع لبنان إلى أجزاء.. وكان حزنه يليق بالأغنياء... «عندي ذكريات محبّبة لمطعم لو كوللوس. لقد دُمّر؟ مؤسف جداً. مدينة جميلة.. أمر محزن جدّاً»... لقد دُمّرت بيروت بالأسلحة، أي بالقنابل والألغام والمدفعية والقاذفات والمقاتلات والرصاص... ولكن لا يوجد ما يشير إلى تأثّر ذاكرة الهر مرتينس بهذا الأمر. . .

بدأ يتحمّس وهو يعرض موضوعه. «لم أقم بأي عمل في حياتي من أجل المال فقط. لدينا الكثير من المشاكل في الوقت الحاضر... الناس يعتقدون أنني مثل عدنان خاشقجي». لاحقَت فضيحة إيران/ الكونترا تجّار السلاح في أوروبا بطريقة غير عادلة في نظرهم، وذلك لأن تورّط أميركا في قضيّة الأسلحة مع إيران كان مشكلة تافهة نسبيّاً، عبارة عن عملية على مستوى صغير تمّت بدون مشورة مهنية وبدون سرّية، استخدموا فيها وسطاء إيرانيين من الذين لا يدعوهم مزوّدو السلاح الحقيقيين إلى مكاتبهم ناهيك بدعوتهم إلى بيوتهم. ليس التمييز بين تجّار السلاح والوسطاء عملية سهلة. في بعض الحالات حيث تفرض دولة تاجر السلاح قوانين صارمة على تصدير السلاح، يصبح التاجر وسيطاً ينقل لوائح العروض إلى تجّار في دول أخرى ليست لديها قوانين مستقيمة حول طريقة تصدير

السلاح. وعندما دخل وطنيون آخرون كمموّلين، أصبح النظام أكثر تعقيداً. وحين كان الكولونيل أوليفر نورث ينظّم عمليّة الأسلحة مقابل الرهائن مع الإيرانيين (على سبيل المثال)، كان الوسيط مانوشهر غوربانيفار يلعب الدور الرسمي للوسيط الإيراني الذي رتّب زيارة روبرت ماكفرلين السرّية إلى طهران في أيار/مايو ١٩٨٦. وكان عدنان خاشقجي السعودي هو المموّل الذي قامت أمواله بتحريك عملية انتقال الأسلحة. وكانت الولايات المتّحدة هي التاجر (والمزوّد) في هذه الحالة، أو الكولونيل نورث... والأمر هنا يتوقّف على وجهة نظرك...

يحبّ تجّار الأسلحة أن يكونوا مقرّبين من حكومتهم الوطنية.. والهر مارتينس لا يختلف عنهم. يلعب وزراء الحكومة الألمانية في ملاعب التنس الخاصّة به. ويشير عملاء الجمارك الأميركيون في بون إليه (ليس بشكل لطيف كلّياً) على أنه «عنكبوت بون». وفي مطعم عمله النظيف، يرحَّب به بمحبّة من قِبل موظّفيه.. إنه أندرو أندرشافت حقيقي ـ مع أنه لا يحبّ هذه المقارنة... وهو فخور جدّاً بعائلته وبخاصّة زوجة ابنه الجديدة الأميركية الجنسية. وقد صرّح لي أثناء غداء عائلي في مطعم الشركة: «سيّد فيسك، عليك شرب الشاي كما يجب أن يُشرب، مع الروم». شرب لفترة طويلة قبل الغداء. «لماذا يقول الناس هذه الأشياء الغبيّة عنّي؟» أتعرف! لقد قرأت كلّ الكتب المقدّسة: التلمود، الإنجيل، القرآن». وسأل لاحقاً بفصاحة: «أتعرف المشكلة في ألمانيا اليوم؟ لقد فقدت ألمانيا مشاعرها الوطنية». انقبضت لهذا الكلام.

قديماً، في عام ١٩٦٥، فاجأ الهر مارتينس عدّة دول بعد نشوب الحرب الهندية ـ الباكستانية. فقد حظرت الولايات المتّحدة الأميركية إمدادات الأسلحة... مع أن كينيث غالبريث، السفير الأميركي السابق في الهند، أعلن لاحقاً أن إمدادات الأسلحة الأميركية هي التي تسبّبت بهذه الحرب. وما زال الهر مارتينس فخوراً بدوره في هذه القضية. لقد عمل كوسيط لتصدير ٩٠ طائرة مقاتلة ف١٦ إلى باكستان بحجّة إرسالها إلى إيران. «وضعنا علامات إيرانية على الأجنحة وطارت الطائرات عبر طهران في عمليّة جوّية.. وكنت أقف بجانب السفراء الغربيين وقلت: «أترون، هذه هي الطائرات التي ادّعيتم أنني أرسلتها إلى باكستان». لكن بعدها عادت الطائرات إلى قاعدتها الجوّية الإيرانية حيث جرى تغيير العلامات وعادت إلى باكستان مجدّداً.. صفّق الهر مارتينس بيديه: «أترى! إنها قضية علم لدائنيّ ألماني محض»... لكنّ كلّ ذلك كان مقدّمة مسرحية للحرب الحقيقية الدائرة حاليّاً. فالهر مارتينس، مثل زملائه في أماكن أخرى كألمانيا والنمسا، لديه فكرة واضحة عمّا يجري في وزارة الدفاع الإيرانية. فقد أصبح الإيرانيون مفتونين بالأسلحة السوفياتية الرخيصة بعدما وقّعوا اتفاقاً مع موسكو لتصدير الغاز الإيراني. «اشتروا معدّات روسية كثيرة ـ مدافع ١٢٢ ملم و١٣٠ ملم ومدافع رشّاشة مضادّة للطائرات من عيار ١٢,٧ و١٤,٥ ملم. وحاولوا الحصول على كمّيات كبيرة من المعدّات نفسها من الصين ـ سافر الإيرانيون إلى بكّين لمناقشة ذلك، لكن الصين أرادت أن تكون دولة وسيطة، ولم تشأ أن تكون في المقدّمة. عندها أصبحت القوّات المسلّحة الإيرانية غير سعيدة بالمعدّات التي تحصل عليها».

إن رواية تجارة الأسلحة لإيران معقّدة ومخيفة وهي شملت إسرائيل وكذلك الغرب. وقد وافق أحد زملاء الهر مارتينس، وهو شاب ذكي يتكلّم الإنكليزية بطلاقة، على شرح الأمر شرط إغفال هويّته. أحضر إلى مكتب مارتينس ملفّاً كبيراً قدّمه لي. فتحت الملفّ الأزرق ووجدت آلاف الطلبات من الحكومة الإيرانية لشراء السلاح: مدافع

هاون، ذخائر مدفعية، طلقات وقطع غيار للمقاتلات الأميركية الصنع. قال الرجل: «كان الروس يبيعون العراقيين معدّات أفضل من تلك المبيعة للإيرانيين.. وقد عرف الإيرانيون ذلك. وكانت أوّل طائرة إسرائيلية تطير إلى إيران قد هبطت في شيراز حاملة ١٢٥٠ صاروخ تاو بسعر ٢٧٠٠ دولار للواحد. كان السعر غالياً والمعدّات قديمة.. لذلك اتّجه الإيرانيون إلى دول أخرى. وراحوا يبحثون عن مدافع ١٥٥ ملم فاتصلوا بشركة Voest Canonen النمساوية، وكانوا يحبّون مدافع ١٠٥ ملم و١٥٥ ملم التي تصنع في نيويورك. وقد أوقفت الإدارة الأميركية ـ ريتشارد بيرل في الواقع ـ الاتفاقية. لذلك أصبح الإيرانيون مهتمّين بشركة هلسنكي التي كانت تبيع مدافع هاون ٦٠ملم و٨١ ملم و١٢٠ملم.

وينظر مارتينس إلى فضيحة إيران ـ غيت برمّتها باحتقار. قال: «من السهل فهم الإيرانيين. لدى العراقيين طائرات ميغ ٢٥ Foxbat وكانت تلقي قنابل على طهران من ارتفاع شاهق. وكان محرجاً جدّاً لرجال الدين أن لا يكون لديهم شيء لإسقاط "Foxbat". لذلك كانوا بحاجة إلى صواريخ جوّ ـ جوّ لطائراتهم ف ١٤. عليك أن تتفهّم حاجتهم والطريقة التي سيلبّيها الآخرون لهم بدون أخلاق أو مبادئ ـ سوف يتعاملون مع الشيطان. أما بالنسبة إلى الإيرانيين، فقد كان مع كل واحد منهم رسالة اعتماد تبدأ بالكلمات التالية: «أنا قريب الخميني». واعتقد الأميركيون الذين استخدموا الإسرائيليين لعمليات الشحن الأولى إلى إيران أنهم نجحوا في مزج الأسلحة بالمبادئ ـ ألم يكونوا في كل الأحوال يسعون لتحرير المواطنين الأميركيين الأبرياء المخطوفين في لبنان؟ رغم أنه من المفيد أن نلاحظ هنا أن الإدارة الأميركية اعتقدت بأن الإيرانيين يحتاجون بناء على تقرير لجنة تاور إلى صواريخ هوك أرض ـ جوّ لإسقاط طائرات الاستطلاع العالية التي كان يقودها طيّارون سوفيات من روسيا مسافة ٦٥ كلم داخل المجال الجوّي الإيراني. لم يكن لدى الهر مارتينس مثل هذه الأوهام. كلّ ما كان الإيرانيون يريدونه هو إسقاط الطائرات العراقية.

والحال فإن صفقة إيران ـ الكونترا (التي تضمّنت: ٢٠٨٦ صاروخ تاو مضادّ للدبّابات وطائرة محمّلة بقطع غيار لطائرة ف٤ F4 بيعت لإيران بسعر ٣٠ مليون دولار فقط) قد سلّطت الضوء على صفقات الأسلحة الدولية الضخمة المعقودة بموافقة شعبية أو بتغاضي أصدقاء أميركا وأعدائها معاً. في شهادته أمام الكونغرس حاول ماكفرلين إخفاء هويّة الدولة الشرق أوسطية التي وافقت على وضع اسمها على شهادة مستخدم نهائي للأسلحة المبيعة. ولكن كان تجّار الأسلحة العاملون خارج ألمانيا يدفعون في عام ١٩٨٧ مئة ألف دولار لشهادات المستخدم النهائي من العالم الثالث، وهي الدليل «الموثّق» الذي يتمّ الحصول عليه من صانعي الأسلحة لإثبات أن حكوماتهم تمتلك عقد تصدير قانوني. في مكان ما بين مصانع السلاح الدولية وبيروقراطية التصدير الموثّق والجرح الإنساني غموض أخلاقي أو غير أخلاقي(*). لقد تفاخر أندرشافت بأنه لم يكن «أحد هؤلاء الرجال الذين حافظوا

(*) خلال التحقيقات التي قمت بها، قُدّمت إليّ شهادة «مستخدم نهائي»، أصليّة، من دولة عُمان في الخليج موقّعة من السلطات. لو أنني رغبت في شحن أسلحة إلى الشرق الأوسط، لكان عليّ فقط تعبئة الورقة بالأسلحة التي أختارها للشحن لتكون «قانونية».

على مبادئهم وعلى أعمالهم في مقصورات مياه مغلقة». لكنّ الدبلوماسيين لا يشاطرونه هذه الصراحة المريحة. ففي عام ١٩٨٧، كان المسؤولون الأميركيون والسوفيات ينتحبون أسبوعياً على الخسائر البشرية للحرب العراقية الإيرانية بينما كانت أسلحتهم مستمرّة بالتدفّق إلى جبهات القتال. وقد كرّرت حكومات أوروبا مراراً التأكيد على حيادها في الصراع وعلى تصميمها ورغبتها غير التجارية في رؤية هذا الصراع ينتهي سريعاً وبشكل عادل.

لكن إيران، التي كانت مؤسّستها العسكرية مقاطَعة (على ما يُقال) من قِبل هذا العالم المستهجَن، كانت تنفق آنذاك ٢٥٠ مليون دولار شهرياً على الأسلحة. ولم يكن لدى تجّار الأسلحة الألمان والنمساويين أيّة أوهام حول معنى ذلك. وهم ادّعوا بأن هذه الأموال أُنفقت بمساعدة فعلية أو غير فاعلة من قِبل حكومات كلّ من: الاتحاد السوفياتي، الصين، بريطانيا، إيطاليا، إسبانيا، تشيكوسلوفاكيا، اليونان، كوريا الشمالية، كوريا الجنوبية، تايوان، الأرجنتين، باكستان، دُبي، سوريا، ليبيا، ألمانيا الشرقية، اليابان، البرازيل، هولندا، إسرائيل، البرتغال، الهند، السعودية.... ثم أضافوا بلجيكا كملتحق متأخّر بالنادي مع أربع شحنات أسلحة من مدينة أنتويرب إلى بندر عباس عام ١٩٨٦.

عندما دخلت الحرب مرحلتها النهائية، حاول الإيرانيون، يائسين، إعادة بناء جهود المشتريات الخاصّة بهم... فقد ورثوا أكثر من ألف طائرة هيلكوبتر من عهد الشاه... لكن عندما بدأت الحرب لم يكن لديهم سوى ٢٥٠ طائرة كوبرا مسلّحة عاملة. وبحلول عام ١٩٨٧، كانت ثلاثون منها فقط قادرة على الطيران. وكان الإيرانيون أكثر ابتكاراً من العراقيين ولذا فقد حاولوا الارتجال من خلال طلب قطع غيار لطائرات الهليكوبتر الأميركية الصنع والطائرات المقاتلة ـ قطع غيار مشابهة بدقّة للقطع الأصلية الأميركية التي منعت العقوبات إيران من الحصول عليها ـ من صانعي المعادن المحلّيين في البازار. لكن كان هناك الكثير من أنواع الكبريت في الحديد الإيراني وقد استخدموا الخلطة الكيميائية الخطأ... فتحطّم المعدن تحت ضغط الطيران وخسرت إيران العديد من طيّاريها عندما تحطّمت طائراتهم في الجوّ.

كان الإيرانيون يمتلكون أيضاً لوائح مفصّلة لشحنات الأسلحة الأجنبية إلى العراق، وهذه اللوائح هي دليل على الكفاءة العالية للقدرات التجارية لدى صانعي الأسلحة العالميّين. وتعطي عيّنة مختارة من مُشتريات العراق صورة تقريبية عن تلك اللوائح: دبّابات قتالية من بريطانيا (١٩٨٣)، ستّ قاذفات ـ مقاتلة سوبر إيتاندار من فرنسا (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣)، صواريخ SS-12 من الاتحاد السوفياتي (في أيار/مايو ١٩٨٤)، قواعد إطلاق صواريخ متعدّدة الفوّهات من البرازيل (حزيران/يونيو ١٩٨٤)، قنابل انشطارية ٥٠٠ ليبرة من تشيلي (جاءت من سانتياغو على متن طائرة عراقية ٧٤٧ عام ١٩٨٤). في أيلول/سبتمبر ١٩٨١ أعلن داسّو بيع ٢٤ طائرة ميراج F-1 مقاتلة إلى العراق يتمّ تسليمها خلال ١٨ شهراً. وقد بيعت هذه الأنظمة التسليحية وفق «عقود تسليح موجودة أصلاً» (وهذه جُملة موسكو المفضّلة لاستمرار الشحنات لمشترٍ مريح مثل العراق) على قاعدة أن مصداقية البلد البائع سوف تتضرّر إذا تراجع «عن عقد موقّع معتذراً بأن زبونه غزا لاحقاً بلداً آخر». وحملت عقود أخرى ملاحظة خاصّة تؤكّد براءة الطرف البائع.

عام ١٩٨٦، على سبيل المثال، وافقت شركة PLESSEY البريطانية على عقد بقيمة ٣٨٨ مليون دولار لتزويد إيران بالرادارات، وهي معدّات سوف تُستخدم بحسب التعهّد المقدّم للبريطانيين على الجبهة الإيرانية مع أفغانستان المحتلّة والاتحاد السوفياتي. ولدى السؤال كيف تستطيع الحكومة البريطانية التأكّد أن الرادار لن يستخدم على الجبهة الإيرانية الغربية في عمليات عسكرية ضدّ العراق، أبلغني مسؤول في وزارة الدفاع في لندن «الدينا دبلوماسيون في طهران يستطيعون الذهاب والتأكّد من ذلك». لكن ذلك لم يكن صحيحاً. فقد تقلّص الوجود الدبلوماسي البريطاني في إيران إلى مكتب رعاية مصالح في السفارة السويدية... وعندما حقّقت في طهران حول حرّية حركة المسؤولين الإنكليز في إيران، اكتشفت أن الإيرانيين كانوا متشدّدين إلى درجة رفضهم طلب دبلوماسي كبير لزيارة بحر قزوين، وهي منطقة غير عسكرية، لقضاء إجازة أسبوع.

بدا أن هناك تفاهماً حول هذه الأمور.... التزام غير مُعلن من قِبل كلّ الأطراف بعدم التدخّل في الشؤون الشخصية لتجّار الأسلحة أو المشترين أو في شوؤن أمبراطورية الأسلحة التي تحتاج إلى السرّية بُغية تأمين الطلب، وإلى الحرب بُغية استمرار النموّ. إن أمثال أندرشافت من المعاصرين، سوف يتحدّثون فقط عن الأسواق المنافسة وعن الأخطاء.. وسوف يكشفون فقط عن عروض خصومهم. إنه عالم غريب من الأوراق ولوائح الطلبات المرسلة تحويلاً من عدد كبير من المسؤولين في وزارات (دائماً: الدفاع وهي كلمة يبدو لفظها شنيعاً كخطّ يدهم في بعض الأحيان).

وقد عُرضت علّي لاحقاً لائحة طلبات إيرانية من عشر صفحات لمعدّات حربية، كانت أرسلت إلى تجّار أسلحة نمساويين تطلب منهم قطع غيار محدّدة للدبّابات الروسية من هياكل مشبكة إلى عدسات من الدرجة الثالثة والرابعة مع إطاراتها، ومن مناظير مقرّبة للرؤية إلى مصابيح للرأس مهمّتها تحديد الإحداثيات، إلى أبراج متحرّكة. كان المستند بالياً حيث أن الفقرة التي تضمّ عدد قطع الغيار المطلوبة كانت موضوعة عن طريق الخطأ في خانة عدد الوحدات ثم مشطوبة بشكل سيّىء بعدها.

وإذ تضيع بين جهود جماعة الأسلحة وحججهم وبين حماقاتهم ومشاكلهم العويصة، هناك طابع غير ضارّ لهذه اللوائح حين تجعلك تظنّ كما لو أن الحروب الشرق أوسطية تُخاض عبر وكالات التسليح أو صانعي الأسلحة عوضاً عن دول غاضبة وجنود قتلة مرعوبين.

شاهدت خلال تحقيقاتي المئات من هذه المستندات الصادرة من إيران... كانت أحياناً تحمل اسم قيادة القوّات المسلّحة الإيرانية في طهران وفي أحيان أخرى (عندما يرغب الوسيط العامل لصالح الإيرانيين أن يبقى سرّياً) كانت مطبوعة على ورقة بيضاء لا تحمل توقيعاً. بهذه الطريقة كانت آثار الدبّابات وصناديق الأسلحة وقطع غيار مكدونيل ـ دوغلاس McDonnell-Douglas تصير حرفياً الودائع السائلة لتجارة كبيرة أو مصدر مقايضة دولية: يمكنك تبادل الأسلحة مقابل المال أو النفط أو ميزات عسكرية أو حتى رهائن، ولا شيء مُستبعد حول ذلك. قبل وقت طويل من موافقة بوش على مقايضة الصواريخ بالرهائن، كانت سوريا ترسل أسلحة إلى إيران

مقابل نفط بأسعار رخيصة وأحياناً مجّاناً. وقد تراجع المستشار هيلموت شميدث عن بيع دبّابات ألمانية للسعودية وفق اتفاق مقايضة نفطية كان من شأنه أن يكلّف ألمانيا مع هبوط أسعار النفط أكثر مما تدفع عادة للنفط. وعندما استولت قوّات صدّام حسين في الأشهر الأولى لغزو إيران عام ١٩٨٠ على العشرات من دبّابات تشيفتن البريطانية غير متضرّرة من العدوّ، فإنهم رغبوا بشكل طبيعي في إعادة استخدامها ضدّ إيران... إلا أنهم كانوا غير قادرين على استخدام أو صيانة مثل هذه الدبّابة المتطوّرة. ولذلك نُقلت الدبّابات إلى الأردنّ حيث أصبحت رسميّاً من ممتلكات القوّات المسلّحة الأردنيّة... وقد تمّ إصلاحها وإعادة تأهيلها من قِبل تقنيين بريطانيين. على الأقلّ هناك صانع أسلحة بريطاني يعتقد أن الدبّابات أعيدت إلى بغداد سرّاً لاستخدامها في الحرب، لكنّ خبراء عسكريين إسرائيليين قالوا لاحقاً إنها ظلّت في الأردنّ كهديّة تعبيراً عن الشكر لكرم الملك حسين بالسماح للعراق بشحن إمداداته السوفياتية من الأسلحة عبر ميناء العقبة الأردني.

من جهتها، حافظت السلطات البريطانية على تكتّم مميّز بالنسبة إلى مبيعات الأسلحة، مصدرة لوائح سنوية حول الصادرات العسكرية من عربات مدرّعة مقاتلة، ودبّابات، ومدفعية، ومسدّسات، وقنابل وصناديق ذخيرة. لكن، بخلاف التفاصيل المتعلّقة بصادرات أخرى، لم تحدّد اللوائح البريطانية إلى أي دول بيعت الأسلحة. ذلك أن قسم التجارة والصناعة يرفض مناقشة الطلبات الفردية لشركات الأسلحة والمتعلّقة بتراخيص التصدير(*).

في تموز/يوليو ١٩٩١، أي بعد أربع سنوات من بدء التحقيقات حول تجارة الأسلحة في الشرق الأوسط، أعرب القسم البريطاني للتجارة والصناعة نفسه عن ثقته بأنه كان هناك تفسير معقول وقانوني لتراخيص التصدير مسجّل في تقرير مجلس العموم في ما يتعلّق بشحن موادّ خام للأسلحة الكيميائية إلى العراق. تضمّنت تلك الصادرات التي استمرّ بعضها حتى ٥ آب/أغسطس ١٩٩٠، أي بعد ثلاثة أيام من غزو صدّام حسين لبلد مسلم، الكويت، مستحضرَين كيميائيّيْن إذا مُزجا معاً يشكّلان غاز الخردل. وصدّرت بريطانيا إلى بغداد خلال حرب العراق مع إيران ما قيمته أكثر من ٢٠٠ ألف دولار من Thiodiglycol (وهو أحد مكوّنات غاز الخردل) وذلك حتى عام ١٩٨٨، وبقيمة ٥٠ ألف دولار في السنة التالية. وكان المكوّن الآخر Thyonyl Chloride قد أرسل أيضاً إلى العراق عام ١٩٨٨ - ١٩٨٩ وبسعر ٢٦ ألف دولار فقط. وقد سارع مسؤولون حكوميون متلهّفون لتجنّب الحقيقة الواضحة (وهي أن بريطانيا مسؤولة جزئياً عن تزويد صدّام بأسلحة الدمار الشامل) إلى التوضيح بأن ذلك المستحضر الكيميائي هو للاستخدامات المدنية. وقالوا بأنه يمكن استخدامه في صُنع حبر الأقلام أو في الصباغة الصناعية. هذه هي الإدارة الحكومية نفسها التي حظرت بعد ثماني سنوات بيع لقاح الدفتيريا لأطفال العراق على قاعدة أنه يمكن استخدامه لصنع «أسلحة الدمار الشامل».

وأشار تقرير لمجلس العموم نفسه إلى أن بريطانيا صدّرت أيضاً كمّيات قليلة من اليورانيوم والبلوتونيوم وكذلك

(*) أبلغني مايكل هيتشوك، وهو مسؤول إعلامي في القسم التجاري والصناعي عام ١٩٨٧ «أن سياستنا هي عدم مناقشة ما إذا كانت شركة ما قد التزمت أو حصلت على رخصة باعتبارها للاستخدام المدني. نستطيع مراجعة وزارة الدفاع ووزارة الخارجية إذا اقتضى الأمر.

معدّات عسكرية ومعدّات اتصالات إلى العراق. وكانت اللائحة تتضمّن أنظمة توجيه لنيران المدفعية، وعربات مدرّعة، وأجهزة حلّ الرموز، وأجهزة تعطيل. وكان على اللائحة أيضاً مركّب Zirconium الذي له تأثير الأسلحة النووية. وتصرّ تعليمات الوزارة DTI بكل جدّية على «منع تصدير أسلحة فتّاكة أو معدّات قد تعزّز القدرة العسكرية لأيّ من البلدين (العراق أو إيران)»... كانت الوزارة واثقة ثقة مطلقة بأن كل المعدّات المبيعة للعراق «كانت مطابقة للمواصفات المذكورة أعلاه».

بمثل هذه الخيانة وذاك العمل السيّىء، كيف يمكن إيقاف تجارة الأسلحة المشينة الموجّهة إلى الشرق الأوسط؟ لاحظْ كيف كانت الحكومة البريطانية واثقة ثقة مطلقة بأن صادرات غاز الخردل الكيميائي والمدرّعات وأجهزة الاتصال السرّي لن تعزّز قدرة العراق العسكرية. هذه حقيقة أن هناك كمّية كبيرة من الفضّة في الزجاج. إذا لم تكن هذه التجهيزات البريطانية لتعزّز قدرة العراق العسكرية، فقد كانت تهدف بالتأكيد إلى إعادة بناء قدرته العسكرية بعد الخسائر الجوهرية في المعدّات العراقية خلال حرب الثماني سنوات مع إيران، في الوقت المناسب لعدوان صدّام القادم على الكويت.

لاحظْ أيضاً كيف أن الاستخدام المزدوج لعذر صادرات الأسلحة انقلب خلال بضعة أشهر رأساً على عقب: حيث صار وسيلة لحرمان العراق من الاحتياجات الاجتماعية الأساسية. فحتى تاريخ ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ كان يمكن تصدير المادّة الكيميائية المستخدمة لغاز الخردل) إلى العراق، باعتبار أنها يمكن أن تُستخدم أيضاً في صناعة حبر الأقلام... وعندما فرضت الأمم المتّحدة عقوباتها على العراق بعد غزوه الكويت لم يعد ممكناً تصدير أقلام الرصاص إلى المدارس لأن الغرافيت له استخدام عسكري مزدوج. والأسباب نفسها سوف نرفض السماح للعراقيين باستيراد معدّات حيوية لإصلاح آبار النفط، ومحطّات التكرير ومحطّات معالجة المياه.

كان لهذا النوع من الهذر انعكاسه في أوساط تجّار الأسلحة. فليس لدى بعضهم سوى القليل من الكرامة. على ما اكتشفه هاملتون سبنس، المدير الإداري لشركة أنترارم Interarms في مانشستر (وهي مصدّر أسلحة بريطاني حقيقي) وذلك عندما سافر إلى بيروت عام ١٩٨٠، في ذروة تصاعد الحرب الأهلية لبيع بنادق م١٦ قانونياً للجيش الحكومي اللبناني، وكان برفقة جيم دايفيس من شركة كولت للأسلحة. قال: «جلسنا في غرفة نتحدّث إلى قائد الجيش الجنرال خوري. وعندما فُتحت الاعتمادات وجدنا هناك ثلاثة رجال آخرين، هم ألماني غربي ولبناني ورجل مجهول الجنسيّة. وقدّم الثلاثة أوراقاً ثبوتية مزيّفة تمثلهم كوكلاء لكولت Colt، لذلك نهضنا وأشرنا إليهم صارخين: «هؤلاء الناس محتالون».

بعد سنتين من المجزرة الفلسطينية على يد ميليشيا الكتائب المدعومة من الإسرائيليين، كان سبنس يراقب القوّات الإسرائيلية وهي تُخرج أسلحة منظمة التحرير الفلسطينية المدفونة في دهاليز خلف المخيّمات الفلسطينية في بيروت الغربية. قال سبنس: «وجِدت علامات أسلحة أنترارم على بعض الصناديق وكانت كلّها مزيّفة.. كان أحدهم يستخدم اسمنا». ومثل مارتينس، كان سبنس مستهزئاً بصفقة الأسلحة الأميركية مع إيران. قال: «لدى السي آي إي

قدرة فريدة لتخريب كلّ شيء». حتى الآن كان مدير سبنس، سام كامينكز، رئيس مجلس الإدارة وصاحب الأسهم الرئيسي في شركة Interarms يعمل شخصياً لصالح السي آي إي. وقد وصف سوق السلاح بأنه «يرتكز على الجنون الإنساني: إنها تجارة، كلّ الأسلحة فيها دفاعية، وكلّ قطع الغيار فيها غير قاتلة». وحتى الآن لا يزال سبنس يحتقر الذين يصفونه بتاجر الموت.

«كنت منذ فترة في حفلة وجاءت فتاة شابّة إليّ واتهمتني ببيع الناس أسلحة ليقتل بعضهم البعض». قلت: «هُراء، أنت تدفعين ضرائب، تدفعين جزءاً من راتبك كل شهر لتسديد ثمن الأسلحة النووية. كيف تتهمينني؟» لم يشعر بالخجل. وذلك أن شعار شركة سبنس وكامينكز هو: لأن تكون، هو أفضل من شبه الكينونة»... وتقع مصانعهما في مانشستر قرب كنيسة جميلة مبنية بحجر فيكتوري.... إلاها الحبّ والحرب يتعانقان في علاقة حميمة!!.. قال لي سبنس «ليس الأمر هكذا بالضبط».. «فالكنيسة بنيت لتخليد معركة واترلو». وأضاف أن شركة أنترارم Interarms لا تزال تتابع العمل بينما أقفلت الكنيسة قبل بضع سنوات.

يمكن مسامحة صناعة الأسلحة الإسرائيلية على تبنّيها شعار شركة كامينكز كرمز لدورها في سوق أسلحة الشرق الأوسط... رغم أن محاولاتها لإضفاء السرّية غالباً ما تشبه في جدّيتها محاولات فنّانة تعرٍّ لإظهار الخجل.

إن الشركات التي تنتج دبّابة ميركافا والتي أصبحت تسيطر على عملية تزكية وتحويل الذخائر الفاسدة، تحتاج إلى الدعاية لنفسها بقدر حاجتها إلى الحفاظ على خصوصيّتها. وقد مدحت المجلّات العسكرية الإسرائيلية اللامعة حسنات رادار مراقبة نيران الدبّابات، ومنصّات إطلاق القذائف الجوّية ورشّاش عوزي الآليّ.

في منتصف الثمانينيّات، انتقل صانع الألكترونيات الإسرائيلية تاديران إلى الصناعة الألكترونية الحربية مع تطوير نظام الراديو VHF. وكانت شركة كومبيوتر Elbit تعلن عن عمليّات شحنها للأسلحة وعن أنظمة الملاحة الخاصّة بها. وقد استخدمت «الصناعات العسكرية الإسرائيلية» IMI- 14 ـ ألف عامل وكانت تصدّر إلى الولايات المتّحدة ودول حلف الأطلسي... علماً بأن أسلحتها «كانت موضع اختبار عملي مكثّف في القتال الفعلي» على حدّ قولها. حتى إن إسرائيل بدأت تشتري، بشكل قانوني، أنظمة Avionics من الولايات المتّحدة، ثم تقوم بتطويرها وبوضعها على متن الطائرات الإسرائيلية... ومن ثم قامت بتقاسم التجهيزات الجديدة المطوّرة والمعرفة التقنية الجديدة مع الأميركيين. بهذه الطريقة، أصبحت التقنية الإسرائيلية ضمن المعدّات الأميركية المبيعة إلى السعودية، وهي بلد يعارض اللوبي الإسرائيلي استيراده للأسلحة من واشنطن وعادة من الحكومة الإسرائيلية.

وثمّة عمليّات أقلّ قانونية تجري بصورة سرّية ـ أكثرها لا يزال غير مكشوف في إسرائيل نفسها ـ أُرسل فيها تقنيون عسكريون إسرائيليون إلى بكّين في منتصف الثمانينيّات بُغية إصلاح وتطوير مئات الدبّابات السوفياتية الصنع والمدفعية الثقيلة للجيش الشعبي الصيني.

سافر التقنيون الإسرائيليون الذين يعمل معظمهم لشركات أسلحة تجارية في إسرائيل، إلى بكّين مع موافقة

ضمنية من قِبل الحكومة الإسرائيلية، وذلك لتطوير الدبّابات الروسية بأنظمة نيران جديدة موجّهة، وأجهزة ليزر للتعقّب وفي بعض الحالات بمدافع جديدة تتضمّن أجهزة حسّاسة من صنع أميركي. سافر هؤلاء إلى بكّين عبر كوبنهاغن وبانكوك مستخدمين دائماً الخطوط الجوّية الإسكندينافية ومختارين طريقاً واحداً إلى الصين يمرّ عبر أجواء صديقة... وقد عملوا لثلاثة أشهر على شكل فِرق في مخازن الأسلحة الصينية وكانت معدّاتهم تُرسل بحراً عبر ميناء إيلات الإسرائيلي.

رغم أنني كتبت بشكل مكثّف عن هذه التجارة المحرّمة في التايمز في أيار/مايو ١٩٨٧، فإن وكالة الأسوشيتدبرس كانت الوحيدة التي تابعت القصّة. لم يصدر عن البنتاغون أو البيت الأبيض أيّ تعليق اعتماداً على الافتراض بأن الصحفيين الأميركيين لن يتطرّقوا إلى موضوع بهذه الحساسية دون موافقة من السلطات الأميركية، وهي موافقة مستحيلة الحصول. كان افتراضهم صحيحاً. وعندما أبلغت وكالة الاستخبارات الأميركية لجنة الشؤون الحكومية في مجلس الشيوخ في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٣ أن إسرائيل كانت تزوّد الصين طيلة عشر سنوات بتكنولوجيا عسكرية متطوّرة قيمتها مليارات الدولارات، عندها فقط أصبحت القصّة مباحة بالنسبة إلى الصحفيين الأميركيين. واعترف رئيس وزراء إسرائيل إسحاق شامير بأن إسرائيل باعت الصين أسلحة.

كانت قدرة إسرائيل على تطوير الآلة العسكرية السوفياتية معترفاً بها. فقد طوّر التقنيون الإسرائيليون نموذجاً لتخريب دبّابات T54 وT55 بعدما استولت على مئات منها في الحروب ضدّ الجيوش العربية المجهّزة بأسلحة سوفياتية. وقد استبدل الإسرائيليون مدفع الدبّابة عيار ١٠٠ ملم بمدفع ١٠٥ ملم وأضافوا نظام التحكّم بالنيران الخاصّ بهم مما يسمح للمدفع بالبقاء مصوّباً إلى هدفه في المكان الصعب. وقد تمّ تركيب أجهزة تبريد لمدفع الدبّابة لتجنّب ارتفاع الحرارة بينما سمحت عمليات تجديد أخرى لقادة الدبّابات بمعرفة الظروف الجوّية(*).

كانت إسرائيل تصدّر أسلحة إلى أميركا اللاتينية، إلى نظام سوموزا ومن ثم إلى الكونترا في نيكاراغوا(**) وإلى النظام العنصري في جنوب أفريقيا وإلى بينوشيه في تشيلي. لكنّ ما أغضب الأميركيين هو أن الصينيين حصلوا على تكنولوجيا أميركية لدبّاباتهم من خلال إسرائيل، وهي تكنولوجيا محظور تصديرها للدول الشيوعية بما فيها

(*) تعلّم الإسرائيليون كيفية بيع الأسلحة من خلال تعلّم تغيير شكلها. ذلك أن أوّل صراعاتهم (ما يسمّونه «حرب الاستقلال» التي شرّدت ٧٥٠ ألف فلسطيني من منازلهم في ما يسمّى الآن إسرائيل) خاضوه بمساعدة دبّابتيْ شيرمان ودبّابتيْ كرومويل قديمتين وعشر دبّابات فرنسية صنع ١٩٣٥. وقد طوّر الإسرائيليون مدى المدافع وركّبوا قِطعاً من الدبّابات الجديدة لتلائم ما لديهم. وفي عام ١٩٥٠ كانوا لا يزالون يشترون بقايا أسلحة الحرب العالمية الثانية، بما في ذلك دبّابات من إيطاليا وحتى من الشرق الأقصى. وقد تمّ تفكيك العديد منها ببساطة لإعادة بناء دبّابات التشيرمان التي قاتلت لاحقاً في حرب ١٩٦٧ الشرق أوسطية وحتى في حرب ١٩٧٣. وبعدها أهملت ثم قدّمت هدايا إلى ميليشيا «جيش لبنان الجنوبي» المقرّب من إسرائيل كما أنها قُدّمت إلى أوغندا أيضاً.

(**) شحنت إسرائيل، استناداً إلى أقوال ضبّاط إسرائيليين سابقين في تلّ أبيب، ألفيْ رشاش كلاشينكوف ومئات من صواريخ RPG -7 المضادّة للدبّابات إلى نيكاراغوا عام ١٩٨٣ وكلّها صودرت من ثوّار منظمة التحرير الفلسطينية خلال الغزو الإسرائيلي للبنان في العام السابق.

الصين. وكان أخطر ما في الأمر وصول بعض هذه الدبّابات الروسية نفسها إلى إيران وقد اشتراها تجّار سلاح إيرانيون خلال زيارات طويلة إلى بكّين. وكان لا بدّ لإسرائيل من أن تقلق الاتفاقيات ـ كانت إيران تقوم برحلات جوّية يومية إلى بكّين طيلة حرب الثماني سنوات مع العراق خاصّة لكسب سوق السلاح الصيني. وأدركت السلطات الأميركية قيام إسرائيل باستخدام التجهيزات الأميركية في عمليات بكّين عندما قامت بعثة تسلّح مصرية زائرة بمعاينة دبّابة T62 روسية مطوّرة حديثاً لتجد تكنولوجيا أميركية وإسرائيلية وتعليمات بالإنكليزية والعبرية في داخلها.

حصلت الميليشيات المسلّحة في الشرق الأوسط، وبخاصّة في لبنان خلال الحرب الأهلية ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، على أسلحة بطرق أقلّ طموحاً. كان حزب الله في لبنان يحصل على صواريخ كاتيوشا والصواريخ المضادّة للدبّابات من إيران عبر سوريا.. وكان هذا التحالف ناجحاً إلى حدّ مثير بحيث أنه استخدم أسلحة غير متطوّرة نسبياً لطرد جيش الاحتلال الإسرائيلي وعملائه اللبنانيين من جنوب لبنان في أيار/مايو ٢٠٠٠. وقد حصل المسيحيون الكتائب على أسلحة، بما في ذلك صواريخ موجّهة لاسلكياً، من إسرائيل ومن جنوب أفريقيا، وقد أثار الأمر تحقيقاً في جوهانسبرغ بعد انتهاء نظام التفرقة العنصرية(*).

وكان حتمياً أن يزوّدني لبنان، ذلك البلد الذي عشت فيه أكثر من نصف حياتي، بسرّ العلاقة الفريدة والرهيبة التي سعيت طويلاً لفهمها بين تجّار السلاح وضحاياهم الأساسيين، بين صانعي السلاح المحترمين والأبرياء الذين تقتلهم أسلحتهم. فلعدّة سنوات في الشرق الأوسط، فكّرت ملياً في مدى أخلاقية أولئك الذين صنعوا الأسلحة التي قتلت الناس من حولي. كم من الوقت مضى على العامل السوفياتي الميت في عصر ستالين وخروتشوف والذي صنع صاروخ الكاتيوشا ليطلق بعد عدّة عقود من قِبل الفلسطينيين وحزب الله ضدّ الإسرائيليين إلى داخل إسرائيل أو ضدّ قوات الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان؟ أيّ تقنيّ جمع القنابل الانشطارية في الولايات المتّحدة لتمطر بها إسرائيل المدنيين في غرب بيروت عام ١٩٨٢؟

أيّ صانع ـ أيّ مطوّرين، محترمين، وطنيين، أميركيين، يخافون الله، بدون شكّ ـ صنع صاروخ هيلفاير Hellfire الذي أطلقه طيّار إسرائيلي على سيّارة إسعاف لبنانية يوم ١٣ نيسان/أبريل ١٩٩٦ مودياً بحياة امرأتين وأربعة أطفال؟ بعد خمس سنوات، سيروي جون هيرست من لوكهيد في أبوظبي أنه لم يكن له علم بهذا الحمّام الصغير المخيف من الدم. لكنّ ميخائيل كلاشينكوف أبلغني عندها أنه لا يشعر بالندم على المذبحة التي سبّبها الرشّاش الذي صمّمه... لقد اخترع AK47 لحماية بلده وليس لقتل البريء... إنه تبرير كل صانع سلاح!

(*) عام ١٩٩٤، عيّنت لجنة تحقيق الكاميرون للنظر في قضية تحويل أسلحة بين Armscor مؤسّسة التسلّح الرسمية في جنوب أفريقيا ومجموعات الميليشيات المسيحية بين ١٩٨٣ و١٩٩٣. بعد انتهاء الحرب اللبنانية عام ١٩٩٠، كان الكتائب متّهمين بإرسال الأسلحة إلى كرواتيا وسلوفينيا في جبال البلقان، وهو اتهام صار مؤكّداً عندما صادرت البحرية اليوغوسلافية التي كانت بأيدي الصرب سفينة تحمل أسلحة في الأدرياتيك وخزنتها في ميناء بار ثم أرسلت فاتورة بقيمة التخزين إلى الكتائب. واستناداً إلى الحكومة اللبنانية، فقد كانت الأسلحة تتضمّن أربع طائرات هيلكوبتر مقاتلة من طراز غازيل وعدّة زوارق دورية ومدافع هاون وقاذفات صواريخ متعدّدة الفوّهات.

والحال أن أحداث ١٣ نيسان/أبريل ١٩٩٦، ستسمح لي بتحدّي هذه الكلمات السحريّة.. وأن أحصل على دليل الوحشيّة هذا لكي أحمله معي إلى الولايات المتّحدة وأضعه أمام الأشخاص الذين اخترعوا جهاز الموت لستّة مدنيين لبنانيين مساكين ذنبهم الوحيد هو جنسيّتهم، ومكان قريتهم الفقيرة، وأيضاً لسخرية ذلك الصراع الذي دار في ذلك الجزء من بلدهم طيلة ٢١ عاماً. إجمالاً، جرى قتل ١٥٠ ألف رجل وامرأة وطفل في الحرب الأهلية اللبنانية، عشرات الآلاف منهم قتلوا بذخائر أميركية. ولقد مات المدنيون الستّة بعد فترة طويلة من انتهاء تلك الحرب رسمياً ـ ضحايا لصراع متجدّد دائماً بين جيش الاحتلال الإسرائيلي ورجال حزب الله اللبناني الذي أخرج أعداءه في النهاية من معظم الأراضي اللبنانية(*)... في الأشهر اللاحقة، قابلت كل الناجين، كل الشهود، جنود الأمم المتّحدة والمدنيين اللبنانيين وصانعي الأسلحة الأميركيين المتورّطين في هذه القضية المرعبة التي ما زلت أعتبرها جريمة ضدّ الإنسانية.

تقع قرية المنصوري اللبنانية الشيعية المسلمة على بعد ٨ كلم من الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية، وطيلة ذلك الصباح من يوم السبت ١٣ نيسان/أبريل كان الإسرائيليون يقصفون المنطقة. أمضت فاضلة العقلة البالغة ٣٢ سنة الليل مع خالتها نوكل متقوقعة في الزريبة قرب حمير القرويين وأبقارهم. لكن في ذلك اليوم خرجت من مخبئها لأن الخبز نفد من القرية، وكانت القذائف الإسرائيلية تسقط بين بيوت الحجر. وأمضى عبّاس جحا الليل، وهو مزارع عمل كسائق إسعاف متطوّع للقرية الشيعية المسلمة، مع زوجته منى البالغة ٢٧ عاماً وبناته الثلاث زينب وحنين والطفلة مريم وابنه مهدي البالغ ست سنوات، في كوخ في بستان زيتون يستمع إلى تهديدات إذاعة صوت الأمل التي تديرها إسرائيل في المنطقة اللبنانية المحتلة، البالغة ١٠ في المئة من الأراضي اللبنانية قرب الحدود الشمالية. «ظلّ الإسرائيليون يردّدون عبر الإذاعة أن على أهالي القرى ترك منازلهم» وذكّرني عبّاس جحا بذلك. «واعتبروا المنصوري من هذه القرى. وكانوا يقولون لنا أن نهرب. كانوا يقولون إنهم لن يهاجموا السيّارات التي تغادر القرى. وعندما فتحت الباب شاهدت القذائف تتساقط على المنصوري». كانت سحب الدخان الأسود والرمادي تتّجه نحو المتوسّط فوق جنوب لبنان كلّه في ربيع ذلك الصباح بينما كانت آلاف القذائف الإسرائيلية تتساقط في تلال القرى. وكانت السماء تنبض حياة مع صوت القاذفات المقاتلة ف١٦ الأسرع من الصوت، وعلى بعد عدّة مئات من الأمتار، كانت طائرات الهليكوبتر الأباتشي الأميركية الصنع، والتي أثبتت قوّة نيرانها القاتلة فعاليّتها ضدّ الجيش العراقي المنسحب من الكويت قبل خمس سنوات، تحلّق فوق القرى الصغيرة والمزارع لتضيف إلى المعركة أحدث الأسلحة الإسرائيلية وأشدّها فتكاً. قبل أربعة أيام فقط، مزّقت قنبلة مموّهة على شكل صخرة قرب بلدة برعشيت صبيّاً لبنانياً في الخامسة عشرة من عمره، وقد اتّهم حزب الله الموالي لإيران إسرائيل

(*) أحلتُ القرّاء في المقدّمة إلى كتابي حول النزاع اللبناني «ويلات وطن»، Pity the nation.. أما الذين يريدون فهم السياق الأوسع لأعمال القتل الإسرائيلي لأكثر من ٢٠٠ مدني في نيسان/ أبريل ١٩٩٦، بما في ذلك مجزرة قانا، فبإمكانهم الرجوع إلى النسخ البريطانية والأميركية للكتاب وبخاصة الصفحات: ٦٦٩ ـ ٦٨٩.

بالمسؤولية وانتقم بإطلاق صواريخ كاتيوشا عبر الحدود إلى داخل إسرائيل أصابت عدّة مدنيين بجروح. وقد قام شيمون بيريز الذي يسعى جاهداً لإعادة انتخابه من خلال تصوير نفسه على أنه جندي الدولة في الحرب ضدّ إرهاب حزب الله بإصدار أوامره بقصف جنوب لبنان قصفاً شاملاً من الجوّ والبحر والأرض(*)

وقد دعت الولايات المتّحدة، بوداعة، الطرفين إلى «ضبط النفس»، لكنها كانت منحازة إلى إسرائيل علناً. واعتبرت الإدارة الأميركية أنّ حزب الله مسؤول كلّيّاً عن موت هؤلاء المدنيين كافّة ـ وقع أكثر من مئتي قتيل مدني خلال الأسابيع الثلاثة التالية ـ الذين قُتلوا بنيران إسرائيلية. ومع أن واشنطن كانت كالعادة محايدة رسمياً، فقد وجد اللبنانيون أن من الصعب فصل حربهم الأخيرة عن الولايات المتحدة. فإذاعة «صوت الأمل» التي تأمر الناس بترك منازلهم مموّلة جزئياً من الجناح اليميني للإنجيليين الأميركيين، والقذائف عيار ١٥٥ ملم التي تتساقط على قراهم، هي أميركية الصنع، وكذلك طائرات ف١٦ ومروحيّات أباتشي التي تحلّق في الأجواء فوقهم. حتى الاسم الذي اختاره شيمون بيريز للمغامرة الإسرائيلية الأخيرة في لبنان «عملية عناقيد الغضب» ظهر وكأنه متأثّر بأميركا.. وإذا لم يكن مستوحى من «سِفر التثنية» فلا شكّ أنه كان مستلهماً من «نشيد لمعركة من أجل الجمهورية» لجوليا وارد هوي من القرن التاسع عشر، حيث «يخرج الله موسم الخمر» من مكان تخزين «عناقيد الغضب»... أو من أفضل قصّة للكاتب الأميركي جون شتاينبك الذي وصف العرب مرّة «بأنهم أقذر الشعوب في العالم وأنتنهم رائحة». كان يمكن مشاهدة ثمار هذه العملية في المنصوري. بعد وقت قصير من بزوغ الفجر يوم ١٣ نيسان/أبريل، ضربت قذيفة منزلاً في طرف القرية، فأصابت بشظاياها عبد العزيز محسن (٢٣ سنة)، وهو مزارع ومجنّد سابق في الجيش اللبناني. وعلى الرغم من إطلاق النار، ركض عبّاس جحا من منزله ليطلب مفاتيح سيّارة إسعاف المنصوري من مختار القرية . كانت سيّارة الفولفو البيضاء اللون هديّة إلى سكّان المنصوري من قرويين كسبوا أموالاً بعد هجرتهم إلى أفريقيا الغربية... وكان في القسم الخلفي من السيارة حمّالتان. وقام جحا بوضع محسن داخل السيّارة وانطلق به تحت القصف إلى مدينة صور على شاطئ المتوسّط إلى الشمال الغربي. وهناك اشترى أكياس خبز عربي لأهالي قرية المنصوري المعزولين. وفي الساعة التاسعة صباحاً عاد إلى القرية وكان يوزّع الخبز عندما سقطت قذيفة أخرى في زقاق فأصابت شظاياها علي مهدي وهو طفل عمره شهران. عاد عبّاس جحا وقاد سيّارة الإسعاف مرّة أخرى والضوء الأزرق يسطع على سطحها حتى أوصل علي بسلام إلى مستشفى صور. واشترى عبّاس المزيد من الخبز لأهالي المنصوري وقفل عائداً إلى القرية.

في هذه الأثناء كانت مراسلة رويترز نجلا أبو جهجاه في مهمّة صعبة أيضاً تقود سيّارتها عبر سفوح التلال الشرقية للمنصوري في محاولة لتصوير الغارات الجوّية الإسرائيلية لصالح الوكالة البريطانية للأنباء. وكانت أبو

(*) أعلنت القوّات الإيرلندية التابعة للأمم المتّحدة في برعشيت أن القنبلة المفخّخة ألقيت من قِبل الإسرائيليين لقتل مقاتلي حزب الله الذين يحاولون التسلّل إلى المنطقة التي تحتلّها إسرائيل. وقد نفى الإسرائيليون زرع القنبلة... وأمام استحالة إثبات أن الأمر من صُنع إسرائيل، ارتكب المقاتلون خطأ مجنوناً فأقدموا على الردّ حين كان عليهم أن يدركوا أن ذلك سيؤدّي إلى قصف إسرائيلي للمدنيين في جنوب لبنان.

جهجاه بإصرارها على عدم مغادرة منطقة المعركة تلك المرأة المعطاءة والشجاعة التي لن تنسى الحدث الرهيب الذي ستشهده قريباً. توجّهت غرباً إلى الطريق قرب المنصوري حيث شاهدت طائرة أباتشي أخرى، يبدو أنها كانت تراقب شيئاً ما «متوقّفة في الجوّ وتتحرّك بضعة أمتار إلى الوراء ومن ثمّ بضعة أمتار إلى الأمام». وكان عبّاس جحا قد عاد إلى وسط بلدة المنصوري الغارقة في فوضى عامّة. وقد هرب العديد من الناس من منازلهم وبقي القليل بمن فيهم عائلته، وكانت القذائف تتساقط في كل مكان.. ثم جاءت طائرة وألقت قنبلة على طرف القرية ممّا أرعب عبّاس جحا وجعله يفكّر في وضع الناس في سيّارة الإسعاف وأخذهم إلى مكان آمن.. وقال: «أخذت مني وأولادي إلى داخل السيّارة، وبمجرّد أن وضعت زينب (٩ سنوات) وحنين (٥ سنوات) ومريم (شهرين) مع أخيهم مهدي في الجزء الخلفي من سيّارة الإسعاف، شاهدت طائرتيْ هيلكوبتر تحلّقان على علوّ منخفض وبدا الطيّاران وهما يراقباننا».

اشترت فاضلة العقلة كيسيْ خبز من عبّاس لكنها كانت مرعوبة من الطائرات. قالت لي لاحقاً: «رغم أن الإسرائيليين أعلنوا أنهم لن يهاجمونا إذا تركنا بيوتنا، فقد كانت طائرات هيلكوبتر تزرع الشوارع بالرصاص والقذائف التي تنفجر حول بيوتنا.. وقد غادر أخوتي في سيّارة بيك أب وهرب آخرون في جرّارات زراعية. وقال لي أهلي: «ارحلي والحقي بأخوتك». نزلت إلى القرية بحثاً عن بيك آب آخر، عندها شاهدت عبّاس جحا يقود سيّارة إسعاف القرية وبرفقته زوجته وعائلته. طلبت منه إذا كان بالإمكان أخذي معه فردّ: «لا مشكلة».

حين غادر عبّاس جحا المنصوري كان معه ١٣ راكباً مرعوبين مكدّسين داخل السيارة. كان هناك زوجته منى وأولاده الأربعة، وفضيلة وخالتها نوكل، ومحمّد هشام صانع الشبابيك، وخمسة من عائلة الخالد:ناديا (٢٢ سنة) ابنة نوكل وأولاد أختها سحر (٣ سنوات) وعايده (٧ سنوات) وهدى (١١ سنة) ومنار (١٣ سنة). جلس عبّاس ومحمّد هشام، الرجلان الوحيدان، في المقعد الأمامي لسيّارة الإسعاف مع مهدي (٦ سنوات) وجلس الباقون مزدحمين في القسم الخلفي. سألتني فاضلة عندما قابلتها لاحقاً: «هل تتصوّر ما هو وضع ١٤ شخصاً في سيّارة؟». يتذكّر عبّاس جحا أن ذلك الجزء من القرية كان مشتعلاً والدخان يتصاعد من الحقول. «غادرنا في قافلة من الجرّارات والسيّارات باتجاه العامرية حيث كان هناك موقع للأمم المتّحدة فيه جنود فيجيّون على الطريق الساحلي الرئيسي إلى صور. كانت القذائف تتساقط حولنا في الحقول».

كانت نجلا أبو جهجاه تقف أمام المركز الفيجي حينها ـ نقطة تفتيش الأمم المتحدة ١ك٢٣ ـ وهي تصوّر سيّارات اللاجئين إلى مركز الأمم المتحدة، ويحمل صديقها آلة تصوير الفيديو. قالت لي: «كانت هناك طائرتا هيلكوبتر تقومان بمراقبة مركز المراقبة، وكنت قلقة أحاول معرفة ما الهدف من وجودهما هناك. شاهدت سيّارة إسعاف قادمة على الطريق واعتقدت أن هناك جرحى وتبيّن لي أنها مليئة بالنساء والأطفال. وكانت هناك سيّارة أخرى تتحرّك في الاتجاه المعاكس وكان سائق الإسعاف يلوّح بيده طالباً منها العودة». يظهر شريط الفيديو تلك اللحظات: الإسعاف تتخطّى مركز تفتيش الأمم المتّحدة المهجور ـ لم يكن الجنود الفيجيون على الطريق بل في ملاجئهم المحميّة ـ وظهرت يد عبّاس جحا من نافذة السيّارة طالباً من السيّارة الأخرى التوقّف. عندها سمع عبّاس

جحا الناس الموجودين في الجزء الخلفي من السيّارة يصرخون به. «كانت إحداهنّ تصرخ بي: «الهليكوبتر تتجه نحونا. إنها تطاردنا». نظرت من النافذة واستطعت رؤية الأباتشي وهي تقترب. قلت للجميع: «لا تخافوا قولوا فقط الله أكبر ويا عليّ». طلبت منهم عدم الخوف لكنني كنت مرعوباً».

شاهدت نجلا أبو جهجاه الهليكوبتر نفسها: «كانت تنخفض وتقترب وأدركت أن هذا يعني استعداد الطيّار لإطلاق النار. شعرت بأنه سيطلق صاروخاً لكنني لم أتوقّع أن يكون الهدف قريباً جدّاً مني. سمعت صوتاً مثل بوف بوف، صوتاً صغيراً جدّاً. ورأيت صاروخاً ينطلق من الأباتشي مع آثار دخان خلفه». في الواقع، أطلق طيّار الهليكوبتر الإسرائيلية صاروخيْن، وجِد أحدهما غير منفجر قرب مسجد مجاور وكانت أسطوانته المعدنية ما تزال بحالة جيّدة. وقد سجّلت نجلا أبو جهجاه بكاميرا الفيديو ما حصل للصاروخ الآخر. بعد ثوانٍ من مرور سيّارة الإسعاف من نقطة تفتيش الأمم المتحدة ١ك٢٣ انفجر الصاروخ في الباب الخلفي للسيّارة محيلها إلى كتلة من النار والدخان وقاذفاً إياها في الجوّ إلى داخل غرفة جلوس في بيت قريب.

كل ما تستطيع أن تتذكّره فاضلة أنها شعرت بحرارة قويّة في وجهها تشبه شعلة نار.. «بطريقة ما أصبحت خارج سيّارة الإسعاف ووجدت برميلاً ما ضخماً وبدأت أغسل وجهي. كان هذا كلّ ما أستطيع التفكير فيه رغم الصراخ والدخان والحرارة الرهيبة. كان المشهد وكأنّ أحدهم يحمل شُعلة أمام عينيّ».

ويتذكّر عبّاس جحا كيف قفز من باب سيّارة الإسعاف قبل أن تصطدم بالبيت «كنت مرعوباً ولم أستطع تصديق ما حصل. كانت نهاية عالمي، عرفت ما حصل لعائلتي». كانت نجلا أبو جهجاه التي ترتجف من الخوف تصوّر حينها الحدث الرهيب للهجوم الصاروخي الإسرائيلي. ويظهر شريط الفيديو عبّاس جحا مصاباً بجروح في رأسه ورجله واقفاً إلى جانب الطريق قرب إحدى بناته القتيلات يبكي وينتحب ويقول: «الله أكبر» وكان ينظر إلى السماء باتجاه الهليكوبتر، «رفعت قبضتي للطيّار وصرخت: «ربّي، ربّي، ذهبت كلّ عائلتي».

وجد عبّاس ابنه مهدي حيّاً، ثم شاهد ابنته مريم (شهرين) ممدّدة على بعد ثلاثة أمتار من الإسعاف، «كان جسدها مليئاً بالثقوب ورأسها بقطع المعدن». وشاهدت نجلا «نساء وأطفالاً يخرجون من مؤخّرة الإسعاف راكعين، صارخين ومختبئين. ورمى رجل بنفسه في البستان ثم عاد وهو يحمل طفليْن بين يديه، أحدهما طفلة أصيبت، تحاول إعادة وضع منديلها على رأسها.. وشاهدت فتاة ملقاة على الطريق والدم ينزف من أعلى رأسها. وكان السائق يصرخ: «مات أولادي، الله يرحمهم». رأيت فتاة أخرى، كانت منار، وكان الدم يغطيها وكانت تردّد: «تفجّر رأس أختي».

ومع أن نجلا أبو جهجاه كانت خائفة من أن تطلق الهليكوبتر النار مجدّداً ـ رأى الطيّار بوضوح أن هدفه كان سيّارة إسعاف ـ فقد ركضت باتجاه المنزل لترى مشهداً قالت إنه سيظلّ يؤرّقها بقيّة حياتها: «لم أستطع فتح الأبواب لأن السيّارة كانت ملتصقة بالغرفة، لكن كان هناك ثلاثة أولاد في الداخل وكانوا بشكل واضح في الثواني الأخيرة من حياتهم، وبدوا كأنهم مدفونين. واحدة منهم (حنين) كانت قد اصطدمت بزجاج النافذة المحطّم، ودمها يسيل مثل النهر خارج السيّارة. في الثواني الأخيرة حاولت النظر إليّ لكنها لم تستطع لأن الغبار كان يغطّي

وجهها. كانت هناك فتاة صغيرة أخرى تجلس في حضن امرأة ميتة، تنتحب وتصرخ «خالتي، خالتي». وفتاة ثالثة وجهها مغطّى بالدم، تميل برأسها من جهة إلى جهة، وكانت فتاة أخرى مصابة بجرح كبير في رأسها وعنقها ثم انهارت». وبينما كان الأطفال يموتون الواحد تلو الآخر أمامها، سمعت نجلا صوتاً غريباً»: «لقد ضرب الصاروخ المسّاحات التي كانت لا تزال تتحرّك على الزجاج المحطّم محدثة ذلك الصوت الرهيب، وسيبقى ذلك الصوت يلازمني بقيّة حياتي». كان عبّاس جحا مغموراً بالحزن يشقّ سيّارة الإسعاف بيديه العاريتين مع عناصر من الفرقة الفيجية التابعة للأمم المتحدة من نقطة التفتيش. وتذكّر: «أستطيع رؤية ظهر حنين ـ كان مليئاً بثقوب مثل شبكة العنكبوت»، «ثم رأيت زوجتي منى وكانت جريحة بشكل مروّع، لم أستطع تمييز وجهها. فقدتها وبناتي الثلاثة». منى جحا، زينب (٩ سنوات)، حنين (٥ سنوات) مريم (الطفلة ابنة الشهرين) مُتنَ جميعاً. وكذلك ماتت نوكل (٦٠ سنة) وابنة أخيها هدى (١١ سنة). وظلّت طائرتا الهليكوبتر الإسرائيليتان في السماء فوق نقطة تفتيش الأمم المتحدة الـ٢٣ك لمدّة خمس دقائق أخرى، ثم غادرت.

بعد ساعات، اعترف الإسرائيليون بأنهم استهدفوا سيّارة إسعاف لكنهم قدّموا روايتين للحادث: الأولى تقول بأن السيارة يملكها عضو في حزب الله ـ وهذا غير صحيح ـ وقد تمّ تدميرها لأنها كانت تحمل عناصر من حزب الله ـ وهذا غير صحيح ـ وقال المتحدّث الإسرائيلي من جهة ثانية: «إذا أصيب أفراد آخرون في السيّارة أثناء الهجوم، فذلك لأنه تمّ استخدامهم من قِبل حزب الله كغطاء لنشاطاته». لم يكن هناك أي اعتذار. والحال، فإن القانون الدولي يطالب بحماية أرواح المدنيين حتى في حال وجود أفراد لا ينطبق عليهم تعريف المدنيين. والادّعاء بأنّ السيّارة قد استُهدفت لأنها مِلك لحزب الله كان بشكل ما أكثر مدعاة للاستنكار.

سأل الناجون أنفسهم كيف يمكن للإسرائيليين تبرير ذبح راكبي سيارة إسعاف بحجّة أن مالك السيّارة لا يعجبهم؟ وسألوا: أي نوع من الصواريخ يستطيع قصف سيّارة إسعاف وقذفها مسافة ٢٠ متراً في الهواء؟ إذا كانت طائرة الهليكوبتر الأباتشي أميركية، كما كانت بالتأكيد، فهي التي ألقت الصاروخ الذي قتل نوكل، ومنى والأطفال الأربعة: زينب، وحنين ومريم وهدى؟.

لعدّة أيام بعد عملية القتل، بقيت سيّارة الإسعاف داخل أنقاض المنزل الذي قُذفت إليه يوم ١٣ نيسان/أبريل. كنت أمرّ أمامه يومياً وأنا أقود سيّارتي على الطريق الساحلية المخيفة جنوب صور، فيما طائرتا أباتشي تراقبان تحرّكاتي كما كانت تفعل مع بقيّة السيّارات على الطريق السريع.

بعد أسبوع، غطّى حمّام الدم في قانا على تلك الجريمة المروّعة.... وقد قُتل حينها ١٠٩ مدنيين لبنانيين كانوا قد لجأوا إلى هناك، بقذائف المدفعية الإسرائيلية، ممّا أوصل عملية «عناقيد الغضب» إلى خواتيمها المشينة وعطّل إمكانية نجاح شيمون بيريز في كسب الانتخابات. لكن كانت هناك عدّة حوادث أخرى مشابهة للقصف الإسرائيلي على سيّارة الإسعاف. فبقرب محطّة الطاقة في الجيّة، جنوب بيروت على سبيل المثال، قامت طائرة هليكوبتر إسرائيلية بإطلاق صاروخ على سيّارة ممّا أدّى إلى قتل امرأة شابّة كانت قد اشترت لتوّها ساندويشاً من مطعم محلّي. وأدّى سقوط صاروخ يوم ١٦ نيسان/أبريل في غرب بيروت إلى قطع رأس طفلة عمرها سنتان. بعد يومين،

أطلقت طائرة هليكوبتر أخرى صاروخاً مستهدفة مجموعة منازل في النبطية، مما أدّى إلى مقتل عائلة من تسعة أشخاص بينهم طفل عمره يومان.

ما هي تلك الأسلحة الرهيبة التي استُخدمت بفجور في لبنان؟ مَن باعها للإسرائيليين؟ وإذا كانت شركة أميركية هي التي صنعت الصاروخ، فما هي الشروط التي كانت محدّدة لبيعه؟

أمضى عبّاس جحا في قرية المنصوري أشهراً يطرح هذا السؤال. سأل نفسه: «كيف يشعر الأشخاص الذين صنعوا هذا الصاروخ إذا قتل أطفالهم كما قتل أولادي؟». وكانت فاضلة العقلة أكثر تصميماً: «هذه الأشياء صُنعت لتستخدم ضدّ الجيوش وليس المدنيين. سيستمرّ الأميركيون في إعطاء هذه الأسلحة للإسرائيليين مهما قلنا». وهي قدّمت لي ذات يوم، وفي المنزل نفسه المكوّنِ من غرفتين الذي هربت إليه منذ سنة، ملاحظة واضحة: «إنهم لا يهتمّون بنا، سوف نستمرّ في العذاب»... وكان هذا بالطبع هو الحقيقة العارية.

بعد فترة قصيرة انتهى القصف... وبينما كان ضبّاط الأمم المتحدة يفتّشون بين حُطام سيّارة الإسعاف وجدوا دليلاً مهمّا على هويّة الصاروخ... اكتشف ضابط ارتباط الأمم المتحدة، النقيب ميخائيل لاندفال من الجيش السويدي، بين القطع المعدنية والشظايا، قطعة معدنية تحمل رقماً متسلسلاً واسماً.... كانت موجودة على بضع خطوات من النافذة الملطّخة بالدم حيث توفّيت حنين وهي تحمل شعار "AGM 114C" ورقم المصنع «٠٤٩٣٩».... وهناك حرف واحد مهمّ: "M" عرف ليندفال أن AGM تعني صاروخ جو ـ أرض و 114C تعني قاذفاً بطول ١,٦ متر مثل الصاروخ المضادّ للدبّابات Hellfire وهما يصنّعان معاً من قِبل Rockwell International and Martin Marietta. ولدى روكويل التي أخذتها الآن شركة Boeing مركز رئيسي لصناعة الصواريخ (استناداً إلى المجلّة الأسبوعية Jane's Defense في بولفار ديليت في جورجيا، على بعد ثلاثين دقيقة بالسيّارة من أتلانتا. كان مارتن ماريتا، شريك لوكهيد حينها، يصنع الصواريخ في أورلاندو، فلوريدا، حيث صُنع الصاروخ الذي قتل أربعة أطفال لبنانيين وامرأتين.

هناك دعاية لصانع الصاروخ Hellfire تقول: «الجميع للواحد والواحد للجميع». هل كانت شهرة ألكسندر دوماس واسعة الانتشار إلى هذه الدرجة؟ ما هي العلاقة بين نداء الفرسان الثلاثة (أبطال قصص دوماس) الموحّد وهذا السلاح؟ كان هناك أيضاً سؤال آخر أكثر أهمّية: الآن وقد عُرفت هويّتهم، كيف سيجيب صانعو الصاروخ على حمّام الدم داخل سيّارة إسعاف المنصوري؟.

قدّم لاندفال لي القطعة التي تحمل الأرقام التسلسلية.. كانت مخدوشة وفي بعض الأماكن غير مقروءة، لكنها كانت تحمل رقم تخزين وطني ٤ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ورقماً متسلسلاً «٠٢٩٣ ـ ١٩٢ ـ ٠١ ـ ١٤١٠» القسم الثاني من الرقم المتسلسل «٠١» يثبت أنه شديد الأهمية. كان الرقم المتسلسل للصاروخ MG188J315-534. ثم عثر الفيجيّون على الصاروخ الثاني غير المنفجر، صاروخ Hellfire، شبه مدفون قرب المسجد . كان الرقم المتسلسل

كاملاً وكان من الممكن إعادة تحديد بعض الأشياء المفقودة في القاذف الذي انفجر داخل الإسعاف(*).

بطريقة ما، كان عليّ إرسال الجزء المرقّم إلى أميركا لتقديمه للمنتجين. كان السؤال الأوّل كيف أوصل هذه القطعة الحادّة ـ الدليل الحيويّ والوحيد على أن سيّارة الإسعاف قصفت بصاروخ هيلفاير Hellfire ـ من لبنان إلى الولايات المتّحدة. لم تكن هناك رحلة مباشرة. ولكن لم يكن صعباً شحنه على رحلة دولية من بيروت إلى باريس. وقد قام المسؤولون اللطفاء في مطار بيروت، وفي الطائرة التي ستنقلها، بوضع قطعة الصاروخ على رحلة الخطوط الجوّية الفرنسية إلى باريس. لكن عندما شرحت لرجال الأمن الأميركيين أنني أريد أخذها إلى واشنطن كاد الأمر ينتهي بكارثة صحفية. استشرت مدير محطة باريس لخطوط جوّية أوروبية أخرى. قال لي: «لا تفكّر في حمله معك بيدك، بوب»، بينما كان يتفحّص قطعة المعدن التي تحمل الرقم المتسلسل لصاروخ هيلفاير Hellfire «سوف يجدون آثار متفجّرات على يديك، دع القطعة التي تحملها في حقيبتك». أستطيع الآن أن أفهم ماذا كان يعني بقوله هذا. وأستطيع الآن تصوّر العنوان الرئيسي الذي كان سيصدر في الصحف: «صحفي بريطاني وجد بحوزته جزء من صاروخ في رحلة إلى واشنطن». وأستطيع حتى تخمين التعليق تحت العنوان. لم تعد الكتلة الكبيرة الحادّة الآن صاروخاً بل قطعة من لوح صيني محطّم لكنّ كلمة صاروخ الواضحة يمكن أن تسبّب اضطراباً لدى أيّ موظف أميركي بعد كارثة TWA الأخيرة في نيويورك... وبعد خمس سنوات أضحى القيام بهذا العمل نفسه مستحيلاً. في النهاية، وافقت منظّمة العفو الدولية ـ المهتمّة بضحايا سيّارة الإسعاف في لبنان ـ على شحن أجزاء الصاروخ من باريس إلى مكتب واشنطن. بعد بضعة أيام، سافرت على الخطوط الجوّية الفرنسية إلى الولايات المتحدة، وأستطيع تذكّر إحساسي بالإثارة عندما توقّفت طائرتي لفترة قصيرة في نيويورك. وقفت مع الطاقم الفرنسي على درجات سلّم الطائرة في أوائل بعد الظهر، أنظر باتجاه ناطحات السحاب البعيدة والبرجيْن البنّيين الطويلين لمركز التجارة العالمي في الأفق الحارّ. أخيراً أستطيع الآن مواجهة صانعي الأسلحة بعواقب مهنتهم.

في واشنطن، تسلّمت قطع صاروخ هيلفاير Hellfire، في قلب العاصمة التي لا يسمح تحالفها مع إسرائيل بأيّ انتقاد أو أيّ تعبير عن استياء. لم أكن لأستقلّ طائرة داخلية ليُقبض عليّ بواسطة جهاز كشف المعادن في مطار واشنطن (رونالد ريغان)... لذلك استقللت «كريسنت» وهو قطار سكّة حديد يصل إلى نيو أورليانز ويمكن أن يأخذني خلال الليل إلى جورجيا حيث وافق بوب ألغاروتي (من شركة بوينغ) على الاجتماع بي لمناقشة موضوع صاروخ Hellfire في بلد المنشأ بالضبط... كان يريد أن يشرح مميّزات الصاروخ، قدراته القتالية المجرّبة معتقداً خطأً أنه يفعل ذلك لمراسل صحفي يريد كتابة مقال حول فعاليّة الصاروخ ودقّته.

(*) حتى المأساة تتضمّن جانبها الهزلي القاتم. بعد بضعة أيام من تدمير سيّارة الإسعاف، طلبني لاندفال في بيروت ليقول إن الفيجيين عثروا على صاروخ Hellfire غير المنفجر. سألني: ماذا تريد من الفيجيين أن يفعلوا به؟ طلبت منهم إرسال الرقم المتسلسل للمعدن الموجود على القاذف. لم يكن لاندفال مسروراً. قال: «يبدو أنهم لم يفهموك روبرت، اعتقدوا أنك تريد الصاروخ بكامله. وجدتهم يقومون بتحميله على شاحنة لإحضاره لك إلى بيروت». نظرت لفترة قصيرة إلى وجه صاحب الشقّة المذعور عندما سلّم جنود الأمم المتحدة الصاروخ إلى شقّتي. لحسن الحظ كان الصاروخ بدون صاعق.

كانت واشنطن جميلة في نهاية هذا اليوم الربيعي.. بدا مبنى الكابيتول والمباني الحكومية الكبرى أشبه بروما القديمة. وعندما استيقظت في الصباح التالي المشرق في المقطورة المتوجّهة جنوباً، بدت المدن الأميركية الصغيرة النظيفة كأنها مجموعة من صنع هوليوود. كانت المنطقة الريفية الخضراء والبيوت الخشبية تمرّ قرب نافذة مقطورتي. كم كانت نظيفة تلك الحدائق الصغيرة بأزهارها ومراجيح الأطفال. هل كنت على بعد ستّة آلاف ميل فقط من لبنان أو في كوكب مختلف؟ كانت هناك كنائس أسقفية ومنازل من الطراز الجورجي ومدن تسمّى كورنليا ومانيوليا تمرّ قربي، ومحلّ أسلحة ـ في بلد يحقّ فيه لكل رجل أو امرأة حمل السلاح ـ اسمه Lock stock & bered. وكذلك العديد من سواري الأعلام المنكّسة كنت أستطيع رؤيتها من نافذة عربتي عند الفجر. وكانت عدّة أعلام منها أميركية ترفرف بفخر. لم تحصل حروب في هذه المناطق منذ ١٣٠ سنة بحسب اعتقادي.

نزلت في محطة غينسفيل Gainesville حيث أخذني سائق تاكسي ـ لديه سنّ واحدة باقية ـ إلى المخرج ٨٥ حيث شارع بتشتري Peachtree القديم. تخطّينا إشارة مكتوب عليها دولوث Duluth وأخرى بولفار ساتيلايت وعندها وعلى بعد ثلاثة أميال انعطفنا إلى مجمّع مؤلّف من مبنيَين مخفيين خلف أشجار طويلة ومروج. كُتب على اللوحة عند المدخل: "Boeing Defense & Space Group". كان ذلك بعد ظهر يوم مزعج. وكان يوجد نموذج صغير مطلّي بالأخضر لصاروخ هيلفاير Hellfire على رفّ في الغرفة حيث قدّمني بوب ألغاروتي من بوينغ إلى اثنين من المديرين التنفيذيين المتورّطين عن قرب في إنتاج الصاروخ. كانا رجلين حادّي الذكاء.. ضابطين سابقين خدما في فيتنام.... طلب الاثنان لاحقاً عدم ذكر اسميهما (من أجل أمنهما على ما يبدو) رغم اهتمامهما بردّة فعل بوينغ على المقابلة التي بدت بعيدة تماماً عن أيّ ضغط لحزب الله أو «الإرهاب».

شرحت لهم أنني مهتمّ بالكتابة حول قدرات صاروخ وأيضاً حول استخدامه المحدّد في الشرق الأوسط . قام المدير التنفيذي إلى يميني ـ كان برتبة كولونيل في فيتنام ـ بإحضار كتيّب لامع يشرح بالتفصيل تطوّر نظام صاروخ هيلفاير. . وضعه على الطاولة بيننا. كانت الصفحة الثانية تضمّ سلسلة من أقسام الصاروخ الصغيرة وبعدها تواريخ ١٩٨٢ ـ ١٩٨٩ ورقماً تسلسلياً AGM 114A,B,C. كانت الشظية، التي كانت ما تزال مجهولة من رجال بوينغ، موجودة في حقيبة الكاميرا ومكتوباً عليها AGM 114C. إذن، فإن الصاروخ الذي قتل عائلة عبّاس جحا، ونوكل وابنة أخيها، عمره سبع سنوات على الأقلّ.

وقام الكولونيل بتعداد الدول التي اشترت الصنف الأول أو لاحقاً الصنف المتطوّر من صاروخ هيلفاير. وكانت إسرائيل الأولى على اللائحة في الصنفيْن... قال الكولونيل بإعجاب، مضيفاً ملاحظة قرّرت إهمالها في الوقت الحاضر: «إنهم يأخذون العمل العسكري بجدّية»... لكن كانت مصر وجنوب أفريقيا والإمارات العربية المتّحدة ضمن اللائحة أيضاً. وقد اشترت السويد والنروج نوعاً مضاداً للسفن من هذا الصاروخ. وكان للإنكليز علاقة بالصنفين. كان إنتاجاً مشهوراً... وكان الكولونيل قاطعاً في شرح السبب. قال: «إنه حتماً السلاح المضادّ للدروع الأكثر دقّة في العالم. تستطيع إطلاقه إلى داخل سلّة لعبة كرة السلّة عن بعد خمسة أميال وتستطيع القيام بذلك في أيّ وقت». إذن، فإن النساء والأطفال في سيّارة الإسعاف بحسب رأيي لم تكن لديهم فرصة للنجاة.

فهمت بسرعة ماذا يعني ذلك؟ كان رجال بوينغ يمدحون بدقّة أسلحتهم كجزء من هدفهم الإنساني: كلّما كان صاروخ هيلفاير دقيقاً كان المدنيون أقلّ عرضة للموت. وعلى ذلك تبرز المشكلة عندما يوجّه السلاح تحديداً إلى هدف مدنيّ كما كان الوضع بالنسبة إلى الاسرائيليين في لبنان حيث ضمنت دقّة الصاروخ مقتل المدنيين. لذلك سألت ما هي عمليات المراقبة التي تقوم بها بوينغ بالنسبة إلى استخدام صاروخ هيلفاير Hellfire في الدول التي اشترته. قال المديران التنفيذيان: «نقرأ التقارير». سألت: عن إسرائيل؟ أجاب أحدهما: «لا نحصل على معلومات من الإسرائيليين حول ما فعلوه. إنهم لا يعطون الكثير من المعلومات».

حان الوقت لإظهار شظيّة الصاروخ. وبينما انحنيت لإحضارها من حقيبة الكاميرا، شعرت بالجوّ يتكهرب خلفي. استدرت ووجّهت قطعة الحديد التي ساعدت في قتل اللبنانيين إلى وسط الطاولة. أبلغت الرجال الثلاثة تاريخ استخدامها، والمكان والنتائج المترتّبة وتفسير إسرائيل. أخذ الكولونيل القطعة، وتفحّصها بيده ثم تمتم شيئاً حول صعوبة معرفة النوع من شظيّة صغيرة. كان ذلك سخيفاً. فهو يستطيع قراءة الأرقام على المعدن المتبقّي من الصاروخ. لقد فهم ماذا تعني الشظيّة أكثر مني. لم يقل زميله الذي كان إلى يساري شيئاً وحدّق بالشظية ثم نظر إليّ. ثم قام رجل العلاقات العامّة، بوب ألغاروتي، بعد أن أخذ القطعة بيده ونظر إلى زميليه، وقال بهدوء: «أجل إنه صاروخ هيلفاير Hellfire نحن نعلم ذلك جميعاً».

ثم قال: «إنني أشعر بشيء من الضيق». لكن الكولونيل كان غاضباً. قال: «هذا بعيد عن القاعدة، هذا سخيف». اعترضت، فقد صنع هؤلاء الرجال الصاروخ. ألا يتحمّلون بعض المسؤولية لاستخدامه ـ على الأقلّ مسؤولية التأكّد أنه يُستخدم بمسؤولية من قِبل الزبائن؟. هل كان يكفي الاطّلاع على ذلك بعض الدقائق غير المريحة. اشتكى ألغاروتي قائلاً: «إنك لا تستطيع لوم صانع السكّين إذا استخدمه أحدهم لقتل شخص آخر». قلت: «أجل، لكن ذلك لم يكن سكّيناً، كان صاروخ هيلفاير Hellfire مضاداً للأفراد، أليس كذلك!». ردّ الكولونيل بغضب: «إنه سلاح مُضادّ للمدرّعات». بعدها خيّم الصمت لأنه بالتأكيد إذا كان الصاروخ مُضاداً للدروع، فإنه لم يكن بالتأكيد سلاحاً مضاداً لسيّارة إسعاف.

سأل أحد التنفيذيين: «هل أنت جزء من الحملة الصليبيّة». قلت: «أعتقد أنها ملاحظة سيّئة[*]».. تدخّل ألغاروتي مقاطعاً بهدوء ليوافق معي.. كرّرت كلامي: «نحن نتعامل مع موت الناس الأبرياء بمن فيهم أربعة أطفال»... سألني أحد الرجال ماذا أريد؟ وللحصول على بعض التعاطف منهم أجبت عن السؤال. قال أحد الرجال في الغرفة: «أنا كإنسان عندي مشاعر بالتأكيد، لكن كموظف في شركة بوينغ فإن كل ما نقوم به هو صناعة صواريخ». عندها وافقت على إراحة قلمي بينما كان الرجال الثلاثة يناقشون كيف يستطيعون إعطاء تصريح حول مشاعرهم. شعر المديران التنفيذيّان باضطراب شديد إزاء الأحداث التي وصفتها، كانا من أرباب العائلات وأرادا التعبير عن استيائهما لموت الأبرياء. لكنهما لا يريدان توريط بوينغ... كما أنهما كانا بوضوح خائفين من انتقاد

(*) وهيَ كانت سيّئة مرّتيْن بالنسبة إلى شركة بوينغ... فقد استُخدم سؤال المدير التنفيذي هذا كأحد العناوين لتقريري في الإندبندنت يوم الأحد ١٨ أيار/مايو ١٩٩٧.

إسرائيل. خلال فترة بعد الظهر كان يمكن سماع رجل من بوينغ يردّد مرّتين بكلمات متشابهة (وقد كتبت ذلك في مفكّرتي): «مهما قلت، لا أريد منك أن تنقل عني أي شيء انتقادي ضدّ سياسات إسرائيل».

هنا كان لبّ المسألة. كان هؤلاء الرجال، صانعو الأسلحة ـ الأقوياء جدّاً، الجزء الذي لا يقاوم من نظام الدفاع الأميركي، الوطنيون جدّاً في تبريراتهم، المعتبرون جزءاً ثابتاً جدّاً من تاريخ القوّات المسلّحة الأميركية في فيتنام ـ خائفين من مهاجمة إسرائيل، جزعين من أن كلمة صغيرة من الانتقاد ستؤذي أو ستنهي عملهم أو سترسل بهم إلى أعماق أزمة سياسية داخل شركة صناعة الطيران، هي من الخطورة بحيث أنها ستقضي على وظائفهم إلى الأبد. قال الرجل: «مهما قلت...».

عندها اتّخذ أحد التنفيذيّين قراره: «دعني أتحدّث كجندي وليس كموظف في شركة بوينغ. ليس هناك جندي محترف يتغاضى عن قتل أناس أبرياء كأهداف. لقد تدرّبنا على حماية السلام... بالتأكيد، تشعر شركة بوينغ بالاضطراب إذا أسيء استخدام أسلحتها أو إذا جرى توجيهها ضدّ أشخاص أبرياء. لكننا نبني أنظمة أسلحة وفقاً لاحتياجات الولايات المتّحدة، ونحصل على موافقة للبيع لعدّة دول متنوّعة... نحن لا نبيع صواريخ مخصّصة لأهداف غير عسكرية».

أخرجت من حقيبتي الصور التي أخذتها نجلا أبو جهجاه للضحايا. وضعتها على الطاولة، صور الدم والأطراف المقطّعة. نظر المسؤول التنفيذي إليها بنفور، ثم قال: «لا أريد هذه». ثم رمى صور القتلى والجرحى من عائلة جحا على الطاولة المطليّة. نظر الكولونيل إليها ثم أعادها إليّ بلطف. افترقنا بعد المصافحة وشعرت بحزن شديد تجاه هؤلاء الرجال. كانوا محترمين، نشطين، موظفين مخلصين لروكويل (الآن بوينغ) وكانوا مصدومين من قصّة سيّارة الإسعاف. أرادوا إظهار تعاطفهم ـ وفعلوا ذلك إلى حدّ ما ـ لكنهم كانوا حريصين جداً على تجنّب أي تهجّم على بوينغ أو على إسرائيل. طلبت منهم الاحتفاظ بشظيّة الصاروخ Hellfire. كنت أعيدها إليهم. وبينما كنت أغادر الغرفة سمعت صوتاً خلفي يقول: «لا أعتقد أننا سنضع هذه في غرفة جوائز الامتياز».

وهكذا انتهت قصّتي. وقد نشرت صحيفة الإندبندنت ليوم الأحد روايتي المفصّلة عن الهجوم الإسرائيلي على سيّارة الإسعاف والرحلة الطويلة إلى جنوب الولايات المتحدة لإيجاد صانعي السلاح. وعلى الصفحة الأولى، نشرت الصحيفة صورة ملوّنة لشظية الصاروخ مظهرة بتفصيل دقيق الأرقام المتسلسلة التي نجت من الانفجار. لكن بعد يومين تسلّمت رسالة من تقنيّ صواريخ أوروبي، طلب عدم ذكر اسمه، قال إنه يريد بعضاً من تسليط الضوء على الحقوق الإنسانية لهؤلاء الأشخاص الذين قُتلوا في سيّارة الإسعاف. ثم تابع قائلاً:

> «إن القطعة المهمّة للدليل، شظيّة الصاروخ، تنطق أكثر مما كشفت. إن رقم تخزين الناتو NSN قد أزيل جزئيّاً لكنّه يعطي دليلاً مهمّاً. إن NSN هذا مؤلّف من إشارات رقمية ٤ك٢ ـ ٣ك٤ متسلسلة... والقسمان الرقميان هما إشارة إلى الرمز الخاصّ بكلّ دولة. كل دولة في حلف الناتو لها أرقام تسلسلية تعرّف بجنسيّتها ـ في هذه الحالة، بدا ظاهراً بوضوح أن «٠١» يرمز إلى الولايات المتّحدة. مما يدلّ

على أن السلاح بالأساس كان مرسلاً للقوّات الأميركية... رقم المجموعة هو الأكثر أهمّية لأنه يدلّك أين تمّ تسليمه وسترى أن القسم الأول من الرقم المتسلسل للشحنة قد أزيل، ويبدو أيضاً أن ذلك جرى بواسطة أداة نحت تمّ الضغط بها على اللوحة.. أما الضرر الآخر فهو من طبيعة التكسير المرتجل السريع. إذن مَن أزال رقم الشحنة؟ القوّات الإسرائيلية عندما تتسلّم أسلحة أميركية مصدّرة بشكل غير قانوني؟ القوّات الأميركية قبل تسليمها؟ من الواضح أن هذا الصاروخ... صدر من مخزون الحكومة الأميركية وأعطي لإسرائيل سرّاً».

أنهى الكاتب قصّته بتحذير، قائلاً إن عليّ الحرص في ما أقول على الهاتف حول التحقيقات عن الصاروخ لأن كل الاتصالات عبر الأقمار الصناعية مراقبة من وكالة الأمن القومي الأميركية في منويز Menwith قرب هاروغيت Harrogate: «تعريض أمن حلف الناتو للخطر» ستكون التهمة ضدّي... لذلك عليّ أن أتوخّى السرّية في تناول الرسالة.

كنت كتوماً... راسلت صديقة في فرنسا وطلبت منها الاتصال بكاتب الرسالة المجهول. بعد بضع دقائق كانت على الهاتف: «اتصل بي من هاتف عمومي. يريد منك أن تقابله غداً على الغداء في فندق لوتتيا في باريس». صباح اليوم التالي، استقللت أول رحلة من بيروت، إلى باريس عند الساعة الثامنة في الطائرة نفسها التي سافرت عليها مع قطعة الصاروخ قبل أيام قليلة. في مطار شارل ديغول أخذت سيّارة أُجرة إلى الدائرة السادسة من باريس.. كان هذا نوع من الفرض أو التكليف الذي سوف يحوّلني إلى البحّار القديم الذي كنته، وسيكون صاروخ Hellfire طائر النورس الخاصّ الذي يحملني.

وصل التقنيّ مع زوجته إلى باريس، ذهب مباشرة إلى صُلب الموضوع، «سيّد فيسك، لم يتمّ بيع هذا الصاروخ أبداً للإسرائيليين. رقم «٠١» يدلّ أنه بيع للقوّات المسلّحة الأميركية. ويثبت الحرف "M" أنه بيع للبحرية الأميركية». هل كان على حقّ؟ أخرج من جيبه لائحة رموز كلّ أسلحة الناتو.. على سبيل المثال: أسلحة إسرائيل المستوردة من الناتو تحمل الرقم «٣١».. رقم بريطانيا المتسلسل هو «٩٩» إيطاليا «١٥». لكن شيفرة الجنسيّة للولايات المتّحدة كانت بشكل واضح «٠١»، أي الرقم الذي كان على شظيّة الصاروخ. والحرف "M" كان للبحرية الأميركية.. لذلك كيف بحقّ السماء تمّ إطلاق صاروخ تابع للبحرية الأميركية من قِبل الإسرائيليين إلى داخل سيّارة إسعاف في جنوب لبنان؟. اتصلت برئيس التحرير أندرو مار الذي قال: «بوب، يبدو أنك ستضيف بعض الأميال الجوّية. عد إلى واشنطن».

فعلت ذلك.. قدّمت طلباً رسمياً للبنتاغون أعطيتهم فيه التفاصيل الكاملة حول أرقام الصاروخ طالباً منهم «معرفة المصدر الصحيح لهذا الصاروخ... هل مرّ عبر أيدي الجيش الأميركي؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف وصل إلى قوّات الدفاع الإسرائيلية؟ ما الإجراء الذي اتخذته الحكومة الأميركية بعد يوم ١٣ نيسان/أبريل؟»... لم أحصل

على ردّ. وبالفعل، وبعد أكثر من ثلاثين اتصالاً من قبلي إلى وزارة الدفاع ووزارة الخارجية، عبر الفاكس أو مباشرة، أعطيتهم بواسطتها الرقم المتسلسل لهذا الصاروخ، والرقم المتسلسل للصاروخ غير المنفجر الذي أُطلق على سيّارة الإسعاف والذي أخذنا منه بعض البيانات التي كانت غير واضحة على الصاروخ المتفجّر، ولم يكن أي مسؤول حكومي أميركي في وزارة الدفاع أو الخارجية مستعدّاً لإعطائي أيّ معلومات. «بعض الأسئلة تأتينا إلى وزارة الدفاع حاملة معها نوعاً من جالب النحس، ويبدو أن أسئلتكم كانت تحمل جالب نحس كهذا». هذا ما قاله لي مسؤول في وزارة الدفاع خلال اتصال آخر دون جدوى إلى مكتبه.

لكنّ البحرية الأميركية اتخذت موقفاً مختلفاً.. فعندما أرسلت إليهم فاكساً بتفاصيل أرقام الصاروخ والهجوم على سيّارة الإسعاف، جاءني الردّ فوراً في اتصال من قِبل الناطقة باسم قيادة البحرية.. قالت لي: «لا نحبّ أن تُستخدم صواريخنا في مهاجمة الأطفال.. أين تنزل؟». انتظرت في اليوم التالي في فندقي قرب مستديرة دوبون.. وفي الساعة الخامسة والنصف وصلت سيّارة أخذتني إلى قاعدة بحرية خارج واشنطن حيث كان سبعة رجال بلباس مدني بانتظاري للحديث معي. جلسنا في غرفة طعام الضبّاط الذين تفحّصوا صور أجزاء الصاروخ قبل أن يبلغوني قصّة صاروخ Hellfire رقم MG188J315-534.

كان هناك حوالي ٣٠٠ صاروخ شُحنت إلى الخليج من قِبل البحرية الأميركية عام ١٩٩٠ لاستخدامها ضدّ جيش صدّام حسين في الكويت. تمّ إطلاق ١٥٩ صاروخاً منها على القوّات العراقية ـ مع أن البحرية الأميركية كتبت تقريراً في ذلك الوقت يقول إنّ بعض الصواريخ أصابت العربات العراقية دون أن تنفجر، أي مثل الصاروخ الثاني الذي أطلقه الطيّار الإسرائيلي على سيّارة الإسعاف اللبنانية ولم ينفجر عام ١٩٩٦ ـ لكن عندما انتهى النزاع، أبلغني ضبّاط البحرية أن حوالي ١٥٠ صاروخ Hellfire غير مستخدم مع عتاده وضِعت في مخزن الذخيرة في ميناء حيفا في إسرائيل من قِبل بارجة أميركية كجزء من التعويض ـ هديّة لإسرائيل ـ لبقائها خارج حرب الخليج عام ١٩٩١ حين كانت معرّضة لهجوم صواريخ سكود العراقي.

اتصلت بالجنرال غوس باغونيس الذي كان القائد اللوجستي للجيش الأميركي خلال حرب ١٩٩١ ضدّ العراق، وقد أكّد لي أنّ: «كلّ شيء أخذناه من السفن (في السعودية) أرجعناه إليها عند عودتها إلى أميركا». لكن باغونيس (الذي يعمل الآن رئيساً للتجهيز في سلسلة سيرز روبَك Sears Roebuck للمخازن)، أضاف ما معناه أنه «لا يعرف ما إذا كانت السفن توقّفت في مكان ما في طريق عودتها». والحال أنها توقّفت بالفعل... فبعد عبورها قناة السويس، أنزلت البحرية الأميركية صواريخ Hellfire وصواريخ أخرى على الشاطئ في شمال إسرائيل(*).

في حال بيع الصاروخ لإسرائيل فإن شروط استخدامه تُرفق به... لكن ذلك كان تحويلاً عسكرياً مباشراً من

(*) وجد المفتّش العامّ لوزارة الدفاع لاحقاً أن ١٨٨ صاروخ ستينغر فُقدت من مخازن السلاح الأميركية عام ١٩٩١ خلال نزاع الخليج. في السنة نفسها، اعترف مكتب التدقيق العامّ العسكري الأميركي أن ٢١٨٥ صاروخ ستينغر دراغون وريدايس اختفت من مخازن الأسلحة الأميركية ـ الأوروبية. أين ذهبت؟.

المخازن الأميركية... دفعت البحرية ثمن الصاروخ لكنها أرسلته أخيراً إلى الإسرائيليين ولم يحصل أيّ استجواب.. وبعد خمس سنوات كان الصاروخ يُطلق على الجزء الخلفي من سيّارة إسعاف. وهكذا قتل صاروخ بحرية أميركي أربعة أطفال وامرأتين في جنوب لبنان(*).

وهناك في واشنطن كان من المفترض أن تنتهي رحلتي.... لولا رسالة من بوب ألغاروتي من شركة بوينغ. . يمكن القول إنها كانت محيّرة إلى حدّ كبير...، فهو يقول إن رجاله فحصوا شظيّة الصاروخ التي تركتها معهم،

(*) بالنسبة إلى الجيش الأميركي، كان ذلك مجرّد استفزاز صغير.. كانت قدرة إسرائيل الظاهرة دون رادع على سلب أسلحة من المخازن العسكرية الأميركية تقلق وتثير غضب الضبّاط العاملين والمتقاعدين في القوّات المسلّحة الأميركية الذين تحدّثوا إليّ، خلال أسبوعَي التحقيق الذي قمت به في الإندبندنت حول عمليات تحويل السلاح إلى إسرائيل، وأعربوا عن غضبهم وهم يشاهدون آلاف الدبّابات والمدرّعات تؤخذ من المخازن الأميركية خلال عشرين عاماً وتُرسل إلى إسرائيل رغم اعتراضات وزارة الدفاع. في أواخر ١٩٧٠ واستناداً إلى ضابط كان يخدم في أوروبا الغربية، عارض كبار الضبّاط الأميركيين سحب كمّيات كبيرة من الأسلحة من ألمانيا لإرسالها إلى إسرائيل. «كنت في مقرّ القيادة في ألمانيا مع رئيس أركان القوّات المشتركة وقد خرج يومها عن طوره، وقال لي: لقد جاءتنا أوامر بتسليم مئات الدبّابات خلال فترة وجيزة... وكان ذلك في أوج الحرب الباردة. كنا نقف عند فجوة فولدا وكان حلف وارسو من الجهة الأخرى أمامنا، وكنا نصرخ أننا نبدّد نقاط قوّتنا في مرحلة من أعلى مراحل التوتّر الأوروبي حدّة. وكان الجنرال يقول «إلى الجحيم» استخدم تماماً هذه الكلمات ـ ولكنه كان مستبعداً من عملية اتّخاذ قرار.. كانت وزارة الدفاع تنفّذ تعليمات بتسليم الدبّابات. لم نقم بذلك طواعية». وروى لي ضابط في سلاح الجوّ كيف أنه خلال الفترة نفسها عاد من إجازة إلى قاعدته الجوّية في الولايات المتحدة ليكتشف أن نصف سرب الطائرات قد أعيد طلاؤه بعلامات إسرائيلية، قال: «بقي لدينا ٥٠ في المئة فقط من السرب، كنت مذهولاً.. لم تتمّ استشارتي، وقيل لي إنه يجب إرسالها إلى إسرائيل وأننا بدون عمل لفترة من الوقت. رسمياً، كان إرسال الأسلحة إلى إسرائيل يحتاج إلى فترة ثلاثين يوماً من الإشعار المسبق... وتحتاج معدّات رئيسية أميركية عسكرية بقيمة تتعدّى ١٤ مليون دولار إلى موافقة من الكونغرس.. لكن كمّيات بقيمة أقلّ من ١٤ مليون دولار لا تحتاج إلى ذلك. «وكان أيّ شخص في الإدارة ينتقد إرسال أسلحة إلى إسرائيل يعرف أن ذلك لن يخدم مستقبله السياسي». إن اللوبي الإسرائيلي قويّ جدّاً جدّاً، ولن يتعرّض للانتقاد».. في الواقع، بعد استخدام الجيش الإسرائيلي قنابل انشطارية أميركية مضادّة للدبّابات، ضدّ المناطق المدنية في بيروت الغربية عام ١٩٨٢، جرى تأنيب إسرائيل في واشنطن. أوقف الرئيس ريغان تسليم الطائرات من القاعدة الجوّية في دوفر إلى إسرائيل وكانت تشتمل على طائرات ف١٥ أو ف١٦ مقاتلة ـ قاذفة أميركية بينما كانت لجنة الكونغرس تحقّق في استخدام القنابل الانشطارية في لبنان. ولكن حتى بعد رفع الحظر عن كشف المعلومات المصنّفة سرّية، فإنها شطبت من التقرير النهائي.. وقد رفضت الإدارة الأميركية نشر كامل ما توصّل إليه تقريرلجنة الكونغرس على قاعدة أن فقرات الجلسات كلها كانت مصنّفة سرّية. كانت كلمة «مصنّفة سرّية» هي الكلمة التي استُخدمت غالباً في واشنطن عندما كنت أسأل عن تحويل الأسلحة... وتتضمّن الملفات الوطنية للكونغرس مراجع عديدة حول «عمليات تحويل مصدّقة قانونياً» إلى إسرائيل... لكنها ليست مُتاحة للرأي العامّ. لم يوجد أحد في واشنطن قادر على أن يفسّر لي في حزيران/يونيو ١٩٩٧، على سبيل المثال، لماذا احتاجت إسرائيل (ولماذا أُعطيت) ٩٨ ألف قنيفة مدفعية جديدة من مخزون الولايات المتحدة. أبلغني محلّل عسكري أميركي ـ صنف يحبّ الدعاية في الظروف العادية إلا أنه أحجم في هذه القضيّة ـ أن «كمّية ضخمة من القنابل حُوّلت إلى إسرائيل ولا أحد يعرف شيئاً عن ذلك. وقلّل العسكريون هنا من حجم التحويل وقالوا إنهم أرادوا التخلّص من بعض العتاد العسكري لأنه قديم. لكن كمّية مماثلة من المعدّات الجيّدة غادرت مخزوننا إلى إسرائيل بدون إذن. لقد مرّت عبر القنوات القانونية لكن لم يكتب أحد تقريراً عنها أو جرى التحقيق فيها.. لا أحد سأل أين استُخدمت وكيف استُخدمت... وفي حال أنها قتلت أبرياء فهل تعتقد أن إدارة كلينتون سوف تؤلّف أغنية حولها وترقص لها؟ سيقولون بأن انتقاد إسرائيل قد يهدّد عملية السلام... لقد أعطيت لإسرائيل كلّ الضمانات الممكنة بأنها لن تُمسّ».

«وهم يعتقدون بأنها صُنعت في مصنع أورلاندو في فلوريدا من قِبل لوكهيد مارتن التي كانت في ذلك الوقت شركة منافسة... لكنّ القصّة لَم تكن بهذه البساطة. ذلك أن «الرقم المتسلسل الفدرالي» المتضرّر جزئياً بالانفجار يُظهر الأرقام ٠٤٩٣٩، وهذه (على الأقلّ الأرقام الأخيرة) تدلّ بشكل نهائي على أنه يجب أن يكون الصانع إما نحن وإما مارتن ماريتي». لم يكن ذلك قاطعاً بما فيه الكفاية.. فإذا كان الأمر بين روكويل (الآن بوينغ) أو مارتن ماريتا (الآن لوكهيد مارتن) فمَن منهما صنع هذا الصاروخ القاتل؟ إن صاروخ Hellfire الذي أطلقه الإسرائيليون على سيّارة الإسعاف صُمّم بشكل واضح وطوّر من قِبل بوينغ في دولوث. وبدا الآن أن الصاروخ بحدّ ذاته ربّما جرى تجميعه من قِبل لوكهيد. هناك الكثير من المال في هذا الموضوع.

قالت بوينغ التي رفض مقرّ إدارتها العامّة في سياتيل إضافة أيّ شيء إلى ما قالوه لي في دولوث، أنها لم تتصل بلوكهيد مارتن بخصوص التحقيق الذي كنت أقوم به. لكن عندما اتصلت بآل كمحي، مدير الاتصالات لدى لوكهيد، والذي كان بالصدفة في رحلة عمل إلى لندن، عرف بالضبط فيمَ كنت أحقق، وسأل بحدّة: «أنت تتكلّم حول ما ناقشته مع روكويل؟... أعني أنه ليست لديّ وسيلة لمعرفة أيّ صاروخ كان ذلك... ليست لديّ طريقة لمعرفة ما إذا كان ذلك الصاروخ قد جاء من حيث قلت إنه جاء... إن جماعة بوينغ يمكن أن يكونوا مقتنعين بقدر ما يريدون.. أمّا في ما يتعلّق بي، فأنا لن أعمل على فحص شظايا صاروخ من... إن منشأها مجهول كلّياً ـ أنا ببساطة لن أقوم بذلك».

سألت: «هل أستطيع إعطاؤك إيّاها؟». وأصبحت محادثتنا غير عادية تقريباً:

كمحي: كلّا، لن أقبلها.

فيسك: لن تقبلها؟

كمحي: كلّا.

فيسك: أتستطيع أن تخبرني لماذا تقول كلّا يا سيدي؟ أعني أن هذا يتعلّق بموت أربعة أطفال وامرأتين في سيّارة إسعاف.

كمحي: لا أعلم ما إذا كان لهذا الصاروخ دخل في ذلك. أعني لا أستطيع التعليق على شيء لا معلومات لديّ عنه.

فيسك: حسناً، أنا أقدّم لك معلومات بحيث تستطيع التحقّق منها، يا سيّدي إن بوينغ تبدو مقتنعة أنها صُنعت من قِبل جماعتكم.

كمحي: لست متأكّداً إن كنتُ أفهم ـ إذا كان أو إذا لم يكن ـ ما هي القضية هنا؟.

أبلغت كمحي أنني أريد معرفة تعليق الشركة التي صنعت هيلفاير Hellfire على الأحداث التي حصلت عندما استُخدم صاروخها، أجاب: «ليس لديّ أيّ تعليق حول ما جرى، إنني حتى لن أدخل الحلبة... لقد تمّت مبيعاتنا من خلال مبيعات عسكرية أجنبية... هذه هي الطريقة التي تمّت بها، من خلال البنتاغون». كرّرت القول إن ضبّاط الأمم المتّحدة وجدوا الصاروخ في سيّارة الإسعاف إضافة إلى صاروخ هيلفاير Hellfire آخر لم ينفجر. ليس هناك أدنى شكّ حول مصدرهما. لكنّ محادثتنا استمرّت بطريقة غريبة.

كمحي: حسناً، بصراحة، لا علاقة للصاروخ بالصانع.

فيسك: لكنك صنعته.

كمحي: حسناً، نصنع أشياء كثيرة، أيضاً.... بيعت منتجاتنا لدول الحلفاء...

فيسك: هل يتضمّن ذلك إسرائيل؟

كمحي: أعتقد أنه إذا كان لدى اسرائيل صواريخ فإن ذلك يعني أنهم اشتروها عبر القنوات القانونية وبطرق قانونية.

فيسك: لكنّني أعني، هل تهتمّون بكيفيّة استخدام صواريخكم من قِبل هؤلاء الأشخاص الذين بعتموهم إيّاها؟ أعني أن هذه نقطة مهمّة، سيّدي.

كمحي: آسف، لن أقوم بتشريف هذا السؤال بجواب، إنه ليس سؤالاً مربحاً... لن أردّ على ذلك... السؤال الذي سألته «هل توقفت عن ضرب زوجتك؟» سؤال ليس مهمّاً كيف أجيب عنه، أصبحنا كلّنا فجأة المصنع الشرّير للصاروخ. نصنع صواريخ، نصنع أنظمة ألكترونية، نصنع أنظمة دفاعية متنوّعة، وأمنيتنا ألّا تُستخدم أبداً، لا نعلم إذا كان أسيء استخدام الصاروخ، يمكن للصاروخ أن يخطىء...

شرحت لكمحي أن الإسرائيليين اعترفوا بأن سيّارة الإسعاف كانت الهدف.. فقال: «عليهم تحمّل مسؤولية ذلك»... لكن عند هذا الحدّ، وعندما قلت له إنّ حكومة الولايات المتّحدة مهتمّة شخصياً بموضوع استخدام سلاح بلادها من قِبل الزبائن، بدّل كمحي لهجته، جزئياً فقط.. قال: «نحن دائماً مهتمّون عندما يُصاب أحد ما، أما في ما يتعلّق بموضوع لماذا استُخدم الصاروخ... فليست هناك طريقة نستطيع من خلالها السيطرة على الأمر أو فهم لماذا يحدث ذلك... ليس لدينا أي دور في ذلك... أنت تعلم، في كلّ يوم يُقتل ٦٠٠ شخص في أميركا، ولا مرّة بحسب علمي عاد أحدهم واستجوب صانع الرصاصة».

وهكذا استمرّ الحديث وكمحي أكثر إثارة من أيّ وقت... كرّر لي أنه لم يعلم ما إذا كانت الإسعاف هي الهدف المقصود ـ ومجدّداً عرضت عليه مستنداتي مع صور شظيّة الصاروخ. ردّ بنفاد صبر: «لا أستطيع الجزم، لم أكن أنا من ضغط على الزناد، لم يكن لوكهيد مارتن هو الشخص الذي كان هناك يطلق الصاروخ.. في نهاية الأمر

يجب أن تقع المسؤولية على المستخدم... ليست مهمّتنا نحن، المصنع، الذهاب قُدماً واتخاذ موقف في قضيّة كهذه».

كانت ردود كمحي يائسة، سيّئة. لكن كانت رسالته واضحة. إذا أُطلق صاروخ أميركي على سيّارة إسعاف، فإن الذين صنعوه سينفون بشراسة أيّة مسؤولية عن ذلك. كان على إسرائيل أن تشرح الأمر.. وهي عندما فعلت ذلك (موافقة على أن ذلك كان ضدّ كلّ قوانين الحرب، إذ إنّ صاروخ Hellfire أطلق عمداً على سيّارة الإسعاف) كانت أميركا صامتة. اكتملت المعادلة. فقد ظهر أن بإمكان إسرائيل القيام بما تريد. وليست لدى لوكهيد النيّة للتعاون مع تحقيقنا ـ وذلك، في اعتقادي على الأقلّ، لأن لوكهيد تشارك الآن في تطوير صاروخ مع شركة الملاحة الجوّية الإسرائيلية رفايل.

وافق كمحي أن أُرسل إليه في فندقه في لندن رزمة من التقارير الإخبارية حول قتلى سيّارة الإسعاف مع الرقم المتسلسل للصاروخ وصور شظيّة الصاروخ التي تركتها عند بوينغ. لذلك أخذت في اليوم التالي قطار النفق من باريس إلى لندن. سافرت والرزمة برفقتي عبر ربيع الريف المنعش في «كينت» وعبر مدينتي بالذات مايدستون. وكانت رحلة طويلة ـ منذ تركي قرية المنصوري اللبنانية الجنوبية ـ إلى فندق بريتانيا في لندن حيث كان يقيم آل كمحي. لم يكن في غرفته، لذلك تركت الرزمة لدى مكتب الاستقبال آخذاً وعداً بأنها ستسلّم إلى السيّد كمحي باليد عند عودته إلى الفندق.

بعد ثلاثة أيام، وصلت الرزمة نفسها ـ مفتوحة ثم مربوطة مجدّداً ـ إلى المكتب الخارجي لصحيفة الإندبندنت في لندن.

مُرتجع للمرسل.

الفصل العشرون

حتّى إلى الملوك يأتي ......

كيف أستطيع أن أمضي بسلام وبدون ندم؟ كلّا، ليس بدون جرح في النفس أمضي تاركاً المدينة.
طويلة كانت أيّام الألم التي أمضيتها بين جدرانها وطويلة كانت ليالي الوحدة. ومَن يستطيع التخلّص من وحدته وألمه بدون ندم؟ تبعثر الكثير من أجزاء الروح في هذه الطرقات.... ليست قطعة ثياب خلعتها هذا اليوم، لكنها جلد مزّقته بيدي.

جبران خليل جبران ـ النبي

كان منزلي في بيروت «صندوق زمن» لأكثر من ثلاثين عاماً.. أي مكاناً توقّف الزمن فيه وجمد. فكم من مرّة جلست على شُرفتي المطلّة على المتوسّط في حرارة الصيف الرطبة كما في عواصف الشتاء، أراقب الأفق في منتصف ليل مضاء بأنوار متشعّبة متنوّعة... فيما الأمواج تلمع فجأة بلونها الذهبي وتنساب تلقائياً تحت شقّتي. وكم من مرّة استيقظت في سريري لأسمع حفيف سعف النخيل التي تحرّكها الرياح في الخارج ليلاً، والمطر يطرق بقوّة على النوافذ حيث تتجمّع قطرات الماء ثم تنساب من أسفل تلك النوافذ الفرنسية وتدخل إلى غرفتي. لقد جئت إلى لبنان في العام ١٩٧٦ وكان عمري ٢٩ سنة.. ولأنني عشت هناك منذ ذلك الحين، ولأنني كنت أقوم بالعمل نفسه منذ ذلك الحين، أي تأريخ الخيانات والخداع وخيبات الأمل في تاريخ الشرق الأوسط طيلة تلك السنوات ـ فإن عمري ما زال ٢٩ سنة. أصبح سائقي عبد أكبر سنّاً. لقد كنت ألاحظ انحناءه في الصباحات التي كان يحضر فيها الصحف، الصحف الصباحية الصادرة في بيروت وصحيفة الإندبندنت المتأخّرة يوماً واحداً عن صدورها في لندن. كان صاحب الشقّة مصطفى الذي يقطن في الطابق السفلي قد ناهز سنّ السبعين.. كان شائقاً وحكيماً لكنه كان متعباً أكثر مما بدا عليه. والصحفيون الذين كنت أعرفهم حينها (عام ١٩٧٦) انتقلوا ليصبحوا محرّرين شركاء أو محرّرين تنفيذيين أو رؤساء تحرير. وقد استقرّوا في منازل منهاتن بنيويورك أو أرلنغتون بلندن. تزوّجوا وأصبحوا آباء وتوفّي بعضهم. وفي بعض الأحيان، كنت أقرأ صفحة الوفيات في الصحيفة ـ لأنه ليس من شيء مُرضٍ مثل قصّة حياة لها نهاية وبداية ـ وكنت ألاحظ كيف بدأت تواريخ الولادة فيها تقارب تاريخ ولادتي. عندما جئت إلى بيروت كانت أعمدة الوفيات تسجّل سيرة كبار محاربي الحرب الكبرى مثل والدي. وبعدها بدأت تتحدّث عن وفيّات العشرينيّات والثلاثينيّات، الفترة التي تسبق تاريخ مولدي بعشر سنين. وحتى الآن ما زال عام ١٩٤٦ يظهر في أسفل الصفحة. في بعض الأحيان كنت أعرف هؤلاء الموتى الجدد من الرجال والنساء: جواسيس وجنود

ورجال دولة ومجرمون التقيتهم خلال العقود الثلاثة الماضية في الشرق الأوسط، ويوغوسلافيا وإيرلندا الشمالية. وأحياناً كنت أكتب هذه الوفيات بنفسي. ففي يوم ربيعي بارد كتبت سيرة صديق قديم وزميل صحفي هو خوان كارلوس غوموسيو، الرجل المقدام والهادئ، الذي أنقذ حياتي في الحرب وجلس على شرفتي مرّات عديدة موزّعاً الحكمة والسخرية والنبيذ الفاخر... أنهى حياته منتحراً في بيته في بوليفيا لأن العالم لم يعد مكاناً لطيفاً ولم يعد يعني شيئاً بالنسبة إليه. ولكنني ما زلت في التاسعة والعشرين وأستطيع العودة إلى الوراء سنواتٍ مع كابوس الذكريات والألم. أن للبنان تاريخاً عنيفاً لكن هذا البلد كان بلداً رائعا بالنسبة إليّ. لقد علّمني كيف أبقى على قيد الحياة. وبالرغم من كل ذكريات الحرب والصداقات والنساء الجميلات والكتب التي قرأتها بعد منتصف الليل ـ حتى ساعات الصباح الطويلة عندما يتسلّل النور من الستائر ـ كانت عندي دائماً فكرة أن بيروت هي المكان الذي يلجأ إليه المرء وكأنه في بيته.

كم مرّة استقللت رحلة طيران الشرق الأوسط MEA القديمة من الخليج، أو من مصر أو البلقان أو أوروبا وسمعت صوتاً قوياً يطلب الإذن بالهبوط على المدرج ١ـ٨، وعلمت أنه خلال نصف ساعة سأطلب كأساً من الجين أو مياهاً معدنية أو سمك السومون في مطعم سباغيتيريا Spaghetteria في عين المريسة القريب من شقّتي، بحيث أستطيع السماح لعبد بالذهاب إلى منزله لأعود إلى شقّتي ماشياً على الشاطئ وأنا أتنشّق رائحة الهال والقهوة وعرانيس الذرة...

بالطبع أنا أعرف الحقيقة.. فأنا أحسّ أحياناً بطقطقة عظامي عندما أستيقظ عند الصباح وأجد شعراً أبيض على وسادتي. وعندما أحلق ذقني يتراءى لي في المرآة وجه بيل فيسك وهو يحدّق بي أكثر من أي وقت مضى. ليلة وفاته، اصطدمت سيّارة بمستوعب قمامة خارج شقّتي في بيروت، وكان الصدى قويّاً تبعه انزلاق الدواليب المعدنية على الإسفلت. وقد تابعت السيّارة طريقها دون توقّف. لذلك، نزلت بثياب النوم وساعدت مصطفى على إزاحة العربة الثقيلة إلى جانب الطريق بحيث لا تشكّل خطراً على السائقين الآخرين، وبعد ذلك اتصلت بي بيغي الساعة ٨:١٥ لتخبرني أن بيل فيسك توفّي في مأوى العجزة. قالت إنها لن تحضر الجنازة وإنّ عليّ ترتيب عملية الدفن. أبلغتها ـ وهذا أوّل ما خطر ببالي ـ أنه كان رجل عصره وأنه علّمني حبّ القراءة، فوافقت بيغي على صحّة ذلك.. وهكذا نزلت وأبلغت مصطفى وعائلته أن والدي توفّي، ووفق العادات العربية قام كل منهم بمواساتي بطريقة معبّرة ومؤثّرة أكثر احتراماً من طريقة الغربيين المبتذلة. لكنني لم أستطع التصريح بأنني حزين. ربّما لأن بيل عاش طويلاً ـ أو ربّما لأن لبنان وجرائم الحرب التي كتبت عنها جعلت مني رجلاً قاسياً كما لو أن الأحداث التي شهدتها جعلتني بارداً وبلا رحمة في نظرتي إلى وقتنا الحاضر.

تحرّك فرسان الحملة الصليبية الأولى بعد ذبحهم سكّان بيروت باتجاه القدس على طول ساحل المتوسّط وذلك لتجنّب سهام الرماة العرب... ولقد فكّرت مراراً في أنهم عبروا فوق صخور الشاطئ اللبناني، تماماً مقابل شرفتي.. في شقّتي صور على الجدران للأسطول الفرنسي في بيروت عام ١٩١٨ ولوصول الجنرال غورو، أوّل مندوب فرنسي سافر إلى دمشق ووقف في حرم الجامع الأموي، وأطلق أقسى التصريحات في تاريخ الشرق

الأوسط عندما قال أمام قبر صلاح الدين: «صلاح الدين... لقد عدنا». وكانت لارا مورو قد أهدتني منظاراً ثنائياً للبحرية الفرنسية من أيام الانتداب ـ ربّما كان مع ضابط فرنسي خدم في لبنان ـ وكنت أستخدمه ليلاً لمراقبة الزوارق الإسرائيلية المسلّحة التي تقوم بأعمال الدورية في عُرض البحر، أو السفن الحربية التابعة لحلف الأطلسي (الناتو) والراسية في ميناء بيروت. وعندما وصلت القوّة المتعدّدة الجنسيات إلى هنا عام ١٩٨٢ لنقل مقاتلي عرفات الفلسطينيين من لبنان ثم عادت لحماية الفلسطينيين الناجين من مجزرة صبرا وشاتيلا، أحصيت ٢٨ سفينة حربية للحلف من شقّتي، وقد قام الأميركيون بإطلاق القذائف الأولى على لبنان من إحداها. وذات ليلة، شاهدت ضوءاً أبيض يتحرّك بموازاة الأبنية المجاورة، وبعد دقيقة أدركت أنها أنوار بارجة عسكرية أميركية تتّجه نحو المدينة.

كان الإيرانيون الذين قابلتهم مراراً يعتقدون بأن بيروت مليئة بعملاء المخابرات الأميركية، ولدى الأميركيين قناعة بأن بيروت تكتظّ برجال المخابرات الإيرانية الملتحين. وأظنّ أحياناً بأن الطرفين كانا على حقّ. ذلك أن بيروت واصلت بشكل ما تراث فيينا لما بعد الحرب، كونها نقطة التقاء لكل المعارضين في العالم يراقب فيها بعضهم بعضاً ويتساءلون أيّ قاسم مشترك أو كراهية تبقيهم معاً في هذه البقعة؟ وأذكر أن سفيراً أميركياً في بيروت قال مرّة إن لبنان كان حصناً للديمقراطية في العالم العربي ـ في الأسبوع نفسه الذي أعلن فيه السيّد محمّد حسين فضل الله أن لبنان يُعتبر الرئة التي تتنفّس منها إيران.

كان ذلك في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ عندما أعلن نائب الرئيس الأميركي جورج بوش ـ بعد مقتل ٢٤١ جندياً أميركياً في مقرّ قيادة البحرية الأميركية في بيروت ـ «إننا لن نسمح لمجموعة من الإرهابيين الجبناء بضرب السياسة الخارجية لأميركا. لن يتمّ إملاء السياسة الخارجية أو تغييرها بالإرهاب». وبدت هذه العبارات قديمة الآن وضائعة مع الوقت. وفي عام ١٩٩٨، اكتشفنا نقطة تحوّل جديدة لما ستصبح عليه «الحرب على الإرهاب». كانت قنابل القاعدة تضرب العمق الأميركي والسفارات والثكنات. وقام الرئيس بيل كلنتون بقصف السودان ـ مصنع أدوية رغم أكاذيب واشنطن بأنه عكس ذلك ـ ثم أرسل سيلاً من صواريخ كروز على معسكرات أسامة بن لادن في أفغانستان. متى سينتهي ذلك؟

في مقابل هذا التاريخ، ما هي أهمّية موت بيل؟ كان من السهل النسيان، وأنا جالس على شرفة شقّتي في بيروت، أن الجنرال غورو وصل إلى لبنان بموجب اتفاق سايكس ـ بيكو والانتصار الإنغلو ـ فرنسي في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وإطاحة الفرنسيين بالملك العربي فيصل الذي احتلّ دمشق حتى قبل سقوط الإمبراطورية العثمانية.

قامت فرنسا بحكم سوريا وفصل لبنان عن جسمه وإعطائه للغالبية المسيحية الصغيرة التي ستصبح أقلّية بين المسلمين في الدولة اللبنانية الجديدة والمصطنعة التي أنشأها الفرنسيون. إن وجود لبنان، مثله مثل معظم دول الشرق الأوسط التي أُنشِئت، اعتمد على انتصار الإنكليز والفرنسيين والأميركيين، وصار ممكناً بسبب السلام الذي أعقب الاستسلام في ١١ كانون الأول/ديسمبر ـ ليلة ذهاب الملازم أول بيل فيسك إلى ثكنة لوفنكور.

لديّ في شقّتي في بيروت مجلّدات حول الانتداب الفرنسي، معظمها مطبوع في باريس عام ١٩٢١، وهي تسجّل عملية إعادة بناء البلد وإعادة ترتيب النظام القضائي العثماني والعُملة الجديدة وتحديث البنوك وخطّ سكّة الحديد، وكل ما يتعلّق بمهمّة فرنسا الحضارية في الشرق الأوسط. وقد استقدم الفرنسيون لتحديث سكّة الحديد اللبنانية ـ السورية مجموعة من العربات البخارية الجديدة لاستخدامها بين طرابلس وحمص. وقد حصلوا عليها، وفق معاهدة فرساي كتعويضات عن الحرب من ألمانيا القيصرية.

ذهبت بحماسة تلميذ المدرسة لمشاهدة العربات البخارية التي عرفها والدي جيّداً... ذهبت لمشاهدتها بعد انتهاء الحرب الأهلية. كانت تلك العربات البخارية الكبيرة ما زالت موجودة على السكك وقد تمزّقت مراجلها بفعل القذائف الكبيرة، وكانت مقطوراتها الثماني ممزّقة بطلقات الرصاص ـ لقد كانت جزءاً من خطّ الدفاع الأوّل للفلسطينيين ضدّ القوّات السورية في ميناء طرابلس عام ١٩٨٣ ـ وكان الزيت لا يزال ينساب من خزّانات وقودها ـ في مركز سكّة الحديد العائدة إلى بداية القرن التاسع عشر. بعد أن دوّنت الأرقام التسلسلية للمحرّكات وعدت إلى بيروت، اتصلت بالخبير في العربات البخارية في الشرق الأوسط الحاخام والتر روتشيلد في شركة ليدز، الذي أبلغني بأن ملكيّتها تعود بالفعل للرايخ. وقد كانت هذه الأشياء الضخمة المنتشرة تنقل في يوم من الأيام الطبقات الوسطى في ألمانيا من برلين إلى دانسك. وتذكّرت أنه منذ فترة طويلة، أو هكذا تهيّأ لي ـ كان ذلك في عام ١٩٩١ ـ كتبت إليّ صديقة، أكنّ لها عميق المحبّة، قصيدة قالت فيها إنها أحبّت «الولد في داخلي الذي أراد قيادة قطارات بخارية»... وقد فعلت ذلك... أحببتُ سكك الحديد.

اكتشفت بين قُصاصات بيغي صوراً لها وهي في إجازتها في باريس، وصوراً للعربات البخارية المكتشفة في كراي وفيلماً ملوّناً عن قطار أوروبا السريع الأبيض والأحمر وهو يدخل محطة فريبورغ في ألمانيا. وعندما عدت إلى بيروت اكتشفت أن الحكومة أعادت فتح الخط القديم بين بيروت وجبيل. جلست إلى جانب السائق بينما كان يقود ببطء القاطرة الضخمة التي تسير على الديزل مع عربتها الخشبية الصغيرة ـ التي استُقدمت من الهند البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى ـ بحيث استطاع عبد السير إلى جانب القطار والتلويح بيده لي بينما كان السائق يطلق الصفّارة طالباً من السيّارات إفساح الطريق.

ثم جاء اليوم الذي توفّيت فيه والدتي. عانت بيغي من مرض باركنسون حتى قبل موت بيل... إلّا أنها استمرّت تقاوم وتعيش في مايدستون في المنزل الذي ترعرعت فيه وحيث كانت ترعاها ثلاث سيّدات عطوفات... لقد أرادت أن تموت في منزلها.... وهكذا، فقد جاءني اتصال آخر من مايدستون في أيلول/سبتمبر ١٩٨٨ وهذه المرّة من السيدة التي اعتنت بوالدتي قالت فيه إنّه لم يتبقّ لبيغي سوى بضعة أيام. كان لا يزال لديّ الوقت الكافي للوصول إلى بريطانيا. قبل سنوات من وفاتها قالت لي بيغي إنها لا تريد ربطات عنق سوداء في مأتمها وإن على الجميع ارتداء ملابس فاتحة الألوان. وقد حصَلت على الجنازة التي أرادتها في الكنيسة الصغيرة الأنغلو ساكسونية في بارمينغ خارج مايدستون. كانت هناك جبال من الزهور، ولم يكن هناك ربطة عنق سوداء واحدة ـ حتى حاملو

النعش كانوا يرتدون ملابس عاديّة ـ وقد أنشدت الجوقة نشيد: «كل شيء هو مبهج وجميل». لكن وفاة والدتي لم تكن كما رغبت ولم يكن ذلك بالتأكيد هو المصير الذي تستحقّه.

كانت تتمتّع بروح وطنية مثل بيل مع أنه لم يكن لديها أسلوب بيل الطنّان. وكانت قد انضمّت خلال الحرب العالمية الثانية إلى سلاح الجوّ البريطاني وقامت بصيانة أجهزة اللاسلكي التي تضرّرت بفعل نيران الحرب. وكانت شقيقتها بيبي تُدرّب عناصر المدفعية المضادّة للطائرات على أجهزة الاتصال البحرية. كانت بيغي شُعلة من التفاؤل في شبابي. وكانت تقول لي: «كلّ شيء سيكون على ما يرام في النهاية»، وعندما سألتها مرّة عن الهدف من الكفاح في سبيل تحصيلي العلمي كوننا سنموت جميعاً يوماً ما، أجابت: «عندما تكبر ربّما يكونون قد وجدوا علاجاً لذلك». وكانت والدتي تؤمن بالخلود بشكل ما وقد حملتُ معي تفاؤلها آلاف الأميال من كينت إلى أفغانستان، وخلال المعارك المرعبة في الحرب العراقية ـ الإيرانية، والنزاع في لبنان.

لكنْ كان لبيغي وجه آخر.. فبينما أُحيل والدي على التقاعد، أصبحت والدتي قاضية. وتذكّرت أنها عندما كانت في أحد الأيام تناقش والدي بلطف ـ وكانت وجهة نظر والدي حول القضاء الجنائي ترجع إلى أحكام القاضي جيفري ـ قالت بيغي بحدّة: «يقول المتّهم غالباً الحقيقة. وأنا لا أثق دائماً برجال الشرطة». وعندما كنت صغيراً، كان أوّل كتاب أعطتني إيّاه للقراءة هو مذكّرات آن فرانك ـ لأنها أرادت مني فهم طبيعة الخير والشر. وإبّان الحصار الإسرائيلي لبيروت، خطّ تلفون نادراً لتتصل بي في العاصمة بيروت واستخدمته لتبلغني كيف أنها تدين الوحشية التي مورست ضدّ الفلسطينيين.... وسألتني لماذا تنفق الحكومة باستمرار الكثير من المال على الأسلحة.

كانت ترسم لوحات مائية وزيتية ملوّنة، صوراً طبيعية ووجوه أشخاص... وتشهد مذكّراتها على مصاعب العيش مع بيل في شيخوخته، لكنّها تتحدّث بهدوء عن الحياة المستقلّة التي عاشتها بعده. أرادت السفر كثيراً: زيارة لبنان والذهاب إلى إيرلندا. ورأت أن هناك حياة كاملة من الرسم ما زالت أمامها. لكن بعد إصابتها بمرض باركنسون فقدت القدرة الجسدية على عيش حياة كريمة ـ بقدر ما حافظت على إرادة الحياة لديها.

خلال أربع سنوات كانت تستطيع الكلام أو السير. لذلك كانت تتواصل من خلال إشارتها بعصا إلى كلمات على اللوح. بعدها لم تعد تستطيع الإشارة. أصرّت على أن تؤخذ إلى حديقة منزلها على كرسيّ متحرّك. ثم أصبحت بيغي مريضة جدّاً. وقد انتهت محاولتها الأخيرة للرسم عندما رمت بالفرشاة على الأرض غاضبة. وظلّت تؤمن حتى النهاية بأنهم سيجدون علاجاً لمرضها... أما مَن «هم» هؤلاء، فإنهم أولئك الذين سيجدون يوماً ما علاجاً للموت.

في أيامها الأخيرة، فقدت بيغي القدرة على الأكل والبلع وأصيبت بالتهاب رئوي، وقد زارتها شقيقتها بيبي وقالت لها إنها كانت «التفاحة في نظر أمّها».. وابتسمت بيغي لذلك. وعندما وصلتُ إلى بيتها، كانت تحاول

جاهدة السعال لإخراج ما في رئتيها، وكانت تتألّم. وبينما كنت أراها وهي تحتضر، تذكّرت تكلفة المغامرة الأخيرة لبيل كلينتون في الشرق الأوسط. بلغ إجماليّ ما أنفقته حكومة الولايات المتحدة ١٠٠ مليون دولار خلال خمس دقائق من إطلاق صواريخ كروز في أفغانستان والسودان. كم أنفقت في البحث عن علاج لمرض الباركنسون؟ وكم أنفقت الحكومة البريطانية في هذا المجال؟

في ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨، بعد يوم من وفاة بيغي ـ لم يكن هناك أي وميض إدراك أو انفعال... وإنّما توقّفت بيغي عن التنفّس فقط ـ اتصلت بجمعية مرض الباركنسون في لندن. إنهم ينفقون كل سنة ما بين ١,٥ مليون و٢ مليون دولار على الأبحاث.. والمبلغ نفسه كانت تنفقه أيضاً الحكومة البريطانية. لكن عام ١٩٩٧ (بحسب ما أبلغني مسؤول في الجمعية) أوقف مجلس البحوث الطبّية تمويل الأبحاث المتعلّقة بالأعصاب. اتصلت بنيويورك للتحدّث إلى إحدى أهمّ جمعيات الباركنسون في الولايات المتحدة. لقد أنفقت الحكومة الأميركية ٤٥ مليون دولار من وزارة الدفاع الأميركية على قُدامى الحرب، وأنفقت شركات الصيدلة حوالي ٣٥ مليون دولار. إذن كان الغرب ينفق على مرض الباركنسون في السنة أقلّ من إنفاقه في خمس دقائق على الأسلحة.

كان ذلك نوعاً من الجنون الإنساني الذي أغضب بيغي. وخلال مأتمها المزدان بالورود قرّرتُ الإشارة إلى ذلك. وقد ذكرت في كلمتي إلى أصدقائها الذين حضروا إلى كنيسة بارمنغ أننا ضيّعنا الكثير من الوقت في قبول الموت القاسي، من دون التذمّر عندما يُنفق المال الذي يجب استخدامه لإيجاد علاج للسرطان والزهايمر أو الباركنسون على الأسلحة أو المغامرات العسكرية. وسألت: «لماذا لا نغضب ضدّ الذين يوافقون على الفكرة المشينة القائلة بأن المرض يجب أن لا يعالج وأن «المختارين» من بيننا يعلمون ماذا يفعلون عندما يفضّلون الصواريخ على الدواء؟ قلت: لو أُنفقت الأموال بشكل جيّد لما كانت بيغي تقبع في هذا التابوت على المذبح.

كان لذلك كلّه تأثير غريب، حتى إنك لتسمع صوت الوردة وهي تسقط عندما كنت أتكلّم.. لكنّ راعي الأبرشية وهو رجل لطيف وذكيّ ومن غير العاملين في الكنيسة، ردّ بصلاة قائلاً إنه «سينقل هذا الغضب إلى الله» ـ ممّا يعني أنه لم يفهم مقصدي. إلّا إذا كان هناك مكتب بريد إلى السماء يعيد طرود الغضب إلى الرؤساء ورؤساء الوزراء.. لا داعي لإزعاج الخالق. كنت أوجّه الكلام إلى أصدقاء بيغي. وكان بعضهم قد أبلغني أن أقاربهم يموتون من أمراض مستعصية، وهكذا شعرت بعد ذلك أنني فشلت في إفهامهم وكذلك في إفهام راعي الأبرشية ماذا كنت أعني.

كانوا يتحدّثون عن بيغي على أنها مرتاحة الآن وأنها لم تعد تتعذّب... وبلغتني رسائل تتحدّث عن راحة بيغي ـ كما لو أن أمّي أرادت الموت. سمعت إحداهنّ تتحدّث عن «إرادة الله» ممّا يوحي (إذا ما أخذنا المسألة إلى نهايتها المنطقية) بأن الله كتب لها أنت تموت. إذا كانت رسالة حياة بيغي هي التفاؤل والفرح للآخرين، فإن طريقة موتها ـ بالإذن من نظام قيمنا الاجتماعية المنحرف ـ لم تكن ضرورية إطلاقاً. كان من شأن والدي، وهو الرجل ذو الذهنية القديمة، أن يدين ملاحظاتي في الكنيسة. وأعتقد أنها كانت المرّة الأولى التي يذكر فيها اسم

أسامة بن لادن في مكان مقدّس من الكنيسة البريطانية. وربّما كانت بيغي لتعترض على قسوة كلماتي، لكنها كانت تريد مني قول الحقيقة.

لقد سبقت ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ بثلاث سنوات ويوم. هل كان حبّها للحياة وتفاؤلها ليتكدّرا بالجرائم الدولية ضدّ الإنسانية التي وقعت في نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا؟ أو أن منطق الحقّ والباطل الذي دفعها إلى الاتصال ببيروت المحاصرة عام ١٩٨٢ كان هو الذي سيغلب؟ كان لديها حسّ النسبية الذي صار مفقوداً بعد ٢٠٠١. أعتقد أن ذلك يعود إلى كونها قد عاشت الحرب العالمية الثانية. كانت دائماً تتذمّر عندما كان السياسيون يستخدمون المقارنات حيال جُلجلة ذلك النزاع. فلطالما عرفت أن ٥٠ مليون نسمة قضوا في تلك السنوات وأن آلافاً ذبحوا حول العالم في كل يوم ما بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٥. وقد يُعتَبَر من قبيل القسوة السؤال: وما ثلاثة آلاف قتيل مقارنة بهذا البحر من الدم؟ بالتأكيد كان من شأن بيغي (وينبغي أن أقول هنا إن ذلك ينطبق أيضاً على والدي في شيخوخته) أن تلعن كذب رؤسائنا ورؤساء وزرائنا. وحيث أن الأموات يعودون إلينا ويتحدّثون في مخيّلتنا، فإنني أستطيع اليوم سماع صوت غضبها يلعلع في السنوات التالية، أكان ذلك في أفغانستان أم في العراق... تماماً كما أستطيع الإحساس بثقتها بالحياة. والآن وبعد أن أصبحت هذه الحياة أكثر خطورة (بالنسبة إلى الصحفيين خاصّة، بالنسبة إلينا) أستطيع أن أتذكّر بكل وضوح الكلمات التي تمتمت بها بيغي بينما كانت تُحتضر على السرير في الغرفة الأمامية لمنزلها. أفترض أن أيّ ولد بدون أخوة وأخوات حريّ أن يقول الشيء نفسه: أنا هو التالي.

عدت إلى بيروت في ذلك الأيلول الرطب. عرفت طواقم الخطوط الجوّية اللبنانية لسنوات وجلست مراراً خلف مقعد الطيّار. ولدى الصحفي فطرة ثرثارة لجمع وقائع لا قيمة لها، كيس قُصاصات لتفاصيل تافهة مجموعة من آلاف الرحلات ومن زيارات إلى مئات المستشفيات. وكان لدى الطيّارين اللبنانيين هوس بالسياسة، ألغام من القيل والقال والمعلومات. كانوا يقومون بتسريب كل قصّة أرويها لهم... وفي مقابل ذلك على ما أعتقد، كانوا يحاولون جذب اهتمامي إلى عملهم. كانوا يُعلّمونني قراءة تعليمات الطيران ويساعدونني على فهم تعليمات الطيران والرحلة، والغرض من قوّة الدفع المعاكسة للمحرّك ونظام الاتصالات مع المراقبة الأرضية. هل من السهل تعلّم الطيران؟

قال لي سائق تاكسي عندما ركبت في سيّارته على كورنيش بيروت منذ أربع سنوات: «أنا محظوظ كوني على قيد الحياة، وأنت محظوظ كونك على قيد الحياة».. وكان مرافقي هو من لفت انتباهي إلى معنى هذه الكلمات ـ وقد فكّرت في ذلك في ما بعد وقلت في نفسي: نعم إنه على حقّ، أنا محظوظ، ومحظوظ جدّاً لكوني ما زلت على قيد الحياة. فلقد سافرت بعيداً طيلة هذه السنوات، عبرت الشرق الأوسط شهراً بعد شهر... وفي أواسط التسعينيّات كنت أحاضر في أنحاء أوروبا وأميركا، وأسافر من بيروت إلى الولايات المتحدة مرّتين في الشهر أحياناً. في إحدى الليالي كنت أحاضر في لوس أنجلوس وفي اليوم التالي في باريس وبعد ٢٤ ساعة كان عبد يقود بي في أنحاء جنوب لبنان. كنت أستيقظ وأنا في إحدى الطائرات، أتصبّب عرقاً، ناسياً إلى أين أنا مسافر،

ناظراً من النافذة بقلق. هل هو الصباح أو الغسق؟ هل أجريت الترتيبات لكي أتصل بالمكتب من باريس؟ هل كتبت تقريراً من كاليفورنيا مساء أمس ـ وهو منتصف النهار في لندن؟ لم يكن لدى أهلي أيّ تصوّر حول حياتي.

كنت ما أزال مراسل إيرلندا الشمالية عندما زرت نيويورك لأوّل مرّة عام ١٩٧٥. فقد سافرت يومها لمقابلة فتاة من كلونمل كانت تعمل في وول ستريت ووصلت خلال عاصفة ثلجية نتج عنها اصطدام سيّارتي المستأجرة بباص على جسر ڤيرّازانو. . . وعندها ضللت طريقي إلى المطعم حيث تواعدنا وضعت قرب النهر الشرقي. أزلت الثلج عن مقصورة هاتف واتصلت بالمطعم. قال المضيف إنهم في انتظارنا وإنّ عليّ أن أتبع فقط اتجاه السير نحو برجَي مركز التجارة العالمي الجديد لكي أصل إلى المطعم. ورغم العاصفة الثلجية في نيويورك، تمكّنا من مشاهدة ذينك البرجين ونحن بعيدون عن منهاتن لأكثر من ساعة، حتى وصلنا إليها.. وهناك كان المضيف في انتظارنا واقفاً في الثلج وهو يحمل مظلّة.

عندها لم تبدُ الولايات المتحدة عدائية جدّاً. كان الإنكليز غاضبين من أن الجيش الجمهوري الإيرلندي IRA كان يستطيع جمع أموال في أميركا ـ تلك كانت السنوات السابقة على: «الحرب على الإرهاب».. لم يختر سلاح الجوّ البريطاني نقل الصراع إلى أرض العدوّ وقصف بوسطن... وبدت الأمم المتحدة قادرة على «التعاطي» مع السلام بعد حرب الشرق الأوسط في عام ١٩٧٣. وكنت قد زرت بيروت قبل الحرب الأهلية قادماً من بلفاست في إجازة ولاحظت أنه كان على الطرقات الكثير من الجنود اللبنانيين، وأن الفلسطينيين كانوا يعيشون في ظلّ السلاح ومشاعر المرارة في الأحياء القذرة لمخيّمات اللاجئين في لبنان. لكنني كنت يومها مستغرقاً إلى حدّ بعيد في الصراع الإيرلندي ـ البريطاني لكي أفهم النيران التي كانت تشتعل بعيداً عنا.

كان جمال بحر بيروت أحياناً يثنيني عن السفر. وكان موعد رحلتي إلى الأردنّ الساعة السادسة، لكن عند منتصف النهار وأمام إغراء الشمس والبحر والطبيعة، طلبت من وكيل سفري أحمد شبارو تأجيل السفر وإيجاد رحلة مبكرة في اليوم التالي. ولذلك نمت باكراً واستيقظت على تغريد الحمام على أشجار النخيل ثم انطلقت إلى المنطقة التي أسّسها ونستون تشرشل للهاشميين والتي ما زالت أسرتها الحاكمة يمثّلها الرجل الذي كنا نسميه «الملك الصغير الشجاع».

عشاء مع الملك الصغير الشجاع... وتنتشر الأنباء في الوسط الصحفي الشرق أوسطي. أصرّ الديوان الملكي على كون العشاء غير رسمي.. وفهمنا من ذلك أن ما سنسمعه ليس للنشر....

عندما ذهبت للعشاء في القصر الملكي ـ كان ذلك في أيلول/سبتمبر ١٩٩٣ ـ شاهدت الطاولة المضاءة بالشموع والمزيّنة بالزهور.. وبدا أن رفع الكلفة وعدم الرسمية يعنيان السرّية. وعندما قال الملك حسين بن طلال: «هذا للنشر»، ظهرت المفكّرات بين أيدينا وتحرّكت مسجلّات الجيب على الطاولة الرخامية. قال الملك يومها إنه

إذا وجّهت له دعوة فلربما زار عرفات في أريحا. وقال إن الحكومة الإسرائيلية كانت شجاعة وبعيدة النظر في اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية وإنّ على العالم دعم هذه المبادرة التاريخية. كانت تلك «فرصة أخيرة».

كم سمعنا تكراراً هذه العبارات: «فرصة أخيرة»؟ كانت كامب ديفيد «فرصة أخيرة»، والآن اتفاق عرفات ـ رابين هو «فرصة أخيرة». وكان لا مفرّ من أن يقوم مراسل أميركي بالسؤال عن صحّة الملك. بالطبع، أخبرنا الملك، فهو قد عاد لتوّه من الولايات المتحدة بكلية واحدة: «لكن الفحص الأخير لم يظهر أي أثر للسرطان». سيكون هناك فحص كلّ ستّة أشهر. وقال: «إنني أحاول قدر الإمكان الإقلاع عن التدخين». وقد نظرنا جميعاً إلى علبة المارلبورو في اليد اليسرى للملك عند انتهاء العشاء. ليس الملك الصغير الشجاع رجلاً ضعيفاً، لكنه كان قلقاً من الموت.. إنه الآن رجل دولة مسنّ وليس هناك شيء ليخسره إن تحدّث عمّا يجول في ذهنه علناً. لذلك عندما تجرّأت سيّدة من صحيفة الواشنطن بوست السؤال عن حقّه في تأجيل الانتخابات، أشار إلى الدستور الأردنيّ ـ وامتيازات الملك ـ بطريقة فيها شيء من الانزعاج. إنه لم يكن من الرجال الذين يمكن تخطّيهم، أو من الذين يحتملون المعارضة. لكن من الصعب في أغلب الأحيان تحميل الملك الصغير الشجاع الذنب. لقد وعد بالمساواة بالنسبة إلى الفلسطينيين في الأردنّ الذين اختاروا البقاء بعد انتخابات عرفات للحكم الذاتي.. وبعد اعترافه في قمّة الرباط عام ١٩٧٤ بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني. وقد بقي الملك طيلة نصف قرن الزعيمَ الشرق أوسطيّ الوحيد المطالب رسمياً باستعادة الأراضي العربية المحتلّة وليس أكثر من ذلك.

جلسنا حول الطاولة واستمعنا إلى ذلك كلّه وكانت الملكة نور ـ النصف أميركية ـ تُشرف على مقدّمي الطعام والشراب.. وشعرنا بالحرج من الكلام عن شبح صدّام حسين. لكنه يظهر في الحفلة. سألنا الملك عن دور صدّام حسين في سلام الشرق الأوسط وعمّا يعنيه هذا الوضع؟ وسرعان ما انفكّت عُقدة لسانه... لقد عانى الأردنّ بسبب اهتمامه الإنساني بالشعب العراقي خلال حرب الخليج عام ١٩٩١، وكاد ميناء العقبة وهو الشريان الوحيد الذي يصل الأردن بالعالم يوشك على الإفلاس. «ليس سرّاً أنني لم ألتق وجهاً لوجه القيادة العراقية منذ فترة طويلة قبل الحرب.... كان اهتمامي يشمل كل دول المنطقة. لقد حاول الأردنّ إقناع العراقيين بالانسحاب من الكويت، غير أنني فشلت في ذلك». لكن هل قرأنا تقرير اليونيسف حول موت مليون طفل عراقي نتيجة عقوبات مجلس الأمن في نهاية ١٩٩٣؟ أجل، «في إطار السلام وإذا نجح العراق في إعادة بناء نفسه ـ عراق ديمقراطي متعدّد يحترم حقوق الإنسان ـ فإن لدى البلد دوراً كبيراً يلعبه» ... يتطلّب الأمر إقصاء صدّام لكن الملك لم يقل ذلك... وتحدّث الملك الشجاع عن الديمقراطية، تلك الظاهرة الفريدة التي يمكن أن تنقذ الشرق الأوسط من التطرّف.

هل خُدعنا بذلك؟ لم يكن الملك يرغب في حكم بلاده من دون برلمان، كما أخبرنا، لكنّ الأردنّ ليس ديمقراطية غربية تماماً. وقد دعا في إحدى المرّات إلى: مزيد من الديمقراطية، مزيد من المشاركة، مزيد من حقوق الإنسان. ولكن ماذا كان يعني ذلك؟ أشار الملك إلى أنه يتمنّى العيش ليرى القدس مجدّداً. . كان نور الشمعة يسطع فوق رأس الملك الأصلع... وتمنّى ألّا يحصل شيء «للرئيس عرفات». أطلّ الموت على مائدة العشاء، وكان لدى الملك حسين خمس سنوات أخرى للعيش.

كان الملك الصغير الشجاع رجلاً صلباً وقد أبقى رفضه الوقوف ضدّ صدّام حسين بعد غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠، الأردنيين والفلسطينيين من سكّان الأردنّ مخلصين له. كانت لديه عادة لطيفة ـ ومُربكة ـ هي دعوة محدّثه بكلمة «سيّدي» وهي عادة اكتسبها خلال وجوده في ساند هورست Sand Hurst، لكنها قادتنا نحن الصحفيين إلى فخّ التفكير في أنه يظهر الاحترام لمحادثيه. لقد تعرّض لحملة شرسة من الصحافة الأميركية بسبب عدم مساندته لحرب أميركا ضدّ صدّام. وقد اضطرّ قرّاء الصحف إلى متابعة التحليلات التي لا تنتهي حول ما سيكون عليه مصير الملك. هل هذه نهاية الهاشميين؟ هل يزول الأردنّ من الوجود؟ لقد جرى التنبّؤ بالنهاية نفسها لعرفات. هل هذه نهاية منظمة التحرير الفلسطينية؟ لكن من المؤكّد أن العزلة الدولية التي جعلت عرفات ضعيفاً لإجباره على إقامة سلام مع إسرائيل، تركت الملك حسين بلا صديق لإقامة سلام مع إسرائيل.

كان سلاماً جُمّد بسرعة.. سلاماً كان الملك حسين يفضّل كثيراً لو تأخّر حصوله. لكنّ اتفاق عرفات الخاطئ في أوسلو جعل اتفاق الأردن مع إسرائيل يوم ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤ لا مفرّ منه. ولا حاجة إلى القول إننا ذهبنا إلى هناك لمشاهدة «الفرصة الأخيرة» التالية. وكانت تحتاج إلى العديد من التواقيع... وهناك في حرارة وادي عربة وجد رجال الدولة أيضاً صعوبة في فهم الاتفاق. كان هناك أربعة مجلّدات من المستندات يحتاج كلّ منها إلى التوقيع بستّ أيد ناهيك بالصفحات الملحقة. ولم يكن عجيباً إذن استمرار بيل كلينتون في فرك وجهه طالباً نظّارة شمسية وماسحاً عينيه بقطعة قماش سوداء لأن نور الصحراء كان ينعكس على الأوراق. ثم جاء الجنود بالخرائط.

وضِعت الخرائط لمزيد من التواقيع وكان طولها ستّة أقدام. خرائط لباقورة ـ نهاريم، لظفر، للمياه الراكدة في اليرموك وللملّاحات في البحر الميت. وقد رفع عبد السلام المجالي، رئيس الوزراء الأردني، يده بذهول حين وضع المزيد من الملفّات على الطاولة. كان كلينتون مغموراً بالنور الذي ينعكس على الأوراق، وأدار ظهره لضيوفه بينما زوّده أحد مساعديه بقطرة للعين... وهناك في وسط الصحراء. كان وزير الخارجية الروسي أندريه كوزيريف يرتدي قبّعة ونظّارة شمسيّة ممّا جعله يبدو ـ وهو يوقّع اسمه بشكل متكرّر ـ أشبه بمدير فريق كرة قدم يوقّع للنجم الجديد.

وهكذا قام رجال وادي عربة بفصل الأردنّ فصلاً حازماً عن إسرائيل، وبفصل الأردنّ عن الأرض التي كانت فلسطين. وهكذا سمح الملك حسين لإسرائيل بالاستمرار في الوجود على حدود الأردنّ. وهكذا أنهت الأردنّ وإسرائيل ٤٦ سنة من الحرب يراقبهما مسؤول صغير من منظمة التحرير الفلسطينية في عمّان، الممثل الوحيد للشعب ـ الفلسطيني ـ الذي تقاتلا حوله. وقفوا دقيقة صمت تكريماً لآلاف الإسرائيليين والأردنيّين ـ بعضهم فلسطينيون ـ الذين قتلوا خلال الست وأربعين سنة الماضية. وقال الملك حسين: «أظنّ أنهم معنا في هذه المناسبة». كانت تلك أنبل ملاحظة قيلت ذلك اليوم من قِبل ملك مسنّ ومتعب، ورجل يفكّر الآن في الموت ولدى شعبه تحفّظات خطيرة حول السلام.

كانت مدينة القدس على بعد عدّة كيلومترات وراء الجبال الرمادية ـ البنّية إلى الجهة الشمالية الغربية من المقاعد التي يجثم عليها أصحاب المراكز وما زال قسمها الشرقي ـ والضفّة الغربيّة ـ تحت الاحتلال الإسرائيلي. وقف الصحفيون الأردنيّون متجهّمين في الحرّ. وصرّح أحدهم بينما كانت سيّارة كلينتون الليموزين تسير بين حقول الألغام القديمة على الجبهة الأردنية ـ الإسرائيلية: «ليست هناك فرحة حقيقية من جانبنا. ينظر الشعب إلى ذلك على أنه عملية جراحية ـ شيء علينا القيام به. يُعتبر هذا نصراً لإسرائيل وهزيمة لنا». لم يفهم رجال الدولة في وادي عربة ذلك بهذه الطريقة. كان «سلام الشجعان» (كلينتون)، «مصدراً للفخر»، «فجر حقبة جديدة»، «يوماً ليس كغيره» (الملك حسين)، «سلام الجنود وسلام الأصدقاء» (رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين). وبدا الملك من بين هؤلاء أكثر الرجال عظمة، وأنهى خطابه بملاحظة تركت تساؤلاً: «ليس هذا الاتفاق مجرّد قطعة ورق... سيصبح حقيقياً عندما نفتح قلوبنا وعقولنا بعضنا لبعض»، سلام بين الشعوب. غير أن الرجلين يعرفان أن السلام بين الدول لا يعني بالضرورة السلام بين الشعوب في الشرق الأوسط.

احتضن صحافي إسرائيلي موظفاً أردنياً بينما كانت مجموعة من الفتيات الإسرائيليات توزّع زجاجات المياه الباردة التي كتب عليها بالعِبرية والعربية عبارة «السلام الإسرائيلي ـ الأردني تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤»، لكن منشأ مياه الزجاجات ـ مرتفعات الجولان التي تحتلّها إسرائيل ـ كان مطبوعاً فقط بالعبرية. وكانت مئات الكراسي مربوطة بعضها إلى بعض برباط بلاستيكي ـ الرباط نفسه الذي يستخدمه الجيش الإسرائيلي لتقييد الأسرى.

أطلقت طواقم المدفعية ٢١ طلقة، وكان يمكنها في غير هذا اليوم أن تطلق النار بعضها ضدّ بعض... وعُزف النشيد الوطني الأردني الهادر قبل النشيد الوطني الإسرائيلي هاتكفاه الجميل.. ووقفت على المنصّة فتاتان هما حفيدتا جنديين، إسرائيلي وأردني، قُتلا في حرب ١٩٦٧، ممّا حرّك مشاعر المحاربين المسنّين الذين كانوا يقفون إلى جانب الرئيس الأميركي. لكن الأمر كان يحتاج إلى مختارات بيل كلينتون من العبارات ـ على غرار اللازمة: «تحويل الأرض المهجورة إلى منزل لكل إنسان»، إضافة إلى تهديداته المتكرّرة ضدّ «الإرهاب»، لتذكير الخمسة آلاف وخمس مئة ضيف بأن ذلك كان سلاماً أميركياً، برعاية الولايات المتّحدة وبضمانتها ـ وهي التي تعتبر إسرائيل أقرب حلفائها في الشرق الأوسط. وعندما نُشرت الملحقات في ما بعد اكتشفنا أن الحدود بين الأردنّ والضفّة الغربيّة المحتلّة سُجّلت على أنها الحدود النهائية بين الأردنّ وإسرائيل.

لم يكن لدى الملك حسين أيّ مبرّر للشعور بأن الأردنّ بات آمناً نتيجة معاهدة السلام. لقد أصيب قبل أسابيع قليلة من وفاته بخيبة أمل، خاصّة عندما كشف صحفي إسرائيلي عن فكرة راودت أرييل شارون طويلاً. فقد كتب إسرائيل هاريل في صحيفة هآرتس: «لقد تأسّس الأردنّ على جزء من الأرض اليهودية... وسيبدو واضحاً في المستقبل أن دولتين (إسرائيل وفلسطين) لا تستطيعان العيش على قطعة صغيرة من الأرض إلى الغرب من الأردنّ وأنه لا يمكن إقامة دولتين هنا. إذا كانت الدول ذات الأراضي الواسعة والتي لا تحتاج إلى مساحات إضافية تضع

عينها على الأردنّ، فيجب على إسرائيل أيضاً تثبيت مطالبتها بالأردنّ... مع هذه الأرض ـ وحتى مع جزء منها ـ نستطيع بمعاونة شركائنا في عملية السلام تسوية مشاكل إقليمية عديدة مع الفلسطينيين».

اغتيل رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين على يد إسرائيلي ـ «متطرّف»، بحسب الصحفيين الغربيين، وبالطبع «غير إرهابي» ـ بعد سنة من توقيع معاهدة عربة... وقد عاش الملك حسين أربع سنين ونصف سنة بعدها. لم يتوقف الملك عن تدخين المارلبورو الخفيفة ومات بعد علاج كيميائي مرهق لا جدوى منه في الولايات المتحدة... وجرت مسيرة سيّارات في شوارع عمّان تحت المطر للاحتفال بشفائه المفترض. وقد أصابت الهاشميين فضيحة ذات أحجام ملكية لدى عودته الأولى إلى الأردنّ.. فقد قام الملك حسين باستبعاد شقيقه حسن عن ولاية العهد. وعرف الحسن أن لعبة الملوك قد انتهت وذلك بمجرّد وصول الملك حسين إلى مطار الملكة عالية. كان هناك تأييد شعبي للرجل الذي ظنّ أنه ربح المعركة مع مرض السرطان. لكنه تجاهل ابن شقيقه رشيد وأظهر بوضوح ما يفكّر فيه كوليّ للعهد من خلال تجوّله في المدينة مع الملكة نور وليس مع الحسن بحسب التقليد... وهكذا جرى تجاوز الحسن. وأصيب الرجل الذي انتظر ٤٦ سنة ليصبح ملكاً للأردنّ بخيبة أمل.

جرى إبلاغ الحسين في عيادته الأميركية، أن الحسن حاول طرد رئيس أركان الجيش الأردني وأن زوجة الحسن الباكستانية قامت بتغيير السجّاد في القصر الملكي استعداداً لتصبح ملكة. بدا أن الروايتين غير صحيحتين. وقد أبلغ الحسن الملياردير السعودي الوليد بن طلال أنه لم يستطع شراء منزل رئيس الأركان لأنه يعود للمُشير. وبدأت صور عديدة للأمير حسن تظهر في أنحاء الأردنّ ـ وهذه سابقة خطيرة ـ وكذلك ظهرت لاحقاً صور لابنه. وقد اتّهمه الحسين علناً بالتحضير لشبه انقلاب.

عندما وصلت شكوك الملك إلى أخيه، ذهب إليه وسأله بدون موارية: «كيف أسأت إليك؟ هذا مسدّسي وإذا لم أكن مخلصاً لك اقتلني ـ لكن لا توجّه إليّ الإهانة». أمر الملك حسين أخاه باستعادة مسدّسه وأكد له أنه ما زال وصيّاً على العرش. كانت خاتمة ذلك أكثر من عادية... إذ استدعى الملك أخاه حسن إلى القصر الملكي بعد منتصف الليل يوم ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٩ ليقدّم له رسالة تنحيته. وكان هناك مصوّر ينتظر لالتقاط صور الحسن وهو يسلّم شاراته إلى وليّ العهد الجديد عبدالله بن الحسين. عاد الحسن إلى سيّارته دون أن يكون عنده وقت لقراءة الوثيقة... وبينما كان يقود السيّارة فتح جهاز الراديو ليسمع في الأخبار المحلّية مضمون الرسالة التي لم يفتحها... كم هو قلق ومضطرب.... رأسٌ كان يحمل تاجاً...

شعر العديد من الأردنيين أن طريقة تنحية الحسن كانت قاسية بغير مبرّر. وكان الحسن بصفته وليّاً للعهد قد تلقّى أمراً من الملك بتسليم مشاريع التنمية الأردنية ـ وهو دور كان قد وضعه بطريقة ما في نزاع مع حكومة رئيس الوزراء عبد الكريم الكباريتي الذي قيل إنه كان يكره الحسن-شخصياً. واعتقد وزراء بأن الحسن كان يتخطّى صلاحياتهم وهذا شيء لا يحقّ له القيام به لأن الحقّ الدستوري الوحيد لوليّ العهد في الأردن هو حقّ الخلافة فقط. لكن لو أن الحسن عاد بالذاكرة إلى ذلك اليوم المشهور (منذ حوالي ٤٣ سنة) عندما اعتقد خادم أمين آخر

للعرش الأردني أنه بمأمن في عمله، لكان عرف ما سيكون عليه مصيره... كان الملك حسين في الحادية والعشرين من العمر حينها.. لكنه تجادل مع الليفتانت جنرال السير جون باغو غلوب القائد البريطاني للفيلق العربي والمستشار العسكري الأوّل لسموّه. عارض غلوب خطة الملك حسين ـ كان الملك يريد الردّ على الغارات الإسرائيلية على حدوده ـ وقدّم للحسين قائمة بمجموعة من الضبّاط في الفيلق على أنهم مخرّبون ويجب إقالتهم. وقام الملك بطرد الجنرال البريطاني (٥٩ سنة) مع الضابطين المساعدين ورئيس الأركان ومدير المخابرات، نتيجةَ اقتناعه بأن لندن تحاول السيطرة على القوّات المسلّحة الأردنية. وأبلغ الحسين حكومته وهو بحالة غضب أن أوامره يجب أن تنفّذ على الفور. انحسر غضب الملك بعد أن تمّ كل شيء لمصلحة بلاده. لكن بالنسبة إلى الملك المريض في مستشفى مايو Mayo عام ١٩٩٩ كان وليّ العهد يحاول السيطرة على الجيش ـ تماماً كما جرى اتهام غلوب باشا بالأمر نفسه عام ١٩٥٦.

والحال أنه لم تكن هناك أية مفاجأة في تنحية ولي العهد حسن. فقد عاش الهاشميون دائماً على الحافّة، بين الكارثة والخلاص، بمأساوية وأعصاب باردة، كانت دوماً تدهش بقيّة زعماء العرب. كان لديهم دائماً ميل إلى التأرجح بسرعة بين الغضب والتأمّل، الجنون السياسي والصداقة الأبدية، وهذه ميزة قد يتمتّع بها العرب الخليجيون أكثر من عرب المشرق. لكن عائلة الحسين جاءت أيضاً من الخليج، من ولاية الحجاز، وكان جدّ أبيه الحسين شريفَ مكّة بموجب قرار عثماني. وقد أقصت مجموعة دينية مخلصة لآل سعود ـ الأصوليون المسلمون في عصرهم ـ الهاشميين، مما أصبح يسمّى السعودية في ما بعد. وعيّن ونستون تشرشل عبدالله، جدّ الملك حسين، أميراً على الأردنّ. وكان عبدالله يرغب في أن يصبح ملكاً على فلسطين ـ التي كانت ضمن خطط أخرى للإنكليز. وقد أصبح فيصل، شقيق عبدالله، ملكاً على العراق ترضية لخسارة عرش سوريا ـ التي كانت لدى الفرنسيين خطط أخرى لها. وقد حاول الملك عبدالله إقامة سلام مع الصهاينة الذين خطّطوا لإقامة دولتهم الجديدة في فلسطين... وبعد نكبة ١٩٤٨، أصبحت حياة الملك هي الثمن. لقد قام بضمّ الضفّة الغربيّة لنهر الأردنّ بينما أصبح معظم فلسطين دولة إسرائيل. وشهد الحسين (١٥ سنة) شخصياً اغتيال عبدالله في القدس، وهي عملية اغتيال دبّرها الفلسطينيون.. وبهذا كان الهاشميون عائلة خاسرة، أسرة ملكية معتادة على الريبة وعلى التصميم في آن معاً. خسروا الحجاز، وخسروا غرب فلسطين.. وفي بغداد، بعد عشر سنوات، قُتل الملك فيصل الثاني ـ حفيد شقيق عبدالله الذي عيّنه الإنكليز ـ بانقلاب بعثي جاء بعد عشرين سنة بصدّام حسين إلى السلطة. وفي عام ١٩٦٧ اختار الملك حسين، وذلك في أكبر كارثة في تاريخه، الانضمام إلى مصر وسوريا في حربهما ضدّ إسرائيل.. وجرى طرده من الضفّة الغربية والقدس. وفي أقلّ من نصف قرن، خسر الهاشميون الحجاز والعراق وكل فلسطين. وبشكل حتمي، أصبحت قصّة العائلة الهاشمية هي قصّة الملك الصغير الشجاع. وكان من الطبيعي أن يجعله تعليمه الإنكليزي محبّباً لدى الإنكليز الذين يُعجبون بالشجاعة في مواجهة الأعداء، كما يُعجبون أكثر بالخاسرين الجسورين. عندما تزوّج الملك حسين أنطوانيت أبريل غاردينر ابنة الليفتانت كولونيل من سلاح الهندسة الملكي البريطاني عام ١٩٦١، ساد شعور بأن الأردنّ أصبح محميّة بريطانية مرّة أخرى. وقد أنجبت توني (Toni) ـ التي أصبحت الأميرة منى ـ ولدين للملك حسين هما عبدالله ـ الملك الحالي ـ وفيصل. وكانت الثانية بين الزوجات

الأربع للملك الذي كانت زيجاته مضطربة مثل سياسات الدولة[*]. لقد طلّق زوجته الأولى والأكبر سنّاً، دينا، بعد سنة ونصف سنة على زواجهما، وسلّم سفير الأردنّ في مصر ورقة طلاق الملكة بينما كانت تزور قريباً لها مريضاً في مصر. وانهار زواجه بمنى (Toni) بعد أن وقع نظره على الجميلة عليا طوقان، وهي مضيفة في الخطوط الملكية الأردنية، والتي أدّى حبّها للملك إلى شعوره بالطمأنينة ـ تزوّجا عام ١٩٧٢ ـ وقد قتلت بتحطّم مروحية بعد أربع سنوات. ويعتبر مطار عالية الدولي الوحيد في العالم الذي يحمل اسم ضحية بعد موتها بتحطّم طائرة. وفي عام ١٩٧٨ تزوّج إليزابيت حلبي التي أصبحت الملكة نور، امرأة جميلة أيضاً وقويّة وهي أطول من الملك، وقد قامت بتعزيز عدم الثقة تجاه شقيقه الزاهد والمفكّر حسن. وقيل في عمّان إنه في حال وصول الحسن إلى السلطة فإن نور ستغادر البلاد .

كان على الملك مواجهة العواقب نتيجة خسارته للضفّة الغربيّة: الغضب والاحتقان الفلسطينيين، وأيضاً ما كان أشبه بمحاولة انقلاب دبّرها المقاتلون الفلسطينيون. وبوحشية لم يجر حتى الآن الاعتراف بحقائقها، قامت قوّات البدو الملكية بشقّ طريقها إلى داخل مخيّمات الأردنّ لتسحق سلطة الثوّار. ونتيجة لاستخلاصه العبرة من تسرّعه في الانضمام إلى حرب ١٩٦٧، بقي الملك خارج حرب ١٩٧٣ ولم يتحرّك ... محافظاً على اتصالات سرّية مع الزعماء الإسرائيليين (كما فعل جدّه من قبل)... كان الملك يريد الاحتفاظ بما عنده ... فقد أصبح الحفاظ على الأردنّ ـ بلد مصطنع أنشأه الإنكليز ـ قبل كل شيء، وآخر كل شيء، بالنسبة إلى الهاشميين. وكان الملك الصغير الشجاع صديقاً للغرب. وعندما تحدّثت صحيفة الواشنطن بوست أن الملك حصل على ملايين الدولارات من المخابرات الأميركية، جرى التعتيم على ذلك في عمّان.

في الغرب، نميل إلى تقسيم العرب إلى ثلاث مجموعات وهميّة ممّا يثبت عنصريّتنا وجهلنا... هناك:

أوّلاً: مخطّطون من رجال الأعمال، خليجيون جشعون، نراهم في الأفلام الطويلة وروايات الكرتون المعادية للساميّة في الصحافة الأميركية (كون العرب ساميين مثل اليهود)..

ثانياً: إرهابيون أصوليون...

(*) يلاحظ دبلوماسي بريطاني في عام ١٩٨٣، أن مراقبة حياة الملك الشخصية غير السعيدة هي «تجربة حزينة جدّاً». حتى في ذلك الوقت، كان هذا الدبلوماسي يرى الملك كرجل مريض يعاني من مشاكل في القلب ومُتعب بعد تسع ساعات من المفاوضات مع ياسر عرفات. كان خوف الملك في ذلك الوقت يتلخّص في قيام الإسرائيليين بضمّ الضفّة الغربيّة ولذلك فإنه دفع بعشرات الآلاف من الفلسطينيين شرقاً عبر نهر الأردنّ. وأبلغني الدبلوماسي نفسه أن الإسرائيليين سيفضّلون دولة راديكالية فلسطينية في الأردنّ عوضاً عن دولة صديقة للغرب يحكمها الهاشميون، على قاعدة أن لا أحد سيطلب منهم تقديم تنازلات لدولة منظمة التحرير الفلسطينية المتطرّفة شرق الضفّة، في حين أن أميركا ستطالبهم باستمرار بمفاوضات مع الملك حسين إذا استمرّ الأردنّ على وضعه الحالي. قال الدبلوماسي أيضاً: كان الملك يحتار دائماً أمام فشل الأميركيين في فهم ما يجري في الشرق الأوسط. «كانت لديهم مصادر هائلة للحصول على المعلومات لكنهم لم يستطيعوا أبداً ترجمتها بشكل صحيح». لن تتغيّر أشياء كثيرة في السنوات العشرين القادمة.

وثالثاً: (كانعكاس لصورة هوليوود الأساسية عن الزعيم البدوي الصحراوي والتي خلّدها رودولف فالنتينو) محاربون قُساة من الصحراء.... كان الهاشميون تحديداً من صنف «المحاربين القساة».. أو على الأقلّ هكذا كان الملك حسين.

ولم يكن الملك يتمتّع بالرياضة والطيران فقط، بل كانت لديه أيضاً نظرة ثاقبة نحو رياضة غرفة النوم. قبل بضعة أشهر من تشخيص مرض السرطان، كان يغازل فتاة أردنية في العشرينيّات من عمرها. لم تكن الملكة نور مسرورة لكنّ ذلك لم يؤثّر على سمعته.. فالأمراء السعوديون مثلاً لا يعانون من نقص في النساء.. وأمير الكويت عقد سلسلة من الزيجات المؤقّتة مع نساء القبائل. ورغم ذلك كان من المستحيل فصل حياة الملك حسين العاطفية عن المغامرات السياسية. ففي حين كان الصديق المقرّب للغرب، فقد أدهش حلفاءه الأميركيين باحتضانه صدّام حسين ـ لفظياً ـ بعد غزو العراق للكويت[*]. . . هل كان يؤمن حقّاً بأنّ صدّام سيحرّر القدس؟ أو أن الأردنّ يستطيع الاستمرار بدون عرب الخليج؟

أطال الملك لحيته، وفي عمّان كانوا يسمّونه شريف مكّة، مما أغضب السعوديين. بدا وكأنه كان يتطلّع لاستعادة الأراضي الضائعة (أي الحجاز حيث كان أجداده شرفاء مكّة ـ المترجم)... كان يعرف أن الفلسطينيين سيدعمون العراق، فأصبح الملك الأكثر شعبية في العالم العربي في اللحظة التي أصبح فيها الملك الأقلّ شعبية في العالم الغربي.

كان الأميركيون مستعدّين لطيّ الحقبة الهاشمية، لكن في عام ١٩٩٣ جاءت «صفقة» عرفات للسلام ومعاهدته مع إسرائيل... وبين ليلة وضحاها أصبح الحليف المخادع لصدّام المتوحش هو الملك الصغير المقدام مجدّداً. عاد الأردنّ إلى جانبنا مرّة أخرى. وقد بنى الأميركيون سفارة جديدة ضخمة محصّنة في ضاحية عمّان. «إنه مقرّ القيادة الجديدة للمخابرات الأميركية؟».. كما قال الملك حسين وهو يمازح أصدقاءه الأردنيين عندما نظر ذات ليلة إلى المجمّع الضخم. ربّما كان على حقّ. قد يُرجع الهاشميون نسبهم إلى النبي محمّد (ص) ـ وهم يفعلون ذلك ـ لكنهم كانوا ملكيين أكثر منهم ديمقراطيين.. أوليغارشية (نخبة ملكية) حاكمة أكثر منها ملكية حديثة... رغم ما قد يكونون عليه من ليبرالية ووقار على الصعيد الفردي.

(*) لا جديد في ما يتعلّق بميل الحسين إلى إحداث صدمة. عام ١٩٨٧، وبعد فترة قصيرة من اكتشاف أن الدكتور كورت فالدهايم (الأمين العامّ السابق للأمم المتّحدة وبعدها رئيس النمسا) كان ضابطاً للمخابرات في وحدة من جيش Wehrmacht E النازي في البوسنة خلال الحرب العالمية الثانية ـ وهو دور حرص على كتمانه ـ دعاه الملك للقيام بزيارة رسميّة للأردنّ. وقد اصطحب الملك ضيفه بطائرة هيلكوبتر إلى مرتفعات أم القويس لمشاهدة الضفّة الغربية المحتلّة من قِبل إسرائيل.. وقلّده وسام الحسين بن علي، المسمّى باسم جدّه... ومدح فالدهايم لوطنيته ونزاهته وحكمته، «وقِيَمه الإنسانية النبيلة». وعندما شاهدت فالدهايم يقوم بتحيّة حرس الشرف الأردني في مطار عمّان، لم أتمالك ملاحظة أنه كان يسير بخطى منتظمة وبانتباه ويداه مستقيمتان ورأسه منحن عندما كان يردّ التحية لقائد الحرس الملكي. إنه يظهر الانضباط الخاصّ بالجيش الألماني بشكل واضح.

أخيرا نُقل الملك وقد بات أشبه بالشبح إلى المستشفى في عمّان ليموت. وبدت العواصف التي أحاطت بالشرق الأوسط في الأسبوع الأوّل من شباط/فبراير ١٩٩٩ منبئة بشيء ما.. مثل تلك الليلة الشديدة الظلمة التي خنقت الضوء المسافر بعد مقتل دانكان الأول: ملك اسكتلندا الذي ثار عليه ابن عمّه الأمير مكبث. تحرّكت عواصف من البحر نحو بيروت وضربت إحداها شرفتي. وعندما رأيتها تقترب هربت إلى الداخل لكنها دفعت طاولتي الزجاجية نحو الحائط محطمة الأطباق. وفي عمّان، غطّت سحابة قاتمة المدينة مظلّلة آلاف الوجوه الغامضة الواقفة خارج مركز الملك حسين الطبّي. غطّت ريح قوية، سحابة سميكة جدّاً، المدينة... لكنني استطعت سماع الأصوات عن بعد كيلومترات. «بالروح... بالدم... نفديك يا حسين».... دائماً العبارات نفسها، الرغبة بالشهادة نفسها.. سمعناها من الفلسطينيين، ومن العراقيين، والآن من الأردنيين. هل كانوا يعنون ذلك عندما ينطقون بها؟

كانت حاشية الملك تواجه مشكلة فريدة من نوعها في المستشفى: متى يمكن وقف الجهاز الداعم للحياة الذي يبقيه حيّاً؟ كانت أجهزة تنقية الدم والأوردة تضخّ الحياة إلى ملك يعتقد أنه يجب أن يموت عندما يريد الله ذلك وليس الإنسان. لكنّ علم إطالة الحياة لمريض يائس لا يأخذ بعين الاعتبار لا القرآن ولا الإنجيل. ولم ينجح أي رجل دين حتى الآن في تفسير موقف الإسلام من التطوّر العلمي الذي حدّد موعد حصول الوفاة. في الختام، توفّي الملك (كما قال لي صديق للأسرة الملكية) بشكل عادي ودون أية صدمة... «حتى إلى الملوك يأتي» ...

خارج المستشفى، كانت صور الملك الراحل مرفوعة بأيدي الجموع: حسين الطيّار المقاتل، حسين البدوي المحارب، حسين قائد الجيش. لكن لم توجد أية صورة للملك مع ابنه. لم يكن الملك الجديد عبدالله (كم كان وقع الاسم غريباً في ذلك اليوم) ليخطر في بال الرجال المنتحبين ولا في بال تلك المرأة العجوز التي ركعت وسط سيل من المياه الجليدية في وسط الشارع...

الملك عبدالله: اسم له رجع صدى غريب لملك آخر في المسجد الأقصى في القدس منذ نصف قرن... عبدالله الجدّ الأكبر وفي رأسه رصاصة وعمامته تتدحرج على الأرض بينما صبيّ في سنّ المراهقة ـ الآن جثة عارية داخل المستشفى خلفنا ـ ينهار من الخوف. ما زالت القدس تقع على بعد ٨٥ كلم فقط عبر الضباب.. وهي ضائعة بالنسبة إلى الأردنيين اليوم كما كانت عندما انسحب جيش الملك حسين منها منذ ثلاثين عاماً.

إذن صار لهذه الأرض غير العادية، الضعيفة والشجاعة، متخرّج عسكري بريطاني آخر، يتقدّم لإدارة شؤونها. قائد الدبّابة والجنرال، المتخرّج في ساند هرست وفي أكسفورد وفي جورج تاون، مع حرسه البريتوري. قامت قوّاته الخاصّة ـ إحدى وحدات القوّة الضاربة التي تتناسل في جميع أنحاء الشرق الأوسط ـ بإخماد عمليات شغب خلال السنوات القليلة الماضية. وكان عليك فقط مشاهدة هؤلاء الناس خارج المستشفى وطريقة حزنهم غير المنضبطة لكي تفهم حجم العبء الذي يواجهه الملك عبدالله. كان الناس يتدافعون عند حواجز الشرطة ويلطمون وجوههم وينهارون أمام الأبواب. بالنسبة إلى رجل غربي، سائح، يُعتبر الأردنّ منطقة صحراوية صديقة مليئة بالآثار

الرومانية والقصور القديمة وخطّ سكّة حديد فجّره الكولونيل لورنس. لكنّ شعبها مجروح: ٦٥ في المئة هم من الفلسطينيين المحرومين من عائلاتهم. طيلة النهار كان المطر يتساقط من السحب المنخفضة والباردة. وكان هناك شيء في مأتم الملك حسين كشف للذين شاهدوه عن حقيقة مخيفة.

فمن قام بدفن الملك هما أردنان لا أردنّ واحداً. من جهة كان هناك الشعب المتغرّب بأسلوبه الاسكتلندي والملك الجديد بلُكنته الإنكليزية والذي قام بدعوة كل زعماء الدول لدفن المحارب الممدّد على عربة مدفع... كان حصان الملك حسين يمشي خلف النعش وركابه مقلوب على السرج. وما رآه العالم (بالفعل ما كان يفترض أن يشاهده العالم) كان تقديس الملوك، والرؤساء، ورؤساء الوزراء، والأمراء: كلينتون، بوش الأب، بلير، شارون، كارتر، فورد، أمير ويلز، مبارك، ناتانياهو، شامير، وايزمان، عرفات، الأسد، يلتسين، شيراك... وفي الحقيقة، أفلم يرسل الرئيس كلينتون هذا الرجل إلى الجنّة عندما أبّنه في خطابه الأخير ناعياً خسارة الأردن في غيابه؟

وكان هناك الأردنّ الآخر... خارج البوّابة، كان المتصبّبون عرقاً والمتضرّعون إلى الله، المسحوقون بأعقاب البنادق، المقموعون من قِبل الجنود المتحدّرين من نسل الفيلق العربي الذي أسّسه غلوب باشا، فيما هم يشقّون طريقهم نحو نعش الملك حسين... لم يكن المشهد ليتلاءم مع الاستعراض الرائع في الجهة الأخرى لجدار القصر، عندما شقّ الأردنيون طريقهم بين قوّات الأمن وتوجّهوا بالآلاف نحو البوّابات وتعرّضوا لمجابهة مئات أخرى من الجنود المسلّحين.... وقد استنجدت امرأة مسنّة بينما كانت تتعرّض للدفع: «بحقّ الله أنقذوني».

إذن، أيهما كان الأردنّ الحقيقي؟ هل كان القوم الذين يقفون عند الباحة الرخامية لقصر رغدان حيث جرى تكريم رفات «الملك الصغير» وحيث صلّوا عليه وحيث شاهده وحيّاه جميع الحلفاء الخطرين غير الصادقين والذين (بأشكال متنوّعة) أحبّوه، وكرهوه وتآمروا ضدّه؟ لقد أظهروا جميعاً تلك الصراحة وتلك المحبّة. كان هناك رئيس وزراء إسرائيل بنيامين ناتانياهو، الذي كان قد أرسل فرقة قتل إلى الأردن منذ بضعة أشهر لاغتيال مسؤول من حماس، ينحني أمام النعش. كان هناك الرئيس السابق جورج بوش الذي كان قد اعتبر منذ ثماني سنوات فقط أن الحسين أصغر من عميل للعدوّ. وأثار عرفات الانتباه بلباسه الزيتي وهو يحيّي النعش الملفوف بالعلم أمامه مرّتين... لقد سعى مسلّحوه في يوم من الأيام لتدمير مملكة الملك حسين. وكان يسير خلف النعش الملك عبدالله الثاني وأخواه وليّ العهد حمزة والأمير هاشم. وقفوا هناك وكانت أيديهم ترتفع للصلاة من وقت لآخر، وكانوا يرتدون بذلات وربطات عنق ويضعون نوع الكوفية نفسها التي يضعها عرفات ذات اللونين الأبيض والأحمر. بدا الأمر كما لو أنهم يمارسون نوعاً من الطقوس الدينية غير العادية، وكانوا أشبه بطلّاب مدارس رسمية إنكليزية في لعبة غير مألوفة، أكثر من كونهم أمراء عرباً محاربين، يحاولون التقدّم بسرعة أمام رجال الفيلق العربي الطويلي القامة ـ أعاد حسين تسميتهم بالجيش العربي بعد إقالة غلوب ـ الذين قاموا بحراسة النعش ومستواه الملكي.

حسّاس وغير حصين: تلك كانت العبارة التي تتبادر إلى الذهن... إذ لم يظهر الأمراء أنهم كبار، أو أقوياء، بما يكفي للتعامل مع الرجال العظام الذين مرّوا أمامهم لتكريم والدهم.. فبعض هؤلاء كان محترماً والبعض الآخر

طغاة مرتشين والقليل منهم كانت أيديهم ملطّخة بدماء كثيرة.. المؤذي وغير المؤذي... مرّوا معاً واحداً تلو الآخر أمام النعش كأنهم في انتظار أخذ صورة لجواز سفر. أعتقد أنه لم يكن مفاجئاً أن التاريخ كانت تعاد كتابته أمام أعين العالم الذي كان يراقب.. على شاشات الفضائيات وصِف الملك المتوفّى بمرض السرطان بالرجل الذي أقام السلام بحرّية مع إسرائيل والذي مُدحت بلاده باعتبار أنها كانت أقرب بلد عربي لإسرائيل (هذا ما قالته السي إن إن).

إذن كان علينا أن نتناسى أن الملك قال في مجلس خاصّ إن قيود اتفاقية أوسلو هي التي أجبرت الأردنّ على توقيع معاهدة سلام غير مقبولة شعبياً مع إسرائيل... وأن نتذكّر أن كلينتون أخبرنا قبل يومين بأن الملك حسين هو الآن في الجنّة... أي في المكان نفسه الذي ذهب إليه الرئيس المصري أنور السادات بعد وفاته كما قيل لنا... وهو على ما يبدو مصير كل زعماء العرب الذين يقيمون سلاماً مع إسرائيل بناء على طلبنا..

كان مراسلو التلفزيون (في بعض الحالات كانوا أولئك «الخبراء» أنفسهم الذين سبق لهم أن تنبّأوا بسقوط الملك حسين بعد رفضه دعم أميركا في حرب ١٩٩١) في قمّة إسهالهم الكلامي: (رجل ذو نزاهة وروحية منيعة)، (رجل ذو رؤية للسلام)، (رجل يتمتّع بشخصية جذّابة قويّة)، (ترك إرثاً لا جدال فيه)، (رجل كان يعمل دائماً على إعطاء شعبه الحقوق التي يستحقّ). كانت تلك مع الأسف اقتباسات واقعية... ولكن ما كان هذا الإرث؟ ما هي الحقوق السياسية التي حصل عليها الشعب الأردني غير تأمين انتخاب برلمان يوافق بدون إجراء دراسة؟ أو أن يعرف أنه إذا خرج رجل الشارع عن الخطّ المرسوم للمقابلات مع مراسلي التلفزيون الغربي، حول مستقبل الملك عبدالله ـ وهو كان في الواقع مثل أبيه، ملك عسكري، فلذة من النظام القديم ـ فسوف يؤخذ إلى مخافر جلالته ليُضرب.

أما تلك الجموع التي كانت أصواتها تُسمع وهي تنتحب بعيداً خلف أبواب القصر الذي يضمّ الملوك والرؤساء في داخله، فلقد أحبّوا الملك حقّاً، أو بعضهم على الأقلّ.... لكن كانت هناك حماسة أقلّ للملك الجديد وأيضاً للأمير حمزة ابن الملك حسين من زوجته الأخيرة الملكة نور. وحسبما أكّدت فتاة فلسطينية أردنية(*) «فقد تمّ اختيار حمزة ولياً للعهد من قِبل الولايات المتّحدة». صرختُ بها: «هُراء، يجب أن لا تؤمني بالمؤامرة». لكنني لم ألبث أن شاهدت بعد ساعة لائحة بأسماء الوجهاء في القصر كافّة وذُهلت من عدد رجال الدولة من دائرة صنع السلام في واشنطن بقيادة مارتن أنديك مدير الأبحاث السابق لأكبر مجموعة لوبي يهودي، والذي لم يستطع إقناع ناتانياهو بوقف بناء مستوطنات يهودية على أرض عربية لكنّه أصر على أن «يضرب عرفات الإرهاب».

هناك إذن كان الأردنّ الحقيقي: وسط جمع مُتذبذب من الشباب الفقراء بأثوابهم البالية والذين كانوا ينتحبون على طول الطريق السريع المؤدّي إلى القصر.. وكان العديد منهم ذوي مستوى تعليمي منخفض، وبعضهم كان يحمل بشكل بشع صور الملك الراحل منقوشة على قميصه.

(*) عام ٢٠٠٤ أبعد الملك عبدالله بدوره حمزة عن ولاية العهد.

حصل نوع من الفوضى عندما اقترب النعش وانتقل الناس المحتشدون نحوه ونحو سيّارات الجيب المليئة بالحرس الأردني وهم يمدّون أيديهم للمس أو حتى للإمساك بالعلم أو ربّما بالنعش نفسه....

وأذكر الآن أنني فكرّت يومها في أن الأمر يشبه عملية رمي كمّية من النفط داخل فرن مطبخ، وكانت الفكرة في بالي قبل أن يقوم جندي متوتّر بضرب رجلين ببندقيّته بينما سقط عدد من الأشخاص علينا... كانت هستيريا غريبة ومخيفة لأنها كانت ممزوجة بالحبّ وبالغضب في نِسَب متعادلة تقريباً: الإخلاص العميق متزاوج مع الغضب المطلق.

عندما تنحّيت جانباً وجدت الجندي نفسه ممدّداً قربي.

في مأتم آية الله الخميني، منذ عشر سنوات تقريباً، مزّقت الجموع الكفن. ولولا قيام المتحدّرين من الفيلق العربي بالمناداة باسم الملك الراحل، ولولا قيام الجنود باعتراض المجموعة الأولى من الشباب الأردني الذين حاولوا الصعود إلى العربة، لكان تكرّر هنا حصول الشيء نفسه.

على أن للعنف مذاقاً آخر ووصفاً مختلفاً حين يكون أصحابه خارج أسوار القصر.. وقد تساءل أحدهم كيف كان شعور هذه الجموع تجاه وجود وزير خارجية إسرائيل أرييل شارون أمام نعش ملكهم؟ شارون نفسه الذي كان أرسل حلفاءه من الكتائب اللبنانية إلى مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢؟ وماذا فعلت الجماهير المحتشدة حيال وصول الرئيس السوري حافظ الأسد الذي أمر جنوده بسحق انتفاضة إسلامية في حماه عام ١٩٨٢، وهي عملية تركت آلاف القتلى؟ أو رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز الذي بلغ اعتداؤه ضدّ لبنان عام ١٩٩٦ ذروته في المجزرة الإسرائيلية التي ذهب ضحيّتها ١٠٩ لبنانيين في معسكر الأمم المتحدة في بلدة قانا، دون ذكر قتلى سيّارة الإسعاف في المنصوري؟ في تلك الحالات كلّها كان الضحايا مسلمين... تماماً مثل ضحايا تلك الحرب التي شنّها الرجل الذي أذهل العالم أجمع بحضوره إلى عمّان والذي ما زالت مذبحته في الشيشان تُذكر في الغرب. قام بوريس يلتسين بالتلويح للكاميرات ـ أنا حيّ، أنا حيّ، كان يحاول إبلاغنا بذلك ـ ومشى بتملّق إلى داخل القصر. كان حصان الملك حسين الأبيض المفضّل (عمر) يصهل إلى جانبه متمايلاً خلف النعش. وقيل إنه لن يمتطي صهوته أحد بعده.

وهكذا كان علينا الاستماع إلى الكثير من التملّق. زعم عرفات أن الملك حسين كان صلاح الدين، الفارس المحارب الذي طرد الصليبيين من فلسطين. والحقيقة أن الإسرائيليين طردوا الهاشميين من فلسطين. لكنّ الحسين كان مهذّباً. فعلى سبيل المثال، أيّ ملك قام بالذهاب إلى السجن المركزي لإطلاق سراح أحد أشدّ معارضيه السياسيين شراسة واصطحبه إلى منزله؟ أغضب ليث شُبَيلات الملك لأنه سأله لماذا ذهبت الملكة نور لحضور جنازة إسحاق رابين، في حين «لم يحصل زعيم فلسطيني راديكالي اغتيل في مالطا على يد الموساد الإسرائيلي على أيّ مواساة رسمية أو ذرفت أميرة أو زوجة مسؤول دمعة عليه؟» (كان يقصد الدكتور فتحي الشقاقي رئيس

حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية ـ المترجم). عندما وصل الملك إلى السجن قام شبيلات بتأخيره عشر دقائق بينما كان يودّع رفاقه في السجن. وانتظر الملك حسين بصبر. هل كان صدّام ليفعل ذلك؟ أو الملك فهد؟ أو الرئيس مبارك؟ أو هل كان بنيامين ناتانياهو ليفعل ذلك؟

ربّما كانت تلك ميزة عند الملك: بين وحوش الشرق الأوسط، بدا رجلاً عاقلاً. كان يعتقد أنه إذا وثق بشكل كافٍ بخصمه، فإنه سيكافأ على ذلك بردّ الجميل... لكنّ ما حصل معه كان نكران جميل قاسياً... فقد وثق ببنيامين ناتانياهو، الذي رفض السماح له بنقل عرفات من عمّان إلى غزّة بطائرته الخاصّة. وقد كتب لرئيس الوزراء الإسرائيلي في آذار/مارس ١٩٩٧: «حزني كبير وعميق حيال التصرّفات المتراكمة والمأساوية التي قمت بها على رأس الحكومة الإسرائيلية. يبدو أن صنع السلام ـ وهو الهدف الأسمى في حياتي ـ سراب بعيد المنال». وصرّح ناتانياهو أنه «كان محبطاً نتيجة التهجّمات الشخصية ضدّه». كان هذا هو ناتانياهو نفسه الذي جاء مرتدياً معطفاً أسود للتعزية بالملك الراحل.

ما هو الأمر المميّز في أولئك الطغاة ـ أكانوا ملوكاً، أو «رجالاً أقوياء» إذا كانوا إلى جانبنا ـ الذي يجعل الشعب الذي يحكمونه شبيهاً بالأطفال؟ عبر أنحاء الشرق الأوسط، كنت أراقب باهتمام تلك العلاقة بين الدكتاتور وحبّ الشعب له، والتي يتجلّى حدّها الأقصى في العراق، مع وجودها في دول الخليج، وفي ذلك المزيج من القومية العربية والصداقة السوفياتية التي دعمت حكم البعث في سوريا... فسوريا الرئيس حافظ الأسد والتي كانت دائماً محلّ سخرية واحتقار وحتى كره من طرف اليمين الأميركي الصديق لإسرائيل، صارت خلال الثمانينيّات والتسعينيّات مزيجاً غير عادي من الأبوّة والقساوة، من «العبادة» الصبيانية للرئيس البعثي والخوف من شرطة دولة الأمن.. وهو احترام للسلطة، مشوب بالخنوع، ويمكن فهمه، صار حقيقياً بسبب الخوف الذي ينتاب كل تلك الدول العربية التي صنعتها القوى الاستعمارية: الخوف من الفوضى ومن الحرب الأهلية ومن التدمير في حال الانهيار المفاجىء لتلك الهندسة الكاملة لدولة الحزب الواحد وتفتّتها إلى أجزاء. وفي حالة الأسد، فإن وليّ عهده كان ابنه باسل.. لكن المشكلة أن باسلاً قد مات.

كانت سوريا البلد العربي الوحيد الذي أستطيع الوصول إليه بالسيّارة من بيروت، ولذلك فقد كنت أسافر إلى هناك كلّما أتيحت لي الفرصة.. كنت أحصل على التأشيرة بسهولة... وكانوا يتسامحون مع انتقاداتي اللاذعة ومع تنديدي وتهكّمي من وقت لآخر (هكذا أخبرني في إحدى المرّات وزير الإعلام السوري بأدب لافت) لأنني كنت أكتب «بقلب سليم» ولأنني لست عميلاً أجنبياً ولأن الحكومة مستعدّة للتسامح مع «أخطائي»... وهذه سياسة متسامحة لم تشمل الصحفيين العرب. وقد أثار ذلك الذعر في أوساط الموظّفين الذين يعملون لدى الوزير والذين كانوا يعرفون جيّداً أن عليهم تسهيل مهمّاتي للقيام بمقابلات قد تكون مزعجة جدّاً (وهي كانت أحياناً كذلك)... وكان أحدهم يصيح دائماً عندما أطلّ برأسي داخل مكتبه في دمشق: «ياالله عاد فيسك مجدّداً». ومن الممكن أن نتفهّم وجهة نظره. إذ كانت تصلنا كل صباح واحدة من رموز النظام وهي صحيفة سيريا تايمز Syria Times التي كانت توضع تحت باب غرفة كل أجنبي في الفنادق الكبرى . لم تكن تلك الصحيفة علماً أو شارة على ديمقراطية

عربية جديدة، ولا وسيلة تحقيق تحاول أن تنشر فضائل النظام البعثي في العالم على أنه مجتمع حرّ.... كانت صحيفة يستطيع الوزراء والموظفون الرسميون الشعور معها بالأمان وكأنهم في منزلهم، وحتى بالملل ـ لأن الحياة هي مملّة أساساً في نظام دكتاتوري... وهذه طبيعة القوة الدكتاتورية، لا يتغيّر فيها شيء أبداً.. يبقى وزراء الأسد في وزارتهم مدّة أطول من زملائهم في أيّ دولة أخرى ـ العراق خاصّة ـ ويكافأ إخلاصهم بحسب ولائهم للرئيس الأسد.

لذلك فإن الصفحة الأولى من صحيفة سيريا تايمز كانت تحمل على الدوام صورة كبيرة للرئيس الأسد وهو يقرأ صحيفة ـ مع أنني لم ألاحظ أبداً أنها كانت صحيفة سيريا تايمز... وكان يصوَّر في معظم الأحيان وهو يوجّه خطاباً إلى المؤيّدين ويسخر من «التوسّع الصهيوني». كانت صحيفة سيريا تايمز واحدة من تلك الصحف ـ الشجاعة بطريقة منحرفة كما أعتقد ـ التي تحمل قرّاءها القلائل على النوم مع أخبار الصفحة الأولى حول الخطّة الخمسية الصناعية، والفائض الزراعي، وبرقيات عمّال مطاحن الدقيق الكبيرة في شمال سوريا التي تهنّئ الرئيس الأسد بذكرى «حركته التصحيحية».... وتمتلئ صفحاتها الداخلية بالأشعار المملّة وبالبيانات المعادية لإسرائيل والطويلة بشكل غير عادي... ومن وقت لآخر بمقالات لي ترجمتها الصحيفة ـ بدون موافقة صحيفة الإندبندنت. وقد اتّخذت إزاء ذلك موقفاً متسامحاً يعتبر الأمر خطأً ناتجاً عن «قلب سليم».. وفوجئت بنفسي، إذ كنت أتخذ السياسات السورية نفسها.

كان مسؤول الوزارة السوري الذي يستقبلني دائماً هو نفسه ذاك التعيس الحظ الذي جلس بقربي ذات يوم عندما سألت رئيس تحرير صحيفة سيريا تايمز إذا كنت أستطيع شراء الصحيفة والمطبعة وكل شيء. سألني المحرّر لماذا أريد القيام بذلك؟ أجبته: «لأنني أستطيع إغلاقها وعدم قراءتها مجدّداً». نظر إليّ رئيس التحرير نظرة استغراب وقال لي إنه لم يفهم قصدي. ابتسمت.. وابتسم. هكذا يتمّ الأمر في سوريا. غلطة أخرى منّي... يظلّ مسؤول الوزارة مجهول الهويّة في هذا الكتاب كونه ما زال يعمل مع الوزير الحالي. هذه طبيعة سوريا: طاعة، أمانة، استمرارية، وهي صفات يرغب كل صاحب صورة أبويّة في وجودها لدى عائلته. لكنّ سوريا كانت «دكتاتورية» معتدلة. إذا جئت إليها بالطائرة من لندن، أو بالسيّارة من بيروت، فإن دمشق هي عاصمة لدولة بوليسية... وإذا وصلت إليها من بغداد فإنها تبدو ديمقراطية ليبرالية.

إنّ كلّ صحفي يحاول أن يسعى لاكتشاف شيء جديد في سوريا... مثل: هل هناك أيّ أمل بإصلاح سياسي؟ بحملة جديدة ضدّ الفساد ربّما؟ بنشوء نظام مصرفي جديد يخرج الاقتصاد من بين أيدي البعثيين القدماء الذين يحيطون بالرئيس؟ لكنّ سوريا ليست بلداً يعيش على المستقبل. إنها بأشكال عديدة مخلصة لماضيها.. وشعبُها ـ رغم الكثير من الجمود السياسي في غُرف التخطيط البعثية المنتشرة في دمشق ـ يفهم تاريخ بلاده بطريقة لا يفهمها سوى القليل من الغربيين أو يحاولون فهمها.

في يوم بارد من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٦، توجّهت إلى موطن الرئيس الأسد، في أعالي جبال العلويين

غرب سوريا، إلى القرداحة حيث يقع ضريح ابنه في مسجد من الإسمنت تحت سماء رمادية. كان الضريح قيد الإنشاء، ضريح باسل الأسد، فارس سوريا، قائد الرجال، عدوّ الفساد، الابن المفضّل لحافظ، رئيس سوريا. عند مدخل المسجد، استقبلني جندي مظلّي يضع قبّعة حمراء من جيل الشباب. وكان ثمّة رجل مدنيّ يرتدي ملابس سوداء ولاحظت فوراً أنه يرتدي ربطة عنق سوداء عليها صورة باسل وهو يضع نظّارة سوداء. اقترب مني شاب آخر، حارس الضريح، رفض ذكر اسمه لأن «باسل يغطّي علينا كلّنا نحن الذين بقينا أحياء». نظرت باتجاه التمثال إلى يميني، وهو عبارة عن قاعدة إسمنتية عليها تمثال معبّر لباسل في زيّه العسكري يمتطي جواداً واثباً نحو النجوم، بينما والده حافظ، بلباس رئاسي أزرق، يرفع يده مودّعاً ومسحة من الحزن والفخر على وجهه. سألت الحارس المجهول الذي حدّثني عن باسل، أليس باسل الآن أكثر حضوراً في موته ـ بكل صوره ـ من حضوره وهو على قيد الحياة؟ كانت تفوح رائحة المسك من الحارس، ابتسم وأمسك بيدي، ثم قال: «لم يكن هناك مثيل للراحل باسل ـ قائد لا يوازيه أحد، كسب ميدالية ذهبية في ألعاب الفروسية العاشرة للشرق الأوسط. لم يكن له منافس في مجال الرياضة، كان أحد الأبطال في القفز بالمظلّات». حاولت طرح سؤال آخر لكنّ الحارس رفع يده معترضاً بأدب. «بفضل الراحل باسل، لدى الحكومة أجهزة كومبيوتر ـ كان مؤسّس مركز المعلوماتية السورية. كان عقيداً في الجيش، نجح في كل علومه العسكرية وتخرّج بدرجة دكتوراه في العلوم العسكرية من جامعة خروتشوف في روسيا وبدرجة مهندس مدني من جامعة دمشق». أردت التحدّث عن التمثال لكنّ اليد المحذرّة ارتفعت مجدّداً. «كان الراحل باسل يتحدّث الفرنسية والإنكليزية بطلاقة. كان متواضعاً، كان يتحدّث إلى جميع الناس بشكل عادي. قام بتجسيد تواضع رئيسنا إلى حدّ أنك لم تكن تعرف أنه ابن رجل بهذه الأهمّية. كان ضدّ الفساد وقد شجّع الشباب للتوجّه نحو الرياضة تلافياً لشرور المخدرات. كان رمز الأخلاق لجيل الشباب».

كان هنا، حسبما أعتقد، الشبح المجهول لتوم غراهام، موجز سيرة الجندي البريطاني الخيالي الذي ذهب للقتال في أفغانستان والذي كانت حياته ملهمة لبيل فيسك الشاب. كان رجلاً بامتياز. كان الأمر بهذه البساطة، لم يرتكب باسل أي خطأ، ولم يكن له مثيل. إنها ترجمة شفهية للعبارات المنقوشة على أضرحة كبار النبلاء العرب والتي لا تنتهي ـ وقد سألت حتى عن تاريخ ولادته ووفاته. ولد في ٢٣ أيار/مايو ١٩٦٢ وتوفّي في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤. ويجب أن نضيف هنا أنه توفّي صباح يوم غائم على الطريق السريع لمطار دمشق عندما انقلبت سيّارته بينما كان متوجّهاً بسرعة للسفر برحلة إلى ألمانيا.

دعاني الحارس لدخول الضريح. كانت سحابة من البخور تتّجه نحو السقف، وخلف باب زجاجيّ منصّة عليها نعش باسل الأسد، ملفوف بقماش من الحرير الأخضر ومكتوب عليه: «الله أكبر، محمّد رسول الله». كان القبر عبارة عن ضريح رجل نبيل، مُصمّم على شكل ضريح الفارس المحارب الذي طرد الصليبيين من الأرض المقدّسة والذي يرقد حالياً تحت قبّة خضراء مماثلة تبعد ١٣٥ كلم في دمشق... أي صلاح الدين نفسه الذي تهكّم عليه الجنرال غورو عام ١٩٢١. خلف منصّة النعش، مصباحان من الصوديوم اللامع ينيران صورة زيتية رائعة لباسل يظهر فيها متجهّم الوجه، مُلتحياً، وسيماً، شعره مبعثر على رأسه، ونظرة تصميم قويّة مرتسمة على وجهه.. رجل ـ

مثل والده ـ لا يجب تخطّيه في الحياة والموت. هناك كان الشباب المنتحبون باللباس الأسود أمام الضريح يراقبونني بتمعّن لفترة وجيزة، ثم أبلغوني بعدها أنني أستطيع التقاط الصور. قال الحارس بلطف: «بما أن المكان مظلم هنا، أظنّ أنك سوف تستخدم فيلم ٨٠٠». كان الأمر أشبه بنهاية خدمة دينية حيث يقوم الكاهن بتحذير رعيّته أنها تمطر في الخارج وأن عليهم استخدام مظلّاتهم. أجل، كنت بحاجة إلى فيلم ٨٠٠.

اسم الأسد بالعربية معناه الأسد... وقد استقبلني الطريق المؤدّي إلى القرداحة بعبارات: «أهلاً وسهلاً في القرداحة، عرين الأسد». تحوّل عرين الأسد إلى بلدة غير عادية ـ ناهيك بفندقها الفخم والطريق السريع الحديث ـ واقعة بين مجموعة تلال تحت السلسلة الشرقية للّاذقية شمال غرب سوريا حيث تشكّل الأقليّة العلويّة التي ينتمي إليها الأسد غالبيّة السكّان. أصبح أسد القرداحة أسد دمشق في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠، عندما أطاح حافظ الأسد بخصومه إثر انقلاب دامٍ نفّذه حين كان وزيراً للدفاع في حكومة حزب البعث الاشتراكي (كانت هذه هي الحركة التصحيحية التي تكتب عنها صحيفة سوريا تايمز بشكل دائم) فاتحاً بلاده أمام تحرّر اقتصادي وسياسي، ولكن مع تأمين شروط بقاء حكمه ـ بمعاونة جهاز بوليس سرّي قوي لا يمكن تحدّيه.

لكن بعد وفاة ابنه المفضّل، هل يمكن لنظام الأسد الاستمرار؟ كان هذا السؤال يتردّد على لسان كل سوري. لقد أعطى الأسد لبلاده الاستقرار والوحدة، سحق أعداءه الإسلاميين في الداخل وحارب إسرائيل في محاولة يائسة لاستعادة الجولان عام ١٩٧٣، وبمعركة ناجحة لمنع إسرائيل من إخضاع لبنان عام ١٩٨٢. كان يريد توريث ابنه المفضّل سوريا واستعادة الأرض المغتصبة والوقوف بدون منازع كطليعة العالم العربي.

توفّي الابن، لكنّ سوريا الأسد ما زالت تطالب باستعادة الجولان من إسرائيل. ولذلك لن يكون هناك سلام في الشرق الأوسط بدون سوريا ـ أصبح ذلك هدف حزب البعث بعد عدّة شهور من المفاوضات ـ لكن كان هناك شبح باسل الذي يقف الآن حارساً لمستقبل سوريا. أخبرني حارس الضريح في الهواء الطلق خارج المسجد: «إنه ما زال معنا، وهو يُلهمنا دائماً»... وأمسك يديّ بيديه وهو ينظر إلى وجهي.

عندما خرجت من القرداحة، كانت رائحة المسك تفوح من يدي ـ بقيت معي طيلة النهار. على يمين الطريق، كان تمثال ضخم لباسل وحصانه شامخاً فوق الأشجار والدعائم يحدّق بي... ولسوف يلاحقني باسل في كل أنحاء سوريا: على اللافتات والأعلام والإعلانات، باللباس المموّه للجيش السوري، وباللباس الكاكي على صهوة جواده، أو بالبرونز يتقدّم نحوي على الطريق الدولي شمال دمشق. وتظهر تماثيل والده الضخمة وتماثيله النصفية على مداخل المدن السورية الكبرى. على بعض الأعمدة كان يرفع يده نحوي وعلى أعمدة أخرى كان يحدّق بسيّارتي العابرة، نظرته ثابتة ووشاحه على كتفيه. كان تمثال الرئيس الأسد يشرف على منطقة صخرية، في بلدة دير عطية موطن مدير مكتبه وصديقه الشخصي المقرّب، أبو سليم دعبول، يلوّح لي مبتهجاً عبر المطر. وقد أكّد لي محرّر صحيفة في دمشق عندما ناقشت معه ما هو الخطأ في تقديس شخصية: «لا نستطيع منع الناس من تشييد تمثال عرفاناً له، إن ذلك ليس من أفعاله». وقد راقبني المحرّر طويلاً بعد تصريحه هذا ليرى إن كنت صدّقته.

من المؤكّد أن طقوس «العبادة الرئاسية» التي أحاط صدّام حسين نفسه بها في العراق ـ مدينة صدّام، مطار صدّام الدولي، مستشفى صدّام، معرض صدّام للفنون ـ كانت غائبة في سوريا. فبينما سمّيت مستشفيات ومطارات محلّية باسم باسل الأسد، هناك مؤسّسة سورية واحدة باسم الأب. ففي دمشق، جلس الأسد الأب على مقعد حديدي ضخم ـ بيده اليمنى كتاب مفتوح ـ وذلك خارج مكتبة الأسد... إنها مؤسّسة ضخمة مساحتها ٢٢ ألف متر مربّع، فيها معارض تحمل استمرارية تاريخ سوريا: ١٩٣٠٠ مخطوطة أصلية تعود بتاريخها إلى القرن الحادي عشر، ٣٠٠ ألف مجلّد، مركز بصري ـ سمعي ومعلوماتية، سلسلة من القاعات الرسمية للفنون ولصيانة المخطوطات القديمة والمحافظة عليها. عندما قابلت الدكتور مازن عرافي مدير النشاطات الثقافية للمكتبة، تحدث باحترام وبصوت خافت حول المعلومات الضخمة التي تدخل الآن في الكومبيوتر بما في ذلك كل قانون سوري صدر منذ عام ١٩١٨ ـ عندما تمتّع السوريون لفترة قصيرة بالحرية من الإمبراطورية العثمانية قبل أن يُفرض عليهم الحكم الاستعماري الفرنسي.

تمّ وضع كل فيلم سوري منتج، بما في ذلك الأفلام الوثائقية الفلسطينية لحرب ١٩٤٨ مع إسرائيل، على أشرطة فيديو. وكانت الكتب المحظورة من قِبل النظام متوفّرة للطالب الباحث بما في ذلك الأعمال الأخيرة لميشال عفلق، الذي أسّس حزب البعث الاشتراكي العلماني عام ١٩٤٠ والذي تم نفيه لاحقاً إلى العراق عندما انقسم الحزب إلى مجموعات سورية وعراقية.

فتح الدكتور نهاد جرد خزانة عند المدخل تؤدّي إلى قسم المخطوطات، وكانت هناك على بعد أمتار مني صفحات بخطّ فارسي باللونين الذهبي والأزرق، وهي من أعمال الفيلسوف الإسلامي ابن المرزبان الأذربيجاني من غرب إيران، عام ١٠٦٦. ففي الوقت الذي كان هارولد الإنكليزي يستعدّ فيه لقتال وليم النورماندي في هاستنغز، أنهى الأذربيجاني نصّاً سوف يجري تصويره بعد تسعة قرون ويوضع على جهاز الكومبيوتر في مكتبة الأسد. سار الدكتور جرد عبر ممر ضيّق وكانت إلى جانبنا الترجمة الفرنسية للقرآن العائدة إلى عام ١٦٤٩ وترجمة للإنجيل من عام ١٦٧١ باللاتينية والعربية، وقاموس عربي عمره ٥٠٠ سنة، والخطب المجموعة للخليفة علي يعود تاريخها إلى عام ١٣٠٨، ودراسة تعود إلى عام ١٤٦٦ حول كيفية امتطاء المحارب العربي صهوة جواده بينما يقاتل بالسيف والدرع. تمّ نقل ذلك كلّه إلى الكومبيوتر حيث جرى بحرص تسجيل تاريخ سوريا الحديث أيضاً للأجيال القادمة.

إن هذه المكتبة هي مثل العقل... وقد فهمت ذلك عندما أخذتني «حسنة اسكيهيتا» إلى غرفة الكومبيوتر. قالت: «نقلنا على أقراص الكومبيوتر كل خطاب ألقاه رئيسنا منذ عام ١٩٧٠»... وسألتها كم هو عدد الخطب التي ألقاها الرئيس منذ وصوله إلى السلطة؟ أجابت بسرعة البرق: «ألقى ٥٤٤ خطاباً، هل تريد الاستماع إلى أحدها؟» وجالت في ذاكرة جهاز الكومبيوتر... ثم ظهر الرئيس على شاشة الكومبيوتر متجهّماً وشاجباً للعنف الأصولي في عام ١٩٨٢... ثم أثناء اجتماع رئاسي مع الصحفيين البريطانيين في ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢، فحوار بين الأسد ومحرّري مجلة التايم في السنة نفسها.. ثم مؤتمر صحفي عام ١٩٩٤ مع الرئيس كلينتون. هذا هو الخلود

بالفعل... ثم فكّرت في أن ذلك هو عرض يُظهر كم هي مهيبة قدرة المؤسّسات السورية الأخرى على المكننة... جهاز الاستخبارات على سبيل المثال... ولكن المكننة هناك ستكون أكثر أهمّية من هنا....

ذلك أنه من الواضح أن مكتبة الأسد تهدف إلى تأمين استمرارية تربط الخلافة بالبعث، والفلاسفة الإسلاميين القدامى بحافظ الأسد... بالحرص نفسه الذي تتمتّع به النساء وهنّ يقمن في غرف الأرشيف بإصلاح وجمع الصفحات الممزّقة من كتب القرن الخامس عشر. ومن المؤكّد أن خطاب الرئيس حافظ الأسد الذي ألقاه اليوم بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين «للحركة التصحيحية» تمّت برمجته أيضاً. بدأ الخطاب قائلاً: «بتصميم صلب، نواصل مسيرتنا نحو النصر، عاملين بكل قوتنا على تحصين الوطن». وبعد التفكير مليّاً فإنني أعتقد أن هذا هو ما قاله هارولد البريطاني لقوّاته خلال توجّهه إلى المعركة ضدّ وليم النورماندي عام ١٠٦٦.

ما تعلنه سوريا اليوم لجنودها مدوّن بآية قرآنية حول قمّة النصب التذكاري للجندي المجهول مقابل قصر الأسد فوق دمشق: «ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربّهم يرزقون». في القبو، توجّهت نحوي مجموعة من الضبّاط السوريين وهم يرتدون بذلات رمادية وبنّية، وسألني أحدهم مشيراً إلى لوحة زيتية لمبنى جدرانه بنيّة ويخرج الدخان عبر نوافذه: «أتعرف ما يعني هذا؟».. مثل كل السوريين، كان الظابط يريد اختبار معرفة الأجنبي للتاريخ ليرى من أين يبدأ بروايته. أعرف أن المبنى هو البرلمان السوري عام ١٩٤٦ والذي كان يحترق نتيجة نيران القوّات الفرنسية التي رفضت إلغاء انتدابها بموجب قرار عُصبة الأمم بعد الحرب العالمية الثانية ـ وقد قُتل في عملية القصف ٢٥ من النوّاب والجنود السوريين. وفي خزائن المعروضات في الجدار، هناك ثلاث لوحات كبيرة ترسم استمرارية مشابهة لتلك التي رأيناها في المكتبة... في خزانة ضخمة للعرض، رسم لصلاح الدين وهو يسحق قوّات الاحتلال الصليبي في معركة حطّين شمال القدس. ويظهر رسم ثالث المدفعية السورية وهي تدمّر دبّابات إسرائيلية في معركة السلطان يعقوب في جنوب لبنان بعد الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢.

يُظهر رسم رابع معركة يتعلّمها كل سوري في المدرسة ويجهلها معظم الغربيين: معركة ميسلون عام ١٩٢٠... بعد انتهاء حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ أعطت الأمم المتّحدة لفرنسا الانتداب على سوريا، وهو التزام خرقته من خلال سلخ جزء من شاطئ المتوسّط عن سوريا (لإقامة دولة لبنان المسيطر عليها مسيحياً والتي انهارت في الحرب الأهلية بعد ٢٥ سنة) ومن خلال تدمير الجيش السوري الذي وضع ثقته بالبريطانيين للحصول على الاستقلال مقابل مساعدتهم ضدّ الأتراك. وقد قاد وزير الدفاع السوري يوسف العظمة فرسانه ضدّ الدبّابات الفرنسية في وادي ميسلون على الحدود بين لبنان وسوريا ـ لم تكن الحدود موجودة حينها كون لبنان كان جزءاً من سوريا ـ يوم ٢٤ تموز/يوليو ١٩٢٠. قامت دبّابات الجنرال غورو ـ في سابقة تاريخية لا مثيل لها سوى الهجوم الألماني على الخيّالة البولندية بعد تسع عشرة سنة ـ بسحق الفرسان المحاربين وتركهم يتحلّلون تحت حرارة الصيف...

أصبحت الطريق إلى ميسلون اليوم مؤلّفة من ستة خطوط، ويقع ضريح يوسف العظمة في غابة أشجار صغيرة في مكان شبه مخفيّ إلى الجنوب. عندما وصلت إلى هناك في ليلة باردة، وجدت ضريحه فقط ومجموعة من

المنازل المهدّمة على الطريق الرئيسي الذي يظهر أن القذائف دمّرته. مع ذلك كان هناك رجل عجوز على طرف تلّة لديه ذكريات طفيفة حول المعركة: لا يتذكّر حمزة عبدالله كم هو عمره، لكنه أعاد ترتيب أيام الصبا عندما كان يمضي الأسابيع في جمع علب الذخيرة وشظايا القنابل بعد معركة الخيّالة العربية اليائسة عام ١٩٢٠.. كان حمزة طويل اللحية يضع كوفية قديمة على رأسه، قال: «جاء الفرنسيون من وادي «نمسي» بقوّاتهم الجزائرية والسنغالية، وكانت هناك طائرات حربية أيضاً ولم يكن لدينا أيّ فرصة للنجاة».

أمسك حمزة بيده اليمنى وأخذ يحرّكها من جهة إلى أخرى مثل طائرة بجناحين وقعت في مطبّ هوائي. «انتهى كل شيء خلال ساعات وقتل الفرنسيون تقريباً كل من وجدوه. أخذوا والدتي أسيرة ووضعوها في منزل هناك. جرى تقييد يوسف العظمة وآخرين من قادتنا، وقرّر الفرنسيون إعدامهم. توفّيت والدتي منذ ٢٧ عاماً لكنني أذكر روايتها لي كيف شاهدت العظمة يقاد إلى عمود هاتف ويُعدم. رمى بكوفيّته إليها وإلى بقيّة النسوة، وقال: «هذه لكم لتتذكّروني». قالت والدتي: كانت النساء تبكين وقد أعدنَ الكوفية إليه قائلات: «أنت البطل والأجدر بارتدائها». كان مربوطاً إلى عمود هناك وطلب الفرنسيون من الجزائريين الفرنسيين إطلاق النار عليه، لكنهم رفضوا، كانوا مسلمين صالحين، عندها طلب الفرنسيون من المرتزقة السنغاليين القيام بذلك، وأطلق السنغاليون النار عليه بينما كان مقيّداً».

قامت عائلة حمزة عبدالله بتقديم القهوة الساخنة الإجبارية وانضمّ إلينا شاب، وهو جندي قاتل في لبنان.. قال لي: «سأرشدك إلى المكان الذي احتجزوا فيه النساء ويوسف العظمة». وقادني إلى الجانب الوسخ من التلّة حيث توجد البيوت العثمانية المدمّرة إلى جانب الطريق: «هنا احتجزهم الفرنسيون، لكن المنزل أصبح مدمّراً بمعظمه منذ عام ١٩٦٧ عندما قصف الإسرائيليون المنطقة». ويبدو أن ما لم ينجزه الفرنسيون قام الإسرائيليون بإنجازه... لكن ليس كلّياً. فلم تكن رواية الجندي السابق كاملة: «كان هذا منزلي دائماً. عام ١٩٨٢ قاتلت عبر الحدود في معركة السلطان يعقوب ـ حيث حاصرنا الدبّابات الإسرائيلية هناك ـ وفي العام التالي عندما كنت موجوداً في منزلي هنا قصفتنا البحرية الأميركية عبر لبنان وسقطت قذائف البارجة الحربية نيوجرسي على التلال هنا». خيّم الصمت بينما كنت أدوّن هذا الدليل القويّ حول التتابع التاريخي في مفكّرتي. عام ١٩٢٠، دمّر الفرنسيون الجيش العربي في ميسلون. عام ١٩٦٧، بعد انتهاء حرب الأيام الستّة قصف الإسرائيليون ميسلون. بعد ستة عشر عاماً أخرى، قصف الأسطول السادس الأميركي، الذي يساند قوة الناتو المنهارة في بيروت والتابعة لرونالد ريغان، إمدادات الجيش السوري عبر وادي ميسلون... كان الرجل الذي يخبرني ذلك هو الشخص نفسه الذي قاتل في معركة الدبّابات التي تُروى في ذكرى الجندي المجهول. فرنسا، إسرائيل، أميركا. وإذا كان السوريون مصابين برُهاب الأجانب فمن السهل معرفة السبب... هنا في هذا الوادي حيث تُركت جثث الرجال والجياد تتحلّل في أحد الأيّام.

قاتل الجنود السوريون لمواجهة الدولة الإسرائيلية الناشئة عام ١٩٤٨ وبعدها قاتلوا عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣.. وفي لبنان عام ١٩٨٢. قاتلوا أيضاً عام ١٩٨٢ في مدينة حماه وسط سوريا ـ اسم يذكر بخوف كبير أو يتمّ تجاهله. عندما بدأتُ المسار الطويل باتجاه الطريق الدولي، كان الجبل الرمادي المغطّى بالثلج والمواجه للبنان إلى

يساري، وقد وجدت اسم حماه ثقيلاً على النفس. قطعت هذا الطريق عدّة مرّات إبّان «انتفاضة الإخوان المسلمين عام ١٩٨٢» عندما هاجم متمرّدو حماه مسؤولي حزب البعث في المدينة. قاموا بذبح عائلات الموظّفين الحكوميين، وقتلوا رجال الشرطة وقطعوا رؤوس الأساتذة الذين أصرّوا على التعليم العلماني ـ كما فعلت الجماعة الإسلامية المسلّحة في الجزائر، وكما فعل الثوّار الأفغان عندما شنقوا أستاذ مدرسة وزوجته خارج مدينة جلال أباد عام ١٩٨٠، وأنا ما زلت أتذكّر قطعة اللحم السوداء على الشجرة وهي تتأرجح مع الريح. بالعودة إلى عام ١٩٨٢، كان لديّ ١٨ دقيقة مهمّة ـ والآن أدرك الخطورة ـ نجحت خلالها بدخول حماه بينما كانت القوّات الخاصّة بقيادة رفعت الأسد، شقيق الرئيس، تسحق الانتفاضة بوحشية كبيرة. وقفت عند نهر العاصي بينما كانت الدبّابات السورية تقصف المدينة القديمة.. شاهدت الجرحى والدماء تغطّيهم، متمدّدين قرب العربات المصفّحة، والمدنيين الجوعى يفتّشون في النفايات عن خبز. قيل إنه قُتل يومها حوالي ٢٠ ألف نسمة في الخنادق تحت الأرض والمباني المفجّرة. ربّما كان الرقم الصحيح عشرة آلاف لكنّ معظم المدينة القديمة دُمّر(*). عدت الآن وكانت لديّ بعض الأفكار الصعبة. بعد أسبوع فقط، كنت في الجزائر أكتب عن قتل المدنيين من قِبل المعارضة الإسلامية المسلّحة، عن الذبح وقطع الرؤوس، وفرق الموت وغرف التعذيب الحكومية. في عام ١٩٨٢، ندّد العالم بسوريا بسبب قسوتها في قمع حماه، والآن يخيّم الصمت بينما تقوم الحكومة الجزائرية بتصفية أعدائها الإسلاميين بشكل دموي. تساءلت بينما كانت سيّارتي تنطلق على الخطّ السريع المبلّل بالمطر: ألم يكن هناك تشابه مخيف؟ نطالب باحترام حقوق الإنسان في الشرق الأوسط ـ بصوت أعلى في الدول العربية مما هو عليه في إسرائيل ـ لكننا أيضاً نحذّر من مخاطر الأصولية... «الإرهاب الإسلامي».

لقد رحلت حواجز المخابرات التي أوقفتني في حماه وحولها عام ١٩٨٢، رحلت عن الطرقات لكن ظلّ وجودها مستمرّاً بشكل سرّي في مجتمع يعتبر أي معارضة لنظام الأسد خيانة. ليس هناك أدنى شكّ حول من يحكم حماه اليوم، أو حول الحاجة إلى محو ماضيها: تنتشر اليوم الحدائق والمسابح بالحجم الأولمبي وفندق فخم ومسجد جديد قيد الإنجاز فوق حُطام معظم حماه القديمة. لم يورد الدليل الإنكليزي المطبوع حديثاً أي إشارة إلى أحداث عام ١٩٨٢ ما عدا الإقرار بالغياب الغامض ـ غير المفسّر ـ للمسجد الأصلي الكبير. عندما سرت عبر جسر صغير في ضاحية الكيلاني وجدت ذكريات من الماضي: مبانٍ من القرن الثامن عشر ممزّقة بالقذائف، قصر حجري أبيض وأسود مدمّر خلف نوافير المياه الشهيرة في حيّ النورية في المدينة، فيلّا حديثة مصابة بقذيفة عند النافذة. كان بعض الرسّامين المحلّيين يبقون ما فُقد حيّاً، بألوان مائية ضعيفة على بطاقات تذكارية يمكن شراؤها في السوق.

كان بعض الشجعان مستعدّاً للتذكير بما حصل.. كان محمّد ـ أو الاسم الذي اختاره ـ يقف في شارع ضيّق في الكيلاني، يتحدّث ببطء وحذر شديد. قال: «عشت هنا في خضمّ المعركة، كان بيتي على خط النار بين

(*) حول عمليات القتل والتدمير في حماه راجع كتاب «ويلات وطن».

الجيش والمتمرّدين. عشت في الطابق السفليّ مع ستة أفراد من عائلتي، ثمانية عشر يوماً. لا تستطيع تصوّر شعوري عندما نفد الطعام. زحفت إلى الخارج ووجدت بعض الخبز القديم قرب برميل زيت ـ كان مبلّلاً بالزيت لكننا أكلناه. في النهاية، استطعنا الرحيل في آخر يوم للمعركة».

الواقع أن حديث محمّد معي كان غير عادي مثل روايته. هل اختفى شعور الخوف في سوريا ـ أو أن حمّام الدم في حماه يُنظر إليه الآن نظرة جديدة؟ حاول موظّف حكومي شاب ـ مجهول الهويّة للضرورة ومُوالٍ بشدّة للأسد ـ أن يشرح لي ما حصل بينما كنا متوجّهين إلى مطعم صحارى في دمشق. إنه مطعم فاخر طاولاته مغطاة بأغطية بيضاء ويضع مضيفوه ربطات عنق، ويملكه ـ للسخرية ـ الرجل الذي أشرف على قمع الانتفاضة في حماه، شقيق الرئيس: رفعت الأسد. قال: «أعرف أنك تعارض ما حصل في حماه، روبرت، عمليات الإعدام والقتل، لكن عليك أن تعرف أيضاً أنه لو لم يعمد رئيسنا إلى سحق الانتفاضة لأصبحت سوريا مثل الجزائر اليوم. حاولنا التحاور مع الإخوان أولاً، التفاوض معهم. لم نكن نرغب في حمام الدم هذا. طلبنا منهم معرفة مطالبهم. قالوا: «رأس الرئيس» وبالطبع كانت هذه نهاية الحوار. لا نقبل أن تكون هناك دولة إسلامية أصولية في سوريا. أنتم في الغرب يجب أن تكونوا شاكرين لنا. سحقنا التطرّف الإسلامي هنا. نحن الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي قمعت الأصولية كليّاً». وأمام أطباق الحمّص والبندورة واللبن المثوّم، والعرق السوري المحلّي الذي يحرق جوفنا، يستطيع المرء فقط أن يتأمّل الحقيقة الواضحة التي يقولها التصريح الأخير لهذا الرجل.

ظهرت كراهية الأسد الشخصية للإخوان المسلمين في خطاب ألقاه بعد شهر من حمّام الدم في حماه، ما زالت كلماته الآن في ذاكرة جهاز الكومبيوتر عند حسنة في مكتبة الأسد، تحت إشارة تاريخ ١٩٨٢/٣/٧. كانت تصريحات الأسد مذهلة بل مخيفة كما لو أنه يتحدّث عن الجزائر. «ليس هناك شيء أكثر خطورة على الإسلام من تحريف معانيه ومفاهيمه عندما تتصرّف كمسلم. هذا ما يقوم به الإخوان المسلمون المجرمون... إنهم يقتلون باسم الإسلام. إنهم يذبحون الأطفال والنساء والمسنّين باسم الإسلام. إنهم يقومون بإبادة عائلات بكاملها باسم الإسلام. الموت ألف مرّة للإخوان المسلمين، المجرمين، المفسدين».

وقد حصل ذلك.. تماماً كما ورد في خطاب الرئيس.. فقد وجدهم الموت.. ألف مرّة... وأكثر...

بعد سنتين من مجزرة حماه، حاول رفعت الأسد الاستيلاء على السلطة من أخيه محرّكاً دبّاباته ت٧٢ في شوارع دمشق... ثم نُفي إلى إسبانيا... وقد تحدّث بعد وفاة أخيه حافظ عن مسرحية الخلافة الرئاسية ـ التي لم تكن له. ولم يأت صاحب المطعم والنادي الليلي وسيف الانتقام ضدّ الإخوان المسلمين إلى السلطة أبداً. ومثل الأمير حسن في الأردنّ، فقد أغضب بقوّة ـ وبشكل عنيف ـ أخاه.

في هذه الأثناء، ما زال هناك أعداء آخرون على أبواب دمشق. بعد الموافقة على صفقة «الأرض مقابل السلام»، المطروحة من قِبل إدارة بوش الأب، قيل للرئيس الأسد إن عليه إقامة سلام دون استعادة مرتفعات

الجولان. وصرّح الإسرائيليون عام ١٩٩٦ ستّ مرّات عن حرب محتملة ضدّ سوريا. وعندما حرّك الأسد حوالي ٢١ ألف جندي من قوّاته خارج لبنان ووضع لواء مدرّعاً إلى جنوب الخط السريع دمشق - بيروت لمنع حصول هجوم إسرائيلي كان متوقّعاً في ذلك الخريف، اتهم بأنه يحضّر لهجوم ضد إسرائيل. في الواقع، كان الأسد الزعيم العربي الوحيد الذي حذّر من مخاطر «عملية السلام» وتحدّث بشكل علنيّ عن شكوكه في أن الإسرائيليين قرّروا ـ بعد الحصول على تنازلات من العرب ـ الاحتفاظ بمعظم الأراضي التي احتلّوها عام ١٩٦٧.

ليس من الصعب ملاحظة حجم الأراضي المقصودة. توجّهت بسرعة نحو القنيطرة، المدينة السورية التي دمّرها الإسرائيليون كلّياً عندما انسحبوا إلى خطوط وقف إطلاق النار بعد حرب ١٩٧٣ وفق اتفاق كيسنجر. إلى يميني، بدت مرتفعات الجولان المحتلّة من قِبل إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ ـ نقطة الخلاف في عملية السلام ـ أرجوانية تحت زخّات المطر ومجلّلة بخط أبيض من الثلج. وما زال رفض إسرائيل إعادة هذه الأرض ـ رغم الوعود التي أعطتها الولايات المتحدة قبل مؤتمر مدريد العربي الإسرائيلي ـ إضافة إلى الأراضي الفلسطينية المحتلّة، الموضوع العالق المؤدّي إلى اندلاع حرب جديدة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

توجّهت بالسيّارة على طول خط الجبهة القديم لحرب ١٩٦٧، مروراً بالأسلحة المهجورة لحرب ١٩٧٣. وجدت التحصينات الجديدة للجيش السوري، وعليها هوائيات لاسلكي، محميّة بعربات مصفّحة وشاحنات جنود. وبعيداً عند أسفل الطريق، داخل المنطقة التابعة للأمم المتّحدة، وصلت إلى بلدة القنيطرة القديمة المهجورة، مستقبلاً كالمعتاد بتمثال للأسد ومجموعة من اللافتات فوق البيوت المهدّمة على كل منها صورة الرئيس الأسد مبتسماً مع ابنه باسل. باسم الأب وابنه الراحل، فإن هذه الأرض خلف هذه المدينة ـ مرتفعات جبل حرمون (الشيخ) وسلسلة التلال التي تضمّ محطّات الرادار الإسرائيلية العالية التقنية ـ سوف تتحرّر في يوم من الأيام إمّا بالسلام أو بالحرب. على الجبهة السورية ـ القريبة بحيث أستطيع رؤية الجنود الإسرائيليين يراقبونني بمنظار ثنائي ـ أشار الضابط السوري إلى مجموعة من السيّاح في البساتين: «أترى تلك السيّارات الثلاث؟ إنهم حتماً يهود أجانب، قيل لهم إن سوريا بلدهم، وإن كل شيء يرونه يجب أن يكون ملكهم، دمشق وما وراءها». أنا متأكّد من أن ذلك ما يفكّر فيه الضابط. وكنت شبه متأكّد من أن السيّاح في السيّارات الثلاث يعتقدون حسبما قيل لهم إن الجولان جزء من إسرائيل وأن سوريا تنتظر الفرصة فقط للاستيلاء عليه.

على بعد مئات الأمتار، شاهدت قبور الجنود السوريين الذين قاتلوا على هذه الأرض لأكثر من خمسين عاماً منتشرة بين الأشجار والعشب. كانوا قابعين تحت شواهد إسلامية وبعضهم تحت صلبان مسيحية. هنا يرقد النقيب إسماعيل بن خلف آل شحادة (٢٩ سنة) مسلم «سقط شهيداً في ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣». إلى جانبه يرقد الرقيب مخايل سرور بن وهيبة، مسيحي من شمال سوريا، قُتل أثناء عمله قبل يوم فقط. كان هناك أيضاً بعض العرفاء من اللاذقية وحلب وخلفهم قبور قديمة. هنا يرقد المجنّد كامل محمد ياسين من كتيبة المشاة الثانية، قُتل أثناء عمله «من أجل القضية العربية» ـ في محاولة لتدمير دولة إسرائيل الدخيلة ـ يوم ١٣ تموز/يوليو ١٩٤٨... والعريف صلاح برماوي من الكتيبة الثانية للخيّالة... ومئات غيرهم.

على طرف المقبرة، وجدت المجنّد الجوّي السابق أسد بدر، حارس قبور القنيطرة، يضع الزهور وقت الظهيرة. كيف يشعر تجاه الموتى؟ أجاب: «إحساس أي إنسان حيّ نحو الموتى، نحن نفخر بالشهادة». لكن عندما سألته إذا صادف الموت في الحرب، زالت ابتسامة الرجل. قال: «نعم، في قاعدة دمّر الجوّية خلال حرب ١٩٧٣. كنا جالسين قرب شجرة لوز نتناول طعامنا من المعلّبات، أغارت علينا طائرة فانتوم إسرائيلية بشكل مفاجئ مطلقة قذائفها. مرّت الطلقات قرب الشجرة وأخطأتني. لكنّ صديقي مرام الساير الذي كان قريباً مني... قطعته القذائف نصفين». بعدها تغيّر ضغط الجوّ حولنا نتيجة الانفجارات عندما اخترقت طائرتان إسرائيليتان جدار الصوت متّجهتين من الغرب إلى الشمال، وكان دخانهما الأبيض يظهر وراءهما خلف النصب التذكاري للحرب والقبور البيضاء.

لكن لم تكن الجولان الأرض الوحيدة المفقودة التي يريد السوريون استردادها. إن خارطة سوريا التي توجد في مكتبات دمشق تتضمّن مفارقة مثيرة للاهتمام... إلى الجنوب تظهر مرتفعات الجولان باعتبار أنها سورية ـ وهي بالفعل سورية، رغم أنها تحت الاحتلال الإسرائيلي ـ لكن إلى الشمال، فإن الأرض الوطنية تصل إلى ساحل المتوسط إلى أبعد من اللاذقية. وإذا صعدت على الطريق السريع الساحلي تبدو الخارطة أكثر طموحاً. وحتى قبل أن أصل إلى بلدة سويدية، وجدت خلف مركز الحدود السورية العلم التركي. وعلى الطريق المكسوّة بالجليد المتجهة نحو حلب، بمحاذاة الوادي المليء بالغابات وأشجار البرتقال المتجلّدة، كانت الأعلام التركية ترفرف على المرتفعات ـ ١٠٠ كلم إلى الجنوب من الحدود المرسومة على الخريطة. وبعد التدقيق في الخريطة اكتشفت خطاً رفيعاً متقطّعاً شبه خفيّ على الورقة، محدّداً حدود تركيا الحديثة وجزءاً آخر من سوريا المفقودة. ويروي الرسم الخرائطي القصّة المنسيّة «لهديّة فرنسا» عام ١٩٣٩ لتركيا: المدينة السورية إسكندرون، أهديت إلى الأتراك على أمل إقناعهم بالانضمام إلى الحلفاء في حربهم الدائرة ضدّ ألمانيا.

من المذهل معرفة مقدار ما خسرته سوريا (كأرض وليس كدولة) في القرن العشرين... فقد تقلّصت بدلاً من أن تتوسّع، رغم تصويرها على أنها دولة توسّعية تنتظر الفرصة السانحة للاستيلاء على لبنان وفلسطين وحتى إسرائيل، فخسرت شمال فلسطين ولبنان وشرق الأردنّ بعد الحرب العالمية الأولى، وإسكندرون عام ١٩٣٩، والجولان عام ١٩٦٧ ـ الثلاثة الأولى بسبب الخداع الغربي والأخيرة بسبب الحرب. وإذا كان الهاشميون قد أمضوا العصر الحديث يخسرون الأرض فكذلك كانت سوريا.

بعد عام على رحيل الملك حسين، توفّي خليفة آخر، أسد دمشق شخصياً، وفي ظروف فيها شيء من الشماتة بالنسبة إلى أعداء سوريا. فلأكثر من ربع قرن، كان جيش الأسد موجوداً في لبنان ـ لمواجهة الغزو الإسرائيلي، وهذه حقيقة، ولكن لتأمين التبعية أيضاً. ظُهر يوم السبت في العاشرة من حزيران/يونيو ٢٠٠٠، كان الرئيس الأسد يتحدّث على الهاتف مع حليفه اللبناني الرئيس إميل لحّود قائلاً له ـ وهذا هو أسلوب الأسد ـ «قدرُنا أن نبني لأولادنا مستقبلاً مطمئناً». في هذه اللحظة، سمع لحود الهاتف يسقط والخط ينقطع. بعد عشر دقائق، أعيد الاتصال مع القصر الجمهوري في دمشق ليُسمَع صوت آخر على الخط. كان بشّار الأسد، طبيب العيون، ابن الرئيس. قال: «توفّي والدي الآن».

ملك آخر، مأتم آخر. عندما اقترب النعش منّا أخيراً، بدا صغيراً بشكل غريب وضيّقاً... خشب مطليّ مغطى بعلم سوريا، تواكبه شاحنات الجنود أمام عربة المدفع الخضراء وخلفها. شبّه أسد دمشق نفسه أيضاً بصلاح الدين الذي ترقد رُفاته من القرن الثاني عشر على بعد كيلومتر منا. لكن على بعد بضعة أمتار سار ابنه بشّار مرتدياً بذلة سوداء ونظّارة سوداء، سار بثبات وراء عربة المدفع التي تحمل جثمان والده. وبدا بشّار الأسد غير مكترث بما إذا حاول عمّه رفعت، شقيق الأسد، الإطاحة به لاحقاً كما يعتقد العديد في سوريا ـ وإذا كان أي شخص آخر هنا بين عشرات الآلاف يريد تدمير حياة الخليفة الظاهر. في عمّان، كان القادة والناس متباعدين، أما في دمشق فكانوا يسيرون معاً.

إن بشّار الأسد الذي كان من مشجّعي تعميم الكومبيوتر، والذي لم يكن يتوقّع يوماً أن يكون وليّ عهد حزب البعث، كان محاطاً بجنرالاته.. كما يجب أن يكون زعماء الشرق الأوسط... وكنت قد شاهدت معظمهم قبل سنوات: الجنرال علي أصلان، رئيس الأركان الذي استعادت وحدته الخامسة جزءاً من مرتفعات الجولان عام ١٩٧٣ خلال حرب الشرق الأوسط، والذي أعطى أوامر للمروحيّات السورية بمنع تقدّم إسرائيل إلى جبال لبنان عام ١٩٨٢... الجنرال مصطفى طلاس صديق حافظ الأسد المخلص ووزير الدفاع الذي أوشك أن يقتل في غارة جوّية إسرائيلية على لبنان. وكان هناك، شقيق بشّار الأصغر ماهر. وكان هناك أيضاً عمّه جميل الذي وقف إلى جانب عمّه الآخر رفعت بعد معارضته لحافظ الأسد الذي قال له: «أنا أخوك الأكبر الذي عليك طاعته، لا تنسَ أن الفضل لي بوصولكما إلى هذا المستوى»... وهكذا فإن صنيعة الرئيس الراحل يسير وراء نعشه في رحلته الأخيرة في دمشق. وكانت الجموع تصرخ: كيف نستطيع إعادة الأسد... وجاءهم الجواب من الجموع الحاشدة: بالروح... بالدم. . . نفديك يا أسد».

كانت عمليّة منظّمة تجري من خلالها الأمور في الشرق الأوسط، أقلّها الصراخ الفوضوي في جنازة الملك حسين، وأكثرها النواح المنظّم المدروس في الوزارات ومراكز الشرطة. ابتعد الحرس الجمهوري بأسلحته عن الجنازة باتجاه جموع الناس التي أعطت ـ وهنا نلقي نظرة على أسرار نظام الأسد الانتخابي ـ ٩٨ في المئة من أصواتها للرئيس الراحل الآن. كانت كلمة تشريفات مطبوعة على قبّعات رجال الشرطة الموجودين في داخل السيّارتين الأماميّتين مطليّة باللون الأبيض ـ تلك هي الطريقة التي يحبّ النظام تسيير أموره بها: تنظيم وتخطيط وقساوة بدون رحمة.

كان ألوف الشبّان يرتدون ملابس رخيصة ـ تفوح منها رائحة العرق والدخان وكان وبعضهم ينتحب ـ يركضون لمواكبة النعش. وكانت هناك بالفعل مساواة في الهستيريا واليأس. لكن في قصر الشعب، علمنا ما هي المساواة حقّاً. سارت وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت مثل أستاذ من جامعة جورج تاون نحو غرف الاستقبال بقبّعتها الزرقاء ووشاحها الأبيض، ومرّت أمام الرئيس الإيراني محمّد خاتمي، ولكنها بقيت هناك بينما سارع السوريون إلى إحضار الزعيم الإيراني الموقّر أمام النعش.

أين كان كلينتون؟ كيف يستحقّ حسين الأردنّ حضور رئيس أميركي ولا يستحقّ أسد سوريا ذلك؟ هل هذه بيروقراطية؟ أو يعود ذلك إلى كون الملك حسين نفّذ ما طلبه الأميركيون في حين لم يفعل الأسد ذلك؟ أقام خاتمي الصلاة على الجثمان الملفوف بالعلم وتحرّكت شفاهه كما فعل الرئيس المصري مبارك قبل بضع دقائق... كانت عينا الرئيس المصري تتحرّكان مثل السمكة بين الدبلوماسيين في الغرفة. هل فكّر مبارك في النجمتين اللتين ما زالتا تزيّنان وسط العلم على النعش وهي الرمز شبه المنسيّ للوحدة بين مصر وسوريا، المحاولة الأخيرة اليائسة للوحدة العربية؟ أعطي عرفات وقتاً كافياً أمام النعش، لكن لفترة قصيرة، مقارنة بوقت بشّار.. كانت يده المرتجفة بسبب مرض البركنسون تُمسك بالكرسيّ. كيف غضب حافظ الأسد على هذا الرجل الصغير المريض، وقد عبّر مرّة عن انزعاجه بأن قُبلات عرفات التي يسيل منها اللعاب دامت طويلاً. للمرّة الأولى، كان هناك بعض المعزّين، ممن كانت أيديهم ملطّخة بالدم - حاملين على ما أعتقد، الدماء المجمّدة منذ مُدّة طويلة، لعشرات الآلاف من الأطفال العراقيين الذين ماتوا نتيجة العقوبات التي دعمتها مادلين أولبرايت شخصياً.

أرسل فلاديمير بوتين، سفّاح غروزني، رئيس وزرائه العجوز بريماكوف.

لم يستطع شارون الحضور أبداً. وكان رفعت، جزّار حماه، يواجه الاعتقال في حال حضر الجنازة... لكن كان هناك الكثير من الثوّار. إضافة إلى عرفات، قائد حزب الله السيّد حسن نصرالله، والعديد من فلسطينيّ الصف الثاني، ومقاتلين من الأيام الخوالي في «فتح لاند» في جنوب لبنان.

على شاشة التلفزيون السوري، وضعت موسيقى هادئة لبيتهوفن مع معلّق أغمي عليه فوق النعش، «أنت معلّمنا وقائدنا وقد تعلّمنا منك - سوف نسير وفق أفكارك ونهجك. قلوبنا محطّمة وعيوننا تبكي - صُدمنا برحيلك ولا نستطيع النهوض - لا نستطيع التصديق بأنك رحلت عنا». هنا أيضاً كنّا أمام أسلوب صبياني عزيز على قلب كلّ نظام دكتاتوري.. لم يكن ذلك عبادة... إلا أنه كان أكثر من إعجاب... إنه أشبه بتحويل قُدسي للزعامة السورية نحو الجبابرة - الآلهة.

لم يكن الأمر مختلفاً في القرداحة، حيث كان الأسد مسجّى الآن وسط مراسم خاصّة، في المسجد نفسه الذي سُجّي فيه ابنه باسل، وفوقه تلّ من الزهور. يا الله! أُغمي على رجل مسنّ قرب النعش، وقد رمى نفسه على البلاط الرخامي، وراح يبكي ويردّد العبارات التي انتشر صداها في أروقة المبنى، وظلّ يصرخ: «يا اللّه، يا اللّه». تمتم رئيس التشريفات: «لقد فقد عقله. الناس هنا يحبّونه كثيراً كما ترى. لكننا نصادف هذه الأمور دائماً». قام ثلاثة موظفين بإبعاد الرجل المتوسّط العمر وهو ينظر إلينا بغضب.

تأليه أو حبّ؟ حبّ أو جنون؟ كانوا يدخلون المسجد بمعدّل خمسة آلاف شخص في الساعة.. رجال دين شيعة، ورجال دين كاثوليك، وجنرالات سوريون كانت أشعّة الشمس تسطع على نجومهم الذهبية... ونساء مسنّات وفتيات متشحات بالسواد، وقرويون، وموظّفون من الخطوط الجوّية السورية بلباسهم الرسمي النظيف. كان هناك الكثير مما يستطيع الزائر رؤيته.

هناك دروس يجب استخلاصها. كانت القرداحة مركز الأقلّية العلوية السورية التي سيطرت على معظم مصير سوريا، وبالطبع على كل سوريا، خلال الثلاثين سنة الماضية... الأمر الذي يساعد أيضاً على تفسير سبب توجّه قافلة من باصات حزب الله إلى ضريح الأسد، قام مستقلّوها الملتحون والمتشحون بالسواد بتقديم الاحترام لأكبر شخصية علويّة في العصر الحديث.

بدت الأعلام السوداء وجلال الموت طبيعية بالنسبة إلى هؤلاء الشباب، الثوّار الذين أخرجوا آخر الجنود الإسرائيليين من جنوب لبنان، والذين قضى العديد من رفاقهم أشلاء نتيجة الصواريخ والقذائف الإسرائيلية خلال ثمانية عشر عاماً من حرب العصابات.

ذلك أن العلويّين أنفسهم هم طائفة شيعية، بقايا ثورة شيعية إسلامية عدّلت المسار الإسلامي منذ ألف عام تقريباً. على غرار الشيعة، يعتقد العلويّون أن ابن عم النبيّ وصهره عليّ سُلبت منه الخلافة على يد الخلفاء الثلاثة. وكما فعل الموارنة اللبنانيون، لجأوا إلى السهول الجبلية، بعيداً عن مضايقات أبناء عمّهم المسلمين السنّة. وينتمي معظم العلويين إلى أربع قبائل ـ المتاورة، والحدّادين، والخيّاطين، والكلبية. وينتسب جدّ الرئيس الأسد سليمان إلى قبيلة الكلبية.

رسمياً، لا يستطيع البعث قبول مفاهيم الزعامة العلويّة ـ بالفعل لا جدال في ذلك ـ والأسد سوري من البداية إلى النهاية. عليك تناسي طريق القرداحة، والفندق الفخم، والمطار المحلّي. عندما سألت إبراهيم معان من أين هو، أجابني: «أنا مواطن عربي سوري فقط». يشكّل العلويون حوالي ١٢ في المئة من سكّان سوريا البالغ عددهم ١٥ مليون نسمة. ولذلك، فإبّان حكم الأسد، كان أي سؤال حول فقدان التوازن العلويّ مع الأغلبية السنّية في مواقع السلطة يكلّفك حرّيتك أو عملك. وحتى الآن، أثبتت التحليلات التقريبية كم هي عديدة المواقع الرئيسية في الجيش والحكومة التي تخضع لسلطة العلويين. كان الأسد وعائلته علويّين وكذلك رئيس المخابرات السورية في لبنان الجنرال غازي كنعان ووزير الإعلام عدنان عمران وكذلك العديد من ضبّاط المخابرات والقوّات الخاصة في سوريا.

خلال الانتداب الفرنسي، قدّم بعض ـ إن لم يكن كل ـ العلويين مساندة لباريس وساعدوها في قمع الثورة السنّية. وخلال الانتفاضة السنّية ضدّ نظام الأسد التي تفجّرت في حلب وحماه، كان العلويون الأهداف الرئيسية. وقد تمّ قتل أكثر من خمسين تلميذ ضابط علوياً في كلّية المدفعيّة في حلب عام ١٩٧٩... وكانت العمليات الوحشية الأولى للإخوان المسلمين في حماه موجّهة مباشرة ضدّ المسؤولين العلويين وعائلاتهم.

بينما ضَمِن الأسد مشاركة سنّية واسعة في الحكومة ـ بما في ذلك وزراء الدفاع والخارجية ـ فقد استغلّ أعداء البلد الأصول العِرقيّة للسلطة السياسية في سوريا.... ولم تسنح الفرصة لنبوءات إسرائيل المستمرّة حول نشوب حرب أهلية بين العلويّين والسنّة. لكنّ سلطة العلويين تشرح الكثير من الأمور. تشرح لماذا أصبحت إيران ـ

حصن الثورة الشيعية المسلمة ـ الحليف المقرّب لبلد يحكمه رجل يعود في إيمانه إلى العقيدة الشيعية. تفسّر لماذا يرتبط حزب الله، التنظيم الشيعي، بنظام دمشق، رغم ادّعائه بأنه خارج الطائفية. ومع أن حزب البعث علماني، فإن نساء القرداحة ما زلن يضعن الحجاب على وجوههنّ أكثر من طهران.

حتى الآن، ومنذ عهد هارون الرشيد، لم نشهد أي نظام غير ملكي ينقل الخلافة إلى ابن الرئيس، وقد عمد البرلمان السوري إلى تخفيض سنّ الرؤساء في المستقبل إلى ٣٤ سنة ليتلاءم مع الخليفة الجديد بشّار الأسد. في مجالسه الخاصّة، سار بشّار على خطى والده: قرار استراتيجي بقبول معادلة الأرض مقابل السلام؛ لا اتفاقية سلام مع إسرائيل حتى استعادة كل الجولان؛ نعم لاتفاق نهائي غير مبني على نموذج عرفات في التفاوض على سلام تدريجي، إنما وفق قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢: انسحاب إسرائيلي من الأراضي المحتلّة مقابل الأمن لكل دول المنطقة؛ علاقات جيّدة مع المسيحيين في لبنان شرط ألا يطالبوا بانسحاب ٢١ ألف جندي سوري، وإذا غادرت سوريا لبنان يوماً ما، فلن يكون ذلك لصالح الأقلّية المسيحية التي طلبت منها المجيء إلى لبنان.

من ضريح الأسد عدت إلى حماه لفترة قصيرة.... كانت هناك لافتة سوداء تتدلّى خارج مدرسة رسمية في هذه المدينة المسكونة بالأشباح، وقد كتب عليها: «إلى جنّة الخلد يا قائد أمّتنا». لكن كانت هناك أسمال بالية تتدلّى من منازل الناجين في حماه مغسولة ومظلّلة بالشمس. وفي محلّ للورق كانت ثلاث رزم من الملصقات غير المبيعة على الطاولة... بعيداً عن ناعورة الماء الكبيرة التي تصدر صريراً: حافظ، باسل وبشّار. ما زال الخوف قائماً. وقال صديق قديم لي من حماه، بأسلوب حزين بينما كانت القطط ينقضّ بعضها على بعض في محلّ محطّم قديم: «ما حصل قد حصل. الماضي ذهب ونحن أولاد الحاضر ـ ٨٢ ذهبت ومعها أحداثها. لنقل كفى». أصدرت ناعورة الماء خارج بيته صريراً، تصرخ مشتكية من المحاور الحديدية القديمة التي تحيط بالدولاب والخشب الثقيل بينما مياه العاصي تسقط رذاذاً في المجاري المائية المهملة.

لكن رغم ذلك لا أحد يصرّح بالحقيقة: عن المذبحة في الدهاليز السفلية لمدينة حماه، عن الانتحاريات المسلمات اللواتي رمين بأنفسهنّ بين الجنود وفجّرن القنابل المربوطة على صدورهنّ، عن الأرامل المتشحات بالسواد اللواتي سنراهنّ لاحقاً في الضفّة الغربيّة وغزّة وإسرائيل والشيشان وروسيا. كان رجال الحزب وأتباع رفعت يجولون بين الأنقاض المحترقة بعد المجزرة ويعدمون عشوائياً الجرحى والمشبوهين والذين لم يستطيعوا تفسير وجودهم هناك.

وهذا يطرح السؤال المألوف: هل يستطيع أي نظام البقاء بدون نمط ما من الاعتراف بذنوب الماضي، من دون اختبار محاسبة ذاتية لورثة البعث وكذلك للناجين من الإخوان المسلمين القتلة؟ هل سيأتي وقت يستطيع فيه بشّار الأسد القول إن هذه الأعمال الرهيبة حصلت باسم الحزب؟ ونظراً لحاجته إلى دعم بعض القوى الظلامية المسؤولة عن مجزرة حماه، فإنني أشكّ في ذلك. يمكن أن تنجح الحقيقة والمصالحة في جنوب أفريقيا أو إيرلندا

الشمالية لكن التاريخ في الشرق الأوسط يمتدّ بجذوره إلى الماضي البعيد. الماضي البعيد في الجزائر، والعراق ـ حيث لن يستمرّ نظام بعثي بعد هذه الاعترافات ـ الماضي البعيد في فلسطين، الماضي البعيد في إسرائيل وكذلك في لبنان.

صحيح أن في بيروت «حديقة من التسامح»... ولكنّ الذكرى المادّية الوحيدة للحرب الأهلية ـ ناهيك بالمبنى الإسمنتي المخترَق بالرصاص وقذائف المدفعية خارج وزارة الدفاع وآلاف المنازل اللبنانية المدمّرة ـ تتلخّص بالتمثال القديم الذي يحيي ذكرى المسيحيين والمسلمين الذين شنقهم الأتراك بين عامي ١٩١٥ و١٩١٦ لتجرّئهم على معارضة الحكم العثماني. «ساحة الشهداء» كما تسمّى، كان لها معنى مختلف خلال ١٥ سنة من الحرب الأهلية، لأنها تقع على خط المواجهة بين الميليشيات المسيحية والإسلامية، وقد حطّ من قيمة هذا المعنى كل أولئك الذين استخدموا موقعها الجغرافي في وسط بيروت لتدمير العاصمة. كان الملاك الذي يحمي التمثال مليئاً بمئات الثقوب الناجمة عن طلقات الرصاص، لكن تمّ الحفاظ عليه للمستقبل رغم الثقوب الواضحة فيه ـ رمزاً لتوبيخ دائم للذين يريدون تدمير الحبّ الأخوي الذي مثّلته افتراضياً هذه الشهادة القديمة. . .

قبل الحرب العالمية الأولى، ناقش المثقّفون العرب بشكل علني علاقة جديدة بين العرب والقسطنطينية، مطالبين بشيء من «الحكم الذاتي للأراضي العربية داخل الإمبراطورية العثمانية، إمّا عن طريق حكم فيدرالي ـ يكون السلطان بموجبه ملك العرب والأتراك ـ أو بدهاء أكثر في نظر الأتراك، عبر حكم ذاتي تضمنه القوى الغربية وبخاصّة فرنسا. وذلك في الوقت الذي أصابت فيه أزمة مشابهة لا سابق لها المطالبين بالحكم الذاتي في إيرلندا، حيث نادى بعضهم بإيرلندا حرّة داخل الإمبراطورية البريطانية، وطالب آخرون بالاستقلال الكامل عن بريطانيا.

اجتمع الأعيان السوريون في باريس قبل الحرب وناقشوا أي نوع من الاستقلال سيُعطَون: من بين المطالب الأخرى، طالبوا بتدريس اللغة العربية في المدارس إلى جانب اللغة التركية واستخدامها معها في جميع الأمور الحكومية. لكن رغم أن الأتراك بدوا ميّالين إلى قبول هذه الأفكار، فإن الطبيعة الغامضة المتعمّدة للتعليمات الصادرة للحكّام الأتراك في المقاطعات العربية، أثبتت بسرعة أنه لم تكن لدى الباب العالي نيّة في تقاسم السلطات داخل الإمبراطورية العثمانية. لن تكون هناك حلول «نمساوية ـ هنغارية» في الشرق الأوسط. وحتى الوقت الذي أعلنوا فيه الحرب على الحلفاء عام ١٩١٤ ـ ويمكن القول بأن ذلك كان أكبر خطأ ارتكبته السلطات العثمانية منذ القرن الرابع عشر ـ حافظ الأتراك على وحدة الإمبراطورية لكنهم سمحوا بقدر معيّن من النقاش كان كافياً لتهديد وحدتها.

لا أحد يستطيع تصوّر المعاناة التي تعرّض لها اللبنانيون خلال الحرب العالمية الأولى. لقد قامت البحرية الفرنسية والبريطانية بفرض حصار على ساحل المتوسّط العثماني عام ١٩١٤، مانعة الموادّ الغذائية من الوصول إلى المشرق. لذلك عمدت القوّات العثمانية التركية إلى مصادرة كل الحبوب في لبنان لقوّاتها وصادرت الحيوانات من

المزارع، وقضى الجراد الذي اجتاح البلاد عام ١٩١٥ على ما تبقّى من المحاصيل. لم يكن من الممكن فلاحة الأراضي وحصلت مجاعة رهيبة في شمال سوريا، مات فيها ٣٠٠ ألف نسمة منهم ١٢٠ ألف لبناني في بيروت وحدها، وكان معدّل موت المدنيين حوالي المئة يومياً. كانت السيدة أبريزة كرباج على قيد الحياة عام ١٩٩٨ لتقصّ روايتها حول هذه الإبادة الجماعية: «أصبحنا كالحيوانات، كنا نأكل الثمار الفاسدة عن الأرض. لكن لم يدم ذلك طويلاً، وكنا بعدها نقتلع الجذور والعشب». كانت عائلتها تعيش على الأعشاب المغليّة. ومات جيرانها ولم يُعرف بموتهم إلّا نتيجة الروائح الكريهة المنبعثة من بيوتهم. لم تكن تركيا خائفة على حياة مواطنيها العرب العثمانيين في المشرق ـ كان لبنان جزءاً من سوريا ـ على الأراضي العربية التي تحكمها. وكان أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع التركي في سوريا وأيضاً أحد الحكّام الثلاثة لجمعية تركيا الفتاة التي كانت تحكم بفعالية الإمبراطورية العثمانية آنذاك. وعندما خشي الأتراك أن يساعد المواطنون الأرمن الروسَ والفرنسيين والإنكليز، شكّوا أيضاً في انضمام القوّات العربية العثمانية إلى الحلفاء أو إلى الثورة العربية الموالية للحلفاء. وقد أرسل جمال باشا الوحدات العربية من جيشه إلى غاليبولي وتحوّل بحقد ضدّ المواطنين المدنيين الذين يحكمهم والذين يستطيع إلصاق تهمة الخيانة بهم، وصبّ جام غضبه عليهم بقسوة صدّام نفسها.

عندما دخلت تركيا الحرب، غادر الفرنسيون قنصليّتهم في بيروت، وكان مقرّها هو المبنى ـ الموجود رسمياً تحت حماية الولايات المتحدة التي ظلّت محايدة حتى عام ١٩١٧ ـ الذي اكتشف البوليس السري العثماني فيه رسائل ومستندات وقّعها ثلاثون عربياً ـ معظمهم لبنانيون ـ فشلوا في مغادرة المشرق قبل الحرب، لكن كانوا أغبياء بشكل كافٍ للوثوق بالدبلوماسيين الفرنسيين من خلال كتاباتهم حول مستقبل سوريا. وجرى استدعاء الرجال السيّئي الحظ مسلمين ومسيحيين إلى الاستجواب في مدينة عاليه اللبنانية، حيث عُذّبوا بقسوة وأرسلوا إلى محاكم ميدانية للحكم عليهم بالموت المحتّم. كان عدد المسلمين ٢٧ شخصاً والمسيحيين ستة أشخاص وقد تمّ تكريم عذابهم في ما بعد من قِبل اللبنانيين كبرهان على أن أتباع الديانتين يستطيعون القتال والموت معاً من أجل استقلال بلادهم. وقد مات معظمهم على المشانق التي نُصبت على بعد ميل تقريباً من منزلي في بيروت. وفي كل مرّة كنت أتجوّل في مكتبات بيروت القديمة ـ أو أسافر في الشرق الأوسط ـ كنت أبحث عن رواية جديدة عن حياتهم ومماتهم.

كانوا بكل الأحوال شهداء عرباً ماتوا ليحيا غيرهم أحراراً ـ رحلوا من أجل وطنهم وليس من أجل أنظمة علمانية أو جيوش. بعد عدّة سنوات وفي محلّ أثريات صغير في شارع قصر النيل في القاهرة، وجدت كتاباً قديماً مطبوعاً في مصر عام ١٩٢٢ من تأليف رجل دين ماروني لبناني، هو الأب أنطوان يميّن. كان يتضمّن الكتاب صوراً بالية لأطفال ضعفاء وجثث ممدّدة في الأزقة. لكنه كان يتضمّن أيضاً رواية مُقنعة للأيام الأخيرة ـ والخطب الأخيرة ـ للرجال المحكومين. جرى أخذ الأحد عشر الأوائل إلى مركز شرطة بيروت المركزي في ساحة المدافع ـ التي أصبحت لاحقاً «ساحة الشهداء» ـ وفي الساعة الثالثة صباحاً تم إعطاؤهم أغطية لرؤوسهم لتنفيذ الإعدام. وقد نُصبت ١١ مشنقة في الساحة، وقبل شنقهم سمح الأتراك لكل منهم بالتحدث إلى الجموع المحتشدة في الظلام، مع الحاكم التركي ورئيس الشرطة التركي وأعضاء المحكمة العسكرية التي حكمت على الضحايا.

صاح عبد الكريم الخليل من فوق منصّة الإعدام والحبل حول عنقه: أحبّائي أهل وطني، يريد الأتراك أن يخمدوا أصواتنا في صدورنا! يريدون منعنا من الكلام والمطالبة بحقنا في الاستقلال والتحرّر من استعباد تركيا... لكن.... سوف نطالب كل الدول المتحضّرة في العالم باستقلالنا وحرّيتنا. بلدي الحبيب، تذكّر دائماً هؤلاء الشهداء الأحد عشر! يا جنّة بلادي احملي مشاعر حبّنا الأخوي لكل لبناني، لكل سوري، لكل عربي، أبلغيهم عن نهايتنا المأساوية وبلّغيهم: «لحريتهم عشنا ومن أجل استقلالهم نموت».

عندئذٍ، وفقاً لرواية المؤلّف الماروني، دفع الخليل بنفسه السلّم تحت قدميه وشنق نفسه. بعده جاء دور الأخوين محمّد ومحمود المحمصاني. ولمدّة ربع ساعة احتضن محمّد شقيقه وحاول تهدئته. ثم توجّه إلى الحشد قائلاً: «لم أخن بلادي أبداً. أقسم بذلك أمام الله والجميع. اعتبرني الأتراك مذنباً لكنّ ذلك كذب. لا أعتقد أن حبّ الحرية وإرادة التحرّر لبلدي جريمة». وتوجّه نحو منفّذ الإعدام وطلب أن يشنق هو وشقيقه في اللحظة نفسها ـ بحيث لا يرى أحدهما الآخر وهو يموت. وقد نُفّذت رغبة محمد.

وجّه المحكومون الشتائم إلى جمال باشا على قساوته. وتوجّه جوزف بشارة هاني إلى المشنقة مثل العديد من رفاقه نافياً الخيانة. «أنا بريء، بريء كلّياً ـ أقسم بذلك أمام الله... عشت حياة كريمة وأموت غير خائف». ثم ركل منفّذ الإعدام السلّم من تحت أقدام هاني. بعد بضعة شهور، جرى شنق أربعة عشر آخرين في بيروت، اثنان منهما عقداء في الجيش العثماني صعدا إلى المشنقة بكامل لباسهما العسكري. قال أحدهم وهو سليم الجزائري إنه يموت «مع حبّه لرفاقه العرب، حبّه لوطنه وكراهيته للأتراك». وكان ثمّة أخوان ـ مسيحيّان ـ كتب أحدهما رسالة إلى زوجته كاتماً عنها خبر إعدامه وزاعماً أنه سيراها قريباً في بيتهما في جونية.

رغم رغبتهم الطبيعية في إلقاء كلماتهم بجرأة، قيل إن الأتراك تأثّروا بشجاعة الضحايا الذين كان من بينهم عربي فلسطيني على الأقلّ. وأمرت السلطات التركية أن تُرمى جثثهم في مقبرة جماعية على شاطئ رأس بيروت. في تلك الأيام، لم تكن المنطقة التي يقع عليها مطار بيروت الآن مستصلحة، وكان شاطئ البحر يمرّ على زاوية ما هو كورنيش المزرعة اليوم. في هذه الأرض الحمراء دُفن المسلمون والمسيحيون بدون مراسم جنازة.

لكن جرى الغدر بهم؟ كان مفكّر فرنسي يراجع سجلّات الشؤون الخارجية لبلاده في نانت، وقدّم رواية مفصّلة حول هذه المسألة البائسة. جرى سجن مترجم القنصلية الفرنسية في بيروت، فيليب زلزل، وهو مسيحي، من قبل الأتراك في دمشق. ومن أجل تأمين عودته إلى بلدته اللبنانية بكفيا، أبلغ جمال باشا عن الرسائل التي خبّأها الدبلوماسيون الفرنسيون خلف جدار مزيّف وطاولة في القنصلية. ولم يكن القنصل الفرنسي الذي خبّأ المستندات سوى فرنسوا جورج بيكو، بيكو نفسه الذي أبرم مع السير مارك سايكس معاهدة سرّية عام ١٩١٦ تقوم بموجبها فرنسا بالإشراف على لبنان وسوريا بعد الحرب غير عابئة بالاستقلال الذي يطالب به العرب. كانت الرسائل الموقّعة [من المحكومين] تتضمّن طلب تدخّل عسكري فرنسي في لبنان وسوريا. وكانت النتيجة المباشرة لهذه المعاهدة الأجنبية قيام الفرنسيين بفصل لبنان عن سوريا وعزل الملك العربي فيصل عن حكم دمشق. كما

كانت مذبحة ميسلون النتيجة المباشرة لمعاهدة سايكس ـ بيكو التي أبرمت برسالة من السفير الفرنسي في لندن يوم ١٩ أيار/مايو ١٩١٦ وبالتحديد بعد يومين من إعدام الأتراك للمجموعة الثانية من الوطنيين اللبنانيين في بيروت. لم تسجلّ ردّة فعل بيكو حول اكتشاف الرسائل المدينة التي تركها وراءه والتي اعتبرها مفخرة.

عندما وصل الجيش الفرنسي إلى بيروت عام ١٩١٨، جرى إخراج جثث الشهداء اللبنانيين من المقبرة المشتركة، لكن المعتقدات الدينية التي اعتبروها ثانوية بعد وطنيّتهم حالت دون دفنهم معاً. لم يسمح المسيحيون للشهداء المسلمين في بيروت أن يدفنوا في مقابرهم وكذلك لم تسمح السلطات المسلمة للمعدومين المسيحيين أن يدفنوا في مقابرهم. في الختام، عرض المسلمون الدروز، الذين تسمح معتقداتهم الصوفية بنظرة أكثر تحرّراً للحياة والموت، تقديم قطعة أرض صغيرة من لبنان حيث يستطيع هؤلاء الشجعان من مختلف الطوائف والذين قضوا معاً، البقاء جنباً إلى جنب في الخلود. وما هو مجهول لدى معظم اللبنانيين هو أن رفاتهم ما زالت موجودة قرب المجلس الدرزي في شارع الحمراء في بيروت.

حتى الآن كانوا جميعاً شهداء.. وهم كذلك. عارض المسلمون والمسيحيون الظلم التركي في سوريا، لكنّ المسيحيين الموارنة في لبنان كانوا يأملون بوصاية فرنسية بعد الحرب ـ وقدّموا ولاءهم للانتداب الفرنسي لأكثر من عقدين. وكان المسلمون وطنيين عرباً يرغبون في إقامة دولة عربية مستقلّة يشكّل المسيحيون فيها أقلّية صغيرة بشكل واضح... ومن خلال التدقيق عن قرب في الكلمات الأخيرة للشهداء على المشنقة يظهر أن أهدافهم لم تكن واحدة، حتى في الموت. كان الكاهن الماروني جوزف حايك بين الأوائل الذين أُعدموا وكانت كلماته الأخيرة: «عاش لبنان! عاشت فرنسا»! لم تكن هذه مشاعر أولئك الذين توجّهوا بكلامهم إلى «إخوتهم العرب» قبل أن يعدموا.

لكنّ موتهم كان على الأرجح الحافز الأخير للثورة العربية. كان الأمير فيصل ـ ملك سوريا مستقبلاً والذي أصبح ملك العراق الأوّل معيّناً من قِبل بريطانيا ـ يقيم خارج دمشق في ربيع عام ١٩١٦ وقد طلب من جمال باشا العفو عن المجموعة الثانية من المحكومين الذين ينتمون إلى العائلات الأكثر شهرة في سوريا ولبنان. وكتب المفكّر والمؤرّخ جورج أنطونيوس كيف كان الأمير وضيوفه، عائلة بكري، يتناولون طعام الإفطار في الحديقة عندما أحضر لهم أحد السعاة الطبعة الخاصّة من صحيفة الشرق الموالية للأتراك وفيها تقرير مفصّل عن عمليات الشنق. قرأ أحد آل بكري أسماء الرجال المشنوقين التي «سقطت مثل كلمات جارحة في هواء ذلك الصباح الربيعي في بساتين دمشق». تلا أحدهم فاتحة القرآن. ثم وقف فيصل على قدميه، وانتزع كوفيّته من فوق رأسه ورماها تحت قدميه. وصرخ: «أيها العرب! أصبح الموت مُتعة لنا». وانطلقت الثورة العربية.

الفصل الحادي والعشرون

لماذا؟

خارج سفينة محترقة.. لم يكن من الممكن إنقاذها من اللهب بأيّ شكل آخر.. سوى إغراقها...
اندفع بعض الرجال.. وكلّما كانوا يتقدّمون نحو سفن الأعداء.. كانت أصوات طلقاتهم تتراجع.. وتخفت في البعيد..
وهكذا ضاعوا جميعاً.. البعض حيث وجِدت بقايا السفينة.. والبعض احترق في البحر.. وآخرون غرقوا في السفينة المحترقة....

جون دون «سفينة محترقة»

نسيت أن أقفل هاتفي الخلوي، وشعرت بارتجاجه في جيبي بعد ثوانٍ من صعودي على رحلة سابينا عبر الأطلسي.... وكانت الفكرة الأولى التي خطرت ببالي، رغم أننا لم نكمل الصعود إلى الطائرة، أنني خرقت الأنظمة.. نحن نؤمن بالقوانين غرائزياً، بدون سؤال، وننقاد إلى أنظمة علمانية لتشرف على حياتنا بشكل أفضل من الأنظمة الدينية المفروضة.... تركت مقعدي واتجهت إلى مقدّمة الطائرة حيث كان الركّاب ينتظرون للدخول. كان رئيس تحرير المواضيع البارزة على الخط: «روبرت، أعتقد أنه بعد هذا الذي حصل سوف نضطرّ إلى وقف مقالتك حول صبرا وشاتيلا. لقد صدمت طائرة صغيرة الآن مركز التجارة العالمي في نيويورك، والمبنى يحترق». . . اللعنة! هذه هي المرّة الثالثة التي يؤجّل فيها مقالي، «هل الأمر مهمّ إلى هذه الدرجة؟ طائرة صغيرة؟»
ـ «يبدو أن الأمر خطير جدّاً، وأعتقد أنّ من المستغرب وضع قصّة عمرها ١٩ سنة في الصفحة الأولى وعندنا موضوع بهذه الأهمّية في نيويورك». . . استسلمت. بدا لي أن التحقيق الجديد حول الدور الإسرائيلي في المجازر الفلسطينية في بيروت عام ١٩٨٢ لن يُنشر أبداً. طيلة الأسبوع الأول من شهر أيلول/سبتمبر، كنت أبحث عن فُسحة لنشر مقالي، ثم يوم ٦ أيلول/سبتمبر قرّر سيمون كلنر أنني أستطيع النشر يوم الإثنين في العاشر منه، ثم ذهب كلنر في إجازة وحل مكانه إيان بيرل نائب رئيس التحرير الذي قام بتأجيل مقالي حتى صباح الثاني عشر من الشهر نفسه... كان هذا يعني أن الصيغة النهائية المصحّحة سترسل إلى المطبعة بعد ظهر ١١ أيلول/سبتمبر. اتصلت من مطار بروكسل بصحيفة الإندبندنت عند الصباح وكنت متعباً بعد رحلة ليلية من بيروت. . . أبلغني ليونارد دوبل محرّر الشؤون الدولية عن عملية انتحارية ضدّ أحمد شاه مسعود قائد ميليشيا التحالف الأفغاني الشمالي الذي قاتل بشجاعة لا توصف ضدّ الروس، لكنه أظهر مشاعر احتقار لأسامة بن لادن.. لقد قام اثنان من المصوّرين

الصحفيين العرب باغتياله بواسطة كاميرا مفخّخة.. سألني إن كنت أعتقد أن أسامة بن لادن هو وراء ذلك؟ لا أعرف.... في الطبعة الأولى من الإندبندنت وصف ليونارد مسعود بلقبه الأفغاني «أسد بنشير»، وقد قام محرّر من الصف الثاني بتغييره ليلاً إلى لقب «زعيم الثوار». بعد منتصف الليل ضربت الصواريخ الأميركية كابول.

عندما تحدّثت لأوّل مرّة إلى محرّري الأحداث من قاعة المغادرة في مطار بروكسل أكّدوا لي أن التقرير عن صبرا وشاتيلا سوف ينشر في الصفحة الأخيرة. كان من المفترض أن ينشر على الصفحة الأولى من الطبعة المسائية، هناك موضوع أخباري على الصفحة الأولى، ويُظهر تصميم المقال دماً منثوراً على صورة للقتلى الفلسطينيين... لم أقرّر الاتصال بالصحيفة مجدّداً لأنني سأكون بعيد المنال لمدّة ستّ ساعات ونصف ساعة فوق الأطلسي .... أخرجت نسخة من المقال لإجراء مراجعة أخيرة..

تحدّثت سناء سرساوي ببطء وبصوت عالٍ بينما كانت تتذكّر الأحداث المأساوية الخطيرة اليائسة التي مرّت بها منذ تسعة عشر عاماً يوم ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٨. وبصفتها أحد الناجين المستعدّين للشهادة ضدّ شارون الذي كان وزيراً للدفاع في ذلك الوقت، توقّفت سناء للبحث في ذاكرتها عن اللحظات الأكثر رهبة في حياتها. «أخذتنا ميليشيا القوّات اللبنانية من بيوتنا، واقتادتنا إلى مدخل المخيّم حيث حُفرت حفرة كبيرة في الأرض. طلبوا من الرجال الدخول إلى الحفرة، ثم قام رجال الميليشيا بإطلاق النار على فلسطيني. مشت النساء والأطفال فوق الجثث لبلوغ هذا المكان، لكننا أصبنا بصدمة لدى رؤيتنا رجلاً يُقتل أمامنا، وصاحب ذلك عويل النساء وبكاؤهنّ. عند ذلك سمعنا الإسرائيليين يصرخون بمكبّرات الصوت: «أعطونا الرجال، أعطونا الرجال»، اعتقدنا بحمد اللّه أنهم سينقذوننا، وكان ذلك أملاً كاذباً».

شاهدت السيدة سرساوي الحامل في شهرها الثالث زوجها حسن (٣٠ سنة)، وصهرها المصري فرج السيّد أحمد يقفان بين جمع من الرجال. «طلبوا منا السير صعوداً على الطريق باتجاه السفارة الكويتية، النساء والأطفال في المقدّمة والرجال في الخلف، لقد جرى فصلنا، وكانت هناك عناصر من ميليشيا الكتائب وجنود إسرائيليّين يسيرون بمحاذاتنا. كنت لا أزال أرى حسن وفرج. كان الأمر شبيهاً باستعراض، وكان هناك المئات منا. عند وصولنا إلى المدينة الرياضية وضع الإسرائيليون النساء في غرف إسمنتية، وأخذوا الرجال إلى جهة أخرى من الملعب. كان هناك العديد من رجال المخيّم ولم أستطع رؤية زوجي. كان الإسرائيليون يتجوّلون ويصرخون: «اجلس، اجلس»، وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة. بعد ساعة طلبوا منا الرحيل، لكننا وقفنا في الخارج بانتظار رجالنا». انتظرت سناء سرساوي تحت الشمس الساطعة اللاذعة ظهور حسن وفرج... «خرج بعض الرجال ولم يكن بينهم أحد عمره أقلّ من أربعين عاماً، وأبلغونا أن نصبر وأن هناك مئات من الرجال ما زالوا في الداخل، ثم حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر خرج ضابط إسرائيلي يضع نظّارة سوداء، وقال بالعربية: «ماذا تنتظرون»، وصرّح أنه لم يبق أحد وأن الجميع ذهبوا. كانت هناك شاحنات إسرائيلية تخرج وهي مغطاة بشوادر

بلاستيكية. ولم نستطع رؤية ما بداخلها وسمعنا ضجيج سيّارات جيب وجرّافات. بقينا هناك حتى حلول الظلام، وبدا أن الإسرائيليين يرحلون، وكنا متوتّرين. وبعد رحيل الإسرائيليين دخلنا فلم نجد أحداً. وكان قد مضى على زواجي ثلاث سنوات لكنني لم أجد زوجي حتى الآن».

كانت مدينة كميل شمعون الرياضية المدمّرة ـ المدينة الرياضية ـ مركز اعتقال طبيعي للسجناء... تبعد كيلومترين عن مطار بيروت وكانت تُستخدم كمخزن ذخيرة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وقد تعرّضت مراراً للقصف من قِبل الطائرات الإسرائيلية خلال حصار بيروت عام ١٩٨٢، لذلك كانت أسوارها الخارجية العملاقة مدمّرة بشكل مرعب... كان الفلسطينيون قد لغموا الساحات الداخلية في وقت سابق، لكن المخازن الداخلية السفلية وغرف الرياضيين ظلّت سليمة.

كان ما حدث أمراً مألوفا لنا جميعاً، نحن الذين عشنا في بيروت. فعند منتصف نهار ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، شاهدت مئات من اللبنانيين والفلسطينيين الأسرى، ربّما حوالي ألف، يجلسون في الساحات الداخلية يراقبهم جنود إسرائيليون وعناصر من الشين بيت باللباس المدني ومجموعة من الرجال ظننت بحقّ أنهم كانوا عملاء لبنانيين. كان الرجال يجلسون صامتين وبخوف واضح، ولاحظت أن بعضهم نُقل بعيداً ووضِع في شاحنات عسكرية إسرائيلية، أو سيّارات جيب كتائبية للتحقيق معهم.

لم يراودني أدنى شكّ أو توقّع لما حدث... فعلى بعد بضع مئات من الأمتار، كانت جثث ٦٠٠ شخص من مجزرة صبرا وشاتيلا متعفّنة تحت الشمس تفوح منها رائحة كريهة بسبب التحلّل تتّجه نحو الأسرى والخاطفين. كان الطقس الحارّ خانقاً، فدخلنا، أنا ولورين جنكنز من الواشنطن بوست وبول إيديل من رويترز وحدنا إلى غرف الأسرى، لأن الإسرائيليين اعتقدوا نتيجة مظهرنا الغربي أننا من عناصر الشين بيت. كان العديد من السجناء مطأطئين برؤوسهم. لكن رجال ميليشيا الكتائب الموالية لإسرائيل كانوا قد خرجوا من المخيّمات، وانتهت المذبحة، وأصبح الإسرائيليون مسؤولين الآن. إذن، ممّن يخاف هؤلاء الرجال؟

بنظرة ارتجاعية إلى الماضي، وأنا أعيد اليوم الاستماع إلى شهادة سناء سرساوي، أرتعد لمجرّد تذكّر مقدار براءتنا. كانت ملاحظاتي المدوّنة في ذلك الوقت تتضمّن بعض الألغاز المتشائمة. وجدنا موظفاً لبنانياً من رويترز، عبدالله مطر، بين الأسرى وأطلقنا سراحه، واصطحبه بول بعيداً عن الأسرى، واضعاً يده على كتفه. تمتم أحد الأسرى لي: «إنهم يأخذون الواحد تلو الآخر بعيداً للتحقيق»، إنهم ميليشيا حدّاد. وفي العادة، هم يعيدون الأشخاص بعد التحقيق، لكن ليس دائماً. سألته: «لماذا لا يستطيع الأسرى التحدّث معي». أجاب: «ليس لديهم ما يقولونه».

عرف جميع الإسرائيليين ماذا حصل داخل المخيّمات. كانت رائحة الجثث الآن أقوى. في الخارج كانت

سيّارات جيب كتائبية عليها علامات «شرطة عسكرية» تمرّ من أمامنا.. كان غريباً ارتباط جهة مؤسّساتيّة بهذه العصابة من القتلة.... التقيت بعدد قليل من فِرق التلفزيون التي قامت إحداها بتصوير الميليشيا المسيحية اللبنانية خارج المدينة الرياضية، وقامت أيضاً بتصوير سيّدة تطلب من عقيد في الجيش يُدعى يحيى إطلاق سراح زوجها. لقد تمّ التعرّف إلى هويّة العقيد لاحقاً من قِبل صحيفة الإندبندنت، وهو اليوم برتبة عميد في الجيش الإسرائيلي.. على طول الطريق المواجه للملعب، كان هناك صفّ من دبّابات الميركافا الإسرائيلية، وكانت طواقمها تجلس على الأبراج، تدخّن وتراقب الرجال وهم يؤخذون من الملعب واحداً واحداً أو كل اثنين معاً؛ وقد جرى إطلاق سراح بعضهم، في حين أخذ بعض رجال الشين بيت البعض الآخر أو أخذهم رجال لبنانيون كانوا باللباس الكاكي... لقد عرف كل هؤلاء الجنود ماذا حصل داخل المخيّمات. فقد شهد أحد عناصر هذه الدبّابات الملازم آفي كرابوفسكي ما حدث (وهو استُدعيَ لاحقاً للشهادة أمام لجنة كاهان الإسرائيلية)، فقال إنه شاهد حتى عملية قتل للعديد من المدنيين جرت في اليوم السابق وقد طُلب منه «عدم التدخّل».

وفي الأيام التالية وصلتنا تقارير غريبة.. خُطفت فتاة من سيّارة في الدامور على يد رجال ميليشيا الكتائب وأُخذت إلى مكان بعيد رغم استغاثتها بجندي إسرائيلي. وقدّمت خادمة سيّدة لبنانية شكوى بأن الإسرائيليين اعتقلوا زوجها ولم يظهر بعد ذلك. وكانت هناك إشاعات غامضة عن أشخاص مفقودين.

كتبت في ملاحظاتي في ذلك الوقت أنه «حتى بعد مرور زمن على مجزرة شاتيلا فإن أعداء إسرائيل «الإرهابيين» كانوا يُقتلون في بيروت الغربية». لكنني لم أربط هذه الإدانة القاتمة مباشرة بالمدينة الرياضية ولم أفكّر أيضاً بالسوابق المرعبة للملعب الرياضي في زمن الحرب. ألم يكن هناك ملعب رياضي في سنتياغو قبل بضع سنوات، مكتظّ بالمساجين، بعد انقلاب بينوشيه؟ ملعب لم يرجع منه العديد من السجناء؟

من بين الشهادات التي جمعها محامون يسعون إلى محاكمة أرييل شارون على جرائم الحرب شهادة وضحى السابق. قالت وضحى إنه في يوم الجمعة ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، بينما كانت المجزرة مستمرّة (وهي لم تكن على علم بها)، كانت في منزلها الكائن في بئر حسن المواجه لصبرا وشاتيلا عندما: «جاءني الجيران وقالوا إن الإسرائيليين يريدون ختم هويّاتنا، لذلك نزلت إلى الطابق الأرضي وشاهدت الإسرائيليين والقوّات اللبنانية، كان الرجال مفصولين عن النساء»، كان هذا الفصل مع الظلال الرهيبة لعمليات فصل مشابهة في سربرينتشا خلال حرب البوسنة، قاسماً مشتركاً لعمليات القتال الجماعية. «قيل لنا أن نذهب إلى المدينة الرياضية، واحتفظوا بالرجال»..

كان أبناء وضحى الاثنين بين الرجال، محمّد (١٩ سنة) وعليّ (١٦ سنة) وشقيقها محمّد. قالت: «ذهبنا إلى المدينة الرياضية كما طلب منا الإسرائيليون، ولم أر ولديّ وشقيقي بعد ذلك أبداً». ويروي الناجون روايات متشابهة بشكل محزن. قالت بهيجة رزين أنها أُمرت من قِبل دورية إسرائيلية بالذهاب إلى المدينة الرياضية مع الرجال، وجرى فصل الرجال بعيداً بما في ذلك شقيقها البالغ ٢٢ عاماً. وقام بعض رجال الميليشيا تحت نظر

الإسرائيليين بأخذهم في سيّارة معصوبي الأعين. قالت في شهادتها الرسمية: «هكذا اختفى ولم أره أبداً منذ ذلك الحين». بعد بضعة أيام اكتشفنا نحن الصحفيين تبايُناً في عدد القتلى.. فبينما وجدنا أكثر من ستّ مئة جثّة داخل صبرا وشاتيلا، اعتُبر حوالي ١٨٠٠ مدني مفقودين. وافترضنا ـ كم هو سهل الافتراض في الحرب ـ أنهم قُتلوا في الأيام الثلاثة ما بين ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ وانسحاب القتلة من الكتائب يوم ١٨ منه، وأن جثثهم دُفنت سرّاً خارج المخيّم وظننّا أن ذلك حصل تحت ملعب الغولف.. لم يخطر ببالنا قطّ أن يكون العديد من الشباب قد قُتلوا خارج المخيّمات أو بعد ١٨ أيلول/سبتمبر، أي أن عمليات القتل كانت مستمرّة بينما كنا نحن نتجوّل في المخيّمات. لماذا لم ندرك ذلك نحن الصحفيين؟ في العام التالي نشرت لجنة كاهان تقريرها متّهمة شارون، لكنها أنهت تحقيقها يوم ١٨ أيلول/سبتمبر مع تلميح بسطر واحد فقط غير واضح إلى أن «عدّة مئات من الأشخاص ربّما يكونون قد اختفوا في الفترة نفسها». لم تقابل اللجنة أياً من الناجين الفلسطينيّين لكنها صارت هي الراوية الوحيدة للقصّة. لم يخطر ببالنا أبداً أن الإسرائيليين سلّموا الأسرى إلى حلفائهم المتعطّشين للدم من الميليشيات.. ويقدّم فلسطينيو صبرا وشاتيلا اليوم شهادات على أن هذا هو ما حصل بالضبط.. ويعتقد أحدهم (عبد الناصر) أن شقيقه عليّ تمّ تسليمه إلى الكتائب صباح ١٨ أيلول/سبتمبر... وروت سيّدة فلسطينية مسيحية تُدعى ميلانة بطرس كيف تم أخذها من أحد المخيّمات في شاحنة محمّلة بالنساء والأطفال إلى بلدة بكفيّا المسيحية، موطن الرئيس المسيحي المنتخب حديثاً والمقتول بشير الجميل، حيث أعطت سيّدة مسيحية ثكلى أمراً بإعدام صبيّ عمره ١٣ سنة كان في الشاحنة، وجرى قتله بالفعل. وقد عبرت الشاحنة أربع نقاط تفتيش إسرائيلية على الأقلّ في طريقها إلى بكفيّا. واتّفق لي أن التقيت لاحقاً السيدة التي أمرت بقتل الصبيّ.

وحتى قبل انتهاء المجزرة داخل المخيّمات، روت لي شهيدة أبو رُدينة كيف أخذوها إلى المدينة الرياضية حيث رأت في أحد دهاليز مراكز الاعتقال رجلاً متخلّفا عقلياً، يقوم بدفن الجثث في حُفرة بينما كان الجنود الإسرائيليون يراقبونه. وقد كان يمكن رفض شهادتها لولا أنها عبّرت عن شكرها لجندي إسرائيلي ـ داخل مخيّم شاتيلا، أي بتناقض تامّ مع كل الشهادات الإسرائيلية ـ منع قتلَ بناتِها على أيدي الكتائب. بعد وقت طويل من انتهاء الحرب جرى تهديم أنقاض المدينة الرياضية وشُيّدت مكانها ملاعب جديدة من الرخام من قِبل البريطانيين. وقد أحيا بافاروتي حفلة غنائية هناك. لكنّ الشهادات حول ما يمكن أن يوجد تحت الأساسات ـ وعواقبه الوخيمة ـ أعطت شارون سبباً أكبر للخوف من الإدانة.

كنت في مخيّمات صبرا وشاتيلا عندما حصلت هذه الجرائم. وكنت أعود إلى هناك سنة بعد سنة لأحاول اكتشاف ما حصل لآلاف الرجال المفقودين. كان كارستن تفيت من التلفزيون النرويجي معي عام ١٩٨٢ وقد عاد إلى بيروت عدة مرّات للغاية نفسها. لم يكن المحامون وحدهم هم الذين يحققون في تلك الجرائم ضد الإنسانية. عام ٢٠٠١، عاد تفيت إلى لبنان مع التسجيلات الأصلية لعام ١٩٨٢ والخاصّة بالنساء اللواتي يطالبن برجالهنّ على مداخل المدينة الرياضية. وقد قام بزيارة محلّات الفيديو الصغيرة الضيّقة في المخيّم الحالي، وأعاد عرض الأشرطة حتى عرفه الفلسطينيون. عندها بدأ تفيت البحث عن هؤلاء النساء ـ وقد صرن أكبر بتسعة عشر عاماً الآن

ـ اللواتي ظهرن في الأشرطة وكنّ يطالبنَ بأولادهنّ أو أخوتهنّ أو آبائهنّ أو أزواجهن خارج المدينة الرياضية، وقد التقاهنّ جميعاً ولم تجد أيّ منهنّ أبداً أحبابها منذ ذلك الحين(*).

في الأشهر التالية، كنت أفكّر في المفارقات الشخصية لتلك الدقائق الأخيرة في مطار بروكسل. كنت أقرأ التفاصيل الدقيقة لجريمة العصر التي حصلت منذ حوالي ١٩ عاماً بالضبط، وعلى الجانب الآخر للأطلسي، كانت جريمة دولية ضدّ الإنسانية على وشك الحصول. في صبرا وشاتيلا وفي عمليات القتل الجماعي التي حصلت بعدها، أحصينا عدد الضحايا الفلسطينيين الذين سقطوا من رجال ونساء وأطفال فبلغ حوالي ١٧٠٠ شخص... وفي واشنطن ونيويورك وبنسلفانيا، كان أكثر من ضعف هذا العدد من الأرواح البشرية على وشك الزوال.

بعد الاتصال مع محرّر الأحداث الهامّة، عدت إلى مقعدي في الطائرة.. بعدها رنّ هاتفي الخلوي، كانت آن بيكيت من المكتب الدولي على الخط. قالت: «يبدو أن طائرة هليكوبتر اقتحمت البنتاغون، روبرت. ليست لديّ تفاصيل أخرى حتى الآن، لكن أعتقد أن عليك الكتابة اليوم».. كنت أجلس في الدرجة الأولى وكان هناك هاتف موصول بالقمر الصناعي مثبت بالمقعد إلى جانبي. أدخلت البطاقة الائتمانية في الهاتف وفُتح الخطّ. سيكون باستطاعتي متابعة الحديث مع لندن وإرسال نسخة من مقالي خلال الرحلة.

كان آخر الركّاب يصعدون إلى الطائرة حين سرت نحو رئيس المضيفين وأبلغته عن طائرة الهليكوبتر.. ظللت أتحدّث عن «مبنى التجارة الحرّة» عوضاً عن مركز التجارة العالمي مع أنه كانت لديّ صورة واضحة عن البُرجيْن التوأميْن في مخيّلتي.. وعن الحرّاس فوق منهاتن إلى اليسار من التاكسي عندما وصلت إلى مطار جون كينيدي، بعد أن ألقيت محاضرة في برنستون قبل بضعة شهور من اليوم.

أجريت اتصالاً أخيراً مع مكتبي عن طريق الخلوي. كان لدى آن الوقت الكافي لكي تقول لي قبل أن أضطرّ إلى إقفال الخط: «روبرت، إنها طائرة ركّاب دخلت في مركز التجارة العالمي، والآن هناك طائرة أخرى»! وأقفلت الخط. كان واضحاً كم كان الأمر مرعباً، ولكن عقلي الصحفي كان كالكمبيوتر المهني الذي يرصد الحدث بدقّة ويحسب ردّة الفعل والمدى الزمني لها.. وها إنه يتحرّك الآن بسرعة. إن ما يحصل في الولايات المتّحدة مقصود.. وهو إذا استخدمنا أكثر العبارات العاديّة ابتذالاً «هجوم إرهابي». كان التوقيت في الساحل الشرقي الأميركي يختلف ستّ ساعات عن توقيت بروكسل. إن آلاف الأشخاص قد وصلوا الآن للعمل في البُرجين.. وكذلك في البنتاغون...

(*) التقى تفيت عنصر ميليشيا كتائبي سابق اصطحبه إلى منطقة جبلية شرق بيروت وأرشده إلى ثُكنة عسكرية سابقة للكتائب المسيحية، ووصف له كيف تم سجن ثلاث مئة فلسطيني اعتقلهم الإسرائيليون بعد مجزرة المخيّم في مستوعبات في الثكنة. حاول الكتائب استخدام أسراهم الذين أحضرهم الإسرائيليون للمقايضة مع الأسرى المسيحيين الذين يعتقدون بوجودهم لدى الميليشيات المسلمة. لكن لم يحصل تبادل للأسرى، إذ إنه بعد ثلاثة أسابيع على مجزرة صبرا وشاتيلا تمّ إخراج هؤلاء الأسرى الفلسطينيين (٣٠٠) من المستوعبات وتصفيتهم حتى الموت في مقبرة جماعية. أبلغ الكتائبي تفيت أن المقبرة تقع قرب كنيسة في ثُكنة تابعة حالياً للجيش اللبناني.

كانت طائرة الإيرباص تتحرّك على المدرج للإقلاع. لكن رئيس المضيفين جاء إلى مقعدي وسأل: «هل عرفت شيئاً أكثر؟» أبلغته عن الطائرة الثانية، وتوجّه بعدها مباشرة إلى غرفة القيادة. عاد بعد ثوان قليلة مع أن المحرّكات كانت تستعدّ للانطلاق: «هناك طائرة ركّاب تحطّمت في بنسلفانيا أيضاً»، نظرت إليه. «بن لادن، ومن غيره؟» أخرجت مفكّرتي وحاولت تذكّر كل شيء قاله لي بن لادن: كراهيته للعائلة السعودية الحاكمة، وتجربته في قتال الروس، وتصميمه على إخراج الأميركيين من الخليج.

كنا فوق البحر الإيرلندي عندما أجريت مع لندن أول اتصال لي بواسطة القمر الصناعي. ردّ ليونارد على الهاتف. بدا صوته جدّياً جدّاً، مثل صوت «الأب دويل»، كما كنت أدعوه دائماً.. لكنني أدركت أنه مصدوم. «طائرتان في مركز التجارة العالمي، وطائرة داخل البنتاغون، وطائرة أخرى تحطّمت في بنسلفانيا. عليك مشاهدة الصور». على متن الطائرة، أحضروا المشروب الذي يقدّم قبل الغداء وكان الجين والمياه الغازية متشابهيْن طعماً. ٢٠ ـ ٣٠ ألف قتيل؟ هكذا فكرت!! كان الأمر خارج التصوّر. ماذا سيكون حجم انتقام أميركا؟ تذكّرت الأنباء القديمة بعد بيرل هاربر، «يوم العار»، عندما كانت البيانات الصادرة يومذاك تنقل المطالب العنصرية بسحق «اليابانيين الجبناء»... بن لادن. ظللت أعود إلى بن لادن. لم يكن هذا اليوم مجرّد جريمة رهيبة فقط، بل إنه رمز لفشل رهيب، لانهيار عقود من العجز، ومن خيبات الأمل، ومن السياسات الأنانية في الشرق الأوسط... والتي سنعترف أخيراً بأنها كانت كذلك ـ هذا إن كنّا حكماء ـ أو التي سنخفيها اليوم على ما يبدو تحت دمار نيويورك... إنها موضوع لا يناقش، ومجرّد ذكره يجعلك متّهماً بأنك تدعم أعداء أميركا.

سرت إلى مقصورة المضيفين، وسألت أفراد الطاقم ماذا يعتقدون؟ يبدو أن الطائرات الأربع خُطفت. «ربّما كان هناك عدّة خاطفين»، قالت ذلك أصغر مضيفة بدون تفكير وأيّدنا كلّنا وجهة نظرها. نظر إليّ كبير المضيفين بقسوة. وفهمت فيمَ كان يفكّر. كنّا نحن أيضاً متوجّهين إلى أميركا والطائرات الأربع أقلعت مثل طائرتنا مع طاقم ودود وركّاب ملتزمين بالقانون. تجوّلت في أنحاء الطائرة مع رئيس المضيفين، ولم أكن مرتاحاً. أعتقد أنني عدت وفي مخيّلتي صورة ١٣ راكباً، ١٣ لم أحبّهم لأنهم كانوا ملتحين وقد حدّقوا بي بطريقة اعتبرتها عدوانية، أو لأنهم كانوا يحملون مسابح ويقرأون القرآن. بالتأكيد كانوا كلّهم مسلمين. أجل، خلال دقائق فقط، تحوّل فيسك «الليبرالي» إلى عنصري... فيسك الذي عمل وعاش في الشرق الأوسط لربع قرن والذي عاش بين العرب لفترة توازي نصف حياته، والذي نجا من الموت عدّة مرّات بفضل مسلمين في العراق وإيران... ها هو يرسم صورة مسبقة للبريء الجالس على متن الطائرة لمجرّد أن لديه لحية أو عينين زرقاوين أو بشرة قاتمة... شعرت بالاحتقار لنفسي.. لكن هذا بالضبط كان أحد أهداف حادث اليوم على ما أعتقد.. أن يجعلونا نشعر بالاحتقار وبالغضب بحيث نتصرّف بعد ذلك بشكل غير منطقي.

اتصلت بليونارد مجدّداً... كانت هناك اتصالات هاتفية من ركّاب في الطائرات الأربع. لقد ذبح الخاطفون بعض أفراد الطواقم والركّاب. وقد ألقى رجال ونساء بأنفسهم من الطوابق العليا في البرجَين. وكانت هناك بعض

الصور التلفزيونية لفلسطينيين يحتفلون. قلت: «ليونارد، عليّ الكتابة حول التاريخ، إذ ينبغي أن يكون لدينا تفسير للسياق التاريخي وتوضيح للقرّاء». قلت إن ما حدث جريمة تشبه الملاحم إلى حدّ أنّ عليّ القيام بشيء ما لم أتطرّق إليه منذ مقالاتي في إيرلندا الشمالية. عندما وصلت الحرب الإيرلندية البريطانية إلى طريق مسدود، قبل الكمبيوتر والخلوي، كنا نُملي تقاريرنا للنسّاخ، رجال ونساء يضعون سمّاعات ويكتبون رواياتنا بينما كنا نرفع صوتنا على الخطوط من القرى الإيرلندية، أو في أيامي الأولى في الشرق الأوسط، من فنادق القاهرة أو دمشق. الآن سأقوم بالشيء نفسه مجدّداً، سأقوم بإملاء قصّتي عبر الهاتف حتى يتناسب الوقت مع التلقائية التي من المفترض أن يمتلكها الصحفي، أو هكذا فكّرت بشكل متعجرّف.

حتى وأنا أتحدّث، كان ربّان الطائرة البلجيكي يُخبر الركّاب من مذياع الطائرة بحصول هجمات إرهابية على نيويورك وواشنطن، وبأن الولايات المتّحدة أغلقت مجالها الجويّ أمام الطيران التجاري. كنّا نُسقط الفيول فوق البحر بعيداً إلى الغرب من إيرلندا وقبل عودتنا إلى أوروبا. ورحنا نطير بشكل دائري مركّز، والشمس تسطع من كل النواحي، عبر نوافذ الطائرة، كما لو أنها كانت تُشرق وتغيب بشكل متواصل، فيما وحشة شمال الأطلسي تسخر من عزلتنا الساخنة.

قدّموا الطعام بينما كنّا نقوم بالدوران في السماء. نظرت إلى مفكّرتي، وكتبت عليها أسماء بلفور، ولورانس العرب، وبن لادن، ثم شطبتها. أخذت هاتفي الفضائي ومرّرت البطاقة واتصلت بالإندبندنت فحوّلني ليونارد إلى إحدى المحرّرات، سيّدة من ليدز. أبلغتها أين أنا وأنني أكتب من مخيّلتي وطلبت منها الصبر. قالت: «خُذ وقتك حبيبي»، لكن حصل ذلك بسرعة. تصوّرت في ذهني ما أريد قوله. كان الموضوع مثل قراءة رسالة إلى صديق.

إذاً، وصل الوضع إلى ما هو عليه الآن... كل التاريخ الحديث للشرق الأوسط ـ انهيار الإمبراطورية العثمانية، إعلان بلفور، أكاذيب لورانس العرب، الثورة العربية، إقامة دولة إسرائيل، أربع حروب عربية ـ إسرائيلية، ٣٤ سنة من الاحتلال الإسرائيلي القاسي للأراضي العربية ـ كل ذلك شُطب كلّياً خلال ساعات عندما سدّد أولئك الذين يدّعون تمثيل شعب مسحوق ومُهان ضربتهم بالقسوة الشديدة والرهيبة التي يحملها شعب مشؤوم القدر. هل من العدل، والأخلاق، أن نكتب عن الموضوع دون دليل، في الوقت الذي أثبت فيه آخر عمل بربري حصل في أوكلاهوما أنه كان من صُنع أميركيين؟ أخشى أن يكون الأمر كذلك. وإذا لم أكن مخطئاً فالولايات المتّحدة هي في حالة حرب، وهناك آلاف آخرون الآن على لائحة الموت في الشرق الأوسط وربّما في أميركا. لقد سبق أن حذّر بعضنا من الانفجار الكبير لكنّنا لم نتصوّر أبداً هذا الكابوس.

أجل، إنّ أسامة بن لادن هو مَن يخطر على البال، ماله، عقيدته، تصميمه المخيف على تدمير القوّة الأميركية. كنت قد جلست أمام بن لادن بينما كان يشرح كيف قام رجاله بتقديم العون لتدمير الجيش الروسي في أفغانستان، وكذلك في الاتحاد السوفياتي. وقد سمحت لهم ثقتهم المفرطة بالنفس بإعلان الحرب على أميركا. لكن لم تكن هذه حرب الديمقراطية على الإرهاب التي سيُطلب من العالم تصديقها في الأيام المقبلة.

إنها أيضاً حول الصواريخ الأميركية التي تتساقط على بيوت الفلسطينيين، وحول قصف الصواريخ الأميركية لسيّارة إسعاف لبنانية عام ١٩٩٦، وتساقط الصواريخ الأميركية على قرية قانا... وحول الميليشيا اللبنانية المزوّدة بالمال والملابس من الحليف الإسرائيلي لأميركا وهي تتسلّل وتغتصب وتقتل داخل المخيّمات الفلسطينية.

وأن يقوم الفلسطينيون بالاحتفال لذكرى ضحاياهم الـ ٢٠ أو ٣٥ ألفاً(*) ليس دليلاً على يأسهم فقط، بل هو دليل على عدم نضجهم السياسي، ودليل على فشلهم في الإمساك بما كانوا يتّهمون به أعداءهم الإسرائيليين دائماً، بل هو تصرّف غير مناسب... كلّ سنوات الخطب، كلّ الوعود بالاقتصاص من قلب أميركا، بقطع رأس الأفعى، كلّها كانت تهديدات فارغة.. كيف يمكن أن تحقّق أنظمة رجعية، محافظة، غير ديمقراطية وفاسدة، ومنظّمات صغيرة وعنيفة، مثل هذه الوعود غير المعقولة. الآن بتنا نعرف.

في الساعات التي تلت دمار الأمس، بدأت أتذكّر الهجمات الأخرى ضدّ الولايات المتّحدة وحلفائها ووجدتها تافهة الآن مقارنة مع خسائر البارحة.. ألم يوقّت الانتحاريون الذين قتلوا ٢٤١ جندياً أميركياً ومئة مظلّي فرنسي هجماتهم في بيروت يوم ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ بدقّة؟ كان هناك سبع ثوان فقط بين ضرب المارينز وتدمير مقرّ الفرنسيين على بعد ثلاثة أميال. ثم كانت الهجمات على القواعد الأميركية في السعودية، والمحاولة شبه الناجحة التي جرت السنة الماضية ضدّ المدمّرة الأميركية «كول» في عدن. وبعد فكم كان سهلاً فشلنا في اكتشاف ذلك السلاح الجديد في الشرق الأوسط والذي لا مثيل له عند الأميركيين والغربيين: عنيت به اليأس القاتل، الانتحاري اليائس.

وستحصل لا محالة، وبشكل لاأخلاقي، عملية تستير للأخطاء التاريخية وللمظالم التي تكمن وراء العواصف النارية التي عشناها ليلة البارحة. وسنسمع التصريحات حول الإرهاب المجنون، والجموح المجنون، وكلمة مجنون ستكون أساسية في حال لم ندرك كم أصبحت كراهية أميركا عميقة في مهد الديانات الثلاث الكبرى. اسألْ أيّ عربي كيف يرى مقتل ٢٠ ألف أو ٣٠ ألف بريء، وسيكون ردّه أو ردّها مثل ردّ أيّ إنسان محترم... سيقول لك إنها جريمة نكراء لا توصف.. لكنهم سيسألونك الآن، لماذا لم نستخدم مثل هذه العبارات عندما قتلت العقوبات نصف مليون طفل تقريباً في العراق؟ لماذا لم نغضب لمقتل سبعة عشر ألف وخمسمئة مدني من قِبل إسرائيل في غزوها للبنان عام ١٩٨٢؟ وكلّ الأسباب الأساسية الممكن ذكرها إذا أردنا أن نفهم لماذا اشتعل الشرق الأوسط في أيلول/سبتمبر الماضي (مثل احتلال إسرائيل للأرض العربية، وتشريد الفلسطينيين وسلبهم كل شيء، وأعمال القصف والاغتيالات التي تقوم بها دولة إسرائيل) كلّها يجب التغاضي والصمت حيالها بحجّة عدم تقديم أدنى مبرّر للوحشية الجماعية التي حصلت البارحة.

كلّا، ليست إسرائيل هي من يجب إلقاء اللوم عليه ـ رغم أنه من المؤكّد أن صدّام حسين والدكتاتوريين

(*) كلّا، ما من شكّ في الشرّ الكامل والذي لا يوصف لما حصل في الولايات المتّحدة...

الكبار أمثاله سيدّعون ذلك... ...بل إن التأثير الملعون للتاريخ ودورنا في إرثه وثقله، ينبغي أيضاً أن يبقى غامضاً وأن ندفنه مع الانتحاريين. إن وعودنا المنكوثة وربّما أيضاً تدميرنا للإمبراطورية العثمانية قد أدّت حتماً إلى هذه المأساة. لقد موّلت أميركا حروب إسرائيل لعدّة سنوات واعتقدت أن ذلك سيمرّ من دون عقاب. ليس بعد اليوم!!. لكنّ أميركا بالطبع سوف تردّ على «الإرهاب العالمي»، ولعلّ قصف كابول البارحة هو بداية الردّ... وبالفعل مَن يستطيع اليوم توجيه الاتهام إلى الأميركيين لاستخدامهم كلمة الإرهاب المذلّة والعنصريّة؟

منذ ثماني سنوات، ساعدت في إعداد مسلسل تلفزيوني حاولت فيه شرح سبب تحوّل العديد من المسلمين نحو كراهية الغرب. وبالأمس تذكّرت بعض هؤلاء المسلمين في ذلك الفيلم الذيْن قُتلت عائلاتهم واحترقت بقنابل أميركية، والذين قالوا أن لا أحد يستطيع مساعدتهم غير الله... العقيدة في مواجهة التكنولوجيا، الانتحاري في مواجهة القوّة النوويّة.. الآن عرفنا ماذا يعني ذلك.

لم يكن يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ يوم ميلاد هذا الكتاب، لكنه أثبت لي أن قوّة التاريخ لا تُقاوَم. أعدت قراءة تلك الرواية التي أمليتها عبر الهاتف على ارتفاع ٣٧ ألف قدم فوق الأطلسي، وكنت مرعوباً ليس بسبب استنتاجاتها بل بسبب التداعيات التي ستحدثها تلك الاستنتاجات ـ والتي سيظهر أنها كانت دقيقة بشكل مؤلم. كنت مُحقّاً حول الأسلوب الذي سيتحدّث فيه العالم عن أنها «حرب الديمقراطية على الإرهاب»... وحول محاولة طمس المظالم التاريخية التي تكمن وراء هذا العمل الرهيب. لم أكن أتصوّر أبداً مدى القساوة، ومدى الخطورة ومدى الدموية التي ستتمّ بها عمليات قمع وإلغاء كلّ المقاربات الممكنة للتاريخ باستثناء المقاربة السخيفة الطفولية...

بينما كنا في طريقنا إلى بلجيكا، سألت نفسي إذا كنا نستطيع ـ في هذه المرحلة المبكرة ـ تحديد الطرف المذنب برغم الشكوك القوية التي كنا نملكها.. أيقنت أنه مع جريمة بهذا الحجم ستخرج أصوات تطالب بوقف الحرّيات الصحفية. يجب علينا جميعاً أن نكون في وضع «الانحياز»، وإذا توقّفنا لحظة لطرح السؤال «لماذا؟» فسوف نُعتبر من مساندي الإرهاب الدولي. لقد كان الإسرائيليون بارعين سابقاً في هذا المنطق المهني. وإذا وصفوك بالمقرّب من الفلسطينيين فإن هذا كان يعني أنك متعاون مع التفجير الإرهابي والإرهاب العالمي. هل أنتم معنا أو ضدّنا؟ سوف يستخدم جورج بوش الآن هذا الجدل السخيف ـ وغير الشريف ـ وهو جدل يحبّذه بن لادن كثيراً ـ لإسكاتنا، لإبقائنا صامتين، لوقف أي نقاش حول الشرق الأوسط أو حول دور أميركا هنا ـ أو (وهذا موضوع محرّم كلّياً) حول علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل.

كتبت مقالاً آخر خلال الرحلة تلك الليلة: «هل يقع اللوم على الشخصية المكروهة عالمياً؟».. كان هذا عنوان المقال الذي سينشر في اليوم التالي في الإندبندنت. إذا كان بن لادن مذنباً حقاً في كل الأمور التي تنسب إليه، فإنه كان يحتاج إلى جيش قوامه عشرة آلاف رجل. كتبت:

هناك أمر مزعج جداً حول عادة العالم الالتفات إلى آخر شخصية مكروهة عندما يسيل الدم. لكن عندما تحصل أحداث بهذه الدرجة من الخطورة، هناك مشروعية لتوجيه الأنظار نحو أولئك الذين كانوا يهدّدون أميركا باستمرار. وإذا ... إذا.. استبعدنا شبح الشرق الأوسط في دمار الأمس.. فمن يستطيع القيام بمثل هذه الهجمات الدقيقة التوقيت؟ ليست التنظيمات الفلسطينية الغوغائية التي كانت في الماضي تحبّذ عمليات خطف الطائرات بقادرة اليوم على تنفيذ عملية انتحارية واحدة.....

كان تفجير مقرّ المارينز في بيروت عام ١٩٨٣ يحتاج إلى دقّة، وتوقيت وتخطيط جيّدين... لكن إيران التي ساندت هذه المجموعات هي اليوم غارقة في صراعاتها الداخلية. العراق محطّم، ورجال مخابراته مشغولون بتعذيب شعبهم أكثر من قدرتهم على ضرب الولايات المتّحدة. لذلك، سوف يجري تصوير جبال أفغانستان بالأقمار الصناعية وطائرات الاستطلاع في الأيام القادمة... وقد سُلّطت الأضواء في البنتاغون على معسكرات بن لادن القديمة... لكن إلى أي مدى؟ وإذا كانت هذه حرباً بين السعوديين فلا يمكن خوضها مثل الحروب الأخرى بدون بعض المغامرة العسكرية المكلّفة من ما وراء البحار؟ أم أن هذا هو ما يسعى إليه بن لادن؟

في اللحظة التي حطّت فيها طائرة الإيرباص في بروكسيل، بدأ جهازي الخلوي بالاشتغال مثل جزّازة العشب: المكتب، محطات الإذاعة في أميركا، بريطانيا، إيرلندا، فرنسا. كنت في طريقي إلى الفندق عندما اتصل كارستين تفيت. سأل: «روبرت، هل شاهدت الصور»، أجبت بالنفي. سأل مجدّداً: «عليك مشاهدة الصور، إنها لا تُصدّق» أجبت: «كارستين، ما زلت في التاكسي ولا أستطيع مشاهدة التلفزيون هنا» ـ «انظر إلى الصور.. عليك مشاهدتها. عندما تصل إلى غرفة الفندق شاهد الصور وسوف تفهم».

وصلت إلى غرفتي وفتحت التلفزيون، كان البرجان يحترقان بتوهّج، وكان الناس يتساقطون مثل الريش بسرعة من أعلى إلى أسفل برشاقة مُرعبة. كانت طائرة الركّاب يونايتد تدخل في البرج الجنوبي مراراً وتكراراً كما لو أنه يتمّ عرض اكتشاف علمي، أو كما لو أنه كان يفترض بالطائرة أن تشقّ طريقها بقوّة إلى داخل بُنيان البرج الرفيع.. وبعدها كان هناك اللهب الناري الذهبي... جمعت السي إن إن المقاطع المصوّرة بعد إعادة ترتيبها زمنياً بحيث أن طائرة اليونايتد تحطّمت داخل المبنى، لحظة كان وقودها المحترق يتطاير في الجهة الأخرى من المبنى.. وقد تم تركيب الشريط خلال ثوانٍ بعد التصادم... لا يمكن لهوليوود المنافسة هنا، فما جرى هوليوديٌّ بامتياز .... لمن يجرى إنتاج فيلم عن كارثة ١١ أيلول/سبتمبر أبداً لأنه كان قد أُنتج في تلك اللحظة بالذات وصل إنتاج القاعدة إلى هناك أولاً... كان ذلك هو «الصدم والرهبة».. وذلك قبل أن تخترع أميركا الاسم كشعار لغزوها للعراق.

كل الآلام والكوابيس حول المدينة المهبرجة، وكل الأفلام العنصرية التي تصوّر العرب المسلمين على أنهم مرتشون وقتلة، ها هي وقد وصلت أخيراً، حقيقة وليس خيالاً، إلى الشاشة ... «لم يحصل هذا منذ تاريخ السينما الصامتة». ولئن كنا قد قَولبنا أنفسنا على شاكلة ومثال أبطال أفلامنا، وعلى تقليد لغتهم، وأفكارهم البسيطة، ومبادئهم الأخلاقية الصارمة والمتوحّشة، فإننا صرنا على الأقلّ نستطيع الآن الإيمان بهؤلاء الأبطال والأشرار...

وعوضاً عن تحوّل الحقيقة إلى خيال، تحوَّل الخيال إلى حقيقة. كانت طائرة اليونايتد مستمرّة في انزلاقها داخل البرج بتصميم ونزق ماجِن، كما لو أن طريقها كان معروفاً، وبحيث صار المرء ينظر إلى مكان آخر على الشاشة. هل اهتزّ البرج قليلاً مع الصدمة؟ هل هو طائر ذلك الشيء الذي ظهر على الشاشة قبل اصطدام الطائرة بالمبنى... براءة هاربة من الظلمة القادمة؟ وعندما صوّر الفريق الفرنسي المشهد الوحيد للطائرة وهي تصدم البرج الآخر، إلى أي مدى أدرك ذلك الرجل الذي كان على الجانب الآخر من الطريق ماذا يرى وهو يلتفت بسبب صوت المحرّكات وهي تنحدر؟... أو أنه كان مأخوذاً بالطريقة المتقنة والسهلة التي دخلت بها الطائرة إلى المبنى؟

خلال رحلة الإيرباص، جرى وصلي عبر الإذاعة الإيرلندية بكونو أوكلري، مراسل الصحيفة الإيرلندية في نيويورك الذي تابع برفقتي وقائع الغزو السوفياتي لأفغانستان قبل حوالي ربع قرن. كان مكتبه مجاوراً لمركز التجارة العالمية، وقد وصف بدقّة كيف شاهد الطائرة الثانية. جاءت وأجنحتها تتأرجح بسرعة، صعوداً وهبوطاً، بينما كان الخاطفون في غرفة القيادة يحاولون جاهدين توجيه الطائرة نحو وسط البرج. كان عمل طيّار القتل الجماعي كاملاً ومطلقاً. في بروكسل، اتصلت بشبلي الملّاط، المحامي اللبناني الذي كان يحاول استدعاء شارون إلى محكمة بلجيكية لدوره في مجازر صبرا وشاتيلا. وكنت قد أكّدت له قبل بضع ساعات أن تقريري حول الشهادات والإثباتات الجديدة المتعلّقة بالمجزرة سيُنشر في اليوم التالي. طبعاً لم يعد ذلك ممكناً... قال لي: «بالطبع روبرت، فما حصل اليوم يغيّر كل شيء، أعتقد أن علينا النظر من منطلق أخلاقي وقانوني إلى ما حصل اليوم على أنه جريمة ضدّ الإنسانية»...

استمرّت الاتصالات بالورود من الإذاعة الإيطالية، «سي بي أس» CBS، «بي بي سي ورلد» BBC World، «بي بي سي كارديف» BBC Cardiff، «بي بي سي بلفاست» BBC Belfast، «أن بي أر» NPR، وراديو فرنسا الدولي. كان الجميع يريد معرفة ما لا يستطيع أحد معرفته حتى الآن. من فعل ذلك؟ كيف فعلوه؟ لا أحد ـ لا أحد يريد معرفة «لماذا» فعلوا ذلك، لأن هذا السؤال كان محرّماً. استقبلني إيمون دانفي ـ في برنامجه في دبلن مع آلان درشوفيتز الأكاديمي اليساري المؤيّد لإسرائيل في هارفرد. حاولت أن أشرح له أن هناك أسباباً لهذه الفظاعة، وأن الجرائم لا تُرتكب فقط لأن الأشخاص أشرار لا يحبّون الديمقراطية... كان درشوفيتز بحالة هيجان وكان يتكلّم بغضب وبأسلوب غير متّزن وهستيري. صرخ درشوفيتز بي وبدانفي الذي قطع معه الإرسال في النهاية: «فيسك رجل شرير، عميل، خطير، فيسك مناهض لأميركا والعداء لأميركا هو مثل معاداة الساميّة».. لكن وصلت الرسالة. هناك خط واحد فقط سيُسمح به في أميركا بعد هذه المجازر... أيّ معارضة لسياسة أميركا وبشكل خاصّ في الشرق الأوسط هي عمل إجرامي وهي «مؤيّدة للإرهاب». أيّ إنسان ينتقد أميركا الآن هو معادٍ للساميّة... المناهضون للساميّة نازيّون وفاشيّون. إذن أصبحت أميركا مقدّسة وكذلك إسرائيل والذين يطرحون منا السؤال «لماذا ساندت الإرهاب» يجب أن يصمتوا. تحدّثت محطة أخبار البي بي سي وهي تراجع الصحف البريطانية لصباح اليوم التالي عن معلّق أميركي مؤيّد لإسرائيل رأى في مقالي أن «روبرت فيسك كسب جائزة الذوق السيّء».

جلست على سريري أتابع قنوات التلفزيون وأشاهد احتراق البرجين وسقوطهما الأسطوري. تمّ تسجيل لقطات

الرماد والدخان فقط في البنتاغون وبنسلفانيا، لكن نيويورك ظلّت الصورة الأيقونية التي تبرّر الذهاب إلى «الحرب على الإرهاب».. أدركت أن ١١ أيلول/سبتمبر أصبح قانوناً تشريعياً يُستخدم لمنع أي نقاش ومبرّراً لاعتقال أي مشتبه به وغزو أي بلد وأي معارضة. لماذا يجري عرض تلك الأجسام المتهاوية باندفاع في شوارع منهاتن مرّة أخرى؟ استلقيت على وسادتي مراقباً إيّاهم مجدّداً على شاشة التلفزيون. كانوا يتحرّكون بسرعة فائقة، كان لديهم ما يُشبه في الفظاعة تلك اللحظة التي حاولت تفسيرها عندما نظرت إلى الوجوه الرهيبة المتفحّمة لقتلى مرتفع متلة.

كان هؤلاء الأشخاص يتهاوون من الجوّ ويتساقطون تباعاً عند طرف سريري، يغطسون داخل الأغطية. أدركت عندها إلامَ كان يشير كريستين عندما ألحّ عليّ أن أركّز على الصور. كانت الرسالة معبّرة... فحتى لو لم تكن الإصابات جسيمة والشرّ رهيباً، فإن الهجمات بحدّ ذاتها عمل محترف، وليست عملية إرهابية عاديّة. لن يصدر بيان بالمسؤولية، وكنت متأكّداً من ذلك، لن تكون هناك بيانات من القاعدة أو بن لادن، ولا توضيحات... كانت الرسالة ـ البيان هي العمل بحدّ ذاته، كان البيان واضحاً في الصور، كانت كاميرا التصوير هي الإعلان عن المسؤولية. تذكّرت مجدّداً ما قاله لي بن لادن حول تمنّياته لأميركا... وأنا أنظر إلى تلك الصور والسحب الهادرة التي غطّت مانهاتن، عليّ اليوم التسليم بأن نيويورك صارت «شبحاً عن نفسها».. لكن لماذا؟ كنت محقّاً في ما يتعلّق ببردّة الفعل على هذا السؤال. بدأ سيل من الرسائل الإلكترونية يصل إلى الصحيفة في الصباح التالي، بعضها داعم لتقريري والعديد منها مطالباً باستقالتي... قال أحدهم: «كانت الهجمات على أميركا نتيجة الكراهية بحدّ ذاتها» وبشكل أدقّ النوع الموسوس وغير الإنساني الذي كان ينشره فيسك وبن لادن... ووفق الرسالة نفسها لصاحبها يهودا بيرل من جامعة كاليفورنيا، فإنني كنت أبثّ السمّ وأسوّق لكراهية محترفة.. وفي رسالة أخرى بتوقيع ألين بوبير، فإنني كنت متواطئاً مع أسامة بن لادن في الإرهاب.. وقد نعتني مارك غوان «بالحالة المجنونة كلّياً».... وكنت «مريضاً نفسيّاً» بحسب ليلي وباري فايس... وأبلغني براندون هيلر من سانتياغو «إنك تساند حالياً الشرّ بذاته»... كيف تشكّلت بسرعة تلك اللازمة : مجرّد الإيحاء بأن سياسات واشنطن في الشرق الأوسط، ودعمها غير المحدود لإسرائيل، ودعمها للطغاة العرب، وموافقتها على عقوبات مجلس الأمن التي قضت على العديد من أرواح الأطفال العراقيين، هي التي قد تكون وراء الهجمات الحاقدة للحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وصار مجرّد هذا الإيحاء هو عمل الشيطان.

جاء هذا السيل من الرسائل القاسية بالآلاف، وكان العديد منها ـ مع مرور الأيام ـ يستخدم جُملاً متشابهة وفي بعض الحالات عبارات متشابهة. وكان واضحاً أن الأمر يتحوّل إلى حملة منظّمة مبرمجة ـ من النوع الذي يؤخذ على محمل الجدّ في الصحف الأميركية لكنه يعالج بالاحتقار الذي يستحقّه في بريطانيا ـ وعندما أعلن «قارئ» من سان أنطونيو أن «مجلّتكم» «لن تُقرأ بعد اليوم» بسبب مقالة فيسك، كان واضحاً أن هناك أمراً مشبوهاً في مكان ما، ذلك أن الإندبندنت لا تُباع في تكساس وهي ليست مجلّة... لكنّ المراسلين كانوا ما زالوا يتجنّبون السؤال: «لماذا». كان مسموحاً تفحّص «كيف» تعلّم الخاطفون الطيران وحجزوا درجة أولى، واستخدموا فتّاحات عُلب، و«مَن هم؟». لم تشكّل حقيقة أن الخاطفين كانوا جميعاً من العرب، ومعظمهم من السعودية، أي مشكلة

للمراسلين أو القرّاء... كان ذلك يقع في خانة «أين وماذا»، «والإرهابيون من العرب» هم قبل كل شيء وجوه مألوفة. كانت الخطيئة ربط العرب بمشاكل الأرض التي جاءوا منها وطرح السؤال: «لماذا» جاء كل القتلة من الشرق الأوسط؟ هل هناك مشكلة في ذلك؟ لقد طرحت هذا الموضوع تكراراً في مقالاتي ومحاضراتي في الولايات المتّحدة... إذا حصلت جريمة في لندن أو لوس أنجلوس، فأول شيء تفعله الشرطة هو البحث عن الدافع، لكن عندما حصلت جريمة دولية ضدّ الإنسانية في الولايات المتّحدة بهذا المستوى الذي لا سابق له فإن الشيء الوحيد الذي لا يُسمح لنا القيام به هو البحث عن الدافع.

يتحدّث جورج بوش الابن الآن عن حرب صليبية ضدّ الشرّ... وقد تمّ بسرعة تجاوز سؤال «لماذا» من قِبل الإدارة الأميركية ـ وبقي بدون زيادة من قِبل الصحفيين الأميركيين ـ تجاوزوه بجملة واحدة: «إنهم يكرهون ديمقراطيتنا» ..«أكنتم معنا أم ضدّنا.. «نحن رجال صالحون».. وفي جوّ الحزن الوطني الذي أصاب كل مدينة وبلدة أميركية فإن ذلك كان منطقياً... كانت فكرة أن الولايات المتّحدة تستحقّ بشكل ما مثل هذا الهجوم ـ وأن أكثر من ثلاثة آلاف بريء دفعوا بموتهم ثمن ذنوب أميركا في الخارج ـ فكرة غير أخلاقية... لكن بدون تفحّص دقيق وجدّي لكلّ الذي سبّب هذه الأعمال من القتل الجماعي ـ أسباب تاريخية وسياسية ـ فإن الولايات المتّحدة والعالم كانا يدخلان نفق حرب لا نهاية لها.... «حرب على الإرهاب».. هي بطبيعتها حرب لا هدف واضحاً لها ولا نتيجة منظورة لنهايتها، وحرب بدون توجّه سوى أنها ستجرّ المزيد من النار والدم.... كانت العقيدة التي وضعتها الولايات المتحدة الآن والتي أيّدها بخنوع رجالات الدول والإعلام العالمي تقول بأن ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ «بدّل العالم إلى الأبد» ... مجرّد كذبة!!. لقد جرت مجازر لا تُحصى بإحجام أكبر في الشرق الأوسط خلال العقود السابقة بدون أن يوحي أحد بأن العالم لن يكون كما هو عليه مجدّداً. لم يستحضر المليون ونصف مليون قتيل في الحرب العراقية ـ الإيرانية (حمّام الدم الذي قام به صدّام بدعم عسكري أميركي نشِط) مثل هذه الملاحظة المانوية (نسبة إلى مذهب ماني في تقسيم العالم إلى ثنائية الخير والشر)...

قبل ١٩ عاماً بدأ أكبر عمل إرهابي ـ مستخدمين تعريف إسرائيل لهذه الكلمة التي يُساء استخدامها كثيراً ـ في تاريخ الشرق الأوسط الحديث. وبشكل متوقّع فإنه لم يتذكّر أحد في الغرب في يوم ١٦ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ تلك المناسبة.... جازفتُ وكتبتُ في صحيفة الإندبندنت أنه لم تقم أيّة صحيفة بريطانية أخرى ـ وبالطبع ولا أيّة صحيفة أميركية ـ باستذكار حقيقة أنه في ذلك التاريخ من عام ١٩٨٢ بدأت ميليشيا الكتائب الحليفة لإسرائيل حفلة الثلاثة أيام من القتل والاغتصاب والذبح في مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، وتبعها غزو إسرائيلي للبنان - يهدف إلى طرد منظمة التحرير الفلسطينية من البلاد.. وقد أعطت الولايات المتّحدة عبر وزير الخارجية ألكسندر هيغ الضوء الأخضر للغزو الذي أدّى إلى مقتل ١٧٥٠٠ لبناني وفلسطيني معظمهم من المدنيين... كان ذلك الرقم أكثر من خمسة أضعاف عدد القتلى في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١... وحتى الآن لا أستطيع تذكّر أية صلوات ليلية أو ذكرى أو إضاءة شموع في أميركا أو الغرب للقتلى الأبرياء في لبنان... وبدون خُطب مثيرة حول الديمقراطية أو الحرّية أو «الشرّ»، فقد أمضت الولايات المتحدة، في الواقع، معظم الأيام الدامية من تموز/يوليو وآب/أغسطس ١٩٨٢ وهي تدعو إلى «ضبط النفس».

كلا، لم تكن إسرائيل ملامة حول ما حصل في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. كان المنفّذون عرباً وليسوا إسرائيليين. لكنّ فشل أميركا في العمل بشرف في الشرق الأوسط، وبيعها العشوائي للصواريخ التي استخدموها ضدّ المدنيين، والتجاهل الفرح لمقتل عشرات الآلاف من الأطفال العراقيين نتيجة العقوبات التي كانت الولايات المتّحدة الداعم الرئيسي لها، هذه كلّها كانت مرتبطة بشكل حميم بمجتمع أنتج العرب الذين أغرقوا نيويورك في بحر من النار. وبدأت أنظر إلى ردّ الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية على أنه شكل من أشكال الجبن. إذا كان ١١ أيلول/سبتمبر حقاً قد غيّر العالم عندها يكون بن لادن نجح لحظة صعد الخاطفون إلى الطائرات الأربع. وفي الأيام التي تلت الهجمات شعرت أكثر من أي وقت مضى بأن من الضروري مواجهة هذا الاحتيال. أراد بوش إقناع الناس بأن العالم قد تغيّر إلى الأبد، بحيث أنه يستطيع القيام بالحرب التي يدعو لها المحافظون الجدد، متستّراً بتطلّعات مشرقة للحرّية والديمقراطية تغرق الشرق الأوسط في مزيد من الفوضى والقتل. لكن لماذا يجب عليّ السماح لتسعة عشر عربياً قاتلاً بتغيير «عالمي»؟.

وبينما كان بوش وبلير يحضّران قوّاتهما لشنّ هجوم على أفغانستان التي رفض رجال الدين الطالبان فيها تسليم ضيفهم بن لادن ـ قاما بتبرير حربهما على أنها «حرب من أجل الديمقراطية والحرية» وأنها ضدّ رجال يهاجمون الحضارة. وقد أبلغ بوش الصحفيين أن أميركا تعرّضت لهجوم كونها المنارة الساطعة للحرية والفرص في العالم. لكن لم يكن هذا هو سبب الهجوم الذي حصل على أميركا.. فإذا كان ذلك الهجوم هو «رؤيا قيامة» عربية إسلامية، فهو عندها مرتبط أشدّ الارتباط بالأحداث في الشرق الأوسط وبسيطرة أميركا على المنطقة... أضف إلى ذلك أن العرب قد يحبّون بعض الديمقراطية والحرية والتحرّر التي يتحدّث عنها بوش... بدل ذلك حصل العرب على رئيس نجح في الانتخابات على طريقة صدّام، أي بنسبة ٩٨٪ من الأصوات(*)، عنيت بذلك صديق واشنطن حسني مبارك، وعلى شرطة فلسطينية تلقّت تدريباً عند المخابرات الأميركية و قامت في بعض الأحيان بتعذيب وقتل الناس في السجون. وقد يرغب السوريون في الحصول على القليل من تلك الديمقراطية... وكذلك السعوديون... لكنّ أمراءهم المنهكين كلّهم أصدقاء أميركا، وقد درس العديد منهم في الجامعات الأميركية... كلّا

(*) تُعتبر الانتخابات العربية من أكثر المحاولات ضعفاً في الشرق الأوسط لإحياء النمط الغربي للديمقراطية التي يدّعون أنهم يملكونها. فعلى سبيل المثال، نجح الرئيس المصري حسني مبارك عام ١٩٩٣ بنسبة ٩٣ بالمئة من الأصوات للمرّة الثالثة في الرئاسة (وقد حصل في انتخابات عام ١٩٩٩ على نسبة ٩٣,٧٩ بالمئة من الأصوات. وقد ادّعى سلفه أنور السادات الحصول على انتصار بنسبة ٩٩,٩٥ بالمئة في الاستفتاء على برنامجه الإصلاحي عام ١٩٧٤. وقد حصل صدّام حسين على نسبة ٩٩,٩٦ بالمئة في انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٣ ـ ولم تعلن هويّة نسبة ٠,٠٤ بالمئة التي لم تصوّت لصدّام، والتي يبدو أنها أعادت النظر في حساباتها في انتخابات ٢٠٠٢ حيث حصل صدّام على نسبة مئة بالمئة. وعام ١٩٩٩، حقّق الرئيس حافظ الأسد في سوريا نسبة ٩٩,٩٨٧ بالمئة من الأصوات وهو ما وصفته الوكالة الرسمية للأنباء بالانتصار الماحق لحقبة تمتدّ لسبع سنوات جديدة، وقد صوّت ٢١٩ شخصاً ضدّه ـ لكنه لم يعش ليكمل ولايته. بعده حصل عبد العزيز بوتفليقه على ٧٣,٨ بالمئة في الجزائر، ومحمود عبّاس على ٦٢,٣ بالمئة كرئيس لفلسطين عام ٢٠٠٥ وكانت النتيجة مقنعة. وفي عام ١٩٩٢، أشارت نُكتة شعبية في دمشق إلى أن الرئيس جورج بوش الابن طلب من المخابرات السورية تأمين انتصار له على نمط انتصار حافظ الأسد بعد خسارته في الاستفتاءات، وقد فعلوا ذلك واقترع الأميركيون بنسبة ٩٩ بالمئة للرئيس الأسد.

إذن!!! فالحقيقة هي أن ما كان بوش وبلير يتحدّثان عنه هو «ديمقراطيتنا» نحن، و«حرّيتنا» نحن، و«تحرّرنا» نحن، وأن قُدس أقداسنا الغربي هو الذي يتعرّض للاعتداء وليس الحالة العامّة من الإرهاب والظلم التي سادت الشرق الأوسط.

نعم!! كان من المعيب على العرب إظهار الابتهاج حيال مجازر نيويورك وواشنطن المرعبة.. فلم يعبّر الفلسطينيون فقط عن فرحهم في شوارع رام الله بل قاموا بتوزيع حلويّات الفرح على السيّارات في شوارع مدينة صيدا اللبنانية... وقد أبلغني أصدقاء عرب لاحقاً أن هذه المظاهر لم تكن الوحيدة من نوعها.. ففي باص كان يقلّ مسؤولين مصريين ذاهبين لحضور حفلة أوبرا في القاهرة حصل فرح وتصفيق لدى سماع أنباء المجزرة من راديو الباص. وقد أخبرني أحد الذين شهدوا ذلك قائلاً: «لم نعتقد أن الشعب الأميركي يستحقّ ذلك، لكننا كنا نقول لأنفسنا: الآن يعرفون ماهيّة العذاب»... وكما يقول الفلسطينيون فإن اسم أميركا هو المطبوع على الصواريخ التي تطلقها إسرائيل على الأبنية الفلسطينية في غزّة والضفّة الغربيّة. في آب/أغسطس ٢٠٠١، كنت قد حدّدت مصدر أحد هذه الصواريخ بأنه صاروخ جوّ ـ أرض AGM 114 - D مصنوع من قِبل شركة بوينغ ولوكهيد مارتن، وقد رأيته في مصنعهم في فلوريدا، أجل: من بين كل الأماكن الممكنة، حيث تلقّى انتحاريو ١١ أيلول/سبتمبر تدريباتهم على الطيران...

وأخيراً وجد الانتحاري طريقه إلى الغرب... وإلى حدّ ما فقد حصل الانسحاب الإسرائيلي من لبنان في جزء منه بسبب الانتحاري. وبشكل أكثر دقّة فقد هرب الأميركيون من لبنان بسبب انتحاري عام ١٩٨٣... والآن فإن الانتحاري هو هنا ليبقى.... إنه سلاح حصريّ ـ يعود لهم وليس لنا ... ولم تظهر أيّة قوّة عسكرية قادرة على مواجهة هذه الظاهرة.... وطالما أن جانبنا «سيجازف» فقط بحياته، أي أنه لن «يعطيها» (الحرب من دون ثمن هي في النهاية اختراع أميركي) فقد أصبح الانتحاري هو السلاح النوويّ لدى الطرف الآخر... ولا يلتزم الانتحاري أو ينضبط ضمن مواصفات محدّدة متشابهة.... فالعديد من الفلسطينيين القليلي الخبرة الذين يفجّرون أنفسهم أشلاء (وغالباً وسط جمع من أكثر الإسرائيليين براءة) ليس لديهم سوى تعليم بسيط ومعرفة طفيفة بالقرآن... ولكن لديهم شعور قويّ بالغضب واليأس وبقوّة الحقّ الذي يدفعهم إلى التحرّك قدماً. كان انتحاريو حزب الله أكثر معرفة بالقرآن إضافة إلى سنوات من الاعتقال جعلتهم أصلب قبل قيامهم بالتضحية بأنفسهم...

شكّل انتحاريو ١١ أيلول/سبتمبر سابقة. كان عددهم ١٩ شخصاً. هل كان يعرف بعضهم بعضاً؟ هل كانوا جميعاً يعرفون مصيرهم؟ ألم تكن لديهم معرفة جيّدة بأساليب قيادة الطائرات الأكثر تطوّراً في العالم؟ وكان العدد هو الذي يعود دائماً إلى خاطري... فلو فرضنا أن أربعة فقط كانوا على علم مسبق بمصيرهم فإن ذلك وحده كان كافياً للدلالة على نمط من التعاون الانتحاري غير المسبوق.... في الشرق الأوسط يحظى الانتحاري بإعجاب ملايين العرب، ليس لكونه قاتلاً جماعياً فحسب ـ وهو كذلك ـ بل لأن شيئاً لا يُقهر، ولا يُمسّ، يفرض الشروط دائماً دون أن يتحمّل مسؤولية أعماله، قد ثبت اليوم أنه غير منيع... لكن ماذا لو تزايد العدد؟ ماذا لو أن مدرسة التضحية بالذات أنتجت انتحارياً كل يوم أو اثنين أو ثلاثة، وقامت بتوزيعهم على الأهداف الغربية؟ لقد

تطلّب الأمر اثنين وعشرين عاماً بعد العملية الانتحارية الأولى في لبنان عام ١٩٨٢ ليتحوّل إلى واقع، وقد أثبت العراق أن بالإمكان أخذ الانتحاريين عن الرفّ وزيادة عددهم وتنشيطهم باستمرار.

درستُ الملاحظات المفترضة التي تركها محمّد عطا، القيادي المصري لقتلة ١١ أيلول/سبتمبر... كانت مخيفة، وقحة، وأيضاً غريبة جدّاً... وإذا كان المستند المكتوب باليد، والواقع في خمس صفحات، والذي ادّعى مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI أنه وجده في حقيبة عطا حقيقياً، فإن القتلة يؤمنون بنمط غريب جدّاً من الإسلام أو أنهم يجهلون دينهم... لقد ورد أن عطا أو أحد أعوانه كتب في ملاحظاته: «انتهى وقت المرح واللهو، كونوا متفائلين، تفحّصوا حقائبكم، ومعدّاتكم، وملابسكم، وسكاكينكم، وإرادتكم، وهويّاتكم، وجوازات سفركم، وقوموا بأداء الصلاة بقلب مفتوح عند الصباح»... جزء من الكلام الوارد في المستند كان دينياً والجزء الآخر كان أشبه ببيان مهمّة، وقد أثار تساؤلات أكثر من تقديمه إجابات... فتحت عنوان «مساء أمس» (لعلّها ليلة ١٠ أيلول/سبتمبر) أبلغ كاتب المستند رفاقه الخاطفين أنهم سيواجهون تحدّيات كثيرة في هذه الليلة لكن عليهم مواجهتها وفهمها ١٠٠٪.. أطيعوا الله ورسوله ولا تتقاتلوا في ما بينكم، فتصبحوا ضعفاء (لعلّها الآية: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]. أو: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال] المترجم).... الجميع يكره الموت، يخاف الموت. . .». . ويبدأ المستند بعبارات بسم الله الرحمن الرحيم، و: بسم الله، وباسمي وباسم عائلتي... المشكلة أنه لا يوجد مسلم ـ مهما كان غافلاً ـ يدخل عائلته في مثل هذه الصلاة ولكنه يورد اسم النبي محمّد مباشرة بعد إيراد اسم الله في السطر الأوّل... ولم يُعرف عن الانتحاريين اللبنانيين أو الفلسطينيين أبداً أنهم أشاروا إلى «وقت المرح واللهو»، لأن المسلم لا «يضيّع» وقته، وهو يعتبر المتعة ثواباً في الآخرة(*)، وأي مسلم هو ذاك الذي يطلب من إخوانه المؤمنين قراءة صلاة الصبح ثم يكمل بمقتطفات من تلك الصلاة؟ إن المسلم الحقيقي لن يحتاج إلى التذكير بواجبه في أداء الصلاة الأولى من الصلوات الخمس اليومية، كما أنه لن يحتاج إلى من يذكّره بنصّ الصلاة... يبدو الأمر كما لو أن مسيحياً يحثّ أتباعه على تلاوة صلاة الربّ، ويشعر بأن واجبه تلاوة النصّ الكامل للصلاة في حال لم يتذكّروها.

غير أن النصّ العربي والواضح لم يُفرج عنه مكتب التحقيقات الفيدرالي. وتدلّ الترجمة كما وردت تقريباً على وجهة نظر مسيحية في ما يتعلق بما يمكن أن يكون شعور الخاطفين ـ وهم يطلبون المغفرة عن خطاياهم، شارحين أن الخوف من الموت أمر طبيعي، وأن المؤمن «ممتحن دائماً بالمشاكل».... إن المسلم يتمّ تحفيزه على شجاعة عدم الخوف من الموت ـ ذلك بأنّ الموت هو اللحظة التي يتمنّاها لبدء حياة جديدة ـ والمؤمن في العالم الإسلامي هو الإنسان المتيقّن من طريقه في الحياة وليس ذلك «المليء بالمشاكل»... ولا توجد أية إشارات إلى مطالب أُسامة بن لادن ـ الإنسحاب الأميركي من الخليج، إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، إسقاط الأنظمة العربية

(*) قد تكون هذه ترجمة ضعيفة لما ورد في القرآن الكريم، سورة الأنعام الآية ٣٢ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾... وفي الآية ٧٠ ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

المؤيّدة لأميركا ـ ولا إشارة إلى السياق التاريخي الذي يمكن أن يبرّر الفظائع التي كانت على وشك الحصول... وإذا كان لدى هؤلاء الرجال وحي ما، هذا في حال كان المستند فوق الشبهة، فإنهم كانوا يوجّهون رسالتهم مباشرة إلى ربّهم.

ربّما كانت هذه الصلوات/ التعليمات قد وزّعت على خاطفين آخرين قبل حصول الهجمات ـ وقد أوردت الواشنطن بوست أن الأف بي آي وجد نسخة أخرى «من المستند الأصلي نفسه» في حُطام الطائرة التي سقطت في بنسلفانيا. ولكن لم يُنشر أي نصّ من هذه المستندات. في الماضي كان معظم مترجمي الاستخبارات الأميركية من المسيحيين الموارنة اللبنانيين الذين أدّى فهمهم الخاطئ للإسلام وصلواته إلى أخطاء خطيرة في النصوص. هل يمكن أن يكون هذا هو السبب في الإشارات الغامضة الواردة في الملاحظات التي وجدت في حقيبة عطا؟ أو أن هناك شيئاً أكثر غموضاً حول خلفيّة الذين ارتكبوا هذه الجرائم ضدّ الإنسانية؟ وقد طرح المحلّلون الأميركيون تساؤلات حول استخدام عبارة ١٠٠٪، وهي عبارة من النادر استخدامها في موعظة دينية،وحول استخدام عبارة أن النبي كان «متفائلاً»، وهو مفهوم شديد العصرية...

منذ البداية، كانت الثغرة في الرواية تتمثّل بتصرف الخاطفين... قيل إن عطا كان مُدمناً على الشراب في حين أن زياد جرّاح، الخاطف اللبناني في الطائرة التي تحطّمت في بنسلفانيا، كانت لديه صديقة تركية في هامبورغ وكان يسهر في النوادي الليلية ويشرب. هل هذا هو سبب إشارة النصّ المنشور إلى طلب المغفرة؟ ربّما كانت التعليمات الأخيرة حول «التأكد من النظافة، نظافة الملابس بما في ذلك الأحذية» تعني طهارة الشهيد قبل الموت، وهي تعكس أيضاً أفكار شخص غريب الأطوار ـ وشرّير ـ ذهنياً.

انتهى المستند الذي وجِد في حقيبة عطا بالطلب التالي: «عندما تدخلون الطائرة قوموا بتلاوة «ربّي افتح لي كلّ الأبواب وامنحني مغفرتك وعونك، وأضئ طريقي وحرّرني من الكرب»... هل كانت هذه محاولة لخنق مشاعر الرحمة تجاه الركاب في الطائرات المخطوفة ـ وبخاصّة الأطفال ـ أو تجاه الآلاف الذين سوف يلقون حتفهم عند تحطّم الطائرة؟ هل ردّد الانتحاريون التسعة عشر تلك العبارات في سرّهم في اللحظات الأخيرة؟ أو أنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك؟

كيف قام هؤلاء الرجال الشاذّون ـ ربّما كانت كلمة شاذّين لا تتلاءم مع شخصيّاتهم ـ بقيادة هذه الطائرات، دون أي إحساس بالألم، إلى داخل ثلاثة من أهدافهم الأربعة؟ بعد بضعة أيام سيتمّ إطلاعنا على برامج تدريبهم على الطيران وعلى رغبتهم في حصر اهتمامهم فقط بتعلّم كيفية قيادة طائرة بعد إقلاعها. في أواخر أيلول/ سبتمبر طلبت رأي أصدقائي على الرحلة من بيروت إلى باريس واتّفق أن طاقم الطائرة كان هو نفسه الذي سافرت معه إلى الظهران عام ١٩٩٠، عندما أرسلت أميركا جنودها إلى السعودية.... «ثمانية عشر شهراً؟»، سألني قبطان الطائرة: «أتعتقد أن الأمر يحتاج إلى ١٨ شهراً لتعلّم قيادة طائرة بويينغ ٧٥٧ عندما تكون في الجوّ؟ أستطيع تعليمك كيفية قيادة هذه الطائرة خلال دقيقتين.. على الأقلّ أستطيع إطلاعك على كل ما تحتاج إلى معرفته لتصبح

خاطفاً... مع حلول الظلام بدأت الأجهزة تسطع باللون الأخضر أمامنا. وضع مساعد الطيّار الخريطة على فخذيه وقال: «لا يحتاج الخاطف إلى هذه الخرائط، كل ما يحتاج إليه هو تحديد المكان المطلوب، بُرجَي مركز التجارة العالمي على سبيل المثال... وبواسطة الطيّار الآلي تتبع الطائرة التعليمات، ويقفل جهاز اللاسلكي المرتبط بالمراقبة الأرضية ويضغط على هذا المقبض فتتّجه الطائرة إلى المكان المختار»... وانحنى الطيّار إلى الأمام وأشار إلى عُلبة وقال إن كلمة السر للتسيير الذاتي موجودة مثل كلمة فيسك مع سلسلة من الأرقام داخل هذه العلبة ١٢٣٤٥٦٧٨٩ بحيث تعمل الطائرة ذاتياً وتتجه نحو هدفها... وقال الربّان «لا يستطيع الخاطف قطعاً وضع الطائرة في حالة الإقلاع وهو لا يحتاج إلى ذلك، لأن الخاطفين في أميركا تركوا العملية لطاقم الطائرة وانتظروا حتى أصبحت الطائرة على علوّ ٣٥٠٠٠ قدم مثلاً، ثم اقتحموا غرفة القيادة وقتلوا القبطان وسيطروا على الطائرة إذ كان معظم العمل قد أُنجز لهم»... بدا لي حينها أن العقيدة (مهما كانت محرّفة) قد ارتبطت الآن بالتكنولوجيا الحديثة.. بالطريقة نفسها التي وضعت بها تلك المجلّدات من الكتب في إحدى المكتبات الجزائرية جنباً إلى جنب: كتب علمية وكتب إسلامية!!

ظهرت مجموعة من المدن على شكل شرايين دم بيضاء وصفراء تحتنا في الظلام. قال الطيّار: «وصل خاطفك الآن إلى منطقة غرب نيويورك، وهو يترك الطائرة تأخذه إلى مرأى من المدينة، وعندها يضغط على هذا الزرّ ويوقف الطيّار الآلي ويقود الطائرة بنفسه... إنه يستطيع رؤية البرجين في وضح النهار.. الأمر سهل.. أيّ طيّار داخل نيويورك يرى مركز التجارة العالمي ثم يوجّه المقود إلى الأمام ويبدأ بالانحدار». لقد قام طيّارو الشرق الأوسط في وقت سابق بمناقشة اللحظات الأخيرة للطائرات التي ضربت البرجين، ودرسوا صور الصحف، وشاهدوا أشرطة الفيديو.. وكان لدى طاقم طائرتنا صور الصحافة للحظات الأخيرة لطائرات الخطوط الجوّية الأميركية والخطوط المتّحدة. قال الطيّار: «في الشريط الأول الذي صوّر الطائرة الأولى وهي تصطدم تستطيع بوضوح سماع المحرّكات. كانت تصدر صوتاً عالياً، بحيث يستطيع أي إنسان في الشارع الانتباه والنظر إلى أعلى. كانت المحرّكات تعمل فوق طاقتها العاديّة، وهي لم تُصنع أبداً لقيادة طائرة بهذه السرعة، كانت تحت ضغط هائل». وأصدر صوتاً يشبه صوت الطائرة. «ومن الطريقة التي نرى فيها الطائرة تنقضّ نزولاً، نعرف أنه كان يضغط على مِقود التحكّم إلى الأسفل نزولاً ـ وتذّكر أنها كانت الآن تطير بغير سرعتها المعهودة ـ وأعتقد أن الطائرة الأولى التي ضربت أحد البُرجَيْن كانت سرعتها تفوق ٩٠٠ وربّما ١٠٠٠ كلم في الساعة».

استوعبنا جميعاً هذه الفكرة بينما كانت ريح ليّنة تضرب أجنحة الطائرة، وكان هناك خوف من تحويل هذا الغلاف الواقي الآمن، الدافئ، المراقب من أوروبا الوسطى والشمالية، إلى قبر. وسأل مساعد الطيّار فجأة: «أتعلم لماذا قفز الناس من نوافذ المبنى؟... إن النفط الذي احترق في المبنى ليس من النوع المستخدم في السيّارة.. فقد كانت الطائرة تحمل حوالي ٢٠ ألف غالون من وقود الطيران الذي يشبه الغاز. النفط العادي يحرقك، لكن الكيروسين يحرق بضراوة وهو أكثر حرارة. إن الأشخاص الذين احترقوا في ذلك البرج كانوا يتعذّبون بشكل مخيف وقد قفزوا بسبب الألم».

صاغ وزير الخارجية الأميركي كولن باول قواعد التأديب لما ستكون الحرب الأولى «ضدّ الشر»، وذلك بعد ثلاثة أيام من ١١ أيلول/سبتمبر. كانت رسالته إلى طالبان بسيطة: «عليكم تحمّل مسؤولية إيواء أسامة بن لادن»، وقال محذّراً: «ليس بإمكانكم فصل نشاطكم عن نشاط المرتكبين»(*). لكن الأميركيين رفضوا بشكل مطلق أن يُربط ردّهم هنا بنشاطاتهم في الشرق الأوسط. وكان يُفترض بنا أن نسكت ونحن نسمع أرييل شارون ـ الرجل الذي يرتبط اسمه دائماً بمجزرة صبرا وشاتيلا ـ يعلن أن إسرائيل ترغب أيضاً في دخول المعركة ضدّ (الإرهاب العالمي). لا عجب إذا كان الفلسطينيون خائفين.

في الأيام الأربعة التالية للحادي عشر من أيلول/سبتمبر، قُتل ٢٣ فلسطينياً في الضفّة الغربيّة وغزّة... رقم مذهل كان ليتصدّر الصفحات الأولى في الأخبار لولا الهجوم على أميركا. لكن إذا كان مسموحاً لإسرائيل الانضمام إلى الصراع، يكون الفلسطينيون ـ بقتالهم ضد إسرائيل ـ قد أصبحوا، بالامتداد، جزءاً من «الإرهاب العالمي» الذي يُفترض أن بوش ذاهب لقتاله. ليس عبثاً إذن أن يعلن شارون الآن أن لدى عرفات علاقات مع بن لادن ـ وهو تصريح عارٍ عن الصحّة.... تماماً مثل محاولة بوش اللاحقة إقناع العالم بعلاقة صدّام حسين بأسامة بن لادن.

احتاج الأمر إلى بعض الوقت لفهم ما يحصل الآن، من استعدادات غير عاديّة وهائلة تقوم بها أقوى دولة على الأرض لقصف البلد الأكثر جوعاً ودماراً وفقراً في العالم.

إن افغانستان التي اغتُصبت واستُنزِفت من قِبل القوّات الروسية خلال عشر سنوات والتي تخلّى عنها أصدقاؤها ـ نحن بالطبع ـ تجد نفسها بعد الانسحاب السوفياتي على وشك التعرّض لهجوم من أكبر قوة عظمى. ويقوم بوش الآن بتهديد نظام طالبان الظلامي، الجاهل، المتشدّد، بالعقاب نفسه الذي سيهدّد به بن لادن. تحدّث بوش أساساً عن «العدالة والعقاب»، وعن تطبيق العدالة ضدّ مرتكبي فظائع ١١ أيلول/سبتمبر... لكنه لم يرسل رجال شرطة إلى الشرق الأوسط، بل أرسل طائرات ب٥٢ وف١٨ وطائرات أواكس ومروحيات أباتشي. لسنا ذاهبين لاعتقال بن

(*) كانت لمخططات الهجوم على أفغانستان سوابق تاريخية مريرة. كانت رواية توم غراهام ـ التي تأثر بها بيل فيسك قبل الحرب العالمية الأولى ـ تدور حول اللعبة الكبرى أي حول الحدود، وحول الإبقاء على أفغانستان تحت السيطرة البريطانية بين الإمبراطورية الهندية والحدود الروسية... لكنها كانت أيضاً قصّة خيانات. فقد تبيّن أن الذين اعتقدنا أنهم معنا انقلبوا ضدّنا. حتى عام ١٨٧٨، كنا نعتقد بأن الأمير شيرعلي خان في كابول هو صديقنا وأنه كان على استعداد للقتال في سبيل الإمبراطورية البريطانية ـ تماماً كما حارب رجل اسمه أسامة بن لادن لاحقاً ضدّ الروس لصالحنا ـ لكنّ شير علي منع مرور القوّات البريطانية، وشجّع سلب التجّار البريطانيين، وسعى بشكل علني وجدّي إلى تعزيز الكراهية الدينية ضدّ الإنكليز، وقد أعلنا الحرب عليه يوم ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٧٨. كان التحريض الذي قام به الأمير ومساعدته على قتل موظّفي السفارة البريطانية «جريمة غدر وجبن أثارت عدم الشفقة تجاه الشعب الأفغاني». أعلن ذلك السير فريديريك روبرتز عام ١٨٧٩ عندما احتلّ الإنكليز كابول.... وقال: «يجب ألّا يهرب الأمير وأتباعه، والغرامة والعقوبة المفروضة يجب أن يتمّ الإحساس بها وتذكّرها. يجب التعامل مع جميع الأشخاص الذين شاركوا فيها (في عمليات القتل) وفق عادتهم». كان هذا التحذير الفيكتوري الحقيقي مقدّمة للكلمات التي نسمعها من بوش الآن.

لادن بل نحن ذاهبون لتدميره.. لم تميّز طائرات ب٥٢ بين الرجال الذين يرتدون كلّهم عمائم، ولا بين الرجال والنساء أو بين النساء والأطفال.

لا أحد يستحقّ هذا المصير... لكن بعد ٢١ عاماً من الصراع المستمرّ استحقّ الأفغان ذلك. لقد قام السعوديون والباكستانيون بتسليح الميليشيات الأفغانية ضدّ الإتحاد السوفياتي ومن ثمّ ـ لعدم رضاهم على المنتصرين بسبب تعصّبهم ـ قاموا بدعم جيش الملّا عمر الوهّابي المؤلّف من طلبة العلوم الدينية الطالبان. وقد أرسلت السعودية ملايين الدولارات إلى المدارس ـ المعاهد الدينية في باكستان خلال الصراع الأفغاني ـ السوفياتي، وكان الطالبان نتاجاً حقيقياً للوهّابية، العقيدة المسلمة المتشدّدة المسمّاة إصلاحية، للدولة السعودية التي أسّسها في القرن الثامن عشر رجل الدين محمّد بن عبد الوهّاب. ويحبّ المفكّرون الغربيون الإشارة إلى معتقدات عبد الوهّاب على أنها متطرّفة.. ولكن كان لها وقع آخر ودلالة مختلفة عند المسلمين. ذلك أن شنّ الحرب على إخوة مسلمين ضلّوا يُعتبر جزءاً من فلسفة ابن عبد الوهّاب، أكانوا شيعة البصرة «الضالّين» ـ الذين حاول جاهداً إدخالهم في الإسلام السنّي ـ أو العرب الذين لم يتّبعوا تفسيره الغريب للوحدة الإسلامية... وقد قام بتحريم التمرّد على الحكّام. غير أن مذهبه «المستقيم» هدّد آل سعود في العصر الحديث، وأمّن لهم في الآن نفسه الحماية من خلال تحريم الثورة. وهكذا اعتنقت السعودية من خلال حكّامها العقيدة الواحدة التي شكّلت حماية وخطراً في آن واحد.

لم يتعمّق أحد في دور السعوديين في هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ بشكل كامل حتى الآن. وبينما عبّر أفراد العائلة المالكة عن مشاعر الصدمة والهلع المتوقّعة منهم، لم تجر أيّة محاولة لتفحّص طبيعة الوهّابية واحتقارها الفطريّ للنشاط البشري أو للموت. لقد أمر عبد الوهّاب بتدمير كلّ الأضرحة والمساجد المبنيّة فوق القبور بما في ذلك ضريح زيد بن الخطاب أحد صحابة النبي. ويتوافق تدمير طالبان لتماثيل بوذا الضخمة في باميان عام ٢٠٠٠ وتخريب متحف كابول مع هذه النظرية الدينية، رغم أن الأمر يحتاج إلى نقاش في ما يتعلّق ببُرجَيْ مركز التجارة العالمي.

إن معارضة المسلمين السعوديين الشرعية للمظاهر المقدّسة هي التي أدّت مباشرة إلى تدمير تماثيل بوذا. لقد دمّر الوهابيون في عام ١٨٢٠ تماثيل «ذو الخلصة» التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر. وبعد بضعة أسابيع من تصريح المؤرّخ اللبناني كمال الصليبي في أواخر التسعينيّات بأن هناك قرى سعودية يقطنها سعوديون كانت قرى يهودية ذكرت في التوراة، أرسلت السلطات السعودية على الفور جرّافات ودمّرت المباني القديمة. وقد قامت التنظيمات السعودية بتدمير مئات المباني التاريخية في مكّة والمدينة. وشجب المسؤولون السابقون في الأمم المتّحدة تدمير المباني العثمانية في البوسنة من قِبل جمعية إغاثة سعودية قرّرت أن هذه المباني وثنية. وعندما بنى السعوديون مسجد فيصل الكبير في العاصمة الباكستانية إسلام أباد ـ وكان من المفترض أن يكون في كابول ـ تلا بناؤه مباشرة تدمير عدد كبير من الأضرحة الإسلامية المهمّة في المدينة، وقد ظهرت كتابات إلى جانب الأضرحة تنصّ على أنه يجب تدميرها إذ لا يوجد «تقديس في الإسلام».

من بين الدول الإسلامية العديدة التي وقفت ضدّ تدمير تماثيل بوذا في باميان دولةٌ عربية واحدة مهمّة ظلّت صامتة هي السعودية، ففيها يُمنع المسيحيون حتى من الممارسة الخصوصية لشعائرهم الدينية في عيد الميلاد ويدفن الملوك والأمراء بدون شواهد على القبور.

عام ١٩٩٨ كتب طالب سعودي في هارفارد أطروحة مميّزة ـ تستند إلى بحث ميداني مباشر عن بلاده ـ يقول فيها بشكل مقنع إن القوّات الأميركية عانت إصابات عديدة نتيجة الهجمات بالقنابل، لأن المخابرات الأميركية لم تفهم الوهّابية ولم تقدّر مدى عدم الرضى في أوساط علماء الدين الكبار تجاه الوجود الأميركي في المملكة. وقد سمّى نوّاف عُبيد، الذي قدّم تقريره بناء على طلب مسؤول أميركي كبير في الإدارة الأميركية، العالِمَيْن الدينيّين الكبيريْن المعارضين للحكم، الشيخ سلمان العودة والشيخ سفر الحوالي. وكان العودة قد وزّع خطباً تصف آل سعود بآخر السلاطين العثمانيين، والأميركيين بقوة الاحتلال، وقد أشار عبيد الى أن العودة يستمدّ الدعم من مدينة «البريدة»، حيث حاول أتباعه منع توقيفه عام ١٩٩٤.

استشهد عُبيد بضابط كبير في الجيش السعودي أخبره أنه «كان مذهولاً بالاتفاق السرّي الذي أبرمه الحكم في المملكة السعودية مع إدارة بوش موافقاً على استبقاء القوّات الأميركية بعد الحرب»، وعرف عندها أن المجتمع.... «لن يفهم أبداً أو يتقبّل هذا الوضع». وأبلغ ضابط في الحرس الوطني السعودي عُبيد بشكل أكثر تشاؤماً أنه كلّما أصبح الأميركيون أكثر ظهوراً أصبح مستقبل البلاد قاتماً.

وكان ضابط سابق في الحرس الوطني (جهيمان بن محمد العتيبي) هو الذي قاد حصار المسجد الكبير في مكّة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩ مع صديقه محمد بن عبدالله القحطاني. وقد أعلن العتيبي أن القحطاني هو المهديّ، أي الشخصية الملهمة ربّانياً التي تحدّث عنها النبي والتي ستنشر العدل في العالم الفاسد. وقد نشر السعوديون عشرة آلاف جندي لاستعادة المسجد من مئتي مسلم كانوا قد استولوا على المبنى، لكن المسجد الكبير كان أفغانستان حقيقية بدهاليزه ومخابئه. ولم يتمّ إنهاء الحصار إلّا بعد أسبوعين عندما حضرت قوّات مكافحة الشغب الفرنسية إلى مكّة (وقامت بالتحوّل لوقت قصير وشكلي إلى الإسلام لتشريع وجودها في مدينة لا يدخلها إلا المسلمون) وقضت على المتمرّدين بشكل دموي. فقد أغرق الفرنسيون دهاليز المسجد وأدخلوا كابلات في الماء وقاموا بكهربته بأسلوب صدّامي، فأصبح العديد من المتمرّدين مثل «السمك المشوّي». وفي ٩ يناير/كانون الثاني ١٩٨٠ جرى قطع رؤوس ٢٦ رجلاً علناً في مدن عدّة في أنحاء السعودية.

حتى الآن، لا يستطيع السعوديون مواجهة ازدواجية الحماية والتهديد التي تمثّلها الوهّابية بالنسبة إليهم. وقد قال الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي لفترة طويلة في الولايات المتحدة، ذات يوم إن دين بلاده جزء من «ثقافة أبدية» يعيش أهلها وفق الإسلام «وتقاليدنا الأساسية الأخرى». نصح سفير بريطاني سابق الغربيين «بالتكيّف في السعودية» والتصرّف وفق الأصول السعودية وتقاليدها. وهذه الأصول مثبتة في شكاوى منظمة العفو الدولية من قِبل مئات الرجال ـ وبعض النساء ـ الذين يشهدون كل سنة عمليات تعذيب ومحاكمات غير عادلة.

استنتج الطالب السعودي، عُبيد، بكثير من التوقّع المسبق «أن الولايات المتّحدة ستتاح لها الفرصة لتشهد من حكومة طالبان الوهّابية قساوة لا وجود لها عند آل سعود، ونظرة إلى ما ستؤول إليه الأمور في السعودية إذا اختلّ التوازن التقليدي لصالح المؤسّسة الدينية». كان ذلك، كما سيثبت للعالم لاحقاً، تجربة مخيفة. لم يُخفِ الطالبان عدم تسامحهم وعقوباتهم القاسية، مثل شنق السارقين وقطع الأعضاء وضرب النساء وإعدامهم. لكن عندما واجهوا المعارضين الشيعة، قاموا بتطبيق مفهوم عبد الوهّاب بشنّ حرب على المسلمين «الضالّين» بالشراسة نفسها التي يقاتلون بها خصومهم. في آب/أغسطس عام ١٩٩٨، نجحوا في اقتحام آخر معقل قويّ للتحالف الشمالي بقيادة أحمد شاه مسعود، وهو مدينة مزار شريف. كانت إحصائيات شاهد عيان للمجزرة الرهيبة ـ التي ظلّت سرّية في ملفّات الأمم المتحدة ـ الدليل المرعب على الاغتصاب والذبح والخنق الجماعي للرجال والنساء المسلمين الشيعة على يد الجيش. وقد أُرسلت التقارير التي جمعها موظفو لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتّحدة في باكستان إلى نيويورك، لكنها ظلت سرّية، لأن الأمم المتّحدة كانت تتفاوض مع الطالبان. وقد صُدِم دبلوماسي سويدي مما قرأه في المستندات، إلّا أنه أعطاني مضمون تلك المستندات.

أفاد رجل أفغاني من الطاجيك أب لثلاثة أولاد الأمم المتّحدة أنه لم يرَ مثل هذه المشاهد من العنف حتى دخل الطالبان مزار شريف، حين كان أهلها يقومون بالتسوّق اليومي دون وجل. قال: «كانوا يطلقون النار على جميع من كانوا في الشارع دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال، ولم يسمح لأحد بدفن الجثث لمدّة ستّة أيام، وقد غطّت الجثث الشوارع بالدماء. وكانت الكلاب تأكل اللحم البشري، وأصبحت الرائحة لا تطاق». وأضاف الشاهد أن الطالبان قاموا في اليوم التالي لانتصارهم بالبحث من بيت لبيت عن العائلات الشيعية المسلمة التي تدلّ عليها ملامحها وذلك لقتلها، وغالباً ما كانوا يطلقون النار ثلاث مرات على الذين يجدونهم (رصاصة في القلب وواحدة في الصدر وأخرى في الخُصيتين)، وقاموا بذبحهم بطريقة حلال «بسكين على العنق» أو قاموا بتكديسهم في حاويات بعد ضربهم بشدّة.

كانت ١٢ حاوية أو أكثر متوقفة طيلة النهار تحت الشمس وأبوابها موصدة. وقد رأى الشاهد أبواب الحاويات تُفتح بعد موت من بداخلها اختناقاً. وكانت بعض الحاويات مليئة بالأطفال، وقد تمّ أخذهم إلى جهة مجهولة بعد قتل أهاليهم. وقال تقرير للأمم المتّحدة: «كانت النساء يتعرّضنَ للمضايقة، وقد وردت أنباء عن عمليات اغتصاب عديدة». وسمع شاهد كان يمرّ بمدينة مزار شريف نداءات على مآذن المساجد تدعو الشيعة إلى اعتناق الإسلام السنّي وحضور الصلوات اليومية لأجل سلامتهم. ووصفت سيّدة عملية قتل زوجها وأخويها ـ أُطلقت عليهم النار مرّتين ثم ذبحوا ـ وكيف صرخ الطالبان عندما غادروا المنزل بأن لديهم إعدامات أخرى لكنهم سوف يعودون.

وقُتل عشرة دبلوماسيين وصحافي إيرانيين، عندما دخل الطالبان إلى قنصليتهم، وظلت جثثهم ملقاة في المبنى لمدّة يومين ثمّ دُفنوا في قبر جماعي في ساحة ثانوية سلطان رضا للبنات. وقد أدّى ذلك إلى استفزاز الإيرانيين

بشكل كبير إلى درجة أن القوّات الإيرانية شنّت هجوماً عسكرياً إلى داخل أفغانستان في أيلول/سبتمبر ١٩٨٨ ولم يرجع أحد من آلاف الشيعة الذين خطفوا في مزار شريف.

في ربيع ٢٠٠٠، زرت أحد مراكز إنتاج طالبان، مدرسة من الملتزمين، حيث يستعين الشباب بالعلم الحديث في تعليمهم القرآني، وكان هذا موضع استحسان الكثير من الإسلاميين. كان الطلّاب (وكلمة طالبان تعني طلبة العلم) من جنسيّات متعددة، وكلهم ينتظرون الثورة الإلهية التي يُعتقدون أنها ستحصل في حياتهم. ولدى وصولي إلى الكلّية في «أكورا كاتاك» في باكستان في المقاطعة الشمالية الشرقية مع المصوّرين نيلوفار بازيرا وصديّق برمك، وجدت الإسلاميين الساعين لتحرير طاجكستان متحمّسين للكلام. في ممرّ ضيّق، وكان الشبّان الملتحون مجتمعين في ممرّ ضيق وهم يبتسمون ويصرخون: «الله أكبر» أمام صور تظهر الدبّ الروسي مطعوناً بعلم إسلامي أخضر.

أخذني عبد الرؤوف من يدي (لم يكن هناك أسماء عائلة للطلاب، وكذلك الأمر في المسجد الكبير والمدرسة الدينية المقابلة لخط القطار القادم من پيشاور)، وصرخ باللغة الروسية التي قام صديق لي بترجمتها: «نرغب في القيام بثورة إسلامية في طاجكستان، ونؤمن بإعادة إحياء الإسلام في بلادنا. سوف يشعّ نور الإسلام فوق بلادنا. إنه وعد الله لنا». كان وجهه نحيفاً ولحيته خفيفة وعيناه تلمعان ببريق الإيمان، وكان رفاقه من طلّاب المدرسة التي أسّسها مولانا عبد الحق الذين ودّعوا رفاقهم الشيشان منذ وقت قصير، وهم شُبّان أنهوا سنة من الدراسة الدينية في أكورا كاتاك، ثم عادوا إلى بلادهم لقتال الروس.

ترمز كلّية الحقّ إلى كل ما يخشاه الأميركيون والروس: مصنع طالبان، مدرسة عقائدية تضمّ ألوف المسلمين الأميّين، المتلهّفين للقتال في سبيل أمّة إسلامية متّحدة في جنوب غرب آسيا. وإذا كانت هذه الأمّة الإسلامية ستضمّ معظم دول جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق الغربية، ومعها أفغانستان وحتى باكستان، عندها ستكون الحقّانية قد أدّت دورها... وقد أجابني عبد الرؤوف (٢٢ سنة) عندما سألته عن زملائه الشيشان السابقين قال: «إنهم إخوة لنا وإذا احتاجوا إلى مساعدتنا فسوف نقوم بذلك».

كانت المدرسة التي أسّسها راشد، جدّ «الحقّ» (أي عبد الحقّ) عام ١٩٧٤ مدرسة لكل قادة طالبان الذين يحكمون كابول الآن.. وكانت تشتمل على فندق من أربعة طوابق يتّسع لثلاثة آلاف طالب، وهي مشروع طويل الأمد وليس فكرة زائلة.. وإذا كان الرئيس الباكستاني الجنرال برويز مشرّف والسلطات الباكستانية يحبّون طمأنة القادة الغربيين بالادّعاء أن مثل هذه المؤسّسات هي شيء من الماضي، فقد كان من المفيد ملاحظة وجود ثمانية رجال شرطة باكستانيين يرتدون ملابس سوداء مسلّحين أمام المبنى لحراسة مولانا سمّي الحق ـ والد راشد ـ وطلّابه. لقد وصلوا إلى هنا عام ١٩٩٨ بناء على أوامر رئيس الوزراء المخلوع نواز شريف وذلك «لأسباب أمنية». وبالطبع فإن هذه المدرسة لم تكن من الماضي. وفي حين أن مجلّداتها القرآنية تُدرس باحترام غير عادي، فإن المدرسة تدير دار نشر خاصة بها، وقد تحوّلت نحو التقنية العالية في غرفة الكمبيوتر المجاورة للمكتبة والتي يشرف عليها سجّاد خان الذي يقوم بإنشاء شبكة خاصة به. وقد اصطحبني راشد الحق في جولة على المباني

مرتدياً دشداشته وقبّعة البشتون وأكد أن الكلّية تكلّف مليون روبية ـ ٢٠ ألف دولار ـ سنوياً، لكنه قال إن تمويلها يأتي من أنحاء العالم. «ليس من دول بل من أفراد فقط». بالطبع فكرّت في المملكة السعودية.

قال الحقّ: «إن كبار القادة الإسلاميين في هذه المنطقة كانوا جميعاً تلاميذ جدّي ووالدي، وبخاصة الطالبان... الثورة الإسلامية قريبة جدّاً، إن شاء الله»... إن جدّ راشد الحقّ الذي تتمتّع أعماله المدوّنة بمكانة عالية في مكتبة الكلّية مدفون في أرض قرب الكلّية مع زوجته وأخته... تناهى إلى مسمعي صوت آلة صبّ الإسمنت في المبنى المجاور، حيث كان العمّال ينجزون طابقاً رابعاً جديداً. وكان الانقلاب العسكري في باكستان في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩٩ قد أبقى المدرسة آمنة. قال راشد الحقّ: «كنّا مسرورين لحصول ذلك، لأن معظم أعضاء المجلس كانوا من الفاسدين، هذه لم تكن ديمقراطية حقيقية. والديمقراطية الحقيقية هو ما نجاهد لأجله في الإسلام. طيلة خمسين سنة منذ إنشاء باكستان، كنا ننتظر تطبيق قانون إسلامي حقيقي». وفجأة، بدا صوت راشد الحقّ مشابهاً لصوت الجنرال مشرّف، حاكم باكستان العسكري. وفي الحقيقة: أليست أهدافهم متشابهة؟ ألا يطالب الاثنان بإنهاء الفساد؟ ألا يعتبر الاثنان حكم نواز شريف ديمقراطية مزيّفة؟ إذاً لماذا كان على باكستان مراعاة طلب واشنطن بإغلاق مصنع طالبان في أكورا كاتاك؟

والحال أن ملاحظات أخرى أظهرت إلى أيّ مدى ذهبت الكلّية في تبنّي أيّ شيء يكرهه الأميركيون والروس. فبينما كنا نسير قرب مسجد المدرسة المكسوّ بالبلاط الأزرق والأبيض، لاحظت أن راشد الحق ، الذي أمضى سنة في جامعة الأزهر الإسلامية في القاهرة يتحدّث العربية بلهجة مصرية قويّة، قد أصبح عاطفياً: «صدّقني ستكون هناك ثورة إسلامية. كلما قامت الولايات المتّحدة والعالم الغربي والدول التي قتلت المسلمين بقمعنا، أصبحت الجمهورية الإسلامية وشيكة. إن معنوياتنا عالية، ومن المحتمل حصول وحدة إسلامية في هذه المنطقة كلّها. ونحن نريد إقامة مثل هذه الوحدة ـ مثل الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو».. سألته : الناتو؟ الناتو؟ كان راشد الحق يفكّر بالتعابير العسكرية وكذلك الفكرية. إذا قامت الهند والدول الغربية الأخرى بصنع قنبلة نووية، يوافق الجميع على ذلك. هذا نعم. لكن إذا قامت دولة إسلامية فقيرة مثل باكستان بصنع قنبلة، عندها يقف الجميع ضدّها وتصبح قنبلة إسلامية. إذا صنع الهندوس قنبلة، فإنها ليست قنبلة هندوسية، لكنّ المسلمين الذين يصنعون قنبلة يوصفون بأنهم إرهابيون أصوليون»، وهكذا وجدت نقطة توافق أخرى بين مدرسة الحقّ والجنرال مشرّف. بالنسبة إلى راشد الحق وطلّابه وبالنسبة إلى الجنرال الباكستاني فإن القنبلة هي رمز الكرامة وقد صُنعت لتبقى.

جلس والد زياد الجرّاح بجانبي وفتح يديه بحركة بريئة هي أيضاً دعاء خاص: «اتصل قبل يومين من تحطّم الطائرات ليقول لي إنه تسلّم الألفي دولار التي أرسلتها له». جلس سمير جرّاح، الذي كان لا يزال يتماثل للشفاء من عملية قلب مفتوح، شبه منهار، مريضاً، محزوناً، في كرسيّ بلاستيكي أخضر، تحت دوالي العنب في حديقته اللبنانية... «قال زياد إنها من أجل دروس الطيران، وقد أخبرني العام الماضي أن لديه خياراً للدرس في فرنسا أو أميركا ـ وأنا الذي طلبت منه الذهاب إلى أميركا ـ لكن هناك العديد ممن يسمّون زياد. ربّما لم يكن هو! كان طيّباً، ولداً لطيفاً». عند هذا الحدّ، انحنى سمير الجرّاح إلى الأمام ووضع يديه على وجهه واستغرق في البكاء.

كان زياد الجرّاح ربّان طائرة اليونايتد (الطيران المتحدة) رحلة ٩٣ من نوارك إلى سان فرانسيسكو، وهي الطائرة التي تحطّمت في بنسلفانيا عندما حاول الركّاب على ما يبدو مهاجمة غرفة القيادة وتعاركوا مع الخاطفين، وربّما مع زياد الجرّاح الذي كان يتولّى السيطرة على الطائرة.

كان الكلّ يعرف... الجميع حولنا.. مجموعة من الرجال المتوسطي العمر جلسوا على كراسٍ متشابهة، كلّهم مسلمون سنّة، وكانوا جميعاً مستائين لأن جريمة ضدّ الإنسانية لطخت القرية الصغيرة والغنية «المرج في سهل البقاع اللبناني».. كان للقرية مسجد كبير ـ لم أشهد مسجداً بهذه الضخامة في قرية صغيرة ـ على بعد مئتي متر من الباب الأمامي للمنزل... لكن أصدقاء وعائلة عم زياد الجرّاح أصرّوا على أنه لم يكن متديّناً أو سياسياً. قال جمال الجرّاح: «كان رجلاً عادياً، يشرب الخمرة، وعنده صديقات. في أواخر آب/أغسطس الماضي جاءت صديقته أيسل التركية لمقابلة عائلتنا هنا لأنها أرادت لقاء عائلتها المستقبلية. لم يستطع القدوم معها لأنه كان مشغولاً جدّاً بدراسته كما قال». ذلك اليوم كان ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ـ أي بعد خمسة أيام من الهجمات على مركز التجارة العالمي والبنتاغون وبنسلفانيا حيث تحطّمت طائرة الانتحاريين ـ كان مشغولاً جدّاً بحيث لم يتمكّن من اصطحاب خطيبته للقاء عائلته؟ مشغولاً بماذا؟ ولماذا كان طلبه مبلغ ألفي دولار؟ لإكمال دراسته في مدرسة الطيران في ميامي؟ أو لشراء تذاكر سفر لرحلة البوينغ ٧٥٧ إلى كاليفورنيا، له وربّما لخاطفين آخرين على الرحلة؟ كانت إيسل في ألمانيا، وقد حضرت إلى مركز الشرطة في بوشيم وسلّمتهم الأدلّة بملء إرادتها.. وكانت الشرطة قد فتّشت شقّتها ووجدت «مستندات تتعلّق بالطيران» في حقيبة تعود إلى أحد الرجال الثلاثة الذين سمّتهم واشنطن خاطفين. كان الجميع ـ شيء لم تستطع عائلة الجرّاح تفسيره أو تصديقه ـ يعيشون معاً في هامبورغ. وقد بلّغت أيسل عن اختفاء زياد ـ كما فعلت قبل ١٨ شهراً عندما اختفى لمدة خمسة أسابيع ـ وما أبلغته لعائلة الجرّاح عبر الهاتف أثار فيهم الشكّ حينها أن شيئاً ما ليس على ما يرام بالنسبة إلى ابنهم الوحيد.

واستناداً إلى صديق العائلة أبلغت أيسل آل الجرّاح أن خطيبها الذي يزورها كل نهاية أسبوع قادماً من جامعته في هامبورغ، ربّما ذهب إلى أفغانستان. قال لي جمال جرّاح إن هذا ما كانت تخشاه أيسل. «لكن ثبت أنه كان قد انتقل من الجامعة الأولى في غريفسولد إلى هامبورغ لتلقّي دروس جديدة ولم يكن على اتصال بأيسل طيلة هذا الوقت». خمسة أسابيع لتغيير الجامعة؟ بدون إبلاغ خطيبته؟

كانت تفاصيل حياة زياد الجرّاح بسيطة ـ كما قالت العائلة ـ بقدر ما كان موته غامضاً بالنسبة إليهم. كان عمره ٢٦ سنة ـ بحسب تذكرة هويّته اللبنانية ـ ولد يوم ١١ أيار/مايو ١٩٧٥، قروي من عائلة ميسورة، وكان والده موظفاً رسمياً في وزارة الشؤون الاجتماعية في بيروت ووالدته مدرّسة. التحق زياد الجرّاح بالمدرسة الإنجيلية في زحلة التي تبعد ٢٠ كلم عن بيته، ودفع والده ألوف الليرات لإرساله إلى الجامعة. سافر إلى هامبورغ بتأشيرة طالب عام ١٩٩٧، والتحق بجامعة المدينة التقنية. اختفى لفترة قصيرة عام ١٩٩٩، قبل أن يسافر إلى الولايات المتحدة بناء على نصيحة والده.. قال سمير الجرّاح: «كلّما طلب مالاً كنت أرسل له، كان يحتاج إلى المال ـ كان يقطن بيتاً خاصاً في ألمانيا وله صديقة يصرف عليها، وكان عليه تمويل دراسته». في شباط/فبراير

عاد زياد الجرّاح إلى لبنان للمرّة الأخيرة ليكون موجوداً أثناء عملية القلب المفتوح لوالده. قال لي عمّه جمال: «كان يذهب كل يوم إلى المستشفى ويتابع وضع والده ويهتمّ. كان طبيعياً، وكانت شخصيته وحياته لا تدلّان على علاقة ما بالذي حصل.... كانت لديه صديقات، وكان يذهب إلى النوادي الليلية وبعض الأحيان إلى المراقص». كل إنسان تحدّثت معه في المرج قال الشيء نفسه: كان زياد الجرّاح فرحاً، شاباً علمانيا، لم يظهر أيّ اهتمام بالدين، ولم يدخل أبداً مسجداً للصلاة، وكان يحبّ النساء مع أنه كان في وقت ما محافظاً وخجولاً. كان محمّد عطا الذي عاش معه في هامبورغ وقاد طائرة الخطوط الأميركية إلى داخل مركز التجارة العالمي معروفاً بأنه يشرب خمس أو ستّ كؤوس من الخمرة في الليل. بالطبع فإن مثل هذا التصرّف من شأنه منع صاحبه من الانضمام إلى صفوف حركة القاعدة التابعة لبن لادن. أو أن هذه كانت محاولة لتضليل وكالة الاستخبارات الأميركية التي ربّما كانت تراقب الرجال؟ من يعتقد أن شاباً يشرب في بار مع صديقة تركية في ألمانيا يعيش معها يخطط لتحطيم طائرة على متنها ٣٧ راكباً بريئاً ـ في ماذا ؟ في الكونغرس؟ أم البيت الأبيض؟

لكن ابن سمير الجرّاح صعد إلى الطائرة ومعه سكين وفتّاحة عُلب ـ وكان آخر اتصال تلفوني من الطائرة كشف أن هذه كانت الأسلحة الوحيدة للخاطفين ـ وكان يعتزم قتل نفسه مع الركّاب والطاقم وأيضاً الرئيس بوش وموظفيه. إذن ماذا تعلّم في مدرسة زحلة الإنجيلية وفي المدرسة البطريركية المسيحية حيث درس أيضاً في بيروت؟ كان عمره ٧ سنوات فقط، عندما حاصره الجيش الإسرائيلي وعشرات الآلاف من المدنيين اللبنانيين في بيروت عام ١٩٨٢. لم يتورّط أبداً في الحرب الأهلية كما أبلغني جيرانه، ولم يكن مهتمّاً بالميليشيات. وقال لي جمال الجرّاح بسأم: «نحن مستعدّون للتعاون مع السلطات. نحن ننظر جميعاً إلى ما حصل في أميركا على أنه عمل إرهابي. إنها مأساة للأميركيين، لنا ولكل الناس في العالم». وظل سمير يحرّك رأسه مكرّراً رفضه: «إبني كان إنساناً عادياً، لا يفعل ذلك أبداً. لماذا؟ ربّما كان هناك زياد الجرّاح آخر على الطائرة». لكن الرجال والنساء المجتمعين في منزل العائلة ذلك الصباح جاءوا باللباس الأسود...

عندما بدأ القصف الجوّي لأفغانستان يوم ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ لم يكن هناك أي صحفي أجنبي في ثلاثة أرباع أراضي أفغانستان التي يحكمها الطالبان. كانوا في المنطقة الشمالية الشرقية التي يسيطر عليها تحالف مسعود الشمالي. وكانت الصورة الوحيدة للحياة والموت داخل كابول هي التي تنقلها قناة «الجزيرة» الفضائية القطرية التي لم تنقل فقط تصريحات بن لادن، بل عرضت شريط أضرار القصف على مناطق مدنية من العاصمة... قبل بضعة أشهر سافر صديقي القديم توم فريدمان إلى الإمارة الخليجية الصغيرة، قطر، حيث كتب في زواياه الإمبريالية في النيويورك تايمز أن تلفزيون الدولة الصغيرة دليل واعد على أن الديمقراطية ربّما وصلت إلى الشرق الأوسط. كانت «الجزيرة» تزعج بعض الطغاة المحلّيين العرب ـ أحدهم رئيس مصر ـ واعتقد توم أن هذه فكرة جيّدة. وكذلك اعتقدت. لكنّ أوائل تشرين الأول/أكتوبر أعادت كتابة القصّة. كان كولن باول الآن يضرب أمير قطر على ركبتيه، لأنه ـ كما ادّعى ـ «كانت الجزيرة تثير المشاعر المناهضة للأمركة». كان الأميركيون يريدون من أمير قطر إغلاق مكتب القناة في كابول الذي كان ينقل في أشرطته عمليات القصف الجوّي الأميركي وتصريحات

بن لادن... كان الرجل المطلوب عالمياً يوحي بأنه غاضب للموتى العراقيين من الأطفال نتيجة العقوبات، وبسبب الأنظمة العربية الموالية للغرب، وهجمات إسرائيل على الأراضي الفلسطينية، والحاجة إلى مغادرة القوّات الأميركية للشرق الأوسط. وبعد إصرارهم على أن بن لادن إرهابي مجنون ـ وأن لا علاقة بين سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط والجرائم ضدّ الإنسانية في نيويورك وواشنطن ـ كان الأميركيون بحاجة ماسّة الى إسكات تغطية الجزيرة للأخبار...

ولا حاجة إلى القول إن هذه الحماقة قد حظيت بتغطية إعلامية ضئيلة في الإعلام الغربي الذي يعرف رؤساء تحريره أن ليس لديهم أي مراسل في مناطق طالبان في أفغانستان. في حين كان لدى الجزيرة مراسل... كانت حملة بن لادن شديدة الوضوح... فقد كان يسجّل تصريحاته ويرسلها مع أحد أتباعه إلى مكتب الجزيرة في كابول. ولم تكن تتضمّن استجوابات بل مجرّد موعظة. ولم نشاهد أي شريط فيديو عن تدمير معدّات طالبان، وطائرات الميغ القديمة ودبّابات حلف وارسو الأقدم أيضاً التي كانت تصدأ في أنحاء أفغانستان منذ سنوات. هناك فقط مجموعة من الصور (الحقيقية على ما يبدو) لأضرار القصف على منطقة مدنية في كابول.

وكالعادة جرت تغطية التقارير الأولى لهجمات الصواريخ الأميركية دون أي إيحاء بأن أبرياء ماتوا في البلد الذي خططنا «لإنقاذه». هل كان الطالبان يقولون الحقيقة حول مقتل ثلاثين مدنياً في كابول؟ هل نعتقد نحن الصحفيين فعلاً أن القنابل سقطت على المذنبين، وليس على الأبرياء؟ وللتأكيد، حصلنا على تعليقات الحرب العالمية الثانية بشأن المعنويات العسكرية الغربية من إذاعة بي بي سي، وكان علينا الاستماع إلى رواية حول «ليلة جيّدة غير مقمرة للأسطول الجوّي»، لقصف أفغانستان.

سمعنا على قناة فضائية عن القتال الجوّي فوق أفغانستان.. كان ذلك كذبة، فلم يكن لدى طالبان أي طائرات ميغ قديمة متبقّية. ولم يحدث قتال.

بالطبع يُطرح هنا سؤال أخلاقي... فبعد الفظائع التي حصلت في نيويورك وواشنطن، كيف نتوقّع أن يجري «اللعب بعدالة» بين بن لادن الفظّ والغرب؟ نحن لا نستطيع المساواة بين انتقادات القاتل الجماعي وبين القوّات الأميركية والبريطانية التي كانت تحاول تدمير طالبان. لكن تلك لم تكن هي القضية. فالحق أن مشاهدينا وقرّاءنا هم الذين يجب أن نلعب معهم «بعدالة». هل كان علينا أن نخسر، بسبب غضبنا لمقتل الأبرياء في أميركا وبسبب رغبتنا في مضاهاة «خبراء الإرهاب القدماء»، كلّ قدراتنا الانتقادية؟ لماذا على الأقلّ لا يقال لنا كيف صار «خبراء الإرهاب» هؤلاء خبراء، وبهذا القدر من الخبرة؟ وما كانت ارتباطاتهم المريبة بأجهزة المخابرات؟

في بعض الحالات، في أميركا، كان الرجال الذين يعطوننا النصائح والتحليلات على شاشة التلفزيون، هم أنفسهم العملاء الذين وجّهوا المخابرات الأميركية ومكتب التحقيقات الفدرالي في أكبر عملية مخابراتية فاشلة في التاريخ الحديث: عدم القدرة على كشف المخطط الذي استغرق تحضيره أربع سنوات وأدّى إلى القضاء على حياة

أكثر من ٣ آلاف شخص. قال الرئيس بوش إن هذه كانت حرباً بين الخير والشر. لكن ذلك كان أيضاً ما يقوله بن لادن بالضبط. ألم يكن جديراً بالاهتمام تسليط الضوء على هذا الأمر والسؤال إلى أين تقود هذه النظريات؟

في الشرق الأوسط، كان بن لادن يكسب صيتاً أسطورياً أشبه بالخيال في أوساط العرب، وكان صوته يدخل مراراً وتكراراً إلى ملايين المنازل ممتزجاً بمطالب وآلام ـ وغضب ـ مسلمي الشرق الأوسط، الذين اكتشفوا كيف تجنّب رؤساؤهم وملوكهم وأمراؤهم أي انتقاد جدّي للقصف الأنغلو ـ أميركي في أفغانستان. لدى رؤية آخر شريط فيديو لبن لادن ركّزت الدول الغربية ـ إذا كانوا قد استمعوا إليه أصلاً ـ على ملاحظاته عن الفظائع في الولايات المتحدة... فإذا كان قد عبّر عن تأييده للعملية، رغم نفيه أية مسؤولية عن الأمر... أفلم يكن ذلك يعني أنه كان وراء المذبحة الجماعية التي حدثت في ١١ أيلول/سبتمبر؟ لكن العرب فهموا التصريح بشكل مختلف تماماً إذ إنهم استمعوا بطرق مختلفة إلى صوت يتّهم الغرب بالازدواجية والوقاحة تجاه الشرق الأوسط، صوت موجّه إلى القضية المركزية في حياة العديد من العرب: «الصراع العربي ـ الإسرائيلي واستمرار الاحتلال الإسرائيلي». واليوم، وكما قال لي شخص أقام لفترة طويلة في القاهرة، «فإن العرب يعتقدون بأن أميركا تحاول قتل الشخص المستعدّ لقول الحقيقة».

لكنّ ردّ الزعماء العرب على الفظائع في أميركا وعلى القصف الأميركي لأفغانستان كان سيّئاً جدّاً. فمن خلال الاستماع إلى خُطب القادة المسلمين في قمّة المؤتمر الإسلامي الطارئة التي انعقدت يوم ١٠ تشرين الأول/أكتوبر، كان بالإمكان الاعتقاد بأن بن لادن يمثّل العرب أكثر من الطغاة العديمي القيمة والملوك. قال أمير قطر: رجاء أعطونا دليلاً واضحاً حول ١١ أيلول/سبتمبر.. وقال عرفات: «رجاءً لا تنسوا الفلسطينيين»... وقال وزير خارجية المغرب: «الإسلام بريء»... الكل ـ بدون استثناء ـ رغب في شجب فظائع ١١ أيلول/سبتمبر في الولايات المتحدة... لا أحد ـ مطلقاً ـ أراد أن يشرح لماذا قرّر ١٩ عربياً تدمير طائرات تحمل أشخاصاً أبرياء في مباني مكتظّة بالمدنيين...

لم يلوّث اسم بن لادن قاعة مؤتمر قطر.. ولا مرّة... ولا حتى اسم طالبان... ولو أن شخصاً من كوكب المرّيخ هبط في الخليج ـ الذي يشبه كوكب المريخ ـ لربّما استنتج أن مركز التجارة العالمي في نيويورك دُمّر بفعل هزّة أرضية أو إعصار. ألم يكن الرئيس المصري حسني مبارك هو الذي قال عام ١٩٩٠ إن غزو العراق للكويت سوف يهبّ علينا مثل ريح صيف خفيفة؟ لقد ندد المؤتمرون كرجل واحد بالمذبحة في أميركا دون أن يتوقّفوا ولو للحظة للسؤال لماذا حصل ذلك؟ ومثلهم مثل الأميركيين، لا يريد العرب النظر إلى الأسباب. بالطبع كانت قاعة المؤتمر مكاناً عجائبياً... لا فُسحة فيه لأيّ نقد للذّات أو اعتراف بالذنب أو المسؤولية... طالب عرفات بقوّة دولية ـ فكرة جيّدة لأفغانستان جديدة ـ ولكن سرعان ما ثبت أنه يتحدّث عن قوّة دولية لحماية الفلسطينيين في الضفّة الغربيّة وغزّة، التي تبعد وفق الخارطة ٣٠٠٠ كلم عن كابول، وهو شجب مجزرة مركز التجارة العالمي، وكذلك فعل الشيخ حمد آل ثاني أمير قطر، ومحمد بن عيسى وزير خارجية المغرب، وعبد الواحد بلقزيز أمين عام المؤتمر الإسلامي. لكن كان ذلك كل شيء... بالطبع، شكّلت الخطب مجتمعة جَوقة واحدة: رجاءً لا تقتلوا

الأفغان الأبرياء مهما حصل ـ رجاء لا تقصفوا البلاد العربية ـ لكن طيلة اليوم بدت أفغانستان بلداً بعيداً جداً يعرفون عنه القليل ـ وهذه بالطبع فكرة كاذبة بالنظر إلى أن السعودية وباكستان كانتا القابلة القانونية بالنسبة إلى طالبان ـ ولا يريدون أن يعرفوا عنه أكثر....

إنّ وزير الخارجية السوري فاروق الشرع هو وحده الذي أعلن صراحة أن الهجوم على الدول الإسلامية «ممنوع»... وهذا يعني كما قال «أن كل العرب والمسلمين سيقفون مع البلد الذي يُهاجَم»... الأمر الذي جعلهم يرتجفون على متن حاملات الطائرات في الخليج.. وأُلقيت خُطب منمّقة عاديّة من قِبل المندوبين الآخرين في المؤتمر. وأعلن بيان الأعضاء الـ ٥٦ أنهم يرفضون «ربط الإرهاب بحقوق الشعوب العربية والإسلامية، بما في ذلك حق تقرير المصير للشعب اللبناني والشعب الفلسطيني وحق الدفاع عن النفس ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي والأجنبي ومقاومة العدوان»... وترجمة هذا : «رجاءً يا أميركا لا تقفي إلى جانب إسرائيل وتقصفي حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله ودمشق وطهران إلخ. . .» . . . إن شعار «المقاومة ليست إرهاباً» قد صار هو الشعار المألوف في العالم العربي بقدر شعار «الحرب على الإرهاب» في العالم الغربي...

كان هناك القليل مما يمكن لبوش أو بلير معارضته.. «يجب ألّا يتخطّى الردّ حدوده، بل أن يقتصر فقط على أولئك الذين قاموا بالهجمات، (الأمر الذي) يتطلّب دليلاً ماديّاً ضدّ المرتكبين»، كما أعلن الشيخ حمد. «كان العالم الإسلامي هو الأوّل في الدعوة إلى حوار الحضارات»، وربمّا كتب بذلك إلى رئيس الوزراء البريطاني. لكن أمير قطر وجّه ضربة سريعة للأميركيين.. فقد قال أيضاً: «يجب ألّا يدخل العالم في «صراع» الطوائف، والمعسكرات والانقسامات المرتكزة على مبدأ: إذا لم تكن معي فأنت ضدّي».

ألم تكن إسرائيل هي المشكلة الحقيقية؟ حاول المندوبون أن يطرحوا هذا السؤال.. وكان صديقنا القديم ياسر عرفات هو الشخص الرئيسي وراء سؤال كهذا.. وهو بالطبع شجب الهجمات على الولايات المتحدة وأعرب عن التضامن مع الشعب الأميركي ـ لعلّه التضامن الاشتراكي القديم الذي تمّ استخدامه بأسلوب جديد... وطالب عرفات باستخدام المال في قضيّة عادلة. وقد فتحت قطر حساباً للأفغان ودفعت السعودية عشرة ملايين دولار والإمارات العربية المتّحدة ٣ ملايين وسلطنة عُمان مليوناً. لكن ما كان يطلبه المندوبون هو تقديم دليل واضح، بحسب الشيخ حمد، على أن واشنطن استطاعت التعرّف على مرتكبي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وقد أتاح له ذلك عدم ذكر اسم بن لادن. وبالفعل سمح ذلك للجميع بإبداء إنزعاجهم من هذا الرجل السيئ الخطير المخيف الذي كان يدعو إلى إسقاط كل واحد من هؤلاء المندوبين الإسلاميين. صرّحوا بأنهم آسفون بشأن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وطلبوا من أميركا عدم قصف أفغانستان أكثر من المطلوب وعدم قتل الأبرياء وبالطبع عدم قصف العرب.

بالنسبة إلى الصحافة كانت تلك حرباً مخيّبة للآمال... من حيث التغطية... تجمّعنا بالمئات حول سفارة طالبان في إسلام أباد وقنصليّتها في بشاور. تمّ تدوين الأسماء على طلبات التأشيرة، وتمّ التحقّق منها من قِبل رجل مُلتحٍ

ولم يراودني الشكّ في أنها أُلقيت في سلّة المهملات. في كويتا، وصلت إلى القنصلية ومعي رسالة توصية من مؤيّد بارز لطالبان يطلب فيها إعطائي تأشيرة، صرخ بي أحدهم: أخرج، وعندما أصبحت في الخارج رأيت الرسالة تتحوّل إلى كرة وتُقذف على الأرض أمامي خارج القنصلية... وقد نجح الصحافي حميد مير في الدخول إلى أفغانستان ومقابلة بن لادن وعاد ليبلغني أن بن لادن سأل عني شخصياً ولماذا لست في أفغانستان لمقابلته..... وبعد بضعة أشهر علمت أن الطالبان يبحثون عني لإبلاغي أن باستطاعتي السفر إلى أفغانستان والتحدّث إلى بن لادن، لكنني لم أتسلّم الرسالة أبداً ولم يحصل شيء. لم أكن على معرفة بمحاولاتهم هذه، ولذا فقد حاولت جاهداً الحصول على التأشيرة متذمّراً من رجال طالبان. جلست في فيلّا في بشاور متابعاً اتصالاتي مع إسلام أباد من أجل هذا المستند المهمّ، والذي لا أمل لي في الحصول عليه. وكنت أجلس لشرب الشاي في الحديقة... ربّما يجري في الإمبراطورية البريطانية القديمة فقط إعداد الشاي كما يُعدّ هنا، أي مع الحليب والكثير من السكّر وفي أكواب من زجاج. عند نهاية الطريق إلى الفيلّا تقع المقبرة البريطانية التي قمت بزيارتها منذ ٢٢ عاماً وحيث توجد الأضرحة التي تحكي قصّة اغتيال رجال الراج الصالحين الذين كانوا قد جاءوا من سوراى أند يوركشير Surrey &Yorkshire والذين قتلهم من كانوا يسّمون «الغازي»، وهم الأصوليون الأفغان الذين اصطحبوا معهم إلى المعركة رجال دين اسمهم «طالبان»، وأنا هنا أنقل كلام الكابتنماينو ايرنغ الذي شارك في الحرب الأفغانية الثانية..، في تلك الأيام كنّا ننثر الوعود... قدّمنا وعوداً للحكومات الأفغانية بالدعم في حال استطاعوا إبقاء الروس خارجاً، ووعدنا إمبراطوريتنا الهندية بالرخاء والتعليم والاتصالات مقابل ولائها.. القليل القليل تغيّر منذ ذلك الوقت!!.

قامت القاذفات المقاتلة بالتحليق في هذا الليل الرطب فوق الحديقة خارقة جدار الصوت بشكل مُتتالٍ مثل الصقور فوق مدرج بشاور، ثم توجّهت غرباً باتجاه أفغانستان.. وقد سجّلت الشاشة الكبيرة السوداء لجهاز التلفزيون في غرفتي أن التاريخ الإمبريالي يكرّر نفسه: كان الجنرال كولن باول يقف إلى يمين الجنرال برويز مُشرّف واعداً بالنظر جدّياً في مشكلة كشمير وتمثيل الباشتون في حكومة أفغانية في المستقبل. وقد أمضى وزير الخارجية الأميركي والجنرال مشرّف معظم الوقت يوم ١٥ تشرين الأول/أكتوبر بالحديث عن القصف المدفعي الليلي من قبل جيش الإمبراطورية القديمة الأخرى، أي الجيش الهندي... كان مُشرّف يطالب بحملة قصيرة ضدّ أفغانستان مقابل دعم الولايات المتّحدة في حربها على الإرهاب.. أراد مُشرّف تسوية لقضية كشمير ووعده باول بأنه سيتوجّه إلى الهند للضغط عليها لأن مُشرّف صديق للولايات المتحدة. وقبل ثلاثة أيام من إظهار باول اهتمامه المفاجئ بمشاكل كشمير تمّت دعوة عرفات، الذي كان الجنرال السابق أرييل شارون وصفه بين لادن، إلى داوننغ ستريت حيث أعلن طوني بلير دعمه الحذر لاستقلال فلسطين والحاجة إلى دولة فلسطينية قابلة للحياة تضمّ القدس. لن يخشى بلير من الغضب الأميركي ما دام أن الرئيس بوش الابن اكتشف قبل ١١ أيلول/سبتمبر أن لديه رؤية لدولة فلسطينية تقبل بوجود إسرائيل.. ساند عرفات، الذي تحدّث للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية منذ سنوات، القصف الجوّي لأفغانستان. لم يكن الأفغان حاضرين ليذكّروا العالم أن ياسر عرفات نفسه ساند بحماس الغزو السوفياتي لأفغانستان.. لماذا نقدّم وعوداً سريعة التحضير لحلفاء معرّضين للخطر عندما نجد ذلك مناسباً، وبعد

سنوات من القبول، لا بل من خلق المظالم في الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا. كان من المهمّ في ذلك الخريف الشديد الحرارة في باكستان قراءة النصّ الكامل لما طلبه بن لادن في شريط الفيديو بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي.. فقد صرّح بالعربية في فقرة حُذفت من الترجمة الإنكليزية: «أن الأمّة الإسلامية مرّت بأكثر من ثمانين عاماً من الذلّ».. وأشار إلى أن السيف وصل إلى أميركا بعد ثمانين عاماً.. ربّما كان بن لادن قاسياً، فظّاً، عديم الشفقة، لكنه كان يتمتّع بالذكاء، إذ إنه كان يشير بوضوح إلى معاهدة سيڤر Sevre عام ١٩٢٠ وسقوط الحلم الأخير للوحدة العربية بعد ٦٠٠ عام من حكم السلاطين والخلافة.. وكان أيمن الظواهري الساعد الأيمن لبن لادن يصرخ معلناً على شريط الفيديو من مغارته الأفغانية يوم ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ أن منظمة القاعدة لن تتساهل حيال تكرار مأساة الأندلس في فلسطين... الأندلس؟ نعم! شكّلت كارثة الأندلس نهاية الحكم الإسلامي في أسبانيا في القرن الخامس عشر.. يمكننا نشر وعود سريعة ومتفرّقة في أنحاء العالم لكن لدى شعب الشرق الأوسط ذاكرة أكبر وأطول....

من أيّة زاوية حاولنا مقاربة ذلك الشعور العربي بالإذلال ـ سواء اعتبرناه نوعاً من الشفقة على الذات، أم ردّاً مبرّراً كلّياً على الظلم ـ فإنه يبقى مع ذلك حقيقياً.. كان العرب من بين أوائل العلماء في بداية الألفيّة الثانية حين كان الصليبيون غُزاة العالم الإسلامي يعيشون في جهل مطبق... وبينما كان مفهومنا الشعبي السائد عن العرب يعني في العقود القليلة الماضية الغنيّ النفطي المتخلّف والمرتشي الذي ينتظر هدايانا، كان العديد منهم يطرحون أسئلة حول ماضيهم ومستقبلهم على الصعيد الديني والعلمي وحول كيف يكون الله والتكنولوجيا جزءاً من الكون نفسه. لم نطرح نحن مثل هذه الأسئلة منذ أمد بعيد.. نحن نقوم فقط بدعم الطغاة المسلمين في أنحاء العالم ـ وبخاصة في الشرق الأوسط ـ مقابل صداقتهم ووعودنا الكاذبة لتصحيح الظلم.. سمحنا لطغاتنا بالقضاء على الأحزاب الاشتراكية والشيوعية، وتركنا للناس هناك حيّزاً ضيّقاً لممارسة معارضتهم السياسية خارج إطار الدين، وتابعنا في عملية «خلق الشياطين» ـ السادة: الخميني ـ أبو نضال ـ القذّافي ـ عرفات ـ صدّام ـ بن لادن ـ عوضاً عن إجراء مساءلة تاريخية... وقدّمنا وعوداً أكثر.. فقد طلب الرئيسان كارتر وريغان من المجاهدين الأفغان مقاتلة الروس ووعداهم بالمساعدة. سوف نعمل على دعم إعادة بناء الاقتصاد الأفغاني وإعادة بناء البلاد وبناء الديمقراطية، هذا ما قاله جيمي كارتر البريء، وسنورثها للباكستانيين والأوزبك والسعوديين... بالطبع رحل الروس عام ١٩٨٩ ولم نقدّم أيّة مساعدة اقتصادية. والمشكلة على ما يبدو أنه من دون وجود حسّ بالتاريخ فإننا نفشل في فهم الظلم. وعوضاً عن ذلك قمنا بالتستّر عليه، حين أردنا بعد سنوات من الركود رشوة حلفائنا المحتملين بالوعود ذات المدى التاريخي ـ تسوية قضية فلسطين وكشمير ونزع السلاح في الشرق الأوسط، واستقلال عربي ووفرة اقتصادية ـ وذلك لأننا كنا في حالة حرب.... أسمعِ المسلمين ما يرغبون سماعه، قدّمْ لهم الوعود التي يريدونها. . . أيّ شيء ما دمنا نستطيع إرسال أسراب طائراتنا إلى الجوّ في حربنا الأخيرة ضدّ الشرّ... وقامت طائراتنا بالتحليق.. وكنا نشاهد آثارها فوق القرى الأفغانية المبنية من الطين والطوب ونسمع هديرها عبر صحراء قندهار، ونشاهدها وهي تعود إلى قاعدتها في دياغوغارسيا.

اجتمعت بطبيب أطفال في بشاور قدّم لي قراءة قيّمة لذهنية الطالبان في الحرب: «عندما توقّفت إذاعة طالبان عن البث.. رأيتهم يقومون بجمع قطع هوائيّ جديد في اليوم التالي... كان الطالبان يفعلون ذلك دائماً: كلّما دُمّر شيء يستبدلونه على الفور.. كانوا يجولون في الأنحاء ويجمعون كل المعدّات المدمّرة.. كان ذلك عملاً سريعاً... وكان الطالبان يتصرّفون براحة وأناة أمام القصف.. أنا أحاول أن أصف لك ردّة فعل طالبان أمام القصف.. اكتشفت أنهم لم يكونوا أبداً مهتمّين بالهجمات... كان الأمر بالنسبة إليّ محيّراً وغريباً...». لكن الطبيب لم يكن مراقباً غير مهتمّ... «فمعظم الناس، الناس الحياديين الذين لا ينتمون إلى مجموعات سياسية، يكرهون السياسة الأميركية ولو أن طالبان يغيّرون فقط عشرين في المئة من سياستهم مع الناس لوقف الناس إلى جانبهم... نحن ننتظر نهاية سياسة طالبان العنصرية ضدّ النساء والتعليم. لن ينسى الناس عندما عملت باكستان لتدمير أفغانستان ـ إنهم ينظرون إلى باكستان على أنها عدوّ أبدي ـ وقد أوجد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وضعاً جديداً في أوساط المثقفين.... نحن نعلم أن باكستان ساهمت في تأسيس طالبان وأسامة بن لادن ونحن نسمّيهم أولاد أميركا وباكستان»... وكان يجدر به إضافة السعودية..

يوم ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر، قتل الأميركيون السيّد «سيف الله» من تورونغزاي.. وهو رجل يحمل إجازة في اللغة العربية وإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة بشاور، وشهادة BSc من المعهد الإسلامي، و B.E.d، وشهادة الكفاءة في التعليم، وطالب دكتوراه فلسفة حائز منحة دراسية من أزهر القاهرة، أقدم جامعة في العالم العربي... كان يتحدث اللغة الإنكليزية بطلاقة وكذلك الفارسية ولغته الأم البشتونيّة ويحبّ الشعر والتاريخ... وكما قالت عائلته كان يستعدّ مع بعض التردّد للزواج... كان والده «هداية الله» طبيباً، وشقيقه الأصغر طالباً في مجال المحاسبة... لم يسمع أحد خارج باكستان ـ والقليل في داخلها ـ بسيف الله سابقاً.. وفي قرى البشتون شمال غرب الحدود، لا يحمل العديد من العائلات أسماء خاصّة حتّى. ولم يكن سيف الله زعيماً سياسياً بحسب ما قاله والده البالغ خمسين عاماً، بل كان رجل خير ولم يكن مقاتلاً. وبذلك صرّح شقيقه معاذ الله. كان دائماً رجلاً مسالماً هادئاً وكتوماً، وكان يريد حماية شعبه في أفغانستان فقط، وهو الذي آمن دائماً بأنهم ضحايا للإرهاب... لكن كان هناك إجماع على طريقة موته، فقد قُتل عندما سقطت خمسة صواريخ كروز على حائط مبنى في ضاحية دار الأمان في كابول، حيث كان يعقد اجتماعا مع ثلاثين رجلاً. وعائلته تعتبره الآن شهيداً... كان هداية الله يدعو كل زائر إلى بيته المبني من الطين والإسمنت ـ بمن فيهم أنا ـ ويقدّم لهم الدجاج المشويّ وحلويات «ميثا» وأكواب الحليب والشاي ويصرّ على تقديم التهنئة له كونه والداً فخوراً لرجل مات في سبيل معتقداته. أكلت كمّية كبيرة من شواء الدجاج ممتثلاً لطلب هداية الله. كان الدجاج يصيح في الساحة الخارجية، وكان على الحائط ملصق مرسوم عليه كلاشنكوف مع كلمة جهاد فوقه. لكن عبارة «السلام» كانت هي الكلمة التي قالها معظم أفراد العائلة. ذهب سيف الله إلى كابول لإيصال المال للفقراء الأفغان وقال معاذ الله إن المبلغ كان أكثر من عشرين ألف روبية ـ حوالي ٣٥٠ دولاراً ـ جمعه من أصدقائه وطلّابه.

لم تكن رواية الأميركيين للقصّة دقيقة.. وللتستّر على أخطائهم في تحديد أهدافهم على الخريطة، وقد قتلوا في

ذلك اليوم مدنيين أبرياء، أعلن البنتاغون أن عمليات قتل دار الأمان استهدفت «مقاتلي طالبان الأجانب، وبعضهم باكستانيون... ومن بينهم سيف الله» (الذي يعني اسمه بالبشتون المعنى العربي نفسه: سيف الله)... وقد رفض معاذ الله مزاعم الأميركيين.. وعندما أبديت رأيي قائلاً أن ليس بمستغرب على شاب مسلم يحمل مبادئ سيف الله حمل السلاح للدفاع عن أفغانستان، سارع شقيقه معاذ الله إلى القول بأن أخاه ربّما كان مقاتلاً... لم يكن ليتصوّر أبداً موت شقيقه.. جاءهم الخبر بالتدريج عبر الهاتف وذلك لتحضيرهم للفاجعة... أخبرهم صديق بأن بعض الباكستانيين قُتلوا في كابول.. قال معاذ الله: «لقد ترك فراغاً كبيراً في حياتنا. لا تستطيع تصوّر الأمور بدونه، كان شخصاً يحترم الحياة وإصلاحياً، لا يوجد أيّ تبرير للحرب في أفغانستان فهؤلاء الناس فقراء، وما من برهان أو دليل، وكل إنسان له الحق في الحصول على ضروريات الحياة الأساسية. كنا جميعاً بمن فينا سيف الله متأثرين جدّاً لما شاهدناه على التلفزيون بالنسبة إلى مذبحة واشنطن ونيويورك يوم ١١ أيلول/سبتمبر. كان سيف الله أكثرنا احتجاجاً على ما شاهدناه...» ولم تذكر العائلة اسم بن لادن ولا مرّة.

كانت تورونغزاي بلدة مقاومة، ففي الحرب الأفغانية الثالثة عام ١٩١٩ قام الإنكليز بقتل حاجي تورونغزاي وهو أحد قادة الثورة، وأحرقوا سوق القرية انتقاماً من مشاركتها في المقاومة... خلال الحديث، دخل شاب مرتبك منزل سيف الله، وعرّف عن نفسه، إنه حفيد حاجي تورونغزاي... وقد حيّاني وعلى وجهه ابتسامة عريضة... لم يكن هذا مركزاً للتطرّف الديني.. ومع أن جميع أفراد العائلة يصلّون خمس مرّات يومياً فإنهم ينوون إرسال بناتهم للدراسة في الجامعة.

كان سيف الله يمضي ساعات على جهاز الكمبيوتر وكان معجباً على ما يبدو بالشاعر الباكستاني الوطني العلّامة محمّد إقبال، من سرخوت (هو السير محمد إقبال بعد حصوله على لقب الشرف البريطاني)... واستناداً إلى معاذ الله فقد كان مهتمّاً بديانات العالم. وعندما غادر سيف الله أفغانستان كانت آخر كلماته لوالده: «ثق بي».... ولعلّه كان يتذكّر واحداً من أشهر أبيات محمّد إقبال:

«هل تعرف المعنى الباطني لإرادة الله؟ أن تعيش في غضب دائم، هو أيضاً حياة..»

وقد جاء الموت الأطفال أيضاً... توفّي ابن الملّا محمّد عمر البالغ عشر سنوات في الأسبوع الثالث من تشرين الأول/أكتوبر.. حصل ذلك خلال فراره من قندهار بحسب قول اللاجئين الأفغان، وقد أخذه والده زعيم الطالبان وأمير المؤمنين في سيّارته إلى المستشفى... لكنّ الصبيّ توفّي متأثّراً بجراحه بعدما أصابت طائرة أميركية السيّارة. لا ندم بالطبع... وبالعودة إلى العام ١٩٨٦، فقد قضت الطائرات الأميركية على حياة ابنة القذافي المتبنّاة (ستّ سنوات) عندما قصفت ليبيا. لا ندم من قبلنا أيضاً... وعام ١٩٩٢ أطلق طيّار إسرائيلي صاروخاً على سيّارة السيد عبّاس الموسوي زعيم حزب الله في لبنان وقتل ابن السيّد الموسوي البالغ من العمر عشر سنوات، لا ندم مجدّداً.

وهكذا بدأت الإصابات في أفغانستان تتزايد. وجاءت روايات من قندهار مرعبة عن مدنيين دُفنوا تحت الأنقاض وأطفال مُزّقوا أشلاء بفعل القنابل الأميركية. وعندما اكتشف فريق تلفزيونيّ ثماني عشرة مقبرة في قرية حزم المدمّرة خارج جلال أباد سخر وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد من ذلك ووصفه «بالسخيف». وبالنسبة إلى اللاجئين الأفغان الذين انتقلوا بالآلاف إلى الحدود، كان من الواضح أنهم يهربون من القنابل والصواريخ وليس من طالبان. وتحدّث اللاجئون بوضوح عن الخوف والرعب نتيجة تساقط القنابل على مدنهم. كان هؤلاء الناس مرعوبين من «الحرب على الإرهاب»، إنهم ضحايا أبرياء مثل الذين قُتلوا في مركز التجارة العالمي في ١١ أيلول/ سبتمبر. وبالرغم من الاستخدام اللطيف للعبارة على البي سي سي، والسي إن إن، فإن هذه لم تكن حرباً على الإرهاب. لم نكن نخطط لمهاجمة نمور التاميل الانتحاريين أو قتلة جيش الباسك ETA أو الجيش الجمهوري الإيرلندي IRA أو ثوّار الحزب الكردستاني. في الواقع، أمضت الولايات المتحدة وقتاً طويلاً في دعم الإرهابيين في أميركا اللاتينية، وهنا تقفز الكونترا إلى الذهن، من دون حاجة إلى ذكر الطالبان الذين نقصفهم الآن في أفغانستان. كانت حرباً على أعداء أميركا بسبب ١١ أيلول/سبتمبر وكنّا نردّ على الجرائم ضدّ الإنسانية في نيويورك وواشنطن... لكننا لم نعمد إلى تشكيل محاكم لمقاضاة هؤلاء المسؤولين.

ما الذي يحصل لو أن عدد القتلى المسؤولين نحن عن موتهم في أفغانستان وصل إلى مستوى عدد ضحايا ١١ أيلول/سبتمبر؟ وحين نحصل على إحصائيات الأمم المتّحدة عن عدد الذين يموتون من الفقر والجوع خلال فرارهم من قنابلنا، فلن يمر وقت طويل حتى نبلغ رقم ثلاثة آلاف. هل يكون هذا كافياً؟ هل يهدّئ موت ١٢ ألف أفغاني روعنا مع أن هؤلاء لا علاقة لهم بطالبان أو بأسامة بن لادن؟ أو ٢٤ ألفاً؟ بالطبع سوف نلقي باللوم على طالبان في المآسي اللاحقة كما كنا نلومهم على تصدير المخدّرات من أفغانستان. كان طوني بلير في طليعة من تصدّوا للكلام عن الصلة بين طالبان وتجارة المخدّرات في أفغانستان. كل ما كان علينا فعله هنا هو تناسي تقرير برنامج الأمم المتّحدة لمكافحة المخدّرات الصادر في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، والذي تحدّث عن انخفاض إنتاج الأفيون في أفغانستان بنسبة ٩٤ في المئة نتيجة منع الملّا عمر إنتاج الأفيون في المناطق التي يسيطر عليها طالبان من البلاد. كان معظم إنتاج الأفيون في أفغانستان يأتي من حلفائنا في التحالف الشمالي. وماذا عن باكستان؟ من خلال التحالف مع أميركا في الحرب على الإرهاب، نجح الجنرال مشرّف في الحصول على موافقة دولية على انقلابه عام ١٩٩٩. وفجأة حصل على رفع للعقوبات ،وتمويل لصناعة باكستان المضعضعة، وقروض من البنك الدولي، وإعادة جدولة ٣٧٥ مليون دولار من قيمة الديون، ومساعدة إنسانية... وعلينا أن نتناسى أيضاً أن أجهزة المخابرات الباكستانية ISI وكبار ضبّاط الأمن ساهموا في تأسيس طالبان وسرّبوا الأسلحة إلى داخل أفغانستان واغتنوا من تجارة المخدّرات. منذ الغزو السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٧٩، عملت أجهزة المخابرات الباكستانية بالتعاون مع المخابرات الأميركية على تمويل الملالي الذين يتّهمونهم الآن بأنهم مهندسو «الإرهاب العالمي». وقد اكتشف معظم الباكستانيين الآن أن أجهزة المخابرات الباكستانية ـ التي عوقبت من قِبل واشنطن ـ تحوّلت إلى مافيا مسلّحة منظّمة وخطيرة... وبينما كان المال يتدفّق من نشاطات التهريب كان الباكستانيون يفتقرون إلى التعليم والأمن والخدمات الصحّية، فلا عجب إذن إن هم اتّجهوا نحو الإسلام ومدارسه الدينية للحصول على

التعليم والغذاء.. لقد أصبح الجيش الباكستاني الآن أكثر أهمّية من أيّ وقت مضى، إذ إنه يؤمّن القبضة الحديدية للحفاظ على النظام بينما حليفته القوّة العظمى تقصف أنقاض أفغانستان.

في الوقت نفسه، ارتاحت الولايات المتّحدة غير القادرة على قصف الطالبان لإخضاعهم، إلى نشاط القتلة والمغتصبين في التحالف الشمالي. وأصبح القائد الدموي للتحالف رشيد دوستم، الذي كان أوّل مَن زار واشنطن عام ١٩٩٦، صديقاً جيّداً لإدارة بوش. وفي ما يلي بعض ما جاء في المقابلة التي أجراها معه الصحفي الباكستاني أحمد رشيد:

«أوّل ما جئت إلى الحصن لمقابلة دوستم شاهدت بقع دم وقطع لحم في الباحة، وأبلغني الحرّاس أن دوستم كان قد عاقب منذ ساعة جندياً بسبب السرقة. وقد أُعدم الجندي بتقييده إلى جنزير دبّابة وسحبه في الباحة حتى الموت بينما كان دوستم وأعوانه يراقبون تنفيذ الإعدام».

أصبح مؤكّداً الآن قيام الأميركيين بإرسال القوّات البرية... أولاً حصلت الغارة الجوّية الأميركية الفاشلة على مقرّ الملّا عمر في قندهار.. لم يجدوه هناك... ثم تبعها إرسال القوّات الخاصّة الأميركية لمساندة مجرمي التحالف الشمالي العديمي الشفقة.. وإذا كان على الطالبان أن يخشوا من أحد، فمن شاه مسعود. لكنه قُتل على يد انتحاريين عرب يوم ٩ أيلول/سبتمبر. وقد جرى إعدام عبد الحقّ ـ مؤيّد لأميركا عارض طالبان ـ بينما كان يعدّ لإنقلاب محلّي في مناطق البشتون جنوب أفغانستان. إذن ماذا يخبّئ لنا أصدقاؤنا الجُدد من التحالف الشمالي في جعبتهم؟

الاستيلاء على كابول.. بالطبع. وقد وصلوا إلى العاصمة يوم ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر بعد أن وعدوا بأنهم لن يدخلوها.. وكان من المفترض بالتحالف أن يدخل إلى مزار شريف على الأكثر وربّما إلى هرات، وذلك لإبراز ضُعف طالبان وليظهر للغرب أن أهداف حربه ـ تدمير طالبان وحركة أسامة بن لادن القاعدة ـ هي على وشك الإنجاز. وقد جرى إعدام عناصر من طالبان أو ضربوا أمام عدسات كاميرات التلفزة العالمية.. أليس الجنرال باول هو الذي أكّد لمشرّف إبقاء قوّات التحالف تحت السيطرة؟ في الختام لم يكن الأمر مهمّاً للأميركيين. كان ابتهاج امرأة سافرة وسط أخواتها المحجّبات كافياً. لقد تحرّرت كابول. أصبحت الديمقراطية الغربية حاضرة وتمّ سحق الطالبان أعداء النساء.

كنّا معجبين بالتحالف الشمالي وقمنا بمساندتهم بدون سؤال... صوّرناهم على التلفزيون بمختلف الأشكال وأصبحنا داعمين لهم. لم نصدّق عندما سمعنا التقارير من أفغانستان بعد سقوط كابول بأن التحالف الشمالي مسؤول عن أكثر من ٨٠ في المئة من صادرات المخدّرات في البلاد بعدما كانت طالبان منعت زراعتها. تساءلت لماذا أقمنا هذه العلاقة الغامضة والخطيرة مع حلفائنا؟ ولعقود، وافقنا على تلك الحكمة القائلة بأن فرق "B" الخاصّة كانت سلاح أمن حيويّ لسلطات إيرلندا الشمالية ضدّ إيرا (IRA) على أساس أنهم كانوا يعرفون الأرض،

تماماً كما نعتمد اليوم على التحالف الشمالي لأنه يعرف الأرض، وكما اعتمد الإسرائيليون على مجرمي ميليشيا الكتائب في لبنان كون المسيحيين الموارنة يكرهون الفلسطينيين. وقد قام النازيّون بدعم مجرمي أستاشي الكروات عام ١٩٤١ ضدّ الصرب. كان ثمّة شجعان بين رجال التحالف الشمالي وكان زعيمهم المقتول محترماً.. لكن بقيت حقيقة أنه بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٦ صار التحالف الشمالي رمزاً للمجازر، والاغتصاب المنظّم والنهب. ولهذا السبب رحّبنا ـ بما في ذلك الإدارة الأميركية ـ بطالبان عندما استولوا على كابول. وغادر التحالف الشمالي المدينة عام ١٩٩٦ مخلّفين وراءهم خمسين ألف قتيل وها إن عناصره قد صاروا الآن مقدّمة لجيشنا. إنهم حتماً أفضل من بن لادن، لكن ماذا سيفعلون باسمنا؟ سنكتشف ذلك لاحقاً.

عندما قصفت القوّة الجوّية الأميركية مزار شريف تحرّك حلفاؤنا الأفغان إلى داخل المدينة وقاموا بإعدام ثلاثمئة مقاتل من طالبان. وعلّقت القنوات التلفزيونية على ذلك تعليقاً هامشياً قائلة بأنه أمر عادي إذ الانتقام هو من عادات الأفغان، وهكذا تمّ ارتكاب جريمة حرب بدعم استراتيجي من القوّة الجوّية الأميركية. وشهد الصحفيون ثورة سجن مزار شريف في الأسبوع الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر، حيث قام عناصر طالبان بإطلاق النار على عناصر التحالف الشمالي.. وقامت القوّات الخاصّة الأميركية (وظهر لاحقاً مشاركة القوّات البريطانية) بدعم التحالف على قمع الانتفاضة، وأبلغتنا السي إن إن بأن بعض السجناء أُعدموا بينما كانوا يحاولون الهرب... كانت جريمة فظيعة... أصبحت القوّات البريطانية ملطّخة الآن بجرائم الحرب... وبعد أيام وجد مراسل الإندبندنت جوستن هوغلر عناصر آخرين من طالبان مقتولين في قندوز.

لم يكن لدى الأميركيين تفسير للمجزرة. وأعلن وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد خلال حصار المدينة «أن الغارات الجوّية الأميركية ضدّ الطالبان يمكن أن تتوقّف إذا طلب التحالف الشمالي ذلك».

وقد تجاهل الإعلان أن قتلة التحالف الشمالي يعملون الآن بينما يقوم عناصر القوّة الجوّية الأميركية بتقديم الدعم في المعركة ضدّ القتلة الطالبان، وقد دلّت ملاحظة رامسفيلد المجرمة على أن الولايات المتّحدة تتعاون مع ميليشيا التحالف تعاوناً عسكرياً كاملاً. وقد أبدى معظم مراسلي التلفزيون القليل من الاهتمام بهذه الجرائم، ونظراً إلى إعجابهم بقوّات التحالف الشمالي، ومحاورتهم للقوّات الأميركية، لم يهتمّوا كثيراً بجرائم الحرب ضدّ السجناء ولم يضمّنوها تقاريرهم.

كانت إحدى الروايات غير المعلنة في هذا الصراع تتعلّق بحجم الأموال الهائلة التي أُعطيت لقادة الميليشيات لإقناعهم بالقتال لصالح أميركا. وعندما انتقل عناصر من طالبان إلى الطرف الآخر مقابل دفع التحالف ٢٥ ألف دولار لهم وقاموا بعدها بالهجوم على المحسنين إليهم، تحدثنا جميعاً عن الخيانة. لم يسأل أحد منّا كيف يُنفق التحالف ـ الذي لم يكن لديه المال الكافي لشراء الرصاص قبل بضعة أسابيع ـ ربع مليون دولار على طالبان في خضمّ المعركة، ولا كيف حصل زعماء قبائل البشتون في مقاطعة قندهار على سيّارات جيب جديدة وآلاف الدولارات لتوزيعها على المسلّحين. في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، كُشفت فظاعة جديدة، فقد جرى نقل حوالي

ألف ناجٍ من طالبان من قندوز بعيداً باتجاه سجن شربرغان من قِبل قوّات التحالف في حاويات مغلقة، وقد اختنق معظمهم حتى الموت أو أُعدموا لاحقاً في الصحراء . واكتشف موظفو حقوق الإنسان والمراسلون مقبرة جماعية في دشت ـ اي ـ ليلي. وقال ضابط من القوّات الخاصّة الأميركية إنهم علموا بعمليات القتل ـ وكانوا حاضرين ـ لكنهم امتنعوا عن التدخّل. ودعت منظمة الأمم المتحدة إلى إجراء تحقيق. وظلّ الأميركيون صامتين.

ماذا جرى لسلوكنا الأخلاقي منذ ١١ أيلول/ سبتمبر؟ أخشى القول إنني أعرف الجواب.

بعد الحربين الأولى والثانية وضعنا ـ نحن الغرب ـ مجموعة من القوانين لمنع جرائم حرب أخرى. وقد كانت أول محاولة بريطانية وفرنسية وروسية لوضع مثل هذه القوانين بسبب مذبحة الأرمن على أيدي الأتراك عام ١٩١٥... ونصّ التفاهم على تحميل «جميع أعضاء الحكومة العثمانية المسؤولية وكذلك عملائهم الذين شاركوا في المجزرة». وبعد تعرّض اليهود للإبادة «الهولوكوست» وانهيار ألمانيا عام ١٩٤٥ أشار البند السادس من شرعة نورمبرغ ومقدّمة ميثاق الأمم المتحدة إلى الإبادة بأنها «جرائم ضدّ الإنسانية». وأنشأت كل حرب جديدة بعد حرب ١٩٤٥ طوقاً من قوانين التشريع والإبداع ومزيداً من مجموعات حقوق إنسان تحوّلت إلى جماعات ضغط في جميع أنحاء العالم، من أجل القِيَم الليبرالية والإنسانية الغربية. وخلال الخمسين سنة الماضية حافظنا على قِيَمنا الأخلاقية وقمنا بتعليم الصينيين والعرب والسوفيات والأفارقة حقوق الإنسان. تكلّمنا عن جرائم حقوق الإنسان عند أهل البوسنة والكروات والصرب. وضعنا العديد منهم في قفص الاتهام كما فعلنا مع النازيين في نورمبرغ. وأعددنا آلاف الملّفات التي تصف ـ بشكل مقزّز ـ المحاكم السرّية وفِرق الموت والتعذيب والإعدام بدون محاكمة التي قامت بها دول غير شرعية وطغاة. وهذا صحيح أيضاً. وقد تخلّينا عن كل شيء فجأة بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، في حين ظللنا ندّعي أننا ندافع عن ذلك.. قصفنا قرى أفغانستان وحوّلناها إلى رُكام مع سكّانها ـ موجّهين اللوم إلى المجانين الطالبان وأسامة بن لادن على هذه المذبحة ـ ثم سمحنا لحلفائنا من الميليشيات العديمي الرحمة بإعدام السجناء.

وقّع الرئيس بوش قانوناً بإنشاء مجموعة من المحاكم العسكرية السرّية لتحاكم وتُعدم أي شخص يُعتقد أنه «قاتل إرهابي» في نظر المخابرات الأميركية غير الكفوءة. تم إنشاء هذه المحاكم بحيث أن المتهمين، سواء اعتقلوا أم لا، لن يكون لديهم دفاع علني بل محاكمة صورية وفرقة إعدام. وما حصل كان واضحاً بشكل كافٍ. عندما يقوم أشخاص من العِرق الأصفر أو الأسود أو الداكن، من الشيوعيين أو الإسلاميين أو القوميين، بقتل المساجين أو بتدمير القرى للقضاء على أعدائهم، أو إنشاء فِرق إعدام، يجب أن يدانوا من قِبل الولايات المتّحدة والاتحاد الأوروربي والأمم المتّحدة و«العالم المتحضّر».. كنّا أسياد حقوق الإنسان وأعظم الليبراليين وأفصح وأحسن مَن يقوم بوعظ الجموع الفقيرة. ولكنّ شعبنا تعرّض للقتل ـ عندما دُمّرت أبراجنا ـ ثم قمنا بتمزيق كل قانون حول حقوق الإنسان، وأرسلنا قاذفات B52 باتجاه الجموع الفقيرة وبدأنا بقتل عدوّنا.

لقد كان ونستون تشرشل مؤيّداً لوجهة نظر بوش.. ففي عام ١٩٤٥ فضّل تطبيق الإعدام الفوري للقيادة النازية..

وبالرغم من حقيقة أن وحوش هتلر كانوا مسؤولين عن مقتل خمسين مليون شخص على الأقلّ ـ أي ١٧٠٠٠ مرّة أكثر من ضحايا ١١ أيلول/سبتمبر ـ فقد تمتّع القتلة النازيّون بمحاكمة في نورنبرغ، لأن رئيس المحكمة روبرت جاكسون اتّخذ قراراً هامّاً: «إن إعدامات أو عقوبات عشوائية دون أدلّة إدانة واضحة لن تكون سهلة على الضمير الأميركي ولن يتذكّرها أولادنا بفخر»... لم يكن أحد ليعجب من أن جورج بوش، حاكم تكساس التنفيذي لفترة قصيرة، قد فشل في فهم أخلاقيات رجل الدولة في البيت الأبيض. بيد أن ما شكّل صدمة هو أن بلير وشرويدر وشيراك وكل رجال الإعلام ظلّوا صامتين أمام إعدامات أفغانستان... وأن تجري مباركة قوانين شبيهة بقوانين أوروبا الشرقية وذلك من خلال ١١ أيلول/سبتمبر. والحال أنه تمّ السماح لبن لادن بالفرار... فقد انسحب مع مئات المقاتلين العرب إلى جبال طورابورا خارج جلال أباد، وبسبب القصف الأميركي العنيف اضطرّ إلى الرحيل. وكان قد قرّر ـ كما أعلمني رفاقه لاحقاً ـ الفرار إلى المناطق القبلية الباكستانية... حيث أجبره أتباعه على الانكفاء داخل سلسلة الجبال بعدما كبّد رجالُ بن لادن الأفغانَ المأجورين خسائر فادحة... غير أن أميركا لم تكن أبداً ذلك «النمر من ورق» كما قال لي في جبل مجاور قبل أربع سنوات. لم تكن الهزيمة الروسية تعني بالضرورة هزيمة للأميركيين. في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر كان الطالبان يسيطرون على منطقة صغيرة حول مدينة قندهار، وكانت قد سقطت كابول، وهرات، وجلال أباد، وكل المدن الكبرى الأخرى في أفغانستان... وفي لحظة انهيارهم قرروا إعطائي تأشيرة دخول. لقد أمرت الحكومة الباكستانية بإغلاق سفارة طالبان في إسلام أباد لكن بعد اتصالات سُمح لعدّة دبلوماسيين طالبان ملتحين بإعادة فتح المبنى لعشر دقائق كافية لطبع تأشيرة بتاريخ قديم على جواز سفري... كانت تلك آخر تأشيرة يصدرها طالبان أفغانستان... وقد كتب أحدهم على زاوية الصفحة ٣٤ من جواز سفري «التأشيرة صالحة فقط إلى قندهار».. لم يكن عندي مشكلة في ذلك.. فقندهار هي المكان الوحيد الذي أرغب في الذهاب إليه. هل أستطيع مشاهدة سقوطها؟ أما زال بن لادن في أفغانستان؟ هل من الممكن إجراء مقابلة أخيرة معه؟ عند نقطة شامان الحدودية، قدّم لي ضابط الهجرة الباكستاني كوباً من الشاي. وسألني بابتسامة حزينة: «ربّما كانت هذه التأشيرة هي الأخيرة»... على بعد أمتار قليلة من الحاجز على طول خط دوراند، طبع شاب من طالبان، كانت عمامته تلمع كريش الطيور، كلمة «دخول» على تأشيرتي... وبشجاعة أقلّ طبع «خروج».. باعتبار أنه سيكون لديّ أقلّ من يوم إقامة في أفغانستان... لكنني أبلغته بكل السلطة التي يملكها إمبراطور روماني، أن الطالبان تحديداً هم الذين رتّبوا سفرتي هذه إلى قندهار... نظر الشاب إليّ بشفقة. وجرى حوار غامض بشأني بينه وبين رجلين في الخيمة الموحلة التي كانت مكتب هجرة الطالبان في سبين بولداك... بعيداً عن صحراء قندهار، كنت أسمع سقوط القذائف وهدير قنابل الـ ب٥٢.... B52 ثم تقدّم منّي رجل مسنّ، جاحظ العينين، وقال لي: «سوف نعطيك بعض الرجال الذين سيوصلونك إلى طريق قندهار، ثم يقرّرون ماذا يفعلون عندما تصل إلى تختابول»... كانت تلك ورطة جيمس كاميرون القديمة التي كنت اختبرتها في الحرب الإيرانية ـ العراقية.. أراد مراسل الحرب المقدام التوجّه نحو أرض الصراع ليشهد آخر نزاع ديني في أفغانستان... وأراد الرجل الإنكليزي العاقل الممتلئ صحّة (٥٥ سنة)، وقد ازداد شعره بياضاً، العودة إلى بيروت للعيش في عصر قديم، وتأليف كتب وشرب الكاكاو قرب النار...

صعدت وجلست في المقعد الأمامي لشاحنة يابانية وانطلقنا على الطريق باتجاه قندهار... كان السائق رجلاً ضخماً من البشتون، وجهه ممتلئ تحت العمامة، وكان يتحدّث عن عائلته... اعتقدت أنها علامة جيّدة فرجال العائلات لا يرغبون في الموت، وكنت محقّاً. قال لي: «لن تستطيع الوصول، فقد استولى التحالف الشمالي على تختابول والأميركيون يقصفون وسط المدينة».. أجبته: «مستحيل، فتختابول تبعد ٤٠ كلم فقط عن الحدود الأفغانية»... وارتمى رجل مسنّ يبلغ السبعين عاماً على مقدّمة الشاحنة وصرخ: «دمّر الأميركيون منازلنا، ورأيت بيتي يختفي، كانت هناك طائرة ضخمة، تنفث الدخان وتمطر الأرض بالنار».... بالنسبة إلى رجل لا يعرف القراءة، ولم يغادر مقاطعة قندهار طيلة حياته، كان هذا وصفاً مُرعباً بما يكفي للشبح، الطائرة الأميركية C130، النحلة الكبيرة الطنّانة، التي تحصد رجال الميليشيا والمدنيين بالوحشية نفسها. وقد تدفّق مئات اللاجئين على طول الطريق التي تغطّيها الأشجار ـ عجائز بوجوه قاتمة، وشابّات يرتدين الجلابيب الزرقاء والبراقع ويحملن أطفالاً، وصبية صغار يبكون ـ والجميع يروي القصة نفسها... خرجت من الشاحنة لأشاهد طابور المأساة هذا... انهار الملّا عبد الرحمن إلى جانبي ومسح العرق المتصبّب على وجهه، وقال لي إن أخاه مقاتل في المدينة نفسها وقد هرب. وهزّ رأسه مضيفاً: «كانت هناك طائرة تطلق صواريخ، وأوشك أخي أن يُقتل، وقد أصابت العديد من الناس».

فجأة بدا لي أنه ليس أمراً رومنسياً أبداً أن تكون آخر مراسل في الجانب الذي يسيطر عليه الطالبان، الجانب الخاسر من حمّام الدم الأميركي ـ الأفغاني... في كل مكان سمعت الرواية نفسها. صرخ بي مسلّح آخر من طالبان: «لن نستطيع الوصول إلى قندهار، لقد قطعوا الطريق»... حلّقت طائرة ف١٨ فوقنا بينما تقدّم مني رجل متوسّط العمر ورمقني بنظرات غاضبة وصرخ: «هذا ما تريدون أليس كذلك؟ الشيخ أسامة ذريعة لتفعلوا ما تفعلونه الآن ضدّ الشعب المسلم»... عندها طلبت من مقاتل آخر من طالبان اسمه جمالدان، في الخامسة والثلاثين من العمر، وأب لخمسة أولاد، احترام وعد حكومته في إيصالي إلى قندهار، نظر إليّ بتوتر وسأل: «كيف أستطيع إيصالك إلى هناك؟ ونحن لا نكاد نحمي أنفسنا»...

كانت التداعيات مُذهلة... فقد قُطعت الطريق من مدينة زابل الحدودية الإيرانية إلى قندهار من قبل مسلّحين أفغان وقوّات خاصّة أميركية. وكان الأميركيون يقصفون السيّارات المدنية ـ والطالبان ـ على الطريق إلى بولداك، والتحالف الشمالي يطلق نيرانه على الطريق السريع. وكانت تختابول تحت نيران السفن الحربية الأميركية. وقام التحالف الشمالي باستغلال ذلك. وكانت قندهار محاصرة. ولا عجب أنني التقيت القائد المحلّي لطالبان، المفكّر الملّا حقّاني، الذي كان متوجّهاً بسرعة إلى الحدود الباكستانية نحو كويتا «لأسباب طبّية».

خرجت سيّدة من عاصفة رملية ترتدي جلباباً رمادياً وقالت: «فقدت ابنتي منذ يومين. قصف الأميركيون منزلي في قندهار ووقع السقف عليها»... ورغم الفوضى والصراخ، قمت بتدوين ما روته لي: اسم الابنة «مزلفة»، وعمرها؟ سنتان.. تأثّرتُ.... قالت إن لها ابنة أخرى، ولدى سؤالها عن مصيرها قالت: «كان اسمها فريحة وعمرها ثلاث سنوات» وأضافت: «لم يبق الكثير من ابني عندما سقط السقف عليه، وتمزّق أشلاء، وكل ما استطعت رؤيته

هو عظامه. كان اسمه شريف وعمره سنة ونصف».... جاءوا من عاصفة رملية.. هؤلاء الناس... ولكلّ منهم قصّته الدامية. أخبرتني شكرية غول قصّتها بهدوء... وقد بدت صغيرة وراء برقعها: «كان زوجي مسجد عاملاً ولدينا طفلان رحيمة وطالب. منذ خمسة أيام قصف الأميركيون مخزن ذخيرة في قندهار، ودخلت القذائف إلى بيتنا وقتلت زوجي وكان عمره ٢٥ سنة». نزلت قوّات المارينز الأميركية في نادي قندهار الرياضي، وهو المطار الذي وصل إليه في يوم من الأيام أمراء من السعودية للقيام برحلة صيد مع طالبان. دنت النهاية.. على الحدود كنت تستطيع رؤية النهاية بوضوح... لا يروون شيئاً جيّداً عن شامان... كانت الأتربة والوحول تتحرّك عبر السهل الأفغاني في رياح مدوّمة، مشكّلة دوّامة رمادية من سقط المتاع، فيما الرمل والصخر الرملي كالبرغل الجريش يترسّب في آذاننا وبين أسناننا وفي أنوفنا وأفواهنا... ومن مسافات بعيدة في الأراضي الأفغانية الشاسعة، تحت هدير قاذفات القنابل، كانت تأتينا التغيّرات في ضغط الجوّ لتعيد تذكيرنا بأن الحرب من أجل الحضارة كانت تجري هناك على بعد بضعة أميال... كان نهر الرجال والنساء والأطفال الأفغان يتدفّق عبر حدود شامان مثل فيلم ماجن. كان عليهم التصريح عن أسباب دخولهم باكستان إلى جندي يجلس في أعلى موقع إسمنتي.... وكان عليهم من ثمّ إبراز أوراقهم الثبوتية عند البوّابة الحدودية... وبعدها كان عليهم مواجهة الصحافة.

تحرّكت كاميرات التلفزة مثل الخنافس عبر جموع اللاجئين واختارت رجلاً تجرّأ على البوح أنه رأى شخصاً مشنوقاً في الساحة العامّة في قندهار.. وخلال ثوانٍ صار هذا الرجل مركز اهتمام عدسات المصوّرين ومفكّرات المراسلين. كان الرجل يضع رداء بنّياً على كتفيه ويعتمر قبّعة البشتون. وظهر رجال آخرون وسط الأطفال عند البوّابة، وصرّحوا بأنهم رأوا جثّتيْن مشنوقتين تترنّحان في الهواء في قندهار. وكان موظف باكستاني يتعامل بشكل سيّئ مع الأطفال ويضربهم بعصا يحملها بيده. وثمّة رجل حاصره عدد من مراسلي التلفزة من قنوات «فرانس ٢» واليابان وكتالونيا... طبعاً هو لا يجيد أيّاً من لغات هؤلاء... وتبيّن لاحقاً أن الصحفي الكتالوني كان من الباسك... وقام مترجم باكستاني بإمطار الرجل بأسئلتهم حول الجثّة في قندهار... «إنها لشاب صغير السنّ عُذّب وقُتل قبل شنقه، وكان صديقاً للملّا خاك زار». أصبحت القصّة واضحة. كان الملّا خاك قد زار وزير داخلية طالبان في كابول قبل انتقاله إلى المعسكر الآخر. وقد وجد مع صديقه (الشابّ المشنوق) جهاز **GPS** وهذا كافٍ لإدانته كجاسوس أميركي. كان مصيره مهمّاً بالنسبة إلينا، فهو دليل إضافي على قسوة طالبان، أعدائنا في حرب الحضارة، وعلى شدّتهم وبأسهم. ونجح سائق شاحنة، كان قد خسر اثنين من أفراد عائلته في القصف الأميركي، في اجتذاب الكاميرات إليه.. في حين لم يهتمّ أيّ مصوّر برجل أفغاني عجوز كان يستريح على الكرسيّ الحديديّ المحطّم لموظّف الهجرة، ولاحظت أنه ينتعل زوجاً من الأحذية غريباً عجيباً.. وسرعان ما بطل عجبي حين عرفت السبب... كانت رجل خشبية تبرز من تحت سرواله إلى الجهة اليمنى.. وكانت معلّقة بشكل ما بحذائه ولكنها تفلت منه حين يحرّكها... في حين أن الرجل اليسرى كانت تلامس الأرض وقد اتصل طرفها بقطعة بلاستيكية لونها زهري.. وكأنما أجريت لها جراحة ترقيعية.

حاولت إجراء حوار مع هذا الرجل المتصبّب عرقاً، المقطوع الرجلين، لكنه لم يردّ على أسئلتي. كانت

أسنانه تصرّ من شدّة الألم ولكن كان بإمكانه الكلام لو أراد ذلك.. كيف خسر قدميه؟ تحرّكت عيناه إلى البعيد باتجاه شامان بشوارعها القذرة المكتظّة الخارجة من إحدى روايات ديكنز... ووقف وهو يتصبّب عرقاً ثم بدأ يعرج خارجاً نحو الطريق وسط الأسلاك الشائكة.. لم يهتمّ المصوّرون به.. إنهم يعرفون أنه كان ـ مع الملايين من أمثاله ـ ضحية لحرب أخرى سلاحها الألغام ـ التي زرعها الروس الذين هم حلفاؤنا الجدد في الحرب من أجل الحضارة. كان هو يعرف ذلك أيضاً، ولن يتحدّث معي، وقد أدركت بعد لحظات أنه مُحق بعدم الكلام. ما زالت الجموع تحتشد في الجهة الأخرى من الأسلاك... وقفنا هناك لالتقاط الصور، ثلاثة في كلّ مرّة.. وركّزنا كاميراتنا بشكل خاصّ على التراكتورات المحمّلة بالأطفال والنساء والمسنّين الأفغان. كانوا قد جاءوا بهذا الشكل إبّان الغزو السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٧٩، وقد أصبحوا عبر السنين مألوفين لنا ـ كشأن عاديّ كما قال زملائي في القناة الثانية الفرنسية ـ كما في فيتنام ١٩٧٢، وفلسطين ١٩٤٨، وبولّندا وألمانيا عام ١٩٤٥، وفرنسا عام ١٩٤٠... أصبح الفقراء والمحرومون والمرعوبون مادّة مهمّة لخلفيّات تقاريرنا، وملصقات جداريّة لمأساتنا....

وصل زوجان مسنّان كلٌّ منهما على عربة بدولاب واحد، يجرّهما شابّان يضحكان ويصرخان بالصحفيين ويشيران إلى حمولتهما. هل كان الزوجان قادرين على السير؟ لكنّا تجاهلناهما لو كانا كذلك. لكن مشهد رجل وامرأة مسنّين على عربتين يُعتبر صورة جيّدة من الصعب تجاهلها.... أما ذاك الرجل الأبيض الشعر الذي نظر إليّ بعينه اليسرى حتى اضطرّني إلى النظر إلى عينه الأخرى المشوّهة إلى حدّ من الصعب وصفه، فإنه لم يكن مشهداً يستحقّ التصوير... لا صور لهذا السيكلوب (عملاق ذي عين واحدة في وسط الجبين) الملفوف بالخرق البالية. . .

على الطريق، في تختابول، كانوا يتحدّثون عن مجزرة أخرى ـ راح ضحيّتها مئة وستّون سجيناً من طالبان من زعماء القبائل ـ وجاءت روايات من جميع أنحاء الريف عن قُرى دمّرتها القنابل الأميركية؛ قرية بكاملها دمّرتها طائرة B52 في كيلي سرناد؛ وسقط خمسون قتيلاً قرب طورابورا؛ وقُتِل ثمانية مدنيين في السيّارات نتيجة قصف سلاح الجوّ الأميركي على طريق قندهار، وستة وأربعون آخرون في لاشكارغاه، واثنا عشر في بيبي محرو. لا يفترض بنا معرفة أيّة تفاصيل حول هؤلاء القتلى... «تحقيق؟»!! هكذا صرخ وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد في مؤتمر صحفي مطلع تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ مدّعياً أن لا علم له بطلب منظّمة العفو الدولية التحقيق في مجزرة سجن مزار شريف.... «أستطيع أن أذكر لكم عشرات الأشياء التي يمكنكم التحقيق بشأنها في أفغانستان»... هل نستطيع ذلك حقّاً؟؟ هناك أوّلاً الرجل المشنوق في قندهار والذي تبيّن لاحقاً أنه شاعر محلّي.. ثم الرجل الذي فقد قدميه.. والشحّاذ ابن الخمس سنوات.. والزوجان العجوزان في العربتين.. والسيكلوب العجيب وعينه المتقيّحة. . والقتلى في تختابول وفي كيلي سرناد ولشكارغاه وبيبي محرو، وكل تلك الجموع البشرية المشرّدة المتصبّبة عرقاً وخوفاً ورعباً عند معبر شامان... ناهيك بالمجزرة في مزار شريف، والحرب من أجل الحضارة!!!...

دُعيت لمقابلة مسؤول كبير من طالبان، فرّ لتوّه إلى منزل عائلته عبر حدود باكستان في قرية بيشين التي تشهد عاصفة. كان يجلس على الأرض وظهره إلى الحائط في غرفة واسعة، باردة، سقفها خشبي، وكان يلتحف برداء

رمادي فوق عمامته السوداء، وعيناه الواسعتان تراقبانني بتعب. «مستشار كبار طالبان في قندهار»، هكذا أراد تسميته. وطلب مني مخاطبته بالملّا عبدالله ـ وهو اسمه الحقيقي ـ رغم أن هذا المتخرّج (٣٢ سنة) في مدرسة الشيخ هاسنجان في كوهات كان يحمل هويّة مختلفة ويحتلّ مركزاً أهمّ في أوساط الطبقة الحاكمة من طالبان. وكان في منزل العائلة الكبير ذي الجدران الطينية القائم خلف جبال تعصف فيها الريح ممّا سبّب مرض الملّا بالإنفلونزا: «الهزيمة صعبة وكذلك الكلام»، اعترف الملّا: «يعتقد الناس أننا هُزمنا وخسرنا العديد من رجالنا، لكنّ رجالنا فقدوا حياتهم بالشهادة وهكذا انتصروا، لذلك لا نعتقد أننا هُزمنا.... عندما يرجع الأميركيون إلى ديارهم سوف نستعيد الأرض. لم يحضر الأميركيون إلى هنا من أجل أسامة بن لادن، وهذا ليس مبرّرهم الرئيسي. إنهم هنا لأنهم لا يريدون أن تُحكم البلاد بالشريعة الإسلامية. يريدون حكومة تفعل ما يريدون». هذا هو الصوت الحقيقي لطالبان قندهار. ويظهر أن الملّا كان فعلاً قد وصل لتوّه من قندهار مقرّ خلافة طالبان الصغيرة المحاصرة، وقد سار ستّ ساعات في الصحراء لتجنّب الغارات الجوّية الأميركية حول تختابول، وهو الآن يرتاح هنا قبل العودة إلى قندهار.. رجل في حالة من نكران الذات، أو رجل قرّر منذ الآن الذهاب إلى الجبال. كان يبدو وكأنه غير مهتمّ باستراتيجية الحرب.. وهو الذي شغل منصباً في وزارة دفاع طالبان في كابول ـ يقول إن العرب كانوا يعملون على صيانة شاحناته ـ لكن كان كلّ سؤال عسكري يستحضر ردّاً دينياً. «حتى الآن لم ينجح الأميركيون في إيجاد الشيخ أسامة بن لادن، أو تنظيم القاعدة. لم يُنجزوا مهمّتهم. بالنسبة إلينا، أسامة مسلم، والمسلم من بلد آخر شقيق لنا. أما في ما يتعلّق بنا فسوف نقاتل في الجبال حرب عصابات إذا خسرنا قندهار، وإذا استُشهدنا فهذا هو النصر». تعبت من كل هذا ولكنني بدأت أفهم. النصر يأتي مع الفوز ويأتي أيضاً من الهزيمة.. بعد سنتين حصلنا على نسخة جورج بوش عن هذه العقيدة السخيفة، وذلك عندما حاول أن يشرح سبب انحدار العراق نحو الفوضى: كلّما كانت الأمور تسير نحو الأفضل، أصبح العنف أسوأ ـ لأن الحياة تتطوّر. وكان الكولونيل ألكسندر برنز قد أعلن بتفاخر عام ١٨٤١: «إن الأفغان ليسوا بعاجزين على صعيد القدرات الخيالية، ويمكن الاستشهاد بهم كدليل على أن الاختراع يسبق الحكم»... حتى الآن يبدو التاريخ والسياسة والهزيمة بالنسبة إلى الملّا عبدالله قطعة واحدة من نصّ ديني. «هناك حديث مرويّ عن الرسول الكريم يقول إن من واجب المسلم القيام بالجهاد.. لم يكن من الضروري أن نحكم أفغانستان بكاملها وقد بدأت طالبان وجودها في قرية صغيرة... لقد بدأ بضعة طلبة كل ذلك. في البداية وجدنا أن العدد كان كافياً، ولم نأبه أبداً أننا نجحنا في الحصول على ٩٥٪ من أرض أفغانستان. لذلك لا نأبه للأرض التي خسرناها. لا تريد طالبان الأرض بحدّ ذاتها ـ فهدفنا الرئيسي نشر الإسلام بين الناس، وإذا استعاد رجالنا الأرض الضائعة فهذا فوز، وإذا قُتلنا ونحن نحاول القيام بذلك نحصل على الشهادة وهذا هو الفوز العظيم بالنسبة إلينا أيضاً».

نادراً ما تسلّل الشكّ إلى حديث الملّا عبدالله «وحده الزمن سيقول إن كنا سنحافظ على قندهار أم لا. نحن نفعل ما بوسعنا». من الممكن أن يكون هذا تعليقاً من صحيفة طالبان، لو لم يمنعوا الصحف.. «إذا طُردنا من قندهار، نذهب إلى الجبال ونبدأ من جديد حرب عصابات كما فعلنا مع الروس». حاولت النقاش والقول بأن الأميركيين ليسوا الروس، وأن الأمر ليس أداء بسيطاً يتكرّر، وأن الطالبان كانوا في معظم الوقت يقاتلون أفغاناً

آخرين، ولم يقاتلهم الأميركيون إلا بسلاح الجوّ. لا فائدة.. سوف نذهب إلى الجبال، سوف نهاجم الأميركيين، ونستمرّ في القتال. وقد استمرّوا بالفعل..

كان الأميركيون يدخلون قندهار، وكنت أحاول القيام بمحاولة أخيرة للوصول إلى المدينة.. إنه يوم ٨ كانون الأول/ديسمبر... لو أستطيع فقط الوصول إلى شامان.. كانت لديّ فرصة للالتحاق بفريق السي إن إن حتى مقرّ خلافة الملّا عمر، وكل ما عليّ عمله هو البقاء مع جاستين هغلر ـ الذي غطّى مجزرة مزار شريف ـ وبعدها أسافر في سيّارة جيب مع السائق البشتوني أمان الله، والمترجم فايز أحمد، من كويتا إلى شامان. ربّما كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف عندما وصلنا إلى كيلا عبدالله، في منتصف الطريق إلى هدفنا، عندما تعطّلت سيّارة الجيب في وسط شارع ضيّق ومكتظّ... تصاعد دخان أبيض من غطاء محرّك السيّارة.. وللحال تشكّل خطّ من السيّارات والشاحنات والباصات والعربات والزمامير تحتجّ على قطعنا الطريق. خرجنا نحن الأربعة من السيّارة ودفعناها إلى جانب الطريق، وتمتمت بشيء لجاستين فهم منه أن هذا كان مكاناً سيّئاً للتعطل. كانت كيلا عبدالله ملجأ لآلاف اللاجئين الأفغان الفقراء وللجموع التي خلّفتها حرب باكستان. وعلمنا لاحقاً أن العديد من هؤلاء الأفغان شعروا بالإهانة مما شاهدوه على التلفزيون من عمليات قتل في مزار شريف للسجناء وأيديهم مقيّدة خلف ظهورهم، وقد أبلغ أحد القرويين أمان الله لاحقاً أنهم شاهدوا شريط فيديو لضابطين من المخابرات الأميركية وهما يهدّدان سجيناً بالموت في مزار شريف.... كان بعض الأفغان يعيشون في القرية الصغيرة منذ سنوات. وبعضهم وصلوا يائسين حزانى على أحبّائهم الذين قُتلوا حديثاً خلال الأسبوعين الماضيين. بالتأكيد كان هذا مكاناً سيّئاً للتعطّل وفي وقت سيّئ أيضاً، قبل الإفطار بفترة وجيزة، في نهاية يوم من شهر رمضان... كان هؤلاء الناس أمّيين، وأشكّ في أن بعضهم يعرف القراءة ـ لكن ليس من الضروري أن تكون متعلّماً لكي تنفعل على مقتل الأقارب نتيجة قنابل ب٥٢ B52.

ذهب أمان الله لإيجاد سيّارة أخرى ـ ليس هناك أسوأ من جمهور غاضب من الرجال سوى جمهور غاضب بعد الظلام ـ ابتسمنا جاستن وأنا للجمع الذي بدا ودّياً وهو يتشكّل حول سيّارتنا المعطّلة.... سلّمت على العديد منهم بالأيدي، وألقيت عليهم التحية «السلام عليكم» عدّة مرّات. وعرفت ما يمكن أن يحدث في حال توقّف الابتسام. بدأ التجمهر يكبر واقترحت على جاستن أن نبتعد عن سيّارة الجيب وأن نسير على الطريق. لكزني لكزاً قويّاً بإصبعه.. وأقنعت نفسي بأنها حركة عرضية، احتجاج من طفل.. ثم مرّ حجر صغير مرّ بقرب رأسي ليضرب كتف جاستن الذي استدار إلى الخلف.. نطقت عيناه بالهمّ في حين تنفّست أنا بعمق وكأنني أقول له: «رجاء.. إنها مجرّد حصاة!».. ثم حاول طفل آخر انتشال حقيبتي وفيها جواز سفري وبطاقات الائتمان والمال والمذكّرات والعناوين والهاتف الخلويّ.. شددتها نحوي ولففت رباطها حول كتفي.. اجتزنا الطريق، جاستن وأنا، وضربني رجل ما من الخلف..

كيف تخرج من حُلم حين يتحوّل أشخاصه فجأة إلى أعداء؟ رأيت رجلاً من أولئك الذين كانوا يبتسمون لنا منذ قليل حين صافحتهم.. لم يكن يضحك الآن.. في حين كان بعض الأطفال الأصغر سنّاً ما زالوا يضحكون

ولكنّ ابتساماتهم كانت تتحوّل تدريجاً إلى شيء آخر... كان الأجنبي المحترم، ذلك الرجل الذي كان يُغدق «السلام عليكم» منذ دقائق فقط، مرتبكاً، خائفاً، يستعدّ للفرار.. اكتشفت لاحقاً أنه في لحظة ما استدار صبيّ في سنّ المراهقة نحو أمان الله صارخاً مردّداً سؤاله الجدّي: أليس هذا مستر بوش؟؟ كان الغرب هو الذي يُهان هنا!! وجرى دفع جاستن من هنا وهناك.. وفي منتصف الطريق لاحظنا سائق باص ينادينا للصعود إلى عربته.. كان فايز الذي لا يزال قرب السيّارة غير مصدّق لماذا ابتعدنا عنها، وهو لم يعد يرانا.. ولكن ما إن وضعت قدمي على درجة الباص حتى أمسك ثلاثة رجال بحزام حقيبتي وشدّوني إلى ناحية الطريق.. أمسكتني يد جاستن وهو يصرخ بي: «تمسّك جيداً».. وهذا ما فعلته.. وكانت تلك هي اللحظة التي أصابتني فيها أولى الصفعات على رأسي.. كدت أقع من شدّة الصفعة التي طنّت لها أذناي... كنت أتوقّع هذا، ولكن ليس بهذه القوّة أو الألم، وليس بهذه السرعة... كانت الرسالة رهيبة: هناك من يكرهني إلى حدّ الأذيّة.. أصابتني ضربات أخرى، واحدة منها على رفش كتفي كانت من القوّة بحيث ضربت بي جانب الباص وأنا ما زلت متمسّكاً بيد جاستن... كان الركّاب ينظرون إلى الخارج نحو جاستن ونحوي ولكنهم لم يتحرّكوا.. لم يُرِد أحد تقديم المساعدة... صرخت: «النجدة.. أنجدني جاستن»!! وكان جاستن يبذل قُصارى جهده لكي يشدّ أكثر على يدي المتردّدة ويسحبني إلى الباص، وسألني وسط صراخ الجمهور: «ماذا تريدني أن أفعل؟».. وعندها انتبهت أنني لا أكاد أسمعه.. كانوا يصرخون نحوي وحولي وعنّي.. هل سمعت كلمة «كافر»؟ كانت تلك هي اللحظة التي فقدت فيها يد جاستن الممسكة بي والتي كانت خشبة خلاصي.. جاءتني صفعتان أيضاً على رأسي، واحدة على كل جهة.. ولسبب غامض غريب فإن جانباً من ذاكرتي (شارع خلفي في دماغي) سجّل لحظة مدرسيّة، هناك في مدرستي الابتدائية المسمّاة الأرز في مايدستون قبل أكثر من خمسين عاماً.. حين ضربني على رأسي فتى طويل كان يبني قلعة رملية على أرض ملعب المدرسة... كنت أحتفظ بذكرى رائحة الضربة كما لو أنها أصابت أنفي... الضربة التالية جاءتني من رجل رأيته يحمل حجراً كبيراً في يده اليمنى.. أنزل الحجر بقوّة هائلة على مقدّمة رأسي وتدفّق شيء حارّ وسائل غطّى وجهي كلّه نزولاً على خدّيّ وشفتيّ... ثم انهالت عليّ ركلات الأقدام... على ظهري، على أضلعي، على ساقيّ... وأمسك مراهق آخر بحقيبة يدي مجدّداً وتركني معلّقاً بحزامها وأنا أنظر إلى أعلى لأجد أنه كان هناك حوالي ستّين رجلاً أمامي يصرخون بي.... ولاحظت أن ابتساماتهم الكبيرة كانت تشبه أفواه الذئاب... وللغرابة فإن ما شعرت به لم يكن الخوف بقدر ما كان نوعاً من الذهول.. إذاً، هكذا كانت تحصل مثل هذه الأمور.. كنت أعرف أنه كان عليّ الردّ والتفاعل مع الوضع.. وإلّا، أو هكذا فكّرت وأنا في تلك الحالة من الذهول، فالموت!!!.

وفي لحظة سكينة وصفاء هبطت عليّ، تذكّرت ذلك الصباح المهلك في مدينة غزنة الأفغانية، قبل أكثر من عقدين من الزمن، عندما طُلب منّي ومن غافين هيويت وفريقه أن نرحل قبل أن نتعرّض للهجوم بالحجارة.. كان بإمكاني أن أتذكر تلك الروايات القديمة عن قساوة الأفغان التي كان يرويها ضبّاط الراج الإنكليز، حتى تلك التي كانت في هديّة بيل فيسك من والدته: رواية توم غراهام... غير أن الشيء الوحيد الذي صدمني كان إحساسي بالانهيار الجسدي وقلقي المتزايد من السائل الذي بدأ يغطّيني... لا أعتقد أنني شاهدت مثل هذه الكمّية من الدم من قبل. وللحظة، ألقيت نظرة على شيء مرعب، على وجه مخيف ـ وجهي ـ ينعكس على نافذة الباص مضرّجاً

بالدم الذي كان يلطّخ يديّ أيضاً مثل الليدي مكبث، ويبلّل ياقة قميصي وينزلق على كنزتي حتى أغرق ظهري وحقيبتي التي ظهرت فجأة والدم يترقرق منها، ومن سروالي في بقع قرمزية اللون غير واضحة المعالم غمرتني كالمستنقع... مَن كان يعتقد أن الرجل المسنّ نزف هذا القدر من الدم؟ كانت هذه هي العبارة، كما أذكرها، التي تردّدت في تلك اللحظة. وكلّما زاد نزفي زاد تجمّع الحشد وضربني بقبضاته وبالحجارة التي انهالت على رأسي وكتفيّ... وكنت أفكر في نفسي متسائلاً إلى متى يستمرّ هذا الوضع؟ متى ينتهي؟

كانت الحجارة تضرب رأسي من الجانبين في الوقت نفسه.. لم تكن حجارة تُرمى عليّ وإنما حجارة تُمسك بها أيدي رجال أقوياء يستخدمونها لتحطيم جُمجمتي.... ثم ضربني أحدهم بقبضة يده في وجهي محطّماً نظّارتي على أنفي.. وأمسكت يده الأخرى النظّارة الاحتياطية التي كانت تتدلّى من رقبتي واقتلع الحاوية البلاستيكية من الحبل الذي كانت معلّقة به.. وهنا عليّ أن أشكر لبنان. فطيلة ٢٥ عاماً غطّيت حروب لبنان، وكان اللبنانيون يعلّمونني دائماً كيف أبقى على قيد الحياة: اتّخذ قراراً ـ أيّ قرار ـ ولكن لا تبقَ ساكناً بل افعل شيئاً. لذلك انتزعت الحقيبة بعنف من يديّ الشابّ الذي كان يُمسك بها. تراجع، فاستدرت نحو الرجل الذي كان على يميني يحمل الحجر الملطّخ بالدم، ووجّهت قبضتي نحو فمه. لم أستطع الرؤية جيّداً، ولكنّي تمكّنت، رغم الدماء التي غطّت عينيّ، من رؤية الرجل يسعل رأيت سنّاً تسقط من فمه، ثم هوى على الأرض. وللحظة توقّف الجميع، ثم توجّهت نحو الرجل الآخر واضعاً حقيبتي تحت ذراعي، ووجهت قبضتي نحو وجهه، فزعق واحمرّ وجهه، لكنّي أخطأته وأصبت رجلاً آخر ثم لِذتُ بالفرار.

أصبحت مجدّداً في وسط الطريق، ولكن لم أستطع الرؤية، فوضعت يدي على وجهي وحاولت إزالة المادّة اللزجة عنه، بدأت الرؤية تتّضح قليلاً وأدركت أنني كنت أبكي وأن الدموع غسلت عينيّ من الدم. ماذا فعلت؟ كنت أؤذي وأهاجم وأضرب لاجئين أفغان، الأشخاص الذين كنت أكتب عنهم لفترة طويلة، الفقراء والمحرومين الذين كانت دولتي ودول أخرى تقتلهم مع الطالبان عبر الحدود. لقد نجّاني اللّه.. فعلاً هكذا فكّرت وأعتقد أنني قلت ذلك أيضاً. لقد أصبح الرجال الذين تقتل قنابلنا عائلاتهم أعدائي الآن.

عندها حدث شيء غريب. تقدّم مني رجل بهدوء شديد وأخذ بيدي. لم أستطع رؤيته جيّداً بسبب الدماء التي كانت تسيل على عينيّ مجدّداً، لكنه كان يرتدي دشداشة وقبّعة، وله لحية بيضاء، وقادني بعيداً عن الحشد... التفتُّ إلى الوراء، فرأيت العديد من الرجال وبأيديهم الحجارة لكنّها لم تكن تستهدفني ـ بل كانت لمنع ضرب الأجنبي.. كان الرجل مثل شخصية طالعة من العهد القديم أو من قصّة من الإنجيل، السامريّ الصالح، رجل مُسلم ـ ربّما ملّا من القرية ـ يحاول إنقاذ حياتي. دفعني إلى داخل سيّارة شرطة، لكن رجال الشرطة لم يتحرّكوا، كانوا مرعوبين. رُحت أصرخ عبر النافذة الصغيرة في مؤخّرة السيّارة «أنقذوني» وتركت يداي آثار دماء على الزجاج. ساروا بضعة أمتار، ثم توقّفوا وبعدما تحدّث إليهم الرجل الطويل مجدّداً، ساروا ثلاث مئة متر أخرى.

وهناك على جانب الطريق كانت قافلة من الصليب الأحمر والهلال الأحمر، وكان الحشد لا يزال وراءنا، فقادني اثنان من المُسعفين إلى خلف إحدى سيّاراتهم، حيث سكبا الماء على يديّ ووجهي وشرعا في وضع ضمادات على جبهتي ووجهي ومؤخّرة رأسي. وقال لي أحدهما: «استلقِ، سوف نغطّيك حتى لا يروك». كانا مُسلمَين من بنغلادش ويجب أن أورد اسميهما عرفاناً للجميل: محمّد عبد الحليم وسيكدر مقدّس أحمد. استلقيت على الأرض متأوّهاً قلقاً على حياتي.

خلال دقائق، وصل جاستن برفقة جندي ضخم من بلوشستان، شبح حقيقي من الإمبراطورية البريطانية استطاع إبعاد الحشد عن السيّارة بسلاحه، وبينما كان جاستن يجلس داخل السيّارة، تحسّست حقيبتي «لم يستطيعوا الحصول عليها» ردّدت ذلك بيني وبين نفسي، كما لو أن جواز سفري وبطاقات الائتمان نوع من الكأس المقدّسة. لكنهم أخذوا آخر نظّارة لديّ ـ وكنت كالأعمى من دونها ـ وكان جهاز الخلوي مفقوداً أيضاً وكذلك دفتر اتصالاتي الجلدي الذي يحتوي على أرقام تلفونات من جميع أنحاء الشرق الأوسط(*). قلت: «اللعنة». وحاولت وضع يدي على جانبي، وأدركت أنني أنزف من جرح كبير في رسغي ـ علامة السنّ الذي اقتلعته من فم الرجل الذي ضربته، الرجل الذي كان حقّاً بريئاً من أيّة جريمة باستثناء أنه ضحيّة العالم. إذاً، لماذا أسجّل دقائقي القليلة المرعبة والمثيرة للاشمئزاز الذاتي قرب الحدود الأفغانية... كنت أنزف وأصرخ مثل الحيوان، بينما يموت ألوف من المدنيين الأبرياء تحت الضربات الجوّية الأميركية في أفغانستان، وبينما تقوم الحرب من أجل الحضارة بإحراق وقتل أهالي قندهار والمدن الأخرى لأن الخير يجب أن ينتصر على الشرّ؟ أمضيت أكثر من رُبع قرن وأنا أكتب التقارير عن إذلال مُسلمي العالم وبؤسهم، والآن وصل غضبهم إليّ أيضاً، أو هل وصل؟ كان هناك رجال الهلال الأحمر وفايز الذي جاء يلهث نحو السيّارة متوهّجاً بالغضب لما حدث لي.. وجاء معهم أمان الله الذي دعانا إلى بيته لتلقّي العلاج الطبّي. وكان هناك القدّيس المسلم الذي أخذني من يدي. ورأيت أيضاً من حولي كل الرجال الأفغان الذين هاجموني، والذين لم يكن عليهم القيام بذلك، لكنّ قساوتهم كانت كلّها نتاج قساوة الآخرين، قساوتنا نحن والذين منّا قاموا بتسليحهم في صراعهم ضدّ الروس، وتجاهلوا ألمهم وضحكوا على حربهم الأهليّة، ثم سلّحوهم ودفعوا لهم مجدّداً للحرب من أجل الحضارة على بعد أميال قليلة، وبعدها قصفوا بيوتهم وشتّتوا عائلاتهم ووصفوا كل ذلك بأنه «أضرار جانبية».

لذلك فكّرت في الكتابة عمّا حصل لي ولجاستن في هذا الحادث المخيف، السخيف والدامي، إذ خشيت أن تنقل كتابات أخرى رواية مختلفة حول كيف «ضُرب صحافي بريطاني من قِبل مجموعة من اللاجئين الرعاع»..

(*) استفقت على الحقيقة الغريبة وهي أنه بينما تُرك جواز سفري وبطاقات الائتمان والمال ـ وهي ممكنة الاستخدام من قِبل اللاجئين ـ في حقيبتي، كان دفتر اتصالاتي بين الأشياء التي فُقدت. بعد يومين عدت إلى كيلا عبدالله وقابلت شيخ القرية وعرضت مئة دولار ـ وهو مبلغ ضخم لأي شخص في تلك المنطقة من بلوشستان ـ مقابل استعادة دفتري الصحفي القيّم جدّاً، وفيه أسماء وأرقام هاتف. لم يحصل ذلك. هل رموه؟ أم اشتراه شخص ما؟

وبالفعل فقد ربحت صحيفة «مايل أون صنداي» Mail on Sunday الجائزة لمثل هذا التشويه. وأوردت أن «فيسك ـ الذي صار عمره عندهم ٦٣ سنة وليس ٥٥ سنة ـ ضُرب على أيدي مجموعة من اللاجئين الأفغان الرعاع». ونقلت عني أنني قلت ـ لكنني لم أقل ذلك ـ «إنني سأحمل الآثار لبقيّة حياتي». وقد حُذفت كل الإشارات التي أكّدت فيها تكراراً أن الأفغان كانوا مُحقّين في غضبهم، وأنني لا ألومهم على ما فعلوه. لقد أصبح الأفغان مثل الفلسطينيين قبلهم عنيفين بالسليقة والفطرة. وبالطبع كانت هذه هي القضيّة... فالذين حُمّلوا مسؤولية الجراح والآلام هم الأفغان.. لكنّ تلك الجراح والآلام كانت بسببنا، وبواسطة طائراتنا الـ «ب٥٢» B52، وليس بسببهم.. وقد كتبت في الإندبندنت أنني «لو كنت لاجئاً أفغانياً في كيلا عبدالله لفعلت ما فعلوه. كنت هاجمت روبرت فيسك أو أي غربي آخر أجده». لقد تسلّمت العديد من الرسائل التي بعث بها إليّ قرّاء صحيفتي، وكان بعضها يعبّر عن تعاطفه. . وجاءت بطاقات الميلاد كلّها موقّعة باستثناء واحدة يعبّر كاتبها عن خيبة أمله لأن الأفغان لم «يُنجزوا العمل». وقد نشرت صحيفة وول ستريت جورنال مقالاً يتضمّن الشيء نفسه تقريباً تحت عنوان «كاره للذات، متعدّد الثقافات، حصل على ما يستحقّه». وفيها كتب محرّر عمود اسمه مارك ستين عن ردّة فعلي على الحادث قائلاً «يجب أن يكون لديك قلب من حجر حتى لا تنفجر من الضحك»، وتابع «إن عقيدة فيسك قد وصلت إلى النتيجة المنطقية، مانحاً المغفرة وصكّ براءة ليس لمنفّذي ١١ أيلول/سبتمبر فقط، بل أيضاً لمساندي طالبان الذين هاجموا العديد من زملاء فيسك في أفغانستان والذين قُتلوا قبل أن يستطيعوا كتابة زاوية أخيرة تشرح لماذا قتلوا؟»(*).

في كويتا، قام طبيبان باكستانيان بغسل وجهي وتضميده ونسيا جرحاً في مؤخّرة رأسي، لذلك استيقظت ليلاً لأجد وسادتي مليئة بالدم، وكان عليّ الاستحمام تحت الدوش لإزالة القماش عن الجرح.. وعندما عدت إلى إسلام أباد ـ وهذه وقاحة في نظر ستين ـ تصادقت مع مراسل آسيا الجنوبية الغربية الجديدة دانيال بيرل وزوجته ماريان، اللذين قدّما لي أكواباً لا تنضب من القهوة، وزوّداني بمضامين دفتر اتصالاتهما وأكّدا لي أنني ما زلت أتمتّع بالحيويّة الكاملة كما كنت. لم أكن متأكّداً ما إذا كان دانيال سيسافر إلى أفغانستان، فأجاب: «كلّا، زوجتي حامل ولن نقوم بهذه المغامرة».

بعد شهرين توفّي دانيال بيرل بعد قطع رأسه من قِبل خاطفيه المسلمين، وبعدما خُطف من عمله في كراتشي، وأُجبر على الحديث عن عائلته اليهودية في شريط فيديو مصوّر يتضمّن إعدامه. كان قتله مروّعاً، بقدر ما كان

(*) بمعزل عن حقيقة أن معظم الصحفيين الذين ماتوا في أفغانستان خلال القصف أو مباشرة بعده (ثلاثة مراسلين أحدهم امرأة، قُتلت في وادي كابول بعد سقوط العاصمة) كانوا قد قُتلوا على أيدي لصوص انتهزوا فرصة هزيمة طالبان، فإن مقال ستين كان مشوّقاً لسببيْن.. فقد ألمح أنني أيّدت بطريقة ما جرائم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ أو على الأقلّ أنني برّأت القتلة الجماعيين. والأهمّ من ذلك أن المقال ما كان ليكتب لولا تجاهلي لسياق الاعتداء الذي حصل ضدّي.. لو أني كتبت تقريراً عن هجوم من قِبل رعاع، لتناسبت الرواية بشكل جيّد مع الطرح الإعلامي الأميركي العامّ حول الحرب الأفغانية... أي دون الإشارة إلى القتلى المدنيين بسبب الغارات الأميركية التي جعلت الأفغان غاضبين على الغرب... في كل الأحوال، كان يفترض بنا تحرير هؤلاء الناس وليس قتل أقاربهم،... كانت جريمتي إذاً ومجدّداً (وقد أعطت الصحيفة عمود ستين عنوان «جرائم كره الذات» أنني كنت أحاول أن أعرف لماذا، وكذلك، ماذا وأين؟ وليس مجرّد الكتابة!!

شنيعاً(*). لقد طرح مجدّداً قساوة القاعدة وأتباعها وأيضاً الدرجة التي فقدنا فيها نحن الصحفيين حصانتنا. في لبنان، في منتصف الثمانينيّات، وفي الجزائر، وبعدها في البوسنة، تضاءلت حمايتنا كمراسلين حياديّين. كنّا نُخطف، ونُقتل، لأنّنا غربيّين أو لأننا نُعتبر مقاتلين.. قبل شهرين من ضربي في كيلا عبدالله، حاولت مقابلة رجل دين مسلم في مسجد قرية خارج بشاور، فصرخ رجل ملتح موجّهاً كلامه إلى الملّا: «لماذا تُدخل هذا الكافر إلى المسجد؟». عندها قمت بإجراء المقابلة خارج المسجد. لكنني كنت كافراً، وكذلك كان بيرل، وهكذا بدا أننا كلّنا كذلك. لماذا سارت الأمور بشكل خاطئ؟ كنت أعتقد أن سلسلة المصائب بدأت في فييتنام. لعقود، كان المراسلون يتماهون مع الجيوش.. في حرب القُرم ارتدى وليام هاورد راسل، مراسل التايمز، لباسه الخاصّ. في كلا الحربين العالميّتيْن في القرن العشرين، كان الصحفيون يعملون وهم باللباس الرسمي، ولم يسلم مراسل الأسوشيتد برس الذي نزل مع قوّات كوماندوس أميركية خلف خطوط العدوّ من نيران فرقة نازيّة. لكن كانت هناك دول في نزاع علنيّ، وكانت دول المراسلين قد أعلنت الحرب رسمياً. في حرب فييتنام بدأ الصحفيون يرتدون اللباس العسكري، ويحملون أسلحة ـ وفي بعض الأحيان يطلقون النار على أعداء أميركا ـ حتى لو لم تكن بلادهم مشتركة رسميّاً في الحرب، وعندما كانت تسنح الفرصة كانوا يقومون بعملهم بدون لباس عسكري. وفي فييتنام كان المراسلون يُقتلون كونهم مراسلين.

بدأ هذا الميل لدى الصحفيّين لأن يكونوا جزءاً من الحدث، وأن يلعبوا دورهم النظري الخاصّ، يتركّز ببطء عندما أخلى الفلسطينيون بيروت عام ١٩٨٢. وقد لاحظت أن العديد من المراسلين الفرنسيين كانوا يرتدون الكوفية الفلسطينية. وكان المراسلون الإسرائيليون يحملون مسدّسات في جنوب لبنان.. وفي حرب الخليج عام ١٩٩١، كان العديد من المراسلين يرتدون لباساً عسكرياً مع خوذة، كما لو كانوا عناصر من الوحدة الجوّية ٨٢... في باكستان وأفغانستان في العام ٢٠٠١ حصل شيء مشابه.. في بشاور يضعون القبّعات البشتونيّة الرقيقة. وقد ادّعى جيرالد ريفيرا من فوكس نيوز على التلفزيون أنه كان يحمل مسدّساً في جلال أباد، وزعم أنه كان ينوي استخدامه بالفعل لقتل أسامة بن لادن، وصرّح للعالم: «أشعر أكثر من أي وقت مضى بالوطنية، ساعياً إلى العدالة، وربّما إلى الانتقام فقط».. «وقد سمحت لي هذه التجربة، ومن خلال ما حصل لي، أن أعيد النظر في ما كنت أقوم به كمهنة لكسب العيش».. كان هذا آخر العنقود: المراسل وقد أصبح محارباً...

بالطبع حملت مسدّساً عندما كنت برفقة قافلة عسكرية سوفياتية إلى كابول عام ١٩٨٠. لكن لم يكن عندي خيار وقتها، وقد تجنّبت إعطاء تصريح من النوع الذي عمد ريفيرا إلى استخدامه.. ومثل العديد من الزملاء فإنني

(*) بعد خطف بيرل اتصل مراسل من وال ستريت جورنال ليسألني إن كنت أوافق على توقيع عريضة تطالب بإطلاق سراحه.. جاء هذا من قِبل صحيفة قال عنوانها عنّي إني كنت أستحقّ الموت ضرباً في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. فَضّلت أن أقوم بخطوة أفضل وأقوى، وذلك بتوجيه نداء شخصي إلى بن لادن عبر الإندبندنت للتدخّل لإنقاذ حياة دانيال بيرل الذي أشرت إليه على أنه «صديقي». وشككت ـ وكان تخميني صحيحاً ـ أن بن لادن رغم هروبه أمام الأميركيين استمرّ في قراءة تقاريري، ولكن ويا للأسف كان بيرل قد قُتل قبل ذلك.

لم أحبّ الاستماع إلى ما نقله والتر رودجرز، من السي إن إن، يوم ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، على لسان نقيب في البحرية قال إن مجموعات المعارضة والقوّات الأميركية تضغط على قندهار مثل الأفعى.. ففي اللحظة التي توصف فيها المدن أو الشعوب بالأفاعي أو الحشرات فإن ذلك يعني أنه يمكن سحقها أو تصفيتها أو القضاء عليها مثل الحيوانات. وقد وضِعت نزاهة كل صحفي في حالة الخطر بسبب ملاحظة مدير السي إن إن المؤذية والتر إزاسينزيون Walter Isacision الذي أعطى موظّفيه تعليمات خلال قصف أفغانستان تقول إنه «من غير المناسب التركيز كثيراً على الإصابات أو الوضع الصعب في أفغانستان» لأن مثل هذا التركيز في التقارير يحمل خطر تعزيز الدعم لطالبان. في المرحلة التالية من «الحرب على الإرهاب» ـ أي مرحلة غزو العراق ـ دفع العديد من المراسلين حياتهم ثمناً لحقيقة أن دورهم كصحفيين لم يعد يؤمّن الحماية لهم(*).

والحقّ يُقال، كانت هناك طريقة أخرى للإضرار بسمعتنا وبنوايانا الطيّبة، أو حتّى لنسفها بشكل خطير.. وهي: عدم رغبة محطّات التلفزة الرئيسية في نقل الحقيقة حول الشرق الأوسط وفي دعم مراسليها حين كانوا يواجهون مجموعات الضغط (اللوبي) القويّة. في العام ١٩٩٣، عملتُ في إعداد سلسلة تلفزيونية من ثلاثة أجزاء للقناة الرابعة البريطانية وقناة ديسكفري الأميركية، وكانت بعنوان: «من بيروت إلى البوسنة».. وقد حاولت (كما عبّرت عن ذلك كلمات الحلقة الأولى) إظهار «كيفيّة وصول المسلمين إلى كراهية الغرب». قمنا بتصوير الحلقات قبل ثماني سنوات من هجمات ١١ أيلول/سبتمبر.. وحين أشاهد الحلقات اليوم (وهي كانت منتجة على أفلام حقيقية وليس على أشرطة فيديو ولذلك كلّفت أكثر من مليون دولار) أُدهش أكثر من أي وقت مضى بما كانت تقوله للمشاهدين. كانت في الواقع تحذيراً مرعباً، غير مقصود، ولكنّه واضح، من حصول ١١ أيلول/سبتمبر. في أحد مقاطع الفيلم كنت أسير داخل مسجد محترق في البوسنة وأسأل: «ماذا يخبّىء لنا العالم الإسلامي في جُعبته» وأضيف قائلاً إنّ عليّ ربّما إنهاء كل واحد من تقاريري حول الشرق الاؤسط بكلمة: «احترس»! وكانت توجّسات أخرى مشابهة حول الرعب القادم متضمّنة في تغطيتنا الاحتلال الإسرائيلي لغزّة والضفّة الغربيّة. كنّا نحاول الإجابة عن السؤال: «لماذا» قبل أن تبرز الحاجة إلى طرحه.

لم يكن إنتاج تلك السلسلة سهل التحقيق. صوّرنا في لبنان، وغزّة، وإسرائيل، ومصر، والبوسنة، وكرواتيا. وسألنا مقاتلي حزب الله حول حربهم ضدّ قوّات الاحتلال الإسرائيلي، وصوّرنا نساء مصابات بحروق في المستشفيات اللبنانية نتيجة القنابل الفوسفورية الإسرائيلية. وخلال حظر التجوّل في غزّة، كانت تصدر إلينا باستمرار أوامر من قِبل الجنود الإسرائيليين لإخلاء الشوارع ـ وكان العديد منهم يضع يده على الكاميرا لوقف التصوير. صوّرنا جندياً إسرائيلياً قال إنه سمح لامرأة فلسطينية حامل بخرق حظر التجوّل للذهاب إلى المستشفى ـ ثم اكتشفنا أن السيّدة كانت لا تزال محاصرة في منزلها. وخارج أسوار القدس تحدّثنا إلى مستوطن إسرائيلي عن سبب

(*) كان هذا ينطبق على الجانبين.. قبل سقوط كابول بوقت قصير انفجر صاروخ كروز أميركي داخل مكتب الجزيرة المحلّي، وهي القناة الفضائية العربية التي استثارت غضب الإدارة الأميركية بسبب نقلها لتصريحات بن لادن.. لم يصدر أي تفسير أو اعتذار، وهذا كان سابقة خطيرة ونذير شؤم إذ إن مكاتب الجزيرة في بغداد تعرّضت لهجوم سلاح الجوّ الأميركي بعد سبعة عشر شهراً فقط.

طرد عجوز فلسطيني من أرضه ـ فقال لنا: «لأن اليهود سيأتون للعيش هنا ولأنه (وبعباراته هو) عربي.... وليس يهودياً»؟

في إسرائيل تقصّينا مصير منزل شخص فلسطيني يعيش حالياً في بيروت، وتحدّثنا إلى العجوز الإسرائيلي الذي انتقل إلى المنزل بعد عام ١٩٤٨ ـ وانتقلنا بالكاميرا إلى المدينة البولّندية التي هرب منها وحيث جرى أخذ والديه وشقيقه من قِبل النازيين الذين قتلوهم في المحرقة اليهودية. في مصر تحدّثنا إلى المعارضين المسلّحين ضدّ نظام مبارك، وفي سراييفو إلى الجنود البوسنيين الذين يدافعون عن المدينة وإلى إمام مسلم يؤمن بأن أبناء شعبه يتعرّضون للإبادة لأنهم مسلمين فقط.

كان مايكل دوتفيلد هو مُنتج الحلقات ممّا جعل من السهل عرضها على المشاهدين البريطانيين. ذلك أن الأوروبيين معتادون على النقاش الحرّ والقاسي في بعض الأحيان حول الشرق الأوسط، حيث إنّ الإشاعة القديمة الكاذبة حول معاداة الساميّة، والتي تُلصق بكلّ مَن يجرؤ على انتقاد إسرائيل، قد فقدت فعاليتها إلى حدّ كبير. هناك كما أقول دائماً عدد كبير من المعادين للساميّة الحقيقيين في العالم والذين علينا مواجهتهم دون أن نخترع غيرهم بُغية تلطيف أيّ نقاش جدّي حول إسرائيل والعرب. إلا أننا نعلم أن الأمور في الولايات المتّحدة جِدّ مختلفة.. وفيلمنا لن يُشكّل تحدّياً للجماهير الأميركية ـ الناضجة بشكل كافٍ لكي تفهمه إذا ما أُعطيت لها الفرصة لمشاهدته ـ بل لمجموعات اللوبي الأميركية التي تتحرّك بانتظام لمنع عرض أي عمل وثائقي يُعطي الأميركيين بديلاً من الأخبار المؤيّدة لإسرائيل والمعروضة بانتظام على الشاشات الأميركية. كانت التقارير الأولى عن الحلقات في الإعلام الأميركي نقديّة بشكل طفيف وغير دقيقة غالباً(*).

وبعد أيام فقط من عرض قناة ديسكفري للأفلام الثلاثة التي غطّت أميركا من الساحل إلى الساحل، بدأت حملة الرسائل المكتوبة. ذكرت ديسكفري أن بعض مُعلنيها تعرّضوا للإزعاج بسبب سَيل الاتصالات الهاتفية من مشاهدين غاضبين بحسب قولهم... وقد تسلّمت الأميريكان أكسبرس، وهي مموّلة للقناة الفضائية، بطاقات ائتمان من بعض الزبائن وكانت هذه البطاقات ممزّقة. وقامت منظمة تُطلق على نفسها اسم «نشر المسؤولية في الإعلام عن

(*) يوم ٢٧ نيسان/أبريل ١٩٩٤، على سبيل المثال، قامت صحيفة نيويورك تايمز بمراجعة حلقاتنا، وقد تضمّنت تلك المراجعة بعض التشويه المقصود.. فقد ادّعى والتر غودمان في مراجعته «أن معظم الساعات الثلاث من التقرير تركّز على الفلسطينيين» وأنها أعطت فقط ما أسماه إشارات إلى محرقة اليهود. وهذا غير صحيح. إذ إن أقلّ من ثُلث الحلقات تحدّث عن الفلسطينيين وقد غطّى بالكامل رواية العائلة اليهودية التي عانت من الاضطهاد، ولم يصوّر منزلها الأصلي البولّندي فقط وإنما أيضاً موقع مكان معسكر الإبادة في تربلينكا. تلك المقاطع لم تكن مجرّد إشارات... هكذا كتبت في رسالة إلى رئيس تحرير نيويورك تايمز طالباً منه تصحيح تلك الأخطاء حول الحقيقة. لقد اتّهم غودمان مصوّرينا «بالتركيز على النساء والأطفال الجرحى».. ولكنني سألت: لماذا يحتجّ على هذا؟ ألأنه يعتقد بأن تلك المشاهد مزعجة؟ أم لأن الأطفال والنساء الجرحى كانوا من العرب الذين قصفتهم إسرائيل؟ قد يجد السيّد غودمان أن الوقائع كريهة ولكنّ ذلك لا يبرّر له أن يشوّه بتلك الطريقة غير المهنية سُمعة صحفي عامل»... أرسلت رسالتي بواسطة مكتب نيويورك تايمز في لندن وذلك للتأكّد من أنها ستصل إلى المكتب الرئيسي في الولايات المتّحدة.. وبالطبع فإنها لم تنشر.

الشرق الأوسط» بالكتابة إلى ديسكفري مع تحذير مشؤوم. . وكتب جوزف أنغار نائب رئيس المجموعة في حزيران/يونيو ١٩٩٤ : «لدى روبرت فيسك أسلوب بياني إنكليزي خالٍ من العيوب.. ولديه جوهر الاحترام والتهذيب... ويستطيع أن يلعب على المسرح دور هنري هيغنز بسهولة. لكن يمكنه أن يكون هيغنز مع أنياب». في الصحافة، هذا النوع من الكلام السخيف يثير الضحك. لكن الحملة ضدّ «من بيروت إلى البوسنة» لم تكن مضحكة على الإطلاق. وقد كتب رئيس اللوبي نفسه، سيدني ليبسون، رسالة إلى جون هاندريكس رئيس مجلس إدارة ديسكفري في الشهر نفسه. جاء فيها: «من خلال عرض «من بيروت إلى البوسنة»، زوّدت قناة ديسكفري متعهّدي الحملات الدعائية الغادرة فرصة لنشر سمومهم في غرف الجلوس في أميركا»...

ادّعت رسالة أنغار أن قولنا بأن إسرائيل «تصادر وتحتلّ وأنها تبني مستوطنات يهودية ضخمة على الأرض العربية» (وهذه كلّها وقائع معترف بها من جمعيّات حقوق الإنسان الإسرائيلية كافّة، والصحافة والمراسلين الأجانب وكذلك من قِبل الحكومة الأميركية لأكثر من عشرين سنة) هو تشويه للتاريخ. أما الإشارة في تعليقي إلى «المسلّحين المسيحيّين» الذين أرسلهم شارون إلى مخيّمات صبرا وشاتيلا ـ (وهي عملية وصِفت بالتفصيل في تقرير لجنة كاهان الإسرائيلية) فقد شجبها أنغار بوصفها «كذبة فظيعة».

وكتب ألكس سافيان من «مركز موارد الكاميرا الإعلامية» إلى كلارك بانتنغ رئيس ديسكفري يصرّح بأننا نشرنا مقابلة مع المستوطن اليهودي ميكي مولاد بطريقة حذفنا منها ملاحظته أن اليهود كانوا يملكون معظم الأرض التي خُصّصت للمستوطنة الإسرائيلية المنويّ إقامتها... وبناء عليه فقد تفحّصنا بدقّة كل المقاطع المحذوفة ـ وهي تبلغ حوالي الساعة ـ واكتشفنا أن مولاد لم يدلِ بهذا التعليق المزعوم خلال المقابلة. وقد كتب دوتفيلد لسافيان قائلاً له إن ادّعاءاته «غير ذات قيمة وإن خطأها لا يحتاج إلى برهان». وكانت هناك تصريحات مُبهرجة أخرى: «إن رواية السيّدة الفلسطينية التي لم يُسمح لها بالذهاب إلى المستشفى اختلاق كاذب وإنها لم تكن حاملاً»...، لكنها أنجبت طفلاً بعد تصويرنا لها بثلاثة أشهر.

بعد ذلك قالت لي واحدة من قرّاء الإندبندنت إن أصدقاء أميركيين أبلغوها إلغاء إعادة بثّ حلقاتنا في ديسكفري وذلك بسبب الشكاوى. وكتب دوتفيلد إلى القناة طالباً توضيحاً، وردّ بانتنغ بتكذيب هو من أسوأ ما سمعته حتى الآن من مسؤول في تلفزيون. كتب يقول: «بسبب ردّ الفعل تجاه البثّ الأوّل للحلقات، فإننا لم نبرمج أصلاً إعادة بثّ لها.. وبذلك ينتفي وجود قضية حول إعادة بثّ جرى إلغاؤه». وعندما قرأت هذه الكلمات الجبانة شعرت بالخجل لكوني مراسلاً أجنبياً.

وهكذا وجدنا أنفسنا في وضع نحاول فيه أن نوضح، لجمهور يستحقّ سماع جانب آخر من رواية الصراع في الشرق الأوسط، حقيقةً صارمة من حقائق عصرنا... وهو جمهور يستحقّ أيضاً سماع أصوات أولئك المحزونين والغاضبين الذين وقع عليهم ظلم كبير كنّا نقوم بإبرازه... إن الذين يدّعون التحدّث باسم الحقيقة - ومن أجل إسرائيل - قاموا بمنعنا عن الشاشة وذلك بمساعدة قناة تلفزة رئيسية. وهنا، وقبل زمن طويل من وقوع الجرائم

ضدّ الإنسانية في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ، كان الجواب على سؤال «لماذا» الذي طُلب منّا الكفّ عن طرحه بعد هجمات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا. في السابق لم يكن مطلوباً منّا شرح الانفجار القادم حتى لو كان يساعدنا على تجنّبه. بعد ذلك وجّهت إلينا تعليمات بالبقاء صامتين، وظلّ ذلك بالنسبة إليّ من العناصر الأكثر إحباطاً ورعباً في الحرب على الإرهاب، أي قمع الحقيقة التي بدونها لا يمكن إصدار حكم حرّ قبل الحدث أو بعده.

تساءلت: هل هناك حلّ لكل ذلك، حادث ما، حقيقة ما تسلّط الضوء على ما قمنا به في الشرق الأوسط، على الغضب الذي خلقناه، على الرعب الذي فرضناه على الذين نعتبرهم الآن أعداءنا؟ هل هناك طريقة ما لإيصال ذلك بدون تكرار مطالب أولئك الواثقين بحقيقتهم، طريقة نستطيع من خلالها تصوير موت البراءة خارج إطار الكراهية؟

ليس مطلوباً أن يكون بن لادن صوت أولئك الذين عانوا. فهو لا يملك احتكار ألمهم ووجعهم... ولم يتمّ تعيينه ممثلاً لهم على الأرض.. لذلك فأنا مهتمّ بقصّة فتاة شابّة ماتت بدون ذنب وبشكل مأساوي، كانت لتعارض الجرائم ضدّ الإنسانية في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فتاة جرى تجاهل نهايتها الرهيبة من طرف الأمّة التي قتلتها.. كما لم يُظهر المراسلون الصحفيون لهذه الأمّة أيّ اهتمام بمصير الفتاة.

قتل الأميركيون رأفت الغُصَين بعد الثانية صباحاً من يوم ١٥ نيسان/أبريل ١٩٨٦.. وفي الأيام التي تلت مقتلها زعم المسؤولون الأميركيون أن صاروخاً ليبياً مضاداً للطائرات ربّما أصاب منزلها غير البعيد عن السفارة الفرنسية في طرابلس. لكن بعد ثلاثة أسابيع، اعترف البنتاغون بأن ثلاث قنابل من طائرة «أف» ١١١، وقعت على منطقة مجاورة للسفارة الفرنسية خلال الهجوم الأميركي على العقيد القذافي وتسبّب بضرر جانبيّ. كان عمر رأفت ١٨ سنة، وهي طالبة في معهد داخلي إنكليزي في لندن كانت في إجازة... فنّانة واعدة جميلة مرّ موتها الفردي دون إعلام في البلد الذي قتلها منذ تسعة عشر عاماً...

كانت تقطن في الطابق السابع من بناية في بيروت مع والديها وشقيقتها الصغرى. هناك شاهدنا شريط فيديو مدّته نصف ساعة يعرض حفلة تخرّج رأفت عام ١٩٨٥، في معهد ماري ماونت الدولي في كنغستون ـ تايمز، ويعيدها لفترة قصيرة إلى العالم.. حين يعلن المدير البريطاني اسمها: رأفت بسّام فوزي الغُصَين من فلسطين، نرى فتاة صبيّة ممشوقة القدّ، بلباس أبيض، تسير بثقة لتسلّم شهادة تخرّجها مع عزف لموسيقى إيلغار: «أرض الأمل والعزّ» على بيانو المعهد. أُنصت بانتباه إلى خطاب التخرّج الذي يُلقيه أستاذ أميركي يعلن للبنات أنه «مع نعمة الشباب ليس هناك خوف»... على يسار المنصّة التي جلست عليها رأفت علمُ أميركا وعلى يمينها العلم البريطاني...

في حديقة المعهد، وقفت رأفت إلى جانب والدها بسام الفلسطيني ذي الثقافة الأميركية.. ها نحن هنا، قال بسّام وهو ينظر إلى الكاميرا التي التقطت للعائلة عدّة صور.. قبّلت رأفت خدّ والدها باحترام فيما كانت والدتها ترمقها بفخر من خلف نظارّة شمسيّة، وبجانبها طفلة في السادسة من عمرها (هي كِندة شقيقة رأفت الصغرى)

تزيّنت بعناية أمام الكاميرا.... وبينما كانت رأفت تغادر المنصّة بعلميْها الأميركي والبريطاني، كانت موسيقى البيانو ما تزال تصدح بألحان «بوق متطوّع» لتوماس أرن. . . بعد ظهر ذلك الصيف الإنكليزي، كان قد تبقّى سنة لرأفت الغصين في هذه الدنيا. وكان الرجال الذين سيقتلونها أميركيين، انطلقوا بإذن خاصّ من مارغريت تاتشر من قاعدة سلاح الجوّ الملكي في لايكنهيث التي تقع على بعد ٧٥ ميلاً من معهد ماري ماونت الدولي في كنغستون. فلسطين، بريطانيا، ليبيا، أميركا... يبدو الأمر كما لو أن الصراع الغربي في الشرق الأوسط رفرف فوق رأفت الغُصين بحياتها القصيرة.. كان بسّام يريد لها أن تحظى بتعليم إنكليزي (ولدت كندة في بريطانيا وهي تحمل جواز سفر بريطانياً) وهو ما زال يشعر بأن الإنكليز يمثّلون شيئاً جوهرياً في العالم .. كان والده فوزي خرّيج معهد باليول أكسفورد، وعمل محامياً في حكومة الانتداب البريطانية في القدس ومستشاراً للسير هربرت صاموئيل المفوّض السامي في فلسطين.. وتُظهر صورة قديمة فوزي الغُصين وصاموئيل يسيران في ممرّ مغطّى بالشجر وهما يتحدّثان في جادّة القدس. ولم يفقد آل الغُصين أبداً إيمانهم بالغرب رغم اضطرارهم إلى الفرار من فلسطين عام ١٩٤٦ للإقامة عدّة سنوات في القاهرة. وقد حصل بسّام على منحة دراسيّة في أميركا من قِبل زوجين لاحظا اهتمامه بتصميم الطائرات. وتخرّج بشهادة هندسة كيميائية في معهد دروكسل للتكنولوجيا في فيلادلفيا. وبدأ العمل عام ١٩٥٧ في شركة النفط الوطنية البريطانية في الكويت التي كان يُشرف عليها الإنكليز... يقول بسّام: «كانت عائلتي معجبة دائماً بالإنكليز»... قلّما تعرّضت عائلة للخيانة بقسوة من قِبل المجتمع والثقافة اللذين وضعت ثقتها فيهما كما جرى لآل الغُصين.

تعرّف بسّام على زوجته سنيّة، وهي نصف لبنانية ونصف تركية ـ ابنة مدير بنك في بيروت ـ عام ١٩٦٣ لكنهما غادرا إلى الكويت عام ١٩٦٧ خلال الحرب العربية الإسرائيلية، ثم انتقلا إلى الجزائر حيث تسلّم بسّام عملاً في شركة صناعة النفط. ولِدت رأفت على يد طبيب فرنسي، وكان وزنها ٣,٨ كلغ. وعندما بلغت خمسة أشهر انتقلت العائلة إلى ليبيا حيث تسلّم بسّام عملاً في شركة إيسّسو ESSO. . . ومن ثمّ في شركة الغرب الأميركي.. وذلك قبل ١٥ شهراً فقط من ثورة القذّافي..

عاد بسّام بالذاكرة: «كنّا نأخذ رأفت معنا في رحلات ونزور بعض المدن الرومانية، مثل «البتيس مانيا» و«سابراثا». كانت هناك حفلات وسباحة كل أسبوع. كان عمر رأفت ٤ سنوات عندما التحقت بمدرسة الليسيه الفرنسية في طرابلس وكانت طفلة جميلة جدّاً. كانت تحبّ لعب البيوت وتضع العائلة بأكملها في بيت واحد. كانت تريد دائماً أن نبقى مجتمعين»....

رأفت ـ فافو: اسم التدليل العائلي ـ كانت تتكلّم الفرنسية بطلاقة وقد التحقت بالمدرسة الأميركية في طرابلس في سنّ الثانية عشرة. «بقيت هناك سنتين وتركت بسبب ضعف مستوى التعليم. بعدها أرسلناها إلى معهد ماري ماونت في كنغستون».. عندها أخرج بسّام من ملفّه مجموعة من التقارير المدرسيّة.

ولِدت كِندة، شقيقة رأفت منذ ثلاث سنوات في ١ كانون الثاني/يناير ١٩٧٩. وفي سنّ الخامسة عشرة شعرت

رأفت بالوحدة في المدرسة الداخلية بعيداً عن والديها وأختها الصغيرة. تعبت نتيجة الحنين إلى الأهل وبسبب المستوى الدراسي المتقدّم.... وطلبت العودة إلى ليبيا، إلى فيلّا العائلة غير البعيدة عن الشاطئ، إلى المنزل حيث تستطيع العيش مع كل أفراد العائلة. وقد أشارت أستاذة الفلسفة ببرود إلى أنها: «شخصية محبّبة» لكنها غير منضبطة ولا تعمل. وكانت هناك شكاوى من رأفت في مادّة الرياضيّات حول عدم استخدامها لقدراتها.. بينما صرّحت مدرّسة الموسيقى بأن رأفت تستطيع أن تصبح عضواً ممتازاً في جوقة المدرسة لولا حبّها للكلام والمرح. لكنها كانت ممتازة في مادّة الرسم، وكتب أستاذ الرسم ماك فارلند عام ١٩٨٤ أن «رأفت عملت بجدّ هذا الفصل وهو مسرور من تقدّمها».

وكانت رأفت تشعر بالحزن بعد كتابة رسالة مؤلمة باللغة الإنكليزية يوم ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١ موجّهة إلى الله وعنوانها ثلاث كلمات: «رجاءً، رجاء، رجاء». «حبيبي الله، أحبّك كثيراً. ربّي لديّ بعض الأمور أودّ سؤالك عنها ومعرفة ما إذا كنت ستساعدني. أوّلاً، أن تهبنا حياة مديدة تصل إلى (٢٠٠ سنة) وأنت تعلم ما أعني، أنا وعائلتي وأصدقائي. ثانياً: اشملنا برحمتك وساعدنا على الحياة.

ثالثاً: رجاءً دع أهلي يغادروا ليبيا يوم الجمعة ٢٧ أو حتى الثلاثاء أو الأربعاء لكن ليكن ذلك بعد عطلة الأسبوع.

رابعاً: رجاءً ألف مرّة لتكنْ هذه السنةَ الأخيرة لي في ماري ماونت أو حتى إذا أمكن نصف سنة... لا تفرّق عائلتنا الصغيرة في ليبيا. دع الأوضاع في ليبيا تدفعهم إلى الرحيل في كانون الثاني/يناير واطلب منهم إخراجي من ماري ماونت بالرغم من كونها مدرسة رائعة، لكنني أحن إلى البيت كثيراً. دعني أذهب إلى مدرسة نهاريّة هذه السنة... رجاءً... أو يَسّرْ لأهلي المجيء للعيش هنا» ...

لم تكن إشارة رأفت إلى «الأوضاع» في ليبيا عن عبث. كانت ليبيا العدوّ المعلن لإسرائيل وأميركا ومتّهمة «بالإرهاب الدولي» من قِبل أميركا وبريطانيا. اتّهم الإنكليز القذّافي بدعم الجيش الجمهوري الإيرلندي IRA ـ وإرسال حمولة سفينة من الأسلحة إلى إيرلندا ـ وفي عام ١٩٨٤ قُتلت شرطية بريطانية على يد دبلوماسي ليبي خارج سفارة بلاده في لندن، وكان القذّافي قد أرسل قتلة مأجورين للقضاء على مناوئيه المحلّيين في الخارج. كانت ليبيا منبوذة من قِبل الغرب، ورغم ذلك، فكّرت رأفت الغُصَين ـ العارفة بمكان مولد والدها وروايات جدّها عن الحياة في القدس ـ ببلد لم يعد موجوداً يبعد ١٣٠٠ ميل إلى الشرق من ليبيا.

كتبت رأفت في رسالتها إلى الله: «أرجع لنا أرضنا المقدّسة فلسطين قريباً واجعل كلّ عائلتي تتمتّع بذلك وبالعيش هناك لفترة طويلة.. وإذا أمكن فليكن ذلك في العام القادم». ونتيجة شعورها بالغضب جرّاء مجزرة صبرا وشاتيلا، انضمت في عام ١٩٨٢ إلى تظاهرة احتجاج سلميّة في لندن... وأظهرت صورة غير واضحة رأفت بمعطفها الشتوي في نايتس بريدج يرفرف فوق رأسها علم فلسطين بألوانه البيضاء والحمراء والخضراء والسوداء.

ويذكر بسّام: «شاركت في عدّة تظاهرات، كلّها سلمية، وكانت تعود من كلّ منها مبلّلة بالمطر». وفي آخر مذكّراتها في مجلّة مدرسة ماري ماونت عام ١٩٨٥ كتبت أنها «تريد أن تقول جملة أخيرة وهي أن يعمّ السلام والأمل فلسطين، موطنها. واعترف بسّام أن رأفت وجدت الحياة صعبة جدّاً «لم تكن ترغب في الابتعاد عنا. كانت تبكي كثيراً. لكن لم تكن لديها فرصة للدراسة في ليبيا. أصيبت بأمراض في المعدة في لندن، وكانت لأسباب نفسيّة. عانت كثيراً من ارتفاع الحرارة».. لكنّ رأفت ما لبثت أن تخطّت مرض الحنين إلى الأهل بعد أربع سنوات وكسبت ميدالية ذهبية في الرسم والدراما. ويُظهر شريط تخرّجها عام ١٩٨٥ فخرها بالتغلّب على الوحدة وقلقها من القيام بالعمل في مدرسة هيثرلي للفنون الجميلة في لندن. وفي كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه، جاء أهلها إلى لندن وكان آخر عيد ميلاد لرأفت. وتذكر والدتها سنية: «ذهبنا تلك الليلة إلى سان لورانزو في شارع بوشون.. ولكن بسبب صغر سنّ كندة طلبت رأفت البقاء مع شقيقتها في المنزل. بدا ذلك الميلاد مميّزاً جدّاً بالنسبة إليها». بعد شهر تقريباً كتبت رأفت في مذكّراتها يوم ٨ شباط/فبراير ١٩٨٦: «تبدّلت حياتي، أنا بطيئة في معرفة نفسي، أشعر بالراحة أخيراً لمعرفة نفسي على حقيقتها. الحرّية!».

لم يكن لبسّام الغُصين أي دور في عالم السياسة، لكنّ مجموعته من قُصاصات الصحف تُظهر مدى الأزمة المتفاقمة حول ليبيا. لقد اتُّهم القذّافي بالتخطيط لتفجير طائرة ركاب TWA فوق اليونان. وأعلنت إدارة الرئيس ريغان أن لديها دليلاً دامغاً على أن السفارة الليبية خططت لتفجير نادي برلين الليلي يوم ٥ نيسان/أبريل ١٩٨٦ حيث قُتل جندي أميركي وامرأة تركية.

ناقشت الشرطة لاحقاً في برلين طبيعة هذا الدليل وأشار بعض الصحفيين الغربيين إلى أن سوريا وليس ليبيا يمكن أن تكون وراء التفجير.. لكن في ذلك الوقت كان ريغان في الخليج يصف القذّافي بأنه «الكلب المجنون للشرق الأوسط» ويتوعّد بردّ غير محدّد.

قال بسّام: «فكّرنا في كل ما كان يعنيه ذلك وأنّ من المحتمل حصول هجوم. . لكننا اعتقدنا أن الأميركيين سوف يقصفون الأهداف العسكرية. لم نفكّر أبداً في أنهم سيقصفون المدنيين. كان فناء المنزل مرتبطاً بالسفارة الفرنسية». كانت رأفت على وشك العودة إلى البيت في عطلة عيد الفصح من معهد الفنون الجميلة، وأرسلت من لندن بطاقة بريدية مؤثرة، مليئة بالمرح والنضج والمحبّة ـ وقد زيّنتها برسم فرنسي لقبّعة سيّدة فرنسية ـ وكانت تلك آخر رسالة كتبتها لأهلها:

«والديَّ الحبيبين، إني أرسل هذه البطاقة لأن فيها لمسة نوعية مثلكما! أفتقدكما كثيراً! لا أستطيع الانتظار وقريباً سأكون معكما! كيف حال شقيقتي الصغيرة؟ بلّغاها حبّي وقُبلاتي وأخبراها أنني أفتقدها كثيراً. جيّد، أحبّكم وإلى اللقاء يوم ٢٣ آذار/مارس، بإذن الله ـ اهتمّا بنفسيكما! مع الكثير من الحبّ من ابنتكما التي تحبّكما كثيراً».

يُظهر جواز رأفت أنها تركت مركز جوازات مطار غاتويك يوم ٢٣ آذار/مارس بالضبط قبل ٢٢ يوماً من قيام

طاقم طائرة F111 الأميركي بقتلها. وصلت إلى طرابلس مع حُمّى هجوم الربيع. وكان من المتوقّع أن تعود رأفت إلى لندن في الأسبوع الثالث من نيسان/أبريل، وكانت في نهاية إجازتها يوم ١٣ نيسان/أبريل تمضي الليلة في بيت عائلة غندور وهم أصدقاء من لبنان منذ فترة طويلة. في هذه الأثناء وصلت تقارير حول احتمال حصول قصف جوّي أميركي على مراكز قيادة القذّافي في طرابلس ومكاتب الاستخبارات الليبية. وتجمّع رجال الصحافة الغربية وأنا من ضمنهم في الفندق الكبير في المدينة ولاحظنا الرحيل السريع لمدمّرة روسيّة من المياه الإقليمية الليبية صباح ١٤ نيسان/أبريل. يقول معتصم غندور: «كانت رأفت في لباس النوم على الإفطار عند الصباح، وتحدّثنا عن غارة جوّية محتملة وما هي أهدافها، وعن احتمال قصفهم المدنيين».

«شعرتُ بأنّ أحداً من الأقارب سوف يُقتل، وكانت مقتنعة كلّياً بحصول غارة. حاولت أن أتحدّث معها في السياسة لكنّها ظلّت تدور وتدور حول النقطة نفسها وتتحدّث عن الطائرات القادمة. وظلّت تتحدّث طيلة ثلاث ساعات. أعتقد أنها بطريقة ما عرفت أنها ستموت».

ليلة ١٤ نيسان/أبريل ارتفعت حرارة رأفت، وقامت سنية باستدعاء الطبيب. وتذكر والدتها: «لقد طلب منها الطبيب النوم جيّداً وأن تتناول دواء مضاداً للهستامين ودواء آخر للأنف. أجابت فوراً بأنها تشعر بتحسّن وتحدّثنا عن معهد الفنون وقالت إنها سعيدة كونها حافظت على نفسها للرجل الذي ستتزوّجه يوماً ما. كانت تبدو جميلة جدّاً مثل فتاة تقف على المسرح. دخل بسّام وكندة. تناولنا طعاماً خفيفاً مؤلّفاً من الجبنة والبندورة وطبق من الحلوى أعدّته زوجة السفير السوري. تركنا رأفت نائمة في غرفة التلفزيون لأن هناك آلة ضبط اللقاح. وذهبتُ للنوم في غرفة البنات ونامت كندة قرب والدها»... في اللحظة التي توجّهت فيها عائلة الغُصين إلى النوم كانت ٢٤ طائرة F111 من الفرقة ٤٨ الجوّية الأميركية تنطلق من قاعدة لاكنهيث الملكية البريطانية نحو ليبيا. كان النقيب فرناندو ريباس دومينيشي من بورتو ريكو وزميله بول لورنس من سان فرنسيسكو على متن إحدى الطائرات المهاجمة. وكانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً عندما استيقظت سنيّة منتفضة. «كان هناك ضجيج هائل فخرجت من سريري وصرخت: استيقظ يا بسّام، الأميركيون هنا.. ونظرت إلى غرفة التلفزيون ورأيت رأفت نائمة بهدوء وفكّرت في عدم إيقاظها ثم عدت إلى سريري». استيقظ بسّام مجدّداً بعد لحظات. قال: «سمعت صوت المضادّات الأرضيّة والأمر التالي الذي شعرت به أن قدميّ كانتا تحت الحجارة. عجزت عن الحركة، وكانت كندة في السرير إلى جانبي تبكي وفوقها باب. أمسكت بيدها لتهدئتها. لقد حماها الباب عندما سقط السقف». استيقظت سنيّة لتسمع بسّام يصرخ وكأنه في كوكب آخر «كان صوتاً لم أسمعه من قبل. كان يصرخ: يا الله، يا الله، وينادي بأسمائنا. كنت مصدومة من الدخان والغبار، ووقفت في ظلام دامس فلم أستطع رؤية شيء. كنت أسير فوق الزجاج حافية القدمين. وضعت يدي على جدار غرفة النوم ووجدت أن الباب اختفى. سألت بسّام ماذا حصل لكندة. قال: إنني أمسك بها، إنها على قيد الحياة! ذهبت إلى غرفة رأفت وكان الجدار الجانبي منهاراً. ناديتها باسمها عدّة مرّات فلم تجب. انتابني شعور بأن رأفت ماتت. صرخت: بسّام رأفت ماتت. ثم خرجت حافية من المنزل لطلب المساعدة. كانت طرابلس أشبه بمدينة أشباح، وشاهدت كل مياه المدينة تتدفق خارج الأنابيب. نظرت خلفي إلى

حُطام منزلي ولم أجد أحداً، كان يبدو وكأنه بهذا الشكل منذ مئات السنين. أخيراً، وجدت شاباً توجّه معي إلى ما تبقّى من منزلي للمساعدة». وقد دهشت سنيّة ـ وقد ظهر ذلك على وجهها عندما تذكّرت الوقائع بعد سنوات ـ لكون المنقذ فلسطينياً نجا من مجزرة صبرا وشاتيلا، تلك الجريمة الفظيعة التي أرعبت رأفت في لندن.

تمّ نقل بسّام وكِندة إلى المستشفى نتيجة إصابتهما بجروح خطيرة، ولم تستطع سنيّة تذكّر الساعات التالية سوى أنها أُخذت إلى منزل صديق. لقد دمّرت قنبلة وزنها حوالى ٩٠٧,١٨٤ كلغ منزل جيران آل الغُصين الليبيين فقُتلوا جميعاً (٥ أفراد). وأدّى الإنفجار إلى سقوط الجدار في غرفة التلفزيون على رأفت. وقد وجد صديق العائلة اللبناني معتصم غندور مجموعة من عناصر الدفاع المدني الليبي مع جرّافة في منزل الجيران المدمّر وطلب منهم البحث عن رأفت. كان الوقت منتصف نهار ١٥ نيسان/أبريل ولاحقاً قدّم شهادة قانونية حول ما رأى:

«حاولت الجرّافة رفع سقف المنزل الذي كان فوق الكنبة التي كانت ترقد عليها فافو وعندها فقط برز وجهها للمرّة الأولى. كانت مستلقية على ظهرها ورأسها متّجه نحو اليمين، كانت كاملة، شعرها مرتّب، وخط صغير من الدم ينحدر من أعلى رأسها على خدّها الأيسر. عندما ظهرت، توقّفت الجرّافة واقترب عمّال الإنقاذ منها لمعرفة ما إذا كانت على قيد الحياة. جرى إبعادي حوالي ١٠ أمتار ثم صرخ أحدهم: كلّ نفس ذائقة الموت، وراح يتلو آيات أخرى من القرآن الكريم تتحدّث عن الموت والشهادة. عند ذلك أدركت أن فافو ماتت».... لا تكاد كندة تتذكّر القصف وكانت حينها أصغر من أن تفهم ماذا يعني موت رأفت: «أتذكّر بابا فوقي وحجراً قرب رأسي وأنا أصرخ: أبي، أبي.. كان على ملابس والدي الكثير من الدم. لم أستطع تحريك قدميّ». كان بسّام مضطرباً. في الساعات اللاحقة، سمع الصحفيين يقولون إن منزله قُصف بقنبلة أميركية وليس بصاروخ ليبيّ مضادّ للطائرات. قامت الولايات المتّحدة بتكذيب مقتل ٣٠ مدنياً على الأقلّ في الغارة على طرابلس واعتبرته ضرراً جانبياً وأضافت ـ بعبارات البنتاغون ـ أن واحدة إلى اثنتيْن في المئة من القنابل أصابت المناطق المدنية. وقد أصيب مكتب أمن لا يبعد كثيراً عن بيت آل الغُصين، لكنّ السفارة الفرنسية مُنيت بأضرار جسيمة ودُمّر منزل آل الغُصين كلّياً. لم تصدر أي عبارة من واشنطن. واعترف مسؤول أميركي أن القذّافي كان أحد أهداف عملية ألدورادو كانيون ـ الغارة التي قُتلت فيها أيضاً ابنة القذّافي المتبنّاة ـ وصرّح تقرير البنتاغون أنه من حيث عمل الطائرات كانت الضربة ناجحة... وأبلغ مسؤول في البنتاغون صحيفة الواشنطن بوست أن طائرات F 111 أقلعت من بريطانيا وقامت بالغارة لأن طيّاريها «رغبوا في بعض النشاط». ربّما كان ذلك صحيحاً.... وفي وقت لاحق أبلغ أحد الطيّارين صحيفة شيكاغو تريبيون:

«كانت أكبر رعشة في حياتي الاشتراك في هذه العملية، إنها ما تدرّبنا على تنفيذه».

وقد اعترف وزير الدفاع غسبار واينبرغر لاحقاً بأن الأميركيين قتلوا مدنيين وأن طائرات F111 ضلّت خلال الغارة وربّما ألقت القنابل التي قتلت رأفت الغُصين وجيرانها. وكان النقيب ريباس دومينيشي والنقيب بول لورنس يقودان الطائرة المشؤومة فوق طرابلس، وقد سُمع الأول يصرخ «أُصبت». وسُمع طيّار مجهول آخر يردّ: «آسف

على ذلك» وقد تمّ التقاط جثّة ريباس دومينيشي لاحقاً من البحر الأبيض المتوسط على يد الليبيين، وأعيدت إلى أميركا.

ما زال بسّام يحتفظ بملفّ من مقالات الصحف حول الغارة الأميركية. كتبت النيويورك تايمز أنه «حتى المواطن الأكثر جهلاً يمكنه الموافقة أو التصفيق للهجمات الأميركية على ليبيا... لقد حاكمت الولايات المتّحدة القذّافي بحرص وبعدل على مراحل»... وصرّح رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز بأن الولايات المتّحدة انتقمت لمقتل ٢٤١ جندياً أميركياً في بيروت قضوا في عملية انتحارية قبل ثلاث سنوات. لكن ليس للقذّافي أي علاقة بذلك القتل الجماعي وكذلك صدّام حسين بالنسبة إلى المجزرة الجماعية يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وتضمّن ملفّ بسّام الغصين صفحة من مجلّة التايم اللندنية بعنوان: «دمّرت الغارة مركزاً إرهابياً لغاز الأعصاب». وتحت العنوان، تقول السطور: «من روبرت فيسك، طرابلس». لكن لم يتضمّن تقريري كلمة «إرهابي» التي وردت في العنوان... بعد ذلك بسنتين منعت التايمز نشر تقريري حول طائرة الإيرباص الإيرانية.... لكنّ بسّام الغصين لم يكن متسامحاً: «هذا يعطي انطباعاً أننا إرهابيون، وأن رأفت كانت إرهابية».

في مراسم الدفن الجماعي، لاحظت تابوت رأفت وعليه ـ كأنّني في لبنان ـ العلمان اللبناني والفلسطيني. كانت فكرة والدتها سنّية. لم أعرف شيئاً عن العائلة لكنني وجدت والدة رأفت مصدومة وجريحة الفؤاد. قالت لي: «نحن مسلمون، لكنّ إلهنا واحد. نحن شعب واحد. أتمنّى أن يفهم ريغان ذلك». تمّ وضع حجر فوق قبر رأفت كُتبت عليه آية قرآنية: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [آل عمران/ ٣].

رغبت سنيّة في وضع كلّ الأعلام العربية على نعوش الذين قتلتهم الغارة الأميركية: «لأنه خطأهم، لأنهم لم يتّحدوا ولأنه نتيجة لذلك قُتلت رأفت من قِبل العالم العربي». بعد سنة، كتبت كندة ابنة الثماني سنوات إلى شقيقتها الراحلة: «حبيبتي فافو، سوف أراك يوماً ما، إنني أفتقدك كثيراً. أتمنّى أن أكون معك، عندما رحلت تغيّر كلّ شيء وأصبح أسوأ. إنني أصيح بأمي وأبي.. أرجوك عودي يوماً ما وسأذهب معك. عودي وخذيني ذات ليلة لأراك ثم أعيديني، إنني أرغب في رؤيتك. أختك كِندة».

رفض بسّام زيارة ضريح ابنته. وفي عام ١٩٩٤ استقال من الشركة الوطنية للنفط الليبية وعاد إلى بيروت مع عائلته تاركاً رفات رأفت وراءه في طرابلس.

بعد سنوات، صرّح: «وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت. وهذه آية من القرآن. لا أؤمن بزيارة القبور، ولكنني مؤمن قويّ الإيمان، وأعتقد أننا في يوم ما سنلتقي الشخص الذي نحبّ. زيارة القبور تعني أننا مسجونون داخل الجسد وهذا خطأ». أما سنيّة فليست متشدّدة: «أرادت رأفت أن تكون معنا دائماً. وأشعر أحياناً أنه يجب بقاء

عظامنا معاً بعد الموت». بعد ١٩ سنة وفي زيارة إلى ليبيا عام ٢٠٠٥، زار بسّام المقبرة حيث دُفنت ابنته وبكى على القبر.

لكنّ غضب بسّام لم يمت أبداً، على الأقلّ لشدّة ما عانت كِنْدة لفراق شقيقتها. فهي ما زالت تشعر بألم في قدميْها بسبب الإصابة في عمودها الفقري، وأدركت أن شقيقتها رأفت ماتت. وبعد ٩ سنوات، عندما زارت قبر رأفت عام ١٩٩٥، قالت:

«عليّ العيش بدونها، بدون أن تكون لي أخت كبيرة. لديّ العديد من الأصدقاء وهم يسألونني أحياناً ما هو شعوري وأنا طفلة وحيدة، وأجيبهم أحياناً فأروي لهم كيف ماتت فافو في الغارة الجوّية»... اليوم، أصبحت كِندة سيّدة شابّة جميلة مرموقة عمرها ٢٦ سنة تعمل مدرّسة في قسم الدراسات التعليمية في المدرسة الألمانية في بيروت. وكتب بسّام الذي يؤمن بالقانون كما يؤمن بالعدالة رسالة إلى ابنة الرئيس السابق ريغان باتي، وإلى الرئيس كارتر، وإلى محامين في بريطانيا وأميركا طلباً للتعويض. في الولايات المتّحدة، وُجّه له تحذير بأن أي عمل قانوني للتعويض عن موت رأفت سوف يُنظر إليه في المحاكم على أنه «عمل تخريبي».

قال: «إذا لم نقم بملاحقة الظلم ونجعل العالم يعرف ماذا حصل فإن الظلم ينتصر. أريد أن يعرف العالم ما حلّ بعائلتي... يقول الناس إنها مأساة أن لا يكون لكندة شقيقة كبرى. لكن كان عندها شقيقة... وقد أُخذت منا»...

بين الصور الفوتوغرافية، تحتفظ سنيّة بمجموعة من الأوراق المبعثرة التي وجدتها في ركام الفيلّا. مكتوبة بخط يد رأفت، ويبدو أنها كتبتها كرسالة تعبّر عن خواطرها قبل موتها بأيام. والرسالة هي تعبير عن خوف رأفت وشكّها في العالم وفي أملها بسعادة مستقبلية أيضاً، وهذا دليل متحرّك ومظلم لحياتها:

«الناس وجوه فقط، صور، أقنعة يلبسها كلّ منهم لخداع الآخر... الآن أنا أراقب، أحاول الاستمرار في وسط مجموعة من الممثّلين الذين يحاولون التمثيل كما لو أنهم فهموا كلّ شي، لكنهم في الواقع لم يفهموا شيئاً. أتمنّى يوماً ما أن أجد دفق النور، ذلك الاندفاع للحياة الذي سيرفع روحي عالياً ويدعني أذهب حرّة، حرّة، حرّة، إلى الأبدية».

وفي آخر الرسالة، رسمت رأفت جناحيْن لأربع حمامات بيضاء كبيرة.

الفصل الثاني والعشرون

سبق السيف العذل

كم بدا صغيراً في الكرسيّ العالي الأسود. كان عليك أن تجلس في قاعة المستمعين في الجمعية العامّة للأمم المتّحدة لتدرك كم أنّ جورج بوش الإبن (وهو يهدّد بالحرب في المكان الذي شُيّد ليكون بيت السلام) يمكن أن يبدو رجلاً قصيراً... ولكن ألم يكن يوليوس قيصر قصيراً أيضاً؟ وكذلك كان نابوليون بونابرت! وغيرهم الكثير من زعماء معاصرين أقلّ شهرة. ولعلّ الجنرال دوغلاس ماك آرثر كان كذلك أيضاً وهو الذي كان عنده محور شرّ خاصّ به دفعه إلى التوجّه بعيداً جدّاً، أي إلى نهر يالو، لمحاربته... لكن يوم ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢ وبعد تلاوة ثُلثي خطاب جورج بوش الإبن الذي كان يعلن الحرب نظرياً على العراق... بدرت منه إشارة خطيرة حول نيّته بالفعل إرسال دبّاباته عبر نهر دجلة. فهو صرّح في الجمعية العامّة أن «الولايات المتّحدة ليست في حالة خلاف مع الشعب العراقي». وداخل قاعة الصحافة لم ينبس أيّ منّا ببنت شفة.. وفي القاعة تحتنا لم يتحرّك أيّ ديبلوماسي من مقعده.. كانت قد مضت عشرون دقيقة على الخطاب وهو يتثنّى ويتلوّى على نحو مفكّك وغير مترابط.. في حين أنّ الذين كتبوا الخطاب كانوا يعرفون حين جمعوا أطرافه إلى أين يُفضي ذلك...

قبل قصف الرئيس ريغان لليبيا عام ١٩٨٦، أعلن أن «أميركا ليست على خلاف مع الشعب الليبي»... وقبل أن يقصف العراق عام ١٩٩١ أعلن الرئيس بوش الأب للعالم أنّ «الولايات المتّحدة ليست على خلاف مع الشعب العراقي». وعام ٢٠٠١، صرّح بوش الإبن بينما كان يستعدّ لضرب الطالبان والقاعدة أنه «ليس على خلاف مع الشعب الأفغاني». واليوم فإنّ هذه العبارات السحريّة المخيفة تتكرّر. ليس هناك خلاف. قال السيد بوش ليس هناك خلاف على الإطلاق مع الشعب العراقي. لذلك أدركت بينما كنت أدوّن ملاحظاتي في المكتب الصحفي للأمم المتحدة: أنها السترات الواقية...

ربّما كان هنا هو المكان الصحيح لمعرفة إلى أيّ مدى قد يأخذنا الوسواس العراقي لإدارة بوش. التجهيزات الرخاميّة الخضراء، والجدران المؤشّاة بغشاء أسود من الذهب المحروق، ورمز ذلك العالم الخطر الذي كانت تغطّيه أغصان الزيتون الخاصّة بعلم الأمم المتحدة، كلّ ذلك أعطى السيّد بوش هيئة إمبراطور، وإن يكن صغيراً.. إن التلفزيون يسطّح الوجوه ويعطيك انطباعاً خاطئاً بأنك تعرف معرفة حميمة التعابير التي عليك أن تتفحّصها... أما في الواقع الملموس، فإنّ بوش لا يملك شيئاً من تلك الاستقامة المثالية والرفيعة المستوى والملمّعة التي ظنّ أنه

أظهرها على شاشات التلفزيون. لقد راقبت الطريقة الغاضبة والعدوانية التي تحدّث بها. «إنّ شعب» ، وهنا نظر إلى يمينه بعين ضيّقة مدقّقة، «الولايات المتّحدة»، ونظر شمالاً الآن، «الأميركية»... كان هناك ملقنّان في الأمم المتحدة، واحد على يسار المتحدّث وآخر على يمينه. لكنّ بوش نظر إلى الأمام بعينين واسعتين متحدّيتين شبه يائستين، تمتزج فيهما البراءة والعجرفة. قال لنا إنّ أميركا أحيت البارحة فقط ذكرى الهجوم الذي أصاب بلاده بالحزن الشديد. لكنّه لم يتطرّق إلى موضوع أُسامة بن لادن. إنّ صدّام حسين هو الذي كان علينا التعرّف عليه... وقد استخدم بوش اسم صدّام ثماني مرّات في خطابه وأشار خمس عشرة مرّة إلى النظام العراقي.

من خلال كشفه لهذا القناع من الدموع الأميركية الذي خلّفه قتلةُ بن لادن، كان واضحاً أن خطط بوش للشرق الأوسط كانت أبعد من مجرّد إسقاط صدّام الذي كان في يوم من الأيام صديقاً لأميركا في الخليج. يجب أن تكون هناك أفغانستان ديمقراطية، عندها أومأ حامد كرزاي برأسه موافقاً من بين طُغاة الجمعيّة العامّة... ويجب أن تكون هناك ديمقراطية في فلسطين، الأمر الذي سيقود إلى إصلاحات في جميع أنحاء العالم الإسلامي. إصلاحات! في السعودية؟ في الأردنّ؟ في إيران؟ لكن لم يقل لنا أحد ذلك. كان موضوع بوش حول الشرّ الصدّامي مألوفاً بالطبع ومرفقاً بالتحذيرات المعتادة والبنود المشروطة والتحريفات التاريخية. كنّا نعرف جميعاً أنّ صدّام طاغية، دموي وقاسٍ.. عرفنا ذلك عندما كان صديقنا.. لكنّ بوش أصرّ على تذكيرنا بذلك. لقد خرق صدّام مراراً قرارات مجلس الأمن الدولي.. ولا يتمّ التطرّق هنا بالتأكيد إلى خرق إسرائيل للقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ اللذين يطالبان بإنهاء احتلال أرض فلسطين.

تحدّث بوش عن عشرات الآلاف من معارضي صدّام حسين الذين سُجنوا أو اعتُقلوا أو أُعدموا عشوائياً، وكلّ هذه الفظائع أُخفيت عن العالم من قِبل رجال نظام دكتاتوري... لكن ليس هناك أدنى إشارة إلى أنّ عمليّات الضرب والحرق والصدمات الكهربائية والتشويه والاغتصاب حصلت أساساً عندما كانت لدى أميركا علاقات جيّدة مع العراق، أي قبل ١٩٩٠، وعندما كان البنتاغون يقدّم معلومات إلى مخابرات صدّام لمساعدته على قتل أكبر عدد من الإيرانيين. إنّ أحد أكثر مظاهر خطاب بوش دلالة هو أنّ كلّ الذنوب التي اتّهم بها العراقيين تحديداً، وقسم كبير منها صحيح، قد بدأت في السنة البالغة الأهمّية ١٩٩١... ليست هناك أيّ إشارة إلى خرق صدّام لقرارات الأمم المتحدة عندما كان يتلقّى الدعم من أميركا. كانت هناك إشارة طفيفة من قِبل بوش إلى الهجمات الكيميائية ضدّ إيران مع الإشارة إلى أنّ إيران أصبحت الآن جزءاً من «محور الشرّ». ثم كانت هناك المشاكل المتعلّقة باللغة وقواعدها، أي تلك الخدع السهلة المتناول والتي يستخدمها المؤرّخون عندما لا يجدون الدليل على أن ريتشارد الثالث قد قتل فعلاً الأمراء في البرج.. فلو لم تندلع الحرب في الخليج عام ١٩٩١، لكان العراق على وشك امتلاك سلاح نوويّ في عام ١٩٩٣.. ثمّ إنّ العراق يمتلك المقوّمات المادّية التي يحتاج إليها لصنع سلاح نوويّ.... ولكن ذلك لا يعني أنه يقوم بصنعه. إن جُملة «يسعى العراق للحصول على المادّة القابلة للانشطار الذرّي»، لا تعني أن العراق حصل عليها. وكما قيل لنا، فإن تشجيع العراق للعلماء النوويّين لا يترك مجالاً للشكّ حول تطلّعه إلى امتلاك أسلحة نوويّة، ولكن ليس على أنّه حصل عليها. هل هذا هو الدليل المتوفّر لذهاب أميركا إلى الحرب؟

تستطيع الأمم المتحدة الموافقة على القرار أو رفضه، الانضمام إلى أميركا في الحرب أو الانتهاء مثل ذلك الحمار القديم، عُصبة الأمم. هذا هو الخطاب الذي وجّهه الإمبراطور إلى المندوبين الجالسين أمامه. وأشار بوش إلى الأمم المتحدة واصفاً إيّاها بالدكّان المتكلّم دون الإشارة إلى أن أميركا رفضت الانضمام إليها(*).

لكن كان واضحاً كيف كان يريد تسويق الحرب على خلفية ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ . قال: «يكمن خوفنا الكبير في إيجاد الإرهابيين طريقاً أقصر لطموحاتهم عندما يقوم نظام خارج على القانون بتزويدهم بالتقنية اللازمة للقتل على نطاق واسع». وهكذا حصلنا على الجواب... تساوى أسامة بن لادن مع صدّام حسين.. ومَن بعد؟ ربّما سوريا وإيران ودول أخرى أيضاً.

إذا كان إنتاج القاعدة السينمائي قد تغلّب على إنتاج هوليود في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فإن إنتاج بوش الآن هو الأفضل بتحويله أُسامة بن لادن إلى صدّام حسين وخاطفي القاعدة السعوديين القتلة إلى عراقيين. وكما أشار أحد محرّري الزوايا بعد غزو العراق، لم تعد نيويورك أو لوس أنجلوس هي مركز الإبداع الأميركي، الذي انتقل في الوقت الحالي إلى واشنطن: «حيث تشهد الساحة مزيداً من الخيال يومياً».. مَن كان يعتقد منذ عام أنّ علينا أن نكره صدّام حسين الحليف عوضاً عن أسامة بن لادن الملتحي؟ وبحسب العادة، تغاضت صحيفتي ومراسلو شبكات التلفزيون عن كلّ ذلك. أليست مهمّة المراسلين السؤال لماذا تبدّلت الصورة فجأة؟ متى تمّ التحوّل؟ كذلك تساءلت خلال محاضرة لي في نيويورك ويعود الفضل في الإجابة إلى البروفسور روبرت ألفورد، من مركز مدينة نيويورك للخرّيجين، الذي أنار بصيرتي... حصل ذلك إبّان فضيحة إينرون(**).

لعدّة شهور خلت، لم أكن مقتنعاً بوقوع هذه الحرب وأُدين بذلك لرئيس تحرير الإندبندنت سيمون كلنر الذي قال: «أشكّ في حصول حرب على العراق»، كذلك ولم يكن المحرّر الدولي ليونارد دويل متأكّداً من حصولها. لكن عندما توقّف بوش عن الكلام يوم ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، خرجتُ من الجمعية العامّة للأمم المتحدة واتصلت بلندن قائلاً: «ليونارد، أنا مخطئ، لم أصادف رجلاً بهذه الصراحة من قبل، ستحصل الحرب».

(*) كان الرئيس وودرو ويلسون، الذي طالب بنظام عالمي جديد بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، أحد الذين أسّسوا عُصبة الأمم التي وافقت على نشوء بولّندا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفيا وأوروبا وشرق أوسط جديد. ويعود الفضل في إنشاء دولة العراق الحديثة إلى عُصبة الأمم. لكن بعد إصابة ويلسون بالمرض ورفض الكونغرس الأميركي الانضمام إلى المنظمة الدولية تحوّلت الولايات المتحدة نحو العزلة. ولكنّ القوّة العظمى المستقبلية، التي كان نفوذها مفيداً من أجل السلام العالمي، وقوّتها العسكرية والاقتصادية المتنامية كافية لكي تفرض على هتلر مراجعة خططه، أدارت ظهرها للعُصبة. وكان جورج بوش الابن على الأرجح الرجل غير المناسب لإلقاء محاضرة حول هذا الموضوع.

(**) أظهرت مجموعة من البيانات التي أرسلها إليّ ألفورد أن موضوع العراق بدأ يتصاعد في الإعلام بينما تضاءلت قصّة بن لادن تفجّرت فضيحة إينرون . بالعودة إلى كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، كان إينرون يتمتّع بـ ١١٣٧ نقطة في النيويورك تايمز والواشنطن بوست ولوس أنجلوس تايمز بينما كان للعراق ٢٠٠ نقطة. وقد تزايدت قصص العراق حوالي مئة مرّة في الربيع بينما انخفضت المواضيع عن إينرون بنسبة ٥٠ في المئة. وبعد انخفاض طفيف في الصيف عادت مواضيع العراق إلى التصاعد ووصلت إلى ١٥٢٩ موضوعاً بينما انخفضت فضيحة إينرون إلى ٣١٠ مواضيع.

من خلال مراجعة لتلك الشهور الاستثنائية، يتبيّن كم كنّا نعيش في حُلم: بوش وشريكه الجدّي والمطيع طوني بلير وكلّ الآخرين الذين اعتقدوا أن هذا النزاع المقبل جنون... انحدرنا نحو الهاوية بمعرفة ووعي وقلق معتقدين أننا نستطيع الاحتجاج على هذا الجنون (فعلنا ذلك بالعبارات وبالتظاهر) ونحن نراقب، كالمخدّرين أو السائرين نياماً، هؤلاء الناس وهم يقودون بلادنا إلى الحرب. لاحظ هتلر مرّة أنه سار في الطريق الذي أملاه عليه القدر، وفعل صدّام الشيء نفسه.. ولعلّ أُسامة بن لادن كان يفكّر على هذا النحو في قرارة نفسه... ولكن كان بوش وبلير الآن يسيران على ذلك الطريق العبثي الواضح المعالم.

لقد رأينا طبيعة أميركا الجديدة التي كان بوش يغذّيها على أنقاض مركز التجارة العالمي، رأينا العالم القاسي المتخطّي للقانون والذي كان يطلب أن يتغذّى بدماء وأرواح كلّ الذين ماتوا يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١... رأينا السجناء المقيّدين، والمخدّرين المأخوذين إلى زاوية متحرّكة من العالم حيث يمكن أن يُعدموا وحيث جرى تعليق قوانين حقوق الإنسان. مضى وقت طويل قبل أن يلاحظ العالم أن غوانتنامو كانت مرآة للمعاملة التي يقابل بها كلّ طاغية شرق أوسطي مناوئيه. قيود السجون والأصفاد، والتهديد بالموت من قِبل محاكم لا تترك مجالاً للدفاع عن النفس أو البراءة: هكذا يتعامل كلّ بوليس سرّي عربي مع أعداء النظام. هذا ما واجهه الرهائن الغربيون في الثمانينيّات في بيروت.. هذه كانت العدالة التي فرضها القضاة الإيرانيون على أعدائهم... وما سيفعله الثوّار العراقيون مع أسراهم. في هذا السيناريو كان الصحفيون شركاء. ألم ينصح رودجر إيلز، رئيس مجلس إدارة فوكس نيوز، الرئيس بوش شخصياً باتّخاذ أقسى الإجراءات الممكنة ضدّ الذين سبّبوا الأذيّة لأميركا؟

في الأشهر اللاحقة، كان كلّ ما علينا الخوف منه هو هذا الشكل الجديد من العدالة التي تحصل: تعذيب، إذلال جنسي، قتل أثناء التحقيق، اغتصاب، عمليات قتل غير مشروعة يقوم بها الأميركيون والإنكليز وحلفاؤنا المتوحّشون في «الحرب على الإرهاب».. وكلّ الذين كانوا مقتنعين بأن معركة الديمقراطية والتحرّر والحرّية يجب أن تُخاض بكلّ الوسائل، حتى ولو أدّت هذه الوسائل إلى تدمير الحرّية والديمقراطية والتحرّر التي ندّعي الدفاع عنها. وبينما كنّا نستعدّ للمرحلة التالية من الحرب على الإرهاب بغزو العراق كنّا نترك الذكرى الجماعية للخيانة الأفغانية تختفي. حتى إننا تجاهلنا جدّياً الدروس التي كان يمكن أن تعطينا إيّاها أفغانستان ما بعد طالبان. لم نحاول التركيز كثيراً على الطريقة التي عاملنا بها، نحن المنتصرين المحرّرين، هؤلاء الأفغان الذين لم يكن عندنا أيّ خلاف معهم بالطبع.

وصلت الحرب على الإرهاب إلى قرية حاجي برجيت منتصف ليل ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٢. كان حاجي برجيت خان، الملتحي، البالغ من العمر ٨٥ عاماً، رئيس قرية البشتون وزعيم ١٢٠٠ عائلة قبليّة محلّية، مستلقياً على كومة عشب خارج منزله. وكان فقير محمّدين نائماً بين خرافه ومَعِزه على كومة تراب إلى الجنوب عندما سمع طائرات ضخمة تتحرّك في الجوّ. كان الطقس حارّاً حتى خلال الليل حيث يُمضي القرويون ساعات الظلام خارج بيوتهم، غير أن محمّدين وعائلته كانوا داخل منزلهم الطيني. كانت في حاجي برجيت ١٠٥ عائلات وكانوا جميعاً مستيقظين بسبب هدير محرّكات طائرات الهيلكوبتر وأصوات الأميركيين العالية.

شوهد حاجي برجيت يركض مهرولاً باتجاه مسجد القرية الأبيض وهو مبنى إسمنتيّ فيه مُكبّر واحد للصوت وبعض السجّاد البالي، وشوهد عدّة رجال مسلّحين يركضون خلفه. شاهد حكيم (وهو أحد رُعاة الماشية) الرجال من المروحيّات يطاردون الرجل المسنّ إلى داخل المسجد وسمع زخّات رصاص. قال: «عندما وجده قومنا كان مقتولاً برصاصة في رأسه. كان على الأرض ثقب رصاصة وإلى جانبه بقعة دم جافّة. ووجدنا بعض أجزاء دماغه على الحائط».

كانت الانفجارات الحادّة تدوّي في أنحاء القرية، في الساحات وعلى المداخل. تذكّر محمّدين: «كان الأميركيون يلقون علينا قنابل غاز الأعصاب وقنابل دخانية. كانوا يلقون العشرات منها ويصيحون ويطلقون النار باستمرار. لم نفهم لغتهم، لكن كان معهم مسلّحون أفغان، وجوههم مطليّة بالسواد. قام العديد منهم بتقييد نسائنا وكان الأميركيون يرفعون براقعهنّ للنظر إلى وجوههنّ. حصل كلّ ذلك بينما كانت طفلة صغيرة، قال عبد الستّار إن عمرها ثلاث سنوات، تهرب من منزلها مرعوبة. كان اسمها زرقونة وهي ابنة رجل يُدعى عبد الشكور، وقد شاهدها أحدهم وهي تسقط في بئر القرية البالغ عمقه ١٨ متراً في الجانب الآخر من المسجد. في الليل، غرقت هناك وحدها وتحطّم ظهرها على ما يبدو من السقطة، وقد وجد أطفال آخرون جثّتها عند الصباح. لم يهتم الأميركيون لذلك. ومن خلال وصف آخرين من الوحدات الخاصّة الأفغانية، بدا أنّ بينهم جنوداً من القوّات الخاصّة الأميركية، تلك الوحدات القاسية غير المنضبطة التي فرّت من مقرّ قيادة الشرطة السرّية في كابول. وكان هناك أيضاً ١٥٠ جندياً من الفرقة الجوّية ١٠١ الأميركية المجوقلة التي توجد قاعدتها في فورت كامبل في كنتاكي. لكنّ فورت كامبل بعيدة جدّاً عن حاجي برجيت الواقعة على مسافة ٨٠ كلم داخل الصحراء جنوبيّ غرب مدينة قندهار. كانت هناك فكرة واحدة تستحوذ على الأميركيين: وجود زعماء من طالبان ومن حركة أُسامة بن لادن في القرية.

وقد أعطى عنصر سابق في وحدة القوّات الخاصّة في التحالف تفسيره الشخصي للتصرّف الأميركي عندما التقيته في قندهار بعد بضعة أيام. قال: «عندما دخلنا القرية شاهدنا فلّاحاً أفغانياً ملتحياً، ويعتقد الأميركيون أنهم عندما يشاهدون شخصاً ملتحياً فهو بن لادن».

أُعطيت أوامر للنساء والأطفال بالتجمّع في طرف قرية حاجي. قال محمّدين: «كانوا يدفعوننا ويخرجوننا بالقوّة من بيوتنا. وكان بعض المسلّحين الأفغان يطلقون النار علينا عشوائياً. طيلة الوقت، كانوا يلقون القنابل اليدوية على منازلنا». قام القلّة من القرويين الذين استطاعوا الفرار بجمع القنابل الغازيّة في اليوم التالي بمساعدة الأطفال. كان هناك العشرات منها، أوعية أسطوانية خضراء صغيرة وعليها أسماء وأرقام مطبوعة على جانبها، إحداها "7Bang Delay 1.5 secs NIC-01/06/07". وأخـــرى: "secs 1 Bang ,170db Delay" وأخـــرى "Delay Verzogerung ca. 1,5s. ". كانت هذه القنابل هي التي روّعت زرقونة وأدّت إلى مقتلها. هناك قسم محدّد من أعتدة القوّات الخاصّة الأميركية كان مصنوعاً في ألمانيا في شركة في هامبورغ اسمها Nico-Pyrotechnik ومن هنا وجود تلك الأحرف NIC على العديد من الأسطوانات.. أما db فإنها تعني decibels أي عُشر البل (وهو منسوب لقياس القدرة)... وتُظهر عدّة تواريخ مطبوعة أن القنابل صنعت في آذار/مارس ٢٠٠٢... وتشير الشركة

الألمانية إليها رسمياً بقذيفة ٤٠ ملم على ٤٦ ملم صوتيّة وغازيّة... لكنّ الأميركيين كانوا يطلقون الرصاص أيضاً. وقد أصابت عدّة طلقات سيّارة محطّمة ينام فيها قروي آخر، سائق تاكسي يُدعى عبد الله، أصيب إصابة خطرة وكذلك ابن حاجي برجيت خان.

ادّعى متحدّث عسكري أميركي لاحقاً أنّ الجنود تعرّضوا لإطلاق النار في القرية، وأنهم قتلوا رجلاً واحداً وأصابوا اثنين من الأشخاص المشتبه بأنهم من طالبان أو القاعدة. بدا توريط حاجي برجيت خان البالغ ٨٥ عاماً على أنه مسلّح أمراً سخيفاً جدّاً ومُنافياً للعقل. باختصار، كان الجريحان هما، ابن حاجي برجيت وسائق التاكسي عبد الله. وقد زعمت الولايات المتحدة أنهما عضوان في طالبان أو القاعدة، وكانت الكذبة واضحة بما أنه تمّ إطلاق سراح الاثنين لاحقاً. كان بعض الأفغان المرافقين للأميركيين يطلبون من الأطفال الذين كانوا يبكون السكوت، وقد تذكّر فقير محمّدين ذلك: «طلبوا منا الاستلقاء ووضعوا قيوداً في أيدينا من نوع البلاستيك. كلّما حاولنا تحريك أيدينا ازدادت ضيقاً وإيلاماً. وقاموا بعصب عيوننا ثم أخذوا يدفعوننا نحو الطائرات ويضربوننا بينما كنا نحاول السير». كان مجموع عدد المعتقلين ٥٥ قروياً أخذتهم الطائرات معها معصوبي العيون ومقيّدين. وكان محمّدين بينهم، وكذلك عبد الشكور الذي لم يكن يعرف بعد أن ابنته ماتت في البئر. وكان الأسير الأفغاني البالغ من العمر ٥٦ عاماً والذي أخذه الأميركيون إلى طائرة الهيلكوبتر قد مات: وقرّروا أن يأخذوا معهم جثّة حاجي برجيت الذي مات عن ٨٥ عاماً.

عندما هبطت طائرات الهيلكوبتر في مطار قندهار ـ مقرّ قيادة القوّة الجوّية الأميركية المجوقلة ١٠١ ـ كان القرويون موضوعين، بحسب روايتهم، في حاوية. كانت أقدامهم مقيّدة وكذلك أيديهم، وكانت قدم واحدة لكلّ سجين مربوطة بوتد مثبت بأرض الحاوية وقد وضِعت أكياس سميكة على وجوههم. كان عبد الستّار من بين الذين خرجوا من السجن الحارّ الصغير. قال: «دخل أميركيّان ومزّقا ملابسي. وعندما فشلوا قاموا بتقطيعها بالمقصّ. أخذوني عارياً لحلاقة لحيتي ولأخذ صورة لي. لماذا حلقوا لحيتي؟ كانت لحيتي موجودة طيلة حياتي». اقتيد محمّدين عارياً من مكان حلاقته إلى خيمة تحقيق حيث أُزيل الغطاء عن وجهه. قال: «كان مترجم أفغاني، رجل من البشتون يتكلّم بلهجة قندهار، مع الجنود الأميركيين في الفرقة، وكان هناك رجال ونساء. أُجلست عارياً أمامهم ويداي مقيّدتان. كان بعضهم واقفاً والبعض الآخر جالساً. ثم سألوني: ماذا تعمل؟ أجبت: راعياً. ولماذا لا تسأل جنودك ماذا كنت أفعل»؟ قالوا: «أبلغنا بنفسك» ثم سألوني: «أيّ نوع من السلاح تستخدم» أجبتهم أنني لم أستخدم أيّ سلاح. سألني أحدهم: «هل استخدمت سلاحاً إبّان الاحتلال الروسي، في فترة الحرب الأهلية أو فترة طالبان». أجبت أنني كنت لاجئاً لفترة طويلة». وكان من المستحيل معرفة أيّ وحدات أميركية قامت بالتحقيق وفق شهادات القرويين. كان بعض الجنود الأميركيين يعتمرون قبّعات عليها علامات صفراء وبنّية، والبعض الآخر يرتدون ملابس مدنية، وآخرون يعتمرون خُوذاً مغطاة بورق الشجر. وكان المترجم الأفغاني باللباس التقليدي. استمرّ استجواب حكيم لفترة طويلة. وكان مثل محمّدين عارياً أمام المحققين. قال: «كانوا يريدون معرفة سنّي وعملي. قلت عمري ستّون سنة وأنا مزارع. سألوا: من كم غرفة يتألّف منزلك وهل لديك هاتف خليوي؟. أجبت ليس لديّ هاتف أو كهرباء. سألوا: هل هناك طالبان صالحون طالبان أشرار؟. أجبت أن طالبان لم يدخلوا قريتي أبداً

وليست لديّ معلومات عنهم. ثم سألوا عن الأميركيين وعن رأيي فيهم. أجبت: سمعت أنهم حرّرونا مع الرئيس حامد كرزاي وساعدونا. لكن لا نعرف ما هي جريمتنا حتى نُعامل بهذا الشكل، وما المفروض أن نقول؟».

بعد ساعات قليلة، ظهر قرويّو حاجي برجيت بملابس صفراء فاتحة وأُخذوا إلى سلسلة أقفاص من الأسلاك موضوعة على رمال القاعدة الجوّية (غوانتنامو مصغّرة) حيث قُدّم لهم خبز، وبسكويت، وأرزّ وحبوب وزجاجات ماء. وقد وضِع الشباب في أقفاص منفصلة عن الأكبر منهم سنّاً. ولم تحصل استجوابات أخرى، لكنّهم ظلّوا في الأقفاص خمسة أيام أخرى. طيلة الوقت، كان الأميركيون يحاولون اكتشاف هويّة الرجل المسنّ (٨٥ عاماً). لم يسألوا المعتقلين (الذين ربّما عرفوه من النظرة الأولى) ولعلّ المحقّقين الأميركيين لم يرغبوا في إطلاعهم على موته. في النهاية، أعطى الأميركيون الصليب الأحمر الدولي صورة لوجه الجثّة، وتمّ إبلاغ المنظّمة فوراً من قِبل مسؤولي قندهار أنّ الرجل المسنّ ربّما كان أهمّ زعيم قبليّ غرب المدينة.

قال محمّدين: «عندما أخرجونا في النهاية من الأقفاص كان هناك خمسة مستشارين أميركيين ينتظرون للتحدّث معنا. استخدموا مترجماً وقالوا لنا إنهم يطلبون منا قبول اعتذاراتهم لسوء معاملتنا. قالوا إنهم متأسّفون. وماذا نستطيع نحن أن نقول؟ كنّا معتقلين. وقال أحد المستشارين: «سوف نساعدكم». ولكن ماذا كان يعني ذلك». نقل سربٌ من طائرات الهيلكوبتر الخمس والخمسين رجلاً إلى ملعب كرة قدم في قندهار (حيث جرت إعدامات طالبان سابقاً). وكان المحرّرون ما زالوا يرتدون ملابس السجن وبيد كلّ منهم سوار بلاستيك عليه اسمه ورقمه. وكان مكتوباً على كل سوار "Ident -A-Band Bracelet made by Hollister". عندها فقط عرف الرجال أن حاجي برجيت قُتل الأسبوع الماضي خلال الغارة. وعندها فقط علم عبد الشكور أن ابنته زرقونة توفيت.

صرّح البنتاغون أوّلاً أنه يجد «من الصعوبة الاعتقاد» أن أيدي نساء القرية قد قُيدّت». لكن نظراً إلى وجود وصف مشابه لمعاملة النساء الأفغان إثر القصف الأميركي لحفلة زفاف أورزغان، والتي تلت غارة حاجي برجيت، يبدو أن الأميركيين ـ أو حلفاءهم الأفغان ـ قد فعلوا ذلك تماماً.... زعم متحدّث عسكري أميركي بأن القوّات الأميركية وجدت «معدّات استخباراتيّة قيّمة»، و«أسلحة ومبلغاً ضخماً من المال في القرية». لم يتمّ الكشف أبداً عن ماهيّة المعدّات. وكانت الأسلحة بمعظمها للحماية الشخصية من اللصوص. وبقي مبلغ المال مسألة محيّرة للقرويين. قال عبد الستّار إنه كان معه ١٠ الآف روبية باكستانية أُخذت منه (حوالي ١٦٧ دولاراً). وقال حكيم إنه فقد مدخّراته البالغة ١٥٠ ألف روبية (حوالي ٢٥٠٠ دولار). وقال محمّدين: «عندما أطلق الأميركيون سراحنا أعطوا كل واحد منّا ألفي روبية (حوالي ٤٠ دولاراً) وكنا نريد بقيّة الأموال». لكن كانت هناك مأساة أكبر تواجه الرجال عندما وصلوا إلى حاجي برجيت. ففي غيابهم كانت القرية بدون سلاح لحماية المنازل.. ومع موت كبير القرية وكون العديد من الرجال معتقلين لدى الأميركيين، فقد نزل اللصوص إلى حاجي برجيت. أغارت مجموعة من الرجال، من مقاطعة هلمند (كان قائدهم يوماً ما مجاهداً ومقاتلاً شديداً وشرساً ضدّ الروس) على القرية بعدما أخذ الأميركيون العديد من رجالها بعيداً. وقد فرّت ٩٥ عائلة من أصل ١٠٥ إلى التلال تاركة بيوت الطين للنهب.

كانت الأسئلة المزعجة والمخيفة التي تراود ذهن أيّ قادم عبر الصحراء إلى حاجي برجيت اليوم واضحة. مَن

أبلغ الأميركيين للإغارة على القرية؟ مَن قال لهم إن قيادة طالبان والقاعدة كانت هناك؟ واليوم، أصبحت حاجي برجيت مدينة أشباح حقيقية، بعدما هُجرت معظم بيوتها. لكنّ الغارة الأميركية كانت عقيمة. وقد بقي هناك حوالي أربعين قروياً، تجمّعوا عند قبر زرقونة بعد بضعة أيام لإظهار الاحترام لذكرى الطفلة الصغيرة. سأل محمّدين: «نحن فقراء، ماذا نستطيع أن نفعل؟». لم يكن لديّ جواب. إنّ حرب الرئيس بوش على الإرهاب، وصراعه المزعوم: «الخير ضدّ الشرّ»، نزلا على أهالي قرية حاجي برجيت الأبرياء. . . . والآن أصبحت حاجي برجيت ميتة.

أمضيت فترة من صيف ٢٠٠٢ الشديد الحرارة في أفغانستان، محاولاً تعلّم ماذا يعني «التحرير». إذا كانت تجربة حاجي برجيت نموذجاً (وهي تحوّلت بسرعة إلى ما صارت إليه) فأيّ مصير إذن سيحلّ بشعب العراق في حال قرّرنا تحريره من صدّام حسين؟ وكيف ستكون ردّة فعل العراقيين على مثل هذه المعاملة؟

كنت في الفندق الصغير في قندهار عندما قام رجال القوّات الخاصّة الأميركية باقتحامه ذات يوم. كان أحدهم يرتدي لباساً مموّهاً وقبّعة من العشب على رأسه، وكان آخر بملابس مدنية يرتدي قميصاً وبنطلون جينز. وكانت سيّارتهم الجيب مليئة بالأسلحة. أرادوا معرفة ما إذا كان رجل يُدعى حظرت يُقيم في الفندق. لم يقولوا لماذا أو مَن هو حظرت. قال البوّاب إنه لم يسمع أبداً بهذا الاسم. وما لبث الرجال الخمسة أن غادروا المكان غاضبين وتوجّهوا بسرعة نحو الطريق الرئيسي. سأل البوّاب: «لماذا تحدّثوا معي بهذه الطريقة؟ مَن يظنّون أنفسهم؟ كان الأفضل عدم الردّ».

همهم المسؤول المحلّي في ميواند بعد ساعات قليلة قائلاً: «لن ينتظر الشعب الأفغاني طويلاً المساعدة التي وعِد بها. نعتقد أن الأميركيين يريدون مساعدتنا. وعدونا بالمساعدة. لديهم بعض الوقت لإثبات أنهم يقصدون ذلك. بعدها...» لم يضطرّ إلى قول المزيد. خارج ميواند، في الصحراء الحارّة كالفرن غرب قندهار حيث هاجمت المراهقةُ الصغيرة مالالي القوّات البريطانية في الحرب الأفغانية الثانية، كان الأميركيون يقومون بالغارات لا المساعدة.

ولكن حتى عندما حاول الجيش الأميركي التحوّل نحو العمل الإنساني، فضّلت المنظّمات غير الحكومية الغربية (المنظّمات غير الحكومية العاملة مع الأمم المتحدة) البقاء بعيدة. وكما أوضح عامل في منظمة غير حكومية بريطانية بصراحة في قندهار: «عندما تكون هناك ردّة فعل عنيفة معادية للأميركيين نريد أن نُفرّق بوضوح بيننا وبينهم». سمعت تلك الجملة طيلة الوقت في أفغانستان. «متى يأتي الردّ العنيف المعادي...»... كان قادماً بالفعل.

كان الأميركيون يتعرّضون للهجمات كلّ ليلة تقريباً. حصلت حوادث تبادل لإطلاق النار في قندهار، وأصيب ضابط أميركي بجروح في عُنقه قرب المطار في منتصف تموز/يوليو ٢٠٠٢. ولم تعد القوّات الأميركية تستطيع الأكل خارجاً في مطاعم قندهار. والآن تتعرّض تلك القوّات في مقاطعة خوست للهجوم. وفي أواخر تموز/يوليو قُتل مساعدان أفغانيان وأُصيب خمسة أميركيين بجروح قرب الحدود الباكستانية.

بالنسبة إلى المنظمات غير الحكومية في كابول، كان الخطر يكمن في المنطقة الرمادية (يقولون إنها منطقة رمادية متعمّدة) التي أنشأها الأميركيون بين العمليات العسكرية والمساعدة الإنسانية. قال البريطاني: «في قندوز، أنشأوا ما يُسمّى بـ «فريق التنسيق الإنساني» الذي قام بإصلاح باحة في مستشفى محلّي وانشغل بإعادة بناء الجسور المهدّمة. كان معهم بعض الرجال باللباس المدني لكنهم كانوا يحملون أسلحة. ناقشنا ذلك معهم لأن الأفغان بدأوا يعتقدون أن منظمة المساعدة التابعة لنا تحمل سلاحاً. وقد أبلغنا الأميركيون أن رجالهم لا يحملون السلاح بشكل علنيّ ولا يرتدون لباساً عسكرياً في الخارج مراعاة لمشاعر الزعماء القبليّين المحلّيين. في النهاية كان علينا جميعاً طرح هذه القضية في واشنطن».

لم يكن من الصعب رؤية المخاطر. في كابول، كان الأميركيون يشرفون على منظمة تُدعى CJCMOTF أي قوّة التحالف المشتركة المدنية ـ العسكرية لعمليات التدخّل السريع. وكما قال مسؤول أميركي فإنها تضمّ «خبراء في التموين، والنقل، والطبّ، والقانون، والشؤون الهندسية والمدنية»، وكانت متمركزة في كابول، وعلى اتصال يومي بالسفارة الأميركية. كانت مواصفاتهم الشخصية المهنية تشمل «الطبيب، والبيطري، والمحامي، والمهندس المدني، والأستاذ، والإطفائي، والبنّاء، والإداري»... أما تجربتهم العسكرية فكانت تحت عنوان: «عاصفة الصحراء، عملية تأمين الدعم، بنما، هايتي، الصومال، البوسنة، كوسوفو.»... ثم هناك الـ CHLC، مركز الاتصال للائتلاف الإنساني في مزار شريف والذي كان هدفه تأمين التواصل بين «مساعدة الناس والتحالف العسكري»، وكان يقوم: «بتأمين إعادة بناء المؤسّسات العامة، و١٤ مدرسة، ومولّد للمطار ومستوصف بيطري ومكتبة». لكن كانت مهمّاته تتضمّن أيضاً: «معلومات أمنية»، و«قناة اتصال ومعلومات لقادة التحالف، وللسفارة الأميركية ولهيئة المساعدة الأميركية USAID»، وأخيراً، وانتبهوا إلى هذه المهمّة: «مجموعة إمدادات مختلفة ومن ضمنها أسلاك شائكة».... إذاً، في مكان ما، ولسبب ما، صارت عملية إعادة بناء المدارس تختلط بعملية تأمين أسلاك شائكة!!!

أدّى ذلك إلى حالة من الخوف في أوساط هيئات الإغاثة. . . . وأبلغني مسؤول المساعدات الإنسانية الأسترالي في كابول: «لقد منعتُ قوّات التحالف من دخول المبنى ولن نجتمع معهم في العلن. إذا أرادوا الاتصال بنا فإن عليهم أن يرسلوا إليّ بريداً إلكترونيا.. وسوف نجتمع معهم فقط في مكاتب سلطة رسمية معيّنة. أجل، بالطبع نحن قلقون أن يخلط الناس بيننا وبين العسكر. ببساطة، ليست لديهم أيّة فكرة عن كيفية التعامل مع نمط الحياة الاجتماعي والثقافي والسياسي المعقّد هنا».

لم يكن هذا المتكلّم مسؤولاً صغيراً، بل هو مُنسّق غربيّ مسؤول عن ملايين الدولارات من المساعدة الدولية. لقد عرف هو و فريقه مدى غضب الأفغان من الوجود الأميركي المتزايد في بلادهم. وبينما استمرّت واشنطن في دفع الرواتب الخاصّة بأمراء الحرب المحلّيين، بمن فيهم بعض الذين عارضوا حامد كرزاي، حصل نوع من الهدنة واستمرّ.. لكنّ الأفغان أبدوا اهتماماً ذكياً بالنشاطات الأميركية في بلدهم وكان غضبهم يزداد فقط من الغارات الجوّية التي تركت مئات من الأفغان الأبرياء قتلى.

بعدما قصف الأميركيون حفلة زفاف في أروزغان يوم ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢ (وصل عدد القتلى إلى ٥٥ شخصاً) شعر البشتون بالإهانة من روايات شهود أن القوّات الأميركية منعت الناجين من مساعدة الجرحى. وكانوا غاضبين بشكل خاصّ جرّاء تقرير مُفاده أن الأميركيين أخذوا صوراً لأجساد عارية لأفغانيات قتيلات. لم يكن من الصعب تفسير ذلك. فربّما قامت القوّات الأميركية بأخذ صور للقتلى بعد غارة أروزغان لتحقيقها الخاصّ.. وبما أن القنابل مزّقت ثياب الضحايا بشكل عام فإن النساء الأفغانيات القتيلات كن عاريات.. لكنّ الرواية أصبحت أسطورة. أخذ الأميركيون صور نسوة أفغانيات عاريات. وكان من السهل رؤية كيف يمكن أن يتحوّل أصدقاء الأفغان المفترضون إلى أعداء. الآن، استهدفت الهجمات المتزايدة القوّات الأفغانية الموالية للحكومة أو لتجّار المخدّرات المحلّيين الذين كانوا أصدقاء للأميركيين. وكما كانت الهجمات الأولى للمجاهدين ضدّ الروس بعد الغزو السوفياتي عام ١٩٨٠ تهدف إلى التركيز على حلفاء موسكو الأفغان الشيوعيين، كذلك كانت الهجمات الجديدة موجّهة ضدّ حلفاء أميركا من الأفغان. إذا هاجمت أميركا العراق، مَن سيهاجم الثوّار هناك؟

كان لدى رجل من القوّات الخاصّة الأسترالية تصوّراته الخاصّة حول الموضوع. كانت حديقة قندهار التي التقينا فيها مليئة بالنباتات، وكانت الأزهار ذابلة بعد يوم حارّ، والغبار يقحم عيوننا، وأنوفنا، وأفواهنا وأظفارنا. لكن الرسالة كانت صريحة. أبلغني رجل القوّات الخاصّة: «هذه حرب سرّية، وحرب قذرة، لا تعرف ماذا يحصل فيها». وبالطبع، ليس من المفترض أن نعرف. يُفترض بالصحفيين في «حرب ضدّ الإرهاب» التزام الصمت والاعتماد على الرجال الصالحين لإخراج الرجال السيّئين دون القلق كثيراً على حقوق الإنسان.

كم من حقوق الإنسان سمح بها قتلة ١١ أيلول/سبتمبر لضحاياهم؟ أنت إمّا معنا أو ضدّنا. في أيّ جهة أنت؟ لكنّ الرجل في حديقة قندهار كان قلقاً. كان واحدا في «قوّات التحالف» كما يحبّ الأميركيون تسمية الذين جاؤوا بعدهم إلى المزبلة الأفغانية. تابع: «لا يعرف الأميركيون ما يفعلون هنا الآن. حتى استجواباتهم كانت خاطئة». وبشكل وحشيّ على ما يبدو. ففي الأسابيع الأولى من عام ٢٠٠٢، أغار الأميركيون على قريتين أفغانيتين وقتلوا عشرة رجال شرطة تابعين لحكومة حامد كرزاي المدعومة من الولايات المتحدة وأساءوا معاملة الناجين. وقد كتب المراسلون الأميركيون (في إظهار نادر لشجاعة الفأر رغم الرقابة الذاتية على تقاريرهم) أن المعتقلين قالوا إنهم ضُربوا من قِبل القوّات الأميركية. واستناداً إلى مسؤولين غربيّين في قندهار، فقد «قام الأميركيون بجلدهم بالسياط».

يوم ١٧ آذار/مارس اعتقل الأميركيون ٣٠ مسلّحاً من التحالف الشمالي على الأقلّ في حوزيماند في مقاطعة قندهار: واستناداً إلى إفادات ١٨ معتقلاً فإن الأميركيين رفضوا الاستماع إلى تفسيراتهم بأنهم حلفاء (اعتقدوا أنهم عناصر من طالبان) وضربوهم وركلوهم وأركعوهم قبل وضعهم في أقفاص لمدّة أربعة أيام. ومن ثمّ تركوهم مع الاعتذار.

الآن تبدّلت الأمور. فقد تركت القوّات الأميركية عمليات الضرب للحلفاء الأفغان، ولا سيّما منهم عناصر ما

يسمّى بالقوّات الخاصّة الأفغانية، الرعاع الذين تساندهم واشنطن في مركز تعذيب خاد السابق في كابول. قال الرجل الأسترالي من القوّات الخاصّة: «إن القوّات الخاصّة الأفغانية هي التي تضرب المعتقلين البشتون الآن من أجل معلومات، وليس الأميركيون»... لكنّ المخابرات الأميركية تكون هناك خلال عمليات الضرب.. فالأميركيون مذنبون إذاً لأنهم يسمحون بحصول ذلك».

هكذا تماماً بدأ الأميركيون في فيتنام. كانوا يقومون بعمليات التعذيب النظيفة بحضور مستشاريهم أوّلاً... وكانت هناك بعض «حوادث القتل الكبيرة الضرر».. وبعدها كانت المخابرات الفيتنامية هي التي تقوم بالتعذيب. حصل الشيء نفسه مع الروس. عندما تدفّق جنودهم عبر الحدود عام ١٩٧٩، تركوا بسرعة لحلفائهم الأفغان من حزب بارشام ومن الشرطة السرّية خاد القيام بالتحقيقات «المهمّة».. وإذا كان هذا وضع الأميركيين في أفغانستان الآن، فماذا يحصل إذاً للمعتقلين في غوانتنامو؟. أو، بالنسبة إلى هذه القضية، في باغرام القاعدة الجوّية شمال كابول حيث يتمّ إرسال كل معتقلي قندهار الآن للتحقيق إذا كان المحققون المحلّيون يعتقدون أن لدى المعتقلين المزيد ممّا يتعيّن عليهم قوله؟... وماذا عن الإصابات المدنية التي يوقعها الأميركيون نتيجة الغارات الجوّية العشوائية المتزايدة؟ إذا كان عدّة مئات من المدنيين يموتون في عمليات القصف هذه في أنحاء أفغانستان، فكم من المدنيين سيموتون في العراق إذا حوّلت واشنطن قوّاتها نحو بلاد ما بين النهرين(*).

بالطبع، كان ممكناً التراجع خطوة إلى الوراء بعيداً عن الحافّة المخيفة لمغامرة أميركا الأفغانية. بعد هزيمة طالبان، أنجز رجال الإغاثة بعض المعجزات. وقدّمت اليونسيف تقريراً يفيد بأن ٤٨٦ معلّمة تعمل في خمس محافظات جنوبية ـ غربية من البلاد مع ١٦٦٧٤ طالباً في المدارس الآن. أما أروزغان التي كان الطالبان هم

(*) تضمّن إحصاء متسامح للقتلى المدنيين في أفغانستان مأخوذ من الصحفيين، وعمّال الإغاثة، والسلطات الحكومية منذ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، التفاصيل التالية: قُتل أربعة موظفين تابعين للأمم المتحدة بصاروخ ألفيّ على كابول يوم ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، قُتل ما بين ١٦٠ و٢٠٠ شخص عندما دمّرت القاذفات الأميركية بلدة كرام في ١١ من الشهر نفسه، وسقط أكثر من ١٩٠ قتيلاً عندما قُصف مسجد سلطان بور في جلال أباد مرّتين يوم ١٧ منه، وبين ٤٠ و٤٧ قتيلاً في تارين كوت يوم ١٩ منه، و٦٠ إلى ٧٠ قتيلاً في هرات و٥٠ قتيلاً في قندهار يوم ٢٠ منه، ويوم ٢١ أصابت القنابل خطأً مستشفى من ٣٠٠ سرير في هرات قاتلة حوالي ١٠٠ مدني، وقُتل ٢٠ آخرون (بينهم ٩ أطفال) في اليوم نفسه عندما قُصف جرّار زراعي ومقطورة في تارين كوت. بعد أربع وعشرين ساعة، قُتل ٦١ مدنياً، بينهم فتاة عمرها ثماني سنوات، ومعظمهم في كابول وقندهار. يوم ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر، وخلال قصف الطرق وشاحنات النفط من قِبل القوّات الأميركية أُفيد عن مقتل ١٠٠ مدني. وقتل ٢١ شخصاً على الأقلّ في قصف قرى دارونتا، تورغار، فرمادا يوم ٢٣ منه وحوالي ٥٢ آخرين في اليوم نفسه في قرية شوكر كاريز. يوم ٢٩ منه، قُتل ٢٥ آخرين في كابول. يوم ٥ تشرين الثاني/نوفمبر، قُتل ٣٦ مدنياً في بلدة أوغوبرك قرب مزار من القنابل الأميركية الشاردة. ويوم ١٠ من الشهر نفسه، قُتل ١٢٥ مدنياً في ثلاث قرى قرب قرقديز. يوم ١٧ منه، قُتل ٦٢ شخصاً عندما قُصفت مدرسة دينية في خوست، وفقد ٤٢ بدوياً حياتهم قرب ميواند، وقُتل ٣٠ شخصاً في شاريكار و٢٨ في زاي خل و٣ آخرون في مكان آخر. في اليوم التالي قُتل العديد من الغجر نتيجة القنابل الأميركية في قندهار، وأكثر من ١٥٠ شخصاً في قرى قرب خان أباد و٣٥ في شمشاد و٢٤ في كاريكي خا. يوم ٢٠، قُتل ٤٠ مدنياً عندما قُصفت بيوت الطين بقنابل شاردة قرب كندوز. ويوم ٢٥ قُتل ٢٩ شخصاً من بينهم ١٨ امرأة و٧ أطفال في قصف قندهار، و٧٠ آخرون بالقنابل الإنشطارية في كندوز. يوم ١ كانون الأول/ديسمبر، قُتل حوالي مئة شخص نتيجة ٢٥ قنبلة في قرية كاما عادو. وقُتل حوالي ٣٠ شخصاً عندما ضربت القنابل شاحنات

الأقوى فيها، فلم تُستخدم أيّة معلّمة. ويستطيع موظّفو الأمم المتحدة التأكيد أنه جرى الآن تقريباً القضاء على مرض السلّ في محافظات حزام البؤس. لكنّ الأمم المتحدة كانت تحارب المرض قبل سقوط طالبان.. وقد عادت الآن إلى الأسواق تجارة المخدّرات التي كانت طالبان منعت إنتاجها. وعادت حقول الخشخاش تنمو مجدّداً في محافظة هلمند... وفي أروزغان كان أمراء الحرب المحلّيون يحاولون منع الحكومة من السيطرة وذلك بُغية إقامة مراكز إنتاج جديدة تابعة لهم. في كابول، حيث اغتيل وزيران خلال سبعة أشهر، أصبح كرزاي الآن محمياً ـ بطلبٍ منه ـ بواسطة حرّاس أميركيين. ولا يحتاج المرء أن يكون محلّلاً سياسياً لكي يعرف أيّ نوع من الرسائل كان يعني ذلك بالنسبة إلى الأفغان.

وقد رأى رجل القوّات الخاصّة الأسترالية الأمور بصورة أكثر شمولية: «ربّما يبدأ الأميركيون بالانسحاب إذا كانت هناك حرب أخرى ـ إذا ذهبوا إلى الحرب في العراق. لكنّ الولايات المتحدة لا تستطيع احتمال حربين في وقت واحد. سيكونون مشتّتين جدّاً». وهكذا، يبدو أن «حرب أميركا ضدّ الإرهاب» في أفغانستان قد انتهت ـ حرب تركت تجّار المخدّرات من التحالف الشمالي مسيطرين أكثر فأكثر على الحكومة الأفغانية، والعديد من رجال القاعدة في حالة فرار والقليل من السلام في البلاد ـ وكان علينا القيام بحرب أخرى في العراق.

طيلة عام ٢٠٠٢، كنت أعبر الأطلسي ذهاباً وإياباً، كاتباً تقارير من الشرق الأوسط، ومحاضراً في الولايات المتحدة.. وفي بعض الأحيان كنت أصل إلى نيويورك مساء الجمعة وأقوم بإرسال تقارير من القاهرة الإثنين التالي. ربّما لم يسافر أحد بين الشرق والغرب بهذا القدر تلك السنة.. وكانت تجربة متناقضة ظاهرياً.. سجال قارّة عن

= وباصات خارج قندهار في اليوم نفسه. وقُتل ٢٠ آخرون في شارع آغام و١٥ في سيّارات لاجئين في أرحيسان وأكثر من ثلاثين قرب هرات. وفي اليوم التالي مات ١٥٠ مدنياً في جميع أنحاء أفغانستان. وفي الأسبوع نفسه قُتل ٣٠٠ قروي خلال هجوم في طورا بورا. وقد أدّت معلومات استخباراتية خاطئة حول قاعدة لطالبان إلى قصف الأميركيين ماشيخال في باكتيا وقتل عشرة في مسجد المدينة. يوم ٢٠ كانون الأول/ديسمبر، ضربت طائرات USAC-130 برشّاشاتها قافلة اعتقدت أنها لطالبان لكنّها كانت تضمّ عدداً من كبار رجال القبائل في طريقهم إلى احتفال تنصيب حامد كرزاي ـ مما أدّى إلى مقتل ٦٥ شخصاً، وفي الليلة نفسها قُتل بين ٢٥ و٤٠ شخصاً في نكا. يوم ٣١ كانون الأول/ديسمبر، قتلت طائرة ب٥٢ B-52 وطائرتا هيلكوبتر حوالي ١٠٠ شخص في قرية قر كرداز. وفقدت امرأة ٢٤ فرداً من عائلتها. يوم ٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، قتل الكوماندوس عن طريق الخطأ ١٦ جندياً حكومياً بحسب إحصاء البنتاغون في أروزغان. يوم ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢، قُتل ٤٨ مدنياً في حفل زفاف في دلرواد، و١١٧ آخرون عندما قصفت طائرة أميركية أروزغان، وقد اعتبر الأميركيون طلقات الفرح نيراناً معادية، وأعرب الرئيس بوش لاحقاً عن تعازيه للأرواح المفقودة. يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، قُتل ٦ مدنيين بينهم ٣ أطفال وامرأة عجوز في منزل في مقاطعة. يوم ٦ كانون الأول/ديسمبر، قتلت القوّات الخاصّة الأميركية ٦ أطفال ورجلين في غرداز. قُتل ٥ صبيان وابنتان ورجل عمره ٢٥ سنة عندما هاجمتهم طائرة A-15 مع قرويين آخرين كانوا جالسين تحت شجرة في حوتالا. وحصل العديد من الهجمات قرب جبهات القتال أو على قرى ظنّاً أنها تضمّ قادة طالبان مطلوبين أو بسبب معلومات خاطئة. وقد أحصى البرفسور مارك هارولد من جامعة نيوهامشير ما بين ٣٠٠٠ و٣٤٠٠ مدني قتلوا في أفغانستان بين ٧ تشرين الأول/أكتوبر و٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، أي أكثر ممّا قُتل يوم ١١ أيلول/سبتمبر. وكانت الكلمات السحرية للإعلام الأميركي حول عمليات القصف: تقرير لا يمكن التحقّق منه بشكل مستقلّ.

قارّة أخرى (القارّة الأميركية عن القارّة العربية أو الشرق أوسطية).. ولم يكن للأمر سوى علاقة صغيرة بالواقع.. تماماً مثل أخطاء المسلمين العرب تجاه القوّة العالمية العظمى الوحيدة. وبدا كما لو أن كلّاً من طرفَي العالم انكفأ إلى داخل أوهامه ومخاوفه.. وقد أعطى ذلك نتائج غريبة عجيبة...

في واشنطن، قبل فجر ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، الذكرى الأولى للهجمات، اطّلعت على ستّ قنوات تلفزيونية أميركية وشاهدت البرجين التوأمين يسقطان إلى الأرض ثماني عشرة مرّة. إن الإشارات القليلة إلى القتلة الانتحاريين الذين ارتكبوا الجريمة لم تلمّح مرّة واحدة إلى حقيقة أنهم كانوا عرباً. الأسبوع الفائت، ذهبت الواشنطن بوست والنيويورك تايمز إلى حدود مؤلمة لفصل تغطيتهما الشرق أوسطية عن ذكرى ١١ أيلول/سبتمبر، كما لو أنهما كانتا ترتكبان نوعاً من انتهاك الحرمات أو تتصرّفان تصرّفاً رديئاً إذا لم تفعلا ذلك الفصل. وأبعد ما استطاعت الواشنطن بوست الذهاب إليه في تعليقاتها كان قولها: «إن التحدّي الأبرز للإدارة الأميركية يتمثل بتقديم تفسير قوي ومقنع عن كيفيّة ارتباط الخطر العراقي بهجمات ١١ أيلول/سبتمبر».. ولم يرد هذا الكلام إلّا في الفقرة السابعة من المقالة الافتتاحية المؤلّفة من ثماني فقرات... وكل الإشارات إلى فلسطين أو المستوطنات اليهودية غير الشرعية أو الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية جرت في ذلك الأسبوع إزالتها ببساطة من أذهان الناس. وعندما حاولت حنان عشراوي الأكثر شهرة وإنسانية بين النساء الفلسطينيات التحدّث في جامعة كولورادو خلال أسبوع ١١ أيلول/سبتمبر، نظّمت الجماعات اليهودية تظاهرة ضخمة ضدّها. لم يعترف التلفزيون الأميركي ببساطة بالمأساة الفلسطينية. لكن ربّما لم يعد كلّ ذلك مهمّاً. فعندما يستطيع وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد (كما فعل عندما سُئل عن دليله حول امتلاك العراق للسلاح النووي) الادّعاء بأن «غياب الدليل ليس دليلاً على الغياب»، فإننا نكون قد أنهينا كلّ نقاش أخلاقي. لكن عندما أشار رامسفيلد إلى ما يُسمّى «الأراضي المحتلّة» فقد كشف عن كونه رجلاً سيّئ السمعة.

كانت أحداث غريبة تحصل آنذاك في الشرق الأوسط. أوردت المخابرات العسكرية العربية تحرّك شِحنات الأسلحة الأميركية الضخمة في المنطقة ـ ليس إلى قطر والكويت فقط بل إلى بحر العرب والبحر الأحمر وشرق المتوسط. وقيل إن المخطّطين العسكريين الأميركيين والإسرائيليين وخبراء المخابرات اجتمعوا مرّتين في تلّ أبيب لمناقشة النتيجة الحتميّة لحرب الشرق الأوسط القادمة. وكان تدمير صدّام وإضعاف السعودية (وهو سيناريو محتمل في حال سقط العراق بحسب ما ادّعى الخبراء) حُلمين إسرائيليّين منذ زمن بعيد. وكما اكتشفت الولايات المتحدة خلال فترة حيادها المثمرة بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤١، فإن الحرب تغذّي مضخّات الاقتصاد. هل كان ذلك ما يجري اليوم: التحضير لحرب تُعيد تعويم الاقتصاد الأميركي؟

وفي رسالة سريعة خفيفة ومُتقنة أرسلت إلى كوفي عنان، سحب صدّام حسين البساط من تحت أقدام جورج بوش الإبن. في الأمم المتحدة، كان بوش يلعب الدور البغيض لجذب المشاركة المتعدّدة، محذّراً العالم بأنّ العراق لديه فرصة أخيرة، بواسطة الأمم المتحدة، لتجنّب معركة هرمجدون. قال لنا جميعاً في الجمعية العامّة: «إذا أراد النظام العراقي السلام، عليه القيام فوراً وبدون شروط بوقف إنتاج وتدمير كلّ أسلحة الدمار الشامل،

والصواريخ البعيدة المدى وكل المعدّات المتعلّقة بها»... كان صدّام مستعدّاً للقيام بأي شيء كان بمقدوره لتجنّب الحرب. ويبدو أن بوش كان يفعل كلّ ما بمقدوره لمنع السلام.

لا عجب أن الولايات المتحدة بدأت فوراً الحديث عن «آمال كاذبة». يومها كتبتُ في الإندبندنت: «لا عجب أن الأميركيين كانوا يبحثون بيأس عن ذريعة للحرب في محاولة للتأكّد من أن حربهم القادمة تحافظ على مواعيدها المقرّرة». أمّا الآن فقد وقع الأميركيون في مأزق، إذ سيتطلّب الأمر ٢٥ يوماً على الأقلّ لتشكيل فريق تفتيش الأمم المتحدة، وستّين يوماً آخر للمرحلة الأولى، ثم ستّين يوماً لعمليات تفتيش أخرى. لقد جرى تأخير حرب بوش الأخيرة أكثر من خمسة أشهر. لكنّ تفحّصاً دقيقاً لخطاب بوش في الأمم المتحدة يظهر أن تفتيشاً حرّاً عن أسلحة الدمار الشامل المفترضة لدى صدّام كان واحداً من ستّة شروط على العراق تلبيتُها إذا «أراد السلام». وتضمّنت طلبات بوش الأخرى «وقف كلّ دعم للإرهاب»... هل يعني هذا أن على الأمم المتحدة الآن الإسراع في إرسال مفتّشين للبحث عن دليل داخل العراق حول علاقات صدّام السابقة ـ أو الحالية ـ مع القتلة المأجورين؟ طلب بوش أيضاً أن «يكفّ العراق عن اضطهاد السكّان المدنيّين بمن في ذلك الشيعة والسنّة والأكراد والتركمان وغيرهم». وبالرغم من تضمين التركمان ـ الجديرين بالحماية دون شكّ لأنهم يقيمون على احتياطيّ نفطيّ هائل ـ هل يعني ذلك أن الأمم المتحدة تستطيع طلب مراقبين لحقوق الإنسان داخل العراق؟ في الواقع، إن مثل هذا الاقتراح سيكون عملاً أخلاقياً سامياً، لكنّ حلفاء أميركا العرب سيتمنّون بشدّة أن لا يتمّ نشر مراقبين كهؤلاء في الرياض، والقاهرة، وعمّان أو أيّة مراكز أخرى للتحقيق اللطيف.

وحتى لو كان صدّام مستعدّاً للالتزام بكلّ هذه المطالب بصدق لم يُظهره في ردّه على قرارات الأمم المتحدة الأخرى، فإن الأميركيين أعلنوا بوضوح أن العقوبات ستُرفع فقط ـ وأن عُزلة العراق ستنتهي فقط ـ «بتغيير النظام». في الواقع كان حماس بوش المفاجئ للمساندة الدولية لقرارات مجلس الأمن الدولي (وهو حماس لم يمتدّ أبداً بالتأكيد ليشمل خرق إسرائيل لقرارات مجلس الأمن ذات الأهمّية المأساويّة) مجرّد حركة لإضفاء الشرعيّة على خطّة واشنطن لغزو العراق.

يبدو أن مساندة طوني بلير لهذه السياسة الساخرة كانت أحد أكثر العناصر غموضاً في هذا الفصل من مأساة الشرق الأوسط. وقد أدّى امتزاج الولادة المسيحية المتجدّدة لبوش بتصريحات بلير الكنسية ـ والخليط الفريد لفضيلة بلير وسفسطته القانونية ـ إلى إنتاج واحدة من أغرب التحالفات في عصرنا. إن المساهمة السياسية البريطانية (التي رُمز إليها من قِبل داوننغ ستريت بـ «ملف» ٢٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢) التي لا قيمة لها كان ينبغي أن تجعل الأمر واضحاً وذلك قبل أشهر من انتقال التحذير من «٤٥ دقيقة لهجوم أسلحة الدمار الشامل»، إلى المناقشة في البرلمان وفي تقرير هوتون الأخير.

قرأت هذا المستند في بيروت أولاً.. وكالعادة في الشرق الأوسط، فإن مضمونه لدى قارئ يبعد ٣ آلاف كلم عن لندن يبدو أشدّ اختلافاً منه لدى نائبٍ في البرلمان، في وستمنستر، أو رئيسٍ في ما كان يُسمّى فليت ستريت.

وجدت المستند مذهلاً حقّاً... ولكن ليس لأيّ ٤٥ دقيقة تحذير. وكتبت يومها «إن قراءته ستملأ أي إنسان شريف ومحترم بالعار والغضب.. إن صفحاته هي دليل نهائي، إذا كان مضمونها صحيحاً، على أن جريمة كبرى ضدّ الإنسانية ارتُكبت في العراق. إذا كانت تفاصيل بناء صدّام لأسلحة دمار شامل صحيحة (وسأعود لاحقاً إلى استعمالي «إذا»، و«لكن» و«تستطيع») فإن هذا يعني أن سياستنا الشاملة والقاسية والمعيقة بالنسبة إلى عقوبات الأمم المتحدة قد فشلت كلّياً. وبعبارة أخرى، فقد قُتل نصف مليون طفل عراقي من قِبلنا مقابل لاشيء».. في أيار/مايو ١٩٩٦ أبلغتنا مادلين أولبرايت، كما نعلم جميعاً، أن العقوبات نجحت في منع صدّام من إعادة بناء أسلحة دمار شامل. عندها وافقت حكومتنا المحافظة، ولامس بلير الخط. لكن عندما سألها محاورها ما إذا كان «الثمن» ـ مقتل نصف مليون طفل ـ يستحقّ ذلك، أجابت أمام ذهول العالم: «أعتقد أن هذا خيار صعب جدّاً، أما عن الثمن، فنحن نعتقد أن الثمن كان يستحقّ ذلك».

والآن، يتم أبلاغنا ـ إذا كان بلير يقول الحقيقة لنا ـ بأن الثمن لم يكن يستحقّ ذلك. إن البضاعة المشتراة بأرواح مئات الآلاف من الأطفال لا تساوي نكلة. إذ إنّ ملفّ بلير كان يخبرنا أنّ صدّام كان قادراً رغم العقوبات على متابعة بناء أسلحة الدمار الشامل. كل هذه التفاهة حول الاستخدام المزدوج للتكنولوجيا، وحظر أقلام الأطفال (يمكن أن يكون لمادة الرصاص الأسود استخدام عسكري) ورفضُنا السماح للعراق باستيراد معدّات لصيانة محطّات تكرير المياه التي قصفناها في حرب الخليج، كلّ ذلك كان دجلاً وخداعاً. . . كان هذا الاستنتاج المحزن هو الخلاصة الأخلاقية الوحيدة التي كان بالإمكان استنتاجها من الصفحات الستّ عشرة التي يُفترض أنها تتضمّن عرضاً مفصّلاً لأهوال السلاح الكيميائي، والجرثومي والنووي، التي كان وحش بغداد يخزّنها ضدّنا. كان من الصعب، من خلال قراءة التقرير بكامله، أن نعرف ما إذا كان علينا الضحك أو البكاء. إن درجة الخداع والنفاق في إنتاجه تكشف لنا عن مستوى التحايل الذي بلغته حكومة بلير وكيفية معاملتها لأعضاء البرلمان.

لنأخذ مثالاً واحداً فقط على كذب المستند. في الصفحة ٤٥، قيل لنا ـ في فصل طويل حول خروقات صدّام لحقوق الإنسان ـ إنه «في ١١ آذار/مارس ١٩٩١ في بداية حرب الخليج حصلت اضطرابات في مدينة البصرة الجنوبية. وردّ النظام بقتل الآلاف». المشكلة أن الكذبة تكمن في استخدام عبارة اضطرابات.. فتلك لم تكن اضطرابات، كانت جزءاً من ثورة جماعية دعا إليها بدقّة والد الرئيس بوش الإبن عبر إذاعة الاستخبارات الأميركية في السعودية. وقد لبّى المسلمون الشيعة في العراق نداء بوش الأب، ومن ثمّ تُركوا لمصيرهم من قِبل الأميركيين والبريطانيين الذين أعطوهم دافعاً للاعتقاد بأنهم سيأتون لمساعدتهم. لا عجب أنهم ماتوا بالآلاف، لكن ذلك كلّه أزيل من ملفّ بلير.

وبالطبع فإن كلّ شخص قرأ كلمات الشكّ الماكرة التي أُدخلت إلى النصّ سيكون عنده فقط اهتمام عميق بالقاعدة التي تستند إليها بريطانيا في الذهاب إلى الحرب. كان برنامج الأسلحة العراقي يهدف بمعظمه إلى تخصيب اليورانيوم. ويبدو أن العراق كان يحاول الحصول على خطّ إنتاج قويّ. وكان هناك دليل على أن العراق حاول الحصول على أوعية ألمنيوم خاصّة (تُستخدم في تخصيب اليورانيوم) لكن لم تكن هناك «معلومات استخبارية نهائية»

تُفيد أنها «مخصّصة لبرنامج نوويّ».. إذا حصل العراق على معدّات للانشطار الذرّي، يستطيع إنتاج أسلحة نووية خلال سنة أو سنتين. كان من الصعب الحكم ما إذا كانت صواريخ صدّام حسين يمكن أن تكون جاهزة للاستخدام. وقد بدأت الجهود لإعادة تنشيط برنامج الصواريخ العراقي على الأرجح عام ١٩٩٥. وهكذا استمرّ الملفّ. أجل كان صدّام ـ علينا قول ذلك في كلّ إذاعة، وكلّ محاضرة، وكتابته في كلّ مقال بُغية إسماعه ـ قاسياً، طاغية شرّيراً. لكن هل كانت عبارات: «مِن شِبه المؤكّد»، و«يظهر» و«من المحتمل» و«إذا»، كافية لتكون إشارة الانطلاق لإرسال قاذفاتنا فوق صحراء كوت العمارة؟

اشتمل المستند على فصل يكيل المديح لمفتّشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة. وكان هناك مزيد من الخدع عنهم. فقد نُقل عن الدكتور هنس بليكس، المدير التنفيذي للجنة تفتيش الأمم المتحدة، أنه قال إنّ من المستحيل في غياب عمليات التفتيش بعد عام ١٩٩٨ التدقيق في مدى الإذعان العراقي لنزع السلاح. لكن يوم ١٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٢ (قبل شهر تقريباً من تقرير بلير) أبلغ بليكس الأسوشيتدبرس أنه لا يستطيع القول بدقّة إنّ بغداد تملك أسلحة دمار شامل. بالطبع جرى شطب هذا التصريح من المستند الحكومي البريطاني. إذاً هكذا كان الوضع... وإذا كانت هذه الصفحات المخادعة تستند إلى «محتمل» و«إذا»، فإنه لم تكن لدينا مصلحة للذهاب إلى الحرب. أمّا إذا كانت كلّها صحيحة، فإننا نكون قد قتلنا نصف مليون طفل للاشيء. ألا يقارب ذلك جريمة حرب؟

يومياً، يقول أحدهم شيئاً ـ صعب التصديق ووهمياً ـ حول شغف الرئيس بوش بالحرب. في تشرين الأول/ أكتوبر، كان بوش شخصياً يتحدّث أمام جمهور في سينسيناتي عن «مجاهدي الحرب النووية».... تناسى للحظة أننا لم نستطع حتى الآن أن نُثبت أن لدى صدّام حسين أسلحة نووية. وتناسى أن خطابه الأخير كان عملية إعادة صياغة لكلّ «إذا» و«ربّما» و«يستطيع» في اتّهامات طوني بلير في ملفّه المخادع كلّياً بصفحاته الست عشرة الواهية. علينا الآن القتال ضدّ «مجاهدي الأسلحة النووية». هذا ما علينا القيام به لتبرير التمثيلية الكاملة التي يأخذنا إليها البيت الأبيض وداوننغ ستريت، وكل أولئك «الخبراء» المتعفّنين، حول الإرهاب وأيضاً العديد من الصحفيين. تناسى الأربعة عشر فلسطينياً بمن فيهم الطفل ابن الاثنتي عشرة سنة الذي قتلته إسرائيل قبل ساعات قليلة من إلقاء بوش خطابه في سينسيناتي، وتناسى أنه عندما قامت طائرة أميركية في تموز/يوليو بقتل تسعة أطفال فلسطينيين إضافة إلى مقاتل، وصف رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون («رجل السلام» بحسب كلمات بوش) المجزرة بأنها «نجاح كبير». كانت إسرائيل إلى جانبنا في الحرب على الإرهاب. علينا أن نتذكّر استخدام كلمة إرهاب بالنسبة إلى صدّام حسين، وبن لادن، وياسر عرفات، وفي الواقع بالنسبة إلى أيّ شخص يعارض إسرائيل وأميركا. استخدم بوش الكلمة في خطاب سينسيناتي ثلاثين مرّة في نصف ساعة ـ أي إرهاب واحد كلّ دقيقة.

ولا حاجة إلى القول إن ما كان علينا تناسيه إذا كنّا سندعم هذا الجنون، هو أن الرئيس رونالد ريغان كان قد أرسل مبعوثاً خاصّاً لمقابلة صدّام حسين في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣. كان ضرورياً تناسي ذلك لثلاثة أسباب.

أوّلاً، لأنّ صدّام المخيف كان يستخدم الغاز ضدّ الإيرانيين ـ واستخدام الغاز كان أحد أسباب ذهابنا للحرب ضدّه اليوم ـ ثانياً لأن المبعوث أرسل إلى العراق لترتيب إعادة فتح السفارة الأميركية ـ بُغية تأمين علاقات تجارية واقتصادية أفضل مع جزّار بغداد ـ ثالثاً لأن المبعوث كان دونالد رامسفيلد. ربّما يعتقد المرء أنه كان أمراً غريباً أن لا يذكر لنا رامسفيلد هذا الموضوع الصغير المهمّ خلال أحد لقاءاته الصحفية البسيطة معنا.... ربّما تعتقدون أنه كان يرغب في تنويرنا حول الطبيعة الشرّيرة لهذا المجرم الذي صافحه بحرارة. لكن لا. فهو فقد لزم الصمت عن الأمر حتى سُئل بعد مدّة طويلة ما إذا كان قد حذّر صدّام حسين من استخدام الغاز (ادّعى أنه فعل ذلك لكن ثبت أن ذلك غير صحيح). كما كان صامتاً في ما يتعلّق باجتماعه الودّي أيضاً مع طارق عزيز ـ والذي حصل ذات يوم من آذار/مارس ١٩٨٤ عندما نشرت الأمم المتحدة تقريرها اللعين حول استخدام صدّام للغاز السامّ ضدّ إيران.

علينا أن نتناسى أيضاً أنه في عام ١٩٨٨، وبينما كان صدّام يبيد أهالي حلبجة بالغاز، إضافة إلى عشرات الآلاف من الأكراد الآخرين (عندما استخدم الغاز ضدّ شعبه بحسب كلمات بوش/تشيني/بلير/سترو) زوّد الرئيس بوش الأب صدّام بخمس مئة مليون دولار مساعدات من الحكومة الأميركية لشراء منتجات زراعية أميركية. علينا أن نتناسى أنه خلال الحرب التالية، وبعد انتهاء عملية الإبادة، ضاعف بوش الأب المساعدة إلى مليار دولار، مع موادّ لصناعة الأنتراكس، وطائرات هيلكوبتر، وتلك المادّة «المزدوجة الاستعمال» الشهيرة والتي كانت تصلح لتصنيع الأسلحة الكيميائية والبيولوجية. وبالطبع، علينا تناسي النفط. ذلك أن النفط هو أحد الكماليّات التي لم يجرِ ذكرها أبداً.. إضافة إلى كونه أحد الأشياء القليلة التي عرف بوش الإبن شيئاً عنها إلى جانب رفيقيه الحميميْن في مجال النفط، تشيني وكوندوليزا رايس، وكثيرين غيرهما في الإدارة. في مدّة الثلاثين دقيقة التي استغرقها خطاب بوش عن الحرب ضدّ العراق في سينسيناتي (أشار فيه خلال دقيقتين فقط إلى أمنيته أن لا يتطلّب ذلك عملاً عسكرياً) لم ترِد إشارة واحدة إلى حقيقة أنه ربّما كان لدى العراق احتياطيّ نفطيّ أكبر من الموجود في السعودية، وأن الشركات النفطية الأميركية كانت جاهزة لكسب المليارات في حال وقوع غزو أميركي، وأنه عندما يصبح بوش وأصدقاؤه خارج السلطة فإنهم سيكونون من أصحاب المليارات على قاعدة غنائم هذه الحرب. كان علينا تجاهل كلّ ذلك قبل الذهاب إلى الحرب. وهذا ما قمنا به فعلاً.

في الحرب المستمرّة ضدّ القاعدة، روّجت واشنطن لانتصاراتها، حتى عندما حقّقت أرقاماً قياسية جديدة في الإعدامات العشوائية الخارجة عن القانون. «ضربة نظيفة»: هكذا عنونت الواشنطن بوست وصفها لعملية قتل زعماء القاعدة في اليمن بواسطة الطائرة الأميركية المفترسة من دون طيّار، في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. وقد استخدمت الصحافة الأميركية تعريف إسرائيل لمثل عمليات القتل هذه بأنها «عمليات قتل هادفة» (ردّدت البي بي سي الكلمات نفسها يوم ٥ تشرين الثاني/نوفمبر)... لم يشرح أحد لماذا لم يتمّ اعتقال زعماء القاعدة المهمّين أو محاكمتهم أمام محكمة علنية، أو على الأقلّ أخذهم إلى غوانتنامو للتحقيق. عوضاً عن ذلك، أطلق الأميركيون مجموعة من المشتبه بهم المعتقلين في غوانتنامو.. أحدهم كان قد سُجن حوالي ١١ شهراً في زنزانة منفردة ومن ثمّ

أُعيد إلى أفغانستان... وتبيّن أن عمره مئة سنة.. كان هرماً وخرفاً إلى حدّ أنه لم يستطع قول جملة مفيدة واحدة. لم يكن مفاجئاً إذاً عدم قلق المخابرات الأميركية حول كم من أعوان بن لادن كانت تقاتل في أفغانستان(*).

أصبحت عبارة «قتل هادف» الآن جزءاً من قاموس «الحرب على الإرهاب».. وقد استخدم أرييل شارون هذه العبارة. وكذلك فعل الروس أيضاً في حربهم المتجدّدة في الشيشان بعد «الإنقاذ الكارثي» لرهائن مسرح موسكو الذين احتجزهم ثوّار شيشان في موسكو، وكان بوتين مدعوماً من قِبل بوش وبلير في مجزرته المتجدّدة ضدّ الشعب المسلم المحطّم في الشيشان.

في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢، نشرت صحيفة نيوزويك تقريراً شجاعاً وناجحاً ومخيفاً حول الحرب الشيشانية. في روايتها المؤثّرة عن القسوة الروسية، تحدثت المجلّة عن غارة للجيش الروسي على قرية مسلمة غير محميّة. وقالت إن الجنود الروس دخلوا إلى منزل مدني وقتلوا كلّ مَن كانوا فيه. وكانت إحدى الضحايا فتاة شيشانية. وبينما كانت ممدّدة تحتضر نتيجة جراحها، بدأ جندي روسي باغتصابها. وصرخ زميله: «عجّل كوليا بينما لا تزال حارّة». لكنّ هذا لا يهمّ، فإنّ «الحرب على الإرهاب» كانت تعني أن كوليا والشباب سيعودون إلى العمل قريباً بمباركة بوتين وبوش وبلير.

كتب ذلك الإسرائيلي الشجاع، مردخاي فانونو، الرجل الذي حاول تحذير الغرب بشأن تكنولوجيا الحرب النووية الهائلة التي تملكها إسرائيل، والذي أمضى اثنتي عشرة سنة في سجن انفرادي ـ وتعرّض للخيانة على ما يبدو من قِبل روبرت ماكسويل ـ كتب في سجنه قصيدة يقول فيها: «أنا الموظف، التقني، الميكانيكي، السائق... قالوا: إفعل هذا، إفعل ذلك، لا تنظر إلى اليسار أو اليمين، لا تقرأ النصّ. لا تنظر إلى الآلة بكاملها. أنت مسؤول فقط عن هذا المزلاج، عن هذا الختم المطاطي».

فهم كوليا ذلك. كما فهمه ضابط سلاح الجوّ الأميركي الذي ألقى القنبلة التي قتلت رجال القاعدة في اليمن، وكذلك الطيّار الإسرائيلي الذي قصف المجمّع السكني في غزّة قاتلاً تسعة أطفال ومعهم هدفه من حماس. وقد وصف شارون هذه العملية بأنها «ناجحة». ألم يكن هذا جزءاً من وقاحة قوّة استعمارية؟ فلنستمع هنا على سبيل

(*) كتب أحمد زيدان (وهو مراسل سوري لقناة الجزيرة التقى بن لادن عدّة مرّات وحضر حفلة زواج ابن بن لادن عبد الله) رواية مهمّة حول طريقة القاعدة في المعركة في كتابه الصادر بالعربية «القاعدة بدون قناع». كشف هذا الكنز المؤلّف من ٢١٥ صفحة أن ٢٧٤٢ مقاتلاً من «الأفغان العرب» المنتمين إلى القاعدة (وهم بعبارة أخرى مسلمون يقاتلون لصالح بن لادن) كانوا في أفغانستان خلال حكم الطالبان: كان بينهم ٦٢ بريطانياً، ٣٠ أميركياً، ٨ فرنسيين، ١٦٠٠ شمال أفريقي، ٦٨٠ سعودياً، ٤٨٠ يمنياً، ٤٣٠ فلسطينياً، ٢٧٠ مصرياً، ٥٢٠ سودانياً، ٨٠ عراقياً، ٣٣ تركياً، ١٨٠ فليبينياً. وكان المقاتلون العرب منتشرين في أنحاء أفغانستان كما يلي: ٢٦٠ مقاتلاً في أربع قواعد في قندهار، و١٤٥ في قاعدتين في أورزغان، و١٨٧٠ في سبع قواعد في كابول، و٤٠٤ حول مزار شريف، و٤٠٠ في ثلاث قواعد حول كندوز، و٣٠٠ في محافظة باغمان، و١٧٠٠ في ١٢ قاعدة في نخاهار مقابل المقاطعة الشمالية الغربية من باكستان، و١٦٠ في كونار، و٦٠٠ في خوست، و٤٧٠ في باكتيا.

المثال إلى فرناند ميسونييه آخر جلّاد (منفّذ إعدام) فرنسي في الجزائر خلال حرب الاستقلال ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، يتفاخر في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢ بجرأته على المقصلة. «لا يجب أبداً أن تعطي الشخص وقتاً للتفكير. لأنك إذا فعلت يبدأ بتحريك رأسه وعندها تُصاب أنت بالإرباك. يقع النصل على الفكّ وعليك إنهاء الأمر باستخدام سكّين جزّار. إنها قدرة مُفرطة.. أن تقتل رجلاً آخر». وهكذا قضى المسلمون الشجعان من أبطال حرب التحرير الجزائرية.

عندما اجتاز يوليوس قيصر نهر الروبيكون كتب في «الحروب الغالية»: سبق السيفُ العذل. وعندما صوّت مجلس الأمن الدولي بالإجماع (١٥ مقابل صفر) لتجريد العراق من السلاح يوم ٨ تشرين الثاني/نوفمبر بعد الساعة الحادية عشر، عبر بوش نهر الروبيكون. وقال لنا: «على العالم الإصرار أنّ هذا الحكم يجب أن يُطبّق». كان الروبيكون نهراً كبيراً وعميقاً بالنسبة إلى قوّات قيصر. وسيكون نهر دجلة أقلّ عُمقاً... وكان التخمين أن الدبّابات الأميركية الأولى سوف تعبر للحرب خلال أسبوع واحد.. ولكن ما الذي أخّرها؟... «لم يعد من الممكن التسامح مع الخداع والتراجع»... هذا ما أبلغه بوش للأمم المتحدة... وبعد ثمانية أسابيع من النقاشات في مجلس الأمن، لم يأتِ أيّ شخص على ذكر جرائم يوم ١١ أيلول/سبتمبر ضدّ الإنسانية، لأنّ العراق ببساطة لم تكن له علاقة بـ ١١ أيلول/سبتمبر... سأل بوش في مؤتمر صحفي في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر: «في حال كان علينا استخدام قوّات فإننا نستطيع مع الأصدقاء التحرّك بسهولة ـ وبقوّة ـ للقيام بالعمل». بعبارة أخرى سوف يغزو العراق والأصدقاء هم باختصار البريطانيون.

تستطيع الأمم المتحدة مناقشة أيّ عدم التزام عراقي بالمفتّشين عن الأسلحة، لكنّ الولايات المتحدة سوف تقرّر ما إذا كان العراق قد خرق القرارات الدولية. أي أنه يمكن لأميركا إعلان الحرب دون إذن الأمم المتحدة. لقد اعتبرت البي بي سي، والسي إن إن وكلّ شبكات التلفزة الأخرى أن القرار ١٤٤١ هو الفرصة الأخيرة لصدّام حسين. وفي الواقع كان ذلك هو الفرصة الأخيرة للأمم المتحدة. كان من السهل التعرّف إلى المصائد. فقد أصرّ سفير أميركا في الأمم المتحدة جون نيغروبونتي ـ صار لاحقاً سفير بلاده في العراق ـ على التأكيد أن قرار مجلس الأمن «لا يتضمّن نقاطاً مخفيّة». لكنه كان كذلك بالفعل. سمح لمجلس الأمن بمناقشة عدم التزام العراق دون منع الولايات المتحدة من مهاجمة بغداد. قال نيغروبونتي: «بطريقة أو بأخرى، فإن العراق سيجرّد من السلاح». وتصرّف سفير بريطانيا في الأمم المتحدة جيرومي غرينستوك بشكل ملائم تماماً. «واضح تماماً»، «خيار لا لبس فيه»، عواقب خطيرة، «لا أساليب غامضة بعد الآن»... تستطيع تقريباً الإحساس بالعصا. لا إيراد بالطبع لاستخدام المخابرات الأميركية وتوظيفها لآخر فريق مفتّشين عن الأسلحة تابع للأمم المتحدة في العراق. لقد أرادت واشنطن ورقة تين من الأمم المتحدة لشنّ الحرب على العراق وكانت ترغب في القيام بعملية تفتيش على أمل رفض العراق لها.

أنا الآن في سانت لويس، ميسوري، أستعدّ لإلقاء محاضرة لطلاب الجامعة حول الحرب القادمة في العراق. إنه منتصف تشرين الثاني/نوفمبر، وفي غرفة فندقي كنت أزيل الغبار عن وصفي لبن لادن، وكيف التقيته في

السودان وأفغانستان. . . . لم نسمع صوته منذ معركة طورا بورا في أفغانستان رغم أن قنوات اتصالي أكّدت لي أنه على قيد الحياة. فتحت جهاز التلفزيون على قناة السي إن إن وبينما أنا جالس في غرفتي فوق الميسيسيبي، سمعت صوته. إنه على قيد الحياة. ولم يتطلّب الأمر مني سوى بعض الاتصالات التلفونية القصيرة مع مصادري في الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا للتأكّد من أنّ صوت أسامة بن لادن هو حقّاً الصوت الذي كان يهدّد الغرب في خطاب قصير بثّته قناة الجزيرة. إذاً، الملياردير السعودي، رجل الكهف، «الشرّير» (أنا هنا أنقل عنوان النيوزويك) الملتحي، الزاهد الذي فشل أكبر جيش في العالم في العثور عليه، ما زال معنا.

خرجت المخابرات الأميركية (أبطال ١١ أيلول/سبتمبر الذين سمعوا عن عرب يتدرّبون على الطيران ولكن لم يقوموا بإخبارنا في حينه) بالقمامة المعتادة للإعلام الأميركي. ربّما كان هو. إنه حتماً هو. إن الصوت الخافت يعني أنه ربّما أصيب. إنه يتكلّم بسرعة لأنه ربّما أصابه الأميركيون. غير صحيح. فقد أُجبرت الولايات المتحدة أخيراً على الاعتراف يوم ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر أن الرجل الذي ادّعى بعضهم أنه مات ما زال في عالم الأحياء، وهو يطلق ذلك النوع من التهديد الذي يؤكّد المخاوف القائمة لزعماء الغرب. إذ يقول بن لادن: «كما تقتلوننا، سوف نقتلكم».

عندما تمّ التسجيل، لم يكن بن لادن يتحدّث عبر شريط مسجّل بل كان يتحدّث عبر الهاتف. كان الرجل في الجانب الآخر من الخطّ ـ في باكستان ربّما ـ يُمسك بجهاز التسجيل. وربّما لم يكن في البلد نفسه. يتحدّث أسامة بن لادن دائماً ببطء. لكنّ صوته كان سريعاً والسبب في ذلك بسيط على ما يبدو، فبطارية التسجيل شبه فارغة. وعندما عادت الجزيرة وبثّته بالسرعة المطلوبة، كان الصوت طبيعياً.

تُعتبر الكتابة عن بن لادن الآن إحدى أصعب المهامّ الصحفية على الأرض. عليّ أن أقول ما أعرفه. عليّ أن أقول ما أعتقده صحيحاً. عليّ أن أسأل لماذا سجّل هذا الشريط. بدأت أكتب تقريري لصحيفة الإندبندنت ومالت روايتي نحو الأسئلة: لماذا؟. . . لأيّ سبب؟. . . لماذا الآن؟ يتطلّب الأمر طريقة جديدة، فظّة، من الكتابة لقول الحقيقة، فيها استخدام القوسين والنقاط، والمعرفة والشكّ، والاحتمال والتخمين، وكانت كلّها تعمل بعضها ضدّ بعض. نجا بن لادن من قصف طورا بورا. حقيقة، هرب بن لادن عبر باكستان. ثمّة قناعة متزايدة باحتمال أن يكون بن لادن الآن في السعودية.

إذن إليكم هنا ما أظنّ أن هذا الشريط المسجّل كان يعنيه رغم كلّ النواقص والجمل المشروطة. إن الرواية مزعجة جدّاً للغرب. وإنني مُرتعب من عواقب هذا الشريط. إن إحدى رسائله الموجّهة إلى بريطانيا (قبل الآخرين وبعد الولايات المتحدة) هي: انتبهوا. وكان طوني بلير على حقّ هذه المرّة بالتحذير من هجمات جديدة رغم أن اتصال بن لادن الهاتفي غير مراقب. لكنّه كان بن لادن. علينا البدء من طورا بورا في خريف ٢٠٠١. تحت القصف المكثّف للقوّة الجوّية الأميركية، أدرك مقاتلو القاعدة (بن لادن) أنهم لا يستطيعون الاستمرار إلى ما لا نهاية في الكهوف المعقّدة لجبال جلال أباد البيضاء. كان بن لادن معهم. وكان رجال القاعدة قد تطوّعوا للقتال حتى

الموت المحتّم ضدّ أمراء الحرب الأفغان المأجورين للأميركين، لكنّ بن لادن رفض الذهاب في البداية، وقال إنه يرغب في الموت معهم. وقد أصرّ حرّاسه الأكثر ولاء ومستشاروه الكبار أن عليه الرحيل. في النهاية، ترك طورا بورا في حالة من الحزن، وأخذه حرّاسه بسرعة إلى أسفل جبل، في حالة من الفوضى مماثلة لتلك التي أنزل فيها رجال الأمن نائب الرئيس الأميركي إلى الطابق السفلي في البيت الأبيض عندما انقضّ القتلة الخاطفون على واشنطن يوم ١١ أيلول/سبتمبر. إنّ كلّ ما تقدّم يمكن وضعه تحت عنوان «مصدر موثوق».

ذهب بن لادن إمّا إلى كشمير (أمر محتمل مع أنه مستبعد) أو كراتشي (أكثر احتمالاً). أقول ذلك لأنّ بن لادن قال لي مرّة إن لديه العديد من المحبّين في أوساط رجال الدين السنّة في هذه المدينة الباكستانية الكبيرة والحارّة والخطرة. كان يتحدّث عنهم دائماً على أنهم أخوته. لقد أعطاني تلك الملصقات باللغة الأوردية التي صنعها هؤلاء العلماء ووزّعوها على جدران كراتشي. كان يحبّ رواية خطبهم الدينية لي، لذلك سوف أذهب إلى كراتشي. لكن ربّما كنت على خطأ. ففي الأشهر التي تلت، كانت هناك دلائل قليلة على أنه كان لا يزال على قيد الحياة، مثل رائحة الدخان في غرفة بعد أيام من ترك المدخّن لها. قِيل لي إنه ما زال على قيد الحياة (حقيقة، لكن ليس من مصدر مؤكّد). وكان يحاول إيجاد طريقة تواصل مع العالم الخارجي دون الاجتماع بأي غربي. حقيقة مطلقة. كان شريط تسجيله الأحدث (الذي استُبعد من قِبل مصادر الاستخبارات الأميركية الشهيرة باعتبار أنه قديم لأنه لم يُشر إلى أيّ أحداث حصلت منذ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١) جديداً (إمكانية قوية مدعومة من مصدر جيّد ـ مع أنه غير موثوق).

لذلك لماذا الآن؟ كان الشرق الأوسط يدخل مرحلة جديدة وأكثر مأساوية في تاريخه، ممزّقاً بالحرب بين إسرائيل والفلسطينيين ومواجهاً التأثيرات الملتهبة لغزو أنغلو ـ أميركي مُحتمل على العراق. ربّما أدرك بن لادن مرّة أخرى الحاجة إلى التوجّه إلى العالم العربي... وكان تسجيله، رغم التهديدات لبريطانيا والدول الغربية الأخرى، موجّهاً بشكل أساسي إلى أهمّ جمهور له: المسلمين العرب. إن صمت بن لادن في هذا الوقت من تاريخ الشرق الأوسط كان أمراً لا يُغتفر في نظره. ومن أجل الردّ على الادّعاءات التي ستطلع على الناس بالقول إنّ هذا التسجيل يمكن أن يكون قديماً، فقد سرد بقوّة الضربات التي وُجهّت إلى القوى الغربية منذ خبر «موته» المزعوم: الانفجارات ضدّ تقنيي الغوّاصة الفرنسية في كراتشي، والكنيس اليهودي في تونس، ومجزرة بالي، والحصار الشيشاني لمسرح في موسكو، وحتى عملية اغتيال الدبلوماسي الأميركي في الأردنّ. أجل.. كان يقول إنه «يعرف كلّ هذه الأشياء». وإنه يؤيّدها. كان يقول لنا إنه ما زال هنا. ربّما يستنكر العرب هذا العنف، لكن بعضهم لن يخفوا تعاطفهم معه. فأمام قسوة إسرائيل على الفلسطينيين وتهديدات أميركا للعراق، هناك عربي واحد مستعدّ للردّ. وكانت هذه رسالته إلى العرب.

كان بن لادن يكره صدّام حسين دائماً. كان يكره تصرّف الزعيم العراقي غير الإسلامي، يكره علمانيته، واستخدامه الدين لتشجيع الولاء لحزب البعث الذي أسّسه مسيحي. كانت محاولة أميركا ربط القاعدة بنظام بغداد دائماً أحد ادّعاءات واشنطن البالغة السخف. وكان بن لادن قد أخبرني بمدى كراهيته لصدّام. لذلك كانت إشارته

إلى «أبناء العراق» مثيرة للاهتمام. فهو لم يُبدِ سابقاً أيّ إشارة إلى حكومة بغداد أو صدّام. لكن مع عقوبات الأمم المتحدة التي لا تزال تقتل الآف الأطفال (ومع كون العراق هدفاً لغزو أميركي محتمل) فإنه لم يكن ليستطيع تجاهل ذلك. لذا تحدّث عن «أطفال العراق» وعن «أبنائنا في العراق» مشيراً إلى مسلمين عرب صدف أنهم كانوا عراقيين، عوض الحديث عن عراقيين وطنيين. لكنّه لم يذكر صدّام. وكان من السهل توقّع كيف ستحاول الإدارة الأميركية استخدام هاتين الإشارتين لإيجاد رابط آخر كاذب بين بغداد والقاعدة.. لكن بن لادن (وهو من الذكاء بخيث يمكنه التنبّؤ بذلك) شعر بوضوح أن التعبير عن تأييده لعرب العراق سوف يغلب أيّ سوء استخدام لكلامه من قِبل واشنطن. وبالطبع فإن ذلك كان يتمّ تحت عنوان «التوقّع» (مع أن عبارة «شبه مؤكّد» كانت أقرب إلى الحقيقة). وقد استخدمت واشنطن بالفعل هذه الجمل لتدعيم ادّعائها الكاذب بوجود علاقات بين بن لادن وصدّام. وبالعودة إلى عام ١٩٩٦، أبلغني بن لادن أنّ من الممكن أن تتعرّض القوّات البريطانية والفرنسية الموجودة في السعودية لهجوم من قِبل أتباعه وكذلك القوّات الأميركية. وفي عام ١٩٩٧ قام بتغيير قائمة الأهداف هذه، واستثنى الإنكليز والفرنسيين من أيّ هجمات مقترحة. لكن في الشريط الجديد عادوا إلى اللائحة مع كندا وإيطاليا وألمانيا وأستراليا. وتقع بريطانيا في رأس القائمة.

كانت الرسالة الموجّهة إلينا (أي الغرب) بسيطة وهي تكرّرت ثلاث مرّات. إذا أردنا دعم جورج بوش، «فرعون العصر» (وفرعون هو الاسم الذي وصف قتلة الرئيس المصري به أنور السادات إثر اغتياله منذ أكثر من عقدين) فإننا سندفع الثمن. «ما هي مصلحة حكوماتكم بالتحالف مع عصابة مجرمين في البيت الأبيض ضدّ المسلمين..؟».. سمعت مرّة بن لادن يستخدم العبارة العربية «عصابة مجرمين» مرّتين خلال حواره معي. وكان هذا عين ما وصف به الغربُ القاعدة. قبل بضعة أيام، وبعد أن ألقيت محاضرة في كارولينا الشمالية، سألتني سيّدة من الجمهور متى ستذهب أميركا إلى الحرب ضدّ العراق. أبلغتها أنّ عليها أن تراقب الصفحة الأولى في صحيفة نيويورك تايمز والواشنطن بوست حتى صدور أول حملة تشهير ضدّ مفتّشي الأمم المتحدة. وقد بدأت حملة التشهير آنذاك في أوائل كانون الأول/ ديسمبر. وكان أحد مفتّشي الأمم المتحدة (وهو رجل مرشّح لوازرة الخارجية) متورّطاً في فيلم جنسي. وكان مسؤول آخر رفيع (مرشّح أيضاً لمنصب في وزارة الخارجية) قد طُرد من عمله كمسؤول لوكالة الحماية النووية. تساءلت: لماذا كان الأميركيون يريدون إذاً وضع هولاء الرجال في فريق التفتيش؟ أمن أجل أن يقوموا بإسقاطهم لاحقاً؟ بدأت الحملة الرسمية على مفتّشي الأمم المتحدة منذ أيلول/ سبتمبر عندما أعلنت النيويورك تايمز من خلال جوديث ميلر أن فريق التفتيش الأساسي، استناداً إلى المفتّش السابق دايفيد كاي، أصبح في «مهمّة مستحيلة»... وكان المصدر «بعض المسؤولين ومفتّشين سابقين»...

كان الرئيس جورج بوش يركّز بشدّة مجدّداً على الدفاعات العراقية المضادّة للطائرات والتي كانت تطلق النار على الطيّارين الأميركيين والبريطانيين (رغم أن منطقة الحظر الجوّي لم تكن لها علاقة بعمليات تفتيش الأمم المتحدة ولم يكن لها بالأحرى أدنى علاقة بالأمم المتحدة)... وبدا أن عمليات التفتيش مستمرّة دون إعاقة في بغداد. لكن ماذا كان بوش يخبرنا؟ «حتى الآن، لم تكن الإشارات مشجعة». ماذا كان يعني هذا؟ كان يعني ببساطة

أن أميركا خطّطت للذهاب إلى الحرب مهما كانت نتيجة مفتشي الأمم المتحدة. وأقنعت النيويورك تايمز نفسها (وقد صارت الآن الناقل الأمين لتصريحات مسؤولين أميركيين مجهولين) بأن جيران العراق العرب كانوا «مستعدّين لدعم عملية عسكرية أميركية». رغم التحذيرات الكثيرة للزعماء العرب، المتكرّرة مجدّداً، شهراً بعد شهر، ومطالبة أميركا بعدم الذهاب إلى الحرب، كان هذا هو الكلام السخيف الموجّه إلى داخل الولايات المتحدة.

وفجأة خرجت الحكومة البريطانية بأحد ملفّاتها الشهيرة حول خرق صدّام حسين لحقوق الإنسان. أجل، نقولها مجدّداً، كنا نعرف عن غُرف الاغتصاب والإعدامات والتعذيب عندما دعمنا بقوّة غزوه لإيران عام ١٩٨٠. إذاً، لماذا نعود إليه مجدّداً؟ لاحظت فوراً نقطة صغيرة في الملفّ البريطاني الأخير، تكشف أن عزيز صالح أحمد، «مقاتل في الجيش الشعبي»، يشغل منصب «مغتصب شرف النساء»... وأنا الآن أتذكّر هذا الاسم، إنه عزيز صالح أحمد نفسه الذي ورد في الصفحة ٢٨٧ من كتاب لكنعان مكّية الذي سمّى نفسه يومها سمير الخليل.. والكتاب مطبوع وموزّع عام ١٩٩٣. وحتى مع تجاهلنا للجدال السجالي الذي حصل حول هذا الاكتشاف في ذلك الوقت، فماذا تفعل الحكومة البريطانية اليوم حين تعيد صياغة قصّة عزيز صالح أحمد وتنشرها مجدّداً كما لو أننا اكتشفناها للتوّ، بينما نعرف أن عمرها يتجاوز الثماني سنوات (استناداً إلى مكّية) إذ إنها رُوِيت لنا لأوّل مرّة منذ أكثر من عقد؟

في هذا الوقت، كان مستشارو السياسة الخارجية عند بوش مشغولين بتصعيد صراع الحضارات... قال كنيث ألدمان، الذي كان في مجلس إدارة السياسة الدفاعية في البنتاغون، إن وصف بوش الإسلام بالدين المسالم «مسألة بحاجة إلى نقاش». الإسلام حربي بنظر ألدمان. «بكلّ الأحوال فإن مؤسّسه، محمّد، كان محارباً وليس داعية سلام مثل المسيح». ثم هناك إليوت كوهين من مدرسة جون هوبكنز للدراسات الدولية والذي كان أيضاً ضمن جهاز البنتاغون، والذي يقول الآن بأن عدوّ الولايات المتحدة ليس الإرهاب بل «الإسلام المقاتل». إن ألدمان وكوهين لا يتنازلان عن ديانتهما لكنّ الإسلام كان هدفهما بشكل واضح. قال بات روبرتسون، المذيع المتديّن (الذي كان يدير محطّة الإذاعة في جنوب لبنان التي كانت توجّه التهديدات إلى القرويين المسلمين وقوّات الأمم المتحدة) إن هتلر كان سيّئاً لكنّ ما يريد المسلمون فعله باليهود أسوأ». ووصف جيري فولويل، أحد متشدّدي اليمين المتديّن، النبيّ «بالإرهابي». أمّا فرانكلين غراهام فقد قال إن الإسلام «شرّ»، وذلك حين كان يتحدّث في حفل تنصيب بوش... وفرانكلين هو ابن بيلي غراهام الذي قال ملاحظات معادية للساميّة في تسجيلات الرئيس نيكسون الشهيرة...

لقد تجاهلنا هذه الخطابات البلاغية المنمّقة والخطرة.. وكان ذلك على حساب أمننا وسلامنا. ولكن هل كان بلير جاهلاً بها؟ ألم يعلم بوجود بعض الرجال الخطرين الذين كانوا يحومون حول بوش ويخطّطون؟ هل كان يعتقد حقاً أن البريطانيين سوف يذهبون عاطفياً إلى الحرب بسبب «ملفّات» وتهييج مستمرّ لذكرى جرائم صدّام؟ ألم نكن نريد من المفتّشين الدوليين القيام بعملهم؟ إذا كانت مهمّة المراسل وصف أكاذيب رجال الدولة، فإنّ صحيفة الإندبندنت رأت أن من واجب الصحافي إدانتهم أيضاً.

كتبت في صحيفتي يوم ٤ كانون الأول/ديسمبر: «أعتقد أننا أسّسنا للحرب وأن بريطانيا ستنضمّ إلى أميركا في غزو العراق مهما كان ما اكتشفه المفتّشون». في الواقع، نحن مستعدّون للإمكانية المخيفة، المذهلة، الشنيعة وهي أن المفتشين التابعين للأمم المتحدة لن يجدوا أيّة أسلحة دمار شامل في العراق. الأمر الذي يتركنا أمام استنتاج وحيد: «لم يكونوا جيّدين في عملهم. كان عليهم أن يعملوا في مجال النفط»(*).

بعد محاضرة لي في نيويورك، اقترب مني شابّ أميركي، عضو في فريق استخبارات القوّات الأميركية العائد حديثاً من أفغانستان، وأطلعني على صور لمشتبهي القاعدة، مضروبين ومقيّدين بينما كانوا يقادون إلى طائرة نقل أميركية أخذتهم إلى قندهار. إنهم يعيشون في غُرف تضمّ بين ثمانية وعشرة رجال. أُعطوا طعاماً وأغطية لكن لم يُسمح لهم بأيّة خصوصيّة... وكانوا مجبرين على التبوّل وقضاء الحاجة علناً لأن الأميركيين يراقبون أسراهم طيلة الوقت. اتفقنا على اللقاء في مقهى في منهاتن صباح اليوم التالي.. وقد جاء في الوقت المحدد لكنّه كان متوتّراً، يلتفت وراءه، قلقاً من أن يكون مراقباً، واضطرب في مقعده عندما رنّ هاتفي الخليوي..

قال: «القوّات الأميركية لم تفشل فقط في القضاء على أسامة بن لادن بينما كانت تستعدّ للحرب في العراق، بل وجدت من الصعب تقريباً القضاء على تنظيم القاعدة لأن رجال بن لادن لجأوا إلى الأساليب البدائية في الاتصالات والتي تعزل أيّ عضو في القاعدة عن أيّة معلومات». كانت تكهّنات هذا الرجل مختلفة كلّياً عن تصريحات وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد المختصرة. حتى في باكستان، قال لي الرجل، فإن ضبّاط الصفّ الثاني في الجيش الباكستاني يحذّرون عناصر القاعدة لتجنّب الغارات الأميركية المنظّمة. قال: «لم نعتقل مَن يُفترض بنا اعتقالهم. كان هناك توقّع أكبر من قِبلنا أنّ التكنولوجيا تستطيع القيام بأكثر ممّا قامت به. لقد اكتشفوا بشكل أساسي كيف نوقع بهم. وأدركوا أنهم إذا تواصلوا عبر الأجهزة، فإن عناصر الجوّالة سيقتفون أثرهم. لذلك بدأوا باستخدام سُعاة ينقلون رسائل باليد أو ينقلون الرسائل مشافهة، مما أربك نظامنا. إن استخباراتنا تستخدم التقنية العالية... بينما عادوا هم إلى الأساليب البدائية التي لا يستطيع الأميركيون التأقلم معها». في الأساس جرت «اعتقالات لشخصيات كبيرة»، لكنّ خلايا القاعدة لا تستطيع معرفة ما يفعله الأعضاء الآخرون. «كانوا أكثر تكيّفاً وأصبحوا أكثر تحرّكاً. أمسكنا باثنين من كبار رجال القاعدة لكن لم يكن بإمكانهما إخبارنا بالتحديد أيّ عمليات ستحصل. كانوا يعرفون أن شيئاً ضخماً يتمّ التخطيط له لكن لم تكن لديهم أدنى فكرة عن ماهيّته». كان ضابط

(*) لفترة طويلة، كانت برامج الصحف البريطانية تهيّئ قرّاءها للحرب: خلال الذكرى الأولى لهجمات نيويورك وواشنطن، تبعت صحف الأكسبرس بشكل عبوديّ خط بوش ـ بلير ومخابراتهما. في ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، أعلنت الصانداي إكسبرس أن مصدر مخابرات رفيع المستوى في واشنطن كشف لها «المدى المرعب لأسلحة الدمار الشامل عند صدّام». وتحت عنوان «صدّام لدينا البرهان»، وصفت الصحيفة أسلحة صدّام بأنها «أسلحة جرثومية كافية لقتل كلّ سكّان لندن ونيويورك»: ٣٠ ألف ليتر من مادّة botulism القاتلة (بكتيريا سامّة) وستّة أطنان من غاز الأعصاب؛ ستّ محطات نووية يُشرف عليها علماء روس وكوريون، «وآلات للكلى تمّ تجهيزها لقدح زناد قنابل نووية». في اليوم التالي، ادّعت الدايلي إكسبرس تحت عنوان «هجوم نووي خلال أشهر» أن بلير كان يحذّر من هجوم كاسح سيشنّه جزّار بغداد ضدّ بريطانيا يمكن أن يحدث خلال بضعة شهور. وقد ثبت لاحقاً أن كلّ ذلك كان من نسج الخيال.

الاستخبارات الذي أمضى أكثر من ستّة أشهر في أفغانستان عام ٢٠٠٢ عُرضة للانتقاد لإبلاغه عن رشيد دوستم، أمير الحرب الأوزبكي المتورّط في خنق حوالي ثلاثة الآف أسير من طالبان في حاويات الشاحنات. «كان دستم مذنباً بالتأكيد وكانت الولايات المتحدة تعرف أنه مذنب لكنه كان رجلنا ولذا فإننا لن نقول ذلك... من الأمور التي فشلنا في القيام بها تشكيل حكومة. لقد تركنا أمراء الحرب يحصّنون أنفسهم والآن نحن لا نستطيع الوصول إليهم». كان رجال الأمن الأميركيون يبحثون في كراتشي عن قتلة دانيال بيرل، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن أهدافهم طارت من مخابئها وذلك بسبب الدعم السرّي لصغار الضبّاط في الجيش الباكستاني. «كنّا نذهب مع الباكستانيين إلى مكان ما لنفاجأ بعدم وجود أحد هناك لأنه عندما كان يعلم ضبّاط الصف الثاني بخططنا فإنهم كانوا يسرّبون المعلومات. إن حرس الحدود في المحافظة الشمالية الغربية الحدودية هم من الصف الثاني في الجيش ـ ومشاعرهم معادية للغرب أكثر بكثير من الجيش الباكستاني الرئيسي . في النهاية كان علينا تنسيق كلّ شيء بواسطة إسلام أباد».

عندما سألت عن السجناء، أصبح ضابط القوّات الخاصّة قلقاً ومتردّداً. طلب فنجان قهوة آخر: «في قندهار، التي نسمّيها منطقة نفوذهم، أعطي السجناء طعاماً وأغطية وأحذية وحقائب «أديداس» لكن لم يكن عندهم مراحيض. ولا جدران لأماكن عيشهم لأنه كان علينا مراقبتهم طيلة الوقت. ولا خصوصية لهم في الحمّامات. كان بعضهم يستمني أمام نساء من الحراس. لم تكن لدى الحرّاس أيّة ردّة فعل على ذلك. إنهم جنود. عندما تجري التحقيقات يسمح للسجناء بالجلوس. ولن أدخل في تحديد الأسئلة التي نطرحها عليهم». أما بالنسبة إلى الصحفيين الغربيين الذين التقاهم في بغرام، فقد كان لدى ضابط المخابرات الأميركي وجهة نظر متدنّية حيالهم. «إنهم لا يفعلون سوى أن ينتظروا طيلة النهار حول قاعدتنا. وعندما يكون لدينا عملية خاصّة، كنّا نقدّم للصحفيين بعض التسهيلات للذهاب في دورية مع القوّات الخاصّة، وإذا ذهبوا ـ أنت تعلم، «نحن في دورية مع القوّات الخاصّة» ـ كانوا لا يدركون أننا كنا نأخذهم بعيداً لنقصيهم عن طريقنا».

إذا كان بالإمكان خداع الصحفيين من قِبل الأميركيين، فقد أصدر الأفغان أحكامهم الخاصّة حول التاريخ الراهن. فبينما كانت القوّات الخاصّة الأميركية تجوب شوارع قندهار في سيّارات الجيب، كان أهالي هذه المدينة المضيافة الحارّة يزورون مقبرة موحشة بكلّ تقوى المؤمنين واحترامهم. تحت كومة من الطين الرمادي الجافّ كان يقبع «شهداء» القاعدة. هنا في ١٥٠ قبراً، يرقد الرجال الذين صمدوا حتى النهاية في ردهات مستشفى المدينة، وهم يطلقون النار على الأميركيين وحلفائهم الأفغان حتى قُتلوا بين المجارير والقاذورات. وهم يُعتبرون الآن قدّيسين. ويُخفي باطن أرض أخرى جثث أتباع أسامة بن لادن الذين قاتلوا في مطار قندهار في المعركة الأخيرة قبل سقوط طالبان. إنهم عرب وباكستانيون وشيشان وكازاخستانيون وكشميريون... وكلّهم ـ هذا إذا صدّقت الإعلام ـ كانوا مكروهين ومنبوذين من قبل سكّان قندهار البشتون.

لا صحّة لهذا إطلاقاً. . . فسكّان مقرّ خلافة طالبان السابقة كانوا يزورون المقابر بالمئات. أيام الجمعة، كانوا يأتون بالآلاف قاطعين مئات الأميال، حاملين معهم مرضاهم والمحتضرين. ويقال إن زيارة لمقبرة رجال بن لادن

سوف تشفي من المرض والوباء، وكذلك الركوع عند مقابر القدّيسين. وتقوم النساء المسنّات بغسل الشواهد الطينية بلطف ويمسحن وجوههنّ بالغبار الذي يغطّيها، ناظرات بخشوع إلى الأعلام الطويلة التي ترفرف في الريح المثقلة بالغبار. كانت قبرستان قندهار، مكان المقابر، عِبرة سياسية ودينية لكل الذين جاؤوا إلى هنا.

أعلن عامل في وكالة الغوث الغربية بوقار: «يُنصح الأجانب بالبقاء بعيداً عن مقبرة القاعدة. يمكن أن تكون في خطر هناك». لكن عندما زرت آخر مرّة مقبرة رجال بن لادن، كانت هناك الرياح القويّة والعاصفة الرملية المخيفة. أبقى العديد من الرجال أطراف أرديتهم حول وجوههم، وعيونهم القاتمة تحدّق بالأجنبي بينهم، بينما يقف جنديان من الجيش الأفغاني الجديد مكلّفيْن من قِبل السلطات الموالية للأميركيين... كانوا يراقبون الزوّار، وهم يضعون أوعية مملوءة ملحاً على القبور ويأخذون قطع طين يلحسونها بألسنتهم. وكان هناك رجل مسنّ من هلمند، وضع حجارة وملحاً وطيناً على القبور ـ سلّم عليّ والملح بين أصابعه ـ وقد جاء لأنه مريض. قال: «أعاني من ألم بركبتي والتهاب بالدماغ وسمعت أنه إذا أتيت إلى هنا سوف أشفى. وضعت الملح والحبوب على القبور وسوف أجمعها لاحقاً وآكل الملح وآخذ طيناً من القبر إلى المنزل». يسمّي البشتون جلب الملح إلى قبور القديسين خوردا.

وجاء رجل أكبر سنّاً من أروزغان مع والدته. «تعاني والدتي من أوجاع في القدمين والظهر وقد أحضرتها إلى قندهار ليعالجها الأطبّاء. لكن عندما علمت بالروايات حول قبور هؤلاء الشهداء ـ وربّما شفوهم ـ أحضرت أمّي، وهي أكثر سعادة هنا من الذهاب إلى الأطبّاء». وقد شاهدت والدته المسنّة تجثو على ركبتيها، وتزيل الغبار عن القبور الطينية، وتصلّي وتبكي. وبدا الجنديّان الحكوميّان مستسلمين للاستغراق الغيبي نفسه. وأبلغني شاب غير ملتح يحمل رشّاش كلاشينكوف على كتفه: «شاهدت بنفسي أشخاصاً يتعافون هنا. يصبح الناس بحالة جيّدة بعد زيارة القبور. رأيت رجلاً أصمّ عاد يسمع من جديد وشاهدت الأخرس يتكلّم. لقد تعافوا».

ليس هذا الوقت المناسب ـ وليس المكان أيضاً ـ لتكذيب مثل هذا الاقتناع. كان عصف الرمل فوق المقبرة بمثل خشونة بن لادن. وكانت مقبرة المدينة أوسع ـ هناك أميال من المقابر القبليّة في محيطها ـ لكن كان موتى القاعدة هم الذين يجذبون المحزونين. بأي شيء يجذبونهم؟ بالشائعات وبالأسطورة حول الشفاء؟ بفكرة أن هؤلاء الشهداء قاوموا الأجانب حتى النهاية، وفضّلوا الموت على الاستسلام بإن الشهداء من غير الأفغان قاتلوا مثل الأفغان؟

إذاً، كان هناك تواطؤ سرّي.. محاولة تضليلية لاستخدام الأمم المتحدة كورقة تين للحرب، وجمهور بريطاني واسع غير متعاطف، وصحفيون تمّ استخدامهم كمروّجين... وأخيراً: عدوّنا ـ طاغية عربي كان يعتبر سابقاً صديقاً للغرب ـ تتمّ مقارنته مع أسوأ المجرمين في الحرب العالمية الثانية. كان هذا عالمنا الخاصّ في شتاء ٢٠٠٢.

لكن حصل أيضاً أن كان هذا عالمنا قبل حوالي نصف قرن.. صراع ليس من أجل النفط بل من أجل قناة

ضيّقة من صُنع البشر تربط البحر الأبيض المتوسّط بالبحر الأحمر. لقد لاحقتْ أزمة السويس الحكومات البريطانية دائماً منذ ١٩٥٦: لاحقتْ مارغريت تاتشر خلال حرب الفوكلاند عام ١٩٨٢، وتحرّكت ذكراها الآن بين وزارة الخارجية ودوانغ ستريت، بين جاك سترو وطوني بلير. ذلك أن أزمة السويس دمّرت رئيس وزراء بريطانياً، ومعه التحالف الأنغلو ـ أميركي تقريباً.. ورمزت إلى نهاية الإمبراطورية البريطانية. لقد قتلت العديد من المدنيين ـ جميعهم مصريّون بالطبع ـ وجلبت العار للحلفاء عندما اقترفوا جرائم حرب. وهي ارتكزت على كذبة ـ أن القوّات الفرنسية والبريطانية يجب أن تنزل في مصر للفصل بين الجيشين المصري والإسرائيلي، رغم أن البريطانيين والفرنسيين تواطؤوا مسبقاً مع الغزو الإسرائيلي. وقد وصف رئيس وزراء بريطانيا أنطوني إيدن العقيد جمال عبد الناصر بأنه «موسوليني النيل».. وقبل سنة تقريباً كان إيدن يصافح بحرارة عبد ناصر في تبادل للتهاني حول معاهدة بريطانية ـ مصرية.. ظلال من لقاء دونالد رامسفيلد الودّي مع «هتلر بغداد» عام ١٩٨٣. على أنّ القوات البريطانية، السيّئة التجهيز والتي عاملت الأعداء المصريين بعنصرية، ما لبثت أن غادرت مصر ذليلة، وقد نبشت رُفات قتلاها من قبورهم لشحنها إلى بلادها، لئلّا يعبث المصريون بتلك الجثث.

كنت دائماً معجباً «بالجانب الآخر»، كيف يفكّر أو يقاتل الخاسرون ـ وأحياناً لا يكونون خاسرين مطلقاً. وعندما كنت مع الجيش العراقي خلال حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ مع إيران، كنت أرغب دائماً في الحديث إلى الجنود الإيرانيين على الطرف الآخر من الجبهة. وعندما كنت مع الإيرانيين صمّمت على الحديث مع مناوئيهم العراقيين. وعندما قام حزب الله بقتال جيش الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان، أطلت الاستماع إلى تحليلات الجيش الإسرائيلي حول حزب الله ـ بعيداً عن الرواية «الإرهابية» المعتادة التي يصنعها السياسيون الإسرائيلون، أظهر الضبّاط الصغار غالباً احتراماً لخطط مقاتلي حزب الله. وفي عام ٢٠٠٣، عشت في بغداد بين العراقيين بينما كانوا يُقصفون ويُهاجمون من قِبل قوّة الغزو الأنغلو ـ أميركية. وكنت صغيراً جدّاً لتغطية السويس ـ كانت والدتي مسرورة على ما أذكر لكوني صغيراً جدّاً لأصبح جندياً بريطانياً في غزو مصر ـ لكن إبّان الذكرى الثلاثين لهذه الأزمة، ذهبت للحديث مع المصريين الذين استولوا على قناة السويس وحاربوا الإنكليز، وأمضيت أسابيع عدّة في القاهرة أستمع إلى الذين تجرّأوا على معارضة الإمبراطورية البريطانية والأمّة الفرنسية والغُزاة الإسرائيليين.

لا يسمّيها المصريون «أزمة السويس» أو حتى «حرب السويس».. بل يشيرون إليها دائماً «بالعدوان الثلاثي»، بحيث لا ينسى مواطنوهم أن القوى العظمى الأوروبية تحالفت مع إسرائيل لغزو الجمهورية الجديدة التي أقامها جمال عبد الناصر. كانت أزمة السويس معقّدة، لكنها تحرّكت بمسار دائري حول قرار عبد الناصر ـ ضدّ الاتفاقيات الدولية ـ تأميم القناة والاستيلاء على شركة قناة السويس. وكانت البنوك ورجال الأعمال البريطانيون قد سيطروا لفترة طويلة على الاستثمار في مصر، وكانوا يملكون ٤٤ في المئة من الاستثمار في الشركة التي فاوض لشرائها في الأساس بنيامين دزرائيلي. وقوبل استيلاء عبد الناصر على الشركة بتأييد الجماهير المصرية التي كانت مذهولة من انسحاب أميركا في وقت سابق من مشروع السدّ العالي في أسوان. وكانت كلمة السرّ للسيطرة على القناة «دي ليسبس»، وهذا اسم المهندس الذي بنى القناة عندما كانت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

وعندما لفظ عبد الناصر اسم الرجل الفرنسي في خطاب بالإذاعة من الإسكندرية يوم ٢٦ تموز/يوليو ١٩٥٦، هاجم ١٢ ضابطاً من معاونيه مقرّ قيادة الشركة الكبير واستولوا عليه..

كان من بينهم النقيب علي ناصر وهو قبطان خجول عمره ٢٦ سنة ذو شارب رفيع، ويعمل في قناة السويس. وقد ارتقى درجات المبنى في الإسماعيلية ليُبلغ بهدوء الموظّفين الفرنسيين في الداخل أنهم يعملون الآن لصالح «الشركة المصرية للقناة». كان ناصر البحّار الوحيد في المجموعة. قال لي بعد ثلاثين عاماً: «كان لدينا شعور جنود ينتظرون التعليمات. قادنا إلى الداخل المهندس محمود يونس، الذي كانت لديه الأوامر المختومة من عبد الناصر شخصياً. كان معه مسدّس. وكنت أعزل ـ لم أؤمن أبداً بحمل سلاح ـ لكن في الداخل، وجدنا أن الفرنسيين والإنكليز واليونانيين كانوا ودودين جدّاً. أبلغناهم: «تمّ تأميم القناة، وأصبحت ملك مصر الآن. نريد تعاونكم. يجب أن تستمرّ السفن في عبور القناة». ثم قمنا بتدخين السجائر معهم. ونمنا منهكين على مكاتب الموظفين الفرنسيين. هكذا جئنا لتشغيل القناة».

بينما كان النقيب ناصر ينام في الإسماعيلية، كان أنطوني إيدن يتعشّى في داوننغ ستريت مع الملك العراقي ورئيس وزرائه نوري السعيد. وقد اغتيل الإثنان بعد سنتين في بغداد. لكن في تلك الليلة عام ١٩٥٦، كان حقد السعيد موجّهاً ضدّ الزعامة المصرية. نصح إيدن: «اضربوه، اضربوه بشدّة، والآن». في لندن اجتمع إيدن بضبّاط أركانه. وكان يريد إسقاط عبد الناصر ـ تغيير النظام هو الترجمة الجديدة للفكرة نفسها ـ وتحرير القناة. لكن أبلغه العسكريون الإنكليز أن ذلك ليس سهلاً. كانت القوّات تتدرّب في الخارج، وطائرات الإنزال معطّلة. وأبلغني ضابط مظلّي بعد أكثر من أربعين عاماً: «عندما نزلنا خارج بور سعيد، أدركنا فجأة كم كانت جهوزية جيشنا متدنّية منذ الحرب العالمية الثانية. وكانت طائرات النقل تفرغ حمولتها من الجانب، وتحطّمت سيّارات الجيب ولم يستطيعوا حتى إنزال مدفعية لمساندتنا». كان أول اختبار لقوة عبد الناصر يوم ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٥٦، عندما قام جميع القباطنة الأجانب في سلطة قناة السويس بسحب عامليهم. وكان إيدن وغي موليه، رئيس الوزراء الفرنسي، قد خططا لهذا الإضراب في لندن قبل خمسة أيام وذلك لكي يُظهرا للعالم أن المصريين ليسوا أكفاء لتشغيل القناة. من بين ٢٠٥ قباطنة قادرين على توجيه القوافل عبر الممرّ البالغ طوله ١٠١ ميل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، كان هناك أربعون مصرياً فقط ـ وكان خمسة منهم في إجازة. قال النقيب ناصر: «أدرك يونس أن ذلك سيحدث واستدعى كلّ القباطنة المصريين معاً للتشاور حول الحلّ. قلت له إن علينا تدريب قباطنة إضافيين لكن ليس لدينا الوقت لتعليمهم الملاحة في القناة كلّها. أبلغتهم أن علينا تعليم الرجال في أربع مجالات من القناة ـ المجموعة الأولى تتعلّم كيف تقود السفن في المنطقة الجنوبية من النصف الأول من القناة إلى الإسماعيلية، والمجموعة التالية تتعلّم المرحلة الثانية جنوب قناة السويس، والمجموعتان الأخريان تتعلّمان المراحل نفسها إلى شمال القناة». ليلة ١٥ أيلول/سبتمبر، وجد ناصر نفسه مسؤولاً عن عبور سفينة شحن ألمانيّة زنتها ١٤ ألف طنّ في بور سعيد. «غادر القباطنة الأجانب وكنت قلقاً بالنسبة إلى عملي ومسؤوليتي عن الوضع الجديد، وأنني لا أستطيع تمييز الأضواء الخضراء العائمة من الأضواء الحمراء العائمة على مدخل القناة. لكن كان القبطان الألماني

لطيفاً جدّاً وشجّعني. تحرّكنا نزولاً في القناة ليلاً، وعند الفجر شاهدت أضواء سيّارة على الطريق قربنا. كان يونس ومعه مكبّر للصوت يصرخ مشجّعاً لي ولبقيّة القباطنة في كلّ سفينة تعبر قربه».

في بريطانيا، مضت الأيام والأسابيع والأشهر التي تلت استيلاء عبد الناصر على قناة السويس حافلة بالمراوغة والأكاذيب البرلمانية والمحاولات اليائسة لتشكيل تحالف عسكري ـ والأكثر ضرراً من كلّ ذلك الاجتماع السرّي الذي عُقد في سيفر خارج باريس، حيث اتفق الإسرائيليون والفرنسيون والإنكليز على أن يهاجم الجيش الإسرائيلي مصر وأن تقوم فرنسا وبريطانيا بالتدخّل وتطلبا من الجيشين الإسرائيلي والمصري الانسحاب من جانبَي القناة، وتوضع قوّة تدخّل أنغلو ـ فرنسية في منطقة القناة حول بور سعيد. وقد سُمّيت العملية: «عملية الفرسان»... وكان الشعب البريطاني استُنهض من خمول ما بعد الحرب عبر مقالات الصحف التي أدانت الذين سألوا عن حقّ إيدن في استخدام القوّة العسكرية.

قادت صحيفة التايمز الحملة. وكان المقال الافتتاحي ـ الذي كتبه رئيس التحرير وليام هالي ـ مدوّياً: «بالطبع يريد الرأي العامّ تجنّب استخدام القوّة. وكذلك يريد الجميع ونحن نأمل أن لا أحد يريد ذلك أكثر من الحكومة البريطانية. لكنّ تلك صرخة بعيدة عن القول بأنه لمّا كنّا لا نستطيع أن نفعل سوى القليل فإن الشيء الأفضل هو إيجاد أعذار لذلك وأن ننسى المسألة برمّتها. إن الأمم لا تعيش إلّا من خلال الدفاع القويّ عن مصالحها... وإن الشعب يعرف ذلك (ولو بصمت) أكثر من أي واحد من المنتقدين. . . . وهو لا يزال يريد بريطانيا قويّة». ورأت صحيفة الغارديان مانشستر أن المقال الافتتاحي للتايمز كان هجوماً على حقّ الكلام ضدّ الحكومة في أوقات الأزمات ـ بدأ نقاش مشابه عندما اقتربت الحرب العراقية عام ٢٠٠٣ ـ ولعب سكرتير إيدن الصحفي وليام كلارك دوراً مشابهاً لدور ألستير كامبل في داوننغ ستريت إبّان حُكم بلير.

«عمل كلارك بالتعاون مع التايمز» هذا ما استذكره طوني شو في روايته اللاحقة والساخرة بشكل مهين حول الأزمة. كانت مهمّة كلارك ـ وهنا يوجد تشابه كبير غير مريح مع جورج بوش والأمم المتحدة ـ «تحضير الأرضيّة لقيام الحكومة بتحويل مختصر للخلاف إلى الأمم المتحدة. وكان هذا يتطلّب براعة معيّنة من حيث أن إيدن والصحيفة استبعدا المنظمة على اعتبار أنها غير عملية وغير قادرة على إصدار قرارات سريعة». وأبلغ إيدن هالي أنه يريد استخدام الأمم المتحدة كأداة فقط لإثبات ذنب عبد الناصر وتبرير استخدام القوة ـ الشيء نفسه الذي أراد بوش من مفتّشي الأمم المتحدة القيام به في العراق عام ٢٠٠٢.

وصدر مقال افتتاحي آخر للتايمز ـ ١٩٥٦ ـ قد يمكن إعادة طباعته في أواخر ٢٠٠٢ مع وضع كلمة «العراق» عوضاً عن «القناة»:

«بما أن الاعتراض على القضيّة قد أُرجع ببساطة إلى الأمم المتحدة ليُترك في عُهدتها، فإن ما حصل، وسيحصل، هو أن الأمم المتحدة ستكون على الأغلب متباطئة وبالتأكيد غير فاعلة كأداة لتحرير القناة. لكن مهما

كانت المراقبة الدولية التي ستأتي في النهاية عبر المفاوضات أو غيرها فمن المؤكّد أنها ستكون تحت إشراف الأمم المتحدة.. وبالتالي كلّما جرى الإسراع في إبلاغ الأمم المتحدة رسمياً بما حصل كان ذلك أفضل».

واستناداً إلى الدراسة الضخمة التي وضعها كينيت لوف حول حرب القناة، «فقد ولِد التآمر من زواج بين سياسة إيدن المعادية لعبد الناصر والتحالف غير المكتوب بين فرنسا وإسرائيل». وقد قامت إسرائيل بغزو سيناء يوم ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر، معلنة أن قوّاتها هاجمت قواعد فدائيين فلسطينيين، وأن عملياتها العسكرية كانت ضرورية «أمام الهجمات العسكرية المصرية ضدّ المدنيين وضدّ أرض إسرائيل وطرق مواصلاتها البحرية».. ودعت فرنسا وبريطانيا إلى وقف لإطلاق النار بين القوّات المصرية والإسرائيلية، فقبلت إسرائيل هذه الهدنة وفقاً للاتفاق المسبق الذي تقرّر بين الدول الثلاث. أما عبد الناصر الذي أقنع نفسه منذ فترة طويلة ـ وعن حقّ ـ بأن القوى الثلاث خططت للحرب فقد رفض الهدنة.

انسحب الجيش المصري مع بعض العمليات الشجاعة لكن مع الكثير من الفوضى عبر سيناء إلى ضفاف القناة(*). وفي ٣١ تشرين الأول/أكتوبر بدأت القوّات الجوّية الفرنسية والبريطانية عملياتها التي خُطّط لها منذ أمد ضدّ مصر. وتحرّك النقيب الاحتياطي مصطفى كمال مراد من قيادة الجيش المصري الشرقية على الطريق الصحراوي من القاهرة بعد الظهر. «كان ذلك أشبه بالكابوس»، قال لي بعد ثلاثين سنة.. «كان هناك ميل تلو ميل من المدرّعات المصرية على الطريق وكانت كل الشاحنات والدبّابات تحترق بعد الهجمات الجوّية. صُدمتُ بشدّة. كان الفلاحون البؤساء يسيرون على الطريق ويصرخون علينا: «جلبتم هذا الدمار لبلادنا أيها الشياطين». وقد وجد مراد الإسماعيلية هادئة لكنّها تعجّ بالقوّات الخائفة والتائهة بعد انسحابها من سيناء. «كانت المعنويات سيّئة جدّاً، وأقدام جنودنا متورّمة من السير في الصحراء، وكانوا يزرعون الخوف في الجيش المدافع، والحرس الوطني، فكل الجيوش المنسحبة تروي أكاذيب لأصدقائها. وكان علينا إرسالهم فوراً إلى القاهرة».

وجد مراد نفسه في القنصلية البريطانية القديمة في الإسماعيلية التي أصبحت مقرّ قيادة عسكرية مصرية للطوارئ.. وتلك مؤسّسة، كان على مراد تذكّرها، «كانت متعة كبيرة لضبّاطنا حيث ترك الإنكليز وراءهم صناديق من الويسكي والشمبانيا والبيرة والكونياك». وكانت القوّات المصرية تنهب بيوت المدنيين في المدينة ـ حتى أمر قائدها كمال الدين حسين بإعدام اللصوص علناً. وأمام ضعف القيادة انهار بعض الضبّاط المصريين. وطُلب من العقيد عبد العزيز سليم الدفاع عن أطراف الإسماعيلية وقد صرخ بحسين: «حاميتي ستدمّر كلّياً من قِبل سلاح

(*) ربما كان الانسحاب المصري سريعاً بسبب الإعدام الإسرائيلي لحوالي ٤٩ جندياً مصرياً أسروا في صحراء سيناء. وإستناداً إلى بيرو أري الضابط الإسرائيلي الذي أمر بعمليات القتل، كان هو ورجاله متمركزين مع الأسرى وراء الخطوط المصرية. قال بعد سنوات: «لم تكن القوّات كافية لحراستهم. وكان علينا التحرك نحو رأس سودار. لذلك قرّرت تصفيتهم». ظهر القتلة إلى العلن عام ١٩٩٥ فقط بعدما نشرت ورقة بحث داخلية للجيش الإسرائيلي بعنوان «المظاهر السياسية والعسكرية لحرب سيناء عام ١٩٥٦». كان الجنود المسؤولون عن الإعدامات ينتمون إلى فرقة المظلّيين ٨٩٠، بقيادة رفاييل إيتان الذي أصبح لاحقاً رئيس أركان الجيش الإسرائيلي وعضواً في الكنيست عن الجناح اليميني لحزب تسوميت. وقد حظر المصريون أولاً نشر الاعترافات في صحف القاهرة لكنهم طلبوا لاحقاً تفسيراً من الحكومة الإسرائيلية.

الجوّ البريطاني». وأضاف مراد: «طلبت من حسين إرساله إلى القاهرة». لكن عند الصباح، جاء حارس سليم إلينا وقال إن دماء تسيل من تحت باب غرفة العقيد. وعندما فتحنا الباب وجدنا سليم منتحراً على مكتبه». كان تذكّر مراد لقصف القوّة الجوّية البريطانية حيّاً عندما قابلته عام ١٩٨٦... ارتفعت يده بعنف تكراراً إلى الجوّ ليصف الغارات على المطارات حول الإسماعيلية. «أدهشني أنهم لا يهاجمون مدنيين. كانوا حريصين جدّاً. وعندما وصلت إلى المطارات بعد الغارات، وجدت أن جنودنا عصوا الأوامر بالإنسحاب إلى الخنادق تحت القصف الجوّي. وعوضاً عن ذلك ظلّوا على مدافعهم المضادّة للطائرات واستمرّوا في الدفاع. كانت صواريخ سلاح الجوّ البريطاني دقيقة جدّاً بحيث ضربت المدافع . وقد قطعت الصواريخ أجساد رجالنا نصفيْن. كنت أجد أقدامهم وجذوعهم على المدافع ونصفهم الأعلى مفقوداً».

يوم ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦، نزلت القوّات الأنغلو ـ فرنسية حول بور سعيد، وجاء العديد منهم مع سفن الأسطول القديمة من قبرص. وقد هبط ٧٨٠ مظليّاً بريطانياً في مطار جميل، و٤٧٠ مظلياً فرنسياً على جسرين على القناة في الرسوة. في الساعات الأولى، كان مراد ينام نوماً متقطعاً على أريكة في مقرّ قيادة الإسماعيلية عندما أيقظه رجل طويل وقف بجانبه: «نهضت، وذهلت عندما وجدت أنه جمال عبد الناصر. كان يرتدي بذلة مدنية جميلة. قلت له: أهلاً وسهلاً سيادة الرئيس، لكن ماذا تفعل هنا؟ يجب أن تكون في القاهرة. قال إنه ذاهب إلى بور سعيد. قلت: إنسَ ذلك سيّدي، عليك العودة إلى القاهرة فوراً لأن المظلّيين الإنكليز يُتوقّع نزولهم في بور سعيد خلال ساعات قليلة. وقد طلب عبد الناصر غرفة ليستريح فيها فوضعته في غرفة القنصل البريطاني. بعد ساعات قليلة، نزل الإنكليز في بور سعيد وراحوا يقاتلون للاستيلاء على قاعدة جميل».

وهكذا منع النقيب مراد أنطوني إيدن من أسر المصري الذي كرهه كثيراً. وعاد عبد الناصر الذي كان يرتدي ملابس جديدة وتفوح منه رائحة الكولونيا إلى القاهرة ـ لكن ليس قبل أن يطرح مراد عليه سؤالاً مهمّاً. «سألت عبد الناصر: هل هناك اتفاق مع الروس للمساعدة العسكرية؟. قال: كلّا. كنت غاضباً. اعتقدت أن هذا الرجل مجنون ليتحدّى ثلاث قوى مجتمعة. قلت: سيّدي، علينا القيام بما نستطيع لكن ستكون معجزة إذا استطعنا مجابهة الإنكليز والفرنسيين وإسرائيل. أجاب: ربّنا معنا، الله معنا. ثم غادر».

كان النقيب نصر في منزله في شارع الجمهورية في بور سعيد عندما نزل الإنكليز. «سمعنا إطلاق النار ـ طُلب من الجميع البقاء في بيوتهم لمدة ٢٤ ساعة. أوّل مَن شاهدته عندما ذهبت خارجاً كان جاراً لي، يُدعى عادل مندور ـ وكان ممدّداً ميتاً في الشارع. كان عضواً في الحرس الوطني. قتله جندي بريطاني. وكان وجهه في مزراب المياه ويداه ممدودتين. أتذكّر والدته وهي تخرج من منزلها وتحمله بصمت وتأخذه إلى منزلها». في البداية، كان القتلى يدفنون كُلّاً على حِدة، وبعد ذلك وضِعت عشرات الجثث ومعظمها من المدنيين في قبر جماعي قرب المطار. وهاجم الإنكليز مركزاً للشرطة المصرية صمد تحت نيران كثيفة وقُتل جميع من بداخله تقريباً. وقدّر جنرال بريطاني أن حوالي ألف مصري قُتلوا في المدينة، وهو رقم متفاوت بحسب رأي النقيب مراد الذي قدّر دقّة القصف المركّز للقوّة الجويّة البريطانية. وقُتل العديد من المدنيين على يد المظلّيين الفرنسيين. وكتب أحدهم لاحقاً

أنه ورفاقه قتلوا مجموعة من الصيّادين الأبرياء لأنه صدرت أوامر للفرنسيين بعدم أخذ أسرى. وقتل المظلّيون مدنيين آخرين بإطلاق النار عليهم من مسافة قصيرة عندما حاولوا الفرار إلى القناة.

قال النقيب نصر: «لم يكن سلوك الإنكليز سيّئاً ـ لم يسرقوا شيئاً عندما أسكنوا رجالاً في شقّتي. لكن كان تصرّف الفرنسيين مختلفاً كثيراً، عاملوا الناس بشكل سيّئ جدّاً. ربّما يعود ذلك إلى تجربتهم في الجزائر لكن أظنّ أنهم كانوا غاضبين بسبب اعتقادهم أن القناة ملكهم وأن لهم الحقّ باسترجاعها». كان عبد الناصر يساند علناً جبهة التحرير الوطني في الجزائر.

في مطار جميل، اعتقل الإنكليز مقاتلاً مصرياً اسمه محمد مهران عثمان. وكانوا يريدون معرفة أماكن مخازن الأسلحة المصرية. وقال لاحقاً إن أطبّاء عسكريين إنكليزاً اقتلعوا عينيه عندما رفض إعطاء معلومات عن مخابىء الأسلحة وبثّ دعاية للحلفاء من محطّة إذاعة في قبرص. لا توجد شهادة محايدة حول ذلك، غير أنني التقيت عام ١٩٩١ عثمان الذي اقتُلعت عيناه من محجريهما، وأخبرني أن الإنكليز كانوا ينتقمون أيضاً لإصابة طبيب عسكري خلال نزوله في مطار جميل.

أصيب الطبيب المظلّي، الملازم ساندي كافيناغ، من الفرقة المظلّية الثالثة الطبّية في عينه اليمنى بشظيّة خلال نزوله في مطار جميل، غير أنه أبلغني بعد أربعين سنة أنه لا يعرف شيئاً عن ادّعاءات الأعمى المصري. وبعد عدّة سنوات شاهد كافيناغ عثمان يعمل دليلاً في المتحف العسكري في بور سعيد لكنه لم يتحدّث إليه. وكافيناغ هذا رجل لطيف ومهذّب، كتب رواية مصوّرة عن الإنزال وحصل على تنويه من قائده لأنه استمرّ رغم إصابته الخطرة في معالجة رفاقه طيلة خمس ساعات(*).

ويحتوي الأرشيف على أدلّة تكشف العنصرية التي وسمت الجيش الإمبريالي السابق. وقد جرت الإشارة إلى المنطقة الفقيرة في بور سعيد على الخرائط البريطانية على أنها مدينة معادية، بينما تحدّثت نشرة دعائية من قِبل

(*) لم تُنشر الصحف العسكرية البريطانية في ذلك الوقت (والعديد غيرها .. مثل تسجيلات إيدن حول اجتماع سيفر السرّي والتي أتلفت بعد شهور من غزو السويس) إلى إتهام عثمان، مع أنني أمضيت ثلاثة أسابيع في مكتب التسجيل العام في لندن أحاول إيجاد بعض التوثيق لاستجوابات الأسرى. وأظهر ملفّ أن ضبّاط المخابرات من الفرقة البريطانية الثانية أفادوا بعد معركة بورسعيد أن «استجواب أسرى الحرب في بورسعيد لم يؤدّ إلى النتيجة المرجوّة. ولم يتم تحديد أي موقع قيادة» والغريب أن ملفّات بورسعيد لا تتضمّن أي شيء عن الفترة من ٦ إلى ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦. ولم تظهر ملفّات مكتب التسجيل العام أن الصليب الأحمر الدولي في مصر طلب معرفة ما إذا كان أيّ من الأسرى نُقل إلى قبرص. وقد تمّ استجواب المكتب الحربي أيضاً عمّا إذا طُلب من المصريين التحدث عبر محطة إذاعة بريطانية للدعاية في قبرص. وقد أجاب مسؤول بريطاني بشكل غير مساعد: «لم نوسّع تحقيقاتنا إلى محطة الإذاعة التي كانت تعمل من قبرص تحت اسم صوت بريطانيا خلال الإنزال في السويس، لكن يمكنك مع ذلك أن تطلب إلى وزارة الدفاع متابعة هذا الخط من التحقيق ولكن لا أعتقد أن ذلك سيكون ذا فائدة». كان سيفتون دلمير، مراسل الدايلي أكسبرس قبل حرب برلين ومدير محطة إذاعة الدعاية «السوداء» الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، قد سافر إلى قبرص للمساعدة في تشغيل هذه المحطة الإذاعية الغامضة.

«قيادة قوّات التحالف» يوم ١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٦ عن «الذهنية الماكرة» للعرب.. ومُنع الصحفيون الإنكليز من الوصول إلى بور سعيد حتى بعد أيام من المعركة، لكن بعد أسبوع من وقف إطلاق النار شاهد المراسل أنكس إفتيفولوس جثثاً كانت لا تزال غير مدفونة في بورسعيد.

بدا القائد المصري للإسماعيلية، كمال الدين حسين، غاضباً عندما سمع زميله في بورسعيد الجنرال صلاح الدين الموجي يحدّثه من خط هاتف نجا من المعركة. تذكّر مراد: «أبلغنا أنه اتفق مع جنرال إنكليزي على وقف إطلاق النار مدة ستّ ساعات لجمع القتلى والجرحى. فصرخ حسين به: كيف تجرؤ على مقابلة جنرال إنكليزي بدون أوامري. وسمعت الموجي يردّ: أنا القائد الأعلى في بورسعيد وهذا قراري. ثم أقفل الخط».

في الصباح الباكر من يوم ٧ تشرين الثاني/نوفمبر، كان مراد يتحرّك بحذر على طريق ضيّق على القناة شمال الإسماعيلية وعلى ظهره مدفع رشّاش. تخطى للتوّ قرية صيد سمك اسمها جسر الهند عندما شاهد نبتتَي خشخاش تتحرّكان داخل العشب الطويل إلى يمينه. «عندها شاهدت شابّين صغيرين كلاهما من المظلّيين البريطانيين يعتمران قبّعتين حمراوين، ممدّدين في العشب يراقبانني. كانا يصوّبان سلاحهما نحوي عن بعد ٧٠ ياردة. وأخرجا محارم بيضاء وربطاها على حربتي بندقيتهما وصرخ أحدهما بي: «هالو» فأبقيت يدي بعيدة عن سلاحي وقلت لهما «هالو». ثمّ شاهدت دبّابات بريطانية أمامي وكذلك بعض الجنود وهم يضعون أسلاكا شائكة على طول الطريق. كان هذان الشابّان يستطيعان قتلي لذلك تبادر إلى ذهني الشعور بأن هناك وقفاً لإطلاق النار. وتابعت التفكير: «كم كان غبيّاً القائد البريطاني الذي توقّف هنا على بعد ٣٨ كلم من بورسعيد. لا يوجد أي عائق أمامه وكان يستطيع الوصول إلى القاهرة خلال ساعات قليلة».

لكن لم يتقدّم الإنكليز أبعد من ذلك. وقد وصل مراد في سيره إلى نهاية المغامرة الإمبريالية الأخيرة للجيش البريطاني. وبعد بعض الوقت أدرك أن الأميركيين تدخّلوا وأن العملية وصلت إلى نهايتها. كان الرئيس إيزنهاور غاضباً عندما علم أن الغزو الإسرائيلي تمّ التخطيط له من قِبل الحلفاء ـ ولا سيّما الفرنسيين ـ وبعكس عقيدة بوش عام ٢٠٠٣ فقد احتفظت أميركا بحقّ التنديد بالغزو برمّته. وأظهرت ملاحظة أيزنهاور الشهيرة إلى فوستر دالاس (طلب منه الذهاب إلى لندن وإبلاغ إيدن: «توقّف يا ولد») كم كان قريباً من إمكانية قطع كلّ دعم لبريطانيا. يوم ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر، كان وزير الخارجية الريطاني سلوين لويد يبلغ مجلس الوزراء أنه إذا انسحبت القوّات الأنغلو ـ فرنسية بسرعة وبشكل عملي، فإننا سوف نستعيد تعاطف الحكومة الأميركية. ولدى سؤاله من قِبل لجنة ١٩٢٢ حول التآمر بين إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، قال إيدن إن بعض «أنصاف الحقائق» ضرورية ـ وإذا وجِدت بأي حال فإنها ليست خطيرة أو واسعة النطاق ـ وأن هذا النوع من العلاقة يتطلّب سرّية قصوى». ويوم ٢٠ كانون الأول/ديسمبر كذب على مجلس العموم: «أودّ التوضيح حول مسألة المعرفة المسبقة بالعملية، والاعتراف بدون موارية أمام مجلس العموم أنه لم يكن لدينا علم مسبق بنيّة إسرائيل مهاجمة مصر ـ ولم

يوجد أبداً. لكن كان هناك شيء آخر.. كان هناك احتمال لقيامهم بذلك، وكنا نعرف ذلك جيّداً، وبسبب وجود احتمال من هذا النوع فقد جرت بعض المحادثات والمناقشات، وكان هذا على ما أظنّ أمراً طبيعياً ومشروعاً، وأعتقد أن ما من أحد إلّا ويفعل الشيء نفسه». بعد الغزو غير القانوني للعراق عام ٢٠٠٣، لم يستطع طوني بلير الرهان على حصول ذلك. كان إيدن رجلاً مريضاً ـ لقد عانى من عملية جراحية ترك خلالها الجرّاح آلة طبّية داخله عن طريق الخطأ ـ وبدأ زملاؤه التساؤل بحذر عن مستقبله كما ذكر سكوت لوكاس في روايته. وفي ٩ كانون الثاني/يناير ١٩٥٧، قام طبيب إيدن، هارولد ماكميلان، بإبلاغه أن حياته معرّضة للخطر إذا استمرّ في الوزارة وأنه لا سبيل للشفاء». كان ماكميلان مصدوماً وكتب: «ما كدت أصدّق أن هذه كانت نهاية الحياة العامّة لرجل شابّ نسبياً ولديه الكثير ليقدّمه. جلسنا معاً بعض الوقت، وتبادلنا بضع كلمات حول الحرب الأولى التي خضناها معاً وعانينا منها». وقد سجّلت استقالة إيدن نهاية آخر محاولة قامت بها بريطانيا، كما كتب سكوت لوكاس، لإظهار أنها لم تطلب دعم واشنطن في الدفاع عن مصالحها». ومن الآن فصاعداً أصبحت بريطانيا خادمة للسياسة الأميركية، وباتت السياسة الأميركية وحدها هي التي تعمل للدفاع عن الشرق الأوسط. لقد قادت عقيدة أيزنهاور عام ١٩٥٧ بلا شكّ إلى السيطرة التي تمارسها الولايات المتحدة الآن على العالم... والآن فإن واشنطن هي التي قد تحتاج إلى تأييد بريطانيا للدفاع عن مصالحها (على الأقلّ في عملية لغزو العراق مع أن ذلك كان أمراً مشكوكاً فيه.

في مصر، حكم عبد الناصر بشعبية أكبر واستمرّ حتى بعد هزيمته الواضحة أمام إسرائيل في الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧، وقام بقمع المعارضة الداخلية من خلال الإعدامات والتعذيب. وقد جذبت السويس انتباه العالم بينما كان الروس يهاجمون بودابست يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦ ويسحقون ثورتها. ولم يسامح البعض أبداً الزعيم العمّالي هوغ غايتسكل على خطابه المذاع في تشرين الثاني/نوفمبر حيث وصف القوّات البريطانية بالمعتدية ـ بعكس عام ٢٠٠٣، كانت هناك على الأقلّ معارضة سياسية جدّية للحكومة في مجلس العموم ـ في حين خسرت الأوبزرفر قرّاء لم تسترجعهم أبداً وذلك بسبب معارضتها للحرب.

قال النقيب السابق مراد بعد ثلاثين عاماً: «كان كلّ شيء مقامرة. كان عبد الناصر محظوظاً لأنّ الأميركيين تدخّلوا وطلبوا من بريطانيا وقف إطلاق النار والانسحاب ـ أراد الأميركيون الحلول مكان الأوروبين كقوّة عظمى في الشرق الأوسط. لكن كان ذلك ضربة حظّ. لو كنت مكان عبد الناصر لما قمت بذلك لأنه لم تكن هناك معاهدة مع روسيا. لم تكن الحرب مباراة متساوية. ولم تكن حرباً حقيقية. كان التحرّك قد اتّخذ ضدّ تأميم القناة لتدمير سلطة عبد الناصر. وقد أدركنا ذلك في حينه».

لكن كانت الكلمة الأخيرة لإيدن بعد نزول البريطانيين في السويس. قال: «لو سمحنا للأمور بالتدهور والانحراف لكان كل شيء انتقل من سيئ إلى أسوأ. وربّما أصبح عبد الناصر موسوليني آخر مسلماً وأدّى ذلك إلى

تساقط أصدقائنا في العراق والأردنّ والسعودية وحتى إيران، وربّما انتقلت جهوده غرباً وسقطت ليبيا وشمال أفريقيا تحت سيطرته». سوف نسمع ترداد ذلك عام ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ حتى وإن كانت كراهية إيدن لعبد الناصر تقف عند حدود مُعيّنة. «لم أتصوّر أبداً عبد الناصر هتلراً آخر» كان هذا ما كتبه إيدن. لكنّ المقارنة مع موسوليني كانت موجودة. وقد أشار رئيس الوزراء الفرنسي غي موليه إلى عبد الناصر على أنه دكتاتور مبتدئ. وكان موليّه وإيدن مأخوذين بما أسماه موليّه شخصياً «عقدة العداء لميونيخ» (المقصود العقدة الأوروبية التي نشأت والتي رأت في اتفاقية ميونيخ التي عقدها الفرنسيون والبريطانيون مع هتلر قبل أن يشنّ حربه العامّة تخاذلاً وسبباً في المفاجأة والانهيار في مطلع الحرب ـ المترجم)

في بريطانيا عام ٢٠٠٣ صدحت الصحف بمبرّرات الحرب. وفي أميركا جادلوا بالكتب مستذكرين هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وأُنتجت أكياس ورقيّة للسلام في العراق، ومجلّدات ضخمة مع ملاحظات تُعدّد حسنات «تغيير النظام في الشرق الأوسط». وذهب الناشرون في نيويورك وبقيّة الإعلام إلى الحرب. وكان عليك قراءة عناوين كتب ١١ أيلول/سبتمبر ـ العديد منها صور تذكارية ضخمة ـ على منصّات الأخبار في أميركا: فوق الأرض المقدّسة، لكي يعيش الآخرون، ماذا رأينا، قوّة القلب، الحدود الأخيرة، غضب للّه، ظلّ السيوف... لا عجب أن التلفزة الأميركية اعتبرت الحرب القادمة مضمونة. وأعلنت السي إن إن عن استعراض أخير في العراق. «الاستعداد للحرب»... لم يناقش أحد هذا اليقين.. وقد قدّمت احتجاجاً خلال برنامج إذاعي على الهواء في الولايات المتحدة في شهر كانون الثاني/يناير لأن المشاركين (بمن فيهم أكاديمي إسرائيلي وضابط أمم متحدة إيرلندي، ومحارب سابق في فيتنام وطوني بن وآخرون) لم يطلب منهم مناقشة ما إذا كان يجب حصول حرب على العراق بل مناقشة عواقب هذه الحرب. وقد أكّدت ورقة النقاش حتمية الصراع!

كانت المساهمة الأحدث والأكثر أهمّية لهذا النقاش الاحتيالي في الولايات المتحدة هي كتاب «الإعصار المهدّد: «قضية غزو العراق»، من تأليف كينيث بولاك وهو شبح سابق من وكالة الاستخبارات الأميركية ومدير سابق «الشؤون الخليج» في مجلس الأمن القومي.

كان الكتاب الذي يُفترض بكل أميركا الحديث عنه ـ وعنوانه: «الإعصار المهدّد»، هو بالطبع نسخة مطابقة عن كتاب «الإعصار التجميعي»، وهو الجزء الثاني من كتاب لونستون تشرشل عن تاريخ الحرب العالمية الثانية... وهو عنوان يبلغك ما ترغب في معرفته حول المضمون. وقد حاول جورج بوش عام ٢٠٠٢ شخصياً الظهور بمظهر التهدئة مثل تشرشل، لذلك ادّعى بولاك مرّتين أن العالم يواجه الحيرة نفسها التي واجهت بريطانيا وفرنسا عام ١٩٣٨. كان باستطاعة الحلفاء كسب الحرب خلال سنة، بحسب ادّعائه، لو ذهبوا إلى الحرب ضدّ هتلر في حينه. ولم يسمح أبداً لحقيقة مهمّة بالتدخّل في تلك المحاججة الفارغة.. فالواقع هو أن بريطانيا وفرنسا كانتا رغم تفوقهما عددياً، ضعيفتين على صعيد الأسلحة المتطوّرة ـ في حين أنه كان باستطاعة الولايات المتحدة سحق

قوّات صدّام في أقلّ من شهر. . . . وافق بولاك أن هتلر لم يكن صدّام، لكن لبس صدّام مرّة أخرى ثياب هتلر ـ كما كان عبد الناصر موسوليني النيل خلال أزمة السويس عام ١٩٥٦ ـ وأيّ إنسان عارض الحرب امتداداً لمؤيّدي النازي.

قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ـ الحرب العالمية الثانية الحقيقية كما هي ـ وفي بدايتها، طلب الناشرون الإنكليز من المؤلّفين مساندة الصراع. وكان فيكتور كولانكس مدافعاً شرساً عن الحرّيات البريطانية. وفي عام ١٩٤١، كنا ننشر أفضل رواية: «القطار الأخير من برلين» من تأليف هوارد سميث، وهي سيرة شخصية لمراسل أميركي مشهور، تروي حياته اليائسة في ألمانيا النازية قبل دخول الولايات المتحدة الصراع. ولكن هذه الأعمال كانت أدبية غالباً وعقائدية. وما حصل في الولايات المتحدة في الأسابيع التي سبقت غزو العراق كان شيئاً مختلفاً: محاولة ممقوتة، ودنيئة، لدفع الأميركيين إلى الحرب على قاعدة صامتة ومحترمة وفوق الشبهات لتضحيات ١١ أيلول/ سبتمبر.

كتب بولاك أن إزالة صدّام سوف تفصم الرابط ما بين قضيّة العراق والصراع العربي الإسرائيلي. وعلى المدى الطويل، سوف تزيل مصدراً مهمّاً من مصادر العداء لأميركا وسوف تنتج عن ذلك آثار إيجابية «في حال قيام الولايات المتحدة ببناء عراق جديد، قويّ، مزدهر ويتضمّن نموذجاً لما تستطيع أن تكون عليه أيّة دولة عربية حديثة». كان حِجاج بولاك بالنسبة إلى الحرب مثيراً في وقوفه على حافّة اللاأخلاق... إن الحرب هي القرار الصحيح على ما يبدو، ليس لأنها ضرورية أخلاقياً بل لأننا سننتصر. أصبحت الحرب الآن سياسة قابلة للعيش وخياراً ناجحاً. إنها ستحرّر جدول أعمال سياسة واشنطن الخارجية متيحة لها باختصار غزو بلد آخر أو بلدين حيث يمكن اكتشاف مصالح أميركا الحيويّة. وسينتهي كل ذلك الترابط المهمّ ما بين حرب العراق والحرب الفلسطينية ـ الإسرائيلية. وقد ظهرت هذه المسألة عدّة مرّات في نصّ بولاك. والرواية (وهي إسرائيلية بالأصل) بسيطة جداً: إن حرمان الفلسطينيين من مساندة أكبر قوّة عربية يجعلهم أضعف في صراعهم ضدّ الاحتلال الإسرائيلي. وأشار بولاك إلى «حملة الفلسطينيين الإرهابية الحاقدة» دون أيّ انتقاد لإسرائيل. وتحدّث عن هجمات إرهابية أسبوعية تبعتها «ردود إسرائيلية» وهي اللازمة العادية للرواية الإسرائيلية عن الصراع. واعتبر المؤلّف انحياز أميركا لصالح إسرائيل مجرّد «اعتقاد» عربي. لا حاجة إلى القول إنه لم تكن هناك أيّ إشارة إلى مفتّش الأمم المتحدة السابق حول الأسلحة ونقيب البحرية السابق سكوت ريتر الذي كان كتابه الصغير المعارض للحرب (الحرب على العراق: أيّ فريق لا يريد بوش أن نعرفه) لا يتجاوز ٩٦ صفحة في مقابل كلّ الأدبيّات المؤيّدة للحرب المنتجة بكمّيات هائلة في واشنطن.

وبينما كانت هذه المادّة تصدر عن الصحافة، كانت الأفكار الخيالية الأخيرة تتدفّق من واشنطن ولندن. سرت روايات عن هجمات أخرى ـ على نفق لنكولن وجسر البوّابة الذهبية في الولايات المتحدة ـ ممتزجة بكلّ القصص

البريطانية المرعبة التي انتشرت في الأسابيع الماضية: الجدري، الجمرة الخبيثة، هجمات على فنادق وأسواق، هجوم كيميائي بالأنابيب، تسميم إمدادات المياه، هجمات بالرسائل البريدية المفخّخة، هجمات على بيغ بنغ وميناء كناري، امتلاك خمسة آلاف كيس للجثث، ١٢٠ بذلة لمكافحة التلوّث، غرف دراسية آمنة لطلّاب المدارس بعمر سبع سنوات، قوانين جديدة خاصّة بالحجر الصحّي للبريطانيين في حال وقوع هجوم جرثومي. لا نهاية لهذا الإرهاب الحكومي. هل يريدون نجاح أسامة بن لادن؟ أو هل كان ذلك مجرّد جزء من العدّ العكسي للحرب على العراق، المخدّر المطلوب الذي نحتاج إليه جميعاً لدعم بوش وبلير؟

والحال أن هذه الروايات وفّرت دعماً حيوياً لأدبيات ما قبل الحرب. في أميركا، ذهب دعم المثقّفين للحرب إلى مدى أبعد من كتاب كينيت التافه. على سبيل المثال، هاجم البروفسور فؤاد عجمي من جامعة جون هوبكنز في مجلّة «شؤون خارجية» العالم العربي مراراً على رجعيّته وفقدان الديمقراطية واستخدام الصراع العربي ـ الإسرائيلي ذريعة «للإشفاق على الذات وللغضب».. وقال: «مع بالغ الحذر.. إنّ حرباً ما يجب أن تُعلن». وفي مقطع آخر على محبّي قصص الخيال تذكّره، أضاف أنّ «أيّ خلاف حول الحرب سيتمّ تجاوزه بشكل مؤكّد بسبب العواقب الوخيمة التي ستترتّب على الولايات المتحدة في حال اتجهت نحو الحرب ثم تراجعت، ما يتيح للطاغية العراقي القيام بعملية قمع أخرى»... كان هذا المنطق مخيفاً بالفعل. يجب على الولايات المتحدة الذهاب إلى الحرب لأنها هدّدت بشنّها. إذن، أصبح التهديد بالحرب سبباً لاندلاعها... وبالتالي سيكون السلام أكثر رهبة من الحرب. وكما لاحظت لورا ريديس، الأستاذة في جامعة سانت لورنس، نيويورك، في بحث ثاقب ودقيق في «اللغات الموازية غير المباشرة»، وهو أحد أفضل الكتب حول ألسنيّات ذلك النزاع، ففي حرب كونية بين الخير والشرّ من النوع الذي يتصوّره بوش يصبح من الممكن تبرير قتل الأبرياء من قِبلنا باعتبار أننا صالحون... ولكن عندما يقتل الطرف الآخر الأبرياء فإن هذا يكون غير مبرّر لأن الطرف الآخر شرّير. «إن ما يجعل موت الأبرياء سيّئاً ليس موتهم المباشر بل تصرّفات ومشاعر الذين قتلوهم». وكانت أهمّ المساهمات المؤثّرة في الحملة المناهضة للحرب في الكتاب مساهمة أمبر أموندسون التي قُتل زوجها كريغ في الهجوم على البنتاغون يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. قالت: «هل يوصلنا غزو العراق حقّاً إلى مجتمع أكثر أمناً؟».. وسألت زعماءها: «إذا اخترتم الردّ على هذه القسوة غير المفهومة باقتراف عنف ضدّ أشخاص آخرين، فإن هذا لن يعني تحقيق العدالة لمقتل زوجي».

كان هاجس بوش وبلير هو إظهار صدّام حسين في صورة الشرّير، فصارا الآن يذكّراننا بثمن التهدئة. كان بوش يعتقد أنه تشرشل أميركا الرافض لاسترضاء صدّام. ويظهر أن الحرب العالمية الثانية تشكّل العذر الأبديّ، والإنذار، والتبرير، والنموذج غير الشريف لكلّ جنون، ولكلّ حمّام دم كنّا نبدأ به.

كانت الحرب العالمية الثانية عملاً ماجناً. لقد انتهت عام ١٩٤٥، ولكنك الآن وأنت تستمع إلى بوش وبلير تكاد تظنّ وأنت في أوائل ٢٠٠٣ أن هتلر لا يزال على قيد الحياة في مخبئه في برلين وأن السلاح الجوّي

الألماني ما زال ينطلق من رأس غريس نيز، وهو مستعدّ لقصف لندن بعد سنوات من الاسترضاء لألمانيا النازية. الآن، أصبحت قوّاتنا الجوّية هي التي تقصف من رأس غريس نيز العراقي الجديد: الكويت وقطر والسعودية وتركيا وحاملات الطائرات، وذلك لإخضاع بغداد وليس لندن. ماذا دهى زعماءنا الأقزام حتى تجرّأوا على الاستخفاف بالتضحيات الهائلة التي حصلت في الحرب العالمية الثانية، حين يقارنونها بصراعهم ضدّ العراق، رافعين دكتاتورية صدّام العديمة القيمة إلى مستوى المأساة التاريخية لحرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥؟»(*).

ماذا يستطيع رجل عاقل أن يفعل حيال هذا الأمر المؤسف؟ كانت الولايات المتحدة إحدى الدول «التي لم تفعل شيئاً حيال هتلر»، وقد تمتّعت بفترة مفيدة من الحياد بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٠ ومعظم عام ١٩٤١ حتى هوجمت من قِبل اليابان في بيرل هاربر. وعندما قرّر تحالف تشرشل ـ روزفلت أنه لن يوافق على أقلّ من استسلام ألماني غير مشروط (وهو طلب صدم حتى تشرشل نفسه وهو يسمع روزفلت يعلن عن البنود في الدار البيضاء) حانت ساعة هتلر.

ليس صدّام مثل هتلر، لأن دونالد رامسفيلد عرض على هتلر بغداد مخرجاً: المنفى مع حقيبة مليئة بالمال ومع عدد من أفراد عائلته إذا رغب في ذلك. لم أستطع تذكّر أن روزفلت أو تشرشل عرضا على الفوهرر أيّ فرصة ذهبية. إن صدّام هو هتلر، لكنه يصبح غير ذلك فجأة. وكما تقول النيويورك تايمز، يجب أن يمثل أمام محكمة لجرائم الحرب. وإذا لم يمثل، يستطيع الذهاب إلى السعودية أو أميركا اللاتينية بحسب قول رامسفيلد. بعبارة أخرى، لم يكن هتلراً على الإطلاق.

ما كنت أكرّر السؤال عنه حصل بعد الغزو! يوم ٢٦ كانون الثاني/يناير سألت قرّاء صحيفة الإندبندنت، طبعة

(*) في منتصف كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، قارن سفير أميركا لدى الاتحاد الأوروبي روكسويل سكنابل صدّام بهتلر. وخاطب سكنابل الأوروبيين في بروكسل قائلاً: «كان لديكم هتلر في أوروبا ولم يقم أحد بشيء فعّال ضدّه. عرفنا أنه خطر لكن لم يحصل شيء حياله. إن نمط هذا الرجل نفسه موجود في بغداد وهناك يكمن اهتمامنا». وأنهى سكنابل هذا الخطاب الصبياني مضيفاً «أن لا علاقة لذلك بالنفط بتاتاً».

قال بلير ـ الذي لم يشهد أيّ حرب في حياته ـ إن التاريخ يعطي دروساً مهمة بالنسبة إلى هذه الأزمة. كانت جهود نيفيل شامبرلين لتهدئة هتلر «عملاً صالحاً لرجل اتخذ قراراً خاطئاً»، بحسب قول بلير لنا. وأعاد إلى الذاكرة دفاع الرئيس شيراك حيال اتهام فرنسا بالجبن السياسي عندما قرّرت بلاده اتخاذ قرار في البلقان فوجدت نفسها وحيدة، وأشار إلى «استرضاء الغرب لهتلر». وقامت النيويورك بوست بنشر صورة لمقابر الجنود الأميركيين في النورماندي استباقاً لأيّ فيتو فرنسي في مجلس الأمن. وكتبت الصحيفة: «ماتوا لأجل فرنسا لكنّ فرنسا نَسِيت»... كما لو أن تحرير فرنسا من النازيين عام ١٩٤٤ يستوجب تنازلها عن الخطاب الحرّ بعد ٥٨ عاماً. وسألت البوست: «أين الفرنسيون الآن في الوقت الذي يستعدّ فيه الجنود الأميركيون للذهاب إلى الجبهة لقتال هتلر العصر صدّام حسين؟».

انضمّ صدّام حسين شخصياً إلى هذه المقارنة الحقيرة.. ففي مقابلة مع رجل الدولة البريطاني طوني بن، صرّح «هتلر بغداد» لزائره البريطاني أنه «إذا كان العراقيون عُرضة للعدوان والإذلال، فإنهم سيقاتلون بشجاعة كما دافع البريطانيون عن بلادهم خلال الحرب العالمية الثانية بطرقهم الخاصّة». وصرّح طارق عزيز، رئيس وزراء صدّام، لاحقاً لصحيفة إيطالية (Coriere della sera) قائلاً: «الواقع أن بوش يفكّك الأمم المتحدة كما فعل الرايخ الثالث عام ١٩٣٠ بجعل عُصبة الأمم نكرة».

الأحد: «ما هي خططنا عندما يطلب العراقيون انسحابنا من بلادهم؟... سنكون حينذاك قوّة احتلال لأرض أجنبية، قوّة احتلال للعراق كما تحتلّ إسرائيل الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة. ومع رحيل صدّام يصبح الطريق ممهّداً لأسامة بن لادن ليطالب بتحرير العراق الذي أصبح هدفاً آخر من أهدافه. كم هو سهل وضع العراق تحت الاحتلال الأميركي، وعندها هل نحن مستعدون لقتال القاعدة في العراق وأفغانستان وباكستان ودول أخرى لا تُحصى؟ يبدو أن شعوب الشرق الأوسط والغرب أدركوا هذه المخاطر، لكنّ زعماءهم لم يدركوها، أو أنهم لا يريدون إدراكها».

خلال سفري إلى الولايات المتحدة عدّة مرّات شهرياً وإلى بريطانيا في نهاية الأسبوع قبل الأخير من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ وإلى الشرق الأوسط، لم أشعر بتاتاً بالصدمة حيال التصميم الثابت والمطلق للعديد من العرب والأوروبيين والأميركيين على معارضة الحرب. هل كان طوني بلير ذلك التلميذ العنيد لحزب العمّال البريطاني بحاجة إلى اجتماع ٢٤ كانون الثاني/يناير لكي يكتشف أن العديد من الإنكليز يشعرون: أن هذه الحرب العراقية المقترحة كذبة وأن أسباب هذا النزاع لا علاقة لها بأسلحة الدمار الشامل وأن لا مصلحة لبلير في الذهاب وراء بوش إلى الحرب؟ لم يصلني أبداً من قبل مثل هذا الحجم من رسائل القرّاء التي كانت تعبّر عن الشعور نفسه: إن الأمر يعود بشكل ما ـ بسبب الأغلبية الكبيرة لحزب العمّال وعدم فعالية حزب المحافظين بوصفه حزب معارضة وبسبب السخرية من البرلمان ـ إلى عدم سماح الديمقراطية البريطانية للشعب البريطاني بوقف الحرب التي لا علاقة لمعظمهم بها بل هم يحتقرونها. ومن محاولة واشنطن السيّئة ربط صدّام بالقاعدة، وملفّ بلير الصبياني حول أسلحة الدمار الشامل، إلى الكذبة المأساوية الكبيرة لفريق تفتيش الأمم المتحدة، لم يعد الناس مخدوعين. وكان النفي المتكرّر حول عدم علاقة هذه الحرب بالنفط غير مقنع بقدر ما زعم كولن باول في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ أنّ نفط العراق سوف يُحفظ برعاية أميركا للشعب العراقي. «الوصاية» هي بالضبط ما عرضته عُصبة الأمم على المشرق عندما سمحت لفرنسا وبريطانيا بتطبيق الانتداب على فلسطين والأردنّ ولبنان وسوريا بعد الحرب العالمية الأولى. مَن سيشرف على آبار النفط واحتياطي النفط العراقي المكتشف خلال هذه المرحلة السخيّة من الوصاية؟ طرحت السؤال في صحيفتي: الشركات الأميركية ربّما؟

خذ مثلاً قضية المفتّشين: لم يرغب جورج بوش وديك تشيني ودونالد رامسفيلد والآن كولن باول في إعطاء المفتّشين مزيداً من الوقت. لكن لِمَ لا بحقّ الله؟ يوم ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، وفيما كان يثير المشاعر لجرائم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ضدّ الإنسانية، طلب بوش من الأمم المتحدة وأصرّ عليها إرسال مفتّشيها مجدّداً إلى العراق وأنّ عليهم إنجاز عملهم. كان بوش يأمل بالطبع في رفض العراق السماح للمفتّشين بالعودة. وبصورة مفاجئة استقبل العراق المفتّشين الدوليين. وكان بوش يتوقّع من هؤلاء إيجاد الأسلحة المخبّأة. ولكنهم ويا للهول لم يجدوا شيئاً؟... وهم ما زالوا يبحثون.. وهذا آخر شيء كان يريده بوش. قال إنه سئم وتعب من خداع صدّام... بينما كان ما عناه: أنه سئم وتعب من انتظار المفتّشين الدوليين ليجدوا الأسلحة التي ستسمح لأميركا بالذهاب إلى الحرب. فهو الذي أصرّ بشدّة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢ على إعادة المفتّشين إلى العمل وها هو لا يريد عودتهم

على الإطلاق في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. قال بوش: «إن الوقت يمضي»، وكان يتحدّث عن صدّام لكنّه في الواقع يتحدّث عن مفتّشي الأمم المتحدة، لا بل عن مجمل مؤسّسة الأمم المتحدة التي تأسّست بعد الحرب العالمية الثانية بمبادرة ومثابرة من بلاده.

كانت إسرائيل، إذا استثنينا الكويت، الدولة الأخرى الوحيدة التي تدفع نحو الحرب. كانت هذه كلمات زلمان شوفال مستشار الشؤون الخارجية لرئيس الوزراء أرييل شارون في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ الذي صرّح: «ستدفع إسرائيل غالياً بسبب إطالة تأجيل الضربة الأميركية على العراق. إذا تمّ تأجيل الهجوم على أساس سياسي أكثر منه عسكرياً، فإنّ لدينا في إسرائيل كلّ الحق للخوف من استخدام صدّام هذا التأخير لتطوير أسلحة غير تقليدية». أضاف شوفال: «ما دام صدّام في السلطة، فمن الصعب إقناع القيادة الفلسطينية بأن العنف لا يفيد وبأنه يجب إجراء إصلاحات في القيادة الفلسطينية». ومن المحتمل قيام عرفات باستغلال تأخير كهذا «التكثيف العمليات الإرهابية». إذاً لا يصبح من الممكن تسوية النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي وفق تحليل شوفال إلّا إذا غزت أميركا العراق: لن يتوقّف الإرهاب في إسرائيل إلا بتدمير أميركا لصدّام. قد لا يحصل تغيير في السلطة الفلسطينية حتى يحصل تغيير في بغداد. ومن خلال الذهاب مع بوش إلى الحرب، كان بلير يساند بشكل غير مباشر احتلال إسرائيل للضفّة الغربية وغزّة (بما أنّ إسرائيل ما زالت تدّعي محاربة الإرهاب باسم أميركا).

لم يكن صدّام ليختلف عن الزعيم المحبوب لكوريا الشمالية، كيم جونغ إيل، الشخص المصاب بجنون العظمة النوويّ والذي كانت أميركا تجري مفاوضات ممتازة معه، ولكن هذا لم يكن لديه نفط. وكم كان تصرّفاً نموذجياً إيفاد صدّام لعلي مجيد «الكيماوي» (مجرم الحرب الذي قصف الأكراد بالغاز في حلبجة) ليقوم بجولة على العواصم العربية ويجلس مع رئيس سوريا بشّار الأسد ورئيس لبنان إميل لحود كما لو أنه لم يأمر بذبح النساء والأطفال. لكنّ بوش وبلير لم يقولا شيئاً حول جولة مجيد ـ إمّا لأنهما كانا لا يريدان إزعاج الزعماء العرب الذين قابلوه أو لأن الربط بين الغاز وجرائم الحرب ودعم واشنطن الأساسي لصدّام كان لا يزال مسألة حسّاسة(*).

كنت في أوستين، تكساس، يوم ٤ شباط/فبراير ٢٠٠٣، أنتظر طائرتي إلى نيويورك لمشاهدة كولن باول يُقنع أعضاء مجلس الأمن بأن أكاذيب أميركا حول أسلحة الدمار الشامل ليست أكاذيب على الإطلاق بل حقائق. لكن كان هناك رهان واحد مؤكّد حول تصريح باول كتبته ذلك اليوم. ألا يُعقل أن يتحدّث

(*) طيلة هذه الفترة استمرّت وسائل الإعلام الأميركية في دعمها الحقير لإدارة بوش. وكما أوردت في صحيفتي يوم ٢٦ كانون الثاين/يناير، صرنا الآن نواجه فيضاناً آخر من التهديدات الجديدة تطلقها واشنطن «للدول التي تدعم الإرهاب». خذ على سبيل المثال، إيريك شميث من النيويورك تايمز الذي كتب منذ أسبوع رواية حول قرار أميركا «مواجهة الدول التي ترعى الإرهاب». وانظر إلى مصادره؟ مسؤولين كبار في وزارة الدفاع.. موظّفين في الإدارة.. بعض موظفي الاستخبارات الأميركية.. المسؤولين.. مسؤولين عسكريين.. خبراء في الإرهاب.. ومسؤولين في الدفاع». وتساءلت «لِمَ لا؟ فليكتب البنتاغون تقاريره في النيويورك تايمز؟».

عن أفغانستان. ما دامت الحرب الأفغانية نموذجاً للدور الناجح لمغامرة أميركا الإمبريالية الدائرة في أنحاء الشرق الأوسط، فإن الانهيار القريب للسلام في هذه الأرض المتوحّشة والشهيّة بالنسبة إلى الولايات المتحدة وقوّاتها في أفغانستان ـ الهجمات الليلية على القوّات الأميركية والقوّات الدولية الأخرى، الفوضى في المدن خارج كابول، أمراء الحرب وتجّار المخدّرات والازدياد المستمرّ لعدد القتلة ـ كل ذلك أمر لا يمكن الإشارة إليه... إنه رواية شُطبت بشكل مستمرّ من مخيّلة الأميركيين الذين يستعدّون الآن لإرسال شبابهم وشابّاتهم بعشرات الآلاف لتسطير رواية «نجاح» أخرى... كتبت يومها:

«إن هذا المقال قد كُتب في منزل الرئيس بوش في ولاية تكساس حيث نُكّست الأعلام حداداً على طاقم المكّوك كولومبيا... وحيث إن إرسال قوّات إضافية من وحدة الدفاع الجوّي ١٠٨ من قاعدة بليس إلى الشرق الأوسط وإرسال عدد غير محدّد من طائرات F117 الشبح القاذفة الليلية من قاعدة هولومان في نيومكسيكو، لم يستحقّ أكثر من حوالي ٧٨ كلمة لتقرير في صفحة داخلية من صحيفة أوستين المحلّية.

إنّ نيويورك وواشنطن وحدهما أوحتا بشكل ماجن أن موت طاقم المكّوك كولومبيا زاد من تصميم ووحدة أميركا لدعم مغامرة بوش في العراق.. قبل بضعة شهور، كان لا يزال يطلب منا أن نصدّق أنّ «نجاح» ما بعد الحرب في أفغانستان ينبئ «بنجاح» ما بعد الحرب في العراق. لننزع الستائر بعض الوقت ولنحدّق إلى الأرض التي وعد الرئيس بوش ورئيس الوزراء بلير بعدم تناسيها.. فليرفع يده كلّ مَن يعرف أن للقاعدة محطّة إذاعة تعمل من داخل أفغانستان وتدعو إلى الجهاد المقدّس ضدّ أميركا؟ هذا حقيقي. فليرفع يده أيضاً ومجدّداً كل مَن يستطيع التخمين كم هو عدد مخابئ الأسلحة المكتشفة يومياً من قِبل القوّات الأميركية في البلاد، والتي دخلت إلى أفغانستان منذ حرب أميركا الناجحة؟»... الجواب: حوالي ٢٥ في المئة».

هل انسحبت أيّ قوّات أميركية من مواقعها على الحدود الباكستانية ـ الأفغانية؟ يمكن القول إنه لم تنسحب أيّ قوّة.. أو ربّما كنت أنا مخطئاً. على الأقلّ هناك خمسة مواقع استناداً إلى مصادر باكستانية على الطرف الآخر من الحدود، واحد منها فقط معترف به. يوم ١١ أيلول/سبتمبر، تخلّت القوّات الأميركية عن موقعها العسكري خارج لاورا بعد هجمات ليلية بالصواريخ دمّرت العديد من السيّارات العسكرية الأميركية. وقد طُرد حلفاؤهم الأفغان بعد بضعة أيام ثم اقتحم مقاتلو القاعدة المبنى الأميركي وأحرقوه.

هذا دليل على مدى الخطورة الذي انحدرت إليه مهمّة أميركا في أفغانستان بحيث أفردت صحيفة وول ستريت جورنال المحافظة جدّاً ـ هي عادة منارة السياسة الإمبريالية والإسرائيلية في الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا ـ مقالاً طويلاً وغريباً عن الانسحاب الأميركي مع أنه ليس ما تدعو إليه الصحيفة.

«ما زال الجنود يواجهون عدوّاً خفيّاً».. هكذا كان عنوان مقال مارك كوفمان للتحقيق من الدرجة الأولى الذي نشره، وهو عنوان مشابه تقريباً لعنوان آخر ظهر لرواية فيسك بعد عام أو أكثر على الغزو الروسي لأفغانستان عام

١٩٧٩ ـ ١٩٨٠. كان الجنود في تقريري روسيّين بالطبع. وكما أتذكّر الآن تماماً ذلك الضابط السوفياتي الذي أخبرنا في قاعدة باغرام الجوّية أن بقايا إرهاب المجاهدين هي ما بقي من القرصنة الغربية ضدّ محبّي السلام (والشيوعيين) الأفغان، كذلك ألاحظ الآن المتحدّثين الأميركيين ـ وفي قاعدة باغرام الجوّية نفسها ـ وهم يخبروننا بأن بقايا القاعدة هي ما تبقّى من وحدات بن لادن.

أُعيد تنظيم معسكرات التدريب داخل أفغانستان مجدّداً ليس ـ كما يعتقد الأميركيون ـ من قِبل رجال قلب الدين حكمتيار العصاة و المعادين للأميركيين، بل من قِبل العرب. وضمّت آخر معركة بين القوّات الأميركية وبقايا العدوّ، قرب ممرّ بولداك في محافظة قندهار، مقاتلين عرباً أكثر، كما أورد زميلي فيل ريفيس. وكانت قوّات حكمتيار من الحزب الإسلامي قد وطّدت العلاقات مع القاعدة وطالبان، وهو الأمر الذي قامت به «بقايا المجاهدين الإرهابية» بعضها مع بعض في شتاء عام ١٩٨٠ بعد عام على الغزو السوفياتي.

قُتل أميركي بلغم مزروع حديثاً في خوست، وقُتل ١٦ مدنياً بلغم آخر مزروع حديثاً خارج قندهار، وأُلقيت قنابل على أميركيين أو على قوّات دولية في كابول، وجاءت تقارير إضافية عن عمليات اغتصاب وإحراق للنساء في شمال أفغانستان ـ كل هذه الأحداث صار لها اليوم صفة الوضع المملّ الذي عرفته حرب الأمس.

لذلك فلنتأكد من أن كولن باول لن يصرّح لمجلس الأمن عن نجاح أميركا في حرب المعلومات في أفغانستان. فأن تزعم بأن صور القمر الصناعي تظهر أسلحة كيميائية تتنقل في أنحاء العراق، أو أن التنصّت على مكالمات تلفونية مضبوطة يثبت أن العلماء العراقيين ما زالوا يقومون بعملهم القذر، هو شيء، في حين أن شرح كيف أن كل الإتصالات المضبوطة التي سجّلتها أميركا في أفغانستان لم تثبت شيئاً، هو شيء آخر تماماً.... وفيما يتعلّق بأفغانستان يمكن الاستشهاد بكلام باسل فاولتي: «مهما فعلت، لا تتحدّث عن الحرب».

كان يوم ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٣ يوم عاصفة ثلجية في نيويورك وكان البخار يخرج من فتحات الشوارع، ورجال المخابرات الأميركية ـ الذين يرتدون سترات مكتوب عليها «مخابرات سرّية» ـ يتبادلون التهنئة خارج مقرّ قيادة الأمم المتحدة على الضفّة الشرقية. رغم تعبي راودتني فكرة مشاهدة وزير الخارجية الأميركي كولن باول بعد آلاف الأميال من السفر في أنحاء الولايات المتحدة ـ أو الجنرال باول كما كان يوصف في بعض الصحف الأميركية ـ يقوم بآخر ضربة في دعوته للحرب أمام مجلس الأمن، إنها تجربة لا تعوّض. سأكون في بغداد، خلال أيام قليلة، لأشهد بداية صراع مرعب ومجنون. كان ظهور باول في مجلس الأمن هو المقدّمة الأساسية للمأساة أو المسرحية المأساوية، (إذا استطاع المرء احتواء غضبه) أي مثل ظهور خادم السيّد الذي عليه أن يشرح قصّة المأساة، مثل دور هوراسيو بالنسبة إلى ذلك الهاملت غير المتّزن بشكل متزايد في البيت الأبيض.

كان هناك افتتاح مرعب للّعبة لحظة وصول الجنرال باول إلى مجلس الأمن وقيامه بتقبيل المندوبين على خدودهم وفتح ذراعيه لاحتضانهم. كان جورج تنيت مدير وكالة الاستخبارات الأميركية يقف وراء باول، جَذلاً،

وعدائياً، ومطيعاً، وكان يتمتم بعض الشيء... وكان هناك إدغار روبنسون الذي أقنع نفسه بأن أكثر ما يثير الريبة في ملفّ معلوماته قد دُفن بأمان في عُمق متوازٍ من الغضب والخوف... وبشكل مشابه لظهور بوش في الجمعية العامّة في أيلول/سبتمبر الماضي، وصل وزير الخارجية البريطاني جاك سترو ودخل القاعة من الباب الموجود عند أقصى اليمين، وكانت بذلته كبيرة بحيث تُغطّي مرّتين جسم أشهر عدّائي بريطانيا سابقاً... وكان شامخاً بأنفه إلى السماء كما لو كان يتشمّم السلطة.... وعندما لمح كولن باول انفرجت أساريره واندفع نحوه إلى المنصّة ليسلّم عليه بحرارة.

ولقد بدا الأمر وكأن كلّ القاعة، مع كلّ الأسنان المبتسمة والمصافحات الحارّة، كانت عبارة عن غرفة مليئة برجال يحتفلون بالسلام وليس بالحرب. وآسفاه، لم يكن الأمر كذلك. كان رجال الدولة الأنيقون يُعدّون خطّة تسمح لهم بقتل العديد من الناس... بعضهم من وحوش صدّام الصغار بدون شكّ... ولكنّ أغلبهم من الأبرياء. وعندما صعد باول لإلقاء خطابه الرهيب فعل ذلك ببطء رياضي، كالمحارب العالمي الذي نفد صبره أخيراً.

لكنّ ذلك كان فيلماً قديماً.. وكان عليّ أن أحزر.. مصادر، مصادر استخباراتية أجنبية، مصادرنا، مصادر منشقّين، مصادر.. مصادر... مصادر.... آه كم هو جيّد أن تكون عندك كلّ هذه المصادر والمعلومات في حين أنك اتخذت القرار مسبقاً بالذهاب إلى الحرب. كان العرض الأول لباول مدويّاً مثل أحد التقارير الحكومية على الصفحة الأولى لنيويورك تايمز. كان شبيهاً بتسخين حساء قديم. ألم نسمع هذا الكلام سابقاً. هل يمكن للمرء أن يثق بهذا الرجل؟ أعني الجنرال باول وليس صدّام. بالطبع نحن لا نثق بصدّام.. لكنّ خطاب باول كان مزيجاً من شرائط تسجيل مضحكة إلى حدّ العجب لمكالمات هاتفية للحرس الجمهوري العراقي، بأسلوب صموئيل بيكيت، يمكن أن تكون إثباتاً مرعباً على خداع صدّام مجدّداً لمفتّشي الأمم المتحدة، إضافة إلى مادّة قديمة حول وحش بغداد المعروف أصلاً بسجلّه الوحشي أيضاً.

آه لو استطعنا فقط أن نسمع الترجمة العربية التي أعدّتها الخارجية الأميركية لعبارات من نوع: أوكي يا زميل OK buddy، اعتبر الأمر منتهياً سيدي ... consider it done sir وهذه العبارات المسجّلة وردت بالإنكليزية، وهذا لمعلوماتكم كان حديث النقيب إبراهيم من الحرس الجمهوري!!!.. أما التصوير الظريف للمختبرات الجرثومية العراقية المتحرّكة التي كانت شاحناتها وقاطراتها بحالة جيّدة فقد كان يوحي بأن البنتاغون لم يكن لديه أدنى فكرة عن دمار نظام مواصلات صدّام الذي ترك جيشه وحيداً. وعندما عدنا للحديث عن حلبجة وعن أعمال خرق حقوق الإنسان وعن كلّ ذنوب صدّام كما سجّلها فريق مراقبة الأمم المتحدة UNSCOM (وكان قد تعرّض للتشهير باعتباره غير موثوق به)، بدأنا بتناول الحساء مجدّداً. ربّما يكون سترو قد اعتقد بأن كل هذا يشكّل أقوى مرافعة لـ «دعم الحرب» ـ وجهة نظره عديمة البصيرة على كل حال ـ لكن عندما أجبرنا على الاستماع إلى الضبّاط العراقيين وهم يتحدّثون بالهاتف قائلين: يه يه يه يه (Yeah لُكنة أميركية للنعم الإنكليزية ـ المترجم)، كان من الصعب ألّا نسأل أنفسنا إن كان كولن باول قد فكّر فعلاً بتأثير ذلك على العالم الخارجي. وبين الحين والحين كانت كلمات مثل «فشل العراق في نزع سلاحه».. «الرفض وخيبة الأمل».. تظهر على شاشة الفيديو الضخمة خلف

الجنرال باول. هل كان ذلك شعار السي إن إن تساءل بعضنا. . لكن لا، كان ذلك من صنع شقيقة السي إن إن: الإدارة الأميركية.

ولما كان من المفترض أنّ كولن باول هو الشرطي الجيّد في مقابل ثنائي الشرطي السيّئ بوش ـ رامسفيلد، فقد رغبنا في تصديقه. سمعنا تسجيلاً لمكالمة هاتفية يعطي فيها الضابط العراقي رجاله أمراً: «اشطبوا عبارة غاز الأعصاب عندما تصلكم عبر التعليمات السلكية».. يبدو أن الأميركيين اكتشفوا خطأً جديداً قذراً في لعبة التضليل العراقية. . . لكنّ صورة مأساوية لطائرة عراقية بدون طيّار قيل إنها قادرة على رشّ السموم الكيميائية انكشفت على أنها عمل خيالي من صنع فنّان في البنتاغون. وعندما بدأ الوزير باول الحديث عن سنوات طويلة من الاتصالات بين صدّام والقاعدة، بدأت الأمور تسوء بالنسبة إلى الجنرال. لقد ظهرت القاعدة عام ٢٠٠٠ فقط، في حين أن أسامة بن لادن كان يقاتل (منذ عقود) ضدّ الروس لصالح وكالة الاستخبارات الأميركية التي يجلس مديرها الحالي مضطرباً خلف باول. كانت الولايات المتحدة هي التي تمتّعت بعقد من الزمن من الاتصالات مع صدّام.

كانت رواية باول الجديدة عن كذبة رئيسه في خطابه عن حال الأمّة (أن العلماء الذين جرى استجوابهم من قِبل مفتّشي الأمم المتحدة كانوا رجال مخابرات عراقية بلباس تنكّري) غير مؤثّرة. وبحسب الرواية الجديدة فقد تحدّث مفتّشو الأمم المتحدة خلال جولات التفتيش مع العلماء العراقيين... لكنّ هؤلاء العراقيين كانوا موظفين يمثّلون دور علماء الذرّة والكيمياء الذين أرادت الأمم المتحدة التحدّث إليهم... وقال الجنرال باول إن أميركا تُطلع مفتّشي الأمم المتحدة على معلوماتها، لكن كان واضحاً منذ البداية أن معظم ما كان عنده ليقوله حول مزاعم تطوير أسلحة جديدة (شاحنة إزالة التلوّث في مصنع تاجي للذخائر الكيميائية، وتنظيف مصنع ابن الهيثم للصواريخ البالستية يوم ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر) لم يسلّم في وقته إلى الأمم المتحدة. لماذا لم تُعطَ هذه المعلومات الاستخبارية لمفتّشي الأمم المتحدة قبل أشهر؟ ألم يؤيّد الجنرال باول طلب قرار الأمم المتحدة ١٤٤١ أن تعطى كلّ المعلومات الاستخبارية لهانس بليكس وأعوانه فوراً. أو لعلّ الأميركيين لم يكونوا بالنشاط الكافي؟ أو لعلّهم أدركوا أنه لو كان مفتّشو الأمم المتحدة قد طاردوا هذه المعلومات تحديداً لكان ظهر أنها مغشوشة تماماً كما ثبت لاحقاً أنها كانت كذلك بالفعل؟

جاءت اللحظة الأسوأ عندما ناقش الجنرال باول قضيّة الإنتراكس وهجمات الإنتراكس في واشنطن ونيويورك عام ٢٠٠١، وكان يحمل بشكل مُقرف ملعقة من تلك البذور المتخيّلة، وبينما لم يصرّح بذلك بشكل دقيق أوحى مواربةً بارتباط صدّام حسين بالإنتراكس المرعب. لكن عندما أشار وزير الخارجية إلى مساندة العراق لمنظّمة حماس الفلسطينية، التي لها مكتب رسمي في بغداد، كدليل على دعم الإرهاب (لم يُشر بالطبع إلى دعم أميركا لإسرائيل ولاحتلالها أرض فلسطين) بدأ المسرح ينهار. هناك مكاتب لحماس في بيروت، ودمشق وطهران. هل من المفترض أن تتحرّك القوّة المجوقلة ٨٢ إلى لبنان وسوريا وإيران؟

كم من الأكاذيب رُويت في هذه القاعة؟ كم من الأعذار البريطانية لغزو السويس أو من الأعذار الروسية ـ

في السنة نفسها ـ لقمع الانتفاضة الهنغارية؟ يتذكّر أحدهم ما جرى قبل أربعة عقود بالضبط في هذه القاعة بالذات، عندما عرض سلف الجنرال باول، آدلاي ستيفنسون، صوراً لسفن تحمل صواريخ سوفياتية إلى كوبا. للأسف لا تحمل صور باول مثل هذه الثقة وليس كولن باول آدلاي ستيفنسون.

إذا كان خطاب باول يستحقّ معاملة خبر الصفحة الأولى، فإن وسائل الإعلام الأميركية لم تختر أبداً أن تعطي الاهتمام ذاته للرجال الذين كانوا يدفعون بوش إلى الحرب.. كان معظمهم وما زال من أعضاء جماعات الضغط النشطة الموالية لإسرائيل. لعدّة سنوات، قاموا بالدعوة إلى تدمير الدولة العربية الأقوى. كان ريتشارد بيرل، أحد أكثر مستشاري بوش نفوذاً، ودوغلاس فايث وبول ولفوفيتز وجون بولتون ودونالد رامسفيلد، يقومون بحملة لإسقاط العراق قبل انتخاب جورج بوش رئيساً للولايات المتحدة بفترة طويلة. ولم يكن عملهم هذا لصالح الأميركيين أو البريطانيين. ففي تقرير صدر عام ١٩٩٦، بعنوان: «استراتيجية جديدة لحماية المملكة» دعوة إلى الحرب على العراق.. على أن هذا التقرير لم يُكتب للولايات المتحدة بل لرئيس وزراء إسرائيل الليكودي القادم بنيامين ناتانياهو وقد جرى تحضيره من قِبل مجموعة بيرل. وذلك أن تدمير العراق يحمي احتكار إسرائيل للأسلحة النووية ـ على افتراض أن صدّام كان يملكها أيضاً ـ ويسمح بهزيمة الفلسطينيين وبفرض أيّة تسوية استعمارية يريدها شارون لهم. ومع أن بوش وبلير لم يجرؤا على مناقشة هذا الوجه من وجوه الحرب القادمة (إذ إن صراعاً لصالح إسرائيل لن يقف الأميركيون والإنكليز فيه أمام مكاتب التجنيد) فقد تحدّث زعماء اليهود الأميركيين عن فوائد الحرب على العراق بحماس. وبالطبع فإن تلك الجماعات اليهودية ـ الأميركية التي كانت شجاعة في معارضتها لهذا الجنون كانت الأولى في الإشارة إلى أن المنظّمات الموالية لإسرائيل لا تنظر إلى العراق كمصدر جديد للنفط فحسب، للمياه أيضاً وذلك من خلال ربط نهر دجلة بالمشرق العطشان!! لا عجب عندها أن يخضع أيّ نقاش لهذا الموضوع للمراقبة والحظر كما حاول أن يفعل البروفسور إليوت كوهين، من جامعة جون هوبكنز، في صحيفة وول ستريت جورنال في اليوم التالي لخطاب كولن باول في الأمم المتحدة. زعم كوهين أن معارضة الدول الأوروبية للحرب يمكن وصفها مجدّداً «بمعاداة للساميّة من النوع الذي اعتقدنا أنه مات في الغرب منذ زمن طويل، وهو كراهية تنسب إلى اليهود نوايا شرّيرة». وقد وجد هذا الهُراء معارضة لدى العديد من المثقّفين الإسرائيليين الذين حاجّوا كما فعل أوري أفنيري بأن الحرب في العراق ستزيد أعداء إسرائيل من العرب.

تكمن لطخة «المعاداة للسامية» أيضاً وراء ملاحظات رامسفيلد المهينة حول «أوروبا القديمة». كان يتحدّث عن ألمانيا النازية القديمة وعن فرنسا العميلة للنازي. لكنّ فرنسا وألمانيا اللتين عارضتا هذه الحرب هما أوروبا الجديدة، القارّة التي رفضت مرّة جديدة ذبح الأبرياء. كان بوش ورامسفيلد هما اللذان يمثّلان أميركا القديمة وليس أميركا الجديدة المتحرّرة، أميركا روزفلت. يرمز بوش ورامسفيلد إلى أميركا القديمة التي قتلت سكّانها الأصليين وانطلقت في مغامرة إمبريالية. أميركا القديمة تلك هي التي تطلب منا اليوم أن نحارب لأجلها، وهي مرتبطة بشكل جديد من الاستعمار، إنها أميركا قامت أولاً بتهديد الأمم المتحدة بالعجز ومن ثمّ فعلت الشيء نفسه

مع الناتو. لم تكن هذه هي الفرصة الأخيرة للأمم المتحدة والناتو، لكنّها ربّما كانت الفرصة الأخيرة لأميركا لكي تؤخذ على محمل الجدّ من قِبل أصدقائها وأعدائها على السواء.

أصبحت طموحات إسرائيل والولايات المتحدة متشابكة الآن في المنطقة وشبه واحدة . وكانت هذه الحرب حول النفط والسيطرة الإقليمية تتمّ بقيادة رئيس قال لنا بخداع إنها جزء من حرب دائمة ضدّ الإرهاب. ولم يصدّق الإنكليز ومعظم الأوروبيين ذلك. وهذا لا يعني أن الإنكليز لن يقاتلوا لأجل أميركا. إنهم فحسب لا يريدون القتال من أجل بوش وأصدقائه.. وإذا تضمّن ذلك رئيس الوزراء فإنهم كانوا لا يرغبون أيضاً في القتال لصالح بلير.. وكانوا لا يرغبون أيضاً الدخول في حروب لا نهاية لها إلى جانب حاكم لتكساس سفّاح تخلّف عن التعبئة في فيتنام، وهو اليوم يريد مع أصدقائه النفطيين أن يرسل فقراء أميركا لتدمير دولة إسلامية لا شأن لها بجرائم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ضدّ الإنسانية.

لم يكن الإنكليز الذين عارضوا الحرب جبناء. ذلك أن الإنكليز يحبّون الحرب غالباً.. لقد ضربوا العرب والأفغان والمسلمين والنازيين والفاشيين والإمبرياليين اليابانيين لأجيال عديدة، بمن في ذلك العراقيون. لكن عندما يُطلب من الإنكليز الذهاب إلى الحرب فإن الوطنية ليست بحجّة كافية. كان الإنكليز والعديد من الأميركيين أشجع من بوش وبلير في مواجهة الروايات المرعبة. فهم لا يحبّون (كما قال توماس مور لكروموِيل في «رجل لكلّ الفصول») الروايات المخصّصة لإخافة الأطفال. ربّما كان غيظ هنري الثامن في تلك المسرحية يُعبّر بشكل أفضل عن وجهة نظر الإنكليز في بلير وبوش: «هل يظنّون أنني شخص ساذج؟».. إن الإنكليز، مثل كلّ الأوروبيين، هم شعب متعلّم. ومن المفارقات أنّ معارضتهم لهذه الحرب ربّما جعلتهم يشعرون بأنهم أكثر أوروبية وليس أقلّ. . .

لفلسطين دخل كبير في هذا الموضوع. وإذا كان الإنكليز لا يكنّون للعرب محبّة خاصّة فإنهم يستشعرون الظلم بسرعة كافية، وقد شعروا بالإهانة لأن الحرب الاستعمارية استُخدمت لسحق الفلسطينيين من قِبل دولة صارت فعلياً الآن تدير السياسة الأميركية في الشرق الأوسط. قيل لنا إن غزونا للعراق لا علاقة له بالصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي: جرح حارق ومخيف أفرد له بوش ١٨ كلمة في خطاب الاتحاد عام ٢٠٠٣، حتى بلير لم يستطع إغفال ذلك بسهولة لأن هناك مؤتمراً «للإصلاحات الفلسطينية» يُعقد في لندن ويشارك فيه الفلسطينيون عبر التلفزيون لأن رئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون رفض السماح لهم بالسفر.

في طول الشرق الأوسط وعرضه، احتشد الآن ألوف الصحفيين استعداداً لآخر حرب عبر الإعلام. لن تكون هناك «ملخّصات» صحفية بعد الآن، ذلك أن الصحفيين سيسافرون «بمعيّة» الجيش. إنها علامة على قبول رجال الصحافة والتلفزيون بهذه الكلمة الناقصة كجزء من قاموسهم. وتتحدّث السي إن إن وفوكس نيوز وشبكات التلفزة الأميركية الكبيرة الآن كجسم واحد. كان الجزء الثاني من الحرب على الإرهاب على وشك البدء، مكتملاً بشعاراته الذهبية وموسيقاه. وقد طوّرت الصحافة الأميركية على مرّ السنين مراقبتها الذاتية... فجرى حذف العبارات المثيرة للجدل («المحتلّة» مثلاً كانت واحدة من الكلمات التي يتعيّن تجنُّبها، إلّا عندما تُستخدم عند الحديث عن

غزو صدّام للكويت عام ١٩٩١) واستُبدلت بتعابير وتعريفات «آمنة». حتى إنني سجّلت قائمة ببعض الجمل والعبارات التي أصبحت سائدة في الحرب العراقية: «محرّرون» تُقال للأميركيين المحتلّين، «إرهابيّون» تُقال للعراقيين المقاومين للاحتلال الأميركي، «المتعصّبون» هم المنتفضون.. «يمكن أخيراً الكشف عن ذلك» تُقال للصحفيين أمام مواقع مقابر صدّام الجماعية. لقد جرى استخدام كل هذه العبارات... وأعيد إحياء عبارة «ضرر جانبي» لاستخدامها مجدّداً.... قيل لمراسلي التلفزيون المتمركزين في بغداد إن تقاريرهم سوف تحمل تحذيراً يقول بأن مراسلاتهم هي تحت إشراف السلطات العراقية. «تحت إشراف» كانت تعني مراقبة. . ـ مع أن هذا لم يكن صحيحاً في حالات عديدة. وكلّما كنت أجري مقابلة على الهواء من بغداد في الأسابيع التي تلت، كنت أقول دائماً أن لا أحد يتنصّت على اتصالاتي... وفي حال قاموا بذلك فإنني سأقول الحقيقة أحبّوا ذلك أم لم يحبّوه... لكنّ محطات الإذاعة والتلفزيون هي مثل القواعد.. إنها تشعر بالأمان بهذه الطريقة(*).

يوم ١٥ آذار/مارس، أخذتُ آخر رحلة سياحية إلى عراق صدّام، آخر طائرة تشحن حقائبها إلى «مطار صدّام الدولي».. كانت طائرة ركّاب إيرباص أردنية تنقل بضعة صحفيين، وبعض العمّال الأوروبيين المتعاقدين، وحشداً من العراقيين فضّلوا قضاء الأيام الرهيبة القادمة مع عائلاتهم ـ ربّما للموت معهم ـ عوضاً عن نفي أنفسهم في فنادق الدرجة الثالثة في عمّان. كنا نتّجه إلى بلد كان على وشك التعرّض للغزو من قِبل أكثر من مئة ألف جندي من القوّات الأميركية والبريطانية، لكنّ الطاقم قام بعمله كما لو أنه لا توجد أزمة أو حرب. أكلنا الكاتو والسندويش المعتاد من وجبة الرحلة، وقيل لنا أن نجعل مقاعدنا بوضع مستقيم قبل الهبوط وإبقاء الأحزمة مربوطة حتى توقّف الطائرة. كانت سلامتنا محلّ اهتمامهم الأول.

(*) يوم ٢٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣ أوردت السي إن إن تعليمات «حول سياسة الموافقة على النصوص المخطوطة» حبست أنفاسنا إلى حدّ ما..... تقول التعليمات إن «على كلّ صحفي يحضّر مجموعة من النصوص أن يرسلها لأخذ الموافقة.. وقد لا تُنشر النصوص إلى أن تنال الموافقة... على كلّ النصوص المنتجة خارج واشنطن أو لوس أنجلس أو نيويورك، بما فيها تلك الصادرة عن المكاتب الدولية، أن تُرسل إلى المطبخ في أتلانتا لأخذ الموافقة»... والمطبخ هو عبارة عن مجموعة محرّري النصوص في أتلانتا الذين قد يصرّون على إحداث تغييرات أو «توازنات» في سرد المراسل.. «ولا تتمّ الموافقة على بثّ تعليق على الهواء ما لم يُوافَق عليه بصورة نهائية من قِبل مدير مخوّل وأن يصدر في نسختين واحدة منها للمكتب.. وعندما يصير النصّ قديماً ينبغي الموافقة عليه مجدّداً والأفضل أن يكون ذلك من قِبل السلطة المخوّلة التي سبق لها الموافقة في المرّة الأولى».... سجّلتُ الكلمتين الرئيسيّتين: «موافقة» و «مخوّلة». قد يكون مراسل أو مراسلة السي إن إن في الكويت أو بغداد ـ أو القدس أو رام الله ـ يعرف خلفيّات قصّته أو قصّتها..، وهو، أو هي، بالتأكيد يعرف حولها أكثر من المدير المخوّل في أتلانتا. لكن رؤساء السي إن إن هم الذين سيقرّرون مضمون القصّة.
كانت نتائج هذا النظام مؤكّدة من خلال تبادل مثير للاهتمام حصل عام ٢٠٠٢ بين مراسل السي إن إن في مدينة رام الله الفلسطينية في الضفّة الغربية المحتلّة، وإيزون جوردان، أحد كبار رجال السي إن إن في أتلانتا، والذي استقال عام ٢٠٠٥ بسبب ملاحظة عن إطلاق الجيش الأميركي في العراق النار على الصحفيين. كانت شكوى المراسل الأول تدور حول رواية للصحفي مايكل هولمز تتعلّق بسائقي الإسعاف التابعين للهلال الأحمر الذين كانت تُطلق عليهم النار بشكل متواصل من قِبل القوّات الإسرائيلية. اشتكى هولمز قائلاً: «جازفنا بحياتنا وذهبنا مع سائقي سيّارات الإسعاف وطيلة اليوم كنا نشاهد من نافذة الإسعاف جنوداً إسرائيليين يطلقون النار على سيّارات الإسعاف. حصلت الرواية على موافقة من مايك شولدر. وأذيعت القصّة مرّتين ثمّ قام ريك دايفيس (مدير تنفيذي في القناة) بإلغائها. وكان السبب أنه «لا يوجد لدينا ردّ من الجيش الإسرائيلي، رغم أننا قلنا في روايتنا إن إسرائيل تعتقد بقيام

بالنسبة إلى بغداد، كانت تلك الليلة هي الليلة الواحدة بعد الألف.. آخر ساعات الخيال... وبينما كان مفتّشو الأمم المتّحدة يستعدون للرحيل عن المدينة في الساعات الأولى من يوم ١٧ آذار/مارس، عيّن صدّام ابنه قُصيّ قائداً للدفاع عن مدينة الخلفاء ضدّ الغزو الأميركي. وحتى الآن كان المدافعون يلعبون كرة القدم في نادي القوّات المسلّحة. وتولّى التلفزيون العراقي تزويد أهالي بغداد بالموسيقى الحربيّة لمواجهة القصف. واستمرّت الأمم المتّحدة حتى اللحظة الأخيرة ـ لساعات فقط قبل الرحيل ـ في العمل بجدّ على تجريد الدولة المعرّضة للغزو قريباً من الأسلحة، مشرفة على تدمير صاروخين من طراز صمود. كان ذلك نزع سلاح طلبه الأميركيون بشدّة ولكنهم فقدوا الاهتمام به الآن. ومع رحيل المفتّشين لم يعد هناك ما يوقف القوّات الجوّية الأنغلو ـ أميركية عن بدء قصفها لمدن العراق.

إذاً، ستكون بغداد ستالينغراد كما أبلغنا صدّام في آخر ساعات السلام!! إلّا أنه لم يكن هناك ما يوحي بذلك. . . . كانت الطرق مفتوحة، ونقاط التفتيش مهجورة غالباً، وجنود المدينة يدخّنون السجائر خارج مقرّ الأمم المتحدة. وعلى ضفاف نهر دجلة راقبت صيّادي المساء يرمون شباكهم لصيد سمك المسقوف الذي يأكله أهل بغداد بعد الغروب. تم سحب قرار مجلس الأمن! ودعا بلير إلى اجتماع طارئ لمجلس الوزراء! ووجّه بوش خطاباً إلى الشعب الأميركي! وكانت بغداد تبدو وكأنّها تسير في نومها في طريقها إلى التاريخ... مدويّة مثل أميركا وبريطانيا.

وجدت طابوراً من العراقيين ينتظرون خارج قاعة سينما سندباد في شارع السعدون تلك الليلة من أجل مشاهدة الفيلم المصري القديم «حياة خاصّة»... وكانت ملصقات الفيلم تُظهر جسد البطلة. في الواقع، تتحفنا الصحف البعثية المحلية بتقارير عن التظاهرات الداعية للسلام والاحتجاجات حول العالم، كما لو أن بوش سيقوم باستدعاء قوّاته المؤلّفة من ١٤٠ ألف جندي لأن الأردنيين أحرقوا الأعلام الأميركية في عمّان.

= الفلسطينيين بتهريب الأسلحة والمطلوبين في سيّارات الإسعاف»... رفض الإسرائيليون إجراء مقابلة مع السي إن إن وأعطوا بياناً مكتوباً فقط... وهذا البيان جرى إدخاله في نصّ تقرير للقناة لكن تمّ رفضه مجدّداً من قِبل دايفيس في أتلانتا. وعندما أعطى الجيش الإسرائيلي بعد ثلاثة أيام مقابلة مع القناة سُمح بنشر قصّة هولمز ـ لكن بعد إضافة غير شريفة لسطر يقول بإن سيّارات الإسعاف أصيبت «خلال تبادل لإطلاق النار (أي أن الفلسطينيين أطلقوا النار أيضاً على سيّارات إسعافهم)»..
كانت شكوى المراسل واضحة كلّياً. منذ متى نوقف قصّة رهينة أهواء حكومات وجيوش؟ قيل لنا من قِبل ريك إنه إذا لم يظهر إسرائيلي على الشاشة فإننا لن نبث الرواية. هذا يعني أن الحكومات والجيوش هي التي تراقب بشكل غير مباشر رسائلنا وتجعل منا بالتالي لعبة بين أيديها.
كان كل ذلك مهمّاً بالنسبة إلى الحرب القادمة على العراق. فهو كان يقول بوضوح إنه يجب أن يكون هناك مسؤول عسكري أميركي مستعدّ لنفي أي شيء مختلَف عليه يصرّح به العراقيون إذا كانت تقارير بغداد ستعلن على الهواء. في الواقع، أكّدت مذكّرة صدرت يوم ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ أن نظام السي إن إن بالنسبة إلى الموافقة على السيناريو أصبح أكثر قساوة. فقد أُعطيت تعليمات لموظفي السي إن إن تقول «إن هناك نظاماً جديداً مسجّلاً بالكومبيوتر للموافقة على النصوص، سوف يسمح للمخوّلين بذلك بتعليم النصوص (أي التقارير) بطريقة واضحة وعامّة. وسوف يقوم المنتجون التنفيذيون للنصوص بالضغط على زرّ ملّون: «موافق»، لتحويله من الأحمر (غير موافق عليه) إلى الأخضر (موافق عليه)... وإذا قام أحدهم بتعديل في النصّ بعد الموافقة فإن الزرّ يصبح أصفر»... نعم أصفر!!

كانت هناك لامبالاة غير عادية، كما لو أننا كنا نتنشّق في بغداد نوعاً آخر من الهواء، موجوداً على كوكب أُزيلت منه طائرات B52 والشبح وصواريخ كروز وقنبلة أمّ القنابل التي سوف تُزلزل الأرض قريباً تحت أقدامنا. كان تاريخ العالم الإسلامي وحضارته على وشك التعرّض لزلزال من صنع الغرب، زلزال لم يُشاهد مثيل له من قبل.. حتى إن زلزال ما بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية سيصبح فائضاً عن الحاجة في الساعات القليلة القادمة. والحال أن تمثالاً ضخماً كان يقف على ضفاف دجلة، ملفوفاً بالورق والقماش، حجراً بحجم ملحميّ... ينتظر رفع الستار عنه: إنه تمثال برونزي آخر لصدّام حسين. . . .

بحثت عن علامات للعاصفة القادمة في دخان ازدحام بغداد، وسط سيّارات الأجرة الصفراء القديمة والباصات الجديدة ذات الطابقين والشاحنات. كانت هناك علامات قليلة، طوابير من السيّارات أمام محطّات الوقود تملأ خزّاناتها للمرّة الأخيرة، ومجموعة من محلّات الآثار تُغلق أبوابها خلال الدوام، وجماعة من العمّال تخرج أجهزة الكومبيوتر من الوزارة، تماماً كما فعل الصرب قبل زيارة الناتو لبلغراد في ربيع ١٩٩٩. ألم يكن العراقيون يعرفون ما سيحصل؟ ألم يكن صدّام يعرف؟

أستطيع فقط تذكر تلك الرواية المهمّة والحديثة لسفير كوبي سابق. عام ١٩٩٠ كان ضمن وفد أرسله كاسترو لإقناع صدّام بقوّة النيران الأميركية التي لا تقاوم والتي ستستخدم ضدّه إذا لم ينسحب من الكويت. أجاب صدّام: «وصلتني تقارير كثيرة مثلها. أرسلها لنا سفيرنا لدى الأمم المتحدة مراراً، وانتهت هناك» وأشار صدّام إلى سلّة المهملات الرخامية على الأرض.

أما زالت سلّة المهملات الرخامية مليئة بتقارير مماثلة؟ أبلغنا التلفزيون العراقي يوم ١٦ آذار/مارس أن صدّام قال شخصياً مرّة أخرى إنه إذا كان لدى العراق أسلحة دمار شامل في الماضي فإنها لم تعد موجودة الآن. نحن نعلم أنه كان يقول الحقيقة. وقال صدّام: «إنّ أسلحة الدمار الشامل الأميركية ودعمها لإسرائيل هي التي تهدّد العالم». طيلة اليوم، كانت طائرة الأمم المتحدة C-130 قابعة في مطار صدّام الدولي ـ كانت للأمم المتحدة طائرتان أُخريان للنقل في مطار قبرص ـ جاهزة لنقل ١٤٠ مفتّشاً خارج العراق قبل أن يشنّ بوش وبلير هجومهما. لا أحد يناقش ما هو واضح: لماذا أزعج المفتّشون أنفسهم للمجيء أساساً؟ إذا كان الإنكليز وكذلك المدّعي العام في لندن قد صرّحوا بأنهم ليسوا بحاجة إلى قرار مجلس الأمن ١٤٤١ لشنّ الحرب لأنها مبرّرة استناداً إلى قرارات سابقة، فلماذا يصوّتون عليها إذن؟ لأنهم أملوا أن يرفض صدّام عودتهم. وكما أوضح صدّام بشكل جليّ في خطابه الأخير، جاء المفتّشون ليجدوا لاشيء».

وقفت مجموعة من «نشطاء السلام» الغربيين يداً بيد على طول أكبر جسر في بغداد، رجال مُسنّين شاب أميركي مسلم، ورجل بوذي في لباس الصلاة، يبتسمون للمارّة، ويتجاهلهم السائقون العراقيون تجاهلاً واضحاً. بدا الأمر كما لو أن العراقيين غير معنيين بتظاهرة هؤلاء الأجانب... كما لو أن سنوات عذابهم جعلتهم راضين عن الحقيقة الرهيبة التي كانت على وشك السقوط عليهم. ماذا كان يحمل هذا من نُذر للأميركيين؟ أو للعراقيين؟

وهكذا فقد ذهبت عند الغسق في آخر ليلة من ليالي السلام إلى التمثال الضخم الذي أقامه صدّام للقتلى العراقيين في حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ ضدّ إيران، والذي يوجد عند قاعدته الرخامية اسم كلّ مفقود عراقي. تقول إحدى الجمل المحفورة حول القاعدة بالعربية: «يأتي الأمل من الحياة ويجلب الدفء للقلب». لكنّ الأزواج الذين يجلسون على العشب قرب التمثال لم يحضروا إلى هنا لتذكّر الأحباب. كانوا طلّاب حقوق وكان تعليقهم السياسي الوحيد أنهم «عانوا الحرب عدّة مرّات وهم متعوّدون عليها».

وهكذا تُركت وحيداً ومعي فكرة هرطوقية. . . . في حال صارت بغداد بمجملها مدينة مفتوحة فإنّ المدافعين عنها سيتحرّكون شمالاً لحماية موطن صدّام، تاركين سكّان العاصمة ليكتشفوا بأنفسهم وعلى حسابهم أفراح الاحتلال الأميركي وأتراحه؟ أعتقد أن الأمر كلّه يعتمد في الساعات والأيام القليلة القادمة على عدد المدنيين الذين قرّر الأميركيون والإنكليز قتلهم في حربهم المفترض أنها أخلاقية. «هل يتعيّن على العراق أن يبني تمثالاً جديداً للقتلى؟... هكذا تساءلت في تقريري إلى الإندبندنت تلك الليلة، «أم أننا نحن الذين سنبنيه؟»...

الفصل الثالث والعشرون

الكلب النوويّ، المُبيد، مُضرم النيران، الإنتراكس، أغاممنون

«تسألني عن نهب بغداد؟ كان رهيباً يفوق الوصف. أتمنّى لو لم أعش لأشاهد كيف دمّر المجانين تلك الثروات من المعرفة والثقافة. اعتقدت أنني فهمت العالم، لكنّ هذه المحرقة (الهولوكوست) كانت غريبة وبلا هدف، بحيث أخرست نُطقي وعقلي.... إن ثورات الزمن وقرارات ذلك الوقت قد دمّرت كلّ الفكر والمعرفة».

الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي، يصف نهب بغداد على يد هولاكو، حفيد جنكيز خان، في العام ١٢٥٨.. (عن ترجمة مايكل وود الإنكليزية)

أوصل هدير الطائرات الأميركية حملة الرئيس جورج بوش الإبن ضدّ الإرهاب إلى بغداد. كانت هناك طلقات من الرصاص الخطّاط في الأفق من دفاعات بغداد الجوّية ثم سلسلة من الارتجاجات الضخمة جعلت الأرض تهتزّ تحتنا، والجدران تتمايل، وموجات الصوت تُقرقع في آذاننا. وشقّت أعمدة من النار الجوّ حول العاصمة العراقية، حمراء قاتمة في القاعدة وذهبية عند القمّة.

إذا نظرت من ضفّة نهر دجلة، أستطيع رؤية شُهب من النار ترتفع في السماء بينما تنفجر القنابل والصواريخ الأميركية على الجيش العراقي ومراكز اتصالاته وبدون شكّ على الأبرياء أيضاً. صرخت بيني وبين نفسي: فالهالّلا (مكان من الميثولوجيا النروجية ـ السكنديناقية، حيث تُستقبل أرواح الأبطال الذين يسقطون في المعركة... أين هو واغنر؟ ورائعته: «أضواء الآلهة» تشعّ في آخر ساعات الدنيا!

لم يشكّ أحد في العراق أنّ بين القتلى الكثير من المدنيين. وقد تحدّث طوني بلير عن ذلك في الأسبوع نفسه في جلسة مجلس العموم. لكنني تساءلت، وأنا أُنصت إلى هذه العاصفة الناريّة في كلّ أنحاء بغداد، ما إذا كان لدى طوني بلير أيّ تصوّر حول شكلها، وماهيّتها، أو حول خوف العراقيين الأبرياء الذين كانوا يختبئون في منازلهم وأقبيتهم. قبل سقوط الصواريخ، كنت أتكلّم مع امرأة مسلمة شيعية مسنّة في منطقة فقيرة من بغداد، ترتدي لباساً أسود تقليدياً مع غطاء للرأس أبيض، وألِحّ عليها لتخبرني بما تشعر به. في النهاية قالت: «أنا خائفة». وجاءت الانفجارات لتفسّر كلماتها!

لم يكن هناك أدنى شكّ في أنّ ذلك كان بداية لشيء ما سوف يغيّر وجه الشرق الأوسط! هل ينجح؟ تلك مسألة أخرى! ينتابني شعور غريب لكوني هنا على الأرض (في موقع الحدث) في الداخل، عند بداية هذه المغامرة الإمبريالية. لقد أدّى العنف الخالص وصوت صفّارات الإنذار من الغارات الجوّية وصدى سقوط الصواريخ رسالته السياسية، ليس لصدّام فقط بل للعالم أجمع. كانت هذه الانفجارات تعلن: نحن القوّة العظمى،، هكذا نقوم بالعمل، هكذا ننتقم للحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

ولكن حتّى الرئيس بوش لم يقم في الأيام الأخيرة للسلام بأي جهد لاتّهام العراق بتلك الجرائم الدولية ضدّ الإنسانية التي وقعت في نيويورك، وواشنطن وبنسلفانيا. كان الأميركيون حتى الآن ـ بدون موافقة الأمم المتحدة ومعظم دول العالم ـ يتصرّفون بغضب من خلال الردّ العسكري. ولا شكّ في أنّ العراق لا يستطيع مواجهة ذلك طويلاً. يمكن أن يدّعي صدّام ـ كما فعل ـ أنّ جنوده يستطيعون هزيمة التكنولوجيا بالشجاعة... هذا هُراء. فما سقط على العراق يوم ١٩ آذار/مارس ـ وقد شهدت في بغداد جزءاً صغيراً من مهرجان العنف هذا ـ كان هائلاً عسكرياً كما كان مُرعباً سياسياً. كانت الجموع خارج فندقي واقفة تحدّق في السماء إلى الرشقات المضادّة للطائرات، مرعوبة. تساءلت بينما كنت واقفاً على شرفة فندقي قرب نهر دجلة هل كان الإنكليز يعرفون إلى أين سيؤدّي ذلك؟ ألم نمشِ نحن الإنكليز في هذا الممرّ المتعجرف نفسه ضدّ طُغاة ما بين النهرين الصغار قبل أكثر من مئة عام؟ وانظر ماذا حصل للإمبراطورية البريطانية. الآن وأنا أستمع الى تلك الانفجارات الضخمة حول بغداد، أتساءل ماذا يخبّئ الزمن في جُعبته للإمبراطورية الأميركية.

كانت بغداد دائماً مكاناً قاسياً بالنسبة إليّ. مع مرور السنين، أقمت صداقات كثيرة في المدينة ـ مع رجال أعمال وعائلاتهم، وفنّانين، وموظّفين من النظام القديم وأيضاً بعثيين وعائلاتهم، وعلى الأقلّ وزير واحد، هو ناجي الحديثي الذي كان أوّلاً وزيراً للإعلام ثم وزيراً للخارجية، والذي كان ردّه الأول على الأسئلة المحدّدة يتمثّل في النظر إلى سقف مكتبه، موحياً إلينا بأنه يوجد مسجّل للصوت هناك. أمّا في منازل العراقيين فقد شعرت بالأمان. وتظهر الصور القديمة العائدة إلى الخمسينيّات الأجداد بلباس الجيش البريطاني العسكري والنساء يتسوّقن في هارودز ـ وبعد فترة طويلة، في أواخر السبعينيّات، كانت هؤلاء النسوة المتوسّطات العمر يتمتعن بالثروة النفطية لصدّام ويتنزّهن في نايت بريدج.

كان لحرارة الصيف الشديدة والمرافقين الموضوعين في تصرّفنا (نحن المراسلين) تأثير كارثي. وبعد فترة وجيزة، أخذ المرافقون أموالنا وتحوّلوا إلى العمل لصالحنا. وكان باستطاعتنا رشوتهم ومن المحتمل انتقالهم خلال هذه الحرب الصدّامية بدون وعي لخدمة شبكات التلفزة. وفي الأسابيع التي أعقبت تحرير بغداد، عملوا عندنا وبعدها شاهدناهم موظّفين عند سلطة الاحتلال الأميركي.

عندما كنّا نتمكّن من خداع المرافقين، كنّا نتسلّل إلى الأحياء الفقيرة لمدينة صدّام حيث نستمع إلى رجال المعارضة الشيعية ونلمس غضب حزب الدعوة وشجاعة السكّان الذين انتفضوا عام ١٩٩١ وتعرّضوا للخيانة لكنهم

ما زالوا يتطلّعون إلى لحظة الحرّية. وقد اكتشف كبار موظّفي الوزارة قيامنا بهذه الزيارات المحظورة لكنّهم تجاهلوا ذلك مقابل ١٠٠ أو ٢٠٠ دولار مما يدلّ على فساد النظام. فعلى الرغم من امتلاكه لأكبر ثروة نفطية عالمية، أعطى صدّام شعبه الحرب والدمار. كنت في بغداد إبّان سقوط صواريخ سكود الإيرانية عليها ليلاً، وكذلك إبّان الهجوم على خرمشهر عام ١٩٨٠، وشاهدت القتلى العراقيين داخل إيران عام ١٩٨٢ وداخل الكويت عام ١٩٩١ وأشاهد حالياً القتلى العراقيين في بغداد.

وخُيِّل إليّ أن العراقيين قد رأوا أنفسهم على هذا النحو لفترة طويلة... فهم كانوا في الوقت نفسه أحياء وأمواتاً. ولم تصبح الحرب جزءاً من وجودهم فقط بل جزءاً من حياتهم. وكان القتال والموت في سبيل صدّام، والعراق، والعروبة، والوطنية، ظاهرة طبيعية خالية من الخوف. بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٨ قاتلوا الإيرانيين لمنع احتلال بلادهم. ولا يُعتبر الاحتلال بالنسبة إلى العراقيين، والعرب، وأيّ شعب أو دين مجرّد إذلال بل هو نوع من الاغتصاب. وصل العدوّ إلى بيتكم، مدينتكم، شارعكم، غرفة نومكم وسوف يعمد إلى تعذيبكم وقتلكم وإهانة عائلاتكم. وهذا ما كان يفعله رجال صدّام من شرطته السرّية بشعبهم.. وهم أيضاً كانوا محتلّين... والويل لكلّ مَن يحاول أخذ مكانهم ....

في الليلة السابقة للهجوم الجوّي الأوّل، تجوّلت في ضاحية الجدرية من بغداد التي تضمّ مزيجاً من السكّان السنّة والشيعة، أراقب الجنود وهم يحملون أولادهم على أكتافهم ويودّعون نساءهم وأكياس العتاد على ظهورهم والأسلحة في أيديهم. صورة فوتوغرافية مكرّرة: باريس وبرلين ولندن عام ١٩١٤، برلين عام ١٩٣٩، وارسو عام ١٩٣٩، لندن عام ١٩٣٩، الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤١، الولايات المتحدة عام ١٩٤١، وقبلهم كوريا وفيتنام وكلّ جيوش العالم التي انطلقت في حروب للدفاع عن الحضارة أو الشيوعية أو الفاشيّة ونشرها... ومنهم الملازم بيل فيسك في بوركنهيد عام ١٩١٨. ذهبت إلى صيدلية لشراء ضمادات للجروح وورق للحمّام. وكان الصيدليّ رجلاً مثقّفاً، أخذ يشرح لبقيّة الزبائن المتجمّعين، كيف أنّ الصحفيين والمراسلين الأجانب سيعيشون المخاطر والصعاب نفسها إلى جانب العراقيين وأنّ عليهم معاملتهم بلطف. أثنيت على كرم الصيدليّ بينما كنت أفكّر في أنّ قوّتي الجوّية، سلاح الجوّ البريطاني، هي التي ستقصف بغداد قريباً: «نعم»، قال لي بابتسامة حزينة، «أعتقد أنهم سيفعلون ذلك».

إذاً، مع انطلاق هذه الحرب الجديدة والأُحادية الجانب، كان علينا نحن الصحفيين القيام بتسجيل صراعَين مختلفَين: معاناة الشعب العراقي ومخاض موت النظام. أرادنا النظام أن نرى أنّ المساريْن واحد.. وأصرّ الأميركيون والبريطانيون على أن حملتهم تستهدف تدمير النظام كمقدّمة لإنهاء معاناة الشعب. في الواقع، لم يكن ممكناً الفصل بين معاناة الشعب وصراع النظام البعثي للبقاء، بقدر استحالة نزع ضمادات عن جرح دون استثارة آلام الجريح.. كان من السهل طبعاً الجدال أن قسوة صدّام هي سبب كلّ المصائب، لكنّ الجرحى والقتلى العراقيين لم يكونوا يرون مصيرهم بهذا المنظار. لقد تعرّضوا للهجوم من قِبل الأميركيين وكانت الصواريخ والقنابل الأميركية هي التي تدمّر بيوتهم. هل قاتلوا وضحّوا على الجبهة الإيرانية من أجل الوقوع تحت احتلال قوّة أجنبية

أخرى؟ فهمَ البنتاغون بوضوح هذه المعادلة. لذلك امتنع الجيش الأميركي عن إعطاء حصيلة لعدد القتلى المدنيين خلال الحرب وبعدها كما يفعل أيّ جيش نظامي أو قوّة احتلال عادة... وأكّد دونالد رامسفيلد أن الهجوم الأميركي على بغداد هو بمثابة حملة جوّية لا سابق لها من حيث الدقّة في إصابة الأهداف، لكنّه لم يكن ليستطيع قول ذلك لضُحى سُهيل ابنة الخمس سنوات... نظرت إليّ في صباح اليوم الأول للحرب وأنبوب التغذية معلّق في أنفها فيما تكشيرة وجع عميقة ترتسم على وجهها الصغير وهي تحاول دون جدوى تحريك الجانب الأيسر من جسمها.. صاروخ الكروز الذي انفجر قرب منزلها في الرضوانية أصابت شظاياه قدميها الملفوفتين بالشاش، وبشكل أكثر خطورة فقد دخلت الشظايا إلى عمودها الفقريّ. وقد فقدت الآن كلّ إحساس وحركة في رجلها اليسرى. انحنت والدة ضُحى فوق السرير لتغطي رجلها اليمنى التي كانت الفتاة قد أخرجتها من المُلاءات.. ولسبب ما كانت الوالدة تعتقد أنها إذا وضعت رجل ابنتها اليمنى تحت الغطاء إلى جانب اليسرى بحيث تبقى مستقيمة فإن ذلك سيساعد على شفائها من الشلل. كانت ضُحى أوّل جريحة نُقلت إلى مستشفى جامعة المستنصرية بعدما بدأ القصف الأميركي على المدينة.

هناك شيء مُقرف وماجن في زيارة تلك المستشفيات... نحن نقصف.. وهم يتعذّبون.. ثم نأتي نحن المراسلين ونقوم بتصوير أطفالهم الجرحى. قرر وزير الصحّة العراقي عقد مؤتمر صحفي في باحة المستشفى غير عابئ بالقصف ليشرح الطبيعة الوحشية للقصف الجوّي الأميركي. قال الأميركيون إنهم لن يؤذوا الأطفال... وضُحى سهيل تنظر إليّ وإلى الأطبّاء طلباً للأمان، كما لو أنها ستستيقظ من هذا الكابوس وتقوم بتحريك قدمها اليسرى ولن تشعر بأي ألم. . . . إذاً فلننسَ للحظة واحدة الإعلام الرخيص للنظام وتفاخر بوش ورامسفيلد.. ولنقُمْ برحلة في هذا اليوم الدافئ من آذار/مارس ٢٠٠٣ في أجنحة مستشفى المستنصرية الجامعي. ذلك أن حقيقة الحرب في الواقع لا تكمن في الانتصار العسكري أو الهزيمة، أو في الأكاذيب حول «قوّات التحالف» التي كان صحفيّونا المعبّأون معها يروّجونها وقد بدأوا يخبروننا عن غزو سيشارك فيه فقط الأميركيون والإنكليز وحفنة من الأستراليين... إن الحرب، حتى حين تحظى بشرعية دولية (الأمر الذي لا تحظى به هذه الحرب) تعني أولاً المعاناة والموت.

خُذ على سبيل المثال آمال حسن (٥٥ سنة): امرأة فلّاحة تحمل وشماً على يديها ورجليها، ولكنّها تقبع الآن في المستشفى وهي مُصابة بجروح خطرة ممّا جعلها تبدو ضعف حجمها بسبب الضمادات. كانت في طريقها لزيارة شقيقتها عندما سقطت الصواريخ الأولى على بغداد. روت لي أنها كانت «على وشك الخروج من سيّارة الأجرة عندما حصل انفجار كبير فوجدت نفسي على الأرض والدماء تسيل مني بغزارة.. كانت الدماء في كل مكان... على يديّ ورجليّ وبطني»... ولا تزال آمال حسن تعاني من جروح كبيرة في بطنها. كانت ابنتها وعد ذات السنوات الخمس مستلقية في السرير المجاور وهي تئنّ من الألم. خرجت وعد من السيّارة أولاً وكادت تصل إلى باب منزل خالتها حين أُصيبت بالانفجار، وما زالت قدماها تنزفان، رغم أن الدم تجمّد حول أصابعهما ونشّفته الضمادات حول كاحليها وأعلى الرجلين. . . . كان في الغرفة المجاورة ولدان، سعد سليم (١١ سنة) وأخوه عمر (١٤

سنة)... وهما مصابان بجروح خطرة في الجسم والقدمين. وكانت جراح إسراء رياض في الغرفة الثالثة مشابهة تماماً... وقد أصيبت في قدميها عندما كانت تركض مرعوبة من منزلها إلى الحديقة عندما بدأ القصف. وهناك أيضاً إيمان عليّ (٢٣ سنة) وهي مصابة بجروح عميقة في المعدة وأسفل الحوض... وأيضاً نجلاء حسين عبّاس التي كانت تحاول تغطية رأسها بالمنديل الأسود ولكنها لم تستطع إخفاء مشهد الجروح القرمزية في رجليها.. وكل هذه الجروح كانت بفعل شظايا الصواريخ... بعد فترة أصبحت «جروح الإصابات بالشظايا» شيئاً عادياً وأشبه بمرض طبيعي بالنسبة إلى هؤلاء الناس الذين عانوا لأكثر من عشرين عاماً من الحرب. ووجدتني أسال نفسي: هل كان كل ذلك إذاً انتقاماً للحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؟ هل كان هذا هو معنى «الردّ على الذين قاموا بهذا العمل»، رغم أن ضحى سهيل ووعد حسن وإيمان عليّ لا علاقة لهنّ على الإطلاق، بهذه الجرائم ضدّ الإنسانية. بقدر عدم علاقة صدّام الرهيب؟ تساءلت أيضاً: مَن الذي قرّر إلحاق الأذى بهؤلاء الأطفال وأولئك النسوة كردّ على ١١ أيلول/سبتمبر؟ إن الحروب متشابهة وتكرّر نفسها... ونحن نقوم بطرح السؤال نفسه دائماً عندما نزور الضحايا. في ليبيا عام ١٩٨٦، كان الصحفيون الأميركيون يسألون الجرحى عدّة مرّات: هل أُصبتم ربّما من شظايا أسلحتكم المضادّة للطائرات؟ وقمنا مجدّداً بسؤال الجرحى العراقيين السؤال نفسه عام ١٩٩١. والآن يجد طبيب نفسه أمام هذا السؤال من قِبل مراسل إذاعي بريطاني: «هل تعتقد يا دكتور أن بعض هؤلاء الناس ربّما أصيبوا بنيران المضادّات العراقية؟».

هل يجب علينا الضحك أم البكاء حيال ذلك؟ هل يجب دائماً أن نلومهم «هم» على جراحهم؟ بالطبع علينا أن نسال لماذا انفجرت صواريخ كروز تلك حيث انفجرت.. والتي وصل عددها إلى ٣٢٠ صاروخاً في بغداد وحدها بفضل خدمة USS Kitty Hawk. جاءت إسراء رياض من حيّ الصيادية حيث توجد تحصينات عسكرية كبيرة... وجاءت نجلا عبّاس من حيّ الرسالة حيث توجد فيلّات تملكها عائلة صدّام... وكان الأخوان سليم وعمر يقطنان في شرطة خمسة قرب مرآب للسيّارات العسكرية... ولكن هنا تكمن المشكلة برمّتها.. فالأهداف كانت موزّعة في جميع أنحاء المدينة حيث يعيش الفقراء (وكلّ الجرحى الذين قابلتهم كانوا من الفقراء) في بيوت رخيصة وأحياناً في أكواخ خشبية تنهار نتيجة القصف.

إنها القصّة القديمة نفسها تتكرّر. إذا خضنا الحرب فسوف نقتل ونشوّه الأبرياء. أحصى الدكتور حبيب الحثي، الحائز على شهادة الطبّ من جامعة إيدنبرغ، حوالي ١٠١ مريض في مستشفاه فقط من أصل ٢٠٧ أصيبوا بالغارة، منهم ٨٥ رجلاً و٢٠ امرأة و٦ أطفال و١٦ جندياً. وقد توفّي شابّ وطفل في الثانية عشرة من العمر خلال العملية الجراحية. ولن يقول لنا أحد كم هو عدد الجنود الذين قُتلوا خلال الهجمات.

يُعتبر التجوّل بالسيّارة في شوارع بغداد خطراً. فقد كانت الأهداف محدّدة بدقّة رغم أن تدميرها كان يؤدّي إلى الإصابة الحتمية للأبرياء. كان هناك قصر رئاسي وعلى جوانبه أربعة تماثيل للمحارب العربي صلاح الدين، طول كل واحد منها عشرة أمتار. لكنّ وجه التمثال يمثّل صدّام حسين بالطبع.. وفي وسطها فجوة ضخمة سوداء تشوّه مدخل المبنى... لقد تبخرّت وزارة صناعة السلاح الجوّي مخلّفة ركاماً من الإسمنت والدبش. وفي الخارج عند

المدخل، أكوام من أكياس الرمل يقف وراءها جنود عراقيون وأسلحتهم في أيديهم استعداداً للدفاع عن وزارتهم ضدّ العدوّ الذي دمّرها أصلاً.

بدأ ازدحام السير الصباحي يزداد على الطرقات قرب نهر دجلة. ولم يمعن أيّ سائق النظر إلى القصر الجمهوري على الطرف الآخر من النهر أو إلى وزارة التسليح المجاورة لها... اللذين ظلّا يحترقان طيلة ١٢ ساعة بعد أول دفعة من الصواريخ. بدا وكأنّ احتراق القصور والوزارات والتحصينات صار جزءاً عادياً من حياة بغداد اليومية . ولكن، مرّة أخرى، بربّكم مَن كان في ظلّ حكم صدّام يمضي وقتاً طويلاً في النظر إلى هذه الأشياء؟ كان العراقيون مُربكين في إدراك معنى ذلك. عام ١٩٩١، قصف الأميركيون مصافي النفط، ومحطّات الكهرباء، وأنابيب المياه وخطوط الاتصالات. لكن في اليوم الثاني للحرب، ظلّت بغداد تتحرّك بنشاط. وكانت خطوط الهاتف الأرضي والإنترنت تعمل وكذلك استمرّت الطاقة الكهربائية بكامل طاقتها والجسور سليمة فوق نهر دجلة.

كان تحليلي أن الأميركيين بحاجة إلى نظام اتصالات وكهرباء ومواصلات وما تمّ استثناؤه لم يكن هدية مجّانية للشعب العراقي بل كان لمصلحة حكّام العراق الجُدد.

وقد صدرت صُحف العراق اليومية بطبعة من أربع صفحات فيها مجموعة مقالات عن ثبات الأمّة، وتعني كلمة ثبات بالعربية صموداً، وهو اسم الصواريخ العراقية التي دُمّرت جزئياً قبل طلب بوش من مفتّشي الأمم المتّحدة مغادرة العراق عشيّة ذهابه إلى الحرب، وكان عنوان أحد المقالات: الرئيس: «النصر سيتحقّق على أيدي العراقيين» . وخلال قصف مساء الجمعة، تابع التلفزيون العراقي بثّه ولم يحاول الأميركيون تدميره وظهر على الشاشة جنرال عراقي يؤكّد النصر. وعندما كان يتحدّث مزّقت موجات القصف وانفجارات صواريخ كروز الستائر خلفه وهزّت الكاميرات. وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي عندما نظرت إلى رُكام القصر الجمهوري والوزارة المحترقة وألسنة اللهب في أنحاء بغداد وسحب الدخان التي تغطي المدينة، تساءلت إلى أين يقود كل ذلك؟ بدا القصر المحترق، المهدّم، وألسنة اللهب تخترق جدرانه، مثل حصن من القرون الوسطى دمّره إعصار... لقد دمّرت ستيزيفون (مدينة قديمة على ضفاف الفرات = طاق كسرى) بلاد ما بين النهرين، تماماً كما حدث عبر آلاف السنين عدّة مرّات... ولقد ضرب كزنوفون إلى الجنوب من هنا والإسكندر إلى الشمال.. ونهب المغول بغداد... ثم جاء الخلفاء وبعدهم العثمانيون والإنكليز... لكنّ الجميع رحلوا..وجاء اليوم دور الأميركيين... ولم يكن الأمر يتعلّق بالشرعية، ولكن بشيء أكثر جاذبية، شيء فهمه صدّام جيّداً، نوع خاصّ من القوّة، تلك القوة التي يرغب كلّ غازٍ للعراق في إظهارها بينما هو يشقّ طريقه عبر هذه الحضارة القديمة.

بعد ظهر اليوم الثاني للحرب، أشعل العراقيون حرائق ضخمة من النفط حول بغداد بُغية تضليل نظام توجيه صواريخ كروز... دخان في مواجهة الكومبيوتر. دوّت صفّارات الإنذار مجدّداً بعد الساعة ٦,٢٠ من يوم ٢٢ آذار/ مارس عندما دُمّر أضخم مبنى عسكري لصدّام... مبنى ضخم مؤلّف من عشرين طابقاً قرب القصر تفجّر أمامي مثل مرجل من النار وارتفع اللهب مئة قدم ورافقه صوت ظلّ يطنّ في أذني لمدّة ساعة بعد الانفجار.. وتساقط المبنى

بكامله من تأثير ذلك. ثم سقطت خمسة صواريخ أخرى. كان هذا أقوى قصف عانت منه بغداد طوال أكثر من عشرين سنة من الحرب. وكانت إلى يميني مجموعة من الأعمدة الطويلة لمبنى يشبه البنتاغون تشتعل فيه النيران بعد سقوط خمسة صواريخ داخله. كانت العملية تهدف على ما يبدو إلى إشاعة «الرعب والصدمة»، شعار رامسفيلد الأخير. وكان العراقيون القلائل في الشوارع حولي، من غير المؤيّدين لصدّام على ما أعتقد، يلعنون الطاغية في سرّهم.

تناثر الزجاج من المباني العالية والبيوت والمحلّات بينما تسللت موجات القصف عبر دجلة في كلا الاتجاهين. كانت الصواريخ تتساقط الواحد تلو الآخر. وشاهد معظم العراقيين ـ كما شاهدتُ ـ الصور التلفزيونية لقاذفات ب٥٢ B52 المشؤومة وهي تنطلق من بريطانيا قبل ستّ ساعات من القصف ولاحظوا مثلي الوقت وحسبوا أن القصف والرعب سيبدآن الساعة التاسعة. كانت طائرات ب٥٢ B52 تطلق صواريخها من خارج المجال الجوّي العراقي وتتوقّف في وقت معيّن. وكان رجال الشرطة يجوبون الشوارع مسرعين بسيّاراتهم ويطلبون عبر مكبّرات الصوت من الناس الاختباء أو اتخاذ ملجأ تحت الأبنية العالية. وبفضل وقوفي قرب مجموعة من المحلّات نجوت بأعجوبة من تساقط الزجاج من الأبنية العالية نتيجة القصف.

كنتَ تستطيع أن ترى العراقيين، أزواجاً وزوجات وأطفالاً وشبّاناً، وهم ينظرون من الشرفات وحولهم الزجاج المحطّم. وكلّما سقطت كُتل نارية على المدينة كانوا يسارعون إلى الداخل قبل وصول موجة الانفجار إليهم. وبينما كنتُ واقفاً على الكورنيش تحت الأشجار مرّت موجة من صواريخ كروز على علوّ منخفض فوقي وكان أزيزها هادراً مثل الانفجارات التي تلتها. وتساءلت هل يمكن للمرء وصف ذلك بغير لغة التقارير العسكرية.. تحديد الألوان، وقوّة الانفجارات؟ كان سقوط الصواريخ كما لو أن أحدهم كان يقوم بنشر قطع ضخمة من المظلّات الحديدية في الجوّ.

هناك شيء ما أشبه بالفوضى عند كلّ البشر في ما يتعلّق بردّ فعلهم حيال العنف. كان العراقيون حولي واقفين يراقبون، كما كنت أفعل، ألسنة اللهب وهي تتصاعد من أعلى المبنى قرب قصر صدّام وتتّجه نحو السماء. والمستغرب أن الطاقة الكهربائية ظلّت سليمة واستمرّت الشارات الضوئية تعمل بشكل عادي وكانت لوحات الإعلانات تتمايل نتيجة الصدمات والأنوار الكاشفة تسطع في المباني الحكومية. أمّا سحب الدخان فكانت تتحرّك فوق بغداد بيضاء اللون نتيجة الانفجارات، وسوداء بفعل الأهداف المحترقة. كيف يستطيع المرء مقاومة ذلك؟ كيف يستطيع العراقيون التصديق أن بمقدورهم بالرغم من تقنيتهم المدمّرة ومن سنوات الضعف والعقوبات الاثنتي عشرة، أن يهزموا كومبيوتر هذه الصواريخ وهذه الطائرات؟ إنها الرواية القديمة نفسها: القوّة التي لا تُقاوَم، القوّة التي لا حدود لها.

حسناً، قلنا لأنفسنا، وماذا لدينا أفضل من هذا النظام لكي نهاجمه؟ لكن القضيّة ليست هنا...، فقد كانت

الرسالة الجديدة لغارة الليلة هي نفسها رسالة غارة الليلة السابقة وغارات الساعات القادمة: يجب الخضوع للولايات المتحدة وأوروبا والأمم المتحدة والناتو وعدم المعارضة.

كان العديد من العراقيين يسألونني عن مدّة هذه المعركة. ولا يتعلّق بالأمر برغبتهم في رؤية الأميركيين والإنكليز في بغداد، بل برغبتهم في الخلاص من هذا العنف.. وهذا هو بالمناسبة، إذا فكّرنا في الأمر، السبب الذي كانت من أجله هذه الغارات؟

كان يوم ٢٥ آذار/مارس ٢٠٠٣ يوم الثناء على الرجال الشجعان. وكان صدّام يقوم بذلك من خلال تعداد ضبّاط الجيش والبحرية العراقية الذين يقودون المقاومة ضدّ الجيش الأنغلو ـ أميركي في أمّ القصر والبصرة والناصرية، وهم اللواء مصطفى محمود عمران، قائد الفرقة الحادية عشرة، والعميد بشير أحمد عثمان، قائد الفرقة ٤٥، والعميد علي خليل ابراهيم قائد الكتيبة ١١ من الفرقة ٤٥، والعقيد فتحي راني مجيد، من الجيش العراقي الثالث، وهكذا دواليك. كان صدّام يكرّر أمره: «أصبروا، أصبروا» ردّدها أربع عشرة مرّة.. وكان يقول للجيش وللشعب العراقي أن يصبروا: «سننتصر... سننتصر على الشرّ»... صبور ولكن واثق من النصر ... ويحارب الشرّ!!.

ألم يكن الرئيس بوش يفعل الشيء نفسه مع شعبه منذ ساعات قليلة؟ وفي مواقف أخرى يشبه صدّام بطلَه جوزيف ستالين عندما يقول: «جاءوا لتدمير بلدنا ولكن علينا الصمود وتدميرهم والدفاع عن شعبنا وبلدنا... اذبحوهم... لقد جاءوا للاستيلاء على أرضنا. لكن عندما يدخلون مدننا فإنهم يعملون على تجنّب المواجهة مع قوّاتنا وعلى البقاء بعيداً عن مرمى أسلحتنا». أليس هذا نسخة مكرّرة من أسلوب الحرب الوطنية الكبرى في الدفاع عن الوطن الأمّ روسيا بقيادة العمّ جو؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فكيف نفسّر صمود آلاف الجنود العراقيين في مواجهة الهجمات الجوّية وهجمات الدبّابات؟ الشعب، الحزب، الوطنية، تسير العبارات الثلاث بشكل متوازٍ خلال خطاب صدّام مع تحذير مرير: بينما تُحرز القوّات الأميركية والبريطانية تقدّماً بطيئاً على الأرض، فإنها تستخدم القوّة الجوّية ضدّ العراق بشكل أكثر قساوة.. والحال كيف تشعر وأنت تعيش تلك الأيام في ستالينغراد الرئيس صدّام المقبلة؟.

بعد ساعات قليلة، عادت تتساقط صواريخ الكروز. وجعلت الانفجارات الضخمة بغداد مدينة مظلمة. وقد سقط صاروخ من نوع توما هوك في جامعة المستنصرية مما أدّى إلى مقتل أحد الطلّاب وإصابة ٢٥ آخرين بجروح بحسب المعلومات. وسُمعت أصداء أخرى في ساعات الصباح صادرة عن رشقات من أسلحة رشّاشة على ضفّة نهر دجلة... كانت تلك محاولة لأسر طيّاريْن أميركييْن هاربيْن، كما أكّدت السلطات الرسمية... وحصلت بعدها معركة بمختلف الأسلحة في ضواحي المدينة الساعة ٢,٣٠. وسرت شائعات عن خروج مسلّحين من مدينة صدّام من الأحياء الشيعية الفقيرة وحصل صدام بينها وبين قوّات الأمن العراقية. ولم يصدر تأكيد لذلك. وصدر نفي لخبر قطع خطّ سكّة الحديد شمال بغداد.

يوم الأحد، قدّم اللواء سلطان هاشم تقريراً حول سير الحرب معدّداً الوحدات المشاركة في القتال ـ الكتيبة الثالثة من اللواء ٢٧ في الجيش العراقي ما زالت صامدة في سوق الشيوخ جنوب الناصرية، وكذلك الفرقة الثالثة في الجيش العراقي الثالث في البصرة. وتذكّرت كيف أعطى هؤلاء الجنرالات تصريحات مشابهة خلال حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ ضدّ إيران. وعندما دقّقنا في هذه التصريحات حينها ثبت أنها صحيحة. هل ينطبق الأمر نفسه على ما يجرى اليوم؟ أكّد اللواء هاشم قيام جنوده بتدمير الدبّابات الأميركية والمصفّحات وطائرات الهيلكوبتر. وكان من السهل تكذيب هذه التصريحات حتى ظهرت حاملات جند ومصفّحات أميركية تحترق على شاشة التلفزيون. وكان لدى نائب الرئيس طه ياسين رمضان ما يكفي من اللطف لكي يشرح خطط الجيش العراقي... قال إن خطّة الجيش العراقي تتمثل في دفع القوّات الأنغلو ـ أميركية إلى التوغّل في الصحراء وتركهم يدورون هناك قدر ما يشاءون ومن ثمّ الانقضاض عليهم حين يحاولون دخول المدن... وكان ذلك على ما يبدو هو ما كانوا يقومون به.

بدت خطّة الأميركيين في الوصول إلى بغداد المجلّلة بمظلّة من الدخان الأسود وصفّارات الإنذار مشابهة: التقدّم في الصحراء حتى وادي دجلة والفرات ومحاولة الالتفاف على كلّ مدينة في الطريق. وإذا حصلت مشاكل في أمّ القصر وصعوبات في البصرة يجري التحوّل باتجاه الناصرية، واذا كان هناك خطر يجري الالتفاف نحو النجف... لكنّ ما قيل عن الطريق المفتوح على الخطّ السريع والمليء بحشود العراقيين المرحّبين وهم يلقون الزهور على الجنود الأميركيين والبريطانيين تبيّن أنه وهم(*).

والحال أننا لم نعد نستطيع السفر... لم يعد بإمكان أيّ صحافي غربي مغادرة حدود مدينة بغداد حتى ولو كان معه تصريح أخذ سيّارة أجرة. يوم ٢٧ آذار/مارس، ذهبت لمقابلة أصدقائي القدامى في قناة الجزيرة في مكاتبهم على الضفّة الغربية من نهر دجلة... كان لديهم فريق في مدينة البصرة يتعرّض للهجمات الجوّية والبرّية البريطانية. وطلبت منهم مشاهدة لقطات الفيديو القاسية التي حصلوا عليها من البصرة. وبما أنني كنت غير قادر على التوجّه إلى هناك فقد كان باستطاعتي على الأقلّ النظر من خلال أعين وعدسات مصوّريهم وذلك قبل أن تضع السلطات العراقية (أو بعد بثّها: السلطات الأميركية والبريطانية) يدها عليها.

جلست في مكتب تحرير الجزيرة بينما كانت أصداء المضادّات الأرضيّة تدوّي بعيداً خارج الجدران. كانت

(*) كنت تستطيع ملاحظة هذا التفاخر عندما تحدّث محمد سعيد الصحّاف (وزير الإعلام المرح ولكن البعيد عن الفكاهة) عن طوني بلير: «أظنّ أن الشعب البريطاني لم يواجه أبداً مأساة تشبه هذا الشخص». الشخص.. أجل، لقد عرف الصحّاف كيف يسخر من الشعب البريطاني. كان يقوم بقراءة تقارير الإصابات اليومية، والتي صار اليوم بعد سنين من الجدل حول عدد القتلى المدنيين، لها قيمة مادّة أرشيفية مهمّة لم تكن متوفّرة لها في حينه. حول هذا الموضوع، أعطى الصحّاف في اليوم الثالث للغزو الأرقام التالية لعدد القتلى والجرحى: في بغداد ١٩٤ جريحاً، في نينوى ٨ جرحى، في كربلاء ٣٢ جريحاً و١٠ قتلى، وفي صلاح الدين قتيلان و٢٢ جريحاً، وفي النجف وقع قتيلان و٣٦ جريحاً، وفي القادسية ٤ قتلى و١٣ جريحاً، وفي البصرة ١٤ قتيلاً و١٢٢ جريحاً، وفي بابل أعلنت السلطات مقتل ٣٠ وإصابة ٦٣. كان مجمل القتلى حتى ذلك الوقت ٦٢ مدنياً.

كاميرا الفيديو محمولة باليد لذلك كان التصوير غير ثابت. وظهر في الصور جنديان بريطانيان مقتولان على طريق البصرة إضافة إلى فتاة عراقية ـ ضحية للقصف الأنغلو ـ أميركي ـ نُقلت إلى المستشفى مصابة في بطنها، وامرأة مصابة بجروح خطرة تصرخ مستغيثة بينما يحاول الأطبّاء نزع ملابسها لعلاجها، وجنرال عراقي محاط بمئات الجنود المسلّحين يقف في وسط البصرة ويعلن أن مدينة العراق الثانية ما زالت صامدة تحت سيطرة العراقيين. كان شريط فيديو الجزيرة مصوّراً خلال الستّة وثلاثين ساعة السابقة وقد وصل حديثاً إلى بغداد.

ويدلّ الشريط على أن البصرة كانت لا تزال تحت سيطرة قوّات صدّام حسين وليس تحت سيطرة القوّات البريطانية. ورغم زعم الضبّاط الإنكليز حصول شكل من أشكال الثورة في المدينة، ظلّت السيّارات والحافلات تتحرّك في الشوارع بينما وقف العراقيون بصبر للحصول على قوارير غاز يجري إفراغها من شاحنة حكومية. ويُظهر جزء مهمّ من الشريط كرات نار فوق غرب البصرة مصحوبة بدويّ القذائف البريطانية.

أثار عرض المشهد القصير للجنديّين البريطانيّيْن القتيلين على الجمهور البريطاني حنق طوني بلير الذي عبّر في اليوم التالي عن اشمئزازه.. إلا أنه لم يكن ليختلف كثيراً عن مشهد عشرات القتلى العراقيين الذين عرض صورهم التلفزيون البريطاني خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية، وهي صور لم تحظ يوماً بأيّة إدانة من قِبل رئيس الوزراء البريطاني. كان الجنديان ممددين باللباس العسكري على الطريق وأطرافهما مقطّعة وأحدهما مصاب في رأسه والآخر في بطنه. وأظهر مشهد آخر في الشريط جموع المدنيين في البصرة والمسلّحين بثياب مدنية وهم يركلون سيّارة جيب عسكرية بريطانية رقمها HP5AA ويرقصون على ظهرها. وكان يمكن رؤية رجال آخرين يركلون مقطورة لوزارة الدفاع رقمها KC98 91 يبدو أن الجيب كان يقطرها عندما وقعت في كمين.. وكان يمكن أيضاً رؤية حُطام طائرة استطلاع بريطانية بدون طيّار أُسقطت وكانت تقبع على الطريق وقد كُتبت عليها عبارة ARMY بأحرف كبيرة وتحمل الرقم المتسلسل ZJ300، وعلى ذيلها جسم أسطواني كبير يحتوي على الكاميرا بحسب اعتقادي. غير أن الصور الأكثر رعباً، إضافة إلى صور القتيلين البريطانييْن، كانت تلك المأخوذة من مستشفى البصرة الكبير حيث كان يتمّ إحضار ضحايا القصف إلى غُرف العمليّات وهم يصرخون من الألم. وقد جيء برجل متوسّط العمر إلى المستشفى وهو بلباس النوم والدماء تسيل من رأسه حتى قدميه، وأُحضرت فتاة عمرها أربع سنوات إلى غرفة العمليات على عربة المستشفى وهي تنظر إلى جزء من أمعائها متدلّ من الجانب الأيسر لمعدتها. وقد قام طبيب بسكب الماء على أمعائها ثم وضع برفق ضمادات قبل بدء الجراحة. وكانت هناك امرأة ترتدي السواد مصابة بجرح في معدتها وهي تصرخ بينما كان يحاول الأطبّاء تجريدها من ملابسها لإجراء الجراحة.. وفي لقطة أخرى يُظهر شريط بُقع دم تقودك إلى مكان الإصابة الناتجة عن قذيفة بريطانية.. وقرب القذيفة زوج أحذية بلاستيكية.

تُعتبر تسجيلات الجزيرة، التي سيبقى معظمها محظوراً بثّه، الإثبات الحسّي الأوّل على أن البصرة كانت لا تزال بكاملها خارج السيطرة البريطانية. ولم يكن أحد الشوارع الرئيسية لمدينة البصرة والمؤدّي إلى بغداد هو الشارع الوحيد السالك بل كان الجنرال العراقي خالد حاتم يجري مقابلة في شارع آخر من البصرة محاطاً بالمئات

من جنوده وهو يعلن أن قوّاته لن تسلّم البصرة أبداً لأعداء العراق. وكان يمكن مشاهدة عناصر ميليشيا حزب البعث بسلاحهم في الشوارع ورجال الشرطة يوجّهون الشاحنات والحافلات قرب فندق شيراتون. ويعتبر مراسل الجزيرة في البصرة محمد عبدالله أشجع صحافي في العراق إذ يُرى في الأشرطة الثلاثة وهو يجري مقابلات مع السكّان تحت القصف ويتحدّث بهدوء عن قصف المدفعية البريطانية القادم. ويعرض أحد الأشرطة إصابة فندق شيراتون على شطّ العرب بقذيفة، كما كان يمكن مشاهدة أهالي البصرة يملأون الجرار بالماء الملوّث على ضفّة النهر حيث يوجد تمثال ضخم لشهداء حرب العراق ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ يشير بإصبع الاتّهام عبر ممرّ شطّ العرب باتجاه إيران.

يوم ٢٢ آذار/مارس أعلنت الحكومة العراقية مقتل ٣٠ مدنياً في البصرة وجرح ٦٣ آخرين. وزعمت يوم ٢٧ آذار/مارس أن أكثر من ٤ آلاف مدني أصيبوا بجروح في العراق منذ بداية الحرب وقُتل أكثر من ٣٥٠ مدنياً. وقد أظهر شريط فيديو عبدالله أيضاً وصول سبع جثث أخرى إلى ثلّاجة مستشفى البصرة خلال اليومين الماضييْن (كان رأس أحدها ما زال ينزف دماً على أرض مستودع الجثث وتم التعريف به على أنه المراسل العربي لوكالة أخبار غربية). وتظهر مشاهد أخرى مرعبة جثّة طفلة صغيرة مقطّعة الأوصال ما زال شالها الأحمر حول عنقها. وتُرى طفلة أخرى على حمّالة وقد فقدت دماغها وأذنها اليسرى وطفل آخر ميت مقطوع الأطراف. ولا توجد أي إشارة تفيد ما إذا كان الجيش الأميركي أو البريطاني هو مَن قتل هؤلاء الأطفال. ولا يعطي الشريط أية معلومات عن الخسائر العسكرية العراقية.

لكن في حين كانت السلطات العراقية تمنع انتقال المراسلين الأجانب إلى البصرة كان هذا الشريط الدليل الأقرب إلى الحيادية على استمرار القتال في المدينة وثمن مواجهة الجيش البريطاني. ولأيام عديدة ، كانت السلطات العراقية تنفي تقارير متفائلة من مراسلين «معبّئين مع قوّات الغزو»، وبخاصّة من البي بي سي، تعطي انطباعاً بأنّ البصرة آمنة أو أنها كانت تحت السيطرة البريطانية بشكل فعلي. وقد أثبتت الأشرطة عدم صحّة ذلك... وفي مشهد آخر يظهر رجلان أسودان زعمت القوّات العراقية أنهما أسيرا حرب أميركيّان. ولم تكن هناك أسئلة تُطرح على الرجلين اللذين كانا يرتديان ملابس سوداء متشابهة.. وقد بدا الرجلان في الشريط متوتّرين وهما ينظران إلى فريق التصوير وإلى الجنود العراقيين المحتشدين وراءهما.

ومع ذلك سوف يجري شطب القتلى المدنيين من رواية الحرب.... وسيكونون ضمن الإحصائيات التي ستبقى محجوبة عنا إلى الأبد. سوف يصبحون مجهولين، غير قتلى، أو «الضرر الجانبي» الذي لا ينتهي الحديث عنه في سجلّات البنتاغون أو وزارة الدفاع البريطانية.. أو أنّهم على الأقلّ لن يظهروا في أيّ ملفّ آخر يمكن السماح للرأي العامّ برؤيته. وهكذا فإن الطفلة الصغيرة لم تفقد رأسها... وكذلك لم تفقد رفيقتها دماغها... وستبقى قدم الطفلة الثالثة معلّقة بجسدها. لكن على الأقلّ من أجل التاريخ المدوّن... إذ لن يكون هناك سجلّ تاريخي بالطبع.. وهذا كان جزءاً من حربنا الجديدة.

يوم ٢٤ آذار/مارس أدركنا أن الأميركيين لا يرغبون في الإبقاء علي اتصالات بغداد بحالة جيّدة وربّما كان ذلك بسبب عدم تقدّمهم السريع كما كانوا قد خطّطوا... كان من الصعب أن نبكي عبر محادثة هاتفية... وكانت تجربة تدمير نظام الاتصالات المحلّي في بغداد مؤلمة في الواقع بالنسبة إلى عشرات الآلاف من السكّان الذين أرادوا البقاء على تواصل مع أقاربهم خلال ساعات الظلام الطويلة وعمليات القصف. لكنّ الاتصالات المدمّرة والأسلاك المقطّعة والإسمنت المحطّم في مركز الميمون للاتصالات الدولية، كل ذلك لا يكاد يوازي صور الأمعاء المتدلّية والبطون المبقورة والعظام المنثورة للجرحى المدنيين في العراق. وقد وصف رجال Sentcom الأهداف التي قصفوها في الساعات الأولى من ٢٨ آذار/مارس بأنها «مراكز القيادة والمراقبة». وهذا يمثّل مظهراً آخر من مظاهر الانحطاط العديدة عندنا (وحين أقول «عندنا» فأنا أقصد الغرب) حين نلجأ إلى هذه الأمور بشكل روتيني عندما لا تسير الأمور في الحرب كما كنّا نشتهي.. وبالعودة إلى قصفنا لبغداد عام ١٩٩١، فقد قمنا بقصف القصور الرئاسية والثكنات في المرحلة الأولى ثم انتقلنا إلى قصف مراكز الاتصالات والكهرباء وبعدها محطّات تكرير المياه. وقد حصلت القصّة نفسها في صربيا عام ١٩٩٩، حيث دُمّرت تحصينات الجيش اليوغوسلافي ومصانع الأسلحة ثم الجسور ونظام الاتصالات والكهرباء. والآن تتكرّر القصة القديمة في بغداد. فقد قُصفت القصور الرئاسية وثكنات الجيش ثم جرى الانتقال إلى تدمير نظام الاتصالات.

بدا واضحاً أننا «كنّا نأمل أن لا يصل الأمر إلى هذا الحدّ». فقد رغبت الجيوش الأنغلو ـ أميركية في الحفاظ على البنية التحتية في بغداد سليمة وذلك من أجل استخدامها بعد دخول المدينة تحت وابل من زهور الجماهير المحتشدة لاستقبالها. لكن بعد ليلة من التفجيرات الضخمة في أنحاء المدينة تمّت التضحية بالاتصالات. وهكذا قُصف مركز اتصالات الرشيد الضخم بصاروخ كروز اخترق أسفل المبنى، علماً بأنه كان قد دمّر في قصف عام ١٩٩١. كما أن مركز الكرادة، حيث يدفع البغداديون فواتير الهاتف، قد دُمّر تماماً...

خارج كل واحد من هذه المجمّعات، كما خارج كلّ مؤسّسة حكومية، كان ينتصب تمثال ضخم لصدّام يناسب الوزارة المعنية أو أحد أقسامها... كان تمثال لصدّام معتمراً قبّعة قماش ينتصب أمام المحطّة المركزية في بغداد مثل رجل مرور يقوم بتسريع قطار في طريقه إلى البصرة... وتجدر الإشارة هنا إلى أن حركة المواصلات إلى المدينة قد تمّ وقفها رسمياً بسبب الحصار العسكري البريطاني. وفي مركز الميمون تمثال لصدّام أمام صاري المواصلات. وفي مركز الرشيد تمثال له وهو يتحدّث على تلفون أسود قديم بينما يدوّن ملاحظات على دفتر بقلم بنّي كبير.

كل ذلك قد انتهى... فقد قرّر «نا» تدمير مراكز الاتصالات وكلّ «أنظمة القيادة والمراقبة» التي كان يمكن أن تُستخدم بشكل مزدوج بواسطة شبكة الإنترنت. . . وبسبب ذلك كان على معظم أهالي بغداد التنقل في المدينة للحصول على أخبار عن بعضهم البعض.. وبذلك ازداد عدد السيّارات المتجوّلة في بغداد أكثر من أيّ وقت مضى في الحرب. وقد جرى تدمير شبكة الإنترنت في بغداد أيضاً ولكن بين فترات قطع الكهرباء ظلّ بالإمكان مشاهدة برنامج التلفزيون العراقي الذي قُصفت مكاتبه يوم ٢٦ آذار/مارس من قِبل الأميركيين.

وماذا بعد؟ الكهرباء أم الماء؟ ام الاثنان معاً لأن الطاقة هي التي تشغّل مضخّات المياه؟ وكان كل يوم جديد يأتينا بأخبار عن أحداث لا مغزى كبيراً لها إن أُخذت متفرّقة، إلّا أنها تضيف مجتمعة بُعداً كبيراً مخيفاً عن الغزو وعواقبه. في نهاية آذار/مارس اجتمع المئات من رجال القبائل من جميع أنحاء العراق في فندق بغداد قبل مقابلة صدّام. وتجدر الإشارة هنا إلى أن قبائل العراق التي تمّ تجاهلها من قِبل المخطّطين العسكريين وصانعي القرار في واشنطن الذين يعتقدون بأن تماسك العراق يقوم على حزب البعث والجيش، هي قوة قادرة وجذورها قويّة نتيجة تشابك العائلات عبر الزواج، ممّا يؤمّن قوّة متماسكة بقدر تماسك حزب البعث. ويقوم رجال القبائل بحراسة مخازن الحبوب وبعض محطّات الكهرباء حول بغداد وقد نجح اثنان منهم في إسقاط مروحية أباتشي في الأسبوع الفائت. والآن وصل زعماء القبائل من جميع أنحاء العراق، من الفلّوجة والرمادي ونينوى وبابل والبصرة والناصرية وكل مدن ما بين النهرين. وهذا ردّ على ادّعاء وزير الدفاع جيوفري هورن أن صدّام فقد السيطرة على جنوب العراق ـ سيعود هؤلاء الزعماء اليوم وغداً إلى مدنهم وقراهم بتعليمات تتعلّق بمواجهة القوّات الأميركية والبريطانية. وكان صدّام قد أصدر في وقت سابق مجموعة قرارت تطلب من رجال القبائل قتال الأميركيين والإنكليز على شكل مجموعات تهاجم خطوطهم الأمامية والخلفية وتقطع عليهم الطريق نحو بغداد والقيام بشنّ غارات ليلية في حال استقرارهم في مواقع.

كنت محتاراً حيال هذا الأمر. . . . ذلك أن قوّات حرب العصابات يمكنها مهاجمة قوّات الاحتلال في مواقعها وخلال دورياتها اليومية عندما تستقرّ وتسبّب لها الأذى لكنها لن تسبّب الكثير من الضرر أثناء غزو يتقدّم بحيث أن قوّاته المتفوّقة والمتحرّكة وغزارة نيرانها تسحق أيّة مقاومة... ولكن حين تستقرّ قوّات الغزو في مجمّعات وتحصينات ودوريات روتينية تصبح هشّة أمام المقاومة.. فهل كان صدّام حسين يعطي الأوامر لرجال القبائل بالتوجّه إلى الحرب الآن أم أنها تعليمات لما بعد الحرب عند استقرار القوّات الغازية في مواقع ثابتة؟ هل كان لدى صدّام اعتقاد باحتمال خسارة المعركة؟ أكان يجري التخطيط لانتفاضة في بغداد فيما كان الأميركيون ينهبون الأرض نحو الناصرية؟.

وضعت جانباً مجموعة من الكتب للمطالعة في الليالي الطويلة الصاخبة في غرفتي في الطابق العاشر من فندق فلسطين حيث أقيم مع أكثر من مئة صحفي في غُرف تُشبه الزنازين. ومن بين الكتب التي بحوزتي كتاب وِليام شيرر عن صعود الرايخ الثالث وسقوطه، وكتاب فولّلر عن الحرب العالميّة الثانية وذلك لكي أتذكّر الحجم الحقيقي للحرب... وكتاب تولستوي «الحرب والسلم»، لأتمكّن من وصف الحرب بحساسية أكثر ورهبة... وأنا هنا أوصي بقراءة كتاب معركة بورودينو؛ إضافة إلى كتب أخرى من الشعر ومجموعة من الصحف غير المنظمة وقُصاصات مقالات الصحف التي أحضرتها من أرشيفي في بيروت قبل السفر إلى عمّان وبغداد. أخرجت الليلة مجموعة من الخطب لـ «بات بوشنان» مكتوبة منذ أكثر من خمسة أشهر. وبعفوية أخرجت قلمي وبدأت أخربش خطوطاً خشنة على هامش هذا المقال التنبّؤي:

«إذا لم تحصل معجزة، فسوف نقوم بشنّ هجوم إمبريالي على العراق» على برلين! «مع كلّ مظاهر الشجاعة التي سار بها الجيشان الفرنسي والبريطاني في آب ١٩١٤. لكن لن يكون هذا الغزو مسيرة سهلة كما يعتقد المحافظون الجدد... فمن أجل تدمير أسلحة صدّام، وجعل العراق ديمقراطياً، وموحّداً، ولكي نحتفظ به وندافع عنه.. ستبقى القوّات الأميركية هناك لعقود. والحال فإن الهجمات الإرهابية ستكون حتمية في العراق المحرّر مثلما كانت في أفغانستان المحرّرة.

وبالنسبة إلى الإسلام المقاتل الذي يلقى تأييد ملايين المؤمنين فإنه لن يقبل أبداً بأن يحدّد بوش مصير العالم الإسلامي. ومع ماك آرثر ووصايته سوف يصل «السلم الأميركي» Pax Americana إلى ذروته.. لكنّ القيد سينكسر تدريجياً لأن السبيل الوحيد الذي تؤمن به الشعوب الإسلامية هو طرد القوى الإمبريالية بالإرهاب وحرب العصابات. لقد قام المجاهدون بطرد الإنكليز من فلسطين وعدن، والفرنسيين من الجزائر، والروس من أفغانستان، والأميركيين من الصومال وبيروت، والإسرائيليين من لبنان... لقد بدأنا الطريق إلى تأسيس الإمبراطورية لكن بعد التلّة التالية سوف ننضمّ إلى الذين سبقونا. إن الدرس الوحيد الذي تعلّمناه من التاريخ هو أننا لم نتعلّم من التاريخ».

كان مشهد اليد المعلّقة على الباب الحديدي وبقع الدم في الشارع وبقايا أدمغة داخل مرآب وبقايا هيكل بشري متفحّم لأمّ عراقية وأطفالها الثلاثة في سيّارتهم المشتعلة مشهداً فظيعاً، لا بل ماجناً مجنوناً. لقد قُتلوا بواسطة صاروخيْن أطلقتهما طائرة أميركية، والمدنيّون العراقيون البالغ عددهم ٢٢ شخصاً يُمزَّقون أشلاء قبل أن تحرّرهم الدولة التي دمّرت حياتهم. مَن يجرؤ في مكان الحادث على تسمية ذلك بـ «ضرر جانبي»؟. كان شارع أبو طالب مكتظّاً بالمشاة والسيّارات عندما أغار طيّار أميركي عليه عبر العاصفة الرملية التي غطت شمال بغداد بطبقة من الغبار الأحمر والأصفر والمطر ذلك الصباح.

كان حيّاً فقيراً قذراً يقطنه المسلمون الشيعة الذين يأمل بوش وبلير بشدّة قيامهم بثورة ضدّ الرئيس صدّام حسين... في الحيّ محلّ لتغيير زيت السيّارات ومحلّات أخرى لتصليحها، إضافة إلى بنايات مكتظّة بالسكّان ومقاه شعبية. وكان كل شخص تحدّثت معه قد سمع قدوم الطائرة. واستطاع رجل مصدوم مشاهدة الجثث المقطوعة الرؤوس التفوّه بكلمَتين: «هدير وبريق»... وظلّ يردّدهما بينما كان يغمض عينيه بشدّة. واجهت السؤال القديم المكرّر نفسه: كيف أسجّل مثل هذا الحدث الرهيب؟ يشهد العراقيون يومياً أحداثاً مرعبة ولذلك فإن لديهم مبرّراً لعدم رواية الحقيقة كلّها. وإذا كان هذا ما يجري في بغداد، فماذا يجري في البصرة والناصرية وكربلاء؟ كم هو عدد القتلى هناك أيضاً؟ إنه أمر مجهول بالطبع وغير مسجّل لعدم وجود مراسلين صحفيين ليشهدوا المعاناة!.

كان أبو حسن ومالك يُحضران الطعام للزبائن في مطعم ناصر في الجهة الشمالية لشارع أبو طالب، وكان الصاروخ الذي مزّقهما أشلاء قد سقط في الجهة الجنوبية للشارع محطّماً واجهة المطعم. قادني عامل كان يعمل معهما إلى مكان الركام وأرشدني إلى ما تبقّى منهما وكانت بيده مقلاة مليئة بالدم. كانت هناك ١٥ سيّارة على

الأقلّ تشتعل وركّابها يحترقون حتى الموت. وتناثرت أشلاء عدّة رجال عند أبواب سيّارة مشتعلة في وسط الشارع الذي أصبح في حالة فوضى نتيجة سقوط الصاروخ. وكان الناس مجبرين على النظر عاجزين عن نجدة امرأة وأولادها الثلاثة وهم يحترقون أحياء داخل سيّارة. قصف الصاروخ الثاني الجانب الشرقي من الحيّ موزّعاً شظايا من الحديد على ثلاثة رجال كانوا واقفين خارج مبنى إسمنتي مكتوب على مدخله الرخامي: «الملك للّه». وسارع مدير المبنى هشام دنون للاحتماء في المدخل لدى سماعه صوت الانفجار الضخم.. وقد أبلغني أنه وجد «طعّار» مقطعاً هناك ومصاباً برأسه إصابة خطرة. وأخذتني مجموعة من النساء والرجال إلى الشارع حيث شاهدت فيلماً مرعباً وهو عبارة عن أطراف «طعّار» مقطعة هناك. مات زميله سرمد على الفور وكان دماغه ملقى على بعد خطوات مع بُقع دم حمراء باهتة خلف السيّارة المحترقة. كان الرجلان يعملان عند دنون وكذلك البوّاب.

كلّما تحدّث ناجٍ، كان الموتى يستعيدون هويّاتهم. . . قُتل صاحب محلّ الأدوات الكهربائية خلف مكتبه بالصاروخ الذي أصاب طعّار وسرمد والبوّاب، والشابّة التي تعمل في مكتب للحجز بينما كانت تحاول عبور الشارع، بالإضافة إلى سائق الشاحنة الذي كان على بُعد خطوات من مكان الانفجار، والفقير الذي كان يطلب دائماً خبزاً لدى رؤية السيّد دنون والذي كان يهمّ بالذهاب عندما أقبلت الصواريخ هادرة عبر العاصفة لتقتله.

في قطر، طلبت القوّات الأنغلو ـ أميركية إجراء تحقيق. ونددت الحكومة العراقية، المستفيد الوحيد من الدعاية، شاجبة حمّام الدم أو المجزرة التي قُدّر ضحاياها بأربعة عشر شخصاً. ما كانت ماهيّة الغارة وهدفها الحقيقي؟ روى بعض العراقيين أنه كان يوجد معسكر للجيش على بعد أقلّ من ميل من الحيّ لكنني لم أعثر عليه، وتحدّث آخرون عن مركز محلّي لجهاز الإطفاء، لكن لا يمكن وصف مقرّ الأطفائية بأنه هدف عسكري. ومن المؤكّد أنه حصل هجوم قبل ساعة على معسكر للجيش إلى الشمال. وبينما كنت ماراً قرب القاعدة انفجر صاروخان ورأيت الجنود يُهرعون لإنقاذ حياتهم عبر الأبواب وعلى الطريق السريع. بعدها سمعت انفجارين آخرين ناتجين عن سقوط الصواريخ على حيّ أبو طالب. ومن المؤكّد أن الطيّار الذي قتل هؤلاء الأبرياء لم يشاهد ضحاياه... يطلق الطيّارون صواريخهم وفق إحداثيات الكومبيوتر وربّما حجبت العاصفة الرملية الحيّ عن الرؤية. لكن عندما سألني أحد الأصدقاء ويدعى مالك حمود كيف يستطيع الأميركيون أن يقتلوا بسرور هؤلاء الذين ادّعوا أنهم جاءوا لتحريرهم فإنه لم يكن يريد معرفة أيّ شيء عن علم الطيران أو أجهزة إطلاق الصواريخ. ولماذا يريد معرفة كهذه؟ فذلك القتل يحدث يومياً في بغداد. يوم ٢٤ آذار/مارس قُتلت عائلة بكاملها مؤلّفة من تسعة أشخاص في منزلها في وسط المدينة. وفي ٢٥ آذار/مارس دُمّر باص يحمل ركّاباً مدنيين على الطريق جنوب بغداد. ويوم ٢٦ آذار/مارس تعرّف العراقيون على هويّة خمسة ركّاب مدنيين قُتلوا على متن باص سوري هوجم من قِبل طائرة أميركية على الحدود العراقية.

نستطيع أن نعيد تكرار تلك اللازمة الأخلاقية ـ قميص عثمان ـ لكي نشرح سبب موت هؤلاء الناس: ماتوا بسبب ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. ويمكننا القول أيضاً بسبب أسلحة الدمار الشامل التي لا وجود لها وبسبب رغبتنا اليائسة في تحرير كلّ هؤلاء الناس. دعونا لا نخلط المسألة بموضوع النفط. كتبت في تلك الليلة أنهم سيقولون لنا في كلتا الحالتين إن المسؤولية الكاملة عن موتهم تقع على صدّام.. وبالطبع فإننا سنتجنّب الإشارة إلى مسؤولية

الطيّار. وبالفعل كان هذا هو ما حصل. قال الأميركيون إن خطأ الصواريخ العراقية المضادّة للطائرات سبّب مقتل المدنيين. . . العذر القديم نفسه. لكنّ هذا كان مستحيلاً لأن الصاروخين انفجرا على مسافة متساوية في طرفي الحيّ. لا يوجد نظام توجيه يفشل في توجيه صاروخين مضادّين للطائرات نحو هدفهما ويتسبّب بسقوطهما في المكان نفسه. لا نهاية لهذه المأساة التي تكرّرت بعد يوم واحد فقط (٢٨ آذار/مارس).. ولكن هذه المرّة كان هناك دليل ساطع تمثّل بقطعة معدن طولها قدم وعليها أرقام. وأدّى سقوط الصاروخ إلى مقتل ٢٦ مدنياً على الأقلّ يوم ٢٩ آذار/مارس ودلّت الأرقام المكتوبة على الشظايا على هويّة مرتكبي القتل. كان الأميركيون والإنكليز يعملون ما بوسعهم للإيحاء مرّة أخرى بأن صاروخاً عراقياً مضاداً للطائرات قتل هؤلاء الضحايا الذين يعدّون بالعشرات، مضيفين أنهم ما زالوا يحققون في المجزرة. لكن كانت الأرقام المتسلسلة على شظّية الصاروخ هي مجموعة من الأرقام والأحرف مكتوبة باللاتينية وليس بالعربية. وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الناجين سمعوا صوت الطائرة. وفي مستشفى النور، كانت مشاهد مرعبة تصف الألم والمعاناة. كانت الطفلة سيّدة جعفر (عمرها سنتان) مغطاة بالضمادات والأنابيب، أنبوب في أنفها وآخر في معدتها وكل ما استطعت رؤيته منها كان رأسها وذقنها. كان بقربها دم وذباب على كومة من الضمادات القديمة والخرق. على مسافة قريبة، كان محمّد عميد (٣ سنوات) ممدّداً على سرير قذر ووجهه وبطنه وأطرافه مغطّاة بالضمادات وكانت بقعة كبيرة من الدم المتجمّد في أسفل سريره.

لم يكن المستشفى مزوّداً بأجهزة كومبيوتر وكانت لديه آلات أشعّة بدائية جدّاً. لكنّ الصاروخ كان موجّهاً عن طريق الكومبيوتر وكذلك الطائرة. وكان على الأميركيين التأكّد والتدقيق إذا اختاروا القيام بذلك... كان مكتوباً على الصاروخ ASB7492 704-3003 وقد أخذ رجل قطعة المعدن التي تحمل الرموز بعد دقائق من انفجار الصاروخ ليلة ٢٨ آذار/مارس على بعد أمتار من منزله مُحدثاً حفرة عمقها متران، ولم تعرف حتى السلطات العراقية بوجودها. قذف الصاروخ قطعاً حديدية على الجموع (أطفال ونساء) واخترق جدران المنازل المصنوعة من الطوب قاطعاً الرؤوس والأطراف. وقد تمزّق ثلاثة أشقّاء في منزلهم على الطريق الرئيسي مقابل السوق داخل غرفة الجلوس. وتحطّم باباان وقُتلت شقيقتان بالطريقة نفسها.

أبلغني الدكتور أحمد وهو طبيب تخدير في مستشفى النور: «لم يسبق لنا رؤية هذا النوع من الجروح، فقد أُصيب هؤلاء الناس بعشرات من القطع المعدنية». كان على حقّ، فقد أصيب رجل زرته في بهو المستشفى بأربع وعشرين قطعة في ظهره ورجليه بعضها بحجم القطع النقدية. وقد أظهرت صور الأشعّة التي أعطاني إيّاها أحد الأطباء ٣٥ قطعة معدنية فضّية لا تزال داخل الجسد.

إضافة إلى مجزرة شارع أبو طالب، وقعت مجزرة حيّ الشعلة ذي الأغلبية الشيعية الفقيرة بمحلّاته الصغيرة ومنازله المؤلّفة من غرفتين. والناس الذين يقطنون هنا يشكّلون بالضبط أولئك الذين دعاهم بوش وبلير للثورة على صدّام. لكنّ الغضب في هذه الأحياء الفقيرة كان موجّهاً ضدّ الأميركيين والبريطانيين من قِبل النساء والآباء والأخوة الذين تحدّثوا دون خوف في غياب عملاء السلطة. تمتمت سيّدة بغضب: «هذه جريمة، أنا أعلم أنهم يدّعون استهداف العسكر، لكن هل ترى جنوداً هنا؟ هل ترى صواريخ؟».

وكان الجواب بالنفي طبعاً... وقد ادّعى بعض الصحفيين أنهم شاهدوا صاروخ سكود محمولاً على قاعدة قرب منطقة الشعب يوم الخميس وأنه كانت هناك مدافع مضادّة للطائرات حول حيّ الشعلة. سمعتُ طائرة أميركية تحلّق فوق مكان المجزرة وشاهدت صاروخ أرض ـ جوّ يلاحقها ممّا دفعها إلى الانسحاب هادرة فوق البيوت الفقيرة نحو السماء الزرقاء القاتمة. وعمدت بطّارية مضادّة للطائرات طراز ١٩٤٢ إلى إطلاق نيرانها في الجوّ على بعد بضعة مبانٍ. لكن حتى لو حرّك الجيش العراقي مدافعه إلى الضواحي فهل يبرّر ذلك قيام الأميركيين بقصف الأحياء المكتظّة بالمدنيين، والمناطق المعروفة بشوارعها المزدحمة وأسواقها خلال ساعات النهار؟ كان هجوم ٢٧ آذار/مارس على حيّ أبو طالب موجّهاً نحو شارع رئيسي عند الظهر وخلال عاصفة رملية ممّا أدّى إلى مقتل عشرات المدنيين بمعزل عمّا كان يعتقده الطيّار حول الهدف. تساءل رجل متوسّط العمر يضع نظّارة وكان جالساً في الغرفة الخلفية لمنزله: «كان لديّ خمسة أبناء وبقي لديّ ولدان فقط، كيف أستطيع التنبّؤ ببقائهم على قيد الحياة؟ أصيب أحد أبنائي في رئتيه وقلبه، كان جسده مليئاً بالشظايا التي دخلت مباشرة من النافذة، والآن كل ما أستطيع قوله إنني أشعر بالحزن لكوني ما زلت على قيد الحياة». وقاطعه جار له ليقول إنه شاهد الطائرة بأمّ عينه: «شاهدت جانب الطائرة ولاحظت قيامها بتغيير اتجاهها بعد إطلاق الصاروخ».

أصبحت مشاهدة الطائرات أمراً عادياً مألوفاً في حياة بغداد . قمت بالردّ على قارئ في صحيفتي سأل بذكاء إن كان يمكن رؤية طائرة أميركية بالعين المجرّدة فوق المدينة. . ، أجبت أنني خلال ٣٥ غارة جوّية من قِبل الطائرات الأميركية، لم أشاهد رغم قوّة بصري أيّة طائرة فعلياً. كنت أسمعها ليلاً بشكل خاصّ وهي تحلّق بسرعة الصوت وخلال النهار تحلّق فوق سحاب الدخان الأسود الذي يغطّي المدينة. شاهدت مرّة واحدة صاروخ كروز أو توماهوك يعبر بسرعة ٤٠٠ ميل في الساعة ولمحته يسقط على جادّة مُحاذية لنهر دجلة. وعندما كان يتمّ اكتشاف أرقام الشظايا كان يظهر منشأها كما كشف عنه صاروخ حيّ الشعلة.

طيلة الصباح، كان الأميركيون يعاودون عملهم ويقصفون أهدافاً في محيط بغداد حيث الدفاعات الخارجية تحفر لها وتدشّمها قوّات عراقية. . وكذلك في وسط بغداد. وقد انفجر صاروخ سقط على سطح وزارة الإعلام العراقية ممّا أدّى إلى تدمير مجموعة من أطباق الإرسال الفضائية وحصل اهتزاز في أحد مكاتب المبنى الذي كنت أراقب منه القصف خلال الغارة التي استمرّت عدّة ثوان. حتى في مستشفى النور، كانت الجدران تهتزّ بينما يصارع الناجون من مجزرة السوق من أجل الحياة. كان حسين مناني (٥٢ سنة) يحدّق إليّ بوجه مليء بشظايا معدنية فيما كانت القذائف تنفجر في المدينة. كان هناك شاب (٢٠ سنة) يجلس في السرير المجاور والدم يسيل بغزارة ممّا تبقى من يده اليسرى المغطاة بالضمادات وشرائط لاصقة. قبل ١٢ ساعة، كان لدى الشاب يد وذراع يسرى وهو الآن يستعيد ذكرياته بحيرة. أبلغني: «كنت في السوق ولم أشعر بشيء. جاء الصاروخ وكنت إلى يمينه وبعدها نقلتني سيّارة إسعاف إلى المستشفى». رغم يده المبتورة التي عولجت بالمسكّنات فقد أصرّ على الكلام، ولدى سؤاله عن اسمه جلس على السرير وصاح: «اسمي صدّام حسين جاسم».

في نهاية آذار/مارس ٢٠٠٣، قاد الرقيب علي جعفر موسى حمّادي النعماني سيّارة مفخّخة إلى داخل مركز تفتيش للبحرية الأميركية في جنوب العراق وفجّر نفسه. كان أول مقاتل عراقي معروف بالاسم يقوم بهجوم انتحاري. والجدير بالذكر أنه لم يقتل أيّ عراقي نفسه لتدمير الأعداء إبّان الحكم البريطاني. كان نعماني أحد أبناء الطائفة الشيعية التي يُعتقد أنها حليف سرّي للأميركيين في غزوهم للعراق. وتساءلت الحكومة العراقية حول كيفية التعامل مع هذا العمل الرائع متردّدة بين الرغبة في التنصّل من حدث يُذكّر العالم بأُسامة بن لادن أو الإعلان عن هجمات أخرى تهدّد الأميركيين . كانت التفاصيل عن الرقيب الانتحاري (٥٥ سنة) قليلة لكنها مثيرة للاهتمام. كان جندياً في الحرب العراقية ـ الإيرانية ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ وتطوّع للقتال في حرب الخليج ١٩٩١، «أمّ المعارك» حسبما سمّاها صدّام حسين. ورغم كبر سنه بالنسبة إلى الاستمرار في القتال، تطوّع نعماني لقتال الغزو الأنغلو ـ أميركي.. ودون إبلاغ قائده قام بتفخيخ سيّارته الخاصّة واقتحم مركز تفتيش البحريّة الأميركية خارج النجف. وقد قلّده صدّام حسين الوسام العسكري من الدرجة الأولى ووسام أمّ المعارك. وترك الرجل الراحل خمسة أطفال وأرملة وموقعاً جديداً في سجلّ الألفي سنة من المقاومة العراقية في مواجهة الغزوات. وصرّح متحدّث أميركي بأن الهجوم يبدو مثل هجوم إرهابي.. ولكن لن يصدّق أيّ عربي ذلك بما أن نعماني هاجم جيش الاحتلال وهو يعرف هدفه العسكري.

بعد ساعات من موت نعماني، كان طه ياسين رمضان نائب الرئيس العراقي يتحدّث مثل زعيم فلسطيني أو من حزب الله ويشير إلى عدم توازن القوى العسكريّة بين العراقيين والأميركيين. قال: «إن الإدارة الأميركية سوف تحوّل العالم بكامله إلى أشخاص مستعدّين للموت في سبيل بلادهم. إن كل ما عليهم القيام به الآن هو التحوّل إلى قنابل... وإذا كانت قنابل بـ٥٢ B52 تستطيع قتل خمس مئة شخص أو أكثر في حربنا فإني متأكّد أن عدّة عمليات من مقاتلي الحرية قادرة على قتل خمسة آلاف شخص». كان معنى ذلك واضحاً وكانت القيادة العراقية مذهولة من هجوم نعماني بقدر ذهول ضحاياه من الأميركيين.

لم يكن لهذا من معنى بالنسبة إلينا... فالعراقيّون ليسوا انتحاريين... وكما قد يقول الأميركيون فإن هذا «لا يدخل في الحُسبان»... كتبت مقالاً نصف متعاطف إلى صحيفة الإندبندنت يوم ٣٠ آذار/مارس محاولاً تحليل ما حصل. بالطبع، تناسيت الحرب العراقية ـ الإيرانية، النزاع الذي شارك فيه نعماني، والمعارك الانتحارية التي قاتل فيها العراقيون وماتوا. كتبت:

«إن الانتحاريين أكانوا من المسلمين الشيعة اللبنانيين الذين نجحوا في طرد جيش الاحتلال الإسرائيلي، أم من الفلسطينيين الذين كانوا يدمّرون شعور إسرائيل بالأمان.. هم السلاح الفعّال لدى العرب . فهمت الولايات المتحدة قوّته أوّل مرّة عندما اقتحم انتحاريون السفارة الأميركية في بيروت عام ١٩٨٣ ومراكز المارينز في بيروت يوم ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر من تلك السنة ممّا أدّى إلى مقتل ٢٤١ جندياً أميركياً... ولم تدرك واشنطن أن ليس هناك من دفاع فعّال ضدّ مثل هذه العمليات إلّا عندما قام العرب بعملية انتحارية مدمّرة عبر هجمات يوم ١١

أيلول/سبتمبر ٢٠٠١... وبطريقة غريبة فقد وجدت عملية ١١ أيلول/سبتمبر أخيراً رابطاً رمزياً مع العراق. وبينما ظهر أن محاولات ربط نظام الرئيس صدّام حسين بأسامة بن لادن كانت كاذبة، فإن الغضب الذي أطلقته الولايات المتحدة كان حقيقياً وقد وجد أخيراً السلاح الذي يخشاه الأميركيون كثيراً. إن معظم الانتحاريين هم أصغر سنّاً من نعماني وغير متزوّجين. لكن من المحتمل أن يكون أحدهم قد ساعده على تجهيز المتفجّرات في السيّارة ودرّبه على تشغيل المفجّر. وإذا لم يكن هؤلاء عراقيين، كما يزعمون، فهل أنّ هناك تنظيماً متورّطاً لا يعرف العراقيون شيئاً عنه.. وكذلك الأميركيون؟».

لقد تحدّث نائب الرئيس رمضان عن لحظة الشهادة السامية، وهي عبارة لم تُسمع من قبل في القاموس البعثي. وذكر الجنرال حازم الراوي من وزارة الدفاع أن القتيل مسمّى باسم «الإمام عليّ».. وأعلن «أن الشهيد الجديد» عليّ «فتح الباب للجهاد». وأضاف «أن أكثر من أربعة آلاف متطوّع من الدول العربية موجودون في العراق وأن العمليات الاستشهادية سوف تستمرّ ليس فقط من قِبل العراقيين بل من قِبل آلاف العرب الذين قدموا إلى بغداد». وفي تقريري تلك الليلة، كتبت أن الإسلام «قد دخل فجأة في معمعة حرب التحرير القومية ضدّ الأميركيين، إذ هكذا تُسمّى هنا».

في المقابل، كانت عملية نعماني الانتحارية إحدى أهمّ اللحظات في هذه الحرب. لقد وجّهت صدمة للأميركيين الذين كانت ردّة فعلهم السطحية حول الإرهاب اليائس تساهم في التقليل من معنى الهجوم الذي أذهل العراقيين. لكنّ لغة البعثيين، في حديثهم عن العمليات الاستشهادية وعن «الكتيبة العربية الدولية» التي يُفترض أن تستمرّ في تنفيذها، لا بدّ أن تكون قد أعادت إلى الواجهة تلك «الشعارات القديمة البالية» وجعلت أجراس الخطر تدقّ بصوت عالٍ. لقد بدأ عمل ما، خارج النجف، وهذا يشكّل سابقة جدّية بالنسبة إلى أيّ جيش غازٍ... وفي أرض ليس لديها مثل هذا التقليد، تمّ إشعال عود الثقاب.

ضربت عاصفة رمليّة قويّة بغداد، تاركة غرفة فندقي صفراء من الرمل. وغطّى غُبار المدينة وقذارتها السجّاد والأغطية والأسرّة والطاولات مثل ستار. وكان عمّال التنظيفات قد رحلوا منذ فترة طويلة. وكانت ملفّاتي مغطاة بحُبيبات ناعمة من الرمل بحيث انزلقت الأوراق من الملفّات مصدرة صوتاً شبيهاً بصوت سكّين يخرج من غمده. شققت طريقي بواسطة أصابعي المتّسخة إلى القسم الذي توجد عليه عبارة «الإسلام». كانت معظم الصفحات عن المقاومة الشيعية، لكن كانت لديّ بضع ملاحظات مكتوبة لم أستخدمها من قبل في أيّ تقرير بما أنني لم أفهم معناها.. منها أن صدّام أنشأ لجاناً إسلامية مؤلّفة من مجموعة من المفكّرين الإسلاميين السنّة وأتباعهم لمناقشة الشريعة الإسلامية والتعاليم القرآنية شرط عدم الحديث في السياسة وعدم مزج معتقداتهم بالمعتقدات العلمانية لحزب البعث. وتوجد هذه اللجان الآن في الموصل وبعقوبة والفلّوجة والرمادي وفي بغداد.

برزت صفحة واحدة مغطاة بالرمل من الملفّ مهلهلة وهي من صحيفة الإيكونومست عمرها خمس سنوات وكانت تتضمّن التالي: «تحوّل العراقيون المكلومون لسوء الحظ إلى دينهم، وكذلك فعل زعيمهم بطريقته الخاصّة

التي تستغلّ الآخرين»... قام صدّام ببناء أضخم مسجد في العالم في بغداد وهو يتّسع لخمسة وأربعين ألف مصلٍّ ويبلغ ارتفاع مآذنه ٦٠٠ قدم... وصارت عبارة «الله أكبر» تتوسّط الآن العلم العراقي في الشريط الأبيض ما بين الأسود والأحمر، ونسرُ العراق يشمخ ما بين كلمتي «الله» و «أكبر».... وقد سمح صدّام حسين عام ١٩٧٧ للداعية الأردني عبد المنعم أبو زلط ببرنامج أسبوعي مدّته نصف ساعة في التلفزيون العراقي.

كتب مراسل الإيكونومست: «ازداد ارتياد المساجد بسرعة وبخاصّة في أوساط الشباب». ونقل عن مواطن في بغداد قوله: «قبل حرب الكويت كان عدد المصلّين في المسجد ٩٠ شخصاً في صلاة الجمعة. الآن يحضر أكثر من ألف مؤمن معظمهم من الشباب. لا يوجد مكان كافٍ في مسجد الحيّ لذلك يصلّي الناس في الشارع». كانت هناك مواظبة متزايدة خلال شهر رمضان. وقد اعتبرت الإيكونومست تورّط صدّام بالصحوة الإسلامية استغلالاً، لكن من خلال الاستماع إلى ردّ الحكومة على التفجير الانتحاري ناهيك بأخبار استشهاد نعماني، بدأت أتساءل ما إذا كان صدّام مُذعناً أكثر منه مستغلاًّ، وأنه اكتشف قوّة يجب استرضاؤها عوضاً عن قمعها، وهي قوّة تشدّ مواطنيه من المسلمين السنّة كما الشيعة. وخلال أسبوع قامت امرأتان بعملية لا سابق لها إذ فجّرتا نفسيهما عند موقع أميركي آخر.

عند الغسق اهتزّت الأرض حول بوّابة مقبرة بغداد الشمالية نتيجة دويّ انفجارات القنابل... وامتلأت السماء الزرقاء ـ الرمادية بنيران المضادّات.. وتحت السحب الدخانية، إضافة إلى ما يُشبه النجوم الصغيرة من الطلقات المضادّة للطائرات وانفجار القذائف، كان الرقيب فريدريك وليام برايس من كتيبة المدفعية الملكية، والجندي الجوّي ب. ماغي من سلاح الجوّ الملكي، والعريف ا . د. أدستز من كتيبة يورك ولانكستر، ينامون ملء أجفانهم... ولعلّه كان مكاناً غريباً لكي تزوره فيما كانت الغارات الليلية الأولى تُطبق على عاصمة العراق.... ليس تماماً... لأن وزير خارجية العراق ناجي صبري تحدّث سابقاً عن هذه القبور العائدة إلى التاريخ الاستعماري السابق..... ذلك أن الجنود البريطانيين الرقم ١٤٠١٩٧٩ للسرجنت برايس، والرقم ٤٧٣٦٣٦٣ للعريف أدستز، والرقم ٢١٠٤٩٣ للطيّار ماغي، ماتوا هنا خلال حرب بريطانيا الاستعمارية الأولى في العراق عام ١٩٢١....

ماذا قال السيّد صبري وهو يتباهى بلباس حزب البعث؟ «إنّ للجنود البريطانيين قبوراً في العراق تعود إلى العشرينيّات وإلى عام ١٩٤١، والآن ستكون لهم قبور أخرى حيث سينضمّ إليهم أصدقاؤهم الأميركيون». لهذا السبب ركبت سيّارة أجرة في ساعة الغسق إلى البوّابة الشمالية للمقبرة على طريق الموصل القديمة من بغداد لألقي نظرة على الرجال الذين تحدّث عنهم ناجي صبري. كان عمر الجندي نيكلسون من كتيبة يورك ولانكستر ٢٣ سنة فقط عندما مات يوم ١٢ آب/أغسطس ١٩٢١.. وجندي الجيش الملكي كلارك كان عمره ٣٨ سنة عندما قُتل بعد ستة أيام. كانت حرب العصابات الأولى هذه ضدّ الاحتلال الغربي على وشك البدء من جديد استناداً إلى حزب البعث العراقي. ولكن متى؟ الآن في مواجهة هذه القوّة الغازية الهائلة؟ أم فيما بعد؟.

قال صبري: «علينا تحويل صحراءنا إلى مقبرة كبيرة للجنود الأميركيين والبريطانيين». وبينما كانت الصواريخ

تشكّل خطوطاً متقاطعة فوق بغداد ويُحلّق أحدها فوق نهر دجلة على علوّ ٢٠٠ قدم لينفجر في المباني الرئاسية بدويّ هائل وخط من الدخان الرمادي، ارتفعت اللهجة تدريجياً. وبحسب وزير الإعلام فقد كان المستعمرون الجُدد يستخدمون القاعدة البريطانية الذهبيّة القديمة: «فَرِّقْ تَسُدْ».. ولِننسَ للحظة أن «فرّق تسد» هذه كانت أصلاً قاعدة رومانية... وكان الوزير يعد بأن وحدة الشعب العراقي لن تتحطّم. كم كان ليُترك من هذه اللغة الخطابية لو كان هناك سبيل للخروج من الحرب؟ أعلن الصحّاف، الخياليّ: «أن الدبلوماسية الحقيقية هي في قتل الأميركيين والإنكليز في أرض المعركة بحيث يشعرون بأن أحلامهم تبخّرت. لن نسمح لهؤلاء العملاء القذرين بالبقاء على أرض العراق».. العملاء القذرين؟ ألم تكن عبارات العملاء القذرين والكلاب الهاربة هي السائدة عندما كان الاتحاد السوفياتي موجوداً؟ هل أننا نرجع فعلاً إلى الاستعمار؟ وما لم يتراجع الأميركيون عن عنفوان حكومة محتلّة وعسكرية فمن الصعب تجنّب طرح السؤال. تماماً كما أنه لم يكن من الصعب التكهّن بما يفكّر فيه جندي سلاح الجوّ بينما يهتزّ قبره تحت وطأة انفجار القنابل من قِبل السلاح الجوّي الملكي نفسه الذي مات في سبيله منذ زمن بعيد في العراق؟.

بدأ الجوّ يزداد سخونة في بغداد وخلال شهر سترتفع الحرارة إلى ٣٥ درجة مئويّة. والسحابة الكثيفة السوداء التي تغطّي المدينة بدأت تشكّل ضباباً نتيجة احتراق النفط ممّا يجعل أخفّ الغارات الجوّية أشبه باللغز. في اليوم التالي الساعة ٤,٤٥ عاد صوت الطائرات يهدر مجدّداً وتبعته سلسلة من الانفجارات الحادّة والقصيرة استمرّت حوالي دقيقة، وبدت كلّها مألوفة لسمعي. وكانت القنابل الذكية مشروعة ضدّ المدرّعات لكن غير مشروعة قطعاً ضدّ المدنيين. حدّقت لمدّة عشر دقائق عبر الدخان من شقّتي العالية بدون فائدة... كان من الصعب التكهّن ما إذا كانت القنابل تُلقى على الضواحي، أم على الثكنات العسكرية أم على مناطق مأهولة.. وكذلك كان صعباً التكهّن بوضع بغداد في هذه الحرب. لم تكن المدينة قد حوصرت بعد، وكانت طرقها الرئيسية إلى الشمال والجنوب ما زالت مفتوحة. ولا تزال تنطلق بعض القطارات من المدن الشمالية رغم أنه تمّ الإبلاغ عن قيام القوّات الأميركية بوضع نقاط تفتيش على الطريق إلى الغرب من عمّان، ويبدو أنه كان هناك حاجز طيّار يوقف الشاحنات والسيّارات لبضع ساعات ثم يختفي في الصحراء ليلاً.

عند المساء ظهر نائب الرئيس رمضان في الفيلّا اليونانية المزيّفة المخصّصة للناطقين باسم الحكومة إضافة إلى وزارة الإعلام.. كانت لديه عادة غريبة في عدم النظر أبداً إلى من يطرح عليه سؤالاً كائناً مَن كان.... وقد جاء ليؤكّد أنّ ستّة آلاف عربي وصلوا إلى العراق لقتال الأميركيين والإنكليز وأن نصفهم متلهّف للشهادة. وكرّر رمضان مجدّداً أن ليس لدى العراق أسلحة دمار شامل وأمضى معظم الوقت يزعم أن الأميركيين والإنكليز يمكن أن يزرعوا هذه الأسلحة في العراق بُغية خداع العالم لتبرير غزوهم. وتلا ذلك خطاب بليغ لم أتمالك أن أشكّ في أنه كان يعكس بأمانة الغضب المتصاعد لدى صدّام.

كان وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل مُستهدفاً من رمضان وكذلك من صدّام حسين: «لقد قدّم نصيحة، وهذا شيء اعتاد القيام به، إنه يرغب في رؤية زعيمنا يتنحّى». وقال رمضان: «دعوني أبلغ أنه يعرف حقّ المعرفة

مَن هو ابن عمّه المدعوّ الأمير السفير بندر في واشنطن ولمن يعمل. قولوا له: اذهب إلى الجحيم. كل ما نتمنّاه أن لا يكون لكم اسم عربي.. ودعوني أبلغكم أنكم غير جديرين بقول أيّة كلمة عن زعيم العراق. إن الذين استسلموا سوف يطردون من بلاد العرب».. طبعاً لم يكن هكذا الكلام ليخدم العلاقات السعودية ـ العراقية.

ثم سمعنا وزير الخارجية الأميركي كولن باول يعلن أمام لجنة العلاقات الخارجية الأميركية ـ الإسرائيلية، أكبر لوبي إسرائيلي في الولايات المتحدة والذي يدعم الغزو، أن سوريا وإيران تدعمان المجموعات الإرهابية في بغداد وأن عليهما مواجهة العواقب.

وسألنا جميعاً: ما الذي كان يحصل الآن؟ هل أننا سننسى بغداد بضعة شهور لكي نرسل جنودنا غرباً لمحاصرة دمشق؟ يبلغنا بوش الآن بأن الحرب ستكون «طويلة وصعبة».. وهو لم يقل لنا ذلك من قبل.. أم أنه فعل؟ واستناداً إلى طوني بلير فإن «هذه هي البداية فقط». أستغرب كيف أنه تناسى كلّ الكلام عن الحرب الكيميائية والجرثومية. لقد تمّ الآن شطب الأسلحة السرّية، وأقنعة الغاز، والحقن المضادّة للإنتراكس، والأدوية والبدلات المضادّة للأسلحة الكيميائية وباقي الرواية، لأن الرصاص والقذائف الصاروخية أصبحت الخطر الحقيقي على القوّات البريطانية والأميركية في العراق. وحتى «حصار بغداد»، تلك المدينة التي تبلغ مساحتها ٣٠ ألف كلم مربع والتي تحتاج إلى ربع مليون جندي لحصارها، سقط من المفكّرة. واستناداً إلى صحيفة النيويوركر فقد تدخّل وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد ليُفسد خطط الجنرالات.. «ستكون هذه الحرب حرباً من نوع لم نشهد مثيلاً له من قبل»، والكلام لرامسفيلد.

بينما كنت جالساً في مقهى في بغداد أستمع إلى حملة العراقيين البلاغية الشنيعة وأراقب الغارات الجوّية الأميركية والبريطانية العشوائية التي تستهدف بطارية صواريخ قرب سوق العاصمة عند الظهر والتي ستؤدّي إلى مقتل المدنيين، تكوّن لديّ شكّ في أن قواعد هذه الحرب غير مبنية على التخطيط العسكري بل على العقيدة. منذ فترة طويلة، كما نعلم، خطط الجناح اليميني لجماعات الضغط المؤيّدة لإسرائيل والمحيط ببوش لإسقاط صدّام، مما سيؤدّي إلى تدمير أكثر الدول العربية قوّة في الشرق الأوسط ـ وطلب رئيس الأركان الإسرائيلي شاوول موفاز أن تبدأ الحرب في وقت مبكر ـ مما يسمح بتغيير خارطة المنطقة إلى الأبد ـ وقد صرّح باول بذلك قبل شهر.

لقد اكتسبت الأوهام مصداقية نتيجة الانحراف الأخلاقي لقوّة عظمى.. وكان يمكن استخدام أيّ نوع من الكذب لتغذية هذا المشروع العقائدي: هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر (التي لم تعد تذكر الآن)، والرابط بين صدّام وأُسامة بن لادن (غير المثبت)، وأسلحة الدمار الشامل التي لم يُعثر عليها، وخرق حقوق الإنسان التي تغاضينا عنها عندما كان صدّام صديقنا، وأخيراً المشروع الأكثر جرأة الذي ينصّ على تحرير شعب العراق. ولم يُذكر النفط رغم أنه العامل المسيطر والأهمّ في هذا النزاع غير الشرعي. ولا عجب أن يكون القائد الأميركي الجنرال طومي فرانكس قد اعترف بأن اهتمامه الأول قبل نشوب الحرب كان منصبّاً على حماية حقول نفط العراق الجنوبية. إذاً سيكون هذا «تحريراً» و«ديمقراطية».. كم كان اقتحامنا للحدود قاسياً! وبأيّة أهداف سامية كنّا نغزو العراق؟

كان القليل من العراقيين وحتى الوزراء في بغداد يشكّون في قدرة الأميركيين على احتلال البلاد في نهاية الأمر. وقد كتبت يوم ٢ نيسان/أبريل: «لدى الأميركيين القوّة ولديهم الأسلحة لشقّ طريقهم إلى داخل كلّ مدينة وفرض حظر تجوّل وحُكم البلد بالقانون العسكري. لكن هل باستطاعتهم إخضاع العراقيين لهذا الحكم؟ وفي حال قيام ثورة شعبية كما يتوقّع بوش وبلير فإن هذه الحرب ستكون عندئذ فقط حرباً وطنية واضحة ضدّ أحد أشكال القوّة الاستعمارية. وبدون دعم عراقي، كيف سيتمكن الجنرال فرانكس من إدارة دكتاتورية عسكرية وإيجاد عراقيين يرغبون في التعاون معه وخدمته للإشراف على آبار النفط؟ يستطيع الأميركيون كسب الحرب لكن إذا فشل مشروعهم فإنهم خاسرون».

قرأت اليوم هذه الكلمات مع بعض الدهشة وهي كانت مطبوعة في صحيفة الإندبندنت لكنني لا أتذكّر أنني كتبتها. ربّما حرّكت العملية الانتحارية قلمي الصحفي وربّما كان ذلك نتيجة الحديث عن الشهادة. ينتج عن الحرب تعب لا ينتهي. نسافر طيلة النهار ونكتب ونحاول البقاء أحياء.. وفي الليل نقبع في أسرّتنا في فندق فلسطين مع قناعة، زائفة كما سنكتشف، مُفادها أن ذلك يضمن سلامتنا.. وإذ نستلقي مستيقظين فيما الانفجارات الضخمة تمزّق أنحاء المدينة، ندرك يقيناً أن الحرب هي الأرق بحدّ ذاته.

أخيراً سمح لنا العراقيون بالخروج من بغداد الى المُسيّب والحلّة. كان الطريق إلى الجبهة في وسط العراق مجالاً لتحرّك السيّارات بسرعة وللمدافع المضادّة للطائرات المنتشرة وللدبّابات والشاحنات المخبّأة تحت أشجار النخيل ولقافلة من العربات المصفّحة التي دُمّرت بفعل القصف الجوّي ولمئات المدافع المموّهة للدفاع عن العاصمة. كتبت في مفكّرتي: «إن على أيّ شخص لديه شكّ في أن الجيش العراقي مستعدّ للدفاع عن العاصمة، أن يأخذ الطريق السريع باتجاه جنوب بغداد». وظللت أتساءل كيف استطاع الأميركيون شقّ طريقهم عبر هذه الاستحكامات؟

بالعودة إلى الوراء، تساءلت إن كان هذا هو سبب أخذنا لمشاهدة أعمال البشر والخنادق والأسلحة المموّهة التي ستُهجر خلال أيام قليلة من قِبل المدافعين.

استمرّ الوضع على هذا المنوال.. ميلاً تلو ميل.. خنادق، تحصينات تحت الأرض، مدفعية ثقيلة مموّهة بأغصان النخيل وشاحنات تنقل جنوداً بملابس القتال. لم أشهد الجيش العراقي منتشراً بهذا الشكل منذ الحرب العراقية ـ الإيرانية ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨. ويستطيع الأميركيون القول إنهم يقلّصون الدفاعات العراقية لكن هناك دلائل قليلة على ذلك. وأن يتمكّن صحافي غربي من رؤية الاستعدادات العسكرية العراقيّة أكثر بكثير مما كان يستطيعه المراسلون المرافقون للأميركيين والإنكليز، فأمر يشي بالكثير عن ثقة الحكومة العراقية بنفسها وعن حاجة نظام صدّام إلى بثّ دعاية ضدّ أعدائه.

صحيح أنه كانت هناك دلائل حول ضرب البريطانيين والأميركيين للقوّات العراقية. وقد تحوّلت كمّيات من

الأسلحة إلى رماد نتيجة الضربات الجوّية المباشرة وأصبحت الثكنات العسكرية مهجورة مثل بقيّة المراكز الهامّة الموجودة على لائحة الأهداف الأميركية ـ البريطانية، كما دُمّرت تحصينات عسكرية بالصواريخ. وكذلك دُمّرت مجموعة من مراكز الاتصالات التلفونية في المدن حول الحلّة... ونتيجة قصف ستّة مراكز اتصالات في بغداد يظهر أن نظام الاتصالات في البلاد قد دُمّر.

على خط سكّة الحديد، جرى قصف قطار محمّل بالمعدّات العسكرية وأدّى القصف إلى تدمير مُصفّحتين منقولتين على شاحنتين وقذفهما نحو الحاجز الترابي. لكنّ العديد من العربات المصفّحة، بما في ذلك ١١٣ سيّارة أميركية قديمة مستولى عليها من الجيش الإيراني بقيت سليمة. وإذا كان هذا هو مدى النجاح الأميركي إلى الجنوب من بغداد، فقد كانت هناك مئات العربات العسكرية السليمة بكل معنى الكلمة متمركزة على بعد ١٥٠ كلم جنوب العاصمة، ومموّهة بشكل جيّد لتفادي الهجوم الجوي.

ولقد أثبت العراقيون على غرار الجيش الصربي في كوسوفو أنهم أسياد في التمويه، وظهر أن حقلاً من القمح تحفّ به أشجار النخيل يضمّ عن قرب خنادق ومدافع مضادّة للطائرات مخبّأة بشكل جيّد. وأخفيت العربات المصفّحة تحت الجسور ـ التي لا يرغب الأميركيون والإنكليز في تدميرها قطعاً كونهم يريدون استخدامها في حال نجاحهم في احتلال العراق ـ بالإضافة إلى الشاحنات التي خُبئت في حُفر مغطاة جيّداً برمال أرضها..... وعلى تقاطع طريق رئيسي كان هناك مدفع مضادّ مركز على شاحنة، يشرف عليه جنديان يراقبان الأجواء الزرقاء.

كان العراقيون قادرون على القيام بذلك رغم وجود أسراب الطائرات في الأجواء بين بغداد وكربلاء والحِلّة. فوق الحِلّة، موطن بابل السومرية القديمة، كان يمكن رؤية طائرة أواكس أميركية بعيدة تحلّق عالياً في السماء، وبدت نقطة بيضاء صغيرة تدلّ على الرادار الضخم فوق الطائرة التي تابعت مسارها على مرأى من الجنود ورجال الميليشيا. وبينما كنت في الباص المتّجه جنوباً على الطريق السريع استطعت مشاهدة الجنود وهم يراقبون الأجواء. وإذا كان البقاء على قيد الحياة يحتاج إلى وعي فإن للخوف من ضربة جوّية التأثير نفسه. وقد أكّد صحفي عراقي يجلس بقربي أن طائرة أميركية أو بريطانية تابعنا مسارها بخوف من سيّارتنا عادت وتوجّهت جنوباً متجاهلة السيّارات على الطريق الرئيسي. وبعد دقائق قليلة، عادت الطائرة وظهرت أمامنا وهي تحلّق في الاتجاه المعاكس.

بينما كنت متّجهاً على الطريق السريع جنوباً تبدّدت أوهام عديدة في مخيّلتي. هناك أسواق في المدن الصغرى في الطريق إلى بابل، بسطات تبيع البرتقال والتفاح والخضار، والطرقات مزدحمة بالباصات والشاحنات والسيّارات الخاصة إضافة إلى سيّارات عسكرية لا تُحصى وشاحنات محمّلة بالجنود ومن وقت لآخر تُرى شاحنة تحمل صاروخاً مغطّى بقماش كبير ومربوطاً بشكل محكم على ظهر الشاحنة.

في مدينة الإسكندرية، كانت المقاهي مفتوحة والمحلّات تبيع الكفتة والبطاطا إضافة إلى هوائيات التلفزيون الجديدة التي يحتاج إليها العراقيون الآن لمشاهدة التلفزيون الحكومي الذي قُصِف مركز بثّه مراراً من قِبل الطيران

الأميركي والبريطاني. ليس هذا شعب على حافّة الجوع ولا يبدو عليه الخوف. وإذا كان الأميركيون على وشك شنّ هجوم عبر هذه الجداول في المزارع والغابات الشاسعة لأشجار النخيل وحقول القمح، فقد بدا البلد لأوّل وهلة أنه بلداً في حالة سلام.

لكن بدت المصانع الضخمة والمؤسّسات الحكومية مهجورة وكان العديد من عمّال المصانع والموظّفين يقفون خارج المداخل الرئيسية. وعلى بعد ٣٠ كلم جنوب بغداد حصل قصف جوّي واهتزّ الباص مع إطلاق القذائف المضادّة للطائرات. كانت المدافع المضادّة للطائرات إلى يميننا تطلق نيرانها فوق رؤوسنا، وكانت فوّهات الأسلحة تبرق كالذهب والقذائف تتفجّر خلف سحابة من الدخان الرمادي الناتج عن حرائق النفط في بغداد والتي انتشرت إلى مسافة ٨٠ كلم جنوب المدينة.

وقد تعدّت المشاهد أحياناً حدود الفهم. ثمّة أطفال يقفزون فوق سور مزرعة قرب كوخ للاتصالات العسكرية، ومجموعة من الجمال الضخمة تتحرّك مثل الحيوانات الخرافية بمحاذاة دبّابات تي ٨٢ السوفياتية الصنع المخبّأة تحت أغصان النخيل، وحقول من الزهور الصفراء قرب براميل وقود، وجنود يقفون أمام الأفران، وقد دفع انفجار صاروخ أميركي المزارعين إلى الالتفات. وفوق كومة من الركام ثبّت أحدهم العلم العراقي كما يفعل الفلسطينيون بوضع راياتهم على أنقاض بيوتهم بعد الهجمات الإسرائيلية.

هل من عبرة وراء ذلك؟ كانت لديّ ساعتان من الزمن على الأرجح لفهم ذلك كلّه وللتساؤل بدهشة كيف يمكن للقوّات الأميركية أن تمضي على هذا الطريق السريع الطويل والحارّ.. وكان بالإمكان الإحساس بالحرارة وهي ترتفع كلّما تقدّمت جنوباً.. في هذه الدبّابات المدفونة والعربات المصفّحة والحقول المشبعة بالمياه وأشجار النخيل. كان فدائيو صدّام يرتدون الملابس السوداء والكوفيّات المرقّطة الحمراء والبيضاء على رؤوسهم على بعد ١٥٠ كلم إلى الجنوب من بغداد ، وكانوا مجهّزين بجُعب ذخيرة وقذائف صاروخية ولم يبدوا لي بمظهر الجيش المنهار الموشك على الاستسلام.

كتبت ذلك المساء: «لعلّ كلّ هذا وهم. لعلّ الوحدات المقاتلة التي شاهدتها لا ترغب في القتال. ربّما تُهجر الدبّابات عندما وصل الأميركيون إلى الخطّ السريع باتجاه بغداد. ربّما تُقطر شاحنات النفط إلى العاصمة وتُخلى الخنادق. ربّما يفرّ صدّام من بغداد عندما تتساقط القنابل على الضواحي وعندما يجري تدمير تماثيل الزعيم الكبير المنتشرة خارج القرى على طول الخط السريع. وكان هذا بالضبط ما حصل.. غير أن الأمر لم يكن هكذا في بداية نيسان/أبريل. بدا وقتها أن الجيش وميليشيا الحزب مستعدّون للقتال من أجل قيادتهم كما فعلوا في أمّ القصر والبصرة والناصرية وسوق الشيوخ.. أم أن هناك شيئاً آخر كانوا يقاتلون من أجله؟ عراق، رغم قيادته الدكتاتورية، يرفض ببساطة فكرة وجود غزاة أجانب؟ أم عراقيون يهتمّون ببلدهم أكثر من اهتمامهم بصدّام وينظرون إلى الأميركيين كأعداء ويرفضون إطاعة أوامر صدّام؟

كانت الجروح عميقة وخطيرة، والبُقع الحمراء على الظهور والأفخاذ والوجوه والشظايا الحادّة نتيجة القنابل الانشطارية مغروسة على عمق إنش أو أكثر في اللحم. إنّ أجنحة مستشفى الحلّة التعليمي الموجود على مسافة ٥٠ كلم جنوب بغداد تُعتبر دليلاً على أن شيئاً غير قانوني ـ شيئاً مناقضاً لمعاهدات جنيف ـ يحصل في القرى حول المدينة المعروفة ببابل. يتحدّث الأطفال الناجون والنساء الشابّات المصابات بجروح في الصدور والأقدام، والمصابون العشرة الذين يجري لهم الأطبّاء عمليّات جراحيّة في الرأس لإزالة الشظايا المعدنية، عن الأيام والليالي التي كانت تتساقط فيها القذائف مثل العناقيد من الجوّ. قال الأطبّاء إنها قنابل عنقودية، وأظهرت آثار الغارات الجوّية على الضواحي أنهم على حقّ.

هل كانت الطائرات الأميركية أو البريطانية هي التي قصفت تلك القرى بأكثر الأسلحة فتكاً في الحرب الحديثة يوم ٣٠ و ٣١ آذار/مارس؟ لا يستطيع الحادي والستّون قتيلاً الذين مرّوا بمستشفى الحلّة أن يقولوا لنا.. كما لا يستطيع ذلك أيضاً الناجون الذين كانوا، في حالات، عديدة جالسين في بيوتهم عندما ألقت الطائرات من علوّ شاهق فوق قراهم آلاف القنابل الصغيرة التي تنفجر في الجوّ أو تدخل عبر النوافذ والأبواب لتنفجر في الداخل أو تنزلق عن سطوح الأكواخ الإسمنتية لتنفجر في الشوارع.

تتذكّر رعد حاكم أن الساعة كانت ١٠,٣٠ صباح ذلك الأحد، حين كانت جالسة في بيتها في ندر، وأنها سمعت صوت الانفجارات ونظرت من الباب لتشاهد «السماء تمطر ناراً». كانت القنابل الصغيرة رمادية سوداء. وقد وصف محمّد موسى القنابل الانشطارية التي سطعت في القرية نفسها بالصناديق الصغيرة الفضّية: «تساقطت مثل عناقيد العنب الصغيرة، وإذا لم تنفجر عند سقوطها كانت تنفجر عند لمسها فوراً. كانت تتفجّر في الجوّ وعلى الأرض وما زال بعضها في بيتنا غير منفجر».

وتعتقد كريمة مزلر أن القنابل الصغيرة مربوطة بأسلاك ـ ربّما كانت من معدن «الفراشة» الذي يحتوي على مجموعة قنابل انشطارية صغيرة وينفتح لإطلاقها بغزارة عند اقترابها من الأرض. وقد توفّي البعض على الفور ومعظمهم نساء وأطفال تقبع بقاياهم المتفحّمة والمتحلّلة في مستودع الجثث الصغيرة خلف مستشفى الحلّة. واستقبل المستشفى أكثر من مئتي جريح منذ ليل السبت ٢٩ آذار/مارس وهناك ٦١ قتيلاً أحضروا إلى المستشفى أو ماتوا خلال خضوعهم للعملية الجراحية أو بعدها، ويُعتقد أن كثيرين دُفنوا في قراهم ويقول الأطبّاء إن ٨٠ في المئة من الجرحى كانوا مدنيين. وكان بينهم جنود، أربعون جندياً على الأقلّ إذا كانت الإحصائيات دقيقة.. وقد وجدت بين ملابس القتلى خارج مستودع الجثث حزاماً عسكرياً وسترة قتال. لكن من الممكن أن يرتدي القرويون ملابس عسكرية.. وهم أكدوا مع زوجاتهم وبناتهم أنه لا وجود لمنشآت عسكرية حول منازلهم. صدق أم كذب؟ مَن هم ليعرفوا إذا كانت الدبّابة أو قاذفة الصواريخ متمركزة في حقل قريب ـ كما كانت أمس على طول الخط السريع شمال بغداد؟ لكنّ اتفاقيات جنيف تنصّ على حماية المدنيين حتى لو كانوا محاطين بالجنود... واستخدام القنابل الانشطارية في هذه القرى ـ حتى لو كانت موجّهة ضدّ أهداف عسكرية ـ خرق للقانون الدولي.

وهكذا أُصيبت أسيل يمين (٢٧ عاماً) بجروح مروّعة في ظهرها، وكذلك زمان عبّاس (٥ سنوات) التي أصيبت في قدميها، وسميرة عبد الحمزة (٤٨ سنة) في عينيها وبطنها ورجليها. وقال ابن سميرة حيدر وهو جندي (٣٢ سنة) إن العبوّات التي سقطت على الأرض كانت بيضاء بالإضافة إلى اللون الأحمر والأخضر أحياناً. وقال: «إنها تشبه قنبلة يدوية. وقد وصلت إلى داخل البيوت وبقي بعضها على الأرض وانفجر البعض الآخر».

إنه مشهد يفطر القلب.. تلك هي العبارة الوحيدة لوصف حالة مريم نصر (١٠ سنوات) وأختها هدى (٥ سنوات). لدى مريم إصابة فوق عينها اليمنى حيث استقرّت شظية قنبلة، إضافة إلى جروح في المعدة والأفخاذ. لم أنتبه أنه عندما رفعت هدى حجابها، ظهرت من خلال شعرها إصابة عميقة في الجهة اليمنى من رأسها وفوق أذنها دم متجمّد عالق في شعرها، لكنّ الجرح ما زال ينزف برفق. وقد وصفت والدتهما كيف كانت في بيتها في ندر عندما سمعت الانفجار ووجدت بناتها في بركة من الدم قرب الباب. وابتسمت البنتان بلطف وخبّأتا وجهيهما عندما أخذت صوراً لهما. في أجنحة أخرى حاول الجرحى الضحك وإظهار الشجاعة. كانت تجربة مُذلّة.

صحيح أن كل السلطات العراقية كانت مستعدّة للسماح للصحفيين بالوصول إلى المرضى، إلا أنه لم يكن هناك أيّ مبرّر لدى هؤلاء الأولاد وأهلهم الأمّيين لتلفيق هذه القصص المأساوية والمؤلمة، أو تلفيق مكان الحادث في قرية ندر حيث تنتشر بقايا القنابل الصغيرة على الأرض قرب أماكن الانفجارات مع مظلّات صغيرة معلّقة بهذه القنابل توصلها إلى الأرض. وقد نجح فريق من تلفزيون سكاي في إحضار مجموعة من شظايا هذه القنابل من ندر إلى بغداد، تلك الكرات المعدنية الشرّيرة الهادفة إلى تمزيق جسم الإنسان والتي ما زالت في غلافها المعدني مثل حبوب الدواء. كان لونها أسود مائلاً إلى الفضّي.

روى نائب مدير مستشفى الحلّة وأحد أطبّائها رواية مشوّشة عن تحرّك عسكري حول المدينة في الأيام الأخيرة، وعن طائرات أباتشي المروحية وهي تُنزل الجنود على طريق كربلاء. وبحسب قول موظّفي المستشفى، فقد كانت إحدى عملياتهم فاشلة ذات ليلة عندما أجبرهم رجال الميليشيا على الانسحاب. وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت تتساقط القنابل الانشطارية... ويبدو أنهم استخدموا المدفعية بدلاً من الطيران لإرسال هذه القنابل الصغيرة.. وذلك برغم وجود القرى المستهدفة على الجانب الآخر من الحلّة عند حصول الهجوم الأميركي الفاشل... حصلت الغارة الأخيرة يوم الثلاثاء وقُتل فيها أحد عشر مدنياً بينهم امرأتان وثلاثة أطفال في قرية تُدعى هندية. وقد أفاد رجل جاء إلى المستشفى لجمع الجثث أن الكائن الوحيد الذي وجده حيّاً في منطقة الجثث كان دجاجة. ولم يتم إرسال خبراء تفكيك المتفجّرات إلى القرية لتفجير القنابل المتبقية إلّا بعد أربعة أيام.

غنيّ عن الذكر أنها ليست المرّة الأولى التي تُستخدم فيها القنابل الانشطارية ضدّ المدنيين. فخلال الحصار الإسرائيلي لبيروت الغربية عام ١٩٨٢، ألقت الطائرات قنابل انشطارية من صنع البحرية الأميركية على عدّة مناطق في المدينة وبخاصة منطقتي الفاكهاني والأوزاعي، أدّت إلى سقوط قتلى وجرحى مدنيين كانت جروحهم مشابهة لتلك التي رأيتها في الحلّة. وبسبب انزعاجها من سوء استخدام أسلحتها التي صُمّمت للاستخدام ضدّ أهداف

عسكرية، فقد أوقفت إدارة ريغان شحنة طائرات قاذفة ـ مقاتلة إلى إسرائيل ثمّ أخّرتها بضعة أسابيع أخرى ثم أرسلتها. ولم يكن من السهل الاستماع إلى تصريحات المسؤولين العراقيين وهم يندّدون باستخدام أسلحة محرّمة من قِبل السلاح الجوّي الأميركي والبريطاني، بينما ألقى السلاح الجوّي العراقي الغازات السامّة على الجيش الإيراني والقرى الكردية المؤيّدة لإيران في حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ ضدّ إيران.. كانت المزاعم الغاضبة للمسؤولين العراقيين حول خرق حقوق الإنسان من قِبل الغُزاة الأميركيين والإنكليز أشبه بجرس صوته أجوف.. لكن حصل شيء أخطر حول الحلّة في أواخر آذار/مارس.. شيء لا يمكن التسامح حياله ومناقض للقانون الدولي.

كان الغرور يحكم بغداد. فقد وعد وزير الإعلام العراقي الصحّاف بإبادة الأميركيين مثل الأفاعي في الصحراء حتى لو كان هؤلاء الأميركيون محتشدين على أطراف بغداد. وظهر صدّام شِبه المحاصر من أعدائه على شاشة التلفزيون الرسمي وهو يحثّ العراقيين على القتال حتى الموت ضدّ قوّة الغزو الأنغلو ـ أميركي «لأن النصر قريب». ظهر في لباس عسكري وقبّعة سوداء قرب علم عراقي وخلفه سارية من قماش أبيض.. وبعد أن اتّهم الأميركيين بالقتال في خفاء وغدر قال للعراقيين إن بإمكانهم «استخدام كلّ الأسلحة التي بين أيديهم».. وقال: «يحاول العدو جاهداً ضرب مقاومتنا البطولية من خلال تخطّي دفاعات قوّاتنا المسلّحة حول بغداد. يتجنّب العدو قتال قوّاتنا عندما يكتشف قوّتها وصمودها، وفي المقابل أنزل العدوّ بعض القوّات هنا وهناك بأعداد صغيرة كما توقّعنا. يمكنكم مقاتلة هؤلاء الجنود «بأيّة أسلحة متوفّرة»... وتوحي العبارة كما توقّعنا أن العراقيين أُخذوا على حين غرّة نتيجة خطط الأميركيين المتحرّكة التي ألغت مفهوم الخطّ الدفاعي الأوّل الذي تعوّدت القوّات العراقية القتال بموجبه. وأورد صدّام ملاحظة: «تذكّروا ذلك الفلّاح المسنّ الشجاع الذي أسقط طائرة أباتشي ببندقيته». وكانت المروحية قد أُسقطت يوم ٢٤ آذار/مارس. وصرّح منظّرو المؤامرة فوراً بأن خطاب الرئيس التلفزيوني قد تمّ تسجيله منذ أكثر من أسبوع تحسّباً لأيّ حصار لبغداد. لم تكن هناك حاجة لانزعاجهم... ففي الأيام الأخيرة لحكمه، أصبح صدّام أسير أسطورته.. رجلاً كان يفضّل كتابة قصص رومانسية في قصوره بينما كان بوش يهدّده بالحرب.

والآن فإن جنود صدّام والمدنيين العراقيين الذين يدفعون الثمن. خاطرتُ يوم ٥ نيسان/أبريل بالخروج في سيّارة سريعة مع سائق رسمي «اشترته» صحيفة الإندبندنت وقد أصبح مخلصاً لي أكثر من إخلاصه لصدّام حسين. وكان هذا عادلاً.. توجّهنا بسرعة نحو المطار، ثم رجعنا نحو المدينة عند سماعنا هدير الطائرات المغيرة. كانت هذه لحظات من الخوف والموت، ومجرّد روايات أخذتها معي لملء الصفحة الأولى لعدد الأحد من الصحيفة في الأسبوع الأخير للغزو. إلى جانب الخط السريع، كانت مجموعة من القوّات العراقية تزرع ألغاماً بينما اهتزّت الأرض تحتنا من تأثير الضربات الجوّية الأميركية. كان اسم المنطقة، القادسية، آخر جبهة عراقية أمامية. وكانت عربة مصفّحة عراقية لا تزال تحترق وتتشكّل سحابة رمادية ـ زرقاء فوق الأشجار التي يختبئ تحتها طاقم الدبّابة. وقد احترقت شاحنتان على الجانب الآخر للطريق علماً بأن مروحيّات الأباتشي كانت تحلّق هنا قبل وصولنا بدقائق قليلة. وكانت مجموعة من الجنود تستعدّ لتجهيز سلاح مضادّ للدبّابات لتدمير أول دبّابات أميركية تصل إلى أرض المطار المهجور.

مرّت قربي شاحنة محمّلة بأكثر من مئة جندي عراقي، العديد منهم باللباس العسكري وجميعهم مجهّزون بأسلحة تسطع تحت الشمس، وكانوا متّجهين إلى المطار. رفع بعضهم علامات النصر نحو سيّارتي وكان سائقي يقود بسرعة ١٤٥ كلم في الساعة. وبالطبع كان لا بدّ من السؤال عن شعورهم؟ وكانت العبارة التي راودتني: «نحو جبهة الموت». على بعد ميلين، في مستشفى اليرموك وقف الجرّاحون في مرآب السيّارات بملابس ملطّخة بالدم، لقد قاموا لتوّهم بمعالجة أول إصابة عسكرية.

بعد ساعات قليلة، أعلن وزير عراقي للعالم أن الحرس الجمهوري استعاد المطار من الأميركيين وأنه يتعرّض لنيران العدوّ لكنّه حقّق نصراً كبيراً.

لم يكن الأمر كذلك حول القادسية... كانت طواقم الدبّابات توجّه مدافعها على الطريق السريع نحو ساحات محطّة سكّة الحديد في بغداد حيث توجد قافلة من العربات المصفّحة وسيّارات الجيب وسحب من الدخان الكثيف. كانت دبّابات ت٨٢ آخر صناعات الدبّابات القتالية السوفياتية تقف ومدافعها منخفضة إلى جانب مجموعة من العربات المصفّحة حول ساحة الأردنّ. وقد شاهدت بطاريات صواريخ سام ٦ المضادّة للطائرات وعدّة قاذفات صواريخ كاتيوشا تنتظر تقدّم الأميركيين في الحقول الشاسعة المليئة بالرمل والنفايات وأشجار النخيل. كان بعضهم يدخّن السجائر في ظلال أشجار النخيل ويشرب العصير الذي أحضره لهم سكّان القادسية الذين تقع بيوتهم على خطّ النار.

لكن عندما توقّفت سيّارة بيك أب يابانية بيضاء أمام سيّارتنا، اعتقدت في بداية الأمر أن الجنود كانوا نائمين وأنهم يضعون أغطية للتدفئة. لكن عندما فتحت نافذتي لتنشّق هواء الصباح المنعش أدركت أن الجنود كانوا ممدّدين بعضهم فوق بعض بأحذيتهم العسكرية الثقيلة في مؤخّرة الشاحنة وهم ١٥ جثّة. وكان الجنديان الناجيان جالسَين في السيّارة وأرجلهما بين الجثث. إذاً فقد ذهب ضحايا أميركا الأوائل اليوم إلى الراحة الأبدية.

بدأ فجر يوم ٦ نيسان/أبريل بسلسلة من الارتجاجات الضخمة وصوت قوي لخطوات ثقيلة هزّت غرفتي. خطوات، خطوات مستمرّة. استلقيت في سريري محاولاً التفكير في السبب. كان الأمر شبيهاً بفيلم «جوراسيك بارك» عندما سمع السيّاح وقع أقدام التيرانوسور، وصوتاً مخيفاً متصاعداً لضربات قلب منتظمة ومرعبة. شاهدت من نافذتي على الضفّة الشرقية لنهر دجلة مدفعاً عراقياً مضاداً للطائرات على سطح بناية مؤلّفة من أربعة طوابق على بُعد ميل ونصف ميل منا، وهو يُطلق نيرانه على شيء ما عبر النهر إلى الضفّة المقابلة. عادت الخطوات مجدّداً، خطوات مستمرّة، كان الصوت هائلاً بحيث انطلقت أجهزة الإنذار في العديد من السيّارات الموجودة على ضفّة النهر.

عرفت ماذا يحصل بعد بضع دقائق عندما وقفت في بهو الفندق. لم تُتح لي الفرصة منذ حرب الخليج الأخيرة عام ١٩٩٢ لسماع صوت المدفعية الأميركية. وهناك على بعد بضع مئات من الأمتار على ضفّة النهر، رأيتهم. في

البداية بدوا مثل حشرة أمّ أربع وأربعين صغيرة محصّنة، يتدفّقون ويتحرّكون مثل بُقع بُنّية ورمادية، مخلوقات صغيرة غامضة جاءت لفحص أرض غريبة بحثاً عن الماء.

كان عليك تركيز نظرك على الحشرات لتفهم الحقيقة، لتدرك أن كل مخلوق هو عبارة عن دبّابة برادلي حربية يسير خلفها مجموعة من جنود البحرية الأميركية يلوذون خلف الدبّابة التي تتحرّك قُدماً نحو نهر دجلة. كان هناك تبادل كثيف لإطلاق نار والقذائف الصاروخية بين القوّات الأميركية والقوّات العراقية ورجال الميليشيا المتحصّنين في مخابئهم وفنادقهم على الضفّة ذاتها من النهر جنوباً. كان الأمر سريعاً وسهلاً ومخيفاً.

بالفعل، كان المشهد رائعاً وغير متوقّع، برغم تفاخر بوش ووعوده، إلى حدّ أنك تنسى لوهلة أنه يؤذن بتسجيل سابقة لتاريخ الشرق الأوسط المقبل. وبالرغم من إطلاق النار والرصاص الخطّاط عبر النهر وحرائق النفط الهائلة التي أشعلها العراقيون لتغطية انسحابهم، كان على المرء النظر بعيداً، إلى الجسور الضخمة على النهر شمالاً، وإلى عمق المياه الخضراء الباهتة لهذا النهر القديم، ليدرك أن جيشاً غربياً بذهنية صليبية شقّ طريقه إلى قلب مدينة عربية لأوّل مرّة منذ زحف الجنرال مود إلى بغداد عام ١٩١٧ والجنرال اللّنبي إلى القدس عام ١٩١٨. لكن اللّنبي دخل القدس مشياً على الأقدام احتراماً لمهد السيد المسيح.. أما الاختراق الأميركي لبغداد بالأمس فإنه كان خالياً من أيّ تواضع أو شرف.

قامت قوّات البحرية الأميركية والقوّات الخاصّة التي تدفّقت على طول الضفّة الغربية للنهر باقتحام أحد أكبر قصور صدّام حسين، وصوّرت مغاسله وحمّاماته ومراحيضه، واستراحت في ردهاته قبل أن تتحرّك قُدماً نحو فندق الرشيد مطلقة النار على الجنود والمدنيين. وقد تمّ إحضار مئات الرجال والنساء والأطفال العراقيين بحالة اضطراب إلى مستشفيات بغداد في الساعات التي تلت سقوط شظايا نتيجة إطلاق النار وانفجار القنابل الانشطارية. واستطعنا مشاهدة طائرات أ١٠ A10 ذات المحرّكين تطلق قذائف مطليّة باليورانيوم على الشاطئ البعيد للنهر.

راقبت من الضفّة الشرقية للنهر قوّات البحرية الأميركية وهي تتقدّم نحو خندق في حالة تأهّب بحثاً عن قوّات عراقية. لكنّ عدوّهم ظلّ يطلق النار من بيوت الطين إلى الجنوب حتى شاهدتهم يهربون واحداً تلو الآخر للنجاة. وقد خرج العراقيون من مخابئهم رغم القصف الأميركي وبدأوا عمليات رهيبة على طول النهر، واحتفظ معظمهم بأسلحتهم وسقط بعضهم نتيجة الهرولة، ونزل آخرون مباشرة إلى مياه نهر دجلة التي غمرتهم حتى ركبهم وفي بعض المناطق حتى أعناقهم. وخرج ثلاثة جنود من خندق يرفعون أيديهم في الهواء أمام القوّات الأميركية، فيما استمرّ آخرون في القتال ثم جاءت طائرة ف١٨ مقاتلة قاذفة وأطلقت نيرانها بغزارة على طول الخنادق المنتشرة وتوقّف إطلاق النار بعدها.

بدا الأمر وكأن بغداد سوف تسقط خلال ساعات.. لكن هذا اليوم سيتميّز بأكثر خصائص الحروب غرابة: مزيج جنوني من الوضع الطبيعي والموت والفكاهة.

ذلك أنه على الرغم من أن الأميركيين كانوا يتقدّمون شمالاً صعوداً مع النهر فيما كانت طائرات ف١٨ تعود مراراً لقصف ضفّته، كان الصحّاف، وزير الإعلام العراقي، يعقد مؤتمراً صحفياً على سطح فندق فلسطين..، أي على مسافة أقلّ من نصف ميل من مكان المعركة.. وفيما القنابل تنفجر إلى يساره والسماء تغطيها القاذفات المقاتلة الأميركية، كان الصحّاف يعلن لحوالي مئة صحفي أن الأمر كلّه لا يعدو كونه تدريباً دعائياً، وأن الأميركيين فقدوا السيطرة على مطار بغداد، وأن «على المراسلين التدقيق وإعادة التدقيق في معلوماتهم، وهذا كل ما أطلبه منكم».. ولحسن حظّه، فإن حرائق النفط وانفجار القنابل والدخان الكثيف الذي خيّم على الضفّة الغربيّة للنهر جعلت من الصعب التأكّد مما يحدث إذا نظرت من فوق كتف الصحّاف.

ما كان العالم يريد معرفته بالطبع هو ما إذا كانت بغداد ستصبح محتلّة أو أن الحكومة العراقية سترضخ.. وكان أهمّ الأسئلة: أين صدّام؟ إلّا أنّ الصحّاف أخذ معظم وقته للتنديد بقناة الجزيرة لانحيازها إلى الولايات المتحدة ولانتقاد الأميركيين لاستخدامهم «ردهات وقاعات» صدّام حسين لنشر دعاية رخيصة.

صاح الصحّاف وسط حُمّى المعركة «إن الأميركيين سيُدفنون هنا، لا تصدّقوا هؤلاء الغزاة فإنهم سيُهزمون». منذ أسبوع فقط، أعلن الصحّاف أنهم سيحتاجون إلى قبور في الصحراء والآن انتقل مكان دفنهم إلى المدينة. وكلّما كان يتحدّث الصحّاف كنّا نحاول مقاطعته للقول: «توقّف سيّدي العزيز وانظر إلى يمينك». وبالطبع لم يكن هناك سوى الدخان فوق كتفه اليُمنى.. عندها قال: «لنقمْ بجولة في المدينة».

وهذا ما فعلته: قمتُ بجولة... كانت الباصات ذات الطابقين تسير في الشوارع بينما كانت المحلّات مقفلة، وانتشر الباعة على الأرصفة، وفي شارع ياسر عرفات كان الرجال مجتمعين في المقاهي الشعبية لمناقشة الحرب.

ذهبت لشراء فاكهة فأخذ البائع مبلغ ٥٠٠ ١١ دينار ولم يعدّه. في هذه الأثناء كانت طائرة أميركية تحلّق على علوّ منخفض وتعبر الطريق لتلقي حمولتها على بعد ألف متر محدثة انفجاراً بدّل من الضغط الجوّي في آذاننا. لكن كانت في كل زاوية شارع عناصر من الميليشيا. وعندما وصلت إلى مقربة من وزارة الخارجية على الضفّة الغربية للنهر، كان طاقم مدفع عراقي من عيار ١٢٠ ملم يطلق نيرانه على الأميركيين من وسط الطريق، وكانت نيران الطلقات تسطع على السحابة الرمادية السوداء التي كانت تغطّي بغداد.

تحرّك الأميركيون لمدّة ساعة ونصف ساعة صعوداً جنوب التيّار النهري وكانوا يتقدّمون نحو وزارة الإعلام القديمة. قاموا بإطلاق النار على المدنيين ورجال الميليشيا خارج فندق الرشيد، وأصابوا راكب درّاجة نارية ومصوّر وكالة رويترز الذي نجا بعد أن أصيبت سيّارته بعدّة طلقات. وكانت مستشفيات بغداد كافّة مكتظّة بالجرحى وبينهم العديد من النساء والأطفال الذين كانوا مصابين بشظايا القنابل الانشطارية.

عند الغسق، كان الأميركيون يحلّقون بطائرات ف١٨ مقدّمين دعماً جوّياً للبحرية الأميركية الواثقة من تدميرها

للمدافع المضادّة للطائرات.. وكان يمكن مشاهدتها تجول في الأجواء الداكنة والرمادية فوق مدينة بغداد، مرتدّة بكسل نحو الجنوب والغرب، بينما استمرّ قصف مجرى النهر.

عند منتصف النهار، حدّد الأميركيون مكان مخزن ذخيرة على الضفّة الغربية للنهر غير بعيد من القصر الجمهوري ـ أحد القصور المحتلّة ـ وقاموا بتفجير المخزن فارتفعت ألسنة اللهب عدة مئات من الأقدام... ولساعات بعدها، ظلّ انفجار القذائف يُسمع وسط الحريق وفي بعض الأحيان كانت القذائق تتفجّر في الجوّ. وحتى لو أنهم فعلوا ذلك من أجل إغضاب صدّام ووزرائه، فقد قام الأميركيون ببثّ صور حيّة عن تفتيشهم للقصر الجمهوري على ضفاف دجلة في شريط يُظهر حمّام صدّام الرخامي والحنفيات الذهبية، وحمّامات الشمس للقوّات الخاصّة في الحديقة الرئاسية مع أنه لم تكن هناك شمس. . . .

مع اقتراب الليل، مررت بتحصينات إسمنتية على الطرف الشرقي لجسر الرشيد الكبير فوق نهر دجلة. وقد قام المدافعون الثلاثة في الموقع المحصّن بتحريك قاذفات الصواريخ نحو طرف الموقع. كانت مئات من الدبّابات والعربات المصفّحة الأميركية تتدفّق باتجاه دجلة من جنوب غرب بغداد، وكان العراقيون الثلاثة (بعثيان وعنصر ميليشيا) واقفين مستعدّين للدفاع عن الشاطئ الشرقي ضدّ أكبر جيش عرفه الإنسان، عندها قلت في نفسي: «هذا بحدّ ذاته يعطيك فكرة عن شجاعة العرب ويأسهم في آن معاً»... لكنّ الألم الحقيقي لم يكن قد أتى بعد. . . .

كان المشهد شبيهاً بمشاهد بحرب القِرم؛ مستشفى مكتظّ بالجرحى المتألّمين والدم يغطي الأرض. مشيت على الدم الذي التصق بحذائي، والذي كان يلطّخ ملابس جميع الأطبّاء في غرفة الطوارئ المزدحمة وكذلك الممرّات والأغطية والأقمشة. كان المدنيون والعسكريون العراقيون الذين أُحضروا إلى مستشفى الشهيد عدنان خيرالله في الساعات الأخيرة لنظام صدّام ـ والمصابون أحياناً بجراح خطرة ـ هم الجانب المظلم للنصر والهزيمة والدليل النهائي، مثل القتلى الذين دُفنوا خلال ساعات، على أن الحرب هي بالفعل السقوط الكامل للنفس البشرية.

بينما كنت أتجوّل بين الأسرّة المملوءة بالرجال والنساء المتألّمين (كان دانتي ليدخل هذه المشاهد في زيارته لدوائر جهنّم) تكرّرت الأسئلة القديمة نفسها. هل كان كل ذلك من أجل ١١ أيلول/سبتمبر؟ من أجل حقوق الإنسان؟ من أجل أسلحة الدمار الشامل؟. في الردهة المزدحمة، مررت برجل متوسّط العمر ممدّد على عربة المستشفى. كان مصاباً بجرح في الرأس يصعب وصفه، وكانت خرقة تتدلّى من جانب عينه اليمنى مبلّلة بالدم الذي يسيل على الأرض. وعلى سرير قذر، كانت فتاة صغيرة ممدّدة إحدى قدميها مكسورة والأخرى مصابة بشظيّة خلال غارة جوّية.. وكان السبيل الوحيد لمنعها من الحركة ربط قدميها بحبل مثقل بالحجارة. كانت تُدعى روى صبرى.

وبينما كنت أتجوّل في هذا المكان المرعب، بدأ القصف الأميركي يحصد شاطئ نهر دجلة في الخارج، معيداً إلى ذاكرة الجرحى رعب الموت الذي عانوا منه قبل ساعات. وأصبح طريق الجسر الذي عبرته للوصول إلى

المستشفى تحت النيران، وانتشرت سحب من دخان البارود المتحرّك فوق المركز الطبّي... وهزّت انفجارات ضخمة الأجنحة والردهات بينما كان الأطبّاء ينقلون الأطفال المصابين بعيداً عن النوافذ.

لم تصل فلورانس نايتنغايل أبداً إلى هذا الجزء من الإمبراطورية العثمانية القديمة. لكن يعدلها الدكتور خلدون البائري، المدير ورئيس الجرّاحين، وهو رجل لطيف المنطق، نام ساعة واحدة في اليوم طيلة ستّة أيام وهو يحاول إنقاذ حياة أكثر من مئة نفس يومياً بمحوّل كهربائي واحد، ونصف غرف العمليات معطّل... «أنت لا تستطيع حمل المرضى بين يديك إلى الطابق السادس عشر عندما يبصقون الدم». يتحدث الدكتور البائري كالذي يسير في نومه، محاولاً وصف كيف يمكن إنقاذ جريح أو جريحة من الاختناق عندما يكون مصاباً في صدره، شارحاً أنه بعد أربع عمليات جراحية لاستخراج شظايا معدنية من رؤوس مرضاه، غدا متعباً جدّاً إلى حدّ يفوق القدرة على التفكير، ناهيك بالتحدث بالإنكليزية.. يعني أن أتركه وشأنه.

بينما كنت أتهيّأ لتركه أبلغني أنه لا يعرف أين عائلته: «قُصف بيتي وبعث جيراني برسالة يخبرونني فيها أنهم أرسلوا عائلتي بعيداً إلى مكان ما. لا أعلم إلى أين!. لديّ ابنتان صغيرتان توأم، أفهمتهما أنني أخدم الإنسانية وأنّ عليهما أن تكونا شجاعتين. والآن لا أعلم أين هما!». ثم شهق الدكتور البائري بكلماته وراح يبكي، ولم أستطع توديعه.

كان في الطابق الثاني رجل مصاب بجرح مخيف في عنقه. ويبدو أن الأطبّاء لم يقدروا على إيقاف النزيف وكان الدم يسيل على الأرض. لقد اخترق شيء حادّ وغامض بطنه ولم تستطع ستّة إنشات من الضمادات وقف تدفّق الدم. وقف شقيقه إلى جانبه ورفع يده نحوي سائلاً: «لماذا؟ لماذا؟». وثمّة طفل في أنفه أنبوب مستلقٍ على بطّانية، كان عليه الانتظار أربعة أيام لإجراء عملية جراحية له. كانت عيناه شبه مغمضتين، ولم أستطع سؤال أمّه ما إذا كان صبياً أو بنتاً. وسُمع صدى انفجار، طويل ومنخفض وقويّ، في ردهات المستشفى ـ ربّما كان عائداً لضربة جوّية على بعد نصف ميل ـ وتبعته مجموعة من أصوات العويل والصراخ من الأطفال خارج أجنحة المستشفى.

في الطابق السفلي، في أسوأ غرف الطوارئ، أحضروا ثلاثة رجال مصابين بحروق في وجوههم وأيديهم وبطونهم وأرجلهم، رجال عُراة بجلود دامية غطّاها الأطبّاء بمراهم بيضاء. جلسوا على أسرّتهم وأيديهم النحيفة مرفوعة إلى أعلى يدعون مُنقذاً غائباً لتخليصهم من الألم... «كلّا!، كلّا!، كلّا!»، صرخ شاب آخر بينما حاول الأطبّاء قصّ بنطلونه، صرخ وبكى وصهل كالحصان. ظننت أنه جندي، كان يبدو صلباً وقوياً لكنه الآن يبكي كالأطفال صارخاً: «أمّاه، أمّاه».

تركت المستشفى المرعب لأجد خارجاً القذائف الأميركية وهي تتساقط على النهر. لاحظت أيضاً بعض الخِيَم العسكرية على بُقعة من العشب قرب مبنى إدارة المستشفى ـ وقلت في سرّي، لعنة الله عليهم ـ وعربة مصفّحة

عليها مدفع رشّاش مخبّأة تحت الأغصان وأوراق الشجر. كانت على بُعد أمتار قليلة داخل أرض المستشفى وتمّ استخدام المستشفى كستار لإخفائها. ولم أستطع نسيان اسم المستشفى؛ كان عدنان خيرالله، وزير دفاع صدّام، رجلاً سقط بعد شجار مع رئيسه ومات بتحطّم طائرة ولم تُعرف الأسباب. حتى في الساعات الأخيرة لمعركة بغداد، كان على الضحايا أن يرقدوا في مبنى يحمل اسم رجل مقتول.

عدت إلى فندق فلسطين، وقد خفت صوت القصف. كانت دبّابات أميركية متمركزة على جسر الجمهورية فوق نهر دجلة لكن ليس هناك قتال. وعندما تمهّلنا للانحراف نحو شارع السعدون سمعت زقزقة عصافير، ثم ضربة مدفع وصفير قذيفة. وعندما وصلت إلى فندق فلسطين شاهدت دخاناً رمادياً ينبعث من طابق علويّ. كان الصحّاف وصبري في الطابق الذي تحته يعقدان مؤتمراً صحفياً.. لكن بعد ذلك اندفع الصحفيون والموظّفون من مدخل الفندق وهم يحملون غطاء بداخله شيء ثقيل، وكان الغطاء مبلّلاً بالدم. لم تكن هذه المرّة الأولى في ذلك اليوم التي يقتل فيها الأميركيون صحفيين. كانت دبّابة قد أطلقت قذيفة على فندق فلسطين وأصابت مكتب تلفزيون رويترز فقتلت أحد مصوّري الوكالة وهو أب لصبيّ عمره ثماني سنوات، وجرحت أربعة موظفين مع مصوّر للقناة الخامسة في التلفزيون الإسباني. وقد توفّي المصوّر لاحقاً. هل يمكن التصديق أنه مجرّد حادث؟ كان هذا سؤالنا الأول في ذلك اليوم المخيف. لم يكونا بالطبع أول صحفييْن يموتان في الغزو الأنغلو ـ أميركي للعراق. فقد قُتل تيري لويد من التلفزيون العالمي من قِبل القوّات الأميركية في جنوب العراق التي أخطأت التمييز بين سيّارته وسيّارة عراقية، وما زال معظم فريقه مفقوداً. وغرق مايك كيلي من الواشنطن بوست بشكل مأساوي في القتال. وقُتل مراسلان في كردستان. وقُتل صحفيان ـ ألماني وإسباني ـ في قاعدة أميركية على طرف بغداد مع أميركيين عندما انفجر صاروخ عراقي في وسطهم. ولا نستطيع تناسي المدنيين العراقيين الذين قُتلوا بالمئات والذين جُرحوا وتشوّهوا، والذين ـ بعكس الضيوف الصحفيين ـ لم يستطيعوا كما قلت سابقاً ترك الحرب والسفر إلى وطنهم بدرجة رجال الأعمال. والحال أن الوقائع تتكلّم عن نفسها. فقد قام طيّار أميركي ذلك اليوم بقتل مراسل الجزيرة وأصاب زميله بجراح خطرة.

قصفت طائرة أميركية مكتب الجزيرة على ضفاف دجلة بصاروخ الساعة ٧,٤٥. وكان مدير المكتب في بغداد، وهو أردني فلسطيني يُدعى طارق أيّوب، على سطح المبنى مع المصوّر العراقي زهير الذي كان ينقل معركة محتدمة قرب المكتب بين القوّات العراقية والأميركية. وكما ذكر زميل أيوب لاحقاً، فقد شاهد الرجلان طائرة تطلق صاروخاً وهي تتجه نحو المبنى القريب من جسر الجمهورية حيث ظهرت دبّابتان أميركيتان للتوّ. قال ماهر عبدالله: «كنا نشاهد هذه المعركة على الشاشة ورأينا الرصاص يتطاير وعندها سمعنا صوت الطائرة التي كانت تحلّق منخفضة بحيث ظنّ الذين كانوا في الطابق السفليّ أنها ستهبط على السطح ـ كانت قريبة إلى هذه الدرجة ـ سمعنا صوت الصاروخ وهو ينطلق ـ كانت ضربة مباشرة ـ ثمّ انفجر على المحوّل الكهربائي. قُتل طارق على الفور وأُصيب زهير».

ولكن ماذا عن مشاكل أميركا في تفسير هذا الحادث الصغير. في عام ٢٠٠١، أطلقت الولايات المتحدة

صاروخ كروز على مكتب الجزيرة في كابول ـ الذي كانت تبثّ منه شرائط أُسامة بن لادن إلى أنحاء العالم. ولم يصدر أيّ تفسير لهذا الحادث غير العادي في الليلة التي سبقت «تحرير» المدينة.. ولم يُصب مراسل الجزيرة في كابول تيسير علّوني. وللمصادفة الصحفية الغريبة، كان علّوني في مكتب بغداد ليشهد الهجوم الثاني لسلاح الجوّ الأميركي على الجزيرة. غير أن الأمر الأكثر إزعاجاً كان حقيقة أن شبكة الجزيرة ـ التلفزيون العربي الوحيد الحرّ الذي أثار غضب ألأميركيين وصدّام بسبب تغطيته الحيّة للحرب ـ أعطت البنتاغون إحداثيات مكتبها في بغداد في شباط/فبراير وحصلت على تطمينات بأن المكتب في العراق لن يُهاجم. وفي ٦ نيسان/أبريل زار متحدّث باسم وزارة الخارجية مكاتب الجزيرة في الدوحة، واستناداً إلى مصدر في القناة الفضائية القطرية كرّر البنتاغون تطميناته. وبعد أربع وعشرين ساعة أطلق الأميركيون صاروخهم على مكتب بغداد.

حصل الهجوم التالي على مكتب رويترز قبل منتصف النهار بعدما صوّبت دبّابة أبرامز مدفعها باتجاه فندق فلسطين حيث يقيم أكثر من ٢٠٠ صحفي أجنبي. وقد لاحظ مراسل تلفزيون سكاي، دايفيد شاتر، البرج يتحرّك. وكان لدى التلفزيون الفرنسي ـ القناة الثالثة فريق في غرفة تحت مكتب رويترز وقد صوّر الدبّابة على الجسر. بعد فترة من الصمت حول خط سير الصوت، أظهر الشريط كتلة نار تخرج من فوّهة المدفع وصوت انفجار ضخم ومن ثمّ قطعاً من الدهان تتساقط على الكاميرا التي كانت تهتزّ تحت تأثير الانفجار.

في مكتب رويترز في الطابق الخامس عشر، انفجرت القذيفة وسط الموظفين، وأصابت المصوّر الأوكراني ساشا بروتسجوك إصابة قاتلة ـ وهو كان يصوّر الدبّابات أيضاً ـ وأصابت بجراح خطرة عنصراً آخر من الفريق، هو بريتون بول باسكال، وصحفيين آخرين بينهم مراسلة رويترز اللبنانية ـ الفلسطينية سامية نخّول. في الطابق التالي، أُصيب مصوّر التلفزيون الإسباني ـ القناة الخامسة جوسيه كوزو إصابة خطرة، وما لبث أن توفّي بعد وقت قصير. وبقيت كاميرته وقاعدتها في المكتب، ملطّخة بدم الفريق.

تجاهل الردّ الأميركي هذه الأدلّة كلّها. وأعلن الميجور جنرال بوفور بلونت من فرقة المشاة الثالثة الأميركية ـ الذي كانت دبّاباته على الجسر ـ أن عرباته وقعت تحت نيران وصواريخ وطلقات القنّاصة من فندق فلسطين، وأن دبّابته أطلقت قذيفة واحدة على الفندق وتوقّف إطلاق النار بعدها. لكن كنت في السيّارة على الطريق بين الفندق والدبّابة لحظة إطلاق القذيفة ولم أسمع صوت إطلاق أيّ سلاح ناري. وظلّ شريط الفيديو الفرنسي حول الهجوم أكثر من أربع دقائق وهو يسجّل صمتاً تاماً قبل إطلاق قذيفة مدفع الدبّابة. وإنني على يقين من عدم وجود قنّاصة في المبنى. بالفعل، كان عشرات الصحفيين وطواقمهم الذين يقيمون هناك ـ بمن فيهم أنا ـ يراقبون مثل الصقور للتأكّد أنه لا يوجد رجال مسلّحون يستخدمون الفندق مركزاً للهجمات... وينبغي إضافة أمر آخر هنا: فقد كان الجنرال بلونت نفسه هو الذي تفاخر في آذار/مارس بأن قوّاته تستخدم ذخائر مشبعة باليورانيوم ـ النوع الذي يعتقد كثيرون أنه مسؤول عن انتشار مرض السرطان بعد حرب الخليج ١٩٩١ ـ في دبّاباتهم. إن إيحاء الجنرال بلونت ـ كما قال ـ بأن رصاص القنص توقّف فور إصابة فريق تصوير رويترز ـ ما يعني أن الفريق كان بشكل ما متورّطاً في إطلاق النار على الأميركيين ـ قد حوّل تصريحاً كاذباً إلى تصريح تشهيري اتّهامي.

علينا أن نتذكّر مجدّداً أن ثلاثة قتلى وخمسة جرحى من الصحفيين لا يشكّلون مجزرة ـ أو حتى ما يوازي مئات المدنيين الذين أُصيبوا من قِبل القوّة الغازية. وثمّة حقيقة يتعيّن عدم تجاهلها وهي أن النظام العراقي قتل عدداً من صحفييه عبر السنين إضافة إلى عشرات الآلاف من شعبه. خطر في بالي اسم فرزاد بازوفت. لكنّ شيئاً خطيراً جدّاً بدا وكأنه مفقود. كان تفسير بلونت من النوع الذي يستخدمه الإسرائيليون بعد قتلهم لبريء. هل هناك رسالة ما يجب علينا نحن الصحفيين التعلّم منها في كل ذلك؟ هل هناك جهاز ما داخل الجيش الأميركي يكره الصحافة ويريد إخراج الصحفيين الموجودين في بغداد لإيذاء الذين ادّعى وزيرنا دايفيد بلنكيت أنهم يعملون خلف خطوط العدوّ؟ هل يمكن أن يكون هذا الادّعاء ـ أن المراسلين الدوليين كانوا بالفعل يتعاملون مع عدوّ بلانكيت (معظم البريطانيين ساندوا الحرب في البداية) ـ قد بدأ يتحوّل إلى نوع من عقوبة الموت؟.

عرفت طارق أيوب. كنت أرسل تقاريري إلى الدوحة خلال الحرب من المبنى نفسه في بغداد حيث قُتل. أبلغت أيوب يومها أن مكتبه هدف سهل في بغداد إذا أراد الأميركيون تدمير تغطيته ـ التي تُشاهد في جميع أنحاء العالم العربي ـ للضحايا المدنيين نتيجة القصف الأنغلو ـ أميركي. وقد تقاسم ساشا بروتسجوك، من رويترز، معي أحياناً مصعد فندق فلسطين البطيء. وكانت سامية نخّول صديقة وزميلة منذ الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠، وهي زوجة مراسل الفايننشال تايمز دايفيد غاردنر. وها هي تقبع الآن مغطاة بالدم في مستشفى في بغداد. ويتجرّأ الجنرال بوفور بلونت على القول إن هذه المرأة وزملاءها هم قنّاصة. سرحت بذهني متساءلاً ماذا يخبرنا هذا الوضع عن الحرب في العراق؟(*).

في وقت سابق، قصف سلاح الجوّ الأميركي مجمّعاً سكنياً مدنياً في شارع المنصور في بغداد لاعتقاد ضبّاط المخابرات الأميركية بأن صدّام موجود هناك. وقد أدّت أربع قنابل زنتها ألفا ليبرة إلى تقطيع أوصال ١٣ مدنياً عراقياً ـ لكنّ صدّام لم يكن هناك. وبعد أيام وُجد عراقي عمره ١٤ سنة تحت الأنقاض التي دمّرتها القنابل. وأفادت البي بي سي من قطر أن الاستخبارات الأميركية كانت تعرف أنها ليست عملية من دون «مجازفة». ولعلمكم فإنها طبعاً لم تكن مجازفة بالنسبة إلى الأميركيين وإنما بالنسبة إلى المدنيين العراقيين فقط الذين كانوا يموتون للاشيء ـ وهم ماتوا بالفعل للاشيء ـ وكما كان متوقّعاً، فلم يكن هناك أيّ اعتذار..

(*) أظهر تحقيق للبنتاغون أن الجنود الأميركيين على جسر الجمهورية ظنّوا أنهم اكتشفوا «فريق قنّاصة معادياً على شُرفة غرفة في الطوابق العليا لمبنى ضخم ملوّن». وقد باشر «مراسلون بلا حدود» تحقيقهم الخاصّ حول قتلى فندق فلسطين يوم ٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٣ مجرين مقابلات مع الصحفيين والقوّات الأميركية المتورّطة في الحادث. وتوصّل التحقيق إلى نتيجة مُفادها أنه بينما لم تكن عمليات القتل متعمّدة، فإن فشل القادة الأميركيين في إبلاغ قوّاتهم أن فندق فلسطين كان مقرّاً لمئات الصحفيين يشكّل «جريمة»، وأن الولايات المتحدة كذبت عندما استمرّت في التأكيد أن «إطلاق نار مباشراً» جاء من الفندق مع أن ذلك كذب واضح. وتتحمّل قيادة الجنرال بلونت مسؤولية كبيرة لعدم إعطاء تعليمات «كان من شأنها أن تمنع مقتل الصحفيين». والسؤال الذي طرحه التحقيق هو «ما إذا كانت المعلومات أخفيت قصداً بسبب سوء فهم أو إهمال إجرامي». للأسف، لم يحقّق «مراسلون بلا حدود» في الهجوم على مكتب الجزيرة في اليوم نفسه.

ومع ذلك فإن المدنيين كانوا لا يزالون يُذبحون. كما أن غارات أميركا الباحثة عن صدّام، وتقدّم قوّاتها في شارع وانسحابها من شارع آخر ـ مغطاة دائماً باستخدام مكثّف للقوّة النارية ـ مزّقت الأبرياء على نحو اعتقدنا معه جميعاً أنه سيؤثّر على نفسيّة العراقيين بعد الغزو. هل يمكن التسامح حيال هذا كلّه باسم التحرير؟

كنا نذهب دائماً إلى المستشفيات، حيث نراهم ممدّدين بالصفّ، بائع السيّارات الذي فقد إحدى عينيه وكانت رجلاه لا تزالان تنزفان... وراكب الدرّاجة الذي أصيب بالرصاص من القوّات الأميركية قرب فندق الرشيد.. والموظفة الحكومية البالغة ٥٥ عاماً، وشعرها منتشر على المنشفة التي تستلقي عليها، وعلى جسمها ندوب بسبب شظايا قنبلة انشطارية أميركية.. تلك كانت النتيجة المباشرة لمهمّات البحث الأميركية في بغداد. وقد بدا الأمر واضحاً جدّاً على التلفزيون حيث ظهرت البحرية الأميركية على ضفاف دجلة، والزيارة المضحكة للقصر الجمهوري، وشريط الفيديو حول مرحاض صدّام الذهبي. لكنّ الأبرياء كانوا ينزفون ويصرخون ألماً لإعطائنا صوراً تلفزيونية مثيرة ولتزويد بوش وبلير بالحديث المزيّف عن النصر. شاهدت صبيّاً عمره سنتان ونصف سنة، يُدعى علي نجور، ممدّداً بحالة محزنة في سريره، وقد تلطّخت ملابسه بالدم وفي أنفه أنبوب مصل.. تقدّم مني قريبه، وصاح بصوت غاضب: «أريد الحديث معك، لماذا تريدون أنتم الإنكليز قتل هذا الطفل الصغير؟. لماذا تريدون حتى النظر إليه؟ فعلتم ذلك ـ فعلت ذلك». وأمسك الشابّ بيدي وهزّها بعنف: «هل تُعيد إليه أباه وأمه؟ هل تُعيدهما إلى الحياة من أجله؟ أخرج! أخرج! أخرج!». وفي مستشفى الكندي رأيت صبياً، قُتل أبوه وأمه وأخوته الثلاثة عندما اقتربوا من نقطة تفتيش خارج بغداد.

في الباحة في الخارج، حيث تجلب سيّارات الإسعاف الأموات، وضعت امرأة شيعية متوسّطة العمر تلبس السواد يديها على صدرها وحدّقت فيّ، صارخة: «ساعدني، ساعدني. ابني شهيد وكلّ ما أريده علم أغطّيه به. أريد علماً، علماً عراقياً لأغطّي به جسده. ربّي ساعدني!». فقد أصبح من الصعب أكثر فأكثر زيارة أماكن الألم والعذاب والغضب. ولم يفاجئني ذلك. فقد أفادت منظمة الصليب الأحمر الدولي عن ضحايا الهجوم الأميركي على بغداد الذين كانوا يصلون طيلة ثلاثة أيام إلى المستشفيات بالمئات. واستقبل مستشفى الكندي وحده خمسين جريحاً مدنياً وثلاثة قتلى في الأربع والعشرين ساعة الماضية. ومعظم القتلى ـ عائلة الصبيّ الصغير، وعائلة الأشخاص الستّة الذين مزّقتهم قنبلة جوّية أمام عليّ عبد الرازق بائع السيّارات، وجيران صفا كريم ـ دفنوا بعد ساعات مع أشلائهم. إذن لم يكن هناك معنى لإحضار الجثث إلى المستشفى.

على التلفزيون بدا الأمر واضحاً. مساء الأحد السابق عرضت البي بي سي سيّارات مدنية محترقة. وكان صديقي القديم وزميلي غافين هيويت ـ الذي سافرت معه في أنحاء أفغانستان منذ ربع قرن وهو يرافق القوّات الأميركية الآن ـ يقول إنه رأى بعض الركّاب ممدّدين قتلى قرب سيّاراتهم. كان هذا كلّ شيء. لا صور عن الجثث المشوّهة، ولا صور مكبّرة للأطفال المحترقين. لذلك ربّما كان ينبغي هنا توجيه إنذار لمرضى الأعصاب: لا تقرأوا أكثر إلّا إذا كنتم تريدون معرفة ماذا فعلت أميركا وبريطانيا بأبرياء بغداد.

سوف أترك وصف الذباب الذي يحوم حول الجراح في غُرف طوارئ الكندي، حول الدم الملتصق بالأغطية والمخدّات الوسخة، وبُقع الدم على الأرض، والدم الذي ما زال يسيل من جراح الذين تكلّمت عنهم. كانوا كلّهم مدنيين. كانوا يسألون جميعاً لماذا كُتب عليهم العذاب. جميعهم ـ باستثناء الشابّ الذي طلب منّي ترك سرير الصبيّ الصغير ـ تحدّثوا بلطف وهدوء عن ألمهم. لم يأخذني أيّ باص حكومي عراقي إلى مستشفى الكندي ولم يعرف أيّ طبيب بقدومي.

لنبدأ بعليّ عبد الرازق... في الأربعين من العمر، بائع سيّارات، كان يسير أمس صباحاً على طريق ضيّق في شارع الشعب في بغداد ـ حيث قتل الصاروخان الأميركيان ٢١ مدنياً في شارع أبو طالب ـ عندما سمع هدير محرّكات طائرة. قال: «كنت أريد لقاء عائلتي لأن الاتصالات الهاتفية دُمّرت وأردت معرفة ما إذا كانوا سالمين. وكانت هناك عائلة، زوج وزوجة وأطفال، أمامي، حاولت مساعدتهم لكنهم قُتلوا جميعاً وتمزّقوا. ثم أدركت أنني لا أرى جيّداً».

كانت مجموعة من الضمادات على وجه عبد الرازق فوق عينه اليسرى. وقد أبلغني طبيبه أسامة الرحيمي أنه لم يُجرِ له عملية جراحية للعين وأنه اهتمّ بالجروح الأخرى. ثم مال نحوي وأبلغني بهدوء: «فقد عينه ولم نستطع فعل أيّ شيء. لقد أخرجت شظيّة من رأسه». ابتسم عبدالرازق، لكن هل يعلم أنه سيبقى بعين واحدة إلى الأبد؟! ثم تحدّث بلغة إنكليزية مقبولة، لغة تعلّمها في المدرسة الثانوية في بغداد، وسأل: «لماذا حصل لي ذلك؟».

كان محمّد عبدالله علواني ضحية عملية توغّل أميركية صغيرة على ضفاف دجلة، لاقت تغطية إعلامية مثيرة. كان عائداً إلى بيته على درّاجة ناريّة من فندق الرشيد على الضفّة الغربية لنهر دجلة عندما مرّ بشارع فيه دبّابة أميركية. «شاهدت الأميركيين في اللحظة الأخيرة. أطلقوا النار وأصابوني لكنني نجحت في البقاء على الدرّاجة ثم أصابت قذيفتهم الثانية الدرّاجة بشظايا وسقطت». نزع الدكتور الرحيمي الضمادة عن جنب علواني، كان هناك جرح كبير قرب كبده الدامي عمقه إنش تقريباً وكان الدم لا يزال يسيل على رجليه وقدميه. سألني: «لماذا يطلقون النار على المدنيين؟»... أجل أعرف أن صدّام كان من شأنه أن يقتل عراقيين أكثر منا لولا غزونا ـ لكن ليس مستشفى الكندي مكاناً مناسباً لمثل هذا الجدال ـ ونحن نفعل ذلك لعلواني ولأصدقائه. ألم يبلغنا بول ولفوفيتز كل شيء قبل أسبوعين، وأنه يصلّي للقوّات الأميركية وللشعب العراقي؟ ألم نأتِ إلى هنا لإنقاذه؟ ـ لندع النفط جانباً ـ أليس صدّام شرّيراً وقاسياً؟ لكن كان من الجنون التفوّه بهذه الكلمات وسط هؤلاء الناس. كانت سعدية حسين الشمّري، التي تعمل في وزارة التجارة، مصابة بجراح دامية، وهي ترقد نائمة متألّمة، وطبيب آخر يطرد الذباب عن جرحها بقطعة كرتون. سألني ـ كما لو كنت أعرف ـ ما إذا كان المرء يشفى من جرح خطير في الكبد. وروى لي قريب لسعدية كيف غادرت منزلها في شارع جديدة بغداد عندما ألقت طائرة أميركية قنبلة انشطارية على الحيّ: «كان هناك بعض الجيران وقد أصيبوا جميعاً وطارت أطراف أحدهم في الجوّ».

وكانت هناك صفا كريم (١١ سنة) ترقد محتضرة. لقد أصابتها شظيّة قنبلة أميركية في بطنها وتشكو من نزيف

داخلي، وعلى بطنها ضمادة كبيرة وفي أنفها أنبوبة مصل ـ والأكثر رعباً من كل ذلك تلك الأربطة البالية والقذرة التي تقيّد رسغيْها وكاحليْها بالسرير. كانت تئنّ وتبكي بينما هي مستلقية تصارع الألم والتقييد في الوقت نفسه. وكانت أمّها المتّشحة بالسواد تجلس قرب السرير واجمة، وقالت إنها مريضة جدّاً بحيث تجهل مصيرها. وأضافت: «أعطوها عشر زجاجات من الدواء لكنّها تقيّأتها جميعاً». وعبر القناع المؤلّف من أنبوب على وجهها نظرت صفا إلى أمّها ثم إلى الطبيب ثم التفت إليّ فإلى أمّها ثانية. وبسط الرجل راحتيه، وهي الطريقة التي يستخدمها العرب للتعبير عن عجزهم، وكانوا يقولون دائماً: «لا نستطيع أن نفعل شيئاً».. لكن الرجل ظلّ صامتاً وأنا مسرور لذلك. فكيف أقول له بعد ذلك إن صفا ستموت من أجل ١١ أيلول/سبتمبر، من أجل المعتقد الديني لجورج بوش وطوني بلير. وأن بول ولفوفيتز يحلم بالتحرير وبالديمقراطية التي كنا نقضي على أرواح هؤلاء الناس من أجل إقامتها.

لكن كان لا بدّ أن يبزغ فجر يوم جديد. إنه يوم ٩ نيسان/أبريل الذي حرّر فيه الأميركيون بغداد. دمّروا مراكز سلطة صدّام الدكتاتورية القاسية التي دامت رُبع قرن وجلبوا خلفهم جيشاً من اللصوص أشاعوا في المدينة القديمة حالة من النهب والفوضى. كان يوماً بدأ بالقذائف والمستشفيات الغارقة بالدماء وانتهى بالتدمير الاحتفالي لتماثيل الدكتاتور. عبّر العوام عن فرحهم، وتحوّل الرجال الذين خضعوا طيلة رُبع قرن لشرطة صدّام السرّية إلى عمالقة يظهرون كراهيتهم للزعيم العراقي بينما كانت التماثيل الضخمة تتهاوى على الأرض.

صاح بي صاحب محلّ: «إنها بداية لحرّيتنا الجديدة». ثم توقّف وسأل: «ماذا يريد الأميركيون منّا؟». لقد كتب الأديب اللبناني جبران خليل جبران أنه يشفق على الأمّة التي ترحّب بالطغاة بالأهازيج وتودّعهم بأبواق الازدراء. والآن يقوم أهالي بغداد بتلك الطقوس المميتة، متناسين أنهم (أو أهلهم) تصرّفوا بالطريقة نفسها عندما أسقط حزب البعث العربي الاشتراكي الدكتاتورية السابقة لجنرالات العراق وأُمرائه؛ ومتناسين أيضاً أن المحرِّرين هم قوّات احتلال جديدة ودخيلة وقوية، لا ثقافة لها ولا لغة ولا عُرف ولا دين تجمعها مع العراق.

وعندما تدفّق عشرات الألوف من المسلمين الشيعة الفقراء من الأحياء الكبيرة لمدينة بغداد إلى وسطها شاقّين طريقهم إلى المحلّات والمكاتب وإلى وزارات الدولة ـ ترجمة ملحمية لحفلة النهب والتدمير الواسع التي عمل الإنكليز القليل لتجنّبها في البصرة قبل أسبوعين ـ كانت البحرية الأميركية تراقب عن بُعد مئات الأمتار اللصوص وهم يستولون على السيّارات والسجّاد والأموال والحواسيب والطاولات والمقاعد وحتى الأبواب. في ساحة الفردوس، أنزلت البحرية الأميركية تمثال صدّام الضخم والكئيب بعد أن ربطته بناقلة جُند مصفّحة. وسقط التمثال بشكل آليّ عن قاعدته ليهوي إلى الأرض ويده اليمنى ما زالت ممدودة بتحيّة أخويّة للشعب العراقي. وكانت لحظة رمزية من عدّة جوانب. وقفتُ خلف أوّل رجل لأُمسك بأوّل فأس صغيرة لتحطيم الرخام الرمادي للقاعدة، لكنّ الرخام سقط خلال ثوان ليكشف عن قاعدة رخيصة من الحجارة الإسمنتية الرديئة. هكذا رأى الأميركيون نظام صدّام دائماً رغم قيامهم بما استطاعوا في السبعينيّات وأوائل الثمانينيّات لتسليحه وخدمة اقتصاده وتأمين الدعم السياسي له وتحويله إلى الدكتاتور الذي صار إليه.

لهذا السبب كانت أميركا ـ التي تحتلّ عاصمة بلد عربي للمرّة الأولى في تاريخها ـ تساعد على تدمير ما تطلّب وقتاً ومالاً لتأسيسه... كان صدّام رجلنا ونحن نقوم الآن بالقضاء عليه. من هنا أهمّية كل هؤلاء الرعاع الذين يدمّرون التمثال إضافة إلى قيامهم بأعمال النهب والسلب.

في ساحة الفردوس، شاهدت جماعة صغيرة من الشباب تصل ومعها حبل ومعاول. جاءوا كمجموعة وليس بشكل عفوي وتساءلت مراراً مَن نظم هذه الميلودراما الصغيرة. لكنهم لم يتمكّنوا من إنزال التمثال.. وكما سيجري مراراً فقد احتاج العرب إلى مساعدة أميركية... وهكذا تحرّكت البحرية الأميركية لتكون في الخدمة وتُرك للولايات المتحدة تحطيم تمثال الدكتاتور. وقد سطعت وتحرّكت وصوّرت مئات الكاميرات هذا المشهد المزيّف، لتسجلّه للأجيال القادمة: الشعب العراقي وهو يحطّم صورة مضطهده. والحال أنه لم يفعل ذلك قط. بل قام الأميركيون بتدمير تمثال صدّام أمام هؤلاء المتردّدين العاجزين عن القيام بذلك بأنفسهم.

كان حُكم الرجل قد انتهى بالفعل. وكتبت إلى صحيفتي تلك الليلة أنه يجب تحويل غُرف التعذيب والسجون إلى متاحف، خصوصاً وقد تكشّفت أخيراً القصّة الحقيقية لاستخدام العراق لحرب الغاز. لكنّ التاريخ يوحي بعكس ذلك. فالسجون تنتقل عادة إلى إدارة جديدة وكذلك زنازين التعذيب أيضاً... وهذا ما حصل بالفعل... ولكنّ الكابوس لم يكن قد انتهى بعد!! فمع أن الأميركيين حدّدوا يوم ٩ نيسان/أبريل أوّل أيّام الاحتلال ـ وسمّوه تحريراً ـ فقد بقيت مناطق شاسعة من بغداد خارج السيطرة الأميركية. وقبل حلول الظلام، عبرتُ الخطوط الأميركية وعدتُ إلى المنطقة الصغيرة لنظام صدّام والتي كانت لا تزال سليمة في مدينة بغداد الشاسعة والمسطّحة... تجوّلت في الشوارع الرمادية الخالية من السيّارات وصولاً إلى الجسور الكبيرة فوق نهر دجلة والتي لم يعبرها الأميركيون حتى الآن من الغرب. وهناك عند زاوية جسر المعظّم كانت مجموعة صغيرة من المجاهدين تطلق نيران رشّاشاتها على الدبّابات الأميركية على الطرف الآخر من النهر. كان ذلك عملاً شجاعاً، مثيراً للشفقة، وتثقيفياً بشكل مؤلم. . .

كان الرجال عرباً، من الجزائر، والمغرب، وسوريا، والأردنّ وفلسطين، ولم يكن بينهم أيّ عراقي. لقد غادرت ميليشيا البعث والحرس الجمهوري ورجال المخابرات العراقية وفدائيو صدّام مواقعها وعادت إلى بيوتها. وبقى العرب الأجانب، أشباه فرنسيي وحدة شارلمان النازيّة في برلين عام ١٩٤٥، مستمرّين في القتال. وفي النهاية، خان العراقيون هؤلاء الرجال ممّا دفع مجموعة منهم إلى الانتقال والجلوس في بهو فندق فلسطين طالبين من الصحفيين مساعدتهم للعودة إلى بلادهم. وقد صرّح أحدهم: «تركنا زوجاتنا وأولادنا وجئنا إلى هنا للموت في سبيل هؤلاء الناس وهم يطلبون منّا الرحيل». لكن في نهاية جسر المعظّم قاتلوا خلال الليل وعندما غادرتهم كنت أسمع هدير الطائرات الأميركية قادمة من الغرب. عدت مسرعاً عبر الشوارع المهجورة وسمعت دبّابة أميركية تقصف وقد أصابت قذيفتها المبنى. وأعتقد أنه في حال نشوء مقاومة في المستقبل فسيكون هؤلاء منطلقها إذا نجوا.. ثمّ وصلت الدبّابات بمظهرين: المظهر الخطير القاتل الذي ينفث النار، والمظهر المحرّر الذي يبتسم جنوده الشباب

للعراقيين المجبرين على التلويح لهم... دبّابات بأسماء جميلة مطبوعة على زوايا المدافع، أسماء مثل «القطّة المنقذة» ـ مع هيكل عظمي مرسوم تحتها ـ و«الجوهرة». وكان لا بدّ من وجود جندي الطليعة ـ أكانت الدبّابة من النوع المحتلّ أو المحرّر ـ ذاك الذي يقف في مقدّمة المجموعة الأولى لأيّ جيش قويّ وكبير. لذلك توجّهت نحو العريف دايفيد بريز من الكتيبة الثالثة للفرقة الرابعة من ميشيغان. أخبرني أنه لم يتّصل بأهله منذ شهرين، لذلك اتصلتُ بوالدته على هاتفي الخليوي وأعطيته الجهاز. . وهذا ما قاله أوّل جندي أميركي دخل وسط بغداد لأهله: «هاي يا شباب.. أنا في بغداد وأتصل بكم لأقول لكم إنني أحبّكم وأنا بخير، ستنتهي الحرب خلال أيام قليلة وسأراكم قريباً».

كتبت تلك الليلة:

«أجل.. يقول الجميع إن الحرب ستنتهي قريباً.. وستكون هناك بدون شكّ احتفالات بمناسبة عودة العريف بريز إلى الوطن... وأعتقد أنني أعجبت ببراءته رغم الحقائق القاتلة التي تنتظر أميركا في هذه الأرض الخطرة والقاسية. وذلك أنه فيما كانت الدبّابات الأميركية تنطلق وتهدر على الطريق السريع، كان هناك رجال ونساء رأوهم ووقفوا، النساء محجّبات، والرجال ينظرون إلى الجنود بحرص شديد، وأخذوا يتحدّثون عن خوفهم من المستقبل وأن العراق لن يحكمه الغرباء أبداً. قال لي أحدهم: «ستشاهد الاحتفالات وسنكون فرحين برحيل صدّام، ولكننا سنطالب بالتخلّص من الأميركيين وبأن يكون نفطنا ملكنا.. وستكون هناك مقاومة، وسيصفوننا حينها «بالإرهابيين». «. . .ولم يبدُ على الأميركيين أنهم محرّرون سعداء. كانوا يوجّهون أسلحتهم إلى الشوارع ويصرخون في السائقين طالبين منهم التوقّف.. وقد أطلقوا النار على أحدهم لأنه لم يتوقّف، فأصابوه في رأسه وكان رجلاً مسنّاً في سيّارة قديمة، وذلك أمام صحفيّين فرنسيّين اثنين.

بالتأكيد، عرف الأميركيون أنهم سيحصلون على تغطية صحفية جيّدة من خلال تحرير الصحفيين الأجانب في فندق فلسطين.-ولقد تمدّدوا على العشب في الساحة القريبة وتظاهروا بتوجيه أسلحتهم باتجاه السطوح حيث كانت الكاميرات مصوّبة نحوهم، ورفعوا العلم الأميركي على إحدى الدبّابات ونظروا إلى المراسلين، ولم يذكّرهم أيّ من هؤلاء بأن جيشهم قتل قبل ٢٤ ساعة صحفيّين غربيّين بقذيفة مدفع في هذا الفندق نفسه وأنهم كذبوا حول الحادث. . .

لكنّ اللصوص هم من جعل ذلك اليوم يبدو حزيناً أكثر منه سعيداً. قاموا بالترحيب بالأميركيين رافعين شارات النصر وهتفوا «عاشت أميركا»، وردّدوا الأهازيج المعتادة ثمّ توجّهوا إلى وسط المدينة لموعد أكثر أهمّية. في وزارة الاقتصاد نهبوا كلّ سجلّات التصدير والاستيراد العراقية المسجلّة على أقراص كومبيوتر إضافة إلى أجهزة الكمبيوتر ومقاعد وبرّادات ولوحات. وعندما حاولت دخول المبنى شتمني اللصوص. واستولى الرعاع على كاميرا ومال مراسل فرنسي... وفي المكاتب الرياضية الأولمبية التي يُشرف عليها عُديّ صدّام حسين فعلوا الشيء نفسه. . وقد خرج رجل من المبنى ومعه صورة ضخمة

لصدّام أخذ يضربها بقبضته وخرج آخر وهو يحمل إناء صينياً كبيراً للزينة. في الواقع كانت هذه أهداف تابعة للنظام. لكنّ العديد من الجموع توجّهوا إلى المحلّات وشقّوا طريقهم إلى محلّات المفروشات والمكاتب. حضروا ومعهم شاحنات وسيّارات بيك آب وعربات تجرّها حمير لنقل المسروقات. وقد شاهدتُ صبيّاً يحمل آلة تصوير أشعّة وامرأة تحمل كرسيّ طبيب أسنان. عند وزارة النفط، اكتشف اللصوص سيّارة المرسيدس السوداء الخاصّة بالوزير، ولعدم وجود مفاتيح قاموا بتفكيك السيّارة إلى قطع أمام المدخل الرئيسي الكبير. وفي فندق فلسطين حطّموا صورة لصدّام في البهو وأحرقوا لائحة إعلانات تحمل صوره. وهتفوا: «اللّه أكبر»... وكانت هذه رسالة أيضاً إلى جنود البحرية الأميركية الذين كانوا يراقبون، لو أنهم فهموها.

وبينما استمرّت قذائف الدبّابات تتفجر وتسقط على المدينة الليلة الماضية، وجدت بغداد نفسها تحت سلطة زعيم جديد. جاء كثيرون ورحلوا في تاريخ المدينة: العبّاسيون والأمويون والمغول والأتراك والإنكليز، والآن الأميركيون. أعادت السفارة الأميركية فتح أبوابها البارحة، عندها علم العراقيون أنّ عليهم أن يكونوا أصدقاء مطيعين الآن، وسيحضر الرئيس بوش إلى هنا، وسيكون لأميركا أصدقاء جُدد لكي يبدأوا علاقة جديدة مع العالم، وثروات جديدة للذين حرّروهم، وأيضاً، وبلا شكّ، علاقات مع إسرائيل وسفارة إسرائيلية في بغداد.

لكنّ كسب الحرب شيء، والنجاح في المشروع العقائدي والاقتصادي الذي يقف وراءها بشكل عام شيء آخر. إن القصّة الحقيقية لسيطرة أميركا على العالم العربي قد بدأت الآن».

وإذا كان يوم ٩ نيسان/أبريل يوم التحرير، فإن يوم ١٠ نيسان/أبريل هو يوم النهب. اقتحم اللصوص السفارة الألمانية وألقوا مكتب السفير في الباحة، وقمتُ بإنقاذ علم الاتحاد الأوروبي ـ الملقى في بُقعة ماء خارج قسم التأشيرات ـ كانوا يشبهون رعاع القرون الوسطى... دخلت نساء يرتدين الشادور وأطفال يصرخون إلى مكتب القنصل وألقوا تسجيلات موزار وكتب التاريخ الألماني من نافذة في الطابق العلويّ. وقد حصل اقتحام للسفارة السلوفاكية بعد ساعات قليلة. واقتحم جيش من اللصوص مقرّ بعثة اليونيسيف التي كانت تحاول إنقاذ أرواح ملايين الأطفال العراقيين منذ الثمانينيّات، وعمدوا إلى إلقاء آلات تصوير جديدة بعضها فوق بعض على السلالم، ورموا ملفّات الأمم المتحدة المتعلّقة بأمراض الأطفال وجداول الوفيات والمواليد والتغذية على الأرض.

ربّما ظنّ الأميركيون أنهم حرّروا بغداد بعد أكبر عملية تصوير مدبّرة منذ أيوجيما، لكنّ عشرات الألوف من اللصوص ـ جاءوا في عائلات وجالوا في المدينة بشاحنات وسيّارات يبحثون عن غنائم ـ كانت لديهم فكرة مغايرة حول معنى التحرير. وقد شكّل ذلك أيضاً خرقاً خطيراً لمعاهدة جنيف. كانت سلطة الاحتلال الأميركي مسؤولة عن حماية السفارات ومكاتب الأمم المتحدة في مناطق سيطرتها، لكنّ قوّاتها مرّت أمام السفارة الألمانية بينما كان اللصوص ينقلون الطاولات والكراسي خارج المدخل الرئيسي.

كان ما يحدث فضيحة، نوعاً من المرض، من هَوس السرقة الجماعي، وقد تجاهلته القوّات الأميركية. شاهدت عند تقاطع في المدينة قنّاصة البحريّة الأميركية على سطوح الأبنية العالية، يراقبون الطرق تحسّباً لمجيء انتحاريين.. بينما كان يتزايد عدد اللصوص ـ اثنان منهم كانا يقودان حافلتيْن مزدوجتي الطابق مسروقتين مليئتين بالثلّاجات ـ الذين ازدحم بهم الطريق السريع تحت أنظار الأميركيين. أبطأت سيّارة قربي أمام مكاتب الأمم المتحدة وفي داخلها رجل ملتحٍ وتَعب أبلغني بالعربية أن لا حاجة إلى زيارة «لأنهم نهبوا كل شيء».

من المفهوم أن يكون الفقراء والمضطهَدون قد انتقموا من بيوت رجال صدّام الذين أفقروهم ودمّروا حياتهم لأكثر من عقدين. رأيت عائلات تبحث على ضفاف نهر دجلة عن منزل إبراهيم حسن الأخ غير الشقيق لصدّام، ووزير داخلية سابق، ومنزل وزير الدفاع السابق سعدون شاكر أحد أقرب مستشاري صدّام الأمنيين، وعلي حسين المجيد ـ علي الكيماوي ـ وعبد حمود السكرتير الخاصّ لصدّام. وقد جاءوا بالشاحنات والحاويات المقطورة والباصات وعربات تجرّها حمير لإفراغ محتويات هذه الفيلات الفخمة.

وقد أظهر ذلك النهب كم كان ذوق الأعضاء الكبار لحزب البعث رديئاً في اختيار الأثاث: مقاعد رخيصة أرجوانية وكراسيّ مطرّزة غالية، وأباريق من البلاستيك للماء، وسجّاد إيراني ثمين وزنه ثقيل وتحتاج السجّادة منه إلى ثلاثة أشخاص أقوياء لحملها، ومصابيح معلّقة في أشجار النخيل، وطاولات خشبيّة مرصّعة، وخزائن كبيرة وبرّادات أميركية ضخمة، وبرّادات صغيرة تحتوي على مشروبات روحيّة لأزلام صدّام. وخارج منزل وزير داخلية سابق، وقف رجل ضخم على رأسه قبّعة مسروقة، كأنه شخصية من روايات ديكنز، يقوم بتوجيه جموع اللصوص إلى الخارج.

مرّت بي حافلات المدينة يقودها شبّان ماكرون، بينما كانت تتراجع الشاحنات حتى نوافذ غرف الجلوس لنقل الأثاث مباشرة من الغُرف. وقاد لصّ شاحنة محمّلة بأشياء مسروقة بسرعة على جسر صدّام فوق نهر دجلة ممّا أدّى إلى اصطدامه بحاجز إسمنتي وبقي ميتاً على المقود. لكن ظهر أن هناك قانوناً يحكم عمل اللصوص. فبمجرّد أن يضع لصّ ما يده على كرسيّ أو شمعدان أو باب، صار له. لم أشهد جدالاً أو عراكاً بالأيدي. عمل عشرات اللصوص في السفارة الألمانية بصمت، يساندهم جيش من الأطفال. كانت الزوجات تختار الأثاث الذي يُردنه وينقله الأزواج على السلالم بينما يقوم الأطفال بفكّ الأبواب. وفي مكاتب الأمم المتحدة قاموا بانتزاع مصابيح الضوء من السقوف.

على الجانب الآخر لجسر صدّام، كان يمكن رؤية مشهد آخر غير طبيعي، شاحنة محمّلة بالكراسي مع كلبيْ صيد قُصيّ ابن صدّام مربوطين بحبال بيضاء يقفزان إلى جانب الشاحنة. وألقيت نظرة في المدينة على أربعة من جياد صدّام بينها الحصان الأبيض الذي استخدمه صدّام في صوره، محمولة في مقطورة. وأُفرغت كلّ وزارة رسمية في المدينة من ملفّاتها، وأجهزة الكمبيوتر، ودفاتر المعاملات، والأثاث والسيّارات. وأمام ذلك كلّه، أظهر

الأميركيون تجاهلاً تامّاً.. وهم أعلنوا بالفعل وبشكل محدّد أن لا نيّة لديهم في منع تحرير هذه الممتلكات. يمكن للمرء أن يكون مبدئياً حيال أزلام صدّام الفاسدين، لكن كيف ستعمل حكومة أميركا المسمّاة «العراق الجديد» الآن وقد نُهبت ممتلكات الدولة بشكل كامل؟.

ماذا يفعل المرء أمام ذلك المشهد على طريق الحِلّة حيث وجدت صاحب مخزن حبوب ومصنع يأمر حرّاسه المسلّحين بإطلاق النار على اللصوص الذين حاولوا سرقة شاحناته.. هذه المحاولة اليائسة المسلّحة للحفاظ على إمدادات الخبز لبغداد، راقبها عن بُعد مئة متر ثمانية جنود أميركيين من كتيبة المشاة الثالثة كانوا جالسين على دبّاباتهم دون أن يقوموا بأيّة مبادرة. ونُهبت مكاتب الأمم المتحدة في وسط المدينة على بُعد مئتي متر من مركز تفتيش للبحرية الأميركية.

وسرعان ما بدأ جيش التحرير الأميركي يظهر في مظهر جيش احتلال. أمس راقبت مئات من المدنيين العراقيين يقفون بالصفّ لعبور جسر الدورة حيث يقوم الجنود الأميركيون بتفتيشهم طالبين منهم خلع قمصانهم وإنزال سراويلهم ـ أمام المدنيين الآخرين رجالاً ونساء ـ لإثبات أنهم ليسوا انتحاريين. وبعد معركة مسلّحة في منطقة الأعظمية عند الصباح، أصاب قنّاص أميركي موجود عند مدخل القصر ثلاثة مدنيين بينهم طفلة صغيرة، كانوا في سيّارة فشل صاحبها في التوقّف.. ثم أطلق القنّاص النار وقتل رجلاً خرج إلى شُرفة منزله محاولاً اكتشاف مصدر النار. وخلال دقائق قتل القنّاص سائق سيّارة أخرى وجرح راكبين آخرين بمن فيهم امرأة شابّة... وقد شهد فريق من القناة التلفزيونية الرابعة عملية القتل. وفي ضاحية الدورة، ما زالت جثث مدنيين عراقيين ـ قُتل العديد منهم على أيدي القوّات الأميركية أثناء تبادل إطلاق نار مع القوّات العراقية خلال الأسبوع ـ موجودة في سيّاراتهم. وكان هذا هو اليوم الثاني لتحرير بغداد. وهكذا ذهبت إلى الدورة. لقد حصل شيىء رهيب ـ كم مرّة كتبت هذه الكلمات ـ على الخطّ السريع الثامن في الساعات الأخيرة لتحرير بغداد. قال البعض إن مئة مدنيّ قُتلوا، ويعتقد آخرون أن بين أربعين وخمسين رجلاً وامرأة وطفلاً مزّقتهم نيران دبّابة أميركية عندما تعرّضت دورية من الكتيبة الثالثة الأميركية قوّة التدخّل ٣١٥، لكمين من الحرس الجمهوري العراقي. ولا تزال عدّة جثث محترقة داخل السيّارات المتفحّمة، وجثّة امرأة شابّة محترقة عارية على المقعد الخلفي في سيّارة عند جسر الحلّة، وجثّة رجل متدلّية من نافذة السائق. وجرت تغطية مجموعة من جُثث المدنيين بما في ذلك جثة طفل على بعد بضعة أمتار. وكانت هناك سيّارة حمراء أصابتها قذيفة دبّابة في وسطتها مقلوبة على جانبها مع النصف الأسفل من قدم إنسان وحذائه الأسود قرب الإطار الأمامي.

لا أحد يجادل في أنّ القوّات الأميركية تعرّضت لكمين في هذا المكان ـ وأن المعركة استمرّت ٣٦ ساعة. لقد وجدت على الجسر جثّة جندي من الحرس الجمهوري بلباسه العسكري ودمه يتدفق بغزارة وهو مصاب في رأسه. وكانت على بُعد مئة متر سيّارة تحتها رجل مسنّ ميت. ورأيت شاحنتيْ نفط ـ إحداهما ما زالت مشتعلة ـ

في الحقل. وكان باص ركّاب يحترق قرب الخطّ الرئيسي بينما كان مئات من العراقيين يشاهدون الجثث مرعوبين، ومعظمهم يضعون محارم على أفواههم ويعملون على إبعاد الذباب المتنقّل بين الأحياء والأموات.

روى لي النقيب دان هوبار قائد كتيبة برافو، ٣١٥ الذي كانت دبّاباته العشر وناقلات الجند المصفّحة الأربع من نوع برادلي تُشرف على الجسر العلوي، كيف تعرّض رجاله للنيران بواسطة القذائف الصاروخية ورشاشات A47 الساعة السابعة صباحاً من يوم ٦ نيسان/أبريل بينما كانت السيّارات المدنية تسير على الطريق. قال: «نحن هنا لنقاتل النظام العراقي وليس المدنيين. كانت هناك سيّارات على الطريق عندما تعرّضنا لكمين وقمنا بإطلاق النار تحذيراً فوق رؤوسهم ليتوقّفوا. وعاد ٩٠ في المئة من السيّارات بعد طلقات التحذير». هنا توقّف النقيب لحظة عن الكلام ثم قال: «تخطر عدّة أشياء على بال الناس في هذه اللحظات، فقد قام العديد من السائقين بزيادة السرعة وكان عليّ حماية رجالي، وحاولنا قدر الإمكان تقليص عدد القتلى والجرحى بين المدنيين... كان عليّ حماية جنودي كوننا نجهل أيّ سيارة محمّلة بالمتفجّرات أو قذائف «أر بي جي» الصاروخية. سوف نقوم بإزاحة السيّارات المدمّرة وسنهتمّ بالجثث».

كان النقيب هابور رجلاً ذكياً، من تنيسي، عمره ٣٤ سنة، وقد سمّى دبّابته «روندا دنيز» باسم زوجته «أشرس امرأة التقيتها في حياتي»... أمّا ما يمكن أن تفعله لو رأت تلك الفظاعة المدنية على الطريق السريع الثامن فلا يحتمل التفكير فيه.... تعرّضت دبّابة هوبار أبرامز M1A1 لخمس قذائف «أر بي جي»، إحداها أصابت المحرّك، وقد أطلقت دبّابته النار على درّاجة نارية تقلّ جنديين عند الغسق في أول يوم قتال». عند الصباح ذهب للنظر إلى الجثث: «كان هناك الحارس الجمهوري المصاب برأسه وبطنه وزميله المصاب إصابة متوسطة والذي بقي على قيد الحياة طيلة الليل على الجسر، وقد أحضرته إلى دبّابتي ووضعته فوقها وقدّمت له علاجاً طبيّاً. ثم أرسلناه إلى الجهاز الطبّي وقد نجا». وبشكل واضح فإن الحرس الجمهوري هو المسؤول عن هذه المجزرة بما أنه بدأ الهجوم رغم معرفته بإمكانية وجود مدنيين على الجسر.

على سبيل المثال، وجدت عند مقدّمة الباص المتفحّم بقايا رشّاش كلاشينكوف، لكنّ مخزن الذخيرة التابع له كان سليماً. وكانت هناك معاطف واقية من المطر تحت الجسر وحُطام شاحنة عسكرية. وبشكل عام، أدّت المعركة إلى مقتل جنديين أميركيين وإصابة ثلاثين آخرين.

تدخّلت القوّات الخاصّة العراقية في المعركة ودمّرت ستّ سيّارات عسكرية أميركية من ضمنها دبّابتان. وقال النقيب هوبار إنه تعرّض لإطلاق النار من بعض المنازل المدنية على جانب الطريق، وقام بإطلاق قذيفة دبّابة على سطح أحد المنازل وكان تأثيرها جلياً. وقد حضرت عدّة عائلات للبحث عن أقاربها القتلى وقامت بدفنهم. لكنني أحصيت ستّ عشرة جثّة مدنية على الأقلّ وبقايا جثث ما زالت على الطريق والعديد منها لنساء. وبالطبع أثار هذا القتل الميداني سؤالاً مألوفاً. لقد أطلق الأميركيون قذائف دبّاباتهم على السيّارات المدنية وما زالت جثث هؤلاء متفحّمة وملقاة على جانب الطريق إضافة إلى الجندي القتيل ولم يقم أحد بدفنها حتى الآن. وبالطبع حاول

الأميركيون تجنّب قتل المدنيين، لكن كان من الممكن بقاؤهم على قيد الحياة لو لم يأمر بوش جيشه بغزو بلادهم(*).

•

لن يحصل تحقيق. لن يكون هناك أيّ تحقيق حول أيّ من الأحداث المؤسفة التي حصلت خلال ملحمة «ذهب مع الريح» من النهب والفوضى، التي اختارها الشعب العراقي للاحتفال بهديّتنا لهم في «التحرير والديمقراطية». لقد بدأ الأمر في البصرة مع ردّنا نحن البريطانيين المهين على حفلة النهب التي اجتاحت المدينة. وقد أدلى وزير الدفاع البريطاني جيوفري هوون ببعض الملاحظات التافهة حول الوضع المخزي للأمور موحياً في مجلس العموم أن الشعب في البصرة كان يحرّر ممتلكاته من حزب البعث. وأيّد الجيش البريطاني بحماس هذا العمل القذر. وقد تمّ نشر شريط نهب البصرة في أنحاء العالم، وأبلغ العقيد هوغ بلاكمان من حرس التنّين الملكي الأسكتلندي محطة البي بي سي أنه «ليس من اختصاصه إطلاقا مواجهتهم». لكن من المؤكّد أن ذلك كان من مهامّه. ويستحق النهب أن يوضع له بند خاصّ في اتفاقيات جنيف، تماماً كما حصل عام ١٩٠٧ في معاهدة لاهاي التي ارتكز عليها المندوبون في جنيف لوضع «قوانين الحرب». وتنصّ اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ : «أن النهب ممنوع»... وقد اطّلع العقيد بلاكمان والسيد هوون على كتاب «جرائم الحرب» المطبوع عام ٢٠٠٢ بالتعاون مع القسم الإعلامي في جامعة مدينة لندن، لكي يفهما معناه.

فعندما تسيطر قوّة احتلال على أراضي بلد آخر، تصبح مسؤولة حُكماً عن حماية المدنيين وممتلكاتهم ومؤسّساتهم. وهكذا فإن القوّات الأميركية في الناصرية أصبحت مسؤولة عملياً عن السائق الذي قُتل في سيّارته يوم

(*) تمّ ذكر هذا الحادث المؤلم في كتاب دايفيد زوكينو «الرعد المدوّي: ثلاثة أيام في معركة بغداد» (منشورات أتلانتيك ـ لندن ٢٠٠٤) والذي يصف مسير فرقة المشاة الثالثة الأميركية من جنوب العراق حتى بغداد خلال الغزو. في روايته حول عمليات القتل على هذه الطريق (ص ٢٣١ ـ ٢٤٦) واجه هوبار وزملاؤه «سيّارات انتحارية» على الطريق الثامن السريع «لم تخضع لأمر التوقف وظلّت مسرعة شمالاً». يقول الكتاب «ولم يستطع هوبار أن يفهم تتابع المحاولات الانتحارية ـ وقد انتهت كل واحدة منها ملتهبة ومدمّرة واحدة تلو الأخرى بعدما أطلقت عليها قذائف شديدة الانفجار». ونقل زوكينو عن جندي احتياطي قال بتذمّر: «اللعنة. نحن نقتل العديد من المدنيين هنا».. وقال آخر إنه «رأى إحدى السيّارات تتحطّم... ورأى سيّارة تتفجّر وأشخاصاً يتفجّرون أيضاً». وبعد ساعات قليلة، بحسب قول زوكينو، جاءت سيّارات انتحارية من الغرب والشرق، حوالي عشرين منها عند الظهر». حتى الآن، لا يشير الكتاب إلى العدد الكبير من المدنيين القتلى بنيران الدبّابات وقد شاهدت العديد منهم شخصياً. إذا كان عدد الانتحاريين الذين أُرسلوا ضدّ القوّات الأميركية على الخط السريع الثامن بهذا الحجم الكبير، فهذه نقطة تحوّل رئيسية في الحرب ومدخل للثورة القادمة. لكنّ دليلي بصفتي شاهد عيان لما حصل يوحي أنه لمّا كان هناك هجوم عسكري واضح، فإن معظم القتلى كانوا من المدنيين، وقد خشي الأميركيون من وجود انتحاريين ممّا دفعهم إلى إطلاق النار على أيّ سيّارة لا تُفسح الطريق. وكما أخبرني هوبار، فقد قاد العديد من السائقين بسرعة «وكان عليّ حماية جنودي». لقد أعطى كتاب زوكينو رواية مقنعة وعادلة حول الإرباك العسكري الذي رافق قتل الصحفيين في فندق فلسطين (٢٩٦ ـ ٣٠٧) مع أنه كرّر الكذبة التي تتحدّث عن مسلّحين يطلقون النار من المبنى. من المفيد الإضافة أنه لو كان صحيحاً ما قاله زوكينو في كتابه من أن الكتيبة الثالثة للمشاة خاضت «إحدى أقسى وأهمّ المعارك في تاريخها القتالي» في بغداد، فإن هذا يعني أن ادّعاء القوّات الأميركية تخلّي القوّات العراقية عن القتال وفرارها من العاصمة كان غير صحيح.

تحرير المدينة. وكان الأميركيون في بغداد مسؤولين عن السفارتين الألمانية والسلوفاكية اللتين نُهبتا من قِبل مئات العراقين وعن المركز الثقافي الفرنسي الذي تعرّض لهجوم، وعن البنك المركزي العراقي الذي تمّ إحراقه يوم ١١ نيسان/أبريل والذي مهما كان فاسداً ومُفسداً من قِبل النظام السابق (الجدير بالذكر هنا أن الدول العربية تميل إلى وضع أقذر المخلوقات في مركز حاكم البنك المركزي) إلا أنه كان يُعتبر القوة المالية الرئيسية في العراق... وسيبقى عنواناً للعراق الجديد كما كان للعراق القديم.

تجاهل الإنكليز والأميركيون هذا المفهوم رغم ارتكازه على المعاهدات والقانون الدولي. وحتى الآن، فإننا نحن الصحفيين قد سمحنا لهم القيام بذلك. صفّقنا مثل الأطفال عندما قدّم الأميركيون مساعدة لإنزال تمثال صدّام حسين أمام عدسات الكاميرات، وتابعنا الحديث عن تحرير بغداد كما لو أن غالبية السكّان قدّموا الورود للجنود في حين أنهم كانوا يقفون بغضب عند نقاط التفتيش وهم يراقبون نهب عاصمتهم. ساهمنا نحن الصحفيين أيضاً في سقوط أكبر للمبادئ في هذه الحرب. خُذ على سبيل المثال القصف القاسي لمنطقة المنصور المدنية في محاولة لقتل صدّام. فقد زعمت القوّات الأنغلو ـ أميركية أنها تعتقد بوجود صدّام وولديه الشرّيرين قُصَي وعُدَي هناك. لذلك قامت بقصف المدنيين في حيّ المنصور وقتلت على الأقلّ ١٤ مدنياً شريفاً بريئاً كان معظمهم من المسيحيين، ولعلّ في هذا ما يحرّك مشاعر بوش وبلير الدينية. والحال أننا ربّما توقّعنا أن تقوم إذاعة البي بي سي العالمية صباح اليوم التالي بالتساؤل عمّا إذا كان قصف المدنيين يشكّل عملاً غير أخلاقي، وربّما جريمة حرب، مهما كانت قوّة رغبتنا في قتل صدّام. إنَس ذلك. لقد وصف المذيع في لندن قتل هؤلاء المدنيين الأبرياء بالتوجّه الجديد في الحرب لاستهداف صدّام ـ كما لو أنه كان من الطبيعي قتل المدنيين عن سابق تصوّر وبدم بارد، بُغية التوصّل إلى قتل الطاغية الكريه.. أما مراسل البي بي سي في قطر، حيث كان رجال Centcom يتباهون بغرور بحيازتهم لمعلومات استخبارية دقيقة تُفيد أن صدّام كان هناك، فقد استخدم كلّ المصطلحات العسكرية المعتادة لتبرير ما لا يمكن تبريره. وقد أعلن أن «التحالف كانت لديه معلومات دقيقة تستدعي سرعة العمل».. أي أنه لن يكون لديهم الوقت لمعرفة ما إذا كانوا يقتلون الأبرياء في حُمّى تفتيشهم أم لا... وأن هذه المادّة المعلوماتية العملية (وهنا أنقل مجدّداً ما أورده تقرير البي بي سي المثير للاشمئزاز) لم تكن خالية من المجازفة.. ثم تابع هذا المراسل، دون أن يفكّر للحظة في النواحي الأخلاقية، يصف كيف استخدم الأميركيون القنابل الخارقة (٢٠٠٠ ليبرة) لتدمير بيوت المدنيين. وكانت هذه هي قِطع العتاد الحربي نفسه الذي استخدمه سلاح الجوّ الأميركي في جهده الدؤوب لقتل أسامة بن لادن في جبال طورا بورا عام ٢٠٠١. لذلك نحن نقوم باستخدامها الآن عن معرفة ضدّ بيوت المدنيين الفقراء في بغداد ـ وهم شعب لن يكونوا لولا ذلك جديرين بالتحرّر الذي سنُنعم به عليهم ـ على أمل أن بعض «المقامرة»، وقليلاً من «المعلومات الاستخبارية» حول صدّام، ستعطي نتيجة[*].

(*) في تقرير حول التقدير العسكري «لدروس حرب العراق» ظهر في النيويورك تايمز يوم ٢٠ تموز/يوليو ٢٠٠٣، ورد أن موافقة دونالد رامسفيلد كانت مطلوبة عندما تكون هناك ضربة جوّية يمكن أن تؤدّي إلى مقتل أكثر من ٣٠ مدنياً.. لقد تمّ اقتراح أكثر من ٥٠ ضربة جوّية من هذا النوع.. وتمّت الموافقة عليها.. لذا لم يكن لدى عائلات المنصور أيّة فرصة للنجاة...

في اتفاقيات جنيف بنود كثيرة حول ذلك. وقد أشارت الاتفاقيات تحديداً إلى المدنيين باعتبارهم أشخاصاً محميّين ينبغي تأمين حمايتهم من قِبل القوّة المحاربة حتى ولو وجدوا أنفسهم في وسط متنازعين مسلّحين. هذه الحماية نفسها طُلبت للمدنيين اللبنانيين الجنوبيين عندما قامت إسرائيل بشنّ عملية «عناقيد الغضب» عام ١٩٩٦. فعلى سبيل المثال أطلق الطيّار الإسرائيلي صاروخ هلفاير الأميركي الصنع على سيّارة إسعاف المنصوري في جنوب لبنان، ممّا أدّى إلى مقتل ثلاثة أطفال وامرأتين، وزعم الاسرائيليون أن مقاتلاً من حزب الله كان في السيّارة. لكنّ التقرير أظهر أن ذلك كذب. وقد تمّت إدانة إسرائيل بحقّ لقتلها مدنيين معتقدة أنها كانت تقتل محارباً معادياً. والآن نحن نفعل تماماً الشيء نفسه. إذاً، لن نسمع بعد الآن مثل ذلك الانتقاد الغربي المتردّد والضعيف تجاه إسرائيل بعد القنابل الملقاة على حيّ المنصور.

كنّا نقوم بارتكاب هذه الجرائم أكثر فأكثر. فقد جرى القتل الجماعي لأكثر من ٤٠٠ مدني في الغارة الجوّية على العامرية داخل ملجأ في بغداد أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١ على أمل قتل صدّام. وفي قصف عام ١٩٩٩ لصربيا، قمنا بقصف المناطق المدنية مجدّداً بعدما علمنا أن الجيش اليوغوسلافي ترك تحصيناته ـ وفي إحدى الحوادث الأكثر وحشية لإنهاء الحرب، قصفت طائرة أميركية جسراً صغيراً على النهر.

ادّعى حلف الناتو أنه كان بإمكان الدبّابات المرور على هذا الجسر مع أنه لم تكن هناك أيّ دبّابة في ذلك الوقت. كان الجسر أضيق من أن تمرّ عليه دبّابة. لكن طيّاراً آخر عاد لقصف الجسر بينما كان المسعفون ينقذون الجرحى. وكان من ضمن ضحايا القنبلة الثانية طلّاب مدارس. ومجدّداً تناسينا الحديث عن ذلك في غمرة أفراح كسب الحرب.

لماذا، لماذا لا نلتزم بقوانين الحرب التي نطالب الآخرين بالالتزام بها؟ لماذا نقوم نحن الصحفيين ـ حرباً تلو حرب ـ بالتآمر بهذا الفجور ونحوّل عملاً قاسياً وشرّيراً وغير قانوني إلى «توجّه جديد» أو مادّة حسّاسة؟ توجد في الحروب عادة تحويل الرجال الأصحّاء إلى هتّافين وتحويل الصحفيين المنطقيين إلى كولونيلات مزعجين. لكن بالطبع علينا جميعاً أن نحمل اتفاقيات جنيف معنا إلى الحرب إضافة إلى كتب التاريخ. والحال أن المستفيدين الوحيدين من جرائم حربنا سيكونون من الجيل الجديد لصدّام حسين. أليس هذا ما سيقوم به الثوّار بعد أسابيع وأشهر على الاحتلال؟

لكن كان بإمكاننا دائماً العودة إلى ذلك الجدال الذي سيصبح شرطاً ضرورياً في الأشهر والسنوات القادمة، والاستشهاد الأكثر استخداماً، والجملة الأسهل في الكتاب، والمخرج الأخير للورطة في العراق: كان صدّام أسوأ. لم نكن سيّئين بقدر صدّام. لم نقتل أو نعذّب في سجن أبو غريب (ستسقط هذه الصفات لاحقاً لأسباب معروفة) لأننا متحضّرون، محرّرون، ديمقراطيون نؤمن بالحرّية. كنّا الرجال الصالحين. لذلك قمت خلال الساعات التي تلت تحرير بغداد بجولة في قلب الظلام. وتقدّمت بمشقّة بين صناديق ذخيرة معركة جسر الجمهورية التي تنتشر مع أوراق الشتاء على الخط السريع ـ كانت الدبّابة التي قتلت زميليّ ما تزال هناك ومدافعها منخفضة ـ وسرت

عبر الباب الكبير لقصر صدّام حسين، وكان في الداخل قُدس الأقداس، قوس الميثاق البعثي لصدّام، عرشه. كان المقعد مغطّى بقماش أزرق وكان ناعماً مريحاً مع مرفقَين من الذهب لإراحة يديه ـ لأنّ صدّام كان معجباً بيديه ـ ولا يوجد باب خلفه يُتاح للقتلة الدخول منه. ليس هناك موطئ قدم، لكنّ المقاعد والكراسي في أنحاء قاعة الاجتماعات الضخمة الداخلية لقصر صدّام وضِعت بطريقة تُبقي كلّ المسؤولين على مستوى أدنى من كرسيّ الخليفة نفسه.

هل جلستُ على عرش صدّام؟ بالتأكيد قمتُ بذلك... هناك شيء مظلم في نفوسنا يتطلّب فهم الشرّ أكثر من الخير، لأننا بحسب اعتقادي مفتونون بالقسوة والقوّة أكثر من افتتاننا بالملائكة. وهكذا جلست على العرش الأزرق ووضعت يديّ على المرفقيْن الذهبيَّين، وتفحّصت الغرفة اللامعة كالذهب حيث كان يجلس رجال السلطة الأقوياء مرعوبين من الرجل الذي كان يجلس مكاني.

كتب أودين (شاعر بريطاني ـ ١٩٠٧ ـ ١٩٧٣) عن الدكتاتور ـ الاسم: «كان يعرف الجنون الإنساني مثل راحتيْ يديه»... آه، نعم.. اليدان. . . . كانت خلف العرش قطعة قماش كبيرة عليها رسم للمسجد الأقصى في القدس ـ من دون المستوطنات اليهودية ـ وهكذا فإن أقدس ثالث مدينة في الإسلام تتدلّى صورتها فوق رأس أقوى المحاربين العراقيين. ومقابل كرسيّ صدّام، كان هناك عمل مختلف للفنّ البعثي. تظهر مجموعة من الصواريخ الفخمة وفي مؤخّرتها ألسنة لهب بيضاء متّجهة نحو الفضاء المليء بالسحب المشؤومة، وكل صاروخ ملفوف بعلم العراق الذي تتوسّطه كلمتا «اللّه أكبر».

كان المقدّس وغير المقدّس يتواجهان في المبنى المركزي للسلطة البعثية. وكانت وحدة المشاة الأميركية الثالثة المتمركزة في الردهات الرخامية وفي غرف نوم الخدم تبحث جاهدة عن أنفاق تحت الأرض يُفترض أنها تربط المبنى بوزارة الدفاع المدمّرة. وأصبح وضع اللصوص يائساً رغم أن بعضهم كانوا يقومون بسرقة أجهزة التلفزيون والكمبيوتر في الفيلّات الصغيرة على أرض القصر، لأنه حسبما قيل، سيكون هنا حتماً المقرّ الاستشاري للجنرال تومي فرانكس إذا استطاع الأميركيون تشكيل حكومة عراقية متعاونة. أي أن إدارة جديدة معيّنة من قِبل الأميركيين قد تقود البلاد من هذا المبنى السومري خلال أشهر قليلة.

وجدوا مسبح صدّام سليماً محاطاً بأشجار نخيل كبيرة وحدائق ورد. . . يدفعك ذلك إلى التساؤل كيف أن الرجال القساة كانوا محاطين دائماً بالجمال... رائحة الأزهار فاحت وانتشرت في مختلف أنحاء القصر والممرّات السفليّة. وكانت هناك أزهار حمراء وأرجوانية وبيضاء تغطيها الفراشات والماء ونباتات عود الصليب، علماً بأن كتيبة المشاة لم تعثر على مضخّات المياه المتدفّقة من الحنفيات إلى أحواض الزهور حتى الآن. كانت هناك أيضاً حديقة حيوانات صغيرة يعيش فيها دبّ مسنّ أسود كان الأميركيون يقومون بإطعامه خروفاً كل يوم. وفي الحمّام الملحق بمسبح صدّام مجموعات من الكتب تمّ توضيبها للنقل ـ شعر عراقي ومصنّفات في الفقه الإسلامي ـ بينما الآلات الرياضية منتشرة على الأرض لإبقاء صلاح الدين الثاني في حالة جسدية جيّدة. يصادف عيد ميلاده السادس والستون بعد أسبوع، وكانت الأحرف المكتوبة فوق الباب: «ص . ح».

يقطع المرء أميالاً من الردهات، بعد السير في شارع طوله ميلان حتى القصر، عبر حقول من الزهور والنخيل، وأكوام من الذخيرة المستخدمة ورائحة كريهة من شيء ميت تحت أحواض الزهور ـ ويُصدم بذلك المزيج الوسواسي للعظمة والتفاهة. وتثير الثريات البالغ طولها ١٥ قدماً الإعجاب لكنّ مقابض الأدوات الصحّية الذهبية والصلبة خلقت نوعاً من العدوان الثقافي. إذا كان يفترض بالمرء أن ترهبه سلطة صدّام (كما أنّ هدف الكوليزيوم والأقواس الضخمة والشامخة هو التأثير على أهالي روما) فماذا يقول أمام السلالم الضيّقة المغطاة بالرخام غير المطلي أو جدران الرخام الضخمة لغرف الانتظار وسقوفها الذهبية، وهي جدران حملت قُصاصات لمقتطفات من خطب وأفكار «سيادة الرئيس صدّام حسين»؟

فاشيّ هي الكلمة التي تقفز إلى الذهن.. لكنّها الفاشية مع لمسة دون كورليون (زعيم مافيوي). في قاعة المؤتمر الكبيرة هذه سوف يجلس اللوردات المساعدون ـ الأسياد الكبار لحزب البعث، والقادة الأمنيون الذين يعتمد عليهم النظام ـ وهم يحاولون جاهدين البقاء يقظين بينما يشرح زعيمهم طيلة أربع ساعات وضعَ العالم وموقع العراق فيه. وبينما يتحدّث عن الصهيونية، كانوا يستطيعون النظر بإعجاب إلى المسجد الأقصى.. وعندما يغضب، يلقون نظرة على الصواريخ الموجّهة نحو السماء المشّعة فيما السحب تتدلّى خانقة أبواب الجنّة.

حتى كلماته حُفرت أيضاً على جدران القصر الخارجية حيث أربعة تماثيل لحمورابي طولها ٢٠ قدماً ينظر بعضها إلى بعض عبر الفناء. غير أنه كان لحمورابي شارب ـ وكان من السهل أن تلاحظ ذلك ـ يشبه شارب صدّام حسين. هل تستطيع حكومة العراق الجديد حقاً عقد اجتماعاتها هنا بينما هؤلاء الوحوش الأربعة ينظرون إلى سيّاراتهم المرسيدس؟ الجواب: كلّا. ولقد أزيلت التماثيل بواسطة رافعات بعد ستّة أشهر...

كلّ هذه الفخامة من مسكات الذهب إلى الرخام إلى الشمعدانات إلى طول الغرف وارتفاعها، كانت تحبس الأنفاس حقاً.. في بهو من القصر كانت قُبّة شبيهة بقبّة مدافن العظماء تغطي الجدران بالذهب... وعندما صرخت: «صدّام»، ظلّ الصدى «صدّام» يتردّد لأكثر من دقيقة.. وكنت على يقين من أن صدّام كان يفعل الشيء نفسه.. فإن كان باستطاعته أن يأمر البنّائين بحفر اسمه على الجدران، فممّا لا شكّ فيه أنه كان يحبّ أن يسمع اسمه يتردّد في أعالي قصره...

بعيداً في الأسفل كانت قاعة سينما صدّام الخاصّة بمقاعدها الجلدية الزرقاء وفيها شريطا أفلام ـ واحد بالفرنسية والآخر بالروسية ـ كانا ينتظران للعرض الأخير. في الخارج، خلف المروج الكبيرة والنوافير، كانت تقف دبّابات كتيبة المشاة الثالثة من نوع أبرامز تحمل أسماؤها تفاهة أمّة أخرى وقوّتها.. على أبراج الدبّابات وأبدانها كان يمكنني أن أقرأ كيف كتب الطاقم أسماء وحشه هذا: الكلب النووي، المُبيد، مُضرم النيران، الإنتراكس، أغاممنون. كان صدّام ليُحبّذ ذلك.

كانت بغداد تحترق. أحصيت ستّة عشر عموداً من الدخان ترتفع فوق المدينة بعد ظهر ١١ نيسان/أبريل. في

البداية كانت وزارة التجارة. شاهدت اللصوص يصبّون النفط عبر النوافذ المحطّمة على الأرض فتندلع النار خلال ثوانٍ. ثم كانت هناك مجموعة من المكاتب في أسفل جسر الجمهورية تنبعث منها سحب سوداء، من دخان كبريتي. بعد الظهر، كنت أقف خارج البنك المركزي العراقي بينما كانت كل نافذة فيه تلتهب مثل الشمعة، وخطّ طوله ميل من الرماد والأوراق المحترقة يتدفّق على دجلة.

وعندما أصبحت الغنائم أقلّ، بدأ اللصوص يتعبون ـ (وتاريخ بغداد يؤكّد أن الفوضى تأخذ هذا الشكل). لقد احترقت رموز سلطة الحكومة كلّها. وتحدّث الأميركيون عن حقبة جديدة لكنهم لم يفعلوا شيئاً. دفعوا دوريّاتهم عبر شرق المدينة، دبّابات أبرامز Abrams وعربات برادلي وهومفي Bradley & Humvees المقاتلة، لكنّ الجنود لم يفعلوا شيئاً سوى التلويح لمرتكبي الحرائق. شاهدت امرأة تبكي قرب زوجها في السوق العربي القديم... وقد قالت لي: «نحن ندمّر ما لدينا، نحن ندمّر مستقبلنا».

انتشرت ألسنة اللهب، وبعد الظهر، كان فندق الصدر يحترق، وقد سرق جيش الأطفال الذي أُرسل إلى داخل المبنى الأغطية والفرش والأسرّة والطاولات، وحتى مكتب الاستقبال ومجموعة المفاتيح الكثيرة. ومن برج وزارة الصناعة، وهو كتلة إسمنتية من طِراز الرايخ الثالث، خرجت سحب من الدخان الأسود. وكانت الطرق الرئيسيّة مغطّاة بالأوراق، والأثاث الملقى جانباً، والسيّارات المسروقة المحطّمة، ومحتويات المحلّات الصغيرة التي لم يُزعج أصحابها أنفسهم لشراء أبواب حصينة لها. وفي الختام، جرى نهب البنوك أيضاً. منذ انهيار الدينار العراقي ـ وصل إلى أكثر من ٤ آلاف دينار للدولار الواحد ـ لم يزعج أحد نفسه لشقّ طريقه إلى البنوك. لكن عند الصباح، شاهدت رعاعاً يقتحمون بنك الرافدين قرب محافظة بغداد ويخرجون خزنة حديد ضخمة من الباب ويفتحونها. ونظراً لقيمة الدينار، كان من الأجدى ترك المال بداخلها وسرقتها كلّها. لقد سرق رعاع العراق ودمّروا ما سمح لهم الأميركيون بنهبه وإحراقه.. لكنّ ساعتين من التجوال بالسيّارة في أنحاء بغداد أظهرتا بوضوح ماذا أرادت الولايات المتحدة حمايته، من أجل مصالحها الخاصّة على الأرجح. بعد أيام من عمليّات الإحراق والنهب قمت بجمع أوراق صغيرة ولكنها ذات دلالات فاضحة. تراجعت القوّات الأميركية وسمحت للرعاع باقتحام ومن ثم بإحراق وزارات التخطيط والتربية والريّ والتجارة والصناعة والخارجية والثقافة والإعلام. لم يفعلوا شيئاً لمنع اللصوص من نهب الثروات القيّمة لتاريخ العراق، من متحف الآثار في بغداد والمتحف الآخر شمالي مدينة الموصل، ومن نهب ثلاث مستشفيات.

غير أن الأميركيين وضعوا مئات الجنود داخل وزارتين ظلّتا سليمتين ـ ولم تُمسّا... وكانت الدبّابات وناقلات الجند المصفّحة وسيّارات هومفي تحاصر المؤسّستين. إذاً، أيُّ الوزارات ثبت أنها مهمّة جدّاً للأميركيين؟ ولماذا؟ وزارة الداخلية بالطبع ـ مع ثروة المعلومات الكبيرة حول العراق ـ ووزارة النفط. كانت سجلّات وملفّات أعظم ثروة عراقية (حقول النفط وما هو أكثر أهمّية: الاحتياطي الضخم، وربّما الأضخم في العالم) سليمة ومحصّنة ضدّ الرعاع واللصوص وآمنة لتقاسمها ـ كما تنوي واشنطن ـ مع شركات النفط الأميركية.

ألقى ذلك أضواء كاشفة حول الأهداف المفترضة لحرب أميركا. كانت متلهّفة لتحرير العراق، وسمحت لشعبه بتدمير البنية التحتية للحكومة وكذلك الخاصّة لأزلام صدّام. وقد أصرّت الإدارة الأميركية على أن وزارة النفط جزء حيوي من إرث العراق، وأن آبار النفط يجب أن تُحفظ للشعب العراقي. لكن هل كانت وزارة التجارة ـ التي أُعيد إشعالها يوم ١٤ نيسان/أبريل بحريق مُدبّر ـ غير حيوية لمستقبل الشعب العراقي؟ أليست وزارتا التربية والريّ ـ ما زالتا تحترقان بشراسة ـ مهمّتيْن جدّاً للحكومة العراقية القادمة؟ كان بإمكان الأميركيين، كما نعرف الآن، تخصيص ألفيْ جندي لحماية حقول نفط كركوك التي تحتوي حتماً على أضخم احتياطي في العالم، لكن لم يكن باستطاعتهم وضع ٢٠٠ جندي لحماية متحف الموصل من الهجوم!.

لقد أكثر الأميركيّون من الحديث عن حقبة جديدة. وظهرت فجأة الدوريات المصفّحة ودوريات المشاة وهي تجوب شوارع الطبقة المتوسّطة في العاصمة، معطية أوامر للشباب الذين يحملون برّادات وأثاثاً وأجهزة تلفزيون بوضع المسروقات على الأرض في حال عدم استطاعتهم إثبات ملكيّتها. كان الأمر حقيراً. بعد سرقة مليارات الدولارات من المباني الحكومية المدمّرة، وتدمير أجهزة الكومبيوتر والسجلّات، أوقف الأميركيون الشبّان الذين كانوا يجرّون عربات محمّلة بكراسٍ مستعملة!. كان هناك غضب خاصّ الآن على الحشد الذي كان يتجمّع كلّ يوم بعد الظهر قُبالة المواقع الأميركية خارج فندق فلسطين. ويوم ١٢ نيسان/أبريل هتفوا «سلام ـ سلام ـ سلام ـ نريد حكومة عراقية جديدة لتحقيق الأمن». بعد يومين، صرخ بعضهم «بوش وصدّام عُملة واحدة».

لكن كان الآتي أسوأ ـ أسوأ بكثير. لم أتخيّل أبداً في كلّ أحلامي حول الدمار أن يأتي يوم أدخل فيه إلى المتحف الوطني للآثار لأجد ثرواته مبعثرة. كانت منتشرة على الأرض، عشرات الآلاف من القطع، من التحف القيّمة لتاريخ العراق. انتقل اللصوص من رفّ إلى رفّ، ينزلون التماثيل والأواني والجرار الأشورية والبابلية والسومرية والفارسية واليونانية ملقين بها على الأرض. داست قدماي على حُطام قاعدة إناء زهور عمرها خمسة آلاف سنة وأواني وحجارة تماثيل تتحدّث عن غزو العراق عبر التاريخ، دُمّرت كلّها عندما قام الأميركيون بتحرير المدينة. فعل العراقيون ذلك. فعلوا ذلك بتاريخهم ماديّاً مدمّرين الدليل على حضارة أمّتهم لآلاف السنين.

منذ انطلق الطالبان في حفلة تدمير تماثيل بوذا في باميان والتماثيل في متحف كابول ـ وربّما منذ الحرب العالمية الأولى أو قبلها ـ لم يحصل أن دُمّرت مثل تلك الثروات الأثرية بشكل منظّم كما حصل هنا. قال الرجل الذي يرتدي ملابس رمادية بينما كنّا نسلّط الأضواء على أكوام الأواني السومرية والتماثيل اليونانية المقطوعة الرؤوس والأيدي في مخزن المتحف الوطني العراقي للآثار: «نريد الجنود الأميركيين لحراسة ما بقي. نريد الأميركيين هنا. نريد رجال شرطة». لكنّ حارس المتحف، عبد الستّار عبد الجابر، شهد يوم ١٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٣ معركة بالأسلحة بين اللصوص والسكّان المحلّيين. وكان الرصاص يمرّ فوق رأسينا خارج المتحف ويغطّي جدران المباني المجاورة . قال: «أنظر إلى هذه» والتقط قطعة كبيرة من الفخّار، وصلت صفاتها الجمالية إلى نهاية مفاجئة بعدما انكسرت الجرّة ـ ربّما كان ارتفاعها قدميْن ـ إلى أربع قطع: «إنها أشورية». لقد حكم الأشوريون منذ ألفيْ سنة قبل المسيح.

ماذا يفعل الأميركيون كحكّام جُدد لبغداد؟ لماذا كانوا ذلك الصباح يعيدون استخدام رجال شرطة صدّام السابقين المكروهين لإعادة النظام والقانون لصالحهم. كان آخر جيش تصرّف على هذا النحو هو قوّات ماونتباتن في جنوب شرق آسيا، التي وظّفت الجيش الياباني المهزوم للسيطرة على شوارع المدن الفيتنامية ـ وحرابه مثبتة ـ بعد إعادة احتلال الهند الصينية عام ١٩٤٥. وقد وقف طابور من رجال الشرطة يرتدون اللباس العسكري خارج فندق فلسطين في بغداد بعدما سمعوا في الإذاعة نداء يدعوهم الى ممارسة وظيفتهم في الشوارع.

في نهاية النهار، جاء ثمانية من ضبّاط الشرطة الكبار الذين يرتدون ملابس خضراء، ملابس حزب البعث العراقي، لعرض خدماتهم على الأميركيين يرافقهم جنود من البحرية الأميركية.

لكن لم يكن هناك ما يدلّ على من منهم سوف يُرسل إلى متحف الآثار. كانت الكهرباء مقطوعة في بغداد ـ وليس هناك ماء أو قانون أو نظام ـ ولذلك تعثّرنا في ظلمة الطابق السفليّ للمتحف، وسرنا على التماثيل المكدّسة واصطدمنا بالثيران المحطّمة أجنحتها. وعندما وجّهت مصباحي نحو رفّ بعيد، حبست أنفاسي. وجدت كلّ إناء أو جرّة ـ «٣٥٠٠ قبل المسيح» مكتوب على أحد الرفوف ـ وقد حُطّمت إلى قطع. لماذا؟.. كيف كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك؟ لماذا، عندما كانت المدينة تحترق، وعندما دبّت الفوضى ـ وبعد أقلّ من ثلاثة أشهر على اجتماع مسؤولي الآثار والبنتاغون الأميركيين لمناقشة ثروات البلاد ووضعهم متحف بغداد للآثار على قاعدة بيانات ـ سمح الأميركيون للرعاع بتدمير هذا القدر من الإرث القيّم لبلاد ما بين النهرين القديمة؟ وقد حصل كل ذلك بينما كان وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد يتهكّم على الصحافة لادّعائها أنّ الفوضى دبّت في بغداد. قال: هذه أمور تحصل. هل يمكن أن يكون هناك حقاً هذا العدد من الأواني في العراق؟».

طيلة ٢٠٠ عام، عمل علماء الآثار العراقيون والغربيون على جمع موجودات مركز الحضارة القديمة هذا من القصور والأبراج ومقابر عمرها ثلاثة آلاف سنة. والآن توجد عشرات الآلاف من بطاقات التعريف المكتوبة ممزّقة بين حُطام التماثيل. التقطت إحدى الأوراق وكان مكتوباً عليها: «أواخر القرن الثاني ـ رقم ١٦٨٠». للوصول إلى المخزن، حطّم الرعاع الأبواب الحديدية ودخلوا من الباحة الخلفية ونقلوا التماثيل الثقيلة والكنوز الموجودة قرب المحوّل إلى السيّارات والشاحنات.

غادر اللصوص قبل ساعات قليلة فقط من وصولي... وحتى حارس المتحف ذو اللباس الرمادي لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا أخذوه من الأشياء. ثمّة صندوق زجاجي كان يضمّ في وقت ما حجراً عمره ٤٠ ألف سنة وقطعاً من الصوّان بات فارغاً الآن. ولا أحد يعرف ماذا حصل للصناديق الأشورية من القصر الملكي لخورساباد، ولا الأختام القديمة التي تعود إلى ١٥ ألف سنة، ولا الأقراط الذهبية القديمة التي عمرها ٤٥٠٠ سنة وكانت مدفونة مع الأميرات السومريات.

في مكتبة المتحف الواسعة، كتب قليلة معظمها من أعمال علماء الآثار في منتصف القرن التاسع عشر ـ

ويبدو أن المكتبة سُرقت أو أُتلفت، إذ يعلّق اللصوص القليل من الأهمّية على الكتب. وقد وجدتُ مجموعة كاملة من الصحيفة الجغرافية للأعوام ما بين ١٨٩٣ ـ ١٩٣٦ سليمة ـ وقربها كيس ورقي كتب عليه: «بغداد، مدينة السلام».... لكنّ ألوفاً من بطاقات التعريف رمِيت من صناديقها على السلالم والدرابزين.

لقد لعب علماء الآثار الإنكليز والفرنسيون والألمان دوراً رئيسياً في اكتشاف بعض أهمّ الكنوز العراقية القديمة... وكانت تلك المستشرقة البريطانية الدبلوماسية، مدبّرة المكائد والجاسوسة جيرترود بيل، «الملكة غير المتوّجة للعراق»، والتي يقع قبرها قرب المتحف مؤيّدة متحمّسة للعمل. وقد بنى الألمان المتحف الحالي الحديث قرب دجلة، وأعيد افتتاحه عام ٢٠٠٠ فقط للجمهور بعد تسع سنوات من الإقفال بعد حرب الخليج الأولى.

لكن حتى عندما حاصر الأميركيون بغداد، فقد أظهر جنود صدّام الاحتقار للكنوز مثل اللصوص. وكانت خنادقهم المهجورة ومواقع مدفعيّتهم الفارغة ظاهرة بوضوح في مروج المتحف، وقد حُفر موقع أحدها قرب تمثال حجري ضخم لثور مجنّح. وقبل أسابيع قليلة فقط أشار جابر خليل إبراهيم، المدير الرسمي للأثريات، إلى محتويات المتحف على أنها «إرث الأمّة».. وقال إنها «لم تكن مجرّد أشياء للمشاهدة والتمتّع، بل نستمدّ منها القوة للتطلّع إلى المستقبل. إنها تمثّل مجد العراق». اختفى إبراهيم مؤقّتاً مثل العديد من موظّفي الدولة في بغداد. وكان عبد جابر وزملاؤه يحاولون الدفاع عمّا تبقّى من تاريخ البلاد بمجموعة من رشّاشات الكلاشينكوف. قال: «لم نكن نرغب في امتلاك أسلحة ـ لكن على الجميع امتلاكها الآن. كان علينا الدفاع عن أنفسنا لأن الأميركيين سمحوا بذلك. لقد صنعوا حرباً ضدّ رجل واحد ـ إذن لماذا تخلّوا عنّا من أجل هذه الحرب وهؤلاء المجرمين؟». بعد ساعة، اتصلت بوحدة الشؤون المدنية في البحرية الأميركية في شارع السعدون وأعطيتهم عنوان المتحف وحالة محتوياته . أبلغني نقيب «أنهم سيحضرون حتماً إلى هناك». لكن فات الأوان... أصبح تاريخ العراق نُفاية على أيدي اللصوص الذين أطلقهم الأميركيون خلال «تحريرهم».

لكنّ التحرير تحوّل إلى احتلال. وفي مواجهة حشد من العراقيين الغاضبين في ساحة الفردوس يطالبون بحكومة عراقية جديدة «لحمايتهم وأمنهم والسلام»، وقف رجال البحرية الأميركية الذين كان عليهم تأمين الحماية جنباً إلى جنب وأسلحتهم جاهزة.

إن الحقيقة التي فشل الأميركيون ـ وبالطبع رامسفيلد ـ في فهمها هي أنه تحت حكم صدّام كان الفقراء المحرومون هم المسلمون الشيعة وكانت الطبقة المتوسّطة دائماً من السنّة ـ وكان صدّام نفسه سنّياً. إذاً، أصبح السنّة الآن يعانون الاضطهاد على أيدي الشيعة. لذلك كانت المعارك المسلّحة التي اندلعت بين أصحاب الأملاك واللصوص صراعاً بين المسلمين السنّة والشيعة. «من خلال فشلهم في إنهاء هذا العنف ـ من خلال تسعير الكراهية المذهبية بسبب كسلهم ـ يثيرالأميركيون الآن حرباً أهلية في بغداد».. بحسب ما كتبت تلك الليلة في الإندبندنت:

«تجوّلت في أنحاء المدينة لأكثر من ساعة. كانت المئات من الطرقات مغلقة بدشم وسيّارات محترقة

وجذوع أشجار يحرسها رجال مسلّحون مستعدّون لقتل الغرباء الذين يهدّدون بيوتهم ومحلّاتهم... وقد غامر القليل من المارينز في التجوال في الضواحي أمس ـ متمركزين قرب المستشفيات التي نُهبت ـ لكنّ النيران ظلّت تلتهب في أنحاء المدينة عند الغسق لليوم الثالث على التوالي. وكان مبنى البلدية يحترق ليلة أمس، وفي الأفق حرائق أخرى كبيرة كانت ترسل أعمدة من الدخان لعدّة أميال في الجوّ. فات الأوان قليلاً. بالأمس، توجّهت مجموعة من المهندسين الكيميائيين وموظفي تنقية المياه إلى مقرّ قيادة المارينز طلباً للحماية حتى يعودوا إلى عملهم. وجاء موظّفو تأمين الكهرباء أيضاً. لكنّ بغداد أصبحت الآن مدينة في حالة حرب تحت رحمة المسلّحين واللصوص. وقد صرخت بي امرأة بالإنكليزية: «أنت أميركي! إرجع إلى بلادك، أخرج من هنا، غير مرغوب بك عندنا، كرهنا صدّام والآن نكره بوش لأنه يدمّر مدينتنا». كانت رحمة لها أنها لم تستطع زيارة متحف الآثار لتشاهد بنفسها إرث الوطن ـ وإرث المدينة ـ وقد دُمّر».

وهكذا كان يوم ١٤ نيسان/أبريل، يوم إحراق الكتب.. أولاً جاء اللصوص، ثم جاء مضرمو النيران. كان الفصل الأخير في نهب بغداد. تحولت المكتبة الوطنية وسجلّاتها ـ كنز ثمين من المستندات العثمانية تتضمّن السجلّات الملكية للعراق ـ إلى رماد تحت درجة حرارة تبلغ ٣ آلاف. بعدها أُحرقت مكتبة القرآن في وزارة الأوقاف. شاهدت اللصوص، وقد شتمني أحدهم عندما حاولت أخذ كتاب عن الشريعة الإسلامية من صبيّ لا يتجاوز العاشرة من العمر. وبين رُكام مئات السنين من التاريخ العراقي، وجدت ملفّاً في العراء: صفحات وصفحات ورسائل مكتوبة باليد بين بلاط الشريف حسين في مكّة ـ الذي بدأ ثورة عربية ضدّ الأتراك بقيادة لورنس العرب ـ والولاة العثمانيين في بغداد.

ولم يفعل الأميركيون شيئاً. كانت رسائل التوصية من بلاد السعودية منتشرة في الباحة القذرة، وكذلك طلبات الذخيرة للقوّات العثمانية، وتقارير عن سرقة جمال وهجمات ضدّ الحجّاج، مكتوبة كلّها بخطّ يد عربي.

كنت أحمل بين يديّ آخر آثار التاريخ العراقي المكتوب. لكن بالنسبة إلى العراق، كانت هذه السنة هي السنة صفر مع تدمير الآثار في متحف الآثار وإحراق السجلّات الوطنية وبعدها المكتبة القرآنية في الوزارة على بعد ٥٠٠ متر.. لماذا أزيلت الهويّة الثقافية للعراق؟ مَن أضرم هذه النيران؟ لأجل أي هدف حقير دُمّر هذا الإرث؟

عندما شاهدت المكتبة القرآنية تحترق ـ كان اللهب يتصاعد من النوافذ بعلوّ ٣٠ متراً ـ سارعت إلى مكاتب قوّة الاحتلال، إلى مكتب الشؤون المدنية للبحرية الأميركية، للإبلاغ عمّا شاهدت. صرخ ضابط بزميله أن «هذا الرجل يقول إن بعض الكتب التوراتية تحترق». أعطيته خريطة المكان، والاسم الدقيق ـ بالعربية والإنكليزية ـ للمبنى، وقلت له إن الدخان يُرى على بعد ثلاثة أميال وأنه يحتاج إلى خمس دقائق فقط للوصول إلى هناك بالسيّارة. بعد نصف ساعة، لم يكن هناك أيّ أميركي في المنطقة ـ وكان اللهب يتصاعد لمسافة ٦٠ متراً في الجوّ.

مضى وقت كان العرب يقولون فيه إن الكتب تُكتب في القاهرة، وتُطبع في بيروت، وتُقرأ في بغداد. والآن يحرقون المكتبات في بغداد. لم تكن السجلّات الوطنية متعلّقة بالتسجيلات العثمانية للخلافة فقط، بل أيضاً بالسنوات القاتمة لتاريخ البلاد الحديث، روايات مكتوبة باليد عن الحرب العراقية ـ الإيرانية بين ١٩٨٠ و١٩٨٨ مع صور شخصية ومذكّرات عسكرية، ومكتبة كاملة من الصحف الغربية ـ مجلّدات من صحيفة الفاينانشل تايمز ملقاة على الرصيف مقابل وزارة الدفاع القديمة ـ ونسخ موثّقة للصحف العربية يعود تاريخها إلى أوائل القرن العشرين أُحرقت أيضاً.

كانت الصحف الفلسطينية العائدة إلى السنوات الأولى لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ وحتى «صحف خلايا تحرير كشمير» ـ ملقاة على الأرض. لكنّ الملفّات والسجلّات الأقدم كانت في الطوابق العليا للمكتبة مقابل وزارة الدفاع حيث استُخدم النفط لإشعال الحريق بشكل متعمّد في المبنى. كانت الحرارة قوية لدرجة أن الأرضيّة الرخاميّة تشقّقت والدرجات الإسمنتية التي صعدت عليها بين أكوام من المستندات المحترقة تصدّعت بفعل الحريق. وكانت الأوراق على الأرض حارّة جداً بحيث لا يُمكن لمسها، ولا تحمل أي ختم أو كتابة، وقد تحوّل بعضها إلى رماد لحظة التقاطي لها. ومرّة أخرى، وأنا أقف في بوتقة من الدخان الأزرق والجمر، سألت السؤال نفسه: لماذا؟ .

لذا، وكتصوّر مؤلم وشامل لما كان يعنيه هذا، فلأنقلْ شيئاً مما تضمّنته بعض قُصاصات الورق التي وجدتها على الطريق في الخارج تعصف بها الريح، والتي كتبها رجال ماتوا منذ زمن طويل، وكانت موجّهة إلى الباب العالي أو القسطنطينية أو بلاط شريف مكّة بعبارات ولاء من أشخاص عرّفوا أنفسهم بعبارة «خادمكم». كان هناك طلب لحماية قافلة جمال محمّلة بالشاي والأرزّ والسكّر موقّع من حسين عطيّة الحجازي «يزكّي عبد الغني نعيم وأحمد كندي التاجرين الشريفين».. وطلب للعطور، وتحذير من جابر العياشي من البلاط الملكي إلى الشريف حسين في بغداد ينبّهه من اللصوص في الصحراء. قال العياشي: «إني أعطيكم نصيحة فقط ستكافأون جداً عليها. إذا لم تعمل بنصيحتنا فإننا نكون قد حذرناك». كانت هناك لمسة من صدّام على ما أعتقد، وكان التاريخ عام ١٩١٢.

ويسرد بعض المستندات أثمان الطلقات والجياد العسكرية والمدفعية للجيوش العثمانية في بغداد والجزيرة العربية، وبعضها الآخر يُسجّل افتتاح أوّل خطّ هاتف في الحجاز ـ التي ستصبح السعودية قريباً ـ بينما يورد مستند، من قرية الزرقاء في الأردنّ الحالي، سرقة ملابس من قافلة جمال على يد عليّ بن قاسم الذي هاجم المحقّقين «بسكّين وحاول ضربهم ولكنه مُنع من ذلك وبعدها افتُدي بالمال». وهناك رسالة توصية ترجع ـ إلى القرن التاسع عشر ـ بالتاجر يحيى المصمودي، «رجل من الطبقة العالية، سلوكه حسن ويعمل مع الحكومة العثمانية».

بكلمات أخرى، كانت تلك مطرّزة جدارية للتاريخ العربي ـ أو ما تبقّى منها ممّا التقطته على الطريق(*) ـ بينما كانت كمّية من مستندات القرون الماضية لا تزال تحترق في الحرارة الهائلة لأنقاض السجلّات الوطنية. لقد تمّت تنحية الشريف حسين حاكم الحجاز ومكّة ـ الذي كتب موظّفو بلاطه العديد من الرسائل التي أنقذتها ـ من قِبل السعوديين. وكان ابنه فيصل الذي أصبح ملك الأردنّ، جدّ الملك حسين وجدّ الملك الأردنيّ الحالي الملك عبدالله الثاني.

كانت بغداد لأكثر من ألف سنة العاصمة الثقافية للعالم العربي، وأهلها الأكثر ثقافة في الشرق الأوسط.. وقد أحرق حفيد جنكيز خان المكتبة في القرن الثالث عشر وقيل آنذاك إن مياه الفرات أضحت سوداء من حِبر الكتب. وفي الوقت الحاضر، يملأ الرماد الأسود لآلاف المستندات القديمة المحروقة سماء العراق. لماذا؟ مَن أرسل النهّابين؟ مَن أرسل مُضرمي النيران؟ مَن دفع لهم؟ مَن يريد تدمير هويّة هذا البلد؟ كان المشروع الأميركي في العراق يسير في الاتجاه الخطأ أسرع ممّا يمكن تصوّره، وتحوّل جيش التحرير إلى جيش احتلال. وقد أبرقت إلى صحيفتي يوم ١٦ نيسان/أبريل بما يلي:

«يتحدّث أفراد البحرية الأميركية في بغداد عن الإهانات التي توجّه إليهم: «إرحلْ! أغربْ عن وجهي!». لقد صرخ جنديّ أميركي في وجه عراقيّ يحاول التقدّم نحو السياج المحيط بمقرّ وحدة مشاة أميركية في العاصمة بالأمس. وقد شاهدت وجه الرجل يغمره الغضب ويردّد: «اللّه أكبر! اللّه أكبر! تبّاً لك».

كان الأمر أسوأ ممّا يبدو في الظاهر، فقد أصدر الأميركيون «بياناً إلى سكّان بغداد» وهو عبارة عن مستند تفوح منه الذهنية الاستعمارية ويفتقر إلى الإحساس. يطلب البيان من سكّان بغداد: «عدم مغادرة منازلهم في ساعات الليل من صلاة العشاء حتى صلاة الفجر. فخلال هذا الوقت، تتحرّك القوى الإرهابية المرتبطة بالنظام السابق لصدّام حسين والعناصر الإجرامية الأخرى في المنطقة. ويُرجى عدم مغادرة المنازل خلال هذه الفترة. وفي كلّ الأوقات يُرجى التقدّم بحذر من مواقع قوّات التحالف العسكرية».

وبناء على ذلك، يجب على ملايين العراقيين الآن ـ المحرومين من الكهرباء والماء ـ البقاء في بيوتهم محبوسين، من المغرب حتى الفجر وهو شكل من أشكال السجن في وطنهم.

ويُعتبر البيان المكتوب من قِبل قائد وحدة البحرية الأميركية الأولى بمثابة حظر تجوّل ضمني وغير علنيّ. وقد صرخت به امرأة عربية البارحة: «لو كنتُ عراقية وقرأت ذلك لتحوّلتُ إلى انتحارية». وتسمع الكلام نفسه في جميع أنحاء بغداد، من رجال الدين الشيعة وصولاً إلى رجال الأعمال السُنّة، ومُفاده أن الأميركيين جاءوا من

(*) هذا الملف من الرسائل ومستندات البلاط تمّ إيداعه السجلّات الملكية الهاشمية في عمّان، وذلك من قِبل صحيفة الإندبندنت.

أجل النفط فقط وأن حرب العصابات ستبدأ قريباً جدّاً. وليس هناك أدنى شكّ في إدّعاء الأميركيين أن هذه الهجمات من تدبير «بقايا» نظام صدّام أو «العناصر المجرمة». لكن ليست هذه هي القضية.

بالأمس، كان ضبّاط البحرية الأميركية يُجرون مفاوضات يائسة مع رجل دين شيعي مناضل من النجف لمنع اندلاع القتال حول المدينة المقدّسة. وقد قابلت رجل الدين قبل بدء المفاوضات وأبلغني أن «التاريخ يُعيد نفسه». كان يتحدّث عن الغزو البريطاني للعراق عام ١٩١٧ والذي انتهى بكارثة للبريطانيين. ومن أجل الدخول من البوّابة إلى مدينة الأنبار الصحراوية، تفاوض ضبّاط الاستخبارات الأميركية بالأمس مع زعماء القبائل في أفخم مطعم في بغداد.

كانت أمارات الانهيار في كل مكان. وفي كل مكان علامات على عدم احترام الوعود الأميركية بالتحرّر والديمقراطية... هذا ما لاحظه البغداديون ـ وما يلاحظه العراقيون في المدن الرئيسية للبلاد. الاستيلاء على جهاز الأمن الواسع الذي كان صدّام يحيط نفسه به. غرف التعذيب والبيروقراطية الضخمة التي كانت قاعدة له. وعد الرئيس بوش أن أميركا جاءت من أجل حقوق الإنسان في العراق، وأن المذنبين ومجرمي الحرب سوف يُلقى القبض عليهم ويحاكمون. الآن أصبحت مقارّ الشرطة السرّية في بغداد مهجورة بما فيها مقرّ قيادة المخابرات العراقية الذي تبلغ مساحته ثلاثة أرباع الميل، وقد شاهدت العديد منها. لكن لم يقم ضابط بريطاني أو أميركي واحد بزيارة تلك المراكز للبحث في المستندات القيّمة الموجودة هناك أو التحدّث إلى السجناء السابقين الذين يزورون أماكن تعذيبهم السابقة.. أكان ذلك تعبيراً عن تفاهة؟ أم إرادة؟.

خُذ على سبيل المثال، مركز أمن القاسمية قرب نهر دجلة. إنه فيلّا جميلة ـ كان يملكها عراقي من أصل إيراني أُبعد إلى إيران في الثمانينيّات ـ وأمامه حديقة صغيرة وأرض مزروعة.. للوهلة الأولى لا تلاحظ الخطاطيف الثلاثة في سقف كلّ غرفة، ولا حقيقة أن هناك قطعاً ضخمة من الورق الأحمر مزيّنة بصور لاعبي كرة القدم ملصقة على النوافذ لحجب الغرف عن الدخلاء. لكن على الأرض، في الحديقة، على السطح توجد ملفّات المعاناة في هذا المكان. وهي تُظهر على سبيل المثال أن رئيس مركز التعذيب كان هاشم التكريتي وأن نائبه يُدعى رشيد النقيب. وقد وصف لي السجين السابق محمد عيّاش جاسم كيف كان معلّقاً بالسقف من قِبل مُعذّبه النقيب عامر العيسوي الذي كان يعتقد أن جاسم عضو في حزب الدعوة الديني.

أخبرني: «وضعوا يديّ وراء ظهري هكذا وقيّدوهما ثم رفعوني في الهواء من معصميّ المقيّدين. استخدموا رافعة صغيره لرفعي حتى السقف، ثم تركوا الحبل على أمل تحطيم كتفي عندما أسقط». توجد الخطاطيف في السقف أمام مكتب النقيب العيسوي. وقد فهمت ماذا كان يعني ذلك. لم تكن هناك غرفة منفصلة للتعذيب وغرفة للتسجيل في مكان آخر. كانت غرفة التعذيب هي غرفة المكتب أيضاً. وبينما كان الرجل، أو المرأة، يصرخ من الألم أمامه، كان النقيب العيسوي يوقّع أوراقاً،

ويتلقّى اتصالات تلفونية ـ وتدلّ محتويات سلّة المهملات أنه كان يدخن عدّة سجائر في انتظار المعلومات التي يريدها من السجناء.

هل كان هؤلاء الرجال وحوشاً؟ أجل. هل يظنّهم الأميركيون كذلك؟ كلّا. هل يعملون الآن للأميركيين؟ أجل، محتمل جدّاً. في الواقع يمكن أن يكون بعضهم في الطابور الطويل لرجال الأمن السابقين الذين يقفون كلّ صباح خارج فندق فلسطين على أمل إعادة توظيفهم من قِبل وحدة الشؤون المدنية للمارينز الأميركيين. إن أسماء الحرس في مركز القاسمية للتعذيب في بغداد ـ كان المشاة ممنوعين من السير على الطريق في الخارج حتى لا يسمعوا الصراخ ـ مسجّلة كلّها في المستندات الملقاة على الأرض.

هؤلاء هم: أحمد حسن علّاوي، وعقيل شهيد، ونعمان عباس، ومحمد فايد. لكن الأميركيين لم يزعجوا أنفسهم لمعرفة ذلك. لذلك فإن السادة علاوي، وشهيد، وعبّاس، وفايد مرحّب بهم من قبل الأميركيين لطلب العمل.

هناك أوراق هويّات سجناء على المكاتب وفي الخزائن. ماذا حصل لوحيد محمّد، ومجيد طه، وصدّام علي ولازم حمود؟ لن نعرف. تقدّمت سيّدة ترتدي ملاءة سوداء من مركز التعذيب القديم. لقد أُخذ أربعة من أخوتها إلى هناك وعندما ذهبت للسؤال عمّا حدث، قيل لها إن الأربعة أُعدموا. وطلب منها مغادرة المبنى. لم تشاهد أو تدفن الجثث أبداً... وأبلغني رجل أن أخاه أُحضر إلى هذا المكان المرعب منذ ٢٢ سنة ولم يره ثانية.

والرجال الذين عذّبوا أيام حكم صدّام، ماذا كان عليهم أن يقولوا؟ قال لي أحدهم وكانت وظيفته في السجن تتضمّن تنظيف المشنقة من الدم والبراز بعد كلّ عملية إعدام: «لم نرتكب أيّ ذنب، لسنا مذنبين بأيّة تهمة، لماذا يفعلون ذلك بنا؟ أميركا، أجل تخلّصت من صدّام. لكنّ العراق لنا. نفطنا لنا. سوف نحافظ على قوميّتنا. سيبقى العراق. على الأميركيين الرحيل».

لو أراد الأميركيون والإنكليز فهم طبيعة المعارضة الدينية هنا، فما عليهم إلّا مراجعة سجلّات ملفّات الشرطة السريّة لصدّام. وجدت أحدها، التقرير رقم ٧٤٨١ تاريخ ٢٤ شباط/فبراير من هذه السنة ـ لأن المخابرات العراقية كانت لا تزال تعمل بجدّ ضدّ أعدائها الشيعة قبل أقلّ من شهر من الغزو الأميركي ـ حول الصراع بين الشيخ محمد اليعقوبي ومُقتدى الصدر (٢٢ سنة) نجل محمّد الصدر الذي أُعدم بموجب أوامر صدّام منذ أكثر من عقدين، وهو خلاف يظهر في آن واحد الحماس الشديد والتصميم الذي يقاتل به الزعماء الدينيون الشيعة بعضهم البعض. لكن بالطبع لم يزعج أحد نفسه لقراءة هذه المادّة أو حتى البحث عنها...

في نهاية الحرب العالمية الثانية، انتقل ضبّاط المخابرات الإنكليز والأميركيون الذين يتحدّثون الألمانية إلى داخل الرايخ المهزوم للاطّلاع على كل مستند في آلاف المكاتب العائدة إلى الغستابو في أنحاء ألمانيا الغربية. وفعل الروس الشيء نفسه في منطقتهم. ولكن في العراق، تجاهل الأميركيون والإنكليز

ببساطة الدليل الملقى في كلّ مكان للقراءة. وهناك مكان أكثر فظاعة كان على الأميركيين زيارته في بغداد، عنيتُ مقرّ قيادة المخابرات العامّة، وهو مجمّع ضخم مطليّ باللون الرمادي قصفه الأميركيون.. ومجموعة من الفيلّات والمباني الرسمية المليئة بالملفّات والأوراق والبطاقات.

إلى هذا المبنى كان يُؤتى بالسجناء السياسيين المميّزين لدى صدّام للتحقيق الوحشيّ ـ الكهرباء جزء أساسي منه ـ وإلى هنا أُحضر فرزاد بازوفت مراسل الأوبزرفر للتحقيق معه قبل إعدامه ـ والمبنى مزوّد أيضاً بأزقّة، وحضانة أطفال ـ لعائلات المحقّقين ـ ومدرسة حيث كتب طالب موضوعاً بالإنكليزية عن مسرحية بيكيت «في انتظار غودو». وكان هنا أيضاً مستشفى صغير وشارع اسمه «شارع الحرّية» ومصاطب ورد. إنه المكان الأكثر رعباً في كلّ العراق. وهناك التقيت ـ بشكل خاصّ ـ عالم ذرّة عراقياً كان يسير خائفاً حول المجمّع، وهو زميل للرئيس السابق لعلماء الذرّة العراقيين الدكتور شهرستاني. قال لي: «هذا آخر مكان أردت رؤيته في حياتي ولن أعود إليه أبداً. كان هذا مكان الشرّ الأكبر في العالم كلّه».

لكن على الأميركيين زيارته. كان كبار رجال الأمن في نظام صدّام مشغولين بإتلاف ملايين المستندات. وقد وجدت كومة كبيرة من أكياس الزبالة البلاستيكية السوداء خلف المبنى، في كلّ منها ألوف الأوراق الممزّقة. ألم يجدر بهم أخذها إلى واشنطن أو لندن أو إعادة تجميعها لمعرفة شرورها؟ هذا ما فعله الإيرانيون بملفّات السفارة الأميركية الممزّقة في طهران عام ١٩٨٠.

لكن مجدّداً، لم يزعج الأميركيون أنفسهم ـ أو لم يرغبوا ـ في البحث في هذه الأوراق. ولو فعلوا لوجدوا أيضاً أسماء العشرات من مسؤولي المخابرات العراقية الكبار، والعديد منهم معرّف به من خلال رسائل التهنئة التي يصرّ رجال الشرطة السرّية التابعين لصدّام على إرسالها لبعضهم البعض في كلّ مرّة يحصلون فيها على ترقية. أين العقيد عبد العزيز السعدي، والنقيب عبدالسلام سلاوي، والنقيب سعد أحمد العيّاش، والعقيد سعد محمّد، والنقيب مجيد أحمد وغيرهم على سبيل المثال الآن؟ لن نعرف أبداً. أو لا يُفترض بنا أن نعرف.

هناك أيضاً الحرائق التي دمّرت وزارات المدينة كلّها ـ طبعاً باستثناء وزارة الداخلية ووزارة النفط ـ ومكاتب الأمم المتحدة، والسفارات ومجمّعات الأسواق. وقد أحصيت حتى الآن ٣٥ وزارة دُمّرت بالنيران، ويزداد العدد. خذ على سبيل المثال المشهد الذي حصل يوم الأربعاء. كنت أتجوّل في أنحاء بغداد عندما رأيت عموداً كبيراً من الدخان الأسود يتصاعد في الأفق. توجّهت لرؤية الوزارة التي تُركت لتحترق. ووجدت نفسي أمام وزارة النفط، المحروسة بشكل جيّد من قِبل القوّات الأميركية، وكان بعضهم يضعون قِطع قماش على أفواههم بسبب سحب الدخان المتساقطة عليهم من وزارتي الزراعة والريّ المجاورتين. مشهد لا يُصدّق، أليس كذلك؟.. لم يكونوا قلقين لأن أحدهم أضرم النار في المبنى المجاور؟.

ثم راقبت حريقاً آخر أُشعل على بعد ثلاث كيلومترات. قدت سيّارتي إلى مكان الحريق لأجد اللهب يخرج

من نوافذ وزارة التعليم العالي، قسم علوم الكومبيوتر. وقربها مباشرة، كان جندي من البحرية الأميركية يقف بجانب حائط، قال إنه «يحرس مستشفى مجاوراً ولم يعرف مَن أشعل الحريق لأنه لا يمكنك النظر في كل مكان في الوقت نفسه». أنا على يقين الآن أن عنصر البحرية لم يكن مازحاً أو غير صادق... وإذا كان الأميركيون لا يريدون تصديق هذه القصّة، فإليكم اسمه: إنه العريف تيد نيهولم من الكتيبة الثالثة في الوحدة الرابعة من البحرية، وقد اتصلت بخطيبته جيسكا في الولايات المتحدة من أجل إبلاغها حبّه. . . لكنّ شيئاً ما رهيباً كان يحصل عندما تُعطى الأوامر للجنود الأميركيين بمراقبة الوزارات الحكومية ببساطة وهي تُحرق على أيدي الرعاع وعدم القيام بشيء حيال ذلك.

وكان هناك أيضاً شيء آخر خطير جدّاً ـ ومزعج جدّاً ـ يتعلّق بالجموع، إذ كانت تحرق مباني بغداد بما في ذلك المكتبات الكبيرة وملفّات الدولة. هؤلاء ليسوا لصوصاً. يأتي اللصوص أوّلاً، ويأتي مضرمو النيران بعدهم في باصات زرقاء وبيضاء. وقد لاحقت أحدهم بالفعل بعدما أشعل النار بوزارة التجارة وخرج مسرعاً من المدينة. إن الرواية الأميركية الرسمية الآن حول كل هذا تقول بأن النهب هو انتقام ـ تفسير ضعيف جدّاً ـ وأن الحرائق أُشعلت من قِبل بقايا نظام صدّام، أدوات الإجرام أنفسهم، بدون شكّ، الذين كانت لديهم صفة مميّزة في تنفيذ أوامر المارينز بحظر التجوال على سكّان بغداد.

لكن الناس في بغداد لا يصدّقون أن المؤيّدين السابقين لصدّام يُشعلون هذه الحرائق. ولا أنا أصدّق ذلك.. ربّما أراد صدّام أن تنتهي بغداد مثل غوتردامرونغ Götterdämmerung وربّما أراد تحويلها إلى مدينة محروقة قبل دخول الأميركيين. لكن ماذا بعد ذلك؟ إن اللصوص يجنون مالاً من عمليات النهب ولكنّ مُضرمي النيران لا يجنون مالاً. يجب أن يُدفع لهم. إن ركّاب هذه الباصات موجّهون بوضوح إلى أهدافهم. ولو كان صدّام قد دفع لهم مسبقاً لأخذوا النقود وتناسوا إشعال الحرائق في اللحظة التي اختفى فيها صدّام وتناسوا كل المشروع، ولما أضاعوا وقتهم في كسب المال المدفوع سلفاً.

إذن مَن هم، هذا الجيش من مُضرمي النيران؟ مجدّداً، لا نعرف. تعرّفت على أحدهم، ذلك اليوم، وكان رجلاً رجل متوسّط العمر، حليق الذقن يرتدي قميصاً أحمر ـ لا تستطيع تغيير الملابس كثيراً عندما لا يكون لديك ماء للاغتسال ـ وفي المرّة الثانية التي رآني فيها وجّه رشّاشه الكلاشينكوف نحوي. إنّ اللصوص لا يحملون أسلحة. إذن، مِمّ كان خائفاً؟ لمَن كان يعمل؟ لمصلحة مَن ـ الآن بعد الاحتلال الأميركي لبغداد ـ تدمير كلّ البنية التحتية الفعلية للدولة مع إرثها الثقافي؟ لماذا لم يوقف الأميركيون ذلك؟.

كما قلت، كان شيء غير عادي يحصل هنا في بغداد.. وبطلب ممّن يحصل؟ إن هذه الأسئلة يجب أن توجّه إلى حكومة الولايات المتحدة. لماذا، على سبيل المثال، ادّعى وزير الدفاع الأميركي الأسبوع الماضي أنه لا يوجد نهب على نطاق واسع أو تدمير لبغداد؟ كان تصريحه كذباً. لكن لماذا صرّح بذلك؟ يقول الأميركيون أن ليست لديهم قوّات كافية لاحتواء الحرائق، وهذا أيضاً غير صحيح. إذا لم تكن لديهم قوّات، فماذا تفعل هذه

المئات من الجنود المنتشرة في حدائق النصب التذكارية للحرب العراقية ـ الإيرانية القديمة طيلة النهار؟ أو مئات الجنود المعسكرين في حدائق الزهور لقصر الرئيس قرب جسر الجمهورية؟.

لذلك كان أهالي بغداد يسألون مَن يقف وراء تدمير الإرث الثقافي ـ هويّتهم الثقافية المهمّة ـ ونهب الكنوز الأثرية من المتحف الوطني، وإحراق السجلّات العثمانية كاملة، والسجلّات الملكية والرسمية، والمكتبة القرآنية، والبنية التحتية الواسعة للدولة التي ندّعي أننا سنؤسّسها لهم. لماذا، يسألون، لم يعد لديهم كهرباء أو ماء؟ لمصلحة مَن يجري تفكيك العراق، تفتيته، حرقه، تدمير تاريخه، تدميره؟ لماذا صدرت أوامر مِمّن يُسمّون أنفسهم محرّرين بفرض منع التجوّل على ملايين الناس؟ من السهل على مراسل التنبّؤ بالخراب، وبخاصّة بعد حرب قاسية فاقدة لكلّ شرعية دولية. لكنّ الكارثة تنتظر عادة المتفائلين في الشرق الأوسط، ولاسيّما منهم المتفائلون المزيّفون الذين غزوا الدول الغنية بالنفط بأعذار عقائدية، وادّعاءات أخلاقية فضفاضة، واتّهامات مثل حيازة أسلحة الدمار الشامل التي لم تثبت بعد. لذلك سأقوم بتنبّؤ مخيف.

إنّ حرب أميركا للتحرير قد انتهت وحرب العراق للتحرّر من الأميركيين على وشك البدء. وبتعبير آخر، إن القصّة الحقيقية والمخيفة تبدأ الآن.

الفصل الرابع والعشرون

إلى البرّية

يُعتبر الخطّ الثامن السريع الطريق الأخطر في العراق. فهو مُغطّى بشاحنات أميركية محطّمة ومحترقة وسيّارات شرطة مدمّرة بالقذائف الصاروخية. وجميع نقاط التفتيش الرسمية عليه مهجورة. والثوّار يتدفّقون من القرى إلى الشرق. هذا بلد الخطف، بلد قطع الأعناق... الخطّ الثامن السريع هو رمز لانهيار كلّ أحلامنا. وبينما أنا واقف على الطريق أتحدّث إلى عائلة عراقية، باحثاً عن موقع سيّارة الصليب الأحمر التي قُتل سائقها للتوّ، بدأت الأرض تهتزّ من تحتنا وغمرنا صوت وحشي قويّ وهادر.

في البعيد إلى الجنوب، كانت ترتفع في الجوّ، سحابة رمادية وقد بدت الشمس قاتمة بفعل الدخان المتصاعد من ألف عادم، في أكبر قافلة سيّارات شاهدتها في حياتي. كان الأميركيون يقومون بتبديل وحداتهم. وكان هذا أكبر تحرّك عسكري منذ الحرب العالمية الثانية، ٤٠ ميلاً من العربات المصفّحة والدبّابات والرجال على الخطّ الثامن السريع يتحرّكون باتجاهي. جلست مع العراقيين على الزبل الرطب إلى جانب الطريق. فهذا شيء عليّ أن أشاهده.. هذا شيء عليّ أن أستوعبه إذا كنت أرغب في فهم الحرب. كانت دبّابات أبرامز وعربات برادلي المقاتلة وسيّارات هومفي ومئات الشاحنات مع آلاف الجنود الشبّان بملابس القتال والدروع الواقية يصوّبون أسلحتهم نحو جانب الطريق الخطر. ثم جاءت ستّ طائرات أباتشي وحلّقت فوق الأشجار وكانت مزوّدة برشّاشات تتحرّك مثل الهوائيّات ثم اتّجهت نحو الخط السريع. لم يزعج الجنود أنفسهم للنظر إلى أعلى، وألقى بعضهم نظرة علينا، على ذلك الرجل الإنكليزي وتلك العائلة العراقية الجالسين على الأوساخ، فيما رجال الحملة الصليبية يتوجّهون إلى حصونهم الإسمنتية الكبيرة على نهر دجلة وبعيداً في برّية الاحتلال.

وها إنّي قد بدأت أفهم.. قبل ألفي عام تقريباً إلى الغرب من هذا المكان، كان يمكن أن نكون جالسين إلى جانب الطريق بينما الأرض تهتزّ من وقع خطوات قوّات روما. والآن نحن نعيش في الإمبراطورية الأميركية. أجل كانت هذه الحرب لأجل النفط. وكانت مليئة بالجنون والعنجهيّة والأكاذيب. لكن كانت مليئة أيضاً بالرغبة، بالحاجة العضوية، في استخدام القوّة بدرجة عالية، استناداً بلا شكّ إلى أحلام المحافظين الجُدد، ولكنّها القوّة التي لا رادع لها والقاسية بشكل مفرط. يستطيع جيشنا الذهاب إلى بغداد، وسيذهب. وسوف يتدفّق ليغمر سامرّاء وبابل وكل الخلافات (جمع خلافة) على الأرض التي بدأت عليها الحضارة.

لكن لا يمكن أن تأتي جيوش أجنبية إلى هنا وتخرج من دون عقاب. كان يوم ٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٣ يوماً حارّاً. عالياً فوق العراق، أرسل بوش عينه الأولمبية إلى أجواء بلاد ما بين النهرين القديمة، بعدما أثنى على الأميركيين الذين خططوا للحرب ضدّ صدّام حسين.... وبعيداً إلى الأسفل، عند إحدى زوايا شارع قذر، في مدينة قذرة تُدعى الفلّوجة التي يفضّل السيد بوش ألّا يسمع باسمها، تُنسج قصّة عن الدم الأميركي وعن القوّة الأميركية والأحذية الأميركية التي تحطّم أبواب البيوت العراقية. صرخ جندي أميركي لدى رؤيته سيّدة في فناء بيتها تحمل رشّاش كلاشينكوف: «لديها سلاح، انتقل إلى الجهة الأخرى من الطريق وإلّا فإنك ستصاب أثناء تبادل إطلاق النار»... مال نحوي بينما كنت أنتقل إلى الطرف الآخر من الطريق حيث رأيت السيدة والكلاشينكوف. صرخ بها مجدّداً: «ألقي السلاح!»... كان الجنود يشعرون بالحرّ والتعب والغضب، فقد استيقظوا منذ الساعة الثالثة صباحاً، أي منذ أن ألقى مسلّحون قنبلة يدوية على شاحنة محمّلة بالجنود من الكتيبة ١٠١. وها أنت ترى هنا لماذا تجنّب بوش القيام بزيارات انتصارية إلى العراق.

كان الجنود الناجون من الهجوم يستذكرون الساعات الأولى. قال أحدهم: «ألقوا قنبلة على شاحنة زنتها طنّ ونصف طنّ محمّلة بجنود الكتيبة ١٠١ ثم أمطروها بوابل من النيران من الأسلحة الرشّاشة ثم اختفوا في الظلام. كان الرجال بحالة مزرية، فقد قُتل أحد الجنود وخرج دماغه من رأسه بينما كان ثمانية جنود آخرين يصرخون في مؤخّرة الشاحنة وهم يستخرجون الشظايا من أرجلهم». وقبل طلوع الفجر، عاد الجنود وقاموا بتنظيف دماء زملائهم على الطريق، ثم عادوا مرّة أخرى لمعالجة الأمور مع الناس الذين يعيشون في ناحية من أنحاء مدينة الفلّوجة البعثية القديمة.

قبل رحلته في أجواء العراق بساعة ونصف ساعة، بذل بوش كلّ ما يمكن لكي يصوغ رواية أفضل ما تكون تفاؤلاً حول حرب العراق. «أصبح العراق أفضل مكان الآن بعد رحيل صدّام» قال، وأردف: «انتهى شرّ كبير».. وأثنى على «العمل الإنساني للقوّات الأميركية» في البلاد. أما فيما يتعلّق بأسلحة الدمار الشامل، فقد كان أكثر تكتّماً. «نحن نسيطر على الوضع وسنكشف الحقيقة... لكنْ هناك شيء واحد مؤكّد وهو أن أيّ تنظيم إرهابي لن يحصل على أسلحة الدمار الشامل من النظام العراقي لأن الأخير لم يعد يملكها». ولكن نحن نعرف طبعاً أنه لم يتمّ العثور على أيّة أسلحة دمار شامل.. وأنهم لن يعثروا عليها أبداً هنا...

إذا كان بوش فخوراً ويظنّ بأنّ على جنوده أن يكونوا فخورين بما قاموا به في العراق ـ هذا ما أبلغ به قادته العسكريين من رجال ونساء ـ فإن الفلّوجة كانت تعطي صورة أخرى: العرق والخوف ومكبّرات الصوت توجّه الأوامر للسكّان المدنيين بالنزول إلى الشارع. . . . هل صحيح أن المسلّحين «الذين اختفوا تحت جُنح الظلام» قد اختبأوا بالفعل في البيوت القريبة من الطريق الرئيسي بالقرب من مسرح الهجوم؟. لايمكن أن يفعلوا ذلك إلّا إذا كانوا مُغفّلين. لكنّ أحد المسؤولين في الكتيبة ١١٥ الأميركية قرّر إرسال الشرطة العسكرية لمصادرة بعض الأسلحة واعتقال المشبوهين المعتادين. لم يكن المشهد جميلاً.

وكلّما توغّل هؤلاء الجنود في احتلالهم كانوا يزدادون خبرة حول موقف الناس الذين «حرّروهم» للتوّ. كان البعض رجالاً صالحين... خُذ مثلاً الرقيب سيث كول الذي عاش في مدينة نورثامبتون الإنكليزية والذي صرّح قائلاً: «إذا كان عشرة في المئة من سكّان الفلّوجة يكرهون الأميركيين فهذا كثير جدّاً». أو خُذ الرقيب فيل كومينغز.. وهو شرطي من رود أيلاند، ضخم بشوش كان يتحدّث إلى العراقيين الذين كانوا ينظرون إليه من على الرصيف... «إن البعض من هؤلاء الناس لا يحبّنا بالرغم من أننا جئنا لتحريرهم.. ولكنّني أبتسم لهم دائماً.. وفي المدارس كان الأطفال يلقون علينا الحجارة.. ولكنّني كنت أعطيهم الحلوى.. أعطيهم حلوى فيعطوني حجارة»....

لم يستمرّ الأمر طويلاً لمعرفة سبب إلقاء الأطفال الحجارة. فقد كان هناك جندي أميركي آخر على مسافة ٤٠ متراً منشغلاً في خسارة القلوب والعقول. أمر أحد الجنود الاحتياطيين بطرد مجموعة من الفتيان المراهقين ثم توجّه نحو رجل متوسّط العمر كان يجلس على الرصيف وصرخ به: «إذا وقفت سوف أدقّ عنقك».

كان ذلك بالضبط عندما لمحوا سيّدة تحمل رشّاش كلاشينكوف... وانتشرت الصرخة في أوساط القوّات الأميركية: «لديها سلاح! هناك امرأة تحمل سلاحاً». إن قضاء بضع ساعات مع الجنود الذين هم ضحايا بقدر ما هم منتصرون يجعلك تدرك لماذا كان عليهم الصراخ لنقل المعلومات، تماماً كما يفعل الباعة المتجوّلون. ارتفعت الصرخة مجدّداً وانتقل الصوت إلى الطريق: «لديها سلاح! لديها سلاح!».

وجّه بعض الجنود أسلحتهم عبر الباب الحديدي الخلفي وهم يصيحون: «ألقي السلاح».. بينما كان جندي من الشرطة العسكرية يخلع الباب بركلة من حذائه. «وضعت السلاح جانباً ـ صادرنا السلاح». أسرع الجنود الثلاثة إلى الباحة ومعهم السلاح ثم عمدت جنديّتان إلى إحضار المرأة وهي مدرّسة في الثانوية المحلّية، محجّبة وترتدي ثوباً أسود. سألتها إحدى المجنّدات: «لماذا تحملين سلاحاً؟» فرفعت قبضتيها بتحدّ ورفضت الكلام. وفي نهاية الشارع تمّ تحطيم باب آخر وشاهدت جُنديْين من الشرطة العسكرية يأخذان شاباً في سيّارة هومفي بينما كان رجل مسنّ يتحدّث مع ضابط شاكياً: «رجاء سيّدي، لا تأخذ ابني، لم يفعل شيئاً. لماذا ابني، لماذا ابني؟». لكنّ الأمور لم تكن أفضل على بعد متريْن.. كان هناك جندي من ماساشوستيس يستمع إلى رجل يتحدّث الإنكليزية بشكل جيّد ويريد مساعدتنا. عبر الطريق، كان ثلاثة جنود يحطّمون باباً حديدياً بينما كان العراقي يبلغ الجندي: «هذا رجل مريض ومسنّ يعيش هنا ويبيع الحلوى».. لكن الجندي لم يُجب.

وقفنا في الحرّ حتى فُتح الباب الأمامي. وقد صوّب الجنود الثلاثة أسلحتهم نحو فُرجة الباب بينما كانت تتّسع. وبدا رجل مسنّ لحيته كثيفة وشعره أبيض، ـ مخلوق ضعيف من العهد القديم حسبما كتبت في مفكّرتي ـ كان مستنداً إلى برّاد البوظة ويرتدي ملابس بيضاء. كان أشبه بنبيّ توقّف الأميركيون للحظات. ثم قال أحدهم: «آسف سيّدي، علينا تفتيش محلّك». دخل الجنود الثلاثة المحلّ بينما كان الرجل المسنّ يقف في الشارع ناظراً إلينا وإلى المحلّ ثم اختفى في الظلام.

كان هناك بعض إطلاق نار على بُعد بضع مئات من الأمتار وركض الجنود للاحتماء خلف الجدران والحدائق. ثم جرى تحطيم باب مطليّ باللونين الأبيض والذهبي وخرج رجل يرتدي دشداشة رمادية ويداه على رأسه ـ جلس أمام الباب وجلست عائلته خلفه بينما دخل الأميركيون البيت. تمّت مصادرة رشّاش كلاشينكوف آخر ـ كلّ عائلة في العراق تقريباً تملك اثنين أو ثلاثة من هذا السلاح ـ كان معظم هؤلاء العراقيين من الطبقة المتوسّطة، وهم متعلّمون ويملكون بيوتاً تشبه الفيلّات في هذه المدينة المستنزَفة بمصانع ذخيرتها المدمّرة، ومنظمات حزب البعث المتجذّرة في إدارتها ومؤسّساتها بحيث كان من الصعب إيجاد مسؤول لا يحمل بصمة صدّام.

جئت إلى هنا منذ ٢٣ عاماً لرؤية معسكر اعتقال الأسرى الإيرانيين الكبير في حرب الخليج. وكان الناس هنا وفي المدينة المجاورة الرمادي، قساة.... وتوقّعت أن يؤدّي تحطيم أبوابهم إلى ردّة فعل.

وهكذا أوجد الأميركيون مئة عدوّ آخر بين مَن حرّروهم. وقد أبلغني شاب من الفلّوجة أنه قبل بضعة ليال وصل المسلّحون إلى منزل عائلته وطلبوا منهم الانضمام الى المقاومة. قال: «رفضنا ولا أعلم ماذا أقول لهم إذا عادوا ثانية».

بعد انتهاء عملية التفتيش التفت نحوي جندي من الشرطة العسكرية في الفلّوجة، وقال: «جاءت كتيبة المشاة الثالثة إلى هنا لتقوم بتفتيش هذا المكان غداً». وعلى الطريق شرقي بغداد شاهدت المدرّعات تتقدّم نحو المدينة. هاهم جميعاً مجدّداً، دبّابات برادلي وأبرامز وهومفي وناقلات جند وشاحنات. وقد كتب الجنود على أسلحتهم ودبّاباتهم أسماء وعبارات مثل: «الردّ المسلّح» مع صورة لفتاة عارية قرب قذيفة دبّابة. . «أتريدون جولة أخرى؟».. «مناسبة قاتلة»، «هل من كلمات أخيرة؟». .. «الأب المشاكس» ـ مع صليب مسيحي قرب الاسم. سوف تواجه الفلّوجة كلّ هذا. وعلى مرّ الشهور راحت الفلوجة توقع «مناسباتها القاتلة» بالأميركيين.

وأنا أكتب هذه الكلمات اليوم، في صيف ٢٠٠٥، حيث عدت لفترة قصيرة إلى المدينة التي ما زلت أحبّ أن أفكّر فيها باعتبارها بيروت الآمنة... وبينما أراجع في مفكّرتي ما دوّنته خلال السنتين ونصف السنة الأخيرة، كان التمرّد العراقي يتّخذ طابعاً وحشياً وملحمياً. في بغداد الآن يمارس العديد من المراسلين «الصحافة الفندقية»... مختبئين في غرفهم مأمورين من قِبل رجال أمنهم بتجنّب حمّامات السباحة، أو استخدام نظام الهاتف الخليوي العراقي المدمّر للحديث مع الأميركيين والإنكليز المسجونين في حصونهم عبر نهر دجلة، خلف حواجز إسمنتية محصّنة بمدافع رشّاشة أقاموها حول قصر صدّام الجمهوري القديم. كنت أنا وباتريك كوكبورن مندوب الإندبندنت والعديد من الصحفيين الآخرين لا نزال نتحرّك في أنحاء بغداد وحتى على طريق المطار القاتل.. لكننا كنّا نقوم بذلك مع عراقيين في سيّارات خاصّة ونحن نخفي وجوهنا وراء صحيفة عربية، ننظر من النوافذ، ونتوقّف لحظات فقط لمشاهدة المجزرة التي تركها الانتحاريون وراءهم... صحافة فئران. الآن كان على الحكّام العسكريين والسياسيين للعراق الجديد أن ينتقلوا بالمروحيّات من مراكزهم إلى المطار ـ كان طريق المطار مصنّفاً خطراً من

قِبل السلطات ويحظر على الغربيين استخدامه.. وكلّ ما كانوا يستطيعون رؤيته من حصونهم في البلاد التي يحكمونها كان يمرّ عبر أسلحة دفاعاتهم. قُم بزيارة إلى أيّ حُصن صليبيّ في لبنان وسوف تجد أن كلّ محاربي أوروبا المسيحيين كانوا ينظرون من حصون القرن الثاني عشر عبر فتحات في جدران تلك الحصون. أجل نحن الصليبيون الآن. لكن نحن صليبيون غافلون عن الحقيقة. وما زال جورج بوش وطوني بلير يدّعيان أن حربهما تسير بشكل جيّد، فيما قُتل عشرات الآلاف من العراقيين وما زالوا يُقتلون. إن انتحاريي مخازن وال مارت الذين صُنعوا على ما يبدو من خطوط تجميع مخفية ـ يفجّرون أنفسهم بمعدّل اثنين أو ثلاثة في اليوم. وقد وجِدت الجثث بالعشرات على ضفاف دجلة وألقيت في مكبّات النفايات. وجرى خطف الأجانب وقطع رؤوسهم أمام الكاميرات. ولم يُعثر مطلقاً على أيّة أسلحة دمار شامل أو أيّة علاقة بين صدّام حسين ومجازر ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

أبلغونا أن الحرب تسير بشكل جيّد حتى الآن.. وأمام جمهور مذهول من الصحفيين أعلن طوني بلير أن حرباً ثانية ـ ضدّ الإرهاب ـ تدور في العراق الآن.. إن العراق هو على طريق الديمقراطية بعد الانتخابات الوطنية، بالرغم من امتناع غالبية السنّة عن التصويت. هكذا هو الأمر، صدّام مسجون وينتظر المحاكمة وهو موجود لدى الأميركيين في قاعدتهم في قطر لأن العراق غير آمن. إن الديمقراطية تتطوّر في الشرق الأوسط أو هذا ما علينا تصوّره. تذكّرت الذين ماتوا، مارغريت حسن السيّدة اللطيفة والقوية التي كانت توزّع الدواء للأطفال المحتضرين، والمصوّرين المخطوفين وهم يبكون، ويعاملون معاملة سيّئة وتُطلق النار عليهم بشكل مباشر ويُعدمون أمام كاميرات التلفزيون. كانت مارلا روزيكا تجلس قرب المسبح في فندق الحمراء وهي تُحصي عدد القتلى منذ بداية الحرب. خمسون ألف؟ مئة ألف بحسب ما ورد في التقرير؟ احترقت مارلا حيّة عندما فجّر انتحاري نفسه ضدّ قافلة من المرتزقة الأميركيين على طريق المطار. وشاهدت وجه فيل بيغلي عدّة مرّات وهو يتوسّل برسالة موجّهة إلى طوني بلير. ثم كانت العملية التي لا مفرّ منها: قطع رأسه.

كنت أقوم يومياً بزيارة مشرحة المدينة في بغداد. كان يصلها حوالي عشرين جثّة جديدة كل يوم وأحياناً ثلاثون وأحياناً عائلات بكاملها مقتولة أو ممزّقة من قِبل انتحاريين، أو مقطّعة حتى الموت، أو مقتولة على نقاط التفتيش الأميركية. وعندما كان الأميركيون يحضرون جثثاً إلى المشرحة، كانوا يطلبون من الموظفين عدم إجراء تشريح. ماذا كان يعني ذلك؟

خارج المشرحة، كان أهالي القتلى ينتحبون ويصرخون ويشتمون الأميركيين حتى ولو كان فقدان أحبّائهم قد حصل في صراعات عائلية أو ثأرية. وليس لدى الأميركيين أو الإنكليز لوائح بالقتلى العراقيين بل لديهم فقط أسماء القتلى من جنودهم ـ أكثر من ١١٠٠ قتيل أميركي حتى صيف ٢٠٠٥... هكذا كان باستطاعتنا أن نتحدّث «عن تضحياتنا»، وأن نتجاهل مصير عشرات الآلاف من هؤلاء الناس الذين جئنا لتحريرهم.

كيف بدأت.. بداية النهاية؟ بدأت في الفلّوجة، بعد أيام فقط من بدء الاحتلال، عندما أطلق جنود الكتيبة ٨٢ المجوقلة النار على حشد من العراقيين السنّة وقتلوا سبعة عشر منهم. قالوا إنهم تعرّضوا لإطلاق النار، لكنّ

المراسلين الذين وصلوا إلى المدرسة حيث يتمركز الجنود لم يجدوا أيّة آثار للرصاص. انتقلت المدينة لاحقاً إلى سيطرة المقاومة العراقية الشرسة وبعدها الرمادي. وكذلك خضعت معظم المحافظات لسيطرتهم. من أجل ذلك، عاود الأميركيون هجومهم على الفلّوجة للمرة الثانية وتقدّموا وسط أنقاض المدينة المدمّرة. لقد انتصرنا. بعد وصول بول بريمر أول حاكم أميركي ـ قام بتعيين عميل المخابرات الأميركية السابق أياد علّاوي رئيساً لحكومة انتقالية ـ وصف رجال المقاومة «بالقتلى الآخرين» و«القساة» و«بقايا صدّام»... وكلّ ما كان مطلوباً من أجل إنهاء المقاومة هو القبض على صدّام.

كان مخطئاً. تذكّرت شاباً عراقياً غاضباً من الرمادي قُتلت عائلته عند نقطة تفتيش أميركية. أبلغني عندما التقيته: «لن أنضمّ إلى المقاومة ما دام صدّام حُرّاً مع عائلته، لأننا إذا أخرجنا الأميركيين من العراق سيعود صدّام. لكن إذا قتلوا عُدَيّ وقُصَيّ وصدّام فسوف أقاتل الأميركيين شخصياً». وقد قتل الأميركيون ولديْ صدّام عُديّ وقُصيّ بالإضافة إلى ابن قُصيّ البالغ من العمر ١٤ سنة ـ والذي لم يتحدثوا عنه كثيراً ـ كانوا في فيلّا تشبه القصور القديمة في الموصل، وقتلتهم القوّة الخاصّة ٢٠ وهي مزيج من أفراد القوّات الخاصّة وقوّات السي آي إي العاملة التي لم تزعج نفسها بمحاولة اعتقالهم وهم يقاومون.. وبعدها بالتأكيد جرى إلقاء القبض على صدّام.

«لقد قبضنا عليه في حُفرة تحت الأرض ـ سيّداتي وسادتي!» هذا ما صرّح به بريمر للناس وأضاف: «هذا يوم كبير في تاريخ العراق». كان من المفترض أن يكون يوم ١٣ أيلول/سبتمبر تاريخاً لانتهاء الانتفاضة. فبعد الذي حصل لماذا قد يزعج الناس أنفسهم لقتال المحتلّين؟ كان صدّام رثّ المظهر، ودلّت عيناه المتعبتان على هزيمته بالإضافة إلى الإذلال نتيجة وجود ٧٥٠ ألف دولار بحوزته في الحُفرة. وبسرعة تمّ تحويل صدّام إلى محكمة سرّية مقيّداً بالأغلال. وبدا في الشريط الأوّل والمميّز الذي عرضه الأميركيون شبيهاً بسجين في روما القديمة، البربري المستسلم في النهاية، ويده تداعب لحيته الهزيلة. ربّما شاهدت أشباح الإيرانيين والأكراد المقتولين بالغاز والشيعة المقتولين والمدفونين في مقابر جماعية في كربلاء، والأسرى المقتولين تحت التعذيب في مراكز الشرطة السرّية الصدّامية، شيئاً مماثلاً.

تطلّبت عملية القبض على الرجل، الذي كان أفضل أصدقاء الغرب طيلة ١٢ سنة في الشرق الأوسط وعدوّه الأكبر طيلة ١٢ سنة أخرى، حوالي ٦٠٠ جندي أميركي. وتم العثور على الرئيس العراقي في حُفرة قذرة عمقها ٨ أقدام داخل مزرعة على ضفاف دجلة قرب قرية الدور، وهو زعيم حزب البعث العربي الاشتراكي ومقاتل سابق وقائد غزو لدولتين وصديق سابق لجاك شيراك وحائز على مديح الرئيس ريغان. كان من الصعب، من خلال النظر إلى هذه الصور لأسد بغداد ـ كما كان يصف نفسه ـ التذكّر كم كان يبدو ملوكياً في الماضي. هذا هو الرجل الذي كان ضيف الشرف لمدينة باريس عندما كان شيراك عُمدتها وعندما كان الفرنسيون يتذكّرون اليعقوبيين من خلال نظامه الدامي. هذا هو الرجل الذي تفاوض مع الأمينين العامّين للأمم المتّحدة بيريز دي كويلار وكوفي أنان، والذي تحادث على فنجان من القهوة مع الرجل الذي أصبح وزيراً للدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد، والذي قابل تيد هيث وطوني بن، وكان ضيفاً على رؤساء أوروبا.

شعرت بشيء من الرضى، عندما توجّهت إلى قرية الدور على نهر دجلة في شمال العراق، ووصلت إلى شجرة البرتقال حيث تمّ القبض على صدّام، ونزلت إلى الحفرة تحت الأرض وتمدّدت داخلها. منذ سبعة أشهر كنت جالساً على عرشه الرئاسي الأحمر في أكبر قصوره الرخامية، والآن أنا هنا أنزل إلى آخر مخبأ له.. وهو مكان رطب ومظلم وإسمنتي من الداخل ـ يبلغ طوله ٨ أقدام وعرضه ٥ أقدام ـ أشبه بسجن تحت الأرض كما يمكن أن يتصوّره أيّ من ضحاياه.

وبدل الثريّات المعلّقة، لم يكن هناك سوى مروحة بلاستيكية رخيصة مربوطة بفتحة التهويّة.. تذكرّت أوزيمانديّاس: هنا في هذا المكان تحوّلت في النهاية جميع أحلامه إلى سراب... وكان المكان بارداً.

> وجدت الكتب الأخيرة التي طالعها صدّام في الكوخ، منها: الأعمال الفلسفية لابن خلدون، والعقائد الدينية، المؤيّدة للشيعة، للمنظّر العبّاسي الإمام الشافعي.. ومجموعة من كتب الشعر العربي. كانت هناك أشرطة أغانٍ عربية، وبعض الصور البالية لخراف عند المغيب وسفينة نوح مليئة بالحيوانات. لكن لم يظهر المكان شبيهاً بمقرّ قيادة للمقاومة أو مكان يمكن شنّ حرب منه أو البدء بانتفاضة أو مثل مخبأ لهتلر مع رجال مخابراته ومعاونيه وهم يتلقّون آخر أوامره.

ومن أجل التوغّل أكثر داخل أكثر الحفر شهرة، كنت مضطراً إلى الجلوس عند المدخل الخشبي وإنزال قدميّ في فتحة ضيّقة لأجد نفسي على أربع درجات من الطين ... ولمتابعة الدخول إلى ما تبقّى من تاريخ حزب البعث كان عليك استخدام يديك. بعدها تجد نفسك جالساً على الأرض. لم يكن هناك ضوء أو ماء، وإنما جدران من الإسمنت ومروحة وسقف مصنوع من ألواح الخشب، وفوقها تراب ثم أرضية إسمنتية لكوخ المزرعة. فوق هذه الزنزانة الكئيبة تحت الأرض، كانت هناك شبه جنّة من أشجار النخيل الكثيفة وأشجار البرتقال المثقلة بالثمار الذهبية ومجموعات من القصب، وأصوات الطيور المختبئة داخل أغصان الأشجار. وهناك أيضاً زورق أزرق قديم مربوط خلف حائط من سُعف النخيل، وكان هذا آخر وسيلة للهرب عبر نهر دجلة الفضّي في حال أطبق عليه الأميركيون.

بالطبع أطبقوا عليه من اتجاهين، من النهر وعبر الممرّ الضيّق الموحل نفسه الذي أخذني إليه جنود الكتيبة الرابعة من مُشاة البحرية الأميركية. ربّما سارع صدّام إلى الهرب من الكوخ حيث كان يتناول طعامه وعاد إلى الحفرة بسرعة وقد قلب طبقاً من الحبوب ومن الحلويات التركية على الأرض كما لاحظت. وعندما قام الأميركيون بتفتيش الكوخ، لم يجدوا شيئاً مريباً ـ سوى إناء النبات موضوع بشكل غريب فوق سُعف نخيل يابسة... كان قد وضِع هنا من قِبل رجلين تمّ القبض عليهما في وقت سابق وهما يحاولان الهرب. وقد وجدوا مدخل الحفرة تحت الإناء.

كان الجنود يتهادون في سيرهم حول «الموقع» (وهي الكلمة التي استخدموها كما لو أنهم اكتشفوا موقع مدينة

سومرية أثريّة وليس فنّاً صغيراً موحلاً بعثياً مزيّفاً)، وكانوا غير مبالين إلى حدّ التعب المملّ... طلبوا مني أن أترجم لهم الكلمات العربية الموجودة فوق غرفة نوم صدّام.. كانت تبدأ بفاتحة القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم.. وأعطاني الجنود مصابيحهم لكي أتنقّل داخل مطبخ صدّام..

إذن، ماذا كان يمكن أن نعرف عن صدّام من خلال ذلك: أي من خلال مكان إقامته الخاصّ والأخير في العراق؟ حسناً، لقد اختار مخبأ يبعد ٢٠٠ متر فقط عن موقع يدلّ على انسحابه الشهير عبر نهر دجلة عام ١٩٥٩ عندما كان هارباً وجريحا بعد محاولته اغتيال رئيس سابق. وهنا حيث استخرج الرصاصة من جسده، وعلى تلّة منخفضة تطلّ على أشجار النخيل يقوم مسجد يهدي إلى المكان ومقهى طلب فيه صدّام بيأس مساعدة رجال القبائل للهرب. انسحب صدّام في أيامه الأخيرة إلى حيث ماضيه، إلى أيّام العزّ التي سبقت مجازره.

كان يستخدم محوّلاً صغيراً، وجدته موصولاً ببرّاد صغير. وكان هناك سريران صغيران وبعض الأغطية القذرة. وفي المطبخ الصغير وجدت بعض المقانق مدلّاة للتجفيف وموزاً وبرتقالاً بالإضافة إلى مُعلّبات من لحوم الدجاج والعجل الأردني وعُلب سردين قرب المغسلة. وكانت ألواح شوكولاتة مارس Mars وحدها طازجة.

ماذا إذن، اكتشف صدّام هنا في أيّامه الأخيرة؟ راحة البال بعد سنوات من الجنون والبربرية؟ مكاناً يفكّر فيه بذنوبه الرهيبة وكيف انتقل ببلده من الرخاء إلى الغزو الأجنبي والعُزلة، ومن سنوات التعذيب والقمع إلى عالم من الذلّ والاحتلال؟ ربّما صدحت الطيور في الليل وتلاطمت فوقه أوراق النخيل. . لكن بعدها لا بدّ أن الخوف قد سيطر عليه وكذلك المعرفة المؤكّدة بأن الخيانة مِضمار مُستتر. ربّما كان الجوّ بارداً في هذه الحفرة.. لكنه لم يكن أبرد ممّا كان عليه عندما وصلت أيدي واشنطن القوية عابرة المحيطات والقارّات، وجاءت لتقبض في هذا البستان وتحت ذلك الإناء البشع على الخليفة المفترض وهو في زنزانته الضيّقة. ..

لكن كان هناك استنتاج آخر وافق عليه كلّ عراقي التقيته.. وهو أن هذا الرجل الممرَّغ، المثير للشفقة بشعره الطويل القذر، والذي يعيش في حُفرة تحت الأرض مع ثلاث قطع من السلاح وأموال مثل أهل الكهف، ليس بالرجل الذي يقود الانتفاضة العراقية ضدّ الأميركيين. إذا كان الكثير من العراقيين يصرّحون، مثل الرجل الذي التقيته في الرمادي قبل القبض على صدّام، بأن السبب الوحيد لعدم انضمامهم إلى المقاومة ضدّ الاحتلال الأميركي كان الخوف ـ في حال انسحاب الأميركيين ـ من عودة صدّام إلى السلطة... حسناً، فإنّ هذا الخوف قد زال الآن. إذن، لقد انتهى الكابوس ـ على أنّ الكابوس كان على وشك البدء.. بالنسبة إلى العراقيين وإلينا على السواء.

تذكّرت عملية تفتيش أميركية في بغداد بعد القبض على صدّام.. كانت ثمّة أبواب تُركل وصراخ ولعنة على هذا ولعنة على ذاك، وعلى بعد أمتار قليلة رسالة طبعت على الحائط حديثاً، وقد كُتبت بلغة إنكليزية ركيكة، وكانت

هناك عشرات الرسائل المشابهة مطبوعة على الجدران ضدّ المحتلّين. تقول الرسالة: «أيها الجنود الأميركيون عودوا إلى دياركم قبل أن تُصبحوا جثة في كيس أسود يلقى في النهر أو الوادي».

وبينما كانت واشنطن ولندن تتبادلان التهاني بالقبض على صدّام حسين، قتلت القوّات الأميركية ١٨ عراقياً على الأقلّ في شوارع ثلاث مدن رئيسية في البلاد. ويعرض شريط فيديو مأساوي عن مدينة الرمادي على بُعد ٧٥ كلم إلى الغرب من بغداد مؤيّدين عُزّلاً لصدّام حسين قُتلوا في الليل بينما كانوا يحاولون الهرب من القوّات الأميركية. وقتل الأميركيون ١١ آخرين في سامرّاء إلى الشمال من بغداد. وقد حصلت جميع عمليات القتل خلال تظاهرات المسلمين السنّة ضدّ اعتقال الأميركيين لصدّام. وبدأت عملية الاحتجاج عندما ظهر مسلّحون مع مدنيين اعتقدوا أساساً أن الأميركيين اعتقلوا أحد شبيهي صدّام وليس دكتاتور العراق السابق. لكنّ فرحهم انقلب إلى غضب عندما فتح الجنود الأميركيون النار عليهم في سامرّاء بعد ساعات قليلة. وكالعادة، ادّعى الجيش الأميركي أن القتلى الثمانية عشر هم من المتمرّدين وأن القوّات الأميركية تعرّضت لإطلاق نار في المدن الثلاث. لكن كان ذلك أيضاً ما تحدّثوا عنه في سامرّاء قبل أسبوعين عندما تفاخروا بقتل خمسين إرهابياً. وتوصّل الصحفيون الذين حقّقوا يومها في عمليات القتل إلى نتيجة مُفادها أن القوّات الأميركية في المدينة تعرّضت لكمين بينما كانت تنقل أموالاً جديدة لمصرفيْن، وأن ضحايا إطلاق النار الأميركي الذين يمكن التأكّد من مقتلهم كانوا تسعة مدنيين، بينهم طفل وحاجّ إيراني.

كان ظهور مسلّحين عراقيين يعتمرون قبّعات أو مقنّعين يعملون لصالح الأميركيين عند نقاط التفتيش شمال بغداد ظاهرة جديدة مزعجة في ظلّ هذا المناخ من العنف العسكري المتزايد. كان خمسة منهم يقومون بتفتيش السيّارات على جسر نهر دجلة خارج سامرّاء، وكانوا مقنّعين على ما يبدو خشية أن تُعرف هويّاتهم في حال كانت وجوههم مكشوفة. كانوا يرتدون ملابس ميليشيا رغم ادّعائهم أنهم جزء من قوّات الدفاع المدني العراقية التي يدعمها الأميركيون.. ولم تكن لديهم رتب أو شارات. وكان أمثال هؤلاء المسلّحين يظهرون في شوارع بغداد. قبل عمليات القتل في سامرّاء أوقف بعض رجال الشرطة سيّارتي خارج المدينة ليحذّروني من أن الأميركيين يخوضون معركة كبيرة ضدّ «المحاربين الدينيين» (وكنذير شؤم للقوّات الأميركية فإنهم كانوا يستخدمون كلمة «المجاهدين»)... وبسرعة اكتشفنا أن بعض هؤلاء الرجال (وربّما العديد منهم) كانوا أيضاً متمرّدين: رجال شرطة في النهار، وقتلة في الليل، على غرار ما حدث في الجزائر. وقد اتّبع أهالي القتلى تقاليد الجماعات القبلية تماماً كما فعلوا في الفلّوجة: يجب الانتقام للقتلى... وهكذا كان لا بدّ أن يتحوّل انتقامهم أيضاً إلى حرب مقاومة شملت كلّ المناطق المسلمة السنّية في العراق.

عشيّة عيد الميلاد عام ٢٠٠٣، أيقظتني قوّة من الضغط الجوّي ارتجّت له نافذتي في بغداد... وقد هزّ دويّ الانفجار الجدران بلطف، فيما كان يختفي صوت سبعة عشر شخصاً. وغدا دويّ القنابل في بغداد عبارة عن مسرحية ماجنة بعد دقائق. وصلت إلى تقاطع طرق، وكان هناك باص صغير مدمّر فيه أشلاء ركّاب وأطفائي يبكي، إضافة إلى أجزاء شاحنة محطّمة وقد انشطر محرّكها نصفين، وسيّارتين

تحترقان وإطاراتهما مشتعلة، وجسد متفحّم فظيع المنظر خلف المقود. كانت القنبلة على متن الشاحنة. لكن الباص، لماذا يريد أحدهم تفجير باص مليء بالمدنيين العراقيين؟ كانت على الطريق أشلاء لحم بشري، وكتل معدنية ضخمة وأحذية وحقائب نسائية حول الباص حيث لا تزال أجساد العديد من الركّاب أو ما تبقّى منها في مقاعدهم بشكل يُرثى له. وقد بلغت الشظايا حيّ البيّاع بأزقّته الضيّقة ومجاريه المفتوحة وبيوته البشعة المبنيّة من الطوب والشبيهة بأوكار الأرانب والتي تناثرت نوافذها المحطّمة في تلك الأزقّة.

وصلت مجموعة من الجنود الأميركيين ومضى ثلاثة منهم وسط الحطام في الطريق المغمورة بالنفط للبحث عن المفجّر. كان الرقيب جويل هنشون من الكتيبة ١١ في الفرقة ٦٥ من الشرطة العسكرية الأميركية يحرس ما يمكن أن يكون بقايا أجزاء من جهاز التفجير، قنبلة كانت تلمع بلونها الرمادي البشع على الوحل قرب الطريق المزدحم. وكان هناك ما لا يقلّ عن ألف شخص يصرخون واقفين في ظلال الدخان وألسنة اللهب، رجال يضعون كوفيّات عربية ويرتدي العديد منهم سترات جلدية. ورأيت بعض رجال الشرطة قرب السيّارات المحترقة، ممن يقبضون أجورهم من الأميركيين، وكانوا لطفاء بملابسهم الزرقاء الباهتة وشارات الهويّة الصفراء. ثمّ وصلت سيّارة إطفاء جديدة وصبّت كمّيات كبيرة من المياه على ما تبقّى من الشاحنة والباص. كان «العراق الجديد» يردّ بفعاليّة على العنف المتصاعد. تقدّم مني شرطي وسألني إذا كنت أرغب في معرفة ماذا اكتشف.

«كانت الشاحنة تابعة لوزارة النفط، وهي شاحنة نفط بدون مقطورة رقمها ٥٠٠٢ وقد وجدنا ما تبقّى منها». وأعطاني الشرطي ملصقاً ذهبياً مكتوباً على أحد جوانبه كلمة «الله» بالعربية «ومحمّد» على الجانب الآخر. لقد نجا اسم اللّه ونبيّه من الانفجار ولم ينجُ شيء آخر. وتجمّع عشرة رجال حول أقرب سيّارة حيث كانت كومة من العظام خلف المقود الأسود المحترق. كان الباص الصغير من طراز مرسيدس قد جاء من محافظة ديالا شرق بغداد وعلى متنه عشرة رجال ونساء وسائق استيقظوا عند الفجر للقيام برحلة روتينية إلى بغداد. لكن من المؤكّد أن الانتحاري كان في طريقه إلى هدف آخر وأن ما حصل هو انفجار مبكر. هل هناك مركز شرطة قريب؟ أجاب الرقيب هنسون: «كان هناك لكنّه دُمّر الآن». ثم قال صاحب محلّ أنه شاهد قافلة أميركية تسير على الطريق وقد حاولت الشاحنة اللحاق بها لكنّها اصطدمت بسيّارة قرب الباص الصغير. هل كان هو الهدف؟ بعد ساعات قليلة، أعلنت قوّات الاحتلال أن التفجير كان نتيجة حادث سير، شاحنة انفجرت عندما اصطدمت بالباص. إنها كذبة. وماذا عن القنبلة على الطريق؟. ماذا عن تحطّم المحرّك والمقطورة المفقودة؟ كان علينا العيش مع الأكاذيب: أن نقول أيّ شيء كي نُبقي عملية انتحارية أخرى بعيداً عن الصحافة.

فلنصدّق أننا انتصرنا، فلنصدّق أننا ما زلنا نقتل المتمرّدين. ذهبت إلى سامرّاء مجدّداً في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣ وكان الطالب عصام نعيم حميد آخر «المتمرّدين المشهورين بالنسبة إلى أميركا»، وقد أُصيب في ظهره بينما كان يحاول حماية نفسه وعائلته في منزله الكائن في منطقة الجهرية من المدينة العباسية القديمة.

كانت الساعة الثالثة صباحاً، استناداً إلى تصريح والدته منال، عندما حضر جنود كتيبة المشاة الرابعة وبدأوا يطلقون النار على البوّابة. اخترقت إحدى الطلقات الباب واصطدمت بالنافذة ثم اخترقت ظهره ودخلت في الحائط الجانبي. وأصيب والده في رجله ونُقل إلى مستشفى تكريت وهو في حال خطرة.. كان عصام يصرخ من الألم في باحة الطوارئ في المستشفى، وأنبوب مثبت في بطنه تحت ضمادات مبلّلة بالدم.

ثم كانت هناك قضيّة المزارع مولود حسين (٣١ سنة) الذي كان يحاول إبعاد بناته الخمس وابنه إلى الغرفة الخلفية من المنزل المؤلّف من غرفتين قبل ساعات، قليلة عندما اخترقت رصاصة الباب والجدار الخارجي للمنزل وأصابته في ظهره. كان ابنه مصطفى يبكي قرب سريره. أمّا بناته الأربع بشرى وهدى وإسراء وحسا، فقد نجَون. اخترقت الرصاصة ظهر مولود ونفذت إلى بطنه. وقد أزال الأطبّاء طحال المصاب. انتفض حامد (٤١ سنة) وهو شقيق مولود عندما رآه يتلوّى من الألم ـ حاول الرجل الجريح تحريك بده نحوي لكنه ذهب في غيبوبة ـ وقال إن ٢٣ طلقة أصابت المنزل في حيّ المثنّى في المدينة. ومثل عصام حميد ظلّ مولود ينزف عدة ساعات قبل أن تصل النجدة. وقد روت منال والدة عصام قصّة رهيبة. قالت: «كان لدى الأميركيين مترجم عراقي طلب منا البقاء في المنزل. لكن لم يكن عندنا هاتف ولم نستطع طلب سيّارة إسعاف وكان زوجي وابني ينزفان. وقال لنا المترجم إنه غير مسموح لنا بمغادرة المنزل». جلس حامد حسين قرب سرير شقيقه وهو يغلي من الغضب. قال: «قلتم إنكم ستجلبون لنا الحرية والديمقراطية لكن ماذا يفترض بنا أن نعتقد؟ أخذ الأميركيون جاري من أمام زوجته وولديه وأوثقوا يديه خلف ظهره، وبعد ساعات من الإذلال حضروا وقالوا لزوجته إن عليها أن تأخذ أشياءها الثمينة ونسفوا المنزل. إنه مزارع، بريء. ماذا فعلنا لنستحقّ ذلك؟». تساءلت: ماذا يفعل الناس عندما يُعاملون بهذه الطريقة؟ إذا كنّا نستطيع قتل بريء بهذه الطريقة، فما هي المدّة اللازمة إذن لكي يصبح بإمكاننا تعذيبهم؟ لاحقاً، أصبحت مدينة سامرّاء مثل الفلّوجة، مركزاً للمقاومة في وجه وحدة المشاة الأميركية الرابعة. وأبلغني رجل آخر في شارع قصف الأميركيون بيوته واستباحوها: «كنّا نريد من الأميركيين مساعدتنا. هذه منطقة سُنّية لكنّ العديد منا كانوا يكرهون صدّام.. إنّ الأميركيين يقومون بإذلالنا للانتقام من الهجمات التي حصلت ضدّهم من قِبل المقاومة». ذهبت إلى بيوت مدمّرة حيث أبلغني بعض الشباب أنهم ينوون الانضمام إلى المقاومة. قال أحدهم: «نحن رجال قبائل وأنا من عائلة السعيد، جامعيّ مسلم، لماذا يهاجم الأميركيون منزلي ويرعبون زوجتي وأولادي؟».

راجعت ملاحظاتي المدوّنة في مفكّرتي. تساءلت في أيار/مايو ٢٠٠٣ في الإندبندنت بعد شهر من دخول الأميركيين إلى بغداد: ألم يحن الوقت لتسمية ما يجري حرب مقاومة؟ لقد تنبّأت بالانتفاضة عند دخول القوّات الأميركية إلى بغداد، لكنّ السرعة التي وجد الأميركيون أنفسهم فيها في مواجهة جيش من المقاتلين ينمو ويكبر كانت مذهلة. ربّما كانت حرب العصابات ستبدأ بعد خمسة أو ستة شهور. لكن بعد شهر واحد قُتل جنديان أميركيان وأُصيب تسعة آخرون على أيدي المسلّحين المجهولين في الفلّوجة، وأُصيب اثنان في بغداد، وأُلقيت قنبلة في أبو غريب. كانت هذه الحصيلة الصغيرة للعنف في يوم واحد بعد التحرير ـ ٢٧ أيار/مايو ٢٠٠٣ ـ دون أن نذكر المرأة المسلمة التي تقدّمت باتجاه القوّات الأميركية وهي تحمل قنابل يدوية لكنّها أُصيبت قبل أن تتمكّن من إلقاء إحداها، وعندما حاولت التقاط قنبلة ثانية من الأرض قتلها الأميركيون.

حتى هذه اللحظة، كان معظم سكّان بغداد يحصلون على ساعتين فقط من الكهرباء يومياً. وكانت صفوف الناس على محطّات البنزين تصل إلى ميلين في بلد صودرت فيه حقول النفط من قِبل القوّات الأميركية. وجرى إخراج الأطفال من المدارس الجديدة بعد الانتشار الواسع لعمليات الخطف والاغتصاب. وتحوّلت مراكز الشرطة المحروسة من قِبل القوّات الأميركية إلى أماكن محصّنة محاطة بالعربات المصفّحة والحرس بأسلحتهم الثقيلة في مواقع محميّة بدشم من الإسمنت. وأصبحت بغداد مدينة محاطة بالأسوار التي يبلغ ارتفاعها ٢٠ قدماً وتمتدّ عدّة أميال على طول الخطوط السريعة ومناطق التسوّق. وأصبحنا نحن الغربيين في حالة هروب، محاصرين داخل القاعات الرخامية لأجمل قصور صدّام، حيث كان ألوف الضبّاط الأميركيين والموظفين الرسميّين معزولين عن خمسة ملايين عراقي، وكانوا يعملون على أجهزة كومبيوتر لإقامة ديمقراطية جديدة محافظة حلم بها السيّدان رامسفيلد وبيرل وغيرهما. وعندما كان هؤلاء يغامرون بالخروج، كانوا يرتدون سترات واقية ويستخدمون عربات مصفّحة مع مرافقة مسلّحة بشكل جيّد.

كانت القوّات الأميركية تتجوّل في بغداد كما فعلت القوّات الإسرائيلية في جنوب لبنان طالبة من السيّارات الابتعاد عن آليّاتها تحت طائلة القتل . كان التحذير مطبوعاً بالعربية على مؤخرة آليات هومڤي: «إبقَ على بعد ٥٠ ياردة من هذه الآليّة أو تتعرّض للقتل». وقد قام بريمر بمنع صدور صحيفة شيعية واسعة الانتشار يشرف عليها مُقتدى الصدر وحزبه الصغير بسبب إثارتها النعرة الطائفية ومقارنتها له بصدّام حسين. لذلك انتفضت ميليشيا الصدر ضدّ الأميركيين وحوصرت في النجف التي حاصرها الإنكليز منذ ثمانين عاماً، وقامت مروحيّات الأباتشي بقصف حيّ الشعلة الشيعي الفقير في بغداد بالمدافع. وأصبحت المدن العراقية مسرحاً للصوص والمغتصبين وتُركت أقدم المدن الأثرية الكبيرة ـ سامرّاء ـ بدون حماية ولذلك تحرّك إليها جيش من اللصوص ليدمّروا كنوزها من الأواني الأثرية التي يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة، محوّلين الأماكن الأثرية إلى رُكام كما لو أن طائرات B52 قد مشّطت الصحراء بالقصف... لكن وصل تمزّق المدن السومرية بعد الحرب الى درجة لا تُطاق. وقد أدّى التحرّك الدولي الذي تبع سرقة كنوز بغداد إلى قيام واشنطن بإرسال فريق تحقيق مشترك من وكالة الاستخبارات ومكتب التحقيقات الفدرالي للتحقيق في السرقات. وسوف يذكر المؤرّخون أن هذا التدمير الشامل للتراث كان من أكثر المآسي الدائمة «للتحرير» الأنغلو ـ أميركي للعراق(*).

كان من الممكن التكهّن بشعور العراقيين إزاء هذا الأمر... وذلك من خلال مراقبة سيطرة أميركا الرهيبة على هذا الجزء من العالم بواسطة القوّة التدميرية الهائلة والقواعد والقوّات في أوروبا والبلقان وتركيا والأردنّ والكويت

(*) بلغ عدد القطع التي نُهبت من متحف بغداد نحو ١٥٠٠٠ قطعة.. ورغم بعض التطبيل والتزمير في الإعلام الغربي حين كان يتمّ استرجاع بعض القطع، فإن حوالي ١١٠٠٠ قطعة كانت لا تزال مفقودة حتى حزيران/يونيو ٢٠٠٥، من ضمنها «الموناليزا» الشهيرة التي عمرها ٣٥٠٠ سنة والتي هي عبارة عن رأس من العاج لامرأة أشورية.. ومن بين الـ ٤٠٠٠ قطعة المكتشفة، وجِد ١٠٠٠ منها في الولايات المتحدة، و١٠٦٧ في الأردنّ، و٦٠٠ في إيطاليا.. والباقي في بلدان مجاورة للعراق..

وأوزباكستان وأفغانستان وتركمنستان والبحرين والدوحة وعمّان واليمن وإسرائيل وبالطبع في العراق. وثمّة جيل من الشباب صَلُب في حرب الثماني سنوات ضدّ إيران، وترعرع وهو لا يعرف شيئاً غير العذاب والموت. ما هو معنى الحياة بالنسبة إليهم اليوم؟ وإذا انضمّ السنّة من هذا الجيل إلى أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة فما هو مدى الدمار الذي سيلحقونه بالقوّات الأميركية وبكلّ مَن يختار الوقوف إلى جانبها؟ كان هناك جيش عراقي يولد من جديد ويتكوّن في الظلّ، تصقله أكبر حروب الشرق الأوسط، ويسانده جيش من الانتحاريين... إن هذا عدوّ يستطيع تحدّي أيّة قوة عظمى.

لكن كان لا بدّ أن تستمرّ المسرحية الخيالية. اعترف الأميركيون بجزء فقط من الهجمات ضدّ قوّاتهم رغم المقاومة المسلّحة الواسعة للاحتلال. وبالرغم من اعتراف سلطات الاحتلال بالهجمات التي أدّت إلى مقتل جنودها، فقد أبقت طيّ الكتمان مجموعة من الهجمات والعمليات ضدّ دوريّاتها وقواعدها داخل بغداد وحولها. حتى الآن كانت الحقيقة، التي لم ينقلها الإعلام بشكل واسع، تتلخّص في أن الأميركيين لم يعودوا آمنين في العراق بعد اليوم: لا في بغداد والمطار اللذين استولوا عليهما بضجّة إعلامية في أوائل نيسان/أبريل ٢٠٠٣، ولا في قواعدهم العسكرية أو على طرقات بغداد أو داخل مروحيّاتهم غير المنيعة أو في أنحاء البلاد. وقد تمّ إسقاط مروحيّات في الفلّوجة وانفجرت طائرة C-130 في الجوّ بواسطة صاروخ.

وردّت القوّات الأميركية بالأسلوب الذي تردّ به كلّ الجيوش المحتلّة... وصارت معسكرات اعتقالها أماكن عارٍ مُخزية... وكان السجناء (البالغ عددهم حتى أيار/مايو ٢٠٠٣ حوالي ١١٣٠٠ سجين في العراق وحده) يتعرّضون للضرب خلال التحقيق. ومات حوالي ٣٠ شخصاً في السجن في العراق وأفغانستان عام ٢٠٠٥ ... وغالباً بعد جلسة تحقيق قاسية.

ونحن نميل إلى الاعتقاد أننا اكتشفنا ذلك فقط عندما ظهرت إلى العالم الصور البشعة لسجن أبو غريب عام ٢٠٠٤. . ولكنني اكتشفت في ملفّاتي أنّي أنا وزميلي باتريك كوكبورن كنا نكتب عن التعذيب وانتهاك حقوق الإنسان في السجون منذ أواخر صيف ٢٠٠٣. ومع أنّ كلمة «مصادر» تبدو غريبة في الصحافة اليوم، فإنّ مصادري حول عمليات التعذيب الأميركية في العراق كانت دقيقة. واليوم يحصل ذلك في القواعد العسكرية الأميركية في جميع أنحاء العراق... وقد تفاخر جنرال من القوّات الخاصّة الأميركية بعمليات التعذيب أمام صديق لي قائلاً إنها «مفيدة»... وكان مخطئاً... ذلك أن أعمال التعذيب تخلق المقاومة وتخلق الانتحاريين. وغالباً ما ينتهي التعذيب بمقتل المُرتكبين. أتذكّر قرية خان داري حيث قُتل أوّل جندي أميركي على الطريق في تموز/يوليو ٢٠٠٣ نتيجة تفجير عبوّة ناسفة. كان دمه لا يزال على الطريق السريع وكان الحشد يتشفّى بموته. وتقدّم مني رجل أراد التحدّث في السياسة وكان عنيفاً في حواره. قال إنه «كان أسيراً عند الأميركيين وتعرّض للضرب بوحشية» وأضاف: «هذه هي الطريقة التي نتعامل بها مع المحتلّين. حضروا وأبلغونا أنهم محرّرون لكن عندما أدركنا أنهم محتلّون كان علينا قتالهم. نحن شعب صُلب وسوف نحرق الأميركيين وجميع المحتلّين الآخرين». ثم حصل شيء مخيف ومرعب عندما قال: «عندي طفلة عمرها سنة وسأكون سعيداً أن أضع قنبلة في ملابسها وأرسلها لقتل الأميركيين».

في أواخر تموز/يوليو ٢٠٠٣، جمع محققو منظمة العفو الدولية ملفاً مُخزياً حول قيام قوّات الاحتلال الأنغلو ـ أميركية في العراق بتعذيب السجناء غير عابئين بأوامر المحكمة العراقية إطلاق سراح السجناء، وباستخدام القوّة المُفرطة ضدّ المتظاهرين، وبقتل المدنيين الأبرياء، وتنفيذ قوانينهم الخاصّة لمنع المحاكم العراقية المشكّلة حديثاً من ردع الجنود الأميركيين والإنكليز عن ارتكاب جرائم في البلاد. وقد اكتشفت منظمة العفو الدولية أيضاً فقدان مبالغ ضخمة من المال بعد اقتحام القوّات الأميركية على البيوت. وفي إحدى القضايا حصلت المنظمة على اعتراف ضابط من الكتيبة الأميركية ١٠١ بأنّه أخذ مبلغ ٣ ملايين دينار عراقي من أحد المنازل. في قضيّة أخرى، وجدت منظمة العفو أن راضي وهو مزارع عراقي وأب لثلاثة أطفال توفّي وهو نائم في المعتقل البريطاني بعد ساعات من توقيفه في جنوب البلاد. ويوم ١٠ أيار/مايو، قدّم الجنود البريطانيون تقريراً مكتوباً أرسلوه إلى العائلة يزعم أنه عانى من سكتة قلبية بينما كان يجيب على الأسئلة حول ابنه. وقد تمّ نقله إلى المستشفى العسكري وطُلب من العائلة التوجّه إلى هناك دون إبلاغها بموته. ولمّا ذهبت العائلة إلى المستشفى لم تجده وفي وقت لاحق وجدته في المشرحة حيث تم إحضار جثّته المجهولة من قبل الشرطة العسكرية البريطانية قبل يومين. وتوفّي بهاء موسى، وهو موظف في أحد فنادق البصرة، في مركز الاعتقال البريطاني حيث جرى تعذيبه حتى الموت.

في حالتَي اعتقال جرتا على الأقلّ في العراق من قِبل عناصر المخابرات الأميركية، قُتل طالب الفيزياء ناصر عبد اللطيف (٢٣ سنة) في هجوم على منزله قام به رجال المخابرات المسلّحين، وأثناء بحث القوّات الأميركية عن عضو بارز في حزب البعث أغارت على منزل خريسان عبالي يوم ٣٠ نيسان/أبريل واعتقلته مع والده البالغ من العمر ٨٠ عاماً. وقد قُتل شقيقه دون إبلاغ العائلة واقتيد عبالي الذي ادّعى عدم معرفته بالمسؤول العراقي إلى التحقيق. وصرّح أنهم أجبروه على الوقوف والركوع قرب الحائط طيلة سبعة أيام ونصف يوم مقيّداً بقيود بلاستيكية. وأفاد أن جندياً أميركياً ركله على قدمه وكسر أحد أصابعه[*].

أصدرت سلطة التحالف المؤقّتة بقيادة بول بريمر (وهو اسم صار ينضح بالاعتذارات لمجرّد أنه موجود) مراسيم قاسية وكأنها الأمبراطور الروماني يصدّ غارات قبائل القوط و الويزيغلوط والأوستروقوط عن أبواب العاصمة Ostrogoths & Visigloths & Goths. لقد تقرّر تسريح الجيش العراقي ليصبح عشرات الألوف من رجاله المسلّحين دون عمل... والآن ماذا يتصوّر بريمر أنهم سيفعلون في أوقات فراغهم؟. وجرى تحصين محيط قصر صدّام الرخامي بالأسلاك الشائكة، حيث سيعمل بريمر ومستشاروه الأطفال الأذكياء وخبراء مكافحة الإرهاب على حكم العراق. وصارت «سلطة التحالف المؤقّتة» (التي كانت أميركية أساساً مع حليفها البريطاني طوال فترة الحرب) تبدو شيئاً فشيئاً ومع مرور الأيام أنها أكثر ديمومة، وأقلّ سلطة. أمّا مجلس الحكم الانتقالي وأعضاؤه الخمسة والعشرون الذين يمثّلون توازن الشيعة والسنّة والأكراد والعلمانيين فكان موضع سخرية. وكان عمله الأول،

(*) إن أكثر التقارير إدانة لسوء معاملة القوّات الأميركية للسجناء (بما في ذلك تسليمهم إلى الدول التي سيخضعون فيها للتعذيب) هو تقرير منظمة العفو الدولية البالغ ٢٠٠ صفحة والمنشور يوم ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ بعنوان: «الولايات المتحدة: تجاهل لكرامة الإنسان، تعذيب ومسؤولية في «الحرب على الإرهاب»....

بإشراف رجل البنتاغون الشيعي أحمد الجلبي، إعلان يوم ٩ نيسان/أبريل يوماً وطنياً احتفالاً بسقوط صدّام حسين.. أو هذا ما بدا على الأقلّ في الغرب. أما بالنسبة إلى العراقيين فإن يومهم الوطني الأول كان اليوم الأول لاحتلال بلادهم من قِبل الأجنبي.

كان الأميركيون يشترون الوقت ويتّخذون القرارات بحافر قدمهم، وقد فشلوا في تقييم آثار أيّ عمل من أعمالهم. أولاً كان هناك جاي غارنر، صاحب شعار: «أنفخْ صدرك وافتخرْ وأنت تقول أنا أميركي»، الرجل الذي قابلته آخر مرّة في كردستان عام ١٩٩١.. ثم جاء الخبير الشهير في «مكافحة الإرهاب» بول بريمر الذي قام بقتال البعثيين في بغداد ثم عاد لتوظيف الأساتذة البعثيين في الجامعة، والذي واجه مقتل جندي أميركي كلّ يوم بإعادة توظيف عصابات القتل الصدّامية في مراكز التعذيب لمساعدته في الحرب على الإرهاب. أصبحت ٦٣ فرقة أميركية داخل المِرجل العراقي الآن، وكانت خمس فرق أخرى منتشرة في ما وراء البحار، والقوّة المجوقلة ٨٢ التي غادرت أفغانستان تعيد انتشارها في شمال العراق. وقد سخر بوش في حزيران/يونيو ٢٠٠٣ من المقاتلين أعداء أميركا قائلاً: «أحضروهم إلى هنا». وقد أخذوا كلامه على محمل الجدّ ونفّذوه... ولم يكن هناك أدنى دليل على أن تخيّلات الإدارة الأميركية حول «ألوف المقاتلين المسلمين الأجانب الذين تدفّقوا على العراق لقتل الأميركيين» قد أصبحت حقيقة.

لكن سرعان ما صارت هذه التخيّلات واقعاً ظاهراً للعيان. فماذا كان يمكنهم أن يقولوا لنا حينذاك؟ ألم يتمّ غزو العراق للقضاء على الإرهاب وليس لإعادة خلقه؟ قالوا لنا إن العراق سوف يتحوّل إلى «ديمقراطية» وفجأة أصبح ساحة لحرب أخرى «ضدّ الإرهاب».

كان بوش يعلن لشعبه «أن أميركا تواجه الإرهابيين في العراق وأفغانستان وذلك لكي لا يكون على شعبنا مواجهة العنف الإرهابي في نيويورك.. أو لوس أنجلوس..». إذن هكذا كان الأمر.. العمل على جذب جميع هؤلاء «الإرهابيين» القذرين إلى «عراقنا المحرّر»، الذي نحبّه كثيراً، وبذلك يتركون بلادنا وشأنها!!.

عندما تمّ تدمير البرجيْن التوأم في نيويورك، مَن كان قد سمع بالفلّوجة؟ عندما قاد القتلة طائرتهم إلى داخل البنتاغون يوم ١١ أيلول/سبتمبر مَن كان قد سمع بالرمادي؟ عندما قاد الخاطف اللبناني طائرته وتحطّمت في بنسلفانيا مَن كان يعتقد أن الرئيس بوش سيعلن في آب/أغسطس ٢٠٠٣ «فتح جبهة جديدة في الحرب على الإرهاب» في الوقت الذي انخرطت فيه قوّاته في حملة يائسة ضدّ المقاتلين في العراق؟ مَن كان يتصوّر أن رئيساً أميركياً يدعو العالم إلى حمل السلاح ضد «الإرهاب» في أفغانستان والعراق وغزّة؟.

غزّة؟ ما هي علاقة الفلسطينيين البؤساء، المسحوقين، والمسجونين بقسوة في غزّة بالجرائم الدولية ضدّ الإنسانية التي وقعت في نيويورك و واشنطن وبنسلفانيا؟ لا شيء بالطبع. مثلما لم تكن للعراق أيضاً أيّة علاقة بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر.. وكما أنّ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لم يغيّر العالم. لقد استخدم الرئيس

بوش بخبث مشاعر الحزن والألم لدى الشعب الأميركي ـ وعطف بقيّة العالم ـ وذلك لفرض «نظام عالمي»، صاغ مشروعه عصابة من الحالمين الغربيين من مستشاري وزير الدفاع دونالد رامسفيلد. كان «تغيير النظام العراقي»، كما صرنا نعلم جميعاً الآن، قد صيغ كجزء من ملفّ حملة ريتشارد بيرل وبول ولفوفيتز لإيصال رئيس الوزراء بنيامين ناتانياهو إلى السلطة، وذلك قبل سنوات من وصول بوش إليها.

إن انخراط طوني بلير في هذه الحملة، من دون إدراك لما يمثّله من مشروع خطّط له عدد من المحافظين الجُدد الموالين لإسرائيل بالتعاون مع الجناح اليميني للمتشدّدين المسيحيين، أمر يتعدّى التصوّر.

ولكن، حتى في هذه اللحظة، ما زلنا نُغذّى بالأوهام... فأفغانستان هي «نجاح» ما زال السادة بوش وبلير ورامسفيلد يتفاخرون به، فيما لا يزال أُمراء الحرب الأفغان المأجورون يختصبون ويقتلون أعداءهم، ومعظم نساء أفغانستان محجّبات بالبرقع، وأفغانستان المنتج الأول للأفيون في العالم، وشعبها يُقتل بمعدّل مئة شخص في الأسبوع. بحلول عام ٢٠٠٥، عاد الطالبان بقوّة وكذلك القاعدة وقاموا بقتل أميركيين، وليس روسيين. وكان العراق يشكّل أيضاً «نجاحاً»، رغم تصاعد كراهية المقاتلين والمشاعر الشعبية المعادية ورغم نُذر المراحل الأولى لحرب أهلية... يحتاج بوش الآن إلى ٨٧ مليار دولار لإبقاء العراق في وضع جيّد، وبات راغباً في العودة إلى الأمم المتحدة نفسها التي كان قد وصفها عام ٢٠٠٢ بأنها «دكّان للكلام».. ويريد أيضاً تجهيز الجيوش الغربية للذهاب إلى العراق للموت في حرب الاحتلال الأميركي وذلك لتقاسم أتراح الاحتلال وتكاليفه، ولكن ليس للمشاركة في اتخاذ القرار، الذي ينبغي أن يظلّ وقفاً على إرادة واشنطن الإمبريالية.

والأدهى من ذلك أنه كان على العالم الموافقة على الصيغة المجنونة القائلة بأن الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني هو جزء من هذه المعركة الرهيبة. إنها آخر حرب تُشنّ على كوكبنا من أجل الاستعمار، رغم أن الحديث عن المستوطنات اليهودية غير الشرعية في الضفّة الغربية وغزّة شُطب من رواية الشرق الأوسط في البيانات الأميركية حول «الحرب على الإرهاب»... إنها الصدام الكوني بين كلّ أطراف التطرّف الديني الذي خلقه الرئيس بوش بعد ١١ أيلول/سبتمبر... هل كان يمكن خدمة مصالح إسرائيل بشكل أفضل مما فعلته حركة بوش الصبيانية تلك؟ لقد تمّ الآن إدراج الانتحاريين الفلسطينيين الأشرار والاستيطان اليهودي الضخم، واليهودي حصراً، في المستوطنات، ضمن هذا الصراع الكبير الذي يخوضه «الخير» في وجه «الشرّ» والذي صار فيه حتى أرييل شارون «رجل سلام» وفقاً للسيّد بوش.

في البنتاغون كان هناك بعضٌ من رجاحة العقل. كانوا يعيدون عرض فيلم «جيلو بونتيكورفو» عن الحرب الفرنسية في الجزائر. لقد أظهر فيلم «معركة الجزائر» ماذا حلّ بمقاتلي جيش التحرير الوطني والجيش الفرنسي على السواء،عندما أصبحت حربهم قذرة. كانت الرسائل تُبعث إلى مسؤولي البنتاغون لمشاهدة هذا الفيلم الضخم والمؤلم، وهي تبدأ بكلمات: «كيف نكسب الحرب على الإرهاب ونخسر حرب الأفكار». وكان بإمكانهم أن يضيفوا: «ادعموا كلّ مقاومة في الشرق الأوسط». وقد صرّح لي مسؤول فلسطيني في أحد مخيّمات بيروت عام

٢٠٠٣ قائلاً: «إذا كان من الممكن إذلال القوّة العظمى حليفة إسرائيل في العراق من قِبل العرب، فلماذا نوقف صراعنا ضدّ الإسرائيليين الذين لا يمكن أن يكون جنودهم أكثر كفاءة من الأميركيين؟».

هذا هو الدرس الذي تعلّمه الجزائريون عندما شاهدوا الجيش الفرنسي القوي يستسلم في ديان بيان فو. لقد نجح الفرنسيون، مثل الأميركيين في العراق وأفغانستان، في قتل أو تصفية العديد من الجزائريين الذين فاوضوا على وقف إطلاق النار معهم. لكن البحث عن «مُحاور جزائري ذي صدقية» كان من أصعب مهامّ ديغول عندما قرّر مغادرة الجزائر. لكن ماذا يستطيع الأميركيون أن يفعلوا؟ كان من الممكن قيام الأمم المتحدة بلعب دور المحاور. لكنّ الأمم المتحدة سقطت كمفاوض من خلال قيام انتحاري بتفجير مقرّ قيادتها في بغداد. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصليب الأحمر الدولي... لم يكن الثوّار مهتمّين بمفاوضات من أيّ نوع كانت. لقد أعلن بوش «حرباً بلا نهاية»... وبدا أنّ العراقيين، ومعهم نحن أيضاً، سيكونون ضحاياها الرئيسيين.

ذهبت إلى سجن أبو غريب في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ أي قبل سبعة أشهر من قيام الأميركيين بارتكاب عمليات تعذيب ومعاملة سيّئة للسجناء في مركز صدّام القديم للقتل. طلبوا مني عدم التحدّث إلى السجناء. كنا نراهم خلف أكوام القذارة يقفون في الحرّ قرب الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمبنى. وقيل لنا لا تأخذوا صوراً للسجناء. لا تدخلوا المبنى. لا تتخطّوا الأسلاك الشائكة. ومن بين ٨٠٠ سجين عراقي كانت هناك حفنة صغيرة من «المعتقلين الأمنيّين» والبقيّة من «المجرمين الجنائيّين»... ولكن حتى تلك اللحظة عاش معظمهم تقريباً هنا في الحرّ والغبار والقذارة. ولذلك كان الأميركيون مسرورين جدّاً لرؤيتنا في سجن صدّام القديم السيّىء. وكانت رسالتهم: إن الأمور تتحسّن..

أمرتْ البريغادير جنرال جانيس كاربنسكي، قائدة كتيبة الشرطة العسكرية الأميركية ٨٠٠، بتنظيف غرف السجن المحروقة والمنهوبة، لكي تستوعب مئات السجناء. وتمّ إنشاء مركز طبّي جديد فيه أدوية وآلات أشعّة وآلة لفحص الضغط وضِعت في تصرّف السجناء. وفي الزنازين المطليّة حديثاً، كانت هناك أغطية وفُرش أسنان ومعجون أسنان وصابون وشامبو لكلّ رجل، وضِعت لهم (وربّما لنا لكي نراها) بشكل مرتّب فوق أغطية أسرّة السجن. تلك هي الزنازين نفسها التي سيُحتجز فيها السجناء عُراة أو تجرّد النساء من ملابسهنّ أو يتمّ تعريضهنّ لعضّات الكلاب. وهذه هي الردهة التي ستحتجز فيها جندية سجيناً عارياً بمقود كلب، وحيث وضِع السجناء العراقيون بعضهم فوق بعض عُراة على الأرض. وقد أصبحت الجنرال كاربنسكي لاحقاً كبش الفداء في البنتاغون لما حصل هنا.

كانت الجنرال كاربنسكي امرأة قاسية ـ كانت ضابط مخابرات في القوّات الخاصّة السابعة في ثكنة براغ وخدمت كضابط «إحداثيات» في السعودية بعد غزو صدّام للكويت عام ١٩٩٠ ـ ولكن بالعودة إلى أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ فقد وجدت في البداية بعض الصعوبة في أن تتذكّر التمرّد الذي حصل في السجن قبل أربعة أشهر واستخدمت فيه القوّات الأميركية «القوّة القاتلة»، وذلك عندما ألقى السجناء المحتجّون الحجارة وأعمدة الخِيَم على الشرطة العسكرية الأميركية، وقتلت القوّات الأميركية سجيناً شاباً. وقد جاء معظم «السجناء الأمنيّين» ـ قالت

دعاية كتيبة الشرطة العسكرية ٨٠٠ إن لديها مسؤولية «الاهتمام» بالسجناء وليس حراستهم ـ من محيط مطار بغداد حيث قالت الجنرال كاربنسكي إنهم كانوا من رجال المقاومة. لاحظ كلمة مقاومة عوضاً عن إرهابيين. وعندما سألتُ ما إذا كان هناك معتقلون غربيّون أجابت إنها تعتقد أن هناك ستة يدّعون أنهم أميركيون واثنين من بريطانيا. وسوف ينفي ذلك، بعد ٢٤ ساعة، الجنرال ريكاردو سانشيز، القائد الأميركي في العراق، والذي اتّهم بإساءة معاملة السجناء في أبو غريب عام ٢٠٠٥. ولم يُعط أيّ تفسير طبعاً.

ثم جاء الطبيب الرئيسي لسجن أبو غريب، واسمه الدكتور مجيد. وعندما سألته ماذا كان عمله عندما استخدم صدّام المكان مركزاً للتعذيب والإعدام، أجاب أنه كان رئيس أطبّاء سجن أبو غريب إبّان حكم صدّام. قال: «كلّا لم أحضر أبداً عمليات الإعدام. لم أستطع تحمُّل ذلك... كنت أرسل الأطبّاء الشباب لكتابة شهادات الوفاة». ليس في الليل طبعاً، عندما كان رجال المخابرات يُحضرون السجناء السياسيين لإعدامهم. قال الدكتور: «خلال النهار كان يتمّ إعدام القتلة».. «. . . القتلة؟ القتلة؟ مَن كان يعني بهذه الكلمة؟

قيل لنا إن الحرّاس الجُدد للسجن العراقي الجديد تدرّبوا على حقوق الإنسان ـ بمن فيهم ضابطان خدما إبّان حُكم صدّام. ولا عجب إذن أن تقول الجنرال كاربنسكي إن الأميركيين لم يختاروا الأطبّاء ـ كان ذلك عمل وزارة الصحّة العراقية الجديدة ـ كان في أبو غريب ضبّاط من المخابرات الأميركية.. لكن كلّا.. لم تكن الشرطة العسكرية حاضرة خلال التحقيقات. أجل، زارت الجنرال كاربنسكي غوانتنامو لأيّام قليلة لكنّها لم تجلب معها إلى بغداد أية دروس تعلّمتها هناك(*).

بالطبع، أخذونا في زيارة استطلاعيّة إلى غرفة الموت القديمة في أبو غريب: غرفة الإعدام المزدوج حيث تعرّض فرزاد بازوفت مراسل الأوبزرفر وآلاف العراقيين للإعدام. دفعت الجنرال كاربنسكي الباب الحديدي فتردّدت أصداؤه بين الجدران. وقال الدكتور مجيد إنه لم يسمعها من قبل.. وحتى إنه لم يكن أبداً عضواً في حزب البعث. لذلك فلنكتب هذا للتاريخ: لم يكن رئيس الأطبّاء في أقذر سجون صدّام ـ الذي هو حالياً رئيس الأطبّاء في أنظف سجن عراقي ـ عضواً في حزب البعث قطّ ولم يحضر أبداً أيّة عملية إعدام.

بالطبع هناك أشياء يتحرّك لها كل قلب إلا إذا كان من حجر.. وهي الكلمات الأخيرة المكتوبة أو المحفورة على جدران زنزانات الموت القذرة، على بُعد خطوات قليلة فقط من المشانق. «أحمد قمبل ٢٠٠٠/٩/٨ ، أحمد عزيز من محافظة النجف ومعه جباح، ٢٠٠١/٩/٢، عباد أبو محمد». في بعض الأحيان كتبوا عبارات مستوحاة

(*) في رسالة عبر البريد الإلكتروني وردت في ٢١ أيار/مايو ٢٠٠٥ إلى صحيفة الإندبندنت كتبت كاربنسكي: «زرت غوانتنامو لفترة تقلّ عن يوم... كنت هناك لحلّ بعض المشاكل بين ضابطين ولم يكن هناك أي شيء مرتبط بعمليات الاعتقال إطلاقاً. كان عندي سلطة للدخول إلى كلّ زنازين السجن في أبو غريب. وعندما تحوّل السجن إلى مركز قيادة للمخابرات العسكرية في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣، لم يتغيّر تصريح دخولي للسجن. كان التحديد يتعلّق فقط بالساعات التي كان مسموحاً لي فيها بزيارة أبو غريب... لم يكن مسموحاً لي بالذهاب إلى هناك في ساعات الظلمة... وذلك بسبب الخطر المتزايد للسفر ليلاً... كانت معظم المعاملة السيّئة والتعذيب في أبو غريب تحصل خلال الليل».

من القرآن... «الموت حياة للمؤمن» «الموت أفضل من العار». كم من الشجاعة تطلّبت كتابة مثل هذه الكلمات، آخر كلماتهم على الأرض.

لكن كان هناك بعض الترتيب في كل ذلك. ففي مقابل قساوة صدّام كانت أيّة مؤسّسة تبدو نظيفة بشكل صارخ. ومع ذلك كان هناك الكثير مما ليس نظيفاً تماماً في أبو غريب مثل المطابخ الحديثة. ولم تكن هناك حتى الآن محاكمة قضائية للقتلة المفترضين واللصوص ومضرمي النيران في المباني، والقابعين خلف الأسلاك الحديدية. وقد اعترف العسكريون بأن ترجمة كيفية كتابة الأسماء العربية ـ مع كل الأخطاء التي يمكن أن تحصل ـ كانت تؤدّي إلى أن تفقد العائلات غالباً أثر أحبّائها... لم ترد أية إشارة ـ حتى تكلّمنا عن ذلك ـ إلى الهجوم المدفعي الذي قام به رجال العصابات وأدّى إلى قتل ستة من السجناء في خيمهم. بعد ذلك، أرسل الأميركيون أطبّاء نفسانيين للتكلّم مع المعتقلين ووجدوا أنهم يعتقدون ـ مفاجأة... مفاجأة ـ أن الأميركيين يستخدمونهم دروعاً بشرية. وكما نعلم حصل الأسوأ فيما بعد.

> أشار عويد نحو الأرض الجافّة ومسح بيده على البؤس الرمادي للتربة والغبار والبيوت المهدّمة إلى الشمال. قال: «عرفت كل هذه القرى، دوّن ذلك في مفكّرتك ـ عليك تذكّر أسماء هذه القرى الميتة: المحمر، منزن، مشعل، أم الحمادي، داوودي، دجزران، نقبية، زلال، أبو طلفة، جديدة، غاليفة، القفص، الخور، الخمسين...». هذا كثير. لم أستطع المتابعة مع عبّاس عويد. تخطّت سرعة وصفه لتدمير صدّام للمستنقعات العربية سرعة كتابتي. لكن عندها، بعيداً عبر رُكام الحجارة والأبواب المحطّمة والطين الجافّ، جاء صوت عصفور.

ارتسمت على وجه عويد ابتسامة. قال «حيث توجد العصافير، يوجد الماء».. واستراح على كعبيْه... إنه رجل ـ العرب هم هكذا ـ وجد القول المناسب في اللحظة المناسبة.. وكان ذلك صحيحاً. كانت الطيور تعود لأن المياه عادت تتغلغل داخل آلاف الأميال المربّعة التي جفّفها صدّام منذ عشر سنوات. وكنت تستطيع سماعها، تغرغر، تزبد وتشقّ طريقها داخل الخنادق القديمة والجداول المجفّفة وفوق التلال المنخفضة القذرة التي بنى عرب المستنقعات المسلمون الشيعة بيوتهم عليها قبل أن يقرّر صدّام تدميرها. هنا مصبّ النهر حيث شاهد صديقي وزميلي محمّد سلام من الأسوشيتدبرس منذ عشرين عاماً الجثث السوداء لعرب المستنقعات، محروقة ومُكهربة من قِبل جيش صدّام.. هنا عاش شعب في وسط البطّ والثيران واصطاد بالرمح، ودُمّر مثل السمك، حيث كان على البريء الموت مع الغازي.

جلست على مركب صغير، مبحراً في نهر منساب، ورأيت منزلاً قديماً من الطين والإسمنت ولكنّ سقفه جديد وحوله أشجار نخيل زُرعت حديثاً ومركباً مطليّاً بالأخضر يتقدّم نحو المرسى القذر. اختفت أعشاب البِرك ونباتاتها ولم تكن هناك شجرة أعلى من ثلاث أقدام. عادت عائلة واحدة. حتى محسن بحيذ، الذي فرّت عائلته إلى إيران طلباً للأمان خلال عملية التجفيف الطويلة والرهيبة التي فرضها صدّام على شعبه، كان يفكّر في العودة.

جلس قربي في مركبنا، يده اليسرى تحمل كلاشينكوف واليمنى على رأس ابنه مهدي (٥ سنوات) قال: «كانت تقيم هنا ١٢ ألف عائلة وقد غادروا جميعاً. كان لدينا سمك وفاكهة وخضار وطيور وثيران.. وبيوتنا... وقد قام صدّام بتجفيف أرضنا وأخذ مياهنا وتركنا بدون شيء».

أبطأ المركب عندما بلغنا موضعاً ارتفع فيه مستوى الماء ٦ بوصات أمامنا، وكانت هناك حافّة مرتفعة من الماء العالي المستوى تنحدر إلى مستوى النهر العادي على الطرف الآخر. «تحتنا بقايا سدّ صدّام والماء يسيل فوقه، لذلك ما زلنا نرى السدود حتى لو لم تعد هنا» هذا ما قاله محسن.

على المرء أن يأتي إلى هنا لكي يلمس مدى قساوة صدّام المتعمّدة. بعد أن شجّع الإنكليز والأميركيون المسلمين الشيعة في العراق على الثورة ضدّ صدّام عام ١٩٩١ ـ وبالطبع خانوهم بعدم التحرّك لمساندتهم عندما قام صدّام بسحق مناوئيه ـ وقد انسحب الجنود العراقيون الفارّون والثوّار الذين كانوا يرغبون الاستمرار في القتال إلى الحويزة وعمارة وحمر، حيث المستنقعات العربية (الأهوار) التي خلّدها عمل ولفريد تسيغر الكبير منذ عقود طويلة والتي أمّنت لهم الملجأ، ولم تستطع المروحيّات والدبّابات العراقية إخراجهم منها.

لذلك تحرّك صدّام في خطّة مضادّة لحرب العصابات أين منها خطة الاغتيالات السياسية الإسرائيلية وتدمير الممتلكات ـ والعامل البرتقالي لأميركا في حرب فيتنام. ـ وبنى العديد من السدود، المئات منها، لمنع المياه من التدفّق إلى المستنقعات من نهري دجلة والفرات. وقام بتحويل المياه عبر قنوات جديدة واسعة ـ سُمّيت إحداها «نهر أم المعارك» ـ تروي المدن والقرى التي ظلّت موالية لصدّام. كان الماء الوحيد المسموح به في المستنقعات يسير إلى وسط الجداول لإيجاد سمك طازج. في النهاية لم يبق ماء تقريباً. لكن عندما هجمت قوّة الغزو الأنغلو ـ أميركية على العراق في آذار/مارس ٢٠٠٣ كان لا يزال هناك بضع مئات من الأميال المربّعة من المستنقعات متبقّية... وفي الساعات الأولى بعد وصول البريطانيين إلى البصرة، حفر أهالي حمر الأرض لتدمير السدود الإسمنتية التي بناها صدّام وأغرقوا استحكاماته. وأبلغني رجل من الناصرية أن زوجته أيقظته بعد الليلة الأولى من القصف لتبلغه أنها تستطيع سماع خرير ماء في الجدول القديم خلف المنزل فلم يصدقها. ثم قال: «استيقظت وخرجت على ضوء القمر وشاهدت الماء». إنها رواية أمل. كان والد فيصل خيون قد قُتل على يد شرطة صدّام السرّية عام ١٩٩٣ بينما كان يقود سيّارته على طريق البصرة. قال: «أطلقوا النار على رأسه وعنقه. وقد تم اعتقال عمّي وابن عمّي عام ١٩٩٧ وأُعدموا في أبو غريب. وكانت المخابرات تحضر بشكل فجائي إلى هنا في الرابعة صباحاً، وكان عليّ تمضية الليل على السطح منتظراً لمراقبة قدومهم. وللمرّة الأولى في حياتي بقيت نائماً في بيتي حتى مطلع الفجر».

قفز محسن بحيذ إلى الشاطئ على بُعد أربعة أميال شمال جسر حمر وسرنا معاً في الوحول العميقة والسوداء التي التصقت بأحذيتنا نحو جدران المنزل الأربعة المدمّرة. قال: «كان هذا منزلي وعندما عدت أحضرت بعض الطوب والنوافذ لبناء بيت جديد جنوب سدّ صدّام. أنظر أين كنا نضع طيور الإوز، والماشية كانت هنا حيث ترى

الغبار. وكان مركبي راسياً هناك». قام محسن ومهدي بقيادة المركب عبر الحطام ثم قال محسن: «أظن أننا سنعود الآن. أجل لقد ساعدنا معارضي صدّام وعندما فرّ الجنود حضروا إلى هنا، فأطعمناهم وأعطيناهم أماكن للنوم ووقوداً للتدفئة. نحن شعب طيّب».

محسن في الثامنة والأربعين من العمر ولديه زوجتان شابّتان وخمسة أولاد. قال إنّه لا يكاد يؤمّن المال لإتمام بناء بيته الجديد. لكن لا يستطيع عرب المستنقعات العودة هكذا إلى أرضهم. فمنذ فترة طويلة، قايضوا الثيران بسيّارات المرسيدس وأصبحوا تجّاراً. وانتقلت قبائل أخرى إلى المنطقة وزرعت المحصول في الأرض المرويّة حديثاً. لكنّ الشعب الذي وصفه تسيغر بقي على قيد الحياة، وزال نظام صدّام وتدفّق تيّار مائي أزرق قانٍ نحو الصحراء زاحفاً حول حمر، ومنزن ومشعل وكل القرى الضائعة في المستنقعات.

كان ثمّة سباق بين الأمل والرعب. فبينما قتل الأميركيون المشاركين في حفل زفاف بغارة جوّية ووصفوا الضيوف بالثوّار، فُتح قبر آخر من قبور صدّام الجماعية. وفور عودتي من أرض عرب المستنقعات استعلمت عن «مركز المعلومات حول الشهداء من نساء الحركة الإسلامية»، الذي لم تكن معلوماته عن ضحايا صدّام من النساء الشابّات مخصّصة لضعاف القلوب.

كانت زوجات السجناء تُجبر على مشاهدة أزواجهنّ وهم يُشنقون، أو قبل وضعهم على الكرسيّ الكهربائي، أو حرقهم بالأسيد، أو مقيّدين عُراة بمراوح السقف، أو أثناء الاعتداء عليهم جنسياً. وفي حالات كثيرة، كانت النساء تسمّم أو يجري استخدامهن كفئران اختبار للتجارب الكيميائية في مركز قرب سامرّاء يُعتقد أنه كان ينتج أسلحة كيميائية. وقد تمّ التعرف على أسمائهنّ وأسماء جلّاديهنّ وقاتليهنّ. وتفاخر أحدهم، أبو وداد، أنه أعدم سبعين سجينة في ليلة واحدة في سجن أبو غريب. وفي حالات عديدة، كانت المرأة تُعدم لأنها شقيقة أو زوجة رجل مطلوب. وكنّ جميعاً مرتبطات بحزب الدعوة الذي كان أعضاؤه يخضعون للتعذيب والقتل من قِبل الحكم البعثي.

هاكم مقتطفات نموذجية من كتاب «مذكّرات سجين: أوراق حمراء من قصّة منسيّة»، جمعها عليّ العراقي في مدينة قُمّ الإيرانية.. وهي كما يلي:

> «ولدت سميرة عودة المنصوري (أمّ إيمان) عام ١٩٥١ في البصرة. أستاذة في مدرسة حديثة المتوسطة، متزوّجة من الشهيد عبد الأمير، عضو في الجناح العسكري لحزب الدعوة الإسلامي... الجلّادون: النقيب مهدي الدليمي الذي كان يُعذّب وهو سكران، والملازم حسين التكريتي المتخصّص في تحطيم القفص الصدري لضحاياه من خلال ضربهم... والملازم إبراهيم اللامي الذي كان يضرب الضحايا على أقدامهم... ضُربت أمّ إيمان وعُلّقت من رأسها في السقف وعانت التعذيب بالكهرباء. أمضت شهرين في زنازين سجن البصرة ولم تستسلم، وأمر الدليمي بإعدامها بتهمة حيازة أسلحة غير مرخّصة وعائدة لحزب الدعوة».

في الواقع، نُقلت أمّ إيمان إلى جهاز أمن الدولة في بغداد حيث جرى تعذيبها بشكل وحشي طيلة أحد عشر شهراً. ومثلت لاحقاً أمام محكمة عسكرية ثورية حكمت عليها بالإعدام شنقاً. وقد أمضت ستة أشهر أخرى في سجن الرشيد غرب بغداد إلى أن (ولعلّها كانت بدأت تأمل النجاة من الموت) تمّ تحويلها مساء الأحد إلى سجن أبو غريب حيث أعدمها أبو وداد.

وهناك روايات متواترة عن نساء وأطفال عُذّبوا أمام أزواجهم وآبائهم. على سبيل المثال، قام الملازم كريم في البصرة عام ١٩٨٢، بحسب ما ورد، بإحضار زوجة أحد الثوّار إلى السجن وجرّدها من ملابسها وعذّبها أمام زوجها ثم هدّد بقتل ولدهما. وعندما تمنّع الاثنان عن الكلام «قام المسؤول الأمني بضرب الطفل بالحائط وقتله».

اعتُقلت أحلام العياشي عام ١٩٨٢ (وكان عمرها ٢٠ سنة) لأنها زوجة عماد الكيراوي وهو عضو بارز في حزب الدعوة. وعندما رفض عماد إعطاء معلومات للشرطة، هاجم عنصران متخصّصان بالتعذيب ـ فادي حميدي الزرقاني وفيصل الهلالي ـ أحلام أمام السجين وطفلهما وعذّبوها حتى الموت.... تجاهلت الرواية التفاصيل رأفة بالقرّاء... وقد دُفنت جثتها في الصحراء خارج البصرة ولم يعرف مكان دفنها. وتمّ إعدام ثلاثة من أشقّائها إضافة إلى زوجها وشقيق آخر في الانتفاضة التي تلت تحرير الكويت عام ١٩٩١. لكنّ الإبنة علا التي شهدت تعذيب أمّها أُخذت إلى إيران وهي متزوّجة الآن وعلى وشك دخول الجامعة.

إن معظم الروايات مأساوي ومؤلم. وعلى سبيل المثال، تعرّضت عواطف نور الحمداني للخيانة من قِبل زوجها الذي أعطى اسمها وأسماء العديد من رفاقه مهرّبي السلاح تحت التعذيب الشديد. كانت عواطف حاملاً عندما حقّق معها النقيب عامر الذي ضربها بكرسيّ حديديّ ثم اعتدى عليها. خلال محاكمتها اقترح القاضي مسلم الجبّوري أنه يجب صنع مشنقة صغيرة لابنتها الصغيرة التي تغذّت على حليب أمّها المشبع بالكراهية.

اقتيدت عواطف أولاً مع زميلتين لها إلى الإعدام وأُجبرت على مشاهدة إعدام ١٥٠ رجلاً، عشرة في كل مرّة، وعندما أُحضرت الجثث تعرّفت على جثّة زوجها. ثم أُعيدت إلى زنزانتها وأُعدمت لاحقاً بالكرسيّ الكهربائي. وقُتل العديد من السجناء أيضا على الكرسي نفسه في أبو غريب، بينهم امرأتان أُخريان، هما فاضلة الحدّاد عام ١٩٨٢ ورضى العويناتي في السنة التالية.

كانت ميسون السعدي في الثامنة عشرة من العمر وطالبة جامعية عندما اعتقلوها لانتمائها إلى تنظيم إسلامي محظور. وخلال التحقيق معها عُلّقت بشعرها وضُربت على قدميْها ثم حُكم عليها بالموت شنقاً من قِبل القاضي عوّاد محمّد أمين البندر. حقّقوا لها رغبتها الأخيرة بوداع خطيبها وقد تزوّجا في السجن. لكن بينما كانت تودّع السجناء الآخرين، ألقت كلمات تندّد بقيادة النظام العراقي وقرّر مسؤول السجن إعدامها فوراً. وقد جرى تقييدها بالكرسيّ الكهربائيّ وبقيت ساعتين تحتضر.

اعتُقلت سلوى البحريني وهي أمّ لصبيّ صغير، وكانت توزّع السلاح على المقاتلين الإسلاميين عام ١٩٨٠. وخلال التحقيق تعمّدوا إعطاءها لبناً مسموماً من قِبل الدكتور فهد الدنوك صانع السمّ الذي استُخدم ضدّ القوّات الإيرانية. واستناداً إلى التقرير جرى استخدام مئات من مجاهدي الدعوة كفئران اختبار في التجارب الكيميائية في سلمان بك جنوب بغداد.

توفّيت سلوى في منزلها بعد أربعين يوماً على إجبارها على شرب اللبن.

اتُّهمت فاطمة الحسيني وهي في العشرين من العمر بإخفاء أسلحة لحزب الدعوة واعتُقلت في بغداد عام ١٩٨٢. ضُربت بحبال بلاستيكية وتم تقييد يديها وراء ظهرها وعُلّقت بهما إلى السقف. عُذّبت بالكهرباء وألقوا الأسيد على فخذيها. ولمّا رفضت الكلام أمر جلّادوها بإعدامها. شُنقت في سجن أبو غريب عام ١٩٨٢ ودُفنت من قِبل عائلتها في النجف.

لم يكن التقرير المتضمّن ٥٥٠ صفحة والذي يسجّل المعاناة المؤلمة للسجينات الشيعة عملاً أدبياً. كانت بعض جُمله مُنمّقة وفي بعض الأحيان تصف استشهاد النساء كأنه قدر محتوم. كما أنه لم يكن مصنّفاً يُعتبر مادّة سهلة القراءة على الأميركيين الذين كانوا متلهّفين لاستخدامه دليلاً ضدّ صدّام.

كانت الولايات المتحدة تعتبر صدّام حليفاً عندما تمّ اقتراف هذه الجرائم ـ وأشار الكتاب تكراراً إلى أنّ المواد الكيميائية المستخدمة على السجينات مشتراة أصلاً من دول غربية. لكنّ التفصيل كان مقنعاً ـ أسماء ومصائر خمسين امرأة على الأقلّ مسجّلة إلى جانب أسماء جلّاديهم ـ كما أن نشاطات «وحش أبو غريب» أبو وداد جرى التأكّد منها من خلال بعض السجناء الناجين. كان يقوم بالإعدامات بين الثامنة والرابعة، وكان يضرب الرجال والنساء المحكومين ببلطة على مؤخّرة الرأس إذا ما نادوا باسم أحد الأئمّة المقتولين قبل شنقهم. في النهاية، جرى اعتقال أبو وداد بعد قبوله رشوة لإعدام سجين آخر غير الرجل المحكوم عليه وتمّ إعدامه على المشنقة نفسها عام ١٩٨٥.

استفاد الأميركيون والإنكليز من هذه الروايات عن الإرهاب خلال حُكم صدّام، وصاروا يسألون: «هل كنتم تفضّلون بقاءه هنا في العراق يُعذّب ويقتل شعبه بالغاز. ألا تعتقدون أننا قمنا بعمل جيّد بالتخلّص منه؟».. وكل هذا لأن المبرّرات الأساسية للغزو ـ امتلاك صدّام أسلحة دمار شامل، وارتباطه بمرتكبي ١١ أيلول/سبتمبر، وإنذار بلير بالـ ٤٥ دقيقة ـ كانت كلّها أكاذيب. لكن تلك مقارنة مظلمة يقوم بها بلير وبوش. إذا كانت لاأخلاقية صدّام وقساوته هما المقياس الذي تقاس به انتهاكاتنا ويحكم علينا بموجبه، فأيّ صورة يعطيها عنا؟ إذا كان نظام صدّام هو البوصلة الأخلاقية لتعريف أعمالنا، فكم هو مقدار السوء والظلم الذي يسمح به ذلك لنا؟ نعم... لقد عذّب صدّام وأعدم نساء في أبو غريب. أما نحن فقد قُمنا فقط بالاعتداء جنسياً على السجناء وقتلنا القليل منهم، كما

وقتلنا بعض المشبوهين في باغرام وأخضعناهم لمعاملة غير انسانية في غوانتنامو(*). إذن، لقد كان صدّام أكثر سوءاً!!!. وهكذا فقد بات من المحتّم أن يصبح رمز خِزي صدّام ـ سجن أبو غريب ـ رمز خِزينا أيضاً.

ما كان مهمّاً هو ردّة الفعل الواسعة المختلفة في الشرق والغرب على انتهاكاتنا في أبو غريب. صُدمنا، نحن الغربيين المتحضّرين، من عضّ الكلاب والإذلال وتعذيب الرجال والنساء للسجناء. وتعرّض العراقيون للإهانة لكنّهم لم يُصدموا. فقد أخبرهم أقاربهم وأصدقاؤهم ـ الذين اعتُقل بعضهم من قِبل الأميركيين ـ منذ فترة طويلة عن السلوك المقزّز للحرّاس الأميركيين. لم يفاجأوا بهذه الصور الفاضحة. لقد عرفوا مسبقاً.

في أوائل عام ٢٠٠٤، ظهر جيش من آلاف المرتزقة في شوارع مدن العراق الرئيسية، العديد منهم جنود إنكليز وأميركيون سابقون استأجرتهم السلطات الأنغلو ـ أميركية وعشرات الشركات التي خشيت على حياة مستخدميها في بغداد. وفاق عدد البريطانيين المسلّحين تسليحاً جيّداً في ثلاث مئة شركة أمن في العراق عدد الجنود البريطانيين المجهّزين جيّداً في جنوب البلاد. ومع أن شركات الأمن الأميركية والبريطانية كانت تعمل في العراق، فقد أقامت عشرات من الشركات الصغيرة مكاتب لها، مع بعض الملابس لموظفيها وقوانين قليلة للتوظيف. وكان العديد من البريطانيين جنوداً سابقين في SAS (الوحدات الخاصّة الشهيرة) ـ كما كان في البلاد المئات من رجال القوّات الخاصّة الأميركية السابقين، وكان المسلّحون القادمون من جنوب أفريقيا يعملون أيضاً مع سلطات الاحتلال.

إن وجود عدّة آلاف من المرتزقة الغربيين أو «المتعاقدين الأمنيين» في العراق ـ كما أشارت إليهم الصحافة الأميركية بخجل ـ كان يقول الكثير حول خشية أميركا من التعرّض لأضرار عسكرية، كما أنه يقول الكثير عن صناعة الأمن البالغة عائداتها مئات الملايين من الجنيهات والتي تغذّي الآن خزائن الحكومتين الأميركية والبريطانية. وتقوم الشركات الأمنية بمرافقة القوافل على الخطوط السريعة. كما أن رجال أمن مدنيين من شركة أميركية كانوا يحرسون القوّات الأميركية ليلاً داخل قصر صدّام الرئاسي السابق حيث أقام بول «بريمر مقرّ قيادته. وبعبارة أخرى، تقوم شركات الأمن الآن بحماية قوّات الاحتلال. وعندما تحطّمت مروحيّة أميركية قرب الفلّوجة عام ٢٠٠٣، كانت شركة أمنية أميركية هي التي سيطرت على المنطقة وبدأت عمليات الإنقاذ. ولا حاجة إلى القول إن الإصابات بين المرتزقة لم تكن ضمن التعداد النظامي الذي تعلنه سلطات الاحتلال عن خسائر قوّاتها.

(*) في منتصف صيف ٢٠٠٥، كانت عمليات التعذيب من قِبل القوّات الأميركية في العراق وأفغانستان تظهر إلى العلن أسبوعياً تقريباً. في النيويورك تايمز يوم ٢٣ أيار/مايو، وصف بوب هربرت عمليات التعذيب العسكرية بالسادية والإجرامية والملتوية. وجاء في تعليق التايمز في تقرير ٢٠ أيار/مايو حول مستند أميركي عن التعذيب في أفغانستان: «في استجواب تحت القسم للمحققين الأميركيين وصف الجنود محقّقة كانت لديها شهيّة إذلال السجناء، وقد وقفت على رقبة أحد المعتقلين الراكعين وقامت بركل الأعضاء التناسلية لآخر. ويروون أن سجيناً مقيّداً أُجبر على التدحرج على الأرض في زنزانته وتقبيل أحذية محقّقين معه. وأُجبر سجين آخر على التقاط سدادات زجاجات من برميل مليء بالغائط والماء كجزء من تدجينه للتحقيق». وقد وصف التقرير الأصلي الذي كتبه تيم غولدن كيف جرى ركل رجل بريء عدّة مئات من المرّات على قدمه من قِبل الحرّاس، ومات لاحقاً في زنزانته مقيّداً إلى السقف..

ولم تكن أسماء السجناء أيضاً ضمن القوائم. وعندما توفّي محمّد أبو العبّاس بشكل غامض في معسكر اعتقال أميركي في العراق، لم يزعج أحد نفسه للاتصال بعائلته. ولم يُعطِ سجّانوه الأميركيون منظمة الصليب الأحمر الدولي أيّة إشارة إلى أن الرجل الذي كان وراء اختطاف السفينة أكيلي لاورو عام ١٩٨٥ كان مريضاً، وقد عرفت زوجته ريم لأول مرّة بموته بينما كانت تشاهد أخبار تلفزيون عربي. غير أن المناضل الفلسطيني كتب في رسالته الأخيرة إلى عائلته قبل سبعة أسابيع «أنا بصحّة جيّدة ومرتاح» مضيفاً أنه يأمل تحريره قريباً. إذن ماذا حصل لمحمّد أبو العباس؟.

على الرغم من أن أبو العبّاس كان زميلاً بارزاً لياسر عرفات لأكثر من ثلاثة عقود، فإن العالم سوف يربط اسمه دائماً بأكيلي لاورو عندما قام أعضاء في «جبهة التحرير الفلسطينية» الصغيرة بالسيطرة على السفينة في المتوسّط.. وفي عملية قتل قذرة سبّبت إهانة دولية، أطلقوا النار على الأميركي اليهودي المسنّ ليون كلينغوفر.

والحال أنه، بعد مرور عشر سنوات، سمح الإسرائيليون أنفسهم لأبي العبّاس العضو في المجلس الوطني الفلسطيني بالدخول إلى الأراضي المحتلّة للمشاركة في انتخابات قطاع غزّة. لقد زار أيضاً منزل عائلته القديم في حيفا في إسرائيل. وأيّد اتفاقيات السلام الإسرائيلية ـ الفلسطينية وكان مع إلغاء البنود المعادية لإسرائيل في ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية. وكغيره من زملاء عرفات العديدين، واكب تحوّل الشرق الأوسط الروحاني من «الإرهاب المتطرّف» إلى السلام.

إذاً، لماذا اعتُقل في الغياهب الموحشة لمعسكر اعتقال المطار الأميركي خارج بغداد؟ لم يجر اتّهامه أبداً بأية جريمة، ولم يُعرض عليه مُحامٍ أو يُسمح له أبداً بالاتصال المباشر مع زوجته وعائلته.. وكان بإمكانه التواصل مع العالم الخارجي عبر الصليب الأحمر الدولي فقط. وهم الذين اتصلوا أخيراً بزوجته ريم في بيروت لتأكيد وفاة زوجها.

صرخت بي عبر الهاتف من بيروت: «لا أعلم شيئاً حول ذلك. كيف مات؟ لماذا لم يبلغونا شيئاً؟».. يبقى محمّد أبو العبّاس السجين الأبرز الذي مات وهو في قبضة الأميركيين في العراق، وانضمّ بذلك إلى لائحة متزايدة لوفيات غير مُفسّرة وقعت بين ١٥ ألف فلسطيني وعراقي تعتقلهم القوّات الأميركية. ستقول قوّات الاحتلال في العراق فقط إنها ستقيم حفل تأبين له. وقال محمّد صبحي رئيس المكتب السياسي لجبهة التحرير الفلسطينية: «إن اعتقال محمّد أبو العبّاس من قِبل القوّات الأميركية يوم ١٤ نيسان/أبريل من العام الماضي لم يكن له أيّ سبب قانوني سوى حاجة الجنود الأميركيين في ذلك الوقت إلى تسجيل انتصارات مزيّفة. لقد كان لجبهة التحرير الفلسطينية منذ فترة طويلة مكاتب في بغداد إلى جانب مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية. ونعرف جميعاً أن أبو العباس كان في فلسطين عام ١٩٩٥ وأن إسرائيل والولايات المتحدة سمحتا له بذلك. بعد ذلك، سافر عدّة مرّات إلى المناطق الفلسطينية وإلى دول عربية أخرى. أبلغنا ذلك كلّه للأميركيين وطلبنا منهم إطلاق سراحه».

في آخر رسالة كتبها أبو العبّاس إلى زوجته قال إنه يأمل إطلاق سراحه قريباً. إذن ماذا حصل له؟».

قالت ريم العبّاس التي لديها ولد من زوجها هذا واثنان من زواج سابق: «كان لا يزال يعيش في بغداد عندما دخل الأميركيون المدينة في ٩ نيسان/أبريل العام الماضي. وكان يحاول الابتعاد عنهم لأن العديد من الناس ـ عراقيين وفلسطينيين - اعتُقلوا من دون أن يفعلوا شيئاً. لقد أغارت القوّات الأميركية على منزلنا، ولم يكن محمّد هناك. شاهدت كل ذلك على تلفزيون فوكس ـ هل تصدق أنني شاهدت منزلي على التلفزيون وقد بعثروا الأثاث وغطّوا مِرآة بعلم فلسطيني ثم دعوا تلفزيون فوكس لتصويره. ومساء يوم ١٤ نيسان/أبريل، اتصل بي محمّد بواسطة هاتف ثريا الخليوي من منزل صديق. وكانت تلك غلطة كبيرة. أظنّ أنهم تعقّبوه بهذه الطريقة ووجدوه. بعد فترة قصيرة من المكالمة، صعد الجنود الأميركيون السلالم إلى حيث كان مختبئاً».

أعلنت سلطات الاحتلال الأميركي في البداية اعتقال «الإرهابي الكبير أبو العبّاس» ولم تُعطِ أيّة إشارة حول عودته إلى الأراضي المحتلّة أو أن الإسرائيليين أنفسهم ـ الذين كانوا أكثر تلهّفاً من الأميركيين لرؤيته في السجن ـ سمحوا له ولرئيس منظمة التحرير الفلسطينية بملء إرادتهم الدخول إلى أراضيهم كمفاوض سلام. قالت زوجته ريم: «أوّلاً كان إرهابياً ثم رجل سلام، ولمّا اعتقله الأميركيون جعلوه إرهابياً مجدداً. ما هذه السخافة؟».. وخلال بضعة أشهر حدث التحوّل نفسه بالنسبة إلى ياسر عرفات. كانت آخر رسالة من عبّاس لعائلته مؤرّخة في ١٩ كانون الثاني/يناير ومكتوبة بلغة عربية صحيحة على ورقة للصليب الأحمر ولم يكن فيها ما يشير إلى مصيره. كانت الرسالة موجّهة إلى أخيه خالد في هولّندا، وهي تعبير مألوف عن لهفة أيّ سجين لكتابة رسائل ولتنسّم الأخبار وعن حاجته إلى عبارات الحبّ والأمل. تبدأ الرسالة هكذا: «عزيزي خالد، أولاً قُبلاتي لرأس الوالدة العزيزة وآمل أنها مستعدّة لتحضير الدولما والدجاج المحمّر الذي أحبّه لأن أول غذاء لي بعد تحريري سيكون في منزلها. ما هي الأخبار عن عائلتي وعن عزيزي عيسى؟ سلام خاصّ له، ولزوجته وأولاده ولأخوتك وأخواتك وعائلاتهم لأنهم عائلتي وأحبّائي. أتمنّى أن ترسل لي دشداشة. أنا بصحّة جيّدة وأحتاج إلى معرفة الأخبار عن عائلتي وأصدقائي. لديّ آمال كبيرة بإطلاق سراحي قريباً ـ إن شاء الله». بدا محمّد أبو العبّاس غير متوقّع لموته المؤكّد. لكن بعد ٤٩ يوماً من رسالة الأمل، توفّي.

سمح العراق للعالم بتناسي فلسطين حيث يعيش عرفات محاصراً في مكاتب قذرة حبسه فيها الجيش الإسرائيلي في رام الله تحت الإقامة الجبرية. وقطع الإسرائيليون كلّ الاتصالات معه. وكذلك فعل الأميركيون.

لقد فجّر انتحاريون فلسطينيون أنفسهم في أنحاء إسرائيل ممّا دفع أرييل شارون لبناء حائط ضخم عبر الضفّة الغربية، عازلاً مئات القرى الفلسطينية، ومحقّقاً ضمّاً فعلياً بالقوة، داخل الأرض التي يُفترض أن تكون دولة فلسطينية. وينبغي القول فوراً إن الجدار لا يجب تسميته جداراً من قِبل معظم الصحفيين ـ مع أنه أطول من جدار برلين القديم بما لا يقاس ـ ذلك أن كلمة «جدار» تحمل في طيّاتها مضمون الغيتوات ومجمّعات الفصل العنصرية. وهكذا أصبح الجدار «حاجزاً أمنياً» في النيويورك تايمز وفي البي بي سي وغيرهما، ولدى آخرين صار «سياجاً»....

وقد اعتبرت المحكمة الدولية في لاهاي ـ التي أرسلت إليها السلطة الفلسطينية المحطّمة متحدّثين باسمها ـ أن البناء غير قانوني. وتجاهلت إسرائيل القرار(*).

وقد استمرّت إسرائيل في سياسة قتل مناوئيها. وذهبت «عمليات القتل الهادفة» ـ وهي مثال آخر على اختراعات إسرائيل اللغوية والتي تبنّتها البي بي سي وآخرون طواعية ـ إلى مداها رغم أن الأبرياء كانوا يُقتلون بشكل حتمي في تلك الهجمات. يوم ٢١ آذار/مارس ٢٠٠٤، أطلقت مروحيّة إسرائيلية صاروخاً على زعيم حماس المقعد والمسنّ، الشيخ أحمد ياسين، بينما كان يغادر مسجداً في غزّة. لا يتطلّب الأمر كثيراً من الشجاعة لقتل مُقعد في كرسيّ متحرّك. وعلى نحو مماثل، تطلّب الأمر لحظات قليلة لامتصاص تداعيات الاغتيال. أجل، كان الشيخ يؤيّد بحماس العمليات الانتحارية ـ بما في ذلك قتل الأطفال الإسرائيليين. أجل، إذا كنت تعيش مع السيف فبالسيف تموت، أكان ذلك في كرسيّ متحرّك أم في غيره. لكنّ شيئاً خطيراً جدّاً كان قَيد الإعداد في نهاية الامر ـ وهو سابقة مشوؤمة أخرى ـ لعالمنا الجديد الشجاع.

خُذ الرجل المسنّ نفسه على سبيل المثال. منذ البداية، كان الخط الإسرائيلي بسيطاً. كان الشيخ ياسين «رأس الأفعى» ـ إذا أردنا استخدام كلمات السفير الإسرائيلي في لندن ـ زعيم حماس «إحدى أكثر المنظّمات الإرهابية خطورة في العالم». ثم حصل عندها التعتيم من قِبل الإعلام العالمي. أبلغتنا البي بي سي (التلفزيون العالمي) يوم الاغتيال أنه كان قد أطلق سراحه أصلاً من قِبل الإسرائيليين خلال عملية تبادل للأسرى.

بدا ذلك كإحدى المقايضات المألوفة ـ فلسطيني يحرّر مقابل إطلاق الجنود الإسرائيليين الأسرى ـ ولكن في اليوم نفسه أبلغتنا البي بي سي أنه أطلق سراحه «تبعاً لاتفاق كان قد أبرمه الملك حسين».

الأمر الغريب كلّياً أنه كان سجيناً لدى الإسرائيليين. كان «رأس الأفعى» هذا في سجن إسرائيلي. وعندها ـ بينغو ـ كان إطلاق سراح هذا الوحش نتيجة الاتفاق. إذن لنتذكّر ما كان الاتفاق. أُطلق سراح الشيخ ياسين من قِبل رجل النظام والقانون في الجناح اليميني من الليكود بنيامين ناتانياهو عندما كان رئيس وزراء إسرائيل. لم يكن الملك حسين المتوفّى الآن وسيطاً بين الجانبين. لقد حاول عميل موساد إسرائيلي اغتيال مسؤول من حماس في عمّان، وهي عاصمة بلد عربي لديه معاهدة سلام كاملة مع إسرائيل. قاموا بحقن مسؤول حماس بالسمّ واتصل الملك الأردني حسين برئيس الولايات المتحدة غاضباً وهدّد بوضع رجال الموساد المعتقلين قَيد المحاكمة إذا لم يُقدّم المصل المضادّ للسمّ وإذا لم يُطلق سراح ياسين.

(*) لسنوات كان الأميركيون ـ وليس أقلّهم ثود فريدمان ـ يُملون على الفلسطينيين مبادئ عدم العنف، مقترحين عليهم أن مقاربة مشابهة لعمل غاندي ضدّ الاحتلال كفيلة بالحفاظ على مصالحهم. وأثبت لجوء العرب إلى لاهاي بالطبع أن مثل هذا الاحتجاج السلمي لا يرقى إلى مستوى تلّة الفاصولياء الشهيرة.. (إشارة إلى قصّة الأطفال الشهيرة حول تلّة تصل إلى السماء). . .

استسلم ناتانياهو فوراً. أُطلق سراح ياسين وذهب رجال الموساد بسلام إلى بلدهم. إذن أُطلق سراح «رأس الأفعى» من قِبل إسرائيل، بمبادرة حسنة من رئيس الوزراء الإسرائيلي ـ فصل في رواية التاريخ الذي تمّ تناسيه بشكل مناسب عندما جرى اغتيال ياسين ـ كان الأمر برمّته شاذّاً. إذ لو كان الشيخ حقّاً يستحقّ عملية اغتيال رسمية، فلماذا أطلق ناتانياهو سراحه أساساً؟ غير أن التداعيات كانت أكثر خطورة... والحال أنه جرى اغتيال زعيم عربي آخر، وبشكل انتقامي وقاسٍ. كان الأميركيون يريدون قتل بن لادن، وقتل الملّا عمر. ولقد قتلوا نجليْ صدّام حسين كما قتلوا ثلاثة من رجال القاعدة في اليمن بواسطة صاروخ موجّه. وهدّد الإسرائيليون تكراراً بقتل ياسر عرفات. وبعد فترة قصيرة من مقتل ياسين، ضرب الإسرائيليون مجدّداً، وأطلقوا صاروخاً آخر على زعيم حماس الجديد عبد العزيز الرنتيسي. كان الرنتيسي هو الذي أُبعد إلى لبنان مع مئات من الفلسطينيين الآخرين منذ أكثر من عقد وعاشوا شهوراً طويلة في الحرّ والثلج في «مرج الزهور» على الحدود الإسرائيلية. وكان هو الرنتيسي الملتحي نفسه الذي قابلته مؤخّراً في غزّة وأبلغني أن «أفضل طريقة لإنهاء حياته هي الاستشهاد». نظرت عندها من النافذة أبحث عن مروحيّة أباتشي. والآن جاءت الأباتشي لأجله.

لم يشرع أحد بعدُ في العمل على تداعيات ذلك كلّه. لسنوات، كان هناك قانون غير مكتوب في الحرب القاسية التي تخوضها الحكومات في مواجهة حرب العصابات. يقول هذا القانون إنه يمكنك قتل الرجال في الشارع، صانعي القنابل والمسلّحين. لكنّ القياديين من كلا الجانبين ـ الوزراء، الزعماء الروحيين، المحاورين المحتملين مستقبلاً ـ كما كان يسمّيهم الفرنسيون عندما اكتشفوا أنهم قتلوا معظم القيادة الجزائرية ـ يُسمح لهم بالبقاء أحياء.

صحيح أن هذه القوانين خُرقت في بعض الأحيان. فقد حاولت منظمة الجيش السرّي الإيرلندي IRA قتل السيدة تاتشر، وقتلوا صديقها ايراي نياف. وقتلت منظمة الجهاد الاسلامي وزيراً إسرائيلياً في غرفته في الفندق. لكن كانت تلك استثناءات. أمّا الآن فقد تغيّر كلّ شيء تماماً. أصبح كلّ مَن يتبنّى العنف ـ حتى لو كان غير قادر فعلياً على القيام به ـ على لائحة الموت. إذن، مَن الذي يُفاجأ إذا انتُهكت القوانين من الطرف الآخر؟.

هل الرئيس جورج بوش بمأمن الآن؟ أو طوني بلير؟ أو سفراؤهم أو وزراؤهم؟ كم سيمرّ من الوقت قبل أن يلعب زعماؤنا «لعبة عادلة»؟ لن نقول ذلك. هل علينا التشنيع بالقتلة والجدال بأن مرحلة جديدة من الإرهاب قد بدأت، في حال ـ أو حين ـ يتمّ اغتيال قادتنا، تطلق النار عليهم أو يفجّروا؟.... علينا أن ننسى أننا نشجّع الآن رحلة الاغتيالات المفتوحة تلك. لقد فشل الأميركيون في شجب اغتيال الشيخ ياسين كما فعلوا بالنسبة إلى الرنتيسي. إذن، نحن نتقدّم خطوة أخرى في طريق مشؤوم. ثم جاء موت الرجل العجوز. كانت لدى عرفات منذ فترة طويلة عوارض مرض الباركنسون.. لكن في بؤس مسكنه في رام الله تدهورت صحّته أكثر. تعوّد حتى بحضور زوّاره من الدبلوماسيين على رفع جواربه وحكّ قدميه. وكان يجد صعوبة في التركيز، وفقد شهيّته. ويستطرد أمام زوّاره أنفسهم في الكلام عن معركة ١٩٨٢ ضدّ الإسرائيليين في بيروت المحاصرة. وأدرك بعض المحيطين به أن

ذهنه قد شتّ وأنه بدأ يفقد العلاقة مع العالم الحقيقي، وأنه يموت. وكانوا على حقّ. وقد سمح الإسرائيليون أخيراً للرجل اليائس المريض بمغادرة مقرّ قيادته المدمّر ونقله الفرنسيون إلى مستشفى بيرسي العسكري خارج باريس. وهناك في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤، في الذكرى الثامنة والستين لانتهاء الحرب العالمية الثانية ـ الحرب التي أنتجت وعد بلفورد ودعم بريطانيا لإقامة دولة يهودية في فلسطين، والصراع الذي تسبّب في حرمان شعبه ونفيه ـ مات ياسر عرفات.

شاهدت جنازته في القاهرة، كانت رحلة قصيرة، محزنة على عربة تقودها الجياد على الجادّة التي لم يُسمح لأيّ فلسطيني أو مصري بالمرور فيها... وسار خلفه حفنة من الدكتاتوريين العرب، أيادي بعضهم ملطّخة بالدماء... كانوا يتحدّثون أمام المسجد عندما فُتح باب القصر وخرجت ستّة جياد تجرّ النعش على الطريق، وهو مغطّى بالعلم الفلسطيني الذي وضعه الفرنسيون عليه. وبعد دقيقة لم يعد أحد يرى الجياد أو النعش. كان مثل قطار أسرع غير منظور إلى محطّة المدينة في نهار حارّ. وعندما وصل النعش إلى رام الله، أقام الفلسطينيون لعرفات جنازة أكثر ألفة... كانوا ينتحبون ويبكون ـ عشرات الألوف منهم ـ ويتدافعون للمس النعش ويطلقون زخّات من الرصاص في الهواء. كان عرفات ليفرح بذلك، لأن ذلك كان عفوياً ومأساوياً وحقيقياً ومخيفاً مثلما كانت شخصيته المتصدّعة. وبالطبع، كان العالم مسروراً. أما الآن وقد رحل عرفات، فقد صار هناك أمل. تلك كانت ردّة فعلنا. بينما كان الفلسطينيون محزونين، قيل لهم إن الوضع سوف يتحسّن.

لذلك، وبعد انتخابات ديمقراطية ـ شيء لم يوافق عليه عرفات أبداً ـ أصبح محمود عبّاس الذي لا لون له رئيساً، وقد أيّده الإنكليز والأميركيون تأييداً قوياً. كان عبّاس هو مَن صاغ مستندات اتفاق أوسلو، الواقع في ٦٠٠ صفحة لم يورد فيها ولو مرّة كلمة احتلال، وأشار فيها فقط إلى إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي وليس انسحابه. والآن بعدما وعد بوقف الإرهاب ـ كانت قدرة عبّاس على استخدام القاموس الأميركي والإسرائيلي من بين العديد من إنجازاته ـ انزلقت أرض فلسطين من تحته.

خرقت حماس وإسرائيل وقف إطلاق النار.. وبعد ذلك أعلن الرئيس جورج بوش عقب اجتماع في الولايات المتحدة مع شارون أن هناك وقائع جديدة يجب مواجهتها.. وفي الوقت الذي يريد فيه دولة فلسطينية ديمقراطية جنباً إلى جنب مع إسرائيل، فإن المستوطنات الإسرائيلية المبنية بشكل غير قانوني على الأرض الفلسطينية يجب أن تبقى. قال ذلك لأوّل مرّة في نيسان/أبريل ٢٠٠٤ عندما كان عرفات على قيد الحياة. وكان ذلك يعني تدمير قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذي ينصّ على أن الأرض لا يمكن أخذها بالقوّة...

كان أريل شارون مستعدّاً لإزالة المستوطنات الصغيرة في غزّة ـ التي تضمّ ٨ آلاف إسرائيلي ـ وكان ذلك «عملاً تاريخياً وشجاعاً». والنتيجة؟ أصبحت مساحات واسعة من الأرض الفلسطينية في الضفّة الغربية الآن إسرائيلية برعاية الرئيس بوش. إن الأرض التي تعود إلى شعب آخر غير إسرائيلي يمكن أن تعود ملكيتها الآن بموافقة أميركية إلى الأسرائيليين لأنه «كان من غير الواقعي القبول بغير ذلك». ارتعب الفلسطينيون. وهذا بالضبط

هو ذلك النوع من الغشّ وعدم الأمانة الذي يفرح أُسامة بن لادن بالحديث عنه. وعلى ذلك فإذا كان جورج بوش يظنّ أنه يستطيع تعريف ما هو غير واقعي في الشرق الأوسط، فإنه يحقّ للمرء أن يطرح سؤالاً آخر: هل يعمل بوش فعلياً لصالح القاعدة؟

لدينا كلّنا أراض أعطانا إيّاها الله أو آباؤنا. ألم تمت ماري تودور ملكة بريطانيا و«كاليه» محفورة في قلبها؟ أليس لإسبانيا حقّ مشروع بهولّندا؟ أو للسويد حقّ مشروع بالنروج والدانمرك؟ أو لبريطانيا حق مشروع بالهند؟ أليس للعرب ـ واليهود ـ حقّ لخمسة عشر قرناً بالأندلس؟ كلّ قوة استعمارية بما في ذلك إسرائيل يمكنها طرح هذه المطالب البالغة السخف. إنّ كلّ طرح لأسامة بن لادن، وكلّ تصريح له بأن الولايات المتحدة تمثّل الصهيونية وتساند سرقة الأرض العربية قد ثبتت صحّته الآن لملايين العرب، حتى للذين لا وقت لديهم للتفكير ببن لادن. أيّ رقيب تعبئة وتجنيد أفضل من بوش كان يمكن أن يحصل عليه بن لادن؟ ألم يدرك ماذا كان يعني ذلك بالنسبة إلى الجنود الأميركيين الشباب في العراق؟ أم أن الإسرائيليين كانوا أهمّ من أرواح الأميركيين في بلاد ما بين النهرين؟

> في ساعاته الأخيرة كحاكم أميركي في بغداد، صيف ٢٠٠٤، قرّر بول بريمر تشديد بعض القوانين التي وضعتها سلطة احتلاله في أنحاء العراق. وأصدر قانوناً جديداً يمنع العراقيين من قيادة سيّاراتهم بيد واحدة على المقود. واعتبر تعميم آخر قيام العراقيين بإطلاق أبواق سيّاراتهم جريمة إلّا في حالة الطوارئ. في اليوم نفسه، وبينما كان بريمر يتحدّث عن قواعد قيادة السيّارات لدى العراقيين، قُتل ثلاثة جنود أميركيين بعبوّة ناسفة على جانب الطريق شمال بغداد، وهذا واحد من أكثر من ستّين هجوماً تعرّضت لها القوّات الأميركية في الأسبوع ذاته.

من الصعب إيجاد رمز أكثر إحباطاً وسخفاً لفشل بريمر وعدم قدرته على فهم طبيعة الكارثة التي جلبها هو وسلطة الاحتلال اليائسة. لم يكن الموضوع أنّ سلطة الائتلاف المؤقّتة ـ التي تحوّلت الآن إلى ٣ آلاف موظف قوي في السفارة الأميركية الأكبر في العالم ـ كانت خارج مجال الاتصال. . . فهي لم تكن أصلاً تعيش على كوكب الأرض. جاءت لحظة بطولة بريمر الأخيرة عندما رحل عن بغداد في طائرة عسكرية بحماية اثنين من المرتزقة الأميركيين المسلّحين ـ وجّها بندقيتهما آلياً إلى كاميرا التلفزيون وهما يسيران إلى الوراء ـ رافقاه حتى إغلاق باب الطائرة. ولنتذكّر أن بريمر عُيّن في منصبه لأنه كان خبيرا في «مكافحة الإرهاب».

كان صيفاً رهيباً. فإذا لم يستطع الثوّار ضرب الأميركيين دائماً فإنهم كانوا يُجهّزون «مخازنهم الكبرى» الانتحارية ويدمّرون مَن يعتبرونهم عملاء.

يوم ٢٨ تموز/يوليو، على سبيل المثال، جرى قتل جماعات من الفقراء المتقدّمين لوظيفة شرطي، حوالي مئة منهم من قرية بعقوبة السنّية، بينما كانوا يصطفّون من دون حماية على طول الجادّة سعياً وراء إيجاد عمل. قاد الانتحاري ـ المجهولة هويّته كالمعتاد ـ سيّارته الرينو في وسط ستّ مئة عاطل عن العمل من الشباب الباحثين عن

وظيفة في قوة الشرطة، وفجّر العبوّات التي مزّقتهم إرباً. وتركت القنبلة حفرة عمقها ستّ أقدام على الطريق، وأصابت حوالي ١٥٠ رجلاً وامرأة بجروح، وكان العديد منهم يتسوّقون في سوق مجاور.

كان ذلك الصيف هو الأخير الذي يستطيع المرء التحرّك فيه على الطرقات في العراق مع بعض الأمل بعدم الموت أوالخطف أو قطع الرأس. وقد صعدت إلى مركب في نهر دجلة، عرض عليّ صاحبه أخذي إلى البصرة، وهو جندي عراقي اسمه صالح، كان أصيب في الحرب العراقية ـ الإيرانية.

فكّرت أن الرحلة البعيدة على المركب سوف تستغرق أسبوعاً كاملاً. لذلك أعددت نفسي لرحلة خارج بغداد، مروراً بمدرسة صدّام القديمة وأنقاض وزارة الدفاع وجيوش الجالسين في رُكام الشقق. وبينما كنّا نبحر في مياه دجلة، سألت صالح الذي كان شيعياً، ما إذا كان هناك أمل للشرق الأوسط، للعراق، لنا. أجاب: «قال إمامنا عليّ إن الناس إمّا أخ لك في الدين أو أخ لك في الإنسانية ونحن نؤمن بذلك. عليك العيش مع كلّ الناس بسلام تامّ. لا تحتاج إلى قتالهم أو قتلهم. هل تعلم أنّ الإسلام دين يُسر ولكنّ بعض المتطرّفين يجعلون منه دين عُسر. نحن ضدّ أيّ شخص يقتل أو يخطف الأجانب. ليس ذلك من تعاليم الإسلام».

ذهبت إلى الشيخ جواد مهدي الخالصي، وهو من أكثر زعماء الشيعة إثارة للإعجاب في بغداد. إنه رجل طويل، مميّز، يتكلّم بلباقة ومرح، ولديه حكمة وبصيرة جدّه ـ الرجل الذي قاد الثورة ضدّ الاحتلال البريطاني عام ١٩٢٠. أحضر صورة لجدّه الثائر الكبير الذي كانت لديه لحية طويلة ومرتّبة. كان أحد أبرز علماء عصره وقد أنهى حياته في المنفى يفاوض مع حكومة لينين البلشفية ومات بشكل غامض ـ مسموماً من قِبل البريطانيين على ما يعتقد مؤيّدوه.

اهتزّت كتفا الشيخ جواد من الضحك عندما أوحيت أن هناك تشابهاً بين انتفاضتي ١٩٢٠ و٢٠٠٤. قال: «بالضبط، في عام ١٩٢٠ حاول الإنكليز فرض حكومة شكلية فقط ـ بدت مثل نسخة عن قرار مجلس الأمن رقم ١٥٤٦. وقد أصبح الشيخ مهدي الخالصي المرجع الأعلى بعد وفاة محمد الشيرازي وأصدر فتوى تُطالب أتباعه وكلّ شيعة العراق بعدم المشاركة في الانتخابات، وعدم إعطاء شرعية لحكومة شكّلتها قوّات الاحتلال.

لم يستجب المسلمون الشيعة وحدهم للفتوى بل السنّة واليهود والمسيحيّون والأقلّيات الأخرى. وقد فشلت الانتخابات، ولذلك أجبر الإنكليز جدّي على مغادرة العراق. اعتقلوه في منزله في الجهة الأخرى من هذه المدرسة الدينية حيث نحن الآن ـ منزل دمّره صدّام حسين عمداً بعد عدّة سنوات».

كان ذلك عملاً استعمارياً مألوفاً. كان الإنكليز ينفون العلماء المشاغبين ـ تذكّرت الأسقف مكاريوس ـ خلال القرن العشرين... لكنّ الشيخ مهدي كان خطراً في الخارج بالنسبة إلى الانكليز بمقدار خطورته في الوطن. وقد نُقل إلى بومباي، لكنّ حشد الهنود المسلمين الذين جاءوا لاستقباله في الميناء كان كبيراً جدّاً ممّا دفع القوّات البريطانية إلى إبقائه على متن السفينة، ثم نقلوه إلى ميناء عدن الحارّ والبركاني.

قال للإنكليز: «لا تعرفون أين ترسلونني ـ وبما أن موسم الحجّ قد اقترب، فإني أرغب في الذهاب إلى مكّة للحجّ». وعندما علم الشريف حسين بذلك، أرسل دعوة إلى جدّي للمجيء إلى الحجّ. وقد التقى بالشريف حسين على جبل عرفات في مكّة. ثم تسلّم دعوة للذهاب إلى إيران موقّعة من وزير الخارجية محمّد مصدق. وفي إيران كان بانتظاره العديد من علماء النجف». بعد ثلاثين عاماً أسقط الأميركيون حكومة مصدّق الإيرانية ـ بالتعاون مع الكولونيل وود هاوس «مونتي» من جهاز المخابرات البريطاني MI6.

كان الشيخ جواد يستخدم يديه عندما يتحدّث ـ إن رجال الدين الشيعة أكثر تعبيراً بأيديهم من رجال الدين الأنغليكان ـ وكانت كل مرحلة جديدة في حياة جدّه تستلزم إشارات بإصبعه. قال: «عندما وصل الشيخ مهدي الخالصي إلى ميناء بوشهر الإيراني، لقي استقبالاً كبيراً... لكنّ موظفاً في شركة النفط الإيرانية أطلق عليه عشر رصاصات. وقال العديد من الناس حينها إنها مؤامرة من قِبل الكولونيل ويلسون الذي كان قائد الاحتلال البريطاني في العراق عام ١٩٢٠. وكان جميع كبار علماء قُمّ في إيران بانتظاره ـ النائيني والأصفهاني والشيخ عبدالحليم الحائري اليزدي الذي كان أستاذ آية الله الخميني ـ وقد أعلن الملك فيصل الذي عيّنه الإنكليز في بغداد أن باستطاعة علماء الدين المنفيين العودة إلى العراق، شرط التزامهم بعدم التدخّل في السياسة.

رفض الشيخ مهدي بغضب الدعوة ووصفها «بالاعتداء على دورنا كعلماء دين وعلى استقلال العراق». وبالمقابل، سافر إلى المدينة الإيرانية الشمالية الشرقية مشهد حيث أنشأ مجلساً لحماية الأماكن المقدّسة في العراق، ونشر فتاوى بالعربية والفارسية والأوردو والروسية والتركية».

وقال الشيخ جواد: «كان هناك حوار غير مباشر أيضاً بين جدّي وثوّار لينين البلشفيين. أرادوا استخدام الصعوبات الناشئة في الوضع الدولي لمساعدة العراق على أن يصبح دولة مستقلّة حقيقية. وحصلت ثورة في العراق، وكانت هذه هي الفكرة. لكنّ جدّي توفّي فجأة عام ١٩٢٥. زعموا أنه كان مريضاً. لكنّ والدي اعتقد دائماً أن القنصل البريطاني في مشهد قام بتسميم الشيخ مهدي. وبعد ظهر يوم وفاته، دعا القنصل جميع أطبّاء مشهد إلى حفل استقبال خارج المدينة.. وهكذا عندما أُصيب جدّي بالمرض لم يستطع أحد إيجاد طبيب، ولم يكن هناك أحد للاهتمام به».

والآن ماذا؟ سألت الشيخ جواد. ماذا عن العراق اليوم وقد انتُخب هو عضواً شرفياً في «المؤتمر الإسلامي العراقي» الذي يضمّ علماء من الشيعة والسنّة ـ والذي يطالب باستقلال العراق كما فعل جدّه الشيخ مهدي منذ ثمانين عاماً؟ أجاب: «لن ينفصل الشيعة ولن يعزلوا أنفسهم عن السنّة. يجب أن تكون لهم حقوقهم عندما يحصل الشعب العراقي على حقوقه. لنا الحقّ في مقاومة الاحتلال أيضاً بطرق متنوّعة ونحن نقوم بذلك سياسياً... يريد الأميركيون حرباً أهلية، لكنهم فشلوا لأن الشعب العراقي سيرفض الوقوع في حرب أهليّة».

لكنّ هناك عرباً يمكن أن يثيروا حرباً أهليّة أيضاً وهم يريدون تصوير الإسلام على أنه دين انتقام وخوف.

بدأت أراجع أشرطة الفيديو، أشرطة خطف الرجال والنساء، وهم يطالبون بإنقاذ حياتهم. تبدو الصور غير واضحة، والأصوات غير مُبينة أحياناً. وعندما صرخ الكوري الجنوبي كيم صن إيل تكراراً، كان خوفه جليّاً. وعندما عُرضت رؤوس الضحايا المخطوفين، أديرت تسجيلات آيات قرآنية ـ بصوت إمام سعودي مشهور ـ على سمّاعة الصوت. وفي عملية قطع رأس أميركي، قام القاتل مراراً بمسح السكّين المليء بالدم مرّتين بملابس الضحيّة كما يفعل الموظفون السعوديون بعد عمليات الإعدام العلنية في المملكة. أصبح الإرهاب بواسطة الفيديو الآن وسيلة منظّمة تنظيماً جيّداً في الحرب العراقية. بدأت «المقاومة» أو «الإرهابيون» أو «المقاتلون العراقيون المسلمون» ـ كما صارت تشير القوّات الأميركية الآن إلى أعدائها ـ بعدد من أشرطة الفيديو السيّئة التصوير والتي تُظهر الهجمات على الأميركيين في العراق. وكانت تُصوّر من سيّارة مارّة على جانب الطريق، العبوّات الناسفة وهي تنفجر قرب قافلة أميركية. وكان يمكن رؤية المقاتلين وهم يطلقون قذائف الهاون على القواعد الأميركية خارج الفلّوجة. ولكن عندما يبدأ الخطف، تنتقل أشرطة الفيديو إلى عالم جديد ظلامي. أكثر من ستّين أجنبياً خطفوا في العراق في شهر تموز/يوليو ٢٠٠٤، أُطلق سراح معظمهم لكنّ العديد منهم صُوّروا أثناء اعتقالهم بينما كان يقرأ الخاطفون مطالبهم. كان رأس أنجيلو ديلاكروز المرمي جانباً كافياً لاندلاع التظاهرات في مانيلا وللانسحاب المبكر للوحدة الفليبينية الصغيرة من العراق.

لكنّ السيناريو أصبح روتينياً مرعباً. كانت الضحية المعنيّة تجثو أمام ثلاثة رجال قُساة يحملون رشّاشات كلاشينكوف. وفي بعض الأحيان كانت الضحيّة تتوسّل لإنقاذ حياتها. وأحياناً أخرى تكون صامتة غير مبالية ظاهرياً إذا قتلت أو بقيت على قيد الحياة. غير أن المشاهد يلاحظ شيئاً رهيباً لا تبدو الضحيّة مهتمّة له... إذ عندما يجري قطع رأس الضحية، كان المسلّح الواقف خلفها يلبس قُفّازات. هناك قراءة لحكم الإعدام... وبعدها ـ حتماً ـ تُسحب الضحية إلى اليمين، ثم ينحني أحدهم لينفّذ عملية نحرها. كانت الضحية الأخيرة مواطن بلغاري. وبينما كان كين بيغلي من ليفربول يظهر مرتدياً ملابس سجين مثل غوانتنامو، ويصرخ طالباً النجدة من طوني بلير، كانت صور الرومانيين والفرنسيين واليابانيين والكوريين والأتراك ومن جنسيّات أجنبية أخرى تمرّ أمام الكاميرات.

وترسل أشرطة الفيديو عادة الى واحدة من محطّتي تلفزيون عربيّتين ونادراً ما تُعرض كاملة. لكنّ بعض شبكات الإنترنت المخزية ـ ولا سيّما واحدة في كاليفورنيا ـ كانت تنقل مضمون الأشرطة كاملاً... على سبيل المثال نقلت شبكة إنترنيت أميركية قطع رأس الأميركي فرانك بيرغ والكوري الجنوبي بالتفصيل الدموي والكامل. وعرضت الشبكة النسخة المختصرة والنسخة الطويلة لعملية قطع رأس كيم صن إيل. وتُظهر النسخة المختصرة رجلاً يقطع رأس الرهينة. أمّا النسخة الطويلة فتُظهر طلب الرحمة ـ الذي يستمرّ على الأقلّ دقيقتين وتليه عملية الذبح. وعلى الشاشة نفسها، وفي الوقت عينه تظهر إعلانات لـ «فتيات البورنو» و«فتيات الحصان».

شاهدت الشرطة العراقية جميع أشرطة الإعدامات، وهي تعتقد بأنها تتبع نموذجاً سعودياً أساسياً في قطع الرأس. في حالات عديدة، تحدّث الخاطفون باللهجات السعودية واليمنية. لكن في الفيديو المصوّر عن ثمانية

سائقين أجانب ـ من ضمنهم كينيّون وهنود ومصري واحد ـ يظهر المسلّحون وهم يتحدثون باللهجة العراقية. وقد طالبوا بأن تنهي الشركات التي تستخدم السائقين عقودها مع الجيش الأميركي في العراق ـ كما فعلت شركة سعودية بوقف عملها بعد خطف موظف مصري آخر. وبشكل واضح، كانت المقاومة تحاول حرمان الأميركيين من العمالة الأجنبية، وإجبار المزيد من القوّات الأميركية على التوجّه إلى الخطوط السريعة الخطرة لقيادة قوافل التموين التي تعبر العراق يومياً.

من أين يأتي الإلهام لكلّ هذه الأشرطة المرعبة. في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤، اكتشف زميل لي شريط فيديو يُباع في عاصمة الثوّار الفلّوجة، ويعرض عملية قطع رأس جندي أميركي. في الواقع، يعرض الشريط قطع رأس جندي روسي اقتيد إلى غرفة من قِبل رجال مسلّحين في الشيشان.

أُجبر الجندي على الاستلقاء ـ غير عابئ ظاهرياً بمصيره ـ وفي البداية حاول التأقلم مع الألم، فيما كان رجل يوجّه سكّيناً إلى نحره، ثم قطع رأسه. وقد احتجت إلى عدّة شهور قبل أن أدرك لماذا يجري تداول هذا الشريط. كان الهدف تقديم نموذج تدريبيّ للجلّادين العراقيين الجُدد يعلّمهم كيف يذبحون الإنسان، أخ لك في الدين أو أخ لك في الإنسانية.

لكن من وراء ذلك كلّه، وفوق ذلك كلّه، كان الشبح الذي يظهر في مؤخّرة الكهف التاريخي هو شبح أسامة بن لادن. كلّ بضعة أشهر، يُرسل شريط تسجيل صوتي، أو شريط فيديو لبن لادن شخصياً، إلى قناة الجزيرة وغالباً ما يُسلّم إلى مندوبها في إسلام أباد. وسيصبح هناك روتين محدّد يعمل وفقه المراسلون: هل كان هو حقّاً؟ متى صوّر الشريط؟. وسيقول البنتاغون إنه «يدرس الشريط»، فيما ينهمك الصحفيون في التقاط أيّ تهديد كان يعلنه بن لادن. . . . غير أنهم نادراً ما كانوا يستمعون إلى الخطاب بكامله، والقيام بترجمة كاملة له ومعرفة ما كان يقوله بن لادن فعلاً. . . ذلك أنه لمعرفة ما يدور في ذهن بن لادن، عليك الاستماع إلى الصوت، حتى لو كان الشريط مليئاً بالعبارات البلاغية حول امتطاء الجياد ونشر الرماح، ممّا يجعله مملّاً إلى حدّ ما. يوم ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ على سبيل المثال، قرأ بن لادن قصيدة موجّهة على ما يبدو إلى قتلة ١١ أيلول/سبتمبر، وكانت تحتوي على عبارات مثل: «سيف غاضب» و«دروع» «وصواعق مضيئة» و«انفجارات» و«عاصفة».

مع ذلك فإن ما كان واضحاً أيضاً من هذه الأشرطة هو الاهتمام الكبير الذي يُبديه بن لادن بالتاريخ. كانت هناك إشارات إلى وعد بلفور، واتفاق سايكس ـ بيكو ـ يوم ٢٠ شباط/فبراير ٢٠٠٣ أوحى بأن صداقة بوش ـ بلير هي ترجمة لذلك ـ وبالطبع معاهدة سيفر Sevres.

«إن أمّتنا (العالم الإسلامي) تعاني من هذا الإذلال والانحطاط لأكثر منذ ثمانين عاماً». . . هذا ما قاله يوم ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. وفي الشريط نفسه يلوم الولايات المتحدة على تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧. قال: «يجب أن لا نقبل أبداً أن تتكرّر مأساة الأندلس في فلسطين». ربّما كانت الأندلس أكبر عملية تطهير عرقي حصلت

ضدّ العرب عندما قام فرديناند وإيزابيلا من إسبانيا بإقصاء المغاربة ـ واليهود مع أن بن لادن لم يُظهر أيّ تعاطف معهم رغم أنهم كانوا من «أهل الكتاب» ـ من جنوب غرب أوروبا عام ١٤٩٢(*).

وفي الشريط الذي زعموا أن عميل مخابرات بريطانياً وجده في منزل في جلال أباد بعد سقوط طالبان ، ظهر بن لادن وهو يعترف بمسؤوليته عن هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وبما أن معظم الشريط كان غير مسموع، فقد ارتبت أساساً في ادّعاء البنتاغون أنه استطاع ترجمة ملاحظات بن لادن ـ وذلك إلى أن قرأت هذه المقتطفات:

«كنّا في معسكر أحد الأخوة الحرس في قندهار، وينتمي هذا الأخ إلى الأغلبية في المجموعة. جاء إلى جانبي وأخبرني بأنه رأى في المنام مبنى مرتفعاً في أميركا. عند تلك النقطة صرت قلقاً من أن السرّ (الهجوم المقترح يوم ١١ أيلول/سبتمبر) سوف يُكشف في حال بدأ كلّ شخص يراه في حلمه... لذلك أقفلت الموضوع. أخبرته بأنه إذا حلم حُلماً آخر ألّا يخبره لأحد»...

كيف أنسى تلك اللحظة المخيفة قبل أربع سنوات عندما ابتسم أُسامة بن لادن لي قائلاً: «إن أحد الأخوة رأى حُلماً، وإن الأخ رآني على حصان وأنا مُلتحٍ وأرتدي ملابس مثل ملابسهم، وإنني لذلك يجب أن أصبح مسلماً»؟ كانت الأحلام تتردّد في أقوال أتباع بن لادن الآخرين.. وإن تأثيرها على القاعدة هو حتماً أكبر ممّا نتصوّر. وقد ادّعى زعيم طالبان الملّا عمر أن النبيّ محمّد (ص) دعاه في الحلم إلى إنقاذ أفغانستان. ولنظريات الأحلام تاريخ طويل في الإسلام... منذ عام ٨٦٦، ناقش الفيلسوف الإسلامي ابن إسحاق الكندي هذا الأمر، وقال بأن النفس وقت النوم تتحرّر من عالم الحواسّ وتصبح على تواصل مباشر مع «القوّة المتخيّلة». ولا بد أن يكون أساس هذا الاعتقاد مستوحى من تجربة النبيّ شخصياً الذي تلقّى كلمة الله من خلال سلسلة رؤى ـ أحلام، أوحيت غالبيتها له بينما كان يتأمّل في كهف على جبل (غار حراء). ولا شكّ في أن أتباع بن لادن علموا بأن زعيمهم يحلم في كهوف أفغانستان.

بحلول عام ٢٠٠٤، لم يحاول بن لادن إخفاء تورّط القاعدة في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وبخاصّة مع قائد الخاطفين. قال يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر: «وافقنا مع محمّد عطا ـ رحمه الله ـ على القيام بكلّ العمليات خلال عشرين دقيقة قبل أن يدرك بوش وإدارته ماذا يحصل». في هذا الشريط الذي جرى توقيته ليصادِف موعد الانتخابات الرئاسية الأميركية، توجّه بن لادن بشكل خاصّ إلى الأميركيين ـ كانت معظم رسائله موجّهة إلى المستمعين العرب ـ وردّ على خطاب بوش حول القاعدة حيث يقول: «إنهم يكرهون الحرّية»... قال بن لادن:

(*) جلبت هذه المرحلة الرهيبة من التاريخ الإسلامي ـ المسيحي نهاية لخلافة صغيرة قام خلالها المفكّرون ـ من مسيحيين وعرب ويهود ـ بترجمة أكبر الأعمال الأدبية الكلاسيكية التي كانت مخزّنة في بغداد من العربية إلى لغات الغرب. وقد وقّع مرسوم الإبعاد يوم ٣١ آذار/مارس ١٤٩٢ وشكّل بالنسبة إلى اليهود أكبر كارثة منذ تدمير الهيكل في القدس. وقد أدّى أيضاً إلى نشوء تراث كبير من الكتابات شبه الماجنة المعادية للإسلام والتي تُظهر النبيّ على أنه المسيح الدجّال.

«نحن نقاتلك لأننا أحرار لا نقبل الاضطهاد. نريد أن نعيد الحرّية إلى أمّتنا.. وكما ترمي القُمامة على شعبنا فإن علينا رمي القُمامة على شعبك»(*).

وقد ربط مهاجمة البرجَين التوأم لمركز التجارة العالمي بذكرى مشاهدة أبراج بيروت تُدمّر وتهوي إلى الأرض خلال الحصار الإسرائيلي عام ١٩٨٢، مضيفاً: «إنني لا أنسى هذه المشاهد المؤلمة، الدم والأوصال المقطّعة والنساء والأطفال القتلى في كل مكان». لم يكن بن لادن في بيروت عام ١٩٨٢ ـ كان يحارب ضدّ الجيش السوفياتي في أفغانستان ـ ولعلّه شاهد قصف بيروت على شريط فيديو فقط. لقد دُمّرت أبنية عالية خلال الحصار، وليس في بيروت أبراج كتلك التي تحدّث عنها بن لادن. لكنّ زياد جرّاح كان طفلاً في بيروت عام ١٩٨٢. هل قام لاحقاً برواية ذكرياته لبن لادن؟.

لكنّ ملاحظات زعيم القاعدة الأكثر تدميراً ـ التي تضمّنت تحذيراً تجاهلته أميركا وبريطانيا كلّياً لم تقرآه حتماً ـ جاءت في شريط مسجلّ بثّته قناة الجزيرة يوم ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٣. كان ذلك قبل خمسة أسابيع من غزو العراق. ولو أنهم فهموا ما كان يقوله بن لادن ـ لو أنهم ركّزوا على الخطاب عوضاً عن وضع خطابه في أجهزة الكومبيوتر للتعرّف على صوته ـ لكان بإمكان البنتاغون إدراك حجم الانتفاضة الشرسة التي ستندلع بعد أقلّ من شهر من غزو أميركا للعراق.

لقد عبّر بن لادن دائماً عن كراهيته لصدّام مشيراً إليه على أنه عميل آخر من العملاء صنيعة أميركا في العالم العربي إلى جانب عائلة آل سعود وأمراء الخليج. لكن في شريط تسجيل ١٣ شباط المهم، قدّم بن لادن عرضاً لضمّ قوّاته إلى قوّات صدّام من حزب البعث العربي الاشتراكي:

> «لاشكّ أن هذه الحرب الصليبيّة موجّهة ضدّ المجتمع الإسلامي بصرف النظر عمّا إذا كان حزب البعث باقياً أم لا. ومن الواجب على المسلمين عموماً ومسلمي العراق خصوصاً ـ بصورة جدّية ووفق نهج الجهاد ـ الاستعداد متّحدين لمواجهة الحملة الظالمة. وإضافة إلى ذلك فإن عليهم واجب تخزين الأسلحة والذخائر. ورغم اعتقادنا وتصريحنا المتعلّق بعدم إخلاص الاشتراكيين، فإن هناك تطابقاً في

(*) كانت صراحة بن لادن كبيرة بحيث أنه لم يستطع أن يفهم بوضوح ردّ الأميركيين على خطابه الطويل.. لا تريد الأمّة التي كانت ضحية جرائم ١١ أيلول/سبتمبر ضدّ الإنسانية أن تفتح مناقشة حول نظريات زعيم القاعدة في جرّ الولايات المتحدة إلى الإفلاس من خلال دفعها إلى خوض حروب. وقد صرّح بن لادن لمراسلين من السي إن إن ومجلّة التايم بقوله: «إذا كان الدفاع عن النفس ومعاقبة المعتدي إرهاباً، فإنه سيكون حينذاك أمراً من الصعب علينا تجنّبه». وأضاف ـ وهذا هو نوع الدعاية الذي لا يحتاج إليه أيّ مراسل أجنبي ـ «وأنت تستطيع قراءة ذلك... في مقابلاتي مع روبرت فيسك. وهذا الأخير هو أحد مواطنيكم وهو من دينكم وأنا أعتبره حيادياً... فهل أن مدّعي الحرية في البيت الأبيض قادرون على إجراء مقابلة معه بحيث أنه يستطيع أن ينقل إلى الشعب الأميركي ما فهمه منا عن أسباب حربنا ضدّكم؟»... وبمعزل عن اعتقاد بن لادن الخاطئ بأنني مواطن أميركي - وأنا لست واثقاً إن كنت أريد أن أُحسب دينياً على أحد ـ كنت لأقوم بذلك من دون تجاوز بن لادن على عملي. ولن ألعب بالتأكيد دور الواسطة من خلال الموافقة على أن أكون المحاور الجديد «المقبول» لدى القاعدة....

الظروف الحاضرة بين مصالح المسلمين والاشتراكيين في معركتهم ضدّ الصليبيين ـ إن الإشتراكيين أينما كانوا هم ملحدون، أكانوا في بغداد أم في عدن. والقتال الدائر اليوم هو إلى حدّ ما مشابه لقتال المسلمين السابقين ضدّ النصارى. إن تطابق المصالح مفيد. وقد تطابق قتال المسلمين ضدّ النصارى مع مصالح الفرس ولم يؤذِ بأي شكل أصحاب النبي».

إن «تطابق مصالح بن لادن» ـ رغم أنه ترافق مع التذكير بأن الاشتراكيين ملحدون ـ كان دعوة إلى أتباعه للقتال إلى جانب قوّة عراقية تضمّ بعثيي صدّام ليس من أجل صدّام الذي كان بن لادن يعتبر عن حقّ أنه محكوم عليه ببئس المصير.. بل من أجل أرض العراق الإسلامية. لو أن الغرب قرأ هذه الرسالة، لأمكن توّقع الكارثة التي ستحلّ بالأميركيين في العراق. وأثبتت هذه الكلمات بوضوح أن القاعدة خططت للتورّط في المعركة ضدّ الولايات المتحدة في العراق حتى لو أن ذلك كان يعني التعاون مع الذين يقاتلون من أجل صدّام. هذه هي اللحظة التي التحم فيها مقاتلو حرب العصابات القادمة مع الانتحاريّين المستقبليّين... إنه الانفجار الذي سيحاصر الغرب في العراق. إلّا أنّنا لم نلاحظ ذلك حتى.

من أخطر شوارع بغداد، طرتُ في رحلة قصيرة إلى بيروت، للراحة، على الشاطئ، وللجلوس في شرفتي المحبّبة أتطلّع إلى البحر الأبيض المتوسط أو السباحة في مسبح فندق السان جورج القديم والمدمّر. والحقّ أنني كنت أستيقظ باكراً كل صباح، خائفاً ممّا سيحصل. لم يكن الشرق الأوسط أبداً مخيفاً بهذا القدر الذي أعيشه الآن. أين سيكون انفجار اليوم؟ كنت معتاداً أن أسأل نفسي هذا السؤال. يوم ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥ ، كنت أسير على شاطئ الكورنيش ، مقابل مطعمي المفضّل، Spaghetteria، أتحدّث من هاتفي الخليوي مع صديقي القديم باتريك كوكبورن، بديلي في بغداد، عندما لمعت ومضة ضوء بيضاء مقتربة في سرعة فائقة مثل ضمادة ضخمة... انحنت أشجار النخيل نحوي كما لو ضربها إعصار... وشاهدت الناس ـ والبائعين على الرصيف أمامي ـ يسقطون على الأرض. تحطّمت نافذة من نوافذ المطعم واختفت في الداخل. وأمامي على بعد ٤٠٠ متر، أصابع قاتمة من الدخان اتجهت نحو السماء. وتبع موجة البرق انفجار كان من الضخامة بحيث أنه صرعني جزئياً. كنت لا أكاد أسمع باتريك. سأل: «هل هو عندك أم عندي؟».. قلت: أخشى أنه عندي، يا باتريك..».. كدت أن أبكي.. ذلك أن بيروت كانت قد أصبحت بيتي بعيداً عن بيتي، وجنّتي الآمنة، والآن فإن كلّ جثث الحرب الأهلية اللبنانية كانت تخرج قافزة من القبور.

ركضت في الشارع نحو الانفجار. لم يكن هناك رجال شرطة أو سيّارات إسعاف بعد، ولا جنود.. كان ثمّة بحر من اللهب فقط مقابل فندق السان جورج. كان حولي رجال ونساء يغطّيهم الدم، يبكون ويرتجفون من الخوف. وكانت ٢٢ سيّارة تشتعل، وفي إحداها ثلاثة رجال يحترقون. كانت هناك يد امرأة، يد مقلّمة الأظافر، ملقاة في الشارع. لماذا؟ قلت لنفسي: ليس بن لادن. ليس في بيروت. تمايلت من شدّة الحرارة واللهب الذي امتدّ في أنحاء الشارع، وخزّانات نفط السيّارات التي تنفجر وتنشر نيرانها حولي كل بضع ثوان. كان على الأرض رجل ضخم ممدّد على ظهره وجواربه تحترق، لا يمكن التعرّف إليه. ولسبب ما، اعتقدت أنه بائع كعك.. أحد

رجال جيش الباعة الذين يبيعون الخبز العربي المحمّص الذي يحبّه المتنزّهون على الكورنيش. وصلت أولى سيّارات الإسعاف وتمّ إخراج شخص متفحّم من سيّارة كانت تحترق مثل المشعل. عندها وعبر الدخان وجدت حُفرة. كانت ساخنة. . ونزلت إليها بسرعة. كان هناك شرطيان بلباس مدني يلتقطان قطعاً من المعدن. كان ذلك عملاً سريعاً بالنسبة إلى رجال التحرّي بحسب اعتقادي. ومضت بضعة أيام قبل أن أدرك أنهم ـ بعيداً عن التقاط الأدلّة ـ كانوا يخفونها، ويأخذونها من مسرح الجريمة. ثم التقيت مراسلاً للأسوشيتد برس، وهو صديق لبناني قديم، قال: «أظنّ أنه موكب الحريري» فلم أستطع تصديق ذلك.

كان الحريري ملياردير لبنان ورئيس وزرائه حتى السنة المنصرمة. كان سيّد لبنان الذي بنى بيروت، ورمز مستقبله الاقتصادي، والرجل الذي حوّل رُكام المدينة إلى مدينة من النور والمطاعم الجديدة الفخمة والمحلّات ومراكز التسوّق. لكنّ السوريين كانوا يعتقدون أنه يقود بشكل سرّي المعارضة اللبنانية ضدّ وجودهم العسكري والمخابراتي في لبنان. وشكّوا في أنه كان وراء قرار فرنسي ـ أميركي لمجلس الأمن رقمه ١٥٥٩ يطالب بانسحاب القوّات السورية (٤٠ ألف جندي) من لبنان.

كان الحريري صديقي. كان يتصل بي من وقت لآخر عندما كان رئيساً للوزراء ويدعوني إلى فنجان قهوة ويحذّرني من مخاطر الشرق الأوسط. كان يسألني عمّا يحصل حقيقة في العراق وما إذا كانت الانتفاضة تتمتّع بدعم شعبي. وكنت كتبت بعد الحرب الأهلية أنني أشكّ في إمكانية نجاح خطط البناء الطموحة التي يقوم بها. . . وكلّما التقينا علناً كان ينحني ويقول: «هذا هو المراسل الذي يعتقد أنني لا أستطيع إعادة بناء بيروت!». . . وبعد أن تعرّضت للضرب على الحدود الأفغانية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، كان هو الشخص الثاني الذي اتصل بي بينما كنت ممدّداً أنزف في السرير: «روبرت، ماذا حصل؟ سوف أرسل طائرتي الخاصّة لإحضارك من كويتا. برويز مشرّف صديقي ويمكن أن نحصل على إذن بالهبوط وإحضارك إلى مستشفى الجامعة الأميركية هنا غداً» شكرته ورفضت عرضه بأدب. لا يأخذ الصحفيون هدايا من رؤساء الحكومات.

والآن، بعد نصف ساعة من الانفجار، عرفت عائلته أنه مات. لقد توقّف هاتف الحريري الخليوي عن العمل، وكذلك هواتف كلّ حرّاسه الشخصيّين. وقد فشلت أجهزة تعطيل القنابل في موكب الحريري ـ مجموعة من الأجهزة مثبتة على سيّارات الجيب المصفّحة ـ في حمايته. وفي اليوم التالي، رأيت في الصحف اللبنانية صورة لرجل ضخم ملقى على ظهره وجواربه تحترق وتم تعريفه «بالشهيد رئيس الوزراء رفيق الحريري».

غادرت القوّات السورية لبنان ـ أسرع ممّا هو متوقّع ـ وغالباً بسبب الغضب الذي رافق اغتيال الحريري لدى اللبنانيين. ووقف مليون لبناني (تقريباً ثلث سكّان البلاد) في ساحة الشهداء يهتفون مطالبين برحيل القوّات السورية وبالحقيقة حول مقتل الحريري ـ سيكون ذلك إرثا آخر للحريري ـ واكتشف فريق التحقيق الذي شكّلته الأمم المتحدة، برئاسة ضابط شرطة إيرلندي كبير، أن ضبّاط الأمن اللبنانيين المقرّبين من سوريا لم يزيلوا فقط الدليل من مسرح الجريمة ـ بما في ذلك معظم السيّارات المحترقة التي تشكّل جزءاً من موكب الحريري والتي أُخذت بعيداً خلال ساعات الظلام ـ وإنما وضعوا أيضاً دليلاً في الحُفرة.

في الأيام التي تلت كنت أشعر بالإحباط. يبدو أن الموت كان يسيطر على الشرق الأوسط وكان يطارد حياتي أيضاً. صفحة بعد صفحة من دفتر اتصالاتي، وضعت بعض الملاحظات إلى جانب الأسماء. كتبت إلى جانب رقم تلفون مارغريت حسن في بغداد: قُتلت «عام ٢٠٠٤». وأكتب الآن إلى جانب اسم الحريري: قُتل يوم ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٥. وقد توفّي إدوارد سعيد المفكّر الفلسطيني الكبير ـ الذي أقسم لي مرّة أنه سيبقى على قيد الحياة «لأن العديد من الناس يريدون موته» ـ من مرض سرطان الدم عام ٢٠٠٤ حارماً الفلسطينيين من أهمّ الأصوات المكافحة ببلاغة. وفي آذار/مارس ٢٠٠٣، وقفت راشيل كوري، الشابّة الأميركية التي سافرت إلى غزّة لمنع الإسرائيليين من تدمير المنازل الفلسطينية، أمام جرّافة إسرائيلية لإجبار سائقها على التوقّف، لكنه مرّ بالجرّافة على جسدها ثم عاد وقادها عليها مجدّداً. وعندما سارع أصدقاؤها لمساعدتها قالت: «ظهري محطّم» ثم ماتت.

هل تحرّكنا في مواجهة مآسي الحياة والموت هذه؟ كلّا، أريد بذلك أن أقول إن الصحافة رسالة. يستطيع المرء أن يكون غاضباً حيال الموت لكن لسنا هنا لنمسح الدموع. لا يبكي الأطبّاء ـ ولا أقارن الصحافة هنا بمهنة الطبّ ـ بينما هم يجرون عملية جراحية لمريض ميئوس منه. عملنا هو التسجيل، وتوجيه الاتهام عندما نستطيع، وتحدّي مراكز القوى التي تحدّثت عنها أميرة هاس بشجاعة. لكنني شعرت بالانفعال. مضى وقت وأنا أتساءل كم أستطيع الاستمرار في السفر عبر الأطلسي ناجياً من الخاطفين في بغداد، مصدوماً بشكل متزايد بالمأساة المتنامية في الشرق الأوسط.

في بغداد عام ٢٠٠٥، سرت إلى مراكز الاقتراع مع العائلات العراقية، رجال ونساء وأمّهات مع أولادهنّ، بينما كان الجوّ ينقل صدى أول تفجير انتحاري هذا النهار. كانت تجربة محرّكة للمشاعر. إذ من النادر أن ترى شجاعة جماعية بهذا المستوى. وقد تشكّلت حكومة عراقية يسيطر عليها للمرّة الأولى المسلمون الشيعة، لكنها محطّمة بسبب الظاهرة التي تنسف شرعيتها: الاحتلال الأميركي المستمرّ. في مراكز الاقتراع، أبلغتنا عدّة عائلات أنهم يقترعون للسلطة ولكن أيضاً لإنهاء الاحتلال. والاحتلال لن ينتهي. كنت أقول لنفسي إنّ على الأميركيين الرحيل وإنهم سوف يرحلون. . لكنهم «لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك». كانت تلك هي المعادلة الرهيبة التي حوّلت الآن التراب إلى دم. يؤكّد الأميركيون أنهم يريدون الديمقراطية في الشرق الأوسط وأن العراق هو البداية. لكن أيّ بلد عربي سوف يرغب في الانضمام إلى الكارثة التي حلّت بالعراق الآن؟

أجل يريد العرب والمسلمون الآخرون بعضاً من هذه الديمقراطية الساطعة اللمّاعة التي نحبّ أن نظهرها أمامهم. لكنهم يريدون شيئاً آخر أيضاً. يريدون العدالة واستعادة الحقوق، ونهاية سلمية لكن عادلة ومحترمة لعقود من الاحتلال والخداع والفساد وخلق الدكتاتوريات. يريد العراقيون نهاية لوجودنا ولنظام صدّام.

يريدون السيطرة على أرضهم وعلى نفطهم. ويريد السوريون استعادة الجولان. ويريد الفلسطينيون دولة حتى لو أقيمت على أقلّ من ٢٢ في المئة من فلسطين ولا يريدون جدار فصل ارتفاعه ٢٠ قدماً ولا احتلالاً. ولقد حرّر الإيرانيون أنفسهم من الشاه، شرطي أميركا القاسي في الخليج، ليجدوا أنفسهم يعيشون في مقبرة من تسلّط

رجال الدين، وقد خانهم رجال يتغذّون من الكراهية لأميركا، التي صارت تتمدّد الآن مثل الغطاء فوق الشرق الأوسط. وقاوم الأفغان الاتحاد السوفياتي وطلبوا المساعدة لإعادة بناء بلادهم، وتمّت خيانتهم ـ وانتهوا بين أيدي طالبان. ومن ثمّ جاء جيش ضخم إلى بلادهم(*).

ومع أن العديد من الحُكّام الجُدد المعيّنين، وبقيّة الطُّغاة القُدامى الذين ساعدناهم على تسلّم مقاليد الحكم خلال العقود الماضية، يمدحون الغرب أو يشكرونه على القروض المالية أو على الدعم السياسي أو على غزو البلاد، فإن هناك ملايين المسلمين الذين يريدون شيئاً أكثر من ذلك: يريدون التحرّر منا.

لدى الإسرائيليين دولة ـ بُنيت على أرض غيرهم وهذه مأساتهم وكذلك مأساة العرب ـ لكنّ حكومات الجناح اليميني، المدعومة بسرور من قِبل أكثر الحكومات الأميركية يمينية، تُدمّر كلّ أمل بالسلام يستحقّه الشعب الإسرائيلي. وعندما يُبلغ بوش إسرائيل أنها تستطيع الاحتفاظ بمستعمراتها على الأرض الفلسطينية فهو يساعد على قتل الإسرائيليين والفلسطينيين لأن هذه الحرب الاستعمارية سوف تستمرّ.

والأرمن! متى يحصلون على اعتراف بخسارتهم وعلى إقرار بالمسؤولية من قِبل أولئك المتحدّرين من صُلب مرتكبي المجزرة؟.

ربّما يمكننا الهرب من التاريخ؛ يمكننا رسم خطوط لحياتنا. لقد شكّلت السنوات ١٩١٨ ـ ١٩٤٥ حياتنا الجديدة في الغرب. ويمكننا البدء من جديد. ونحن نعتقد أننا نستطيع التوصية بالمثل لشعوب الشرق الأوسط، لكننا لا نستطيع ذلك. فالتاريخ ـ تاريخ الظلم ـ يلفّهم بشكل كثيف. لقد فهم ألبير كامو الذي كان من ذوي الأقدام السوداء Pied Noir، الاضطهاد الاستعماري في الجزائر فهماً حيوياً، وكتب بعد الحرب العالمية الثانية:

> «صحيح أننا لا نستطيع «أن نهرب من التاريخ»، بما أننا غارقون فيه حتى أعناقنا. لكن يستطيع المرء اقتراح النضال ضمن التاريخ لكي نحفظ من التاريخ ذلك الجزء الإنساني الذي لا يُعدّ منطقته الخاصّة... تقاد الأمم الحديثة من قِبل القوى العظمى نحو سُبل السلطة والسيطرة... إنهم لا يحتاجون إلى مساعدتنا وهم يضحكون حتى الآن من محاولاتنا عرقلتهم. وسوف يتابعون. لكنني أطرح

(*) إن الديمقراطية الجديدة المتنامية التي عرّفها بوش في أفغانستان بدأت تتحطم عندما تسلّم بارونات المخدّرات القدامى السلطة في الحكومة، بينما رجال طالبان والقاعدة إلى البلاد التي طُردوا منها، وصاروا يهاجمون القوّات الأميركية والجنود الأفغان الموالين للحكومة. وكان الرئيس المنتخب حميد كرزاي مستشاراً مأجوراً لشركة إينوكال Unocal النفطية الأميركية التي كانت قد فاوضت طالبان على بناء خط نفطي إلى باكستان. وكان مبعوث الولايات المتحدة إلى أفغانستان زلمان خليل زاده موظفاً في تلك الشركة. وعندما وصل كرازي إلى السلطة اتفق والرئيس مشرّف على إعادة العمل بمشروع خط النفط. وكانت صحيفة معاريف الإسرائيلية قد أوردت أنه «إذا نظر المرء إلى خارطة القواعد العسكرية الأميركية المنشأة في أفغانستان، يُصدم بحقيقة أنها واقعة كلّياً على الخط المقترح للنفط على المحيط الهندي». بحلول عام ٢٠٠٥ كانت أفغانستان تصدّر أفيوناً أكثر مما أنتجت سابقاً. وقد اضطرّ كرزاي مكرهاً إلى الشكوى بمرارة بعد نشر اعترافات عام ٢٠٠٥ بأن الأميركيين عاملوا السجناء الأفغان بقساوة كمعاملتهم لضحاياهم العراقيين.

هذا السؤال البسيط: ماذا لو وصلت هذه القوى إلى طريق مسدود، ماذا لو تبيّن أن السبيل المنطقي الذي يستند إليه العديد من الدول الآن ما هو إلّا سراب؟».

كتب ت. س. إليوت في تلك السنة نفسها ١٩٤٦، مخاطباً التاريخ بالطريقة التهكّمية ذاتها:

«تميل العدالة نفسها إلى أن تفسد بسبب التهاب المشاعر في السياسة، وبسبب هذا التلاعب بشؤون الآخرين الذي كان يحصل بمنتهى السرّية وصار له اسم هو: «التدخل». إن الدول التي أحجمت ذات مرّة عن شجب أكثر انتهاكات حقوق الإنسان وضوحاً، في ألمانيا، صارت الآن تنصح بالتدخّل في حُكم الدول الأخرى ـ ودائماً باسم السلام والتفاهم. إن احترام ثقافة الشعوب الأخرى ونمط حياتها... هو احترام للتاريخ... وبالتاريخ لم نشيّد مخزناً كبيراً».

هل أن مئات آلاف القتلى أولئك ماتوا جميعاً من أجل التاريخ؟ ـ أتساءل بصدق ـ أولئك الذين رأيتهم بأمّ عيني في الشرق الأوسط؟ هل كان الجندي الميت وبيده خاتم الزواج اللامع، والجموع المذبوحة في صبرا وشاتيلا، والإيرانيون المتحلّلون في الصحراء، وجثث الفلسطينيين والإسرائيليين واللبنانيين والسوريين والأفغان، وغرف التعذيب الإسرائيلية ـ وأيضاً الأميركية، هل كان كل ذلك من أجل التاريخ؟ أم من أجل العدالة؟ أم من أجلنا؟ نعلم أن وعد بلفور صدر منذ ثمانين عاماً. لكن بالنسبة إلى اللاجئين الفلسطينيين في أزقّة المخيّمات القذرة، فقد تحدّث بلفور بالأمس، في الليلة الماضية، منذ ساعة. في الشرق الأوسط، يعيش الناس تاريخهم الماضي مجدّداً ومجدّداً وكلّ يوم.

وأخيراً، وفيما أنا أكتب هذه الكلمات، كنت على وشك القيام برحلتي القادمة المشحونة جدّاً إلى بغداد، عائداً إلى الانتحاريين والقتلة والأميركيين السريعين في إطلاق النار. ومن وراء ستار من دموع العراقيين سأرسم صوراً جديدة عن المعاناة والألم والجشع والشجاعة العابرة.. وسوف أتساءل إن كنت، عندما أترك في النهاية غرفة الأهوال الواسعة هذه، سأحاول تطبيق نصيحة بيت الشعر الوحيد الذي يحرّك دموعي دائماً، من عيد ميلاد كريستينا روزيتي:

من الأفضل بكثير أن تنسى وتبتسم

بدلاً من أن تتذكّر وتحزن...

أظنّ في النهاية أنّ علينا القبول بأنّ مأساتنا تكمن دائماً في ماضينا وأنّ علينا أن نعيش مع جنون أجدادنا وأن نعاني لأجله، كما عانوا هم بدورهم، وكما أننا، من خلال جشعنا وعجرفتنا، نورث الألم والمعاناة لأولادنا من بعدنا. كيف نُصحّح التاريخ؟ تلك هي المسألة... وهذا هو السبب في أنني، وأنا أكتب هذا الكتاب، كنت أسمع بشكل متكرّر ومؤلم، وفي حالة من الصحو هي أقرب إلى إغفاءة الحلم، وقعَ خطوات الملازم الثاني بيل فيسك ورفاقه في الكتيبة ١٢، من وحدة الملك في ليفربول، وهم يدخلون مساء ذلك اليوم، الواقع فيه ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨، إلى القرية الفرنسية الصغيرة لوفنكور في منطقة صوم.

روبرت فيسك مؤلّف ويلات وطن..

بأعجوبة، بل بأعاجيب نجا من الموت المحتّم مرات ومرّات، وهو يقتحم المواقع لينقل تفاصيل الأحداث في أفغانستان أو تفاصيل ويوميات الحرب الواقعية الإيرانية، أو الغزو الأميركي للعراق.

يأتي روبرت فيسك إلى الأماكن الساخنة بحماس أشبه بالجنون. يأتي من دون خلفيات سياسية، ويرسل التقارير بموضوعية وتجرّد من دون تحيّز لأي طرف أو شخصية.

قابل أسامة بن لادن في عقر داره، وقابل الإمام الخميني وصدام حسين في اللحظات الحاسمة والمصيرية ونقل آراءهم وتصريحاتهم يوم أحجموا عن الإدلاء لأي وسيلة إعلامية.

يوميات صحافي كأنها يوميات محارب أعزل. تطالع فيها كل ما جرى في جبهة أفغانستان وجبهة العراق ـ إيران، والأراضي العراقية من أحداث مروّعة، وخفايا مذهلة حيناً مرعبة أحياناً ولا تكاد تصدّق، عما كان يقدم عليه ربابنة الحروب وربابنة السلام!!

ISBN 978-9953-88-090-7
9 789953 880907

www.all-prints.com
tradebooks@all-prints.com

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ ٣٥٠٧٢٢-١-٩٦١+
تلفون+فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ٧٥٢٥٤٧ ٣٤١٩٠٧-١-٩٦١+



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر